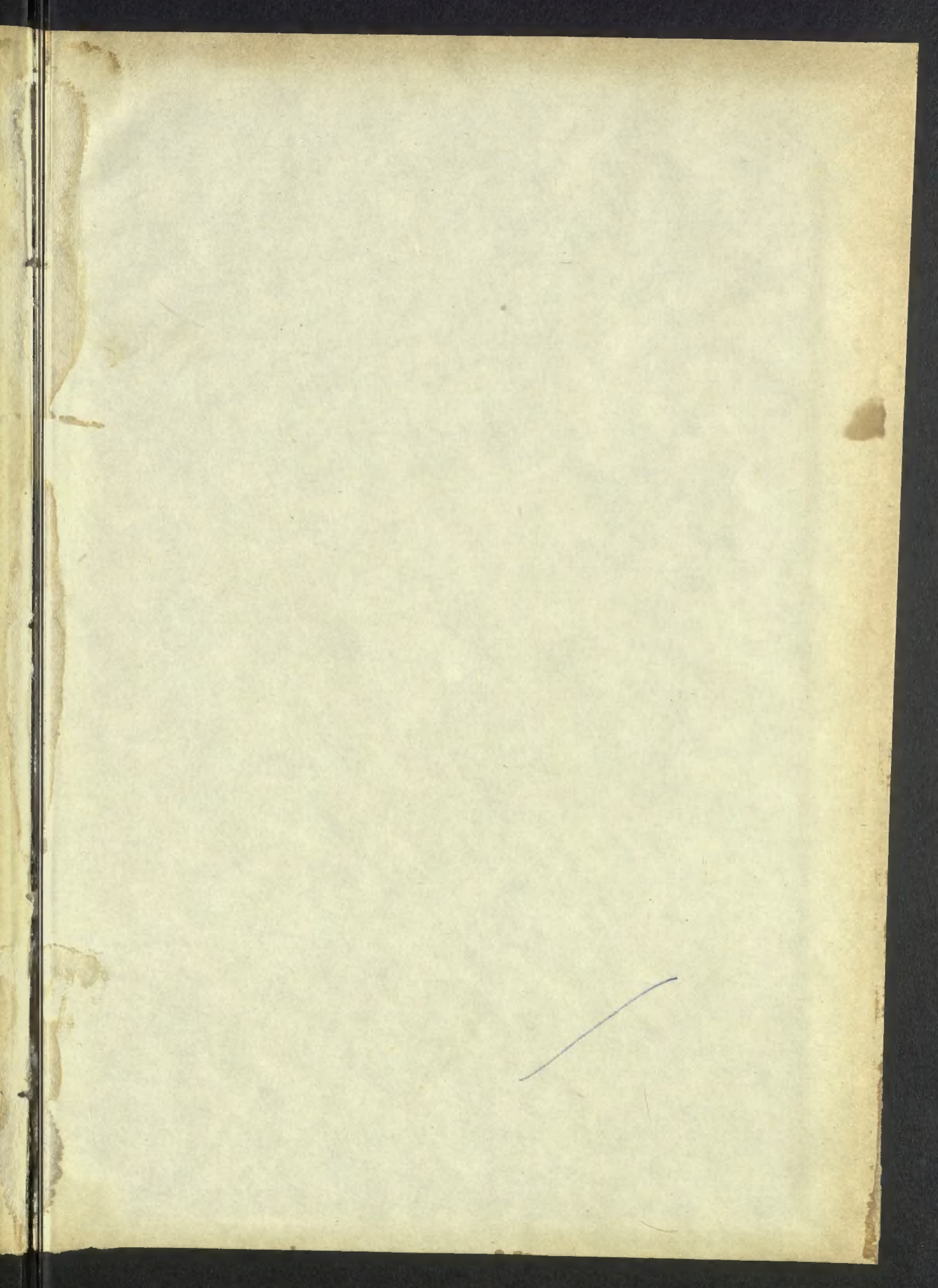
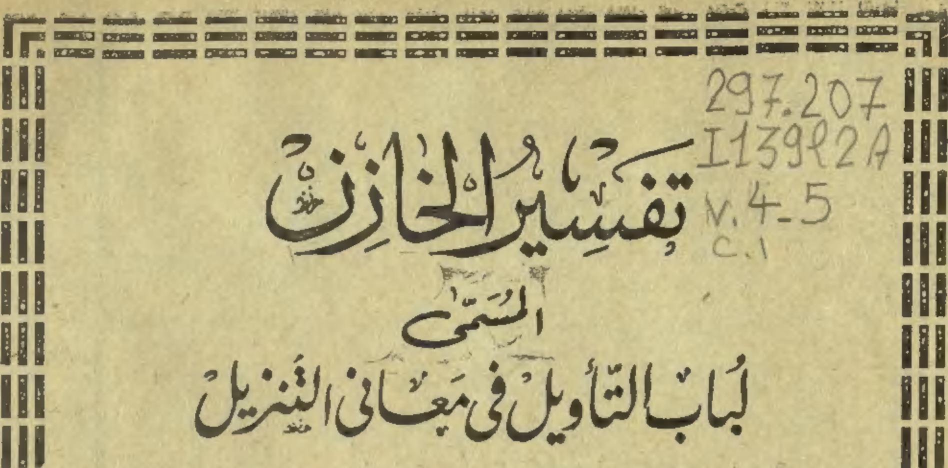






تفسير الخازن

المسمى

لباب التأويل في معاني التنزيل

لعلاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادى الشهير بالخازن

المتوفى سنة ٧٢٥ ه

وبهامشه

تفسير البغوى

المعروف بمعالم التنزيل

لأبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوى

المتوفى سنة ٥١٦ ه

الجزء الرابع

الطبعة الثانية

١٣٧٥ ه - ١٩٥٥ م

ملتزم الطبع والنشر
شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ

(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الرعد

قال ابن الجوزى اختلفوا فى نزولها على قولين: أحدهما أنها مكية رواه أبو طلحة عن ابن عباس وبه قال الحسن وسعيد بن جبير وعطاء وقتادة . وروى أبو صالح عن ابن عباس أنها مكية إلا آيتين إحداهما قوله «ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة» والأخرى قوله «ويقول الذين كفروا لست مرسلا» . والقول الثانى أنها مدنية رواه عطاء الخراسانى عن ابن عباس وبه قال جابر بن زيد وروى عن ابن عباس أنها مدنية إلا آيتين نزلتا بمكة وهما قوله «ولو أن قرآنا سيرت به الجبال» إلى آخر الآيتين وقال بعضهم المدنى منها قوله «هو الذى يريكم البرق إلى قوله دعوة الحق» وهى ثلاث وقيل خمس وأربعون آية وثمانمائة وخمس وخمسون كلمة وثلاثة آلاف وخمسمائة وستة أحرف .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (المر) قال ابن عباس رضى الله عنهما معناه أنا الله أعلم وأرى وروى عطاء عنه أنه قال إن معناه أنا الله الملك الرحمن (تلك آيات الكتاب) الإشارة بتلك إلى آيات السورة المسماة بالمر والمراد بالكتاب السورة أى آيات السورة الكاملة العجيبة فى بابها ثم قال تعالى (والذى أنزل إليك من ربك الحق) يعنى من القرآن كله هو الحق الذى لا مزيد عليه ، وقيل المراد بالإشارة فى قوله تلك الأخبار والقصص أى الأخبار والقصص التى قصصتها عليك يا محمد هى آيات التوراة والإنجيل والكتب الإلهية القديمة المنزلة والذى أنزل إليك يعنى وهذا القرآن الذى أنزل إليك يا محمد من ربك الحق أى هو الحق فاعتصم به وقال ابن عباس وقتادة أراد بآيات الكتاب القرآن والمعنى هذه آيات الكتاب الذى هو القرآن ثم قال والذى أنزل إليك من ربك الحق يعنى وهذا القرآن الذى أنزل إليك من ربك هو الحق الذى لا شك فيه ولا تناقض (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) يعنى مشركى مكة نزلت هذه الآية فى الرد عليهم حين قالوا إن محمدا يقوله من تلقاء نفسه ، ثم ذكر من دلائل ربوبيته وعجائب قدرته ما يدل على وحدانيته فقال تعالى (الله الذى رفع السموات بغير عمد) جمع عمود وهى الأساطين والدعائم التى تكون تحت السقف وفى قوله (ترونها) قولان أحدهما أن الرؤية ترجع إلى السماء يعنى وأنتم

(سورة الرعد) مكية إلا قوله «ولا يزال الذين كفروا» وقوله «ويقول الذين كفروا لست مرسلا» وهى ثلاث وأربعون آية .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(المر) قال ابن عباس معناه أنا الله أعلم وأرى (تلك آيات الكتاب) يعنى تلك الأخبار التى قصصتها عليك آيات التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة (والذى أنزل إليك) يعنى وهذا القرآن الذى أنزل إليك (من ربك الحق) أى هو الحق فاعتصم به فيكون محل الذى رفعا على الابتداء والحق خبره وقيل محله خفض يعنى تلك آيات الكتاب وآيات الذى أنزل إليك ثم ابتدأ الحق يعنى ذلك الحق وقال ابن عباس أراد بالكتاب القرآن ومعناه هذه آيات الكتاب يعنى القرآن ثم قال وهذا القرآن الذى أنزل إليك من ربك هو الحق (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) قال مقاتل نزلت فى مشركى مكة حين قالوا إن محمدا يقوله من تلقاء نفسه فرد قولهم ثم بين دلائل ربوبيته فقال عز من قائل (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها) يعنى السوارى وأحدها عمود مثل أديم وأدم وعمد أيضا جمعه مثل رسول ورسل ومعناه نفى العمد أصلا وهو الأصح يعنى ليس

ترون السموات مرفوعة بغير عمد من تحتها يعني ليس من دونهما دعامة تدعمها ولا من فوقها علاقة تمسكها والمراد نفي العمد بالكلية قال إياس بن معاوية السماء مقبية على الأرض مثل القبة وهذا قول الحسن وقتادة وجمهور المفسرين وإحدى الروايتين عن ابن عباس . والقول الثاني إن الرؤية ترجع إلى العمد والمعنى أن لها عمدا ولكن لا ترونها أنتم ومن قال بهذا القول يقول إن عمدها على جبل قاف وهو جبل من زمرد محيط بالدنيا والسماء عليه مثل القبة وهذا قول مجاهد وعكرمة والرواية الأخرى عن ابن عباس والقول الأول أصح ، وقوله تعالى (ثم استوى على العرش) تقدم تفسيره والكلام عليه في سورة الأعراف بما فيه كفاية (وسخر الشمس والقمر) يعني ذللهما لمنافع خلقه فهما مقهوران يجريان على مايريد (كل يجري لأجل مسمى) يعني إلى وقت معلوم وهو وقت فناء الدنيا وزوالها . وقال ابن عباس أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما يعني أنهما يجريان في منازلهما ودرجاتهما إلى غاية ينتهيان إليها ولا يجاوزانها ، وتحقيقه أن الله تعالى جعل لكل واحد من الشمس والقمر سيرا خاصا إلى جهة بمقدار خاص من السرعة والبطء في الحركة (يدبر الأمر) يعني أنه تعالى يدبر أمر العالم العلوي والسفلي ويصرفه ويقضيه بمشيئته وحكمته على أكمل الأحوال لا يشغله شأن عن شأن وقيل يدبر الأمر بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة ففيه دليل على كمال القدرة والرحمة لأن جميع العالم محتاجون إلى تدبيره ورحمته داخلون تحت قهره وقضائه وقدرته (يفصل الآيات) يعني أنه تعالى يبين الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته . وقيل إن الدلائل الدالة على وجود الصانع قسمان : الأول الموجودات المشاهدة وهي خلق السموات والأرض وما فيهما من العجائب وأحوال الشمس والقمر وسائر النجوم وهذا قد تقدم ذكره . والقسم الثاني الموجودات الحادثة في العالم وهي الموت بعد الحياة والفقر بعد الغنى والضعف بعد القوة إلى غير ذلك من أحوال هذا العالم وكل ذلك مما يدل على وجود الصانع وكمال قدرته (لعلكم بلقاء ربكم توقنون) يعني أنه تعالى يبين الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته لكي توقنوا وتصدقوا بلقائه والمصير إليه بعد الموت لأن من قدر على إيجاد الإنسان بعد عدمه قادر على إيجاده وإحيائه بعد موته واليقين صفة من صفات العلم وهو فوق المعرفة والدراية وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم وزوال الشك يقال منه استيقن وأيقن بمعنى علم . قوله تعالى (وهو الذي مد الأرض) لما ذكر الدلالة على وحدانيته وكمال قدرته وهي رفع السموات بغير عمد وذكر أحوال الشمس والقمر أردفها بذكر الدلائل الأرضية فقال وهو الذي مد الأرض أي بسطها على وجه الماء ، وقيل كانت الأرض مجتمعة فمدها من تحت البيت الحرام ، وهذا القول إنما يصح إذا قيل إن الأرض منسطحة كالأكف وعند أصحاب الهيئة الأرض كرة ويمكن أن يقال إن الكرة إذا كانت كبيرة عظيمة فكل قطعة منها تشاهد ممدودة كالسطح الكبير العظيم فحصل الجمع ومع ذلك فالله تعالى قد أخبر أنه مد الأرض وأنه دحاها وبسطها وكل ذلك يدل على التسطيح والله تعالى أصدق قيلا وأبين دليلا من أصحاب الهيئة (وجعل فيها) يعني في الأرض (رواسي) يعني جبالا ثابتة يقال رسا الشيء يرسو إذا ثبت وأرساه غيره أثبته قال ابن عباس كان أبو قبيس أول جبل وضع على الأرض (وأنهارا) يعني وجعل في الأرض أنهارا جارية لمنافع الخلق (ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) يعني صنفين اثنين أحمر وأصفر وحلوا وحامضا (يغشي الليل النهار)

من دونها دعامة تدعمها ولا فوقها علاقة تمسكها . قال إياس بن معاوية السماء مقبية على الأرض مثل القبة وقيل ترونها راجعة إلى العمد معناه لها عمد ولكن لا ترونها وزعم أن عمدها جبل قاف ، وهو محيط بالدنيا والسماء عليه مثل القبة (ثم استوى على العرش) علا عليه (وسخر الشمس والقمر) ذللهما لمنافع خلقه فهما مقهوران (كل يجري) أي يجريان على مايريد الله عز وجل (لأجل مسمى) أي إلى وقت معلوم وهو فناء الدنيا وقال ابن عباس أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما ينتهيان إليها ولا يجاوزانها (يدبر الأمر) يقضيه وحده (يفصل الآيات) يبين الدلالات (لعلكم بلقاء ربكم توقنون) لكي توقنوا بوعده وتصدقوه (وهو الذي مد الأرض) بسطها (وجعل فيها رواسي) جبالا ثابتة واحدتها راسية قال ابن عباس كان أبو قبيس أول جبل وضع على الأرض (وأنهارا) أي وجعل فيها أنهارا (ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) أي صنفين اثنين أحمر وأصفر وحلوا وحامضا (يغشي الليل النهار) أي يلبس النهار بظلمة الليل ويلبس الليل بضوء النهار

(إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) فيستدلون، والتفكر تصرف القلب فى طلب معانى الأشياء (وفى الأرض قطع متجاورات) متقاربات يقرب بعضها من بعض وهى مختلفة هذه طيبة تنبت وهذه سبخة لاتنبت وهذه قليلة الريع وهذه كثيرة الريع (وجنات) أي بساتين (من أعناب وزرع ونخيل صنوان) رفعها كلها ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب عطفا على الجنات وجرها الآخرون نسقا على الأعناب والصنوان جمع صنو وهو النخلات يجمعهن أصل واحد (وغير صنوان) هى النخلة المنفردة بأصلها. وقال أهل (٤) التفسير صنوان مجتمع وغير صنوان متفرق نظيره من الكلام قنوان جمع قنو ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم فى العباس «إن عم الرجل صنو أبيه» ولا فرق فى الصنوان والقنوان بين التثنية والجمع إلا فى الإعراب وذلك أن النون فى التثنية مكسورة غير منونة وفى الجمع منونة (يسقى بماء واحد) قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب يسقى بالياء أى يسقى ذلك كله بماء واحد وقرأ الآخرون بالتاء لقوله تعالى وجنات ولقوله تعالى من بعد ونفضل بعضها على بعض ولم يقل بعضه والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام (ونفضل بعضها على بعض فى الأكل) فى الثمر والطعم قرأ حمزة والكسائى ويفضل بالياء لقوله تعالى «يدبر الأمر يفصل الآيات» وقرأ الآخرون بالنون على معنى ونحن نفضل بعضها على بعض فى الأكل وجاء فى الحديث ونفضل بعضها على بعض فى الأكل قال الفارسى كجيد التمر والدقل والحلو والحامض قال مجاهد ولا كمثل بنى آدم صالحهم وخبيثهم وأبوهم واحد قال الحسن هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بنى آدم كانت الأرض طينة واحدة فى يد الرحمن عز وجل فسطحها فصارت قطعا متجاورة فينزل عليها المطر من السماء فتخرج هذه زهرتها وشجرها وثمرها ونباتها وتخرج هذه سبخها وملحها وخبيثها وكل يسقى بماء واحد كذلك الناس خلقوا من آدم عليه السلام فينزل من السماء تذكرة فترق قلوب فتخشع وتقسو قلوب فتلهو قال الحسن والله ماجالس القرآن أحد إلا قام من عنده بزيادة

يعنى يلبس النهار ظلمة الليل ويلبس الليل ضوء النهار (إن فى ذلك) يعنى الذى تقدم ذكره من عجائب صنعته وغرائب قدرته الدالة على وحدانيته (لآيات) أي دلالات (لقوم يتفكرون) يعنى فيستدلون بالصنعة على الصانع وبالسبب على المسبب، والفكر هو تصرف القلب فى طلب الأشياء وقال صاحب المفردات الفكر قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم والتفكر جريان تلك القوة بحسب نظر العقل وذلك للإنسان دون الحيوان ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة فى القلب ولهذا روى وتفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله إذ كان الله منزها أن يوصف بصورة. وقال بعض الأدباء الفكر مقلوب عن الفرك لأنه يستعمل فى طلب المعانى وهو فرك الأمور وبحثها طلبا للوصول إلى حقيقتها. قوله عز وجل (وفى الأرض قطع متجاورات) يعنى متقاربات بعضها من بعض وهى مختلفة فى الطبائع فهذه طيبة تنبت وهذه سبخة لاتنبت وهذه قليلة الريع وهذه كثيرة الريع (وجنات) يعنى بساتين والجنة كل بستان ذى شجر من نخيل وأعناب وغير ذلك سمى جنة لأنه يستر بأشجاره الأرض وإليه الإشارة بقوله (من أعناب وزرع ونخيل صنوان) جمع صنو وهى النخلات يجتمعن من أصل واحد ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فى عمه العباس «عم الرجل صنو أبيه» يعنى أنهما من أصل واحد (وغير صنوان) هى النخلة المنفردة بأصلها فالصنوان المجتمع وغير الصنوان المتفرق (يسقى بماء واحد) يعنى أشجار الجنات وزروعها والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام وقيل فى حده جوهر سيال به قوام الأرواح (ونفضل بعضها على بعض فى الأكل) يعنى فى الطعم ما بين الحلو والحامض والعفص وغير ذلك من الطعام، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم «فى قوله تعالى: ونفضل بعضها على بعض فى الأكل قال: الدقل والنرسيان والحلو والحامض» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب قال مجاهد هذا كمثل بنى آدم صالحهم وخبيثهم وأبوهم واحد وقال الحسن هذا مثل ضربه الله لقلوب بنى آدم كانت الأرض طينة واحدة فى يد الرحمن فسطحها فصارت قطعا متجاورات وأنزل على وجهها ماء السماء فتخرج هذه زهرتها وثمرتها وشجرها وتخرج هذه نباتها وتخرج هذه سبخها وملحها وخبيثها وكل يسقى بماء واحد فلو كان الماء قليلا قيل إنما هذا من قبل الماء كذلك الناس خلقوا من آدم فينزل عليهم من السماء تذكرة فترق قلوب قوم فتخشع وتخضع وتقسو قلوب قوم فتلهو ولا تسمع وقال الحسن والله ما جالس القرآن أحد إلا قام من عنده بزيادة أو نقصان قال الله تعالى «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين

أو نقصان قال الله تعالى «وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا» (إن فى ذلك) الذى ذكرت (لآيات لقوم يعقلون وإن تعجب فعجب قولهم) العجب تغير النفس برؤية المستبعد فى العادة والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومعناه إنك إن تعجب من إنكارهم النشأة الآخرة مع إقرارهم بابتداء الخلق فعجب أمرهم وكان المشركون ينكرون البعث مع إقرارهم بابتداء الخلق من الله تعالى وقد تقرر (٥) فى القلوب أن الإعادة أهون من الابتداء فهذا موضع العجب وقيل معناه وإن تعجب من تكذيب المشركين واتخاذهم مالا يضر ولا ينفع آلهة يعبدونها وهم قد رأوا من قدرة الله تعالى ماضرب لهم به الأمثال فعجب قولهم أى فتعجب أيضا من قولهم (أئذا كنا ترابا) بعد الموت (أئنا لفى خلق جديد) أى نعاد خلقا جديدا كما كنا قبل الموت قرأ نافع والكسائى ويعقوب أئذا مستفهما إنا بتركه على الخبر ضده أبو جعفر وابن عامر وكذلك فى سبحان فى موضعين والمؤمنون والم السجدة وقرأ الباقون بالاستفهام فيهما وفى الصافات فى موضعين هكذا إلا أن أبا جعفر يوافق نافعا فى أول الصافات فيقدم الاستفهام ويعقوب لا يستفهم الثانية «أئذا متنا - إنا لمدينون» قال الله تعالى (أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم) يوم القيامة (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) قوله (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة) الاستعجال طلب تعجيل الأمر قبل مجيء وقته والسيئة هاهنا هى العقوبة والحسنة العافية وذلك أن مشركى مكة كانوا يطلبون العقوبة بدلا من العافية استهزاء منهم يقولون «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم» (وقد خلت من قبلهم المثلات) أى مضت من قبلهم فى الأمم التى عصت ربها وكذبت رسلها العقوبات والمثلات جمع المثلة بفتح الميم وضم الثاء مثل صدقة وصدقات (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب

ولا يزيد الظالمين إلا خسارا» وقوله تعالى (إن فى ذلك) يعنى الذى ذكر (لآيات لقوم يعقلون) يعنى فيتدبرون ويتفكرون فى الآيات الدالة على وحدانيته. قوله تعالى (وإن تعجب فعجب قولهم) العجب تبعيد النفس رؤية المستبعد فى العادة، وقيل العجب حالة تعرض للانسان عند الجهل بسبب ولهذا قال بعض الحكماء العجب مالا يعرف سببه ولهذا قيل العجب فى حق الله محال لأنه تعالى علام الغيوب لا تخفى عليه خافية والخطاب فى الآية للنبى صلى الله عليه وسلم ومعناه وإنك يا محمد إن تعجب من تكذيبهم إياك بعد أن كنت عندهم تعرف بالصادق الأمين فعجب أمرهم وقيل معناه وإن تعجب من اتخاذ المشركين مالا يضرهم ولا ينفعهم آلهة يعبدونها مع إقرارهم بأن الله تعالى خالق السموات والأرض وهو يضر وينفع وقد رأوا من قدرة الله وماضرب لهم به الأمثال ماراوا فعجب قولهم وقيل وإنك إن تعجب من إنكارهم النشأة الآخرة والبعث بعد الموت مع إقرارهم بأن ابتداء الخلق من الله فعجب قولهم وذلك أن المشركين كانوا ينكرون البعث بعد الموت مع إقرارهم بأن ابتداء الخلق من الله وقد تقرر فى النفوس أن الإعادة أهون من الابتداء فهذا موضع التعجب وهو قولهم (أئذا كنا ترابا) يعنى بعد الموت (أئنا لفى خلق جديد) يعنى نعاد خلقا جديدا بعد الموت كما كنا قبله ثم إن الله تعالى قال فى حقهم (أولئك الذين كفروا بربهم) وفيه دليل على أن كل من أنكر البعث بعد الموت فهو كافر بالله تعالى لأن من أنكر البعث بعد الموت فقد أنكر القدرة وأن الله على كل شىء قدير ومن أنكر ذلك فهو كافر (وأولئك الأغلال فى أعناقهم) يعنى يوم القيامة والأغلال جمع غل وهو طوق من حديد يجعل فى العنق وقيل أراد بالأغلال ذلهم وانقيادهم يوم القيامة كما يقاد الأسير ذليلا بالغل (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) يعنى أنهم مقيمون فيها لا يخرجون منها ولا يموتون (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة) الاستعجال طلب تعجيل الأمر قبل مجيء وقته والمراد بالسيئة هنا هى العقوبة وبالحسنة العافية وذلك أن مشركى مكة كانوا يطلبون العقوبة بدلا من العافية استهزاء منهم وهو قولهم «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم» (وقد خلت من قبلهم المثلات) يعنى وقد مضت فى الأمم المكذبة العقوبات بسبب تكذيبهم رسلهم والمثلة بفتح الميم وضم الثاء المثلثة نقمة تنزل بالإنسان فيجعل مثلا ليرتدع غيره به وذلك كالنكال وجمعه مثلات بفتح الميم وضمها مع ضم الثاء فيهما لغتان (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) قال ابن عباس معناه إنه لذو تجاوز عن المشركين إذا آمنوا (وإن ربك لشديد العقاب) يعنى للمصرين على الشرك الذى ماتوا عليه وقال مجاهد إنه لذو تجاوز عن شركهم فى تأخير العذاب عنهم وإنه لشديد العقاب إذا عاقب. قوله تعالى

ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه) أي على محمد صلى الله عليه وسلم (آية من ربه) أي علامة وحجة على نبوته قال الله تعالى (إنما أنت منذر) مخوف (ولكل قوم هاد) أي لكل قوم نبي يدعوهم إلى الله تعالى وقال الكلبي داع يدعوهم إلى الحق أو إلى الضلالة وقال عكرمة الهادي محمد صلى الله عليه وسلم يقول إنما أنت منذر وأنت هاد لكل قوم أي داع وقال سعيد ابن جبير الهادي هو الله تعالى . (٦) قوله تعالى (الله يعلم ماتحمل كل أنثى) من ذكر أو أنثى سوى الخلق أو ناقص الخلق واحدا أو اثنين أو أكثر (وما تغيض الأرحام) أي ما تنقص (وما تزداد) قال أهل التفسير غيض الأرحام الحيض على الحمل فاذا حاضت الحامل كان نقصانا في الولد لأن دم الحيض غذاء الولد في الرحم فاذا أهرقت الدم ينقص الغذاء فينتقص الولد وإذا لم تحض يزداد الولد ويتم فالنقصان نقصان خلقة الولد بخروج الدم والزيادة تمام خلقته باستمساك الدم وقيل إذا حاضت ينقص الغذاء وتزداد مدة الحمل حتى تستكمل تسعة أشهر طاهرا فان رأت خمسة أيام دما وضعت لتسعة أشهر وخمسة أيام فالنقصان في الغذاء والزيادة في المدة وقال الحسن غيضها نقصانها من تسعة أشهر والزيادة زيادتها على تسعة أشهر وقيل النقصان السقط والزيادة تمام الخلق وأقل مدة الحمل ستة أشهر فقد يولد المولود لهذه المدة ويعيش . واختلفوا في أكثرها فقال قوم أكثرها سنتان وهو قول عائشة رضي الله عنها وبه قال أبو حنيفة رحمه الله وذهب جماعة إلى أن أكثرها أربع سنين وإليه ذهب الشافعي رحمه الله قال حماد بن سلمة إنما سمي هرم بن حيان هرما لأنه بقي في بطن أمه أربع سنين (وكل شيء عنده بمقدار) أي بتقدير وحد لا يجاوزه ولا يقصر عنه (عالم الغيب والشهادة الكبير) الذي كل شيء دونه (المتعال) المستعلي على كل شيء بقدرته . قوله تعالى

(ويقول الذين كفروا) يعني من أهل مكة (لولا) أي هلا (أنزل عليه) يعني على محمد صلى الله عليه وسلم (آية من ربه) يعني مثل عصى موسى وناقة صالح وذلك لأنهم لم يقتنعوا بما رأوا من الآيات التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم (إنما أنت منذر) أي ليس عليك يا محمد غير الإنذار والتخويف وليس لك من الآيات شيء (ولكل قوم هاد) قال ابن عباس الهادي هو الله وهذا قول سعيد ابن جبير وعكرمة ومجاهد والضحاك والنخعي والمعنى إنما عليك الإنذار يا محمد والهادي هو الله يهدي من يشاء وقال عكرمة في رواية أخرى عنه وأبو الضحى الهادي هو رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى إنما أنت منذر وأنت هاد، وقال الحسن وقتادة وابن زيد يعني ولكل قوم نبي يهديهم وقال أبو العالية الهادي هو العمل الصالح وقال أبو صالح الهادي هو القائد إلى الخير لا إلى الشر . قوله عز وجل (الله يعلم ما تحمل كل أنثى) لما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات أخبرهم الله عز وجل عن عظيم قدرته وكمال علمه وأنه عالم بما تحمل كل أنثى يعني من ذكر أو أنثى سوى الخلق أو ناقص الخلق واحدا أو اثنين أو أكثر (وما تغيض) يعني وما تنقص (الأرحام وما تزداد) قال أهل التفسير غيض الأرحام الحيض على الحمل فاذا حاضت الحامل كان ذلك نقصانا في الولد لأن دم الحيض هو غذاء الولد في الرحم فاذا خرج الدم نقص الغذاء فينتقص الولد وإذا لم تحض يزداد الولد ويتم فالنقصان نقصان خلقة الولد بخروج الدم والزيادة تمام خلقه باستمساك الدم وقيل إذا حاضت المرأة في وقت حملها ينقص الغذاء وتزداد مدة الحمل حتى تستكمل تسعة أشهر طاهرة فان رأت خمسة أيام دما وضعت لتسعة أشهر وخمسة أيام فالنقصان في الغذاء زيادة في مدة الحمل وقيل النقصان السقط والزيادة تمام الخلق وقال الحسن غيضها نقصانها من تسعة أشهر والزيادة زيادتها على تسعة أشهر فأقل مدة الحمل ستة أشهر وقد يولد لهذه المدة ويعيش. واختلفوا في أكثره فقال قوم أكثر مدة الحمل سنتان وهو قول عائشة وبه قال أبو حنيفة وقيل إن الضحاك ولد لسنتين وقال جماعة أكثرها أربع سنين وإليه ذهب الشافعي وقال حماد بن أبي سلمة إنما سمي هرم بن حيان هرما لأنه بقي في بطن أمه أربع سنين وعند مالك أن أكثر مدة الحمل خمس سنين (وكل شيء عنده بمقدار) يعني بتقدير وحد لا يجاوزه ولا ينقص منه وقيل إنه تعالى يعلم كمية كل شيء وكيفيته على أكمل الوجوه وقيل معناه إنه تعالى خصص كل حادثة من الحوادث بوقت معين وحالة معينة وذلك بمشيئته الأزلية وإرادته وتقديره الذي لا يقدر عليه غيره (عالم الغيب والشهادة) يعني أنه تعالى يعلم ما غاب عن خلقه وما يشاهدونه وقيل الغيب هو المعدوم والشاهد هو الموجود وقيل الغيب ما غاب عن الحس والشاهد ما حضر في الحس (الكبير) أي العظيم الذي يصغر كل كبير بالإضافة إلى عظمته وكبريائه فهو يعود إلى معنى كبر قدرته وأنه تعالى المستحق لصفات الكمال (المتعال)

يعني

(سواء منكم من أسر القول ومن جهر به) أي يستوي في علم الله المسر بالقول والجاهر به (ومن هو مستخف بالليل) اى مستتر بظلمة الليل (وسارب بالنهار) أي ذاهب في سربه ظاهر والسرب بفتح السين وسكون الراء الطريق قال القتيبي سارب بالنهار أي متصرف في حوائجه قال ابن عباس هو صاحب ريبة مستخف بالليل فاذا خرج بالنهار أرى الناس أنه برىء من الإثم وقيل مستخف بالليل أي ظاهر من قولهم خفيت الشيء إذا أظهرته وأخفيته إذا كتمته وسارب بالنهار أي متوار داخل في سرب (له معقبات) أي لله تعالى ملائكة يتعاقبون فيكم بالليل والنهار فاذا صعدت ملائكة الليل جاء في عقبها ملائكة النهار وإذا صعدت ملائكة النهار جاء في عقبها ملائكة الليل والتعقيب العود بعد البدء وإنما ذكر بلفظ التأنيث لأن واحدها معقب وجمعه معقبة ثم جمع الجمع معقبات كما قيل أبناوات سعد ورجالات بكر . أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي فيقولون تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون» . قوله تعالى (من بين يديه ومن خلفه) يعني من قدام هذا المستخفي بالليل والسارب بالنهار ومن خلفه من وراء ظهره (يحفظونه من أمر الله) يعني بأمر الله أي يحفظونه باذن الله مالم يجيء القدر فاذا جاء القدر خلوا عنه وقيل يحفظونه من أمر الله أي مما أمر الله به من الحفظ عنه . قال مجاهد مامن عبد إلا وله ملك موكل به يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام فما منهم شيء يأتيه يريده إلا قال وراءك إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه . قال كعب الأحبار لولا أن الله عز وجل وكل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفكم الجن وقال عكرمة الآية في الأمراء وحرسهم يحفظونهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وقيل الآية

يعني المنزه عن صفات النقص المتعالي عن الخلق ، وفيه دليل على أنه تعالى موصوف بالعلم الكامل والقدرة التامة وتنزيهه عن جميع النقائص . قوله تعالى (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به) أي مستو منكم من أخفى القول وكتمه ومن أظهره وأعلنه ، والمعنى أنه قد استوى في علم الله تعالى المسر بالقول والجاهر به (ومن هو مستخف بالليل) أي مستتر بظلمته (وسارب بالنهار) أي ذاهب بالنهار في سربه ظاهر والسرب بفتح السين وسكون الراء الطريق وقال القتيبي السارب المتصرف في حوائجه . قال ابن عباس في هذه الآية هو صاحب ريبة مستخف بالليل وإذا خرج بالنهار أرى الناس أنه بريء من الإثم وقيل مستخف بالليل ظاهر من قولهم خفيت الشيء إذا أظهرته وأخفيته إذا كتمته وسارب بالنهار أي متوار دخل في السرب مستخفيا ، ومعنى الآية سواء ما أضمرت به القلوب أو نطقت به الألسن وسواء من أقدم على القبائح مستترا في ظلمات الليل أو أتى بها ظاهرا في النهار فان علمه تعالى محيط بالكل (له معقبات) يعني لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار فاذا صعدت ملائكة الليل عقبتها ملائكة النهار والتعقيب العود بعد البدء وإنما ذكر معقبات بلفظ التأنيث وإن كان الملائكة ذكورا لأن واحدها معقب وجمعها معقبة ثم جمع المعقبة معقبات كما قيل أبناوات سعد ورجالات بكر (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي فيقولون تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون» وقيل إن مع كل واحد من بني آدم ملكين ملك عن يمينه وهو صاحب الحسنات وملك عن شماله وهو كاتب السيئات وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فاذا عمل العبد حسنة كتبها له بعشر أمثالها وإذا عمل سيئة قال صاحب الشمال لصاحب اليمين اكتبها عليه فيقول أنظره لعله يتوب أو يستغفر فيستأذنه ثلاث مرات فإن هو تاب منها وإلا قال اكتبها عليه سيئة واحدة وملك موكل بناصية العبد فاذا تواضع العبد لله عز وجل رفعه بها وإن تجبر على الله عز وجل وضعه بها وملك موكل بعينيه يحفظهما من الأذى وملك موكل بفيه لايدعه يدخل فيه شيء من الهوام يؤذيه فهؤلاء خمسة أملاك موكلون بالعبد في ليله وخمسة غيرهم في نهاره فانظر إلى عظمة الله تعالى وقدرته وكمال شفقته عليك أيها العبد المسكين وهو قوله تعالى (من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) يعني يحفظون العبد من بين يديه ومن

الملكين القاعدين عن اليمين وعن الشمال يكتبان الحسنات والسيئات كما قال الله تعالى إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد وقال ابن جريج معنى يحفظونه أى يحفظون عليه من أمر الله يعنى الحسنات والسيئات وقيل الهاء فى له راجعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٨) روى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنه قال له معقبات يعنى لمحمد صلى الله عليه وسلم حراس من الرحمن من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله يعنى من شر الجن وطوارق الليل والنهار. وقال عبد الرحمن بن زيد نزلت هذه الآيات فى عامر بن الطفيل وأربد ابن ربيعة وكانت قصتهما على ماروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال أقبل عامر بن الطفيل وأربد ابن ربيعة وهما عامريان يريدان رسول الله ﷺ وهو جالس فى المسجد فى نفر من أصحابه فدخلا المسجد فاستشرف الناس لجمال عامر وكان أعور وكان من أجمل الناس فقال رجل يارسول الله هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك فقال دعه فان يرد الله به خيرا يهده فأقبل حتى قام عليه فقال يامحمد مالى إن أسلمت قال لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين قال تجعل لى الأمر بعدك قال ليس ذلك إلى إنما ذلك إلى الله عزوجل يجعله حيث يشاء قال فتجعلنى على الوبر وأنت على المدر قال لا قال فماذا تجعل لى قال أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها قال أو ليس ذلك لى اليوم قم معى أكلمك فقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عامر أوصى إلى أربد بن ربيعة إذا رأيتنى أكلمه فدر من خلفه فاضربه بالسيف فجعل يخاصم رسول الله ويراجعه فدار أربد خلف النبى صلى الله عليه وسلم ليضربه بالسيف فاخترط من سيفه شبرا ثم حبسه الله عنه فلم يقدر على سله

وراء ظهره، ومعنى من أمر الله بأمر الله وإذنه مالم يجىء القدر فاذا جاء خلوا عنه وقيل معناه إنهم يحفظونه بما أمر الله به من الحفظ له قال مجاهد مامن عبد إلا وملك موكل به يحفظه فى نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام فما من شىء يأتيه يؤذيه إلا قال له الملك وراءك إلا شىء يأذن الله فيه فيصيبه وقال كعب الأحبار لولا أن الله تعالى وكل بكم ملائكة يذبون عنكم فى مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفتكم الجن وقال ابن جريج معنى يحفظونه أى يحفظون عليه الحسنات والسيئات وهذا على قول من يقول إن الآية فى الملكين القاعدين عن اليمين وعن الشمال يكتبان الحسنات والسيئات. وقال عكرمة الآية فى الأمراء وحرسهم يحفظونهم من بين أيديهم ومن خلفهم والضمير فى قوله له راجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس فى معنى هذه الآية لمحمد صلى الله عليه وسلم حراس من الرحمن من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من شر الجن وطوارق الليل والنهار وقال عبد الرحمن بن زيد نزلت هذه الآية فى عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة وهما من بنى عامر بن زيد وكانت قصتهما على مارواه الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال أقبل عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة وهما من بنى عامر بن زيد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد فى نفر من أصحابه فدخل المسجد فاستشرف الناس لجمال عامر وكان من أجمل الناس وكان أعور فقال يارسول الله هذا عامر ابن الطفيل قد أقبل نحوك فقال دعه فان يرد الله به خيرا يهده فأقبل حتى قام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يامحمد مالى إن أسلمت قال لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين قال تجعل الأمر لى بعدك قال ليس ذلك لى إنما ذلك إلى الله تعالى يجعله حيث يشاء قال فتجعلنى على الوبر وأنت على المدر قال لا قال فما تجعل لى قال أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها قال أوليس ذلك لى اليوم قم معى أكلمك فقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عامر قد أوصى إلى أربد بن ربيعة إذا رأيتنى أكلمه فدر من خلفه فاضربه بالسيف فجعل عامر يخاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويراجعه ودار أربد من خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضربه فاخترط شبرا من سيفه ثم حبسه الله تعالى عليه فلم يقدر على سله وجعل عامر يومىء إليه فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى أربد وما صنع بسيفه فقال اللهم اكفنيهما بما شئت فأرسل الله على أربد صاعقة فى يوم صحو قائظ فأحرقته فولى عامر هاربا وقال يامحمد دعوت ربك فقتل أربد والله لأملأنها عليك خيلا جردا وشبابا مردا فقال النبى صلى الله عليه وسلم يمنعنى الله من ذلك وابنا قيلة يريد الأوس والخزرج فنزل عامر بيت امرأة سلولية فلما أصبح ضم إليه سلاحه فخرج له خراج فى أصل أذنه أخذه منه مثل النار فاشتد عليه فقال غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية ثم ركب فرسه وجعل يركض فى الصحراء ويقول ادن ياملك الموت وجعل يقول الشعر ويقول لئن أبصرت محمدا وصاحبه يعنى ملك الموت لأنفذتهما برمحى فأرسل الله إليه ملكا فلطمه فأرداه فى التراب ثم عاد فركب جواده حتى مات على ظهره وأجاب الله عز وجل دعاء

وجعل عامر يومئ إليه فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى أربد وما صنع بسيفه فقال اللهم اكفنيهما بما شئت فأرسل الله على أربد صاعقة فى يوم صحو قائظ فأحرقته، وولى عامر هاربا وقال يامحمد دعوت ربك فقتل أربد والله لأملأنها عليك خيلا جردا وفتيانا مردافقال النبى صلى الله عليه وسلم يمنعك الله تعالى من ذلك وابنا قيلة يريد الأوس والخزرج فنزل عامر بيت امرأة سلولية فلما أصبح ضم عليه سلاحه وقد تغير لونه فجعل يركض فى الصحراء ويقول ابرز ياملك الموت ويقول الشعر ويقول واللات لئن أبصرت محمدا وصاحبه يعنى ملك الموت لأنفذتهما برمحى فأرسل الله ملكا فلطمه بجناحه فأرداه فى التراب وخرجت على ركبتيه فى الوقت غدة عظيمة فعاد إلى بيت السلولية وهو يقول غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية ثم دعا بفرسه فركبه ثم أجراه حتى مات على ظهره فأجاب الله دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم (٩) فقتل عامرا بالطعن وأربد بالصاعقة

وأنزل الله عز وجل فى هذه القصة قوله سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار له معقبات من بين يديه يعنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم معقبات يحفظونه من بين يديه ومن خلفه من أمر الله يعنى تلك المعقبات من أمر الله وفيه تقديم وتأخير وقال لهذين (إن الله لايغير مابقوم) من العافية والنعمة (حتى يغيروا مابأنفسهم) من الحال الجميلة فيعصوا ربهم (وإذا أراد الله بقوم سوءا) أى عذابا وهلاكا (فلامرد له) أى لاراد له (ومالهم من دونه من وال) أى ملجأ يلجئون إليه وقيل وال يلى أمرهم ويمنع العذاب

عنهم. قوله (هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا) قيل خوفا من الصاعقة وطمعا فى نفع المطر وقيل الخوف للمسافر يخاف منه الأذى أو المشقة والطمع للمقيم يرجو منه البركة والمنفعة وقيل الخوف من المطر فى غير مكانه وإبانه والطمع إذا كان فى مكانه وإبانه ومن البلدان ما إذا مطروا قحطوا وإذا لم يمطروا أخصبوا (وينشئ السحاب الثقال) بالمطر يقال أنشأ الله السحابة فنشأت أى أبداها فبدت والسحاب جمع واحدتها سحابة قال على رضى الله عنه السحاب غربال الماء (ويسبح الرعد بحمده) أكثر المفسرين على أن الرعد اسم ملك يسوق السحاب والصوت المسموع منه تسبيحه قال ابن عباس من سمع صوت الرعد فقال سبحان الذى يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شئ قدير فان أصابته صاعقة فعلى ديته وعن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع صوت الرعد ترك الحديث وقال سبحان من يسبح الرعد بحمده

رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عامر بن الطفيل فمات بالطعن وأربد بن ربيعة مات بالصاعقة وأنزل الله عز وجل فى شأن هذه القصة سواء منكم من أسر القول ومن جهر به إلى قوله له معقبات من بين يديه ومن خلفه يعنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم معقبات يحفظونه من بين يديه ومن خلفه من أمر الله أى بأمر الله وقيل إن تلك المعقبات من أمر الله وفيه تقديم وتأخير تقديره له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، وقوله (إن الله لايغير مابقوم) خطاب لهذين عامر ابن الطفيل وأربد بن ربيعة يعنى لايغير مابقوم من العافية والنعمة التى أنعم بها عليهم (حتى يغيروا ما بأنفسهم) يعنى من الحالة الجميلة فيعصون ربهم ويجحدون نعمه عليهم فعند ذلك تحل نقمته بهم وهو قوله تعالى (وإذا أراد الله بقوم سوءا) يعنى هلاكا وعذابا (فلامرد له) يعنى لايقدر أحد أن يرد ما أنزل الله بهم من قضائه وقدره (ومالهم من دونه من وال) يعنى وليس لهم من دون الله من وال يلى أمرهم ونصرهم ويمنع العذاب عنهم قوله عز وجل (هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا) لما خوف الله عز وجل عباده بقوله وإذا أراد الله بقوم سوءا ذكر فى هذه الآية من عظيم قدرته ما يشبه النعم من وجه ويشبه العذاب من وجه فقال تعالى هو الذى يعنى هو الذى يريكم البرق والبرق معروف وهو لمعان يظهر من خلال السحاب وفى كونه خوفا وطمعا وجوه: الأول إن عند لمعان البرق يخاف من الصواعق ويطمع فى نزول المطر. الثانى أنه يخاف من البرق من يتضرر بالمطر كالمسافر ومن فى جرينه يعنى بيدره التمر والزبيب والقمح ونحو ذلك ويطمع فيه من له فى نزول المطر نفع كالزارع ونحوه. الثالث أن المطر يخاف منه إذا كان فى غير مكانه وزمانه ويطمع فيه إذا كان فى مكانه وزمانه فان من البلاد ما إذا أمطرت قحطت وإذا لم تمطر أخصبت (وينشئ السحاب الثقال) يعنى بالمطر يقال أنشأ الله السحابة فنشأت أى أبداها فبدت والسحاب جمع سحابة والسحاب غربال الماء قاله على بن أبى طالب رضى الله عنه وقيل السحاب الغيم فيه ماء أو لم يكن فيه ماء ولهذا قيل سحاب جهام وهو الخالى من الماء وأصل السحب الجر وسمى السحاب سحابا إما لجر الريح له أو لجره الماء أو لانجراره فى سيره (ويسبح الرعد بحمده) أكثر المفسرين على أن الرعد اسم للملك الذى يسوق السحاب والصوت المسموع منه تسبيحه. وأورد على هذا القول

والملائكة من خيفته ويقول إن هذا لوعيد لأهل الأرض شديد. وفى بعض الأخبار « يقول الله تعالى . لو أن عبادى أطاعونى لسقيتهم المطر بالليل وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ولم أسمعهم صوت الرعد » وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس الرعد ملك موكل بالسحاب ، (١٠) يصرفه إلى حيث يؤمر وإن بحور الماء فى نقرة إبهامه وأنه يسبح الله تعالى فاذا سبح لا يبقى ملك فى السماء إلا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل المطر (والملائكة من خيفته) أى تسبح الملائكة من خيفة الله عز وجل وخشيته ، وقيل أراد بهؤلاء الملائكة أعوان الرعد جعل الله تعالى له أعوانا فهم خائفون خاضعون طائعون . قوله تعالى (ويرسل الصواعق) جمع صاعقة وهى العذاب المهلك ينزل من البرق فيحرق من يصيبه (فيصيب بها من يشاء) كما أصاب أربد بن ربيعة قال محمد بن على الباقر الصاعقة تصيب المسلم وغير المسلم ولا تصيب الذاكر (وهم يجادلون) يخاصمون (فى الله) نزلت فى شأن أربد بن ربيعة حيث قال للنبى صلى الله عليه وسلم مم ربك أمن در أم من ياقوت أم من ذهب فنزلت صاعقة من السماء فأحرقته وسئل الحسن عن قوله عز وجل ويرسل الصواعق الآية قال كان رجل من طواغيت العرب بعث إليه النبى صلى الله عليه وسلم نفرا يدعونه إلى الله ورسوله فقال لهم أخبرونى عن رب محمد هذا الذى تدعوننى إليه مم هو من ذهب أو فضة أو حديد أو نحاس ؟ فاستعظم القوم مقالته فانصرفوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله ما رأينا رجلا أكفر قلبا ولا أعتى على الله منه فقال عليه

ما عطف عليه وهو قوله (والملائكة من خيفته) وإذا كان المعطوف مغايرا للمعطوف عليه وجب أن يكون غيره . وأجيب عنه أنه لا يبعد أن يكون الرعد اسما للملك من الملائكة وإنما أفرده بالذكر تشريفا له على غيره من الملائكة فهو كقوله وملائكته وجبريل وميكال قال ابن عباس « أقبلت يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا أخبرنا عن الرعد ما هو قال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوقه بها حيث يشاء الله قالوا فما هذا الصوت الذى يسمع قال زجره السحاب حتى تنتهى حيث أمرت قالوا صدقت » أخرجه الترمذى مع زيادة فيه المخاريق جمع مخراق وهو فى الأصل ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضا وأراد به هنا آلة تزجر بها الملائكة السحاب وقد جاء تفسيره فى حديث آخر وهو صوت (١) من نور تزجر الملائكة به السحاب ، قال ابن عباس من سمع صوت الرعد فقال : سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شئ قدير فان أصابه صاعقة فعلى ديته وكان عبد الله بن الزبير إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وكان يقول إن الوعيد لأهل الأرض شديد. وفى بعض الأخبار أن الله تعالى يقول « لو أن عبادى أطاعونى لسقيتهم المطر بالليل وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ولم أسمعهم صوت الرعد » وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنه قال الرعد ملك موكل بالسحاب يصرفه إلى حيث يؤمر وإن بحور الماء فى نقرة إبهامه وإنه يسبح الله فاذا سبح لا يبقى ملك فى السماء إلا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل المطر ، وقيل إن الرعد اسم لصوت الملك الموكل بالسحاب ومع ذلك فان صوت الرعد يسبح الله عز وجل لأن التسبيح والتقديس عبارة عن تنزيه الله عز وجل عن جميع النقائص ووجود هذا الصوت المسموع من الرعد وحدوثه دليل على وجود موجود خالق قادر متعال عن جميع النقائص وإن لم يكن ذلك فى الحقيقة تسبيحا ومنه قوله وإن من شئ إلا يسبح بحمده وقيل المراد من تسبيح الرعد أن من سمعه سبح الله فلهذا المعنى أضيف التسبيح إليه وقوله والملائكة من خيفته يعنى ويسبح الملائكة من خيفة الله عز وجل وهيبته وخشيته ، وقيل المراد بهذه الملائكة أعوان السحاب جعل الله عز وجل مع الملك الموكل بالسحاب أعوانا من الملائكة وهم خائفون خاضعون طائعون وقيل المراد بهم جميع الملائكة وحمله على العموم أولى (ويرسل الصواعق) جمع صاعقة وهى العذاب النازل من البرق فيحترق من تصيبه وقيل هى الصوت الشديد النازل من الجو ثم يكون فيه نار أو عذاب أو موت وهى فى ذاتها شىء واحد وهذه الأشياء الثلاثة تنشأ منها (فيصيب بها) يعنى بالصواعق (من يشاء) يعنى فيهلك بها كما أصاب أربد بن ربيعة قال محمد الباقر الصاعقة تصيب المسلم وغير المسلم ولا تصيب الذاكر (وهم يجادلون فى الله) يعنى يخاصمون فى الله وقيل المجادلة المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة وأصله من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله نزلت فى شأن أربد بن ربيعة حين قال للنبى صلى الله

(١) قوله صوت لعله سوط كما يقتضيه السياق اه مصححه .

عليه وسلم مم ربك أمن در أم من ياقوت أم من ذهب فنزلت صاعقة من السماء فأحرقته وسئل الحسن عن قوله «ويرسل الصواعق» الآية فقال كان رجل من طواغيت العرب بعث إليه النبي صلى الله عليه وسلم نفرا من أصحابه يدعونه إلى الله وإلى رسوله فقال لهم أخبرونى عن رب محمد هذا الذي تدعونى إليه هل هو من ذهب أو فضة أو حديد أو نحاس فاستعظم القوم كلامه فانصرفوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا يارسول الله مارأينا رجلا أكفر قلبا ولا أعتى على الله منه فقال ارجعوا إليه فرجعوا فلم يزدهم على مقالته الأولى شيئا بل قال أأجيب محمدا إلى رب لا أراه ولا أعرفه فانصرفوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يارسول الله مازادنا على مقالته الأولى شيئا بل قال أخبث فقال ارجعوا إليه فرجعوا إليه فبيناهم عنده يدعونه وينازعونه وهو لا يزيدهم على مقالته شيئا إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رءوسهم فرعدت وبرقت ورمت بصاعقة فأحرقت الكافر وهم جلوس عنده فرجعوا ليخبروا النبي صلى الله عليه وسلم فلما رجعوا استقبلهم نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: لهم احترق صاحبكم قالوا من أين علمتم ذلك قالوا قد أوحى الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم «ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله». واختلفوا فى هذه الواو فقيل واو الحال فيكون المعنى فيصيب بها من يشاء فى حال جداله فى الله وذلك أن أربد لما جادل فى الله أهلكه الله بالصاعقة وقيل إنها واو الاستئناف فيكون المعنى أنه تعالى لما تمم ذكر الدلائل قال بعد ذلك وهم يجادلون فى الله (وهو شديد المحال) أى شديد الأخذ بالعقوبة من قولهم يمحل به محلا إذا أراد به سوءا، وقيل هو من قولهم يمحل به إذا سعى به إلى السلطان وعرضه للهلاك وتمحل إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه فيكون المعنى أنه سبحانه وتعالى شديد المحال بأعدائه حتى يهلكهم بطريق لا يعرفونه ولا يتوقعونه وقيل المحل من المحول وهو الحيلة والميم زائدة ثم اختلفت عبارات المفسرين فى معنى قوله شديد المحال فقال الحسن معناه شديد النقمة وقال مجاهد وقتادة شديد القوة وقال ابن عباس شديد الحول وقيل شديد العقوبة وقيل معناه شديد الجدال وذلك أنه لما أخبر عنهم أنهم يجادلون فى الله أخبر أنه أشد جدالا منهم. قوله تعالى (له دعوة الحق) يعنى لله دعوة الصدق قال على دعوة الحق التوحيد، وقال ابن عباس شهادة أن لا إله إلا الله قال صاحب الكشاف دعوة الحق فيها وجهان أحدهما أن تضاف الدعوة إلى الحق الذى هو نقيض الباطل كما تضاف الكلمة إليه فى قولك كلمة الحق للدلالة على أن الدعوة ملابسة للحق مختصة به وأنها بمعزل من الباطل، والمعنى أن الله تعالى يدعى فيستجيب الدعوة ويعطى الداعى سؤله إن كان مصلحة له فكانت دعوة ملابسة للحق لكونه حقيقا بأن يوجه إليه الدعاء لما فى دعوته من الجدوى والنفع بخلاف مالا نفع فيه ولا جدوى فبرد دعاءه. الثانى أن تضاف إلى الحق الذى هو الله على معنى دعوة المدعو الحق الذى يسمع فيجيب وعن الحسن الله هو الحق وكل دعاء إليه دعوة الحق. فإن قلت ماوجه اتصال هذين الوصفين بما قبلهما. قلت أما على قصة أربد فظاهر لأن إصابته بالصاعقة كانت بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه دعا عليه وعلى صاحبه عامر بن الطفيل فأجيب فيهما فكانت الدعوة دعوة حق وأما على قوله وهم يجادلون فى الله فوعيد للكفار على مجادلتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجابة دعائه إن دعا عليهم وقيل فى معنى الآية الدعاء بالإخلاص، والدعاء الخالص

ارجعوا إليه فرجعوا إليه فجعل لا يزيدهم على مثل مقالته الأولى وقال أأجيب محمدا إلى رب لا أراه ولا أعرفه فانصرفوا وقالوا يا رسول الله مازادنا على مقالته الأولى وأخبث فقال ارجعوا إليه فرجعوا إليه فبينما هم جلوس عنده ينازعونه ويدعونه وهو يقول هذه المقالة إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رءوسهم فرعدت وبرقت ورمت بصاعقة فاحترق الكافر وهم جلوس فجاءوا يسعون ليخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستقبلهم قوم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا لهم احترق صاحبكم فقالوا من أين علمتم فقالوا أوحى الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم «ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله (وهو شديد المحال) قال على رضى الله عنه شديد الأخذ، وقال ابن عباس شديد الحول، وقال الحسن شديد الحقد وقال مجاهد شديد القوة وقال أبو عبيدة شديد العقوبة وقيل شديد المكر، والمحال والمماحلة المماكرة والمغالبة (له دعوة الحق) أى لله دعوة الصدق، قال على رضى الله عنه دعوة الحق التوحيد، وقال ابن عباس شهادة أن لا إله إلا الله وقيل الدعاء

الإخلاص ، والدعاء الخالص لا يكون إلا لله عز وجل (والذين يدعون من دونه) اى يعبدون الاصنام من دون الله تعالى (لا يستجيبون لهم بشىء) (١٢) أى لا يجيبونهم بشىء يريدونه من نفع أو دفع ضر (إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه) أى إلا كباسط كفيه ليقبض على الماء والقابض على الماء لا يكون فى يده شىء ولا يبلغ إلى فيه منه شىء كذلك الذى يدعو الأصنام وهى لا تضر ولا تنفع لا يكون بيده شىء ، وقيل معناه كالرجل العطشان الجالس على شفير البئر يمد يده إلى البئر فلا يبلغ قعر البئر إلى الماء ولا يرتفع إليه الماء فلا ينفعه بسط الكف إلى الماء ودعاؤه له ولا هو يبلغ فاه كذلك الذين يدعون الأصنام لا ينفعهم نداؤها ودعاؤها وهى لا تقدر على شىء وعن ابن عباس كالعطشان إذا بسط كفيه إلى الماء لا ينفعه ذلك مالم يغرف بهما الماء ولا يبلغ الماء فاه مادام باسطا كفيه ، مثل ضربه الله لخيبة الكفار (وما دعاء الكافرين) أصنامهم (إلا فى ضلال) يضل عنهم إذا احتاجوا إليه كما قال « وضل عنهم ما كانوا يفترون » وما كانوا يدعون وقال الضحاك عن ابن عباس وما دعاء الكافرين ربهم إلا فى ضلال لأن أصواتهم محجوبة عن الله تعالى (ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا) يعنى الملائكة والمؤمنين (وكرها)

لا يكون إلا لله تعالى (والذين يدعون من دونه) يعنى والذين يدعونهم آلهة من دون الله وهى الأصنام التى يعبدونها (لا يستجيبون لهم بشىء) يعنى لا يجيبونهم بشىء يريدونه من نفع أو دفع ضرر إن دعوهم (إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه) يعنى إلا استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه ولا يقدر أن يجيب دعاءه أو يبلغ فاه ، وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ولا يقدر على نفعهم وقيل شبههم فى قلة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه فيبسطهما ناشرا أصابعه فلم تلق كفاه منه شيئا ولم يبلغ طلبته من شربه وقيل إن القابض على الماء ناشرا أصابعه لا يكون فى يده منه شىء ولا يبلغ إلى فيه منه شىء كذلك الذى يدعو الأصنام لأنها لا تضر ولا تنفع ولا يفيده منها شىء وقيل شبه بالرجل العطشان الذى يرى الماء من بعيد بعينيه فهو يشير بكفيه إلى الماء ويدعوه بلسانه فلا يأتيه أبدا هذا معنى قول مجاهد وعن عطاء كالعطشان الجالس على شفير البئر وهو يمد يديه إلى البئر فلا هو يبلغ إلى قعر البئر ليخرج الماء ولا الماء يرتفع إليه فلا ينفعه بسطه الكف إلى الماء ودعاؤه له ولا هو يبلغ فاه كذلك الذين يدعون الأصنام لا ينفعهم ذلك وقال ابن عباس كالعطشان إذا بسط كفيه فى الماء لا ينفعه ذلك مالم يغرف بهما من الماء ولا يبلغ الماء فاه مادام باسطا كفيه وهذا مثل ضربه الله تعالى للكفار ودعائهم الأصنام حين لا ينفعهم البتة ثم ختم هذا بقوله (وما دعاء الكافرين) يعنى أصنامهم (إلا فى ضلال) يعنى يضل عنهم إذا احتاجوا إليه قال ابن عباس فى هذه الآية أصواتهم محجوبة عن الله تعالى . قوله عز وجل (ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها) فى معنى هذا السجود قولان أحدهما أن المراد منه السجود على الحقيقة وهو وضع الجبهة على الأرض ثم على هذا القول ففى معنى الآية وجهان أحدهما أن اللفظ وإن كان عاما إلا أن المراد منه الخصوص فقوله ولله يسجد من فى السموات يعنى الملائكة ومن فى الأرض من الإنس يعنى المؤمنين طوعا وكرها ، يعنى من المؤمنين من يسجد لله طوعا وهم المؤمنون المخلصون لله العبادة وكرها يعنى المنافقين الداخلين فى المؤمنين وليسوا منهم فان سجودهم لله على كره منهم لأنهم لا يرجون على سجودهم ثوابا ولا يخافون على تركه عقابا بل سجودهم وعبادتهم خوف من المؤمنين . الوجه الثانى هو حمل اللفظ على العموم وعلى هذا ففى اللفظ إشكال وهو أن جميع الملائكة والمؤمنين من الجن والإنس يسجدون لله طوعا ومنهم من يسجد له كرها كما تقدم وأما الكفار من الجن والإنس فلا يسجدون لله البتة فهذا وجه الإشكال . والجواب عنه أن المعنى أنه يجب على كل من فى السموات ومن فى الأرض أن يسجد لله فعبر بالوجوب عن الوقوع والحصول . وجواب آخر وهو أن يكون المراد من هذا السجود هو الاعتراف بالعظمة والعبودية وكل من فى السموات من ملك ومن فى الأرض من إنس وجن فإنهم يقرون لله بالعبودية والتعظيم ويدل عليه قوله تعالى « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ». والقول الثانى فى معنى هذا السجود هو الانقياد والخضوع وترك الامتناع فكل من فى السموات والأرض ساجد لله بهذا المعنى وهذا الاعتبار لأن قدرته ومشيئته نافذة فى الكل

يعنى المنافقين والكافرين الذين أكرهوا على السجود بالسيف (وظلالهم) يعنى ظلال الساجدين طوعا وكرها تسجد لله عز وجل طوعا قال مجاهد ظل المؤمن يسجد طوعا وهو طائع وظل الكافر يسجد طوعا وهو كاره (بالغدو والآصال) يعنى إذا سجد بالغدو والعشى يسجد معه ظله والآصال جمع الأصل والأصل جمع الأصيل وهو ما بين العصر إلى غروب الشمس وقيل ظلالهم أى أشخاصهم بالغدو والآصال بالبكر والعشايا وقيل سجود الظل تذليله لما أريد له . قوله تعالى (قل من رب السموات والأرض) أى خالقهما ومدبرهما فسيقولون الله لأنهم يقرون بأن الله خالقهم وخالق السموات والأرض فاذا أجابوك فقل أنت أيضا يا محمد الله ، وروى أنه لما قال هذا للمشركين عطفوا عليه فقالوا أجب أنت فأمره الله عز وجل فقال (قل) أنت يا محمد (الله) ثم قال الله لهم إلزاما للحجة (قل أفاتخذتم من دونه أولياء) معناه أنكم مع إقراركم بأن الله خالق السموات والأرض اتخذتم من دونه أولياء فعبدتموها من دون الله يعنى الأصنام وهم (لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا) فكيف يملكون لكم، ثم ضرب لهم مثلا فقال (قل هل يستوى الأعمى والبصير) كذلك لا يستوى الكافر والمؤمن (أم هل تستوى) قرأ حمزة والكسائى وأبو بكر يستوى بالياء وقرأ الآخرون بالتاء لأنه لا حائل بين الفعل والاسم المؤنث (الظلمات والنور) أى كما لا يستوى الظلمات والنور لا يستوى الكفر والإيمان (أم جعلوا) أى جعلوا (لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم) أى اشتبه ما خلقوه بما خلقه الله تعالى فلا يدرون ما خلق الله وما خلق آلهتهم

فى الكل فهم خاضعون منقادون له. وقوله تعالى (وظلالهم بالغدو والآصال) الغدوة والغداة أول النهار وقيل إلى نصف النهار والغدو بالضم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس والآصال جمع أصل وهو العشية والآصال العشايا جمع عشية وهى ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس قال المفسرون إن ظل كل شخص يسجد لله سواء ظل المؤمن والكافر وقال مجاهد ظل المؤمن يسجد لله طوعا وهو طائع وظل الكافر يسجد لله كرها وهو كاره وقال الزجاج جاء فى التفسير أن الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله قال ابن الأنبارى ولا يبعد أن يخلق الله تعالى للظلال عقولا وأفهاما تسجد بها وتخشع كما جعل للجبال أفهاما حتى سبحت لله مع داود . وقيل المراد بسجود الظلال ميلانها من جانب إلى جانب آخر وطولها وقصرها بسبب ارتفاع الشمس ونزولها . وإنما خص الغدو والآصال بالذكر لأن الظلال تعظم وتكثر فى هذين الوقتين ، وقيل لأنهما طرفا النهار فيدخل وسطه فيما بينهما .

(فصل)

وهذه السجدة من عزائم سجود التلاوة فيسن للقارئ والمستمع أن يسجد عند قراءته واستماعه لهذه السجدة والله أعلم . قوله تعالى (قل من رب السموات والأرض) أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله من رب السموات والأرض يعنى من مالك السموات والأرض ومن مدبرهما وخالقهما فسيقولون الله لأنهم مقرون بأن الله خالق السموات وما فيها والأرض وما فيها فان أجابوك بذلك فقل أنت يا محمد الله رب السموات والأرض وقيل لما قال هذه المقالة للمشركين عطفوا عليه وقالوا أجب أنت فأمره الله أن يجيبهم بقوله (قل الله) أى قل يا محمد الله وقيل إنما جاء السؤال والجواب من جهة واحدة لأن المشركين لا ينكرون أن الله خالق كل شىء فلما لم ينكروا ذلك وأجاب النبى صلى الله عليه وسلم بقوله الله فكأنهم قالوا ذلك أيضا ثم ألزمهم الحجة على عبادتهم الأصنام بقوله (قل) أى قل يا محمد للمشركين (أفاتخذتم من دونه) يعنى من دون الله (أولياء) يعنى الأصنام والولى الناصر والمعنى توليتم غير رب السموات والأرض واتخذتموهم أنصارا يعنى الأصنام (لا يملكون) يعنى وهم لا يملكون (لأنفسهم نفعا ولا ضرا) فكيف لغيرهم ثم ضرب الله مثلا للمشركين الذين يعبدون الأصنام وللمؤمنين الذين يعبدون الله فقال تعالى (قل هل يستوى الأعمى والبصير) قال ابن عباس يعنى المشرك والمؤمن (أم هل تستوى الظلمات والنور) يعنى الشرك والإيمان والمعنى كما لا يستوى الأعمى والبصير كذلك لا يستوى الكافر والمؤمن وكما لا تستوى الظلمات والنور كذلك لا يستوى الكفر والإيمان وإنما شبه الكافر بالأعمى لأن الأعمى لا يهتدى سبيلا كذلك الكافر لا يهتدى سبيلا (أم جعلوا لله شركاء) هذا استفهام إنكار يعنى جعلوا لله شركاء (خلقوا كخلقه) يعنى خلقوا سموات وأرضين وشمسا وقمرا وجبالا وبحارا وجنا وإنسا (فتشابه الخلق عليهم) من هذا الوجه والمعنى هل رأوا غير الله خلق شيئا فاشتبه عليهم خلق الله بخلق غيره . وقيل إنه تعالى وبخهم بقوله أم جعلوا لله شركاء خلقوا خلقا مثل خلقه

فتشابه خلق الشركاء بخلق الله عندهم وهذا استفهام إنكاري أي ليس الأمر كذلك حتى يشتبه عليهم الأمر بل إذا تفكروا بعقولهم وجدوا الله تعالى هو المنفرد بخلق سائر الأشياء والشركاء مخلوقون له أيضا لايخلقون شيئا حتى يشتبه خلق الله بخلق الشركاء وإذا كان الأمر كذلك فقد لزمتهم الحجة وهو قوله تعالى (قل الله خالق كل شيء) أي قل يامحمد لهؤلاء المشركين الله خالق كل شيء مما يصح أن يكون مخلوقا وقوله الله خالق كل شيء من العموم الذي يراد به الخصوص لأن الله تعالى خلق كل شيء وهو غير مخلوق (وهو الواحد) يعني والله تعالى هو الواحد المنفرد بخلق الأشياء كلها (القهار) لعباده حتى يدخلهم تحت قضائه وقدره وإرادته. وقوله عز وجل (أنزل من السماء ماء) لما شبه الله عز وجل الكافر بالأعمى والمؤمن بالبصير وشبه الكفر بالظلمات والإيمان بالنور ضرب لذلك مثلا فقال تعالى أنزل من السماء ماء يعني المطر (فسالت أودية بقدرها) أودية جمع واد وهو المفرج بين الجبلين يسيل فيها الماء وقوله فسالت أودية فيه اتساع وحذف تقديره فسال في الوادي فهو كما يقال جرى النهر والمراد جرى الماء في النهر فحذف في لدلالة الكلام عليه بقدرها قال مجاهد بملئها وقال ابن جريج الصغير بقدره والكبير بقدره وقيل بمقدار مائها وإنما نكر أودية لأن المطر إذا نزل لايعم جميع الأرض ولا يسيل في كل الأودية بل ينزل في أرض دون أرض ويسيل في واد دون واد فلهذا السبب جاء هذا بالتنكير وقال ابن عباس أنزل من السماء ماء يعني قرآنا وهذا مثل ضربه الله تعالى فسالت أودية بقدرها يريد بالأودية القلوب شبه نزول القرآن الجامع للهدى والنور والبيان بنزول المطر لأن المطر إذا نزل عم نفعه وكذلك نزول القرآن وشبه القلوب بالأودية، لأن الأودية يستكن فيها الماء وكذلك القلوب يستكن فيها الإيمان والعرفان ببركة نزول القرآن فيها وهذا خاص بالمؤمنين لأنهم الذين انتفعوا بنزول القرآن (ق) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن مثل مابعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء نفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لاتمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه مابعثني الله به فتعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله وغيره في معنى هذا الحديث وشرحه أما الكلأ فبالهمز يقع على الرطب واليابس من الحشيش، وأما قوله وكان منها أجادب فبالجيم والدال المهملة والباء الموحدة كذا في الصحيحين وهي الأرض التي لاتنبت الكلأ جمع جدب على غير قياس وقياسه أجدب والجدب ضد الخصب وقال الخطابي هي التي تمسك الماء ولم يسرع فيه النضوب وفي رواية الهروي أخاذات بالخاء المعجمة والذال المعجمة جمع آخاذة وهي الغدير الذي يمسك الماء وقوله ورعوا كذا هو في صحيح مسلم من الرعي، ووقع في صحيح البخاري وزرعوا بزيادة زاي من الزرع والقيعان بكسر القاف جمع قاع وهو المستوى من الأرض وقوله فذلك مثل من فقه في دين الله يروى بضم القاف وهو المشهور وروي بكسرها ومعناه فهم الأحكام وأما معنى الحديث ومقصوده فهو أن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب مثلا لما جاء به من الهدى والعلم بالأرض التي أصابها المطر قال العلماء والأرض ثلاثة أنواع وكذلك الناس لأنهم منها خلقوا، فالنوع الأول

(قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار) ثم ضرب الله تعالى مثلين للحق والباطل فقال عز وجل (أنزل) يعني الله عز وجل (من السماء ماء) يعني المطر (فسالت) من ذلك الماء (أودية بقدرها) أي في الصغر والكبر

(فاحتمل السيل) الذى حدث من ذلك الماء (زبدا رابيا) الزبد الخبث الذى يظهر على وجه الماء وكذلك على وجه القدر رابيا أى عاليا مرتفعا فوق الماء فالماء الصافى الباقى هو الحق والذاهب الزائل الذى يتعلق بالأشجار وجوانب الأودية هو الباطل وقيل قوله أنزل من السماء ماء هذا مثل للقرآن والأودية مثل للقلوب يريد ينزل القرآن فتحتمل منه القلوب على قدر اليقين والعقل والشك والجهل فهذا أحد المثلين والمثل الآخر قوله عز وجل (ومما يوقدون عليه فى النار) والإيقاد جعل النار تحت الشىء ليذوب (ابتغاء حلية) أى لطلب زينة وأراد الذهب والفضة لأن الحلية تطلب منهما (أو متاع) أى طلب متاع وهو ما ينتفع به وذلك مثل الحديد والنحاس والرصاص والصفر تذاب فيتخذ منها الأوانى وغيرها مما ينتفع بها (زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل) أى إذا أذيب فله أيضا زبد مثل زبد الماء فالباقى الصافى من هذه الجواهر مثل الحق والزبد الذى لاينتفع به مثل الباطل (فأما الزبد) الذى علا السيل والفلز (فيذهب جفاء) أى ضائعا باطلا والجفاء ما رمى به الوادى من الزبد والقدر إلى جنباته يقال جفا الوادى وأجفأ إذا ألقى غثاءه وأجفأت القدر وجفأت إذا غلت وألقت زبدها فإذا سكنت لم يبق فيها شىء معناه أن الباطل وإن علا فى وقت فانه يضمحل وقيل جفاء أى متفرقا يقال جفأت الريح الغيم إذا فرقته وذهبت به (وأما ما ينفع الناس) يعنى الماء والفلز من الذهب والفضة والصفر والنحاس (فيمكث فى الأرض) أى يبقى ولا يذهب (كذلك يضرب الله الأمثال)

من أنواع الأرض الطيبة التى تنتفع بالمطر فتنبت به العشب فينتفع الناس به والدواب بالشرب والرعى وغير ذلك وكذلك النوع الأول من الناس من يبلغه الهدى من غير ذلك من العلم فيحيا به قلبه ويحفظه ويعمل به ويعلمه غيره فينتفع به وينفع غيره قال مسروق صحبت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالأخاذات لأن قلوبهم كانت واعية فصارت أوعية للعلوم بما رزقت من صفاء الفهوم. النوع الثانى من أنواع الأرض أرض لاتقبل الانتفاع فى نفسها لكن فيها فائدة لغيرها وهى إمساك الماء لغيرها لينتفع به الناس والدواب وكذا النوع الثانى من الناس لهم قلوب حافظة لكن ليس لهم أفهام ثاقبة فيبقى ما عندهم من العلم حتى يجىء المحتاج إليه المتعطش لما عندهم من العلم فيأخذه منهم فينتفع به هو وغيره ، النوع الثالث من أنواع الأرض أرض سبخة لاتنبت مرعى ولا تمسك ماء كذلك النوع الثالث من الناس ليس لهم قلوب حافظة ولا أفهام ثاقبة فاذا بلغهم شىء من العلم لاينتفعون به فى أنفسهم ولا ينفعون غيرهم والله أعلم . وقوله تعالى (فاحتمل السيل زبدا) الزبد ما يعلو على وجه الماء عند الزيادة كالحبب وكذلك ما يعلو على القدر عند غليانها والمعنى فاحتمل السيل الذى حدث من ذلك الماء زبدا (رابيا) يعنى عاليا مرتفعا فوق الماء طافيا عليه وهاهنا تم المثل ثم ابتدأ بمثل آخر فقال تعالى (ومما يوقدون عليه فى النار) الإيقاد جعل الحطب فى النار لتتقد تلك النار تحت الشىء ليذوب (ابتغاء حلية) يعنى لطلب زينة والضمير فى قوله عليه يعود على الذهب والفضة وإن لم يكونا مذكورين لأن الحلية لاتطلب إلا منهما (أو متاع) يعنى أو لطلب متاع آخر مما ينتفع به كالحديد والنحاس والرصاص ونحوه مما يذاب وتتخذ منه الأوانى وغيرها مما ينتفع به والمتاع كل ما يتمتع به ويقال لكل ما ينتفع به فى البيت كالطبق والقدر ونحو ذلك من الأوانى متاع (زبد مثله) يعنى أن ذلك الذى يوقد عليه فى النار إذا أذيب فله أيضا زبد مثل زبد الماء فالصافى من الماء ومن هذه الجواهر هو الذى ينتفع به وهو مثل الحق . والزبد من الماء ومن هذه الجواهر هو الذى لا ينتفع به ، وهو مثل الباطل وهو قوله تعالى (كذلك يضرب الله الحق والباطل) فالحق هو الجوهر الصافى الثابت والباطل هو الزبد الطافى الذى لاينتفع به وهو قوله (فأما الزبد فيذهب جفاء) يعنى ضائعا باطلا والجفاء مارمى به الوادى من الزبد إلى جوانبه وقيل الجفاء المتفرق يقال جفأت الريح الغيم إذا فرقته والمعنى أن الباطل وإن علا فى وقت فانه يضمحل ويذهب (وأما ماينفع الناس) يعنى الماء الصافى والجوهر الجيد من هذه الأجسام التى تذاب (فيمكث فى الأرض) يعنى يثبت ويبقى ولا يذهب (كذلك يضرب الله الأمثال) قال أهل التفسير والمعانى هذا مثل ضربه الله للحق والباطل فالباطل وإن علا على الحق فى بعض الأوقات والأحوال فان الله يمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذى يعلو على الماء فيذهب الزبد ويبقى الماء الصافى الذى ينتفع به ، وكذلك الصفو من هذه الجواهر يبقى ويذهب العلو الذى هو الكدر وهو ماينفيه الكير مما يذاب من جواهر الأرض كذلك الحق والباطل فالباطل وإن علا فى وقت فانه يذهب هو وأهله والحق يظهر هو وأهله وقيل هذا مثل للمؤمن واعتقاده وانتفاعه بالإيمان كمثل الماء الصافى الذى ينتفع به الناس ومثل الكافر

جعل الله هذا مثالا للحق والباطل يعنى أن الباطل كالزبد يذهب ويضيع الحق كالماء والفلز يبقى فى القلوب وقيل هذا تسلية للمؤمنين يعنى أن أمر المشركين ـ (١٦) ـ كالزبد يرى فى الصورة شيئا وليس له حقيقة وأمر المؤمنين كالماء المستقر فى مكانه له البقاء والثبات قوله تعالى (للذين استجابوا) أجابوا (لربهم) فأطاعوه (الحسنى) الجنة (والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به) أى لبذلوا ذلك يوم القيامة افتداء من النار (أولئك لهم سوء الحساب) قال إبراهيم النخعى سوء الحساب أن يحاسب الرجل بذنبه كله لايغفر له من شىء (ومأواهم) فى الآخرة (جهنم وبئس المهاد) الفراش أى بئس مامهد لهم. قوله تعالى (أفمن يعلم إنما أنزل إليك من ربك الحق) فيؤمن به ويعمل بما فيه (كمن هو أعمى) عنه لايعلمه ولا يعمل به قيل نزلت فى حمزة وأبى جهل وقيل فى عمار وأبى جهل فالأول حمزة أو عمار والثانى أبو جهل وهو الأعمى أى لا يستوى من يبصره الحق ويتبعه ومن لايبصره ولا يتبعه (إنما يتذكر) يتعظ (أولوا الألباب) ذو والعقول (الذين يوفون بعهد الله) بما أمرهم الله تعالى به وفرضه عليهم فلا يخالفونه (ولا ينقضون الميثاق) وقيل أراد العهد الذى أخذه على ذرية آدم عليه السلام حين أخرجهم من صلبه (والذين يصلون ماأمر الله به أن يوصل) قيل أراد به الايمان بجميع الكتب والرسل ولا يفرقون بينهما والأكثرون

وخبث اعتقاده كالزبد الذى لاينتفع به البتة وقيل هذا مثل ضربه الله للنور الذى يحصل فى قلوب العباد على ما قسم لها فى الأزل لأن الوادى إذا سال كنس كل شىء فيه من النجاسات والمستقذرات كذلك إذا سال وادي قلب العبد بالنور الذى قسم له على قدر إيمانه ومعرفته كنس كل ظلمة وغفلة فيه فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض يعنى يذهب البواطل وهى الأخلاق المذمومة وتبقى الحقائق وهى الأخلاق الحميدة كذلك يضرب الله الأمثال. وقوله تعالى (للذين استجابوا لربهم الحسنى) قيل اللام فى للذين متعلقة بيضرب والمعنى كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين الذين استجابوا لربهم يعنى أجابوه إلى مادعاهم إليه من توحيده والإيمان به وبرسوله وللكافرين الذين لم يستجيبوا له فعلى هذا يكون قوله كذلك يضرب الله الأمثال للفريقين من المؤمنين والكافرين وقيل تم الكلام عند قوله كذلك يضرب الله الأمثال ثم استأنف بقوله للذين استجابوا لربهم الحسنى قال ابن عباس وجمهور المفسرين يعنى الجنة وقيل الحسنى هى المنفعة العظمى فى الحسن وهى المنفعة الخالصة الخالية عن شوائب المضرة والانقطاع (والذين لم يستجيبوا له) يعنى الكفار الذين استمروا على كفرهم وشركهم وماكانوا عليه (لو أن لهم مافى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به) يعنى لبذلوا ذلك كله فداء لأنفسهم من عذاب النار يوم القيامة (أولئك) يعنى الذين لم يستجيبوا لربهم (لهم سوء الحساب) قال إبراهيم النخعى سوء الحساب أن يحاسب الرجل بذنبه كله ولا يغفر له منه شىء (ومأواهم) يعنى فى الآخرة (جهنم وبئس المهاد) يعنى وبئس مامهد لهم فى الآخرة وقيل المهاد الفراش يعنى وبئس الفراش يفرش لهم فى جهنم. قوله تعالى (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق) يعنى فيؤمن به ويعمل بما فيه (كمن هو أعمى) يعنى أعمى البصيرة لاأعمى البصر وهو الكافر فلا يؤمن بالقرآن ولايعمل بما فيه قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى حمزة ابن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم وأبى جهل بن هشام وقيل نزلت فى عمار بن ياسر وأبى جهل فالأول هو حمزة أو عمار والثانى هو أبو جهل وحمل الآية على العموم أولى وإن كان السبب مخصوصا والمعنى لايستوى من يبصر الحق ويتبعه ومن لايبصر الحق ولا يتبعه وإنما شبه الكافر والجاهل بالأعمى لأن الأعمى لايهتدى لرشد وربما وقع فى مهلكة وكذلك الكافر والجاهل لايهتديان للرشد وهما واقعان فى المهلكة (إنما يتذكر أولوا الألباب) يعنى إنما يتعظ ذوو العقول السليمة الصحيحة وهم الذين ينتفعون بالمواعظ والأذكار. قوله عز وجل (الذين يوفون بعهد الله) يعنى الذى عاهدهم عليه وهو القيام بما أمرهم به وفرضه عليهم وأصل العهد حفظ الشىء ومراعاته حالا بعد حال وقيل أراد بالعهد ماأخذه على أولاد آدم حين أخرجهم من صلبه وأخذ عليهم العهد والميثاق (ولا ينقضون الميثاق) بل يوفون به فهو توكيد لقوله الذين يوفون بعهد الله (والذين يصلون ماأمر الله به أن يوصل) قال ابن عباس يريد الإيمان بجميع الكتب والرسل يعنى يصل بينهم بالإيمان ولايفرق بين أحد منهم والأكثرون على أن المراد به صلة الرحم عن عبد الرحمن بن عوف قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول

على أنه أراد به صلة الرحم . أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا ابن أبي شيبة ثنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن أبي سلمة أن عبد الرحمن بن عوف عاد أبا الدرداء فقال يعني عبد الرحمن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه عزوجل «أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته» أخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا بن أبي أويس قال حدثني سليمان بن بلال عن معاوية بن أبي مزود عن سعيد ابن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «خلق الله الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقوي الرحمن فقال مه قالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك قالت بلى يارب قال فذاك لك» ثم قال أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم » أخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا أبو منصور السمعاني أنبأنا أبو جعفر الرياني ثنا حميد ابن زنجويه ثنا مسلم بن إبراهيم ثنا كثير بن عبد الله اليشكري ثنا الحسن بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «ثلاثة تحت العرش يوم القيامة القرآن يحاج العباد له ظهر (١٧) وبطن والأمانة والرحم تنادي ألا من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله » أخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الرياني أنا حميد بن زنجويه ثنا عبد الله بن صالح حدثني الليث بن سعد حدثني عقيل عن ابن شهاب أخبرني أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه » أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي ثنا علي بن الجعد ثنا شعبة عن عيينة بن عبد الرحمن قال سمعت أبي يحدث عن أبي بكرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «مامن ذنب أحرى أن يجعل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع مايدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم » أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسين بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن منصور الرمادي ثنا عبد الرزاق ثنا معمر عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « لايدخل الجنة قاطع » أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي ثنا أحمد بن إسحاق الصيدلاني أنا أبو نصر أحمد بن محمد بن نصر ثنا أبو نعيم الفضل بن دكين ثنا عمرو بن عثمان قال سمعت موسى بن طلحة يذكر عن أبي أيوب الأنصاري « أن أعرابيا عرض لرسول الله ﷺ في مسير له فقال أخبرني بما يقربني من الجنة ويباعدني من النار قال ﷺ تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم » أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني ثنا أبو جعفر الرياني ثنا حميد ابن زنجويه أنبأنا يعلى وأبو نعيم قالا ثنا قطرة عن مجاهد عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها » رواه محمد بن إسمعيل عن محمد بن كثير عن سفيان عن قطر وقال

يقول «قال الله تبارك وتعالى : أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته أو قال بتته» أخرجه أبو داود والترمذي (ق) عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله » (خ) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه» صلة الرحم مبرة الأهل والأقارب والإحسان إليهم وضده القطع ، قوله وان ينسأ له في أثره الأثر هنا الأجل سمي الأجل أثرا لأنه تابع للحياة وسابقها ومعنى ينسأ يؤخر والمراد به تأخير الأجل . وهو على وجهين : احدهما أن يبارك الله له في عمره فكأنما قد زاد فيه . والثاني أن يزيده في عمره زيادة حقيقية والله يفعل مايشاء (ق) عن جبير بن مطعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لايدخل الجنة قاطع » زاد في رواية سفيان يعني «قاطع رحم» (خ) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «ليس الواصل بالمكافئ الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها » عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «تعلموا من أنسابكم ماتصلون به أرحامكم فان صلة الرحم محبة

فى الأهل ومثراة فى المال ومنسأة فى الأثر» أخرجه الترمذي . وقوله تعالى (ويخشون ربهم) يعني أنهم مع وفائهم بعهد الله وميثاقه والقيام بما أمر الله به من صلة الرحم يخشون ربهم والخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر مايكون ذلك عن علم بما يخشى منه (ويخافون سوء الحساب) تقدم معناه (والذين صبروا) يعني على طاعة الله وقال ابن عباس على أمر الله وقال عطاء على المصائب والنوائب وقيل صبروا عن الشهوات وعن المعاصي وقيل حمله على العموم أولى فيدخل فيه الصبر على جميع النوائب والمأمورات من سائر العبادات والطاعات وجميع أعمال البر وترك جميع المنهيات فيدخل فيه ترك جميع المعاصي من الحسد والحقد والغيبة وغير ذلك من المنهيات ويدخل فيه الصبر عن المباحات مثل جميع الشهوات والصبر على ما نزل به من الأمراض والمصائب وأصل الصبر حبس النفس عما يقتضيه العقل أو الشرع أو عما يقتضيان حبسها عنه فالصبر لفظ عام يدخل تحته جميع ما ذكر وإنما قيد الصبر بقوله (ابتغاء وجه ربهم) لأن الصبر ينقسم إلى نوعين : الأول الصبر المذموم وهو أن الإنسان قد يصبر ليقال ما أكمل صبره وأشد قوته على ما تحمل من النوازل وقد يصبر لئلا يعاب على الجزع وقد يصبر لئلا تشمت به الأعداء وكل هذه الأمور وإن كان ظاهرها الصبر فليس ذلك داخلا تحت قوله «ابتغاء وجه ربهم» لأنها لغير الله تعالى . النوع الثاني الصبر المحمود وهو أن يكون الإنسان صابرا لله تعالى راضيا بما نزل به من الله طالبا فى ذلك الصبر ثواب الله محتسبا أجره على الله فهذا هو الصبر الداخل تحت قوله ابتغاء وجه ربهم يعني صبروا على ما نزل بهم تعظيما لله وطلب رضوانه (وأقاموا الصلاة) يعني الصلاة المفروضة وقيل حمله على العموم أولى فيدخل صلاة الفرض والنفل والمراد بإقامتها إتمام أركانها وهيئاتها (وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) قال الحسن المراد به الزكاة المفروضة فان لم يتهم بترك أداء الزكاة فالأولى أن يؤديها سرا وإن كان متهما بترك أداء الزكاة فالأولى أن يؤديها علانية وقيل إن المراد بالسر ما يخرج من الزكاة بنفسه والمراد بالعلانية ما يؤديه إلى الإمام وقيل المراد بالسر صدقة التطوع والمراد بالعلانية الزكاة الواجبة وحمله على العموم أولى (ويدرءون بالحسنة السيئة) قال ابن عباس يدفعون بالعمل الصالح العمل السيء وهو معنى قوله «إن الحسنات يذهبن السيئات» ويدل على صحة هذا التأويل ما جاء فى الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها السر بالسر والعلانية بالعلانية» وروى البغوي بسنده عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن مثل الذى يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل عليه درع ضيقة قد خنقته ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ثم عمل أخرى فانفكت أخرى حتى خرج إلى الأرض» وقال ابن كيسان يدفعون الذنب بالتوبة وقيل لا يكافئون الشر بالشر ولكن يدفعون الشر بالخير وقال القتيبي معناه إذا سفه عليهم حلموا والسفه السيئة والحلم الحسنة وقال قتادة ردوا عليهم ردا معروفا وقال الحسن إذا حرموا أعطوا وإذا ظلموا عفوا وإذا قطعوا وصلوا قال عبد الله بن المبارك هذه ثمان خلال مشيرة إلى أبواب الجنة الثمانية قلت إنما هى تسع خلال فيحتمل أنه عد خلتين بواحدة

«إذا قطعت رحمه وصلها» قوله تعالى (ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب والذين صبروا) على طاعة الله وقال ابن عباس على أمر الله عز وجل وقال عطاء على المصائب والنوائب وقيل عن الشهوات وقيل عن المعاصي (إبتغاء وجه ربهم) طلب تعظيمه أن يخالفوه (وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) يعني يؤدون الزكاة (ويدرءون بالحسنة السيئة) روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال يدفعون بالصالح من العمل السيء من العمل وهو معنى قوله «إن الحسنات يذهبن السيئات» وجاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال «إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها السر بالسر والعلانية بالعلانية» أخبرنا أبو بكر محمد ابن عبد الله بن أبي توبة أنبأنا محمد بن أحمد بن الحارث أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي أنبأنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن ابن لهيعة حدثني يزيد بن أبي حبيب حدثنا أبو الخير أنه سمع عقبة بن عامر يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن مثل الذى يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته ثم عمل حسنة فانفكت عنه حلقة ثم عمل أخرى فانفكت أخرى حتى يخرج إلى الأرض» وقال ابن كيسان معنى الآية يدفعون الذنب بالتوبة وقيل لا يكافئون الشر بالشر ولكن يدفعون الشر بالخير وقال القتيبي معناه إذا سفه عليهم حلموا فالسفه السيئة والحلم الحسنة وقال قتادة ردوا عليهم معروفا نظيره قوله تعالى «وإذا

خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما وقال الحسن إذا حرموا أعطوا وإذا ظلموا عفوا وإذا قطعوا وصلوا قال عبدالله بن المبارك هذه ثمان خلال مشيرة إلى ثمانية أبواب الجنة (أولئك لهم عقبى الدار) يعنى الجنة أى عاقبتهم دار الثواب ثم بين ذلك فقال (جنات عدن) بساتين إقامة (يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) قيل من أبواب الجنة وقيل من أبواب القصور (سلام عليكم) أى يقولون سلام عليكم وقيل يقولون سلمكم الله من الآفات التى تخافون منها قال مقاتل يدخلون عليهم فى مقدار يوم وليلة من أيام الدنيا ثلاث كرات معهم الهدايا والتحف من الله عز وجل يقولون سلام عليكم (بما صبرتم فنعم عقبى الدار) أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله ابن أبى توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكيسانى أنا عبد الله بن محمود أنا ابراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن بقية بن الوليد حدثنى أرطاة بن المنذر قال سمعت رجلا من مشيخة الجند يقال له أبو الحجاج يقول جلست إلى أبى أمامة فقال « إن المؤمن ليكون متكئا على أريكته إذا أدخل الجنة وعنده سماطان من خدم وعند طرف السماطين باب مبوب فيقبل ملك من ملائكة الله فيستأذن فيقوم أدنى الخدم إلى الباب فاذا هو بالملك يستأذن فيقول للذى يليه ملك يستأذن ويقول الذى يليه للذى يليه ملك يستأذن كذلك حتى يبلغ المؤمن فيقول ائذنوا له فيقول أقربهم إلى المؤمن ائذنوا له ويقول الذى يليه للذى يليه ائذنوا له كذلك حتى يبلغ أقصاهم الذى عند الباب فيفتح له فيدخل فيسلم ثم ينصرف » (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) هذا فى الكفار

بواحدة ولما ذكر الله عز وجل هذه الخلال من أعمال البر ذكر بعدها ما أعد للعاملين بها من الثواب فقال تعالى (أولئك) يعنى من أتى بهذه الأعمال (لهم عقبى الدار) يعنى الجنة والمعنى إن عاقبتهم دار الثواب (جنات عدن) بدل من عقبى الدار يعنى بساتين إقامة يقال عدن بالمكان إذا أقام به (يدخلونها) يعنى الدار التى تقدم وصفها (ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) يعنى ومن صدق من آبائهم بما صدقوا به وإن لم يعمل بأعمالهم قاله ابن عباس وقال الزجاج إن الإنسان لا ينتفع بغير أعماله الصالحة فعلى قول ابن عباس معنى صلح صدق وآمن ووحد وعلى قول الزجاج معناه أصلح فى عمله قال الواحدى والصحيح ما قاله ابن عباس لأن الله تعالى جعل ثواب المطيع سروره بما يراه فى أهله حيث بشره بدخوله الجنة مع هؤلاء فدل على أنهم يدخلونها كرامة للمطيع العامل الآتى بالأعمال الصالحة ولو كان دخولهم الجنة بأعمالهم الصالحة لم يكن فى ذلك كرامة للمطيع ولا فائدة فى الوعد به إذ كل من كان صالحا فى عمله فهو يدخل الجنة . قال الإمام فخر الدين الرازى قوله تعالى وأزواجهم ليس فيه ما يدل على التمييز بين زوجة وزوجة ولعل الأولى من مات عنها أو ماتت عنه وروى أنه لما كبرت سودة أراد النبى صلى الله عليه وسلم طلاقها فسألته أن لا يفعل ووهبت يومها لعائشة فأمسكها رجاء أن تحشر فى جملة أزواجه فهو كالدليل على ما ذكرناه . وقوله تعالى (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) يعنى من أبواب الجنة وقيل من أبواب القصور ، قال ابن عباس يريد به التحية من الله والتحف والهدايا (سلام عليكم) يعنى يقولون سلام عليكم فأضمر القول هاهنا لدلالة الكلام عليه (بما صبرتم) يعنى يقولون لهم سلمكم الله من الآفات التى كنتم تخافونها فى الدنيا وأدخلكم بما صبرتم فى دار الدنيا على الطاعات وترك المحرمات الجنة وقيل إن السلام قول والصبر فعل ولا يكون القول ثوابا للفعل فعلى هذا يكون قوله سلام عليكم دعاء من الملائكة لهم يعنى سلمكم الله بما صبرتم قال مقاتل إن الملائكة يدخلون عليهم فى مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات معهم الهدايا والتحف من الله تعالى يقولون سلام عليكم بما صبرتم ، وروى البغوى بسنده عن أبى أمامة موقوفا عليه قال « إن المؤمن ليكون متكئا على أريكته إذا دخل الجنة وعنده سماطان من خدم وعند طرف السماطين باب مبوب فيقبل الملك من ملائكة الله يستأذن فيقوم أدنى الخدم إلى الباب فاذا بالملك يستأذن فيقول للذى يليه ملك يستأذن ويقول الآخر كذلك حتى يبلغ المؤمن فيقول ائذنوا له فيقول أقربهم إلى المؤمن ائذنوا له ويقول الذى يليه ائذنوا له وكذلك حتى يبلغ أقصاهم الذى عند الباب فيفتح له فيدخل فيسلم ثم ينصرف » (فنعم عقبى الدار) يعنى فنعم العقبى عقبى الدار وقيل معناه فنعم عقبى الدار بما أنتم فيه (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) لما ذكر الله أحوال السعداء وما أعد لهم من الكرامات والخيرات ذكر بعده أحوال الأشقياء وما لهم من العقوبات فقال تعالى « والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه » ونقض العهد ضد الوفاء به وهذا من صفة الكفار

(ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) أى يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض وقيل يقطعون الرحم (ويفسدون فى الارض) أى يعملون بالمعاصى (أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) يعنى النار وقيل سوء المنقلب لأن منقلب الناس دورهم . قوله تعالى (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أى يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء (وفرحوا بالحياة الدنيا) يعنى مشركى مكة أشروا وبطروا والفرح لذة فى القلب بنيل المشتهى وفيه دليل على أن الفرح بالدنيا حرام (وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع) أى قليل ذاهب قال الكلبى كمثل السكرجة والقصعة والقدح والقدر ينتفع بها ثم تذهب (ويقول الذين كفروا) من أهل مكة (لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب) أى يهدى إليه من يشاء بالإنابة وقيل يرشد إلى دينه من رجع إليه بقلبه (الذين آمنوا) فى محل النصب بدل من قوله من أناب (وتطمئن) تسكن (قلوبهم بذكر الله) قال مقاتل بالقرآن والسكون يكون باليقين والاضطراب يكون بالشك (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) تسكن قلوب المؤمنين ويستقر فيها اليقين قال ابن عباس هذا فى الحلف يقول إذا حلف المسلم بالله على شىء تسكن قلوب المؤمنين إليه فان قيل أليس قد قال الله تعالى «إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم» فكيف تكون الطمأنينة و وجل فى حالة واحدة قيل الوجل عند ذكر الوعيد والعقاب والطمأنينة عند ذكر الوعد والثواب فالقلوب توجل إذا ذكرت عدل الله وشدة حسابه وتطمئن إذا ذكرت فضل الله وكرمه (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ابتداء، وقوله (طوبى لهم) خبره . واختلفوا

لأنهم هم الذين نقضوا عهد الله يعنى خالفوا أمره ومعنى من بعد ميثاقه من بعد ما أوثقوه على أنفسهم بالاعتراف والقبول (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) يعنى ما بينهم وبين المؤمنين من الرحم والقرابة (ويفسدون فى الأرض) يعنى بالكفر والمعاصى (أولئك) يعنى من هذه صفته (لهم اللعنة) يعنى الطرد عن رحمة الله يوم القيامة (ولهم سوء الدار) يعنى النار لأن منقلب الناس فى العرف إلى دورهم ومنازلهم فالمؤمنون لهم عقبى الدار وهى الجنة والكفار لهم سوء الدار وهى النار . قوله تعالى (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) يعنى يوسع على من يشاء من عباده فيغنيه من فضله ويضيق على من يشاء من عباده فيفقره ويقتر عليه وهذا أمر اقتضته حكمة الله (وفرحوا بالحياة الدنيا) يعنى مشركى مكة لما بسط الله عليهم الرزق أشروا وبطروا ، والفرح لذة تحصل فى القلب بنيل المشتهى . وفيه دليل على أن الفرح بالدنيا والركون إليها حرام (وما الحياة الدنيا فى الآخرة) يعنى بالنسبة إلى الآخرة (إلا متاع) أى قليل ذاهب ؛ قال الكلبى المتاع مثل السكرجة والقصعة والقدر ينتفع بها فى الدنيا ثم تذهب كذلك الحياة الدنيا لأنها ذاهبة لابقاء لها (ويقول الذين كفروا) يعنى من أهل مكة (لولا أنزل عليه آية من ربه) يعنى هلا أنزل على محمد آية ومعجزة مثل معجزة موسى وعيسى (قل) أى قل لهم يا محمد (إن الله يضل من يشاء) فلا ينفعه نزول الآيات وكثرة المعجزات إن لم يهده الله عز وجل وهو قوله (ويهدى إليه من أناب) يعنى ويرشد إلى دينه والإيمان به من أناب بقلبه ورجع إليه بكليته (الذين آمنوا) بدل من قوله من أناب (وتطمئن قلوبهم) يعنى وتسكن قلوبهم (بذكر الله) قال مقاتل بالقرآن لأنه طمأنينة لقلوب المؤمنين والطمأنينة والسكون إنما تكون بقوة اليقين والاضطراب إنما يكون بالشك (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) يعنى بذكره تسكن قلوب المؤمنين ويستقر اليقين فيها وقال ابن عباس هذا فى الحلف وذلك أن المسلم إذا حلف بالله على شىء سكنت قلوب المؤمنين إليه . فان قلت أليس قد قال الله تبارك وتعالى فى أول سورة الأنفال «إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم» والوجل استشعار الخوف وحصول الاضطراب وهو ضد الطمأنينة فكيف وصفهم بالوجل والطمأنينة وهل يمكن الجمع بينهما فى حال واحد . قلت إنما يكون الوجل عند ذكر الوعيد والعقاب والطمأنينة إنما تكون عند الوعد والثواب فالقلوب توجل إذا ذكرت عدل الله وشدة حسابه وعقابه وتطمئن إذا ذكرت فضل الله ورحمته وكرمه وإحسانه (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم) اختلف العلماء فى تفسير طوبى فقال ابن عباس فرح لهم وقرة أعين وقال عكرمة نعمى لهم وقال قتادة حسنى لهم وفى رواية أخرى عنه إن هذه الكلمة عربية يقول الرجل للرجل طوبى لك أى أصبت خيرا وقال إبراهيم النخعى خير لهم وكرامة وقال الزجاج طوبى من الطيب وقيل تأويلها الحال المستطابة لهم وهو كل ما استطابه هؤلاء فى الجنة من بقاء بلا فناء وعز بلا ذل وغنى بلا فقر وصحة بلا سقم قال الأزهرى تقول طوبى لك وطوباك لحن لاتقوله العرب

فى تفسير طوبى ، روى عن ابن عباس رضى الله عنهما فرح لهم وقرة عين وقال عكرمة نعم مالهم وقال قتادة حسنى لهم وقال معمر عن قتادة هذه كلمة عربية يقول الرجل للرجل طوبى لك أى أصبت خيرا وقال إبراهيم خير لهم وكرامة قال الفراء أصله من الطيب والواو فيه لضمه الطاء وفيه لغتان تقول العرب طوباك وطوبى لك أى لهم الطيب (وحسن مآب) أى حسن المنقلب وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس طوبى اسم الجنة بالحبشية وقال الربيع هو البستان بلغة الهند وروى عن أبى أمامة وأبى هريرة وأبى الدرداء قالوا طوبى شجرة فى الجنة تظل الجنان كلها وقال عبيد بن عمير هى شجرة فى جنة عدن أصلها فى دار النبى صلى الله عليه وسلم وفى كل دار وغرفة غصن منها لم يخلق الله لونا ولا زهرة إلا وفيها منها إلا السواد ولم يخلق الله تعالى فاكهة ولا ثمرة إلا وفيها منها ينبع من أصلها عينان الكافور والسلسبيل وقال مقاتل كل ورقة منها تظل أمة عليها ملك يسبح الله عزوجل بأنواع التسبيح وروى عن أبى سعيد الخدرى «أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، اطوبى «قال شجرة فى الجنة ظلها مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها» وعن معاوية بن قرة عن أبيه يرفعه «طوبى شجرة غرسها الله تعالى بيده ونفخ فيها من روحه تنبت الحلى والحلل وإن أغصانها لترى من وراء سور الجنة» أخبرنا محمد ابن عبد الله بن أبى توبة أنا محمد بن أحمد بن الحارث أنا محمد بن يعقوب الكسائى أنا عبد الله بن محمود أنبأنا إبراهيم بن عبدالله الخلال ثنا عبدالله بن المبارك عن إسماعيل بن أبى خالد عن زياد مولى بنى مخزوم أنه سمع أباهريرة رضى الله عنه قال « إن فى الجنة لشجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة لا يقطعها اقرءوا إن شئتم وظل ممدود » فبلغ ذلك كعبا فقال صدق والذى أنزل التوراة على موسى عليه السلام والقرآن على محمد صلى الله عليه وسلم لو أن رجلا ركب حقه أو جذعة ثم دار بأصل تلك الشجرة ما بلغها حتى يسقط هرما إن الله تعالى غرسها بيده ونفخ فيها من روحه وإن أفنانها لمن وراء سور الجنة ما فى الجنة نهر إلا وهو يخرج من أصل تلك الشجرة وبهذا الاسناد عن عبد الله بن المبارك عن معمر عن الأشعث بن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبى هريرة قال فى الجنة شجرة يقال لها طوبى يقول الله عز وجل لها تفتقى لعبدى عما شاء فتفتق له عن فرس بسرجه ولجامه وهيئته كما شاء وتفتقت له عن الراحلة برحلها وزمامها

العرب وهو قول أكثر النحويين وقال سعيد بن جبير طوبى اسم الجنة بالحبشية وروى عن أبى أمامة وأبى هريرة وأبى الدرداء أن طوبى اسم شجرة فى الجنة تظلل الجنان كلها وقال عبيد بن عمير هى شجرة فى جنة عدن أصلها فى دار النبى صلى الله عليه وسلم وفى كل دار وغرفة فى الجنة منها غصن لم يخلق الله لونا ولا زهرة إلا وفيها منه إلا السواد ولم يخلق الله فاكهة ولا ثمرة إلا وفيها منها ينبع من أصلها عينان الكافور والسلسبيل وقال مقاتل كل ورقة منها تظل أمة عليها ملك يسبح الله بأنواع التسبيح وروى عن أبى سعيد الخدرى «أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طوبى فقال هى شجرة فى الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها» وعن معاوية بن قرة عن أبيه يرفعه قال «طوبى شجرة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تنبت الحلى والحلل وإن أغصانها لترى من وراء سور الجنة» هكذا ذكر البغوى هذين الحديثين بغير سند ، وروى بسنده موقوفا عن أبى هريرة قال «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة اقرءوا إن شئتم وظل ممدود» فبلغ ذلك كعب الأحبار فقال صدق والذى أنزل التوراة على موسى والقرآن على محمد لو أن رجلا ركب فرسا أو حقة أو جذعة ثم دار بأصل تلك الشجرة مابلغها حتى يسقط هرما إن الله غرسها بيده ونفخ فيها من روحه وإن أفنانها لمن وراء سور الجنة وما فى الجنة نهر إلا وهو يخرج من أصل تلك الشجرة فقال البغوى وبهذا الإسناد عن عبد الله بن المبارك عن الأشعث عن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبى هريرة قال «إن فى الجنة شجرة يقال لها طوبى يقول الله لها تفتقى لعبدى عما يشاء فتفتق له عن فرس مسرجة بلجامها وهيئتها كما يشاء وتفتق له عن الراحلة برحلها وزمامها وهيئتها كما يشاء وعن الثياب» (ق) عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لايقطعها» (ق) وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه أن النبى ﷺ قال «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع فى ظلها مائة عام مايقطعها» (ق) وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة» زاد البخارى فى روايته «واقرءوا إن شئتم وظل ممدود» . وقوله تعالى (وحسن مآب) يعنى ولهم حسن منقلب ومرجع ينقلبون ويرجعون إليه فى الآخرة وهى الجنة . قوله عز وجل

رهيئتها كما شاء وعن الثياب . قوله تعالى (كذلك أرسلناك فى أمة) أى كما أرسلنا الأنبياء إلى الأمم أرسلناك إلى هذه الأمة (قد خلت) مضت (من قبلها أمم لتتلو) لتقرأ (عليهم الذى أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن) قال، قتادة ومقاتل وابن جريج الآية مدنية نزلت فى صلح الحديبية وذلك « أن سهيل بن عمرو لما جاء إلى النبى ﷺ واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى اكتب بسم الله الرحمن الرحيم قالوا لانعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب اكتب كما كنت نكتب باسمك اللهم » فهذا معنى قوله وهم يكفرون بالرحمن والمعروف أن الآية مكية (٢٢) وسبب نزولها أن أبا جهل سمع النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى الحجر يدعو يا ألله يارحمن فرجع إلى المشركين فقال إن محمداً يدعو إلهين يدعو الله ويدعو إلها آخر يسمى الرحمن ولا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى » وروى الضحاك عن ابن عباس أنها نزلت فى كفار قريش حين قال لهم النبى ﷺ اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن قال الله تعالى (قل) لهم يامحمد إن الرحمن الذى أنكرتم معرفته (هو ربى لاإله إلا هو عليه توكلت) اعتمدت (وإليه متاب) أى توبتى ومرجعى . قوله (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) الآية نزلت فى نفر من مشركى مكة منهم أبو جهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمية الله جلسوا خلف الكعبة فأرسلوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأتاهم فقال له عبدالله بن أبى أمية إن سرك أن نتبعك فسير جبال مكة بالقرآن فأذهبها عنا حتى تنفسح فانها أرض ضيقة لمزارعنا واجعل لنا فيها عيونا وأنهارا لنغرس فيها الأشجار ونزرع ونتخذ البساتين فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود عليه السلام حيث سخر له الجبال تسبح معه أو سخر لنا الريح فنركبها إلى الشام لميرتنا وحوائجنا ونرجع فى يومنا فقد سخرت الريح لسليمان كما زعمت ولست بأهون على ربك من سليمان أو أحى لنا جدك قصيا أو من شئت من آبائنا وموتانا لنسأله عن أمرك أحق ماتقول أم باطل فان عيسى كان يحيى الموتى ولست بأهون على الله منه فأنزل الله عز وجل « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال » فأذهبت عن وجه الأرض

(كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم) يعنى كما أرسلناك يامحمد إلى هذه الأمة كذلك أرسلنا أنبياء قبلك إلى أمم قد خلت ومضت (لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك) يعنى لتقرأ على أمتك الذى أوحينا إليك من القرآن وشرائع الدين (وهم يكفرون بالرحمن) قال قتادة ومقاتل وابن جريج هذه الآية مدنية نزلت فى صلح الحديبية « وذلك أن سهيل بن عمرو لما جاء للصلح واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا لانعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب اكتب كما نكتب باسمك اللهم » فهذا معنى قوله وهم يكفرون بالرحمن يعنى أنهم ينكرونه ويجحدونه والمعروف أن الآية مكية . وسبب نزولها أن أبا جهل سمع النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى الحجر يدعو ويقول فى دعائه ياألله يارحمن فرجع أبو جهل إلى المشركين وقال إن محمدا يدعو إلهين يدعو الله ويدعو إلها آخر يسمى الرحمن ولا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى » وروى الضحاك عن ابن عباس أنها نزلت فى كفار قريش حين قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم « اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن » فقال الله تعالى (قل) أى قل يامحمد إن الرحمن الذى أنكرتم معرفته (هو ربى لاإله إلا هو عليه توكلت) يعنى عليه اعتمدت فى أمورى كلها (وإليه متاب) يعنى وإليه توبتى ورجوعى . قوله تعالى (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) الآية نزلت فى نفر من مشركى قريش منهم أبو جهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمية جلسوا خلف الكعبة وأرسلوا خلف النبى صلى الله عليه وسلم فأتاهم وقيل إنه مر بهم وهم جلوس فدعاهم إلى الله عز وجل فقال له عبد الله بن أبى أمية إن سرك أن نتبعك فسير جبال مكة بالقرآن فادفعها عنا حتى تتفتح فانها أرض ضيقة لمزارعنا واجعل لنا فيها أنهارا وعيونا لنغرس الأشجار ونزرع ونتخذ البساتين فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود حيث سخر له الجبال تسير معه أو سخر لنا الريح لنركبها إلى الشام لميرتنا وحوائجنا ونرجع فى يومنا كما سخرت لسليمان كما زعمت فلست بأهون على ربك من سليمان أو أحى لنا جدك قصيا أو من شئت من موتانا لنسأله عن أمرك أحق أو باطل فان عيسى كان يحيى الموتى ولست بأهون على

(أوقطعت به الأرض) أى شققت فجعلت أنهارا وعيونا (أو كلم به الموتى) واختلفوا فى جواب لو فقال قوم جوابه محذوف اكتفاء بمعرفة السامعين مراده وتقديره لكان هذا القرآن كقول الشاعر : فأقسم لو شئ آتانا رسوله سواك ولكن لم نجد لك مدفعا أراد لرددناه وهذا معنى قول قتادة قال لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم وقال الآخرون جواب لو مقدم وتقدير الكلام وهم يكفرون بالرحمن ولو أن قرآنا سيرت به الجبال كأنه قال لو سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى لكفروا بالرحمن ولم يؤمنوا لما سبق من علمنا فيهم كما قال : «ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله» ثم قال (بل لله الأمر جميعا) أى فى هذه الأشياء إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل (أفلم ييأس الذين آمنوا) قال أكثر المفسرين معناه أفلم يعلم قال الكلبى هى لغة النخع وقيل هى لغة هوازن يدل عليه قراءة ابن عباس أفلم يتبين الذين آمنوا وأنكر الفراء أن يكون ذلك بمعنى العلم وزعم أنه لم يسمع أحدا من العرب يقول يئست بمعنى علمت ولكن معنى العلم فيه مضمر وذلك أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سمعوا هذا من المشركين طمعوا فى أن يفعل الله ماسألوا فيؤمنوا فنزل أفلم ييأس الذين آمنوا يعنى الصحابة رضى الله عنهم أجمعين من إيمان هؤلاء أى لم ييأسوا علما وكل من علم شيئا يئس من خلافه يقول ألم ييئسهم العلم (أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا) من كفرهم وأعمالهم الخبيثة (قارعة) أى نازلة وداهية تقرعهم من أنواع البلاء

الله من عيسى فأنزل الله هذه الآية «ولو أن قرآنا سيرت به الجبال» فأذهبت عن وجه الأرض (أو قطعت به الأرض) يعنى شققت فجعلت أنهارا وعيونا (أو كلم به الموتى) فأحياها واختلفوا فى جواب لو فقال قوم جواب لو محذوف وإنما حذف اكتفاء بمعرفة السامع مراده وتقديره ولو أن قرآنا فعل به كذا وكذا لكان هذا القرآن فهو كقول الشاعر :

فأقسم لو شىء أتانا رسوله ... سواك ولكن لم نجد لك مدفعا

أراد لو شىء أتانا رسوله سواك لرددناه وهذا معنى قول قتادة فانه قال معناه لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم وقال آخرون جواب لو تقدم تقدير الكلام وهم يكفرون بالرحمن ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى لكفروا بالرحمن ولم يؤمنوا به لما سبق فى علمنا فيهم كما قال «ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا» ثم قال تعالى (بل لله الأمر جميعا) يعنى فى هذه الأشياء وفى غيرها إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل (أفلم ييأس الذين آمنوا) قال أكثر المفسرين معناه أفلم يعلم قال الكلبى هذه لغة النخع وقيل هى لغة هوازن واختلف أهل اللغة فى هذه اللفظة فقال الليث وأبو عبيد ألم ييأس ألم يعلم واستدلوا لهذه اللغة بقول الشاعر :

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونى ... ألم تيأسوا أنى ابن فارس زهدم

يعنى ألم تعلموا واستدلوا عليه أيضا بقول شاعر آخر :

ألم ييأس الأقوام أنى أنا ابنه ... وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا

يعنى ألم يعلم الأقوام قال قطرب يئس بمعنى علم لغة للعرب قالوا ووجه هذه اللغة أنه إنما وقع اليأس فى مكان العلم لأن علمك بالشىء ويقينك به ييئسك من غيره وقيل لم يرد أن اليأس فى موضع كلام العرب للعلم وإنما قصد أن يأس الذين آمنوا من ذلك يقتضى أن يحصل العلم بانتفائه فاذن معنى يأسهم يقتضى حصول العلم وقال الكسائى ماوجدت العرب تقول يئست بمعنى علمت قال وهذا الحرف فى القرآن من اليأس المعروف لامن العلم وذلك أن المشركين لما طالبوا رسول الله ﷺ بهذه الآيات أشرأب المسلمون لذلك وأرادوا أن يظهر لهم آية ليجتمعوا على الإيمان فقال الله تعالى أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء ويعلموا علما يقينا (أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) يعنى من غير ظهور آية وقال الزجاج القول عندى أن معناه أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء لأن الله لو يشاء لهدى الناس جميعا . وحاصله أن فى معنى الآية قولين : أحدهما أن يئس بمعنى علم . والقول الثانى أنه من اليأس المعروف وتقدير القولين ماتقدم وتمسك أهل السنة بقوله أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا على أن الله لم يشأ هداية جميع الخلائق (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا) يعنى من الكفر والأعمال الخبيثة (قارعة) أى نازلة وداهية تقرعهم بأنواع البلايا أحيانا مرة بالجدب ومرة بالسلب ومرة بالقتل والأسر وقال ابن عباس أراد بالقارعة السرايا التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها

أحيانا بالجدب وأحيانا بالسلب وأحيانا بالقتل والأسر وقال ابن عباس أراد بالقارعة السرايا التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثهم إليهم (أو تحل) يعني السرية أو القارعة (قريبا من دارهم) وقيل أو تحل أي تنزل أنت يا محمد بنفسك قريبا من ديارهم (حتى يأتي وعد الله) قيل يوم القيامة وقيل الفتح والنصر وظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه (إن الله لا يخلف الميعاد) وكان الكفار يسألون (٢٤) هذه الأشياء على سبيل الاستهزاء فأنزل الله تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم (ولقد استهزئ برسل من قبلك) كما استهزءوا بك (فأمليت للذين كفروا) أمهلتهم وأطلت لهم المدة ومنه الملوان وهما الليل والنهار (ثم أخذتهم) عاقبتهم في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار (فكيف كان عقاب) أي عقابي لهم (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) أي حافظها ورازقها وعالم بها ومجازيها بما عملت وجوابه محذوف تقديره كمن ليس بقائم بل عاجز عن نفسه (وجعلوا لله شركاء قل سموهم) بينوا أسماءهم وقيل صفوهم ثم انظروا هل هي أهل لأن تعبد (أم تنبئونه) أي أتخبرون الله (بما لا يعلم في الأرض) فإنه لا يعلم لنفسه شريكا ولا في الأرض إلها غيره (أم بظاهر) يعني أم تتعلقون بظاهر (من القول) مسموع وهو في الحقيقة باطل لا أصل له، وقيل بزائل من القول. قال الشاعر:

وعيرني الواشون أني أحبها وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

أي زائل (بل زين للذين كفروا مكرهم) كيدهم لأن وقال مجاهد شركهم وكذبهم على الله (وصدوا عن السبيل) أي صرفوا عن الدين قرأ أهل الكوفة ويعقوب وصدوا وفي حم المؤمن وصد بضم الصاد فيهما وقرأ الآخرون بالفتح لقوله تعالى إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله وقوله الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله (ومن يضلل الله) بخذلانه إياه (فما له من هاد لهم عذاب في الحياة الدنيا) بالقتل والأسر (ولعذاب الآخرة أشق)

إليهم (أو تحل) يعني السرايا أو البلية (قريبا من دارهم) وقيل معناه أو تحل أنت يا محمد قريبا من دارهم (حتى يأتي وعد الله) يعني النصر والفتح وظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه وقيل أراد بوعد الله يوم القيامة لأن الله يجمعهم فيه فيجازيهم بأعمالهم (إن الله لا يخلف الميعاد) والغرض منه تشجيع قلب النبي صلى الله عليه وسلم وإزالة الحزن عنه لعلمه بأن الله لا يخلف الميعاد. قوله عز وجل (ولقد استهزئ برسل من قبلك) وذلك أن كفار مكة إنما سألوا هذه الأشياء على سبيل الاستهزاء فأنزل الله هذه الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم والمعنى أنهم إنما طلبوا منك هذه الآيات على سبيل الاستهزاء وكذلك قد استهزئ برسل من قبلك (فأمليت للذين كفروا) يعني فأمهلتهم وأطلت لهم المدة (ثم أخذتهم) يعني بالعذاب بعد الإمهال فعذبتهم في الدنيا بالقحط والقتل والأسر وفي الآخرة بالنار (فكيف كان عقاب) يعني فكيف كان عقابي لهم (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) يعني أفمن هو حافظها ورازقها وعالم بها وبما عملت من خير وشر ويجازيها بما كسبت فيثيبها إن أحسنت ويعاقبها إن أساءت وجوابه محذوف وتقديره كمن ليس بقائم بل هو عاجز عن نفسه ومن كان عاجزا عن نفسه فهو عن غيره أعجز وهي الأصنام التي لا تضر ولا تنفع (وجعلوا لله شركاء) يعني وهو المستحق للعبادة لا هذه الأصنام التي جعلوها لله شركاء (قل سموهم) يعني له وقيل صفوهم بما يستحقون ثم انظروا هل هي أهل لأن تعبد (أم تنبئونه) يعني أم تخبرون الله (بما لا يعلم في الأرض) يعني أنه لا يعلم أن لنفسه شريكا من خلقه وكيف يكون المخلوق شريكا للخالق وهو العالم بما في السموات والأرض ولو كان لعلمه والمراد من ذلك نفي العلم بأن يكون له شريك (أم بظاهر من القول) يعني أنهم يتعلقون بظاهر من القول مسموع وهو في الحقيقة باطل لا أصل له وقيل معناه بل بظن من القول لا يعلمون حقيقته (بل زين للذين كفروا مكرهم) قال ابن عباس زين لهم الشيطان الكفر وإنما فسر المكر بالكفر لأن مكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم كفر منهم والمزين في الحقيقة هو الله تعالى لأنه هو الفاعل المختار على الإطلاق لا يقدر أحد أن يتصرف في الوجود إلا بإذنه فتزيين الشيطان إلقاء الوسوسة فقط ولا يقدر على إضلال أحد وهدايته إلا الله تعالى ويدل على هذا سياق الآية وهو قوله ومن يضلل الله فما له من هاد. وقوله (وصدوا عن السبيل) قرئ بضم الصاد ومعناه صرفوا عن سبيل الدين والرشد والهداية ومنعوا من ذلك والصاد المانع لهم هو الله تعالى وقرئ وصدوا بفتح الصاد ومعناه أنهم صدوا عن سبيل الله غيرهم أي عن الإيمان (ومن يضلل الله فما له من هاد) الوقف عليه بسكون الدال وحذف الياء في قراءة أكثر القراء (لهم عذاب في الحياة الدنيا) يعني بالقتل والأسر ونحو ذلك مما فيه غيظهم (ولعذاب الآخرة أشق) يعني أشد وأغلظ

لأن المشقة غلظ الأمر على النفس وشدته مما يكاد يصدع القلب من شدته فهو من الشق الذى هو الصدع (ومالهم من الله) يعنى من عذاب الله (من واق) يعنى من مانع يمنعهم من عذابه قوله تعالى (مثل الجنة التى وعد المتقون) أى صفة الجنة التى وعد المتقون (تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم) لاينقطع أبدا (وظلها) يعنى أنه دائم لاينقطع أبدا وليس فى الجنة شمس ولا قمر ولاظلمة بل ظل ممدود لاينقطع ولا يزول وفى الآية رد على جهم وأصحابه فانهم يقولون إن نعيم الجنة يفنى وينقطع وفى الآية دليل على أن حركات أهل الجنة لاتنتهى إلى سكون دائم كما يقول أبو الهذيل واستدل القاضى عبد الجبار المعتزلى بهذه الآية على أن الجنة لم تخلق بعد قال ووجه الدليل أنها لو كانت مخلوقة لوجب أن تفنى وينقطع أكلها لقوله تعالى «كل شىء هالك إلا وجهه» فوجب أن لاتكون الجنة مخلوقة لقوله أكلها دائم يعنى لاينقطع قال ولاينكر أن تكون فى السموات جنات كثيرة تتمتع بها الملائكة ومن يعد حيا من الأنبياء والشهداء وغيرهم على ماروى إلا أن الذى نذهب إليه أن جنة الخلد لم تخلق بعد. والجواب عن هذا أن حاصل دليلهم مركب من آيتين إحداهما قوله تعالى كل شىء هالك إلا وجهه والأخرى قوله أكلها دائم وظلها فاذا أدخلنا التخصيص على هذين العمومين سقط دليلهم فنخص هذين الدليلين بالدلائل الدالة على أن الجنة مخلوقة منها قوله تعالى وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين. وقوله تعالى (تلك عقبى الذين اتقوا) يعنى أن عاقبة أهل التقوى هى الجنة (وعقبى الكافرين النار) يعنى فى الآخرة. قوله عز وجل (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك) فى المراد بالكتاب هنا قولان: أحدهما أنه القرآن والذين أتوه المسلمون وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد أنهم يفرحون بما يتجدد من الأحكام والتوحيد والنبوة والحشر بعد الموت بتجدد نزول القرآن (ومن الأحزاب) يعنى الجماعات الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكفار واليهود والنصارى (من ينكر بعضه) وهذا قول الحسن وقتادة. فان قلت إن الأحزاب من المشركين وغيرهم من أهل الكتاب ينكرون القرآن كله فكيف قال ومن الأحزاب من ينكر بعضه. قلت إن الأحزاب لاينكرون القرآن بجملته لأنه قد ورد فيه آيات دالات على توحيد الله وإثبات قدرته وعلمه وحكمته وهم لاينكرون ذلك أبدا والقول الثانى أن المراد بالكتاب التوراة والإنجيل والمراد بأهله الذين أسلموا من اليهود والنصارى مثل عبد الله بن سلام وأصحابه ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلا أربعون من نجران وثلاثون من الحبشة وعشرة ممن سواهم فرحوا بالقرآن لكونهم آمنوا به وصدقوه ومن الأحزاب يعنى بقية أهل الكتاب من اليهود والنصارى وسائر المشركين من ينكر بعضه وقيل كان ذكر الرحمن قليلا فى القرآن فى الابتداء فلما أسلم عبدالله بن سلام ومن معه من أهل الكتاب من اليهود والنصارى ساءهم قلة ذكر الرحمن فى القرآن مع كثرة ذكره فى التوراة فلما كرر الله تعالى ذكر لفظة الرحمن فى القرآن فرحوا بذلك فأنزل الله تعالى والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب يعنى مشركى مكة من ينكر

أشد (ومالهم من الله من واق) مانع يمنعهم من العذاب. قوله عز وجل (مثل الجنة التى وعد المتقون) أي صفة الجنة كقوله تعالى «ولله المثل الأعلى» أى الصفة العليا (تجرى من تحتها الأنهار) أى صفة الجنة التى وعد المتقون أن الأنهار تجرى من تحتها وقيل مثل صلة مجازها الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار (أكلها دائم) أى لاينقطع ثمرها ونعيمها (وظلها) أى ظلها ظليل لايزول وهو رد على الجهمية حيث قالوا إن نعيم الجنة يفنى (تلك عقبى) أى عاقبة (الذين اتقوا) يعنى الجنة (وعقبى الكافرين النار) قوله تعالى (والذين آتيناهم الكتاب) يعنى القرآن وهم أصحاب محمد ﷺ (يفرحون بما أنزل إليك) من القرآن (ومن الأحزاب) يعنى الكفار الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم اليهود والنصارى (من ينكر بعضه) هذا قول مجاهد وقتادة وقال الآخرون كان ذكر الرحمن قليلا فى القرآن فى الابتداء فلما أسلم عبدالله ابن سلام وأصحابه ساءهم قلة ذكره فى القرآن مع كثرة ذكره فى التوراة فلما كرر الله ذكره فى القرآن فرحوا به فأنزل الله سبحانه وتعالى والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه يعنى مشركى مكة حين كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتاب الصلح: بسم الله الرحمن الرحيم قالوا مانعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب فأنزل الله عز وجل «وهم بذكر الرحمن

(قل) يامحمد (إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مآب) أى مرجعى (وكذلك أنزلناه حكما عربيا) يقول كما أنزلنا إليك الكتاب يامحمد فأنكره الأحزاب كذلك أنزلنا إليك الحكم والدين عربيا نسب إلى العرب لأنه نزل بلغتهم فكذب به الأحزاب وقيل نظم الآية كما أنزل الكتب على الرسل بلغاتهم فكذلك أنزلنا عليك الكتاب حكما عربيا (ولئن اتبعت أهواءهم) فى الملة وقيل فى القبلة (بعد ما جاءك من العلم (مالك من الله من ولى ولا واق) يعنى من ناصر ولا حافظ قوله تعالى (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك) روى أن اليهود وقيل إن المشركين قالوا إن هذا الرجل ليست له همة إلا فى النساء فأنزل الله تعالى ولقد أرسلنا رسلا من قبلك (وجعلنا لهم أزواجا وذرية) وما جعلناهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون (وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا باذن الله) هذا جواب عبد الله بن أبى أمية ثم قال (لكل أجل كتاب) يقول لكل أمر قضاه

بعضه وذلك لما كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب الصلح يوم الحديبية كتب فيه بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا مانعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب فأنزل الله «وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى» وإنما قال ومن الأحزاب من ينكر بعضه لأنهم كانوا لاينكرون الله وينكرون الرحمن (قل) أى قل يامحمد (إنما أمرت أن أعبد الله) يعنى وحده (ولا أشرك به) شيئا (إليه أدعو) أى إلى الله وإلى الإيمان به أدعو الناس (وإليه مآب) يعنى مرجعى يوم القيامة (وكذلك أنزلناه حكما عربيا) أى كما أنزلنا الكتب على الأنبياء بلغاتهم ولسانهم أنزلنا إليك يامحمد هذا الكتاب وهو القرآن عربيا بلسانك ولسان قومك . وإنما سمى القرآن حكما لأن فيه جميع التكاليف والأحكام والحلال والحرام والنقض والإبرام فلما كان القرآن سببا للحكم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة ، وقيل إن الله لما حكم على جميع الخلق بقبول القرآن والعمل بمقتضاه سماه حكما لذلك المعنى (ولئن اتبعت أهواءهم) قال جمهور المفسرين إن المشركين دعوا رسول الله ﷺ إلى ملة آبائهم فتوعده الله على اتباع أهوائهم فى ذلك وقال ابن السائب المراد به متابعة آبائهم فى الصلاة لبيت المقدس (بعد ماجاءك من العلم) يعنى بأنك على الحق وأن قبلتك الكعبة هى الحق وقيل ظاهر الخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره وقيل هو حث للنبى صلى الله عليه وسلم على تبليغ الرسالة والقيام بما أمر به ويتضمن ذلك تحذير غيره من المكلفين لأن من هو أرفع منزلة وأعظم قدرا وأعلى مرتبة إذا حذر كان غيره ممن هو دونه بطريق الأولى (مالك من الله من ولى ولا واق) يعنى من ناصر ولا حافظ قوله تعالى (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك) روى أن اليهود وقيل المشركين قالوا إن هذا الرجل يعنون النبى صلى الله عليه وسلم ليس له همة إلا فى النساء فعابوا عليه ذلك وقالوا لو كان كما يزعم أنه رسول الله لكان مشتغلا بالزهد وترك الدنيا فأجاب الله عز وجل عن هذه الشبهة وعما عابوه به بقوله عز وجل ولقد أرسلنا رسلا من قبلك يامحمد (وجعلنا لهم أزواجا وذرية) فانه قد كان لسليمان عليه الصلاة والسلام ثلثمائة امرأة حرة وسبعمائة امرأة سرية فلم يقدح ذلك فى نبوته وكان لأبيه داود عليه الصلاة والسلام مائة امرأة فلم يقدح ذلك أيضا فى نبوته فكيف يعيبون عليك ذلك ويجعلونه قادحا فى نبوتك والمعنى ولقد أرسلنا رسلا من قبلك يأكلون ويشربون وينكحون وما جعلناهم ملائكة لايأكلون ولايشربون ولاينكحون (وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا باذن الله) هذا جواب لعبد الله بن أبى أمية وغيره من المشركين الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات واقترحوا عليه أن يريهم المعجزات، وتقدير هذا الجواب أن المعجزة الواحدة كافية فى إثبات النبوة وقد أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعجزات كثيرة يعجز عن مثلها البشر فمالهم أن يقترحوا عليه شيئا وإتيان الرسول بالمعجزات ليس إليه بل هو مفوض إلى مشيئة الله عز وجل فان شاء أظهرها وإن شاء لم يظهرها (لكل أجل كتاب) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم بنزول العذاب عليهم فلما استبطئوا ذلك وقد كانوا يستعجلون نزوله أخبر الله عز وجل أن لكل قضاء قضاه كتابا قد كتبه فيه . ووقتا يقع فيه لايتقدم ولا يتأخر . والمعنى : أن لكل أجل أجله الله كتابا قد أثبته فيه . وقيل فى الآية تقديم وتأخير تقديره لكل كتاب أجل ومدة والمعنى أن الكتب المنزلة لكل كتاب منها وقت ينزل فيه

(يمحو

الله كتاب قد كتبه فيه ووقت يقع فيه وقيل لكل أجل أجله الله كتاب أثبت فيه وقيل فيه تقديم وتأخير تقديره اى لكل كتاب اجل
ومدة أى الكتب المنزلة لكل واحد منها وقت ينزل فيه (يمحو الله مايشاء ويثبت) (٢٧)

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب ويثبت بالتخفيف وقرأ الآخرون بالتشديد واختلفوا فى معنى الآية فقال سعيد بن جبير وقتادة يمحو الله مايشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت مايشاء منها فلا ينسخه وقال ابن عباس يمحو الله مايشاء ويثبت إلا الرزق والأجل والسعادة والشقاوة . وروينا عن حذيفة بن أسيد عن النبى ﷺ « يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة ، فيقول يارب أشقى أو سعيد فيكتبان فيقول أى رب أذكر أم أنثى فيكتبان ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص » وعن عمر وابن مسعود أنهما قالا يمحو السعادة والشقاوة أيضا ويمحو الرزق والأجل ويثبت مايشاء روى عن عمر أنه كان يطوف بالبيت وهو يبكى ويقول اللهم إن كنت كتبتنى فى أهل السعادة فأثبتنى فيها وإن كنت كتبتنى فى أهل الشقاوة
فامحنى وأثبتنى فى أهل السعادة والمغفرة فإنك تمحو ماتشاء وتثبت وعندك أم الكتاب ومثله عن ابن مسعود ، وفى بعض الآثار أن الرجل يكون قد بقى من عمره ثلاثون سنة فيقطع رحمه فترد إلى ثلاثة أيام والرجل يكون قد بقى من عمره ثلاثة أيام فيصل رحمه

(يمحو الله مايشاء ويثبت) وذلك أنهم لما اعترضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا إن محمدا يأمر أصحابه بأمر اليوم ثم يأمرهم بخلافه غدا وما سبب ذلك إلا أنه يقوله من تلقاء نفسه أجاب الله عن هذا الاعتراض بقوله يمحو الله مايشاء ويثبت قال سعيد بن جبير وقتادة يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت مايشاء من ذلك فلا ينسخه ولا يبدله ، وقال ابن عباس يمحو الله مايشاء ويثبت إلا الرزق والأجل والسعادة والشقاوة ويدل على صحة هذا التأويل ماروى عن حذيفة بن أسيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال يارب أذكر أم أنثى فيقضى ربك مايشاء فيكتب الملك ثم يقول يارب أجله فيقول ربك مايشاء ويكتب الملك ثم يقول الملك يارب رزقه فيقول ربك مايشاء ويكتب الملك ثم يخرج الملك الصحيفة فلا يزيد على أمر ولا ينقص » أخرجه مسلم (ق) عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق « إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه نطفة أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وشقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح فو الذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » . فإن قلت هذا الحديث والذى قبله صريح بأن الآجال والأرزاق مقدرة وكذا السعادة والشقاوة لاتتغير عما قدره الله وعلمه فى الأزل فيستحيل زيادتها ونقصانها وكذلك يستحيل أن ينقلب السعيد شقيا أو الشقى سعيدا وقد صح فى فضل صلة الرحم أن صلة الرحم تزيد فى العمر فكيف الجمع بين هذه الأحاديث وبين قوله تعالى يمحو الله مايشاء ويثبت . قلت قد تكرر بالدلائل القطعية أن الله عالم بالآجال والأرزاق وغيرها وحقيقة العلم معرفة المعلوم على ماهو عليه فإذا علم الله أن زيدا يموت فى وقت معين استحال أن يموت قبله أو بعده وهو قوله تعالى « فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون » فدل ذلك على أن الآجال لاتزيد ولا تنقص . وأجاب العلماء عما ورد فى الحديث فى فضل صلة الرحم من أنها تزيد فى العمر بأجوبة الصحيح منها أن هذه الزيادة تكون بالبركة فى عمره بالتوفيق للطاعات وعمارة أوقاته بما ينفعه فى الآخرة وصيانتها عن الضياع وغير ذلك ، والجواب الثانى منها أنها بالنسبة إلى مايظهر للملائكة فى اللوح المحفوظ أن عمر زيد مثلا ستون سنة إلا أن يصل رحمه فإن وصلها زيد له أربعون سنة وقد علم الله فى الأزل ماسيقع من ذلك وهو معنى قوله تعالى يمحو الله مايشاء ويثبت أى بالنسبة لما يظهر للمخلوقين من تصور الزيادة . وأما انقلاب الشقى سعيدا أو السعيد شقيا فيتصور فى الظاهر أيضا لأن الكافر قد يسلم فينقلب من الشقاوة إلى السعادة وكذا العاصى ونحوه وقد يتوب فينقلب من الشقاوة إلى السعادة وقد يرتد المسلم والعياذ بالله تعالى فيموت على ردته فينقلب من السعادة إلى الشقاوة ، والأصل فى هذا الاعتبار بالخاتمة عند

فتمد إلى ثلاثين سنة . أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أبو منصور السمعانى ثنا أبو جعفر الريانى ثنا حميد بن زنجويه ثنا عبد الله ابن صالح حدثنى الليث بن سعد حدثنى زياد بن محمد الأنصارى عن محمد بن كعب القرظى عن فضالة بن عبيد عن أبى الدرداء أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ينزل الله عز وجل فى آخر ثلاث ساعات يبقين من الليل فينظر فى الساعة الأولى منهن فى أم الكتاب الذى لاينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت وقيل معنى الآية أن الحفظة يكتبون جميع أعمال بنى آدم وأقوالهم فيمحو الله من ديوان الحفظة ماليس فيه ثواب ولا عقاب مثل قوله أكلت شربت دخلت خرجت ونحوها من كلام هو صادق فيه ويثبت مافيه ثواب وعقاب هذا قول الضحاك والكلبى وقال الكلبى يكتب القول كله حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شئ ليس فيه ثواب ولا عقاب وقال عطية عن ابن عباس هو الرجل يعمل بطاعة الله عز وجل ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة فهو الذى يمحو والذى يثبت : الرجل يعمل بطاعة الله فيموت وهو فى طاعة الله عز وجل فهو الذى يثبت وقال الحسن يمحو الله ما يشاء أى من جاء أجله يذهب به ويثبت من لم يجئ أجله إلى يوم أجله وعن سعيد بن جبير قال يمحو الله مايشاء من ذنوب العباد فيغفرها ويثبت مايشاء فلا يغفرها . وقال عكرمة يمحو الله مايشاء من

الموت وما يختم الله به له وهو المراد من علم الله الأزلى الذى لايتغير ولا يتبدل والله أعلم . وأصل المحو إذهاب أثر الكتابة وضده الإثبات فمن العلماء من حمل الآية على ظاهرها فجعلها عامة فى كل شئ يقتضيه ظاهر اللفظ فيزيد الله مايشاء فى الرزق والأجل وكذا القول فى السعادة والشقاوة والإيمان بالله والكفر ونقل نحو هذا عن عمر وابن مسعود فانهما قالا يمحو السعادة والشقاوة ويمحو الرزق والأجل ويثبت مايشاء . وروى عن عمر أنه كان يطوف بالبيت وهو يبكى ويقول اللهم إن كنت كتبتنى من أهل السعادة فأثبتنى فيها وإن كنت كتبتنى من أهل الشقاوة فامحنى منها وأثبتنى فى أهل السعادة والمغفرة فانك تمحو ماتشاء وتثبت وعندك أم الكتاب وروى مثله عن ابن مسعود وقد ورد فى بعض الآثار «أن الرجل يكون قد بقى من عمره ثلاثة أيام فيصل رحمه فيمد إلى ثلاثين سنة» هكذا ذكره البغوى بغير سند وروى بسنده عن أبى الدرداء قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ينزل الله تبارك وتعالى فى ثلاث ساعات بقين من الليل فينظر فى الساعة الأولى منهن فى الكتاب الذى لاينظر فيه أحد غيره فيمحو مايشاء ويثبت» ومن العلماء من حمل معنى الآية على الخصوص فى بعض الأشياء دون بعض فقال المراد بالمحو والإثبات نسخ الحكم المتقدم وإثبات حكم آخر عوضا عن الحكم المتقدم، وقيل إن الحفظة يكتبون جميع أعمال بنى آدم وأقوالهم فيمحو الله مايشاء من ديوان الحفظة ماليس فيه ثواب ولا عقاب مثل قول القائل أكلت، شربت، دخلت، خرجت، ونحو ذلك من الكلام وهو صادق فيه ويثبت مافيه ثواب وعقاب وهذا قول الضحاك . وقال الكلبى يكتب القول كله حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه شئ ليس فيه ثواب ولا عقاب وقال ابن عباس هو الرجل يعمل بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلاله فهو الذى يمحو والذى يثبت هو الرجل يعمل بطاعة الله ثم يموت وهو فى طاعته فهو الذى يثبت ، وقال الحسن يمحو الله مايشاء يعنى من جاء أجله فيذهبه ويثبت من لم يجئ أجله وقال سعيد بن جبير يمحو الله مايشاء من ذنوب عباده فيغفرها ويثبت مايشاء منها فلا يغفرها . وقال عكرمة يمحو الله مايشاء من الذنوب بالتوبة ويثبت بدل الذنوب حسنات . وقال السدى يمحو الله مايشاء يعنى القمر ويثبت الشمس وقال الربيع هذا فى الأرواح يقبضها الله عند النوم فمن أراد موته محاه ، وأمسكه ومن أراد بقاءه أثبته ورده إلى صاحبه وقيل إن الله يثبت فى أول كل سنة حكمها فاذا مضت السنة محاه وأثبت حكما آخر للسنة المستقبلة وقيل يمحو الله الدنيا ويثبت الآخرة وقيل هو فى المحن والمصائب فهى مثبتة فى الكتاب ثم يمحوها بالدعاء والصدقة وقيل إن الله يمحو مايشاء ويثبت مايشاء لااعتراض لأحد عليه يفعل مايشاء ويحكم مايريد . فان قلت مذهب أهل السنة أن المقادير سابقة وقد جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة فكيف يستقيم مع هذا المحو والإثبات . قلت المحو والإثبات مما جف به القلم وسبق به القدر فلا يمحو شيئا ولا يثبت شيئا إلا ماسبق به علمه فى الأزل وعليه يترتب القضاء والقدر :

(مسئلة) استدلت الرافضة على مذهبهم فى البداء بهذه الآية قالوا إن البداء جائز على الله وهو أن يعتقد شيئا ثم يظهر له خلاف مااعتقده وتمسكوا بقوله يمحو الله مايشاء ويثبت والجواب عن هذه المسئلة أن هذا مذهب باطل ظاهر الفساد لأن علم الله قديم أزلى وهو من لوازم ذاته المخصوصة

الذنوب بالتوبة ويثبت بدل الذنوب حسنات كما قال الله تعالى «فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات» وقال السدي يمحو الله مايشاء
يعني القمر ويثبت يعني الشمس بيانه قوله تعالى «فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة» وقال الربيع هذا
في الأرواح يقبضها الله عند النوم فمن أراد موته محاه فأمسكه ومن أراد بقاءه أثبته ورده إلى صاحبه بيانه ، قوله عز وجل «الله يتوفى الأنفس حين موتها» الآية (وعنده أم الكتاب) أي أصل الكتاب وهو اللوح المحفوظ الذي لا يبدل ولا يغير وقال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما هما كتابان كتاب سوى أم الكتاب يمحو منه مايشاء ويثبت وأم الكتاب الذي لايغير منه شيء وعن عطاء عن ابن عباس قال «إن لله تعالى لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء لها دفتان من ياقوت لله في كل يوم فيه ثلثمائة وستون لحظة يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب» وسأل ابن عباس كعبا عن أم الكتاب فقال علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون (وإما نرينك بعض الذي نعدهم) من العذاب قبل وفاتك (أو نتوفينك) قبل ذلك (فإنما عليك البلاغ) ليس عليك إلا ذلك
(وعلينا الحساب) الجزاء يوم القيامة قوله تعالى (أو لم يروا) يعني أهل مكة الذين يسألون محمدا صلى الله عليه وسلم الآيات (أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها) أكثر المفسرين على أن المراد منه فتح ديار الشرك فان مازاد في ديار الإسلام فقد

المخصوصة وما كان كذلك كان دخول التغيير والتبديل فيه محالا كذا ذكره الإمام فخر الدين الرازي في تفسير هذه الآية . وقوله تعالى (وعنده أم الكتاب) يعني أصل الكتاب وهو اللوح المحفوظ الذي لايغير ولا يبدل وسمي اللوح المحفوظ أم الكتاب لأن جميع الأشياء مثبتة فيه ومنه تنسخ الكتب المنزلة وقيل إن العلوم كلها تنسب إليه وتتولد منه قال ابن عباس هما كتابان كتاب يمحو الله منه مايشاء ويثبت مايشاء وأم الكتاب الذي لايغير شيء منها وروى عطية عن ابن عباس قال إن لله لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء له دفتان من ياقوتة لله فيه كل يوم ثلثمائة وستون لحظة يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وسأل ابن عباس كعبا عن أم الكتاب فقال علم الله ماهو خالق وما خلقه وما هم عاملون (وإما نرينك) يعني يامحمد (بعض الذين نعدهم) يعني من العذاب (أو نتوفينك) يعني قبل أن نريك ذلك (فإنما عليك البلاغ) يعني ليس عليك إلا تبليغ الرسالة إليهم والبلاغ اسم أقيم مقام التبليغ (وعلينا الحساب) يعني وعلينا أن نحاسبهم يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم . قوله عز وجل (أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها) يعني أو لم ير كفار مكة الذين سألوا محمدا صلى الله عليه وسلم الآيات أنا نأتي الأرض يعني أرض الشرك ننقصها من أطرافها قال أكثر المفسرين المراد منه فتح دار الشرك فان مازاد في دار الإسلام فقد نقص في دار الشرك والمعنى أو يروا أنا نأتي الأرض فنفتحها لمحمد صلى الله عليه وسلم أرضا بعد أرض حوالي أراضيهم أفلا يعتبرون فيتعظون وهذا قول ابن عباس وقتادة وجماعة من المفسرين وذلك أن المسلمين إذا استولوا على بلاد الكفار قهرا وتخريبا كان ذلك نقصانا في ديارهم وزيادة في ديار المسلمين وقوتهم وكان ذلك من أقوى الدلائل على أن الله تعالى ينصر عبده ويعز جنده ويظهر دينه وينجز له ماوعده وقيل هو خراب الأرض والمعنى أو لم يروا أنا نأتي الأرض فنخربها ونهلك أهلها أفلا يخافون أن نفعل بهم مثل ذلك ، وقال مجاهد هو خراب الأرض وقبض أهلها وعن عكرمة والشعبي نحوه وهذا القول قريب من الأول وقال عطاء وجماعة من المفسرين نقصانها موت العلماء وذهاب الفقهاء (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن الله لايقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس وفي رواية من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» قال الحسن قال عبد الله بن مسعود موت العالم ثلمة في الإسلام لايسدها شيء مااختلف الليل والنهار ، وقال عبد الله أيضا عليكم بالعلم قبل أن يقبض وقبضه ذهاب أهله ، وقال سليمان لايزال الناس بخير مابقي الأول حتى يتعلم الآخر فاذا هلك الأول ولم يتعلم الآخر هلك الناس وقيل لسعيد بن جبير ماعلامة هلاك الناس قال هلاك العلماء فعلى هذا القول فالمراد بالأطراف العلماء والأشراف من الناس حكى الجوهري عن ثعلب قال الأطراف الأشراف واستدل الواحدي لهذه اللغة بقول الفرزدق :

واسأل بنا وبكم إذا وردت منى ... أطراف كل قبيلة من يتبع

قال يريد أشراف كل قبيلة قال الواحدي والتفسير على القول الأول أولى لأن هذا وإن

نقص من ديار الشرك يقول أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها فنفتحها لمحمد أرضا بعد أرض حوالى ارضهم أفلا يعتبرون هذا قول ابن عباس وقتادة وجماعة وقال قوم هو خراب الأرض معناه أو لم يروا أنا نأتى الأرض فنخربها ونهلك أهلها أفلا يخافون أن نفعل بهم ذلك ، وقال مجاهد هو خراب الأرض وقبض أهلها وعن عكرمة قال قبض الناس وعن الشعبى مثله وقال عطاء وجماعة نقصانها موت العلماء وذهاب الفقهاء . أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا إسماعيل بن أبى أويس حدثنا مالك عن هشام عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله لايقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » وقال الحسن قال عبد الله بن مسعود موت العالم ثلمة فى الإسلام لايسدها شئ مااختلف الليل والنهار وقال ابن مسعود رضى الله عنه عليكم بالعلم قبل أن يقبض وقبضه ذهاب أهله وقال على رضى الله عنه إنما مثل الفقهاء كمثل الأكف إذا قطعت كف لم تعد وقال سليمان لايزال الناس بخير مابقى الأول حتى يتعلم الآخر فاذا هلك الأول قبل أن يتعلم الآخر هلك الناس وقيل لسعيد بن جبير ماعلامة هلاك الناس قال هلاك علمائهم (والله يحكم لامعقب لحكمه) لاراد لقضائه ولا ناقض لحكمه (وهو سريع الحساب وقد مكر الذين من قبلهم) يعنى من قبل مشركى مكة ، والمكر إيصال المكروه إلى الإنسان من حيث لايشعر (فلله المكر جميعا) أى عند الله جزاء مكرهم وقيل إن الله خالق مكرهم جميعا بيده الخير والشر وإليه النفع والضر ، فلايضر مكر أحد أحدا إلا باذنه (يعلم ماتكسب كل نفس وسيعلم الكفار) قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو الكافر على التوحيد وقرأ الآخرون الكفار على الجمع (لمن عقبى الدار) أى عاقبة الدار الآخرة حين يدخلون النار

صح فلا يليق بهذا الموضع قال الإمام فخر الدين الرازى ويمكن أن يقال أيضا إن هذا الوجه لايليق بهذا الموضع وتقديره أن يقال أو لم يروا أن كل مايحدث فى الدنيا من الاختلاف خراب بعد عمارة وموت بعد حياة وذل بعد عز ونقص بعد كمال وإذا كانت هذه التغييرات مشاهدة محسوسة فما الذى يؤمنهم أن يقلب الله الأمر على هؤلاء الكفرة فيجعلهم ذليلين بعد ما كانوا عزيزين ومقهورين بعد أن كانوا قاهرين وعلى هذا الوجه أيضا يجوز إيصال الكلام بما قبله . وقوله تعالى (والله يحكم لامعقب لحكمه) يعنى لاراد لحكمه ولاناقض لقضائه والمعقب هو الذى يعقب غيره بالرد والإبطال ومنه قيل لصاحب الحق معقب لأنه يعقب غريمه بالاقتضاء والطلب والمعنى والله يحكم نافذا حكمه خاليا من المدافع والمعارض والمنازع لايتعقب حكمه أحد غيره بتغيير ولانقض (وهو سريع الحساب) قال ابن عباس يريد سريع الانتقام ممن حاسبه للمجازاة بالخير والشر فمجازاة الكفار بالانتقام منهم ومجازاة المؤمنين بايصال الثواب إليهم وقد تقدم بسط الكلام فى معنى سريع الحساب قبل هذا (وقد مكر الذين من قبلهم) يعنى من قبل مشركى مكة من الأمم الماضية الذين مكروا بأنبيائهم والمكر إيصال المكروه إلى الإنسان من حيث لايشعر مثل مامكر نمرود بابراهيم وفرعون بموسى واليهود بعيسى (فلله المكر جميعا) يعنى عند الله جزاء مكرهم وقال الواحدى يعنى جميع مكر الماكرين له ومنه أى هو من خلقه وإرادته فالمكر جميعا مخلوق له بيده الخير والشر وإليه النفع والضر والمعنى أن المكر لايضر إلا باذنه وإرادته وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وأمان له من مكرهم كأنه قيل قد فعل من كان قبلهم من الكفار مثل فعلهم وصنعوا مثل صنيعهم فلم يضروا إلا من أراد الله ضره وإذا كان الأمر كذلك وجب أن لايكون الخوف إلا من الله لامن أحد من المخلوقين (يعلم ماتكسب كل نفس) يعنى أن جميع اكتساب العباد وتأثيراتها معلومة لله هو خالقها أو خلاف المعلوم ممتنع الوقوع وإذا كان كذلك فكل ماعلم وقوعه فهو واجب الوقوع وكل ماعلم عدمه كان ممتنع الوقوع وإذا كان كذلك فلا قدرة للعبد على الفعل والترك فكان الكل من الله ولا يحصل ضررا إلا باذنه وإرادته وفيه وعيد للكفار الماكرين (وسيعلم الكافر) على التوحيد وقرئ وسيعلم الكفار على الجمع قال ابن عباس يعنى أبا جهل وقيل أراد المستهزئين وهم خمسة نفر من كفار مكة (لمن عقبى الدار) والمعنى أنهم وإن كانوا جهالا بالعواقب فسيعلمون أن العاقبة الحميدة للمؤمنين ولهم العاقبة المذمومة فى الآخرة

ويدخل المؤمنون الجنة (ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم) أى رسول إليكم (ومن عنده علم الكتاب) يريد مؤمنى أهل الكتاب يشهدون أيضا على ذلك قال قتادة هو عبد الله بن سلام وأنكر الشعبي هذا ، وقال السورة مكية وعبد الله ابن سلام أسلم بالمدينة وقال أبو بشر قلت لسعيد بن جبير ومن عنده علم الكتاب أهو عبد الله بن سلام فقال وكيف يكون عبد الله بن سلام وهذه السورة مكية ، وقال الحسن ومجاهد ومن عنده علم الكتاب هو الله عز وجل يدل عليه قراءة عبد الله ابن عباس ومن عنده بكسر الميم والدال أى من عند الله عز وجل وقرأ الحسن وسعيد بن جبير ومن عنده بكسر الميم والدال علم الكتاب على الفعل المجهول دليل هذه القراءة « وعلمناه من لدنا » علما ، وقوله « الرحمن علم القرآن » .

(سورة إبراهيم عليه السلام)

مكية وهى إحدى وخمسون آية إلا آيتين من قوله تعالى « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا » إلى قوله « فإن مصيركم إلى النار » .

فى الآخرة حين يدخلون النار ويدخل المؤمنون الجنة قوله تعالى (ويقول الذين كفروا لست مرسلا) لما أنكر الكفار كون محمد رسولا من عند الله أمره الله بقوله (قل) أى قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين أنكروا نبوتك (كفى بالله شهيدا بينى وبينكم) المراد بشهادة الله على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ما أظهر على يديه من المعجزات الباهرات والآيات القاهرات الدالة على صدقه وكونه نبيا مرسلا من عند الله (ومن عنده علم الكتاب) يعنى ومن عنده علم الكتاب أيضا يشهد على نبوتك يا محمد وصحتها . واختلفوا فى الذى عنده علم الكتاب من هو فروى العوفى عن ابن عباس أنهم علماء اليهود والنصارى والمعنى أن كل من كان عالما من اليهود بالتوراة ومن النصارى بالإنجيل علم أن محمدا صلى الله عليه وسلم مرسل من الله لما يجد من الدلائل الدالة على نبوته فيهما شهد بذلك من شهد به وأنكره من أنكره منهم ، وقيل إنهم مؤمنوا أهل الكتاب يشهدون أيضا على نبوته قال قتادة هو عبد الله بن سلام وأنكر الشعبى هذا وقال هذه السورة مكية وعبد الله بن سلام أسلم بالمدينة المنورة وقال يونس لسعيد بن جبير ومن عنده علم الكتاب أهو عبد الله بن سلام فقال كيف يكون عبد الله بن سلام وهذه السورة مكية وقال الحسن ومجاهد ومن عنده علم الكتاب هو الله تعالى وعلى هذا القول يكون المعنى كفى بالذى يستحق العبادة وبالذى لا يعلم علم ما فى اللوح المحفوظ إلا هو شهيدا بينى وبينكم قال الزجاج الأشبه أن الله لا يشهد على صحة حكمه لغيره وهذا قول مشكل لأن عطف الصفة على الموصوف وإن كان جائزا إلا أنه خلاف الأصل فلا يقال شهد بهذا زيد والفقيه بل يقال شهد بهذا زيد الفقيه لكن يشهد لصحة هذا القول قراءة من قرأ ومن عنده علم الكتاب بكسر الميم والدال وهى قراءة ابن عباس وغيره على البناء للمفعول والمعنى ومن عند الله علم الكتاب ودليل هذه القراءة قوله «وعلمناه من لدنا علما» وقيل معناه إن من علم أن القرآن الذى جئتكم به معجز ظاهر وبرهان باهر لما فيه من الفصاحة والبلاغة والأخبار عن الغيوب وعن الأمم الماضية فمن علم بهذه الصفة كان شهيدا بينى وبينكم والله أعلم بمراده وأسرار كتابه .

(تفسير سورة إبراهيم ﷺ وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام)

هى مكية سوى آيتين وهما قوله سبحانه وتعالى « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا » إلى آخر الآيتين وهى إحدى وقيل اثنتان وخمسون آية وثمانمائة وإحدى وستون كلمة وثلاثة آلاف وأربعمائة وأربعة وثلاثون حرفا .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (الر كتاب أنزلناه إليك) يعنى هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد والكتاب هو القرآن المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) يعنى بهذا القرآن والمراد من الظلمات الكفر والضلالة والجهل والمراد بالنور الإيمان قال الإمام فخر الدين الرازى رحمه الله وفيه دليل على أن طرق الكفر والبدع كثيرة وطريق الحق ليس إلا واحدا لأنه تعالى قال لتخرج الناس من الظلمات إلى النور فعبر عن الجهل والكفر والضلال بالظلمات وهى صيغة جمع وعبر عن الإيمان والهدى بالنور وهو لفظ مفرد وذلك

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الر كتاب) أى هذا كتاب (أنزلناه إليك) يا محمد يعنى القرآن (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) أى لتدعوهم من

ظلمات الضلالة إلى نور الإيمان (باذن ربهم) بأمر ربهم وقيل بعلم ربهم (إلى صراط العزيز الحميد) أى إلى دينه والعزيز هو الغالب والحميد هو المستحق للحمد (الله) قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر الله بالرفع على الاستئناف وخبره فيما بعده وقرأ الآخرون بالخفض نعتا للعزيز الحميد وكان يعقوب إذا وصل خفض وقال أبو عمرو الخفض على التقديم والتأخير تقديره إلى صراط الله العزيز الحميد (الذى له مافى السموات ومافى الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد الذين يستحبون) يختارون (الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله) أى يمنعون الناس عن قبول دين الله (ويبغونها عوجا) يطلبونها زيغا وميلا يريد يطلبون سبيل الله جائرين عن القصد وقيل الهاء راجعة إلى الدنيا ومعناه يطلبون الدنيا على طريق الميل عن الحق أى بجهة الحرام (أولئك فى ضلال بعيد) قوله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) بلغتهم ليفهموا عنه فان قيل كيف هذا وقد بعث النبى صلى الله عليه وسلم إلى كافة الخلق قيل بعث من العرب بلسانهم والناس تبع لهم ثم بعث الرسل إلى الأطراف يدعونهم إلى الله عز وجل ويترجمون لهم بألسنتهم (فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم ولقد أرسلنا موسى بآياتنا

يدل على أن طرق الكفر والجهل كثيرة وأما طريق العلم والإيمان فليس إلا واحد (باذن ربهم) يعنى بأمر ربهم وقيل بعلم ربهم (إلى صراط العزيز الحميد) يعنى إلى دين الإسلام وهو دينه الذى أمر به عباده . والعزيز هو الغالب الذى لا يغلب والحميد المحمود على كل حال المستحق لجميع المحامد (الله) قرىء بالرفع على الاستئناف وخبره مابعده وقرىء بالجر نعتا للعزيز الحميد وقال أبو عمرو قراءة الخفض على التقديم والتأخير تقديره إلى صراط الله العزيز الحميد (الذى له مافى السموات وما فى الأرض) يعنى ملكا ومافيهما عبيده (وويل للكافرين) يعنى الذين تركوا عبادة من يستحق العبادة الذى له مافى السموات ومافى الأرض وعبدوا من لا يملك شيئا البتة بل هو مملوك لله لأنه من جملة خلق الله ومن جملة مافى السموات وما فى الأرض (من عذاب شديد) يعنى معد لهم فى الآخرة ثم وصفهم فقال تعالى (الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة) يعنى يختارون الحياة الدنيا ويؤثرونها على الآخرة (ويصدون عن سبيل الله) أى ويمنعون الناس عن قبول دين الله (ويبغونها عوجا) يعنى ويطلبون لها زيغا وميلا فحذف الجار وأوصل الفعل وقيل معناه يطلبون سبيل الله حائدين عن القصد وقيل الهاء فى ويبغونها راجعة إلى الدنيا ومعناه يطلبون الدنيا على طريق الميل عن الحق والميل إلى الحرام (أولئك) يعنى من هذه صفته (فى ضلال بعيد) يعنى عن الحق وقيل يجوز أن يراد فى ضلال بعيد ذى بعد أو فيه بعد لأن الضال يبعد عن الطريق . قوله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) يعنى بلغة قومه ليفهموا عنه مايدعوهم إليه وهو قوله تعالى (ليبين لهم) يعنى ما يأتون وما يذرون . فان قلت لم يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العرب وحدهم وإنما بعث إلى الناس جميعا بدليل قوله تعالى «قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا» بل هو مبعوث إلى الثقلين الجن والإنس وهم على ألسنة مختلفة ولغات شتى وقوله بلسان قومه وليس قومه سوى العرب يقتضى بظاهره أنه مبعوث إلى العرب خاصة فكيف يمكن الجمع . قلت بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب وبلسانهم والناس تبع للعرب فكان مبعوثا إلى جميع الخلق لأنهم تبع للعرب ثم إنه يبعث الرسل إلى الأطراف فيترجمون لهم بألسنتهم ويدعونهم إلى الله تعالى بلغاتهم وقيل يحتمل أنه أراد بقومه أهل بلده وفيهم العرب وغير العرب فيدخل معهم من غير جنسهم فى عموم الدعوى وقيل إن الرسول إذا أرسل بلسان قومه وكانت دعوته خاصة وكان كتابه بلسان قومه كان أقرب لفهمهم عنه وقيام الحجة عليهم فى ذلك فاذا فهموه ونقل عنهم انتشر عنهم علمه وقامت التراجم ببيانه وتفهيمه لمن يحتاج إلى ذلك ممن هو من غير أهله وإذا كان الكتاب بلغة واحدة مع اختلاف الأمم وتباين اللغات كان ذلك أبلغ فى اجتهاد المجتهدين فى تعليم معانيه وتفهيم فوائده وغوامضه وأسراره وعلومه وجميع حدوده وأحكامه وقوله (فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) يعنى أن الرسول ليس عليه إلا التبليغ والتبيين والله هو الهادى المضل يفعل مايشاء (وهو العزيز) يعنى الذى يغلب ولا يغلب (الحكيم) فى جميع أفعاله . قوله عز وجل (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) المراد بالآيات المعجزات التى جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام مثل العصا واليد وفلق البحر وغير ذلك

من

من المعجزات العظيمة الباهرة (أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور) أى أن أخرج قومك بالدعوة من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان (وذكرهم بأيام الله) قال ابن عباس وأبى بن كعب ومجاهد وقتادة يعنى بنعم الله وقال مقاتل بوقائع الله فى الأمم السالفة يقال فلان عالم بأيام العرب أى بوقائعهم وإنما أراد بما كان فى أيام الله من النعمة والنقمة فأخبر بذكر الأيام عن ذلك لأن ذلك كان معلوما عندهم وعلى هذا يكون المعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد والترغيب، والوعد أن يذكرهم بما أنعم الله عليهم به من النعمة وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل فيما مضى من الأيام، والترهيب والوعيد أن يذكرهم بأس الله وشدة انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله، وقيل بأيام الله فى حق موسى أن يذكر قومه بأيام المحنة والشدة والبلاء حين كانوا تحت أيدى القبط يسومونهم سوء العذاب فخلصهم الله من ذلك وجعلهم ملوكا بعد أن كانوا مملوكين (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) الصبار الكثير الصبر والشكور الكثير الشكر وإنما خص الشكور والصبور بالاعتبار بالآيات وإن كان فيها عبرة للكافة لأنهم هم المنتفعون بها دون غيرهم فلهذا خصهم بالآيات فكأنها ليست لغيرهم فهو كقوله «وهدى للمتقين» ولأن الانتفاع بالآيات لا يمكن حصوله إلا لمن يكون صابرا شاكرا أما من لم يكن كذلك فلا ينتفع بها ألبتة (وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم) لما أمر الله عز وجل موسى عليه الصلاة والسلام أن يذكر قومه بأيام الله امتثل ذلك الأمر وذكرهم بأيام الله فقال «اذكروا نعمة الله عليكم» (إذ أنجاكم من آل فرعون) أى اذكروا إنعام الله عليكم فى ذلك الوقت الذى أنجاكم فيه من آل فرعون (يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم). فان قلت قال فى سورة البقرة يذبحون بغير واو وقال هنا ويذبحون بزيادة واو فما الفرق. قلت إنما حذفت الواو فى سورة البقرة لأن قوله يذبحون تفسير لقوله يسومونكم سوء العذاب وفى التفسير لا يحسن ذكر الواو كما تقول جاءنى القوم زيد وعمرو إذا أردت تفسير القوم وأما دخول الواو هنا فى هذه السورة فلأن آل فرعون كانوا يعذبونهم بأنواع من العذاب غير التذبيح وبالتذبيح أيضا فقوله ويذبحون نوع آخر من العذاب لأنه تفسير العذاب (ويستحيون نساءكم) يعنى يتركونهن أحياء (وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم). فان قلت كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم. قلت تمكينهم وإمهالهم حتى فعلوا ما فعلوا بلاء من الله؛ ووجه آخر وهو أن ذلكم إشارة إلى الانجاء وهو بلاء عظيم لأن البلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعا ومنه قوله «ونبلوكم بالشر والخير فتنة» وهذا الوجه أولى لأنه موافق لأول الآية وهو قوله اذكروا نعمة الله عليكم. فان قلت هب أن تذبيح الأبناء فيه بلاء فكيف يكون استحياء النساء فيه بلاء. قلت كانوا يستحيونهن ويتركونهن تحت أيديهم كالإماء فكان ذلك بلاء (وإذ تأذن ربكم) هذا من جملة ما قال موسى لقومه كأنه قيل اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم ومعنى تأذن آذن أى أعلم ولا بد فى تفعل من زيادة معنى ليس فى أفعل كأنه قيل وأذن ربكم إيذانا بليغا تنتفى عنده الشكوك وتنزاح الشبه والمعنى وإذ تأذن ربكم فقال (لئن شكرتم) يعنى يا بنى إسرائيل ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها من النعم بالإيمان الخالص والعمل الصالح (لأزيدنكم) يعنى نعمة إلى نعمة ولأضاعفن لكم ما آتيتكم قيل شكر الموجود صيد المفقود وقيل لئن شكرتم بالطاعة لأزيدنكم فى الثواب وأصل الشكر تصور النعمة وإظهارها

أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور) أى من الكفر إلى الإيمان بالدعوة (وذكرهم بأيام الله) قال ابن عباس وأبى بن كعب ومجاهد وقتادة بنعم الله وقال مقاتل بوقائع الله فى الأمم السالفة يقال فلان عالم بأيام العرب أى بوقائعهم وإنما أراد بما كان فى أيام الله من النعمة والمحنة فاجتزأ بذكر الأيام عنها لأنها كانت معلومة عندهم (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) الصبار الكثير الصبر والشكور الكثير الشكر وأراد لكل مؤمن لأن الصبر والشكر من خصال المؤمنين (وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم) قال الفراء العلة الجالبة لهذا الواو أن الله تعالى أخبرهم أن آل فرعون كانوا يعذبونهم بأنواع العذاب غير التذبيح وبالتذبيح وحيث طرح الواو فى يذبحون ويقتلون أراد تفسير العذاب الذى كانوا يسومونهم (ويستحيون نساءكم) يتركونهن أحياء (وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم وإذ تأذن ربكم) أى أعلم، يقال أذن وتأذن بمعنى واحد مثل أوعد وتوعد (لئن شكرتم) نعمتى فآمنتم وأطعتم (لأزيدنكم) فى النعمة وقيل الشكر قيد الموجود وصيد المفقود، وقيل لئن شكرتم بالطاعة

وحقيقته الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه وتوطين النفس على هذه الطريقة وهاهنا دقيقة وهي أن العبد إذا اشتغل بمطالعة أقسام نعم الله عز وجل عليه وأنواع فضله وكرمه وإحسانه إليه اشتغل بشكر تلك النعمة وذلك يوجب المزيد وبذلك تتأكد محبة العبد لله عز وجل وهو مقام شريف ومقام أعلى منه وهو أن يشغله حب المنعم عن الالتفات إلى النعم وهذا مقام الصديقين نسأل الله القيام بواجب شكر النعمة حتى يزيدنا من فضله وكرمه وإحسانه وإنعامه وقوله (ولئن كفرتم) المراد بالكفر هاهنا كفران النعمة وهو جحودها لأنه مذكور في مقابلة الشكر (إن عذابي لشديد) يعني لمن كفر نعمتي ولا يشكرها (وقال موسى إن تكفروا) يعني يابني إسرائيل (أنتم ومن في الأرض جميعا) يعني والناس كلهم جميعا فإنما ضرر ذلك يعود على أنفسكم بحرمانها الخير كله (فإن الله لغني) يعني عن جميع خلقه (حميد) أي محمود في جميع أفعاله لأنه متفضل وعادل (ألم يأتكم نبأ) يعني خبر (الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود) قال بعض المفسرين يحتمل أن يكون هذا خطابا من موسى لقومه والمقصود منه أنه عليه الصلاة والسلام كان يخوفهم بهلاك من تقدم من الأمم ويحتمل أن يكون خطابا من الله تعالى على لسان موسى عليه الصلاة والسلام يذكرهم بذلك أمر القرون لقومه ، والمقصود منه أنه عليه الصلاة والسلام يذكرهم بأمر القرون الماضية والأمم الخالية والمقصود منه حصول العبرة بأحوال من تقدم وهلاكهم (والذين من بعدهم) يعني من بعد هؤلاء الأمم الثلاثة (لا يعلمهم إلا الله) يعني لا يعلم كنه مقاديرهم وعددهم إلا الله لأن علمه محيط بكل شيء « ألا يعلم من خلق » وقيل المراد بقوله والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله أقوام وأمم ما بلغنا خبرهم أصلا ومنه قوله « وقرونا بين ذلك كثيرا » وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية يقول كذب النسابون يعني أنهم يدعون علم النسب إلى آدم وقد نفى الله علم ذلك عن العباد وعن عبد الله بن عباس أنه قال بين إبراهيم وعدنان ثلاثون قرنا لا يعلمهم إلا الله وكان مالك بن أنس يكره أن ينسب الإنسان نفسه أبا أبا إلى آدم لأنه لا يعلم أولئك الآباء إلا الله . وقوله تعالى (جاءتهم رسلهم بالبينات) يعني بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات (فردوا أيديهم في أفواههم) . وفي معنى الأيدي والأفواه قولان : أحدهما أن المراد بهما هاتان الجارحتان المعلومتان ثم في معنى ذلك وجوه قال ابن مسعود عضوا أيديهم غيظا وقال ابن عباس لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم وقال مجاهد وقتادة كذبوا الرسل وردوا ما جاءوا به يقال رددت قول فلان في فيه أي كذبته وقال الكلبي يعني أن الأمم ردوا أيديهم إلى أفواه أنفسهم يعني أنهم وضعوا الأيدي على الأفواه إشارة منهم إلى الرسل أن اسكتوا وقال مقاتل ردوا أيديهم على أفواه الرسل يسكتونهم بذلك وقيل إن الأمم لما سمعوا كلام الرسل عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية فعند ذلك ردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل الذي غلبه الضحك . القول الثاني أن المراد بالأيدي والأفواه غير الجارحتين فقيل المراد بالأيدي النعم ومعناه ردوا ما لو قبلوه لكان نعمة عليهم يقال لفلان عندي يد أي نعمة والمراد بالأفواه تكذيبهم الرسل والمعنى كذبوهم بأفواههم وردوا قولهم وقيل إنهم كفوا عن قبول ما أمروا بقبوله من الحق ولم يؤمنوا به يقال فلان رد يده إلى فيه إذا أمسك عن الجواب فلم يجب وهذا القول فيه

لأزيدنكم في الثواب (ولئن كفرتم) نعمتي فجحدتموها ولم تشكروها (إن عذابي لشديد وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد) أي غني عن خلقه حميد محمود في أفعاله لأنه فيها متفضل وعادل (ألم يأتكم نبأ الذين) خبر الذين (من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله) يعني من كان بعد قوم نوح وعاد وثمود ، روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال بعد ما قرأ هذه الآية كذب النسابون ، وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال : بين إبراهيم وبين عدنان ثلاثون قرنا لا يعلمهم إلا الله تعالى ، وكان مالك بن أنس يكره أن ينسب الإنسان نفسه أبا أبا إلى آدم وكذلك في حق النبي صلى الله عليه وسلم لأنه لا يعلم أولئك الآباء أحد إلا الله عز وجل (جاءتهم رسلهم بالبينات) بالدلالات الواضحات (فردوا أيديهم في أفواههم) قال ابن مسعود عضوا على أيديهم غيظا كما قال عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قال ابن عباس لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم قال مجاهد وقتادة كذبوا الرسل وردوا ما جاءوا به يقال رددت قول فلان في فيه أي كذبته وقال الكلبي يعني إن الأمم ردوا أيديهم في أفواههم أي في أفواه

بعد

بعد لأنهم قد أجابوا بالتكذيب وهو أن الأمم ردوا على رسلهم (وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به) يعنى إنا كفرنا بما زعمتم أن الله أرسلكم به لأنهم لم يقروا بأنهم أرسلوا إليهم لأنهم لو أقروا بأن الرسل أرسلوا إليهم لكانوا مؤمنين (وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب) يعنى يوجب الريبة أو يوقع فى الريبة والتهمة، والريبة قلق النفس وأن لا تطمئن إلى الأمر الذى يشك فيه. فان قلت إنهم قالوا أولا إنا كفرنا بما أرسلتم به فكيف يقولون ثانيا وإنا لفى شك والشك دون الكفر أو داخل فيه. قلت إنهم لما صرحوا بكفرهم بالرسل فكأنهم حصل لهم شبهة توجب لهم الشك فقالوا إن لم تدع الجزم فى كفرنا فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين فى ذلك (قالت رسلهم) يعنى مجيبين لأممهم (أفى الله شك) يعنى هل تشكون فى الله وهو استفهام إنكار ونفى لما اعتقدوه (فاطر السموات والأرض) يعنى وهل تشكون فى كونه خالق السموات والأرض وخالق جميع مافيهما (يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم) يعنى ليغفر لكم ذنوبكم إذا آمنتم وصدقتم وحرف من صلة وقيل إنها أصل ليست بصلة وعلى هذا إنه يغفر لهم مابينهم وبينه من الكفر والمعاصى دون مظالم العباد (ويؤخركم إلى أجل مسمى) يعنى إلى حين انقضاء آجالكم فلا يعاجلكم بالعذاب (قالوا) يعنى الأمم مجيبين للرسل (إن أنتم) يعنى ما أنتم (إلا بشر مثلنا) يعنى فى الصورة الظاهرة لستم ملائكة (تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا) يعنى ماتريدون بقولكم هذا إلا صدنا عن آلهتنا التى كان آباؤنا يعبدونها (فأتونا بسلطان مبين) يعنى حجة بينة واضحة على صحة دعواكم (قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم) يعنى أن الكفار لما قالوا لرسلهم إن أنتم إلا بشر مثلنا قالت لهم رسلهم مجيبين لهم هب إن الأمر كما قلتم ووصفتم فنحن بشر مثلكم لاننكر ذلك (ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) يعنى بالنبوة والرسالة فيصطفى من يشاء من عباده لهذا المنصب العظيم الشريف (وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا باذن الله) يعنى وليس لنا مع ماخصنا الله به من النبوة وشرفنا به من الرسالة أن نأتيكم بآية وبرهان ومعجزة تدل على صدقنا إلا باذن الله لنا فى ذلك (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) يعنى فى دفع شرور أعدائهم عنهم (وما لنا أن لانتوكل على الله) يعنى أن الأنبياء قالوا أيضا قد عرفنا أنه لايصيبنا شىء إلا بقضاء الله وقدره فنحن نثق به ونتوكل عليه فى دفع شروركم عنا (وقد هدانا سبلنا) يعنى وقد عرفنا طريق النجاة وبين لنا الرشد (ولنصبرن) اللام لام القسم تقديره والله لنصبرن (على ما آذيتمونا) يعنى به من قول أو فعل (وعلى الله فليتوكل المتوكلون). فان قلت كيف كرر الأمر بالتوكل وهل من فرق بين التوكلين. قلت نعم التوكل الأول فيه إشارة إلى استحداث التوكل والتوكل الثانى فيه إشارة إلى السعى فى التثبيت على ما استحدثوا من توكلهم وإبقائه وإدامته فحصل الفرق بين التوكلين. قوله تعالى (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا) يعنى ليكونن أحد الأمرين إما إخراجكم أيها الرسل من بلادنا وأرضنا وإما عودكم فى ملتنا. فان قلت هذا يوهم بظاهره أنهم كانوا على ملتهم فى أول الأمر حتى يعودوا فيها قلت معاذ الله ولكن العود هنا بمعنى الصيرورة وهو كثير فى كلام العرب، وفيه وجه آخر وهو أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

أنفسهم أى وضعوا الأيدى على الأفواه إشارة إلى الرسل أن اسكتوا وقال مقاتل فردوا أيديهم على أفواه الرسل يسكتونهم بذلك وقيل إن الأيدى بمعنى النعم معناه ردوا مالو قبلوا كانت أيادى ونعما فى أفواههم أى بأفواههم يعنى بألسنتهم (وقالوا) يعنى الأمم الرسل (إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب) موجب للريبة موقع للتهمة (قالت رسلهم أفى الله شك) هذا استفهام بمعنى نفى ما اعتقدوه (فاطر السموات والأرض) خالقهما (يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم) أى ذنوبكم ومن صلة (ويؤخركم إلى أجل مسمى) إلى حين استيفاء آجالكم فلا يعاجلكم بالعذاب (قالوا) للرسل (إن أنتم) ما أنتم (إلا بشر مثلنا) فى الصورة والجسم ولستم ملائكة وإنما (تريدون) بقولكم (أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين) حجة بينة على صحة دعواكم (قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) بالنبوة والحكمة (وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ومالنا أن لانتوكل على الله) وقد عرفنا أن لاننال شيئا إلا بقضائه وقدره (وقد هدانا سبلنا) بين لنا الرشد وبصرنا طريق النجاة (ولنصبرن) اللام لام القسم مجازه والله لنصبرن (على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا)

يعنون إلا أن ترجعوا أو حتى ترجعوا إلى ديننا (فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم) أى بعدهلاكهم (ذلك لمن خاف مقامى) أى خاف قيامه بين يدى كما قال«ولمن خاف مقام ربه جنتان»فأضاف قيام العبد إلى نفسه كما تقول ندمت على ضربك أى على ضربى إياك (وخاف وعيد) أى عقابي قوله(واستفتحوا) أى استنصروا قال ابن عباس ومقاتل يعنى الأمم وذلك أنهم قالوا (٣٦) اللهم إن كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا نظيره قوله تعالى «وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء» وقال مجاهد وقتادة واستفتحوا يعنى الرسل وذلك أنهم لما يئسوا من إيمان قومهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب كما قال نوح «رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا» وقال موسى «ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم» الآية (وخاب) خسر وقيل هلك (كل جبار عنيد) والجبار الذى لا يرى فوقه أحدا والجبرية طلب العلو بما لا غاية وراءه وهذا الوصف لايكون إلا لله عز وجل وقيل الجبار الذى يجبر الخلق على مراده والعنيد المعاند للحق ومجانبه قاله مجاهد، وعن ابن عباس هو المعرض عن الحق، وقال مقاتل هو المتكبر، وقال قتادة العنيد الذى أبى أن يقول لا إله إلا الله (من ورائه جهنم) أى أمامه كقوله تعالى «وكان وراءهم ملك» أى أمامهم قال أبو عبيدة هو من الأضداد وقال الأخفش هو كما يقال هذا الأمر من ورائك يريد أنه سيأتيك وأنا من وراء فلان يعنى أصل إليه وقال مقاتل من ورائه جهنم أى بعده (ويسقى من ماء صديد) أى من ماء هو صديد وهو مايسيل من أبدان الكفار من القيح والدم وقال محمد بن كعب مايسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر (يتجرعه) أى يتحساه ويشربه لا بمرة واحدة بل جرعة جرعة لمرارته وحرارته (ولا يكاد يسيغه) يكاد صلة أى لا يسيغه كقوله تعالى «لم يكد يراها» أى لم يرها قال ابن عباس لا يجيزه ... فيكرهه

قبل الرسالة لم يظهروا خلاف أممهم فلما أرسلوا إليهم أظهروا مخالفتهم ودعوهم إلى الله فقالوا لهم لتعودن فى ملتنا ظنا منهم أنهم كانوا على ملتهم ثم خالفوهم وإجماع الأمة على أن الرسل من أول الأمر إنما نشئوا على التوحيد لا يعرفون غيره (فأوحى إليهم ربهم) يعنى أن الله تعالى أوحى إلى رسله وأنبيائه بعد هذه المخاطبات والمحاورات (لنهلكن الظالمين) يعنى أن عاقبة أمرهم إلى الهلاك فلا تخافوهم (ولنسكننكم الأرض من بعدهم) يعنى من بعد هلاكهم (ذلك) يعنى ذلك الإسكان (لمن خاف مقامى) يعنى خاف مقامه بين يدى يوم القيامة فأضاف قيام العبد إلى نفسه لأن العرب قد تضيف أفعالها إلى أنفسها كقولهم ندمت على ضربى إياك وندمت على ضربك مثله (وخاف وعيد) أى وخاف عذابى . قوله عز وجل (واستفتحوا) يعنى واستنصروا قال ابن عباس يعنى الأمم وذلك أنهم قالوا اللهم إن كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا وقال مجاهد وقتادة واستفتح الرسل على أممهم وذلك أنهم لما أيسوا من إيمان قومهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب (وخاب) يعنى وخسر وقيل هلك (كل جبار عنيد) والجبار فى صفة الإنسان يقال لمن تجبر بنفسه بادعاء منزلة عالية لا يستحقها وهو صفة ذم فى حق الإنسان وقيل الجبار الذى لا يرى فوقه أحدا وقيل الجبار المتعظم فى نفسه المتكبر على أقرانه والعنيد المعاند للحق ومجانبه قال مجاهد . وقال ابن عباس هو المعرض عن الحق وقال مقاتل هو المتكبر وقال قتادة هو الذى يأبى أن يقول لا إله إلا الله وقيل العنيد هو المعجب بما عنده وقيل العنيد الذى يعاند ويخالف (من ورائه جهنم) يعنى هى أمامه وهو صائر إليها قال أبو عبيدة هو من الأضداد يعنى أنه يقال وراء بمعنى خلف وبمعنى أمام وقال الأخفش هو كما يقال هذا الأمر من ورائك يعنى أنه سيأتيك (ويسقى) يعنى فى جهنم (من ماء صديد) وهو ماسال من الجلد واللحم من القيح جعل ذلك شراب أهل النار وقال محمد بن كعب القرظى هو مايسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر وهو قوله (يتجرعه) أى يتحساه ويشربه لا بمرة واحدة بل جرعة بعد جرعة لمرارته وحرارته وكراهته ونتنه (ولا يكاد يسيغه) أى لا يقدر على ابتلاعه يقال ساغ الشراب فى الحلق إذا سهل انحداره فيه قال بعض المفسرين إن يكاد صلة والمعنى يتجرعه ولا يسيغه وقال صاحب الكشاف دخلت يكاد للمبالغة يعنى ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الإساغة وقال بعضهم ولا يكاد يسيغه بعد إبطاء لأن العرب تقول ما كدت أقوم أى قمت بعد إبطاء فعلى هذا كاد على أصلها وليست بصلة . وقال ابن عباس معناه لا يجيزه وقيل معناه يكاد لا يسيغه ويسيغه فيغلى فى جوفه . عن أبى إمامة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى ويسقى من ماء صديد يتجرعه » قال يقرب إلى فيه

وقيل معناه يكاد لا يسيغه ويسيغه فيغلى فى جوفه أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبى توبة أنا محمد بن أحمد بن الحارث انبأنا محمد بن يعقوب الكسائى أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن صفوان بن عمرو عن عبدالله بن بشر عن أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله (٣٧) «ويسقى من ماء صديد يتجرعه» قال يقرب إلى فيه فيكرهه فاذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فاذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره يقول الله عز وجل «وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم» ويقول «وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه» (ويأتيه الموت من كل مكان) يعنى يجدهم الموت وألمه من كل مكان من أعضائه قال إبراهيم التيمى حتى من تحت كل شعرة من جسده وقيل يأتيه الموت من قدامه ومن خلفه ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله (وما هو بميت) فيستريح قال ابن جريج تعلق بنفسه عند حنجرته ولا تخرج من فيه فيموت ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة نظيرها لا يموت فيها ولا يحيى (ومن ورائه) أمامه (عذاب غليظ) شديد وقيل العذاب الغليظ الخلود فى النار (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم) يعنى مثل أعمال الذين كفروا بربهم كقوله تعالى «ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة» أى ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودة (كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف) وصف اليوم بالعصوف والعصوف من صفة الريح لكون فيه كما يقال يوم حار ويوم بارد لأن الحر والبرد فيه وقيل معناه فى يوم عاصف الريح فحذف الريح لأنها قد ذكرت من قبل وهذا مثل ضربه الله لأعمال الكفار يريد أنهم لا ينتفعون بأعمالهم التى عملوها

فيكرهه فاذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فاذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره قال وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم وقال «وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا» أخرجه الترمذى وقال حديث غريب . قوله وقعت فروة رأسه أى جلدة رأسه وإنما شبهها بالفروة للشعر الذى عليها . وقوله تعالى (ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت) يعنى أن الكافر يجد ألم الموت وشدته من كل مكان من أعضائه وقال إبراهيم التيمى حتى من تحت كل شعرة من جسده وقيل يأتيه الموت من قدامه ومن خلفه ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله وماهو بميت فيستريح وقال ابن جريج تعلق نفسه عند حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة (ومن ورائه) يعنى أمامه (عذاب غليظ) أى شديد قيل هو الخلود فى النار . قوله تعالى (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف) هذا كلام مستأنف منقطع عما قبله وهو مبتدأ محذوف الخبر عند سيبويه تقديره فيما نقص أو فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا والمثل مستعار للقصة التى فيها غرابة ، وقوله أعمالهم كرماد جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول كيف مثلهم فقال أعمالهم كرماد . وقال المفسرون والفراء مثل أعمال الذين كفروا بربهم فحذف المضاف اعتمادا على ماذكره بعد المضاف إليه وقيل يحتمل أن يكون المعنى صفة الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد كقولك فى صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول والرماد معروف وهو ما يسقط من الحطب والفحم بعد إحراقه بالنار اشتدت به الريح يعنى فنسفته وطيرته ولم تبق منه شيئا فى يوم عاصف وصف اليوم بالعصوف والعصوف من صفة الريح لأن الريح تكون فيه كقولك يوم بارد وحار وليلة ماطرة لأن الحر والبرد والمطر توجد فيهما وقيل معناه فى يوم عاصف الريح فحذف الريح لأنه قد تقدم ذكرها وهذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار التى لم ينتفعوا بها ووجه المشابهة بين هذا المثل وبين هذه الأعمال هو أن الريح العاصف تطير الرماد وتذهب به وتفرق أجزاءه بحيث لا يبقى منها شىء وكذلك أعمال الكفار تبطل وتذهب بسبب كفرهم وشركهم حتى لا يبقى منها شىء ثم اختلفوا فى هذه الأعمال ماهى فقيل هى ما عملوه من أعمال الخير فى حال الكفر كالصدقة وصلة الأرحام وفك الأسير وإقراء الضيف وبر الوالدين ونحو ذلك من أعمال البر والصلاح فهذه الأعمال وإن كانت أعمال بر لكنها لا تنفع صاحبها يوم القيامة بسبب كفره لأن كفره أحبطها وأبطلها كلها وقيل المراد بالأعمال عبادتهم الأصنام التى ظنوا أنها تنفعهم فبطلت وحبطت ولم تنفعهم البتة ووجه خسرانهم أنهم أتعبوا أبدانهم فى الدهر الطويل لكى ينتفعوا بها فصارت وبالا عليهم وقيل أراد بالأعمال الأعمال التى عملوها فى الدنيا وأشركوا فيها غير الله فانها لا تنفعهم لأنها صارت كالرماد الذى ذرته الريح وصار

فى الدنيا لأنهم أشركوا فيها غير الله كالرماد الذى ذرته الريح لا ينتفع به فذلك قوله تعالى (لايقدرون) يعنى الكفار (مما كسبوا) فى الدنيا (على شىء) فى الآخرة (ذلك هو الضلال البعيد ألم تر أن الله خلق السموات والأرض) قرأ حمزة والكسائى خالق السموات والأرض وفى سورة النور خالق كل دابة مضافا وقرأ الآخرون خلق على الماضى والأرض وكل بالنصب (بالحق) أى لم يخلقهما باطلا وإنما خلقهما لأمر عظيم (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) سوا كم أطوع لله منكم (وما ذلك على الله بعزيز) منيع شديد يعنى أن الأشياء تسهل فى القدرة لا يصعب على الله شىء وإن جل وعظم . قوله تعالى (وبرزوا لله جميعا) أى خرجوا من قبورهم إلى الله وظهروا جميعا (فقال الضعفاء) يعنى الأتباع (للذين استكبروا) أى تكبروا على الناس

وهم القادة والرؤساء (إنا كنا لكم تبعا) جمع تابع مثل حرس وحارس (فهل أنتم مغنون) دافعون (عنا من عذاب الله من شىء قالوا) يعنى القادة للمتبوعين (لو هدانا الله لهديناكم) أى لو هدانا الله لدعوناكم إلى الهدى فلما أضلنا دعوناكم إلى الضلالة (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص) مهرب ولا منجا قال مقاتل يقولون فى النار تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع ثم يقولون تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر فحينئذ يقولون سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص قال محمد بن كعب القرظى بلغنى أن أهل النار يستغيثون بالخزنة كما قال الله تعالى « وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب » فردت الخزنة عليهم « أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى » فردت الخزنة عليهم « ادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » فلما يئسوا مما عند الخزنة نادوا « يا مالك ليقض علينا ربك » سألوا الموت فلا يجيبهم ثمانين سنة والسنة ثلاثمائة وستون يوما واليوم كألف سنة مما تعدون ثم لحظ إليهم بعد الثمانين « إنكم ماكثون » فلما أيسوا مما قبله ، قال بعضهم لبعض إنه قد نزل بكم من البلاء ما ترون فهلموا فلنصبر فلعل الصبر ينفعنا كما صبر أهل الدنيا على طاعة الله فنفعهم فأجمعوا على الصبر فطال صبرهم ثم جزعوا فطال جزعهم فنادوا « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص » أى من منجا قال فقام إبليس عند ذلك فخطبهم وذلك قوله تعالى « وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق » الآية فلما سمعوا مقالته مقتوا

هباء لاينتفع به وهو قوله تعالى (لايقدرون مما كسبوا) يعنى فى الدنيا (على شىء) يعنى من تلك الأعمال والمعنى أنهم لا يجدون ثواب أعمالهم فى الآخرة (ذلك هو الضلال البعيد) يعنى ذلك الخسران الكبير لأن أعمالهم ضلت وهلكت فلا يرجى عودها والبعيد هنا الذى لايرجى عوده (ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق) يعنى لم يخلقهما باطلا ولا عبثا وإنما خلقهما لأمر عظيم وغرض صحيح (إن يشأ يذهبكم) يعنى أيها الناس (ويأت بخلق جديد) يعنى سواكم أطوع لله منكم والمعنى أن الذى قدر على خلق السموات والأرض قادر على إفناء قوم وإماتتهم وإيجاد خلق آخر سواهم لأن القادر لايصعب عليه شىء وقيل هذا خطاب لكفار مكة يريد يميتكم يامعشر الكفار ويخلق قوما غيركم خيرا منكم وأطوع (وما ذلك على الله بعزيز) يعنى بممتنع لأن الأشياء كلها سهلة على الله وإن جلت وعظمت . قوله عز وجل (وبرزوا لله جميعا) يعنى وخرجوا من قبورهم إلى الله ليحاسبهم ويجازيهم على قدر أعمالهم والبراز الفضاء وبرز حصل فى البراز وذلك أن يظهر بذاته كلها والمعنى وخرجوا من قبورهم وظهروا إلى الفضاء وأورد بلفظ الماضى وإن كان معناه الاستقبال لأن كل ما أخبر الله عنه فهو حق وصدق وكائن لامحالة فصار كأنه قد حصل ودخل فى الوجود (فقال الضعفاء) يعنى الأتباع (للذين استكبروا) وهم القادة والرؤساء (إنا كنا لكم تبعا) يعنى فى الدين والاعتقاد (فهل أنتم) يعنى فى هذا اليوم (مغنون عنا) يعنى دافعون عنا (من عذاب الله من شىء) من هنا للتبعيض والمعنى هل تقدرون على أن تدفعوا عنا بعض عذاب الله الذى حل بنا (قالوا) يعنى الرؤساء والقادة والمتبوعين للتابعين (لو هدانا الله لهديناكم) يعنى لو أرشدنا الله لأرشدناكم ودعوناكم إلى الهدى ولكن لما أضلنا دعوناكم إلى الضلالة (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا) يعنى مستويان علينا الجزع والصبر والجزع أبلغ من الحزن لأنه يصرف الإنسان عما هو بصدده ويقطعه عنه (مالنا من محيص) يعنى من مهرب ولامنجاة مما نحن فيه من العذاب قال مقاتل يقولون فى النار تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر فعند ذلك يقولون سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص وقال محمد بن كعب القرظى

أنفسهم فنودوا « لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون » قال فنادوا الثانية فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون فرد عليهم ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها الآيات فنادوا الثالثة ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل فرد عليهم « أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال » الآيات ثم نادوا الرابعة ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل فرد عليهم ألم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير الآية قال فمكث عليهم ما شاء الله ثم ناداهم ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون فلما سمعوا ذلك قالوا الآن يرحمنا فقالوا عند ذلك ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون فقال عند ذلك اخسئوا فيها ولا تكلمون فانقطع عند ذلك الرجاء والدعاء عنهم فأقبل بعضهم على بعض ينفخ بعضهم في وجوه بعض وأطبقت عليهم النار قوله تعالى (وقال الشيطان) يعني إبليس (لما قضي الأمر) أي فرغ منه فأدخل أهل الجنة الجنة (٣٩) وأهل النار النار وقال مقاتل يوضع له منبر في النار فيرقاه فيجتمع عليه الكفار بالأئمة فيقول لهم (إن الله وعدكم وعد الحق) فوفى لكم به (ووعدتكم فأخلفتكم) وقيل يقول لهم قلت لكم لا بعث ولا جنة ولا نار (وما كان لي عليكم من سلطان) ولاية وقيل لم آتكم بحجة فيما دعوتكم إليه (إلا أن دعوتكم) هذا استثناء منقطع معناه ولكن دعوتكم فاستجبتم لي (فلا تلوموني ولوموا أنفسكم) بإجابتي ومتابعتي من غير سلطان ولا برهان (ما أنا بمصرخكم) بمغيثكم (وما أنتم بمصرخي) بمغيثي قرأ الأعمش وحمزة بمصرخي بكسر الياء والآخرون بالنصب لأجل التضعيف ومن كسر فلالتقاء الساكنين حركت إلى الكسر لأن الياء أخت الكسرة وأهل النحو لم يرضوه وقيل أنه لغة بني يربوع والأصل بمصرخيني فذهبت النون لأجل الإضافة وأدغمت ياء الجماعه في ياء الإضافة (إني كفرت بما أشركتمون من قبل) أي كفرت بجعلكم إياي شريكا في عبادته وتبرأت من ذلك (إن الظالمين) الكافرين (لهم عذاب أليم) أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبه أنبأنا محمد بن أحمد الحارث أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي أنبأنا عبد الله بن محمود ثنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله ابن المبارك عن رشيد بن سعد أخبرني عبد الرحمن بن زياد عن دخين الحجري عن عقبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة ذكر الحديث ثم قال « يقول عيسى عليه السلام ذلكم النبي الأمي فيأتوني فيأذن الله لي أن أقوم فيثور من مجالسي أطيب ريح شمها أحد حتى آتي ربي عز وجل فيشفعني ويجعل لي نورا من شعر رأسي إلى ظهر قدمي ثم يقول الكفار قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ماهو غير إبليس هو الذي أضلنا فيأتونه فيقولون له قد وجد

بلغني أن أهل النار يستغيثون بالخزنة كما قال الله وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فردت الخزنة عليهم وقالوا ألم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى فردت الخزنة وقالوا ادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال فلما يئسوا مما عند الخزنة نادوا يا مالك ليقض علينا ربك سألوا الموت فلا يجيبهم ثمانين سنة والسنة ثلثمائة وستون يوما واليوم كألف سنة مما تعدون ثم يجيبهم بقوله إنكم ماكثون فلما يئسوا مما عنده قال بعضهم لبعض تعالوا فلنصبر كما صبر أهل الطاعة لعل ذلك ينفعنا فصبروا وطال صبرهم فلم ينفعهم وجزعوا فلم ينفعهم عند ذلك قالوا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص . قوله تعالى (وقال الشيطان) يعني إبليس (لما قضي الأمر) يعني لما فرغ منه وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يأخذ أهل النار في لوم إبليس وتقريعه وتوبيخه فيقوم فيها خطيبا قال مقاتل يوضع له منبر في النار فيجتمع عليه أهل النار يلومونه فيقول لهم ما أخبر الله عنه بقوله (إن الله وعدكم وعد الحق) فيه إضمار تقديره فصدق في وعده (ووعدتكم فأخلفتكم) يعني الوعد وقيل يقول لهم إني قلت لكم لا بعث ولا جنة ولا نار (وما كان لي عليكم من سلطان) يعني من ولاية وقهر وقيل لم آتيكم بحجة فيما وعدتكم به (إلا أن دعوتكم) هذا استثناء منقطع معناه لكن دعوتكم (فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم) يعني ما كان مني إلا الدعاء وإلقاء الوسوسة وقد سمعتم دلائل الله وجاءتكم الرسل فكان من الواجب عليكم أن لا تلتفتوا إلي ولا تسمعوا قولي فلما رجحتم قولي على الدلائل الظاهرة كان اللوم بكم أولى بإجابتي ومتابعتي من غير حجة ولا دليل (ما أنا بمصرخكم) يعني بمغيثكم ولا منقذكم (وما أنتم بمصرخي) يعني بمغيثي ولا منقذي مما أنا فيه (إني كفرت بما أشركتمون من قبل) يعني كفرت بجعلكم إياي شريكا له في عبادته وتبرأت من ذلك والمعنى أن إبليس جحد ما يعتقده الكفار فيه من كونه شريكا لله وتبرأ من ذلك (إن الظالمين لهم عذاب أليم) روى البغوي بسنده عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله

عليه وسلم فى حديث الشفاعة وذكر الحديث إلى قوله « فيأتونى فيأذن الله لى أن أقوم فيثور من مجلسى أطيب ريح شمها أحد حتى آتى ربى فيشفعنى ويجعل لى نورا من رأسى إلى ظهر قدمى ثم يقول الكفار قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ماهو غير إبليس هو الذى أضلنا فيأتونه فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا فانك أنت أضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه أنتن ريح شمها أحد ثم تعظم جهنم ويقول عند ذلك إن الله وعدكم وعد الحق الآية . وقوله تعالى (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار) لما شرح الله عز وجل حال الكفار الأشقياء بما تقدم من الآيات الكثيرة شرح أحوال المؤمنين السعداء وما أعد لهم فى الآخرة من الثواب العظيم الجزيل وذلك أن الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم والمنفعة الخالصة إليها الإشارة دائمة بقوله وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار وكونها دائمة أشير إليه بقوله (خالدين فيها) والتعظيم حصل من وجهين أحدهما قوله (باذن ربهم) لأن تلك المنافع إنما كانت تفضلا من الله بأنعامه الثانى قوله (تحيتهم فيها سلام) فيحتمل أن بعضهم يحيى بعضا بهذه الكلمة أو الملائكة تحييهم بها أو الرب سبحانه وتعالى يحييهم ويحتمل أن يكون المراد أنهم لما دخلوا الجنة سلموا من جميع الآفات لأن السلام مشتق من السلامة . قوله عز وجل (ألم تر كيف ضرب الله مثلا) لما شرح الله عز وجل أحوال الأشقياء وأحوال السعداء ضرب مثلا فيه حكم هذين القسمين فقال تعالى ألم تر أى بعين قلبك فتعلم علم يقين باعلامى إياك فعلى هذا يحتمل أن يكون الخطاب فيه للنبى ﷺ ويدخل معه غيره فيه ويحتمل أن يكون الخطاب فيه لكل فرد من الناس فيكون المعنى ألم تر أيها الإنسان كيف ضرب الله مثلا يعنى بين شبها والمثل عبارة عن قول فى شىء يشبه قولا فى شىء آخر بينهما مشابهة ليتبين أحدهما من الآخر ويتصور وقيل هو قول سائر لتشبيه شىء بشىء آخر (كلمة طيبة) هى قول لا إله إلا الله فى قول ابن عباس وجمهور المفسرين (كشجرة طيبة) يعنى كشجرة طيبة الثمرة وقال ابن عباس هى النخلة وبه قال ابن مسعود وأنس ومجاهد وعكرمة والضحاك (ق) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أخبرونى عن شجرة شبه الرجل أو قال كالرجل المسلم لايتحات ورقها تؤتى أكلها كل حين قال ابن عمر فوقع فى نفسى أنها النخلة ورأيت أبا بكر وعمر لايتكلمان فكرهت أن أتكلم فلما لم يقولوا شيئا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «هى النخلة» قال فلما قمنا قلت لعمر ياأبتاه والله لقد كان وقع فى نفسى أنها النخلة فقال مامنعك أن تتكلم فقلت لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئا فقال عمر لأن تكون قلتها أحب إلى من كذا وكذا وفى رواية أن من الشجر شجرة لايسقط ورقها وأنها مثل المسلم فحدثونى ماهى فوقع الناس فى شجر البوادى قال عبد الله ابن عمرو وقع فى نفسى أنها النخلة فاستحييت أن أتكلم ثم قالوا حدثنا ماهى يارسول الله قال «هى النخلة» وفى رواية عن ابن عباس أنها شجرة فى الجنة وفى رواية أخرى عنه أنها المؤمن . وقوله (أصلها ثابت) يعنى فى الأرض (وفرعها) يعنى أعلاها (فى السماء) يعنى ذاهبة فى السماء (تؤتى أكلها) يعنى ثمرها (كل حين باذن ربها) يعنى بأمر ربها والحين فى اللغة الوقت يطلق

المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا فانك أنت أضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه أنتن ريح شمها احد ثم نعظم لجهنم ويقول عند ذلك إن الله وعدكم وعد الحق الآيه قوله تعالى (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها باذن ربهم تحيتهم فيها سلام) يسلم بعضهم على بعض وتسلم الملائكة عليهم وقيل المحى بالسلام هو الله عز وجل وقوله تعالى (ألم تر كيف ضرب الله مثلا) ألم تعلم والمثل قول سائر لتشبيه شىء بشىء (كلمة طيبة) وهى قول لا إله إلا الله (كشجرة طيبة) وهى النخلة يريد كشجرة طيبة الثمرة وقال أبو ظبيان عن ابن عباس هى شجرة فى الجنة (أصلها ثابت) فى الأرض (وفرعها) أعلاها (فى السماء) كذلك أصل هذه الكلمة راسخ فى قلب المؤمن بالمعرفة والتصديق فاذا تكلم بها عرجت فلا تحجب حتى تنتهى إلى الله عز وجل قال الله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه (تؤتى أكلها) تعطى ثمرها (كل حين باذن ربها) والحين فى اللغة هو الوقت وقد اختلفوا فى معناه هاهنا فقال مجاهد وعكرمة الحين هاهنا سنة كاملة لأن النخلة تثمر كل سنة وقال سعيد بن جبير وقتادة والحسن ستة أشهر من وقت إطلاعها إلى صرامها وروى ذلك

على

عن ابن عباس رضى الله عنهما وقيل أربعة أشهر من حين ظهورها إلى إدراكها وقال سعيد بن المسيب شهران من حين تؤكل إلى الطرام وقال الربيع بن أنس كل حين أى كل غدوة وعشية لأن ثمر النخل يؤكل أبدا ليلا ونهارا وصيفا وشتاء إما تمرا أو رطبا أو بسرا كذلك عمل المؤمن يصعد أول النهار وآخره وبركة إيمانه لا تنقطع أبدا بل تصل اليه فى كل وقت والحكمة فى تمثيل الإيمان بالشجرة هى أن الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء عرق راسخ وأصل قائم وفرع عال كذلك الايمان لايتم إلا بثلاثة أشياء تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالأبدان. أخبرنا أبو عبد الله محمد ابن الفضل الخرقى أنبأنا أبو الحسن على بن عبد الله الطيسفونى أنبأنا عبد الله ابن عمر الجوهرى أنا أحمد ابن على الكشميهنى ثنا على بن حجر ثنا إسماعيل ابن جعفر ثنا عبد الله ابن دينار أنه سمع ابن عمر يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم فحدثونى ماهى قال عبد الله فوقع الناس فى شجر البوادى ووقع فى نفسى أنها النخلة فاستحييت ثم قالوا حدثنا ما هى يا رسول الله ؟ قال هى النخلة قال عبد الله فذكرت ذلك لعمر فقال لأن تكون قلت هى النخلة كان أحب إلى من كذا وكذا » وقيل الحكمة فى تشبيهها بالنخلة من بين سائر الأشجار أن النخلة شبه الأشجار بالإنسان من حيث إنها إذا قطع رأسها يبست وسائر الأشجار تتشعب من جوانبها بعد قطع رءوسها ولأنها تشبه الإنسان فى أنها لا تحمل إلا بالتلقيح ولأنها خلقت من فضل طينة آدم عليه السلام ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم « أكرموا عمتكم قيل ومن عمتنا قال النخلة » (ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة) وهى الشرك (كشجرة خبيثة) وهى الحنظل وقيل هى الثوم وقيل الكشوث وهى العشقة (اجتثت) يعنى انقلعت (من فوق الأرض مالها من قرار) ثبات معناه وليس لها أصل ثابت فى الأرض ولا فرع

(٤١)

على القليل والكثير واختلفوا فى مقداره هذا وقال مجاهد وعكرمة الحين هنا سنة كاملة لأن النخلة تثمر فى كل سنة مرة واحدة وقال سعيد بن جبير وقتادة والحسن ستة أشهر يعنى من وقت طلعها إلى حين صرامها وروى ذلك عن ابن عباس أيضا وقال على بن أبى طالب ثمانية أشهر يعنى أن مدة حملها باطنا وظاهرا ثمانية أشهر وقيل أربعة أشهر من حين ظهور حملها إلى إدراكها وقال سعيد بن المسيب شهران يعنى من وقت أن يؤكل منها إلى صرامها وقال الربيع بن أنس كل حين يعنى غدوة وعشية لأن ثمر النخل يؤكل أبدا ليلا ونهارا وصيفا وشتاء فيؤكل منها الجمار والطلع والبلح والبسر والمنصف والرطب وبعد ذلك يؤكل التمر اليابس إلى حين الطرى الرطب فأكلها دائم فى كل وقت قال العلماء ووجه الحكمة فى تمثيل هذه الكلمة التى هى كلمة الإخلاص وأصل الإيمان بالنخلة حاصل من أوجه: أحدها أن كلمة الإخلاص شديدة الثبوت فى قلب المؤمن كثبوت أصل النخلة فى الأرض. الوجه الثانى أن هذه الكلمة ترفع عمل المؤمن إلى السماء كما قال تعالى إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وكذلك فرع النخلة الذى هو عال فى السماء. الوجه الثالث أن ثمر النخلة يأتى فى كل حين ووقت وكذلك ما يكسبه المؤمن من الأعمال الصالحة فى كل وقت وحين ببركة هذه الكلمة فالمؤمن كلما قال لا إله إلا الله صعدت إلى السماء وجاءته بركتها وثوابها وخيرها ومنفعتها. الوجه الرابع أن النخلة شبيهة بالإنسان فى غالب الأمر لأنها خلقت من فضلة طينة آدم وأنها إذا قطع رأسها تموت كالآدمى بخلاف سائر الشجر فانه إذا قطع نبت وأنها لا تحمل حتى تلقح بطلع الذكر. الوجه الخامس فى وجه الحكمة فى تمثيل الإيمان بالشجر على الإطلاق لأن الشجرة لا تسمى شجرة إلا بثلاثة أشياء عرق راسخ وأصل ثابت وفرع قائم وكذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالأبدان وقوله سبحانه وتعالى (ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) يعنى أن فى ضرب الأمثال زيادة فى الأفهام وتصويرا للمعانى وتذكيرا ومواعظ لمن تذكر واتعظ. قوله تعالى (ومثل كلمة خبيثة) وهو الشرك (كشجرة خبيثة) يعنى الحنظل قاله أنس بن مالك ومجاهد وفى رواية عن ابن عباس إنها الكشوث وعنه أيضا أنها الثوم وعنه أيضا أنها الكافر لأنه لا يقبل عمله فليس له أصل ثابت ولا يصعد إلى السماء (اجتثت) يعنى استؤصلت وقطعت (من فوق الأرض مالها من قرار) يعنى مالهذه الشجرة من ثبات فى الأرض لأنها ليس لها أصل ثابت فى الأرض ولا فرع صاعد إلى السماء كذلك الكافر لا خير فيه ولا يصعد له قول طيب ولا عمل صالح ولا لاعتقاده أصل ثابت فهذا وجه تمثيل الكافر بهذه

صاعد إلى السماء كذلك الكافر لا خير فيه ولا يصعد له قول طيب ولا عمل صالح . قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا
بالقول الثابت) كلمة التوحيد وهى قول لا إله إلا الله (فى الحياة الدنيا) يعنى قبل الموت (وفى الآخرة) يعنى فى القبر هذا قول
أكثر المفسرين وقيل فى الحياة الدنيا عند السؤال فى القبر وفى الآخرة عند البعث والأول أصح أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنبأنا
أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو الوليد ثنا شعبة أخبرنى علقمة بن مرثد قال سمعت سعيد بن
عبيدة عن البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « المسلم إذا سئل فى القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول
الله فذلك قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » . أخبرنا إسمعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر
ابن محمد أنبأنا محمد بن عيسى الجلودى أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنبأنا مسلم بن الحجاج ثنا محمد بن بشار ثنا محمد
ابن جعفر ثنا شعبة بهذا الإسناد (٤٢) عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت قال
نزلت فى عذاب القبر يقال له من ربك ؟ فيقول ربى الله ونبيى محمد فذلك قوله تعالى « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت » الآية » وأخبرنا عبد الواحد المليحى أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عياش بن الوليد ثنا عبد الأعلى ثنا سعيد عن قتادة عن أنس بن مالك أنه حدثهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه أنه يسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان ما كنت تقول فى هذا الرجل لمحمد ﷺ فأما المؤمن فيقول أشهد
أنه عبد الله ورسوله فيقال له انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة فيراهما يوم
جميعاً » قال قتادة وذكر لنا أنه يفسح له فى قبره ثم رجع إلى حديث أنس قال « وأما المنافق والكافر فيقال له ما كنت
تقول فى هذا الرجل فيقول لا أدرى كنت أقول مايقول الناس فيقال له لا دريت ولا تليت ويضرب بمطارق من حديد
ضربة فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين » أخبرنا أبو الفرج المظفر بن إسمعيل التميمى ثنا أبو القاسم حمزة بن يوسف
السهمى أنبأنا أبو أحمد عبد الله بن عدى الحافظ ثنا عبد الله بن سعيد ثنا أسد بن موسى ثنا عنبسة بن سعد بن كثير حدثنى جدى
عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن الميت يسمع خفق النعال إذا ولى عنه الناس مدبرين ثم يجلس ويوضع
كفنه فى عنقه ثم يسأل » وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « إذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان
يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير فيقولان ما كنت تقول فى هذا الرجل فيقول هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله

الشجرة الخبيثة » عن أنس قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقناع عليه رطب فقال مثل كلمة
طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها قال هى النخلة
ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار قال هى الحنظلة أخرجه
الترمذى مرفوعا وموقوفا ، وقال الموقوف أصح . قوله سبحانه وتعالى (يثبت الله الذين آمنوا
بالقول الثابت) لما وصف الله الكلمة الطيبة فى الآية المتقدمة أخبر فى هذه الآية أنه يثبت الذين
آمنوا بالقول الثابت والقول الثابت هى الكلمة الطيبة وهى شهادة أن لا إله إلا الله فى قول جمهور
المفسرين . ولما وصف الكلمة الخبيثة فى الآية المتقدمة بكلمة الشرك قال فى هذه الآية ويضل الله
الظالمين يعنى بالكلمة الخبيثة وهى كلمة الشرك فى قول جميع المفسرين وقوله (فى الحياة الدنيا)
يعنى فى القبر عند السؤال (وفى الآخرة) يعنى يوم القيامة عند البعث والحساب وهذا القول واضح
ويدل عليه ماروى عن البراء بن عازب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن المسلم
إذا سئل فى القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قوله يثبت الله الذين آمنوا بالقول
الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة قال نزلت فى عذاب القبر زاد فى رواية يقال له من ربك فيقول
ربى الله ونبيى محمد صلى الله عليه وسلم » أخرجه البخارى ومسلم (ق) عن أنس أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال « إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه وأنه ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا
أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل محمد فأما المؤمن فيقول أشهد أنه
عبد الله ورسوله فيقال له أنظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدا من الجنة قال النبى صلى
الله عليه وسلم فيراهما جميعا قال قتادة ذكر لنا أنه يفسح له فى قبره ، ثم رجع إلى حديث أنس
وأما المنافق وفى رواية وأما الكافر فيقول لا أدرى كنت أقول مايقول الناس فيه فيقال لا دريت
ولا تليت ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين »
لفظ البخارى ولمسلم بمعناه زاد فى رواية « أنه يفسح له فى قبره سبعون ذراعا ويملأ عليه خضرا إلى

إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله فيقولان قد كنا نعلم أنك تقول هذا ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعا فى سبعين ثم
ينور له فيه ثم يقال له نم فيقول أرجع إلى أهلى فأخبرهم فيقولان نم كنومة العروس الذى لا يوقظه إلا أحب أهله إليه
حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك وإن كان منافقا أو كافرا قال سمعت الناس يقولون قولا فقلت مثله لا أدرى فيقولان قد
كنا نعلم أنك تقول ذلك فيقال للأرض التئمى عليه فتلتئم عليه فتختلف أضلاعه فلا يزال فيها معذبا
حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك » وروى عن البراء ابن عازب « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر قبض روح المؤمن وقال فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فى قبره ويقولان له من ربك وما دينك ومن نبيك فيقول ربي الله ودينى الاسلام ونبيى محمد فينتهرانه ويقولان له الثانية من ربك وما دينك ومن نبيك وهى آخر فتنة تعرض على المؤمن فيثبته الله عز وجل فيقول ربى الله ودينى الإسلام ونبيى محمد صلى الله عليه وسلم فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى قال فذلك قوله تعالى « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضى أنبأنا أبو العباس عبد الله بن محمد بن هارون الطيسفونى أخبرنا
أبو الحسن محمد بن أحمد الترابى أنبأنا أبو بكر أحمد بن محمد بن عمر بن بسطام أنبأنا أبو الحسن أحمد بن سيار القرشى ثنا إبراهيم
ابن موسى الفراء أبو إسحاق ثنا هشام بن يوسف ثنا عبد الله بن بحير عن هانئ مولى عثمان قال « كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا فرغ
من دفن الرجل وقف عليه وقال استغفروا لأخيكم واسألوا الله له التثبيت فإنه الآن يسأل » وقال عمرو بن العاص فى سياق
الموت وهو يبكى فإذا أنا مت فلا تصحبنى نائحة ولا نار فإذا دفنتمونى فسنوا على التراب سنا ثم أقيموا حول قبرى

يوم يبعثون » وأخرجه أبو داود عن أنس قال وهذا لفظه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن
المؤمن إذا وضع فى قبره آتاه ملك فيقول ما كنت تعبد فان هداه الله قال كنت أعبد الله فيقول له
ما كنت تقول فى هذا الرجل فيقول هو عبد الله ورسوله فلا يسئل عن شىء بعدها فينطلق به إلى
بيت كان له فى النار فيقال له هذا كان مقعدك ولكن عصمك الله فأبدلك به بيتا فى الجنة فيراه
فيقول دعونى حتى أذهب فابشر أهلى فيقال له اسكن وأن الكافر والمنافق إذا وضع فى قبره آتاه
ملك فينهضه فيقول ما كنت تعبد فيقول لا أدرى فيقال له لا دريت ولا تليت فيقال له ما كنت
تقول فى هذا الرجل فيقول كنت أقول ما يقول الناس فيه فيضربه بمطراق من حديد بين أذنيه
فيصيح صيحة يسمعها الخلق غير الثقلين » وأخرجه النسائى أيضا عن أبى هريرة أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال « إذا قبر الميت أو قال إذا قبر أحدكم آتاه ملكان أسودان أزرقان يقال
لأحدهما المنكر وللآخر النكير فيقولان ما كنت تقول فى هذا الرجل فيقول كنت أقول هو
عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله فيقولان قد كنا نعلم أنك تقول
هذا ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعا ثم ينور له فيه ثم يقال له نم فيقول أرجع إلى أهلى فأخبرهم
فيقولان نم كنومة العروس الذى لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله تعالى من مضجعه ذلك
وإن كان منافقا فيقول سمعت الناس يقولون قولا فقلت مثلهم لا أدرى فيقولان قد كنا نعلم
أنك كنت تقول ذلك فيقال للأرض التئمى عليه فتلتئم عليه فتختلف أضلاعه » فلا يزال فيها
معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك » أخرجه الترمذى عن البراء بن عازب قال « خرجنا مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ، ولما يلحد بعد
فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله كأنما على رءوسنا الطير وبيده عود ينكت
به فى الأرض فرفع رأسه صلى الله عليه وسلم فقال تعوذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثا
زاد فى رواية وقال إن الميت ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حين يقال له يا هذا من ربك
وما دينك ومن نبيك وفى رواية يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له ؟ من ربك فيقول ربى الله
فيقولان له وما دينك؟ فيقول دينى الإسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم فيقول هو
رسول الله فيقولان وما يدريك ؟ فيقول قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقت ، زاد فى رواية
فذلك قوله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ثم لقناه قال فينادى
مناد من السماء إن صدق عبدى فأفرشوا له من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة فيأتيه من ريحها
وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره وإن كان الكافر فذكر موته قال : فتعاد روحه فى جسده
فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان ما دينك فيقول هاه
هاه لا أدرى فيقولان ما هذا الرجل الذى بعث فيكم فيقول هاه هاه لا أدرى فينادى مناد من السماء

قدر ما ينحر جزور ويقسم لحمه حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربى قوله تعالى (ويضل الله الظالمين)
أى لا يهدى المشركين إلى الجواب بالصواب فى القبر (ويفعل الله مايشاء) من التوفيق والخذلان والتثبيت
وترك التثبيت قوله تعالى (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا) الآية أخبرنا عبدالواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن إسماعيل ثنا سفيان ثنا عمرو عن عطاء عن ابن عباس فى قوله تعالى «الذين بدلوا نعمة الله كفرا » قال هم والله كفار قريش وقال عمرو هم قريش ومحمد صلى الله عليه وسلم نعمة الله (وأحلوا قومهم دار البوار) قال البوار يوم بدر قوله بدلوا نعمة الله أى غيروا نعمة الله عليهم فى محمد صلى الله عليه وسلم حيث ابتعثه الله منهم كفروا كفروا به فأحلوا أى أنزلوا قومهم ممن تابعهم على كفرهم دار البوار الهلاك، ثم بين دار البوار فقال (جهنم يصلونها) يدخلونها (وبئس القرار) المستقر وعن على كرم الله وجهه الذين بدلوا نعمة الله كفرا هم كفار قريش نحروا يوم بدر وقال عمر بن الخطاب هم الأفجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية أما بنو المغيرة فكفيتموهم
يوم بدر وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين (وجعلوا لله أندادا) أمثالا وليس لله تعالى ند (ليضلوا) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وكذلك فى الحج وسورة لقمان والزمر ليضل وقرأ الآخرون بضم الياء على معنى ليضلوا الناس (عن سبيله (قل

أن قد كذب عبدى فافرشوا له من النار وألبسوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه زاد فى رواية ثم يقيض له أعمى أبكم أصم معه مرزبة من حديد لو ضرب بها جبلا لصار ترابا فيضربه بها ضربة يسمعها من بين المشرق والمغرب إلا الثقلين فيصير ترابا ثم تعاد فيه الروح» أخرجه أبو داود عن عثمان بن عفان قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال ؟ استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فانه الآن يسأل» أخرجه أبو داود عن عبدالرحمن بن شماسة المهرى قال حضرنا عمرو بن العاص وهو فى سياق الموت فبكى بكاء طويلا وحول وجهه إلى الجدار وجعل ابنه يقول ما يبكيك ياأبتاه أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا وكذا فأقبل بوجهه وقال إن أفضل مانعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وذكر الحديث بطوله وفيه فاذا أنا مت فلا تصحبنى نائحة ولا نار فاذا دفنتمونى فسنوا على التراب سنا ، ثم أقيموا حول قبرى قدر ماتنحر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربى » أخرجه مسلم بزيادة طويلة فيه قيل المراد من التثبيت بالقول الثابت هو أن الله تعالى إنما يثبتهم فى القبر بسبب كثرة مواظبتهم على شهادة الحق فى الحياة الدنيا وحبهم لها فمن كانت مواظبته على شهادة الإخلاص أكثر كان رسوخها فى قلبه أعظم فينبغى للعبد المسلم أن يكثر من قول لا إله إلا الله محمد رسول الله فى جميع حالاته من قيامه وقعوده ونومه ويقظته وجميع حركاته وسكناته فلعل الله عز وجل أن يرزقه ببركة مواظبته على شهادة الإخلاص التثبيت فى القبر ويسهل عليه جواب الملكين بما فيه خلاصه من عذاب الآخرة ، نسأل الله التثبيت فى القبر وحسن الجواب وتسهيله بفضله ومنه وكرمه وإحسانه إنه على كل شىء قدير وقوله تعالى (ويضل الله الظالمين) يعنى أن الله تعالى لا يهدى المشركين إلى الجواب الصواب فى القبر (ويفعل الله مايشاء) يعنى من التوفيق والخذلان والهداية والأضلال والتثبيت وتركه لا اعتراض عليه فى جميع أفعاله لا يسئل عما يفعل وهم يسألون . قوله عز وجل (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا) (خ) عن ابن عباس فى قوله ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا قال هم كفار مكة وفى رواية هم والله كفار قريش قال عمر هم قريش ونعمة الله هو محمد صلى الله عليه وسلم (وأحلوا قومهم دار البوار) قال البوار يوم بدر وعن على رضى الله عنه قال هم كفار قريش فجروا يوم بدر ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه الأفجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية أما بنو المغيرة فقد كفيتموهم يوم بدر وأما بنو أمية فقد متعوا إلى حين فقوله بدلوا نعمة الله كفرا معناه أن الله تعالى لما أنعم على قريش بمحمد صلى الله عليه وسلم فأرسله إليهم وأنزل عليه كتابه ليخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان اختاروا الكفر على الإيمان وغيروا نعمة الله عليهم وقيل يجوز أن يكون بدلوا شكر نعمة الله عليهم كفرا لأنهم لما وجب عليهم الشكر بسبب هذه النعمة أتوا بالكفر فكأنهم غيروا الشكر وبدلوه بالكفر وأحلوا قومهم يعنى ومن تبعهم على دينهم وكفرهم دار البوار يعنى دار الهلاك ثم فسرها بقوله (جهنم يصلونها وبئس القرار) يعنى المستقر (وجعلوا لله أندادا) يعنى أمثالا وأشباها من الأصنام وليس لله تعالى ند ولا شبيه ولا مثيل تعالى الله عن الند والشبيه والمثيل علوا كبيرا (ليضلوا عن سبيله) يعنى ليضلوا الناس عن طريق الهدى ودين الحق

(قل تمتعوا) أى قل يا محمد لهؤلاء الكفار تمتعوا فى الدنيا أياما قلائل (فان مصيركم إلى النار) يعنى فى الآخرة . قوله تعالى (قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة) يعنى يقيموا الصلاة الواجبة وإقامتها إتمام أركانها (وينفقوا مما رزقناهم) قيل أراد بهذا الإنفاق إخراج الزكاة الواجبة وقيل أراد به جميع الإنفاق فى جميع وجوه الخير والبر وحمله على العموم أولى ليدخل فيه إخراج الزكاة والإنفاق فى جميع وجوه البر (سرا وعلانية) يعنى ينفقون أموالهم فى حال السر وحال العلانية وقيل أراد بالسر صدقة التطوع وبالعلانية إخراج الزكاة الواجبة (من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه) قال أبو عبيدة البيع هنا الفداء يعنى لا فداء فى ذلك اليوم (ولا خلال) يعنى ولا خلة وهى المودة والصداقة التى تكون مخاللة بين اثنين وقال مقاتل إنما هو يوم لا بيع فيه ولا شراء ولا مخاللة ولا قرابة إنما هى الأعمال إما أن يثاب بها أو يعاقب عليها . فان قلت كيف نفى الخلة فى هذه الآية وفى الآية التى فى سورة البقرة وأثبتها فى قوله « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين» . قلت الآية الدالة على نفى الخلة محمولة على نفى الخلة الحاصلة ، بسبب ميل الطبيعة ورعونة النفس والآية الدالة على حصول الخلة وثباتها محمولة على الخلة الحاصلة بسبب محبة الله ألا تراه أثبتها للمتقين فقط ونفاها عن غيرهم وقيل إن ليوم القيامة أحوالا مختلفة ففى بعضها يشتغل كل خليل عن خليله وفى بعضها يتعاطف الأخلاء بعضهم على بعض إذا كانت تلك المخالة لله فى محبته . قوله عز وجل (الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج من الثمرات رزقا لكم) اعلم أنه تقدم تفسير هذه الآية فى مواضع كثيرة ونذكر هاهنا بعض فوائد هذه الآية الدالة على وجود الصانع المختار القادر الذى لا يعجزه شىء أراده ، فقوله تعالى الله الذى خلق السموات والأرض إنما بدأ بذكر خلق السموات والأرض لأنها أعظم المخلوقات الشاهدة الدالة على وجود الصانع الخالق القادر المختار وأنزل من السماء ماء يعنى من السحاب سمى السحاب سماء لارتفاعه مشتق من السمو وهو الارتفاع وقيل إن المطر ينزل من السماء إلى السحاب ومن السحاب إلى الأرض فأخرج به أى بذلك الماء من الثمرات رزقا لكم والثمر اسم يقع على ما يحصل من الشجر وقد يقع على الزرع أيضا بدليل قوله كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده وقوله من الثمرات بيان للرزق أى أخرج به رزقا هو الثمرات (وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره) لما ذكر الله سبحانه وتعالى إنعامه بانزال المطر وإخراج الثمر لأجل الرزق والانتفاع به ذكر نعمته على عباده بتسخير السفن الجارية على الماء لأجل الانتفاع بها فى جلب ذلك الرزق الذى هو الثمرات وغيرها من بلد إلى بلد آخر فهى من تمام نعمة الله على عباده (وسخر لكم الأنهار) يعنى ذللها لكم تجرونها حيث شئتم ولما كان ماء البحر لا ينتفع به فى سقى الزروع والثمرات ولا فى الشراب أيضا ذكر نعمته على عباده فى تسخير الأنهار وتفجير العيون لأجل هذه الحاجة فهو من أعظم نعم الله على عباده (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) الدأب العادة المستمرة دائما على حالة واحدة ودأب فى السير داوم عليه ، والمعنى أن الله سخر الشمس والقمر يجريان دائما فيما يعود إلى مصالح العباد لا يفتران إلى آخر الدهر وهو انقضاء عمر الدنيا وذهابها قال ابن عباس دؤبهما فى طاعة الله عز وجل وقال بعضهم معناه يدأبان فى طاعة الله أى فى مسيرهما وتأثيرهما فى إزالة الظلمة وإصلاح النبات والحيوان لأن الشمس سلطان النهار وبها تعرف فصول السنة والقمر سلطان الليل وبه يعرف انقضاء الشهور وكل ذلك بتسخير الله عز وجل وإنعامه على عباده وتسخيره لهم (وسخر لكم الليل والنهار) يعنى يتعاقبان فى الضياء

قل تمتعوا) عيشوا فى الدنيا (فان مصيركم إلى النار قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة) قال الفراء هذا جزم على الجزاء (وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال) مخاللة وصداقة (الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره باذنه (وسخر لكم الأنهار) ذللها لكم تجرونها حيث شئتم (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) يجريان فيما يعود إلى مصالح العباد ولا يفتران قال ابن عباس دؤبهما فى طاعة الله عز وجل (وسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان فى الضياء والظلمة

والظلمة والنقصان ، والزيادة وذلك من إنعام الله على عباده وتسخيره لهم (وآتاكم من كل ماسألتموه) لما ذكر الله سبحانه وتعالى النعم العظام التى أنعم الله بها على عباده وسخرها لهم بين بعد ذلك أنه تعالى لم يقتصر على تلك النعم بل أعطى عباده من المنافع والمرادات مالا يأتى على بعضها العد والحصر والمعنى وآتاكم من كل ماسألتموه شيئا فحذف شيئا اكتفاء بدلالة الكلام على التبعيض وقيل هو على التكثير يعنى وآتاكم من كل شىء سألتموه ومالم تسألوه لأن نعمه علينا أكثر من أن تحصى (وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها) يعنى أن نعم الله كثيرة على عباده فلا يقدر أحد على حصرها ولا عدها لكثرتها (إن الإنسان) قال ابن عباس يريد أبا جهل وقال الزجاج هو اسم جنس ولكن يقصد به الكافر (لظلوم كفار) يعنى ظلوم لنفسه كفار بنعمة ربه • وقيل الظلوم الشاكر لغير من أنعم عليه فيضع الشكر فى غير موضعه كفار جحود لنعم الله عليه وقيل يظلم النعمة باغفال شكرها كفار شديد الكفران لها وقيل ظلوم فى الشدة يشكو ويجزع كفار بالنعمة يجمع ويمنع .قوله سبحانه وتعالى (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا) يعنى ذا آمن يؤمن فيه وأراد بالبلد مكة . فان قلت أى فرق بين قوله اجعل هذا بلدا آمنا وبين قوله اجعل هذا البلد آمنا . قلت الفرق بينهما أنه سأل فى الأول أن يجعله من جملة البلاد التى يأمن أهلها فيها ولا يخافون وسأل فى الثانى أن يخرج هذا البلد من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنا (واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام) يعنى أبعدنى وبنى أن نعبد الأصنام . فان قلت قد توجه على هذه الآية إشكالات وهى من وجوه الأول أن إبراهيم دعا ربه أن يجعل مكة آمنة ثم إن جماعة من الجبابرة وغيرهم قد أغاروا عليها وأخافوا أهلها. الوجه الثانى أن الأنبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام معصومون عن عبادة الأصنام وإذا كان كذلك فما الفائدة فى قوله أجنبنى عن عبادتها . الوجه الثالث أن إبراهيم عليه السلام سأل ربه أيضا أن يجنب بنيه عن عبادة الأصنام ، وقد وجد كثير من بنيه عبد الأصنام مثل كفار قريش وغيرهم ممن ينسب إلى إبراهيم عليه السلام . قلت الجواب عن الوجوه المذكورة من وجوه فالجواب عن الوجه الأول من وجهين أحدهما أن إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة دعا بهذا الدعاء والمراد منه جعل مكة آمنة من الخراب وهذا موجود بحمد الله ولم يقدر أحد على خراب مكة وأورد على هذا ماورد فى الصحيح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة» أخرجاه فى الصحيحين وأجيب عنه بأن قوله اجعل هذا البلد آمنا يعنى إلى قرب القيامة وخراب الدنيا وقيل هو عام مخصوص بقصة ذو السويقتين فلا تعارض بين النصين . الوجه الثانى أن يكون المراد اجعل أهل هذا البلد آمنين وهذا الوجه عليه أكثر العلماء من المفسرين وغيرهم وعلى هذا فقد اختص أهل مكة بزيادة الأمن فى بلدهم كما أخبر الله سبحانه وتعالى بقوله ويتخطف الناس من حولهم وأهل مكة آمنون من ذلك حتى إن من التجأ إلى مكة أمن على نفسه وماله من ذلك وحتى إن الوحوش إذا كانت خارجة من الحرم استوحشت فاذا دخلت الحرم آمنت واستأنست لعلمها إنه لايهيجها أحد فى الحرم وهذا القدر من الأمن حاصل بحمد الله بمكة وحرمها وأما الجواب عن الوجه الثانى فمن وجوه أيضا . الوجه الأول أن دعاء إبراهيم عليه السلام لنفسه

لزيادة

والنقصان والزيادة:(وآتاكم من كل ماسألتموه) يعنى آتاكم من كل شىء سألتموه شيئا فحذف الشىء الثانى اكتفاء بدلالة الكلام على التبعيض وقيل هو على التكثير نحو قولك فلان يعلم كل شىء وأتاه كل الناس وأنت تريد بعضهم نظيره قوله تعالى فتحنا عليهم أبواب كل شىء وقرأ الحسن من كل بالتنوين ما على النفى يعنى من كل مالم تسألوه يعنى أعطاكم أشياء ماطلبتموها ولا سألتموها (وإن تعدوا نعمة الله) أى نعم الله (لاتحصوها) أى لاتطيقوا عدها ولا القيام بشكرها (إن الإنسان لظلوم كفار) أى ظالم لنفسه بالمعصية كافر بربه فى نعمته وقيل الظلوم الذى يشكر غير من أنعم عليه والكافر من يجحد منعمه قوله تعالى (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد) يعنى الحرم (آمنا) ذا أمن يؤمن فيه (واجنبنى) أبعدنى (وبنى أن نعبد الأصنام) يقال جنبت الشىء وأجنبته جنبا وجنبته تجنيبا واجتنبته اجتنابا بمعنى واحد فان قيل قد كان إبراهيم معصوما من عبادة الأصنام فكيف يستقيم السؤال وقد عبد كثير من بنيه الأصنام فأين الإجابة قيل الدعاء فى حق إبراهيم لزيادة العصمة والتثبيت وأما دعاؤه لبنيه فأراد بنيه من صلبه ولم يعبد منهم أحد الصنم وقيل إن دعاءه لمن كان

مؤمنا من بنيه (رب إنهن أضللن كثيرا من الناس) يعنى ضل بهن كثيرا من الناس عن طريق الهدى حتى عبدوهن وهذا من المقلوب نظيره قوله تعالى إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه أى يخوفهم بأوليائه وقيل نسب الأضلال إلى الأصنام لأنهن سبب فيه كما يقول القائل فتنتنى الدنيا نسب الفتنة إلى الدنيا لأنها سبب الفتنة (فمن تبعنى فانه منى) أى من أهل دينى وملتى (ومن عصانى فانك غفور رحيم) قال السدى معناه ومن عصانى ثم تاب وقال مقاتل بن حيان ومن عصانى فيما دون الشرك وقيل قال ذلك قبل أن يعلمه الله أنه لا يغفر الشرك قوله تعالى (ربنا إنى أسكنت من ذريتى) أدخل من للتبعيض ومجاز الآية أسكنت من ذريتى ولدا (بواد غير ذى زرع) وهو مكة لأن (٤٧) مكة واد بين جبلين (عند بيتك المحرم) سماه محرما لأنه يحرم عنده مالا يحرم عند غيره أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عبد الله بن محمد ثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن أيوب السختيانى وكثير بن أبى كثير بن المطلب بن أبى وداعة يزيد أحدهما على الآخر عن سعيد بن جبير قال قال ابن عباس أول ما اتخذ النساء المناطق من قبل أم إسمعيل اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة ثم جاء بها إبراهيم عليه السلام وبابنها إسمعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسمعيل فقالت يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شىء فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها فقالت له آلله أمرك بهذا قال نعم قالت إذن لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات فرفع يديه فقال ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع حتى بلغ يشكرون وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى اذا نفد مافى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلبط أو قال يتلوى وانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها فقامت عليها

لزيادة العصمة والتثبيت فهو كقوله واجعلنا مسلمين لك . الوجه الثانى أن إبراهيم عليه السلام وإن كان يعلم أن الله سبحانه وتعالى يعصمه من عبادة الأصنام إلا أنه دعا بهذا الدعاء هضما للنفس وإظهارا للعجز والحاجة والفاقة إلى فضل الله تعالى ورحمته وأن أحدا لا يقدر على نفع نفسه بشىء لم ينفعه الله به فلهذا السبب دعا لنفسه بهذا الدعاء وأما دعاؤه لبنيه وهو الوجه الثالث من الإشكالات فالجواب عنه من وجوه الأول أن إبراهيم دعا لبنيه من صلبه ولم يعبد أحد منهم صنما قط الوجه الثانى أنه أراد أولاده وأولاد أولاده الموجودين حالة الدعاء ولا شك أن إبراهيم عليه السلام قد أجيب فيهم الوجه الثالث قال الواحدى دعا لمن أذن الله أن يدعو له فكأنه قال وبنى الذين أذنت لى فى الدعاء لهم لأن دعاء الأنبياء مستجاب وقد كان من بنيه من عبد الصنم فعلى هذا الوجه يكون هذا الدعاء من العام المخصوص . الوجه الرابع أن هذا مختص بالمؤمنين من أولاده والدليل عليه أنه قال فى آخر الآية فمن تبعنى فانه منى وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فليس منه والله أعلم بمراده وأسرار كتابه . وقوله تعالى (رب إنهن) يعنى الأصنام (أضللن كثيرا من الناس) وهذا مجاز لأن الأصنام جمادات وحجارة لا تعقل شيئا حتى تضل من عبدها إلا أنه لما حصل الإضلال بعبادتها أضيف إليها كما تقول فتنتهم الدنيا وغرتهم وإنما فتنوا بها واغتروا بسببها (فمن تبعنى فانه منى) يعنى فمن تبعنى على دينى واعتقادى فانه منى يعنى المتدينين بدينى المتمسكين بحبلى كما قال الشاعر :

إذا حاولت فى أسد فجورا ... فانى لست منك ولست منى

أراد ولست من المتمسكين بحبلى وقيل معناه أنه منى حكمه حكمى جار مجراى فى القرب والاختصاص (ومن عصانى) يعنى فى غير الدين (فانك غفور رحيم) قال السدى ومن عصانى ثم تاب فانك غفور رحيم وقال مقاتل ومن عصانى فيما دون الشرك فانك غفور رحيم وشرح أبو بكر بن الأنبارى هذا فقال ومن عصانى فخالفنى فى بعض الشرائع وعقائد التوحيد فانك غفور رحيم إن شئت أن تغفر له غفرت إذا كان مسلما وذكر وجهين آخرين أحدهما أن هذا كان قبل أن يعلمه الله أنه لا يغفر الشرك كما استغفر لأبويه وهو يقول أن ذلك غير محظور ، فلما عرفت أنهما غير مغفور لهما تبرأ منهما والوجه الآخر ومن عصانى بإقامته على الكفر فانك غفور رحيم يعنى أنك قادر على أن تغفر له وترحمه بأن تنقله من الكفر إلى الإيمان والإسلام وتهديه إلى الصواب . قوله عز وجل إخبارا عن إبراهيم (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم) (خ) عن ابن عباس قال أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقا

ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادى رفعت طرف درعها
ثم سعت سعى الانسان المجهود حتى جاوزت الوادى ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ففعلت
ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم فلذلك سعى الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت
صوتا فقالت صه تريد نفسها (٤٨) ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت قد أسمعت إن كان عندك غواث فاذا هى
بالملك عند موضع زمزم
فبحث بعقبه أو قال
بجناحه حتى ظهر الماء
فجعلت تخوضه وتقول
بيدها هكذا وجعلت
تغرف من الماء فى سقائها
وهو يفور بعد ماتغرف
قال ابن عباس قال النبى
صلى الله عليه وسلم «يرحم
الله أم إسمعيل لو تركت
زمزم أو قال لو لم تغرف
من الماء فى سقائها لكانت
زمزم عينا معينا» قال
فشربت وأرضعت ولدها
فقال لها الملك لاتخافوا
الضيعة وإن هناك بيت
الله يبنيه هذا الغلام وأبوه
وإن الله لا يضيع أهله
وكان موضع البيت مرتفعا
من الأرض كالرابية
تأتيه السيول فتأخذ عن
يمينه وشماله فكانت
كذلك حتى مرت بهم
رفقة من جرهم أو أهل
بيت من جرهم مقبلين
من طريق كداء فنزلوا
فى أسفل مكة فرأوا طائرا
عائفا فقالوا إن هذا
الطائر ليدور على ماء ولعهدنا بهذا الوادى ومافيه
ماء فأرسلوا جريا أو جريين اذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا وأم إسمعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل
عندك فقالت نعم ولكن لاحق لكم فى الماء قالوا نعم قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم فألفى ذلك أم إسمعيل
وهى تحب الأنس فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم

لتعفى أثرها على سارة ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت
عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء، فوضعهما هناك
ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل؟ فقالت
ياإبراهيم إلى أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شىء فقالت له ذلك مرارا
وجعل لايلتفت إليها فقالت الله أمرك بهذا قال نعم قالت إذن لايضيعنا ثم رجعت فانطلق إبراهيم
فدعا بهذه الدعوات فرفع يديه « فقال رب إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع حتى بلغ
يشكرون وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد مافى السقاء
عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه
فوجدت الصفاء أقرب جبل فى الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا
فلم تر أحدا فهبطت منه حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود
حتى جاوزت الوادى ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ففعلت ذلك
سبع مرات قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم فلذلك سعى الناس بينهما فلما أشرفت
على المروة سمعت صوتا فقالت صه تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت صوتا أيضا فقالت قد أسمعت
أن كان عندك غواث فاذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء
فجعلت تخوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ماتغرف وفى
رواية قدر ماتغرف قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت
زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا» قال فشربت وأرضعت ولدها فقال
لها الملك لاتخافى الضيعة فان هاهنا بيتا لله تعالى يبنيه هذا الغلام وأبوه وأن الله لايضيع أهله وكان
البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله فكانت كذلك حتى
مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا فى أسفل مكة
فرأوا طائرا عائفا فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء فأرسلوا
جريا أو جريين فاذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا
أن ننزل عندك قالت نعم ولكن لاحق لكم فى الماء قالوا نعم قال ابن عباس قال النبى صلى الله
عليه وسلم فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى
إذا كانوا بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وآنسهم وأعجبهم حين شب فلما
أدرك زوجوه بامرأة منهم وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ماتزوج إسماعيل يطالع تركته
أخرجه البخارى بأطول من هذا وقد تقدم الحديث بطوله فى تفسير سورة البقرة وأما تفسير الآية
فقوله ربنا إنى أسكنت من ذريتى من للتبعيض أى بعض ذريتى وهو إسماعيل عليه السلام بواد غير ذى
زرع

ذى زرع يعنى ليس فيه زرع لأنه واد بين جبلين جبل أبي قبيس وجبل أجياد وهو وادى مكة عند بيتك المحرم سماه محرما لأنه يحترم عنده مالا يحترم عند غيره وقيل لأن الله حرمه على الجبابرة فلم ينالوه بسوء وحرم التعرض له والتهاون به وبحرمته وجعل ماحوله محرما لمكانه وشرفه، وقيل لأنه حرم على الطوفان بمعنى امتنع منه وقيل سمى محرما لأن الزائرين له يحرمون على أنفسهم أشياء كانت مباحة لهم من قبل وسمى عتيقا أيضا لأنه أعتق من الجبابرة أو من الطوفان . فان قلت كيف قال عند بيتك المحرم ولم يكن هناك بيت حينئذ وإنما بناه إبراهيم بعد ذلك . قلت يحتمل أن الله عز وجل أوحى إليه وأعلمه أن له هناك بيتا قد كان فى سالف الزمان وأنه سيعمر فلذلك قال عند بيتك المحرم وقيل يحتمل أن يكون المعنى عند بيتك الذى كان ثم رفع عند الطوفان وقيل يحتمل أن يكون المعنى عند بيتك الذى جرى فى سابق علمك أنه سيحدث فى هذا المكان (ربنا ليقيموا الصلاة) اللام فى ليقيموا متعلقة بأسكنت يعنى أسكنت قوما من ذريتى وهم إسماعيل وأولاده بهذا الوادى الذى لازرع فيه ليقيموا أى لأجل أن يقيموا أو لكى يقيموا الصلاة (فاجعل أفئدة من الناس) قال البغوى جمع الموفد (تهوى إليهم) تحن وتشتاق إليهم قال السدى رحمه الله أمل قلوبهم إلى هذا الموضع وقال ابن الجوزى أفئدة من الناس أى قلوب جماعة من الناس فلهذا جعله جمع فؤاد قال ابن الأنبارى وإنما عبر عن القلوب بالأفئدة لقرب القلب من الفؤاد فجعل القلب والفؤاد جارحتين وقال الجوهرى الفؤاد القلب والجمع أفئدة فجعلهما جارحة واحدة ولفظة من فى قوله من الناس للتبعيض قال مجاهد لو قال أفئدة الناس لزاحمتكم فارس والروم والترك والهند وقال سعيد بن جبير لحجت اليهود والنصارى والمجوس ولكنه قال أفئدة من الناس فهم المسلمون تهوى إليهم قال الأصمعى يقال هوى يهوى هويا إذا سقط من علو إلى أسفل وقال الفراء تهوى إليهم تريدهم كما تقول رأيت فلانا يهوى نحوك معناه يريدك وقال أيضا تهوى تسرع إليهم وقال ابن الأنبارى معناه تنحط إليهم وتنحدر وتنزل هذا قول أهل اللغة فى هذا الحرف وأما أقوال المفسرين فقال ابن عباس يريد تحن إليهم لزيارة بيتك وقال قتادة تسرع إليهم وفى هذا بيان أن حنين الناس إليهم إنما هو لطلب حج البيت لا لأعيانهم وفيه دعاء للمؤمنين بأن يرزقهم حج البيت ودعاء لسكان مكة من ذريته بأنهم ينتفعون بمن يأتى إليهم من الناس لزيارة البيت فقد جمع إبراهيم عليه السلام فى هذا الدعاء من أمر الدين والدنيا ماظهر بيانه وعمت بركاته (وارزقهم من الثمرات) يعنى كما رزقت سكان القرى ذوات الماء والزرع فيكون المراد عمارة قرى بقرب مكة لتحصل تلك الثمار وقيل يحتمل أن يكون المراد جلب الثمرات إلى مكة بطريق النقل والتجارة فهو كقوله تعالى يجبى إليه ثمرات كل شىء . وقوله تعالى (لعلهم يشكرون) يعنى لعلهم يشكرون هذه النعم التى أنعمت بها عليهم وقيل معناه لعلهم يوحدونك ويعظمونك وفيه دليل على أن تحصيل منافع الدنيا إنما هو ليستعان بها على أداء العبادات وإقامة الطاعات (ربنا إنك تعلم مانخفى وما نعلن) يعنى إنك تعلم السر كما تعلم العلن عما لاتفاوت فيه والمعنى أنك تعلم أحوالنا ومايصلحنا وما يفسدنا وأنت أرحم بنا منا فلا حاجة بنا إلى الدعاء والطلب إنما ندعوك إظهارا للعبودية لك وتخشعا لعظمتك وتذللا لعزتك وافتقارا إلى ماعندك، وقيل معناه تعلم مانخفى من الوجد بفرقة إسماعيل وأمه حيث أسكنتهما بواد غير ذى زرع وما نعلن

وكان أنفسهم وأعجبهم حين شبّ فلما أدرك زوجوه امرأة منهم وماتت أم إسمعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسمعيل يطالع تركته ذكرنا تلك القصة فى سورة البقرة . قوله تعالى (ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس) الأفئدة جمع الفؤاد (تهوى إليهم) تشتاق وتحن إليهم قال السدى معناه أمل قلوبهم إلى هذا الموضع قال مجاهد لو قال أفئدة الناس لزاحمتكم فارس والروم والترك والهند وقال سعيد بن جبير لحجت اليهود والنصارى والمجوس ولكنه قال أفئدة من الناس وهم المسلمون (وارزقهم من الثمرات) مارزقت سكان القرى ذوات الماء (لعلهم يشكرون ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن) من أمورنا . وقال ابن عباس ومقاتل من الوجد باسمعيل وأمه حيث أسكنتهما بواد غير ذى زرع

(وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء) قيل هذا كله قول إبراهيم متصل بما قبله وقال الأكثرون يقول الله عز وجل وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر) أعطاني على كبر السن (إسماعيل وإسحق إن ربي لسميع الدعاء) قال ابن عباس ولد إسماعيل لإبراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد إسحق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة وقال سعيد بن جبير بشر إبراهيم باسحاق وهو ابن مائة وسبع عشرة سنة (رب اجعلني مقيم الصلاة) يعني ممن يقيم الصلاة بأركانها ويحافظ عليها (ومن ذريتي) يعني اجعل من ذريتي من يقيمون الصلاة (ربنا وتقبل دعاء) أي عملي وعبادتي سمى العبادة دعاء وجاء في الحديث «الدعاء مخ العبادة» وقيل معناه استجب دعائي (ربنا اغفر لي ولوالدي). فان قيل كيف استغفر لوالديه وهما غير مؤمنين قيل قد قيل إن أمه أسلمت وقيل أراد أسلما وتابا وقيل قال ذلك قبل أن يتبين له أمر أبيه وقد بين الله عذر خليله في استغفاره لأبيه في سورة التوبة (وللمؤمنين) أي اغفر للمؤمنين كلهم (يوم يقوم الحساب) أي يبدو ويظهر، وقيل أراد يوم الحساب يوم

يعني من البكاء وقيل ما نخفي يعني من الحزن المتمكن في القلب وما نعلن يعني ما جرى بينه وبين هاجر عند الوداع حين قالت لإبراهيم عليه السلام إلى من تكلنا قال إلى الله قالت إذا لا يضيعنا (وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء) فقيل هذا من تتمة قول إبراهيم يعني وما يخفى على الله الذي هو عالم الغيب من شيء في كل مكان وقال الأكثرون إنه من قول الله تعالى تصديقا لإبراهيم فيما قال فهو كقوله وكذلك يفعلون (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق) قال ابن عباس ولد إسماعيل لإبراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة وقال سعيد بن جبير بشر إبراهيم باسحاق وهو ابن مائة وسبع عشرة سنة، ومعنى قوله على الكبر مع الكبر لأن هبة الولد في هذا السن من أعظم المنن لأنه سن اليأس من الولد فلهذا شكر الله على هذه المنة فقال الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق. فإن قلت كيف جمع بين إسماعيل وإسحاق في الدعاء في وقت واحد وإنما بشر باسحاق بعد إسماعيل بزمان طويل. قلت يحتمل أن إبراهيم عليه السلام إنما أتى بهذا الدعاء عند ما بشر باسحاق وذلك أنه لما عظمت المنة على قلبه بهبة ولدين عظيمين عند كبره قال عند ذلك الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق ولا يرد على هذا ما ورد في الحديث أنه دعا بما تقدم عند مفارقة إسماعيل وأمه لأن الذي صح في الحديث أنه دعا بقوله ربنا إني أسكنت من ذريتي إلى قوله لعلهم يشكرون إذا ثبت هذا فيكون قوله الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق في وقت آخر والله أعلم بحقيقة الحال (إن ربي لسميع الدعاء) كان إبراهيم عليه السلام قد دعا ربه وسأله الولد بقوله «رب هب لي من الصالحين» فلما استجاب الله دعاءه ووهبه ما سأل شكر الله على ما أكرمه به من إجابة دعائه فعند ذلك قال الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء وهو من قولك سمع الملك كلام فلان إذا اعتد به وقبله (رب اجعلني مقيم الصلاة) يعني ممن يقيم الصلاة بأركانها ويحافظ عليها في أوقاتها (ومن ذريتي) أي واجعل من ذريتي من يقيم الصلاة وإنما أدخل لفظة من التي هي للتبعيض في قوله ومن ذريتي لأنه علم باعلام الله إياه أنه قد يوجد من ذريته جمع من الكفار لا يقيمون الصلاة فلهذا قال ومن ذريتي وأراد بهم المؤمنين من ذريته (ربنا وتقبل دعاء) سأل إبراهيم عليه السلام ربه أن يتقبل دعاءه فاستجاب الله لإبراهيم وقبل دعاءه بفضله ومنه وكرمه (ربنا اغفر لي) فان قلت طلب المغفرة من الله إنما يكون لسابق ذنب قد سلف حتى يطلب المغفرة من ذلك الذنب وقد ثبت عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الذنوب فما وجه طلب المغفرة له. قلت المقصود منه الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى وقطع الطمع من كل شيء إلا من فضله وكرمه والاعتراف بالعبودية لله تعالى والاتكال على رحمته (ولوالدي). فان قلت كيف استغفر إبراهيم لأبويه وكانا كافرين. قلت أراد أنهما إن أسلما وتابا وقيل إنما قال ذلك قبل أن يتبين له أنهما من أصحاب الجحيم وقيل إن أمه أسلمت فدعا لها وقيل أراد بوالديه آدم وحواء (وللمؤمنين) يعني واغفر للمؤمنين كلهم (يوم يقوم الحساب) يعني يوم يبدو ويظهر الحساب وقيل أراد يوم الناس للحساب فاكتفى بذلك أي بذكر الحساب لكونه مفهوما عند السامع وهذا دعاء للمؤمنين بالمغفرة والله سبحانه وتعالى لا يرد دعاء خليله إبراهيم عليه

السلام

يقوم الناس للحساب فاكتفى بذكر الحساب لكونه مفهوما . قوله تعالى (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) الغفلة معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقيقة الأمور والآية لتسلية المظلوم وتهديد الظالم (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) أى لا تغمض من هول ماترى فى ذلك اليوم وقيل ترتفع وتزول عن أماكنها (مهطعين) قال قتادة مسرعين قال سعيد بن جبير الإهطاع النسلان كعدو الذئب وقال مجاهد مديمى النظر ، ومعنى الاهطاع أنهم لا يلتفتون يمينا ولا شمالا ولا يعرفون مواطن أقدامهم (مقنعى رءوسهم) أى رافعى رءوسهم قال القتيبى المقنع الذى يرفع رأسه ويقبل ببصره على مابين يديه وقال الحسن وجوه الناس يومئذ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد (لا يرتد إليهم طرفهم) لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر وهى شاخصة قد شغلهم مابين أيديهم (وأفئدتهم هواء) أى خالية . قال قتادة خرجت قلوبهم على صدورهم فصارت فى حناجرهم لا تخرج من أفواههم ولا تعود إلى مكانها فأفئدتهم هواء لا شىء فيها ومنه سمى ما بين السماء والأرض هواء لخلوه وقيل خالية لا تعى شيئا ولا تعقل من الخوف وقال الأخفش جوفا ولا عقول لها والعرب تسمى كل أجوف خلو هواء وقال سعيد بن جبير وأفئدتهم هواء أى مترددة تمور فى أجوافهم ليس لها مكان تستقر فيه وحقيقة المعنى أن القلوب زائلة عن أماكنها والأبصار شاخصة من هول ذلك اليوم (وأنذر الناس) خوفهم (يوم) أى بيوم (يأتيهم العذاب) هو

السلام ففيه بشارة عظيمة لجميع المؤمنين بالمغفرة . قوله سبحانه وتعالى (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) الغفلة معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقائق الأمور وقيل حقيقة الغفلة سهو يعترى الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ وهذا فى حق الله محال فلا بد من تأويل الآية فالمقصود منها أنه سبحانه وتعالى ينتقم من الظالم للمظلوم ففيه وعيد وتهديد للظالم وإعلام له بأن لا يعامله معاملة الغافل عنه بل ينتقم ولا يتركه مغفلا قال سفيان بن عيينة فيه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم . فان قلت تعالى الله عن السهو والغفلة فكيف يحسبه رسول الله صلى الله عليه وسلم غافلا وهو أعلم الناس به أنه لم يكن غافلا حتى قيل له ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون . قلت إذا كان المخاطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم ففيه وجهان : أحدهما التثبيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلا فهو كقوله « ولا تكونن من المشركين — ولا تدع مع الله إلها آخر » وكقوله سبحانه وتعالى « ياأيها الذين آمنوا آمنوا » أى اثبتوا على ما أنتم عليه من الإيمان . الوجه الثانى أن المراد بالنهى عن حسابه غافلا الإعلام بأنه سبحانه وتعالى عالم بما يفعل الظالمون ولا يخفى عليه شىء وأنه ينتقم منهم فهو على سبيل الوعيد والتهديد لهم والمعنى ولا تحسبنه معاملهم معاملة الغافل عنهم ولكن يعاملهم معاملة الرقيب الحفيظ عليهم المحاسب لهم على الصغير والكبير وإن كان المخاطب غير النبى صلى الله عليه وسلم فلا إشكال فيه ولا سؤال لأن أكثر الناس غير عارفين بصفات الله فمن جوز أن يحسبه غافلا فلجهله بصفاته (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) يقال شخص بصر الرجل إذا بقيت عيناه مفتوحتين لا يطرفهما . وشخوص البصر يدل على الحيرة والدهشة من هول ماترى فى ذلك اليوم (مهطعين) قال قتادة مسرعين وهذا قول أبى عبيدة فعلى هذا المعنى أن الغالب من حال من بقى بصره شاخصا من شدة الخوف أن يبقى واقفا باهتا فبين الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية أن أحوال أهل الموقف يوم القيامة بخلاف الحال المعتادة فأخبر سبحانه وتعالى أنهم مع شخوص الأبصار يكونون مهطعين يعنى مسرعين نحو الداعى وقيل المهطع الخاضع الذليل الساكت (مقنعى رءوسهم) الاقناع رفع الرأس إلى فوق فأهل الموقف من صفتهم أنهم رافعو رءوسهم إلى السماء وهذا بخلاف المعتاد لأن من يتوقع البلاء فانه يطرق ببصره إلى الأرض قال الحسن وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد وهو قوله تعالى (لا يرتد إليهم طرفهم) أى لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة الخوف فهى شاخصة لا ترتد إليهم قد شغلهم مابين أيديهم (وأفئدتهم هواء) أى خالية قال قتادة خرجت قلوبهم من صدورهم فصارت فى حناجرهم فلا تخرج من أفواههم ولا تعود إلى أماكنها ومعنى الآية أن أفئدتهم خالية فارغة لا تعى شيئا ولا تعقل من شدة الخوف وقال سعيد بن جبير وأفئدتهم هواء مترددة تهوى فى أجوافهم ليس لها مكان تستقر فيه ، ومعنى الآية أن القلوب يومئذ زائلة عن أماكنها والأبصار شاخصة والرءوس مرفوعة إلى السماء من هول ذلك اليوم وشدته (وأنذر الناس) يعنى وخوف الناس يامحمد بيوم القيامة وهو قوله سبحانه وتعالى (يوم يأتيهم العذاب

يوم القيامة (فيقول الذين ظلموا) أشركوا (ربنا أخرنا) أمهلنا (إلى أجل قريب) هذا سؤالهم الرد إلى الدنيا اى ارجعنا إليها (نجب دعوتك ونتبع الرسل) فيجابون (أو لم تكونوا أقسمتم من قبل) حلفتم فى دار الدنيا (مالكم من زوال) عنها أى لا تبعثون وهو قوله تعالى « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت » (وسكنتم) فى الدنيا (فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم) بالكفر والعصيان يعنى قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم (وتبين لكم كيف فعلنا بهم) أى عرفتم عقوبتنا إياهم (وضربنا لكم الأمثال) أى بينا أن مثلكم كمثلهم (وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم) أى جزاء مكرهم (وإن كان مكرهم) قرأ على وابن مسعود وإن كاد مكرهم بالدال وقرأ العامة بالنون (لتزول منه الجبال) قرأ العامة لتزول بكسر اللام الأولى ونصب الثانية معناه وما كان مكرهم لتزول قال الحسن إن كان مكرهم لأضعف من أن تزول منه الجبال وقيل معناه إن مكرهم لايزيل أمر محمد صلى الله عليه وسلم الذى هو ثابت كثبوت الجبال وقرأ ابن جريج والكسائى لتزول بفتح اللام الأولى ورفع الثانية معناه أن مكرهم وإن عظم حتى بلغ محلا يزيل الجبال لم يقدروا على إزالة أمر محمد وقال قتادة معناه وإن كان مكرهم شركهم لتزول منه الجبال وهو قوله تعالى «وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا» ويحكى عن على ابن أبى طالب رضى الله عنه فى معنى الآية أنها نزلت فى نمرود الجبار الذى حاج إبراهيم فى ربه وذلك أنه قال إن كان مايقول إبراهيم حقا فلا أنتهى حتى أصعد السماء فأعلم ما فيها فعمد إلى أربعة أفراخ من النسور فرباها حتى شبت واتخذ تابوتا وجعل له بابا من أعلى وبابا من أسفل وقعد نمرود مع رجل فى التابوت ونصب خشبات فى أطراف التابوت وجعل على رءوسها اللحم وربط التابوت بأرجل النسور وخلاها فطرن وصعدن طمعا فى اللحم حتى مضى يوم وأبعدن فى الهواء فقال نمرود لصاحبه افتح الباب الأعلى وانظر إلى السماء هل قربنا منها ففتح الباب ونظر فقال إن السماء كهيئتها ثم قال افتح الباب الأسفل وانظر إلى الأرض كيف تراها ففعل فقال أرى مثل اللجة والجبال مثل الدخان فطارت النسور يوما آخر وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران فقال لصاحبه افتح البابين ففتح الأعلى فاذا السماء كهيئتها وفتح الأسفل فاذا الأرض سوداء مظلمة فنودى أيها الطاغية أين تريد . قال عكرمة كان معه فى التابوت غلام قد حمل معه القوس والنشاب فرمى بسهم فعاد إليه السهم متلطخا بدم سمكة قذفت نفسها من بحر فى الهواء وقيل طائر أصابه السهم فقال كفيت شغل إله

فيقول الذين ظلموا) يعنى ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصى (ربنا أخرنا إلى أجل قريب) يعنى أمهلنا مدة يسيرة قال بعضهم طلبوا الرجوع إلى الدنيا حتى يؤمنوا فينفعهم ذلك وهو قوله تعالى (نجب دعوتك ونتبع الرسل) فأجيبوا بقوله (أو لم تكونوا أقسمتم من قبل) يعنى فى دار الدنيا (مالكم من زوال) يعنى ما لكم عنها انتقال ولا بعث ولا نشور (وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم) يعنى بالكفر والمعاصى ممن كان قبلكم من كفار الأمم الخالية كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم (وتبين لكم كيف فعلنا بهم) يعنى وقد عرفتم كيف كان عقوبتنا إياهم (وضربنا لكم الأمثال) يعنى الأمثال التى ضربها الله عز وجل فى القرآن ليتدبروها ويعتبروا بها فيجب على كل من شاهد أحوال الماضين من الأمم الخالية والقرون الماضية وعلم ماجرى لهم وكيف أهلكوا أن يعتبر بهم ويعمل فى خلاص نفسه من العقاب والهلاك . قوله سبحانه وتعالى (وقد مكروا مكرهم) اختلفوا فى الضمير إلى من يعود فى قوله وقد مكروا فقيل يعود إلى الذين سكنوا فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وهذا القول صحيح لأن الضمير يجب عوده إلى أقرب مذكور وقيل إن المراد بقوله وقد مكروا كفار قريش الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ومكرهم ماذكره الله تعالى بقوله تعالى «وإذ يمكر بك الذين كفروا» الآية والمعنى وأنذر الناس يامحمد يوم يأتيهم العذاب يعنى بسبب مكرهم بك . وقوله تعالى (وعند الله مكرهم) يعنى جزاء مكرهم وقيل إن مكرهم مثبت عند الله ليجازيهم به يوم القيامة (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) يعنى وإن كان مكرهم لأضعف من أن تزول منه الجبال وقيل معناه إن مكرهم لايزيل أمر محمد صلى الله عليه وسلم الذى هو ثابت كثبوت الجبال وقد حكى عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فى الآية قولا آخر وهو أنها نزلت فى نمرود الجبار الذى حاج إبراهيم فى ربه فقال نمرود إن كان مايقول إبراهيم حقا فلا أنتهى حتى أصعد إلى السماء فأعلم مافيها فعمد إلى أربعة أفراخ من النسور فرباهن

السماء قال ثم أمر نمرود صاحبه أن يصوب الخشبات وينكص اللحم ففعل فهبطت النسور بالتابوت فسمعت الجبال خفق التابوت والنسور ففزعت وظنت أنه قد حدث حدث من السماء وأن الساعة قد قامت فكادت تزول عن أماكنها فذلك قوله تعالى « وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال » (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) بالنصر لأوليائه وهلاك أعدائه وفيه تقديم وتأخير تقديره ولا تحسبن الله مخلف رسله وعده (إن الله عزيز ذو انتقام) (٥٣) قوله تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر ابن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم ابن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا خالد بن مخلد عن محمد ابن جعفر بن أبي كثير حدثني أبو حازم بن دينار عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد وأخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد ابن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد ابن إسمعيل ثنا يحيى بن بكير ثنا الليث عن خالد هو ابن يزيد عن سعيد ابن أبي هلال عن زيد ابن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلا لأهل الجنة » وعن ابن مسعود في هذه الآية قال تبدل الأرض بأرض كفضة بيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم تعمل فيها خطيئة وقال علي بن أبي طالب تبدل الأرض من فضة والسماء من ذهب وقال محمد بن كعب وسعيد بن جبير تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه وقيل معنى التبديل جعل السموات جنانا وجعل

فرباهن حتى كبرت وشبت واتخذ تابوتا من خشب وجعل له بابا من أعلى وبابا من أسفل ثم جوع النسور ونصب خشبات أربعا في أطراف التابوت وجعل على رءوس تلك الخشبات لحما أحمر وقعد هو في التابوت وأقعد معه رجلا آخر وأمر بالنسور فربطت في أطراف التابوت من أسفل فجعلت النسور كلما رأت اللحم رغبت فيه وطارت إليه فطارت النسور يوما أجمع حتى بعدت في الهواء فقال نمرود لصاحبه افتح الباب الأعلى وانظر إلى السماء هل قربنا منها ففتح ونظر فقال له إن السماء كهيئتها فقال له افتح الباب الأسفل فانظر إلى الأرض كيف تراها ففعل فقال أرى الأرض مثل اللجة والجبال مثل الدخان قال فطارت النسور يوما آخر وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران فقال نمرود لصاحبه افتح الباب الأعلى ففعل فاذا السماء كهيئتها وفتح الباب الأسفل فاذا الأرض سوداء مظلمة فنودي أيها الطاغي أين تريد قال عكرمة وكان معه في التابوت غلام قد حمل القوس والنشاب وأخذ معه الترس ورمى بسهم فعاد إليهم السهم ملطخا بدم سمكة قذفت بنفسها من بحر في الهواء وقيل إن طائرا أصابه السهم فلما رجع إليه السهم ملطخا بالدم قال كفيت إله السماء ثم أمر نمرود صاحبه أن يصوب الخشبات إلى أسفل وينكس اللحم ففعل فهبطت النسور بالتابوت فسمعت الجبال خفيق التابوت والنسور ففزعت وظنت أنه قد حدث حدث من السماء إن الساعة قد قامت فكادت تزول عن أماكنها فذلك قوله تعالى وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال واستبعد بعض العلماء هذه الحكاية وقال إن الخطر فيه عظيم ولا يكاد عاقل أن يقدم على مثل هذا الأمر العظيم وليس فيه خبر صحيح يعتمد عليه ولا مناسبة لهذه الحكاية بتأويل الآية البتة (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) يعني فلا تحسبن الله يا محمد مخلف ما وعد به رسله من النصر وإعلاء الكلمة وإظهار الدين فانه ناصر رسله وأوليائه ومهلك أعدائه وفيه تقديم وتأخير تقديره ولا تحسبن الله مخلف رسله وعده (إن الله عزيز) أي غالب (ذو انتقام) يعني من أعدائه قوله عز وجل (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) ذكر المفسرون في معنى هذا التبديل قولين أحدهما أنه تبدل صفة الأرض والسماء لا ذاتهما فأما تبديل الأرض فبتغيير صفتها وهيئتها مع بقاء ذاتها وهو أن تدك جبالها وتسوى وهادها وأوديتها وتذهب أشجارها وجميع ما عليها من عمارة وغيرها لا يبقى على وجهها شيء إلا ذهب وتمدمد الأديم وأما تبديل السماء فهو أن تنتثر كواكبها وتطمس شمسها وقمرها ويكوران كونها تارة كالدهان وتارة كالمهل وبهذا القول قال جماعة من العلماء ويدل على صحة هذا القول ما روى عن سهل ابن سعد قال : قال رسول صلى الله عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس بها علم لأحد » أخرجاه في الصحيحين العفراء بالعين المهملة وهي البيضاء

الأرض نيرانا وقيل تبديل الأرض تغييرها من هيئة إلى هيئة وهي تسيير جبالها وطم أنهارها وتسوية أوديتها وقلع أشجارها وجعلها قاعا صفصفا وتبديل السموات تغييرها عن حالها بتكوير شمسها وخسوف قمرها وانتثار نجومها وكونها مرة كالدهان ومرة كالمهل أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد ابن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا علي بن مسهر عن داود وهو ابن أبي هند عن الشعبي عن مسروق عن عائشة قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله عز وجل «يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات» فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله فقال على الصراط» وروى عن ثوبان أن حبرا من أحبار اليهود سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض قال «هم في الظلمة دون الجسر» وقوله تعالى (وبرزوا) خرجوا من قبورهم (لله الواحد القهار) الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد (وترى المجرمين يومئذ مقرنين) مشدودين بعضهم ببعض (في الأصفاد) في القيود والأغلال واحدها صفد وكل من شددته شدا وثيقا فقد صفدته . بالأصفاد قال أبو عبيدة تقول العرب صفدت الرجل فهو مصفود وصفدته بالتشديد فهو مصفد وقيل يقرن كل كافر مع شيطانه في سلسلة بيانه قوله تعالى «احشروا الذين ظلموا وأزواجهم» يعني قرناءهم من الشياطين وقيل معناه مقرنة أيديهم وأرجلهم إلى

إلى حمرة ولهذا شبهها بقرصة النقي وهو الخبز الجيد البياض الفائق المائل إلى حمرة كأن النار ميلت بياض وجهها إلى الحمرة وقوله ليس بها علم لأحد يعني ليس فيها علامة لأحد بتبديل هيئتها وزوال جبالها وجميع بنائها فلا يبقى فيها أثر يستدل به والقول الثاني هو تبديل ذوات الأرض والسماء وهذا قول جماعة من العلماء ثم اختلفوا في معنى هذا التبديل فقال ابن مسعود في معنى هذه الآية قال تبدل الأرض بأرض كالفضة بيضاء نقية لم يسفك بها دم ولم يعمل عليها خطيئة وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه الأرض من فضة والسماء من ذهب وقال أبي بن كعب في معنى التبديل بأن تصير الأرض نيرانا والسماء جنانا وقال أبو هريرة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب القرظي تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه عن أبي سعيد الخدري قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفؤ أحدكم خبزته في السفر نزلا لأهل الجنة» أخرجاه في الصحيحين بزيادة فيه قال الشيخ محيي الدين النووي في شرح هذا الحديث أما النزل فبضم النون والزاي ويجوز إسكان الزاي وهو ما يعد للضيف عند نزوله وأما الخبزة فبضم الخاء وقال أهل اللغة هي الظلمة التي توضع في الملة يتكفؤها بالهمزة بيده أي يميلها من يد إلى يد حتى تجتمع وتسوى لأنها ليست منبسطة كالرقاقة وقد حققنا الكلام في اليد في حق الله سبحانه وتعالى وتأويلها مع القطع باستحالة الجارحة عليه ليس كمثله شيء ومعنى الحديث أن الله سبحانه وتعالى يجعل الأرض كالظلمة أي الرغيف العظيم وتكون طعاما نزلا لأهل الجنة والله على كل شيء قدير . فإن قلت إذا فسرت التبديل بما ذكرت فكيف يمكن الجمع بينه وبين قوله تعالى يومئذ تحدث أخبارها وهو أن تحدث أخبارها وهو أن تحدث بكل ما عمل عليها قلت وجه الجمع بين الآيتين أن الأرض تبدل أولا صفتها مع بقاء ذاتها كما تقدم فيومئذ تحدث أخبارها ثم بعد ذلك تبدل تبديلا ثانيا وهو أن تبدل ذاتها بغيرها كما تقدم أيضا ويدل على صحة هذا التأويل ما روي «عن عائشة قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله فقال على الصراط» أخرجه مسلم «وروى ثوبان أن حبرا من اليهود سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض قال هم في الظلمة دون الجسر» ذكره البغوي بغير سند ففي هذين الحديثين دليل على أن تبديل الأرض ثاني مرة يكون بعد الحساب والله أعلم بمراده وأسرار كتابه . وقوله تعالى (وبرزوا) يعني وخرجوا من قبورهم (لله) يعني لحكم الله والوقوف بين يديه للحساب (الواحد القهار) صفتان لله تعالى فالواحد الذي لا ثاني له ولا شريك معه المنزه عن الشبه والضد والند والقهار الغالب الذي يقهر عباده على ما يريد ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . قوله تعالى (وترى المجرمين يومئذ مقرنين) يعني مشدودين بعضهم إلى بعض يقال قرنت الشيء بالشيء إذا شددته معه في رباط واحد (في الأصفاد) يعني في القيود والأغلال قال ابن عباس يقرن كل كافر مع شيطانه في سلسلة وقال أبو زيد تقرن أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم

رقابهم بالأصفاد وبالقيود ومنه قيل للجبل قرن (سرابيلهم) أي قمصهم واحدها سربال (من قطران) هو ماتهنأ به الإبل وقرأ عكرمة ويعقوب من قطرآن على كلمتين منونتين والقطر النحاس والصفر المذاب والآن الذى انتهى حره قال الله تعالى يطوفون بينها وبين حميم آن (وتغشى وجوههم النار) أي تعلو (ليجزي الله كل نفس ما كسبت) من خير أوشر (إن الله سريع الحساب هذا) أى هذا القرآن (بلاغ) أى تبليغ وعظة (للناس ولينذروا) وليخوفوا (به وليعلموا إنما هو إله واحد) أي ليستدلوا بهذه الآيات على وحدانية الله (وليذكر أولوا الألباب) أي ليتعظ أولوا العقول .

(سورة الحجر) مكية وهى تسعة وتسعون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الر) معناه أنا الله أرى (تلك آيات الكتاب) أى هذه آيات الكتاب (وقرآن) أي وآيات قرآن (مبين) أى بين الحلال من الحرام والحق من الباطل فان قيل لما ذكر الكتاب ثم قال وقرآن مبين وكلاهما واحد قلنا قد قيل كل واحد منهما يفيد فائدة أخرى فان الكتاب مايكتب والقرآن مايجمع بعضه إلى بعض وقيل المراد بالكتاب التوراة والإنجيل وبالقرآن هذا الكتاب (ربما) قرأ أبو جعفر ونافع وعاصم بتخفيف الباء والباقون بتشديدها وهما لغتان ورب للتقليل وكم للتكثير ورب تدخل على الاسم وربما على الفعل يقال رب رجل جاءني وربما جاءني رجل وأدخل ما ههنا للفعل بعدها (يود) يتمنى (الذين كفروا لو كانوا مسلمين) واختلفوا فى الحالة التى يتمنى الكافر فيها الإسلام قال الضحاك حالة المعاينة وقيل يوم القيامة والمشهور أنه

بالأصفاد وهى القيود وقال ابن قتيبة يقرن بعضهم إلى بعض (سرابيلهم) يعنى قمصهم واحدها سربال وقيل السربال كل مالبس (من قطران) القطران دهن يتحلب من شجر الأبهل والعرعر والتوت كالزفت تدهن به الإبل إذا جربت وهو الهناء يقال هنأت البعير أهنؤه بالهناء وهو القطران قال الزجاج وإنما جعل لهم القطران سرابيل لأنه يبالغ فى اشتعال النار فى الجلود ولو أراد الله المبالغة فى إحراقهم بغير ذلك لقدر ولكنه حذرهم مما يعرفون وقرأ عكرمة ويعقوب من قطرآن على كلمتين منونتين فالقطر النحاس المذاب والآن الذى انتهى حره (وتغشى وجوههم النار) يعنى تعلوها وتجللها (ليجزى الله كل نفس ما كسبت) يعنى من خير أوشر (إن الله سريع الحساب) يعنى إذا حاسب عباده يوم القيامة (هذا بلاغ للناس) يعنى هذا القرآن فيه تبليغ وموعظة للناس (ولينذروا) يعنى وليخوفوا بالقرآن ومواعظه وزواجره (وليعلموا أنما هو إله واحد) يعنى وليستدلوا بهذه الآيات على وحدانية الله تعالى (وليذكر أولوا الألباب) يعنى وليتعظ بهذا القرآن وما فيه من المواعظ أولوا العقول والأفهام الصحيحة فانه موعظة لمن اتعظ والله أعلم بمراده وأسرار كتابه :

(تفسير سورة الحجر)

مكية باجماعهم وهى تسع وتسعون آية وستمائة وأربع وخمسون كلمة وألفان وسبعمائة وستون حرفا .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله سبحانه وتعالى (الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) تلك إشارة إلى ماتضمنته السورة من الآيات والمراد بالكتاب وبالقرآن المبين الكتاب الذى وعد به الله محمدا صلى الله عليه وسلم وتنكير القرآن للتفخيم والتعظيم والمعنى تلك آيات الكتاب الكامل فى كونه كتابا وفى كونه قرآنا وأى قرآن كأنه قيل الكتاب الجامع للكمال والغرابة فى البيان وقيل أراد بالكتاب التوراة والإنجيل لأن عطف القرآن على الكتاب والمعطوف غير المعطوف عليه وهذا القول ليس بالقوى لأنه لم يجر للتوراة والإنجيل ذكر حتى يشار إليهما وقيل المراد بالكتاب القرآن وإنما جمعهما بوصفين وإن كان الموصوف واحدا لما فى ذلك من الفائدة وهى التفخيم والتعظيم والمبين الذى يبين الحلال من الحرام والحق من الباطل (ربما) قرىء بالتخفيف والتشديد وهما لغتان ورب للتقليل وكم للتكثير وإنما زيدت ما مع رب ليليها الفعل تقول رب رجل جاءنى وربما جاءنى زيد وإن شئت جعلت ما بمنزلة شىء كأنك قلت رب شىء فتكون المعنى رب شىء (يود الذين كفروا) وقيل ما فى ربما بمعنى حين أى رب حين يود يعنى يتمنى الذين كفروا لأن التمنى هو تشهى حصول مايوده واختلف المفسرون فى الوقت الذى يتمنى الذين كفروا (لو كانوا مسلمين) على قولين أحدهما أن ذلك يكون عند معاينة العذاب وقت الموت فحينئذ يعلم الكافر أنه كان على الضلال فيتمنى لو كان مسلما وذلك حين لاينفعه ذلك التمنى قول

الضحاك هو عند حالة المعاينة والقول الثانى إن هذا التمنى يكون فى الآخرة وذلك حين يعاينون أهوال يوم القيامة وشدائده وما يصيرون عليه من العذاب فحينئذ يتمنى الذين كفروا لو كانوا مسلمين وقال الزجاج أن الكافر كلما رأى حالا من أحوال العذاب ورأى حالا من أحوال المسلم ود لو كان مسلما وقيل إذا رأى الكافر أن الله تعالى يرحم المسلمين ويشفع بعضهم فى بعض حين يقول من كان من المسلمين فليدخل الجنة فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين والقول المشهور أن ذلك التمنى حين يخرج الله المؤمنين من النار عن أبى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال إذا اجتمع أهل النار فى النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفار لمن فى النار من أهل القبلة ألستم مسلمين قالوا فما أغنى عنكم إسلامكم وأنتم معنا فى النار قالوا كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيغفرها الله لهم بفضل رحمته فيأمر الله بكل من كان من أهل القبلة فى النار فيخرجون منها فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ذكره البغوى بغير سند وكذا ذكره ابن الجوزى وقال وإليه ذهب ابن عباس فى رواية عنه عن أنس بن مالك ومجاهد وعطاء وأبو العالية وإبراهيم يعنى النخعى . فان قلت رب إنما وضعت للتقليل وتمنى الذين كفروا لو كانوا مسلمين يكثر يوم القيامة فكيف قال ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين . قلت : قال صاحب الكشاف هو وارد على مذهب العرب فى قولهم لعلك ستندم على فعلك وربما ندم الإنسان على فعله ولا يشكون فى تندمه ولا يقصدون تقليله ولكنهم أرادوا لو كان الندم مشكوكا فيه أو كان قليلا لحق عليك أن لا تفعل هذا الفعل لأن العقلاء يتحرزون من التعرض للغم المظنون كما يتحرزون من المتيقن ومن القليل منه كما يتحرزون من الكثير وقال غيره إن هذا القليل أبلغ فى التهديد ومعناه يكفيك قليل الندم فى كونه زاجرا لك عن هذا الفعل فكيف بكثيره وقيل أن شغلهم بالعذاب لا يفرغهم للندامة إنما يخطر ذلك ببالهم . فان قلت رب لا تدخل إلا على الماضى فكيف قال ربما يود وهو فى المستقبل قلت لأن المترقب فى أخبار الله تعالى بمنزلة الماضى المقطوع به فى تحققه كأنه قال ربما ود . قوله سبحانه وتعالى (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا) يعنى دع يا محمد هؤلاء الكفار يأكلوا فى دنياهم ويتمتعوا بلذاتها (ويلههم الأمل) يعنى ويشغلهم طول الأمل عن الإيمان والأخذ بطاعة الله تعالى (فسوف يعلمون) يعنى إذا وردوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا وهذا فيه تهديد ووعيد لمن أخذ بحظه من الدنيا ولذاتها ولم يأخذ بحظه من طاعة الله عز وجل وقال بعض أهل العلم ذرهم تهديد وفسوف يعلمون تهديد آخر فمتى يهنأ العيش بين تهديدين وهذه الآية منسوخة بآية القتال وفى الآية دليل على أن إيثار التلذذ والتنعم فى الدنيا يؤدى إلى طول الأمل وليس ذلك من أخلاق المؤمنين قال على بن أبى طالب إنما أخشى عليكم اثنتين طول الأمل واتباع الهوى فان طول الأمل ينسى الآخرة واتباع الهوى يصد عن الحق (وما أهلكنا من قرية) يعنى من أهل قرية وأراد إهلاك الاستئصال (إلا ولها كتاب معلوم) أى أجل مضروب ووقت معين لا يتقدم العذاب عليه ولا يتأخر عنه ولا يأتيهم إلا فى الوقت الذى حد لهم فى اللوح المحفوظ (ما تسبق من أمة أجلها) من زائدة فى قوله من أمة كقولك ما جاءنى من أحد وقيل هى على أصلها لأنها تفيد التبعيض إلى هذا الحكم فيكون ذلك فى إفادة عموم النفى آكد ومعنى الآية

أهل النار فى النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفار لمن فى النار من أهل القبلة ألستم مسلمين قالوا بلى قالوا فما أغنى عنكم إسلامكم وأنتم معنا فى النار فقالوا كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيغفر الله لهم بفضل رحمته فيأمر بكل من كان من أهل القبلة فى النار فيخرجون منها فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين » فان قيل كيف قال ربما وهى للتقليل وهذا التمنى يكثر من الكفار قلنا قد تذكر ربما للتكثير أو أراد أن شغلهم بالعذاب لا يفرغهم للندامة إنما يخطر ذلك ببالهم أحيانا (ذرهم) يا محمد يعنى الذين كفروا (يأكلوا) فى الدنيا (ويتمتعوا) من لذاتها (ويلههم) يشغلهم (الأمل) عن الأخذ بحظهم من الإيمان والطاعة (فسوف يعلمون) إذا وردوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا وهذا تهديد ووعيد وقال بعض أهل العلم ذرهم تهديد وقوله فسوف يعلمون تهديد آخر فمتى يهنأ العيش بين تهديدين والآية نسختها آية القتال (وما أهلكنا من قرية) أى من أهل قرية (إلا ولها كتاب معلوم) أى أجل مضروب لا يتقدم عليه ولا يأتيهم العذاب حتى يبلغوه ولا يتأخر عنهم (ما تسبق من أمة أجلها) من صلة أى ما تسبق أمة أن

مشركى مكة (يا أيها الذى نزل عليه الذكر) أى القرآن وأرادوا به محمدا صلى الله عليه وسلم (إنك لمجنون) وذكروا تنزيل الذكر على سبيل الاستهزاء (لوما) هلا (تأتينا بالملائكة) شاهدين لك بالصدق على ماتقول، إن الله أرسلك (إن كنت من الصادقين) أنك نبى (ما ننزل الملائكة) قرأ أهل الكوفة غير أبى بكر بنونين الملائكة نصب وقرأ أبو بكر بالتاء وضمها وفتح الزاى الملائكة رفع وقرأ الباقون بالتاء وفتحها وفتح الزاى الملائكة رفع (إلا بالحق) أى بالعذاب ولو نزلت يعنى الملائكة لعجلوا بالعذاب (وما كانوا إذا منظرين) أى مؤخرين وقد كان الكفار يطلبون إنزال الملائكة عيانا فأجابهم الله تعالى بهذا ومعناه أنهم لو نزلوا عيانا لزال عن الكفار الإمهال وعذبوا فى الحال (إنا نحن نزلنا الذكر) يعنى القرآن (وإنا له لحافظون) أى نحفظ القرآن من الشياطين أن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه أو يبدلوا بغيره قال الله تعالى «لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» والباطل هو إبليس لايقدر أن يزيد فيه ماليس منه ولاأن ينقص منه ماهو منه وقيل الهاء فى له راجعة إلى محمد صلى الله عليه وسلم أى

أن الرجل المضروب لهم وهو وقت الموت أو نزول العذاب لايتقدم ولا يتأخر وهو قوله سبحانه وتعالى (وما يستأخرون) وإنما أدخل الهاء فى أجلها لإرادة الأمة وإخراجها من قوله وما يستأخرون لإرادة الرجال . قوله عز وجل (وقالوا) يعنى مشركى مكة (ياأيها الذى نزل عليه الذكر) يعنى القرآن وأرادوا به محمدا صلى الله عليه وسلم (إنك لمجنون) إنما نسبوه إلى الجنون لأنه صلى الله عليه وسلم كان يظهر عند نزول الوحى عليه مايشبه الغشى فظنوا أن ذلك جنون فلهذا السبب نسبوه إلى الجنون وقيل إن الرجل إذا سمع كلاما مستغربا من غيره فربما نسبه إلى الجنون ولما كانوا يستبعدون كونه رسولا من عندالله وأتى بهذا القرآن العظيم أنكروه ونسبوه إلى الجنون وإنما قالوا ياأيها الذى نزل عليه الذكر على طريق الاستهزاء وقيل معناه ياأيها الذى نزل عليه الذكر فى زعمه واعتقاده واعتقاد أصحابه وأتباعه إنك لمجنون فى إدعائك الرسالة (لوما) قال الزجاج والفراء لوما ولولا لغتان ومعناهما هلا يعنى هلا (تأتينا بالملائكة) يعنى يشهدون لك بأنك رسول من عندالله حقا (إن كنت من الصادقين) يعنى فى قولك وإدعائك الرسالة (ما ننزل الملائكة إلا بالحق) يعنى بالعذاب أو وقت الموت وهو قوله تعالى (وما كانوا إذا منظرين) يعنى لو نزلت الملائكة إليهم لم يمهلوا ولم يؤخروا ساعة واحدة وذلك أن كفار مكة كانوا يطلبون من رسول الله صلى الله عليه وسلم إنزال الملائكة عيانا فأجابهم الله عز وجل بهذا والمعنى لو نزلوا عيانا لزال عن الكفار الإمهال وعذبوا فى الحال إن لم يؤمنوا ويصدقوا (إنا نحن نزلنا الذكر) يعنى القرآن أنزلناه عليك يامحمد وإنما قال سبحانه وتعالى إنا نحن نزلنا الذكر جوابا لقولهم ياأيها الذى نزل عليه الذكر فأخبر الله عز وجل أنه هو الذى نزل الذكر على محمد صلى الله عليه وسلم (وإنا له لحافظون) الضمير فى له يرجع إلى الذكر يعنى وإنا للذكر الذى أنزلناه على محمد لحافظون يعنى من الزيادة فيه والنقص منه والتغيير والتبديل والتحريف ، فالقرآن العظيم محفوظ من هذه الأشياء كلها لايقدر أحد من جميع الخلق من الجن والإنس أن يزيد فيه أو ينقص منه حرفا واحدا أو كلمة واحدة وهذا مختص بالقرآن العظيم بخلاف سائر الكتب المنزلة فانه قد دخل على بعضها التحريف والتبديل والزيادة والنقصان ولما تولى الله عز وجل حفظ هذا الكتاب بقى مصونا على الأبد محروسا من الزيادة والنقصان وقال ابن السائب ومقاتل الكناية فى له راجعة إلى محمد صلى الله عليه وسلم يعنى وإنا لمحمد لحافظون ممن أراده بسوء فهو كقوله تعالى «والله يعصمك من الناس » ووجه هذا القول أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر الإنزال والمنزل دل ذلك على المنزل عليه وهو محمد صلى الله عليه وسلم فحسن صرف الكناية إليه لكونه أمرا معلوما إلا أن القول الأول أصح وأشهر وهو قول الأكثرين لأنه أشبه بظاهر التنزيل ورد الكناية إلى أقرب مذكور أولى وهو الذكر وإذ قلنا أن الكناية عائدة إلى القرآن وهو الأصح فاختلفوا فى كيفية حفظ الله عز وجل للقرآن فقال بعضهم حفظه بأن جعله معجزا باقيا مباينا لكلام البشر فعجز الخلق عن الزيادة فيه والنقصان منه لأنهم لو أرادوا الزيادة فيه والنقصان منه لتغيير نظمه وظهر ذلك لكل عالم عاقل وعلموا ضرورة أن ذلك ليس بقرآن وقال آخرون إن الله حفظه وصانه من المعارضة فلم يقدر أحد من الخلق أن يعارضه وقال آخرون بل أعجز الله الخلق عن

قبلك) أى رسلا (فى شيع الأولين) أى فى الأمم والقرون الماضية والشيعة هم القوم المجتمعة المتفقة كلمتهم على رأى واحد (وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون) كما فعلوا بك ذكره تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم (كذلك نسلكه) أى كما سلكنا الكفر والتكذيب والاستهزاء بالرسل فى قلوب شيع الأولين كذلك نسلكه ندخله (فى قلوب المجرمين) يعنى مشركى مكة قومك وفيه رد على القدرية (لا يؤمنون به) يعنى لا يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن (وقد خلت) مضت (سنة الأولين) أى وقائع الله تعالى الإهلاك فيمن كذب الرسل من الأمم الخالية يخوف أهل مكة (ولو فتحنا عليهم) يعنى على الذين يقولون لو ماتأتينا بالملائكة (بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون) فظلت الملائكة يعرجون فيه وهم يرونها عيانا هذا قول الأكثرين وقال الحسن معناه فظل هؤلاء الكفار يعرجون فيه أى يصعدون والأول أصح (لقالوا إنما سكرت) سدت (أبصارنا) قاله ابن عباس وقال الحسن سحرت

إبطاله وإفساده بوجه من الوجوه فقيض الله له العلماء الراسخين يحفظونه ويذبون عنه إلى آخر الدهر لأن دواعى جماعة من الملاحدة واليهود متوفرة على إبطاله وإفساده فلم يقدروا على ذلك بحمد الله تعالى قوله سبحانه وتعالى (ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين) لما تجرأ كفار مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاطبوه بالسفاهة وهو قولهم إنك لمجنون وأساءوا الأدب عليه أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن عادة الكفار فى قديم الزمان مع أنبيائهم كذلك فلك يا محمد أسوة فى الصبر على أذى قومك بجميع الأنبياء ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وفى الآية محذوف تقديره ولقد أرسلنا رسلا من قبلك يا محمد فحذف ذكر الرسل لدلالة الإرسال عليه وقوله تعالى فى شيع الأولين الشيعة هم القوم المجتمعة المتفقة كلمتهم وقال الفراء الشيعة هم الأتباع وشيعة الرجل أتباعه وقيل الشيعة من يتقوى بهم الإنسان وقوله فى شيع الأولين من باب إضافة الصفة إلى الموصوف (وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين) السلوك النفاذ فى الطريق والدخول فيه والسلك إدخال الشىء فى الشىء كادخال الخيط فى المخيط ومعنى الآية كما سلكنا الكفر والتكذيب والاستهزاء فى قلوب شيع الأولين كذلك نسلكه أى ندخله فى قلوب المجرمين يعنى مشركى مكة وفيه رد على القدرية والمعتزلة وهى أبين آية فى ثبوت القدر لمن أذعن للحق ولم يعاند قال الواحدى قال أصحابنا أضاف الله سبحانه وتعالى إلى نفسه إدخال الكفر فى قلوب الكفار وحسن ذلك منه فمن آمن بالقرآن فليستحسنه وقال الإمام فخر الدين الرازى احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يخلق الباطل والضلال فى قلوب الكفار فقالوا قوله كذلك نسله أى كذلك نسلك الباطل والضلال فى قلوب المجرمين وقالت المعتزلة لم يجر للضلال والكفر ذكر فيما قبل هذا اللفظ فلا يمكن أن يكون الضمير عائد إليه وأجيب عنه بأنه سبحانه وتعالى قال ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون فالضمير فى قوله كذلك نسلكه عائد إليه والاستهزاء بالأنبياء كفر وضلال فثبت صحة قولنا أن المراد من قوله كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين أنه الكفر والضلال. قوله تعالى (لا يؤمنون به) بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل بالقرآن (وقد خلت سنة الأولين) فيه وعيد وتهديد لكفار مكة يخوفهم أن ينزل بهم مثل ما نزل بالأمم الماضية المكذبة للرسل والمعنى وقد مضت سنة الله باهلاك من كذب الرسل من الأمم الماضية فاحذروا يا أهل مكة أن يصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون) يعنى ولو فتحنا على هؤلاء الذين قالوا لو ما تأتينا بالملائكة بابا من السماء فظلوا يقال ظل فلان يفعل كذا إذا فعله بالنهار كما يقال بات يفعل كذا إذا فعله بالليل فيه يعنى فى ذلك الباب يعرجون يعنى يصعدون والمعارج المصاعد وفى المشار إليه بقوله فظلوا به يعرجون قولان: أحدهما أنهم الملائكة وهو قول ابن عباس والضحاك والمعنى لو كشف عن أبصار هؤلاء الكفار فرأوا بابا من السماء مفتوحا والملائكة تصعد فيه لما آمنوا. والقول الثانى أنهم المشركون وهو قول الحسن وقتادة والمعنى فظل المشركون يصعدون فى ذلك الباب فينظرون فى ملكوت السموات وما فيها من الملائكة لما آمنوا لعنادهم وكفرهم ولقالوا إنا سحرنا وهو قوله تعالى (لقالوا إنما سكرت أبصارنا) قال ابن عباس سدت أبصارنا مأخوذ من سكر النهر إذا حبس ومنع من الجرى وقيل هو من سكر الشراب والمعنى

وقال قتادة أخذت وقال الكلبي عميت وقرأ ابن كثير سكرت بالتخفيف أى حبست ومنعت النظر كما يسكر النهر لحبس الماء (بل نحن قوم مسحورون) أى عمل فينا السحر فسحرنا محمد (١٥) قوله تعالى (ولقد جعلنا فى السماء بروجا) والبروج هى النجوم الكبار مأخوذة من الظهور يقال تبرجت المرأة أى ظهرت وأراد بها المنازل التى تنزلها الشمس والقمر والكواكب السيارة وهى اثنا عشر برجا الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت وقال ابن عطية هى قصور فى السماء عليها الحرس (وزيناها) أى السماء بالشمس والقمر والنجوم (للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم) مرجوم وقيل ملعون قال ابن عباس كانت الشياطين لا يحجبون عن السموات وكانوا يدخلونها ويأتون بأخبارها فيلقون على الكهنة ما سمعوا فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات أجمع فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رمى بشهاب فلما منعوا من تلك المقاعد ذكروا ذلك لإبليس فقال لقد حدث فى الأرض حادث قال فبعثهم فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن فقالوا هذا والله حدث (إلا من استرق السمع) لكن من استرق السمع (فأتبعه شهاب مبين) والشهاب الشعلة من النار وذلك أن الشياطين

أن أبصارهم حارت ووقع بها من فساد النظر مثل ما يقع للرجل السكران من تغيير العقل وفساد النظر وقيل سكرت يعنى غشيت أبصارنا وسكنت عن النظر وأصله من السكور يقال سكرت عينه إذا تحيرت وسكنت عن النظر (بل نحن قوم مسحورون) يعنى سحرنا محمد وعمل فينا سحره وحاصل الآية أن الكفار لما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم الملائكة فيروهم عيانا ويشهدوا بصدقه أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لو حصل لهم هذا وشاهدوه عيانا لما آمنوا ولقالوا سحرنا لما سبق لهم فى الأزل من الشقاوة . قوله سبحانه وتعالى (ولقد جعلنا فى السماء بروجا) يعنى البروج التى تنزلها الشمس فى مسيرها واحدها برج وهى بروج الفلك الاثنا عشر برجا وهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت وهذه البروج مقسومة على ثمانية وعشرين منزلا لكل برج منزلان وثلث منزل وقد تقدم ذكر منازل القمر فى تفسير سورة يونس وهذه البروج مقسومة على ثلثمائة وستين درجة لكل برج منها ثلاثون درجة تقطعها الشمس فى كل سنة مرة وبها تتم دورة الفلك ويقطعها القمر فى ثمانية وعشرين يوما قال ابن عباس فى هذه الآية يريد بروج الشمس والقمر يعنى منازلهما وقال ابن عطية هى قصور فى السماء عليها الحرس وقال الحسن ومجاهد وقتادة هى النجوم العظام قال أبو إسحاق يريدون نجوم هذه البروج وهى نجوم على ما صورت به وسميت وأصل هذا كله من الظهور (وزيناها) يعنى السماء بالشمس والقمر والنجوم (للناظرين) يعنى المعتبرين المستدلين بها على توحيد خالقها وصانعها وهو الله الذى أوجد كل شىء وخلقه وصوره (وحفظناها) يعنى السماء (من كل شيطان رجيم) أى مرجوم فعيل بمعنى مفعول وقيل ملعون مطرود من رحمة الله قال ابن عباس كانت الشياطين لا يحجبون عن السموات وكانوا يدخلونها ويأتون بأخبارها إلى الكهنة فيلقونها إليهم فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات أجمع فما منهم من أحد يريد أن يسترق السمع إلا رمى بشهاب فلما منعوا من تلك المقاعد ذكروا ذلك لإبليس فقال لقد حدث فى الأرض حدث فبعثهم ينظرون فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن فقالوا هذا والله حدث (إلا من استرق السمع) هذا استثناء منقطع معناه لكن من استرق السمع (فأتبعه) أى لحقه (شهاب مبين) والشهاب شعلة من نار ساطع سمى الكوكب شهابا لأجل ما فيه من البريق شبه بشهاب النار قال ابن عباس فى قوله إلا من استرق السمع يريد الخطفة اليسيرة وذلك أن الشياطين يركب بعضهم بعضا إلى السماء يسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب فلا تخطىء أبدا فمنهم من تقتله ومنهم من تحرق وجهه أو جنبه أو يده أو حيث يشاء الله ومنهم من تخبله فيصير غولا يضل الناس فى البوادى (خ) عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الذى قال الحق وهو العلى الكبير فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض ووصف سفيان بكفه فحذفها وبدد بين أصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته

يركب بعضهم بعضا إلى السماء الدنيا ويسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب فلا تخطىء أبدا فمنهم من تقتله ومنهم من تحرق وجهه أو جنبه أو يده أو حيث يشاء الله ومنهم من تخبله فيصير غولا يضل الناس فى البوادى أخبرنا عبدالواحد المليحى أنا أحمد بن عبدالله (٦٠) النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا الحميدى ثنا سفيان ثنا عمرو قال سمعت عكرمة يقول سمعت أبا هريرة يقول أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الذى قال الحق وهو العلى الكبير فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه فيسمع أحدهم الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء» أخبرنا عبدالواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد ابن أبى مريم ثنا الليث ثنا ابن جعفر عن محمد بن عبد الرحمن عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها زوج النبى صلى الله عليه وسلم أنها سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول «إن الملائكة تنزل فى العنان، وهو

حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال له أليس قال لنا كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء» .

(فصل)

اختلف العلماء هل كانت الشياطين ترمى بالنجوم قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا على قولين: أحدهما أنها لم تكن ترمى بالنجوم قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما ظهر ذلك فى بدء أمره فكان ذلك أساسا لنبوته صلى الله عليه وسلم ويدل على صحة هذا القول ماروى عن ابن عباس قال انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب أخرجاه فى الصحيحين فظاهر هذا الحديث يدل على أن هذا الرمى بالشهب لم يكن قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم فلما بعث حدث هذا الرمى ويعضده ماروى أن يعقوب بن المغيرة بن الأخنس بن شريق قال أول من فزع للرمى بالنجوم هذا الحى من ثقيف وأنهم جاءوا إلى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية أحد بنى علاج وكان أهدى العرب فقالوا له ألم تر ماحدث فى السماء من القذف بالنجوم فقال بلى ولكن انظروا فان كانت معالم النجوم التى يهتدى بها فى البر والبحر ويعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء لما يصلح الناس من معايشهم هى التى يرمى بها فهو والله طى الدنيا وهلاك الخلق الذين فيها وإن كانت نجوما غيرها وهى ثابتة على حالها فهذا الأمر أراده الله من الخلق قال الزجاج ويدل على أنها كانت بعد مولد النبى صلى الله عليه وسلم أن شعراء العرب الذين ذكروا البرق والأشياء المسرعة لم يوجد فى شعرهم ذكر الكواكب المنقضة فلما حدثت بعد مولده صلى الله عليه وسلم استعملت الشعراء ذكرها قال ذو الرمة :

كأنه كوكب فى إثر عفرية ... مسوم فى سواد الليل منقضب

والقول الثانى إن ذلك كان موجودا قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ولكن لما بعث شدد وغلظ عليهم قال معمر قلت للزهرى أكان يرمى بالنجوم فى الجاهلية قال نعم قلت أفرأيت قوله وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فقال غلظت وشدد أمرها حين بعث محمد صلى الله عليه وسلم ويدل على صحة هذا القول ماروى عن ابن عباس قال أخبرنى رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم من الأنصار أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ رمى بنجم واستنار فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنتم تقولون فى الجاهلية إذا رمى بمثل هذا قالوا كنا نقول ولد الليلة رجل عظيم أو مات رجل عظيم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ولكن ربنا تبارك اسمه إذا قضى أمرا سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح إلى

أهل

السحاب فتذكر الأمر الذي قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحي إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم واعلم أن هذا لم يكن ظاهرا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ولم يذكره شاعر من العرب قبل زمان النبي صلى الله عليه وسلم وإنما ظهر في بدء أمره وكان ذلك أساسا لنبوته وقال يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس بن شريق أن أول من فزع للرمي بالنجوم هذا الحي من ثقيف وأنهم جاءوا إلى رجل (٦١) منهم يقال له عمرو بن أمية أحد بني علاج وكان أهدى العرب فقالوا له ألم تر ماحدث في السماء من القذف بالنجوم قال بلى فانظروا فإن كانت معالم النجوم التي يهتدى بها في البر والبحر وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء لما يصلح الناس من معايشهم هي التي يرمى بها فهي والله طي الدنيا وهلاك الخلق الذي فيها وإن كانت نجوما غيرها وهي والله ثابتة على حالها فهذا لأمر أراده الله تعالى بهذا الخلق قال معمر قلت للزهري أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية قال نعم قلت أفرأيت قوله تعالى «وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع» الآية قال غلظ وشدد أمرها حيث بعث محمد صلى الله عليه وسلم وقال ابن قتيبة إن الرجم كان قبل مبعثه ولكن لم يكن في شدة الحراسة فصار شدة الحراسة والاهتمام بالرجم بعد مبعثه وقيل إن النجم ينقض فيرمى الشياطين ثم يعود إلى مكانه والله أعلم

قوله تعالى (والأرض مددناها) بسطناها على وجه الماء يقال إنها مسيرة خمسمائة سنة في مثلها دحيت من تحت الكعبة (وألقينا فيها رواسي) جبالا ثوابت وقد كانت الأرض تميد إلى أن أرساها الله بالجبال (وأنبتنا فيها) أي في الأرض (من كل شيء موزون) بمقدر معلوم وقيل يعني في الجبال وهي جواهرها من الذهب والفضة والحديد والنحاس وغيرها

أهل هذه السماء ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم بما قال فيستخبر بعض أهل السماء بعضا حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا فتخطف الجن السمع فيقذفونه إلى أوليائهم ويرمون فما جاءوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يقذفون فيه ويزيدون أخرجه مسلم وقال ابن قتيبة أن الرجم كان قبل مبعثه ولكن لم يكن في شدة الحراسة مثل بعد مبعثه قال وعلى هذا وجدنا الشعر القديم قال بشر بن أبي حازم وهو جاهلي :

فالعير يرهقها الغبار وجحشها ينقض خلفهما انقضاض الكوكب

وقال أوس بن حجر وهو جاهلي :

فانقض كالدر يتبعه نقع يثور تخاله طنبا

والجمع بين هذين القولين أن الرمي بالنجوم كان موجودا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم فلما بعث شدد ذلك وزيد في حفظ السماء وحراستها صونا لأخبار الغيوب والله أعلم . قوله سبحانه وتعالى (والأرض مددناها) يعني بسطناها على وجه الماء كما يقال أنها دحيت من تحت الكعبة ثم بسطت هذا قول أهل التفسير وزعم أرباب الهيئة أنها كرة عظيمة بعضها في الماء وبعضها خارج عن الماء وهو الجزء المعمور منها واعتذروا عن قوله تعالى والأرض مددناها بأن الكرة إذا كانت عظيمة كان كل جزء منها كالسطح العظيم فثبت بهذا الأمر أن الأرض ممدودة مبسوطة وأنها كرة ورد هذا أصحاب التفسير بأن الله أخبر في كتابه بأنها ممدودة وأنها مبسوطة ولو كانت كرة لأخبر بذلك والله أعلم بمراده وكيف مد الأرض (وألقينا فيها رواسي) يعني جبالا ثوابت وذلك أن الله سبحانه وتعالى لما خلق الأرض على الماء مادت ورجفت فأثبتها بالجبال (وأنبتنا فيها) أي في الأرض لأن أنواع النبات المنتفع به تكون في الأرض وقيل الضمير يرجع إلى الجبال لأنها أقرب مذكور لقوله تعالى (من كل شيء موزون) وإنما يوزن ماتولد في الجبال من المعادن وقال ابن عباس وسعيد بن جبير موزون أي معلوم وقال مجاهد وعكرمة أي مقدور فعلى هذا يكون المعنى معلوم القدر عند الله تعالى لأن الله سبحانه وتعالى يعلم القدر الذي يحتاج إليه الناس في معايشهم وأرزاقهم فيكون إطلاق الوزن عليه مجازا لأن الناس لا يعرفون مقادير الأشياء إلا بالوزن وقال الحسن وعكرمة وابن زيد أنه عنى به الشيء الموزون كالذهب والفضة والرصاص والحديد والكحل ونحو ذلك مما يستخرج من المعادن لأن هذه الأشياء كلها توزن وقيل معنى موزون متناسب في الحسن والهيئة والشكل تقول العرب فلان موزون الحركات إذا كانت حركاته متناسبة حسنة وكلام موزون إذا كان متناسبا حسنا بعيدا من الخطأ والسخف وقيل إن جميع ماينبت في الأرض والجبال نوعان أحدهما مايستخرج من المعادن وجميع ذلك موزون والثاني النبات وبعضه موزون أيضا وبعضه مكيل وهو يرجع إلى

حتى الزرنيخ والكحل كل ذلك يوزن وزنا وقال ابن زيد هى الأشياء التى توزن وزنا (وجعلنا لكم فيها معايش) جمع معيشة قيل أراد بها المطاعم والمشارب والملابس وقيل ما يعيش به الآدمى فى الدنيا (ومن لستم له برازقين) من الدواب والأنعام أى جعلنا لكم وكفينا كم رزقها ومن الآية بمعنى ما كقوله تعالى فمنهم من يمشى على بطنه وقيل من فى موضعها لأنه أراد المماليك مع الدواب وقيل من فى محل الخفض عطفاً على الكاف والميم فى لكم (وإن من شىء) أى وما من شىء (إلا عندنا خزائنه) أى مفاتيح خزائنه وقيل أراد به المطر (وما ننزله إلا بقدر معلوم) لكل أرض حد مقدر ويقال لا تنزل من السماء قطرة إلا ومعها ملك يسوقها حيث يريد الله عز وجل ويشاء وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال فى العرش مثال جميع ما خلق الله فى البر والبحر وهو تأويل قوله تعالى وإن من شىء إلا عندنا خزائنه

(وأرسلنا الرياح لواقح) أى حوامل لأنها تحمل الماء إلى السحاب وهو جمع لاقحة يقال ناقة لاقحة إذا حملت الولد قال ابن مسعود يرسل الله الريح فتحمل الماء فيمر به السحاب فيدر كما تدر اللقحة ثم تمطر وقال أبو عبيدة أراد باللواقح الملاقح واحدتها ملقحة لأنها تلقح الأشجار قال عبيد بن عمير يبعث الله الريح المبشرة فتقم الأرض قما ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب بعضه إلى بعض فتجعله ركاما ثم يبعث اللواقح فتلقح الشجر وقال أبو بكر بن عياش لا تقطر قطرة من السحاب إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيه فالصبا تهيجه والشمال تجمعه والجنوب تذره والدبور تفرقه

الوزن لأن الصاع والمد مقدران بالوزن (وجعلنا لكم فيها معايش) جمع معيشة وهو ما يعيش به الإنسان مدة حياته فى الدنيا من المطاعم والمشارب والملابس ونحو ذلك (ومن لستم له برازقين) يعنى الدواب والوحش والطير أنتم منتفعون بها ولستم لها برازقين لأن رزق جميع الخلق على الله ومنه قوله تعالى «وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها» وتكون من فى قوله تعالى ومن لستم بمعنى ما لأن من لمن يعقل وما لمن لا يعقل وقيل يجوز إطلاق لفظة من على من لا يعقل كقوله تعالى «فمنهم من يمشى على بطنه» وقيل أراد بهم العبيد والخدم فتكون من على أصلها ويدخل معهم ما لا يعقل من الدواب والوحش (وإن من شىء إلا عندنا خزائنه) الخزائن جمع خزانة وهى اسم للمكان الذى يخزن فيه الشىء للحفظ يقال خزن الشىء إذا أحرزه فقيل أراد مفاتيح الخزائن وقيل أراد بالخزائن المطر لأنه سبب الأرزاق والمعايش لبنى آدم والدواب والوحش والطير ومعنى عندنا أنه فى حكمه وتصرفه وأمره وتدبيره قوله تعالى (وما ننزله إلا بقدر معلوم) يعنى بقدر الكفاية وقيل إن لكل أرض حدا ومقدارا من المطر يقال لا تنزل من السماء قطرة مطر إلا ومعها ملك يسوقها إلى حيث يشاء الله تعالى وقيل إن المطر ينزل من السماء كل عام بقدر واحد لا يزيد ولا ينقص ولكن الله يمطر قوما ويحرم آخرين وقيل إذا أراد الله بقوم خيرا أنزل عليهم المطر والرحمة وإذا أراد بقوم شرا صرف المطر عنهم إلى حيث لا ينتفع به كالبرارى والقفار والرمال والبحار ونحو ذلك . وحكى جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده أنه قال فى العرش تمثال جميع ما خلق الله فى البر والبحر وهو تأويل قوله وإن من شىء إلا عندنا خزائنه (وأرسلنا الرياح لواقح) قال ابن عباس يعنى للشجر وهو قول الحسن وقتادة وأصل هذا من قولهم لقحت الناقة وألقحها الفحل إذا أتى إليها الماء فحملته فكذلك الرياح كالفحل للسحاب وقال ابن مسعود فى تفسير هذه الآية يرسل الله الرياح لتلقح السحاب فتحمل الماء فتمجه فى السحاب ثم تمر به فتدر كما تدر اللقحة وقال عبيد بن عمير يرسل الله الريح المبشرة فتقم الأرض قما ثم يرسل المثيرة فتثير السحاب ثم يرسل المؤلفة فتؤلف السحاب بعضه إلى بعض فتجعله ركاما ثم يرسل اللواقح فتلقح الشجر والأظهر فى هذه الآية إلقاحها السحاب لقوله بعده فأنزلنا

وفى الخبر «إن اللاقح رياح الجنوب» وفى بعض الآثار ما هبت ريح الجنوب إلا وبعث عينا غدقة وأما الريح العقيم فإنها تأتى بعذاب ولا تلقح أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم أنا الربيع الشافعى أنا من لا أتهم بحديثه ثنا العلاء بن راشد عن عكرمة عن ابن عباس قال «ما هبت ريح قط إلا جثا النبى صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وقال اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابا اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا» قال ابن عباس فى كتاب الله عز وجل فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا . إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم وقال وأرسلنا الرياح لواقح وقال يرسل الرياح مبشرات قرأ حمزة وحده وأرسلنا الريح لواقح على الوحدة والوجه أن الريح يراد بها الجنس والكثرة ولهذا وصفت بالجمع فى قوله

لواقح وقرأ الباقون الرياح بالألف على الجمع ووجهه ظاهر وذلك أنها وصفت بقوله لواقح وهى جماعة فينبغى ان يكون الموصوف أيضا جماعة ليتوافقا قوله (فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه) أى جعلنا المطر لكم سقيا يقال أسقى فلان فلانا إذا جعل له سقيا وسقاه إذا أعطاه ما يشرب وتقول العرب سقيت الرجل ماء ولبنا إذا كان اسقيه فاذا جعلوا له ماء لشرب أرضه ودوابه تقول العرب أسقيته (وما أنتم له بخازنين) يعنى المطر فى خزائنكم وقال سفيان بمانعين (وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون) بأن نميت جميع الخلائق فلا يبقى حى سوانا والوارث من صفات الله عز وجل قيل الباقى بعد فناء الخلق وقيل معناه أن مصير الخلق اليه (ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين) قال ابن عباس أراد بالمستقدمين الأموات وبالمستأخرين الأحياء قال الشعبى الأولين والآخرين وقال عكرمة المستقدمون من خلق الله والمستأخرون من لم يخلق الله قال مجاهد المستقدمون القرون الأولى والمستأخرون أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقال الحسن المستقدمون فى الطاعة والخير والمستأخرون المبطئون عنها وقيل المستقدمون فى الصفوف فى الصلاة والمستأخرون فيها وذلك أن النساء كن يخرجن إلى صلاة الجماعة فيقفن خلف الرجال فربما كان من الرجال من فى قلبه ريبة فيتأخر إلى آخر صفوف الرجال ليقرب من النساء ومن النساء من كانت فى قلبها ريبة فتتقدم إلى أول صفوف النساء لتقرب من الرجال فنزلت هذه الآية وقال النبى صلى الله عليه وسلم « خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها وخير صفوف النساء

فأنزلنا من السماء ماء قال أبو بكر بن عياش لاتقطر قطرة من السماء إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيها فالصبا تهيج السحاب والشمال تجمعه والجنوب تدره والدبور تفرقه وقال أبو عبيد لواقح هنا بمعنى ملاقح جمع ملقحة حذفت الميم وردت إلى الأصل وقال الزجاج يجوز أن يقال لها لواقح وإن ألقحت غيرها ، لأن معناها النسبة كما يقال درهم وازن أى ذو وزن واعترض الواحدى على هذا فقال هذا ليس بمغن لأنه كان يجب أن يصح اللاقح بمعنى ذات لقح حتى يوافق قول المفسرين وأجاب الرازى عنه بأن قال هذا ليس بشىء لأن اللاقح هو المنسوب إلى اللقحة ومن أفاد غير اللقحة فله نسبة إلى اللقحة وقال صاحب المفردات لواقح أي ذات لقاح وقيل إن الريح فى نفسها لاقح لأنها حاملة للسحاب والدليل عليه قوله تعالى حتى إذا أقلت سحابا ثقالا أى حملت فعلى هذا تكون الريح لاقحة بمعنى حاملة تحمل السحاب وقال الزجاج ويجوز أن يقال للريح لقحت إذا أتت بالخير كما قيل لها عقيم إذا لم تأت بخير وورد فى بعض الأخبار أن الملاقح الرياح الجنوب وفى بعض الآثار ماهبت رياح الجنوب إلا وانبعت عينا غدقة (ق) «عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا عصفت الريح قال اللهم إنى أسألك خيرها وخير مافيها وخير ماأرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر مافيها وشر ماأرسلت به» وروى البغوى بسنده إلى الشافعى إلى ابن عباس قال «ماهبت ريح قط إلا جثا النبى صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وقال اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابا اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا» قال ابن عباس فى كتاب الله عز وجل إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فأرسلنا عليهم الريح العقيم وقال وأرسلنا الرياح لواقح وقال يرسل الرياح مبشرات وقوله سبحانه وتعالى (فأنزلنا من السماء ماء) يعنى المطر (فأسقيناكموه) يعنى جعلنا لكم المطر سقيا يقال أسقى فلان فلانا إذا جعل له سقيا وسقاه إذا أعطاه مايشرب وتقول العرب سقيت الرجل ماء ولبنا إذا كان لسقيه فاذا جعلوا له ماء لشرب أرضه أو ماشيته يقال أسقيناه (وما أنتم له) يعنى للمطر (بخازنين) يعنى إن المطر فى خزائننا لا فى خزائنكم وقيل وما أنتم له بمانعين (وإنا لنحن نحيي ونميت) يعنى بيدنا إحياء الخلق وإماتتهم لايقدر على ذلك أحد إلا الله سبحانه وتعالى لأن قوله تعالى وإنا لنحن يفيد الحصر يعنى لايقدر على ذلك سوانا (ونحن الوارثون) وذلك بأن نميت جميع الخلق فلا يبقى أحد سوانا فيزول ملك كل مالك ويبقى جميع ملك المالكين لنا والوارث هو الباقى بعد ذهاب غيره والله سبحانه وتعالى هو الباقى بعد ذهاب غيره والله سبحانه وتعالى هو الباقى بعد فناء خلقه الذين أمتعهم بما آتاهم فى الحياة الدنيا لأن وجود الخلق وما آتاهم كان ابتداؤه منه تعالى فاذا فنى جميع الخلائق رجع الذى كانوا يملكونه فى الدنيا على المجاز إلى مالكه على الحقيقة وهو الله تعالى وقيل مصير الخلق إليه . قوله عز وجل (ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين) عن ابن عباس قال كانت امرأة تصلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس فكان بعض الناس يتقدم حتى يكون فى الصف الأول لئلا يراها ويتأخر بعضهم حتى

آخرها وشرها أولها» وقال الأوزاعي أراد المصلين في أول الوقت والمؤخرين إلى آخره وقال مقاتل أراد بالمستقدمين والمستأخرين في صف القتال وقال ابن عيينة (٦٤) أراد من يسلم ومن لا يسلم (وإن ربك هو يحشرهم أنه حكيم عليم) على ما علم منهم وقيل يميت الكل ثم يحشرهم الأولين والآخرين أخبرنا أبو صالح أحمد بن عبد الملك المؤذن أنا أبو سعيد الصيرفي ثنا أبو العباس الأصم ثنا أحمد بن عبد الجبار ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال قال النبي صلى الله عليه وسلم من مات على شيء بعثه الله عليه قوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان) يعني آدم عليه السلام سمي إنسانا لظهوره وإدراك البصر إياه وقيل من النسيان لأنه عهد إليه فنسي (من صلصال) وهو الطين اليابس الذي إذا نقرته سمعت له صلصلة أي صوتا قال ابن عباس هو الطين الحر الطيب الذي إذا نضب عنه الماء تشقق فإذا حرك تقعقع وقال مجاهد هو الطين المنتن واختاره الكسائي وقال هو من صل اللحم وأصل إذا أنتن (من حمأ) والحمأ الطين المنتن الأسود (مسنون) أي متغير قال مجاهد وقتادة هو المنتن المتغير وقال أبو عبيدة هو المصبوب تقول العرب سننت الماء أي صببته قال ابن عباس هو التراب المبتل المنتن جعل صلصالا كالفخار وفي بعض الآثار وأن الله عز وجل خمر طينة آدم تركه حتى صار متغيرا أسود ثم خلق منه آدم عليه السلام

يكون في الصف المؤخر فإذا ركع نظر من تحت إبطيه فأنزل الله عز وجل ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين أخرجه النسائي وأخرجه الترمذي وقال فيه وقد روي عن ابن الجوزي نحوه ولم يذكر فيه عن ابن عباس وهذا أشبه أن يكون أصح قال البغوي وذلك أن النساء كن يخرجن إلى الجماعة فيقفن خلف الرجال فربما كان من الرجال من في قلبه ريبة فيتأخر إلى آخر صف الرجال ومن النساء من في قلبها ريبة فتتقدم إلى أول صف النساء لتقرب من الرجال فنزلت هذه الآية فعند ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم «خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها» أخرجه مسلم عن أبي هريرة. وقال ابن عباس أراد بالمستقدمين من خلق الله وبالمستأخرين من لم يخلق الله تعالى بعد وقال مجاهد المستقدمون القرون الأولى والمستأخرون أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقال الحسن المستقدمون يعني في الطاعة والخير والمستأخرون يعني فيهما وقال الأوزاعي أراد بالمستقدمين المصلين في أول الوقت وبالمستأخرين المؤخرين لها إلى آخره وقال مقاتل أراد بالمستقدمين وبالمستأخرين في صف القتال وقال ابن عيينة أراد من يسلم أولا ومن يسلم آخرا وقال ابن عباس في رواية أخرى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم حرض على الصف الأول فازدحموا عليه وقال قوم كانت بيوتهم قاصية عن المسجد لنبيعن دورنا ونشتري دورا قريبة من المسجد حتى ندرك الصف المقدم فنزلت هذه الآية ومعناها إنما تجزون على النيات فاطمأنوا وسكنوا فيكون معنى الآية على القول الأول المستقدم للتقوى والمستأخر للنظار وعلى القول الأخير المستقدم لطلب الفضيلة والمستأخر للعذر ومعنى الآية أن علمه سبحانه وتعالى محيط بجميع خلقه متقدمهم ومتأخرهم طائعهم وعاصيهم لا يخفى عليه شيء من أحوال خلقه (وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم) يعني على ما علم منهم وقيل إن الله سبحانه وتعالى يميت الكل ثم يحشرهم الأولين والآخرين على ما ماتوا عليه (م) عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يبعث كل عبد على ما مات عليه» قوله سبحانه وتعالى (ولقد خلقنا الإنسان) يعني آدم عليه السلام في قول جميع المفسرين سمي إنسانا لظهوره وإدراك البصر إياه وقيل من النسيان لأنه عهد إليه فنسي من (صلصال) يعني من الطين اليابس إذا نقرته سمعت له صلصلة يعني صوتا وقال ابن عباس هو الطين الحر الطيب الذي إذا نضب عنه الماء تشقق فإذا حرك تقعقع وقال مجاهد هو الطين المنتن واختاره الكسائي وقال هو من صل اللحم إذا أنتن (من حمأ) يعني من الطين الأسود (مسنون) أي متغير قال مجاهد وقتادة هو المنتن المتغير وقال أبو عبيدة هو المصبوب تقول العرب سننت الماء إذا أصببته قال ابن عباس هو التراب المبتل المنتن جعل صلصالا كالفخار والجمع بين هذه الأقاويل على ما ذكره بعضهم إن الله سبحانه وتعالى لما أراد خلق آدم عليه السلام قبض قبضة من تراب الأرض فبلها بالماء حتى اسودت وأنتن ريحها وتغيرت وإليه الإشارة بقوله: إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم إن ذلك التراب بله بالماء وخمره حتى اسودت وأنتن ريحه وتغير وإليه الإشارة بقوله: من حمأ مسنون ثم ذلك الطين الأسود المتغير صوره صورة إنسان أجوف فلما جف ويبس كانت تدخل فيه الريح فتسمع له صلصلة يعني صوتا وإليه الإشارة بقوله من صلصال كالفخار وهو الطين

اليابس

اليابس إذا تفخر فى الشمس ثم نفخ فيه الروح فكان بشرا سويا قوله تعالى (والجان خلقناه من قبل) يعنى من قبل آدم عليه السلام قال ابن عباس الجان أبو الجن كما أن آدم أبو البشر وقال قتادة هو إبليس وقيل الجان أبو الجن وإبليس أبو الشياطين وفى الجن مسلمون وكافرون يأكلون ويشربون ويحيون ويموتون كبنى آدم . وأما الشياطين فليس فيهم مسلمون ولا يموتون إلا إذا مات إبليس وقال وهب إن من الجن من يولد له ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين ومن الجن من هو بمنزلة الريح لا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون وهم الشياطين والأصح أن الشياطين نوع من الجن لاشتراكهم فى الاستتار سموا جنا لتواريهم واستتارهم عن الأعين من قولهم جن الليل إذا ستر والشيطان هو العاتى المتمرد الكافر والجن منهم المؤمن ومنهم الكافر (من نار السموم) يعنى من ريح حارة تدخل مسام الإنسان من لطفها وقوة حرارتها فتقتله ويقال للريح الحارة التى تكون بالنهار السموم وللريح الحارة التى تكون بالليل الحرور وقال أبو صالح السموم نار لادخان لها والصواعق تكون منها وهى نار بين السماء والحجاب فاذا حدث أمر خرقت الحجاب فهوت إلى ما أمرت به فالهدة التى تسمعون من خرق ذلك الحجاب وهذا على قول أصحاب الهيئة أن الكرة الرابعة تسمى كرة النار وقيل من نار السموم يعنى من نار جهنم وقال ابن مسعود هذه السموم جزء من سبعين جزء من السموم التى خلق منها الجان وتلا هذه الآية . وقال ابن عباس كان إبليس من حى من الملائكة يسمون الجان خلقوا من نار السموم وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار وخلقت الملائكة من النور . قوله عز وجل (وإذ قال ربك للملائكة) أى واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة (إنى خالق بشرا) سمى الآدمى بشرا لأنه جسم كثيف ظاهر البشرة ظاهر الجلد (من صلصال من حمأ مسنون) تقدم تفسيره (فاذا سويته) يعنى عدلت صورته وأتممت خلقه (ونفخت فيه من روحى) النفخ عبارة عن إجراء الريح فى تجاويف جسم آخر ومنه نفخ الروح فى النشأة الأولى وهو المراد من قوله : ونفخت فيه من روحى وأضاف الله عز وجل روح آدم إلى نفسه على سبيل التشريف والتكريم له كما يقال بيت الله وناقة الله وعبد الله وسيأتى الكلام على الروح فى تفسير سورة الإسراء عند قوله ويسئلونك عن الروح إن شاء الله تعالى (فقعوا له ساجدين) الخطاب للملائكة الذين قال الله لهم إنى خالق بشرا أمرهم بالسجود لآدم بقوله فقعوا له ساجدين . وكان هذا السجود تحية لا سجود عبادة (فسجد الملائكة كلهم) يعنى الذين أمروا بالسجود لآدم (أجمعون) قال سيبويه هذا توكيد بعد توكيد وسئل المبرد عن هذه الآية فقال لو قال فسجد الملائكة لاحتمل أن يكون سجد بعضهم فلما قال كلهم لزم إزالة ذلك الاحتمال فظهر بهذا أنهم سجدوا بأسرهم ثم عند هذا بقى احتمال آخر وهو أنهم سجدوا فى أوقات متفرقة أو فى دفعة واحدة فلما قال أجمعون ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة ولما حكى الزجاج هذا القول عن المبرد قال قول الخليل وسيبويه أجود

(والجان خلقناه من قبل) قال ابن عباس هو أبو الجن كما أن آدم أبو البشر . وقال قتادة هو إبليس خلق قبل آدم ويقال الجان أبو الجن وإبليس أبو الشياطين وفى الجن مسلمون وكافرون ويحيون ويموتون . وأما الشياطين فليس منهم مسلمون ويموتون إذا مات إبليس وذكر وهب أن من الجن من يولد لهم ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين ومن الجن من هم بمنزلة الريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يتوالدون (من نار السموم) والسموم ريح حارة تدخل مسام الانسان فتقتله يقال السموم بالنهار والحرور بالليل وعن الكلبى عن أبى صالح السموم نار لادخان لها والصواعق تكون منها وهى نار بين السماء وبين الحجاب فاذا أراد الله أن يحدث أمرا خرقت الحجاب فهوت إلى ما أمرت به فالهدة التى تسمعون فى خرق ذلك الحجاب وقيل نار السموم لهب النار وقيل من نار السموم أى من نار جهنم . وعن الضحاك عن ابن عباس قال كان إبليس من حى من الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار فأما الملائكة فانهم خلقوا من النور قوله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا) أى سأخلق بشرا (من صلصال من حمأ مسنون فاذا سويته) عدلت صورته وأتممت خلقه (ونفخت فيه من روحى) فصار بشرا حيا . والروح جسم لطيف يحيا به الانسان وأضافه إلى نفسه تشريفا (فقعوا له ساجدين) سجود تحية لا سجود عبادة (فسجد الملائكة) الذين أمروا بالسجود (كلهم أجمعون) فان قيل لم قال كلهم أجمعون وقد حصل المقصود بقوله فسجد الملائكة قلنا زعم الخليل وسيبويه

أنه ذكر ذلك تأكيدا وذكر المبرد أن قوله فسجد الملائكة كان من المحتمل أنه سجد بعضهم فذكر كلهم ليزول هذا الإشكال ثم كان يحتمل أنهم سجدوا فى أوقات مختلفة فزال ذلك الإشكال بقوله أجمعون . وروى

لأن أجمعين معرفة فلاتكون حالا روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الله سبحانه وتعالى أمر جماعة من الملائكة بالسجود لآدم فلم يفعلوا فأرسل الله عليهم نارا فأحرقتهم . ثم قال لجماعة أخرى اسجدوا لآدم فسجدوا (إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين) يعنى مع الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم فسجدوا (قال) يعنى قال الله (يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين قال) يعنى إبليس (لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون) أراد إبليس أنه أفضل من آدم لأن آدم طينى الأصل وإبليس نارى الأصل . والنار أفضل من الطين فيكون إبليس فى قياسه أفضل من آدم ولم يدر الخبيث أن الفضل فيما فضله الله تعالى (قال فاخرج منها) يعنى من الجنة وقيل من السماء (فانك رجيم) أى طريد (وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين) قيل إن أهل السموات يلعنون إبليس كما يلعنه أهل الأرض فهو ملعون فى السموات والأرض فان قلت إن حرف إلى لانتهاء الغاية فهل ينقطع اللعن عنه يوم الدين الذى هو يوم القيامة . قلت لا بل يزداد عذابا إلى اللعنة التى عليه كأنه قال تعالى وإن عليك اللعنة فقط إلى يوم الدين . ثم تزداد معها بعد ذلك عذابا دائما مستمرا لاانقطاع له (قال رب فأنظرنى) يعنى أخرنى (إلى يوم يبعثون) يعنى يوم القيامة وأراد بهذا السؤال أنه لايموت أبدا لأنه إذا أمهل إلى يوم القيامة ويوم القيامة لايموت فيه أحد لزم من ذلك أنه لايموت أبدا فلهذا السبب سأل الإنظار إلى يوم يبعثون فأجابه الله سبحانه وتعالى بقوله (قال فانك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) يعنى الوقت الذى يموت فيه جميع الخلائق وهو النفخة الأولى فيقال إن مدة موت إبليس أربعون سنة وهو مابين النفختين ولم تكن إجابة الله تعالى إياه فى الإمهال إكراما له بل كان ذلك الإمهال زيادة له فى بلائه وشقائه وعذابه . وإنما سمى يوم القيامة بيوم الوقت المعلوم لأن ذلك اليوم لايعلمه أحد إلا الله تعالى فهو معلوم عنده وقيل إن جميع الخلائق يموتون فيه فهو معلوم بهذا الاعتبار وقيل لما سأل إبليس الإنظار إلى يوم يبعثون أجابه الله بقوله فانك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم يعنى اليوم الذى عينت وسألت الإنظار إليه (قال رب بما أغويتنى) الباء للقسم فى قوله بما وما مصدرية وجواب القسم (لأزينن) والمعنى فباغوائك إياى لأزينن لهم فى الأرض وقيل هى باء السبب . يعنى بسبب كونى غاويا لأزينن (لهم فى الأرض) يعنى لأزينن لهم حب الدنيا ومعاصيك (ولأغوينهم أجمعين) يعنى بالقاء الوسوسة فى قلوبهم وذلك أن إبليس لما علم أنه يموت على الكفر غير مغفور له حرص على إضلال الخلق بالكفر وإغوائهم ثم استثنى فقال (إلا عبادك منهم المخلصين) يعنى المؤمنين الذين أخلصوا لك التوحيد والطاعة والعبادة ومن فتح اللام من المخلصين يكون المعنى إلا من أخلصته واصطفيته لتوحيدك وعبادتك . وإنما استثنى إبليس المخلصين لأنه علم أن كيده ووسوسته لاتعمل فيهم ولا يقبلون منه وحقيقة الإخلاص فعل الشىء خالصا لله عن شائبة الغير فكل من أتى بعمل من أعمال الطاعات فلايخلو إما أن يكون مراده بتلك الطاعات وجه الله فقط أو غير الله أو مجموع الأمرين . أما ماكان لله تعالى فهو الخالص المقبول وأما ماكان لغير الله فهو الباطل المردود وأما من كان مراده مجموع الأمرين

عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنه أن الله عز وجل قال لجماعة من الملائكة اسجدوا لآدم فلم يفعلوا فأرسل الله عليهم نارا فأحرقتهم ثم قال لجماعة أخرى اسجدوا لآدم فسجدوا (إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون) أراد إنى أفضل منه لأنه طينى وأنا نارى والنار تأكل الطين (قال فاخرج منها) أى من الجنة (فإنك رجيم) طريد (وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين) قيل إن أهل السموات يلعنون إبليس كما يلعنه أهل الأرض فهو ملعون فى السماء والأرض (قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون) أراد الخبيث أن لايموت (قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) أى الوقت الذى يموت فيه الخلائق وهو النفخة الأولى ويقال إن مدة موت إبليس أربعون سنة وهى ما بين النفختين ويقال إنه لم تكن إجابة الله تعالى إياه فى الإمهال إكراما له فان بل كانت زيادة فى بلائه وشقائه (قال رب بما أغويتنى) أضللتنى وقيل خيبتنى من رحمتك (لأزينن لهم فى الأرض) حب الدنيا ومعاصيك (ولأغوينهم) أى لأضلنهم (أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) المؤمنين الذين أخلصوا لك بالطاعة والتوحيد

ومن فتح اللام أى من أخلصته بتوحيدك فهديته واصطفيته (قال) الله تعالى (هذا صراط على مستقيم) قال الحسن معناه صراط إلى مستقيم قال مجاهد الحق يرجع إلى الله تعالى وعليه طريقه ولا يعوج عليه شىء وقال الأخفش يعنى على الدلالة على الصراط المستقيم قال الكسائى هذا على التهديد والوعيد كما يقول الرجل لمن يخاصمه طريقك على أى لا تفلت منى كما قال عز وجل «إن ربك لبالمرصاد» وقيل معناه على استقامته بالبيان والبرهان والتوفيق والهداية وقرأ ابن سيرين وقتادة ويعقوب على من العلو أى رفيع وعبر بعضهم عنه رفيع أن ينال مستقيم أن يمال (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) أى قوة قال أهل المعانى يعنى على قلوبهم وسئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية فقال معناه ليس لك عليهم سلطان تلقيهم فى ذنب يضيق عنه عفوى وهؤلاء ثنية الله الذين هداهم واجتباهم إلا من اتبعك من الغاوين وإن جهنم لموعدهم أجمعين) يعنى موعد إبليس ومن تبعه (لها سبعة أبواب) أطباق قال على كرم الله وجهه تدرون كيف أبواب النار هكذا ووضع إحدى يديه على الأخرى أى سبعة أبواب بعضها فوق بعض وإن الله وضع الجنان على العرض ووضع النيران بعضها فوق بعض قال ابن جريج النار سبع دركات أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية (لكل باب منهم جزء مقسوم) أى لكل دركة قوم يسكنونها وقال الضحاك فى الدركة الأولى أهل التوحيد الذين أدخلوا النار يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون وفى الثانية النصارى وفى الثالثة اليهود وفى الرابعة الصابئون وفى الخامسة المجوس وفى السادسة أهل الشرك وفى السابعة المنافقون فذلك قوله تعالى «إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار» وروى عن ابن عمر عن النبى ﷺ أنه قال «إن لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمتى أو قال على أمة محمد» قوله تعالى (إن المتقين فى جنات وعيون)

فان ترجح جانب الله تعالى كان من المخلصين الناجحين وإن ترجح الجانب الآخر كان من الهالكين لأن المثل يقابله المثل فيبقى القدر الزائد وإلى أى الجانبين رجح أخذ به (قال) يعنى قال الله تبارك وتعالى (هذا صراط على مستقيم) قال الحسن معناه هذا صراط إلى مستقيم وقال مجاهد الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه لا يعرج إلى شىء وقال الأخفش معناه على الدلالة على الصراط المستقيم وقال الكسائى هذا على طريق التهديد والوعيد كما يقول الرجل لمن يخاصمه طريقك على أى لا تنفلت منى وقيل معناه على استقامته بالبيان والبرهان والتوفيق والهداية وقيل هذا عائد إلى الإخلاص والمعنى أن الإخلاص طريق على وإلى يؤدى إلى كرامتى ورضوانى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) أى قوة وقدرة وذلك أن إبليس لما قال لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين أوهم بهذا الكلام أن له سلطانا على غير المخلصين فبين الله سبحانه وتعالى أنه ليس له سلطان على أحد من عبيده سواء كان من المخلصين أو لم يكن من المخلصين قال أهل المعانى ليس لك عليهم سلطان على قلوبهم وسئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية فقال معناه ليس لك عليهم سلطان أن تلقيهم فى ذنب يضيق عنه عفوى وهؤلاء خاصته أى الذين هداهم واجتباهم من عباده (إلا من اتبعك من الغاوين) يعنى إلا من اتبع إبليس من الغاوين فان له عليهم سلطانا بسبب كونهم منقادين له فيما يأمرهم به (وإن جهنم لموعدهم أجمعين) يعنى موعد إبليس وأتباعه وأشياعه (لها) يعنى لجهنم (سبعة أبواب) يعنى سبع طبقات. قال على بن أبى طالب تدرون كيف أبواب جهنم هكذا ووضع إحدى يديه على الأخرى أى سبعة أبواب بعضها فوق بعض. قال ابن جريج النار سبع دركات أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية (لكل باب منهم جزء مقسوم) يعنى لكل دركة قوم يسكنونها والجزء بعض الشىء وجزأته جعلته أجزاء والمعنى أن الله سبحانه وتعالى يجزىء أتباع إبليس سبعة أجزاء فيدخل كل قسم منهم دركة من النار والسبب فيه أن مراتب الكفر مختلفة فلذلك اختلفت مراتبهم فى النار. قال الضحاك فى الدركة الأولى أهل التوحيد الذين أدخلوا النار يعذبون فيها بقدر ذنوبهم ثم يخرجون منها وفى الثانية النصارى وفى الثالثة اليهود وفى الرابعة الصابئون وفى الخامسة المجوس وفى السادسة أهل الشرك وفى السابعة المنافقون فذلك قوله سبحانه وتعالى «إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار» عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمتى أو قال على أمة محمد صلى الله عليه وسلم» أخرجه الترمذى وقال حديث غريب قوله سبحانه وتعالى (إن المتقين فى جنات وعيون) المراد بالمتقين الذين اتقوا الشرك فى قول جمهور المفسرين وقيل هم الذين اتقوا الشرك والمعاصى والجنات والبساتين والعيون والأنهار الجارية فى الجنات وقيل يحتمل أن تكون هذه العيون غير الأنهار الكبار التى فى الجنة وعلى هذا فهل يختص كل واحد من أهل الجنة بعيون

أى فى بساتين وأنهار (ادخلوها) أى يقال لهم ادخلوا الجنة (بسلام) أى بسلامة (آمنين) من الموت والخروج والآفات (ونزعنا) أخرجنا (مافى صدورهم من غل) هو الشحناء والعداوة والحقد والحسد (إخوانا) نصب على الحال (على سرر) جمع سرير (متقابلين) يقابل بعضهم بعضاً لا ينظر أحد منهم إلى قفا صاحبه وفى بعض الأخبار أن المؤمن فى الجنة إذا ود أن يلقى أخاه المؤمن سار سرير كل واحد منهما إلى صاحبه فيلتقيان ويتحدثان (لا يمسهم) لا يصيبهم (فيها نصب) أى تعب (وما هم منها بمخرجين) هذه أنص آية فى القرآن على الخلود قوله تعالى (نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم) قال ابن عباس يعنى لمن تاب منهم وروى «أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج يوما على نفر من أصحابه وهم يضحكون فقال أتضحكون وبين أيديكم النار فنزل جبريل بهذه الآية وقال يقول لك ربك يا محمد لم تقنط عبادى من رحمتى» (وأن عذابى هو العذاب الأليم) قال قتادة بلغنا أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه» أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد ابن يوسف ثنا قتيبة بن سعيد ثنا يعقوب بن عبد الرحمن عن عمرو بن أبى عمرو عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة وأرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب

أو تجرى هذه العيون من بعضهم إلى بعض وكلا الأمرين محتمل فيحتمل أن كل واحد من أهل الجنة يختص بعيون تجرى فى جناته وقصوره ودوره فينتفع بها هو ومن يختص به من حوره وولدانه ويحتمل أنها تجرى من جنات بعضهم إلى جنات بعض لأنهم قد طهروا من الحسد والحقد (ادخلوها) أى يقال لهم ادخلوها والقائل هو الله تعالى أو بعض ملائكته (بسلام آمنين) يعنى ادخلوا الجنة مع السلامة والأمن من الموت ومن جميع الآفات (ونزعنا مافى صدورهم من غل) الغل الحقد الكامن فى القلب ويطلق على الشحناء والعداوة والبغضاء والحقد والحسد وكل هذه الخصال المذمومة داخلة فى الغل لأنها كامنة فى القلب يروى أن المؤمنين يحبسون على باب الجنة فيقتص بعضهم من بعض ثم يؤمر بهم إلى الجنة وقد نقيت قلوبهم من الغل والغش والحقد والحسد (إخوانا) يعنى فى المحبة والمودة والمخالطة وليس المراد منه إخوة النسب (على سرر) جمع سرير قال بعض أهل المعانى السرير مجلس رفيع عال مهيأ للسرور وهو مأخوذ منه لأنه مجلس سرور وقال ابن عباس على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت والسرير مثل صنعاء إلى الجابية (متقابلين) يعنى يقابل بعضهم بعضا لا ينظر أحد منهم فى قفا صاحبه وفى بعض الأخبار أن المؤمن فى الجنة إذا أراد أن يلقى أخاه المؤمن سار سرير كل واحد منهما إلى صاحبه فيلتقيان ويتحدثان (لا يمسهم فيها) يعنى فى الجنة (نصب) أى تعب ولا إعياء (وما هم منها) يعنى من الجنة (بمخرجين) هذا نص من الله فى كتابه على خلود أهل الجنة فى الجنة والمراد منه خلود بلا زوال وبقاء بلا فناء وكمال بلا نقصان وفوز بلا حرمان. قوله سبحانه وتعالى (نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم) قال ابن عباس يعنى لمن تاب منهم وروى «أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه وهم يضحكون فقال أتضحكون وبين أيديكم النار فنزل جبريل بهذه الآية وقال يقول لك ربك يا محمد لم تقنط عبادى» ذكره البغوى بغير سند (وأن عذابى هو العذاب الأليم) قال قتادة بلغنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام ولو يعلم العبد قدر عذابه لبخع نفسه» يعنى لقتل نفسه (خ) عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن الله سبحانه وتعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة وأدخل فى خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب لم يأمن من النار» وفى الآية لطائف منها أنه سبحانه وتعالى أضاف العباد إلى نفسه بقوله نبىء عبادى وهذا تشريف وتعظيم لهم ألا ترى أنه لما أراد أن يشرف محمدا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج لم يزد على قوله «سبحان الذى أسرى بعبده ليلا» فكل من اعترف على نفسه بالعبودية لله تعالى فهو داخل فى هذا التشريف العظيم ومنها أنه سبحانه وتعالى لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ فى التأكيد بألفاظ ثلاثة أولها قوله أنى وثانيها أنا وثالثها إدخال الألف واللام فى الغفور الرحيم وهذا يدل على تغليب جانب الرحمة والمغفرة. ولما ذكر العذاب لم يقل إنى أنا

لم يأمن من النار ، قوله تعالى (ونبئهم عن ضيف إبراهيم) أى عن الضيافة والضيف اسم يقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث وهم الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى ليبشروا إبراهيم بالولد ويهلكوا قوم لوط (إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال) إبراهيم (إنا منكم وجلون) خائفون لأنهم لم يأكلوا طعامه (قالوا لاتوجل) لاتخف (إنا نبشرك) قرأ حمزة وحده نبشرك بفتح النون وإسكان الباء وضم الشين وتخفيفها وقرأ الباقون نبشرك بضم النون وفتح الباء وكسر الشين وتشديدها (بغلام عليم) أى غلام فى صغره عليم فى كبره يعنى إسحاق فتعجب إبراهيم عليه السلام من كبره وكبر امرأته (قال أبشرتمونى) أى بالولد (على أن مسنى الكبر) أى على حال الكبر قاله على طريق التعجب (فبم تبشرون) فبأى شئ تبشرون قرأ نافع بكسر النون وتخفيفها أى تبشرونى وقرأ ابن كثير بكسرها وبتشديد النون أى تبشروننى أدغمت نون الجمع فى نون الاضافة وقرأ الآخرون بفتح النون وتخفيفها (قالوا بشرناك بالحق) أى بالصدق (فلا تكن من القانطين قال ومن يقنط) قرأ أبو عمرو والكسائى ويعقوب بكسر النون والآخرون بفتحها وهما لغتان قنط يقنط وقنط يقنط أى من ييأس (من رحمة ربه إلا الضالون) أى الخاسرون والقنوط من رحمة الله كبيرة كالأمن من مكره (قال) إبراهيم لهم (فما خطبكم) ما شأنكم (أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) مشركين (إلا آل لوط) أتباعه وأهل دينه (إنا لمنجوهم أجمعين) خفف الجيم حمزة والكسائى وشدده الباقون (إلا امرأته) أى امرأة لوط (قدرنا) قضينا (إنها لمن الغابرين) الباقين فى العذاب والاستثناء من النفى إثبات ومن الإثبات نفى

المعذب وما وصف نفسه بذلك بل قال وأن عذابى هو العذاب الأليم على سبيل الإخبار ومنها أنه سبحانه وتعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ عباده هذا المعنى فكأنه أشهد رسوله على نفسه فى التزام المغفرة والرحمة . قوله سبحانه وتعالى (ونبئهم عن ضيف إبراهيم) هذا معطوف على ماقبله أى وأخبر يامحمد عبادى عن ضيف إبراهيم . وأصل الضيف الميل يقال ضفت إلى كذا إذا ملت إليه والضيف من مال إليك نزولا بك وصارت الضيافة متعارفة فى القرى وأصل الضيف مصدر ولذلك استوى فيه الواحد والجمع فى عامة كلامهم وقد يجمع فيقال أضياف وضيوف وضيفان وضيف إبراهيم هم الملائكة الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى ليبشروا إبراهيم بالولد ويهلكوا قوم لوط (إذ دخلوا عليه) يعنى إذ دخل الأضياف على إبراهيم عليه السلام (فقالوا سلاما) أى نسلم سلاما (قال) يعنى إبراهيم (إنا منكم وجلون) أى خائفون وإنما خاف إبراهيم منهم لأنهم لم يأكلوا طعامه (قالوا لاتوجل) يعنى لاتخف (إنا نبشرك بغلام عليم) يعنى أنهم بشروه بولد ذكر غلام فى صغره عليم فى كبره وقيل عليم بالأحكام والشرائع والمراد به إسحاق عليه السلام فلما بشروه بالولد عجب إبراهيم من كبره وكبر امرأته (قال أبشرتمونى) يعنى بالولد (على أن مسنى الكبر) يعنى على حالة الكبر قاله على طريق التعجب (فبم تبشرون) يعنى فبأى شئ تبشرون وهو استفهام بمعنى التعجب كأنه عجب من حصول الولد على الكبر (قالوا بشرناك بالحق) يعنى بالصدق الذى قضاه الله بأن يخرج منك ولدا ذكرا تكثر ذريته وهو إسحاق (فلا تكن من القانطين) يعنى فلا تكن من الآيسين من الخير والقنوط هو الإياس من الخير (قال) يعنى إبراهيم (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) يعنى من ييأس من رحمة ربه إلا المكذبون وفيه دليل على أن إبراهيم عليه السلام لم يكن من القانطين ولكنه استبعد حصول الولد على الكبر فظنت الملائكة أن به قنوطا فنفى ذلك عن نفسه وأخبر أن القانط من رحمة الله تعالى من الضالين لأن القنوط من رحمة الله كبيرة كالأمن من مكر الله ولا يحصل إلا عند من يجهل كون الله تعالى قادرا على مايريد ومن يجهل كونه سبحانه وتعالى عالما بجميع المعلومات فكل هذه الأمور سبب للضلالة (قال) يعنى إبراهيم (فما خطبكم) يعنى فما شأنكم وما الأمر الذى جئتم فيه (أيها المرسلون) والمعنى ما الأمر الذى جئتم به سوى ما بشرتمونى به من الولد (قالوا) يعنى الملائكة (إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) يعنى لهلاك قوم مجرمين (إلا آل لوط) يعنى أشياعه وأتباعه من أهل دينه (إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته) يعنى امرأة لوط (قدرنا) يعنى قضينا وإنما أسند الملائكة القدر إلى أنفسهم وإن كان ذلك لله عز وجل لاختصاصهم بالله وقربهم منه كما تقول خاصة الملك نحن أمرنا ونحن فعلنا وإن كان قد فعلوه بأمر الملك (إنها لمن الغابرين) يعنى لمن الباقين فى العذاب والاستثناء من النفى إثبات ومن الإثبات

فاستثنى امرأة لوط من الناجين فكانت ملحقة بالهالكين قرأ أبو بكر قدرنا هاهنا وفي سورة النمل بتخفيف الدال والباقون بتشديدها (فلما جاء آل لوط المرسلون قال) لوط لهم (إنكم قوم منكرون) أي أنا لا أعرفكم (قالوا بل جئناك بما كانوا به يمترون) أي يشكون في أنه نازل بهم وهو العذاب لأنه كان يوعدهم بالعذاب ولا يصدقونه (وأتيناك بالحق) باليقين وقيل بالعذاب (وإنا لصادقون فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم) أي خلفهم (ولا يلتفت منكم أحد) حتى لا يرتاعوا من العذاب إذا نزل بقومهم وقيل جعل الله ذلك علامة لمن ينجو من آل لوط (وامضوا حيث تؤمرون) قال ابن عباس يعني الشام وقال مقاتل يعني زغر وقيل الأردن (وقضينا اليه ذلك الأمر) أي وقضينا إلى آل لوط ذلك الأمر أي أحكمنا الأمر الذي أمرنا في قوم لوط وأخبرناه (أن دابر هؤلاء) يدل عليه قراءة عبد الله وقلنا له إن دابر هؤلاء يعني أصلهم (مقطوع) مستأصل (مصبحين) إذا دخلوا في الصبح (وجاء أهل المدينة) يعني سدوم (يستبشرون) بأضياف لوط أي يبشر بعضهم بعضا طمعا في ركوب الفاحشة منهم (قال) لوط لقومه (إن هؤلاء ضيفي) وحق على الرجل إكرام ضيفه (فلا تفضحون) فيهم (واتقوا الله ولا تخزون) ولا تخجلون (قالوا أو لم ننهك عن العالمين) أي ألم ننهك عن أن تضيف أحدا من العالمين وقيل ألم ننهك أن تدخل الغرباء المدينة فانا نركب منهم الفاحشة (قال هؤلاء بناتي) أزوجهن إياكم إن أسلمتم فأتوا الحلال ودعوا الحرام (إن كنتم فاعلين) ما آمركم به وقيل أراد بالبنات نساء قومه لأن النبي كالوالد لأمته قال الله تعالى (لعمرك) يا محمد أي وحياتك

في فاستثناء امرأة لوط من الناجين يلحقها بالهالكين (فلما جاء آل لوط المرسلون) وذلك أن الملائكة عليهم السلام لما بشروا إبراهيم بالولد وعرفوه بما أرسلوا به ساروا إلى لوط وقومه فلما دخلوا على لوط (قال إنكم قوم منكرون) وإنما قال هذه المقالة لوط لأنهم دخلوا عليه وهم في زي شبان مردان حسان الوجوه فخاف أن يهجم عليهم قومه فلهذا السبب قال هذه المقالة وقيل إن النكرة ضد المعرفة فقوله إنكم قوم منكرون يعني لا أعرفكم ولا أعرف من أي الأقوام أنتم ولا لأي غرض دخلتم على فعند ذلك (قالوا) يعني الملائكة (بل جئناك بما كانوا فيه يمترون) يعني جئناك بالعذاب الذي كانوا يشكون فيه (وأتيناك بالحق) يعني باليقين الذي لاشك فيه (وإنا لصادقون) يعني فيما أخبرناك به من إهلاكهم (فأسر بأهلك) بقطع من الليل يعني آخر الليل والقطع القطعة من الشيء وبعضه (واتبع أدبارهم) يعني واتبع آثار أهلك وسر خلفهم (ولا يلتفت منكم أحد) يعني حتى لا يرى مانزل بقومه من العذاب فيرتاع بذلك، وقيل المراد الإسراع في السير وترك الالتفات إلى ورائه والاهتمام بما خلفه كما تقول امض لشأنك ولا تعرج على شيء وقيل جعل ترك الالتفات علامة لمن ينجو من آل لوط ولئلا يتخلف أحد منهم فيناله العذاب (وامضوا حيث تؤمرون) قال ابن عباس يعني إلى الشأم وقيل الأردن ، وقيل إلى حيث يأمركم جبريل وذلك أن جبريل أمرهم أن يسيروا إلى قرية معينة ، ماعمل أهلها عمل قوم لوط (وقضينا إليه ذلك الأمر) يعني وأوحينا إلى لوط ذاك الأمر الذي حكمنا به على قومه وفرغنا منه ثم إنه سبحانه وتعالى فسر ذلك الأمر الذي قضاه بقوله (أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) يعني أن هؤلاء القوم يستأصلون عن آخرهم بالعذاب وقت الصبح وإنما أبهم الأمر الذي قضاه عليهم أولا وفسر ثانيا تفخيما له وتعظيما لشأنه (وجاء أهل المدينة) يعني مدينة سدوم وهي مدينة قوم لوط (يستبشرون) يعني يبشر بعضهم بعضا بأضياف لوط والاستبشار إظهار الفرح والسرور وذلك أن الملائكة لما نزلوا على لوط ظهر أمرهم في المدينة وقيل إن امرأته أخبرتهم بذلك وكانوا شبانا مردا في غاية الحسن ونهاية الجمال فجاء قوم لوط إلى داره طمعا منهم في ركوب الفاحشة (قال) يعني قال لوط لقومه (إن هؤلاء ضيفي) وحق على الرجل إكرام ضيفه (فلا تفضحون) يعني فيهم يقال فضحه يفضحه إذا أظهر من أمره مايلزمه العار بسببه (واتقوا الله) يعني خافوا الله في أمرهم (ولا تخزون) يعني ولا تخجلون (قالوا) يعني قوم لوط الذين جاءوا إليه (أو لم ننهك عن العالمين) يعني أو لم ننهك عن أن تضيف أحدا من العالمين وقيل معناه أو لم ننهك أن تدخل الغرباء إلى بيتك فانا نريد أن نركب منهم الفاحشة وقيل معناه ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا في أحد من العالمين إذا قصدناه بالفاحشة (قال) يعني قال لوط لقومه الذين قصدوا أضيافه (هؤلاء بناتي) أزوجكم إياهن إن أسلمتم فأتوا الحلال ودعوا الحرام وقيل أراد بالبنات نساء قومه لأن النبي كالوالد لأمته (إن كنتم فاعلين) يعني ما آمركم به (لعمرك) الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس معناه

وحياتك يا محمد وقال ماخلق الله نفسا أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم وما أقسم بحياة أحد إلا بحياته والعمر والعمر واحد وهو اسم لمدة عمارة بدن الإنسان بالحياة والروح وبقائه مدة حياته قال النحويون ارتفع لعمرك بالابتداء والخبر محذوف والمعنى لعمرك قسمى فحذف الخبر لأن فى الكلام دلالة عليه (إنهم لفى سكرتهم) يعنى فى حيرتهم وضلالتهم وقيل غفلتهم (يعمهون) يعنى يترددون متحيرين وقال قتادة يلعبون (فأخذتهم الصيحة مشرقين) يعنى حين أضاءت الشمس فكان ابتداء العذاب الذى نزل بهم وقت الصبح وتمامه وانتهاؤه حين أشرقت الشمس (فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) تقدم تفسيره فى سورة هود (إن فى ذلك) يعنى الذى نزل بهم من العذاب (لآيات للمتوسمين) قال ابن عباس للناظرين وقال قتادة للمعتبرين وقال مقاتل للمتفكرين وقال مجاهد للمتفرسين ويعضد هذا التأويل ماروى عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله ثم قرأ إن فى ذلك لآيات للمتوسمين» أخرجه الترمذى وقال حديث غريب. الفراسة بالكسر اسم من قولك تفرست فى فلان الخير وهى على نوعين أحدهما مادل عليه ظاهر الحديث، وهو مايوقعه الله فى قلوب أوليائه فيعلمون بذلك أحوال الناس بنوع من الكرامات وإصابة الحدس والنظر والظن والتثبت، والنوع الثانى مايحصل بدلائل التجارب والخلق والأخلاق تعرف بذلك أحوال الناس أيضا وللناس فى علم الفراسة تصانيف قديمة وحديثة قال الزجاج حقيقة المتوسمين فى اللغة المتثبتين فى نظرهم حتى يعرفوا سمة الشىء وصفته وعلامته فالمتوسم الناظر فى سمة الدلائل تقول توسمت فى فلان كذا أى عرفت وسم ذلك وسمته (وإنها) يعنى قرى قوم لوط (لبسبيل مقيم) يعنى بطريق واضح قال مجاهد بطريق معلم ليس بخفى ولا زائل والمعنى أن آثار ما أنزل الله بهذه القرى من عذابه وغضبه لبسبيل مقيم ثابت لم يدثر ولم يخف والذين يمرون عليها من الحجاز إلى الشام يشاهدون ذلك ويرون أثره (إن فى ذلك) يعنى الذى ذكر من عذاب قوم لوط وما أنزل بهم (لآية للمؤمنين) يعنى المصدقين بما أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم (وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين) يعنى كان أصحاب الأيكة وهى الغيضة واللام فى قوله لظالمين للتأكيد وهم قوم شعيب عليه السلام كانوا أصحاب غياض وشجر ملتف وكان عامة شجرهم المقل وكانوا قوما كافرين فبعث الله عز وجل إليهم شعيبا رسولا فكذبوه فأهلكهم الله فهو قوله تعالى (فانتقمنا منهم) يعنى بالعذاب وذلك أن الله سبحانه وتعالى سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى أخذ بأنفاسهم وقربوا من الهلاك فبعث الله سبحانه وتعالى سحابة كالظلة فالتجئوا إليها واجتمعوا تحتها يلتمسون الروح فبعث الله عليهم نارا فأحرقتهم جميعا (وإنهما) يعنى مدينة قوم لوط ومدينة أصحاب الأيكة (لبإمام مبين) يعنى طريق واضح مستبين لمن مر بهما وقيل الضمير راجع إلى الأيكة ومدين لأن شعيبا كان مبعوثا إليهما وإنما سمى الطريق إماما لأنه يؤم ويتبع ولأن المسافر يأتم به حتى يصير إلى الموضع الذى يريده. قوله عز وجل (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين) قال المفسرون الحجر اسم واد كان يسكنه ثمود وهو معروف بين المدينة النبوية والشام وآثاره موجودة باقية يمر عليها ركب الشام إلى الحجاز وأهل الحجاز إلى الشام وأراد بالمرسلين صالحا

(إنهم لفى سكرتهم) حيرتهم وضلالتهم (يعمهون) يترددون وقال قتادة يلعبون روى عن أبى الجوزاء عن ابن عباس أنه قال ما خلق الله نفسا أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم وما أقسم الله تعالى بحياة أحد إلا بحياته (فأخذتهم الصيحة مشرقين) أى حين أضاءت الشمس فكان ابتداء العذاب حين أصبحوا وإتمامه حين أشرقوا (فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل إن فى ذلك لآيات للمتوسمين) قال ابن عباس للناظرين وقال مجاهد للمتفرسين وقال قتادة للمعتبرين وقال مقاتل للمتفكرين (وإنها) يعنى قرى قوم لوط (لبسبيل مقيم) يعنى بطريق واضح. وقال مجاهد بطريق معلم ليس بخفى ولا زائل (إن فى ذلك لآية للمؤمنين وإن كان) وقد كان (أصحاب الأيكة) الغيضة (لظالمين) لكافرين واللام للتأكيد وهم قوم شعيب عليه السلام كانوا أصحاب غياض وشجر ملتف وكانت عامة شجرهم الدوم وهو المقل (فانتقمنا منهم) بالعذاب وذلك أن الله سلط عليهم الحر سبعة أيام ثم بعث الله سحابة فالتجئوا إليها يلتمسون الروح فبعث عليهم منها نارا فأحرقتهم فذلك قوله تعالى «فأخذهم عذاب يوم الظلة» (وإنهما) يعنى مدينتى قوم لوط وأصحاب الأيكة (لبإمام مبين) لبطريق واضح مستبين قوله تعالى (ولقد كذب أصحاب الحجر) وهى مدينة ثمود قوم صالح وهى بين المدينة والشام (المرسلين) أراد صالحا وحده وإنما ذكر

بلفظ الجمع لأن من كذب رسولا فقد كذب الرسل كلهم (وآتيناهم آياتنا) يعني الناقة وولدها والبئر والآية في الناقة خروجها من الصخرة وكبرها وقرب ولادها وغزارة لبنها (فكانوا عنها معرضين وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين) من الخراب ووقوع الجبل عليهم (فأخذتهم الصيحة) يعني صيحة العذاب (مصبحين) أي داخلين في وقت الصبح (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) من الشرك والأعمال الخبيثة. أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنبأنا محمد بن أحمد بن الحارث أنا محمد بن يعقوب الكسائي ثنا عبد الله بن محمود أنبأنا إبراهيم ابن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن معمر عن الزهري أنا سالم بن عبد الله عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم «أنه لما مر بالحجر قال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم قال وتقنع بردائه وهو على الرحل وقال عبد الرزاق

عن معمر ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى اجتاز الوادي» قوله تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة) يعني القيامة (لآتية) يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته (فاصفح الصفح الجميل) فأعرض عنهم واعف عفوا حسنا نسختها آية القتال (إن ربك هو الخلاق العليم) بخلقه قوله تعالى (ولقد آتيناك سبعا من المثاني) قال عمر وعلي فاتحة الكتاب وهو قول قتادة وعطاء والحسن وسعيد بن جبير. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا آدم ثنا ابن أبي زيد ثنا سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أم القرآن هي السبع المثاني» كانوا

(والقرآن العظيم) وعن ابن مسعود قال السبع المثاني هي فاتحة الكتاب والقرآن العظيم سائر القرآن واختلفوا في أن الفاتحة لم سميت مثاني فقال ابن عباس والحسن وقتادة لأنها تثنى في الصلاة فتقرأ في كل ركعة وقيل لأنها مقسومة بين الله وبين العبد بنصفين نصفها ثناء ونصفها دعاء كما روينا عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «يقول الله قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» وقال الحسين بن الفضل سميت مثاني لأنها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة كل مرة معها سبعون ألف ملك وقال مجاهد سميت مثاني لأن الله تعالى استثناها وادخرها لهذه الأمة فما أعطاها غيرهم وقال أبو زيد البلخي سميت مثاني لأنها تثني أهل الشر عن الفسق من قول العرب ثنيت عناني وقيل لأن أولها ثناء وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس إن السبع المثاني هي السبع

وحده وإنما ذكره بلفظ الجمع للتعظيم أو لأنهم كذبوه وكذبوا من قبله من الرسل (وآتيناهم آياتنا) يعني الناقة وولدها والآيات التي كانت في الناقة خروجها من الصخرة وعظم جثتها وقرب ولادها وغزارة لبنها وإنما أضاف الآيات إليهم وإن كانت لصالح، لأنه مرسل إليهم بهذه الآيات (فكانوا عنها) يعني عن الآيات (معرضين) يعني تاركين لها غير ملتفتين إليها (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين) خوفا من الخراب أو أن يقع عليهم الجبل أو السقف (فأخذتهم الصيحة) يعني العذاب (مصبحين) يعني وقت الصبح (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) يعني من الشرك والأعمال الخبيثة (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال «لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر قال: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادي» قوله سبحانه وتعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) يعني لإظهار الحق والعذاب وهو أن يثاب المؤمن المصدق ويعاقب الجاحد الكافر الكاذب (وإن الساعة لآتية) يعني وإن القيامة لتأتي ليجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته (فاصفح الصفح الجميل) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي فأعرض عنهم يا محمد واعف عنهم عفوا حسنا واحتمل ما تلقى من أذى قومك وهذا الصفح والإعراض منسوخ بآية القتال وقيل فيه بعد لأن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يظهر الخلق الحسن وأن يعاملهم بالعفو والصفح الخالي من الجزع والخوف (إن ربك هو الخلاق العليم) يعني أنه سبحانه وتعالى خلق خلقه وعلم ما هم فاعلوه وما يصلحهم. قوله عز وجل (ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم) قال ابن الجوزي سبب نزولها أن سبع قوافل وافت من بصرى وأذرعات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد، فيها أنواع من البز والطيب والجواهر فقال المسلمون لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها في سبيل الله فأنزل الله هذه الآية وقال قد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه السبع القوافل ويدل على صحة هذا قوله لا تمدن عينيك الآية قال الحسن بن الفضل قلت وهذا القول ضعيف أو لا يصح لأن هذه السورة مكية بإجماع أهل التفسير وليس فيها من المدني شيء ويهود قريظة والنضير

الطوال أولها سورة البقرة وآخرها الأنفال مع التوبة وقال بعضهم سورة يونس بدل الأنفال أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي ثنا أبو محمد الحسن بن أحمد المخلدي أنا أبو بكر محمد بن حمدون بن خالد وعبد الله بن محمد بن مسلم قال أنبأنا هلال بن العلاء ثنا حجاج بن محمد عن أيوب بن عتبة عن يحيى بن كثير عن شداد بن عبد الله عن أبي أسماء الرحبي عن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن الله تعالى أعطاني السبع الطوال مكان التوراة وأعطاني المئين مكان الإنجيل وأعطاني مكان الزبور المثاني وفضلني ربي بالمفصل» وعن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال «أوتي النبي صلى الله عليه وسلم السبع الطوال وأعطي موسى ستا فلما ألقى الألواح رفع ثنتان وبقي أربع» قال ابن عباس وإنما سميت السبع الطوال مثاني لأن الفرائض والحدود والأمثال والخبر والشر والعبر والخبر ثنيت فيها وقال طاوس القرآن كله مثاني قال الله تعالى «الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني» وسمى القرآن مثاني لأن الأنباء والقصص ثنيت فيه وعلى هذا القول المراد بالسبع سبعة أسباع القرآن فيكون تقديره على هذا وهي القرآن العظيم وقيل الواو مقحمة مجازه ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم

كانوا بالمدينة وكيف يصح أن يقال أن سبع قوافل جاءت في يوم واحد فيها أموال عظيمة حتى تمناها المسلمون فأنزل الله هذه الآية وأخبرهم أن هذه السبع آيات هي خير من هذه السبع القوافل والله أعلم وفي المراد بالسبع المثاني أقوال أحدها أنها فاتحة الكتاب وهذا قول عمر وعلي وابن مسعود وفي رواية عنه وابن عباس وفي رواية الأكثر عنه وأبي هريرة والحسن وسعيد بن جبير وفي رواية عنه ومجاهد وعطاء وقتادة في آخرين ويدل على صحة هذا التأويل ماروى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني» أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي (ق) عن أبي سعيد بن المعلى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته» أخرجه البخاري وفيه زيادة أما السبب في تسمية فاتحة الكتاب بالسبع المثاني فلأنها سبع آيات باجماع أهل العلم واختلفوا في سبب تسميتها بالمثاني فقال ابن عباس والحسن وقتادة لأنها تثنى في الصلاة تقرأ في كل ركعة وقيل لأنها مقسومة بين العبد وبين الله نصفين فنصفها الأول ثناء على الله ونصفها الثاني دعاء ويدل على صحة هذا التأويل ماروى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «يقول الله تبارك وتعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» الحديث مذكور في فضل الفاتحة وقيل سميت مثاني لأن كلماتها مثناة مثل قوله الرحمن الرحيم إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين فكل هذه ألفاظ مثناة وقال الحسن بن الفضل لأنها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة معها سبعون ألف ملك وقال مجاهد لأن الله سبحانه وتعالى استثناها وادخرها لهذه الأمة فلم يعطها لغيرهم . وقال أبو زيد البلخي لأنها تثنى أهل الشر عن الشر من قول العرب ثنيت عناني وقال ابن الزجاج سميت فاتحة الكتاب مثاني لاشتمالها على الثناء على الله تعالى وهو حمد الله وتوحيده وملكه وإذا ثبت كون الفاتحة هي السبع المثاني دل ذلك على فضلها وشرفها وأنها من أفضل سور القرآن لأن إفرادها بالذكر في قوله تعالى ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم مع أنها جزء من أجزاء القرآن وإحدى سوره لابد وأن يكون لاختصاصها بالشرف والفضيلة القول الثاني في تفسير قوله سبعا من المثاني أنها السبع الطوال وهذا قول ابن عمر وابن مسعود في رواية عنه وابن عباس وفي رواية عنه وسعيد بن جبير وفي رواية عنه السبع الطوال هي سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف. واختلفوا في السابعة فقيل الأنفال مع براءة لأنهما كالسورة الواحدة ولهذا لم يكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم وقيل السابعة هي سورة يونس ويدل على صحة هذا القول ماروى عن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن الله سبحانه وتعالى أعطاني السبع الطوال مكان التوراة وأعطاني المئين مكان الإنجيل وأعطاني مكان الزبور المثاني وفضلني ربي بالمفصل» أخرجه البغوي بإسناد الثعلبي ، قال ابن عباس إنما سميت السبع الطوال مثاني لأن الفرائض والحدود والأمثال والخبر والعبر ثنيت فيها وأورد على هذا القول أن هذه السور الطوال غالبها مدنيات فكيف يمكن تفسير هذه الآية بها وهي مكية وأجيب عن هذا الإيراد بأن الله سبحانه وتعالى حكم في سابق علمه بإنزال هذه السورة على النبي صلى الله عليه

قوله تعالى (لا تمدن عينيك) يا محمد (إلى ما متعنا به أزواجا) أصنافا (منهم) أي من الكفار متمنيا لها نهى الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عن الرغبة في الدنيا ومزاحمة أهلها عليها (ولا تحزن عليهم) أي لا تغتم على ما فاتك من مشاركتهم في الدنيا أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد (٧٤) ابن عبد الله النعيمي أنا أبو جعفر أحمد بن محمد بن المقبري ثنا عيسى ابن نصر أنبأنا عبد الله بن المبارك أنا جهم بن أوس قال سمعت عبد الله بن أبي مريم ومر به عبد الله ابن رستم في موكبه فقال لابن أبي مريم إني لأشتهي مجالستك وحديثك فلما مضى قال ابن مريم سمعت أبا هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تغبطن فاجرا بنعمته فإنك لا تدري ما هو لاق بعد موته إن له عند الله قاتلا لا يموت» فبلغ ذلك وهب ابن منبه فأرسل إليه وهب أبا داود الأعور فقال يا أبا فلان ما قاتلا لا يموت قال ابن أبي مريم النار أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك المظفر السرخسي أنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن الفضل الفقيه ثنا أبو الحسن بن أبي إسحاق ثنا إبراهيم بن عبد الله العبسي أنا وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم» وقيل هذه الآية متصلة بما قبلها، وذلك أنه لما من الله تعالى عليه بالقرآن نهاه عن الرغبة في الدنيا روي أن سفيان بن عيينة تأول قول النبي صلى الله عليه وسلم «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» أي من لم يستغن بالقرآن وتأويل هذه الآية قوله تعالى (واخفض جناحك) لين جانبك (للمؤمنين) وارفق بهم والجناحان

وسلم وإذا كان الأمر كذلك صح أن تفسر هذه الآية بهذه السورة، القول الثالث أن السبع المثاني هي السور التي هي دون الطوال وفوق المفصل وهي المئين. وحجة هذا القول الحديث المتقدم وأعطاني مكان الزبور المثاني والقول الرابع أن السبع المثاني هي القرآن كله وهذا قول طاوس وحجة هذا القول أن الله سبحانه وتعالى قال «الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني» وسمى القرآن كله مثاني لأن الأخبار والقصص والأمثال ثنيت فيه فإن قلت كيف يصح عطف القرآن في قوله «والقرآن العظيم» على قوله «سبعا من المثاني» وهل هو إلا عطف الشيء على نفسه. قلت إذا عني بالسبع المثاني فاتحة الكتاب أو السبع الطوال فما وراءهن ينطلق عليه القرآن لأن القرآن اسم يقع على البعض كما يقع على الكل ألا ترى إلى قوله بما أوحينا إليك هذا القرآن يعني سورة يوسف عليه السلام وإذا عني بالسبع المثاني القرآن كله كان المعنى ولقد آتيناك سبعا من المثاني وهي القرآن العظيم وإنما سمي القرآن عظيما لأنه كلام الله ووحيه أنزله على خير خلقه محمد صلى الله عليه وسلم. قوله (لا تمدن عينيك) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي لا تمدن عينيك يا محمد (إلى ما متعنا به أزواجا) يعني أصنافا (منهم) يعني من الكفار متمنيا لها نهى الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم عن الرغبة في الدنيا ومزاحمة أهلها عليها والمعنى أنك قد أوتيت القرآن العظيم الذي فيه غنى عن كل شيء فلا تشغل قلبك وسرك بالالتفات إلى الدنيا والرغبة فيها روي أن سفيان ابن عيينة تأول قول النبي صلى الله عليه وسلم «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» يعني من لم يستغن بالقرآن فتأول هذه الآية قيل إنما يكون مادا عينيه إلى الشيء إذا أدام النظر إليه مستحسنا له فيحصل من ذلك تمني ذلك الشيء المستحسن. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينظر إلى شيء من متاع الدنيا ولا يلتفت إليه ولا يستحسنه (ولا تحزن عليهم) يعني ولا تغتم على ما فاتك من مشاركتهم في الدنيا وقيل ولا تحزن على إيمانهم إذا لم يؤمنوا ففيه النهي عن الالتفات إلى أموال الكفار والالتفات إليهم أيضا وروى البغوي بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تغبطن فاجرا بنعمته فإنك لا تدري ما هو لاق بعد موته إن له عند الله قاتلا لا يموت قيل وما هو قال النار» (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه» لفظ البخاري ولمسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم» قال عوف بن عبد الله بن عتبة كنت أصحب الأغنياء فما كان أحد أكثر هما مني كنت أرى دابة خيرا من دابتي وثوبا خيرا من ثوبي فلما سمعت هذا الحديث صحبت الفقراء فاسترحت. وقوله سبحانه وتعالى (واخفض جناحك) يعني لين جانبك (للمؤمنين) وارفق بهم لما نهاه الله سبحانه وتعالى عن الالتفات إلى الأغنياء من الكفار أمره بالتواضع واللين والرفق بفقراء المسلمين وغيرهم

وغيرهم من المؤمنين (وقل) أى وقل لهم يا محمد (إنى أنا النذير المبين) لما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالزهد فى الدنيا والتواضع للمؤمنين أمره بتبليغ ما أرسل به إليهم والنذارة تبليغ مع تخويف والمعنى إنى أنا النذير بالعقاب لمن عصانى المبين البين النذارة (كما أنزلنا على المقتسمين) يعنى أنذركم عذابا كعذاب أنزلناه بالمقتسمين ، قال ابن عباس أراد بالمقتسمين اليهود والنصارى وهو قول الحسن ومجاهد وقتادة سموا بذلك لأنهم آمنوا ببعض القرآن وكفروا ببعضه فما وافق كتبهم آمنوا به وما خالف كتبهم كفروا به وقال عكرمة أنهم اقتسموا سور القرآن فقال واحد منهم هذه السورة لى وقال آخر هذه السورة لى وإنما فعلوا ذلك استهزاء به وقال مجاهد إنهم اقتسموا كتبهم فآمنوا ببعضها وكفروا ببعضها وكفر آخرون منهم بما آمن به غيرهم وقال قتادة وابن السائب أراد بالمقتسمين كفار قريش سموا بذلك لأن أقوالهم تقسمت فى القرآن فقال بعضهم إنه سحر وزعم بعضهم أنه كهانة وزعم بعضهم إنه أساطير الأولين وقال ابن السائب سموا بالمقتسمين لأنهم اقتسموا عقاب مكة وطرقها وذلك أن الوليد بن المغيرة بعث رهطا من أهل مكة قيل ستة عشر وقيل أربعين فقال لهم انطلقوا فتفرقوا على عقاب مكة وطرقها حيث يمر بكم أهل الموسم فاذا سألوكم عن محمد فليقل بعضكم أنه كاهن وليقل بعضكم أنه شاعر وليقل بعضكم أنه ساحر فاذا جاءوا إلى صدقتكم فذهبوا وقعدوا على عقاب مكة وطرقها يقولون لمن مر بهم من حجاج العرب لاتغتروا بهذا الخارج الذى يدعى النبوة منا فانه مجنون كاهن وشاعر وقعد الوليد بن المغيرة على باب المسجد الحرام فاذا جاءوا وسألوه عما قال أولئك المقتسمون قال صدقوا . وقوله سبحانه وتعالى (الذين جعلوا القرآن عضين) (خ) عن ابن عباس فى قوله تعالى الذين جعلوا القرآن عضين قال هم اليهود والنصارى جزءوه أجزاء آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، قيل هو جمع عضة من قولهم عضيت الشئ إذا فرقته وجعلته أجزاء وذلك لأنهم جعلوا القرآن أجزاء مفرقة فقال بعضهم هو سحر وقال بعضهم هو كهانة وقال بعضهم هو أساطير الأولين وقيل هو جمع عضة وهو الكذب والبهتان وقيل المراد به العضة وهو السحر يعنى أنهم جعلوا القرآن سحرا (فوربك لنسألنهم أجمعين) أقسم الله بنفسه أنه يسأل هؤلاء المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين (عما كانوا يعملون) يعنى عما كانوا يقولونه فى القرآن وقيل عما كانوا يعملون من الكفر والمعاصى وقيل يرجع الضمير فى لنسألنهم إلى جميع الخلق المؤمن والكافر لأن اللفظ عام فحمله على العموم أولى قال جماعة من أهل العلم عن لا إله إلا الله عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون قال عن قول لا إله إلا الله أخرجه الترمذى وقال حديث غريب وقال أبو العالية يسأل العباد عن خلتين عما كانوا يعبدون وماذا أجابوا المرسلين . فان قلت كيف الجمع بين قوله لنسألنهم أجمعين وبين قوله فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان . قلت : قال ابن عباس لا يسألهم هل عملتم لأنه أعلم به منهم ولكن يقول لم عملتم كذا واعتمده قطرب فقال السؤال

من ابن آدم جانباه (وقل إني أنا النذير المبين كما أنزلنا على المقتسمين) قال الفراء مجازه أنذركم عذابا كعذاب المقتسمين حكى عن ابن عباس أنه قال هم اليهود والنصاري (الذين جعلوا القرآن عضين) جزءوه فجعلوه أعضاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه وقال مجاهد هم اليهود والنصاري قسموا كتابهم ففرقوه وبدلوه وقيل المقتسمون قوم اقتسموا القرآن فقال بعضهم سحر وقال بعضهم شعر وقال بعضهم كذب وقال بعضهم أساطير الأولين وقيل الاقتسام هو أنهم فرقوا القول فى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ساحر كاهن شاعر وقال مقاتل كانوا ستة عشر رجلا بعثهم الوليد ابن المغيرة أيام الموسم ، فاقتسموا عقاب مكة وطرقها وقعدوا على نقابها فيقولون لمن جاء من الحجاج لا تغتروا بهذا الرجل الخارج الذى يدعى النبوة منا وتقول طائفة منهم إنه مجنون وطائفة إنه كاهن وطائفة إنه شاعر والوليد قاعد على باب المسجد نصبوه حكما فاذا سئل عنه قال صدق أولئك يعنى المقتسمين وقوله عضين قيل هو جمع عضو مأخوذ من قولهم عضيت الشيء تعضية إذا فرقته ومعناه أنهم جعلوا القرآن أعضاء فقال بعضهم سحر وقال بعضهم كهانة وقال بعضهم أساطير الأولين وقيل هو جمع عضة يقال عضة وعضين مثل برة وبرين وعزة وعزين وأصلها عضهة ذهبت هاؤها الأصلية كما نقصوا من الشفة وأصلها شفهة ، بدليل أنك تقول فى التصغير شفيهة والمراد بالعضة الكذب والبهتان وقيل المراد بالعضين العضة ، وهو السحر يريد أنهم سموا القرآن سحرا (فوربك لنسألنهم أجمعين) يوم القيامة (عما كانوا يعملون) فى الدنيا قال محمد بن إسماعيل قال عدة من أهل العلم عن قول لا إله إلا الله . فان قيل

كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى فيومئذ لايسأل عن ذنبه إنس ولا جان قيل قال ابن عباس لايسألهم هل عملتم لأنه أعلم بهم منهم ولكن يقول لم عملتم كذا وكذا واعتمده قطرب فقال السؤال ضربان سؤال استعلام وسؤال توبيخ فقوله تعالى فيومئذ لايسأل عن ذنبه إنس ولاجان يعنى استعلاما وقوله لنسألنهم أجمعين يعنى توبيخا وتقريعا وقال عكرمة عن ابن عباس فى الآيتين أن يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف مختلفة يسألون فى بعض المواقف ولايسألون فى بعضها نظير ذلك قوله تعالى هذا يوم لاينطقون وقال فى آية أخرى ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قوله تعالى (فاصدع بما تؤمر) قال ابن عباس أظهره ويروى عنه أمضه وقال الضحاك أعلم وقال الأخفش أفرق أى أفرق بالقرآن بين الحق والباطل وقال سيبويه اقض بما تؤمر وأصل الصدع الفصل والفرق أمر النبى صلى الله عليه وسلم فى هذ الآية باظهار الدعوة وروى عن عبد الله ابن عبيدة قال كان مستخفيا حتى نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه (وأعرض عن المشركين) نسختها آية القتال (إنا كفيناك المستهزئين) يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فاصدع بأمر الله ولا تخف أحدا غير الله عز وجل فان الله كافيك من عاداك كما كفاك المستهزئين وهم خمسة نفر من رؤساء قريش الوليد بن المغيرة المخزومى وكان رأسهم والعاص بن وائل السهمى والأسود بن عبد المطلب ابن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن زمعة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعا عليه فقال اللهم اعم بصره

الكبر

وأثكله بولده والأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة والحارث بن قيس بن الطلاطلة فأتى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم والمستهزءون يطوفون بالبيت فقام جبريل وقام النبى صلى الله عليه وسلم إلى جنبه فمر به الوليد بن المغيرة فقال جبريل يامحمد كيف تجد هذا فقال بئس عبد الله فقال قد كفيته وأومأ إلى ساق الوليد فمر برجل من خزاعة نبال يريش نباله وعليه برد يمان وهو يجر إزاره فتعلقت شظية من نبل بازاره فمنعه الكبر أن يطأطىء رأسه فينزعها وجعلت تضرب ساقه فخدشته فمرض منها فمات ومر به العاص بن وائل فقال جبريل كيف تجد هذا يامحمد قال بئس عبد الله فأشار جبريل إلى

ضربان سؤال استعلام وسؤال توبيخ فقوله تعالى فيومئذ لايسأل عن ذنبه إنس ولاجان يعنى سؤال استعلام وقوله لنسألنهم أجمعين سؤال توبيخ وتقريع وجواب آخر وهو مروى عن ابن عباس أيضا أنه قال فى الآيتين أن يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف فيسألون فى بعض المواقف ولا يسألون فى بعضها نظيره قوله سبحانه وتعالى هذا يوم لاينطقون وقال تعالى فى آية أخرى ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قوله سبحانه وتعالى (فاصدع بما تؤمر) قال ابن عباس أظهر ويروى عنه أمضه وقال الضحاك أعلم وأصل الصدع الشق والفرق أى أفرق بالقرآن بين الحق والباطل أمر النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية باظهار الدعوة وتبليغ الرسالة إلى من أرسل إليهم قال عبد الله بن عبيدة مازال النبى صلى الله عليه وسلم مستخفيا حتى نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه (وأعرض عن المشركين) أى اكفف عنهم ولا تلتفت إلى لومهم على إظهار دينك وتبليغ رسالة ربك وقيل أعرض عن الاهتمام باستهزائهم وهو قوله سبحانه وتعالى (إنا كفيناك المستهزئين) أكثر المفسرين على أن هذا الإعراض منسوخ بآية القتال وقال بعضهم ما للنسخ وجه لأن معنى الإعراض ترك المبالاة بهم والالتفات إليهم فلا يكون منسوخا وقوله تعالى إنا كفيناك المستهزئين يقول الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فاصدع بما أمرتك به ولا تخف أحدا غيرى فانى أنا كافيك وحافظك ممن عاداك فانا كفيناك المستهزئين وكانوا خمسة نفر من رءساء كفار قريش كانوا يستهزءون بالنبى صلى الله عليه وسلم وبالقرآن وهم الوليد بن المغيرة المخزومى وكان رأسهم والعاص بن وائل السهمى والأسود بن المطلب بن الحرث بن أسد بن عبد العزى ابن زمعة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعا عليه فقال اللهم اعم بصره وأثكله بولده والأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف ابن زهرة والحرث بن قيس بن الطلاطلة كذا ذكره البغوى وقال ابن الجوزى الحرث بن قيس ابن عيطلة وقال الزهرى عيطلة أمه وقيس أبوه فهو منسوب إلى أبيه وأمه قال المفسرون أتى جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمستهزءون يطوفون بالبيت فقام جبريل وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه فمر به الوليد بن المغيرة فقال جبريل يامحمد كيف تجد هذا قال بئس عبد الله فقال قد كفيته وأومأ إلى ساق الوليد فمر الوليد برجل من خزاعة نبال يريش نبلا له وعليه برد يمانى وهو يجر إزاره فتعلقت شظية من النبل بازار الوليد فمنعه

أخمص رجليه وقال قد كفيته فخرج على راحلته ومعه إبنان له يتنزه فنزل شعبا من تلك الشعاب فوطئ على شبرقة فدخلت منها شوكة فى أخمص رجله فقال لدغت لدغت فطلبوا فلم يجدوا شيئا وانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق البعير فمات مكانه ومر به الأسود بن المطلب فقال جبريل كيف تجد هذا قال عبد سوء فأشار بيده إلى عينيه وقال قد كفيته فعمى قال ابن عباس رماه جبريل بورقة خضراء فعمى فذهب ضوء بصره ورجعت عيناه فجعل يضرب برأسه الجدار حتى هلك وفى رواية الكلبى أتاه جبريل وهو قاعد فى أصل شجرة ومعه غلام له فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك فاستغاث بغلامه فقال غلامه لا أرى أحدا يصنع بك شيئا غير نفسك حتى مات وهو يقول قتلنى رب محمد ومر به الأسود ابن عبد يغوث فقال جبريل كيف تجد هذا يا محمد قال بئس عبد الله على أنه ابن خالى فقال قد كفيته، وأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات حبنا وفى رواية الكلبى أنه خرج من أهله فأصابه السموم فاسود حتى عاد حبشيا فأتى أهله فلم يعرفوه وأغلقوا دونه الباب حتى مات وهو يقول قتلنى رب محمد ومر به الحارث بن قيس فقال جبريل كيف تجد هذا يا محمد فقال عبد سوء فأومأ إلى رأسه وقال قد كفيته فامتخط قيحا فقتله وقال ابن عباس أنه أكل حوتا مالحا فأصابه العطش فلم يزل يشرب عليه من الماء حتى انقد بطنه فمات فذلك قوله تعالى إنا كفيناك المستهزئين بك وبالقرآن» (الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون) وقيل استهزاؤهم واقتسامهم هو أن الله لما أنزل فى القرآن سورة البقرة وسورة النحل وسورة النمل وسورة العنكبوت كانوا يجتمعون ويقولون استهزاء يقول هذا فى سورة البقرة ويقول هذا فى سورة النحل ويقول هذا فى سورة العنكبوت فأنزل الله تعالى (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك) قال ابن عباس فصل بأمر ربك (وكن من الساجدين) من المصلين المتواضعين وقال الضحاك فسبح بحمد ربك، قل سبحان الله وبحمده وكن من

الكبر أن يطأطئ رأسه فينزعها وجعلت تضرب فى ساقه فخدشته فمرض فمات ومر بهما العاص ابن وائل السهمى فقال جبريل كيف تجد هذا يا محمد فقال بئس عبد الله، فأشار جبريل إلى أخمص قدمه وقال قد كفيته فخرج العاص على راحلة يتنزه ومعه ابناه فنزل شعبا من تلك الشعاب فوطئ شبرقة فدخل منها شوكة فى أخمص رجله فقال لدغت لدغت فطلبوا فلم يجدوا شيئا وانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق البعير فمات مكانه ومر بهما الأسود بن المطلب فقال جبريل كيف تجد هذا يا محمد فقال عبد سوء فأشار جبريل بيده إلى عينيه وقال قد كفيته فعمى قال ابن عباس رماه جبريل بورقة خضراء فذهب بصره ووجعت عينه فجعل يضرب برأسه الجدار حتى هلك وفى رواية الكلبى قال أتاه جبريل وهو قاعد فى أصل شجرة ومعه غلام له وفى رواية فجعل ينطح رأسه فى الشجرة ويضرب وجهه بالشوك فاستغاث بغلامه فقال له غلامه ما أرى أحدا يصنع بك شيئا غيرك فمات وهو يقول قتلنى محمد ومر بهما الأسود بن عبد يغوث فقال جبريل كيف تجد هذا يا محمد فقال بئس عبد الله على أنه خالى فقال جبريل قد كفيته وأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات وفى رواية الكلبى أنه خرج من أهله فأصابه سموم فاسود وجهه حتى صار حبشيا فأتى أهله فلم يعرفوه وأغلقوا دونه الباب فمات وهو يقول قتلنى رب محمد ومر بهما الحارث بن قيس فقال جبريل كيف تجد هذا يا محمد فقال عبد سوء فأومأ جبريل إلى رأسه وقال قد كفيته فامتخط قيحا فقتله. وقال ابن عباس أنه أكل حوتا مالحا فأصابه العطش فلم يزل يشرب الماء حتى انقد بطنه فمات فذلك قوله تعالى «إنا كفيناك المستهزئين» يعنى بك وبالقرآن (الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون) يعنى إذا نزل بهم العذاب ففيه وعيد وتهديد. قوله سبحانه وتعالى (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) يعنى بسبب ما يقولون وهو ما كانوا يسمعونه من الاستهزاء به والقول الفاحش والجبلة البشرية تأبى ذلك فيحصل عند سماع ذلك ضيق الصدر فعند ذلك أمره بالتسبيح والعبادة وهو قوله (فسبح بحمد ربك) قال ابن عباس فصل بأمر ربك (وكن من الساجدين) يعنى من المتواضعين لله وقال الضحاك فسبح بحمد ربك قل سبحان الله وبحمده وكن من الساجدين يعنى من المصلين روى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة قال بعض العارفين من المحققين أن السبب فى زوال الحزن عن القلب إذا أتى العبد بهذه العبادات أنه يتنور باطنه ويشرق قلبه وينفسح وينشرح صدره فعند ذلك يعرف قدر الدنيا وحقارتها فلا يلتفت إليها ولا يتأسف على فواتها فيزول الهم والغم والحزن عن قلبه وقال بعض العلماء إذا نزل بالعبد مكروه ففزع

الساجدين يعني من المصلين . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) أى الموت الموقن به وهذا معنى ما ذكر فى سورة مريم «وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا» أخبرنا المطهر بن على الفارسى أنا محمد بن إبراهيم الصالحى أنا عبد الله محمد بن جعفر بن الشيخ الحافظ ثنا أمية بن محمد الصواف البصرى ثنا محمد بن يحيى الأزدى ثنا أبى والهيثم بن خارجة قالا ثنا إسماعيل بن عياش عن شرحبيل بن مسلم عن أبى مسلم الخولانى عن جبير بن نفير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما أوحى الله إلى أن أجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحى إلى أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين» وروى عن عمر رضى الله عنه قال نظر النبى صلى الله عليه وسلم إلى مصعب

بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا إلى هذا الذى قد نور الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذيانه بأطيب الطعام والشراب ولقد رأيت عليه حلة شراها أو شريت له بمائتى درهم فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترونه والله أعلم .

(سورة النحل)

مكية مائتان وثمان وعشرون آية إلا قوله تعالى وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به إلى آخر السورة .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(أتى) أى جاء ودنا وقرب (أمر الله) قال ابن عرفة تقول العرب أتاك الأمر وهو متوقع بعد أى أتى أمر الله وعده (فلا تستعجلوه) وقوعا أمر الله قال الكلبى وغيره المراد منه القيامة . قال ابن عباس لما نزلت قوله تعالى اقتربت الساعة قال الكفار بعضهم لبعض إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى تنظروا ما هو كائن فلما لم ينزل شىء قالوا ما نرى شيئا فنزل قوله اقترب للناس حسابهم فأشفقوا فلما امتدت الأيام قالوا يا محمد ما نرى شيئا مما تخوفنا به فأنزل الله تعالى أتى أمر الله فوثب النبى صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رءوسهم وظنوا أنها قد أتت حقيقة فنزلت فلا تستعجلوه فاطمأنوا والاستعجال طلب الشىء قبل حينه ولما نزلت هذه الآية قال النبى صلى الله عليه وسلم «بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بأصبعيه وإن كادت لتسبقنى» . قال ابن عباس كان بعث النبى صلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة ولما مر جبريل عليه السلام بأهل السموات مبعوثا إلى محمد صلى الله عليه وسلم قالوا الله أكبر قامت الساعة وقال قوم المراد بالأمر

إلى الصلاة فكأنه يقول: يارب إنما يجب على عبادتك سواء أعطيتنى ما أحب أو كفيتنى ما أكره فأنا عبدك وبين يديك فافعل بى ما تشاء . قوله تعالى (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) يعنى الموت الموقن به الذى لا يشك فيه أحد والمعنى واعبد ربك فى جميع أوقاتك ومدة حياتك حتى يأتيك الموت وأنت فى عبادة ربك وهذا مثل قوله تعالى فى سورة مريم «وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا» روى البغوى بسنده عن جبير بن نفير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما أوحى الله إلى أن أجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحى إلى أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين» وعن عمر قال نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا إلى هذا الذى نور الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذيانه بأطيب الطعام والشراب ولقد رأيت عليه حلة شراها أو قال شريت له بمائتى درهم فدعاه حب الله وحب رسوله إلى ما ترون» ذكره البغوى بغير سند والله أعلم بمراده وأسرار كتابه .

(تفسير سورة النحل)

مكية إلا قوله تعالى وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به إلى آخر السورة فإنها نزلت بالمدينة فى قتل حمزة قاله ابن عباس وفى رواية أخرى عنه أنها مكية غير ثلاث آيات . نزلت بالمدينة وهى قوله تعالى ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا إلى قوله يعلمون وقال قتادة هى مكية إلا خمس آيات وهى قوله والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا وقوله ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا وقوله تعالى وإن عاقبتم إلى آخر السورة زاد مقاتل وقوله من كفر بالله من بعد إيمانه الآية وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة الآية وقيل كان يقال لسورة النحل سورة النعم لكثرة تعداد النعم فيها وهى مائة وثمان وعشرون آية وألفان وثمانمائة وأربعون كلمة وسبعة آلاف وسبعمائة وسبعة أحرف.

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله سبحانه وتعالى (أتى أمر الله) يعنى جاء ودنا وقرب أمر الله تقول العرب أتاك الأمر وهو متوقع المجىء بعد ما أتى ومعنى الآية أتى أمر الله وعدا (فلا تستعجلوه) يعنى وقوعا والمراد

هاهنا عقوبة المكذبين والعذاب بالسيف وذلك أن النضر بن الحارث: قال «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء» فاستعجل العذاب فنزلت هذه الآية وقتل النضر يوم بدر صبرا (سبحانه وتعالى عما

يشركون) معناه تعاظم بالأوصاف الحميدة عما يصفه به المشركون (ينزل الملائكة) قرأ العامة بضم الياء وكسر الزاي والملائكة نصب وقرأ يعقوب بالتاء وفتحها وفتح الزاي والملائكة رفع ينزل الملائكة (بالروح) بالوحي سماه روحا لأنه يحيي به القلوب والحق. قال عطاء بالنبوة وقال قتادة بالرحمة قال أبو عبيدة بالروح يعني مع الروح وهو جبرائيل (من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا) اعلموا (أنه لا إله إلا أنا فاتقون) وقيل معناه مروهم بقول لا إله إلا الله منذرين مخوفين بالقرآن إن لم يقولوا وقوله فاتقون أي فخافون (خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون) أي ارتفع عما يشركون (خلق الإنسان من نطفة فاذا هو خصيم) جدل بالباطل (مبين) نزلت في أبي بن خلف الجمحي وكان ينكر البعث جاء بعظم رميم فقال أتقول إن الله تعالى يحيي هذا بعد

به مجيء القيامة قال ابن عباس لما نزل قوله سبحانه وتعالى اقتربت الساعة وانشق القمر قال الكفار بعضهم لبعض إن هذا الرجل يزعم أن القيامة قد قربت فامسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى ننظر ما هو كائن فلما رأوا أنه لا ينزل شيء قالوا ما نرى شيئا فنزل قوله تعالى اقترب للناس حسابهم فأشفقوا فلما امتدت الأيام قالوا يا محمد ما نري شيئا مما تخوفنا به فنزل أتى أمر الله فوثب النبي صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رءوسهم وظنوا أنها قد أتت حقيقة فنزل فلا تستعجلوه فاطمأنوا والاستعجال طلب مجيء الشيء قبل وقته ولما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم «بعثت أنا والساعة كهاتين ويشير بأصبعيه يمدهما» أخرجاه في الصحيحين من حديث سهل بن سعد (ق) عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بعثت أنا والساعة كهاتين كفضل إحداهما على الأخرى وضم السبابة إلى الوسطى» وفي رواية «بعثت في نفس الساعة فسبقتها كفضل هذه على الأخرى» قال ابن عباس كان مبعث النبي صلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة ولما مر جبريل بأهل السموات مبعوثا إلى النبي صلى الله عليه وسلم قالوا الله أكبر قامت الساعة وقال قوم المراد بالأمر هنا عقوبة المكذبين وهو العذاب بالقتل بالسيف وذلك أن النضر ابن الحرث قال «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم» فاستعجل العذاب فنزلت هذه الآية وقتل النضر يوم بدر صبرا (سبحانه وتعالى عما يشركون) يعني تنزه الله وتعاظم بالأوصاف الحميدة عما يصفه به المشركون. قوله سبحانه وتعالى (ينزل الملائكة بالروح) يعني بالوحي (من أمره) وإنما سمي الأمر روحا لأنه تحيا القلوب من موت الجهالات وقال عطاء بالنبوة وقال قتادة بالرحمة وقيل الروح هو جبريل والباء بمعنى مع يعني ينزل الملائكة مع الروح وهو جبريل (على من يشاء من عباده) يعني على من يصطفيه من عباده للنبوة والرسالة وتبليغ الوحي إلى الخلق (أن أنذروا) يعني بأن أعلموا (أنه لا إله إلا أنا فاتقون) أي فخافون وقيل معناه مروا بقول لا إله إلا الله منذرين يعني مخوفين بالقرآن (خلق السموات الأرض بالحق تعالى عما يشركون) تقدم تفسيره (خلق الإنسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين) يعني أنه جدل بالباطل بين الخصومة نزلت في أبي بن خلف الجمحي وكان ينكر البعث فجاء بعظم رميم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال تزعم أن الله يحيي هذا العظم بعد ما رم فنزلت فيه هذه الآية ونزل فيه أيضا قوله تعالى قال من يحيي العظام وهي رميم والصحيح أن الآية عامة في كل ما يقع من الخصومة في الدنيا ويوم القيامة وحملها على العموم أولى وفيها بيان القدرة وأن الله خلق الإنسان من نطفة قذرة فصار جبارا كثيرا لخصومة وفيها كشف قبيح ما فعله الكفار من جحدهم نعم الله تعالى مع ظهورها عليهم. قوله عز وجل (والأنعام خلقها) لما ذكر الله سبحانه وتعالى أنه خالق السموات والأرض ثم أتبعه بذكر خلق الإنسان ذكر بعده ما ينتفع به في سائر ضروراته. ولما كان أعظم ضرورات الإنسان إلى الأكل واللباس للذين يقوم بهما بدن الإنسان بدأ بذكر الحيوان المنتفع به في ذلك وهو الأنعام فقال تعالى والأنعام خلقها وهي الإبل والبقر والغنم قال الواحدي تم الكلام عند قوله والأنعام خلقها ثم ابتدأ فقال تعالى (لكم فيها دفء) قال: ويجوز أيضا أن يكون تمام الكلام عند قوله لكم

ما قد رم كما قال جل ذكره وضرب لنا مثلا ونسي خلقه نزلت فيه أيضا والصحيح أن الآية عامة وفيها بيان القدرة وكشف قبيح ما فعلوه من جحود نعم الله مع ظهورها عليهم قوله تعالى (والأنعام خلقها) يعني الإبل والبقر والغنم (لكم فيها دفء)

وغيرها (ومنها تأكلون) يعني لحومها (ولكم فيها جمال) زينة (حين تريحون) أي حين تردونها بالعشي من مراعيها إلى مباركها التي تأوي إليها (وحين تسرحون) أي تخرجونها بالغداة من مراحها إلى مسارحها وقدم الرواح لأن المنافع تؤخذ منها بعد الرواح ومالكها يكون أعجب بها إذا راحت (وتحمل أثقالكم) أحمالكم (إلى بلد) آخر غير بلدكم قال عكرمة البلد مكة (لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس) أي بالمشقة والجهد والشق النصف أيضا أي لم تكونوا بالغيه إلا بنقصان قوة النفس وذهاب نصفها، وقرأ أبو جعفر بشق بفتح الشين وهما لغتان مثل رطل ورطل (إن ربكم لرءوف رحيم) بخلقه حيث جعل لكم هذه المنافع (والخيل) يعني وخلق الخيل وهي اسم جنس لا واحد له من لفظه كالإبل والنساء والسماء (والبغال والحمير لتركبوها وزينة) يعني وجعلها زينة لكم مع المنافع التي فيها واحتج بهذه الآية من حرم لحوم الخيل وهو قول ابن عباس وتلا هذه الآية فقال هذه للركوب وإليه ذهب الحكم ومالك وأبو حنيفة. وذهب جماعة الى إباحة لحوم الخيل وهو قول الحسن وشريح وعطاء وسعيد بن جبير وبه قال الشافعي

ثم ابتدأ فقال تعالى فيها دفء قال صاحب النظم أحسن الوجهين أن يكون الوقف عند قوله خلقها ثم يبتدأ بقوله لكم فيها دفء والدليل عليه أنه عطف عليه قوله ولكم فيها جمال والتقدير لكم فيها دفء ولكم فيها جمال. ولما كانت منافع هذه الأنعام منها ضرورية ومنها غير ضرورية بدأ الله سبحانه وتعالى بذكر المنافع الضرورية فقال تعالى لكم فيها دفء وهو ما يستدفأ به من اللباس والأكسية ونحوها المتخذة من الأصوات والأوبار والأشعار الحاصلة من النعم (ومنافع) يعني النسل والدر والركوب والحمل عليها وسائر ما ينتفع به من الأنعام (ومنها تأكلون) يعني من لحومها. فان قلت قوله تعالى ومنها تأكلون يفيد الحصر لأن تقديم الظرف مؤذن بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها. قلت الأكل من هذه الأنعام هو الذي يعتمده الناس في معايشهم وأما الأكل من غيرها كالدجاج والبط والأوز وصيد البر والبحر فغير معتد به في الأغلب وأكله يجري مجرى التفكه به فخرج ومنها تأكلون مخرج الأغلب في الأكل من هذه الأنعام. فان قلت منفعة الأكل مقدمة على منفعة اللباس فلم أخر منفعة الأكل وقدم منفعة اللباس. قلت منفعة اللباس أكثر وأعظم من منفعة الأكل فلهذا قدم على الأكل. وقوله سبحانه وتعالى (ولكم فيها) أي في الأنعام (جمال) أي زينة (حين تريحون وحين تسرحون) الاراحة رد الإبل بالعشي إلى مراحها حيث تأوي إليه بالليل ويقال سرح القوم إبلهم تسريحا إذا أخرجوها بالغداة إلى المرعى قال أهل اللغة وأكثر ما تكون هذه الراحة أيام الربيع إذا سقط الغيث ونبت العشب والكلأ وخرجت العرب للنجعة وأحسن ما تكون النعم في ذلك الوقت فمن الله سبحانه وتعالى بالتجمل بها فيه كما من بالانتفاع بها لأنه من أغراض أصحاب المواشي بل هو من معظمها لأن الرعاة إذا سرحوا النعم بالغداة إلى المرعى وروحوها بالعشي إلى الأفنية والبيوت يسمع للإبل رغاء وللشاء ثغاء يجاوب بعضها بعضا فعند ذلك يفرح أربابها بها وتتجمل بها الأفنية والبيوت ويعظم وقعها عند الناس. فان قلت لم قدمت الإراحة على التسريح. قلت لأن الجمال في الإراحة وهو رجوعها إلى البيوت أكثر منها وقت التسريح لأن النعم تقبل من المرعى ملأى البطون حافلة الضروع فيفرح أهلها بها بخلاف تسريحها إلى المرعى فانها تخرج جائعة البطون ضامرة الضروع من اللبن ثم تأخذ في التفرق والانتشار للرعي في البرية فثبت بهذا البيان أن التجمل في الإراحة أكثر منه في التسريح فوجب تقديمه. وقوله سبحانه وتعالى (وتحمل أثقالكم) الأثقال جمع ثقل وهو متاع السفر وما يحتاج إليه من آلات السفر (إلى بلد) يعني غير بلدكم قال ابن عباس يريد من مكة إلى اليمن وإلى الشام وإنما قال ابن عباس هذا القول لأنه خطاب لأهل مكة وأكثر تجاراتهم وأسفارهم إلى الشام واليمن وحمله على العموم أولى لأنه خطاب عام فدخول الكافة فيه أولى من تخصيصه ببعض المخاطبين (لم تكونوا بالغيه) يعني بالغي ذلك البلد الذي تقصدونه (إلا بشق الأنفس) يعني بالمشقة والجهد والعناء والتعب والشق نصف الشيء والمعنى على هذا لم تكونوا بالغيه إلا بنقصان قوة النفس وذهاب نصفها (إن ربكم لرءوف رحيم) يعني بخلقه حيث خلق لهم هذه المنافع. قوله سبحانه وتعالى (والخيل والبغال والحمير لتركبوها) هذه الآية عطف على ما قبلها والمعنى وخلق هذه الحيوانات لأجل أن تركبوها والخيل اسم جنس لا واحد له من لفظه كالإبل والرهط والنساء (وزينة) يعني وجعلها زينة مع المنافع التي فيها.

(فصل)

احتج بهذه الآية من يرى تحريم لحوم الخيل وهو قول ابن عباس وتلا هذه الآية وقال هذه للركوب وإليه ذهب الحكم ومالك وأبو حنيفة رحمهم الله واستدلوا أيضا بأن منفعة الأكل أعظم من منفعة الركوب فلما لم يذكره الله تعالى علمنا تحريم أكله فلو كان أكل لحوم الخيل جائزا لكان هذا المعنى أولى بالذكر لأن الله سبحانه وتعالى خص الأنعام بالأكل حيث قال ومنها تأكلون وخص هذه بالركوب فقال لتركبوها فعلمنا أنها مخلوقة للركوب لا للأكل وذهب جماعة من أهل العلم إلى إباحة لحوم الخيل وهو قول الحسن وشريح وعطاء وسعيد بن جبير وإليه ذهب الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه وأحمد وإسحاق واحتجوا على إباحة لحوم الخيل بما روى عن أسماء بنت أبى بكر الصديق أنها قالت «نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا فأكلناه» وفى رواية قالت «ذبحنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا ونحن بالمدينة فأكلناه» أخرجه البخارى ومسلم (ق) عن جابر «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الأهلية وأذن فى الخيل» وفى رواية قال «أكلنا زمن خيبر لحوم الخيل وحمر الوحش ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الحمار الأهلى» هذه رواية البخارى ومسلم وفى رواية أبى داود قال «ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير وكنا قد أصابتنا مخمصة فنهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل» وأجاب من أباح لحوم الخيل عن هذه الآية بأن ذكر الركوب والزينة لا يدل على أن منفعتها مختصة بذلك وإنما خص هاتان المنفعتان بالذكر لأنهما معظم المقصود قالوا ولهذا سكت عن حمل الأثقال على الخيل مع قوله فى الأنعام وتحمل أثقالكم ولم يلزم من هذا التحريم حمل الأثقال على الخيل وقال البغوى ليس المراد من الآية بيان التحليل والتحريم بل المراد منها تعريف الله عباده نعمه وتنبيهم على كمال قدرته وحكمته والدليل الصحيح المعتمد عليه فى إباحة لحوم الخيل أن السنة مبينة للكتاب ولما كان نص الآية يقتضى أن الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة وكان الأكل مسكوتا عنه دار الأمر فيه على الإباحة والتحريم فوردت السنة بإباحة لحوم الخيل وتحريم لحوم البغال والحمير فأخذنا بها جمعا بين النصين والله أعلم وقوله تعالى (ويخلق مالا تعلمون) لما ذكر الله سبحانه وتعالى الحيوانات التى ينتفع بها الإنسان فى جميع حالاته وضرورياته على سبيل التفصيل ذكر بعدها مالا ينتفع به الإنسان فى الغالب على سبيل الإجمال لأن مخلوقات الله عز وجل فى البر والبحر والسموات أكثر من أن تحصى أو يحيط بها عقل أحد أو فهمه فلهذا ذكرها على الإجمال وقال بعضهم ويخلق مالا تعلمون يعنى مما أعد الله لأهل الجنة فى الجنة ولأهل النار فى النار مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقال قتادة فى قوله ويخلق مالا تعلمون يعنى السوس فى النبات والدود فى الفواكه . قوله سبحانه وتعالى (وعلى الله قصد السبيل) القصد استقامة الطريق يقال طريق قصد وقاصد إذا أداك إلى مطلوبك وفى الآية حذف تقديره وعلى الله بيان قصد السبيل وهو بيان طريق الهدى من الضلالة وقيل معناه وعلى الله بيان طريق الحق بالآيات والبراهين

وأحمد وإسحاق ومن أباحها قال ليس المراد من الآية بيان التحليل والتحريم بل المراد منه تعريف الله عباده نعمه وتنبيههم على كمال قدرته وحكمته واحتجوا بما أخبرنا عبدالواحد المليحى أنا أحمد بن عبدالله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا سليمان بن حرب ثنا حماد بن زيد عن عمرو هو ابن دينار عن محمد ابن على عن جابر رضى الله عنه قال «نهى النبى صلى الله عليه وسلم يوم خيبر عن لحوم الحمر ورخص فى لحوم الخيل» أخبرنا أبو الفرج المظفر ابن إسماعيل التميمى أنا أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمى أنا أبو أحمد عبد الله بن عدى الحافظ ثنا الحسن ابن الفرج ثنا عمرو بن خالد ثنا عبد الله بن عبد الكريم عن عطاء ابن أبى رباح عن جابر أنهم كانوا يأكلون لحوم الخيل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى عن لحوم البغال والحمير وروى عن المقدام بن معدى كرب عن خالد بن الوليد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير وإسناده ضعيف (ويخلق مالا تعلمون) قيل يعنى ما أعد الله فى الجنة لأهلها وفى النار لأهلها مما لم تره عين ولا سمعته أذن ولا خطر على قلب بشر وقال قتادة يعنى السوس فى النبات والدود فى الفواكه قوله تعالى (وعلى الله قصد السبيل) يعنى بيان طريق الهدى من الضلالة وقيل بيان الحق بالآيات والبراهين والقصد الصراط

(ومنها جائر) يعنى ومن السبل سبيل جائر عن الاستقامة بل هو معوج فالقصد من السبيل هو دين الإسلام والجائر منها دين اليهودية والنصرانية وسائر ملل الكفر وقال جابر بن عبد الله قصد السبيل بيان الشرائع والفرائض وقال عبد الله بن المبارك وسهل بن عبد الله قصد السبيل السنة ومنها جائر الأهواء والبدع (ولو شاء لهداكم أجمعين) فيه دليل على أن الله تعالى ماشاء هداية الكفار وما أراد منهم الإيمان لأن كلمة لو تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره فقوله ولو شاء هدايتكم لهداكم أجمعين وذلك يفيد أنه تعالى ماشاء هدايتهم فلا جرم ماهداهم . قوله عز وجل (هو الذى أنزل من السماء ماء) لما ذكر الله سبحانه وتعالى نعمته على عباده بخلق الحيوانات لأجل الانتفاع والزينة عقبه بذكر إنزال المطر من السماء وهو من أعظم النعم على العباد فقال هو الذى أنزل من السماء يعنى والله الذى خلق جميع الأشياء هو الذى أنزل من السماء ماء يعنى المطر (لكم منه) يعنى من ذلك الماء (شراب) يعنى تشربونه (ومنه) يعنى ومن ذلك الماء (شجر) الشجر فى اللغة ماله ساق من نبات الأرض ونقل الواحدى عن أهل اللغة أنهم قالوا الشجر أصناف ماجل وعظم وهو الذى يبقى على الشتاء وما دق وهو صنفان أحدهما تبقى له أدوحة فى الشتاء وينبت فى الربيع ومنها مالا يبقى له ساق فى الشتاء كالبقول وقال أبو إسحاق كل ماينبت على وجه الأرض فهو شجر وأنشد * طعمها اللحم إذا عز الشجر * أراد أنهم يسقون الخيل اللبن إذا أجدبت الأرض وقال ابن قتيبة فى هذه الآية يعنى الكلأ ومعنى الآية أنه ينبت بالماء الذى أنزل من السماء ما ترعى الراعية من ورق الشجر لأن الإبل ترعى كل الشجر (فيه) يعنى فى الشجر (تسيمون) يعنى ترعون مواشيكم يقال أسمت السائمة إذا خليتها ترعى وسامت هى إذا رعت حيث شاءت (ينبت لكم) أى ينبت الله لكم وقرىء ننبت على التعظيم لكم (به) أى بذلك الماء (الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات) لما ذكر الله فى الحيوان تفصيلا وإجمالا ذكر فى الثمار تفصيلا وإجمالا فبدأ بذكر الزرع وهو الحب الذى يقتات به كالحنطة والشعير وما أشبههما لأن به قوام بدن الإنسان وثنى بذكر الزيتون لما فيه من الأدم والدهن والبركة وثلث بذكر النخيل لأن ثمرتها غذاء وفاكهة وختم بذكر الأعناب لأنها شبه النخلة فى المنفعة من التفكه والتغذية ثم ذكر سائر الثمرات إجمالا لينبه بذلك على عظيم قدرته وجزيل نعمته على عباده ثم قال تعالى (إن فى ذلك) يعنى الذى ذكر من أنواع الثمار (لآية) يعنى علامة دالة على قدرتنا ووحدانيتنا (لقوم يتفكرون) يعنى فيما ذكر من دلائل قدرته ووحدانيته (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم) تقدم تفسيره فى سورة الأعراف (مسخرات) يعنى مذللات مقهورات تحت قهره وإرادته وفيه رد على الفلاسفة والمنجمين لأنهم يعتقدون أن هذه النجوم هى الفعالة المتصرفة فى العالم السفلى فأخبر الله تعالى أن هذه النجوم مسخرات فى نفسها مذللات (بأمره) يعنى بأمر ربها مقهورات تحت قهره يصرفها كيف يشاء ويختار وأنها ليس لها تصرف فى نفسها فضلا عن غيرها ولما ذكر الله سبحانه وتعالى أنه خلق هذه النجوم وجعلها مسخرات لمنافع عباده ختم هذه الآية بقوله (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) يعنى أن كل من كان له عقل صحيح سليم علم أن الله سبحانه وتعالى هو الفعال المختار وأن جميع الخلق تحت قدرته وقهره وتسخيره لما أراده منهم (وما ذرأ لكم فى الأرض) يعنى وما خلق لكم فى الأرض وسخر لأجلكم من الدواب والأنعام

المستقيم (ومنها جائر) يعنى ومن السبيل جائر عن الاستقامة معوج فالقصد من السبيل دين الإسلام والجائر منها دين اليهودية والنصرانية وسائر ملل الكفر . قال جابر بن عبد الله قصد السبيل بيان الشرائع والفرائض وقال عبدالله بن المبارك وسهل بن عبدالله قصد السبيل السنة ومنها جائر الأهواء والبدع دليله قوله تعالى وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل (ولو شاء لهداكم أجمعين) نظيره قوله تعالى ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها قوله (هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب) تشربونه (ومنه شجر) أى من ذلك الماء شرب أشجاركم وحياة نباتكم (فيه) يعنى فى الشجر (تسيمون) ترعون مواشيكم (ينبت لكم به) أى ينبت الله لكم به يعنى بالماء الذى أنزل وقرأ أبو بكر عن عاصم ننبت بالنون (الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون وسخر لكم) ذلل لكم (الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات) مذللات (بأمره) أى بإذنه وقرأ حفص عن عاصم والنجوم مسخرات بالرفع على الابتداء (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون وماذرأ) خلق (لكم) لأجلكم ي وسخر ماخلق لأجلكم (فى الأرض) من الدواب والأشجار

الأشجار

والثمار وغيرها (مختلفا) نصب على الحال (ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون) يعتبرون (وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا) يعنى السمك (وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) يعنى اللؤلؤ والمرجان (وترى الفلك مواخر فيه) جوارى فيه قال قتادة مقبلة ومدبرة وهو أنك ترى سفينتين إحداهما تقبل والأخرى تدبر تجريان بريح واحدة ؛ وقال الحسن مواخر أى مملوءة وقال الفراء والأخفش مواخر شواق تشق الماء بجؤجؤها قال مجاهد تمخر السفن الرياح وأصل المخر الرفع والشق وفى الحديث «إذا أراد أحدكم البول فليستمخر الريح» أى لينظر من أين مجراها وهبوبها حتى لا يرد عليه البول وقال أبو عبيدة صوائخ والمخر صوت هبوب الريح عند شدتها (ولتبتغوا من فضله) يعنى التجارة (ولعلكم تشكرون) إذا رأيتم صنع الله فيما سخر لكم (وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم) أى لئلا تميد بكم أى تتحرك وتميل والميد هو الاضطراب والتكفؤ ومنه قيل للدوار الذى يعترى راكب البحر ميد قال وهب لما خلق الله الأرض جعلت تمور فقالت الملائكة إن هذه غير مقرة أحدا على ظهرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال (وأنهارا وسبلا) أى وجعل فيها أنهارا وطرقا مختلفة (لعلكم تهتدون) إلى ما تريدون فلا تضلون (وعلامات) يعنى معالم الطرق قال بعضهم هاهنا تم الكلام ثم ابتدأ (وبالنجم هم يهتدون) قال محمد بن كعب والكلبى أراد بالعلامات الجبال والجبال تكون علامات النهار والنجوم علامات الليل وقال مجاهد أراد بالكل النجوم منها ما يكون علامات ومنها ما يهتدون به قال السدى أراد بالنجوم الثريا وبنات نعش والفرقدين

والأشجار والثمار (مختلفا ألوانه) يعنى فى الخلقة والهيئة والكيفية واختلاف ألوان المخلوقات مع كثرتها حتى لا يشبه بعضها بعضا من كل الوجوه فيه دليل قاطع على كمال قدرة الله ولذلك ختم هذه الآية بقوله تعالى (إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون) يعنى فيعتبرون بذلك. قوله سبحانه وتعالى (وهو الذى سخر لكم البحر) لما ذكر الله سبحانه وتعالى الدلائل الدالة على قدرته ووحدانيته من خلق السموات والأرض وخلق الإنسان من نطفة وخلق سائر الحيوان والنبات وتسخير الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من آثار قدرته وعجائب صنعته وذكر إنعامه فى ذلك على عباده ذكر بعد ذلك إنعامه على عباده بتسخير البحر لهم نعمة من الله عليهم، ومعنى تسخير الله البحر لعباده جعله بحيث يتمكن الناس من الانتفاع به إما بالركوب عليه أو بالغوص فيه أو الصيد منه فذكر هذه الثلاثة الأقسام من أنواع الانتفاع به فقال تعالى وهو الذى سخر البحر (لتأكلوا منه لحما طريا) فبدأ بذكر الأكل لأنه أعظم المقصود لأن به قوام البدن وفى ذكر الطرى مزيد فائدة دالة على كمال قدرة الله تعالى وذلك أن السمك لو كان كله مالحا لما عرف به من قدرة الله تعالى ما يعرف بالطرى لأنه لما خرج من البحر الملح الزعاق الحيوان الطرى الذى لحمه فى غاية العذوبة علم أنه إنما حدث بقدرة الله وخلقه لا بحسب الطبع وعلم بذلك أن الله قادر على إخراج الضد من الضد. المنفعة الثانية قوله تعالى (وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) يعنى اللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان والمراد بلبسهم لبس نسائهم لأن زينة النساء بالحلى وإنما هو لأجل الرجال فكان ذلك زينة لهم. المنفعة الثالثة قوله تعالى (وترى الفلك) يعنى السفن (مواخر فيه) يعنى جوارى فيه قال قتادة مقبلة ومدبرة وذلك أنك ترى سفينتين إحداهما تقبل والأخرى تدبر تجريان بريح واحدة وأصل المخر فى اللغة الشق يقال مخرت السفينة مخرا إذا شقت الماء بجؤجؤها وقال مجاهد تمخر الرياح السفن يعنى أنها إذا جرت يسمع لها صوت قال أبو عبيدة يعنى من صوائخ والمخر صوت هبوب الريح عند شدتها وقال الحسن مواخر يعنى مواقر أى مملوءة متاعا (ولتبتغوا من فضله) يعنى الأرباح بالتجارة فى البحر (ولعلكم تشكرون) يعنى إنعام الله عليكم إذا رأيتم نعم الله فيما سخر لكم (وألقى فى الأرض رواسى) يعنى جبالا ثقالا (أن تميد بكم) يعنى لئلا تميل وتضطرب بكم والميد هو اضطراب الشىء العظيم كالأرض وقال وهب لما خلق الله سبحانه وتعالى الأرض جعلت تمور وتتحرك فقالت الملائكة إن هذه غير مقرة أحدا على ظهرها فأصبحوا وقد أرسيت بالجبال فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال (وأنهارا) يعنى وجعل فيها أنهارا لأن فى ألقى معنى الجعل فقوله سبحانه وتعالى وأنهارا معطوف على وألقى ولما ذكر الله الجبال ذكر بعدها الأنهار لأن معظم عيون الأنهار وأصولها تكون من الجبال (وسبلا) يعنى وجعل فيها طرقا مختلفة تسلكونها فى أسفاركم والتردد فى حوائجكم من بلد إلى بلد ومن مكان إلى مكان (لعلكم تهتدون) يعنى بتلك السبل إلى ما تريدون فلا تضلون (وعلامات) يعنى وجعل فيها علامات تهتدون بها فى أسفاركم قال بعضهم تم الكلام عند قوله وعلامات ثم ابتدأ (وبالنجم هم يهتدون) وقال محمد

ابن كعب والكلبي أراد بالعلامات الجبال والنجوم فالجبال علامات النهار والنجوم علامات الليل وقال مجاهد أراد بالكل النجوم فمنها مايكون علامات ومنها مايهتدى به وقال السدى أراد بالنجم الثريا وبنات نعش والفرقدين والجدى فهذه يهتدى بها إلى الطريق والقبلة وقال قتادة إنما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء لتكون زينة السماء ومعالم الطريق ورجوما للشياطين فمن قال غير هذا فقد تكلف مالا علم له به . قوله سبحانه وتعالى (أفمن يخلق كمن لايخلق) لما ذكر الله عز وجل من عجائب قدرته وغرائب صنعته وبديع خلقه ماذكر على الوجه الأحسن والترتيب الأكمل وكانت هذه الأشياء المخلوقة المذكورة فى الآيات المتقدمة كلها دالة على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته وأنه تعالى هو المنفرد بخلقها جميعا قال على سبيل الإنكار على من ترك عبادته واشتغل بعبادة هذه الأصنام التى لاتضر ولاتنفع ولا تقدر على شىء «أفمن يخلق» يعنى هذه الأشياء الموجودة المرئية بالعيان وهو الله تعالى الخالق لها «كمن لايخلق» يعنى هذه الأصنام العاجزة التى لاتخلق شيئا البتة لأنها جمادات لاتقدر على شىء فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بعبادتها ويترك عبادة من يستحق العبادة وهو الله خالق هذه الأشياء كلها ولهذا المعنى ختم هذه الآية بقوله (أفلا تذكرون) يعنى أن هذا القدر ظاهر غير خاف على أحد فلا يحتاج فيه إلى دقيق الفكر والنظر بل مجرد التذكر فيه كفاية لمن فهم وعقل واعتبر بما ذكره بقى فى الآية سؤالان الأول قوله كمن لايخلق المراد به الأصنام وهى جمادات لاتعقل فكيف يعبر عنها بلفظة من وهى لمن يعقل والجواب عنه أن الكفار لما سموا هذه الأصنام آلهة وعبدوها أجريت مجرى من يعقل فى زعمهم ألاترى إلى قوله بعد هذا والذين تدعون من دون الله لايخلقون شيئا فخاطبهم على قدر زعمهم وعقولهم السؤال الثانى قوله أفمن يخلق كمن لايخلق المقصود منه إلزام الحجة على من عبد الأصنام حيث جعل غير الخالق مثل الخالق فكيف قال على سبيل الاستفهام أفمن يخلق كمن لايخلق والجواب عنه أنه ليس المراد منه الاستفهام بل المراد منه أن من خلق الأشياء العظيمة وأعطى هذه النعم الجزيلة كيف يسوى بينه وبين هذه الجمادات الخسيسة فى التسمية والعبادة وكيف يليق بالعاقل أن يترك عبادة من يستحق العبادة لأنه خالق هذه الأشياء الظاهرة كلها ويشتغل بعبادة جمادات لاتخلق شيئا البتة والله أعلم . وقوله تعالى (وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها) يعنى أن نعم الله على العبد فيما خلق الله فيه من صحة البدن وعافية الجسم وإعطاء النظر الصحيح والعقل السليم والسمع الذى يفهم به الأشياء وبطش اليدين وسعى الرجلين إلى غير ذلك مما أنعم به عليه فى نفسه وفيما أنعم به عليه مما خلق له من جميع مايحتاج إليه من أمر الدين والدنيا لاتحصى حتى لو رام أحد معرفة أدنى نعمة من هذه النعم لعجز عن معرفتها وحصرها فكيف بنعمه العظام التى لايمكن الوصول إلى حصرها لجميع الخلق فذلك قوله تعالى وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها « يعنى ولو اجتهدتم فى ذلك وأتعبتم نفوسكم لاتقدرون عليه (إن الله لغفور) يعنى لتقصيركم فى القيام بشكر نعمته كما يجب عليكم (رحيم) يعنى بكم حيث وسع عليكم النعم ولم يقطعها عنكم بسبب التقصير والمعاصى (والله يعلم ماتسرون وما تعلنون) يعنى أن الكفار مع كفرهم كانوا يسرون أشياء وهو ما كانوا يمكرون بالنبى صلى الله عليه وسلم وما يعلنون يعنى وما يظهرون من إيذائه فأخبرهم الله عز وجل أنه عالم بكل أحوالهم سرها وعلانيتها لايخفى عليه خافية وإن دقت وخفيت ، وقيل إن الله سبحانه وتعالى

لما

والجدى يهتدون بها إلى الطرق والقبلة وقال قتادة إنما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء لتكون زينة للسماء ومعالم للطرق ورجوما للشياطين فمن قال غير هذا فقد تكلف مالاعلم له به (أفمن يخلق) يعنى الله تعالى (كمن لايخلق) يعنى الأصنام (أفلا تذكرون وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الله لغفور) لتقصيركم فى شكر نعمه (رحيم) بكم حيث وسع عليكم النعم ولم يقطعها عنكم بالتقصير والمعاصى (والله يعلم ماتسرون وما تعلنون

والذين تدعون من دون الله) يعنى الأصنام وقرأ عاصم ويعقوب يدعون بالياء (لايخلقون شيئا وهم يخلقون أموات) اى الأصنام (غير أحياء وما يشعرون) بعنى الأصنام (أيان) متى (يبعثون) والقرآن يدل على أن الأصنام تبعث وتجعل فيها الحياة فتتبرأ من عابديها وقيل مايدرى الكفار عبدة الأصنام متى يبعثون قوله تعالى (إلهكم إله واحد فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة) جاحدة (وهم مستكبرون) متعظمون (لاجرم)حقا(أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون إنه لايحب المستكبرين) أخبرنا أبو سعيد بكر ابن محمد بن محمد بن يحيى البسطامى أنا أبو الحسن عبد الرحمن ابن إبراهيم بن سحتونة أنا أبو الفضل سفيان بن محمد الجوهرى ثنا على ابن الحسن بن أبى عيسى الهلالى ثنا يحيى بن حماد ثنا شعبة عن أبان بن ثعلب عن فضيل العقيمى عن إبراهيم النخعى عن علقمة ابن قيس عن عبدالله عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فقال رجل يارسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا قال إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس» (وإذا قيل لهم) يعنى لهؤلاء الذين لايؤمنون بالآخرة وهم مشركو مكة الذين اقتسموا عقابها إذا سأل منهم الحاج (ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين) أحاديثهم وأباطيلهم (ليحملوا) أي ليجعلوا (أوزارهم) ذنوب أنفسهم (كاملة) وإنما ذكر الكمال ، لأن البلايا التى تلحقهم فى الدنيا وما يفعلون فيها من الحسنات لاتكفر عنهم شيئا (يوم القيامة

لما ذكر الأصنام وذكر عجزها فى الآية المتقدمة ذكر فى هذه الآيه أن الإله الذى يستحق العبادة يجب أن يكون عالما بكل المعلومات سرها وعلانيتها وهذه الأصنام ليست كذلك فلا تستحق العبادة ثم وصف الله هذه الأصنام بصفات فقال تعالى (والذين تدعون من دون الله) يعنى الأصنام التى تدعونها آلهة من دون الله (لايخلقون شيئا وهم يخلقون) فان قلت قوله سبحانه وتعالى فى الآية المتقدمة أفمن يخلق كمن لايخلق يدل على أن هذه الأصنام لاتخلق شيئا فقوله سبحانه وتعالى لايخلقون شيئا وهم يخلقون هذا هو نفس المعنى المذكور فى تلك الآية فما فائدة التكرار . قلت فائدته أن المعنى المذكور فى الآية المتقدمة أنهم لايخلقون شيئا فقط والمذكور فى هذه الآية أنهم لايخلقون شيئا وإنهم مخلوقون كغيرهم فكان هذا زيادة فى المعنى وهو فائدة التكرار (أموات) أى جمادات ميتة لاحياة فيها (غير أحياء) يعنى كغيرها والمعنى لو كانت هذه الأصنام آلهة كما تزعمون لكانت أحياء غير جائز عليها الموت لأن الإله الذى يستحق أن يعبد هو الحى الذى لايموت وهذه أموات غير أحياء فلا تستحق العبادة فمن عبدها فقد وضع العبادة فى غير موضعها . وقوله (وما يشعرون) يعنى هذه الأصنام (أيان يبعثون) يعنى متى يبعثون وفيه دليل على أن الأصنام تجعل فيها الحياة وتبعث يوم القيامة حتى تتبرأ من عابديها وقيل معناه مايدرى الكفار الذين عبدوا الأصنام متى يبعثون . قوله سبحانه وتعالى (إلهكم إله واحد) يعنى أن الذى يستحق العبادة هو إله واحد وهذه أصنام متعددة فكيف تستحق العبادة (فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة) يعنى جاحدة لهذا المعنى (وهم مستكبرون) يعنى عن اتباع الحق لأن الحق إذا تبين كان تركه تكبرا (لاجرم) يعنى حقا (أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون إنه لايحب المستكبرين) يعنى عن اتباع الحق (م) عن ابن مسعود أن النبى ﷺ قال « لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر فقال رجل إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا قال إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس» قوله بطر الحق هو أن يجعل ما جعله الله حقا من توحيده وعبادته باطلا وهذا على قول من جعل أصل البطر من الباطل ومن جعله من الحيرة فمعناه يتحير عند سماع الحق فلا يقبله ولا يجعله حقا وقيل البطر التكبر يعنى أنه يتكبر عند سماع الحق فلا يقبله وقوله وغمط الناس يقال غمطت حق فلان إذا احتقرته ولم تره شيئا وكذا معنى غمصته أى انتقصت به وازدريته . قوله عز وجل (وإذا قيل لهم) يعنى لهؤلاء الذين لايؤمنون بالآخرة وهم كفار مكة الذين اقتسموا عقابها وطرقها إذا سألهم الحاج الذين يقدمون عليهم (ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين) يعنى أحاديثهم وأباطيلهم (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة) اللام فى ليحملوا لام العاقبة وذلك أنهم لما وصفوا القرآن بكونه أساطير الأولين كانت عاقبتهم بذلك أن يحملوا أوزارهم يعنى ذنوب أنفسهم وإنما قال سبحانه وتعالى كاملة لأن البلايا التى أصابتهم فى الدنيا وأعمال البر التى عملوها فى الدنيا لاتكفر عنهم شيئا يوم القيامة بل يعاقبون بكل أوزارهم قال الإمام فخر الدين الرازى وهذا يدل على أنه

أنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقى أنا أبو الحسن على بن عبدالله الطيسفونى أنا عبد الله ابن عمر الجوهرى أنا أحمد بن على الكشميهنى ثنا على بن حجر ثنا إسماعيل بن جعفر عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا» قوله تعالى (قد مكر الذين من قبلهم) وهو نمروذ بن كنعان بنى الصرح ببابل ليصعد السماء قال ابن عباس ووهب كان طول الصرح فى السماء خمسة آلاف ذراع وقال كعب ومقاتل كان طوله فرسخين فهبت ريح وألقت رأسه فى البحر وخر عليهم الباقى وهم تحته ولما سقط الصرح تبلبلت ألسن الناس من الفزع يومئذ فتكلموا بثلاثة وسبعين لسانا فلذلك سميت بابل وكان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية فذلك قوله تعالى (فأتى الله بنيانهم من القواعد) أى قصد تخريب الله

سبحانه وتعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين إذ لو كان هذا المعنى حاصلا فى حق الكل لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل فائدة. وقوله سبحانه وتعالى (ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) يعنى ويحصل للرؤساء الذين أضلوا غيرهم وصدوهم عن الإيمان مثل أوزار الأتباع والسبب فيه ماروى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لاينقص ذلك من أجورهم شيئا ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئا» أخرجه مسلم ومعنى الآية والحديث أن الرئيس أو الكبير إذا سن سنة حسنة أو سنة قبيحة فتبعه عليها جماعة فعملوا بها فان الله سبحانه وتعالى يعظم ثوابه أوعقابه حتى يكون ذلك الثواب أوالعقاب مساويا لكل مايستحقه كل واحد من الأتباع الذين عملوا بسنته الحسنة أو القبيحة وليس المراد أن الله تعالى يوصل جميع الثواب أو العقاب الذى يستحقه الأتباع إلى الرؤساء لأن ذلك ليس بعدل ويدل عليه قوله تعالى ولاتزر وازرة وزر أخرى وقوله تعالى وأن ليس للإنسان إلا ماسعى قال الواحدى ولفظة من فى قوله ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ليست للتبعيض لأنها لو كانت للتبعيض لنقص عن الأتباع بعض الأوزار وذلك غير جائز لقوله عليه الصلاة والسلام «لاينقص ذلك من آثامهم شيئا» ولكنها للجنس أى ليحملوا من جنس أوزار الأتباع وقوله بغير علم يعنى أن الرؤساء إنما يقدمون على إضلال غيرهم بغير علم بما يستحقونه من العقاب على ذلك الإضلال بل يقدمون على ذلك جهلا منهم بما يستحقونه من العذاب الشديد (ألا ساء مايزرون) يعنى ألا بئس مايحملون ففيه وعيد وتهديد. قوله سبحانه وتعالى (قد مكر الذين من قبلهم) يعنى من قبل كفار قريش وهو نمروذ بن كنعان الجبار وكان أكبر ملوك الأرض فى زمن إبراهيم صلى الله عليه وسلم وكان من مكره أنه بنى صرحا ببابل ليصعد إلى السماء ويقاتل أهلها فى زعمه قال ابن عباس وكان طول الصرح فى السماء خمسة آلاف ذراع وقال كعب ومقاتل كان طوله فرسخين فهبت ريح فقصفته وألقت رأسه فى البحر وخر عليهم الباقى فأهلكهم وهم تحته ولما سقط تبلبلت ألسنة الناس من الفزع فتكلموا يومئذ بثلاثة وسبعين لسانا فلذلك سميت بابل وكان لسان الناس قبل ذلك السريانية قلت هكذا ذكره البغوى وفى هذا نظر لأن صالحا عليه السلام كان قبلهم وكان يتكلم بالعربية وكان أهل اليمن عربا منهم جرهم الذى نشأ إسماعيل بينهم وتعلم منهم العربية وكانت قبائل من العرب قديمة قبل إبراهيم عليه السلام مثل طسم وجديس وكل هؤلاء عرب تكلموا فى قديم الزمان بالعربية ويدل على صحة هذا قوله ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى والله أعلم وقيل حمل قوله قد مكر الذين من قبلهم على العموم أولى فتكون الآية عامة فى جميع الماكرين المبطلين الذين يحاولون الحاق الضر والمكر بالغير وقوله سبحانه وتعالى (فأتى الله بنيانهم من القواعد) يعنى قصد تخريب بنيانهم من أصوله وذلك بأن أتاهم بريح قصفت بنيانهم من أعلى وأتاهم بزلازل قلعت بنيانهم من قواعده وأساسه هذا إذا حملنا تفسير الآية على القول الأول وهو ظاهر اللفظ وإن حملنا تفسير الآية على القول الثانى وهو حملها على العموم كان المعنى أنهم لما رتبوا منصوبات ليمكروا بها على أنبياء الله وأهل الحق من عباده أهلكهم الله تعالى وجعل هلاكهم مثل هلاك قوم بنوا بنيانا وثيقا شديدا ودعموه بالأساطين فانهدم ذلك البنيان وسقط عليهم فأهلكهم فهو مثل ضربه

الله سبحانه وتعالى ان مكر بآخر فأهلكه الله بمكره ومنه المثل السائر على ألسنة الناس: من حفر بئرا لأخيه أوقعه الله فيه . وقوله تعالى (فخر عليهم السقف من فوقهم) يعنى سقط عليهم السقف فأهلكهم وقوله من فوقهم للتأكيد لأن السقف لايخر إلا من فوقهم وقيل يحتمل أنهم لم يكونوا تحت السقف عند سقوطه فلما قال من فوقهم علم أنهم كانوا تحته وأنه لما خر عليهم أهلكوا وماتوا تحته (وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون) يعنى فى مأمنهم وذلك أنهم لما اعتمدوا على قوة بنيانهم وشدته كان ذلك البنيان سبب هلاكهم (٢٧ ثم يوم القيامة يخزيهم) يعنى يهينهم بالعذاب وفيه إشارة بأن العذاب يحصل لهم فى الدنيا والآخرة لأن الخزى هو العذاب مع الهوان (ويقول) يعنى ويقول الله لهم يوم القيامة (أين شركائى) يعنى فى زعمكم واعتقادكم (الذين كنتم تشاقون فيهم) يعنى كنتم تعادون وتخالفون المؤمنين وتخاصمونهم فى شأنهم لأن المشاقة عبارة عن كون كل واحد من الخصمين فى شق غير شق صاحبه والمعنى مالهم لايحضرون معكم ليدفعوا عنكم ما نزل بكم من العذاب والهوان (قال الذين أوتوا العلم) يعنى المؤمنين وقيل الملائكة (إن الخزى) يعنى الهوان (اليوم) يعنى فى هذا اليوم وهو يوم القيامة (والسوء) يعنى العذاب (على الكافرين) وإنما يقول المؤمنون هذا يوم القيامة لأن الكفار كانوا يستهزئون بالمؤمنين فى الدنيا وينكرون عليهم أحوالهم فاذا كان يوم القيامة ظهر أهل الحق وأكرموا بأنواع الكرامات وأهين أهل الباطل وعذبوا بأنواع العذاب فعند ذلك يقول المؤمنون إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين وفائدة هذا القول إظهار الشماتة بهم فيكون أعظم فى الهوان والخزى قوله تعالى (٢٨ الذين تتوفاهم الملائكة) تقبض أرواحهم الملائكة وهم ملك الموت وأعوانه (ظالمى أنفسهم) يعنى بالكفر (فألقوا السلم) يعنى أنهم استسلموا وانقادوا لأمر الله الذى نزل بهم وقالوا (ما كنا نعمل من سوء) يعنى شركا وإنما قالوا ذلك من شدة الخوف (بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون) يعنى فلا فائدة لكم فى إنكاركم قال عكرمة عنى بذلك ما حصل من الكفار يوم بدر (٢٩ فادخلوا) أى فيقال لهم ادخلوا (أبواب جهنم خالدين فيها) يعنى مقيمين فيها لايخرجون منها وإنما قال ذلك لهم ليكون أعظم فى الغم والحزن وفيه دليل على أن الكفار بعضهم أشد عذابا من بعض (فلبئس مثوى المتكبرين) يعنى عن الإيمان قوله عز وجل (٣٠ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) وذلك أن أحياء العرب كانوا يبعثون إلى مكة أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبى صلى الله عليه وسلم فاذا جاء الوافد سأل الذين كانوا يقعدون على طرقات مكة من الكفار فيقولون هو ساحر كاهن شاعر كذاب مجنون وإذا لم تلقه خير لك فيقول الوافد أنا شر وافد إن رجعت إلى قومى من دون أن أدخل مكة فألقاه فيدخل مكة فيرى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسألهم عنه فيخبرونه بصدقه وأمانته وأنه نبى مبعوث من الله عز وجل فذلك قوله سبحانه وتعالى وقيل للذين اتقوا يعنى اتقوا الشرك وقول الزور والكذب ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا يعنى أنزل خيرا فان قلت لم رفع الأول وهو قوله أساطير الأولين ونصب الثانى وهو قوله قالوا خيرا قلت ليحصل الفرق بين الجوابين جواب المنكر الجاحد وجواب المقر المؤمن وذلك أنهم لما سألوا الكفار عن

بنيانهم من أصولها (فخر عليهم السقف) يعنى أعلى البيوت (من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون) من مأمنهم (ثم يوم القيامة يخزيهم) يهينهم بالعذاب (ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم) تخالفون المؤمنين و فيهم، مالهم لايحضرونكم فيدفعون عنكم العذاب وكسر نافع النون من تشاقون على الإضافة والآخرون بفتحها (قال الذين أوتوا العلم) وهم المؤمنون (إن الخزى) الهوان (اليوم والسوء) أى العذاب (على الكافرين الذين تتوفاهم الملائكة) يقبض أرواحهم ملك الموت وأعوانه، قرأ حمزة يتوفاهم بالياء وكذا ما بعده (ظالمى أنفسهم) بالكفر ونصب على الحال أى فى حال كفرهم (فألقوا السلم) أي استسلموا وانقادوا وقالوا (ما كنا نعمل من سوء) شرك فقال لهم الملائكة (بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون) قال عكرمة عنى بذلك من قتل من الكفار ببدر (فادخلوا) أى قال لهم ادخلوا (أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين) عن الإيمان (وقيل للذين اتقوا) وذلك أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبى صلى الله عليه وسلم فاذا جاء يسأل الذين قعدوا على الطرق عنه فيقولون ساحر كاهن شاعر كذاب مجنون ولو لم تلقه خير فيقول السائل أنا شر وفد إن رجعت إلى قومى دون أن أدخل مكة فألقاه فيدخل مكة فيري أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فيخبرونه بصدقه وأنه نبى مبعوث فذلك قوله وقيل للذين اتقوا (ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) يعنى أنزل خيرا، ثم ابتدأ فقال

المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا هو أساطير الأولين وليس هو من الإنزال فى شيء لأنهم لم يعتقدوا كونه منزلا ولما سألوا المؤمنين على المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم لم يتلعثموا وأطبقوا الجواب على السؤال بينا مكشوفا معقولا للإنزال فقالوا خيرا أى أنزل خيرا وتم الكلام عند قوله خيرا فهو وقف تام ثم ابتدأ بقوله تعالى (للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة) يعنى للذين أتوا بالأعمال الصالحة الحسنة ثوابها حسنة مضاعفة من الواحد إلى العشرة إلى السبعمائة إلى أضعاف كثيرة وقال الضحاك هى النصر والفتح وقال مجاهد هى الرزق الحسن فعلى هذا يكون معنى الآية للذين أحسنوا ثواب إحسانهم فى هذه الدنيا حسنة وهى النصر والفتح والرزق الحسن وغير ذلك مما أنعم الله به على عباده فى الدنيا ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى (ولدار الآخرة خير) يعنى مالهم فى الآخرة مما أعد الله لهم فى الجنة خير مما يحصل لهم فى الدنيا (ولنعم دار المتقين) يعنى الجنة وقال الحسن هى الدنيا لأن أهل التقوى يتزودون منها إلى الآخرة والقول الأول أولى وهو قول جمهور المفسرين لأن الله فسر هذه الدار بقوله (جنات عدن) يعنى بساتين إقامة من قولهم عدن بالمكان أى أقام به (يدخلونها) يعنى تلك الجنات لا يرحلون عنها ولا يخرجون منها (تجرى من تحتها الأنهار) يعنى تجرى الأنهار في هذه الجنات من تحت دور أهلها وقصورهم ومساكنهم (لهم فيها) يعنى فى الجنات (مايشاءون) يعنى ماتشتهى الأنفس وتلذ الأعين مع زيادات غير ذلك وهذه الحالة لا تحصل لأحد إلا فى الجنة لأن قوله لهم فيها مايشاءون لا يفيد الحصر وذلك يدل على أن الإنسان لا يجد كل ما يريد فى الدنيا (كذلك يجزى الله المتقين) أى هكذا يكون جزاء المتقين ثم عاد إلى وصف المتقين فقال تعالى (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين) يعنى مؤمنين طاهرين من الشرك قال مجاهد زاكية أقوالهم وأفعالهم وقيل إن قوله طيبين كلمة جامعة لكل معنى حسن فيدخل فيه أنهم أتوا بكل ماأمروا به من فعل الخيرات والطاعات واجتنبوا كل مانهوا عنه من المكروهات والمحرمات مع الأخلاق الحسنة والخصال الحميدة والمباعدة من الأخلاق المذمومة والخصال المكروهة القبيحة وقيل معناه إن أوقاتهم تكون طيبة سهلة لأنهم يبشرون عند قبض أرواحهم بالرضوان والجنة والكرامة فيحصل لهم عند ذلك الفرح والسرور والابتهاج فيسهل عليهم قبض أرواحهم ويطيب لهم الموت على هذه الحالة (يقولون) يعنى الملائكة لهم (سلام عليكم) يعنى تسلم عليهم الملائكة أو تبلغهم السلام من الله (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) يعنى فى الدنيا من الأعمال الصالحة. فان قلت كيف الجمع بين قوله تعالى ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون وبين قوله صلى الله عليه وسلم «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضله ورحمته» أخرجاه فى الصحيحين من حديث أبى هريرة. قلت قال الشيخ محيى الدين النووى رحمه الله فى شرح مسلم اعلم أن مذهب أهل السنة أنه لا يثبت بالعقل ثواب ولا عقاب ولا إيجاب ولا تحريم ولا غير ذلك من أنواع التكاليف ولا تثبت هذه الأشياء كلها ولا غيرها إلا بالشرع ومذهب أهل السنة أيضا أن الله سبحانه وتعالى لا يجب عليه شيء بل العالم كله ملكه والدنيا والآخرة فى سلطانه يفعل فيهما مايشاء فلو عذب المطيعين والصالحين أجمعين وأدخلهم النار كان ذلك عدلا منه وإذا أكرمهم ورحمهم وأدخلهم الجنة فهو فضل منه ولو نعم الكافرين وأدخلهم الجنة كان ذلك له ومنه فضلا ولكنه سبحانه وتعالى أخبر وخبره صادق أنه لا يفعل هذا

(للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة) كرامة من الله قال ابن عباس هى تضعيف الأجر إلى العشر وقال الضحاك هى النصر والفتح وقال مجاهد هى الرزق الحسن (ولدار الآخرة) أي ولدار الحال الآخرة (خير ولنعم دار المتقين) قال الحسن هى الدنيا لأن أهل التقوى يتزودون فيها للآخرة وقال أكثر المفسرين هى الجنة ثم فسرها فقال (جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون كذلك يجزى الله المتقين الذين تتوفاهم الملائكة طيبين) مؤمنين طاهرين من الشرك، قال مجاهد زاكية أفعالهم وأقوالهم وقيل معناه إن وفاتهم تقع طيبة سهلة (يقولون) يعنى الملائكة لهم (سلام عليكم) وقيل معناه يبلغونهم سلام الله (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون)

بل

بل يغفر للمؤمنين ويدخلهم الجنة برحمته ويعذب الكافرين ويدخلهم النار عدلا منه . وأما المعتزلة فيثبتون الأحكام بالعقل ويوجبون ثواب الأعمال ويوجبون الأصلح فى خبط طويل لهم ، تعالى الله عن اختراعاتهم الباطلة المنابذة لنصوص الشرع وفى ظاهر هذا الحديث دلالة لأهل الحق أنه لايستحق أحد الثواب والجنة بطاعته . وأما قوله سبحانه وتعالى « ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ـ وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون » ونحوها من الآيات التى تدل على أن الأعمال الصالحة يدخل بها الجنة فلا تعارض بينها وبين هذا الحديث بل معنى الآيات أن دخول الجنة بسبب الأعمال والتوفيق للاخلاص فيها وقبولها برحمة الله تعالى وفضله فيصح أنه لم يدخل الجنة بمجرد العمل وهو مراد الحديث ويصح أنه دخل بالأعمال أى بسببها وهى من الرحمة والفضل والمنة والله أعلم بمراده قوله تعالى (هل ينظرون) يعنى هؤلاء الذين أشركوا بالله وجحدوا نبوتك يامحمد (إلا أن تأتيهم الملائكة) يعنى لقبض أرواحهم (أو يأتى أمر ربك) يعنى بالعذاب فى الدنيا وهو عذاب الاستئصال وقيل المراد به يوم القيامة (كذلك فعل الذين من قبلهم) يعنى من الكفر والتكذيب (وما ظلمهم الله) يعنى بتعذيبه إياهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) يعنى باكتسابهم المعاصى والكفر والأعمال القبيحة الخبيثة (فأصابهم سيئات ماعملوا) يعنى فأصابهم عقوبات ما اكتسبوا من الأعمال الخبيثة (وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) والمعنى ونزل بهم جزاء استهزائهم (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا) يعنى أن مشركى مكة قالوا هذا على طريق الاستهزاء والحاصل أنهم تمسكوا بهذا القول فى إنكار النبوة فقالوا لو شاء الله منا الإيمان لحصل جئت أو لم تجىء ولو شاء الله منا الكفر لحصل جئت أولم تجىء . وإذا كان كذلك فالكل من الله فلا فائدة فى بعثة رسل إلى الأمم والجواب عن هذا أنهم لما قالوا إن الكل من الله فكانت بعثة الرسل عبثا كان هذا اعتراضا على الله تعالى وهو جار مجرى طلب العلة فى أحكام الله وفى أفعاله وهو باطل لأن الله سبحانه وتعالى يفعل مايشاء ويحكم مايريد فلا اعتراض لأحد عليه فى أحكامه وأفعاله ولا يجوز لأحد أن يقول له لم فعلت هذا ولم لم تفعل هذا وكان فى حكم الله وسنته فى عباده إرسال الرسل إليهم ليأمروهم بعبادة الله تعالى وينهوهم عن عبادة غيره وأن الهداية والإضلال إليه فمن هداه فهو المهتدى ومن أضله فهو الضال وهذه سنة الله فى عباده أنه يأمر الكل بالإيمان به وينهاهم عن الكفر . ثم إنه سبحانه وتعالى يهدى من يشاء إلى الإيمان ويضل من يشاء فلا اعتراض لأحد عليه . ولما كانت سنة الله قديمة ببعثة الرسل إلى الأمم الكافرة المكذبة كان قول هؤلاء لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا جهلا منهم لأنهم اعتقدوا أن كون الأمر كذلك يمنع من جواز بعثة الرسل وهذا الاعتقاد باطل فلا جرم استحقوا عليه الذم والوعيد . وأما قوله تعالى (ولا حرمنا من دونه من شىء) يعنى الوصيلة والسائبة والحام والمعنى فلولا أن الله رضيها لنا لغير ذلك ولهدانا إلى غيره (كذلك فعل الذين من قبلهم) يعنى أن من تقدم هؤلاء من كفار مكة ومن الأمم الماضية كانوا على هذه الطريقة وهذا الفعل الخبيث فانكار بعثة الرسل كان قديما فى الأمم الخالية (فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) يعنى ليس إليهم هداية أحد إنما عليهم تبليغ ماأرسلوا به إلى من أرسلوا إليه (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا) يعنى كما بعثنا فيكم محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا (أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) يعنى أن الرسل كانوا يأمرونهم بأن يعبدوا

قوله (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة) لقبض أرواحهم (أو يأتى أمر ربك) يعنى يوم القيامة وقيل العذاب (كذلك فعل الذين من قبلهم) أى كفروا كما كفر الذين من قبلهم (وما ظلمهم الله) بتعذيبه إياهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون فأصابهم سيئات ماعملوا) عقوبات كفرهم وأعمالهم الخبيثة (وحاق بهم) نزل بهم (ما كانوا به يستهزئون وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء) يعنى فى البحيرة والسائبة والوصيلة والحام فلولا أن الله رضيها لنا لغير ذلك وهدانا إلى غيرها (كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) أى ليس إليهم الهداية إنما إليهم التبليغ (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا) أى كما بعثنا فيكم (أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)

وهو كل معبود من دون الله (فمنهم من هدى الله) أي هداه الله إلى دينه (ومنهم من حقت عليه الضلالة) أى وجبت بالقضاء السابق حتى مات على كفره (فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) أى مآل أمرهم وهو خراب منازلهم بالعذاب والهلاك (إن تحرص (٩٠) على هداهم) يامحمد (فان الله لايهدى من يضل) قرأ أهل الكوفة يهدى بفتح الياء وكسر الدال أى لا يهدى الله من أضله وقيل معناه لايهتدى من أضله الله وقرأ الآخرون بضم الياء وفتح الدال يعنى من أضله الله فلا هادى له كما قال من يضلل الله فلا هادي له (ومالهم من ناصرين) أى مانعين من العذاب قوله تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت) وهم منكرو البعث قال الله تعالى ردا عليهم (بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ليبين لهم الذى يختلفون) أى ليظهر لهم الحق فيما يختلفون (فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) يقول الله تعالى إذا أردنا أن نبعث الموتى فلا تعب علينا فى إحيائهم ولا فى شىء مما يحدث إنما نقول له كن فيكون أخبرنا حسان بن سعيد المنيعى أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادى أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان ثنا أحمد بن يوسف السلمى ثنا عبدالرزاق أنا معمر عن همام بن منبه ثنا أبوهريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال الله كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى

الله وأن يجتنبوا عبادة الطاغوت وهو اسم كل معبود من دون الله (فمنهم) يعنى فمن الأمم الذين جاءتهم الرسل (من هدى الله) يعنى هداه الله إلى الإيمان به وتصديق رسله (ومنهم من حقت عليه الضلالة) يعنى ومن الأمم من وجبت عليه الضلالة بالقضاء السابق فى الأزل حتى مات على الكفر والضلال وفى هذه الآية أبين دليل على أن الهادى والمضل هو الله تعالى لأنه المتصرف فى عباده فيهدى من يشاء ويضل من يشاء لا اعتراض لأحد عليه بما حكم به فى سابق علمه (فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) يعنى فسيروا فى الأرض معتبرين متفكرين لتعرفوا مآل من كذب الرسل وهو خراب منازلهم بالعذاب والهلاك ولتعرفوا أن العذاب نازل بكم إن أصررتم على الكفر والتكذيب كما نزل بهم. قوله سبحانه وتعالى (إن تحرص على هداهم) الخطاب للنبى ﷺ يعنى إن تحرص يامحمد على هدى هؤلاء وإيمانهم وتجتهد كل الاجتهاد (فان الله لايهدي من يضل) قرىء بفتح الياء وكسر الدال يعنى لايهدى الله من أضله وقيل معناه لايهتدى من أضله الله وقرىء بضم الياء وفتح الدال ومعناه من أضله الله فلا هادى له (وما لهم من ناصرين) أى مانعين يمنعونهم من العذاب (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) قال ابن الجوزى سبب نزولها أن رجلا من المسلمين كان له على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه فكان فيما تكلم به المسلم والذى أرجوه بعد الموت فقال المشرك إنك لتزعم أنك تبعث بعد الموت وأقسم بالله أن لايبعث الله من يموت فنزلت هذه الآية قاله أبو العالية. وتقرير الشبهة التى حصلت للمشركين فى إنكار البعث بعد الموت أن الإنسان ليس هو إلا هذه البنية المخصوصة فاذا مات وتفرقت أجزاؤه وبلى امتنع عوده بعينه لأن الشىء إذا عدم فقد فنى ولم يبق له ذات ولا حقيقة بعد فنائه وعدمه فهذا هو أصل شبهتهم ومعتقدهم فى إنكار البعث بعد الموت فذلك قوله تعالى وأقسموا بالله جهد أيمانهم (لايبعث الله من يموت) فرد الله عليهم ذلك وكذبهم فى قولهم فقال تعالى (بلى) يعنى بلى يبعثهم بعد الموت لأن لفظة بلى إثبات لما بعد النفى. والجواب عن شبهتهم أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وأوجده من العدم ولم يك شيئا فالذى أوجده بقدرته ثم أعدمه قادر على إيجاده بعد إعدامه لأن النشأة الثانية أهون من الأولى (وعدا عليه حقا) يعنى أن الذى وعد به من البعث بعد الموت وعد حق لاخلف فيه (ولكن أكثر الناس لايعلمون) يعنى لايفهمون كيف يكون ذلك العود والله سبحانه وتعالى قادر على كل شىء (ليبين لهم الذى يختلفون فيه) يعنى من أمر البعث ويظهر لهم الحق الذى لاخلف فيه (وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين) يعنى فى قولهم لابعث بعد الموت (إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) يعنى أن الله سبحانه وتعالى قادر إذا أراد أن يحيي الموتى ويبعثهم للحساب والجزاء فلا تعب عليه فى إحيائهم وبعثهم إنما يقول لشىء أراده كن فيكون على ما أراد لأنه القادر الذى لايعجزه شىء أراده (خ) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يقول الله تبارك وتعالى يشتمنى ابن آدم وما ينبغى له

أن

أن يشتمنى ويكذبنى وما ينبغى له أن يكذبنى أما شتمه إياى فيقول إن لى ولدا وأما تكذيبه إياى فقوله ليس يعيدنى كما بدأنى «وفى رواية» كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك أما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق بأهون على من إعادته وأما شتمه إياى فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » وقوله تعالى (والذين هاجروا فى الله من بعد ماظلموا) يعنى أوذوا وعذبوا نزلت فى بلال وصهيب وخباب وعابس وجبير وأبى جندل بن سهيل أخذهم المشركون بمكة فجعلوا يعذبونهم ليرجعوا عن الإسلام إلى الكفر وهم المستضعفون . فأما بلال فكان أصحابه يخرجونه إلى بطحاء مكة فى شدة الحر ويشدونه ويجعلون على صدره الحجارة وهو يقول أحد أحد فاشتراه منهم أبو بكر الصديق وأعتقه واشترى معه ستة نفر آخرين وأما صهيب فقال لهم إنى رجل كبير إن كنت معكم فلن أنفعكم وإن كنت عليكم فلا أضركم فاشترى نفسه بماله فباعوه منه فر به أبو بكر الصديق فقال ياصهيب ربح البيع . وأما باقيهم فأعطوهم بعض مايريدون فخلوا عنهم وقال قتادة هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم حتى لحق طائفة بالحبشة ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة فهاجروا إليها وجعل لهم أنصارا من المؤمنين فأووهم ونصروهم وواسوهم وهذه الآية تدل على فضل المهاجرين وفضل الهجرة وفيه دليل على أن الهجرة إذا لم تكن لله خالصة لم يكن لها موقع وكانت بمنزلة الانتقال من بلد إلى آخر ومنه حديث « الأعمال بالنيات » وفيه « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه » الحديث أخرجاه فى الصحيحين من رواية عمر بن الخطاب وقوله تعالى (لنبوأنهم فى الدنيا حسنة) يعنى لنبوأنهم تبوئة حسنة وهو أنه تعالى أنزلهم المدينة وجعلها لهم دار هجرة والمعنى لنبوأنهم فى الدنيا دارا حسنة أو بلدة حسنة وهى المدينة روى عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاء يقول له خذ هذا بارك الله لك فيه هذا ماوعدك الله فى الدنيا وما ادخر لك فى الآخرة أفضل ثم يقول هذه الآية وقيل معناه ليحسنن إليهم فى الدنيا بأن يفتح لهم مكة ويمكنهم من أهلها الذين ظلموهم وأخرجوهم منها ثم ينصرهم على العرب قاطبة وعلى أهل المشرق والمغرب وقيل المراد بالحسنة فى الدنيا التوفيق والهداية فى الدين (ولأجر الآخرة أكبر) يعنى أعظم وأفضل وأشرف مما أعطاهم فى الدنيا (لو كانوا يعلمون) قيل الضمير يرجع إلى الكفار لأن المؤمنين يعلمون مالهم فى الآخرة والمعنى لو كان هؤلاء الكفار يعلمون أن أجر الآخرة أكبر مما هم فيه من نعم الدنيا لرغبوا فيه وقيل إنه راجع إلى المهاجرين والمعنى لو كانوا يعلمون ماأعد الله لهم فى الآخرة ازدادوا فى الجد والاجتهاد والصبر على ماأصابهم من أذى المركين (الذين صبروا) يعنى فى الله على مانالهم من الأذى والمكروه فهو صفة مدح يعنى صبروا على العذاب ومفارقة الوطن وعلى الجهاد وبذل الأنفس والأموال فى سبيل الله (وعلى ربهم يتوكلون) يعنى فى أمورهم كلها قال بعضهم ذكر الله الصبر والتوكل فى هذه الآية وهما مبدأ السلوك إلى الله تعالى ومنتهاه أما الصبر فهو قهر النفس وحبسها على أعمال البر وسائر الطاعات واحتمال الأذى من الخلق والصبر عن الشهوات المباحات والمحرمات والصبر على المصائب وأما التوكل فالانقطاع عن

عبدى ولم يكن له ذلك فاما تكذيبه إياى أن يقول لن يعيدنا كما بدأنا وأما شتمه إياى أن يقول اتخذ الله ولدا وأنا الصمد لم الد ولم أولد ولم يكن لى كفوا أحد » قوله تعالى (والذين هاجروا فى الله من بعد ماظلموا) عذبوا وأوذوا فى الله نزلت فى بلال وصهيب وخباب وعمار وعابس وجبير وأبى جندل بن سهيل أخذهم المشركون بمكة فعذبوهم وقال قتادة هم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ظلمهم أهل مكة وأخرجوهم من ديارهم حتى لحق منهم طائفة بالحبشة ، ثم بوأ الله لهم المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة وجعل لهم أنصارا من المؤمنين (لنبوئنهم فى الدنيا حسنة) وهو أنه أنزلهم المدينة روى أن عمر ابن الخطاب كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاء يقول خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله فى الدنيا وما ادخر لك فى الآخرة أفضل ثم تلا هذه الآية وقيل معناه لنحسنن إليهم فى الدنيا وقيل الحسنة فى الدنيا التوفيق والهداية (ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) وقوله ولو كانوا يعلمون ينصرف إلى المشركين لأن المؤمنين كانوا يعلمونه (الذين صبروا) فى الله على مانالهم (وعلى ربهم يتوكلون

الخلق بالكلية والتوجه إلى الحق تعالى بالكلية فالأول هو مبدأ السلوك إلى الله تعالى والثانى هو آخر الطريق ومنتهاه (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم) نزلت هذه الآية جوابا لمشركي مكة حيث أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا الله أعظم وأجل من أن يكون رسوله بشرا فهلا بعث ملكا إلينا فأجابهم الله عز وجل بقوله وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلا رجالا يعنى مثلك نوحى إليهم والمعنى أن عادة الله عز وجل جارية من أول مبدأ الخلق أنه لم يبعث إلا رسولا من البشر فهذه عادة مستمرة وسنة جارية قديمة (فاسئلوا أهل الذكر) يعنى أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى وإنما أمرهم الله بسؤال أهل الكتاب لأن كفار مكة كانوا يعتقدون أن أهل الكتاب أهل علم وقد أرسل الله إليهم رسلا منهم مثل موسى وعيسى وغيرهم من الرسل وكانوا بشرا مثلهم فاذا سألوهم فلا بد وأن يخبروهم بأن الرسل الذين أرسلوا إليهم كانوا بشرا فاذا أخبروهم بذلك زالت الشبهة عن قلوبهم (إن كنتم لا تعلمون) الخطاب لأهل مكة يعنى إن كنتم يا هؤلاء لا تعلمون ذلك (بالبينات والزبر) اختلفوا فى المعنى الجالب لهذه الباء فقيل المعنى وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالا يوحى إليهم أرسلناهم بالبينات والزبر وقيل الذكر بمعنى العلم فى قوله فاسئلوا أهل الذكر يعنى أهل العلم والمعنى فاسئلوا أهل الذكر الذى هو العلم بالبينات والزبر إن كنتم لا تعلمون أنتم ذلك. والبينات والزبر اسم جامع لكل ما يتكامل به أمر الرسالة لأن مدار أمر الرسول على المعجزات الدالة على صدقه وهى البينات وعلى بيان الشرائع والتكاليف وهى المراد بالزبر يعنى الكتب المنزلة على الرسل من الله عز وجل (وأنزلنا إليك الذكر) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى وأنزلنا عليك يا محمد الذكر الذى هو القرآن وإنما سماه ذكرا لأن فيه مواعظ وتنبيها للغافلين (لتبين للناس ما نزل إليهم) يعنى ما أجمل إليك من أحكام القرآن وبيان الكتاب يطلب من السنة والمبين لذلك المجمل هو الرسول صلى الله عليه وسلم ولهذا قال بعضهم متى وقع تعارض بين القرآن والحديث وجب تقديم الحديث لأن القرآن مجمل والحديث مبين بدلالة هذه الآية والمبين مقدم على المجمل وقال بعضهم القرآن منه محكم ومنه متشابه فالمحكم يجب أن يكون مبينا والمتشابه هو المجمل ويطلب بيانه من السنة فقوله تعالى لتبين للناس ما نزل إليهم محمول على ما أجمل فيه دون المحكم المبين المفسر (ولعلهم يتفكرون) يعنى فيما أنزل إليهم فيعملوا به (أفأمن الذين مكروا السيئات) فيه حذف تقديره المنكرات السيئات وهم كفار قريش مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبأصحابه وبالغوا فى أذيتهم والمكر عبارة عن السعى بالفساد على سبيل الإخفاء وقيل المراد بهذا المكر اشتغالهم بعبادة غير الله فيكون مكرهم على أنفسهم والصحيح أن المراد بهذا المكر السعى فى أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وقيل المراد بالذين مكروا السيئات نمرود ومن هو مثله والصحيح أن المراد بهم كفار مكة (أن يخسف الله بهم الأرض) يعنى كما خسف بقرون من قبلهم (أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون) يعنى أن العذاب يأتيهم بغتة فيهلكهم فجأة كما أهلك قوم لوط وغيرهم (أو يأخذهم فى تقلبهم) يعنى فى تصرفهم فى الأسفار فانه سبحانه وتعالى قادر على إهلاكهم فى السفر كما هو قادر على إهلاكهم فى الحضر وقال ابن عباس يأخذهم فى اختلافهم وقال ابن جريج فى إقبالهم وإدبارهم يعنى أنه تعالى قادر على أن يأخذهم فى ليلهم ونهارهم وفى جميع أحوالهم

(فما

وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم) نزلت فى مشركى مكة حيث أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا فهلا بعث إلينا ملكا (فاسئلوا أهل الذكر) يعنى مؤمنى أهل الكتاب (إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر) واختلفوا فى الجالب للباء فى قوله بالبينات قيل هى راجعة إلى قوله وما أرسلنا وإلا بمعنى غير مجازه وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر غير رجال يوحى إليهم ولم نبعث ملائكة وقيل تأويله وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا يوحى إليهم أرسلناهم بالبينات والزبر (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) أراد بالذكر الوحى وكان النبى صلى الله عليه وسلم مبينا للوحى وبيان الكتاب يطلب من السنة (ولعلهم يتفكرون أفأمن الذين مكروا) عملوا (السيئات) من قبل يعنى نمرود بن كنعان وغيره من الكفار (أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أو يأخذهم) بالعذاب (فى تقلبهم) تصرفهم فى الأسفار وقال ابن عباس فى اختلافهم وقال ابن جريج فى إقبالهم وإدبارهم

(فماهم بمعجزين) يعنى بسابقين الله أو يفوتونه بل هو قادر عليهم (أو يأخذهم على تخوف) قال ابن عباس ومجاهد يعنى على تنقص قال ابن قتيبة التخوف التنقص ومثله التخون يقال تخوفه الدهر وتخونه إذا انتقصه وأخذ ماله وحشمه ويقال هذه لغة هذيل فعلى هذا القول يكون المراد به أنه ينقص من أطرافهم ونواحيهم الشيء بعد الشيء حتى يهلك جميعهم وقيل هو على أصله من الخوف فيحتمل أنه سبحانه وتعالى لا يأخذهم بالعذاب أولا بل يخوفهم ثم يعذبهم بعد ذلك وقال الضحاك والكلبى هو من الخوف يعنى يهلك طائفة فيتخوف الآخرون أن يصيبهم مثل ماأصابهم والحاصل أنه سبحانه وتعالى خوفهم بخسف يحصل فى الأرض أو بعذاب ينزل من السماء أو بآفات تحدث دفعة أو بآفات تحدث قليلا قليلا إلى أن يأتى الهلاك على آخرهم ثم إنه سبحانه وتعالى ختم الآية بقوله (فان ربكم لرءوف رحيم) يعنى أنه سبحانه وتعالى لايعجل بالعقوبة والعذاب. قوله سبحانه وتعالى (أو لم يروا) قرىء بالتاء على خطاب الحاضرين وبالياء على الغيبة (إلى ماخلق الله من شيء) يعنى من جسم قائم له ظل وهذه الرؤية لما كانت بمعنى النظر وصلت بإلى لأن المراد منها الاعتبار والاعتبار لايكون إلا بنفس الرؤية التى يكون معها نظر إلى الشيء ليتأمل أحواله ويتفكر فيه فيعتبر به (يتفيئو ظلاله) يعنى تميل وتدور من جانب إلى جانب فهى من أول النهار على حال ثم تقلص ثم تعود فى آخر النهار إلى حالة أخرى ويقال للظل بالعشى فىء لأنه من فاء يفىء إذا رجع من المغرب إلى المشرق والفىء الرجوع قال الأزهرى تفيؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار فالتفيؤ لايكون إلا بالعشى وما انصرفت عنه الشمس والظل يكون بالغداة وهو مالم تنله الشمس وقوله ظلاله جمع ظل وإنما أضاف الظلال وهو جمع مفرد وهو قوله من شيء لأنه يراد به الكثرة ومعناه الإضافة إلى ذوى الظلال (عن اليمين والشمائل) قال العلماء إذا طلعت الشمس من المشرق وأنت متوجه إلى القبلة كان ظلك عن يمينك فاذا ارتفعت الشمس واستوت فى وسط السماء كان ظلك خلفك فاذا مالت الشمس إلى الغروب كان ظلك عن يسارك وقال الضحاك أما اليمين فأول النهار وأما الشمال فآخر النهار وإنما وحد اليمين وإن كان المراد به الجمع للايجاز والاختصار فى اللفظ وقيل اليمين راجع إلى لفظ الشيء وهو واحد والشمائل راجع إلى المعنى لأن لفظ الشيء يراد به الجمع (سجدا لله) فى معنى هذا السجود قولان أحدهما أن المراد به الاستسلام والانقياد والخضوع يقال سجد البعير إذا طأطأ رأسه ليركب وسجدت النخلة إذا مالت لكثرة الحمل والمعنى أن جميع الأشياء التى لها ظلال فهى منقادة لله تعالى مستسلمة لأمره غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ وغيره وقال مجاهد إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله والقول الثانى فى معنى هذا السجود أن الظلال واقعة على الأرض ملتصقة بها كالساجد على الأرض فلما كانت الظلال يشبه شكلها شكل الساجدين أطلق الله عليها هذا اللفظ وقيل ظل كل شيء ساجد لله سواء كان ذلك الشيء يسجد لله أولا ويقال إن ظل الكافر ساجد

(فماهم بمعجزين) السابقين الله (أو يأخذهم على تخوف) والتخوف التنقص أى ينقص من أطرافهم ونواحيهم شيئا بعد شيء حتى يهلك جميعهم يقال تخونه الدهر وتخوضه إذا نقصه وأخذ ماله وحشمه ويقال هذا لغة بنى هزيل وقال الضحاك والكلبى هو من الخوف أى أن يعذب طائفة ليتخوف الآخرون أن يصيبهم مثل ما أصابهم (فان ربكم لرءوف رحيم) حين لم يعجل بالعقوبة قوله (أو لم يروا إلى ماخلق الله من شئ) قرأ حمزة والكسائى بالتاء على الخطاب وكذلك فى سورة العنكبوت والآخرون بالياء خبرا عن الذين مكروا السيئات إلى ماخلق الله من شئ من جسم قائم له ظل (يتفيئو) قرأ أبو عمرو ويعقوب بالتاء والآخرون بالياء (ظلاله) أى تميل وتدور من جانب إلى جانب فهى فى أول النهار على حال ثم تتقلص ثم تعود فى آخر النهار إلى حال أخرى سجدا لله فميلانها ودورانها سجودها لله عز وجل ويقال للظل بالعشى فئ لأنه فاء أى رجع من المغرب إلى المشرق فالفئ الرجوع والسجود الميل يقال سجدت النخلة إذا مالت قوله عز وجل (عن اليمين والشمائل سجدا لله) قال قتادة والضحاك : أما اليمين فأول النهار والشمائل آخر النهار تسجد الظلال لله ، وقال الكلبى الظل قبل طلوع الشمس عن يمينك وعن شمالك وقدامك وخلفك وكذلك إذا غابت فاذا طلعت كان من قدامك وإذا ارتفعت كان عن يمينك ثم بعده كان خلفك فاذا كان قبل أن تغرب الشمس كان عن يسارك فهذا تفيؤه وتقلبه وهو سجوده وقال مجاهد إذا زالت الشمس سجد كل شئ

لله وقيل المراد من الظلال سجود الأشخاص فان قيل لم وحد اليمين وجمع الشمائل قيل من شأن العرب فى اجتماع العلامتين الاكتفاء بواحدة كقوله تعالى «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم» وقوله «يخرجهم من الظلمات إلى النور» وقيل اليمين يرجع إلى قوله ماخلق الله ولفظ ما واحد والشمائل جمع يرجع إلى المعنى (وهم داخرون) صاغرون (ولله يسجد مافى السموات وما فى الأرض) إنما أخبر بما لغلبة مالايعقل على من يعقل فى العدد والحكم للأغلب كتغليب المذكر على المؤنث (من دابة) أراد من كل حيوان يدب ويقال السجود الطاعة والأشياء كلها مطيعة لله عز وجل من حيوان وجماد قال الله تعالى «قالتا أتينا طائعين» وقيل سجود الأشياء تذللها وتسخرها لما أريدت له وسخرت له وقيل سجود الجمادات ومالا يعقل ظهور أثر الصنع فيه على معنى أنه يدعو الغافلين إلى السجود عند التأمل والتدبر فيه قال الله تعالى «سنريهم آياتنا فى الآفاق» (والملائكة) خص الملائكة بالذكر مع كونهم من جملة مافى السموات والأرض تشريفا ورفعا لشأنهم، وقيل لخروجهم من الموصوفين بالدبيب إذ لهم أجنحة يطيرون بها وقيل أراد ولله يسجد مافى السموات من الملائكة ومافى الأرض من دابة وتسجد الملائكة (وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم) كقوله «وهو القاهر فوق عباده» (ويفعلون ما يؤمرون) أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا محمد بن سمعان ثنا أبو بكر محمد بن إبراهيم الشعرانى ثنا محمد بن يحيى الذهلى ثنا عبيدالله بن موسى وسماعها العبسى ثنا إسرائيل عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن مورق عن أبى ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنى أرى مالا ترون وأسمع مالا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط والذى نفسى بيده مافيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك يمجد الله ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولصعدتم إلى الصعدات تجأرون قال أبو ذر ياليتنى كنت شجرة تعضد» رواه أبو عيسى عن أحمد بن منيع عن أبى أحمد الزبيرى عن إسرائيل وقال إلا وملك واضع

لله وهو غير ساجد لله (وهم داخرون) أى صاغرون أذلاء والداخر الصاغر الذى يفعل ماتأمره به شاء أم أبى وذلك أن جميع الأشياء منقادة لأمر الله تعالى. فان قلت الظلال ليست من العقلاء فكيف عبر عنها بلفظ من يعقل وجمعها بالواو والنون. قلت لما وصفها الله سبحانه وتعالى بالطاعة والانقياد لأمره وذلك صفة من يعقل عبر عنها بلفظ من يعقل وجاز جمعها بالواو والنون وهو جمع العقلاء قوله عز وجل (ولله يسجد مافى السموات وما فى الأرض من دابة) قال العلماء السجود على نوعين سجود طاعة وعبادة كسجود المسلم لله عز وجل وسجود انقياد وخضوع كسجود الظلال فقوله ولله يسجد مافى السموات وما فى الأرض من دابة يحتمل النوعين لأن سجود كل شىء بحسبه فسجود المسلمين والملائكة لله سجود عبادة وطاعة وسجود غيرهم سجود انقياد وخضوع وأتى بلفظ ما فى قوله مافى السموات وما فى الأرض للتغليب لأن مالا يعقل أكثر ممن يعقل فى العدد والحكم للأغلب كتغليب المذكر على المؤنث ولأنه لو أتى بمن التى هى للعقلاء لم يكن فيها دلالة على التغليب بل كانت متناولة للعقلاء خاصة فأتى بلفظة ما ليشمل الكل ولفظة الدابة مشتقة من الدبيب وهو عبارة عن الحركة الجسمانية فالدابة اسم يقع على كل حيوان جسمانى يتحرك ويدب فيدخل فيه الإنسان لأنه مما يدب على الأرض ولهذا أفرد الملائكة فى قوله (والملائكة) لأنهم أولوا أجنحة يطيرون بها أو أفردهم بالذكر وإن كانوا من جملة من فى السموات لشرفهم وقيل أراد ولله يسجد مافى السموات من الملائكة وما فى الأرض من دابة فسجود الملائكة والمسلمين للطاعة وسجود غيرهم تذليلها وتسخيرها لما خلقت له وسجود مالايعقل وسجود الجمادات يدل على قدرة الصانع سبحانه وتعالى فيدعوا الغافلين إلى السجود لله عند التأمل والتدبر (وهم لايستكبرون) يعنى الملائكة (يخافون ربهم من فوقهم) هو كقوله «وهو القاهر فوق عباده» وقد تقدم تفسيره (ويفعلون مايؤمرون) عن أبى ذر قال قال رسول الله ﷺ «إنى أرى مالا ترون وأسمع مالا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط مافيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا والله لو تعلمون ماأعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى قال أبو ذر لوددت أنى كنت شجرة تعضد» أخرجه الترمذى وقال عن أبى ذر موقوفا.

(فصل)

وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن فيسن للقارىء والمستمع أن يسجد عند قراءتها

وسماعها . قوله سبحانه وتعالى (وقال الله لاتتخذوا إلهين اثنين) لما أخبر الله عز وجل فى الآية المتقدمة أن كل مافى السموات والأرض خاضعون لله منقادون لأمره عابدون له وأنهم فى ملكه وتحت قدرته وقبضته نهى فى هذه الآية عن الشرك وعن اتخاذ إلهين اثنين فقال «وقال الله لاتتخذوا إلهين اثنين» قال الزجاج ذكر الاثنين توكيدا لقوله إلهين وقال صاحب النظم فيه تقديم وتأخير تقديره لاتتخذوا اثنين إلهين يعنى أن الاثنين لايكون كل واحد منهما إلها ولكن اتخذوا إلها واحدا وهو قوله تبارك وتعالى (إنما هو إله واحد) لأن الإلهين لايكونان إلامتساويين فى الوجود والقدم وصفات الكمال والقدرة والإرادة فصارت الاثنينية منافية للالهية وذلك قوله تعالى إنما هو إله واحد يعنى لايجوز أن يكون فى الوجود إلهان اثنان إنما هو إله واحد (فاياى فارهبون) يعنى فخافون والرهب مخافة مع حزن واضطراب وإنما نقل الكلام من الغيبة إلى الحضور وهو من طريق الالتفات لأنه أبلغ فى الترهيب من قوله فاياه فارهبوا فهو من بديع الكلام وبليغه وقوله فاياى فارهبون يفيد الحصر وهو أن لايرهب الخلق إلامنه ولا يرغبون إلا إليه وإلى كرمه وفضله وإحسانه (وله مافى السموات والأرض) لما ثبت بالدليل الصحيح والبرهان الواضح أن إله العالم لاشريك له فى الإلهية وجب أن يكون جميع المخلوقات عبيدا له وفى ملكه وتصرفه وتحت قدرته فذلك قوله تعالى وله مافى السموات والأرض يعنى عبيدا وملكا (وله الدين واصبا) يعنى وله العبادة والطاعة وإخلاص العمل دائما ثابتا والواصب الدائم قال ابن قتيبة ليس من أحد يدان له ويطاع إلا انقطع ذلك لسبب فى حال الحياة أو بالموت إلا الحق سبحانه وتعالى فان طاعته واجبة أبدا ولأنه المنعم على عباده المالك لهم فكانت طاعته واجبة دائما أبدا (أفغير الله تتقون) يعنى أنكم عرفتم أن الله واحد لاشريك له فى ملكه وعرفتم أن كل ماسواه محتاج إليه فبعد هذه المعرفة كيف تخافون غيره وتتقون سواه فهو استفهام بمعنى التعجب وقيل هو استفهام على طريق الإنكار قوله عز وجل (وما بكم من نعمة فمن الله) يعنى من نعمة الإسلام وصحة الأبدان وسعة الأرزاق وكل ماأعطاكم من مال أو ولد فكل ذلك من الله تعالى إنما هو المتفضل به على عباده فيجب عليكم شكره على جميع إنعامه . ولما بين فى الآية المتقدمة أنه يجب على جميع العباد أن لايخافوا إلاالله تعالى بين فى هذه الآية أن جميع النعم منه فلا يشكر عليها إلا إياه لأنه هو المتفضل بها على عباده فيجب عليهم شكره عليها (ثم إذا مسكم الضر) أى الشدة والأمراض والأسقام (فاليه تجأرون) يعنى إليه تستغيثون وتصيحون وتضجون بالدعاء ليكشف عنكم مانزل بكم من الضرر والشدة وأصل الجؤار هو رفع الصوت الشديد ومنه جؤار البقر والمعنى أن النعم لما كانت كلها ابتداء منه فان حصل شدة وضر فى بعض الأوقات فلا يلجأ إلا إليه ولايدعى إلا إياه ليكشفها فانه هو القادر على كشفها وهو قوله تعالى (ثم إذا كشف الضر عنكم) يعنى ثم إذا أزال الشدة والبلاء عنكم (إذا فريق منكم) يعنى طائفة وجماعة منكم (بربهم يشركون) يعنى أنهم يضيفون كشف الضر إلى العوائد والأسباب ولايضيفونه إلى الله عز وجل فهذا من جملة شركهم الذى كانوا عليه وإنما قسمهم فريقين لأن فريق المؤمنين لايرون كشف الضر إلا من الله تعالى ثم قال تعالى (ليكفروا بما آتيناهم) قيل إن هذه اللام لام كى ويكون المعنى على هذا أنهم إنما أشركوا بالله ليجحدوا نعمه عليهم فى كشف الضر عنهم وقيل إنها لام العاقبة والمعنى عاقبة أمرهم هو

جبهته ساجدا لله قوله تعالى (وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فاياى فارهبون وله ما فى السموات والأرض وله الدين) الطاعة الإخلاص (واصبا) دائما ثابتا معناه ليس من أحد يدان له ويطاع إلا انقطع ذلك عنه بزوال أو هلاك غير الله عز وجل فان الطاعة تدوم له ولا تنقطع (أفغير الله تتقون) أى تخافون استفهام على طريق الانكار قوله تعالى (وما بكم من نعمة فمن الله) أى وما يكن بكم من نعمة فمن الله (ثم إذا مسكم الضر) القحط والمرض (فاليه تجأرون) تضجون وتصيحون بالدعاء والاستغاثة (ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ليكفروا) ليجحدوا (بما آتيناهم) وهذه اللام تسمى لام

أى عيشوا فى الدنيا المدة التى ضربتها لكم (فسوف تعلمون) عاقبة أمركم هذا وعيد لهم (ويجعلون لما لا يعلمون) له حقا أى الأصنام (نصيبا مما رزقناهم) من الأموال وهو ماجعلوا للأوثان من حروثهم وأنعامهم فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ثم رجع من الخبر إلى الخطاب فقال (تالله لتسئلن) يوم القيامة (عما كنتم تفترون) فى الدنيا (ويجعلون لله البنات) وهم خزاعة وكنانة قالوا الملائكة بنات الله تعالى (سبحانه ولهم مايشتهون) أى ويجعلون لأنفسهم البنين الذين يشتهونهم فيكون ما فى محل النصب ويجوز أن يكون على الابتداء فيكون ما فى محل الرفع (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا) متغيرا من الغم والكراهية (وهو كظيم) وهو ممتلىء حزنا وغيظا فهو يكظمه أى يمسكه ولا يظهره (يتوارى) أى يختفى (من القوم من سوء مابشر به) من الحزن والعار ثم يتفكر (أيمسكه) ذكر الكناية ردا على ما (على هون) أى هوان (أم يدسه فى التراب) أى يخفيه فيئده وذلك أن مضر وخزاعة وتميما كانوا يدفنون

كفرهم بما آتيناهم من النعماء وكشفنا عنهم الضر والبلاء (فتمتعوا) لفظه أمر والمراد منه التهديد والوعيد يعنى فعيشوا فى اللذة التى أنتم فيها إلى المدة التى ضربها الله لكم (فسوف تعلمون) يعنى عاقبة أمركم إلى ماذا تصير وهو نزول العذاب بكم. قوله سبحانه تعالى (ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا) قيل الضمير فى قوله لما لا يعلمون عائد إلى المشركين يعنى أن المشركين لا يعلمون وقيل إنه عائد إلى الأصنام يعنى أن الأصنام لا تعلم شيئا البتة لأنها جماد والجماد لا علم له ومنهم من رجح القول الأول لأن نفى العلم عن الحى حقيقة وعن الجماد مجاز فكان عود الضمير إلى المشركين أولى ولأنه قال لما لا يعلمون فجمعهم بالواو والنون وهو جمع لمن يعقل ومنهم من رجح القول الثانى قال لأنا إذا قلنا أنه عائد إلى المشركين احتجنا فيه إلى إضمار فيكون المعنى ويجعلون يعنى المشركين لما لا يعلمون أنه إله ولا إله حق نصيبا وإذا قلنا إنه عائد إلى الأصنام لم نحتج إلى هذا الاضمار لأنها لا علم ولا فهم وقوله (مما رزقناهم) يعنى أن المشركين جعلوا للأصنام نصيبا من حروثهم وأنعامهم وأموالهم التى رزقهم الله وقد تقدم تفسيره فى سورة الأنعام (تالله) أقسم بنفسه على نفسه أنه يسألهم يوم القيامة وهو قوله تعالى (لتسئلن عما كنتم تفترون) يعنى عما كنتم تكذبون فى الدنيا فى قولكم إن هذه الأصنام آلهة وإن لها نصيبا من أموالكم وهذا التفات من الغيبة إلى الحضور وهو من بديع الكلام وبليغه (ويجعلون لله البنات) هم خزاعة وكنانة قالوا الملائكة بنات الله وإنما أطلقوا لفظ البنات على الملائكة لاستتارهم عن العيون كالنساء أو لدخول لفظ التأنيث فى تسميتهم (سبحانه) نزه الله نفسه عن الولد والبنات (ولهم مايشتهون) يعنى ويجعلون لأنفسهم مايشتهون يعنى البنين (وإذا بشر أحدهم بالأنثى) البشارة عبارة عن الخبر السار الذى يظهر على بشرة الوجه أثر الفرح به ولما كان ذلك الفرح والسرور يوجبان تغير بشرة الوجه كان كذلك الحزن والغم يظهر أثره على الوجه وهو الكمودة التى تعلو الوجه عند حصول الحزن والغم فثبت بهذا أن البشارة لفظ مشترك بين الخبر السار والخبر المحزن فصح قوله وإذا بشر أحدهم بالأنثى (ظل وجهه مسودا) يعنى متغيرا من الغم والحزن والغيظ والكراهة التى حصلت له عند هذه البشارة والمعنى أن هؤلاء المشركين لا يرضى أحدهم بالبنت الأنثى أن تنسب إليه فكيف يرضى أن ينسبها إلى الله تعالى ففيه تبكيت لهم وتوبيخ . وقوله سبحانه وتعالى (وهو كظيم) يعنى أنه ظل ممتلئا غما وحزنا (يتوارى من القوم من سوء مابشر به) يعنى أنه يختفى من ذلك القول الذى بشر به وذلك أن العرب كانوا فى الجاهلية إذا قربت ولادة زوجة أحدهم توارى من القوم إلى أن يعلم ماولد له فان كان ولدا ابتهج وسر بذلك وظهر وإن كانت أنثى حزن ولم يظهر أياما حتى يفكر مايصنع بها وهو قوله تعالى (أيمسكه على هون) يعنى على هوان وإنما ذكر الضمير فى أيمسكه لأنه عائد إلى مابشر به فى قوله وإذا بشر أحدهم (أم يدسه فى التراب) يعنى أم يخفى الذى بشر به فى التراب والدس إخفاء الشىء فى الشىء قال أهل التفسير إن مضر وخزاعة وتميما كانوا يدفنون البنات أحياء والسبب فى ذلك إما خوف الفقر وكثرة العيال ولزوم النفقة أو الحمية فيخافون عليهن من الأسر ونحوه أو طمع غير الأكفاء فيهن فكان الرجل من العرب فى الجاهلية إذا ولدت له بنت وأراد أن يستحييها تركها حتى إذا كبرت ألبسها جبة من صوف أو شعر وجعلها ترعى الإبل والغنم فى البادية وإذا أراد أن يقتلها تركها حتى إذا صارت

البنات أحياء خوفا من الفقر عليهن وطمع غير الأكفاء فيهن وكان الرجل من العرب إذا ولدت له بنت وأراد أن يستحييها ألبسها جبة من صوف أو شعر وتركها ترعى له الإبل والغنم فى البادية وإذا أراد أن يقتلها تركها حتى إذا صارت سداسية قال لأمها زينيها حتى أذهب بها إلى إحمائها وقد حفر لها بئرا فى الصحراء فاذا بلغ بها البئر قال لها أنظرى إلى هذه

سداسية قال لأمها زينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها ويكون قد حفر لها حفرة فى الصحراء فاذا بلغ بها تلك الحفرة قال لها أنظرى إلى هذه البئر فاذا نظرت إليها دفعها من خلفها فى تلك البئر ثم يهيل التراب على رأسها وكان صعصعة عم (١) الفرزدق إذا أحس بشىء من ذلك وجه بابل إلى والد البنت حتى يحييها بذلك فقال الفرزدق يفتخر بذلك .

وعمى الذى منع الوائدات   فأحيا الوئيد فلم يوأد

عن ابن مسعود قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الوائدة والموؤدة فى النار » أخرجه أبو داود . وقوله تعالى (ألا ساء مايحكمون) يعنى بئس مايصنعون ويقضون حيث يجعلون لله الذى خلقهم البنات وهم يستنكفون منهن ويجعلون لأنفسهم البنين نظيره قوله سبحانه وتعالى « ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى » وقيل معناه ألا ساء مايحكمون فى وأد البنات (للذين لايؤمنون بالآخرة مثل السوء) يعنى صفة السوء من احتياجهم إلى الولد الذكر وكراهتهم الإناث وقتلهن خوف الفقر (ولله المثل الأعلى) أى الصفة العليا المقدسة وهى أنه له التوحيد وأنه المنزه عن الولد وأنه لاإله إلاهو وأن له جميع صفات الجلال والكمال من العلم والقدرة والبقاء السرمدى وغير ذلك من الصفات التى وصف الله بها نفسه وقال ابن عباس مثل السوء النار والمثل الأعلى شهادة أن لاإله إلا الله (وهو العزيز) أى الممتنع فى كبريائه وجلاله (الحكيم) يعنى فى جميع أفعاله قوله (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم) يعنى بسبب ظلمهم فيعاجلهم بالعقوبة على ظلمهم وكفرهم وعصيانهم . فان قلت الناس اسم جنس يشمل الكل وقد قال تعالى فى آية أخرى « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات » فقسمهم فى تلك الآية ثلاثة أقسام فجعل الظالمين قسما واحدا من ثلاثة . قلت قوله ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم عام مخصوص بتلك الآية الأخرى لأن فى جنس الناس الأنبياء والصالحين ومن لايطلق عليه اسم الظلم وقيل أراد بالناس الكفار فقط بدليل قوله « إن الشرك لظلم عظيم » وقوله (ماترك عليها) يعنى على الأرض كناية عن غير مذكور لأن الدابة لاتدب إلا على الأرض (من دابة) يعنى أن الله سبحانه وتعالى لو يؤاخذ الناس بظلمهم لأهلك جميع الدواب التى على وجه الأرض قال قتادة وقد فعل الله ذلك فى زمن نوح عليه السلام فأهلك من كان على وجه الأرض إلا من كان فى السفينة مع نوح عليه السلام وروى أن أبا هريرة سمع رجلا يقول إن الظالم لايضر إلا نفسه فقال بئس ماقلت إن الحبارى تموت هزالا بظلم الظالم وقال ابن مسعود إن الجعل تعذب فى جحرها بذنب ابن آدم وقيل أراد بالدابة الكافر بدليل قوله « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا » وقيل فى معنى الآية ولو يؤاخذ الله الآباء الظالمين بسبب ظلمهم لانقطع

(١) قوله صعصعة عم كذا بالنسخ التى بأيدينا والصواب جد وكذا قوله (وعمى الذى) الصواب وجدى الذى كما هو مقرر فى كتب الأدب اه .

البئر فيدفعها من خلفها فى البئر ثم يهيل على رأسها التراب حتى يستوى البئر بالأرض فذلك قوله عز وجل (أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب) وكان صعصعة عم الفرزدق إذا أحس بشئ من ذلك وجه إلى والد البنت إبلا يحييها بذلك فقال الفرزدق يفتخر به :

وعمى الذى منع الوائدات   فأحيا الوئيد فلم يوأد

(ألا ساء مايحكمون) بئس مايقضون لله البنات ولأنفسهم البنين نظيره ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى وقيل بئس حكمهم وأد البنات (للذين لايؤمنون بالآخرة) يعنى لهؤلاء الذين يصفون لله البنات ولأنفسهم البنين (مثل السوء) صفة السوء من الاحتياج إلى الولد وكراهية الإناث وقتلهن خوف الفقر

(ولله المثل الأعلى) الصفة العليا وهى التوحيد وأنه لاإله إلاهو وقيل جميع صفات الجلال والكمال من العلم والقدرة والبقاء وغيرها من الصفات قال ابن عباس مثل السوء النار والمثل الأعلى شهادة أن لاإله إلاالله (وهو العزيز الحكيم ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم) فيعاجلهم بالعقوبة على كفرهم وعصيانهم (ماترك عليها) أى على الأرض كناية عن غير مذكور (من دابة) قال قتادة فى الآية قد فعل الله ذلك من زمن

نوح فأهلك من على الأرض إلا من كان فى سفينة نوح عليه السلام روى أن أبا هريرة سمع رجلا يقول إن الظالم لا يضر إلا نفسه فقال بئس ماقلت إن الحبارى تموت فى وكرها بظلم الظالم وقال ابن مسعود إن الجعل لتعذب فى جحرها بذنب ابن آدم وقيل إن معنى الآية لو يؤاخذ الله آباء الظالمين بظلمهم انقطع النسل ولم توجد الأبناء فلم يبق فى الأرض أحد (ولكن يؤخرهم إلى أجل) يمهلهم بحلمه (٩٨) إلى أجل (مسمى) إلى منتهى آجالهم وانقطاع أعمارهم (فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) قوله عز وجل (ويجعلون لله ما يكرهون) لأنفسهم يعنى البنات (وتصف) أى تقول (ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى) يعنى البنين محل إن نصب بدل عن الكذب قال يمان يعنى بالحسنى الجنة فى المعاد يقولون نحن فى الجنة إن كان محمد صادقا بالوعد فى البعث (لاجرم) حقا قال ابن عباس بلى (أن لهم النار) فى الآخرة (وأنهم مفرطون) قرأ نافع بكسر الراء أى مسرفون وقرأ أبو جعفر بتشديد الراء وكسرها أى مضيعون أمر الله وقرأ الآخرون بفتح الراء وتخفيفها أى منسيون فى النار قاله ابن عباس وقال سعيد بن جبير مبعدون وقال مقاتل متروكون قال قتادة معجلون إلى النار قال الفراء مقدمون إلى النار ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «أنا فرطكم على الحوض» أى متقدمكم (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك) كما أرسلنا إلى هذه الأمة (فزين لهم الشيطان أعمالهم) الخبيثة (فهو وليهم) ناصرهم (اليوم) وقرينهم سماه وليا لهم لطاعتهم إياه (ولهم عذاب أليم) فى الآخرة (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه) من الدين والأحكام (وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) أى ما أنزلنا عليك الكتاب إلا بيانا وهدى ورحمة فالهدى والرحمة عطف على قوله لتبين (والله أنزل من السماء ماء) يعنى المطر (فأحيا به الأرض) بالنبات (بعد موتها) بيبوستها (إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون) سمع القلوب لاسمع الآذان

النسل ولم توجد الأبناء فلم يبق فى الأرض أحد (ولكن يؤخرهم) يعنى يمهلهم بفضله وكرمه وحلمه (إلى أجل مسمى) يعنى إلى انتهاء آجالهم وانقضاء أعمارهم (فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) يعنى لا يؤخرون ساعة من الأجل الذى جعله الله لهم ولا ينقصون عنه وقيل أراد بالأجل المسمى يوم القيامة والمعنى ولكن يؤخرهم إلى يوم القيامة فيعذبهم فلا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون (ويجعلون لله مايكرهون) يعنى لأنفسهم وهى البنات (وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى) يعنى ويقولون أن لهم البنين وذلك أنهم قالوا لله البنات ولنا البنون وهذا القول كذب منهم وافتراء على الله وقيل أراد بالحسنى الجنة والمعنى أنهم مع كفرهم وقولهم الكذب يزعمون أنهم على الحق وأن لهم الجنة وذلك أنهم قالوا إن كان محمد صادقا فى البعث بعد الموت فان لنا الجنة لأنا على الحق فأكذبهم الله تعالى فقال (لاجرم أن لهم النار) يعنى فى الآخرة لا الجنة (وأنهم مفرطون) قرىء بكسر الراء مع التخفيف يعنى مسرفون وقرىء بكسر الراء مع التشديد يعنى مضيعون لأمر الله وقراءة الجمهور بفتح الراء مع تخفيفها أى منسيون فى النار قاله ابن عباس وقال سعيد بن جبير ومقاتل متروكون وقال قتادة معجلون إلى النار وقال الفراء مقدمون إلى النار والفرط ماتقدم إلى الماء قبل القوم ومنه قوله ﷺ «أنا فرطكم على الحوض» أى متقدمكم (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك) يعنى كما أرسلناك إلى هذه الأمة لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فكان شأنهم مع رسلهم التكذيب ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم (فزين لهم الشيطان أعمالهم) يعنى أعمالهم الخبيثة من الكفر والتكذيب والمزين فى الحقيقة هو الله تعالى هذا مذهب أهل السنة وإنما جعل الشيطان آلة بالقاء الوسوسة فى قلوبهم وليس له قدرة أن يضل أحدا أو يهدى أحدا وإنما له الوسوسة فقط فمن أراد الله شقاوته سلطه عليه حتى يقبل وسوسته (فهو وليهم) أى ناصرهم (اليوم) ومن كان الشيطان وليه وناصره فهو مخذول مغلوب مقهور وإنما سماه وليا لهم لطاعتهم إياه (ولهم عذاب أليم) يعنى فى الآخرة (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه) يعنى فى أمر الدين والأحكام فتبين لهم الهدى من الضلال والحق من الباطل والحلال من الحرام (وهدى ورحمة) يعنى وما أنزلنا عليك الكتاب إلا بيانا وهدى ورحمة (لقوم يؤمنون) لأنهم هم المنتفعون به قوله سبحانه وتعالى (والله أنزل من السماء ماء) يعنى المطر (فأحيا به) يعنى بالماء (الأرض) يعنى بالنبات والزروع (بعد موتها) يعنى يبسها وجدوبتها (إن فى ذلك لآية) يعنى دلالة واضحة على كمال قدرتنا (لقوم يسمعون) يعنى سماع إنصاف وتدبر وتفكر لأن سماع القلوب هو النافع لا سماع الآذان فمن سمع آيات الله أى القرآن بقلبه وتدبرها وتفكر فيها انتفع ومن لم يسمع بقلبه

بقلبه لم ينتفع بالآيات (وإن لكم فى الأنعام لعبرة) يعنى إذا تفكرتم فيها عرفتم كمال قدرتنا على ذلك (نسقيكم مما فى بطونه) الضمير عائد إلى الأنعام وكان حقه أن يقال مما فى بطونها واختلف النحويون فى الجواب فقيل إن لفظ الأنعام مفرد وضع لإفادة الجمع فهو بحسب اللفظ مفرد فيكون ضميره ضمير الواحد وهو مذكر وبحسب المعنى جمع فيكون ضميره ضمير الجمع وهو مؤنث فلهذا المعنى قال هنا مما فى بطونه وقال فى سورة المؤمنين مما فى بطونها وهذا قول أبى عبيدة والأخفش وقال الكسائي إنه رده إلى ماذكر يعنى مما فى بطون ماذكرنا وقال غيره الكناية مردودة إلى البعض وفيه إضمار كأنه قال نسقيكم مما فى بطونه اللبن فأضمر اللبن إذ ليس لكلها لبن (من بين فرث) وهو مافى الكرش من الثفل فاذا خرج منها لايسمى فرثا (ودما لبنا خالصا) يعنى من الدم والفرث ليس عليه لون الدم ولارائحة الفرث قال ابن عباس إذا أكلت الدابة العلف واستقر فى كرشها وطبخته كان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما فالكبد مسلطة عليه تقسمه بتقدير الله سبحانه وتعالى فيجرى الدم فى العروق واللبن فى الضروع ويبقى الثفل كما هو (سائغا للشاربين) يعنى هنيئا سهلا يجرى فى الحلق بسهولة قيل إنه لم يغص أحد باللبن قط هذا قول المفسرين فى معنى هذه الآية وحكى الإمام فخر الدين الرازى قول الحكماء فى ذلك فقال ولقائل أن يقول الدم واللبن لايتولدان فى الكرش البتة والدليل عليه الحس فان هذه الحيوانات تذبح ذبحا متواليا وما رأى أحد فى كرشها دما ولا لبنا بل الحق أن الحيوان إذا تناول الغذاء وصل ذلك العلف إلى معدته إن كان إنسانا وإلى كرشه إن كان من الأنعام وغيرها فاذا طبخ وحصل الهضم الأول فيه فما كان منه صافيا انجذب إلى الكبد وما كان كثيفا نزل إلى الأمعاء ثم ذلك الذى حصل فى الكبد ينطبخ فيها ويصير دما وهو الهضم الثانى ويكون ذلك مخلوطا بالصفراء والسوداء وزيادة المائية فأما الصفراء فتذهب إلى المرارة وأما السوداء فتذهب إلى الطحال وأما المائية فتذهب إلى الكلية ومنها إلى المثانة وأما الدم فيذهب فى الأوردة وهى العروق النابتة من الكبد وهناك يحصل الهضم الثالث وبين الكبد وبين الضرع عروق كثيرة فينصب الدم من تلك العروق إلى الضرع والضرع لحم غددى رخو أبيض فيقلب الله عز وجل ذلك الدم عند انصبابه إلى ذلك اللحم الغددى الرخو الأبيض فيصير الدم لبنا فهذا صورة تكون اللبن فى الضرع فاللبن إنما يتولد من بعض أجزاء الدم والدم إنما يتولد من بعض الأجزاء اللطيفة من الأشياء المأكولة الحاصلة فى الكرش فاللبن تولد أولا من الفرث ثم من الدم ثانيا ثم صفاه الله سبحانه وتعالى بقدرته فجعله لبنا خالصا من بين فرث ودم وعند تولد اللبن فى الضرع يخلق الله عز وجل بلطيف حكمته فى حلمة الثدى ثقبا صغارا ومسام ضيقة فيجعلها كالمصفاة للبن فكل ما كان لطيفا من اللبن خرج بالمص أو الحلب وما كان كثيفا احتبس فى البدن وهو المراد بقوله خالصا يعنى من شوائب كدورة الدم والفرث سائغا للشاربين يعنى جاريا فى حلوقهم سهلا لذيذا هنيئا مريئا . قوله عز وجل (ومن ثمرات النخيل والأعناب) يعنى ولكم أيضا عبرة فيما نسقيكم ونرزقكم من ثمرات النخيل والأعناب (تتخذون منه) الضمير فى منه يرجع إلى ماتقديره ولكم من ثمرات النخيل والأعناب ماتتخذون منه (سكرا ورزقا حسنا) قال ابن مسعود وابن عمر والحسن وسعيد

(وإن لكم فى الأنعام لعبرة) لعظة (نسقيكم) بفتح النون هاهنا وفى المؤمنين قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ويعقوب والباقون بضمها وهما لغتان (مما فى بطونه) قال الفراء رد الكناية إلى النعم والنعم والأنعام واحد

ولفظ النعم مذكر قال أبو عبيدة والأخفش النعم يذكر ويؤنث فمن أنث فالمعنى الجمع ومن ذكر فالحكم اللفظ قال الكسائى رده إلى ما يعنى فى بطون ماذكرنا، وقال المؤرخ الكناية مردودة إلى البعض والجزء كأنه قال نسقيكم مما فى بطونه اللبن إذ ليس لكلها لبن واللبن فيه مضمر (من بين فرث) وهو مافى الكرش من الثفل فاذا خرج منه لايسمى فرثا (ودما لبنا خالصا) من الدم والفرث ليس عليه لون دم ولارائحة فرث (سائغا للشاربين) هنيئا يجرى على السهولة فى الحلق وقيل إنه لم يغص أحدا باللبن قط قال ابن عباس إذا أكلت الدابة العلف واستقر فى كرشها وطحنته كان أسفله الفرث وأوسطه اللبن وأعلاه الدم والكبد مسلطة عليها تقسمها بتقدير الله تعالى فيجرى الدم فى العروق واللبن فى الضرع ويبقى الفرث كما هو (ومن ثمرات النخيل والأعناب) يعنى ولكم أيضا عبرة فيما نسقيكم ونرزقكم من ثمرات النخيل والأعناب (تتخذون منه) والكناية فى منه عائدة إلى ما محذوفة أى ماتتخذون منه (سكرا ورزقا حسنا) قال قوم السكر الخمر والرزق الحسن الخل والزبيب والتمر والرب قالوا وهذا قبل تحريم الخمر وإلى

ابن جبير ومجاهد وإبراهيم وابن أبى ليلى والزجاج وابن قتيبة السكر الخمر سميت بالمصدر من قولهم سكر سكرا وسكرا والرزق الحسن سائر مايتخذ من ثمرات النخيل والأعناب مثل الدبس والتمر والزبيب والخل وغير ذلك . فإن قلت الخمر محرمة فكيف ذكرها الله عز وجل فى معرض الإنعام والإمتنان ؟ قلت قال العلماء فى الجواب عن هذا إن هذه السورة مكية وتحريم الخمر إنما نزل فى سورة المائدة وهى مدنية فكان نزول هذه الآية فى الوقت الذى كانت الخمر فيه غير محرمة وقيل إن الله عز وجل نبه فى هذه الآية على تحريم الخمر أيضا لأنه ميز بينها وبين الرزق الحسن فى الذكر فوجب أن يقال الرجوع عن كونه حسنا يدل على التحريم وروى العوفى عن ابن عباس أن السكر هو الخل بلغة الحبشة وقال بعضهم السكر هو النبيذ وهو نقيع التمر والزبيب إذا اشتد والمطبوخ من العصير وهو قول الضحاك والنخعى ومن يبيح شرب النبيذ ومن يحرمه يقول المراد من الآية الإخبار لا الإحلال وأولى الأقاويل أن قوله تتخذون منه سكرا منسوخ سئل ابن عباس عن هذه الآية فقال السكر ماحرم من ثمراتها والرزق الحسن ماحل قلت القول بالنسخ فيه نظر لأن قوله ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا خبر والأخبار لا يدخلها النسخ ومن زعم أنها منسوخة رأى أن هذه الآية نزلت بمكة فى وقت إباحة الخمر ثم إن الله تبارك وتعالى حرمها بالمدينة فحكم على هذه الآية بأنها منسوخة وقال أبو عبيدة فى معنى الآية السكر الطعم يقال هذا سكر لك أى طعم لك وقال غيره السكر ماسد الجوع من قولهم سكرت النهر أى سددته والتمر والزبيب مما يسد الجوع وهذا شرح قول أبى عبيدة أن السكر الطعم (إن فى ذلك) يعنى الذى ذكر من إنعامه على عباده (لآية) يعنى دلالة وحجة واضحة (لقوم يعقلون) يعنى أن من كان عاقلا استدل بهذه الآية على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته وعلم بالضرورة أن لهذه الأشياء خالقا ومدبرا قادرا على ما يريد . قوله سبحانه وتعالى (وأوحى ربك إلى النحل) لما ذكر الله سبحانه وتعالى دلائل قدرته وعجائب صنعته الدالة على وحدانيته من إخراج اللبن من بين فرث ودم وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب ذكر فى هذه الآية إخراج العسل الذى جعله شفاء للناس من دابة ضعيفة وهى النحلة فقال سبحانه وتعالى وأوحى ربك إلى النحل الخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به كل فرد من الناس ممن له عقل وتفكر يستدل به على كمال قدرة الله ووحدانيته وأنه الخالق لجميع الأشياء المدبر لها بلطيف حكمته وقدرته وأصل الوحى الإشارة السريعة وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض وقد يكون بصوت مجرد ويقال للكلمة الإلهية التى يلقيها الله إلى أنبيائه وحى وإلى أوليائه إلهام وتسخير الطير لما خلق له ومنه قوله تعالى «وأوحى ربك إلى النحل» يعنى أنه سخرها لما خلقها له وألهمها رشدها وقدر فى أنفسها هذه الأعمال العجيبة التى يعجز عنها العقلاء من البشر وذلك أن النحل تبنى بيوتا على شكل مسدس من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها ولو كانت البيوت مدورة أو مثلثة أو مربعة أو غير ذلك من الأشكال لكان فيما بينها خلل ولما حصل المقصود فألهمها الله سبحانه وتعالى أن تبنيها على هذا الشكل المسدس الذى لا يحصل فيه خلل وفرجة خالية ضائعة وألهمها الله تعالى أيضا أن تجعل عليها أميرا كبيرا نافذ الحكم فيها وهى تطيعه وتمتثل أمره ويكون هذا الأمير أكبرها جثة وأعظمها

خلقة

هذا ذهب ابن مسعود وابن عمر وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد وقال الشعبى المسكر ماشربت والرزق الحسن ما أكلت وروى العوفى عن ابن عباس أن السكر هو الخل بلغة الحبشة وقال بعضهم السكر النبيذ المسكر وهو نقيع التمر والزبيب إذا اشتد والمطبوخ من العصير وهو قول الضحاك والنخعى ومن يبيح شرب النبيذ ومن حرم يقول المراد من الآية الإخبار لا الإحلال وأولى الأقاويل أن قوله تتخذون منه سكرا منسوخ روى عن ابن عباس قال السكر ماحرم من ثمرها والرزق الحسن ماأحل وقال أبو عبيدة السكر الطعم يقال هذا سكر لك أى طعم (إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون وأوحى ربك إلى النحل)

خلقة ويسمى يعسوب النحل يعنى ملكها كذا حكاه الجوهرى وألهمها الله سبحانه وتعالى أيضا أن جعلت على باب كل خلية بوابا لايمكن غير أهلها من الدخول إليها وألهمها الله سبحانه وتعالى أيضا أنها تخرج من بيوتها فتدور وترعى ثم ترجع إلى بيوتها ولاتضل عنها ولما امتاز هذا الحيوان الضعيف بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والفطنة دل ذلك على الإلهام الإلهى فكان ذلك شبيها بالوحى فلذلك قال تبارك وتعالى وأوحى ربك إلى النحل والنحل زنبور العسل ويسمى الدبر أيضا قال الزجاج يجوز أن يقال سمى هذا الحيوان نحلا لأن الله سبحانه وتعالى نحل الناس العسل الذى يخرج من بطونها بمعنى أعطاهم وقال غيره النحل يذكر ويؤنث وهى مؤنثة فى لغة الحجاز وكذا أنثها الله تعالى فقال (أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون) يعنى يبنون ويسقفون وذلك أن النحل منه وحشى وهو الذى يسكن الجبال والشجر ويأوى إلى الكهوف ومنه أهلى وهو الذى يأوى إلى البيوت وتربيه الناس عندهم وقد جرت العادة أن الناس يبنون للنحل الأماكن حتى تأوى إليها وقال ابن زيد أراد بالذى يعرشون الكروم (ثم كلي من كل الثمرات) يعنى من بعض الثمرات لأنها لاتأكل من جميع الثمار فلفظة كل هاهنا ليست للعموم (فاسلكى سبل ربك) يعنى الطرق التى ألهمك الله أن تسلكيها وتدخلى فيها لأجل طلب الثمرات (ذللا) قيل إنها نعت للسبل يعنى أنها مذللة لك الطرق مسهلة لك مسالكها قال مجاهد لايتوعر عليها مكان تسلكه وقيل الذلل نعت للنحل يعنى أنها مذللة مسخرة لأربابها مطيعة منقادة لهم حتى أنهم ينقلونها من مكانها إلى مكان آخر حيث شاءوا وأرادوا لاتستعصى عليهم (يخرج من بطونها شراب) يعنى العسل (مختلف ألوانه) يعنى مابين أبيض وأحمر وأصفر وغير ذلك من ألوان العسل وذلك على قدر ماتأكل من الثمار والأزهار ويستحيل فى بطونها عسلا بقدرة الله تعالى ثم يخرج من أفواهها يسيل كاللعاب وزعم الإمام فخر الدين الرازى أنه رأى فى بعض كتب الطب أن العسل طل من السماء ينزل كالترنجبين فيقع على الأزهار وأوراق الشجر فتجمعه النحل فتأكل بعضه وتدخر بعضه فى بيوتها لأنفسها لتتغذى به فاذا اجتمع فى بيوتها من تلك الأجزاء الطلية شىء كثير فذلك هو العسل وقال هذا القول أقرب إلى العقل لأن طبيعة الترنجبين تقرب من طبيعة العسل وأيضا فانا نشاهد أن النحل تتغذى بالعسل وأجاب عن قوله تعالى يخرج من بطونها بأن كل تجويف فى داخل البدن يسمى بطنا فقوله يخرج من بطونها يعنى من أفواهها وقول أهل الظاهر أولى وأصح لأنا نشاهد أنه يوجد فى طعم العسل طعم تلك الأزهار التى تأكلها النحل وكذلك يوجد لونها وريحها وطعمها فيه أيضا ويعضد هذا قول بعض أزواج النبى صلى الله عليه وسلم له أكلت مغافير قال لاقالت فما هذه الريح التى أجد منك قال سقتنى حفصة شربة عسل قالت جرست نحلة العرفط العرفط شجر الطلح وله صمغ يقال له المغافير كريه الرائحة فمعنى جرست نحلة العرفط أكلت ورعت من العرفط الذى له الرائحة الكريهة فثبت بهذا الدليل صحة قول أهل الظاهر من المفسرين وأنه يوجد فى طعم العسل ولونه وريحه طعم مايأكله النحل ولونه وريحه لاما قاله الأطباء من أنه طل لأنه لوكان طلا لكان على لون واحد وطبيعة واحدة وقوله إن طبيعة العسل تقرب من طبيعة الترنجبين فيه نظر لأن مزاج الترنجبين معتدل إلى الحرارة وهو ألطف من السكر ومزاج العسل حار يابس فى الدرجة الثانية فبينهما

أى ألهمها وقذف فى أنفسها ففهمته والنحل زنابير العسل واحدتها نحلة (أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون) يبنون وقد جرت العادة أن أهلها يبنون لها الأماكن فهى تأوى إليها قال ابن زيد هى الكروم (ثم كلى من كل الثمرات) ليس معنى الكل العموم وهو كقوله تعالى وأوتيت من كل شىء (فاسلكى سبل ربك) فادخلى طرق ربك (ذللا) قيل هى نعت الطرق يقول هى مذللة للنحل سهلة المسالك. قال مجاهد لايتوعر عليها مكان سلكته وقال آخرون الذلل نعت النحل أي مطيعة منقادة بالتسخير يقال إن أربابها ينقلونها من مكان إلى مكان ولها يعسوب إذا وقف وقفت وإذا سار سارت (يخرج من بطونها شراب) يعنى العسل (مختلف ألوانه)

فرق كبير وقوله كل تجويف فى داخل البدن يسمى بطنا فيه نظر لأن لفظ البطن إذا أطلق لم يرد به إلا العضو المعروف مثل بطن الإنسان وغيره والله أعلم . وقوله تعالى (فيه) يعنى فى الشراب الذى يخرج من بطون النحل (شفاء للناس) وهذا قول ابن عباس وابن مسعود إذ الضمير فى قوله فيه شفاء للناس يرجع إلى العسل وقد اختلفوا فى هذا الشفاء هل هو على العموم لكل مرض أو على الخصوص لمرض دون مرض على قولين أحدهما أن العسل فيه شفاء من كل داء وكل مرض قال ابن مسعود «العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما فى الصدور» وفى رواية أخرى عنه «عليكم بالشفاءين القرآن والعسل» وروى نافع أن ابن عمر ما كانت تخرج به قرحة ولا شىء إلا لطخ الموضع بالعسل ويقرأ «يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس» (ق) عن أبى سعيد الخدرى «قال جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال إن أخى استطلق بطنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اسقه عسلا فسقاه ثم جاء فقال إنى سقيته عسلا فلم يزده إلا استطلاقا فقال له ثلاث مرات ثم جاء الرابعة فقال اسقه عسلا فقال لقد سقيته فلم يزده إلا استطلاقا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق الله وكذب بطن أخيك فسقاه فبرأ» وقد اعترض بعض الملحدين ومن فى قلبه مرض على هذا الحديث فقال إن الأطباء مجمعون على أن العسل مسهل فكيف يوصف لمن به الإسهال فنقول فى الرد على هذا المعترض الملحد الجاهل بعلم الطب أن الإسهال يحصل من أنواع كثيرة منها التخم والهيضات وقد أجمع الأطباء فى مثل هذا على أن علاجه بأن تترك الطبيعة وفعلها فان احتاجت إلى معين على الإسهال أعينت مادامت القوة باقية فأما حبسها فمضر عندهم واستعجال مرض فيحتمل أن يكون إسهال الشخص المذكور فى الحديث أصابه من امتلاء أو هيضة فدواؤه بترك إسهاله على ما هو عليه أو تقويته فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرب العسل فزاده إسهالا فزاده عسلا إلى أن فنيت المادة فوقف الإسهال ويكون الخلط الذى كان به يوافقه شرب العسل فثبت بما ذكرناه أن أمره صلى الله عليه وسلم لهذا الرجل بشرب العسل جار على صناعة الطب وأن المعترض عليه جاهل لها ولسنا نقصد الاستظهار لتصديق الحديث بقول الأطباء بل لو كذبوه لكذبناهم وكفرناهم بذلك وإنما ذكرنا هذا الجواب الجارى على صناعة الطب دفعا لهذا المعترض بأنه لا يحسن صناعة الطب التى اعترض بها والله أعلم وقوله صلى الله عليه وسلم «صدق الله وكذب بطن أخيك» يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم علم بالوحى الإلهى أن العسل الذى أمره بشربه سيظهر نفعه بعد ذلك فلما لم يظهر نفعه فى الحال عندهم قال صدق الله يعنى فيما وعد به من أن فيه شفاء وكذب بطن أخيك يعنى باستعجالك للشفاء فى أول مرة والله أعلم بمراده وأسرار رسوله صلى الله عليه وسلم فان قالوا كيف يكون شفاء للناس وهو يضر بأصحاب الصفراء ويهيج الحرارة ويضر بالشباب المحرورين ويعطش قلنا فى الجواب عن هذا الاعتراض أيضا أن قوله فيه شفاء للناس مع أنه يضر بأصحاب الصفراء ويهيج الحرارة أنه خرج مخرج الأغلب وأنه فى الأغلب فيه شفاء ولم يقل إنه شفاء لكل الناس لكل داء ولكنه فى الجملة دواء وإن نفعه أكثر من مضرته وقل معجون من المعاجين إلا وتمامه به والأشربة المتخذة من العسل نافعة لأصحاب البلغم والشيوخ المبرودين ومنافعه كثيرة جدا والقول الثانى أنه شفاء للأوجاع التى شفاؤها فيه وهذا قول السدى وقال مجاهد

فى قوله

أبيض وأحمر وأصفر (فيه شفاء للناس) أى فى العسل وقال مجاهد أى فى القرآن والأول أولى أنا إسماعيل بن عبد القاهر ثنا عبد الغافر بن محمد ثنا محمد بن عيسى الجلودى ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم ابن الحجاج ثنا محمد بن المثنى أنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن قتادة عن أبى المتوكل عن أبى سعيد الخدرى قال «جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال إن أخى استطلق بطنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اسقه عسلا فسقاه ثم جاء فقال إنى سقيته فلم يزده إلا استطلاقا فقال النبى صلى الله عليه وسلم له ثلاث مرات ثم جاء الرابعة فقال اسقه عسلا قال قد سقيته فلم يزده إلا استطلاقا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلا فسقاه فبرأ» قال عبد الله ابن مسعود : العسل شفاء من كل داء والقرآن

في قوله فيه شفاء للناس يعني القرآن لأنه شفاء من أمراض الشرك والجهالة والضلالة وهو هدى ورحمة للناس والقول الأول أصح لأن الضمير يجب أن يعود إلى أقرب المذكورات وأقربها قوله تعالى يخرج من بطونها شراب وهو العسل فهو أولى أن يرجع الضمير إليه لأنه أقرب مذكور . وقوله سبحانه وتعالى (إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) يعني فيعتبرون ويستدلون بما ذكرنا على وحدانيتنا وقدرتنا . قوله عز وجل (والله خلقكم) يعني أوجدكم من العدم وأخرجكم إلى الوجود ولم تكونوا شيئا (ثم يتوفاكم) يعني عند انقضاء آجالكم إما صبيانا وإما شبانا وإما كهولا (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر) يعني أردأه وأضعفه وهو الهرم قال بعض العلماء عمر الإنسان له أربع مراتب أولها من النشوء والنماء وهو من أول العمر إلى بلوغ ثلاث وثلاثين سنة وهو غاية سن الشباب وبلوغ الأشد ثم المرتبة الثانية سن الوقوف وهو من ثلاث وثلاثين سنة إلى أربعين سنة وهو غاية القوة وكمال العقل ثم المرتبة الثالثة سن الكهولة وهو من الأربعين إلى الستين وهذه المرتبة يشرع الإنسان في النقص لكنه يكون نقصا خفيا لا يظهر ثم المرتبة الرابعة سن الشيخوخة والانحطاط من الستين إلى آخر العمر وفيها يتبين النقص ويكون الهرم والخرف وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه أرذل العمر خمس وسبعون سنة وقيل ثمانون سنة وقال قتادة تسعون سنة (ق) عن أنس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات» . وفي رواية أخرى عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو بهذه الدعوات «اللهم إني أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات» وقوله تعالى (لكيلا يعلم بعد علم شيئا) يعني الإنسان يرجع إلى حالة الطفولية بنسيان ما كان علم بسبب الكبر وقال ابن عباس لكي يصير كالصبي الذي لا عقل له وقال ابن قتيبة معناه حتى لا يعلم بعد علمه بالأمور شيئا لشدة هرمه وقال الزجاج المعنى وإن منكم من يكبر حتى يذهب عقله خرفا فيصير بعد أن كان عالما جاهلا ليريكم الله من قدرته أنه كما قدر على إماتته وإحيائه أنه قادر على نقله من العلم إلى الجهل هكذا وجدته منقولا عنه ولو قال ليريكم من قدرته أنه كما قدر على نقله من العلم إلى الجهل أنه قادر على إحيائه بعد إماتته ليكون ذلك دليلا على صحة هذا البعث بعد الموت لكان أجود قال ابن عباس ليس هذا في المسلمين لأن المسلم لا يزداد في طول العمر والبقاء إلا كرامة عند الله وعقلا ومعرفة وقال عكرمة من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر حتى لا يعلم بعد علم شيئا وقال في قوله إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الذين قرءوا القرآن وقال ابن عباس في قوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين يريد الكافرين ثم استثنى المؤمنين فقال تعالى إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وقوله تعالى (إن الله عليم) يعني بما صنع بأوليائه وأعدائه (قدير) يعني على ما يريد قوله تعالى (والله فضل بعضكم على بعض في الرزق) يعني أن الله سبحانه وتعالى بسط على واحد وضيق وقتر على واحد وكثر لواحد وقلل على آخر وكما فضل بعضكم على بعض في الرزق كذلك فضل بعضكم على بعض في الخلق والخلق والعقل والصحة والسقم والحسن والقبح والعلم والجهل وغير ذلك فهم متفاوتون ومتباينون في ذلك كله وهذا مما اقتضته الحكمة

شفاء لما في الصدور وروي عنه أنه قال «عليكم بالشفاءين القرآن والعسل» (إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) فيعتبرون (والله خلقكم ثم يتوفاكم) صبيانا أو شبانا أو كهولا (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر) أردئه قال مقاتل يعني الهرم قال قتادة أرذل العمر تسعون سنة روي عن علي قال أرذل العمر خمس وسبعون سنة وقيل ثمانون سنة (لكيلا يعلم بعد علم شيئا) لكيلا يعقل بعد عقله الأول شيئا (إن الله عليم قدير) أنا عبد الواحد المليحي ثنا أحمد النعيمي ثنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسمعيل ثنا موسى بن اسماعيل ثنا هارون بن موسى ثنا أبو عبد الله الأعور عن شعيب عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو «أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات» (والله فضل بعضكم على بعض في الرزق)

بسط على واحد وضيق على الآخر وقلل وكثر (فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ماملكت أيمانهم) من العبيد (فهم فيه سواء) أى حتى يستووا هم وعبيدهم فى ذلك يقول الله تعالى لا يرضون أن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقهم الله سواء وقد جعلوا عبيدى شركائى فى ملكى وسلطانى يلزم به الحجة على المشركين قال قتادة هذا مثل ضربه الله عز وجل فهل منكم أحد يشركه مملوكه فى زوجته

وفراشه وماله أفتعدلون لله خلقه وعباده (أفبنعمة الله يجحدون) بالاشراك به وقرأ أبوبكر بالتاء لقوله «والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق» والآخرون بالياء لقوله «فهم فيه سواء» قوله تعالى (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا) يعنى النساء خلق من آدم وزوجته حواء وقيل من أنفسكم أى من جنسكم أزواجا (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) قال ابن مسعود والنخعى الحفدة أختان الرجل على بناته وعن ابن مسعود أيضا أنهم الأصهار فيكون معنى الآية على هذا القول وجعل لكم من أزواجكم بنين وبنات تزوجونهم فيحصل بسببهم الأختان والأصهار وقال عكرمة والحسن والضحاك هم الخدم قال مجاهد هم الأعوان من أعانك فقد حفدك وقال عطاء هم ولد ولد الرجل الذين يعينونه ويخدمونه وقال قتادة مهنة تمتهنونهم ويخدمونكم من أولادكم قال الكلبى ومقاتل البنين الصغار والحفدة كبار الأولاد الذين يعينونه على عمله وروى مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس أنهم ولد الولد وروى العوفى عنه أنهم بنو امرأة الرجل ليسوا منه (ورزقكم من الطيبات) من النعم الحلال (أفبالباطل) يعنى الأصنام (يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون) يعنى التوحيد والإسلام وقيل الباطل الشيطان أمرهم بتحريم البحيرة والسائبة وبنعمة الله أى بما أحل الله لهم يكفرون يجحدون تحليله (ويعبدون من دون الله

الإلهية والقدرة الربانية (فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ماملكت أيمانهم) يعنى من العبيد حتى يستووا فيه هم وعبيدهم يقول الله سبحانه وتعالى هم لا يرضون أن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقتهم سواء وقد جعلوا عبيدى شركائى فى ملكى وسلطانى يلزم بهذه الحجة المشركين حيث جعلوا الأصنام شركاء لله قال قتادة هذا مثل ضربه الله عز وجل يقول هل منكم أحد يرضى أن يشركه مملوكه فى جميع ماله فكيف تعدلون بالله خلقه وعباده وقيل فى معنى الآية أن الموالى والمماليك الله رازقهم جميعا (فهم فيه) يعنى فى رزقه (سواء) فلا تحسبن أن الموالى يردون رزقهم على مماليكهم من عند أنفسهم بل ذلك رزق الله أجراه على أيدى الموالى للمماليك والمقصود منه بيان أن الرازق هو الله سبحانه وتعالى لجميع خلقه وأن الموالى والمماليك فى الرزق سواء وأن المالك لا يرزق المملوك بل الرازق للمالك والمالك هو الله سبحانه وتعالى. وقوله (أفبنعمة الله يجحدون) فيه إنكار على المشركين حيث جحدوا نعمته وعبدوا غيره. قوله عز وجل (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا) يعنى النساء فخلق من آدم حواء زوجته، وقيل جعل لكم من جنسكم أزواجا لأنه خطاب عام يعم الكل فتخصيصه بآدم وحواء خلاف الدليل (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) الحفدة جمع حافد وهو المسرع فى الخدمة المسارع إلى الطاعة ومنه قوله فى الدعاء «وإليك نسعى ونحفد» أى نسرع إلى طاعتك فهذا أصله فى اللغة ثم اختلفت أقوال المفسرين فيهم فقال ابن مسعود والنخعى الحفدة أختان الرجل على بناته وعن ابن مسعود أيضا أنهم أصهاره فهو بمعنى الأول فعلى هذا القول يكون معنى الآية وجعل لكم من أزواجكم بنين وبنات فزوجونهم فيجعل لكم بسببهم الأختان والأصهار وقال الحسن وعكرمة والضحاك هم الخدم وقال مجاهد هم الأعوان وكل من أعانك فقد حفدك، وقال عطاء هم ولد الرجل الذين يعينونه ويخدمونه وقيل هم أهل المهنة الذين يمتهنون ويخدمون من الأولاد وقال مقاتل والكلبى البنين هم الصغار والحفدة كبار الأولاد الذين يعينون الرجل على عمله وقال ابن عباس هم ولد الولد وفى رواية أخرى عنه أنهم بنو امرأة الرجل الذين ليسوا منه وكل هذه الأقوال متقاربة لأن اللفظ يحتمل الكل بحسب المعنى المشترك وبالجملة فان الحفدة هم غير البنين، لأن الله سبحانه وتعالى قال بنين وحفدة فجعل بينهما مغايرة (ورزقكم من الطيبات) يعنى النعم التى أنعم عليكم من أنواع الثمار والحبوب والحيوان والأشربة المستطابة الحلال من ذلك كله (أفبالباطل يؤمنون) يعنى بالأصنام وقيل بالشيطان يؤمنون وقيل معناه يصدقون أن لله ﷻ شريكا وصاحبة وولدا وهذا استفهام إنكار أى ليس لهم ذلك (وبنعمة الله هم يكفرون) يعنى أنهم يضيفون ما أنعم الله به عليهم إلى غيره وقيل معناه أنهم يجحدون ما أحل الله لهم (ويعبدون من دون الله

مالا

مالاً يملك لهم رزقاً من السموات) يعني المطر (والأرض) يعني النبات (شيئاً) قال الأخفش هو بدل من الرزق معناه أنهم لايملكون من أمر الرزق شيئاً قليلا ولا كثيرا وقال الفراء نصب شيئاً بوقوع الرزق عليه أى لا يرزق شيئاً (ولا يستطيعون) ولا يقدرون على شيء يذكر عجز الأصنام عن ايصال نفع أو دفع ضر (فلاتضربوا لله الأمثال) يعنى الأشباه فتشبهونه بخلقه وتجعلون له شريكا فانه واحد لا مثل له (إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون) خطأ ماتضربون من الأمثال ثم ضرب مثلا للمؤمن والكافر فقال جل ذكره (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء) هذا مثل الكافر رزقه الله مالا فلم يقدم فيه خيرا (ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا) هذا مثل المؤمن أعطاه الله مالا فعمل فيه بطاعة الله وأنفقه فى رضاء الله سرا وجهرا فأثابه الله عليه الجنة (هل يستوون) ولم يقل هل يستويان لمكان من وهو اسم يصلح للواحد والاثنين والجمع وكذلك قوله لا يستطيعون بالجمع لأجل من معناه هل يستوى هذا الفقير البخيل والغنى السخى كذلك لا يستوى الكافر العاصى والمؤمن المطيع وروى ابن جريج عن عطاء فى قوله تعالى عبدا مملوكا أى أبو جهل بن هشام ومن رزقناه منا رزقا حسنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه ثم قال (الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) يقول ليس الأمر كما يقولون ما للأوثان عندهم من يد ولا معروف فتحمد عليه إنما الحمد الكامل لله عز

مالا يملك لهم رزقا من السموات والأرض) يعنى الأصنام التى لاتقدر على إنزال المطر الذى فى السموات خزائنه ولايقدرون على إخراج النبات الذى فى الأرض معدنه (شيئا) يعنى لايملك من الرزق شيئا قليلا ولا كثيرا وقيل معناه يعبدون مالا يرزق شيئا (ولايستطيعون) يعنى ولا يقدرون على شىء يذكر عجز الأصنام عن إيصال نفع أو دفع ضر (فلا تضربوا لله الأمثال) يعنى لاتشبهوا الله بخلقه فانه لامثل له ولا شبيه ولاشريك من خلقه لأن الخلق كلهم عبيده وفى ملكه فكيف يشبه الخالق بالمخلوق أو الرازق بالمرزوق أوالقادر بالعاجز (إن الله يعلم) يعنى ماأنتم عليه من ضرب الأمثال له (وأنتم لاتعلمون) خطأ ماتضربون له من الأمثال. قوله تعالى (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لايقدر على شىء ومن رزقناه منا رزقا حسنا) لمانهاهم الله سبحانه وتعالى عن ضرب الأمثال لقلة علمهم ضرب هو سبحانه وتعالى لنفسه مثلا فقال تعالى مثلكم فى إشراككم بالله الأوثان، كمثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حر كريم مالك قادر قد رزقه الله مالا فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف يشاء فصريح العقل يشهد بأنه لاتجوز التسوية بينهما فى التعظيم والإجلال فلما لم تجز التسوية بينهما مع استوائهما فى الخلقة والصورة البشرية فكيف يجوز للعقل أن يسوى بين الله عز وجل الخالق القادر على الرزق والإفضال وبين الأصنام التى لاتملك ولا تقدر على شىء ألبتة. وقيل هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر والمراد بالعبد المملوك الذى لايقدر على شىء هو الكافر لأنه لما كان محروما من عبادة الله وطاعته صار كالعبد الذليل الفقير العاجز الذى لايقدر على شىء وقيل إن الكافر لما رزقه الله مالا فلم يقدم فيه خيرا صار كالعبد الذى لايملك شيئا والمراد بقوله ومن رزقناه منا رزقا حسنا المؤمن لأنه لما اشتغل بطاعة الله وعبوديته والإنفاق فى وجوه البر والخير صار كالحر المالك الذى ينفق سرا وجهرا فى طاعة الله وابتغاء مرضاته وهو قوله سبحانه وتعالى (فهو ينفق منه سرا وجهرا) فأثابه الله الجنة على ذلك. فان قلت لم قال عبدا مملوكا لايقدر على شىء وكل عبد هو مملوك وهو غير قادر على التصرف. قلت إنما ذكر المملوك ليتميز من الحر لأن اسم العبد يقع عليهما جميعا لأنهما من عباد الله وقوله لا يقدر على شىء احترز به عن المملوك المكاتب والمأذون له فى التصرف لأنهما يقدران على التصرف واحتج الفقهاء بهذه الآية على أن العبد لايملك شيئا (هل يستوون) ولم يقل هل يستويان يعنى هل يستوى الأحرار والعبيد والمعنى كما لايستوى هذا الفقير البخيل والغنى السخى كذلك لايستوى الكافر العاصى والمؤمن الطائع وقال عطاء فى قوله عبدا مملوكا هو أبو جهل بن هشام ومن رزقناه منا رزقا حسنا هو أبو بكر الصديق ثم قال تعالى (الحمد لله) حمد الله نفسه لأنه المستحق لجميع المحامد لأنه المنعم المتفضل على عباده وهو الخالق الرازق لاهذه الأصنام التى عبدها هؤلاء فانها لاتستحق الحمد لأنها جماد عاجزة لايد لها على أحد ولامعروف فتحمد عليه إنما الحمد الكامل لله لالغيره فيجب على جميع العباد حمد الله لأنه أهل الحمد والثناء الحسن (بل أكثرهم) يعنى الكفار (لايعلمون)

وجل لأنه المنعم والخالق والرازق ولكن أكثر الكفار لايعلمون ثم ضرب مثلا للأصنام فقال (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء (١٠٦) وهو كل على مولاه) كل ثقل ووبال على مولاه ابن عمه وأهل ولايته (أينما يوجهه) يرسله (لا يأت بخير) لأنه لايفهم ما يقال له ولا يفهم عنه هذا مثل الأصنام لاتسمع ولا تنطق ولاتعقل وهو كل على مولاه عابده يحتاج إلى أن يحمله ويضعه ويخدمه (هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل) يعنى الله فانه قادر متكلم يأمر بالتوحيد (وهو على صراط مستقيم) قال الكلبي يعنى يدلكم على صراط مستقيم وقيل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم وقيل كلا المثلين للمؤمن والكافر يرويه عطية عن ابن عباس قال عطاء الأبكم أبي بن خلف ومن يأمر بالعدل حمزة وعثمان بن عفان وعثمان ابن مظعون وقال مقاتل نزلت فى هاشم بن عمرو ابن الحرث بن ربيعة القرشي وكان قليل الخير يعادى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل نزلت فى عثمان بن عفان ومولاه كان عثمان ينفق عليه وكان مولاه يكره الإسلام (ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة) فى قرب كونها إلا (كلمح البصر) إذا قال له كن فيكون (أو هو أقرب) بل هو أقرب (إن الله على كل شيء قدير) نزلت فى الكفار الذين يستعجلون القيامة إلى استهزاء (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم) قرأ الكسائي بطون وبيوت أمهاتكم بكسر الهمزة وقرأ حمزة بكسر الميم والهمزة والباقون بضم الهمزة وفتح الميم (لاتعلمون شيئا) تم الكلام ثم ابتدأ فقال جل وعلا (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة)

يعنى أن الحمد لله لالهذه الأصنام (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم) هو الذى ولد أخرس فكل أبكم أخرس وليس كل أخرس أبكم والأبكم الذى لايفهم ولا يفهم (لايقدر على شيء) هو إشارة إلى العجز التام والنقصان الكامل (وهو كل على مولاه) أى ثقيل على من يلى أمره ويعوله وقيل أصله من الغلظ وهو نقيض الحدة يقال كل السكين إذا غلظت شفرته وكل اللسان إذا غلظ فلم يقدر على النطق وكل فلان عن الأمر إذا ثقل عليه فلم ينبعث فيه فقوله وهو كل على مولاه أى غليظ ثقيل على مولاه (أينما يوجهه) أى حيثما يرسله ويصرفه فى طلب حاجة أو كفاية مهم (لايأت بخير) يعنى لايأت بنجح لأنه أخرس عاجز لايحسن ولايفهم (هل يستوى) يعنى من هذه صفته (هو) يعنى صاحب هذه الصفات المذمومة (ومن يأمر بالعدل) يعنى ومن هو سليم الحواس نفاع ذو كفايات ذو رشد وديانة يأمر الناس بالعدل والخير (وهو) فى نفسه (على صراط مستقيم) يعنى على سيرة صالحة ودين قويم فيجب أن يكون الآمر بالعدل عالما قادرا مستقيما فى نفسه حتى يتمكن من الأمر بالعدل وهذا مثل ثان ضربه الله لنفسه ولما يفيض على عباده من إنعامه ويشملهم به من آثار رحمته وألطافه وللأصنام التى هى أموات جماد لاتضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تنطق ولا تعقل وهى كل على عابدها لأنها تحتاج إلى كلفة الحمل والنقل والخدمة. وقيل كلا المثلين للمؤمن والكافر والمؤمن هو الذى يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم والكافر هو الأبكم الثقيل الذى لايأمر بخير فعلى هذا القول تكون الآية على العموم فى كل مؤمن وكافر. وقيل هى على الخصوص فالذى يأمر بالعدل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على صراط مستقيم والذى يأمر بالظلم وهو أبكم أبو جهل وقيل الذى يأمر بالعدل عثمان بن عفان، وكان له مولى يأمره بالإسلام وذلك المولى يأمر عثمان بالإمساك عن الإنفاق فى سبيل الله تعالى فهو الذى لايأت بخير وقيل المراد بالأبكم الذى لايأت بخير أبى بن خلف وبالذى يأمر بالعدل حمزة وعثمان ابن عفان وعثمان بن مظعون (ولله غيب السموات والأرض) أخبر الله عز وجل فى الآية عن كمال علمه وأنه عالم بجميع الغيوب فلاتخفى عليه خافية ولايخفى عليه شيء منها وقيل الغيب هنا هو علم قيام الساعة وهو قوله (وما أمر الساعة) يعنى فى قيامها والساعة هى الوقت الذى يقوم الناس فيه لموقف الحساب (إلا كلمح البصر) يعنى فى السرعة ولمح البصر هو انطباق جفن العين وفتحه وهو طرف العين أيضا (أو هو أقرب) يعنى أن لمح البصر يحتاج إلى زمان وحركة والله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئا قال له كن فيكون فى أسرع من لمح البصر وهو قوله (إن الله على كل شيء قدير) فيه دليل على كمال قدرة الله تعالى وأنه سبحانه وتعالى مهما أراد شيئا كان أسرع مايكون قال الزجاج ليس المراد أن الساعة تأتى فى أقرب من لمح البصر ولكنه سبحانه وتعالى وصف سرعة القدرة على الإتيان بها متى شاء، لايعجزه شيء. قوله عز وجل (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا) تم الكلام هنا لأن الإنسان خلق فى أول الفطرة ومبدئها خاليا عن العلم والمعرفة لايهتدى سبيلا ثم ابتدأ فقال تعالى (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) يعنى أن الله سبحانه وتعالى إنما أعطاكم هذه الحواس لتنتقلوا بها من الجهل

لأن الله تعالى جعل هذه الأشياء لهم قبل الخروج من بطون الأمهات وإنما أعطاهم العلم بعد الخروج (لعلكم تشكرون) نعمه من كون السمع والأبصار والأفئدة قبل الخروج إذ يسمع الطفل ويبصر (١٠٧) ولا يعلم وهذه الجوارح من غير هذه الصفات كالمعدوم كما قال فيمن لا يسمع الحق ولا يبصر العبر ولا يعقل الثواب «صم بكم عمى فهم لا يرجعون» لايشكرون نعمه (ألم يروا) قرأ ابن عامر وحمزة ويعقوب بالتاء والباقون بالياء لقوله ويعبدون (إلى الطير مسخرات) مذللات (فى جو السماء) وهو الهواء بين السماء والأرض روى كعب الأحبار أن الطير ترفع اثنى عشر ميلا ولا ترفع فوق هذا وفوق الجو السكاك وفوق السكاك السماء (مايمسكهن) فى الهواء (إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون والله جعل لكم من بيوتكم) التى هى من الحجر والمدر (سكنا) أى مسكنا تسكنونه (وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا) يعنى الخيام والقباب والأخبية والفساطيط من الأنطاع والأدم (تستخفونها) أى يخف عليكم حملها (يوم ظعنكم) رحلتكم فى سفركم قرأ ابن عامر وأهل الكوفة ساكنة العين والآخرون بفتحها وهو أجزل اللغتين (ويوم إقامتكم) فى بلدكم لا تثقل عليكم فى الحالين (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها) يعنى أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز والكناية راجعة إلى الأنعام (أثاثا) قال ابن عباس مالا قال مجاهد متاعا قال القتيبى الأثاث المال جميعه من

إلى العلم فجعل لكم السمع لتسمعوا به نصوص الكتاب والسنة وهى الدلائل السمعية لتستدلوا بها على مايصلحكم فى أمر دينكم وجعل لكم الأبصار لتبصروا بها عجائب مصنوعاته وغرائب مخلوقاته فتستدلوا بها على وحدانيته وجعل لكم الأفئدة لتعقلوا بها وتفهموا معانى الأشياء التى جعلها دلائل وحدانيته وقال ابن عباس فى هذه الآية يريد لتسمعوا مواعظ الله وتبصروا ماأنعم الله به عليكم من إخراجكم من بطون أمهاتكم إلى أن صرتم رجالا وتعقلوا عظمة الله وقيل فى معنى الآية والله خلقكم فى بطون أمهاتكم وسواكم وصوركم ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة وجعل لكم الحواس آلات لإزالة الجهل الذى ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه والترقى إلى مايسعدكم به فى الآخرة . فان قلت ظاهر الآية يدل على أن جعل الحواس الثلاث بعد الإخراج من البطون وإنما خلقت هذه الحواس للإنسان من جملة خلقه وهو فى بطن أمه . قلت ذكر العلماء أن تقديم الإخراج وتأخير ذكر هذه الحواس لايدل على أن خلقها كان بعد الإخراج لأن الواو لاتوجب الترتيب ولأن العرب تقدم وتؤخر فى بعض كلامها وأقول لما كان الانتفاع بهذه الحواس بعد الخروج من البطن فكأنما خلقت فى ذلك الوقت الذى ينتفع بها فيه وإن كانت قد خلقت قبل ذلك . وقوله تعالى (لعلكم تشكرون) يعنى إنما أنعم عليكم بهذه الحواس لتستعملوها فى شكر من أنعم بها عليكم (ألم يروا إلى الطير مسخرات) يعنى مذللات (فى جو السماء) الجو الفضاء الواسع بين السماء والأرض وهو الهواء قال كعب الأحبار إن الطير ترتفع فى الجو إثنى عشر ميلا ولا ترتفع فوق ذلك (مايمسكهن إلا الله) يعنى فى حال قبض أجنحتها وبسطها واصطفافها فى الهواء وفى هذا حث على الاستدلال بها على أن لها مسخرا سخرها ومذللا ذللها وممسكا أمسكها فى حال طيرانها ووقوفها فى الهواء وهو الله تعالى (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) إنما خص المؤمنين بالذكر لأنهم هم الذين يعتبرون بالآيات ويتفكرون فيها وينتفعون بها دون غيرهم . قوله سبحانه وتعالى (والله جعل لكم من بيوتكم) يعنى التى هى من الحجر والمدر (سكنا) يعنى مسكنا تسكنونه والسكن ماسكنت إليه وفيه من ألف أو بيت (وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا) يعنى الخيام والقباب والأخبية والفساطيط المتخذة من الأدم والأنطاع . واعلم أن المساكن على قسمين أحدهما مالم يمكن نقله من مكان إلى مكان آخر وهى البيوت المتخذة من الحجارة والخشب ونحوهما . والقسم الثانى ما يمكن نقله من مكان إلى مكان آخر وهى الخيام والفساطيط المتخذة من جلود الأنعام وإليها الإشارة بقوله تعالى (تستخفونها) يعنى يخف عليكم حملها (يوم ظعنكم) يعنى فى يوم سيركم ورحيلكم فى أسفاركم وظعن البادية هو لطلب ماء أو مرعى ونحو ذلك (ويوم إقامتكم) يعنى وتخف عليكم أيضا فى إقامتكم وحضركم ، والمعنى لاتثقل عليكم فى الحالتين (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها) الكناية عائدة إلى الأنعام . يعنى ومن أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز (أثاثا) يعنى تتخذون أثاثا الأثاث متاع البيت الكبير وأصله من أث إذا كثر وتكاثف وقيل للمال أثاث إذا كثر قال ابن عباس أثاثا يعنى مالا وقال مجاهد متاعا وقال القتيبى الأثاث المال أجمع من الإبل والغنم والعبيد والمتاع وقال غيره الأثاث هو متاع البيت من الفرش والأكسية

الإبل والغنم والعبيد والمتاع وقال غيره هو متاع البيت من الفرش والأكسية (ومتاعا) بلاغا ينتفعون بها (إلى حين) يعنى إلى حين الموت وقيل إلى حين (١٠٨) تبلى (والله جعل لكم مما خلق ظلالا) تستظلون بها من شدة الحر وهى ظلال الأبنية والأشجار (وجعل لكم من الجبال أكنانا)يعنى الأسراب والغيران واحدها كن (وجعل لكم سرابيل) قمصا من الكتان والقز والقطن والصوف (تقيكم) تمنعكم (الحر) قال أهل المعانى أراد الحر والبرد اكتفاء بذكر أحدهما لدلالة الكلام عليه (وسرابيل تقيكم بأسكم) يعنى الدروع والبأس الحرب يعنى تقيكم فى بأسكم السلاح أن يصيبكم (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) تخلصون له الطاعة قال عطاء الخراسانى إنما أنزل القرآن على قدر معرفتهم فقال وجعل لكم من الجبال أكنانا وما جعل لهم من السهول أكثر وأعظم ولكنهم كانوا أصحاب جبال كما قال ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها لأنهم كانوا أصحاب وبر وشعر ، وكما قال « وينزل من السماء من جبال فيها من برد » وما أنزل من الثلج أكثر ، ولكنهم كانوا لا يعرفون الثلج وقال تقيكم الحر وما تقى من البرد أكثر ولكنهم كانوا أصحاب حر (فان تولوا) فان أعرضوا فلا يلحقك فى ذلك عتب ولا سمة تقصير (فانما عليك البلاغ المبين يعرفون نعمة الله) قال السدى يعنى محمدا ﷺ (ثم ينكرونها)

ونحو ذلك (ومتاعا) يعنى وبلاغا وهو ما يتمتعون به (إلى حين) يعنى إلى حين يبلى ذلك الأثاث وقيل إلى حين الموت . فان قلت أى فرق بين الأثاث والمتاع حتى ذكره بواو العطف والعطف يوجب المغايرة فهل من فرق ؟. قلت الأثاث ما كثر من آلات البيت وحوائجه وغير ذلك فيدخل فيه جميع أصناف المال والمتاع ما ينتفع به فى البيت خاصة فظهر الفرق بين اللفظتين والله أعلم (والله جعل لكم مما خلق ظلالا) يعنى جعل لكم ما تستظلون به من شدة الحر والبرد وهى ظلال الأبنية والجدران والأشجار (وجعل لكم من الجبال أكنانا) جمع كن وهو ما يستكن فيه من شدة الحر والبرد كالأسراب والغيران ونحوها وذلك لأن الإنسان إما أن يكون غنيا أو فقيرا فاذا سافر احتاج فى سفره ما يقيه من شدة الحر والبرد فأما الغنى فيستصحب معه الخيام فى سفره ليستكن فيها وإليه الإشارة بقوله «وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا» وأما الفقير فيستكن فى ظلال الأشجار والحيطان والكهوف ونحوها وإليه الإشارة بقوله والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا ولأن بلاد العرب شديدة الحر وحاجتهم إلى الظلال وما يدفع شدته وقوته أكثر فلهذا السبب ذكر الله هذه المعانى فى معرض الامتنان عليهم بها لأن النعمة عليهم فيها ظاهرة (وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر) يعنى وجعل لكم قمصا وثيابا من القطن والكتان والصوف وغير ذلك تمنعكم من شدة الحر قال أهل المعانى والبرد فاكتفى بذكر أحدهما لدلالة الكلام عليه (وسرابيل تقيكم بأسكم) يعنى الدروع والجواشن وسائر ما يلبس فى الحرب من السلاح والبأس الحرب يعنى تقيكم فى بأسكم السلاح أن يصيبكم . قال عطاء الخراسانى إنما نزل القرآن على قدر معرفتهم فقال تعالى وجعل لكم من الجبال أكنانا وما جعل لهم من السهول أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب جبال كما قال ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها وما جعل لهم من القطن والكتان أكثر ولكن كانوا أصحاب صوف ووبر وشعر وكما قال تعالى «وينزل من السماء من جبال فيها من برد» وما أنزل من الثلج أكثر ولكنهم كانوا لا يعرفون الثلج وقال تقيكم الحر وما جعل لهم مما يقى من البرد أكثر ولكنهم كانوا أصحاب حر . وقوله سبحانه وتعالى (كذلك) يعنى كما أنعم عليكم بهذه النعم (يتم نعمته عليكم) يعنى نعم الدنيا والدين (لعلكم تسلمون) يعنى لعلكم يا أهل مكة تخلصون لله الوحدانية والربوبية والعبادة والطاعة وتعلمون أنه لا يقدر على هذه الإنعامات إلا الله تعالى (فان تولوا) يعنى فان أعرضوا عن الإيمان بك وتصديقك يا محمد وآثروا ما هم فيه من الكفر واللذات الدنيوية فانما وبال ذلك عليهم لا عليك (فانما عليك البلاغ المبين) يعنى ليس عليك فى ذلك عتب ولا سمة تقصير إنما عليك البلاغ وقد فعلت ذلك ثم ذمهم الله تعالى بقوله (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) قال السدى نعمة الله يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم أنكروه وكذبوه وقيل نعمة الله هى الإسلام لأنه من أعظم النعم التى أنعم الله بها على عباده ، ثم إن كفار مكة أنكروه وجحدوه وقال مجاهد وقتادة نعمة الله ما عدد عليهم فى هذه السورة من النعم يقرون بأنها من الله ثم إذا قيل لهم صدقوا وامتثلوا أمر الله فيها ينكرونها ويقولون ورثناها عن آبائنا . وقال الكلبى إنه لما ذكر هذه النعم قالوا هذه نعم كلها من الله تعالى لكنها بشفاعة آلهتنا وقيل هو قول الرجل لولا فلان

يكذبون به وقال قوم هي الاسلام وقال مجاهد وقتادة يعني ما عد لهم من النعم في هذه السورة يقرون أنها من الله ثم إذا قيل لهم تصدقوا وامتثلوا لأمر الله فيها ينكرونها فيقولون ورثناها من آبائنا (١٠٩) وقال الكلبي هو أنه لما ذكر لهم

فلان لكان كذا ولولا فلان لما كان كذا وقيل إنهم يعترفون بأن الله أنعم بهذه النعم ، ولكنهم لا يستعملونها في طلب رضوانه ولا يشكرونه عليها (وأكثرهم الكافرون) إنما قال الله سبحانه وتعالى وأكثرهم الكافرون مع أنهم كانوا كلهم كافرين لأنه كان فيهم من لم يبلغ بعد حد التكليف فعبر بالأكثر عن البالغين وقيل أراد بالأكثر الكافرين الحاضرين المعاندين وقد كان فيهم من ليس بمعاند وإن كان كافرا وقيل إنه عبر بالأكثر عن الكل لأنه قد يذكر الأكثر ويراد به الجميع قوله سبحانه وتعالى (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا) لما ذكر الله سبحانه وتعالى نعمه على الكافرين وإنكارهم لها وذكر أن أكثرهم كافرون أتبعه بذكر الوعيد لهم في الآخرة فقال تعالى «ويوم نبعث من كل أمة شهيدا» يعني رسولا وذلك اليوم هو يوم القيامة والمراد بالشهداء الأنبياء يشهدون على أممهم بإنكار نعم الله عليهم وبالكفر (ثم لا يؤذن للذين كفروا) يعني في الاعتذار وقيل لا يؤذن لهم في الكلام أصلا وقيل لا يؤذن لهم بالرجوع إلى دار الدنيا فيعتذروا ويتوبوا وقيل لا يؤذن لهم في معارضة الشهود بل يشهدون عليهم ويقرونهم على ذلك (ولا هم يستعتبون) الاستعتاب طلب العتاب والمعتبة هي الغلظة والموجدة التي يجدها الإنسان في نفسه على غيره والرجل إنما يطلب العتاب من خصمه ليزيل ما في نفسه عليه من الموجدة والغضب ويرجع إلى الرضا عنه وإذا لم يطلب العتاب منه دل ذلك على أنه ثابت على غضبه عليه ومعنى الآية أنهم لا يكلفون أن يرضوا ربهم في ذلك اليوم لأن الآخرة ليست دار تكليف ولا يرجعون إلى الدنيا فيتوبوا ويرجعوا ويرضوا ربهم فالاستعتاب التعرض لطلب الرضا وهذا باب منسد على الكفار في الآخرة (وإذا رأى الذين ظلموا) يعني ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي (العذاب) يعني عذاب جهنم (فلا يخفف عنهم) يعني العذاب (ولا هم ينظرون) يعني لا يؤخرون ولا يمهلون (وإذا رأى الذين أشركوا) يعني يوم القيامة (شركاءهم) يعني أصنامهم التي كانوا يعبدونها في الدنيا (قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك) يعني أربابا وكنا نعبدهم ونتخذهم آلهة (فألقوا) يعني الأصنام (إليهم) يعني إلى عابديها (القول إنكم لكاذبون) يعني أن الأصنام قالت للكفار إنكم لكاذبون يعني في تسميتنا آلهة وما دعوناكم إلى عبادتنا . فإن قلت : الأصنام جماد لا تتكلم فكيف يصح منها الكلام ؟. قلت لا يبعد أن الله سبحانه وتعالى لما بعثها وأعادها في الآخرة خلق فيها الحياة والنطق والعقل حتى قالت ذلك والمقصود من إعادتها وبعثها أن تكذب الكفار ويراها الكفار وهي في غاية الذلة والحقارة فيزدادون بذلك غما وحسرة (وألقوا) يعني المشركين (إلى الله يومئذ السلم) يعني أنهم استسلموا له وانقادوا لحكمه فيهم ولم تغن عنهم آلهتهم شيئا (وضل عنهم) يعني وزال عن المشركين (ما كانوا يفترون) يعني ما كانوا يكذبون في الدنيا في قولهم إن الأصنام تشفع لهم (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) يعني ضموا مع كفرهم أنهم منعوا الناس عن الدخول في الإيمان بالله ورسوله (زدناهم عذابا فوق العذاب) يعني زدناهم هذه الزيادة بسبب صدهم عن سبيل الله مع ما يستحقونه من العذاب على كفرهم الأصلي ، واختلفوا في هذه الزيادة ما هي فقال عبد الله بن مسعود عقارب لها أنياب كأمثال النخل الطوال

هذه النعمة قالوا نعم هذه كلها من الله ولكنها بشفاعة آلهتنا وقال عوف بن عبد الله هو قول الرجل لولا فلان لكان كذا وكذا ولولا فلان لما كان كذا (وأكثرهم الكافرون) الجاحدون قوله عز وجل (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا) يعني رسولا (ثم لا يؤذن للذين كفروا) في الاعتذار وقيل في الكلام أصلا (ولا هم يستعتبون) يسترضون يعني لا يكلفون أن يرضوا ربهم لأن الآخرة ليست بدار تكليف ولا يرجعون إلى الدنيا فيتوبون وحقيقة المعنى في الاستعتاب أنه التعرض لطلب الرضا وهذا الباب منسد في الآخرة على الكفار (وإذا رأى الذين ظلموا) كفروا (العذاب) يعني جهنم (فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون وإذا رأى الذين أشركوا) يوم القيامة (شركاءهم) أوثانهم (قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك) أربابا ونعبدهم (فألقوا) يعني الأوثان (إليهم القول) أي قالوا لهم (إنكم لكاذبون) في تسميتنا آلهة ما دعوناكم إلى عبادتنا (وألقوا) يعني المشركين (إلى الله يومئذ السلم) استسلموا وانقادوا لحكمه فيهم ولم تغن عنهم آلهتهم شيئا (وضل) وزال (عنهم ما كانوا يفترون) من أنها تشفع لهم (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) منعوا الناس عن طريق الحق (زدناهم عذابا فوق العذاب)

قال عبد الله عقارب لها أنياب أمثال النخل الطوال وقال سعيد بن جبير حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال تلسع إحداهن اللسعة يجد صاحبها حمتها أربعين خريفا وقال ابن عباس ومقاتل يعنى خمسة أنهار من

وقال سعيد بن جبير حيات كالبخت وعقارب أمثال البغال تلسع إحداهن اللسعة فيجد صاحبها ألمها أربعين خريفا وقال ابن عباس ومقاتل يعنى خمسة أنهار من صفر مذاب كالنار ، تسيل يعذبون بها ثلاثة على مقدار الليل واثنان على مقدار النهار وقيل إنهم يخرجون من حر النار إلى برد الزمهرير فيبادرون من شدة الزمهرير إلى النار مستغيثين بها وقيل يضاعف لهم العذاب ضعفا بسبب كفرهم وضعفا بسبب صدهم الناس عن سبيل الله (بما كانوا يفسدون) يعنى أن الزيادة إنما حصلت لهم بسبب صدهم عن سبيل الله وبسبب ما كانوا يفسدون مع ما يستحقونه من العذاب على الكفر (ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم) قال ابن عباس يريد الأنبياء . قال المفسرون كل نبى شاهد على أمته وهو أعدل شاهد عليها (من أنفسهم) يعنى منهم لأن كل نبى إنما بعث من قومه الذين بعث إليهم ليشهدوا عليهم وبما فعلوا من كفر وإيمان وطاعة وعصيان (وجئنا بك) يامحمد (شهيدا على هؤلاء) يعنى على قومك وأمتك وتم الكلام هنا ثم قال تبارك وتعالى (ونزلنا عليك الكتاب) يعنى القرآن (تبيانا لكل شىء) تبيانا اسم من البيان قال مجاهد يعنى لما أمر به وما نهى عنه ، وقال أهل المعانى تبيانا لكل شىء يعنى من أمور الدين إما بالنص عليه أو بالإحالة على ما يوجب العلم به من بيان النبى صلى الله عليه وسلم لأن النبى صلى الله عليه وسلم بين ما فى القرآن من الأحكام والحدود والحلال والحرام وجميع المأمورات والمنهيات وإجماع الأمة فهو أيضا أصل ومفتاح لعلوم الدين (وهدى) يعنى من الضلالة (ورحمة) يعنى لمن آمن به وصدقه (وبشرى للمسلمين) يعنى وفيه بشرى للمسلمين من الله عز وجل . قوله سبحانه وتعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) قال ابن عباس العدل شهادة أن لا إله إلا الله والإحسان أداء الفرائض وفى رواية عنه قال العدل خلع الأنداد والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه وأن تحب للناس ما تحب لنفسك إن كان مؤمنا تحب أن يزداد إيمانا وإن كان كافرا تحب أن يكون أخاك فى الإسلام وقال فى رواية أخرى عنه العدل التوحيد والإحسان الإخلاص . وأصل العدل فى اللغة المساواة فى كل شىء من غير زيادة فى شىء ولا غلو ولا نقصان فيه ولا تقصير فالعدل هو المساواة فى المكافأة إن خيرا فخير وإن شرا فشر والإحسان أن تقابل الخير بأكثر منه والشر بأن تعفو عنه وقيل العدل الإنصاف ولا إنصاف أعظم من الاعتراف للمنعم بانعامه والإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك وقيل يأمر بالعدل فى الأفعال وبالإحسان فى الأقوال فلا يفعل إلا ما هو عدل ولا يقول إلا ما هو حسن (وإيتاء ذى القربى) يعنى ويأمر بصلة الرحم وهم القرابة الأدنون والأبعدون منك فيستحب أن تصلهم من فضل ما رزقك الله فان لم يكن لك فضل فدعاء حسن وتودد (وينهى عن الفحشاء) قال ابن عباس يعنى الزنا وقال غيره الفحشاء ما قبح من القول والفعل فيدخل فيه الزنا وغيره من جميع الأقوال والأفعال المذمومة (والمنكر) قال ابن عباس يعنى الشرك والكفر وقال غيره المنكر ما لا يعرف فى شريعة ولا سنة (والبغى) يعنى الكبر والظلم وقيل البغى هو التطاول على الغير على سبيل الظلم والعدوان . قال بعضهم إن أعجل المعاصى البغى ولو أن جبلين بغى أحدهما على الآخر لدك الباغى وقال ابن

صفر مذاب كالنار تسيل من تحت العرش يعذبون بها ثلاثة على مقدار الليل واثنان على مقدار النهار وقيل إنهم يخرجون من حر النار إلى برد الزمهرير فيبادرون من شدة الزمهرير إلى النار مستغيثين بها وقيل يضاعف لهم العذاب (بما كانوا يفسدون) فى الدنيا بالكفر وصد الناس عن الايمان (ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم) يعنى نبيها لأن الأنبياء كانت تبعث إلى الأمم منها (وجئنا بك) يامحمد (شهيدا على هؤلاء) الذين بعثت إليهم (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا) بيانا (لكل شىء) يحتاج إليه من الأمر والنهى والحلال والحرام والحدود والأحكام (وهدى) من الضلالة (ورحمة وبشرى) بشارة (للمسلمين إن الله يأمر بالعدل) بالإنصاف (والاحسان) إلى الناس وعن ابن عباس العدل التوحيد والاحسان أداء الفرائض وعنه أيضا الاحسان الاخلاص فى التوحيد وذلك معنى قول النبى ﷺ «الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه» وقال مقاتل العدل التوحيد والاحسان العفو عيينة عن الناس (وإيتاء ذى القربى) صلة الرحم (وينهى عن الفحشاء) ما قبح من القول والفعل وقال ابن عباس الزنا (والمنكر) مالا يعرف فى شريعة ولا سنة (والبغى) والكبر والظلم وقال ابن عيينة العدل استواء السر والعلانية والاحسان أن يكون سريرته

أحسن من علانيته والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته (يعظكم لعلكم تذكرون) لعلكم تتعظون قال ابن مسعود أجمع آية فى القرآن هذه الآية وقال أيوب عن عكرمة إن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد إن الله يأمر بالعدل إلى آخر الآية فقال له يا ابن أخى أعد فعاد عليه فقال إن له والله لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما هو بقول البشر . قوله تعالى (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) والعهد هاهنا هو اليمين قال الشعبى العهد يمين وكفارته كفارة اليمين (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) تشديدها فتحنثوا فيها (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) شهيدا بالوفاء (إن الله يعلم ماتفعلون) واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية وإن كان حكمها عاما قيل نزلت فى الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم الله بالوفاء بها وقال مجاهد وقتادة نزلت فى حلف أهل الجاهلية ثم ضرب الله مثلا لنقض العهد فقال (ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة) أى من بعد غزله وإحكامه قال الكلبى ومقاتل هى امرأة خرقاء حمقاء من قريش يقال لها ريطة بنت عمرو ابن سعد بن كعب بن زيد مناة بن تميم وتلقب بجعر وكانت بها وسوسة وكانت اتخذت مغزلا بقدر ذراع وصنارة مثل الإصبع وفلكة عظيمة على قدرها وكانت تغزل الغزل من الصوف والشعر والوبر وتأمر جواريها بذلك فكن يغزلن من الغداة إلى نصف النهار فإذا انتصف النهار أمرتهن بنقض جميع ما غزلن فهذا كان رأيها ومعناه أنها لم تكف عن العمل ولا حين عملت كفت عن النقض

عيينة فى هذه الآية العدل استواء السر والعلانية والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته والفحشاء والمنكر والبغى أن تكون علانيته أحسن من سريرته وقال بعضهم إن الله سبحانه وتعالى ذكر من المأمورات ثلاثة أشياء ومن المنهيات ثلاثة أشياء فذكر العدل وهو الإنصاف والمساواة فى الأقوال والأفعال وذكر فى مقابلته الفحشاء وهى ماقبح من الأقوال والأفعال وذكر الإحسان وهو أن تعفو عمن ظلمك وتحسن إلى من أساء إليك وذكر فى مقابلته المنكر وهو أن تنكر إحسان من أحسن إليك وذكر إيتاء ذى القربى ، والمراد به صلة القرابة والتودد إليهم والشفقة عليهم وذكر فى مقابلته البغى وهو أن يتكبر عليهم أو يظلمهم حقوقهم ثم قال تعالى (يعظكم لعلكم تذكرون) يعنى إنما أمركم بما أمركم به ونهاكم عما نهاكم عنه لكى تتعظوا وتتذكروا فتعملوا بما فيه رضا الله تعالى قال ابن مسعود إن أجمع آية فى القرآن لخير وشر هذه الآية . وقال أهل المعانى لما قال الله تعالى فى الآية الأولى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء بين فى هذه الآية المأمور به والمنهى عنه على سبيل الاجمال فما من شىء يحتاج إليه الناس فى أمر دينهم مما يجب أن يؤتى أو يترك إلا وقد اشتملت عليه هذه الآية وروى عكرمة أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة إن الله يأمر بالعدل إلى آخر الآية فقال له ياابن أخى أعد على فأعادها عليه فقال له الوليد والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما هو بقول البشر . قوله عز وجل (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) لما ذكر الله سبحانه وتعالى فى الآية المتقدمة المأمورات والمنهيات على سبيل الإجمال ذكر فى هذه الآية بعض ذلك الإجمال على التفصيل فبدأ بالأمر بالوفاء بالعهد لأنه آكد الحقوق فقال تعالى « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » نزلت فى الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام فأمرهم بالوفاء بهذه البيعة وقيل المراد منه كل ما يلتزمه الإنسان باختياره ويدخل فيه الوعد أيضا لأن الوعد من العهد وقيل العهد هاهنا اليمين قال القتيبى العهد يمين وكفارته كفارة يمين فعلى هذا يجب الوفاء به إذا كان فيه صلاح أما إذا لم يكن فيه صلاح فلا يجب الوفاء به لقوله صلى الله عليه وسلم «من حلف يمينا ثم رأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه» فيكون قوله وأوفوا بعهد الله من العام الذى خصصته السنة وقال مجاهد وقتادة نزلت فى حلف أهل الجاهلية ويشهد لهذا التأويل قوله صلى الله عليه وسلم «كل حلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة» (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) يعنى تشديدها فتحنثوا فيها وفيه دليل على أن المراد بالعهد غير اليمين لأنه أعم منها (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) يعنى شهيدا بالوفاء بالعهد (إن الله يعلم ماتفعلون) يعنى من وفاء العهد ونقضه ثم ضرب الله سبحانه وتعالى مثلا لنقض العهد فقال تعالى (ولا تكونوا) يعنى فى نقض العهد (كالتى نقضت غزلها من بعد قوة) يعنى من بعد إبرامه وإحكامه قال الكلبى ومقاتل هذه امرأة من قريش يقال لها ريطة بنت عمرو ابن سعد بن كعب ابن زيد مناة بن تميم وكانت خرقاء حمقاء بها وسوسة وكانت قد اتخذت مغزلا قدر ذراع

فكذلك أنتم إذا نقضتم العهد لا كففتم عن العهد ولا حين عاهدتم وفيتم به (أنكاثا) يعنى أنقاضا واحدتها نكث وهو مانقض بعد الفتل غزلا كان أو حبلا (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم) أى دخلا وخيانة وخديعة والدخل ما يدخل فى شىء للفساد وقيل الدخل والدغل أن يظهر الوفاء ويبطن النقض (أن تكون) أى لأن تكون (أمة هى أربى) أى أكثر وأعلى (من أمة) قال مجاهد وذلك أنهم كانوا يحالفون الحلفاء فاذا وجدوا قوما أكثر منهم وأعز نقضوا حلف هؤلاء وحالفوا الأكثر فمعناه طلبتم العز بنقض العهد بأن كانت أمة أكثر من أمة فنهاهم الله عن ذلك (إنما يبلوكم الله به) يختبركم الله بأمره إياكم بالوفاء بالعهد (وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) فى الدنيا (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) على ملة واحدة وهى الاسلام (ولكن يضل من يشاء) بخذلانه إياهم عدلا منه (ويهدى من يشاء) بتوفيقه إياهم فضلا منه (ولتسئلن عما كنتم تعملون) يوم القيامة (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا) خديعة وفسادا (بينكم) فتغرون بها الناس فيسكنون إلى أيمانكم ويأمنون ثم تنقضونها (فتزل قدم بعد ثبوتها) فتهلكوا بعد ما كنتم آمنين والعرب تقول لكل مبتلى بعد عافية أو ساقط فى ورطة بعد سلامة زلت قدمه (وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله) قيل معناه سهلتم طريق نقض بين العهد على الناس بنقضكم العهد (ولكم عذاب عظيم ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا) يعنى لا تنقضوا عهودكم تطلبون بنقضها عرضا قليلا من الدنيا ولكن أوفوا بها (إنما عند الله هو) من الثواب لكم على الوفاء بالعهد (خير لكم إن كنتم تعلمون)

وصنارة مثل الإصبع وفلكة عظيمة على قدرها وكانت تغزل الغزل من الصوف أو الشعر أو الوبر وتأمر جواريها بالغزل فكن يغزلن من الغداة إلى نصف النهار، فاذا انتصف النهار أمرتهن بنقض جميع ماغزلن فكان هذا دأبها والمعنى أن هذه المرأة لم تكف عن العمل ولا حين عملت كفت عن النقض فكذلك من نقض العهد لا تركه ولا حين عاهد وفى به (أنكاثا) جمع نكث وهو ماينقض من الغزل أو الحبل بعد الفتل (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم) يعنى دغلا وخيانة وخديعة والدخل مايدخل فى الشىء على سبيل الفساد وقيل الدخل والدغل أن يظهر الرجل الوفاء بالعهد ويبطن نقضه (أن تكون) يعنى لأن تكون (أمة هى أربى من أمة) يعنى أكثر وأعلى من أمة قال مجاهد وذلك أنهم كانوا يحالفون الحلفاء فاذا وجدوا قوما أكثر من أولئك وأعز نقضوا حلف هؤلاء وحالفوا الأكثر والمعنى أنكم طلبتم العز بنقض العهد لأن كانت أمة أى جماعة أكثر من جماعة فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم بالوفاء بالعهد لمن عاهدوا وحالفوا (إنما يبلوكم الله به) يعنى يختبركم بما أمركم به من الوفاء بالعهد وهو أعلم بكم (وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) يعنى فى الدنيا فيثيب الطائع المحق ويعاقب المسىء المخالف قوله سبحانه وتعالى (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) يعنى على ملة واحدة ودين واحد وهو دين الإسلام (ولكن يضل من يشاء) يعنى بخذلانه إياه عدلا منه (ويهدى من يشاء) بتوفيقه إياه فضلا منه وذلك مما اقتضته الحكمة الإلهية لايسئل عما يفعل وهم يسئلون، وهو قوله تعالى (ولتسئلن عما كنتم تعملون) يعنى فى الدنيا فيجازى المحسن باحسانه ويعاقب المسىء باساءته أو يغفر له. قوله عز وجل (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم) يعنى خديعة وفسادا بينكم فتغروا بها الناس فيسكنوا إلى أيمانكم ويأمنوا إليكم ثم تنقضونها وإنما كرر هذا المعنى تأكيدا عليهم وإظهارا لعظم أمر نقض العهد قال المفسرون وهذا فى نهى الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام نهاهم عن نقض عهده لأن الوعيد الذى بعده وهو قوله سبحانه وتعالى فتزل قدم بعد ثبوتها لايليق بنقض عهد غيره إنمايليق بنقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإيمان به وبشريعته وقوله (فتزل قدم بعد ثبوتها) مثل يذكر لكل من وقع فى بلاء ومحنة بعد عافية ونعمة أو سقط فى ورطة بعد سلامة تقول العرب لكل واقع فى بلاء بعد عافية زلت قدمه والمعنى فتزل أقدامكم عن محجة الإسلام بعد ثبوتها عليها (وتذوقوا السوء) يعنى العذاب (بما صددتم عن سبيل الله) يعنى بسبب صدكم غيركم عن دين الله وذلك لأن من نقض العهد فقد علم غيره نقض العهد فيكون هو أقدمه على ذلك (ولكم عذاب عظيم) يعنى بنقضكم العهد (ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا) يعنى ولا تنقضوا عهودكم وتطلبوا بنقضها عوضا من الدنيا قليلا ولكن أوفوا بها (إنما عند الله) يعنى فان ماعند الله من الثواب لكم على الوفاء بالعهد (هو خير لكم) يعنى من عاجل الدنيا (إن كنتم تعلمون) يعنى فضل مابين العوضين ثم

بين ذلك فقال تبارك وتعالى (ماعندكم ينفد) يعني من متاع الدنيا ولذاتها يفنى ويذهب (وما عند الله باق) يعني من ثواب الآخرة ونعيم الجنة (ولنجزين الذين صبروا) يعني على الوفاء بالعهد على السراء والضراء (أجرهم) يعني ثواب صبرهم (بأحسن ماكانوا يعملون) عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا مايبقى على مايفنى» وقوله سبحانه وتعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) فان قلت من عمل صالحا يفيد العموم فما فائدة الذكر والأنثى. قلت هو مبهم صالح على الإطلاق للنوعين إلا أنه إذا ذكر وأطلق كان الظاهر تناوله للذكر دون الأنثى فقيل من ذكر أو أنثى على التبيين ليعلم الوعد للنوعين جميعا وجواب آخر وهو أن هذه الآية واردة بالوعد بالثواب والمبالغة في تقرير الوعد من أعظم دلائل الكرم والرحمة إثباتا للتأكيد وإزالة لوهم التخصيص وقوله وهو مؤمن جعل الإيمان شرطا في كون العمل الصالح موجبا للثواب (فلنحيينه حياة طيبة) قال سعيد بن جبير وعطاء هي الرزق الحلال وقال مقاتل هي العيش في الطاعة وقيل هي حلاوة الطاعة وقال الحسن هي القناعة وقيل رزق يوم بيوم واعلم أن عيش المؤمن في الدنيا وإن كان فقيرا أطيب من عيش الكافر وإن كان غنيا لأن المؤمن لما علم أن رزقه من عند الله وذلك بتقديره وتدبيره وعرف أن الله محسن كريم متفضل لايفعل إلا الصواب فكان المؤمن راضيا عن الله وراضيا بما قدره الله له ورزقه إياه وعرف أن له مصلحة في ذلك القدر الذي رزقه إياه فاستراحت نفسه من الكد والحرص فطاب عيشه بذلك وأما الكافر أو الجاهل بهذه الأصول الحريص على طلب الرزق فيكون أبدا في حزن وتعب وعنا وحرص وكد ولا ينال من الرزق إلا ماقدر له فظهر بهذا أن عيش المؤمن القنوع أطيب من غيره وقال السدي الحياة الطيبة إنما تحصل في القبر لأن المؤمن يستريح بالموت من نكد الدنيا وتعبها وقال مجاهد وقتادة في قوله فلنحيينه حياة طيبة هي الجنة وروى العوفي عن الحسن قال لاتطيب لأحد الحياة إلا في الجنة لأنها حياة بلاموت وغنى بلافقر وصحة بلا سقم وملك بلا هلك وسعادة بلاشقاوة فثبت بهذا أن الحياة الطيبة لا تكون إلا في الجنة ولقوله في سياق الآية (ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون) لأن ذلك الجزاء إنما يكون في الجنة. قوله عز وجل (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه غيره من أمته لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما كان غير محتاج إلى الاستعاذة وقد أمر بها فغيره أولى بذلك ولما كان الشيطان ساعيا في إلقاء الوسوسة في قلوب بني آدم وكانت الاستعاذة بالله مانعة من ذلك، فلهذا السبب أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالاستعاذة عند القراءة حتى تكون مصونة من وسواس الشيطان عن جبير بن مطعم أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي صلاة قال عمرو ولا أدري أي صلاة هي قال الله أكبر كبيرا ثلاثا والحمد لله كثيرا ثلاثا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثا أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخته ونفثه وهمزه قال نفخته الكبر ونفثه السحر وهمزه الموتة أخرجه أبو داود الموتة الجنون والفاء في قوله فاستعذ بالله للتعقيب فظاهر لفظ الآية يدل على أن الاستعاذة بعد القراءة وإليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين وهو قول أبي هريرة وإليه ذهب مالك وجماعة

قرأ أبو جعفر وابن كثير وعاصم بالنون والباقون بالياء (الذين صبروا) على الوفاء في السراء والضراء (أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون) أخبرنا أبو عبد الله محمد ابن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن الطيسفوني أنا عبدالله بن عمر الجوهري ثنا أحمد بن علي الكشميهني ثنا علي بن حجر ثنا إسمعيل بن جعفر ثنا عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا مايبقى على مايفنى» قوله تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) قال سعيد بن جبير وعطاء هي الرزق الحلال قال الحسن هي القناعة وقال مقاتل بن حيان يعني العيش في الطاعة قال أبو بكر الوراق هي حلاوة الطاعة قال مجاهد وقتادة هي الجنة ورواه عوف عن الحسن وقال لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة (ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) قوله سبحانه وتعالى (فاذا قرأت القرآن) أي إذا أردت قراءة القرآن (فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) كقوله تعالى «إذا قمتم إلى الصلاة

فاغسلوا»والاستعاذة سنة عند قراءة القرآن وأكثر العلماء على أن الاستعاذة قبل القراءة وقال أبو هريرة بعدها ولفظه أن يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (١١٤) أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أبو محمد عبد الرحمن ابن أبي شريح أنا أبو القاسم البغوى ثنا على ابن الجعد أنا شعبة عن عمرو بن مرة سمعت عاصما عن ابن جبير بن مطعم عن أبيه أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم يصلى قال « فكبر فقال الله أكبر كبيرا ثلاث مرات والحمد لله كثيرا ثلاث مرات وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاث مرات اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ولمزه و نفخه ونفثه» قال عمر ونفخه الكبر ونفثه الشعر وهمزه المونة والمونة الجنون والاستعاذة بالله هي الاعتصام به (إنه ليس له سلطان) حجة وولاية (على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) قال سفيان ليس له سلطان على أن يحملهم على ذنب لا يغفر (إنما سلطانه على الذين يتولونه) يطيعونه ويدخلون فى ولايته (والذين هم به مشركون) أى بالله مشركون وقيل الكناية راجعة إلى الشيطان لأجل

وداود الظاهرى قالوا لأن قارئ القرآن يستحق ثوابا عظيما وربما حصلت الوساوس فى قلب القارئ هل حصل له ذلك الثواب أم لا فاذا استعاذ بعد القراءة اندفعت تلك الوساوس وبقى الثواب مخلصا فأما مذهب الأكثرين من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من الأئمة وفقهاء الأمصار فقد اتفقوا على أن الاستعاذة مقدمة على القراءة قالوا ومعنى الآية إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ بالله ومثله قوله سبحانه وتعالى «إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم» الخ ومثله من الكلام إذا أردت أن تأكل فقل بسم الله وإذا أردت أن تسافر فتأهب وأيضا فان الوسوسة إنما تحصل فى أثناء القراءة فتقديم الاستعاذة على القراءة لتذهب الوسوسة عنه أولى من تأخيرها عن وقت الحاجة إليها ومذهب عطاء أنه تجب الاستعاذة عند قراءة القرآن سواء كانت فى الصلاة أو فى غيرها واتفق سائر الفقهاء على أن الاستعاذة سنة فى الصلاة وغيرها وقد تقدمت هذه المسئلة والخلاف فيها فى أول سورة الفاتحة والاستعاذة الاعتصام بالله والالتجاء إليه من شر الشيطان ووسوسته والمراد من الشيطان إبليس وقيل هو اسم جنس يطلق على المردة من الشياطين لأن لهم قدرة على إلقاء الوسوسة فى قلوب بنى آدم بأقدار الله إياهم على ذلك (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) لما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة من الشيطان فكأن ذلك أوهم أن له قدرة على التصرف فى أبدان بنى آدم فأزال الله سبحانه وتعالى هذا الوهم بقوله إنه ليس له سلطان يعنى ليس له قدرة ولا ولاية على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون قال سفيان ليس له سلطان على أن يحملهم على ذنب لا يغفر ويظهر من هذا(١) أن الاستعاذة إنما تفيد إذا حضر بقلب الإنسان كونه ضعيفا وأنه لا يمكنه التحفظ من وسوسة الشيطان إلا بعصمة الله ولهذا قال المحققون لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله ثم قال تعالى (إنما سلطانه على الذين يتولونه) يعنى يطيعونه ويدخلون فى ولايته يقال توليته إذا أطعته وتوليت عنه إذا أعرضت عنه (والذين هم به مشركون) يعنى بالله وقيل الضمير فى به راجع إلى الشيطان والمعنى هم من أجله مشركون بالله قوله سبحانه وتعالى (وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل) وذلك أن المشركين من أهل مكة قالوا إن محمدا يسخر بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا ما هو إلا مفتر يتقوله من تلقاء نفسه فأنزل الله هذه الآية والمعنى وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكما آخر والله أعلم بما ينزل اعتراض دخل فى الكلام والمعنى والله أعلم بما ينزل من الناسخ وبما هو أصلح لخلقه وبما يغير ويبدل من أحكامه أى هو أعلم بجميع ذلك مما هو من مصالح عباده وهذا نوع توبيخ وتقريع للكفار على قولهم للنبى صلى الله عليه وسلم وهو قوله تعالى (قالوا إنما أنت مفتر) أى تختلقه من عندك والمعنى إذا كان الله تعالى أعلم بما ينزل فما بالهم ينسبون محمدا إلى الافتراء والكذب

(١) قوله ويظهر من هذا ، اسم الإشارة راجع لما ذكره قبل قول سفيان كما يعلم من الفخر فانه لم يذكر فى هذا المحل قول سفيان وذكر ما قبله وما بعده وعبارته صحيحة بخلاف ما هنا فانه يوهم رجوع اسم الإشارة لقول سفيان وهو غير ظاهر اه .

ومجازه الذين هم من أجله مشركون بالله (وإذا بدلنا آية مكان آية) يعنى وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكما آخر (والله أعلم بما ينزل) أعلم بما هو أصلح لخلقه فيما يغير ويبدل من أحكامه (قالوا إنما أنت) يا محمد (مفتر) مختلق وذلك

إن المشركين قالوا إن محمدا يسخر بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا ما هو إلا مفتر يتقوله من تلقاء نفسه قال الله (بل أكثرهم لايعلمون) حقيقة القرآن وبيان الناسخ والمنسوخ (قل نزله) يعنى القرآن (روح القدس) جبريل (من ربك بالحق) بالصدق (ليثبت الذين آمنوا) أى ليثبت قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا ويقينا (وهدى وبشرى للمسلمين ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر) آدمى وما هو من عند الله واختلفوا فى هذا البشر قال ابن عباس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم قينا بمكة اسمه بلعام وكان نصرانيا أعجمى اللسان فكان المشركون يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل عليه ويخرج فكانوا يقولون إنما يعلمه بلعام وقال عكرمة كان النبى صلى الله عليه وسلم يقرئ غلاما لبنى المغيرة يقال له يعيش وكان يقرأ الكتب فقالت قريش (إنما يعلمه بشر) يعنى يعيش وقال الفراء قال المشركون إنما يتعلم من عايش مملوك كان لحويطب ابن عبد العزى وكان قد أسلم وحسن إسلامه وكان أعجمى اللسان وقال ابن إسحاق كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى كثيرا مايجلس عند المروة إلى غلام رومى نصرانى عبد لبعض بنى الحضرمى يقال له جبر وكان يقرأ الكتب وقال عبدالله بن مسلم الحضرمى كان لنا عبدان من أهل عين التمر يقال لأحدهما يسار يكنى أبا فكيهة ويقال للآخر جبر وكانا يصنعان السيوف بمكة وكانا يقرآن التوراة والإنجيل فربما مر بهما النبى صلى الله عليه وسلم وهما يقرآن التوراة فيقف ويستمع قال الضحاك وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا آذاه الكفار يقعد إليهما ويستريح بكلامهما فقال المشركون إنما يتعلم محمد منهما فنزلت هذه الآية قال الله تعالى تكذيبا لهم (لسان الذى يلحدون إليه) أى يميلون ويشيرون إليه (أعجمى) الأعجمى الذى لايفصح وإن كان ينزل بالبادية والعجمى

لأجل التبديل والنسخ وإنما فائدة ذلك ترجع إلى مصالح العباد كما يقال إن الطبيب يأمر المريض بشرب دواء ثم بعد ذلك ينهاه عنه ويأمره بغيره لما يرى فيه من المصلحة (بل أكثرهم لايعلمون) يعنى لايعلمون فائدة الناسخ وتبديل المنسوخ (قل) أى قل لهم يا محمد (نزله) يعنى القرآن (روح القدس) يعنى جبريل صلى الله عليه وسلم أضيف إلى القدس وهو الطهر كما يقال حاتم الجود وطلحة الخير والمعنى الروح المقدس المطهر (من ربك) يعنى أن جبريل نزل بالقرآن من ربك يا محمد (بالحق ليثبت الذين آمنوا) يعنى ليثبت بالقرآن قلوب المؤمنين فيزدادوا إيمانا ويقينا (وهدى وبشرى) يعنى وهو هدى وبشرى (للمسلمين) قوله عز وجل (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر) وذلك أن كفار مكة قالوا إنما يتعلم هذه القصص وهذه الأخبار من إنسان آخر وهو آدمى مثله وليس هو من عند الله كما يزعم فأجابهم الله بقوله ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر واختلفوا فى ذلك البشر من هو فقال ابن عباس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم قينا بمكة اسمه بلعام وكان نصرانيا أعجمى اللسان فكان المشركون يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل عليه ويخرج من عنده فكانوا يقولون إنما يعلمه بلعام وقال عكرمة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرئ غلاما لبنى المغيرة يقال له يعيش فكان يقرأ الكتب؟ فقالت قريش إنما يعلمه يعيش وقال محمد بن إسحاق كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى كثيرا مايجلس عند المروة إلى غلام رومى نصرانى عبد لبعض بنى الحضرمى يقال له جبر وكان يقرأ الكتب وقال عبيد الله بن مسلمة كان لنا عبدان من أهل عين التمر يقال لأحدهما يسار ويكنى أبا فكيهة ويقال للآخر جبر وكانا يصنعان السيوف بمكة ، وكانا يقرآن التوراة والإنجيل بمكة فربما مر بهما النبى صلى الله عليه وسلم وهما يقرآن فيقف ويستمع قال الضحاك وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا آذاه الكفار يقعد إليهما فيتروح بكلامهما ، فقال المشركون إنما يتعلم محمد منهما وقال الفراء قال المشركون إنما يتعلم محمد من عائش المملوك كان لحويطب بن عبد العزى كان نصرانيا وقد أسلم وحسن إسلامه وكان أعجميا ، وقيل هو عداس غلام عتبة بن ربيعة والحاصل أن الكفار اتهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا إنما يتعلم هذه الكلمات من غيره ثم أنه يضيفها لنفسه ويزعم أنه وحى من الله عز وجل وهو كاذب فى ذلك فأجاب الله عنه وأنزل هذه الآية تكذيبا لهم فيما رموا به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب فقال تعالى (لسان الذى يلحدون إليه) يعنى يميلون ويشيرون إليه (أعجمى) يعنى هو أعجمى والأعجمى هو الذى لايفصح فى كلامه وإن كان يسكن البادية ومنه سمى زياد الأعجم لأنه كان فى لسانه عجمة مع أنه كان من العرب والعجمى منسوب إلى العجم وإن كان فصيحا بالعربية والأعرابى الذى يسكن البادية والعربى الذى يسكن الأمصار من بلاد العرب

ملسوب إلى العجم وإن كان فصيحا والاعرابى البدوى والعربى ملسوب إلى العرب وإن لم يكن فصيحا (وهذا لسان عربى مبين) فصيح وأراد باللسان القرآن والعرب تقول اللغة لسان وروى أن الرجل الذى كانوا يشيرون إليه أسلم وحسن إسلامه (إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله) لا يرشدهم الله (ولهم عذاب أليم) ثم أخبر الله تعالى أن الكفار هم المفترون فقال (إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون) لا محمد صلى الله عليه وسلم فان قيل قد قال إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون فما معنى قوله وأولئك هم الكاذبون قيل إنما يفترى الكذب أخبار عن فعلهم وهم الكاذبون نعت لازم لهم كقول الرجل لغيره كذبت وأنت كاذب أى كذبت فى هذا القول ومن عادتك الكذب أخبرنا أبو سعيد الشريحى أنا أبو إسحاق الثعلبى أنا أبو حفص (١١٦) عمر بن أحمد الجوهرى أنا جدى أبو بكر محمد بن عمر بن حفص ثنا أبو بكر محمد بن الفرج الأزرق ثنا سعيد بن عبد الحميد ابن جعفر ثنا يعلى بن الأشدق عن عبد الله ابن جراد قال « قلت يارسول الله المؤمن يزنى قال قد يكون ذلك قال قلت المؤمن يسرق قال قد يكون ذلك قلت المؤمن كاذب قال لا قال الله إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله » (من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره) قال ابن عباس نزلت هذه الآية فى عمار وذلك أن المشركين أخذوه وأباه ياسرا وأمه سمية وصهيبا وبلالا وخبابا وسالما فعذبوهم فأما سمية فانها ربطت بين بعيرين ووجىء قلبها بحربة فقتلت وقتل زوجها ياسر وهما أول قتيلين قتلا فى الإسلام وأما عمار فانه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرها قال قتادة أخذ بنو المغيرة عمارا وغطوه فى بئر ميمون وقالوا له اكفر بمحمد فتابعهم على ذلك وقلبه كاره فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن عمارا كفر فقال « كلا إن عمارا ملىء إيمانا من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماوراءك قال شر يارسول الله نلت منك وذكرت آلهتهم بخير قال كيف وجدت قلبك قال مطمئنا بالإيمان فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال إن عادوا لك فعد لهم بما قلت » فنزلت هذه الآية قال مجاهد نزلت فى ناس من أهل مكة آمنوا فكتب إليهم بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هاجروا فانا لا نراكم منا حتى تهاجروا إلينا فخرجوا يريدون المدينة فأدركتهم قريش فى الطريق ففتنوهم فكفروا كارهين وقال مقاتل نزلت فى جبر مولى عامر بن الحضرمى أكرهه سيده على الكفر فكفر مكرها (وقلبه مطمئن بالإيمان) ثم أسلم مولى

وهو ملسوب إلى العرب (وهذا لسان عربى مبين) يعنى بين الفصاحة والبلاغة ووجه الجواب هو أن الذى يشيرون إليه رجل أعجمى فى لسانه عجمة تمنعه من الإتيان بفصيح الكلام ومحمد صلى الله عليه وسلم جاءكم بهذا القرآن الفصيح الذى عجزتم أنتم عنه ، وأنتم أهل الفصاحة والبلاغة فكيف يقدر من هو أعجمى على مثله وأين فصاحة هذا القرآن من عجمة هذا الذى يشيرون إليه فثبت بهذا البرهان أن الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وحى أوحاه الله إليه وليس هو من تعليم الذى يشيرون إليه ولا هو أتى به من تلقاء نفسه بل هو وحى من الله عز وجل إليه وروى أن الرجل الذى كانوا يشيرون إليه أسلم وحسن إسلامه (إن الذين لا يؤمنون بآيات الله) يعنى لا يصدقون أنها من عند الله (لا يهديهم الله) يعنى لا يرشدهم ولا يوفقهم للإيمان (ولهم عذاب أليم) يعنى فى الآخرة ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن الكفار هم المفترون فقال تعالى (إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) يعنى إنما يقدم على فرية الكذب من لا يؤمن بآيات الله فهو رد لقول كفار قريش إنما أنت مفتر (وأولئك هم الكاذبون) يعنى فى قولهم إنما يعلمه بشر لا لمحمد صلى الله عليه وسلم . فان قلت قد قال تبارك وتعالى إنما يفترى الكذب فما معنى قوله تعالى وأولئك هم الكاذبون والثانى هو الأول . قلت قوله سبحانه وتعالى إنما يفترى الكذب إخبار عن حال قولهم ، وقوله وأولئك هم الكاذبون نعت لازم لهم كقول الرجل لغيره كذبت وأنت كاذب أى كذبت فى هذا القول ومن عادتك الكذب وفى الآية دليل على أن الكذب من أفحش الذنوب الكبار لأن الكاذب المفترى هو الذى لا يؤمن بآيات الله روى البغوى باسناد الثعلبى عن عبد الله بن جراد قال « قلت يارسول الله المؤمن يزنى قال قد يكون ذلك قلت المؤمن يسرق قال قد يكون ذلك قلت المؤمن يكذب قال لا قال الله تعالى إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله » . قوله تعالى (من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) نزلت فى عمار بن ياسر وذلك أن المشركين أخذوه وأباه ياسرا وأمه سمية ، وصهيبا وبلالا وخبابا وسالما فعذبوهم ليرجعوا عن الإسلام فأما سمية أم عمار فانها ربطت بين بعيرين ووجىء

ووجئ قلبها بحربة فقتلت وقتل زوجها ياسر فهما أول قتيلين قتلا فى الإسلام وأما عمار فانه أعطاهم بعض ماأرادوا بلسانه مكرها . قال قتادة أخذ بنوا المغيرة عمار وغطوه فى بئر ميمون وقالوا له اكفر بمحمد فبايعهم على ذلك وقلبه كاره وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمارا كفر فقال «كلا إن عمارا ملىء إيمانا من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكى فقال له رسول الله ﷺ ماوراءك قال شر يارسول الله نلت منك وذكرت فقال كيف وجدت قلبك قال مطمئنا بالإيمان فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال إن عادوا لك فعد لهم بما قلت» فنزلت هذه الآية. وقال مجاهد نزلت فى أناس من أهل مكة آمنوا فكتب إليهم بعض أصحاب النبى ﷺ أن هاجروا إلينا فانا لانراكم منا حتى تهاجروا فخرجوا يريدون المدينة فأدركتهم قريش فى الطريق ففتنوهم عن دينهم فكفروا كارهين وهذا القول ضعيف لأن الآية مكية وكان هذا فى أول الإسلام قبل أن يؤمروا بالهجرة وقال مقاتل نزلت فى جبر مولى عامر بن الحضرمى أكرهه سيده على الكفر فكفر مكرها وقلبه مطمئن بالإيمان ثم أسلم عامر بن الحضرمى مولى جبر وحسن إسلامه وهاجر إلى المدينة والأولى أن يقال إن الآية عامة فى كل من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان . وإن كان السبب خاصا . فان قلت المكره على الكفر ليس بكافر فلا يصح استثناؤه من الكافر فما معنى هذا الاستثناء فى الامن أكره . قلت المكره لما ظهر منه بعد الإيمان ماشابه مايظهر من الكفر طوعا صح هذا الاستثناء لهذه المشابهة والمشاكلة والله أعلم .

عامر بن الحضرمى وحسن إسلامه وهاجر جبر مع سيده

(فصل فى حكم الآية)

قال العلماء يجب أن يكون الإكراه الذى يجوز له أن يتلفظ معه بكلمة الكفر أن يعذب بعذاب لاطاقة له به مثل التخويف بالقتل والضرب الشديد والإيلامات القوية مثل التحريق بالنار ونحوه قال العلماء أول من أظهر الإسلام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة أبو بكر وخباب وصهيب وبلال وعمار وأبوه ياسر وأمه سمية فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله من أذى المشركين بعمه أبى طالب وأما أبوبكر فمنعه قومه وعشيرته وأخذ الآخرون وألبسوا أدراع الحديد وأجلسوا فى حر الشمس بمكة فأما بلال فكانوا يعذبونه وهو يقول أحد أحد حتى اشتراه أبوبكر وأعتقه وقتل ياسر وسمية كما تقدم وقال خباب لقد أوقدوا لى نارا ما أطفأها إلا ودك ظهرى وأجمعوا على أن من أكره على الكفر لايجوز له أن يتلفظ بكلمة تصريحا بل يأتى بالمعاريض وبما يوهم أنه كفر فلو أكره على التصريح يباح له ذلك بشرط طمأنينة القلب على الإيمان غير معتقد مايقوله من كلمة الكفر ولو صبر حتى قتل كان أفضل لأن ياسرا وسمية قتلا ولم يتلفظا بكلمة الكفر ولأن بلالا صبر على العذاب ولم يلم على ذلك قال العلماء من الأفعال مايتصور الإكراه عليها كشرب الخمر وأكل لحم الخنزير والميتة ونحوها فمن أكره بالسيف أو القتل على أن يشرب الخمر أو يأكل الميتة أو لحم الخنزير أو نحوها جاز له ذلك لقوله تعالى «ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة» وقيل لايجوز له ذلك ولو صبر كان أفضل ومن الأفعال مالا يتصور الإكراه عليه كالزنا لأن الإكراه يوجب الخوف الشديد وذلك يمنع انتشار الآلة فلا يتصور فيه الإكراه واختلف العلماء فى طلاق المكره فقال الشافعى رضى الله تعالى عنه وأكثر العلماء لايقع طلاق المكره وقال أبو حنيفة يقع . حجة

(ولكن من شرح بالكفر صدرا) أى فتح صدره بالكفر بالقبول فاختاره (فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) وأجمع العلماء على أن من أكره على كلمة الكفر يجوز له أن يقول بلسانه وإذا قال بلسانه غير معتقد لا يكون كفرا وإن أبى أن يقول حتى يقتل كان أفضل واختلف أهل العلم فى طلاق المكره فذهب أكثرهم إلى أنه لايقع (ذلك بأنهم استحبوا) آثروا (الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لايهدى القوم الكافرين) لايرشدهم (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون) عما يراد بهم (لاجرم) أى حقا أنهم فى الآخرة هم الخاسرون) أى المغبونون (ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد مافتنوا) عذبوا ومنعوا من الإسلام فتنهم المشركون (ثم جاهدوا وصبروا) على الإيمان والهجرة والجهاد (إن ربك من بعدها) من بعد تلك الفتنة والغفلة (لغفور رحيم) نزلت فى عياش بن أبى ربيعة أخى أبى جهل من الرضاعة وفى أبى جندل ابن سهيل بن عمرو والوليد بن الوليد بن المغيرة وسلمة بن هشام وعبد الله بن أبى أسيد الثقفى فتنهم المشركون فأعطوهم بعض ماأرادوا ليسلموا من شرهم ثم إنهم هاجروا بعد ذلك وجاهدوا وقال الحسن وعكرمة نزلت فى عبدالله ابن سعد بن أبى سرح وكان يكتب للنبى صلى الله عليه وسلم فاستزله الشيطان فلحق بالكفار فأمر النبى صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة بقتله فاستجاره عثمان وكان أخاه لأمه من الرضاعة فأجاره رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم إنه أسلم وحسن إسلامه فأنزل الله هذه الآية وقرأ ابن عامر فتنوا بفتح الفاء والتاء ورده إلى من أسلم من المشركين فتنوا المسلمين (يوم تأتى كل نفس تجادل) تخاصم وتحتج (عن نفسها) بما أسلفت من خير وشر مشتغلا بها

بما

الشافعى ومن وافقه . قوله سبحانه وتعالى «لا إكراه فى الدين» ولا يمكن أن يكون المراد نفى ذاته لأن ذاته موجودة فوجب حمله على نفى آثاره والمعنى أنه لا أثر له ولاعبرة به وقوله تعالى «وقلبه مطمئن بالإيمان» فيه دليل على أن محل الإيمان هو القلب (ولكن من شرح بالكفر صدرا) يعنى فتحه ووسعه لقبول الكفر واختاره ورضى به (فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) يعنى فى الآخرة (ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة) يعنى يكون ذلك الإقدام على الارتداد إلى الكفر لأجل أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة (وأن الله لايهدى القوم الكافرين) يعنى لايرشدهم إلى الإيمان ولايوفقهم للعمل به (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم) تقدم تفسيره (وأولئك هم الغافلون) يعنى عما يراد بهم من العذاب فى الآخرة وهو قوله سبحانه وتعالى (لاجرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون) يعنى أن الإنسان إنما يعمل فى الدنيا ليربح فى الآخرة فاذا دخل النار بان خسرانه وظهر غبنه لأنه ضيع رأس ماله وهو الإيمان ومن ضيع رأس ماله فهو خاسر . قوله عز وجل (ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد مافتنوا) يعنى عذبوا ومنعوا من الدخول فى الإسلام فتنهم المشركون (ثم جاهدوا وصبروا) على الإيمان والهجرة والجهاد (إن ربك من بعدها) يعنى من بعد الفتنة التى فتنوها (لغفور رحيم) نزلت هذه الآية فى عياش بن أبى ربيعة وكان أخا أبى جهل من الرضاعة وقيل كان أخاه لأمه وفى أبى جندل بن سهيل بن عمرو والوليد بن الوليد بن المغيرة وسلمة بن هشام وعبد الله بن أسد الثقفى فتنهم المشركون وعذبوهم فأعطوهم بعض ماأرادوا ليسلموا من شرهم ثم إنهم بعد ذلك هاجروا وجاهدوا وقال الحسن وعكرمة نزلت هذه الآية فى عبد الله بن أبى سرح كان قد أسلم وكان يكتب للنبى صلى الله عليه وسلم فاستزله الشيطان فارتد ولحق بدار الحرب فلما كان يوم فتح مكة أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتله فاستجاره عثمان وكان أخاه لأمه فأجاره رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وحسن إسلامه وهذا القول إنما يصح إذا قلنا أن هذه الآية مدنية نزلت بالمدينة فتكون من الآيات المدنيات فى السور المكيات والله أعلم بحقيقة ذلك قوله سبحانه وتعالى (يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها) يعنى تخاصم وتحتج عن نفسها أي بما أسلفت من خير وشر واشتغلت بالمجادلة لاتتفرغ إلى غيرها . فان قلت النفس هى نفس واحدة وليس لها نفس أخري فما معنى قوله كل نفس تجادل عن نفسها . قلت إن النفس قد يراد بها بدن الإنسان وقد يراد بها مجموع ذاته وحقيقته فالنفس الأولى هى مجموع ذات الإنسان وحقيقته والنفس الثانية هى بدنه فهى عينها وذاتها أيضا والمعنى يوم يأتى كل إنسان يجادل عن ذاته ولايهمه غيره ومعنى هذه المجادلة الاعتذار

بما لا يقبل منه كقولهم والله ربنا ما كنا مشركين ونحو ذلك من الاعتذارات (وتوفى كل نفس ماعملت) يعنى جزاء ماعملت فى الدنيا من خير أو شر (وهم لايظلمون) يعنى لاينقصون من جزاء أعمالهم شيئا بل يوفون ذلك كاملا من غير زيادة ولانقصان روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لكعب الأحبار خوفنا فقال ياأمير المؤمنين والذى نفسى بيده لو وافيت القيامة بمثل عمل سبعين نبيا لأتت عليك ساعات وأنت لايهمك إلانفسك وإن جهنم لتزفر زفرة مايبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل إلا جثا على ركبتيه حتى إبراهيم خليل الرحمن يقول يارب لا أسألك إلانفسى وإن تصديق ذلك فيما أنزل الله تعالى يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وروى عكرمة عن ابن عباس فى هذه الآية قال ماتزال الخصومة بين الناس يوم القيامة حتى تخاصم الروح الجسد فتقول الروح يارب لم تكن لى أيد أبطش بها ولارجل أمشى بها ولا عين أبصر بها ويقول الجسد يارب أنت خلقتنى كالخشبة ليست لى يد أبطش بها ولا رجل أمشى بها ولاعين أبصر بها فجاء هذا الروح كشعاع النور فيه نطق لسانى وبه أبصرت عناى وبه مشت رجلاى فضرب الله لهما مثلا أعمى ومقعد دخلا حائطا يعنى بستانا فيه ثمار فالأعمى لايبصر الثمر والمقعد لايناله فحمل الأعمى المقعد فأصابا من الثمر فعليهما العذاب . قوله عز وجل (وضرب الله مثلا قرية) المثل عبارة عن قول فى شىء يشبه قولا فى شىء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره وقيل هو عبارة عن المشابهة لغيره فى معنى من المعانى أى معنى كان وهو أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة قال الإمام فخر الدين الرازى المثل قد يضرب بشىء موصوف بصفة معينة سواء كان ذلك الشىء موجودا أولم يكن وقد يضرب بشىء موجود معين فهذه القرية التى ضرب الله بها هذا المثل يحتمل أن تكون شيئا مفروضا ويحتمل أن تكون قرية معينة وعلى التقدير الثانى فتلك القرية يحتمل أن تكون مكة أو غيرها والأكثر من المفسرين على أنها مكة والأقرب أنها غير مكة لأنها ضربت مثلا لمكة ومثل مكة يكون غير مكة وقال الزمخشرى فى كتابه الكشاف وضرب الله مثلا قرية أى جعل القرية التى هذه حالها مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمته فيجوز أن تراد قرية مقدرة على هذه الصفة وأن تكون فى قرى الأولين قرية كانت هذه حالها فضرب الله مثلا لمكة إنذارا من مثل عاقبتها وقال الواحدى ضرب المثل ببيان المشبه والمشبه به وهاهنا ذكر المشبه به ولم يذكر المشبه لوضوحه عند المخاطبين والآية عند عامة المفسرين نازلة فى أهل مكة وما امتحنوا به من الخوف والجوع بعد الأمن والنعمة بتكذيبهم النبى صلى الله عليه وسلم فتقدير الآية ضرب الله مثلا لقريتكم أى بين الله لها شبها ثم قال قرية فيجوز أن تكون القرية بدلا من مثلا لأنها هى الممثل بها ويجوز أن يكون المعنى ضرب الله مثلا مثل قرية فحذف المضاف هذا قول الزجاج والمفسرون كلهم قالوا أراد بالقرية مكة يعنون أنه أراد مكة فى تمثيلها بقرية صفتها ماذكر وقال ابن الجوزى فى هذه القرية قولان أحدهما أنها مكة قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والجمهور وهو الصحيح والثانى أنها قرية أوسع الله على أهلها حتى كانوا يستنجون بالخبز فبعث الله عليهم الجوع قاله الحسن وأقول هذه الآية نزلت بالمدينة فى قول مقاتل وبعض المفسرين وهو الصحيح لأن الله سبحانه وتعالى وصف هذه القرية بصفات ستة كانت هذه الصفات موجودة فى أهل مكة فضربها الله مثلا لأهل المدينة

لاتمرع إلى غيرها (وتوفى كل نفس ماعملت وهم لايظلمون) روى أن عمر بن الخطاب قال لكعب الأحبار خوفنا فقال ياأمير المؤمنين والذى نفسى بيده لو وافيت يوم القيامة بمثل عمل سبعين نبيا لأتت عليك ساعات وأنت لاتهمك إلا نفسك وإن لجهنم زفرة لايبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل منتخب إلا وقع جاثيا على ركبتيه حتى إبراهيم خليل الرحمن يقول : يارب لاأسألك إلانفسى وإن تصديق ذلك الذى أنزله الله عليكم يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وروى عكرمة عن ابن عباس فى هذه الآية قال ماتزال الخصومة بين الناس يوم القيامة حتى تخاصم الروح الجسد فتقول الروح يارب لم يكن لى أيد أبطش بها ولارجل أمشى بها ولا أعين أبصر بها فنجنى وعذبه ويقول الجسد يارب خلقتنى كالخشب لم تبطش يدى ولم تمش رجلى ولم تبصر عينى فجاء هذا كشعاع النور فيه نطق لسانى وأبصرت عينى وبطشت يدى ومشت رجلى قال فيضرب الله لهما مثلا فقال إنما مثلكما مثل أعمى ومقعد دخلا حائطا فيه ثمار فالأعمى لايبصر الثمر والمقعد يرى ولاينال فحمل الأعمى المقعد فأصابا من الثمر فعليهما العذاب قوله تعالى (وضرب الله مثلا قرية

كانت آمنة) يعني مكة كانت آمنة لايهاج أهلها ولا يغار عليها (مطمئنة) قارة بأهلها لايحتاجون إلى الانتقال للانتجاع كما يحتاج إليه سائر العرب (يأتيها رزقها رغدا من كل مكان) يحمل إليها من البر والبحر نظيره تجبى إليه ثمرات كل شيء (فكفرت بأنعم الله) جمع النعمة وقيل جمع نعماء مثل بأساء وأبؤس (فأذاقها الله لباس الجوع) ابتلاهم الله بالجوع سبع سنين وقطعت العرب عنهم الميرة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جهدوا وأكلوا العظام المحرقة والجيف والكلاب الميتة والعهن وهو الوبر يعالج بالدم حتى كان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى شبه دخان من الجوع ثم إن رؤساء مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا ما هذا هبك عاديت الرجال فما بال النساء والصبيان فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمل الطعام للناس إليهم وهم بعد مشركون وذكر اللباس لأن ما أصابهم من الهزال والشحوب وتغير ظاهرهم عما كانوا عليه من قبل كاللباس لهم (والخوف) يعني بعوث النبي صلى الله عليه وسلم وسراياه التي كانت تطيف بهم

يحذرهم أن يصنعوا مثل صنيعهم فيصيبهم ما أصابهم من الجوع والخوف ويشهد لصحة ما قلت أن الخوف المذكور في هذه الآية في قوله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف هو البعوث والسرايا التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يبعثها في قول جميع المفسرين لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بالقتال وهو بمكة وإنما أمر بالقتال لما هاجر إلى المدينة فكان يبعث البعوث والسرايا إلى حول مكة يخوفهم بذلك وهو بالمدينة والله أعلم بمراده وأما تفسير قوله تعالى وضرب الله مثلا قرية يعني مكة (كانت آمنة) يعني ذات أمن لايهاج أهلها ولا يغار عليهم (مطمئنة) يعني قارة بأهلها لايحتاجون إلى الانتقال عنها للانتجاع كما كان يحتاجون إليه سائر العرب (يأتيها رزقها رغدا) يعني واسعا (من كل مكان) يعني يحمل إليها الرزق والميرة من البر والبحر نظيره قوله سبحانه وتعالى تجبى إليه ثمرات كل شيء وذلك بدعوة إبراهيم ﷺ وهو قوله «وارزق أهله من الثمرات» (فكفرت) يعني هذه القرية والمراد أهلها (بأنعم الله) جمع نعمة والمراد بها سائر النعم التي أنعم الله بها على أهل مكة فلما قابلوا نعم الله التي أنعم بها عليهم بالجحود والكفر لاجرم أن الله تعالى انتقم منهم فقال تعالى (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) وذلك أن الله سبحانه وتعالى ابتلاهم بالجوع سبع سنين فقطع عنهم المطر وقطعت عنهم العرب الميرة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جهدوا فأكلوا العظام المحرقة والجيف والكلاب والميتة والعهن وهو الوبر يعالج بالدم ويخلط به حتى يؤكل حتى كان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع ثم إن رؤساء مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك وقالوا ما هذا هبك عاديت الرجال فما بال النساء والصبيان فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس في حمل الطعام إليهم وهم بعد مشركون والخوف يعني خوف بعوث النبي صلى الله عليه وسلم وسراياه التي كان يبعثها للاغارة فكانت تطيف بهم وتغير على من حولهم من العرب فكان أهل مكة يخافونهم . فان قلت الإذاقة واللباس استعارتان فما وجه صحتهما والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار فما وجه صحة إيقاعها عليه وهو أن اللباس لايذاق بل يلبس فيقال كساهم الله لباس الجوع أو يقال فأذاقهم الله طعم الجوع قلت قال صاحب الكشاف أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمس الناس منها فيقولون ذاق فلان البؤس والضر وأذاقه العذاب شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المر البشع وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس ما غشي الإنسان والتبس به من بعض الحوادث وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس فكأنه قيل فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف ثم ذكر بعده من علم المعاني والبيان ما يشهد لصحة ما قال وقال الإمام فخر الدين الرازي جوابه من وجوه الأول أن الأحوال التي حصلت لهم عند الجوع نوعان أحدهما أن المذوق هو الطعام فلما فقدوا الطعام صاروا كأنهم يذوقون الجوع والثاني أن ذلك الجوع كان شديدا كاملا فصار كأنه أحاط بهم من كل الجهات فأشبه اللباس والحاصل أنه حصل لهم في ذلك الجوع حالة تشبه المذوق وحالة تشبه الملبوس فاعتبر الله كلا الاعتبارين فقال فأذاقها الله لباس الجوع والخوف الوجه الثاني أن التقدير إن الله عرفها أثر لباس الجوع والخوف إلا أنه تعالى عبر عن التعريف بلفظ الإذاقة وأصل الذوق بالفم ثم قد يستعار فيوضع موضع التعرف وهو الاختبار تقول

ناظر غلانا وذق ماعنده قال الشاعر :

ومن يذق الدنيا فانى طعمتها   وسيق إلينا عذبها وعذابها

ولباس الجوع والخوف ماظهر عليهم من الضمور وشحوب اللون ونهكة البدن وتغير الحال وكسوف البال كما تقول تعرفت سوء أثر الجوع والخوف على فلان كذلك يجوز أن تقول ذقت لباس الجوع والخوف على فلان . الوجه الثالث أن يحمل لفظ الذوق واللبس على المماسة فصار التقدير فأذاقها الله مساس الجوع والخوف ثم قال تعالى (بما كانوا يصنعون) ولم يقل بما صنعت لأنه أراد أهل القرية والمعنى فعلنا بهم مافعلنا بسبب ما كانوا يصنعون وهذا مثل أهل مكة لأنهم كانوا فى الأمن والطمأنينة والخصب ثم أنعم الله عز وجل عليهم بالنعمة العظيمة وهى إرسال محمد صلى الله عليه وسلم وهومنهم فكفروا به وكذبوه وبالغوا فى إيذائه وأرادوا قتله فأخرجه الله من بينهم وأمره بالهجرة إلى المدينة وسلط على أهل مكة البلاء والشدائد والجوع والخوف كل ذلك بسبب تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخروجه من بين أظهرهم . قوله سبحانه وتعالى (ولقد جاءهم) يعنى أهل مكة (رسول منهم) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم يعرفون نسبه ويعرفونه قبل النبوة وبعدها (فكذبوه فأخذهم العذاب) يعنى الجوع والخوف وقيل القتل يوم بدر والقول الأول أولى لما تقدم فى الآية (وهم ظالمون) يعنى كافرون (فكلوا مما رزقكم الله) فى المخاطبين بهذا قولان أحدهما أنهم المسلمون وهوقول جمهور المفسرين والثانى أنهم هم المشركون من أهل مكة قال الكلبى لما اشتد الجوع بأهل مكة كلم رؤساؤهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا إنك إنما عاديت الرجال فما بال النساء والصبيان فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس أن يحملوا الطعام إليهم حكاه الواحدى وغيره والقول الأول هو الصحيح قال ابن عباس فكلوا يامعشر المؤمنين مما رزقكم الله يريد الغنائم (حلالا طيبا) يعنى أن الله سبحانه وتعالى أحل الغنائم لهذه الأمة وطيبها لهم ولم تحل لأحد قبلهم (واشكروا نعمة الله) يعنى التى أنعم بها عليكم (إن كنتم إياه تعبدون إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم) تقدم تفسير هذه الآية وأحكامها فى سورة البقرة فلم نعده هنا وقوله تعالى (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب) يعنى ولا تقولوا لأجل وصفكم الكذب (هذا حلال وهذا حرام) يعنى أنكم تحلون وتحرمون لأجل الكذب لا لغيره فليس لتحليلكم وتحريمكم معنى وسبب إلا الكذب فقط فلا تفعلوا ذلك قال مجاهد يعنى البحيرة والسائبة وقال ابن عباس يعنى قولهم مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وذلك أن العرب فى الجاهلية كانوا يحلون أشياء ويحرمون أشياء من عند أنفسهم وينسبون ذلك إلى الله تعالى وهو قوله تعالى (لتفتروا على الله الكذب) يعنى لاتقولوا إن الله أمرنا بذلك فتكذبوا على الله لأن وصفهم الكذب هو افتراء على الله ثم توعد المفترين للكذب فقال سبحانه وتعالى (إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون) يعنى لاينجون من العذاب وقيل لايفوزون بخير لأن الفلاح هو الفوز بالخير والنجاح ثم بين أن ماهم فيه من نعيم الدنيا يزول عنهم عن قريب فقال تعالى (متاع قليل) يعنى متاعهم فى الدنيا متاع قليل فانه لا بقاء له (ولهم عذاب أليم) يعنى فى الآخرة (وعلى الذين هادوا) يعنى اليهود (حرمنا ماقصصنا عليك من قبل) يعنى ماسبق ذكره وبيانه فى سورة الأنعام وهو قوله

(بما كانوا يصنعون ولقد جاءهم رسول منهم) محمد صلى الله عليه وسلم (فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم) قوله تعالى (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب) أى لا تقولوا لوصف ألسنتكم أو لأجل وصفكم الكذب أى أنكم تحلون وتحرمون لأجل الكذب لا لغيره (هذا حلال وهذا حرام) يعنى البحيرة والسائبة (لتفتروا على الله الكذب) فتقولون إن الله أمرنا بهذا (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) لاينجون من عذاب الله (متاع قليل) يعنى الذى هم فيه متاع قليل أو لهم متاع قليل فى الدنيا (ولهم عذاب أليم) فى الآخرة (وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل) يعنى فى سورة الأنعام وهو قوله تعالى وعلى

فحرمنا عليهم ببغيهم (ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا) يعنى بالإصلاح الاستقامة على التوبة (إن ربك من بعدها) أى من بعد الجهالة (لغفور رحيم) قوله تعالى (إن إبراهيم كان أمة) قال ابن مسعود الأمة معلم الخير أى كان معلم الخير يأتم به أهل الدنيا وقد اجتمع فيه من الخصال الحميدة ما اجتمع فى أمة . قال مجاهد كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفار قال قتادة ليس من أهل دين إلا يتولونه ويرضونه (قانتا لله) مطيعا له وقيل قائما بأوامر الله تعالى (حنيفا) مستقيما على دين الإسلام وقيل مخلصا (ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه) اختاره (وهداه إلى صراط مستقيم) أى إلى دين الحق (وآتيناه فى الدنيا حسنة) يعنى الرسالة والخلة وقيل لسان الصدق والثناء الحسن وقال مقاتل بن حيان يعنى الصلاة عليه فى قول هذه الأمة اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم وقيل أولادا أبرارا على الكبر

تعالى « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر » الآية (وما ظلمناهم) يعنى بتحريم ذلك عليهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) يعنى إنما حرمنا عليهم ماحرمنا بسبب بغيهم وظلمهم أنفسهم ونظيره قوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم . وقوله تعالى (ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة) المقصود من هذه الآية بيان فضل الله وكرمه وسعة مغفرته ورحمته لأن السوء لفظ جامع لكل فعل قبيح فيدخل تحته الكفر وسائر المعاصى وكل مالا ينبغى وكل من عمل السوء فانما يفعله بالجهالة لأن العاقل لايرضى بفعل القبيح فمن صدر عنه فعل قبيح من كفر أو معصية فانما يصدر عنه بسبب جهله إما لجهله بقدر مايترتب عليه من العقاب أو لجهله بقدر من يعصيه فثبت بهذا إن فعل السوء إنما يفعل بجهالة ثم إن الله تعالى وعد من عمل سوأ بجهالة ثم تاب وأصلح العمل فى المستقبل أن يتوب عليه ويرحمه وهو قوله تعالى ثم تابوا من بعد ذلك يعنى من بعد عمل ذلك السوء (وأصلحوا) يعنى أصلحوا العمل فى المستقبل وقيل معنى الإصلاح الاستقامة على التوبة (إن ربك من بعدها) يعنى من بعد عمل السوء بالجهالة والتوبة منه (لغفور) يعنى لمن تاب وآمن (رحيم) يعنى بجميع المؤمنين والتائبين . قوله سبحانه وتعالى (إن إبراهيم كان أمة) حكى ابن الجوزى عن ابن الأنبارى أنه قال هذا مثل قول العرب فلان رحمة وفلان علامة ونسابة يقصدون بهذا التأنيث قصد التناهى فى المعنى الذى يصفونه به والعرب توقع الأسماء المبهمة على الجماعة وعلى الواحد كقوله تبارك وتعالى « فنادته الملائكة » وإنما ناداه جبريل وحده وإنما سمى إبراهيم صلى الله عليه وسلم أمة لأنه اجتمع فيه من صفات الكمال وصفات الخير والأخلاق الحميدة مااجتمع فى أمة ومنه قول الشاعر :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

ثم للمفسرين فى معنى هذه اللفظة أقوال أحدها قول ابن مسعود الأمة معلم الخير يعنى أنه كان معلما للخير يأتم به أهل الدنيا الثانى قال مجاهد إنه كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفار فلهذا المعنى كان أمة واحدة ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فى زيد بن عمرو بن نفيل « يبعثه الله أمة وحده » وإنما قال فيه هذه المقالة لأنه كان قد فارق الجاهلية وما كانوا عليه من عبادة الأصنام الثالث قال قتادة ليس من أهل دين إلا وهم يتولونه ويرضونه وقيل الأمة فعلة بمعنى مفعولة وهو الذى يؤتم به وكان إبراهيم عليه السلام إماما يقتدى به دليله قوله سبحانه وتعالى « إنى جاعلك للناس إماما » وقيل إنه عليه السلام هو السبب الذى لأجله جعلت أمته ومن تبعه ممتازين عمن سواهم بالتوحيد لله والدين الحق وهو من باب إطلاق المسبب على السبب وقيل إنما سمى إبراهيم عليه السلام أمة لأنه قام مقام أمة فى عبادة الله (قانتا لله) يعنى مطيعا لله وقيل هو القائم بأوامر الله (حنيفا) مسلما يعنى مقيما على دين الإسلام لايميل عنه ولا يزول وهو أول من اختتن وضحى وأقام مناسك الحج (ولم يك من المشركين) يعنى أنه عليه السلام كان من الموحدين المخلصين من صغره إلى كبره (شاكر الأنعمه) يعنى أنه كان شاكرا لله على أنعمه التى أنعم بها عليه (اجتباه) أى اختاره لنبوته واصطفاه لخلته (وهداه إلى صراط مستقيم) يعنى هداه إلى دين الإسلام لأنه الصراط المستقيم والدين القويم (وآتيناه فى الدنيا حسنة) يعنى الرسالة والخلة وقيل هى لسان الصدق والثناء الحسن والقبول العام فى جميع الأمم فان الله حببه إلى جميع خلقه فكل أهل الأديان يتولونه المسلمون واليهود والنصارى ومشركوا العرب وغيرهم وقيل هو قول المصلى فى التشهد

مع آبائه الصالحين فى الجنة وفى الآية تقديم وتأخير مجازه وآتيناه فى الدنيا والآخرة حسنة وإنه لمن الصالحين (ثم أوحينا إليك) يا محمد (أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا) حاجا مسلما (وما كان من المشركين) وقال أهل الأصول كان النبى صلى الله عليه وسلم مأمورا بشريعة إبراهيم إلا ما نسخ فى شريعته وما لم ينسخ صار شرعا قوله تعالى (إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) أى خالفوا فيه قيل معناه إنما جعل السبت لعنة على الذين اختلفوا فيه وقيل معناه ما فرض الله تعظيم السبت وتحريمه إلا على الذين اختلفوا فيه يعنى اليهود فقال قوم هو أعظم الأيام لأن الله تعالى فرغ من خلق الأشياء يوم الجمعة ثم سبت يوم السبت وقال قوم بل أعظم الأيام يوم الأحد لأن الله تعالى ابتدأ فيه خلق الأشياء فاختاروا تعظيم غير ما فرض الله عليهم وقد افترض عليهم تعظيم يوم الجمعة . قال الكلبى أمرهم موسى بالجمعة فقال تفرغوا لله فى كل سبعة أيام يوما فاعبدوه يوم الجمعة ولا تعملوا فيه لصنعتكم وستة أيام لصناعتكم

فى التشهد اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وقيل إنه آتاه أولادا أبرارا على الكبر (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) يعنى فى أعلى مقامات الصالحين فى الجنة وقيل معناه وإنه فى الآخرة لمع الصالحين يعنى الأنبياء فى الجنة فتكون من بمعنى مع ولما وصف الله عز وجل إبراهيم عليه السلام بهذه الصفات الشريفة العالية أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم باتباعه فقال تعالى (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم) يعنى دينه وما كان عليه من الشريعة والتوحيد قال أهل الأصول كان النبى صلى الله عليه وسلم مأمورا بشريعة إبراهيم إلا ما نسخ منها وما لم ينسخ صار شرعا له وقال أبو جعفر الطبرى أمره باتباعه فى التبرى من الأوثان والتدين بدين الإسلام وهو قوله (حنيفا) مسلما (وما كان من المشركين) تقدم تفسيره وقوله تعالى (إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) يعنى إنما فرض تعظيم السبت على الذين اختلفوا فيه وهم اليهود روى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال أمرهم موسى بتعظيم يوم الجمعة فقال تفرغوا لله فى كل سبعة أيام يوما فاعبدوه فى يوم الجمعة ولا تعملوا فيه شيئا من صنعتكم وستة أيام لصنعتكم فأبوا عليه وقالوا لا نريد إلا اليوم الذى فرغ الله فيه من الخلق وهو يوم السبت فجعل ذلك اليوم عليهم وشدد عليهم فيه ثم جاءهم عيسى عليه السلام أيضا بيوم الجمعة فقالت النصارى لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا يعنون اليهود فاتخذوا الأحد فأعطى الله عز وجل الجمعة لهذه الأمة فقبلوها فبورك لهم فيها (ق) عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا فاختلفوا فيه وأوتيناه من بعدهم فهذا يومهم الذى فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له فهم لنا فيه تبع فغدا لليهود وبعد غد للنصارى» وفى رواية لمسلم «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة» وفى رواية أخرى له قال «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا فكان لليهود يوم السبت وللنصارى يوم الأحد فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة فجعل الجمعة والسبت والأحد وكذلك هم لنا تبع يوم القيامة نحن الآخرون فى الدنيا الأولون يوم القيامة المقضى لهم قبل الخلائق» قال الشيخ محيى الدين النووى فى شرح مسلم قال العلماء فى معنى الحديث نحن الآخرون فى الزمان والوجود السابقون فى الفضل ودخول الجنة فتدخل هذه الأمة الجنة قبل سائر الأمم وقوله بيد أنهم يعنى غير أنهم أو إلا أنهم وقوله فهذا يومهم الذى فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له قال القاضى عياض الظاهر أنه فرض عليهم تعظيم يوم الجمعة بغير تعيين ووكل إلى اجتهادهم لإقامة شرائعهم فيه فاختلف أحبارهم فى تعيينه ولم يهدهم الله له وفرضه على هذه الأمة مبينا ولم يكلهم إلى اجتهادهم ففازوا بفضيلته قال يعنى القاضى عياضا وقد جاء أن موسى عليه السلام أمرهم بيوم الجمعة وأعلمهم بفضله فناظروه أن السبت أفضل فقيل له دعهم قال القاضى ولو كان منصوصا عليه لم يصح اختلافهم فيه بل كان يقول خالفوا فيه قال الشيخ محيى الدين النووى ويمكن أن يكونوا أمروا به صريحا ونص على عينه فاختلفوا فيه هل يلزم تعيينه أم لهم إبداله فأبدلوه وغلطوا فى إبداله قال الإمام فخر الدين الرازى فى قوله تعالى «على الذين اختلفوا فيه» يعنى على نبيهم موسى حيث أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت فاختلافهم فى السبت كان اختلافا على نبيهم فى ذلك اليوم أى لأجله وليس معنى قوله اختلفوا فيه أن اليهود اختلفوا فمنهم من قال

فأبوا وقالوا لانريد إلااليوم الذى فرغ الله فيه من الخلق يوم السبت فجعل ذلك اليوم عليهم وشدد عليهم فيه ثم جاءهم عيسى عليه السلام بيوم الجمعة فقالوا لانريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا يعنون اليهود فاتخذوا الأحد فأعطى

الله الجمعة هذه الأمة فقبلوها وبورك لهم فيها أخبرنا أبو على حسان ابن سعيد المنيعى أنا أبوطاهر محمد بن محمد ابن محمش الزيادى ثنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان ثنا أحمد بن يوسف السلمى أنبأنا عبد الرزاق أنا معمر عن همام بن منبه قال ثنا أبو هريرة عن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ثم هذا يومهم الذى فرض الله عليهم يعنى يوم الجمعة فاختلفوا فيه فهدانا الله له والناس لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعدغد» قال الله تعالى «إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه» قال قتادة الذين اختلفوا فيه هم اليهود، استحله بعضهم وحرمه بعضهم (وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ادع إلى سبيل ربك بالحكمة) بالقرآن (والموعظة الحسنة) يعنى مواعظ القرآن وقيل الموعظة الحسنة هى الدعاء إلى الله بالترغيب والترهيب وقيل هو قول اللين من الرقيق من غير تغليظ ولا تعنيف (وجادلهم بالتى هى أحسن) وخاصمهم وناظرهم بالخصومة التى هى أحسن أى أعرض عن

بالسبت ومنهم من لم يقل به لأن اليهود اتفقوا على ذلك وزاد الواحدى على هذا فقال وهذا مما أشكل على كثير من المفسرين حتى قال بعضهم معنى الاختلاف فى السبت أن بعضهم قال هو أعظم الأيام حرمة لأن الله فرغ فيه من خلق الأشياء وقال الآخرون بل الأحد أفضل لأن الله سبحانه وتعالى ابتدأ فيه بخلق الأشياء وهذا غلط لأن اليهود لم يكونوا فريقين فى السبت وإنما اختار الأحد النصارى بعدهم بزمان طويل . فان قلت إن اليهود إنما اختاروا السبت لأن أهل الملل اتفقوا على أن الله خلق الخلق فى ستة أيام وبدأ بالخلق والتكوين فى يوم الأحد وتم الخلق يوم الجمعة وكان يوم السبت يوم فراغ فقالت اليهود نحن نوافق ربنا فى ترك العمل فى هذا اليوم فاختاروا السبت لهذا المعنى وقالت النصارى إنما بدأ بخلق الأشياء فى يوم الأحد فنحن نجعل هذا اليوم عيدا لنا وهذان الوجهان معقولان فما وجه فضل يوم الجمعة حتى جعله أهل الإسلام عيدا . قلت يوم الجمعة أفضل الأيام لأن كمال الخلق وتمامه كان فيه وحصول التمام والكمال يوجب الفرح والسرور فجعل يوم الجمعة عيدا بهذا الوجه وهو أولى ووجه آخر وهو أن الله عز وجل خلق فيه أشرف خلقه وهو آدم عليه السلام وهو أبو البشر وفيه تاب عليه فكان يوم الجمعة أشرف الأيام لهذا السبب ولأن الله سبحانه وتعالى اختار يوم الجمعة لهذه الأمة وادخره لهم ولم يختاروا لأنفسهم شيئا وكان مااختاره الله لهم أفضل مما اختاره غيرهم لأنفسهم وقال بعض العلماء بعث الله موسى بتعظيم يوم السبت ثم نسخ بيوم الأحد فى شريعة عيسى عليه السلام ثم نسخ يوم السبت ويوم الأحد بيوم الجمعة فى شريعة محمد صلى الله عليه وسلم فكان أفضل الأيام يوم الجمعة كما أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء وفى معنى الآية قول آخر قال قتادة الذين اختلفوا فيه اليهود استحله بعضهم وحرمه بعضهم فعلى هذا القول يكون معنى قوله إنما جعل السبت أى وبال السبت ولعنته على الذين اختلفوا فيه وهم اليهود فأحله بعضهم فاصطادوا فيه فلعنوا ومسخوا قردة وخنازير فى زمن داود عليه السلام وقد تقدمت القصة فى تفسير سورة الأعراف وبعضهم ثبت على تحريمه فلم يصطد فيه شيئا وهم الناهون والقول الأول أقرب إلى الصحة . وقوله تعالى (وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) يعنى فى أمر السبت فيحكم الله بينهم يوم القيامة فيجازى المحققين بالثواب والمبطلين بالعقاب . قوله عز وجل (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) يعنى ادع إلى دين ربك يامحمد وهو دين الإسلام بالحكمة يعنى بالمقالة المحكمة الصحيحة وهى الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة والموعظة الحسنة يعنى وادعهم إلى الله بالترغيب والترهيب وهو أنه لايخفى عليهم أنك تناصحهم وتقصد ماينفعهم (وجادلهم بالتى هى أحسن) يعنى بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ولاتعنيف وقيل إن الناس اختلفوا وجعلوا ثلاثة أقسام القسم الأول هم العلماء الكاملون أصحاب العقول الصحيحة والبصائر الثاقبة الذين يطلبون معرفة الأشياء على حقائقها فهؤلاء المشار إليهم بقوله «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة» يعنى ادعهم بالدلائل القطعية اليقينية حتى يعلموا الأشياء بحقائقها حتى ينتفعوا وينفعوا الناس وهم خواص العلماء

من الصحابة وغيرهم . القسم الثانى هم أصحاب الفطرة السليمة والخلقة الأصلية وهم غالب الناس الذين لم يبلغوا حد الكمال ولم ينزلوا إلى حضيض النقصان فهم أوساط الأقسام وهم المشار إليهم بقوله والموعظة الحسنة أى ادع هؤلاء بالموعظة الحسنة القسم الثالث هم أصحاب جدال وخصام ومعاندة وهؤلاء المشار إليهم بقوله وجادلهم بالتى هى أحسن حتى ينقادوا إلى الحق ورجعوا إليه وقيل المراد بالحكمة القرآن يعنى ادعهم بالقرآن الذى هو حكمة وموعظة حسنة وقيل المراد بالحكمة النبوة أى ادعهم بالنبوة والرسالة والمراد بالموعظة الحسنة الرفق واللين فى الدعوة وجادلهم بالتى هى أحسن أى أعرض عن أذاهم ولا تقصر فى تبليغ الرسالة والدعاء إلى الحق فعلى هذا القول قال بعض علماء التفسير هذا منسوخ بآية السيف (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) يعنى إنما عليك يا محمد تبليغ ما أرسلت به إليهم ودعاؤهم بهذه الطرق الثلاثة وهو أعلم بالفريقين الضال والمهتدى فيجازى كل عامل بعمله قوله سبحانه وتعالى (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) نزلت هذه الآية بالمدينة فى سبب شهداء أحد وذلك أن المسلمين لما رأوا ما فعل المشركون بقتلى المسلمين يوم أحد من تبقير البطون والمثلة السيئة حتى لم يبق أحد من قتلى المسلمين إلا مثل به غير حنظلة بن أبى عامر الراهب وذلك أن أباه أبا عامر الراهب كان مع أبى سفيان فتركوا حنظلة لذلك فقال المسلمون حين رأوا ذلك لئن أظهرنا الله عليهم لنربين على صنيعهم ولنمثلن بهم مثلة لم يفعلها أحد من العرب بأحد ووقف رسول الله ﷺ على عمه حمزة بن عبد المطلب وقد جدعوا أنفه وآذانه وقطعوا مذاكيره وبقروا بطنه وأخذت هند بنت عتبة قطعة من كبده فمضغتها ثم استرطبتها لتأكلها فلم تنزل فى بطنها حتى رمت بها فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال «أما إنها لو أكلتها لم تدخل النار أبدا حمزة أكرم على الله من أن يدخل شيئا من جسده النار فلما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمه حمزة نظر إلى شىء لم ينظر إلى شىء قط كان أوجع لقلبه منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة الله عليك فانك ما علمنا ما كنت إلا فعالا للخيرات وصولا للرحم ولولا حزن من بعدك عليك لسرنى أن أدعك حتى تحشر من أفواج شتى أما والله لئن أظفرنى الله بهم لأمثلن بسبعين منهم مكانك فأنزل الله عز وجل «وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به» الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نصبر وأمسك عما أراد وكفر عن يمينه » عن أبى بن كعب قال لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلا ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم فقالت الأنصار لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربين عليهم قال فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله عز وجل «وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » فقال رجل لا قريش بعد اليوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كفوا عن القوم إلا أربعة» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب وأما تفسير الآية فقوله تعالى «وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » سمى الفعل الأول باسم الثانى للمزاوجة فى الكلام والمعنى إن صنع بكم سوء من قتل أو مثلة ونحوها فقابلوه بمثله ولا تزيدوا عليه فهو كقوله « وجزاء سيئة سيئة مثلها » أمر الله برعاية العدل والإنصاف فى هذه الآية فى باب استيفاء الحقوق يعنى إن رغبتم فى استيفاء القصاص فاقتصوا بالمثل ولا تزيدوا عليه فان استيفاء الزيادة ظلم والظلم ممنوع منه فى عدل الله وشرعه ورحمته وفى الآية

أذاهم ولا تقصر فى تبليغ الرسالة والدعاء إلى الحق نسختها آية القتال (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) هذه الآيات نزلت بالمدينة فى شهداء أحد وذلك أن المسلمين لما رأوا ما فعل المشركون بقتلاهم يوم أحد من تبقير البطون والمثلة السيئة حتى لم يبق أحد من قتلى المسلمين إلا مثل به غير حنظلة بن الراهب فان أباه أبا عامر الراهب كان مع أبى سفيان فتركوا حنظلة لذلك فقال المسلمون حين رأوا ذلك لئن أظهرنا الله عليهم لنزيدن على صنيعهم ولنمثلن بهم مثلة لم يفعلها أحد من العرب بأحد فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمه حمزة بن عبد المطلب وقد جدعوا أنفه وأذنه وقطعوا مذاكيره وبقروا بطنه وأخذت هند بنت عتبة قطعة من كبده فمضغتها ثم استرطبتها لتأكلها فلم تلبث فى بطنها حتى رمت بها فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال « أما أنها لو أكلتها لم تدخل النار أبدا إن حمزة أكرم على الله تعالى من أن يدخل شيئا من جسده النار » فلما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حمزة نظر إلى شىء لم ينظر

إلى شيء قط كان أوجع لقلبه منه فقال النبي صلى الله عليه وسلم رحمة الله عليك أبا السائب فإنك ما علمتك إلا فعالا للخيرات وصولا للرحم ولولا حزن من بعدك عليك لسرني أن أدعك حتى تحشر من أفواج شتى أما والله لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين منهم مكانك فأنزل الله (١٢٦) تعالى وإن عاقبتم فعاقبوا الآية (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) أي ولئن عفوتم لهو خير للعافين فقال النبي صلى الله عليه وسلم بلى نصبر وأمسك عما أراد وكفر عن يمينه قال ابن عباس والضحاك كان هذا قبل نزول براءة حين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتال من قاتله ومنع من الابتداء بالقتال فلما أعز الإسلام وأهله نزلت براءة وأمروا بالجهاد ونسخت هذه الآية قال النخعي والثوري ومجاهد وابن سيرين الآية محكمة نزلت في من ظلم بظلامة فلا يحل له أن ينال من ظالمه أكثر مما نال الظالم منه أمر بالجزاء والعفو ومنع من الاعتداء ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم (واصبر وما صبرك إلا بالله) أي بمعونة الخالق وتوفيقه (ولا تحزن عليهم) في إعراضهم عنك (ولا تك في ضيق مما يمكرون) أي مما فعلوا من الأفاعيل قرأ ابن كثير هاهنا وفي النمل ضيق بكسر الضاد وقرأ الآخرون بفتح الضاد قال أهل الكوفة هما لغتان مثل رطل ورطل وقال أبو عمرو الضيق بالفتح الغم وبالكسر الشدة وقال أبو عبيدة الضيق بالكسر في قلة المعاش وفي المساكن فأما ما كان في القلب والصدر فإنه بالفتح وقال ابن قتيبة الضيق تخفيف ضيق مثل هين وهين ولين ولين فعلى هذا هو صفة كأنه قال ولا تكن في أمر ضيق من مكرهم (إن الله مع الذين اتقوا) المناهي (والذين هم محسنون) بالعون والنصرة.

دليل على أن الأولى ترك استيفاء القصاص وذلك بطريق الإشارة والرمز والتعريض بأن الترك أولى فإن كان لابد من استيفاء القصاص فيكون من غير زيادة عليه بل يجب مراعاة المماثلة ثم انتقل من طريق الإشارة إلى طريق التصريح فقال تعالى (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) يعني ولئن عفوتم وتركتم استيفاء القصاص وصبرتم كان ذلك العفو والصبر خيرا منكم استيفاء القصاص وفيه أجر للصابرين والعافين.

(فصل)

اختلف العلماء هل هذه الآية منسوخة أم لا على قولين أحدهما أنها نزلت قبل براءة فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقاتل من قاتله ولا يبدأ بالقتال ثم نسخ ذلك وأمر بالجهاد وهذا قول ابن عباس والضحاك فعلى هذا يكون معنى قوله ولئن صبرتم عن القتال فلما أعز الله الإسلام وكثر أهله أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالجهاد ونسخ هذا بقوله اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم الآية القول الثاني أنها أحكمت وأنها نزلت فيمن ظلم ظلامة فلا يحل له أن ينال من ظالمه أكثر مما نال منه الظالم وهذا قول مجاهد والشعبي والنخعي وابن سيرين والثوري قال بعضهم الأصح أنها محكمة لأن الآية واردة في تعليم حسن الأدب في كيفية استيفاء الحقوق وفي القصاص وترك التعدي وهو طلب الزيادة وهذه الأشياء لاتكون منسوخة فلا تعلق لها بالنسخ والله أعلم. قوله عز وجل (واصبر وما صبرك إلا بالله) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر وأعلمه أن صبره بتوفيقه ومعونته (ولا تحزن عليهم) يعني على الكافرين وإعراضهم عنك وقيل معنى الآية ولا تحزن على قتلى أحد وما فعل بهم فإنهم أفضوا إلى رحمة الله ورضوانه (ولا تك في ضيق مما يمكرون) يعني ولا يضيقن صدرك يا محمد بسبب مكرهم فإن الله كافيك وناصرك عليهم قرئ في ضيق بفتح الضاد وكسرها فقيل لغتان وقال أبو عمرو الضيق بالفتح الغم وبالكسر الشدة وقال أبو عبيد الضيق بالكسر في قلة المعاش وفي المسكن وإما ما كان في القلب والصدر فإنه بالفتح وقال القتيبي الضيق تخفيف ضيق مثل هين وهين ولين ولين فعلى هذا يكون صفة كأنه قال سبحانه وتعالى ولا تك في أمر ضيق من مكرهم قال الإمام فخر الدين الرازي هذا الكلام من المقلوب لأن الضيق صفة والصفة تكون حاصلة في الموصوف ولا يكون الموصوف حاصلا في الصفة فكان المعنى فلا يكن الضيق حاصلا فيك إلا أن الفائدة في قوله ولا تك في ضيق هي أن الضيق إذا عظم وقوي صار كالشيء المحيط بالإنسان من كل جانب كالقميص المحيط به فكانت الفائدة في ذكر هذا اللفظ بهذا المعنى (إن الله مع الذين اتقوا) أي اتقوا المثلة والزيادة في القصاص وسائر المناهي (والذين هم محسنون) يعني بالعفو عن الجاني وهذه المعية بالعون والفضل والرحمة يعني إن أردت أيها الإنسان أن أكون معك بالعون والفضل والرحمة فكن من المتقين المحسنين وفي هذا إشارة إلى التعظيم لأمر الله والشفقة

على

على خلق الله قال بعض المشايخ كمال الطريق صدق مع الحق وخلق مع الخلق وكمال الإنسان أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل أن يعمل به وقيل لهرم بن حيان عند الموت أوص فقال إنما الوصية فى المال ولا مال لى ولكنى أوصيك بخواتيم سورة النحل والله أعلم بمراده وأسرار كتابه .

(تفسير سورة الإسراء)

(فصل فى نزولها)

قال ابن الجوزى هى مكية فى قول الجماعة إلا أن بعضهم يقول فيها مدنى فروى عن ابن عباس أنه قال هى مكية إلا ثمان آيات من قوله سبحانه وتعالى وإن كادوا ليفتنونك إلى قوله نصيرا وهذا قول قتادة وقال مقاتل فيها من المدنى وقل رب أدخلنى مدخل صدق ـ الآية وقوله تعالى إن الذين أوتوا العلم من قبله ـ وقوله إن ربك أحاط بالناس ـ وقوله تعالى وإن كادوا ليفتنونك ـ وقوله تعالى ولولا أن ثبتناك والتى تليها ـ وهى مائة وعشر آيات وقيل وإحدى عشرة آية وخمسمائة وثلاث وثلاثون كلمة وثلاثة آلاف وأربعمائة وستون حرفا .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا) روى ابن الجوزى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن تفسير سبحان الله فقال تنزيه الله عن كل شيء هكذا ذكره بغير سند وقال النحويون سبحان اسم علم على التسبيح يقال سبحت الله تسبيحا فالتسبيح هو المصدر وسبحان الله علم للتسبيح وتفسير سبحان الله تنزيه الله عن كل سوء ونقيصة وأصله فى اللغة التباعد فمعنى سبحان الله بعده ونزاهته عن كل ما لا ينبغى «الذى أسرى» يقال سرى به وأسرى به لغتان «بعبده» أجمع المفسرون والعلماء والمتكلمون أن المراد به محمد صلى الله عليه وسلم لم يختلف أحد من الأمة فى ذلك وقوله بعبده أضافة تشريف وتعظيم وتبجيل وتفخيم وتكريم ومنه قول بعضهم :

لا تدعنى إلا بيا عبدها فانه أشرف أسمائى

قيل لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الدرجات العالية والرتب الرفيعة ليلة المعراج أوحى الله عز وجل إليه يا محمد بم شرفتك قال رب حيث نسبتنى إلى نفسك بالعبودية فأنزل الله سبحانه وتعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا . فان قلت الإسراء لا يكون إلا بالليل فما معنى ذكر الليل . قلت أراد بقوله ليلا بلفظ التنكير تقليل مدة الإسراء وأنه أسرى به فى بعض ليلة من مكة إلى الشام مسيرة شهر أو أكثر فدل تنكير الليل على البعضية (من المسجد الحرام) قيل كان الإسراء من نفس مسجد مكة وفى حديث مالك بن صعصعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «قال بينا أنا فى المسجد الحرام فى الحجر» وذكر حديث المعراج وسيأتى بكماله فيما بعد وقيل عرج به من دار أم هانىء بنت أبى طالب وهى بنت عمه أخت على رضى الله تعالى عنه فعلى هذا أراد بالمسجد الحرام الحرم (إلى المسجد الأقصى) يعنى إلى بيت المقدس سمى أقصى لبعده عن المسجد الحرام أو لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد (الذى باركنا حوله) يعنى بالأنهار والأشجار والثمار وقيل سماه مباركا لأنه مقر الأنبياء ومهبط الملائكة والوحى وقبلة الأنبياء قبل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وإليه تحشر الخلق يوم القيامة . فان قلت ظاهر الآية يدل على

(سبحان الذى أسرى بعبده ليلا) سبحان الله تنزه الله تعالى من كل سوء ووصف بالبراءة من كل نقص على طريق المبالغة وتكون سبحان بمعنى التعجب أسرى بعبده أى سيره وكذلك سرى به والعبد هو محمد صلى الله عليه وسلم (من المسجد الحرام) قيل كان الإسراء من مسجد مكة روى قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بينا أنا فى المسجد الحرام فى الحجر بين النائم واليقظان إذ أتانى جبريل بالبراق فذكر حديث المعراج وقال قوم عرج به من دار أم هانئ بنت أبى طالب ومعنى قوله من المسجد الحرام أى من الحرم قال مقاتل كانت ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ويقال كان فى رجب وقيل كان فى رمضان (إلى المسجد الأقصى) يعنى بيت المقدس وسمى أقصى لأنه أبعد المساجد التى تزار وقيل لبعده من المسجد الحرام (الذى باركنا حوله) بالأنهار والأشجار والثمار وقال مجاهد سماه مباركا لأنه مقر الأنبياء

ومهبط الملائكة والوحي وفيه الصخرة ومنه يحشر الناس يوم القيامة (لنريه من آياتنا) من عجائب قدرتنا وقد رأى هنالك الأنبياء والآيات الكبرى (إنه هو السميع البصير) ذكر السميع لينبه على أنه المجيب لدعائه وذكر البصير لينبه على أنه الحافظ له في ظلمة الليل وروى عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول مافقد جسد النبي صلى الله عليه وسلم ولكن الله أسرى بروحه والأكثرون على أنه أسرى بجسده في اليقظة وتواترت الأخبار الصحيحة على ذلك ، أخبرنا أبو عمرو عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو حامد أحمد بن عبد الله النعيمي أنا أبو عبد الله محمد بن يوسف الفربري ثنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ثنا هدبة بن خالد ثنا همام بن يحيى ثنا قتادة ثنا قال البخاري وقال لي خليفة العصفري ثنا يزيد ابن زريع ثنا سعيد بن هشام قال ثنا قتادة ثنا أنس ابن مالك عن مالك بن صعصعة أن نبي الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة أسرى به ثنا قال البخاري ثنا يحيى بن بكير ثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب عن أنس بن مالك قال : كان أبو ذر يحدث الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حدثنا وأخبرنا أبو سعيد إسماعيل ابن عبد القاهر أنا أبو الحسين عبد الغافر بن محمد الفارسي أنا أبو أحمد محمد بن عيسى الجلودي ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا أبو الحسين مسلم ابن الحجاج ثنا شيبان بن فروخ ثنا حماد بن سلمة ثنا ثابت البناني عن أنس ابن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال دخل حديث بعضهم في بعض قال أبو ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فرج عني سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيمانا فأفرغه في صدري ثم أطبقه ، وقال مالك بن صعصعة أن نبي الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة أسرى به ، قال بينما أنا في الحطيم وربما قال في الحجر بين النائم واليقظان وذكر بين رجلين فأتيت بطست من ذهب مملوء حكمة وإيمانا فشق من النحر إلى مراق البطن واستخرج قلبي فغسل ثم ملىء وقيل حشي ثم أعيد وقال سعيد وهشام ثم غسل البطن بماء زمزم ثم ملىء إيمانا وحكمة ثم أتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل يقع حافره عند منتهى طرفه فركبته فانطلقت مع جبريل حتى أتيت بيت المقدس

أن الإسراء كان إلى بيت المقدس والأحاديث الصحيحة تدل على أنه عرج به إلى السماء فكيف الجمع بين الدليلين وما فائدة ذكر المسجد الأقصى فقط . قلت قد كان الإسراء على ظهر البراق إلى المسجد الأقصى ومنه كان عروجه إلى السماء على المعراج وفائدة ذكر المسجد الأقصى فقط أنه صلى الله عليه وسلم لو أخبر بصعوده إلى السماء أولا لاشتد إنكارهم لذلك فلما أخبر أنه أسرى به إلى بيت المقدس وبان لهم صدقه فيما أخبر به من العلامات التي فيه وصدقوه عليها أخبر بعد ذلك بعروجه إلى السماء فجعل الإسراء إلى المسجد الأقصى كالتوطئة لمعراجه إلى السماء . وقوله تعالى (لنريه من آياتنا) يعني من عجائب قدرتنا فقد رأى محمد صلى الله عليه وسلم في تلك الليلة الأنبياء وصلى بهم ورأى الآيات العظام . فان قلت لفظة من في قوله من آياتنا تقتضي التبعيض وقال في حق إبراهيم عليه السلام وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وظاهر هذا يدل على فضيلة إبراهيم عليه السلام على محمد ﷺ ولا قائل به فما وجهه . قلت ملكوت السموات والأرض من بعض آيات الله أيضا ولآيات الله أفضل من ذلك وأكثر والذي أراه محمدا صلى الله عليه وسلم من آياته وعجائبه تلك الليلة كان أفضل من ملكوت السموات والأرض فظهر بهذا البيان فضل محمد صلى الله عليه وسلم على إبراهيم ﷺ (إنه هو السميع) لأقواله ودعائه (البصير) لأفعاله الحافظة له في ظلمة الليل وقت إسرائه وقيل إنه هو السميع لما قالته له قريش حين أخبرهم بمسراه إلى بيت المقدس (البصير) بما ردوا عليه من التكذيب وقيل إنه هو السميع لأقوال جميع خلقه البصير بأفعالهم فيجازي كل عامل بعمله وحمله على العموم أولى .

(فصل)

في ذكر حديث المعراج وما يتعلق به من الأحكام وما قال العلماء فيه (ق) حدثنا قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن نبي الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة أسرى به قال « بينما أنا في الحطيم وربما قال في الحجر مضطجعا ومنهم من قال بين النائم واليقظان إذ أتاني آت فقد قال وسمعته يقول فشق ما بين هذه إلى هذه فقلت للجارود وهو إلى جنبي ما يعني به قال من ثغرة نحره إلى شعرته وسمعته يقول من قصته إلى شعرته فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانا فغسل قلبي ثم حشي ثم أعيد ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض

قال فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء قال ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل اخترت الفطرة فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح الباب فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال لي هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح وفي حديث أبي ذر علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة إذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى فقال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح قلت لجبريل من هذا قال هذا أبوك آدم وهذه الأسودة التي عن يمينه وشماله نسم بنيه فأهل اليمين منهم أهل الجنة والأسودة التي عن شماله أهل النار فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عن قبل شماله بكى ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت إذا بيحيى بن زكريا وعيسى عليهما السلام وهما ابنا خالة قال هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما فسلمت فردا على السلام ثم قالا مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت فإذا يوسف وإذا هو قد أعطي شطر الحسن قال هذا يوسف فسلم عليه فسلمت عليه فرد علي ثم قال مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت فإذا إدريس قال هذا إدريس فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء فلما خلصت فإذا هارون قال هذا هارون فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك

أبيض فقال له الجارود أهو البراق يا أبا حمزة قال أنس نعم يضع خطوه عند أقصى طرفه فحملت عليه فانطلق بي جبريل عليه السلام حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت فإذا بيحيى وعيسى وهما ابن الخالة قال هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما فسلمت فردا ثم قالا مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت إذا يوسف قال هذا يوسف فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت فإذا إدريس قال هذا إدريس فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء فلما خلصت فإذا هارون قال هذا هارون فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قال مرحبا به فنعم المجيء جاء فلما خلصت فإذا موسى قال هذا موسى فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح فلما تجاوزت بكى قيل له ما يبكيك قال أبكي لأن غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء فلما خلصت فإذا إبراهيم قال هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه قال فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح ثم رفعت إلى سدرة

قال محمد قيل وقد أرسل إليه ؟ قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجىء جاء ففتح فلما خلصت فاذا موسى قال هذا موسى فسلم
عليه فسلمت عليه فرد ثم قال مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح ق ل فلما جاوزت بكى قيل له مايبكيك ؟ قال أبكى لأن
غلاما بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتى ثم صعد بى إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل قيل من هذا
قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجىء جاء فلما خلصت فاذا إبراهيم
قال هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح فرفع لى البيت المعمور
فسألت جبريل فقال هذا البيت المعمور يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لم يعودوا إليه
آخر ما عليهم وقال ثابت عن أنس فاذا أنا بابراهيم مسند ظهره إلى البيت المعمور وإذ هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لايعودون إليه ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى فاذا نبقها مثل قلال هجر وإذا أوراقها مثل آذان الفيلة قال فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها فى أصلها أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران فقلت ماهذان ياجبريل؟ فقال أما الباطنان فنهران فى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات وأوحى إلى ما أوحى ففرض على خمسين صلاة فى كل يوم وليلة فنزلت إلى
موسى فقال ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف
فان أمتك لا تطيق ذلك فانى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم قال فرجعت إلى ربى فقلت يارب خفف على أمتى فحط عنى
خمسا فرجعت إلى موسى فقلت حط عنى خمسا قال إن أمتك لاتطيق ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، قال فلم أزل
أراجع بين ربى وبين موسى حتى قال الله تعالى يامحمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فهى خمس وهى
خمسون لايبدل القول لدى ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشرا ومن هم بسيئة فلم يعملها لم
تكتب شيئا فان عملها كتبت سيئة واحدة قال فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته فقال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف
لأمتك فقلت سألت ربى حتى استحييت ولكن أرضى وأسلم قال فلما جاوزت نادى مناد أمضيت فريضتى وخففت عن

المنتهى فاذا نبقها مثل قلال هجر وإذا ورقها مثل آذان الفيلة قال هذه سدرة المنتهى فاذا أربعة
أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران فقلت ماهذان ياجبريل قال أما الباطنان فنهران فى الجنة وأما
الظاهران فالنيل والفرات ثم رفع لى البيت المعمور ثم أتيت باناء من خمر وإناء من لبن وإناء من
عسل فأخذت اللبن فقال هى الفطرة أنت عليها وأمتك ثم فرضت على الصلوات خمسين صلاة
كل يوم فرجعت فمررت على موسى فقال بم أمرت قلت أمرت بخمسين صلاة كل يوم قال إن
أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم وإنى والله قد جربت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل
أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فرجعت فوضع عنى عشرا فرجعت إلى
موسى فقال مثله فرجعت فوضع عنى عشرا فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فوضع عنى
عشرا فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فوضع عنى عشرا فرجعت إلى موسى فقال مثله
فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فأمرت بخمس
صلوات كل يوم فرجعت إلى موسى قال بم أمرت قلت بخمس صلوات كل يوم قال إن أمتك
لاتستطيع خمس صلوات كل يوم وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة
فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك قال سألت ربى حتى استحييت ولكن أرضى وأسلم قال
فلما جاوزت نادى مناد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى » زاد فى رواية أخرى «وأجزى
بالحسنة عشرا» وفى رواية أخرى «بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان وفيه ثم غسل البطن بماء
زمزم ثم ملىء إيمانا وحكمة وفيه فرفع إلى البيت المعمور فسألت جبريل فقال هذا البيت المعمور يصلى
فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لم يعودوا مرة أخرى» (ق) «عن أنس بن مالك قال كان
أبو ذر يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فرج سقف بيتى وأنا بمكة فنزل جبريل
ففرج صدرى ثم غسله من ماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيمانا فأفرغها
فى صدرى ثم أطبقه ثم أخذ بيدى فعرج بى إلى السماء فلما جئنا السماء الدنيا قال جبريل لخازن
السماء الدنيا افتح قال من هذا قال هذا جبريل قيل هل معك أحد قال نعم معى محمد صلى الله
عليه وسلم قال فأرسل إليه قال نعم ففتح فلما علونا السماء الدنيا فاذا رجل عن يمينه
أسودة وعن يساره أسودة قال فاذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى فقال مرحبا

هبادى ثم أدخلت الجنة فاذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك ◘ قال ابن شهاب فأخبرنى ابن حزم أن ابن عباس وأبا دجانة الأنصارى كانا يقولان قال النبي صلى الله عليه وسلم ثم عرج بى حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام . قال ابن حزم وأنس قال النبي صلى الله عليه وسلم ففرض الله على أمتى خمسين صلاة وروى معمر عن قتادة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بالبراق ليلة أسرى به ملجما مسرجا فاستصعب عليه فقال له جبريل أبمحمد تفعل هذا فما ركبك أحد أكرم على الله منه فارفض عرقا وقال ابن بريدة عن أبيه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم لما انتهينا إلى بيت المقدس قال جبريل بأصبعه فخرق بها الحجر وشد به البراق أنا عبد الواحد المليحى أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمى ثنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل حدثنى محمود أنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهرى أخبرنى سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى بى لقيت موسى ◘ قال فنعته فاذا هو رجل حسبته قال مضطرب رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة قال ولقيت عيسى فنعته النبي صلى الله عليه وسلم فقال ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس يعنى الحمام ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به قال وأتيت باناءين أحدهما لبن والآخر فيه خمر فقيل لى خذ أيهما شئت فأخذت اللبن فشربته فقيل لى هديت الفطرة وأصبت الفطرة أما أنك لو أخذت الخمر لغوت أمتك أنا عبد الواحد المليحى ثنا أحمد بن عبد الله النعيمى ثنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا الحميدى ثنا سفيان ثنا عمرو عن عكرمة عن

بالنبي الصالح والابن الصالح قال قلت ياجبريل من هذا قال هذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فأهل اليمين أهل الجنة والأسودة التى عن شماله أهل النار فاذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى قال ثم عرج بى جبريل حتى أتى السماء الثانية فقال لخازنها افتح فقال له خازنها مثل ماقال خازن السماء الدنيا ففتح قال أنس بن مالك فذكر أنه وجد فى السموات آدم وإدريس وعيسى وموسى وإبراهيم ولم يثبت كيف منازلهم غير أنه ذكر أنه قد وجد آدم فى السماء الدنيا وإبراهيم فى السماء السادسة قال فلما مر جبريل ورسول الله بادريس قال مرحبا بالنبى الصالح والأخ الصالح قال ثم مر فقلت من هذا قال هذا إدريس قال ثم مررت بموسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح قال فقلت من هذا قال هذا موسى قال ثم مررت بعيسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح قلت من هذا قال هذا عيسى بن مريم قال ثم مررت بابراهيم فقال مرحبا بالنبى الصالح والابن الصالح قال قلت من هذا قال هذا إبراهيم قال ابن شهاب وأخبرنى ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عرج بى حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام قال ابن حزم وأنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرض الله على أمتى خمسين صلاة قال فرجعت بذلك حتى مررت بموسى فقال موسى ماذا فرض ربك على أمتك قال قلت فرض عليهم خمسين صلاة قال لى موسى فراجع ربك فان أمتك لاتطيق ذلك قال فراجعت ربى فوضع شطرها قال فرجعت إلى موسى فأخبرته قال راجع ربك فان أمتك لاتطيق ذلك قال فراجعت ربي فقال هى خمس وهن خمسون لايبدل القول لدى قال فرجعت إلى موسى فقال راجع ربك فقلت قد استحييت من ربى قال ثم انطلق بى جبريل حتى أتى سدرة المنتهى فغشيها ألوان لاأدرى ماهى قال ثم أدخلت الجنة فاذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك ◘ (ق) عن شريك ابن أبي نمر أنه سمع أنس بن مالك يقول ليلة أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم فى المسجد الحرام فقال أولهم أيهم هو فقال أوسطهم هو خيرهم فقال آخرهم خذوا خيرهم فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولاينام قلبه وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولاتنام قلوبهم فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبريل فشق جبريل مابين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشوا إيمانا وحكمة فحشا به صدره ولغاديده يعنى عروق حلقه ثم أطبقه ثم عرج به إلى السماء الدنيا فضرب بابا من أبوابها فناداه أهل السماء من هذا فقال جبريل قالوا ومن معك قال معى محمد قالوا وقد بعث إليه قال نعم قالوا مرحبا به وأهلا يستبشر به أهل السماء لايعلم أهل السماء مايريد

الله به فى الأرض حتى يعلمهم فوجد فى السماء الدنيا آدم عليه السلام فقال له جبريل هذا أبوك
آدم فسلم عليه ورد عليه السلام وقال مرحبا وأهلا يابنى نعم الابن أنت فإذا هو فى السماء
الدنيا بنهرين يطردان فقال ماهذان النهران ياجبريل قال هذان النيل والفرات عنصرهما ثم
مضى به فى السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضرب بيده فإذا هو مسك
أذفر قال ماهذا ياجبريل قال هذا الكوثر الذى خبألك ربك ثم عرج إلى السماء الثانية فقالت
الملائكة له مثل ماقالت له الأولى من هذا قال جبريل قالوا ومن معك قال محمد قالوا وقد
بعث إليه قال نعم قالوا مرحبا به وأهلا ثم عرج به إلى السماء الثالثة وقالوا له مثل ماقالت
الأولى والثانية ثم عرج به إلى الرابعة فقالوا له مثل ذلك ثم عرج به إلى السماء الخامسة فقالوا
له مثل ذلك ثم عرج به إلى السادسة فقالوا له مثل ذلك ثم عرج به إلى السماء السابعة فقالوا
له مثل ذلك كل سماء فيها أنبياء قد سماهم فوعيت منهم إدريس فى الثانية وهارون فى الرابعة
وآخر فى الخامسة ولم أحفظ اسمه وإبراهيم فى السادسة وموسى فى السابعة بتفضيل كلام الله فقال
موسى رب لم أظن أن يرفع على أحد ثم علا به فوق ذلك بما لايعلمه إلا الله حتى جاء سدرة
المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى فكان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى الله فيما أوحى إليه
خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة ثم هبط حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى فقال يامحمد
ماذا عهد إليك ربك قال عهد إلى خمسين صلاة كل يوم وليلة قال إن أمتك لاتستطيع ذلك
فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم إلى جبريل كأنه يستشيره
فى ذلك فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت فعلا به إلى الجبار تعالى فقال وهو مكانه يارب
خفف عنا فإن أمتى لاتستطيع هذا فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع إلى موسى فاحتبسه
فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت خمس صلوات ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال
يامحمد والله لقد راودت بنى إسرائيل قومى على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه فأمتك أضعف
أجسادا وقلوبا وأبدانا وأبصارا وأسماعا فارجع فليخفف عنك ربك كل ذلك يلتفت النبى
صلى الله عليه وسلم إلى جبريل عليه السلام ليشير عليه فلا يكره ذلك جبريل فرفعه عند
الخامسة فقال يارب إن أمتى ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم فخفف عنا فقال
الجبار يامحمد قال لبيك وسعديك قال إنه لا يبدل القول لدى كما فرضت عليك فى أم الكتاب
قال فكل حسنة بعشر أمثالها فهى خمسون فى أم الكتاب وهى خمس عليك فرجع إلى موسى
فقال كيف فعلت قال خفف عنا أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها قال موسى قد والله راودت
بنى إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه ارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضا قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ياموسى قد والله استحييت من ربى مما اختلفت إليه قال فاهبط بسم الله
فاستيقظ وهو فى المسجد الحرام، هذا لفظ حديث البخارى وأدرج مسلم حديث شريك عن
أنس الموقوف عليه فى حديث ثابت البنانى المسند فذكر من أول حديث شريك طرفا ثم قال
وساق الحديث نحو حديث ثابت قال مسلم وقدم وأخر وزاد ونقص وليس فى حديث ثابت
من هذه الألفاظ إلا مانورده على نصه أخرجه مسلم وحده وهو حدثنا حماد بن سلمة «عن
ثابت البنانى عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتيت بالبراق وهو دابة أبيض
طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه قال فركبته حتى أتيت بيت

ابن عباس فى قوله وماجعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس قال هى رؤيا عين أريها النبى صلى الله عليه وسلم
ليلة أسرى به إلى بيت المقدس قال والشجرة الملعونة فى القرآن قال هى شجرة الزقوم أنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى ثنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنى سليمان عن شريك ابن عبد الله قال سمعت أنس بن مالك يقول ليلة أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم فى المسجد الحرام فقال أولهم أيهم هو فقال أوسطهم هو خيرهم فقال آخرهم خذوا خيرهم فكانت تلك الليلة لم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه أو تنام عيناه ولا ينام قلبه وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم فلم يكلموه حتى احتملوه ووضعوه عند بئر زمزم فشق جبريل مابين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده وساق حديث المعراج بقصته فقال وإذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يطردان قال
هذا النيل والفرات عنصرهما واحد ثم مضى به إلى السماء

قال هذا الكوثر الذى خبأ لك ربك وساق الحديث وقال ثم عرج بى إلى السماء السابعة وقال : قال موسى رب لم أظن أن ترفع على أحدا ثم علا به فوق ذلك بما لايعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى ودنى الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى إليه فيما أوحى إليه خمسين صلاة كل يوم وليلة وقال فلم يزل يردده موسى الى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال يا محمد والله لقد راودت بنى إسرائيل قومى على أدنى من ذلك فضعفوا عنه وتركوه فأمتك أضعف قلوبا وأجسادا وأبدانا وأبصارا وأسماعا فارجع فليخفف عنك ربك كل ذلك يلتفت النبى صلى الله عليه وسلم إلى جبريل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبريل فرفعه عند الخامسة فقال يارب إن أمتى ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم

المقدس قال فربطته بالحلقة التى يربط بها الأنبياء قال ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءنى جبريل باناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل عليه السلام اخترت الفطرة قال ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فاذا أنا بآدم فرحب بى ودعا لى بخير ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فاذا أنا بابنى الخالة عيسى بن مريم ويحيى ابن زكريا فرحبابى ودعوا لى بخير ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فاذا أنا بيوسف عليه السلام فاذا هو قد أعطى شطر الحسن قال فرحب بى ودعا لى بخير ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فاذا أنا بادريس فرحب ودعا لى بخير قال الله تعالى ورفعناه مكانا عليا ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فاذا أنا بهرون فرحب ودعا لى بخير ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فاذا أنا بموسى فرحب بى ودعا لى بخير ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فاذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسندا ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لايعودون إليه ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله ماغشى تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها فأوحى إلى ما أوحى ففرض على خمسين صلاة فى كل يوم وليلة فنزلت إلى موسى فقال مافرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فان أمتك لايطيقون ذلك فانى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم قال فرجعت إلى ربى فقلت يارب خفف على أمتى فحط عنى خمسا فرجعت إلى موسى فقلت قد حط عنى خمسا قال إن أمتك لاتطيق ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف قال فلم أزل أرجع بين ربى تبارك وتعالى وبين موسى حتى قال يامحمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشرا ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا فان عملها كتبت سيئة واحدة قال فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت قد رجعت إلى ربى حتى استحييت منه «هذه رواية مسلم وأخرجه الترمذى مختصرا وفيه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بالبراق ليلة أسرى به ملجما مسرجا فاستصعب عليه فقال له جبريل أبمحمد تفعل هكذا ماركبك أحد أكرم على الله منه فارفض عرقا» وأخرجه النسائى مختصرا والمعنى واحد وفى آخره قال فرجعت إلى ربى فسألته التخفيف فقال إنى يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك

فخفف عنهم فقال الجبار يامحمد قال لبيك وسعديك قال إنه لايبدل القول لدى كما فرضت عليك فى أم الكتاب

خمسين صلاة فخمس بخمسين فقم بها أنت وأمتك فعرفت أن أمر الله جرى بقول حتم فلم أرجع .

(فصل)

قال البغوى قال بعض أهل الحديث ماوجدنا للبخارى ومسلم فى كتابيهما شيئا لايحتمل مخرجا إلا حديث شريك بن أبي نمر عن أنس وأحال الأمر فيه على شريك وذلك أنه ذكر فيه إن ذلك كان قبل الوحى واتفق أهل العلم على أن المعراج كان بعد الوحى بنحو من اثنتى عشرة سنة وفيه أن الجبار تبارك وتعالى دنا فتدلى وذكرت عائشة أن الذى تدلى هو جبريل عليه السلام قال البغوى وهذا الاعتراض عندى لايصح لأن هذا كان رؤيا فى النوم أراه الله ذلك قبل أن يوحى إليه بدليل آخر الحديث فاستيقظ وهو فى المسجد الحرام ثم عرج به فى اليقظة بعد الوحى وقبل الهجرة بسنة تحقيقا لرؤياه التى رآها من قبل كما أنه رأى فتح مكة فى المنام عام الحديبية سنة ست من الهجرة ثم كان تحقيقها سنة ثمان ونزل قوله سبحانه وتعالى لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق وقال الشيخ محيي الدين النووى رحمه الله تعالى فى كتابه شرح مسلم قد جاء من رواية شريك فى هذا الحديث أوهام أنكرها عليه العلماء وقد نبه مسلم على ذلك بقوله قدم وأخر وزاد ونقص منها قوله وذلك قبل أن يوحى إليه وهو غلط لم يوافق عليه فان الإسراء أقل ماقيل فيه أنه كان بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر شهرا وقال الحربى كانت ليلة الإسراء ليلة سبع وعشرين من شهر ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة وقال الزهرى كان ذلك بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم بخمس سنين وقال ابن إسحاق أسرى به صلى الله عليه وسلم وقد فشا الإسلام بمكة والقبائل قال الشيخ محيي الدين وأشبه الأقوال قول الزهرى وابن إسحاق وأما قوله فى رواية شريك وهو نائم وفى الرواية الأخرى بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان فقد يحتج به من يجعلها رؤيا نوم ولا حجة فيه إذ قد يكون ذلك حالة أول وصول الملك إليه وليس فى الحديث مايدل على كونه نائما فى القصة كلها هذا كلام القاضى عياض وهذا الذى قاله فى رواية شريك وأن أهل العلم قد أنكروها قد قاله غيره وقد ذكر البخارى فى رواية شريك هذه عن أنس فى كتاب التوحيد من صحيحه وأتى بالحديث مطولا قال الحافظ عبد الحق فى كتابه الجمع بين الصحيحين بعد ذكر هذه الرواية هذا الحديث بهذا اللفظ من رواية شريك بن أبى نمر عن أنس قد زاد فيه زيادة مجهولة وأتى فيه بألفاظ غير معروفة وقد روى حديث الإسراء جماعة من الحفاظ المتقنين والأئمة المشهورين كابن شهاب وثابت البنانى وقتادة يعنى عن أنس فلم يأت أحد منهم بما أتى شريك وشريك ليس بالحافظ عند أهل الحديث قال والأحاديث التى تقدمت قبل هذا هى المعول عليها .

(فصل)

فى شرح بعض ألفاظ حديث المعراج وما يتعلق به كانت ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة يقال كانت فى رجب ويقال فى رمضان وقد تقدم زيادة على هذا القدر فى الفصل الذى قبل هذا واختلف الناس فى الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل إنما كان ذلك فى المنام والحق الذى عليه أكثر الناس ومعظم السلف وعامة الخلف من المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين أنه أسرى بروحه وجسده صلى الله عليه وسلم ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ولفظ العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد والأحاديث

فليخفف عنك أيضا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد والله استحييت من ربى مما اختلفت إليه قال فاهبط بسم الله فاستيقظ وهو فى المسجد الحرام وروى مسلم هذا الحديث مختصرا عن هارون بن سعيد الأيلى عن ابن وهب عن سليمان بن بلال قال شيخنا الإمام رضى الله عنه قد قال بعض أهل الحديث ماوجدنا لمحمد بن إسماعيل ولمسلم فى كتابيهما شيئا لايحتمل مخرجا إلا هذا وأحال الأمر فيه إلى شريك بن عبدالله وذلك أنه ذكر فيه أن ذلك قبل أن يوحى إليه واتفق أهل العلم على أن المعراج كان بعد الوحى بنحو من اثنتى عشرة سنة قبل الهجرة بسنة وفيه أيضا أن الجبار دنا فتدلى وذكرت عائشة أن الذى دنا فتدلى جبريل عليه السلام قال شيخنا الإمام رضى الله عنه وهذا الاعتراض عندى لايصح لأن هذا كان رؤيا فى النوم أراه الله عز وجل قبل الوحى بدليل آخر الحديث قال فاستيقظ وهو فى المسجد الحرام ثم عرج به فى اليقظة بعد الوحى قبل الهجرة بسنة تحقيقا

برؤياه من قبل كما أنه رأى فتح مكة فى المنام عام الحديبية سنة ست من الهجرة ثم كان تحقيقه سنة ثمان ونزل قوله عز وجل لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق وروى أنه لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به وكان بذى طوى قال ياجبريل أن قومى لا يصدقونى قال يصدقك أبو بكر وهو الصديق قال ابن عباس وعائشة رضى الله عنهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كانت ليلة أسرى بى أصبحت بمكة فضقت بأمرى وعرفت أن الناس يكذبونى فروى أنه عليه الصلاة والسلام قعد معتزلا حزينا فمر به أبو جهل فجلس إليه فقال له كالمستهزئ هل استفدت من شئ قال نعم إنى أسرى بى الليلة قال إلى أين قال إلى بيت المقدس قال ثم أصبحت بين ظهرانينا قال نعم فلم ير أبو جهل أنه ينكر ذلك مخافة أن يجحده الحديث قال أتحدث قومك بما حدثتنى به قال نعم قال أبوجهل يا معشر بنى كعب ابن لؤى هلموا فانقضت إليه المجالس فجاءوا حتى جلسوا إليهما قال فحدث قومك بما حدثتنى قال نعم إنه أسرى بى الليلة قالوا إلى أين قال إلى بيت المقدس

الصحيحة التى تقدمت تدل على صحة هذا القول لمن طالعها وبحث عنها وحكى محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره عن حذيفة أنه قال كل ذلك كان رؤيا وأنه مافقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما أسرى بروحه وحكى هذا القول عن عائشة أيضا وعن معاوية نحوه والصحيح ماعليه جمهور العلماء من السلف والخلف والله أعلم قوله صلى الله عليه وسلم أتيت بالبراق هو اسم للدابة التى ركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به واشتقاقه من البرق لسرعته أو لشدة صفائه وبياضه ولمعانه وتلألئه ونوره والحلقة باسكان اللام ويجوز فتحها والمراد بربط البراق بالحلقة الأخذ بالاحتياط فى الأمور وتعاطى الأسباب وإن ذلك لايقدح فى التوكل إذا كان الاعتماد على الله تعالى وقوله جاءنى جبريل باناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فيه اختصار والتقدير قال لى اختر فاخترت اللبن وهو قول جبريل اخترت الفطرة يعنى فطرة الإسلام وجعل اللبن علامة للفطرة الصحيحة السليمة لكونه سهلا طيبا سائغا للشاربين وأنه سليم العاقبة بخلاف الخمر فانها أم الخبائث وجالبة لأنواع الشر قوله ثم عرج بى حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فيه بيان الأدب لمن استأذن وأن يقول أنا فلان ولا يقول أنا فانه مكروه وفيه أن للسماء أبوابا وبوابين وأن عليها حرسا وقول بواب السماء وقد أرسل إليه وفى الرواية الأخرى وقد بعث إليه معناه للإسراء وصعوده السماء وليس مراده الاستفهام عن أصل البعثة والرسالة فان ذلك لايخفى عليه إلى هذه المدة هذا هو الصحيح فى معناه وقيل غيره وقوله فاذا أنا بآدم وذكر جماعة من الأنبياء فيه استحباب لقاء أهل الفضل والصلاح بالبشر والترحيب والكلام اللين الحسن وإن كان الزائر أفضل من المزور وفيه جواز مدح الإنسان فى وجهه إذا أمن عليه من الإعجاب وغيره من أسباب الفتنة وقوله فاذا أنا بابراهيم مسندا ظهره إلى البيت المعمور فيه دليل على جواز الاستناد إلى القبلة وتحويل ظهره إليها وقوله ثم ذهب بى إلى السدرة هكذا وقع فى هذه الرواية السدرة بالألف واللام وفى باقى الروايات إلى سدرة المنتهى قال ابن عباس وغيره من المفسرين سميت بذلك لأن علم الملائكة ينتهى إليها ولم يجاوزها أحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ابن مسعود سميت بذلك لكونها ينتهى إليها مايهبط من فوقها وما يصعد من تحتها من أمر الله عز وجل وقوله وإذا ثمرها كالقلال هو بكسر القاف جمع قلة بضمها وهى الجرة الكبيرة التى تسع قربتين أو أكثر قوله فرجعت إلى ربى قال الشيخ محيي الدين النووى معناه رجعت إلى الموضع الذى ناجيته فيه أولا فناجيته فيه ثانيا وقوله فلم أزل أرجع بين موسى وبين ربى معناه وبين موضع مناجاة ربى عز وجل . قلت وأما الكلام على معنى الرؤية وما يتعلق بها فانه سيأتى إن شاء الله تعالى فى تفسير سورة والنجم عند قوله تعالى ثم دنا فتدلى قوله ففرض الله سبحانه وتعالى على أمتى خمسين صلاة إلى قوله فوضع شطرها وفى الرواية الأخرى فوضع عنى عشرا وفى الأخرى خمسا ليس بين هذه الرواية منافاة لأن المراد بالشطر الجزء وهو الخمس وليس المراد منه التنصيف وأما رواية العشر فهى رواية شريك ورواية الخمس رواية ثابت البنانى وقتادة وهما أثبت من شريك فالمراد حط عنى خمسا إلى آخره ثم قال هى خمس وهن خمسون يعنى خمسين فى الأجر والثواب لأن الحسنة بعشر أمثالها واحتج العلماء بهذا الحديث على جواز نسخ الشىء قبل فعله وفى أول الحديث أنه شق صدره صلى الله عليه وسلم

للكذب وارتد ناس ممن كان آمن به وصدقه وسعى رجل من المشركين إلى أبى بكر فقال هل لك فى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس قال أو قد قال ذلك قال نعم قال لئن كان قال ذلك لقد صدق قالوا وتصدقه أنه ذهب إلى بيت المقدس فى ليلة وجاء قبل أن يصبح قال نعم إنى لأصدقه بما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة فلذلك سمى أبو بكر الصديق قال وفى القوم من قد أتى المسجد الأقصى فقال أهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد الأقصى قال نعم قال فذهبت أنعت وأنعت فما زلت أنعت حتى التبس على بعض النعت قال فجىء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل فنعت المسجد وأنا أنظر إليه فقال القوم أما النعت فوالله لقد أصاب ثم قالوا يا محمد أخبرنا عن عيرنا فهى أهم إلينا فهل لقيت منها شيئا قال نعم مررت على عير بنى فلان وهى بالروحاء وقد أضلوا بعيرا لهم وهم فى طلبه وفى رحالهم قدح من ماء فعطشت فأخذته فشربته ثم وضعته كما كان

ليلة المعراج وقد شق أيضا فى صغره وهو عند حليمة التى كانت ترضعه فالمراد بالشق الثانى زيادة التطهير لمن يراد به من الكرامة ليلة المعراج وقوله أتيت بطست من ذهب قد يتوهم متوهم أنه يجوز استعمال إناء الذهب لنا وليس الأمر كذلك لأن هذا الفعل من فعل الملائكة وهو مباح لهم استعمال الذهب أو يكون هذا قد كان قبل تحريمه وقوله ممتلىء إيمانا وحكمة فأفرغها فى صدرى . فان قلت الحكمة والإيمان معان والإفراغ صفة الأجسام فما معنى ذلك قلت يحتمل أنه جعل فى الطست شىء يحصل به كمال الإيمان والحكمة وزيادتهما فسمى إيمانا وحكمة لكونه سببا لهما وهذا من أحسن المجاز وقوله فى صفة آدم عليه السلام فاذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة هو جمع سواد وقد فسره فى الحديث بأنه نسم بنيه يعنى أرواح بنيه وقد اعترض على هذا بأن أرواح المؤمنين فى السماء وأرواح الكفار تحت الأرض السفلى فكيف تكون فى السماء والجواب عنه أنه يحتمل أن أرواح الكفار تعرض على آدم عليه السلام وهو فى السماء فوافق وقت عرضها على آدم مرور النبى صلى الله عليه وسلم فأخبر بما رأى وقوله فاذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عن شماله بكى فيه شفقة الوالد على أولاده وسروره وفرحه بحسن حال المؤمن منهم وحزنه على سوء حال الكفار منهم وقوله فى إدريس مرحبا بالنبى الصالح والأخ الصالح قد اتفق المؤرخون على أن إدريس هو أخنوخ وهو جد نوح عليهما السلام فيكون جد النبى صلى الله عليه وسلم كما أن إبراهيم جده فكان ينبغى أن يقول بالنبى الصالح والابن الصالح كما قال آدم وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام فالجواب عن هذا أنه قيل أن إدريس المذكور هنا هو إلياس وهو من ذرية إبراهيم فاليس هو جد نوح هذا جواب القاضى عياض قال الشيخ محيى الدين ليس فى الحديث ما يمنع كون إدريس أبا لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وإن قوله الأخ الصالح يحتمل أن يكون قاله تلطفا وتأدبا وهو أخ وإن كان أبا لأن الأنبياء أخوة والمؤمنين أخوة والله أعلم .

(فصل)

فى ذكر الآيات التى ظهرت بعد المعراج الدالة على صدقه صلى الله عليه وسلم وسياق أحاديث تتعلق بالإسراء قال البغوى روى أنه لما رجع رسول الله ﷺ ليلة أسرى به وكان بذى طوى قال يا جبريل إن قومى لا يصدقونى قال يصدقك أبو بكر وهو الصديق قال ابن عباس وعائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما كانت ليلة أسرى بى إلى السماء أصبحت بمكة فضقت بأمرى وعرفت أن الناس يكذبونى فروى أنه صلى الله عليه وسلم قعد معتزلا حزينا فمر به أبو جهل فجلس إليه فقال كالمستهزىء هل استفدت من شىء قال نعم أسرى بى الليلة قال إلى أين قال إلى بيت المقدس قال أبو جهل ثم أصبحت بين أظهرنا قال نعم فلم ير أبو جهل أن ينكر ذلك مخافة أن يجحده الحديث ولكن قال أتحدث قومك بما حدثتنى به قال نعم قال أبو جهل يا معشر بنى كعب بن لؤى هلموا فانقضت المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما قال حدث قومك بما حدثتنى قال نعم أسري بى الليلة قالوا إلى أين قال إلى بيت المقدس قالوا ثم أصبحت بين أظهرنا قال نعم قال فبقى الناس بين مصفق وبين واضع يده على رأسه متعجبا وارتد أناس ممن كان قد آمن به وصدقه وسعى رجل من المشركين إلى أبى بكر فقال له هل لك فى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس قال أو قد قال ذلك قال نعم قال لئن كان قال ذلك لقد صدق قالوا أو تصدقه أنه ذهب إلى بيت المقدس وجاء فى ليلة قبل أن

يصبح قال نعم إني أصدقه بما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة فلذلك سمي أبو بكر الصديق قال وكان في القوم من أتى المسجد الأقصى قالوا هل تستطيع أن تنعت لنا المسجد قال نعم قال فذهبت أنعت حتى التبس علي قال فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل فنعت المسجد وأنا أنظر إليه فقال القوم أما النعت فوالله لقد أصاب فيه ثم قالوا يا محمد أخبرنا عن عيرنا فهي أهم إلينا هل لقيت منها شيئا قال نعم مررت بعير بني فلان وهي بالروحاء وقد أضلوا بعيرا وهم في طلبه وفي رحالهم قدح من ماء فعطشت فأخذته فشربته ثم وضعته كما كان فسلوا هل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا قالوا هذه آية قال ومررت بعير بني فلان وفلان راكبان قعودا لهما بذي مر فنفر بعيرهما مني فرمى بفلان فانكسرت يده فسلوهما عن ذلك قالوا وهذه آية أخرى قالوا فأخبرنا عن عيرنا قال مررت بها بالتنعيم قالوا فما عدتها وأحمالها وهيئتها فقال كنت في شغل عن ذلك ثم مثلت له بعدتها وأحمالها وهيئتها ومن فيها وكانوا بالحزورة قال نعم هيئتها كذا وكذا وفيها فلان وفلان يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان تطلع عليكم عند طلوع الشمس قالوا وهذه آية ثم خرجوا يشتدون نحو الثنية وهم يقولون والله لقد قص محمد شيئا وبينه حتى أتوا كداء فجلسوا عليه فجعلوا ينظرون متى تطلع الشمس فيكذبونه إذ قال قائل منهم هذه الشمس قد طلعت وقال آخر وهذه العير قد طلعت يقدمها بعير أورق فيها فلان وفلان كما قال فلم يؤمنوا وقالوا هذا سحر مبين (م) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كربة ما كربت مثلها قط قال فرفعه الله لي أنظر إليه ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء فإذا موسى قائم يصلي فإذا رجل ضرب جعدا كأنه من رجال شنوءة وإذا عيسى بن مريم قائم يصلي أقرب الناس به شبها عروة بن مسعود الثقفي وإذا إبراهيم قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم يعني به نفسه صلى الله عليه وسلم فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت من الصلاة قال لي قائل يا محمد يا محمد هذا مالك صاحب النار فسلم عليه فالتفت إليه فبدأني بالسلام» (ق) عن جابر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «لما كذبتني قريش قمت إلى الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه زاد البخاري في رواية له لما كذبني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس» وذكر الحديث (م) عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتيت على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر فإذا هو قائم يصلي في قبره عن بريدة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لما انتهينا إلى بيت المقدس قال جبريل كذا بأصبعه فخرق به الحجر وشد به البراق» أخرجه الترمذي. فإن قلت كيف رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم موسى يصلي في قبره وكيف صلى بالأنبياء في بيت المقدس ثم وجدهم على مراتبهم في السموات وسلموا عليه وترحبوا به وكيف تصح الصلاة من الأنبياء بعد الموت وهم في الدار الآخرة. قلت أما صلاته صلى الله عليه وسلم بالأنبياء في بيت المقدس يحتمل أن الله سبحانه وتعالى جمعهم له ليصلي بهم ويعرفوا فضله وتقدمه عليهم ثم إن الله سبحانه وتعالى أراه إياهم في السموات على مراتبهم ليعرف هو مراتبهم وفضلهم وأما مروره بموسى وهو قائم يصلي في قبره عند

كان فسلوا هل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا إليه قالوا هذه آية قال ومررت بعير بني فلان وفلان راكبان قعودا لهما بذي طوى فنفر بعيرهما مني فرمى بفلان فانكسرت يده فسلوهما عن ذلك قالوا هذه آية قالوا فأخبرنا عن عيرنا نحن متى تجيء قال مررت بها بالتنعيم قالوا فما عدتها وأحمالها وهيئتها ومن فيها فقال نعم هيئتها كذا وكذا وفيها فلان وفلان يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان تطلع عليكم عند طلوع الشمس قالوا وهذه آية أخرى ثم خرجوا يشتدون نحو الثنية وهم يقولون والله لقد قص محمد شيئا وبينه حتى أتوا كدى فجلسوا عليه فجعلوا ينتظرون متى تطلع الشمس فيكذبونه إذ قال قائل منهم والله هذه الشمس قد طلعت وقال آخر وهذه والله الإبل قد طلعت يقدمها بعير أورق فيها فلان وفلان كما قال لهم فلم يؤمنوا وقالوا إن هذا إلا سحر مبين أنا إسماعيل ابن عبد القاهر أنبأنا عبدالغافر بن محمد أنبأنا محمد بن عيسى الجلودي أنبأنا إبراهيم بن محمد ابن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج حدثني زهير بن حرب ثنا حجير بن المثنى أنبأنا عبدالعزيز وهو ابن أبي سلمة

عن عبد الله بن الفضل عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضى الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد رأيتنى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراي فسألتنى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها قال فكربت كربا ما كربت مثله قط قال فرفعه الله لى أنظر إليه مايسألونى عن شيء إلا أنبأتهم به ولقد رأيتنى فى جماعة من الأنبياء فاذا موسى قائم يصلى فاذا رجل ضرب جعدا كأنه من رجال شنوءة وإذا عيسى قائم يصلى أقرب الناس به شبها عروة بن مسعود الثقفى وإذا إبراهيم قائم يصلى أشبه الناس به صاحبكم يعنى نفسه فجاءت الصلاة فأممتهم فلما فرغت من الصلاة قال لى قائل يا محمد هذا مالك صاحب النار فسلم عليه فالتفت إليه فبدأنى بالسلام قوله عز وجل (وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل أن لا) بأن لا (تتخذوا من دونى وكيلا) ربا كفيلا قرأ أبو عمرو لايتخذوا بالياء لأنه خبر عنهم والآخرون بالتاء يعنى قلنا لهم لاتتخذوا (ذرية من حملنا) قال مجاهد هذا نداء يعنى ياذرية من حملنا (مع نوح) فى السفينة فأنجيناهم من الطوفان (إنه كان عبدا شكورا) كان نوح عليه السلام إذا أكل طعاما أو شرب شرابا أو لبس ثوبا قال الحمد لله فسمى عبدا شكورا أى كثير الشكر قوله عز وجل (وقضينا الى بنى إسرائيل فى الكتاب) الآيات روى سفيان بن سعيد الثورى عن منصور بن المعتمر عن ربعى بن خراش عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن بنى إسرائيل لما اعتدوا وقتلوا الأنبياء بعث الله عليهم ملك فارس بختنصر وكان الله ملكه سبعمائة سنة فسار إليهم حتى دخل بيت المقدس فحاصرها وفتحها حتى قتل على دم يحيى بن زكريا عليه السلام سبعين ألفا ثم سبى أهلها وأولاد الأنبياء وسلب حلى بيت المقدس واستخرج منها سبعين ألفا ومائة ألف عجلة من حلى قلت يارسول الله كان بيت المقدس عظيما قال أجل بناه سليمان بن داود من ذهب وفضة وياقوت وزبرجد وكان عمده ذهبا أعطاه الله ذلك وسخر له الشياطين يأتونه بهذه الأشياء فى طرفة عين فسار بها بختنصر حتى نزل بابل فأقام بنو إسرائيل فى يده مائة سنة يستعبدهم المجوس يعنى وأبناء المجوس فيهم الأنبياء ثم إن الله رحمهم فأوحى إلى ملك من ملوك فارس يقال له كورش ، وكان مؤمنا أن يسير إليهم ليستنقذ بقايا بنى إسرائيل فسار كورش لبنى إسرائيل وحلى بيت المقدس حتى رده إليه فأقام بنو إسرائيل مطيعين لله تعالى مائة سنة ثم إنهم عادوا فى المعاصى فسلط الله عليهم ملكا يقال له انطيانوس فغزا بنى إسرائيل حتى أتاهم بيت المقدس فسبى أهلها وأحرق بيت المقدس وقال لهم يابنى إسرائيل إن عدتم فى المعاصى عدنا عليكم بالسبي فعادوا فسلط الله عليهم ملك رومية يقال له قانس بن استيانوس فغزاهم فى البر والبحر فسباهم وسبى حلى بيت المقدس وأحرق بيت المقدس قال رسول الله ﷺ هذا من صفة حلى بيت المقدس ويرده المهدى إلى بيت المقدس هو ألف وسبعمائة سفينة يرمى بها على بابها حتى تنقل إلى بيت المقدس وبها يجمع الله الأولين والآخرين قال محمد بن إسحاق كانت بنو إسرائيل فيهم الأحداث والذنوب وكان الله فى ذلك متجاوزا عنهم محسنا إليهم وكان أول مانزل بهم بسبب ذنوبهم كما أخبر على لسان موسى عليه السلام أن ملكا منهم كان يدعى صديقة وكان الله تعالى إذ ملك الملك عليهم بعث معه نبيا يسدده ويرشده لاينزل عليهم الكتب إنما يأمرون باتباع التوراة والأحكام التى فيها فلما ملك ذلك الملك بعث الله معه شعياء بن أصفيا وذلك قبل مبعث زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام وشعياء هو الذى بشر بعيسى ومحمد عليهما السلام فقال أبشري أو رستم الآن يأتيك راكب الحمار ومن بعده صاحب

الكثيب الأحمر فيحتمل أنه كان بعد رجوعه من المعراج وأما صلاة الأنبياء وهم فى الدار الآخرة فهم فى حكم الشهداء بل أفضل منهم وقد قال الله سبحانه وتعالى ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء فالأنبياء أحياء بعد الموت وأما حكم صلاتهم فيحتمل أنها الذكر والدعاء وذلك من أعمال الآخرة فان الله تعالى قال (دعواهم فيها سبحانك اللهم) وورد فى الحديث أنهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس ويحتمل أن الله سبحانه وتعالى خصهم بخصائص فى الآخرة كما خصهم فى الدنيا بخصائص لم يخص بها غيرهم : منها أنه صلى الله عليه وسلم أخبر أنه رآهم يلبون ويحجون فكذلك الصلاة والله أعلم بالحقائق . قوله سبحانه وتعالى (وآتينا موسى الكتاب) يعنى التوراة (وجعلناه) يعنى الكتاب (هدى لبنى إسرائيل أن لاتتخذوا) يعنى وقلنا لهم لاتتخذوا (من دونى وكيلا) يعنى ربا كفيلا (ذرية) يعنى ياذرية (من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا) يعنى أن نوحا كان كثير الشكر وذلك أنه كان إذا أكل طعاما أو شرب شرابا أو لبس ثوبا قال الحمد لله فسماه الله عبدا شكورا لذلك . قوله عز وجل (وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب) :

البعير فملك ذلك الملك بنى إسرائيل وبيت المقدس زمانا طويلا فلما انقضى ملكه عظمت فيهم الأحداث وشعياء معه بعث الله عليهم سنجاريب ملك بابل معه ستمائة ألف راية فأقبل سائرا حتى نزل حول بيت المقدس والملك مريض فى ساقه قرحة فجاء النبي شعياء وقال له ياملك بنى إسرائيل إن سنجاريب ملك بابل قد نزل بك هو وجنوده بستمائة ألف راية وقد هابهم الناس وفرقوا فكبر ذلك على الملك فقال يانبي الله هل أتاك وحى من الله فيما حدث فتخبرنا به كيف يفعل الله بنا وبسنجاريب وجنوده فقال لم يأتيني وحى فبينما هم على ذلك أوحى الله إلى شعياء النبي أن ائت ملك بنى إسرائيل، فمره أن يوصى وصيته ويستخلف على ملكه من يشاء من أهل بيته فأتى شعياء ملك بنى إسرائيل صديقة فقال له إن ربك قد أوحى إلى أن آمرك أن توصى وصيتك وتستخلف من شئت على ملكك من أهل بيتك فانك ميت فلما قال شعياء لصديقة أقبل على القبلة فصلى ودعا وبكى فقال وهو يبكى ويتضرع إلى الله بقلب مخلص اللهم رب الأرباب وإله الآلهة ياقدوس المتقدس يارحمن يارحيم يارءوف الذى لاتأخذه سنة ولا نوم اذكرنى بعملى وفعلى وحسن قضائى على بنى إسرائيل وذلك كله كان منك وأنت أعلم به منى سرى وعلانيتى لك وأنت الرحمن فاستجاب له وكان عبدا صالحا فأوحى الله تعالى إلى شعياء أن يخبر صديقة أن ربه قد استجاب له ورحمه وأخر له أجله خمس عشر سنة وأنجاه من عدوه سنجاريب فأتاه شعياء فأخبره بذلك فلما قال له ذلك ذهب عنه الوجع وانقطع عنه الحزن وخر ساجدا لله وقال ياإلهى وإله آبائى لك سجدت وسبحت وكبرت وعظمت أنت الذى تعطى الملك لمن تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير عالم الغيب والشهادة أنت الأول والآخر والظاهر والباطن وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين وأنت الذى أجبت دعوتى ورحمت تضرعى فلما رفع رأسه أوحى الله إلى شعياء أن قل للملك صديقة فيأمر عبدا من عبيده فيأتيه بماء التين فيجعله فى قرحته فيشفى فيصبح وقد برأ ففعل وشفى وقال الملك لشعياء سل ربك أن يجعل لنا علما بما هو صانع بعدونا هذا قال الله لشعياء قل له إنى قد كفيتك عدوك وأنجيتك منهم وأنهم سيصبحون موتى

يعنى أعلمناهم

كلهم إلا سنجاريب وخمسة نفر من كتابه أحدهم بختنصر فلما أصبحوا جاء صارخ فصرخ على باب المدينة ياملك بنى إسرائيل إن الله قد كفاك عدوك فاخرج فان سنجاريب ومن معه قد هلكوا فلما خرج الملك التمس سنجاريب فى القتلى فلم يوجد فى الموتى فبعث الملك فى طلبه فأدركه الطلب فى مغارة وخمسة نفر من كتابه أحدهم بختنصر فجعلوهم فى الجوامع ثم أتوا بهم إلى ملك بنى إسرائيل فلما رآهم خر ساجدا لله من حين طلعت الشمس إلى العصر ثم قال ياسنجاريب كيف ترى فعل ربنا بكم ألم يقتلكم بحوله وقوته ونحن وأنتم غافلون فقال سنجاريب له قد أتانى خبر ربكم ونصره إياكم ورحمته التى يرحمكم بها قبل أن أخرج من بلادى فلم أطع مرشدا ولم يلقنى فى الشقوة إلا قلة عقلى ولو سمعت أو عقلت ماغزوتكم فقال صديقة الحمد لله رب العالمين الذى كفاناكم بما شاء وإن ربنا لم يبقك ومن معك لكرامتك على ربك ولكنه إنما أبقاك ومن معك لتزدادوا شقوة فى الدنيا وعذابا فى الآخرة ولتخبروا من وراءكم بما رأيتم من فعل ربنا بكم فتنذروا من بعدكم ولولا ذلك لقتلكم ولدمك ودم من معك أهون على الله من دم قراد لو قتلت ثم إن ملك بنى إسرائيل أمر أمير حرسه فقذفت فى رقابهم الجوامع فطافت بهم سبعين يوما حول بيت المقدس وإيليا وكان رزقهم كل يوم خبزين من شعير لكل رجل منهم فقال سنجاريب لملك بنى إسرائيل القتل خير مما تفعل بنا فأمر بهم الملك إلى سجن القتل فأوحى الله إلى شعياء عليه السلام إن قل لملك بنى إسرائيل يرسل سنجاريب ومن معه لينذروا من وراءهم وليكرمهم وليحملهم حتى يبلغوا بلادهم فبلغ شعياء الملك ذلك ففعل الملك صديقة ماأمر به فخرج سنجاريب ومن معه حتى قدموا بابل فلما قدموا جمع الناس فأخبرهم كيف فعل الله بجنوده فقال له كهانه وسحرته ياملك بابل قد كنا نقص عليك خبر ربهم وخبر نبيهم ووحى الله إلى نبيهم فلم تطعنا وهى أمة لايستطيعها أحد مع ربهم وكان أمر سنجاريب تخويفا لهم ثم كفاهم الله تذكرة وعبرة ثم لبث سنجاريب بعد ذلك سبع سنين ثم مات واستخلف بختنصر ابن ابنه على ماكان عليه جده وعمل عمله فلبث سبع عشرة سنة ثم قبض الله ملك بنى إسرائيل صديقة فمرج أمر بنى إسرائيل وتنافسوا الملك حتى قتل بعضهم بعضا ونبيهم شعياء معهم ولايقبلون منه فلما فعلوا ذلك قال الله لشعياء قم فى قومك حتى أوحى على لسانك فلما قام النبي شعياء أنطق الله على لسانه بالوحى فقال : ياسماء استمعى ويا أرض أنصتى فان الله يريد أن يقص شأن بنى إسرائيل الذين رباهم بنعمته

واصطفاهم لنفسه وخصهم بكرامته وفضلهم على عباده وهم كالغنم الضائعة التي لا راعي لها فآوى شاردتها وجمع ضالتها وجبر كسرها وداوى مريضها وأسمن مهزولها وحفظ سمينها فلما فعل ذلك بطرت فتناطحت كباشها فقتل بعضها بعضا حتى لم يبق منها عظم صحيح يجبر إليه آخر كسير فويل لهذه الأمة الخاطئة التي لا يدرون أنى جاءهم الحين أن البعير مما يذكر وطنه فينتابه وأن الحمار لما يذكر الآري الذي شبع عليه فيراجعه وأن الثور مما يذكر المرج الذي سمن فيه فينتابه وأن هؤلاء القوم لا يذكرون من حيث جاءهم الحين وهم أولو الألباب والعقول ليسوا ببقر ولا حمير وإني ضارب لهم مثلا فليسمعوه وقل لهم كيف ترون فى الأرض كانت خرابا زمانا مواتا لا عمران فيها وكان لها رب حكيم قوى فأقبل عليها بالعمارة وكره أن تخرب أرضه وهو قوى أو أن يقال ضيع وهو حكيم فأحاط عليها جدارا وشيد فيها قصورا وأنبط نهرا ، وصنف فيها غراسا من الزيتون والرمان والنخيل والأعناب وألوان الثمار كلها وولى ذلك واستحفظه قيما ذا رأى وهمة حفيظا قويا أمينا فلما اطلعت جاء طلعها خروبا قالوا بئست الأرض هذه فنرى أن يهدم جدارها وقصرها ويدفن نهرها ويقبض قيمها ويحرق غراسها حتى تصير كما كانت أول مرة خرابا مواتا لا عمران فيها قال الله قل لهم فان الجدار دينى وأن القصر شريعتى وأن النهر كتابى وأن القيم نبيى وأن الغراس هم وأن الخروب التي أطلع الغراس أعمالهم الخبيثة وإنى قد قضيت عليهم قضاءهم على أنفسهم وأنه مثل ضربته لهم يتقربون إلى بذبح البقر والغنم وليس ينالنى اللحم ولا آكله ويدعون أن يتقربوا إلى بالتقوى والكف عن ذبح الأنفس التى حرمتها فأيديهم مخضوبة منها وثيابهم متزملة بدمائها يشيدون لى البيوت مساجد أو يطهرون أجوافها وينجسون قلوبهم وأجسادهم ويدنسونها ويزوقون لى المساجد ويزينونها ويخربون عقولهم وأخلاقهم ويفسدونها فأى حاجة لى إلى تشييد البيوت ولست أسكنها وأى حاجة لى إلى تزويق المساجد ولست أدخلها إنما أمرت برفعها لأذكر وأسبح فيها يقولون صمنا فلم يرفع صيامنا ، وصلينا فلم تنور صلاتنا وتصدقنا فلم تزك صدقاتنا ودعونا بمثل حنين الحمام وبكينا بمثل عواء الذئب فى كل ذلك لا يستجاب لنا قال الله فسلهم ما الذى يمنعنى أن أستجيب لهم ألست أسمع السامعين وأبصر الناظرين وأقرب المجيبين (١٤٠) وأرحم الراحمين فكيف أرفع صيامهم وهم يلبسونه بقول الزور ويتقوون عليه بطعمة الحرام أم كيف أنور صلاتهم وقلوبهم صاغية إلى من يحاربنى ويحادنى وينتهك محارمى أم كيف تزكى عندى صدقاتهم يتصدقون بأموال غيرهم ، إنما آجر عليها أهلها المغصوبين أم كيف أستجيب دعاءهم وإنما هو قول بألسنتهم بلا فعل والفعل من ذلك بعيد إنما أستجيب للداعى اللين وإنما أسمع قول المستضعف المسكين وأن من علامة رضاى رضا المساكين يقولون لما سمعوا كلامى وبلغتهم رسالاتى أنها أقاويل منقولة وأحاديث متوارثة وتآليف مما يؤلف السحرة والكهنة وزعموا أنهم لو شاءوا أن يأتوا بحديث مثله فعلوا قالوا ولو شاءوا أن يطلعوا على علم الغيب بما يوحى إليهم الشياطين اطلعوا وأنى قد قضيت يوم خلقت السموات والأرض قضاء أثبته وختمته على نفسى وجعلت دونه أجلا مؤجلا لابد أنه واقع فان صدقوا فيما ينتحلون من علم الغيب فليخبروك متى أنفذه أو فى أى زمان يكون وإن كانوا يقدرون على أن يأتوا بما يشاءون فليأتوا بمثل هذه القدرة التى بها أمضيت فانى مظهره على الدين كله ولو كره المشركون وإن كانوا يقدرون على أن يؤلفوا ما يشاءون فليؤلفوا مثل الحكمة التى بها أدبر أمر ذلك القضاء إن كانوا صادقين ، وإنى قد قضيت يوم خلقت السموات والأرض أن أجعل النبوة فى الأجراء وأن أجعل الملك فى الرعاء والعز فى الأذلاء والقوة فى الضعفاء والغنى فى الفقراء والعلم فى الجهلة والحكمة فى الأميين فسلهم متى هذا ومن القائم بهذا ومن أعوان هذا الأمر وأنصاره إن كانوا يعلمون وإنى باعث لذلك نبيا أميا ليس أعمى من عميان ولا ضالا من ضالين ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا متزين بالفحش ولا قوال للخنا أسدده بكل جميل وأهب له كل خلق كريم أجعل السكينة لباسه والبر شعاره والتقوى ضميره والحكمة معقوله والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه والعدل سيرته والحق شريعته والهدى إمامه والإسلام ملته والحمد دينه وأحمد اسمه أهدى به بعد الضلالة وأعلم به بعد الجهالة وأرفع به بعد الخمالة وأشهر به بعد النكرة وأكثر بعد القلة وأغنى به بعد العيلة وأجمع به بعد الفرقة وأؤلف به بين قلوب مختلفة وأهواء متشتتة وأمم متفرقة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر توحيدا لى وإيمانا وإخلاصا لى يصلون قياما وقعودا وركعا وسجودا ويقاتلون فى سبيلى صفوفا وزحوفا ويخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء رضوانى ألهمهم التكبير والتوحيد والتسبيح والتحميد

وأخبرناهم فيما آتيناهم

والتهليل والمدحة والتمجيد فى مسيرهم ومجالسهم ومضاجعهم ومناقبهم ومثواهم يكبرون ويهللون ، ويقدسون على رءوس الأشراف ويطهرون لى الوجوه والأطراف ويعقدون لى الثياب على الأنصاف قربانهم دماهم وأناجيلهم فى صدورهم رهبان بالليل ليوث بالنهار ذلك فضلى أوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم فلما فرغ شعياء من مقالته عدوا عليه ليقتلوه فهرب منهم فلقيته شجرة فانفلقت له فدخل فيها فأدركه الشيطان فأخذ بهدبة من ثوبه فأراهم إياها ، فوضعوا المنشار فى وسطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه فى وسطها واستخلف الله على بنى إسرائيل بعد ذلك رجلا منهم ، يقال له ناشية بن أموص وبعث لهم أرمياء بن حلقيا نبيا وكان من سبط هارون بن عمران وذكر ابن إسحاق أنه الخضر واسمه أرمياء سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فقام عنها وهى تهتز خضراء فبعث الله أرمياء إلى ذلك الملك ليسدده ويرشده ثم عظمت الأحداث فى بنى إسرائيل وركبوا المعاصى واستحلوا المحارم فأوحى الله إلى أرمياء إن ائت قومك من بنى إسرائيل ، فاقصص عليهم ما أمرك به وذكرهم نعمتى وعرفهم بأحداثهم فقال أرمياء يارب إنى ضعيف إن لم تقونى عاجز إن لم تبلغنى مخذول إن لم تنصرنى قال الله تعالى أو لم تعلم أن الأمور كلها تصدر عن مشيئتى وأن القلوب والألسنة بيدى أقلبها كيف شئت إنى معك ولن يصل إليك شىء معى فقام أرمياء فيهم ولم يدر مايقول فألهمه الله عز وجل فى الوقت خطبة بليغة بين لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب المعصية وقال فى آخرها عن الله تعالى وإنى حلفت بعزتى لأقيضن لهم فتنة يتحير فيها الحليم ولأسلطن عليهم جبارا قاسيا ألبسه الهيبة وأنزع من صدره الرحمة يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم ثم أوحى الله إلى أرمياء إنى مهلك بنى إسرائيل بيافث ويافث من أهل بابل على ماذكرنا فى سورة البقرة فسلط الله عليهم بختنصر فخرج فى ستمائة ألف راية ودخل بيت المقدس بجنوده ووطئ الشام وقتل بنى إسرائيل حتى أفناهم وخرب بيت المقدس وأمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم ترسه ترابا ثم يقذفوه فى بيت المقدس ففعلوا ذلك حتى ملأوه ثم أمرهم أن يجمعوا من فى بلدان بيت المقدس كلهم فاجتمع عنده كل صغير وكبير من بنى إسرائيل فاختار منهم سبعين ألف صبى فلما خرجت غنائم (١٤١) جنده وأراد أن يقسمها فيهم

آتيناهم من الكتاب

قالت له الملوك الذين كانوا معه أيها الملك لك غنائمنا كلها وأقسم بيننا هؤلاء الصبيان الذين اخترتهم من بنى إسرائيل فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فأصاب كل رجل منهم أربعة غلمان وفرق من بقى من بنى إسرائيل ثلاث فرق فثلثا أقر بالشام وثلثا سبى وثلثا قتل وذهب بناشئة بيت المقدس وبالصبيان السبعين الألف حتى أقدمهم بابل فكانت هذه الواقعة الأولى التى أنزل الله ببنى إسرائيل بظلمهم فذلك قوله تعالى ، فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد ، يعنى بختنصر وأصحابه ثم أن بختنصر أقام فى سلطانه ماشاء الله ثم رأى رؤيا أعجبته إذ رأى شيئا أصابه فأنساه الله الذى رأى فدعا دانيال وحنانيا وعزازيا وميشائيل وكانوا من ذرارى الأنبياء وسألهم عنها قالوا أخبرنا بها نخبرك بتأويلها قال ما أذكرها ولئن لم تخبرونى بها وبتأويلها لأنزعن أكتافكم فخرجوا من عنده فدعوا الله وتضرعوا إليه فأعلمهم الله بالذى رأى وسألهم عنه فجاؤه وقالوا رأيت تمثالا قدماه وساقاه من فخار وركبتاه وفخذاه من نحاس وبطنه من فضة وصدره من ذهب ورأسه وعنقه من حديد قال صدقتم قالوا فبينما أنت تنظر إليه وقد أعجبك أرسل الله تعالى صخرة من السماء فدقته فهى التى أنستكها قال صدقتم قال فما تأويلها قالوا تأويلها أنك رأيت ملك الملوك فبعضهم كان ألين ملكا وبعضهم كان أحسن ملكا وبعضهم كان أشبه ماكا الفخار أضعفه ثم فوقه النحاس أشد منه ثم فوق النحاس الفضة أحسن من ذلك وأفضل والذهب أحسن من الفضة وأفضل ثم الحديد ملكك فهو أشد وأعز مما كان قبله والصخرة التى رأيت أرسل الله من السماء فدقته نبى يبعثه الله من السماء فيدق ذلك أجمع ويصير الأمر إليه ثم إن أهل بابل قالوا لبختنصر أرأيت هؤلاء الغلمان من بنى إسرائيل الذين كنا سألناك أن تعطيناهم ففعلت فانا قد أنكرنا نساءنا منذ كانوا معنا لقد رأينا نساءنا انصرفت عنا وجوههن إليهم فأخرجهم من بين أظهرنا أو اقتلهم قال شأنكم بهم فمن أحب منكم أن يقتل من كان فى يده فليفعل ذلك فلما قربوهم للقتل بكوا إلى الله تعالى وقالوا يارب أصابنا البلاء بذنوب غيرنا فوعد الله أن يحييهم فقتلوا بختنصر إلا من استبقى منهم دانيال وحنانيا وعزازيا وميشائيل ثم لما أراد الله هلاك بختنصر انبعث وتيقظ فقال لمن فى يده من بنى إسرائيل أرأيتم هذا البيت الذى خربته والناس الذين قتلتهم منهم وما هذا البيت قالوا هذا بيت الله وهؤلاء أهله كانوا من ذرارى الأنبياء فظلموا وتعدوا فسلطت عليهم بذنوبهم وكان

ربهم رب السموات والأرض ورب الخلق كلهم يكرمهم ويعزهم فلما فعلوا مافعلوا أهلكهم الله وسلط عليهم غيرهم فاستكبر وظن أنه بجبروته فعل ذلك ببنى إسرائيل قال فأخبرونى كيف لى أن أطلع إلى السماء العليا فأقتل من فيها وأتخذها ملكا لى فانى قد فرغت من الأرض قالوا مايقدر عليها أحد من الخلائق قال لتفعلن أو لأقتلنكم عن آخركم فبكوا وتضرعوا إلى الله تعالى فبعث الله تعالى عليه بقدرته بعوضة فدخلت منخره حتى عضت بأم دماغه فما كان يقر ولا يسكن حتى يوجأ له رأسه على أم دماغه فلما مات شقوا رأسه فوجدوا البعوضة عاضة على أم دماغه ليرى الله العباد قدرته وينجى الله من بقى من بنى إسرائيل فى يديه فردهم إلى الشام فبنوا فيه وكثروا حتى كانوا على أحسن ماكانوا عليه ويزعمون أن الله تعالى أحيا أولئك الذين قتلوا فلحقوا بهم ثم إنهم لما دخلوا الشام دخلوها وليس معهم عهد من الله تعالى وكانت التوراة قد احترقت وكان عزير من السبايا الذين كانوا ببابل فرجع إلى الشام يبكى عليها ليلا ونهارا وقد خرج من الناس فهو كذلك إذ أقبل إليه رجل فقال ياعزير مايبكيك قال أبكى على كتاب الله وعهده الذى كان بين أظهرنا الذى لا يصلح أمر دنيانا وآخرتنا غيره قال أفتحب أن يرده إليك قال نعم قال ارجع فصم وتطهر وطهر ثيابك ثم موعدك هذا المكان غدا فرجع عزير فصام وتطهر وطهر ثيابه ثم عمد إلى المكان الذى وعده فجلس فيه فأتاه ذلك الرجل باناء فيه ماء وكان ملكا بعثه الله إليه فسقاه من ذلك الإناء فمثلت التوراة فى صدره فرجع إلى بنى إسرائيل فوضع لهم التوراة فأحبوه حتى لم يحبوا حبه شيئا قط ثم قبضه الله وجعلت بنو إسرائيل بعد ذلك يحدثون الأحداث ويعود الله عليهم ويبعث فيهم الرسل ففريقا يكذبون وفريقا يقتلون حتى كان آخر من بعث الله فيهم من أنبيائهم زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام وكانوا من بيت آل داود فمات زكريا وقيل قتل زكريا فلما رفع الله عيسى من بين أظهرهم وقتلوا يحيى بعث الله عليهم ملكا من ملوك بابل يقال له خردوش فسار إليهم بأهل بابل حتى دخل عليهم الشام فلما ظهر عليهم أمر رأسا من رءوس جنوده يدعى بيورزاذان صاحب الفيل فقال إنى كنت حلفت بالهى لئن أنا ظفرت

على أهل بيت المقدس لأقتلنهم حتى تسيل دماؤهم فى وسط عسكرى إلا أنى لا أجد أحدا أقتله فأمره أن يقتلهم حتى بلغ ذلك منهم بيورزاذان ودخل بيت المقدس فقام فى البقعة التى كانوا يقربون فيها قربانهم فوجد فيها دما يغلى فسألهم عنه فقال يابنى إسرائيل ماشأن هذا الدم يغلى أخبرونى خبره قالوا هذا دم قربان لنا قربناه فلم

أنهم سيفسدون

وهو

يقبل منا فلذلك يغلى ولقد قربناه منذ ثمانمائة سنة القربان يتقبل منا إلا هذا فقال ماصدقتمونى فقالوا لو كان كأول زماننا لتقبل منا ولكن قد انقطع منا الملك والنبوة والوحى فلذلك لم يقبل منا فذبح منهم بيورزاذان على ذلك الدم سبعمائة وسبعين رجلا من رءوسهم فلم يهدأ فأمر بسبعمائة غلام من غلمانهم فذبحهم على الدم فلم يهدأ فأمر بسبعة آلاف من شيبهم وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يهدأ فلما رأى بيورزاذان أن الدم لا يهدأ قال لهم يابنى إسرائيل ويلكم أصدقونى واصبروا على أمر ربكم فقد طال ماملكتم فى الأرض تفعلون فيها ماشئتم قبل أن لا أترك منكم نافخ نار أنثى ولا ذكر إلا قتلت فلما رأوا الجهد منه وشدة القتل صدقوا الخبر فقالوا إن هذا الدم دم نبى كان ينهانا عن أمور كثيرة من سخط الله فلو أنا أطعناه فيها لكان أرشد لنا وكان يخبرنا بأمركم فلم نصدقه فقتلناه فهذا دمه فقال لهم بيورزاذان ماكان اسمه قالوا يحيى بن زكريا قال الآن صدقتمونى بمثل هذا انتقم ربكم منكم فلما رأى بيورزاذان أنهم صدقوه خر ساجدا وقال لمن حوله أغلقوا أبواب المدينة وأخرجوا من كان ههنا من جيش خردوش وخلا فى بنى إسرائيل قال يايحيى بن زكريا قد علم ربى وربك ماقد أصاب قومك من أجلك وما قتل منهم فاهدأ باذن ربك قبل أن لا أبقى من قومك أحدا فهدأ الدم باذن الله تعالى ورفع بيورزاذان عنهم القتل وقال آمنت بالذى آمنت به بنو إسرائيل وأيقنت أنه لا رب غيره وقال لبنى إسرائيل أن خردوش أمرنى أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره وإنى لست أستطيع إذ أعصيه قالوا له افعل ماأمرت به فأمرهم فحفروا خندقا وأمر بأموالهم من الخيل والبغال والحمير والإبل والبقر والغنم فذبحها حتى سال الدم فى العسكر وأمر بالقتلى الذين قتلوا قبل ذلك فطرحوا على ماقتل من مواشيهم فلم يظن خردوش إلا أن مافى الخندق من دماء بنى إسرائيل فلما بلغ الدم عسكره أرسل إلى بيورزاذان أن ارفع عنهم القتل ثم انصرف إلى بابل وقد أفنى بنى إسرائيل أو كاد أن يفنيهم وهى الواقعة الأخيرة التى أنزل الله ببنى إسرائيل وذلك قوله لتفسدن فى الأرض مرتين فكانت الوقعة الأولى بختنصر وجنوده والأخرى خردوش وجنوده وكانت

أعظم الوقعتين فلم يقم لهم بعد ذلك راية وانتقل الملك بالشام ونواحيها إلى الروم واليونانية إلا أن بقايا بنى إسرائيل كثروا وكانت لهم الرياسة ببيت المقدس ونواحيها على غير وجه الملك وكانوا فى نعمة إلى أن بدلوا وأحدثوا الأحداث فسلط الله عليهم ططيوس بن اسطيانوس الرومى فأخرب بلادهم وطردهم عنها ونزع الله عنهم الملك والرياسة وضربت عليهم الذلة فلا يبقى أحد منهم إلا وعليه الصغار والجزية وبقى بيت المقدس خرابا إلى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فعمره المسلمون بأمره وقال قتادة بعث الله عليهم جالوت فى الأولى فسبى وقتل وخرب ثم رددنا لكم الكرة عليهم يعنى فى زمان داود فإذا جاء وعد الآخرة بعث الله عليهم بختنصر فسبى وخرب ثم قال «عسى ربكم أن يرحمكم» فعاد الله عليهم بالرحمة ثم عاد القوم بشر ما بحضرتهم فبعث الله عليهم ماشاء من نقمته وعقوبته ثم بعث الله عليهم العرب كما قال «وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب» فهم فى العذاب إلى يوم القيامة وذكر السدى بإسناده أن رجلا من بنى إسرائيل رأى فى النوم أن خراب بيت المقدس على يدى غلام يتيم ابن أرملة من أهل بابل يدعى بختنصر وكانوا يصدقون فتصدق رؤياهم فأقبل ليسأل عنه حتى نزل على أمه وهو يحتطب فجاء وعلى رأسه حزمة حطب فألقاها ثم قعد فكلمه ثم أعطاه ثلاثة دراهم فقال أشتر بهذا طعاما وشرابا فاشترى بدرهم لحما وبدرهم خبزا وبدرهم خمرا فأكلوا وشربوا وفعل فى اليوم الثانى كذلك وفى اليوم الثالث كذلك ثم قال إنى أحب أن تكتب لى أمانا إن أنت ملكت يوما من الدهر فقال أتسخر منى؟ فقال إنى لا أسخر منك ولكن ما عليك أن تتخذ بها عندى يدا فكتب له أمانا وقال أرأيت إن جئت والناس حولك قد حالوا بينى وبينك قال ترفع صحيفتك على قصبة فأعرفك فكتب له وأعطاه ثم إن ملك بنى إسرائيل كان يكرم يحيى بن زكريا ويدنى مجلسه وأنه هوى ابنة امرأته وقال ابن عباس ابنة أخيه فسأل يحيى بن زكريا عن تزويجها فنهاه عن نكاحها فبلغ ذلك أمها فحقدت على يحيى بن زكريا وعمدت حين جلس الملك على شرابه فألبستها ثيابا رقاقا حمرا وطيبتها وألبستها الحلى وأرسلتها إلى الملك وأمرتها أن تسقيه الخمر فإن أرادها عن نفسها أبت عليه حتى

يعطيها ما سألته فإذا أعطاها سألت رأس يحيى بن زكريا أن يؤتى به فى طست ففعلت ذلك فلما أرادها قالت لا أفعل حتى تعطينى ما أسألك قال فما تسألينى قالت رأس يحيى بن زكريا أن يؤتى به فى هذا الطست

وهو قوله تعالى

فقال ويحك سلينى غير هذا فقالت ما أريد إلا هذا فلما أبت عليه بعث فأتى برأسه حتى وضع بين يديه والرأس يتكلم ويقول ويل لك لا تحل لك ويكرر ذلك فلما أصبح إذا دمه يغلى فأمر بتراب فألقى عليه فرقى الدم يعنى صعد الدم يغلى ويلقى عليه التراب حتى بلغ سور المدينة وهو فى ذلك يغلى فبعث صخابين ملك بابل جيشا إليهم وأمر عليهم بختنصر فسار بختنصر وأصحابه حتى بلغوا ذلك المكان فلما سمعوا به تحصنوا منه فى مدائنهم فلما اشتد عليهم المقام أراد الرجوع فخرجت إليه عجوز من عجائز بنى إسرائيل فقالت تريد أن ترجع قبل فتح المدينة قال نعم قد طال مقامى وجاع أصحابى قالت أرأيت إن فتحت لك المدينة تعطينى ما أسألك فتقتل من أمرتك بقتله وتكف إذا أمرتك أن تكف قال نعم قالت إذا أصبحت تقسم جندك أربعة أرباع ثم أقم على كل زاوية ربعا ثم ارفعوا أيديكم إلى السماء فنادوا إنا نستفتحك يا الله بدم يحيى بن زكريا فإنها سوف تتساقط ففعلوا فتساقطت المدينة ودخلوا من جوانبها فقالت كف يدك وانطلقت به إلى دم يحيى بن زكريا وقالت اقتل على هذا الدم حتى يسكن فقتل عليه سبعين ألفا حتى سكن فلما سكن قالت كف الآن يدك فإن الله لم يرض إذا قتل نبى حتى يقتل من قتله ومن رضى بقتله فأتاه صاحب الصحيفة بصحيفته فكف عنه وعن أهل بيته فخرب بيت المقدس وطرح فيه الجيف وأعانه على خرابه الروم من أجل أن بنى إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا وذهب معه بوجوه بنى إسرائيل وذهب بدانيال وقوم من أولاد الأنبياء وذهب معه برأس جالوت فلما قدم بابل وجد صخابين قد مات فتملك مكانه وكان أكرم الناس عنده دانيال وأصحابه فحسدهم المجوس ووشوا بهم إليه وقالوا له إن دانيال وأصحابه لا يعبدون إلهك ولا يأكلون ذبيحتك فسألهم فقالوا أجل إن لنا ربا نعبده ولسنا نأكل من ذبيحتكم فأمر الملك بخد فخد لهم فألقوا فيه وهم ستة وألقى معهم بسبع ضار ليأكلهم فذهبوا ثم راحوا فوجدوهم جلوسا والسبع مفترش ذراعيه معهم ولم يخدش منهم أحدا ووجدوا معهم رجلا سابعا فقال ما هذا السابع إنما كانوا ستة فخرج السابع وكان ملكا فلطمه لطمة فصار فى صورة الوحش ومسخه

الله سبع سنين وذكر وهب إن الله مسخ بختنصر نسرا فى الطيور ثم مسخه ثورا فى الدواب ثم مسخه أسدا فى الوحوش فكان مسخه سبع سنين وقلبه فى ذلك قلب إنسان ثم رد الله إليه ملكه فآمن فسئل وهب أكان مؤمنا فقال وجدت أهل الكتاب اختلفوا فيه فمنهم من قال مات مؤمنا ومنهم من قال أحرق بيت الله وكتبه وقتل الأنبياء فغضب الله عليه فلم يقبل توبته وقال السدى ثم إن بختنصر لما رجع إلى صورته بعد المسخ ورد الله إليه ملكه كان دانيال وأصحابه أكرم الناس عليه فحسدهم المجوس وقالوا لبختنصر أن دانيال إذا شرب الخمر لم يملك نفسه أن يبول وكان ذلك فيهم عارا فجعل لهم طعاما وشرابا فأكلوا وشربوا وقال للبواب انظر أول من يخرج ليبول فاضربه بالطبرزين فان قال أنا بختنصر فقل كذبت بختنصر أمرنى بذلك فكان أول من قام للبول بختنصر فلما رآه البواب شد عليه فقال ويحك أنا بختنصر فقال كذبت بختنصر أمرنى فضربه فقتله هذا ما ذكره فى المبتدأ إلا أن رواية من روى أن بختنصر غزى بنى إسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريا غلط عند أهل السير بل هم مجمعون على أن بختنصر إنما غزى بنى إسرائيل عند قتلهم شعياء فى عهد أرمياء ومن وقت أرمياء وتخريب بختنصر بيت المقدس إلى مولد يحيى بن زكريا أربعمائة وإحدى وستون سنة وذلك أنهم كانوا يعدون من لدن تخريب بختنصر بيت المقدس إلى حين عمارته فى عهد كيوس بن أخشورش ابن أصيهيد ببابل من قبل بهمن

بن إسفنديار سبعين سنة ثم من بعد عمارته إلى ظهور الاسكندر على بيت المقدس ثمان وثمانون سنة ثم من بعد مملكته إلى قتل يحيى بن زكريا ثلثمائة وستون سنة والصحيح من ذلك ما ذكر محمد بن إسحاق ۞ قوله عز وجل ﴿وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب﴾ أى أعلمناهم وأخبرناهم فيما آتيناهم من الكتاب أنهم سيفسدون والقضاء على وجوه يكون أمرا كقوله ﴿وقضى ربك﴾ ويكون حكما كقوله ﴿إن ربك يقضى بينهم﴾ ويكون خلقا كقوله ﴿فقضاهن سبع سموات﴾ وقال ابن عباس وقتادة يعنى وقضينا عليهم فالى بمعنى على والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ (لتفسدن) لام القسم مجازه والله لتفسدن (فى الأرض مرتين) بالمعاصى والمراد بالأرض أرض الشام وبيت المقدس (ولتعلن) ولتستكبرن ولتظلمن الناس (علوا كبيرا فاذا جاء وعد أولاهما) يعنى أولى المرتين قال قتادة إفسادهم فى المرة الأولى ما خالفوا من أحكام التوراة وركبوا المحارم ۞ وقال محمد بن إسحاق إفسادهم فى المرة الأولى قتل شعياء بين الشجرة وارتكابهم المعاصى (بعثنا عليكم عبادا لنا) قال قتادة: يعنى جالوت الجزرى وجنوده وهو الذى قتله داود وقال سعيد بن جبير يعنى سنجاريب من أهل نينوى وقال ابن إسحاق بختنصر البابلى وأصحابه وهو الأظهر (أولى بأس) ذوى بطش (شديد) فى الحرب (فجاسوا) أى فطافوا وداروا (خلال الديار) وسطها يطلبونكم ويقتلونكم والجوس طلب الشىء بالاستقصاء قال الفراء جاسوا قتلوكم بين بيوتكم (وكان وعدا مفعولا) قضاء كائنا لا خلف فيه (ثم رددنا لكم الكرة) يعنى الرجعة والدولة (عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا) عددا أى من ينفر معهم وعاد البلد أحسن مما كان (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم) أى لها ثوابها (وإن أسأتم فلها) أى فعليها كقوله تعالى فسلام لك أى عليك وقيل فلها الجزاء والعقاب (فاذا جاء وعد الآخرة) أى المرة الأخيرة من إفسادكم وذلك قصدهم قتل عيسى عليه السلام حين

(لتفسدن فى الأرض مرتين) وقال ابن عباس وقضينا عليهم فى الكتاب فالى بمعنى على والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ واللام فى لتفسدن لام القسم تقديره والله لتفسدن فى الأرض يعنى بالمعاصى والمراد بالأرض أرض الشام وبيت المقدس (ولتعلن) يعنى ولتستكبرن ولتظلمن الناس (علوا كبيرا فاذا جاء وعد أولاهما) يعنى أولى المرتين قيل إفسادهم فى المرة الأولى هو ما خالفوا من أحكام التوراة وركبوا من المحارم وقيل إفسادهم فى المرة الأولى قتلهم شعياء فى الشجرة وارتكابهم المعاصى (بعثنا عليكم عبادا لنا) يعنى جالوت وجنوده وهو الذى قتله داود وقيل هو سنجاريب وهو من أهل نينوى وقيل هو بختنصر البابلى وهو الأصح (أولى باس شديد) يعنى ذوى بطش وقوة فى الحرب (فجاسوا خلال الديار) يعنى طافوا بين الديار وسطها يطلبونكم ليقتلوكم (وكان وعدا مفعولا) يعنى قضاء كائنا لازما لا خلف فيه (ثم رددنا لكم الكرة عليهم) يعنى رددنا لكم الدولة والغلبة على الذين بعثوا عليكم حين تبتم من ذنوبكم ورجعتم عن الفساد (وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا) يعنى أكثر عددا (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم) يعنى لها ثوابها وجزاء إحسانها (وإن أسأتم فلها) يعنى فعليها إساءتها (فاذا جاء وعد الآخرة) يعنى المرة الآخرة من إفسادكم وهو قصدهم قتل عيسى فخلصه الله منهم ورفعه إليه وقتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام فسلط عليهم الفرس والروم

فسبوهم

فسبوهم وقتلوهم وهو قوله تعالى (ليسوءوا وجوهكم) يعنى ليحزنوكم وقرىء بالنون أى لنسوء الله وجوهكم (وليدخلوا المسجد) يعنى بيت المقدس ونواحيه (كما دخلوه أول مرة) يعنى وقت إفسادهم الأول (وليتبروا ما علوا تتبيرا) يعنى وليهلكوا ما غلبوا عليه من بلاد بنى إسرائيل إهلاكا.

(ذكر القصة فى هذه الآية)

قال محمد بن إسحاق كانت بنو إسرائيل فيهم الأحداث والذنوب وكان الله فى ذلك متجاوزا عنهم ومحسنا إليهم وكان أول ما نزل بهم بسبب ذنوبهم أن ملكا منهم كان يدعى صديقة وكان الله إذا ملك عليهم الملك بعث معه نبيا ليسدده ويرشده ولا ينزل عليهم كتابا إنما يؤمرون باتباع التوراة والأحكام التى فيها فلما ملك صديقة بعث الله معه شعياء وذلك قبل مبعث زكريا ويحيى وشعياء هو الذى بشر بعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم فقال أبشرى أورشليم الآن يأتيك راكب الحمار ومن بعده صاحب البعير فملك ذلك الملك يعنى صديقة بنى إسرائيل وبيت المقدس زمانا فلما انقضى ملكه عظمت الأحداث فيهم وكان معه شعياء فبعث الله سنجاريب ملك بابل ومعه ستمائة ألف راية فلم يزل سائرا حتى نزل حول بيت المقدس والملك مريض من قرحة كانت فى ساقه فجاء شعياء النبى إليه وقال يا ملك بنى إسرائيل إن سنجاريب ملك بابل قد نزل بك هو وجنوده بستمائة ألف راية وقد هابهم الناس وفرقوا منهم فكبر ذلك على الملك وقال يا نبى الله هل أتاك من الله وحى فيما حدث فتخبرنا به وكيف يفعل الله بنا وبسنجاريب وجنوده فقال شعياء لم يأتنى وحى فى ذلك فبينما هم على ذلك أوحى الله إلى شعياء النبى أن ائت ملك بنى إسرائيل فمره أن يوصى وصيته ويستخلف على ملكه من يشاء من أهل بيته فأتى شعياء ملك بنى إسرائيل وقال إن ربك قد أوحى إلى أن آمرك أن توصى وصيتك وتستخلف من شئت على ملكك من أهل بيتك فانك ميت فلما قال ذلك شعياء لصديقة الملك أقبل على القبلة فصلى ودعا فقال وهو يبكى ويتضرع إلى الله تعالى بقلب مخلص اللهم رب الأرباب وإله الآلهة يا قدوس يا متقدس يا رحمن يا رحيم يا رءوف يا من لا تأخذه سنة ولا نوم اذكرنى بعملى وفعلى وحسن قضائى على بنى إسرائيل وذلك كله كان منك وأنت أعلم به منى سرى وعلانيتى لك فاستجاب الله له وكان عبدا صالحا فأوحى الله إلى شعياء أن يخبر صديقة أن ربه قد استجاب له ورحمه وأخر أجله خمس عشرة سنة وأنجاه من عدوه سنجاريب فأتاه شعياء فأخبره فلما قال له ذلك ذهب عنه الوجع وانقطع عنه الحزن وخر ساجدا لله وقال إلهى وإله آبائى لك سجدت وسبحت وكبرت وعظمت أنت الذى تعطى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء عالم الغيب والشهادة أنت الأول والآخر والظاهر والباطن وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين أنت الذى أجبت دعوتى ورحمت تضرعى فلما رفع رأسه أوحى الله إلى شعياء أن قل للملك صديقة فيأمر عبدا من عبيده فيأتيه بماء التين فيجعله على قرحته فيشفى فيصبح وقد برأ ففعل ذلك فشفى فقال الملك لشعياء سل ربك أن يجعل لنا علما بما هو صانع بعدونا هذا قال الله لشعياء قل له إنى قد كفيتك عدوك وأنجيتك منهم وانهم سيصبحون موتى كلهم إلا سنجاريب وخمسة نفر من كتابه أحدهم بختنصر فلما أصبحوا جاء صارخ يصرخ على باب المدينة يا ملك بنى إسرائيل إن الله قد كفاك عدوك فاخرج فان سنجاريب ومن معه هلكوا فخرج الملك

رفع وقتلهم يحيى بن زكريا عليهما السلام فسلط الله عليهم الفرس والروم خردوش وطيطوس حتى قتلوهم وسبوهم ونفوهم عن ديارهم فذلك قوله تعالى (ليسوءوا وجوهكم) أى تحزن وجوهكم وسوء الوجه بادخال الغم والحزن قرأ الكسائى ويعقوب لنسوء بالنون وفتح الهمزة على التعظيم كقوله وقضينا وبعثنا وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر بالياء وفتح الهمزة على التوحيد أى ليسوء الله وجوهكم وقيل ليسوء الوعد وجوهكم وقرأ الباقون بالياء وضم الهمزة على الجمع أى ليسوء العباد أولوا البأس الشديد وجوهكم (وليدخلوا المسجد) يعنى بيت المقدس ونواحيه (كما دخلوه أول مرة وليتبروا) وليهلكوا (ما علوا) أى ما غلبوا عليه من بلادكم (تتبيرا)

والتمس سنجاريب فلم يوجد فى الموتى فبعث الملك فى طلبه فأدركه الطلب فى مفازة ومعه خمسة نفر من كتابه أحدهم بختنصر فجعلوهم فى الجوامع ثم أتوا بهم الملك فلما رآهم خر ساجدا لله تعالى من حين طلعت الشمس إلى العصر ثم قال لسنجاريب كيف رأيت فعل ربنا بكم ألم يقتلكم بحوله وقوته ونحن وأنتم غافلون فقال سنجاريب قد أتانى خبر ربكم ونصره إياكم ورحمته التى يرحمكم بها قبل أن أخرج من بلادى فلم أطع مرشدا ولم يلقنى فى الشقوة إلا قلة عقلى ولو سمعت أو عقلت ما غزوتكم فقال الملك صديقة الحمد لله رب العالمين الذى كفاناكم بما شاء وإن ربنا لم يمتعك ومن معك لكرامتك عليه ولكنه إنما أبقاك ومن معك لتزدادوا شقوة فى الدنيا وعذابا فى الآخرة ولتخبروا من وراءكم بما رأيتم من فعل ربنا بكم فتنذروا من بعدكم ولولا ذلك لقتلك ومن معك ولدمك ودم من معك أهون على الله من دم قراد لو قتلت ثم إن ملك بنى إسرائيل أمر أمير حرسه أن يقذف فى رقابهم الجوامع ففعل وطاف بهم سبعين يوما حول بيت المقدس وإيلياء وكان يرزقهم فى كل يوم خبزين من شعير لكل رجل منهم فقال سنجاريب للملك صديقة القتل خير مما نحن فيه وما تفعل بنا فأمر بهم إلى السجن فأوحى الله إلى شعياء النبى أن قل لملك بنى إسرائيل يرسل سنجاريب ومن معه لينذروا من وراءهم وليكرمهم وليحملهم حتى يبلغوا بلادهم فبلغ ذلك شعياء للملك ففعل وخرج سنجاريب ومن معه حتى قدموا بابل فلما قدم جمع الناس فأخبرهم كيف فعل الله تعالى بجنوده فقال له كهانه وسحرته ياملك بابل قد كنا نقص عليك خبر ربهم وخبر نبيهم ووحى الله إلى نبيهم فلم تطعنا وهى أمة لا يستطيعها أحد مع ربهم وكان أمر سنجاريب تخويفا لبنى إسرائيل ثم كفاهم الله تعالى ذلك تذكرة وعبرة ثم أن سنجاريب لبث بعد ذلك سبع سنين ثم مات واستخلف على ملكه بختنصر ابن ابنه فعمل بعمله وقضى نقضائه فلبث سبع عشرة سنة ثم قبض الله ملك بنى إسرائيل صديقة فرج أمر بنى إسرائيل وتنافسوا الملك حتى قتل بعضهم بعضا وشعياء نبيهم معهم لا يقبلون منه فلما فعلوا ذلك قال الله لشعياء قم فى قومك حتى أوحى على لسانك فلما قام أطلق الله لسانه بالوحى فقال يا سماء استمعى ويا أرض أنصتى فان الله يريد أن يقص شأن بنى إسرائيل الذين رباهم بنعمته واصطفاهم لنفسه وخصهم بكرامته وفضلهم على عباده وهم كالغنم الضائعة التى لا راعى لها فآوى شاردتها وجمع ضالتها وجبر كسيرها وداوى مريضها وأسمن مهزولها وحفظ سمينها فلما فعل ذلك بطرت فتناطحت كباشها فقتل بعضها بعضا حتى لم يبق منها عظم صحيح يجبر إليه آخر فويل لهذه الأمة الخاطئة الذين لا يدرون أنى جاءهم الحين إن البعير مما يذكر وطنه فينتابه وأن الحمار مما يذكر الأرى الذى يشبع عليه فيراجعه وأن الثور مما يذكر المرج الذى سمن فيه فينتابه وإن هؤلاء القوم لا يذكرون من حيث جاءهم الخير وهم أولو الألباب والعقول ليسوا ببقر ولا حمير وإنى ضارب لهم مثلا فليسمعوه قل كيف ترون فى أرض كانت خرابا زمانا لا عمران فيها وكان لها رب حكيم قوى فأقبل عليها بالعمارة وكره أن تخرب أرضه وهو قوى أو يقال ضيع وهو حكيم فأحاط عليها جدارا وشيد فيها قصرا وأنبط فيها نهرا وصف فيها غراسا من الزيتون والرمان والنخيل والأعناب وألوان الثمار كلها وولى ذلك واستحفظه قيما ذا رأى وهمة حفيظا قويا أمينا فلما أطلعت جاء طلعها خروبا فقالوا بئست الأرض هذه فنرى أن يهدم جدارها

وقصرها

وقصرها ويدفن نهرها ويقبض قيمها ويحرق غراسها حتى تصير كما كانت أول مرة خرابا مواتا لا عمران فيها قال الله تعالى قل لهم الجدار ديني والقصر شريعتي وإن النهر كتابي وأن القيم نبيي وأن الغراس هم وأن الخروب الذي أطلع الغراس أعمالهم الخبيثة وإني قد قضيت عليهم قضاءهم على أنفسهم وأنه مثل ضربته لهم يتقربون إلى بذبح البقر والغنم وليس ينالني اللحم ولا آكله ويدعون أن يتقربوا إلى بالتقوى والكف عن ذبح الأنفس التي حرمتها وأيديهم مخضوبة منها وثيابهم متزملات بدمائها يشيدون لي البيوت مساجد ويطهرون أجوافها وينجسون قلوبهم وأجسادهم ويدنسونها ويذوقون لي المساجد ويزينونها ويخربون عقولهم وأخلاقهم ويفسدونها فاى حاجة لى إلى تشييد البيوت ولست أسكنها وأى حاجة لى إلى تزويق المساجد ولست أدخلها إنما أمرت برفعها لأذكر وأسبح فيها يقولون صمنا فلم يرفع صيامنا وصلينا فلم تنور صلاتنا وتصدقنا فلم تزك صدقتنا ودعونا بمثل حنين الحمام وبكينا بمثل عواء الذئاب في كل ذلك لا يستجاب لنا قال الله فاسألهم ما الذى يمنعنى أن أستجيب لهم ألست أسمع السامعين وأبصر الناظرين وأقرب المجيبين وأرحم الراحمين فكيف أرفع صيامهم وهم يلبسونه بقول الزور ويتقوون عليه بطعمة الحرام أم كيف أنور صلاتهم وقلوبهم صاغية إلى من يحاربني ويحادني وينتهك محارمي أم كيف تزكوا عندي صدقاتهم وهم يتصدقون بأموال غيرهم إنما آجر عليها أهلها المغصوبين أم كيف أستجيب لهم دعاءهم وإنما هو قولهم بألسنتهم والفعل من ذلك بعيد وإنما أستجيب للداعى اللين وإنما استمع قول المستضعف المستكين وان من علامة رضاى رضى المساكين يقولون لما سمعوا كلامى وبلغتهم رسالتى إنها أقاويل منقولة وأحاديث متواترة وتآليف مما تؤلف السحرة والكهنة وزعموا أنهم لو شاؤا أن يأتوا بحديث مثله فعلوا ولو شاؤا أن يطلعوا على علم الغيب بما توحى إليهم الشياطين اطلعوا وإنى قد قضيت يوم خلقت السموات والأرض قضاء اثبته وحتمته على نفسى وجعلت دونه أجلا مؤجلا لابد أنه واقع فان صدقوا فيما ينتحلون من علم الغيب فليخبروك متى أنفذه أو فى أى زمان يكون وإن كانوا يقدرون على أن يأتوا بما يشاؤن فليأتوا بمثل هذه القدرة التى بها أمضيت فانى مظهره على الدين كله ولو كره المشركون وإن كانوا يقدرون على أن يؤلفوا ما يشاؤن فيؤلفوا مثل هذه الحكمة التى أدبر بها ذلك القضاء إن كانوا صادقين وإنى قد قضيت يوم خلقت السماء والأرض أن اجعل النبوة فى الأجراء وأن أجعل الملك فى الرعاء والعز فى الأذلاء والقوة فى الضعفاء والغنى فى الفقراء والعلم فى الجهلة والحكمة فى الأميين فسلهم متى هذا ومن القائم بهذا ومن أعوان هذا الأمر وأنصاره إن كانوا يعلمون وإنى باعث لذلك نبيا أميا ليس أعمى من عميان ولا ضالا من ضالين وليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا متزين بالفحش ولا قوال للخنا أسدده بكل جميل وأهب له كل خلق كريم أجعل السكينة لباسه والبر شعاره والتقوى ضميره والحكمة معقوله والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه والعدل سيرته والحق شريعته والهدى إمامه والإسلام ملته وأحمد اسمه أهدى به بعد الضلالة وأعلم به بعد الجهالة وأرفع به بعد الخمالة وأشهر به بعد النكرة وأكثر به القلة وأغنى به بعد العيلة وأجمع به بعد الفرقة وأؤلف به بين قلوب مختلفة وأهواء متشتتة وأمم متفرقة وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر توحيدا لى وإيمانا بى وإخلاصا

لى يصلون قياما وقعودا وركعاوسجودا ويقاتلون فى سبيلى صفوفا وزحوفاويخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاتى ألهمهم التكبير والتوحيد والتسبيح والتحميد والتهليل والمدحة والتمجيد لى فى مسيرهم ومجالسهم ومضاجعهم ومتقلبهم ومثواهم يكبرون ويهللون ويقدسون على رءوس الأشراف يطهرون لى الوجوه والأطراف ويعقدون لى الثياب على الأنصاف قربانهم دماؤهم وأناجيلهم فى صدورهم رهبان بالليل ليوث بالنهار ذلك فضلى أوتيه من أشاء أنا ذو الفضل العظيم فلما فرغ شعياء من مقالته عدوا عليه ليقتلوه فهرب منهم فلقيته شجرة فانفلقت له فدخل فيها فأدركه الشيطان فأخذ بهدبة من ثوبه فأراهم إياها فوضعوا المنشار فى وسطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه فى وسطها واستخلف الله على بنى إسرائيل بعد ذلك رجلا منهم يقال ناشئة بن أموص وبعث لهم أرمياء بن حلقيا نبيا وكان من سبط هرون بن عمران وذكر ابن إسحاق أنه الخضر واسمه أرمياء سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فقام عنها وهى تهتز خضراء فبعث الله أرمياء إلى ذلك الملك ليسدده ويرشده ثم عظمت الأحداث فى بنى إسرائيل وركبوا المعاصى واستحلوا المحارم فأوحى الله إلى أرمياء أن ائت قومك من بنى إسرائيل فاقصص عليهم ما آمرك به وذكرهم نعمى وعرفهم بأحداثهم فقال أرمياء يارب إنى ضعيف إن لم تقونى عاجز إن لم تبلغنى مخذول إن لم تنصرنى قال الله تعالى أولم تعلم أن الأمور كلها تصدر عن مشيئتى وأن القلوب والألسنة بيدى أقلبها كيف شئت إنى معك ولن يصل إليك شىء معى فقام أرمياء فيهم ولم يدر ما يقول فألهمه الله عز وجل فى الوقت خطبة بليغة بين لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب المعصية وقال فى آخرها عن الله عز وجل وإنى حلفت بعزتى لأقيضن لهم فتنة يتحير فيها الحليم ولأسلطن عليهم جبارا قاسيا ألبسه الهيبة وأنزع من صدره الرحمة يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم ثم أوحى الله إلى أرمياء أنى مهلك بنى إسرائيل بيافث ويافث من أهل بابل فسلط الله عليهم بختنصر فخرج فى ستمائة ألف راية ودخل بيت المقدس بجنوده ووطىء الشام وقتل بنى إسرائيل حتى أفناهم وخرب بيت المقدس وأمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم ترسه ترابا ثم يقذفه فى بيت المقدس ففعلوا ذلك حتى ملئوه. ثم أمرهم أن يجمعوا من فى بلدان بيت المقدس كلهم فاجتمع عنده كل صغير وكبير من بنى إسرائيل فاختار منهم سبعين ألف صبى فلما خرجت غنائم جنده وأراد أن يقسمها فيهم قالت له الملوك الذين كانوا معه أيها الملك لك غنائمنا كلها وأقسم بيننا هؤلاء الصبيان الذين اخترتهم من بنى إسرائيل فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فأصاب كل رجل منهم أربعة غلمان وفرق من بقى من بنى إسرائيل ثلاث فرق ثلثا أقرهم بالشام وثلثا سباهم وثلثا قتلهم وذهب بآنات بيت المقدس وبالصبيان السبعين ألفا حتى أقدمهم بابل فكانت هذه الوقعة الأولى التى أنزل الله عز وجل ببنى إسرائيل بظلمهم فذلك قوله سبحانه وتعالى «فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد» يعنى بختنصر وأصحابه ثم إن بختنصر أقام فى سلطانه ماشاء الله ثم رأى رؤيا عجيبة إذ رأى شيئا أصابه فأنساه الذى رأى فدعا دانيال وحنانيا وعزاريا ومشائيل وكانوا من ذرارى الأنبياء وسألهم عنها فقالوا أخبرنا بها نخبرك بتأويلها فقال ما أذكرها ولئن لم تخبرونى بها وبتأويلها لأنزعن أكتافكم فخرجوا من عنده فدعوا الله وتضرعوا إليه فأعلمهم الله بالذى سألهم عنه فجاءوه فقالوا رأيت تمثالا قدماه وساقاه من فخار وركبتاه وفخذاه من نحاس وبطنه من فضة وصدره من ذهب ورأسه وعنقه من حديد

قال

قال صدقتم قالوا فبينما أنت تنظر إليه وقد أعجبك أرسل الله صخرة من السماء فدقته فهي التي أنستكها قال صدقتم فما تأويلها قالوا تأويلها أنك رأيت الملوك بعضهم كان ألين ملكا وبعضهم كان أحسن ملكا وبعضهم كان أشد ملكا والفخار أضعفه ثم فوقه النحاس أشد منه ثم فوق النحاس الفضة أحسن من ذلك وأفضل والذهب أحسن من الفضة وأفضل ثم الحديد ملكك فهو أشد وأعز مما قبله والصخرة التي رأيت أرسل الله من السماء فدقته فنبي يبعثه الله من السماء فيدق ذلك أجمع ويصير الأمر إليه ثم إن أهل بابل قالوا لبختنصر أرأيت هؤلاء الغلمان من بني إسرائيل الذين سألناك أن تعطيناهم ففعلت فانا قد أنكرنا نساءنا منذ كانوا معنا لقد رأينا نساءنا انصرفت وجوههن عنا إليهم فأخرجهم من بين أظهرنا أو اقتلهم فقال شأنكم بهم فمن أحب منكم أن يقتل من كان في يده فليفعل فلما قربوهم للقتل بكوا وتضرعوا إلى الله عز وجل وقالوا يا ربنا أصابنا البلاء بذنوب غيرنا فوعدهم الله أن يحييهم فقتلوا إلا من كان منهم مع بختنصر منهم دانيال وحنانيا وعزاريا وميشائيل ثم لما أراد الله تعالى هلاك بختنصر انبعث فقال لمن في يده من بني إسرائيل أرأيتم هذا البيت الذي خربت والناس الذي قتلت منكم وما هذا البيت قالوا هو بيت الله وهؤلاء أهله كانوا من ذراري الأنبياء فظلموا وتعدوا فسلطت عليهم بذنوبهم وكان ربهم رب السموات والأرض ورب الخلائق كلهم يكرمهم ويعزهم فلما فعلوا مافعلوا أهلكهم وسلط عليهم غيرهم فاستكبر وتجبر وظن أنه بجبروته فعل ذلك ببني إسرائيل قال فأخبروني كيف لي أن أطلع إلى السماء العليا فأقتل من فيها وأتخذها لي ملكا فاني قد فرغت من أهل الأرض قالوا مايقدر عليها أحد من الخلائق قال لتفعلن أو لأقتلنكم عن آخركم فبكوا وتضرعوا إلى الله تعالى فبعث الله عز وجل عليه بقدرته بعوضة فدخلت منخره حتى عضت أم دماغه فما كان يقر ولا يسكن حتى يوجأ له رأسه على أم دماغه فلما مات شقوا رأسه فوجدوا البعوضة عاضة على أم دماغه ليرى الله العباد قدرته ونجى الله من بقي من بني إسرائيل في يده وردهم إلى الشام فبنوا فيه وكثروا حتى كانوا على أحسن ما كانوا عليه ويزعمون أن الله سبحانه وتعالى أحيا أولئك الذين قتلوا فلحقوا بهم ثم إنهم لما دخلوا الشام دخلوها وليس معهم من الله عهد كانت التوراة قد احترقت وكان عزيز من السبايا الذين كانوا ببابل فلما رجع إلى الشام جعل يبكي ليله ونهاره وخرج عن الناس فبينما هو كذلك إذ جاءه رجل فقال له ياعزير مايبكيك قال أبكي على كتاب الله وعهده الذي كان بين أظهرنا الذي لايصلح ديننا وآخرتنا غيره قال أفتحب أن يرد إليك قال نعم قال ارجع فصم وتطهر وطهر ثيابك ثم موعدك هذا المكان غدا فرجع عزير فصام وتطهر وطهر ثيابه ثم عمد إلى المكان الذي وعده فجلس فيه فأتاه ذلك الرجل باناء فيه ماء وكان ملكا بعثه الله إليه فسقاه من ذلك الإناء فمثلت التوراة في صدره فرجع إلى بني إسرائيل فوضع لهم التوراة فأحبوه حبا لم يحبوا حبه شيئا قط ثم قبضه الله تعالى وجعلت بنو إسرائيل بعد ذلك يحدثون الأحداث ويعود الله عليهم ويبعث فيهم الرسل ففريقا يكذبون وفريقا يقتلون حتى كان آخر من بعث إليهم من أنبيائهم زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام وكانوا من بيت آل داود فزكريا مات وقيل قتل وقصدوا عيسى ليقتلوه فرفعه الله من بين أظهرهم وقتلوا يحيى فلما فعلوا ذلك بعث الله عليهم ملكا من ملوك بابل يقال له خردوش فسار إليهم بأهل بابل

حتى دخل عليه الشام فلما ظهر عليهم أمر رأسا من رؤساء جنوده يقال له بيورزاذان صاحب القتل فقال له إنى قد كنت حلفت بالهى لئن أنا ظفرت على أهل بيت المقدس لأقتلنهم حتى يسيل الدم فى وسط عسكرى إلا أن لا أجد أحدا أقتله فأمره أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم ثم أن بيورزاذان دخل بيت المقدس فقام فى البقعة التى كانوا يقربون فيها قربانهم فوجد فيها دما يغلى فسألهم عنه فقال يابنى إسرائيل ما شأن هذا الدم يغلى أخبرونى خبره فقالوا هذا دم قربان لنا قربناه فلم يقبل منا فلذلك يغلى ولقد قربنا القربان من ثمانمائة سنة فتقبل منا إلا هذا فقال ماصدقتمونى فقالوا لو كان كأول زماننا لتقبل منا ولكن قد انقطع منا الملك والنبوة والوحى فلذلك لم يقبل منا فذبح بيورزاذان منهم على ذلك الدم سبعمائة وسبعين روحا من رءوسهم فلم يهدأ الدم فأمر بسبعمائة غلام من غلمانهم فذبحهم على الدم فلم يهدأ فأمر بسبعة آلاف من شيبهم وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يهدأ فلما رأى بيورزاذان أن الدم لا يهدأ قال لهم يابنى إسرائيل ويلكم أصدقونى واصبروا على أمر ربكم فقد طالما ملكتم فى الأرض تفعلون ماشئتم قبل أن لا أترك منكم نافخ نار من ذكر ولا أنثى إلا قتلته فلما رأوا الجهد وشدة القتل صدقوه الخبر فقالوا إن هذا دم نبى كان ينهانا عن أمور كثيرة من سخط الله تعالى فلو كنا أطعناه كنا أرشدنا وكان يخبرنا عن أمركم فلم نصدقه فقتلناه فهذا دمه فقال لهم بيورزاذان ما كان اسمه قالوا يحيى بن زكريا قال الآن صدقتمونى لمثل هذا ينتقم ربكم منكم فلما علم بيورزاذان أنهم صدقوه خرسا جدا وقال لمن حوله أغلقوا أبواب المدينة وأخرجوا من كان هاهنا من جيش خردوش وخلا فى بنى إسرائيل ثم قال يايحيى بن زكريا قد علم ربى وربك ما أصاب قومك من أجلك ومن قتل منهم فاهدأ باذن ربك قبل أن لا أبقى من قومك أحدا إلا قتلته فهدأ الدم باذن الله تعالى ورفع بيورزاذان عنهم القتل وقال آمنت بما آمنت به بنو إسرائيل وأيقنت أنه لارب غيره وقال لبنى إسرائيل إن خردوش أمرنى أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره وإنى لا أستطيع أن أعصيه قالوا له افعل ماأمرت به فأمرهم فحفروا خندقا وأمرهم بأموالهم من الخيل والبغال والحمير والإبل والبقر والغنم فذبحها حتى سال الدم فى العسكر وأمر بالقتلى الذين قتلوا قبل ذلك فطرحوه على ماقتل من المواشى فلم يظن خردوش إلا أن مافى الخندق من دماء بنى إسرائيل فلما بلغ الدم عسكره أرسل إلى بيورزاذان أن أرفع عنهم القتل ثم انصرف إلى بابل وقد أفنى بنى إسرائيل أو كاد أن يفنيهم وهى الوقعة الأخيرة التى أنزل الله ببنى إسرائيل فى قوله لتفسدن فى الأرض مرتين فكانت الوقعة الأولى بختنصر وجنوده والأخرى خردوش وجنوده وكانت أعظم الوقعتين فلم تقم لهم بعد ذلك راية وانتقل الملك بالشام ونواحيها إلى الروم واليونانيين إلا أن بقايا بنى إسرائيل كثروا وكانت لهم الرياسة ببيت المقدس ونواحيها على غير وجه الملك وكانوا فى نعمة إلى أن بدلوا وأحدثوا الأحداث فسلط الله عليهم ططوس بن أسبيانيوس الرومى فخرب بلادهم وطردهم عنها ونزع الله عنهم الملك والرياسة وضربت عليهم الذلة والمسكنة فما لبثوا فى أمة إلا وعليهم الصغار والجزية وبقى بيت المقدس خرابا إلى خلافة عمر بن الخطاب فعمره المسلمون بأمره وقيل فى سبب قتل يحيى عليه السلام أن ملك بنى إسرائيل كان يكرمه ويدنى مجلسه وأن الملك هوى بنت امرأته وقال ابن عباس ابنة أخيه فسأل يحيى تزوجها فنهاه عن نكاحها فبلغ ذلك أمها فحقدت على

(عسى ربكم) يابنى إسرائيل (أن يرحمكم) بعد انتقامه منكم فيرد الدولة إليكم (وإن عدتم عدنا) أى إن عدتم إلى المعصية عدنا إلى العقوبة قال قتادة فعادوا فبعث الله عليهم محمدا صلى الله عليه وسلم فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) سجنا ومحبسا من الحصر وهو الحبس قال الحسن حصيرا أى فراشا وذهب إلى الحصير الذى يبسط ويفرش (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) أى إلى الطريقة التى هى أصوب وقيل إلى الكلمة التى هى أعدل وهى شهادة أن لا إله إلا الله (ويبشر) يعنى القرآن (المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم) بأن لهم (أجرا كبيرا) وهو الجنة (وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما) وهو النار قوله تعالى (ويدع الإنسان) حذف الواو لفظا لاستقلال اللام الساكنة كقوله سندع الزبانية وحذف فى الخط أيضا وهى غير محذوفة فى المعنى ومعناه ويدعو الإنسان على ماله وولده ونفسه (بالشر) فيقول عند الغضب اللهم العنه وأهلكه ونحوهما (دعاءه بالخير) أى كدعائه ربه بالخير أن يهب له النعمة والعافية ولو استجاب الله دعاءه على نفسه لهلك ولكن الله لايستجيب بفضله (وكان الإنسان عجولا) بالدعاء على مايكره أن يستجاب له فيه قال جماعة من أهل التفسير وقال ابن عباس ضجرا لا صبر له على السراء والضراء قوله عز وجل (وجعلنا الليل والنهار آيتين) أى علامتين دالتين على وجودنا ووحدانيتنا وقدرتنا (فمحونا آية الليل) قال ابن عباس جعل الله نور الشمس سبعين جزءا ونور القمر كذلك فمحا من نور القمر تسعة وستين جزءا فجعلها مع نور الشمس حكى أن الله تعالى أمر جبريل فأمر جناحه على وجه القمر ثلاث مرات فطمس عنه الضوء وبقى فيه النور وسأل ابن الكواء عليا عن السواد الذى فى القمر قال هو أثر المحو (وجعلنا آية النهار مبصرة) منيرة مضيئة يعنى يبصر بها قال الكسائى تقول

يحيى وعدت حين جلس الملك على شرابه فألبستها ثيابا رقاقا حمرا وطيبتها وألبستها الحلى وأرسلتها إلى الملك وأمرتها أن تسقيه فان هو راودها عن نفسها أبت عليه حتى يعطيها ماسألته فاذا أعطاها ماسألت سألت رأس يحيى بن زكريا وأن يؤتى به فى طست ففعلت فلما راودها قالت لاأفعل حتى تعطينى ماأسألك قال فما تسألينى قالت رأس يحيى بن زكريا فى هذا الطست فقال ويحك سلينى غير هذا قالت ماأريد غير هذا فلما أبت عليه بعث فأتى برأسه حتى وضع بين يديه والرأس يتكلم يقول لاتحل لك فلما أصبح إذا دمه يغلى فأمر بتراب فألقى عليه فرقى الدم يغلى فلا زال يغلى ويلقى عليه التراب وهو يغلى حتى بلغ سور المدينة وهو فى ذلك يرقى ويغلى وسلط الله عليهم ملك بابل فخرب بيت المقدس وقتل سبعين ألفا حتى سكن دمه قوله عز وجل (عسى ربكم أن يرحمكم) يعنى يابنى إسرائيل بعد انتقامه منكم فيرد الدولة إليكم (وإن عدتم) أى إلى المعصية (عدنا) أى إلى العقوبة قال قتادة فعادوا فبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم عليهم فهم يعطون الجزية عن يدوهم صاغرون (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) أى سجنا ومحبسا من الحصر الذى هو مجلس الحبس وقيل فراشا من الحصير الذى يبسط ويفترش . قوله تعالى (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) أى إلى الطريقة التى هى أصوب وقيل إلى الكلمة التى هى أعدل وهى شهادة أن لاإله إلا الله (ويبشر) يعنى القرآن (المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا) يعنى الجنة (وأن الذين لايؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما) يعنى النار فى الآخرة (ويدع الإنسان) أى على نفسه وولده وماله (بالشر) يعنى قوله عند الغضب اللهم أهلكه اللهم العنه ونحو ذلك (دعاءه بالخير) أى كدعائه ربه أن يهب له النعمة والعافية ولو استجاب الله دعاءه على نفسه لهلك ولكن الله لايستجيب بفضله وكرمه (وكان الإنسان عجولا) أى بالدعاء على مايكره أن يستجاب له فيه وقال ابن عباس ضجرا لاصبر له على سراء ولا ضراء. قوله تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين) أى علامتين دالتين على وحدانيتنا وقدرتنا وفى معنى الآية قولان أحدهما أن يكون المراد من الآيتين نفس الليل والنهار وهو أنه جعلهما دليلين للخلق على مصالح الدنيا والدين أما فى الدين فلأن كل واحد منهما مضاد للآخر مغاير مع كونهما متعاقبين على الدوام ففيه أقوى دليل على أن لهما مدبرا يدبرهما ويقدرهما بالمقادير المخصوصة وأما فى الدنيا فلأن مصالح العباد لاتتم إلا بهما ففى الليل يحصل السكون والراحة وفى النهار يحصل التصرف فى المعاش والكسب والقول الثانى أن يكون المراد وجعلنا نيرى الليل والنهار آيتين يريد الشمس والقمر (فمحونا آية الليل) أى جعلنا الليل ممحو الضوء مطموسا مظلما لايستبان فيه شىء (وجعلنا آية النهار مبصرة) أى تبصر فيه الأشياء رؤية

العرب أبصر النهار إذا أضاء بحيث يبصر بها (لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب) أى لو ترك الله الشمس والقمر كما خلقهما لم يعرف الليل من النهار ولم يدر الصائم متى يفطر ولم يدر وقت الحج ولا وقت حلول الآجال ولا وقت السكون والراحة (وكل شىء فصلناه تفصيلا) قوله عز وجل (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه) قال ابن عباس عمله وما قدر عليه فهو ملازمه أينما كان وقال الكلبى ومقاتل خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسبه به وقال الحسن يمنه وشؤمه وعن مجاهد ما من مولود إلا وفى عنقه ورقة مكتوب فيها شقى أو سعيد وقال أهل المعانى أراد بالطائر ما قضى الله عليه أنه عامله وما هو صائر إليه من سعادة أو شقاوة سمى طائرا على عادة العرب فيما كانت تتفاءل وتتشاءم به من سوانح الطير وبوارحها وقال أبو عبيدة والقتيبى أراد بالطائر حظه من الخير والشر من قولهم طار سهم فلان بكذا وكذا وخص العنق من بين سائر الأعضاء لأنه موضع القلائد والأطواق وغيرهما مما يزين أو يشين فجرى كلام العرب بتشبيه الأشياء اللازمة إلى الأعناق (ونخرج له) يقول الله تعالى ونحن نخرج له (يوم القيامة كتابا) وقرأ الحسن ومجاهد ويعقوب ويخرج له بفتح الياء وضم الراء معناه ويخرج له الطائر يوم القيامة كتابا وقرأ أبو جعفر يخرج بالياء وضمها وفتح الراء (يلقاه) قرأ ابن عامر وأبو جعفر يلقاه بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف يعنى يلقى الإنسان ذلك الكتاب أى يؤتاه وقرأ الباقون بفتح الياء خفيفة أى يراه (منشورا) وفى الآثار أن الله تعالى يأمر الملك بطى الصحيفة إذا تم عمر العبد فلا تنشر إلا فى يوم القيامة (اقرأ كتابك) أى يقال له اقرأ كتابك قوله تعالى (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) محاسبا قال الحسن لقد عدل عليك من جعلك حسيب

بينة قال ابن عباس جعل الله نور الشمس سبعين جزءا ونور القمر كذلك فمحا من نور القمر تسعة وستين جزءا فجعلها مع نور الشمس وحكى أن الله أمر جبريل فأمر جناحه على وجه القمر ثلاث مرات فطمس عليه الضوء وبقى فيه النور وسأل ابن الكواء عليا عن السواد الذي فى القمر فقال هو أثر المحو (لتبتغوا فضلا من ربكم) أى لتتوصلوا ببياض النهار إلى استبانة أعمالكم والتصرف فى معايشكم (ولتعلموا) أى باختلاف الليل والنهار (عدد السنين والحساب) أى ما تحتاجون إليه ولولا ذلك لما علم أحد حساب الأوقات ولتعطلت الأمور ولو ترك الله الشمس والقمر كما خلقهما لم يعرف الليل من النهار ولم يدر الصائم متى يفطر ولم يعرف وقت الحج ولا وقت حلول الديون المؤجلة . واعلم أن الحساب يبنى على أربع مراتب الساعات والأيام والشهور والسنين فالعدد للسنين والحساب لما دونها من الشهور والأيام والساعات وليس بعد هذه المراتب الأربعة إلا التكرار (وكل شىء فصلناه تفصيلا) يعنى وكل شىء تفتقرون إليه من أمر دينكم ودنياكم قد بيناه بيانا شافيا واضحا غير ملتبس قيل إنه سبحانه وتعالى لما ذكر أحوال آيتى الليل والنهار وهما من وجه دليلان قاطعان على التوحيد ومن وجه آخر نعمتان من الله تعالى على أهل الدنيا وكل ذلك تفضل منه فلا جرم قال وكل شىء فصلناه تفصيلا قوله عز وجل (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه) قال ابن عباس عمله وما قدر عليه فهو ملازمه أينما كان وقيل خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسب به وقيل ما من مولود إلا وفى عنقه ورقة مكتوب فيها شقى أو سعيد وقيل أراد بالطائر ما قضى عليه أنه عامله وما هو صائر إليه من سعادة أو شقاوة وقيل هو من قولك طار له سهم إذا خرج يعنى ألزمناه ما طار له من عمله لزوم القلادة أو الغل لا ينفك عنه والعنق فى قوله فى عنقه كناية عن اللزوم كما يقال جعلت هذا فى عنقك أى قلدتك هذا العمل وألزمتك الاحتفاظ به وإنما خص العنق من بين سائر الأعضاء لأنه موضع القلائد والأطواق والغل مما يزين أو يشين فإن كان عمله خيرا كان له كالقلادة أو الحلى فى العنق وهو ما يزينه وإن كان عمله شرا كان له كالغل فى عنقه وهو ما يشينه ويخرج له يقول تبارك وتعالى (ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) قيل بسطت للإنسان صحيفتان ووكل به ملكان يحفظان عليه حسناته وسيئاته فإذا مات طويت الصحيفتان وجعلتا معه فى عنقه فلا ينشران إلا يوم القيامة (اقرأ كتابك) أى يقال له اقرأ كتابك قيل يقرأ يوم القيامة من لم يكن قارئا (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) أى محاسبا قال الحسن لقد عدل عليك (١) من جعلك حسيب نفسك وقيل يقول الكافر

(١) قوله عدل عليك هكذا فى الأصل الطبع وفى بعض النسخ إليك سيدل عليك وفى الخطيب عدل والله فى حقك من الخ . وفى الكشاف : يا ابن آدم أنصفك والله من الخ اه مصححه .

إذاك

نفسك قال قتادة سيقرأ يومئذ من لم يكن قارئا فى الدنيا (من اهتدى فانما يهتدى لنفسه) لها ثوابه (ومن ضل فانما يضل عليها) لأن عليها عقابه (ولاتزر وازرة وزر أخرى) أى لاتحمل حاملة حمل أخرى من الآثام أى لايؤخذ أحد بذنب أحد (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) إقامة للحجة وقطعا للعذر وفيه دليل على أن ماوجب وجب بالسمع لابالعقل (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها) قرأ مجاهد أمرنا بالتشديد أى سلطنا شرارها فعصوا وقرأ الحسن وقتادة ويعقوب أمرنا بالمد أى أكثرنا وقرأ الباقون بالقصر مخففا أى أمرناهم بالطاعة فعصوا ويحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء ويحتمل أن تكون بمعنى أكثرنا يقال أمرهم الله أى كثرهم الله وفى الحديث «خير المال مهرة مأمورة» أى كثيرة النسل ويقال منه أمر القوم يأمرون أمرا إذا كثروا وليس من الأمر بمعنى الفعل فان الله لايأمر بالفحشاء واختار أبو عبيدة قراءة العامة وقال لأن المعانى الثلاثة تجتمع فيها يعنى الأمر والإمارة والكثرة مترفيها منعميها وأغنياءها (ففسقوا فيها فحق عليها القول) وجب عليها العذاب (فدمرناها تدميرا) أى خربناها وأهلكنا من فيها أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى، ثنا محمد بن يوسف ثنا محمد ابن إسماعيل ثنا يحيى بن بكر ثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير أن زينب بنت أبى سلمة حدثته عن أم حبيبة بنت أبى سفيان عن زينب بنت جحش «أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعا وهو يقول لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بأصبعه الإبهام والتى تليها قالت زينب فقلت يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال نعم إذا كثر الخبث» قوله (وكم أهلكنا من القرون) أى المكذبة (من بعد نوح) يخوف كفار مكة (وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا) قال عبد الله بن أبى أوفى القرن مائة وعشرون سنة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول قرن وكان فى آخره يزيد بن معاوية وقيل مائة سنة، وروى عن محمد بن القاسم عن عبد الله بن بشر المازنى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يده على رأسه وقال سيعيش هذا الغلام قرنا» قال

إنك لست بظلام للعبيد فاجعلني أحاسب نفسي فيقال له اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا. قوله سبحانه وتعالى (من اهتدي فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها) يعنى أن ثواب العمل الصالح مختص بفاعله وعقاب الذنب مختص بفاعله أيضا ولايتعدي منه إلى غيره وهو قوله تعالى (ولاتزر وازرة وزر أخرى) أى لاتحمل حاملة ثقل أخرى من الآثام ولا يؤاخذ أحد بذنب أحد بل كل أحد مختص بذنبه (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) لإقامة الحجة وقطعا للعذر وفيه دليل على أن ماوجب إنما وجب بالسمع لابالعقل. قوله سبحانه وتعالى (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها) فى معنى الآية قولان أحدهما أن المراد منه الأمر بالفعل ثم إن لفظ الآية يدل على أنه تعالى بماذا أمرهم فقال أكثر المفسرين معناه أنه تعالى أمرهم بالأعمال الصالحة وهى الإيمان والطاعة وفعل الخير والقوم خالفوا ذلك الأمر وفسقوا والقول الثانى أمرنا مترفيها أى كثرنا فساقها يقال أمر القوم إذا كثروا وأمرهم الله إذا كثرهم ومنه الحديث «خير المال مهرة مأمورة» أي كثيرة النتاج والنسل فعلى هذا قوله تعالى أمرنا ليس من الأمر بالفعل. والمترف هو الذي أبطرته النعمة وسعة العيش (ففسقوا فيها) أى خرجوا عما أمرهم الله به من الطاعة (فحق عليها القول) أى وجب عليها العقاب (فدمرناها تدميرا) أى أهلكناها إهلاك استئصال والدمار الهلاك والخراب (ق) عن أم المؤمنين زينب بنت جحش «أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعا يقول لاإله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بأصبعيه الإبهام والتى تليها قالت زينب قلت يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال نعم إذا كثر الخبث» قوله ويل للعرب ويل كلمة تقال لمن وقع فى هلكة أو أشرف أن يقع فيها وقوله إذا كثر الخبث أى الشر قوله تعالى (وكم أهلكنا من القرون) أي المكذبة (من بعد نوح) وهم عاد وثمود وغيرهم من الأمم الخالية يخوف الله بذلك كفار قريش قال عبد الله بن أبى أوفى القرن عشرون ومائة سنة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول قرن ويزيد بن معاوية فى آخره وقيل القرن مائة سنة وروى عن محمد بن القاسم عن عبد الله بن بشر المازنى «أن النبى صلى الله عليه وسلم وضع يده على رأسه وقال سيعيش هذا الغلام قرنا» قال محمد بن القاسم مازلنا نعدله حتى تمت له مائة سنة ثم مات وقيل القرن ثمانون سنة وقيل أربعون (وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا)

محمد بن القاسم فما زلنا نعد له حتى تم له مائة سنة ثم مات قال الكلبي القرن ثمانون سنة وقيل أربعون سنة (من كان يريد العاجلة) يعني الدنيا أي الدار العاجلة (عجلنا له فيها مانشاء) من البسط والتقتير (لمن نريد) أن نفعل به ذلك أو إهلاكه (ثم جعلنا له) في الآخرة (جهنم يصلاها) (١٥٤) يدخل نارها (مذموما مدحورا) مطرودا مبعدا (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها) عمل عملها (وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا) مقبولا (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء) أي نمد كلا الفريقين من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة (من عطاء ربك) أي يرزقهما جميعا ثم يختلف بهما الحال في المآل (وما كان عطاء ربك) رزق ربك (محظورا) ممنوعا عن عباده فالمراد من العطاء العطاء في الدنيا وإلا فلا حظ للكفار في الآخرة (أنظر) يا محمد (كيف فضلنا بعضهم على بعض) في الرزق والعمل الصالح يعني طالب العاجلة وطالب الآخرة (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا لا تجعل مع الله إلها آخر) الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره وقيل معناه لا تجعل أيها الإنسان مع الله إلها آخر (فتقعد مذموما مخذولا) مذموما من غير حمد مخذولا من غير نصر قوله عز وجل (وقضى ربك) وأمر ربك قاله ابن عباس وقتادة والحسن قال الربيع ابن أنس وأوجب ربك قال مجاهد وأوصى ربك وحكى عن الضحاك بن مزاحم أنه قرأ ووصى ربك وقال إنهم ألصقوا الواو بالصاد فصارت قافا (ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) أي وأمر بالوالدين إحسانا برا بهما وعطفا عليهما (إما يبلغن عندك الكبر) قرأ حمزة والكسائي بالألف على التثنية فعلى هذا قوله (أحدهما أو كلاهما)

يعني أنه عالم بجميع المعلومات راء لجميع المرئيات لا يخفى عليه شيء من أحوال الخلق . قوله عز وجل (من كان يريد العاجلة) أي الدار العاجلة يعني الدنيا (عجلنا له فيها مانشاء) أي من البسط أو التقتير (لمن نريد) أن نفعل به ذلك أو إهلاكه وقيل في معنى الآية عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد أي القدر الذي نشاء نعجله له في الدنيا لا الذي يشاء هو ولمن نريد أن نعجل له شيئا قدرناه له وهذا ذم لمن أراد بعمله ظاهر الدنيا ومنفعتها وبيان أن من أرادها لا يدرك منها إلا المقدر له (ثم جعلنا له) أي في الآخرة (جهنم يصلاها) أي يدخلها (مذموما مدحورا) أي مطرودا مباعدا . قوله سبحانه وتعالى (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها) أي عمل لها عملها (وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا) أي مقبولا قيل في الآية ثلاث شرائط في كون السعي مشكورا إرادة الآخرة بعمله بأن يعقد بها همه ويتجافى عن دار الغرور والسعي فيما كلف من الفعل والترك والإيمان الصحيح الثابت وعن بعض السلف الصالح من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله إيمان ثابت ونية صادقة وعمل مصيب وتلا هذه الآية . قوله عز وجل (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء) أي نمد كلا الفريقين من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة (من عطاء ربك) يعني يرزقهما جميعا ثم يختلف الحال بهما في المآل (وما كان عطاء ربك محظورا) أي ممنوعا عن عباده والمراد بالعطاء العطاء في الدنيا إذ لا حظ للكافر في الآخرة (أنظر) يا محمد (كيف فضلنا بعضهم على بعض) أي في الرزق والعمل يعني طالب العاجلة وطالب الآخرة (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) يعني أن تفاضل الخلق في درجات منافع الدنيا محسوس فتفاضلهم في درجات منافع الآخرة أكبر وأعظم فان نسبة التفاضل في درجات الآخرة إلى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة إلى الدنيا فاذا كان الإنسان تشتد رغبته في طلب الدنيا فلأن تقوى وتشتد رغبته في طلب الآخرة أولى لأنها دار المقامة . قوله تعالى (لا تجعل مع الله إلها آخر) الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره وقيل معناه لا تجعل أيها الإنسان مع الله إلها آخر وهذا أولى (فتقعد مذموما) أي من غير حمد (مخذولا) أي بغير ناصر قوله سبحانه وتعالى (وقضى ربك) أي وأمر ربك قاله ابن عباس وقيل معناه وأوجب ربك وقيل معناه الحكم والجزم وقيل ووصى ربك وحكى عن الضحاك أنه قرأها ووصى ربك وقال إنهم ألصقوا الواو بالصاد فصار قافا وهي قراءة علي وابن مسعود قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير هذا القول بعيد جدا لأنه يفتح باب أن التحريف والتغيير قد تطرق إلى القرآن ولو جوزنا ذلك لارتفع الأمان على القرآن وذلك يخرجه عن كونه حجة ولا شك أنه طعن عظيم في الدين (ألا تعبدوا إلا إياه) فيه وجوب عبادة الله والمنع من عبادة غيره وهذا هو الحق لأن العبادة عبارة عن الفعل المشتمل على نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن له الإنعام والإفضال على عباده ولا منعم إلا الله فكان هو المستحق للعبادة لا غيره (وبالوالدين إحسانا) أي وأمر بالوالدين إحسانا أي برا بهما وعطفا عليهما وإحسانا إليهما (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما) معناه أنهما يبلغان

كلام مستأنف كقوله تعالى «ثم عموا وصموا كثير منهم» وقوله وأسروا النجوى الذين ظلموا وقوله الذين ظلموا ابتداء وقرأ الباقون يبلغن على التوحيد (فلا تقل لهما أف) فيه ثلاث لغات قرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بفتح الفاء وقرأ أبو جعفر ونافع وحفص بالكسر والتنوين والباقون بكسر الفاء غير منون ومعناها واحد وهي كلمة كراهية قال أبو عبيدة أصل التف والأف الوسخ على الأصابع إذا فتلتها وقيل الأف مايكون فى المغابن من الوسخ والتف مايكون فى الأصابع وقيل الأف وسخ الأذن والتف وسخ الأظفار وقيل الأف وسخ الظفر والتف مارفعته (١٥٥) بيدك من الأرض من شيء حقير (ولا تنهرهما) ولا تزجرهما (وقل لهما قولا كريما) حسنا جميلا لينا قال ابن المسيب كقول العبد المذنب للسيد الفظ وقال مجاهد لا تسميهما ولا تكنهما وقل لهما يا أبتاه يا أماه وقال مجاهد فى هذه الآية أيضا إذا بلغا عندك من الكبر مايبولان فلا تتقذرهما ولا تقل لهما أف حين تميط عنهما الخلاء والبول كما كانا يميطانه عنك صغيرا (واخفض لهما جناح الذل) أى ألن جانبك لهما واخضع لهما قال عروة ابن الزبير ألن لهما حتى لاتمتنع عن شيء أحباه (من الرحمة) من الشفقة (وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا) أراد إذا كانا مسلمين قال ابن عباس هذا منسوخ بقوله «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين» أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو مسعود محمد بن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا سليمان بن حرب ثنا حماد بن يزيد عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن يعني السلمي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الوالد أوسط أبواب الجنة فاحفظ إن شئت أوضيع» أخبرنا أبو طاهر محمد ابن محمد بن على الزراد أنا أبو بكر محمد بن إدريس الجرجاني أنا أبو الحسن على بن الحسين المالييني أنا الحسن بن سفيان ثنا يحيي بن حبيب بن عدي ثنا خالد بن الحارس عن سعيد عن يعلى بن عطاء عن أبيه عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ

إلى حالة الضعف والعجز فيصيران عندك فى آخر العمر كما كنت عندهما فى أول العمر واعلم أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر هذه الجملة كلف الإنسان فى حق الوالدين خمسة أشياء الأول قوله تعالى (فلا تقل لهما أف) وهى كلمة تضجر وكراهية وقيل إن أصل هذه الكلمة أنه إذا سقط عليك تراب أو رماد ونفخت فيه تزيله تقول أف ثم إنهم توسعوا بذكر هذه الكلمة إلى كل مكروه يصل إليهم والثانى قوله (ولا تنهرهما) أى تزجرهما عما يتعاطيانه مما لايعجبك يقال نهره وانتهره بمعنى. فان قلت المنع من التأفيف أبلغ من المنع من الانتهار فما وجه الجمع قلت المراد من قوله ولا تقل لهما أف المنع من إظهار الضجر بالقليل والكثير والمراد من قوله ولا تنهرهما المنع من إظهار المخالفة فى القول على سبيل الرد عليهما الثالث قوله (وقل لهما قولا كريما) أى حسنا جميلا لينا كما يقتضيه حسن الأدب معهما وقيل هو ياأماه ياأبتاه وقيل لايكنهما وقيل هو أن يقول لهما كقول العبد الذليل المذنب للسيد الفظ الغليظ الرابع قوله عز وجل (واخفض لهما جناح الذل) أى ألن لهما جناحك واخفضه لهما حتى لاتمتنع عن شيء أحباه (من الرحمة) أى من الشفقة عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم إليك كما كنت فى حال الصغر مفتقرا إليهما الخامس قوله سبحانه وتعالى (وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا) أى وادع الله لهما أن يرحمهما برحمته الباقية وأراد به إذا كانا مسلمين فأما إذا كانا كافرين فان الدعاء منسوخ فى حقهما بقوله سبحانه وتعالى «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى» وقيل يجوز الدعاء لهما بأن يهديهما الله إلى الإسلام فاذا هداهما فقد رحمهما وقيل فى معنى هذه الآية إن الله سبحانه وتعالى بالغ فى الوصية بهما حيث افتتحها بالأمر بتوحيده وعبادته ثم شفعه بالإحسان إليهما ثم ضيق الأمر فى مراعاتهما حتى لم يرخص فى أدنى كلمة تسوؤهما وأن يذل ويخضع لهما ثم ختمها بالأمر بالدعاء لهما والترحم عليهما.

(فصل)

فى ذكر الأحاديث التى وردت فى بر الوالدين (ق) عن أبى هريرة قال «جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله من أحق الناس بحسن صحبتى قال أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك فأدناك» (م) عنه قال سمعت رسول الله صلى الله علية وسلم يقول رغم أنفه رغم أنفه رغم أنفه قيل من يارسول الله قال من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة (م) عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لن يجزى ولد والده إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه» (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال «جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال «رضا الله فى رضا الوالد وسخط الله فى سخط الوالد» أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفى أنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفار ثنا أبو جعفر محمد بن غالب بن تمتام الضبى ثنا عبد الله بن مسلمة ثنا عبد العزيز ابن مسلم عن يزيد بن أبى زياد عن مجاهد عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر» أخبرنا الإمام أبو على الحسين بن محمد القاضى أنا أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد بن ناموية الأصفهانى أنا أبو سعيد أحمد بن زياد البصرى أنا الحسن بن محمد بن الصباح ثنا ربعى بن علية عن عبد الرحمن بن إسحاق عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على ورغم أنف رجل أتى عليه شهر رمضان فلم يغفر له ورغم أنف امرىء أدرك أبويه الكبر فلم يدخلاه الجنة» (ربكم أعلم بما فى نفوسكم) من بر الوالدين وعقوقهما (إن تكونوا صالحين) أبرارا مطيعين بعد تقصير كان منكم فى القيام بما لزمكم من حق الوالدين وغير ذلك (فإنه كان للأوابين) بعد المعصية (غفورا) قال سعيد ابن جبير فى هذه الآية هو الرجل يكون منه البادرة إلى أبويه لا يريد به إلا الخير فإنه لا يؤاخذ به قال سعيد ابن المسيب الأواب الذى يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب قال سعيد ابن جبير الرجاع إلى الخير وعن ابن عباس قال هو الرجاع إلى الله فيما يحزنه وينوبه وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال هم المسبحون دليله قوله «ياجبال أوبى معه» قال قتادة هم المصلون. قال عون العقيلى هم الذين يصلون بالقرابة صلاة الضحى أخبرنا أبو الحسن طاهر بن الحسين الدورقى الطوسى أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب أنا أبو النضر محمد بن محمد ابن يوسف ثنا الحسن بن سفيان ثنا أبو بكر بن أبى شيبة ثنا وكيع عن هشام صاحب الدستوائى عن قتادة عن القاسم بن عوف عن زيد بن أرقم قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل قباء وهم يصلون صلاة الضحى فقال صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال من الضحى وقال محمد بن المنكدر الأواب الذى يصلى بين المغرب والعشاء وروى عن ابن عباس أنه قال أن الملائكة لتحف بالذين يصلون بين المغرب والعشاء وهى صلاة الأوابين قوله تعالى (وآت ذا القربى حقه) يعنى صلة الرحم وأراد به قرابة الإنسان وعليه الأكثرون وعن على بن الحسين أراد به قرابة الرسول ﷺ (والمسكين وابن السبيل

فاستأذنه فى الجهاد فقال أحى والداك قال نعم قال ففيهما فجاهد» وعنه أن رسول الله ﷺ قال «رضا الرب فى رضا الوالدين وسخط الرب فى سخط الوالدين» أخرجه الترمذى مرفوعا وموقوفا قال وهو أصح عن أبى الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «الوالد أوسط أبواب الجنة فإن شئت فضيع ذلك الباب أو احفظه» أخرجه الترمذى وقال حديث صحيح (م) عن عبد الله بن مسعود قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم «أى الأعمال أحب إلى الله تعالى قال الصلاة لوقتها قلت ثم أى قال بر الوالدين قلت ثم أى قال الجهاد فى سبيل الله تعالى». قوله سبحانه وتعالى (ربكم أعلم بما فى نفوسكم) أى من بر الوالدين واعتقاد ما يجب لهما من التوقير وعدم عقوقهما (إن تكونوا صالحين) أى أبرارا مطيعين قاصدين الصلاح والبر بعد تقصير كان منكم فى القيام بما لزمكم من حق الوالدين أو غيرهما أو قيل فرط منكم فى حال الغضب وعند حرج الصدر وما لا يخلو منه البشر مما يؤدى إلى أذاهما ثم أنبتم إلى الله واستغفرتم مما فرط منكم (فإنه كان للأوابين) للتوابين (غفورا) قال سعيد بن جبير فى هذه الآية هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه لا يريد بذلك إلا الخير فإنه لا يؤاخذ بهما وقال سعيد بن المسيب الأواب الذى يذنب ثم يتوب وعنه أنه الرجاع إلى الخير وقال ابن عباس الأواب الرجاع إلى الله فيما يحزنه وينوبه وعنه أنهم المسبحون وقيل هم المصلون وقيل هم الذين يصلون صلاة الضحى يدل عليه ما روى عن زيد بن أرقم قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل قباء وهم يصلون الضحى فقال «صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال» أخرجه مسلم قوله إذا رمضت الفصال يريد ارتفاع الضحى وأن تحمى الرمضاء وهو الرمل بحر الشمس فتبرك الفصال من الحر وشدة إحراقه أخفافها والفصال جمع فصيل وهى أولاد الإبل الصغار وقيل الأواب الذى يصلى بين المغرب والعشاء يدل عليه ما روى عن ابن عباس قال إن الملائكة لتحف بالذين يصلون بين المغرب والعشاء وهى صلاة الأوابين. قوله سبحانه وتعالى (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل) قيل الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أمره الله سبحانه وتعالى أن يؤتى أقاربه حقوقهم وقيل إنه خطاب للكل وهو أنه سبحانه وتعالى وصى بعد بر الوالدين

ولا تبذر تبذيرا) أى لا تنفق مالك فى المعصية وقال مجاهد لو أنفق الإنسان ماله كله فى الحق ما كان تبذيرا ولو أنفق مدا فى باطل كان تبذيرا وسئل ابن مسعود عن التبذير فقال إنفاق المال فى غير حقه قال شعبة كنت أمشى مع أبى إسحاق فى طريق الكوفة فأتى على دار بنيت بجص وآجر فقال هذا التبذير وفى قول عبد الله إنفاق المال فى غير حقه (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) أى أولياءهم والعرب تقول لكل ملازم سنة قوم هو أخوهم (وكان الشيطان

لربه كفورا) جحودا لنعمه (وإما تعرضن عنهم) نزلت فى مهجع وبلال وصهيب وسالم وخباب كانوا يسألون النبى صلى الله عليه وسلم فى الأحايين ما يحتاجون إليه ولا يجد فيعرض عنهم حياء منهم ويمسك عن القول فنزل وإما تعرضن عنهم يعنى وإن تعرض عن هؤلاء الذين أمرتك أن تؤتيهم (ابتغاء رحمة من ربك ترجوها) انتظار رزق من الله ترجوه أن يأتيك (فقل لهم قولا ميسورا) لينا وهى العدة أى عدهم وعدا جميلا وقيل القول الميسور أن تقول رزقنا الله وإياك (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) قال جابر ، أتى صبى فقال يارسول الله إن أمى تستكسيك درعا ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قميصه فقال للصبى من ساعة إلى ساعة يظهر كذا فعد إلينا وقتا آخر فعاد إلى أمه فقالت قل له إن أمى تستكسيك الدرع الذى عليك فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم داره فنزع قميصه فأعطاه إياه وقعد عريانا فأذن بلال بالصلاة فانتظروه فلم يخرج ، فشغل قلوب أصحابه فدخل عليه بعضهم فرآه عريانا فأنزل الله تعالى «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك» يعنى ولا تمسك يدك عن النفقة فى الحق كالمغلولة يده لا يقدر على مدها (ولا تبسطها) بالعطاء (كل البسط) فتعطى جميع ما عندك (فتقعد ملوما) يلومك سائلوك بالإمساك إذا لم تعطهم والملوم الذى أتى بما يلوم نفسه أو يلوم غيره (محسورا) منقطعا لا شىء عندك تنفقه ، يقال

بالقرابة أن يؤتوا حقهم من صلة الرحم والمودة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة على السراء والضراء والمعاضدة ونحو ذلك وقيل إن كانوا محاويج وهو موسر لزمه الإنفاق عليهم وهو مذهب أبي حنيفة وقال الشافعى رضى الله تعالى عنه لا تلزم النفقة إلا لوالد على ولده أو ولد على والديه فحسب وقيل أراد بالقرابة قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقدم الكلام على المسكين وابن السبيل (ولا تبذر تبذيرا) أى لا تنفق مالك فى المعصية وقيل لو أنفق الإنسان ماله كله فى الحق لم يكن مبذرا ولو أنفق درهما أو مدا فى باطل كان مبذرا وسئل ابن مسعود عن التبذير فقال إنفاق المال فى غير حقه وقيل هو إنفاق المال فى العمارة على وجه السرف وقيل إن بعضهم أنفق نفقة فى خير فأكثر فقال له صاحبه لا خير فى السرف فقال لا سرف فى الخير (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) يعنى أولياءهم وأصدقاءهم لأنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف وقيل أمثالهم فى الشر وهذا غاية المذمة لأنه أشر من الشياطين والعرب تقول لكل من هو ملازم سنة قوم هو أخوهم (وكان الشيطان لربه كفورا) أى جحودا للنعمة فما ينبغى أن يطاع لأنه يدعو إلى مثل عمله . قوله عز وجل (وإما تعرضن عنهم) نزلت فى مهجع وبلال وصهيب وسالم وخباب كانوا يسألون النبى صلى الله عليه وسلم فى الأحايين ما يحتاجون إليه ولا يجد فيعرض عنهم حياء منهم ويمسك عن القول فنزلت هذه الآية والمعنى وإن تعرض عن هؤلاء الذين أمرت أن تؤتيهم (ابتغاء رحمة من ربك ترجوها) أى انتظار رزق من الله ترجوه أن يأتيك (فقل لهم قولا ميسورا) أى لينا جميلا أى عدهم وعدا طيبا تطيب به قلوبهم وقيل هو أن يقول رزقنا الله وإياكم من فضله . قوله سبحانه وتعالى (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) قال جابر أتى صبى فقال يارسول الله إن أمى تستكسيك درعا ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قميصه فقال للصبى من ساعة إلى ساعة يظهر كذا فعد إلينا وقتا آخر فعاد إلى أمه فقالت قل له إن أمى تستكسيك الدرع الذى عليك فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عريانا فأذن بلال بالصلاة وانتظره فلم يخرج فشغل قلوب أصحابه فدخل عليه بعضهم فرآه عريانا فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك أى لا تمسك يدك عن النفقة فى الحق والخير كالمغلولة يده لا يقدر على مدها (ولا تبسطها) أى بالعطاء (كل البسط) أى فتعطى جميع ما عندك وقيل هذا تمثيل لمنع الشحيح وإعطاء المسرف وأمر بالاقتصاد الذى هو بين الإسراف والتقتير (فتقعد ملوما) أى عند الله لأن السرف غير مرضى عنده وقيل ملوما عند نفسك وأصحابك أيضا يلومونك على تضييع المال بالكلية وقيل يلومك سائلوك على الإمساك إذا لم تعطهم (محسورا) أى منقطعا لا شىء عندك تنفقة وقيل محسورا أى نادما

حسرته بالمسئلة إذا ألحفت عليه ودابة حسيرة إذا كانت كالة رازحة قال قتادة محسورا نادما على مافرط منك (إن ربك يبسط) يوسع (الرزق لمن يشاء ويقدر) أى يقتر ويضيق (إنه كان بعباده خبيرا بصيرا) قوله تعالى (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) فقر (نحن نرزقهم وإياكم) وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يئدون بناتهم خشية الفاقة فنهوا عنه وأخبروا أن رزقهم ورزق أولادهم على الله تعالى (١٥٨) (إن قتلهم كان خطأ كبيرا) قرأ ابن عامر وأبو جعفر خطأ بفتح الخاء والطاء مقصورا وقرأ ابن كثير بكسر الخاء ممدودا وقرأ الآخرون بكسر الخاء وجزم الطاء ومعنى الكل واحد أى إثما كبيرا (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق) وحقها ما روينا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث رجل كفر بعد إيمانه أو زنى بعد إحصانه أو قتل نفسا بغير نفس فيقتل بها» (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا) أى قوة وولاية على القاتل بالقتل قاله مجاهد وقال الضحاك سلطانه هو أنه يتخير فان شاء استقاد منه وإن شاء أخذ الدية وإن شاء عفا عنه (فلا يسرف فى القتل) قرأ حمزة والكسائى فلا تسرف بالتاء يخاطب ولى القتيل وقرأ الآخرون بالياء على الغائب أى لا يسرف الولى فى القتل واختلفوا فى هذا الإسراف الذى منع منه ولى القتيل فقال ابن عباس وأكثر المفسرين معناه لا يقتل غير القاتل وذلك أنهم كانوا فى الجاهلية إذا قتل منهم قتيل لا يرضون بقتل قاتله حتى يقتل أشرف منه وقال سعيد بن جبير إذا كان القاتل واحدا فلا يقتل جماعة بدل واحد، وكان أهل الجاهلية إذا كان المقتول شريفا لا يرضون بقتل القاتل وحده حتى يقتلوا معه جماعة من أقربائه وقال قتادة معناه لا يمثل بالقاتل (إنه كان منصورا) فالهاء راجعة إلى المقتول فى قوله ومن قتل مظلوما يعنى أن المقتول منصور فى الدنيا بإيجاب القود على قاتله وفى الآخرة بتكفير

على مافرط منك ثم سلى رسول الله ﷺ عما كان يرهقه من الإضافة بأن ذلك ليس لهوان بك عليه ولا لبخل منه عليك فقال تعالى (إن ربك يبسط) أى يوسع (الرزق لمن يشاء ويقدر) أى يقتر ويضيق وذلك لمصلحة العباد (إنه كان بعباده خبيرا بصيرا) يعنى أنه سبحانه وتعالى عالم بأحوال جميع عباده وما يصلحهم فالتفاوت فى أرزاق العباد ليس لأجل البخل بل لأجل رعاية مصالح العباد . قوله عز وجل (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) أى فاقة وفقر (نحن نرزقهم وإياكم) وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يئدون بناتهم خشية الفاقة أو يخافون عليهم من النهب والغارات أو أن ينكحوهن لغير أكفاء لشدة الحاجة وذلك عار شديد عندهم فنهاهم الله عن قتلهن وقال نحن نرزقهم وإياكم يعنى أن الأرزاق بيد الله فكما أنه فتح أبواب الرزق على الرجال فكذلك يفتحه على النساء (إن قتلهم كان خطأ كبيرا) أى إثما كبيرا (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة) أى قبيحة زائدة على حد القبح (وساء سبيلا) أى بئس طريقا طريقه وهو أن تغصب امرأة غيرك أو أخته أو بنته من غير سبب والسبب ممكن وهو الصهر الذى شرعه الله تعالى قيل إن الزنا يشتمل على أنواع من المفاسد منها المعصية وإيجاب الحد على نفسه ومنها اختلاط الأنساب فلا يعرف الرجل ولد من هو ولا يقوم أحد بتربيته وذلك يوجب ضياع الأولاد وانقطاع النسل وذلك يوجب خراب العالم . قوله عز وجل (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق) الأصل فى القتل هو الحرمة المغلظة وحل القتل إنما ثبت بسبب عارض فلما كان كذلك نهى الله عن القتل على حكم الأصل ثم استثنى الحالة التى يحصل فيها حل القتل وهى الأسباب العرضية فقال إلا بالحق أى إلا بإحدى ثلاث كما روى عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة أخرجاه فى الصحيحين (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا) أى قوة وولاية على القاتل بالقتل وقيل سلطانه هو أنه يتخير فان شاء استقاد منه وإن شاء أخذ الدية وإن شاء عفا (فلا يسرف فى القتل) أى الولى قال ابن عباس لا يقتل غير القاتل وذلك أنهم كانوا فى الجاهلية إذا قتل منهم قتيل لا يرضون بقتل قاتله حتى يقتل أشرف منه وقيل معناه إذا كان القتيل واحدا فلا يقتل به جماعة بل واحد بواحد وكان أهل الجاهلية إذا كان المقتول شريفا فلا يرضون بقتل القاتل وحده حتى يقتلوا معه جماعة من أقربائه وقيل معناه أنه لا يمثل بالقاتل (إنه كان منصورا) قيل الضمير راجع للمقتول ظلما يعنى أنه منصور فى الدنيا بإيجاب القود على قاتله وفى الآخرة بتكفير خطاياه وإيجاب النار لقاتله وقيل الضمير راجع إلى ولى المقتول

خطاياه وإيجاب النار لقاتله هذا قول مجاهد وقال قتادة الهاء راجعة إلى ولى المقتول معناه أنه منصور على القاتل باستيفاء القصاص منه أو الدية وقيل فى قوله فلا يسرف فى القتل إنه أراد به القاتل المعتدى يقول لا يعتدى بالقتل بغير الحق فانه إن فعل ذلك فولى المقتول منصور عليه باستيفاء القصاص منه (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد) بالإتيان بما أمر الله به والانتهاء عما نهى الله عنه ، وقيل أراد بالعهد مايلتزمه الإنسان على نفسه (إن العهد كان مسئولا) عنه وقال السدى كان مطلوبا وقيل العهد يسأل عن صاحب العهد فيقال فيما نقضت كالموءودة تسأل فيم قتلت (وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاط) قرأ حمزة والكسائى وحفص

(١٥٩) بالقسطاط ، بكسر القاف والباقون بضمه وهما لغتان وهو الميزان صغيرا كان أو كبيرا أى بميزان العدل وقال الحسن هو القبان قال مجاهد هو رومى وقال غيره هو عربى مأخوذ من القسط وهو العدل أى زنوا بالعدل (المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا) أى عاقبة (ولا تقف ماليس لك به علم) قال قتادة لا تقل رأيت ولم تره وسمعت ولم تسمعه وعلمت ولم تعلمه وقال مجاهد لا ترم أحدا بما ليس لك به علم قال القتيبى لا تتبعه بالحدس والظن وهو فى اللغة اتباع الأثر يقال قفوت فلانا أقفوه وقفيته وأقفيته إذا اتبعت أثره وبه سميت القافية لتتبعهم الآثار قال القتيبى هو مأخوذ من القفو كأنه يقفو الأمور أى يكون فى إقفائها يتبعها ويتعرفها وحقيقة المعنى لا تتكلم

المقتول معناه إنه كان منصورا على القاتل باستيفاء القصاص منه أو الدية وقيل فى قوله فلا يسرف فى القتل أراد به القاتل المتعدى بالقتل بغير الحق فانه إن فعل ذلك فولى القتيل منصور عليه باستيفاء القصاص منه . قوله سبحانه وتعالى (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن) أى بالطريقة التى هى أحسن وهى تنميته وحفظه عليه (حتى يبلغ أشده) وهو بلوغ النكاح والمراد ببلوغ الأشد كمال عقله ورشده بحيث يمكنه القيام بمصالح ماله وإلا لم ينفك عنه الحجر (وأوفوا بالعهد) أى الاتيان بما أمر الله به والانتهاء عما نهى عنه وقيل أراد بالعهد مايلتزمه الإنسان على نفسه (إن العهد كان مسؤلا) أى عنه وقيل مطلوبا وقيل العهد يسأل فيقال فيم نقضت كالموءودة تسأل فيم قتلت . قوله عز وجل (وأوفوا الكيل إذا كلتم) المراد منه إتمام الكيل (وزنوا بالقسطاس المستقيم) قيل هو الميزان صغيرا كان أو كبيرا من ميزان الدراهم إلى ماهو أكبر منه وقيل هو القبان قيل هو رومى وقيل سريانى والأصح أنه عربى مأخوذ من القسط وهو العدل أى وزنوا بالعدل المستقيم واعلم أن التفاوت الحاصل بسبب نقصان الكيل والوزن قليل والوعيد الحاصل عليه شديد عظيم فوجب على العاقل الاحتراز عنه وإنما عظم الوعيد فيه لأن جميع الناس محتاجون إلى المعاوضات والبيع والشراء فالشارع بالغ فى المنع من التطفيف والنقصان سعيا فى إبقاء الأموال على أربابها (ذلك خير وأحسن تأويلا) أى أحسن عاقبة من آل إذا رجع وهو مايئول إليه أمره . قوله سبحانه وتعالى (ولا تقف) أى ولا تتبع (ماليس لك به علم) أى لا تقل رأيت ولم تر وسمعت ولم تسمع وعلمت ولم تعلم وقيل معناه لا ترم أحدا بما ليس لك به علم وقيل لا يتبعه بالحدس والظن وقيل هو مأخوذ من القفا كأنه يقفو الأمور ويتتبعها ويتعرفها والمراد أنه لا يتكلم فى أحد بالظن (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) معناه يسأل المرء عن سمعه وبصره وفؤاده وقيل يسأل السمع والبصر والفؤاد عما فعله المرء فعلى هذا ترجع الإشارة فى أولئك إلى الأعضاء وعلى القول الأول ترجع إلى أربابها عن شكل بن حميد قال «أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يانبى الله علمنى تعويذا أتعوذ به قال فأخذ بيدى ثم قال قل أعوذ بك من شر سمعى وشر بصرى وشر فؤادى وشر لسانى وشر قلبى وشر منيى قال فحفظتها» أخرجه أبو داود والنسائى والترمذى وقال حديث حسن غريب قوله وشر منيى يعنى ماءه وذكره . قوله عز وجل

أيها الإنسان بالحدس والظن (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) قيل معناه يسأل المرء عن سمعه وبصره وفؤاده وقيل يسأل السمع والبصر والفؤاد عما فعله المرء وقوله كل أولئك أى كل هذه الجوارح والأعضاء ، وعلى القول الأول يرجع أولئك إلى أربابها أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أبو طاهر أحمد بن محمد بن الحسن أنا أبو على حامد بن محمد الرفاء ثنا أبو الحسن على بن عبد العزيز أنا الفضل بن دكين ثنا سعيد بن أوس العبسى حدثنى بلال بن يحيى العبسى أن شتير ابن شكل أخبره عن أبيه شكل بن حميد قال «أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله علمنى تعويذا أتعوذ به قال فأخذ بيدى ثم قال قل اللهم إنى أعوذ بك من شر سمعى وشر بصرى وشر لسانى وشر قلبى وشر منيى قال فحفظتها» قال سعيد

المنى ماؤه (ولا تمش فى الأرض مرحا) أى بطرا وكبرا وخيلاء وهو تفسير المشى فلذلك أخرجه على المصدر (إنك لن تخرق الأرض) أى لن تقطعها بكبرك حتى تبلغ آخرها (ولن تبلغ الجبال طولا) أى لا تقدر أن تطاول الجبال وتساويها بكبرك معناه أن الإنسان لا ينال بكبره وبطره شيئا كمن يريد خرق الأرض ومطاولة الجبال لا يحصل على شىء وقيل ذكر ذلك لأن من مشى مختالا يمشى مرة على عقبه ومرة على صدور قدميه فقيل له إنك لن تنقب الأرض إن مشيت على عقبيك ولن تبلغ الجبال طولا إن مشيت على صدور قدميك أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الجورجانى أنا أبو القاسم على بن أحمد الخزاعى أنا أبو الهيثم بن كليب ثنا أبو عيسى الترمذى ثنا سفيان بن وكيع ثنا أبى عن المسعودى عن عثمان بن مسلم بن هرمز عن نافع بن جبير ابن مطعم عن على قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مشى يتكفأ تكفؤا كأنما ينحط من صبب» أخبرنا أبو محمد الجورجانى أنا أبو القاسم الخزاعى أنا الهيثم بن كليب ثنا أبو عيسى الترمذى ثنا قتيبة بن سعيد ثنا أبو لهيعة عن أبى يونس عن أبى هريرة رضى الله عنه قال «ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن الشمس تجرى فى وجهه وما رأيت أحدا أسرع فى مشيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما الأرض تطوى له إنا لنجهد أنفسنا وأنه لغير مكترث» (كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها) قرأ ابن عامر وأهل الكوفة برفع الهمزة وضم الهاء على الإضافة ومعناه كل الذى ذكرنا من قوله «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه» كان سيئه أى سىء ما عددنا عليك عند ربك مكروها لأن فيما عددنا أمورا حسنة كقوله وآت ذا القربى حقه واخفض لهما جناح الذل وغير ذلك وقرأ الآخرون سيئة منصوبة منونة يعنى كل الذى ذكرنا من قوله ولا تقتلوا أولادكم إلى هذا الموضع سيئة لا حسنة فيه إذ الكل يرجع إلى المنهى عنه دون غيره ولم يقل مكروهة لأن فيه تقديما وتأخيرا تقديره كل ذلك كان مكروها سيئه وقوله مكروها على التكرير لا على الصفة مجازه كل ذلك كان سيئة وكان مكروها راجع إلى المعنى دون اللفظ لأن السيئة الذنب وهو مذكر (ذلك) الذى ذكرناه (مما أوحى إليك ربك من الحكمة) وكل ما أمر الله به أو نهى الله عنه فهو حكمة

(ولا تمش فى الأرض مرحا) أى بطرا وكبرا وخيلاء (إنك لن تخرق الأرض) أى لن تقطعها بكبرك حتى تبلغ آخرها (ولن تبلغ الجبال طولا) أى لا تقدر أن تطاول الجبال وتساويها بكبرك والمعنى أن الإنسان لا ينال بكبره وبطره شيئا كمن يريد خرق الأرض ومطاولة الجبال لا يحصل على شىء وقيل إن الذى يمشى مختالا يمشى مرة على عقبيه ومرة على صدور قدميه فقيل له إنك لن تنقب الأرض إن مشيت على عقبيك ولن تبلغ الجبال طولا إن مشيت على صدور قدميك عن على قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مشى تكفأ تكفؤا كأنما ينحط من صبب» أخرجه الترمذى فى الشمائل قوله تكفؤا التكفؤ التمايل فى المشى إلى قدام وقوله كأنما ينحط من صبب هو قريب من التكفؤ أى كأنه ينحدر من موضع عال عن أبى هريرة قال «ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن الشمس تجرى فى وجهه وما رأيت أحدا أسرع فى مشيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما الأرض تطوى له إنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث» أخرجه الترمذى قوله لغير مكترث أى شاق والاكتراث الأمر الذى يشق على الإنسان (كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها) أى ما ذكر من الأمور التى نهى الله عنها فيما تقدم. فان قلت كيف قيل سيئه مع قوله مكروها. قلت قيل فيه تقديم وتأخير تقديره كل ذلك كان مكروها سيئة عند ربك وقوله مكروها على التكرير لا على الصفة أى كل ذلك كان سيئة وكان مكروها وقيل إنه يرجع إلى المعنى دون اللفظ لأن السيئة الذنب وهو مذكر. قوله سبحانه وتعالى (ذلك) إشارة إلى ما تقدم من الأوامر والنواهى فى هذه الآيات (مما أوحى إليك ربك من الحكمة) أى إن الأحكام المذكورة فى هذه الآيات شرائع واجبة الرعاية فى جميع الأديان والملل لا تقبل النسخ والإبطال فكانت محكمة وحكمة بهذا الاعتبار وقيل إن حاصل هذه الآيات يرجع إلى الأمر بالتوحيد وأنواع البر والطاعات والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة وذلك من الحكمة قيل إن هذه الآيات كانت فى ألواح موسى عليه السلام أولها ولا تجعل مع الله إلها آخر قال الله سبحانه وتعالى وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة واعلم أن الله سبحانه وتعالى افتتح هذه الآيات بالأمر بالتوحيد والنهى عن الشرك وختمها به والمقصود منه التنبيه على أن كل قول وعمل يجب أن يكرر فيه التوحيد لأنه رأس كل حكمة وملاكها ومن عدمه لم ينفعه شىء ثم إنه سبحانه وتعالى ذكر

(ولا تجعل مع الله إلها آخر)خاطب النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الآيات والمراد منه الأمة (فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا) مطرودا مبعدا من كل خير قوله عز وجل (أفأصفاكم ربكم) أى اختاركم فجعل لكم الصفوة ولنفسه ماليس بصفوة يعنى اختاركم (بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا) لأنهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله (إنكم لتقولون قولا عظيما) يخاطب مشركى مكة (ولقد صرفنا فى هذا القرآن) يعنى الصبر والحكم والأمثال والأحكام والحجج والإعلام والتشديد للتكثير والتكرير (ليذكروا) أى ليتذكروا ويتعظوا وقرأ حمزة والكسائى باسكان

الذال وضم الكاف وكذلك فى الفرقان (ومايزيدهم) تصريفنا وتذكيرنا وتكريرنا (إلا نفورا) ذهابا وتباعدا عن الحق (قل) يامحمد لهؤلاء المشركين (لوكان معه آلهة كما يقولون) قرأ حفص وابن كثير يقولون بالياء وقرأ الآخرون بالتاء (إذا لابتغوا) لطلبوا يعنى الآلهة (إلى ذى العرش سبيلا) بالمبالغة والقهر ليزيلوا ملكه كفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض وقيل معناه لطلبوا إلى ذى العرش سبيلا بالتقرب إليه قال قتادة لعرفوا الله بفضله وابتغوا مايقربهم إليه والأول أصح ثم نزه نفسه فقال عز من قائل (سبحانه وتعالى عما يقولون) قرأ حمزة والكسائى تقولون بالتاء والآخرون بالياء (علوا كبيرا تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن) قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى وحفص ويعقوب تسبح بالتاء وقرأ الآخرون بالياء للحائل بين الفعل والتأنيث (وإن من شىء إلا يسبح بحمده) روى عن ابن عباس أنه قال وإن من شىء حى إلا يسبح بحمده وقال قتادة يعنى الحيوانات والناميات ، وقال عكرمة الشجرة تسبح والاسطوانة لاتسبح وعن المقدام بن معد يكرب قال إن التراب يسبح مالم يبتل فاذا ابتل ترك التسبيح وإن الخرزة تسبح مالم ترفع من موضعها فاذا رفعت تركت التسبيح وإن الورقة لتسبح ما دامت على الشجرة فاذا سقطت تركت التسبيح وإن الثوب ليسبح مادام جديدا فاذا وسخ ترك التسبيح وإن الماء يسبح ما دام جاريا فاذا ركد ترك التسبيح وإن الوحش

فى الآية الأولى أن الشرك يجب أن يكون صاحبه مذموما مخذولا وقال فى هذه الآية (ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا) والفرق بين المذموم والملوم أما كونه مذموما فمعناه أن يذكر له أن الفعل الذى أقدم عليه قبيح ومنكر فهذا معنى كونه مذموما ثم يقال له لم فعلت هذا الفعل القبيح وما الذى حملك عليه وهذا هو اللوم والفرق بين المخذول والمدحور أن المخذول هو الضعيف الذى لا ناصر له والمدحور هو المبعد المطرود عن كل خير . قوله سبحانه وتعالى (أفأصفاكم ربكم) يعنى أفخصكم واختاركم فجعل لكم الصفوة ولنفسه ماليس بصفوة (بالبنين) يعنى اختصكم بأفضل الأولاد وهم البنون (واتخذ من الملائكة إناثا) لأنهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله مع علمهم بأن الله سبحانه وتعالى هو الموصوف بالكمال الذى لا نهاية له وهذا يدل على نهاية جهل القائلين بهذا القول (إنكم لتقولون قولا عظيما) يخاطب مشركى مكة يعنى باضافتهم إليه الأولاد وهى خاصة بالأجسام ثم إنهم يفضلون عليه أنفسهم حيث يجعلون له مايكرهون لأنفسهم يعنى البنات . قوله سبحانه وتعالى (ولقد صرفنا فى هذا القرآن) يعنى العبر والحكم والأمثال والأحكام والحجج والإعلام والتشديد فى صرفنا للتكثير والتكرير (ليذكروا) أى ليتعظوا ويعتبروا (وما يزيدهم) أى تصريفنا وتذكيرنا (إلا نفورا) أى تباعدا عن الحق (قل) أى قل يامحمد لهؤلاء المشركين (لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا) أى لطلبوا يعنى هؤلاء الآلهة (إلى ذى العرش سبيلا) أى بالمبالغة والقهر ليزيلوا ملكه كفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض وقيل معناه لتقربوا إليه وقيل معناه لتعرفوا إليه فضله فابتغوا مايقربهم إليه والأول أصح ثم نزه نفسه فقال عز وجل (سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا) معنى وصفه بذلك المبالغة فى البراءة والبعد عما يصفونه . قوله عز وجل (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن) يعنى الملائكة والإنس والجن (وإن من شىء إلا يسبح بحمده) قال ابن عباس وإن من شىء حى إلا يسبح بحمده وقيل جميع الحيوانات والنباتات قيل إن الشجرة تسبح والاسطوانة لاتسبح وقيل إن التراب يسبح مالم يبتل فاذا ابتل ترك التسبيح وإن الخرزة تسبح مالم ترفع من موضعها فاذا رفعت تركت التسبيح وإن الورقة تسبح مادامت على الشجرة فاذا سقطت تركت التسبيح وإن الماء يسبح ما دام جاريا فاذا ركد ترك التسبيح وإن الثوب يسبح ما دام جديدا فاذا اتسخ ترك التسبيح وإن الوحش والطير لتسبح إذا صاحت فاذا سكتت تركت التسبيح وقيل وإن من شىء جماد

والطير تسبح إذا صاحت فإذا سكتت تركت التسبيح وقال إبراهيم النخعي وإن من شيء جماد حي إلا يسبح بحمده حتى صرير الباب ونقيض السقف وقال مجاهد كل الأشياء تسبح لله حيا كان أو ميتا أو جمادا وتسبيحها سبحان الله وبحمده أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن المثنى أنا أبو أحمد الزبير أنا إسرائيل عن منصور عن إبراهيم عن علقمة عن عبدالله قال «كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فقل الماء فقال اطلبوا فضلة من ماء فجاءوا بإناء فيه ماء قليل فأدخل يده في الإناء ثم قال حي على الطهور المبارك **(١٦٢)** والبركة من الله فلقد رأيت الماء ينبع من أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل» وقال بعض أهل المعاني تسبح السموات والأرض والجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء ما دامت تدل بلطيف تركيبها وعجيب هيئتها على خالقها فيصير ذلك بمنزلة التسبيح منها والأول هو المنقول عن السلف. واعلم أن لله تعالى علما في الجمادات لا يقف عليه غيره فينبغي أن يوكل علمه إليه (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) أي لا تعلمون تسبيح ما عدا من يسبح بلغاتكم وألسنتكم (إنه كان حليما غفورا وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) يحجب قلوبهم عن فهمه والانتفاع به. قال قتادة وهو الأكنة والمستور بمعنى الساتر جمع كقوله «وكان وعده مأتيا» مفعول بمعنى فاعل وقيل مستور عن أعين الناس فلا يرونه وفسره بعضهم بالحجاب عن الأعين الظاهرة كما روي عن سعيد بن جبير أنه لما نزلت «تبت يدا أبي لهب جاءت امرأة أبي لهب ومعها حجر والنبي صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر فلم تره فقالت لأبي بكر أين صاحبك لقد بلغني أنه هجاني فقال والله ما ينطق عن الهوى ولا ينطق بالشعر ولا يقوله فرجعت وهي تقول قد كنت جئت بهذا الحجر لأرضخ رأسه فقال أبو بكر ما رآك يا رسول الله قال لا لم يزل ملك بيني وبينها يسترني» (وجعلنا على قلوبهم أكنة) أغطية (أن يفقهوه) كراهية أن يفقهوه وقيل لئلا يفقهوه (وفي آذانهم وقرا) ثقلا لئلا يسمعوه (وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده) يعني إذا قلت لا إله إلا الله في القرآن وأنت تتلوه (ولوا على أدبارهم نفورا)

أو حي إلا يسبح بحمده حتى صرير الباب ونقيض السقف وقيل كل الأشياء تسبح الله حيوانا كان أو جمادا وتسبيحها سبحان الله وبحمده ويدل على ذلك ما روي عن ابن مسعود قال «كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فقل الماء فقال اطلبوا فضلة من ماء فجاءوا بإناء فيه ماء قليل فأدخل يده صلى الله عليه وسلم في الإناء ثم قال: حي على الطهور المبارك والبركة من الله فقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل» أخرجه البخاري (م) عن جابر بن سمرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن بمكة حجرا كان يسلم على ليالي بعثت وإني لأعرفه الآن» (خ) عن ابن عمر قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن الجذع فأتاه فمسح بيده عليه» وفي رواية «فنزل فاحتضنه وسار بشيء» ففي هذه الأحاديث دليل على أن الجماد يتكلم وأنه يسبح وقال بعض أهل المعاني تسبيح السموات والأرض والجمادات والحيوانات سوى العقلاء بلسان الحال بحيث تدل على الصانع وقدرته ولطيف حكمته فكأنها تنطق بذلك ويصير لها بمنزلة التسبيح والقول الأول أصح كما دلت عليه الأحاديث وأنه منقول عن السلف. واعلم أن لله تعالى علما في الجمادات لا يقف عليه غيره فينبغي أن نكل علمه إليه. وقوله تعالى (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) أي لا تعلمون ولا تفهمون تسبيحهم ما عدا من يسبح بلغتكم ولسانكم (إنه كان حليما غفورا) أي حيث لم يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وجهلكم بالتسبيح. قوله عز وجل (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) أي يحجب قلوبهم عن فهمه والانتفاع به وقيل معناه مستورا عن أعين الناس فلا يرونه كما روي عن سعيد ابن جبير أنه قال «لما نزلت تبت يدا أبي لهب جاءت امرأة أبي لهب ومعها حجر والنبي ﷺ مع أبي بكر فلم تره فقالت لأبي بكر أين صاحبك لقد بلغني أنه هجاني فقال لها أبو بكر والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله فرجعت وهي تقول قد كنت جئت بهذا الحجر لأرضخ رأسه فقال أبو بكر ما رآك يا رسول الله قال لا لم يزل ملك بيني وبينها» (وجعلنا على قلوبهم أكنة) أي أغطية (أن يفقهوه) أي لئلا يفقهوه (وفي آذانهم وقرا) أي ثقلا لئلا يسمعوه (وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده) يعني إذا قلت لا إله إلا الله وأنت تتلو القرآن (ولوا على أدبارهم نفورا)

جمع نافر مثل قاعد وقعود وجالس وجلوس أى نافرين (نحن أعلم بما يستمعون به) قيل به صلة أى يطلبون سمعه (إذ يستمعون إليك)وأنت تقرأ القرآن(وإذ هم نجوى) يتناجون فى أمرك وقيل ذوو نجوى فبعضهم يقول هو مجنون وبعضهم يقول كاهن وبعضهم يقول ساحر وبعضهم يقول شاعر . (إذ يقول الظالمون) يعنى الوليد بن المغيرة وأصحابه (إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) مطبوبا وقال مجاهد مخدوعا وقيل مصروفا عن الحق يقال ماسحرك عن كذا أى ماصرفك عنه وقال أبو عبيدة أى رجلا له سحر والسحر الرئة أى أنه بشر مثلكم تغذى معللا بالطعام والشراب يأكل ويشرب قال الشاعر :

أرانا موضعين لأمر غيب ويسحر بالطعام وبالشراب

أى يغذى ويعلل (١٦٣) (أنظر) يامحمد(كيف ضربوا لك الأمثال) الأشباه فقالوا شاعر وساحر وكاهن ومجنون (فضلوا) فحاروا وحادوا (فلا يستطيعون سبيلا) أى وصولا إلى طريق الحق (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا) بعد الموت قال مجاهد ترابا . وقيل حطاما والرفات كل مايكسر ويبلى من كل شىء كالفتات والحطام (أئنا لمبعوثون خلقا جديدا قل) لهم يامحمد(كونوا حجارة أو حديدا) فى الشدة والقوة وليس هذا بأمر إلزام بل هو أمر تعجيز أى استشعروا فى قلوبكم أنكم حجارة أو حديد فى القوة (أو خلقا مما يكبر فى صدوركم) قيل السماء والأرض والجبال وقال مجاهد وعكرمة وأكثر المفسرين

جمع نافر (نحن أعلم بما يستمعون به) أى من الهزء بك وبالقرآن وقيل معناه نحن أعلم بالوجه الذى يستمعون به وهو التكذيب (إذ يستمعون إليك) أى وأنت تقرأ القرآن (وإذ هم نجوى) أى وبما يتناجون به فى أمرك وقيل معناه ذوو نجوى بعضهم يقول هو مجنون وبعضهم يقول هو كاهن وبعضهم يقول ساحر أو شاعر (إذ يقول الظالمون) يعنى الوليد بن المغيرة وأصحابه (إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) أى مطبوبا وقيل مخدوعا وقيل معناه أنه سحر فجن وقيل هو من السحر وهو الرئة ومعناه أنه بشر مثلكم يأكل ويشرب قال الشاعر :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

أى يغذى بهما (أنظر كيف ضربوا لك الأمثال) أى الأشباه فقالوا ساحر شاعر كاهن مجنون (فضلوا) أى فى جميع ذلك وحاروا (فلا يستطيعون سبيلا) أى إلى طريق الحق (وقالوا أئذا كنا عظاما) أى بعد الموت (ورفاتا) أى ترابا وقيل الرفات هى الأجزاء المتفتتة من كل شىء تكسر (أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) فيه أنهم استبعدوا الإعادة بعد الموت والبلى فقال سبحانه وتعالى ردا عليهم (قل) أى قل لهم يامحمد (كونوا حجارة) أى فى الشدة (أو حديدا) أى فى القوة وليس هذا بأمر إلزام بل هو أمر تعجيزى أي استشعروا فى قلوبكم أنكم حجارة أو حديد فى القوة(أو خلقا مما يكبر فى صدوركم) قيل يعنى السماء والأرض والجبال لأنها أعظم المخلوقات وقيل يعنى به الموت لأنه لاشىء فى نفس ابن آدم أكبر من الموت ومعناه لو كنتم الموت بعينه لأميتنكم ولأبعثنكم (فسيقولون من يعيدنا) أى من يبعثنا بعد الموت(قل الذى فطركم) أى خلقكم (أول مرة) فمن قدر على الإنشاء قدر على الإعادة (فسينغضون إليك رءوسهم) أى يحركونها إذا قلت لهم ذلك مستهزئين بما تقول (ويقولون متى هو) يعنى البعث والقيامة (قل عسى أن يكون قريبا) أى هو قريب (يوم يدعوكم) أى من قبوركم إلى موقف القيامة (فتستجيبون بحمده) قال ابن عباس بأمره وقيل بطاعته وقيل مقرين بأنه خالقهم وباعثهم ويحمدونه حين لاينفعهم الحمد وقيل هذا خطاب مع المؤمنين فانهم يبعثون حامدين (وتظنون إن لبثتم) أى فى الدنيا وقيل فى القبور (إلا قليلا) وذلك لأن الإنسان لومكث فى الدنيا وفى القبر ألوفا من السنين عد ذلك قليلا بنسبة مدة القيامة والخلود فى الآخرة وقيل إنهم

إنه الموت فانه ليس فى نفس ابن آدم شىء أكبر من الموت أى ولو كنتم الموت بعينه لأميتنكم ولأبعثنكم (فسيقولون من يعيدنا) من يبعثنا بعد الموت (قل الذى فطركم) خلقكم(أول مرة) ومن قدر على الانشاء قدر على الإعادة (فسينغضون إليك رءوسهم) أى يحركونها إذا قلت لهم ذلك مستهزئين بها (ويقولون متى هو)أى البعث والقيامة (قل عسى أن يكون قريبا) أى هو قريب لأن عسى من الله واجب . نظيره قوله تعالى «وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا » (يوم يدعوكم) من قبوركم إلى موقف القيامة (فتستجيبون بحمده) قال ابن عباس بأمره وقال قتادة بطاعته وقيل مقرين بأنه خالقهم وباعثهم ويحمدونه حين لاينفعهم الحمد وقيل هذا خطاب مع المؤمنين فانهم يبعثون حامدين (وتظنون إن لبثتم) فى الدنيا أو فى القبور (إلا قليلا) لأن الإنسان لو مكث ألوفا من السنين فى الدنيا أو فى القبور عد ذلك قليلا فى مدة القيامة والخلود قال قتادة يستحقرون مدة الدنيا فى جنب القيامة

قوله تعالى (وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن) قال الكلبى كان المشركون يؤذون المسلمين فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى وقل لعبادى يقولوا للكافرين التى هى أحسن ولا يكافئوهم بسفههم قال الحسن يقول له يهديك الله وكان هذا قبل الإذن فى الجهاد والقتال وقيل نزلت فى عمر بن الخطاب شتمه بعض الكفار فأمره الله بالعفو وقيل أمر الله المؤمنين بأن يقولوا ويفعلوا (١٦٤) التى هى أحسن أى الخلة التى هى أحسن وقيل الأحسن كلمة الإخلاص لاإله إلا الله (إن الشيطان ينزغ بينهم) أى يفسد ويلقى العداوة بينهم (إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا) ظاهر العداوة (ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم) يوفقكم فتؤمنوا (أو إن يشأ يعذبكم) يميتكم على الشرك فتعذبوا قاله ابن جريج وقال الكلبى إن يشأ يرحمكم فينجيكم من أهل مكة وإن يشأ يعذبكم فيسلطهم عليكم (وما أرسلناك عليهم وكيلا) حفيظا وكفيلا قيل نسختها آية القتال (وربك أعلم بمن فى السموات والأرض) أى ربك العالم بمن فى السموات والأرض فجعلهم مختلفين فى صورهم وأخلاقهم وأحوالهم ومللهم (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) قيل جعل أهل السموات والأرض مختلفين كما فضل بعض النبيين على بعض قال قتادة فى هذه الآية اتخذ الله إبراهيم خليلا وكلم الله موسى تكليما وقال لعيسى كن فيكون وآتى سليمان ملكا عظيما لاينبغى لأحد من بعده وآتى داود زبورا كما قال (وآتينا داود زبورا) والزبور كتاب علمه الله داود يشتمل على مائة وخمسين سورة كلها دعاء وتمجيد وثناء على الله عز وجل وليس فيها حرام ولا حلال ولا فرائض ولا حدود معناه أنكم لم تنكروا تفضيل النبيين فكيف تنكرون فضل النبى صلى الله عليه وسلم وإعطاءه القرآن وهذا خطاب مع من يقر بتفضيل الأنبياء عليهم السلام من أهل الكتاب وغيرهم قوله عز وجل (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه) وذلك أن المشركين أصابهم قحط شديد حتى أكلوا الكلاب والجيف فاستغاثوا بالنبى صلى الله

يستحقرون مدة الدنيا فى جنب القيامة . قوله سبحانه وتعالى (وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن) وذلك أن المشركين كانوا يؤذون المسلمين فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل وقل لعبادى يقولوا يعنى للكفار التى هى أحسن أى لايكافئوهم على سفههم بل يقولون لهم يهديكم الله وكان هذا قبل الإذن فى القتال والجهاد وقيل نزلت فى عمر ابن الخطاب وذلك أنه شتمه بعض الكفار فأمره الله بالعفو وقيل أمر الله المؤمنين أن يقولوا ويفعلوا الخلة التى هى أحسن وقيل الأحسن كلمة الإخلاص لاإله إلا الله (إن الشيطان ينزغ بينهم) أى يفسد ويلقى العداوة بينهم (إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا) أى ظاهر العداوة . قوله عز وجل (ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم) أى يوفقكم للإيمان فتؤمنوا (أو إن يشأ يعذبكم) أى يميتكم على الشرك فتعذبوا ، وقيل معناه إن يشأ يرحمكم فينجيكم من أهل مكة أو إن يشأ يعذبكم أى يسلطهم عليكم (وما أرسلناك عليهم وكيلا) أى حفيظا وكفيلا قيل نسختها آية القتال (وربك أعلم بمن فى السموات والأرض) يعنى أن علمه غير مقصور عليكم بل علمه متعلق بجميع الموجودات والمعدومات ومتعلق بجميع ذات الأرضين والسموات ويعلم حال كل أحد ويعلم مايليق به من المصالح والمفاسد وقيل معناه أنه عالم بأحوالهم واختلاف صورهم وأخلاقهم ومللهم وأديانهم (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) وذلك أنه اتخذ إبراهيم خليلا وكلم موسى تكليما وقال لعيسى كن فكان وآتى سليمان ملكا لاينبغى لأحد من بعده وآتى داود زبورا وذلك قوله تعالى (وآتينا داود زبورا) وهو كتاب أنزله الله على داود يشتمل على مائة وخمسين سورة كلها دعاء وثناء على الله تعالى وتحميد وتمجيد ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود ولا أحكام . فان قلت لم خص داود فى هذه الآية بالذكر دون غيره من الأنبياء . قلت فيه وجوه : أحدها أن الله تعالى ذكر أنه فضل بعض النبيين على بعض ثم قال تعالى وآتينا داود زبورا وذلك أن داود أعطى مع النبوة الملك فلم يذكره بالملك وذكر ما آتاه من الكتاب تنبيها على أن الفضل المذكور فى هذه الآية المراد به العلم لا الملك والمال . الوجه الثانى أن الله سبحانه وتعالى كتب له فى الزبور أن محمدا خاتم الأنبياء وإن أمته خير الأمم فلهذا خصه بالذكر . الوجه الثالث أن اليهود زعمت أن لانبى بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة فكذبهم الله بقوله وآتينا داود زبورا ومعنى الآية أنكم لن تنكروا تفضيل النبيين فكيف تنكرون تفضيل النبى صلى الله عليه وسلم وإعطاءه القرآن وأن الله آتى موسى التوراة وداود الزبور وعيسى الإنجيل فلم يبعد أن يفضل محمدا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» وهذا خطاب مع من يقر بتفضيل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . قوله عز وجل (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه) وذلك

عليه وسلم ليدعو لهم قال الله تعالى قل للمشركين ادعوا الذين زعمتم أنها آلهة من دونه (فلا يملكون كشف الضر) القحط والجوع (عنكم ولا تحويلا) إلى غيركم أو تحويل الحال من العسر إلى اليسر (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) يعني الذين يدعونهم المشركون أنهم آلهة يعبدونهم. قال ابن عباس ومجاهد وهم عيسى وأمه وعزير والملائكة والشمس والقمر والنجوم يبتغون أي يطلبون إلى ربهم الوسيلة أي القربة وقيل الوسيلة الدرجة أي يتضرعون إلى الله في طلب الدرجة العليا وقيل الوسيلة كل ما يتقرب به إلى الله تعالى، وقوله (أيهم أقرب) معناه ينظرون أيهم أقرب إلى الله فيتوسلون به وقال الزجاج أيهم أقرب يبتغي الوسيلة إلى الله تعالى ويتقرب إليه بالعمل الصالح (ويرجون رحمته) جنته (ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا) أي يطلب منه الحذر وقال عبد الله بن مسعود نزلت الآية في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرا من الجن فأسلم الجنيون ولم يعلم الإنس الذين كانوا يعبدونهم بإسلامهم فتمسكوا بعبادتهم فعيرهم الله وأنزل هذه الآية وقرأ ابن مسعود أولئك الذين تدعون بالتاء (وإن من قرية) وما من قرية (إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة) أي مخربوها ومهلكوا أهلها (أو معذبوها عذابا شديدا) بأنواع العذاب إذا كفروا وعصوا وقال مقاتل وغيره مهلكوها في حق المؤمنين بالإماتة ومعذبوها في حق الكفار بأنواع العذاب قال عبد الله بن مسعود إذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن الله في إهلاكها (كان ذلك في الكتاب) في اللوح المحفوظ (مسطورا) مكتوبا قال عبادة ابن الصامت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن أول ما خلق الله القلم فقال اكتب فقال ما أكتب قال القدر وما كان وما هو كائن إلى الأبد». قوله (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) قال ابن عباس «سأل أهل مكة

أن الكفار أصابهم قحط شديد حتى أكلوا الكلاب والجيف فاستغاثوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ليدعو لهم فقال الله عز وجل قل ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دونه (فلا يملكون كشف الضر عنكم) أي الجوع والقحط (ولا تحويلا) أي إلى غيركم أو تحويل الحال من العسر إلى اليسر، ومقصود الآية الرد على المشركين حيث قالوا ليس لنا أهلية أن نشتغل بعبادة الله فنحن نعبد المقربين إليه وهم الملائكة ثم إنهم اتخذوا لذلك الملك الذي عبدوه تمثالا وصورة وقد اشتغلوا بعبادته فاحتج على بطلان قولهم بهذه الآية وبين عجز آلهتهم ثم قال تعالى (أولئك الذين يدعون) أي الذين يدعون المشركون آلهة (يبتغون إلى ربهم الوسيلة) أي القربة والدرجة العليا قال ابن عباس هم عيسى وأمه وعزير والملائكة والشمس والقمر والنجوم وقال عبد الله بن مسعود نزلت هذه الآية في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرا من الجن فأسلم أولئك الجن ولم يعلم الإنس بذلك فتمسكوا بعبادتهم فعيرهم الله وأنزل هذه الآية. وقوله تعالى (أيهم أقرب) معناه ينظرون أيهم أقرب إلى الله فيتوسلون به، وقيل أيهم أقرب يبتغي الوسيلة إلى الله ويتقرب إليه بالعمل الصالح وازدياد الخير والطاعة (ويرجون رحمته) أي جنته (ويخافون عذابه) وقيل معناه يرجون ويخافون كغيرهم من عباد الله فكيف يزعمون أنهم آلهة (إن عذاب ربك كان محذورا) أي حقيقا بأن يحذره كل أحد من ملك مقرب ونبي مرسل فضلا عن غيرهم من الخلائق. قوله سبحانه وتعالى (وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة) أي بالموت والخراب (أو معذبوها عذابا شديدا) أي بالقتل وأنواع العذاب إذا كفروا وعصوا وقيل الإهلاك في حق المؤمنين الإماتة وفي حق الكفار العذاب قال عبد الله بن مسعود إذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن الله في هلاكها (كان ذلك في الكتاب) أي في اللوح المحفوظ (مسطورا) أي مكتوبا مثبتا عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب فقال ما أكتب قال اكتب القدر وما هو كائن إلى يوم القيامة إلى الأبد» أخرجه الترمذي. قوله سبحانه وتعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) قال ابن عباس «سأل أهل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا وفضة وأن ينحي الجبال عنهم ليزرعوا فأوحى الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إن شئت أن أستأني بهم فعلت وإن شئت أن أوتيهم ما سألوا فعلت فإن لم يؤمنوا أهلكتهم كما أهلكت من كان قبلهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا بل تستأني بهم» فأنزل الله عز وجل «وما منعنا أن نرسل بالآيات» أي التي سألها كفار قومك «إلا أن كذب بها الأولون» أي فأهلكناهم فإن لم يؤمن قومك بعد إرسال الآيات أهلكناهم لأن من سنتنا في الأمم إذا سألوا الآيات ثم لم يؤمنوا بعد إتيانها أن نهلكهم ولا نمهلهم وقد حكمنا بإمهال هذه الأمة إلى يوم القيامة، ثم ذكر من تلك الآيات التي اقترحها الأولون ثم كذبوا بها

رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعوا فأوحى الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم إن شئت أن أستأني بهم فعلت وإن شئت أن أوتيهم ماسألوا فعلت فإن لم يؤمنوا أهلكهم كما أهلكت من كان قبلهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا بل تستأني بهم فأنزل الله عز وجل وما منعنا أن نرسل بالآيات التي سألها كفار قريش إلا أن كذب بها الأولون فأهلكناهم فإن لم يؤمن قومك بعد إرسال الآيات أهلكناهم لأن من شأننا في الأمم إذا سألوا الآيات ثم لم يؤمنوا بعد إتيانها أن نهلكهم ولا نمهلهم «وقد حكمنا بإمهال هذه الأمة في العذاب فقال جل ذكره بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ثم قال (وآتينا ثمود الناقة مبصرة) (١٦٦) مضيئة بينة (فظلموا بها) أي جحدوا بها أنها من عند الله كما قال وما كانوا بآياتنا يظلمون أي بها يجحدون وقيل ظلموا أنفسهم بتكذيبها يريد فعاجلناهم بالعقوبة (وما نرسل بالآيات) أي العبر والدلالات (إلا تخويفا) للعباد ليؤمنوا قال قتادة إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من آياته لعلهم يرجعون. قوله عز وجل (وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس) أي هم في قبضته لا يقدرون على الخروج عن مشيئته فهو حافظك ومانعك منهم فلا تهبهم وامض إلى ما أمر الله به من تبليغ الرسالة كما قال «والله يعصمك من الناس» (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) فالأكثرون على أن المراد منه ما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج من العجائب والآيات قال ابن عباس هي رؤيا عين أريها النبي صلى الله عليه وسلم يعني وهو قول سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج والأكثرين والعرب تقول رأيت بعيني رؤية ورؤيا فلما ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس أنكر بعضهم ذلك وكذبوا وكان فتنة للناس وقال قوم أسري بروحه دون بدنه وقال بعضهم كان له معراجان معراج رؤية بالعين ومعراج رؤيا بالقلب وقال قوم أراد بهذه الرؤيا ما رأى النبي صلى الله عليه وسلم عام الحديبية أنه دخل مكة هو وأصحابه فعجل السير إلى مكة قبل الأجل فصده المشركون فرجع إلى المدينة وكان رجوعه في ذلك العام بعد ما أخبر أنه يدخلها فكان رجوعه فتنة لبعضهم حتى دخلها في العام المقبل فأنزل الله تعالى «لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق» (والشجرة الملعونة في القرآن) يعني شجرة الزقوم مجازه والشجرة الملعونة المذكورة في القرآن والعرب تقول لكل

لما أرسلت فأهلكوا فقال تعالى (وآتينا ثمود الناقة مبصرة) أي بينة وذلك لأن آثار إهلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم (فظلموا بها) أي جحدوا أنها من عند الله وقيل فظلموا أنفسهم بتكذيبها فعاجلناهم بالعقوبة (وما نرسل بالآيات) المقترحة (إلا تخويفا) أي وما نرسل بالآيات إلا تخويفا من نزول العذاب فإن لم يخافوا وقع عليهم وقيل معناه وما نرسل بالآيات يعني العبر والدلالات إلا تخويفا أي إنذارا بعذاب الآخرة إن لم يؤمنوا فإن الله سبحانه وتعالى يخوف الناس بما شاء من آياته لعلهم يرجعون . قوله عز وجل (وإذ قلنا لك) أي واذكر يا محمد إذ قلنا لك (إن ربك أحاط بالناس) أي إن قدرته محيطة بهم فهم في قبضته وقدرته لا يقدرون على الخروج من مشيئته وإذا كان الأمر كذلك فهم لا يقدرون على أمر من الأمور إلا بقضائه وقدره وهو حافظك ومانعك منهم فلا تهبهم وامض لما أمرك من التبليغ للرسالة فهو ينصرك ويقويك على ذلك (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) الأكثرون من المفسرين على أن المراد منها ما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج من العجائب والآيات قال ابن عباس هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج وهي ليلة أسري به إلى بيت المقدس أخرجه البخاري وهو قول سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج وغيرهم والعرب تقول رأيت بعيني رؤية ورؤيا فلما ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس أنكر بعضهم ذلك وكذبوا فكانت فتنة للناس وازداد المخلصون إيمانا وقال قوم أسري بروحه دون جسده وهو ضعيف وقال قوم كان له معراجان معراج رؤية عين في اليقظة ومعراج رؤيا منام وقيل أراد بهذه الرؤيا ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية أنه دخل مكة هو وأصحابه فعجل المسير إلى مكة قبل الأجل فصده المشركون فرجع إلى المدينة فكان رجوعه في ذلك العام بعد ما أخبر أنه يدخلها فتنة لبعضهم ثم دخل مكة في العام المقبل وأنزل الله عز وجل لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، وقيل إن النبي ﷺ رأى في المنام أن ولد الحكم بن أمية يتداولون منبره كما يتداول الصبيان الكرة فساءه ذلك . فإن اعترض معترض على هذا التفسير وقال السورة مكية وهاتان الواقعتان كانتا بالمدينة أجيب بأنه لا إشكال فيه فإنه لا يبعد أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ذلك بمكة ثم كان ذلك حقيقة بالمدينة (والشجرة الملعونة في القرآن)

طعام كريه طعام ملعون وقيل معناه الملعون أكلها ونصب الشجرة عطفا على الرؤيا أى وما جعلنا الرؤيا التى أريناك والشجرة الملعونة إلا فتنة للناس فكانت الفتنة فى الرؤيا ماذكرنا والفتنة فى الشجرة الملعونة من وجهين : أحدهما أن أبا جهل قال إن ابن أبى كبشة يوعدكم بنار تحرق الحجارة ثم يزعم أنه ينبت فيها شجرة وتعلمون أن النار تحرق الشجرة . والثانى أن عبد الله بن الزبعرى قال إن محمدا يخوفنا بالزقوم ولا نعرف الزقوم إلا الزبد والتمر وقال أبو جهل ياجارية تعالى فزقمينا فأتت بالتمر والزبد فقال ياقوم تزقموا فان هذا مايخوفكم به محمد فوصفها الله تعالى فى الصافات وقيل الشجرة الملعونة هى التى تلتوى على الشجر فتخنقه يعنى الكشوث (ونخوفهم فما يزيدهم) التخويف (إلا طغيانا كبيرا) أى تمردا (١٦٧) وعتوا عظيما قوله عز وجل : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا) أى خلقته من طين أنا جئت به وذلك ماروى عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس أن الله تعالى بعث إبليس حتى أخذ كفا من تراب الأرض من عذبها ومالحها فخلق منه آدم فمن خلقه من العذب فهو سعيد وإن كان ابن كافرين ومن خلقه من الملح فهو شقى وإن كان ابن نبى (قال) يعنى إبليس (أرأيتك) أى أخبرنى والكاف لتأكيد المخاطبة (هذا الذى كرمت على) أى فضلته على (لئن أخرتن) أمهلتنى (إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته) أى لأستأصلنهم بالإضلال يقال احتنك الجراد الزرع إذا أكله كله وقيل هو من قول العرب حنك الدابة يحنك إذا شد فى حنكها الأسفل حبلا يقودها أى لأقودنهم كيف شئت وقيل لأستولين عليهم بالإغواء (إلا قليلا) يعنى المعصومين الذين استثناهم الله عز وجل فى قوله إن عبادى ليس لك عليهم سلطان (قال) الله (اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم) أى جزاؤك وجزاء أتباعك (جزاء موفورا) وافرا مكملا يقال وفرته أوفره وفرا ، وقوله (واستفزز) واستخفف واستجهل (من استطعت منهم) أى من ذرية آدم (بصوتك) قال ابن عباس وقتادة بدعائك إلى معصية الله وكل داع إلى معصية الله فهو من جند إبليس قال الأزهرى معناه ادعهم دعاء تستفزهم به إلى جانبك أى تستخفهم وقال مجاهد بالغناء والمزامير (وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) قيل اجمع عليهم مكايدك وخيلك يقال أجلبوا وجلبوا إذا صاحوا يقال صح بخيلك

يعنى شجرة الزقوم التى وصفها الله تعالى فى سورة الصافات والعرب تقول لكل طعام كريه طعام ملعون والفتنة فيها أن أبا جهل قال إن ابن أبى كبشة يعنى النبى صلى الله عليه وسلم توعدكم بنار تحرق الحجارة ثم يزعم أنه تنبت فيها شجرة وتعلمون أن النار تحرق الشجر وقيل إن عبد الله بن الزبعرى قال إن محمدا يخوفنا بالزقوم ولا نعرف الزقوم إلا الزبد والتمر فقال أبو جهل ياجارية تعالى فزقمينا فأتت بزبد وتمر فقال ياقوم تزقموا فان هذا مايخوفكم به محمد فأنزل الله سبحانه وتعالى حين عجبوا أن يكون فى النار شجر «إنا جعلناها فتنة للظالمين» الآيات. فان قلت أين لعنت شجرة الزقوم فى القرآن . قلت لعنت حيث لعن الكفار الذين يأكلونها لأن الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن وإنما وصفت بلعن أصحابها على المجاز وقيل وصفها الله تعالى بالملعن لأن اللعن الإبعاد من الرحمة وهى فى أصل جهنم فى أبعد مكان من الرحمة وقال ابن عباس فى رواية عنه إن الشجرة الملعونة هى الكشوث الذى يلتوى على الشجر والشوك فيجففه (ونخوفهم فما يزيدهم) أى التخويف (إلا طغيانا كبيرا) أى تمردا وعتوا عظيما قوله سبحانه وتعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا) أى من طين وذلك أن آدم خلق من تراب الأرض من عذبها وملحها فمن خلق من العذب فهو سعيد ومن خلق من الملح فهو شقى (قال) يعنى إبليس (أرأيتك) الكاف للمخاطب والمعنى أخبرنى (هذا الذى كرمت على) أى فضلته على (لئن أخرتن) أى أمهلتنى (إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته) أى لأستأصلنهم بالاضلال وقيل معناه لأقودنهم كيف شئت وقيل لأستولين عليهم بالأغواء (إلا قليلا) يعنى المعصومين الذين استثناهم الله تعالى فى قوله «إن عبادى ليس لك عليهم سلطان» (قال) الله تعالى (اذهب) أى امض لشأنك وليس هو من الذهاب الذى هو ضد المجىء (فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم) أى جزاؤك وجزاء أتباعك (جزاء موفورا) أى مكملا. قوله سبحانه وتعالى (واستفزز) أى استخف واستزل واستعجل وأزعج (من استطعت منهم) أى من ذرية آدم (بصوتك) قال ابن عباس معناه بدعائك إلى معصية الله وكل داع إلى معصية الله فهو من جند إبليس وقيل أراد بصوتك الغناء والمزامير واللهو واللعب (وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) أى أجمع عليهم مكايدك وحبائلك واحثثهم على الإغواء وقيل معناه استعن

ورجلك واحشهم عليهم بالإغواء قال مقاتل استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم والخيل الركبان والرجل المشاة قال أهل التفسير كل راكب وماش فى معاصى الله فهو من جند إبليس وقال مجاهد وقتادة إن له خيلا ورجلا من الجن والإنس وهو كل من يقاتل فى المعصية والرجل والرجالة والراجلة واحد يقال راجل ورجل مثل تاجر وتجر وراكب وركب وقرأ حفص ورجلك بكسر الجيم وهما لغتان (وشاركهم فى الأموال والأولاد) فالمشاركة فى الأموال كل ماأصيب من حرام أو أنفق فى حرام هذا قول مجاهد والحسن وسعيد بن جبير وقال عطاء هو الربا وقال قتادة هو ما كان المشركون يحرمونه من الأنعام كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام وقال الضحاك هو ما كانوا يذبحونه لآلهتهم وأما الشركة فى الأولاد فروى عن ابن عباس أنها الموءودة وقال مجاهد والضحاك هم

أولاد الزنا وقال الحسن وقتادة هو أنهم هودوا أولادهم ونصروهم ومجسوهم وعن ابن عباس رواية أخرى هو تسميتهم الأولاد عبد الحارث وعبد شمس وعبد العزى وعبد الدار ونحوها وروى عن جعفر بن محمد «إن الشيطان يقعد على ذكر الرجل فاذا لم يقل بسم الله أصاب معه امرأته وأنزل فى فرجها كما ينزل الرجل» وروى فى بعض الأخبار «إن فيكم مغربين قيل وما المغربون قال الذين يشارك فيهم الجن» وروى أن رجلا قال لابن عباس إن امرأتى استيقظت وفى فرجها شعلة من نار قال ذلك من وطء الجن وفى الآثار أن إبليس لما أخرج إلى الأرض قال يارب أخرجتنى من الجنة لأجل آدم فسلطنى عليه وعلى ذريته قال أنت مسلط فقال لاأستطيعه إلا بك فزدنى قال استفزز من استطعت زاجر منهم بصوتك الآية فقال آدم يارب سلطت إبليس على وعلى ذريتى وإنى لاأستطيعه إلا بك قال لايولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظونه قال زدنى قال الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها قال زدنى قال التوبة معروضة مادام الروح فى الجسد فقال زدنى قال ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم الآية. وفى الخبر أن إبليس قال يارب بعثت أنبياء وأنزلت كتبا فما قراءتى قال الشعر قال فما كتابى قال الوشم قال ومن رسلى قال الكهنة قال وأين مسكنى قال الحمامات قال: وأين مجلسى قال الأسواق قال فما طعامى قال مالم يذكر عليه اسمى قال ماشرابى قال كل مسكر قال وما حبالتى قال النساء قال وما أذانى قال المزامير قوله عز وجل (وعدهم) أى خذ منهم الجميل فى طاعتك وقيل قل لهم لاجنة ولا نار ولا بعث (وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) والغرور تزيين الباطل بما يظن أنه حق. فان قيل كيف ذكر الله هذه الأشياء وهو يقول إن الله لايأمر

عليهم بركبان جندك ومشاتهم يقال إن له خيلا ورجلا من الجن والإنس فكل من قاتل أو مشى فى معصية الله فهو من جند إبليس وقيل المراد منه ضرب المثل كما تقول للرجل المجد فى الأمر جئتنا بخيلك ورجلك (وشاركهم فى الأموال والأولاد) أما المشاركة فى الأموال فكل مال أصيب من حرام أو أنفق فى حرام، وقيل هو الربا، وقيل هو ماكانوا يذبحونه لآلهتهم ويحرمونه كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام. وأما المشاركة فى الأولاد فروى عن ابن عباس أنها الموءودة وقيل أولاد الزنا وعن ابن عباس أيضا هى تسميتهم أولادهم بعبد العزى وعبد الحارث وعبد شمس ونحوه وقيل هو أن رغبوا أولادهم فى الأديان الباطلة الكاذبة كاليهودية والنصرانية والمجوسية ونحوها وقيل إن الشيطان يقعد على ذكر الرجل وقت الجماع فاذا لم يقل بسم الله أصاب معه امرأته وأنزل فى فرجها كما ينزل الرجل. وروى فى بعض الأخبار أن فيكم مغربين قال وما المغربون قال الذين شارك فيهم الجن وعن ابن عباس أنه سأله رجل فقال إن امرأتى استيقظت وفى فرجها شعلة نار قال ذلك من وطء الجن (وعدهم) أى منهم الجميل فى طاعتك وقيل قل لهم لاجنة ولانار ولابعث وذلك أن الشيطان إذا دعا إلى المعصية فلا بد أن يقرر أولا أنه لامضرة فى فعلها البتة وذلك لايمكن إلا إذا قال له لامعاد ولاجنة ولا نار ولاحياة بعد هذه الحياة فيقرر عند المدعو أنه لامضرة البتة فى هذه المعاصى وإذا فرغ من هذا النوع قرر عنده أن هذا الفعل يفيد أنواعا من اللذة والسرور ولاحياة للإنسان فى الدنيا إلا به فهذا طريق الدعوة إلى المعصية ثم ينفره عن فعل الطاعات وهو أنه يقرر عنده أن لاجنة ولانار ولاعقاب فلا فائدة فيها، وقيل معنى عدهم أى شناعة الأصنام عند الله وإيثار العاجل على الأجل. فإن قلت كيف ذكر الله هذه الأشياء بصيغة الأمر والله سبحانه وتعالى يقول إن الله لايأمر بالفحشاء. قلت هذا على طريق التهديد كقوله تعالى اعملوا ماشئتم وكقول القائل اجتهد جهدك فسترى ماينزل بك. وقوله سبحانه وتعالى (وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) أى يزين الباطل بما يظن أنه حق واعلم أن الله سبحانه وتعالى لما قال وعدهم أردفه بما هو

بالفحشاء قيل هذا على طريق التهديد كقوله تعالى « اعملوا ماشئتم » وكقول القائل افعل ماشئت فسترى . قوله (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا) أى حافظا ومن يوكل الأمر إليه. (١٦٩) قوله عز وجل (ربكم الذى يزجى لكم الفلك) أى يسوق ويجرى لكم الفلك (فى البحر لتبتغوا من فضله) لتطلبوا من رزقه (إنه كان بكم رحيما وإذا مسكم الضر) الشدة وخوف الغرق (فى البحر ضل) أى بطل وسقط (من تدعون) من الآلهة (إلا إياه) إلا الله فلم تجدوا مغيثا سواه (فلما نجاكم) أجاب دعاءكم وأنجاكم من هول البحر وأخرجكم (إلى البر أعرضتم) عن الإيمان والإخلاص والطاعة كفرا منكم لنعمه (وكان الإنسان كفورا أفأمنتم) بعد ذلك (أن يخسف بكم) يغور بكم (جانب البر) ناحية البر وهى الأرض (أو يرسل عليكم حاصبا) أى يمطر عليكم حجارة من السماء كما أمطر على قوم لوط وقال أبو عبيدة والقتيبى الحاصب الريح التى ترمى بالحصباء وهى الحصا الصغار (ثم لاتجدوا لكم وكيلا) قال قتادة مانعا (أم أمنتم أن يعيدكم فيه) يعنى فى البحر (تارة) مرة (أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح) قال ابن عباس أى عاصفا وهى الريح الشديدة وقال أبو عبيدة هى الريح التى تقصف كل شىء أى تدقه وتحطمه وقال القتيبى هى التى تقصف الشجر أى تكسره (فيغرقكم بما كفرتم ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا) ناصرا ولا

زاجر عن قبول وعده بقوله وما يعدهم الشيطان إلا غرورا والسبب فيه أنه إنما يدعو إلى قضاء الشهوة وطلب الرياسة ونحو ذلك ولايدعو إلى معرفة الله تعالى ولا إلى عبادته وتلك الأشياء التى يدعو إليها خيالية لاحقيقة لها ولا تحصل إلا بعد متاعب ومشاق عظيمة وإذا حصلت كانت سريعة الذهاب والانقضاء وينغصها الموت والهرم وغير ذلك وإذا كانت هذه الأشياء بهذه الصفة كانت الرغبة فيها غرورا (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) يعنى عباده الأنبياء وأهل الفضل والصلاح لأنه لايقدر على إغوائهم (وكفى بربك وكيلا) أى حافظا والمعنى أنه سبحانه وتعالى لما أمكن إبليس أن يأتى بما يقدر عليه من الوسوسة كان ذلك سببا لحصول الخوف فى قلب الإنسان فقال تعالى « وكفى بربك وكيلا » أى فالله سبحانه وتعالى أقدر منه وأرحم بعباده فهو يدفع عنهم كيد الشيطان ووساوسه ويعصمهم من إغوائه وإضلاله وفى بعض الآثار أن إبليس لما خرج إلى الأرض قال يارب أخرجتنى من الجنة لأجل آدم فسلطنى عليه وعلى ذريته قال أنت مسلط قال لا أستطيعه إلا بك فزدنى قال استفزز من استطعت منهم الآية فقال آدم يارب سلطت إبليس على وعلى ذريتى وإني لا أستطيعه إلا بك قال لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه قال رب زدنى قال الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها قال رب زدنى قال التوبة معروضة مادام الروح فى الجسد قال رب زدنى فقال ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله الآية وفى الخبر قال إبليس يارب بعثت أنبياء وأنزلت كتبا فما قراءتى قال الشعر قال فما كتابتى قال الوشم قال ومن رسلى قال الكهنة قال أى شىء مطعمى قال مالم يذكر عليه اسمى قال فما شرابى قال كل مسكر قال وأين مسكنى قال الحمامات ـ قال ـ وأين مجلسى قال فى الأسواق قال وما حبائلى قال النساء قال وما أذانى قال المزمار . قوله (ربكم الذى يزجى) أى يسوق ويجرى (لكم الفلك) أى السفن (فى البحر لتبتغوا من فضله) أى لتطلبوا من رزقه بالأرباح فى التجارة وغيرها (إنه كان بكم رحيما) أى حيث يسر لكم هذه المنافع والمصالح وسهلها عليكم (وإذا مسكم الضر فى البحر) أى الشدة وخوف الغرق فى البحر (ضل من تدعون) أى ذهب عن أوهامكم وخواطركم كل من تدعون فى حوادثكم من الأصنام وغيرها (إلا إياه) أى إلا الله وحده فانكم لاتذكرون سواه ولايخطر ببالكم غيره لأنه القادر على إعانتكم ونجاتكم (فلما نجاكم) أى أجاب دعاءكم وأنجاكم من هول البحر وشدته وأخرجكم (إلى البر أعرضتم) أى عن الإيمان والإخلاص والطاعة وكفرتم النعمة وهو قوله تعالى (وكان الإنسان كفورا) أى جحودا (أفأمنتم) أى بعد إنجائكم (أن يخسف بكم جانب البر) أى تغوره والمعنى أن الجهات كلها له وفى قدرته برا كان أو بحرا بل إن كان الغرق فى البحر ففى جانب البر ماهو مثله وهو الخسف لأنه يغيب تحت الثرى كما أن الغرق يغيب تحت الماء (أو يرسل عليكم حاصبا) أى نمطر عليكم حجارة من السماء كما أمطرناها على قوم لوط (ثم لاتجدوا لكم وكيلا) أى مانعا وناصرا (أم أمنتم أن يعيدكم فيه) أى فى البحر (تارة) أى مرة (أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح) قال ابن عباس أى عاصفا وهى الريح الشديدة وقيل الريح التى تقصف كل شىء من شجر وغيره (فيغرقكم بما كفرتم) أى بكفرانكم النعمة وإعراضكم حين أنجيناكم (ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا) التبيع المطالب والمعنى أنا

ثائرا وتبيع بمعنى تابع أي ثابعا مطالبا بالثأر وقيل من يتبعنا بالإنكار قرأ ابن كثير وأبو عمرو أن نخسف ونرسل ونعيدكم فنرسل فنغرقكم بالنون فيهن لقوله علينا وقرأ الآخرون بالياء لقوله إلا إياه وقرأ أبو جعفر ويعقوب فتغرقكم بالتاء يعنى الريح. قوله عز وجل (ولقد كرمنا بنى آدم) روى عن ابن عباس أنه قال هو أنهم يأكلون بالأيدى وغير الآدمى يأكل بفيه من الأرض وروى عنه أنه (١٧٠) قال بالعقل وقال الضحاك بالنطق وقال عطاء بتعديل القامة وامتدادها والدواب منكبة على وجوهها وقيل بحسن الصورة وقيل الرجال باللحى والنساء بالذوائب وقيل بأن سخر لهم سائر الأشياء وقيل بأن منهم خير أمة أخرجت للناس (وحملناهم فى البر والبحر) أى حملناهم فى البر على الدواب وفى البحر على السفن (ورزقناهم من الطيبات) يعنى لذيذ المطاعم والمشارب قال مقاتل السمن والزبد والتمر والحلوى وجعل رزق غيرهم مالا يخفى (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) وظاهر الآية أنه فضلهم على كثير ممن خلقهم لا على الكل وقال قوم فضلوا على جميع الخلق إلا على الملائكة وقال الكلبي فضلوا على الخلائق كلهم إلا على طائفة من الملائكة جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وأشباههم . وفى تفضيل الملائكة على البشر اختلاف فقال قوم فضلوا على جميع الخلق وعلى الملائكة كلهم وقد يوضع الأكثر موضع الكل كما قال تعالى «هل أنبئكم على من تنزل الشياطين» إلى قوله تعالى «وأكثرهم كاذبون» أى كلهم وفى الحديث عن جابر يرفعه قال «لما خلق الله آدم وذريته قالت الملائكة يارب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة فقال تعالى لا أجعل من خلقته بيدي ونفخت فيه من روحى كمن قلت له كن فكان» ، والأولى أن يقال عوام المؤمنين أفضل من عوام الملائكة وخواص المؤمنين أفضل من خواص الملائكة قال الله تعالى «إن الذين آمنوا وعملوا

نفعل ما نفعل بكم ثم لا تجدون لكم أحدا يطالبنا بما فعلنا انتصارا لكم ودركا للثأر من جهتنا وقيل معناه من يتبعنا بالإنكار علينا . قوله تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم) قال ابن عباس هو أنهم يأكلون بالأيدى وغير الآدمى يأكل بفيه من الأرض وقال أيضا بالعقل وقيل بالنطق والتمييز والخط والفهم وقيل باعتدال القامة وامتدادها وقيل بحسن الصورة وقيل الرجال باللحى والنساء بالذوائب وقيل بتسليطهم على جميع ما فى الأرض وتسخيره لهم وقيل بحسن تدبيرهم أمر المعاش والمعاد وقيل بأن منهم خير أمة أخرجت للناس (وحملناهم فى البر) أى على الإبل والخيل والحمير (والبحر) أى وحملناهم فى البحر على السفن وهذا من مؤكدات التكريم لأن الله تعالى سخر لهم هذه الأشياء لينتفعوا بها ويستعينوا بها على مصالحهم (ورزقناهم من الطيبات) يعنى لذيذ المطاعم والمشارب وقيل الزبد والتمر والحلواء وجعل رزق غيرهم مما لا يخفى وقيل أن جميع الأغذية إما نباتية وإما حيوانية ولا يتغذى الإنسان إلا بأطيب القسمين بعد الطبخ الكامل والنضج التام ولا يحصل هذا لغير الإنسان (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) واعلم أن الله تعالى قال فى أول الآية ولقد كرمنا بنى آدم وفى آخرها وفضلناهم ولا بد من الفرق بين التكريم والتفضيل وإلا لزم التكرار والأقرب أن يقال إن الله تعالى كرم الإنسان على سائر الحيوان بأمور خلقية ذاتية طبيعية مثل العقل والنطق والخط وحسن الصورة ثم إنه سبحانه وتعالى عرفه بواسطة ذلك العقل والفهم اكتساب العقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة فالأول هو التكريم والثانى هو التفضيل ثم قال سبحانه وتعالى على كثير ممن خلقنا تفضيلا ظاهر الآية يدل على أنه فضل بنى آدم على كثير ممن خلق لا على الكل فقال قوم فضلوا على جميع الخلق إلا على الملائكة وهذا مذهب المعتزلة وقال الكلبى فضلوا على الخلائق كلهم إلا على طائفة من الملائكة مثل جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزائيل وأشباههم وقيل فضلوا على جميع الخلائق وعلى الملائكة كلهم . فان قلت كيف تصنع بكثير . قلت يوضع الأكثر موضع الكل كقوله تعالى «يلقون السمع وأكثرهم كاذبون» أراد كلهم وفي الحديث عن جابر يرفعه قال «لما خلق الله آدم وذريته قالت الملائكة يارب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة فقال تعالى لا أجعل من خلقته بيدى ونفخت فيه من روحى كمن قلت له كن فكان» وقيل بالتفضيل وهو الأولى والراجح أن خواص بنى آدم وهم الأنبياء أفضل من خواص الملائكة وعوام الملائكة أفضل من عوام البشر من بنى آدم وهذا التفضيل إنما هو بين الملائكة والمؤمنين من بنى آدم لأن الكفار لا حرمة لهم قال الله سبحانه وتعالى «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية» وعن أبي هريرة رضى

الله

الصالحات أولئك خير البرية» وروى عن أبى هريرة أنه قال «المؤمن أفضل وأكرم على الله من الملائكة الذين عنده» قوله تعالى (يوم ندعو كل أناس بإمامهم) قال مجاهد وقتادة بنبيهم وقال أبو صالح والضحاك بكتابهم الذى أنزل عليهم وقال الحسن وأبو العالية بأعمالهم وقال قتادة أيضا بكتابهم الذى فيه أعمالهم بدليل سياق الآية فمن أوتى كتابه بيمينه ويسمى الكتاب إماما كما قال عز وجل «وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين» وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما بإمام زمانهم الذى دعاهم فى الدنيا إلى ضلالة أوهدى قال الله تعالى «وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا» وقال «وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار» وقيل بمعبودهم وعن سعيد بن المسيب قال كل قوم يجتمعون إلى رئيسهم فى الخير والشر وقال محمد بن كعب بإمامهم قيل يعنى بأمهاتهم وفيه ثلاثة أوجه من الحكمة أحدها لأجل عيسى عليه السلام، والثانى لشرف الحسن والحسين والثالث لئلا يفتضح أولاد الزنا (فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا) أى لا ينقص من حقهم قدر فتيل (ومن كان فى هذه أعمى) اختلفوا فى هذه الإشارة فقال قوم هى راجعة إلى النعم التى عددها الله تعالى فى هذه الآيات من قوله ربكم الذى يزجى لكم الفلك إلى قوله تفضيلا يقول ومن كان منكم فى هذه النعم التى قد عاين أعمى (فهو فى الآخرة) التى لم يعاين ولم ير (أعمى وأضل سبيلا) يروى هذا عن ابن عباس. وقال الآخرون هى راجعة إلى الدنيا يقول من كان فى هذه الدنيا أعمى القلب عن رؤية قدرة الله وآياته ورؤية الحق فهو فى الآخرة أعمى أى أشد عمى وأضل سبيلا أى أخطأ طريقا وقيل من كان فى هذه الدنيا أعمى عن الاعتبار فهو فى الآخرة أعمى عن الاعتذار وقال الحسن من كان فى الدنيا ضالا كافرا فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا لأنه فى الدنيا تقبل توبته وفى الآخرة لا تقبل توبته وأمال بعض القراء هذين الحرفين وفتحهما بعضهم وكان أبو عمرو يكسر الأول ويفتح الثانى فهو فى الآخرة أشد عمى لقوله وأضل سبيلا قوله عز وجل (وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك) الآية اختلفوا فى سبب نزولها قال سعيد بن جبير كان النبى صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر الأسود فمنعته

(١٧١)

الله تعالى عنه قال المؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة الذين عنده. قوله عز وجل (يوم ندعو كل أناس بأمامهم) أى بنبيهم وقيل بكتابهم الذى أنزل عليهم وقيل بكتاب أعمالهم وعن ابن عباس بإمام زمانهم الذى دعاهم فى الدنيا إما إلى هدى وإما إلى ضلالة وذلك أن كل قوم يجتمعون إلى رئيسهم فى الخير والشر وقيل بمعبودهم وقيل بامامهم جمع أم يعنى بأمهاتهم والحكمة فيه رعاية حق عيسى عليه السلام وإظهار شرف الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما وأن لا يفتضح أولاد الزنا (فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم) فان قلت لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم مع أن أصحاب الشمال يقرءونه أيضا. قلت الفرق أن أصحاب الشمال إذا طالعوا كتابهم وجدوه مشتملا على مشكلات عظيمة فيستولى عليهم الخجل والدهشة فلا يقدرون على إقامة حروفه فتكون قراءتهم كلا قراءة وأصحاب اليمين إذا طالعوا كتابهم وجدوه مشتملا على الحسنات والطاعات فيقرءونه أحسن قراءة وأبينها (ولا يظلمون فتيلا) أى ولا ينقصون من ثواب أعمالهم أدنى شىء (ومن كان فى هذه أعمى) المراد عمى القلب والبصيرة لا عمى البصر والمعنى ومن كان فى هذه الدنيا أعمى أى عن هذه النعم التى قد عدها فى هذه الآيات المتقدمة (فهو فى الآخرة) أى التى لم تعاين ولم تر (أعمى وأضل سبيلا) قاله ابن عباس وقيل معناه ومن كان فى هذه الدنيا أعمى القلب عن رؤية قدرة الله وآياته ورؤية الحق فهو فى الآخرة أعمى أى أشد عمى وأضل سبيلا أى أخطأ طريقا وقيل معناه ومن كان فى الدنيا كافرا ضالا فهو فى الآخرة أعمى لأنه فى الدنيا تقبل توبته وفى الآخرة لا تقبل توبته. قوله سبحانه وتعالى (وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك) قيل فى سبب نزولها أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يستلم الحجر الأسود فمنعته قريش وقالوا لا ندعك حتى تلم بآلهتنا وتمسها فحدث نفسه ما على أن أفعل ذلك والله يعلم إنى لها كاره بعد أن يدعونى أستلم الحجر وقيل طلبوا منه أن يذكر آلهتهم حتى يسلموا ويتبعوه فحدث نفسه فأنزل الله هذه الآية وقال ابن عباس قدم وفد ثقيف على النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال قال وما هن قالوا لا نجبى فى الصلاة أى لا ننحنى ولا نكسر أصنامنا بأيدينا وأن تمتعنا باللات سنة من غير أن نعبدها فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا خير فى دين لا ركوع فيه ولا سجود وأما أن لا تكسروا أصنامكم بأيديكم فذاك لكم وأما الطاغية يعنى اللات والعزى فانى غير ممتعكم بها قالوا يارسول الله إنا نحب أن تسمع العرب أنك أعطيتنا مالم تعط غيرنا فان خشيت أن تقول

قريش وقالوا لاندعك حتى تلم بآلهتنا وتمسها فحدثت نفسه ماعلى أن أفعل ذلك والله تعالى يعلم أني لها كاره بعد أن يدعوني حتى أستلم الحجر وقيل طلبوا منه أن يمس آلهتهم حتى يسلموا ويتبعوه فحدثت نفسه بذلك فأنزل الله هذه الآية قال ابن عباس قدم وفد ثقيف على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال قال وما هن قالوا أن لا ننحني أي في الصلاة ولا نكسر أصنامنا بأيدينا وأن يمتعنا باللات سنة من غير أن نعبدها فقال النبي صلى الله عليه وسلم «لاخير في دين لاركوع فيه ولا سجود» وأما أن لاتكسروا أصنامكم بأيديكم فذاك لكم وأما الطاغية يعني اللات والعزى فاني غير ممتعكم بها فقالوا يارسول الله إنا نحب أن تسمع العرب أنك أعطيتنا مالم تعط غيرنا فان خشيت أن تقول العرب أعطيتهم مالم تعطنا فقل الله أمرني بذلك فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فطمع القوم في سكوته أن يعطيهم ذلك فأنزل الله عز وجل هذه الآية «وإن كادوا ليفتنونك» ليصرفونك «عن الذي أوحينا إليك» (لتفترى) لتختلق (علينا غيره وإذا) لو فعلت ما دعوك إليه (لاتخذوك خليلا) أي والوك وصافوك (ولولا أن ثبتناك) على الحق بعصمتنا (لقد كدت تركن) أي تميل (إليهم شيئا قليلا) أي قريبا من الفعل. فان قيل كان النبي ﷺ معصوما فكيف يجوز أن يقرب مما طلبوه وما طلبوه كفر قيل كان ذلك خاطر قلب ولم يكن عزما وقد عفا الله عز وجل عن حديث النفس قال قتادة كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول بعد ذلك «اللهم لاتكلني إلى نفسي طرفة عين» والجواب الصحيح هو أن الله تعالى قال ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا وقد ثبته الله ولم يركن وهذا مثل قوله تعالى «ولولا فضل الله ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا» وقد تفضل فلم يتبعوا (إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) أي لو فعلت ذلك لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات يعني أضعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة وقيل الضعف هو العذاب سمي ضعفا لتضاعف الألم فيه (ثم لاتجد لك علينا نصيرا) أي ناصرا يمنعك من عذابنا. قوله تعالى (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها) اختلفوا في معنى الآية فقال بعضهم هذه الآية مدنية. قال الكلبي لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة كره اليهود مقامه بالمدينة حسدا منهم فأتوه وقالوا ياأبا القاسم لقد علمت ماهذه بأرض الأنبياء فان أرض الأنبياء الشام وهي الأرض المقدسة وكان بها إبراهيم والأنبياء عليهم الصلاة والسلام فان كنت نبيا مثلهم فأت الشام وإنما يمنعك من الخروج إليها مخافتك الروم وأن الله سيمنعك من الروم إن كنت رسوله فعسكر النبي صلى الله عليه وسلم على ثلاثة أميال من المدينة وفي رواية إلى ذي الحليفة حتى يجتمع إليه أصحابه ويخرج فأنزل الله هذه الآية والأرض هاهنا هي المدينة وقال

العرب أعطيتهم مالم تعطنا فقل الله أمرني بذلك فسكت النبي صلى الله عليه وسلم فطمع القوم في سكوته أن يعطيهم ذلك فأنزل الله تعالى «وإن كادوا» أي هموا «ليفتنونك» أي ليصرفونك عن الذي أوحينا إليك» (لتفترى) أي لتختلق وتبتدع (علينا غيره) أي مالم تقله (وإذا) أي لو فعلت ما دعوك إليه (لاتخذوك خليلا) أي والوك ووافوك وصافوك (ولولا أن ثبتناك) أي على الحق بعصمتنا إياك (لقد كدت تركن) أي تميل (إليهم شيئا قليلا) أي قربت من الفعل. فان قلت كان النبي صلى الله عليه وسلم معصوما فكيف يجوز أن يقرب مما طلبوه. قلت كان ذلك خاطر قلب ولم يكن عزما وقد عفا الله تعالى عن حديث النفس وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول بعد ذلك «اللهم لاتكلني إلى نفسي طرفة عين» والجواب الصحيح هو أن الله سبحانه وتعالى قال ولولا أن ثبتناك وقد ثبته الله فلم يركن إليهم (إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) أي لو فعلت ذلك لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات يعني ضعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة (ثم لاتجد لك علينا نصيرا) أي ناصرا يمنعك من عذابنا. قوله سبحانه وتعالى (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها) قيل هذه الآية مدنية وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة كره اليهود مقامه بالمدينة وذلك حسدا فأتوه فقالوا يا أبا القاسم لقد علمت ما هذه بأرض أنبياء وإن أرض الأنبياء الشام وهي الأرض المقدسة وكان بها إبراهيم والأنبياء عليهم السلام فان كنت نبيا مثلهم فأت الشام وإنما يمنعك من الخروج إليها مخافة الروم وإن الله سيمنعك من الروم إن كنت رسوله فعسكر النبي صلى الله عليه وسلم على ثلاثة أميال من المدينة وفي رواية إلى ذي الحليفة حتى يجتمع إليه أصحابه فيخرج فأنزل الله هذه الآية فالأرض هنا أرض المدينة وقيل الأرض أرض مكة والآية مكية والمعنى هم المشركون أن يخرجوه منها فكفهم الله عنه حتى أمره بالخروج للهجرة فخرج بنفسه

مجاهد وقتادة الأرض أرض مكة والآية مكية هم المشركون أن يخرجوه منها فكفهم الله عنه حتى أمره بالهجرة فخرج بنفسه وهذا أليق بالآية لأن ماقبلها خبر عن أهل مكة والسورة مكية وقيل هم الكفار كلهم أرادوا أن يستفزوه من أرض العرب باجتماعهم وتظاهرهم عليه فمنع الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم ولم ينالوا منه ماأملوا والاستفزاز هو الإزعاج بسرعة (وإذا لايلبثون خلفك) أى بعدك وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى وحفص ويعقوب خلافك اعتبارا بقوله تعالى «فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله» ومعناهما واحد (إلا قليلا) أى لايلبثون بعدك إلا قليلا حتى يهلكوا فعلى هذا القول الأول مدة حياتهم وعلى الثانى مابين خروج النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة إلى أن قتلوا ببدر. قوله عز وجل (سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) أى كسنتنا فانتصب بحذف الكاف وسنة الله فى الرسل إذا

كذبتهم الأمم أن لايعذبهم مادام نبيهم بين أظهرهم فاذا خرج نبيهم من بين أظهرهم عذبهم (ولاتجد لسنتنا تحويلا) أى تبديلا قوله (أقم الصلاة لدلوك الشمس) اختلفوا فى الدلوك روى عن عبدالله ابن مسعود أنه قال الدلوك هو الغروب وهو قول إبراهيم النخعى ومقاتل ابن حيان والضحاك والسدى وقال ابن عباس وابن عمر وجابر هو زوال الشمس وهو قول عطاء وقتادة ومجاهد والحسن وأكثر التابعين ومعنى اللفظ يجمعهما لأن أصل الدلوك الميل والشمس تميل إذا زالت وغربت والحمل على الزوال أولى القولين لكثرة القائلين به ولأنا إذا حملناه عليه كانت الآية جامعة لمواقيت الصلاة كلها فدلوك الشمس يتناول صلاة الظهر والعصر وإلى غسق الليل يتناول المغرب والعشاء وقرآن الفجر هو صلاة الصبح. قوله عز وجل (إلى غسق الليل) أى ظهور ظلمته وقال ابن عباس بدو الليل وقال قتادة وقت صلاة المغرب وقال مجاهد غروب الشمس (وقرآن الفجر) يعنى صلاة الفجر سمى صلاة الفجر قرآنا لأنها لاتجوز إلا بقرآن وانتصاب القرآن من وجهين أحدهما أنه عطف على الصلاة أى وأقم قرآن الفجر قاله الفراء وقال أهل البصرة على الإغراء أى وعليك قرآن الفجر (إن قرآن الفجر كان مشهودا) أى يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسمعيل ثنا أبو اليمان أنبأنا شعيب عن الزهرى أخبرنى سعيد بن المسيب وأبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «تفضل صلاة الجمع على صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين جزءا وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر ثم يقول أبو هريرة اقرءوا إن شئتم

بنفسه وهذا أليق بالآية لأن ماقبلها خبر عن أهل مكة والسورة مكية وقيل هم المشركون كلهم وأرادوا أن يستفزوه من أرض العرب باجتماعهم وتظاهرهم عليه فمنع الله رسوله ولم ينالوا منه ما أملوه والاستفزاز الازعاج (وإذا لايلبثون خلافك إلا قليلا) أى لايبقون بعد إخراجك إلا زمانا قليلا حتى يهلكوا. قوله سبحانه وتعالى (سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) يعنى أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين أظهرهم فسنة الله أن يهلكهم وأن لايعذبهم ما دام نبيهم بينهم فاذا خرج من بين أظهرهم عذبهم (ولاتجد لسنتنا تحويلا) أى تبديلا. قوله سبحانه وتعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس) روى عن ابن مسعود أنه قال الدلوك الغروب وهو قول النخعى ومقاتل والضحاك والسدى قال ابن عباس وابن عمر وجابر هو زوال الشمس وهو قول عطاء وقتادة ومجاهد والحسن وأكثر التابعين ومعنى اللفظ يجمعهما لأن أصل الدلوك الميل والشمس تميل إذا زالت وإذا غربت والحمل على الزوال أولى القولين لكثرة القائلين به وإذا حملناه عليه كانت الآية جامعة لمواقيت الصلاة كلها فدلوك الشمس يتناول صلاة الظهر والعصر (إلى غسق الليل) أى ظهور ظلمته وقال ابن عباس بدو الليل وهذا يتناول المغرب والعشاء (وقرآن الفجر) يعنى صلاة الفجر سمى الصلاة قرآنا لأنها لاتجوز إلا بالقرآن (إن قرآن الفجر كان مشهودا) أى يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار (خ). عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تفضل صلاة الجمع صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين جزءا وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر ثم يقول أبو هريرة اقرءوا إن شئتم إن قرآن الفجر كان مشهودا» قال الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره هذا دليل قاطع قوى على أن التغليس أفضل من التنوير لأن الإنسان إذا شرع فيها من أول الصبح ففى ذلك الوقت الظلمة باقية فتكون ملائكة الليل حاضرين ثم إذا امتدت الصلاة بسبب ترتيل القرآن وتكثيرها زالت الظلمة وظهر الضوء وحضرت ملائكة النهار أما إذا ابتدأ بهذه الصلاة فى وقت الإسفار فهناك لم يبق أحد من ملائكة الليل فلا يحصل المعنى المذكور

«إن قرآن الفجر كان مشهودا». قوله تعالى (ومن الليل فتهجد به) أى قم بعد نومك والتهجد لايكون إلا بعد النوم يقال تهجد إذا قام بعد مانام وهجد إذا نام والمراد من الآية قيام الليل للصلاة وكانت صلاة الليل فريضة على النبى صلى الله عليه وسلم فى الابتداء وعلى الأمة لقوله تعالى «يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا» ثم نزل التخفيف فصار الوجوب منسوخا فى حق الأمة بالصلوات الخمس وبقى الاستحباب قال الله تعالى «فاقرءوا ماتيسر منه» وبقى الوجوب فى حق النبى صلى الله عليه وسلم وروى عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «ثلاث هن على فريضة وهن سنة لكم الوتر والسواك وقيام الليل». قوله عز وجل (نافلة لك) أى زيادة لك يريد فضيلة زائدة على سائر الفرائض فرضها الله عليك وذهب قوم إلى أن الوجوب صار منسوخا فى حقه كما فى حق الأمة فصارت نافلة وهو قول مجاهد وقتادة لأن الله تعالى قال نافلة لك ولم يقل عليك. فان قيل فما معنى التخصيص وهى زيادة فى حق كافة المسلمين كما **(١٧٤)** فى حقه صلى الله عليه وسلم قيل التخصيص من حيث أن نوافل العباد كفارة لذنوبهم والنبى صلى الله عليه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكانت نوافله لاتعمل فى كفارة الذنوب فتبقى له زيادة فى رفع الدرجات أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الجورجانى أنا أبو القاسم على بن أحمد الخزاعى أنا أبو سعيد الهيثم بن كليب ثنا أبو عيسى الترمذى ثنا قتيبة وبشر ابن معاذ قالا ثنا أبو عوانة عن زياد بن علاقة عن المغيرة بن شعبة قال «قام النبى صلى الله عليه وسلم حتى انتفخت قدماه فقيل له أتتكلف هذا وقد غفر لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا» أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسى أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الله ابن أبى بكر عن أبيه عن عبد الله بن قيس بن مخرمة أنه أخبره عن زيد بن خالد الجهنى أنه قال «لأرمقن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة فتوسدت عتبته أو فسطاطه فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم صلى ركعتين طويلتين ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم أوتر فذلك ثلاثة عشرة ركعة» أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسى أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن أنه أخبره «أنه سأل عائشة رضى الله عنها كيف كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رمضان؟ قال فقالت ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيد فى رمضان ولا فى غيره على إحدى عشر ركعة يصلى أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلى أربعا فلاتسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلى ثلاثا قالت

فى الآية فثبت أن قوله تعالى «إن قرآن الفجر كان مشهودا» دليل على أن الصلاة فى أول وقتها أفضل. قوله سبحانه وتعالى (ومن الليل فتهجد به) أى قم بعد نومك والتهجد لايكون إلا بعد القيام من النوم والمراد من الآية قيام الليل للصلاة وكانت صلاة الليل فريضة على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى الأمة فى الابتداء لقوله تعالى «يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه» ثم نزل التخفيف فصار الوجوب منسوخا فى حق الأمة بالصلوات الخمس وبقى قيام الليل على الاستحباب بدليل قوله تعالى «فاقرءوا ماتيسر منه» وبقى الوجوب ثابتا فى حق النبى صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى «نافلة لك» أى زيادة لك يريد فريضة زائدة على سائر الفرائض التى فرضها الله عليك روى عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «ثلاث هن على فريضة وهن سنة لكم الوتر والسواك وقيام الليل» وقيل إن الوجوب صار منسوخا فى حقه كما فى حق الأمة فصار قيام الليل نافلة لأن الله سبحانه وتعالى قال نافلة لك ولم يقل عليك. فان قلت مامعنى التخصيص إذا كان زيادة فى حق المسلمين كما فى حقه صلى الله عليه وسلم قلت فائدة التخصيص أن النوافل كفارات لذنوب العباد والنبى ﷺ قد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر فكانت له نافلة وزيادة فى رفع الدرجات.

(فصل)

فى الأحاديث الواردة فى قيام الليل (ق) عن المغيرة بن شعبة قال «قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتفخت قدماه فقيل له أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا» (م) عن زيد بن خالد الجهنى قال «لأرمقن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة فتوسدت عتبته أو فسطاطه فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم صلى ركعتين طويلتين طويلتين طويلتين ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما

عائشة فقلت يارسول الله أتنام قبل أن توتر فقال ياعائشة إن عيني تنامان ولا ينام قلبي » أخبرنا الإمام أبو على الحسين بن محمد القاضي أنا أبو نعيم عبدالملك بن الحسن الإسفرايني أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحاق أنا يونس بن هارون بن عبد الأعلى . أنا ابن وهب أخبرني يونس وابن أبي ذئب وعمرو بن الحارث أن ابن شهاب أخبرهم عن عروة بن الزبير « عن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي فيما بين أن يفرغ من صلاة العشاء إلى الفجر إحدى عشرة ركعة يسلم من كل ركعتين ويوتر بواحدة فيسجد السجدة قدر مايقرأ أحدكم خمسين آية قبل أن يرفع رأسه فاذا سكت المؤذن من أذان الفجر وتبين له الفجر قام فركع ركعتين خفيفتين ثم اضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المؤذن للإقامة فيخرج » وبعضهم يزيد على بعض أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا عبدالرحمن بن منيب أنا يزيد بن هارون أنا حميد الطويل عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال « ما كنا نشاء أن نرى (١٧٥) رسول الله صلى الله عليه وسلم في الليل مصليا إلا رأيناه ولا نشاء أن نراه نائما إلا رأيناه » وقال « كان يصوم من الشهر حتى نقول لا يفطر منه شيئا ويفطر حتى نقول لا يصوم منه شيئا» قوله عز وجل (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) عسى من الله تعالى واجب لأنه لا يدع أن يعطي عباده أو يفعل بهم ما أطمعهم فيه والمقام المحمود هو مقام الشفاعة لأمته لأنه يحمده فيه الأولون والآخرون أخبرنا عبد الواحد ابن أحمد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد ابن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني ثنا حميد بن زنجويه أنا عبدالله بن يزيد المقرى أنا حيوة عن كعب عن علقمة عن عبد الرحمن بن جبير عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول ثم صلوا على فانه من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا ثم سلوا الله لي الوسيلة فانها منزلة في الجنة لا ينبغي أن تكون إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة » أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا على بن عياش ثنا سعيد بن أبي حمزة عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة » أخبرنا أبو حامد أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا عبدالرحيم بن منيب أنا يعلى عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال

قبلهما ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم أوتر فذلك ثلاث عشرة ركعة لفظ أبي داود (ق) « عن أبي سلمة بن عبدالرحمن أنه سأل عائشة كيف كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان قالت ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على أكثر من إحدى عشرة ركعة يصلي أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي ثلاثا قالت عائشة فقلت يارسول الله أتنام قبل أن توتر فقال ياعائشة أن عيني تنامان ولا ينام قلبي » (ق) عنها قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي فيما بين أن يفرغ من صلاة العشاء إلى الفجر إحدى عشر ركعة يسلم بين كل ركعتين ويوتر بواحدة ويسجد سجدتين قدر ما يسجد ويقرأ أحدكم خمسين آية قبل أن يرفع رأسه فاذا سكت المؤذن من صلاة الفجر وتبين له الفجر قام فركع ركعتين خفيفتين ثم اضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المؤذن للإقامة (خ) عنها قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل افتتح صلاته بركعتين خفيفتين » عن عوف بن مالك الأشجعي قال قمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقام فقرأ سورة البقرة لايمر بآية رحمة إلا وقف وسأل ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ ثم ركع بقدر قيامه يقول في ركوعه سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة ثم سجد بقدر قيامه ثم قال في سجوده مثل ذلك ثم قام فقرأ بآل عمران ثم قرأ سورة النساء » أخرجه أبو داود والنسائي « عن عائشة قالت قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بآية من القرآن ليلة » أخرجه الترمذي (ق) عن الأسود قال « سألت عائشة كيف كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل قالت كان ينام أوله ويقوم آخره فيصلي ثم يرجع إلى فراشه فاذا أذن المؤذن وثب فان كانت به حاجة اغتسل وإلا توضأ وخرج » عن أنس قال « ما كنا نشاء أن نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الليل مصليا إلا رأيناه ولا نشاء أن نراه نائما إلا رأيناه » أخرجه النسائي « زاد في رواية غيره قال وكان يصوم من الشهر حتى نقول لا يفطر منه شيئا ويفطر حتى نقول لا يصوم منه شيئا » . وقوله عز وجل (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا)

رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لكل نبي دعوة مستجابة وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي وهي نائلة منكم إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئا» أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل قال وقال الحجاج بن منهال ثنا همام بن يحيى ثنا قتادة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «يحبس المؤمنون يوم القيامة حتى يهتموا بذلك فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا فيأتون آدم فيقولون أنت آدم أبو الناس خلقك الله بيده وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب أكله من الشجرة وقد نهي عنها ولكن ائتوا نوحا أول نبي بعثه الله إلى أهل الأرض فيأتون نوحا فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب سؤاله ربه بغير علم ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن قال فيأتون إبراهيم فيقول إني لست هناكم ويذكر كذبات كذبهن ولكن ائتوا موسى عبدا آتاه الله التوراة وكلمه وقربه نجيا قال فيأتون موسى فيقول إني لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب قتله النفس ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وروح الله وكلمته قال فيأتون عيسى فيقول لست هناكم ولكن ائتوا محمدا عبدا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال فيأتوني فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه فإذا رأيته وقعت ساجدا فيدعني ما شاء الله أن يدعني فيقول ارفع محمد وقل تسمع واشفع تشفع وسل تعطه قال فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لي حدا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ثم أعود الثانية فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه فإذا رأيته وقعت ساجدا فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقول ارفع محمد وقل تسمع واشفع تشفع وسل تعطه قال فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه ، ثم أشفع فيحد لي حدا فأخرج فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ثم أعود الثالثة فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه فإذا رأيته وقعت ساجدا فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقول ارفع محمد وقل تسمع واشفع تشفع وسل تعطه قال فأرفع رأسي فأثني

أجمع المفسرون على أن عسى من الله واجب وذلك لأن لفظة عسى تفيد الإطماع ومن أطمع إنسانا في شيء ثم أحرمه كان ذلك عارا عليه والله أكرم من أن يطمع أحدا ثم لا يعطيه ما أطمعه فيه والمقام المحمود هو مقام الشفاعة لأنه يحمده فيه الأولون والآخرون (ق) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أن لكل نبي دعوة مستجابة وإني أختبأت دعوتي شفاعة لأمتي فهي نائلة منكم إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئا» (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي فمن صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة» (م) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة» (ق) عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك وفي رواية فيلهمون لذلك فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا فيأتون آدم فيقولون أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول لست هناكم فيذكر خطيئته التي أصاب فيستحيي ربه منها ولكن ائتوا نوحا أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فيأتون نوحا فيقول لست هناكم فيذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها ولكن ائتوا إبراهيم الذي اتخذه الله خليلا فيأتون إبراهيم فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها ولكن ائتوا موسى الذي كلمه الله وأعطاه التوراة قال فيأتون موسى فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها ولكن ائتوا عيسى روح الله وكلمته فيأتون عيسى روح الله وكلمته فيقول لست هناكم ولكن ائتوا محمدا صلى الله عليه وسلم عبدا قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأتوني فأستأذن على ربي تعالى فيؤذن لي فإذا أنا رأيته وقعت ساجدا فيدعني ما شاء الله فيقال يا محمد ارفع رأسك قل تسمع سل تعطه اشفع تشفع فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ربي ثم أشفع فيحد لي حدا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة

على ربى بثناء وتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لى حدا فأخرج فأدخلهم الجنة قال قتادة وقد سمعته يقول فأخرج فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة حتى مايبقى فى النار إلا من قد حبسه القرآن أى وجب عليه الخلود ثم تلا هذه الآية عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا قال وهذا المقام المحمود الذى وعده نبيكم صلى الله عليه وسلم وبهذا الإسناد قال حدثنا محمد بن إسماعيل ثنا سليمان بن حرب ثنا حماد بن زيد ثنا معبد بن هلال العنزى قال ذهبنا إلى أنس بن مالك فذكر حديث الشفاعة بمعناه وقال فأستأذن على ربى فيؤذن لى ويلهمنى محامد أحمده بها لاتحضرنى الآن فأحمده بتلك المحامد وأخر له ساجدا . فيقال يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأقول يارب أمتى أمتى فيقال انطلق فأخرج من كان فى قلبه مثقال شعيرة من إيمان فأنطلق فأفعل ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا فذكر مثله وقال فيقال لى انطلق فأخرج من كان فى قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان قال فأنطلق فأفعل ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا فذكر مثله ثم يقال انطلق فأخرج من كان فى قلبه أدنى أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان فأنطلق فأفعل فلما خرجنا من عند أنس مررنا بالحسن فسلمنا عليه فحدثناه بالحديث إلى هذا الموضع فقال هيه فقلنا لم يزدنا على هذا فقال لقد حدثنى وهو يومئذ جميع منذ عشرين سنة كما حدثكم ثم قال ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا فيقال يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأقول يارب ائذن لى فيمن قال لا إله إلا الله فيقول وعزتى وجلالى وكبريائى وعظمتى لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله وروى عن عبد الله بن عمر قال إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم فيشفع ليقضى بين الخلق فيمشى حتى يأخذ بحلقة الباب فيومئذ يبعثه الله مقاما محمودا يحمده أهل الجمع كلهم وأخبرنا الإمام أبو على الحسين بن محمد القاضى

الجنة ثم أعود فأقع ساجدا فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى ثم يقال لى ارفع يا محمد رأسك قل تسمع وسل تعط واشفع تشفع فأرفع رأسى فأحمد ربى بتحميد يعلمنيه ربى ثم أشفع فيحد لى حدا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة قال فلا أدرى فى الثالثة أو فى الرابعة قال فأقول يارب مابقى فى النار إلا من حبسه القرآن أى من وجب عليه الخلود وفى رواية البخارى ثم تلا هذه الآية عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا قال وهذا المقام المحمود الذى وعده نبيكم صلى الله عليه وسلم زاد فى رواية فقال النبى صلى الله عليه وسلم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير مايزن شعيرة ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير مايزن برة ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير مايزن ذرة قال يزيد بن زريع فى حديث شعبة ذرة وفى رواية من إيمان مكان خير وفى حديث معبد بن هلال العنزى عن أنس فى حديث الشفاعة وذكر نحوه وفيه فأقول يارب أمتى أمتى فيقال انطلق فمن كان فى قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار فانطلق فافعل قال فلما خرجنا من عند أنس مررنا بالحسن فسلمنا عليه فحدثناه بالحديث إلى هذا الموضع فقال هيه فقلنا لم يزدنا على هذا فقال لقد حدثنى وهو يومئذ جميع منذ عشرين سنة كما حدثكم ثم قال ثم أعود فى الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا فيقال لى يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع فأقول يارب ائذن لى فيمن قال لا إله إلا الله قال ليس ذاك لك أو قال ليس ذاك إليك ولكن وعزتى وكبريائى وعظمتى وجبريائى لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله قوله وهو يومئذ جميع أى مجتمع الذهن والرأى عن أبى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدى لواء الحمد ولا فخر وما من نبى يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائى وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر قال فيفزع الناس ثلاث فزعات فيأتون آدم فيقولون أنت أبونا اشفع لنا إلى ربك فيقول إنى أذنبت ذنبا عظيما فأهبطت به إلى الأرض ولكن ائتوا نوحا فيأتون نوحا فيقول إنى دعوت على أهل الأرض دعوة فأهلكوا ولكن اذهبوا إلى إبراهيم فيأتون إبراهيم فيقول إنى كذبت ثلاث كذبات ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامنها كذبة إلا ماحل بها عن دين الله ولكن ائتوا موسى فيأتون موسى فيقول قد قتلت نفسا ولكن ائتوا عيسى فيأتون عيسى فيقول إنى عبدت من دون الله ولكن ائتوا محمدا فيأتونى فأنطلق معهم قال ابن جدعان قال أنس فكأنى أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها فيقال من هذا فيقال محمد فيفتحون لى ويقولون مرحبا فأخر ساجدا فيلهمنى الله من الثناء والحمد فيقال

أنا أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد بن ماهوية ثنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان ثنا محمد بن حنوية ثنا سعيد بن سليمان ثنا منصور بن أبي الأسود ثنا الليث عن الربيع بن أنس عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا أولهم خروجا إذا بعثوا وأنا قائدهم إذا وفدوا وأنا خطيبهم إذا أنصتوا وأنا شفيعهم إذا حبسوا وأنا مبشرهم إذا أيسوا الكرامة والمفاتيح يومئذ بيدي ولواء الحمد يومئذ بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي يطوف على ألف خادم كأنهم لؤلؤ بيض مكنون ﴿(١٧٨)﴾ أو لؤلؤ منثور » أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد ابن عيسى الجلودى ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج حدثني الحكم ابن موسى ثنا معقل يعني ابن زياد عن الأوزاعي حدثني أبو عمار حدثني عبد الله ابن فروخ حدثني أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع » والأخبار في الشفاعة متواترة كثيرة وأول من أنكرها عمرو بن عبيد وهو مبتدع باتفاق أهل السنة وروى عن يزيد بن صهيب الفقيه قال كنت قد شغفني رأي من رأي الخوارج وكنت رجلا شابا فخرجنا في عصابة نريد الحج فمررنا على المدينة فاذا جابر بن عبد الله يحدث القوم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر حديث الجهنميين فقلت له يا صاحب رسول الله ماهذا الذي يحدثون والله عز وجل يقول إنك من تدخل النار فقد من أخزيته وكلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها فقال لي يافتى أتقرأ القرآن قلت نعم قال هل سمعت بمقام محمد المحمود الذي يبعثه الله فيه قلت نعم قال فانه مقام محمد المحمود الذي يخرج الله به من يخرج من النار ثم نعت وضع الصراط ومر الناس عليه وإن قوما يخرجون من النار بعد مايكونون فيها قال فرجعنا وقلنا أترون هذا الشيخ يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى عن أبي وائل عن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الله عز وجل اتخذ إبراهيم خليلا وإن صاحبكم خليل الله وأكرم الخلق على الله ثم قرأ عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » وعن مجاهد في قوله تعالى عسى أن

لي ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع وقل يسمع لقولك وهو المقام المحمود الذي قال الله سبحانه وتعالى عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا قال سفيان ليس عن أنس غير هذه الكلمة فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها فيقال من هذا فيقال محمد فيفتحون لي ويرحبون بي فيقولون مرحبا فأخر ساجدا فيلهمني الله من الثناء والحمد » أخرجه الترمذي قوله ماحل المماحلة المخاصمة والمجادلة والمعنى أنه عليه الصلاة والسلام خاصم وجادل عن دين الله بتلك الألفاظ التي صدرت منه وقوله فاقعقعها أي أحركها حركة شديدة والقعقعة حكاية أصوات الترس وغيره مما له صوت عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا أيسوا ولواء الحمد يومئذ بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر » أخرجه الترمذي زاد في رواية غير الترمذي وأنا مستشفعهم إذا حبسوا الكرامة والمفاتيح يومئذ بيدي يطوف على خدم كأنهم بيض مكنون أو لؤلؤ منثور » (م) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من تنشق عنه الأرض وأول شافع وأول مشفع » زاد الترمذي قال « أنا أول من تنشق عنه الأرض فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش فليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري » عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام فيشفع ليقضى بين الخلائق فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب فيومئذ يبعثه الله مقاما محمودا يحمده فيه أهل الجمع كلهم (م) عن يزيد بن صهيب قال كنت قد شغفني رأي من رأي الخوارج فخرجنا في عصابة ذوي عدد نريد أن نحج ثم نخرج على الناس قال فمررنا على المدينة فاذا جابر بن عبد الله جالس إلى سارية يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا هو قد ذكر الجهنميين فقلت يا صاحب رسول الله ماهذا الذي تحدثوننا والله يقول إنك من تدخل النار فقد أخزيته وكلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها فما هذا الذي تقولون قال أتقرأ القرآن قلت نعم قال فاقرأ ماقبله إنه في الكفار ثم قال فهل سمعت بمقام محمد الذي يبعثه الله فيه قلت نعم قال فان مقام محمد صلى الله عليه وسلم المحمود الذي يخرج الله به من يخرج من النار قال ثم نعت وضع الصراط ومر الناس عليه قال وأخاف أن لا أكون أحفظ ذاك قال غيره أنه قد زعم أن قوما يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها قال يعني فيخرجون كأنهم عيدان السماسم قال فيدخلون نهرا

يبعثك ربك مقاما محمودا قال يجلسه على العرش وعن عبد الله بن سلام قال يقعده على الكرسي قوله عز وجل (وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق) المراد من المدخل والمخرج الإدخال والإخراج واختلف أهل التفسير فيه فقال ابن عباس والحسن وقتادة أدخلني مدخل صدق المدينة وأخرجني مخرج صدق من مكة نزلت حين أمر النبي ﷺ بالهجرة وقال الضحاك وأخرجني مخرج صدق من مكة آمنا من المشركين وأدخلني مدخل صدق مكة ظاهرا عليها بالفتح وقال مجاهد أدخلني في أمرك الذي أرسلتني به من النبوة مدخل صدق وأخرجني من الدنيا وقد قمت بما وجب على من حقها مخرج صدق وعن الحسن أنه قال أدخلني مدخل صدق الجنة وأخرجني (١٧٩) مخرج صدق من مكة . وقيل أدخلني في طاعتك وأخرجني من المناهي وقيل معناه أدخلني حيث ما أدخلتني بالصدق وأخرجني بالصدق أي لا تجعلني ممن يدخل بوجه ويخرج بوجه فان ذا الوجهين لا يكون أمينا ووجيها عند الله ووصف الإدخال والإخراج بالصدق لما يئول إليه الخروج والدخول من النصر والعز ودولة الدين كما وصف القدم بالصدق فقال إن لهم قدم صدق عند ربهم (واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا) قال مجاهد حجة بينة وقال الحسن ملكا قويا تنصرني به على من ناوأني وعزا ظاهرا أقيم به دينك فوعد الله لينزعن ملك فارس والروم وغيرهما فيجعله له قال قتادة علم نبي الله صلى الله عليه وسلم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان نصير فسأل سلطانا نصيرا لكتاب الله وحدوده وإقامة دينه قوله عز وجل (وقل جاء الحق) يعني القرآن (وزهق الباطل) أي ذهب الشيطان قاله قتادة وقال السدي الحق الإسلام والباطل الشرك وقيل الحق عبادة الله والباطل عبادة الأصنام (إن الباطل كان زهوقا) ذاهبا يقال زهقت نفسه أي خرجت أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي ثنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا صدقة بن الفضل ثنا ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر عن عبد الله قال دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة صنم فجعل يطعنها بعود في يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد » قوله عز وجل (وننزل من القرآن ما هو شفاء

من أنهار الجنة فيغتسلون فيه فيخرجون منه كأنهم القراطيس فرجعنا فقلنا ويحكم أترون هذا الشيخ يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجعنا فلا والله ما خرج غير رجل واحد أو كما قال والأحاديث في الشفاعة كثيرة وأول من أنكرها عمرو بن عبيد وهو مبتدع باتفاق أهل السنة وروى أبو وائل «عن ابن مسعود أنه قال إن الله اتخذ إبراهيم خليلا وإن صاحبكم خليل الله وأكرم الخلق عليه، ثم قرأ عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا قال يقعده على العرش» وعن مجاهد مثله وعن عبد الله بن سلام قال يقعد على الكرسي . قوله عز وجل (وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق) المراد منهما الإدخال والإخراج قال ابن عباس معناه أدخلني مدخل صدق المدينة وأخرجني مخرج صدق من مكة نزلت حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة وقيل معناه أخرجني من مكة آمنا من المشركين وأدخلني مكة ظاهرا عليها بالفتح وقيل أدخلني في أمرك الذي أرسلتني به من النبوة مدخل صدق وأخرجني من الدنيا وقد قمت بما وجب علي من حق النبوة مخرج صدق وقيل معناه أدخلني في طاعتك مدخل صدق وأخرجني من المناهي مخرج صدق وقيل معناه أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق وأخرجني بالصدق ولا تجعلني ممن يخرج بوجه ويدخل بوجه فان ذا الوجهين لا يكون آمنا عند الله (واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا) أي حجة بينة وقيل ملكا قويا تنصرني به على من عاداني وعزا ظاهرا أقيم به دينك فوعده الله لينزعن ملك فارس والروم وغيرهما ويجعله له وأجاب دعاءه فقال له والله يعصمك من الناس وقال ليظهره على الدين كله وقال وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض الآية. قوله تعالى (وقل جاء الحق) يعني الإسلام والقرآن (وزهق الباطل) أي الشرك والشيطان (إن الباطل كان زهوقا) أي مضمحلا غير ثابت وذلك أن الباطل وإن كان له دولة وصولة في وقت من الأوقات فهو سريع الذهاب والزوال (ق) «عن عبد الله بن مسعود قال دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وكان حول البيت ثلثمائة وستون صنما فجعل يطعنها بعود في يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ـ جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد ـ قوله تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء)

ورحمة للمؤمنين) قيل من ليس للتبعيض ومعناه ونتزل من القرآن ما هو كله شفاء أى بيان من الضلالة والجهالة يتبين به المختلف ، ويتضح به المشكل ويستشفى به من الشبهة ويهتدى به من الحيرة وهو شفاء القلوب بزوال الجهل عنها ورحمة للمؤمنين (ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) لأن الظالم لا ينتفع به والمؤمن ينتفع به فيكون رحمة له وقيل زيادة الخسارة للظالم من حيث أن كل آية تنزل **(١٨٠)** يتجدد منهم تكذيب ويزداد لهم خسارة قال قتادة لم يجالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان قضى الله الذى قضى شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا قوله تعالى (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض) عن ذكرنا ودعائنا (ونأى بجانبه) أى تباعد منا بنفسه أى ترك التقرب إلى الله بالدعاء وقال عطاء تعظم وتكبر ويكسر النون والهمزة حمزة والكسائى ويفتح النون ويكسر الهمزة أبو بكر وقرأ أبو عامر وأبو جعفر وناء مثل جاء قيل هو بمعنى نأى وقيل ناء من النوء وهو النهوض والقيام (وإذا مسه الشر) الشدة والضر (كان يئوسا) أى آيسا قنوطا وقيل معناه أنه يتضرع ويدعو عند الضر والشدة فاذا تأخرت الإجابة يئس ولا ينبغى للمؤمن أن ييأس من الإجابة وإن تأخرت فيدع الدعاء قوله عز وجل (قل كل يعمل على شاكلته) قال ابن عباس على ناحيته قال الحسن وقتادة على نيته وقال مقاتل على خليقته قال الفراء على طريقته التى جبل عليها وقال القتيبى على طبيعته وجبلته وقيل على السبيل الذى اختاره لنفسه وهو من الشكل يقال لست على شكلى ولا شاكلتى وكلها لغات متقاربة تقول العرب طريق ذو شواكل إذا تشعبت منه الطرق ومجاز الآية كل يعمل على ما يشبهه كما يقال فى المثل كل امرئ يشبهه فعله (فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) أوضح طريقا قوله تعالى : (ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) الآية أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى

من فى قوله تعالى من القرآن لبيان الجنس والمعنى ننزل من هذا الجنس الذى هو القرآن ما هو شفاء أى بيان من الضلالة والجهالة يتبين به المختلف فيه ويتضح به المشكل ويستشفى به من الشبهة ويهتدى به من الحيرة وهو شفاء القلوب بزوال الجهل عنها وقيل هو شفاء للأمراض الباطنة والظاهرة وذلك لأنها تنقسم إلى نوعين(١) أحدهما الاعتقادات الباطلة والثانى الأخلاق المذمومة أما الاعتقادات الباطلة فأشدها فسادا الاعتقادات الفاسدة فى الذات والصفات والنبوات والقضاء والقدر والبعث بعد الموت فالقرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق فى هذه الأشياء وأبطال المذاهب الفاسدة لا جرم كان القرآن شفاء لما فى القلوب من هذا النوع وأما النوع الثانى وهو الأخلاق المذمومة فالقرآن مشتمل على التنفير منها والإرشاد إلى الأخلاق المحمودة والأعمال الفاضلة فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الباطنة وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيرا من الأمراض يدل عليه ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى فاتحة الكتاب وما يدريك أنها رقية (ورحمة للمؤمنين) لما كان القرآن شفاء للأمراض الباطنة والظاهرة فهو جدير بأن يكون رحمة للمؤمنين (ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) لأن الظالم لا ينتفع به والمؤمن ينتفع به فكان رحمة للمؤمنين وخسارا للظالمين وقيل لأن كل آية تنزل يتجدد لهم تكذيب بها فيزداد خسارهم قال قتادة لم يجالس القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان قضاه الله الذى قضى شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا . قوله سبحانه وتعالى (وإذا أنعمنا على الإنسان) أى بالصحة والسعة (أعرض) أى عن ذكرنا ودعائنا (ونأى بجانبه) أى تباعد منا بنفسه وترك التقرب إلينا بالدعاء وقيل معناه تكبر وتعظم (وإذا مسه الشر) أى الشدة والضر (كان يئوسا) أى أيسا قنوطا وقيل معناه إنه يتضرع ويدعو عند الضر والشدة فاذا تأخرت الإجابة يئس فلا ينبغى للمؤمن أن يدع الدعاء ولو تأخرت الإجابة . قوله عز وجل (قل كل) أى كل أحد (يعمل على شاكلته) قال ابن عباس على ناحيته وقيل الشاكلة الطريقة أى على طريقته التى جبل عليها وفيه وجه آخر وهو أن كل إنسان يعمل على حسب جوهر نفسه فان كانت نفسه شريفة طاهرة صدرت عنه أفعال جميلة وأخلاق زكية طاهرة وإن كانت نفسه كدرة خبيثة صدرت عنه أفعال خبيثة فاسدة رديئة (فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) أى أوضح طريقا وأحسن مذهبا واتباعا للحق . قوله سبحانه وتعالى (ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) (ق) عن عبد الله بن مسعود

(١) قوله لأنها تنقسم إلى نوعين أى الأمراض الغير الجسمانية بدليل قوله بعد وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية والعبارة فى الفخر الرازى بغاية التهذيب فليراجع

انا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا قيس بن حفص ثنا عبد الواحد يعنى ابن زياد ثنا الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال بينا أنا أمشى مع النبى صلى الله عليه وسلم فى حرث المدينة وهو يتوكأ على عسيب معه فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح وقال بعضهم لاتسألوه لايجيء فيه بشيء تكرهونه فقال بعضهم لنسألنه فقام رجل منهم فقال ياأبا القاسم ماالروح فسكت فقلت إنه يوحى إليه فقمت فلما انجلى عنه وقال «ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» وفى رواية «وما أوتوا من العلم إلا قليلا» قال الأعمش هكذا فى قراءتنا وروى عن ابن عباس أنه قال إن قريشا قد اجتمعوا وقالوا إن محمدا نشأ فينا بالأمانة والصدق وما اتهمناه بكذب وقد ادعى ماادعى فابعثوا نفرا إلى اليهود بالمدينة واسألوهم عنه فانهم أهل كتاب فبعثوا جماعة إليهم فقالت اليهود سلوه عن ثلاثة أشياء فان أجاب عن كلها أو لم يجب عن شيء منها فليس بنبي وإن أجاب عن اثنين ولم يجب عن واحدة فهو نبي فسلوه عن فتية فقدوا فى الزمن الأول ماكان من أمرهم فانه كان لهم حديث عجيب **(١٨١)** وعن رجل بلغ شرق الأرض وغربها ما خبره وعن الروح فسألوه فقال النبى صلى الله عليه وسلم أخبركم بماسألتم غدا ولم يقل إن شاء الله فابث الوحى قال مجاهد إثنتى عشرة ليلة وقيل خمسة عشر يوما وقال عكرمة أربعين يوما وأهل مكة يقولون وعدنا محمد غدا وقد أصبحنا لايخبرنا بشيء حتى حزن النبى صلى الله عليه وسلم من مكث الوحى وشق عليه مايقوله أهل مكة ثم نزل جبريل بقوله «ولا تقولن لشيء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله» ونزل فى الفتية «ام حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا» ونزل فيمن بلغ الشرق والغرب «ويسئلونك عن ذى القرنين» ونزل فى الروح «ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى» واختلفوا فى الروح الذى وقع السؤال عنه فروى عن ابن عباس أنه جبريل وهو قول الحسن وقتادة وروى عن على أنه قال ملك له سبعون ألف وجه لكل وجه سبعون ألف لسان يسبح الله تعالى بكلها وقال مجاهد خلق على صور بنى آدم لهم أيد وأرجل ورءوس وليسوا بملائكة ولا ناس يأكلون الطعام وقال سعيد بن جبير لم يخلق الله تعالى خلقا أعظم من الروح غير العرش لو شاء أن يبتلع السموات السبع والأرضين السبع ومن فيهما بلقمة واحدة لفعل صورة خلقه على صورة خلق الملائكة وصورة وجهه على صورة الآدميين يقوم يوم القيامة عن يمين العرش وهو أقرب الخلق إلى الله عز وجل اليوم عند الحجب السبعين وأقرب إلى الله يوم القيامة وهو ممن يشفع لأهل التوحيد ولولا أن بينه وبين الملائكة سترا من نور لاحترق أهل السموات من نوره وقيل الروح هو القرآن وقيل المراد منه عيسى عليه السلام فانه روح الله وكلمته ومعناه أنه ليس كما يقوله اليهود ولا كما يقوله النصارى وقال قوم هو الروح

قال بينما أنا أمشى مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو يتوكأ على عسيب معه فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح وقال بعضهم لاتسألوه يسمعكم ماتكرهون فقاموا إليه وفى رواية فقام إليه رجل منهم فقال ياأبا القاسم ما الروح فسكت وفى رواية فقالوا حدثنا عن الروح فقام ساعة ينتظر الوحى وعرفت أنه يوحى إليه فتأخرت حتى صعد الوحى قال ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وماأوتيتم من العلم إلا قليلا فقال بعضهم لبعض قد قلنا لكم لاتسألوه وفى رواية وما أوتوا من العلم إلا قليلا قال الأعمش هكذا فى قراءتنا العسيب جريد النخل وسعفه وقال ابن عباس أن قريشا اجتمعوا وقالوا إن محمدا نشأ فينا بالأمانة والصدق وما اتهمناه بكذب قط وقد ادعى ما ادعى فابعثوا نفرا إلى اليهود بالمدينة واسألوهم عنه فانهم أهل كتاب فبعثوا جماعة إليهم فقالت اليهود سلوه عن ثلاثة أشياء فان أجاب عن كلها أو لم يجب عن شيء منها فليس بنبي وإن أجاب عن اثنين ولم يجب عن واحدة فهو نبي فسألوه عن فتية فقدوا فى الزمن الأول ما كان شأنهم فانه كان لهم حديث عجيب وعن رجل بلغ مشرق الأرض ومغربها ماخبره وعن الروح قال فسألوا النبى صلى الله عليه وسلم فقال أخبركم بماسألتم غدا ولم يقل إن شاء الله فابث الوحى قال مجاهد اثنى عشر يوما وقيل خمسة عشر يوما وقيل أربعين يوما وأهل مكة يقولون قد وعدنا محمد غدا وقد أصبحنا لايخبرنا بشيء حتى حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكث الوحى وشق عليه مايقوله أهل مكة ثم نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى «ولا تقولن لشيء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله» ونزل فى الفتية «أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا» ونزل فيمن بلغ المشرق والمغرب قوله «ويسئلونك عن ذى القرنين» ونزل فى الروح «ويسئلونك عن الروح قل الروح

المركب فى الخلق الذى يحيى به الإنسان وهو الأصح وتكلم فيه قوم فقال بعضهم هو الدم ألاترى أن الحيوان إذا مات لايفوت
منه شىء إلا الدم وقال قوم هو نفس ن (١٨٢) الحيوان بدليل أنه يموت باحتباس النفس وقال قوم هو عرض وقال
قوم هو جسم لطيف
وقال بعضهم الروح
معنى اجتمع فيه النور
والطيب والعلو والعلم
والبقاء ألا ترى أنه إذا
كان موجودا يكون
الإنسان موصوفا بجميع
هذه الصفات فاذا خرج
ذهب الكل وأولى
الأقاويل أن يوكل علمه
إلى الله عز وجل وهو
قول أهل السنة قال
عبدالله بن بريدة أن الله
لم يطلع على الروح ملكا
مقربا ولا نبيا مرسلا
وقوله عز وجل قل
الروح من أمر ربى قيل
من علم ربى (وما أوتيتم
من العلم إلا قليلا) أى
فى جنب علم الله قيل هذا
خطاب للرسول صلى
الله عليه وسلم وقيل
خطاب لليهود لأنهم
كانوا يقولون أوتينا
التوراة وفيها العلم الكثير
وقيل كان النبى صلى الله
عليه وسلم يعلم معنى الروح
ولكن لم يخبر به أحدا
لأن ترك أخباره به كان
علما لنبوته والأول أصح
لأن الله عز وجل استأثر
بعلمه قوله تعالى (ولئن
شئنا لنذهبن بالذى أوحينا
إليك) يعنى القرآن
معناه إنا كما منعنا علم الروح عنك وعن غيرك لو شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك يعنى القرآن ثم لاتجد لك به علينا وعن
وكيلا) أى من يتوكل برد القرآن إليك (إلارحمة من ربك) هذا استثناء منقطع معناه ولكن لا نشاء ذلك رحمة من ربك

من أمر ربى واختلفوا فى الذى وقع السؤال عنه فروى عن ابن عباس أنه جبريل وعن على أنه
ملك له سبعون ألف وجه فى كل وجه سبعون ألف لسان لكل لسان سبعون ألف لغة يسبح الله
تعالى بكلها وقال مجاهد خلق على صورة بنى آدم لهم أيد وأرجل ورءوس ليسوا بملائكة
ولا ناس يأكلون الطعام وقال سعيد بن جبير لم يخلق الله خلقا أعظم من الروح غير العرش
لو شاء أن يبتلع السموات والأرض ومن فيها بلقمة واحدة لفعل ذلك صورة خلقه على
صورة الملائكة وصورة وجهه على صورة وجه الآدميين يقوم يوم القيامة على يمين العرش وهو
أقرب الخلق إلى الله تعالى اليوم عند الحجب السبعين وأقرب الخلق إلى الله يوم القيامة وهو
ممن يشفع لأهل التوحيد ولولا أن بينه وبين الملائكة سترا من نور لاحترق أهل السموات
من نوره وقيل الروح هو القرآن لأن الله سماه روحا ولأن به حياة القلوب وقيل هو الروح
المركب فى الخلق الذى به يحيى الإنسان وهو أصح الأقوال وتكلم قوم فى ماهية الروح فقال
بعضهم هو الدم ألا ترى أن الإنسان إذا مات لايفوت منه شىء إلا الدم وقال قوم هو نفس
الحيوان بدليل أنه يموت باحتباس النفس وقال قوم هو عرض وقال قوم هو جسم لطيف
يحيا به الإنسان وقيل الروح معنى اجتمع فيه النور والطيب والعلم والعلو والبقاء ألا ترى أنه
إذا كان موجودا يكون الإنسان موصوفا بجميع هذه الصفات إذا خرج منه ذهب الكل
وأقاويل الحكماء والصوفية فى ماهية الروح كثيرة وليس هذا موضع استقصائها وأولى الأقاويل
أن يوكل علمه إلى الله عز وجل وهو قول أهل السنة قال عبد الله بن بريدة إن الله لم يطلع على
الروح ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا بدليل قوله قل الروح من أمر ربى أى من علم ربى الذى استأثر
به (وما أوتيتم من العلم) من علم ربى (إلا قليلا) أى فى جنب علم الله عز وجل الخطاب عام وقيل
هو خطاب لليهود فإنهم كانوا يقولون أوتينا التوراة وفيها العلم الكثير فقيل لهم أن علم
التوراة قليل فى جنب علم الله وقيل إن القلة والكثرة تدوران مع الإضافة فوصف الشىء
بالقلة مضافا إلى مافوقه وبالكثرة مضافا إلى ماتحته وقيل إن النبى صلى الله عليه وسلم علم
معنى الروح ولكن لم يخبر به لأن ترك الإخبار به كان علما لنبوته والقول الأصح هو أن الله
عز وجل استأثر بعلم الروح . قوله عز وجل (ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك) ومعناه
أنا كما منعنا علم الروح عنك وعن غيرك إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه من الصدور والمصاحف
فلم نترك له أثرا وبقيت كما كنت ماتدرى ماالكتاب (ثم لاتجد لك به علينا وكيلا) معناه
لا تجد بعد الذهاب به من يتوكل علينا باسترداده عليك وإعادته محفوظا مستورا (إلا رحمة
من ربك) معناه إلا أن يرحمك ربك فيرده عليك وقيل هو على الاستثناء المنقطع معناه
لكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظا
فإن قلت كيف يذهب بالقرآن وهو كلام الله عز وجل . قلت المراد منه محو مافى المصاحف
وإذهاب مافى الصدور وقال عبد الله بن مسعود اقرءوا القرآن قبل أن يرفع فإنه لاتقوم الساعة
حتى يرفع قيل هذه المصاحف ترفع فكيف بما فى صدور الناس قال يسرى عليه ليلا فيرفع
مافى صدورهم فيصبحون لايحفظون شيئا ولا يجدون مما فى المصاحف شيئا ثم يفيضون فى الشعر

(إن فضله كان عليك كبيرا) فان قيل كيف يذهب القرآن وهو كلام الله عز وجل قيل المراد منه محوه من المصاحف وإذهاب مافى الصدور وقال عبد الله بن مسعود «اقرءوا القرآن قبل أن يرفع فانه لاتقوم الساعة حتى يرفع» قيل هذه المصاحف ترفع فكيف بما فى صدور الناس قال يسرى عليه ليلا فيرفع مافى صدورهم فيصبحون لايحفظون شيئا ولا يجدون فى المصاحف شيئا ثم يفيضون فى الشعر وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال «لاتقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل له دوى حول العرش كدوى النحل فيقول الرب مالك وهو أعلم فيقول يارب أتلى ولا يعمل بى» قوله جل وعلا (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله) لايقدرون على ذلك (ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) عونا ومظاهرا نزلت

(١٨٣)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال «لاتقوم الساعة حتى يرفع القرآن من حيث نزل له دوى حول العرش كدوى النحل فيقول الرب مالك فيقول يارب أتلى ولايعمل بى» (إن فضله كان عليك كبيرا) أى بسبب بقاء العلم والقرآن عليك وجعلك سيد ولد آدم وختم النبيين بك وإعطائك المقام المحمود. قوله سبحانه وتعالى (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله) أى لايقدرون على ذلك (ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) أى عونا نزلت حين قال المشركون لو نشاء لقلنا مثل هذا فكذبهم الله عز وجل فالقرآن معجز فى النظم والتأليف والإخبار عن الغيوب وهو كلام فى أعلى طبقات البلاغة لايشبه كلام الخلق لأنه كلام الخالق وهو غير مخلوق ولو كان مخلوقا لأتوا بمثله. قوله عز وجل (ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) أى رددنا وكررنا من كل معنى هو كالمثل فى غرابته وحسنه وقيل معناه من كل وجه من العبر والأحكام والوعد والوعيد والقصص وغيرها (فأبى أكثر الناس إلا كفورا) أى جحودا. قوله سبحانه وتعالى (وقالوا لن نؤمن لك) أى لن نصدقك (حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) لما تبين إعجاز القرآن وانضمت إليه معجزات أخر وبينات ولزمتهم الحجة وغلبوا أخذوا يتعللون باقتراح الآيات فقالوا لن نؤمن لك روى عكرمة عن ابن عباس أن عتبة وشيبة ابنى ربيعة وأبا سفيان بن حرب والنضر بن الحرث وأبا البخترى ابن هشام والأسود بن عبد المطلب وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمية وأمية بن خلف والعاص بن وائل ونبيها ومنبها ابنى الحجاج اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا وهو يظن أنه بدا لهم فى أمره بدء وكان حريصا يحب رشدهم حتى جلس إليهم فقالوا يامحمد إنا بعثنا إليك لنعذر فيك وإنا والله لانعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ماأدخلت على قومك لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الأحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة وما بقى من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك فان كنت جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جعلنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وإن كنت تريد الشرف

حين قال الكفار لو نشاء لقلنا مثل هذا فكذبهم الله تعالى فالقرآن معجز فى النظم والتأليف والإخبار عن الغيوب وهو كلام فى أعلى طبقات المبالغة لايشبه كلام الخلق لأنه غير مخلوق ولو كان مخلوقا لأتوا بمثله قوله عز وجل (ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) من كل وجه من العبر والأحكام والوعد والوعيد وغيرها (فأبى أكثر الناس إلا كفورا) جحودا (وقالوا لن نؤمن لك) لن نصدقك (حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) قرأ أهل الكوفة ويعقوب تفجر بفتح التاء وضم الجيم مخففا لأن الينبوع واحد وقرأ الباقون بالتشديد من التفجير واتفقوا على تشديد قوله فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا لأن الأنهار جمع والتشديد يدل على التكثير ولقوله تفجيرا من بعد وروى عكرمة عن ابن عباس أن عتبة وشيبة ابنى ربيعة وأبا سفيان بن حرب والنضر ابن الحارث وأبا البخترى بن هشام والأسود بن عبد المطلب وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبدالله بن أبى أمية وأمية بن خلف والعاص بن وائل ونبيها ومنبها ابنى الحجاج اجتمعوا ومن اجتمع معهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا وهو يظن أنه بدأ لهم فى أمره بدء وكان عليهم حريصا يحب رشدهم حتى جلس إليهم فقالوا يامحمد إنا بعثنا إليك لنعذر فيك وإنا والله لانعلم رجلا من العرب أدخل على قومه

ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الأحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة فما بقى أمر قبيح إلا وقت جئته فيما بينك وبيننا فان كنت جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جعلنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وإن كنت تطلب الشرف سودناك علينا وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا وإن كان هذا الأمر الذى بك رئى تراه حتى قد غلب عليك لاتستطيع رده بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك وكانوا يسمون التابع من الجن الرئى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مابى ماتقولون ماجئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم ولا الشرف عليكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل

على كتابا وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم فان تقبلوا منى فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وأن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم فقالوا يامحمد إن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد أضيق منا بلادا ولا أشد منا عيشا فسل لنا ربك الذى بعثك فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا ويبسط لنا بلادنا ويفجر فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن منهم قصى بن كلاب فانه كان شيخا صدوقا فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل فان صدقوك صدقناك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مابهذا بعثت فقد بلغتكم ماأرسلت به فان تقبلوه منى فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وإن تردوه أصبر لأمر الله قالوا فان لم تفعل هذا فسل ربك أن يبعث لنا ملكا يصدقك وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك فانك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه فقالوا مابعثت بهذا ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا قالوا فأسقط السماء كما زعمت أن ربك لو شاء فعل فقال ذلك إلى الله إن شاء فعل ذلك بكم فعله وقال قائل منهم لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا فلما قالوا ذلك قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام معه عبد الله بن أبى أمية وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب فقال يامحمد عرض عليك قومك ماعرضوا عليك فلم تقبله منهم ثم سألوك لأنفسهم أمورا يعرفون بها منزلتك من الله تعالى فلم تفعل ثم سألوك أن تعجل ما تخوفهم به من العذاب لم تفعل فوالله لاأؤمن لك

سودناك علينا وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا وإن كان هذا الذى بك رئى تراه قد غلب عليك لاتستطيع رده بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب حتى نبرئك منه ونعذر فيك وكانوا يسمون التابع من الجن الرئى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مابى ماتقولون ماجئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم ولا للشرف عليكم ولا للملك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل على كتابا وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم فان تقبلوا منى فهو حظكم من الدنيا والآخرة وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم فقالوا يامحمد إن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد أضيق بلادا ولا أشد عيشا منا فسل لنا ربك الذى بعثك فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا ويبسط لنا بلادنا ويفجر لنا فيها الأنهار كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن منهم قصى بن كلاب فانه كان شيخا صدوقا فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل فان صدقوك صدقناك فقال رسول الله ﷺ ما بهذا بعثت فقد بلغتكم ماأرسلت به فان تقبلوه فهو حظكم وإن تردوه أصبر لأمر الله تعالى قالوا فان لم تفعل هذا فسل لنا ربك أن يبعث ملكا يصدقك وسله أن يجعل لك جنات وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يعينك بها على ماتريد فانك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه فقال مابعثت بهذا ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا قالوا فأسقط السماء كما زعمت إن ربك إن شاء فعل فقال ذلك إلى الله إن شاء فعل ذلك بكم وقال قائل منهم لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا فلما قالوا ذلك قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام معه عبد الله بن أبى أمية وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب فقال يامحمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ثم سألوك لأنفسهم أمورا يعرفون بها منزلتك من الله فلم تفعل ثم سألوك أن تعجل ماتخوفهم به من العذاب فلم تفعل فوالله ماأومن لك أبدا حتى تتخذ إلى السماء مرقى ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها فتأتى بنسخة منشورة معك ونفر من الملائكة يشهدون لك بما تقول وأيم الله لو فعلت ذلك لظننت أن لاأصدقك فانصرف رسول ﷺ إلى أهله حزينا لما رأى من مباعدتهم فأنزل الله تعالى : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض » يعنى أرض مكة « ينبوعا » أى عيونا

أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلما ترقى فيها وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتى بنسخة منشورة معك ونفر من الملائكة يشهدون لك بما تقول وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أن لا أصدقك ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله حزينا لما رأى من مباعدتهم فأنزل الله تعالى وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض يعنى أرض مكة ينبوعا أى عيونا (أو تكون لك جنة) بستان (من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا) تشقيقا (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) قرأ نافع وابن عامر وعاصم بفتح السين أى قطعا وهى جمع كسفة وهى القطعة والجانب مثل كسرة وكسر وقرأ الآخرون بسكون السين على التوحيد وجمعه أكساف وكسوف أى تسقطها طبقا واحدا وقيل أراد جانبا علينا وقيل معناه أيضا القطع وهى جمع التكسير مثل سدرة وسدر وفى الشعراء وسبأ كسفا بالفتح حفص وفى الروم ساكنة أبو جعفر وابن عامر (أو تأتى بالله والملائكة قبيلا) قال ابن عباس كفيلا أى يكفلون بما تقول وقال الضحاك (١٨٥) ضامنا وقال مجاهد هو جمع القبيلة أى بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة وقال قتادة عيانا أى نراهم مقابلة أى معاينة وقال الفراء هو من قول العرب لقيت فلانا قبيلا وقبيلا أى معاينة (أو يكون لك بيت من زخرف) أى من ذهب وأصله الزينة (أو ترقى) تصعد (فى السماء) هذا قول عبد الله بن أبى أمية (ولن نؤمن لرقيك) لصعودك (حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه) أمرنا فيه باتباعك (قل سبحان ربى) وقرأ ابن كثير وابن عامر قال يعنى محمدا وقرأ الآخرون على الأمر أى قل يا محمد (هل كنت الا بشرا رسولا) أمره بتنزيهه وتمجيده على معنى أنه لو أراد أن ينزل ما طلبوا لفعل ولكن الله لا ينزل الآيات على ما يقترحه البشر وما أنا إلا بشر وليس ما سألتم فى طوق البشر واعلم أن الله تعالى قد أعطى النبى صلى الله عليه وسلم من الآيات والمعجزات ما يغنى عن هذا كله مثل القرآن وانشقاق القمر وتفجير العيون من بين الأصابع وما أشبهها والقوم عامتهم كانوا متعنتين لم يكن قصدهم طلب الدليل ليؤمنوا فرد الله عليهم سؤالهم قوله عز وجل (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا) جهلا منهم (أبعث الله بشرا رسولا) أراد أن الكفار كانوا يقولون لن نؤمن لك لأنك بشر وهلا بعث الله إلينا ملكا فأجابهم الله تعالى (قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين) مستوطنين مقيمين (لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) من جنسهم لأن القلب إلى الجنس أميل منه إلى غير الجنس (قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم) أنى رسوله إليكم (إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه)

(أو تكون لك جنة من نخيل وعنب) أى بستان فيه نخيل وعنب (فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا) أى تشقيقا (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) أى قطعا (أو تأتى بالله والملائكة قبيلا) قال ابن عباس كفيلا أى يكفلون بما تقول وقيل هو جمع القبيلة أى بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة يشهدون لك بصحة ما تقول وقيل معناه نراهم مقابلة عيانا (أو يكون لك بيت من زخرف) أى من ذهب وأصله الزينة (أو ترقى) أى تصعد (فى السماء ولن نؤمن لرقيك) أى لأجل رقيك (حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه) أمرنا فيه باتباعك وهذا قول عبد الله بن أبى أمية (قل) أى قل يا محمد (سبحان ربى) أمره بتنزيهه وتمجيده وفيه معنى التعجب (هل كنت إلا بشرا رسولا) أى كسائر الرسل لأنهم وكان الرسل لا يؤتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات فليس أمر الآيات إليهم إنما هو إلى الله تعالى ولو أراد أن ينزل ما طلبوا لفعل ولكن لا ينزل الآيات على ما اقترحه البشر وما أنا إلا بشر وليس ما سألتم فى طوق البشر واعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أعطى النبى صلى الله عليه وسلم من الآيات والمعجزات ما يغنى عن هذا كله مثل القرآن وانشقاق القمر ونبع الماء من بين أصابعه وما أشبهها من الآيات وليست بدون ما اقترحوه بل هى أعظم مما اقترحوه والقوم عامتهم كانوا متعنتين ولم يكن قصدهم طلب الدليل ليؤمنوا فرد الله تعالى عليهم سؤالهم . قوله عز وجل (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى) أى الوحى والمعنى وما منعهم الإيمان بالقرآن وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم إلا شبهة تلجلجت فى صدورهم هى إنكارهم أن يرسل الله البشر وهو قوله تعالى (إلا أن قالوا) أى جهلا منهم (أبعث الله بشرا رسولا) وذلك أن الكفار كانوا يقولون لن نؤمن لك لأنك بشر وهلا بعث الله إلينا ملكا فأجابهم الله بقوله (قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين) أى مستوطنين مقيمين فيها (لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) أى من جنسهم لأن الجنس إلى الجنس أميل (قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم) أى على أنى رسوله إليكم وإنى قد بلغت ما أرسلت به إليكم وإنكم كذبتم وعاندتم (إنه كان بعباده) يعنى المنذرين والمنذرين (خبيرا بصيرا) أى عالما بأحوالهم فهو مجازيهم وفيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ووعيد للكفار (ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه)

يهدونهم (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم) أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أنا الحسن بن شجاع الصوفى المعروف بابن الموصلى أنبأنا أبو بكر بن الهيثم ثنا جعفر بن محمد الصائغ ثنا حسين بن محمد ثنا سفيان عن قتادة عن أنس أن رجلا قال يارسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة قال النبى صلى الله عليه وسلم «إن الذى أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه» وجاء فى الحديث أنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك (عميا وبكما وصما) فان قيل كيف وصفهم بأنهم عمى وبكم وصم وقد قال «ورأى المجرمون النار» وقال «دعوا هنالك ثبورا» وقال «سمعوا لها تغيظا وزفيرا» أثبت لهم الرؤية (١٨٦) والكلام والسمع؟ قيل يحشرون على ما وصفهم الله ثم تعاد إليهم هذه الأشياء وجواب آخر قال ابن عباس عميا لايرون ما يسرهم بكما لاينطقون بحجة صما لايسمعون شيئا يسرهم. وقال الحسن هذا حين يساقون إلى الموقف إلى أن يدخلوا النار. وقال مقاتل هذا حين يقال لهم إخسئوا فيها ولا تكلمون يصيرون بأجمعهم عميا وبكما وصما لا يرون ولا ينطقون ولا يسمعون (مأواهم جهنم كلما خبت) قال ابن عباس كلما سكنت أى سكن لهيبها وقال مجاهد طفئت وقال قتادة ضعفت وقيل هو الهدو من غير أن يوجد نقصان فى ألم الكفار لأن الله تعالى قال لايفتر عنهم وقيل كلما خبت أى أرادت أن تخبو (زدناهم سعيرا) أى وقودا وقيل المراد من قوله كلما خبت أى نضجت جلودهم واحترقت أعيدوا فيها إلى ما كانوا عليه وزيد فى تسعير النار لتحرقهم (ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) فأجابهم الله تعالى فقال (أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض) فى عظمتها وشدتها (قادر على أن يخلق مثلهم) فى صغرهم وضعفهم نظيره قوله تعالى «لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس» (وجعل لهم أجلا) أى وقتا لعذابهم (لاريب فيه) أنه يأتيهم قيل هو الموت وقيل هو يوم القيامة (فأبى الظالمون إلا كفورا) أى جحودا وعنادا (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى) أى نعمة ربى وقيل رزق ربى (إذا لأمسكتم) لبخلتم وحبستم (خشية الإنفاق) أى خشية الفاقة قاله قتادة وقيل خشية النفاد يقال أنفق الرجل أى أملق وذهب ماله ونفق الشئ

أى يهدونهم وفيه أيضا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وهو أن الذين حكم لهم بالإيمان والهداية وجب أن يصيروا مؤمنين ومن سبق لهم حكم الله بالضلال والجهل استحال أن ينقلبوا عن ذلك (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم) (ق) «عن أنس أن رجلا قال يارسول الله قال الله الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أيحشر الكافر على وجهه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أليس الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة قال قتادة حين بلغه بلى وعزة ربنا» وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف صنفا مشاة وصنفا ركبانا وصنفا على وجوههم قيل يارسول الله وكيف يمشون على وجوههم قال إن الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك» أخرجه الترمذى الحدب كل ما ارتفع من الأرض (عميا وبكما وصما) أى لايبصرون ولا ينطقون ولايسمعون. فان قلت كيف وصفهم بأنهم عمى وبكم وصم وقد قال الله تعالى «ورأى المجرمون النار» وقال «دعوا هنالك ثبورا» وقال «سمعوا لها تغيظا وزفيرا» فأثبت لهم الرؤية والكلام والسمع. قلت فيه أوجه أحدها قال ابن عباس معناه عميا لايبصرون مايسرهم بكما لاينطقون بحجة صما لايسمعون ما يسرهم الوجه الثانى قيل معناه يحشرون على ما وصفهم الله وتعالى ثم تعاد إليهم هذه الأشياء الوجه الثالث قيل معناه هذا حين يقال لهم اخسئوا فيها ولا تكلمون فيصيرون بأجمعهم عميا وبكما وصما لايرون ولاينطقون ولايسمعون (مأواهم جهنم كلما خبت) أى سكن لهيبها وقيل ضعفت وهدأت من غير أن يوجد نقصان فى إيلام الكفار لأن الله سبحانه وتعالى قال لايفتر عنهم وقيل معناه أرادت أن تخبوا (زدناهم سعيرا) أى وقودا وقيل معناه خبت أى نضجت جلودهم واحترقت أعيدوا إلى ما كانوا عليه وزيد فى سعير النار لتحرقهم (ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا) لما ذكر الوعيد المتقدم قال ذلك جزاؤهم بما كفروا يعنى ذلك العذاب جزاؤهم بسبب كفرهم بآياتنا (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) أجابهم الله وردعليهم بقوله (أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض) أى فى عظمها وشدتها (قادر على أن يخلق مثلهم) أى فى صغرهم وضعفهم (وجعل لهم أجلا) أي وقتا لعذابهم (لاريب فيه) أى لاشك فيه أنه يأتيهم قبل الموت وقيل يوم القيامة (فأبى الظالمون إلا كفورا) أى جحودا وعنادا (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى) أى خزائن نعمه ورزقه وقيل أن خزائن الله غير متناهية والمعنى لو أنكم ملكتم من النعم خزائن لانهاية لها (إذا لأمسكتم) أى لبخلتم وحبستم (خشية الانفاق) والفقر والنفاد وهذا

مبالغة

أى ذهب وقيل لأمسكتم عن الإنفاق خشية الفقر (وكان الإنسان قتورا) أى بخيلا ممسكا عن الإنفاق قوله عز وجل (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) أى دلالات واضحات فهى الآيات التسع قال ابن عباس والضحاك هى العصا واليد البيضاء والعقدة التى كانت بلسانه فحلها وفلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وقال عكرمة وقتادة ومجاهد وعطاء هى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد والسنون ونقص الثمرات وذكر محمد بن كعب القرظى الطمس والبحر بدل السنين ونقص من الثمرات قال فكان الرجل منهم مع أهله فى فراشه وقد صارا حجرين والمرأة منهم قائمة تخبز وقد صارت حجرا وقال بعضهم هن آيات الكتاب أخبرنا أبو سعيد أحمد بن

إبراهيم الشريحى أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى أخبرنى الحسن بن محمد الثقفى أنا هارون ابن محمد بن هرون العطاردى أنبأنا يوسف ابن عبد الله بن ماهان ثنا الوليد الطيالسى ثنا شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن مسلمة عن صفوان بن عسال المرادى أن يهوديا قال لصاحبه تعال حتى نسأل هذا النبى فقال الآخر لاتقل نبى فانه لو سمع صارت له أربعة أعين فأتياه فسألاه عن هذه الآية ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فقال لاتشركوا بالله شيئا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا تزنوا ولا تأكلوا الربا ولا تسحروا ولا تمشوا بالبرىء إلى سلطان ليقتله ولا تسرفوا ولا تقذفوا المحصنة ولا تفروا من الزحف وعليكم خاصة اليهود أن لاتعدوا فى السبت فقبلا يده وقالا نشهد أنك نبى قال فما يمنعكم أن تتبعونى قالا إن داود دعا ربه أن لا يزال فى ذريته نبى وإنا نخاف إن تبعناك أن يقتلنا اليهود قوله عز وجل (فاسأل) يا محمد (بنى إسرائيل إذ جاءهم) موسى يجوز أن يكون الخطاب معه والمراد غيره ويجوز أن يكون خاطبه عليه السلام وأمره بالسؤال ليتبين كذبهم مع قومهم (فقال له فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحورا) أى مطبوبا مسحورا قاله الكلبى وقال ابن عباس مخدوعا وقيل مصروفا عن الحق وقال الفراء وأبو عبيدة ساحرا فوضع المفعول موضع الفاعل وقال محمد بن جرير معطى علم السحر فهذه العجائب التى تفعلها من سحرك (قال) موسى (لقد علمت) قرأ العامة بفتح التاء

مبالغة عظيمة فى وصفهم بهذا الشىء (وكان الإنسان قتورا) أى ممسكا بخيلا. فان قلت قد يوجد فى جنس الإنسان من هو جواد كريم فكيف وصفه بالبخل قلت الأصل فى الإنسان البخل لأنه خلق محتاجا والمحتاج لابد وأن يحب مايدفع به عنه ضرر الحاجة ويمسكه لنفسه إلا أنه قد يجود لأسباب خارجة مثل أن يحب المدحة أو رجاء ثواب فثبت بها أن الأصل فى الإنسان البخل. قوله تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) أى دلالات واضحات قال ابن عباس هى العصا واليد البيضاء والعقدة التى كانت بلسانه فحلها وفلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وقيل عوض فلق البحر واليد السنون ونقص من الثمرات وقيل الطمس والبحر بدل السنين والنقص قيل كان الرجل منهم مع أهله فى الفراش وقد صارا حجرين والمرأة قائمة تخبز وقد صارت حجرا وقد وروى أن عمر بن عبد العزيز سأل محمد بن كعب القرظى عن الآيات فذكر منها الطمس فقال عمر هذا يجب أن يكون الفقيه ثم قال يا غلام أخرج ذلك الجراب فأخرجه فاذا فيه بيض مكسر نصفين وجوز مكسر نصفين وثوم وحمص وعدس كلها حجارة وقيل التسع آيات هى آيات الكتاب وهى الأحكام يدل عليه ماروى عن صفوان بن غسان أن يهوديا قال لصاحبه تعال حتى نسأل هذا النبى فقال الآخر لاتقل نبى فانه لو سمع صارت له أربعة أعين فأتياه فسألاه عن هذه الآية ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فقال لاتشركوا بالله شيئا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا تزنوا ولا تأكلوا الربا ولا تسحروا ولا تمشوا بالبرىء إلى سلطان ليقتله ولا تسرفوا ولا تقذفوا المحصنات ولا تفروا من الزحف وعليكم خاصة اليهود أن لاتعدوا فى السبت فقبلا يده وقالا نشهد إنك نبى قال فما يمنعكم أن تتبعونى قالا إن داود دعا ربه أن لا يزال فى ذريته نبى وإنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا اليهود (فاسأل) يا محمد (بنى إسرائيل) يجوز الخطاب معه والمراد غيره ويجوز أن يكون خاطبه وأمره بالسؤال ليتبين كذبهم مع قومهم (إذ جاءهم) يعنى جاء موسى إلى فرعون بالرسالة من عند الله عز وجل (فقال له فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحورا) قال ابن عباس مخدوعا وقيل مطبوبا أى مسحورا وقيل معناه ساحرا معطى علم السحر فهذه العجائب التى تفعلها من سحرك (قال) موسى (لقد علمت) خطابا لفرعون قال ابن عباس علمه فرعون ولكنه عاند

خطايا لفرعون وقرأ الكسائى بضم التاء وروى ذلك عن على وقال لم يعلم الخبيث أن موسى على الحق ولو علم لآمن ولكن موسى هو الذى علم وقال ابن عباس علمه فرعون ولكنه عاند قال الله تعالى «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا» وهذه القراءة وهى نصب التاء أصح فى المعنى وعليه أكثر القراء لأن موسى لايحتج عليه بعلم نفسه ولا يثبت عن على رفع التاء لأنه روى عن رجل من مراد عن على وذلك الرجل مجهول ولم يتمسك بها أحد من القراء غير الكسائى (ما أنزل هؤلاء الآيات التسع (إلا رب السموات والأرض بصائر) جمع بصيرة أى يبصر بها (وإنى لأظنك يافرعون مثبورا) قال ابن عباس ملعونا وقال مجاهد هالكا وقال قتادة مهلكا وقال الفراء أى مصروفا ممنوعا عن الخير يقال ماثبرك عن هذا الأمر أى مامنعك وصرفك عنه (فأراد أن يستفزهم) أى أراد فرعون أن يستفزهم موسى وبنى إسرائيل

أى يخرجهم (من الأرض) يعنى أرض مصر (فأغرقناه ومن معه جميعا) ونجينا موسى وقومه (وقلنا من بعده) أى من بعد هلاك فرعون (لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض) يعنى أرض مصر والشام (فاذا جاء وعد الآخرة) يعنى يوم القيامة (جئنا بكم لفيفا) أى جميعا إلى موقف القيامة واللفيف الجمع الكثير إذا كانوا مختلطين من كل نوع يقال لفت الجيوش إذا اختلطوا وجمع القيامة كذلك فيهم المؤمن والكافر والبر والفاجر وقال الكلبى فاذا جاء وعد الآخرة يعنى مجئ عيسى من السماء جئنا بكم لفيفا أى النزاع من كل قوم من هاهنا وهاهنا لفوا جميعا (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) يعنى القرآن (وما أرسلناك إلا مبشرا) للمطيعين (ونذيرا) للعاصين (وقرآنا فرقناه) قيل أنزلناه نجوما لم ينزل مرة واحدة بدليل قراءة ابن عباس وقرآنا فرقناه بالتشديد وقراءة العامة بالتخفيف أى فصلناه وقيل بيناه وقال الحسن معناه فرقنا به بين الحق والباطل (لتقرأه على الناس على مكث) أى على تؤدة وترسل فى ثلاث وعشرين سنة (ونزلناه تنزيلا قل آمنوا به أو لاتؤمنوا) هذا على طريق الوعيد والتهديد (إن الذين أوتوا العلم من قبله) قيل هم مؤمنو أهل الكتاب وهم الذين كانوا يطلبون الدين قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أسلموا بعد مبعثه مثل زيد بن عمرو بن نفيل وسلمان الفارسى وأبى ذر وغيرهم (إذا يتلى عليهم) يعنى القرآن (يخرون للأذقان) أى يسقطون على الأذقان قال ابن عباس أراد بها الوجوه (سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) أى كائنا واقعا (ويخرون للأذقان يبكون) أى يقعون على الوجوه يبكون والبكاء مستحب عند قراءة القرآن (ويزيدهم خشوعا

(ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض) يعنى الآيات التسع (بصائر) أى بينات يبصر بها (وإنى لأظنك يافرعون مثبورا) قال ابن عباس ملعونا وقيل هالكا وقيل مصروفا عن الخير (فأراد أن يستفزهم من الأرض) معناه أراد فرعون أن يخرج موسى وبنى إسرائيل من أرض مصر (فأغرقناه ومن معه جميعا) أى أغرقنا فرعون وجنوده ونجينا موسى وقومه (وقلنا من بعده) أى من بعد هلاك فرعون (لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض) يعنى أرض مصر والشام (فاذا جاء وعد الآخرة) يعنى القيامة (جئنا بكم لفيفا) أى جميعا إلى موقف القيامة واللفيف الجمع الكثير إذا كانوا مختلفين من كل نوع فيهم المؤمن والكافر والبر والفاجر وقيل أراد بوعد الآخرة نزول عيسى من السماء. قوله سبحانه وتعالى (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) يعنى أنا ماأردنا بانزال القرآن إلا تقريره للحق فلما أردنا هذا المعنى فكذلك وقع وحصل وقيل معناه وما أنزلنا القرآن إلا بالحق المقتضى لإنزاله وما نزل إلا ملتبسا بالحق لاشتماله على الهداية إلى كل خير (وما أرسلناك إلا مبشرا) يعنى بالجنة للمطيعين (ونذيرا) أى مخوفا بالنار للعاصين. قوله عز وجل (وقرآناه فرقناه) أى فصلناه وبيناه وقيل فرقنا به بين الحق والباطل وقيل معناه أنزلناه نجوما لم ينزل مرة واحدة بدليل قوله تعالى (لتقرأه على الناس على مكث) أى على تؤدة وترسل فى ثلاث وعشرين سنة (ونزلناه تنزيلا) أى على حسب الحوادث (قل آمنوا به أو لاتؤمنوا) فيه وعيد وتهديد (إن الذين أوتوا العلم من قبله) قيل هم مؤمنوا أهل الكتاب الذين كانوا يطلبون الدين قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أسلموا بعد مبعثه مثل زيد بن عمرو بن نفيل وسلمان الفارسى وأبى ذر وغيرهم (إذا يتلى عليهم) يعنى القرآن (يخرون للأذقان) قال ابن عباس أراد بها الوجوه (سجدا) أى يقعون على الوجوه سجدا (ويقولون سبحان ربنا) أى تعظيما لربنا لانجازه ماوعد فى الكتب المنزلة من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم (إن كان وعد ربنا لمفعولا) أى كائنا واقعا (ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم

نزول القرآن (خشوعا) خضوعا لربهم نظيره قوله تعالى « إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا» أخبرنا أحمد
ابن عبد الله الصالحى أنا أبو عمرو بن بكر بن محمد المزني ثنا أبوبكر محمد بن عبد الله الجنيد ثنا الحسن بن الفضل البجلى أنا
عاصم عن على بن عاصم ثنا المسعودى هو عبد الرحمن بن عبد الله عن محمد بن عبد الرحمن مولى أبي طلحة
عن أبي عيسى بن طلحة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايلج النار من بكى من خشية الله حتى
يعود اللبن فى الضرع ولا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى منخرى مسلم أبدا» أخبرنا أبو القاسم بن عبد الكريم بن
هوازن القشيرى أنا أبو القاسم عبدالخالق بن على بن عبد الخالق المؤذن أنا أبوأحمد بن بكر بن محمد بن حمدان ثنا محمد بن
يونس الكريمى أنبأنا عبد الله بن محمد الباهلى ثنا أبو حبيب الغنوى ثنا بهز (١٨٩) بن حكيم عن أبيه عن جده قال
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «حرمت النار على ثلاثة أعين عين بكت من خشية الله وعين سهرت فى سبيل الله وعين غضت عن محارم الله» قوله جل وعلا (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) قال ابن عباس سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ذات ليلة فجعل يبكي ويقول فى سجوده يا الله يا رحمن فقال أبوجهل إن محمدا ينهانا عن آلهتنا وهو يدعو إلهين فأنزل الله تعالى هذه الآية ومعناه أنهما إسمان لواحد (أياما تدعوا) قيل ما صلة معناه أيا تدعوا من هذين الاسمين ومن جميع أسمائه (فله الأسماء الحسنى ولا تجهر بصلاتك
ولا تخافت بها) أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنبأنا محمد بن يوسف ثنا
محمد بن إسماعيل أنا يعقوب بن إبراهيم ثنا هشيم ثنا أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى « ولا تجهر بصلاتك
ولا تخافت بها» قال نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم مختف بمكة كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فاذا سمعه
المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم « ولا تجهر بصلاتك» أى بقراءتك فيسمع
المشركون فيسبوا القرآن ولا تخافت بها عن أصحابك فلا تسمعهم (وابتغ بين ذلك سبيلا) «بهذا الإسناد عن محمد بن إسماعيل
قال ثنا مسدد عن هشيم عن أبي بشر باسناده مثله وزاد وابتغ بين ذلك سبيلا أسمعهم ولا تجهر حتى يأخذوا عنك القرآن وقال
قوم نزلت الآية فى الدعاء وهو قول عائشة رضى الله عنها والنخعى ومجاهد ومكحول أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد

خشوعا) أى خضوعا لربهم وقيل يزيدهم القرآن لين قلب ورطوبة عين فالبكاء مستحب عند
قراءة القرآن عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لايلج النار رجل بكى من خشية
الله حتى يعود اللبن فى الضرع ولا اجتمع على عبدى غبار فى سبيل الله ودخان جهنم» أخرجه الترمذي
والنسائى وزاد النسائى « فى منخرى مسلم أبدا» الولوج الدخول والمنخر الأنف عن ابن عباس قال
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله
وعين باتت تحرس فى سبيل الله» أخرجه الترمذي . قوله عز وجل (قل ادعوا الله أو ادعوا
الرحمن) قال ابن عباس سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فجعل يقول فى سجوده
يا الله يا رحمن فقال أبو جهل إن محمدا ينهانا عن آلهتنا وهو يدعو إلهين فأنزل الله هذه الآية
ومعناه أنهما إسمان لله تعالى فسموه بهذا الإسم أو بهذا الإسم (أياما تدعوا) ما صلة ومعناه أى
هذين الاسمين سميتم وذكرتم أو من جميع أسمائه (فله الأسماء الحسنى) يعنى إذا حسنت أسماؤه
كلها فهذان الإسمان منها ومعنى كونها حسنى أنها مشتملة على معانى التقديس والتعظيم والتمجيد
(ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) (ق) عن ابن عباس فى قوله ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت
بها قال نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم مختف بمكة وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته
بالقرآن فاذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به فقال الله تبارك وتعالى لنبيه
صلى الله عليه وسلم ولا تجهر بصلاتك أى بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ولا تخافت
بها عن أصحابك فلا تسمعهم وابتغ بين ذلك سبيلا زاد فى رواية وابتغ بين ذلك سبيلا أسمعهم
ولا تجهر حتى يأخذوا عنك القرآن وقيل نزلت الآية فى الدعاء وهو قول عائشة والنخعى ومجاهد
ومكحول (ق) عن عائشة «ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها» قالت نزل ذلك فى الدعاء وقيل
كان أعراب من بنى تميم إذا سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا اللهم ارزقنا مالا وولدا
يجهرون بذلك فأنزل الله عز وجل « ولا تجهر بصلاتك أى لا ترفع صوتك بقراءتك ودعائك
ولا تخافت بها» المخافتة خفض الصوت والسكوت (وابتغ) أى اطلب (بين ذلك سبيلا) أى
طريقا وسطا بين الجهر والاخفاء عن أبي قتادة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر

ابن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا طلق بن غنام ثنا زائدة عن هشام عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها «ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها» قالت نزل ذلك فى الدعاء وقال عبد الله بن شداد كان أعراب من بنى تميم إذا سلم النبى ﷺ قالوا اللهم ارزقنا مالا وولدا فيجهرون بذلك فأنزل الله هذه الآية ولا تجهر بصلاتك أى لا ترفع صوتك بقراءتك أو بدعائك ولا تخافت بها والمخافتة خفض الصوت والسكوت وابتغ بين ذلك سبيلا أى بين الجهر والإخفاء أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبى أنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحى أنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبى ثنا أبو عيسى الترمذى ثنا محمود ابن غيلان ثنا يحيى بن إسحاق ثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الله بن أبي رباح الأنصاري عن أبي قتادة أن النبى ﷺ قال لأبي بكر «مررت بك وأنت تقرأ القرآن وأنت تخفض صوتك فقال إني أسمعت من ناجيت فقال ارفع قليلا وقال لعمر مررت بك وأنت تقرأ وأنت ترفع صوتك فقال إني أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان فقال اخفض قليلا» (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا) أمر الله نبيه صلى الله (١٩٠) عليه وسلم بأن يحمده على وحدانيته ومعنى الحمد لله هو الثناء عليه بما هو أهله قال الحسين بن الفضل معناه الحمد لله الذى عرفنى أنه لم يتخذ ولدا (ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل) قال مجاهد لم يذل حتى يحتاج إلى ولى يتعزز به (وكبره تكبيرا) أى وعظمه عن أن يكون له شريك أو ولى أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضى أنا الإمام أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان ثنا أبو العباس الأصم ثنا محمد بن إسحاق الصفاني ثنا نضر بن حماد أبو الحرث الوراق ثنا شعبة عن حبيب بن أبي ثابت قال سمعت سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أول مايدعى إلى الجنة يوم القيامة الحمادون الذين يحمدون الله فى السراء والضراء» أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمى أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أنا أبو الحسن بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن منصور الرمادى أنبأنا عبد الرزاق ثنا معمر عن قتادة أن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الحمد لله رأس الشكر ماشكر الله عبد لا يحمده» أخبرنا أبو الفضل بن زياد بن محمد الحنفى، أنا أبو محمد عبد الرحمن بن أحمد الأنصارى أنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد ثنا يحيى بن خالد بن أيوب المخزومى، ثنا موسى بن إبراهيم بن كثير بن بشر الخزامى الأنصارى عن طلحة بن حراش عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن أفضل الدعاء الحمد لله وأفضل الذكر لا إله إلا الله» أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم عبد الله بن أبي محمد بن عبد العزيز البغوى ثنا علي بن الجعد ثنا زهير ثنا منصور عن هلال بن يساف عن الربيع بن خثيم عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أحب الكلام إلى الله تعالى أربع لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله لا يضرك بأيهن بدأت».

(تفسير

مررت بك وأنت تقرأ القرآن وأنت تخفض من صوتك فقال إنى أسمعت من ناجيت فقال ارفع قليلا وقال لعمر مررت بك وأنت تقرأ وأنت ترفع من صوتك فقال إنى أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان فقال اخفض قليلا» أخرجه الترمذى (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا) أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يحمده على وحدانيته وقيل معناه الحمد لله الذى عرفنى أنه لم يتخذ ولدا وقيل إن كل من له ولد فهو يمسك جميع النعم لولده وإذا لم يكن له ولد أفاض نعمه على عبيده وقيل إن الولد يقوم مقام والده بعد انقضائه والله عز وجل يتعالى عن جميع النقائص فهو المستحق لجميع المحامد (ولم يكن له شريك فى الملك) والسبب فى اعتبار هذه الصفة أنه لو كان له شريك لم يكن مستحقا للحمد والشكر وكذا قوله (ولم يكن له ولى من الذل) ومعناه أنه لم يذل فيحتاج إلى ناصر يتعزز به (وكبره تكبيرا) أى وعظمه عن أن يكون له ولد أو شريك أو ولى وقيل إذا كان منزها عن الولد والشريك والولى كان مستوجبا لجميع أنواع المحامد عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أول مايدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله فى السراء والضراء» عن عبد الله ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الحمد لله رأس الشكر ماشكر الله عبد لا يحمده» عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن أفضل الدعاء الحمد لله وأفضل الذكر لا إله إلا الله» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أحب الكلام إلى الله أربع لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله لا يضرك بأيهن بدأت» أخرجه مسلم والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

(سورة الكهف مكية وهى مائة وإحدى عشرة آية) (بسم الله الرحمن الرحيم) (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب) أثنى الله على نفسه بانعامه على خلقه وخص رسوله صلى الله عليه وسلم بالذكر لأن إنزال القرآن عليه كان نعمة عليه على الخصوص وعلى سائر الناس على العموم (ولم يجعل له عوجا قيما) فيه تقديم وتأخير معناه أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا قيما أى مستقيما قال ابن عباس عدلا وقال الفراء قيما على الكتب كلها أى

(تفسير سورة الكهف)

وهى مكية وآياتها مائة وإحدى عشر آية وكلماتها ألف وخمسمائة وسبع وسبعون كلمة وحروفها ستة آلاف وثلثمائة وستون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب) اثنى الله سبحانه وتعالى على نفسه بانعامه على خلقه وعلم عباده كيف يثنون عليه ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم وهى الإسلام وما أنزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم من الكتاب الذى هو سبب نجاتهم وفوزهم وخص رسوله صلى الله عليه وسلم بالذكر لأن إنزال القرآن كان نعمة عليه على الخصوص وعلى سائر الناس على العموم (ولم يجعل له عوجا) أى لم يجعل له شيئا من العوج قط والعوج فى المعانى كالعوج فى الأعيان والمراد نفى الاختلاف والتناقض عن معانيه وقيل معناه لم يجعله مخلوقا روى عن ابن عباس فى قوله تعالى «قرآنا عربيا غير ذى عوج» قال غير مخلوق (قيما) أى مستقيما وقال ابن عباس عدلا وقيل قيما على الكتب كلها مصدقا لها وناسخا لشرائعها (لينذر بأسا شديدا) معناه لينذر الذين كفروا بأسا شديدا وهو قوله سبحانه وتعالى بعذاب بئيس (من لدنه) أى من عنده (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا) يعنى الجنة (ماكثين فيه) أى مقيمين فيه (أبدا. وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا مالهم به من علم) أى بالولد وباتخاذه يعنى أن قولهم لم يصدر عن علم بل عن جهل مفرط . فان قلت اتخاذ الله ولدا فى نفسه محال فكيف قيل مالهم به من علم . قلت انتفاء العلم قد يكون للجهل بالطريق الموصل إليه وقد يكون فى نفسه محالا لايستقيم تعلق العلم به (ولا لآبائهم) أى ولا لأسلافهم من قبل (كبرت) أى عظمت (كلمة تخرج من أفواههم) أى هذا الذى يقولونه لاتحكم به عقولهم وفكرهم البتة لكونه فى غاية الفساد والبطلان فكأنه يجرى على لسانهم على سبيل التقليد (إن يقولون إلا كذبا) أى مايقولون إلا كذبا قيل حقيقة الكذب أنه الخبر الذى لايطابق المخبر عنه وزاد بعضهم مع علم قائله أنه غير مطابق وهذا القيل باطل لأن الله سبحانه وتعالى وصف قولهم باثبات الولد بكونه كذبا مع أن الكثير منهم يقولون ذلك ولايعلمون كونه باطلا فعلمنا أن كل خبر لايطابق المخبر عنه فهو كذب والكذب خلاف الصدق وقيل هو الانصراف عن الحق إلى الباطل ورجل كذاب وكذوب إذا كان كثير الكذب . قوله عز وجل (فلعلك باخع نفسك) أى قاتل نفسك (على آثارهم) أى من بعدهم (إن لم يؤمنوا بهذا الحديث) يعنى القرآن (أسفا) أى حزنا وقيل غيظا (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها) أى مما يصلح أن يكون زينة

مصدقا لها ناسخا لشرائعها وقال قتادة ليس على التقديم والتأخير بل معناه أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ولكن جعله قيما قوله عز وجل ولم يجعل له عوجا أى مختلفا على ما قال الله تعالى «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا» وقيل معناه لم يجعله مخلوقا وروى عن ابن عباس فى قوله قرآنا عربيا غير ذى عوج أى غير مخلوق (لينذر بأسا شديدا) أى لينذر ببأس شديد (من لدنه) أى من عنده (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا) أى الجنة (ماكثين فيه أبدا) أى مقيمين فيه (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا مالهم به من علم ولا لآبائهم) أى قالوه عن جهل لا عن علم (كبرت) أى عظمت (كلمة) نصب على التمييز يقال تقديره كبرت الكلمة كلمة وقيل من كلمة فحذفت من فانتصب (تخرج من أفواههم) أى تظهر من أفواههم (إن يقولون) مايقولون (إلا كذبا فلعلك باخع نفسك) قاتل نفسك (على آثارهم) من بعدهم (إن لم يؤمنوا بهذا الحديث) أى القرآن (أسفا) أى حزنا وقيل غضبا (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها) فإن قيل أى زينة فى الحيات والعقارب والشياطين قيل فيها زينة على معنى أنها تدل على وحدانية الله تعالى وقال مجاهد أراد به الرجال خاصة هم زينة الأرض وقيل أراد بهم العلماء والصلحاء وقيل الزينة بالنبات والأشجار والأنهار كما قال «حتى إذا أخذت

الأرض زخرفها وازينت «(لنبلوهم) لنختبرهم (أيهم أحسن عملا) أى أصلح عملا وقيل أيهم أترك للدنيا (وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا) فالصعيد وجه الأرض ، وقيل هو التراب جرزا يابسا أملس لاينبت شيئا يقال جرزت الأرض إذا أكل نباتها قوله تعالى (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) يعنى أظننت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا أى هم عجب من آياتنا وقيل معناه أنهم ليسوا بأعجب من آياتنا فان ما خلقت من السموات والأرض وما فيهن من العجائب أعجب منهم والكهف هو الغار فى الجبل واختلفوا فى الرقيم قال سعيد بن جبير هو لوح كتب فيه أسماء أصحاب الكهف وقصصهم وهذا أظهر الأقاويل ثم وضعوه على باب الكهف وكان اللوح من رصاص وقيل من حجارة فعلى هذا يكون الرقيم بمعنى المرقوم أى المكتوب والرقم الكتابة وحكى عن ابن عباس أنه قال هو اسم للوادى الذى فيه أصحاب الكهف وعلى هذا هو من رقمة الوادى وهو جانبه وقال كعب الأحبار هو اسم للقرية التى خرج منها أصحاب الكهف وقيل اسم للجبل الذى فيه الكهف ثم ذكر الله قصة أصحاب الكهف فقال (إذ أوى الفتية إلى الكهف) أى صاروا إليه واختلفوا فى سبب (١٩٢) مصيرهم إلى الكهف فقال محمد بن إسحاق ومحمد بن يسار مرج أهل الإنجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت فيهم الملوك حتى عبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكين بعبادة الله وتوحيده فكان ممن فعل ذلك من ملوكهم ملك من الروم يقال له دقيانوس عبد الأصنام وذبح للطواغيت وقتل من خالفه وكان ينزل قرى الروم ولا يترك فى قرية نزلها أحد إلا فتنه حتى يعبد الأصنام ويذبح للطواغيت أو قتله حتى نزل مدينة أصحاب الكهف وهى أفسوس فلما نزلها كبر على أهل الإيمان فاستخفوا منه وهربوا فى كل وجه وكان دقيانوس حين قدمها أمر أن يتبع أهل الإيمان فيجمعوا له واتخذ شرطا من الكفار من أهلها يتبعون أهل الإيمان فى أماكنهم فيخرجونهم إلى دقيانوس فيخيرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان والذبح للطواغيت فمنهم من يرغب فى الحياة ومنهم من يأبى أن يعبد غير الله فيقتل فلما رأى ذلك أهل الشدة فى الإيمان بالله جعلوا يسلمون أنفسهم للعذاب والقتل فيقتلون ويقطعون ، ثم يربط ما قطع من أجسامهم على سور المدينة من نواحيها وعلى كل باب من أبوابها حتى عظمت الفتنة فلما رأى ذلك الفتية حزنوا حزنا شديدا فقاموا واشتغلوا بالصلاة والصيام والصدقة والتسبيح والدعاء وكانوا من أشراف الروم وكانوا ثمانية نفر بكوا وتضرعوا إلى الله وجعلوا يقولون «ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا» إن عبدنا غيره . اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة وارفع عنهم هذا البلاء حتى يعلنوا عبادتك فبينما هم على مثل ذلك وقد دخلوا فى مصلى لهم أدركهم الشرط فوجدوهم وهم سجود على وجوههم يبكون ويتضرعون إلى الله فقالوا لهم ما خلفكم عن أمر الملك انطلقوا إليه ثم خرجوا فرفعوا أمرهم إلى

لها ولأهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها وقيل يعنى النبات والشجر والأنهار وقيل أراد به الرجال خاصة فهم زينة الأرض وقيل أراد به العلماء والصلحاء وقيل جميع ما فى الأرض هو زينة لها . فان قلت أى زينة فى الحيات والعقارب والشياطين . قلت زينتها كونها تدل على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته وقيل إن جميع ما فى الأرض ثلاثة معدن ونبات وحيوان وأشرف أنواع الحيوان الإنسان قيل الأولى أن لا يدخل فى هذه الزينة المكلف بدليل قوله تعالى (لنبلوهم) فمن يبلو يجب أن لا يدخل فى ذلك ومعنى لنبلوهم نختبرهم (أيهم أحسن عملا) أى أصلح عملا وقيل أيهم أترك للدنيا وأزهد فيها (وإنا لجاعلون ما عليها) أى من الزينة (صعيدا جرزا) يعنى مثل أرض لا نبات فيها بعد إن كانت خضراء معشبة والصعيد وجه الأرض وقيل هو التراب والجرز الأملس اليابس الذى لا ينبت فيه شىء قوله سبحانه وتعالى (أم حسبت) أى أظننت يا محمد (أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) أى هم عجب من آياتنا وقيل معناه أنهم ليسوا بأعجب آياتنا فان ما خلقنا من السموات والأرض وما فيهن من العجائب أعجب منهم والكهف الغار الواسع فى الجبل والرقيم هو لوح كتب فيه أسماء أصحاب الكهف وقصتهم ثم وضع على باب الكهف وكان اللوح من رصاص وقيل من حجارة وعن ابن عباس أن الرقيم اسم الوادى الذى فيه أصحاب الكهف وقال كعب الأحبار هو اسم للقرية التى خرج منها أصحاب الكهف وقيل اسم للجبل الذى فيه أصحاب الكهف ثم ذكر الله عز وجل قصة أصحاب الكهف فقال عز من قائل (إذ أوى الفتية إلى الكهف) أى صاروا

دقيانوس فقالوا تجمع الناس للذبح لآلهتك وهؤلاء الفتية من أهل بيتك يستهزءون بك ويعصون أمرك فلما سمع بذلك بعث إليهم فأتى بهم تفيض أعينهم من الدمع معفرة وجوههم بالتراب فقال لهم مامنعكم أن تشهدوا الذبح لآلهتنا التي نعبد في الأرض وتجعلوا أنفسكم أسوة لسادات من أهل مدينتكم اختاروا إما أن تذبحوا لآلهتنا وإما أن أقتلكم فقال مكسلمينا وهو أكبرهم سنا إن لنا إلها ملأ السموات والأرض عظمة لن ندعو من دونه إلها أبدا له الحمد والتكبير والتسبيح من أنفسنا خالصا أبدا إياه نعبد وإياه نسأل النجاة والخير فأما الطواغيت فلن نعبدها أبدا فاصنع بنا ما بدا لك وقال أصحاب مكسلمينا لدقيانوس مثل ماقال مكسلمينا فلما قالوا ذلك أمر فنزع عنهم لبوسا كان عليهم من لبوس عظمائهم ثم قال سأفرغ لكم فأنجز لكم ماأوعدتكم من العقوبة وما يمنعني أن أعجل ذلك لكم ، إلا إني أراكم شبانا حديثة أسنانكم فلا أحب أن أهلككم حتى أجعل لكم أجلا تذكرون فيه وتراجعون عقولكم ثم أمر بحلية كانت عليهم من ذهب وفضة فنزعت عنهم ثم أمرهم فأخرجوا من عنده وانطلق دقيانوس إلى مدينة سوى مدينتهم قريبا منهم لبعض أموره . فلما رأى الفتية خروجه بادروا قدومه وخافوا إذا قدم مدينتهم أن يذكر بهم فأتمروا بينهم أن يأخذ كل رجل منهم نفقة من بيت أبيه فيتصدقوا منها ويتزودوا بما بقي ثم ينطلقوا إلى كهف قريب من المدينة في جبل يقال له بخاوس فيمكثون فيه ويعبدون الله حتى إذا جاء دقيانوس أتوه فقاموا بين يديه فيصنع بهم ماشاء فلما قال ذلك بعضهم لبعض عمد كل فتى منهم إلى بيت أبيه فأخذ نفقة فتصدق منها ثم انطلقوا بما بقي معهم وأتبعهم كلب كان لهم حتى أتوا ذلك الكهف فلبثوا فيه قال كعب الأحبار مروا بكلب فتبعهم فطردوه ففعل ذلك مرارا فقال لهم الكلب ياقوم ماتريدون مني لاتخشون جانبي أنا أحب أحباب الله فناموا حتى أحرسكم وقال ابن عباس هربوا ليلا من دقيانوس وكانوا سبعة فمروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم وتبعه كلبه فخرجوا من البلد إلى الكهف وهو قريب من البلد قال ابن إسحاق فلبثوا فيه ليس لهم عمل إلا الصلاة والصيام والتسبيح والتكبير والتحميد ابتغاء وجه الله وجعلوا نفقتهم إلى فتى منهم يقال له تمليخا فكان يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة سرا وكان من أجملهم وأجلدهم وكان إذا دخل المدينة يضع ثيابا كانت عليه حسانا ويأخذ ثيابا كثياب المساكين الذين يستطعمون فيها ثم يأخذ ورقة فينطلق إلى المدينة فيشترى لهم طعاما وشرابا ويتجسس لهم الخبر هل ذكر هو وأصحابه بشيء ثم يرجع إلى أصحابه فلبثوا بذلك مالبثوا ثم قدم دقيانوس المدينة فأمر عظماء أهلها فذبحوا للطواغيت ففزع من ذلك أهل الإيمان وكان تمليخا بالمدينة يشترى لأصحابه طعامهم فرجع إلى أصحابه وهو يبكي ومعه طعام قليل وأخبرهم أن الجبار قد دخل المدينة وأنهم قد ذكروا والتمسوا مع عظماء المدينة ففزعوا ووقعوا سجودا يدعون الله ويتضرعون إليه ويتعوذون من الفتنة ثم إن تمليخا قال لهم يا إخوتاه ارفعوا رءوسكم وأطعموا وتوكلوا على ربكم فرفعوا رءوسهم وأعينهم تفيض من الدمع فطعموا وذلك عند غروب الشمس ثم جلسوا يتحدثون ويتدارسون ويذكر بعضهم بعضا فبينما هم على ذلك إذ ضرب الله على آذانهم النوم في الكهف وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف فأصابه ماأصابهم وهم مؤمنون موقنون ونفقتهم عند رءوسهم فلما كان من الغد فقدهم دقيانوس فالتمسهم فلم يجدهم فقال لبعضهم لقد ساءني شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا لقد كانوا ظنوا أن بي غضبا عليهم لجهلهم ماجهلوا من أمري ماكنت لأحمل عليهم إن هم تابوا وعبدوا آلهتي فقال عظماء المدينة ما أنت بحقيق أن ترحم قوما فجرة مردة عصاة قد كنت أجلت لهم أجلا ولو شاءوا لرجعوا في ذلك الأجل ولكنهم لم يتوبوا فلما قالوا ذلك غضب غضبا شديدا ثم أرسل إلى آبائهم فأتى بهم فسألهم عنهم فقال أخبروني عن أبنائكم المردة الذين عصوني فقالوا له أما نحن فلم نعصك فلم تقتلنا بقوم مردة قد ذهبوا بأموالنا فأهلكوها في أسواق المدينة ثم انطلقوا وارتقوا إلى جبل يدعى بخلوس فلما قالوا له ذلك خلى سبيلهم وجعل لايدرى مايصنع بالفتية فألقى الله في نفسه أن يأمر بالكهف فيسد عليهم وأراد الله أن يكرمهم ويجعلهم آية لأمة تستخلف من بعدهم وأن يبين لهم أن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من في القبور فأمر دقيانوس بالكهف أن يسد عليهم وقال دعوهم كما هم في الكهف يموتون جوعا وعطشا ويكون كهفهم الذي اختاروا قبرا لهم وهو يظن أنهم أيقاظ يعلمون مايصنع بهم وقد توفى الله أرواحهم وفاة النوم وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف قد غشيهم ماغشيهم يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال ثم إن رجلين مؤمنين في بيت الملك دقيانوس يكتمان إيمانهما اسم أحدهما بيدروس والآخر روناس ائتمرا أن يكتبا شأن الفتية وأنسابهم وأسماءهم وخبرهم في لوحين من رصاص ويجعلاهما في تابوت من نحاس ويجعلا

صاروا إليه ،

التابوت فى البنيان وقالا لعل الله أن يظهر على هؤلاء الفتية قوما مؤمنين قبل يوم القيامة فيعلم من فتح عليهم حين يقرأ هذا الكتاب خبرهم ففعلا وبنيا عليه فبقى دقيانوس مابقى ثم مات هو وقومه وقرون بعده كثيرة وخلفت الملوك بعد الملوك ٭ وقال عبيد بن عمير كان أصحاب الكهف فتيانا مطوقين مسورين ذوى ذوائب وكان معهم كلب صيدهم فخرجوا فى عيد لهم عظيم فى زى وموكب وأخرجوا معهم آلهتهم التى يعبدونها وقد قذف الله فى قلوب الفتية الإيمان وكان أحدهم وزير الملك فآمنوا وأخفى كل واحد منهم إيمانه فقالوا فى أنفسهم نخرج من بين أظهر هؤلاء القوم لايصيبنا عقاب بجرمهم فخرج شاب منهم حتى انتهى إلى ظل شجرة فجلس فيه ثم خرج آخر فرآه جالسا وحده فرجا أن يكون على مثل أمره من غير أن يظهر ذلك ثم خرج الآخر فاجتمعوا فى مكان فقال بعضهم لبعض ماجمعكم وكل واحد يكتم صاحبه إيمانه مخافة على نفسه ثم قالوا ليخرج كل فتى فيخلو بصاحبه ثم يفشى كل واحد منكم سره إلى صاحبه ففعلوا فإذاهم جميعا على الإيمان وإذا كهف فى الجبل قريب منهم فقال بعضهم لبعض فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته فدخلوا الكهف ومعهم كلب صيدهم فناموا ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا وفقدهم قومهم فطلبوهم فعمى الله عليهم آثارهم وكهفهم فكتبوا أسماءهم وأنسابهم فى لوح فلان وفلان وفلان أبناء ملوكنا فقدناهم فى شهر كذا فى سنة كذا فى مملكة فلان بن فلان ووضعوا اللوح فى خزانة الملك وقالوا ليكونن لهذا شأن ومات ذلك الملك وجاء قرن بعد قرن وقال وهب بن منبه جاء أحد حوارى عيسى عليه السلام إلى مدينة أصحاب الكهف فأراد أن يدخلها فقيل له إن على بابها صنما لايدخلها أحد إلا يسجد له فكره أن يدخلها فأتى حماما قريبا من المدينة فكان يؤاجر نفسه من الحمامى ويعمل فيه ورأى صاحب الحمام فى حمامه البركة واجتمع عليه فتية من أهل المدينة فجعل يخبرهم خبر السماء والأرض وخبر الآخرة حتى آمنوا وصدقوه وكان شرط صاحب الحمام أن الليل لى لايحول بينى و بينه ولا بين الصلاة أحد وكان على ذلك حتى أتى ابن الملك بامرأة فدخل بها الحمام فعيره الحوارى وقال أنت ابن الملك وتدخل مع هذه فاستحيا

وذهب فرجع مرة أخرى فقال له مثل ذلك فسبه وانتهره ولم يلتفت إلى مقالته حتى دخلا معا فماتا فى الحمام وأتى الملك فقيل له قتل صاحب الحمام ابنك فالتمس فلم يقدر عليه وهرب فقال من كان يصحبه فسموا الفتية فالتمسوا فخرجوا من المدينة فمروا بصاحب لهم على مثل إيمانهم فانطلق معهم ومعه كلب حتى آواهم الليل إلى الكهف

وجعلوه مأواهم، والفتية

فدخلوه وقالوا نبيت هنا الليلة ثم نصبح إن شاء الله تعالى فترون رأيكم فضرب الله على آذانهم فخرج الملك فى أصحابه يتبعونهم حتى وجدوهم قد دخلوا الكهف فلما أراد رجل منهم دخوله أرعب فلم يطق أحد أن يدخله فقال قائل منهم أليس لو قدرت عليهم قتلتهم قال بلى قال فابن عليهم باب الكهف واتركهم فيه يموتون جوعا ففعل قال وهب فغبر بعد ماسدوا عليهم باب الكهف زمان بعد زمان ثم إن راعيا أدركه المطر عند الكهف فقال لو فتحت باب هذا الكهف وأدخلت غنمى فيه من المطر فأكنهم من المطر فلم يزل يعالجه حتى فتح ورد الله عليهم أرواحهم من الغد حين أصبحوا وقال محمد بن إسحاق ثم ملك أهل تلك البلاد رجل صالح يقال له بيدروس فلما ملك بقى فى ملكه ثمانى وستين سنة فتحزب الناس فى ملكه فكانوا أحزابا منهم من يؤمن بالله ويعلم أن الساعة حق ومنهم من يكذب بها فكبر ذلك على الملك الصالح فبكى وتضرع إلى الله وحزن حزنا شديدا لما رأى أهل الباطل يزيدون ويظهرون على أهل الحق ويقولون لاحياة إلا حياة الدنيا وإنما تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد فجعل بيدروس يرسل إلى من يظن فيهم خيرا وأنهم أئمة فى الخلق فجعلوا يكذبون بالساعة حتى كادوا أن يحولوا الناس عن الحق وملة الحواريين فلما رأى ذلك الملك الصالح دخل بيته وأغلقه عليه ولبس مسحا وجعل تحته رمادا فجلس عليه فدأب ليله ونهاره زمانا يتضرع إلى الله تعالى ويبكى كله ويقول أى رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث إليهم آية تبين لهم بطلان ماهم عليه ثم إن الرحمن الرحيم الذى يكره هلكة العباد أراد أن يظهر الفتية أصحاب الكهف ويبين للناس شأنهم ويجعلهم آية وحجة عليهم ليعلموا أن الساعة آتية لاريب فيها ويستجيب لعبده الصالح بيدروس ويتم نعمته عليه وأن يجمع من كان تبدد من المؤمنين فألقى الله فى نفس رجل من أهل ذلك البلد الذى فيه الكهف وكان اسم ذلك الرجل أولياس أن يهدم ذلك البنيان الذى على فم الكهف فيبنى به حظيرة لغنمه فاستأجر غلامين فجعلا ينزعان تلك الحجارة ويبنيان تلك الحظيرة حتى نزعا ما على فم الكهف وفتحا باب الكهف وحجبهم الله عن الناس بالرعب فلما فتحا باب الكهف أذن الله ذو القدرة والسلطان محيى الموتى للفتية أن يجلسوا بين ظهرانى الكهف فجلسوا فرحين مسفرة

وجوههم طيبة أنفسهم فسلم بعضهم على بعض كأنما استيقظوا من ساعتهم التى كانوا يستيقظون فيها إذا أصبحوا من ليلتهم
ثم قاموا إلى الصلاة فصلوا كالذى كانوا يفعلون لا يرى فى وجوههم ولا ألوانهم شىء ينكرونه كهيئتهم حين رقدوا وهم
يرون أن دقيانوس فى طلبهم فلما قضوا صلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقاتهم أنبأنا ما الذى قال الناس فى شأننا عشية أمس
عند هذا الجبار وهم يظنون أنهم رقدوا كبعض ما كانوا يرقدون وقد تخيل إليهم أنهم قد ناموا أطول مما كانوا ينامون حتى
تساءلوا بينهم فقال بعضهم لبعض كم لبثتم نياما قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ثم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم وكل ذلك فى
أنفسهم يسير فقال لهم تمليخا ألتمستم فى المدينة فلم توجدوا وهو يريد أن يؤتى بكم اليوم فتذبحون للطواغيت أو يقتلكم فما
شاء الله بعد ذلك فعل فقال لهم مكسلمينا يا إخوتاه اعلموا أنكم ملاقوا الله فلا تكفروا بعد إيمانكم إذا دعاكم عدو الله ثم
قالوا لتمليخا انطلق إلى المدينة فتسمع ما يقال لنا بها وما الذى يذكر عند دقيانوس وتلطف ولا تشعرن بك أحدا وابتع لنا
طعاما فائتنا به وزدنا على الطعام الذى جئتنا به فقد أصبحنا جياعا ففعل تمليخا كما كان يفعل ووضع ثيابه وأخذ الثياب التى
كان يتنكر فيها وأخذ ورقا من نفقتهم التى كانت معهم والتى ضربت بطابع دقيانوس فكانت كخفاف الربع والربع أول
ما ينتج من ولد الضأن فى الربيع فانطلق تمليخا خارجا فلما مر بباب الكهف رأى الحجارة منزوعة عن باب الكهف
فعجب منها ثم مر ولم يبال بها حتى أتى باب المدينة مستخفيا يصد عن الطريق تخوفا أن يراه أحد من أهلها فيعرفه ولا يشعر
أن دقيانوس وأهله قد هلكوا قبل ذلك بثلاث مائة سنة فلما أتى تمليخا باب المدينة رفع بصره فرأى فوق ظهر الباب علامة
تكون لأهل الإيمان إذ كان الإيمان ظاهرا فيها فلما رآها عجب وجعل ينظر إليها مستخفيا وجعل ينظر يمينا وشمالا ثم
ترك ذلك الباب فتحول إلى باب آخر من أبوابها فرأى مثل ذلك فجعل يخيل إليه أن المدينة ليست بالتى كان يعرف ورأى
ناسا كثيرا محدثين لم يكن يراهم قبل ذلك فجعل يمشى ويتعجب ويخيل إليه أنه حيران ثم رجع إلى الباب الذى أتى منه
فجعل يتعجب بينه وبين نفسه ويقول ياليت شعرى ما هذا أما عشية (١٩٥) أمس فكان المسلمون يخبئون
هذه العلامة ويستخفون بها وأما اليوم فإنها ظاهرة لعلى نائم ثم يرى أنه ليس بنائم فأخذ كساءه فجعله
على رأسه ثم دخل المدينة فجعل يمشى بين ظهرانى سوقها فيسمع ناسا يحلفون باسم عيسى بن مريم

والفتية جمع فتى

فزاده فرقا ورأى أنه حيران فقام مسندا ظهره إلى جدار من جدر المدينة وقال فى نفسه والله ما أدرى ما هذا أما
عشية أمس فليس على ظهر الأرض إنسان يذكر عيسى بن مريم إلا قتل وأما الغداة فأسمعهم وكل إنسان يذكر اسم
عيسى ولا يخاف أحدا ثم قال فى نفسه لعل هذه ليست بالمدينة التى أعرف ، والله ما أعرف مدينة قرب مدينتنا
فقام كالحيران ثم لقى فتى فقال له ما اسم هذه المدينة يا فتى قال اسمها أفسوس فقال فى نفسه لعل بى مسا أو أمرا
أذهب عقلى والله يحق لى أن أسرع الخروج منها قبل أن أخزى فيها أو يصيبنى شر فأهلك ثم إنه أفاق فقال
والله لو عجلت الخروج من المدينة قبل أن يفطن بى لكان أكيس بى فدنا من الذين يبيعون الطعام فأخرج الورق التى كانت
معه فأعطاها رجلا منهم فقال بعنى بهذه الورق طعاما فأخذها الرجل فنظر إلى ضرب الورق ونقشها فعجب منها ثم طرحها
إلى رجل آخر من أصحابه فنظر إليها فجعلوا يتطارحونها بينهم من رجل إلى رجل ويتعجبون منها ثم جعلوا يتشاورون بينهم
ويقول بعضهم لبعض إن هذا أصاب كنزا خبيئا فى الأرض منذ زمان ودهر طويل فلما رآهم تمليخا يتشاورون من أجله
فرق فرقا شديدا وجعل يرتعد ويظن أنهم قد فطنوا به وعرفوه وأنهم إنما يريدون أن يذهبوا به إلى ملكهم دقيانوس وجعل
أناس آخرون يأتونه فيتعرفونه فلا يعرفونه فقال لهم وهو شديد الفرق منهم أفضلوا على قد أخذتم ورقى فامسكوها وأما
طعامكم فلا حاجة لى به فقالوا له من أنت يا فتى وما شأنك والله لقد وجدت كنزا من كنوز الأولين وأنت تريد أن تخفيه
منا فانطلق معنا وأرنا وشاركنا فيه نخف عليك ما وجدت فإنك إن لم تفعل نأت بك إلى السلطان فنسلمك إليه فيقتلك فلما
سمع قولهم قال فى نفسه قد وقعت فى كل شىء كنت أحذر منه فقالوا يا فتى إنك والله لا تستطيع أن تكتم ما وجدت فجعل
تمليخا لا يدرى ما يقول لهم وما يرجع إليهم وفرق حتى ما يخبر إليهم شيئا فلما رأوه لا يتكلم أخذوا كساءه فطرحوه فى
عنقه ثم جعلوا يقودونه فى سكك المدينة حتى سمع به من فيها وقيل قد أخذ رجل معه كنز فاجتمع إليه أهل المدينة صغيرهم
وكبيرهم فجعلوا ينظرون إليه ويقولون والله ما هذا الفتى من أهل هذه المدينة وما رأيناه فينا قط وما نعرفه قط فجعل تمليخا

لايدرى مايقول لهم فلما اجتمع عليه أهل المدينة فرق فسكت فلم يتكلم وكان مستيقنا أن أباه وإخوته بالمدينة وإن حسبه ونسبه من أهل المدينة من عظماء أهلها وأنهم سيأتونه إذا سمعوا به فبينا هو قائم كالحيران ينتظر متى يأتيه بعض أهله فيخلصه من أيديهم إذا اختطفوه وانطلقوا به إلى رئيسى المدينة ومدبريها اللذين يدبران أمرها وهما رجلان صالحان اسم أحدهما أريوس واسم الآخر طنطيوس فلما انطلق به إليهما ظن تمليخا أنه ينطلق به إلى دقيانوس الجبار فجعل يلتفت يمينا وشمالا وجعل الناس يسخرون منه كما يسخرون من المجنون وجعل تمليخا يبكى ثم رفع رأسه إلى السماء فقال فى نفسه اللهم إله السماء وإله الأرض أفرغ اليوم على صبرا وأولج معى روحا منك تؤيدنى به عند هذا الجبار وجعل يبكى ويقول فى نفسه فرق بينى وبين إخوتى ياليتهم يعلمون مالقيت ياليتهم يأتونى فنقوم جميعا بين يدى هذا الجبار فانا كنا تواثقنا لنكونن معا لانكفر بالله ولا نشرك به شيئا فرق بينى وبينهم فلن يرونى ولن أراهم أبدا وكنا تواثقنا أن لانفترق فى حياة ولا موت أبدا يحدث به نفسه تمليخا فما يخبر أصحابه حين يرجع إليهم حتى انتهوا إلى الرجلين الصالحين أريوس وطنطيوس فلما رأى تمليخا أنه لايذهب به إلى دقيانوس أفاق وذهب عنه البكاء فأخذ أريوس وطنطيوس الورق فنظر إليها وعجبا منها ثم قال له أحدهما أين الكنز الذى وجدت يافتى فقال تمليخا ماوجدت كنزا ولكن هذا ورق آبائى ونقش هذه المدينة وضربها ولكن والله ماأدرى ماشأنى وما أقول لكم فقال أحدهما فمن أنت فقال تمليخا أما أنا فكنت أرى أنى من أهل هذه المدينة فقالوا ومن أبوك ومن يعرفك فيها فأنبأهم باسم أبيه فلم يجدوا أحدا يعرفه ولا أباه فقال له أحدهما أنت رجل كذاب لاتنبئنا بالحق فلم يدر تمليخا ما يقول لهم غير أنه نكس بصره إلى الأرض فقال بعض من حوله هذا رجل مجنون ، وقال بعضهم ليس بمجنون ولكنه يحمق نفسه عمدا لكى ينفلت منكم فقال له أحدهما ونظر إليه نظرا سديدا أتظن أنا نرسلك ونصدقك بأن هذا مال أبيك ونقش هذا الورق وضربها أكثر من ثلثمائة سنة وإنما أنت غلام شاب أتظن أنك تأفكنا وتسخر بنا ونحن شيوخ شمط كما ترى وحولك سراة

أهل المدينة وولاة أمرها وخزائن هذه البلدة بأيدينا وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار وإنى لأظننى سآمر بك فتعذب عذابا شديدا ثم أوثقك حتى تعرف بهذا الكنز الذى وجدته فلما قال ذلك قال لهم تمليخا أنبئونى عن شىء أسألكم عنه فان فعلتم صدقتكم عما عندى قالوا سل لانكتمك شيئا قال لهم مافعل الملك دقيانوس

وهو الطرى من الشباب

(فقالوا

قالوا لانعرف اليوم على وجه الأرض ملك يسمى دقيانوس ولم يكن إلا ملك هلك منذ زمان ودهر طويل وهلكت بعده قرون كثيرة فقال تمليخا إنى إذا لحيران وما يصدقنى أحد من الناس بما أقول لقد كنا فتية على دين واحد وهو الإسلام وإن الملك أكرهنا على عبادة الأوثان والذبح للطواغيت فهربنا منه عشية أمس فنمنا ، فلما انتبهنا خرجت لأشترى لهم طعاما وأتجسس الأخبار فاذا أنا كما ترون فانطلقوا معى إلى الكهف أريكم أصحابى فلما سمع أريوس مايقول تمليخا قال ياقوم لعل هذه آية من آيات الله جعلها الله لكم على يدى هذا الفتى فانطلقوا بنا معه يرنا أصحابه فانطلق معه أريوس وطنطيوس وانطلق معهم أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو أصحاب الكهف لينظروا إليهم ولما رأى الفتية أصحاب الكهف تمليخا قد احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم عن القدر الذى كان يأتى به ظنوا أنه قد أخذ فذهب به إلى ملكهم دقيانوس فبيناهم يظنون ذلك ويتخوفونه إذ سمعوا الأصوات وجلب الخيل مصعدة نحوهم فظنوا أنهم رسل الجبار دقيانوس بعث إليهم ليؤتى بهم فقاموا إلى الصلاة وسلم بعضهم على بعض وأوصى بعضهم بعضا وقالوا انطلقوا بنا نأت أخانا تمليخا فانه الآن بين يدى الجبار ينتظر متى نأتيه فبيناهم يقولون ذلك وهم جلوس بين ظهرانى الكهف لم يروا إلا أريوس وأصحابه وقوفا على باب الكهف وسبقهم تمليخا فدخل عليهم وهو يبكى فلما رأوه يبكى بكوا معه ثم سألوه عن شأنه فأخبرهم وقص عليهم القصة والنبأ كله فعرفوا عند ذلك أنهم كانوا نياما بأمر الله ذلك الزمان كله وإنما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقا للبعث وليعلموا أن الساعة آتية لاريب فيها ثم دخل على أثر تمليخا أريوس فرأى تابوتا من نحاس مختوما بخاتم من فضة فقام بباب الكهف ثم دعا رجالا من عظماء أهل المدينة ففتح التابوت عندهم فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوبا فيهما أن مكسلمينا ومخشلمينا وتمليخا ومرطونس وكشطونس وبيرونس وديموس وبطيوس والكلب اسمه قطمير كانوا فتية هربوا من ملكهم دقيانوس الجبار مخافة أن يفتنهم عن دينهم فدخلوا هذا الكهف فلما أخبر بمكانهم أمر بالكهف فسد عليهم بالحجارة وإنا كتبنا شأنهم وخبرهم ليعلمه من بعدهم إن عثر عليهم فلما قرأوه وعجبوا وحمدوا الله الذى أراهم آية البعث فيهم ثم رفعوا

أصواتهم بحمد الله وتسبيحه ثم دخلوا على الفتية إلى الكهف فوجدوهم جلوسا بين ظهرانيهم مشرقة وجوههم لم تبل ثيابهم فخر أريوس وأصحابه سجودا وحمدوا الله الذى أراهم آية من آياته ، ثم كلم بعضهم بعضا وأنبأهم الفتية عن الذى لقوا من ملكهم دقيانوس ثم إن أريوس وأصحابه بعثوا بريدا إلى ملكهم الصالح بيدروس أن عجل لعلك تنظر إلى آية من آيات الله جعلها الله فى ملكك وجعلها آية للعالمين لتكون لهم نورا وضياء وتصديقا للبعث فاعجل إلى فتية بعثهم الله عز وجل وقد كان توفاهم منذ أكثر من ثلاث مائة سنة فلما أتى الملك الخبر رجع إليه عقله ، وذهب عنه غمه فقال أحمدك الله رب السموات والأرض وأعبدك وأسبح لك تطولت على ورحمتنى لم تطفىء النور الذى كنت جعلته لآبائى وللعبد الصالح بيدروس الملك فلما نبأ به أهل المدينة ركبوا إليه وساروا معه حتى أتوا مدينة أفسوس فتلقاهم أهل المدينة وساروا معه حتى صعدوا نحو الكهف فلما رأى الفتية بيدروس فرحوا به وخروا سجدا على وجوههم وقام بيدروس قدامهم ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الأرض يسبحون الله ويحمدونه ثم قال الفتية لبيدروس : نستودعك الله

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته حفظك الله وحفظ ملكك ونعيذك بالله من شر الإنس والجن فبينما الملك قائم إذ رجعوا إلى مضاجعهم فناموا وتوفى الله تعالى أنفسهم وقام الملك إليهم فجعل ثيابهم عليهم وأمر أن يجعل كل رجل منهم فى تابوت من ذهب فلما أمسى ونام أتوه فى المنام فقالوا له إنا لم نخلق من ذهب ولا من فضة ولكنا خلقنا من تراب وإلى التراب نصير فاتركنا كما

(فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة) أى رحمة من خزائن رحمتك وجلائل فضلك وإحسانك وهب لنا الهداية والنصر والأمن من الأعداء (وهيىء لنا) أى أصلح لنا (من أمرنا رشدا) أى حتى نكون بسببه راشدين مهديين وقيل معناه واجعل أمرنا رشدا كله

(ذكر قصة أصحاب الكهف وسبب خروجهم إليه)

قال محمد بن إسحاق ومحمد بن يسار مرج أمر أهل الإنجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت الملوك حتى عبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكون بعبادة الله وتوحيده وكان ممن فعل ذلك من ملوكهم ملك من الروم يقال له دقيانوس عبد الأصنام وذبح للطواغيت وقتل من خالفه وكان ينزل قرى الروم فلا يترك فى قرية نزلها أحد إلا فتنه عن دينه حتى يعبد الأصنام أو يقتله فلما نزل مدينة أصحاب الكهف واسمها أفسوس استخفى منه أهل الإيمان وهربوا فى كل وجه فاتخذ شرطا من الكفار وأمرهم أن يتبعوهم فجعل أولئك الشرط يتبعون أهل الإيمان فى أماكنهم ويخرجونهم إلى دقيانوس فيخيرهم بين القتل وبين عبادة الأصنام فمنهم من يرغب فى الحياة ومنهم من يأبى أن يعبد غير الله فيقتل فلما رأى ذلك أهل الشدة فى الإيمان جعلوا يسلمون أنفسهم للعذاب والقتل فيقتلون ويقطعون ويجعل ماقطع من أجسادهم على أسوار المدينة وأبوابها فلما عظمت الفتنة وكثرت ورأى ذلك الفتية حزنوا حزنا شديدا فقاموا واشتغلوا بالصلاة والصيام والصدقة والتسبيح والدعاء وكانوا من أشراف الروم وهم ثمانية نفر وبكوا وتضرعوا إلى الله عز وجل وجعلوا يقولون « ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا » اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة

كنا فى الكهف على التراب حتى يبعثنا الله منه فأمر الملك حينئذ بتابوت من ساج فجعلوا فيه وحجبهم الله حين خرجوا من عندهم بالرعب فلم يقدر أحد على أن يدخل عليهم فأمر الملك فجعل على باب الكهف مسجدا يصلى فيه وجعل لهم عيدا عظيما وأمر أن يؤتى كل سنة وقيل إن تمليخا لما حمل إلى الملك الصالح قال له الملك من أنت قال أنا رجل من أهل هذه المدينة وذكر أنه خرج أمس أو منذ أيام وذكر منزله وأقوا مالم يعرفهم أحد وكان الملك قد سمع أن فتية فقدوا فى الزمن الأول وأن أسماءهم مكتوبة على اللوح بالخزانة فدعا باللوح وقد نظر فى أسمائهم فاذا هو من أولئك القوم وذكر أسماء الآخرين فقال تمليخا هم أصحابى فلما سمع الملك ذلك ركب ومن معه من القوم فلما أتوا باب الكهف قال تمليخا دعونى حتى أدخل على أصحابى فأبشرهم فانهم إن رأوكم معى أرعبتموهم فدخل فبشرهم فقبض الله أرواحهم وأعمى عليهم أثرهم فلم يهتدوا إليهم مرة ثانية وذلك قوله عز وجل إذ أوى الفتية إلى الكهف أى صاروا إلى الكهف يقال آوى فلان إلى موضع كذا أى اتخذه منزلا إلى الكهف وهو غار فى جبل مخاوس واسم الكهف خيرم (فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة) ومعنى الرحمة الهداية فى الدين وقيل الرزق (وهيىء لنا) يسر لنا (من أمرنا رشدا) أى ما نلتمس من خير رضاك وما فيه رشدنا ،

وأرفع عنهم البلاء حتى يعلنوا عبادتك ، فبينما هم على ذلك وقد دخلوا مصلاهم أدركهم الشرط فوجدوهم سجودا يبكون ويتضرعون إلى الله عز وجل فقال لهم الشرط ماخلفكم عن أمر الملك ثم انطلقوا إلى الملك فأخبروه خبر الفتية فبعث إليهم فأتى بهم تفيض أعينهم من الدمع معفرة وجوههم بالتراب فقال لهم مامنعكم أن تشهدوا الذبح لآلهتنا التى تعبد فى الأرض وتجعلوا أنفسكم أسوة أهل مدينتكم اختاروا إما أن تذبحوا لآلهتنا وإما أن أقتلكم فقال مكسلمينا وهو أكبرهم إن لنا إلها ملء السموات والأرض عظمته لن ندعوا من دونه إلها أبدا له الحمد والتكبير من أنفسنا خالصا أبدا إياه نعبد وإياه نسأل النجاة والخير فأما الطواغيت فلن نعبدها أبدا اصنع بنا مابدا لك وقال أصحابه مثل ذلك فلما سمع الملك كلامهم أمر بنزع ثيابهم وحلية كانت عليهم من الذهب والفضة وقال سأفرغ لكم وأنجز لكم ماأوعدتكم من العقوبة وما يمنعنى أن أعجل ذلك لكم إلا أنى أراكم شبانا حديثة أسنانكم فلا أحب أن أهلككم حتى أجعل لكم أجلا تذكرون فيه فترجعون إلى عقولكم ثم أمر بهم فأخرجوا من عنده وانطلق دقيانوس إلى مدينة أخرى قريبة منه لبعض أموره فلما رأى الفتية خروجه بادروا وخافوا إذا قدم أن يذكرهم فأتمروا بينهم واتفقوا على أن يأخذ كل واحد منهم نفقة من بيت أبيه فيتصدقوا منها ويتزودوا بما بقى ثم ينطلقوا إلى كهف قريب من المدينة فى جبل يقال له ينجلوس (١) فيمكثوا فيه ويعبدوا الله حتى إذا جاء دقيانوس أتوه فيصنع بهم مايشاء فلما اتفقوا على ذلك عمد كل فتى منهم إلى بيت أبيه فأخذ نفقة فتصدق منها وانطلقوا بما بقى معهم وأتبعهم كلب كان لهم حتى أتوا ذلك الكهف فمكثوا فيه وقال كعب الأحبار مروا بكلب فتبعهم فطردوه فعاد ففعلوا ذلك مرارا فقال لهم الكلب ماتريدون منى لاتخشوا منى أنا أحب أحباب الله عز وجل فناموا حتى أحرسكم وقال ابن عباس هربوا من دقيانوس وكانوا سبعة فمروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم وتبعهم الكلب فخرجوا من البلد إلى الكهف قال ابن عباس فلبثوا فيه ليس لهم عمل إلا الصلاة والصيام والتسبيح والتحميد ابتغاء لوجه الله عز وجل وجعلوا نفقتهم إلى فتى منهم اسمه تمليخا فكان يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة سرا وكان من أجملهم وأجلدهم وكان إذا دخل المدينة لبس ثيابا رثة كثياب المساكين ثم يأخذ ورقة فينطلق إلى المدينة فيشترى لهم طعاما وشرابا ويتجسس لهم الخبر هل ذكر هو وأصحابه بشىء ثم يرجع إلى أصحابه فلبثوا بذلك ماشاء الله أن يلبثوا ثم قدم دقيانوس المدينة وأمر عظماء أهلها أن يذبحوا للطواغيت ففزع من ذلك أهل الإيمان وكان تمليخا بالمدينة يشترى لأصحابه طعامهم فرجع إلى أصحابه وهو يبكى ومعه طعام قليل فأخبرهم أن الجبار قد دخل المدينة وأنهم قد ذكروا والتمسوا مع عظماء المدينة ففزعوا ووقعوا سجودا يدعون الله ويتضرعون إليه ويتعوذون من الفتنة فقال لهم تمليخا يا إخوتاه ارفعوا رءوسكم واطعموا وتوكلوا على ربكم فرفعوا رءوسهم وأعينهم تفيض من الدمع وذلك عند غروب الشمس ثم جلسوا يتحدثون ويذكر بعضهم بعضا فبينا هم على ذلك إذ ضرب الله عز وجل على آذانهم فى الكهف وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف فأصابه ماأصابهم وهم مؤمنون موقنون ونفقتهم عند رءوسهم فلما كان من الغد تفقدهم دقيانوس والتمسهم فلم يجدهم فقال لبعض عظماء المدينة لقد ساءنى شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا لقد ظنوا أن بى غضبا عليهم لجهلهم

(١) قوله ينجلوس هكذا فى بعض النسخ وفى بعضها بخلوس وفى حياة الحيوان منحلوس اه .

ماجهلوا

ماجهلوا من أمرى ما كنت لأجهل عليهم إن هم تابوا وعبدوا آلهتى فقال عظماء المدينة ماأنت بحقيق أن ترحم قوما فجرة مردة عصاة قد كنت أجلت لهم أجلا ولو شاءوا لرجعوا فى ذلك الأجل ولكنهم لم يتوبوا فلما قالوا ذلك غضب غضبا شديدا ثم أرسل إلى آبائهم فأتى بهم فقال أخبرونى عن أبنائكم المردة الذين عصونى فقالوا أما نحن لم نعصك فلم تقتلنا بقوم مردة إنهم ذهبوا بأموالنا وأهلكوها فى أسواق المدينة ثم انطلقوا إلى جبل يدعى ينجلوس فلما قالوا له ذلك خلا سبيلهم وجعل مايدرى مايصنع بالفتية فألقى الله سبحانه وتعالى فى نفسه أن يأمر بسد باب الكهف عليهم وأراد الله عز وجل أن يكرمهم بذلك ويجعلهم آية لأمة تستخلف من بعدهم وأن يبين لهم أن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور فأمر دقيانوس بالكهف فسد عليهم وقال دعوهم كما هم فى كهفهم يموتون جوعا وعطشا ويكون كهفهم الذى اختاروه قبرا لهم وهو يظن أنهم أيقاظ يعلمون مايصنع بهم وقد توفى الله عز وجل أرواحهم وفاة نوم وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف قد غشيه ماغشيهم يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال ثم إن رجلين مؤمنين في بيت الملك دقيانوس يكتمان إيمانهما اسم أحدهما بيدروس واسم الآخر روناس اهتما أن يكتبا شأن هؤلاء الفتية وأسماءهم وأنسابهم وأخبارهم فى لوحين من رصاص ويجعلاهما فى تابوت من نحاس ويجعلا التابوت فى البنيان وقالا لعل الله أن يظهر على هؤلاء الفتية قوما مؤمنين قبل يوم القيامة فيعلم من فتح عليهم خبرهم حين يقرأ الكتاب ففعلا ذلك وبنيا عليه وبقيا دقيانوس مابقى ثم مات هو وقومه وقرون بعده كثيرة وخلفت الملوك بعد الملوك وقال عبيد بن عمير كان أصحاب الكهف فتيانا مطوقين مسورين ذوى ذوائب فخرجوا فى عيد لهم عظيم فى زى وموكب وأخرجوا معهم آلهتهم التى كانوا يعبدونها وكان معهم كلب صيد لهم وكان أحدهم وزير الملك فقذف الله سبحانه وتعالى الإيمان فى قلوبهم فآمنوا وأخفى كل واحد إيمانه وقال فى نفسه أخرج من بين أظهر هؤلاء القوم لئلا يصيبنى عقاب بجرمهم فخرج شاب منهم حتى انتهى إلى ظل شجرة فجلس فيه ثم خرج آخر فرآه جالسا وحده فرجا أن يكون على مثل أمره وجلس إليه من غير أن يظهره على أمره ثم خرج آخر فخرجوا جميعا فاجتمعوا فقال بعضهم لبعض ماجمعكم وكل واحد يكتم إيمانه من صاحبه مخافة على نفسه ثم قالوا ليخرج كل فتيين فيخلوا ويفشى كل واحد سره إلى صاحبه ففعلوا ذلك فاذاهم جميعا على الإيمان وإذا الكهف فى جبل عظيم قريب منهم فقال بعضهم لبعض فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته فدخلوا الكهف ومعهم كلب صيد فناموا ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا وفقدهم قومهم وطلبوهم فعمى الله عليهم آثارهم وكهفهم فكتبوا أسماءهم وأنسابهم فى لوح فلان وفلان وفلان أبناء ملوكنا فقدناهم فى شهر كذا فى سنة كذا فى مملكة فلان ابن فلان الملك ووضعوا اللوح فى خزانة الملك وقالوا ليكون لهؤلاء شأن ومات ذلك الملك وجاء قرن بعد قرن قال محمد بن إسحاق ثم ملك أهل تلك البلاد رجل صالح يقال له بيدروس فلما ملك بقى ملكه ثمانى وستين سنة فتحزب الناس فى ملكه فكانوا أحزابا منهم من يؤمن بالله ويعلم أن الساعة حق ومنهم من يكذب بها فكبر ذلك على الملك الصالح وتضرع إلى الله وحزن حزنا شديدا لما رأى أهل الباطل يزيدون ويظهرون على أهل الحق ويقولون لاحياة إلا الحياة الدنيا وإنما تبعث الأرواح دون الأجساد وجعل بيدروس الملك يرسل إلى من يظن فيهم خيرا وأنهم أئمة فى الخلق فلم يقبلوا منه وجعلوا

يكذبون بالساعة حتى كادوا يخرجون الناس عن الحق وملة الحواريين فلما رأى ذلك الملك الصالح دخل بيته وأغلق بابه عليه ولبس مسحا وجعل تحته رمادا فجلس عليه فدأب ليله ونهاره يتضرع إلى الله تعالى ويبكى ويقول رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم آية تبين لهم بطلان ماهم عليه ثم إن الله سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم الذى يكره هلكة عباده أراد أن يظهر على الفتية أصحاب الكهف ويبين للناس شأنهم ويجعلهم آية وحجة عليهم ليعلموا أن الساعة آتية لاريب فيها ويستجيب لعبده الصالح بيدروس ويتم نعمته عليه وأن يجمع من كان تبدد من المؤمنين فألقى الله سبحانه وتعالى فى نفس رجل من أهل ذلك البلد الذى فيه ذلك الكهف وكان اسمه أولياس أن يهدم ذلك البنيان الذى على فم الكهف ويبنى به حظيرة لغنمه فاستأجر غلامين فجعل ينزعان تلك الحجارة ويبنيان بها تلك الحظيرة حتى نزعا ما كان على باب الكهف وفتحا باب الكهف وحجبهم الله تعالى عن الناس بالرعب فلما فتح باب الكهف أذن الله سبحانه وتعالى ذو القدرة والسلطان محيى الموتى للفتية أن يجلسوا بين ظهرانى الكهف فجلسوا فرحين مسفرة وجوههم طيبة أنفسهم فسلم بعضهم على بعض كأنما استيقظوا من ساعتهم التى كانوا يستيقظون منها إذا أصبحوا من ليلتهم ثم قاموا إلى الصلاة فصلوا كما كانوا يفعلون لايرى فى وجوههم ولا ألوانهم شىء ينكرونه وأنهم كهيئتهم حين رقدوا وهم يرون أن دقيانوس فى طلبهم فلما قضوا صلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقتهم أنبئنا بما قال الناس فى شأننا عشية أمس عند هذا الجبار وهم يظنون أنهم قد رقدوا كبعض ما كانوا يرقدون وقد خيل إليهم أنهم قد ناموا أطول مما كانوا ينامون حتى تساءلوا بينهم فقال بعضهم لبعض كم لبثتم نياما قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم وكل ذلك فى أنفسهم يسير فقال لهم تمليخا قد التمستم فى المدينة وهو يريد أن يؤتى بكم اليوم فتذبحوا للطواغيت أو يقتلكم فما شاء الله بعد ذلك فعل فقال لهم مكسلمينا ياإخوتاه اعلموا أنكم ملاقوا الله فلا تكفروا بعد إيمانكم إذا دعاكم عدو الله ثم قالوا لتمليخا انطلق إلى المدينة فتسمع مايقال لنا بها وما الذي يذكر فينا عند دقيانوس وتلطف ولا تشعرن بك أحدا وابتغ لنا طعاما فأتنا به وزدنا على الطعام الذى جئتنا به فقد أصبحنا جياعا ففعل تمليخا كما كان يفعل ووضع ثيابه وأخذ الثياب التى كان يتنكر فيها وأخذ ورقا من نفقتهم التى كانت معهم التى ضربت بطابع دقيانوس وكانت كخفاف الربع فانطلق تمليخا خارجا فلما مر بباب الكهف رأى الحجارة منزوعة عن باب الكهف فعجب منها ثم مر ولم يبال بها حتى أتى باب المدينة مستخفيا يصد عن الطريق تخوفا أن يراه أحد من أهلها فيعرفه ولا يشعر أن دقيانوس وأهله هلكوا قبل ذلك بثلاث مائة سنة فلما أتى تمليخا باب المدينة رفع بصره فرأى فوق ظهر الباب علامة كانت لأهل الإيمان إذ كان أمر الإيمان ظاهرا فيها فلما رآها عجب وجعل ينظر إليها يمينا وشمالا ثم ترك ذلك الباب ومضى إلى باب آخر فرأى مثل ذلك فخيل إليه أن المدينة ليست بالتى كان يعرف ورأى أشخاصا كثيرة محدثين لم يكن رآهم قبل ذلك فجعل يمشى ويتعجب ويخيل إليه أنه حيران ثم رجع إلى الباب الذى أتى منه فجعل يتعجب بينه وبين نفسه ويقول ياليت شعرى ماهذا أما عشية أمس كان المسلمون يخفون هذه العلامة فى هذه المدينة ويستخفون بها واليوم ظاهرة لعلى نائم حالم ثم يرى أنه ليس بنائم فأخذ كساءه فجعله على رأسه ثم دخل المدينة فجعل يمشى فى أسواقها فسمع ناسا يحلفون باسم عيسى ابن مريم

فزاده ذلك تعجبا ورأى أنه حيزان فقام مسند اظهره إلى جدار من جدران المدينة وهو يقول فى نفسه والله ماأدرى ماهذا أما عشية أمس فليس كان على الأرض من يذكر عيسى ابن مريم إلاقتل وأما اليوم فأسمع كل إنسان يذكر عيسى ابن مريم لايخاف ثم قال فى نفسه لعل هذه ليست بالمدينة التى أعرف والله ماأعلم مدينة بقرب مدينتنا فقام كالحيران ثم لقى فتى فقال له مااسم هذه المدينة يافتى فقال اسمها أفسوس فقال فى نفسه لعل بى مسا أو أمرا أذهب عقلى والله يحق لى أن أسرع الخروج قبل أن يصيبنى فيها شر فأهلك فمضى إلى الذين يبتاعون الطعام فأخرج لهم الورق التى كانت معه وأعطاها رجلا منهم وقال له بعنى بهذه الورق طعاما فأخذها الرجل ونظر إلى ضرب الورق ونقشها فعجب منها فناولها رجلا آخر من أصحابه فنظر ثم جعلوا يتطارحونها بينهم من رجل إلى رجل ويتعجبون منها ويتشاورون بينهم ويقول بعضهم لبعض إن هذا أصاب كنزا خبيئا فى الأرض منذ زمان طويل فلما رآهم تمليخا يتحدثون فيه فرق فرقا شديدا وخاف وجعل يرعد ويظن أنهم قد فطنوا به وعرفوه وأنهم إنما يريدون أن يذهبوا به إلى ملكهم دقيانوس وجعل أناس يأتونه ويتعرفونه فلا يعرفونه فقال لهم وهو شديد الخوف منهم أفضلوا على قد أخذتم ورقى فأمسكوها وأما طعامكم فلا حاجة لى به فقالوا له يافتى من أنت وما شأنك والله لقد وجدت كنزا من كنوز الأولين وأنت تريد أن تخفيه منا انطلق معنا وأرناه وشاركنا فيه نخفف عليك ما وجدت وإنك إن لم تفعل نحملك إلى السلطان فنسلمك إليه فيقتلك فلما سمع قولهم قال والله قد وقعت فى كل شىء كنت أحذر منه فقالوا له يافتى إنك والله لاتستطيع أن تكتم ماوجدت وجعل تمليخا مايدرى مايقول لهم وخاف حتى لم يجر على لسانه إليهم شىء فلما رأوه لايتكلم أخذوا كساءه فطرحوه فى عنقه وجعلوا يسحبونه فى سكك المدينة حتى سمع به من فيها وقيل قد أخذ رجل معه كنز فاجتمع عليه أهل المدينة وجعلوا ينظرون إليه ويقولون والله ماهذا الفتى من أهل هذه المدينة وما رأيناه فيها قط وما نعرفه وجعل تمليخا لايدرى مايقول لهم وكان متيقنا أن أباه وإخوته بالمدينة وأنه من عظماء أهلها وأنهم سيأتونه إذا سمعوا به فبينما هو قائم كالحيران ينتظر متى يأتيه بعض أهله فيخلصه من أيديهم إذ اختطفوه وانطلقوا به إلى رئيسى المدينة ومدبريها اللذين يدبران أمرها وهما رجلان صالحان اسم أحدهما أريوس واسم الآخر طنطيوس فلما انطلقوا به إليهما ظن تمليخا أنه إنما ينطلق به إلى دقيانوس الجبار فجعل يلتفت يمينا وشمالا وهو يبكى والناس يسخرون منه كما يسخرون من المجنون ثم رفع رأسه إلى السماء وقال اللهم إله السماء وإله الأرض أفرغ على اليوم صبرا وأولج معى روحا منك تؤيدنى به عند هذا الجبار وجعل يقول فى نفسه فرقوا بينى وبين إخوتى ياليتهم يعلمون مالقيت وياليتهم يأتونى فنقوم جميعا بين يدى هذا الجبار فانا قد كنا تواثقنا على الإيمان بالله وأن لانشرك به أحدا أبدا ولانفترق فى حياة ولاموت فلما انتهى إلى الرجلين الصالحين أريوس وطنطيوس ورأى أنه لم يذهب إلى دقيانوس أفاق وذهب عنه البكاء وأخذ أريوس وطنطيوس الورقة ونظرا إليها وعجبا منها وقال أين الكنز الذى وجدت يافتى فقال تمليخا ماوجدت كنزا ولكن هذا ورق آبائى ونقش هذه المدينة وضربها ولكن والله ماأدرى ماشأنى وما أقول لكم فقال له أحدهما ممن أنت قال تمليخا أما أنا فكنت أرى أنى من أهل هذه المدينة فقيل له ومن أبوك ومن يعرفك بها فأخبرهم باسم أبيه فلم يوجد من يعرفه ولا

أباه فقال له أحدهما أنت رجل كذاب لاتنبئنا بالحق فلم يدر تمليخا مايقول غير أنه نكث بصره إلى الأرض فقال بعض من حوله هذا رجل مجنون وقال بعضهم ليس بمجنون ولكنه يحمق نفسه عمدا لكى ينفلت منكم فقال له أحدهما ونظر إليه نظرا شديدا أتظن إنا نرسلك ونصدقك بأن هذا مال أبيك ونقش هذه المدينة وضربها ولهذه الورقة أكثر من ثلاثمائة سنة وأنت غلام شاب أتظن أنك تأفكنا وتسخر بنا ونحن شيوخ شمط وحولك سراة هذه المدينة وولاة أمرها وخزائن هذه المدينة بأيدينا وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار وإنى لأظنى سآمر بك فتعذب عذابا شديدا ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز الذى وجدته فقال لهم تمليخا أخبرونى عما أسألكم عنه فان أنتم فعلتم صدقتكم عما عندى فقالوا له سل لانكتمك شيئا قال فما فعل الملك دقيانوس فقال ما نعرف على وجه الأرض من اسمه دقيانوس ولم يكن إلا ملك هلك فى الزمان الأول وله دهر طويل وهلك بعده قرون كثيرة فقال تمليخا أنى إذا لحيران وما يصدقنى أحد من الناس فيما أقول لقد كنا فتية على دين الواحد وأن الملك أكرهنا على عبادة الأصنام والذبح للطواغيت فهربنا منه عشية أمس فأتينا إلى الكهف الذى فى جبل ينجلوس فنمنا فيه فلما انتبهنا خرجت لاشترى لأصحابى طعاما وأتجسس الأخبار فاذا أنا معكم كما ترون فانطلقوا معى إلى الكهف أريكم أصحابى فلما سمع أريوس قول تمليخا قال ياقوم لعل هذه آية من آيات الله جعلها الله عز وجل لكم علي يد هذا الفتى فانطلقوا بنا معه حتى يرينا أصحابه فانطلق أريوس وطنطيوس ومعهما جميع أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو أصحاب الكهف لينظروا إليهم فلما رأى الفتية أصحاب الكهف تمليخا قد احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم عن القدر الذى كان يأتى فيه ظنوا أنه قد أخذ وذهب به إلى ملكهم دقيانوس فبينما هم يظنون ذلك ويتخوفونه إذ سمعوا الأصوات وجلبة الخيل مصعدة فظنوا أنهم رسل الجبار دقيانوس بعث بهم إليهم ليؤتى بهم فقاموا إلى الصلاة وسلم بعضهم على بعض وأوصى بعضهم بعضا وقالوا انطلقوا بنا نأت أخانا تمليخا فانه الآن بين يدى الجبار وهو ينتظرنا حتى نأتيه فبيناهم يقولون ذلك وهم جلوس على هذه الحالة إذ هم بأريوس وأصحابه وقوفا على باب الكهف فسبقهم تمليخا ودخل وهو يبكى فلما رأوه يبكى بكوا معه ثم سألوه عن خبره فقص عليهم الخبر كله فعرفوا أنهم كانوا نياما بأمر الله ذلك الزمن الطويل وإنما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقا للبعث وليعلموا أن الساعة لاريب فيها ثم دخل على أثر تمليخا أريوس فرأى تابوتا من نحاس مختوما بخاتم فضة فوقف على الباب ودعا جماعة من عظماء أهل المدينة وأمر بفتح التابوت بحضرتهم فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوبا فيهما مكسلمينا ومخشلمينا وتمليخا ومرطونس وكشطونس وبيرونس وديموس وبطيوس وقالوس والكلب اسمه قطمير كانوا فتية هربوا من ملكهم دقيانوس مخافة أن يفتنهم عن دينهم فدخلوا هذا الكهف فلما أخبر بمكانهم أمر بالكهف فسد عليهم بالحجارة وإنا كتبنا شأنهم وخبرهم ليعلمه من بعدهم إن عثر بهم فلما قرءوه عجبوا وحمدوا الله سبحانه وتعالى الذى أراهم آية تدلهم على البعث ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله وتسبيحه ثم دخلوا على الفتية الكهف فوجدوهم جلوسا مشرقة وجوههم لم تبل ثيابهم فخر أريوس وأصحابه سجدا لله وحمدوا الله سبحانه وتعالى الذى أراهم آية من آياته ثم كلم بعضهم بعضا وأخبرهم الفتية عن الذى لقوا من ملكهم

دقيانوس

دقيانوس ثم إن أربوس وأصحابه بعثوا بريدا إلى ملكهم الصالح بيدروس أن عجل لعلك تنظر إلى آية من آيات الله جعلها الله على ملكك للناس آية لتكون لهم نورا وضياء وتصديقا للبعث وذلك أن فتية بعثهم الله وقد كان توفاهم منذ ثلاثمائة سنة وأكثر فلما أتى الملك الخبر رجع عقله إليه وذهب همه وقال أحمدك اللهم رب السموات والأرض وأعبدك وأسبح لك تطولت على ورحمتنى ولم تطفىء النور الذى جعلته لآبائى وللعبد الصالح بيدروس الملك ثم أخبر بذلك أهل مدينته فركب وركبوا معه حتى أتوا مدينة أفسوس فتلقاهم أهلها وساروا معه نحو الكهف فلما صعد الجبل ورأى الفتية بيدروس فرح بهم وخر ساجدا على وجهه وقام بيدروس الملك قدامهم ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الأرض يسبحون الله ويحمدونه ثم قال الفتية لبيدروس الملك نستودعك الله والسلام عليك ورحمة الله وبركاته حفظك الله وحفظ ملكك ونعيذك بالله من شر الإنس والجن فبينما الملك قائم إذاهم رجعوا إلى مضاجعهم فناموا وتوفى الله أنفسهم فقام الملك إليهم وجعل ثيابهم عليهم وأمر أن يجعل كل رجل منهم فى تابوت من ذهب فلما أمسى ونام أتوه فى منامه فقالوا له إنا لم نخلق من ذهب ولا فضة ولكنا خلقنا من تراب وإلى التراب نصير فاتركنا كما كنا فى الكهف على التراب حتى يبعثنا الله تعالى منه فأمر الملك عند ذلك بتابوت من ساج فجعلوا فيه وحجبهم الله حين خرجوا من عندهم بالرعب ولم يقدر أحد أن يدخل عليهم وأمر الملك أن يتخذوا على باب الكهف مسجدا يصلى فيه وجعل لهم عيدا عظيما وأمر أن يؤتى كل سنة وقيل إن تمليخا حمل إلى الملك الصالح فقال له الملك من أنت قال أنا رجل من أهل هذه المدينة وذكر أنه خرج أمس أو منذ أيام وذكر منزله وأقواما لم يعرفهم أحد وكان الملك قد سمع أن فتية قد فقدوا فى الزمان الأول وإن أسماءهم مكتوبة على لوح فى خزانته فدعا باللوح ونظر فى أسمائهم فإذا اسمه مكتوب وذكر أسماء الآخرين فقال تمليخا هم أصحابى فلما سمع الملك ركب ومن معه من القوم فلما أتوا باب الكهف قال تمليخا دعونى حتى أدخل على أصحابى فأبشرهم فإنهم إن رأوكم معى أرعبتهم فدخل تمليخا فبشرهم فقبض الله روحه وأرواحهم وأعمى على الملك وأصحابه أثرهم فلم يهتدوا إليهم فذلك قوله عز وجل إذ أوى الفتية إلى الكهف أى صاروا إلى الكهف واسمه خيرم فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة أى هداية فى الدين وهيىء لنا أى يسر لنا من أمرنا رشدا أى ماتلتمس منه رضاك وما فيه رشدنا وقال ابن عباس أى مخرجا من الغار فى سلامة . قوله سبحانه وتعالى (فضربنا على آذانهم) أى ألقينا عليهم النوم وقيل منعنا نفوذ الأصوات إلى مسامعهم فان النائم إذا سمع الصوت ينتبه (فى الكهف سنين عددا) أى أنمناهم سنين كثيرة فان العدد يدل على الكثرة (ثم بعثناهم) أى من نومهم (لنعلم) أى علم مشاهدة وذلك أن الله عز وجل لم يزل عالما وإنما أراد ماتعلق به العلم من ظهور الأمر لهم ليزدادوا إيمانا واعتبلوا (أى الحزبين) أي الطائفتين (أحصى لما لبثوا أمدا) أى أحفظ لما مكثوا فى كهفهم نياما وذلك أن أهل المدينة تنازعوا فى مدة لبثهم فى الكهف . قوله تعالى (نحن نقص عليك نبأهم بالحق) أى نقرأ عليك خبر أصحاب الكهف بالحق أى بالصدق (إنهم فتية) أى شبان (آمنوا بربهم وزدناهم هدى) أى إيمانا وبصيرة (وربطنا على قلوبهم) أى شددنا على قلوبهم بالصبر والتثبيت وقويناهم بنور الإيمان حتى صبروا على هجران دار قومهم ومفارقة ما كانوا

وقال ابن عباس رشدا أى مخرجا من الغار فى سلامة (فضربنا على آذانهم) أى أنمناهم وألقينا عليهم النوم وقيل معناه منعنا نفوذ الأصوات إلى مسامعهم فان النائم إذا سمع الصوت ينتبه (فى الكهف سنين عددا) أى أنمناهم سنين معدودة وذكر العدد على سبيل التأكيد وقيل ذكره يدل على الكثرة فان القليل لا يعد فى العادة (ثم بعثناهم) يعنى من نومهم (لنعلم) أى علم المشاهدة (أى الحزبين) أى الطائفتين (أحصى لما لبثوا أمدا) وذلك أن أهل القرية تنازعوا فى مدة لبثهم فى الكهف واختلفوا فى قوله أحصى لما لبثوا أحفظ لما مكثوا فى كهفهم نياما أمدا أى غاية . وقال مجاهد عددا ونصبه على التفسير (نحن نقص عليك) نقرأ عليك (نبأهم) خبر أصحاب الكهف (بالحق) بالصدق (إنهم فتية) شبان (آمنوا بربهم وزدناهم هدى) إيمانا وبصيرة (وربطنا) ناشدد (على قلوبهم) بالصبز والتثبيت وقويناهم بنور الإيمان حتى صبروا على هجران دار قومهم ومفارقة

ما كانوا فيه من خفض العيش وفروا بدينهم إلى الكهف (إذ قاموا) بين يدى دقيانوس حين عاتبهم على ترك عبادة الصنم (فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعوا من دونه إلها) قالوا ذلك لأن قومهم كانوا يعبدون الأوثان (لقد قلنا إذا شططا) يعنى إن دعونا غير الله لقد قلنا إذا شططا قال ابن عباس جورا وقال قتادة كذبا وأصل الشطط والأشطاط مجاوزة القدر والإفراط (هؤلاء قومنا) يعنى أهل بلدهم (اتخذوا من دونه) أى من دون الله (آلهة) يعنى الأصنام يعبدونها (لولا) أى هلا (يأتون عليهم) أى على عبادتهم (بسلطان بين) بحجة واضحة (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) وزعم أن له شريكا أو ولدا ثم قال بعضهم لبعض (وإذ اعتزلتموهم) يعنى قومكم (وما يعبدون إلا الله) قرأ ابن مسعود وما يعبدون من دون الله وأما القراءة المعروفة فمعناها أنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه الأوثان يقول إذ اعتزلتموهم وجميع مايعبدون إلا الله فانكم لم تعتزلوا عبادته (فأووا إلى الكهف) فالجأوا إليه (ينشر لكم) يبسط لكم (ربكم من رحمته ويهيئ لكم) يسهل لكم (من أمركم مرفقا) أي مايعود إليه يسركم ورفقكم قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر مرفقا بفتح الميم وكسر الفاء وقرأ الآخرون بكسر الميم وفتح الفاء ومعناهما واحد وهو ما يرتفق به الإنسان قوله تعالى (وترى الشمس إذا طلعت تزاور) قرأ ابن عامر ويعقوب تزور بسكون الزاى وتشديد الراء على وزن تحمر وقرأ أهل الكوفة بفتح الزاى خفيفة وألف بعدها، وقرأ الآخرون بتشديد الزاى وكلها بمعنى واحد أى تميل وتعدل (عن كهفهم ذات اليمين) أى جانب اليمين (وإذا غربت تقرضهم) أى تتركهم وتعدل عنهم (ذات الشمال) أصل القرض القطع (وهم فى فجوة منه) أى متسع من الكهف وجمعها فجوات قال ابن قتيبة كان كهفهم مستقبل بنات نعش لاتقع فيه الشمس عند الطلوع ولاعند الغروب ولافيما بين ذلك قالوا اختار الله لهم مضطجعا فى مقناة لاتدخل عليهم الشمس فتؤذيهم بحرها وتغير ألوانهم وهم فى متسع ينالهم برد الريح ونسيمها ويدفع عنهم كرب الغار وغمومه وقال بعضهم هذا القول خطأ وهو أن الكهف كان مستقبل بنات نعش فكانت الشمس لاتقع عليهم ولكن الله صرف الشمس عنهم بقدرته وحال بينها وبينهم ألا ترى أنه قال (ذلك من آيات الله) من عجائب صنع الله ودلالات قدرته التى يعتبر بها (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل) أى من يضلله الله ولم يرشده (فلن تجد له وليا) معينا (مرشدا) قوله تعالى (وتحسبهم أيقاظا) أى منتبهين جمع يقظ ويقظ (وهم رقود) نيام جمع راقد مثل قاعد وقعود وإنما اشتبه حالهم لأنهم

عليه من خفض العيش وفروا بدينهم إلى الكهف (إذ قاموا) يعنى بين يدى دقيانوس الجبار حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام (فقالوا) أى الفتية (ربنا رب السموات والأرض لن ندعوا من دونه إلها) إنما قالوا ذلك لأن قومهم كانوا يعبدون الأصنام (لقد قلنا إذا شططا) قال ابن عباس يعنى جورا وقيل كذبا يعنى إن دعونا غير الله (هؤلاء قومنا) يعنى أهل بلدهم (اتخذوا من دونه) أى من دون الله (آلهة) يعنى أصناما يعبدونها (لولا) أى هلا (يأتون عليهم) أى على عبادة الأصنام (بسلطان بين) أى بحجة واضحة وفيه تبكيت لأن الإتيان بحجة على عبادة الأصنام محال (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) أى وزعم أنه له شريكا أو ولدا ثم قال بعضهم لبعض (وإذ اعتزلتموهم) يعنى قومكم (وما يعبدون إلا الله) وذلك أنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه الأصنام والمعنى وإذ اعتزلتموهم وجميع مايعبدون إلا الله فانكم لم تعتزلوا عبادته (فأووا إلى الكهف) أى الجؤا إليه (ينشر لكم) أى يبسط لكم (ربكم من رحمته ويهيء) أى يسهل (لكم من أمركم مرفقا) أى مايعود إليه يسركم ورفقكم. قوله سبحانه وتعالى (وترى الشمس إذا طلعت تزاور) أي تميل وتعدل (عن كهفهم ذات اليمين) أى جانب اليمين (وإذا غربت تقرضهم) أى تتركهم وتعدل عنهم (ذات الشمال وهم فى فجوة منه) أى متسع من الكهف (ذلك من آيات الله) أى من عجائب صنعه ودلالات قدرته وذلك أن ما كان فى ذلك السمت تصيبهم الشمس ولاتصيبهم اختصاصا لهم بالكرامة وقيل أن باب الكهف شمالى مستقبل لبنات نعش فهم فى مقناة أبدا لاتقع الشمس عليهم عند الطلوع ولاعند الغروب ولاعند الاستواء فتؤذيهم بحرها ولكن اختار الله لهم مضجعا فى متسع ينالهم فيه برد الريح ونسيمها ويدفع عنهم كرب الغار وغمه وعلى هذا القول يكون معنى قوله ذلك من آيات الله أى إن شأنهم وحديثهم من آيات الله (من يهد الله فهو المهتد) يعنى مثل أصحاب الكهف وفيه ثناء عليهم (ومن يضلل) أى ومن يضلله الله ولم يرشده (فلن تجد له وليا) أى معينا (مرشدا) أى يرشده. قوله سبحانه وتعالى (وتحسبهم) خطاب لكل أحد (أيقاظا) أى منتبهين لأن أعينهم مفتحة (وهم رقود) أى نيام

كانوا مفتحة أعينهم يتنفسون ولا يتكلمون (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) مرة للجنب الأيمن ومرة للجنب الأيسر قال ابن عباس كانوا يقلبون فى السنة مرة من جانب إلى جانب لئلا تأكل الأرض لحومهم وقيل كان يوم عاشوراء يوم تقلبهم وقال أبو هريرة كان لهم فى كل سنة تقلبتان (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) أكثر أهل التفسير على أنه كان من جلس الكلاب وروى عن ابن جريج أنه كان أسدا وسمى الأسد كلبا فان النبى صلى الله عليه وسلم دعا على عتبة بن أبى لهب فقال «اللهم سلط عليه كلبا من كلابك» فافترسه أسد والأول المعروف قال ابن عباس كان كلبا أغر ويروى عنه فوق القلطى ودون الكرزى والقلط كلب صينى وقال مقاتل كان أصفر وقال القرظى كانت شدة صفرته تضرب إلى الحمرة وقال الكلبى لونه كالخليج وقيل لون الحجر قال ابن عباس اسمه قطمير وعن على اسمه ريان وقال الأوزاعى يثور وقال السدى يور وقال كعب صهبا قال خالد بن معدان ليس فى الجنة شىء من الدواب سوى كلب أصحاب الكهف وحمار بلعام وقوله بالوصيد قال مجاهد والضحاك والوصيد فناء الكهف وقال عطاء الوصيد عتبة الباب وقال السدى الوصيد الباب وهو رواية عكرمة عن ابن عباس فان قيل لم يكن للكهف باب ولا عتبة قيل معناه موضع الباب والعتبة كأن الكلب قد بسط ذراعيه وجعل وجهه عليهم قال السدى كان أصحاب الكهف إذا انقلبوا انقلب الكلب معهم وإذا انقلبوا إلى اليمين كسر الكلب أذنه اليمنى ورقد عليها وإذا انقلبوا إلى الشمال كسر أذنه اليسرى ورقد عليها (لو اطلعت عليهم) يا محمد (لوليت منهم فرارا) لما ألبسهم الله من الهيبة حتى لا يصل إليهم أحد حتى يبلغ الكتاب أجله فيوقظهم الله تعالى من رقدتهم (ولملئت منهم رعبا) خوفا قرأ أهل الحجاز بتشديد اللام والآخرون بتخفيفها واختلفوا فى أن الرعب كان لما قيل من وحشة المكان وقال الكلبى لأن أعينهم كانت مفتحة كالمستيقظ الذى يريد أن يتكلم وهم نيام وقيل لكثرة شعورهم وطول أظفارهم ولتقلبهم من غير حس ولا شعور وقيل إن الله تعالى منعهم بالرعب لئلا يراهم أحد وروى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال غزونا مع معاوية نحو الروم فمررنا بالكهف الذى فيه أصحاب الكهف فقال معاوية لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم فقال ابن عباس رضى الله عنهم لقد منع ذلك من هو خير منك فقال لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا فبعث معاوية ناسا فقال اذهبوا فانظروا فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فأحرقتهم قوله تعالى (وكذلك بعثناهم) أى كما أنمناهم فى الكهف وحفظنا أجسادهم من البلى على طول الزمان فكذلك بعثناهم من النومة التى تشبه الموت (ليتساءلوا بينهم) ليسأل بعضهم بعضا واللام فيه لام العاقبة لأنهم لم يبعثوا للسؤال (قال قائل منهم) وهو رئيسهم مكسلمينا (كم لبثتم) فى نومكم وذلك أنهم استنكروا طول

نيام (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) قال ابن عباس كانوا يقلبون فى السنة مرة من جانب إلى جانب لئلا تأكل الأرض لحومهم قيل كانوا يقلبون فى يوم عاشوراء وقيل كانوا لهم فى السنة تقلبتان (وكلبهم باسط ذراعيه) قال ابن عباس كان كلبا أغر وعنه أنه كان فوق القلطى ودون الكرزى والقلطى كلب صينى وقيل كان أصفر وقيل كان شديد الصفرة يضرب إلى حمرة وقال ابن عباس كان اسمه قطمير وقيل ريان وقيل صهبان قيل ليس فى الجنة دواب سوى كلب أصحاب الكهف وحمار بلعام (بالوصيد) أى فناء الكهف وقيل عتبة الباب وكان الكلب قد بسط ذراعيه وجعل وجهه عليهم قيل كان ينقلب مع أصحابه فاذا انقلبوا ذات اليمين كسر الكلب أذنه اليمنى ورقد عليها وإذا انقلبوا ذات الشمال كسر أذنه اليسرى ورقد عليها (لو اطلعت عليهم) يا محمد (لوليت منهم فرارا) وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة حتى لا يصل إليهم أحد حتى يبلغ الكتاب أجله فيوقظهم الله من رقدتهم (ولملئت منهم رعبا) أى خوفا من وحشة المكان وقيل لأن أعينهم مفتحة كالمتيقظ الذى يريد أن يتكلم وهم نيام وقيل لكثرة شعورهم وطول أظفارهم ولتقلبهم من غير حس ولا إشعار وقيل إن الله سبحانه وتعالى منعهم بالرعب لئلا يراهم أحد قال ابن عباس غزونا مع معاوية نحو الروم فمررنا بالكهف الذى فيه أصحاب الكهف فقال معاوية لو كشف الله لنا عن هؤلاء لنظرنا إليهم فقال ابن عباس قد منع ذلك من هو خير منك فقيل له لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا فبعث معاوية ناسا فقال اذهبوا فانظروا فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فأحرقتهم . قوله سبحانه وتعالى (وكذلك بعثناهم) يعنى كما أنمناهم فى الكهف وحفظنا أجسامهم من البلى على طول الزمان بعثناهم من النومة التى تشبه الموت (ليتساءلوا بينهم) أى ليسأل بعضهم بعضا (قال قائل منهم) وهو رئيسهم وكبيرهم مكسلمينا (كم لبثتم) أى فى نومكم وذلك أنهم استنكروا طول نومهم

لومهم ويقال إنهم راعهم مافاتهم من الصلاة فقالوا ذلك (قالوا لبثنا يوما) وذلك انهم دخلوا الكهف غدوة فانتبهوا حين انتبهوا عشية فقالوا لبثنا يوما ثم نظروا وقد بقيت من الشمس بقية فقالوا (أو بعض يوم) فلما نظروا إلى شعورهم وأظفارهم علموا أنهم لبثوا أكثر من يوم (قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) وقيل إن رئيسهم مكسلمينا لما سمع الاختلاف بينهم ؟ قال دعوا الاختلاف ربكم أعلم بما لبثتم (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه) يعنى تمليخا قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر بورقكم ساكنة الراء والباقون بكسرها ومعناهما واحد وهى الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة (إلى المدينة) قيل هى طرسوس وكان اسمها فى الجاهلية أفسوس فسموها فى الإسلام طرسوس (فلينظر أيها أزكى طعاما) أى أحل طعاما حتى لايكون من غصب أوسبب حرام وقيل أمروه أن يطلب ذبيحة مؤمن ولايكون من ذبيحة من يذبح لغير الله وكان فيهم مؤمنون يخفون إيمانهم وقال الضحاك أطيب طعاما وقال مقاتل بن حيان أجود طعاما وقال عكرمة أكثر وأصل الزكاة الزيادة وقيل أرخص طعاما (فليأتكم برزق منه) أى قوت وطعام تأكلونه (وليتلطف) وليترفق فى الطريق وفى المدينة وليكن فى ستر وكتمان (ولا يشعرن) ولا يعلمن (بكم أحدا) من الناس (إنهم أن يظهروا عليكم) أى يعلموا بمكانكم (يرجموكم) قال ابن جريج يشتموكم ويؤذوكم بالقول وقيل يقتلوكم وقيل كان من عادتهم القتل بالحجارة وهو أخبث القتل وقيل يضربوكم (أو يعيدوكم فى ملتهم) أى إلى الكفر (ولن تفلحوا إذا أبدا) إن عدتم إليه قوله عز وجل (وكذلك أعثرنا) أى اطلعنا (عليهم) يقال عثرت على الشىء إذا اطلعت عليه وأعثرت غيرى أى أطلعته (ليعلموا أن وعد الله حق) يعنى أصحاب بيدروس الذين أنكروا البعث (وأن الساعة لاريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم) قال ابن عباس يتنازعون فى البنيان فقال المسلمون نبنى عليهم مسجدا يصلى فيه الناس لأنهم على ديننا وقال المشركون نبنى عليهم بنيانا لأنهم من أهل نسبنا وقال عكرمة تنازعوا فى البعث فقال المسلمون البعث للأجساد والأرواح وقال قوم للأرواح دون الأجساد فبعثهم الله تعالى وأراهم أن البعث للأجساد والأرواح وقيل تنازعوا فى مدة لبثهم وقيل فى عددهم (فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم) بيدروس الملك وأصحابه (لنتخذن عليهم مسجدا سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم) روى أن السيد والعاقب وأصحابهما من نصارى أهل نجران

وقيل إنهم راعهم مافاتهم من الصلاة فقالوا ذلك (قالوا لبثنا يوما) ثم نظروا فوجدوا الشمس قد بقى منها بقية فقالوا (أو بعض يوم) فلما نظروا إلى طول شعورهم وأظفارهم علموا أنهم لبثوا أكثر من يوم (قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) وقيل إن مكسلمينا لما سمع الاختلاف بينهم قال دعوا الاختلاف ربكم أعلم بما لبثتم (فابعثوا أحدكم) يعنى تمليخا (بورقكم) هى الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة (هذه إلى المدينة) قيل هى ترسوس وكان اسمها فى الزمن الأول قبل الإسلام أفسوس (فلينظر أيها أزكي طعاما) أى أحل طعاما وقيل أمروه أن يطلب ذبيحة مؤمن ولا تكون من ذبح من يذبح لغير الله وكان فيهم مؤمنون يخفون إيمانهم وقيل أطيب طعاما وأجود وقيل أكثر طعاما وأرخصه (فليأتكم برزق منه) أى قوت وطعام تأكلونه (وليتلطف) أى وليترفق فى الطريق وفى المدينة وليكن فى ستر وكتمان (ولا يشعرن) أى ولا يعلمن (بكم أحدا) أى من الناس (إنهم إن يظهروا عليكم) أى يعلموا بمكانكم (يرجموكم) قيل معناه يشتموكم ويؤذوكم بالقول وقيل يقتلوكم وكان من عادتهم القتل بالحجارة وهو أخبث القتل وقيل يعذبوكم (أو يعيدوكم فى ملتهم) أى الكفر (ولن تفلحوا إذا أبدا) أى إن عدتم إليه . قوله عز وجل (وكذلك أعثرنا عليهم) أى أطلعنا الناس عليهم (ليعلموا أن وعد الله حق) يعنى قوم بيدروس الذين أنكروا البعث (وأن الساعة لاريب فيها) أى لاشك فيها أنها آتية (إذ يتنازعون بينهم أمرهم) قال ابن عباس فى البنيان فقال المسلمون نبنى عليهم مسجدا يصلى فيه الناس لأنهم على ديننا وقال المشركون نبنى بنيانا لأنهم على ملتنا وقيل كان تنازعهم فى البعث فقال المسلمون تبعث الأجساد والأرواح وقال قوم تبعث الأرواح فأراهم الله آية وأن البعث للأرواح والأجساد وقيل تنازعوا فى مدة لبثهم وقيل فى عددهم (فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم) يعنى بيدروس وأصحابه (لنتخذن عليهم مسجدا) قوله تعالى (سيقولون ثلاثة رابعهم) روى أن السيد والعاقب وأصحابهما من نصارى نجران كانوا عند النبى صلى الله عليه وسلم فجرى ذكر أصحاب الكهف عندهم فقال السيد وكان يعقوبيا كانوا ثلاثة رابعهم (كلبهم ويقولون)

كانوا عند النبى صلى الله عليه وسلم فجرى ذكر أصحاب الكهف فقال السيد وكان يعقوبيا كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم وقال العاقب وكان نسطوريا كانوا خمسة سادسهم كلبهم وقال المسلمون كانوا سبعة وثامنهم كلبهم فحقق الله قول المسلمين بعد ماحكى قول النصارى فقال سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم (ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب) أى ظنا وحدسا من غير يقين ولم يقل هذا فى حق السبعة فقال (ويقولون) يعنى المسلمين (سبعة وثامنهم كلبهم) اختلفوا فى الواو فى قوله : وثامنهم قيل تركها وذكرها سواء وقيل هى واو الحكم والتحقيق كأنه حكى اختلافهم وتم الكلام عند قوله ويقولون سبعة ثم حقق هذا القول بقوله وثامنهم كلبهم والثامن لايكون إلا بعد السابع وقيل هذه واو الثمانية وذلك أن العرب تعد فتقول واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة وثمانية لأن العقد كان عندهم سبعة كما هو اليوم عندنا عشرة نظيره قوله تعالى : «التائبون العابدون الحامدون إلى قوله والناهون عن المنكر» وقال فى أزواج **(٢٠٧)** النبى صلى الله عليه وسلم «عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا» (قل ربى أعلم بعدتهم) أى بعددهم (ما يعلمهم إلا قليل) أى إلا قليل من الناس قال ابن عباس إنا من القليل كانوا سبعة وقال محمد بن إسحاق كانوا ثمانية) وقرأ وثامنهم كلبهم أى حافظهم والصحيح هو الأول وروى عن ابن عباس أنه قال هم مكسلمينا وتمليخا ومرطونس وبينونس وسارينونس وذونوانس وكشفيططنونس وهو الراعى والكلب قطمير (فلا تمار فيهم) أى لا تجادل ولا تقل فى عددهم وشأنهم (إلا مراء ظاهرا) إلا بظاهر ماقصصنا عليك يقول حسبك ماقصصت عليك فلا تزد عليه وقف عنده (ولا تستفت فيهم منهم) من أهل الكتاب (أحدا) أى لاترجع إلى قولهم بعد أن أخبرناك (ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) يعنى إذا عزمت على أن تفعل غدا شيئا فلاتقل أفعل غدا حتى تقول إن شاء الله وذلك أن أهل مكة سألوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين فقال أخبركم غدا ولم يقل إن شاء الله فلبث الوحى أياما ثم نزلت هذه الآية (واذكر ربك إذا نسيت) قال ابن عباس ومجاهد والحسن معناه إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثن وجوز ابن عباس الاستثناء المنقطع وإن كان إلى سنة وجوزه الحسن مادام فى المجلس وجوزه بعضهم إذا قرب الزمان فان بعد فلايصح ولم يجوزه جماعة حتى يكون الكلام متصلا بالكلام وقال عكرمة معنى الآية واذكر ربك إذ غضبت وقال وهب مكتوب فى الإنجيل «ابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب» وقال الضحاك والسدى هذا فى الصلاة أخبرنا عبد الواحد المليحى

ويقولون) أى وقال العاقب وكان نسطوريا (خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون) وقال المسلمون (سبعة وثامنهم كلبهم) فحقق الله قول المسلمين وإنما عرفوا ذلك بأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم على لسان جبريل صلى الله عليه وسلم بعد ماحكى قول النصارى أولا ثم أتبعه بقوله سبحانه وتعالى رجما بالغيب أى ظنا وحدسا من غير يقين ولم يقل ذلك فى السبعة وتخصيص الشىء بالوصف يدل على أن الحال فى الباقى بخلافه فوجب أن يكون المخصوص بالظن هو قول النصارى وأن يكون قول المسلمين مخالفا لقول النصارى فى كونه رجما بالغيب وظنا ثم أتبعه بقوله سبحانه وتعالى (قل ربى أعلم بعدتهم مايعلمهم إلا قليل) هذا هو الحق لأن العلم بتفاصيل العوالم والكائنات فيه فى الماضى والمستقبل لايكون إلا لله تعالى أو من أخبره الله سبحانه وتعالى بذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما أنا من أولئك القليل كانوا سبعة وهم مكسلمينا (١) وتمليخا ومرطونس وبينونس وسارينوس ودنوانس وكشفيططنونس وهو الراعى واسم كلبهم قطمير (فلا تمار فيهم) أى لاتجادل ولاتقل فى عددهم وشأنهم (إلا مراء ظاهرا) أى إلا بظاهر ماقصصنا عليك فقف عنده ولا تزد عليه (ولا تستفت فيهم) أى فى أصحاب الكهف (منهم) أى من أهل الكتاب (أحدا) أى لاترجع إلى قول أحد منهم بعد أن أخبرناك قصتهم . قوله سبحانه وتعالى (ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) يعنى إذا عزمت على فعل شىء غدا فقل إن شاء الله ولا تقله بغير استثناء وذلك أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين فقال أخبركم غدا ولم يقل إن شاء الله فلبث الوحى أياما ثم نزلت هذه الآية وقد تقدمت القصة فى سورة بنى إسرائيل (واذكر ربك إذا نسيت) قال ابن عباس معناه إذا نسيت الاستثناء ثم

(١) قوله مكسلمينا وقع اختلاف كبير فى أسمائهم وذكر فى القاموس فى ذلك ثلاثة أقوال فليراجع .

أنبأنا الحسن بن أحمد المخلدى ثنا عبد الواحد أبو العباس السراج ثنا قتيبة ثنا أبو عوانة عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها» (وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا) أى يثبتنى على طريق هو أقرب إليه وأرشد وقيل أمر الله نبيه أن يذكره إذا نسى شيئا ويسأله أن يهديه لما هو خير له من ذكر ما نسيه ويقال هو إن القوم لما سألوه عن قصة أصحاب الكهف على وجه العناد أمره الله عز وجل أن يخبرهم أن الله سيؤتيه من الحجج على صحة نبوته ماهو أدل لهم من قصة أصحاب الكهف وقد فعل حيث آتاه من علم غيب حال المرسلين ما كان أوضح لهم فى الحجة وأقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف، وقال بعضهم هذا شىء أمر أن يقوله مع قوله إن شاء الله إذا ذكر الاستثناء بعد النسيان وإذا نسى الإنسان إن شاء الله فتوبته من ذلك أن يقول عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا قوله عز وجل (ولبثوا فى كهفهم) يعنى أصحاب الكهف قال بعضهم هذا خبر عن أهل الكتاب أنهم قالوا ذلك ولو كان خبرا من الله عز وجل عن قدر لبثهم لم يكن لقوله قل الله أعلم بما لبثوا وجه، وهذا قول قتادة ويدل عليه قراءة ابن مسعود وقالوا لبثوا فى كهفهم ثم رد الله تعالى عليهم فقال قل الله أعلم بما لبثوا وقال الآخرون هذا إخبار من الله تعالى عن قدر لبثهم فى الكهف وهو الأصح وأما قوله «قل الله أعلم بما لبثوا» فمعناه أن الأمر من مدة لبثهم كما ذكرنا فان نازعوك فيها فأجبهم وقل الله أعلم بما لبثوا أى هو أعلم منكم وقد أخبر بمدة لبثهم وقيل إن أهل الكتاب قالوا إن هذه المدة من لدن دخلوا الكهف إلى يومنا هذا ثلاثمائة وتسع سنين فرد الله عليهم وقال قل الله أعلم بما لبثوا يعنى بعد قبض أرواحهم إلى يومنا هذا لا يعلمه إلا الله وتعالى قوله تعالى (ثلاث مائة سنين) قرأ حمزة والكسائى ثلاث مائة بلا تنوين وقرأ الآخرون بالتنوين فان قيل لم قال ثلاثمائة سنين ولم يقل سنة وقيل نزل قوله ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة فقالوا أياما أو شهورا أو سنين فنزلت سنين قال الفراء ومن العرب من يضع سنين فى موضع سنة وقيل معناه ولبثوا فى كهفهم سنين ثلاثمائة (وازدادوا تسعا) قال الكلبى قالت نصارى نجران أما ثلاثمائة فقد عرفنا وأما التسع فلا علم لنا بها فنزلت (قل الله أعلم بما لبثوا) روى عن على أنه قال عند أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة شمسية والله تعالى ذكر ثلاثمائة قمرية والتفاوت بين الشمسية والقمرية فى كل مائة سنة ثلاث

(٢٠٨)

ذكرت فاستثن وجوز ابن عباس الاستثناء المنقطع وإن كان بعد سنة وجوزه الحسن مادام فى المجلس وجوزه بعضهم إذا قرب الزمان فان بعد لم يصح ولم يجوزه جماعة حتى يكون الكلام متصلا بالاستثناء وقيل فى معنى الآية واذكر ربك إذا غضبت قال وهب مكتوب فى التوراة والإنجيل ابن آدم «اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب» وقيل الآية فى الصلاة يدل عليه ماروى عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من نسى صلاة فليصلها إذ ذكرها» قال تعالى «أقم الصلاة لذكرى» متفق عليه زاد مسلم أو نام عنها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها (وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا) أى يثبتنى على طريق هو أقرب إليه وأرشد وقيل إن الله سبحانه وتعالى أمره أن يذكره إذا نسى شيئا ويسأله أن يذكره أو يهديه لما هو خير له من أن يذكر مانسى وقيل إن القوم لما سألوه عن قصة أصحاب الكهف على وجه العناد أمره الله سبحانه وتعالى أن يخبرهم أن الله سبحانه وتعالى سيؤتيه من الحجج على صحة نبوته ماهو أدل لهم من قصة أصحاب الكهف وقد فعل حيث آتاه من علم غيب المرسلين وقصصهم ماهو أوضح وأقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف وقيل هذا شىء أمره الله أن يقوله مع قوله إن شاء الله إذا ذكر الاستثناء بعد النسيان وإذا نسى الإنسان قوله إن شاء الله فتوبته من ذلك أن يقول مع قوله إن شاء الله عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشدا. قوله عز وجل (ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا) قيل هذا خبر عن قول أهل الكتاب ولو كان خبرا من الله عن قدر لبثهم لم يكن لقوله قل الله أعلم بما لبثوا وجه ولكن الله رد قولهم بقوله (قل الله أعلم بما لبثوا) والأصح أنه إخبار من الله تعالى عن قدر لبثهم فى الكهف ويكون معنى قوله قل الله أعلم بما لبثوا يعنى إن نازعوك فى مدة لبثهم فى الكهف فقل أنت الله أعلم بما لبثوا أى هو أعلم منكم وقد أخبر بمدة لبثهم وقيل إن أهل الكتاب قالوا إن المدة من حين دخلوا الكهف إلى يومنا هذا وهو اجتماعهم بالنبى صلى الله عليه وسلم ثلاثمائة وتسع سنين فرد الله عليهم بذلك وقال قل الله أعلم بما لبثوا يعنى بعد قبض أرواحهم إلى يومنا هذا لا يعلمه إلا الله. فان قلت لم قال سنين ولم يقل سنة. قلت قيل لما نزل قوله سبحانه

سنين فيكون فى ثلاث مائة تسع سنين فلذلك قال وازدادوا تسعا (له غيب السموات والأرض) فالغيب مايغيب عن إدراكك والله عز وجل لا يغيب عن إدراكه شيء (أبصر به وأسمع) أى ما أبصر الله بكل موجود وأسمعه لكل مسموع أى لايغيب عن سمعه وبصره شيء (مالهم) أى ما لأهل السموات والأرض (من دونه) أى من دون الله (من ولى) ناصر (ولا يشرك فى حكمه أحدا) قرأ ابن عامر ويعقوب ولا تشرك بالتاء على المخاطبة والنهى وقرأ الآخرون بالياء أى لايشرك الله فى حكمه أحدا وقيل الحكم هاهنا علم الغيب أى لايشرك فى علم غيبه أحدا قوله عز وجل (٢٠٩) (واتل) أى واقرأ يامحمد

وتعالى «ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة» فقالوا أياما او شهورا أو سنين فنزلت سنين على وفق قولهم وقيل هو تفسير لما أجمل فى قوله فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا وازدادوا تسعا وقيل قالت نصارى نجران أما ثلاث مائة فقد عرفناها وأما التسع فلا علم لنا بها فنزلت قل الله أعلم بما لبثوا وقيل إن عند أهل الكتاب لبثوا ثلاث مائة سنة شمسية والله سبحانه وتعالى ذكر ثلاث مائة سنة وتسع سنين قمرية والتفاوت بين القمرية والشمسية فى كل مائة سنة ثلاث سنين فتكون الثلاث مائة الشمسية ثلاث مائة وتسع سنين قمرية (له غيب السموات والأرض) يعنى أنه سبحانه وتعالى لايخفى عليه شيء من أحوال أهلها فانه العالم وحده به فكيف يخفى عليه حال أصحاب الكهف (أبصر به وأسمع) معناه ما أبصر الله بكل موجود وأسمعه بكل مسموع لايغيب عن سمعه وبصره شيء يدرك البواطن كما يدرك الظواهر والقريب والبعيد والمحجوب وغيره لاتخفى عليه خافية (مالهم) أى ما لأهل السموات والأرض (من دونه) أى من دون الله (من ولى) أى ناصر (ولا يشرك فى حكمه أحدا) قيل معناه لايشرك الله فى علم غيبه أحداً وقيل فى قضائه . قوله تعالى (واتل) أى واقرأ يامحمد (ما أوحى إليك من كتاب ربك) يعنى القرآن واتبع مافيه واعمل به (لامبدل لكلماته) أى لامغير للقرآن ولا يقدر أحد على التطرق إليه بتغيير أو تبديل . فان قلت موجب هذا أن لايتطرق النسخ إليه . قلت النسخ فى الحقيقة ليس بتبديل لأن المنسوخ ثابت فى وقته إلى وقت طريان الناسخ فالناسخ كالمغاير فكيف يكون تبديلا وقيل معناه لامغير لما أوعد الله بكلماته أهل معاصيه (ولن تجد من دونه) أى من دون الله إن لم تتبع القرآن (ملتحدا) أى ملجأ وحرزا تعدل إليه . قوله عز وجل (واصبر نفسك) الآية نزلت فى عيينة بن حصن الفزارى أتى النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم وعنده جماعة من الفقراء ومنهم سلمان وعليه شملة صوف قد عرق فيها وبيده خوص يشقه وينسجه فقال عيينة للنبى صلى الله عليه وسلم أما يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مضر وأشرافها إن أسلمنا أسلم الناس وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء فنحهم حتى نتبعك أو اجعل لنا مجلسا فأنزل الله عز وجل واصبر نفسك أى احبس يا محمد نفسك (مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) يعنى طرفى النهار (يريدون وجهه) أى يريدون وجه الله لا يريدون عرض الدنيا وقيل نزلت فى أصحاب الصفة وكانوا سبعمائة رجل فقراء فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرجعون إلى تجارة ولا إلى زرع ولا ضرع يصلون صلاة وينتظرون أخرى فلما نزلت هذه الآية قال النبى صلى الله عليه وسلم والحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرت أن أصبر نفسى معهم» (ولا تعد)

(ما أوحى إليك من كتاب ربك) يعنى القرآن واتبع مافيه (لامبدل لكلماته) قال الكلبى لا مغير للقرآن وقيل لا مغير لما أوعد بكلماته أهل معاصيه (ولن تجد) أنت (من دونه) إن لم تتبع القرآن (ملتحدا) قال ابن عباس رضى الله عنهما حرزا وقال الحسن مدخلا وقال مجاهد ملجأ وقيل معدلا وقيل مهربا وأصله من الميل قوله عز وجل (واصبر نفسك) الآية نزلت فى عيينة بن حصن الفزارى أتى النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم وعنده جماعة من الفقراء فيهم سلمان وعليه شملة قد عرق فيها وبيده خوصة يشقها ثم ينسجها فقال عيينة للنبى صلى الله عليه وسلم أما يؤذيك ريح هؤلاء

ونحن سادات مضر وأشرافها فان أسلمنا أسلم الناس وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء فنحهم حتى نتبعك أو اجعل لنا مجلسا ولهم مجلسا فأنزل الله عز وجل واصبر نفسك أى احبس يا محمد نفسك (مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) طرفى النهار (يريدون وجهه) أى يريدون الله لا يريدون به عرضا من الدنيا قال قتادة نزلت فى أصحاب الصفة وكانوا سبعمائة رجل فقراء فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرجعون إلى تجارة ولا إلى زرع ولا ضرع يصلون صلاة وينتظرون أخرى فلما نزلت هذه الآية قال النبى صلى الله عليه وسلم «الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرت أن أصبر نفسى معهم» (ولا تعد) أى لا تصرف ولا تتجاوز

(عينَاكَ عنهم) إلى غيرهم (تريد زينة الحياة الدنيا) أى تطلب مجالسة الأغنياء والأشراف وصحبة أهل الدنيا (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) أى جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا يعنى عيينة بن حصن وقيل أمية بن خلف (واتبع هواه) أى مراده فى طلب الشهوات (وكان أمره فرطا) قال قتادة ومجاهد ضياعا وقيل معناه ضيع أمره وعطل أيامه وقيل ندما وقال مقاتل بن حيان سرفا وقال الفراء متروكا وقيل باطلا وقيل مخالفا للحق وقال الأخفش مجاوزا للحد قيل معنى التجاوز فى الحد هو قول عيينة إن أسلمنا أسلم الناس وهذا إفراط عظيم (وقل الحق من ربكم) أى ماذكر من الإيمان والقرآن معناه قل يامحمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا أيها الناس الحق من ربكم وإليه التوفيق والخذلان وبيده الهدى والضلال ليس إلى من ذلك شئ (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) هذا على طريق التهديد والوعيد كقوله اعملوا ماشئتم وقيل معنى الآية وقل الحق من ربكم ولست بطارد المؤمنين لهواكم فان شئتم (٢١٠) فآمنوا وإن شئتم فاكفروا فان كفرتم فقد أعد لكم ربكم نارا أحاط بكم سرادقها وإن آمنتم فلكم ما وصف الله عز وجل لأهل طاعته وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى معنى الآية من شاء الله له الإيمان آمن ومن شاء الله له الكفر كفر وهو قوله «وما تشاءون إلا أن يشاء الله» (إنا اعتدنا) أعددنا وهيأنا من العتاد وهو العدة (للظالمين) للكافرين (نارا أحاط بهم سرادقها) السرادق الحجزة التى تطيف بالفساطيط أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله ابن أبى توبة أنبأنا محمد ابن أحمد بن الحارث أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائى أنبأنا عبد الله ابن محمود أنبأنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أنبأنا عبد الله بن المبارك عن رشدين بن سعد حدثنى عمرو بن الحارث عن دراج بن أبى السمح عن أبى الهيثم بن عبد الله عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ أنه قال «سرادق النار أربعة جدر كثف كل جدار مثل مسيرة أربعين سنة» قال ابن عباس هو حائط من نار وقال الكلبى هو عنق يخرج من النار فيحيط بالكفار كالحظيرة، وقيل هو دخان يحيط بالكفار وهو الذى ذكره الله تعالى «انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب» (وإن يستغيثوا) من شدة العطش (يغاثوا بماء كالمهل) أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبى توبة أنبأنا محمد بن أحمد بن الحارث أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائى أنبأنا عبد الله بن محمود أنبأنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن رشدين بن سعد ثنا عمرو بن الحارث عن دراج بن أبى السمح عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال «بماء كالمهل قال كعكر الزيت فاذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه» وقال ابن عباس هو ماء غليظ مثل دردى الزيت وقال مجاهد هو القيح والدم وسئل ابن مسعود عن المهل فدعا بذهب وفضة فأوقد عليهما النار حتى ذابا ثم قال هذا أشبه شىء بالمهل (يشوى الوجوه) ينضج الوجوه من حره (بئس الشراب وساءت) النار (مرتفقا)

أى لا تصرف ولا تجاوز (عيناك عنهم) إلى غيرهم (تريد زينة الحياة الدنيا) أى تطلب مجالسة الأغنياء والأشراف وصحبة أهل الدنيا (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) أى جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا يعنى عيينة بن حصن وقيل أمية بن خلف (واتبع هواه) أى فى طلب الشهوات (وكان أمره فرطا) ضياعا ضيع أمره وعطل أيامه وقيل ندما وقيل سرفا وباطلا وقيل مخالفا للحق (وقل الحق من ربكم) أى قل يامحمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا من ربكم الحق وإليه التوفيق والخذلان وبيده الهدى والضلال ليس إلى من ذلك شىء (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) هذا على طريق التهديد والوعيد كقوله «اعملوا ماشئتم» وقيل معنى الآية وقل الحق من ربكم أى لست بطارد المؤمنين لهواكم فان شئتم فآمنوا وإن شئتم فاكفروا فان كفرتم فقد أعد لكم ربكم نارا وإن آمنتم فلكم ما وصف الله لأهل طاعته، وعن ابن عباس فى معنى الآية من شاء الله له الإيمان آمن ومن شاء له الكفر كفر (إنا أعتدنا) أى هيأنا من العتاد وهو العدة (للظالمين) أى الكافرين (نارا أحاط بهم سرادقها) السرادق الحجزة التى تطيف بالفساطيط عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم «قال سرادق النار أربعة جدر كثف كل جدار أربعون سنة» أخرجه الترمذى قال ابن عباس هو حائط من نار وقيل هو عنق يخرج من النار فيحيط بالكفار كالحظيرة وقيل هو دخان يحيط بالكفار (وإن يستغيثوا) أى من شدة العطش (يغاثوا بماء كالمهل) قال ابن عباس هو ماء غليظ مثل دردى الزيت عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى قوله سبحانه وتعالى «بماء كالمهل قال كعكر الزيت فاذا قرب إليه سقطت فروة وجهه منه» أخرجه الترمذى وقال رشدين أحد رواة الحديث قد تكلم فيه من قبل حفظه الفروة جلدة الوجه وقيل المهل الدم والقيح وقيل هو الرصاص والصفر المذاب (يشوى الوجوه) أى ينضج الوجوه من حره (بئس الشراب) أى ذلك الذى يغاثون به (وساءت) أى النار (مرتفقا) قال ابن عباس رضى الله عنهما منزلا

قال ابن عباس منزلا وقال مجاهد مجتمعا وقال عطاء مقرا وقال القتيبي مجلسا وأصل المرتفق المتكأ قوله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملا) فان قيل أين جواب قوله إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات قيل جوابه قوله أولئك لهم جنات عدن تجرى وأما قوله إنا لانضيع فكلام معترض وقيل فيه إضمار معناه : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فانا لانضيع أجرهم بل نجازيهم ثم ذكر الجزاء فقال (أولئك لهم جنات عدن) أى إقامة يقال عدن فلان بالمكان إذا أقام به سميت عدنا لخلود المؤمنين فيها (تجرى من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب) قال سعيد بن جبير يحلى كل واحد منهم ثلاثة أساور واحد من ذهب وواحد من فضة وواحد من لؤلؤ ويواقيت (ويلبسون ثيابا خضرا من سندس) وهو مارق من الديباج (وإستبرق) وهو ماغلظ منه ومعنى الغلظ فى ثياب الجنة إحكامه وعن أبى عمران الجونى قال السندس هو الديباج المنسوج بالذهب (متكئين فيها) فى الجنان (على الأرائك) وهى السرر فى الحجال واحدتها أريكة (نعم الثواب) أى نعم الجزاء (وحسنت) الجنان (مرتفقا) أى مجلسا ومقرا (واضرب لهم مثلا رجلين) الآية قيل نزلت فى أخوين من أهل مكة من بنى مخزوم أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن عبد ياليل وكان زوج أم سلمة قبل النبى صلى الله عليه وسلم والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد ابن عبد ياليل وقيل هذا مثل لعيينة بن حصن وأصحابه مع سلمان وأصحابه شبههما برجلين من بنى إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا فى قول ابن عباس وقال مقاتل تمليخا والآخر كافر واسمه قطروس وقال وهب قطفير وهما اللذان وصفهما الله تعالى فى سورة والصافات وكانت قصتهما على ماحكى عبد الله بن المبارك عن معمر عن عطاء الخراسانى قال كان رجلان شريكين لهما ثمانية آلاف دينار وقيل كانا أخوين ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فاقتسماها فعمد أحدهما فاشترى أرضا بألف دينار فقال صاحبه اللهم إن فلانا قد اشترى أرضا بألف دينار فانى أشترى منك أرضا فى الجنة بألف دينار فتصدق بألف دينار ثم إن صاحبه بنى دارا بألف دينار فقال هذا اللهم إن فلانا بنى دارا بألف دينار فانى أشترى منك دارا فى الجنة بألف دينار فتصدق بذلك ثم تزوج صاحبه امرأة فأنفق عليها ألف دينار فقال هذا المؤمن اللهم إنى أخطب إليك امرأة من نساء الجنة بألف دينار فتصدق بألف دينار ثم اشترى صاحبه خدما ومتاعا بألف دينار فقال هذا اللهم إنى أشترى منك متاعا وخدما فى الجنة بألف دينار فتصدق بألف دينار ثم أصابته حاجة شديدة فقال لو أتيت صاحبى لعله ينالنى منه معروف فجلس على طريقه حتى مر به فى حشمه فقام إليه

وقيل مجتمعا وأصل المرتفق المتكأ وإنما جاء كذلك لمشاكلة قوله وحسنت مرتفقا وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا متكأ . قوله عز وجل (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملا) أى لانترك أعمالهم تذهب ضياعا بل نجازيهم بأعمالهم الصالحة وقيل إن قوله إنا لانضيع أجر من أحسن عملا كلام معترض وتقديره إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات (أولئك لهم جنات عدن) أى دار إقامة سميت عدنا لخلود المؤمنين فيها (تجرى من تحتهم الأنهار) وذلك لأن أفضل المساكن ما كان يجرى فيه الماء (يحلون فيها من أساور من ذهب) قيل يحلى كل إنسان منهم ثلاثة أساور سوار من ذهب لهذه الآية وسوار من فضة لقوله تعالى «وحلوا أساور من فضة» وسوار من لؤلؤ لقوله «ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير» (ويلبسون ثيابا خضرا من سندس) هو الديباج الرقيق (وإستبرق) هو الديباج الصفيق الغليظ وقيل السندس المنسوج بالذهب (متكئين) خص الاتكاء لأنه هيئة المتنعمين والملوك (فيها) أى فى الجنة (على الأرائك) جمع أريكة وهى السرر فى الحجال ولما وصف الله سبحانه وتعالى هذه الأشياء قال (نعم الثواب) أى نعم الجزاء (وحسنت) أى الجنات (مرتفقا) أى مقرا ومجلسا والمراد بقوله وحسنت مرتفقا مقابلة ماتقدم ذكره من قوله سبحانه وتعالى وساءت مرتفقا . قوله عز وجل (واضرب لهم مثلا رجلين) قيل نزلت فى أخوين من أهل مكة من بنى مخزوم وهما أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن عبد ياليل وكان مؤمنا وأخوه الأسود بن عبد الأسود وكان كافرا وقيل هذا مثل لعيينة بن حصن وأصحابه وسلمان وأصحابه وشبههما برجلين من بنى إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا فى قول ابن عباس وقيل تمليخا والآخر كافر واسمه قطروس وهما اللذان وصفهما الله سبحانه وتعالى فى سورة والصافات وكانت قصتهما على ماذكره عطاء الخراسانى قال كان رجلان شريكان لهما ثمانية آلاف دينار وقيل كانا أخوين ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فاقتسماها فاشترى أحدهما أرضا بألف دينار فقال صاحبه اللهم إن فلانا قد اشترى أرضا بألف

فنظر إليه الآخر فعرفه فقال فلان قال نعم فقال ما شأنك قال أصابتني حاجة بعدك فأتيتك لتصيبني بخير فقال مافعل مالك وقد اقتسمنا مالا وأخذت شطره فقص عليه قصته فقال وإنك لمن المصدقين بهذا اذهب فلا أعطيك شيئا فطرده فقضى لهما أن توفيا فنزل فيهما فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم إنى كان لى قرين ، وروى أنه لما أتاه أخذ بيده وجعل يطوف به ويريه أموال نفسه فنزل فيهما واضرب لهم مثلا رجلين أذكر لهم خبر رجلين (جعلنا لأحدهما جنتين) بستانين (من أعناب وحففناهما بنخل) أى أطفناهما من جوانبهما بنخل والحفاف الجانب وجمعه أحفة يقال حف به القوم أى أطافوا بجوانبه (وجعلنا بينهما زرعا) (٢١٢) أى جعلنا حول الأعناب النخيل ووسط الأعناب الزرع وقيل بينهما أى بين الجنتين زرعا يعنى لم يكن بين الجنتين موضع خراب (كلتا الجنتين آتت) أى أعطت كل واحدة من الجنتين (أكلها) ثمرها تاما (ولم تظلم) لم تنقص (منه شيئا وفجرنا) قرأ العامة بالتشديد وقرأ يعقوب بتخفيف الجيم (خلالهما نهرا) يعنى شققنا وأخرجنا وسطهما نهرا (وكان له) لصاحب البستان (ثمر) قرأ عاصم وأبو جعفر ويعقوب ثمر بفتح الثاء والميم وكذلك بثمره وقرأ أبو عمرو بضم الثاء ساكنة الميم ، وقرأ الآخرون بضمهما فمن قرأ بالفتح هو جمع ثمرة وهو ما تخرجه الشجرة من الثمار المأكولة ومن قرأ بالضم فهى الأموال الكثيرة المثمرة من كل صنف جمع ثمار وقال مجاهد ذهب وفضة وقيل جمع الثمرات لأنه قال الأزهرى الثمرة تجمع على ثمر ويجمع الثمر على ثمار ثم تجمع الثمار على ثمر (فقال) يعنى صاحب البستان (لصاحبه) المؤمن (وهو يحاوره) يخاطبه ويجاوبه (أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا) أى عشيرة ورهطا وقال قتادة خدما وحشما وقال مقاتل ولدا تصديقه قوله تعالى «إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا» (ودخل جنته) يعنى الكافر أخذا بيد أخيه المسلم يطوف به فيها ويريه أثمارها (وهو ظالم لنفسه) بكفره (قال ما أظن أن تبيد) تهلك (هذه أبدا) قال أهل المعانى راقه حسنها وغرته زهرتها فتوهم أنها لاتفنى أبدا وأنكر البعث فقال (وما أظن الساعة قائمة) كائنة (ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا) قرأ أهل الحجاز والشام هكذا على التثنية يعنى من الجنتين وكذلك هو فى مصاحفهم وقرأ الآخرون منها أى من الجنة التى دخلها

دينار وإنى قد اشتريت منك أرضا فى الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم إن صاحبه بنى دارا بألف دينار فقال اللهم إن فلانا بنى دارا بألف دينار وإنى اشتريت منك دارا فى الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم تزوج صاحبه امرأة فأنفق عليها ألف دينار فقال هذا اللهم إنى أخطب إليك امرأة من نساء الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم إن صاحبه اشترى خدما ومتاعا بألف دينار فقال هذا اللهم إنى اشتريت منك خدما ومتاعا بألف دينار فى الجنة فتصدق بها ثم أصابته حاجة شديدة فقال لو أتيت صاحبى لعل ينالنى منه معروف فجلس على طريقه حتى مر به فى خدمه وحشمه فقام إليه فنظر إليه صاحبه فعرفه فقال فلان قال نعم قال ماشأنك قال أصابتنى حاجة بعدك فأتيتك لتعيننى بخير قال فما فعلت بمالك وقد قاسمتك مالا وأخذت شطره فقص عليه قصته فقال وإنك لمن المصدقين بهذا اذهب فلا أعطيك شيئا فطرده فقضى لهما فتوفيا فنزل فيهما قوله «فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم إنى كان لى قرين» وروى أنه لما أتاه أخذ بيده وجعل يطوف به ويريه أمواله فنزل فيهما «واضرب لهم مثلا رجلين» (جعلنا لأحدهما جنتين) أى بستانين (من أعناب وحففناهما) أى أطفناهما من جوانبهما (بنخل وجعلنا بينهما زرعا) أى وجعلنا بين النخل والأعناب الزرع وقيل بينهما أى بين الجنتين يعنى لم يكن بين الجنتين خراب بغير زرع (كلتا الجنتين آتت) أى أعطت كل واحدة من الجنتين (أكلها) أى ثمرها تماما (ولم تظلم منه شيئا) أى ولم تنقص منه شيئا (وفجرنا خلالهما) شققنا وسطهما (نهرا وكان له) أى لصاحب البستان (ثمر) قرئ بالفتح جمع ثمرة وقرئ بالضم وهو الأموال الكثيرة المثمرة من كل صنف من الذهب والفضة وغيرهما (فقال) يعنى صاحب البستان (لصاحبه) يعنى المؤمن (وهو يحاوره) أى يخاطبه (أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا) أى عشيرة ورهطا وقيل خدما وحشما (ودخل جنته) يعنى الكافر آخذا بيد أخيه المؤمن يطوف به فيها ويريه إياها (وهو ظالم لنفسه) أى بكفره (قال ما أظن أن تبيد) أى تهلك (هذه) يعنى جنته (أبدا) وذلك أنه راقه حسنها وغرته زهرتها فتوهم أنها لاتفنى أبدا وأنكر البعث فقال (وما أظن الساعة قائمة) أى كائنة (ولئن رددت إلى ربى) فان قلت كيف قال ولئن رددت إلى ربى وهو منكر للبعث قلت معناه ولئن رددت إلى ربى على ماتزعم من أن الساعة آتية (لأجدن خيرا منها منقلبا) أى يعطينى هناك خيرا منها

منقلبا أى مرجعا فان قيل كيف قال ولئن رددت إلى ربى وهو منكر البعث قيل معناه ولئن رددت إلى ربى على ماتزعم أنت تعطينى هنالك خيرا منها فانه لم يعطني هذه الجنة فى الدنيا إلا ليعطينى فى الآخرة أفضل منها (قال له صاحبه) المسلم (وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب) أى خلق أصلك من تراب (ثم) خلقك (من نطفة ثم سواك رجلا) أى عدلك بشرا سويا ذكرا (لكنا هو الله ربي) قرأ ابن عامر ويعقوب لكنا بالألف فى الوصل وقرأ الباقون بلا ألف واتفقوا على إثبات الألف فى الوقف وأصله لكن أنا فحذفت الهمزة طلبا للتخفيف لكثرة استعمالها ثم أدغمت إحدى النونين فى الأخرى قال الكسائي فيه تقديم وتأخير مجازه لكن الله هو ربى (ولا أشرك بربي أحدا ولولا إذ دخلت جنتك) أى هلا إذ دخلت جنتك

(٢١٣)

(قالت ماشاء الله) أى الأمر ماشاء الله وقيل جوابه مضمر أى ماشاء الله كان وقوله (لاقوة إلا بالله) أى لاأقدر على حفظ مالى أو دفع شىء عنه إلا بالله وروى عن هشام بن عروة عن أبيه أنه كان إذا رأى من ماله شيئا يعجبه أو دخل حائطا من حيطانه قال ماشاء الله لاقوة إلا بالله ثم قال (إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا) أنا عماد ولذلك نصب أقل معناه إن ترنى أقل منك مالا وولدا فتكبرت وتعظمت على (فعسى ربى) فلعل ربى (أن يؤتين) يعطينى فى الآخرة (خيرا من جنتك ويرسل عليها) أى على جنتك (حسبانا) قال قتادة

لأنه لم يعطنى الجنة فى الدنيا إلا ليعطينى فى الآخرة أفضل منها (قال له صاحبه) يعنى المؤمن (وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب) أى خلق أصلك من تراب لأن خلق أصله سبب فى خلقه فكان خلقا له (ثم من نطفة ثم سواك رجلا) أى عدلك بشرا سويا وكملك إنسانا ذكرا بالغ مبلغ الرجال (لكنا هو الله ربى) مجازه لكن أنا هو الله ربى (ولا أشرك بربى أحدا ولولا) أى هلا (إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله) والمعنى هلا قلت عند دخولها والنظر إلى ما رزقك الله منها ماشاء الله اعترافا بأنها وكل خير فيها إنما حصل بمشيئة الله تعالى وفضله وأن أمرها بيده وأنه إن شاء تركها عامرة وإن شاء تركها خرابا (لاقوة إلا بالله) أى وقلت لاقوة إلا بالله إقرارا بأن ماقويت به على عمارتها وتدبير أمرها هو بمعونة الله وتأييده ولا أقدر على حفظ مالى ودفع شىء عنه إلا بالله روى عن عروة بن الزبير أنه كان إذا رأى من ماله شيئا يعجبه أو دخل حائطا من حيطانه قال ماشاء الله لاقوة إلا بالله الحائط البستان (إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا) أى لأجل ذلك تكبرت على وتعظمت (فعسى ربى) أى فلعل ربى (أن يؤتين) أى يعطينى (خيرا من جنتك) يعنى فى الآخرة (ويرسل عليها) أى على جنتك (حسبانا) قال ابن عباس نارا وقيل مرامى (من السماء) وهى الصواعق فتهلكها (فتصبح صعيدا زلقا) أى أرضا جرداء ملساء لانبات فيها وقيل تزلق فيها الأقدام وقيل رملا هائلا (أو يصبح ماؤها غورا) غائرا ذاهبا لاتناله الأيدى ولا الدلاء (فلن تستطيع له طلبا) يعنى إن طلبته لم تجده (وأحيط بثمره) يعنى أحاط العذاب بثمر جنته وذلك أن الله تعالى أرسل عليها من السماء نارا فأهلكتها وغار ماؤها (فأصبح) يعنى صاحبها الكافر (يقلب كفيه) يصفق بكف على كف ويقلب كفيه ظهرا لبطن تأسفا وتلهفا (على ماأنفق فيها) المعنى فأصبح يندم على ماأنفق فى عمارتها (وهى خاوية على عروشها) أى ساقطة سقوفها وقيل إن كرومها المعرشة سقطت عروشها على الأرض (ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا) يعنى أنه تذكر موعظة أخيه المؤمن فعلم أنه أتى من جهة شركه وطغيانه فتمنى لو لم يكن مشركا (ولم تكن له فئة) أى جماعة (ينصرونه من دون الله) أى يمنعونه من عذاب الله (وما كان منتصرا) أى ممتنعا لايقدر على الانتصار لنفسه وقيل معناه لايقدر على رد ماذهب منه. قوله سبحانه وتعالى

عذابا وقال ابن عباس رضى الله عنه نارا وقال القتيبى مرامى (من السماء) وهى مثل صاعقة أو شىء يهلكها واحدتها حسبانة (فتصبح صعيدا زلقا) أى أرضا جرداء ملساء لانبات فيها وقيل تزلق فيها الأقدام وقال مجاهد رملا هائلا (أو يصبح ماؤها غورا) أى غائرا منقطعا ذاهبا لاتناله الأيدى ولا الدلاء والغور مصدر وضع موضع الاسم مثل زور وعدل (فلن تستطيع له طلبا) يعنى إن طلبته لم تجده (وأحيط بثمره) أى أحاط العذاب بثمر جنته وذلك أن الله تعالى أرسل عليها نارا فأهلكتها وغار ماؤها (فأصبح) صاحبها الكافر (يقلب كفيه) أى يصفق بيده على الأخرى ويقلب كفيه ظهرا لبطن تأسفا وتلهفا (على ماأنفق فيها وهى خاوية) أى ساقطة (على عروشها) سقوفها (ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا) قال الله تعالى (ولم تكن له فئة) جماعة (ينصرونه من دون الله) يمنعونه من عذاب الله (وما كان منتصرا) ممتنعا منتقما أى لايقدر على الانتصار لنفسه وقيل لايقدر على

رد ماذهب عنه (هنالك الولاية لله الحق) يعنى فى القيامة قرأ حمزة والكسائى الولاية بكسر الواو يعنى السلطان وقرأ الآخرون بفتح الواو من الموالاة والنصر كقوله تعالى «الله ولى الذين آمنوا» قال القتيبى يريد أنهم يتولونه يومئذ ويتبرءون مما كانوا يعبدون وقيل بالفتح الربوبية وبالكسر الإمارة الحق برفع القاف أبو عمرو والكسائى على نعت الولاية وتصديقه قراءة أبى هنالك الولاية الحق لله وقرأ الآخرون بالجر على صفة الله كقوله تعالى «ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق» (هو خير ثوابا) أفضل جزاء لأهل طاعته لو كان غيره يثيب (وخير عقبا) أى عاقبة طاعته خير من عاقبة طاعة غيره فهو خير إثابة وعاقبة طاعة قرأ حمزة وعاصم عقبا ساكنة القاف وقرأ الآخرون بضمها قوله تعالى (واضرب لهم) يامحمد أى لقومك (مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) يعنى المطر (فاختلط به نبات الأرض) (٢١٤) خرج منه كل لون وزهرة (فأصبح) عن قريب (هشيما) يابسا قال ابن عباس وقال الضحاك كسيرا والهشيم مايبس وتفتت من النباتات فأصبح هشيما (تذروه الرياح) قال ابن عباس تفرقه الرياح وقال أبو عبيدة مثله ، وقال القتيبى تنسفه (وكان الله على كل شئ مقتدرا) قادرا (المال والبنون) التى يفتخر بها عتبة وأصحابه الأغنياء (زينة الحياة الدنيا) ليست من زاد الآخرة قال على ابن أبى طالب رضى الله عنه المال والبنون حرث الدنيا والأعمال الصالحة حرث الآخرة وقد يجمعها الله لأقوام (والباقيات الصالحات) اختلفوا فيها فقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد هى قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وقد روينا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « أفضل الكلام أربع كلمات سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد الحنفى أنبأنا أبو بكر محمد بن الحسين الحيرى أخبرنا أبو جعفر عبد الله بن إسمعيل الهاشمى أنبأنا أحمد بن عبد الجبار العطاردى ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلى مما طلعت عليه الشمس» أخبرنا عبد الواحد المليحى أنبأنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أنبأنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار أنبأنا حميد ابن زنجويه ثنا عثمان عن أبى صالح ثنا أبو لهيعة ثنا دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «استكثروا من الباقيات الصالحات قيل وما هن يارسول الله قال الملة قيل وما هى يارسول الله قال التكبير والتهليل

(هنالك الولاية) قرئ بكسر الواو يعنى السلطان فى القيامة (لله الحق) وقرئ بفتحها من الموالاة والنصرة يعنى أنهم يتولونه يومئذ ويتبرءون مما كانوا يعبدون من دونه فى الدنيا (هو خير ثوابا) أى أفضل جزاء لأهل طاعة، لو كان غيره يثيب (وخير عقبا) يعنى عاقبة طاعته خير من عاقبة طاعة غيره فهو خير إثابة وعاقبة قوله عز وجل (واضرب لهم) أى اضرب يامحمد لقومك (مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) يعنى المطر (فاختلط به نبات الأرض) أى خرج منه كل لون وزهرة (فأصبح) أى عن قريب (هشيما) قال ابن عباس يابسا (تذروه الرياح) قال ابن عباس تذريه وقيل تفرقه وتنسفه (وكان الله على كل شئ مقتدرا) أى قادرا قوله سبحانه وتعالى (المال والبنون) يعنى التى يفتخر بها عيينة وأصحابه الأغنياء (زينة الحياة الدنيا) يعنى ليست من زاد الآخرة قال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه المال والبنون حرث الدنيا والأعمال الصالحة حرث الآخرة وقد يجمعهما لأقوام (والباقيات الصالحات) قال ابن عباس هى قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر (م) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلى مما طلعت عليه الشمس» عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «استكثروا من قول الباقيات الصالحات قيل وماهن يارسول الله قال التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولاحول ولاقوة إلا بالله» عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قلت يارسول الله وما رياض الجنة قال المساجد قلت وما الرتع قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» أخرجه الترمذى وقال حديث غريب عن سعيد بن المسيب أن الباقيات الصالحات هى قول العبد الله أكبر وسبحان الله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله أخرجه مالك فى الموطأ موقوفا عليه وعن ابن عباس أن الباقيات الصالحات الصلوات الخمس

والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وقال سعيد بن جبير ومسروق وإبراهيم الباقيات الصالحات هي الصلوات الخمس ويروى هذا عن ابن عباس وعنه رواية أخرى أنها الأعمال الصالحة وهو قول قتادة قوله تعالى (خير عند ربك ثوابا) أي جزاء (وخير أملا) أي ما يأمله الإنسان (ويوم نسير الجبال) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر تسير بالتاء وفتح الياء الجبال رفع دليله قوله تعالى «وإذا الجبال سيرت» وقرأ الآخرون بالنون وكسر الياء الجبال نصب سير الجبال نقلها من مكان إلى مكان (وترى الأرض بارزة) أي ظاهرة ليس عليها شجر ولا جبل ولا نبات كما قال «فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا» قال عطاء هو بروز ما في باطنها من الموتى وغيرهم فترى باطن الأرض ظاهرا (وحشرناهم) جميعا إلى الموقف والحساب (فلم نغادر منهم) أي نترك منهم (أحدا وعرضوا على ربك صفا) أي صفا صفا فوجا فوجا لا أنهم صف واحد وقيل قياما ثم يقال لهم يعني الكفار (لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) يعني أحياء (٢١٥) وقيل فرادى كما ذكر في سورة الأنعام وقيل غرلا (بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا) يوم القيامة يقوله لمنكري البعث أخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسمعيل ثنا معلى بن أسد ثنا وهيب عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين وراهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير وأربعة على بعير وعشرة على بعير وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمسي معهم حيث أمسوا أخبرنا عبد الواحد المليحي انبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسمعيل ثنا محمد بن كثير ثنا سفيان بن المغيرة بن النعمان حدثني سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال «إنكم محشورون حفاة عراة غرلا ثم قرأ كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم وإن ناسا من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول أصحابي أصحابي فيقول إنهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم فأقول كما قال العبد الصالح وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم إلى قوله العزيز الحكيم» أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد السرخسي أنا أبو القاسم جعفر بن محمد بن مغلس ببغداد ثنا هرون بن إسحاق الهمداني أنبأنا أبو خالد الأحمر عن حاتم بن أبي صغيرة عن ابن أبي مليكة عن القاسم ابن محمد عن عائشة قالت قلت يارسول الله كيف يحشر الناس يوم القيامة قال عراة حفاة قالت قلت والنساء؟ قال والنساء قالت قلت يارسول الله نستحيي قال ياعائشة الأمر أشد من ذلك أن يهمهم أن ينظر بعضهم إلى بعض» قوله تعالى (ووضع الكتاب) يعني كتاب أعمال العباد يوضع في أيدي الناس في أيمانهم وشمائلهم وقيل معناه يوضع بين يدي الله تعالى (فترى المجرمين

الخمس وعنه انها الأعمال الصالحة (خير عند ربك ثوابا) اى جزاء (وخير أملا) أى ما يؤمله الإنسان. قوله سبحانه وتعالى (ويوم نسير الجبال) أى نذهب بها وذلك أن تجعل هباء منثورا كما يسير السحاب (وترى الأرض بارزة) أى ظاهرة ليس عليها شجر ولا جبل ولا بناء وقيل هو بروز ما في بطنها من الموتى وغيرهم فيصير باطن الأرض ظاهرها (وحشرناهم) يعني جميعا إلى موقف الحساب (فلم نغادر منهم أحدا) أى لم نترك منهم أحدا (وعرضوا على ربك صفا) أى صفا صفا وفوجا فوجا لأنهم صف واحد وقيل قياما وقيل كل أمة وزمرة صف ثم يقال لهم (لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) يعني أحياء وقيل حفاة عراة غرلا (بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا) يعني القيامة يقول ذلك لمنكر البعث (ق) «عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين ألا إن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام ألا وإنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يارب أصحابي فيقول إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم إلى قوله العزيز الحكيم قال فيقال لي إنهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم زاد في رواية فأقول سحقا سحقا» قوله غرلا أي قلفا والغرلة القلفة التي تقع من جلد الذكر وهو موضع الختان وقوله سحقا أى بعدا قال بعض العلماء إن المراد بهؤلاء أصحاب الردة الذين ارتدوا من العرب ومنعوا الزكاة بعده (ق) «عن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الناس حفاة عراة غرلا قالت عائشة فقلت الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض قال الأمر أشد من أن يهمهم ذلك زاد النسائي في رواية له لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه» . قوله عز وجل (ووضع الكتاب) يعني صحائف أعمال العباد توضع في أيدي الناس في أيمانهم وشمائلهم وقيل توضع بين يدي الله تعالى (فترى المجرمين

مشفقين) خائفين (مما فيه) من الأعمال السيئة (ويقولون) إذا رأوه (ياويلتنا) ياهلاكتنا والويل والويلة الهلكة وكل من وقع في هلكة دعا بالويل ومعنى النداء تنبيه المخاطبين (مال هذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة) من ذنوبنا . قال ابن عباس الصغيرة التبسم والكبيرة القهقهة وقال سعيد بن جبير الصغيرة اللمم والمس والقبلة والكبيرة الزنا (إلا أحصاها) عددها قال السدى كتبها وأثبتها قال مقاتل (٢١٦) بن حيان حفظها أخبرنا الإمام أبو على الحسين بن محمد القاضى أنبأنا أبو العباس عبد الله ابن محمد بن هرون الطيسفونى أنبأنا أبو الحسن محمد بن أحمد الترابى أنبأنا أبو بكر أحمد بن محمد بن عمرو بن بسطام أنبأنا أبو الحسن أحمد بن يسار القرشى ثنا يوسف بن عدى المصرى ثنا أبو ضمرة أنس بن عياض عن أبى حازم قال لا أعلمه إلا عن سهل ابن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إياكم ومحقرات الذنوب فإنما مثل محقرات الذنوب مثل قوم نزلوا بطن واد فجاء هذا بعود وجاء هذا بعود فأنضجوا خبزتهم وإن محقرات الذنوب لموبقات قوله تعالى (ووجدوا ما عملوا حاضرا) مكتوبا مثبتا فى كتابهم (ولا يظلم ربك أحدا) أى لا ينقص ثواب أحد عمل خيرا وقال الضحاك لا يؤاخذ أحدا بجرم لم يعمله وقال عبد الله بن قيس يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجدال يعنى ومعاذير وأما العرضة الثالثة فعند ذلك تطير الصحف فى الأيدى فآخذ بيمينه وآخذ بشماله ورفعه بعضهم عن أبى موسى قوله تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) يقول واذكر يا محمد إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم (فسجدوا إلا إبليس كان من الجن) قال ابن عباس كان من حى من الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم وقال الحسن كان من الجن ولم يكن من الملائكة فهو أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس (ففسق) أى خرج (عن أمر ربه) عن طاعة ربه (أفتتخذونه) يعنى يا بنى آدم

مشفقين) أى خائفين (مما فيه) يعنى من الأعمال السيئة (ويقولون) يعنى إذا رأوها (ياويلتنا) أى ياهلاكنا وكل من وقع فى هلكة دعا بالويل (مال هذا الكتاب لايغادر) أى لا يترك (صغيرة ولا كبيرة) أى من ذنوبنا (إلا أحصاها) أى عدها وكتبها وأثبتها فيه وحفظها قال ابن عباس الصغيرة التبسم والكبيرة القهقهة وقال سعيد بن جبير الصغيرة اللمم والمس والقبلة والكبيرة الزنا عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إياكم ومحقرات الذنوب فإنما مثل محقرات الذنوب مثل قوم نزلوا فى بطن واد فجاء هذا بعود وجاء هذا بعود وجاء هذا بعود فأنضجوا خبزهم وإن محقرات الذنوب لموبقات» الحقير الشىء الصغير التافه وقوله لموبقات أى مهلكات (ووجدوا ما عملوا حاضرا) أى مكتوبا مثبتا فى كتابهم (ولا يظلم ربك أحدا) أى لا ينقص ثواب أحد عمل خيرا ولا يؤاخذ أحدا بجرم لم يعمله عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجدال ومعاذير وأما العرضة الثالثة فعند ذلك تطير الصحف فى الأيدى فآخذ بيمينه وآخذ بشماله» أخرجه الترمذى وقال لا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبى هريرة وقد رواه بعضهم عن الحسن عن أبى موسى . قوله سبحانه وتعالى (وإذ قلنا) أى واذكر يا محمد إذ قلنا (للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن) قال ابن عباس كان من حى من الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم وقال الحسن كان من الجن ولم يكن من الملائكة فهو أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس وكونه من الملائكة لا ينافى كونه من الجن بدليل قوله سبحانه وتعالى وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا وذلك أن قريشا قالت الملائكة بنات الله فهذا يدل على أن الملك يسمى جنا ويعضده اللغة لأن الجن مأخوذ من الاجتنان وهو الستر فعلى هذا تدخل الملائكة فيه فكل الملائكة جن لاستتارهم وليس كل جن ملائكة ووجه كونه من الملائكة أن الله سبحانه وتعالى استثناه من الملائكة والاستثناء يفيد إخراج ما لولاه لدخل ويصح دخوله وذلك يوجب كونه من الملائكة ووجه من قال إنه كان من الجن ولم يكن من الملائكة قوله كان من الجن والجن جنس مخالف للملائكة وقوله أفتتخذونه وذريته فأثبت له ذرية والملائكة لا ذرية لهم وأجيب عن الاستثناء أنه استثناء منقطع وهو مشهور فى كلام العرب قال الله سبحانه وتعالى وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى وقال تعالى لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما قيل إنه كان من الملائكة فلما خالف الأمر مسخ وغير وطرد ولعن . وقوله تعالى (ففسق عن أمر ربه) أى خرج عن طاعة ربه (أفتتخذونه)

(وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو) أى أعداء روى مجاهد عن الشعبي قال إنى لقاعد يوما إذ أقبل رجل فقال أخبرنى هل لإبليس زوجة قلت إن ذلك العرس ماشهدته ثم ذكرت قوله تعالى «أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى» فعلمت أنه لاتكون الذرية إلا من الزوجة فقلت نعم وقال قتادة يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وقيل إنه يدخل ذنبه فى دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين قال مجاهد من ذرية إبليس لاقيس وولهان وهما صاحبا الطهارة والصلاة والهفاف ومرة وبه يكنى وزلنبور ، وهو صاحب الأسواق يزين اللغو والحلف الكاذبة ومدح السلع وبتر وهو صاحب المصائب يزين للناس خمش الوجوه ولطم الخدود وشق الجيوب والأعور وهو صاحب الزنا ينفخ فى إحليل الرجل وعجز المرأة ومطوس وهو صاحب الأخبار الكاذبة يلقيها فى أفواه الناس ولا يجدون لها أصلا وداسم وهو الذى إذا دخل الرجل

بيته ولم يسلم ولم يذكر اسم الله بصره من المتاع مالم يرفع ولم يوضع فى موضعه أو يحتبس موضعه وإذا أكل ولم يذكر اسم الله أكل معه قال الأعمش ربما دخلت البيت ولم أذكر اسم الله ولم أسلم فرأيت مطهرة فقلت ارفعوا هذه وخاصمتهم ثم أذكر اسم الله فأقول داسم داسم وروى عن أبى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن للوضوء شيطانا يقال له الولهان فاتقوا وسواس الماء» أخبرنا إسمعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر ابن محمد أنبأنا محمد ابن عيسى الجلودى أنبأنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنبأنا مسلم بن الحجاج ثنا يحيى بن خلف الباهلى أنبأنا مسلم بن الحجاج ثنا يحيى بن خلف الباهلى أنبأنا عبد الأعلى عن سعيد الجريرى عن أبى العلاء أن عثمان بن أبى العاص أتى النبى ﷺ فقال يارسول الله إن الشيطان قد حال بينى وبين صلاتى وبين قراءتى يلبسها على فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذاك شيطان يقال له خنزب فاذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثا ففعلت ذلك فأذهبه الله عنى وأخبرنا إسمعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر ابن محمد عيسى الجلودى ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنبأنا مسلم بن الحجاج ثنا أبو كريب محمد بن علاء أنبأنا أبو معاوية ثنا الأعمش عن أبى سفيان عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه يفتنون الناس فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجىء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ما صنعت شيئا قال ثم يجىء أحدهم فيقول ماتركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال فيدنيه منه ويقول نعم أنت» قال الأعمش أراه قال فيلتزمه قوله تعالى (بئس للظالمين بدلا)

يعنى يابنى آدم أفتتخذون إبليس (وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو) يعنى أعداء روى مجاهد عن الشعبى قال إنى لقاعد يوما إذ قبل رجل فقال أخبرنى هل لإبليس زوجة قلت إن ذلك العرس ماشهدته ثم ذكرت قول الله عزوجل «أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى» فعلمت أنه لاتكون ذرية إلا من زوجة فقلت نعم قيل يتوالدون كما يتوالد ابن آدم وقيل إنه يدخل ذنبه فى دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين قال مجاهد من ذرية إبليس لاقيس وولهان وهو صاحب الطهارة والصلاة والهفاف ومره وبه يكنى وزلنبور وهو صاحب الأسواق يزين اللغو والحلف الكاذب ومدح السلع وبتر وهو صاحب المصائب يزين خمش الوجوه ولطم الخدود وشق الجيوب والأعور وهو صاحب الزنا ينفخ فى أحليل الرجل وعجيزة المرأة ومطموس وهو صاحب الأخبار الكاذبة يلقيها فى أفواه الناس لايجدون لها أصلا وداسم وهو الذى إذا دخل الرجل بيته ولم يسلم ولم يذكر الله بصره من المتاع مالم يرفع أو يحسن موضعه وإذا أكل ولم يسم أكل معه قال الأعمش ربما دخلت البيت ولم أذكر اسم الله ولم أسلم فرأيت مطهرة فقلت ارفعوا هذه وخاصمتهم ثم اذكر فأقول داسم داسم أعوذ بالله منه روى أبى ابن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «إن للوضوء شيطانا يقال له الولهان فاتقوا وسواس الماء» أخرجه الترمذى (م) «عن عثمان ابن أبى العاص قال قلت يارسول الله إن الشيطان قد حال بينى وبين صلاتى وبين قراءتى يلبسها على فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذاك شيطان يقال له خنزب فاذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثا قال ففعلت ذلك فأذهبه الله عنى (م) عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ «إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجىء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ماصنعت شيئا ثم يجىء أحدهم فيقول ماتركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال فيدنيه منه ويقول نعم أنت» قال الأعمش أراه قال فيلتزمه . وقوله (بئس للظالمين بدلا) يعنى بئس مااستبدلوا طاعة

قال قتادة بئس ما استبدلوا طاعة إبليس وذريته بعبادة ربهم (ماأشهدتهم) ماأحضرتهم وقرأ أبو جعفر ماأشهدناهم بالنون والألف على التعظيم أى أحضرناهم يعنى إبليس وذريته وقيل الكفار وقال الكلبى يعنى الملائكة (خلق السموات والأرض ولاخلق أنفسهم) يقول ماأشهدتهم خلقا فأستعين بهم على خلقها وأشاورهم فيها (وما كنت متخذ المضلين عضدا) أى الشياطين الذين يضلون الناس عضدا أى أنصارا وأعوانا قوله تعالى (ويوم يقول) قرأ حمزة بالنون والآخرون بالياء أى يقول الله لهم يوم القيامة (نادوا شركائى) يعنى الأوثان (الذين زعمتم) أنهم شركائى (فدعوهم) فاستغاثوا بهم (فلم يستجيبوا لهم) أى لم يجيبوهم ولم ينصروهم (وجعلنا بينهم) يعنى بين الأوثان وعبدتها وقيل بين أهل الهدى وأهل الضلال (موبقا) مهلكا قاله عطاء والضحاك وقال ابن عباس هو واد فى النار وقال مجاهد واد فى جهنم وقال عكرمة هو نهر فى النار يسيل نارا على حافته حيات مثل البغال الدهم قال ابن الأعرابى وكل حاجز بين شيئين فهو موبق وأصله الهلاك يقال أوبقه أى أهلكه قال الفراء وجعلنا تواصلهم فى الدنيا مهلكا لهم فى الآخرة والبين على هذا القول التواصل كقوله تعالى لقد تقطع بينكم على قراءة من قرأ بالرفع (ورأى المجرمون النار) أي المشركون (فظنوا) أيقنوا (أنهم مواقعوها) داخلوها وواقعون فيها (ولم يجدوا عنها مصرفا) معدلا لأنها أحاطت بهم من كل جانب قوله تعالى (ولقد صرفنا) بينا (فى هذا القرآن للناس من كل مثل) أى ليتذكروا ويتعظوا (وكان الإنسان أكثر شىء جدلا) خصومة فى الباطل قال ابن عباس أراد النضر بن الحارث وجدا له فى القرآن قال الكلبى أراد به أبى بن خلف الجمحى وقيل المراد من الآية الكفار لقوله تعالى ويجادل باهلاك الذين كفروا بالباطل وقيل هى على العموم وهذا أصح أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحى أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنبأنا محمد ابن يوسف أنبأنا محمد بن إسماعيل أنا أبواليمان أنا شعيب عن الزهرى أنبأنا على بن الحسين أن الحسين بن على أخبره أن عليا أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقال ألا تصليان فقلت يارسول الله إن أنفسنا بيد الله فاذا شاء أن يبعثنا بعثنا فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قلت له ذلك ولم يرجع إلى شيئا ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه وهو يقول «وكان الإنسان أكثر شىء جدلا» قوله عز وجل (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى) القرآن والإسلام والبيان من الله عز وجل وقيل إن الرسول صلى الله عليه وسلم (ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين) يعنى سنتنا فى إهلاكهم إن لم يؤمنوا وقيل إلا طلب أن تأتيهم سنة الأولين من معاينة العذاب كما قالوا

إبليس وذريته بعبادة ربهم وطاعته . قوله سبحانه وتعالى (ماأشهدتهم) أى ماأحضرتهم يعنى إبليس وذريته وقيل الكفار وقيل الملائكة (خلق السموات والأرض ولاخلق أنفسهم) والمعنى ماأشهدتهم خلقها فاستعين بهم على خلقها وأشاورهم فيها (وما كنت متخذ المضلين) يعنى الشياطين الذين يضلون الناس (عضدا) يعنى أنصارا وأعوانا : قوله عز وجل (ويوم يقول نادوا) يعنى يقول الله تعالى يوم القيامة نادوا (شركائى) يعنى الأصنام (الذين زعمتم) يعنى أنهم شركائى (فدعوهم) أى فاستغاثوا بهم (فلم يستجيبوا لهم) أى فلم يجيبوهم ولم ينصروهم (وجعلنا بينهم) يعنى بين الأصنام وعبدتها وقيل بين أهل الهدى وبين أهل الضلال (موبقا) يعنى مهلكا قال ابن عباس هو واد فى النار وقيل نهر تسيل منه نار وعلى حافتيه حيات مثل البغال الدهم وقيل كل حاجز بين شيئين فهو موبق وأصله الهلاك (ورأى المجرمون) أى المشركون (النار فظنوا) أى أيقنوا (أنهم مواقعوها) أى داخلوها وواقعون فيها (ولم يجدوا عنها مصرفا) أى معدلا لأنها أحاطت بهم من كل جانب وقيل لأن الملائكة تسوقهم إليها . قوله سبحانه وتعالى (ولقد صرفنا) أى بينا (فى هذا القرآن للناس من كل مثل) أى ليتذكروا ويتعظوا (وكان الإنسان أكثر شىء جدلا) أى خصومة فى الباطل قال ابن عباس أراد النضر بن الحرث وجداله فى القرآن وقيل أراد به أبى بن خلف وقيل أراد به جميع الكفار وقيل الآية على العموم وهو الأصح (ق) «عن على ابن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة ليلا فقال ألا تصليان فقلت يارسول الله أنفسنا بيد الله تعالى فاذا شاء أن يبعثنا بعثنا فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قلت ذلك ولم يرجع إلى شيئا ثم سمعته يقول وهو مول يضرب فخذه بيده «وكان الإنسان أكثر شىء جدلا» قوله عز وجل (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى) يعنى القرآن وأحكام الإسلام والبيان من الله تعالى وقيل إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم (ويستغفروا ربهم) والمعنى أنه لامانع لهم من الإيمان ولامن الاستغفار والتوبة والتخلية حاصلة والأعذار زائلة فلم لم يقدموا على الإيمان والاستغفار (إلا أن تأتيهم سنة الأولين) يعنى سنتنا

«اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم» (أو يأتيهم العذاب قبلا) قال ابن عباس أى عيانا من المقابلة وقال مجاهد فجأة وقرأ أبو جعفر وأهل الكوفة قبلا بضم القاف والباء جمع قبيل أى أصناف العذاب نوعا نوعا (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل (٢١٩) الذين كفروا بالباطل) ومجادلتهم قولهم أبعث الله بشرا رسولا ولولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وما أشبهه (ليدحضوا) ليبطلوا (به الحق) وأصل الدحض الزلق يريد ليزيلوا به الحق (واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا) فيه إضمار يعنى وما أنذروا به وهو القرآن هزوا أى استهزاء (ومن أظلم ممن ذكر) وعظ (بآيات ربه فأعرض عنها) تولى عنها وتركها ولم يؤمن بها (ونسى ماقدمت يداه) أى ماعمل من المعاصى من قبل (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة) أغطية (أن يفقهوه) أى يفهموه يريد لئلا يفهموه (وفى آذانهم وقرا) أى صمما وثقلا (وإن تدعهم) يامحمد (إلى الهدى) إلى الدين (فلن يهتدوا إذا أبدا) وهذا فى أقوام علم الله منهم أنهم لايؤمنون (وربك الغفور ذو الرحمة) ذو النعمة (لو يؤاخذهم) يعاقب الكفار (بما كسبوا) من الذنوب (لعجل لهم العذاب) فى الدنيا (بل لهم موعد) يعنى البعث والحساب (لن يجدوا من دونه موئلا) ملجأ (وتلك القرى أهلكناهم) يعنى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم (لما ظلموا) كفروا (وجعلنا لمهلكهم موعدا) أى أجلا قرأ أبو بكر لمهلكهم بفتح الميم واللام وقرأ حفص بفتح الميم وكسر اللام وكذلك فى النمل مهلك أى لوقت هلاكهم وقرأ الآخرون بضم الميم وفتح اللام أى لإهلاكهم قوله تعالى (وإذ قال موسى لفتاه

باهلاك الأولين إن لم يؤمنوا وهو عذاب الاستئصال (أو يأتيهم العذاب قبلا) قال ابن عباس أى عيانا من المقابلة وقيل فجأة . قوله سبحانه وتعالى (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين) أي بالثواب على الطاعة (ومنذرين) بالعقاب لمن عصى (ويجادل الذين كفروا بالباطل) هو قولهم «أبعث الله بشرا رسولا» وقولهم للرسل «ما أنتم إلا بشر مثلنا» وشبه ذلك (ليدحضوا) أى ليبطلوا (به الحق) ويزيلوه (واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا) فيه إضمار يعنى اتخذوا ما أنذروا به وهو القرآن استهزاء . قوله عز وجل (ومن أظلم ممن ذكر) أى وعظ (بآيات ربه فأعرض عنها) أى تولى عنها وتركها ولم يؤمن بها (ونسى ماقدمت يداه) أى ماعمل من المعاصى من قبل (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة) أى أغطية (أن يفقهوه) يريد لئلا يفهموه (وفى آذانهم وقرا) أى ثقلا وصمما (وإن تدعهم) يامحمد (إلى الهدى) أى الدين (فلن يهتدوا إذا أبدا) وهذا فى أقوام علم الله منهم أنهم لايؤمنون (وربك الغفور) أى البليغ المغفرة (ذو الرحمة) أى الموصوف بالرحمة (لو يؤاخذهم) أى يعاقب الكفار (بما كسبوا) من الذنوب (لعجل لهم العذاب) أى فى الدنيا (بل لهم موعد) يعنى البعث والحساب (لن يجدوا من دونه موئلا) أى ملجأ (وتلك القرى) قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم (أهلكناهم لما ظلموا) أى كفروا (وجعلنا لمهلكهم موعدا) أى أجلا لإهلاكهم . قوله سبحانه وتعالى (وإذ قال موسى لفتاه) الآيات أكثر العلماء على أن موسى المذكور فى هذه الآية هو موسى بن عمران من سبط لاوى بن يعقوب صاحب المعجزات الظاهرة وصاحب التوراة وعن كعب الأحبار أنه موسى بن ميشا من أولاد يوسف بن يعقوب وكان قد تنبأ قبل موسى بن عمران والقول الأول أصح بدليل أن الله سبحانه وتعالى لم يذكر فى كتابه العزيز موسى إلا أراد به صاحب التوراه فاطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف إليه ولو أراد شخصا آخر لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز بينهما وتزيل الشبهة فلما لم يميزه بصفة علمنا أنه موسى بن عمران صاحب التوراة وأما فتاه فالأصح أنه يوشع ابن نون بن أفرا ثم بن يوسف وهو صاحب موسى وولى عهده بعد وفاته وقيل أنه أخو يوشع وقيل فتاه يعنى عبده بدليل قوله صلى الله عليه وسلم «لايقل أحدكم عبدى وأمتى وليقل فتاى وفتاتى» (ق) عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس أن نوفا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بنى إسرائيل فقال ابن عباس كذب عدو الله «حدثنا أبى بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إن موسى عليه السلام قام خطيبا فى بنى إسرائيل فسئل أى الناس أعلم فقال أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه إن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى يارب فكيف لى به قال فخذ معك حوتا فاجعله فى مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم فأخذ حوتا فجعله فى مكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما فاضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه فسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سربا وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق

ابن ميشا من أولاد يوسف والأول أصح أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد ابن إسمعيل ثنا الحميدى ثنا سفيان ثنا عمرو بن دينار أخبرنى سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس إن نوفا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بنى إسرائيل فقال ابن عباس كذب عدو الله حدثنا أبى بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل فسئل أى الناس أعلم فقال أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه إن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى يا رب فكيف لى به قال تأخذ معك حوتا فتجعله فى مكتل فحيث مافقدت الحوت فهو ثمة فأخذ حوتا فجعله فى مكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما واضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه فسقط فى البحر فاتخذ

فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت وانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كانا من الغد قال « موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا » قال ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به فقال له فتاه « أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فانى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا » قال فكان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا فقال موسى « ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا » قال رجعا فقصا آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فاذا رجل مسجى بثوب أبيض فسلم عليه موسى فقال الخضر وأنى بأرضك السلام فقال أنا موسى قال موسى بنى إسرائيل قال نعم أتيتك « لتعلمنى مما علمت رشدا قال إنك لن تستطيع معى صبرا » ياموسى إنى على علم من علم الله علمنيه لاتعلمه وأنت على علم من علم الله علمكه الله لاأعلمه فقال موسى « ستجدنى إن شاء الله صابرا ولاأعصى لك أمرا » فقال له الخضر « فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا فانطلقا » يمشيان على ساحل البحر فمرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول فلما ركبا السفينة لم يفجأ موسى إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم فقال له موسى قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها « لقد جئت شيئا إمرا قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا قال لاتؤاخذنى بمانسيت ولاترهقنى من أمرى عسرا » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كانت الأولى من موسى نسيانا قال وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة فقال له الخضر مانقص علمى وعلمك من علم الله إلامثل مانقص هذا العصفور من هذا البحر ثم خرجا من السفينة فبينماهما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى « أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا » قال وهذه أشد من الأولى قال « إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض » أى مائلا فقال الخضر بيده هكذا فأقامه فقال موسى قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا « لو شئت لاتخذت عليه أجرا قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يرحم الله موسى لوددت أنه صبر حتى يقص علينا من أخبارهما » قال سعيد بن جبير فكان ابن عباس يقرأ وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا وكان يقرأ وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين وفى رواية عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قام موسى عليه السلام ذكر الناس يوما حتى إذا فاضت العيون ورقت القلوب ولى فأدركه رجل فقال أى رسول الله هل فى الأرض أحد أعلم منك قال لافعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله تعالى فقال بلى قال أي رب وأين هو قال بمجمع البحرين قال خذ حوتا ميتا حيث ينفخ فيه الروح وفى رواية تزود حوتا مالحا فانه حيث يفقد الحوت زاد فى رواية وفى أصل الصخرة عين يقال لها الحياة لا يصيب من مائها شىء إلا حيى فأصاب الحوت من ماء تلك العين فتحرك وانسل من المكتل فدخل البحر ورجعنا إلى التفسير . قوله سبحانه وتعالى (لاأبرح) أى لا أزال أسير (حتى أبلغ مجمع البحرين) قيل أراد بحر فارس والروم مما يلى المشرق وقيل طنجة وقيل أفريقية

سبيله فى البحر سربا وأمسك الله تعالى عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد فلما جاوزا قال موسى لفتاه «آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا» قال ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به وقال له فتاه «أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فانى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا» قال فكان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا وقال موسى ذلك ما كنا نبغ نطلبه فارتدا على آثارهما قصصا فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما قال له موسى هل أتبعك على إن تعلمن مما علمت رشدا قال رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فاذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر عليه السلام وأنى بأرضك السلام فقال له أنا موسى قال موسى بنى إسرائيل قال نعم قال أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدا قال «إنك لن تستطيع معى صبرا وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا» ياموسى إنى على علم من علم الله علمنيه لاتعلمه أنت وأنت على علم من علم علمكه الله لاأعلمه فقال موسى «ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا» فقال له الخضر «فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا فانطلقا» يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول حتى إذا ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم فقال له موسى قوم قد حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا قال لاتؤاخذنى بما نسيت ولاترهقنى من أمرى عسرا فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت الأولى من موسى نسيانا والوسطى شرطا والثالثة عمدا» قال وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة فقال له الخضر (٢٢١) ما نقص علمى وعلمك من علم إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ثم خرجا من السفينة فبينا هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان

أفريقية (أو أمضى حقبا) يعنى أو أسير دهرا طويلا، والحقب ثمانون سنة فحمل خبزا وسمكة مالحة فى المكتل وهو الزنبيل الذى يسع خمسة عشر صاعا ومضيا حتى انتهيا إلى الصخرة التى عند مجمع البحرين وعندها عين تسمى عين الحياة لاتصيب شيئا إلا حيى فلما أصاب السمكة روح الماء وبرده اضطربت فى المكتل وهاجت ودخلت فى البحر (فلما بلغا) يعنى موسى وفتاه (مجمع بينهما) أى بين البحرين (نسيا) أى تركا (حوتهما) وإنما كان الحوت مع يوشع بن نون

فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده وقتله فقال له موسى «أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا» قال وهذه أشد من الأولى قال «إن سألتك عن شىء بعدها، فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض» قال كان مائلا فقال الخضر بيده فأقامه فقال موسى قوم آتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا «لو شئت لتخذت عليه أجرا قال هذا فراق بينى وبينك إلى قوله ذلك تأويل مالم تستطع عليه صبرا» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص علينا من خبرهما» قال سعيد بن جبير فكان ابن عباس يقرأ وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا وكان يقرأ وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين وعن سعيد بن جبير فى رواية أخرى عن ابن عباس عن أبى بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «قام موسى رسول الله فذكر الناس يوما حتى إذا فاضت العيون ورقت القلوب ولى فأدركه رجل فقال أى رسول الله هل فى الأرض أحد أعلم منك قال لا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله قيل بلى عبدنا الخضر قال يا رب وأين قال بمجمع البحرين قال خذ حوتا ميتا حيث ينفخ فيه الروح وفى رواية قيل له تزود حوتا مالحا فانه حيث تفقد الحوت فأخذ حوتا فجعله فى مكتل رجعنا إلى التفسير قوله وإذ قال موسى لفتاه يوشع بن نون لاأبرح أى لاأزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين قال قتادة بحر فارس وبحر الروم مما يلى المشرق وقال محمد بن كعب طنجة وقال أبى بن كعب أفريقية (أو أمضى حقبا) أى وإن كان حقبا أى دهرا طويلا وزمانا وجمعه أحقاب والحقب جمع الحقب قال عبد الله بن عمر والحقب ثمانون سنة فحملا خبزا وسمكة مالحة حتى انتهيا إلى الصخرة التى عند مجمع البحرين ليلا وعندها عين تسمى ماء الحياة لايصيب ذلك الماء شيئا إلا حيى فلما أصاب السمكة روح الماء وبرده اضطربت فى المكتل وعاشت ودخلت البحر فذلك قوله (فلما بلغا) يعنى موسى وفتاه (مجمع بينهما) أى بين الفريقين (نسيا) تركا (حوتهما) وإنما كان الحوت مع

يوشع وهو الذى نسيه وأضاف النسيان إليهما لأنهما جميعا تزوداه لسفرهما كما يقال خرج القوم إلى موضع كذا وحملوا من الزاد كذا وإنما حمله واحد منهم (فاتخذ) أى الحوت (سبيله فى البحر سربا) أى مسلكا وروى عن أبي ابن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «انجاب الماء عن مسلك الحوت فصار كوة لم يلتئم فدخل موسى الكوة على أثر الحوت فاذ هو بالخضر» قال ابن عباس جعل الحوت لايمس شيئا من البحر الايبس حتى صار صخرة وقال الكلبى توضأ يوشع بن نون من عين الحياة فانتضح على الحوت المالح فى المكتل من ذلك الماء فعاش ثم وثب فى ذلك الماء فجعل يضرب بذنبه فلايضرب بذنبه شيئا من الماء وهو ذاهب إلا يبس وقد روينا أنهما لما انتهيا إلى الصخرة وضعا رءوسهما فناما واضطرب الحوت فخرج وسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سربا فأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ موسى نسى صاحبه أن يخبره فانطلقا حتى (٢٢٢) إذا كان من الغد قوله تعالى (فلما جاوزا) يعنى ذلك الموضع وهو مجمع البحرين (قال) موسى (لفتاه آتنا غداءنا) أى طعامنا والغداء ما يعد للأكل غدوة والعشاء مايعد للأكل عشية (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) أى تعبا وشدة وذلك أنه ألقى على موسى الجوع بعد مجاوزة الصخرة ليتذكر الحوت ويرجع إلى مطلبه (قال) له فتاه يذكره (أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة) وهى صخرة كانت بالموضع الموعود قال هقل بن زياد هى الصخرة التى دون نهر الزيت (فإنى نسيت الحوت) أى تركته وفقدته وذلك أن يوشع حين رأى ذلك من الحوت قام ليدرك موسى فيخبره فنسى أن يخبره فمكثا يومهما حتى صليا الظهر من الغد قيل فى الآية إضمار معناه نسيت أن أذكر لك أمر الحوت ثم قال (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) أى وما أنسانى أن أذكر لك أمر الحوت إلا الشيطان وقرأ حفص أنسانيه وفى الفتح عليه الله بضم الهاء وقيل معناه أنسانيه لئلا أذكره (واتخذ سبيله فى البحر عجبا) قيل هذا من قول يوشع ويقول طفر الحوت إلى البحر فاتخذ فيه مسلكا فعجبت من ذلك عجبا وروينا فى الخبر كان للحوت سربا ولموسى وفتاه عجبا وقيل هذا من قول موسى لما قال له يوشع واتخذ سبيله فى البحر سربا قال له موسى عجبا كأنه قال أعجب عجبا قال ابن زيد أى شىء أعجب من حوت يؤكل منه دهرا ثم صار حيا بعد ما أكل بعضه (قال) موسى (ذلك ما كنا نبغ) أى نطلب (فارتدا على آثارهما قصصا) أى رجعا يقصان الأثر الذى جاءا منه أن يبتغيانه فوجدا عبدا من عبادنا قيل كان ملكا من الملائكة والصحيح الذى جاء فى

وهو الذي نسيه وإنما أضاف النسيان إليهما لأنهما تزوداه لسفرهما وقيل المراد من قوله نسيا حوتهما أى نسيا كيفية الاستدلال بهذه الحالة المخصوصة على الوصول للمطلوب (فاتخذ) أي الحوت (سبيله فى البحر سربا) أى مسلكا . وروى أبى بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «انجاب الماء عن مسلك الحوت فصار كوة لم يلتئم فدخل موسى الكوة على أثر الحوت فاذا هو بالخضر» قال ابن عباس جعل الحوت لايمس شيئا من البحر إلا يبس حتى صار صخرة وقد روينا أنهما لما انتهيا إلى الصخرة وضعا رءوسهما فناما واضطرب الحوت فخرج فسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سربا فأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ موسى نسى صاحبه أن يخبره فانطلقا حتى إذا كانا من الغد وهو قوله سبحانه وتعالى (فلما جاوزا) يعنى ذلك الموضع وهو مجمع البحرين (قال) يعنى موسى (لفتاه آتنا غداءنا) أى طعامنا (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) أى تعبا وشدة وذلك أنه ألقى على موسى الجوع بعد ماجاوز الصخرة ليتذكر الحوت ويرجع فى طلبه (قال) يعنى يوشع (أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة) وهى صخرة كانت بالموضع الموعود (فإنى نسيت الحوت) أى تركته وفقدته وذلك أن يوشع حين رأى من الحوت ذلك قام ليدرك موسى فيخبره فنسى أن يخبره فمكثا يومهما حتى صليا الظهر من الغد ثم قال (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) أى وما أنسانى أن أذكر لك أمر الحوت إلا الشيطان قيل المراد من النسيان شغل قلب الإنسان بوساوس الشيطان التى هى من فعله دون النسيان الذى يضاد الفكر لأن ذلك لا يصح إلا من قبل الله تعالى (واتخذ سبيله فى البحر عجبا) قيل هذا من قول يوشع بن نون يعنى وقع الحوت فى البحر فاتخذ سبيله فيه مسلكا وروى فى الخبر كان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا وقيل أى شىء أعجب من حوت يؤكل منه دهرا ثم صار حيا بعد ما أكل بعضه .
قوله عز وجل (قال) يعنى موسى (ذلك ما كنا نبغ) نطلب (فارتدا على آثارهما قصصا) أي

رجعا

التواريخ وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه الخضر واسمه بليا بن ملكان قيل كان من نسل بنى إسرائيل وقيل كان من أبناء الملوك الذين تزهدوا فى الدنيا والخضر لقب له سمى بذلك لما أخبرنا أبو على حسان بن سعد المنيعى أنبأنا أبو طاهر محمد ابن محمد بن محمش الزيادى أنا أبوبكر محمد بن الحسين القطان ثنا أحمد بن يوسف السلمى ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن همام بن منبه قال ثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنما سمى خضرا لأنه جلس على فروة بيضاء فاذا هى تهتز تحته خضراء» قال مجاهد سمى خضرا لأنه إذا صلى اخضر ماحوله وروينا أن موسى رأى الخضر مسجى بثوب فسلم عليه فقال الخضر وأنى بأرضك السلام قال أنا موسى أتيتك « لتعلمنى (٢٢٣) مما علمت رشدا » وفى رواية أخرى لقيه مسجى بثوب مستلقيا على قفاه بعض الثوب تحت رأسه وبعضه تحت رجليه وفى رواية لقيه وهو يصلى ويروى لقيه على طنفسة خضراء على كبد البحر فذلك قوله تعالى (فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة) أى نعمة (من عندنا وعلمناه من لدنا علما) أى علم الباطن إلهاما ولم يكن الخضر نبيا عند أكثر أهل العلم يقول جئت لأتبعك (قال له موسى هل أتبعك) وأصحبك (على أن تعلمن مما علمت رشدا) قرأ أبو عمرو ويعقوب رشدا بفتح الراء والشين وقرأ الآخرون بضم الراء وسكون الشين : أى صوابا وقيل علما ترشدنى به وفى بعض الأخبار أنه لما قال له موسى هذا قال له الخضر كفى بالتوراة علما وبنى إسرائيل شغلا فقال له موسى إن الله أمرنى بهذا فحينئذ (قال) له الخضر (إنك لن تستطيع معى صبرا) وإنما قال ذلك لأنه علم أنه يرى أمورا منكرة ولا يجوز للأنبياء أن يصبروا على المنكرات ثم بين عذره فى ترك الصبر فقال له وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا) أى علما (قال) موسى (ستجدنى إن شاء الله صابرا) إنما استثنى لأنه لم يثق من نفسه بالصبر (ولا أعصى لك أمرا) أي لا أخالفك فيما تأمرنى (قال) الخضر (فان اتبعتنى) فان صحبتنى ولم يقل أتبعنى ولكن جعل الاختيار إليه إلا أنه شرط عليه شرطا فقال (فلا تسألنى) قرأ أبوجعفر ونافع وابن عامر بفتح اللام وتشديد النون والآخرون بسكون اللام وتخفيف

رجعا يقصان الذي جاءا منه ويتبعانه (فوجدا عبدا من عبادنا) قيل كان ملكا من الملائكة والصحيح الذى ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء فى التواريخ أنه الخضر واسمه بليا بن ملكان وكنيته أبو العباس قيل كان من بنى إسرائيل وقيل كان من أبناء الملوك الذين تزهدوا وتركوا الدنيا والخضر لقب له سمى به لأنه جلس على فروة بيضاء فاخضرت (خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنما سمى خضرا لأنه جلس على فروة بيضاء فاذا هى تهتز تحته خضراء» الفروة قطعة نبات مجتمعة يابسة وقيل سمى خضرا لأنه كان إذا صلى اخضر ماحوله وروينا أن موسى رأى الخضر مسجى بثوب فسلم عليه فقال الخضر وأنى بأرضك السلام قال أنا موسى أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدا ومعنى مسجى بثوب أي مغطى بثوب وقوله وأنى بأرضك السلام معناه من أين بأرضك التى أنت فيها الآن السلام وروى أنه لقيه على طنفسة خضراء على جانب البحر فذلك قوله سبحانه وتعالى فوجدا عبدا من عبادنا (آتيناه رحمة) أى نعمة (من عندنا وعلمناه من لدنا علما) أى علم الباطن إلهاما ولم يكن الخضر نبيا عند أكثر أهل العلم. فان قلت ظاهر الآيات يدل على أن الخضر كان أعلى شأنا من موسى وكان موسى يظهر التواضع له والتأدب معه . قلت لايخلو إما أن يكون الخضر من بنى إسرائيل أو من غيرهم فان كان من بنى إسرائيل فهو من أمة موسى ولا جائز أن يكون أحد الأمة أفضل من نبيها أو أعلى شأنا منه وإن كان من غير بنى إسرائيل فقد قال الله تعالى لبنى إسرائيل «وإنى فضلتكم على العالمين» أى على عالمى زمانكم (قال له موسى هل أتبعك) معناه جئت لأصحبك وأتبعك (على أن تعلمن مما علمت رشدا) أى صوابا وقيل علما ترشدنى به وفى بعض الأخبار قال الخضر لموسى كفى بالتوراة علما وبنى إسرائيل شغلا فقال له موسى إن الله أمرنى بهذا فحينئذ (قال) الخضر لموسى (إنك لن تستطيع معى صبرا) وإنما قال ذلك لأنه علم أنه يرى أمورا منكرة ولا يجوز للأنبياء الصبر مع المنكرات ثم بين عذره فى ترك الصبر فقال (وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا) أى علما (قال) موسى (ستجدنى إن شاء الله صابرا) إنما استثنى لأنه لم يثق من نفسه بالصبر (ولا أعصى لك أمرا) أى لا أخالفك فيما تأمرنى به قال (فان اتبعتنى) أى فان صحبتنى ولم يقل اتبعنى ولكن جعل الاختيار إليه شرط عليه ثم شرطا فقال (فلا تسألنى

النون (عن شيء) أعمله فيا تنكره ولاتعترض عليه (حتى أحدث لك منه ذكرا) حتى أبتدألك بذكره فأبين لك شأنه (فانطلقا) يمشيان على الساحل يطلبان سفينة يركبانها فوجدا سفينة فركباها فقال أهل السفينة هؤلاء لصوص وأمرهما بالخروج فقال صاحب السفينة ماهم بلصوص ولكني أرى وجوه الأنبياء وروينا عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «مرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول فلما لججوا البحر أخذ الخضر فأسا فخرق لوحا من السفينة فذلك قوله (حتى إذا ركبا في السفينة قال) له موسى (أخرقتها لتغرق أهلها) قرأ حمزة والكسائي ليغرق بالياء وفتحها وفتح الراء أهلها بالرفع على اللزوم وقرأ الآخرون بالتاء ورفعها وكسر الراء أهلها بالنصب على أن الفعل للخضر (لقد جئت شيئا إمرا) أي منكرا والأمر في كلام العرب الداهية وأصله كل شيء شديد كثير يقال أمر القوم إذا كثروا واشتد أمرهم وقال القتيبي إمرا أي عجبا وروى أن الخضر لما خرق السفينة لم يدخلها الماء وروى إن موسى لما رأى ذلك

أخذ ثوبه فحشى به الخرق وروى أن الخضر أخذ قدحا من الزجاج ورقع به خرق السفينة (قال) العالم وهو الخضر (ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا قال) موسى (لاتؤاخذني بما نسيت) قال ابن عباس إنه لم ينس ولكنه من معاريض الكلام فكأنه نسي شيئا آخر وقيل معناه بما تركت من عهدك والنسيان الترك ، وقال أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم «كانت الأولى من موسى نسيانا والوسطى شرطا والثالثة عمدا» (ولا ترهقني) ولا تغشني (من أمري عسرا) وقيل لاتكلفني مشقة يقال أرهقته عسرا أي كلفته ذلك يقول لاتضيق على أمري وعاملني باليسر ولا تعاملني بالعسر (فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله) في القصة ويأخذ أنهما خرجا من البحر يمشيان فمرا بغلمان يلعبون فأخذ الخضر غلاما ظريفا وضيء الوجه فأضجعه ثم ذبحه بالسكين قال السدي كان أحسنهم وجها وكان وجهه يتوقد حسنا وروينا أنه أخذ برأسه فاقتلعه بيده وروى عبد الرزاق هذا الخبر وأشار بأصابعه الثلاث الإبهام والسبابة والوسطى وقلع برأسه وروى أنه رضخ رأسه بالحجارة وقيل ضرب رأسه بالجدار فقتله قال ابن عباس كان غلاما لم يبلغ الحنث وهو قول الأكثرين قال ابن عباس لم يكن نبي الله يقول أقتلت نفسا زكية إلا وهو صبي لم يبلغ وقال الحسن كان رجلا وقال شعيب الجبائي كان اسمه حيسور قال الكلبي كان فتى يقطع الطريق ويأخذ المتاع ويلجأ إلى أبويه وقال الضحاك كان غلاما يعمل بالفساد وتأذى منه أبواه أخبرنا إسمعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد ابن عيسى الجلودي أنبأنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج أنبأنا عبد الله بن مسلمة بن مغيث ثنا معمر بن سليمان

عن شيء) أي مما أعمله مما تنكره ولاتعترض عليه (حتى أحدث لك منه ذكرا) معناه حتى أبتدأ بذكره فأبين لك شأنه . قوله سبحانه وتعالى (فانطلقا) أي يمشيان على الساحل يطلبان سفينة يركبانها فوجدا سفينة فركباها فقال أهل السفينة هؤلاء لصوص وأمروهما بالخروج فقال صاحب السفينة ماهم بلصوص ولكن أرى وجوه الأنبياء وروينا عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم «مرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول أي بغير عوض ولا عطاء فلما لججوا في البحر أخذ الخضر فأسا فخرق لوحا من ألواح السفينة فذلك» قوله تعالى (حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال) يعني موسى له (أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا) أي أتيت شيئا عظيما منكرا روى أن الخضر لما خرق السفينة لم يدخلها الماء وروى أن موسى لما رأى ذلك أخذ ثوبه فحشا به الخرق (قال) العالم وهو الخضر (ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا قال) يعني موسى (لاتؤاخذني بما نسيت) قال ابن عباس لم ينس ولكنه من معاريض الكلام فكأنه نسي شيئا آخر وقيل معناه بما تركت من عهدك والنسيان الترك وقال أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم «كانت الأولى من موسى نسيانا والثانية شرطا والثالثة عمدا» (ولا ترهقني) أي لاتغشني (من أمري عسرا) والمعنى لاتعسر على متابعتك ويسرها بالأغضاء وترك المناقشة وقيل لاتكلفني مشقة ولاتضيق على أمري (فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله) في القصة أنهما خرجا من البحر يمشيان فمرا بغلمان يلعبون فأخذ الخضر غلاما ظريفا وضيء الوجه كان وجهه يتوقد حسنا فاضجعه ثم ذبحه بالسكين وروينا أنه أخذ برأسه فاقتلعه بيده وروى عبد الرزاق هذا الخبر وفيه أشار بأصابعه الثلاث الإبهام والسبابة والوسطى وقلع رأسه وروى أنه رضخ رأسه بحجر وقيل ضرب رأسه بالجدار فقتله قال ابن عباس كان غلاما لم يبلغ الحنث ولم يكن نبي الله موسى يقول أقتلت نفسا زاكية إلا وهو صبي لم يبلغ الحنث وقيل كان رجلا وقيل كان اسمه حيسور وقيل كان فتى يقطع الطريق

عن أبيه عن رقبة بن مصقلة عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافرا ولو عاش لأرهق أبويه طغيانا وكفرا» (قال) موسى (أقتلت نفسا زكية) قرأ ابن كثير ونافع وأبو جعفر وأبو عمرو زاكية بالألف وقرأ الآخرون زكية قال الكسائي والفراء معناهما واحد، مثل القاسية والقسية وقال أبو عمرو بن العلاء الزاكية التي لم تذنب قط والزكية التي أذنبت ثم تابت (بغير نفس) أي لم تقتل نفسا بشيء وجب به عليها القتل (لقد جئت شيئا نكرا) أي منكرا قال قتادة النكر أعظم من الأمر لأنه حقيقة الهلاك وفي خرق السفينة كان خوف الهلاك وقيل الأمر أعظم لأنه كان فيه تغريق جمع كثير قرأ نافع وابن عامر ويعقوب وأبو بكر هاهنا نكرا وفي سورة الطلاق بضم الكاف والآخرون بسكونها (قال) يعني الخضر (ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا) قيل زاد هنالك لأنه نقض العهد مرتين وفي القصة أن يوشع كان يقول لموسى يا نبي الله اذكر

العهد الذي أنت عليه (قال) موسى (إن سألتك عن شيء بعدها) بعد هذه المرة (فلا تصاحبني) وفارقني وقرأ يعقوب فلا تصحبني بغير ألف من الصحبة (قد بلغت من لدني عذرا) قرأ أبو جعفر ونافع وأبو بكر من لدني خفيفة النون وقرأ الآخرون بتشديدها قال ابن عباس أي قد أعذرت فيما بيني وبينك وقيل قد حذرتني أني لا أستطيع معك صبرا وقيل اتضح لك العذر في مفارقتي أخبرنا إسمعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر بن محمد أنبأنا محمد بن عيسى ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا محمد بن عبد الأعلى القيسي ثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن رقبة عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رحمة الله علينا وعلى موسى وكان إذا ذكر أحدا من الأنبياء بدأ بنفسه لولا أنه عجل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا فلو صبر لرأى العجب» قوله تعالى (فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية) قال ابن عباس يعني أنطاكية وقال ابن سيرين هي الأيلة وهي أبعد الأرض من السماء وقيل برقة وعن أبي هريرة بلدة بالأندلس (استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما) قال أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم «حتى إذا أتيا أهل قرية لئاما فطافا في المجالس فاستطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما» وروى أنهما طافا في القرية فاستطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما وروى أنهما طافا في القوم فاستطعماهم فلم يطعموهما واستضافوهم فلم يضيفوهما قال قتادة شر القرى التي لا تضيف الضيف وروى عن أبي هريرة

ويأخذ المتاع ويلجأ إلى أبويه وقيل كان غلاما يعمل بالفساد ويتأذى منه أبواه (ق) عن أبي ابن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافرا ولو عاش لأرهق أبويه طغيانا وكفرا» لفظ مسلم (قال) يعني موسى (أقتلت نفسا زاكية) أي لم تذنب قط وقرئ زكية وهي التي أذنبت ثم تابت (بغير نفس) أي لم تقتل نفسا حتى يجب عليها القتل (لقد جئت شيئا نكرا) أي منكرا عظيما وقيل النكر أعظم من الأمر لأنه حقيقة الهلاك وفي خرق السفينة خوف الهلاك وقيل الأمر أعظم لأن فيه تغريق جمع كثير وقيل معناه لقد جئت شيئا أنكر من الأول لأن ذاك كان خرقا يمكن تداركه بالسد وهذا لا سبيل إلى تداركه (قال) يعني الخضر (ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا) قيل زاد في هذه الآية قوله لك لأنه نقض العهد مرتين وقيل إن هذه اللفظة توكيد للتوبيخ فعند هذا (قال) موسى (إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني) قيل إن يوشع كان يقول لموسى يا نبي الله اذكر العهد الذي أنت عليه قال موسى إن سألتك عن شيء بعد هذه المرة فلا تصاحبني أي فارقني ولا تصاحبني (قد بلغت من لدني عذرا) قال ابن عباس أي قد أعذرت فيما بيني وبينك وقيل معناه اتضح لك العذر في مفارقتي والمعنى أنه مدحه بهذه الطريقة من حيث أنه احتمله مرتين أولا وثانيا مع قرب المدة (ق) عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ «رحمة الله علينا وعلى موسى وكان إذا ذكر أحدا من الأنبياء بدأ بنفسه لولا أنه عجل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة فقال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا فلو صبر لرأى العجب» قوله ذمامة هو بذال معجمة أي حياء وإشفاق من الذم واللوم يقال ذممته ذمامة يعني لمته ملامة ويشهد له قول الخضر هذا فراق بيني وبينك. قوله سبحانه وتعالى (فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية) قال ابن عباس يعني أنطاكية وقيل الأيلة وهي أبعد الأرض من السماء وقيل هي بلدة بالأندلس (استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما) قال أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم «أتيا أهل قرية لئاما فطافا في المجلس فاستطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما» وروى

قال أطعمتهما امرأة من أهل بربر بعد أن طلبا من الرجال فلم يطعموهما فدعوا لنسائهم ولعنا رجالهم قوله تعالى (فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض) أي يسقط وهذا من مجاز كلام العرب لأن الجدار لا إرادة له وإنما معناه قرب ودنا من السقوط كما تقول العرب داري تنظر إلى دار فلان إذا كانت تقابلها (فأقامه) أي سواه وروى عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال الخضر بيده فأقامه وقال سعيد بن جبير مسح الجدار بيده فاستقام ، وروى عن ابن عباس هدمه ثم قعد يبنيه وقال السدي بل طينا وجعل يبني الحائط (قال) موسى (لو شئت لاتخذت عليه أجرا) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب لتخذت بتخفيف التاء وكسر الخاء وقرأ الآخرون لتخذت بتشديد التاء وفتح الخاء وهما لغتان مثل اتبع وتبع عليه يعني على إصلاح الجدار (٢٢٦) أجرى يعني جعلا معناه إنك قد علمت أننا جياع وأن أهل القرية لم يطعمونا فلو أخذت على عملك أجرا (قال) الخضر (هذا فراق بيني وبينك) يعني وقت فراق بيني وبينك وقيل هذا الإنكار على ترك الأجر هو المفرق بيننا وقال الزجاج معناه هذا فراق بيننا أي فراق اتصالنا وكرر بين تأكيدا (سأنبئك) أي سوف أخبرك (بتأويل مالم تستطع عليه صبرا) وفي بعض التفاسير أن موسى أخذ بثوبه فقال أخبرني بمعنى ماعملت قبل أن تفارقني فقال (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر) قال كعب كانت لعشرة إخوة خمسة زمني وخمسة يعملون في البحر وفيه دليل على أن المسكين وإن كان يملك شيئا فلا يزول عنه اسم المسكنة إذا لم يقم ما يملك بكفايته يعملون في البحر أي يؤاجرون ويكتسبون (أن بها (فأردت أن أعيبها) أجعلها ذات عيب (وكان وراءهم) أي أمامهم (ملك) كقوله من ورائه جهنم وقيل وراءهم خلفهم وكان رجوعهم في طريقهم عليه والأول أصح يدل عليه قراءة ابن عباس وكان أمامهم ملك (يأخذ كل سفينة غصبا) أي كل سفينة صالحة غصبا وكان ابن عباس يقرأ كذلك فخرقها وعيبها الخضر حتى لا يأخذها الملك الغاصب ، وكان اسمه جلندى وكان كافرا قال محمد بن إسحاق اسمه متوله بن جلندي الأزدي وقال شعيب الجبائي اسمه هدد بن بدد وروى أن الخضر اعتذر إلى القوم وذكر لهم شأن الغاصب ولم يكونوا يعلمون بخبره وقال أردت إذا هي مرت به أن يدعها لعيبها ، فاذا جاوزه أصلحوها فانتفعوا بها قيل سدوها بقارورة وقيل بالقار قوله تعالى (وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا) أي فعلمنا وفي

أنهما طافا في القرية فاستطعماهم فلم يطعموهما واستضافاهم فلم يضيفوهما وعن أبي هريرة قال أطعمتهما امرأة من أهل بربر بعد أن طلبا من الرجال فلم يطعموهما فدعا لنسائهم ولعن رجالهم وعن قتادة قال شر القرى التي لا تضيف الضيف (فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض) أي يسقط وهذا من مجاز الكلام لأن الجدار لا إرادة له وإنما معناه قرب ودنا من السقوط كما تقول داري تنظر إلى دار فلان إذا كانت تقابلها فاستعير لها النظر كما أستعير للجدار الإرادة (فأقامه) أي سواه وفي حديث أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال الخضر بيده هكذا فأقامه وقال ابن عباس هدمه وقعد يبنيه (قال) يعني موسى (لو شئت لاتخذت عليه أجرا) يعني على إصلاح الجدار جعلا والمعنى أنك قد علمت أنا جياع وأن أهل القرية لم يطعمونا فلو اتخذت على عملك أجرا (قال) يعني الخضر (هذا فراق بيني وبينك) يعني هذا وقت فراق بيني وبينك وقيل إن هذا الإنكار على ترك أخذ الأجر هو المفرق بيننا (سأنبئك) أي سوف أخبرك (بتأويل مالم تستطع عليه صبرا) وقيل إن موسى أخذ بثوب الخضر وقال أخبرني بمعنى ماعملت قبل أن تفارقني فقال الخضر (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر) قيل كانت لعشرة إخوة خمسة زمني وخمسة يعملون في البحر أي يؤجرونها ويكتسبون بها وفيه دليل على أن المسكين وإن كان يملك شيئا لا يزول عنه اسم المسكنة إذا لم يقم مايملكه بكفايته وإن حال الفقير في الضر والحاجة أشد من حال المسكين لأن الله تعالى سماهم مساكين مع أنهم كانوا يملكون تلك السفينة (فأردت أن أعيبها) أي أجعلها ذات عيب (وكان وراءهم ملك) أي أمامهم وقيل خلفهم وكان رجوعهم في طريقهم عليه والأول أصح (يأخذ كل سفينة غصبا) أي كل سفينة صالحة فخرقتها وعبتها حتى لا يأخذها الملك الغاصب وكان اسمه الجلندي الأزدي وكان كافرا وقيل كان اسمه هدد بن بدد روى أن الخضر اعتذر إلى القوم وذكر لهم شأن الملك الغاصب ولم يكونوا يعلمون بخبره وقال أردت إذا هي تمر به أن يدعها لعيبها فاذا جاوزوا أصلحوها وانتفعوا بها . قوله عز وجل (وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا) أي خفنا والخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه وقيل معناه فعلمنا

قراءة ابن عباس وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين فخشينا أى فعلمنا (أن يرهقهما) يغشيهما، وقال الكلبي يكلفهما (طغيانا وكفرا) قال سعيد بن جبير فخشينا أن يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه (فأردنا أن يبدلهما) قرأ أبو جعفر ونافع وأبو عمرو بالتشديد هاهنا وفى سورة التحريم والقلم وقرأ الآخرون بالتخفيف وهما لغتان وفرق بعضهم فقال التبديل تغيير الشيء أو تغيير حاله وعين الشمس قائم والإبدال رفع الشيء ووضع شيء آخر مكانه (ربهما خيرا منه زكاة) أى صلاحا وتقوى (وأقرب رحما) قرأ ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بضم الحاء والباقون بجزمها أى عطفا من الرحمة وقيل هو من الرحم والقرابة قال قتادة أى أوصل للرحم وأبر بوالديه. قال الكلبي أبدلهما الله جارية فتزوجها نبي من الأنبياء فولدت له نبيا فهدى الله على يديه أمة من الأمم وعن جعفر ابن محمد (٢٢٧) عن أبيه قال أبدلهما الله جارية ولدت سبعين نبيا وقال ابن جريج أبدلهما بغلام مسلم قال مطرف فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ولو بقى لكان فيه هلاكهما فليرض امرؤ بقضاء الله تعالى فان قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب قوله تعالى (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة) وكان اسمهما أصرم وصريم (وكان تحته كنز لهما) اختلفوا فى ذلك الكنز روى عن أبى الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال كان ذهبا وفضة وقال عكرمة كان مالا وعن سعيد بن جبير كان الكنز صحفا فيها علم وعن ابن عباس أنه قال كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه عجبا لمن أيقن بالموت كيف يفرح عجبا لمن أيقن بالحساب كيف يغفل: عجبا لمن أيقن بالرزق كيف يتعب عجبا لمن أيقن بالقدر كيف يغضب عجبا لمن أيقن بزوال الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها لا إله إلا الله محمد رسول الله وفى الجانب الآخر مكتوب أنا الله لا إله إلا أنا وحدى لا شريك لى خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريته على يديه والويل كل الويل لمن خلقته للشر وأجريته على يديه وهذا قول أكثر المفسرين وروى ذلك مرفوعا قال الزجاج الكنز إذا أطلق ينصرف إلى كنز المال ويجوز عند التقييد أن يقال عنده كنز علم وهذا اللوح كان جامعا لهما (وكان أبوهما صالحا) قيل كان اسمه كاشح وكان من الأتقياء قال ابن عباس حفظا بصلاح أبيهما وقيل كان بينهما وبين الأب الصالح سبعة آباء قال محمد بن المنكدر إن الله يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده وعترته وعشيرته وأهل دويرات حوله فما يزالون فى حفظ الله ما دام فيهم قال سعيد بن المسيب إنى لأصلى فأذكر ولدى فأزيد فى صلاتى قوله عز وجل (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما)

(أن يرهقهما) أى يغشيهما وقيل يكلفهما (طغيانا وكفرا) قيل معناه فخشينا أن يحملهما حبه على أن يتبعاه على دينه (فأردنا أن يبدلهما ربهما) الإبدال رفع الشيء ووضع آخر مكانه (خيرا منه زكاة) أى صلاحا وتقوى وقيل هو فى مقابلة قوله تعالى «أقتلت نفسا زاكية» فقال الخضر أردنا أن يرزقهما الله خيرا منه زكاة (وأقرب رحما) أى ويكون المبدل منه أقرب عطفا ورحمة لأبويه بأن يبرهما ويشفق عليهما قيل أبدلهما جارية فتزوجها نبى من الأنبياء فولدت له نبيا فهدى الله على يديه أمة من الأمم وقيل ولدت سبعين نبيا وقيل أبدلهما بغلام مسلم وقيل إن الغلام الذى قتل فرح به أبواه حين ولد وحزن عليه حين قتل ولو بقى لكان فيه هلاكهما فليرض العبد بقضاء الله تعالى فان قضاء الله سبحانه وتعالى للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب. قوله سبحانه وتعالى (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة) قيل كان اسمهما أصرم وصريم (وكان تحته كنز لهما) روى أبو الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «كان الكنز ذهبا وفضة» أخرجه الترمذى وقيل كان الكنز صحفا فيها علم وقال ابن عباس كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه عجبا لمن أيقن بالموت كيف يفرح عجبا لمن أيقن بالقدر كيف يغضب عجبا لمن أيقن بالرزق كيف يتعب عجبا لمن أيقن بالحساب كيف يغفل عجبا لمن أيقن بزوال الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها لا إله إلا الله محمد رسول الله وفى الجانب الآخر مكتوب أنا الله لا إله إلا أنا وحدى لا شريك لى خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريته على يديه والويل كل الويل لمن خلقته للشر وأجريته على يديه وقيل الكنز إذا أطلق يراد به المال ومع التقييد يراد به غيره يقال عند فلان كنز علم وكان هذا اللوح جامعا لهما (وكان أبوهما صالحا) قيل إن اسمه كاشح وكان من الأتقياء قال ابن عباس حفظا بصلاح أبيهما وقيل كان بينهما وبين الأب الصالح سبعة آباء قال محمد بن المنكدر إن الله سبحانه وتعالى يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده وعشيرته وأهل دويرات حوله فلا يزالون فى حفظ الله ما دام فيهم وقال سعيد بن المسيب إنى لأصلى فأذكر ولدى فأزيد فى صلاتى (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما) أى يدركا ويعقلا قوتهما وهو البلوغ وقيل ثمان عشرة سنة. فان قلت كيف

قال فى الأولى فأردت وفى الثانية فأردنا وفى الثالثة فأراد ربك وما وجه كل واحدة من هذه الألفاظ . قلت إنه لما ذكر العيب أضافه إلى نفسه على سبيل الأدب مع الله تعالى فقال فأردت أن أعيبها ولما ذكر القتل عبر عن نفسه بلفظ الجمع تنبيها على أنه من العلماء العظماء فى علم الباطن وعلوم الحكمة وأنه لم يقدم على مثل هذا القتل إلا لحكمة عالية ، ولما ذكر رعاية المصالح فى مال اليتيمين لأجل صلاح أبيهما أضافه إلى الله سبحانه وتعالى لأن حفظ الأبناء وصلاح أحوالهم لرعاية حق الآباء ليس إلا لله سبحانه وتعالى فلأجل ذلك أضافه إلى الله تعالى (ويستخرجا كنزهما) يعنى إذا بلغا وعقلا وقويا (رحمة من ربك) أي نعمة من ربك (وما فعلته عن أمرى) أي باختيارى ورأيى بل فعلته بأمر الله وإلهامه إياي لأن تنقيص أموال الناس وإراقة دمائهم وتغيير أصولهم لايكون إلا بالنص وأمر الله تعالى واستدل بعضهم بقوله سبحانه وتعالى وما فعلته عن أمري على أن الخضر كان نبيا لأن هذا يدل على الوحى وذلك للأنبياء والصحيح أنه ولى لله وليس بنبي وأجيب عن قوله سبحانه وتعالى وما فعلته عن أمري أنه إلهام من الله سبحانه وتعالى له بذلك وهذه درجة الأولياء وقيل معناه إنما فعلت هذه الأفعال لغرض أن تظهر رحمة الله لأنها بأسرها ترجع إلى معنى واحد وهو تحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى (ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا) أي لم تطق أن تصبر عليه روى أن موسى عليه السلام لما أراد أن يفارق الخضر قال أوصنى قال لاتطلب العلم لتحدث به واطلب العلم لتعمل به . واختلف العلماء فى أن الخضر حى أم ميت فقيل إنه حى وهو قول الأكثرين من العلماء وهو متفق عليه عند مشايخ الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة والحكايات فى رؤيته والاجتماع به ووجوده فى المواضع الشريفة ومواطن الخير أكثر من أن تحصر قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح فى فتاواه هو حى عند جماهير العلماء والصالحين والعامة هذا آخر كلامه وقيل إن الخضر وإلياس حيان يلتقيان كل سنة بالموسم وكان السبب فى حياة الخضر فيما حكى أنه شرب من عين الحياة وذلك أن ذو القرنين دخل الظلمة لطلب عين الحياة وكان الخضر على مقدمته فوقع الخضر على العين فاغتسل وشرب منها وصلى شكر الله تعالى وأخطأ ذو القرنين الطريق فرجع وذهب آخرون إلى أنه ميت لقوله سبحانه وتعالى وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد «وقال النبى صلى الله عليه وسلم بعد ما صلى العشاء ليلة أرأيتكم ليلتكم هذه فان على رأس مائة سنة لايبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد ولو كان الخضر حيا لكان لايعيش بعده . وقوله عز وجل (ويسئلونك عن ذى القرنين) قيل إسمه مرزبان بن مرزبة اليونانى من ولد يونان بن يافث بن نوح وقيل اسمه الاسكندر بن فيلفوس كذا صح الرومى وكان ولد عجوز ليس لها ولد غيره ونقل الإمام فخر الدين فى تفسيره عن أبى الريحان السرورى المنجم فى كتابه المسمى بالآثار الباقية عن القرون الخالية أنه من حمير واسمه أبو كرب سمى ابن عير بن أبى أفريقيس الحميرى وهو الذى افتخر به أحد شعراء حمير حيث يقول :

قد كان ذو القرنين جدى مسلما ... ملكا علا فى الأرض غير مفند
بلغ المشارق والمغارب يبتغى ... أسباب ملك من كريم مرشد
فرأي مآب الشمس عند غروبها ... فى عين ذي خلب وثأطة حرمد

قوله فرأي مآب الشمس أى ذهاب الشمس وقوله فى عين ذى خلب أى حمأة والثأطة

نعمة (من ربك وما فعلته عن أمرى) أى باختيارى ورأيى بل فعلته بأمر الله وإلهامه (ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا) أى لم تطق عليه صبرا واستطاع واسطاع بمعنى واحد روي أن موسى لما أراد أن يفارقه قال له أوصنى قال لاتطلب العلم لتحدث به واطلبه لتعمل به واختلفوا فى إن الخضر حى أم ميت قيل إن الخضر وإلياس حيان يلتقيان كل سنة بالموسم وقيل ميت وكان سبب حياته فيما يحكى أنه شرب من عين الحياة وذلك أن ذا القرنين دخل الظلمات لطلب عين الحياة وكان الخضر على مقدمته فوقع الخضر على العين فنزل واغتسل وشرب وصلى شكرا لله عز وجل وأخطأ ذوالقرنين الطريق فعاد وذهب آخرون إلى أنه ميت لقوله تعالى «وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد» وقال النبى صلى الله عليه وسلم بعد ماصلى العشاء ليلة أرأيتكم ليلتكم هذه فان على رأس مائة سنة منها لايبقى ممن هو اليوم حى على ظهر الأرض أحد ولو كان الخضر حيا لكان لايعيش بعده قوله تعالى (ويسئلونك عن ذى القرنين

قل سأتلوا عليكم منه ذكرا) خبرا واختلفوا فى نبوته فقال بعضهم كان نبيا وقال أبو الطفيل سئل على رضى الله عنه عن ذى القرنين أكان نبيا أم ملكا قال لم يكن نبيا ولا ملكا ولكن كان عبدا أحب الله وأحبه الله وناصح الله فناصحه الله وروى أن عمر رضى الله عنه سمع رجلا يقول لآخر ياذا القرنين فقال سميتم بأسماء النبيين فلم ترضوا حتى تسميتم بأسماء الملائكة والأكثرون على أنه كان ملكا عادلا صالحا واختلفوا فى سبب تسميته بذى القرنين قال الزهرى لأنه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها وقيل لأنه كان ملك الروم وفارس وقيل لأنه دخل النور والظلمة وقيل لأنه رأى فى المنام كأنه أخذ بقرنى الشمس وقيل لأنه كانت له ذؤابتان حسنتان وقيل لأنه كان له قرنان تواريهما العمامة وروى أبو الطفيل عن على أنه قال سمى ذا القرنين لأنه أمر قومه بتقوى الله فضربوه على قرنه الأيمن فمات فبعثه الله ثم أمرهم بتقوى الله فضربوه على قرنه الأيسر فمات فأحياه الله واختلفوا فى اسمه قيل اسمه مرزبان بن مرزبة اليونانى من ولد يونان بن يافث بن نوح وقيل اسمه الاسكندر ابن فيلقوس بن ياملوس الرومى . قوله عز وجل (إنا مكنا له فى الأرض) أوطأنا والتمكين تمهيد الأسباب وقال على سخر له السحاب فحمله عليها ومد له فى الأسباب وبسط له النور فكان الليل والنهار عليه سواء فهذا معنى تمكنه فى الأرض وهو أنه سهل عليه السير فيها وذلل له طرقها (وآتيناه من كل شئ) أى من كل شيء يحتاج إليه الخلق وقيل من كل مايستعين به الملوك على فتح المدن ومحاربة الأعداء (سببا) أى علما يتسبب به إلى كل مايريد ويسير به فى أقطار الأرض والسبب مايوصل به إلى الشىء وقال الحسن بلاغا إلى حيث أراد وقيل قربنا إليه أقطار الأرض (فأتبع سببا) أى سلك وسار طريقا قرأ أهل الحجاز والبصرة فاتبع ثم اتبع موصولا مشددا . وقرأ الآخرون بقطع الألف وجزم التاء وقيل معناهما واحد والصحيح الفرق بينهما فمن قطع الألف فمعناه أدرك ولحق ومن قرأ بالتشديد فمعناه سار يقال مازلت أتبعه حتى اتبعته أى مازلت أسير خلفه حتى لحقته وقوله سببا أى طريقا وقال ابن عباس منزلا (حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة) قرأ أبو جعفر وأبو عامر وحمزة والكسائى وأبو بكر

(٢٢٩)

الحمأة أيضا والجمع ثأط والحرمد الطين الأسود وقيل سمى ذا القرنين لأنه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها وقيل لأنه ملك فارس والروم وقيل لأنه دخل النور والظلمة وقيل لأنه رأى فى المنام كأنه أخذ بقرنى الشمس وقيل لأنه كان له ذؤابتان حسنتان وقيل كان له قرنان تواريهما العمامة وروي عن علي أنه أمر قومه بتقوى الله فضربوه على قرنه الأيمن فمات فأحياه الله ثم بعثه فأمرهم بتقوى الله فضربوه على قرنه الأيسر فمات فأحياه الله. واختلفوا فى نبوته فقيل كان نبيا ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى قلنا ياذا القرنين وخطاب الله لايكون إلا مع الأنبياء وقيل لم يكن نبيا قال أبو الطفيل سئل على عن ذى القرنين أكان نبيا فقال لم يكن نبيا ولا ملكا ولكن كان عبدا أحب الله فأحبه الله وناصح الله فناصحه الله وروى أن عمر سمع رجلا يقول لآخر ياذا القرنين فقال تسميتم بأسماء الأنبياء فلم ترضوا حتى تسميتم بأسماء الملائكة والأصح الذى عليه الأكثرون أنه كان ملكا صالحا عادلا وأنه بلغ أقصى المغرب والمشرق والشمال والجنوب وهذا هو القدر المعمور من الأرض وذلك أنه لما مات أبوه جمع ملك الروم بعد أن دان له طوائف ثم مضى إلى ملوك العرب وقهرهم ومضى حتى انتهى إلى البحر الأخضر ثم رجع إلى مصر وبنى الاسكندرية وسماها باسمه ثم دخل الشام وقصد بيت المقدس وقرب فيه القربان ثم انعطف إلى أرمينية وبوب الأبواب وبنى السد ودانت له ملوك العراق والنبط والبربر واستولى على ممالك الفرس ثم مضى إلى الهند والصين وغزا الأمم البعيدة ثم رجع إلى العراق ومرض بشهرزور ومات بها وحمل إلى حيث هو مدفون وقيل إن عمره كان ألفا وثلاثين سنة ومثل هذا الملك البسيط الذى هو على خلاف العادات وجب أن يبقى ذكره مخلدا على وجه الأرض فذلك قوله سبحانه وتعالى ويسئلونك عن ذى القرنين (قل سأتلوا عليكم منه ذكرا) أى خبرا يتضمن حاله . قوله سبحانه وتعالى (إنا مكنا له فى الأرض) أى وطأ ناله والتمكين تمهيد الأسباب قال على سخر الله له السحاب فحمل عليه ومد له فى الأسباب وبسط له النور فكان الليل والنهار عليه سواء وسهل عليه السير فى الأرض وذلل له طريقها (وآتيناه من كل شىء) مما يحتاج إليه الخلق وكل مايستعين به الملوك على فتح المدن ومحاربة الأعداء (سببا) أي علما يتسبب به إلى كل مايريد ويسير به فى أقطار الأرض وقيل بلاغا إلى حيث أراد وقيل قربنا له أقطار الأرض (فأتبع سببا) أى سلك طريقا (حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة) أى ذات

حامية بالألف غير مهموزة أى حارة وقرأ الآخرون حمئة مهموزا بغير الألف أى ذات حماة وهى الطينة السوداء وسال معاوية كعبا كيف تجد فى التوراة أن تغرب الشمس قال نجد فى التوراة أنها تغرب فى ماء وطين قال القتيبي يجوز أن يكون معنى قوله فى عين حمئة أى عندها عين حمئة أو فى رأى العين (ووجد عندها قوما) أى عند العين أمة قال ابن جريج مدينة لها إثنا عشر ألف باب لولا ضجيج أهلها لسمعت وجبة الشمس حين تجب (قلنا ياذا القرنين) يستدل بهذا من زعم أنه كان نبيا فان الله تعالى خاطبه والأصح أنه كان لم يكن نبيا والمراد منه الإلهام (إما أن تعذب) يعنى إما أن تقتلهم إن لم يدخلوا فى الإسلام (وإما أن تتخذ فيهم حسنا) يعنى تعفو وتصفح وقيل تأسرهم فتعلمهم الهدى خيره الله بين الأمرين قال (أما من ظلم) كفر (فسوف نعذبه) أى نقتله (ثم يرد إلى ربه) فى الآخرة (فيعذبه عذابا نكرا) أى منكرا يعنى بالنار والنار أنكر من القتل (وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى) قرأ حمزة والكسائى وأبو جعفر ويعقوب جزاء منصوبا منونا أى فله الحسنى جزاء نصب على المصدر وقرأ الآخرون بالرفع على الإضافة والحسنى الجنة وإضافة الحسن إليها كما قال ولدار الآخرة خير والدار هى الآخرة وقيل المراد بالحسنى على هذه القراءة الأعمال الصالحة أى له جزاء الأعمال الصالحة (وسنقول له من أمرنا يسرا) أي نلين له القول ونعامله باليسر من أمرنا وقال مجاهد يسرا أي معروفا (ثم أتبع سببا) أي سلك طرقا ومنازل (حتى إذا بلغ مطلع الشمس) أي موضع طلوعها (وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) قال قتادة والحسن لم يكن بينهم وبين الشمس ستر وذلك أنهم كانوا فى مكان لايستقر عليه بناء فكانوا يكونون فى أسراب لهم حتى إذا زالت الشمس عنهم خرجوا إلى معايشهم وحروثهم وقال الحسن كانوا إذا طلعت الشمس يدخلون الماء فإذا ارتفعت عنهم خرجوا فرعوا كالبهائم وقال الكلبى هم قوم عراة يفترش أحدهم إحدي أذنيه ويلتحف بالأخرى قوله عز وجل (كذلك) قيل معناه كما بلغ مغرب الشمس كذلك بلغ مطلعها والصحيح أن معناه كما حكم فى القوم الذين هم عند غروب الشمس كذلك حكم فى الذين هم عند طلوع الشمس (وقد أحطنا بما لديه خبرا) يعنى بما عنده ومعه من الجند والعدة والآلات خبرا أي علما

حماة وهى الطينة السوداء وقرىء حامية أى حارة وسأل معاوية كعبا كيف تجد فى التوراة تغرب الشمس وأين تغرب قال نجد فى التوراة أنها تغرب فى ماء وطين وقيل يجوز أن يكون معنى فى عين حمئة أى عندها عين حمئة أو فى رأى العين وذلك أنه بلغ موضعا من المغرب لم يبق بعده شيء من العمران فوجد الشمس كأنها تغرب فى وهدة مظلمة كما أن راكب البحر يري أن الشمس كأنها تغيب فى البحر (ووجد عندها قوما) أي عند العين أمة قال ابن جريج مدينة لها اثنا عشر ألف باب يقال أنها الجاسوس واسمها بالسريانية حريحسا سكنها قوم من نسل ثمود الذين آمنوا بصالح لولا ضجيج أهلها لسمع الناس وجبة الشمس حين تجب أي تغيب (قلنا ياذا القرنين) يستدل بهذا من يزعم أنه كان نبيا فان الله خاطبه ومن قال إنه لم يكن نبيا قال المراد منه الإلهام وقيل يحتمل أن يكون الخطاب على لسان غيره (إما أن تعذب) يعنى تقتل من لم يدخل فى الإسلام (وإما أن تتخذ فيهم حسنا) يعنى تعفو وتصفح وقيل تأسرهم فتعلمهم الهدى خيره الله سبحانه وتعالى بين الأمرين (قال أما من ظلم) أي كفر (فسوف نعذبه) أي نقتله (ثم يرد إلى ربه) أى فى الآخرة (فيعذبه عذابا نكرا) أى منكرا يعنى بالنار لأنها أنكر من القتل (وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى) أى جزاء أعماله الصالحة (وسنقول له من أمرنا يسرا) أى نلين له القول ونعامله باليسر من أمرنا (ثم أتبع سببا) أى سلك طريقا ومنازل (حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) قيل إنهم كانوا فى مكان ليس بينهم وبين الشمس ستر من جبل ولا شجر ولا يستقر عليهم بناء فاذا طلعت الشمس دخلوا فى أسراب لهم تحت الأرض فاذا زالت الشمس عنهم خرجوا إلى معايشهم وحروثهم وقيل إنهم كانوا إذا طلعت الشمس نزلوا فى الماء فاذا ارتفعت عنهم خرجوا فرعوا كالبهائم وقيل هم قوم عراة يفترش أحدهم إحدي أذنيه ويلتحف بالأخرى وقيل إنهم قوم من نسل مؤمنى قوم هود واسم مدينتهم جابلق واسمها بالسريانية مرقيسيا وهم مجاورون يأجوج ومأجوج . قوله سبحانه وتعالى (كذلك) أى كما بلغ مغرب الشمس كذلك بلغ مطلعها وقيل معناه أنه حكم فى القوم الذين هم عند مطلع الشمس كما حكم فى القوم الذين عند مغربها وهو الأصح (وقد أحطنا بما لديه خبرا) أى علما بما عنده ومن

معه

(ثم أتبع سببا حتى إذا بلغ بين السدين) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص السدين وسدا هاهنا بفتح السين وافق حمزة والكسائي في سدا وقرأ الآخرون بضم السين وفي يس سدا بالفتح حمزة وحفص وقرأ الباقون بالضم منهم من قال هما لغتان معناهما واحد وقال عكرمة ما كان من صنعة بني آدم فهو السد بالفتح وما كان من صنع الله فهو سد بالضم وقاله أبو عمرو وقيل السد بالفتح مصدر وبالضم اسم وهما هنا جبلان سد ذو القرنين ما بينهما حاجزا بين يأجوج ومأجوج ومن وراءهم (وجد من دونهما قوما) يعني أمام السدين (لايكادون يفقهون قولا) قرأ حمزة والكسائي يفقهون بضم الياء وكسر القاف على معنى لايفهمون غيرهم قولا وقرأ الآخرون بفتح الياء والقاف أي لايفهمون كلام غيرهم قال ابن عباس لايفهمون كلام أحد ولا يفهم الناس كلامهم (قالوا ياذا القرنين) فان قيل كيف قالوا ذلك وهم لايفهمون قيل كلم عنهم مترجم دليله قراءة ابن مسعود لايكادون يفقهون قولا قال الذين من دونهم ياذا القرنين (إن يأجوج ومأجوج) قرأهما عاصم مهموزين والآخرون بغير همز وهما لغتان أصلهما من أجيج النار وهو ضوؤها وشررها شبهوا به لكثرتهم وشدتهم وقيل بالهمزة من أجيج النار ويترك الهمز اثنان أعجميان مثل هاروت وماروت وهم من أولاد يافث بن نوح قال الضحاك هم جيل من الترك قال السدي الترك سرية من يأجوج ومأجوج خرجت فضرب ذو القرنين السد فبقيت خارجة فجميع الترك منهم وعن قتادة أنهم اثنان وعشرون قبيلة بنى ذو القرنين السد على إحدى وعشرين قبيلة فبقيت قبيلة واحدة فهم الترك سموا الترك لأنهم تركوا خارجين قال أهل التواريخ أولاد نوح ثلاثة سام وحام ويافث فسام أبو العرب والعجم والروم وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة ويافث أبو الترك والخزر والصقالبة ويأجوج ومأجوج . قال ابن عباس في رواية عطاء هم عشرة أجزاء وولد آدم كلهم جزء وروي عن حذيفة مرفوعا أن يأجوج أمة ومأجوج أمة كل أمة أربعة آلاف أمة لايموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح وهم من ولد آدم يسيرون إلى خراب الدنيا وقيل هم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الأرز شجر بالشام طوله عشرون ومائة ذراع في السماء وصنف منهم عرضه وطوله سواء عشرون ومائة ذراع في السماء وهؤلاء لايقوم لهم جبل ولا حديد وصنف منهم يفترش أحدهم أذنه ويلتحف الأخرى لايمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير ولا كلب إلا أكلوه ومن مات منهم أكلوه مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون

معه من الجند والعدة وآلات الحرب وقيل معناه وقد علمنا حين ملكناه ما عنده من الصلاحية بذلك الملك والاستقلال به والقيام بأمره . قوله عز وجل (ثم أتبع سببا حتى إذا بلغ بين السدين) هما هنا جبلان في ناحية الشمال في منقطع أرض الترك حكي أن الواثق بعث بعض من يثق به من أتباعه إليه ليعاينوه فخرجوا من باب من الأبواب حتى وصلوا إليه وشاهدوه فوصفوا أنه بناء من لبن حديد مشدود بالنحاس المذاب وعليه باب مقفل (وجد من دونهما قوما) أي أمام السدين قيل هم الترك (لايكادون يفقهون قولا) قال ابن عباس لايفهمون كلام أحد ولا يفهم الناس كلامهم (قالوا ياذا القرنين) فان قلت كيف أثبت لهم القول وهم لايفهمون . قلت تكلم عنهم مترجم ممن هو مجاورهم ويفهم كلامهم وقيل معناه لايكادون يفقهون قولا إلا بجهد ومشقة من إشارة ونحوها كما يفهم الخرس (إن يأجوج ومأجوج) أصلهما من أجيج النار وهو ضوؤها وشررها شبهوا به لكثرتهم وشدتهم وهم من أولاد يافث بن نوح والترك منهم قيل إن طائفة منهم خرجت تغز فضرب ذو القرنين السد فبقوا خارجه فسموا الترك لذلك لأنهم تركوا خارجين قال أهل التواريخ أولاد نوح ثلاثة سام وحام ويافث فسام أبو العرب والعجم والروم وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة ويافث أبو الترك والخزر والصقالبة ويأجوج ومأجوج قال ابن عباس «هم عشرة أجزاء وولد آدم كلهم جزء» وروى حذيفة مرفوعا «أن يأجوج ومأجوج أمة وكل أمة أربعة آلاف أمة لايموت الرجل منهم حتى ينظر ألف ذكر من صلبه قد حمل السلاح وهم من ولد آدم يسيرون إلى خراب الدنيا وقال هم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الأرز شجر بالشام طوله عشرون ومائة ذراع في السماء وصنف منهم عرضه وطوله سواء عشرون ومائة ذراع وهؤلاء لايقوم لهم جبل ولا حديد وصنف منهم يفترش أحدهم أذنه ويلتحف بالأخرى لايمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه ومن مات منهم أكلوه مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية» وعن علي منهم من طوله شبر ومنهم من هو مفرط في الطول وقال كعب هم نادرة في ولد آدم

وذلك أن آدم احتلم (١) ذات يوم وامتزجت نطفته بالتراب فخلق الله من ذلك الماء يأجوج ومأجوج فهم متصلون بنا من جهة الأب دون الأم وذكر وهب بن منبه إن ذا القرنين كان رجلا من الروم ابن عجوز فلما بلغ كان عبدا صالحا قال الله سبحانه وتعالى إني باعثك إلى أمم مختلفة ألسنتهم منهم أمتان بينهما طول الأرض إحداهما عند مغرب الشمس يقال له ناسك والأخرى عند مطلعها يقال لها منسك وأمتان بينهما عرض الأرض أحداهما فى القطر الأيمن يقال لها هاويل والأخرى فى قطر الأرض الأيسر يقال لها تأويل وأمم فى وسط الأرض منهم الجن والإنس ويأجوج ومأجوج فقال ذو القرنين بأى قوة أكابدهم وبأى جمع أكاثرهم وبأي لسان أناطقهم فقال الله تعالى إنى سأقويك وأبسط لسانك وأشد عضدك فلا يهولنك شيء وألبسك الهيبة فلا يروعك شيء وأسخر لك النور والظلمة وأجعلهما من جنودك فالنور يهديك من أمامك والظلمة تحوطك من ورائك فانطلق حتى أتى مغرب الشمس فوجد جمعا وعددا لا يحصيهم إلا الله تعالى فكاثرهم بالظلمة حتى جمعهم فى مكان واحد فدعاهم إلى الله تعالى وعبادته فمنهم من آمن به ومنهم من صدعنه فعمد إلى الذين تولوا عنه فأدخل عليهم الظلمة فدخلت أجوافهم وبيوتهم فدخلوا فى دعوته فجند من أهل المغرب جندا عظيما وانطلق يقودهم والظلمة تسوقهم حتى أتى هاويل ففعل فيهم كفعله فى ناسك ثم مضى حتى أتى منسك ففعل فيهم كفعله فى الأمتين وجند منهم جندا عظيما ثم أخذ ناحية اليسرى فأتى تاويل ففعل بهم كفعله فيما قبلها ثم عمد إلى الأمم التى فى وسط الأرض فلما كان فيما يلى منقطع الترك مما يلى المشرق قالت له أمه صالحة من الإنس ياذا القرنين إن بين هذين الجبلين خلقا أشباه البهائم يفترسون الدواب والوحوش والسباع ويأكلون الحيات والعقارب وكل ذى روح خلق فى الأرض وليس يزداد خلق كزيادتهم فلا شك أنهم يتملكون الأرض ويظهرون عليها ويفسدون فيها فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا قال « ما مكنى فيه ربى خير » وقال أعدو إلى الصخور والحديد والنحاس حتى أعلم علمهم فانطلق حتى توسط بلادهم فوجدهم على مقدار واحد يبلغ طول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منا لهم مخالب وأضراس كالسباع ولهم هدب شعر يوارى أجسادهم ويتقون به من الحر والبرد ولكل واحد منهم أذنان عظيمتان يفترش إحداهما ويلتحف بالأخرى يصيف فى واحدة ويشتى فى واحدة يتسافدون تسافد البهائم حيث التقوا فلما عاين ذو القرنين ذلك انصرف إلى ما بين الصدفين فقاس ما بينهما وحفر له الأساس حتى بلغ الماء فذلك قوله تعالى قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج

أنهار المشارق وبحيرة طبرية وعن على أنه قال منهم من طوله شبر ومنهم من هو مفرط فى الطول وقال كعب هم نادرة ولد آدم وذلك أن آدم احتلم (١) ذات يوم وامتزجت نطفته بالتراب فخلق الله من ذلك الماء يأجوج ومأجوج فهم يتصلون بنا من جهة الأب دون الأم وذكر وهب بن منبه أن ذا القرنين كان رجلا من الروم ابن عجوز فلما بلغ كان عبدا صالحا قال الله له إنى باعثك إلى أمم مختلفة ألسنتهم منهم أمتان بينهما طول الأرض إحداهما عند مغرب الشمس يقال لها ناسك والأخرى عند مطلعها يقال لها منسك وأمتان بينهما عرض الأرض إحداهما فى القطر الأيمن يقال لها هاويل وأمم فى وسط الأرض منهم الجن والإنس ويأجوج ومأجوج فقال ذو القرنين يارب بأي قوة أكابرهم وبأي جمع أكاثرهم وبأي لسان أناطقهم قال الله عز وجل إنى سأقويك وأبسط لك لسانك وأشد عضدك فلا يهولنك شيء وألبسك الهيبة فلا يروعك شيء وأسخر لك النور والظلمة وأجعلهما من جنودك يهديك النور من أمامك وتحوطك الظلمة من ورائك فانطلق حتى أتى مغرب الشمس فوجد جمعا وعددا لا يحصيه إلا الله فكابرهم بالظلمة حتى جمعهم فى مكان واحد فدعاهم إلى الله وإلى عبادته فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه فعمد إلى الذين تولوا عنه فأدخل عليهم الظلمة فدخلت فى أجوافهم وبيوتهم فدخلوا فى دعوته فجند من أهل المغرب جندا عظيما فانطلق يقودهم والظلمة تسوقهم حتى أتى هاويل فعمل فيهم كعمله فى ناسك ثم مضى حتى انتهى إلى منسك عند مطلع الشمس فعمل فيها وجند فيها جنودا كفعله فى الأمتين ثم أخذ ناحية الأرض اليسرى فأتى تاويل فعمل فيها كعمله فيما قبلها ثم عمد إلى الأمم التى فى وسط الأرض فلما دنا مما يلى منقطع الترك نحو المشرق قالت له أمة صالحة من الإنس ياذا القرنين إن بين هذين الجبلين خلقا أشباه البهائم يفترسون الدواب والوحوش لهم أنياب وأضراس كالسباع يأكلون الحيات والعقارب وكل ذى روح خلق فى الأرض مفسدون

---

(١) قوله . احتلم ، هذا مردود فان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من الشيطان ، والاحتلام من الشيطان اه من هامش

وليس يزداد خلق كزيادتهم ولاشك أنهم سيملئون الأرض ويظهرون عليها ويفسدون فيها «فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا قال مامكني فيه ربي خير» قال اعدوا إلى الصخرة والحديد والنحاس حتى أعلم علمهم فانطلق حتى توسط بلادهم فوجدهم على مقدار واحد يبلغ طول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منا لهم مخاليب كالأظفار فى أيدينا وأنياب وأضراس كالسباع ولهم هدب من الشعر فى أجسادهم يواريهم ويتقون به من الحر والبرد ولكل واحد منهم أذنان عظيمتان يفترش إحداهما ويلتحف بالأخري يصيف فى إحداهما ويشتو فى الأخرى يتسافدون تسافد البهائم حيث التقوا فلما عاين ذلك ذو القرنين انصرف إلى مابين الصدفين فقاس مابينهما فحفر له الأساس حتى بلغ الماء وجعل حشوه الصخر وطينه النحاس يذاب فيصب عليه فصار كأنه عرق من جبل تحت الأرض قوله تعالى (مفسدون فى الأرض) قال الكلبي فسادهم أنهم كانوا يخرجون أيام الربيع إلى أرضهم فلايدعون فيها شيئا أخضر إلا أكلوه ولا يابسا إلا احتملوه وأدخلوه أرضهم ولقد لقوا منهم أذى شديدا وقتلا وقيل فسادهم أنهم كانوا يأكلون الناس وقيل معناه أنهم سيفسدون فى الأرض **(٢٣٣)** عند خروجهم (فهل نجعل لك خرجا) قرأ حمزة والكسائى خراجا بالألف وقرأ الآخرون خرجا بغير ألف وهما لغتان بمعنى واحد أي جعلا وأجرا من أموالنا وقال أبو عمرو الخرج ماتبرعت به والخراج مالزمك أداؤه وقيل الخراج على الأرض والخرج على الرقاب يقال أدخرج رأسك وخراج مدينتك (على أن تجعل بيننا وبينهم سدا) أي حاجزا فلا يصلون إلينا (قال) لهم ذو القرنين (مامكني فيه) قرأ ابن كثير مكنني بنونين ظاهرين وقرأ الآخرون بنون واحدة مشددة على الإدغام أي ماقوانى عليه (ربى خير) من جعلكم (فأعينونى بقوة) معناه أنى لا أريد المال بل أعينونى بأبدانكم وقوتكم (أجعل بينكم وبينهم ردما) أى سدا قالوا وما تلك القوة قال فعلة وصناع يحسنون البناء والعمل والآلة قالوا وما تلك الآلة قال (آتونى) اعطونى وقرأ أبو بكر ائتونى أى جيئونى (زبر الحديد) أى قطع الحديد واحدتهما زبرة فأتوه بها وبالحطب وجعل بعضها على بعض فلم يزل يجعل الحديد على الحطب والحطب على الحديد (حتى إذا ساوى بين الصدفين) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب بضم الصاد والدال وجزم أبو بكر الدال وقرأ الآخرون بفتحها وهما الجبلان ساوى أى سوى بين طرفى الجبلين (قال انفخوا) وفى القصة أنه جعل الفحم والحطب فى خلال زبر الحديد ثم قال انفخوا يعنى فى النار (حتى إذا جعله نارا) أى صار الحديد نارا (قال آتونى) قرأ حمزة وأبو بكر وصلا وقرأ الآخرون بقطع الألف (أفرغ عليه قطرا) أى آتونى قطرا أفرغ عليه والإفراغ الصب والقطر هو النحاس المذاب فجعلت النار تأكل الحطب ويصير النحاس مكان الحطب حتى لزم الحديد النحاس قال قتادة هو كالبرد والبحر طريقة سوداء وطريقة حمراء وفى القصة أن عرضه كان خمسين ذراعا وارتفاعه مائتى ذراع وطوله فرسخ (فما اسطاعوا أن يظهروه) أن يعلوه من فوقه

ومأجوج (مفسدون فى الأرض) قيل فسادهم أنهم كانوا يخرجون أيام الربيع إلى أرضهم فلا يدعون فيها شيئا أخضر إلا أكلوه ولا يابسا إلا حملوه وأدخلوه أرضهم فلقوا منهم أذى شديدا وقيل فسادهم أنهم كانوا يأكلون الناس وقيل معناه أنهم سيفسدون عند خروجهم (فهل نجعل لك خرجا) أى جعلا وأجرا من الأموال (على أن تجعل بيننا وبينهم سدا) أى حاجزا فلا يصلون إلينا (قال) لهم ذو القرنين (مامكنى فيه ربى خير) أى ماقوانى به ربى خير من جعلكم (فأعينونى بقوة) يعنى لاأريد منكم المال بل أعينونى بأبدانكم وقوتكم (أجعل بينكم وبينهم ردما) أى سدا قالوا وما تلك القوة قال فعلة وصناع يحسنون البناء والآلة قالوا وما تلك الآلة قال (آتونى) أى أعطونى وقيل جيئونى (١) (زبر الحديد) أى قطع الحديد فأتوه بها وبالحطب فجعل الحطب على الحديد والحديد على الحطب (حتى إذا ساوي بين الصدفين) أى بين طرفى الجبلين (قال انفخوا) يعنى فى النار (حتى إذا جعله نارا) أى صار نارا (قال آتونى أفرغ عليه) أى أصيب عليه (قطرا) أى نحاسا مذابا فجعلت النار تأكل الحطب وجعل النحاس يسيل مكانه حتى لزم الحديد النحاس قيل إن السد كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء وقيل إن عرضه خمسون ذراعا وارتفاعه مائة ذراع وطوله فرسخ واعلم أن هذا السد معجزة عظيمة ظاهرة لأن الزبرة الكبيرة إذا نفخ عليها حتى صارت كالنار لم يقدر أحد على القرب منها والنفخ عليها لايمكن إلا بالقرب منها فكأنه تعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك النافخين حتى تمكنوا من العمل فيه (فما اسطاعوا أن يظهروه) أى يعلوا عليه لعلوه

(١) قوله وقيل جيئونى ظاهره أنه تفسير لآتونى مقطوع الهمزة ولايصح إنما يصح إذا كان تفسيرا لائتونى موصولها فليتأمل اه

لطوله وملاسته (وما استطاعوا له نقبا) من أسفله لشدته ولصلابته وقرأ حمزة فما اسطاعوا بتشديد الطاء أدغم تاء الافتعال في الطاء (قال) يعني ذا القرنين (هذا) أي السد (رحمة) نعمة (من ربي فاذا جاء وعد ربي) قيل القيامة وقيل وقت خروجهم (جعله دكاء) قرأ أهل الكوفة دكاء بالمد والهمز أي أرضا ملساء وقرأ الآخرون بلا مد أي جعله مدكوكا مستويا مع وجه الأرض (وكان وعد ربي حقا) «وروى قتادة عن أبي رافع عن أبي هريرة يرفعه أن يأجوج ومأجوج يحفرونه كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا فيعيده الله كما كان حتى إذا بلغت مدتهم حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء الله واستثنى فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه فيخرجون على الناس فيتبعون المياه ويتحصن الناس في حصونهم منهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فيرجع فيها كهيئة الدم فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء فيبعث الله عليهم نغفا في أقفائهم فيهلكون وإن دواب الأرض لتسمن وتشكر من لحومهم شكرا» أخبرنا إسمعيل بن عبدالقاهر أنبأنا عبد الغافر بن محمد الفارسي أنبأنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم (٢٣٤) بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا محمد بن مهران الرازي ثنا الوليد بن مسلم ثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن يحيى بن جابر الطائي عن عبدالرحمن ابن جبير بن نفير عن أبيه جبير بن نفير عن النواس بن سمعان قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا فقال ما شأنكم قلنا يارسول الله ذكرت الدجال ذات غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل فقال غير الدجال أخوفني عليكم أن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم فكل امرئ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم إنه شاب قطط عينه اليمنى طافية كأني أشبهه بعبدالعزى بن قطن فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف إنه خارج خلة بين الشام والعراق فعاث يمينا وعاث شمالا ياعباد الله فاثبتوا قلنا يارسول الله فما لبثه في الأرض قال أربعون يوما يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم قلنا يارسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أيكفينا فيه صلاة يوم قال لا أقدروا له قدره قلنا يارسول الله وما إسراعه في الأرض قال كالغيث استدبرته الريح فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى وأسبغه ضروعا وأمده خواصر ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله قال فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم ويمر بالخربة فيقول لها أخرجي كنوزك فيتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه ويضحك فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح عيسى بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي باب دمشق بين مهربودستين واضعا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه مثل جمان اللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد من ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهي حيث

وملاسته (وما استطاعوا له نقبا) أي من أسفله لشدته وصلابته (قال) يعني ذو القرنين (هذا) أي السد (رحمة من ربي) أي نعمة من ربي (فاذا جاء وعد ربي) قيل يعني يوم القيامة وقيل وقت خروجهم (جعله دكاء) أي أرضا ملساء وقيل مدكوكا مستويا مع الأرض (وكان وعد ربي حقا) (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وعقد بيده تسعين» قوله وعقد بيده تسعين هو من موضوعات الحساب وهو أن تجعل رأس أصبعك السبابة في وسط الإبهام من باطنها شبه الحلقة لكن لا يتبين لها إلا خلل يسير وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «في السد يحفرونه كل يوم حتى إذا كادوا يخرقونه قال بعضهم ارجعوا فستحفرونه غدا قال فيعيده الله كأشد ما كان حتى إذا بلغوا مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء الله تعالى واستثنى قال فيرجعون فيجدونه على هيئته حين تركوه فيخرقونه فيخرجون على الناس فيستقون المياه وتفر منهم الناس» وفي رواية «تتحصن الناس في حصونهم منهم فيرمون بسهام إلى السماء فترجع مخضبة بالدماء فيقولون قهرنا من في الأرض وعلونا من في السماء فيزدادون قسوة وعتوا فيبعث الله عليهم نغفا في رقابهم فيهلكون فوالذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتشكر من لحومهم شكرا» أخرجه الترمذي وقوله قسوة وعتوا أي غلظة وفظاظة وتكبرا والنغف دود يكون في أنوف الإبل والغنم وقوله وتشكر يقال شكرت

ينتهى طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله ثم يأتى عيسى قوم قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى أنى قد أخرجت عبادا لى لايد لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقولون لقد كان بهذه مرة ماء ويحصر نبى الله وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النغف فى رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة ثم يهبط نبى الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلايجدون فى الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيرا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ثم يرسل الله مطرا لايكن منه بيت مدر ولاوبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة ثم يقال للأرض انبتى ثمرتك وردى بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك فى الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى الفئام من الناس واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة» وبهذا الإسناد حدثنا مسلم بن الحجاج ثنا على بن حجر السعدى ثنا عبدالله بن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر والوليد (٢٣٥) بن مسلم عن عبد الرحمن بن يزيد ابن جابر بهذا الإسناد نحو ما ذكرنا ، وزاد بعد قوله لقد كان بهذه مرة ماء ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر وهو جبل بيت المقدس فيقولون لقد قتلنا من فى الأرض هلم فلنقتل من فى السماء فيرمون بنشابهم إلى السماء فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دما وقال وهب إنهم كانوا يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه ثم يأكلون الخشب والشجر ومن ظفروا به من الناس ولا يقدرون أن يأتوا مكة ولا المدينة ولا بيت المقدس» أخبرنا عبدالواحد المليحى أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسمعيل أنبأنا أحمد أنبأنا أبى أنبأنا إبراهيم عن الحجاج بن حجاج عن قتادة عن عبد الله ابن أبى عتبة عن أبى سعيد الخدري عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج» وفى القصة أن ذا القرنين دخل الظلمة فلما رجع توفى بشهر زور وذكر بعضهم أن عمره كان نيفا وثلاثين سنة قوله تعالى (وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض) قيل هذا عند فتح السد يقول تركنا يأجوج ومأجوج يموج أي يدخل بعضهم على بعض كموج الماء ويختلط بعضهم ببعض لكثرتهم وقيل هذا عند قيام الساعة يدخل الخلق بعضهم فى بعض ويختلط أنسيهم بجنيهم حيارى (ونفخ فى الصور) لأن خروج يأجوج ومأجوج من علامات قرب الساعة (فجمعناهم جمعا) فى صعيد واحد (وعرضنا) أبرزنا (جهنم يومئذ للكافرين عرضا) حتى يشاهدوها عيانا (الذين كانت أعينهم فى غطاء) أي غشاء والغطاء ما يغطى به الشيء ويستره (عن ذكري) يعنى عن الإيمان والقرآن وعن الهدي والبيان : وقيل عن رؤية الدلائل (وكانوا لايستطيعون سمعا) أي سمع القبول والإيمان لغلبة الشقاوة عليهم وقيل لايعقلون وقيل ، كانوا لايستطيعون . أى لايقدرون أن يسمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم مايتلوه عليهم لشدة عداوتهم له كقول الرجل لاأستطيع أن أسمع من فلان شيئا لعداوته (أفحسب) أفظن (الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دونى أولياء) أربابا يريد بالعباد عيسى والملائكة

شكرت الشاة تشكر شكرا إذا امتلأ ضرعها لبنا والمعنى أنها تمتلئ أجسامها لحما وتسمن (خ) عن أبى سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج» قوله عز وجل (وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض) قيل هذا عند فتح السد يقول تركنا يأجوج ومأجوج يموج أى يدخل بعضهم فى بعض كموج الماء ويختلط بعضهم فى بعض لكثرتهم وقيل هذا عند قيام الساعة يدخل الخلق بعضهم فى بعض لكثرتهم ويختلط إنسهم بجنهم حيارى (ونفخ فى الصور) فيه دليل على أن خروج يأجوج ومأجوج من علامات قرب الساعة (فجمعناهم جمعا) أى فى صعيد واحد (وعرضنا) أى أبرزنا (جهنم يومئذ للكافرين عرضا) ليشاهدوها عيانا (الذين كانت أعينهم فى غطاء) أى غشاء وستر (عن ذكرى) أى عن الإيمان والقرآن والهدى والبيان وقيل عن رؤية الدلائل وتبصرها (وكانوا لايستطيعون سمعا) أى سمع قبول للإيمان والقرآن لغلبة الشقاء عليهم وقيل معناه لايستطيعون أن يسمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم لشدة عداوتهم له . قوله تعالى (أفحسب) أى أفظن (الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء) يعنى أربابا يريد

كلا بل هم لهم أعداء ويتبرءون منهم قال ابن عباس يعني الشياطين أطاعوهم من دون الله وقال مقاتل الأصنام سماها عبادا كما قال إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم وجواب هذا الاستفهام محذوف قال ابن عباس يريد أني لا أغضب لنفسي يقول أفظن الذين كفروا أن يتخذوا غيري أولياء وإني لا أغضب لنفسي ولا أعاقبهم وقيل أفظنوا أنهم ينفعهم أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء (إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا) أي منزلا قال ابن عباس هي مثواهم وقيل النزل ما يهيأ للضيف يريد هي معدة لهم عندنا كالنزل للضيف (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا) يعني الذين أتعبوا أنفسهم في عمل يرجون به فضلا ونوالا فنالوا هلاكا وبوارا كمن يشتري سلعة يرجو عليها ربحا فخسر وخاب سعيه واختلفوا فيهم قال ابن عباس وسعد بن أبي وقاص وقال هم اليهود والنصارى وقيل هم الرهبان (الذين) حبسوا أنفسهم في الصوامع وقال علي بن أبي طالب هم أهل حروراء (٢٣٦) (ضل سعيهم) بطل عملهم واجتهادهم (في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) أي عملا (أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت) بطلت (أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) أي لا نجعل لهم خطرا وقدرا تقول العرب ما لفلان عندي وزن أي قدر لخسته أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا أحمد عن محمد بن يوسف عن محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن عبد الله ثنا سعيد بن مريم أنبأنا المغيرة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال اقرءوا فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا» قال أبو سعيد الخدري يأتي أناس بأعمال يوم القيامة هي عندهم في العظم كجبال تهامة فاذا وزنوها لم تزن شيئا فذلك قوله تعالى: «فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا» (ذلك) الذي ذكرت من حبوط أعمالهم وخسة أقدارهم ثم ابتدأ فقال (جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي) يعني القرآن (ورسلي هزوا) أي سخرية ومهزوءا بهم قوله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس) روينا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة» قال كعب ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس فيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وقال قتادة الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأقصاها وأرفعها قال كعب الفردوس هو البستان الذي فيه الأعناب، وقال مجاهد هو البستان بالرومية وقال عكرمة هي الجنة بلسان الحبش قال الزجاج هو بالرومية منقول إلى لفظ العربية، وقال

عيسى والملائكة بل هم لهم أعداء يتبرءون منهم وقال ابن عباس يعني الشياطين أطاعوهم من دون الله والمعنى أفظن الذين كفروا أن يتخذوا غيري أولياء وإني لا أغضب لنفسي فلا أعاقبهم وقيل معناه أفظنوا أنه ينفعهم أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء (إنا أعتدنا) أي هيأنا (جهنم للكافرين نزلا) أي منزلا قال ابن عباس رضي الله عنهما هي مثواهم وقيل معدة لهم عندنا كالنزل للضيف. قوله تعالى (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا) يعني الذين اتعبوا أنفسهم في عمل يرجون به فضلا ونوالا فنالوا هلاكا وبوارا قال ابن عباس هم اليهود والنصارى وقيل هم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في الصوامع وقال علي بن أبي طالب هم أهل حوراء يعني الخوارج (الذين ضل سعيهم) أي بطل عملهم واجتهادهم (في الحياة الدنيا وهم يحسبون) أي يظنون (أنهم يحسبون صنعا) أي عملا ثم وصفهم فقال تعالى (أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه) يعني أنهم جحدوا دلائل توحيده وقدرته وكفروا بالبعث والثواب والعقاب وذلك لأنهم كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالقرآن فصاروا كافرين بهذه الأشياء (فحبطت أعمالهم) أي بطلت (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) قيل لا نقيم لهم ميزانا لأن الميزان إنما توضع لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين ليتميزوا مقدار الطاعات ومقدار السيئات قال أبو سعيد الخدري «يأتي أناس بأعمال يوم القيامة هي عندهم من العظم كجبال تهامة فاذا وزنوها لم تزن شيئا فذلك قوله تعالى «فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا» وقيل معناه نزدري بهم فليس لهم عندنا حظ ولا قدر ولا وزن (ق) عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال اقرءوا إن شئتم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا» (ذلك) إشارة إلى ما ذكر من حبوط أعمالهم وخسة قدرهم ثم ابتدأ فقال تعالى (جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا) يعني سخرية واستهزاء. قوله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا

الضحاك هي الجنة الملتفة الأشجار وقيل هي الروضة المستحسنة وقيل هي التي تنبت ضروبا من النبات وجمعه فراديس (نزلا) قيل أى منزلا وقيل ما يهيأ للنازل على معنى كانت لهم ثمار جنات الفردوس ونعيمها نزلا ومعنى كانت لهم أى فى علم الله قبل أن يخلقوا (خالدين فيها لايبغون) لايطلبون (عنها حولا) أى تحولا إلى غيرها قال ابن عباس لايريدون أن يتحولوا عنها كما ينتقل الرجل من دار إلى دار إذا لم توافقه إلى دار أخرى (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى) قال ابن عباس «قالت اليهود يامحمد تزعم أنا قد أوتينا الحكمة وفى كتابك ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ثم تقول وما أوتيتم من العلم إلا قليلا فأنزل الله هذه الآية» وقيل لما نزلت وما أوتيتم من العلم إلا قليلا قالت اليهود أوتينا التوراة وفيها علم كل شئ فأنزل الله قل لو كان البحر مدادا سمى المداد مدادا لإمداده الكاتب وأصله من الزيادة ومجئ الشيء بعد الشيء قال مجاهد لو كان البحر مدادا للقلم والقلم يكتب (لنفد البحر) أى ماؤه (قبل أن تنفد) (٢٣٧) قرأ حمزة والكسائى ينفد بالياء لتقدم الفعل والباقون بالتاء (كلمات ربى) أى علمه وحكمه (ولو جئنا بمثله مددا) معناه لو كان الخلائق يكتبون والبحر يمدهم لنفد البحر ولم تنفد كلمات الله ولو جئنا بمثله مددا بمثل ماء البحر فى كثرته مدادا وزيادة نظيره قوله تعالى «لو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله» (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد) قال ابن عباس علم الله رسوله التواضع لئلا يزهو على خلقه فأمره الله أن يقر فيقول أنا آدمى مثلكم إلا أنى خصصت بالوحى وأكرمنى الله به يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد لاشريك له (فمن كان يرجو لقاء ربه) أى يخاف المصير إليه وقيل يأمل رؤية ربه فالرجاء يكون بمعنى الخوف والأمل جميعا قال الشاعر :

فلا كل ماترجو من الخير كائن ... ولا كل ماترجو من الشر واقع

فجمع به المعنيين (فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا) أى لايرائى بعمله أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنبأنا أبو نعيم أنا سفيان عن سلمة هو ابن كهيل قال سمعت جندبا يقول قال النبى صلى الله عليه وسلم «من سمع سمع الله به ومن يرائى يرائى الله به» وروينا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا يارسول الله وما الشرك الأصغر قال الرياء» أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحى أنبأنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفى ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم ثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ثنا أبى

نزلا) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة» قال كعب ليس فى الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس فيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وقال قتادة الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها وأرفعها وقيل الفردوس هو البستان الذي فيه الأعناب وقيل هي الجنة الملتفة بالأشجار التى تنبت ضروبا من النبات وقيل الفردوس البستان بالرومية وقيل بلسان الحبش منقولا إلى العربية نزولا هو ما يهيأ للنازل على معنى كانت لهم ثمار جنات الفردوس ونعيمها نزلا وقيل فى معنى كانت لهم أى فى علم الله تعالى قبل أن يخلقوا (خالدين فيها لايبغون) أى لايطلبون (عنها حولا) أى تحولا إلى غيرها قال ابن عباس لايريدون أن يتحولوا عنها كما ينتقل الرجل من دار إذا لم توافقه إلى دار أخرى. قوله تعالى (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى) قال ابن عباس قالت اليهود يامحمد تزعم أننا قد أوتينا الحكمة وفى كتابك «ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا» ثم تقول وما أوتيتم من العلم إلا قليلا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل لما نزل «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» قالت اليهود أوتينا علم التوراة وفيها علم كل شيء فأنزل الله تعالى «قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى» أى ما يستمده الكاتب ويكتب به وأصله من الزيادة قال مجاهد لو كان البحر مدادا للقلم والقلم يكتب قيل والخلائق يكتبون (لنفد البحر) أى لنفد ماؤه (قبل أن تنفد كلمات ربى) أى علمه وحكمه (ولو جئنا بمثله مددا) والمعنى ولو كان الخلائق يكتبون والبحر يمدهم لفنى ماء البحر ولم تفن كلمات ربى ولو جئنا بمثل ماء البحر فى كثرته مددا وزيادة. قوله تعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم) قال ابن عباس علم الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم التواضع لئلا يزهى على خلقه فأمره أن يقر فيقول أنا آدمى مثلكم إلا أنى خصصت بالوحى وأكرمنى الله به وهو قوله تعالى (يوحى إلى إنما إلهكم إله واحد) لاشريك له فى ملكه (فمن كان يرجو لقاء ربه) أي يخاف المصير إليه وقيل يؤمل رؤية ربه (فليعمل عملا صالحا) أى من حصل له رجاء لقاء الله تعالى والمصير إليه فليستعمل نفسه فى العمل الصالح (ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) أى لايرائى بعمله ولما كان العمل الصالح

ثنا شعيب قال ثنا الليث عن أبي الهاد عن عمرو عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن الله تبارك وتعالى يقول أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى فأنا منه برىء هو للذى عمله» أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنبأنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان ثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الريانى ثنا حميد بن زنجويه ثنا حفص بن عمر ثنا همام عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد الغطفانى عن معدان بن أبي طلحة عن أبي الدرداء يرويه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال» وأخبرنا عبد الواحد المليحى أنبأنا أبو منصور السمعانى ثنا أبو جعفر الريانى ثنا حميد بن زنجويه ثنا أبو الأسود ثنا ابن لهيعة عن زياد عن سهل هو ابن معاذ عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نورا من قدميه إلى رأسه ومن قرأها كلها كانت له نورا من الأرض إلى السماء».

(سورة مريم مكية وهى ثمان وتسعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (كهيعص) قرأ أبو عمرو بكسر الهاء وفتح الياء وضده ابن عامر وحمزة ويكسرهما الكسائى وأبو بكر والباقون بفتحهما ويظهر الدال عند الذال من صاد ذكر ابن كثير ونافع وعاصم ويعقوب والباقون بالإدغام. قال ابن عباس رضى الله عنهما هو اسم من أسماء الله تعالى وقال قتادة هو اسم من أسماء القرآن وقيل اسم للسورة وقيل هو قسم أقسم الله به وروى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله كهيعص قال الكاف من كريم وكبير والهاء من هاد والياء من رحيم والعين من عليم وعظيم والصاد من صادق وقال الكلبى معناه كاف لخلقه هاد لعباده يده فوق أيديهم عالم ببريته صادق فى وعده (ذكر) رفع بالمضمر أى هذا الذى نتلوه عليك ذكر (رحمة ربك) وفيه تقديم وتأخير معناه ذكر ربك (عبده زكريا) برحمته (إذ نادى) دعا (ربه) فى محرابه (نداء خفيا) دعا سرا من قومه فى جوف الليل (قال رب إنى وهن) (العظم

قد يراد به وجه الله سبحانه وتعالى وقد يراد به الرياء والسمعة اعتبر فيه قيدان أحدهما أن يراد به سبحانه وتعالى والثانى أن يكون مبرأ من جهات الشرك جميعها (ق) عن جندب بن عبد الله البجلى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من سمع سمع الله به ومن يرائى يرائى الله به» قوله من سمع سمع الله به أى من عمل عملا مراآة للناس يشتهر بذلك شهره الله يوم القيامة وقيل سمع الله به أى أسمعه المكروه (م) عن أبي هريرة قال «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الله تبارك وتعالى يقول «أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى تركته وشركه ولغير مسلم فأنا منه برىء هو والذى عمله» عن سعيد بن أبي فضالة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «إذا جمع الناس ليوم لاريب فيه نادى مناد من كان يشرك فى عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه منه فان الله أغنى الشركاء عن الشرك» أخرجه الترمذى وقال حديث غريب وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا وما الشرك الأصغر قال الرياء» (م) عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال» وفى رواية من آخرها والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

(تفسير سورة مريم عليها السلام)

مكية وهى ثمان وتسعون آية وثمانون وسبعمائة كلمة وثلاثة آلاف وسبعمائة حرف

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (كهيعص) قال ابن عباس رضى الله عنهما هو اسم من أسماء الله تعالى وقيل اسم للقرآن وقيل للسورة وقيل هو قسم أقسم الله تعالى به وعن ابن عباس قال الكاف من كريم وكبير والهاء من هاد والياء من رحيم والعين من عليم والصاد من صادق وقيل معناه كاف لخلقه هاد لعباده يده فوق أيديهم عالم ببريته صادق فى وعده (ذكر) أى هذا الذى نتلو عليك ذكر (رحمة ربك عبده زكريا) قيل معناه ذكر ربك عبده زكريا برحمته (إذ نادى) أى دعا (ربه) فى المحراب (نداء خفيا) أى دعاء سرا من قيامه فى جوف الليل وقيل راعى سنة الله فى إخفاء دعائه لأن الجهر والإسرار عند الله تعالى سيان ولكن الإخفاء أولى لأنه أبعد عن الرياء وأدخل فى الإخلاص وقيل أخفاه لئلا يلام على طلب الولد زمن الشيخوخة وقيل خفت صوته لضعفه وهرمه يدل عليه قوله تعالى (قال رب إنى وهن) أى رق وضعف

ضعف ورق (العظم منى) من الكبر قال قتادة اشتكى سقوط الأضراس (واشتعل الرأس) أى ابيض شعر الرأس (شيبا) شمطا (ولم أكن بدعائك رب شقيا) يقول عودتنى الإجابة فيما مضى ولم تخيبنى وقيل معناه لما دعوتنى إلى الإيمان آمنت ولم أشق بترك الإيمان (وإنى خفت الموالى) والموالى بنو العم وقال مجاهد العصبة وقال أبو صالح الكلالة . وقال الكلبى الورثة (من ورائى) من بعد موتى قرأ ابن كثير من ورائى بفتح الياء والآخرون باسكانها (وكانت امرأتى عاقرا) لاتلد (فهب لى من لدنك) أعطنى من عندك (وليا) إبنا (يرثنى ويرث من آل يعقوب) قرأ أبو عمرو والكسائى بجزم الثاء فيهما على جواب الدعاء وقرأ الآخرون بالرفع على الحال والصفة يعنى وليا وارثا واختلفوا فى هذا الإرث قال الحسن معناه يرث مالى ويرث من آل يعقوب النبوة والحبورة وقيل أراد ميراث النبوة والعلم وقيل أراد إرث الحبورة لأن زكريا كان رأس الأحبار وقال الزجاج والأولى أن يحمل على ميراث غير المال لأنه يبعد أن يشفق (٢٣٩) زكريا وهو نبى من الأنبياء أن يرثه بنو عمه ماله والمعنى أنه خاف تضييع بنى عمه دين الله وتغيير أحكامه على ما كان شاهده من بنى إسرائيل من تبديل الدين وقتل الأنبياء فسأل ربه ولدا صالحا يأمنه على أمته ويرث نبوته وعمله لئلا يضيع الدين وهذا معنى قول عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما (واجعله رب رضيا) أى برا تقيا مرضيا قوله عز وجل (يازكريا إنا نبشرك) وفيه اختصار معناه فاستجاب الله دعاءه فقال يازكريا إنا نبشرك (بغلام) بولد ذكر (اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا) قال قتادة والكلبى لم يسم أحد قبله يحيى وقال سعيد بن جبير وعطاء لم نجعل له شبها ومثلا كما قال الله تعالى هل تعلم له سميا أى مثلا والمعنى أنه لم يكن له مثل لأنه لم يعص ولم يهم بمعصية قط وقيل لم يكن له ميل فى أمر النساء لأنه كان سيدا وحصورا . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما أى لم تلد العواقر مثله ولدا وقيل لم يرد الله به اجتماع الفضائل كلها ليحيى إنما أراد بعضها لأن الخليل والكليم كانا قبله وهما أفضل منه (قال رب أنى) من أين (يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا) أى يبسا وقال قتادة يريد نحول العظم يقال عتا الشيخ يعتو عتيا وعسيا إذا انتهى سنه وكبر وشيخ عات وعاس إذا صار إلى حالة اليبس والجفاف وقرأ حمزة والكسائى عتيا وبكيا وصليا وجثيا بكسر أوائلهن والباقون برفعها وهما لغتان (قال كذلك قال ربك هو على هين) يسير (وقد خلقتك) قرأ حمزة والكسائى خلقناك بالنون والألف على التعظيم (من قبل) أى من قبل يحيى (ولم تك شيئا قال رب اجعل لى آية) دلالة على حمل امرأتى (قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) أى

(العظم منى) أى من الكبر وقيل اشتكى سقوط الأضراس (واشتعل الرأس) أى أبيض الشعر (شيبا) أى شمطا (ولم أكن بدعائك رب شقيا) أى عودتنى الإجابة فيما مضى ولم تخيبنى وقيل معناه لما دعوتنى إلى الإيمان آمنت ولم أشق بترك الإيمان (وإنى خفت الموالى من ورائى) أى من بعد موتى والموالى هم بنو العم وقيل العصبة وقيل الكلالة وقيل جميع الورثة (وكانت امرأتى عاقرا) أى لاتلد (فهب لى من لدنك وليا) أى أعطنى من عندك ولدا مرضيا (يرثنى ويرث من آل يعقوب) أى وليا ذا رشاد وقيل أراد به يرث مالى ويرث من آل يعقوب النبوة والحبورة وقيل أراد ميراث النبوة والعلم وقيل أراد به الحبورة لأن زكريا كان رأس الأحبار والأولى أن يحمل على ميراث غير المال لأن الأنبياء لم يورثوا المال وإنما يورثون العلم ويبعد عن زكريا وهو نبى من الأنبياء أن يشفق على ماله أن يرثه بنو عمه وإنما خاف أن يضيع بنو عمه دين الله ويغيروا أحكامه وذلك لما أن شاهد من بنى إسرائيل تبديل الدين وقتل الأنبياء فسأل ربه ولدا صالحا يأمنه على أمته ويرث نبوته وعلمه لئلا يضيع وهذا قول ابن عباس (واجعله رب رضيا) أى براتقيا مرضيا . قوله تعالى (يازكريا) المعنى فاستجاب الله له دعاءه فقال يازكريا (إنا نبشرك بغلام) أى بولد ذكر (اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا) أى لم يسم أحد قبله يحيى وقيل معناه لم نجعل له شبها ومثلا وذلك لأنه لم يعص الله ولم يهم بمعصية قط وقال ابن عباس لم تلد العواقر مثله ولدا قيل لم يرد الله تعالى بذلك اجتماع الفضائل كلها ليحيى وإنما أراد بعضها لأن الخليل والكليم كانا قبله وهما أفضل منه (قال رب أنى يكون لى) أى من أين يكون لى (غلام وكانت امرأتى عاقرا) أى وامرأتى عاقر (وقد بلغت من الكبر عتيا) أى يأسا يريد بذلك نحول الجسم ودقة العظم ونحول الجلد (قال كذلك قال ربك هو على هين) أى يسير (وقد خلقتك من قبل) أى من قبل يحيى (ولم تك شيئا قال رب اجعل لى آية) أى دلالة على حمل امرأتى (قال آيتك) أى علامتك (ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا)

صحيحا سليما من غير مابأس ولا خرس . قال مجاهد أى لايمنعك من الكلام مرض . وقيل ثلاث ليال سويا أى متتابعا والأول أصح وفى القصة أنه لم يقدر فيها أن يتكلم مع الناس فاذا أراد ذكر الله تعالى انطلق لسانه قوله تعالى (فخرج على قومه من المحراب) وكان الناس من وراء المحراب ينتظرونه أن يفتح لهم الباب فيدخلون ويصلون إذ خرج عليهم زكريا متغيرا لونه فأنكروه فقالوا مالك يازكريا (فأوحى إليهم) قال مجاهد كتب لهم فى الأرض (أن سبحوا) أى صلوا لله (بكرة) غدوة (وعشيا) معناه أنه كان يخرج على قومه بكرة وعشيا فيأمرهم بالصلاة فلما كان وقت حمل امرأته ومنع الكلام خرج إليهم فأمرهم بالصلاة إشارة قوله عز وجل (يايحيى) قيل فيه حذف معناه وهبناله يحيى وقلنا له يايحيى (خذ الكتاب) يعنى التوراة (بقوة) بجد (وآتيناه الحكم) قال ابن عباس رضى الله عنهما النبوة (صبيا) وهو ابن ثلاث سنين . وقيل أراد بالحكم فهم الكتاب فقرأ التوراة وهو صغير وعن بعض السلف قال من قرأ القرآن قبل أن يبلغ فهو ممن أوتى الحكم صبيا (وحنانا من لدنا) رحمة من عندنا قال الحطيئة لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه شعر :

تحنن على هداك المليك ... فان لكل مقام مقالا

أى ترحم (وزكاة) قال ابن عباس رضى الله عنهما يعنى بالزكاة الطاعة والإخلاص وقال قتادة رضى الله عنه هى العمل الصالح وهو قول الضحاك ومعنى الآية وآتيناه رحمة من عندنا وتحننا على العباد ليدعوهم إلى طاعة ربهم ويعمل عملا صالحا فى إخلاص وقال الكلبي يعنى صدقة تصدق الله بها على أبويه (وكان تقيا) مسلما ومخلصا مطيعا وكان من تقواه أنه لم يعمل خطيئة ولا هم بها (وبرا بوالديه) أى بارا لطيفا بهما محسنا إليهما (ولم يكن جبارا عصيا) الجبار المتكبر وقيل الجبار الذى يضرب ويقتل على الغضب والعصى العاصى (وسلام عليه) أى سلام له (يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) قال سفيان بن عيينة أوحش مايكون الإنسان فى هذه الأحوال يوم ولد فيخرج مما كان فيه ويوم يموت فيرى قوما لم يكن

لأنه

أى صحيحا سليما من غير بأس ولا خرس وقيل ثلاث ليال متتابعات والأول أصح قيل أنه لم يقدر فيها أن يتكلم مع الناس فاذا أراد ذكر الله انطلق لسانه . قوله عز وجل (فخرج على قومه من المحراب) أى من الموضع الذى كان يصلى فيه وكان الناس من وراء المحراب ينتظرونه حتى يفتح لهم الباب فيدخلون ويصلون إذ خرج إليهم زكريا متغيرا لونه فأنكروا ذلك عليه وقالوا له مالك (فأوحى) أى فأومأ وأشار (إليهم) وقيل كتب لهم فى الأرض (أن سبحوا) أى صلوا لله (بكرة وعشيا) المعنى أنه كان يخرج على قومه بكرة وعشيا فيأمرهم بالصلاة فلما كان وقت حمل امرأته ومنع من الكلام خرج إليهم فأمرهم بالصلاة إشارة. قوله عز وجل (يايحيى) فيه إضمار ومعناه وهبنا له يحيى وقلنا له يايحيى (خذ الكتاب) أى التوراة (بقوة) أى بجد واجتهاد (وآتيناه الحكم) قال ابن عباس يعنى النبوة (صبيا) وهو ابن ثلاث سنين وذلك أن الله تعالى أحكم عقله وأوحى إليه فان قلت كيف يصح حصول العقل والفطنة والنبوة حال الصبا . قلت لأن أصل النبوة مبنى على خرق العادات إذا ثبت هذا فلا تمنع صيرورة الصبى نبيا وقيل أراد بالحكم فهم الكتاب فقرأ التوراة وهو صغير وعن بعض السلف قال من قرأ القرآن قبل أن يبلغ فهو ممن أوتى الحكم صبيا (وحنانا من لدنا) أى رحمة من عندنا قال الحطيئة يخاطب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه :

تحنن على هداك المليك ... فان لكل مقام مقالا

أى ترحم على (وزكاة) قال ابن عباس يعنى بالزكاة الطاعة والإخلاص وقيل هى العمل الصالح ومعنى الآية وآتيناه رحمة من عندنا وتحننا على العباد ليدعوهم إلى طاعة ربهم وعملا صالحا فى إخلاصه (وكان تقيا) أى مسلما مخلصا مطيعا وكان من تقواه إنه لم يعمل خطيئة ولم يهم بها قط (وبرا بوالديه) أى بارا لطيفا بهما محسنا إليهما لأنه لاعبادة بعد تعظيم الله تعالى أعظم من بر الوالدين يدل عليه قوله تعالى «وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا» الآية (ولم يكن جبارا) الجبار المتكبر وقيل الذى يقتل ويضرب على الغضب وقيل الجبار الذى لايرى لأحد على نفسه حقا وهو من التعظيم بنفسه يرى أن لايلزمه قضاء لأحد (عصيا) قيل هو أبلغ من المعاصى والمراد وصف يحيى بالتواضع ولين الجانب وهو من صفات المؤمنين (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) معناه وأمان له من الله يوم ولد من أن يناله الشيطان كما ينال سائر بنى آدم وأمان له يوم يموت من عذاب القبر ويوم يبعث حيا من عذاب يوم القيامة وقيل أوحش مايكون الخلق فى ثلاثة مواطن يوم يولد

عأبنهم ويوم يبعث حيا فيرى نفسه فى محشر لم ير مثله فخص يحيى بالسلامة فى هذه المواطن قوله عز وجل (واذكر فى الكتاب) فى القرآن (مريم إذ انتبذت) تنحت واعتزلت (من أهلها) من قومها (مكانا شرقيا) أي مكانا فى الدار مما يلى المشرق وكان يوما شاتيا شديد البرد فجلست فى مشرقه تفلى رأسها وقيل كانت طهرت من الحيض فذهبت لتغتسل قال الحسن ومن ثم اتخذت النصارى المشرق قبلة (فاتخذت) فضربت (من دونهم حجابا) قال ابن عباس رضى الله عنهما سترا وقيل جلست وراء جدار وقال مقاتل وراء جبل وقال عكرمة إن مريم كانت تكون فى المسجد فاذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها حتى إذا طهرت عادت إلى المسجد فبينما هى تغتسل من الحيض قد تجردت إذ عرض لها جبريل فى صورة شاب أمرد وضىء الوجه جعد الشعر سوى الخلق فذلك قوله (فأرسلنا إليها روحنا) يعنى جبريل عليه السلام (فتمثل لها بشرا سويا) وقيل المراد بالروح عيسى عليه السلام جاء فى صورة بشر فحملت به والأول أصح فلما رأت مريم جبريل يقصد نحوها نادته من بعيد و (قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) مؤمنا مطيعا فان قيل إنما يستعاذ من الفاجر فكيف قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا قيل هذا كقول القائل إن كنت مؤمنا فلا تظلمنى أي يلبغى أن يكون إيمانك مانعا لك من الظلم وكذلك هاهنا معناه ينبغى أن يكون تقواك مانعا لك من الفجور (قال) لها جبريل (إنما أنا رسول ربك لأهب لك) قرأ نافع وأهل البصرة ليهب لك أى ليهب لك ربك وقرأ الآخرون لأهب لك أسند الفعل إلى الرسول وإن كانت الهبة من الله تعالى لأنه أرسل به (غلاما زكيا) ولدا صالحا طاهرا من الذنوب (قالت) مريم (أنى) من أين (يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر) ولم يقربنى زوج (ولم أك بغيا) فاجرة تريد أن الولد إنما يكون من نكاح أو سفاح ولم يكن هنا واحد منهما (قال) جبريل (كذلك) قيل معناه كما قلت يامريم ولكن (قال ربك) وقيل هكذا قال ربك (هو على هين) أي خلق ولد بلا أب (ولنجعله آية) علامة (للناس) دلالة على قدرتنا (ورحمة منا) ونعمة لمن تبعه على دينه (وكان) ذلك (أمرا مقضيا) محكوما مفروغا

لأنه يرى نفسه خارجا من مكان قد كان فيه ويوم يموت لأنه يري قوما ماشاهدهم قط ويوم يبعث لأنه يرى مشهدا عظيما فأكرم الله تعالى يحيى فى هذه المواطن كلها فخصه بالسلامة فيها قوله عز وجل (واذكر فى الكتاب) أي فى القرآن (مريم إذ انتبذت) أى تنحت واعتزلت (من أهلها) أى من قومها (مكانا شرقيا) أى مكانا فى الدار مما يلى المشرق وكان ذلك اليوم شاتيا شديد البرد فجلست فى مشرقه تفلى رأسها وقيل إن مريم كانت قد طهرت من الحيض فذهبت تغتسل قيل ولهذا المعنى اتخذت النصارى المشرق قبلة (فاتخذت) أي فضربت (من دونهم حجابا) قال ابن عباس أى سترا وقيل جلست وراء جدار وقيل إن مريم كانت تكون فى المسجد فاذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها حتى إذا طهرت عادت إلى المسجد فبينما هى تغتسل من الحيض قد تجردت إذ عرض لها جبريل فى صورة شاب أمرد وضىء الوجه سوي الخلق فذلك قوله تعالى (فأرسلنا إليها روحنا) يعنى جبريل (فتمثل لها بشرا سويا) أى سوى الخلق لم ينقص من الصورة الآدمية شيئا وإنما مثل لها فى صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه ولو بدا لها فى صورة الملائكة لنفرت عنه ولم تقدر على استماع كلامه وقيل المراد من الروح روح عيسى جاءت فى صورة بشر فحملت به والقول الأول أصح فلما رأت مريم جبريل عليه السلام يقصد نحوها بادرته من بعيد (قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) أى مؤمنا مطيعا لله تعالى دل تعوذها من تلك الصورة الحسنة على عفتها وورعها . فان قلت إنما يستعاذ من الفاجر فكيف قالت إن كنت تقيا . قلت هذا كقول القائل إن كنت مؤمنا فلا تظلمنى أى يلبغى أن يكون إيمانك مانعا من الظلم كذلك هاهنا معناه ينبغى أن تكون تقواك مانعة لك من الفجور (قال) لها جبريل عليه السلام (إنما أنا رسول ربك لأهب) أسند الفعل إليه وإن كانت الهبة من الله تعالى لأنه أرسل به (لك غلاما زكيا) قال ابن عباس ولدا صالحا طاهرا من الذنوب (قالت) مريم (أنى يكون لى) أى من أين يكون لى (غلام ولم يمسسنى بشر) أى ولم يقربنى زوج (ولم أك بغيا) أى فاجرة تريد أن الولد إنما يكون من نكاح أوسفاح ولم يكن هاهنا واحد منهما (قال) جبريل (كذلك قال ربك) أى هكذا قال ربك (هو على هين) أى خلق ولدك بلا أب (ولنجعله آية للناس) أى علامة لهم ودلالة على قدرتنا (ورحمة منا) أى ونعمة لمن تبعه على دينه إلى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم (وكان أمرا مقضيا) أى محكوما

لايرد ولا يبدل قوله عز وجل (فحملته) قيل إن جبريل رفع عنها درعها فنفخ في جيبها فحملت حين لبست وقيل مد جيب درعها بأصبعه ثم نفخ فى الجيب وقيل نفخ فى كم قميصها وقيل فى فيها وقيل نفخ جبريل عليه السلام نفخا من بعيد فوصل الريح إليها فحملت بعيسى فى الحال (فانتبذت به) أي فلما حملته انتبذت به أى تنحت بالحمل وانفردت (مكانا قصيا) أى بعيدا من أهلها قال ابن عباس رضى الله عنهما أقصى الوادي وهو وادى بيت لحم فرارا من قومها أن يعيروها بولادتها من غير زوج واختلفوا فى مدة حملها ووقت وضعها فقال ابن عباس رضى الله عنهما كان الحمل والولادة فى ساعة واحدة وقيل كان مدة حملها تسعة أشهر كحمل سائر النساء وقيل كان مدة حملها ثمانية أشهر وكان ذلك آية أخرى لأنه لايعيش ولد يولد لثمانية أشهر وولد عيسى لهذه المدة وعاش وقيل ولدت لستة أشهر وقال مقاتل بن سليمان حملته مريم فى ساعة وصور فى ساعة ووضعته فى ساعة حين زالت الشمس من يومها وهى بنت عشر سنين وكانت قد حاضت حيضتين قبل أن تحمل بعيسى (فأجاءها) أى ألجأها وجاء بها (المخاض) وهو وجع الولادة (إلى جذع النخلة) وكانت نخلة يابسة فى الصحراء فى شدة الشتاء لم يكن لها سعف وقيل التجأت إليها لتستند إليها وتتمسك بها على وجع الولادة (قالت ياليتنى مت قبل هذا) تمنت الموت استحياء من الناس وخوف الفضيحة (وكنت نسيا) قرأ حمزة وحفص نسيا بفتح النون والباقون بكسرها وهما لغتان مثل الوتر والوتر والجسر والجسر وهو الشيء المنسى والنسى فى اللغة كل ماألقى ونسى ولم يذكر لحقارته (منسيا) أى متروكا قال قتادة شيء لايعرف ولا يذكر قال عكرمة والضحاك ومجاهد جيفة ملقاة وقيل تعنى لم أخلق (فناداها من تحتها)

(٢٤٢)

مفروغا منه لايرد ولايبدل . قوله عز وجل (فحملته) قيل إن جبريل رفع درعها فنفخ فى جيبه فحملت حين لبست الدرع وقيل مد جيب درعها بأصبعه ثم نفخ فى الجيب وقيل نفخ فى كمها وقيل فى ذيلها وقيل فى فمها وقيل نفخ من بعيد فوصل النفخ إليها فحملت بعيسى عليه السلام فى الحال (فانتبذت به) أى فلما حملته تنحت بالحمل وانفردت (مكانا قصيا) أى بعيدا من أهلها قال ابن عباس أقصى الوادى وهو بيت لحم فرارا من أهلها وقومها أن يعيروها بولادتها من غير زوج قال ابن عباس كان الحمل والولادة فى ساعة واحدة وقيل حملته فى ساعة وصور فى ساعة ووضعته فى ساعة حين زالت الشمس من يومها وقيل كانت مدته تسعة أشهر كحمل سائر الحوامل من النساء وقيل كانت مدة حملها ثمانية أشهر وذلك آية أخرى له لأنه لايعيش من ولد لثمانية أشهر وولد عيسى لهذه المدة وعاش وقيل ولد لستة أشهر وهى بنت عشر سنين وقيل ثلاث عشرة سنة وقيل ست عشرة سنة وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل بعيسى وقال وهب إن مريم لما حملت بعيسى كان معها ابن عم لها يقال له يوسف النجار وكانا منطلقين إلى المسجد الذى بمنة جبل صهيون وكانا يخدمان ذلك المسجد ولا يعلم من أهل زمانها أحد أشد عبادة واجتهادا منها وأول من علم بحمل مريم يوسف فبقى متحيرا فى أمرها كلما أراد أن يتهمها ذكر عبادتها وصلاحها وأنها لم تغب عنه وإذا أراد أن يبرئها رأى ماظهر منها من الحمل فأول ماتكلم به أن قال أنه وقع فى نفسى من أمرك شيء وقد حرصت على كتمانه فغلبنى ذلك فرأيت أن أتكلم به أشفى صدرى فقالت قل قولا جميلا قال أخبرينى يامريم هل ينبت زرع بغير بذر وهل ينبت شجر بغير غيث وهل يكون ولد من غير ذكر قالت نعم ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر ألم تر أن الله أنبت الشجرة بالقدرة من غير غيث أوتقول أن الله تعالى لايقدر على أن ينبت الشجرة حتى استعان بالماء ولولا ذلك لم يقدر على إنباتها قال يوسف لاأقول هذا ولكنى أقول إن الله تعالى يقدر على كل شيء يقول له كن فيكون قالت له مريم ألم تعلم أن الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى فعند ذلك زال ماعنده من التهمة وكان ينوب عنها فى خدمة المسجد لاستيلاء الضعف عليها بسبب الحمل فلما دنت ولادتها أوحى الله إليها أن اخرجى من أرض قومك فذلك قوله تعالى « فانتبذت به مكانا قصيا » قوله عز وجل (فأجاءها المخاض) أى ألجأها وجاء بها والمخاض وجع الولادة (إلى جذع النخلة) وكانت نخلة يبست فى الصحراء فى شدة البرد ولم يكن لها سعف وقيل التجأت إليها تستند إليها وتستمسك بها من شدة الطلق ووجع الولادة (قالت ياليتنى مت قبل هذا) تمنت الموت استحياء من الناس وخوفا من الفضيحة (وكنت نسيا منسيا) يعنى شيئا حقيرا متروكا لم يذكر ولم يعرف لحقارته وقيل جيفة ملقاة وقيل معناه أنها تمنت أنها لم تخلق (فناداها من تحتها) قيل إن مريم كانت على أكمة وجبريل وراء الأكمة

قرأ أبو جعفر ونافع وحمزة والكسائي وحفص من تحتها بكسر الميم والتاء يعني جبريل عليه السلام وكانت مريم على أكمة وجبريل وراء الأكمة تحتها فناداها وقرأ الآخرون بفتح الميم والتاء وأراد جبريل عليه السلام أيضا ناداها من سفح الجبل وقيل هو عيسى لما خرج من بطن أمه ناداها (ألا تحزني) وهو قول مجاهد والحسن والأول قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما والسدي وقتادة والضحاك وجماعة أن المنادي كان جبريل لما سمع كلامها وعرف جذعها ناداها ألا تحزني (قد جعل ربك تحتك سريا) والسري النهر الصغير وقيل تحتك أي جعله الله تحت أمرك إن أمرتيه أن يجري جري وإن أمرتيه بالإمساك أمسك قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ضرب جبريل عليه السلام ويقال ضرب عيسى عليه الصلاة والسلام برجله الأرض فظهرت عين ماء عذب وجري وقيل كان هناك نهر يابس أجرى الله سبحانه وتعالى فيه الماء وحييت النخلة اليابسة فأورقت وأثمرت وأرطبت وقال الحسن تحتك سريا يعني عيسى وكان والله عبدا سريا يعني رفيعا (وهزي إليك) يعني قيل لمريم حركي (بجذع النخلة) تقول العرب هزه وهزبه كما يقول حز رأسه وحز برأسه وأمدد الحبل وأمدد به

(٢٤٣)

تحتها وقيل ناداها من سفح الجبل وقيل هو عيسى وذلك أنه لما خرج من بطن أمه ناداها (أن لا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا) أي نهرا قال ابن عباس رضي الله عنهما ضرب جبريل عليه السلام وقيل عيسى عليه السلام برجله في الأرض فظهرت عين ماء عذبة وجرت وقيل كان هناك نهر يابس فجرى فيه الماء بقدرة الله سبحانه وتعالى وحيت النخلة اليابسة فأورقت وأثمرت وأرطبت وقيل معنى تحتك أي تحت أمرك إن أمرته أن يجري جرى وإن أمرته بالإمساك أمسك وقيل معنى سريا أي عيسى وكان عبدا سريا رفيعا (وهزي إليك) أي حركي إليك (بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) قيل الجني الذي بلغ الغاية وجاء أوان اجتنائه قال الربيع بن خيثم ما للنفساء عندي خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل (فكلي واشربي) أي مريم كلي من الرطب واشربي من النهر (وقري عينا) أي طيبي نفسا وقيل قري عينا بولدك عيسى يقال أقر الله عينك أي صادف فؤادك ما يرضيك فتقر عينيك عن النظر إلى غيره (فإما ترين من البشر أحدا) معناه يسألك عن ولدك (فقولي إني نذرت للرحمن صوما) أي صمتا قيل كان في بني إسرائيل من أراد أن يجتهد صام عن الكلام كما يصوم عن الطعام فلا يتكلم حتى يمسي وقيل إن الله أمرها أن تقول هذا إشارة وقيل أمرها أن تقول هذا القول نطقا ثم تمسك عن الكلام بعده وإنما منعت من الكلام لأمرين أحدهما أن يكون عيسى عليه السلام هو المتكلم عنها ليكون أقوى لحجتها في إزالة التهمة عنها وفيه دلالة على أن تفويض الكلام إلى الأفضل أولى الثاني كراهة مجادلة السفهاء وفيه أن السكوت عن السفيه واجب (فلن أكلم اليوم إنسيا) يقال إنها كانت تكلم الملائكة ولا تكلم الإنس. قوله تعالى (فأتت به قومها تحمله) قيل

(تساقط عليك) القراءة المعروفة بفتح التاء والقاف وتشديد السين يعني تتساقط فأدغمت إحدى التاءين في السين، يعني تسقط عليك النخلة رطبا وخفف حمزة السين وحذف التاء التي أدغمها غيره وقرأ حفص بضم التاء وكسر القاف خفيف على وزن تفاعل وتساقط بمعنى أسقط والتأنيث لأجل النخلة وقرأ يعقوب يساقط بالياء مشددة رده إلى الجذع (رطبا جنيا) مجنيا وقيل الجني هو الذي بلغ الغاية وجاء أوان اجتنائه قال الربيع بن خيثم ما للنفساء عندي خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل قوله سبحانه وتعالى (فكلي واشربي) يعني فكلي يا مريم من الرطب واشربي من ماء النهر (وقري عينا) يعني طيبي نفسا وقيل قري عينك بولدك عيسى يقال أقر الله عينك يعني صادف فؤادك ما يرضيك فتقر عينك من النظر إليه وقيل أقر الله عينه يعني أنامها يقال قر يقر إذا سكن وقيل إن العين إذا بكت من السرور فالدمع بارد وإذا بكت من الحزن فالدمع يكون حارا فمن هذا قيل أقر الله عينه وأسخن الله عينه (فإما ترين من البشر أحدا) يعني ترين فدخل عليه نون التأكيد فكسرت الياء لالتقاء الساكنين معناه فإما ترين من البشر أحدا فيسئلك عن ولدك (فقولي إني نذرت للرحمن صوما) يعني صمتا وكذلك كان يقرأ ابن مسعود رضي الله عنه والصوم في اللغة الإمساك عن الطعام والشراب والكلام قال السدي كان في بني إسرائيل من إذا أراد أن يجتهد صام عن الكلام كما يصوم عن الطعام فلا يتكلم حتى يمسي وقيل إن الله تعالى أمرها أن تقول هذا إشارة وقيل أمرها أن تقول هذا القدر نطقا ثم تمسك عن الكلام بعده (فلن أكلم اليوم إنسيا) يقال كانت تكلم الملائكة ولا تكلم الإنس (فأتت به قومها تحمله) وقيل أنها ولدته ثم حملته في الحال إلى قومها وقال الكلبي حمل يوسف النجار مريم

عليها السلام وابنها عيسى صلوات الله على نبينا وعليه إلى غار ومكث أربعين يوما حتى طهرت من نفاسها ثم حملته مريم عليها السلام إلى قومها فكلمها عيسى عليه السلام فى الطريق فقال يا أماه أبشرى فانى عبد الله ومسيحه فلما دخلت على أهلها ومعها الصبى بكوا وحزنوا وكانوا أهل بيت صالحين (قالوا يامريم لقد جئت شيئا فريا) عظيما منكرا قال أبوعبيدة كل أمر فائق من عجب أو عمل فهو فرى قال النبى صلى الله عليه وسلم فى عمر «فلم أر عبقريا يفري فريه» يعنى يعمل عمله (ياأخت هرون) يريد ياشبيهة هرون قال قتادة وغيره كان هرون رجلا صالحا عابدا فى بنى إسرائيل وروي أنه اتبع جنازته يوم مات أربعون ألفا كلهم يسمى هرون من بنى إسرائيل سوي سائر الناس شبهوها به على معنى أنا ظننا أنك مثله فى الصلاح وليس المراد منه الأخوة فى النسب (٢٤٤) كما قال الله تعالى «إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين» أي أشباههم

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر أنا عبد الغفار ابن محمد أنا محمد بن عيسى أنا ابراهيم بن محمد ثنا ابن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا محمد بن عبدالله بن نمير ثنا ابن إدريس عن أبيه عن سماك بن حرب عن علمة بن وائل عن المغيرة بن شعبة قال: لما قدمت خراسان سألونى فقالوا إنكم تقرءون ياأخت هارون وموسى قبل عيسى بكذا وكذا سنة فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك فقال إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم وقال الكلبي كان هارون أخا مريم من أبيها

إنها لما ولدت عيسى عليه السلام حملته فى الحال إلى قومها وقيل إن يوسف النجار احتمل مريم وابنها عيسى إلى غار فمكث فيه أربعين يوما حتى طهرت من نفاسها ثم حملته إلى قومها فكلمها عيسى فى الطريق فقال ياأماه أبشرى فانى عبد الله ومسيحه فلما دخلت على أهلها ومعها الصبى بكوا وحزنوا وكانوا أهل بيت صالحين (قالوا يامريم لقد جئت شيئا فريا) أى عظيما منكرا وقيل معناه جئت بأمر عجيب بديع (ياأخت هارون) أى ياشبيهة هارون قيل كان رجلا صالحا فى بنى إسرائيل شبهت به فى عفتها وصلاحها وليس المراد الإخوة فى النسب قيل إنه تبع جنازته يوم مات أربعون ألفا من بنى إسرائيل كلهم يسمى هارون سوى سائر الناس (م) «عن المغيرة بن شعبة قال «لما قدمت خراسان سألونى فقالوا إنكم تقرءون ياأخت هارون وموسى قبل عيسى بكذا وكذا فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال إنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم» وقيل كان هارون أخا مريم لأبيها وقيل كان من أمثل رجل فى بنى إسرائيل وقيل إنما عنوا هارون أخا موسى لأنها كانت من نسله كما يقال للتميمى ياأخا تميم وقيل كان هارون فى بنى إسرائيل فاسقا أعظم الفسق فشبهوها به (ما كان أبوك) يعنى عمران (امرأ سوء) قال ابن عباس زانيا (وما كانت أمك) يعنى حنة (بغيا) أى زانية فمن أين لك هذا الولد (فأشارت إليه) أى أشارت مريم إلى عيسى أن كلمهم قال ابن مسعود لما لم يكن لها حجة أشارت إليه ليكون كلامه حجة لها وقيل لما أشارت إليه غضب القوم وقالوا مع مافعلت أتسخرين بنا (قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) قيل أراد بالمهد الحجر وهو حجرها وقيل هو المهد بعينه قيل لما سمع عيسى كلامهم ترك الرضاع وأقبل عليهم وقيل لما أشارت إليه ترك الرضاع واتكأ على يساره وأقبل عليهم وجعل يشير بيمينه (قال إنى عبد الله) قال وهب أتاها زكرياء عند مناظرتها اليهود فقال لعيسى انطق بحجتك إن كنت أمرت بها فقال عند ذلك عيسى وهو ابن أربعين يوما وقيل بل يوم ولد إنى عبد الله أقر على نفسه بالعبودية لله تعالى أول ماتكلم لئلا يتخذ إلها. فان قلت إن الذى اشتدت

وكان أمثل رجل فى بنى إسرائيل وقال السدى إنما عنوا به هرون أخا موسى لأنها كانت من نسله كما يقال للتميمى ياأخا تميم وقيل كان هرون رجلا فاسقا فى بنى إسرائيل عظيم الفسق فشبهوها به (ماكان أبوك) عمران (امرأ سوء) قال ابن عباس رضى الله عنهما زانيا (وماكانت أمك) حنة (بغيا) أى زانية فمن أين لك هذا الولد (فأشارت) مريم (إليه) أى إلى عيسى عليه السلام أن كلموه قال ابن عباس رضى الله عنهما لما لم تكن لها حجة أشارت إليه ليكون كلامه حجة لها وفى القصة لما أشارت إليه غضب القوم وقالوا مع مافعلت أتسخرين بنا ثم (قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) أى من هو فى المهد وهو حجرها وقيل هو المهد بعينه وكان بمعنى هو وقال أبو عبيدة كان صلة أى كيف نكلم صبيا فى المهد وقد يجيء كان حشوا فى الكلام لامعنى له كقوله هل كنت إلا بشرا رسولا أى هل أنا قال السدى فلما سمع عيسى كلامهم ترك الرضاع وأقبل عليهم وقيل لما أشارت إليه ترك الثدى واتكأ على يساره وأقبل عليهم وجعل يشير بيمينه (قال إنى عبد الله) وقال

وهب آتاها زكريا عند مناظرتها اليهود فقال عيسى أنطق بحجتك إن كنت أمرت بها فقال عند ذلك عيسى عليه السلام وهو ابن أربعين يوما وقال مقاتل بل هو يوم ولد إني عبد الله أقر على نفسه بالعبودية لله عز وجل أول ماتكلم لئلا يتخذ إلها (آتاني الكتاب وجعلني نبيا) قيل معناه سيؤتيني الكتاب ويجعلني نبيا وقيل هذا إخبار عما كتب في اللوح المحفوظ كما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم متى كنت نبيا قال «كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد» وقال الأكثرون أوتي الإنجيل وهو صغير طفل وكان يعقل عقل الرجال وعن الحسن أنه قال : ألهم التوراة وهو في بطن أمه **(٢٤٥)** (وجعلني مباركا أينما كنت)

سكت عيسى عليه السلام فلم يتكلم بعد ذلك حتى بلغ المدة التي يتكلم فيها الصبيان (ذلك عيسى بن مريم) قال الزجاج أي ذلك الذي قال إني عبد الله عيسى بن مريم (قول الحق) قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب قول الحق بنصب اللام وهو نصب على المصدر أي قال قول الحق (الذي فيه يمترون) يختلفون فقائل يقول هو ابن الله وقائل يقول هو الله وقائل يقول هو ساحر كذاب وقرأ الآخرون برفع اللام يعني هو قول الحق أي هذا الكلام هو قول الحق أضاف القول إلى الحق كما قال : حق اليقين ووعد الصدق وقيل هو نعت لعيسى بن مريم يعني ذلك عيسى بن مريم كلمة الله الحق والحق هو الله الذي فيه يمترون

إليه الحاجة في ذلك الوقت نفي التهمة عن أمه وأن عيسى لم ينص على ذلك وإنما نص على إثبات عبوديته لله تعالى . قلت كأنه جعل إزالة التهمة عن الله تعالى أولى من إزالة التهمة عن أمه فلهذا أول ماتكلم إنما تكلم باعترافه على نفسه بالعبودية لتحصل إزالة التهمة عن الأم لأن الله تعالى لم يختص بهذه المرتبة العظيمة من ولد في زنا والتكلم بإزالة التهمة عن أمه لايفيد إزالة التهمة عن الله سبحانه وتعالى فكان الاشتغال بذلك أولى (آتاني الكتاب وجعلني نبيا) قيل معناه سيجعلني نبيا ويؤتيني الكتاب وهو الإنجيل وهذا إخبار عما كتب له في اللوح المحفوظ «كما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم متى كنت نبيا قال كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد» وقال الأكثرون إنه أوتي الإنجيل وهو صغير وكان يعقل عقل الرجال الكمل وعن الحسن أنه ألهم التوراة وهو في بطن أمه (وجعلني مباركا أينما كنت) معناه أني نفاع أينما توجهت وقيل معلما للخير ادعو إلى الله وإلى توحيده وعبادته وقيل مباركا على من يتبعني (وأوصاني بالصلاة والزكاة) أي أمرني بهما وكلفني فعلهما . فان قلت كيف يؤمر بالصلاة والزكاة في حال طفوليته وقد قال صلى الله عليه وسلم «رفع القلم عن ثلاث الصبي حتى يبلغ الحديث» قلت إن قوله وأوصاني بالصلاة والزكاة لايدل على أنه تعالى أوصاه بأدائهما في الحال بل المراد أوصاه بأدائهما في الوقت المعين لهما وهو البلوغ وقيل إن الله تعالى صيره حين انفصل عن أمه بالغا عاقلا وهذا القول أظهر في سياق قوله (مادمت حيا) فانه يفيد أن هذا التكليف متوجه إليه في زمان جميع حياته حين كان في الأرض وحين رفع إلى السماء وحين ينزل الأرض بعد رفعه (وبرا بوالدتي) أي جعلني برا بوالدتي (ولم يجعلني جبارا شقيا) أي عاصيا لربي متكبرا على الحق بل أنا خاضع متواضع وروي أنه قال قلبي لين وأنا صغير في نفسي قال بعض العلماء لاتجد العاق إلا جبارا شقيا وتلا هذه الآية وقيل الشقي الذي يذنب ولايتوب (والسلام على يوم ولدت) أي السلامة عند الولادة من طعن الشيطان (ويوم أموت) أي عند الموت من الشرك (ويوم أبعث حيا) أي من أهوال يوم القيامة فلما كلمهم عيسى بذلك علموا براءة مريم ثم سكت عيسى فلم يتكلم حتى بلغ المدة التي يتكلم فيها الأطفال (ذلك عيسى ابن مريم) أي ذلك الذي قال إني عبد الله هو عيسى بن مريم (قول الحق) أي هذا الكلام هو القول الحق أضاف القول إلى الحق وقيل هو نعت لعيسى يعني بذلك عيسى بن مريم كلمة الله الحق والحق هو الله (الذي فيه يمترون) أي يشكون ويختلفون فقائل يقول هو ابن الله وقائل يقول الله وقائل يقول ثالث ثلاثة تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ثم نزه نفسه عن اتخاذ الولد ونفاه عنه فقال تعالى

أي نفاعا حيث ماتوجهت وقال مجاهد معلما للخير وقال عطاء أدعو إلى الله وإلى توحيده وعبادته وقيل مباركا على من تبعني (وأوصاني بالصلاة والزكاة) أي أمرني بهما فان قيل لم يكن لعيسى مال فكيف يؤمر بالزكاة قيل معناه بالزكاة لو كان لي مال وقيل أوصاني بالزكاة أي أمرني أن أوصيكم بالزكاة وقيل بالاستكثار من الخير (مادمت حيا وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا) أي عاصيا لربه وقيل الشقي الذي يذنب ولا يتوب (والسلام على يوم ولدت) أي السلام عند الولادة من طعن الشيطان (ويوم أموت) أي عند الموت من الشرك (ويوم أبعث حيا) من الأهوال فلما كلمهم عيسى بهذا علموا براءة مريم . ثم

ويشكون ويختلفون ويقولون غير الحق ثم نفى عن نفسه الولد ثم عظم نفسه فقال (ما كان لله أن يتخذ من ولد) أى ما كان من صفته اتخاذ الولد وقيل اللام منقولة أى ما كان الله أن يتخذ من ولد (سبحانه إذا قضى أمرا) إذا أراد أن يحدث أمرا (فانما يقول له كن فيكون وإن الله ربى وربكم) قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو وأن الله بفتح الألف يرجع إلى قوله وأوصانى بالصلاة والزكاة وبأن الله ربى وربكم وقرأ أهل الشام والكوفة ويعقوب بكسر الألف على الاستئناف (فاعبدوه هذا صراط مستقيم) قوله (فاختلف الأحزاب من بينهم) يعنى النصارى سموا أحزابا لأنهم تحزبوا ثلاث فرق فى أمر عيسى النسطورية والملكانية واليعقوبية (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) يعنى يوم القيامة (أسمع بهم وأبصر) أى ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة حين لا ينفعهم السمع والبصر أخبر أنهم يسمعون ويبصرون فى الآخرة ما لم يسمعوا ولم يبصروا فى الدنيا . قال الكلبى لا أحد يوم القيامة أسمع منهم ولا أبصر حين يقول الله تعالى لعيسى « أأنت قلت للناس » الآية (يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين) أى فى خطأ بين (وأنذرهم يوم الحسرة إذا قضى الأمر) فرغ من الحساب وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل

(٢٤٦)

(ما كان لله أن يتخذ من ولد) أى ما كان من صفاته اتخاذ الولد ولا ينبغى له ذلك (سبحانه إذا قضى أمرا) أى إذا أراد أن يحدث أمرا (فانما يقول له كن فيكون) أى لا يتعذر عليه اتخاذه على الوجه الذى أراده (وإن الله ربي وربكم فاعبدوه) هذا إخبار عن عيسى أنه قال ذلك يعنى ولأن الله ربى وربكم لا رب للمخلوقات سواه (هذا صراط مستقيم) أى هذا الذى أخبرتكم به أن الله أمرنى به هو الصراط المستقيم الذى يؤدي إلى الجنة (فاختلف الأحزاب من بينهم) يعنى النصارى سموا أحزابا لأنهم تحزبوا ثلاث فرق فى أمر عيسى النسطورية والملكانية واليعقوبية (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) يعنى يوم القيامة حين (أسمع بهم وأبصر) أي ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة حين لا ينفعهم السمع والبصر أخبر أنهم يسمعون ويبصرون فى الآخرة ما لم يسمعوا ويبصروا فى الدنيا وقيل معناه التهديد بما يسمعون ويبصرون مما يسوءهم ويصدع قلوبهم (يوم يأتوننا) أى يوم القيامة (لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين) قيل أراد باليوم الدنيا يعنى أنهم فى الدنيا فى خطأ بين وفى الآخرة يعرفون الحق وقيل معناه لكن الظالمون فى الآخرة فى ضلال عن طريق الجنة بخلاف المؤمنين . قوله تعالى (وأنذرهم يوم الحسرة) يعنى خوف يا محمد كفار مكة يوم الحسرة سمى بذلك لأن المسيء يتحسر هلا أحسن العمل والمحسن هلا زاد فى الإحسان يدل عليه ما روي أبو هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «ما من أحد يموت إلا ندم قالوا ما ندمه يا رسول الله قال إن كان محسنا ندم أن لا يكون ازداد وإن كان مسيئا ندم أن لا يكون نزع» أخرجه الترمذى قوله أن لا يكون نزع النزع عن الشيء الكف عنه وقال أكثر المفسرين يعنى بيوم الحسرة حين يذبح الموت (ق) عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادى مناد يا أهل الجنة فيشرفون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ثم ينادى مناد آخر يا أهل النار فيشرفون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقول نعم هذا الموت وكلهم قد رآه فيذبح بين الجنة والنار ثم يقول يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت ثم قرأ « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون وأشار بيده إلى الدنيا» وزاد الترمذى فيه « فلو أن أحدا مات فرحا لمات أهل الجنة ولو أن أحدا مات حزنا لمات أهل النار» قوله كهيئة كبش أملح الأملح المختلط بالبياض والسواد قوله فيشرفون يقال أشرف إلى الشيء إذا تطلع ينظر إليه ومالت نحوه نفسه قوله فيذبح بين الجنة والنار اعلم أن الموت عرض ليس بجسم فى صورة كبش أو غيره فعلى هذا يتأول الحديث على أن الله تعالى يخلق هذا الجسم وهو حيوان فيذبح فيموت فلا يبقى يرجى له حياة ولا وجود وكذلك حال أهل الجنة والنار بعد الاستقرار فيهما لا زوال لهما ولا انتقال (ق) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار فيذبح ثم ينادى مناد يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم» عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يدخل الجنة أحد إلا رأى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا ولا يدخل النار أحد إلا رأى مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة» أخرجه البخارى . وقوله تعالى (إذ قضى الأمر) أى فرغ من الحساب وأدخل

النار النار وذبح الموت . أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمر بن حفص بن غياث أنا أبى أنا الأعمش أبو صالح عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادى مناد ياأهل الجنة فيشرفون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقولون نعم هـذا الموت وكلهم قد رآه ثم ينادي ياأهل النار فيشرفون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه فيذبح ثم يقول يا أهل الجنة خلود فلاموت وياأهل النار خلود فلا موت ثم قرأ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون» ورواه أبو عيسى عن أحمد بن منيع عن النضر بن إسمعيل عن الأعمش بهذا الإسناد وزاد «فلولا أن الله تعالى قضى لأهل الجنة الحياة والبقاء لماتوا فرحا ولولا أن الله تعالى قضى لأهل النار الحياة والبقاء لماتوا ترحا» أخبرنا عبد الواحد ابن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا معاذ بن أسد أنا عبد الله أنا عمر بن محمد بن زيد عن أبيه أنه حدثه عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادى

(٢٤٧)

مناد يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم» أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد النعيمى أنا محمد ابن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا شعيب أنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يدخل أحد الجنة إلا رأى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا ولا يدخل النار أحد إلا رأى مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة» أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الداودى أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى ابن الصلت أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمى أنا الحسين بن الحسن أنا ابن المبارك أنا يحيى بن عبد الله قال سمعت أبى قال سمعت أبا هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما من أحد يموت إلا ندم قالوا فما ندمه يا رسول الله قال إن كان محسنا ندم أن لا يكون ازداد وإن كان مسيئا ندم أن لا يكون نزع» (وهم فى غفلة) أي عما يفعل بهم فى الآخرة (وهم لا يؤمنون) لا يصدقون قوله عز وجل (إنا نحن نرث الأرض ومن عليها) أي نميت سكان الأرض ونهلكهم جميعا ويبقى الرب وحده فيرثهم (وإلينا يرجعون) فنجزيهم بأعمالهم (واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا) الصديق الكثير الصدق القائم عليه وقيل من صدق الله فى وحدانيته وصدق أنبياءه ورسله وصدق بالبعث وقام بالأوامر فعمل بها فهو الصديق والنبى العالى فى الرتبة بإرسال الله تعالى إياه قوله تعالى (إذ قال) إبراهيم (لأبيه) آزر وهو يعبد الأصنام (ياأبت لم تعبد مالا يسمع) صوتا (ولا يبصر) شيئا (ولا يغنى عنك) أي لا يكفيك (شيئا ياأبت إنى قد جاءنى من العلم) بالله والمعرفة (مالم يأتك فاتبعنى) على دينى (أهدك صراطا سويا) مستقيما (يا أبت لا تعبد الشيطان) لا تطعه فيما زين لك من الكفر والشرك (إن الشيطان كان للرحمن عصيا) عاصيا وكان بمعنى الحال أي هو كذلك (يا أبت إنى أخاف) أي أعلم

أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وذبح الموت (وهم فى غفلة) أى عما يراد بهم فى الآخرة (وهم لا يؤمنون) أى لا يصدقون (إنا نحن نرث الأرض ومن عليها) أى نميت سكان الأرض جميعا ويبقى الله سبحانه وتعالى وحده فيرثهم (وإلينا يرجعون) فنجزيهم بأعمالهم . قوله عز وجل (واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا) أى كثير الصدق وهو مبالغة فى كونه صديقا وقيل الصديق الكثير التصديق قيل من صدق الله فى وحدانيته وصدق أنبياءه ورسله وصدق بالبعث بعد الموت وقام بالأوامر فعمل بها فهو صديق ولما قربت رتبة الصديق من رتبة النبى انتقل من ذكر كونه صديقا إلى ذكر كونه نبيا والنبى العالى فى الرتبة بإرسال الله إياه وأى رتبة أعلى من رتبة من جعله الله تعالى واسطة بينه وبين عباده (إذ قال لأبيه) يعنى آزر وهو يعبد الأصنام (ياأبت لم تعبد مالا يسمع) يعنى صوتا (ولا يبصر) لا ينظر شيئا (ولا يغنى عنك) أى يكفيك (شيئا) وصف الأصنام بثلاثة أشياء كل واحد منها قادح فى الالهية وذلك أن العبادة هى غاية التعظيم للمعبود فلا يستحقها إلا من له ولاية الإنعام وله أوصاف الكمال وهو الله تعالى فلا يستحق العبادة إلا هو (ياأبت إنى قد جاءنى من العلم) يعنى بالله والمعرفة (مالم يأتك فاتبعنى) أى على دينى (أهدك صراطا سويا) أى مستقيما (ياأبت لا تعبد الشيطان) أى لا تطعه فيما يزين لك من الكفر والشرك (إن الشيطان كان للرحمن عصيا) أى عاصيا (ياأبت إنى أخاف) أى أعلم وقيل هو على ظاهره لأنه يمكن أن يؤمن فيكون من أهل الجنة أو يصر

(أن يمسك) يصيبك (عذاب من الرحمن) إن أقمت على الكفر (فتكون للشيطان وليا) قرينا فى النار (قال) أبوه مجيبا له (أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته) لئن لم تسكت وترجع عن عيبك آلهتنا وشتمك إياها (لأرجمنك) قال الكلبى ومقاتل والضحاك: لأشتمنك ولأبعدنك عنى بالقول القبيح قال ابن عباس لأضربنك وقال الحسن لأقتلنك بالحجارة (واهجرنى مليا) قال الكلبى اجتنبنى طويلا وقال مجاهد وعكرمة حينا وقال سعيد بن جبير دهرا أصله المكث ومنه يقال تمليت حينا والملوان الليل والنهار (٢٤٨) وقال قتادة وعطاء سالما وقال ابن عباس اعتزلنى سالما لاتصيبك منى معرة يقال فلان ملى بأمر كذا إذا كان كافيا (قال) إبراهيم (سلام عليك) أى سلمت منى لاأصيبك بمكروه وذلك أنه لم يؤمر بقتاله على كفره وقيل هذا سلام هجران ومفارقة وقيل سلام بر ولطف وهو جواب الحليم للسفيه قال الله تعالى: وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما (سأستغفر لك ربى) قيل إنه لما أعياه أمره وعده أن يراجع الله فيه فيسأله أن يرزقه التوحيد ويغفر له معناه سأسأل الله تعالى لك توبة تنال بها المغفرة (إنه كان بى حفيا) برا لطيفا قال الكلبى عالما يستجيب لى إذا دعوته قال مجاهد عودنى الإجابة لدعائى (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله) أى اعتزل ماتعبدون من دون الله قال مقاتل كان اعتزاله إياهم أنه فارقهم من كوثى فهاجر منها إلى الأرض المقدسة (وأدعو ربى) أى أعبد ربى (عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا) يعنى أى عسى أن لاأشقى بدعائه وعبادته كما أنتم تشقون بعبادة الأصنام وقيل عسى أن يجيبنى إذا دعوته ولا يخيبنى (فلما اعتزلهم ومايعبدون من دون الله) فذهب مهاجرا (ووهبنا له) بعد الهجرة (إسحاق ويعقوب) آنسنا وحشته من فراقهم وأقررنا عينه بأولاد كرام على الله عز وجل (وكلا جعلنا نبيا) يعنى إسحاق ويعقوب (ووهبنا لهم من رحمتنا) أي نعمتنا قال الكلبى المال والولد وهو قول الأكثرين قالوا معناه مابسط لهم فى الدنيا من سعة الرزق وقيل الكتاب والنبوة (وجعلنا لهم لسان صدق عليا) يعنى ثناء

على الكفر فيكون من أهل النار فحمل الخوف على ظاهره أولى. واعلم أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام رتب هذا الكلام فى غاية الحسن مقرونا بالتلطف والرفق فان قوله فى مقدمة كلامه ياأبت دليل على شدة الحب والرغبة فى صرفه عن العقاب وإرشاده إلى الصواب لأنه نبه أولا على مايدل على المنع من عبادة الأصنام ثم أمره باتباعه فى الإيمان ثم نبه على أن طاعة الشيطان غير جائزة فى العقول ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام على مالا ينبغى بقوله إنى أخاف (أن يمسك) أى يصيبك (عذاب من الرحمن) أى إن أقمت على الكفر (فتكون للشيطان وليا) أى قرينا فى النار وقيل صديقا له فى النار وإنما فعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام هذا مع أبيه لأمور أحدها لشدة تعلق قلبه بصلاحية أبيه وأداء حق الأبوة والرفق به وثانيها أن النبى الهادى إلى الحق لابد أن يكون رفيقا لطيفا حتى يقبل منه كلامه وثالثها النصح لكل أحد فالأب أولى (قال) يعنى أباه مجيبا له (أراغب أنت عن آلهتى ياإبراهيم) أى أتاركها أنت وتارك عبادتها (لئن لم تنته) أى ترجع وتسكت عن عيبك آلهتنا وشتمك إياها (لأرجمنك) قال ابن عباس معناه لأضربنك وقيل لأقتلنك بالحجارة وقيل لأشتمنك وقيل لأبعدنك عنى بالقول القبيح والقول الأول هو الصحيح (واهجرنى) أى اجتنبنى قال ابن عباس اعتزلنى سالما لايصيبنك بمعرة (مليا) أى دهرا طويلا (قال) يعنى إبراهيم (سلام عليك) أى سلمت منى لاأصيبك بمكروه وذلك لأنه لم يؤمن بقتاله على كفره وقيل هذا سلام هجران ومفارقة وقيل هو سلام بر ولطف وهو جواب الحليم للسفيه (سأستغفر لك ربى) قيل أنه لما أعياه أمره وعده أن يراجع الله فيه فيسأله أن يرزقه التوحيد ويغفر له وقيل معناه سأسأل لك ربى توبة تنال بها المغفرة (إنه كان بى حفيا) أى برا لطيفا والمراد أنه يستجيب لى إذا دعوته لأنه عودنى الإجابة لدعائى (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله) أى أفارقكم وأفارق ماتعبدون من دون الله وذلك أنه فارقهم وهاجر إلى الأرض المقدسة (وأدعو ربى) أى أعبد ربى الذى خلقنى وأنعم على (عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا) أى أرجو أن لاأشقى بدعاء ربى وعبادته كما تشقون أنتم بعبادة الأصنام ففيه التواضع له مع التعريض بشقاوتهم. قوله عز وجل (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله) أى ذهب مهاجرا (وهبنا له) أى بعد الهجرة (إسحاق ويعقوب) أى آنسنا وحشته من فراقهم بأولاد أكرم على الله من أبيه (وكلا جعلنا نبيا) أي أنعمنا عليهما بالنبوة (ووهبنا لهم من رحمتنا) أى مع ماوهبنا لهم من النبوة وهبنا لهم المال والولد وذلك أنه بسط لهم فى الدنيا من سعة الرزق وكثرة الأولاد (وجعلنا لهم لسان صدق عليا)

حسنا رفيعا فى كل أهل الأديان فكلهم يتولونهم ويثنون عليهم قوله عز وجل (واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا) غير مراء أخلص العبادة والطاعة لله عز وجل وقرأ أهل الكوفة مخلصا بفتح اللام أى مختارا اختاره الله عز وجل وقيل أخلصه الله من الدنس (وكان رسولا نبيا وناديناه من جانب الطور الأيمن) يعنى يمين موسى والطور جبل بين مصر ومدين ويقال اسمه الزبير وذلك حين أقبل من مدين ورأى النار فنودى ياموسى إنى أنا الله رب العالمين (وقربناه نجيا) أى مناجيا فالنجى المناجى كما يقال جليس ونديم قال ابن عباس معناه قربه فكلمه ومعنى (٢٤٩) التقريب إسماعه كلامه وقيل رفعه على الحجب حتى سمع صرير القلم (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا) وذلك حين دعا موسى فقال واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى فأجاب الله دعاءه وأرسل إلى هارون ولذلك سماه هبة له (واذكر فى الكتاب إسماعيل) وهو إسماعيل ابن إبراهيم جد النبى صلى الله عليه وسلم (إنه كان صادق الوعد) قال مجاهد لم يعد شيئا إلا وفى به وقال مقاتل وعد رجلا أن يقيم مكانه حتى يرجع إليه الرجل فأقام إسماعيل مكانه ثلاثة أيام للميعاد حتى رجع إليه الرجل وقال الكلبى انتظره حتى حال عليه الحول (وكان رسولا) إلى جرهم (نبيا) مخبرا عن الله عز وجل (وكان يأمر أهله) أى قومه وقيل أهله وجميع أمته (بالصلاة والزكاة) قال ابن عباس يريد التى افترضها الله تعالى عليهم وهى الحنيفية التى افترضت علينا (وكان عند ربه مرضيا) قائما لله بطاعته قيل رضيه الله عز وجل لنبوته ورسالته قوله (واذكر فى الكتاب إدريس) وهو جد أبى نوح واسمه أخنوخ سمى إدريس لكثرة درسه الكتب وكان خياطا وهو أول من خط بالقلم وأول من خاط الثياب ولبس الثياب المخيطة وكانوا من قبله يلبسون الجلود وأول من اتخذ السلاح وقاتل الكفار وأول من نظر فى علم النجوم والحساب (إنه كان صديقا نبيا ورفعناه مكانا عليا) قيل هى الجنة وقيل هى الرفعة بعلو الرتبة فى الدنيا وقيل إنه رفع إلى السماء الرابعة روى أنس بن مالك عن مالك

يعنى ثناء حسنا رفيعا فى أهل كل دين حتى دعا لهم أهل الأديان كلهم فهم يتولونهم ويثنون عليهم . قوله عز وجل (واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا) قرىء بكسر اللام أى أخلص العبادة والطاعة لله تعالى ولم يراء وقرىء بالفتح أى مختارا اختاره الله تعالى ثم استخلصه واصطفاه (وكان رسولا نبيا) فهذان وصفان مختلفان فكل رسول نبى ولا عكس (وناديناه من جانب الطور الأيمن) أى من ناحية يمين موسى والطور جبل معروف بين مصر ومدين ويقال إن اسمه الزبير وذلك حين أقبل من مدين ورأى النار فنودى ياموسى إنى أنا رب العالمين (وقربناه) قال ابن عباس قربه وكلمه ومعنى التقريب إسماعه كلامه وقيل رفعه على الحجب حتى سمع صرير الأقلام وقيل معناه رفع قدره ومنزلته أى وشرفه بالمناجاة وهو قوله تعالى (نجيا) أى مناجيا (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا) وذلك أن موسى دعا ربه فقال واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى فأجاب الله دعوته وأرسل إلى هارون ولذلك سماه هبة له وكان هارون أكبر من موسى . قوله عز وجل (واذكر فى الكتاب إسماعيل) هو إسماعيل بن إبراهيم وهو جد النبى صلى الله عليه وسلم (إنه كان صادق الوعد) قيل إنه لم يعد شيئا إلا وفى به وقيل إنه وعد رجلا أن يقوم مكانه حتى يرجع الرجل فوقف إسماعيل مكانه ثلاثة أيام للميعاد حتى رجع إليه الرجل وقيل أنه وعد نفسه الصبر على الذبح فوفى به فوصفه الله بهذا الخلق الحسن الشريف سئل الشعبى عن الرجل يعد ميعادا إلى أى وقت ينتظر فقال إن وعده نهارا فكل النهار وإن وعده ليلا فكل الليل وسئل بعضهم عن مثل ذلك فقال إن وعده فى وقت صلاة ينتظر إلى وقت صلاة أخرى (وكان رسولا) إلى جرهم وهم قبيلة من عرب اليمن نزلوا على هاجر أم إسماعيل بوادى مكة حين خلفهم إبراهيم وجرهم هو جرهم بن قحطان بن عابر بن شالخ وقحطان أبو قبائل اليمن (نبيا) أى مخبرا عن الله تعالى (وكان يأمر أهله) أى قومه وجميع أمته (بالصلاة والزكاة) قال ابن عباس يريد الصلاة المفروضة عليهم وهى الحنيفية التى افترضت علينا وقيل كان يبدأ بأهله فى الأمر بالصلاة والعبادة ليجعلهم قدوة لمن سواهم (وكان عند ربه مرضيا) أى قائما لله بطاعته وقيل رضيه لنبوته ورسالته وهذا نهاية فى المدح لأن المرضى عند الله هو الفائز فى كل طاعة بأعلى الدرجات . قوله عز وجل (واذكر فى الكتاب إدريس) هو جد أبى نوح واسمه أخنوخ سمى إدريس لكثرة درسه الكتب وكان خياطا وهو أول من خط بالقلم وأول من خاط الثياب ولبس المخيط وكانوا من قبل يلبسون الجلود وهو أول من اتخذ السلاح وقاتل الكفار وأول من نظر فى علم الحساب (إنه كان صديقا نبيا) وذلك أن الله تعالى شرفه بالنبوة وأنزل عليه ثلاثين صحيفة (ورفعناه مكانا عليا) قيل هى الرفعة بعلو المرتبة فى الدنيا وقيل إنه رفع إلى السماء

ابن صعصعة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رأى إدريس فى السماء الرابعة ليلة المعراج وكان سبب رفع إدريس على ما قاله كعب وغيره أنه سار ذات يوم فى حاجة فأصابه وهج الشمس فقال يارب إنى مشيت فيها يوما واحدا ، فأصابنى المشقة الشديدة من وهج الشمس وأضر فى حرها ضررا بليغا فكيف بمن يحملها مسيرة خمسمائة عام فى يوم واحد اللهم خفف عنه من ثقلها وحرها فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها مالم يعرف فقال يارب ما الذى قضيت فيه حتى خففت عنى ما أنا فيه قال إن عبدى إدريس سألنى أن أخفف عنك حملها وحرها فأجبته فقال يارب اجعل بينى وبينه خلة فأذن له حتى أتى إدريس فكان يسأله إدريس فقال له إنى أخبرت أنك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت فاشفع لى إليه ليؤخر أجلى فأزداد شكرا وعبادة فقال الملك لا يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها وأنا مكلمه فرفعه إلى السماء ووضعه عند مطالع الشمس ثم أتى ملك الموت فقال لى حاجة إليك فقال وما هى فقال صديق لى من بنى آدم تشفع بى إليك لتؤخر أجله قال ليس ذلك إلى ولكن إن أحببت أعلمته أجله متى يموت فيقدم لنفسه قال نعم فنظر فى ديوانه فقال إنك كلمتنى فى إنسان ما أراه يموت أبدا قال وكيف ذلك قال لا أجده يموت إلا عند مطالع الشمس قال فإنى أتيتك وتركته هناك قال فانطلق فلا أراك تجده إلا وقد مات فوالله ما بقى من أجل إدريس شىء فرجع الملك فوجده ميتا واختلفوا فى أنه حى فى السماء أم ميت فقال قوم هو ميت وقال قوم هو حى وقالوا أربعة من الأنبياء فى الأحياء اثنان فى الأرض الخضر وإلياس واثنان فى السماء إدريس وعيسى وقال وهب كان يرفع لإدريس كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لجميع أهل الأرض فى زمانه فعجب منه الملائكة واشتاق إليه ملك الموت فاستأذن ربه عز وجل فى زيارته فأذن له فأتاه فى صورة بنى آدم . وكان إدريس يصوم الدهر فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه فأبى أن يأكل معه ففعل ذلك ثلاث ليال فأنكره إدريس فقال له فى الليلة الثالثة إنى أريد أن أعلم من أنت فقال أنا ملك الموت استأذنت ربى أن أصحبك قال فلى إليك حاجة قال وما هى قال تقبض روحى فأوحى الله إليه أن أقبض روحه فقبض روحه وردها الله إليه بعد ساعة قال له ملك الموت ما الفائدة فى سؤالك قبض الروح قال لأذوق كرب الموت وغمه لأكون أشد استعدادا له ثم قال إدريس له إن لى إليك حاجة أخرى قال وما هى قال

> وهو الأصح يدل عليه ما روى أنس بن مالك بن صعصعة «عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رأى إدريس فى السماء الرابعة ليلة المعراج» متفق عليه وكان سبب رفع إدريس إلى السماء الرابعة على ما قاله كعب الأحبار وغيره أنه سار ذات يوم فى حاجة فأصابه وهج الشمس فقال يارب إنى مشيت يوما فكيف بمن يحملها مسيرة خمسمائة عام فى يوم واحد اللهم خفف عنه من ثقلها وحرها فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعرف فقال يارب خلقتنى لحر الشمس فما الذى قضيت فيه قال إن عبدى إدريس سألنى أن أخفف عنك حملها وحرها فأجبته قال يارب فاجمع بينى وبينه واجعل بينى وبينه خلة فأذن له حتى أتى إدريس فكان إدريس يسأله فكان مما سأله أن قال إنى أخبرت أنك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت فاشفع لى إليه ليؤخر أجلى لعلى ازداد شكرا وعبادة فقال الملك «لا يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها» وأنا مكلمه فرفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس ثم أتى ملك الموت فقال له لى إليك حاجة صديق لى من بنى آدم تشفع بى إليك لتؤخر أجله فقال ملك الموت ليس لى ذلك ولكن إن أحببت أعلمته أجله فيقدم لنفسه قال نعم فنظر فى ديوانه فقال إنك كلمتنى فى إنسان ما أراه يموت أبدا قال وكيف ذلك فقال لا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس قال إنى أتيتك وتركته هناك قال انطلق فلا أراك تجده إلا وقد مات فوالله ما بقى من عمر إدريس شىء فرجع الملك فوجده ميتا وقال وهب كان يرفع لإدريس كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لجميع أهل الأرض فى زمانه فعجب منه الملائكة واشتاق إليه ملك الموت فاستأذن ربه فى زيارته فأذن له فأتاه فى صورة بنى آدم وكان إدريس يصوم الدهر فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى الطعام فأبى أن يأكل معه ففعل ذلك ثلاث ليال فأنكره إدريس وقال له فى الليلة الثالثة إنى أريد أن أعلم من أنت قال أنا ملك الموت استأذنت ربى أن أصحبك فقال لى إليك حاجة قال وما هى قال تقبض روحى فأوحى الله إليه أن اقبض روحه فقبض روحه وردها الله إليه بعد ساعة فقال له ملك الموت ما الفائدة فى سؤالك قبض الروح قال لأذوق كرب الموت وغمه

وغمه فأكون أشد استعدادا له ثم قال له إدريس لي إليك حاجة أخرى قال وما هي قال ترفعني إلى السماء لانظر إليها وإلى الجنة والنار فأذن الله له فرفعه فلما قرب من النار قال لي إليك حاجة قال وما هي قال أريد أن أسأل مالكا أن يرفع أبوابها فأرداها ففعل قال فكما أريتني النار فأرني الجنة فذهب به إلى الجنة فاستفتح ففتحت أبوابها فأدخله الجنة ثم قال له ملك الموت أخرج لتعود إلى مقرك فتعلق بشجرة وقال ماأخرج منها فبعث الله إليه ملكا حكما بينهما قال له الملك مالك لاتخرج قال لأن الله تعالى قال «كل نفس ذائقة الموت» وقد ذقته ثم قال «وإن منكم إلا واردها» فأناوردتها وقال «وماهم منها بمخرجين» فلست أخرج فأوحى الله تعالى إلى ملك الموت باذني دخل الجنة وبأمري لايخرج فهو حي هناك فذلك قوله تعالى ورفعناه مكانا عليا واختلفوا في أنه حي في السماء أم ميت فقال قوم هو ميت واستدل بالأول وقال قوم هو حي واستدل بهذا وقالوا أربعة من الأنبياء أحياء اثنان في الأرض وهما الخضر وإلياس واثنان في السماء وهما إدريس وعيسى. قوله عز وجل (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين) أولئك إشارة إلى المذكورين في هذه السورة أنعم الله عليهم بالنبوة وغيرها مما تقدم وصفه (من ذرية آدم) يعني إدريس ونوحا (وممن حملنا مع نوح) أي ومن ذرية من حملنا مع نوح في السفينة يريد إبراهيم لأنه ولد سام بن نوح (ومن ذرية إبراهيم) يعني إسحاق وإسماعيل ويعقوب (وإسرائيل) أي ومن ذرية إسرائيل وهو يعقوب وهم موسى ويحيي وهارون وزكريا وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم فرتب الله تعالى أحوال الأنبياء الذين ذكرهم على هذا الترتيب منبها بذلك على أنهم كما شرفوا بالنبوة شرفوا بالنسب ثم قال تعالى (وممن هدينا واجتبينا) أي هؤلاء ممن أرشدنا واصطفينا وقيل ممن هدينا إلى الإسلام واجتبينا على الأنام (إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا) جمع ساجد (وبكيا) جمع باك أخبر الله تعالى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا إذا سمعوا آيات الله سجدوا وبكوا خضوعا وخشوعا وخوفا وحذرا والمراد من الآيات ماخصهم به من الكتب المنزلة عليهم وقيل المراد من الآيات ذكر الجنة والنار والوعد والوعيد ففيه استحباب البكاء وخشوع القلب عند سماع القرآن.

(فصل)

وسجدة سورة مريم من عزائم سجود القرآن فيسن للقارىء والمستمع أن يسجد عند تلاوة هذه السجدة وقيل يستحب لمن قرأ آية سجدة فسجد أن يدعوا بما يناسب تلك السجدة فإن قرأ سجدة سبحان قال اللهم اجعلني من الباكين إليك والخاشعين لك وإن قرأ سجدة مريم قال اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك وإن سجد سجدة ألم السجدة قال اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك. قوله تعالى (فخلف من بعدهم) أي من بعد النبيين المذكورين (خلف) أي قوم سوء أراد بهم اليهود ومن لحق بهم وتابعهم وقيل هم في هذه الأمة

ترفعني إلى السماء لأنظر إليها وإلى الجنة والنار فأذن الله فرفعه فلما قرب من النار قال لي حاجة أخرى قال وما تريد قال تسأل مالكا حتى يفتح لي أبوابها فأردها ففعل ثم قال فكما أريتني النار فأرني الجنة فذهب به إلى الجنة فاستفتح ففتحت أبوابها فأدخله الجنة ثم قال له ملك الموت اخرج لتعود إلى مقرك فتعلق بشجرة وقال لا أخرج منها فبعث الله ملكا حكما بينهما فقال له الملك مالك لا تخرج قال لأن الله تعالى قال «كل نفس ذائقة الموت» وقد ذقته وقال «وإن منكم إلا واردها» وقد وردتها وقال «وماهم منها بمخرجين» فلست أخرج فأوحى الله إلى ملك الموت باذني دخل الجنة وبأمري لا يخرج فهو حي هناك فذلك قوله تعالى «ورفعناه مكانا عليا» (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم) أي إدريس ونوحا (وممن حملنا مع نوح) أي ومن ذرية من حملنا مع نوح في السفينة يريد إبراهيم لأنه ولد سام بن نوح (ومن ذرية إبراهيم) يريد إسماعيل وإسحاق ويعقوب قوله (وإسرائيل) أي ومن ذرية إسرائيل وهم موسى وهرون وزكريا ويحيي (وممن هدينا واجتبينا) هؤلاء كانوا ممن أرشدنا واصطفينا (إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا) سجدا جمع ساجد وبكيا جمع باك أخبر الله أن الأنبياء كانوا إذا سمعوا بآيات الله سجدوا وبكوا قوله تعالى (فخلف من بعدهم خلف) أي من بعد النبيين المذكورين خلف وهم قوم سوء والخلف بالفتح الصالح وبالجزم الطالح قال السدي أراد بهم اليهود ومن لحق بهم وقال مجاهد

وقتادة هم قوم فى هذه الآية (أضاعوا الصلاة) تركوا الصلاة المفروضة وقال ابن مسعود وإبراهيم أخروها عن وقتها وقال سعيد بن المسيب هو أن لايصلى الظهر حتى يأتي العصر ولا العصر حتى تغرب الشمس (واتبعوا الشهوات) أى المعاصى وشرب الخمر أي آثروا شهوات أنفسهم على طاعة الله وقال مجاهد هؤلاء قوم يظهرون فى آخر الزمان ينزوا بعضهم على بعض فى الأسواق والأزقة (فسوف يلقون غيا) قال ابن وهب الغى نهر فى جهنم بعيد قعره خبيث طعمه وقال ابن عباس الغى واد فى جهنم وإن أودية جهنم لتستعيذ من حره أعد للزانى المصر عليه ولشارب الخمر المدمن عليها ولآكل الربا الذى لاينزع عنه ، ولأهل العقوق ولشاهد الزور ولامرأة أدخلت على زوجها ولدا وقال عطاء الغى واد فى جهنم يسيل قيحا ودما وقال كعب هو واد فى جهنم أبعدها قعرا وأشدها حرا فيه بئر تسمى الهيم كلما خبت جهنم فتح الله تلك البئر فيسعر بها جهنم (٢٥٢) أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا محمد بن أحمد الحارثي أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبدالله ابن محمود أنا إبراهيم ابن عبد الله الخلال وأنا عبد الله بن المبارك عن هشيم بن بشير أنا زكريا ابن أبي مريم الخزاعى قال سمعت أبا أمامة الباهلى يقول إن مابين شفير جهنم إلى قعرها مسيرة سبعين خريفا من حجر يهوى أو قال صخرة تهوي عظمها كعشر عشروات سمان فقال له مولى لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد هل تحت ذلك شىء يا أبا أمامة قال نعم غى وآثام وقال الضحاك غيا وخسرانا وقيل هلاكا وقيل عذابا وقوله (فسوف يلقون غيا ليس مراده يرون فقط بل معناه الاجتماع والملابسة مع الرؤية (إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب) ولم يروها (إنه كان وعده مأتيا) يعنى آتيا مفعول بمعنى فاعل وقيل لم يقل آتيا لأن كل من أتاك فقد أتيته والعرب لاتفرق بين قول القائل أتت على خمسون سنة وبين قوله أتيت على خمسين سنة ويقول وصل إلى الخير ووصلت إلى الخير قال ابن جرير وعده أي موعوده وهو الجنة مأتيا يأتيه أولياؤه وأهل طاعته (لايسمعون فيها) فى الجنة (لغوا) باطلا وفحشا وفضولا من الكلام وقال مقاتل هو اليمين الكاذبة (إلا سلاما) استثناء من غير جلسه يعنى بل يسمعون فيها سلاما أي قولا يسلمون منه والسلام اسم جامع للخير لأنه يتضمن السلامة معناه أن أهل الجنة لايسمعون مايؤثمهم إنما يسمعون مايسلمهم وقيل هو تسليم بعضهم على بعض وتسليم الملائكة عليهم وقيل هو تسليم الله عليهم (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) قال

(أضاعوا الصلاة) أى تركوا الصلاة المفروضة وقيل آخروها عن وقتها وهو أن لايصلى الظهر حتى يأتي العصر ولا العصر حتى تأتى المغرب (واتبعوا الشهوات) أى آثروا شهوات أنفسهم على طاعة الله وقيل اتبعوا المعاصى وشرب الخمور وقيل هؤلاء قوم يظهرون فى آخر الزمان ينزو بعضهم على بعض فى الأسواق والأزقة (فسوف يلقون غيا) قال ابن عباس الغى واد فى جهنم وإن أودية جهنم لتستعيذ من حره أعد للزانى المصر عليه ولشارب الخمر المدمن له ولآكل الربا الذى لاينزع عنه ولأهل العقوق ولشاهد الزور وقيل هو واد فى جهنم بعيد قعره خبيث طعمه يسيل قيحا ودما وقيل هو واد فى جهنم أبعدها قعرا وأشدها حرا فيه بئر تسمى الهيم كلما خبت جهنم فتح الله تلك البئر فتستعر بها جهنم وقيل معنى غيا خسرانا وقيل هلاكا وعذابا وليس معنى يلقون يرون فقط بل معناه الاجتماع والملابسة مع الرؤية . قوله تعالى (إلا من تاب وآمن وعمل صالحا) يعنى إلا من تاب من التقصير فى الصلوات والمعاصى وآمن من الكفر وعمل صالحا بطاعة الله تعالى (فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا) أى لاينقصون شيئا ثم وصف الجنة فقال تعالى (جنات عدن) أى بساتين إقامة وصفها بالدوام بخلاف جنات الدنيا فانها لا تدوم (التى وعد الرحمن عباده بالغيب) أى إنهم لايرونها فهى غائبة عنهم وهم غائبون عنها (إنه كان وعده مأتيا) أى آتيا وقيل معنى وعده موعوده وهو الجنة مأتيا أى يأتيه أولياء الله وأهل طاعته (لايسمعون فيها لغوا) أى باطلا وفحشا وهو فضول الكلام (إلا سلاما) يعنى بل يسمعون فيها سلاما والسلام اسم جامع للخير لأنه يتضمن معنى السلامة وذلك أن أهل الجنة لايسمعون فيها مايؤلمهم إنما يسمعون تسليمهم وقيل هو تسليم بعضهم على بعض وتسليم الملائكة عليهم وقيل هو تسليم الله عليهم (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) قال أهل التفسير ليس فى الجنة ليل ولا نهار حتى يعرف به البكرة والعشى بل هم فى نور أبدا ولكنهم يؤتون بأرزاقهم على مقدار طرفى النهار كعادتهم فى الدنيا وقيل إنهم يعرفون وقت النهار برفع الحجب ووقت الليل بارخاء الحجب وقيل المراد منه رفاهية العيش وسعة الرزق

أهل التفسير ليس فى الجنة ليل يعرف به البكرة والعشى بل هم فى نور أبدا ولكنهم يؤتون بأرزاقهم على مقدار طرفى النهار وقيل إنهم يعرفون وقت النهار برفع الحجب ووقت الليل بإرخاء الحجب وقيل المراد منه رفاهية العيش وسعة الرزق من غير تضييق وكان الحسن البصرى يقول كانت العرب لاتعرف من العيش أفضل من الرزق بالبكرة والعشى فوصف الله عز وجل أهل جنته بذلك (تلك الجنة التي نورث من عبادنا) أى نعطى وننزل وقيل يورث عباده المؤمنين المساكن التى كانت لأهل النار لو آمنوا (من كان تقيا) أى المتقين من عباده (وما نتنزل إلا بأمر ربك) أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبدالله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا خلاد بن يحيى أنا عمر بن ذر قال سمعت أبى يحدث عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ياجبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت : وما نتنزل إلا بأمر ربك له مابين أيدينا وما خلفنا » الآية قال كان **(٢٥٣)** هذا الجواب لمحمد صلى الله عليه وسلم وقال عكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل والكلبى « احتبس جبريل عن النبي صلى الله عليه وسلم حين سأله قومه عن أصحاب الكهف وذى القرنين والروح فقال أخبركم غدا ولم يقل إن شاء الله حتى شق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم ثم نزل بعد أيام فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أبطأت على حتى ساء ظنى واشتقت إليك فقال له جبريل إنى كنت أشوق ولكنى عبد مأمور إذا بعثت نزلت وإذا احتبست احتبست فأنزل الله . وما نتنزل إلا بأمر ربك » وأنزل « والضحى والليل إذا سجى ماودعك ربك وما قلى » (له مابين أيدينا وما خلفنا ومابين ذلك) أى له علم مابين أيدينا واختلفوا فيه فقال سعيد بن جبير وقتادة ومقاتل مابين أيدينا من أمر الآخرة والثواب والعقاب وما خلفنا ما مضى من الدنيا وما بين ذلك مايكون هذا من الوقت إلى قيام الساعة وقيل مابين أيدينا من أمر الآخرة وما خلفنا من أمر الدنيا وما بين ذلك أى مابين النفختين وبينهما أربعون سنة وقيل مابين أيدينا ما بقى من الدنيا وما خلفنا مامضى منها وما بين ذلك مدة حياتنا وقيل مابين أيدينا بعد أن نموت وما خلفنا قبل أن نخلق وما بين ذلك مدة الحياة وقيل مابين أيدينا من الأرض إذا أردنا النزول إليها وما خلفنا السماء إذا نزلنا منها وما بين ذلك الهواء يريد أن ذلك كله لله عز وجل فلا نقدر على شىء إلا بأمره (وماكان ربك نسيا) أى ناسيا يقول مانسيك ربك أى ماتركك والناسى التارك (رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته) أى اصبر على أمره ونهيه (هل تعلم له سميا) قال ابن عباس رضى الله عنهما مثلا وقال سعيد بن جبير عدلا وقال الكلبى هل تعلم أحدا يسمى الله غيره

من غير تضييق ولاتقتير وقيل كانت العرب لاتعرف أفضل من الرزق الذى يؤتى به البكرة والعشى فوصف الله تعالى الجنة بذلك وقوله تعالى (تلك الجنة التى نورث من عبادنا) أى نعطى وننزل وقيل يورث عباده المؤمنين المساكن التى كانت لأهل النار لو آمنوا (من كان تقيا) أى المتقين من عباده قوله عز وجل (وما نتنزل إلا بأمر ربك) (خ) «عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ياجبريل مايمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت وما نتنزل إلا بأمر ربك له مابين أيدينا وما خلفنا » الآية قال فكان هذا جواب جبريل لمحمد صلى الله عليه وسلم » وقيل احتبس جبريل عن النبي ﷺ حين سأله اليهود عن أمر الروح وأصحاب الكهف وذى القرنين فقال أخبركم غدا ولم يقل إن شاء الله حتى شق على النبي صلى الله عليه وسلم ثم نزل بعد أيام فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أبطأت على حتى ساء ظنى واشتقت إليك فقال له جبريل وإنى كنت أشوق إليك ولكنى عبد مأمور إذا بعثت نزلت وإذا حبست احتبست» فأنزل الله تعالى وما نتنزل إلا بأمر ربك وأنزل الله تعالى « والضحى والليل إذا سجى ماودعك ربك وما قلى » وقوله (له مابين أيدينا وما خلفنا) أى له علم مابين أيدينا وما خلفنا وقيل أكد ذلك بقوله مابين أيدينا وماخلفنا أى هو المدبر لنا فى كل الأوقات الماضى والمستقبل وقيل معناه له مابين أيدينا من أمر الآخرة والثواب والعقاب وما خلفنا أى مامضى من الدنيا (وما بين ذلك) أى من هذا الوقت إلى أن تقوم الساعة وقيل مابين ذلك أى مابين النفختين وهومقدار أربعين سنة وقيل مابين أيدينا ما بقى من الدنيا وماخلفنا مامضى منها وما بين ذلك أى مدة حياتنا (وما كان ربك نسيا) أى ناسيا أي مانسيك ربك وما تركك (رب السموات والأرض وما بينهما) أى من يكون كذلك لايجوز عليه النسيان لأنه لابد أن يدبر أحوالها كلها وفيه دليل على أن فعل العبد خلق الله لأنه حاصل بين السموات والأرض فكان لله تعالى (فاعبده واصطبر لعبادته) أي اصبر على أمره ونهيه (هل تعلم له سميا) قال

(ويقول الإنسان) يعني أبي بن خلف الجمحي كان منكرا للبعث قال (أئذا مامت لسوف أخرج حيا) من القبر قاله استهزاء وتكذيبا للبعث قال الله عز وجل (أو لايذكر) أي يتذكر ويتفكر وقرأ نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب يذكر خفيف (الإنسان) يعني أبي بن خلف (أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا) أي لايتفكر هذا الجاحد في بدء خلقه فيستدل به على الإعادة ثم أقسم بنفسه فقال (فوربك لنحشرنهم) أي لنجمعنهم في المعاد يعني المشركين المنكرين للبعث (والشياطين) مع الشياطين وذلك أنه يحشر كل كافر مع شيطانه في سلسلة (ثم لنحضرنهم حول جهنم) قيل في جهنم (جثيا) قال ابن عباس رضي الله عنه جماعات جمع جثوة وقال الحسن (٢٥٤) والضحاك جمع جاث أي جاثين على الركب قال السدي قائمين على الركب لضيق المكان (ثم لننزعن) لنخرجن (من كل شيعة) أي من كل أمة وأهل دين من الكفار (أيهم أشد على الرحمن عتيا) عتوا قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني جرأة وقال مجاهد فجورا يريد الأعتى فالأعتى وقال الكلبي قائدهم ورأسهم في الشر يريد أنه يقدم في إدخال النار من هو أكبر جرما وأشد كفرا وفي بعض الآثار أنهم يحضرون جميعا حول جهنم مسلسلين مغلولين ثم يقدم الأكفر فالأكفر ورفع أيهم على معنى الذي يقال لهم أيهم أشد على الرحمن عتيا وقيل على الاستئناف ثم لننزعن يعمل في موضع من كل شيع (ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا) أي أحق بدخول النار يقال صلى يصلى صليا مثل لقي يلقى لقيا وصلى يصلي صليا مثل مضى يمضي مضيا إذا دخل النار وقاسى حرها (وإن منكم إلا واردها) أي وما منكم إلا واردها وقيل القسم في مضمر أي والله مامنكم من أحد إلا واردها والورود هو موافاة المكان واختلفوا في معنى الورود هاهنا وفيما تنصرف إليه الكناية في قوله واردها قال ابن عباس رضي الله عنه وهو قول الأكثرين معنى الورود هاهنا، هو الدخول والكناية راجعة إلى النار وقالوا النار يدخلها البر والفاجر ثم ينجي الله المتقين فيخرجهم منها والدليل على أن الورود هو الدخول قول الله عز وجل حكاية عن فرعون «يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار» وروى ابن عيينة عن عمرو بن دينار أن نافع بن الأزرق مارى ابن عباس رضي الله عنهما في الورود فقال ابن عباس رضي الله عنهما هو الدخول وقال نافع

ابن عباس مثلا وقيل هل تعلم أحدا يسمى الله غير الله قوله تعالى (ويقول الإنسان) أي جنس الإنسان والمراد به الكفار الذين أنكروا البعث وقيل هو أبي بن خلف الجمحي وكان منكرا للبعث (أئذا مامت لسوف أخرج حيا) قاله استهزاء وتكذيبا للبعث قال الله تعالى (أو لايذكر الإنسان) أي يتذكر ويتفكر يعني منكر البعث (أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا) والمعنى أولا يتفكر هذا الجاحد في بدء خلقه فيستدل به على الإعادة قال بعض العلماء لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجة في البعث على هذا الاختصار ماقدروا عليه إذ لاشك أن الإعادة ثانيا أهون من الإيجاد أولا ثم أقسم بنفسه فقال تعالى (فوربك) وفيه تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم (لنحشرنهم) أي لنجمعنهم في المعاد يعني المشركين المنكرين للبعث (والشياطين) أي مع الشياطين وذلك أنه يحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة (ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا) قال ابن عباس جماعات وقيل جاثين على الركب لضيق المكان وقيل إن البارك على ركبتيه صورته كصورة الذليل. فإن قلت هذا المعنى حاصل للكل بدليل قوله تعالى «وترى كل أمة جاثية» . قلت وصفوا بالجثو على العادة المعهودة في مواقف المقالات والمناقلات وذلك لما فيه من القلق مما يدهمهم من شدة الأمور التي لايطيقون معها القيام على أرجلهم فيجثون على ركبهم جثوا (ثم لننزعن) أي لنخرجن (من كل شيعة) أي من كل أمة وأهل دين من الكفار (أيهم أشد على الرحمن عتيا) قال ابن عباس يعني جرأة وقيل فجورا وتمردا وقيل قائدهم رئيسهم في الشرك والمعنى أنه يقدم في إدخال النار الأعتى ممن هو أكبر جرما وأشد كفرا وفي بعض الأخبار أنهم يحضرون جميعا حول جهنم مسلسلين مغلولين ثم يقدم الأكفر فالأكفر فمن كان أشد منهم تمردا في كفره خص بعذاب أعظم وأشد لأن عذاب الضال المضل واجب أن يكون فوق عذاب الضال التابع لغيره في الضلال وفائدة هذا التمييز التخصيص بشدة العذاب لا التخصيص بأصل العذاب فلذلك قال في جميعهم (ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا) ولايقال أولى إلا مع اشتراك القوم في العذاب وقيل معنى الآية أنهم أحق بدخول النار. قوله عز وجل (وإن منكم إلا واردها) أي ومامنكم إلا واردها وقيل القسم فيه مضمر أي والله مامنكم من أحد إلا واردها والورود هو موافاة المكان واختلفوا في معنى الورود هاهنا وفيما تنصرف إليه

ليس الورود الدخول فتلا عبد الله بن عباس رضى الله عنه قوله تعالى «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون» أدخلها هؤلاء أم لا ثم قال يا نافع أما والله أنت وأنا سنردها وأنا أرجو أن يخرجنى الله منها وما أرى الله عز وجل أن يخرجك منها بتكذيبك وقال قوم ليس المراد من الورود الدخول وقالوا النار لا يدخلها مؤمن أبدا لقوله تعالى «إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها» وقالوا كل من دخلها لا يخرج منها والمراد من قوله: «وإن منكم إلا واردها» الحضور والرؤية لا الدخول كما قال تعالى «ولما ورد ماء مدين» أراد به الحضور وقال عكرمة الآية فى الكفار فانهم يدخلونها ولا يخرجون منها وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال «وإن منكم إلا واردها» يعنى القيامة والكناية راجعة إليها والأول أصح وعليه أهل السنة أنهم جميعا يدخلون النار ثم يخرج الله عز وجل منها أهل الإيمان بدليل قوله تعالى «ثم ننجى الذين اتقوا» أى اتقوا الشرك وهم المؤمنون والنجاة إنما تكون مما دخلت فيه لا ما وردت وقرأ الكسائى ويعقوب ننجى بالتخفيف والآخرون بالتشديد والدليل على هذا ما أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أنا أبو بكر أحمد بن الحسين الحيرى أنا حاجب بن أحمد الطوسى أنا عبد الرحيم بن منيب أنا سفيان عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم» وأراد بالقسم قوله «وإن منكم إلا واردها» أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا مسلم بن إبراهيم أنا هشام أنا قتادة عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن شعيرة من خير ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن برة من خير ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن ذرة من خير» وقال أبان عن قتادة من إيمان مكان خير أخبرنا أبو المظفر محمد بن إسماعيل بن على الشجاعى أنا أبو نصر النعمان بن محمد بن محمود الجرجانى أنا أبو عثمان عمر بن عبد الله البصرى أنا محمد بن عبد الوهاب أنا محمد بن الفضل أبو النعمان أنا سلام ابن مسكين أنا أبو الظلال عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أن رجلا فى النار ينادى ألف سنة يا حنان

إليه الكناية فى قوله واردها فقال ابن عباس والأكثرون معنى الورود ههنا الدخول والكناية راجعة إلى النار فيدخلها البر والفاجر ثم ينجى الله الذين اتقوا منها يدل عليه ما روى أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس فى الورود فقال ابن عباس هو الدخول فقال نافع ليس الورود الدخول فقرأ ابن عباس «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون» أدخلها هؤلاء أم لا ثم قال يا نافع والله أنا وأنت سنردها وأنا أرجو أن يخرجنى الله منها وما أرى الله أن يخرجك منها بتكذيبك فمن قال بدخول المؤمنين النار يقول من غير خوف ولا ضرر ولا عذاب البتة بل مع الغبطة والسرور لأن الله تعالى أخبر عنهم أنهم لا يحزنهم الفزع الأكبر. فان قلت كيف يدفع عن المؤمنين حر النار وعذابها. قلت يحتمل أن الله تعالى يخمد النار فتعبرها المؤمنون ويحتمل أن الله تعالى يجعل الأجزاء الملاصقة لأبدان الكفار من النار محرقة والأجزاء الملاصقة لأبدان المؤمنين تكون على المؤمنين بردا وسلاما كما كانت فى حق إبراهيم عليه السلام وكما أن الملائكة الموكلين بها لا يجدون ألمها فان قلت إذا لم يكن على المؤمنين عذاب فما فائدة دخولهم النار. قلت فيه وجوه أحدها أن ذلك مما يزيدهم سرورا إذا علموا الخلاص منه وثانيها أن فيه مزيد غم على أهل النار حيث يرون المؤمنين يتخلصون منها وهم باقون فيها وثالثها أنهم إذا شاهدوا ذلك العذاب الذى على الكفار صار ذلك سببا لمزيد التذاذهم بنعيم الجنة وقال قوم ليس المراد من الورود الدخول وقالوا لا يدخل النار مؤمن أبدا لقوله تعالى «إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها» فعلى هذا يكون المراد من الورود الحضور والرؤية لا الدخول كما قال تعالى «ولما ورد ماء مدين» أراد به الحضور وقال عكرمة الآية فى الكفار فانهم يدخلونها ولا يخرجون منها وروى عن ابن مسعود أنه قال وإن منكم إلا واردها يعنى القيامة والكناية راجعة إليها والقول الأول أصح وعليه أهل السنة فانهم جميعا يدخلون النار ثم يخرج الله منها أهل الإيمان بدليل قوله تعالى «ثم ننجى الذين اتقوا» أى الشرك وهم المؤمنون والنجاة إنما تكون مما دخلت فيه يدل ما روى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يموت لأحد من المؤمنين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم» وفى رواية «فيلج النار إلا تحلة القسم» أخرجاه فى الصحيحين أراد بالقسم قوله تعالى «وإن منكم إلا واردها» (م) عن أم مبشر الأنصارية

يامنان فيقول الله عز وجل لجبريل اذهب فائتنى بعبدى هذا قال فذهب جبريل فوجد أهل النار منكبين يبكون قال فرجع فأخبر ربه عز وجل قال اذهب فانه فى موضع كذا وكذا قال فجاء به قال ياعبدى كيف وجدت مكانك ومقيلك قال يارب شر مكان وشر مقيل قال ردوا عبدى قال ماكنت أرجو أن تعيدنى إليها إذا أخرجتنى منها قال الله تعالى للملائكة دعوا عبدى » وأما قوله عز وجل «لايسمعون حسيسها» قيل إن الله عز وجل أخبر عن وقت كونهم فى الجنة أنهم لايسمعون حسيسها فيجوز أن يكون قد سمعوا ذلك قبل دخولهم الجنة لأنه لم يقل لم يسمعوا حسيسها ويجوز أن لايسمعوا حسيسها عند دخولهم إياها لأن الله عز وجل يجعلها عليهم بردا وسلاما وقال خالد بن معدان يقول أهل الجنة ألم يعدنا ربنا أن نرد النار فيقال بلى ولكنكم مررتم بها وهى خامدة وفى الحديث «تقول النار للمؤمنين جز يامؤمن فقد أطفأ نورك لهبى» وروى عن مجاهد قوله عز وجل «وإن منكم إلا واردها قال من حم من المسلمين فقد وردها» وفى الخبر «الحمى كير من جهنم» وهى حظ المؤمن من النار أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد النعيمى أنا محمد ابن يوسف أنا محمد بن إسمعيل أنا محمد بن المثنى أنا يحيى عن هشام أخبرني أبى عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء» (كان على ربك حتما مقضيا) أى كان ورودكم جهنم حتما لازما مقضيا قضاه الله عليكم (ثم ننجى الذين اتقوا) أى اتقوا الشرك وقرأ يحشر الكسائى ننجى بالتخفيف والباقون بالتشديد (ونذر الظالمين فيها جثيا) جميعا وقيل جاثين على الركب وفيه دليل على أن الكل دخلوها ثم أخرج الله منها المتقين وترك فيها الظالمين وهم المشركون أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهرى» قال أخبرنى سعيد بن المسيب وعطاء بن يزيد الليثى أن أبا هريرة أخبرهما أن الناس قالوا يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون فى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب فقالوا لايارسول الله قال فهل تمارون فى الشمس ليس دونها سحاب قالوا لا قال فانكم ترونه كذلك يحشر الناس

أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند حفصة «لايدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها قالت بلى يارسول الله فانتهزها فقالت حفصة وإن منكم إلا واردها فقال النبى صلى الله عليه وسلم قد قال الله تعالى ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا» وقال خالد بن معدان يقول أهل الجنة ألم يعدنا ربنا أن نرد النار فيقال بلى ولكنكم مررتم بها وهى خامدة وفى الحديث «تقول النار للمؤمنين جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبى» وروى عن مجاهد فى قوله تعالى «وإن منكم إلا واردها قال من حم من المسلمين فقد وردها» وفى الخبر «الحمى كير من جهنم وهى حظ المؤمن من النار» (ق) عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء» قوله فيح جهنم أى وهجها وحرها. وقوله تعالى (كان على ربك حتما مقضيا) أى كان ورود جهنم قضاء لازما قضاه الله تعالى عليكم وأوجبه (ثم ننجى الذين اتقوا) أى الشرك (ونذر الظالمين فيها جثيا) أى جميعا وقيل جاثين على الركب قالت المعتزله فى الآية دليل على صحة مذهبهم فى أن صاحب الكبيرة والفاسق يخلد فى النار بدليل أن الله بين أن الكل يردونها ثم بين صفة من ينجو منها وهم المتقون والفاسق لايكون متقيا فبقى فى النار أبدا وأجيب عنه بأن المتقى هو الذى يتقى الشرك بقول لاإله إلا الله ويشهد لصحة ذلك أن من آمن بالله ورسوله صح أن يقول أنه متق من الشرك ومن صدق عليه أنه متق من الشرك صح أنه متق لأن المتقى جزء من المتقى من الشرك ومن صدق عليه المركب صدق عليه المفرد فثبت أن صاحب الكبيرة متق وإذا ثبت ذلك وجب أن يخرج من النار بعموم قوله تعالى «ثم ننجى الذين اتقوا» فصارت الآية التى توهموها دليلا لهم من أقوى الدلائل على فساد قولهم وهذا من حيث البحث وأما من حيث النص فقد وردت أحاديث تدل على إخراج المؤمن الموحد من النار (خ) «عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يخرج من النار من قال لاإله إلا الله وفى قلبه وزن شعيرة من خير ويخرج من النار من قال لاإله إلا الله وفى قلبه وزن برة من خير ويخرج من النار من قال لاإله إلا الله وفى قلبه وزن ذرة من خير وفى رواية من إيمان» (ق) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن الناس قالوا يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تمارون فى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب قالوا لايارسول الله قال هل تمارون فى الشمس ليس دونها سحاب قالوا لايارسول الله قال فانكم ترونه كذلك

يوم القيامة فيقول من كان يعبد شيئاً فليتبعه فمنهم من يتبع الشمس ومنهم من يتبع القمر ومنهم من يتبع الطواغيت وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله عز وجل فيقول أنا ربكم فيقولون هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فاذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا ويضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم سلم وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان قالوا نعم قال فانها مثل شوك السعدان غير أنه لايعلم قدر عظمها إلا الله تخطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق بعمله ومنهم من يخردل ثم ينجو حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده وأراد أن يخرج (٢٥٧) من النار من أراد أن يخرجه ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله أمر الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السجود وحرم الله على النار أن تأكل أثر السجود فكل ابن آدم تأكله النار إلا أثر السجود فيخرجون من النار قد امتحشوا فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ويبقى رجل بين الجنة والنار ، وهو آخر أهل النار دخولا إلى الجنة مقبل بوجهه قبل النار فيقول يارب اصرف وجهي عن النار قد قشبني ريحها وأحرقني ذكاؤها فيقول هل عسيت إن فعل ذلك بك أن تسأل غير ذلك فيقول لا وعزتك فيعطي الله ما شاء الله من عهد وميثاق فيصرف الله وجهه عن النار فاذا أقبل به على الجنة ورأى بهجتها سكت ما شاء الله أن يسكت ثم قال يارب قدمني عند باب الجنة فيقول الله تبارك وتعالى أليس قد أعطيت العهود والميثاق أن لاتسأل غير الذي كنت سألت فيقول يارب لاأكون أشقى خلقك فيقول فما عسيت أن أعطيت ذلك أن تسأل غيره فيقول لا وعزتك لاأسألك غير ذلك فيعطي ربه ما شاء من عهد وميثاق فيقدمه إلى باب الجنة فاذا بلغ بابها فرأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور فسكت ماشاء الله أن يسكت فيقول يارب أدخلني الجنة فيقول الله تبارك وتعالى ويلك ياابن آدم ماأغدرك أليس قد أعطيت العهود والميثاق أن لا تسأل غير الذي أعطيت فيقول يارب لاتجعلني أشقى خلقك فلا يزال

يحشر الناس يوم القيامة فيقول الله من كان يعبد شيئا فليتبعه فمنهم من يتبع الشمس ومنهم من يتبع القمر ومنهم من يتبع الطواغيت وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله فيقول أنا ربكم فيقولون هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فاذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيدعوهم فيضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ولايتكلم يومئذ إلا الرسل وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم سلم وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان قالوا نعم قال فانها مثل شوك السعدان غير أنه لايعلم قدر عظمها إلا الله تعالى تخطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق بعمله ومنهم من ينجدل ثم ينجو حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السجود وحرم الله على النار أن تأكل أعضاء السجود فيخرجون من النار وقد امتحشوا فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ثم يفرغ من القضاء بين العباد ويبقى رجل بين الجنة والنار وهو آخر أهل النار دخولا الجنة مقبل بوجهه قبل النار فيقول يارب اصرف وجهي عن النار فقد قشبني ريحها وأحرقني ذكاؤها فيقول هل عسيت إن فعل ذلك بك أن تسأل غير ذلك فيقول لا وعزتك فيعطي الله ماشاء من عهد وميثاق فيصرف الله وجهه عن النار فاذا أقبل به على الجنة رأى نكهتها وبهجتها سكت ماشاء الله تعالى أن يسكت ثم يقول يارب قدمني عند باب الجنة فيقول الله أليس قد أعطيت المواثيق والعهود أن لاتسأل غير الذي كنت سألت فيقول يارب لا أكون أشقى خلقك فيقول فما عسيت أن أعطيت ذلك أن لاتسأل غيره فيقول وعزتك لا أسأل غير ذلك فيعطي ربه ماشاء من عهد وميثاق فيقدمه إلى باب الجنة فاذا بلغ بابها رأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور فيسكت ماشاء الله أن يسكت فيقول يارب أدخلني الجنة فيقول الله تبارك وتعالى ويحك ياابن آدم ما أغدرك أليس قد أعطيت العهد والميثاق أن لاتسأل غير الذي أعطيت فيقول يارب لا تجعلني أشقى خلقك فيضحك الله عز وجل منه ثم يؤذن له في دخول الجنة فيقول له تمن فيتمنى حتى إذا انقطعت أمنيته قال الله تمن كذا وكذا أقبل يذكره ربه حتى إذا انتهت به الأماني قال الله لك ذلك ومثله معه قال أبو سعيد الخدري لأبي هريرة « وعشرة أمثاله» قال أبوهريرة لم أحفظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قوله لك ذلك ومثله معه

يدعو حتى يضحك الله منه فاذا ضحك أذن له فى دخول الجنة فيقول تمن فيتمنى حتى إذا انقطع أمنيته قال الله تعالى تمن كذا وكذا أقبل يذكره ربه حتى إذا انتهت به الأمانى قال الله تعالى لك ذلك ومثله معه . قال أبو سعيد لأبى هريرة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «قال الله تعالى لك ذلك وعشرة أمثاله» قال أبو هريرة لم أحفظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قوله لك ذلك ومثله معه قال أبو سعيد إنى سمعته يقول ذلك لك وعشرة أمثاله ورواه محمد بن إسماعيل عن محمود بن غيلان أنا عبد الرزاق أنا معمر عن الزهرى عن عطاء بن يزيد عن أبى هريرة بمعناه فقال فيأتيهم الله عز وجل فى غير الصورة التى يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فاذا أتانا ربنا عرفناه فيأتيهم الله فى الصورة التى يعرفون فيقول

أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيتبعونه أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحى أنا أبو بكر أحمد بن الحسين الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسى أنا محمد بن حماد أنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يعذب أناس من أهل التوحيد فى النار حتى يكونوا حمما ثم تدركهم الرحمة قال فيخرجون فيطرحون على أبواب الجنة قال فيرش عليهم أهل الجنة الماء فيلبتون كما تنبت القثاء فى حميل السيل ثم يدخلون الجنة » أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الجورجاني أنا أبو القاسم على بن أحمد الخزاعى أنا أبو سعيد الهيثم بن كليب أنا أبو عيسى الترمذى أنا هناد بن السرى أنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة السلمانى عن عبدالله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ « إنى لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار رجل يخرج منها زحفا فيقال له انطلق فادخل الجنة قال فيذهب ليدخل فيجد الناس قد أخذوا المنازل فيرجع فيقول يارب قد أخذ الناس المنازل فيقال له أتذكر الزمان الذى كنت فيه فيقول نعم فيقال له تمن قال فيتمنى فيقال له فان لك الذى تمنيته وعشرة أضعاف الدنيا قال فيقول أتسخر بى وأنت الملك الجبار قال فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه » أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أنا أبو بكر أحمد بن حسين الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسى أنا محمد بن حماد أنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر عن أم مبشر عن حفصة أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنى لأرجو أن لايدخل النار إن شاء

قوله

قال أبو سعيد رضى الله تعالى عنه «سمعته يقول لك ذلك وعشرة أمثاله وفى رواية للبخارى قال فيأتيهم الله فى غير الصورة التى يعرفونها فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فاذا أتانا عرفناه فيأتيهم الله فى الصورة التى يعرفونها فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيتبعونه » قلت أما ما يتعلق بمعانى الحديث والكلام على الرؤية فسيأتى فى تفسير سورة ن والقيامة ونتكلم هاهنا على شرح غريب ألفاظه قوله مثل شوك السعدان هو نبت ذو شوك معقف وهو من أجود مراعى الإبل وقوله فمنهم من يوبق بعمله يقال أوبقته الذنوب أى أهلكته والمنجدل المرمى المصروع وقيل هو المقطع والمعنى أنه تقطعه كلاليب الصراط حتى يقع فى النار قوله وقد امتحشوا أى احترقوا وقيل هو أن تذهب النار الجلد وتبدى العظم قوله كما تنبت الحبة فى حميل السيل الحبة بكسر الحاء وهى البذورات جميعا وحميل السيل هو الزبد وما يلقيه الماء على شاطئه قوله قشبنى ريحها أى آذانى والقشب السم فكأنه قال قد سمنى ريحها قوله وأحرقنى ذكاؤها أى اشتعالها ولهبها قوله رأى زهرتها الزهرة الحسن والنضارة والبهجة (ق) عن ابن مسعود قال : «قال رسول الله ﷺ « إنى لأعلم آخر أهل النار خروجا منها وآخر أهل الجنة دخولا الجنة رجل يخرج من النار حبوا فيقول الله له اذهب فادخل الجنة فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى فيرجع فيقول يارب وجدتها ملأى فيقول الله تعالى له اذهب فادخل الجنة فان لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها أو أن لك مثل عشرة أمثال الدنيا فيقول أتسخر بى وأنت الملك فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه» فكان يقال ذلك أدنى أهل الجنة منزلة قوله حتى بدت نواجذه أى أضراسه وأنيابه وقيل هى آخر الأسنان عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يعذب ناس من أهل التوحيد فى النار حتى يكونوا حمما ثم تدركهم الرحمة قال فيخرجون فيطرحون على أبواب الجنة قال فيرش عليهم أهل الجنة من الماء فينبتون كما تنبت الحبة فى حمالة السيل» أخرجه الترمذى الحمم الفحم والحمالة كل ماجاء به السيل فدلت الآية الأولى على أن الكل دخلوا النار ودلت الآية الثانية والأحاديث أن الله تعالى أخرج منها المتقين وجميع الموحدين وترك فيها الظالمين وهم المشركون .

أحد شهد بدرا والحديبية قالت قلت يارسول الله أليس قد قال الله تعالى وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا قال فلم تسمعيه يقول ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا» (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) واضحات (قال الذين كفروا) يعني النضر بن الحرث وذويه من قريش (للذين آمنوا) يعني فقراء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وكانت فيهم قشافة وفي عيشهم خشونة وفي ثيابهم رثاثة وكان المشركون يرجلون شعورهم ويدهنون رءوسهم ويلبسون ثيابهم فقالوا للمؤمنين (أي الفريقين خير مقاما) منزلا ومسكنا وهو موضع الإقامة وقرأ ابن كثير مقاما بضم الميم أي إقامة (وأحسن نديا) أي مجلسا ومثله النادي فأجابهم الله تعالى فقال (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا) أي متاعا وأموالا وقال مقاتل لباسا وثيابا (ورئيا) قرأ أكثر القراء بالهمز أي منظرا من الرؤية وقرأ ابن عامر وأبو جعفر ونافع غير ورش ريا مشددا بغير همز وله تفسيران أحدهما هو الأول بطرح الهمز والثاني من الري الذي هو ضد العطش ومعناه الارتواء من النعمة فان المتنعم يظهر فيه ارتواء النعمة والفقير يظهر عليه ذبول الفقر (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا) هذا أمر بمعنى الخبر معناه يدعه في طغيانه ويمهله في كفره (حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب) وهو الأسر والقتل في الدنيا (وإما الساعة) يعني القيامة فيدخلون النار (فسيعلمون) عند ذلك (من هو شر مكانا) منزلا (وأضعف جندا) أقل ناصرا أهم أم المؤمنين لأنهم في النار والمؤمنون في الجنة وهذا رد عليهم في قوله اى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) أي إيمانا وإيقانا على يقينهم (والباقيات الصالحات) الأذكار والأعمال الصالحة التي تبقى لصاحبها (خير عند ربك ثوابا وخير مردا) عاقبة ومرجعا قوله (أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا) أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمر بن حفص أنا أبي أنا الأعمش عن مسلم عن مسروق حدثنا خباب قال كنت قينا فعملت للعاص بن وائل فاجتمع مالي عنده فأتيته أتقاضاه فقال لا والله لاأقضيك حتى تكفر بمحمد فقلت أما والله حتى تموت ثم تبعث قال وإني لميت ثم مبعوث قلت نعم قال إنه سيكون لي ثم مال وولد فأقضيك فأنزل الله عز وجل «أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا» (أطلع الغيب) قال ابن عباس أنظر في اللوح المحفوظ وقال مجاهد أعلم الغيب حتى يعلم في الجنة هو أم لا (أم اتخذ عند الرحمن عهدا) يعني قال لا إله إلا الله وقال قتادة يعني أعمل عملا صالحا قدمه

قوله تعالى (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) أي دلائل واضحات (قال الذين كفروا) يعني النضر ابن الحرث ومن دونه من كفار قريش (للذين آمنوا) يعني فقراء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت فيهم قشافة وفي عيشهم خشونة وفي ثيابهم رثاثة وكان المشركون يرجلون شعورهم ويدهنون رءوسهم ويلبسون أفخر ثيابهم (أي الفريقين خير مقاما) أي منزلا ومسكنا وهو موضع الإقامة (وأحسن نديا) أي مجلسا فأجابهم الله تعالى بقوله (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا) أي متاعا وأموالا وقيل أحسن ثيابا ولباسا (ورئيا) أي منظرا من الرؤية (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا) هذا أمر بمعنى الخبر معناه يدعه في طغيانه ويمهله في كفره (حتى إذا رأوا مايوعدون إما العذاب) أي الأسر والقتل في الدنيا (وإما الساعة) يعني القيامة فيدخلون النار (فسيعلمون) أي عند ذلك (من هو شر مكانا) أي منزلا (وأضعف جندا) أي أقل ناصرا والمعنى فسيعلمون أهم خير وهم في النار أم المؤمنون وهم في الجنة وهذا رد عليهم في قولهم أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا. قوله تعالى (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) أي إيمانا وإيقانا على يقينهم (والباقيات الصالحات) أي الأذكار والأعمال الصالحة التي تبقى لصاحبها (خير عند ربك ثوابا وخير مردا) أي عاقبة ومرجعا. قوله تعالى (أفرأيت الذي كفر بآياتنا) الآية (ق) عن خباب بن الأرت قال كنت رجلا قينا في الجاهلية وكان لي على العاص بن وائل السهمي دين فأتيته أتقاضاه وفي رواية فعملت للعاص بن وائل السهمي سيفا فجئته أتقاضاه فقال لاأعطيك حتى تكفر بمحمد فقلت لاأكفر حتى يميتك الله ثم تبعث قال وإني لميت ثم مبعوث قلت بلى قال دعني حتى أموت وأبعث فسأوتى مالا وولدا فأقضيك فنزلت أفرأيت الذي كفر بآياتنا (وقال لأوتين مالا وولدا) إلى قوله فردا القين الحداد فرد الله عليه بقوله (أطلع الغيب) قال ابن عباس معناه أنظر في اللوح المحفوظ وقيل أعلم علم الغيب حتى يعلم أهو في الجنة أم لا (أم اتخذ عند الرحمن عهدا) يعني قال لا إله إلا الله محمد رسول الله وقيل يعني عمل عملا صالحا قدمه وقيل عهد إليه أنه يدخله الجنة

وقال الكلبي آعهد إليه أن يدخل الجنة (كلا) رد عليه يعني لم يفعل ذلك (سنكتب) سنحفظ عليه (مايقول) فنجازيه به فى الآخرة وقيل نأمر الملائكة حتى يكتبوا مايقول (ونمد له من العذاب مدا) أى نزيده عذابا فوق العذاب وقيل نطيل مدة عذابه (ونرثه مايقول) أى ماعنده من المال والولد باهلاكنا إياه وإبطال ملكه وقوله مايقول لأنه زعم أن له مالا وولدا فى الآخرة أى لانعطيه ونعطى غيره فيكون الإرث راجعا إلى ماتحت القول لا إلى نفس القول وقيل معنى قوله ونرثه ما يقول أى نحفظ مايقول حتى نجازيه به (ويأتينا فردا) يوم القيامة بلا مال ولا ولد (واتخذوا من دون الله آلهة) يعنى مشركى قريش اتخذوا الأصنام آلهة يعبدونها (٢٦٠) (ليكونوا لهم عزا) أى منعة يعنى يكونون لهم شفعاء يمنعونهم من العذاب (كلا) أي ليس الأمر كما زعموا (سيكفرون بعبادتهم) أى يجحد الأصنام والآلهة التى كانوا يعبدونها عبادة المشركين ويتبرءون منهم كما أخبر الله تعالى تبرأنا إليك ماكانوا إيانا يعبدون (ويكونون عليهم ضدا) أى أعداء لهم وكانوا أولياءهم فى الدنيا وقيل أعوانا عليهم يكذبونهم ويلعنونهم (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين) أى سلطناهم عليهم وذلك حين قال لإبليس «واستفزز من استطعت منهم بصوتك» الآية (تؤزهم أزا) تزعجهم إزعاجا من الطاعة إلى المعصية والأز والهز التحريك أى تحركهم وتحثهم على المعاصى (فلا تعجل عليهم) أى لاتطلب عقوبتهم (إنما نعد لهم عدا) قال الكلبي يعنى الليالى والأيام والشهور والأعوام وقيل الأنفاس التى يتنفسون بها فى الدنيا إلى الأجل الذى أجل لعذابهم قوله (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) أى اذكر لهم يامحمد اليوم الذى يجتمع فيه من اتقى الله فى الدنيا بطاعته إلى الرحمن أى إلى جنته وفدا أى جماعات جمع وافد مثل راكب وركب وصاحب وصحب وقال ابن عباس ركبانا وقال أبو هريرة على الإبل وقال على بن أبى طالب ما يحشرون والله على أرجلهم ولكن على نوق رحالها الذهب ونجائب سرجها يواقيت إن هموا بها سارت وإن هموا بها طارت (ونسوق المجرمين) الكافرين المكذبين (إلى جهنم وردا) أى مشاة وقيل عطاشا قد تقطعت أعناقهم من العطش

(كلا) رد عليه يعنى لم يفعل ذلك (سنكتب) سنحفظ عليه مايقول فنجازيه به فى الآخرة وقيل يأمر الملائكة حتى يكتبوا (مايقول ونمد له من العذاب مدا) أى نزيده عذابا فوق العذاب وقيل نطيل مدة عذابه (ونرثه مايقول) معناه أى ماعنده من المال والولد باهلاكنا إياه وإبطال ملكه وقيل نزول عنه ماعنده من مال وولد فيعود الإرث إلى من خلفه وإذا سلب ذلك بقى فردا فذلك قوله (ويأتينا) يعنى يوم القيامة (فردا) بلا مال ولا ولد فلا يصح أن يبعث فى الآخرة بمال وولد. قوله تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة) يعنى مشركى قريش اتخذوا الأصنام آلهة يعبدونها (ليكونوا لهم عزا) أى منعة يعنى يكونوا شفعاء يمنعونهم من العذاب (كلا) أى ليس الأمر كما زعموا (سيكفرون بعبادتهم) يعنى تجحد الأصنام والآلهة التى كانوا يعبدونها عبادة المشركين ويتبرءون منهم (ويكونون عليهم ضدا) أى أعوانا عليهم يكذبونهم ويلعنونهم وقيل أعداء لهم وكانوا أولياءهم فى الدنيا. قوله عز وجل (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين) أى سلطناهم عليهم (تؤزهم أزا) أى تزعجهم إزعاجا من الطاعة إلى المعصية والمعنى تحثهم وتحرضهم على المعاصى تحريضا شديدا وفى الآية دليل على أن الله تعالى مدبر لجميع الكائنات (فلا تعجل عليهم) أى لاتعجل بطلب عقوبتهم (إنما نعد لهم عدا) يعنى الليالى والأيام والشهور والأعوام وقيل الأنفاس التى يتنفسونها فى الدنيا إلى الأجل الذى أجل لعذابهم. قوله تعالى (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) أى اذكر لهم يامحمد اليوم الذى يجتمع فيه من اتقى الله فى الدنيا بطاعته إلى جنته وفدا أى جماعات قال ابن عباس ركبانا قال أبو هريرة على الإبل وقال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه مايحشرون والله على أرجلهم ولكن على نوق رحالها من الذهب ونجائب سروجها يواقيت إن هموا بها سارت وإن هموا بها طارت (ونسوق المجرمين) أى الكافرين (إلى جهنم وردا) أى مشاة عطاشا قد تقطعت أعناقهم من العطش والورد جماعة يردون الماء ولا يرد أحد إلا بعد العطش وقيل يساقون إلى النار باهانة واستخفاف كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء (ق) عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق راغبين وراهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير وأربعة على بعير وعشرة على بعير وتحشر معهم النار تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمسى

والورد جماعة يردون الماء ولا يرد أحد الماء إلا بعد عطش (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) يعني لا إله إلا الله وقيل معناه لايشفع الشافعون لمن اتخذ عند الرحمن عهدا يعني المؤمنين كقوله لايشفعون إلا لمن ارتضى من رسول ، وقيل لا يشفع إلا من شهد أن لا إله إلا الله أي لايشفع إلا المؤمن (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) يعني اليهود والنصارى ومن زعم أن الملائكة بنات الله وقرأ حمزة والكسائي ولدا بضم الواو وسكون اللام هاهنا . وفي الزخرف وسورة نوح ووافق ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب في سورة نوح والباقون بفتح الواو هاهنا وهما لغتان مثل العرب والعرب والعجم والعجم (لقد جئتم شيئا إدا) قال ابن عباس منكرا وقال قتادة ومجاهد عظيما وقال مقاتل لقد قلتم قولا عظيما والإد في كلام العرب أعظم الدواهي (تكاد السموات) قرأ نافع والكسائي يكاد بالياء هاهنا وفي حمعسق لتقدم الفعل وقرأ الباقون بالتاء لتأنيث السموات (يتفطرن منه) هاهنا وفي حمعسق بالنون من الانفطار أبو عمرو وأبو بكر ويعقوب ووافق ابن عامر وحمزة هاهنا لقوله تعالى «إذا السماء انفطرت» والسماء منفطر وقرأ الباقون بالتاء من التفطر ومعناهما واحد يقال انفطر الشيء وتفطر أي تشقق (وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا) أي تنكسر كسرا وقيل تنشق الأرض أي تنخسف بهم والانفطار في السماء أن تسقط عليهم وتخر الجبال هدا أي تنطبق عليهم (أن دعوا) أي من أجل أن جعلوا (للرحمن ولدا) قال ابن عباس وكعب فزعت السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين وكادت أن تزول وغضبت الملائكة واستعرت جهنم حين قالوا لله ولدا ثم نفى الله عن نفسه الولد فقال (وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا) أي ما يليق به اتخاذ الولد ولا يوصف به (إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن) أي إلا آتيه يوم القيامة (عبدا) ذليلا خاضعا . يعني الخلق كلهم عبيده (لقد أحصاهم وعدهم عدا) أي عد أنفاسهم وأيامهم وآثارهم فلا يخفى عليه شيء (وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) وحيدا ليس معه من الدنيا شيء (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) أي محبة قال مجاهد

وتمحى معهم حيث أمسوا . قوله تقيل معهم حيث قالوا من القيلولة وعنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف صنفا مشاة وصنفا ركبانا وصنفا على وجوههم قيل يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم قال إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك» أخرجه الترمذي . قوله عز وجل (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) يعني لا إله إلا الله وقيل لا يشفع الشافعون إلا للمؤمنين وقيل لا يشفع إلا لمن قال لا إله إلا الله أي لا يشفع إلا المؤمنين (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) يعني اليهود والنصارى ومن زعم أن الملائكة بنات الله من العرب (لقد جئتم شيئا إدا) قال ابن عباس منكرا وقيل معناه لقد قلتم قولا عظيما (تكاد السموات يتفطرن منه) من الانفطار وهو الشق (وتنشق الأرض) أي تخسف بهم (وتخر الجبال هدا) أي تسقط وتنطبق عليهم (أن دعوا) أي من أجل أن جعلوا (للرحمن ولدا) فان قلت ما معنى انفطار السموات وانشقاق الأرض وخرور الجبال ومن أين تؤثر هذه الكلمة في هذه الجمادات . قلت فيه وجهان أحدهما أن الله تعالى يقول كدت أن أفعل هذا بالسموات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضبا مني على من تفوه بها لولا حلمي وإني لا أعجل بالعقوبة الثاني أن يكون استعظاما للكلمة وتهويلا من فظاعتها وتصويرا لأثرها في الدين وهدمها لأركانه وقواعده قال ابن عباس فزعت السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين وكادت أن تزول وغضبت الملائكة واستعرت جهنم حين قالوا اتخذ الله ولدا ثم نزه الله نفسه عن اتخاذ الولد ونفاه عنه فقال تعالى (وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا) أي ما يليق به اتخاذ الولد ولا يوصف به لأن الولد لابد أن يكون شبيها بالوالد ولا شبيه لله تعالى ولأن اتخاذ الولد إنما يكون لأغراض لا تصح في الله تعالى من سرور به واستعانة وذكر جميل بعده وكل ذلك لا يليق بالله تعالى (إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا) أي آتيه يوم القيامة عبدا ذليلا خاضعا والمعنى أن الخلائق كلهم عبيده (لقد أحصاهم وعدهم عدا) أي عد أنفاسهم وأيامهم وآثارهم فلا يخفى عليه شيء من أمورهم وكلهم تحت تدبيره وقهره وقدرته (وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) أي وحيدا ليس معه من أحوال الدنيا شيء . قوله عز وجل (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) أي محبة قيل يحبهم الله تعالى ويحببهم إلى عباده المؤمنين (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله

يحبهم الله ويحببهم إلى عباده المؤمنين أنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الداودي أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى ابن الصلت أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «إذا أحب الله العبد قال لجبرائيل قد أحببت فلانا فأحبه فيحبه جبرائيل ثم ينادى فى أهل السماء إن الله عز وجل قد أحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض وإذا أبغض العبد قال مالك لا أحسبه إلا قال فى البغض مثل ذلك. قال هرم بن حيان ما أقبل عبد بقلبه إلى الله عز وجل إلا أقبل الله بقلوب أهل الإيمان إليه حتى يرزقه مودتهم» (فإنما يسرناه بلسانك) أي سهلنا القرآن بلسانك يا محمد (لتبشر به المتقين) يعنى المؤمنين (وتنذر به قوما لدا) شدادا فى الخصومة جمع الألد وقال الحسن صما عن الحق قال مجاهد الألد الظالم الذي لا يستقيم قال أبو عبيدة الألد الذي لا يقبل الحق ويدعى الباطل (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس) هل ترى وقيل هل تجد (منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) أى صوتا والركز الصوت الخفى قال الحسن أى بادوا جميعا فلم يبق منهم عين ولا أثر.

(سورة طه)

مكية وهى مائة وأربعة وقيل خمس وثلاثون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أبو منصور السمعانى أنا أبو جعفر الريانى انا حميد بن زنجويه أنا ابن أبى أويس حدثنى أبى عن أبى بكر الهزلى عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «أعطيت السورة التى ذكرت فيها البقرة من الذكر الأول وأعطيت طه والطواسين من ألواح موسى وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم السورة التى ذكرت فيها البقرة من كنز تحت العرش وأعطيت المفصل نافلة» (طه) قرأ أبو عمرو بفتح الطاء وكسر الهاء وبكسرهما حمزة والكسائى وأبو بكر والباقون بفتحهما قيل هو قسم وقيل اسم من أسماء الله تعالى وقال مجاهد والحسن وعطاء والضحاك معناه يارجل

عليه وسلم أنه قال «إذا أحب الله سبحانه وتعالى عبدا دعا جبريل عليه السلام إن الله تعالى يحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل فينادى جبريل فى أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض» وفى رواية لمسلم قال: قال رسول ﷺ «إن الله سبحانه وتعالى إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال إنى أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى فى السماء فيقول إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض وإذا أبغض الله عبدا دعا جبريل عليه السلام فيقول إنى أبغض فلانا فأبغضه فيبغضه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه ثم يوضع له البغضاء فى الأرض» قال هرم بن حيان ما أقبل عبد بقلبه إلى الله عز وجل إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم. وقال كعب مكتوب فى التوراة لا محبة لأحد فى الأرض حتى يكون ابتداؤها من الله عز وجل ينزلها على أهل السماء ثم على أهل الأرض وتصديق ذلك فى القرآن «سيجعل لهم الرحمن ودا». قوله تعالى (فإنما يسرناه) أى سهلنا القرآن (بلسانك) يا محمد (لتبشر به المتقين) يعنى المؤمنين (وتنذر به) أى القرآن (قوما لدا) أى شدادا فى الخصومة. وقيل صما عن الحق وقيل الألد الظالم الذى لا يستقيم ولا يقبل الحق ويدعى الباطل (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) ختم الله تعالى هذه السورة بموعظة بليغة لأنهم إذا علموا وأيقنوا أنه لابد من زوال الدنيا بالموت خافوا ذلك وخافوا سوء العاقبة فى الآيه فكانوا إلى الحذر من المعاصى أقرب. ثم أكد ذلك فقال تعالى (هل تحس منهم) أى هل ترى وقيل هل تجد منهم أى من القرون (من أحد أو تسمع لهم ركزا) أى صوتا خفيا قال الحسن بادوا جميعا لم يبق منهم عين ولا أثر والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

(تفسير سورة طه)

وهى مكية وهى مائة وأربعة وقيل خمس وثلاثون آية وألف وستمائة وإحدى وأربعون كلمة وخمسة آلاف ومائتان واثنان وأربعون حرفا. عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله وسلم قال «أعطيت السورة التى فيها البقرة من الذكر الأول وأعطيت طه والطواسين من ألواح موسى وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش وأعطيت المفصل نافلة» النافلة الزيادة وفقنا الله لفهم ذلك.

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (طه) قيل هو قسم أقسم الله بطوله وهدايته وقيل هو من أسماء الله فالطاء افتتاح اسمه طاهر والهاء افتتاح اسمه هاد. وقيل معناه يارجل والمراد به النبى صلى الله عليه وسلم

وقال قتادة هو يارجل بالسريانية وقال الكلبي هو بالإنسان بلغة عكل وقال مقاتل معناه طأ الأرض بقدميك يريد في التهجد وقال محمد بن كعب القرظي هو قسم أقسم الله عز وجل بطوله وهدايته قال سعيد ابن جبير الطاء افتتاح اسمه طاهر والهاء افتتاح اسمه هاد قال الكلبي لما نزل على رسول الله ﷺ الوحي بمكة اجتهد في العبادة حتى كان يراوح بين قدميه في الصلاة لطول قيامه وكان يصلي الليل كله فأنزل الله هذه الآية وأمره أن يخفف على نفسه فقال (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) وقيل لما رأى المشركون اجتهاده في العبادة قالوا ما أنزل عليك القرآن يامحمد إلا لشقائك فنزلت ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى أي لتعنى وتتعب وأصل الشقاء في اللغة العناء (إلا تذكرة لمن يخشى) أي لكن أنزلناه عظة لمن يخشى وقيل تقديره ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ما أنزلناه إلا تذكرة لمن يخشى (تنزيلا) بدل من **(٢٦٣)** قوله تذكرة (ممن خلق الأرض) أي من الله الذي خلق الأرض (والسموات العلى) يعني العالية الرفيعة وهي جمع العليا كقولهم كبرى وكبر وصغرى وصغر (الرحمن على العرش استوى له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما) يعني الهواء (وما تحت الثرى) والثرى هو التراب الندى قال الضحاك يعني ما وارى الثرى من شيء وقال ابن عباس إن الأرضين على ظهر النون والنون على بحر ورأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش والبحر على صخرة خضراء خضرة السماء منها وهي الصخرة التي ذكر الله في قصة لقمان «فتكن في صخرة» والصخرة على قرن ثور والثور على الثرى وما تحت الثرى لا يعلمه إلا الله وذلك الثور فاتح فاه فاذا جعل الله عز وجل البحار بحرا واحدا سالت في جوف ذلك الثور فاذا وقعت في جوفه يبست (وإن تجهر بالقول) أي تعلن به (فانه يعلم السر وأخفى) قال الحسن السر ما أسره الرجل إلى غيره وأخفى من ذلك ما أسر من نفسه وعن ابن عباس وسعيد بن جبير السر ما تسر في نفسك وأخفى من السر ما يلقيه الله عز وجل في قلبك من بعد ولا تعلم أنك ستحدث به نفسك لأنك تعلم ما تسر به اليوم وما تعلم ما تسر به غدا والله يعلم ما أسررت اليوم وما تسر به غدا قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس السر ما أسر ابن آدم في نفسه وأخفى ما خفي عليه مما هو فاعله قبل أن يعمله وقال مجاهد السر العمل الذي تسرون من الناس وأخفى الوسوسة «وقيل السر هو العزيمة وأخفى ما يخطر على القلب ولم يعزم عليه وقال زيد بن أسلم يعلم السر وأخفى أي يعلم أسرار العباد وأخفى سره من

وسلم وكذلك يالإنسان وقيل هو بالسريانية وقيل بالقبطية فعلى هذا يكون قد وافقت لغة العرب هذه اللغات في هذه الكلمة وقيل هو بالإنسان بلغة عك وعك قبيلة من قبائل العرب وقيل معناه طا الأرض بقدميك يريد به في التهجد وذلك لما نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة اجتهد في العبادة حتى كان يراوح بين قدميه في الصلاة لطول قيامه وكان يصلي الليل كله فأنزل الله تعالى هذه الآية وأمره أن يخفف على نفسه فقال تعالى «طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى» وقيل لما رأى المشركون اجتهاده في العبادة قالوا ما أنزل عليك القرآن يامحمد إلا لشقائك فنزلت (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) أي لتعنى وتتعب (إلا تذكرة لمن يخشى) أي لكن أنزلناه عظة لمن يخشى وإنما خص من يخشى بالتذكرة لأنهم هم المنتفعون بها (تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى) أي من الله الذي خلق الأرض والسموات العلية الرفيعة التي لا يقدر على خلقها في عظمها وعلوها إلا الله تعالى (الرحمن على العرش استوى) تقدم الكلام عليه في سورة الأعراف مستوفى (له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما) يعني الهواء (وما تحت الثرى) أي إنه مالك لجميع ما في الأربعة الأقسام والثرى هو التراب الندي وقيل معناه ما وراء الثرى من شيء وقال ابن عباس إن الأرضين على ظهور النون والنون على بحر ورأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش والبحر على صخرة خضراء خضرة السماء منها وهي الصخرة التي ذكرها الله تعالى في قصة لقمان والصخرة على قرن ثور والثور على الثرى ولا يعلم ما تحت ذلك الثرى إلا الله تعالى وذلك الثور فاتح فاه فاذا جعل الله البحار بحرا واحدا سالت في جوف ذلك الثور فاذا وقعت في جوفه يبست. قوله تعالى (وإن تجهر بالقول) أي تعلن به (فانه يعلم السر وأخفى) قال ابن عباس السر ما تسر في نفسك وأخفى من السر ما يلقيه الله في قلبك من بعد ولا تعلم أنك ستحدث به نفسك لأنك لا تعلم ما تسر اليوم ولا تعلم ما تسر غدا والله يعلم ما أسررت به اليوم وما تسر به غدا وعنه أن السر ما أسر به ابن آدم في نفسه وأخفى ما هو فاعله قبل أن يعلمه وقيل السر ما أسره الرجل إلى غيره وأخفى من ذلك ما أسره في نفسه وقيل السر هو العمل الذي يسر من الناس وأخفى هو الوسوسة وقيل السر أن يعلم الله

عباده فلا يعلمه أحد ثم وحد نفسه فقال (الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى وهل أتاك حديث موسى) أي قد أتاك استفهام بمعنى التقرير (إذ رأى نارا) وذلك أن موسى استأذن شعيبا فى الرجوع من مدين إلى مصر لزيارة والدته وأخته فأذن له فخرج بأهله وماله وكانت أيام الشتاء وأخذ على غير الطريق مخافة من ملوك الشام وامرأته فى سقمها لا تدري أليلا تضع أم نهارا فسار فى البرية غير عارف بطرقها فألجأه المسير إلى جانب الطور الغربي الأيمن فى ليلة مظلمة مثلجة شديدة البرد وأخذ امرأته الطلق فقدح زنده (٢٦٤) فلم يور وقيل إن موسى كان رجلا غيورا وكان يصحب الرفقة بالليل ويفارقهم بالنهار لئلا ترى امرأته فأخطأ مرة الطريق فى ليلة مظلمة شاتية لما أراد الله عز وجل من كرامته فجعل يقدح الزند فلا يوري فأبصر نارا من بعيد عن يسار الطريق من جانب الطور (فقال لأهله امكثوا) أقيموا قرأ حمزة بضم الهاء هاهنا وفى القصص (إني آنست) أي أبصرت (نارا لعلي آتيكم منها بقبس) قطعة من نار والقبس قطعة من نار يأخذها فى طرف عود من معظم النار (أو أجد على النار هدى) أي أجد عند النار من يدلني على الطريق (فلما أتاها) رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها أطافت بها نار بيضاء تتقد كأضوأ ما يكون فلا ضوء النار يغير خضرة الشجرة ولا خضرة الشجرة تغير ضوء النار قال ابن مسعود كانت الشجرة سمرة خضراء وقال قتادة ومقاتل والكلبي كانت من العوسج وقال وهب كانت من العليق. وقيل كانت شجرة العناب وروي ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما وقال أهل التفسير لم يكن الذي رآه موسى نارا بل كان نورا وذكر بلفظ النار لأن موسى حسبه نارا وقال أكثر المفسرين أنه نور الرب عز وجل وهو قول ابن عباس وعكرمة وغيرهما. وقال سعيد ابن جبير هى النار بعينها وهى إحدى حجب الله تعالى يدل عليه ما روينا عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم

نودي

تعالى أسرار العباد وأخفى هو سره من عباده فلا يعلم أحد سره وقيل مقصود الآية زجر المكلف عن القبائح ظاهرة كانت أو باطنة والترغيب فى الطاعات ظاهرة كانت أو باطنة فعلى هذا الوجه ينبغي أن يحمل السر والإخفاء على ما فيه ثواب أو عقاب فالسر هو الذى يسره المرء فى نفسه من الأمور التى عزم عليها والإخفاء هو الذى لم يبلغ حد العزيمة ثم وحد نفسه فقال تعالى (الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى) تأنيث الأحسن والذى فضلت به أسماؤه فى الحسن دون سائر الأسماء دلالتها على معنى التقديس والتحميد والتعظيم والربوبية والأفعال التى هى النهاية فى الحسن. قوله عز وجل (وهل أتاك حديث موسى) أى وقد أتاك لما قدم ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قفاه بقصة موسى عليه الصلاة والسلام ليتأسى به فى تحمل أعباء النبوة وتكاليف الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد حتى ينال عند الله الفوز والمقام المحمود (إذ رأى نارا) وذلك أن موسى استأذن شعيبا فى الرجوع من مدين إلى مصر ليزور والدته وأخاه فأذن له فخرج بأهله وماله وكانت أيام الشتاء فأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام وامرأته حامل فى شهرها لا يدرى أليلا تضع أم نهارا فسار فى البرية غير عارف بطرقها فألجأه المسير إلى جانب الطور الغربى الأيمن وذلك فى ليلة مظلمة مثلجة شاتية شديدة البرد لما أراد الله من كرامته فأخذ امرأته الطلق فأخذ زنده فجعل يقدح فلا يورى فأبصر نارا من بعيد عن يسار الطريق من جانب الطور (فقال لأهله امكثوا) أي أقيموا (إنى آنست نارا) أى أبصرت نارا (لعلى آتيكم منها بقبس) أى شعلة من نار فى طرف عود (أو أجد على النار هدى) أى أجد عند النار من يدلنى على الطريق (فلما أتاها) أى أتى النار رأى شجرة خضراء من أعلاها إلى أسفلها أطافت بها نار بيضاء تتقد كأضوء ما يكون فلا ضوء النار يغير خضرة الشجرة ولا خضرة الشجرة تغير ضوء النار قيل كانت الشجرة ثمرة خضراء وقيل كانت من العوسج وقيل كانت من العليق وقيل كانت شجرة من العناب روى ذلك عن ابن عباس وقال أهل التفسير لم يكن الذى رآه موسى نارا بل كان نورا ذكر بلفظ النار لأن موسى عليه الصلاة والسلام حسبه نارا قال ابن عباس هو من نور الرب سبحانه وتعالى وقيل هى النار بعينها وهى إحدى حجب الرب تبارك وتعالى يدل عليه ما روى عن أبى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «حجابه النار لو كشفها لأهلكت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» أخرجه مسلم قيل إن موسى أخذ شيئا من الحشيش اليابس وقصد الشجرة فكان كلما دنا نأت عنه وإذا نأى دنت منه فوقف متحيرا وسمع تسبيح الملائكة وألقيت عليه السكينة فعند ذلك

أنه قال « حجابه النار لو كشفها الله لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » وفي القصة أن موسى أخذ شيئا من الحشيش اليابس وقصد الشجرة فكان كلما دنا نأت منه النار وإذا نأي دنت فوقف متحيرا وسمع تسبيح الملائكة وألقيت عليه السكينة ﴿نودي ياموسى إني أنا ربك﴾ قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو أني بفتح الألف على معنى نودي بأني وقرأ الآخرون بكسر الألف أي نودي فقيل إني أنا ربك قال وهب نودي من الشجرة فقيل ياموسى فأجاب سريعا لايدري من دعاه فقال إني أسمع صوتك ولا أري مكانك فأين أنت قال أنا فوقك ومعك وأمامك وخلفك وأقرب إليك من نفسك فعلم أن ذلك لاينبغي إلا لله فأيقن به قوله عز وجل ﴿فاخلع نعليك﴾ (٣٦٥) وكان السبب فيه ماروي عن ابن مسعود مرفوعا في قوله فاخلع نعليك قال كانتا من جلد حمار ميت ويروي غير مدبوغ وقال عكرمة ومجاهد أمر بخلع النعلين ليباشر بقدمه تراب الأرض المقدسة فتناله بركتها لأنها قدست مرتين فخلعهما موسى وألقاهما من وراء الوادي ﴿إنك بالواد المقدس﴾ أي المطهر ﴿طوى﴾ وطوي اسم الوادي قرأ أهل الكوفة والشام طوي بالتنوين هاهنا وفي سورة النازعات وقرأ الآخرون بلا تنوين لأنه معدول به عن طاو فلما كان معدولا عن وجهه كان مصروفا عن إعرابه مثل عمر وزفر وقال الضحاك طوي واد مستدير عميق مثل الطوي في استدارته ﴿وأنا اخترتك﴾ اصطفيتك برسالاتي قرأ حمزة وأنا مشددة النون اخترناك على التعظيم ﴿فاستمع لما يوحى﴾ إليك ﴿إنني أنا الله لاإله إلا أنا فاعبدني﴾ ولا تعبد غيري ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾ قال مجاهد أقم الصلاة لتذكرني بها وقال مقاتل إذا تركت صلاة ثم ذكرتها فأقمها أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو عمر بكر ابن محمد المزني أنا أبو بكر بن محمد بن عبد الله الحفيد أنا الحسين بن الفضل البجلي أنا عفان أنا همام أنا قتادة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك ثم قال سمعته يقول بعد ذلك أقم الصلاة لذكري » ﴿إن الساعة آتية أكاد أخفيها﴾ قيل معناه أن الساعة آتية أخفيها وأكاد صلة وأكثر المفسرين قالوا معناه أكاد أخفيها من نفسي وكذلك هو في مصحف

﴿نودي ياموسى إني أنا ربك﴾ قال وهب نودي من الشجرة فقيل ياموسى فأجاب سريعا وما يدري من دعاه فقال إني أسمع صوتك ولا أرى مكانك فأين أنت فقال أنا فوقك ومعك وأمامك وخلفك وأقرب إليك منك فعلم أن ذلك لاينبغي إلا لله تعالى فأيقن به وقيل إنه سمعه بكل أجزائه حتى إن كل جارحة منه كانت أذنا وقوله ﴿فاخلع نعليك﴾ كان السبب فيه ماروى عن ابن مسعود مرفوعا في قوله فاخلع نعليك قال كانتا من جلد حمار ميت ويروى غير مدبوغ وإنما أمر بخلعهما صيانة للوادي المقدس وقيل أمر بخلعهما ليباشر بقدميه تراب الأرض المقدسة لتناله بركتها فانها قدست مرتين فخلعهما موسى فألقاهما من وراء الوادي ﴿إنك بالواد المقدس﴾ أي المطهر ﴿طوى﴾ اسم للوادي الذي حصل فيه وقيل طوى واد مستدير عميق مثل المطوى في استدارته ﴿وأنا اخترتك﴾ اصطفيتك برسالاتي وبكلامي ﴿فاستمع لما يوحى﴾ فيه نهاية الهيبة والجلال له فكأنه قال له لقد جاءك أمر عظيم فتأهب له ﴿إنني أنا الله لاإله إلا أنا فاعبدني﴾ ولاتعبد غيري ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾ أي لتذكرني فيها وقيل الذكرى خاصة لاتشوبه بذكر غيري وقيل لإخلاص ذكري وطلب وجهي ولاترائي فيها ولاتقصد بها غرضا آخر وقيل معناه إذا تركت صلاة ثم ذكرتها فأقمها (ق) عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من نسي صلاة فليصل إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك » وتلا قتادة « وأقم الصلاة لذكري » وفي رواية إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها فان الله عز وجل يقول « وأقم الصلاة لذكري » ﴿إن الساعة آتية أكاد أخفيها﴾ قال أكثر المفسرين معناه أكاد أخفيها من نفسي فكيف يعلمها مخلوق وكيف أظهرها لكم ذكر ذلك على عادة العرب إذا بالغوا في الكتمان للشيء يقولون كتمت سرك في نفسي أي أخفيته غاية الإخفاء والله تعالى لايخفى عليه شيء والمعنى في إخفائها التهويل والتخويف لأنهم إذا لم يعلموا متى تقوم الساعة كانوا على حذر منها كل وقت وكذلك المعنى في إخفاء وقت الموت على الإنسان لأنه إذا عرف وقت موته وانقضاء أجله اشتغل بالمعاصي إلى أن يقرب من ذلك الوقت فيتوب ويصلح العمل فيتخلص من عقاب المعاصي بتعريف وقت الموت وأنه إذا لم يعرف وقت موته لايزال على قدم الخوف والوجل فيترك المعاصي أو يتوب منها في كل وقت مخافة معاجلة

أبي بن كعب وفي مصحف عبد الله بن مسعود أكاد أخفيها من نفسي فكيف يعلمها مخلوق وفي بعض القراءة فكيف أظهرها لكم وذكر ذلك على عادة العرب إذا بالغوا في كتمان الشيء يقولون كتمت سرك من نفسي أي أخفيته غاية الإخفاء والله تعالى لا يخفى عليه شيء وقال الأخفش أكاد أي أريد ومعنى الآية أن الساعة آتية أريد أخفيها والمعنى في إخفائها التهويل والتخويف لأنهم إذا لم يعلموا متى تقوم الساعة كانوا على حذر منها كل وقت وقرأ الحسن بفتح الألف أي أظهرها يقال خفيت الشيء إذا أظهرته وأخفيته إذا سترته قوله تعالى (لتجزي كل نفس بما تسعى) أي بما تعمل من خير وشر (فلا يصدنك عنها) فلا يصرفنك عن الإيمان بالساعة (من لا يؤمن بها واتبع هواه) مراده خالف أمر الله (فتردى) أي فتهلك قوله عز وجل (وما تلك بيمينك يا موسى) سؤال تقرير والحكمة في هذا السؤال تنبيهه وتوقيفه على أنها عصا حتى إذا قلبها حية علم أنه معجزة عظيمة وهذا على عادة العرب يقول الرجل لغيره هل تعرف هذا وهو لا يشك أنه يعرفه ويريد أن ينضم إقراره بلسانه إلى معرفته بقلبه (قال هي عصاي) قيل وكانت لها شعبتان وفي أسفلها سنان ولها محجن قال مقاتل اسمها نبعة (أتوكأ عليها) أعتمد عليها إذا مشيت وإذا عييت وعند الوثبة (وأهش بها على غنمي) أضرب بها الشجرة اليابسة ليسقط ورقها فترعاه الغنم وقرأ عكرمة وأهس بالسين غير المعجمة أي أزجر بها الغنم والهس زجر الغنم (ولي فيها مآرب أخرى) حاجات ومنافع أخرى جمع مأربة بفتح الراء ولم يقل آخر لرءوس الآي وأراد بالمآرب ما يستعمل فيه العصا في السفر فكان يحمل بها الزاد ويشد بها الحبل فيستقي الماء من البئر ويقتل بها الحيات ويحارب بها السباع ويستظل بها إذا قعد وغير ذلك وروى عن ابن عباس أن موسى كان يحمل عليها زاده وسقاءه فجعلت تماشيه وتحادثه وكان يضرب بها الأرض فيخرج ما يأكل يومه ويركزها فيخرج الماء فاذا رفعها ذهب الماء وإذا اشتهى ثمرة ركزها فتغصنت غصنا كالشجرة وأورقت وأثمرت وإذا أراد الاستقاء من البئر أدلاها فطالت على طول البئر وصارت شعبتاها كالدلو حتى يستقي وكانت تضيء بالليل بمنزلة السراج وإذا ظهر له عدو كانت تحارب وتناضل عنه (قال) الله تعالى (ألقها يا موسى) أنبذها قال وهب ظن موسى أنه يقول أرفضها (فألقاها) على وجه الرفض ثم حانت منه نظرة (فاذا هي حية) صفراء من أعظم ما يكون من الحيات (تسعى) تمشي بسرعة على بطنها وقال في موضع آخر كأنها جان وهي الحية الصغيرة الخفيفة الجسم وقال في موضع ثعبان وهو أكبر ما يكون من الحيات فأما الحية فانها تجمع الصغير والكبير والذكر والأنثى وقيل الجان عبارة عن ابتداء حالها فانها كانت حية على قدر العصا ثم كانت تتورم وتنتفخ حتى صارت ثعبانا والثعبان عبارة عن انتهاء حالها وقيل إنها كانت في عظم الثعبان وسرعة الجان قال محمد بن إسحاق نظر موسى فاذا العصا حية من أعظم ما يكون من الحيات صارت شعبتاها شدقين لها والمحجن عنقا لها وعرفا تهتز كالنيازك

الأجل. قوله تعالى (لتجزى كل نفس بما تسعى) أي بما تعمل من خير وشر (فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها) أي فلا يصرفك عن الإيمان بالساعة ومجيئها من لا يؤمن بها (واتبع هواه) أي مراده وخالف أمر الله (فتردى) أي فتهلك. قوله عز وجل (وما تلك بيمينك يا موسى) سؤال تقرير والحكمة فيه تنبيهه وتوقيفه على أنها عصا حتى إذا قلبها حية علم أنها معجزة عظيمة (قال هي عصاي) قيل كان لها شعبتان وفي أسفلها سنان ولها محجن واسمها نبعة (أتوكأ عليها) أي اعتمد عليها إذا مشيت وإذا عييت وعند الوثبة (وأهش بها على غنمي) أي اضرب بها الشجرة اليابسة ليسقط ورقها فترعاه الغنم (ولي فيها مآرب أخرى) أي حاجة ومنافع أخرى وأراد بالمآرب ما كان يستعمل فيه العصا في السفر فكان يحمل بها الزاد ويشد بها الحبل ويستقي بها الماء من البئر ويقتل بها الحيات ويحارب بها السباع ويستظل بها إذا قعد وروى عن ابن عباس أن موسى كان يحمل عليها زاده وسقاءه فجعلت تماشيه وتحدثه وكان يضرب بها الأرض فيخرج له ما يأكل يومه ويركزها فيخرج الماء فاذا رفعها ذهب الماء وكان إذا اشتهى ثمرة ركزها فتصير غصن تلك الشجرة وتورق وتثمر وإذا أراد الاستقاء من البئر أدلاها فطالت على طول البئر وصارت شعبتاها كدلو حتى يستقي وكانت تضيء بالليل كالسراج وإذا ظهر له عدو كانت تحارب وتناضل عنه (قال) الله تعالى (ألقها يا موسى) أي انبذها واطرحها قال وهب ظن موسى أنه يقول أرفضها (فألقاها) أي فطرحها على وجه الرفض ثم حانت منه نظرة (فاذا هي حية) صفراء من أعظم ما يكون من الحيات (تسعى) أي تمشي بسرعة على بطنها وقال في موضع آخر كأنها جان وهي الحية الصغيرة

وعيناها تتقدان كالنار تمر بالصخرة العظيمة مثل الحلقة من الإبل فتلقمها وتقصف الشجرة العظيمة بأنيابها ويسمع لأسنانها صريف عظيم فلما عاين ذلك موسى ولى مدبرا وهرب ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه ثم نودى أن ياموسى أقبل وأرجع حيث كنت فرجع وهو شديد الخوف (قال خذها) بيمينك (ولا تخف **(٢٦٧)** سنعيدها سيرتها الأولى) هيأتها الأولى أى نردها عصا كما كانت وكان على موسى مدرعة من صوف قد خللها بعيدان من الخلال فلما قال الله تعالى خذها لف طرف المدرعة على يده قال فأمر الله تعالى أن يكشف يده فكشفها وذكر بعضهم أنه لما لف كم المدرعة على يده قال له ملك أرأيت لو أذن الله بما تحاذره أكانت المدرعة تغنى عنك شيئا قال لا ولكنى ضعيف ومن ضعف خلقت فكشف عن يده ثم وضعها فى فم الحية فاذا هى عصا كما كانت ويده فى شعبتها فى الموضع الذى كان يضعها إذا توكأ قال المفسرون أراد الله عز وجل أن يرى موسى ما أعطاه من الآية التى لايقدر عليها مخلوق لئلا يفزع منها إذا ألقاها عند فرعون وقوله سيرتها نصب بحذف إلى يريد إلى سيرتها قوله تعالى (واضمم يدك إلى جناحك) يعنى إبطك قال مجاهد تحت عضدك وجناح الإنسان عضده إلى أصل إبطه (تخرج بيضاء) نيرة مشرقة (من غير سوء) من غير عيب والسوء هاهنا بمعنى البرص قال ابن عباس كان ليده نور ساطع يضىء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر (آية أخرى) يعنى دلالة أخرى على صدقك سوى العصا (لنريك من آياتنا الكبرى) ولم يقل الكبر لرءوس الآى وقيل فيه إضمار معناه لنريك من آياتنا الآية الكبرى دليله قول ابن عباس كانت يد موسى أكبر آياته. قوله تعالى (إذهب إلى فرعون إنه طغى) يعنى جاوز الحد فى العصيان والتمرد فادعه إلى عبادتى (قال) موسى

الصغيرة الجسم الخفيفة وقال فى موضع آخر ثعبان وهو أكبر مايكون من الحيات ووجه الجمع أن الحية اسم جامع للكبير والصغير والذكر والأنثى فالجان عبارة عن ابتداء حالها فانها كانت حية على قدر العصا ثم كانت تتورم وتنتفخ حتى صارت ثعبانا وهو انتهاء حالها وقيل إنها كانت فى عظم الثعبان وسرعة الجان قال محمد بن إسحاق نظر موسى فاذا العصا حية من أعظم مايكون من الحيات وصارت شعبتاها شدقين لها والمحجن عنقا وعرفا يهتز كالنيازك وعيناها تتقدان كالنار تمر بالصخرة العظيمة مثل الخلفة من الإبل فتلقمها وتقصف الشجرة العظيمة بأنيابها ويسمع لأنيابها صريفا عظيما فلما عاين ذلك موسى ولى مدبرا وهرب ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه ثم نودى ياموسى أقبل وأرجع حيث كنت فرجع وهو شديد الخوف (قال خذها) يعنى بيمينك (ولا تخف) قيل كان خوفه لما عرف مالقى آدم من الحية وقيل لما قال له ربه لاتخف بلغ من طمأنينة نفسه وذهاب الخوف عنه أن أدخل يده فى فمها وأخذ بلحييها (سنعيدها سيرتها الأولى) أى إلى هيئتها فردها عصا كما كانت وقيل كان على موسى مدرعة صوف قد خللها بعود فلما قال الله تعالى له خذها لف طرف المدرعة على يده فأمره الله تعالى أن يكشف يده فكشفها. وذكر بعضهم أنه لما لف كم المدرعة على يده قال له ملك أرأيت لو أمر الله بما تحاذره أكانت المدرعة تغنى عنك شيئا قال لا ولكنى ضعيف من ضعف خلقت قال فكشف عن يده ثم وضعها فى فم الحية فاذا هى عصا كما كانت ويده فى شعبتها فى الموضع الذى كان يضعها إذا توكأ قال المفسرون أراد الله تعالى أن يرى موسى ماأعطاه من الآية التى لايقدر عليها مخلوق ولئلا يفزع منها إذا ألقاها عند فرعون قوله تعالى (واضمم يدك إلى جناحك) يعنى إلى إبطك وقيل تحت عضدك (تخرج بيضاء) يعنى نيرة مشرقة (من غير سوء) يعنى من غير عيب والسوء هاهنا بمعنى البرص قال ابن عباس كان ليده نور ساطع يضىء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر (آية أخرى) أى دلالة أخرى على صدقك سوى العصا (لنريك من آياتنا الكبرى) قال ابن عباس كانت يد موسى أكبر آياته. قوله عز وجل (اذهب إلى فرعون إنه طغى) يعنى جاوز الحد فى العصيان والتمرد وإنما خص فرعون بالذكر مع أن موسى كان مبعوثا إلى الكل لأنه ادعى الإلهية وتكبر وكان متبوعا فكان ذكره الأولى قال وهب قال الله تعالى لموسى اسمع كلامى واحفظ وصيتى وانطلق برسالتى وإنك بعينى وسمعى وإن معك يدى وبصرى وإنى ألبسك حلة من سلطانى تستكمل بها القوة فى أمرى بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقى بطر نعمتى وأمن مكرى حتى جحد حقى وأنكر ربوبيتى وإنى أقسم بعزتى لولا الحجة التى وضعت بينى وبين خلقى لبطشت به بطشة جبار ولكن هان على وسقط من عينى فبلغه رسالتى وادعه إلى عبادتى وحذره نقمتى «وقولا له قولا لينا» لا يغتر بلباس الدنيا فان ناصيته بيدى ولا يتنفس إلا بعلمى قال فسكت موسى فجاءه ملك وقال له أجب ربك (قال) يعنى موسى

(رب اشرح لى صدرى) وسعه للحق قال ابن عباس يرد حتى لا أخاف غيرك وذلك أن موسى كان يخاف فرعون خوفا شديدا لشدة شوكته وكثرة جنوده وكان يضيق صدرا بما كلف من مقاومة فرعون و جنده فسأل الله أن يوسع قلبه للحق حتى يعلم أن أحدا لايقدر على مضرته إلا باذن الله وإذا علم ذلك لم يخف من فرعون وشدة شوكته وكثرة جنوده (ويسرلى أمرى) يعنى سهل على ماأمرتنى به من تبليغ الرسالة إلى فرعون (واحلل عقدة من لسانى) وذلك أن موسى كان فى حجر فرعون ذات يوم فى صغره فلطم فرعون لطمة وأخذ بلحيته فقال فرعون لآسية امرأته إن هذا عدوي وأراد أن يقتله فقالت آسية إنه صبى لايعقل ولا يميز وفى رواية أن أم موسى لما فطمته ردته فنشأ موسى فى حجر فرعون وامرأته آسية يربيانه واتخذاه ولدا فبينما هو يلعب يوما بين يدى

فرعون وبيده قضيب يلعب به إذ رفع القضيب فضرب به رأس فرعون فغضب فرعون وتطير بضربه حتى هم بقتله فقالت آسية أيها الملك إنه صغير لايعقل فجربه إن شئت فجاءت بطشتين فى أحدهما الجمر وفى الآخر الجواهر فوضعتهما بين يدى موسى فأراد أن يأخذ الجواهر فأخذ جبريل يد موسى فوضعها على النار فأخذ جمرة فوضعها فى فمه فأحرقت لسانه وصارت عليه عقدة (يفقهوا قولى) يقول احلل العقدة كى يفقهوا كلامى (واجعل لى وزيرا) معينا وظهيرا (من أهلى) والوزير من يوازرك ويعينك ويتحمل عنك بعض ثقل عملك ثم بين من هو فقال (هرون أخى) وكان هرون أكبر من موسى بأربع سنين وكان أفصح منه لسانا وأجمل وأوسم أبيض اللون وكان موسى آدم أقنى أجعد (اشدد به أزرى) قو به ظهرى (وأشركه فى أمرى) يعنى فى النبوة وتبليغ الرسالة وقرأ ابن عامر أشدد بفتح الألف وأشركه بضمها على الجواب حكاية عن موسى يعنى أفعل ذلك وقرأ الآخرون على الدعاء والمسألة عطفا على ماتقدم من قوله رب اشرح لى صدرى ويسرلى أمرى (كى نسبحك كثيرا) قال الكلبى نصلى لك كثيرا (ونذكرك كثيرا) نحمدك ونثنى عليك بما أوليتنا من نعمك (إنك كنت بنا بصيرا) خبيرا عليما قال الله تعالى (قد أوتيت) أعطيت (سؤلك) جميع ماسألته (ياموسى ولقد مننا عليك) أنعمنا عليك (مرة أخرى) يعنى قبل هذه المرة وهى (إذ أوحينا إلى أمك) وحى إلهام (مايوحى) مايلهم ثم فسر ذلك الإلهام وعدد نعمه عليه فقال (أن أقذفيه فى التابوت) يعنى ألهمناها أن اجعليه فى التابوت

(رب اشرح لى صدرى) يعنى وسعه للحق قال ابن عباس يريد حتى لا أخاف غيرك وذلك أن موسى كان يخاف فرعون خوفا شديدا لشدة شوكته وكثرة جنوده فكان يضيق بما كلف من مقاومة فرعون وحده فسأل الله تعالى أن يوسع قلبه للحق حتى يعلم أن أحدا لايقدر على مضرته إلا باذن الله تعالى وإذا علم ذلك لم يخف من فرعون وشدة شوكته وكثرة جنوده (ويسر لى أمرى) أى سهل على ماأمرتنى به من تبليغ الرسالة إلى فرعون (واحلل عقدة من لسانى) وذلك أن موسى كان فى حجر فرعون ذات يوم فى صغره فلطم فرعون لطمة وأخذ بلحيته فقال فرعون لامرأته آسية إن هذا عدوى وأراد أن يقتله فقالت له آسية إنه صبى لايعقل وقيل إن أم موسى لما فطمته ردته إلى فرعون فنشأ فى حجره وحجر امرأته يربيانه واتخذاه ولدا فبينما هو يلعب بين يدى فرعون وبيده قضيب إذ رفعه فضرب به رأس فرعون فغضب فرعون وتطير منه حتى هم بقتله فقالت آسية أيها الملك إنه صبى لايعقل جربه إن شئت فجاءت بطشتين فى أحدهما جمر وفى الآخر جوهر فوضعهما بين يدى موسى فأراد أن يأخذ الجوهر فأخذ جبريل يد موسى فوضعها على الجمر فأخذ جمرة فوضعها فى فيه فاحترق لسانه وصارت فيه عقدة (يفقهوا قولى) يعنى احلل العقدة كى يفقهوا قولى (واجعل لى وزيرا من أهلى) يعنى معينا وظهيرا والوزير من يوازرك ويحتمل عنك بعض ثقل عملك ثم بين من هو فقال (هارون أخى) وكان هارون أكبر من موسى وأفصح لسانا وأجمل وأوسم وكان أبيض اللون وكان موسى آدم أقنى جعدا (أشدد به أزرى) يعنى قوبه ظهرى (وأشركه فى أمرى) يعنى فى أمر النبوة وتبليغ الرسالة (كى نسبحك كثيرا) يعنى نصلى كثيرا (ونذكرك كثيرا) يعنى نحمدك ونثنى عليك بما أوليتنا من جميل نعمك (إنك كنت بنا بصيرا) يعنى خبيرا عليما (قال) الله تعالى (قد أوتيت سؤلك ياموسى) أى أعطيت جميع ماسألته (ولقد مننا عليك مرة أخرى) يعنى قبل هذه المرة ثم بين تلك المنة بقوله تعالى (إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى) يعنى مايلهم ثم فسر ذلك الإلهام وعدد نعمه عليه فقال (أن اقذفيه فى التابوت) يعنى ألهمناها أن اجعليه فى التابوت

(فاقذفيه

(فاقذفيه فى اليم) يعنى نهر النيل (فليلقه اليم بالساحل) يعنى شاطىء النهر لفظه أمر ومعناه خبر ومجازه حتى يلقيه اليم بالساحل (يأخذه عدو لى وعدو له) يعنى فرعون فاتخذت تابوتا وجعلت فيه قطنا محلوجا ووضعت فيه موسى وقيرت رأسه وخصاصه يعنى شقوقه ثم ألقته فى النيل وكان يشرع منه نهر كبير فى دار فرعون فبينما فرعون جالس على رأس البركة مع امرأته آسية إذ تابوت يجىء به الماء فأمر الغلمان والجوارى باخراجه فأخرجوه وفتحوا رأسه فاذا صبى من أصبح الناس وجها فلما رآه فرعون أحبه بحيث لم يتمالك فذلك قوله تعالى (وألقيت عليك محبة منى) قال ابن عباس أحبه وحببه إلى خلقه قال عكرمة مارآه أحد إلا أحبه قال قتادة ملاحة كانت فى عينى موسى مارآه أحد إلا عشقه (ولتصنع على عينى) يعنى لتربى بمرأى ومنظر منى قرأ أبو جعفر ولتصنع بالجزم (إذ تمشى أختك) واسمها مريم متعرفة (٢٦٩) خبره (فتقول هل أدلكم على من يكفله) يعنى على امرأة ترضعه وتضمه إليها وذلك أنه كان لا يقبل ثدى امرأة فلما قالت ذلك لهم أخته قالوا نعم فجاءت بالأم فقبل ثديها فذلك قوله تعالى (فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها) بلقائك (ولا تحزن) أى ليذهب عنها الحزن (وقتلت نفسا) قال ابن عباس رضى الله عنهما كان قتل قبطيا كافرا قال كعب الأحبار كان إذ ذاك ابن اثنى عشرة سنة (فنجيناك من الغم) أى من غم القتل وكربه (وفتناك فتونا) قال ابن عباس رضى الله عنه اختبرناك اختبارا وقال الضحاك ومقاتل ابتليناك ابتلاء وقال مجاهد أخلصناك إخلاصا وعن ابن عباس فى رواية سعيد بن جبير إن الفتون وقوعه فى محنة بعد محنة خلصه الله منها أولها أن أمه حملته فى السنة التى كان فرعون يذبح فيها الأطفال ثم إلقاؤه فى البحر فى التابوت ثم منعه الرضاع إلا من ثدى أمه ثم أخذه بلحية فرعون حتى هم بقتله ثم تناوله الجمرة بدل الدرة ثم قتله القبطى وخروجه إلى مدين خائفا فكان ابن عباس يقص القصة على سعيد بن جبير فعلى هذا معنى فتناك خلصناك من تلك المحن كما يفتن الذهب من النار فيخلص من كل خبث فيه والفتون مصدر (فلبثت) فمكثت أى فخرجت من أرض مصر إلى مدين فلبثت (سنين فى أهل مدين) يعنى ترعى الأغنام عشر سنين ومدين بلدة شعيب عليه السلام على ثمان مراحل من مصر هرب إليها موسى وقال وهب لبث عند شعيب عليه السلام ثمانيا وعشرين سنة عشر سنين منها مهر زوجته صفوراء بنت شعيب وثمان عشرة سنة أقام عنده حتى ولد له (ثم جئت على قدر ياموسى) قال مقاتل على موعد ولم يكن هذا الموعد مع موسى وإنما كان موعدا فى تقدير الله قال محمد بن كعب جئت

(فاقذفيه فى اليم) يعنى نهر النيل (فليلقه اليم بالساحل) يعنى شاطىء البحر (يأخذه عدو لى وعدو له) يعنى فرعون فأخذت تابوتا وجعلت فيه قطنا ووضعت فيه موسى وقيرت رأسه وشقوقه ثم ألقته فى النيل وكان يشرع منه نهر كبير فى دار فرعون فبينما فرعون جالس على البركة مع امرأته آسية إذا هو بتابوت يجىء به الماء فأمر الغلمان والجوارى باخراجه فأخرجوه وفتحوا رأسه فاذا بصبى من أصبح الناس وجها فلما رآه فرعون أحبه بحيث لم يتمالك نفسه وعقله فذلك قوله تعالى (وألقيت عليك محبة منى) قال ابن عباس أحبه وحببه إلى خلقه قيل مارآه أحد إلا أحبه لملاحة كانت فى عينى موسى (ولتصنع على عينى) لتربى ويحسن إليك وأنا مراعيك ومراقبك كما يراعى الرجل الشىء بعينه إذا اعتنى به ونظر إليه (إذ تمشى أختك) واسمها مريم متعرفة خبره (فتقول هل أدلكم على من يكفله) أى على امرأة ترضعه وتضمه إليها وذلك أنه كان لايقبل ثدى امرأة فلما قالت لهم أخته ذلك قالوا نعم فجاءت بالأم فقبل ثديها فذلك قوله تعالى (فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها) أى بلقائك ورؤيتك (ولا تحزن) أى وليذهب عنها الحزن (وقتلت نفسا) قال ابن عباس كان قتل قبطيا كافرا قيل كان عمره إذ ذاك اثنتى عشرة سنة (فنجيناك من الغم) أى من غم القتل وكربه (وفتناك فتونا) قال ابن عباس اختبرناك اختبارا وقيل ابتليناك ابتلاء قال ابن عباس الفتون وقوعه فى محنة بعد محنة وخلصه الله تعالى منها أولها أن أمه حملته فى السنة التى كان فرعون يذبح فيها الأطفال ثم إلقاؤه فى البحر فى التابوت ثم منعه من الرضاع إلا من ثدى أمه ثم أخذه بلحية فرعون حتى هم بقتله ثم تناوله الجمرة بدل الجوهرة ثم قتله القبطى وخروجه إلى مدين خائفا (فلبثت) أى مكثت (سنين فى أهل مدين) هى بلدة شعيب على ثمان مراحل من مصر هرب إليها موسى قال وهب لبث موسى عند شعيب ثمانيا وعشرين سنة عشر سنين منها رعى الغنم مهر زوجته صفوراء ابنة شعيب وثمان عشرة سنة أقام عنده بعد ذلك حتى ولد له وخرج من مصر ابن اثنى عشرة سنة هاربا (ثم جئت على قدر ياموسى) أى جئت على القدر الذى قدرت أن تجىء فيه قيل على رأس أربعين

أى القدر الذى قدرت لك أنك تجئ إلى فيه وقال عبد الرحمن بن كيسان على رأس أربعين سنة وهو القدر الذى يوحى فيه إلى الأنبياء وهذا معنى قول أكثر المفسرين أي على الموعد الذى وعده الله وقدره أنه يوحى إليه بالرسالة وهو أربعون سنة قوله عز وجل (واصطنعتك لنفسى) أى اخترتك واصطفيتك لوحيي ورسالتى يعنى لتتصرف على إرادتى ومحبتى وذلك أن قيامه بأداء الرسالة تصرف على إرادة الله ومحبته قال الزجاج اخترتك لأمرى وجعلتك القائم بحجتى والمخاطب بينى وبين خلقى كأنى الذى أقمت بك عليهم الحجة وخاطبتهم (اذهب أنت وأخوك بآياتى) بدلالاتى وقال ابن عباس يعنى الآيات التسع التى بعث بها موسى (ولا تنيا) ولا تضعفا وقال السدى لاتفترا وقال محمد بن كعب لاتقصرا (فى ذكرى اذهبا إلى فرعون إنه طغى) قرأ أبو عمرو وأهل الحجاز لنفسى اذهب وذكرى اذهبا وإن قومى اتخذوا من بعدى اسمه بفتح الياء فيهن ووافقهم أبو بكر من بعدى اسمه وقرأ الباقون باسكانها (فقولا له قولا لينا) يقول دارياه وارفقا به قال ابن عباس رضى الله عنه لاتعنفا فى قولكما . وقال السدى وعكرمة كنياه فقولا يا أبا العباس وقيل يا أبا الوليد وقال مقاتل يعنى بالقول اللين هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى وقيل أمرهما باللطافة فى القول لماله من حق التربية وقال السدى القول اللين أن موسى أتاه ووعده على قبول الإيمان شبابا لايهرم معه وملكا لاينزع منه إلا بالموت ويبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته وإذا مات دخل الجنة فأعجبه ذلك وكان لايقطع أمرا دون هامان وكان غائبا فلما قدم أخبره بالذى دعاه إليه موسى وقال أردت أن أقبل منه فقال له هامان كنت أرى أن لك عقلا ورأيا أنت رب تريد أن تكون مربوبا وأنت تعبد تريد أن تعبد فغلبه على رأيه وكان هرون يومئذ بمصر فأمر الله موسى أن يأتى هرون وأوحى إلى هرون وهو بمصر أن يتلقى موسى فتلقاه إلى مرحلة وأخبره بما أوحى إليه (لعله يتذكر أو يخشى) أى يتعظ ويخاف ويسلم فان قيل كيف قال لعله يتذكر وقد سبق فى علمه أنه لايتذكر ولا يسلم قيل معناه اذهبا على رجاء منكما وطمع وقضاء الله وراء أمركما وقال الحسين بن الفضل هو ينصرف إلى غير فرعون مجازه لعله يتذكر ويخشى خاش إذا رأى برى وألطافى بمن خلقته وأنعمت عليه ثم ادعى الربوبية وقال أبو بكر محمد

سنة وهو القدر الذى يوحى إلى الأنبياء فيه (واصطنعتك لنفسى) أى اخترتك واصطفيتك لوحيي ورسالتى لتتصرف على إرادتى ومحبتى وذلك أن قيامه بأداء الرسالة تصرف على إرادة الله ومحبته وقيل معناه اخترتك لأمرى وجعلتك القائم بحجتى والمخاطب بينى وبين خلقى كأنى الذى أقمت عليهم الحجة وخاطبتهم (اذهب أنت وأخوك بآياتى) أى بدلائلى قال ابن عباس يعنى الآيات التسع الذى بعث بها موسى عليه السلام (ولا تنيا) أى لا تضعفا وقيل لاتفترا ولا تقصرا (فى ذكرى) أى لا تقصرا فى ذكرى بالإحسان إليكما والإنعام عليكما ومن ذكر النعمة شكرها (اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا) أى دارياه وارفقا به قال ابن عباس لاتعنفا فى قولكما وقيل كنياه فقولا له ياأبا العباس وقيل ياأبا الوليد وقيل أراد بالقول اللين قوله «هل لك إلى أن تزكى» وقيل الآية إنما أمرهما باللطافة لماله من حق تربية موسى وقيل عداه على قبول الإيمان شبابا لايهرم وملكا لاينزع منه إلا بالموت وتبقى عليه لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته وإذا مات دخل الجنة فلما أتاه موسى ووعده بذلك أعجبه وكان لايقطع أمرا دون هامان وكان غائبا فلما قدم أخبره بالذي دعاه إليه موسى وقال أردت أن أقبل منه فقال له هامان كنت أرى أن لك عقلا ورأيا أنت رب تريد أن تكون مربوبا وأنت تعبد تريد أن تعبد فقال فرعون صواب ماقلت فغلبه على رأيه وكان هارون بمصر فأمر الله موسى أن يأتى هارون وأوحى الله إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى فتلقاه إلى مرحلة وأخبره بما أوحى إليه . وقوله تعالى (لعله يتذكر أو يخشى) أى يتعظ ويخاف ويسلم فان قلت كيف قال لعله يتذكر وقد سبق فى علمه أنه لايتذكر ولا يسلم . قلت معناه اذهبا على رجاء منكما وطمع وقضاء الله وراء أمركما وقيل هو إلزام الحجة وقطع المعذرة كقوله تعالى «ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك» وقيل هو ينصرف إلى غير فرعون مجازه لعله يتذكر متذكرا ويخشى خاش إذا رأى برى وألطافى بمن خلقته، وأنعمت عليه ثم ادعى الربوبية وقيل لعل من الله واجب ولقد تذكر فرعون وخشى حين لم تنفعه الذكرى والخشية وذلك حين ألجمه الغرق وقرأ رجل عند يحيى بن معاذ الرازى «فقولا له قولا لينا» الآية فبكى يحيى وقال إلهى هذا رفقك بمن يقول أنا الإله فكيف

رفقك

ابن عمر الوراق لعل من الله واجب ولقد تذكر فرعون وخشى حين لم تنفعه الذكرى والخشية وذلك حين ألجمه الغرق قال «آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين» وقرأ رجل عند يحيى بن معاذ هذه الآية فقولا له قولا لينا فبكى يحيى وقال إلهى هذا برك بمن يقول أنا الإله فكيف برك بمن يقول أنت الإله (قالا) يعنى موسى وهرون (ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا) قال ابن عباس رضى الله عنهما يعجل علينا بالقتل والعقوبة يقال فرط عليه فلان إذا عجل بمكروه وفرط منه أمر أى بدر وسبق (أو أن يطغى) أى يجاوز الحد فى الإساءة إلينا (قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى) قال ابن عباس أسمع دعاءكما فأجيبه وأرى ما يراد بكما فأمنعه لست بغافل عنكما فلا تهتما (فأتياه فقولا إنا رسولا ربك) أرسلنا إليك (فأرسل معنا بنى إسرائيل) أى خل عنهم وأطلقهم من أعمالك (ولا تعذبهم) لا تتعبهم فى العمل وكان فرعون يستعملهم فى الأعمال الشاقة (قد جئناك بآية من ربك) قال فرعون وما هى فأخرج يده لها شعاع كشعاع الشمس (والسلام على من اتبع الهدى) ليس المراد منه التحية إنما معناه يسلم من عذاب الله من أسلم (إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى) أى إنما يعذب الله من كذب بما جئنا به وأعرض عنه (قال فمن ربكما يا موسى) من إلهكما الذى أرسلكما (قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) قال الحسن وقتادة أعطى كل شىء صلاحه وهداه لما يصلحه وقال مجاهد أعطى كل شىء صورته لم يجعل خلق الإنسان كخلق البهائم ولا خلق البهائم كخلق الإنسان ثم هداه إلى منافعه من المطعم والمشرب والمنكح وقال الضحاك أعطى كل شىء خلقه يعنى اليد للبطش والرجل للمشى واللسان للنطق والعين للنظر والأذن للسمع، وقال سعيد بن جبير أعطى كل شىء خلقه يعنى زوج الإنسان المرأة والبعير الناقة والحمار الأتان والفرس الرمكة ثم هدى. أى ألهمه كيف يأتى الذكر الأنثى (قال) فرعون (فما بال القرون الأولى) ومعنى البال الحال أى ما حال القرون الماضية والأمم الخالية مثل قوم نوح وعاد وثمود فيما تدعونى إليه فإنها كانت تعبد الأوثان وتنكر البعث (قال) موسى (علمها عند ربى) أى أعمالهم محفوظة عند الله يجازى بها وقيل إنما رد موسى علم ذلك إلى الله لأنه لم يعلم ذلك فإن التوراة أنزلت إليه بعد هلاك فرعون وقومه (فى كتاب) يعنى فى اللوح المحفوظ (لا يضل ربى) أى لا يخطئ وقيل لا يغيب عنه شىء ولا يغيب عن شىء (ولا ينسى)

رفقك بمن يقول أنت الإله (قالا) يعنى موسى وهارون (ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا) قال ابن عباس يعجل علينا بالقتل والعقوبة (أو أن يطغى) أى يجاوز الحد فى الإساءة إلينا (قال الله تعالى (لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى) قال ابن عباس أسمع دعاءكما فأجيبه وأرى ما يراد بكما فأمنع لست بغافل عنكما فلا تهتما (فأتياه فقولا إنا رسولا ربك) أى أرسلنا إليك ربك (فأرسل معنا بنى إسرائيل) أى خل عنهم وأطلقهم من أعمالك (ولا تعذبهم) أى لا تتعبهم فى العمل وكان فرعون يستعملهم فى الأعمال الشاقة كالبناء وقطع الصخور مع قتل الولدان وغير ذلك (قد جئناك بآية من ربك) قال فرعون وما هى فأخرج موسى يده لها شعاع كشعاع الشمس وقيل معناه قد جئناك بمعجزة وبرهان يدل على صدقنا على ما ادعيناه من الرسالة (والسلام على من اتبع الهدى) ليس المراد منه سلام التحية بل إنما معناه سلم من العذاب من أسلم (إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى) أى إنما يعذب الله من كذب بما جئنا به وأعرض عنه (قال) يعنى فرعون (فمن ربكما يا موسى) أى فمن إلهكما الذى أرسلكما (قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) أى كل شىء يحتاجون إليه ويرتفقون به وقيل أعطى كل شىء صلاحه وهداه وقيل أعطى كل شىء صورته فخلق اليد للبطش والرجل للمشى واللسان للنطق والعين للنظر والأذن للسمع ثم هداه إلى منافعه من المطعم والمشرب والمنكح وقيل يعنى جعل زوجة الرجل المرأة والبعير الناقة والفرس الرمكة وهى الحجرة والحمار الأتان ثم هدى ألهمه كيف يأتى الذكر الأنثى (قال) يعنى فرعون (فما بال القرون الأولى) أى فما حال القرون الماضية والأمم الخالية مثل قوم نوح وعاد وثمود فإنها كانت تعبد الأوثان وتنكر البعث وإنما قال فرعون ذلك لموسى حين خوفهم مصارع الأمم الخالية فحينئذ قال فرعون فما بال القرون الأولى (قال) يعنى موسى (علمها عند ربى) أى أعمالهم محفوظة عند الله يجازى بها وقيل إنما رد موسى علم ذلك إلى الله تعالى لأنه لم يعلم ذلك لأن التوراة إنما نزلت بعد هلاك فرعون وقومه (فى كتاب) يعنى اللوح المحفوظ (لا يضل ربى) أى لا يخطئ وقيل لا يغيب عنه شىء (ولا ينسى) أى فيتذكر وقيل لا ينسى ما كان من أعمالهم حتى يجازيهم

ماكان من أمرهم حتى يجازيهم بأعمالهم وقيل لاينسى أى لايترك الانتقام فينتقم من الكفار ويجازى. ﴿من (الذى جعل لكم الأرض مهدا) قرأ أهل الكوفة مهدا هاهنا وفى الزخرف فيكون مصدرا أى فرشا وقرأ الآخرون مهادا كقوله تعالى : «ألم نجعل الأرض مهادا» أى فراشا وهو اسم مايفرش كالبساط اسم لما يبسط (وسلك لكم فيها سبلا) السلك إدخال الشىء فى الشىء والمعنى أدخل فى الأرض لأجلكم طرقا تسلكونها قال ابن عباس سلك لكم فيها طرقا تسلكونها(وأنزل من السماء ماء) يعنى المطر ثم الأخبار عن موسى ثم أخبر الله عن نفسه بقوله (فأخرجنا به) بذلك الماء (أزواجا) أصنافا (من نبات شتى) مختلف الألوان والطعوم والمنافع من أبيض وأحمر وأخضر وأصفر فكل صنف منها زوج فمنها للناس ومنها للدواب (كلوا وارعوا) أى وارتعوا (أنعامكم) تقول العرب رعيت الغنم فرعت أى أسيموا أنعامكم ترعى(إن فى ذلك) الذى ذكرت (لآيات لأولى النهى) لذوى العقول واحدتها نهية سميت نهية لأنها تنهى صاحبها عن القبائح والمعاصى،

(٢٧٢)

قال الضحاك لأولى النهى الذين ينتهون عما حرم الله عليهم قال قتادة لذوى الورع (منها) أى من الأرض (خلقناكم) يعنى أباكم آدم وقال عطاء الخراسانى أن الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذى يدفن فيه فيذره على النطفة فيخلق من التراب ومن النطفة فذلك قوله تعالى منها خلقناكم(وفيها نعيدكم) أى عند الموت والدفن (ومنها نخرجكم تارة أخرى) يوم البعث قوله تعالى(ولقد أريناه) يعنى فرعون (آياتنا كلها) يعنى الآيات التسع التى أعطاها الله موسى (فكذب) بها وزعم أنها سحر (وأبى) أن يسلم (قال) يعنى فرعون (أجئتنا لتخرجنا من أرضنا) يعنى أرض مصر (بسحرك ياموسى) أى تريد أن تغلب على ديارنا فيكون لك الملك وتخرجنا منها (فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا) أى فاضرب بيننا وبينك أجلا وميقاتا (لانخلفه) قرأ أبو جعفر لانخلفه جزما لانجاوزه (نحن ولا أنت مكانا سوى) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة ويعقوب سوى بضم السين ، وقرأ الآخرون بكسرها وهما لغتان مثل عدى وعدى وطوى وطوى قال مقاتل وقتادة مكانا عدلا بيننا وبينك وعن ابن عباس نصفا ومعناه تستوى مسافة الفريقين إليه قال أبوعبيدة والقتيبى وسطا بين الفريقين قال مجاهد منصفا وقال الكلبى يعنى سوى هذا المكان (قال موعدكم يوم الزينة) قال مجاهد وقتادة ومقاتل والسدى كان يوم عيد لهم يتزينون فيه ويجتمعون فى كل سنة وقيل هو يوم النيروز وقال ابن عباس وسعيد بن جبير يوم عاشوراء (وأن يحشر الناس ضحى) أى وقت الضحوة نهارا جهارا ليكون من الريبة (فتولى فرعون فجمع كيده) مكره وحيلته وسحرته (ثم أتى) أى الميعاد (قال لهم موسى) يعنى جمعهم

بها (الذى جعل لكم الأرض مهدا) أى فراشا وقيل مهدها لكم (وسلك لكم فيها سبلا) أى أدخل فى الأرض لأجلكم طرقا وسهلها لكم لتسلكوها (وأنزل من السماء ماء) يعنى المطر ثم الأخبار عن موسى ثم قال الله تعالى (فأخرجنا به) أى بذلك الماء (أزواجا) أى أصنافا (من نبات شتى) أى مختلف الألوان والطعوم والمنافع فمنها ماهو للناس ومنها ماهو للدواب (كلوا وارعوا أنعامكم) أى أخرجنا أصناف النبات للانتفاع بالأكل والرعى (إن فى ذلك) أى الذى ذكر (لآيات لأولى النهى) أى لذوى العقول قيل هم الذين ينتهون عما حرم الله عليهم (منها خلقناكم) أى من الأرض خلقنا آدم وقيل أن الملك ينطلق فيأخذ من التراب الذى يدفن فيه فيذره فى النطفة فيخلق من التراب ومن النطفة (وفيها نعيدكم) أى عند الموت والدفن (ومنها نخرجكم تارة أخرى) أى يوم القيامة للبعث والحساب . قوله تعالى (ولقد أريناه) يعنى فرعون (آياتنا كلها) يعنى الآيات التسع التى أعطاها الله موسى (فكذب وأبى) يعنى فرعون وزعم أنها سحر وأبى أن يسلم (قال) يعنى فرعون (أجئتنا لتخرجنا من أرضنا) يعنى مصر (بسحرك ياموسى) يريد أن تغلب على ديارنا فيكون لك الملك وتخرجنا منها (فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا) أى اضرب أجلا وميقاتا (لانخلفه) لانجاوزه (نحن ولا أنت مكانا سوى) أى مكانا عدلا وقال ابن عباس نصفا تستوى مسافة الفريقين إليه وقيل معناه سوى هذا المكان (قال) يعنى موسى (موعدكم يوم الزينة) قيل كان يوم عيد لهم يتزينون فيه ويجتمعون فى كل سنة وقيل هو يوم النيروز وقال ابن عباس يوم عاشوراء (وأن يحشر الناس ضحى) أى وقت الضحوة نهارا جهارا ليكون أبعد من الريبة (فتولى فرعون فجمع) يعنى فرعون (كيده) يعنى مكره وسحره وحيله (ثم أتى) يوم الميعاد (قال لهم موسى) يعنى للسحرة التى

السحرة الذين جمعهم فرعون وكانوا اثنين وسبعين ساحرا كل واحد حبل وعصا وقيل كانوا أربعمائة وقال كعب كانوا اثنى عشر ألفا وقيل أكثر من ذلك (ويلكم لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب) قرأحمزة والكسائى وحفص فيسحتكم بضم الياء وكسر الحاء وقرأ الباقون بفتح الياء والحاء وهما لغتان قال مقاتل والكلبى فيهلككم وقال قتادة فيستأصلكم (وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم) أى تناظروا وتشاوروا يعنى السحرة فى أمر موسى سرا من فرعون قال الكلبى قالوا سرا إن غلبنا موسى اتبعناه وقال محمد بن إسحاق لما قال لهم موسى لاتفتروا على الله كذبا قال بعضهم لبعض ماهذا بقول ساحر (وأسروا النجوى) أى المناجاة يكون مصدرا واسما ثم (قالوا) وأسر بعضهم إلى بعض يتناجون (إن هذان لساحران) يعنى موسى وهرون قرأ ابن كثير وحفص إن بتخفيف النون هذان أى ماهذان إلا ساحران كقوله «إن نظنك لمن الكاذبين» أى مانظنك إلا من الكاذبين وشدد ابن كثير النون من هذان وقرأ أبو عمرو إن بتشديد النون هذين بالياء على الأصل وقرأ الآخرون إن بتشديد النون هذان بالألف واختلفوا فيه فروى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين أنه خطأ من الكاتب وقال قوم هو لغة بالحارث بن كعب وخثعم وكنانة فانهم يجعلون الاثنين فى موضع الرفع والنصب والخفض بالألف يقولون أتانى الزيدان ورأيت الزيدان ومررت بالزيدان فلا يتركون ألف (٢٧٣) التثنية فى شىء منها وكذلك يجعلون كل ياء ساكنة انفتح ماقبلها ألفا كما التثنية يقولون كسرت يداه وركبت علاه يعنى يديه وعليه وقال شاعرهم:

تزود منى بين أذناه ضربة
دعته إلى هابى التراب عقيم

يريد بين أذنيه وقال آخر:

إن أباها وأبا أباها
قد بلغا فى المجد غايتاها

وقيل تقدير الآية إنه هذان فحذف الهاء وذهب جماعة إلى أن حرف إن هاهنا بمعنى نعم أى نعم هذان روى أن أعرابيا سأل ابن الزبير شيئا فحرمه فقال لعن الله ناقة حملتنى إليك فقال ابن الزبير إن وصاحبها أي نعم وقال الشاعر:

بكرت على عواذلى يلمننى وألومهنه
ويقلن شيب قد علا ك وقد كبرت فقلت إنه

أى نعم (يريدان أن يخرجاكم من أرضكم) مصر (بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى) قال ابن عباس يعنى بسراة قومكم وأشرافكم يقال هؤلاء طريقة قومهم أى أشرافهم والمثلى تأنيث الأمثل وهو الأفضل حدث الشعبى عن على قال يصرفان وجوه الناس إليهما قال قتادة طريقتهم المثلى كان بنو إسرائيل يومئذ أكثر القوم عددا وأموالا فقال عدو الله يريد أن يذهبا بهم لأنفسهم وقيل بطريقتكم المثلى أى بسنتكم ودينكم الذى أنتم عليه والمثلى نعت الطريق تقول العرب فلان على الطريقة المثلى يعنى على الصراط المستقيم (فأجمعوا كيدكم) قرأ أبو عمرو فأجمعوا بوصل الألف وفتح الميم من الجمع أى لاتدعوا أشياء من كيدكم إلا جئتم به بدليل قوله فجمع كيده وقرأ الآخرون بقطع الألف وكسر الميم فقد قيل معناه الجمع أيضا تقول العرب أجمعت الشىء وجمعته بمعنى واحد والصحيح أن معناه العزم والإحكام أى اعزموا كلكم على كيده مجتمعين له لاتختلفوا فيختل أمركم (ثم ائتوا صفا) أى جميعا قاله مقاتل والكلبى وقال قوم أى مصطفين مجتمعين ليكون أشد لهيبتكم وقال أبو عبيدة الصف المجتمع ويسمى المصلى صفا معناه ثم ائتوا المكان الموعود صفا (وقد أفلح اليوم من استعلى)

جمعهم فرعون وكانوا اثنين وسبعين ساحرا مع كل ساحر حبل وعصا وقيل كانوا أربعمائة وقيل كانوا اثنى عشر ألفا (ويلكم لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب) أى فيهلككم ويستأصلكم (وقد خاب من افترى) أى خسر من ادعى مع الله إلها آخر وقيل معناه خسر من كذب على الله تعالى. قوله تعالى (فتنازعوا أمرهم بينهم) أى تناظروا وتشاوروا يعنى السحرة فى أمر موسى سرا من فرعون وقالوا إن غلبنا موسى اتبعناه معناه لما قال لهم موسى ويلكم لاتفتروا على الله كذبا قال بعضهم لبعض ماهذا بقول ساحر (وأسروا النجوى) أى المناجاة (قالوا) قال بعضهم لبعض سرا (إن هذان لساحران) يعنى موسى وهارون (يريدان أن يخرجاكم من أرضكم) يعنى من مصر (بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى) قال ابن عباس يعنى بسراة قومكم وأشرافكم وقيل معناه يصرفان وجوه الناس عنكم وقيل أراد أهل طريقتكم المثلى وهم بنو إسرائيل يعنى يريد أن يذهبا بهم لأنفسهما وقيل معناه يذهبا بسنتكم وبدينكم الذى أنتم عليه (فأجمعوا كيدكم) أى لاتدعو شيئا من كيدكم إلا جئتم به وقيل معناه اعزموا كلكم على كيده مجتمعين له ولاتختلفوا فيختل أمركم (ثم ائتوا صفا) أى جمعا مصطفين ليكون أشد لهيبتكم وقيل معناه ثم ائتوا المكان الموعود به (وقد أفلح اليوم من استعلى) أى فاز من غلب

أي فاز من غلب (قالوا) يعني السحرة (ياموسى إما أن تلقي) عصاك (وإما أن نكون أول من ألقى) عصينا (قال) موسى (بل ألقوا) أنتم أولا (فإذا حبالهم) وفيه إضمار أي فألقوا فإذا حبالهم (وعصيهم) جمع العصا (يخيل إليه) قرأ ابن عامر ويعقوب تخيل بالتاء ردا إلى الحبال والعصي وقرأ الآخرون بالياء ردوه إلى الكيد والسحر (من سحرهم أنها تسعى) حتى تظن أنها تسعى أي تمشي وذلك أنهم كانوا لطخوا حبالهم وعصيهم بالزئبق فلما أصابه حر الشمس انهمست واهتزت فظن موسى أنها تقصده وفي القصة أنهم لما ألقوا الحبال والعصي أخذوا أعين الناس فرأى موسى والقوم كأن الأرض امتلأت حيات وكانت قد أخذت ميلا من كل جانب ورأوا أنها تسعى (فأوجس في نفسه خيفة موسى) أي وجد وقيل أضمر في نفسه خوفا واختلفوا في خوفه فقيل طبع البشرية (٢٧٤) وذلك أنه ظن أنها تقصده وقال مقاتل خاف على القوم أن يلتبس عليهم الأمر فيشكوا في أمره فلا يتبعونه (قلنا) لموسى (لاتخف إنك أنت الأعلى) أي الغالب يعني لك الغلبة والظفر (وألق ما في يمينك) يعني العصا (تلقف) تلتقم وتبتلع (ماصنعوا) قرأ ابن عامر تلقف برفع الفاء ههنا وقرأ الآخرون بالجزم على جواب الأمر (إنما صنعوا) أي الذي صنعوا (كيد ساحر) أي حيلة سحر هكذا قرأ حمزة والكسائي بكسر السين بلا ألف وقرأ الآخرون ساحر لأن إضافة الكيد إلى الفاعل أولى من إضافته إلى الفعل وإن كان ذلك لا يمتنع في العربية (ولا يفلح الساحر حيث أتى) من الأرض. قال ابن عباس لايسعد حيث كان وقيل معناه حيث احتال (فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا يعني برب هرون وموسى قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم) لرئيسكم ومعلمكم (الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل) يعني على جذوع النخل (ولتعلمن أينا أشد عذابا) يعني على إيمانكم به أنا أو رب موسى على ترك الإيمان به (وأبقى) يعني أدوم (قالوا) يعني السحرة (لن نؤثرك) لن نختارك (على ماجاءنا من البينات) يعني الدلالات قال مقاتل يعني اليد البيضاء والعصا وقيل كان استدلالهم أنهم قالوا لو كان هذا سحرا فأين حبالنا وعصينا وقيل من البينات يعني من اليقين والعلم حكى عن القاسم بن أبي بزة أنه قال إنهم لما ألقوا سجدا مارفعوا رءوسهم حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها ورأوا منازلهم في الجنة فعند ذلك قالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات (والذي فطرنا) يعني لن نؤثرك على الله الذي فطرنا وقيل هو قسم (فاقض ما أنت قاض) يعني فاصنع ما أنت صانع

(قالوا) يعني السحرة (ياموسى إما أن تلقي) أي عصاك (وإما أن نكون أول من ألقى) أي عصينا (قال) يعني موسى (بل ألقوا) يعني أنتم أولا (فإذا حبالهم) فيه إضمار أي فألقوا فإذا حبالهم (وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) قيل إنهم لما ألقوا الحبال والعصي أخذوا أعين الناس فرأى موسى كأن الأرض امتلأت حيات وكانت قد أخذت ميلا في ميل من كل جانب ورآها كأنها تسعى (فأوجس) أي أضمر وقيل وجد (في نفسه خيفة موسى) قيل هو طبع البشرية وذلك أنه ظن أنها تقصده وقيل إنه خاف على القوم أن يلتبس عليهم الأمر فيشكوا في أمره فلا يتبعوه (قلنا لاتخف) أي قال الله تعالى لموسى لاتخف (إنك أنت الأعلى) أي الغالب عليهم ولك الغلبة عليهم والظفر (وألق ما في يمينك) أي عصاك والمعنى لايخيفنك كثرة حبالهم وعصيهم فإن في يمينك شيئا أعظم منها كلها (تلقف) أي تلقم وتبتلع (ماصنعوا إنما صنعوا كيد ساحر) أي حيلة ساحر (ولا يفلح الساحر حيث أتى) أي من الأرض وقال ابن عباس لايسعد حيث كان (فألقي السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى) قال صاحب الكشاف سبحان الله ما أعجب أمرهم قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ثم ألقوا رءوسهم بعد ساعة للشكر والسجود فما أعظم الفرق بين الالقاءين وقيل إنهم لم يرفعوا رءوسهم حتى رأوا الجنة والنار وقيل إنهم لما سجدوا أراهم الله تعالى في سجودهم منازلهم التي يصيرون إليها في الجنة (قال) يعني فرعون (آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم) أي لرئيسكم وعظيمكم يعني أنه أسحركم وأعلاكم في صناعة السحر ومعلمكم (الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) يعني أقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى (ولأصلبنكم في جذوع النخل) يعني على جذوع النخل (ولتعلمن أينا أشد عذابا) يعني على إيمانكم به أنا أو رب موسى على ترك الإيمان به (وأبقى) يعني أدوم (قالوا) يعني السحرة (لن نؤثرك) يعني لن نختارك (على ماجاءنا من البينات) يعني الدلالات الواضحات قيل هي اليد البيضاء والعصا وقيل كان استدلالهم أنهم قالوا لو كان هذا سحرا فأين حبالنا وعصينا وقيل إنهم لما سجدوا رأوا الجنة والنار ورأوا منازلهم في الجنة فعند ذلك قالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات (والذي فطرنا) قيل هو قسم وقيل معناه لن نؤثرك على الله الذي فطرنا (فاقض ما أنت قاض)

(إنما تقضى هذه الحياة الدنيا) يعنى أمرك وسلطانك فى الدنيا وسيزول عن قريب (إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر) فان قيل كيف قالوا هذا وقد جاءوا مختارين يحلفون بعزة فرعون إن لهم الغلبة قيل روى عن الحسن أنه قال: كان فرعون يكره قوما على تعلم السحر لكيلا يذهب أصله وقد كان أكرههم فى الابتداء وقال مقاتل كانت السحرة اثنين وسبعين اثنان من القبط وسبعون من بنى إسرائيل كان عدو الله فرعون أكره الذين هم من بنى إسرائيل على تعلم السحر فذلك قوله وما أكرهتنا عليه من السحر وقال عبد العزيز بن أبان قالت السحرة لفرعون أرنا موسى إذا نام فأراهم موسى نائما وعصاه تحرسه فقالوا لفرعون إن هذا ليس بساحر إن الساحر إذا نام بطل سحره فأبى عليهم إلا أن يتعلموا فذلك قوله تعالى «وما أكرهتنا عليه من السحر» (والله خير وأبقى) (٢٧٥) قال محمد بن إسحاق خير منك ثوابا وأبقى عذابا وقال محمد بن كعب خير منك ثوابا إن أطيع وأبقى منك عذابا إن عصى وهذا جواب لقوله ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى (إنه من يأت ربه مجرما) قيل هذا ابتداء كلام من الله تعالى وقيل من تمام قول السحرة مجرما أى مشركا يعنى من مات على الشرك (فان له جهنم لا يموت فيها) فيستريح (ولا يحيى) حياة ينتفع بها (ومن يأته) قرأ أبو عمرو ساكنة الهاء ويختلسها أبو جعفر وقالون ويعقوب وقرأ الآخرون بالإشباع (مؤمنا) أى من مات على الإيمان (قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) أى الرفيعة والعلى جمع العليا، والعليا تأنيث الأعلى (جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى) يعنى تطهر من الذنوب وقال الكلبى أعطى زكاة نفسه وقال لا إله إلا الله. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أنا أبو القاسم عبد الرحمن بن عبيد السمسار أنا أبو حمزة أحمد بن محمد بن عباس الدهقان أنا أحمد بن عبد الجبار العطاردى أنا أبو معاوية عن الأعمش عن عطية عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون الكوكب الدرى فى أفق من آفاق السماء وإنما أبو بكر وعمر منهم وأنعما» قوله عز وجل (ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى) يعنى أسر بهم ليلا من أرض مصر (فاضرب لهم طريقا فى البحر) يعنى اجعل لهم طريقا فى البحر بالضرب بالعصا (يبسا) ليس فيه ماء ولا طين وذلك أن الله أيبس لهم الطريق فى البحر (لا تخاف دركا) قرأ حمزة لا تخف بالجزم على النهى والباقون بالألف والرفع على النفى لقوله تعالى (ولا تخشى) قيل لا تخاف أن يدركك فرعون من ورائك ولا تخشى أن يغرقك البحر أمامك

يعنى فاصنع ما أنت صانع (إنما تقضى هذه الحياة الدنيا) يعنى إنما أمرك وسلطانك فى الدنيا سيزول عن قريب (إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر) فان قلت كيف قالوا هذا وقد جاءوا مختارين غير مكرهين. قلت كان فرعون أكرههم فى الابتداء على تعلمهم السحر لكى لا يذهب أصله وقيل كانت السحرة اثنين وسبعين اثنان من القبط وسبعون من بنى إسرائيل وكان فرعون أكره الذين هم من بنى إسرائيل على تعلم السحر وقيل قال السحرة لفرعون أرنا موسى إذا هو نام فأراهم موسى نائما وعصاه تحرسه فقالوا لفرعون هذا ليس بساحر إن الساحر إذا نام بطل سحره فأبى عليهم فأكرههم على أن يعملوا فذلك قولهم وما أكرهتنا عليه من السحر (والله خير وأبقى) يعنى خير منك ثوابا وأبقى عقابا وقيل خير منك إن أطيع وأبقى عذابا إن عصى وهذا جواب لقوله «ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى» (إنه من يأت ربه مجرما) قيل هذا ابتداء كلام من الله تعالى وقيل هو من تمام قول السحرة معناه من مات على الشرك (فان له جهنم لا يموت فيها) فيستريح (ولا يحيى) حياة ينتفع بها (ومن يأته مؤمنا) يعنى من مات على الإيمان (قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) يعنى الرفيعة العلية ثم فسر الدرجات بقوله (جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى) يعنى تطهر من الذنوب وقيل أعطى زكاة نفسه وقال لا إله إلا الله «عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع فى أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما» أخرجه الترمذى قوله وأنعما يقال أحسن فلان إلى فلان وأنعم يعنى أفضل وزاد فى الإحسان والمعنى أنهما منهم وزادوا تناهيا إلى غايته. قوله تعالى (ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى) يعنى أسر بهم ليلا من أرض مصر (فاضرب لهم طريقا) يعنى اجعل لهم طريقا (فى البحر) بالضرب بالعصا (يبسا) يعنى يابسا ليس فيه ماء ولا طين وذلك أن الله تعالى أيبس لهم الطريق فى البحر (لا تخاف دركا ولا تخشى) يعنى معناه لا تخاف أن يدركك فرعون من ورائك

(فاتبعهم) فلحقهم (فرعون بجنوده) وقيل معناه أمر فرعون جنوده أن يتبعوا موسى وقومه والباء فيه زائدة وكان هو فيهم (فغشيهم) أصابهم (من اليم ماغشيهم) وهو الغرق وقيل غشيهم علاهم وسترهم من اليم ماغشيهم يريد غشيهم بعض ماء اليم لاكله وقيل غشيهم من اليم ماغشيهم قوم موسى فغرقهم ونجا موسى وقومه (وأضل فرعون قومه وما هـدى) يعنى ماأرشدهم وهذا تكذيب لفرعون فى قوله «وماأهديكم إلاسبيل الرشاد» قوله (يابنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم) فرعون (وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات مارزقناكم) قرأ حمزة والكسائى : أنجيتكم وواعدتكم ورزقتكم بالتاء على التوحيد وقرأ الآخرون بالنون والألف على التعظيم ولم يختلفوا فى ونزلنا لأنه مكتوب بالألف

(٢٧٦)

(ولا تطغوا فيه) قال ابن عباس لاتظلموا قال الكلبى لاتكفروا النعمة فتكونوا ظالمين طاغين وقيل لاتنفقوا فى معصيتى وقيل لاتتقووا بنعمتى على معاصى وقيل لاتدخروا فادخروا فتدود (فيحل) قرأ الأعمش والكسائى فيحل بضم الحاء ومن يحلل بضم اللام يعنى ينزل وقرأ الآخرون بكسرها يعنى يجب (عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) هلك وتردى فى النار (وإنى لغفار لمن تاب) قال ابن عباس تاب من الشرك(وآمن) ووحد الله وصدقه (وعمل صالحا) أدى الفرائض (ثم اهتدى) قال عطاء عن ابن عباس علم أن ذلك توفيق من الله وقال قتادة وسفيان الثورى يعنى لزم الإسلام حتى مات عليه قال الشعبى ومقاتل والكلبى علم أن لذلك ثوابا وقال زيد بن أسلم تعلم العلم ليهتدى به كيف يعمل قال الضحاك استقام . وقال سعيد بن جبير أقام على السنة والجماعة (وما أعجلك) يعنى وما حملك على العجلة (عن قومك) وذلك أن موسى اختار من قومه سبعين رجلا حتى يذهبوا معه إلى الجبل ليأخذوا التوراة فسار بهم ثم عجل موسى من بينهم شوقا إلى ربه عز وجل وخلف السبعين وأمرهم أن يتبعوه إلى الجبل فقال الله تعالى وما أعجلك عن قومك (ياموسى قال) مجيبا لربه تعالى (هم أولاء على أثرى) يعنى هم بالقرب منى يأتون من بعدى (وعجلت إليك رب لترضى) لتزداد رضا (قال فانا قد فتنا قومك من بعدك) أى ابتلينا الذين خلفتهم مع هرون وكانوا ستمائة ألف فافتتنوا بالعجل غير اثنى عشر ألفا من بعدك « أى من بعد انطلاقك إلى الجبل

ولاتخشى أن يغرقك البحر أمامك (فأتبعهم) يعنى فلحقهم (فرعون بجنوده فغشيهم) يعنى أصابهم (من اليم ماغشيهم) وهو الغرق وقيل علاهم وسترهم من اليم مالم يعلم كنهه إلا الله تعالى فغرق فرعون وجنوده ونجا موسى وقومه (وأضل فرعون قومه وما هدى) يعنى وما أرشدهم وهو تكذيب لفرعون فى قوله «وما أهديكم إلا سبيل الرشاد» . قوله عز وجل (يابنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى) ذكرهم الله النعمة فى نجاتهم وهلاك عدوهم وفيما وعد موسى من المناجاة بجانب الطور وكتب التوراة فى الألواح وإنما قال وواعدناكم لأنها اتصلت بهم حيث كانت لنبيهم ورجعت منافعها إليهم وبها قوام دينهم وشريعتهم وفيها أفاض الله عليهم من سائر نعمه وأرزاقه (كلوا من طيبات مارزقناكم ولاتطغوا فيه) قال ابن عباس لاتظلموا وقيل لاتكفروا النعمة فتكونوا طاغين وقيل لاتتقووا بنعمتى على المعاصى وقيل لاتدخروا (فيحل عليكم غضبى) يعنى يجب عليكم غضبى (ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) يعنى هلك وسقط فى النار (وإنى لغفار لمن تاب) قال ابن عباس تاب عن الشرك (وآمن) يعنى وحد الله وصدق رسوله (وعمل صالحا) يعنى أدى الفرائض (ثم اهتدى) قال ابن عباس علم أن ذلك توفيق من الله تعالى وقيل لزم الإسلام حتى مات عليه وقيل علم أن لذلك ثوابا وقيل أقام على السنة . قوله عز وجل (وما أعجلك) يعنى وما حملك على العجلة (عن قومك ياموسى) وذلك أن موسى اختار من قومه سبعين رجلا يذهبون معه إلى الطور ليأخذوا التوراة فسار بهم ثم عجل موسى من بينهم شوقا إلى ربه وخلف السبعين وأمرهم أن يتبعوه إلى الجبل فقال الله له وما أعجلك عن قومك ياموسى فأجاب ربه ف(قال هم أولاء على أثرى) أى هم بالقرب منى يأتون على أثرى من بعدى . فان قلت لم يطابق السؤال الجواب فانه سأله عن سبب العجلة فعدل عن الجواب فقال هم أولاء على أثري . قلت كان هم موسى بسط العذر وتمهيد العلة فى نفس ماأنكر عليه فاعتل بأنه لم يوجد منه إلا تقدم سيره ثم أعقبه بجواب السؤال فقال (وعجلت إليك رب لترضى) أى لتزداد رضا (قال فانا قد فتنا قومك) أى فانا ابتلينا الذين خلفتهم مع هارون وكانوا ستمائة ألف فافتتنوا بالعجل غير اثنى عشر ألفا (من بعدك) أى من بعد انطلاقك إلى الجبل

(وأضلهم السامرى) أى دعاهم وصرفهم إلى عبادة العجل وأضافه إلى السامرى لأنهم ضلوا بسببه (فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) حزينا (قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا) صدقا أنه يعطيكم التوراة (أفطال عليكم العهد) مدة مفارقتى إياكم (أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) أى أردتم أن تفعلوا فعلا يجب عليكم به الغضب من ربكم (فأخلفتم موعدى قالوا ماأخلفنا موعدك بملكنا) قرأ نافع وأبو جعفر وعاصم بملكنا بفتح الميم (٢٧٧) وقرأ حمزة والكسائى بضمها وقرأ الآخرون بكسرها أى ونحن نملك أمرنا وقيل باختيارنا ومن قرأ بالضم فمعناه بقدرتنا وسلطاننا وذلك أن المرء إذا وقع فى البلية والفتنة لم يملك نفسه (ولكنا حملنا) قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى وأبو بكر ويعقوب حملنا بفتح الحاء وتخفيف الميم وقرأ الآخرون بضم الحاء وتشديد الميم أى جعلونا نحملها وكلفنا حملها (أوزارا من زينة القوم) من حلى قوم فرعون سماها أوزارا لأنهم أخذوها على وجه العارية فلم يردوها وذلك أن بنى إسرائيل كانوا قد استعاروا حليا من القبط وكان ذلك معهم حين خرجوا من مصر وقيل إن الله تعالى لما أغرق فرعون نبذ البحر حليهم فأخذوها وكانت غنيمة ولم تكن الغنيمة حلالا لهم فى ذلك الزمان فسماها أو آزارا لذلك (فقذفناها) قيل إن السامرى قال لهم احفروا حفيرة فألقوها فيها حتى يرجع موسى قال السدى قال لهم هرون إن تلك غنيمة لا تحل فاحفروا حفيرة فألقوها فيها حتى يرجع موسى فيرى رأيه فيها ففعلوا قوله فقذفناها أى طرحناها فى الحفرة (فكذلك ألقى السامرى) مامعه من الحلى فيها وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أوقد هارون نارا وقال : اقذفوا فيها مامعكم فألقوه فيها ثم ألقى السامرى ما كان معه من تربة حافر فرس جبريل قال قتادة كان قد صر قبضة من ذلك التراب فى عمامته (فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى) أى تركه موسى هاهنا وذهب

الجبل (وأضلهم السامري) أى دعاهم وصرفهم إلى الضلال وهو عبادة العجل وإنما أضاف الضلال إلى السامرى لأنهم ضلوا بسببه وقيل إن جميع المنشآت تضاف إلى منشئها فى الظاهر وإن كان الموجد لها فى الأصل هو الله تعالى فذلك قوله هنا وأضلهم السامرى قيل كان السامرى من عظماء بنى إسرائيل من قبيلة يقال لها السامرة وقيل كان من القبط وكان جارا لموسى وآمن به وقيل كان علجا من علوج كرمان رفع إلى مصر وكان من قوم يعبدون البقر (فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) أى حزينا جزعا (قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا) أى صدقا يعطيكم التوراة (أفطال عليكم العهد) أى مدة مفارقتى إياكم (أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) أى أردتم أن تفعلوا فعلا يجب عليكم الغضب من ربكم بسببه (فأخلفتم موعدى) يعنى ما وعدوه من الإقامة على دينه إلى أن يرجع (قالوا ماأخلفنا موعدك بملكنا) أى بملك أمرنا وقيل باختيارنا وذلك أن المرء إذا وقع فى الفتنة لم يملك نفسه (ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم) أى حملنا مع أنفسنا ما كنا قد استعرناه من قوم فرعون والأوزار الأثقال سميت أوزارا لكثرتها وثقلها وقيل الأوزار الآثام أى حملنا آثاما وذلك أن بنى إسرائيل استعاروا حليا من القبط ولم يردوها وبقيت معهم إلى حين خروجهم من مصر وقيل إن الله لما أغرق فرعون نبذ البحر حليهم فأخذها بنو إسرائيل فكانت غنيمة ولم تكن الغنائم تحل لهم (فقذفناها) أى ألقيناها قيل إن السامرى قال لهم احفروا حفيرة وألقوها فيها حتى يرجع موسى فيرى رأيه فيها وقيل إن هارون أمرهم بذلك ففعلوا (فكذلك ألقى السامرى) أى ما كان معه من الحلى فيها قال ابن عباس أوقد هارون نارا وقال اقذفوا مامعكم فيها وقيل إن هارون مر على السامرى وهو يصوغ العجل فقال له ماهذا قال أصنع ماينفع ولا يضر فادع لى فقال هارون اللهم اعطه ماسألك على مافى نفسه فألقى السامرى ما كان معه من تربة حافر فرس جبريل فى فم العجل وقال كن عجلا يخور فكان كذلك بدعوة هارون فذلك قوله تعالى (فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار) اختلفوا هل كان الجسد حيا أم لا على قولين أحدهما لا لأنه لا يجوز إظهار خرق العادة على يد ضال بل السامرى صور صورة على شكل العجل وجعل فيه منافذ ومخاريق بحيث إذا دخل فيها الريح صوت صوت كصوت العجل الثانى أنه صار حيا وخار كما يخور العجل (فقالوا هذا إلهكم وإله موسى) يعنى قال ذلك السامرى ومن تابعه ممن افتتن به وقيل عكفوا عليه وأحبوه حبا لم يحبوا شيئا قط مثله (فنسى) قيل هو إخبار عن قول السامرى أى أن موسى نسى إلهه وتركه هاهنا وذهب يطلبه وقيل معناه أن موسى إنما طلب هذا ولكنه نسيه وخالفه فى طريق آخر فأخطأ الطريق وضل وقيل هو من كلام الله

يطلبه وقيل أخطأ الطريق وضل قال الله تعالى : (أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا) أى لا يرون أن العجل لايكلمهم ولا يجيبهم إذا دعوه (ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) وقيل إن هرون مر على السامرى وهو يصوغ العجل فقال له ماهذا ؟ قال أصنع ماينفع ولايضر فادع لى فقال هارون اللهم اعطه ماسألك على مافى نفسه، فألقى التراب فى فم العجل وقال كن عجلا يخور فكان ذلك بدعوة هارون والحقيقة أن ذلك كان فتنة ابتلى الله بها بنى إسرائيل (ولقد قال لهم هارون من قبل) أى من قبل رجوع موسى (ياقوم إنما فتنتم به) ابتليتم بالعجل (وإن ربكم الرحمن فاتبعونى) على دينى فى عبادة الله (وأطيعوا أمرى) فى ترك عبادة العجل (قالوا لن نبرح) أى لن نزال (عليه) على عبادته (عاكفين) مقيمين (حتى يرجع إلينا موسى) فاعتزلهم هارون فى إثنى عشر ألفا وهم الذين لم يعبدوا العجل فلما رجع موسى وسمع الصياح والجلبة وكانوا يرقصون حول العجل قال للسبعين الذين كانوا معه هذا صوت الفتنة فلما رأى هارون أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله و(قال) له (ياهارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا) أشركوا (ألا تتبعن) أى أن تتبعنى ولا صلة أى تتبع أمرى ووصيتى يعنى هلا قاتلتهم وقد علمت أنى لو كنت فيهم لقاتلتهم على كفرهم وقيل أن لا تتبعنى أى مامنعك من اللحوق بى وإخبارى بضلالتهم فتكون مفارقتك إياهم تقريعا وزجرا لهم عما أتوه (أفعصيت أمرى) أى خالفت أمرى (قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى) فقبضت أى بشعر رأسى وكان قد أخذ ذوائبه (إنى خشيت) لو نكرت عليهم لصاروا حزبين يقتل بعضهم بعضا (أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل) أى خشيت إن فارقتهم واتبعتك صاروا أحزابا يتقاتلون فتقول أنت فرقت بين بنى إسرائيل (ولم ترقب قولى) ولم تحفظ وصيتى حين قلت لك اخلفنى فى قومى وأصلح أى ارفق بهم ثم أقبل موسى على السامرى (قال فما خطبك) أى ما أمرك وشأنك وما الذى حملك على ماصنعت (يا سامرى قال بصرت بما لم يبصروا به) رأيت مالم يروا وعرفت مالم

(٢٧٨)

تعالى وكأنه أخبر عن السامرى أنه نسى الاستدلال على حدوث الأجسام وأن الإله لايحل فى شىء ولا يحل فيه شىء ثم بين سبحانه وتعالى المعنى الذى يجب الاستدلال به فقال (أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا) أى أن العجل لا يرد لهم جوابا إذا دعوه ولا يكلمهم (ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) هذا توبيخ لهم إذ عبدوا مالا يملك ضرمن ترك عبادته ولاينفع من عبده وكان العجل فتنة من الله تعالى ابتلى به بنى إسرائيل . قوله عز وجل (ولقد قال لهم هارون من قبل) أى من قبل رجوع موسى (ياقوم إنما فتنتم به) أى ابتليتم بالعجل (وإن ربكم الرحمن فاتبعونى) على دينى فى عبادة الله (وأطيعوا أمرى) يعنى فى ترك عبادة العجل اعلم أن هارون عليه السلام سلك فى هذا الوعظ أحسن الوجوه لأنه زجرهم أولا عن الباطل بقوله « إنما فتنتم به» ثم دعاهم إلى معرفة الله تعالى بقوله «إن ربكم الرحمن» ثم دعاهم إلى معرفة النبوة بقوله «فاتبعونى» ثم دعاهم إلى الشرائع بقوله «وأطيعوا أمرى» فهذا هو الترتيب الجيد لأنه لابد من إماطة الأذى عن الطريق وهى إزالة الشبهات ثم معرفة الله فانها هى الأصل ثم النبوة ثم الشريعة وإنما قال وإن ربكم الرحمن فخص هذا الموضع بهذا الإسم لأنه ينبههم على أنهم متى تابوا قبل الله توبتهم لأنه هو التواب الرحيم فقابلوا هذا القول بالإصرار والجحود (قالوا لن نبرح) يعنى لن نزال (عليه) يعنى على عبادة العجل (عاكفين) يعنى مقيمين (حتى يرجع إلينا موسى) كأنهم قالوا لن نقبل حجتك ولا نقبل إلا قول موسى فاعتزلهم هارون ومعه اثنا عشر ألفا الذين لم يعبدوا العجل فلما رجع موسى سمع الصياح والجلبة وكانوا يرقصون حول العجل فقال للسبعين الذين معه هذا صوت الفتنة فلما رأى هارون أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله و(قال) له (ياهارون مامنعك إذ رأيتهم ضلوا) أى أشركوا (ألا تتبعن) أى تتبع أمرى ووصيتى وهلا قاتلتهم وقد علمت أنى لو كنت فيهم لقاتلتهم على كفرهم وقيل معناه مامنعك من اللحوق بى وإخبارى بضلالتهم فتكون مفارقتك إياهم زجرا لهم عما أتوه (أفعصيت أمرى) يعنى خالفت أمرى (قال يا ابن أم لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى) يعنى بشعر رأسى وكان قد أخذ بذؤابتيه (إنى خشيت أن تقول) يعنى لو أنكرت عليهم لصاروا حزبين يقتل بعضهم بعضا فتقول (فرقت بين بنى إسرائيل) يعنى خشيت أن فارقتهم واتبعتك أن يصيروا أحزابا فيتقاتلون فتقول فرقت بنى إسرائيل (ولم ترقب قولى) يعنى لم تحفظ وصيتى حين قلت لك اخلفنى فى قومى أصلح وأرفق بهم ثم أقبل موسى على السامرى (قال فما خطبك) يعنى فما أمرك وشأنك وما الذى حملك على ماصنعت (يا سامرى قال) يعنى السامرى (بصرت بما لم يبصروا به

يعرفوا قرأ حمزة والكسائى مالم تبصروا بالتاء على الخطاب وقرأ الآخرون بالياء على الخبر (فقبضت قبضة من أثر الرسول) أى من تراب أثر فرس جبريل (فنبذتها) أى ألقيتها فى فم العجل وقال بعضهم إنما خار لهذا لأن التراب كان مأخوذا من تحت حافر فرس جبريل فان قيل كيف عرفه ورأى جبريل من بين سائر الناس قيل لأن أمه لما ولدته فى السنة التى كان يقتل فيها البنون وضعته فى الكهف حذرا عليه فبعث الله جبريل ليربيه لما قضى على يديه من الفتنة (وكذلك سولت) أى زينت (لى نفسى قال فاذهب فان لك فى الحياة) أى مادمت حيا (أن تقول لامساس) (٢٧٩) أى لا تخالط أحدا ولا يخالطك أحد وأمر موسى بنى إسرائيل أن لا يخالطوه ولا يقربوه قال ابن عباس لا مساس لك ولولدك والمساس من المماسة معناه لا يمس بعضنا بعضا فصار السامرى يهيم فى البرية مع الوحوش والسباع لا يمس أحدا ولا يمسه أحد فعاقبه الله بذلك وكان إذا لقى أحدا يقول : لامساس أى لا تقربنى ولا تمسنى وقيل كان إذا مس أحدا أو مسه أحد حما جميعا حتى إن بقاياهم اليوم يقولون ذلك وإذا مس أحد من غيرهم أحدا منهم حما جميعا فى الوقت (وإن لك) ياسامرى (موعدا) لعذابك (لن تخلفه) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب لن تخلفه بكسر اللام أى لن تغيب عنه ولا مذهب لك عنه بل توافيه يوم القيامة وقرأ الآخرون بفتح اللام أى لن تكذبه ولن يخلفك الله ومعناه أن الله تعالى يكافئك على فعلك ولا تفوته (وانظر إلى إلهك) بزعمك (الذى ظلت عليه عاكفا) أى ظلت ودمت عليه مقيما تعبده والعرب تقول ظلت فعل كذا بمعنى ظللت ومست بمعنى مسست (لنحرقنه) بالنار وقرأ أبو جعفر بالتخفيف من الاحراق (ثم لننسفنه) لنذرينه (فى اليم) فى البحر (نسفا) روى أن موسى أخذ العجل فذبحه فسال منه دم لأنه كان قد صار لحما ودما ثم حرقه بالنار ثم ذراه فى اليم قرأ ابن محيصن لنحرقنه بفتح النون وضم الراء لنبردنه بالمبرد ومنه قيل للمبرد المحرق وقال السدي أخذ موسى العجل فذبحه ثم حرقه بالمبرد ثم ذراه فى اليم (إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما) وسع علمه كل شىء

فقبضت قبضة من أثر الرسول) يعنى من تراب حافر فرس جبريل (فنبذتها) يعنى فقذفتها فى فم العجل فخار . فان قلت كيف عرف السامرى جبريل ورآه من بين سائر الناس . قلت ذكروا فيه وجهين أحدهما أن أمه ولدته فى السنة التى كان يقتل فيها البنون فوضعته فى كهف حذرا عليه من القتل فبعث الله إليه جبريل ليربيه لما قضى الله على يديه من الفتنة الوجه الثانى أنه لما نزل جبريل إلى موسى ليذهب به إلى الطور رآه السامرى من بين سائر الناس فلما رآه قال إن لهذا لشأنا فقبض القبضة من أصل تربة أثر موطئه فلما سأله موسى قال قبضت قبضة من أثر الرسول إليك يوم جاء للميعاد وقيل رآه يوم فلق البحر فأخذ القبضة وجعلها فى عمامته لما يريد الله أن يظهره من الفتنة على يديه وهو قوله (وكذلك سولت) يعنى زينت (لى نفسى) وقيل إنه من السؤال والمعنى أنه لم يدعنى إلى فعله غيرى واتبعت فيه هواى (قال) يعنى موسى للسامرى (فاذهب فان لك فى الحياة) يعنى مادمت حيا (أن تقول لامساس) يعنى لا تخالط أحدا ولا يخالطك أحد فعوقب فى الدنيا بعقوبة لا شىء أوحش منها ولا أعظم وذلك أن موسى أمر بنى إسرائيل أن لا يخالطوه ولا يقربوه وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته وقال ابن عباس رضى الله عنهما لامساس لك ولولدك فصار السامرى يهيم فى البرية مع الوحش والسباع لا يمس أحدا ولا يمسه أحد وقيل كان إذا مس أحدا أو مسه أحد حما جميعا فتحامى الناس وتحاموه وكان يصيح لامساس حتى أن بقاياهم اليوم يقولون ذلك (وإن لك) يعنى ياسامرى (موعدا) يعنى بعذابك فى الآخرة (لن تخلفه) قرىء بكسر اللام ومعناه لن تغيب عنه ولا مذهب لك عنه بل توافيه يوم القيامة وقرىء بالفتح أى لن تكذبه ولم يخلفكه الله بل يكافئك على فعلك (وانظر إلى إلهك) يعنى الذى تزعم (الذى ظلت عليه عاكفا) يعنى دمت عليه مقيما تعبده (لنحرقنه) بالنار (ثم لننسفنه) أى لنذرينه (فى اليم) يعنى فى البحر (نسفا) روى أن موسى أخذ العجل فذبحه فسال منه دم وحرقه فى النار ثم ذراه فى البحر وقيل معناه لنحرقنه أى لنبردنه فعلى هذا التأويل لم ينقلب لحما ودما فان ذلك لا يمكن أن يبرد بالمبرد ويمكن أن يقال صار لحما ودما فذبح ثم بردت عظامه بالمبرد حتى صارت بحيث يمكن نسفها فى البحر فلما فرغ موسى من أمر العجل وإبطال ماذهب إليه السامرى رجع إلى بيان الدين الحق فقال مخاطبا لبنى إسرائيل (إنما إلهكم الله) يعنى المستحق للعبادة والتعظيم هو الله (الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما) يعنى وسع علمه كل شىء وقيل يعلم من يعبده قوله عز

(كذلك نقص عليك من أنباء ماقد سبق) من الأمور (وقد آتيناك من لدنا ذكرا) يعنى القرآن (من أعرض عنه) أى عن القرآن فلم يؤمن به ولم يعمل بما فيه (فانه يحمل يوم القيامة وزرا) حملا ثقيلا من الإثم (خالدين فيه) مقيمين فى عذاب الوزر (وساء لهم يوم القيامة حملا) أى بئس ماحملوا على أنفسهم من الإثم كفروا بالقرآن (يوم ينفخ فى الصور) قرأ أبو عمرو ننفخ بالنون وفتحها وضم الفاء لقوله ونحشر وقرأ الآخرون بالياء وضمها ، وفتح الفاء على غير تسمية الفاعل (ونحشر المجرمين) المشركين (يومئذ زرقا) والزرقة هى الخضرة فى سواد العين فيحشرون زرق العيون سود الوجوه وقيل زرقا أى عميا وقيل عطاشا (يتخافتون بينهم) أى يتشاورون بينهم ويتكلمون خفية (إن لبثتم) أى مامكثتم فى الدنيا (إلا عشرا) أى عشر ليال وقيل فى القبور وقيل بين النفختين وهو أربعون (٢٨٠) سنة لأن العذاب يرفع عنهم بين النفختين استقصروا مدة لبثهم لهول ماعاينوا قال الله تعالى (نحن أعلم بما يقولون) أى يتشاورون بينهم (إذ يقول أمثلهم طريقة) أوفاهم عقلا وأعدلهم قولا (إن لبثتم إلا يوما) قصر ذلك فى أعينهم فى جنب ما استقبلهم من أهوال يوم القيامة وقيل نسوا مقدار لبثهم لشدة مادهمهم قوله : (ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا) قال ابن عباس سأل رجل من ثقيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كيف تكون الجبال يوم القيامة فأنزل الله هذه الآية والنسف هو القلع يعنى يقلعها من أصلها ويجعلها هباء منثورا (فيذرها) يعنى فيدع أماكن الجبال من الأرض (قاعا صفصفا) يعنى أرضا ملساء مستوية لانبات فيها والقاع ما انبسط من الأرض والصفصف وهو الأملس (لاترى فيها عوجا ولا أمتا) قال مجاهد انخفاضا وارتفاعا وقال الحسن العوج ماانخفض من الأرض والأمت مانشز من الروابى يعنى لاترى واديا ولا رابية قال قتادة لاترى فيها صدعا ولا أكمة (يومئذ يتبعون الداعى) أى صوت الداعى الذى يدعوهم إلى موقف القيامة وهو إسرافيل وذلك أنه يضع الصور فى فيه ويقول أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة هلموا إلى عرض الرحمن (لاعوج له) يعنى لدعائه وهو من المقلوب يعنى لاعوج لهم عن دعاء الداعى لا يزيغون عنه يمينا ولا شمالا ولا يقدرون عليه بل يتبعونه سراعا (وخشعت الأصوات للرحمن) يعنى سكنت وذلت وخضعت ووصف الأصوات بالخشوع والمراد أهلها (فلا تسمع إلا همسا) يعنى صوت وطء الأقدام إلى المحشر والهمس الصوت الخفى كصوت أخفاف الإبل فى المشى

وجل (كذلك نقص عليك من أنباء) يعنى من أخبار (ماقد سبق) يعنى الأمم الخالية وقيل ماسبق من الأمور (وقد آتيناك من لدنا ذكرا) وهو القرآن (من أعرض عنه) يعنى عن القرآن ولم يؤمن به ولم يعمل بما فيه (فانه يحمل يوم القيامة وزرا) يعنى حملا ثقيلا من الإثم (خالدين فيه) يعنى مقيمين فى عذاب الوزر (وساء لهم يوم القيامة حملا) يعنى بئس ماحملوا أنفسهم من الإثم (يوم ينفخ فى الصور) قيل هو قرن ينفخ فيه يدعى به الناس للمحشر والمراد بهذه النفخة النفخة الثانية لأنه أتبعه بقوله (ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) يعنى نحشر المجرمين زرق العيون سود الوجوه وقيل عميا وقيل عطاشا (يتخافتون) يعنى يتشاورون (بينهم) ويتكلمون خفية (إن لبثتم) يعنى مكثتم فى الدنيا (إلا عشرا) يعنى عشر ليال وقيل فى القبور وقيل بين النفختين وهو مقدار أربعين سنة وذلك أن العذاب رفع عنهم بين النفختين فاستقصروا مدة لبثهم لهول ماعاينوا فقال الله تعالى (نحن أعلم بما يقولون) يعنى يتشاورون فيما بينهم (إذ يقول أمثلهم طريقة) أى أوفاهم عقلا وأعدلهم قولا (إن لبثتم إلا يوما) قصر ذلك فى أعينهم فى جنب مااستقبلهم من أهوال يوم القيامة وقيل نسوا مقدار لبثهم لشدة مادهمهم قوله عز وجل (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا) قال ابن عباس سأل رجل من ثقيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كيف تكون الجبال يوم القيامة فأنزل الله تعالى هذه الآية والنسف هو القلع أى يقلعها من أصولها ويجعلها هباء منثورا (فيذرها) أى يدع أماكن الجبال من الأرض (قاعا صفصفا) أى أرضا ملساء مستوية لانبات فيها (لا ترى فيها عوجا ولا أمتا) يعنى لاانخفاضا ولا ارتفاعا يعنى لاترى واديا ولا رابية (يومئذ يتبعون الداعى) أى صوت الداعى الذى يدعوهم إلى موقف يوم القيامة وهو إسرافيل وذلك أنه يضع الصور فى فيه ويقف على صخرة بيت المقدس ويقول أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة هلموا إلى عرض الرحمن (لاعوج له) أى لاعوج لهم عن دعائه ولا يزيغون عنه يمينا ولا شمالا بل يتبعونه سراعا (وخشعت الأصوات للرحمن) يعنى سكنت وذلت وخضعت وضعفت والمراد به أصحاب الأصوات وقيل خضعت الأصوات من شدة الفزع (فلا تسمع إلا همسا)

وقال مجاهد هو تخافت الكلام وخفض الصوت وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال تحريك الشفاه من غير منطق (يومئذ لاتنفع الشفاعة) يعنى لاتنفع الشفاعة أحدا من الناس (إلا من أذن له الرحمن) يعنى إلا من أذن الله له أن يشفع (ورضى له قولا) يعنى ورضى قوله قال ابن عباس يعنى قال لاإله إلاالله وهذا يدل على أنه لايشفع غير المؤمن (يعلم مابين أيديهم وما خلفهم) الكناية راجعة إلى الذين يتبعون الداعى أى يعلم الله مابين أيديهم ماقدموا وما خلفهم وماخلفوا من أمر الدنيا وقيل مابين أيديهم من الآخرة وماخلفهم من الأعمال (ولايحيطون به علما) قيل الكناية ترجع إلى ما أى هو يعلم مابين أيديهم وما خلفهم وهم لايعلمونه وقيل الكناية راجعة إلى الله لأن عباده لايحيطون به علما (وعنت الوجوه للحى القيوم) أى ذلت وخضعت ومنه قيل للأسير عان وقال طلق ابن حبيب هو السجود على الجبهة للحى القيوم (وقد خاب من حمل ظلما) قال ابن عباس خسر من أشرك بالله والظلم هو الشرك (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلايخاف) قرأ ابن كثير فلايخف مجزوما على النهى جوابا لقوله تعالى «ومن يعمل» وقرأ الآخرون فلا يخاف مرفوعا على الخبر (ظلما ولا هضما) قال ابن عباس لا يخاف أن يزاد على سيئاته ولا أن ينقص من حسناته وقال الحسن لاينقص من ثواب حسناته ولا يحمل عليه ذنب مسئ وقال الضحاك لا يؤخذ بذنب لم يعمله ولاتبطل حسنة عملها وأصل الهضم النقص والكسر ومنه هضم الطعام (وكذلك) أى كما بينا فى هذه السورة (أنزلناه) يعنى أنزلنا هذا الكتاب (قرآنا عربيا) يعنى بلسان العرب (وصرفنا) يعنى بينا (فيه من الوعيد) أى صرفنا القول فيه بذكر الوعيد (لعلهم يتقون) أى يجتنبون الشرك (أو يحدث لهم ذكرا) أى يجدد لهم القرآن عبرة وعظة فيعتبروا ويتعظوا بذكر عقاب الله للأمم الخالية (فتعالى الله الملك الحق) جل الله عن إلحاد الملحدين وعما يقوله المشركون (ولاتعجل بالقرآن) أراد أن النبى ﷺ كان إذا نزل عليه جبريل بالقرآن يبادر فيقرأ معه قبل أن يفرغ جبريل مما يريد من التلاوة مخافة الانفلات والنسيان فنهاه الله

وهو الصوت الخفى قال ابن عباس هو تحريك الشفاه من غير نطق وقيل أراد بالهمس صوت وطء الأقدام إلى المحشر كصوت أخفاف الإبل (يومئذ لاتنفع الشفاعة) لأحد من الناس (إلامن أذن له الرحمن) يعنى إلا من أذن له أن يشفع (ورضى له قولا) قال ابن عباس يعنى قال لا إله إلا الله وفيه دليل على أنه لايشفع غير المؤمن وقيل إن درجة الشافع درجة عظيمة فهى لاتحصل إلالمن يأذن الله له فيها وكان عند الله مرضيا (يعلم مابين أيديهم وما خلفهم) قيل الكناية راجعة إلى الذين يتبعون الداعى أى يعلم الله ماقدموا من الأعمال وما خلفوا من الدنيا وقيل الضمير يرجع إلى من أذن له الرحمن وهو الشافع والمعنى لاتنفع الشفاعة إلالمن أذن له الرحمن أن يشفع ثم قال يعلم مابين أيديهم أى أيدى الشافعين وماخلفهم (ولايحيطون به علما) قيل الكناية ترجع إلى ما أى هو يعلم مابين أيديهم وماخلفهم وهم لايعلمونه والمعنى أن العباد لايحيطون بما بين أيديهم وما خلفهم علما وقيل الكناية راجعة إلى الله تعالى أى ولايحيطون بالله علما (وعنت الوجوه) يعنى ذلت وخضعت فى ذلك اليوم ويصير الملك والقهر لله تعالى دون غيره وذكر الوجوه وأراد بها المكلفين لأن عنت من صفات المكلفين لامن صفات الوجوه وإنما خص الوجوه بالذكر لأن الخضوع بها يتبين وفيها يظهر وقوله تعالى (للحى القيوم) تقدم تفسيره (وقد خاب من حمل ظلما) قال ابن عباس خسر من أشرك بالله (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما) قال ابن عباس معناه لايخاف أن يزاد على سيئاته ولاينقص من حسناته وقيل لايؤخذ بذنب لم يعمله ولاتبطل عنه حسنة عملها قوله تعالى (وكذلك أنزلناه) أى كما بينا فى هذه السورة أو هذه الآية المتضمنة للوعيد أنزلنا القرآن كله كذلك وقوله (قرآنا عربيا) أى بلسان العرب ليفهمون ويقفوا على إعجازه وحسن نظمه وخروجه عن كلام البشر (وصرفنا فيه من الوعيد) أى كررنا وفصلنا القول فيه بذكر الوعيد ويدخل تحت الوعيد بيان الفرائض والمحارم لأن الوعيد بهما يتعلق فتكريره وتصريفه يقتضى بيان الأحكام فلذلك قال تعالى (لعلهم يتقون) أى يجتنبون الشرك والمحارم وترك الواجبات (أو يحدث لهم ذكرا) أى إنما أنزلنا القرآن ليصيروا متقين مجتنبين مالاينبغى ويحدث لهم القرآن ذكرا يرغبهم فى الطاعات وفعل ماينبغى وقيل معناه يجدد لهم القرآن عبرة وعظة فيعتبرون ويتعظون بذكر عقاب الله الأمم السالفة قوله تعالى (فتعالى الله الملك الحق) أى جل الله وعظم عن إلحاد الملحدين وعما يقوله المشركون والجاحدون وقيل فيه تنبيه على مايلزم خلقه من تعظيمه وتمجيده وقيل إنما وصف نفسه بالملك الحق لأن ملكه لا يزول ولايتغير وليس بمستفاد من قبل الغير ولا غيره أولى به منه (ولاتعجل بالقرآن)

عن ذلك وقال ولا تعجل بالقرآن أي لا تعجل بقراءته (من قبل أن يقضى إليك وحيه) أي من قبل أن يفرغ جبريل من الإبلاغ نظيره قوله تعالى «لا تحرك به لسانك لتعجل به» وقرأ يعقوب نقضي بالنون وفتحها وكسر الضاد وفتح الياء وحيه بالنصب، وقال مجاهد وقتادة معناه لا تقرئه أصحابك ولا تمله عليهم حتى يتبين لك معانيه (وقل رب زدني علما) يعني بالقرآن ومعانيه وقيل علما إلى ما علمت وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال اللهم زدني إيمانا ويقينا قوله تعالى (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل) يعني أمرناه وأوحينا إليه أن لا يأكل من (٢٨٢) الشجرة من قبل هؤلاء الذين نقضوا عهدي وتركوا الإيمان بي وهم الذين ذكرهم الله في قوله تعالى «لعلهم يتقون» (فنسي) فترك الأمر والمعنى أنهم نقضوا العهد فإن آدم أيضا عهدنا إليه فنسي (ولم نجد له عزما) قال الحسن لم نجد له صبرا عما نهى الله عنه وقال عطية العوفي حفظا لما أمر به وقال ابن قتيبة رأيا معزوما حيث أطاع عدوه إبليس الذي حسده وأبى أن يسجد له والعزم في اللغة هو توطين النفس على الفعل قال أبو أمامة الباهلي لو وزن حلم آدم بحلم جميع ولده لرجح حلمه وقد قال الله «ولم نجد له عزما» فإن قيل أتقولون إن آدم كان ناسيا لأمر الله حين أكل من الشجرة قيل يجوز أن يكون نسي أمره ولم يكن النسيان في ذلك الوقت مرفوعا عن الإنسان بل كان مؤاخذا به وإنما رفع عنا وقيل نسي عقوبة الله وظن أنه نهاه تنزيها قوله تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى) حصول أن يسجد (فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك) حواء (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) يعني تتعب وتنصب ويكون عيشك من كد يمينك بعرق جبينك قال السدي يعني الحرث والزرع والحصيد والطحن والخبز وعن سعيد بن جبير قال أهبط إلى آدم ثورا أحمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه فذلك شقاؤه ولم يقل فتشقيا رجوعا به إلى آدم لأن تعبه أكثر فإن الرجل هو الساعي على زوجته وقيل لأجل رءوس الآي (إن لك أن لا تجوع فيها) أي في الجنة (ولا تعرى وأنك) قرأ نافع وأبو بكر بكسر الألف على الاستئناف وقرأ الآخرون بالفتح نسقا على قوله ألا تجوع فيها (لا تظمأ) لا تعطش (فيها ولا تضحى) يعني

أراد النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل عليه جبريل بالقرآن يبادره فيقرأ معه قبل أن يفرغ جبريل مما يريده من التلاوة مخافة الانفلات أو النسيان فنهاه الله تعالى عن ذلك فقال تعالى «ولا تعجل بالقرآن» أي ولا تعجل بقراءته (من قبل أن يقضى إليك وحيه) أي من قبل أن يفرغ جبريل من الإبلاغ وقيل معناه لا تقرئه أصحابك ولا تمله عليهم حتى يتبين لك معناه (وقل رب زدني علما) فيه التواضع والشكر لله والمعنى زدني علما إلى ما علمت فإن لك في كل شيء علما وحكمة قيل ما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية يقول اللهم زدني علما وإيمانا ويقينا قوله عز وجل (ولقد عهدنا إلى آدم) يعني أمرناه وأوحينا إليه أن لا يأكل من الشجرة (من قبل) أي من قبل هؤلاء الذين نقضوا عهدي وتركوا الإيمان بي وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله تعالى «لعلهم يتقون» (فنسي) أي فترك ما عهدنا إليه من الاحتراز عن أكل هذه الشجرة وأكل منها وقيل أراد النسيان الذي هو ضد الذكر (ولم نجد له عزما) أي صبرا عما نهي عنه وحفظا لما أمر به وقيل معناه لم نجد له رأيا معزوما حيث أطاع عدوه إبليس الذي حسده وأبى أن يسجد له وقيل معناه لم نجد له عزما على المقام على المعصية فيكون إلى المدح أقرب قوله عز وجل (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى) أن يسجد (فقلنا يا آدم إن هذا) أي إبليس (عدو لك ولزوجك) أي حواء وسبب العداوة ما رأى من آثار نعمة الله على آدم فحسده فصار عدوا له (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) أسند الخروج إليه وإن كان الله تعالى هو المخرج لأنه لما كان بوسوسته وفعل آدم ما يترتب عليه الخروج صح ذلك ومعنى تشقى تتعب وتنصب ويكون عيشك من كد يمينك بعرق جبينك وهو الحرث والزرع والحصد والطحن والخبز قيل أهبط إلى آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه فكان ذلك شقاءه. فإن قلت لم أسند الشقاء إلى آدم دون حواء. قلت فيه وجهان أحدهما أن في ضمن شقاء الرجل شقاء أهله كما أن في سعادته سعادتهم لأنه القيم عليهم الثاني إنه أريد بالشقاء التعب في طلب القوت وذلك على الرجل دون المرأة لأن الرجل هو الساعي على زوجته (إن لك أن لا تجوع فيها) يعني الجنة (ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها) أي تعطش (ولا تضحى) أي تبرز للشمس فيؤذيك حرها لأنه ليس في الجنة شمس وأهلها في ظل ممدود والمعنى أن الشبع والري والكسوة والكن هي الأمور التي يدور عليها كفاف الإنسان فذكر الله تعالى

حصول هذه الأشياء فى الجنة وإنه مكفى لا يحتاج إلى كفاية كاف ولا إلى كسب كاسب كما يحتاج إليه أهل الدنيا (فوسوس إليه الشيطان) أى أنهى إليه الوسوسة فأسر إليه ثم بين تلك الوسوسة ماهى فقال (قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد) أى على الشجرة التى إن أكلت منها بقيت مخلدا (وملك لا يبلى) أى لا يبيد ولا يفنى رغبة فى دوام الراحة فكان الشىء الذي رغب الله فيه آدم رغبه إبليس فيه إلا أن الله تعالى وقف ذلك على الاحتراز عن تلك الشجرة وإبليس وقفه على الإقدام عليها وآدم مع كمال علمه بأن الله تعالى هو خالقه وربه ومولاه وناصره وإبليس هو عدوه أعرض عن قول الله تعالى ولم يرد المخالفة ومن تأمل هذا السر عرف أنه لادافع لقضاء الله ولامانع له منه . وقوله تعالى (فأكلا منها) يعنى أكل آدم وحواء من الشجرة (فبدت لهما سوآتهما) أى عريا من الثياب التى كانت عليهما حتى بدت فروجهما وظهرت عوراتهما (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) أى يلزقان بسوآتهما من ورق التين (وعصى آدم ربه) أى بأكل الشجرة (فغوى) أى فعل مالم يكن له فعله وقيل أخطأ طريق الحق وضل حيث طلب الخلد بأكل مانهى عنه فخاب ولم ينل مراده وصار من العز إلى الذل ومن الراحة إلى التعب قال ابن قتيبة يجوز أن يقال عصى آدم ولا يجوز أن يقال آدم عاص لأنه إنما يقال لمن اعتاد فعل المعصية كالرجل يخيط ثوبه يقال خاط ثوبه ولا يقال هو خياط حتى يعاود ذلك مرارا ويعتاده (ق) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا أخرجتنا من الجنة فقال له آدم أنت ياموسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده أفتلومنى على أمر قدره الله تعالى على قبل أن يخلقنى بأربعين عاما فحج آدم موسى » وفى رواية لمسلم « قال آدم بكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق قال موسى بأربعين سنة قال فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال له نعم قال فهل تلومنى على أن عملت عملا كتب الله على أن أعمله قبل أن يخلقنى بأربعين سنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى » .

(الكلام على معنى الحديث وشرحه)

قوله احتج آدم وموسى المحاجة المجادلة والمخاصمة يقال حاججت فلانا فحججته أى جادلته فغلبته قال أبو سليمان الخطابى قد يحسب كثير من الناس أن معنى القدر والقضاء من الله تعالى على معنى الإجبار والقهر للعبد على ماقضاه وقدره ويتوهم أن قوله فحج آدم موسى من هذا الوجه وليس كذلك وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله بما يكون من أفعال العباد وإكسابهم وصدورها عن تقدير منه وخلق لها خيرها وشرها والقدر اسم لما صدر مقدرا عن فعل القادر والقضاء فى هذا معناه الخلق وإذا كان الأمر كذلك فقد بقى عليهم من وراء علم الله فيهم أفعالهم وأكسابهم ومباشرتهم الأمور وملابستهم إياها عن قصد وتعمد وتقدم إرادة واختيار فالحجة إنما تلزمهم بها واللائمة تلحقهم عليها وجماع القول فى هذا أنهما أمران لاينفك أحدهما عن الآخر لأن أحدهما بمنزلة الأساس والآخر بمنزلة البناء فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه وإنما موضع الحجة لآدم على موسى أن الله تعالى كان قد علم من آدم أنه يتناول الشجرة ويأكل منها فكيف يمكنه أن يرد علم الله فيه وأن يبطله بعد ذلك وإنما كان تناوله الشجرة سببا لنزوله إلى الأرض التى خلق لها وإنما أدلى آدم بالحجة على هذا المعنى ودفع لائمة موسى عن نفسه ولذلك قال أتلومنى على أمر قدره الله على من قبل أن يخلقنى .

وأهلها فى ظل ممدود (فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد) يعنى على شجرة إن أكلت منها بقيت مخلدا (وملك لايبلى) لايبيد ولا يفنى (فأكلا) يعنى آدم وحواء عليهما السلام (منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه) بأكل الشجرة (فغوى) يعنى فعل مالم يكن له فعله وقيل أخطأ طريق الحق وضل حيث طلب الخلد بأكل مانهى عن أكله فخاب ولم ينل مراده وقال ابن الأعرابى أى فسد عليه عيشه وصار من العز إلى الذل ومن الراحة إلى التعب قال ابن قتيبة يجوز أن يقال عصى آدم ولا يجوز أن يقال آدم عاص لأنه إنما يقال عاص لمن اعتاد فعل المعصية كالرجل يخيط ثوبه يقال خاط ثوبه ولايقال هو خياط حتى يعاود ذلك ويعتاده حدثنا أبو الفضل زياد بن محمد الحنفى أنا أبو معاذ الشاه عبد الرحمن المزنى أنا أبوبكر عبد الله بن محمد بن زياد النيسابورى ببغداد أنا يونس بن عبد الأعلى الصدفى أنا سفيان بن عيينة بن عمرو بن دينار

(فصل : فى بيان عصمة الأنبياء وما قيل فى ذلك)

قال الإمام فخر الدين الرازى اختلف الناس فى عصمة الأنبياء وضبط القول فيها يرجع إلى أقسام أربعة : أحدها مايقع فى باب الاعتقاد وهو اعتقاد الكفر والضلال فان ذلك غير جائز عليهم . الثانى ما يتعلق بالتبليغ فقد أجمعت الأمة على كونهم معصومين عن الكذب مواظبين على التبليغ والتحريض وإلا لارتفع الوثوق بالأداء واتفقوا على أن ذلك لايجوز وقوعه منهم عمدا ولا سهوا ومن الناس من جوز ذلك سهوا قالوا لأن الاحتراز عنه غير ممكن الثالث مايتعلق بالفتيا فأجمعوا على أنه لا يجوز خطؤهم فيها على سبيل العمد وأجازه بعضهم على سبيل السهو الرابع مايقع فى أفعالهم فقد اختلفت الأمة فيه على خمسة أقوال أحدها قول من جوز عليهم الكبائر الثانى قول من منع من الكبائر وجوز الصغائر على جهة العمد وهو قول أكثر المعتزلة الثالث لايجوز أن يأتوا بصغيرة ولا كبيرة البتة بل على جهة التأويل وهو قول الجبائى الرابع أنه لايقع منهم الذنب إلا على جهة السهو والخطأ الخامس أنه لايقع منهم لا كبيرة ولاصغيرة لاعلى سبيل العمد ولاعلى سبيل السهو ولاعلى سبيل التأويل وهو قول الشيعة واختلف الناس فى وقت العصمة على ثلاثة أقوال أحدها قول من ذهب إلى أنهم معصومون من حين وقت الولادة وهو قول الشيعة الثانى قول من ذهب إلى عصمتهم من وقت بلوغهم وهو قول أكثر المعتزلة الثالث قول من ذهب إلى أن ذلك لايجوز منهم بعد النبوة وهو قول أكثر أصحابنا وأبى الهزيل وأبى على من المعتزلة قال الإمام والمختار عندنا أنه لم يصدر عنهم ذنب لاصغيرة ولاكبيرة من حين جاءتهم النبوة ويدل عليه وجوه أحدها لو صدر الذنب عنهم لكانوا أقل درجة من أحد الأمة وذلك غير جائز لأن درجة الأنبياء غاية فى الرفعة والشرف الثانى لو صدر منه وجب أن لايكون مقبول الشهادة فكان أقل حالا من عدول الأمة وذلك غير جائز أيضا لأن معنى النبوة والرسالة هو أنه يشهد على الله أنه شرع هذا الحكم وأيضا فانه يوم القيامة شاهد على الكل الثالث لو صدر من النبى ذنب وجب الاقتداء به فيه وذلك محال الرابع ثبت ببديهة العقل أنه لاشىء أقبح بمن رفع الله درجته وائتمنه على وحيه وجعله خليفته فى عباده وبلاده يسمع ربه يناديه لاتفعل كذا فيقدم عليه ويفعله ترجيحا لغرضه واجتمعت الأمة على أن الأنبياء كانوا يأمرون الناس بطاعة الله فلو لم يطيعوه لدخلوا تحت قوله «أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون» وقال «وماأريد أن أخالفكم إلى ماأنهاكم عنه» الخامس قال الله تعالى «إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات» ولفظه للعموم فيتناول الكل ويدل على فعل ماينبغي فعله وترك ماينبغى تركه فثبت أن الأنبياء كانوا فاعلين لكل خير وتاركين لكل منهى وذلك ينافى صدور الذنب عنهم السادس قال الله تعالى «الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير» وقال تعالى «إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين» وقال تعالى فى حق موسى «إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى» وقال تعالى «واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار» وغير ذلك من الآيات التى تدل على كونهم موصوفين بالإصطفاء والخيرة وذلك ينافى صدور الذنب عنهم وذكر غير ذلك من الوجوه . قال وأما المخالف فقد تمسك

بآيات

عن طاوس سمع أباهريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا وأخرجتنا من الجنة فقال آدم ياموسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده أفلومنى على أمر قدره الله على قبل أن يخلقنى بأربعين سنة فحج آدم موسى» ورواه عبد الرحمن الأعرج عن أبى هريرة وزاد «قال آدم يا موسى بكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق قال موسى بأربعين عاما قال آدم فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال نعم قال أفتلومنى على أن عملت عملا كتبه الله على أن أعمله قبل أن يخلقنى بأربعين سنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى»

بآيات منها قصة آدم هذه والجواب عنها أن نقول إن كلامهم إنما يتم أن لو بينوا بالدلالة أن ذلك كان حال النبوة وذلك ممنوع ولم لا يجوز أن يقال إن آدم حال ماصدرت عنه هذه الأشياء ماكان نبيا وإن هذه الواقعة كانت قبل النبوة وإن الله تعالى قبل توبته وشرفه بالنبوة والرسالة وقال القاضي عياض وأما قصة آدم وقوله «وعصى آدم ربه فغوى» أي جهل وقيل أخطأ فقد أخبر الله تعالى بعذره في قوله «ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما» أي نسي عداوة إبليس له وماعهد الله إليه وقيل لم يقصد المخالفة استحلالا لها ولكنه اغتر بحلف إبليس له إني لكما لمن الناصحين وتوهم أن أحدا لا يحلف بالله كاذبا وقيل نسي ولم ينو المخالفة فلذلك قال ولم نجد له عزما أي قصدا للمخالفة وقيل بل أكل من الشجرة متأولا وهو لا يعلم أنها الشجرة التي نهي عنها لأنه تأول نهي الله عن شجرة مخصوصة لا على الجنس ولهذا قيل إنما كانت التوبة من ترك التحفظ لا من المخالفة وقيل تأول أن الله تعالى لم ينهه نهي تحريم. فإن قلت إذا نفيت عنهم الذنوب والمعاصي فما معنى قوله «وعصى آدم ربه فغوى» وما تكرر في القرآن والحديث من اعتراف الأنبياء بذنوبهم وتوبتهم واستغفارهم وإشفاقهم وبكائهم على ما سلف منهم وهل يتوب ويستغفر من لا شيء عليه. قلت إن درجة الأنبياء في الرفعة والعلو والمعرفة بالله وسنته في عباده وعظم سلطانه وقوة بطشه مما يحملهم على الخوف منه جل جلاله والإشفاق من المؤاخذة بما لا يؤاخذ به غيرهم وانهم في تصرفهم بأمور لم ينهوا عنها ولم يؤمروا بها وآتوها على وجه التأويل أو السهو وتزيدوا من أمور الدنيا المباحة أوخذوا عليها وعوتبوا بسببها أو حذروا من المؤاخذة بها فهم خائفون وجلون وهي ذنوب بالإضافة إلى علو منصبهم ومعاص بالنسبة إلى كمال طاعتهم لأنها ذنوب كذنوب غيرهم ومعاصيهم كان هذا أدنى أفعالهم وأسوأ ما يجري من أحوالهم كما قيل حسنات الأبرار سيئات المقربين أي يرونها بالإضافة إلى علو أحوالهم كالسيئات وسنذكر في كل موضع ما يليق به وما قيل فيه إن شاء الله تعالى. قوله عز وجل (ثم اجتباه ربه) أي اختاره واصطفاه (فتاب عليه) أي عاد عليه بالعفو والمغفرة (وهدى) أي هداه لرشده حتى رجع إلى الندم والاستغفار (قال اهبطا منها جميعا) قيل الخطاب لآدم ومعه ذريته ولإبليس ومعه ذريته فصح قوله اهبطا لاشتمال كل واحد من الجنسين على الكثرة وقيل الخطاب لآدم وحواء لأنهما أصل البشر فجعلا كأنهما البشر فخوطبا بلفظ الجمع (بعضكم لبعض عدو) وقيل في تقوية هذا الظاهر حقه أن يكون إبليس والشياطين أعداء الناس ويحتمل أن يكون بعض الفريقين لبعض عدوا (فإما يأتينكم مني هدى) أي كتاب ورسول (فمن اتبع هدى) أي الكتاب والرسول (فلا يضل ولا يشقى) قال ابن عباس من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة ووقاه يوم القيامة سوء الحساب وذلك لأن الله تعالى يقول فمن اتبع هداي فلا يضل أي في الدنيا ولا يشقى أي في الآخرة (ومن أعرض عن ذكري) يعني القرآن فلم يؤمن به ولم يتبعه (فإن له معيشة ضنكا) روي عن ابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهم أنهم قالوا هو عذاب القبر قال أبو سعيد يضغط في القبر حتى تختلف أضلاعه وفي بعض المسانيد مرفوعا يلتئم عليه القبر حتى تختلف أضلاعه فلا يزال يعذب حتى يبعث وقيل هو الزقوم والضريع والغسلين في النار وقيل هو الحرام والكسب الخبيث وقال ابن عباس الشقاء وعنه قال كل ما أعطى العبد قل أم كثر فلم يتق فيه فلا خير فيه وهو الضنك في المعيشة

(قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي) يعني الكتاب والرسول (فلا يضل ولا يشقى) روى سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال «من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله في الدنيا من الضلالة ووقاه الله يوم القيامة سوء الحساب وذلك بأن الله يقول فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى» وقال الشعبي عن ابن عباس أجار الله تعالى تابع القرآن من أن يضل في الدنيا ويشقى في الآخرة وقرأ هذه الآية (ومن أعرض عن ذكري) يعني القرآن فلم يؤمن به ولم يتبعه (فإن له معيشة ضنكا) ضيقا روي عن ابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري أنهم قالوا هو عذاب القبر قال أبو سعيد يضغط حتى تختلف أضلاعه وفي بعض المسانيد مرفوعا يلتئم عليه القبر حتى تختلف أضلاعه فلا يزال يعذب حتى يبعث وقال الحسن هو الزقوم والضريع والغسلين في النار وقال عكرمة هو الحرام وقال الضحاك هو الكسب الخبيث وعن ابن عباس قال الشقاء

وروى عنه انه قال كل مال اعطى العبد قل أم كثر فلم يتق فيه فلا خير فيه وهو الضنك فى المعيشة وإن أقواما أعرضوا عن الحق وكانوا أولى سعة من الدنيا مكثرين فكانت معيشتهم ضنكا وذلك أنهم يرون الله ليس بمخلف لهم فاشتدت عليهم معايشهم من سوء ظنهم بالله قال سعيد بن جبير يسلبه القناعة حتى لا يشبع (ونحشره يوم القيامة أعمى) قال ابن عباس أعمى البصر وقال مجاهد أعمى عن الحجة (قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا) بالعين أو بصيرا بالحجة (قال كذلك) أى كما (أتتك آياتنا فنسيتها) فتركتها وأعرضت عنها (وكذلك اليوم تنسى) تترك فى النار قال قتادة نسوا من الخير ولم ينسوا من العذاب (وكذلك) أى وكما جزينا من أعرض عن القرآن كذلك (نجزى من أسرف) أشرك (ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد) مما يعذبهم به فى الدنيا والقبر (وأبقى) وأدوم (٢٨٦) (أفلم يهد لهم) يبين لهم القرآن يعنى كفار مكة (كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم) ديارهم ومنازلهم إذا سافروا والخطاب لقريش كانوا يسافرون إلى الشام فيرون ديار المهلكين من أصحاب الحجر وثمود وقريات قوم لوط (إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) لذوى العقول (ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى) فيه تقديم وتأخير تقديره ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما والكلمة الحكم بتأخير العذاب عنهم أي ولولا حكم سبق بتأخير العذاب عنهم وأجل مسمى وهو القيامة لكان لزاما أى لكان العذاب لازما لهم فى الدنيا كما لزم القرون الماضية الكافرة (فاصبر على ما يقولون) نسختها آية القتال (وسبح بحمد ربك) أى صل بأمر ربك، وقيل صل لله بالحمدلة والثناء عليه (قبل طلوع الشمس) يعنى صلاة الصبح (وقبل غروبها) صلاة العصر (ومن آناء الليل) ساعاته واحدها إنى (فسبح) يعنى صلاة المغرب والعشاء قال ابن عباس يريد أول الليل (وأطراف النهار) يعنى صلاة الظهر وسمى وقت الظهر أطراف النهار لأن وقته عند الزوال وهو النصف الأول انتهاء وطرف النصف الآخر ابتداء وقيل المراد من آناء الليل صلاة العشاء ومن أطراف النهار صلاة الظهر والمغرب لأن الظهر فى آخر الطرف الأول من النهار وفى أول الطرف الآخر من النهار فهو فى طرفين منه والطرف الثالث غروب الشمس وعند ذلك يصلى المغرب (لعلك ترضى) أى ترضى ثوابه فى المعاد وقرأ الكسائى وأبو بكر عن عاصم ترضى بضم التاء أى تعطى ثوابه وقيل ترضى أى يرضاك الله تعالى كما قال «وكان عند ربه مرضيا» وقيل معنى الآية لعلك ترضى بالشفاعة كما قال «ولسوف يعطيك ربك فترضى» أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن العباس الخطيب الحميدى أنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله

وإن قوما أعرضوا عن الحق وكانوا أولى سعة من الدنيا مكثرين منها فكانت معيشتهم ضنكا وذلك أنهم يرون أن الله ليس بمخلف لهم فاشتدت عليهم معايشهم من سوء ظنهم بالله تعالى وقيل يسلب القناعة حتى لا يشبع (ونحشره يوم القيامة أعمى) قال ابن عباس أعمى البصر وقيل أعمى عن الحجة (قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا) يعنى بصير العين أو بصيرا بالحجة (قال كذلك) يعنى كما (أتتك آياتنا فنسيتها) يعنى فطرحتها وأعرضت عنها (وكذلك اليوم تنسى) يعنى تترك فى النار وقيل نسوا من الخير والرحمة ولم ينسوا من العذاب (وكذلك نجزى من أسرف) يعنى كما جزينا من أعرض عن القرآن كذلك نجزى من أسرف أى أشرك (ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد) يعنى مما يعذبهم الله به فى الدنيا والقبر (وأبقى) يعنى وأدوم قوله تعالى (أفلم يهد لهم) يعنى أفلم يبين القرآن لكفار مكة (كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم) يعنى فى ديارهم ومنازلهم إذا سافروا وذلك أن قريشا كانوا يسافرون إلى الشام فيرون ديار المهلكين من أصحاب الحجر وهم ثمود وقريات قوم لوط (إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) أى لذوى العقول (ولولا كلمة سبقت من ربك) أى ولولا حكم سبق بتأخير العذاب عنهم (لكان لزاما وأجل مسمى) تقديره ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى وهو القيامة لكان العذاب لازما لهم فى الدنيا كما لزم القرون الماضية الكافرة (فاصبر على ما يقولون) نسختها آية السيف (وسبح بحمد ربك) أى صل بأمر ربك (قبل طلوع الشمس) يعنى صلاة الفجر (وقبل غروبها) أى صلاة العصر (ومن آناء الليل) أى ومن ساعاته (فسبح) يعنى فصل المغرب والعشاء قال ابن عباس يريد أول الليل (وأطراف النهار) يعنى صلاة الظهر سمى وقت الظهر أطراف النهار لأن وقته عند الزوال وهو طرف النصف الأول انتهاء وطرف النصف الآخر ابتداء (لعلك ترضى) أى ترضى ثوابه فى المعاد وقيل معناه لعلك ترضى بالشفاعة وقرىء ترضى بضم التاء أى تعطى ثوابه وقيل يرضاك ربك (ق) عن جرير بن عبد الله قال «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال إنكم سترون ربكم عيانا كما

الحافظ أنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب الشيباني إملاء أنا إبراهيم بن عبد الله السعدي أنا يزيد بن هرون أنا إسمعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبد الله قال «كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لاتضامون في رؤيته فان استطعتم أن لاتغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» قوله تعالى (ولاتمدن عينيك) قال أبو رافع «نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فبعثني إلى يهودي فقال لي قل له إن رسول الله يقول لك بعني كذا وكذا من الدقيق وأسلفني إلى هلال رجب فأتيته فقلت له ذلك فقال والله لا أبيعه ولا أسلفه إلا برهن فأتيت (٢٨٧) رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال والله لئن باعني وأسلفني لقضيته وإني لأمين في السماء وأمين في الأرض اذهب بدرعي الحديد إليه فنزلت هذه الآية ولاتمدن عينيك» لاتنظر (إلى مامتعنا به) أعطينا (أزواجا) أصنافا (منهم زهرة الحياة الدنيا) أي زينتها وبهجتها وقرأ يعقوب زهرة بفتح الهاء وقرأ العامة بجزمها (لنفتنهم فيه) أي لنجعل ذلك فتنة لهم بأن أزيد لهم النعمة فيزيدوا كفرا وطغيانا (ورزق ربك) في المعاد يعني في الجنة (خير وأبقى) قال أبي بن كعب من لم يستعز بعز الله تقطعت نفسه حسرات ومن يتبع بصره فيما في أيدي الناس يطل حزنه ومن ظن أن نعمة الله في مطعمه ومشربه وملبسه فقد قل عمله وحضر عذابه (وأمر أهلك بالصلاة) أي قومك وقيل من كان على دينك كقوله تعالى «وكان يأمر أهله بالصلاة» (واصطبر عليها) أي اصبر على الصلاة فانها تنهى عن الفحشاء والمنكر (لانسألك رزقا) لانكلفك أن ترزق أحدا من خلقنا ولا أن ترزق نفسك وإنما نكلفك عملا (نحن نرزقك والعاقبة) الخاتمة الجميلة المحمودة (للتقوى) أي لأهل التقوى قال ابن عباس يعني الذين صدقوك واتبعوك واتقوني وفي بعض المسانيد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية قوله تعالى (وقالوا) يعني المشركين (لولا يأتينا بآية من ربه) أي الآية المقترحة فانه كان قد أتاهم بآيات كثيرة (أو لم تأتهم بينة) قرأ أهل المدينة والبصرة وحفص عن عاصم تأتهم لتأنيث البينة وقرأ الآخرون بالياء لتقدم الفعل ولأن البينة هي البيان فرد إلى المعنى بينة (مافي الصحف الأولى) يعني

ترون هذا القمر لاتضامون في رؤيته فان استطعتم أن لاتغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها قوله لاتضامون بتخفيف الميم من الضيم وهو الظلم والمعنى أنكم ترونه جميعا لايظلم بعضكم بعضا في رؤيته وروى بتشديد الميم من الانضمام والازدحام أي لايزدحم ولا ينضم بعضكم إلى بعض في رؤيته والكاف في قوله كما ترون هذا القمر كاف التشبيه للرؤية لاللمرئي وهي فعل الرائي ومعناه ترون ربكم رؤية ينزاح معها الشك كرؤيتكم هذا القمر ليلة البدر لاترتابون فيه ولاتشكون قوله عز وجل (ولاتمدن عينيك) قال أبو رافع «نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فبعثني إلى يهودي فقال قل له إن رسول الله ﷺ يقول بعني كذا وكذا من الدقيق أو سلفني إلى هلال رجب فأتيته فقلت له ذلك فقال والله لاأبيعه ولا أسلفه إلا برهن فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال والله لئن باعني أو أسلفني لقضيته إني لأمين في السماء وأمين في الأرض اذهب بدرعي الحديد إليه فنزلت هذه الآية ولاتمدن عينيك» أي لاتنظر نظرا تكاد ترديده استحسانا للمنظور إليه وإعجابا به وتمنيا له (إلى مامتعنا به) أي أعطينا (أزواجا) أي أصنافا (منهم زهرة الحياة الدنيا) أي زينتها وبهجتها (لنفتنهم فيه) أي لنجعل ذلك فتنة لهم بأن تزيد النعمة فيزيدوا كفرا وطغيانا (ورزق ربك) أي في المعاد في الجنة (خير وأبقى) أي أدوم وقال أبي ابن كعب من لم يعتز بعز الله تقطعت نفسه حسرات ومن أتبع بصره مافي أيدي الناس يطل حزنه ومن ظن أن نعمة الله عليه في مطعمه ومشربه وملبسه فقد قل عمله وحضر عذابه . قوله تعالى (وأمر أهلك) أي قومك وقيل من كان على دينك (بالصلاة) يعني بالمحافظة عليها (واصطبر عليها) يعني اصبر على الصلاة فانها تنهى عن الفحشاء والمنكر وقيل اصبر عليها فعلا فان الوعظ بلسان الفعل أبلغ منه بلسان القول (لانسألك رزقا) أي لانكلفك أن ترزق أحدا من خلقنا ولا أن ترزق نفسك بل نكلفك عملا (نحن نرزقك) أي بل نحن نرزقك ونرزق أهلك (والعاقبة للتقوى) أي الخصلة المحمودة لأهل التقوى قال ابن عباس الذين صدقوك واتبعوك وآمنوا بك وفي بعض المسانيد أن «النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية» قوله تعالى (وقالوا) يعني المشركين (لولا يأتينا بآية من ربه) أي بالآية المقترحة فانه كان قد أتاهم بآيات كثيرة (أولم تأتهم بينة مافي الصحف الأولى) أي بيان مافيها وهو القرآن لأنه أقوى دلالة وأوضح آية وقيل معنى

بيان مافيها وهو القرآن أقوى دلالة وأوضح آية وقيل أولم يأتهم بيان ما فى الصحف الأولى التوراة والإنجيل وغيرهما من أنباء الأمم أنهم اقترحوا الآيات فلما أتتهم ولم يؤمنوا بها كيف عجلنا لهم العذاب والهلاك فما يؤمنهم إن أتتهم الآية أن يكون حالهم كحال أولئك (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله) يعنى من قبل إرسال الرسول وإنزال القرآن (لقالوا ربنا لولا) هلا (أرسلت إلينا رسولا) يدعونا أى لقالوا يوم القيامة (فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) بالعذاب والذل والهوان والخزى والافتضاح (قل كل متربص) منتظر دوائر الزمان وذلك أن المشركين قالوا نتربص بمحمد حوادث الدهر فإذا مات تخلصنا قال الله تعالى (فتربصوا) (٢٨٨) فانتظروا (فستعلمون) إذا جاء أمر الله وقامت القيامة (من أصحاب الصراط السوى) المستقيم (ومن اهتدى) من الضلالة نحن أم أنتم.

(سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مكية وهى مائة واثنتاعشرة آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(اقترب للناس) قيل اللام بمعنى من يعنى اقترب من الناس حسابهم يعنى وقت محاسبة الله إياهم على أعمالهم يعنى يوم القيامة نزلت فى منكرى البعث (وهم فى غفلة معرضون) عن التأهب له (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) يعنى ما يحدث الله من تنزيل شىء من القرآن يذكرهم ويعظهم به قال مقاتل يحدث الله الأمر بعد الأمر وقيل الذكر المحدث ما قاله النبى صلى الله عليه وسلم وبينه من السنن والمواعظ سوى القرآن وأضافه إلى الرب عز وجل لأنه قال بأمر الرب (إلا استمعوه وهم يلعبون) يعنى استمعوه لاعبين لا يعتبرون ولا يتعظون (لاهية) ساهية غافلة (قلوبهم) معرضة عن ذكر الله وقوله لاهية نعت تقدم الاسم ومن حق النعت أن يتبع الاسم فى الإعراب وإذا تقدم النعت الاسم فله حالتان فصل ووصل فحالته فى الفصل النصب كقوله تعالى «خشعا أبصارهم» ودانية عليهم ظلالها «ولاهية قلوبهم» وفى الوصل حالة ماقبله من الإعراب كقوله «ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها» (وأسروا النجوى الذين ظلموا) يعنى أشركوا قوله وأسروا فعل تقدم الجمع وكان

التناجى

ما فى الصحف ما فى التوراة والإنجيل وغيرهما من أخبار الأمم أنهم اقترحوا الآيات فلما أتتهم لم يؤمنوا فعجلنا لهم العذاب والهلاك فما يؤمنهم إن أتتهم الآية أن يكون حالهم كحال أولئك وقيل بينة ما فى الصحف الأولى هى البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم ونبوته وبعثته (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله) أى من قبل إرسال الرسل وإنزال القرآن (لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا) أى لقالوا يوم القيامة لولا أرسلت إلينا رسولا يدعونا (فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) بالعذاب والهوان والافتضاح (قل كل متربص) أى منتظر دوائر الزمان وذلك أن المشركين قالوا نتربص بمحمد ريب المنون وحوادث الدهر فإذا مات تخلصنا قال الله تعالى (فتربصوا) أى فانتظروا (فستعلمون) أى إذا جاء أمر الله وقامت القيامة (من أصحاب الصراط السوى) يعنى المستقيم (ومن اهتدى) يعنى من الضلالة نحن أم أنتم والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

(تفسير سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام)

وهى مكية وعدد آياتها مائة واثنتاعشرة آية وألف ومائة وثمان وستون كلمة وأربعة آلاف وثمانمائة وتسعون حرفا.

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (اقترب للناس حسابهم) أى وقت محاسبة الله إياهم على أعمالهم يوم القيامة نزلت فى منكرى البعث وإنما ذكر الله هذا الاقتراب لما فيه من المصلحة للمكلفين فيكونون أقرب إلى التأهب له والمراد بالناس المحاسبون وهم المكلفون دون غيرهم وقيل هم المشركون وهذا من باب إطلاق اسم الجنس على بعضه (وهم فى غفلة معرضون) أى عن التأهب له وقيل معناه أنهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون فى عاقبتهم مع اقتضاء عقولهم أنه لا بد من جزاء المحسن والمسيء ثم إذا نبهوا من سنة الغفلة بما يتلى من الآيات والنذر أعرضوا عنه (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) يعنى ما يحدث الله من تنزيل شىء من القرآن يذكرهم ويعظهم به وقيل معناه إن الله يحدث الأمر بعد الأمر فينزل الآية بعد الآية والسورة بعد السورة فى وقت الحاجة لبيان الأحكام وغيرها من الأمور والوقائع وقيل الذكر المحدث ما قاله النبى صلى الله عليه وسلم وبينه من السنن والمواعظ سوى ما فى القرآن وأضافه إليه لأن الله تعالى قال وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى (إلا استمعوه وهم يلعبون) أى لاعبين لا يعتبرون ولا يتعظون (لاهية قلوبهم) أى ساهية معرضة غافلة عن ذكر الله (وأسروا النجوى الذين ظلموا) أى بالغوا فى إخفاء

حقه وأسر قال الكسائى فيه تقديم وتأخير أراد الذين ظلموا أسروا النجوى وقيل محل الذين رفع على الابتداء معناه وأسروا النجوى ثم قال وهم الذين ظلموا وقيل رفع على البدل من الضمير فى أسروا قال المبرد هذا كقولك إن الذين فى الدار انطلقوا بنو عبد الله على البدل مما فى انطلقوا ثم بين سرهم الذى تناجوا به فقال (هل هذا إلا بشر مثلكم) أنكروا إرسال البشر وطلبوا إرسال الملائكة (أفتأتون السحر) يعنى تحضرون السحر وتقبلونه (وأنتم تبصرون) تعلمون أنه سحر (قال) لهم محمد (ربى يعلم القول فى السماء والأرض) قرأ حمزة والكسائى وحفص قال ربى على الخبر عن محمد صلى الله عليه وسلم يعلم القول فى السماء والأرض أى لا يخفى عليه شىء (وهو السميع) لأقوالهم (العليم) بأفعالهم (بل قالوا أضغاث أحلام) أباطيلها وأقاويلها وأهاويلها رآها فى النوم (بل افتراه) اختلقه (بل هو شاعر) يعنى أن المشركين اقتسموا القول فيه وفيما يقوله قال بعضهم أضغاث أحلام وقال بعضهم بل هو فرية وقال بعضهم بل هو محمد شاعر وما جاءكم به شعر (فليأتنا) محمد (بآية) إن كان صادقا (كما أرسل الأولون) من الرسل بالآيات قال الله تعالى مجيبا لهم (ما آمنت قبلهم) أى قبل مشركى مكة (من قرية) أى من أهل قرية أتتهم الآيات (أهلكناها) أهلكناهم بالتكذيب (أفهم يؤمنون) إن جاءتهم آية معناه أولئك لم يؤمنوا بالآيات لما أتتهم أفيؤمن هؤلاء (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم) هذا جواب لقولهم هل هذا إلا بشر مثلكم يعنى إنا لم نرسل الملائكة إلى

الأولين إنما أرسلنا رجالا نوحى إليهم (فاسئلوا أهل الذكر) يعنى أهل التوراة والإنجيل يريد علماء أهل الكتاب فانهم لا ينكرون أن الرسل كانوا بشرا وإن أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأمر المشركين بمسألتهم لأنهم إلى تصديق من لم يؤمن بالنبى صلى الله عليه وسلم أقرب منهم إلى تصديق من آمن به وقال ابن زيد أراد بالذكر القرآن أراد فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن (إن كنتم لا تعلمون وما جعلناهم) أى الرسل (جسدا) ولم يقل أجسادا لأنه اسم الجنس (لا يأكلون الطعام) هذا رد لقولهم مالهذا الرسول يأكل الطعام يقول لم نجعل الرسل ملائكة بل جعلناهم بشرا يأكلون الطعام (وما كانوا خالدين) فى الدنيا (ثم صدقناهم الوعد) الذى وعدناهم باهلاك أعدائهم (فأنجيناهم ومن نشاء) يعنى أنجينا المؤمنين الذين صدقوهم (وأهلكنا المسرفين) يعنى المشركين المكذبين وكل مشرك مسرف على نفسه

التناجى وهم الذين أشركوا ثم بين سرهم الذى تناجوا به فقال تعالى مخبرا عنهم (هل هذا إلا بشر مثلكم) يعنى أنهم أنكروا إرسال البشر وطلبوا إرسال الملائكة والأولى إرسال البشر إلى البشر لأن الإنسان إلى القبول من أشكاله أقرب (أفتأتون السحر) يعنى أتحضرون السحر وتقبلونه (وأنتم تبصرون) يعنى تعلمون أنه سحر (قال) لهم محمد (ربى يعلم القول فى السماء والأرض) يعنى لا يخفى عليه شىء (وهو السميع) لأقوالهم (العليم) بأفعالهم. قوله عز وجل (بل قالوا أضغاث أحلام) يعنى أباطيل وأهاويل رآها فى النوم (بل افتراه) يعنى اختلقه (بل هو شاعر) وذلك أن المشركين اقتسموا القول فى النبى صلى الله عليه وسلم وفيما يقوله فقال بعضهم أضغاث أحلام وقال بعضهم بل هو فرية وقال بعضهم هو شاعر وما جاءكم به شعر (فليأتنا) يعنى النبى صلى الله عليه وسلم (بآية) يعنى بحجة إن كان صادقا (كما أرسل الأولون) أى من الرسل بالآيات قال الله تعالى مجيبا لهم (ما آمنت قبلهم) أى قبل مشركى مكة (من قرية) أى من أهل قرية أتتهم الآيات (أهلكناها) يعنى بالتكذيب (أفهم يؤمنون) يعنى إن جاءتهم آية والمعنى أن أولئك لم يؤمنوا بالآيات لما جاءتهم أفيؤمن هؤلاء. قوله تعالى (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم) هذا جواب لقولهم هل هذا إلا بشر مثلكم والمعنى إنا لم نرسل الملائكة إلى الأولين إنما أرسلنا رجالا يوحى إليهم مثلك (فاسئلوا أهل الذكر) يعنى أهل التوراة والإنجيل يريد علماء أهل الكتاب فانهم لا ينكرون أن الرسل كانوا بشرا وإن أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أمر الله المشركين بسؤال أهل الكتاب لأن المشركين أقرب إلى تصديقهم من تصديق من آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم وقيل أراد بالذكر القرآن يعنى فاسئلوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن (إن كنتم لا تعلمون) قوله عز وجل (وما جعلناهم) أى الرسل (جسدا لا يأكلون الطعام) هذا رد لقولهم مالهذا الرسول يأكل الطعام والمعنى لم نجعلهم ملائكة بل جعلناهم بشرا يأكلون الطعام (وما كانوا خالدين) يعنى فى الدنيا بل يموتون كغيرهم (ثم صدقناهم الوعد) يعنى الذى وعدناهم باهلاك أعدائهم (فأنجيناهم ومن نشاء) يعنى من المؤمنين الذين صدقوهم (وأهلكنا المسرفين) يعنى المشركين لأن المشرك مسرف على

(لقد أنزلنا إليكم كتابا) يامعشر قريش (فيه ذكركم) يعني شرفكم كما قال وإنه لذكر لك ولقومك وهو شرف لمن آمن به وقال مجاهد فيه حديثكم وقال الحسن فيه ذكركم أي ذكر ماتحتاجون إليه من أمر دينكم (أفلا تعقلون وكم قصمنا) أهلكنا ، والقصم الكسر (من قرية كانت ظالمة) أي كافرة يعني أهلها (وأنشأنا بعدها) يعني أحدثنا بعد هلاك أهلها (قوما آخرين فلما أحسوا بأسنا) يعني رأوا عذابنا بحاسة البصر (إذا هم منها يركضون) يعني يسرعون هاربين (لاتركضوا) يعني قيل لهم لاتركضوا لاتهربوا لاتذهبوا (وارجعوا إلى ماأترفتم فيه) يعني نعمتم به (ومساكنكم لعلكم تسئلون) قال ابن عباس عن قتل نبيكم وقيل من دنياكم شيئا نزلت هذه الآية في أهل حضرموت وهي قرية باليمن وكان أهلها من العرب فبعث الله إليهم نبيا يدعوهم إلى الله فكذبوه وقتلوه فسلط الله عليهم بختنصر حتى قتلهم وسباهم فلما استمر فيهم القتل ندموا وهربوا وانهزموا فقالت الملائكة لهم استهزاء لاتركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم وأموالكم لعلكم تسئلون قال قتادة لعلكم تسألون شيئا من دنياكم فتعطون من شئتم وتمنعون من شئتم فانكم أهل ثروة ونعمة يقولون ذلك استهزاء بهم فاتبعهم بختنصر وأخذتهم السيوف ونادى مناد في جو السماء ياثارات الأنبياء فلما رأوا ذلك أقروا بالذنوب حين لم ينفعهم (قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين فما زالت تلك دعواهم) أي تلك الكلمة وهي قولهم ياويلنا دعاؤهم يدعون بها ويرددونها (حتى جعلناهم حصيدا) من بالسيوف كما يحصد الزرع (خامدين) ميتين (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين) أي عبثا وباطلا (لو أردنا أن نتخذ لهوا) اختلفوا في اللهو قال ابن عباس في رواية عطاء اللهو هاهنا المرأة وهو قول الحسن وقتادة وقال في رواية الكلبي اللهو الولد وهو قول السدي وهو في المرأة أظهر لأن الوطء يسمى لهوا في اللغة والمرأة محل الوطء (لاتخذناه من لدنا) يعني من عندنا من الحور العين لامن عندكم من أهل الأرض وقيل معناه لو كان جائزا ذلك في صفته لم يتخذه بحيث يظهر لهم بل يستر ذلك حتى لايطلعوا عليه وتأويل الآية إن النصارى لما قالوا في المسيح وأمه ماقالوا رد الله عليهم بهذا وقال لاتخذناه

نفسه . قوله عز وجل (لقد أنزلنا إليكم) يعني يامعشر قريش (كتابا فيه ذكركم) يعني شرفكم وفخركم وهو شرف لمن آمن به وقيل معناه فيه حديثكم وقيل فيه ذكر ماتحتاجون إليه من أمر دينكم وقيل فيه تذكرة لكم لتحذروا فيكون الذكر بمعنى الوعد والوعيد (أفلا تعقلون) فيه بعث على التدبر لأن الخوف من لوازم العقل . قوله تعالى (وكم قصمنا) يعني أهلكنا (من قرية كانت ظالمة) يعني كافرة والمراد أهل القرية (وأنشأنا بعدها) أي أحدثنا بعد هلاك أهلها (قوما آخرين فلما أحسوا بأسنا) أي عذابنا بحاسة البصر (إذاهم منها يركضون) يعني يسرعون هاربين من قريتهم لما رأوا مقدمة العذاب (لاتركضوا) يعني قيل لهم لاتهربوا (وارجعوا إلى ماأترفتم فيه) يعني تنعمتم فيه من العيش (ومساكنكم لعلكم تسئلون) قال ابن عباس عن قتل نبيكم قيل نزلت هذه الآية في أهل حضرموت قرية باليمن وكان أهلها عربا فبعث الله إليهم نبيا يدعوهم إلى الله فكذبوه وقتلوه فسلط الله عليهم بختنصر فقتلهم وسباهم فلما استمر فيهم القتل هربوا فقالت الملائكة لهم استهزاء لاتركضوا أي لاتهربوا وارجعوا إلى مساكنكم وأموالكم لعلكم تسئلون شيئا من دنياكم فتعطون من شئتم وتمنعون من شئتم فانكم أهل ثروة ونعمة فأتبعهم بختنصر وأخذتهم السيوف ونادى مناد من جو السماء ياثارات الأنبياء فلما رأوا ذلك أقروا بالذنوب حين لم ينفعهم (قالوا ياويلنا إنا كنا ظالمين) يعني لأنفسنا حين كذبنا الرسل وذلك أنهم اعترفوا بالذنب حين عاينوا العذاب وقالوا ذلك على سبيل الندامة ولم ينفعهم الندم (فما زالت تلك دعواهم) يعني تلك الكلمة وهي قولهم ياويلنا (حتى جعلناهم حصيدا) يعني بالسيوف كما يحصد الزرع (خامدين) يعني ميتين . قوله عز وجل (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين) معناه ماسوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من العجائب للعب واللهو وإنما سويناهما لفوائد منها التفكر في خلقهما وما فيهما من العجائب والمنافع التي لاتعد ولا تحصى (لو أردنا أن نتخذ لهوا) قال ابن عباس اللهو المرأة وعنه أنه الولد (لاتخذناه من لدنا) يعني من عندنا من الحور العين لامن عندكم من أهل الأرض وقيل معناه لو كان ذلك جائزا في حقنا لم نتخذه بحيث يظهر لكم بل نستر ذلك حتى لاتتطلعوا عليه وذلك أن النصارى لما قالوا في المسيح وأمه ماقالوا رد الله عليهم بقوله لاتخذناه

من لدنا لأنكم تعلمون أن ولد الرجل وزوجته يكونان عنده لاعند غيره (إن كنا فاعلين) قال قتادة ومقاتل وابن جريج إن للنفى معناه ما كنا فاعلين وقيل إن كنا فاعلين للشرط أى إن كنا ممن يفعل ذلك لاتخذناه من لدنا ولكنا لم نفعله لأنه لايليق بالربوبية (بل) يعنى دع ذلك الذى قالوا فانه كذب وباطل (نقذف) نرمى (٢٩١) ونسلط (بالحق) بالإيمان (على الباطل) على الكفر وقيل الحق قول الله فانه لاولد له والباطل قولهم اتخذ الله ولدا (فيدمغه) يعنى يهلكه وأصل الدمغ شج الرأس حتى يبلغ الدماغ (فاذا هو زاهق) ذاهب والمعنى أنا نبطل كذبهم بما يبين من الحق حتى يضمحل ويذهب ثم أوعدهم على كذبهم فقال (ولكم الويل) يا معشر الكفار (مما تصفون) الله بما لايليق به من الصاحبة والولد وقال مجاهد مما تكذبون (وله من فى السموات والأرض) عبيدا وملكا (ومن عنده) يعنى الملائكة (لايستكبرون عن عبادته) ولا يأنفون عن عبادته ولا يتعظمون عنها (ولا يستحسرون) لا يعيون يقال حسر واستحسر إذا تعب وأعيا . وقال السدى لا ينقطعون عن العبادة (يسبحون الليل والنهار لايفترون) لا يضعفون قال كعب الأحبار التسبيح لهم كالنفس لبنى آدم (أم اتخذوا آلهة) استفهام بمعنى الجحد أى لم يتخذوا (من الأرض) يعنى الأصنام من الخشب والحجارة وهما من الأرض (هم ينشرون) يحيون الأموات ولا يستحق الإلهية إلا من يقدر على الإحياء والإيجاد من العدم والإنعام بأبلغ وجوه النعم (لوكان فيهما) يعنى فى السماء والأرض (آلهة إلا الله) يعنى غير الله (لفسدتا) لخربتا وهلك من فيهما بوجود التمانع بين الآلهة لأن كل أمر صدر عن

من لدنا لأنكم تعلمون أن ولد الرجل وزوجته يكونان عنده لاعند غيره (إن كنا فاعلين) يعنى ما كنا فاعلين وقيل ما كنا ممن يفعل ذلك لأنه لايليق بالربوبية (بل) يعنى دع ذلك الذى قالوه فانه كذب وباطل (نقذف) يعنى نرمى ونسلط (بالحق) يعنى بالإيمان (على الباطل) يعنى على الكفر وقيل الحق قول الله أنه لاولد له والباطل قولهم اتخذ الله ولدا (فيدمغه) فيهلكه (فاذا هو زاهق) يعنى ذاهب والمعنى أنا نبطل كذبهم بما نبين من الحق حتى يذهب ويضمحل ثم أوعدهم على كذبهم فقال تعالى (ولكم الويل) يامعشر الكفار (مما تصفون) الله بما لايليق من الصاحبة والولد (وله من فى السموات والأرض) يعنى عبيدا وملكا وهو الخالق لهم والمنعم عليهم بأصناف النعم (ومن عنده) يعنى الملائكة وإنما خص الملائكة وإن كانوا داخلين فى جملة من فى السموات لكرامتهم ومزيد الاعتناء بهم (لايستكبرون عن عبادته) يعنى لايتكبرون ولا يتعظمون عنها (ولا يستحسرون) يعنى لايعيون ولايتعبون وقيل لاينقطعون عن العبادة ثم وصفهم الله تعالى بقوله (يسبحون الليل والنهار لايفترون) يعنى لايضعفون ولا يسأمون وذلك أن تسبيحهم متصل دائم لايفتر فى جميع أوقاتهم لاتتخلله فترة بفراغ أو شغل آخر قال كعب الأحبار التسبيح لهم كالنفس لبنى آدم (أم اتخذوا آلهة من الأرض) يعنى الأصنام من الحجارة والخشب وغيرهما من المعادن وهى من الأرض (هم ينشرون) يعنى يحيون الأموات إذ لايستحق الالهية إلا من يقدر على الإحياء والإيجاد من العدم والإنعام بأبلغ وجوه النعم وهو الله عز وجل (لوكان فيهما) يعنى فى السماء والأرض (آلهة إلا الله) يعنى غير الله (لفسدتا) يعنى لخربتا وهلك من فيهما لوجود التمانع من الآلهة لأن كل أمر صدر عن الاثنين فأكثر لم يجر على النظام وقال الإمام فخر الدين الرازى قال المتكلمون القول بوجود إلهين يفضى إلى المحال فوجب أن يكون القول بوجود إلهين محالا وإنما قلنا إنه يفضى إلى المحال لأنا لو فرضنا وجود إلهين فلا بد وأن يكون كل واحد منهما قادرا على كل المقدورات ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادرا على تحريك زيد وتسكينه ولو فرضنا أن أحدهما أراد تحريكه وأراد الآخر تسكينه فاما أن يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين أو لايقع واحد منهما وهو محال لأن المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر فلا يمتنع مراد هذا إلا عند وجود مراد ذلك وبالعكس فلو امتنعا معا لوجدا معا وذلك محال أو يقع مراد أحدهما دون الثانى وذلك أيضا محال لوجهين أحدهما أنه لو كان كل واحد منهما قادرا على مالا نهاية له امتنع كون أحدهما أقدر من الآخر بل لابد وأن يستويا فى القدرة وإذا استويا فى القدرة استحال أن يصير مراد أحدهما أولى بالوقوع من مراد الثانى وإلا لزم ترجيح الممكن من غير مرجح وثانيهما أنه إذا وقع مراد أحدهما دون الآخر فالذى وقع مراده يكون قادرا والذى لم يقع مراده يكون عاجزا والعجز نقص وهو على الإله محال ولو فرضنا إلهين لكان كل واحد منهما قادرا على جميع المقدورات فيفضى إلى وقوع مقدور من قادرين مستقلين من وجه واحد وهو محال لأن إسناد الفعل إلى الفاعل إنما كان لإمكانه

الذين فأكثر لم يجز على النظام ثم نزه نفسه فقال (فسبحان الله رب العرش عما يصفون) يعنى عما يصفه به المشركون من الشريك والولد (لايسأل عما يفعل) (٢٩٢) ويحكم على خلقه لأنه الرب (وهم يسئلون) يعنى الخلق يسألون عن أفعالهم وأعمالهم لأنهم عبيد (أم اتخذوا من دونه آلهة) استفهام إنكار وتوبيخ (قل هاتوا برهانكم) يعني حجتكم على ذلك ثم قال مستأنفا (هـذا) يعنى القرآن (ذكر من معى) فيه خبر من معى على دينى ومن تبعنى إلى يوم القيامة بمالهم من الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية (وذكر) خبر (من قبلى) من الأمم السالفة مافعل بهم فى الدنيا وما يفعل بهم فى الآخرة وعن ابن عباس فى رواية عطاء ذكر من معى القرآن وذكر من قبلى التوراة والإنجيل ومعناه راجعوا القرآن والتوراة والإنجيل وسائر الكتب هل تجدون فيها أن الله اتخذ ولدا (بل أكثرهم لايعلمون الحق فهم معرضون وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم نوحى إليه بالنون وكسر الحاء على التعظيم لقوله «وما أرسلناك» وقرأ الآخرون بالياء وفتح الحاء على الفعل المجهول (أنه لاإله إلا أنا فاعبدون) وحدون (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) نزلت فى خزاعة حيث قال الملائكة بنات الله (سبحانه) نزه نفسه عما قالوا (بل عباد) أى هم عباد يعنى الملائكة (مكرمون لايسبقونه بالقول) لايتقدمونه بالقول ولايتكلمون إلا لايتكلمون

فإذا كان كل واحد منهما مستقلا بالإيجاد فالفعل لكونه مع هذا يكون واجب الوقوع فيستحيل إسناده إلى هذا لكونه حاصلا منهما جميعا فيلزم استغناؤه عنهما معا واحتياجه إليهما معا وذلك محال وهذه حجة تامة فى مسئلة التوحيد فنقول القول بوجود إلهين يفضى إلى امتناع وقوع المقدور بواحد منهما وإذا كان كذلك وجب أن لايقع البتة وحينئذ يلزم وقوع الفساد قطعا أو نقول لو قدرنا إلهين فاما أن يتفقا أو يختلفا فان اتفقا على الشىء الواحد فذلك الواحد مقدور لهما ومراد لهما فيلزم وقوعه بهما وهو محال وإن اختلفا فاما أن يقع المرادان أولا يقع واحد منهما أو يقع أحدهما دون الثانى والكل محال فثبت أن الفساد لازم على كل التقديرات واعلم أنك إذا وقفت على حقيقة هذه الدلالة عرفت أن جميع مافى العالم العلوى والسفلى من المحدثات والمخلوقات فهو دليل على وحدانية الله تعالى وأما الدلائل السمعية على الوحدانية فكثيرة فى القرآن واعلم أن كل من طعن فى دلالة التمانع ففسر الآية بأن المراد لو كان فى السماء والأرض آلهة يقول بالهيتها عبدة الأصنام لزم فساد العالم لأنها جمادات لاتقدر على تدبير العالم فلزم إفساد العالم قالوا وهذا أولى لأنه تعالى حكى عنهم فى قوله «أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون» ثم ذكر الدلالة على فساد هذا فوجب أن يختص الدليل به وأما قوله (فسبحان الله رب العرش عما يصفون) ففيه تنزيه الله سبحانه وتعالى عما يصفه به المشركون من الشريك والولد (لايسأل عما يفعل) يعنى لايسأل الله عما يفعله ويقضيه فى خلقه (وهم يسئلون) يعنى والناس يسئلون عن أعمالهم والمعنى أنه لايسأل عما يحكم فى عباده من إعزاز وإذلال وهدى وإضلال وإسعاد وإشقاء لأنه الرب مالك الأعيان والخلق يسئلون سؤال توبيخ يقال لهم يوم القيامة لم فعلتم كذا لأنهم عبيد يجب عليهم امتثال أمر مولاهم والله تعالى ليس فوقه أحد يقول له لشىء فعله لم فعلته قوله عز وجل (أم اتخذوا من دونه آلهة) لما أبطل الله تعالى أن تكون آلهة سواه بقوله لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا أنكر عليهم اتخاذهم الآلهة فقال أم اتخذوا من دونه آلهة وهو استفهام إنكار وتوبيخ (قل هاتوا برهانكم) أى حجتكم على ذلك ثم قال تعالى مستأنفا (هذا) يعنى القرآن (ذكر من معى) يعنى فيه خبر من معى على دينى ومن يتبعنى إلى يوم القيامة بما لهم من الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية (وذكر) يعنى خبر (من قبلى) أى من الأمم السالفة ومافعل بهم فى الدنيا وما يفعل بهم فى الآخرة وقال ابن عباس ذكر من معى القرآن وذكر من قبلى التوراة والإنجيل والمعنى راجعوا القرآن والتوراة والإنجيل وسائر الكتب هل تجدون فيها أن الله اتخذ ولدا أوكان معه آلهة (بل أكثرهم لايعلمون الحق فهم معرضون) قوله عز وجل (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لاإله إلا أنا فاعبدون) أى فوحدونى وقيل لما توجهت الحجة عليهم ذمهم على جهلهم بمواضع الحق فقال بل أكثرهم لايعلمون الحق فهم معرضون أى عن التأمل والتفكر وما يجب عليهم من الإيمان بأنه لاإله إلا هو . قوله تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) نزلت فى خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله (سبحانه) نزه نفسه عما قالوا. (بل عباد) أى هم عباد يعنى الملائكة (مكرمون) أى أكرمهم الله واصطفاهم (لايسبقونه) أى لايتقدمونه (بالقول) أى

بما يأمرهم به (وهم بأمره يعملون) معناه أنهم لايخالفونه قولا ولا عملا (يعلم مابين أيديهم وما خلفهم) أى ماعملوا وما هم عاملون وقيل ما كان قبل خلقهم ومايكون بعد خلقهم (ولا يشفعون إلالمن ارتضى) قال ابن عباس أى إلا لمن قال لاإله إلا الله وقال مجاهد أى لمن رضى عنه (وهم من خشيته مشفقون) خائفون لايأمنون مكره (ومن يقل منهم إنى إله من دونه) قال مقاتل عنى به إبليس حين دعا إلى عبادة نفسه وأمر بطاعة نفسه فان أحدا من الملائكة لم يقل إنى إله من دون الله (فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين) الواضعين الإلهية والعبادة فى غير موضعها (أولم ير الذين كفروا) قرأ العامة بالواو وقرأ ابن كثير لم ير بغير واو وكذلك هو فى مصاحفهم معناه ألم يعلم الذين كفروا (أن السموات والأرض كانتا رتقا) قال ابن عباس رضى الله عنهما والضحاك وعطاء وقتادة كانتا شيئا واحدا ملتزقتين (ففتقناهما) فصلنا (٢٩٣) بينهما بالهواء والرتق فى اللغة السد والفتق الشق قال كعب خلق الله السموات والأرض بعضها على بعض ثم خلق ريحا فوسطها ففتحهما بها قال مجاهد والسدى كانت السموات مرتتقة طبقة واحدة ففتقها وجعلها سبع سموات وكذلك الأرض كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع أرضين قال عكرمة وعطية كانت السماء رتقا لاتمطر والأرض رتقا لاتنبت ففتق السماء بالمطر والأرض بالنبات وإنما قال رتقا على التوحيد وهو من نعت السموات والأرض لأنه مصدر وضع موضع الاسم مثل الزور والصوم ونحوهما (وجعلنا) وخلقنا (من الماء كل شىء حى) أى أحيينا بالماء الذى ينزل من السماء كل شىء حى أى من الحيوان ويدخل فيه النبات والشجر يعنى أنه سبب لحياة كل شىء والمفسرون يقولون يعنى أن كل شىء حى فهو مخلوق من الماء لقوله تعالى «والله خلق كل دابة من ماء» قال أبو العالية يعنى النطفة فان قيل قد خلق الله بعض ماهو حى من غير الماء قيل هذا على وجه التكثير يعنى أن أكثر الأحياء فى الأرض مخلوق من الماء أو بقاؤه بالماء (أفلا يؤمنون وجعلنا فى الأرض رواسى) أى جبالا ثوابت (أن تميد بهم) لئلا تميد بهم (وجعلنا فيها) فى الرواسى (فجاجا) طرقا ومسالك والفج الطريق الواسع بين الجبلين أى جعلنا بين الجبال طرقا كى يهتدوا إلى مقاصدهم (سبلا) تفسير للفجاج (لعلهم يهتدون وجعلنا السماء سقفا محفوظا) من أن تسقط دليله قوله تعالى «ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا باذنه» وقيل محفوظا من الشياطين بالشهب دليله قوله تعالى «وحفظناها من كل شيطان رجيم» (وهم) يعنى الكفار (عن آياتها) أى عن ماخلق الله فيها من الشمس والقمر والنجوم وغيرها (معرضون) لايتفكرون فيها ولايعتبرون بها

لايتكلمون إلا بمايأمرهم به (وهم بأمره يعملون) المعنى أنهم لايخالفونه قولا ولاعملا (يعلم مابين أيديهم وما خلفهم) أى ماعملوا وماهم عاملون وقيل ما كان قبل خلقهم ومايكون بعد خلقهم (ولا يشفعون إلالمن ارتضى) قال ابن عباس إلا لمن قال لاإله إلاالله وقيل إلا لمن رضى الله تعالى عنه (وهم من خشيته مشفقون) أى خائفون وجلون لايأمنون مكره (ومن يقل منهم إنى إله من دونه) قيل عنى به إبليس حيث دعا إلى عبادة نفسه فان أحدا من الملائكة لم يقل إنى إله من دون الله (فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين) أى الواضعين الإلهية والعبادة فى غير موضعها. قوله عزوجل (أو لم ير الذين كفروا) أى ألم يعلم الذين كفروا (أن السموات والأرض كانتا رتقا) قال ابن عباس كانتا شيئا واحدا ملتزقتين (ففتقناهما) أى فصلنا بينهما بالهواء قال كعب خلق الله السماوات والأرض بعضها على بعض ثم خلق ريحا بوسطهما ففتحهما بها وقيل كانت السماوات مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سماوات وكذلك الأرض وقيل كانت السماء رتقا لاتمطر والأرض رتقا لاتنبت ففتق السماء بالمطر والأرض بالنبات (وجعلنا من الماء كل شىء حى) أي وأحيينا بالماء الذى ينزل من السماء كل شىء من الحيوان ويدخل فيه النبات والشجر وذلك لأنه سبب لحياة كل شىء وقال المفسرون معناه أن كل شىء حى فهو مخلوق من الماء وقيل يعنى النطفة. فان قلت قد خلق الله بعض ماهو حى من غير الماء كآدم وعيسى والملائكة والجان. قلت خرج هذا اللفظ مخرج الأغلب والأكثر يعنى أن أكثر ماعلى وجه الأرض مخلوق من الماء أوبقاؤه بالماء (أفلا يؤمنون) أى أفلا يصدقون (وجعلنا فى الأرض رواسى) أى جبالا ثوابت (أن تميد بهم) أى لئلا تميد بهم قيل إن الأرض بسطت على الماء فكانت تتحرك كما تتحرك السفينة فى الماء فأرساها الله وأثبتها بالجبال (وجعلنا فيها) أى فى الرواسى (فجاجا) أى طرقا ومسالك والفج الطريق الواسع بين الجبلين (سبلا) هو تفسير الفجاج (لعلهم يهتدون) أى إلى مقاصدهم (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) أى من أن يسقط ويقع وقيل محفوظا من الشياطين بالشهب (وهم) يعنى الكفار (عن آياتها معرضون)

(وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون) يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح فى الماء وإنما قال : يسبحون ولم يقل تسبح على مايقال لما لايعقل لأنه ذكر عنها فعل العقلاء من الجرى والسبح فذكر على مايعقل والفلك مدار النجوم الذى يضمها والفلك فى كلام العرب كل شيء مستدير وجمعه أفلاك ومنه فلكة المغزل وقال الحسن الفلك طاحونة كهيئة فلكة المغزل يريد أن الذى يجرى فيه النجوم مستدير كاستدارة الطاحونة قال الضحاك فلكها مجراها وسرعة سيرها قال مجاهد كهيئة حديد الرحى وقال بعضهم الفلك السماء الذى فيه ذلك الكوكب فكل كوكب يجرى فى السماء الذى قدر فيه وهو معنى قول قتادة وقال الكلبى الفلك استدارة السماء وقال آخرون الفلك موج مكفوف ، دون السماء تجرى فيه الشمس والقمر والنجوم قوله عز وجل (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) دوام البقاء فى الدنيا (أفإن مت فهم الخالدون) أى أفهم الخالدون إن مت قيل نزلت هذه الآية حين قالوا نتربص بمحمد ريب المنون (كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم) نختبركم (بالشر والخير) بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر وقيل بما تحبون وما تكرهون (فتنة) ابتلاء لننظر كيف شكركم فيما تحبون وصبركم فيما تكرهون (وإلينا ترجعون وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك) مايتخذونك (إلا هزوا) سخريا قال السدى نزلت فى أبى جهل مر به النبى صلى الله عليه وسلم فضحك وقال هذا نبى بنى عبد مناف (أهذا الذى) أى يقول بعضهم لبعض أهذا الذى (يذكر آلهتكم) أى يعيبها يقال فلان يذكر فلانا أى يعيبه وفلان يذكر الله أى يعظمه ويجله (وهم بذكر الرحمن هم كافرون) وذلك أنهم كانوا يقولون لانعرف الرحمن إلا مسيلمة وهم الثانية صلة (خلق الإنسان من عجل) اختلفوا فيه فقال قوم معناه إن بنيته وخلقته من العجلة

(٢٩٤) وأورث

أى عما خلق الله فيها من الشمس والقمر والنجوم وكيفية حركاتها فى أفلاكها ومطالعها ومغاربها والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة والقدرة القاهرة لايتفكرون ولايعتبرون بها (وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون) أى يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح فى الماء وإنما قال يسبحون ولم يقل تسبح على مايقال لما لايعقل لأنه ذكر عنها فعل العقلاء وهو السباحة والجرى والفلك مدار النجوم الذى يضمها وهو فى كلام العرب كل شيء مستدير وجمعه أفلاك وقيل الفلك طاحونة كهيئة فلك المغزل يريد أن الذى تجرى فيه النجوم مستدير كاستدارة الرحى وقيل الفلك السماء الذى فيه ذلك الكوكب فكل كوكب يجرى فى السماء الذى قدر فيه وقيل الفلك استدارة السماء وقيل الفلك موج مكفوف دون السماء تجرى فيه الشمس والقمر والنجوم وقال أصحاب الهيئة الأفلاك أجرام صلبة لاثقيلة ولاخفيفة غير قابلة للخرق والالتئام والنمو والذبول والحق أنه لاسبيل إلى معرفة صفة السموات إلا باخبار الصادق فسبحان الخالق المدبر لخلقه بالحكمة والقدرة الباهرة غير المتناهية . قوله عز وجل (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) يعنى الدوام والبقاء فى الدنيا (أفإن مت فهم الخالدون) نزلت هذه الآية حين قالوا نتربص بمحمد ريب المنون نشمت بموته فنفى الله الشماتة عنه بهذا والمعنى أن الله تعالى قضى أن لايخلد فى الدنيا بشرا لا أنت ولاهم فإن مت أنت أفيبقى هؤلاء وفى معناه قول القائل :

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

(كل نفس ذائقة الموت) هذا العموم مخصوص بقوله «تعالى تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك» فان الله تعالى حى لايموت ولايجوز عليه الموت والذوق هاهنا عبارة عن مقدمات الموت وآلامه العظيمة قبل حلوله (ونبلوكم) أى نختبركم (بالشر والخير) أى بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر وقيل مما تحبون وما تكرهون (فتنة) أى ابتلاء لننظر كيف شكركم فيما تحبون وصبركم فيما تكرهون (وإلينا ترجعون) أى للحساب والجزاء . قوله عز وجل (وإذا رآك الذين كفروا إن) أى ما (يتخذونك إلا هزوا) أى سخريا قيل نزلت فى أبى جهل مر به النبى صلى الله عليه وسلم فضحك وقال هذا نبى بنى عبد مناف (أهذا الذى يذكر آلهتكم) أى يقول بعضهم لبعض أهذا الذى يعيب آلهتكم والذكر يطلق على المدح والذم مع القرينة (وهم بذكر الرحمن هم كافرون) وذلك أنهم كانوا يقولون لانعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة وهو مسيلمة الكذاب قوله تعالى (خلق الإنسان من عجل) قيل معناه أن بنيته وخلقته من العجلة وعليها طبع وقيل لما دخل الروح فى رأس آدم وعينيه نظر إلى ثمار الجنة فلما دخل فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلا إلى ثمار الجنة فوقع فقيل خلق الإنسان من عجل

وعليها طبع كما قال الله تعالى «وكان الإنسان عجولا» قال سعيد بن جبير والسدى لما دخلت الروح فى رأس آدم وعينيه نظر إلى ثمار الجنة فلما دخلت فى جوفه اشتهى الطعام نوثب قائما قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلا إلى ثمار الجنة فوقع فقيل خلق الإنسان من عجل والمراد بالإنسان آدم وأورث أولاده العجلة والعرب تقول للذى يكثر منه الشىء خلقت منه كما يقول خلقت من تعب وخلقت من غضب تريد المبالغة فى وصفه بذلك يدل على هذا قوله تعالى «وكان الإنسان عجولا» وقال قوم معناه خلق الإنسان يعنى آدم من تعجيل فى خلق الله إياه لأن خلقه كان بعد خلق كل شىء فى آخر النهار يوم الجمعة فأسرع فى خلقه قبل مغيب الشمس وقال مجاهد فلما أحيا الروح رأسه قال يارب استعجل بخلقى قبل غروب الشمس وقيل بسرعة وتعجيل على غير ترتيب خلق سائر الآدميين من النطفة ثم العلقة ثم المضغة وغيرها (٢٩٥) وقال قوم من عجل أى من طين قال الشاعر :

والنبع فى صخرة الصماء منبتة
والنخل ينبت بين الماء والعجل

(سأريكم آياتى فلا تستعجلون) هذا خطاب للمشركين نزل هذا فى المشركين كانوا يستعجلون بالعذاب ويقولون أمطر علينا حجارة من السماء وقيل نزلت فى النضر بن الحارث فقال تعالى سأريكم آياتى أى مواعيدى فلا تستعجلون أى فلا تطلبوا العذاب من قبل وقته فأراهم يوم بدر وقيل كانوا يستعجلون القيامة (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) فقال تعالى (لو يعلم الذين

وأورث بنيه العجلة وقيل معناه خلق الإنسان من تعجيل فى خلق الله إياه لأن خلقه كان بعد كل شىء فى آخر النهار يوم الجمعة فأسرع فى خلقه قبل مغيب الشمس فلما أحيا الروح رأسه قال يارب استعجل بخلقى قبل غروب الشمس وقيل خلق بسرعة وتعجيل على غير قياس خلق بنيه لأنهم خلقوا من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة أطوار أطوارا طورا بعد طور وقيل معنى خلق الإنسان من عجل أى من طين قال الشاعر : * والنخل ينبت بين الماء والعجل * أى بين الماء والطين وقيل أراد بالإنسان النوع الإنسانى يدل عليه قوله (سأريكم آياتى فلا تستعجلون) وذلك أن المشركين كانوا يستعجلون العذاب وقيل نزلت فى النضر بن الحرث ومعنى سأريكم آياتى أى مواعيدى فلا تطلبوا العذاب قبل وقته فأراهم يوم بدر وقيل كانوا يستعجلون القيامة فلذلك قال تعالى (ويقولون) يعنى المشركين (متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) وهذا هو الاستعجال المذموم المذكور على سبيل الاستهزاء فبين تعالى أنهم إنما يقولون ذلك لجهلهم وغفلتهم ثم بين ما لهؤلاء المستهزئين فقال تعالى (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون) يعنى لا يدفعون (عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم) قيل السياط (ولا هم ينصرون) أى لا يمنعون من العذاب والمعنى لو علموا لما أقاموا على كفرهم ولما استعجلوا بالعذاب ولما قالوا متى هذا الوعد إن كنتم صادقين (بل تأتيهم) يعنى الساعة (بغتة) أى فجأة (فتبهتهم) أى تحيرهم (فلا يستطيعون ردها) أى صرفها ودفعها عنهم (ولا هم ينظرون) أى لا يمهلون للتوبة والمعذرة (ولقد استهزئ برسل من قبلك) أى يا محمد كما استهزأ بك قومك (فحاق) أى نزل وأحاط (بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون) أى عقوبة استهزائهم وفيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم أى فكذلك يحيق بهؤلاء وبال استهزائهم . قوله تعالى (قل من يكلؤكم) أى يحفظكم (بالليل) إذا نمتم (والنهار) إذا انصرفتم فى معايشكم (من الرحمن) قال ابن عباس معناه من يمنعكم من عذاب الرحمن (بل هم عن ذكر ربهم) أى عن القرآن ومواعظه (معرضون) أى لا يتأملون فى شىء منها (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) معناه ألهم آلهة من دوننا تمنعهم ثم وصف آلهتهم بالضعف فقال (لا يستطيعون نصر أنفسهم) أى لا يقدرون على نصر أنفسهم فكيف ينصرون من عبدهم (ولا هم منا يصبحون) قال ابن عباس يمنعون وقيل يجارون وقيل ينصرون وقيل

كفروا حين لا يكفون) لا يدفعون (عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم) قيل ولا عن ظهورهم السياط (ولا هم ينصرون) يمنعون من العذاب وجواب لو فى قوله لو يعلم الذين محذوف معناه لو علموا لما أقاموا على كفرهم ولما استعجلوا ولا قالوا متى هذا الوعد (بل تأتيهم) يعنى الساعة (بغتة) فجأة (فتبهتهم) أى تحيرهم يقال فلان مبهوت أى متحير (فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون) يمهلون (ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق) نزل (بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون) أى جزاء استهزائهم (قل من يكلؤكم) يحفظكم (بالليل والنهار من الرحمن) إن أنزل بكم عذابه وقال ابن عباس من يمنعكم من عذاب الرحمن (بل هم عن ذكر ربهم) عن القرآن ومواعظ الله (معرضون أم لهم) أم صلة ٣ فيه وفى أمثاله (آلهة تمنعهم من دوننا) فيه تقديم وتأخير تقديره أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم ، ثم وصف الآلهة بالضعف فقال تعالى : (لا يستطيعون نصر أنفسهم) منع أنفسهم فكيف ينصرون عابديهم (ولا هم منا يصحبون) قال ابن عباس يمنعون وقال

عطية عنه يجارون تقول العرب أنا لك جار وصاحب من فلان أي مجير منه وقال مجاهد ينصرون ويحفظون وقال قتادة لايصبحون من الله بخير (بل متعنا هؤلاء) الكفار (وآباءهم) في الدنيا أي أمهلناهم وقيل أعطيناهم النعمة (حتى طال عليهم العمر) أي امتد بهم الزمان فاغتروا (أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها) أي ماننقص من أطراف المشركين ونزيد في أطراف المؤمنين يريد (٢٩٦) ظهور النبي صلى الله عليه وسلم وفتحه ديار الشرك أرضا فأرضا (أفهم الغالبون) أم نحن (قل إنما أنذركم بالوحي) أي أخوفكم بالقرآن (ولا يسمع الصم الدعاء) قرأ ابن عباس رضي الله عنهما بالتاء وضمها وكسر الميم الصم نصبا جعل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وقرأ الآخرون بالياء وفتحها وفتح الميم الصم رفع (إذا ماينذرون) يخوفون (ولئن مستهم) أصابتهم (نفحة) قال ابن عباس رضي الله عنهما طرف وقيل قليل. وقال ابن جريج نصيب من قولهم نفح فلان لفلان من ماله أي أعطاه حظا ونصيبا منه وقيل ضربة من قولهم نفحت الدابة برجلها إذا ضربت بها (من عذاب ربك ليقولن ياويلنا إنا كنا ظالمين) أي ياهلا كنا إنا كنا مشركين دعوا على أنفسهم بالويل بعد ماأقروا بالشرك (ونضع الموازين القسط) أي ذوات القسط والقسط العدل (ليوم القيامة فلاتظلم نفس شيئا) أي لاتنقص من ثواب حسناتها مسيء ولا يزاد على سيئاتها وفي الأخبار أن الميزان له لسان وكفتان روى أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان فأراه كل كفة مابين المشرق والمغرب فغشي عليه ثم أفاق فقال يا إلهي من الذي يقدر أن يملأ كفته حسنات فقال ياداود إني إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة (وإن كان) الشيء (مثقال حبة) أي زنة مثقال حبة (من خردل) قرأ أهل المدينة مثقال برفع اللام ههنا وفي سورة لقمان يعني وإن وقع مثقال حبة من خردل ونصبها الآخرون على معنى وإن كان ذلك الشيء مثقال حبة يعني زنة مثقال حبة من خردل (أتينا بها)

معناه لا يصحبون من الله بخير (بل متعنا هؤلاء) يعني الكفار (وآباءهم) أي في الدنيا بأن أنعمنا عليهم وأمهلناهم (حتى طال عليهم العمر) أي امتد بهم الزمان فاغتروا (أفلا يرون) يعني هؤلاء المشركين (أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها) يعني ننقص من أطراف المشركين ونزيد في أطراف المؤمنين يريد بذلك ظهور النبي صلى الله عليه وسلم وفتحه ديار الشرك أرضا فأرضا وقرية فقرية والمعنى أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله المستعجلون بالعذاب آثار قدرتنا في إتيان الأرض من جوانبها بأخذ الواحد بعد الواحد وفتح البلاد والقرى مما حول مكة وإدخالها في ملك محمد صلى الله عليه وسلم وموت رءوس المشركين المتنعمين بالدنيا أما كان لهم عبرة في ذلك فيؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ويعلموا أنهم لايقدرون على الامتناع منا ومن إرادتنا فيهم ثم قال (أفهم الغالبون) استفهام بمعنى التقريع معناه بل نحن الغالبون وهم المغلوبون (قل) يامحمد (إنما أنذركم بالوحي) أي أخوفكم بالقرآن (ولا يسمع الصم الدعاء إذا ماينذرون) أي يخوفون (ولئن مستهم) أي أصابتهم (نفحة من عذاب ربك) قال ابن عباس طرف وقيل شيء قليل (ليقولن ياويلنا إنا كنا ظالمين) دعوا على أنفسهم بالويل بعد ماأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك: قوله عز وجل (ونضع الموازين القسط) أي ذوات العدل وصفها بذلك لأن الميزان قد يكون مستقيما وقد يكون بخلافه فبين أن تلك الموازين تجري على حد العدل ومعنى وضعها إحضارها (ليوم القيامة) أي لأهل يوم القيامة قيل المراد بالميزان العدل والقسط بينهم في الأعمال فمن أحاطت حسناته بسيئاته فاز ونجا وبالعكس ذل وخسر والصحيح الذي عليه أئمة السلف أن الله سبحانه وتعالى يضع الموازين الحقيقية ويزن بها أعمال العباد وقال الحسن هو ميزان له كفتان ولسان وأكثر الأقوال أنه ميزان واحد وإنما جمع لاعتبار تعدد الأعمال الموزونة به وروي أن داود عليه الصلاة والسلام سأل ربه عز وجل أن يريه الميزان فأراه كل كفته ما بين المشرق والمغرب فلما رآه غشي عليه ثم أفاق فقال إلهي من الذي يقدر أن يملأ كفته حسنات قال ياداود إني إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة فعلى هذا ففي كيفية وزن الأعمال مع أنها أعراض طريقان أحدهما أن توزن صحائف الأعمال فتوضع صحائف الحسنات في كفة وصحائف السيئات في كفة والثاني أن يجعل في كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة وفي كفة السيئات جواهر سود مظلمة. فان قلت كيف تصنع بقوله ونضع الموازين القسط مع قوله فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا. قلت هذه في حق الكفار لأنهم ليس لهم أعمال توزن مع الكفر. وقوله تعالى (فلا تظلم نفس شيئا) يعني لاتبخس مما لها وما عليها من خير وشر شيئا (وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها) معناه أنه لاينقص من إحسان محسن ولا يزاد في إساءة

أحضرناها لنجازي بها (وكفى بنا حاسبين) قال السدي محصين والحسب معناه العد وقال ابن عباس رضي الله عنهما عالمين حافظين لأن من حسب شيئا علمه وحفظه (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان) يعني الكتاب المفرق بين الحق والباطل وهو التوراة وقال ابن زيد الفرقان النصر على الأعداء كما قال الله تعالى «وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان» (٢٩٧) يعني يوم بدر لأنه قال (وضياء) أدخل الواو فيه أي آتينا موسى النصر والضياء وهو التوراة ومن قال المراد بالفرقان التوراة قال الواو في قوله وضياء زائدة مقحمة معناه آتيناه التوراة ضياء وقيل هو صفة أخرى للتوراة (وذكرا) تذكيرا (للمتقين الذين يخشون ربهم بالغيب) أي يخافونه ولم يروه (وهم من الساعة مشفقون) خائفون (وهذا ذكر مبارك) يعني القرآن وهو ذكر لمن تذكر به مبارك لمن يتبرك به ويطلب منه الخير (أنزلناه أفأنتم) يا أهل مكة (له منكرون) جاحدون هذا استفهام توبيخ وتعيير قوله عز وجل (ولقد آتينا إبراهيم رشده) قال القرطبي أي صلاحه (من قبل) يعني من قبل موسى وهرون وقال المفسرون رشده من قبل أي هداه من قبل البلوغ وهو حين خرج من السرب وهو صغير يريد هديناه صغيرا كما قال تعالى ليحيى عليه السلام وآتيناه الحكم صبيا (وكنا به عالمين) أنه أهل للهداية والنبوة (إذ قال لأبيه وقومه ماهذه التماثيل) أي الصور يعني الأصنام (التي أنتم لها عاكفون) يعني على عبادتها مقيمون (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) فاقتدينا بهم (قال) إبراهيم (لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين) خطأ بين بعبادتكم إياها (قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين) يعنون

مسيء وأراد بالحبة الجزء اليسير من الخردل ومعنى أتينا بها يعني أحضرناها لنجازي بها . عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعين سجلا كل سجل مد البصر ثم يقول أتنكر من هذا شيئا أظلمك كتبتي الحافظون فيقول لا يارب فيقول أفلك عذر فيقول لا يارب فيقول الله تعالى بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فيقول أحضر وزنك فيقول يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال إنك لا تظلم فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شيء» أخرجه الترمذي. السجل الكتاب الكبير وأصله من التسجيل لأنه يجمع أحكاما والبطاقة ورقة صغيرة تجعل في طي الثوب يكتب فيها ثمنه والطيش الخفة قلت في الحديث دليل على أن صحائف الأعمال هي التي توزن لا أن الأعمال تتجسد جواهر فتوزن والله أعلم . قوله تعالى (وكفى بنا حاسبين) قال ابن عباس معناه كفى بنا عالمين حافظين لأن من حسب شيئا فقد علمه وحفظه والغرض منه التحذير فان المحاسب إذا كان في العلم بحيث لا يمكن أن يشتبه عليه شيء وفي القدرة بحيث لا يعجز عن شيء فحقيق بالعاقل أن يكون بأشد الخوف منه وروى عن الشبلي أنه رؤي في المنام فقيل له ما فعل الله بك فقال :

حاسبونا فدققوا ثم منوا فأعتقوا

هكذا سيمة الملو ك بالمماليك رفقوا

قوله عز وجل (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان) يعني الكتاب المفرق بين الحق والباطل وهو التوراة وقيل الفرقان النصر على الأعداء فعلى هذا يكون (وضياء) يعني التوراة ومن قال الفرقان هو التوراة جعل الواو زائدة في وضياء والمعنى آتينا موسى التوراة ضياء (وذكرا للمتقين) يعني يتذكرون بمواعظها ويعملون بما فيها (الذين يخشون ربهم بالغيب) أي يخافونه ولم يروه وقيل يخافونه في الخلوات إذا غابوا عن أعين الناس (وهم من الساعة مشفقون) أي خائفون (وهذا ذكر مبارك أنزلناه) أي كما آتينا موسى التوراة فكذلك أنزلنا القرآن ذكرا مباركا أي هو ذكر لمن آمن به مبارك يتبرك به ويطلب منه الخير (أفأنتم) يا أهل مكة (له منكرون) أي جاحدون . قوله تعالى (ولقد آتينا إبراهيم رشده) أي صلاحه وهداه (من قبل) أي من قبل موسى وهرون وقيل من قبل البلوغ وهو حين خرج من السرب وهو صغير (وكنا به عالمين) أي أنه من أهل الهداية والنبوة (إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل) يعني الصور والأصنام (التي أنتم لها عاكفون) أي مقيمون على عبادتها (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) أي فاقتدينا بهم (قال) يعني إبراهيم (لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين) أي في خطأ بين بعبادتكم إياها (قالوا أجئتنا بالحق) أي بالصدق (أم أنت من اللاعبين)

أجاد أنت فيما تقول أم لاعب (قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن) خلقهن (وأنا على ذلكم من الشاهدين) يعنى على أنه الإله الذى لايستحق العبادة غيره ، وقيل من الشاهدين على أنه خالق السموات والأرض (وتالله لأكيدن أصنامكم) لأمكرن بها (بعد أن تولوا مدبرين) يعنى بعد أن تدبروا منطلقين إلى عيدكم قال مجاهد وقتادة إنما قال إبراهيم هذا سرا من قومه ولم يسمع ذلك إلا رجل واحد فأفشاه عليه وقال «إنا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم» قال السدى كان لهم فى كل سنة مجمع وعيد فكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها ثم عادوا إلى منازلهم فلما كان ذلك العيد قال أبو إبراهيم له ياإبراهيم (٢٩٨) لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا فخرج معهم إبراهيم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال إنى سقيم يقول أشتكى رجلى فلما مضوا نادى إبراهيم فى آخرهم وقد بقى ضعفاء الناس تالله لأكيدن أصنامكم فسمعوها منه ثم رجع إبراهيم إلى بيت الآلهة وهن فى بهو عظيم مستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه صنم أصغر منه ، والأصنام بعضها إلى جنب بعض كل صنم يليه أصغر منه إلى باب البهو وإذا هم قد جعلوا طعاما فوضعوه بين يدى الآلهة وقالوا إذا رجعنا وقد بركت الآلهة فى طعامنا أكلنا فلما نظر إليهم إبراهيم وإلى ما بين أيديهم من الطعام قال لهم على طريق الاستهزاء «ألا تأكلون» فلما لم تجبه قال «مالكم لاتنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين» وجعل يكسرهم بفأس فى يده حتى إذا لم يبق إلا الصنم الأكبر علق الفأس فى عنقه ثم خرج فذلك قوله عز وجل (فجعلهم جذاذا) قرأ الكسائى جذاذا بكسر الجيم أى كسرا وقطعا جمع جذيذ وهو الهشيم مثل خفيف وخفاف وقرأ الآخرون بضمها مثل الحطام والرفات (إلا كبيرا لهم) فانه لم يكسره ووضع الفأس فى عنقه وقيل ربطه بيده وكانت اثنين وسبعين صنما بعضها من ذهب وبعضها من فضة وبعضها من حديد وبعضها من رصاص وشبة وخشب وحجر وكان الصنم الكبير من الذهب مكللا بالجواهر فى عينيه ياقوتتان تتقدان قوله تعالى (لعلهم إليه يرجعون) قيل معناه لعلهم يرجعون إلى دينه وإلى مايدعوهم إليه إذا علموا ضعف الآلهة وعجزها وقيل لعلهم إليه يرجعون فيسألونه فلما رجع القوم من عيدهم إلى بيت آلهتهم ، ورأوا أصنامهم جذاذا

يعنون أجاد أنت فيما تقول أم أنت لاعب (قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن) أى خلقهن (وأنا على ذلكم من الشاهدين) أى على أنه الاله الذى يستحق العبادة وقيل شاهد على أنه خالق السموات والأرض (وتالله لأكيدن أصنامكم) أى لأمكرن بها (بعد أن تولوا مدبرين) أى منطلقين إلى عيدكم قيل إنما قال إبراهيم هذا القول سرا فى نفسه ولم يسمع ذلك إلا رجل واحد من قومه فأفشاه عليه وهو القائل إنا سمعنا فتى يذكرهم وقيل كان لهم فى كل سنة مجمع وعيد فكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها ثم رجعوا إلى منازلهم فلما كان ذلك العيد قال أبو إبراهيم يا إبراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا فخرج معهم إبراهيم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض وقال إنى سقيم أشتكى رجلى فتركوه ومضوا فنادى فى آخرهم وقد بقى ضعفاء الناس تالله لأكيدن أصنامكم فسمعوها منه ثم رجع إبراهيم إلى بيت الآلهة وهن فى بهو عظيم ومستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه صنم أصغر منه والأصنام جنبها إلى جنب بعض كل صنم الذى يليه أصغر منه وهكذا إلى باب البهو وإذا هم قد جعلوا طعاما بين يدى الآلهة وقالوا إذا رجعنا وقد بركت الآلهة عليه أكلنا منه فلما نظر إبراهيم إليهم وإلى ما بين أيديهم من الطعام قال لهم على طريق الاستهزاء «ألا تأكلون» فلما لم يجيبوه قال «ما لكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين» وجعل يكسرهن بفأس فى يده حتى إذا لم يبق إلا الصنم العظيم علق الفأس فى عنقه وقيل فى يده ثم خرج فذلك قوله تعالى (فجعلهم جذاذا) أى كسرا وقطعا (إلا كبيرا لهم) أى تركه ولم يكسره ووضع الفأس فى عنقه ثم خرج وقيل ربطه على يده وكانت اثنين وسبعين صنما بعضها من ذهب وبعضها من فضة وبعضها من حديد وبعضها من نحاس ورصاص وحجر وخشب وكان الصنم الكبير من الذهب مكللا بالجواهر فى عينيه ياقوتتان تتقدان وقوله (لعلهم إليه يرجعون) قيل معناه يرجعون إلى إبراهيم وإلى دينه وما يدعوهم إليه إذا علموا ضعف الآلهة وعجزها وقيل معناه لعلهم يرجعون إلى الصنم فيسألونه ما لهؤلاء تكسروا وأنت صحيح والفأس فى عنقك فلما رجع القوم من

(قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين) يعنى من المجرمين (قالوا) يعنى الذين سمعوا قول إبراهيم «وتالله لأكيدن أصنامكم» (سمعنا فتى يذكرهم) يعيبهم ويسبهم (يقال له إبراهيم) هو الذى نظن أنه صنع هذا فبلغ ذلك نمرود الجبار وأشراف قومه (قالوا فأتوا به على أعين الناس) قاله نمرود يقول جيئوا به ظاهرا بمرأى من الناس (لعلهم يشهدون) عليه أنه الذى فعله كرهوا أن يأخذوه بغير بينة قاله الحسن وقتادة والسدى وقال محمد بن إسحق لعلهم يشهدون أى يحضرون عقابه وما يصنع به فلما أتوا به (قالوا) له (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال) إبراهيم (بل فعله كبيرهم هذا) غضب من أن يعبد معه الصغار وهو أكبر منها فكسرهن وأراد بذلك إبراهيم إقامة الحجة عليهم فذلك قوله (فاسئلوهم إن كانوا ينطقون) حتى يخبروا من فعل ذلك بهم قال القتيبى معناه بل فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون على سبيل الشرط فجعل النطق شرطا للفعل أى إن قدروا على النطق قدروا على الفعل فأراهم عجزهم عن النطق وفى ضميره أنا فعلت وروى عن الكسائى أنه كان يقف عند قوله بل فعله ويقول معناه فعله من فعله والأول أصح لما روى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ثنتان منهن فى ذات الله قوله «إنى سقيم» وقوله «بل فعله كبيرهم» وقوله لسارة هذه أختى وقيل فى قوله إنى سقيم أى سأسقم وقيل سقيم القلب أى مغتم بضلالتكم وقوله لسارة هذه أختى أى فى الدين وهذه التأويلات لنفى الكذب عن إبراهيم والأول هو الأولى للحديث فيه ويجوز أن يكون الله عز وجل أذن له فى ذلك لقصد الصلاح وتوبيخهم والاحتجاج عليهم كما أذن ليوسف حتى أمر مناديه فقال لإخوته «أيتها العير إنكم لسارقون» ولم يكونوا سرقوا (فرجعوا إلى أنفسهم) أى تفكروا بقلوبهم ورجعوا إلى عقولهم (فقالوا) ما نراه إلا كما قال (إنكم أنتم الظالمون) يعنى بعبادتكم من لا يتكلم وقيل أنتم

(٢٩٩)

عيدهم إلى بيت آلهتهم ورأوا أصنامهم مكسرة (قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين) أى فى تكسيرها واجترائه عليها (قالوا سمعنا فتى يذكرهم) أى يسبهم ويعيبهم (يقال له إبراهيم) أى هو الذى نظن أنه صنع هذا فبلغ ذلك نمروذ الجبار وأشراف قومه (قالوا فأتوا به على أعين الناس) أى جيئوا به ظاهرا بمرأى من الناس وإنما قاله نمروذ (لعلهم يشهدون) أى عليه بأنه الذى فعل ذلك كرهوا أن يأخذوه بغير بينة وقيل معناه لعلهم يحضرون عذابه وما يصنع به فلما أتوا به (قالوا) له (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم) قال يعنى إبراهيم (بل فعله كبيرهم هذا) غضب أن تعبدون معه هذه الصغار وهو أكبر منها فكسرهن وأراد إبراهيم بذلك إقامة الحجة عليهم فذلك قوله (فاسئلوهم إن كانوا ينطقون) أى حتى يخبروا بمن فعل ذلك بهم وقيل معناه إن قدروا على النطق قدروا على الفعل فأراهم عجزهم عن النطق وفى ضمنه أنا فعلت ذلك (ق) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ثنتين منهن فى ذات الله قوله إنى سقيم وقوله فعله كبيرهم هذا وقوله لسارة هذه أختى» لفظ الترمذى قيل فى قوله إنى سقيم أى سأسقم وقيل سقيم القلب مغتم بضلالتكم وأما قوله بل فعله كبيرهم هذا فإنه علق خبره بشرط نطقه كأنه قال إن كان ينطق فهو على طريق التبكيت لقومه وقوله وقوله لسارة هذه أختى أى فى الدين والإيمان قال الله تعالى «إنما المؤمنون إخوة» فكل هذه الألفاظ صدق فى نفسها ليس فيها كذب. فإن قلت قد سماها النبى صلى الله عليه وسلم كذبات بقوله لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات وقال فى حديث الشفاعة ويذكر كذباته. قلت معناه أنه لم يتكلم بكلام صورته صورة الكذب وإن كان حقا فى الباطن إلا هذه الكلمات ولما كان مفهوم ظاهرها خلاف باطنها أشفق إبراهيم عليه الصلاة والسلام منها بمؤاخذته بها قال البغوى وهذه التأويلات لنفى الكذب عن إبراهيم والأولى هو الأول للحديث ويجوز أن يكون الله أذن له فى ذلك لقصد الصلاح وتوبيخهم والاحتجاج عليهم كما أذن ليوسف حين أمر مناديه فقال أيتها العير إنكم لسارقون ولم يكونوا سرقوا قال الإمام فخر الدين الرازى وهذا القول مرغوب عنه والدليل القاطع عليه أنه لو جاز أن يكذب لمصلحة ويأذن الله فيه فلنجوز هذا الاحتمال فى كل ما أخبر الأنبياء عنه وذلك يبطل الوثوق بالشرائع ويطرق التهمة إلى كلها والحديث محمول على المعاريض فإن فيها مندوحة عن الكذب وقوله (فرجعوا إلى أنفسهم) يعنى تفكروا بقلوبهم ورجعوا إلى عقولهم (فقالوا) ما نراه إلا كما قال (إنكم أنتم الظالمون) يعنى بعبادتكم ما لا يتكلم وقيل معناه أنتم الظالمون لهذا الرجل فى سؤالكم إياه وهذه آلهتكم حاضرة فاسألوها

الظالمون هذا الرجل فى سؤالكم إياه وهذه آلهتكم حاضرة فاسألوها (ثم نكسوا على رءوسهم) قال أهل التفسير أجري الله الحق على لسانهم فى القول الأول ثم أدركتهم الشقاوة فهو معنى قوله ثم نكسوا على رءوسهم أى ردوا إلى الكفر بعد أن أقروا على أنفسهم بالظلم يقال (٣٠٠) نكس المريض إذا رجع إلى حالته الأولى وقالوا (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) فكيف نسألهم فلما اتجهت الحجة لإبراهيم عليه السلام (قال) لهم (أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا) إن عبدتموه (ولا يضركم) إن تركتم عبادته (أف لكم) يعنى تبا وقذرا لكم (ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) يعنى أليس لكم عقل تعرفون به هذا فلما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين) يعنى إن كنتم ناصرين لها وقال ابن عمر رضى الله عنهما إن الذى قال هذا رجل من الأكراد وقيل إن اسمه هيزن فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة وقيل قاله نمرود فلما أجمع نمرود وقومه على إحراق إبراهيم عليه السلام حبسوه فى بيت وبنوا له بنيانا كالحظيرة وقيل بنوا أتونا بقرية يقال لها كوثى ثم جمعوا له صلاب الحطب من أصناف الخشب مدة حتى كان الرجل يمرض فيقول لئن عافانى الله لأجمعن حطبا لإبراهيم وكانت المرأة تنذر فى بعض ماتطلب لئن أصابته لتحتطبن فى نار إبراهيم ، وكان الرجل يوصى بشراء الحطب وإلقائه فيها وكانت المرأة تغزل وتشترى الحطب بغزلها فتلقيه فيه احتسابا قال ابن إسحاق كانوا يجمعون الحطب شهرا فلما جمعوا ماأرادوا أشعلوا فى كل ناحية من الحطب النار فاشتعلت النار واشتدت حتى أن كان الطير ليمر بها فيحترق من شدة وهجها فأوقدوا عليها سبعة أيام روى أنهم لم يعلموا كيف يلقونه فيها فجاء إبليس

(ثم نكسوا على رؤوسهم) قال أهل التفسير أجرى الله الحق على ألسنتهم فى القول الأول وهو إقرارهم على أنفسهم بالظلم ثم أدركتهم الشقاوة فرجعوا إلى حالهم الأولى وهو قوله ثم نكسوا على رؤوسهم أى ردوا إلى الكفر وقالوا (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) يعنى فكيف نسألهم فلما اتجهت الحجة لابراهيم عليهم (قال) لهم (أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا) يعنى إن عبدتموه (ولا يضركم) يعنى إن تركتم عبادته (أف لكم) يعنى تبا لكم (ولما تعبدون من دون الله) والمعنى أنه حقرهم وحقر معبودهم (أفلا تعقلون) يعنى أليس لكم عقل تعقلون به إن هذه الأصنام لا تستحق العبادة فلما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم) يعنى أنكم لا تنصرونها إلا بتحريق إبراهيم لأنه يعيبها ويطعن فيها (إن كنتم فاعلين) يعنى ناصرين آلهتكم قال ابن عمر الذى قال هذا رجل من الأكراد قيل اسمه هيزن فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة وقيل قاله نمرود بن كنعان بن سنجاريب بن نمرود بن كوش بن حام بن نوح .

(ذكر القصة فى ذلك)

فلما اجتمع نمرود وقومه لإحراق إبراهيم حبسوه فى بيت وبنوا بنيانا كالحظيرة بقرية يقال لها كوثى ثم جمعوا له صلاب الحطب وأصناف الخشب مدة شهر حتى كان الرجل يمرض فيقول لئن عوفيت لأجمعن حطبا لابراهيم وكانت المرأة تنذر فى بعض ما تطلب لئن أصابته لتحتطبن فى نار إبراهيم وكانت المرأة تغزل وتشترى الحطب بغزلها احتسابا فى دينها وكان الرجل يوصى بشراء الحطب من ماله لابراهيم فلما جمعوا ما أرادوا أشعلوا فى كل ناحية من الحطب نارا فاشتعلت النار واشتدت حتى إن الطير ليمر بها فتحترق من شدة وهجها وحرها فأوقدوا عليها سبعة أيام فلما أرادوا أن يلقوا إبراهيم لم يعلموا كيف يلقونه فقيل إن ابليس جاء وعلمهم عمل المنجنيق فعملوه ثم عمدوا إلى إبراهيم فقيدوه ورفعوه على رأس البنيان ووضعوه فى المنجنيق مقيدا مغلولا فصاحت السماء والأرض ومن فيهما من الملائكة وجميع الخلق إلا الثقلين صيحة واحدة أي ربنا إبراهيم خليلك يلقى فى النار وليس فى أرضك أحد يعبدك غيره فأذن لنا فى نصرته فقال الله تعالى إنه خليلى ليس لى خليل غيره وأنا إلهه ليس له إله غيرى فان استغاث بأحد منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت له فى ذلك وإن لم يدع غيرى فأنا أعلم به وأنا وليه فخلوا بينى وبينه فلما أرادوا إلقاءه فى النار أتاه خازن المياه وقال إن أردت أخمدت النار وأتاه خازن الهواء وقال إن شئت طيرت النار فى الهواء فقال إبراهيم لا حاجة لى إليكم حسبى الله ونعم الوكيل وروى عن أبى بن كعب أن إبراهيم قال حين أوثقوه ليلقوه فى النار لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد

فعلمهم عمل المنجنيق فعملوه ثم عمدوا إلى إبراهيم فرفعوه على رأس البنيان وقيدوه ثم وضعوه فى المنجنيق مقيدا مغلولا فصاحت السماء والأرض ومن فيها من الملائكة وجميع الخلق إلا الثقلين صيحة واحدة أى ربنا إبراهيم خليلك يلقى فى النار وليس فى أرضك أحد يعبدك غيره فأذن لنا فى نصرته فقال الله عز وجل إنه خليلى ليس لى غيره خليل وأنا إلهه وليس له إله غيرى فان استغاث بشىء منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت له فى ذلك وإن لم يدع غيرى فأنا أعلم به وأنا وليه فخلوا بينى وبينه فلما أرادوا إلقاءه فى النار آتاه خازن المياه فقال إن أردت أخمدت النار وآتاه خازن الرياح فقال إن شئت طيرت النار فى الهواء فقال إبراهيم لاحاجة لى إليكم حسبى الله ونعم الوكيل وروى عن أبى بن كعب أن إبراهيم قال حين أوثقوه ليلقوه فى النار قال لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك ثم رموا به فى المنجنيق إلى النار فاستقبله جبريل فقال يا إبراهيم ألك حاجة فقال أما إليك فلا فقال جبريل فاسأل ربك فقال إبراهيم حسبى من سؤالى علمه بحالى قال كعب الأحبار جعل كل شىء يطفئ عنه النار إلا الوزغ فانه كان ينفخ فى النار أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد ابن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله بن موسى أو ابن سلام عنه أنا ابن جريج عن عبد الحميد ابن جبير عن سعيد بن المسيب عن أم شريك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الوزغ وقال «كان ينفخ النار على إبراهيم» قال الله تعالى (قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم) قال ابن عباس لو لم يقل سلاما لمات إبراهيم من بردها ومن المعروف فى الآثار أنه لم يبق يومئذ نار فى الأرض إلا طفئت فلم ينتفع فى ذلك اليوم بنار فى العالم ولو لم يقل على إبراهيم بقيت ذات برد أبدا قال السدى فأخذت الملائكة بضبعى إبراهيم فأقعدوه على الأرض فاذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس قال كعب ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه قالوا وكان إبراهيم فى ذلك الموضع سبعة أيام قال المنهال بن عمرو قال إبراهيم ما كنت قط أياما أنعم منى من الأيام التى كنت فيها فى النار قال ابن يسار وبعث الله ملك الظل فى صورة إبراهيم فقعد فيها إلى جنب إبراهيم يؤنسه قالوا وبعث الله جبريل إليه بقميص من حرير الجنة وطنفسة فألبسه القميص وأقعده على الطنفسة وقعد معه يحدثه وقال

الحمد ولك الملك لا شريك لك ثم رموا به فى المنجنيق إلى النار فاستقبله جبريل فقال يا إبراهيم ألك حاجة فقال أما إليك فلا قال جبريل فاسأل ربك فقال إبراهيم حسبى من سؤالى علمه بحالى (خ) عن ابن عباس فى قوله تعالى «وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل» قال قالها إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين ألقى فى النار وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين «قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم» قال كعب الأحبار جعل كل شىء يطفئ عنه النار إلا الوزغ فانه كان ينفخ فى النار (ق) عن أم شريك «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الأوزاغ» زاد البخارى وقال كان ينفخ على إبراهيم» (قلنا) يعنى قال الله عز وجل (يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم) قال ابن عباس لو لم يقل سلاما لمات إبراهيم من بردها وفى بعض الآثار أنه لم يبق يومئذ نار فى الأرض إلا طفئت فلم ينتفع فى ذلك اليوم بنار فى العالم ولو لم يقل على إبراهيم بقيت ذات برد أبدا وقيل أخذت الملائكة بضبعى إبراهيم فأقعدوه على الأرض فاذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس قال كعب ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه قالوا وكان إبراهيم فى ذلك الموضع سبعة أيام قاله المنهال بن عمر وقال إبراهيم ما كنت أياما قط أنعم منى من الأيام التى كنت فى النار قيل وبعث الله تعالى ملك الظل فى صورة إبراهيم فقعد إلى جنب إبراهيم يؤنسه قالوا وبعث الله عز وجل جبريل بقميص من حرير الجنة وطنفسة فألبسه القميص وأقعده على الطنفسة وقعد معه يحدثه وقال جبريل يا إبراهيم إن ربك يقول أما علمت أن النار لا تضر أحبابى ثم نظر نمرود وأشرف على إبراهيم من صرح له فرآه جالسا فى روضة والملك قاعد إلى جنبه وما حوله نار تحرق الحطب فناداه يا إبراهيم كبير إلهك الذى بلغت قدرته أن حال بينك وبين النار يا إبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها قال نعم قال هل تخشى إن قمت أن تضرك قال لا قال فقم فاخرج منها فقام إبراهيم يمشى فيها حتى خرج منها فلما وصل إليه قال له يا إبراهيم من الرجل الذى رأيته معك مثلك فى صورتك قاعدا إلى جنبك قال ذلك ملك الظل أرسله إلى ربى ليؤنسنى فيها فقال نمرود يا إبراهيم إنى مقرب إلى إلهك قربانا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك حين أبيت إلا عبادته وتوحيده وإنى ذابح له أربعة آلاف بقرة قال إبراهيم لا يقبل الله منك مادمت على دينك حتى تفارقه وترجع إلى دينى فقال لا أستطيع ترك ملكى ولكن سوف أذبحها فذبحها نمرود وكف عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ومنعه الله

جبريل يا إبراهيم إن ربك يقول لك أما علمت أن النار لاتضر أحبائى ثم نظر نمرود وأشرف على إبراهيم من صرح له فرآه جالسا
فى روضة والملك قاعدا إلى جنبه وما حوله نار تحرق الحطب فناداه ياإبراهيم كبير إلهك الذى بلغت قدرته أي حال بينك وبين
ما أرى ياإبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها قال نعم قال هل تخشى إن أقمت فيها أن تضرك قال لا قال فقم فاخرج منها فقام
إبراهيم يمشى فيها حتى خرج منها فلما خرج إليه قال له ياإبراهيم من الرجل الذى رأيته معك فى مثل صورتك قاعدا إلى جنبك
قال ذاك ملك الظل أرسله إلى ربى ليؤنسنى فيها فقال نمرود ياإبراهيم إنى مقرب إلى إلهك قربانا لما رأيت من قدرته وعزته فيما
صنع بك حيث أبيت إلا عبادته وتوحيده إنى ذابح له أربعة آلاف بقرة فقال له إبراهيم إذن لايقبلها منك ما كنت على دينك
حتى تفارقه إلى دينى فقال لاأستطيع (٣٠٢) ترك ملتى وملكى ولكن سوف أذبحها فذبحها له نمرود ثم كف عن
إبراهيم ومنعه الله منه
قال شعيب الجبائى ألقى
إبراهيم فى النار وهو ابن
ست عشرة سنة قوله
(وأرادوا به كيدا فجعلناهم
الأخسرين) قيل معناه
أنهم خسروا السعى
والنفقة ولم يحصل لهم
مرادهم وقيل معناه إن
الله عز وجل أرسل على
نمرود وأهله البعوض،
فأكلت لحومهم وشربت
دماءهم ودخلت واحدة
فى دماغه فأهلكته قوله
(ونجيناه ولوطا) من
نمرود وقومه من أرض
العراق (إلى الأرض التى
باركنا فيها للعالمين) يعنى
الشام بارك الله فيها
بالخصب وكثرة الأشجار
والثمار والأنهار ومنها
بعث أكثر الأنبياء وقال
أبى بن كعب سماها مباركة
لأنه مامن ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التى هى ببيت المقدس أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى
أنا أبو الحسين بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن منصور الرمادى أنا عبد الرزاق أنا معمر عن قتادة أن عمر
ابن الخطاب قال لكعب ألا تتحول إلى المدينة فيها مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبره فقال كعب إنى وجدت فى
كتاب الله المنزل ياأمير المؤمنين أن الشام كنز الله من أرضه وبها كنزه من عباده أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهرى
أنا جدى عبد الصمد بن عبد الرحمن البزاز أنا محمد بن زكريا العذافرى أنا إسحاق الديرى أنا عبد الرزاق أنا معمر عن قتادة
عن شهر بن حوشب عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إنها ستكون هجرة بعد
هجرة فخيار الناس إلى مهاجر إبراهيم» وقال محمد بن إسحاق استجاب لإبراهيم رجال من قومه حين رأوا ماصنع الله به من

عز وجل منه قوله عز وجل (وأرادوا به كيدا) يعنى أرادوا أن يكيدوه (فجعلناهم الأخسرين) قيل
معناه أنهم خسروا السعى والنفقة ولم يحصل لهم مرادهم وقيل إن الله تعالى أرسل على نمرود وقومه
البعوض فأكلت لحومهم وشربت دماءهم ودخلت فى دماغه بعوضة فأهلكته. قوله تعالى
(ونجيناه ولوطا) يعنى من نمرود وقومه (إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين) يعنى إلى أرض
الشام بارك الله فيها بالخصب وكثرة الأشجار والثمار والأنهار وقال أبى بن كعب بارك الله فيها
وسماها مباركة لأنه مامن ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التى ببيت المقدس وقيل
لأن أكثر الأنبياء منها (ق) عن أبى قتادة أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال لكعب
ألا تتحول إلى المدينة فيها مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبره فقال كعب إنى وجدت
فى كتاب الله المنزل ياأمير المؤمنين إن الشام كنز الله من أرضه وبها كنزه من عباده عن عبد الله
ابن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «ستكون هجرة بعد هجرة فخيار
أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم» أخرجه أبو داود أراد بالهجرة الثانية الهجرة إلى الشام
يرغب فى المقام بها عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «طوبى لأهل الشام
فقلت وما ذاك يارسول الله قال لأن الملائكة باسطة أجنحتها عليها» أخرجه الترمذى عن
بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال «قلت يارسول الله أين تأمرنى قال هاهنا ونحا بيده نحو الشام»
أخرجه الترمذى قال محمد بن إسحاق استجاب لإبراهيم رجال من قومه حين رأوا ماصنع
الله تعالى به من جعل النار عليه بردا وسلاما على خوف من نمرود وملئهم وآمنت به سارة
بنت هاران الأكبر عم إبراهيم وتبعه لوط وكان ابن أخيه وهو لوط بن هاران وهو أخو إبراهيم
وكان لهما أخ ثالث اسمه ناخور فثلاثتهم أولاد تارخ وهو آزر فخرج إبراهيم من كوثى من
أرض العراق مهاجرا إلى ربه ومعه لوط وسارة فخرج يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادة ربه
حتى نزل حران فمكث بها ما شاء الله ثم خرج مهاجرا حتى قدم مصر ثم خرج ورجع إلى
الشام فنزل السبع من أرض فلسطين ونزل لوط بالمؤتفكة وهى على مسيرة يوم وليلة من
السبع فبعثه الله نبيا إلى أهلها وما قرب منها فذلك قوله تعالى «ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى

باركنا

جعل النار عليه بردا وسلاما على خوف من نمرود وملئه وآمن به لوط وكان ابن أخيه وهو لوط ابن هاران بن تارخ وهاران هو أخو إبراهيم وكان لهما أخ ثالث يقال له ناخور بن تارخ وآمنت به أيضا سارة وهى بنت عمه وهى سارة بنت هاران الأكبر عم إبراهيم فخرج من كوثى من أرض العراق مهاجرا إلى ربه ومعه لوط وسارة كما قال الله تعالى «فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى» فخرج يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادة ربه حتى نزل حران فمكث بها ماشاء الله ثم خرج منها مهاجرا حتى قدم مصر ثم خرج من مصر إلى الشام فنزل السبع من أرض فلسطين وهى برية الشام ونزل لوط بالمؤتفكة وهى من السبع على مسيرة يوم وليلة وأقرب فبعثه الله نبيا فذلك قوله تعالى : «ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين» (ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة) قال مجاهد وعطاء معنى النافلة العطية وهما جميعا من عطاء الله نافلة يعنى عطاء . قال الحسن والضحاك فضلا وعن ابن عباس وأبى بن كعب وابن زيد وقتادة رضى الله عنهم النافلة هو (٣٠٣) يعقوب لأن الله عز وجل أعطاه إسحق بدعائه حيث قال هب لى من الصالحين وزاده يعقوب وهو ولد الولد والنافلة الزيادة (وكلا جعلنا صالحين) يعنى إبراهيم وإسحق ويعقوب (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) يقتدى بهم فى الخيرات يهدون بأمرنا يدعون الناس إلى ديننا (وأوحينا إليهم فعل الخيرات) يعنى العمل بالشرائع (وإقام الصلاة) يعنى المحافظة عليها (وإيتاء الزكاة) إعطاءها (وكانوا لنا عابدين) موحدين (ولوطا آتيناه) يعنى وآتينا لوطا وقيل واذكر لوطا آتيناه (حكما) يعنى الفصل بين الخصوم بالحق (وعلما ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث) يعنى سدوما وكان أهلها يأتون الذكران فى أدبارهم ويتضارطون فى أنديتهم مع أشياء أخر كانوا يعملونها من المنكرات (إنهم كانوا قوم سوء فاسقين وأدخلناه فى رحمتنا إنه من الصالحين ونوحا إذ نادى) دعا (من قبل) يعنى من قبل إبراهيم ولوط (فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) قال ابن عباس من الغرق وتكذيب قومه وقيل لأنه كان أطول الأنبياء عمرا وأشدهم بلاء والكرب أشد الغم (ونصرناه) منعناه (من القوم الذين كذبوا بآياتنا) أن يصلوا إليه بسوء وقال أبو عبيدة يعنى على القوم (إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) قوله تعالى (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث) اختلفوا فى الحرث قال ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم وأكثر المفسرين كان الحرث كرما قد تدلت عناقيده وقال قتادة كان زرعا (إذ نفشت فيه غنم القوم) يعنى رعته ليلا فأفسدته والنفش الرعى بالليل والهمل بالنهار وهما الرعى بلا راع (وكنا لحكمهم شاهدين) يعنى كان ذلك بعلمنا وبمرأى منا لايخفى علينا علمه . قال الفراء جمع

باركنا فيها للعالمين » قوله تعالى (ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة) يعنى عطية من عطاء الله قال ابن عباس النافلة هو يعقوب لأن الله تعالى أعطى إبراهيم إسحاق بدعائه حيث قال رب هب لى من الصالحين وزاده يعقوب نافلة وهو ولد الولد (وكلا جعلنا صالحين) يعنى إبراهيم وإسحاق ويعقوب (وجعلناهم أئمة) يعنى قدوة يهتدى بهم فى الخير (يهدون بأمرنا) يعنى يدعون الناس إلى ديننا بأمرنا (وأوحينا إليهم فعل الخيرات) يعنى العمل بالشرائع (وإقام الصلاة) يعنى المحافظة عليها (وإيتاء الزكاة) يعنى الواجبة وخصهما لأن الصلاة أفضل العبادات البدنية وشرعت لذكر الله والزكاة أفضل العبادات المالية ومجموعهما التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله (وكانوا لنا عابدين) يعنى موحدين قوله عز وجل (ولوطا آتيناه حكما) أى الفصل بين الخصوم بالحق وقيل أراد الحكمة والنبوة (وعلما ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث) يعنى قرية سدوم وأراد أهلها وأراد بالخبائث إتيان الذكور فى أدبارهم وكانوا يتضارطون فى مجالسهم مع أشياء أخر كانوا يعملونها من المنكرات (إنهم كانوا قوم سوء فاسقين وأدخلناه فى رحمتنا) قيل أراد بالرحمة النبوة وقيل أراد بها الثواب (إنه من الصالحين) أى الأنبياء . قوله تعالى (ونوحا إذ نادى من قبل) أى من قبل إبراهيم ولوط (فاستجبنا له) أى أجبنا دعاءه (فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) قال ابن عباس من الغرق وتكذيب قومه له وقيل إنه كان أطول الأنبياء عمرا وأشدهم بلاء والكرب أشد الغم (ونصرناه) أى منعناه (من القوم الذين كذبوا بآياتنا) من أن يصلوا إليه بسوء وقيل من بمعنى على (إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) . قوله عز وجل (وداود وسليمان إذ يحكما فى الحرث) قال ابن عباس وأكثر المفسرين كان الحرث كرما قد تدلت عناقيده وقيل كان زرعا وهو أشبه بالعرف (إذ نفشت فيه غنم القوم) أي رعته ليلا فأفسدته وكان بلا راع (وكنا لحكمهم شاهدين) أى كان ذلك بعلمنا وبمرأى منا لايخفى علينا علمه

اثنين فقال لحكمهم وهو يريد داود وسليمان لأن الاثنين جمع وهو مثل قوله «فان كان له إخوة فلأمه السدس» وهو يريد أخوين قال ابن عباس وقتادة والزهرى وذلك أن رجلين دخلا على داود أحدهما صاحب زرع والآخر صاحب غنم فقال صاحب الزرع إن هذا انفلتت غنمه ليلا ووقعت فى حرثى فأفسدته فلم يبق منه شىء فأعطاه داود رقاب الغنم بالحرث فخرجا فمرا على سليمان فقال كيف قضى (٣٠٤) بينكما فأخبراه فقال سليمان لو وليت أمرهما لقضيت بغير هذا وروى أنه قال غير هذا أرفق بالفريقين فأخبر بذلك داود فدعاه فقال كيف تقضى ويروى أنه قال بحق النبوة والأبوة ألا أخبرتنى بالذى هو أرفق بالفريقين قال ادفع الغنم إلى صاحب الحرث ينتفع بدرها ونسلها وصوفها ومنافعها ويبذر صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه فاذا صار الحرث كهيئته يوم أكل دفع إلى أهله وأخذ صاحب الغنم غنمه فقال داود القضاء ما قضيت وحكم بذلك وقيل إن سليمان يوم حكم بذلك كان ابن إحدى عشرة سنة وأما حكم الإسلام فى هذه المسألة أن ما أفسدت الماشية المرسلة بالنهار من مال الغير فلا ضمان على ربها وما أفسدته بالليل ضمنه ربها لأن فى عرف الناس أن أصحاب الزرع يحفظونه بالنهار والمواشى تسرح بالنهار وترد بالليل إلى المراح أخبرنا أبو الحسن السرخسى أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن حرام بن سعد بن محيصة أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائطا فأفسدته فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم «أن على أهل الحوائط حفظها بالنهار وأن ما أفسدت المواشى بالليل ضمان على أهلها» وذهب أصحاب الرأى إلى أن المالك إذا لم يكن معها فلا ضمان عليه فيما أتلفت ماشيته ليلا كان أو نهارا قوله تعالى (ففهمناها سليمان) أى علمناه القضية وألهمناها سليمان (وكلا) يعنى داود وسليمان (آتينا حكما وعلما) قال الحسن لولا هذه الآية لرأيت الحكام قد

وفيه دليل لمن يقول بأن أقل الجمع اثنان لقوله وكنا لحكمهم والمراد به داود وسليمان قال ابن عباس وغيره أن رجلين دخلا على داود أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الزرع إن غنم هذا دخلت زرعى ليلا فوقعت فيه فأفسدته فلم تبق منه شيئا فأعطاه رقاب الغنم بالزرع فخرجا فمرا على سليمان فقال كيف قضى بينكما فأخبراه فقال سليمان لو وليت أمركما لقضيت بغير هذا وروى أنه قال غير هذا أرفق بالفريقين فأخبر بذلك داود فدعاه وقال كيف تقضى ويروى أنه قال له بحق النبوة والأبوة إلا ما أخبرتنى بالذى هو أرفق بالفريقين قال ادفع الغنم إلى صاحب الحرث ينتفع بدرها ونسلها وصوفها ومنافعها ويزرع صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه فاذا صار الحرث كهيئته يوم أكل دفع إلى صاحبه وأخذ صاحب الغنم غنمه فقال داود القضاء ما قضيت وحكم بذلك فقيل كان لسليمان يوم حكم بذلك من العمر إحدى عشرة سنة وحكم الإسلام فى هذه المسألة أن ما أفسدته الماشية المرسلة من مال الغير بالنهار فلا ضمان على ربها وما أفسدته بالليل ضمنه ربها لأن فى عرف الناس أن أصحاب الزرع يحفظونه بالنهار والمواشى تسرح بالنهار وترد بالليل إلى المراح ويدل على هذه المسألة ما روى حرام بن سعد بن محيصة أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائطا لرجل من الأنصار فأفسدت فيه فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن على أهل الأموال حفظها بالنهار وعلى أهل المواشى حفظها بالليل وزاد فى رواية وإن على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل أخرجه أبو داود مرسلا وذهب أصحاب الرأى أن المالك إذا لم يكن مع ماشيته فلا ضمان عليه فيما أتلفت ليلا كان أو نهارا فذلك قوله تعالى (ففهمناها سليمان) أى علمناه وألهمناه حكم القضية (وكلا) أى داود وسليمان (آتينا حكما وعلما) أى بوجوه الاجتهاد وطرق الأحكام قال الحسن لولا هذه الآية لرأيت الحكام قد هلكوا ولكن الله حمد هذا بصوابه وأثنى على هذا باجتهاده واختلف العلماء فى أن حكم داود كان باجتهاده أم بنص وكذلك حكم سليمان فقال بعضهم حكما بالاجتهاد قال ويجوز الاجتهاد للأنبياء ليدركوا ثواب المجتهدين والعلماء لهم الاجتهاد فى الحوادث إذا لم يجدوا فيها نص كتاب أو سنة وإذا أخطئوا فلا إثم عليهم (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر» وقال قوم إن داود وسليمان حكما بالوحى فكان حكم سليمان ناسخا لحكم داود ومن قال بهذا يقول لا يجوز للأنبياء الحكم بالاجتهاد لأنهم مستغنون عنه بالوحى واحتج من ذهب إلى أن كل مجتهد مصيب بظاهر هذه الآية وبالحديث حيث وعد الثواب للمجتهد على الخطأ وهو قول أصحاب الرأى وذهب جماعة إلى أنه ليس كل مجتهد

قد هلكوا ولكن الله حمد هذا بصوابه وأثنى على هذا باجتهاده. واختلف العلماء في أن حكم داود كان بالاجتهاد أو بالنص وكذلك حكم سليمان، فقال بعضهم فعلا بالاجتهاد وقالوا يجوز الاجتهاد للأنبياء ليدركوا ثواب المجتهدين إلا أن داود أخطأ وأصاب سليمان وقالوا يجوز الخطأ على الأنبياء إلا أنهم لا يقرون عليه فأما العلماء فلهم الاجتهاد في الحوادث إذا لم يجدوا فيها نص كتاب ولا سنة فاذا أخطئوا فلا إثم عليهم فانه موضوع عنهم لما أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب أنا عبدالعزيز ابن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع بن سليمان أنا الشافعي أنا عبد العزيز بن محمد عن يزيد بن عبد الله ابن الهاد عن محمد بن إبراهيم التيمي عن بسر بن أبي سعيد عن قيس مولى عمرو بن العاص عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر» وقال قوم إن داود وسليمان حكما بالوحي وكان حكم سليمان ناسخا لحكم داود وهذا القائل يقول لا يجوز للأنبياء الحكم بالاجتهاد لأنهم مستغنون عن الاجتهاد بالوحي وقالوا لا يجوز الخطأ على الأنبياء. (٣٠٥) واحتج من ذهب إلى أن كل مجتهد مصيب بظاهر الآية وبالخبر حيث وعد الثواب للمجتهد على الخطأ وهو قول أصحاب الرأي. وذهب جماعة إلى أنه ليس كل مجتهد مصيبا بل إذا اختلف اجتهاد مجتهدين في حادثة كان الحق مع واحد لا بعينه ولو كان كل واحد مصيبا لم يكن للتقسيم معنى، وقوله عليه الصلاة والسلام «وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر» لم يرد به أنه يؤجر على الخطأ بل يؤجر على اجتهاده في طلب الحق لأن اجتهاده عبادة والإثم في الخطأ عنه موضوع إذا لم يأل جهده. أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري أنا أبو الزناد عن عبد الرحمن الأعرج أنه سمع أبا هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «كانت امرأتان معهما ابناهما فجاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت صاحبتها إنما ذهب بابنك وقالت الأخرى إنما ذهب بابنك فتحاكمتا إلى داود فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان وأخبرتاه فقال ائتوني بالسكين أشقه بينهما فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله فهو ابنها فقضى به للصغرى» قوله تعالى (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير) أي وسخرنا الجبال والطير يسبحن مع داود إذا سبح، قال ابن عباس كان يفهم تسبيح الحجر والشجر وقال وهب كانت الجبال تجاوبه بالتسبيح وكذلك الطير وقال قتادة يسبحن أي يصلين معه إذا صلى وقيل كان داود إذا فتر يسمعه الله تسبيح الجبال والطير لينشط في التسبيح ويشتاق إليه (وكنا فاعلين) ماذكر من التفهيم وإيتاء الحكم والتسخير (وعلمناه صنعة لبوس لكم) المراد باللبوس هنا الدروع لأنها تلبس وهو في اللغة اسم لكل مايلبس ويستعمل في الأسلحة كلها وهو بمعنى الملبوس كالجلوس والركوب قال قتادة أول من صنع الدروع وسردها وحلقها داود، وكانت من قبل

مجتهد مصيبا بل إذا اختلف اجتهاد المجتهدين في حادثة كان الحق مع واحد لا بعينه ولو كان كل واحد مصيبا لم يكن للتقسيم معنى، وقوله صلى الله عليه وسلم «إذا اجتهد فأخطأ فله أجر» لم يرد به أنه يؤجر على الخطأ بل يؤجر على اجتهاده في طلب الحق لأن اجتهاده عبادة والإثم في الخطأ عنه موضوع إذا لم يأل جهدا، ووجه الاجتهاد في هذا الحكم أن داود قوم قدر الضرر في الحرث فكان مساويا لقيمة الغنم وكان عنده أن الواجب في ذلك الضرر في الحرث قيمة المثل فلا جرم سلم الغنم إلى المجني عليه. وأما سليمان فان اجتهاده أدى إلى أنه يجب مقابلة الأصول بالأصول والزوائد بالزوائد. فأما مقابلة الأصول بالزوائد فغير جائزة ولعل منافع الغنم في تلك السنة كانت موازية لمنافع الحرث فحكم به ومن أحكام داود وسليمان عليهما السلام ماروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما فقالت لصاحبتها إنما ذهب بابنك وقالت الأخرى إنما ذهب بابنك فتحاكمتا إلى داود فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه فقال ائتوني بالسكين أشقه بينهما فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغري» أخرجاه في الصحيحين قوله تعالى (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير) أي يسبحن مع داود إذا سبح قال ابن عباس كان يفهم تسبيح الحجر والشجر قيل كانت الجبال تجاوبه بالتسبيح وكذلك الطير وقيل معنى يسبحن يصلين معه إذا صلى وقيل كان داود إذا فتر يسمعه الله تسبيح الجبال والطير لينشط في التسبيح ويشتاق إليه (وكنا فاعلين) يعني ماذكر من التفهيم وإيتاء الحكم والتسخير (وعلمناه صنعة لبوس لكم) أي صنعة الدروع التي تلبس في الحرب قيل أول من صنع الدروع وسردها

صفائح والدرع يجمع الخفة والحصانة (لتحصنكم) لتحرزكم وتمنعكم (من بأسكم) أى من حرب عدوكم، قال السدى من وقع السلاح . فيكم قرأ أبو جعفر وابن عامر وحفص عن عاصم ويعقوب لتحصنكم بالتاء يعنى الضنعة وقرأ أبو بكر عن عاصم بالنون لقوله وعلمناه وقرأ الآخرون بالياء وجعلوا الفعل للبوس وقيل ليحصنكم الله (فهل أنتم شاكرون) يقول لداود وأهل بيته وقيل يقول لأهل مكة فهل أنتم شاكرون نعمى بطاعة الرسول (ولسليمان الريح عاصفة) أى وسخرنا لسليمان الريح وهى هواء متحرك وهو جسم لطيف يمتنع بلطفه من القبض عليه ويظهر للحس بحركته والريح يذكر ويؤنث عاصفة شديدة الهبوب . فان قيل قد قال فى موضع آخر تجرى بأمره رخاء والرخاء اللين قيل كانت الريح تحت أمره إن أراد أن تشتد اشتدت وإن أراد أن تلين (٣٠٦) لانت (تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها) يعنى الشام وذلك أنها كانت تجرى لسليمان وأصحابه حيث شاء سليمان ثم يعود إلى منزله بالشام (وكنا بكل شىء عالمين) بصحة التدبير فيه، أى علمنا أن مايعطى سليمان من تسخير الريح وغيره يدعوه إلى الخضوع لربه عز وجل قال وهب ابن منبه كان سليمان إذا خرج إلى مجلسه عكفت عليه الطير وقام له الجن والإنس حتى يجلس على سريره وكان امرأ غزاء قلما يقعد عن الغزو ولا يسمع فى ناحية من الأرض بملك إلا أتاه حتى يذله فكان فيما يزعمون أنه إذا أراد الغزو أمر بعسكره فضرب بخشب ثم نصب له على الخشب ثم حمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب فاذا حمل معه مايريده أمر العاصفة من الريح فدخلت تحت الخشب فاحتملته حتى إذا استقلت به أمر الرخاء فمرت به شهرا فى روحة وشهرا فى غدوة إلى حيث أراد وكانت تمر بعسكره الريح الرخاء وبالمزرعة فما تحركها ولا تثير ترابا ولا تؤذى طائرا قال وهب ذكر لى أن منزلا بناحية دجلة مكتوب فيه كتبه بعض صحابة سليمان إما من الجن وإما من الإنس: نحن نزلناه وما بنيناه ومبنيا وجدناه غدونا من إصطخر فقلناه ونحن رائحون منه إن شاء الله فبائتون بالشام. قال مقاتل: نسجت الشياطين لسليمان بساطا فرسخا فى فرسخ ذهبا فى إبريسم، وكان يوضع له منبر من الذهب فى وسط البساط فيقعد عليه وحوله ثلاثة آلاف كرسى من ذهب وفضة ويقعد الأنبياء على كراسى الذهب والعلماء على كراسى الفضة حولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظله الطير بأجنحتها حتى لاتقع عليه

واتخذها حلقا داود وكانت من قبل صفائح قالوا إن الله ألان الحديد لداود بأن يعمل منه بغير نار كأنه طين والدرع يجمع بين الخفة والحصانة وهو قوله تعالى (لتحصنكم) أى تمنعكم (من بأسكم) أى حرب عدوكم وقيل من وقع السلاح فيكم وقيل ليحصنكم الله به (فهل أنتم شاكرون) أى يقول ذلك لداود وأهل بيته قوله عز وجل (ولسليمان الريح) أى وسخرنا لسليمان الريح وهو جسم متحرك لطيف ممتنع بلطفه من القبض عليه يظهر للحس بحركته ويخفى عن البصر بلطفه (عاصفة) أى شديدة الهبوب . فان قلت قد وصفها الله بالرخاء وهى الريح اللينة قلت كانت الريح تحت أمره إن أراد أن تشتد اشتدت وإن أراد أن تلين لانت (تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها) يعنى الشام وذلك لأنها كانت تجرى بسليمان وأصحابه حيث يشاء سليمان ثم يعود إلى منزله بالشام (وكنا بكل شىء عالمين) أى بصحة التدبير فيه وعلمنا أن مايعطى سليمان من تسخير الريح وغيره يدعوه إلى الخضوع لربه . قال وهب كان سليمان عليه السلام إذا خرج إلى مجلسه حلقت عليه الطير وقام له الإنس والجن حتى يجلس على سريره وكان امرأ غزاء قلما كان يقعد عن الغزو ولا يسمع فى ناحية من الأرض بملك إلا أتاه حتى يذله وكان فيما يزعمون إذا أراد الغزو أمر بعسكره فضرب له بخشب ثم نصب له على الخشب ثم حمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب فاذا حمل معه ماريد أمر العاصف من الريح فدخلت تحت ذلك الخشب فاحتملته حتى إذا استقلت به أمر الرخاء فمرت به شهرا فى روحته وشهرا فى غدوته إلى حيث أراد وكانت تمر بعسكره الريح الرخاء وبالمزرعة فما تحركها ولا تثير ترابا ولا تؤذى طائرا . قال وهب ذكر لى أن منزلا بناحية دجلة مكتوب فيه كتبه بعض صحابة سليمان إما من الأنس أو من الجن نحن نزلناه وما بنيناه ومبنيا وجدناه غدونا من إصطخر فقلناه ونحن رائحون منه إن شاء الله فنازلون بالشام وقال مقاتل نسجت الشياطين لسليمان بساطا فرسخا فى فرسخ ذهبا فى إبريسم وكان يوضع له منبر من ذهب وسط البساط فيقعد عليه وحوله ثلاثة آلاف كرسى من ذهب وفضة تقعد الأنبياء على كراسى الذهب والعلماء على كراسى الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظله الطير بأجنحتها حتى لاتقع عليه شمس وترفع ريح الصبا البساط

الشمس وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح إلى الرواح ومن الرواح إلى الصباح . وعن سعيد بن جبير قال كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي فيجلس الإنس فيما يليه ثم يليهم الجن ثم تظلهم الطير ثم تحملهم الريح . وقال الحسن لما شغلت الخيل نبي الله سليمان عليه السلام حتى فاتته صلاة العصر غضب لله عز وجل فعقر الخيل فأبدله الله مكانها خيرا منها وأسرع الريح تجري بأمره كيف شاء فكان يغدو من إيلياء فيقيل باصطخر ثم يروح منها فيكون رواحها ببابل وقال ابن زيد كان له مركب من خشب وكان فيه ألف ركن في كل ركن ألف بيت يركب معه فيه الجن والإنس تحت كل ركن ألف شيطان يرفعون ذلك المركب فاذا ارتفع أتت الريح الرخاء فسارت به وبهم يقيل عند قوم بينه وبينهم شهر ويمسى عند قوم بينه « بينهم شهر ولا يدرى القوم إلا وقد أظلهم معه الجيوش . وروى أن سليمان سار من أرض العراق غازيا فقال بمدينة مرو وصلى العصر بمدينة بلخ يحمله وجنوده الريح وتظلهم الطير ثم سار من مدينة بلخ متخللا **(٣٠٧)** بلاد الترك ثم جاءهم إلى أرض الصين يغدو على مسيرة شهر ويروح على مثل ذلك ثم عن مطلع الشمس على ساحل البحر حتى أتى على أرض القندهار وخرج منها إلى أرض مكران وكرمان ثم جاوزها حوالى أرض فارس فنزلها أياما وغدا منها إلى الشام فقال بكسكر ثم راح وكان مستقره بمدينة تدمر وكان أمر الشياطين قبل شخوصه من الشام إلى العراق فبنوها له بالصفاح والعمد والرخام الأبيض والأصفر وفي ذلك يقول النابغة :

إلا سليمان إذ قال المليك له ... قم في البرية فاحددها عن الفند

وجيش الجن إني قد أذنت لهم ... يبنون تدمر بالصفاح والعمد

قوله تعالى (ومن الشياطين) يعني وسخرنا له من الشياطين (من يغوصون له) يعني يدخلون تحت الماء فيخرجون له من قعر البحر الجواهر (ويعملون عملا دون ذلك) يعني دون الغوص وهو ماذكر الله عز وجل « يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل » الآية (وكنا لهم حافظين) حتى لايخرجوا من أمره وقال الزجاج معناه حفظناهم من أن يفسدوا ماعملوا ، وفي القصة أن سليمان كان إذا بعث شيطانا مع إنسان ليعمل له عملا قال له إذا فرغ من عمله قبل الليل أشغله بعمل آخر لئلا يفسد ماعمل وكان من عادة الشياطين أنهم إذا فرغوا من العمل ولم يشتغلوا بعمل آخر خربوا ماعملوا وأفسدوه . قوله تعالى (وأيوب إذ نادى ربه) يعني دعا ربه قال وهب بن منبه كان أيوب رجلا من الروم وهو أيوب بن أموص بن تارخ بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم وكانت أمه من أولاد لوط بن هاران وكان الله قد اصطفاه ونبأه وبسط عليه الدنيا وكانت له البثنية من أرض الشام كلها سهلها

البساط مسيرة شهر من الصباح إلى الرواح وقال الحسن لما شغلت نبي الله سليمان الخيل حتى فاتته صلاة العصر غضب لله فعقر الخيل فأبدله الله مكانها خيرا منها وأسرع الريح تجري بأمره كيف شاء فكان يغدو من إيلياء فيقيل باصطخر ثم يروح منها فيكون رواحه ببابل وروى أن سليمان سار من أرض العراق فقال بمدينة بلخ متخللا بلاد الترك ثم جاوزهم إلى أرض الصين يغدو على مسيرة شهر ويروح على مثل ذلك ثم عطف يمنة عن مطلع الشمس على ساحل البحر حتى أتى أرض السند وجاوزها وخرج منها إلى مكران وكرمان ثم جاوزها حتى أتى أرض فارس فنزلها أياما وغدا منها فقال بكسكر ثم راح إلى الشام وكان مستقره بمدينة تدمر وكان أمر الشياطين قبل شخوصه إلى العراق فبنوها له بالصفاح والعمد والرخام الأصفر والأبيض وفي ذلك يقول النابغة :

إلا سليمان إذ قال المليك له ... قم في البرية فاحددها عن الفند

وجيش الجن إني قد أذنت لهم ... يبنون تدمر بالصفاح والعمد

قوله عز وجل (ومن الشياطين) أي وسخرناله من الشياطين (من يغوصون له) أي يدخلون تحت الماء فيخرجون له من قعر البحر الجواهر (ويعملون عملا دون ذلك) أي دون الغوص وهو اختراع الصنائع العجيبة كما قال « يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل » الآية ويتجاوزون في ذلك إلى أعمال المدن والقصور والصناعات كاتخاذ النورة والقوارير والصابون وغير ذلك (وكنا لهم حافظين) يعني حتى لايخرجوا عن أمره وقيل حفظناهم من أن يفسدوا ماعملوا وذلك أنهم كانوا إذا عملوا عملا في النهار وفرغ قبل الليل أفسدوه وخربوه . قيل إن سليمان كان إذا بعث شيطانا مع إنسان ليعمل له عملا قال له إذا فرغ من عمله قبل الليل أشغله بعمل آخر لئلا يفسد ماعمل ويخربه . قوله تعالى (وأيوب إذ نادى ربه) يعني دعا ربه .

(ذكر قصة أيوب عليه السلام)

قال وهب بن منبه كان أيوب رجلا من الروم وهو أيوب بن أموص بن تارخ بن روم

وجبلها وكان له فيها من أصناف المال كله من البقر والإبل والغنم والخيل والحمر مالا يكون لرجل أفضل منه من العدة والكثرة وكان له خمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد ومال ويحمل آلة كل فدان أتان وكل أتان من الولد اثنان وثلاثة وأربعة وخمسة وفوق ذلك وكان الله أعطاه أهلا وولدا من رجال ونساء وكان برا تقيا رحيما بالمساكين يطعم المساكين ويكفل الأرامل والأيتام ويكرم الضيف ويبلغ ابن السبيل وكان شاكرا لأنعم الله مؤديا لحق الله قد امتنع من عدو الله إبليس أن يصيب منه ما يصيب من أهل الغنى من الغرة والغفلة والتشاغل عن أمر الله بما هو فيه من الدنيا وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وصدقوه رجل من أهل اليمن يقال له النغر ورجلان من أهل بلده يقال لأحدهما يلدد والآخر صافر وكانوا كهولا وكان إبليس لا يحجب عن شيء من السموات وكان يقف فيهن حيثما أراد حتى رفع الله عيسى فحجب عن أربع سموات ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم حجب من الثلاث الباقية فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب وذلك حين ذكره الله وأثنى عليه فأدركه البغى والحسد فصعد سريعا حتى وقف من السماء موقفا كان يقفه فقال إلهى نظرت فى أمر عبدك أيوب فوجدته عبدا أنعمت عليه فشكرك وعافيته فحمدك ولو ابتليته بنزع ما أعطيته لحال عما هو عليه من شكرك وعبادتك ولخرج من طاعتك قال الله عز وجل انطلق (٣٠٨) فقد سلطتك على ماله فانقض عدو الله إبليس حتى وقع إلى الأرض ثم جمع عفاريت الجن ومردة الشياطين وقال لهم ماذا عندكم من القوة ؟ فانى قد سلطت على مال أيوب وهى المصيبة الفادحة والفتنة التى لا يصبر عليها الرجال فقال عفريت من الشياطين أعطيت من القوة ما إذا شئت تحولت إعصارا من نار وأحرقت كل شيء آتى عليه فقال له إبليس فأت الإبل ورعاتها فأتى الإبل حين وضعت رءوسها وثبتت فى مراعيها فلم يشعر الناس حتى ثار من تحت الأرض إعصار من نار لا يدنو منها أحد إلا احترق فأحرقتها ورعاتها حتى أتى على آخرها ثم جاء عدو الله إبليس فى صورة قبيحة على قعود إلى أيوب فوجده قائما يصلى فقال يا أيوب أقبلت نار حتى غشيت إبلك فأحرقتها ومن فيها غيرى فقال أيوب الحمد لله الذى هو أعطاها وهو أخذها وقديما ما وطنت نفسى ومالى على الفناء فقال إبليس فان ربك أرسل عليها نارا من السماء فاحترقت فتركت الناس مبهوتين يتعجبون منها منهم من يقول ما كان أيوب يعبد شيئا وما كان إلا فى غرور ومنهم من يقول لو كان إله أيوب يقدر على أن يصنع شيئا لمنع وليه ومنهم من يقول بل هو الذى فعل ذلك ليشمت به عدوه ويفجع به صديقه فقال أيوب الحمد لله حين أعطانى وحين نزع منى عريانا خرجت من بطن أمى وعريانا أعود فى التراب وعريانا أحشر إلى الله ليس لك أن تفرح حين أعارك ولا أن تجزع حين قبض عاريته منك الله أولى بك وبما أعطاك ولو علم الله فيك أيها العبد خيرا انقل روحك مع تلك الأرواح وصرت شهيدا ولكنه علم منك شرا فأخرك فرجع إبليس إلى أصحابه خائبا خاسرا ذليلا فقال لهم ماذا عندكم من القوة فانى لم أكلم قلبه قال عفريت عندى من القوة ما إذا شئت صحت صيحة لا يسمعها ذو روح إلا خرجت مهجة نفسه فقال إبليس فأت الغنم ورعاتها فانطلق حتى توسطها ، ثم صاح

ابن عيص بن إسحاق بن إبراهيم وكانت أمه من ولد لوط بن هاران وكان الله تعالى قد اصطفاه ونبأه وبسط له الدنيا وكانت له البثنية من أرض البلقاء من أعمال خوارزم مع أرض الشام كلها سهلها وجبلها وكان له فيها من أصناف المال كله من الإبل والبقر والغنم والخيل والحمير ما لا يكون لرجل أفضل منه فى العدد والكثرة وكان له خمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد ومال ويحمل له آلة كل فدان أتان لكل أتان من الولد اثنان أو ثلاثة أو أربع أو خمس وفوق ذلك وكان الله تعالى قد أعطاه أهلا وولدا من رجال ونساء وكان برا تقيا رحيما بالمساكين يطعمهم ويكفل الأيتام والأرامل ويكرم الضيف ويبلغ ابن السهيل وكان شاكرا لأنعم الله مؤديا لحق الله قد امتنع من عدو الله إبليس أن يصيب منه ما يصيب من أهل الغنى من الغرة والغفلة والتشاغل عن أمر الله بما هو فيه من أمر الدنيا وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وصدقوه رجل من أهل اليمن يقال له النغر وقيل نغير ورجلان من أهل بلده يقال لأحدهما تلدد والآخر صافر وكان لهؤلاء مال وكان إبليس لا يحجب عن شيء من السموات وكان يقف فيهن حيثما أراد حتى رفع الله عيسى فحجب عن أربع . فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم حجب عن السموات كلها إلا من استرق السمع فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب وذلك حين ذكره الله وأثنى عليه فأدرك إبليس الحسد والبغى فصعد سريعا

حتى

صيحة فتجثمت أمواتا عن آخرها وماتت رعاؤها ثم جاء إبليس متمثلا بقهرمان الرعاة إلى أيوب وهو يصلى فقال له مثل القول الأول فرد عليه مثل الرد الأول ثم رجع إبليس إلى أصحابه فقال ماذا عندكم من القوة فانى لم أكلم قلب أيوب فقال عفريت عندى من القوة ماإذا شئت تحولت ريحا عاصفا تنسف كل شىء تأتى عليه قال فأت الفدادين والحرث فانطلق ولم يشعروا حتى هبت ريح عاصف فنسفت كل شىء من ذلك حتى كأنه لم يكن ثم جاء إبليس متمثلا بقهرمان الحرث إلى أيوب وهو قائم يصلى فقال له مثل قوله الأول فرد عليه أيوب مثل رده الأول كلما انتهى إليه هلاك مال من أمواله حمد الله وأحسن الثناء عليه ورضى منه بالقضاء ووطن نفسه بالصبر على البلاء (٣٠٩) حتى لم يبق له مال فلما رأى إبليس أنه قد أفنى ماله صعد إلى السماء فقال إلهى إن أيوب يرى منك أنك ما متعته بولده فأنت تعطيه المال فهل أنت مسلطى على ولده فانها المصيبة التى لاتقوم لها قلوب الرجال قال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ولده فانقض عدو الله إبليس حتى جاء بنى أيوب وهم فى قصرهم فلم يزل يزلزل بهم حتى تداعى من قواعده ثم جعل يناطح جدره بعضها ببعض ويرميهم بالخشب والجندل حتى إذا مثل بهم كل مثلة رفع القصر فقلبه فصاروا منكسين ثم انطلق إلى أيوب متمثلا بالمعلم الذى كان يعلمهم الحكمة وقال لو رأيت بنيك كيف عذبوا وقلبوا وكانوا منكسين على رءوسهم تسيل دماؤهم ودماغهم ولو رأيت كيف شقت بطونهم وتناثرت أمعاؤهم لقطع قلبك فلم يزل يقول هذا ونحوه حتى رق أيوب فبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه وقال ياليت أمى لم تلدنى فاغتنم إبليس ذلك فصعد سريعا بالذى كان من جزع أيوب مسرورا به ثم لم يلبث أيوب أن فاء وأبصر واستغفر فصعد قرناؤه من الملائكة بتوبته فسبقت توبته إلى الله وهو أعلم فوقف إبليس ذليلا فقال يا إلهى إنما هون على أيوب المال والولد أنه يرى منك أنك ما متعته بنفسه فأنت تعيد له المال والولد فهل أنت مسلطى على جسده فقال الله عز وجل انطلق فقد سلطتك على جسده ولكن ليس لك سلطان على لسانه ولا على قلبه وكان الله عز وجل أعلم به لم يسلط، عليه إلا رحمة له ليعظم له الثواب ويجعله عبرة للصابرين وذكرى للعابدين فى كل بلاء نزل بهم ليتأسوا

حتى وقف من السماء حيث كان يقف وقال إلهى نظرت فى أمر عبدك أيوب فوجدته عبدا أنعمت عليه فشكرك وعافيته فحمدك ولو ابتليته بنزع ما أعطيته لحال عما هو عليه من شكرك وعبادتك ولخرج عن طاعتك قال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ماله فانقض عدو الله إبليس حتى وقع على الأرض فجمع عفاريت الجن ومردة الشياطين وقال لهم ماذا عندكم من القوة فقد سلطت على مال أيوب وهى المصيبة الفادحة والفتنة التى لاتصبر عليها الرجال فقال عفريت من الشياطين أعطيت من القوة ماإذا شئت تحولت إعصارا من نار فأحرق كل شىء آتى عليه قال إبليس اذهب فأت الإبل ورعاتها فأتى الإبل حين وضعت رءوسها ورعت فلم يشعر الناس حتى ثار من تحت الأرض إعصارا من نار فأحرق الإبل ورعاتها حتى أتى على آخرها ثم جاء عدو الله إبليس فى صورة قيم ممن كانوا عليها على قعود إلى أيوب فوجده قائما يصلى فقال ياأيوب أقبلت نار حتى غشيت إبلك وأحرقتها ومن فيها غيرى فقال أيوب بعد أن فرغ من الصلاة الحمد لله هو أعطانيها وهو أخذها وإنها مال الله أعارنيها وهو أولى بها إذا شاء نزعها قال فتركت الناس مبهوتين يتعجبون منها منهم من يقول ما كان أيوب يعبد شيئا وما كان إلا فى غرور ومنهم من يقول لو كان إله أيوب يقدر أن يضع شيئا لمنع وليه ومنهم من يقول بل هو الذى فعل مافعل ليشمت به عدوه ويفجع صديقه فقال أيوب الحمد لله حين أعطانى وحين نزع منى عريانا خرجت من بطن أمى وعريانا أعود إلى التراب وعريانا أحشر إلى الله عز وجل ليس ينبغى لك أن تفرح حين أعارك وتجزع حين قبض عاريته الله أولى بك وبما أعطاك ولو علم الله فيك أيها العبد خيرا لنقل روحك مع تلك الأرواح وصرت شهيدا ولكنه علم منك شرا فأخرك فرجع إبليس إلى أصحابه خاسئا ذليلا فقال ماعندكم من القوة فانى لم أكلم قلبه قال عفريت من الجن عندى من القوة ما إذا شئت صحت صيحة لايسمعها ذو روح إلا خرجت روحه قال إبليس فأت الغنم ورعاتها فانطلق حتى توسطها ثم صاح صيحة فتجثمت أمواتا من عند آخرها ومات رعاتها فجاء إبليس متمثلا بقهرمان الرعاء إلى أيوب فوجده يصلى فقال له مثل القول الأول فرد عليه أيوب مثل الرد الأول فرجع إبليس إلى أصحابه فقال ماذا عندكم من القوة فانى لم أكلم قلب أيوب فقال عفريت عندى من القوة ماإذا شئت

في الصبر ورجاء للثواب فانقض عدو الله إبليس سريعا فوجد أيوب ساجدا فعجل قبل أن يرفع رأسه فأتاه من قبل وجهه فنفخ في منخره نفخة اشتعل منها جميع جسده فخرج من قرنه إلى قدمه، ثآليل مثل أليات الغنم ووقعت فيها حكة فحكها بأظفاره حتى سقطت كلها ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها ثم حكها بالفخار والحجارة الخشنة فلم يزل يحكها حتى نغل لحمه وتقطع وتغير وأنتن وأخرجه أهل القرية فجعلوه على كناسة وجعلوا له عريشا فرفضه خلق الله كلهم غير امرأته رحمة وهي بنت إفرائيم بن يوسف بن يعقوب كانت تختلف إليه بما يصلحه ويلزمه فلما رأى الثلاثة من أصحابه وهم النغر ويلدد وصافر ما ابتلاه الله به اتهموه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه فلما طال به البلاء انطلقوا إليه فبكتوه ولاموه وقالوا له تب إلى الله من الذنب الذي

عوقبت به وكان ممن حضره معهم فتى حديث السن قد آمن به وصدقه فقال لهم إنكم تكلمتم أيها الكهول وكنتم أحق بالكلام مني لأسنانكم ولكن قد تركتم من القول أحسن من الذي قلتم ومن الرأي أصوب من الذي رأيتم ومن الأمر أجمل من الذي أتيتم قد كان لأيوب عليكم من الحق والذمام أفضل من الذي وصفتم فهل تدرون أيها الكهول حق من انتقصتم وحرمة من انتهكتم ومن الرجل الذي عبتم واتهمتم؟ ألم تعلموا أن أيوب نبي الله وخيرته من خلقه وصفوته من أهل الأرض في يومكم هذا ثم لم تعلموا ولم يطلعكم الله من أمره على أنه قد سخط عليه شيئا من أمره منذ آتاه الله ما آتاه إلى يومكم هذا، ولا على أنه نزع منه شيئا من الكرامة التي أكرمه بها ولا أن أيوب قال على الله غير الحق في طول ما صحبتموه إلى يومكم هذا فان كان البلاء هو الذي أزرى به عندكم ووضعه في أنفسكم فقد علمتم أن الله يبتلي المؤمنين والصديقين والشهداء والصالحين وليس بلاؤه لأولئك بدليل على سخطه عليهم ولا لهوانه لهم ولكنه كرامة وخيرة لهم ولو كان أيوب ليس من الله بهذه المنزلة إلا أنه أخ أحببتموه على وجه الصحبة لكان لا يجمل بالحليم أن يعذل أخاه عند البلاء ولا أن يعيره بالمصيبة ولا أن يعيبه بما لا يعلم وهو مكروب حزين ولكنه يرحمه ويبكي معه ويستغفر له ويحزن لحزنه ويدل على مراشد أمره وليس بحكيم ولا رشيد من جهل هذا فالله الله أيها الكهول وقد كان في عظمة الله عز جلاله وذكر الموت ما يقطع ألسنتكم ويكسر قلوبكم ألم تعلموا أن لله عبادا أسكتتهم خشيته من غير عي ولا بكم وإنهم لهم الفصحاء البلغاء النبلاء الألباء العالمون بالله ولكنهم إذا

تحولت ربما عاصفة تنسف كل شيء تأتي عليه قال فأت الفدادين في الحرث والزرع فانطلق يؤمهم وذلك حين شرع الفدادون في الحرث والزرع فلم يشعروا حتى هبت ريح عاصفة فنسفت كل شيء من ذلك حتى كأنه لم يكن ثم جاء إبليس متمثلا بقهرمانهم إلى أيوب وهو قائم يصلي فقال له مثل قوله الأول فرد عليه أيوب مثل رده الأول وجعل إبليس يصف ماله مالا مالا حتى مر على آخره كلما انتهى إلى هلاك مال من أمواله حمد الله وأحسن الثناء عليه ورضي عنه بالقضاء ووطن نفسه بالصبر والبلاء حتى لم يبق له مال فلما رأى إبليس أنه قد أفنى ماله ولم ينجح منه بشيء صعد سريعا حتى وقف في الموقف الذي يقف فيه وقال إلهي إن أيوب يرى أنك ما متعته بولده فأنت معطيه المال فهل أنت مسلطي على ولده فإنها المصيبة التي لا تقوم لها قلوب الرجال قال الله عز وجل انطلق فقد سلطتك على ولده فانقض عدو الله حتى أتى بني أيوب وهم في قصرهم فلم يزل يزلزل بهم القصر حتى تداعى من قواعده وجعل جدره يضرب بعضها بعضا يرميهم بالخشب والحجارة فلما مثل بهم كل مثلة رفع القصر وقلبه عليهم وصاروا منكسين وانطلق إلى أيوب متمثلا بالمعلم الذي كان يعلمهم الحكمة وهو جريح مشدوخ الوجه يسيل دمه فأخبره وقال لو رأيت بنيك كيف عذبوا وكيف انقلبوا منكوسين على رءوسهم تسيل دماؤهم وأدمغتهم ولو رأيت كيف شقت بطونهم فتناثرت أمعاؤهم لتقطع قلبك عليهم فلم يزل يقول هذا ونحوه حتى رق قلب أيوب وبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه وقال ياليت أمي لم تلدني فاغتنم إبليس ذلك فصعد سريعا بالذي كان من جزع أيوب مسرورا به ثم لم يلبث أيوب أن فاء وأبصر واستغفر فصعد قرناؤه من الملائكة بتوبته فسبقت توبته إلى الله وهو أعلم فوقف إبليس خاسئا ذليلا وقال إلهي إنما هون على أيوب المال والولد أنه يرى أنك ما متعته بنفسه فأنت تعيد له المال والولد فهل أنت مسلطي على جسده فقال الله عز وجل انطلق فقد سلطتك على جسده ولكن ليس لك سلطان على لسانه وقلبه وعقله وكان الله أعلم به ولم يسلطه عليه إلا رحمة ليعظم له الثواب ويجعله عبرة للصابرين وذكرى للعابدين في كل بلاء نزل بهم ليتأسوا به في الصبر ورجاء الثواب

فانقض

ذكروا عظمة الله انقطعت ألسنتهم واقشعرت جلودهم وانكسرت قلوبهم وطاشت عقولهم إعظاما وإجلالا لله عز وجل فاذا استفاقوا من ذلك استبقوا إلى الله عز وجل بالأعمال الزكية يعدون أنفسهم مع الظالمين الخاطئين وإنهم لأبرار نزهاء برءاء ومع المقصرين والمفرطين وإنهم لأكياس أقوياء فقال أيوب إن الله عز وجل يزرع الحكمة بالرحمة فى قلب الصغير والكبير فمتى نبتت فى القلب يظهرها الله على اللسان وليست تكون الحكمة من قبل السن والشيبة ولا طول التجربة وإذا جعل الله العبد حكيما فى الصبا لم تسقط منزلته عند الحكماء وهم يرون من الله عليه نور الكرامة ، ثم أعرض عنهم أيوب وأقبل على ربه مستغيثا به متضرعا إليه فقال رب لأى شىء خلقتنى ليتنى إذ كرهتنى لم تخلقنى ياليتنى قد عرفت الذنب الذى أذنبت والعمل الذى عملت فصرفت به وجهك الكريم عنى لو كنت أمتنى فألحقتنى بآبائى الكرام فالموت كان أجمل بى ، ألم أكن للغريب دارا وللمسكين قرارا ولليتيم وليا وللأرملة قيما ، إلهى أنا عبدك إن أحسنت فالمن لك وإن أسأت فبيدك عقوبتى وجعلتنى للبلاء غرضا وللفتنة نصبا وقد وقع على بلاء لو سلطته على جبل لضعف عن حمله فكيف يحمله ضعفى وإن قضاءك هو الذى أذلنى وإن سلطانك هو الذى أسقمنى وأنحل جسمى ولو أن ربى نزع الهيبة التى فى صدرى وأطلق لسانى حتى أتكلم بملء فمى بما كان ينبغى للعبد أن يحاج عن نفسه لرجوت أن يعافينى عند ذلك مما بى ولكنه ألقانى وتعالى عنى فهو يرانى ولا أراه ويسمعنى ولا أسمعه فلا نظر إلى فيرحمنى ولا دنا منى ولا أدنانى فأدلى بعذرى وأتكلم ببراءتى وأخاصم عن نفسى فلما قال ذلك أيوب وأصحابه عنده أظله غمام حتى ظن أصحابه أنه عذاب أليم ثم نودى ياأيوب إن الله عز وجل يقول هاأنا قد دنوت منك ولم أزل منك قريبا قم فأدل بعذرك وتكلم ببراءتك وخاصم عن نفسك واشدد إزارك وقم مقام جبار يخاصم جبارا إن استطعت فانه لاينبغى أن يخاصمنى إلا الجبار مثلى ولا شبه لى لقد منتك نفسك ياأيوب أمرا ماتبلغه بمثل قوتك أين أنت منى يوم خلقت الأرض فوضعتها على أساسها هل كنت معى تمد بأطرافها وهل علمت بأى مقدار قدرتها أم على أى شىء وضعت أكنافها أبطاعتك حمل الماء الأرض ، أم بحكمتك كانت

فانقض عدو الله إبليس سريعا إليه فوجد أيوب ساجدا فعجل قبل أن يرفع رأسه فأتاه من قبل وجهه فنفخ فى منخريه نفخة اشتعل منها جسده فخرج من قرنه إلى قدمه ثآليل مثل أليات الغنم ووقعت فيه حكة فحك بأظفاره حتى سقطت كلها ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها ثم حكها بالفخار والحجارة الخشنة فلم يزل يحك حتى قرح لحمه وتقطع وتغير وأنتن فأخرجه أهل القرية فجعلوه على كناسة لهم وجعلوا له عريشة ورفضه خلق الله كلهم غير امرأته وهى رحمة بنت أفرائيم بن يوسف بن يعقوب فكانت تختلف إليه بما يصلحه وتلزمه فلما رأى الثلاثة من أصحابه ماابتلاه الله به اتهموه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه فلما طال به البلاء انطلق إليه أصحابه فبكتوه ولاموه وقالوا تب إلى الله من الذنب الذى عوقبت به قال وحضر معهم فتى حديث السن قد آمن به وصدقه فقال لهم الفتى إنكم تكلمتم أيها الكهول وأنتم أحق بالكلام منى لأسنانكم ولكن تركتم من القول ماهو أحسن من الذى قلتم ومن الرأى أصوب من الذى رأيتم ومن الأمر أجمل من الذى أتيتم وقد كان لأيوب عليكم من الحق والذمام أفضل من الذى وصفتم فهل تدرون أيها الكهول حق من انتقصتم وحرمة من انتهكتم ومن الرجل الذى عبتم واتهمتم ألم تعلموا أن أيوب نبى الله وصفوته وخيرته من أهل الأرض إلى يومكم هذا ثم لم تعلموا ولم يطلعكم الله على أنه سخط شيئا من أمره منذ آتاه الله ماآتاه إلى يومكم هذا ولا على أنه نزع منه شيئا من الكرامة التى أكرمه الله بها ولا أن أيوب قال على الله غير الحق فى طول ماصحبتموه إلى يومكم هذا فان كان البلاء هو الذى أزرى به عندكم ووضعه فى أنفسكم فقد علمتم أن الله تعالى يبتلى المؤمنين والصديقين والشهداء والصالحين وليس بلاؤه لأولئك دليلا على سخطه عليهم ولا لهوانهم عليه ولكنها كرامة وخيرة لهم ولو كان أيوب ليس من الله بهذه إلا أنه أخ أحببتموه على وجه الصحبة لكان لايجمل بالحليم أن يعذل أخاه عند البلاء ولا يعيره بالمصيبة ولايعيبه بما لايعلم وهو مكروب حزين ولكنه يرحمه ويبكى ويستغفر له ويحزن لحزنه ويدله على مراشد أمره وليس بحكيم ولا رشيد من جهل هذا فالله الله أيها الكهول وقد كان فى عظمة الله وجلاله وذكر الموت مايقطع ألسنتكم ويكسر قلوبكم ألم تعلموا أن لله عبادا أسكتتهم الخشية من غير عى ولابكم وإنهم لهم الفصحاء البلغاء النبلاء الألباء العالمون بالله ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله انقطعت ألسنتهم واقشعرت

الأرض للماء غطاء أين كنت منى يوم رفعت السماء سقفا فى الهواء لاتعلق بسبب من فوقها ولا تقلها دعم من تحتها هل تبلغ من حكمتك أن تجرى نورها أو تسير نجومها أو يختلف بأمرك ليلها ونهارها أين أنت منى يوم أنبعث الأنهار وسجرت البحار أبسلطانك حبست أمواج البحار على حدودها أم بقدرتك فتحت الأرحام حين بلغت مدتها أين أنت منى يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ الجبال هل تدرى على أى شىء أرسيتها أو بأى مثقال وزنتها أم هل لك من ذراع تطيق حملها وهل تدرى من أين الماء الذى أنزلت من السماء أم هل تدرى من أى شىء أنشىء السحاب أم هل تدرى أين خزائن الثلج أم أين جبال البرد أم أين خزانة الليل بالنهار وخزانة النهار بالليل وأين خزائن الريح وبأى لغة تتكلم الأشجار ومن جعل العقول فى أجواف الرجال ومن شق الأسماع والأبصار ومن ذلت الملائكة لملكه وقهر الجبارين بجبروته وقسم الأرزاق بحكمته فى كلام كثير من آثار قدرته ذكرها لأيوب فقال أيوب صغر شأنى وكل لسانى وعقلى ورأيى وضعفت قوتى عن هذا الأمر الذى تعرض على يا إلهى قد علمت أن كل الذى ذكرت صنيع يديك وتدبير حكمتك وأعظم من ذلك وأعجب لو شئت عملت لا يعجزك شىء ولا يخفى عليك خافية أذلقتنى البلايا يا إلهى فتكلمت ولم أملك لسانى وكان البلاء هو الذى أنطقنى أو فليت الأرض انشقت لى فذهبت فيها ولم أتكلم بشىء يسخط ربى وليتنى مت بغمى فى أشد بلائى قبل ذلك إنما تكلمت حين تكلمت لتعذرنى وسكت حين سكت لترحمنى كلمة زلت منى فلن أعود وقد وضعت يدى على فمى وعضضت على لسانى وألصقت بالتراب خدى أعوذ بك اليوم منك وأستجيرك من جهد البلاء فأجرنى وأستغيث بك من عقابك فأغثنى وأستعين بك على أمري فأعنى وأتوكل عليك فاكفنى وأعتصم بك فاعصمنى وأستغفرك فاغفر لى فلن أعود لشىء تكرهه منى قال الله تعالى

جلودهم وانكسرت قلوبهم وطاشت عقولهم إعظاما لأمر الله وإجلالا فاذا اشتاقوا من ذلك استبقوا إلى الله بالأعمال الزاكية يعدون أنفسهم من الظالمين والخاطئين وإنهم لأبرار برءاء ومع المقصرين المفرطين وإنهم لأكياس أقوياء قال أيوب عليه السلام إن الله يزرع الحكمة بالرحمة فى قلب الصغير والكبير فاذا نبتت فى القلب يظهرها الله على اللسان وليست تكون الحكمة من قبل السن ولا طول التجربة وإذا جعل الله العبد حكيما فى الصبا لم تسقط منزلته عند الحكماء وهم يرون من الله سبحانه وتعالى عليه نور الكرامة ثم أقبل أيوب على الثلاثة وقال أتيتمونى غضابا رهبتم قبل أن تسترهبوا وبكيتم قبل أن تضربوا كيف بى لو قلت تصدقوا عنى بأموالكم لعل الله أن يخلصنى أو قربوا عنى قربانا لعل الله أن يقبله ويرضى عنى وإنكم قد أعجبتكم أنفسكم وظننتم أنكم قد عوفيتم باحسانكم ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربكم ثم صدقتم لوجدتم لكم عيوبا سترها الله تعالى بالعافية التى ألبسكم وقد كنتم فيما خلا توقروننى وأنا مسموع كلامى معروف حقى منتصف من خصمى فأصبحت اليوم وليس لى رأى ولا كلام معكم فأنتم كنتم أشد على من مصيبتى ثم أعرض عنهم أيوب وأقبل على ربه مستغيثا به متضرعا إليه فقال يارب لأى شىء خلقتنى ليتنى إذ كرهتنى لم تخلقنى ياليتنى عرفت الذنب الذى أذنبت والعمل الذي عملت فصرفت وجهك الكريم عنى لو كنت أمتنى فألحقتنى بآبائى فالموت كان أجمل بى ألم أكن للغريب دارا وللمسكين قرارا ولليتيم وليا وللأرملة قيما إلهى أنا عبد ذليل إن أحسنت فالمن لك وإن أسأت فبيدك عقوبتى جعلتنى للبلاء غرضا وللفتنة نصيبا وقد وقع على من البلاء مالو سلطته على جبل لضعف عن حمله فكيف يحمله ضعفى وإن قضاءك هو الذى أذلنى وإن سلطانك هو الذى أسقمنى وأنحل جسمى ولو أن ربى نزع الهيبة التى فى صدرى وأطلق لسانى حتى أتكلم بملء فى فأدلى بعذرى وأتكلم ببراءتى وأخاصم عن نفسى لرجوت أن يعافينى عند ذلك مما بى ولكنه ألقانى وتعالى عنى فهو يرانى ولا أراه ويسمعنى ولا أسمعه فلما قال ذلك أيوب وأصحابه عنده أظله غمام حتى ظن أصحابه أنه عذاب ثم نودى يا أيوب إن الله يقول ها أنا قد دنوت منك ولم أزل منك قريبا قم فأدل بعذرك وتكلم ببراءتك وخاصم عن نفسك واشدد أزرك وقم مقام جبار يخاصم جبارا إن استطعت فانه لا ينبغى أن يخاصمنى إلا جبار مثلى لقد منتك نفسك يا أيوب أمرا ما يبلغ لمثله مثلك أين أنت منى يوم خلقت الأرض فوضعتها على أساسها هل كنت معى تمد بأطرافها هل علمت أى مقدار قدرتها أم على أى شىء وضعت أكنافها أبطاعتك حمل الماء الأرض أم بحكمتك كانت الأرض للماء غطاء أين كنت منى يوم رفعت السماء سقفا فى الهواء لا تعلق بسبب من فوقها ولا يقلها دعم من تحتها هل يبلغ من حكمتك أن تجرى نورها

يا أيوب نفذ فيك علمي وسبقت رحمتي غضبي فقد غفرت لك ورددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم لتكون لمن خلفك آية وتكون عبرة لأهل البلاء وعزا للصابرين فاركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب فيه شفاؤك وقرب عن أصحابك قربانا فاستغفر لهم فانهم قد عصوني فيك فركض برجله فانفجرت له عين فدخل فيها فاغتسل فأذهب الله عنه كل ما كان به من البلاء ثم خرج فجلس فأقبلت امرأته تلتمسه في مضجعه فلم تجده فقامت كالوالهة مترددة ثم قالت ياعبد الله هل لك علم بالرجل المبتلى الذي كان ههنا قال لها هل تعرفينه إذا رأيتيه قالت نعم ومالي لا أعرفه ثم تبسم وقال أنا هو، فعرفته بضحكه فاعتنقته قال ابن عباس فوالذي نفس عبد الله بيده مافارقته من عناقه حتى مر

بهما كل مال لهما وولد فذلك قوله تعالى ﴿ وأيوب إذ نادى ربي أني مسني الضر﴾ واختلفوا في وقت ندائه والسبب الذي قال لأجله إني مسني الضر وفي مدة بلائه فروى ابن شهاب عن أنس يرفعه أن أيوب لبث في بلائه ثماني عشرة سنة وقال وهب لبث أيوب في البلاء ثلاث سنين لم يزد يوما. وقال كعب كان أيوب في البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبع أيام وقال الحسن مكث أيوب مطروحا على كناسة في مزبلة لبني إسرائيل سبع سنين وأشهرا تختلف فيه الدواب لا يقرب به أحد غير امرأته رحمة صبرت معه بصدق وتأتيه بطعام وتحمد الله معه إذا حمد وأيوب مع ذلك لا يفتر عن ذكر الله والصبر على ما ابتلاه به فصرخ إبليس صرخة جمع بها جنوده من أقطار الأرض، فلما اجتمعوا إليه قالوا له ماحزبك قال أعياني هذا العبد أيوب الذي لم أدع له مالا ولا ولدا فلم يزد إلا صبرا ثم سلطت على جسده فتركته قرحة ملقاة على كناسة لا يقربه إلا امرأته فاستعنت بكم لتعينوني عليه فقالوا له أين مكرك الذي أهلكت به من مضى قال بطل ذلك كله في أيوب فأشيروا علي قالوا نشير عليك من أين أتيت آدم حين أخرجته من الجنة؟ قال من قبل امرأته قالوا فشأنك في أيوب من قبل امرأته فانه لا يستطيع أن يعصيها وليس أحد يقربه غيرها قال أصبتم فانطلق حتى أتى امرأته وهي تصدق فتمثل لها في صورة رجل فقال لها أين بعلك ياأمة الله قالت هو ذاك يحك قروحه وتتردد الدواب في جسده فلما سمع مقالتها طمع أن تكون كلمة جزع فوسوس إليها وذكرها ماكانت فيه من النعم والمال وذكرها جمال أيوب وشبابه وما

أو تسير نجومها أو يختلف بأمرك ليلها ونهارها أين كنت مني يوم أنبعت الأنهار وسكبت البحار أبسلطانك حبست أمواج البحار على حدودها أم بقدرتك فتحت الأرحام حين بلغت مدتها أين كنت مني يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ الجبال هل تدري على أي شيء أرسيتها أم بأي مثقال وزنتها أم هل لك من ذراع تطيق حملها أم هل تدري من أين الماء الذي أنزلت من السماء أم هل تدري من أي شيء أنشأت السحاب أم هل تدري أين خزانة الثلج أم أين جبال البرد أم أين خزانة الليل بالنهار وخزانة النهار بالليل وأين خزانة الريح وبأي لغة تتكلم الأشجار ومن جعل العقول في أجواف الرجال وشق الأسماع والأبصار ومن ذلت الملائكة لملكه وقهر الجبارين بجبروته وقسم الأرزاق بحكمته في كلام كثير يدل على آثار قدرته ذكرها لأيوب فقال أيوب صغر شأني وكل لساني وعقلي ورأيي وضعفت قوتي عن هذا الأمر الذي يعرض على إلهي قد علمت أن كل الذي قد ذكرت صنع يديك وتدبير حكمتك وأعظم من ذلك وأعجب لو شئت عملت ولا يعجزك شيء ولا تخفى عليك خافية إلهي أوثقني البلاء فتكلمت ولم أملك نفسي فكان البلاء هو الذي أنطقني ليت الأرض انشقت بي فذهبت فيها ولم أتكلم بشيء يسخطك ربي وليتني مت بغمي في أشد بلائي قبل ذلك إنما تكلمت حين تكلمت بعذري وسكت حين سكت لترحمني كلمة زلت مني فلن أعود وقد وضعت يدي على فمي وعضضت على لساني وألصقت بالتراب خدي أعوذ بك اليوم منك وأستجير بك من جهد البلاء فأجرني وأستغيث بك من عقابك فأغثني وأستعينك على أمري فأعني وأتوكل عليك فاكفني وأعتصم بك فاعصمني وأستغفرك فاغفر لي فلن أعود لشيء تكرهه مني قال الله تعالى يا أيوب نفذ فيك علمي وسبقت رحمتي غضبي فقد غفرت لك ورددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم لتكون لمن خلفك آية وتكون عبرة لأهل البلاء وعزا للصابرين فاركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب فيه تناول وقرب عن أصحابك قربانا واستغفر لهم فانهم قد عصوني فيك روى عن أنس يرفعه أن أيوب لبث ببلائه ثماني عشرة سنة وقال وهب ثلاث سنين لم يزد يوما وقال كعب سبع سنين وقال الحسن مكث أيوب مطروحا على كناسة لبني إسرائيل سبع سنين وأشهرا يختلف فيه الدود لا يقربه أحد غير رحمة صبرت معه بصدق وكانت تأتيه بالطعام

هو فيه من الضر وأن ذلك لاينقطع عنه أبدا قال الحسن فصرخت فلما صرخت علم أن قد جزعت فأتاها بسخلة وقال ليذبح هذه لى أيوب ويبرأ فجاءت تصرخ ياأيوب حتى متى يعذبك ربك أين المال أين الولد أين الصديق أين لونك الحسن أين جسمك الصحيح اذبح هذه السخلة واسترح قال أيوب أتاك عدو الله فنفخ فيك ويلك أرأيت ماتبكين عليه من المال والولد والصحة من أعطانيه قالت الله قال فكم متعنا به قالت ثمانين سنة قال فمنذ كم ابتلانا قالت منذ سبع سنين وأشهر قال ويلك ما أنصفت ألا صبرت فى البلاء ثمانين سنة كما كنا فى الرخاء ثمانين سنة والله لئن شفانى الله لأجلدنك مائة جلدة أمرتينى أن أذبح لغير الله طعامك وشرابك الذى اتيتنى به على حرام وحرام على أن أذوق شيئا مما تأتينى به بعد إذ قلت لى هذا فاعزبى عنى فلا أراك فطردها فذهبت فلما نظر أيوب وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق خر ساجدا لله وقال رب (إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) فقيل له ارفع رأسك فقد استجبت لك اركض برجلك فركض برجله فنبعت عين فاغتسل منها فلم يبق عليه من دائه شئ ظاهر إلا سقط وعاد إليه شبابه وجماله أحسن ما كان ثم ركض برجله ركضة أخرى فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق فى جوفه داء إلا خرج فقام صحيحا وكسى حلة قال فجعل يلتفت فلا يرى شيئا مما كان له من أهل ومال إلا وقد ضاعفه الله حتى ذكر لنا أن الماء الذي اغتسل منه تطاير منه على صدره جرادا من ذهب فجعل يضمه بيده فأوحى الله إليه يا أيوب ألم أغنك قال بلى ولكنها بركتك فمن يشبع منها قال فخرج حتى جلس على مكان مشرف ثم إن امرأته قالت أرأيتك إن كان أيوب طردني إلى من أكله أدعه يموت جوعا ويضيع فتأكله السباع لأرجعن إليه فرجعت فلا كناسة

وتحمد الله معه إذا حمد وأيوب مع ذلك لايفتر عن ذكر الله تعالى والصبر على بلائه فصرخ إبليس صرخة جمع فيها جنوده من أقطار الأرض فلما اجتمعوا إليه قالوا ما أحزنك قال أعيانى هذا العبد الذى لم أدع له مالا ولا ولدا ولم يزدد إلا صبرا ثم سلطت على جسده فتركته قرحة ملقاة على كناسة لاتقربه إلا امرأته فاستعنت بكم لتعينونى عليه فقالوا له فأين مكرك الذى أهلكت به من مضى قال بطل ذلك كله فى أيوب فأشيروا على قالوا من أين أتيت آدم حين أخرجته من الجنة قال من قبل امرأته قالوا فشأنك بأيوب من قبل امرأته فانه لايستطيع أن يعصيها وليس يقربه أحد غيرها قال أصبتم فانطلق إبليس حتى أتى رحمة امرأة أيوب وهى تصدق فتمثل لها فى صورة رجل وقال لها أين بعلك ياأمة الله قالت هو ذاك يحك قروحه ويتردد الديدان فى جسده فلما سمعها طمع أن تكون كلمة جزع فوسوس إليها وذكرها ما كانت فيه من النعم والمال وذكرها جمال أيوب وشبابه وما هو فيه من الضر وأن ذلك لاينقطع عنه أبدا فصرخت فعلم أنها قد جزعت فأتاها بسخلة وقال ليذبح لى هذه أيوب ويبرأ فجاءت تصرخ ياأيوب حتى متى يعذبك ربك أين المال أين الولد أين الصديق أين لونك الحسن أين جسمك الحسن اذبح هذه السخلة واسترح قال أيوب أتاك عدو الله فنفخ فيك ويلك أرأيت ماتبكين عليه من المال والولد والصحة من أعطانيه قالت الله قال كم متعنا به قالت ثمانين سنة قال فمنذ كم ابتلانا قالت منذ سبع سنين وأشهر قال ويلك ما أنصفت ربك ألا صبرت فى البلاء ثمانين سنة كما كنا فى الرخاء ثمانين سنة والله لئن شفانى الله لأجلدنك مائة جلدة أمرتينى أن أذبح لغير الله طعامك وشرابك الذى تأتينى به على حرام أن أذوق منه شيئا أعزبى دعينى فلا أراك فطردها فذهبت فلما نظر أيوب وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق خر ساجدا لله وقال رب (أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) فقيل له ارفع رأسك فقد استجبت لك اركض برجلك فركض برجله فنبعت عين ماء فاغتسل منها فلم يبق عليه من درنه ودائه شىء ظاهر إلا سقط وعاد شبابه وجماله أحسن ما كان ثم ضرب برجله فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق فى جوفه داء إلا خرج فقام صحيحا وكسى حلة فجعل يلتفت فلا يرى شيئا مما كان عليه وما كان له من أهل ومال إلا وقد ضعفه الله له وذكر لنا أن الماء الذى اغتسل منه تطاير على صدره جرادا من ذهب فجعل يضمه بيده فأوحى الله إليه ياأيوب ألم أغنك قال بلى ولكنها بركتك فمن يشبع منها قال فخرج حتى جلس على مكان مشرف ثم إن امرأته قالت أرأيت إن كان طردنى إلى من أكله أدعه يموت جوعا ويضيع فتأكله السباع لأرجعن إليه فرجعت إليه فلا الكناسة رأت ولا تلك الحالة التى كانت تعرف وإذا الأمور قد تغيرت فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكى وذلك بعينى أيوب وهابت صاحب الحلة أن تأتيه فتسأله عن أيوب فدعاها وقال ما تريدين

يا أمة

نرى ولاتلك الحالة التي كانت وإذا الأمور قد تغيرت فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكي وذلك بعين أيوب وهابت صاحب الحلة أن تأتيه فتسأله عنه فدعاها أيوب فقال ما تريدين يا أمة الله فبكت وقالت أردت ذلك المبتلى الذي كان منبوذا على الكناسة ولا أدري أضاع أم ما فعل فقال أيوب ما كان منك فبكت وقالت بعلي قال فهل تعرفينه إذا رأيتيه فقالت وهل يخفى علي أحد رآه ثم جعلت تنظر إليه وهي تهابه ثم قالت أما أنه أشبه خلق الله بك إذ كان صحيحا قال فاني أنا أيوب الذي أمرتيني أن أذبح لإبليس وإني أطعت الله وعصيت الشيطان ودعوت الله

فرد علي ماترين وقال وهب لبث أيوب في البلاء ثلاث سنين فلما غلب أيوب إبليس ولم يستطع منه شيئا اعترض امرأته في هيئة ليست كهيئة بني آدم في العظم والجسم والجمال على مركب ليس من مراكب الناس له عظم وبهاء وكمال فقال لها أنت صاحبة أيوب هذا الرجل المبتلى قالت نعم قال فهل تعرفيني قالت لا قال أنا إله الأرض وأنا الذي صنعت بصاحبك ما صنعت لأنه عبد الله إله السماء وتركني فأغضبني ولو سجد لي سجدة واحدة رددت عليه وعليك كل ما كان لكما من مال وولد فانه عندي ثم أراها إياهم ببطن الوادي الذي لقيها فيه قال وهب وقد سمعت أنه إنما قال لها لو أن صاحبك أكل طعاما ولم يسم الله عليه لعوفي مما به من البلاء والله أعلم وفي بعض الكتب أن إبليس قال لها اسجدي لي سجدة حتى أرد عليك المال والأولاد وأعافي زوجك فرجعت إلى أيوب فأخبرته بما قال لها وما أراها قال لقد أتاك عدو الله إبليس ليفتنك عن دينك ثم أقسم لو أن الله عافاه ليضربنها مائة جلدة وقال عند ذلك مسني الضر من طمع إبليس في سجود حرمتي له ودعائه إياها وإياي إلى الكفر ثم إن الله عز وجل رحم رحمة امرأة أيوب بصبرها معه على البلاء وخفف عليها وأراد أن يبر يمين أيوب فأمره أن يأخذ ضغثا يشتمل على مائة عود صغار فيضربها به ضربة واحدة كما قال الله تعالى «وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث» وروى أن إبليس اتخذ

يا أمة الله فبكت وقالت أردت ذلك المبتلى الذي كان منبوذا على الكناسة لا أدري أضاع أم ما فعل به فقال أيوب ما كان منك فبكت وقالت بعلي فقال هل تعرفينه إذا رأيتيه قالت وهل يخفى على أحد رآه ثم جعلت تنظر إليه وهي تهابه ثم قالت أما إنه أشبه خلق الله بك إذ كان صحيحا قال فاني أنا أيوب الذي أمرتني أن أذبح سخلة لإبليس وإني أطعت الله وعصيت الشيطان ودعوت الله فرد على ماترين. وقال وهب لبث أيوب في البلاء ثلاث سنين فلما غلب أيوب إبليس ولم يستطع منه شيئا اعترض امرأته في هيئة ليست كهيئة بني آدم في العظم والجسم والجمال على مركب ليس من مراكب الناس له عظم وبهاء فقال لها أنت صاحبة أيوب هذا الرجل المبتلى قالت نعم قال هل تعرفيني قالت لا قال أنا إله الأرض وأنا الذي صنعت بصاحبك ما صنعت لأنه عبد إله السماء وتركني فأغضبني ولو سجد لي سجدة واحدة رددت عليك وعليه كل ما كان لكما من مال وولد فانه عندي ثم أراها إياه ببطن الوادي الذي لقيها فيه وفي بعض الكتب أن إبليس قال لها اسجدي لي سجدة واحدة حتى أرد عليك المال والولد وأعافي زوجك فرجعت إلى أيوب فأخبرته بما قال لها وما أراها قال لقد أتاك عدو الله ليفتنك عن دينك ثم أقسم إن عافاه الله ليضربنها مائة جلدة وقال عند ذلك مسني الضر من طمع إبليس في سجود حرمتي له ودعائه إياها وإياي إلى الكفر ثم إن الله تعالى رحم رحمة امرأة أيوب بصبرها معه على البلاء وخفف عليها وأراد أن يبر يمين أيوب فأمره أن يأخذ ضغثا يشتمل على مائة عود صغير فيضربها به ضربة واحدة وقيل إنما قال مسني الضر حين قصد الدود إلى قلبه ولسانه فخشي أن يفتر عن الذكر والفكر وقيل لم يدع الله بالكشف عنه حتى ظهرت له ثلاثة أشياء: أحدها ماقيل في حقه لو كان لك عند الله منزلة ما أصابك هذا والثاني أن امرأته طلبت طعاما فلم تجد ما تطعمه فباعت ذؤابتها فأتته بطعام والثالث قول إبليس إني أداويه على أن يقول أنت شفيتني وقيل مسني الضر أي من شماتة الأعداء حتى روى أنه قيل له بعد ما عوفي ما كان أشد عليك في بلائك قال شماتة الأعداء. فان قلت كيف سماه الله صابرا وقد أظهر الشكوى والجزع بقوله مسني الضر وقوله مسني الشيطان بنصب وعذاب. قلت ليس هذا شكاية وإنما هو دعاء بدليل قوله تعالى فاستجبنا له والشكوى إنما تكون إلى الخلق لا إلى الخالق بدليل قول يعقوب إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وقال سفيان بن عيينة من أظهر الشكوى إلى الناس وهو راض بقضاء الله تعالى لا يكون ذلك جزعا كما «روى أن جبريل عليه السلام دخل على النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه فقال كيف تجدك قال؟ أجدني مغموما وأجدني مكروبا وقال لعائشة حين قالت؟ وارأساه بل أنا

تابوتا وجعل فيه أدوية وقعد على طريق امرأته يداوى الناس فمرت به امرأة أيوب فقالت ياشيخ إن لى مريضا أفتداويه قال نعم والله لا أريد شيئا إلا أن يقول إذا شفيته أنت شفيتنى فذكرت ذلك لأيوب فقال هو إبليس قد خدعك ثم حلف إن شفاه الله أن يضربها مائة جلدة وقال وهب وغيره كانت امرأة أيوب تعمل للناس وتجيئه بقوته فلما طال عليه البلاء وسئمها الناس ولم يستعملها أحد التمست له يوما من الأيام مايطعمه فما وجدت شيئا فجزت قرنا من رأسها فباعته برغيف فأتته به فقال لها أين قرنك فأخبرته فحينئذ قال مسنى الضر وقال قوم إنما قال ذلك حين قصدت الدودة إلى قلبه ولسانه فخشى أن يفتر عن الذكر والفكر وقال حبيب بن أبى ثابت لم يدع الله بالكشف عنه حتى ظهرت له ثلاثة أشياء أحدها قدم عليه صديقان حين بلغهما خبره فجاءا إليه ولم يبق له إلا عيناه فرأيا أمرا عظيما فقالا لو كان لك عند الله منزلة ما أصابك هذا والثانى أن امرأته طلبت طعاما فلم تجد ماتطعمه فباعت ذؤابتها وحملت إليه طعاما والثالث قول إبليس إنى أداويه على أن يقول أنت شفيتنى وقيل إن إبليس وسوس إليه أن امرأتك زنت فقطعت ذؤابتها فحينئذ عيل صبره فدعاه وحلف ليضربنها مائة جلدة وقيل معناه **(٣١٦)** مسنى الضر من شماتة الأعداء حتى روى أنه قيل له بعد ماعوفى ما كان أشد عليك فى بلائك قال شماتة الأعداء وقيل قال ذلك حين وقعت دودة من فخذه فردها إلى موضعها وقال كلى ، فقد جعلنى الله طعامك فعضته عضة زاد ألمها على جميع ماقاساه من عض الديدان فان قيل إن الله سماه صابرا وقد أظهر الشكوى والجزع بقوله إنى مسنى الضر وإنى مسنى الشيطان بنصب قيل ليس هذا شكاية إنما هو دعاء بدليل قوله تعالى «فاستجبنا له» على أن الجزع إنما هو فى الشكوى إلى الخلق فأما الشكوى إلى الله عز وجل فلا يكون جزعا ولا ترك صبر كما قال يعقوب إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله قال سفيان بن عيينة وكذلك من أظهر الشكوى إلى الناس وهو راض بقضاء الله لا يكون ذلك جزعا كما روى «أن جبريل دخل على النبى صلى الله عليه وسلم فى مرضه فقال كيف تجدك قال أجدنى مغموما وأجدنى مكروبا وقال لعائشة حين قالت وارأساه قال بل أنا وارأساه» قوله (فاستجبنا له فكشفنا مابه من ضر) وذلك أنه قال له : اركض برجلك فركض برجله فنبعت عين ماء بارد فأمره أن يغتسل منها ففعل فذهب كل داء كان بظاهره ثم مشى أربعين خطوة فأمره أن يركض برجله الأرض مرة أخرى ففعل فنبعت عين ماء بارد فأمره فشرب منها فذهب كل داء كان بباطنه فصار كأصح مايكون من الرجال وأجملهم (وآتيناه أهله ومثلهم معهم) واختلفوا فى ذلك فقال ابن مسعود وقتادة وابن عباس والحسن وأكثر المفسرين رد الله عز وجل إليه أهله وأولاده بأعيانهم أحياهم الله له وأعطاهم مثلهم معهم وهو ظاهر القرآن قال الحسن آتاه الله المثل من نسل ماله الذى رد الله إليه وأهله يدل عليه ماروى عن الضحاك عن ابن عباس أن الله عز وجل رد إلى المرأة شبابها فولدت له ستة وعشرين ذكرا قال وهب كان له سبع بنات وثلاثة بنين وقال ابن يسار كان

وارأساه» قوله تعالى (فاستجبنا له) أى أجبنا دعاءه (فكشفنا مابه من ضر) وذلك أنه قال له «اركض برجلك» فركض برجله فنبعت عين ماء فأمره أن يغتسل منها ففعل فذهب كل داء كان بظاهره ثم مشى أربعين خطوة فأمره أن يضرب برجله الأرض مرة أخرى ففعل فنبعت عين ماء بارد فأمره أن يشرب منها فشرب فذهب كل داء كان بباطنه فصار كأصح ما كان (وآتيناه أهله ومثلهم معهم) قال ابن مسعود وابن عباس وأكثر المفسرين : رد الله إليه أهله وأولاده بأعيانهم وأحياهم الله وأعطاه مثلهم معهم وهو ظاهر القرآن وعن ابن عباس رواية أخرى أن الله رد إلى المرأة شبابها فولدت له ستة وعشرين ذكرا وقيل كان له سبع بنين وسبع بنات وعن أنس يرفعه أنه كان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله سحابتين فأفرغت إحداهما على أندر القمح الذهب وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الورق حتى فاضا وروى أن الله تعالى بعث إليه ملكا وقال له إن ربك يقرئك السلام بصبرك فاخرج إلى أندرك فخرج إليه فأرسل الله عليه جرادا من ذهب فذهبت واحدة فأتبعها وردها إلى أندره فقال له الملك مايكفيك مافى أندرك فقال هذه بركة من بركات ربى ولا أشبع من بركاته (خ) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بينما أيوب يغتسل عريانا خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحثى فى ثوبه فناداه ربه يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى قال بلى يارب ولكنى لا غنى لى عن بركتك » وقيل آتى الله أيوب مثل أهله الذين هلكوا قال عكرمة قيل لأيوب إن أهلك فى الآخرة فان شئت عجلناهم لك فى الدنيا وإن شئت كانوا لك فى الآخرة وآتيناك مثلهم فى

له سبع بنين وسبع بنات وروى عن أنس يرفعه أنه كان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله عز وجل سحابتين فأفرغت إحداهما على أندر القمح الذهب وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الورق حتى فاض وروى أن الله تعالى بعث إليه ملكا وقال له إن ربك يقرئك السلام بصبرك فاخرج على أندرك فخرج إليه فأرسل الله عليه جرادا من ذهب فطارت واحدة فأتبعها وردها إلى أندره فقال له الملك أما يكفيك ما فى أندرك فقال هذه بركة من بركات ربى ولا أشبع من بركته أخبرنا حسان بن سعيد المنيعى أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادى أنا محمد بن الحسين القطان أنا أحمد ابن يوسف السلمى أنا عبد الرزاق أنا معمر عن همام ابن منبه قال أنا أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بينا أيوب يغتسل عريانا خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحثى فى ثوبه فناداه ربه يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى قال بلى وعزتك ولكن لاغنى لى عن بركتك » وقال قوم أتى الله أيوب (٣١٧) فى الدنيا مثل أهله الذين هلكوا فأما الذين هلكوا فانهم لم يردوا عليه فى الدنيا قال عكرمة قيل لأيوب إن أهلك لك فى الآخرة فان شئت عجلناهم لك فى الدنيا وإن شئت كانوا لك فى الآخرة وآتيناك مثلهم فى الدنيا فقال يكونون لى فى الآخرة وأوتى مثلهم فى الدنيا فعلى هذا يكون معنى الآية وآتيناه أهله فى الآخرة ومثلهم معهم فى الدنيا وأراد بالأهل الأولاد (رحمة من عندنا) أى نعمة من عندنا (وذكرى للعابدين) أى عظة وعبرة لهم قوله (وإسمعيل) يعنى ابن إبراهيم (وإدريس) وهو أخنوخ (وذا الكفل كل من الصابرين) على أمر الله

واختلفوا فى ذا الكفل فقال عطاء إن نبيا من أنبياء بنى إسرائيل أوحى الله إليه إنى أريد قبض روحك فاعرض ملكك على بنى إسرائيل فمن تكفل لك أن يصلى بالليل ولا يفتر ويصوم بالنهار ولا يفطر ويقضى بين الناس ولا يغضب فادفع ملكك إليه ففعل ذلك فقام شاب فقال أنا أتكفل لك بهذا فتكفل ووفى به فشكر الله له ونبأه فسمى ذا الكفل . قال مجاهد لما كبر اليسع قال لو أنى استخلفت رجلا على الناس يعمل عليهم فى حياتى حتى أنظر كيف يعمل قال فجمع الناس فقال : من يتقبل منى بثلاث أستخلفه يصوم النهار ويقوم الليل ويقضى بين الناس ولا يغضب فقام رجل تزدريه العين فقال أنا فرده ذلك اليوم وقال مثلها اليوم الآخر فسكت الناس وقام ذلك الرجل فقال أنا فرده ذلك اليوم فاستخلفه فأتاه إبليس فى صورة شيخ ضعيف حين أخذ مضجعه للقائلة وكان لاينام بالليل والنهار إلا تلك النومة فدق الباب فقال من هذا فقال شيخ كبير مظلوم فقام ففتح الباب فقال إن بينى وبين قومى خصومة وأنهم ظلمونى وفعلوا وفعلوا وجعل يطول حتى حضر

الدنيا فقال بل يكونون لى فى الآخرة وأوتى مثلهم فى الدنيا فعلى هذا يكون معنى الآية «وآتيناه أهله» فى الآخرة ومثلهم معهم فى الدنيا وأراد بالأهل الأولاد (رحمة من عندنا) أى نعمة (وذكرى للعابدين) يعنى عظة وعبرة لهم . قوله عز وجل (وإسمعيل) هو ابن إبراهيم صلى الله عليه وسلم (وإدريس) هو أخنوخ (وذا الكفل كل من الصابرين) لما ذكر الله أمر أيوب وصبره على البلاء أتبعه بذكر هؤلاء الأنبياء لأنهم صبروا على المحن والشدائد والعبادة أيضا أما إسماعيل صلى الله عليه وسلم فانه صبر على الانقياد إلى الذبح وأما ادريس فقد تقدمت قصته وأما ذو الكفل فاختلفوا فيه فقيل نبيا من بنى إسرائيل وكان ملكا أوحى الله إليه إنى أريد قبض روحك فأعرض ملكك على بنى إسرائيل فمن تكفل أنه يصلى الليل ولا يفتر ويصوم النهار ولا يفطر ويقضى بين الناس ولا يغضب فادفع ملكك إليه ففعل ذلك فقام شاب فقال أنا أتكفل لك بهذا فتكفل ووفى فشكر الله له ونبأه فسمى ذا الكفل وقيل لما كبر اليسع قال إنى أستخلف رجلا على الناس يعمل عليهم فى حياتى أنظر كيف يعمل قال فجمع الناس وقال من يتقبل منى ثلاثا أستخلفه يصوم النهار ويقوم الليل ويقضى ولا يغضب فقام رجل تزدريه العين فقال أنا فرده ذلك اليوم وقال مثلها فى اليوم الآخر فسكت الناس وقام ذلك الرجل فقال أنا فاستخلفه فأتاه إبليس فى صورة شيخ ضعيف حين أخذ مضجعه للقائلة وكان لاينام من الليل والنهار إلا تلك النومة فدق الباب فقال من هذا فقال شيخ كبير مظلوم فقام ففتح الباب فقال إن بينى وبين قومى خصومة وإنهم ظلمونى وفعلوا وفعلوا وجعل يطول عليه حتى ذهبت القائلة فقال إذا رحت فائتنى حتى آخذ حقك فانطلق وراح فكان فى مجلسه ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يبتغيه فلم يجده فلما كان الغد جعل يقضى بين الناس وينتظره فلم يره فلما رجع إلى القائلة وأخذ مضجعه دق الباب فقال من هذا فقال الشيخ المظلوم

الرواح وذهبت القائلة فقال له إذا رحت فائتنى حتى آخذ حقك فانطلق وراح فكان فى مجلسه ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يبتغيه فلما كان من الغد جلس يقضى بين الناس وينتظره فلا يراه فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه أتاه فدق الباب فقال من هذا فقال الشيخ المظلوم ففتح فقال ألم أقل لك إذا قعدت فائتنى فقال إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك وإذا قمت جحدونى قال فانطلق فاذا رحت فائتنى ففاتته القائلة وراح فجعل ينظر فلا يراه فشق عليه النعاس فقال لبعض أهله لاتدعن أحدا يقرب هذا الباب حتى أنام فانه قد شق على النوم فلما كان تلك الساعة جاء فلم يأذن له الرجل فلما أعياه نظر فرأى كوة فى البيت فتسور منها فاذا هو فى البيت يدق الباب من داخل فاستيقظ فقال يافلان ألم آمرك فقال أما من (٣١٨) قبلى فلم تؤت فانظر من أين أتيت فقام إلى الباب فاذا هو مغلق كما هو أغلقه وإذا الرجل معه فى البيت فقال أتنام والخصوم ببابك فعرفه فقال أعدو الله قال نعم أعييتنى ففعلت ماترى لأغضبك فعصمك الله منى فسمى ذا الكفل لأنه تكفل أمرا فوفى به وقيل إن إبليس جاءه وقال إن لى غريما يمطلنى فأحب أن تقوم معى وتستوفى حقى منه فانطلق معه حتى إذا كان فى السوق خلاه وذهب وروى أنه اعتذر إليه وقال إن صاحبى هرب وقيل أن ذا الكفل رجل كفل أن يصلى كل ليلة مائة ركعة إلى أن يقبضه الله فوفى به واختلفوا فى أنه هل كان نبيا فقال بعضهم كان نبيا وقيل هو إلياس وقيل زكريا وقال أبو موسى لم يكن نبيا ولكن كان عبدا صالحا (وأدخلناهم فى رحمتنا) يعنى ماأنعم به عليهم فى الدنيا وقال من النبوة وصيرهم إليه فى الجنة من الثواب (إنهم من الصالحين وذا النون) أى اذكر صاحب الحوت وهو يونس بن متى (إذ ذهب مغاضبا) اختلفوا فى معناه فقال الضحاك مغاضبا لقومه وهو رواية العوفى وغيره عن ابن عباس قال: كان يونس وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك فسبى منهم تسعة أسباط ونصفا وبقى سبطان ونصف فأوحى الله إلى شعياء النبى أن سر إلى حزقيل الملك وقل له حتى يوجه نبيا قويا فانى ألقى معه فى قلوب أولئك حتى يرسلوا معه بنى إسرائيل فقال له الملك فمن ترى وكان فى مملكته خمسة من الأنبياء فقال يونس إنه قوى أمين فدعا الملك بيونس فأمره أن يخرج فقال له يونس هل أمرك الله باخراجى قال لا قال فهل سمانى لك قال لا قال فهاهنا غيرى أنبياء أقوياء فألحوا عليه فخرج من بينهم مغاضبا للنبى

ففتح له وقال له ألم أقل إذا قعدت فائتنى قال إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك وإذا قمت جحدونى قال فانطلق فاذا جلست فائتنى وفاتته القائلة فلما جلس جعل ينظر فلا يراه وشق عليه النعاس فلما كان اليوم الثالث قال لبعض أهله لاتدعن أحدا يقرب هذا الباب حتى أنام فانه قد شق على النعاس فلما كانت تلك الساعة نام فجاء فلم يأذن له الرجل فلما أعياه نظر فرأى كوة فى البيت فتسور منها فاذا هو فى البيت فدق الباب من داخل فاستيقظ فقال يافلان ألم آمرك قال أما من قبلى فلم تؤت فانظر من أين أتيت فقام إلى الباب فاذا هو مغلق كما أغلقه وإذا الرجل معه فى البيت فقال أتنام والخصوم ببابك فنظر إليه فعرفه فقال أعدو الله قال نعم أعييتنى وفعلت مافعلت لأغضبك فعصمك الله فسمى ذا الكفل لأنه تكفل بأمر فوفى به واختلف فى نبوته فقيل كان نبيا وهو إلياس وقيل هو زكريا وقيل إنه كان عبدا صالحا ولم يكن نبيا (وأدخلناهم فى رحمتنا) يعنى ما أنعم به عليهم من النبوة وصيرهم إليه فى الجنة من الثواب (إنهم من الصالحين) قوله عز وجل (وذا النون) أى واذكر صاحب الحوت أضيف إلى الحوت لابتلاعه إياه وهو يونس بن متى (إذ ذهب مغاضبا) قال ابن عباس فى رواية عنه كان يونس وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك فسبى منهم تسعة أسباط ونصفا وبقى منهم سبطان ونصف فأوحى الله إلى شعياء النبى أن سر إلى حزقيل الملك وقل له يوجه نبيا قويا فانى ألقى فى قلوب أولئك حتى يرسلوا معه بنى إسرائيل فقال له الملك فمن ترى وكان فى مملكته خمسة من الأنبياء قال يونس إنه قوى أمين فدعا الملك يونس وأمره أن يخرج فقال يونس هل الله أمرك باخراجى قال لا قال فهل سمانى الله لك قال لا قال هاهنا غيرى أنبياء أقوياء فألحوا عليه فخرج مغاضبا للنبى وللملك وقومه وأتى بحر الروم فركب وقيل ذهب عن قومه مغاضبا لربه لما كشف عنهم العذاب بعد ماأوعدهم وكره أن يكون بين أظهر قوم جربوا عليه الخلف فيما أوعدهم واستحيا منهم ولم يعلم السبب الذى رفع العذاب عنهم به فكان غضبه أنفة من ظهور خلف وعده وأنه يسمى كذابا لاكراهية لحكم الله وفى بعض الأخبار أنه كان من عادة قومه أنهم يقتلون من جربوا عليه الكذب فخشى أن يقتلوه مالم يأتهم العذاب للميعاد فذهب مغاضبا

وللملك ولقومه فأتى بحر الروم فركبه وقال عروة بن الزبير وسعيد بن جبير وجماعة ذهب عن قومه مغاضبا لربه إذ كشف عن قومه العذاب بعد ماأوعدهم وكره أن يكون بين قوم قد جربوا عليه الخلف فيما أوعدهم واستحيا منهم ولم يعلم السبب الذي به رفع العذاب وكان غضبه أنفة من ظهور خلف وعده وأنه يسمى كذابا لا كراهية لحكم الله تعالى، وفي بعض الأخبار أنه كان من عادة قومه أن يقتلوا من جربوا عليه الكذب فخشي أن يقتلوه لما لم يأتهم العذاب للميعاد فغضب والمغاضبة هاهنا من المفاعلة التي تكون من واحد كالمسافرة والمعاقبة فمعنى قوله مغاضبا أي غضبان وقال الحسن إنما غاضب ربه عز وجل من أجل أنه أمره بالمسير إلى قومه لينذرهم بأسه ويدعوهم إليه فسأل ربه أن ينظره ليتأهب للشخوص إليهم فقيل له إن الأمر أسرع من ذلك حتى سأل أن ينظر إلا أن يأخذ نعلا يلبسها فلم ينظر وكان في خلقه ضيق فذهب مغاضبا وعن ابن عباس قال أتى جبريل يونس فقال انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم فقال التمس دابة قال الأمر أعجل من ذلك فغضب فانطلق إلى السفينة وقال وهب بن منبه أن يونس بن متى كان عبدا صالحا وكان في خلقه ضيق فلما حمل عليه أثقال النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل فقذفها بين يديه وخرج هاربا منها فلذلك أخرجه الله من أولى العزم من الرسل وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم «فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تكن كصاحب الحوت» قوله (فظن أن لن نقدر عليه) أي لن نقضي عليه بالعقوبة قاله مجاهد وقتادة والضحاك والكلبي وهو رواية العوفي عن ابن عباس يقال قدر الله الشيء تقديرا وقدر يقدر قدرا بمعنى واحد ومنه قوله «نحن قدرنا بينكم الموت» في قراءة من خففها دليل هذا التأويل قراءة عمر بن عبد العزيز والزهري فظن أن لن نقدّر عليه بالتشديد وقال عطاء وكثير من العلماء معناه فظن أن لن نضيق عليه الحبس كقوله تعالى «الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر» أي يضيق وقال ابن زيد هو استفهام معناه فظن أنه يعجز ربه فلا يقدر عليه وقرأ يعقوب يقدر بضم الياء على المجهول خفيف وعن الحسن قال بلغني أن يونس لما أصاب الذنب انطلق مغاضبا لربه واستزله الشيطان حتى ظن أن لن نقدر عليه وكان له سلف وعبادة فأبى الله أن يدعه للشيطان فقذفه في بطن الحوت فمكث فيه أربعين من بين يوم وليلة وقال عطاء سبعة أيام وقيل ثلاثة أيام وقيل إن الحوت ذهب به مسيرة ستة آلاف سنة وقيل بلغ به تخوم الأرض السابعة فتاب إلى ربه تعالى في بطن الحوت وراجع نفسه فقال «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» حين عصيتك وما صنعت من شئ فلن أعبد غيرك فأخرجه الله من بطن الحوت برحمته والتأويلات المتقدمة أولى بحال الأنبياء أنه ذهب مغاضبا لقومه أو للملك (فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) يعني ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت وروى عن أبي هريرة مرفوعا «أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحما ولا تكسر له عظما فأخذه ثم هوى به إلى مسكنه في البحر فلما انتهى

وقال ابن عباس أتى جبريل يونس فقال انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم فقال ألتمس دابة قال الأمر أعجل من ذلك فغضب وانطلق إلى السفينة وقال وهب إن يونس كان عبدا صالحا وكان في خلقه ضيق فلما حمل أثقال النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل، فقذفها من يده وخرج هاربا منها فلذلك أخرجه الله من أولى العزم من الرسل وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم «فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل» وقال «ولا تكن كصاحب الحوت» وقوله (فظن أن لن نقدر عليه) أي لن نقضي عليه العقوبة قاله ابن عباس في رواية عنه وقيل معناه فظن أن لن نضيق عليه الحبس وقيل معناه فظن أنه يعجز ربه فلا يقدر عليه . قيل لما انطلق يونس مغاضبا لربه واستزله الشيطان حتى ظن أن لن يقدر عليه وكان له سلف وعبادة أبى الله أن يدعه للشيطان فقذفه في بطن الحوت فمكث فيه أربعين مابين يوم وليلة وقيل سبعة أيام وقيل ثلاثة وقيل إن الحوت ذهب به حتى بلغ تخوم الأرض السابعة فتاب إلى ربه وراجع نفسه في بطن الحوت (فنادى في الظلمات) أي ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت (أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) أي حيث عصيتك وما صنعت من شيء فلم أعبد غيرك فأخرجه الله من بطن الحوت برحمته وروى أبو هريرة مرفوعا قال أوحى الله تعالى إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحما ولا تكسر له عظما فأخذه ثم أهوى به إلى مسكنه في البحر فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسا فقال في نفسه ماهذا فأوحى الله إليه هذا تسبيح دواب البحر قال فسبح هو في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا ياربنا

به إلى أسفل البحر سمع يونس حسا فقال فى نفسه ماهذا فأوحى الله إليه إن هذا تسبيح دواب البحر قال فسبح وهو فى بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا ياربنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة وفى رواية صوتا معروفا من مكان مجهول فقال ذاك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فقالوا العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت فقذفه إلى الساحل كما قال الله تعالى «فنبذناه بالعراء وهم سقيم» فذلك قوله عز وجل (فاستجبنا له) أى أجبناه (ونجيناه من الغم) من تلك الظلمات (وكذلك ننجى المؤمنين) من كل كرب إذا دعونا واشتغاثوا بنا قرأ ابن عامر (٣٢٠) وعاصم برواية أبى بكر نجى بنون واحدة وتشديد الجيم وتسكين الياء لأنها مكتوبة فى المصحف بنون واحدة واختلف النحاة فى هذه القراءة فذهب أكثرهم إلى أنها لحن لأنه لو كان على مالم يسم فاعله لم تسكن الياء ورفع المؤمنين ومنهم من صوبها وذكر الفراء أن لها وجها آخر وهو إضمار المصدر أى نجى النجاة المؤمنين كقولك ضرب الضرب زيدا ثم تقول ضرب زيدا بالنصب على إضمار المصدر وسكن الياء فى نجى كما يسكنون فى بقى ونحوها قال القتيبى من قرأ بنون واحدة والتشديد فانما أراد ننجى من التنجية إلا أنه أدغم وحذف نونا طلبا للخفة ولم يرضه النحويون لبعد مخرج النون من الجيم والإدغام يكون عند قرب المخرج وقرأ العامة ننجى بنونين من الإنجاء وإنما كتبت بنون واحدة لأن النون الثانية كانت ساكنة والساكن غير ظاهر على اللسان فحذفت كما فعلوا فى إلا حذفوا النون من أن لخفائها واختلفوا فى أن رسالة يونس بن متى متى كانت فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنها كانت بعد أن أخرجه الله من بطن الحوت بدليل أن الله عز وجل ذكره فى سورة والصافات «فنبذناه بالعراء» ثم ذكر بعده «وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون» وقال الآخرون إنها كانت من قبل بدليل قوله تعالى «وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون» قوله عز وجل (وزكريا إذ نادى ربه) أى دعا ربه (رب لاتذرنى فردا) وحيدا لاولد لي وارزقنى وارثا (وأنت خير الوارثين) أثنى على الله بأنه الباقى بعد فناء الخلق وأنه أفضل من بقى حيا (فاستجبنا له ووهبنا له يحيى) ولدا (وأصلحنا له زوجه) أى جعلناها ولودا بعد ما كانت

وأصلحها

نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة وفى رواية صوتا معروفا من مكان مجهول فقال ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فقالوا العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت فقذفه فى الساحل فذلك قوله تعالى (فاستجبنا له ونجيناه من الغم) أى من تلك الظلمات (وكذلك ننجى المؤمنين) أى من الكروب إذا دعونا واستغاثوا بنا . فان قلت قد تمسك بمواضع من هذه القصة من أجاز وقوع الذنب من الأنبياء منها قوله «إذ ذهب مغاضبا » ومنها « فظن أن لن نقدر عليه» ومنها قوله « إنى كنت من الظالمين » قلت أما الجواب الكلى فقد اختلفوا فى هذه الواقعة هل كانت قبل الرسالة أم لا فقال ابن عباس كانت رسالته بعد أن أخرجه الله من بطن الحوت بدليل قوله تعالى فى الصافات بعد ذكر خروجه « وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون» فثبت بهذا أن هذه الواقعة كانت قبل النبوة وقد أجاز بعضهم عليه الصغائر قبل النبوة ومنعها بعد النبوة وهو الصحيح وأما الجواب التفصيلى لقوله إذ ذهب مغاضبا فحمله على أنه لقومه أو للملك أولى بحال الأنبياء وأما قوله «فظن أن لن نقدر عليه» فقد تقدم معناه أى لن نضيق عليه وذلك أن يونس ظن أنه مخير إن شاء أقام وإن شاء خرج وإن الله تعالى لايضيق عليه فى اختياره وقيل هو من القدر لا من القدرة وأما قوله «إنى كنت من الظالمين» فالظلم وضع الشئ فى غير موضعه وهذا اعتراف عند بعضهم بذنبه فاما أن يكون لخروجه عن قومه بغير إذن ربه أو لضعفه عما حمله أو لدعائه بالعذاب على قومه وفى هذه الأشياء ترك الأفضل مع قدرته على تحصيله فكان ذلك ظلما وقيل كانت رسالته قبل هذه الواقعة بدليل قوله «وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون» فعلى هذا يكون الجواب عن هذه الواقعة ماتقدم من التفصيل والله أعلم . قوله عز وجل (وزكريا إذ نادى ربه) أى دعا ربه فقال (رب لاتذرنى فردا) أى وحيدا لاولد لى يساعدنى وارزقنى وارثا (وأنت خير الوارثين) هو ثناء على الله بأنه الباقى بعد فناء الخلق وأنه الوارث لهم وهذا على سبيل التمثيل والمجاز فهو كقوله وأنت خير الرازقين (فاستجبنا له ووهبنا له يحيى) أى ولدا (وأصلحنا له زوجه) أى جعلناها ولودا بعد ماكانت عقيما وقيل كانت سيئة الخلق

حقيا قاله أكثر المفسرين وقال بعضهم كانت سيئة الخلق فأصلحها الله له بأن رزقها حسن الخلق (إنهم) يعنى الأنبياء الذين سماهم فى هذه السورة (كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا) طمعا (ورهبا) خوفا ، رغبا فى رحمة الله ورهبا من عذاب الله (وكانوا لنا خاشعين) أى متواضعين قال قتادة ذللا لأمر الله قال مجاهد الخشوع هو الخوف اللازم فى القلب (والتى أحصنت فرجها) حفظت من الحرام وأراد مريم بنت عمران (فنفخنا فيه من روحنا) أى أمرنا جبرائيل حتى نفخ فى جيب درعها وأحدثنا بذلك النفخ المسيح فى بطنها وأضاف الروح إليه تشريفا لعيسى عليه السلام (وجعلناها وابنها آية للعالمين) أى دلالة على كمال قدرتنا على خلق ولد من غير أب ولم يقل آيتين وهما آيتان لأن معنى الكلام وجعلنا شأنهما وأمرهما آية ولأن الآية كانت فيهما واحدة وهى أنها أتت به من غير فحل .

قوله (إن هذه أمتكم) أى ملتكم ودينكم (أمة واحدة) أى دينا واحدا وهو الإسلام فأبطل ما سوى الإسلام من الأديان ، وأصل الأمة الجماعة التى هى على مقصد واحد فجعلت الشريعة أمة واحدة لاجتماع أهلها على مقصد واحد ونصب أمة على القطع (وأنا ربكم فاعبدون وتقطعوا أمرهم بينهم) أى اختلفوا فى الدين فصاروا فرقا وأحزابا قال الكلبى فرقوا دينهم بينهم يلعن بعضهم بعضا ويتبرأ بعضهم من بعض والتقطع هاهنا بمعنى التقطيع (كل إلينا راجعون) فنجزيهم بأعمالهم (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه) لا يجحد ولا يبطل عمله سعيه بل يشكر ويثاب عليه (وإنا له كاتبون) لعمله حافظون ، وقيل معنى الشكر من الله المجازاة ومعنى الكفران ترك المجازاة (وحرام على قرية) قرأ حمزة والكسائى وأبو بكر وحرم بكسر الحاء بلا ألف وقرأ الباقون بالألف حرام وهما لغتان مثل حل وحلال قال ابن عباس معنى الآية وحرام على قرية أي أهل قرية (أهلكناها) أن يرجعوا بعد الهلاك فعلى هذا تكون لا صلة وقال آخرون الحرام بمعنى الواجب فعلى هذا تكون لا ثابتة معناه واجب على أهل قرية أهلكناهم (أنهم لا يرجعون) إلى الدنيا وقال الزجاج معناه وحرام على أهل قرية أهلكناهم أى حكمنا بهلاكهم أن يتقبل أعمالهم لأنهم لا يرجعون أى لا يتوبون والدليل على هذا المعنى أنه قال فى الآية التى قبلها «فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه» أى يتقبل عمله ، ثم ذكر هذه الآية عقبه وبين أن الكافر لا يتقبل عمله . قوله تعالى (حتى إذا فتحت)

فأصلحها الله تعالى له بأن رزقها حسن الخلق (إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات) يعنى الأنبياء المذكورين فى هذه السورة وقيل زكريا وأهل بيته ، والمسارعة فى الخيرات من أكبر ما يمدح به المرء لأنها تدل على حرص عظيم فى طاعة الله عز وجل (ويدعوننا رغبا ورهبا) يعنى أنهم ضموا إلى فعل الطاعات أمرين : أحدهما الفزع إلى الله لمكان الرغبة فى ثوابه والرهبة من عقابه . والثانى الخشوع وهو قوله تعالى (وكانوا لنا خاشعين) الخشوع هو الخوف اللازم للقلب فيكون الخاشع هو الحذر الذى لا ينبسط فى الأمور خوفا من الوقوع فى الإثم . قوله تعالى (والتى أحصنت فرجها) أى إحصانا كليا من الحلال والحرام جميعا كما قالت «لم يمسسنى بشر ولم أك بغيا» وهى مريم بنت عمران (فنفخنا فيها من روحنا) أمرنا جبريل حتى نفخ فى جيب درعها فخلقنا بذلك النفخ المسيح فى بطنها وأضاف الروح إليه تشريفا لعيسى كبيت الله وناقة الله (وجعلناها وابنها آية) أى دلالة (للعالمين) على كمال قدرتنا على خلق ولد من غير أب . فان قلت هما آيتان فكيف قال آية ؟ . قلت معنى الكلام وجعلنا شأنهما وأمرهما آية واحدة أى ولادتها إياه من غير أب آية . قوله تعالى (إن هذه أمتكم) أى ملتكم ودينكم (أمة واحدة) أى دينا واحدا وهو الإسلام فأبطل ما سوى الإسلام من الأديان والأمة الجماعة التى هى على مقصد واحد وجعلت الشريعة أمة لاجتماع أهلها على مقصد واحد (وأنا ربكم فاعبدون) أى لا دين سوى دينى ولا رب لكم غيرى فاعبدونى أى وحدونى (وتقطعوا أمرهم بينهم) أى اختلفوا فى الدين فصاروا فرقا وأحزابا حتى لعن بعضهم بعضا وتبرأ بعضهم من بعض (كل إلينا راجعون) فنجزيهم بأعمالهم (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه) أى لا يجحد ولا يبطل سعيه بل يشكر ويثاب عليه (وإنا له كاتبون) أي لعمله وحافظون له وقيل الشكر من الله المجازاة ، والكفران ترك المجازاة . قوله عز وجل (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون) قال ابن عباس ومعناه وحرام على أهل قرية أهلكناهم أن يرجعوا بعد الهلاك ، وقيل معناه وحرام على أهل قرية حكمنا بهلاكهم أن نقبل أعمالهم لأنهم لا يتوبون . قوله عز وجل (حتى إذا فتحت

قرأ ابن عامر وأبوجعفر ويعقوب فتحت بالتشديد على التكثير وقرأ الآخرون بالتخفيف (يأجوج ومأجوج) يريد فتح السد عن يأجوج ومأجوج (وهم من كل حدب) أى نشز وتل والحدب المكان المرتفع (ينسلون) يسرعون النزول من الآكام والتلاع كنسلان الذئب وهو سرعة مشيه . واختلفوا فى هذه الكناية فقال قوم عنى بها يأجوج ومأجوج بدليل ما روينا «عن النواس بن سمعان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون» وقال قوم أراد جميع الخلق يعنى أنهم يخرجون من قبورهم ويدل عليه قراءة مجاهد وهم من كل جدث بالجيم والثاء كما قال «فاذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون» أخبرنا إسماعيل ابن عبدالقاهر الجرجانى أنا عبد الغافر بن محمد الفارسى أنا محمد بن عيسى الجلودى أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجاج أنا أبوخيثمة زهير بن حرب أنا سفيان بن عيينة عن فرات القزاز عن أبي الطفيل عن حذيفة ابن أسيد الغفارى قال «اطلع النبى صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر الساعة فقال ما تذكرون قالوا نذكر الساعة قال إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمغرب وخسف بالمشرق وخسف بجزيرة

يأجوج ومأجوج) يريد فتح السد وذلك أن الله يفتحه أخبر عن يأجوج ومأجوج وهما قبيلتان يقال إنهما تسعة أعشار بنى آدم (وهم من كل حدب ينسلون) أى يسرعون النزول من كل الآكام والتلال. وفى هذه الكناية وجهان: أحدهما أن المراد بهم يأجوج ومأجوج وهو الأصح بدليل «ماروى عن النواس بن سمعان قال «ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظننا أنه فى طائفة النخل فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا فقال ماشأنكم قلنا يارسول الله ذكرت الدجال الغداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه فى طائفة النخل فقال غير الدجال أخوفنى عليكم إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم فكل امرىء حجيج نفسه والله خليفتى على كل مسلم إنه شاب قطط عينه طافئة كأنى أشبهه بعبدالعزى بن قطن فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف «إنه خارج خلة بين الشام والعراق فعاث يمينا وعاث شمالا يا عباد الله فاثبتوا قلنا يارسول الله وما لبثه فى الأرض ؟ قال أربعون يوما يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم قلنا يارسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال لا أقدروا له قدره قلنا يارسول الله وما إسراعه فى الأرض ؟ قال كالغيث استدبرته الريح فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرا وأسبغه ضروعا وأمده خواصر ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليه» . قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شىء من أموالهم «ويمر بالخربة فيقول لها أخرجى كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه ويضحك فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم عليه السلام فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين واضعا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهى إلى حيث ينتهى طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله ثم يأتى عيسى عليه السلام إلى قوم قد عصمهم الله منه فيمسح على وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى عليه السلام إنى قد أخرجت عبادا لى لا يدان لأحد أن يقاتلهم فحرز عبادى إلى الطور ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقول لقد كان بهذه مرة ماء ويحضر نبى الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله فيهم النغف فى رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة ثم يهبط نبى الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون فى الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيرا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ثم يرسل الله مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة ثم يقال للأرض أنبتى ثمرتك وردى بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك فى الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى الفئام من الناس واللقحة من البقر

لتكفى

العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم » . قوله تعالى (واقترب الوعد الحق) يعنى القيامة قال الفراء وجماعة الواو فى قوله واقترب مقحمة فمعناه حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق كما قال الله تعالى « فلما أسلما وتله للجبين وناديناه » أى ناديناه والدليل عليه ما روي عن حذيفة قال : لو أن رجلا اقتنى فلوا بعد خروج يأجوج ومأجوج لم يركبه حتى تقوم الساعة وقال قوم لايجوز طرح الواو وجعلوا جواب حتى إذا فتحت فى قوله ياويلنا فيكون مجاز الآية حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج واقترب الوعد الحق قالوا ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا . قوله (فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا) وفى قوله هى ثلاثة أوجه : أحدها أنها كناية عن الأبصار ثم أظهر الأبصار بيانا ، معناه فاذا الأبصار شاخصة أبصار الذين كفروا . والثانى أن هى تكون عمادا كقوله « فانها لاتعمى الأبصار » والثالث أن يكون تمام الكلام عند قوله هى على معنى فاذا هى بارزة يعنى من قربها كأنها حاضرة ثم ابتدأ شاخصة أبصار الذين كفروا على تقديم الخبر على الابتداء مجازها أبصار الذين كفروا شاخصة قال الكلبي شخصت أبصار الكفار فلا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم وهوله يقولون (ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا) اليوم (بل كنا ظالمين) بوضعنا العبادة فى غير موضعها (إنكم) أيها المشركون (وما تعبدون من دون الله) يعنى الأصنام (حصب جهنم) يعنى وقودها وقال مجاهد وقتادة حطبها والحصب فى لغة أهل اليمن الحطب .

لتكفى القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة » أخرجه مسلم .

(شرح غريب ألفاظ الحديث)

قوله حتى ظنناه فى طائفة النخل أى ناحية النخل وجانبه والطائفة القطعة من الشىء » وقوله فخفض فيه ورفع أى خفض صوته ورفعه من شدة ماتكلم به فى أمره . وقيل إنه خفض من أمره تهوينا له ورفع من شدة فتنته والتخويف من أمره . قوله إنه شاب قطط أى جعد الشعر وقوله طافئة أي خارجة عن حدها قوله إنه خارج خلة أى إنه يخرج قصدا وطريقا بين جهتين والتخلل الدخول فى الشئ . قوله فعاث أى أفسد . قوله اقدروا له قدره أى قدروا قدر يوم من أيامكم المعهودة وصلوا فيه بقدر أوقاته ، وقوله فتروح عليهم سارحتهم أى مواشيهم ، وقوله فيصبحون ممحلين أى مقحطين قد أجدبت أرضهم وغلت أسعارهم . قوله كيعاسيب النحل جمع يعسوب وهو فحل النحل ورئيسها . قوله فيقطعه جزلتين رمية الغرض أى قطعتين والغرض الهدف الذى يرمى بالنشاب . قوله بين مهرودتين رويت بالدال المهملة وبالمعجمة أى شقتين وقيل حلتين وقيل المرد الصبغ الأصفر بالورس والزعفران . قوله لايدان لأحد بقتالهم أى لاقدرة ولا قوة لأحد بقتالهم والنغف دود يكون فى أنوف الإبل والغنم فرسى جمع فريس وهو القتيل . قوله زهمهم أى ريحهم النتنة . قوله كالزلفة أى كالمرآة وجمعها زلف ويروى بالقاف وأراد به استواءها ونظافتها . قوله تأكل العصابة أى الجماعة قيل يبلغون أربعين وقحف الرمانة فى الحديث قشرها ، والرسل بكسر الراء اللبن واللقحة الناقة ذات اللبن ، والفئام الجماعة من الناس ، والفخذ دون القبيلة ، وقوله يتهارجون أى يختلفون والتهارج الاختلاف ، وأصله القتل .

(الوجه فى تفسير قوله تعالى وهم من كل حدب ينسلون)

قيل جميع الخلائق يخرجون من قبورهم إلى موقف الحساب (م) عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال « اطلع النبى صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال ماتذكرون قالوا ؟ نذكر الساعة قال إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم ويأجوج ومأجوج وثلاث خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب » وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم » . قوله عز وجل (واقترب الوعد الحق) أى القيامة قال حذيفة لو أن رجلا اقتنى فلوا بعد خروج يأجوج ومأجوج لم يركبه حتى تقوم الساعة . الفلو المهر (فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا) قيل معنى الآية أن القيامة إذا قامت شخص أبصار الذين كفروا من شدة الأهوال ولا تكاد تطرف من هول ذلك اليوم ويقولون (ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا) يعنى فى الدنيا حيث كذبنا به وقلنا إنه غير كائن (بل كنا ظالمين) أى فى وضعنا العبادة فى غير موضعها . قوله عز وجل (إنكم) الخطاب للمشركين (وما تعبدون من دون الله) يعنى الأصنام (حصب جهنم)

وقال عكرمة هذا الحطب بلغة الحبشة قال الضحاك يعني يرمون بهم في النار كما يرمى بالحصب وأصل الحصب الرمي قال الله عز وجل «أرسلنا عليهم حاصبا» أي ريحا ترميهم بحجارة وقرأ علي بن أبي طالب حطب جهنم (أنتم لها واردون) أي فيها داخلون (لو كان هؤلاء) يعني الأصنام (آلهة) على الحقيقة (ماوردوها) أي مادخل عابدوها النار (وكل فيها خالدون) يعني العابدين والمعبودين (لهم فيها زفير وهم فيها لايسمعون) قال ابن مسعود في هذه الآية «إذا بقي في النار من يخلد فيها جعلوا في توابيت من نار ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت أخر ثم تلك التوابيت في توابيت أخر عليها مسامير من نار فلا يسمعون شيئا ولا يرى أحد منهم أن في النار أحدا يعذب غيره» ثم استثنى فقال (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) قال بعض أهل العلم إن هاهنا بمعنى إلا، معناه إلا الذين سبقت لهم منا الحسنى يعني السعادة والعدة الجميلة بالجنة (أولئك عنها مبعدون) قيل الآية عامة في كل من سبقت لهم من الله السعادة وقال أكثر المفسرين عنى بذلك كل من عبد من دون الله وهو لله طائع ولعبادة من يعبده كاره وذلك «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد وصناديد قريش في الحطيم وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنما فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه ثم تلا عليه «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها» الآيات الثلاثة ثم قام» فأقبل عبد الله بن الزبعرى السهمي فأخبره الوليد بن المغيرة بما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبد الله أما والله لو وجدته لخصمته فدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ابن الزبعرى أأنت قلت إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم قال نعم قال أليست اليهود تعبد عزيرا والنصارى تعبد المسيح وبنو مليح تعبد الملائكة؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم بل هم يعبدون الشياطين فأنزل الله عز وجل «إن الذين سبقت لهم منا الحسنى» يعني عزيرا والمسيح والملائكة «أولئك عنها مبعدون» وأنزل في ابن الزبعرى «ماضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون» وزعم جماعة أن المراد من الآية الأصنام لأن الله تعالى قال «وماتعبدون من دون الله» ولو أراد الملائكة والناس لقال ومن تعبدون من دون الله (لايسمعون حسيسها) يعني صوتها وحركة تلهبها إذا نزلوا منازلهم في الجنة والحس والحسيس الصوت الخفي (وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون) مقيمون كما قال وفيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين (لايحزنهم الفزع الأكبر)

(٣٢٤)

أي حطبها ووقودها وقيل يرمى بهم في النار كما يرمى بالحصباء وأصل الحصب الرمي (أنتم لها واردون) أي فيها داخلون (لو كان هؤلاء) يعني الأصنام (آلهة) أي على الحقيقة (ماوردوها) أي مادخل الأصنام النار وعبدوها (وكل فيها خالدون) يعني العابدين والمعبودين (لهم فيها زفير) قيل الزفير هو أن يملأ الرجل صدره غما ثم يتنفس وقيل هو شدة ماينالهم من العذاب (وهم فيها لايسمعون) قال ابن مسعود في هذه الآية إذا بقي في النار من يخلد فيها جعلوا في توابيت من نار ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت أخر ثم تلك التوابيت في توابيت أخر عليها مسامير من نار فلا يسمعون شيئا ولا يرى أحد منهم أن في النار أحدا يعذب غيره. قوله تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) قال العلماء إن هنا بمعنى إلا أي إلا الذين سبقت لهم منا الحسنى يعني السعادة والعدة الجميلة بالجنة (أولئك عنها) أي عن النار (مبعدون) قيل الآية عامة في كل من سبقت له من الله السعادة، وقال أكثر المفسرين عنى بذلك كل من عبد من دون الله وهو لله طائع ولعبادة من يعبده كاره وذلك «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد وصناديد قريش في الحطيم وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنما فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه ثم تلا عليه إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم الآيات الثلاث ثم قام فأقبل عبدالله بن الزبعرى السهمي فأخبره الوليد بن المغيرة بما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابن الزبعرى أما والله لو وجدته لخصمته فدعوا رسول الله ﷺ فقال له ابن الزبعرى أنت قلت إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم؟ قال نعم قال أليست اليهود تعبد عزيرا والنصارى تعبد المسيح وبني مليح تعبد الملائكة فقال النبي صلى الله عليه وسلم بل هم يعبدون الشياطين فأنزل الله تعالى إن الذين سبقت لهم منا الحسنى يعني عزيرا والمسيح والملائكة أولئك عنها مبعدون وأنزل في ابن الزبعرى «ماضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون» وزعم جماعة أن المراد من الآية الأصنام لأن الله تعالى قال إنكم وما تعبدون من دون الله ولو أراد به الملائكة والناس لقال إنكم ومن تعبدون لأن من لمن يعقل وما لمن لايعقل (لا يسمعون حسيسها) يعني صوتها وحركة تلهبها إذا نزلوا منازلهم في الجنة (وهم فيما اشتهت أنفسهم) أي من النعم والكرامة (خالدون) أي مقيمون. قوله تعالى (لايحزنهم الفزع

الأكبر) قال ابن عباس الفزع الأكبر النفخة الأخيرة بدليل قوله عز وجل « ونفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض » قال الحسن حين يؤمر بالعبد إلى النار قال ابن جريج حين يذبح الموت وينادى يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت وقال سعيد بن جبير والضحاك هو أن تطبق عليهم جهنم وذلك بعد أن يخرج الله منها من يريد أن يخرجه (وتتلقاهم الملائكة) أى تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون (هذا يومكم الذى كنتم توعدون يوم نطوى السماء) قرأ أبو جعفر تطوى السماء بالتاء وضمها وفتح الواو والسماء رفع على المجهول وقرأ العامة بالنون وفتحها وكسر الواو والسماء نصب (كطى السجل للكتب) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم للكتب على الجمع ، وقرأ الآخرون للكتاب على الواحد . واختلفوا فى السجل فقال السدى السجل **(٣٢٥)** ملك يكتب أعمال العباد واللام زائدة أى كطى السجل الكتب كقوله « ردف لكم » اللام فيه زائدة وقال ابن عباس ومجاهد والأكثرون السجل الصحيفة للكتب أى لأجل ما كتب معناه كطى الصحيفة على مكتوبها والسجل اسم مشتق من المساجلة وهى المكاتبة والطى الدرج الذى هو ضد النشر (كما بدأنا أول خلق نعيده) أى كما بدأناهم فى بطون أمهاتهم حفاة عراة غرلا كذلك نعيدهم يوم القيامة نظيره قوله تعالى « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة » وروى عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إنكم محشورون حفاة عراة غرلا ثم قرأ « كما بدأنا أول خلق نعيده » (وعدا علينا إنا كنا فاعلين) يعنى الإعادة والبعث وقوله (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر) قال سعيد بن جبير ومجاهد الزبور جميع الكتب المنزلة والذكر أم الكتاب الذى عنده والمعنى من بعد ما كتب ذكره فى اللوح المحفوظ وقال ابن عباس والضحاك الزبور التوراة والذكر للكتب المنزلة من بعد التوراة وقال الشعبى الزبور كتاب داود والذكر التوراة وقيل الزبور زبور داود والذكر القرآن وبعد بمعنى قبل كقوله تعالى « وكان وراءهم ملك » أى أمامهم « والأرض بعد ذلك دحاها » قبله (إن الأرض) يعنى أرض الجنة (يرثها عبادى الصالحون) قال مجاهد يعنى أمة محمد صلى الله عليه وسلم دليله قوله تعالى « الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض » وقال ابن عباس أراد أن أراضى الكفار يفتحها المسلمون وهذا حكم من الله باظهار الدين وإعزاز المسلمين وقيل أراد بالأرض الأرض المقدسة (إن فى هذا) أى فى هذا القرآن (لبلاغا) وصولا إلى البغية أى من اتبع القرآن وعمل به وصل إلى مايرجوه من الثواب وقيل بلاغا

الأكبر) قال ابن عباس يعنى النفخة الأخيرة ، وقيل هو حين يذبح الموت وينادى يا أهل النار خلود بلا موت وقيل هو حين يطبق على جهنم وذلك بعد أن يخرج الله منها من يريد أن يخرجه (وتتلقاهم الملائكة) أى تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون (هذا يومكم الذى كنتم توعدون) أى فى الدنيا . قوله عز وجل (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب) قال ابن عباس السجل الصحيفة والمعنى كطى الصحيفة على مكتوبها والطى هو الدرج الذى هو ضد النشر وقيل السجل اسم ملك يكتب أعمال العباد إذا رفعت إليه والمعنى نطوى السماء كما يطوى السجل الطومار الذى يكتب فيه والتقدير لا يحزنهم الفزع الأكبر فى ذلك اليوم (كما بدأنا أول خلق نعيده) أى كما بدأناهم فى بطون أمهاتهم عراة غرلا كذلك نعيدهم يوم القيامة (ق) عن ابن عباس قال « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال : أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده » قوله غرلا أى قلفا وقوله تعالى (وعدا علينا إنا كنا فاعلين) يعنى الإعادة والبعث بعد الموت . قوله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر)قيل الزبور جميع الكتب المنزلة على الأنبياء والذكر هو أم الكتاب الذى عنده ومن ذلك الكتاب تنسخ جميع الكتب ومعنى من بعد الذكر أى بعد ما كتب فى اللوح المحفوظ وقال ابن عباس الزبور والتوراة والذكر الكتب المنزلة من بعد التوراة وقيل الزبور كتاب داود والذكر هو القرآن وبعد هنا بمعنى قبل (أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) يعنى أرض الجنة يرثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم والمعنى أن الله تعالى كتب فى اللوح المحفوظ فى كتب الأنبياء أن الجنة يرثها من كان صالحا من عباده عاملا بطاعته وقال ابن عباس أراد أن أراضى الكفار يفتحها المسلمون وهذا حكم من الله تعالى باظهار الدين وإعزاز المسلمين ، وقيل أراد الأرض المقدسة يرثها الصالحون بعد من كان فيها (إن فى هذا) أى فى القرآن (لبلاغا) أى وصولا إلى البغية يعنى من اتبع القرآن وعمل بما فيه وصل إلى ما يرجو من الثواب ، وقيل البلاغ الكفاية أى فيه كفاية لما فيه من الأخبار

أى كفاية يقال فى هذا الشئ بلاغ وبلغة أى كفاية والقرآن زاد الجنة كبلاغ المسافر (لقوم عابدين) أى المؤمنين الذين يعبدون الله ، وقال ابن عباس عالمين ، وقال كعب الأحبار هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم أهل الصلوات الخمس وصوم شهر رمضان (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) قال ابن زيد يعنى رحمة للمؤمنين خاصة فهو رحمة لهم ، وقال ابن عباس هو عام فى حق من آمن ومن لم يؤمن (٣٢٦) فمن آمن فهو رحمة له فى الدنيا والآخرة ومن لم يؤمن فهو رحمة له فى الدنيا بتأخير العذاب عنهم ورفع المسخ والخسف والاستئصال عنهم ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم «إنما أنا رحمة مهداة» (قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون) أى أسلموا (فان تولوا فقل آذنتكم) أى أعلمتكم بالحرب وأن لا اصلح بيننا (على سواء) يعنى إنذارا بينا نستوى فى علمه لا أستبد أنا به دونكم لتتأهبوا لما يراد بكم ، يعنى آذنتكم على وجه نستوى نحن وأنتم فى العلم به وقيل لتستووا فى الإيمان به (وإن أدرى) يعنى وما أعلم (أقريب أم بعيد ما توعدون) يعنى القيامة (إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون وإن أدرى لعله) يعنى لعل تأخير العذاب عنكم كناية عن غير مذكور (فتنة) اختبار (لكم) ليرى كيف صنيعكم وهو أعلم (ومتاع إلى حين) يعنى تتمتعون إلى انقضاء آجالكم (قال رب احكم بالحق) قرأ حفص عن عاصم قال رب احكم وقرأ الآخرون قل رب احكم يعنى افصل بينى وبين من كذبنى بالحق. فان قيل كيف قال احكم بالحق والله لا يحكم إلا بالحق ؟ قيل الحق هاهنا بمعنى العذاب لأنه استعجل العذاب لقومه فعذبوا يوم بدر نظيره قوله تعالى «ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق» قال أهل المعانى معناه رب احكم بحكمك الحق فحذف الحكم وأقيم الحق مقامه والله تعالى يحكم بالحق طلب منه أو لم يطلب ومعنى الطلب ظهور الرغبة من الطالب فى حكمه من الحق (وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) من الكذب والباطل.

والوعد والوعيد والمواعظ البالغة فهو زاد العباد إلى الجنة وهو قوله تعالى (لقوم عابدين) يعنى مؤمنين لا يعبدون أحدا من دون الله تعالى وقيل هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم أهل الصلوات الخمس وشهر رمضان والحج وقال ابن عباس عالمين وقيل هم العالمون العاملون . قوله عز وجل (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) قيل : كان الناس أهل كفر وجاهلية وضلال وأهل الكتابين كانوا فى حيرة من أمر دينهم لطول وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف فى كتبهم فبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب فدعاهم إلى الحق وبين لهم سبيل الصواب وشرع لهم الأحكام وبين الحلال من الحرام قال الله تعالى «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» قيل يعنى المؤمنين خاصة فهو رحمة لهم وقال ابن عباس هو عام فى حق من آمن ومن لم يؤمن ، فمن آمن فهو رحمة له فى الدنيا والآخرة ومن لم يؤمن فهو رحمة له فى الدنيا بتأخير العذاب عنه ورفع المسخ والخسف والاستئصال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنما أنا رحمة مهداة» (قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون) يعنى منقادون لما يوحى إلى من إخلاص الإلهية والتوحيد لله والمراد بهذا الاستفهام الأمر أى أسلموا (فان تولوا) أى أعرضوا ولم يسلموا (فقل آذنتكم) أى أعلمتكم بالحرب وأن لا صلح بيننا (على سواء) أى إنذارا بينا نستوى فى علمه لا أستبد أنا به دونكم لتتأهبوا لما يراد بكم والمعنى آذنتكم على وجه نستوى نحن وأنتم فى العلم به وقيل معناه لتستووا فى الإيمان به وأعلمتكم بما هو الواجب عليكم من التوحيد وغيره (وإن أدرى) أى وما أعلم (أقريب أم بعيد ما توعدون) يعنى يوم القيامة لا يعلمه إلا الله (إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون) أى لا يغيب عن علمه شىء منكم فى علانيتكم وسركم (وإن أدرى لعله فتنة لكم) أى لعل تأخير العذاب عنكم اختبار لكم ليرى كيف صنيعكم وهو أعلم بكم (ومتاع إلى حين) أى تتمتعون الى انقضاء آجالكم (قال رب احكم) أى افصل بينى وبين من كذبنى (بالحق) أى بالعذاب كأنه استعجل العذاب لقومه فعذبوا يوم بدر وقيل معناه افصل بينى وبينهم بما يظهر الحق من الجميع وهو أن تنصرنى عليهم والله يحكم بالحق طلب ولم يطلب ومعنى الطلب ظهور الرغبة من الطالب (وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) أى من الشرك والكفر والكذب والأباطيل كأنه سبحانه وتعالى قال قل داعيا إلى رب احكم بالحق وقل متوعدا للكفار وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

تم الجزء الرابع من تفسير الخازن

ويليه الجزء الخامس

وأوله : تفسير سورة الحج

فهرست الجزء الرابع

من تفسير القرآن العظيم للإمام على بن محمد المعروف بالخازن

صحيفة

(تمت)

فهرست الجزء الرابع

من كتاب معالم التنزيل لمحيي السنة أبي محمد الحسين الفراء البغوى
(الذى بهامش الخازن)

صحيفة

تفسير الخازن

المسمى

لباب التأويل في معانى التنزيل

لعلاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادى الشهير بالخازن

المتوفى سنة ٧٢٥ هـ

وبهامشه

تفسير البغوى

المعروف بمعالم التنزيل

لأبى محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوى

المتوفى سنة ٥١٦ هـ

الجزء الخامس

الطبعة الثانية

١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م

ملتزم الطبع والنشر

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

(سورة الحج) مكية إلا ومن الناس من يعبد الله الآيتين أو إلا هذان خصمان الست آيات فمدنيات وهى أربع أو خمس أو ست أو سبع أو ثمان وسبعون آية .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يا أيها الناس اتقوا ربكم) أى احذروا عقابه بطاعته (إن زلزلة الساعة شىء عظيم) والزلزلة والزلزال شدة الحركة على الحالة الهائلة واختلفوا فى هذه (٢) الزازلة فقال علقمة والشعبى هى من أشراط الساعة وقيل قيام الساعة وقال الحسن والسدى هذه الزلزلة تكون يوم القيامة وقال ابن عباس زلزلة الساعة قيامها فتكون معها (يوم ترونها) يعنى الساعة وقيل الزلزلة (تذهل) قال ابن عباس تشغل وقيل تلسى يقال ذهلت عن كذا إذا تركته واشتغلت بغيره عنه (كل مرضعة عما أرضعت) أى كل امرأة معها ولد ترضعه يقال امرأة مرضع بلا هاء إذا أريد به الصفة مثل حائض وحامل فاذا أرادوا الفعل أدخلوا الهاء (وتضع كل ذات حمل حملها) أى تسقط ولدها من هول ذلك اليوم قال الحسن تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام وتضع الحامل مافى بطنها بغير تمام وهذا يدل على أن هذه الزلزلة تكون فى الدنيا لأن بعد البعث لا يكون حمل ومن قال تكون فى القيامة قال هذا على وجه تعظيم الأمر لا على حقيقته كقولهم أصابنا أمر يشيب منه الوليد يريد به شدته (وترى الناس سكارى وماهم بسكارى) قرأ حمزة والكسائى سكرى وماهم بسكرى بلا ألف وهما لغتان فى جمع السكران مثل كسلى وكسالى قال الحسن معناه وترى الناس سكارى من الخوف وماهم بسكارى من الشراب وقيل معناه وترى الناس كأنهم سكارى (ولكن عذاب الله شديد) أخبرنا الإمام أبو على الحسين بن محمد القاضى أنا أبو طاهر محمد بن محمش الزيادى أنا

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ
(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الحج

وهى مكيه غير ست آيات من قوله عزوجل «هذان خصمان» إلى قوله «وهدوا إلى صراط الحميد» وهى ثمان وسبعون آية وألف ومائتان وإحدى وتسعون كلمة وخمسة آلاف وخمسة وسبعون حرفا .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (ياأيها الناس اتقوا ربكم) يعنى احذروا عقابه واعملوا بطاعته (إن زلزلة الساعة شىء عظيم) الزلزلة شدة الحركة على الحال الهائلة ووصفها بالعظم ولاشىء أعظم مما عظمه الله تعالى قيل هى من أشراط الساعة قبل قيامها وقال ابن عباس زلزلة الساعة قيامها فتكون معها (يوم ترونها) أى الساعة وقيل الزلزلة (تذهل) قال ابن عباس تشغل وقيل تلسى (كل مرضعة عما أرضعت) أى كل امرأة معها ولد ترضعه (وتضع كل ذات حمل حملها) أى تسقط من هول ذلك اليوم كل حامل حملها قال الحسن تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام وتضع الحامل مافى بطنها بغير تمام فعلى هذا القول تكون الزلزلة فى الدنيا لأن بعد البعث لايكون حبل ومن قال تكون الزلزلة فى القيامة قال هذا على وجه تعظيم الأمر وتهويله لا على حقيقته كما تقول أصابنا أمر يشيب فيه الوليد تريد به شدته (وترى الناس سكارى) على التشبيه (وما هم بسكارى) على التحقيق ولكن ما رهقهم من خوف عذاب الله هو الذى أذهب عقولهم وأزال تمييزهم وقيل سكارى من الخوف وماهم بسكارى من الشراب (ولكن عذاب الله شديد) (ق) «عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول الله سبحانه وتعالى يوم القيامة يا آدم فيقول لبيك وسعديك زاد فى رواية والخير فى يديك فينادى بصوت إن الله تعالى يأمرك أن

تخرج

أبوبكر محمد بن عمر بن حفص التاجر أنا إبراهيم بن عبد الله بن عمر بن بكير الكوفى أنا وكيع عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل يوم القيامة يا آدم قم فابعث بعث النار من ولدك قال فيقول لبيك وسعديك والخير كله فى يديك يارب وما بعث النار قال فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين قال فحينئذ يشيب المولود وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكاري ولكن عذاب الله شديد قال فيقولون وأينا ذاك الواحد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعمائة وتسعة وتسعون من يأجوج ومأجوج ومنكم واحد فقال الناس الله أكبر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والله إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة والله إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة والله لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة قال فكبر الناس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنتم يومئذ فى الناس إلا كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود أو كالشعرة السوداء فى الثور الأبيض » وروى « عن عمران ابن حصين وأبى سعيد الخدرى وغيرهما » أن هاتين الآيتين نزلتا فى غزوة بنى المصطلق ليلا فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحثوا المطى حتى كانوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأها عليهم فلم ير أكثر باكيا من تلك الليلة فلما أصبحوا لم يحطوا السرج عن الدواب ولم يضربوا الخيام ولم يطبخوا قدورا والناس ما بين باك أو جالس حزين متفكر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتدرون أي يوم ذلك قالوا الله ورسوله أعلم قال ذاك يوم يقول الله لآدم قم فابعث بعث النار من ولدك قال فيقول آدم من كل كم فيقول الله عز وجل من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحدا إلى الجنة قال فكبر ذلك على المسلمين وبكوا وقالوا فمن ينجو إذن يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبشروا وسددوا وقاربوا فان معكم خليقتين ما كانتا فى قوم إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج ثم قال إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبروا وحمدوا الله ثم قال إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبروا وحمدوا الله ثم قال إنى لأرجو أن تكونوا ثلثى أهل الجنة وإن أهل الجنة مائة وعشرون صفا ثمانون منها أمتى وما المسلمون فى الكفار إلا كالشامة فى جنب البعير أو كالرقمة فى ذراع الدابة بل كالشعرة السوداء فى الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود ثم قال ويدخل من أمتى سبعون ألفا الجنة بغير حساب فقال عمر سبعون ألفا قال نعم ومع كل واحد سبعون ألفا فقام عكاشة بن محصن فقال يارسول الله ادع الله لى أن يجعلنى منهم فقال رسول الله ﷺ أنت منهم أو قال اللهم اجعله منهم فقام رجل منهم فقال أدع الله أن يجعلنى منهم فقال رسول الله ﷺ سبقك بها عكاشة » قوله (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم) نزلت فى النضر بن الحارث وكان كثير الجدل وكان يقول الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين وكان ينكر البعث وإحياء من صار ترابا قوله تعالى

(٣)

تخرج من ذريتك بعث النار قال رب وما بعث النار قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فحينئذ تضع الحوامل حملها ويشيب الوليد وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم » زاد فى رواية قالوا يارسول الله أينا ذلك الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد ثم أنتم فى الناس كالشعرة السوداء فى جنب الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء فى جنب الثور الأسود وفى رواية كالرقمة فى ذراع الحمار وأنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبرنا ثم قال ثلث أهل الجنة فكبرنا ثم قال شطر أهل الجنة فكبرنا » لفظ البخارى وفى حديث عمران بن حصين وغيره » أن هاتين الآيتين نزلتا فى غزوة بنى المصطلق ليلا فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحثوا المطى حتى كانو حول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليهم فلم ير أكثر باكيا من تلك الليلة فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب ولم يضربوا الخيام ولم يطبخوا والناس من بين باك وجالس حزين متفكر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أى يوم ذلك قالوا الله ورسوله أعلم قال ذلك يوم يقول الله لآدم قم فابعث من ذريتك بعث النار » وذكر نحو حديث أبى سعيد وزاد فيه ثم قال « يدخل من أمتى سبعون ألفا الجنة بغير حساب فقال عمر سبعون ألفا قال نعم ومع كل واحد سبعون ألفا » . قوله عز وجل (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم) نزلت فى النضر بن الحرث كان كثير الجدل وكان يقول للملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين وكان ينكر البعث وإحياء من

(ويتبع) أى يتبع فى جداله فى الله بغير علم (كل شيطان مريد) والمريد المتمرد الغالى العاتى المستمر فى الشر (كتب عليه) قضى على الشيطان (أنه من تولاه) اتبعه (فأنه) يعنى الشيطان (يضله) أى يضل من تولاه (ويهديه إلى عذاب السعير) ثم ألزم الحجة منكرى البعث فقال (يأيها الناس إن كنتم فى ريب) يعنى فى شك (من البعث فانا خلقناكم) يعنى أباكم آدم الذى هو أصل النسل (من تراب ثم من نطفة) (٤) يعنى ذريته والنطفة هى المنى وأصلها الماء القليل وجمعها نطاف (ثم من علقة) وهى الدم الغليظ المتجمد الطرى وجمعها علق وذلك أن النطفة تصير دما غليظا ثم تصير لحما (ثم من مضغة) وهى لحمة قليلة قدر مايمضغ (مخلقة وغير مخلقة) قال ابن عباس وقتادة مخلقة أي تامة وغير مخلقة غير تامة أى ناقصة الخلق وقال مجاهد مصورة وغير مصورة يعنى السقط وقيل المخلقة الولد الذى تأتى به المرأة لوقته وغير المخلقة السقط روى عن علقمة عن عبد الله بن مسعود قال إن النطفة إذا استقرت فى الرحم أخذها ملك بكفه وقال أى رب مخلقة أو غير مخلقة فان قال غير مخلقة قذفها الرحم دما ولم تكن نسمة وإن قال مخلقة قال الملك أى رب أذكر أم أنثى أشقى أم سعيد ماالأجل ماالعمل ماالرزق وبأى أرض يموت فيقال له اذهب إلى أم الكتاب فانك تجد فيها كل ذلك فيذهب فيجدها فى أم الكتاب فينسخها فلا يزال معه حتى أى يأتى على آخر صفته (لنبين لكم) كمال قدرتنا وحكمتنا فى تصريف أطوار خلقكم ولتستدلوا بقدرته فى ابتداء الخلق على قدرته على الإعادة وقيل لنبين لكم ماتأتون وما تذرون وما تحتاجون إليه فى العبادة (ونقر فى الأرحام مانشاء) فلا تمجه ولا تسقطه (إلى أجل مسمى) إلى وقت خروجها من الرحم تامة الخلق والمدة (ثم نخرجكم) من بطون أمهاتكم (طفلا) أى صغارا ولم يقل أطفالا لأن العرب تذكر الجمع باسم الواحد وقيل تشبيها بالمصدر مثل عدل وزور (ثم لتبلغوا أشدكم) يعنى الكمال

صار ترابا (ويتبع) يعنى فى جداله فى الله بغير علم (كل شيطان مريد) يعنى المتمرد المستمر فى الشر وفيه وجهان أحدهما أنهم شياطين الإنس وهم رؤساء الكفر الذين يدعون من دونهم إلى الكفر والثانى أنه إبليس وجنوده (كتب عليه) يعنى قضى على الشيطان (أنه من تولاه) يعنى أتبعه (فانه) يعنى الشيطان (يضله) يعنى يضل من تولاه عن طريق الجنة (ويهديه إلى عذاب السعير) وفى الآية زجر عن اتباعه والمعنى كتب عليه أنه من يقبل منه فهو فى ضلال ثم ألزم الحجة منكري البعث فقال (يأيها الناس إن كنتم فى ريب) يعنى شك (من البعث) يعنى بعد الموت (فانا خلقناكم من تراب) يعنى أباكم آدم الذي هو أصل النسل (ثم من نطفة) يعنى ذريته من المني وأصلها الماء القليل (ثم من علقة) يعنى من دم جامد غليظ وذلك أن النطفة تصير دما غليظا (ثم من مضغة) وهى لحمة قليلة قدر مايمضغ (مخلقة وغير مخلقة) قال ابن عباس أى تامة الخلق وغير تامة الخلق وقيل مصورة وغير مصورة وهو السقط وقيل المخلقة الولد الذي تأتى به المرأة لوقته وغير المخلقة السقط فكأنه سبحانه وتعالى قسم المضغة إلى قسمين أحدهما تام الصورة والحواس والتخطيط والقسم الثانى هو الناقص عن هذه الأحوال كلها وروي عن علقمة عن ابن مسعود موقوفا عليه قال إن النطفة إذا استقرت فى الرحم أخذها ملك بكفه وقال أى رب مخلقة أو غير مخلقة فان قال غير مخلقة قذفها فى الرحم دما ولم تكن نسمة وإن قال مخلقة قال الملك أى رب أذكر أم أنثى شقى أم سعيد ما الأجل ماالعمل ماالرزق بأي أرض يموت فيقال له اذهب إلى أم الكتاب فانك تجد فيها كل ذلك فيذهب فيجدها فى أم الكتاب فينسخها فلا يزال معه حتى يأتى على آخر صفته والذى أخرجاه فى الصحيحين عنه قال «حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح فو الذي لاإله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» وقوله تعالى (لنبين لكم) أي كمال قدرتنا وحكمتنا فى تصريف خلقكم ولتستدلوا بقدرته فى ابتداء الخلق على قدرته على الإعادة وقيل لنبين لكم ماتأتون وما تذرون وماتحتاجون إليه فى العبادة وقيل لنبين لكم أن تغير المضغة إلى الخلقة هو اختيار الفاعل المختار فان القادر على هذه الأشياء كيف يكون عاجزا عن الإعادة (ونقر فى الأرحام مانشاء) أى لاتسقطه ولاتمجه (إلى أجل مسمى) أى وقت خروجه من الرحم تام الخلق (ثم نخرجكم) أى وقت الولادة من بطون أمهاتكم (طفلا) أى صغارا وإنما وحد الطفل لأن الغرض الدلالة على الجنس (ثم لتبلغوا أشدكم)

والقوة (ومنكم من يتوفى) من قبل بلوغ الكبر (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر) أو الهرم والخرف (لكيلا يعلم من بعد علم شيئا) أى يبلغ من السن مايتغير عقله فلا يعقل شيئا ثم ذكر دليلا آخر على البعث فقال (وترى الأرض هامدة) أى يابسة لانبات فيها (فإذا أنزلنا عليها الماء) المطر (اهتزت) تحركت بالنبات وذلك أن الأرض ترتفع بالنبات فذلك تحركها (وربت) أى ارتفعت وزادت وقرأ أبو جعفر وربأت بالهمزة وكذلك فى حم السجدة أى ارتفعت وعلت قال المبرد أراد اهتز وربا نباتها فحذف المضاف والاهتزاز فى النبات أظهر يقال اهتز النبات أى طال وإنما أنث لذكر الأرض وقيل فيه تقديم وتأخير معناه ربت واهتزت (وأنبتت من كل زوج بهيج) أى صنف حسن يبهج به من رآه أى يسر فهذا دليل آخر على البعث (ذلك بأن الله هو الحق) أى لتعلموا أن الله هو الحق (وأنه يحيى الموتى وأنه (٥) على كل شئ قدير وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم) يعنى النضر بن الحارث (ولا هدى) بيان (ولا كتاب منير ثانى عطفه) متبخترا لتكبره وقال مجاهد وقتادة لاوى عنقه قال عطية وابن زيد معرضا عما يدعى إليه تكبرا ، وقال ابن جريج يعرض عن الحق تكبرا والعطف الجانب وعطفا الرجل جانباه عن يمين وشمال وهو الموضع الذى يعطفه الإنسان أى يلويه ويميله عند الإعراض عن الشىء نظيره قوله تعالى «وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا» . وقال تعالى «وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤسهم» (ليضل عن سبيل الله) عن دين الله (له فى الدنيا خزى) عذاب وهوان هو القتل ببدر فقتل النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط يوم بدر صبرا (ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق) ويقال له (ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد) فيعذبهم بغير ذنب وهو جل ذكره على أى وجه شاء تصرف فى عبده فحكمه عدل وهو غير ظالم قوله تعالى : (ومن الناس من يعبد الله على حرف) الآية نزلت فى قوم من الأعراب كانوا يقدمون المدينة مهاجرين من باديتهم فكان أحدهم إذا قدم المدينة فصح بها جسمه ونتجت فرسه مهرا حسنا وولدت امرأته ذكرا وكثر ماله قال هذا دين حسن وقد أصبت فيه خيرا واطمأن إليه وإن أصابه مرض وولدت امرأته جارية وأجهضت رماكه وقل ماله قال ماأصبت منذ دخلت فى هذا الدين إلا شرا فينقلب عن دينه وذلك الفتنة فأنزل الله عز وجل «ومن الناس من

أى كمال القوة والعقل والتمييز (ومنكم من يتوفى) أى قبل بلوغ الكبر (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر) أى الهرم والخرف (لكيلا يعلم من بعد علم شيئا) أى يبلغ من السن مايتغير به عقله فلا يعقل شيئا فيصير كما كان فى أول طفوليته ضعيف البنية سخيف العقل قليل الفهم ثم ذكر دليلا آخر على البعث فقال تعالى (وترى الأرض هامدة) أى يابسة لانبات فيها (فإذا أنزلنا عليها الماء) يعنى المطر (اهتزت) أى تحركت بالنبات (وربت) أى ارتفعت وذلك أن الأرض ترتفع بالنبات (وأنبتت) هو مجاز لأن الله تعالى هو المنبت وأضيف إلى الأرض توسعا (من كل زوج بهيج) أى من كل صنف حسن نضير والبهيج هو المبهج وهو الشىء المشرق الجميل ثم إن الله تعالى لما ذكر هذين الدليلين رتب عليهما ماهو المطلوب فقال تعالى (ذلك) أى ذكرنا ذلك لتعلموا (بأن الله هو الحق) وأن هذه الأشياء دالة على وجود الصانع (وأنه يحيي الموتى) أى أنه إذا لم يستبعد منه إيجاد هذه الأشياء فكيف يستبعد منه إعادة الأموات (وأنه على كل شىء قدير) أى من كان كذلك كان قادرا على جميع الممكنات (وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) أى ماذكر من الدلائل لتعلموا أن الساعة كائنة لاشك فيها وأنها حق وأن البعث بعد الموت حق قوله تعالى (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم) يعنى النضر بن الحرث (ولا هدى) أى ليس معه من الله بيان ولا رشاد (ولا كتاب منير) أى ولا كتاب من الله له نور (ثانى عطفه) أى لاوى جنبه وعنقه متبخترا لتكبره معرضا عما يدعى إليه من الحق تكبرا (ليضل عن سبيل الله) أى عن دين الله (له فى الدنيا خزى) أى عذاب وهوان وهو أنه قتل يوم بدر صبرا هو وعقبة بن أبى معيط (ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك) أى يقال له ذلك (بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد) أى فيعذبهم بغير ذنب والله تعالى على أى وجه أراد يتصرف فى عبده فحكمه عدل وهو غير ظالم . قوله عز وجل (ومن الناس من يعبد الله على حرف) الآية نزلت فى قوم من الأعراب كانوا يقدمون المدينة مهاجرين من باديتهم فكان أحدهم إذا قدم المدينة فصح بها جسمه ونتجت بها فرسه مهرا وولدت امرأته غلاما وكثر ماله قال هذا دين حسن وقد أصبت فيه

يعبد الله على حرف » أكثر المفسرين قالوا على شك وأصله من حرف الشئ وهو طرفه نحو حرف الجبل والحائط الذى القائم عليه غير مستقر فقيل للشاك فى الدين أنه يعبد الله على حرف لأنه على طرف وجانب من الدين لم يدخل فيه على الثبات والتمكن كالقائم على حرف الجبل مضطرب غير مستقر يعرض أن يقع فى أحد جانبى الطرف لضعف قيامه ولو عبدوا الله فى الشكر على السراء والصبر على الضراء لم يكونوا على حرف قال الحسن هو المنافق يعبده بلسانه دون قلبه (فان أصابه خير) صحة فى جسمه وسعة فى معيشته (اطمأن به) أى رضى به وسكن إليه (وإن أصابته فتنة) بلاء فى جسده وضيق فى معيشته (انقلب على وجهه) ارتد ورجع على عقبه الى الوجه الذى كان عليه من الكفر (خسر الدنيا) يعنى هذا الشاك خسر الدنيا بفوات ما كان يأمله (والآخرة) (٦) بذهاب الدين والخلود فى النار قرأ يعقوب خاسر بالألف والآخرة جر (ذلك هو الخسران المبين) الظاهر (يدعو من دون الله مالا يضره) إن عصاه ولم يعبده (ومالا ينفعه) إن أطاعه وعبده (ذلك هو الضلال البعيد) عن الحق والرشد (يدعو لمن ضره أقرب من نفعه) هذه الآية من مشكلات القرآن وفيها أسئلة أولها قالوا قد قال الله فى الآية السابقة « يدعو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه » وقال هاهنا « لمن ضره أقرب من نفعه » فكيف التوفيق بينهما قيل قوله فى الآية الأولى يدعو من دون الله مالا يضره أى لا يضره ترك عبادته وقوله لمن ضره أقرب من نفعه أى ضر عبادته فان قيل قد قال لمن ضره أقرب من نفعه ولا نفع فى عبادة الصنم أصلا قيل هذا على عادة العرب فانهم يقولون لما لا يكون أصلا بعيد كقوله « ذلك رجع بعيد » أى لا رجع أصلا فلما كان نفع الصنم بعيدا على معنى أنه لا نفع فيه أصلا قيل ضره أقرب من نفعه لأنه كائن السؤال الثالث قوله لمن ضره أقرب من نفعه ماوجه هذه اللام اختلفوا فيه فقال بعضهم هى صلة مجازها يدعو من ضره أقرب وكذلك قرأها ابن مسعود وقيل يدعو بمعنى يقول والخبر محذوف أى يقول لمن ضره أقرب من نفعه هو إله وقيل معناه يدعو لمن ضره أقرب من نفعه يدعو فحذف يدعو الأخيرة اجتزاء بالأولى ولو قلت يضرب لمن خيره أكثر من شره يضرب ثم يحذف الأخير جاز وقيل على التوكيد معناه يدعو والله لمن ضره أقرب من نفعه وقيل يدعو من صلة قوله « ذلك هو الضلال البعيد » يقول ذلك هو الضلال البعيد يدعو ثم استأنف فقال لمن ضره أقرب من نفعه فيكون من فى هذه

خيرا واطمأن اه وإن أصابه مرض وولدت امرأته جارية ولم تلد فرسه وقل ماله قال ما أصبت منذ دخلت فى هذا الدين إلا شرا فينقلب عن دينه وذلك هو الفتنة فأنزل الله تعالى « ومن الناس من يعبد الله على حرف » أى على شك وأصله من حرف الشئ وهو طرفه نحو حرف الجبل والحائط الذى غير مستقر فقيل للشاك فى الدين أنه يعبد الله على حرف لأنه لم يدخل فيه على الثبات والتمكن وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب فى دينهم لا على سكينة وطمأنينة ولو عبدوا الله بالشكر على السراء والصبر على الضراء لم يكونوا على حرف وقيل هو المنافق يعبد الله بلسانه دون قلبه (فان أصابه خير) أى صحة فى جسمه وسعة فى معيشته (اطمأن به) أى رضى به وسكن إليه (وإن أصابته فتنة) أى بلاء فى جسمه وضيق فى معيشته (انقلب على وجهه) أى ارتد ورجع على عقبه إلى الوجه الذى كان عليه من الكفر (خسر الدنيا والآخرة) أى خسر فى الدنيا العز والكرامة ولا يبقى دمه وماله مصونا وقيل خسر فى الدنيا ما كان يؤمل والآخرة بذهاب الدين والخلود فى النار (ذلك هو الخسران المبين) أى الظاهر (يدعو من دون الله مالا يضره) إن عصاه ولم يعبده (وما لا ينفعه) أى إن أطاعه وعبده (ذلك هو الضلال البعيد) أى عن الحق والرشد (يدعو لمن ضره أقرب من نفعه) فان قلت قد قال الله تعالى فى الآية الأولى « يدعو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه » وقال فى هذه الآية « يدعو لمن ضره أقرب من نفعه » وهذا تناقض فكيف الجمع بينهما . قلت إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم وذلك أن الله تعالى قال فى الآية الأولى مالا يضره أى لا يضره ترك عبادته وقوله لمن ضره أى ضر عبادته وقيل إنها لا تضر ولا تنفع بأنفسها ولكن عبادتها سبب الضرر وذلك يكفى فى إضافة الضرر إليها وقيل إن الله تعالى سفه الكافر حيث عبد جمادا لا يضر ولا ينفع وهو يعتقد بجهله وضلاله أنه ينتفع به حين يستشفع وقيل الآية فى الرؤساء وهم الذين كانوا يفزعون إليهم لأنه يصح منهم أن يضروا وينفعوا وحجة هذا القول أن الله تعالى بين فى الآية الأولى أن الأوثان لا تضر ولا تنفع وهذه الآية تقتضى كون المذكور فيها ضارا نافعا فلو كان المذكور

لمحل الرفع بالابتداء وخبره (لبئس المولى) أى الناصر وقيل المعبود (ولبئس العشير) أي الصاحب والمخالط يعنى الوثن والعرب تسمى الزوج العشير لأجل المخالطة (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار إن الله يفعل ما يريد من كان يظن أن لن ينصره الله) يعنى نبيه صلى الله عليه وسلم (فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب) أى بحبل (إلى السماء) أراد بالسماء سقف البيت على قول الأكثرين أي ليشدد حبلا فى سقف بيته فليختنق به حتى يموت (ثم ليقطع) الحبل بعد الاختناق وقيل ثم ليقطع أى ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقا (فلينظر هل يذهبن كيده) صنعه وحيلته (ما يغيظ) ما بمعنى المصدر أي هل يذهبن كيده وحيلته غيظه معناه فليختنق غيظا حتى يموت وليس هذا على سبيل الحتم أن يفعله لأنه لا يمكنه القطع والنظر بعد الاختناق والموت ولكنه كما يقال للحاسد (٧) إن لم ترض هذا فاختنق ومت غيظا وقال ابن زيد المراد من السماء السماء المعروفة ومعنى الآية من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه ويكيد فى أمره ليقطعه عنه فليقطعه من أصله فان أصله من السماء فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع عن النبي ﷺ الوحى الذي يأتيه من السماء فلينظر هل يقدر على إذهاب غيظه بهذا الفعل وروى أن هذه الآية نزلت فى قوم من أسد وغطفان دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم الى الإسلام وكان بينهم وبين اليهود حلف وقالوا لا تمكننا أن نسلم لأنا نخاف أن لا ينصر محمد ولا يظهر أمره فينقطع الحلف بيننا وبين اليهود فلا يميرونا ولا يؤوونا فنزلت هذه الآية وقال مجاهد النصر بمعنى الرزق والهاء راجعة الى من ومعناه من كان يظن أن لن يرزقه الله فى الدنيا والآخرة نزلت فى من أساء الظن بالله وخاف ألا يرزقه فليمدد بسبب الى السماء أى الى سماء البيت فلينظر هل يذهبن فعله ذلك ما يغيظ وهو خيفة أن لا يرزق وقد يأتى النصر بمعنى الرزق تقول العرب من ينصرنى نصره الله أى من يعطنى أعطاه الله قال أبو عبيدة تقول العرب أرض منصورة أي ممطورة قرأ أبو عمرو ونافع وابن عامر ويعقوب ثم ليقطع ثم ليقضوا بكسر اللام والباقون بجزمها لأن الكل لام الأمر زاد ابن عامر وليوفوا وليطوفوا بكسر اللام فيهما ومن كسر فى ثم ليقطع وفى ثم ليقضوا فرق بأن ثم مفصول من الكلام والواو كأنها من نفس الكلمة كالفاء فى قوله فلينظر (وكذلك) أي مثل ذلك يعنى ما تقدم من آيات القرآن (أنزلناه) يعنى القرآن (آيات بينات وأن الله يهدي من يريد إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا) يعنى عبدة الأوثان (إن الله يفصل بينهم) يحكم بينهم (يوم القيامة

فى هذه الأوثان لزم التناقض فثبت أنهم الرؤساء بدليل قوله (لبئس المولى ولبئس العشير) أى الناصر والمصاحب المعاشر . قوله عز وجل (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار إن الله يفعل ما يريد) أى بأوليائه وأهل طاعته من الكرامة وبأهل معصيته من الهوان قوله تعالى (من كان يظن أن لن ينصره الله) يعنى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم (فى الدنيا) أى بإعلاء كلمته وإظهار دينه (والآخرة) أى وفى الآخرة بإعلاء درجته والانتقام ممن كذبه (فليمدد بسبب) أى بحبل (إلى السماء) أى سقف البيت على قول الأكثرين والمعنى ليشدد حبلا فى سقف بيته فليختنق به حتى يموت (ثم ليقطع) أي الحبل بعد الاختناق وقيل ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقا (فلينظر هل يذهبن كيده) أى صنيعه وحيلته (ما يغيظ) أى فليختنق غيظا وليس هذا على سبيل الحتم لأنه لا يمكنه القطع والنظر بعد الاختناق ولكنه كما يقال للحاسد مت غيظا وقيل المراد بالسماء السماء المعروفة والمعنى من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه ويكيد فى أمره ليقطعه عنه فليقطعه من أصله فان أصله فى السماء فليطلب سببا يصل به إلى السماء ثم ليقطع عن النبي صلى الله عليه وسلم الوحى الذى يأتيه فلينظر هل يتهيأ له الوصول إلى السماء بحيلة وهل يقدر على إذهاب غيظه بهذا الفعل فاذا كان ذلك ممتنعا كان غيظه عديم الفائدة وفى الآية زجر للكافر عن الغيظ فيما لا فائدة فيه روى أن الآية نزلت فى قوم من أسد وغطفان دعاهم النبى صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام وكان بينهم وبين اليهود محالفة فقالوا لا يمكننا أن نسلم لأنا نخاف أن لا ينصر محمد ولا يظهر أمره فتنقطع المحالفة بيننا وبين اليهود فلا يميرونا ولا يؤوونا وقيل النصر معناه الرزق ومعنى الآية من كان يظن أن لن يرزقه الله فى الدنيا والآخرة فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق فان ذلك لا يجعله مرزوقا تقول العرب من ينصرنى نصره الله أي من يعطنى أعطاه الله (وكذلك أنزلناه) يعنى القرآن (آيات بينات وأن الله يهدي من يريد إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا) يعنى عبدة الأوثان وقيل الأديان ستة واحد لله وهو الإسلام وخمسة للشياطين وهو ما عدا الإسلام (إن الله يفصل بينهم) أى يحكم بينهم (يوم القيامة) وقيل يفصل بينهم فى الأحوال

أن الله على كل شىء شهيد ألم تر) ألم تعلم وقيل ألم تر بقلبك (أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب) قال مجاهد سجودها تحول ظلالها وقال أبو العالية مافى السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع ساجدا حين يغيب ثم لاينصرف حتى يؤذن له فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه وقيل سجودها بمعنى الطاعة فانه مامن جماد إلاوهو مطيع لله خاشع لله مسبح له كما أخبرنا الله تعالى عن السموات والأرض « قالتا آتينا طائعين » وقال فى وصف الحجارة « وإن منها لما يهبط من خشية الله » وقال تعالى « وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » وهذا مذهب حسن موافق لأهل السنة قوله (وكثير من الناس) أى من هذه الأشياء كلها تسبح الله عز وجل وكثير من الناس يعنى المسلمين (وكثير حق عليه العذاب) وهم الكفار لكفرهم وتركهم السجود وهم مع كفرهم تسجد ظلالهم لله عز وجل والواو فى قوله وكثير حق عليه العذاب واو الاستئناف (ومن يهن الله) أى يهنه الله (فماله من مكرم) أى من يذله الله فلا يكرمه أحد (إن الله يفعل مايشاء) أى يكرم ويهين فالسعادة والشقاوة بارادته ومشيئته قوله تعالى (هذان خصمان اختصموا فى ربهم) أى جادلوا فى دينه وأمره والخصم اسم شبيه بالمصدر فلذلك قال اختصموا بلفظ الجمع كقوله « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب » واختلفوا فى هذين الخصمين . أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا يعقوب بن إبراهيم أنا هشيم أنا أبو هاشم عن أبى مجلز عن قيس بن عبادة قال سمعت أبا ذر يقسم قسما أن هذه الآية « هذان خصمان اختصموا فى ربهم » نزلت فى الذين برزوا يوم بدر حمزة

قال

(٨)

والأما كن جميعا فلا يجازيهم جزاء واحدا بغير تفاوت ولا يجمعهم فى موطن واحد (إن الله على كل شىء شهيد) أى إنه عالم بما يستحقه كل واحد منهم فلا يجزى فى ذلك الفصل ظلم ولا حيف وقد تقدم بسط الكلام على معنى هذه الآية فى تفسير سورة البقرة . قوله عز وجل (ألم تر) أى لم تعلم وقيل ألم تر بقلبك (أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب) قيل سجود هذه الأشياء تحول ظلالها وقيل مافى السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع ساجدا حين يغيب ثم لاينصرف حتى يؤذن له فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه وقيل معنى سجودها الطاعة فانه مامن جماد إلاوهو مطيع لله تعالى خاشع ومسبح له كما وصفهم بالخشية والتسبيح وهذا مذهب أهل السنة وهو أن هذه الأجسام لما كانت قابلة لجميع الأعراض التى خلقها الله تعالى فيها من غير امتناع البتة أشبهت بمطاوعتها أفعال المكلف وهو السجود الذى كل خضوع دونه . فان قلت هذا التأويل يبطله قوله (وكثير من الناس) فان السجود بالمعنى الذى ذكر عام فى الناس كلهم فاسناده إلى كثير من الناس يكون تخصيصا من غير فائدة قلت المعنى الذى ذكرته وإن كان عاما فى حق الكل إلا أن بعضهم تمرد وتكبر وترك السجود فى الظاهر فهذا وإن كان ساجدا بذاته لكنه متمرد بظاهره وأما المؤمن فانه ساجد بذاته وبظاهره أيضا فلأجل هذا الفرق حصل التخصيص بالذكر وقيل معنى الآية «ولله يسجد من فى السموات ومن فى الأرض» ويسجد له كثير من الناس فيكون السجود الأول بمعنى الانقياد والثانى بمعنى الطاعة والعبادة . فان قلت قوله من فى السموات ومن فى الأرض لفظ عموم فيدخل فيه الناس فلم قال وكثير من الناس . قلت لو اقتصر على ما تقدم لأوهم أن كل الناس يسجدون فبين أن كثيرا من الناس يسجدون طوعا دون بعض وهم الذين قال فيهم (وكثير حق عليه العذاب) وهم الكفار أى حق عليهم العذاب بكفرهم وتركهم السجود ومع كفرهم وامتناعهم من السجود تسجد ظلالهم لله عز وجل (ومن يهن الله فماله من مكرم) أى من يذله الله فلايكرمه أحد (إن الله يفعل مايشاء) أى يكرم الله بالسعادة من يشاء ويهين بالشقاوة من يشاء وقيل هو الذى يصح منه الإكرام والهوان يوم القيامة بالثواب والعقاب .

(فصل)

هذه السجدة من عزائم سجود القرآن فيسن للقارىء والمستمع أن يسجد عند تلاوتها أو سماع تلاوتها . قوله عز وجل (هذان خصمان اختصموا فى ربهم) أى جادلوا فى دينه وأمره واختلفوا فى هذين الخصمين فروى عن قيس بن عبادة قال سمعت أبا ذر يقسم قسما أن هذه الآية «هذان خصمان اختصموا فى ربهم» نزلت فى الذين برزوا يوم بدر حمزة وعلى وعبيدة بن الحرث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة أخرجاه فى الصحيحين (خ) عن على بن أبى طالب

وعلى وعبيدة بن الحارث وعتبة وشيبة ابنى ربيعة والوليد بن عتبة . أخبرنا عبدالواحد أنا أحمد أنا محمد بن يوسف أنا محمد ابن إسماعيل أنا حجاج بن منهال ثنا المعتمر بن سليمان قال سمعت أبى قال أنا أبو مجلز عن قيس بن عبادة عن على بن أبى طالب قال « أنا أول من يجثو بين يدى الرحمن للخصومة يوم القيامة » قال قيس وفيهم نزلت « هذان خصمان اختصموا فى ربهم » قال هم الذين بارزوا يوم بدر على وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة قال محمد بن إسحاق خرج يعنى يوم بدر عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة ودعا إلى المبارزة ، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة عوف ومعوذ ابنا الحارث وأمهما عفراء وعبدالله بن رواحة فقالوا من أنتم فقالوا رهط من الأنصار فقالوا حين انتسبوا أكفاء كرام ثم نادى مناديهم يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قم يا عبيدة بن الحارث ويا حمزة بن عبدالمطلب ويا على بن أبى طالب فلما دنوا قالوا من أنتم فذكروا فقالوا نعم أكفاء كرام فبارز عبيدة وكان أسن القوم عتبة وبارز حمزة شيبة وبارز على الوليد بن عتبة . فأما حمزة فلم يمهل أن قتل شيبة وعلى الوليد بن عتبة واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتان كلاهما أثبت صاحبه فكر حمزة وعلى بأسيافهما على عتبة فذففا عليه واحتملا عبيدة إلى أصحابه وقد

(٩)

قال « أنا أول من يجثو للخصومة بين يدى الرحمن يوم القيامة » قال قيس بن عبادة فيهم نزلت « هذان خصمان اختصموا فى ربهم » قال هم الذين تبارزوا يوم بدر على وحمزة وعبيدة بن الحرث وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة . قال محمد بن إسحاق خرج يوم بدر عتبة ابن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة ودعوا إلى المبارزة فخرج إليهم فتة من الأنصار ثلاثة عوف ومعوذا بنا الحرث وأمهما عفراء وعبدالله بن رواحة فقالوا من أنتم قالوا رهط من الأنصار فقالوا حين انتسبوا أكفاء كرام ثم نادى مناديهم يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قم يا عبيدة بن الحرث ويا حمزة بن عبد المطلب ويا على بن أبى طالب فلما دنوا منهم قالوا من أنتم فذكروا أنفسهم قالوا نعم أكفاء كرام فبارز عبيدة وكان أسن القوم عتبة وبارز حمزة شيبة وبارز على الوليد ابن عتبة فأما حمزة فلم يمهل أن قتل شيبة وعلى الوليد واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتان كلاهما أثبت صاحبه فكر حمزة وعلى بأسيا فهما على عتبة فذففا عليه واحتملا عبيدة إلى أصحابه وقد قطعت رجله ومخها يسيل فلما أتوا به إلى رسول الله ﷺ قال ألست شهيدا يارسول الله قال بلى فقال عبيدة لو كان أبو طالب حيا لعلم أنا أحق بما قال منه حيث يقول :

ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وقال ابن عباس نزلت الآية فى المسلمين وأهل الكتاب قال أهل الكتاب نحن أولى بالله وأقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم وقال المسلمون نحن أحق بالله آمنا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ونبيكم وبما أنزل الله من كتاب وأنتم تعرفون نبينا وكتابنا وكفرتم حسدا فهذه خصومتهم فى ربهم وقيل هم المؤمنون والكافرون من أى ملة كانوا فالمؤمنون خصم والكفار خصم وقيل الخصمان الجنة والنار (ق) عن أبى هريرة قال قال النبى صلى الله عليه وسلم « تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة فمالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم » زاد فى رواية « وغراتهم فقال الله عز وجل للجنة أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى وقال للنار إنما أنت عذابى أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله فتقول قط قط فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض ولا يظلم ربك من خلقه أحدا وأما الجنة فان الله تعالى ينشىء لها خلقا » وللبخارى « اختصمت الجنة والنار » وهذا القول ضعيف والأقوال الأولى أولى بالصحة لأن حمل الكلام على ظاهره أولى وقوله هذان كالإشارة إلى سبب تقدم ذكره وهو أهل الأديان الستة وأيضا فانه ذكر صنفين أهل طاعته

قطعت رجله ومخها يسيل فلما أتوا بعبيدة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألست شهيدا يارسول الله قال بلى فقال عبيدة لو كان أبو طالب حيا لعلم أنا أحق بما قال منه حيث يقول :

ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وقال ابن عباس وقتادة نزلت الآية فى المسلمين وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب نحن أولى بالله منكم وأقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم وقال المؤمنون نحن أحق بالله آمنا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ونبيكم وبما أنزل الله من كتاب

وأنتم تعرفون نبينا وكتابنا وكفرتم به حسدا فهذه خصومتهم فى ربهم. وقال مجاهد وعطاء بن أبى رباح والكلبى هم المؤمنون والكافرون كلهم من أى ملة كانوا وقال بعضهم جعل الأديان ستة فى قوله تعالى «إن الذين آمنوا والذين هادوا» الآية فجعل خمسة للنار وواحدا للجنة فقوله تعالى «هذان خصمان اختصموا فى ربهم» ينصرف إليهم فالمؤمنون خصم وسائر الخمسة خصم وقال عكرمة هما الجنة والنار اختصمتا كما أخبرنا حسان ابن سعيد المنيعى أنا أبو طاهر الزيادى أنا أبو بكر القطان أنا أحمد بن يوسف السلمى أنا عبد الرزاق أنا معمر عن همام بن منبه قال حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة فمالى لايدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم وغراتهم قال الله عز وجل للجنة إنما أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى وقال للنار إنما أنت عذابى أعذب بك من أشاء من عبادى ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله فيها رجله فتقول قط قط فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض ولا يظلم الله من خلقه أحدا وأما الجنة فان الله عز وجل ينشئ لها خلقا» ثم بين الله عز وجل ما للخصمين فقال (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار) (١٠) قال سعيد بن جبير ثياب من نحاس مذاب وليس من الآنية شيء إذا حمى أشد حرا منه وسمى باسم الثياب لأنها تحيط بهم كاحاطة الثياب وقال بعضهم يلبس أهل النار مقطعات من النار (يصب من فوق رءوسهم الحميم) الحميم هو الماء الحار الذى انتهت حرارته (يصهر به) أى يذاب بالحميم (مافى بطونهم) يقال صهرت الإلية والشحم بالنار إذا أذبتهما أصهرهاصهرا معناه يذاب بالحميم الذى يصب من فوق رءوسهم حتى يسقط ما فى بطونهم من الشحوم والأحشاء (والجلود) أى يشوى حرها جلودهم فتتساقط. أخبرنا أبو بكر بن محمد بن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن سعيد بن يزيد عن أبى السمح عن أبى حجيرة واسمه عبد الرحمن عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال «إن الحميم ليصب على رءوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه فيسلت مافى جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان» قوله تعالى (ولهم مقامع من حديد) سياط من حديد واحدتها مقمعة قال الليث المقمعة شبه الجرز من الحديد من قولهم قمعت رأسه إذا ضربته ضربا عنيفا. وفى الخبر «لو وضع مقمع من حديد فى الأرض ثم اجتمع عليه الثقلان ماأقلوه من الأرض» (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم) يعنى كلما حاولوا الخروج من النار لما يلحقهم من الغم والكرب الذى يأخذ بأنفاسهم (أعيدوا فيها) يعنى ردوا إليها بالمقامع. وفى التفسير إن جهنم لتجيش بهم فتلقيهم إلى أعلاها فيريدون الخروج منها فتضربهم الزبانية بمقامع الحديد فيهوون فيها سبعين خريفا (وذوقوا عذاب الحريق) أى تقول لهم الملائكة ذوقوا عذاب الحريق أى المحرق مثل الأليم والوجيع قال الزجاج هؤلاء أحد الخصمين وقال فى الآخر وهم المؤمنون (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب) جمع سوار (ولؤلؤا) قرأ أهل المدينة وعاصم ولؤلؤا هاهنا، وفى سورة الملائكة بالنصب وافق يعقوب هاهنا على معنى ويحلون لؤلؤا

وأهل معصيته وذكر مآل الخصمين فقال تعالى (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار) قال سعيد بن جبير ثياب من نحاس مذاب وليس من الآنية شيء إذا حمى أشد حرا منه وسمى باسم الثياب لأنها تحيط بهم كاحاطة الثياب وقيل يلبس أهل النار مقطعات من نار (يصب من فوق رءوسهم الحميم) أى الماء الحار الذى انتهت حرارته (يصهر به) أى يذاب بالحميم الذى يصب من فوق رءوسهم (مافى بطونهم) من الشحوم والأحشاء (والجلود) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن الحميم ليصب على رءوسهم فينفذ حتى يخلص إلى جوف أحدهم فيسلت مافى جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب صحيح (ولهم مقامع من حديد) يعنى سياط من حديد وهى الجرز من الحديد. وفى الخبر «لو وقع مقمع من حديد فى الأرض ثم اجتمع عليه الثقلان ماأقلوه من الأرض» (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم) يعنى كلما حاولوا الخروج من النار لما يلحقهم من الغم والكرب الذى يأخذ بأنفاسهم (أعيدوا فيها) يعنى ردوا إليها بالمقامع قيل إن جهنم لتجيش بهم فتلقيهم إلى أعلاها فيريدون الخروج منها فتضربهم الزبانية بمقامع الحديد فيهوون فيها سبعين خريفا (وذوقوا عذاب الحريق) يعنى تقول لهم الملائكة ذلك والحريق بمعنى المحرق فهذا وصف حال أحد الخصمين وهم الكفار وقال تعالى فى وصف الخصم الآخر وهم المؤمنون (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم

ولأنها مكتوبة في المصاحف بالألف وقرأ الآخرون بالخفض عطفا على قوله من ذهب وترك الهمزة الأولى فى كل القرآن أبوجعفر وأبو بكر واختلفوا في وجه إثبات الألف فيه فقال أبو عمرو أثبتوها فيها كما أثبتوا فى قالوا وكانوا وقال الكسائى أثبتوها للهمزة لأن الهمزة حرف من الحروف (ولباسهم فيها حرير) أى إنهم يلبسون فى الجنة ثياب الإبريسم وهو الذي حرم لبسه فى الدنيا على الرجال أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا عبد الرحمن (١١) بن أبى شريح أنا أبو القاسم البغوي أنا على بن الجعد أنا شعبة عن قتادة عن داود السراج عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه الله إياه فى الآخرة فان دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو» قوله تعالى (وهدوا إلى الطيب من القول) قال ابن عباس هو شهادة أن لا إله إلا الله وقال ابن زيد لا إله إلا الله والله أكبر والحمد لله وسبحان الله وقال السدى أى القرآن وقيل هو قول أهل الجنة «الحمد لله الذى صدقنا وعده» (وهدوا إلى صراط الحميد) إلى دين الله وهو الإسلام والحميد هو الله المحمود فى أفعاله قوله تعالى (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله) عطف المستقبل على الماضى لأن المراد من لفظ المستقبل الماضى كما قال تعالى فى موضع آخر «الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله» وقيل معناه: إن الذين كفروا فيما تقدم ويصدون عن سبيل الله فى الحال أى وهم يصدون (والمسجد الحرام) أي ويصدون عن المسجد الحرام (الذى جعلناه للناس) قبلة لصلاتهم وملسكا ومتعبدا كما قال «وضع للناس» (سواء) قرأ حفص عن عاصم ويعقوب سواء نصبا بإيقاع الجعل عليه يتعدى إلى مفعولين وقيل معناه مستويا فيه (العاكف فيه والباد) وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء وما بعده خبر وتم الكلام عند

ولباسهم فيها حرير) وهو الإبريسم الذى حرم لبسه على الرجال فى الدنيا عن معاوية هو جد بهز بن حكيم عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «إن فى الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار بعد» أخرجه الترمذى وقال حديث صحيح (ق) عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «جنتان من فضة آنيتهما ومافيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن» عن أبى سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن عليهم التيجان أدنى لؤلؤة منها لتضىء ما بين المشرق والمغرب» أخرجه الترمذى وقال حديث غريب (ق) عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة». قوله تعالى (وهدوا) من الهداية يعنى أرشدوا (إلى الطيب من القول) قال ابن عباس هو شهادة أن لا إله إلا الله وقيل هو لا إله إلا الله والله أكبر والحمد لله وسبحان الله وقيل إلى القرآن وقيل هو قول أهل الجنة «الحمد لله الذى صدقنا وعده» (وهدوا إلى صراط الحميد) يعنى إلى دين الله وهو الإسلام والحميد هو الله المحمود فى أفعاله. قوله عز وجل (إن الذين كفروا) يعنى بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم (ويصدون عن سبيل الله) أى بالمنع من الهجرة والجهاد والإسلام (والمسجد الحرام) يعنى ويصدون عن المسجد الحرام (الذى جعلناه للناس) أى قبلة لصلاتهم ومنسكا ومتعبدا (سواء العاكف) أى المقيم (فيه) قال بعضهم ويدخل فيه الغريب إذا جاور وأقام به ولزم التعبد فيه (والباد) أى الطارىء المنتاب إليه من غيره واختلفوا فى معنى الآية فقيل سواء العاكف فيه والبادى فى تعظيم حرامته وقضاء النسك به وإليه ذهب مجاهد والحسن وجماعة قالوا والمراد منه نفس المسجد الحرام ومعنى التسوية هو التسوية فى تعظيم الكعبة وفى فضل الصلاة فيه والطواف به وعن جبير بن مطعم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «يابنى عبد مناف لا تمنعوا أحدا طاف بهذا البيت وصلى أية ساعة شاء من ليل أو نهار» أخرجه الترمذى وأبو داود والنسائى وقيل المراد منه جميع الحرم ومعنى التسوية أن المقيم والبادى سواء فى النزول به ليس أحدهما أحق بالمنزل من الآخر غير أنه لا يزعج أحد أحدا إذا كان قد سبق إلى منزله وقول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد قالوا هما سواء فى البيوت والمنازل قال عبد الرحمن بن سابط كان الحجاج إذا قدموا مكة لم يكن أحد من أهل مكة بأحق بمنزله منهم وكان عمر بن الخطاب ينهى الناس أن يغلقوا أبوابهم فى الموسم فعلى هذا القول لا يجوز بيع دور مكة وإجارتها قالوا إن أرض مكة لا تملك لأنها لو ملكت لم يستو العاكف فيها والبادى فلما استويا ثبت أن سبيلها سبيل المساجد وإليه ذهب أبو حنيفة قالوا والمراد بالمسجد الحرام جميع الحرم وعلى القول الأول الأقرب إلى الصواب أنه يجوز بيع دور مكة وإجارتها وهو قول طاوس وعمرو بن دينار وإليه ذهب

قوله للناس وأراد بالعاكف المقيم فيه وبالبادى الطارئ المنتاب إليه من غيره. واختلفوا فى معنى الآية فقال قوم سواء العاكف فيه والباد يعنى فى تعظيم حرمته وقضاء النسك فيه وإليه ذهب مجاهد والحسن وجماعة وقالوا المراد منه نفس المسجد الحرام ومعنى التسوية هو التسوية فى تعظيم الكعبة وفى فضل الصلاة فى المسجد الحرام والطواف بالبيت وقال الآخرون المراد منه جميع الحرم ومعنى التسوية أن المقيم والبادى سواء فى النزول به ليس أحدهما أحق بالمنزل يكون فيه من الآخر غير أنه لا يزعج فيه أحد إذا كان قد سبق إلى منزل وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد قالوا هما سواء فى البيوت والمنازل وقال عبد الرحمن بن سابط كان الحجاج إذا قدموا مكة لم يكن أحد من أهل مكة بأحق بمنزله منهم وكان عمر ابن الخطاب ينهى الناس أن يغلقوا أبوابهم فى الموسم وعلى هذا القول لا يجوز بيع دور مكة وإجارتها وعلى القول الأول وهو الأقرب إلى الصواب يجوز لأن (١٢) الله تعالى قال «الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق» وقال النبى ﷺ يوم فتح مكة «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن» فنسب الدار إليه نسب ملك واشترى عمر دارا للسجن بمكة بأربعة آلاف درهم. فدل على جواز بيعها وهذا قول طاوس وعمرو بن دينار وبه قال الشافعى: قوله عز وجل (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم) أى فى المسجد الحرام وهو الميل إلى الظلم والباء فى قوله بالحاد زائدة كقوله «تنبت بالدهن» ومعناه من يرد فيه إلحادا بظلم قال الأعشى:

ضمنت برزق عيالنا أرماحنا

أى رزق عيالنا وأنكر المبرد أن تكون الباء زائدة وقال معنى الآية من تكن أرادته فيه بأن يلحد بظلم. واختلفوا فى هذا الإلحاد فقال مجاهد وقتادة هو الشرك وعبادة غير الله. وقال قوم هو كل شيء كان منهيا عنه من قول أو فعل حتى شتم الخادم، وقال عطاء هو دخول الحرم غير محرم أو ارتكاب شيء من محظورات الحرم من قتل صيد أو قطع شجر. وقال ابن عباس هو أن تقتل فيه من لا يقتلك أو تظلم من لا يظلمك وهذا معنى قول الضحاك وعن مجاهد أنه قال تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات وقال حبيب بن أبى ثابت هو احتكار الطعام بمكة وقال عبد الله بن مسعود فى قوله تعالى «ومن يرد فيه بإلحاد بظلم» (نذقه من عذاب أليم) قال لو أن رجلا هم بخطيئة لم تكتب عليه مالم يعملها ولو أن رجلا هم بقتل رجل بمكة وهو بعدن أبين أو ببلد آخر أذاقه الله من عذاب أليم قال السدى إلا أن يتوب وروى عن عبد الله ابن عمر أنه كان له فسطاطان أحدهما فى الحل والآخر فى الحرم فاذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم فى الآخر فسئل عن ذلك فقال كنا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل كلا والله وبلى والله قوله تعالى (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) أى

الشافعى احتج الشافعى فى ذلك بقوله تعالى «الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق» أضاف الديار إلى مالكيها وقال النبى صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة «من أغلق بابه فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن» فلسب الديار إليهم نسبة ملك واشترى عمر بن الخطاب دار السجن بأربعة آلاف درهم فدلت هذه النصوص على جواز بيعها وقوله تعالى (ومن يرد فيه) أى فى المسجد الحرام (بالحاد بظلم) أى يميل إلى الظلم قيل الإلحاد فيه هو الشرك وعبادة غير الله وقيل هو كل شيء كان منهيا عنه من قول أو فعل حتى شتم الخادم وقيل هو دخول الحرم بغير إحرام أو ارتكاب شيء من محظورات الحرم من قتل صيد وقطع شجر. وقال ابن عباس هو أن تقتل فيه من لا يقتلك أو تظلم فيه من لا يظلمك. وقال مجاهد تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات وقيل احتكار الطعام بمكة بدليل ماروى يعلى بن أمية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن احتكار الطعام فى الحرم إلحاد فيه» أخرجه أبو داود وقال عبدالله بن مسعود فى قوله ومن يرد فيه بالحاد بظلم (نذقه من عذاب أليم) قال لو أن رجلا هم بخطيئة لم تكتب عليه مالم يعملها ولو أن رجلا هم بقتل رجل بمكة وهو بعدن أبين أو ببلد آخر أذاقه الله من عذاب أليم قال السدى إلا أن يتوب وروى عن عبد الله بن عمرو أنه كان له فسطاطان أحدهما فى الحل والآخر فى الحرم فاذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم فى الحل فسئل عن ذلك فقال كنا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل كلا والله وبلى والله. قوله تعالى (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) قال ابن عباس جعلنا وقيل وطأنا وقيل بينا وإنما ذكر مكان البيت لأن الكعبة رفعت إلى السماء زمن الطوفان فلما أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام ببناء البيت لم يدر أى جهة يبنى فبعث الله تعالى ريحا خجوجا (١) فكنست له ما حول البيت عن الأساس وقيل بعث الله سحابة بقدر البيت فقامت بحيال البيت وفيها رأس يتكلم يا إبراهيم ابن على قدرى فبنى

(١) الخجوج الريح الشديد، المراد الملتوية فى هبوبها كالخجوجات. اهـ قاموس.

وطأنا قال ابن عباس جعانا وقيل بينا قال الزجاج جعلنا مكان البيت مبوأ إبراهيم وقال مقاتل ابن حيان هيآنا وإنما ذكر مكان البيت لأن الكعبة رفعت إلى السماء زمان الطوفان ثم لما أمر الله تعالى إبراهيم ببناء البيت لم يدر أين يبنى فبعث الله ريحا خجوجا(١) فكنست له ماحول البيت على الأساس وقال الكلبي بعث الله سحابة بقدر البيت فقامت بحيال البيت وفيها رأس يتكلم يا إبراهيم ابن على قدرى فبنى عليه قوله تعالى (أن لاتشرك بى شيئا) أى عهدنا إلى إبراهيم وقلنا له لاتشرك بى شيئا (وطهر بيتى للطائفين) أى الذين يطوفون بالبيت (والقائمين) أى المقيمين (والركع السجود) أى المصلين (وأذن في الناس) أى أعلم وناد في الناس (بالحج) فقال إبراهيم وما يبلغ صوتى فقال عليك الأذان وعلينا البلاغ فقام إبراهيم على المقام فارتفع المقام حتى صار كأطول الجبال فأدخل أصبعيه فى أذنيه وأقبل بوجهه يمينا (١٣) وشمالا وشرقا وغربا وقال يا أيها الناس ألا إن ربكم قد بنى لكم بيتا وكتب عليكم الحج إلى البيت فأجيبوا ربكم فأجابه كل من كان يحج من أصلاب الآباء وأرحام الأمهات لبيك اللهم لبيك قال ابن عباس فأول من أجابه أهل اليمن فهم أكثر الناس حجا وروى أن إبراهيم صعد أبا قبيس ونادى وقال ابن عباس عنى بالناس فى هذه الآية أهل القبلة وزعم الحسن أن قوله «وأذن في الناس بالحج» كلام مستأنف وأن المأمور بهذا التأذين محمد صلى الله عليه وسلم أمر أن يفعل ذلك فى حجة الوداع وروى أبو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا» قوله تعالى (يأتوك رجالا) أى مشاة على أرجلهم جمع راجل مثل قائم وقيام وصائم وصيام (وعلى كل ضامر) أى ركبانا على كل ضامر والضامر البعير المهزول (يأتين من كل فج عميق) أى من كل طريق بعيد وإنما جمع يأتين لمكان كل وأراد النوق (ليشهدوا) ليحضروا (منافع لهم) قال سعيد بن المسيب ومحمد ابن على الباقر العفو والمغفرة وقال سعيد بن جبير التجارة وهى رواية ابن زيد عن ابن عباس قال الأسواق وقال مجاهد التجارة وما يرضى الله به من أمر الدنيا والآخرة (ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات) يعنى عشر ذى الحجة فى قول أكثر المفسرين قيل لها معلومات للحرص على علمها بحسابها من أجل وقت الحج في آخرها وروى عن على رضى الله عنه أنها يوم النحر وثلاثة أيام بعده وفى رواية عطاء عن ابن عباس أنها يوم عرفة والنحر وأيام التشريق وقال مقاتل المعلومات أيام التشريق (على مارزقهم من بهيمة الأنعام) يعنى الهدايا والضحايا تكون من النعم وهى الإبل والبقر والغنم . واختار

فبنى عليه (أن لاتشرك بى شيئا) أى عهدنا إلى إبراهيم وقلنا له لاتشرك بى شيئا (وطهر بيتى) أى من الشرك والأوثان والأقذار (للطائفين) أى الذين يطوفون بالبيت (والقائمين) أى المقيمين فيه (والركع السجود) أى المصلين . قوله عزوجل (وأذن) أى أعلم وناد والأذان فى اللغة الإعلام (فى الناس) قال ابن عباس أراد بالناس أهل القبلة (بالحج) فقال إبراهيم عليه السلام وما يبلغ صوتى فقال الله عليك الأذان وعلينا الإبلاغ فقام إبراهيم على المقام حتى صار كأطول الجبال وأدخل أصبعيه فى أذنيه وأقبل بوجهه يمينا وشمالا وشرقا وغربا وقال يا أيها الناس ألا إن ربكم قد بنى بيتا وكتب عليكم الحج إلى البيت فأجيبوا ربكم فأجابه كل من يحج من أصلاب الآباء وأرحام الأمهات لبيك اللهم لبيك قال ابن عباس فأول من أجابه أهل اليمن فهم أكثر الناس حجا وروى أن إبراهيم صعد أبا قبيس ونادى وزعم الحسن أن المأمور بالتأذين هو محمد صلى الله عليه وسلم أمر أن يفعل ذلك فى حجة الوداع (م) عن أبى هريرة قال «خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا» (يأتوك رجالا) أى مشاة على أرجلهم جمع راجل (وعلى كل ضامر) أى ركبانا على الإبل المهزولة من كثرة السير وبدأ بذكر المشاة تشريفا لهم (يأتين) أى جماعة الإبل (من كل فج عميق) أى من كل طريق بعيد فمن أتى مكة حاجا فكأنه قد أتى إبراهيم لأنه مجيب نداءه . قوله تعالى (ليشهدوا منافع لهم) قيل العفو والمغفرة وقيل التجارة وقال ابن عباس الأسواق وقيل ما رضى به الله من أمر الدنيا والآخرة (ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات) يعنى عشر ذى الحجة فى قول أكثر المفسرين قيل لها معلومات للحرص عليها من أجل وقت الحج فى آخرها وعن ابن عباس أنها أيام عرفة والنحر وأيام التشريق وقيل إنها يوم النحر وثلاثة أيام بعده (على مارزقهم من بهيمة الأنعام) يعنى الهدايا والضحايا تكون من النعم وهى الإبل والبقر والغنم وفيه دليل على أن الأيام المعلومات يوم النحر وأيام التشريق لأن التسمية على بهيمة

الزجاج أن الأيام المعلومات يوم النحر وأيام التشريق لأن الذكر على بهيمة الأنعام يدل على التسمية على نحرها ونحر الهدايا يكون فى هذه الأيام (فكلوا منها) أمر إباحة وليس بواجب وإنما قال ذلك لأن أهل الجاهلية كانوا لايأكلون من لحوم هداياهم شيئا ،واتفق العلماء على أن الهدى إذا كان تطوعا يجوز للمهدى أن يأكل منه وكذلك أضحية التطوع لما أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن على بن عبد الله الطيسفونى أنا عبد الله بن عمر الجوهرى أنا أحمد بن على الكشميهنى أنا على بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله قال فى قصة حجة الوداع « وقدم على ببدن من اليمن وساق رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فنحر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث وستين بدنة بيده ونحر على مابقى ثم أمر النبى ﷺ أن تؤخذ بضعة من كل بدنة فتجعل فى قدر فأكلا من لحمها وحسيا من مرقها ».واختلفوا فى الهدى الواجب (١٤) بالشرع هل يجوز للمهدى أن يأكل منه شيئا مثل دم التمتع والقران والدم الواجب بافساد الحج وفواته وجزاء الصيد، فذهب قوم إلى أنه لا يجوز أن يأكل منه شيئا وبه قال الشافعى وكذلك ما أوجبه على نفسه بالنذر وقال ابن عمر لا يأكل من جزاء الصيد والنذر ويأكل مما سوى ذلك وبه قال أحمد وإسحاق وقال مالك يأكل من هدى التمتع ومن كل هدى وجب عليه إلا من فدية الأذى وجزاء الصيد والمنذور وعند أصحاب الرأى يأكل من دم التمتع والقران ولا يأكل من واجب سواهما قوله عز وجل (وأطعموا البائس الفقير) يعنى الزمن الفقير الذي لاشىء له والبائس الذى اشتد بؤسه والبؤس شدة الفقر (ثم ليقضوا تفثهم) التفث الوسخ والقذارة من طول الشعر والأظفار والشعث تقول العرب لمن تستقذره ما أتفثك أي ما أوسخك والحاج أشعث أغبر أى لم يحلق شعره ولم يقلم ظفره فقضاء التفث إزالة هذه الأشياء ليقضوا تفثهم أى ليزيلوا أدرانهم والمراد منه الخروج عن الإحرام بالحلق وقص الشارب ونتف الإبط والاستحداد وقلم الأظفار ولبس الثياب قال ابن عمر وابن عباس قضاء التفث مناسك الحج كلها وقال مجاهد هو مناسك الحج وأخذ الشارب ونتف الإبط وحلق العانة وقلم الأظفار وقيل التفث هاهنا رمى الجمار قال الزجاج لانعرف التفث ومعناه إلا من القرآن قوله تعالى (وليوفوا نذورهم) قال مجاهد أراد نذر الحج والهدى وما ينذر الإنسان من شىء يكون فى الحج أى ليتموها بقضائها وقيل المراد منه الوفاء بما نذر على ظاهره وقيل أراد به الخروج عما وجب عليه نذرا ولم ينذر والعرب تقول لكل من خرج عن الواجب عليه وفى بنذره وقرأ عاصم برواية أبى بكر وليوفوا بنصب الواو وتشديد الفاء (وليطوفوا بالبيت العتيق)

الأنعام عند نحرها ونحر الهدايا يكون فى هذه الأيام (فكلوا منها) أمر إباحة ليس بواجب وذلك أن أهل الجاهلية كانوا لايأكلون من لحوم هداياهم شيئا فأمر الله بمخالفتهم . واتفق العلماء على أن الهدى إذا كان تطوعا يجوز للمهدى أن يأكل منه وكذلك أضحية التطوع لما روى عن جابر بن عبد الله فى قصة حجة الوداع قال « وقدم على ببدن من اليمن وساق رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فنحر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا وستين بدنة ونحر على ماغبر وأشركه فى بدنه ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت فى قدر وطبخت فأكل من لحمها وشرب من مرقها» أخرجه مسلم قوله ماغبر أى مابقى قوله ببضعة أى بقطعة واختلف العلماء فى الهدى الواجب بالشرع مثل دم التمتع والقرآن والدم الواجب بافساد الحج وفوته وجزاء الصيد هل يجوز للمهدي أن يأكل منه شيئا قال الشافعى لايأكل منه شيئا وكذلك ما أوجبه على نفسه بالنذر وقال ابن عمر لا يأكل من جزاء الصيد والنذر ويأكل مما سوى ذلك وبه قال أحمد وإسحاق. وقال مالك يأكل من هدى التمتع ومن كل هدى وجب عليه إلا من فدية الأذى وجزاء الصيد والمنذور وعند أصحاب الرأى أنه يأكل من دم التمتع والقران ولا يأكل من واجب سواهما . وقوله تعالى (وأطعموا البائس الفقير) يعنى الزمن الذى لا شىء له قوله تعالى (ثم ليقضوا تفثهم) أى ليزيلوا أدرانهم وأوساخهم والمراد منه الخروج عن الإحرام بالحلق وقص الشارب ونتف الإبط وقلم الأظفار والاستحداد ولبس الثياب والحاج أشعث أغبر إذا لم يزل هذه الأوساخ وقال ابن عمر وابن عباس قضاء التفث مناسك الحج كلها (وليوفوا نذورهم) أراد نذر الحج والهدى وماينذر الإنسان من شىء يكون فى الحج أى ليتموها بقضائها وقيل المراد منه الوفاء بما نذر وهو على ظاهره وقيل أراد به الخروج عما وجب عليه نذره أو لم ينذره (وليطوفوا بالبيت العتيق) أراد به طواف الواجب وهو طواف الإفاضة ووقته يوم النحر بعد الرمى والحلق. والطواف ثلاثة طواف القدوم وهو أن من قدم مكة يطوف بالبيت سبعا

أراد به الطواف الواجب عليه وهو طواف الإفاضة يوم النحر بعد الرمى والحلق . والطواف ثلاثة : طواف القدوم وهو أن من قدم مكة يطوف بالبيت سبعا يرمل ثلاثا من الحجر الأسود إلى أن ينتهى إليه ويمشى أربعا وهذا الطواف سنة لا شئ على من تركه أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أحمد هو أبو عيسى أنا ابن وهب أنا عمرو بن الحارث عن محمد بن عبدالرحمن بن نوفل القرشى سأل عروة بن الزبير فقال «قد حج النبى ﷺ فأخبرتنى عائشة أنه أول شئ بدأ به حين قدم أنه توضأ ثم طاف بالبيت ثم لم يكن عمرة ثم حج أبو بكر فكان أول شىء بدأ به الطواف بالبيت ثم لم يكن عمرة ثم عمر مثل ذلك ثم حج عثمان فرأيته أول شئ بدأ به الطواف بالبيت» . أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعى أنا أنس بن عياض عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنه كان إذا طاف فى الحج أو العمرة أول ما يقدم يسعى ثلاثة أطواف ويمشى أربعا ثم يصلى سجدتين ثم يطوف بين الصفا والمروة سبعا» والطواف الثانى هو طواف الإفاضة يوم النحر بعد الرمى والحلق وهو واجب لا يحصل التحلل من الإحرام مالم يأت به أخبرنا عبدالواحد المليحى أنا أحمد النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد ابن إسماعيل أنا عمر بن حفص ثنا أبى أنا الأعمش أنا إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت «حاضت صفية ليلة النفر فقالت ما أرانى إلا حابستكم قال النبى صلى الله عليه وسلم عقرى حلقى أطافت يوم النحر قيل نعم قال فانفرى» فثبت بهذا أن من لم يطف يوم النحر طواف الإفاضة لا يجوز له أن ينفروا الطواف الثالث هو طواف الوداع لا رخصة فيه لمن أراد مفارقة مكة إلى مسافة القصر أن يفارقها حتى يطوف بالبيت سبعا فمن تركه فعليه دم إلا المرأة الحائض يجوز لها ترك طواف الوداع أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعى أنا سفيان عن سليمان الأحول عن طاوس عن ابن عباس قال : «أمر الناس أن يكون آخر عهدهم الطواف بالبيت إلا أنه رخص للمرأة الحائض» والرمل مختص بطواف القدوم ولا رمل فى طواف الإفاضة والوداع قوله «بالبيت العتيق» اختلفوا فى معنى العتيق فقال ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وقتادة سمى عتيقا لأن الله أعتقه من أيدى الجبابرة أن يصلوا إلى تخريبه فلم يظهر عليه جبار قط وقال سفيان بن عيينة سمى عتيقا لأنه لم يملك قط وقال الحسن وابن زيد سمى به لأنه قديم وهو أول بيت وضع للناس يقال دينار عتيق أى قديم وقيل سمى عتيق لأن الله أعتقه من الغرق فانه رفع أيام الطوفان (ذلك)

(١٥)

سبعا يرمل ثلاثا من الحجر الأسود إلى أن ينتهى إليه ويمشى أربعا وهذا الطواف سنة لا شئ على من تركه (ق) عن عائشة «إن أول شئ بدأ به حين قدم النبى صلى الله عليه وسلم أنه توضأ ثم طاف ثم لم تكن عمرة ثم حج أبو بكر وعمر مثله» (ق) عن ابن عمر «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا طاف الطواف الأول خب ثلاثا ومشى أربعا» زاد فى رواية «ثم يصلى ركعتين يعنى بعد الطواف بالبيت ثم يطوف بين الصفا والمروة» ولفظ أبى داود «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا طاف فى الحج أو العمرة أول ما يقدم فانه يسعى ثلاثة أشواط ويمشى أربعا ثم يصلى سجدتين» والطواف الثانى هو طواف الإفاضة وذلك يوم النحر بعد الرمى والحلق (ق) عن عائشة قالت «حاضت صفية ليلة النفر فقالت ما أرانى إلا حابستكم قال النبى صلى الله عليه وسلم عقرى حلقى أطافت يوم النحر قيل نعم قال فانفرى» قوله عقرى وحلقى معناه عقرها الله أى أصابها بالعقر وبوجع فى حلقها وقيل معناه مشئومة مؤذية ولم يرد به الدعاء عليها وإنما هو شئ يجرى على ألسنة العرب كقولهم : لا أم لك وتربت يمينك وفيه دليل على أن من لم يطف يوم النحر طواف الإفاضة لا يجوز له أن ينفر : الثالث طواف الوداع لا رخصة لمن أراد مفارقة مكة إلى مسافة القصر فى أن يفارقها حتى يطوف سبعا فمن تركه فعليه دم إلا المرأة الحائض فانه يجوز لها تركه للحديث المتقدم ولما روى ابن عباس قال «أمر الناس أن يكون الطواف آخر عهدهم بالبيت إلا أنه رخص للمرأة الحائض» متفق عليه . الرمل سنة تختص بطواف القدوم ولا رمل فى طواف الإفاضة والوداع وقوله «بالبيت العتيق» قال ابن عباس وغيره سمى عتيقا لأن الله أعتقه من أيدى الجبابرة أن يصلوا إلى تخريبه فلم يظهر عليه جبار قط . وقيل لأنه أول بيت وضع للناس وقيل لأن الله أعتقه من الغرق فانه رفع أيام الطوفان وقيل لأنه لم يملك . قوله عز وجل (ذلك) أى الأمر

أى الأمر ذلك يعنى ماذكر من أعمال الحج (ومن يعظم حرمات الله) أى معاصى الله وما نهى عنه وتعظيمها ترك ملابستها قال الليث حرمات الله مالا يحل انتهاكها وقال الزجاج الحرمة ماوجب القيام به وحرم التفريط فيه وذهب قوم إلى أن معنى الحرمات هاهنا المناسك بدليل مايتصل بها من الآيات وقال ابن زيد الحرمات هاهنا البيت الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمسجد الحرام والإحرام (فهو خير له عند ربه) أى تعظيم الحرمات خير له عند الله فى الآخرة (وأحلت لكم الأنعام) أن تأكلوها إذا ذبحتموها وهى الإبل والبقر والغنم (إلا مايتلى عليكم) تحريمه وهو قوله فى سورة المائدة «حرمت عليكم الميتة والدم» الآية (فاجتنبوا (١٦) الرجس من الأوثان) أى عبادتها يقول كونوا على جانب منها فانها رجس أى سبب الرجس وهو العذاب والرجس بمعنى الرجز وقال الزجاج من ها هنا للتجنيس أى اجتنبوا الأوثان التى هى رجس (واجتنبوا قول الزور) يعنى الكذب والبهتان وقال ابن مسعود شهادة الزور وروى «أن النبي صلى الله عليه وسلم قام خطيبا فقال يا أيها الناس عدلت شهادة الزور الإشراك بالله ثم قرأ هذه الآية وقيل هو قول المشركين فى تلبيتهم لبيك لا شريك لك لبيك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك (حنفاء لله) مخلصين له (غير مشركين به) قال قتادة كانوا فى الشرك يحجون ويحرمون البنات والأمهات والأخوات وكانوا يسمون حنفاء نزلت حنفاء لله غير مشركين به أى حجاجا لله مسلمين موحدين يعنى من أشرك لايكون من حنيفا (ومن يشرك بالله فكأنما خر) أى سقط (من السماء) إلى الأرض (فتخطفه الطير) أى تستلبه الطير وتذهب به والخطف والاختطاف تناول الشىء بسرعة وقرأ أهل المدينة فتخطفه بفتح الخاء وتشديد الطاء أى يتخطفه (أو تهوي به الريح) أى تميل وتذهب به (فى مكان سحيق) أى بعيد معناه إن بعد من أشرك بالحق كبعد من سقط من السماء فذهبت به الطير أو هوت به الريح فلا يصل بحال وقيل شبه حال المشرك بحال الهاوى من السماء فى أنه لايملك لنفسه حيلة حتى يقع بحيث تسقطه الريح فهو هالك لامحالة إما باستلاب الطير لحمه وإما بسقوطه إلى المكان السحيق وقال الحسن شبه أعمال الكفار بهذه

ذلك يعنى ماذكر من أعمال الحج (ومن يعظم حرمات الله) أي مانهى الله عنه من معاصيه وتعظيمها ترك ملابستها وقيل حرمات الله مالايحل انتهاكه وقيل الحرمة ماوجب القيام به وحرم التفريط فيه وقيل الحرمات هنا مناسك الحج وتعظيمها إقامتها وإتمامها وقيل الحرمات هنا البيت الحرام والبلد الحرام والمسجد الحرام والشهر الحرام ومعنى التعظيم العلم بأنه يجب القيام بمراعاتها وحفظ حرمتها (فهو خير له عند ربه) أى ثواب تعظيم الحرمات خير له عند الله فى الآخرة (وأحلت لكم الأنعام) أى أن تأكلوها بعد الذبح وهى الإبل والبقر والغنم (إلا مايتلى عليكم) أى تحريمه وهو قوله فى سورة المائدة «حرمت عليكم الميتة والدم» الآية (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) أى اتركوا عبادتها فانها سبب الرجس وهو العذاب وقيل سمى الأوثان رجسا لأن عبادتها أعظم من التلوث بالنجاسات (واجتنبوا قول الزور) يعنى الكذب والبهتان وقال ابن عباس هى شهادة الزور وروى عن أيمن بن خريم قال «إن النبى صلى الله عليه وسلم قام خطيبا فقال أيها الناس عدلت شهادة الزور الإشراك بالله ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور» أخرجه الترمذى وقال قد اختلفوا فى روايته ولانعرف لأيمن سماعا من النبى صلى الله عليه وسلم وأخرجه أبو داود عن خريم بن فاتك بنحوه وقيل هو قول المشركين فى تلبيتهم لبيك لاشريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك. قوله تعالى (حنفاء لله) يعنى مخلصين له (غير مشركين به) فدل ذلك على أن المكلف ينوى بما يأتيه من العبادة الإخلاص لله بها لا لغيره وقيل كانوا فى الشرك يحجون ويحرمون البنات والأمهات والأخوات وكانوا حنفاء فنزلت «حنفاء لله غير مشركين به» أى حجوا لله مسلمين موحدين ومن أشرك لايكون حنيفا (ومن يشرك بالله فكأنما خر) أى سقط (من السماء) إلى الأرض (فتخطفه الطير) يعنى تسلبه وتذهب به (أو تهوى به الريح) يعنى تميل وتذهب به (فى مكان سحيق) يعنى بعيد ومعنى الآية أن من أشرك بالله بعيد من الحق والإيمان كبعد من سقط من السماء فذهبت به الطير أو هوت به الريح فلا يصل إليه بحال وقيل شبه حال المشرك بحال الهاوي من السماء لأنه لايملك لنفسه حيلة حتى يقع حيث تسقط الريح فهو هالك لامحالة إما باستلاب الطير لحمه أو بسقوطه فى المكان السحيق وقيل معنى الآية من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس وراءه إهلاك بأن صور حاله بصورة حال من خر

الحال فى أنها تذهب وتبطل فلا يقدرون على شىء منها (ذلك) يعنى الذى ذكرت من أجتناب الرجس وقول الزور (ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب) قال ابن عباس شعائر الله البدن والهدى وأصلها من الإشعار وهو إعلامها ليعلم أنها هدى وتعظيمها استسمانها واستحسانها وقيل شعائر الله أعلام دينه فانها من تقوى القلوب أى فان تعظيمها من تقوى القلوب (لكم فيها) أى فى البدن قبل تسميتها للهدى (منافع) فى درها ونسلها وأصوافها وأوبارها وركوب ظهورها (إلى أجل مسمى) وهو أن يسميها ويوجبها هديا فاذا فعل ذلك لم يكن له شئ من منافعها هذا قول مجاهد وقول قتادة والضحاك ورواه مقسم عن ابن عباس وقيل معناه لكم فى الهدايا منافع بعد إيجابها وتسميتها هدايا بأن تركبوها وتشربوا ألبانها عند الحاجة «إلى أجل مسمى» يعنى إلى أن تنحروها وهو قول عطاء بن أبى رباح واختلف أهل (١٧) العلم فى ركوب الهدى فقال قوم يجوز له ركوبها والحمل عليها غير مضر بها وهو قول مالك والشافعى وأحمد وإسحاق لما أخبرنا أبو الحسن السرخسى أنا أبو على زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بدنة فقال اركبها فقال إنها بدنة قال اركبها فقال إنها بدنة قال اركبها ويلك فى الثانية أو الثالثة وكذلك قال له اشرب لبنها بعد مافضل عن رى ولدها» وقال أصحاب الرأى لا يركبها وقال قوم لا يركبها إلا أن يضطر إليه وقال بعضهم أراد بالشعائر المناسك ومشاهدة مكة «لكم فيها منافع» بالتجارة والأسواق «إلى أجل مسمى» وهو الخروج من مكة وقيل لكم فيها منافع بالأجر والثواب فى قضاء المناسك إلى أجل مسمى أى إلى انقضاء أيام الحج (ثم محلها) أى منحرها (إلى البيت العتيق) أى منحرها عند البيت العتيق يريد أرض الحرم كلها كما قال «فلا يقربوا المسجد الحرام» أى الحرم كله وروى عن جابر فى قصة حجة الوداع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «نحرت هاهنا ومنى كلها منحر فانحروا فى رحالكم» ومن قال الشعائر المناسك قال معنى قوله «ثم محلها إلى البيت العتيق» أى محل الناس من احرامهم إلى البيت العتيق أى أن يطوفوا به طواف الزيارة يوم النحر قال الله تعالى (ولكل أمة) يعنى جماعة مؤمنة سلفت قبلكم (جعلنا منسكا) قرأ حمزة والكسائى بكسر السين هاهنا وفى آخر السورة على معنى الاسم مثل المسجد والمطلع يعنى مذبحا وهو موضع القربان وقرأ الآخرون بفتح

من السماء فاختطفته الطير فتفرقت أجزاءه فى حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المهالك البعيدة وقيل شبه الإيمان بالسماء فى علوه والذى ترك الإيمان بالساقط من السماء والأهواء التى توزع أفكاره بالطير المختطفة والشياطين التى تطرحه فى وادي الضلالة بالريح التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المتلفة . قوله عز وجل (ذلك) يعنى الذى ذكر من اجتناب الرجس وقول الزور (ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب) يعنى تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب قال ابن عباس شعائر الله البدن والهدي وأصلها من الإشعار . وهو العلامة التى يعرف بها أنها هدى وتعظيمها استسمانها واستحسانها وقيل شعائر الله أعلام دينه وتعظيمها من تقوى القلوب (لكم فيها) أى فى البدن (منافع) قيل هى درها ونسلها وصوفها ووبرها وركوب ظهرها (إلى أجل مسمى) أى إلى أن يسميها ويوجبها هديا فاذا فعل ذلك لم يكن له شئ من منافعها وهو قول مجاهد وقتادة والضحاك ورواية عن ابن عباس وقيل معناه لكم فى الهدايا منافع بعد إيجابها وتسميتها هدايا بأن تركبوها وتشربوا من ألبانها عند الحاجة إلى أجل مسمى يعنى إلى أن تنحروها وهو قول عطاء . واختلف العلماء فى ركوب الهدى فقال مالك والشافعى وأحمد وإسحاق يجوز ركوبها والحمل عليها من غير ضرر بها لما روى عن أبى هريرة «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بدنة فقال اركبها فقال يارسول الله إنها بدنة فقال اركبها ويلك فى الثانية أو الثالثة» أخرجاه فى الصحيحين وكذلك يجوز له أن يشرب من لبنها بعد مايفضل عن رى ولدها . وقال أصحاب الرأى لا يركبها إلا أن يضطر إليه وقيل أراد بالشعائر المناسك ومشاهدة مكة لكم فيها منافع يعنى بالتجارة والأسواق «إلى أجل مسمى» يعنى إلى الخروج من مكة وقيل «لكم فيها منافع» يعنى بالأجر والثواب فى قضاء المناسك الى انقضاء أيام الحج (ثم محلها الى البيت العتيق) يعنى منحرها عند البيت العتيق يريد به جميع أرض الحرم وروى عن جابر فى حديث حجة الوداع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «نحرت هاهنا ومنى كلها منحر فانحروا فى رحالكم» ومن قال الشعائر المناسك قال معنى ثم محلها يعنى محل الناس من إحرامهم الى البيت العتيق يطوفون به طواف الزيارة . قوله تعالى (ولكل أمة) يعنى جماعة مؤمنة سلفت قبلكم (جعلنا منسكا) قرئ بكسر السين يعنى مذبحا وهو موضع القربان وقرئ منسكا بفتح السين وهو

السين على المصدر مثل المدخل والمخرج يعنى إراقة الدماء وذبح القرابين (ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام) عند نحرها وذبحها وسماها بهيمة لأنها لاتتكلم وقال بهيمة الأنعام وقيدها بالنعم لأن من البهائم ماليس من الأنعام كالخيل والبغال والحمير لايجوز ذبحها فى القرابين (فالهكم إله واحد) أى سموا على الذبائح اسم الله وحده فان إلهكم إله واحد (فله أسلموا) انقادوا وأطيعوا (وبشر المخبتين) قال ابن عباس وقتادة المتواضعين وقال مجاهد المطمئنين إلى الله عز وجل. والخبت المكان المطمئن من الأرض وقال الأخفش الخاشعين وقال النخعى المخلصين وقال الكلبى هم الرقيقة قلوبهم وقال عمرو بن أوس هم الذين لايظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ماأصابهم) من البلاء والمصائب (والمقيمى الصلاة) أى المقيمين للصلاة فى أوقاتها (ومما رزقناهم ينفقون) أى يتصدقون (والبدن) جمع بدنة سميت بدنة لعظمها وضخامتها يريد الإبل (١٨) العظام الصحاح الأجسام يقال بدن الرجل بدنا وبدانة إذا ضخم فأما إذا أسن واسترخى يقال بدن تبدينا قال عطاء والسدى البدن الإبل والبقر أما الغنم فلا تسمى بدنة (جعلناها لكم من شعائر الله) من أعلام دينه سميت شعائر لأنها تشعر وهو أن تطعن بحديدة فى سنامها فيعلم أنها هدى (لكم فيها خير) النفع فى الدنيا والأجر فى العقبى (فاذكروا اسم الله عليها) أى عند نحرها (صواف) أي قياما على ثلاث قوائم قد صفت رجليها وإحدى يديها ويدها اليسرى معقولة فينحرها كذلك. أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله بن مسامة أنا يزيد بن زريع عن يونس عن زياد بن جبير قال «رأيت ابن عمر أتى على رجل قد أناخ بدنة ينحرها قال ابعثها قياما مقيدة سنة محمد ﷺ» وقال مجاهد الصواف إذا عقلت رجلها اليسرى وقامت على ثلاث قوائم وقرأ ابن مسعود صوافن وهى أن تعقل منها يد وتنحر على ثلاث وهو مثل صواف. وقرأ أبى والحسن ومجاهد صوافى بالياء أى صافية خالصة لله لاشريك له فيها (فاذا وجبت جنوبها) يعنى سقطت بعد النحر فوقعت جنوبها على الأرض وأصل الوجوب الوقوع يقال وجبت الشمس إذا سقطت للمغيب (فكلوا منها) أمر إباحة (وأطعموا القانع والمعتر) اختلفوا فى معناهما فقال عكرمة وإبراهيم وقتادة القانع الجالس فى بيته المتعفف يقنع بما يعطى ولا يسأل والمعتر الذى يسأل وروى العوفى عن ابن عباس القانع الذى لايعترض ولا يسأل والمعتر الذى يريك نفسه ويتعرض ولا يسأل فعلى هذين التأويلين يكون القانع من القناعة يقال قنع قناعة إذا رضى بما قسم له وقال سعيد بن جبير والحسن والكلبى القانع الذى يسأل والمعتر الذى يتعرض ولا يسأل فيكون

إراقة الدم وذبح القرابين (ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام) يعنى عند ذبحها ونحرها سماها بهيمة لأنها لاتتكلم وقيد بالأنعام لأن ماسواها لايجوز ذبحه فى القرابين وإن جاز أكله. قوله عز وجل (فالهكم إله واحد) يعنى سموا على الذبح اسم الله وحده فان إلهكم إله واحد (فله أسلموا) يعنى أخلصوا وانقادوا وأطيعوا (وبشر المخبتين) قال ابن عباس المتواضعين وقيل المطمئنين الى الله وقيل الخاشعين الرقيقة قلوبهم وقيل هم الذين لايظلمون واذا ظلموا لاينتصرون ثم وصفهم فقال تعالى (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) يعنى خافت من عقاب الله فيظهر عليها الخشوع والتواضع لله تعالى (والصابرين على ماأصابهم) يعنى من البلاء والمرض والمصائب ونحو ذلك مما كان من الله تعالى وما كان من غير الله فله أن يصبر عليه وله أن ينتصر لنفسه (والمقيمى الصلاة) يعنى فى أوقاتها محافظة عليها (ومما رزقناهم ينفقون) يعنى يتصدقون. قوله تعالى (والبدن) جمع بدنة سميت بدنة لعظمها وضخامتها، يريد الإبل الصحاح الأجسام والبقر ولا تسمى الغنم بدنة لصغرها (جعلناها لكم من شعائر الله) يعنى من أعلام دينه قيل لأنها تشعر وهو أن تطعن بحديدة فى سنامها فيعلم بذلك أنها هدى (لكم فيها خير) يعنى نفع فى الدنيا وثواب فى العقبى (فاذكروا اسم الله عليها) يعنى عند نحرها (صواف) يعنى قياما على ثلاث قوائم قد صفت رجليها ويدها اليمنى والأخرى معقولة فينحرها كذلك (ق) عن زياد بن جبير قال «رأيت ابن عمر أتى على رجل قد أناخ بدنة ينحرها قال ابعثها قياما مقيدة سنة محمد صلى الله عليه وسلم» (فاذا وجبت جنوبها) يعنى سقطت بعد النحر ووقع جنبها على الأرض (فكلوا منها) أمر إباحة (وأطعموا القانع والمعتر) قيل القانع الجالس فى بيته المتعفف يقنع بما يعطى ولا يسأل والمعتر هو الذى يسأل وعن ابن عباس القانع هو الذى لايسأل ولايتعرض وقيل القانع هو الذى يسأل والمعتر هو الذى يريك نفسه ويتعرض ولا يسأل وقيل القانع المسكين والمعتر الذى ليس بمسكين ولا تكون

لقانع من قنع يقنع قنوعا إذا سأل وقرأ الحسن والمعترى وهو مثل المعتر يقال عره واعتره وعراه واعتراه إذ أتى يطلب معروفه إما سؤالا وإما تعرضا وقال ابن زيد القانع المسكين والمعتر الذى ليس بمسكين ولا يكون له ذبيحة يجيء الى القوم فيتعرض لهم لأجل لحمهم (كذلك) يعنى مثل ماوصفنا من نحرها قياما (سخرناها لكم) نعمة منا لتتمكنوا من نحرها (لعلكم تشكرون) لكى تشكروا إنعامى عليكم (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها) وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا نحروا البدن لطخوا الكعبة بدمائها قربة الى الله فأنزل الله هذه الآية «لن ينال الله لحومها ولا دماؤها» قرأ يعقوب تنال وتناله بالتاء فيهما وقرأ العامة بالياء قال مقاتل لن يرفع الى الله لحومها ولا دماؤها (ولكن يناله التقوى منكم) ولكن يرفع إليه منكم الأعمال الصالحة والتقوى والإخلاص ما أريد به وجه الله (كذلك سخرها لكم) (١٩) يعنى البدن (لتكبروا الله على ماهداكم) أرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه وهو أن يقول الله أكبر على ماهدانا والحمد لله على ما أبلانا وأولانا (وبشر المحسنين) قال ابن عباس الموحدين قوله تعالى (إن الله يدافع عن الذين آمنوا) قرأ ابن كثير وأهل البصرة يدفع وقرأ الآخرون يدافع بالألف يريد يدفع غائلة المشركين عن المؤمنين ويمنعهم عن المؤمنين (إن الله لا يحب كل خوان كفور) يعنى خوان فى أمانة الله كفور لنعمته قال ابن عباس خانوا الله فجعلوا معه شريكا وكفروا نعمه قال الزجاج من تقرب إلى الأصنام بذبيحته وذكر عليها اسم غير الله فهو خوان كفور (أذن) قرأ أهل المدينة والبصرة وعاصم أذن بضم الألف والباقون بفتحها أى أذن الله (للذين يقاتلون) قرأ أهل المدينة وابن عامر وحفص يقاتلون بفتح التاء يعنى المؤمنين الذين يقاتلهم المشركون وقرأ الآخرون بكسر التاء يعنى الذين أذن لهم بالجهاد يقاتلون المشركين قال المفسرون كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يزالون محزونين من بين مضروب ومشجوج ويشكون ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول لهم «اصبروا فانى لم أومر بالقتال» حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل هذه الآية وهى أول آية أذن الله فيها بالقتال فنزلت هذه الآية بالمدينة وقال مقاتل نزلت هذه الآية فى قوم بأعيانهم خرجوا مهاجرين من مكة الى المدينة فكانوا يمنعون فأذن الله لهم فى قتال الكفار الذين يمنعونهم من الهجرة (بأنهم ظلموا) يعنى بسبب ماظلموا واعتدوا عليهم بالإيذاء (وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق) بدل من الذين الأولى (إلا أن يقولوا ربنا الله)

تكون له ذبيحة يجيء إلى القوم فيتعرض لهم لأجل لحمهم (كذلك) يعنى مثل ماوصفنا من نحرها قياما (سخرناها لكم) يعنى لتتمكنوا من نحرها (لعلكم تشكرون) يعنى إنعام الله عليكم (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها) وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا نحروا البدن لطخوا الكعبة بدمائها يزعمون أن ذلك قربة إلى الله تعالى فأنزل الله «لن ينال الله لحومها ولا دماؤها» يعنى لن ترفع إلى الله لحومها ولا دماؤها (ولكن يناله التقوى منكم) يعنى ولكن ترفع إليه الأعمال الصالحة والإخلاص وهو ما أريد به وجه الله (كذلك سخرها لكم) يعنى البدن (لتكبروا الله على ماهداكم) وأرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه وهو أن يقول الله أكبر على ماهدانا والحمد لله على ما أولانا (وبشر المحسنين) قال ابن عباس الموحدين . قوله تعالى (إن الله يدافع عن الذين آمنوا) أى يدفع غائلة المشركين عن المؤمنين ويمنعهم منهم وينصرهم عليهم (إن الله لا يحب كل خوان كفور) أى خوان فى أمانة الله كفور لنعمته قال ابن عباس خانوا الله فجعلوا منه شريكا وكفروا نعمه وقيل من تقرب إلى الأصنام بذبيحته وسمى غير الله عليها فهو خوان كفور . قوله عز وجل (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) أى أذن الله لهم بالجهاد ليقاتلوا المشركين قال المفسرون كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يزالون يجيئون من بين مضروب ومشجوج ويشكون ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول لهم «اصبروا فانى لم أومر بقتال» حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية وهى أول آية أذن الله فيها بالقتال . وقيل نزلت هذه الآية فى قوم بأعيانهم خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة فاعترضهم مشركو مكة فأذن الله لهم فى قتال الكفار الذين يمنعونهم من الهجرة بأنهم ظلموا أى بسبب ماظلموا واعتدوا عليهم بالإيذاء (وإن الله على نصرهم لقدير) فيه وعد من الله بنصر المؤمنين ثم وصفهم فقال تعالى (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) يعنى أنهم أخرجوا بغير موجب سوى التوحيد الذى ينبغى أن يكون موجب

بعنى لم يخرجوا من ديارهم إلا لقولهم ربنا الله وحده (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) بالجهاد وإقامة الحدود (لهدمت) قرأ أهل المدينة بتخفيف الدال وقرأ الآخرون بالتشديد على التكثير فالتخفيف يكون للتقليل والتكثير والتشديد يختص بالتكثير (صوامع) قال مجاهد والضحاك يعنى صوامع الرهبان ، وقال قتادة صوامع الصابئين (وبيع) يعنى بيع النصارى جمع بيعة وهى كنيسة النصارى (وصلوات) يعنى كنائس اليهود ويسمونها بالعبرانية صلوتا (ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا) يعنى مساجد المسلمين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ومعنى الآية ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لهدم فى شريعة كل نبى مكان صلاتهم لهدم فى زمن موسى الكنائس وفى زمن عيسى البيع والصوامع وفى زمن محمد ﷺ المساجد وقال ابن زيد أراد بالصلوات صلوات أهل الإسلام فإنها لا تنقطع إذا دخل العدو عليهم (ولينصرن الله من ينصره) يعنى ينصر دينه ونبيه (إن الله لقوى عزيز الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) قال الزجاج هذا من صفة ناصريه ومعنى مكناهم نصرناهم على عدوهم حتى يتمكنوا فى البلاد قال هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قال الحسن هذه الأمة (ولله عاقبة الأمور) يعنى آخر أمور الخلق ومصيرهم إليه يعنى يبطل كل ملك سوى ملكه فتصير الأمور إليه بلا منازع ولا مدع قوله تعالى (وإن يكذبوك) يعزى نبيه صلى الله عليه وسلم (فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين) يعنى أمهلتهم وأخرت عقوبتهم (ثم أخذتهم) عاقبتهم (فكيف كان نكير) يعنى إنكارى أى كيف أنكرت عليهم ما فعلوا من التكذيب بالعذاب والهلاك يخوف به من يخالف النبى صلى الله عليه وسلم ويكذبه (فكأين) فكم (من قرية أهلكتها) بالتاء هكذا قرأ أهل البصرة ويعقوب وقرأ الآخرون أهلكناها بالنون والألف على التعظيم (وهى ظالمة) يعنى وأهلها ظالمون (فهى خاوية) ساقطة (على عروشها) على سقوفها (وبئر معطلة) يعنى وكم من بئر معطلة متروكة مخلاة عن أهلها (وقصر مشيد) قال قتادة والضحاك وقيل

(٢٠)

الإقرار والتعظيم والتمكين لا موجب الإخراج (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) أى بالجهاد وإقامة الحدود (لهدمت صوامع) هى معابد الرهبان المتخذة فى الصحراء (وبيع) هى معابد النصارى فى البلد وقيل الصوامع للصابئين والبيع للنصارى (وصلوات) هى كنائس اليهود ويسمونها بالعبرانية صلوتا (ومساجد) يعنى مساجد المسلمين (يذكر فيها اسم الله كثيرا) يعنى فى المساجد ومعنى الآية ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم فى شريعة كل نبى مكان صلواتهم فهدم فى زمن موسى الكنائس وفى زمن عيسى البيع والصوامع وفى زمن محمد صلى الله عليه وسلم المساجد (ولينصرن الله من ينصره) أى ينصر دينه ونبيه (إن الله لقوى) أى على نصر من ينصر دينه (عزيز) أى لا يضام ولا يمنع مما يريده . قوله عز وجل (الذين إن مكناهم فى الأرض) أى نصرناهم على عدوهم حتى تمكنوا من البلاد (أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) هذا وصف أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وقيل هم جميع هذه الأمة وقيل هم المهاجرون وهو الأصح لأن قوله «الذين إن مكناهم» صفة لمن تقدم ذكرهم وهو قوله «الذين أخرجوا من ديارهم» وهم المهاجرون (ولله عاقبة الأمور) أى آخر أمور الخلق مصيرها إليه وذلك أنه يبطل فيها كل ملك سوى ملكه فتصير الأمور إليه بلا منازع . قوله تعالى (وإن يكذبوك) فيه تسلية وتعزية للنبى صلى الله عليه وسلم والمعنى وإن كذبك قومك (فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى) فإن قلت لم قال وكذب موسى ولم يقل وقوم موسى ؟ . قلت فيه وجهان أحدهما أن موسى لم يكذبه قومه وهم بنو إسرائيل وإنما كذبه غير قومه وهو القبط الثانى كأنه قيل بعد ما ذكرت تكذيب كل قوم رسولهم قال وكذب موسى أيضا مع وضوح آياته وعظم معجزاته فما ظنك بغيره (فأمليت للكافرين) أى أمهلتهم وأخرت العقوبة عنهم (ثم أخذتهم) أى عاقبتهم (فكيف كان نكير) أى إنكارى عليهم ما فعلوا من التكذيب بالعذاب والهلاك يخوف به من خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبه . قوله عز وجل (فكأين من قرية أهلكتها) وقرئ أهلكناها على التعظيم (وهى ظالمة) أى وأهلها ظالمون (فهى خاوية) أى ساقطة (على عروشها) أى على سقوفها (وبئر معطلة) أى وكم من بئر معطلة أى متروكة مخلاة عن أهلها (وقصر مشيد) أى رفيع طويل عال وقيل مجصص وقيل إن البئر المعطلة والقصر المشيد باليمن . أما القصر فعلى قلة جبل والبئر فى سفحه ولكل واحد منهما قوم كانوا فى نعمة فكفروا فأهلكهم الله وبقى البئر والقصر خاليين

ومقاتل رفيع طويل من قولهم شاد بناءه إذا رفعه وقال سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء مجصص من الشيد وهو الجص وقيل إن البئر المعطلة والقصر المشيد باليمن أما القصر فعلى قلة جبل والبئر فى سفحه ولكل واحد منهما قوم كانوا فى نعمة فكفروا فأهلكهم الله وبقى البئر والقصر خاليين وروى أبو روق عن الضحاك أن هذه البئر كانت بحضرموت فى بلدة يقال لها حاضوراء وذلك أن أربعة آلاف نفر ممن آمن بصالح نجوا من العذاب أتوا حضرموت ومعهم صالح فلما حضروه مات صالح فسمى حضرموت لأن صالحا لما حضره مات فبنوا حاضوراء وقعدوا على هذه البئر وأمروا عليهم رجلا فأقاموا دهرا وتناسلوا حتى كثروا ثم إنهم عبدوا الأصنام وكفروا فأرسل الله عليهم نبيا يقال له حنظلة ابن صفوان كان حمالا فيهم فقتلوه فى السوق فأهلكهم الله وعطلت بئرهم وخربت قصورهم (أفلم يسيروا فى الأرض) يعنى كفار مكة فينظروا إلى مصارع المكذبين من الأمم الخالية (فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها) يعنى ما يذكر لهم من أخبار القرون الماضية فيعتبرون بها (فانها) الهاء عماد (لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) (٢١) ذكر التى فى الصدور تأكيدا كقوله «يطير بجناحيه» معناه أن العمى الضار هو عمى القلب فأما عمى البصر فليس بضار فى أمر الدين قال قتادة البصر الظاهر بلغة ومتعة وبصر القلب هو البصر النافع (ويستعجلونك بالعذاب) نزلت فى النضر ابن الحارث حيث قال إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء (ولن يخلف الله وعده) فأنجز ذلك يوم بدر (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) قرأ ابن كثير وحمزة والكسائى يعدون بالياء ههنا لقوله «يستعجلونك» وقرأ الباقون بالتاء لأنه أعم لأنه خطاب للمستعجلين والمؤمنين واتفقوا فى تنزيل السجدة أنه بالتاء قال ابن عباس يعنى يوما من الأيام الستة التى خلق الله فيها السموات والأرض وقال مجاهد وعكرمة يوما من أيام الآخرة والدليل عليه ما روى عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أبشروا يا معاشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذلك مقدار خمسمائة سنة» قال ابن زيد «وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون» هذه أيام الآخرة وقوله «مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون» يوم القيامة والمعنى على هذا أنهم يستعجلون بالعذاب وإن يوما من أيام عذابهم فى الآخرة ألف سنة. وقيل معناه وإن يوما من أيام العذاب الذى استعجلوه فى الثقل والاستطالة والشدة كألف سنة مما تعدون فكيف تستعجلونه هذا كما يقال أيام الهموم طوال وأيام السرور قصار. وقيل معناه إن يوما عنده وألف سنة فى الإمهال سواء لأنه قادر متى شاء أخذهم لا يفوته شئ بالتأخير فيستوى فى قدرته وقوع ما يستعجلون به من العذاب وتأخره وهذا معنى قول ابن عباس فى رواية عطاء

وقيل إن هذه البئر كانت بحضرموت فى بلدة يقال لها حاضوراء وذلك أن أربعة آلاف نفر ممن آمن بصالح عليه السلام لما نجوا من العذاب أتوا إلى حضرموت ومعهم صالح فلما حضروه مات صالح فسمى المكان حضرموت لذلك ولما مات صالح بنو حاضوراء وقعدوا على هذه البئر وأمروا عليهم رجلا منهم فأقاموا دهرا وتناسلوا حتى كثروا وعبدوا الأصنام وكفروا فأرسل الله تعالى إليهم نبيا يقال له حنظلة بن صفوان . وكان حمالا فيهم فقتلوه فى السوق فأهلكهم الله وعطلت بئرهم وخرب قصرهم : قوله تعالى (أفلم يسيروا فى الأرض) يعنى كفار مكة فينظروا إلى مصارع المكذبين من الأمم الخالية (فتكون لهم قلوب يعقلون بها) أى يعلمون بها (أو آذان يسمعون بها) يعنى ما يذكر لهم من أخبار القرون الماضية فيعتبرون بها (فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) المعنى أن عمى القلب هو الضار فى أمر الدين لا عمى البصر لأن البصر الظاهر بلغة ومتعة وبصر القلوب هو البصر النافع (ويستعجلونك بالعذاب) نزلت فى النضر بن الحرث (ولن يخلف الله وعده) أى أنه أنجز ذلك يوم بدر (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) قال ابن عباس يعنى يوما من الأيام الستة التى خلق الله فيها السموات والأرض. وقيل يوما من أيام الآخرة يدل عليه ما روى عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ «أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذلك مقدار خمسمائة سنة» أخرجه أبو داود بزيادة فيه وأخرج الترمذى نحوه ومعنى الآية أنهم يستعجلون بالعذاب وإن يوما من أيام عذابهم فى الآخرة كألف سنة وقيل إن يوما من أيام العذاب فى الثقل والاستطالة كألف سنة فكيف يستعجلونه وقيل معناه أن يوما عنده وألف سنة فى الإمهال سواء لأنه قادر متى شاء أخذهم لا يفوته شيء بالتأخير فيستوى فى قدرته

(وكأين من قرية أمليت لها) يعنى أمهلتها (وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير قل ياأيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم) الرزق الكريم الذى لاينقطع أبدا وقيل هو الجنة (والذين سعوا فى آياتنا) يعنى عملوا فى إبطال آياتنا (معاجزين) قرأ ابن كثير وأبو عمرو معجزين بالتشديد هاهنا وفى سورة سبأ يعنى مثبطين الناس عن الإيمان وقرأ الآخرون معاجزين (٢٢) بالألف يعنى معاندين مشاقين وقال قتادة معناه ظانين ومقدرين أنهم يعجزوننا بزعمهم أن لابعث ولا نشور ولا جنة ولا نار ومعنى يعجزوننا أي يفوتوننا فلا نقدر عليهم وهذا كقوله تعالى «أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا» (أولئك أصحاب الجحيم) وقيل معاجزين مغالبين يريد كل واحد أن يظهر عجز صاحبه قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) الآية. قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظى وغيرهما من المفسرين لما رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم تولى قومه عنه وشق عليه ما رأي من مباعدتهم عما جاءهم به من الله تمنى فى نفسه أن يأتيه من الله مايقارب بينه وبين قومه لحرصه على إيمانهم فكان يوما فى مجلس لقريش فأنزل الله تعالى سورة والنجم فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ قوله أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألقى الشيطان على لسانه بما كان يحدث به نفسه ويتمناه تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى فلما سمعت قريش ذلك فرحوا به ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قراءته فقرأ السورة كلها وسجد فى آخر السورة فسجد المسلمون بسجوده وسجد جميع من فى المسجد من المشركين فلم يبق فى المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد إلا الوليد بن المغيرة وأبو أحيحة سعيد بن العاص فانهما أخذا حفنة من البطحاء ورفعاها إلى جبهتيهما وسجدا عليها لأنهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا

وقوع مايستعجلونه من العذاب وتأخيره وهذا معنى قول ابن عباس (وكأين من قرية أمليت لها) يعنى أمهلتها (وهى ظالمة) يعنى مع استمرار أهلها على الظلم (ثم أخذتها) يعنى أنزلت بهم العذاب (وإلى المصير) يعنى مصيرهم إلى فى الآخرة ففيه وعيد وتهديد. قوله عز وجل (قل ياأيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين) أمر الله رسوله أن يديم لهم التخويف والإنذار وأن يقول لهم إنما بعثت لكم منذرا (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم) لما أمر الله الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول «إنما أنا نذير مبين» أردف ذلك بأن أمره بوعد من آمن ووعيد من عصى فقال «فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة» يعنى ستر لصغائر ذنوبهم وقيل للكبائر أيضا مع التوبة «ورزق كريم» يعنى لاينقطع أبدا وقيل هو الجنة (والذين سعوا فى آياتنا) يعنى عملوا فى إبطال آياتنا (معاجزين) يعنى مثبطين الناس عن الإيمان وقرئ معاجزين يعنى معاندين مشاقين وقيل معناه ظانين ومقدرين أنهم يعجزوننا ويفوتوننا فلا نقدر عليهم بزعمهم أن لابعث ولانشور ولا جنة ولانار (أولئك أصحاب الجحيم) قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) قال ابن عباس وغيره من المفسرين لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم تولى قومه عنه وشق عليه مارأي من مباعدتهم عما جاءهم به من الله تعالى تمنى فى نفسه أن يأتيه من الله مايقارب بينه وبين قومه لحرصه على إيمانهم فكان يوما فى مجلس لقريش فأنزل الله عز وجل سورة والنجم فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ «أفرأيتم اللات والعزي ومناة الثالثة الأخري» ألقى الشيطان على لسانه ما كان يحدث به نفسه ويتمناه تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى فلما سمعت قريش ذلك فرحوا به ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قراءته فقرأ السورة كلها وسجد فى آخرها وسجد المسلمون بسجوده وسجد جميع من فى المسجد من المشركين فلم يبق فى المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد غير الوليد بن المغيرة وأبى أحيحة سعيد بن العاص فانهما أخذا حفنة من البطحاء ورفعاها إلى جبهتيهما وسجدا عليها لأنهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود وتفرقت قريش وقد سرهم ماسمعوا من ذكر آلهتهم ويقولون قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر وقالوا قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده فان جعل لها محمد نصيبا فنحن معه فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل فقال يامحمد ماذا صنعت؟ لقد تلوت على الناس مالم آتك به عن الله تعالى فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا وخاف من الله تعالى خوفا كبيرا فأنزل الله تعالى هذه الآية يعزيه وكان به رحيما وسمع بذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وبلغهم سجود قريش وقيل

السجود وتفرقت قريش وقد سرهم ماسمعوا من ذكر آلهتهم ويقولون قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر وقالوا قد عرفنا أن الله يحيى ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده فإن جعل لها محمد نصيبا فنحن معه فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل فقال يامحمد ماذا صنعت؟ لقد تلوت على الناس مالم آتك به عن الله عز وجل فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا وخاف من الله خوفا كثيرا فأنزل الله هذه الآية يعزيه وكان به رحيما ، وسمع بذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وبلغهم سجود قريش وقيل أسلمت قريش وأهل مكة فرجع أكثرهم إلى عشائرهم وقالوا هم أحب إلينا حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن الذى كانوا يحدثونه من إسلام أهل مكة كان باطلا فلم يدخل أحد إلا بجوار أو مستخفيا فلما نزلت هذه الآية قالت قريش ندم محمد على ما ذكر من منزلة آلهتنا عند الله فغير ذلك وكان الحرفان اللذان ألقى الشيطان على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وقعا فى فم كل مشرك فازدادوا شرا إلى ما كانوا عليه وشدة على من أسلم قال الله تعالى «وما أرسلنا من قبلك من رسول» وهو الذى يأتيه جبريل بالوحى عيانا ولا نبي وهو الذى يكون نبوته إلهاما أو مناما وكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا «إلا إذا تمنى» قال بعضهم أى أحب شيئا واشتهاه وحدث به نفسه مما لم يؤمر به «ألقى الشيطان فى أمنيته» يعنى مراده وعن ابن عباس قال إذا حدث ألقى الشيطان فى حديثه ووجد إليه سبيلا وما من نبي إلا تمنى أن يؤمن به قومه ولم يتمن ذلك نبي إلا ألقى الشيطان عليه مايرضى به قومه فينسخ الله مايلقى الشيطان وأكثر المفسرين قالوا معنى قوله تمنى يعنى تلا وقرأ كتاب الله تعالى «ألقى الشيطان فى أمنيته» يعنى فى تلاوته قال الشاعر فى عثمان حين قتل :

تمنى كتاب الله أول ليلة ... وآخرها لاقى حمام المقادر

قد أسلمت قريش وأهل مكة فرجع أكثرهم إلى عشائرهم وقالوا هم أحب إلينا حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن الذى كانوا يحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلا فلم يدخل أحد منهم إلا بجوار أو مستخفيا فلما نزلت هذه الآية قالت قريش ندم محمد على ماذكر من منزلة آلهتنا عند الله فغير ذلك وكان الحرفان اللذان ألقى الشيطان على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وقعا فى فم كل مشرك فازدادوا شرا إلى ما كانوا عليه وشدة على من أسلم وقوله «وما أرسلنا من قبلك من رسول» الرسول هو الذى يأتيه جبريل بالوحى عيانا ولا نبي النبي هو الذى تكون نبوته إلهاما أو مناما فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا إلا إذا تمنى يعنى أحب شيئا واشتهاه وحدث به نفسه مما لم يؤمر به «ألقى الشيطان فى أمنيته» يعنى فى مراده وقال ابن عباس إذا حدث ألقى الشيطان فى حديثه ووجد إليه سبيلا . والمعنى مامن نبي «إلا تمنى» أن يؤمن قومه ولم يتمن ذلك نبي إلا ألقى الشيطان عليه مايرضى قومه فينسخ الله مايلقى الشيطان . وقال أكثر المفسرين معنى تمنى قرأ وتلا كتاب الله ألقى الشيطان فى أمنيته يعنى فى تلاوته قال حسان فى عثمان حين قتل :

تمنى كتاب الله أول ليلة ... وآخرها لاقى حمام المقادر

فإن قلت قد قامت الدلائل على صدقه وأجمعت الأمة فيما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شىء منه بخلاف ماهو به لا قصدا ولا عمدا ولا سهوا ولا غلطا قال الله تعالى «وما ينطق عن الهوى» وقال تعالى «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» فكيف يجوز الغلط على النبي صلى الله عليه وسلم فى التلاوة وهو معصوم منه ؟. قلت ذكر العلماء عن هذا الإشكال أجوبة : أحدها توهين أصل هذه القصة وذلك أنه لم يروها أحد من أهل الصحة ولا أسندها ثقة بسند صحيح أو سليم متصل وإنما رواها المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب الملفقون من الصحف كل صحيح وسقيم والذى يدل على ضعف هذه القصة اضطراب رواتها وانقطاع سندها واختلاف ألفاظها فقائل يقول إن النبي صلى الله عليه وسلم كان فى الصلاة وآخر يقول قرأها وهو فى نادى قومه وآخر يقول قرأها وقد أصابته سنة وآخر يقول بل حدث نفسه بها فجرى ذلك على لسانه وآخر يقول إن الشيطان قالها على لسان النبي صلى الله عليه وسلم وإن النبي صلى الله عليه وسلم لما عرضها على جبريل قال ماهكذا أقرأتك إلى غير ذلك من اختلاف ألفاظها والذى جاء فى الصحيح من حديث عبد الله بن مسعود «أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ والنجم فسجد فيها وسجد من كان معه غير أن شيخا من قريش أخذ كفا من حصى أو تراب فرفعه إلى جبهته قال عبد الله فلقد رأيته بعد قتل كافرا»

واختلفوا فى أنه هل كان يقرأ فى الصلاة أو فى غير الصلاة فقال قوم كان يقرأ فى الصلاة وقال قوم كان يقرأ فى غير الصلاة فان قيل كيف يجوز الغلط فى التلاوة علي النبي صلى الله عليه وسلم وكان معصوما من الغلط فى أصل الدين وقال جل ذكره فى القرآن «لا يأتيه الباطل من بين (٢٤) يديه ولا من خلفه» يعنى إبليس؟ قيل قد اختلف الناس فى الجواب عنه فقال بعضهم إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقرأ ولـكن الشيطان ذكر ذلك بين قراءته فظن المشركون أن الرسول صلى الله عليه وسلم قرأه وقال قتادة أغفى النبي ﷺ إغفاءة فجرى ذلك على لسانه بالقاء الشيطان ولم يكن له خبر والأكثرون قالوا جرى ذلك على لسانه بالقاء الشيطان على سبيل السهو والنسيان ولم يلبث أن نبهه الله عليه وقيل إن شيطانا يقال له أبيض عمل هذا العمل وكان ذلك فتنة ومحنة من الله تعالى والله تعالى يمتحن عباده بما يشاء (فينسخ الله مايلقى الشيطان) أي يبطله ويذهبه (ثم يحكم الله آياته) فيثبتها (والله عليم حكيم ليجعل مايلقى الشيطان فتنة) أى محنة وبلية (للذين فى قلوبهم مرض) شك ونفاق (والقاسية) يعنى الجافية (قلوبهم) عن قبول الحق وهم المشركون وذلك أنهم افتتنوا لما سمعوا ذلك ثم نسخ ورفع فازدادوا عتوا وظنوا أن محمدا يقوله من تلقاء نفسه، ثم يندم فيبطل (وإن الظالمين) المشركين (لنى شقاق) ضلال (بعيد) أى فى خلاف شديد (ولا (وليعلم الذين أوتوا العلم) التوحيد والقرآن وقال السدي التصديق بنسخ الله تعالى (أنه) يعنى الذى أحكم الله من آيات القرآن هو (الحق من ربك فيؤمنوا به) أى يعتقدوا أنه من الله (فتخبت له قلوبهم) يعنى فتسكن إليه قلوبهم (وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم)

أخرجه البخارى ومسلم وصح من حديث ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس» رواه البخارى فهذا الذى جاء فى الصحيح لم يذكر فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر تلك الألفاظ ولا قرأها والذي ذكره المفسرون عن ابن عباس فى هذه القصة فقد رواه عنه الـكلبي وهو ضعيف جدا فهذا توهين هذه القصة الجواب الثانى وهو من حيث المعنى هو أن الحجة قد قامت بالدليل الصحيح وإجماع الأمة على عصمة النبي صلى الله عليه وسلم ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة وهو تمنيه أن ينزل عليه مدح إله غير الله أو أن يتسور عليه الشيطان ويشبه القرآن حتى يجعل فيه ماليس منه حتى نبهه جبريل عن ذلك فهذا كله ممتنع فى حقه صلى الله عليه وسلم قال الله عزوجل « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين » الآية الجواب الثالث فى تسليم وقوع هذه القصة وسبب سجود الكفار أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ يرتل القرآن ترتيلا ويفصل الآى تفصيلا كما صح عنه فى قراءته فيحتمل أن الشيطان ترصد لتلك السكتات فدس فيها مااختلقه من تلك الكلمات محاكيا لصوت النبي صلى الله عليه وسلم فسمعه من دنا منه من الكفار فظنوها من قول النبي صلى الله عليه وسلم فسجدوا معه لسجوده فأما المسلمون فلم يقدح ذلك عندهم لتحققهم من حال النبي صلى الله عليه وسلم ذم الأوثان وعيبها وأنهم كانوا يحفظون السورة كما أولها الله عز وجل الجواب الرابع فى تحقيق تفسير الآية وقد تقدم أن التمنى يكون بمعنى حديث النفس وبمعنى التلاوة فعلى الأول يكون معنى قوله «إلا إذا تمنى» أي خطر بباله وتمنى بقلبه بعض الأمور ولا يبعد أنه إذا قوى التمنى اشتغل الخاطر فحصل السهو فى الأفعال الظاهرة وعلى الثانى وهو تفسير التمنى بالتلاوة فيكون معنى قوله «إلا إذا تمنى» أى تلا وهو مايقع للنبي صلى الله عليه وسلم من السهو فى إسقاط آية أو آيات أو كلمة أو نحو ذلك ولـكنه لايقر على هذا السهو بل ينبه عليه ويذكر به للوقت والحين كما صح فى الحديث «لقد أذكرنى كذ كذا آية كنت أنسيتها من سورة كذا» وحاصل هذا أن الغرض من هذه الآية أن الأنبياء والرسل وإن عصمهم الله عن الخطأ فى العلم فلم يعصمهم من جواز السهو عليهم بل حالهم فى ذلك كحال سائر البشر والله تعالى أعلم . قوله عز وجل (فينسخ الله مايلقى الشيطان) أى يبطله ويذهبه (ثم يحكم الله آياته) أى يثبتها (والله عليم حكيم) قوله عز وجل (ليجعل مايلقى الشيطان فتنة) أى محنة وبلية والله تعالى يمتحن عباده بما يشاء (للذين فى قلوبهم مرض) أى شك ونفاق (والقاسية قلوبهم) أى الجافية قلوبهم عن قبول الحق وهم المشركون (وإن الظالمين لفى شقاق بعيد) أى فى خلاف شديد (وليعلم الذين أوتوا العلم) أى التوحيد والقرآن والتصديق بنسخ الله مايشاء (أنه الحق من ربك) أى الذى أحكم الله من آيات القرآن هو الحق من ربك (فيؤمنوا به) أى يعتقدوا أنه من الله عز وجل (فتخبت له قلوبهم) أى تسكن إليه (وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم) أى إلى طريق قويم وهو الإسلام . قوله عز وجل

أى طريق قويم وهو الإسلام (ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه) يعنى فى شك مما ألقى الشيطان على لسان رسول الله ﷺ يقولون مابال ذكرها بخير ثم ارتد عنها . وقال ابن جريج منه أى من القرآن . وقيل من الدين وهو الصراط المستقيم (حتى تأتيهم الساعة بغتة) يعنى القيامة وقيل الموت (أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) قال الضحاك وعكرمة عذاب يوم لا ليلة له وهو يوم القيامة والأكثرون على أن اليوم العقيم يوم بدر لأنه ذكر الساعة من قبل وهو يوم القيامة وسمى يوم بدر عقيما لأنه لم يكن فى ذلك اليوم للكفار خير كالريح العقيم التى لا تأتى بخير سحاب ولا مطر ، والعقم فى اللغة المنع يقال رجل عقيم إذا منع من الولد وقيل لأنه لامثل له فى عظم أمره لقتال الملائكة فيه وقال ابن جريج (٢٥) لأنهم لم ينظروا فيه إلى الليل حتى قتلوا قبل المساء (الملك يومئذ) يعنى يوم القيامة (لله) من غير منازع (يحكم بينهم) ثم بين الحكم فقال تعالى (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين والذين هاجروا فى سبيل الله) فارقوا أوطانهم وعشائرهم فى طاعة الله وطلب رضاه (ثم قتلوا أو ماتوا) وهم كذلك قرأ ابن عامر قتلوا بالتشديد (ليرزقنهم الله رزقا حسنا) والرزق الحسن الذى لا ينقطع أبدا وهو رزق الجنة (وإن الله لهو خير الرازقين) وقيل هو قوله « بل أحياء عند ربهم يرزقون » (ليدخلنهم مدخلا يرضونه) لأن لهم فيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين (وإن الله لعليم) بنياتهم (حليم) عنهم (ذلك) يعنى الأمر ذلك الذى قصصنا عليكم (ومن عاقب بمثل ماعوقب به) جازى الظالم بمثل ظلمه قال الحسن يعنى قاتل المشركين كما قاتلوه (ثم بغى عليه) يعنى ظلم باخراجه من منزله يعنى ماأتاه المشركون من البغى على المسلمين حتى أحوجوهم إلى مفارقة أوطانهم نزلت فى قوم من المشركين أتوا قوما من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم فكره المسلمون قتالهم وسألوهم أن يكفوا عن القتال من أجل الشهر الحرام فأبى المشركون وقاتلوهم فذلك بغيهم عليهم وثبت المسلمون لهم فنصروا عليهم قال الله تعالى (لينصرنه الله) والعقاب الأول بمعنى الجزاء (إن الله لعفو غفور) عفا عن مساوى المؤمنين وغفر لهم ذنوبهم (ذلك) يعنى ذلك النصر (بأن الله) القادر على مايشاء فمن قدرته أنه (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل

(ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه) أى فى شك من القرآن وقيل من الدين الذى هو صراط مستقيم (حتى تأتيهم الساعة بغتة) أى فجأة وقيل أراد بالساعة الموت (أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) أى عذاب يوم لا ليلة له وهو يوم القيامة وقيل هو يوم بدر سمى عقيما لأنه لم يكن فى ذلك اليوم للكفار خير كالريح العقيم لا تأتى بخير وقيل لأنه لامثل له فى عظم أمره لقتال الملائكة فيه (الملك يومئذ) يعنى يوم القيامة (لله) وحده من غير منازع ولا مشارك فيه (يحكم) أى يفصل (بينهم) ثم بين ذلك الحكم فقال تعالى (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين) . قوله تعالى (والذين هاجروا فى سبيل الله) أى فارقوا أوطانهم وعشائرهم فى طاعة الله وطلب رضاه (ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا) أى لا ينقطع أبدا وهو رزق الجنة لأن فيها ماتشتهى الأنفس وتلذ الأعين (وإن الله لهو خير الرازقين)فان قلت الرازق فى الحقيقة هو الله عز وجل لا رازق للخلق غيره فكيف قال وإن الله لهو خير الرازقين . قلت قد يسمى غير الله رازقا على المجاز كقوله رزق السلطان الجند أي أعطاهم أرزاقهم وإن الرزاق فى الحقيقة هو الله تعالى وقيل لأن الله تعالى يعطى من الرزق مالا يقدر عليه غيره (ليدخلنهم مدخلا يرضونه) يعنى الجنة يكرمون به ولا ينالهم فيه مكروه (وإن الله لعليم) بنياتهم (حليم) بالعفو عنهم. قوله عز وجل (ذلك) أى الأمر ذلك الذى قصصنا عليك (ومن عاقب بمثل ماعوقب به) يعنى جازى الظالم بمثل ظلمه وقيل يعنى قاتل المشركين كما قاتلوه (ثم بغى عليه) يعنى ظلم باخراجه من منزله يعنى ما أتاه المشركون من البغى على المسلمين حتى أحوجوهم إلى مفارقة أوطانهم نزلت فى قوم من المشركين أتوا قوما من المسلمين لليلتين بقيتا فى المحرم فكره المسلمون قتالهم وسألوهم أن يكفوا عن القتال من أجل الشهر الحرام فأبى المشركون وقاتلوهم فذلك بغيهم عليهم وثبت المسلمون فنصرهم الله عليهم فذلك قوله تعالى (لينصرنه الله إن الله لعفو) يعنى عن مساوى المؤمنين (غفور) يعنى لذنوبهم (ذلك) يعنى ذلك النصر (بأن الله) القادر على ما يشاء فمن قدرته أنه (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) فى معنى هذا الإيلاج قولان : أحدهما أنه يجعل ظلمة الليل مكان ضياء النهار وذلك بغيبوبة الشمس ويجعل ضياء النهار مكان ظلمة الليل بطلوع الشمس . القول الثانى هو ما يزيد

وأن الله سميع بصير ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون) قرأ أهل البصرة وحمزة والكسائى وحفص بالياء وقرأ الآخرون بالتاء يعنى المشركين (من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى) العالى على كل شىء (الكبير) العظيم الذى كل شىء دونه (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة) بالنبات (إن الله لطيف) بأرزاق عباده واستخراج النبات من الأرض (خبير) بما فى قلوب العباد إذا تأخر المطر عنهم (له مافى السموات ومافى الأرض) عبيدا وملكا (وإن الله لهو الغنى) عن عباده (الحميد) فى أفعاله (ألم تر أن الله سخر لكم مافى الأرض والفلك) يعنى وسخر لكم الفلك (تجرى فى البحر بأمره) وقيل مافى الأرض الدواب التى تركب فى البر والفلك التى تركب فى البحر (ويمسك السماء أن تقع على الأرض) لكيلا تسقط على الأرض (إلا باذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم وهو الذى أحياكم) يعنى أنشأكم ولم تكونوا شيئا (ثم يميتكم) عند انقضاء آجالكم (ثم يحييكم) يوم البعث للثواب والعقاب (إن الإنسان لكفور) لنعم الله (لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه) قال ابن عباس يعنى شريعة هم عاملون بها وروى عنه أنه قال عيدا قال قتادة ومجاهد موضع قربان يذبحون فيه . وقيل موضع عبادة وقيل مألفا يألفونه ، والمنسك فى كلام العرب الموضع المعتاد لعمل خير أو شر ومنه مناسك الحج لتردد الناس إلى أماكن أعمال الحج (فلا ينازعنك فى الأمر) يعنى فى أمر الذبائح نزلت فى بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان ويزيد بن خنيس قالوا لأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم مالكم تأكلون مما تقتلون بأيديكم ولا تأكلون مما قتله الله قال الزجاج معنى قوله لاينازعنك أى لاتنازعهم أنت كما يقال : لايخاصمك فلان أى لاتخاصمه وهذا جائز فيما يكون بين الاثنين ولا يجوز لا يضربنك فلان وأنت تريد لاتضربه وذلك أن المنازعة والمخاصمة لاتتم إلا باثنين فاذا ترك أحدهما فلامخاصمة هناك (وادع إلى ربك) إلى الإيمان بربك (إنك لعلى هدى مستقيم وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون) فتعرفون حينئذ الحق من الباطل والاختلاف ذهاب كل واحد من الخصمين إلى خلاف ماذهب إليه

(٢٦)

فى أحدهما وينقص من الآخر من الساعات وذلك لايقدر عليه إلا الله تعالى (وأن الله سميع بصير ذلك بأن الله هو الحق) أى ذو الحق فى قوله وفعله ، ودينه حق وعبادته حق (وأن مايدعون) يعنى المشركين (من دونه هو الباطل) يعنى الأصنام التى ليس عندها ضر ولا نفع (وأن الله هو العلى) أى العالى على كل شىء (الكبير) أى العظيم فى قدرته وسلطانه . قوله عز وجل (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة) يعنى بالنبات (إن الله لطيف) يعنى باستخراج النبات من الأرض رزقا للعباد والحيوان (خبير) يعنى بما فى قلوب العباد إذا تأخر المطر عنهم (له مافى السموات وما فى الأرض) يعنى عبيدا وملكا (وإن الله لهو الغنى الحميد) يعنى الغنى عن عباده الحميد فى أفعاله (ألم تر أن الله سخر لكم مافى الأرض) يعنى الدواب التى تركب فى البر (والفلك) أى وسخر لكم السفن (تجرى فى البحر بأمره) يعنى سخر لها الماء والرياح ولولا ذلك ماجرت (ويمسك السماء أن تقع) أى لكيلا تسقط (على الأرض إلا باذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم) يعنى أنه أنعم بهذه النعم الجامعة بمنافع الدنيا والدين وقد بلغ الغاية فى الإنعام والإحسان فهو إذن رءوف رحيم بكم (وهو الذي أحياكم) أى أنشأكم ولم تكونوا شيئا (ثم يميتكم) أي عند انقضاء آجالكم (ثم يحييكم) أي يوم البعث للثواب والعقاب (إن الإنسان لكفور) أى لجحود لنعم الله عز وجل . قوله تعالى (لكل أمة جعلنا منسكا) قال ابن عباس شريعة (هم ناسكوه) هم عاملون بها وعنه أنه قال عيدا وقيل موضع قربان يذبحون فيه وقيل موضع عبادة (فلا ينازعنك فى الأمر) أى فى أمر الذبائح نزلت فى بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان ويزيد بن خنيس قالوا لأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ما لكم تأكلون مما تقتلون بأيديكم ولاتأكلون مما قتله الله ؟ وقيل معناه لاتنازعهم أنت . قوله تعالى (وادع إلى ربك) أى إلى الإيمان به وإلى دينه (إنك لعلى هدى مستقيم) أى على دين واضح قويم (وإن جادلوك) يعنى خاصموك فى أمر الذبح وغيره (فقل الله أعلم بما تعملون) أى من التكذيب (الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون) يعنى فتعلمون حينئذ الحق من الباطل وقيل حكم يوم القيامة يتردد بين جنة وثواب لمن قبل وبين نار وعقاب لمن رد وأبى . قوله عز وجل (ألم

الآخر (ألم تعلم أن الله يعلم مافى السماء والأرض إن ذلك) كله (فى كتاب) يعنى اللوح المحفوظ (إن ذلك) يعنى علمه بجميع ذلك (على الله يسير ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا) حجةوبرهانا (وما ليس لهم به علم) يعنى أنهم فعلوا مافعلوا عن جهل لاعن علم (وما للظالمين) للمشركين (من نصير) مانع يمنعهم من عذاب الله (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) يعنى القرآن (تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر) يعنى الإنكار ، يتبين ذلك فى وجوههم من الكراهية والعبوس (يكادون يسطون) يعنى يقعون ويبسطون إليهم أيديهم بالسوء وقيل يبطشون (بالذين يتلون عليهم آياتنا) يعنى بمحمد وأصحابه من شدة الغيظ يقال سطا عليه وسطا به إذا تناوله بالبطش والعنف ، وأصل **(٢٧)** السطو القهر (قل) يا محمد (أفأنبئكم بشر من ذلكم) يعنى بشر لكم وأكره إليكم من القرآن الذى تستمعون (النار) يعنى هى النار (وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير يأيها الناس ضرب مثل) معنى ضرب جعل كقولهم ضرب السلطان البعث على الناس وضرب الجزية على أهل الذمة أى جعل ذلك عليهم ومعنى الآية جعل لى شبه وشبه بى الأوثان أى جعل المشركون الأصنام شركائى فعبدوها ومعنى (فاستمعوا له) يعنى فاستمعوا حالها وصفتها ثم بين ذلك فقال (إن الذين تدعون من دون الله) يعنى الأصنام قرأ يعقوب بالياء والباقون بالتاء (لن يخلقوا ذبابا) واحدا فى صغره وقلته لأنها لاتقدر عليه والذباب واحد وجمعه القليل أذبة والكثير ذباب مثل غراب وأغربة وغربان (ولو اجتمعوا له) يعنى لخلقه (وإن يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه) قال ابن عباس : كانوا يطلون الأصنام بالزعفران فاذا جف جاء الذباب فاستلب منه وقال السدى كانوا يضعون الطعام بين يدى الأصنام فتقع الذباب عليه فيأكلن منه وقال ابن زيد كانوا يحلون الأصنام باليواقيت واللآلىء وأنواع الجواهر ويطيبونها بألوان الطيب فربما يسقط منها واحدة فيأخذها طائر أو ذباب فلا تقدر الآلهة على استردادها فذلك قوله وإن يسلبهم الذباب شيئا أى وإن يسلب الذباب الأصنام شيئا مما عليها لايقدرون أن يستنقذوه منه (ضعف الطالب والمطلوب) قال ابن عباس الطالب الذباب يطلب مايسلب من الطيب من الصنم والمطلوب الصنم يطلب الذباب منه السلب وقيل على العكس الطالب الصنم

(ألم تعلم) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه الأمة (أن الله يعلم مافى السماء والأرض إن ذلك فى كتاب) يعنى فى اللوح المحفوظ (إن ذلك) يعنى علمه بجميعه (على الله يسير) أى هين وقيل إن كتب الحوادث مع أنها من الغيب على الله يسير (ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا) يعنى حجة ظاهرة من دليل سمعى (وما ليس لهم به علم) يعنى أنهم فعلوا مافعلوه عن جهل لاعن علم ولادليل عقلى (وما للظالمين) يعنى المشركين (من نصير) يعنى مانع يمنعهم من العذاب (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) يعنى القرآن وصفه بذلك لأن فيه بيان الأحكام والفصل بين الحلال والحرام (تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر) يعنى الإنكار والكراهة يتبين ذلك فى وجوههم (يكادون يسطون) يعنى يقعون ويبسطون إليكم أيديهم بالسوء وقيل يبطشون (بالذين يتلون عليهم آياتنا) أى بمحمد وأصحابه من شدة الغيظ (قل) يعنى قل لهم يا محمد (أفأنبئكم بشر من ذلكم) يعنى بشر لكم وأكره إليكم من هذا القرآن الذى تستمعون (النار) يعنى هى النار (وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير) قوله تعالى(يأيها الناس ضرب مثل) فان قلت الذى جاء به ليس بمثل فكيف سماه مثلا . قلت لما كان المثل في الأكثر نكتة عجيبة غريبة جاز أن يسمى كل كلام كان كذلك مثلا . وقال فى الكشاف قد سميت الصفة والقصة الرائقة المتلقاة بالاستحسان والاستغراب مثلا تشبيها لها ببعض الأمثال المسيرة لكونها مسيرة عندهم مستحسنة مستغربة (فاستمعوا له) يعنى تدبروه حق تدبره فان الاستماع بلا تدبر وتعقل لاينفع والمعنى جعل لى شبيه وشبه به الأوثان أى جعل المشركون الأصنام شركائى يعبدونها ثم بين حالها وصفتها فقال تعالى (إن الذين تدعون من دون الله) يعنى الأصنام (لن يخلقوا ذبابا) يعنى واحدا في صغره وضعفه وقلته لأنها لاتقدر على ذلك (ولو اجتمعوا له) يعنى لخلقه ، والمعنى أن هذه الأصنام لو اجتمعت لم يقدروا على خلق ذبابة على ضعفها وصغرها فكيف يليق بالعاقل جعلها معبودا له (وإن يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه) قال ابن عباس كانوا يطلون الأصنام بالزعفران فاذا جف جاء الذباب فاستلبه منه وقيل كانوا يضعون الطعام بين أيدي الأصنام فيقع الذباب عليه ويأكل منه (ضعف الطالب والمطلوب) قال ابن عباس الطالب الذباب يطلب مايسلب من الطيب الذى على الصنم والمطلوب هو الصنم وقيل الطالب الصنم والمطلوب الذباب أى لو طلب الصنم أن يخلق الذباب لعجز عنه وقيل الطالب

والمطلوب الذباب ، وقال الضحاك الطالب العابد والمطلوب المعبود (ما قدروا الله حق قدره) ماعظموه حق عظمته وما عرفوه حق معرفته ولا وصفوه حق صفته أن أشركوا به مالا يمتنع من الذباب ولاينتصف منه (إن الله لقوى عزيز الله يصطفى) يعنى يختار (من الملائكة رسلا) وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وغيرهم (ومن الناس) يعنى يختار من الناس رسلا مثل إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام ، نزلت حين قال المشركون «أأنزل عليه الذكر من بيننا» فأخبر أن الاختيار إليه يختار من يشاء من خلقه (إن الله سميع بصير) يعنى سميع لقولهم بصير بمن يختاره لرسالته (يعلم مابين أيديهم) قال ابن عباس ماقدموا (وما خلفهم) ماخلفوا وقال الحسن مابين أيديهم ما عملوا وما خلفهم ماهم عاملون من بعد وقيل مابين أيديهم ملائكته وكتبه ورسله قبل أن خلقهم وما خلفهم أى ويعلم ما هو كائن بعد فنائهم (وإلى الله ترجع الأمور يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا) يعنى صلوا لأن الصلاة لا تكون إلا بالركوع والسجود (واعبدوا ربكم) أى وحدوه (وافعلوا الخير) قال ابن عباس صلة الرحم ومكارم الأخلاق (لعلكم تفلحون) لكى تسعدوا وتفوزوا بالجنة **(٢٨)**

واختلف أهل العلم فى سجود التلاوة عقيب قراءة هذه الآية فذهب قوم إلى أنه يسجد عندها وهو قول عمر وعلى وابن مسعود وابن عباس وبه قال ابن المبارك والشافعى وأحمد وإسحاق واحتجوا بما أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبى أنا أبو محمد عبدالجبار بن محمد الجراحى أنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبى أنا أبو عيسى الترمذي أنا قتيبة أنا ابن لهيعة عن مشرح بن هاعان عن عقبة بن عامر قال قلت يارسول الله «فضلت سورة الحج بأن فيها سجدتين قال نعم ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما» وذهب قوم إلى أنه لايسجد هاهنا وهو قول سفيان الثورى وأصحاب الرأى. وعدة سجود القرآن أربعة عشر عند أكثر أهل العلم منها ثلاث فى المفصل وذهب قوم إلى أنه ليس فى المفصل سجود روى ذلك عن أبى بن كعب وابن عباس وبه قال مالك وقد صح عن أبى هريرة قال «سجدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اقرأ وإذا السماء انشقت» وأبو هريرة من متأخرى الإسلام . واختلفوا فى سجود صاد فذهب الشافعى إلى أنه سجود شكر ليس من عزائم السجود ويروى ذلك عن ابن عباس وذهب قوم إلى أنه يسجد فيها روى ذلك عن عمر وبه قال سفيان الثورى وابن المبارك وأصحاب الرأى وأحمد وإسحاق ، فعند ابن المبارك وإسحاق وأحمد وجماعة سجود القرآن خمسة عشر سجدة فعدوا سجدتى الحج وسجدة ص وروى عن عمرو بن العاص «أن النبى صلى الله عليه وسلم أقرأه خمسة عشرة

عابد الصنم والمطلوب هو الصنم (ماقدروا الله حق قدره) يعنى ماعظموه حق عظمته وماعرفوه حق معرفته ولا وصفوه حق صفته حيث أشركوا به مالا يمتنع من الذباب ولا ينتصف منه (إن الله لقوى عزيز) يعنى غالب لايقهر . قوله عز وجل (الله يصطفى من الملائكة) يعنى يختار من الملائكة (رسلا) جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وغيرهم (ومن الناس) يعنى يختار الله من الناس رسلا مثل إبراهيم وعيسى ومحمد وغيرهم من الأنبياء والرسل صلى الله عليهم أجمعين . نزلت حين قال المشركون أأنزل عليه الذكر من بيننا فأخبر الله تعالى أن الاختيار إليه يختار من يشاء من عباده لرسالته (إن الله سميع) يعنى بأقوالهم (بصير) يعنى لأفعالهم لاتخفى عليه خافية . قوله تعالى (يعلم مابين أيديهم) قال ابن عباس ماقدموا (وما خلفهم) يعنى ماخلفوا وقيل يعلم ماعملوا ماهم عاملون وقيل يعلم مابين أيدي ملائكته ورسله قبل أن يخلقهم ويعلم ماهو كائن بعد فنائهم (وإلى الله ترجع الأمور) يعنى فى الآخرة. قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا) يعنى صلوا لأن الصلاة لاتكون إلا بالركوع والسجود (واعبدوا ربكم) يعنى وحدوه وقيل أخلصوا له العبادة (وافعلوا الخير) قال ابن عباس صلة الأرحام ومكارم الأخلاق وقيل فعل الخير ينقسم إلى خدمة المعبود الذى هو عبارة عن التعظيم لأمر الله تعالى وإلى الإحسان الذى هو عبارة عن الشفقة على خلق الله ويدخل فيه البر والمعروف والصدقة وحسن القول وغير ذلك من أعمال البر (لعلكم تفلحون) يعنى لكى تسعدوا وتفوزوا بالجنة .

(فصل : فى حكم سجود التلاوة هنا)

لم يختلف العلماء فى السجدة الأولى من هذه السورة واختلفوا فى السجدة الثانية فروي عن عمر وعلى وابن عمر وابن مسعود وابن عباس وأبى الدرداء وأبى موسى أنهم قالوا فى الحج سجدتان

سجدة فى القرآن» قوله (وجاهدوا فى الله حق جهاده) قيل جاهدوا فى سبيل الله أعداء الله حق جهاده هو استفراغ الطاقة فيه قاله ابن عباس وعنه أيضا أنه قال لاتخافوا فى الله لومة لائم فهو حق الجهاد كما قال تعالى «يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم» قال الضحاك ومقاتل اعملوا لله حق عمله واعبدوه حق عبادته وقال مقاتل بن سليمان نسخها قوله «فاتقوا الله ما استطعتم» وقال أكثر المفسرين حق الجهاد أن تكون نيته خالصة صادقة لله عز وجل وقال السدى هو أن يطاع فلا يعصى، وقال عبد الله بن المبارك هو مجاهدة النفس والهوى وهو الجهاد الأكبر وهو حق الجهاد، وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة تبوك قال: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» وأراد بالجهاد الأصغر الجهاد مع الكفار وبالجهاد الأكبر الجهاد مع النفس (هو اجتباكم) يعنى اختاركم لدينه (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) ضيق معناه أن المؤمن لا يبتلى بشىء من الذنوب إلا جعل الله له منه مخرجا بعضها بالتوبة وبعضها برد المظالم والقصاص وبعضها بأنواع الكفارات

(٢٩)

سجدتان وبه قال ابن المبارك والشافعى وأحمد وإسحاق، يدل عليه ماروى عن عقبة بن عامر قال «قلت يارسول الله فى الحج سجدتان قال نعم ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما» أخرجه الترمذى وأبو داود. وعن عمر بن الخطاب «أنه قرأ سورة الحج فسجد فيها سجدتين وقال إن هذه السورة فضلت بسجدتين» أخرجه مالك فى الموطأ وذهب قوم إلى أن فى الحج سجدة واحدة وهى الأولى وليست هذه بسجدة وهو قول الحسن وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وسفيان الثورى وأبى حنيفة ومالك بدليل أنه قرن السجود بالركوع فدل ذلك أنها سجدة صلاة لا سجدة تلاوة واختلف العلماء فى عدة سجود التلاوة فذهب الشافعى وأحمد وأكثر أهل العلم إلى أنها أربع عشرة سجدة لكن الشافعى قال فى الحج سجدتان وأسقط سجدة ص وقال أبو حنيفة فى الحج سجدة وأثبت سجدة ص وبه قال أحمد فى إحدى الروايتين عنه فعنده أن السجدات خمس عشرة سجدة. وذهب قوم إلى أن المفصل ليس فيه سجود يروى ذلك عن أبى بن كعب وابن عباس وبه قال مالك فعلى هذا يكون سجود القرآن إحدى عشرة سجدة يدل عليه ماروى عن أبى الدرداء أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «فى القرآن إحدى عشرة سجدة» أخرجه أبو داود وقال إسناده واه. ودليل من قال فى القرآن خمس عشرة سجدة ماروى عن عمرو بن العاص قال «أقرأنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن خمس عشرة سجدة منها ثلاث فى المفصل وفى سورة الحج سجدتان» أخرجه أبو داود وصح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال «سجدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اقرأ وإذا السماء انشقت» أخرجه مسلم وسجود التلاوة سنة للقارئ والمستمع وبه قال الشافعى وقال أبو حنيفة هو واجب. قوله عز وجل (وجاهدوا فى الله حق جهاده) أى جاهدوا فى سبيل الله أعداء الله ومعنى حق جهاده هو استفراغ الطاقة فيه قاله ابن عباس وعنه أنه قال لاتخافوا فى الله لومة لائم فهو حق الجهاد كما تجاهدون فى سبيل الله ولا تخافون لومة لائم وقيل معناه اعملوا لله حق عمله واعبدوه حق عبادته قيل نسخها قوله تعالى «فاتقوا الله ما استطعتم» وقال أكثر المفسرين حق الجهاد أن يكون بنية صادقة خالصة لله ولتكون كلمة الله هى العليا بدليل قوله صلى الله عليه وسلم «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله» أخرجاه فى الصحيحين من حديث أبى موسى الأشعرى وقيل مجاهدة النفس والهوى هو حق الجهاد وهو الجهاد الأكبر روى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة تبوك قال «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» ذكره البغوى بغير سند قيل أراد بالأصغر جهاد الكفار وبالأكبر جهاد النفس (هو اجتباكم) يعنى اختاركم لدينه والاشتغال بخدمته وعبادته وطاعته فأى رتبة أعلى من هذا وأى سعادة فوق هذا (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) أى ضيق وشدة وهو أن المؤمن لا يبتلى بشىء من الذنوب إلا جعل الله له منه مخرجا بعضها بالتوبة وبعضها برد المظالم والقصاص وبعضها بأنواع الكفارات من الأمراض والمصائب وغير

فليس فى دين الإسلام مالا يجد العبد سبيلا إلى الخلاص من العقاب فيه، وقيل من ضيق فى أوقات فروضكم مثل هلال شهر رمضان والفطر ووقت الحج إذا التبس ذلك عليكم وسع الله عليكم حتى تتيقنوا وقال مقاتل يعنى الرخص عند الضرورات كقصر الصلاة فى السفر والتيمم عند فقد الماء وأكل الميتة عند الضرورة والإفطار بالسفر والمرض والصلاة قاعدا عند العجز عن القيام وهو قول الكلبى وروى عن ابن عباس أنه قال الحرج ما كان على بنى إسرائيل من الأعمال التى كانت

عليهم وضعها الله عن هذه الأمة (ملة أبيكم إبراهيم) يعنى كلمة أبيكم نصب بنزع حرف الصفة وقيل نصب على الإغراء يعنى اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم وإنما أمرنا باتباع ملة إبراهيم لأنها داخلة فى ملة محمد صلى الله عليه وسلم . فان قيل فما وجه قوله ملة أبيكم وليس كل المسلمين يرجع نسبهم إلى إبراهيم قيل خاطب به العرب وهم كانوا من نسل إبراهيم وقيل خاطب به جميع المسلمين وإبراهيم أب لهم (٣٠) على معنى وجوب احترامه وحفظ حقه كما يجب احترام الأب وهو كقوله تعالى «وأزواجه أمهاتهم» وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إنما أنا لكم مثل الوالد » (هو سماكم) يعنى أن الله تعالى سماكم (المسلمين من قبل) يعنى من قبل نزول القرآن فى الكتب المتقدمة (وفى هذا) يعنى وفى هذا الكتاب هذا قول أكثر المفسرين وقال ابن زيد هو يرجع إلى إبراهيم سماكم المسلمين فى أيامه من قبل هذا الوقت وفى هذا الوقت وهو قوله «ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » (ليكون الرسول شهيدا عليكم) يوم القيامة أن قد بلغكم (وتكونوا) أنتم (شهداء على الناس) أن رسلهم قد بلغتهم (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله) ثقوا بالله وتوكلوا عليه قال الحسن تمسكوا بدين الله وروى عن ابن عباس قال سلوا ربكم أن يعصمكم من كل ما يكره ، وقيل معناه ادعوه ليثبتكم على دينه وقيل الاعتصام بالله هو التمسك بالكتاب والسنة (هو مولاكم) وليكم وناصركم وحافظكم (فنعم المولى ونعم النصير) الناصر لكم . (سورة المؤمنون) مكية وهى مائة وتسع عشرة آية فقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) أخبرنا أبو حامد أحمد بن عبد السلام الصالحى أنا أحمد بن الحسين الحيرى أنا حاجب بن أحمد الطوسى أنا محمد بن حماد أنا عبد الرزاق أنا يونس بن سليمان قال أملى على يونس صاحب أيلة عن ابن هشام عن عروة بن الزبير عن

ذلك فليس فى دين الإسلام ما لا يجد العبد فيه سبيلا إلى الخلاص من الذنوب ومن العقاب لمن وفق وقيل معناه رفع الضيق فى أوقات فروضكم مثل هلال شهر رمضان والفطر ووقت الحج إذا التبس عليكم وسع ذلك عليكم حتى تتيقنوا وقيل معناه الرخص عند الضرورات كقصر الصلاة والفطر فى السفر والتيمم عند عدم الماء وأكل الميتة عند الضرورة والصلاة قاعدا والفطر مع العجز بعذر المرض ونحو ذلك من الرخص التى رخص الله لعباده ، قيل أعطى الله هذه الأمة خصلتين لم يعطهما أحدا غيرهم جعلهم شهداء على الناس وما جعل عليهم فى الدين من حرج وقال ابن عباس الحرج ما كان على بنى إسرائيل من الآصار التى كانت عليهم وضعها الله عن هذه الأمة (ملة أبيكم إبراهيم) لأنها داخلة فى ملة محمد صلى الله عليه وسلم . فان قلت لم يكن إبراهيم أبا للأمة كلها فكيف سماه أبا فى قوله « ملة أبيكم إبراهيم » . قلت إن كان الخطاب للعرب فهو أبو العرب قاطبة وإن كان الخطاب لكل المسلمين فهو أبو المسلمين . والمعنى أن وجوب احترامه وحفظ حقه يجب كما يجب احترام الأب فهو كقوله «وأزواجه أمهاتهم» وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما أنا لكم كالوالد» وفى قوله (هو سماكم المسلمين من قبل) قولان أحدهما أن الكناية ترجع إلى الله تعالى يعنى أن الله سماكم المسلمين في الكتب القديمة من قبل نزول القرآن القول الثانى أن الكناية راجعة إلى إبراهيم يعنى أن إبراهيم سماكم المسلمين فى أيامه من قبل هذا الوقت وهو قوله « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » فاستجاب الله دعاءه فينا (وفى هذا) أى وفى القرآن سماكم المسلمين (ليكون الرسول شهيدا عليكم) أي يوم القيامة أن قد بلغكم (وتكونوا شهداء على الناس) أى تشهدون يوم القيامة على الأمم أن رسلهم قد بلغتهم (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله) يعنى ثقوا به وتوكلوا عليه وقيل تمسكوا بدين الله . وقال ابن عباس سلوا ربكم أن يعصمكم من كل ما يكره وقيل معناه ادعوا ربكم أن يثبتكم على دينه وقيل الاعتصام هو التمسك بالكتاب والسنة (هو مولاكم) يعنى وليكم وناصركم وحافظكم (فنعم المولى ونعم النصير) أى الناصر لكم والله تعالى أعلم .

(تفسير سورة المؤمنين)

وهى مكية وهى مائة وثمان عشرة آية وألف وثمانمائة وأربعون كلمة وأربعة آلاف وثمانمائة حرف وحرفان .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحى يسمع عند وجهه دوي كدوى النحل فأنزل الله عليه يوما فمكث ساعة ثم سرى عنه

عبدالرحمن بن عبدالقارى قال سمعت عمر بن الخطاب يقول «كان إذا نزل على النبي ﷺ الوحي يسمع عند وجهه دوى كدوى النحل فمكثنا ساعة وفى رواية فنزل عليه يوما فمكثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولاتؤثر علينا وارض عنا ثم قال لقد أنزل على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ قد أفلح المؤمنون إلى عشر آيات» ورواه أحمد بن حنبل وعلى بن المديني وجماعة عن عبد الرزاق وقالوا «وأعطنا ولا تحرمنا وأرضنا وارض عنا» قوله تعالى (قد أفلح المؤمنون) قد حرف تأكيد وقال المحققون قد يقرب الماضى من الحال يدل على أن الفلاح قد حصل لهم وأنهم عليه فى الحال وهو أبلغ من تجريد ذكر الفعل والفلاح النجاة والبقاء . قال ابن عباس قد سعد المصدقون بالتوحيد وبقوا فى الجنة (الذين هم فى صلاتهم خاشعون) اختلفوا فى معنى الخشوع فقال ابن عباس مخبتون أذلاء وقال الحسن وقتادة خائفون وقال مقاتل متواضعون وقال مجاهد هو غض البصر وخفض الصوت والخشوع قريب من الخضوع إلا أن الخضوع فى البدن والخشوع فى القلب والبصر والصوت قال الله عز وجل «وخشعت الأصوات للرحمن» وعن على رضى الله عنه هو أن لا يلتفت يمينا ولا شمالا وقال سعيد بن جبير هو أن لا يعرف من على يمينه ولا من على شماله ولا يلتفت من الخشوع لله عز وجل . أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد النعيمى أنا محمد ابن يوسف أنا محمد بن إسماعيل حدثنا مسدد أنا أبو الأحوص أنا أشعث بن سليم عن أبيه عن مسروق عن عائشة قالت سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات فى الصلاة فقال هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد» وأخبرنا أبو الحسن السرخسى أنا أبو على زاهر بن أحمد أنا أبو الحسن القاسم بن بكر الطيالسى ببغداد أنا أبو أمية محمد بن إبراهيم الطرسوسى أنا عبد الغفار بن عبيد الله أنا صالح بن أبى الأخضر عن الزهرى عن أبى الأحوص عن أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «لا يزال الله مقبلا على العبد وهو فى صلاته مالم يلتفت فاذا التفت انصرف عنه» وقال عمرو بن دينار هو السكون وحسن الهيئة وقال ابن سيرين وغيره هو أن لا ترفع بصرك عن موضع سجودك وقال أبو هريرة «كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة فلما نزل الذين هم فى صلاتهم خاشعون رموا بأبصارهم إلى مواضع السجود» أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا على بن عبد الله أنا يحيى بن سعيد أنا ابن أبى عروبة أنا قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال قال النبى صلى الله عليه وسلم «ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء فى صلاتهم فاشتد قوله فى ذلك حتى قال لينتهن عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم» وقال عطاء هو أن لا تعبث بشىء من جسدك فى الصلاة

(٣١)

فقرأ قد أفلح المؤمنون إلى عشر آيات من أولها وقال من أقام هذه العشر آيات دخل الجنة ثم استقبل القبلة ورفع يديه وقال اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا اللهم أرضنا وارض عنا» أخرجه الترمذى . قوله عز وجل (قد أفلح المؤمنون) قال ابن عباس قد سعد المصدقون بالتوحيد وبقوا فى الجنة وقيل الفلاح البقاء والنجاة (الذين هم فى صلاتهم خاشعون) قال ابن عباس مخبتون أذلاء خاضعون وقيل خائفون وقيل متواضعون وقيل الخشوع من أفعال القلب كالخوف والرهبة وقيل هو من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات وغض البصر وقيل لابد من الجمع بين أفعال القلب والجوارح وهو الأولى فالخاشع فى صلاته لابد وأن يحصل له الخشوع فى جميع الجوارح . فأما مايتعلق بالقلب من الأفعال فنهاية الخضوع والتذلل للمعبود ولا يلتفت الخاطر إلى شىء سوى ذلك التعظيم وأما مايتعلق بالجوارح فهو أن يكون ساكنا مطرقا ناظرا إلى موضع سجوده وقيل الخشوع هو أن لا يعرف من على يمينه ولا من على شماله (ق) عن عائشة قالت «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات فى الصلاة فقال هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد» الاختلاس هو الاختطاف عن أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «لايزال الله مقبلا على العبد وهو فى صلاته مالم يلتفت فاذا التفت انصرف عنه» وفى رواية «أعرض عنه» أخرجه أبو داود والنسائى وقيل الخشوع هو أن لا يرفع بصره إلى السماء (خ) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مابال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء فى صلاتهم فاشتد قوله فى ذلك حتى قال لينتهن عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم» وقال أبو هريرة كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة فلما نزل الذين هم فى صلاتهم خاشعون» رمقوا بأبصارهم إلى موضع السجود وقيل الخشوع هو أن لا يعبث بشىء من جسده

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم « أبصر رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة فقال لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه » أخبرنا أبوعثمان الضبي أنا أبو محمد الجراحي أنا أبو العباس المحبوبى أنا أبوعيسى الترمذى أنا سعيد عن عبدالرحمن المخزومى أنا سفيان ابن عيينة عن الزهرى عن أبي الأحوص عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يمسح الحصى فان الرحمة تواجهه » وقيل الخشوع فى الصلاة هو جمع الهمة والإعراض عما سواها والتدبر فيما يجرى على لسانه من القراءة والذكر . قوله تعالى (والذين هم عن اللغو معرضون) قال عطاء عن ابن عباس عن الشرك وقال الحسن عن المعاصى وقال الزجاج عن كل باطل ولهو ومالا يجمل من القول والفعل وقيل هو معارضة الكفار بالشتم والسب قال الله تعالى « وإذا مروا باللغو مروا كراما » أى إذا سمعوا الكلام القبيح أكرموا أنفسهم عن الدخول فيه (والذين هم للزكاة فاعلون) أى للزكاة الواجبة مؤدون فعبر عن التأدية بالفعل لأنها فعل . وقيل الزكاة هاهنا هو العمل الصالح أى والذين هم للعمل الصالح فاعلون (والذين هم لفروجهم حافظون) الفرج اسم يجمع سوأة الرجل والمرأة وحفظ الفرج التعفف عن الحرام (إلا على أزواجهم) أى من أزواجهم وعلى بمعنى من (أو ماملكت أيمانهم) ما فى محل الخفض يعنى أو ماملكت أيمانهم والآية فى الرجال خاصة بدليل قوله « أو ماملكت أيمانهم » والمرأة لايجوز أن تستمتع بفرج مملوكها (فانهم غير ملومين) يعنى يحفظ فرجه إلا من امرأته أو أمته فانه لايلام على ذلك وإنما الإيلام فيهما إذا كان على وجه أذن فيه الشرع دون الإتيان وغير فى غير المأتى وفى حال الحيض والنفاس فانه محظور وهو على فعله ملوم (فمن ابتغى وراء ذلك) أى التمس وطلب سوى الأزواج والولائد المملوكة (فأولئك هم العادون) الظالمون المتجاوزون من الحلال وإلى الحرام وفيه دليل على أن الاستمناء باليد حرام وهو قول أكثر العلماء قال ابن جريج سألت عطاء عنه فقال مكروه سمعت أن قوما يحشرون وأيديهم حبالى فأظن أنهم هؤلاء وعن سعيد بن جبير قال « عذب الله أمة كانوا يعبثون بمذاكيرهم » (والذين هم لأماناتهم) قرأ ابن كثير لأمانتهم على التوحيد هاهنا وفى سورة المعارج كقوله تعالى « وعهدهم » والباقون بالجمع كقوله عز وجل « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها (وعهدهم راعون) حافظون أى يحفظون ما ائتمنوا عليه والعقود التى عاقدوا الناس عليها يقومون بالوفاء بها والأمانات تختلف فتكون بين الله تعالى وبين العباد كالصلاة والصيام والعبادات التى أوجبها الله عليه ويكون من العبيد

فى الصلاة لما روى « أن النبي صلى الله عليه وسلم أبصر رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة فقال لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه » ذكره البغوى بغير سند . عن أبى ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يمسح الحصى فان الرحمة تواجهه » أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وقيل الخشوع فى الصلاة هو جمع الهمة والإعراض عما سوى الله والتدبر فيما يجرى على لسانه من القراءة والذكر . قوله تعالى (والذين هم عن اللغو معرضون) قال ابن عباس عن الشرك وقيل عن المعاصى وقيل هو كل باطل ولهو ومالا يجمل من القول والفعل وقيل هو معارضة الكفار بالشتم والسب (والذين هم للزكاة فاعلون) أى الزكاة الواجبة مؤدون فعبر عن التأدية بالفعل لأنها فعل وقيل الزكاة هاهنا هى العمل الصالح والأول أولى (والذين هم لفروجهم حافظون) الفرج اسم لسوأة الرجل والمرأة وحفظه التعفف عن الحرام (إلا على أزواجهم) على بمعنى من (أو ماملكت أيمانهم) يعنى الإماء والجواري والآية فى الرجال خاصة لأن المرأة لايجوز لها أن تستمتع بفرج مملوكها (فانهم غير ملومين) يعنى بعدم حفظ فرجه من امرأته وأمته فانه لايلام على ذلك وإنما لايلام فيما إذا كان على وجه أذن فيه الشرع دون الإتيان فى غير المأتى وفى حال الحيض والنفاس فانه محظور فلا يجوز ومن فعله فانه ملوم (فمن ابتغى وراء ذلك) أى التمس وطلب سوى الأزواج والولائد وهن الجوارى المملوكة (فأولئك هم العادون) أى الظالمون المجاوزون الحد من الحلال إلى الحرام وفيه دليل على أن الاستمناء باليد حرام وهو قول أكثر العلماء سئل عطاء عنه فقال مكروه سمعت أن قوما يحشرون وأيديهم حبالى فأظن أنهم هؤلاء وقال سعيد بن جبير عذب الله أمة كانوا يعبثون بمذاكيرهم . قوله عز وجل (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) أى حافظون يحفظون ما ائتمنوا عليه والعقود التى عاقدوا الناس عليها يقومون بالوفاء بها . والأمانات تختلف فمنها ما يكون بين العبد وبين الله تعالى كالصلاة والصوم وغسل الجنابة وسائر العبادات التى أوجبها الله تعالى على العباد فيجب الوفاء بجميعها ومنها مايكون بين العباد كالودائع والصنائع والأسرار

كالودائع والصنائع فعلى العبد الوفاء بجميعها (والذين هم على صلواتهم) قرأ حمزة والكسائى صلاتهم على التوحيد والآخرون صلواتهم على الجمع (يحافظون) أى يداومون على حفظها ويراعون أوقاتها كرر ذكر الصلاة ليبين أن المحافظة عليها واجبة كما أن الخشوع فيها واجب (أولئك) أهل هذه الصفة (هم الوارثون) يرثون منازل أهل النار من الجنة. وروى عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار فان مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله وذلك قوله تعالى: أولئك هم الوارثون» وقال مجاهد لكل واحد منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار فأما المؤمن فيبنى منزله الذى له فى الجنة ويهدم منزله (٣٣) الذى له فى النار «وأما الكافر فيهدم منزله الذى فى الجنة ويبنى منزله الذى فى النار» وقال بعضهم معنى الوراثة هو أنه يئول أمرهم إلى الجنة وينالونها كما يئول أمر الميراث إلى الوارث قوله تعالى (الذين يرثون الفردوس) وهو أعلى الجنة قد ذكرناه فى سورة الكهف (هم فيها خالدون) لا يموتون ولا يخرجون وجاء فى الحديث «إن الله تعالى خلق ثلاثة أشياء بيده خلق آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس الفردوس بيده ثم قال وعزتى لا يدخلها مدمن خمر ولا ديوث» وقوله عز وجل (ولقد خلقنا الإنسان) يعنى ولد آدم والإنسان اسم الجنس يقع على الواحد والجمع (من سلالة) روى عن ابن عباس أنه قال السلالة صفوة الماء. وقال مجاهد منى بنى آدم. وقال عكرمة هو ماء يسيل من الظهر والعرب تسمى النطفة سلالة والولد سليلا وسلالة لأنهما مسلولان منه قوله (من طين) يعنى طين آدم والسلالة تولدت من طين خلق آدم منه قال الكلبى من نطفة سلت من طين والطين آدم عليه السلام وقيل المراد من الإنسان هو آدم وقوله من سلالة أى سل من كل تربة (ثم جعلناه نطفة) يعنى الذى هو الإنسان جعلناه نطفة (فى قرار مكين) حريز وهو الرحم مكن وهيئ لاستقرارها فيه إلى بلوغ أمدها (ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما) قرأ ابن عامر وأبو بكر عظما فكسونا العظم بسكون الظاء على التوحيد فيهما وقرأ الآخرون بالجمع لأن الإنسان ذو عظام كثيرة وقيل بين كل خلقتين أربعون عاما (فكسونا العظام لحما) أى ألبسنا (ثم أنشأناه خلقا آخر) اختلف

وغير ذلك فيجب الوفاء به أيضا (والذين هم على صلواتهم يحافظون) أى يداومون ويراعون أوقاتها وإتمام أركانها وركوعها وسجودها وسائر شروطها. فان قلت كيف كرر ذكر الصلاة أولا وآخرا. قلت هما ذكران مختلفان فليس تكرارا وصفهم أولا بالخشوع فى الصلاة وآخرا بالمحافظة عليها. قوله عز وجل (أولئك) يعنى أهل هذه الصفة (هم الوارثون) يعنى يرثون منازل أهل النار من الجنة. عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار فمن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله وذلك قوله تعالى: أولئك هم الوارثون» ذكره البغوى بغير سند وقيل معنى الوراثة هو أن يئول أمرهم إلى الجنة وينالوها كما يئول أمر الميراث إلى الوارث (الذين يرثون الفردوس) هو أعلى الجنة. عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن فى الجنة مائة درجة ما بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها درجة ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة ومن فوقها يكون العرش فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس» أخرجه الترمذى (هم فيها خالدون) أى لا يخرجون منها ولا يموتون. قوله عز وجل (ولقد خلقنا الإنسان) يعنى ولد آدم الإنسان اسم جنس (من سلالة من طين) قال ابن عباس السلالة صفوة الماء وقيل هى المنى لأن النطفة تسل من الظهر من طين يعنى طين آدم لأن السلالة تولدت من طين خلق منه آدم وقيل المراد من الإنسان هو آدم «وقوله من سلالة أى سل من كل تربة (ثم جعلناه نطفة) يعنى الذى هو الإنسان جعلناه نطفة (فى قرار مكين) أى حريز وهو الرحم وسمى مكينا لاستقرار النطفة فيه إلى وقت الولادة (ثم خلقنا النطفة علقة) أى صيرنا النطفة قطعة دم جامد (فخلقنا العلقة مضغة) أى جعلنا الدم الجامد قطعة لحم صغيرة (فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما) وذلك لأن اللحم يستر العظم فجعله كالكسوة له. قيل إن بين كل خلق وخلق أربعين يوما (ثم أنشأناه خلقا آخر) أى مباينا للخلق الأول قال ابن عباس هو نفخ الروح فيه وقيل جعله حيوانا بعد ما كان جمادا وناطقا بعد ما كان أبكم وسميعا وكان أصم وبصيرا وكان أكمه وأودع باطنه وظاهره عجائب صنعه وغرائب فطره وعن ابن عباس قال إن ذلك تصريف أحواله بعد الولادة من الاستهلال إلى الرضاع إلى القعود والقيام إلى المشى إلى الفطام إلى أن يأكل ويشرب إلى أن

المفسرون فيه فقال ابن عباس ومجاهد والشعبي وعكرمة والضحاك وأبو العالية هو نفخ الروح فيه وقال قتادة نبات الأسنان والشعر وروى ابن جريج عن مجاهد أنه استواء الشباب وعن الحسن قال ذكرا أو أنثى وروى العوفى عن ابن عباس أن ذلك تصريف أحواله بعد الولادة من الاستهلال إلى الارتضاع إلى القعود إلى القيام إلى المشى إلى الفطام إلى أن يأكل ويشرب إلى أن يبلغ الحلم ويتقلب فى البلاد إلى مابعدها (فتبارك الله) أى استحق التعظيم والثناء بأنه لم يزل ولا يزال (أحسن الخالقين) المصورين والمقدرين . والخلق فى اللغة التقدير وقال مجاهد يصنعون ويصنع الله والله خير الصانعين يقال رجل خالق أى صانع وقال ابن جريج إنما جمع الخالقين لأن عيسى كان يخلق كما قال «إنى أخلق لكم من الطين» فأخبر الله عن نفسه بأنه أحسن الخالقين (٣٤) (ثم إنكم بعد ذلك لميتون) والميت بالتشديد والمائت الذى لم يمت بعد وسيموت والميت بالتخفيف من مات ولذلك لم يجز التخفيف هاهنا كقوله «إنك ميت وإنهم ميتون» (ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق) أى سبع سموات سميت طرائق لتطارقها وهو أن بعضها فوق بعض يقال طارقت النعل إذا جعلت بعضه فوق بعض وقيل سميت طرائق لأنها طرائق الملائكة (وما كنا عن الخلق غافلين) أى كنا لهم حافظين من أن تسقط السماء عليهم فتهلكهم كما قال الله تعالى «ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه» وقيل ما تركناهم سدي بغير أمر ونهى وقيل وما كنا عن الخلق غافلين أى بنينا فوقهم سماء أطلعنا فيها الشمس والقمر والكواكب (وأنزلنا من السماء ماء بقدر) يعلمه الله قال مقاتل بقدر مايكفيهم للمعيشة (فأسكناه فى الأرض) يريد مايبقى فى الغدران والمستنقعات ينتفع به الناس فى الصيف عند انقطاع المطر وقيل فأسكناه فى الأرض ثم أخرجنا منها ينابيع فماء الأرض كله من السماء (وإنا على ذهاب به لقادرون) حتى تهلكوا عطشا وتهلك مواشيكم وتخرب أراضيكم . وفى الخبر «إن الله عز وجل أنزل أربعة أنهار من الجنة سيحان وجيحان ودجلة والفرات» وروى مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال «إن الله عز وجل أنزل من الجنة خمسة أنهار جيحون وسيحون ودجلة والفرات والنيل أنزلها الله عز وجل من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناحى جبريل استودعها الجبال وأجراها فى الأرض وجعل فيها منافع للناس فذلك قوله

يبلغ الحلم ويتقلب فى البلاد إلى مابعدها (فتبارك الله) أى استحق التعظيم والثناء بأنه لم يزل ولا يزال (أحسن الخالقين) أى المصورين والمقدرين . فان قلت كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى «الله خالق كل شىء» وقوله «هل من خالق غير الله؟» . قلت الخلق له معان : منها الإيجاد والإبداع ولا موجد ولا مبدع إلا الله تعالى . ومنها التقدير كما قال الشاعر :

ولأنت تفرى ماخلقت وبعـ ... ض القوم يخلق ثم لايفرى

معناه أنت تقدر الأمور وتقطعها وغيرك لايفعل ذلك فعلى هذا يكون معنى الآية الله أحسن المقدرين . وجواب آخر وهو أن عيسى عليه الصلاة والسلام خلق طيرا وسمى نفسه خالقا بقوله «إنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير» فقال «فتبارك الله أحسن الخالقين» (ثم إنكم بعد ذلك) أى بعد ماذكر من تمام الخلق (لميتون) أى عند انقضاء آجالكم (ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) أى للحساب والجزاء . قوله عز وجل (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق) يعنى سبع سموات طرائق لأن بعضها فوق بعض وقيل لأنها طرائق الملائكة فى الصعود والهبوط (وما كنا عن الخلق غافلين) يعنى بل كنا لهم حافظين من أن تسقط السماء عليهم فتهلكهم وقيل معناه بنينا فوقهم سماء أطلعنا فيها الشمس والقمر والكواكب وقيل ماتركناهم سدى بغير أمر ونهى وقيل معناه إنما خلقنا السماء فوقهم لتنزل عليهم الأرزاق والبركات منها وقيل معناه وما كنا عن الخلق غافلين أي عن أعمالهم وأقوالهم وضمائرهم لاتخفى علينا خافية (وأنزلنا من السماء ماء بقدر) أى يعلمه الله من حاجتهم إليه وقيل بقدر مايكفيهم لمعايشهم فى الزرع والغرس والشرب وأنواع المنفعة (فأسكناه فى الأرض) يعنى مايبقى فى الغدران والمستنقعات مما ينتفع به الناس فى الصيف عند انقطاع المطر وقيل أسكناه فى الأرض ثم أخرجناه منها ينابيع كالعيون والآبار فكل ماء فى الأرض من السماء (وإنا على ذهاب به لقادرون) وصح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة» أخرجه مسلم . وعن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «إن الله عز وجل أنزل من الجنة خمسة أنهار سيحون وجيحون ودجلة والفرات والنيل أنزلها الله عز وجل من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل

عز وجل «وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض» فاذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج ارسل الله جبريل فرفع من الأرض القرآن والعلم كله والحجر الأسود من ركن البيت ومقام إبراهيم وتابوت موسى بما فيه وهذه الأنهار الخمسة فيرفع كل ذلك إلى السماء فذلك قوله تعالى «وإنا على ذهاب به لقادرون» فاذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدين والدنيا» وروى هذا الحديث الإمام الحسن بن سفيان عن عثمان بن سعيد بالإجازة عن سعيد بن سابق الاسكندرانى عن مسلمة ابن على عن مقاتل بن حيان قوله تعالى (فأنشأنا لكم به) يعنى بالماء (جنات من نخيل وأعناب لكم فيها) فى الجنات (فواكه كثيرة ومنها تأكلون) شتاء وصيفا وخص النخيل والأعناب بالذكر لأنها أكثر فواكه العرب (وشجرة) أى وأنشأنا لكم شجرة (تخرج من طور سيناء) وهى الزيتون قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو سيناء (٣٥) بكسر السين وقرأ الآخرون بفتحها . واختلفوا فى معناه وفى سنين فى قوله تعالى «وطور سينين» قال مجاهد معناه البركة أى من جبل مبارك وقال قتادة معناه الحسن أى من الجبل الحسن وقال الضحاك هو بالنبطية ومعناه الحسن وقال عكرمة هو بالحبشية وقال الكلبى معناه الشجر أي جبل ذو شجر ، وقيل هو بالسريانية الملتفة بالأشجار وقال مقاتل كل جبل فيه أشجار مثمرة فهو سينا وسينين بلغة النبط قيل هو فيعال من السناء وهو الارتفاع قال ابن زيد هو الجبل الذى نودى منه موسى بين مصر وأيلة . وقال مجاهد سينا اسم حجارة بعينها أضيف الجبل إليها لوجودها عنده وقال عكرمة هو اسم المكان الذى فيه هذا الجبل (تنبت بالدهن) قرأ ابن كثير وأهل البصرة ويعقوب تنبت بضم التاء وكسر الباء وقرأ الآخرون بفتح التاء وضم الباء فمن قرأ بفتح التاء فمعناه تنبت تثمر الدهن وهو الزيتون وقيل تنبت ومعها الدهن ومن قرأ بضم التاء اختلفوا فيه فمنهم من قال الباء زائدة معناه تنبت الدهن كما يقال : أخذت ثوبه وأخذت بثوبه ومنهم من قال نبت وأنبت لغتان بمعنى واحد كما قال زهير :

رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهم ... قطينا لهم حتى إذا أنبت البقل

أى نبت (وصبغ للآكلين) الصبغ والصباغ الإدام الذى يلون الخبز إذا غمس فيه وينصبغ والإدام كل ما يؤكل مع الخبز سواء ينصبغ به الخبز أو لا يصبغ قال مقاتل جعل الله فى هذه الشجرة أدما ودهنا فالأدم الزيتون والدهن الزيت وقال خص الطور بالزيتون لأن أول الزيتون نبت بها ويقال لأن الزيتون أول شجرة نبتت فى الدنيا بعد الطوفان . قوله سبحانه

درجة من درجاتها على جناحى جبريل استودعها الجبال وأجراها فى الأرض وجعل فيها منافع للناس فذلك قوله «وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض» فاذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله عز وجل جبريل فرفع من الأرض القرآن والعلم كله والحجر الأسود من ركن البيت ومقام إبراهيم وتابوت موسى بما فيه وهذه الأنهار الخمسة فيرفع كل ذلك إلى السماء فذلك قوله تعالى «وإنا على ذهاب به لقادرون» فاذا رفعت هذه الأشياء كلها من الأرض فقد أهلها خير الدين والدنيا » وروى هذا الحديث البغوى فى تفسيره وقال روى هذا الحديث الإمام الحسن بن سفيان بن عثمان بن سعيد بالإجازة عن سعيد بن سابق الإسكندرانى عن مسلمة بن على عن مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس ثم ذكر ما أنبت بالماء فقال تعالى (فأنشأنا لكم به) أى بالماء (جنات) أى بساتين (من نخيل وأعناب) إنما أفردهما بالذكر لكثرة منافعهما فانهما يقومان مقام الطعام والادام والفواكه رطبا ويابسا (لكم فيها) أى فى الجنات (فواكه كثيرة ومنها تأكلون) أى شتاء وصيفا (وشجرة) أى وأنشأنا لكم شجرة وهى الزيتون (تخرج من طور سيناء) أى من جبل مبارك وقيل من جبل حسن قيل هو بالنبطية وقيل بالحبشية وقيل بالسريانية ومعناه الجبل الملتف بالأشجار وقيل كل جبل فيه أشجار مثمرة يسمى سيناء وسينين وقيل هو من السناء وهو الارتفاع وهو الجبل الذى منه نودي موسى بين مصر وأيلة وقيل هو جبل فلسطين وقيل سيناء اسم حجارة بعينها أضيف الجبل إليها لوجودها عنده وقيل هو اسم المكان الذى فيه هذا الجبل (تنبت بالدهن) أى تنبت وفيها الدهن وقيل تنبت بثمر الدهن وهو الزيت (وصبغ للآكلين) الصبغ الأدام الذى يكون مع الخبز ويصبغ به جعل الله فى هذه الشجرة المباركة أدما وهو الزيتون ودهنا وهو الزيت وخص جبل الطور بالزيتون لأنه منه نشأ وقيل إن أول شجرة نبتت بعد الطوفان الزيتون وقيل

تعالى (وإن لكم فى الأنعام لعبرة) يعنى آية تعتبرون بها (نسقيكم) قرأ العامة بالنون وقرأ أبو جعفر هاهنا بالتاء وفتحها (مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون) يعنى على الإبل فى البر وعلى الفلك فى البحر (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله) وحدوه (مالكم من إله غيره) معبود سواه (أفلا تتقون) أفلا تخافون عقوبته إذا عبدتم غيره (فقال الملأ الذين (٣٦) كفروا من قومه ماهذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم) يعنى يتشرف بأن يكون له الفضل عليكم فيصير متبوعا وأنتم له تبع (ولو شاء الله) أن لايعبد سواه (لأنزل ملائكة) يعنى بإبلاغ الوحى (ماسمعنا بهذا) الذى يدعونا إليه نوح (فى آبائنا الأولين) وقيل ماسمعنا بهذا أى بإرسال بشر رسولا (إن هو إلا رجل به جنة) يعنى جنون (فتربصوا به حتى حين) يعنى إلى أن يموت فتستريحوا منه (قال رب انصرنى بما كذبون) يعنى أعنى بإهلاكهم لتكذيبهم إياى (فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها) أدخل فيها . يقال سلكته فى كذا وأسلكته فيه (من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم) يعنى من سبق عليه الحكم بالهلاك (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون فإذا استويت) اعتدلت (أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين) يعنى الكافرين (وقل رب أنزلنى منزلا مباركا) قرأ أبو بكر عن عاصم منزلا بفتح الميم وكسر الزاى أى يريد موضع النزول قيل هذا هو السفينة بعد الركوب وقيل هو الأرض بعد النزول ويحتمل أنه أراد فى السفينة ويحتمل بعد الخروج . وقرأ الباقون منزلا بضم الميم وفتح الزاى أى إنزالا مباركا فالبركة فى السفينة النجاة وفى النزول بعد الخروج كثرة النسل من أولاده الثلاثة (وأنت خير المنزلين إن فى ذلك) يعنى الذى ذكرت من أمر نوح والسفينة وإهلاك أعداء الله (لآيات)

إنها تبقى فى الأرض نحو ثلاثة آلاف سنة . قوله عز وجل (وإن لكم فى الأنعام لعبرة) أى آية تعتبرون بها (نسقيكم مما فى بطونها) أى ألبانها ووجه الاعتبار فيه أن اللبن يخلص إلى الضرع من بين فرث ودم بإذن الله تعالى ليس فيه منهما شئ فيستحيل إلى الطهارة وإلى طعم يوافق الشهوة والطبع ويصير غذاء ، وتقدم بسط الكلام بما فيه كفاية فى سورة النحل (ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون) يعنى كما تنتفعون بها وهى حية فكذلك تنتفعون بها بعد الذبح للأكل (وعليها) أى وعلى الإبل (وعلى الفلك تحملون) أى على الإبل فى البر وعلى السفن فى البحر . قوله تعالى (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) أى مالكم معبود سواه (أفلا تتقون) أى أفلا تخافون عقابه إذا عبدتم غيره (فقال الملأ الذين كفروا من قومه ماهذا إلا بشر مثلكم) أى آدمى مثلكم مشارك لكم فى جميع الأمور (يريد أن يتفضل عليكم) أى إنه يحب الشرف والرياسة فيصير متبوعا وأنتم له تبع (ولو شاء الله لأنزل ملائكة) يعنى بإبلاغ الوحى (ماسمعنا بهذا) يعنى الذى يدعونا إليه نوح (فى آبائنا الأولين إن هو إلا رجل به جنة) يعنى جنون (فتربصوا به حتى حين) يعنى إلى الموت فتستريحوا منه (قال رب انصرنى بما كذبون) يعنى أعنى بإهلاكهم بتكذيبهم إياى (فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا) يعنى بمرأى منا قاله ابن عباس وقيل بعلمنا وحفظنا لئلا يتعرض له أحد ولا يفسد عليه عمله (ووحينا) قيل إن جبريل علمه عمل السفينة ووصف له كيفية اتخاذها (فإذا جاء أمرنا) يعنى عذابنا (وفار التنور) قيل هو التنور الذى يخبز فيه وكان من حجارة ، وقيل التنور هو وجه الأرض والمعنى أنك إذا رأيت الماء يفور من التنور (فاسلك فيها) يعنى فأدخل فى السفينة (من كل زوجين اثنين) يعنى من كل حيوان ذكر وأنثى (وأهلك) يعنى وسائر من آمن بك (إلا من سبق عليه القول) يعنى وجب عليه العذاب (منهم) يعنى الكفار وقيل أراد بأهله أهل بيته خاصة والذى سبق عليه القول منهم هو ابنه كنعان (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) قوله عز وجل (فإذا استويت) يعنى اعتدلت (أنت ومن معك على الفلك) يعنى فى السفينة (فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين) يعنى الكافرين (وقل رب أنزلنى منزلا مباركا) قيل موضع النزول وهو السفينة عند الركوب وقيل هو وجه الأرض بعد الخروج من السفينة وأراد بالبركة النجاة من الغرق وكثرة النسل بعد الإنجاء (وأنت خير المنزلين) معناه أنه قد يكون الإنزال من غير الله كما يكون من الله فحسن أن يقول وأنت خير المنزلين لأنه يحفظ من أنزله ويكلؤه فى سائر أحواله ويدفع عنه المكاره بخلاف منزل الضيف فإنه لايقدر على ذلك (إن فى ذلك) يعنى الذى ذكر من أمر نوح والسفينة وإهلاك أعداء الله (لآيات)

لدلالات على قدرته (وإن كنا لمبتلين) يعني وقد كنا وقيل وما كنا إلا مبتلين أى مختبرين إياهم بارسال نوح ووعظه وتذكيره لننظر ماهم عاملون قبل نزول العذاب بهم (ثم أنشأنا من بعدهم) من بعد إهلاكهم (قرنا آخرين فأرسلنا فيهم رسولا منهم) يعني هودا وقومه وقيل صالحا وقومه والأول أظهر (أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة) أي المصير إلى الآخرة (وأترفناهم) نعمناهم ووسعنا عليهم (فى الحياة الدنيا ماهذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) يعني مما تشربون منه (ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون) لمغبونون (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون) من قبوركم أحياء وأعاد إنكم لما طال الكلام ومعنى الكلام أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما مخرجون وكذلك هو فى قراءة عبدالله (٣٧) نظيره فى القرآن «ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها» (هيهات هيهات لما توعدون) قال ابن عباس هى كلمة بعد أى بعيد ما توعدن قرأ أبوجعفر هيهات هيهات بكسر التاء وقرأ نصر ابن عاصم بالضم وكلها لغات صحيحة فمن نصب جعله مثل أين وكيف ومن رفع جعله مثل منذ وقط وحيث ومن كسر جعله مثل أمس وهؤلاء ووقف عليها أكثر القراء بالتاء ويروى عن الكسائى الوقف عليها بالهاء (إن هى) يعنون الدنيا (إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا) قيل فيه تقدم وتأخير أى نحيا ونموت لأنهم كانوا ينكرون البعث بعد الموت وقيل بموت الآباء ويحيا الأبناء وقيل بموت قوم ويحيا قوم (وما نحن بمبعوثين) بمنشرين بعد الموت (إن هو) يعني الرسول (إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين) بمصدقين بالبعث بعد الموت (قال رب انصرنى بما كذبون قال عما قليل) أى عن قليل وما صلة (ليصبحن) ليصيرن (نادمين) على كفرهم وتكذيبهم (فأخذتهم الصيحة) يعني صيحة العذاب (بالحق) قيل أراد بالصيحة الهلاك وقيل صاح بهم جبريل صيحة فتصدعت قلوبهم (فجعلناهم غثاء) وهو مايحمله السيل من حشيش وعيدان شجر، معناه صيرناهم هلكى فيبسوا يبس الغثاء من نبات الأرض (فبعدا للقوم الظالمين ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين) يعني أقواما آخرين (ماتسبق من أمة أجلها) يعني ماتسبق أمة أجلها ومن صلة أى وقت هلاكها (وما يستأخرون) وما يتأخرون عن وقت هلاكهم (ثم أرسلنا رسلنا تترى) يعني مترادفين يتبع بعضهم بعضا غير متواصلين لأن بين كل نبيين زمانا طويلا وهى فعلى من المواترة قال الأصمعى يقال واترت الخبر إذا أتبعت بعضه

يعني دلالات على قدرتنا (وإن كنا) يعني وما كنا (لمبتلين) يعني إلا مختبرين إياهم بارسال نوح ووعظه وتذكيره لننظر ماهم عاملون قبل نزول العذاب بهم. قوله تعالى (ثم أنشأنا من بعدهم) يعني من بعد إهلاكهم (قرنا آخرين) يعني عادا (فأرسلنا فيهم رسولا منهم) يعني هودا قاله أكثر المفسرين وقيل القرن ثمود والرسول صالح والأول أصح (أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون) يعني هذه الطريقة التى أنتم عليها مخافة العذاب (وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة) يعني بالمصير إليها (وأترفناهم) يعني نعمناهم ووسعنا عليهم (فى الحياة الدنيا ماهذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) يعني من مشربكم (ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون) يعني لمغبونون (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون) يعني من قبوركم أحياء (هيهات هيهات) قال ابن عباس أي بعيد بعيد (لما توعدون) استبعد القوم بعثهم بعد الموت إغفالا منهم للتفكر فى بدء أمرهم وقدرة الله على إيجادهم وأرادوا بهذا الاستبعاد أنه لايكون أبدا (إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا) قيل معناه نحيا ونموت لأنهم كانوا ينكرون البعث وقيل بموت الآباء ويحيا الأبناء وقيل معناه بموت قوم ويحيا قوم (وما نحن بمبعوثين) يعني بعد الموت (إن هو) يعنون رسولهم (إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين) يعني بمصدقين بالبعث بعد الموت (قال رب انصرنى بما كذبون قال عما قليل ليصبحن) يعني ليصيرن (نادمين) على كفرهم وتكذيبهم (فأخذتهم الصيحة بالحق) يعني صيحة العذاب وقيل صاح بهم جبريل فتصدعت قلوبهم وقيل أراد بالصيحة الهلاك (فجعلناهم غثاء) هو ما يحمله السيل من حشيش وعيدان شجر، والمعنى صيرناهم هلكى فيبسوا يبس الغثاء من نبات الأرض (فبعدا) يعني ألزمنا بعدا من الرحمة (للقوم الظالمين). قوله عز وجل (ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين) يعني أقواما آخرين (ماتسبق من أمة أجلها) يعني وقت هلاكها (وما يستأخرون) يعني عن وقت هلاكهم (ثم أرسلنا رسلنا تترى) يعني مترادفين يتبع بعضهم بعضا غير متواصلين لأن بين كل رسولين زمنا طويلا

بعضا وبين الخبر بمهلة. واختلف القراء فيه فقرأ أبوجعفر وابن كثير وأبوعمرو بالتنوين ويعقوب بالألف ولا يميله أبوعمرو في الوقف فيها كالألف في قولهم رأيت زيدا ، وقرأ الباقون بلا تنوين والوقف عندهم يكون بالياء ويميله حمزة والكسائي وهو مثل قولهم غضبى وسكرى وهو اسم جمع مثل شتى وعلى القراءتين التاء الأولى بدل من الواو وأصله وترى من المواترة والتواتر فجعلت الواو تاء مثل التقوى والتكلان (كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا) بالهلاك أي أهلكنا بعضهم في إثر بعض (وجعلناهم أحاديث) يعني سمرا وقصصا يتحدث من بعدهم بأمرهم وشأنهم وهي جمع أحدوثة وقيل جمع حديث قال الأخفش إنما هو في الشر وأما في الخير فلا يقال جعلتهم أحاديث وأحدوثة إنما يقال صار فلان حديثا (فبعدا لقوم لا يؤمنون ثم أرسلنا (٣٨) موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين) يعني بحجة بينة من اليد والعصا وغيرهما (إلى فرعون وملئه فاستكبروا) تعظموا عن الإيمان (وكانوا قوما عالين) متكبرين قاهرين غيرهم بالظلم (فقالوا) يعني فرعون وقومه (أنؤمن لبشرين مثلنا) يعني موسى وهارون (وقومهما لنا عابدون) مطيعون متذللون والعرب تسمي كل من دان للملك عابدا له (فكذبوهما فكانوا من المهلكين) بالغرق (ولقد آتينا موسى الكتاب) التوراة (لعلهم يهتدون) أي لكي يهتدي به قومه (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) دلالة على قدرتنا ولم يقل آيتين قيل معناه جعلنا شأنهما آية وقيل معناه جعلنا كل واحد منهما آية كقوله تعالى «كلتا الجنتين آتت أكلها» (وآويناهما إلى ربوة) الربوة المكان المرتفع من الأرض واختلفت الأقوال فيها فقال عبد الله بن سلام هي دمشق وهو قول سعيد بن المسيب ومقاتل وقال الضحاك غوطة دمشق وقال أبو هريرة هي الرملة وقال عطاء عن ابن عباس هي بيت المقدس وهو قول قتادة وكعب وقال كعب هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا وقال ابن زيد هي مصر وقال السدي أرض فلسطين (ذات قرار) أي مستوية منبسطة واسعة يستقر عليها ساكنوها (ومعين) فالمعين الماء الجاري الظاهر الذي تراه العيون مفعول من عانه يعينه إذا أدركه البصر. قوله (يا أيها الرسل) قال الحسن ومجاهد وقتادة والسدي والكلبي وجماعة أراد به محمدا صلى الله عليه وسلم وحده على مذهب العرب في مخاطبة الواحد بلفظ الجماعة وقال بعضهم أراد به عيسى وقيل أراد به جميع الرسل عليهم السلام (كلوا من الطيبات) أي الحلالات (واعملوا صالحا) الصلاح هو الاستقامة على ما توجبه الشريعة (إني بما تعملون عليم

(كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا) يعني بالهلاك فأهلكنا بعضهم في أثر بعض (وجعلناهم أحاديث) يعني سمرا وقصصا يتحدث من بعدهم بأمرهم وشأنهم (فبعدا لقوم لا يؤمنون). قوله تعالى (ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين) يعني بحجة بينة كالعصا واليد وغيرهما (إلى فرعون وملئه فاستكبروا) يعني تعظموا عن الإيمان (وكانوا قوما عالين) يعني متكبرين قاهرين غيرهم بالظلم (فقالوا) يعني فرعون وقومه (أنؤمن لبشرين مثلنا) يعنون موسى وهارون (وقومهما لنا عابدون) يعني مطيعون متذللون (فكذبوهما فكانوا من المهلكين) يعني بالغرق (ولقد آتينا موسى الكتاب) يعني التوراة (لعلهم يهتدون) يعني لكي يهتدي به قومه. قوله عز وجل (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) يعني دلالة على قدرتنا لأنه خلقه من غير ذكر وأنطقه في المهد. فإن قلت لم قال آية ولم يقل آيتين. قلت معناه جعلنا شأنهما آية لأن عيسى ولد من غير ذكر وكذلك مريم ولدته من غير ذكر فاشتركا في هذه الآية فكانت آية واحدة (وآويناهما إلى ربوة) يعني مكان مرتفع قيل هي دمشق وقيل هي الرملة وقيل أرض فلسطين وقال ابن عباس هي بيت المقدس قال كعب بيت المقدس أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا وقيل هي مصر وسبب الأيواء أنها فرت بابنها إليها. وقوله (ذات قرار) يعني منبسطة واسعة يستقر عليها ساكنوها (ومعين) هو الماء الجاري الذي تراه العيون. قوله تعالى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) قيل أراد بالرسل محمدا صلى الله عليه وسلم وحده وقيل أراد به عيسى عليه السلام وقيل أراد جميع الرسل وأراد بالطيبات الحلال (واعملوا صالحا) أي استقيموا على ما يوجبه الشرع (إني بما تعملون عليم) فيه تحذير من مخالفة ما أمرهم به وإذا كان الرسل مع علو شأنهم كذلك فلأن يكون تحذيرا لغيرهم أولى لما روي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال «يا أيها الرسل كلوا من الطيبات» وقال «يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم» ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه

حرام

وإن هذه) قرأ أهل الكوفة وإن بكسر الألف على الابتداء وقرأ الباقون بفتح الألف وخفف ابن عامر النون وجعل إن صلة مجازه وهذه (أمتكم) وقرأ الباقون بتشديد النون على معنى وبأن هذه تقديره بأن هذه أمتكم أى ملتكم وشريعتكم التى أنتم عليها (أمة واحدة) أى ملة واحدة وهى الإسلام (وأنا ربكم فاتقون) أى اتقونى لهذا وقيل معناه أمرتكم بما أمرت به المرسلين من قبلكم فأمركم واحد وأنا ربكم فاتقون فاحذرون وقيل هو نصب بإضمار فعل أى اعلموا أن هذه أمتكم أى ملتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون (فتقطعوا أمرهم) دينهم (بينهم) أى تفرقوا فصاروا فرقا يهودا ونصارى ومجوسا (زبرا) أى فرقا وقطعا مختلفة واحدها زبور وهو الفرقة والطائفة ومثله الزبرة وجمعها زبر ومنه زبر الحديد أى صاروا فرقا كزبر الحديد وقرأ بعض أهل الشام زبرا بفتح الباء قال قتادة ومجاهد زبرا أى كتبا يعنى دان كل فريق بكتاب غير الكتاب الذى دان به الآخر ، وقيل جعلوا كتبهم قطعا مختلفة آمنوا بالبعض وكفروا بالبعض (٣٩) وحرفوا البعض (كل حزب بما لديهم) أى بما عندهم من الدين (فرحون) معجبون ومسرورون (فذرهم فى غمرتهم) قال ابن عباس فى كفرهم وضلالتهم وقيل عمايتهم وقيل غفلتهم (حتى حين) إلى أن يموتوا (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين) ما نعطيهم ونجعله مددا لهم من المال والبنين فى الدنيا (نسارع لهم فى الخيرات) أى نجعل لهم فى الخيرات ونقدمها ثوابا لأعمالهم لمرضاتنا عنهم (بل لا يشعرون) أن ذلك استدراج لهم ثم ذكر المسارعين فى الخيرات فقال (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون) أى خائفون والإشفاق الخوف والمعنى أن المؤمنين بما هم عليه من خشية الله خائفون من عقابه. قال الحسن البصرى المؤمن من جمع إحسانا وخشية والمنافق من جمع إساءة وأمنا (والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) يصدقون (والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ما آتوا) أى يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات. وروى عن عائشة أنها كانت تقرأ والذين يأتون ما أتوا أى يعملون ما عملوا من أعمال البر (وقلوبهم وجلة) أن ذلك لا ينجيهم من عذاب الله وأن أعمالهم لا تقبل منهم (أنهم إلى ربهم راجعون) لأنهم يوقنون أنهم يرجعون إلى الله عز وجل قال الحسن عملوا لله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم . أخبرنا أبو سعيد الشريحى أنا أبو إسحاق الثعلبى أنا عبد الله بن يوسف أنا محمد بن حامد حدثنا محمد بن الجهم أنا عبدالله بن عمرو أنا وكيع عن مالك ابن مغول عن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب عن عائشة رضى الله عنها قالت قلت يارسول الله «والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة » أهو الذى يزنى ويشرب الخمر ويسرق قال لا يابنت الصديق ولكنه الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف أن

حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك » أخرجه مسلم . قوله عز وجل (وإن هذه أمتكم) أى ملتكم وشريعتكم التى أنتم عليها (أمة واحدة) أى ملة واحدة وهى الإسلام (وأنا ربكم فاتقون) أى فاحذرون وقيل معناه أمرتكم بما أمرت به المرسلين قبلكم فأمركم واحد وأنا ربكم فاتقون (فتقطعوا) أى تفرقوا فصاروا فرقا يهودا ونصارى ومجوسا وغير ذلك من الأديان المختلفة (أمرهم) أى دينهم (بينهم زبرا) أى فرقا وقطعا مختلفة وقيل معنى زبرا أى كتبا ، والمعنى تمسك كل قوم بكتاب فآمنوا به وكفروا بما سواه من الكتب (كل حزب بما لديهم فرحون) أى مسرورون معجبون بما عندهم من الدين (فذرهم) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم (فى غمرتهم) قال ابن عباس فى كفرهم وضلالتهم وقيل فى عمايتهم وغفلتهم (حتى حين) أى إلى أن يموتوا (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين) أى ما نعطيهم ونجعله لهم مددا من المال والبنين فى الدنيا (نسارع لهم فى الخيرات) أى نعجل لهم ذلك فى الخيرات ونقدمه ثوابا لأعمالهم لمرضاتنا عنهم (بل لا يشعرون) أى إن ذلك استدراج لهم ثم ذكر المسارعين فى الخيرات فقال تعالى (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون) أى خائفون ، والمعنى أن المؤمنين بما هم عليه من خشية الله خائفون من عقابه . قال الحسن البصرى المؤمن جمع إحسانا وخشية والمنافق جمع إساءة وأمنا (والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) يعنى يصدقون (والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ما آتوا) أى يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات وقيل معناه يعملون ما عملوا من أعمال البر (وقلوبهم وجلة) أى خائفة أن ذلك لا ينجيهم من عذاب الله وأن أعمالهم لا تقبل منهم (أنهم إلى ربهم راجعون) أى إنهم يوقنون أنهم إلى الله صائرون قال الحسن عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم عن عائشة قالت « قلت يارسول الله والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هم الذين يشربون الخمر ويسرقون قال لا يابنت الصديق ولكن هم الذين يصومون ويتصدقون ويخافون

لايقبل منه » . قوله عز وجل (اولئك يسارعون فى الخيرات) يبادرون إلى الأعمال الصالحات (وهم لها سابقون) أى إليها سابقون كقوله تعالى « لما نهوا » أى إلى مانهوا ولما قالوا ونحوها وقال ابن عباس فى معنى هذه الآية سبقت لهم من الله السعادة وقال الكلبى سبقوا الأمم إلى الخيرات . قوله (ولا نكلف نفسا إلا وسعها) أى طاقتها فمن لم يستطع القيام فليصل قاعدا ومن لم يستطع الصوم فليفطر (ولدينا كتاب ينطق بالحق) وهو اللوح المحفوظ ينطق بالحق يبين بالصدق ، ومعنى الآية لايكلف الله نفسا إلا وسعها إلا ماأطاقت من العمل وقد أثبتنا عمله فى اللوح المحفوظ فهو ينطق به ويبينه وقيل هو كتب أعمال العباد التى تكتبها الحفظة (وهم لايظلمون) لا ينقص من حسناتهم ولايزاد على سيئاتهم ؛ ثم ذكر الكفار فقال (بل قلوبهم فى غمرة) أى فى غفلة وجهالة (من هذا) (٤٠) أى من القرآن (ولهم أعمال من دون ذلك) أى للكفار أعمال خبيثة من المعاصى والخطايا محكومة عليهم من دون ذلك يعنى من دون أعمال المؤمنين التى ذكرها الله تعالى فى قوله « إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون » (هم لها عاملون) لابد لهم من أن يعملوها فيدخلوا بها النار لما سبق لهم من الشقاوة هذا قول أكثر المفسرين وقال قتادة هذا ينصرف إلى المسلمين وأن لهم أعمالا سوى ماعملوا من الخيرات هم لها عاملون والأول أظهر (حتى إذا أخذنا مترفيهم) أى أغنياءهم ورؤساؤهم (بالعذاب) قال ابن عباس هو السيف يوم بدر وقال الضحاك يعنى الجوع حين دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » فابتلاهم الله عز وجل بالقحط حتى أكلوا الكلاب والجيف (إذا هم يجأرون) يضجون ويجزعون ويستغيثون وأصل الجأر رفع الصوت بالتضرع (لاتجأروا اليوم) أى لاتضجوا (إنكم منا لاتنصرون) لاتمنعون منا ولاينفعكم تضرعكم (قد كانت آياتى تتلى عليكم) يعنى القرآن (فكنتم على أعقابكم تنكصون) ترجعون القهقرى تتأخرون عن الإيمان (مستكبرين به) اختلفوا فى هذه الكناية فأظهر الأقاويل أنها تعود إلى البيت الحرام كناية عن غير مذكور أى مستكبرين متعظمين بالبيت الحرام وتعظمهم به أنهم كانوا يقولون نحن أهل حرم الله وجيران بيته فلايظهر علينا أحد ولا نخاف أحدا فيأمنون فيه وسائر الناس فى الخوف هذا قول ابن عباس ومجاهد وجماعة وقيل مستكبرين به أى بالقرآن فلم يؤمنوا به والأول أظهر أن المراد منه الحرم (سامرا) نصب على الحال

أن لايقبل منهم أولئك يسارعون فى الخيرات » أخرجه الترمذى ، وقوله (أولئك يسارعون فى الخيرات) أى يبادرون إلى الأعمال الصالحة (وهم لها سابقون) أى إليها وقال ابن عباس سبقت لهم من الله السعادة وقيل سبقوا الأمم إلى الخيرات . قوله عز وجل (ولا نكلف نفسا إلا وسعها) أى طاقتها من الأعمال فمن لم يستطع القيام فليصل قاعدا ومن لم يستطع الصوم فليفطر وليقض (ولدينا كتاب) هو اللوح المحفوظ (ينطق بالحق) أى يبين الصدق والمعنى قد أثبتنا عمل كل عامل فى اللوح المحفوظ فهو ينطق به ويبينه وقيل هو كتاب أعمال العباد التى تكتبها الحفظة (وهم لايظلمون) أى لاينقص من حسناتهم ولايزاد على سيئاتهم ثم ذكر الكفار فقال تعالى (بل قلوبهم فى غمرة) أى غفلة وجهالة (من هذا) يعنى القرآن (ولهم أعمال) أى للكفار أعمال خبيثة من المعاصى والخطايا محكومة عليهم (من دون ذلك) يعنى من دون أعمال المؤمنين التى ذكرها الله فى قوله « إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون » (هم) يعنى الكفار (لها) أى لتلك الأعمال الخبيثة (عاملون) أى لابد لهم من أن يعملوها فيدخلوا بها النار لما سبق لهم فى الأزل من الشقاوة (حتى إذا أخذنا مترفيهم) أى رؤساءهم وأغنياءهم (بالعذاب) قال ابن عباس هو السيف يوم بدر وقيل هو الجوع حين دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف فابتلاهم الله بالقحط حتى أكلوا الكلاب والجيف» (إذا هم يجأرون) أى يصيحون ويستغيثون ويجزعون (لا تجأروا اليوم) يعنى لاتجزعوا ولا تضجوا اليوم (إنكم منا لاتنصرون) يعنى لا تمنعون منا ولا ينفعكم تضرعكم (قد كانت آياتى تتلى عليكم) يعنى القرآن (فكنتم على أعقابكم تنكصون) يعنى ترجعون القهقرى وتتأخرون عن الإيمان (مستكبرين به) قال ابن عباس أى بالبيت الحرام كناية عن غير مذكور أى مستعظمين بالبيت وذلك أنهم كانوا يقولون نحن أهل حرم الله وجيران بيته فلا يظهر علينا أحد ولا نخاف أحدا فيأمنون فيه وسائر الناس فى الخوف وقيل مستكبرين به أى بالقرآن فلم يؤمنوا به والقول الأول أظهر (سامرا) يعنى أنهم يسمرون بالليل حول البيت وكان عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحرا أو شعرا ونحو ذلك من القول فيه وفى النبى صلى

أنهم يسمرون بالليل فى مجالسهم حول البيت ووحد سامرا وهو بمعنى السمار لأنه وضع موضع الوقت أراد تهجرون ليلا . وقيل وحد سامرا ومعناه الجمع كقوله ثم نخرجكم طفلا (تهجرون) قرأ نافع تهجرون بضم التاء وكسر الجيم من الإهجار وهو الإفحاش فى القول أى تفحشون وتقولون الخنا وذكر أنهم كانوا يسبون النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقرأ الآخرون تهجرون بفتح التاء وضم الجيم أى تعرضون عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن الإيمان والقرآن وترفضونها وقيل هو من الهجر وهو القول القبيح يقال هجر يهجر هجرا إذا قال غير الحق وقيل تهزءون وتقولون مالا تعلمون من قولهم هجر الرجل فى منامه إذا هذى (أفلم يدبروا) يعنى يتدبروا (القول) يعنى ماجاءهم من القول وهو القرآن فيعرفوا مافيه من الدلالات على صدق محمد ﷺ (أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين) فأنكروا ، يريد إنا قد بعثنا من قبلهم رسلا إلى قومهم كذلك بعثنا محمدا صلى الله عليه وسلم إليهم وقيل أم بمعنى بل يعنى بل جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين فلذلك أنكروا (أم لم يعرفوا رسولهم) محمدا صلى الله عليه وسلم (فهم له منكرون) قال ابن عباس أليس قد (٤١) عرفوا محمدا صلى الله عليه وسلم صغيرا وكبيرا وعرفوا نسبه وصدقه وأمانته ووفاءه بالعهود وهذا على سبيل التوبيخ لهم على الإعراض عنه بعد ماعرفوه بالصدق والأمانة (أم يقولون به جنة) جنون وليس كذلك (بل جاءهم بالحق) يعنى بالصدق والقول الذى لاتخفى صحته وحسنه على عاقل (وأكثرهم للحق كارهون ولو اتبع الحق أهواءهم) قال ابن جريج ومقاتل والسدى وجماعة الحق هو الله أى ولو اتبع الله مرادهم فيما يفعل وقيل لو اتبع مرادهم فسمي لنفسه شريكا وولدا كما يقولون (لفسدت السموات والأرض)

ﷺ وهو قوله (تهجرون) من الإهجار وهو الإفحاش فى القول وقيل معنى تهجرون تعرضون عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن الإيمان به وبالقرآن وقيل هو من الهجر وهو القول القبيح أي تهذون وتقولون مالا تعلمون (أفلم يدبروا القول) يعنى أفلم يتدبروا ماجاءهم من القرآن فيعتبرون بما فيه من الدلالات الواضحة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم (أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين) يعنى فأنكروا يريد إنا قد بعثنا من قبلهم رسلا إلى قومهم فكذلك بعثنا محمدا صلى الله عليه وسلم (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) قال ابن عباس أليس قد عرفوا محمدا صلى الله عليه وسلم صغيرا وكبيرا وعرفوا نسبه وصدقه وأمانته ووفاءه بالعهود وهذا على سبيل التوبيخ لهم على الإعراض عنه بعد ماعرفوه بالصدق والأمانة (أم يقولون به جنة) أي جنون وليس هو كذلك (بل جاءهم بالحق) بالصدق والقول الذى لاتخفى صحته وحسنه على عاقل (وأكثرهم للحق كارهون) . قوله عز وجل (ولو اتبع الحق أهواءهم) قيل الحق هو الله تعالى والمعنى ولو اتبع الله مرادهم فيما يفعل وقيل لو سمى لنفسه شريكا وولدا كما يقولون وقيل الحق هو القرآن أي لو نزل القرآن بما يحبون ومايعتقدون (لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) أي لفسد العالم (بل أتيناهم بذكرهم) قال ابن عباس بما فيه شرفهم وفخرهم وهو القرآن (فهم عن ذكرهم) أى شرفهم (معرضون أم تسئلهم) أي على ماجئتهم به (خرجا) أي أجرا وجعلا (فخراج ربك خير) أى مايعطيك الله من رزقه وثوابه خير (وهو خير الرازقين) تقدم تفسيره (وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم) أي إلى دين الإسلام (وإن الذين لايؤمنون بالآخرة عن الصراط) أي عن دين الحق (لناكبون) أي لعادلون عنه ومائلون (ولو رحمناهم وكشفنا مابهم من ضر) أي قحط وجدوبة (للجوا) أي لتمادوا (فى طغيانهم يعمهون) أى لم ينزعوا عنه (ولقد أخذناهم بالعذاب) وذلك أن النبى صلى الله

(٦ - خازن بالبغوى - خامس)

وقال الفراء والزجاج المراد بالحق القرآن أى لو نزل القرآن بما يحبون من جعل الشريك والولد على ما يعتقدونه لفسدت السموات والأرض (ومن فيهن) وهو كقوله تعالى «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا» (بل أتيناهم بذكرهم) بما يذكرهم . قال ابن عباس أى بما فيه فخرهم وشرفهم يعنى القرآن فهو كقوله تعالى «لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم» أى شرفكم «وإنه لذكر لك ولقومك» أى شرف لك ولقومك (فهم عن ذكرهم) يعنى عن شرفهم (معرضون أم تسئلهم) على ماجئتهم به (خرجا) أجرا وجعلا (فخراج ربك خير) يعنى مايعطيك الله من رزقه وثوابه خير (وهو خير الرازقين) قرأ حمزة والكسائى خراجا فخراج كلاهما بالألف وقرأ ابن عامر كلاهما بغير ألف. وقرأ الآخرون خرجا بغير ألف فخراج بالألف (وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم) وهو الإسلام (وإن الذين لايؤمنون بالآخرة عن الصراط) أى عن دين الحق (لناكبون) لعادلون مائلون (ولو رحمناهم وكشفنا مابهم من ضر) قحط وجدوبة (للجوا) تمادوا (فى طغيانهم يعمهون) ولم ينزعوا عنه (ولقد أخذناهم بالعذاب)

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا على قريش أن يجعل عليهم سنين كسنى يوسف فأصابهم القحط فجاء أبو سفيان إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال أنشدك الله والرحم ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين فقال بلى فقال قد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع فادع الله أن يكشف عنا هذا القحط فدعا فكشف عنهم فأنزل الله هذه الآية (فما استكانوا لربهم) أى ماخضعوا وما ذلوا لربهم وأصله طلب السكون (وما يتضرعون) أى لم يتضرعوا إلى ربهم بل مضوا على تمردهم (حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد) قال ابن عباس يعنى القتل يوم بدر وهو قول مجاهد، وقيل هو الموت وقيل هو قيام الساعة (إذا هم فيه مبلسون) آيسون من كل خير (وهو الذى أنشأ لكم السمع) أى أنشأ لكم الأسماع (والأبصار والأفئدة) لتسمعوا وتبصروا ـ (٤٢) وتعقلوا (قليلا ماتشكرون) أى لم تشكروا هذه النعم (وهو الذى ذرأكم) خلقكم (فى الأرض وإليه تحشرون) تبعثون (وهو الذى يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار) أى تدبير الليل والنهار فى الزيادة والنقصان قال الفراء جعلهما مختلفين يتعاقبان ويختلفان فى السواد والبياض (أفلا تعقلون) ماترون من صنعه فتعتبرون (بل قالوا مثل ماقال الأولون) أى كذبوا كما كذب الأولون (قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) لمحشورون قالوا ذلك على طريق الإنكار فى التعجب (لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا) الوعد (من قبل) أى وعد آباءنا قوم زعموا أنهم رسل الله فلم نر له حقيقة (إن هذا إلا أساطير الأولين) أكاذيب الأولين (قل) يامحمد مجيبا لهم يعنى أهل مكة (لمن الأرض ومن منه
فيها) من الخلق (إن كنتم تعلمون) خالقها ومالكها (سيقولون لله) ولابد لهم من ذلك لأنهم يقرون أنها مخلوقة ف(قل) لهم إذا أقروا بذلك (أفلا تذكرون) فتعلمون أن من قدر على خلق الأرض ومن فيها ابتداء يقدر على إحيائهم بعد الموت (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله) قرأ العامة لله ومثله مابعده فجعلوا الجواب على المعنى كقول القائل للرجل من مولاك فيقول لفلان أى أنا لفلان وهو مولاى وقرأ أهل البصرة فيهما الله وكذلك هو فى مصحف أهل البصرة وفى سائر المصاحف مكتوب بالألف كالأول (قل أفلا تتقون) تحذرون (قل من بيده ملكوت كل شئ) الملكوت الملك والتاء فيه للمبالغة (وهو يجير) أى يؤمن من يشاء (ولا يجار عليه) أى لا يؤمن من أخافه الله أو يمنع هو من السوء من

عليه وسلم دعا على قريش أن يجعل الله عليهم سنين كسنى يوسف فأصابهم القحط فجاء أبو سفيان إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال أنشدك الله والرحم ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين فقال بلى فقال إنهم قد أكلوا القد والعظام وشكا إليه الضر فادع الله أن يكشف عنا هذا القحط فدعا فكشف عنهم فأنزل الله هذه الآية (فما استكانوا لربهم) ماخضعوا وماذلوا لربهم (وما يتضرعون) أى لم يتضرعوا إلى ربهم بل مضوا على تمردهم (حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد) قال ابن عباس يعنى القتل يوم بدر وقيل هو الموت وقيل هو قيام الساعة (إذا هم فيه مبلسون) أى آيسون من كل خير. قوله عز وجل (وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة) أى لتسمعوا بها وتبصروا وتعقلوا (قليلا ماتشكرون) أى لم تشكروا هذه النعم (وهو الذى ذرأكم فى الأرض) أى خلقكم (وإليه تحشرون) أى تبعثون (وهو الذى يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار) أى تدبير الليل والنهار فى الزيادة والنقصان وقيل جعلهما مختلفين يتعاقبان ويختلفان فى السواد والبياض (أفلا تعقلون) أى ماترون من صنعه فتعتبروا (بل قالوا مثل ماقال الأولون) أى كذبوا كما كذب الأولون، وقيل معناه أنكروا البعث مثل ما أنكر الأولون مع وضوح الأدلة (قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) أى لمحشورون قالوا ذلك على طريق الإنكار والتعجب (لقد وعدنا نحن) أى هذا الوعد (وآباؤنا هذا من قبل) أى وعد آباؤنا قوم ذكروا أنهم رسل الله فلم نر له حقيقة (إن هذا إلا أساطير الأولين) أى أكاذيب الأولين. قوله تعالى (قل) أى يامحمد لأهل مكة (لمن الأرض ومن فيها) من الخلق (إن كنتم تعلمون) أى خالقها ومالكها (سيقولون لله) أى لابد لهم من ذلك لأنهم يقرون أنها مخلوقة لله (قل) أى قل لهم يامحمد إذا أقروا بذلك (أفلا تذكرون) أى فتعلموا أن من قدر على خلق الأرض ومن فيها ابتداء يقدر على إحيائهم بعد الموت (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون) أى عبادة غيره وقيل معناه أفلا تحذرون عقابه (قل من بيده ملكوت كل شئ) أى ملك كل شئ (وهو يجير) أى يؤمن من يشاء (ولا يجار عليه) أى لا يؤمن من أخافه الله وقيل يمنع هو من يشاء من السوء ولا يمتنع

يشاء ولا يمنع منه من أراده بسوء (إن كنتم تعلمون) قيل معناه أجيبوا إن كنتم تعلمون (سيقولون لله قل فأنى تسحرون) أى تخدعون وتصرفون عن توحيده وطاعته والمعنى كيف يخيل لكم الحق باطلا (بل أتيناهم بالحق) بالصدق (وإنهم لكاذبون) فيما يدعون من الشريك والولد (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله) أى من شريك (إذا لذهب كل إله بما خلق) أى انفرد بما خلقه فلم يرض أن يضاف خلقه وإنعامه إلى غيره ومنع الإله الآخر عن الاستيلاء على ما خلق (ولعلا بعضهم على بعض) أى طلب بعضهم مغالبة بعض كفعل ملوك الدنيا فيما بينهم ، ثم نزه نفسه فقال (سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة) قرأ أهل المدينة والكوفة غير حفص عالم برفع الميم على (٤٣) الابتداء وقرأ الآخرون بجرها على نعت الله في سبحان الله (فتعالى عما يشركون) أى تعظم عما يشركون ومعناه أنه أعظم من أن يوصف بهذا الوصف . قوله (قل رب إما تريني) أى إن أريتني (ما يوعدون) أى ما أوعدتهم من العذاب (رب) أى يارب (فلا تجعلني في القوم الظالمين) أى لا تهلكني بهلاكهم (وإنا على أن نريك ما نعدهم) من العذاب لهم (لقادرون ادفع بالتي هي أحسن) أى ادفع بالخلة التي هي أحسن هي الصفح والإعراض والصبر (السيئة) يعني أذاهم أمرهم بالصبر على أذى المشركين والكف عن المقاتلة نسختها آية السيف (نحن أعلم بما يصفون) يكذبون ويقولون من الشرك (وقل رب أعوذ بك) أى أمتنع وأعتصم بك (من همزات الشياطين) قال ابن عباس نزغاتهم وقال الحسن وساوسهم وقال مجاهد نفخهم ونفثهم وقال أهل المعاني دفعهم بالإغواء إلى المعاصي وأصل الهمز شدة الدفع (وأعوذ بك رب أن يحضرون) في شيء من أموري وإنما ذكر الحضور لأن الشيطان إذا حضره يوسوسه ، ثم أخبر أن هؤلاء الكفار الذين ينكرون البعث يسألون الرجعة إلى الدنيا عند معاينة الموت فقال (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون) ولم يقل ارجعني وهو يسأل الله وحده الرجعة على عادة العرب فإنهم يخاطبون الواحد بلفظ الجمع على وجه التعظيم كما أخبر الله تعالى عن نفسه فقال « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» ومثله كثير في القرآن وقيل هذا الخطاب مع الملائكة الذين يقبضون روحه ابتداء بخطاب الله لأنهم استغاثوا بالله أولا ثم رجعوا إلى مسئلة الملائكة

منه من أراده بسوء (إن كنتم تعلمون) أى فأجيبوا (سيقولون لله قل فأنى تسحرون) أى فأنى تخدعون وتصرفون عن توحيده وطاعته وكيف يخيل لكم الحق باطلا (بل أتيناهم بالحق) أى بالصدق (وإنهم لكاذبون) أى فيما يدعون من الشريك والولد (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله) أى من شريك (إذا لذهب كل إله بما خلق) أى لانفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذى خلقه ولم يرض أن يضاف خلقه وإنعامه إلى غيره ومنع كل إله الآخر عن الاستيلاء على ما خلقه هو (ولعلا بعضهم على بعض) أى طلب بعضهم مغالبة بعض كفعل ملوك الدنيا فيما بينهم وإذا كان كذلك فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شيء ويقدر على كل شيء ثم نزه نفسه تعالى فقال (سبحان الله عما يصفون) أى من إثبات الولد والشريك (عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون) أى تعظم من أن يوصف بما لا يليق به . قوله عز وجل (قل رب) أى يارب (إما تريني ما يوعدون) أى ما أوعدتهم من العذاب (رب) أى يارب (فلا تجعلني في القوم الظالمين) أى لا تهلكني بهلاكهم (وإنا على أن نريك ما نعدهم) أى من العذاب (لقادرون ادفع بالتي هي أحسن) يعني بالخلة التي هي أحسن وهي الصفح والإعراض والصبر (السيئة) يعني أذاهم أمر بالصبر على أذى المشركين والكف عن المقاتلة ثم نسخها الله بآية السيف (نحن أعلم بما يصفون) أى يكذبون ويقولون من الشرك. قوله عز وجل (وقل رب أعوذ بك) أى أمتنع وأعتصم بك (من همزات الشياطين) قال ابن عباس نزغاتهم وقيل وساوسهم وقيل نفخهم ونفثهم وقيل دفعهم بالإغواء إلى المعاصي (وأعوذ بك رب أن يحضرون) أى في شيء من أموري وإنما ذكر الحضور لأن الشيطان إذا حضره يوسوس له عن جبير بن مطعم « أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم يصلي صلاة قال عمر ولا أدري أى صلاة هي قال الله أكبر كبيرا ثلاثا والحمد لله كثيرا ثلاثا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثا أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه قال نفثه الشعر ونفخه الكبر وهمزه الموتة» أخرجه أبو داود وقد جاء تفسير هذه الألفاظ في متن الحديث وتزيده إيضاحا قوله نفثه الشعر أى لأن الشعر يخرج من القلب فيلفظ به اللسان وينفثه كما ينفث الريق. قوله ونفخه الكبر وذلك أن المتكبر ينتفخ ويتعاظم ويجمع نفسه فيحتاج إلى أن ينفخ. وقوله وهمزه الموتة الموتة الجنون لأن المجنون ينخسه الشيطان ثم أخبر الله عز وجل أن هؤلاء الكفار الذين ينكرون البعث يسألون الرجعة إلى الدنيا عند معاينة الموت فقال تعالى (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون) قيل

الرجوع الى الدنيا . قوله تعالى(لعلى أعمل صالحا فيما تركت) أى ضيعت أن أقول لاإله إلا الله وقيل أعمل بطاعة الله . قال قتادة ماتمنى أن يرجع إلى أهله وعشيرته ولا ليجمع الدنيا ويقضى الشهوات ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله فرحم الله امرأ عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب (كلا) كلمة ردع وزجر أى لايرجع إليها (أنها) يعنى سؤاله الرجعة (كلمة هو قائلها) ولاينالها (ومن ورائهم برزخ) أى أمامهم وبين أيديهم حاجز (إلى يوم يبعثون) والبرزخ الحاجز بين الشيئين . واختلفوا فى معناه هاهنا فقال مجاهد حجاب بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا وقال قتادة بقية الدنيا وقال الضحاك البرزخ مابين الموت إلى البعث (٤٤) وقيل هو القبر وهم فيه إلى يوم يبعثون (فاذا نفخ فى الصور فلاأنساب بينهم) اختلفوا فى هذه النفخة فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنها النفخة الأولى نفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض فلا أنساب بينهم (يومئذ ولا يتساءلون) ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون وعن ابن مسعود أنها النفخة الثانية قال « يؤخذ بيد العبد والأمة يوم القيامة فينصب على رءوس الأولين والآخرين ثم ينادى مناد هذا فلان ابن فلان فمن كان له قبله حق فليأت إلى حقه فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده وولده وزوجته أو أخيه فيأخذ منه ثم قرأ ابن مسعود : فلاأنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون» وفى رواية عطاء عن ابن عباس أنها النفخة الثانية فلا أنساب بينهم أى لا يتفاخرون بالأنساب يومئذ كما كانوا يتفاخرون فى الدنيا ولايتساءلون سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون فى الدنيا من أنت ومن أى قبيلة أنت ولم يرد أن الأنساب تنقطع . فان قيل أليس قد جاء فى الحديث « كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا نسبى وسببى » قيل معناه ينقطع يوم القيامة كل سبب ونسب إلا سببه ونسبه وهو الإيمان والقرآن . فان قيل قد قال هاهنا ولا يتساءلون وقال فى موضع آخر «وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون» الجواب ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما إن للقيامة أحوالا ومواطن ففى موطن يشتد عليهم الخوف فيشغلهم عظم الأمر عن التساؤل فلا يتساءلون ، وفى موطن يفيقون إفاقة فيتساءلون . قوله (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا

المراد به الله وهو على عادة العرب فانهم يخاطبون الواحد بلفظ الجمع على وجه التعظيم وقيل هذا خطاب مع الملائكة الذين يقبضون روحه فعلى هذا يكون معناه أنه استغاث بالله أولا ثم رجع إلى مسألة الملائكة الرجوع إلى الدنيا وقيل ذكر الرب للقسم فكأنه قال عند المعاينة بحق الله ارجعون (لعلى أعمل صالحا فيما تركت) أى ضيعت وقيل تركت أى منعت وقيل خلفت من التركة أو المعنى أقول لا إله إلا الله وأعمل بطاعته فيدخل فيه الأعمال البدنية والمالية قال قتادة ما تمنى أن يرجع إلى أهله وعشيرته ولا ليجمع الدنيا ويقضى الشهوات ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله فرحم الله امرأ عمل فيما تمناه الكافر إذ رأى العذاب (كلا) كلمة ردع وزجر أى لايرجع إليها (إنها) يعنى مسألته الرجعة (كلمة هو قائلها) أي لاينالها (ومن ورائهم برزخ) أى من أمامهم ومن بين أيديهم حاجز (إلى يوم يبعثون) معناه أن بينهم وبين الرجعة حجابا ومانعا عن الرجوع وهو الموت وليس المعنى أنهم يرجعون يوم البعث وإنما هو إقناط كلى لما علم أنه لارجعة يوم البعث إلا إلى الآخرة . قوله تعالى(فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم) قال ابن عباس إنها النفخة الأولى نفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض فلا أنساب بينهم (يومئذ ولايتساءلون) ثم نفخ فيه أخرى فاذاهم قيام ينظرون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون وعن ابن مسعود أنها النفخة الثانية قال « يؤخذ بيد العبد والأمة يوم القيامة فينصب على رءوس الأولين والآخرين ثم ينادى مناد هذا فلان ابن فلان فمن كان له قبله حق فليأت إلى حقه فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته أو أخيه فيأخذ منه ثم قرأ ابن مسعود فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون وفى رواية عن ابن عباس أنها النفخة الثانية فلا أنساب بينهم يعنى لايتفاخرون بالأنساب يومئذ كما كانوا يتفاخرون فى الدنيا ولا يتساءلون سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون فى الدنيا من أنت ومن أى قبيلة أنت ولم يرد أن الأنساب تنقطع » . فان قلت قد قال هاهنا ولا يتساءلون وقال فى موضع آخر وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قلت قال ابن عباس إن للقيامة أحوالا ومواطن ففى موطن يشتد عليهم الخوف فيشغلهم عظم الأمر عن التساؤل فلا يتساءلون وفى موطن يفيقون إفاقة فيتساءلون . قوله عز وجل (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين

خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون تلفح وجوههم النار) أى تسفع وقيل تحرق (وهم فيها كالحون) عابسون. أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبى توبة أنا محمد بن أحمد الحارثى أنا محمد بن يعقوب الكسائى أنا عبدالله بن محمود أنا إبراهيم بن عبدالله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن سعيد بن يزيد عن أبى السمح عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «وهم فيها كالحون» قال تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخى شفته السفلى حتى تضرب سرته» وبهذا الإسناد عن عبد الله بن المبارك عن حاجب بن عمر عن الحكم عن الأعرج عن أبى هريرة قال« يعظم الكافر فى النار مسيرة سبع ليال فيصير ضرسه مثل أحد وشفاههم عند سررهم سود زرق مقبوحون». قوله تعالى (ألم تكن آياتى تتلى عليكم) يعنى القرآن تخوفون بها (فكنتم بها تكذبون قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا) قرأ حمزة والكسائى شقاوتنا بالألف وفتح الشين وهما لغتان أى غلبت علينا شقوتنا التى كتبت علينا فلم نهتد (وكنا قوما ضالين) (٤٥) عن الهدى (ربنا أخرجنا منها) أى من النار (فان عدنا) لما تكره (فانا ظالمون قال اخسئوا) ابعدوا (فيها) كما يقال للكلب إذا طرد اخسأ (ولا تكلمون) فى رفع العذاب فانى لا أرفعه عنكم فعند ذلك أيس المساكين من الفرج ؛ قال الحسن هو آخر كلام يتكلم به أهل النار ثم لا يتكلمون بعدها إلا الشهيق والزفير ويصير لهم عواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون. روى عن عبد الله بن عمرو «أن أهل جهنم يدعون مالكا خازن النار أربعين عاما يا مالك ليقض علينا ربك فلا يجيبهم ثم يقول إنكم ماكثون ثم ينادون ربهم ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون فيدعهم مثل عمر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم اخسئوا فيها ولا تكلمون فما ينبس القوم بعد ذلك بكلمة إن كان إلا الزفير والشهيق» . وقال القرطبي إذا قيل لهم اخسئوا فيها ولا تكلمون انقطع رجاؤهم وأقبل بعضهم ينبح فى وجه بعض وأطبقت عليهم (إنه) الهاء فى إنه عماد وتسمى أيضا المجهولة (كان فريق من عبادى) وهم المؤمنون (يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا) قرأ أهل المدينة وحمزة والكسائى سخريا بضم السين هاهنا وفى سورة ص وقرأ الباقون بكسرهما واتفقوا على الضم فى سورة الزخرف قال الخليل هما لغتان مثل قولهم « بحر لجى» ولجى بضم اللام وكسرها كوكب دري ودرى قال الفراء والكسائى الكسر بمعنى الاستهزاء بالقول والضم بمعنى التسخير والاستعباد بالفعل واتفقوا فى سورة الزخرف بأنه بمعنى التسخير (حتى أنسوكم) أى أنساكم اشتغالكم بالاستهزاء بهم وتسخيرهم (ذكرى وكنتم منهم تضحكون) نظيره « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون» قال

خسروا) أى غبنوا (أنفسهم فى جهنم خالدون تلفح) أى تسفح وقيل تحرق (وجوههم النار وهم فيها كالحون) أى عابسون وقد بدت أسنانهم وتقلصت شفاههم كالرأس المشوى على النار . عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم «وهم فيها كالحون قال تشويه النار فتنقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخى شفته السفلى حتى تضرب سرته» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح غريب. قوله تعالى (ألم تكن آياتى تتلى عليكم) يعنى قوارع القرآن وزواجره تخوفون بها (فكنتم بها تكذبون قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا) أى التى كتبت علينا فلم نهتد (وكنا قوما ضالين) أى عن الهدى (ربنا أخرجنا منها) أي من النار (فان عدنا) أى لما تكره (فانا ظالمون قال اخسئوا فيها) أى أبعدوا فيها كما يقال للكلب إذا طرد إخسأ (ولا تكلمون) أي فى رفع العذاب فانى لا أرفعه عنكم فعند ذلك أيس المساكين من الفرج قال الحسن هو آخر كلام يتكلم به أهل النار ثم لا يتكلمون بعد ذلك ماهو إلا الزفير والشهيق وعواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون. وروى عن عبدالله بن عمرو «إن أهل جهنم يدعون مالكا خازن جهنم أربعين عاما يا مالك ليقض علينا ربك فلا يجيبهم ثم يقول إنكم ماكثون ثم ينادون ربهم ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون فيدعهم مثل عمر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم اخسئوا فيها ولا تكلمون فما ينبس القوم بعد ذلك بكلمة إن كان إلا الزفير والشهيق » ذكره البغوي بغير سند وأخرجه الترمذى بمعناه عن أبى الدرداء قوله فما ينبس القوم بعد ذلك بكلمة أى سكتوا ولم يتكلموا بكلمة وقيل إذا قال لهم اخسئوا فيها ولا تكلمون انقطع رجاؤهم وأقبل بعضهم ينبح فى وجه بعض وأطبقت عليهم جهنم (إنه كان فريق من عبادى) يعنى المؤمنين (يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا) أى تسخرون منهم وتستهزئون بهم (حتى أنسوكم ذكرى) اشتغالكم بالاستهزاء بهم ذكرى (وكنتم منهم تضحكون) نزل فى كفار قريش كانوا يستهزئون بالفقراء من أصحاب

قال مقاتل نزلت في بلال وعمار وخباب وصهيب وسلمان والفقراء من الصحابة كان كفار قريش يستهزئون بهم (إني جزيتهم اليوم بما صبروا) على أذاكم واستهزائكم في الدنيا (أنهم هم الفائزون) قرأ حمزة والكسائي إنهم بكسر الألف على الاستئناف وقرأ الآخرون بفتحها فيكون في موضع المفعول الثاني إني جزيتهم اليوم بصبرهم الفوز بالجنة (قال كم لبثتم) قرأ حمزة والكسائي قل كم وقل إن على الأمر والنهي ومعنى الآية قولوا أيها الكافرون فأخرج الكلام مخرج الواحد. والمراد منه الجماعة إذ كان معناه مفهوما ويجوز أن يكون الخطاب لكل واحد منهم أي قل يا أيها الكافرون وقرأ ابن كثير قل كم على الأمر وقال إن على الخبر لأن الثانية جواب وقرأ الآخرون قال فيهما جميعا أي قال الله تعالى للكفار يوم البعث كم لبثتم (في الأرض) أي في الدنيا وفي القبور (عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) نسوا مدة لبثهم في الدنيا لعظم ماهم بصدده من العذاب (فاسئل العادين) (٤٦) الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم ويحصونها عليهم (قال إن لبثتم) أي مالبثتم في الدنيا (إلا قليلا) سماه قليلا لأن الواحد وإن طال مكثه في الدنيا فانه يكون قليلا في جنب مايلبث في الآخرة لأن لبثه في الدنيا والقبر متناه (لو أنكم كنتم تعلمون) قدر لبثكم في الدنيا (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا) لعبا وباطلا لا لحكمة وهو نصب على الحال أي عابثين وقيل للعبث أي لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب وهو مثل قوله «أيحسب الإنسان أن يترك سدى» وإنما خلقتم للعبادة وإقامة أوامر الله تعالى (وأنكم إلينا لا ترجعون) أي أفحسبتم أنكم إلينا لا ترجعون في الآخرة للجزاء وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب لا ترجعون بفتح التاء وكسر الجيم أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني أنا حميد بن زنجويه أنا بشر بن عمر أنا عبدالله ابن لهيعة أنا عبدالله بن هبيرة عن حنش «أن رجلا مصابا مر به على ابن مسعود فرقاه في أذنيه «أفحسبتم إنما خلقناكم عبثا» حتى ختم السورة فبرأ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بماذا رقيت في أذنه فأخبره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لو أن رجلا موقنا قرأها على جبل لزال» ثم نزه الله نفسه عما يصفه به المشركون فقال جل ذكره (فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) يعني السرير الحسن، وقيل المرتفع (ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به) أي لا حجة له به ولا بينة لأنه لا حجة في دعوى الشرك (فإنما حسابه) جزاؤه (عند ربه) يجازيه بعمله كما قال تعالى «ثم إن علينا حسابهم» (إنه لا يفلح الكافرون) لا يسعد من جحد وكذب (وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين)

تفسير

رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل بلال وعمار وصهيب وخباب ثم قال الله (إني جزيتهم اليوم بما صبروا) أي على أذاكم واستهزائكم في الدنيا (أنهم هم الفائزون) أي جزيتهم بصبرهم الفوز بالجنة (قال) يعني أن الله قال للكفار يوم البعث (كم لبثتم في الأرض) أي في الدنيا وفي القبور (عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) معناه أنهم نسوا مدة لبثهم في الدنيا لعظم ماهم بصدده من العذاب (فاسئل العادين) يعني الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم ويحصونها عليهم (قال إن لبثتم) أي مالبثتم في الدنيا (إلا قليلا) سماه قليلا لأن المرء وإن طال لبثه في الدنيا. فانه يكون قليلا في جنب مايلبث في الآخرة (لو أنكم كنتم تعلمون) يعني قدر لبثكم في الدنيا قوله عز وجل (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا) أي لعبا وباطلا لا لحكمة وقيل العبث معناه لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب وإنما خلقتم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل (وأنكم إلينا لا ترجعون) أي في دار الآخرة للجزاء. روى البغوي بسنده عن الحسن «أن رجلا مصابا مر به على ابن مسعود فرقاه في أذنه أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون حتى ختم السورة فبرأ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بماذا رقيت في أذنه فأخبره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لو أن رجلا موقنا قرأها على الجبل لزال» ثم نزه الله تعالى نفسه عما يصفه به المشركون فقال عز وجل (فتعالى الله الملك الحق) أي هو التام الملك الجامع لأصناف المملوكات (لا إله إلا هو رب العرش الكريم) أي الحسن وقيل الرفيع المرتفع وإنما خص العرش بالذكر لأنه أعظم المخلوقات (ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به) يعني لا حجة ولا بينة له به إذ لا يمكن إقامة برهان ولا دليل على إلهية غير الله ولا حجة في دعوى الشرك (فإنما حسابه) أي جزاؤه (عند ربه) أي هو مجازيه بعمله (إنه لا يفلح الكافرون) يعني لا يسعد من جحد وكذب (وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين).

(سورة النور) مدنية وهى ثنتان او أربع وستون آية (بسم الله الرحمن الرحيم) (سورة) اى هذه سورة (أنزلناها وفرضناها) قرأ ابن كثير وأبو عمرو فرضناها بتشديد الراء وقرأ الآخرون بالتخفيف أى أوجبنا مافيها من الأحكام وألزمناكم العمل بها وقيل معناه قدرنا مافيها من الحدود . والفرض التقدير قال الله عز وجل «فنصف مافرضتم» أى قدرتم ودليل التخفيف قوله « إن الذى فرض عليك القرآن» وأما التشديد فمعناه وفصلناه وبيناه وقيل هو بمعنى الفرض الذى هو بمعنى الإيجاب أيضا والتشديد للتكثير لكثرة مافيها من الفرائض أى أوجبناها عليكم وعلى من بعدكم إلى قيام الساعة (وأنزلنا فيها آيات بينات) واضحات (لعلكم تذكرون) تتعظون . قوله عز وجل (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) أراد إذا كانا حرين بالغين عاقلين بكرين غير محصنين فاجلدوا (٤٧) فاضربوا كل واحد منهما مائة جلدة يقال جلده إذا ضرب جلده كما يقال رأسه وبطنه إذا ضرب رأسه وبطنه وذكر بلفظ الجلد لئلا يبرح ولا يضرب بحيث يبلغ اللحم وقد وردت السنة أنه يجلد مائة ويغرب عاما وهو قول أكثر أهل العلم وإن كان الزانى محصنا فعليه الرجم ذكرناه فى سورة النساء (ولا تأخذكم بهما رأفة) أى رحمة ورقة وقرأ ابن كثير رأفة بفتح الهمزة ولم يختلفوا فى سورة الحديد أنها ساكنة لمجاورة قوله ورحمة والرأفة معنى يكون فى القلب لاينهى عنه لأنه لايكون باختيار الإنسان. روى أن عبد الله بن عمر جلد جارية له زنت فقال للجلاد اضرب ظهرها ورجليها فقال له ابنه لاتأخذكم بهما رأفة فى دين الله فقال يابنى إن الله عز وجل لم يأمرنى بقتلها وقد ضربت فأوجعت . واختلفوا فى معنى الآية فقال قوم لاتأخذكم بهما رأفة فتعطلوا الحدود ولا تقيموها وهذا قول مجاهد وعكرمة وعطاء وسعيد بن جبير والنخعى والشعبى وقال جماعة معناها ولا تأخذكم بهما رأفة فتخففوا الضرب ولكن أوجعوهما ضربا وهو قول سعيد بن المسيب والحسن قال الزهرى يجتهد فى حد الزنا والفرية ويخفف فى حد الشرب وقال قتادة يجتهد فى حد الزنا ويخفف فى الشرب والفرية (فى دين الله) أى فى حكم الله (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) معناه أن المؤمن لاتأخذه الرأفة إذا جاء أمر الله تعالى (وليشهد) وليحضر (عذابهما) حدهما إذا أقيم عليهما (طائفة) نفر (من المؤمنين) قال مجاهد والنخعى أقله رجل واحد فما فوقه وقال عكرمة وعطاء رجلان فصاعدا وقال الزهرى

(تفسير سورة النور وهى مدنية وهى اثنتان وقيل أربع وستون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (سورة أنزلناها وفرضناها) أى أوجبنا مافيها من الأحكام وألزمناكم العمل بها وقيل معناه قدرنا مافيها من الحدود وقيل أوجبناها عليكم وعلى من بعدكم ، إلى قيام الساعة (وأنزلنا فيها آيات بينات) أى واضحات (لعلكم تذكرون) يعنى تتعظون . قوله تعالى (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) الزنا هو من الكبائر وموجب للحد وهو إيلاج فرج فى فرج مشتهى طبعا محرم شرعا. والشروط المعتبرة فى وجوب الحد العقل والبلوغ ويشترط الإحصان فى الرجم ويجب على العبد والأمة نصف الحد ولارجم عليهما لأنه لايتنصف وقوله فاجلدوا أى فاضربوا يقال جلده إذا ضرب جلده ولا يضرب بحيث يبلغ اللحم كل واحد منهما أى الزانية والزانى مائة جلدة وقد وردت السنة بجلد مائة وتغريب عام وبه قال الشافعى وقال أبو حنيفة التغريب إلى رأى الإمام وقال مالك يجلد الرجل مائة جلدة ويغرب وتجلد المرأة ولا تغرب وإن كان الزانى محصنا فعليه الرجم (ولاتأخذكم بهما رأفة) أى رحمة ورقة فتعطلوا الحدود ولاتقيموها وهذا قول مجاهد وعكرمة وعطاء وسعيد بن جبير والنخعى والشعبى وقيل معنى الرأفة أن تخففوا الضرب بل أوجعوهما ضربا وهو قول سعيد بن المسيب والحسن قال الزهرى يجتهد فى حد الزنا والفرية أى القذف ويخفف فى حد الشرب وقيل يجتهد فى حد الزنا ويخفف دون ذلك فى حد الفرية ويخفف دون ذلك فى حد الشرب (فى دين الله) أى فى حكم الله . وروى أن عبد الله بن عمر جلد جارية له زنت فقال للجلاد اضرب ظهرها ورجليها فقال له ابنه ولاتأخذكم بهما رأفة فى دين الله فقال يابنى إن الله لم يأمرنى بقتلها وقد ضربت فأوجعت (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) معناه أن المؤمن لاتأخذه الرأفة إذا جاء أمر الله وقيل هو من باب التهييج ، والتهاب التغضب لله تعالى ولدينه ومعناه إن كنتم تؤمنون فلا تتركوا إقامة الحدود (وليشهد) يعنى وليحضر (عذابهما) أى حدهما إذا أقيم عليهما (طائفة) يعنى نفر (من المؤمنين) قيل أقله رجل واحد فصاعدا وقيل رجلان وقيل ثلاثة وقيل

وقتادة ثلاثة فصاعدا وقال مالك وابن زيد أربعة بعدد شهود الزنا . قوله (الزانى لاينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لاينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) اختلف العلماء فى معنى الآية وحكمها فقال قوم قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء لامال لهم ولاعشائر وبالمدينة نساء بغايا يكرين أنفسهن وهن يومئذ أخصب أهل المدينة فرغب أناس من فقراء المسلمين فى نكاحهن لينفقن عليهم فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية وحرم على المؤمنين أن يتزوجوا تلك البغايا لأنهن كن مشركات وهذا قول مجاهد وعطاء بن أبى رباح وقتادة والزهرى والشعبى ورواية العوفى عن ابن عباس وقال عكرمة نزلت فى نساء بمكة والمدينة منهن تسع لهن رايات كرايات البيطار يعرفن بها منهن أم مهزول جارية السائب بن أبى السائب المخزومى فكان الرجل ينكح الزانية فى الجاهلية يتخذها مالكة فأراد ناس من المسلمين نكاحهن على تلك الجهة فاستأذن رجل من المسلمين رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نكاح أم مهزول واشترطت له أن تنفق عليه فأنزل الله هذه الآية . (٤٨) وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال « كان رجل يقال له مرثد بن أبى مرثد الغنوى كان يحمل الأسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة وكانت بمكة بغى يقال لها عناق وكانت صديقة له فى الجاهلية فلما أتى مكة دعته عناق إلى نفسها فقال مرثد إن الله حرم الزنا قالت فانكحنى فقال حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله أنكح عناقا ؟ فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرد شيئا فنزلت « والزانية لاينكحها إلا زان أو مشرك » فدعانى النبى صلى الله عليه وسلم فقرأها على وقال لى لا تنكحها » فعلى قول هؤلاء كان التحريم خاصا فى حق أولئك دون سائر الناس وقال قوم المراد من النكاح هو الجماع ومعناه أن الزانى لايزنى إلا بزانية أو مشركة والزانية لاتزنى إلا بزان أو مشرك وهو قول سعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم ورواه الوالبى عن ابن عباس قال يزيد بن هارون إن جامعها وهو مستحل فهو مشرك وإن جامعها وهو محرم فهو زان وكان ابن مسعود يحرم نكاح الزانية ويقول إذا تزوج الزانى بالزانية فهما زانيان أبدا وقال الحسن الزانى المجلود لاينكح إلا زانية مجلودة والزانية المجلودة لاينكحها إلا زان مجلود قال سعيد بن المسيب وجماعة إن حكم الآية منسوخ فكان نكاح الزانية حراما بهذه الآية فنسخها قوله « وأنكحوا الأيامى منكم » فدخلت الزانية فى أيامى المسلمين . واحتج من جوز نكاح الزانية بما أخبرنا أبو الفرج المظفر بن إسماعيل التميمى أنا أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمى أنا أبو أحمد عبد الله بن عدى الحافظ أنا الحسن بن فرج أنا عمرو بن خالد الحرانى أنا عبيد الله عن عبد الكريم الجزرى عن أبى الزبير عن جابر « أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله

أربعة بعدد شهود الزنا . قوله عز وجل (الزانى لاينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لاينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) اختلف العلماء فى معنى الآية وحكمها فقال قوم قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء لامال لهم ولاعشائر وفى المدينة نساء بغايا هن أخصب أهل المدينة فرغب ناس من فقراء المسلمين فى نكاحهن لينفقن عليهم فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك فنزلت هذه الآية فحرم على المؤمنين أن يتزوجوا تلك البغايا لأنهن كن مشركات وهذا قول مجاهد وعطاء وقتادة والزهرى والشعبى ورواية عن ابن عباس وقال عكرمة نزلت فى نساء كن بمكة والمدينة لهن رايات يعرفن بها منهن أم مهزول جارية السائب ابن أبى السائب المخزومى وكان فى الجاهلية ينكح الزانية يتخذها مأكلة فأراد ناس من المسلمين نكاحهن على تلك الصفة فاستأذن رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نكاح أم مهزول واشترطت له أن تنفق عليه فأنزل الله عز وجل هذه الآية وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال « كان رجل يقال له مرثد بن أبى مرثد الغنوى وكان يحمل الأسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة وكانت بمكة بغى يقال لها عناق وكانت صديقة له فى الجاهلية فلما أتى مكة دعته عناق إلى نفسها فقال مرثد إن الله حرم الزنا قالت فانكحنى فقال حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله أنكح عناقا ؟ فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرد شيئا فنزلت الزانى لاينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لاينكحها إلا زان أو مشرك فدعانى فقرأها على وقال لا تنكحها » أخرجه الترمذى والنسائى وأبو داود بألفاظ متقاربة المعنى فعلى قول هؤلاء كان التحريم خاصا فى حق أولئك دون سائر الناس وقال قوم المراد من النكاح هو الجماع ومعنى الآية الزانى لايزنى إلا بزانية أو

إن امرأتي لاتمنع يد لامس قال طلقها قال فانى أحبها وهي جميلة قال استمتع بها وفي رواية غيره فأمسكها إذاً » وروى أن عمر بن الخطاب ضرب رجلا وامرأة فى زنا وحرص أن يجمع بينهما (٤٩) فأبى الغلام . قوله (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة) أراد بالرمى القذف بالزنا وكل من رمى محصنا أو محصنة بالزنا فقال له زنيت أو يازانى فيجب عليه جلد ثمانين جلدة إن كان حرا وإن كان عبدا فيجلد أربعين وإن كان المقذوف غير محصن فعلى القاذف التعزير وشرائط الإحصان خمسة الإسلام والعقل والبلوغ والحرية والعفة من الزنا حتى إن من زنى مرة فى أول بلوغه ثم تاب وحسنت حالته وامتد عمره فقذفه قاذف فلا حد عليه فان أقر المقذوف على نفسه بالزنا أو أقام القاذف أربعة من الشهود على زناه سقط الحد عن القاذف لأن الحد الذى وجب عليه حد الفرية وقد ثبت صدقه ، وقوله «والذين يرمون المحصنات» أى يقذفون بالزنا المحصنات يعنى المسلمات الحرائر العفائف ثم لم يأتوا بأربعة شهداء يشهدون على زناهن فاجلدوهم ثمانين جلدة أى اضربوهم ثمانين جلدة (ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم) اختلف العلماء فى قبول شهادة القاذف بعد التوبة وفى حكم هذا الاستثناء ، فذهب قوم إلى

أو مشركة والزانية لاتزنى إلا بزان أو مشرك وهذا قول سعيد بن جبير والضحاك ورواية عن ابن عباس قال يزيد بن هارون إن جامعها وهو مستحل فهو مشرك وإن جامعها وهو محرم فهو زان وكان ابن مسعود يحرم نكاح الزانية ويقول إذا تزوج الزانى الزانية فهما زانيان وقال سعيد بن المسيب وجماعة إن حكم الآية منسوخ وكان نكاح الزانية حراما بهذه الآية ثم نسخت بقوله تعالى « وأنكحوا الأيامى منكم » فدخلت الزانية فى هذا العموم واحتج من جوز نكاح الزانية بما روى عن جابر « أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله إن امرأتى لاتمنع يد لامس فقال طلقها قال إنى أحبها وهى جميلة قال استمتع بها » وفى رواية غيره فأمسكها إذا وروى هذا الحديث أبوداود والنسائى عن ابن عباس قال النسائى رفعه أحد الرواة إلى ابن عباس ولم يرفعه بعضهم قال وهذا الحديث ليس بثابت وروى أن عمر بن الخطاب ضرب رجلا وامرأة فى زنا وحرص على أن يجمع بينهما فأبى الغلام(١) وقيل فى معنى الآية إن الفاجر الخبيث لايرغب فى نكاح الصالحة من النساء وإنما يرغب فى نكاح فاجرة خبيثة مثله أومشركة والفاسقة الخبيثة لاترغب فى نكاح الصلحاء من الرجال وإنما ترغب فى نكاح فاسق خبيث مثلها أومشرك وحرم ذلك على المؤمنين أى صرف الرغبة بالكلية إلى نكاح الزوانى وترك الرغبة فى الصالحات العفائف محرم على المؤمنين ولايلزم من حرمة هذا حرمة التزوج بالزانية . قوله تعالى (والذين يرمون) أى يقذفون بالزنا (المحصنات) يعنى المسلمات الحرائر العفائف (ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) أى يشهدون على الزنا (فاجلدوهم ثمانين جلدة) بيان حكم الآية أن من قذف محصنا أو محصنة بالزنا فقال له يازانى أو يازانية أو زنيت فيجب عليه جلد ثمانين إن كان القاذف حرا وإن كان عبدا يجلد أربعين وإن كان المقذوف غير محصن فعلى القاذف التعزير وشرائط الإحصان خمسة الإسلام والعقل والبلوغ والحرية والعفة من الزنا حتى لو زنى فى عمره مرة واحدة ثم تاب وحسنت توبته بعد ذلك ثم قذفه قاذف فلا حد عليه فان أقر المقذوف على نفسه بالزنا أو أقام القاذف أربعة يشهدون عليه بالزنا سقط الحد عن القاذف لأن الحد إنما وجب عليه لأجل الفرية وقد ثبت صدقه وأما الكنايات مثل أن يقول يافاسق أو يا فاجر أو ياخبيث أو يامؤاجر أو قال امرأتى لاترديد لامس فهذا ونحوه لايكون قذفا إلا أن يريد ذلك وأما التعريض مثل أن يقول أما أنا فما زنيت أو ليست امرأتى زانية فليس بقذف عند الشافعى وأبى حنيفة وقال مالك يجب فيه الحد وقال أحمد هو قذف فى حال الغضب دون حال الرضا . وقوله تعالى (ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون) فيه دليل على أن القذف من الكبائر لأن اسم الفاسق لايقع إلا على صاحب كبيرة (إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم) اختلف العلماء فى قبول شهادة القاذف بعد التوبة وفى حكم هذا الاستثناء فذهب قوم إلى أن القاذف ترد شهادته بنفس القذف وإذا تاب وندم على ماقال وحسنت حالته بعد التوبة قبلت شهادته سواء تاب بعد إقامة الحد عليه أو قبله لقوله تعالى « إلا الذين تابوا » وقالوا هذا الاستثناء يرجع إلى رد الشهادة وإلى الفسق

(١) ظن أن المراد بالغلام هنا الشاب الذي قد زنى بها أبى الزواج فيها بعد إقامة الحد عليهما اهمصححه.

ان القاذف ترد شهادته بنفس القذف وإذا تاب وندم على ماقال وحسنت حالته قبلت شهادته سواء تاب بعد إقامة الحد عليه أو قبلها لقوله تعالى «إلا الذين تابوا» وقالوا الاستثناء يرجع إلى رد الشهادة وإلى الفسق فبعد التوبة تقبل شهادته ويزول عنه اسم الفسق روى ذلك (٥٠) عن ابن عباس وعمر وهذا قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وطاوس وسعيد بن المسيب وسليمان بن يسار والشعبي وعكرمة وعمر ابن عبدالعزيز والزهري وبه قال مالك والشافعي وذهب قوم إلى أن الشهادة المحدودة فى القذف لاتقبل أبدا وإن تاب وقالوا الاستثناء يرجع إلى قوله «وأولئك هم الفاسقون» وهو قول النخعي وشريح وأصحاب الرأى وقالوا بنفس القذف لا ترد شهادته مالم يحد قال الشافعي وهو قبل أن يحد شر منه حين يحد لأن الحدود كفارات فكيف يردونها فى أحسن حاليه ويقبلونها فى شر حاليه ، وذهب الشعبي إلى أن حد القذف يسقط بالتوبة وقال الاستثناء يرجع إلى الكل وعامة العلماء على أنه لايسقط بالتوبة إلا أن يعفو عنه المقذوف فيسقط كالقصاص يسقط بالعفو ولا يسقط بالتوبة. فان قيل إذا قبلتم شهادته بعد التوبة فما معنى قوله أبدا ؟ قيل معناه لاتقبل شهادته أبدا مادام هو مصرا على قذفه لأن أبد كل إنسان مدته على مايليق بحاله كما يقال لاتقبل شهادة الكافر أبدا يراد مادام كافرا . قوله (والذين يرمون أزواجهم) يقذفون نساءهم (ولم يكن لهم شهداء) يشهدون على صحة ماقالوا (إلاأنفسهم) غير أنفسهم (فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين)

وإذا تاب تقبل شهادته ويزول عنه اسم الفسق يروى ذلك عن عمر وابن عباس وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وطاوس وسعيد بن المسيب وسليمان بن يسار والشعبي وعكرمة وعمر بن عبدالعزيز والزهرى وبه قال مالك والشافعي وذهب قوم إلا أن شهادة المحدود فى القذف لا تقبل أبدا وإن تاب وقالوا الاستثناء يرجع إلى قوله «وأولئك هم الفاسقون» وهو قول النخعي وشريح وأصحاب الرأى قالوا بنفس القذف لا ترد شهادته مالم يحد قال الشافعي هو قبل أن يحد شر منه حين يحد لأن الحدود كفارات فكيف تردونها فى أحسن حاليه وتقبلونها فى شر حاليه وذهب الشافعي إلى أن حد القذف يسقط بالتوبة وقال الاستثناء يرجع إلى الكل وعامة العلماء على أنه لايسقط الحد بالتوبة إلا أن يعفو عنه المقذوف فيسقط كالقصاص يسقط بالعفو ولا يسقط بالتوبة . فان قلت إذا قبلت شهادته بعد التوبة فما معنى قوله أبدا . قلت معنى أبدا مادام مصرا على القذف لأن أبد كل إنسان مدته على مايليق به كما يقال شهادة الكافر لاتقبل أبدا يراد بذلك مادام على كفره فاذا أسلم قبلت شهادته . قوله عز وجل (والذين يرمون) أى يقذفون (أزواجهم ولم يكن لهم شهداء) أى يشهدون على صحة ماقالوا (إلا أنفسهم) أى غير أنفسهم (فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين) سبب نزول هذه الآية ماروى عن سهل بن سعد الساعدى «أن عويمر العجلاني جاء إلى عاصم بن عدى فقال لعاصم أرأيت لو أن رجلا وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل سل لى عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسألة وعابها حتى كبر على عاصم ماسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رجع عاصم إلى أهله جاءه عويمر فقال ياعاصم ماذا قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عاصم لعويمر لم تأتنى بخير قد كره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسألة التى سألت عنها فقال عويمر والله لا أنتهى حتى أسأله عنها فجاء عويمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم وسط الناس فقال يارسول الله أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل الله فيك وفى صاحبتك قرآنا فاذهب فأت بها قال سهل فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغا من تلاعنهما قال عويمر كذبت عليها يارسول الله إن أمسكتها فطلقها ثلاثا قبل أن يأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مالك قال ابن شهاب فكانت تلك سنة المتلاعنين» أخرجاه فى الصحيحين «زاد فى رواية ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا إن جاءت به أسحم أزعج العينين عظيم الإليتين خدلج الساقين فلا أحسب عويمرا إلا وقد صدق عليها وإن جاءت به أحيمر كأنه وحرة فلا أحسب عويمرا إلا قد كذب عليها فجاءت به على النعت الذى نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من تصديق عويمر فكان بعد ينسب إلى أمه قوله أسحم أى أسود الادعج الشديد سواد العين مع سعتها وقوله خدلج الساقين أى ممتلىء الساقين غليظهما وقوله ، كأنه وحرة

وحرة بفتح الحاء دويبة كالعظاءة تلصق بالأرض وأراد بها فى الحديث المبالغة فى قصره (خ) عن ابن عباس « أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء فقال النبي صلى الله عليه وسلم البينة أوحد فى ظهرك فقال يارسول الله إذا رأى أحد على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول البينة وإلاحد فى ظهرك فقال هلال بن أمية والذى بعثك بالحق إنى لصادق ولينزلن الله مايبرئ ظهرى من الحد فنزل جبريل عليه السلام وأنزل عليه «والذين يرمون أزواجهم» فقرأ حتى بلغ إن كان من الصادقين فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل إليهما فجاء فقام هلال بن أمية فشهد والنبي صلى الله عليه وسلم يقول الله يعلم إن أحدكما كاذب فهل منكما تائب ثم قامت فشهدت فلما كانت عند الخامسة وقفها وقال إنها موجبة قال ابن عباس فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ثم قالت لاأفضح قومى سائر اليوم فمضت فقال النبي ﷺ انظروها فان جاءت به أكحل العينين سابغ الإليتين خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء فجاءت به كذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم لولا مامضى من كتاب الله لكان لى ولها شأن» وفى رواية غير البخارى عن ابن عباس قال « لما نزلت والذين يرمون المحصنات» الآية قال سعد بن عبادة لوأتيت لكاع وقد تفخذها رجل لم يكن لى أن أهيجه حتى آتى بأربعة شهداء فو الله ما كنت لآتى بأربعة شهداء حتى يفرغ حاجته ويذهب وإن قلت مارأيت إن فى ظهرى لثمانين جلدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يامعشر الأنصار ألا تسمعون مايقول سيدكم قالوا لاتلمه فانه رجل غيور ماتزوج امرأة قط إلا بكرا ولا طلق امرأة له واجترأ رجل منا أن يتزوجها فقال سعد يارسول الله بأبى أنت وأمى والله إنى لأعرف أنها من الله وأنها حق ولكن عجبت من ذلك لما أخبر الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم فان الله يأبى إلا ذلك فقال صدق الله ورسوله قال فلم يلبثوا إلا يسيرا حتى جاء ابن عم له يقال له هلال بن أمية من حديقة له فرأى رجلا مع امرأته يزنى بها فأمسك حتى أصبح فلما أصبح غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس مع أصحابه فقال يارسول الله إنى جئت إلى أهلى عشاء فوجدت مع امرأتى رجلا رأيت بعينى وسمعت بأذنى فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ماأتاه به وثقل عليه حتى عرف ذلك فى وجهه فقال هلال والله يارسول الله إنى لأرى الكراهة فى وجهك مما أتيتك به والله يعلم إنى لصادق وما قلت إلا حقا وإنى لأرجو أن يجعل الله لى فرجا فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضربه قال واجتمعت الأنصار فقالوا ابتلينا بما قال سعد يجلد هلال وتبطل شهادته فبيناهم كذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يأمر بضربه إذ نزل عليه الوحى فأمسك أصحابه عن كلامه حين عرفوا أن الوحى قد نزل حتى فرغ فأنزل الله والذين يرمون أزواجهم إلى آخر الآيات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبشر ياهلال فان الله تعالى قد جعل لك فرجا فقال كنت أرجو ذلك من الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلوا إليها فجاءت فلما اجتمعا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل فكذبت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب فقال يارسول الله قد صدقت وما قلت إلا حقا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاعنوا بينهما فقيل لهلال اشهد فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين فقال له عند الخامسة ياهلال اتق الله فان عذاب الدنيا أهون من عذاب

قرأ حمزة والكسائى وحفص ويعقوب أربع شهادات برفع العين على خبر الابتداء أى فشهادة أحدهم التى تدرأ الحد أربع شهادات وقرأ الآخرون بالنصب أى فشهادة أحدهم أن يشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين

الآخرة وإن عذاب الله أشد من عذاب الناس وإن هذه الخامسة هي الموجبة التي توجب عليك العذاب فقال هلال والله لا يعذبني الله عليها كما لم يجلدني عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهد (والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين) ثم قال للمرأة اشهدي فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فقال لها عند الخامسة ووقفها اتقي الله إن الخامسه موجبة وإن عذاب الله أشد من عذاب الناس فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف ثم قالت والله لا أفضح قومي فشهدت الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما وقضى أن الولد لها ولا يدعى لأب ولا يرمى ولدها ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن جاءت به كذا وكذا فهو لزوجها وإن جاءت به كذا وكذا فهو للذي قيل فيه فجاءت به غلاما كأنه جمل أورق على الشبه المكروه وكان أميرا بمصر لا يدرى من أبوه» الأورق هو الأبيض وروى ابن عباس «أن عويمرا لما لاعن زوجته خولة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نودي الصلاة جامعة فصلى العصر ثم قال لعويمر قم فقام فقال أشهد بالله أن خولة لزانية وإني لمن الصادقين ثم قال في الثانية أشهد بالله إني رأيت شريكا على بطنها وإني لمن الصادقين ثم قال في الثالثة أشهد بالله إنها لحبلى من غيري وإني لمن الصادقين ثم قال في الرابعة أشهد بالله إني ماقربتها منذ أربعة أشهر وإني لمن الصادقين ثم قال في الخامسة لعنة الله على عويمر يعني نفسه إن كان من الكاذبين فيما قال ثم أمره بالقعود فقعد ثم قال لخولة قومي فقامت فقالت أشهد بالله ما أنا بزانية وإن عويمرا لمن الكاذبين ثم قالت في الثانية أشهد بالله إنه مارأى شريكا على بطني وإنه لمن الكاذبين ثم قالت في الثالثة أشهد بالله إني حبلى منه وإنه لمن الكاذبين ثم قالت في الرابعة أشهد بالله إنه مارآني قط على فاحشة وإنه لمن الكاذبين ثم قالت في الخامسة غضب الله على خولة تعني نفسها إن كان من الصادقين ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما وقال لولا هذه الأيمان لكان لي في أمرهما رأي ثم قال تحينوا الولادة فان جاءت به أصيهب أثيبج يضرب إلى السواد فهو لشريك بن سحماء وإن جاءت به أورق جعدا جماليا خدلج الساقين فهو لغير الذي رميت به» قال ابن عباس فجاءت بأشبه خلق بشريك .

(بيان حكم الآية)

إن الرجل إذا قذف امرأته فموجبه موجب قذف الأجنبية وجوب الحد عليه إن كانت محصنة أو التعزير إن كانت غير محصنة غير أن المخرج منهما مختلف فاذا قذف أجنبيا أو أجنبية يقام عليه الحد إلا أن يأتي بأربعة يشهدون بالزنا أو يقر المقذوف بالزنا فيسقط عنه الحد وفي الزوجة إذا وجد أحد هذين أو لاعن سقط عنه الحد فاللعان في قذف الزوجة بمنزلة البينة لأن الرجل إذا رأى مع امرأته رجلا ربما لا يمكنه إقامة البينة ولا يمكنه الصبر على العار فجعل الله اللعان حجة له على صدقه فقال تعالى «فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين» وإذا أقام الزوج بينة على زناها أو اعترفت هي بالزنا سقط عنه الحد واللعان إلا أن يكون هناك ولد يريد نفيه فله أن يلاعن لنفيه وإذا أراد الإمام أن يلاعن بينهما بدأ بالرجل فيقيمه ويلقنه كلمات اللعان فيقول قل أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميت به زوجتي فلانة من الزنا وإن كان قد رماها برجل بعينه سماه في اللعان ويقول كما يلقنه الإمام وإن كان ولد أو حمل يريد نفيه يقول وإن هذا الولد أو هذا الحمل لمن الزنا ماهو مني ويقول في الخامسة على لعنة

(والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين) قرأ نافع ويعقوب أن خفيفة وكذلك الثانية لعنة الله رفع ثم يعقوب قرأ غضب بالرفع وقرأ نافع غضب بكسر الضاد وفتح الياء على الفعل الماضي الله رفع وقرأ الآخرون أن بالتشديد فيهما لعنة نصب وغضب بفتح الضاد على الاسم الله جر وقرأ حفص عن عاصم والخامسة الثانية نصب أي ويشهد الشهادة الخامسة وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء وخبره في إن كالأولى وسبب نزول هذه الآية ما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق إبراهيم ابن عبد الصمد الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب «أن سهل بن سعد الساعدي أخبره أن عويمرا العجلاني جاء إلى عاصم بن عدي الأنصاري فقال له ياعاصم أرأيت لو أن رجلا وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل؟ سل لي عن ذلك ياعاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل وعابها حتى كبر على عاصم ما سمع من رسول الله ﷺ فلما رجع عاصم إلى أهله جاء عويمر فقال له ياعاصم ماذا قال لك

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عاصم لعويمر لم تأتني بخير قد كره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسألة التى سألته عنها فقال عويمر والله لا أنتهى حتى أسأله عنها فجاء عويمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم وسط الناس فقال يارسول الله أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل فيك وفى صاحبتك فاذهب فأت بها فقال سهل فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغا من تلاعنهما قال عويمر كذبت عليها يارسول الله إن أمسكتها فطلقها ثلاثا قبل أن يأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم» قال مالك قال ابن شهاب فكانت تلك سنة المتلاعنين . وقال محمد بن إسماعيل أنا إسحاق أنا محمد بن يوسف أنا الأوزاعى أنا الزهرى بهذا الإسناد بمثل معناه وزاد ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انظروا فان جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الأليتين خدلج الساقين فلا أحسب عويمرا إلا قد صدق عليها وإن جاءت به أحيمر كأنه وحرة فلا أحسب عويمرا إلا قد كذب عليها فجاءت به على النعت الذى نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من تصديق عويمر فكان بعد ينسب إلى أمه» أخبرنا عبدالواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن بشار أنا ابن أبى عدى عن هشام بن حسان أنا عكرمة عن ابن عباس « أن هلال بن أمية قذف امرأته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء فقال النبى صلى الله عليه وسلم البينة أوحد فى ظهرك فقال يارسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يقول البينة وإلا حد فى ظهرك فقال هلال والذى بعثك بالحق إنى لصادق ولينزلن الله ما يبرئ ظهرى من الحد فنزل جبريل وأنزل عليه «والذين يرمون أزواجهم» فقرأ حتى بلغ «إن كان من الصادقين» فانصرف النبى صلى الله عليه وسلم فأرسل إليهما فجاء هلال فشهد والنبى صلى الله عليه وسلم يقول إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب ثم قامت فشهدت فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا إنها موجبة قال ابن عباس فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ثم قالت لا أفضح قومى سائر اليوم فمضت فقال النبى صلى الله عابه وسلم أبصروها فان جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء فجاءت به كذلك فقال النبى صلى الله عليه وسلم لولا ما مضى من كتاب الله لكان لى ولها شأن» وقال عكرمة عن ابن عباس قال لما نزلت «والذين يرمون المحصنات» الآية قال سعد بن عبادة « لو أتيت لكاع وقد تفخذها رجل لم يكن لى أن أهيجه حتى آتى بأربعة شهداء فو الله ما كنت لآتى بأربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته ويذهب وإن قلت ما رأيت إن فى ظهرى لثمانين جلدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معشر الأنصار ألا تسمعون ماقال سيدكم قالوا لاتلمه فانه رجل غيور ما تزوج امرأة قط إلا بكرا ولاطلق امرأة له فاجترأ رجل منا أن يتزوجها فقال سعد يارسول الله بأبى أنت وأمى والله إنى لأعرف أنها من الله وأنها حق ولكن عجبت من ذلك لما أخبرك الله فقال النبى صلى الله عليه وسلم فان الله يأبى إلا ذلك فقال صدق الله ورسوله قال فلم يلبثوا إلا يسيرا حتى جاء ابن عم له يقال له هلال بن أمية من حديقة له فرأى رجلا مع امرأته يزنى بها فأمسك حتى أصبح فلما أصبح غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس مع أصحابه فقال يارسول الله إنى جئت أهلى عشاء فوجدت رجلا مع امرأتى رأيت بعينى وسمعت بأذنى فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أتاه به وثقل عليه حتى عرف ذلك فى وجهه فقال هلال والله يارسول الله إنى لأرى الكراهية فى وجهك مما أتيتك به والله يعلم أنى لصادق وما قلت إلا حقا وإنى لأرجو أن يجعل الله لى فرجا فهم رسول الله صلى الله عليه سلم بضربه قال واجتمعت الأنصار فقالوا ابتلينا بما قال سعد أيجلد هلال وتبطل شهادته وإنهم لكذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يأمر بضربه إذ نزل عليه الوحى فأمسك أصحابه عن كلامه حين عرفوا أن الوحى قد نزل عليه حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمسكوا فأنزل الله عز وجل «والذين يرمون أزواجهم» إلى آخر الآيات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبشر ياهلال فان الله قد جعل لك فرجا فقال لقد كنت أرجو ذلك من الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلوا إليها فجاءت فلما اجتمعا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل لها فكذبت فقال رسول الله ﷺ إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب فقال هلال يارسول الله بأبى أنت وأمى قد صدقت وما قلت إلا حقا فقال رسول الله

الله إن كنت من الكاذبين فيما رميت به فلانة وإذا أتى بكلمة من كلمات اللعان من غير تلقين الإمام لا تحسب فاذا فرغ الرجل من اللعان وقعت الفرقة بينه وبين الزوجة وحرمت عليه

صلى الله عليه وسلم لاعنوا بينهما فقيل لهلال اشهد فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين فقال له عند الخامسة ياهلال اتق الله فان عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة وإن عذاب الله أشد من عذاب الناس وإن هذه الخامسة هي الموجبة التي توجب عليك العذاب فقال هلال والله لايعذبني الله عليها كما لم يجلدني عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهد الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ثم قال للمرأة اشهدي فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فقال لها عند الخامسة ووقفها اتقي الله فان الخامسة موجبة وإن عذاب الله أشد من عذاب الناس فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف ثم قالت والله لاأفضح قومي فشهدت الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما وقضى بأن الولد لها ولا يدعى لأب ولا يرمى ولدها ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن جاءت به كذا وكذا فهو لزوجها وإن جاءت به كذا وكذا فهو للذي قيل فيه فجاءت به غلاما كأنه جمل أورق على الشبه المكروه وكان بعد أميرا على مصر لايدرى من أبوه» وقال ابن عباس في سائر الروايات ومقاتل «لما نزلت والذين يرمون المحصنات الآية فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة على المنبر فقام عاصم بن عدي الأنصاري فقال جعلني الله فداك إن رأى رجل منا مع امرأته رجلا فأخبر بما رأى جلد ثمانين جلدة وسماه المسلمون فاسقا ولاتقبل شهادته أبدا فكيف لنا بالشهداء ونحن إذا التمسنا الشهداء كان الرجل فرغ من حاجته ومر وكان لعاصم هذا ابن عم يقال له عويمر وله امرأة يقال لها خولة بنت قيس بن محصن فأتى عويمر عاصما وقال لقد رأيت شريك بن السحماء على بطن امرأتي خولة فاسترجع عاصم وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجمعة الأخرى فقال يارسول الله ماأسرع ما ابتليت بالسؤال الذي سألت في الجمعة الماضية في أهل بيتي فأخبره وكان عويمر وخولة وشريك كلهم بني عم عاصم فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم جميعا وقال لعويمر اتق الله في زوجتك وابنة عمك ولا تقذفها بالبهتان فقال يارسول الله أقسم بالله إني رأيت شريكا على بطنها وإني ماقربتها منذ أربعة أشهر وإنها

حبلى من غيري فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمرأة اتقي الله ولا تخبري إلا بما صنعت فقالت يارسول الله إن عويمرا رجل غيور وإنه رآني وشريكا يطيل السمر ونتحدث فحملته الغيرة على ما قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لشريك ماتقول ؟ فقال ماتقوله المرأة كذب فأنزل الله عز وجل «والذين يرمون أزواجهم» الآية فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نودي الصلاة جامعة فصلى العصر ثم قال لعويمر قم فقام فقال أشهد بالله إن خولة لزانية وإني لمن الصادقين ثم قال في الثانية أشهد بالله إني رأيت شريكا على بطنها وإني لمن الصادقين ثم قال في الثالثة أشهد بالله إنها حبلى من غيري وإني لمن الصادقين ثم قال في الرابعة أشهد بالله إني ماقربتها منذ أربعة أشهر وإني لمن الصادقين ثم قال في الخامسة لعنة الله على عويمر يعني نفسه إن كان من الكاذبين فيما قال ثم أمره بالقعود وقال لخولة قومي فقامت فقالت أشهد بالله ماأنا بزانية وأن عويمرا لمن الكاذبين ثم قالت في الثانية أشهد بالله إنه ما رأى شريكا على بطني وإنه لمن الكاذبين ثم قالت في الثالثة أشهد بالله إني حبلى منه وإنه لمن الكاذبين ثم قالت في الرابعة أشهد بالله إنه مارآني قط على فاحشة وإنه لمن الكاذبين ثم قالت في الخامسة غضب الله على خولة تعني نفسها إن كان من الصادقين ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما وقال لولا هذه الأيمان لكان لي في أمرهما رأي ثم قال تحينوا بها الولادة فان جاءت به أصيهب أثيبج يضرب إلى السواد فهو لعويمر وإن جاءت به أورق جعدا جماليا خدلج الساقين فهو للذي رميت به قال ابن عباس فجاءت بأشبه خلق الله بشريك» والكلام في حكم الآية أن الرجل إذا قذف امرأته فموجبه موجب قذف الأجنبي في وجوب الحد عليه إن كانت محصنة أو التعزير إن لم تكن محصنة غير أن المخرج منهما مختلف فاذا قذف أجنبيا يقام الحد عليه إلا أن يقيم أربعة من الشهود على زناها أو يقر به المقذوف فيسقط عنه حد القذف. وفي الزوجة إذا وجد أحد هذين أو لاعن يسقط عنه الحد فاللعان في قذف الزوجة بمنزلة البينة لأن الرجل إذا رأى مع امرأته رجلا ربما لايمكنه إقامة البينة عليه ولا يمكنه الصبر على العار فجعل الله اللعان حجة له على صدقه فقال تعالى فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين . وإذا أقام الزوج البينة على زناها أو اعترفت بالزنا سقط عنه الحد واللعان إلا أن يكون هناك ولد يريد نفيه فله أن يلاعن لنفيه وإذا أراد الإمام أن يلاعن بينهما يبدأ فيقيم الرجل ويلقنه كلمات اللعان فيقول قل أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميت

على التأبيد وانتفى عنه النسب وسقط عنه الحد ووجب على المرأة حد الزنا ، فهذه خمسة أحكام تتعلق

به فلانة بالزنا وإن كان قد رماها برجل بعينه سماه بعينه باللعان وإن رماها بجماعة سماهم ويقول الزوج كما يلقنه الإمام وإن كان ولد أو حمل يريد نفيه يقول وإن هذا الولد أو الحمل لمن الزنا ماهو منى ويقول فى الخامسة على لعنة الله إن كنت من الكاذبين فيما رميت به فلانة وإذا أتى بكلمة منها من غير تلقين الحاكم لاتكون محسوبة . فاذا فرغ الرجل من اللعان وقعت الفرقة بينه وبين زوجته وحرمت عليه على التأبيد وانتفى عنه النسب وسقط عنه حد القذف له ووجب على المرأة حد الزنا إن كانت محصنة ترجم وإن كانت غير محصنة تجلد وتغرب فهذه خمسة أحكام تتعلق كلها بلعان الزوج . قوله (ويدرأ) يدفع (عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين) وأراد بالعذاب الحد كما قال فى أول السورة وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين أى حدهما ومعنى الآية أن الزوج إذا لاعن وجب على المرأة حد الزنا وإذا وجب عليها حد الزنا بلعانه فأرادت (٥٥) إسقاطه عن نفسها فانها تلاعن فتقوم وتشهد بعد تلقين الحاكم أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فيما رمانى به وتقول فى الخامسة على غضب الله إن كان زوجى من الصادقين فيما رمانى به ولا يتعلق بلعانها إلا حكم واحد وهو سقوط الحد عنها. ولو أقام الزوج بينة على زناها فلا يسقط الحد عنها باللعان وعند أصحاب الرأى لاحد على من قذف زوجته بل موجبه اللعان فان لم يلاعن يحبس حتى يلاعن فاذا لاعن الزوج وامتنعت المرأة عن اللعان حبست حتى تلاعن وعند الآخرين اللعان حجة على صدقه والقاذف إذا قعد عن الحجة على صدقه لايحبس بل يحد كقاذف الأجنبى إذا قعد عن إقامة البينة . وعند أبى حنيفة موجب اللعان وقوع الفرقة ونفى النسب وهما لا يحصلان إلا بلعان الزوجين جميعا وقضاء القاضى وفرقة اللعان فرقة فسخ عند كثير من أهل العلم وبه قال الشافعى وتلك الفرقة متأبدة حتى لو أكذب الزوج نفسه يقبل ذلك فيما عليه دون ماله فيلزمه الحد ويلحقه الولد ولكن لايرتفع تأبيد التحريم . وعند أبى حنيفة فرقة اللعان فرقة طلاق فاذا أكذب الزوج نفسه جاز له أن ينكحها وإذا أتى ببعض كلمات اللعان لايتعلق به الحكم وعند أبى حنيفة إذا أتى بأكثر كلمات اللعان قام مقام الكل فى تعلق الحكم به فكل من صح يمينه صح لعانه حرا كان أو عبدا مسلما كان أو ذميا وهو قول سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار والحسن وبه قال ربيعة ومالك والثورى والشافعى وأكثر أهل العلم . وقال الزهرى والأوزاعى وأصحاب الرأى لايجرى اللعان إلا بين مسلمين حرين غير محدودين فان كان الزوجان أو أحدهما رقيقا أو ذميا أو محدودا فى قذف فلا لعان بينهما وظاهر القرآن حجة

تتعلق بلعان الزوج . قوله عزوجل (ويدرأ) أى يدفع (عنها العذاب) أى الحد (أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين) حكم الآية أن الزوج إذا لاعن وجب على المرأة حد الزنا فان أرادت إسقاطه عن نفسها فانها تلاعن فتقوم وتشهد بعد تلقين الحاكم أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فيما رمانى به وتقول فى الخامسة على غضب الله إن كان زوجى من الصادقين فيما رمانى به ولا يتعلق بلعانها إلا هذا الحكم الواحد وهو إسقاط الحد عنها ولو أقام الزوج بينة لم يسقط الحد عنها باللعان وعند أصحاب الرأى لاحد على من قذف زوجته بل موجبه اللعان فان لم يلاعن حبس حتى يلاعن فاذا لاعن الزوج وامتنعت المرأة من اللعان حبست حتى تلاعن وعند الآخرين اللعان حجة صدقه والقاذف إذا قعد عن إقامة البينة على صدقه لا يحبس بل يحد كقاذف الأجنبى إذا قعد عن إقامة البينة . وعند أبى حنيفة موجب اللعان وقوع الفرقة ونفى النسب وهما لايحصلان إلا بلعان الزوجين جميعا وقضاء القاضى وفرقة اللعان فرقة فسخ عند الأكثرين وبه قال الشافعى وتلك الفرقة متأبدة حتى لو أكذب الزوج نفسه يقبل ذلك فيما عليه لافيما له فيلزمه الحد ويلحقه الولد لكن لايرتفع تأبيد التحريم . وعند أبى حنيفة فرقة اللعان فرقة طلاق فاذا أكذب نفسه جاز له أن ينكحها وإذا أتى ببعض كلمات اللعان لايتعلق به الحكم وعند أبى حنيفة إذا أتى بأكثر كلمات اللعان قام مقام الكل وكل من صح يمينه صح لعانه حرا كان أو عبدا مسلما كان أو ذميا وهو قول سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار والحسن وبه قال ربيعة ومالك والثورى والشافعى وأكثر أهل العلم وقال الزهرى والأوزاعى وأصحاب الرأى لايجرى اللعان إلا بين مسلمين حرين غير محدودين فان كان أحد الزوجين رقيقا أو ذميا أو محدودا فى قذف فلا لعان بينهما وظاهر القرآن حجة لمن قال يجرى اللعان بينهما لأن الله تعالى قال والذين يرمون أزواجهم ولم يفصل بين الحر والعبد والمحدود وغيره ولا يصح اللعان إلا عند الحاكم أو نائبه ويغلظ اللعان بأربعة أشياء بتعدد الألفاظ وبالمكان والزمان وأن يكون بمحضر جماعة من

لمن قال يجرى اللعان بينهما لأن الله تعالى قال «والذين يرمون أزواجهم» ولم يفصل بين الحر والعبد والمحدود وغيره كما قال الذين يظاهرون من نسائهم ثم يستوى الحر والعبد فى الظهار، ولا يصح اللعان إلا عند الحاكم أو خليفته. ويغلظ اللعان بأربعة أشياء بعدد الألفاظ والمكان والزمان وأن يكون بمحضر جماعة من الناس. أما الألفاظ المستحقة فلا يجوز الإخلال بها وأما المكان فهو أن يلاعن فى أشرف الأماكن إن كان بمكة فبين الركن والمقام وإن كان بالمدينة فعند المنبر وفى سائر البلاد ففى المسجد الجامع عند المنبر والزمان هو أن يكون بعد صلاة العصر وأما الجمع فأقلهم أربعة والتغليظ بالجمع مستحب حتى لو لاعن الحاكم بينهما وحده جاز وهل التغليظ بالمكان واجب أو مستحب فيه قولان قوله (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم) جواب لولا محذوف يعنى لعاجلكم بالعقوبة ولكنه ستر عليكم ورفع عنكم الحد باللعان وأن الله تواب يعود على من يرجع عن المعاصى بالرحمة حكيم فيما فرض من الحدود. قوله (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) الآيات سبب نزول هذه الآية ما أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد ابن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد العزيز ابن عبد الله أنا إبراهيم ابن سعد عن صالح عن ابن شهاب قال حدثنى عروة بن الزبير وسعيد ابن المسيب وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عائشة رضى الله عنها زوج النبى صلى الله عليه وسلم حين قال لها أهل الإفك ما قالوا وكلهم حدثنى طائفة من حديثها وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصا وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذى حدثنى عن عائشة وبعض حديثهم يصدق بعضا وإن كان بعضهم أوعى له من بعض قالوا قالت عائشة «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين أزواجه وأيهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه قالت عائشة فأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج فيها سهمى فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما أنزل الحجاب فكنت أحمل فى هودج وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى فلمست صدرى فإذا عقد لى من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمست عقدى فحبسنى ابتغاؤه قالت وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب عليه وهم يحسبون أنى فيه وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم

(٥٦)

الناس، أما تعدد الألفاظ فيجب ولا يجوز الاخلال بشىء منها، وأما المكان فهو أن يلاعن فى أشرف الأماكن فان كان بمكة فبين الركن والمقام وإن كان بالمدينة فعند منبر النبى صلى الله عليه وسلم وفى سائر البلاد فى الجامع عند المنبر، وأما الزمان فهو أن يكون بعد العصر، وأما الجمع فأقله أربعة والتغليظ بالجمع مستحب فلو لاعن الحاكم بينهما وحده جاز وفى التغليظ بالزمان والمكان قولان. قوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) أى لعاجلكم بالعقوبة ولكنه ستر عليكم ودفع عنكم الحد باللعان (وأن الله تواب) أى يعود على من يرجع عن المعاصى بالرحمة (حكيم) أى فيما فرضه من الحدود. قوله عز وجل (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) الآيات سبب نزولها ماروى عن ابن شهاب قال حدثنى عروة بن الزبير وسعيد ابن المسيب وعلقمة بن وقاص وعبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم حين قال لها أهل الأفك ما قالوا وكلهم حدثنى طائفة من حديثها وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصا وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذى حدثنى عن عائشة وبعض حديثهم يصدق بعضا قالوا قالت عائشة رضى الله عنها «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين أزواجه فأيها خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت عائشة أقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج فيها سهمى فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما أنزل الحجاب فكنت أحمل فى هودج وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوه وقفل ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت من شأنى أقبلت إلى رحلى فلمست صدرى فاذا عقد لى من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمست عقدى فحبسنى ابتغاؤه قالت وأقبل الرهط الذى كانوا يرحلون بى فاحتملوا هودجى فرحلوه

خفة الهودج حين رفعوه وحملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدى بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب فتيممت منزلى الذى كنت به وظننت أنهم سيفقدوننى فيرجعون إلى فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكوانى من وراء الجيش فأصبح عند منزلى فرأى سواد إنسان نائم فعرفنى حين رآنى وكان رآنى قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى فخمرت وجهى بجلبابى ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها فقمت إليها فركبتها فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين فى نحر الظهيرة وهم نزول قالت فهلك من هلك فى شأنى وكان الذي تولى كبر الإفك عبد الله ابن أبى ابن سلول قال عروة أخبرت أنه كان يشاع ويتحدث به عنده فيقره ويستمعه ويستوشيه وقال عروة أيضا لم يسم من أهل الإفك أيضا إلا حسان بن ثابت ومسطح ابن أثاثة وحمنة بنت جحش فى ناس آخرين لا علم لى بهم غير أنهم عصبة كما قال الله تعالى «والذى تولى كبر ذلك عبد الله بن أبى بن سلول قال عروة كانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان وتقول إنه الذى قال ؟

فإن أبى ووالدتى وعرضى لعرض محمد منكم وقاء

فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب وهم يحسبون أنى فيه وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدى بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فتيممت منزلى الذى كنت به وظننت أنهم سيفقدوننى فيرجعون إلى فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت وكان صفوان ابن المعطل السلمى ثم الذكوانى قد عرس من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلى فرأى سواد إنسان نائم فأتانى فعرفنى حين رآنى وكان يرانى قبل أن يضرب الحجاب على فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى فخمرت وجهى بجلبابى والله ما كلمنى كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا معرسين» وفى رواية «موغرين فى نحر الظهيرة قالت فهلك من هلك فى شأنى وكان الذى تولى كبره عبدالله بن أبى بن سلول فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهرا والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك ولا أشعر بشىء من ذلك وهو يريبنى فى وجعى أنى لا أرى من النبى صلى الله عليه وسلم اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى إنما يدخل فيسلم ثم يقول كيف تيكم ثم ينصرف فذلك الذى يريبنى منه ولا أشعر بالشر حتى نقهت فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا وكنا لانخرج إلا ليلا إلى ليل وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول فى التنزه وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا فانطلقت أنا وأم مسطح وهى ابنة أبى رهم بن المطلب بن عبدمناف وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب حين فرغنا من شأننا نمشى فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت تعس مسطح فقلت لها بئس ما قلت أتسبين رجلا قد شهد بدرا فقالت ياهنتاه أو لم تسمعى ما قال قلت وما قال فأخبرتنى بقول أهل الإفك فازددت مرضا إلى مرضى فلما رجعت إلى بيتى فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال كيف تيكم قلت أتأذن لى أن آتى أبوى قال وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما فأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيت أبوى قالت فقلت لأمى يا أمتاه ماذا يتحدث الناس به فقالت: يابنية هونى على نفسك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها قالت فقلت سبحان الله وقد تحدث الناس بهذا قالت فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكى قالت ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب وأسامة ابن زيد حين استلبث الوحى يستشيرهما فى فراق أهله قالت فأما أسامة فأشار عليه بما يعلم من براءة أهله وبالذى يعلم لهم فى نفسه من الود فقال أسامة هم أهلك يا رسول الله ولا نعلم والله إلا خيرا وأما على بن أبى طالب فقال يارسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسل

قالت عائشة فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهرا والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك لا أشعر بشىء من ذلك وهو يريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى إنما يدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم ثم يقول كيف تيكم ثم ينصرف فذلك الذى يريبنى ولا أشعر بالشر حتى خرجت حين نقهت فخرجت مع أم مسطح قبل المناصع وكان متبرزنا وكنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول فى التنزه قبل الغائط وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا قالت فانطلقت أنا وأم مسطح وهى ابنة أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق وابنها مسطح ابن أثاثة بن عباد ابن المطلب فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتى حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت تعس مسطح فقلت

الجارية تصدقك قالت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال أى بريرة هل رأيت من شىء يريبك من عائشة قالت له بريرة لا والذى بعثك بالحق إن رأيت منها أمرا قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فيأتى الداجن فيأكله قالت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبى ابن سلول فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى وفى رواية فى أهل بيتى فوالله ماعلمت على أهلى إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا ماعلمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلى إلا معى قالت فقام سعد بن معاذ أحد بنى عبد الأشهل فقال أنا أعذرك منه يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ كذبت لعمر الله لاتقتله ولاتقدر على ذلك فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد يعنى ابن معاذ فقال لسعد بن عبادة كذبت لعمر الله لنقتلنه فانك منافق تجادل عن المنافقين فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت قالت وبكيت يومى ذلك لا يرقألى دمع ولا أكتحل بنوم ثم بكيت ليلتى المقبلة لا يرقألي دمع ولا أكتحل بنوم فأصبح عندى أبواى وقد بكيت ليلتين ويوما حتى أظن أن البكاء فالق كبدى قالت فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى إذ استأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى معى فبينا نحن كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس ولم يجلس عندى من يوم قيل لى ماقيل قبلها وقد مكث شهرا لايوحى إليه فى شأنى بشىء قالت فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال أما بعد ياعائشة فانه بلغنى عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه فان العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعى حتى ماأحس منه قطرة وقلت لأبى أجب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال قال والله ماأدري ما أقول لرسول الله فقلت لأمى أجيبى عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال قالت والله ماأدرى ماأقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أنا جارية حديثة السن لاأقرأ كثيرا من القرآن إنى والله لقد علمت أنكم سمعتم ماتحدث به الناس حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم إنى بريئة والله يعلم أنى بريئة لاتصدقونى بذلك ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم إنى منه بريئة لتصدقنى فوالله ما أجد لى ولكم مثلا إلا أبا يوسف إذ قال «فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون» ثم تحولت فاضطجعت على فراشى وأنا والله حينئذ أعلم أنى بريئة وإن الله مبرئى ببراءتى ولكن الله ما كنت أظن أن ينزل الله فى شأنى وحيا يتلى ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم ولله فى بأمر يتلى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها قالت فوالله

ما رام

لها بئس ماقلتِ أتسبين رجلا شهد بدرا؟فقالت أى هنتاه أو لم تسمعى ماقال قالت؟فقلت ماقال فأخبرتنى بقول أهل الإفك
قالت فازددت مرضا على مرضى فلما رجعت إلى بيتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال كيف تيكم فقلت له
أتأذن لى أن آتى أبوى قالت وأنا أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما قالت فأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لأمى
يا أمتاه ماذا يتحدث الناس قالت يابنية هونى عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا
أكثرن عليها قالت فقلت سبحان الله أو لقد تحدث الناس بهذا ؟ (٥٩) قالت فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت
لا يرقألى دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكى قالت ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب وأسامة ابن زيد حين استلبث الوحى يسألهما ويستشيرهما فى فراق أهله قالت فأما أسامة فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم فى نفسه فقال أسامة أهلك ولا نعلم إلا خيرا وأما على فقال يارسول الله لم يضيق عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك الخبر قالت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقالت أى بريرة هل رأيت من شىء يريبك قالت له بريرة
والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرا قط أغمصه غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن
فتأكله قالت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبى وهو على المنبر فقال يا معشر
المسلمين من يعذرنى من رجل قد بلغنى عنه أذاه فى أهلى والله ما علمت على أهلى إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا
ما علمت عليه إلا خيرا وما يدخل على أهلى إلا معى قالت فقام سعد بن معاذ أخو بنى عبد الأشهل فقال أنا يارسول
الله أعذرك فان كان من الأوس ضربت عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك قالت وقام رجل من
الخزرج وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج قالت عائشة وكان قبل ذلك رجلا

ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل الله على
نبيه صلى الله عليه وسلم فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من
العرق فى اليوم الشاتى من ثقل القول الذي أنزل عليه قال فسرى عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لى ياعائشة احمدى الله وفى رواية قال
أبشرى ياعائشة أما الله فقد برأك فقالت لى أمى قومى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت
لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله هو الذى أنزل براءتى قالت فأنزل الله عز وجل « إن الذين
جاءوا بالإفك عصبة منكم » العشر الآيات فأنزل الله عز وجل هذه الآيات فى براءتى قالت فقال
أبوبكر وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره والله لا أنفق عليه شيئا أبدا بعد الذى قال
لعائشة فأنزل الله « ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة إلى قوله غفور رحيم » فقال أبو بكر بلى والله
إنى لأحب أن يغفر الله لى فرجع إلى مسطح الذى كان يجرى عليه وقال والله لا أنزعها منه
أبدا قالت عائشة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل زينب بنت جحش عن أمرى
فقال يازينب ماعلمت أو مارأيت؟ فقالت يارسول الله أحمى سمعى وبصرى والله ماعلمت عليها
إلا خيرا قالت عائشة وهى التى كانت تساميني من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فعصمها الله
بالورع وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك قال ابن شهاب
فهذا الذى بلغنى من حديث هؤلاء الرهط زاد فى رواية قالت عائشة والله إن الرجل الذى قيل
له ماقيل ليقول سبحان الله فو الذى نفسى بيده ما كشفت من كنف أنثى قط قالت ثم قتل
بعد فى سبيل الله شهيدا » هذا حديث متفق على صحته أخرجاه فى الصحيحين زاد البخارى
فى رواية عن عروة عن عائشة « والذى تولى كبره منهم عبد الله بن أبى ابن سلول وقال عروة
أخبرت أنه كان يشاع ويتحدث به عنده فيقرره ويسمعه ويستوشيه قال عروة لم يسم لى من
أهل الإفك إلا حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش فى ناس آخرين لا علم لى
بهم غير أنهم عصبة كما قال الله تعالى قال عروة كانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان
وتقول إنه الذى قال

فان أبى ووالدتى وعرضى لعرض محمد منكم وقاء »

صالحا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد كذبت لعمر الله لاتقتله ولا تقدر على قتله ولوكان من رهطك ما أحببت أن يقتل فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم لسعد فقال لسعد بن عبادة كذبت لعمر الله لنقتلنه فانك منافق تجادل عن المنافقين قالت فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر قالت فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت قالت فبكيت يومى ذلك كله لايرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم قالت وأصبح أبواى عندى قالت وقد بكيت ليلتين ويوما لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لى دمع حتى إنى لأظن أن البكاء فالق كبدى فبينا أبواى جالسان عندى وأنا أبكى فاستأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى معى قالت فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا فسلم ثم جلس قالت ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل قبلها وقد لبث شهرا لايوحى إليه فى شأنى بشىء قالت فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال أما بعد ياعائشة إنه بلغنى عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه فان العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه قالت فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبى أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال فقال أبى والله ما أدرى ما أقول

(٦٠) أخرجاه من حديث مسروق قال دخلت على عائشة وعندها حسان ينشدها شعرا يبيت من أبياته فقال : حصان رزان ماتزن بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فقالت عائشة لكنك لست كذلك قال مسروق فقلت لها تأذنين له أن يدخل عليك وقد قال الله « والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم » قالت وأى عذاب أشد من العمى وقالت إنه كان ينافح أو يهاجى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(حل غريب ألفاظ هذا الحديث)

قوله وكلهم حدثنى طائفة أى قطعة من حديثها ، قوله كان أوعى أى أحفظ له ، قولها آذن أى أعلم بالرحيل « قولها فاذا عقد لى من جزع أظفار وهو نوع من الخرز وهو الحجر اليمانى المعروف ، قولها لم يهبلن أى يكثر لحمهن فيثقلن « قولها إنما يأكلن العلقة من الطعام هو بضم العين أى البلغة من الطعام وهو قدر مايمسك الرمق ، قولها وليس بها منهم داع ولا مجيب أى ليس بها أحد لامن يدعو ولا من يرد جوابا ، قولها فتيممت أى قصدت قولها قد عرس من وراء الجيش فادلج ، التعريس نزول المسافر فى آخر الليل للراحة والادلاج بالتشديد سير آخر الليل وبالتخفيف سير الليل كله « قولها باسترجاعه هو قوله « إنا لله وإنا إليه راجعون » قولها فخمرت أى غطيت وجهى بجلبابى أى إزارى « قولها موغرين فى نحر الظهيرة الوغرة شدة الحر وكذا نحر الظهيرة أى أولها ، قولها والناس يفيضون أى يخوضون ويتحدثون ، قولها وهو يريبنى يقال رابنى الشىء يريبنى أى شككت فيه ، قولها ولا أرى من النبى صلى الله عليه وسلم اللطف أى الرفق بها واللطف فى الأفعال الرفق وفى الأقوال لين الكلام ، قولها حتى نقهت أى أفقت من المرض والمناصع المواضع الخالية تقضى فيها الحاجة من غائط وبول وأصله المكان الواسع الخالى والمرط كساء من صوف أو خز ، قولها تعس مسطح أى عثر وهو من الدعاء على الإنسان أى سقط لوجهه ، قولها ياهنتاه أى بلهاء كأنها تنسبها إلى البله وقلة المعرفة « قولها لا يرقأ لى دمع أى لاينقطع وقول بريرة إن رأيت بمعنى النفى أى ما رأيت منها أمرا أغمصه بالصاد المهملة أى أعيبه والداجن الشاة التى تألف البيت وتقيم به قوله صلى الله عليه وسلم من يعذرنى أى من يقوم بعذرى إن أنا كافأته على سوء صنيعه إن عاتبت أو عاقبت فلا تلومونى على ذلك قولها وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه أى من قبيلته قولها ولكن احتملته الحمية

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لأمى أجيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت أى والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيرا إنى والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم إنى بريئة لاتصدقونى ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى بريئة لتصدقنى فوالله لا أجد لى ولكم مثلا إلا أبا يوسف حين قال « فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون » ثم تحولت واضطجعت على فراشى والله يعلم إنى حينئذ بريئة وإن الله مبرئى ببراءتى ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل فى شأنى وحيا يتلى ، لشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فى بأمر ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله

صلى الله عليه وسلم فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها فوالله مارام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه العرق مثل الجمان وهو فى يوم شات من ثقل القول الذى أنزل عليه قالت فسرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال أبشرى ياعائشة أما الله فقد برأك قالت فقالت لى أمى قومى إليه فقلت والله لاأقوم إليه فانى لاأحمد إلا الله قالت وأنزل الله تعالى إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم العشر الآيات ثم أنزل الله فى براءتى قال أبو بكر الصديق وكان ينفق على مسطح ابن أثاثة لقرابته منه وفقره والله لاأنفق على مسطح شيئا أبدا بعد الذى قال لعائشة ماقال فأنزل الله «ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة» إلى قوله «غفور رحيم» قال أبو بكر الصديق بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه وقال والله لا أنزعها منه أبدا قالت عائشة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل زينب بنت جحش عن أمرى فقال لزينب ماذا علمت أو رأيت؟ فقالت يارسول الله أحمى سمعى وبصرى والله ماعلمت إلا خيرا قالت عائشة وهى التى كانت تسامينى من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فعصمها الله بالورع قالت وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك قال ابن شهاب فهذا الذى بلغنى من حديث هؤلاء الرهط قالت عائشة والله إن الرجل الذى قيل له ماقيل ليقول: سبحان الله فوالذى نفسى بيده ماكشفت عن كنف أنثى قط ثم قتل بعد ذلك فى سبيل الله» ورواه محمد بن إسماعيل عن يحيى ابن بكير أنا الليث عن يونس عن ابن شهاب باسناد مثله «وقال وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه فان العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه إلى قوله فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك» ورواه أبو أسامة عن هشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة فقالت ولقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بيتى فسأل عنى خادمتى فقالت لا والله ماعلمت عليها عيبا إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها أو عجينها فانتهرها بعض أصحابه فقال أصدقى رسول الله حتى أسقطوا المهابة فقالت سبحان الله والله ماعلمت عليها إلا كما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر وفيه قالت وأنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع عنه وإنى لأتبين السرور فى وجهه وهو يمسح جبينه ويقول أبشرى ياعائشة فقد أنزل الله براءتك فقال لى أبواى قومى إليه فقلت لا والله لاأقوم إليه ولا أحمده ولا أحمد أحدا ولكن أحمد الله الذى أنزل براءتى لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه » أما تفسير قوله إن الذين جاءوا بالإفك بالكذب وهو أسوأ الكذب سمى إفكا لكونه مصروفا عن الحق من قولهم أفك الشئ إذا قلبه عن وجهه وذلك أن عائشة كانت تستحق الثناء لما كانت

الحمية أى حمله الغضب والأنفة والتعصب على الجهل للقرابة ، قولها فتثاور الحيان أى ثاروا ونهضوا للقتال والمخاصمة ، قولها فلم يزل يخفضهم أى يهون عليهم ويسكن ، قوله صلى الله عليه وسلم إن كنت ألممت قيل هو من اللمم وهو صغائر الذنوب وقيل معناه مقارفة الذنب من غير فعل ، قولها قلص دمعى أى انقطع جريانه ، قولها مارام أى مابرح من مكانه والبرحاء الشدة والكرب والجمانة الدرة وجمعها جمان فسرى عنه أى كشف عنه وقول زينب أحمى سمعى وبصرى أى أمنعهما من أن أخبر بما لم أسمع ولم أبصر ، قولها وهى التى كانت تسامينى من السمو وهو العلو والغلبة فعصمها الله أى منعها من الوقوع فى الشر بالورع وقول الرجل ما كشفت من كنف أى من ستر أنثى قوله ويستوشيه أى يستخرجه بالبحث عنه والاستقصاء فيه وقول حسان فى عائشة حصان بفتح الحاء يقال امرأة حصان أى متعففة رزان أى ثابتة ما تزن أى ترمى ولاتتهم بريبة أى بأمر يريب الناس حيية وتصبح غرثى أى جائعة والغرث الجوع من لحوم الغوافل جمع غافلة ، والمعنى أنها لاتغتاب أحدا مما هو غافل عن مثل هذا الفعل وقول عائشة فى حسان إنه كان ينافح أى يناضل ويخاصم عن الله ورسوله وأما التفسير فقوله عز وجل «إن الذين جاءوا بالإفك » أى بالكذب والإفك أسوأ الكذب لكونه مصروفا عن الحق وذلك أن عائشة كانت تستحق الثناء والمدح بما كانت عليه من الحصانة والشرف والعقل والعلم والديانة فمن رماها بالسوء فقد قلب الحق بالباطل وجاء بالإفك ، عصبة أى جماعة منكم أى عبد الله بن أبى بن سلول ومسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش زوجة طلحة ابن عبيد الله . فان قلت عبد الله بن أبى ابن سلول كان رأس المنافقين فكيف قال منكم . قلت كان ينسب إلى الإيمان فى الظاهر وقيل قوله منكم خرج مخرج الأغلب فان حسان بن

عليه من الحصانة والشرف فمن رماها بالسوء قلب الأمر عن وجهه عصبة منكم أى جماعة منهم عبد الله بن ابى ابن سلول ومسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش زوجة طلحة بن عبيد الله وغيرهم (لاتحسبوه شرا لكم) ياعائشة وياصفوان وقيل هو خطاب لعائشة ولأبويها وللنبى صلى الله عليه وسلم ولصفوان يعنى لاتحسبوا الإفك شرا لكم (بل هو خير لكم) لأن الله يأجركم على ذلك ويظهر براءتكم ، وسمى الإفك إفكا لكونه مصروفا عن الحق من قولهم أفك الشىء إذا قلبه عن وجهه وذلك أن عائشة كانت تستحق الثناء بما كانت عليه من الحصانة والشرف فمن رماها بالسوء قلب الأمر عن وجهه قوله تعالى (لكل امرىء منهم) يعنى من العصبة الكاذبة (مااكتسب من الإثم) أى جزاء مااجترح من الذنب على قدر ماخاض فيه (والذى تولى كبره) أى تحمل معظمه فبدأ بالخوض فيه قرأ يعقوب كبره بضم الكاف وقرأ العامة بالكسر قال الكسائى هما لغتان قال الضحاك قام بأشاعة الحديث وهو عبد الله بن أبى بن سلول وروى الزهرى عن عروة عن عائشة والذى تولى كبره منهم (٦٢) قالت عبدالله بن أبى ابن سلول والعذاب الأليم هو النار فى الآخرة . وقدروى ابن أبى مليكة عن عروة عن عائشة فى حديث الإفك «قالت ثم ركبت وأخذ صفوان بالزمام فمررنا بملأ من المنافقين وكانت عادتهم أن ينزلوا منتبذين من الناس فقال عبد الله بن أبى رئيسهم من هذه قالوا عائشة قال والله مانجت منه وما نجا منها وقال امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقود بها وشرع فى ذلك أيضا حسان بن ثابت ومسطح وحمنة فهو الذى تولى كبره وقال قوم هو حسان ابن ثابت ، أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد ابن إسماعيل أنا بشر بن خالد أنا محمد بن جعفر عن شعبة عن سليمان عن أبي الضحى عن مسروق قال ، دخلت على عائشة وعندها حسان بن ثابت ينشد شعرا يشبب بأبيات له وقال :

حصان رزان ماتزن بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فقالت له عائشة لكنك لست كذلك قال مسروق فقلت لها لم تأذنين له أن يدخل عليك وقد قال الله تعالى والذى تولى كبره (منهم له عذاب عظيم) قالت وأى عذاب أشد من العمى وقالت إنه كان ينافح أو يهاجى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بالذين رموا عائشة فجلدوا الحد جميعا ثمانين ثمانين . قوله (لولا) هلا (إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم) باخوانهم (خيرا) قال الحسن بأهل دينهم لأن المؤمنين كنفس واحدة نظيره قوله تعالى «ولا تقتلوا أنفسكم فسلموا على أنفسكم» (وقالوا هذا إفك مبين) أى كذب بين (لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء) على ماز عموا (فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) فان قيل كيف يصيرون عند الله كاذبين إذ لم يأتوا

ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة كانوا من المؤمنين المخلصين (لاتحسبوه شرا لكم) يعنى الإفك الخطاب لعائشة وصفوان وقيل لعائشة ولأبويها وللنبى صلى الله عليه وسلم ولصفوان (بل هو خير لكم) يعنى أن الله آجركم على ذلك وأظهر براءتكم وشهد بكذب العصبة وأوجب لهم الذم وهذا غاية الشرف والفضل لكم (لكل امرىء منهم) أى من العصبة الكاذبة (ما اكتسب من الإثم) أى جزاء مااجترح من الذنب على قدر ماخاض فيه (والذى تولى كبره) يعنى تحمل معظمه وبدأ بالخوض فيه وأقام باشاعته وهو عبد الله بن أبى بن سلول (منهم) من العصبة (له عذاب عظيم) يعنى عذاب النار فى الآخرة روى « أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بالذين رموا عائشة فجلدوا الحد جميعا ثمانين ثمانين » : قوله عز وجل (لولا إذ سمعتموه) يعنى الحديث الكذب وهو قول أهل الافك (ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم) باخوانهم وأهل دينهم (خيرا) والمعنى كان الواجب على المؤمنين إذ سمعوا قول أهل الأفك أن يكذبوه ويحسنوا الظن ولا يسرعوا فى التهمة وقول الزور فيمن عرفوا عفته وطهارته وفيه معاتبة للمؤمنين (وقالوا هذا إفك مبين) يعنى كذب بين لاحقيقة له (لولا) يعنى هلا (جاءوا عليه) يعنى على ماز عموا (بأربعة شهداء) يعنى يشهدون بذلك (فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله) يعنى فى حكم الله (هم الكاذبون) وهذا من باب الزواجر . فان قلت كيف يصيرون عند الله كاذبين إذا لم يأتوا بالشهداء ومن كذب فهو عند الله كاذب سواء أتى بالشهداء أو لم يأت . قلت قيل هذا فى حق الذين رموا عائشة خاصة ومعناه فأولئك هم الكاذبون فى غيبى وعلمى وقيل معناه فأولئك عند الله فى حكم الكاذبين فان الكاذب يجب زجره عن الكذب والقاذف إذا لم يأت بالشهود

يجب

بالشهداء ومن كذب فهو عندالله كاذب سواء أتى بالشهداء أو لم يأت قيل عند الله أى فى حكم الله وقيل معناه كذبوهم بأمر الله وقيل هذا فى حق عائشة ومعناه أولئك هم الكاذبون فى غيبى وعلمى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم) خضتم (فيه) من الإفك (عذاب عظيم) قال ابن عباس أى عذاب لا انقطاع له يعنى فى الآخرة لأنه ذكر عذاب الدنيا من قبل فقال تعالى « والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم » وقد أصابهم فانه قد جلد وحد . وقد روت عمرة عن عائشة « أن النبى صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية حد أربعة نفر عبدالله بن أبى وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش » قوله تعالى (إذ تلقونه) تقولونه (بألسنتكم) قال مجاهد (٦٣) ومقاتل يرويه بعضكم عن بعض . وقال الكلبى وذلك أن الرجل منهم يلقى الرجل فيقول بلغنى كذا وكذا يتلقونه تلقيا وكذا قرأه أبى بن كعب ، وقال الزجاج يلقيه بعضكم إلى بعض وقرأت عائشة تلقونه بكسر اللام وتخفيف القاف من الولق وهو الكذب (وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا) تظنون أنه سهل لا إثم فيه (وهو عند الله عظيم) فى الوزر (ولولا إذ سمعتموه قلتم مايكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك) هذا اللفظ هاهنا بمعنى التعجب (هذا بهتان عظيم) يعنى كذب عظيم يبهت ويتحير من عظمته . وفى بعض الأخبار أن أم أيوب قالت لأبى أيوب الأنصارى أما بلغك مايقول الناس فى عائشة فقال أبو أيوب سبحانك هذا بهتان عظيم فنزلت الآية على وفق قوله(يعظكم الله) قال ابن عباس رضى الله عنهما يحرم الله عليكم قال مجاهد ينهاكم الله(أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين ويبين الله لكم الآيات) بالأمر والنهى (والله عليم) بأمر عائشة وصفوان بن المعطل (حكيم) حكم ببراءتهما . قوله تعالى (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة) يعنى يظهر ويذيع الزنا (فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة) يعنى عبدالله بن أبى وأصحابه المنافقين والعذاب فى الدنيا الحد وفى الآخرة النار (والله يعلم) كذبهم وبراءة عائشة وما خاضوا فيه من سخط الله (وأنتم لا تعلمون ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم) جواب لولا محذوف يعنى لعاجلكم بالعقوبة قال ابن عباس يريد مسطحا وحسان بن ثابت وحمنة. قوله (ياأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء) يعنى بالقبائح من الأفعال (والمنكر) كل مايكرهه الله

يجب زجره . قوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم) معناه لولا أنى قضيت أن أتفضل عليكم فى الدنيا بضروب النعم التى من جملتها الإمهال للتوبة وأن أترحم عليكم فى الآخرة بالعفو والمغفرة لعاجلتكم بالعقاب على ماخضتم به من حديث الإفك والخطاب للقذفة وهذا الفضل هو تأخير العذاب وقبول التوبة ممن تاب (إذ تلقونه بألسنتكم) أى يرويه بعضكم عن بعض وذلك أن الرجل منهم يلقى الرجل فيقول بلغنى كذا وكذا فيتلقونه تلقيا يلقيه بعضهم إلى بعض (وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم) أى من غير أن تعلموا أنه حق (وتحسبونه هينا) أى وتظنون أنه سهل لا إثم فيه (وهو عند الله عظيم) أي فى الوزر (ولولا إذ سمعتموه قلتم مايكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك) قيل هو للتعجب وقيل هو للتنزيه (هذا بهتان عظيم) أى كذب عظيم يبهت ويحير من عظمه روى أن أم أيوب الأنصارى قالت لأبى أيوب الأنصارى ما بلغك مايقول الناس فى عائشة فقال سبحانك هذا بهتان عظيم فنزلت الآية على وفق قوله (يعظكم الله) قال ابن عباس يحرم الله عليكم وقيل ينهاكم الله (أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين ويبين الله لكم الآيات) أى فى الأمر والنهى (والله عليم) أى بأمر عائشة وصفوان (حكيم) أى حكم ببراءتهما. قوله عز وجل (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة) أى يظهر الزنا ويذيع (فى الذين آمنوا) قيل الآية مخصوصة بمن قذف عائشة والمراد بالذين آمنوا عائشة وصفوان وقيل الآية على العموم فكل من أحب أن تشيع الفاحشة أو تظهر على أحد فهو داخل فى حكم هذه الآية والمراد بالذين آمنوا جميع المؤمنين (لهم عذاب أليم فى الدنيا) يعنى الحد والذم على فعله (والآخرة) أى وفى الآخرة لهم النار (والله يعلم) أى كذبهم وبراءة عائشة وما خاضوا فيه من سخط الله (وأنتم لا تعلمون) وقيل معناه يعلم مافى قلب من يحب أن تشيع الفاحشة فيجازيه على ذلك وأنتم لا تعلمون ذلك (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) يعنى لولا إنعامه عليكم لعاجلكم بالعقوبة قال ابن عباس يريد مسطحا وحسان بن ثابت وحمنة (وأن الله رءوف رحيم) . قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان) يعنى آثاره ومسالكه (ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر) يعنى بالقبائح من الأقوال

(ولولافضل الله عليكم ورحمته ،ما زكى) قال مقاتل ماصلح وقال ابن قتيبة ماطهر (منكم من أحد) والآية على العموم عند بعض المفسرين قالوا أخبر الله أنه لولافضله ورحمته بالعصمة ،ماصلح منكم أحد وقال قوم هذا الخطاب للذين خاضوا فى الإفك ومعناه ماطهر من هذا الذنب ولا صلح أمره بعد الذى فعل وهذا قول ابن عباس فى رواية عطاء قال ماقبل توبة أحد منكم أبدا (ولكن الله يزكى) يطهر (من يشاء) من الذنب بالرحمة والمغفرة (والله سميع عليم) قوله تعالى (ولا يأتل) يعنى ولا يحلف وهو يفعل من الألية وهى القسم وقرأ أبو جعفر يتال بتقديم التاء وتأخير الهمزة وهو يتفعل من الألية وهى القسم (أولوا الفضل منكم والسعة) (٦٤) يعنى أولوا الغنى والسعة يعنى أبا بكر الصديق (أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله) يعنى مسطحا وكان مسكينا مهاجرا بدريا ابن خالة أبى بكر حلف أبو بكر أن لاينفق عليه (وليعفوا وليصفحوا) عنهم خوضهم فى أمر عائشة (ألا تحبون) يخاطب أبا بكر (أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) فلما قرأها النبى صلى الله عليه وسلم على أبى بكر قال بلى أنا أحب أن يغفر الله لى ورجع إلى مسطح نفقته التى كان ينفقها عليه وقال والله لا أنزعها منه أبدا وقال ابن عباس والضحاك أقسم ناس من الصحابة فيهم أبو بكر أن لا يتصدقوا على رجل تكلم بشىء من الإفك ولا ينفعوهم فأنزل الله هذه الآيه (إن الذين يرمون المحصنات) العفائف (الغافلات) عن الفواحش (المؤمنات) والغافلة عن الفاحشة التى لايقع فى قلبها فعل الفاحشة وكانت عائشة كذلك قوله تعالى (لعنوا) عذبوا (فى الدنيا) بالحد (والآخرة) بالنار (ولهم عذاب عظيم) قال مقاتل هذا خاص فى عبد الله بن أبى المنافق وروى عن خصيف قال قلت لسعيد بن جبير من قذف مؤمنة يلعنه الله فى الدنيا والآخرة فقال ذلك لعائشة خاصة وقال قوم هى لعائشة وأزواج النبى صلى الله عليه وسلم خاصة دون سائر المؤمنات روى عن العوام ابن حوشب عن شيخ من بنى كاهل عن ابن عباس رضى الله عنهما قال هذه فى شأن عائشة وأزواج النبى صلى الله عليه وسلم خاصة ليس فيها توبة ومن قذف امرأة مؤمنة فقد جعل الله له توبة ثم قرأ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء إلى قوله إلا الذين تابوا فجعل لهؤلاء توبة ولم يجعل لأولئك توبة وقال الآخرون

والأفعال وكل مايكره الله عز وجل والآية عامة فى حق كل أحد لأن كل مكلف ممنوع من ذلك (ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبدا) يعنى ماطهر ولاصلح والآية عند بعض المفسرين على العموم قالوا أخبر الله تعالى أنه لولافضله ورحمته بالعصمة ما صلح منكم أحد وقيل الخطاب للذين خاضوا فى الإفك ومعناه ماطهر من هذا الذنب ولاصلح أمره بعد الذى فعل وهذا قول ابن عباس قال معناه ماقبل توبة أحد منكم أبدا (ولكن الله يزكي) يعنى يطهر (من يشاء) من الذنب بالرحمة والمغفرة (والله سميع) يعنى لأقوالكم (عليم) يعنى بما فى قلوبكم. قوله (ولايأتل) يعنى ولا يحلف من الألية وهى القسم (أولوا الفضل منكم والسعة) يعنى الغنى يعنى أبا بكر الصديق (أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله) يعنى مسطحا وكان مسكينا مهاجرا بدريا ابن خالة أبى بكر الصديق حلف أبو بكر أن لاينفق عليه فأنزل الله هذه الآية (وليعفوا وليصفحوا) يعنى عن خوض مسطح فى أمر عائشة (ألا تحبون) يخاطب أبا بكر (أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) فلما قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى بكر قال بلى أنا أحب أن يغفر الله لى ورجع إلى مسطح بنفقته التى كان ينفق عليه وقال والله لاأنزعها عنه أبدا . وفى الآية أدلة على فضل أبى بكر الصديق لأن الفضل المذكور فى الآية ذكره تعالى فى معرض المدح وذكره بلفظ الجمع فى قوله أولوا الفضل وقوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم وهذا يدل على علو شأنه ومرتبته منها أنه احتمل الأذى من ذوى القربى ورجع عليه بما كان ينفقه عليه وهذا من أشد الجهاد لأنه جهاد النفس. ومنها أنه تعالى قال فى حق رسول الله صلى الله عليه وسلم «فاعف عنهم واصفح» وقال فى حق أبى بكر «وليعفوا وليصفحوا» فدل أن أبا بكر كان ثانى اثنين لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى جميع الأخلاق . وفى الآية دليل على أن من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير ويكفر عن يمينه ومنه الحديث الصحيح «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه» . قوله تعالى(إن الذين يرمون المحصنات) يعنى العفائف (الغافلات) يعنى عن الفواحش والغافلة . عن الفاحشة هى التى لايقع فى قلبها فعل الفاحشة وكذلك كانت عائشة رضى الله عنها (المؤمنات) وصفها بالمؤمنات لعلو شأنها (لعنوا) يعنى عذبوا (فى الدنيا) بالحد (والآخرة) يعنى وفى الآخرة بالنار (ولهم عذاب عظيم) وهذا

نزلت هذه الآية فى أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وكان ذلك كذلك حتى نزلت الآية التى فى أول السورة « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء إلى قوله فان الله غفور رحيم» فأنزل الجلد والتوبة (يوم تشهد عليهم) قرأ حمزة والكسائى بالياء لتقديم الفعل وقرأ الآخرون بالتاء (ألسنتهم) وهذا قبل أن يختم على أفواههم (وأيديهم وأرجلهم) يروى أنه يختم على الأفواه فتتكلم الأيدى والأرجل بما عملت فى الدنيا وقيل معناه تشهد ألسنة بعضهم على بعض وأيديهم وأرجلهم (بما كانوا يعملون يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) جزاءهم الواجب وقيل حسابهم العدل (ويعلمون أن الله هو الحق المبين) يبين لهم حقيقة ما كان يعدهم فى الدنيا قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما وذلك أن عبد الله بن أبى كان يشك فى الدين فيعلم يوم القيامة أن الله هو الحق المبين قوله سبحانه وتعالى (الخبيثات للخبيثين) قال أكثر المفسرين الخبيثات من القول والكلام للخبيثين من الناس (والخبيثون) من الناس (للخبيثات) من القول (والطيبات) من القول (للطيبين) من الناس (والطيبون) من الناس (للطيبات) من القول والمعنى أن الخبيث من القول لا يليق إلا بالخبيث من الناس، والطيب لا يليق إلا بالطيب فعائشة لا تليق بها الخبيثات من القول لأنها طيبة فتضاف إليها طيبات الكلام من المدح والثناء الحسن وما يليق بها. قال الزجاج معناه لا يتكلم بالخبيثات إلا الخبيث من الرجال والنساء ولا يتكلم بالطيبات إلا الطيب من الرجال والنساء وهذا ذم للذين قذفوا عائشة ومدح للذين برءوها بالطهارة وقال ابن زيد معناه الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء أمثال عبد الله بن أبى والشاكين فى الدين والطيبات من النساء للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من النساء يريد عائشة طيبها الله لرسوله الطيب صلى الله عليه وسلم (أولئك مبرءون) يعنى عائشة وصفوان ذكرهما بلفظ الجمع كقوله تعالى «فإن كان له إخوة» أى أخوان وقيل أولئك مبرءون. يعنى الطيبين والطيبات منزهون (مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم) فالمغفرة هى العفو عن الذنوب والرزق الكريم الجنة وروى أن عائشة كانت

فى حق عبد الله بن أبى ابن سلول المنافق، وروى عن حصيف قال قلت لسعيد بن جبير من قذف مؤمنة يلعنه الله فى الدنيا والآخرة قال ذاك لعائشة وأزواج النبى صلى الله عليه وسلم خاصة دون سائر المؤمنات ليس فى ذلك توبة ومن قذف امرأة مؤمنة فقد جعل الله له توبة ثم قرأ «والذين يرمون المحصنات» إلى قوله تابوا فجعل لهؤلاء توبة ولم يجعل لأولئك توبة وقيل بل لهم توبة أيضا للآية (يوم تشهد عليهم ألسنتهم) هذا قبل أن تختم على أفواههم (وأيديهم وأرجلهم) يروى أنه يختم على الأفواه فتتكلم الأيدى والأرجل بما عملت فى الدنيا وهو قوله (بما كانوا يعملون يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) يعنى جزاءهم الواجب وقيل حسابهم العدل (ويعلمون أن الله هو الحق المبين) يعنى الموجود الظاهر الذى بقدرته وجود كل شىء وقيل معناه يبين لهم حقيقة ما كان يعدهم فى الدنيا وقال ابن عباس وذلك أن عبدالله بن أبى ابن سلول كان يشك فى الدين فيعلم يوم القيامة أن الله هو الحق المبين. قوله عز وجل (الخبيثات للخبيثين) قال أكثر المفسرين معنى الخبيثات الكلمات والقول للخبيثين من الناس ومثله (والخبيثون) أى من الناس (للخبيثات) من القول (والطيبات) أى من القول ومعنى الآية أن الخبيث من القول لا يليق إلا بالخبيث من الناس والطيب من القول لا يليق إلا بالطيب من الناس وعائشة لا يليق بها الخبيث من القول لأنها طيبة فيضاف إليها طيب القول من الثناء والمدح وما يليق بها وقيل معناه لا يتكلم بالخبيث إلا الخبيث من الرجال والنساء وهذا ذم للذين قذفوا عائشة ولا يتكلم بالطيب من القول إلا الطيب من الرجال والنساء وهذا مدح للذين برءوها بالطاهر والمدح لها وقيل معنى الآية الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء أمثال عبد الله بن أبى المنافق والشاكين فى الدين والطيبات من النساء (للطيبين والطيبون للطيبات) يريد عائشة طيبها الله لرسوله صلى الله عليه وسلم (أولئك مبرءون) يعنى عائشة وصفوان ذكرهما الله بلفظ الجمع منزهون (مما يقولون) يعنى أصحاب الإفك (لهم مغفرة) أى عفو لذنوبهم (ورزق كريم) يعنى الجنة روى أن عائشة كانت تفتخر بأشياء أعطيتها لم تعطها امرأة غيرها منها أن جبريل عليه السلام أتى بصورتها فى سرقة حرير وقال هذه زوجتك وروى أنه أتى بصورتها فى راحته ومنها أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يتزوج بكرا غيرها وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجرها وفى يومها ودفن فى بيتها وكان ينزل عليه الوحى وهى معه فى اللحاف ونزلت براءتها من السماء وأنها ابنة الصديق وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلقت طيبة ووعدت مغفرة ورزقا كريما وكان مسروق إذا حدث عن عائشة يقول

تفتخر بأشياء أعطيتها لم تعطها امرأة غيرها منها أن جبريل أتى بصورتها فى سرقة من حرير وقال هذه زوجتك وروى أنه أتى بصورتها فى راحته (٦٦) وأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يتزوج بكرا غيرها وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأسه فى حجرها ودفن فى بيتها وكان ينزل عليه الوحى وهو معها فى لحافه ونزلت براءتها من السماء وأنها ابنة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصديقه وخلقت طيبة ووعدت مغفرة ورزقا كريما وكان مسروق إذا روى عن عائشة قال حدثتنى الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم المبرأة من السماء قوله (يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون) قيل معنى قوله حتى تستأنسوا أى حتى تستأذنوا وكان ابن عباس يقرأ حتى تستأذنوا ويقول تستأنسوا خطأ من الكاتب وكذلك كان يقرأ أبى بن كعب والقراءة المعروفة تستأنسوا وهو بمعنى الاستئذان وقيل الاستئناس طلب الأنس وهو أن ينظر هل فى البيت ناس فيؤذنهم إنى داخل . وقال الخليل الاستئناس الاستبصار من قوله آنست نارا أى أبصرتها وقيل هو أن يتكلم بتسبيحة أو تكبيرة أو يتنحنح يؤذن أهل البيت وجملة حكم الآية أنه لايدخل بيت الغير إلا بعد السلام والاستئذان واختلفوا فى أنه يقدم الاستئذان أم السلام

حدثتنى الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم المبرأة من السماء . قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا) أى تستأذنوا وكان ابن عباس يقرأ حتى تستأذنوا ويقول تستأنسوا خطأ من الكاتب وفى هذه الرواية نظر لأن القرآن ثبت بالتواتر والاستئناس فى اللغة الاستئذان وقيل الاستئناس طلب الإنس وهو أن ينظر هل فى البيت إنسان فيؤذنه إنى داخل وقيل هو من آنست أى أبصرت وقيل هو أن يتكلم بتسبيحة أو يتنحنح حتى يعرف أهل البيت (وتسلموا على أهلها) بيان حكم الآية أنه لايدخل بيت الغير إلا بعد الاستئذان والسلام واختلفوا فى أيهما يقدم فقيل يقدم الاستئذان فيقول أدخل سلام عليكم كما فى الآية من تقديم الاستئذان قبل السلام وقال الأكثرون يقدم السلام فيقول سلام عليكم أأدخل وتقدير الآية حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا وكذا هو فى مصحف ابن مسعود وروى عن كلدة بن حنبل قال «دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم ولم أسلم ولم أستأذن فقال النبى صلى الله عليه وسلم ارجع فقل السلام عليكم أأدخل» أخرجه أبو داود والترمذى وعن ربعى بن حراش قال «جاء رجل من بنى عامر فاستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى البيت فقال ألج فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخادمه اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان فقل له قل السلام عليكم أأدخل فسمع الرجل ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال السلام عليكم أأدخل فاذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم» أخرجه أبو داود (ق) عن أبى سعيد وأبى ابن كعب عن أبى موسى قال أبو سعيد «كنت فى مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور فقال استأذنت على عمر ثلاثا فلم يؤذن لى فرجعت قال مامنعك قلت استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى فرجعت وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع قال والله لتقيمن عليه بينة أمنكم أحد سمعه من النبى صلى الله عليه وسلم قال أبى بن كعب فوالله لايقوم معك إلا أصغر القوم فكنت أصغر القوم فقمت معه فأخبرت عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ذلك قال الحسن الأول إعلام والثانى مؤامرة والثالث استئذان بالرجوع عن عبد الله بن بسر قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ويقول السلام عليكم السلام عليكم» وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور أخرجه أبو داود وعن أبى هريرة قال «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعى أحدكم فجاء مع الرسول فان ذلك له إذن» أخرجه أبو داود وقيل إذا وقع بصره على إنسان قدم السلام وإلا قدم الاستئذان ثم يسلم وقال أبو موسى الأشعرى وحذيفة يستأذن على ذوات المحارم يدل عليه ماروى «عن عطاء بن يسار أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أستأذن على أمى قال نعم فقال الرجل إنى معها فى البيت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم استأذن عليها فقال الرجل إنى خادمها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم استأذن عليها أتحب أن تراها عريانة قال لاقال فاستأذن عليها» أخرجه مالك فى الموطأ مرسلا وقوله تعالى (ذلكم خير لكم) أى فعل الاستئذان خير لكم وأولى بكم من التهجم بغير إذن (لعلكم تذكرون) أى

هذه

فقال قوم يقدم الاستئذان فيقول أأدخل سلام عليكم لقوله تعالى «حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها» والأكثرون على أنه يقدم السلام فيقول سلام عليكم أأدخل وفى الآية تقديم وتأخير تقديرها حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا وكذلك هو فى مصحف عبد الله بن مسعود وروى عن كلدة بن حنبل قال «دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم ولم أسلم ولم أستأذن فقال النبى صلى الله عليه وسلم ارجع فقل السلام عليكم أأدخل» وروى عن ابن عمر «أن رجلا استأذن عليه فقال أأدخل فقال ابن عمر لا فأمر بعضهم الرجل أن يسلم فسلم فأذن له» وقال بعضهم إن وقع بصره على إنسان قدم السلام وإلا قدم الاستئذان ثم سلم وقال أبو موسى الأشعرى وحذيفة يستأذن على ذوات المحارم ومثله عن الحسن فان كانوا فى دار واحدة يتنحنح ويتحرك أدنى حركة أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أنا أبو الحسن على بن محمد عبد الله بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن منصور الرمادى أنا عبد الرزاق أنا معمر عن سعيد الجريرى عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى قال «سلم عبد الله بن قيس على عمر بن الخطاب ثلاث مرات فلم يأذن له فرجع فأرسل عمر فى أثره فقال لم رجعت قال إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا سلم أحدكم ثلاثا فلم يجب فليرجع . قال عمر لتأتين على ما تقول ببينة وإلا لأفعلن بك كذا وكذا غير أنه قد أوعده قال فجاء أبو موسى الأشعرى (٦٧) منتقعا لونه وأنا فى حلقة جالس فقلنا ما شأنك فقال سلمت على عمر فأخبرنا خبره فهل سمع أحد منكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا نعم كلنا قد سمعه قال فأرسلوا معه رجلا منهم حتى أتى عمر فأخبره بذلك» ورواه بشر بن سعيد عن أبى سعيد الخدرى وفيه قال أبو موسى الأشعرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع» قال الحسن الأول إعلام والثانى مؤامرة والثالث استئذان بالرجوع قوله (فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها) أى إن لم تجدوا فى البيوت أحدا يأذن لكم فى دخولها فلا تدخلوها (حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا) يعنى إذا كان فى البيت قوم فقالوا ارجع فليرجع ولا يقعد على الباب ملازما (هو أزكى لكم) يعنى الرجوع أطهر وأصلح لكم قال قتادة إذا لم يؤذن له فلا يقعد على الباب ، فان للناس حاجات وإذا حضر ولم يستأذن وقعد على الباب منتظرا جاز وكان ابن عباس يأتى باب الأنصار لطلب الحديث فيقعد على الباب حتى يخرج ولا يستأذن فيخرج الرجل ويقول يا ابن عم رسول الله لو أخبرتنى فيقول هكذا أمرنا أن نطلب العلم وإذا وقف فلا ينظر من شق الباب إذا كان الباب مردودا أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أنا أبو الحسين بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن منصور أنا عبد الرزاق أنا معمر عن الزهرى «عن سهل بن سعد الساعدى «أن رجلا اطلع على النبى صلى الله عليه وسلم من ستر الحجرة وفى يد النبى صلى الله عليه وسلم مدرى فقال لو علمت أن هذا ينظرنى حتى آتيه لطعنت بالمدرى فى عينيه وهل جعل الاستئذان إلا من أجل البصر» أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز ابن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعى أنا سفيان عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك جناح» قوله

هذه الآداب فتعملوا بها . قوله عز وجل (فان لم تجدوا فيها) أى فى البيوت (أحدا) أى يأذن لكم فى دخولها (فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم) أى فى الدخول (وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا) يعنى إذا كان فى البيت قوم وكرهوا دخول الداخل عليهم فقالوا ارجع فليرجع ولا يقف على الباب ملازما (هو أزكى لكم) أي الرجوع هو أطهر وأصلح لكم فان للناس أحوالا وحاجات يكرهون الدخول عليهم فى تلك الأحوال وإذا حضر إلى الباب فلم يستأذن وقعد على الباب منتظرا جاز كان ابن عباس يأتى دور الأنصار لطلب الحديث فيقعد على الباب ولا يستأذن حتى يخرج إليه الرجل فاذا خرج ورآه قال يا ابن عم رسول الله لو أخبرتنى بمكانك فيقول هكذا أمرنا أن نطلب العلم وإذا وقف على الباب فلا ينظر من شقه إذا كان الباب مردودا (ق) «عن سهل بن سعد قال «اطلع رجل من جحر فى باب النبى صلى الله عليه وسلم ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم مدرى يرجل وفى رواية يحك به رأسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو علمت أنك تنظر لطعنت به فى عينك إنما جعل الإذن من أجل البصر» (ق) «عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من اطلع فى بيت قوم بغير إذنهم فقد حل لهم أن يفقئوا عينه» وفى رواية للنسائى قال «لو أن امرأ أطلع عليك بغير إذن فحذفته ففقأت عينه ما كان

تعالى (والله بما تعملون عليم) من الدخول بالإذن وغير الإذن ولما نزلت آية الاستئذان قالوا كيف بالبيوت التى بين مكة والمدينة والشام وعلى ظهر الطريق ليس فيها ساكن فأنزل الله عز وجل (ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة) أى بغير استئذان (فيها متاع لكم) يعنى منفعة لكم واختلفوا فى هذه البيوت فقال قتادة هى الخانات والبيوت والمنازل المبنية للسابلة ليأووا إليها ويؤوا أمتعتهم إليها فيجوز دخولها بغير استئذان والمنفعة فيها بالنزول وإيواء المتاع والاتقاء من الحر والبرد وقال ابن زيد هى بيوت التجار وحوانيتهم التى بالأسواق يدخلونها للبيع والشراء وهو المنفعة وقال إبراهيم النخعى ليس على حوانيت السوق إذن وكان ابن سيرين إذا جاء إلى حانوت السوق يقول السلام عليكم أأدخل ثم

يلج وقال عطاء هى البيوت الخربة والمتاع هو قضاء الحاجة فيها من البول والغائط وقيل هى جميع البيوت التى لا ساكن لها لأن الاستئذان إنما جاء لئلا يطلع على عورة فان لم يخف ذلك فله الدخول بغير استئذان (والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) قوله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) أى عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه وقيل من صلة يعنى يغضوا أبصارهم وقيل هو ثابت لأن المؤمنين غير مأمورين بغض البصر أصلا لأنه لا يجب الغض عما يحل النظر إليه وإنما أمروا بأن يغضوا عما لا يحل النظر إليه (ويحفظوا فروجهم) عما لا يحل قال أبو العالية كل ما فى القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا والحرام إلا فى هذا الموضع فانه أراد به الاستتار حتى لا يقع بصر الغير عليه (ذلك) يعنى غض البصر وحفظ الفرج (أزكى لهم) يعنى خير لهم وأطهر (إن الله خبير بما يصنعون) يعنى عليم بما يفعلون روى عن بريدة قال «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى يا على لا تتبع النظرة النظرة فان لك الأولى وليست لك الآخرة» وروى «عن جرير بن عبد الله قال سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجأة فقال اصرف بصرك» أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد حدثنا محمد بن عيسى الجلودى حدثنا إبراهيم ابن محمد بن سفيان حدثنا مسلم بن الحجاج أنا أبو بكر بن أبى شيبة أنا زيد بن الحباب عن الضحاك بن عثمان قال أخبرنى

عليك حرج» وقال مرة أخرى جناح (والله بما تعملون عليم) يعنى من الدخول بالإذن ولما نزلت آية الاستئذان قالوا كيف بالبيوت التى بين مكة والمدينة والشام على ظهر الطريق ليس فيها ساكن فأنزل الله تعالى (ليس عليكم جناح) يعنى إثم (أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة) يعنى بغير استئذان (فيها متاع لكم) يعنى منفعة لكم قيل إن هذه البيوت هى الخانات والمنازل المبنية للسابلة ليأووا إليها ويؤوا أمتعتهم فيها فيجوز دخولها بغير استئذان والمنفعة النزول بها واتقاء الحر والبرد وإيواء الأمتعة بها وقيل بيوت التجار وحوانيتهم فى الأسواق يدخلها للبيع والشراء وهو منفعتها فليس فيها استئذان وقيل هى جميع البيوت التى لا ساكن فيها لأن الاستئذان إنما جعل لئلا يطلع على عورة فان لم يخف ذلك جاز له الدخول بغير استئذان (والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) قوله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) يعنى عما لا يحل النظر إليه قيل معناه يغضوا أبصارهم وقيل من هنا للتبعيض لأنه لا يجب الغض عما يحل إليه النظر وإنما أمروا أن يغضوا عما لا يحل النظر إليه (م) عن جرير قال «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجأة قال اصرف بصرك» عن بريدة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى «يا على لا تتبع النظرة النظرة فان لك الأولى وليست لك الثانية» أخرجه أبو داود والترمذى (م) «عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة ولا يفضى الرجل إلى الرجل فى ثوب واحد ولا تفضى المرأة إلى المرأة فى ثوب واحد» وقوله تعالى (ويحفظوا فروجهم) يعنى عما لا يحل قال أبو العالية كل ما فى القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا إلا فى هذا الموضع فانه أراد به الاستتار حتى لا يقع بصر الغير عليه. فان قلت كيف أدخل من على غض البصر دون حفظ الفرج. قلت فيه دلالة على أن أمر النظر أوسع ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهن وثديهن وأعضادهن وأقدامهن وكذلك الجوارى المستعرضات فى البيع والأجنبية يجوز النظر إلى وجهها وكفيها للحاجة إلى ذلك وأما أمر الفروج فضيق وكفاك أن أبيح النظر إلا ما استثنى منه وحظر الجماع إلا ما استثنى منه. فان قلت كيف قدم غض البصر على حفظ الفرج. قلت لأن النظر بريد الزنا ورائد الفجور والبلوى فيه أشد ولا يكاد أحد يقدر على الاحتراس منه (ذلك أزكى لهم) يعنى غض البصر وحفظ الفرج (إن الله خبير بما يصنعون) يعنى أنه

زيد بن أسلم عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة ولا يفضى الرجل إلى الرجل فى ثوب واحد . ولا تفضى المرأة إلى المرأة فى ثوب واحد» قوله عز وجل (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) عما لا يحل (ويحفظن فروجهن) عمن لا يحل وقيل أيضا يحفظن فروجهن يعنى يسترنها حتى لا يراها أحد وروى عن أم سلمة «أنها كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وميمونة إذ أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجبا منه ؟ فقلت يارسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفعميا وان أنتما ألستما تبصرانه» قوله تعالى (ولا يبدين زينتهن) يعنى لا يظهرن زينتهن لغير محرم وأراد بها الزينة الخفية (٦٩) وهما زينتان خفية وظاهرة فالخفية مثل الخلخال والخضاب فى الرجل والسوار فى المعصم والقرط والقلائد فلا يجوز لها إظهارها ولا للأجنبى النظر إليها والمراد من الزينة موضع الزينة قوله تعالى (إلا ماظهر منها) أراد به الزينة الظاهرة واختلف أهل العلم فى هذه الزينة الظاهرة التى استثناها الله تعالى قال سعيد بن جبير والضحاك والأوزاعى هو الوجه والكفان وقال ابن مسعود هى الثياب بدليل قوله تعالى «خذوا زينتكم عند كل مسجد» وأراد بها الثياب وقال الحسن الوجه والثياب وقال ابن عباس الكحل والخاتم والخضاب فى الكف فما كان من الزينة الظاهرة جاز للرجل الأجنبى النظر إليه إذا لم يخف فتنة وشهوة . فان خاف شيئا منها غض البصر وإنما رخص فى هذا القدر أن تبديه المرأة من بدنها لأنه ليس بعورة وتؤمر بكشفه فى الصلاة وسائر بدنها عورة يلزمها ستره قوله عز وجل (وليضربن بخمرهن) يعنى ليلقين بمقانعهن (على جيوبهن) وصدورهن ليسترن بذلك شعورهن وصدورهن وأعناقهن وأقراطهن قالت عائشة رحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله عز وجل وليضربن بخمرهن على جيوبهن شققن مروطهن فاختمرن بها (ولا يبدين زينتهن) يعنى الزينة الخفية التى لم يبح لهن كشفها فى الصلاة ولا للأجانب وهو ماعدا الوجه والكفين (إلا لبعولتهن) قال ابن عباس ومقاتل : يعنى لا يضعن الجلباب ولا الخمار إلا لبعولتهن . أى إلا لأزواجهن (أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن) فيجوز

خبير بأحوالهم وأفعالهم وكيف يجيلون أبصارهم وكيف يصنعون بسائر حواسهم وجوارحهم قوله عز وجل (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن) يعنى عما لا يحل لهن روى عن أم سلمة قالت «كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ميمونة بنت الحرث إذ أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجبا منه فقلنا يارسول الله أليس أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفعميا وان أنتما ألستما تبصرانه» أخرجه الترمذى وأبو داود . قوله تعالى (ولا يبدين) يعنى لا يظهرن (زينتهن) يعنى لغير المحرم وأراد بالزينة الخفية مثل الخلخال والخضاب فى الرجل والسوار فى المعصم والقرط فى الأذن والقلائد فى العنق فلا يجوز للمرأة إظهارها ولا يجوز للأجنبى النظر إليها والمراد من الزينة النظر إلى مواضعها من البدن (إلا ماظهر منها) يعنى من الزينة قال سعيد بن جبير والضحاك والأوزاعى الوجه والكفان وقال ابن مسعود هى الثياب وقال ابن عباس هى الكحل والخاتم والخضاب فى الكف فما كان من الزينة الظاهرة يجوز للرجل الأجنبى النظر إليه للضرورة مثل تحمل الشهادة ونحوه من الضرورات إذا لم يخف فتنة وشهوة فان خاف شيئا من ذلك غض البصر وإنما رخص فى هذا القدر للمرأة أن تبديه من بدنها لأنه ليس بعورة وتؤمر بكشفه فى الصلاة وسائر بدنها عورة (وليضربن بخمرهن) يعنى ليلقين بمقانعهن (على جيوبهن) يعنى موضع الجيب وهو النحر والصدر يعنى ليسترن بذلك شعورهن وأعناقهن وأقراطهن وصدورهن (خ) عن عائشة قالت «يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله وليضربن بخمرهن على جيوبهن شققن مروطهن فاختمرن بها» المرط كساء من صوف أو خز أو كتان وقيل هو الإزار وقيل هو الدرع (ولا يبدين زينتهن) يعنى الخفية التى لم يبح لهن كشفها فى الصلاة ولا للأجانب وهى ماعدا الوجه والكفين (إلا لبعولتهن) قال ابن عباس لا يضعن الجلباب والخمار إلا لأزواجهن أو آبائهن (أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن) فيجوز لهؤلاء أن ينظروا إلى الزينة الباطنة ولا ينظرون إلى ما بين السرة والركبة ويجوز للزوج أن ينظر إلى جميع بدن زوجته غير أنه يكره له النظر

هؤلاء أن ينظروا إلى الزينة الباطنة ولا ينظرون إلى مابين السرة والركبة ويجوز للزوج أن ينظر إلى جميع بدنها غير أنه يكره له النظر إلى فرجها قوله تعالى (أو نسائهن) أراد أنه يجوز للمرأة أن تنظر إلى بدن المرأة إلا مابين السرة والركبة كالرجل المحرم هذا إذا كانت المرأة مسلمة فان كانت كافرة فهل يجوز للمسلمة أن تنكشف لها اختلف أهل العلم فيه فقال بعضهم يجوز كما يجوز أن تنكشف للمرأة المسلمة لأنها من جملة النساء وقال بعضهم لايجوز لأن الله تعالى قال أو نسائهن والكافرة ليست من نسائنا ولأنها أجنبية فى الدين وكانت أبعد من الرجل الأجنبي كتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح أن يمنع نساء (٧٠) أهل الكتاب أن يدخلن الحمام مع المسلمات قوله تعالى (أو ماملكت أيمانهن) اختلفوا فيها فقال قوم عبد المرأة محرم لها فيجوز له الدخول عليها إذا كان عفيفا وأن ينظر إلى بدن مولاته إلا مابين السرة والركبة كالمحارم وهو ظاهر القرآن وروى ذلك عن عائشة وأم سلمة وروى ثابت عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم «أنه أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها وإذا غطت رجليها لم يبلغ رأسها فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماتلقى قال إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك» وقال قوم هو كالأجنبي معها وهو قول سعيد بن المسيب وقال المراد من الآية الإماء دون العبيد وعن ابن جريج أنه قال أو نسائهن أو ماملكت أيمانهن أنه لا يحل لامرأة مسلمة أن تتجرد بين يدى امرأة مشركة إلا أن تكون تلك المرأة المشركة أمة لها قوله (أو التابعين غير أولى الأربة من الرجال) قرأ أبو جعفر وابن عامر وأبو بكر غير بنصب الراء على القطع لأن التابعين معرفة وغير نكرة وقيل بمعنى إلا فهو استثناء معناه يبدين زينتهن للتابعين إلا ذا الإربة منهم فانهن لايبدين زينتهن لمن كان منهم ذا إربة وقرأ الآخرون بالجر على نعت التابعين والأربة والأرب الحاجة والمراد بالتابعين غير أولى الإربة هم الذين يتبعون القوم ليصيبوا من فضل طعامهم لاهمة لهم إلا ذلك ولاحاجة لهم فى النساء وهو قول مجاهد وعكرمة والشعبي وعن ابن عباس أنه الأحمق العنين وقال الحسن هو الذى لاينتشر ولا يستطيع غشيان النساء ولا يشتهيهن وقال سعيد بن جبير هو المعتوه

إلى فرجها (أو نسائهن) يعنى المؤمنات من أهل دينهن أراد به أنه يجوز للمرأة أن تنظر إلى بدن المرأة إلا مابين السرة والركبة ولا يجوز للمرأة المؤمنة أن تتجرد من ثيابها عند الذمية أو الكافرة لأن الله تعالى قال أو نسائهن والذمية أو الكافرة ليست من نسائنا ولأنها أجنبية فى الدين فكانت أبعد من الرجل الأجنبي كتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح أن يمنع نساء أهل الكتاب أن يدخلن الحمام مع المسلمات وقيل يجوز كما يجوز أن تنكشف للمرأة المسلمة لأنها من جملة النساء (أو ما ملكت أيمانهن) قيل هو عبد المرأة فيجوز له الدخول عليها إذا كان عفيفا وأن ينظر إلى مولاته إلا مابين السرة والركبة كالمحارم وهو ظاهر القرآن روى ذلك عن عائشة وأم سلمة «وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم «أتى إلى فاطمة بعبد قد وهبه لها وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تلقى قال إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك» وقيل هو كالأجنبي معها وهو قول سعيد بن المسيب قال والمراد من الآية الإماء دون العبيد (أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال) قرىء غير بنصب الراء وقيل هو بمعنى الاستثناء ومعناه يبدين زينتهن للتابعين إلا ذا الأربة منهم فانهن لايبدين زينتهن لمن كان منهم ذا إربة وقرىء غير بالجر على نعت التابعين والإربة والأرب الحاجة والمراد بالتابعين غير أولى الأربة هم الذين يتبعون القوم ليصيبوا من فضل طعامهم لاهمة لهم إلا ذلك ولاحاجة لهم فى النساء وقال ابن عباس هو الأحمق العنين وقيل هو الذي لايستطيع غشيان النساء ولا يشتهين وقيل هو المجبوب والخصى وقيل هو الشيخ الهرم الذى ذهبت شهوته وقيل هو المخنث (م) عن عائشة رضى الله عنها «قالت كان يدخل على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مخنث وكانوا يعدونه من غير أولى الإربة فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة قال إذا أقبلت أقبلت بأربع وإذا أدبرت أدبرت بثمان فقال النبي صلى الله عليه وسلم ألا أرى هذا يعرف ماهاهنا لايدخل عليكن هذا فأحجبوه زاد أبو داد فى رواية وأخرجوه إلى البيداء يدخل كل جمعة فيستطعم» قوله أقبلت بأربع أى أن لها فى بطنها أربع عكن فهى تقبل إذا أقبلت بها وأراد بالثمان أطراف العكن

وقال عكرمة المجبوب وقيل هو المخنث وقال مقاتل الشيخ الهرم والعنين والخصى والمجبوب ونحوه أخبرنا الإمام أبو على الحسين بن محمد القاضى أنا أحمد بن الحسين الحيرى أنا محمد بن أحمد بن محمد بن معقل بن محمد الميدانى أنا محمد بن يحيى أنا عبد الرزاق أنا معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت «كان رجل يدخل على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مخنث وكانوا يعدونه من غير أولى الأربة فدخل النبى صلى الله عليه وسلم يوما وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة فقال إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع وإذا أدبرت أدبرت بثمان : فقال النبى صلى الله عليه وسلم ألا أرى هذا يعلم ما هاهنا لايدخلن عليكن هذا فحجبوه» (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) أراد بالطفل الأطفال يكون واحدا وجمعا أى لم يكشفوا عن عورات النساء للجماع فيطلعوا عليها وقيل لم يعرفوا العورة من غيرها من الصغر وهو قول مجاهد وقيل لم يطيقوا أمر النساء وقيل لم يبلغوا حد الشهوة (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن) كانت المرأة إذا مشت ضربت برجلها ليسمع صوت خلخالها أو يتبين خلخالها فنهيت عن ذلك (٧١) (وتوبوا إلى الله جميعا) من التقصير الواقع فى أمره ونهيه وقيل راجعوا طاعة الله ، فيما أمركم بهونهاكم عنه من الآداب المذكورة فى هذه السورة (أيه المؤمنون لعلكم تفلحون) قرأ ابن عامر آيه المؤمنون وياأيه الساحر وأيه الثقلان بضم الهاء فيهن ويقف بلا ألف على الخط وقرأ الآخرون بفتح الهاءات على الأصل أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أبو منصور محمد بن السمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن

العكن الأربع من الجانبين وذلك صفة لها بالسمن (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) أى لم يكشفوا عن عورات النساء للجماع فيطلعوا عليها وقيل لم يعرفوا العورة من غيرها من الصغر وقيل لم يطيقوا أمر النساء وقيل لم يبلغوا حد الشهوة وقيل الطفولية اسم للصبى مالم يحتلم (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن) قيل كانت المرأة إذا مشت ضربت برجلها ليسمع صوت خلخالها أو يتبين خلخالها فنهين عن ذلك وقيل إن الرجل تغلب عليه شهوة النساء إذا سمع صوت الخلخال ويصير ذلك داعية له زائدة فى مشاهدتهن وقد علل ذلك بقوله تعالى ليعلم مايخفين من زينتهن فنبه به على أن الذى لأجله نهى عنه أن يعلم به ماعليهن من الحلى وغيره (وتوبوا إلى الله جميعا) أى من التقصير الواقع فى أمره ونهيه وراجعوا طاعته فيما أمركم به ونهاكم عنه من الآداب المذكورة فى هذه السورة قيل إن أوامر الله ونواهيه فى كل باب لايقدر العبد الضعيف على مراعاتها وإن ضبط نفسه واجتهد فلا ينفك عن تقصير يقع منه فلذلك وصى المؤمنين بالتوبة والاستغفار ووعد بالفلاح إذا تابوا واستغفروا فذلك قوله تعالى (أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) (م) «عن الأغر أغر مزينة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «توبوا إلى ربكم فو الله إنى لأتوب إلى ربى تبارك وتعالى مائة مرة فى اليوم» عن ابن عمر قال « إن كنا لنعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المجلس يقول رب اغفر لى وتب على إنك أنت التواب الرحيم مائة مرة» أخرجه عبد الرحمن بن حميد الكشى (ق) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة» (م) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال« من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله

عبد الجبار الريانى أنا حميد بن زنجويه أنا وهب بن جرير أنا شعبة عن عمرو بن مرة عن أبى بردة أنه سمع الأغر يحدث عن ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «ياأيها الناس توبوا إلى الله فانى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة» أخبرنا أبو الحسن عن عبد الرحمن بن محمد الداودى أنا محمد بن عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسى أنا أبو إسحاق إبراهيم بن حريم الشاشى أنا أبو محمد عبد الله بن حميد الليثى حدثنى ابن أبى شيبة أنا عبد الله بن نمير عن مالك بن مغول عن محمد بن سوقة عن نافع «عن ابن عمر قال إن كنا لنعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المجلس يقول رب اغفر لى وتب على إنك أنت التواب الرحيم مائة مرة» وجملة الكلام فى بيان العورات أنه لايجوز للرجل أن ينظر إلى عورة الرجل وعورته مابين السرة إلى الركبة وكذلك المرأة مع المرأة ولا بأس بالنظر إلى سائر البدن إذا لم يكن خوف فتنة وقال مالك وابن أبى ذئب الفخذ ليس بعورة لما روى عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس قال « أجرى نبى الله صلى الله عليه وسلم فرسا فى زقاق خيبر وإن ركبتى لتمس فخذ نبى الله صلى الله عليه وسلم ثم حسر الإزار عن فخذه حتى إنى لأنظر إلى بياض فخذ نبى الله صلى الله عليه وسلم» وأكثر أهل العلم على أن الفخذ عورة لما أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد الفضل الخرقى أنا أبو الحسن الطيسفونى أنا عبد الله

ابن عمر الجوهري ثنا أحمد بن علي الكشميهني أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر عن العلاء بن أبي كثير عن محمد ابن جحش «قال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم علي معمر وفخذاه مكشوفتان قال يا معمر غط فخذيك فإن الفخذين عورة» وروى عن ابن عباس وجرهد بن خويلد كان من أصحاب الصفة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن الفخذ عورة» قال محمد بن إسماعيل حديث أنس أسند وحديث جرهد أحوط أما المرأة مع الرجل فإن كانت أجنبية حرة فجميع بدنها في حق الأجنبي عورة ولا يجوز النظر إلى شيء منها إلا الوجه والكفين وإن كانت أمة فعورتها مثل عورة الرجل ما بين السرة إلى الركبة وكذلك المحارم بعضهم مع بعض والمرأة في النظر إلى الرجل الأجنبي كهو معها ويجوز للرجل أن ينظر إلى جميع بدن امرأته وأمته التي تحل له (٧٢) وكذلك هي منه إلا نفس الفرج فإنه يكره النظر إليه وإذا زوج الرجل أمته حرم عليه النظر إلى عورتها كالأمة الأجنبية وروى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا زوج أحدكم عبده أمته فلا ينظرن إلى ما دون السرة وفوق الركبة» قوله تعالى (وأنكحوا الأيامى منكم) الأيامى جمع الأيم وهو من لا زوج له من رجل أو امرأة يقال رجل أيم وامرأة أيمة وأيم ومعنى الآية زوجوا أيها المؤمنون من لا زوج له من أحرار رجالكم ونسائكم (والصالحين من عبادكم وإمائكم) وهذا الأمر أمر ندب واستحباب يستحب لمن تاقت نفسه إلى النكاح ووجد أهبة النكاح أن يتزوج وإن لم يجد أهبة النكاح يكسر شهوته بالصوم لما أخبرنا أبو بكر محمد بن محمد بن علي بن الحسين الطوسي أنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد ابن إبراهيم الإسفرايني أنا أبو بكر محمد بن مرواد بن مسعود أنا أبو عبد الله محمد بن أيوب البجلي أنا محمد بن كثير أنا سفيان عن الأعمش عن عمارة بن عمير عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تناكحوا تكثروا فإني أباهي بكم الأمم حتى بالسقط» وقال صلى الله عليه وسلم «من أحب فطرتي فليستن بسنتي ومن سنتي النكاح» أما من لا تتوق نفسه إلى النكاح وهو قادر عليه فالتخلي للعبادة له أفضل من النكاح عند الشافعي رحمه الله وعند أصحاب الرأي النكاح أفضل قال الشافعي وقد ذكر الله

عليه» . قوله عز وجل (وأنكحوا الأيامى منكم) جمع الأيم يطلق على الذكر والأنثى وهو من لا زوج له من رجالكم ونسائكم (والصالحين من عبادكم) أي من عبيدكم (وإمائكم) بيان حكم الآية الأمر المذكور في الآية أمر ندب واستحباب لإجماع السلف عليه فيستحب لمن تاقت نفسه إلى النكاح ووجد أهبته أن يتزوج وإن لم يجد أهبته يكسر شهوته بالصوم (ق) عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحسن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» الباءة النكاح ويكنى به عن الجماع أيضا والوجاء بكسر الواو رض الأنثيين وهو نوع من الخصاء شبه الصوم في قطعه شهوة النكاح بالوجاء الذي يقطع النسل عن معقل بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة» أخرجه أبو داود والنسائي (م) عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة» الصالحة أما من لا تتوق نفسه إلى النكاح وهو قادر عليه فالتخلي للعبادة أفضل له من النكاح عند الشافعي وعند أصحاب الرأي النكاح أفضل قال الشافعي قد ذكر الله عبدا أكرمه فقال وسيدا وحصورا وهو الذي لا يأتي النساء وذكر القواعد من النساء ولم يندبهن إلى النكاح وفي الآية دليل على أن تزويج الأيامى إلى الأولياء لأن الله خاطبهم به كما أن تزويج العبيد والإماء إلى السادات وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم روى ذلك عن عمر وعلي وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وأبي هريرة وعائشة وبه قال سعيد بن المسيب والحسن وشريح وإبراهيم النخعي وعمر بن عبد العزيز وإليه ذهب الثوري والأوزاعي وعبد الله بن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق وجوز أصحاب الرأي للمرأة تزويج نفسها وقال مالك إن كانت المرأة دنيئة يجوز لها تزويج نفسها وإن كانت شريفة فلا والدليل على أن الولي شرط في النكاح ما روي عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا نكاح إلا بولي» أخرجه أبو داود والترمذي ولهما عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل ثلاثا فإن أصابها فلها المهر بما استحل من فرجها

تعالى عبدا أكرمه فقال «وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين» والحصور الذى لا يأتى النساء مع القدرة عليه وذكر القواعد من النساء ولم يندبهن إلى النكاح وفى الآية دليل على أن تزويج النساء الأيامى إلى الأولياء لأن الله تعالى خاطبهم به كما أن تزويج العبيد والإماء إلى السادات لقوله تعالى «والصالحين من عبادكم وإمائكم» وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة ومن بعدهم روى ذلك عن عمر وعلى وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وأبى هريرة وعائشة وبه قال سعيد بن المسيب والحسن وشريح وإبراهيم النخعى وعمر بن عبد العزيز وإليه ذهب الثورى والأوزاعى وعبد الله بن المبارك والشافعى وأحمد وإسحاق وجوز أصحاب الرأى للمرأة الحرة تزويج نفسها وقال مالك إن كانت المرأة دنيئة جاز لها تزويج نفسها وإن كانت شريفة فلا والدليل على أن الولى شرط من جهة الأخبار ما أخبرنا عبد الواحد (٧٣) المليحى أنا محمد بن الحسن ابن أحمد المخلدى أنا أبو العباس محمد بن إسحاق السراج أنا قتيبة بن سعيد أنا أبو عوانة عن أبى إسحاق عن أبى بردة عن أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «لا نكاح إلا بولى» أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز ابن أحمد الخلال ، أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعى أنا سعيد بن سالم عن ابن جريج عن سليمان بن موسى عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «أيما امرأة نكحت نفسها بغير إذن وليها فنكاحها باطل ثلاثا فان أصابها فلها المهر بما استحل من فرجها فان اشتجروا فالسلطان ولى من لا ولى له» قوله تعالى (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم) قيل الغنى هاهنا القناعة وقيل اجتماع الرزقين رزق الزوج ورزق الزوجة وقال عمر عجبت لمن ابتغى الغنى بغير النكاح والله عز وجل يقول «إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله» وروى عن بعضهم أن الله تعالى وعد الغنى بالنكاح وبالتفرق فقال تعالى «إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله» وقال تعالى «وإن يتفرقا يغنى الله كلا من سعته» (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا) أى ليطلب العفة عن الحرام والزنا الذين لا يجدون مالا ينكحون به للصداق والنفقة (حتى يغنيهم الله من فضله) أى يوسع عليهم من رزقه قوله تعالى (والذين يبتغون الكتاب) أى يطلبون المكاتبة (مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم) سبب نزول هذه الآية ماروى أن غلاما لحويطب بن عبد العزى سأل مولاه أن يكاتبه فأبى عليه فأنزل الله هذه الآية فكاتبه

فان تشاحوا فالسلطان ولى من لا ولى له . وقوله تعالى (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) قيل الغنى هنا القناعة وقيل هو اجتماع الرزقين رزق الزوج والزوجة وقال عمر بن الخطاب عجبت لمن يبتغى الغنى بغير النكاح والله تعالى يقول إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله وقال بعضهم إن الله وعد الغنى بالنكاح وبالتفرق فقال تعالى «إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله » وقال «وإن يتفرقا يغنى الله كلا من سعته» (والله واسع) يعنى أنه ذو الإفضال والجود (عليم) أى بما يصلح خلقه من الرزق قوله تعالى (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا) يعنى ليطلب العفة عن الزنا والحرام الذين لا يجدون ما ينكحون به من الصداق والنفقة (حتى يغنيهم الله من فضله) يعنى يوسع عليهم من رزقه (والذين يبتغون الكتاب) يعنى يطلبون المكاتبة (مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم) سبب نزول هذه الآية أن غلاما لحويطب بن عبد العزى سأل مولاه أن يكاتبه فأبى عليه فأنزل الله تعالى هذه الآية فكاتبه حويطب على مائة دينار ووهب له منها عشرين دينارا فأداها وقتل يوم حنين فى الحرب ، بيان حكم الآية وكيفية المكاتبة وذلك أن يقول الرجل لمملوكه كاتبتك على كذا من المال ويسمى مالا معلوما تؤدى ذلك فى نجمين أو فى نجوم معلومة فى كل نجم كذا فاذا أديت ذلك فأنت حر ويقبل العبد ذلك فاذا أدى العبد ذلك المال عتق ويصير العبد أحق بمكاسبه بعد الكتابة وإذا عتق بأداء المال فما فضل فى يده من المال فهو له ويتبعه أولاده الذين حصلوا فى الكتابة فى العتق وإذا عجز عن أداء المال كان لمولاه أن يفسخ كتابته ويرده إلى الرق وما فى يده من المال فهو لسيده لما روى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «المكاتب عبد ما بقى عليه درهم» أخرجه أبو داود وذهب بعض أهل العلم إلى أن قوله تعالى «فكاتبوهم» أمر إيجاب يجب على السيد أن يكاتب عبده الذى علم فيه خيرا إذا سأل العبد ذلك على قيمته أو على أكثر من قيمته وإن سأل على أقل من قيمته لا يجب وهو قول عطاء وعمرو بن دينار لما روى أن سيرين أبا محمد بن سيرين سأل أنس بن مالك أن يكاتبه وكان كثير المال فانطلق سيرين إلى

حويطب على مائة دينار ووهب له منها عشرين دينارا فأداها وقتل يوم حنين فى الحرب والكتابة أن يقول الرجل لمملوكه كاتبتك على كذا من المال ويسمى مالا معلوما يؤدى ذلك فى نجمين أو نجوم معلومة ، فى كل نجم كذا فاذا أديت فأنت حر والعبد يقبل ذلك فاذا أدى المال عتق ويصير العبد أحق بمكاسبه بعد أداء المال وإذا عتق بعد أداء المال فما فضل فى يده من المال يكون له ويتبعه أولاده الذين حصلوا فى حال الكتابة فى العتق وإذا عجز عن أداء المال كان لمولاه أن يفسخ كتابته ويرده إلى الرق وما فى يده من المال يكون لمولاه لما أخبرنا أبو الحسن السرخسى أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع أن عبدالله بن عمر كان يقول « المكاتب عبد ما بقى عليه من كتابته شئ » ورواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعا « المكاتب عبد ما بقى عليه من كتابته درهم » وذهب بعض أهل العلم إلى أن قوله تعالى : « فكاتبوهم » أمر إيجاب يجب على المولى أن يكاتب عبده الذى علم فيه خيرا إذا سأل العبد ذلك على قيمته أو أكثر وإن سأل على أقل من قيمته فلا يجب وهو قول عطاء وعمرو بن دينار ولما روى أن سيرين سأل أنس بن مالك أن يكاتبه فتلكأ عنه فشكا إلى عمر فعلاه بالدرة وأمره بالكتابة فكاتبه (٧٤) وذهب أكثر أهل العلم إلى أنه أمر ندب واستحباب ولا تجوز الكتابة على أقل من نجمين عند الشافعى لأنه عقد جوز إرفاقا بالعبد ومن تتمة الإرفاق أن يكون ذلك المال عليه إلى أجل حتى يؤديه على مهل فيحصل المقصود كالدية فى قتل الخطأ وجبت على العاقلة على سبيل المواساة فكانت عليهم مؤجلة منجمة وجوز أبو حنيفة الكتابة على نجم واحد وحالة قوله تعالى (إن علمتم فيهم خيرا) اختلفوا فى معنى الخير فقال ابن عمر قوة على الكسب وهو قول مالك والثورى وقال الحسن ومجاهد والضحاك مالا كقوله تعالى « إن ترك خيرا » أى مالا وروى أن عبدا لسلمان الفارسى قال له كاتبنى قال ألك مال قال لا قال تريد أن تطعمنى من أوساخ الناس ولم يكاتبه قال الزجاج لو أراد به المال لقال إن علمتم لهم خيرا وقال إبراهيم وابن زيد وعبيدة صدقا وأمانة . وقال طاوس وعمرو بن دينار مالا وأمانة وقال الشافعى وأظهر معانى الخير فى العبد الاكتساب مع الأمانة فأحب أن لا يمنع من كتابته إذا كان هكذا أخبرنا أبو الحسن على بن يوسف الجوينى أنا أبو الحسن بن على بن شريك الشافعى أنا عبد الله بن محمد بن مسلم ، أنا أبو بكر الجورمذى أنا يونس بن عبد الأعلى أنا ابن وهب أخبرنى الليث عن محمد بن عجلان عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ثلاثة حق على الله عونهم المكاتب الذى يريد الأداء والناكح يريد العفاف والمجاهد فى سبيل الله » وحكى محمد بن سيرين عن عبيدة « إن علمتم فيهم خيرا » أى أقاموا الصلاة . وقيل هو أن يكون العبد بالغا عاقلا فأما الصبى والمجنون فلا تصح كتابتهما لأن الابتغاء منهما لا يصح وجوز أبو حنيفة كتابة الصبى المراهق قوله سبحانه وتعالى (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) اختلفوا فيه فقال بعضهم هذا خطاب للموالى يجب على

عمر فشكاه فدعاه عمر فقال له كاتبه فأبى فضربه بالدرة وتلا فكاتبوهم (إن علمتم فيهم خيرا) فكاتبه وذهب أكثر أهل العلم إلى أنه أمر ندب واستحباب ولا تجوز الكتابة على أقل من نجمين عند الشافعى لأنه عقد جوز إرفاقا بالعبد ومن تتمة الإرفاق أن يكون ذلك المال عليه إلى أجل حتى يؤديه على مهل فيحصل المقصود وجوز أبو حنيفة الكتابة إلى نجم واحد وحالة واحدة واختلفوا فى معنى قوله « إن علمتم فيهم خيرا » فقال ابن عمر قوة على الكسب وهو قول مالك والثورى وقيل مالا ، روى أن عبد السلمان الفارسى قال له كاتبنى قال ألك مال قال لا قال تريد أن تطعمنى من أوساخ الناس ولم يكاتبه قيل لو أراد به المال لقال إن علمتم لهم خيرا وقيل صدقا وأمانة وقال الشافعى أظهر معانى الخير فى العبد الاكتساب مع الأمانة فأحب أن لا يمنع من المكاتبة إذا كان هكذا وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ثلاث حق على الله عونهم المكاتب الذى يريد الأداء والناكح الذى يريد العفاف والمجاهد فى سبيل الله » أخرجه الترمذى والنسائى وقيل معنى الخير أن يكون العبد عاقلا بالغا فأما الصبى والمجنون فلا تصح كتابتهما لأن الابتغاء منهما لا يصح وجوز أبو حنيفة كتابة الصبى المراهق وقوله تعالى (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) قيل هو خطاب للموالى فيجب على السيد أن يحط عن مكاتبه من مال الكتابة شيئا وهو قول عثمان وعلى والزبير وجماعة وبه قال الشافعى ثم اختلفوا فى قدر ما يحط فقيل يحط الربع وهو قول على ورواه بعضهم مرفوعا وقال ابن عباس يحط الثلث وقال الآخرون ليس له حد بل عليه أن يحط عنه ما شاء وبه قال الشافعى

المولى أن يحط عن مكاتبه من مال كتابته شيئا وهو قول عثمان وعلي والزبير وجماعة وبه قال الشافعي ثم اختلفوا فى قدره فقال قوم يحط عنه ربع مال الكتابة وهو قول علي ورواه بعضهم عن علي مرفوعا وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يحط عنه الثلث وقال الآخرون ليس له حد بل عليه أن يحط عنه ما شاء، وهو قول الشافعي قال نافع كاتب عبد الله بن عمر غلاما له على خمسة وثلاثين ألف درهم فوضع عنه من آخر كتابته خمسة آلاف درهم وقال سعيد بن جبير كان ابن عمر إذا كاتب مكاتبه لم يضع عنه شيئا من أول نجومه مخافة أن يعجز فيرجع إليه صدقته ويضع من آخر كتابته ما أحب وقال بعضهم هو أمر استحباب والوجوب أظهر قال قوم أراد بقوله «وآتوهم (٧٥) من مال الله» أى سهمهم الذى جعله الله لهم من الصدقات المفروضات بقوله تعالى وفى الرقاب وهو قول الحسن وزيد ابن أسلم وقال إبراهيم هو حث لجميع الناس على معونتهم ولو مات المكاتب قبل أداء النجوم اختلف أهل العلم فيه فذهب كثير منهم إلى أنه يموت رقيقا وترتفع الكتابة سواء ترك مالا أو لم يترك كما لو تلف المبيع قبل القبض يرتفع البيع وهو قول عمر وابن عمر وزيد بن ثابت وبه قال عمر بن عبد العزيز والزهرى وقتادة وإليه ذهب الشافعي وأحمد وقال قوم إن ترك وفاء بما بقى عليه من الكتابة كان حرا وإن كان فيه فضل فالزيادة لأولاده الأحرار وهو قول عطاء وطاوس والنخعي والحسن وبه قال مالك والثورى وأصحاب الرأى ولو كاتب عبده كتابة فاسدة يعتق بأداء المال لأن عتقه معلق بالأداء وقد وجد وتبعه الأولاد والاكتساب كما فى الكتابة الصحيحة ويفترقان فى بعض الأحكام وهى أن الكتابة الصحيحة لا يملك المولى فسخها مالم يعجز المكاتب عن أداء النجوم ولا تبطل بموت المولى ويعتق بالإبراء عن النجوم والكتابة الفاسدة يملك المولى فسخها قبل أداء المال حتى لو أدى المال بعد الفسخ لا يعتق ويبطل بموت المولى ولا يعتق بالإبراء عن النجوم وإذا عتق المكاتب بأداء المال لا يثبت التراجع فى الكتابة الصحيحة ويثبت فى الكتابة الفاسدة فيرجع المولى عليه بقيمة رقبته وهو يرجع على المولى بما دفع إليه إن كان مالا قوله تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا) الآية نزلت فى عبد الله بن أبى ابن سلول المنافق، كانت له

قال نافع كاتب عبد الله بن عمر غلاما له على خمسة وثلاثين ألف درهم فوضع من آخر كتابته خمسة آلاف درهم أخرجه مالك فى الموطأ وقال سعيد بن جبير كان ابن عمر إذا كاتب مكاتبه لم يضع عنه شيئا من أول نجومه مخافة أن يعجز فيرجع إليه صدقته ويضع عنه من آخر كتابته ما أحب وقال بعضهم هو أمر استحباب والوجوب أظهر وقيل أراد بقوله «وآتوهم من مال الله» أي سهمهم الذى جعله الله لهم من الصدقات المفروضات وهو قوله وفى الرقاب أراد به المكاتب وهو قول الحسن وزيد بن أسلم وقيل هو حث لجميع الناس على مؤنتهم واختلف العلماء فيما إذا مات المكاتب قبل أداء النجوم فذهب كثير منهم إلى أنه يموت رقيقا وترتفع الكتابة سواء ترك مالا أو لم يترك وهو قول عمر وابن عمر وزيد بن ثابت وبه قال عمر بن عبد العزيز والزهرى وقتادة وإليه ذهب الشافعي وأحمد وقال قوم إن ترك وفاء ما بقى عليه من مال الكتابة كان حرا وإن فضل له مال كان لأولاده الأحرار وهو قول عطاء وطاوس والنخعي والحسن وبه قال مالك والثورى وأصحاب الرأى ولو كاتب عبده كتابة فاسدة يعتق بأداء المال لأن عتقه معلق بالأداء وقد وجد وتبعه أولاده وأكسابه كما فى الكتابة الصحيحة لأن الكتابة الصحيحة لا يملك المولى فسخها مالم يعجز المكاتب عن أداء النجوم. وقوله تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم) أى إماءكم (على البغاء) أى الزنا (إن أردن تحصنا) الآية (م) عن جابر قال كان عبد الله بن أبى ابن سلول يقول لجارية اذهبى فابغينا شيئا قال فأنزل الله ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا وفى رواية أخرى أن جارية لعبد الله بن أبى يقال لها مسيكة وأخرى يقال لها أميمة كان يكرههما على الزنا فشكتا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله «ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء» إلى قوله «غفور رحيم» وقال المفسرون نزلت فى عبد الله بن أبى ابن سلول المنافق كانت له جاريتان يقال لهما مسيكة ومعاذة وكان يكرههما على الزنا لضريبة يأخذها منهما وكذلك كانوا يفعلون فى الجاهلية يؤجرون إماءهم فلما جاء الإسلام قالت معاذة لمسيكة إن هذا الأمر الذى نحن فيه لا يخلو من وجهين فإن يك خيرا فقد استكثرنا منه وإن يك شرا فقد آن لنا أن ندعه فأنزل الله هذه الآية وروى أن إحدى الجاريتين جاءت ببرد وجاءت الأخرى بدينار فقال لهما ارجعا فازنيا فقالتا والله

جاريتان معاذة ومسيكة وكان يكرههما على الزنا بالضريبة يأخذها منهما وكذلك كانوا يفعلون فى الجاهلية يؤاجرون إماءهم فلما جاء الإسلام قالت معاذة لمسيكة إن هذا الأمر الذى نحن فيه لايخلو من وجهين فان يك خيرا فقد استكثرنا منه وإن يك شرا فقد آن لنا أن ندعه فأنزل الله هذه الآية وروى أنه جاءت إحدى الجاريتين يوما ببرد وجاءت الأخرى بدينار فقال لهما ارجعا فازنيا قالتا والله لانفعل قد جاء الإسلام وحرم الزنا فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكتا إليه فأنزل الله هذه الآية «ولا تكرهوا فتياتكم» إماءكم على البغاء أى الزنا إن أردن تحصنا أى إذا أردن وليس معناه الشرط لأنه لايجوز إكراههن على الزنا وإن لم يردن تحصنا كقوله تعالى «وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» أى إذا كنتم مؤمنين وقيل إنما شرط إرادة التحصن لأن الإكراه إنما يكون (٧٦) عند إرادة التحصن فاذا لم ترد التحصن بغت طوعا والتحصن التعفف

وقال الحسين بن الفضل فى الآية تقديم وتأخير تقديرها وأنكحوا الأيامى منكم إن أردن تحصنا ولاتكرهوا فتياتكم على البغاء (لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) أى لتطلبوا من أموال الدنيا يريد من كسبهن وبيع أولادهن (ومن يكرههن فان الله من بعد إكراههن غفور رحيم) يعنى للمكرهات والوزر على المكره وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال لهن والله لهن والله قوله تعالى (ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات) من الحلال والحرام (ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) أى شبها من حالكم بحالهم أيها المكذبون وهذا تخويف لهم أن يلحقهم مالحق من قبلهم من المكذبين (وموعظة للمتقين) للمؤمنين الذين يتقون الشرك والكبائر قوله تعالى (الله نور السموات والأرض) قال ابن عباس هادى أهل السموات والأرض فهم بنوره إلى الحق يهتدون وبهداه من حيرة الضلالة ينجون وقال الضحاك منور السموات والأرض يقال نور السماء بالملائكة ونور الأرض بالأنبياء، وقال مجاهد مدبر الأمور فى السموات والأرض وقال أبى بن كعب والحسن وأبو العالية مزين السموات والأرض زين السماء بالشمس والقمر والنجوم وزين الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين ويقال بالنبات والأشجار وقيل معناه الأنوار كلها منه كما يقال فلان رحمة أى منه الرحمة وقد يذكر مثل هذا اللفظ على طريق المدح كما قال القائل شعرا ::

إذا سار عبد الله عن مرو ليلة   فقد سار منها نورها وجمالها

قوله تعالى (مثل نوره) أي مثل نور الله تعالى فى قلب المؤمن وهو النور الذى يهتدى به كما قال «فهو على نور من ربه»

لا نفعل قد جاء الإسلام وحرم الزنا فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكتا إليه فأنزل الله هذه الآية واختلف العلماء فى معنى قوله إن أردن تحصنا على أقوال أحدها أن الكلام ورد على سبب وهو الذي ذكر فى سبب نزول الآية فخرج النهى علي صفة السبب وإن لم يكن شرطا فيه الثانى إنما شرط إرادة التحصن لأن الإكراه لايتصور إلا عند إرادة التحصن فأما إذا لم ترد المرأة التحصن فانها تبغى بالطبع طوعا الثالث أن إن بمعنى إذا أى إذا أردن وليس معناه الشرط لأنه لايجوز إكراههن على الزنا إن لم يردن تحصنا كقوله «وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» أى إذا كنتم القول الرابع أن فى هذه الآية تقديما وتأخيرا تقديره وأنكحوا الأيامى منكم إن أردتم تحصنا ولاتكرهوا فتياتكم على البغاء (لتبتغوا) أى لتطلبوا (عرض الحياة الدنيا) أي من أموال الدنيا يريد كسبهن وبيع أولادهن (ومن يكرههن) يعنى علي الزنا (فان الله من بعد إكراههن غفور رحيم) يعنى للمكرهات والوزر على المكره وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال لهن والله لهن والله . قوله تعالى (ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات) أى من الحلال والحرام (ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) أى شبها من حالكم بحالهم أيها المكذبون وهذا تخويف لهم أن يلحقهم مالحق من كان قبلهم من المكذبين (وموعظة للمتقين) أى المؤمنين الذين يتقون الشرك والكبائر . قوله عز وجل (الله نور السموات والأرض) قال ابن عباس معناه الله هادى السموات والأرض فهم بنوره إلى الحق يهتدون وبهدايته من حيرة الضلالة ينجون وقيل معناه الله منور السموات والأرض نور السماء بالملائكة ونور الأرض بالأنبياء وقيل معناه مزين السموات والأرض زين السماء بالشمس والقمر والنجوم وزين الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين ويقال زين الأرض بالنبات والأشجار وقيل معناه إن الأنوار كلها منه وقد يذكر هذا اللفظ علي طريق المدح كما قال الشاعر :

إذا سار عبد الله عن مر وليلة   فقد سار عنها نورها وجمالها

(مثل نوره) أى مثل نور الله عز وجل فى قلب المؤمن وهو النور الذى يهتدى به وقال ابن عباس

وكان ابن مسعود يقرأ مثل نوره فى قلب المؤمن وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس مثل نوره الذى أعطى المؤمن . وقال بعضهم الكناية عائدة إلى المؤمن أى مثل نور قلب المؤمن وكان أبى يقرأ مثل نور من آمن به وهو عبد جعل الإيمان والقرآن فى صدره وقال الحسن وزيد بن أسلم أراد بالنور القرآن وقال سعيد بن جبير والضحاك هو محمد صلى الله عليه وسلم وقيل أراد بالنور الطاعة سمى طاعة الله نورا وأضاف هذه الأنوار إلى نفسه تفضيلا (كمشكاة) وهى الكوة التى لامنفذ لها فان كان لها منفذ فهى كوة ، وقيل المشكاة حبشية قال مجاهد هى القنديل (فيها مصباح) أى سراج أصله من الضوء ومنه الصبح ومعناه كمصباح فى مشكاة (المصباح فى زجاجة) يعنى القنديل قال الزجاج إنما ذكر الزجاجة لأن النور وضوء النار فيها أبين من كل شىء وضوءه يزيد فى الزجاج ثم وصف الزجاجة فقال (الزجاجة كأنها كوكب درى) قرأ أبو عمرو والكسائى درئ بكسر الدال والهمزة وقرأ حمزة وأبو بكر بضم الدال والهمز فمن كسر الدال فهو فعيل من الدرء وهو الدفع لأن الكوكب يدفع الشياطين من السماء وشبهه بحالة الدافع لأنه يكون فى تلك الحالة أضوأ وأنور ويقال هو من درأ الكوكب إذا اندفع منقضا فيتضاعف ضوءه فى ذلك الوقت وقيل درى مكرر أى (٧٧) طالع يقال درأ النجم إذا طلع وارتفع ويقال درأ علينا فلان أى طلع وظهر فأما رفع الدال مع الهمزة كما قرأ حمزة قال أكثر النحاة هو لحن لأنه ليس فى كلام العرب فعيل بضم الفاء وكسر العين قال أبو عبيدة وأنا أرى لها وجها وذلك أنها دروء على وزن فعول مثل سبوح وقدوس ثم استثقلوا كثرة الضمات فردوا بعضها إلى الكسر كما قالوا عتيا وهو فعول من عتوت وقرأ الآخرون درى بضم الدال وتشديد الياء بلاهمز أى شديد الإنارة نسبت إلى الدر فى صفائه وحسنه وإن كان الكوكب أكثر ضوءا من الدر لكنه يفضل الكواكب بضيائه كما يفضل الدر سائر الحب وقيل الكوكب الدرى واحد من الكواكب الخمسة العظام وهى زحل والمريخ والمشترى والزهرة وعطارد وقيل شبهه بالكوكب ولم يشبهه بالشمس والقمر لأن الشمس والقمر يلحقهما الخسوف والكواكب لا يلحقها الخسوف (يوقد) قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب توقد بالتاء وفتحها وفتح الواو والدال وتشديد القاف على الماضى يعنى المصباح أى اتقد يقال توقدت النار إذا اتقدت وقرأ أهل الكوفة غير حفص توقد بالتاء وضمها وفتح القاف خفيفا يعنى الزجاجة أى نار الزجاجة لأن الزجاجة لا توقد وقرأ الآخرون بالياء وضمها خفيفا يعنى المصباح (من شجرة مباركة زيتونة) أى من زيت شجرة مباركة فحذف المضاف بدليل قوله تعالى «يكاد زيتها يضىء» وأراد بالشجرة المباركة الزيتونة وهى كثيرة البركة وفيها منافع كثيرة لأن الزيت يسرج به وهو أضوأ وأصفى الأدهان وهو إدام وفاكهة ولا يحتاج فى استخراجه إلى أعصار بل كل أحد يستخرجه وجاء فى الحديث أنه مصحة من الباسور وهى شجرة تورق من أعلاها إلى أسفلها أخبرنا أبو الحسن السرخسى أنا زاهر بن أحمد أنا أبو الحسن القاسم بن بكر الطيالسى أنا أبو أمية الطوسى أنا قبيصة بن عقبة أنا سفيان الثورى عن عبد الله بن عيسى عن عطاء الذى كان بالشام وليس بابن أبى رباح

ابن عباس مثل نوره الذى أعطى المؤمن وقيل الكناية عائدة إلى المؤمن أى مثل نور قلب المؤمن وقيل أراد بالنور القرآن وقيل هو محمد ﷺ وقيل هو الطاعة سمى طاعة الله نورا وأضاف هذه الأنوار إلى نفسه تشريفا وتفضيلا (كمشكاة) هى الكوة التى لامنفذ لها قيل هى بلغة الحبشة (فيها مصباح) أى سراج وأصله من الضوء (المصباح فى زجاجة) يعنى القنديل وإنما ذكر الزجاجة لأن النور وضوء النار فيها أبين من كل شىء وضوءه يزيد فى الزجاج ثم وصف الزجاجة فقال تعالى (الزجاجة كأنها كوكب درى) من درأ الكوكب إذا اندفع منقضا فيتضاعف نوره فى تلك الحال وفى ذلك الوقت وقيل هو من درأ النجم إذا طلع وارتفع وقيل درى أي شديد الإنارة نسب إلى الدر فى صفائه وحسنه وإن كان الكوكب أضوأ من الدر لكنه يفضل الكوكب بصفائه كما يفضل الدر على سائر اللؤلؤ وقيل الكوكب الدرى أحد الكواكب الخمسة السيارة التى هى زحل والمريخ والمشترى والزهرة وعطارد وقيل شبهه بالكواكب ولم يشبهه بالشمس والقمر لأنهما يلحقهما الكسوف بخلاف الكواكب (يوقد) أى اتقد المصباح (من شجرة مباركة زيتونة) أى من زيت شجرة مباركة كثيرة البركة وفيها منافع كثيرة لأن الزيت يسرج به ويدهن به وهو إدام وهو أصفى الأدهان وأضوأها وقيل إنها أول شجرة نبتت بعد الطوفان وقيل أراد به زيتون الشام لأنها هى الأرض المباركة وهى شجرة لا يسقط ورقها ، عن أسيد بن ثابت أو أبى أسيد الأنصارى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كلوا الزيت وادهنوا به

عن أسيد بن ثابت وأبى أسلم الأنصارى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كلوا الزيت وادهنوا به فانه من شجرة مباركة» قوله تعالى (لاشرقية ولا غربية) أى ليست شرقية وحدها حتى لاتصيبها الشمس إذا غربت ولا غربية وحدها فلا تصيبها الشمس بالغداة إذا طلعت بل هى ضاحية للشمس طول النهار تصيبها الشمس عند طلوعها وعند غروبها فتكون شرقية وغربية تأخذ حظها من الأمرين فيكون زيتها أضوأ وهذا كما يقال فلان ليس بأسود ولا بأبيض يريد ليس بأسود خالص ولا بأبيض خالص بل اجتمع فيه كل واحد منهما وهذا الرمان ليس بحلو ولا حامض أى اجتمعت فيه الحلاوة والحموضة هذا قول ابن عباس فى رواية عكرمة والكلبى والأكثرين وقال السدى وجماعة معناه أنها ليست فى مقنأة لا تصيبها الشمس ولا فى مضحاة لا يصيبها الظل فهى لاتضرها شمس ولا ظل وقيل معناه أنها معتدلة ليست فى شرق يضرها الحر ولا فى غرب يضرها البرد وقيل معناه هى شامية لأن الشام لاشرقى ولا غربى وقال الحسن ليست هذه من شجار الدنيا ولو كانت فى الدنيا لكانت شرقية أو غربية وإنما هو مثل ضربه الله لنوره (يكاد زيتها) دهنها (يضىء) من صفائه (ولو لم تمسسه نار) أى قبل أن تصيبه النار (نور على نور) يعنى نور المصباح على نور الزجاجة واختلف أهل العلم فى معنى هذا التمثيل فقال بعضهم وقع هذا التمثيل لنور محمد صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس لكعب الأحبار أخبرنى عن قوله تعالى «مثل نوره كمشكاة».

(٧٨)

فانه من شجرة مباركة» أخرجه الترمذى وقوله (لاشرقية ولاغربية) أى ليست شرقية وحدها فلا تصيبها الشمس إذا غربت ولاغربية وحدها فلا تصيبها الشمس بالغداة إذا طلعت بل مصاحبة للشمس طول النهار تصيبها الشمس عند طلوعها وعند غروبها فتكون شرقية غربية تأخذ حظها من الأمرين فيكون زيتها أضوأ وهذا معنى قول ابن عباس وقيل معناه أنها ليست فى مقنأة لاتصيبها الشمس ولا فى مضحاة لا يصيبها الظل فهى لا تضرها شمس ولاظل وقيل معناه أنها معتدلة ليست فى شرق يضرها الحر ولافى غرب يضرها البرد وقيل معناه هى شامية لأن الشام وسط الأرض لاشرقى ولاغربى وقيل ليست هذه الشجرة من أشجار الدنيا لأنها لو كانت فى الدنيا لكانت شرقية أو غربية وإنما هو مثل ضربه الله لنوره (يكاد زيتها يضىء) أى من صفائه (ولو لم تمسسه نار) أى قبل أن تمسه النار (نور على نور) أى نور المصباح على نور الزجاجة.

(فصل فى بيان التمثيل المذكور فى الآية)

اختلف أهل العلم فى معنى هذا التمثيل فقيل المراد به الهدى ومعناه أن هداية الله تعالى قد بلغت فى الظهور والجلاء إلى أقصى الغايات وصار ذلك بمنزلة المشكاة التى فيها زجاجة صافية وفى تلك الزجاجة مصباح يتقد بزيت بلغ النهاية فى الصفاء والرقة والبياض فاذا كان كذلك كان كاملا فى صفائه وصلح أن يجعل مثلا لهداية الله تعالى وقيل وقع هذا التمثيل لنور محمد صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس لكعب الأحبار أخبرنى عن قوله تعالى «مثل نوره كمشكاة» قال كعب هذا مثل ضربه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فالمشكاة صدره والزجاجة قلبه والمصباح فيه النبوة توقد من شجرة مباركة هى شجرة النبوة يكاد نور محمد صلى الله عليه وسلم وأمره يتبين للناس ولو لم يتكلم به أنه نبى كما يكاد ذلك الزيت يضىء ولو لم تمسسه نار وروى عن ابن عمر فى هذه الآية قال المشكاة جوف محمد صلى الله عليه وسلم والزجاجة قلبه والمصباح النور الذى جعله الله فيه لاشرقية ولاغربية لايهودى ولانصرانى توقد من شجرة مباركة إبراهيم نور على نور نور قلب إبراهيم ونور قلب محمد صلى الله عليه وسلم وقال محمد بن كعب القرظى المشكاة إبراهيم والزجاجة إسماعيل والمصباح محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين سمى الله محمدا مصباحا كما سماه سراجا منيرا والشجرة المباركة إبراهيم عليه السلام لأن أكثر

فقال كعب هذا مثل ضربه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فالمشكاة صدره والزجاجة قلبه والمصباح فيه النبوة توقد من شجرة مباركة هى شجرة النبوة يكاد نور محمد وأمره يتبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبى كما يكاد ذلك الزيت يضىء ولو لم تمسسه نار وروى سالم عن ابن عمر فى هذه الآية قال المشكاة جوف محمد والزجاجة قلبه والمصباح النور الذى جعله الله فيه لاشرقية ولاغربية لا يهودى ولا نصرانى توقد من شجرة مباركة إبراهيم نور على نور نور قلب إبراهيم ونور قلب محمد صلى الله عليه وسلم وقال محمد بن كعب القرظى المشكاة إبراهيم والزجاجة إسمعيل والمصباح محمد صلوات الله عليهم أجمعين سماه الله مصباحا

كما سماه سراجا فقال تعالى «وسراجا منيرا» توقد من شجرة مباركة وهى إبراهيم سماه مباركة لأن أكثر الأنبياء من صلبه لا شرقية ولا غربية يعنى إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولـكن كان حنيفا مسلما لأن اليهود تصلى قبل المغرب والنصارى تصلى قبل المشرق يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار تكاد محاسن محمد صلى الله عليه وسلم تظهر للناس قبل أن يوحى إليه نور على نور نبى من نسل نبى نور محمد على نور إبراهيم وقال بعضهم وقع هذا التمثيل لنور قلب المؤمن روى أبو العالية عن أبى بن كعب قال هذا مثل المؤمن فالمشكاة نفسه والزجاجة صدره والمصباح ما جعل الله فيه من الإيمان والقرآن فى قلبه يوقد من شجرة مباركة وهى الإخلاص لله وحده فمثله كمثل الشجرة التى (٧٩) التف بها الشجر خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس لا إذا طلعت ولا إذا غربت فكذلك المؤمن قد احترس من أن يصيبه شىء من الفتن فهو بين أربع خلال إن أعطى شكر وإن ابتلى صبر وإن حكم عدل وإن قال صدق يكاد زيتها يضىء أى يكاد قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يتبين له لموافقته إياه نور على نور قال أبى فهو يتقلب فى خمسة أنوار قوله نور وعمله نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره إلى النور يوم القيامة قال ابن عباس هذا مثل نور الله وهداه فى قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافى يضىء قبل أن تمسه النار فاذا مسته النار ازداد ضوءا على ضوئه كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم فاذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى ونورا على نور قال الكلبى قوله نور على نور يعنى إيمان المؤمن وعمله وقال السدى نور الإيمان ونور القرآن وقال الحسن وابن زيد هذا مثل القرآن فالمصباح هو القرآن فكما يستضاء بالمصباح يهتدى بالقرآن والزجاجة قلب المؤمن والمشكاة فمه ولسانه والشجرة المباركة شجرة الوحى يكاد زيتها يضىء تكاد حجة القرآن تتضح وإن لم يقرأ نور على نور يعنى القرآن نور من الله لخلقه مع ما أقام لهم من الدلائل والأعلام قبل نزول القرآن فازداد بذلك نورا على نور قوله تعالى (يهدى الله لنوره من يشاء) قال ابن عباس رضى الله عنهما لدين الإسلام وهو نور البصيرة وقيل القرآن (ويضرب الله الأمثال للناس) يبين الله الأشياء للناس تقريبا للإفهام وتسهيلا لسبيل الإدراك (والله بكل شئ عليم) قوله (فى بيوت

الأنبياء من صلبه لاشرقية ولاغربية يعنى إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولـكن كان حنيفا مسلما لأن اليهود تصلى إلى الغرب والنصارى تصلى إلى الشرق يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار تكاد محاسن محمد صلى الله عليه وسلم تظهر للناس قبل أن يوحى إليه نور على نور نبى من نسل نبى نور محمد على نور إبراهيم وقيل وقع هذا التمثيل لنور قلب المؤمن قال أبى بن كعب هذا مثل المؤمن فالمشكاة نفسه والزجاجة قلبه والمصباح ماجعله الله فيه من الإيمان والقرآن توقد من شجرة مباركة هى شجرة الإخلاص لله وحده فمثله مثل شجرة التف بها الشجر فهى خضراء ناعمة نضره لاتصيبها الشمس إذا طلعت ولا إذا غربت فكذلك المؤمن قد احترس أن يصيبه شىء من الفتن فهو بين أربع خلال إن أعطى شكر وإن ابتلى صبر وإن حكم عدل وإن قال صدق يكاد زيتها يضىء أى يكاد قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يتبين له لموافقته إياه نور على نور قال أبى فهو يتقلب فى خمسة أنوار قوله نور وعمله نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره إلى النور يوم القيامة وقال ابن عباس هذا مثل نور الله وهداه فى قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافى يضىء قبل أن تمسه النار فاذا مسته النار ازداد ضوءا على ضوئه كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم فاذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى ونورا على نور وقال الكلبى نور على نور يعنى إيمان المؤمن وعمله وقيل نور الإيمان ونور القرآن وقيل هذا مثل القرآن فالمصباح هو القرآن فكما يستضاء بالمصباح فكذلك يهتدى بالقرآن والزجاجة قلب المؤمن والمشكاة فمه ولسانه والشجرة المباركة شجرة المعرفة فى قلبه يكاد زيتها يضىء أى نور المعرفة يشرق فى قلب المؤمن ولو لم يمسسه النار وقيل تكاد حجة القرآن تتضح وإن لم يقرأ نور على نور يعنى القرآن نور من الله لخلقه مع ما أقام لهم من الدلائل والإعلام قبل نزول القرآن فازدادوا بذلك نورا على نور . قوله تعالى (يهدى الله لنوره من يشاء) قال ابن عباس لدين الإسلام وهو نور البصيرة (ويضرب الله الأمثال للناس) أى يبين الله الأشياء للناس تقريبا إلى الأفهام وتسهيلا لسبيل الإدراك (والله بكل شىء عليم) قوله عز وجل (فى بيوت) أى ذلك المصباح يوقد فى بيوت والمراد بالبيوت جميع المساجد قال ابن عباس المساجد بيوت الله فى الأرض تضىء لأهل السماء كما تضىء النجوم لأهل الأرض وقيل المراد بالبيوت أربعة مساجد لم يبنها إلا نبى الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل فجعلاها قبلة وبيت المقدس

أذن الله) أى ذلك المصباح فى بيوت وقيل يوقد فى بيوت والبيوت هى المساجد قال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال المساجد بيوت الله فى الأرض وهى تضئ لأهل السماء كما تضىء النجوم لأهل الأرض وروى صالح بن حيان عن ابن بريدة فى قوله تعالى « فى بيوت أذن الله » قال إنما هى أربعة مساجد لم يبنها إلا نبى الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل فجعلاها قبلة وبيت المقدس بناه داود وسليمان ومسجد المدينة بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسجد قباء أسس على التقوى بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله . (أن ترفع) قال مجاهد أن تبنى نظيره قوله تعالى «وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت» قال الحسن أى تعظم أى لايذكر فيه الخنا من القول (ويذكر فيها اسمه) قال ابن عباس رضى الله عنهما يتلى فيها كتابه (يسبح) قرأ ابن عامر وأبو بكر يسبح بفتح الباء على غير تسمية الفاعل والوقف على هذه القراءة عند قوله والآصال وقرأ الآخرون بكسر الباء جعلوا التسبيح فعلا للرجال يسبح له أى يصلى (له فيها بالغدو (٨٠) والآصال) أى بالغداة والعشى قال أهل التفسير أراد به الصلوات المفروضات فالتى تؤدى بالغداة صلاة الصبح والتى تؤدى بالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين لأن اسم الأصيل يجمعها وقيل أراد به صلاة الصبح والعصر أخبرنا الإمام أبو على الحسين ابن محمد القاضى أنا أبو بكر أحمد ابن الحسن الحيرى أنا محمد ابن أحمد بن محمد ابن معقل الميدانى ثنا محمد بن يحيى أنا عبدالله ابن رجاء أنا همام بن أبى حمزة أن أبا بكر ابن عبد الله ابن قيس حدثه عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «من صلى البردين دخل الجنة » وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال التسبيح بالغدو الصلاة
صلاة الضحى أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أبو منصور محمد بن محمد بن السمعان أنا أبو جعفر الريانى أنا حميد بن زنجويه أنا عبد الله بن يوسف أنا الهيثم بن حميد أخبرنى يحيى بن الحارث عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من مشى إلى صلاة مكتوبة وهو متطهر فأجره كأجر الحاج المحرم ، ومن مشى إلى تسبيح الضحى لاينصبه إلا إياه فأجره كأجر المعتمر وصلاة على أثر صلاة لالغو بينهما كتاب فى عليين» قوله (رجال) قيل خص الرجال بالذكر فى هذه المساجد لأنه ليس على النساء جمعة ولا جماعة فى المسجد (لاتلهيهم) لاتشغلهم (تجارة) قيل خص التجارة بالذكر لأنها أعظم مايشتغل به الإنسان عن الصلاة والطاعات وأراد بالتجارة الشراء وإن كان اسم التجارة يقع على البيع والشراء جميعا لأنه ذكر البيع بعد هذا كقوله «وإذا رأوا تجارة» يعنى الشراء وقال الفراء التجارة لأهل الجلب والبيع ماباعه الرجل على يديه قوله (ولابيع عن ذكر الله) عن حضور المساجد لإقامة الصلاة (وإقام) أى لإقامة (الصلاة)

بناه داود وسليمان ومسجد المدينة بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسجد قباء أسس على التقوى وبناه رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا (أذن الله أن ترفع) أى تبنى وقيل تعظم فلا يذكر فيها الخنى من القول وتطهر عن الأنجاس والأقذار (ويذكر فيها اسمه) قال ابن عباس يتلى فيها كتابه (يسبح له فيها) أى يصلى له فيها (بالغدو والآصال) بالغداة والعشى قال أهل التفسير أراد به الصلاة المفروضة فالتى تؤدى بالغداة صلاة الفجر والتى تؤدى بالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين لأن اسم الأصيل يقع على هذا الوقت كله وقيل أراد به الصبح والعصر عن أبى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «من صلى صلاة البردين دخل الجنة أراد بالبردين صلاة الصبح وصلاة العصر » وقال ابن عباس التسبيح بالغدو صلاة الضحى والآصال صلاة العصر عن أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من خرج من بيته متطهرا إلى صلاة مكتوبة كان أجره كأجر الحاج المحرم ومن خرج إلى المسجد إلى تسبيح الضحى لايعنيه إلا ذاك كان أجره كأجر المعتمر وصلاة على أثر صلاة لالغو بينهما كتاب فى عليين» أخرجه أبو داود (رجال) قيل خص الرجال بالذكر فى هذه المساجد لأن النساء ليس عليهن حضور المساجد لجمعة ولا جماعة (لاتلهيهم) أى لاتشغلهم (تجارة) وقيل خص التجارة بالذكر لأنها أعظم مايشتغل الإنسان به عن الصلوات والطاعات وأراد بالتجارة الشراء وإن كان اسم التجارة يقع على البيع والشراء جميعا لأنه ذكر البيع بعده وقيل التجارة لأهل الجلب والبيع ماباعه الرجل على يده (ولا بيع) أى ولايشغلهم بيع (عن ذكر الله) أى حضور المساجد لإقامة الصلوات (وإقام الصلاة) يعنى إقامة الصلاة فى وقتها لأن من أخر الصلاة عن وقتها لايكون من مقيمى الصلاة وروى سالم عن ابن عمر أنه كان فى السوق فأقيمت

حذف الهاء وأراد أداءها فى وقتها لأن من أخر الصلاة عن وقتها لايكون من مقيمى الصلاة، وأعاد ذكر إقامة الصلاة مع أن المراد من ذكر الله الصلوات الخمس لأنه أراد بإقام الصلاة حفظ المواقيت . روى سالم عن ابن عمر «أنه كان فى السوق فأقيمت الصلاة فقام الناس وأغلقوا حوانيتهم فدخلوا المسجد فقال ابن عمر فيهم نزلت: «رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة» (وإيتاء الزكاة) المفروضة قال ابن عباس رضى الله عنه إذا حضر وقت أداء الزكاة لم يحبسوها وقيل هى الأعمال الصالحة (يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار) قيل تتقلب القلوب عما كانت عليه فى الدنيا من الشرك والكفر وتنفتح الأبصار من الأغطية ، وقيل تتقلب القلوب بين الخوف (٨١) والرجاء تخشى الهلاك وتطمع فى النجاة وتتقلب الأبصار من هوله أى ناحية يؤخذ بهم أذات اليمين أم ذات الشمال ومن أين يؤتون الكتب أم من قبل الأيمان أم من قبل الشمائل ؟ وذلك يوم القيامة وقيل تتقلب القلوب فى الجوف فترتفع إلى الحنجرة فلا تنزل ولا تخرج وتقلب البصر شخوصه من هول الأمر وشدته (ليجزيهم الله أحسن ما عملوا) يريد أنهم اشتغلوا بذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ليجزيهم الله أحسن ما عملوا أى بأحسن ما عملوا يريد يجزيهم بحسناتهم وما كان من مساوى أعمالهم لايجزيهم بها (ويزيدهم من فضله) مالم يستحقوه بأعمالهم (والله يرزق من يشاء بغير حساب) ثم ضرب لأعمال الكفار مثلا فقال تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة) السراب الشعاع الذى يرى نصف النهار عند شدة الحر فى البرارى يشبه الماء الجارى على الأرض يظنه من رآه ماء فإذا قرب منه انفش فلم ير شيئا ، والآل ما ارتفع من الأرض وهو شعاع يرى بين السماء والأرض بالغدوات شبه الملاءة يرفع فيه الشخوص يرى فيه الصغير كبيرا والقصير طويلا والرقراق يكون بالعشايا وهو ما ترقرق من السراب ، أى جاء وذهب ، والقيعة جمع القاع وهو المنبسط الواسع من الأرض وفيه يكون السراب (يحسبه الظمآن) أى يتوهمه العطشان (ماء حتى إذا جاءه) أى جاء ما قدر رأى أنه ماء وقيل جاء موضع السراب (لم يجده شيئا) على ما قدره وحسبه ، كذلك الكافر

الصلاة فقام الناس وأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد فقال ابن عمر فيهم نزلت هذه الآية «رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة» (وإيتاء الزكاة) يعنى المفروضة قال ابن عباس إذا حضر وقت أداء الزكاة لايحبسونها (يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار) يعنى أن هؤلاء الرجال وإن بالغوا فى ذكر الله والطاعات فإنهم مع ذلك وجلون خائفون لعلمهم بأنهم ماعبدوا الله حق عبادته . قيل إن القلوب تضطرب من الهول والفزع وتشخص الأبصار. وقيل تتقلب القلوب عما كانت عليه فى الدنيا من الشك إلى اليقين وترفع عن الأبصار الأغطية. وقيل تتقلب القلوب بين الخوف والرجاء فتخشى الهلاك وتطمع فى النجاة، وتتقلب الأبصار من هول ذلك اليوم من أى ناحية يؤخذ بهم أمن ذات اليمين أم من ذات الشمال ومن أين يؤتون كتبهم أمن قبل اليمين أم من قبل الشمال؟ وقيل يتقلب القلب فى الجوف فيرتفع إلى الحنجرة فلا ينزل ولا يخرج ويتقلب البصر فيشخص من هول الأمر وشدته (ليجزيهم الله أحسن ما عملوا) يعنى أنهم اشتغلوا بذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ليجزيهم الله أحسن ما عملوا والمراد بالأحسن الحسنات كلها وهى الطاعات فرضها ونفلها، وذكر الأحسن تنبيها على أنه لايجازيهم على مساوى أعمالهم بل يغفرها لهم وقيل إنه سبحانه وتعالى يجزيهم جزاء أحسن من أعمالهم على الواحد من عشرة إلى سبعمائة ضعف (ويزيدهم من فضله) يعنى أنه سبحانه وتعالى يجزيهم بأحسن أعمالهم ولايقتصر على ذلك بل يزيدهم من فضله (والله يرزق من يشاء بغير حساب) فيه تنبيه على كمال قدرته وكمال جوده وسعة إحسانه وفضله . قوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة) لما ضرب مثلا لحال المؤمن وأنه فى الدنيا والآخرة فى نور وأنه فائز بالنعيم المقيم، أتبعه بضرب مثل لأعمال الكفار وشبهه بالسراب وهو شبه ماء يرى نصف النهار عند شدة الحر فى البرارى يظنه من رآه ماء فإذا قرب منه لم ير شيئا . والقيعة القاع وهو المنبسط من الأرض وفيه يكون السراب (يحسبه) أى يتوهمه (الظمآن) أى العطشان (ماء حتى إذا جاءه) أى جاء ما قدر أنه ماء وقيل جاء إلى موضع السراب (لم يجده شيئا) أى لم يجده على ما قدره وظنه ووجه التشبيه أن الذى يأتى به الكافر من أعمال البر يعتقد أن له ثوابا عند الله وليس كذلك فإذا وافى عرصات القيامة لم يجد الثواب الذى كان يظنه بل وجد العقاب العظيم والعذاب الأليم فعظمت حسرته وتناهى غمه فشبه حاله بحال الظمآن الذى اشتدت

يحسب أن عمله نافعه فاذا أتاه ملك الموت واحتاج إلى عمله لم يجد عمله أغنى عنه شيئا ولانفعه (ووجد الله عنده) أي عند عمله أي وجد الله بالمرصاد وقيل قدم على الله (فوفاه حسابه) أي جزاء عمله (والله سريع الحساب أو كظلمات) وهذا مثل آخر ضربه الله لأعمال الكفار يقول مثل أعمالهم من فسادها وجهالتهم فيها كظلمات (فى بحر لجى) وهو العميق الكثير الماء ولجة البحر معظمه (يغشاه) يعلوه (موج من فوقه موج) متراكم (من فوقه سحاب) قرأ ابن كثير برواية القواس سحاب بالرفع والتنوين (ظلمات) بالجر على البدل من قوله أو كظلمات وروى أبو الحسن البزى عنه سحاب ظلمات بالإضافة وقرأ الآخرون سحاب ظلمات كلاهما (٨٢) بالرفع والتنوين فيكون تمام الكلام عند قوله سحاب ثم ابتدأ فقال ظلمات (بعضها فوق بعض) ظلمة السحاب وظلمة الموج وظلمة البحر بعضها فوق بعض أي ظلمة الموج على ظلمة البحر وظلمة الموج فوق الموج وظلمة السحاب على ظلمة الموج وأراد بالظلمات أعمال الكافر وبالبحر اللجى قلبه وبالموج ما يغشى قلبه من الجهل والشك والحيرة وبالسحاب الختم والطبع على قلبه . قال أبي بن كعب فى هذه الآية الكافر يتقلب فى خمس من الظلم فكلامه ظلمة وعمله ظلمة ومدخله ظلمة ومخرجه ظلمة ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة إلى النار (إذا أخرج) يعنى الناظر (يده لم يكد يراها) يعنى لم يقرب من أن يراها من شدة الظلمة وقال الفراء يكد صلة أي لم يرها قال المبرد يعنى لم يرها إلا بعد الجهد كما يقول القائل ما كدت أراك من الظلمة وقد رآه ولكن بعد يأس وشدة وقيل معناه قرب من رؤيتها ولم يرها كما يقال كاد النعام يطير (ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور) قال ابن عباس من لم يجعل الله له دينا وإيمانا فلا دين له وقيل من لم يهده الله فلا إيمان له ولا يهديه أحد وقال مقاتل نزلت هذه الآية فى عتبة بن ربيعة بن أمية كان يلتمس الدين فى الجاهلية ويلبس المسوح فلما جاء الإسلام كفر والأكثرون على أنه عام فى جميع الكفار قوله تعالى : (ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات) باسطات أجنحتهن فى الهواء قيل خص الطير بالذكر من جملة الحيوان لأنها تكون بين السماء والأرض فتكون خارجة عن حكم من فى السماء والأرض (كل قد علم صلاته وتسبيحه) قال مجاهد

صلاته

حاجته إلى الماء فاذا شاهد السراب فى البر تعلق قلبه به فاذا جاءه لم يجده شيئا فكذلك حال الكافر يحسب أن عمله نافعه فاذا احتاج إلى عمله لم يجده أغنى عنه شيئا ولا نفعه (ووجد الله عنده) أي وجد الله بالمرصاد وقيل قدم على الله (فوفاه حسابه) أي جزاء عمله (والله سريع الحساب) معناه أنه عالم بجميع المعلومات فلا تشغله محاسبة واحد عن واحد . ثم ضرب للكفار مثلا آخر فقال تعالى (أو كظلمات) أعلم الله سبحانه وتعالى أن أعمال الكفار إن كانت حسنة فهى كسراب بقيعة وإن كانت قبيحة فهى كظلمات ، وقيل معناه إن مثل أعمالهم فى فسادها وجهالتهم فيها كظلمات (فى بحر لجى) أي عميق كثير الماء ولجة البحر معظمه (يغشاه) أي يعلوه (موج من فوقه موج) أى متراكم (من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض) معناه أن البحر اللجى يكون قعره مظلما جدا بسبب غمورة الماء فاذا ترادفت الأمواج ازدادت الظلمة فاذا كان فوق الأمواج سحاب بلغت الظلمة النهاية القصوى (إذا أخرج يده لم يكد يراها) أى لم يقرب أن يراها لشدة الظلمة وقيل معناه لم يرها إلا بعد الجهد وقيل لما كانت اليد من أقرب شيء يراه الإنسان قال لم يكد يراها ، ووجه التشبيه أن الله ذكر ثلاثة أنواع من الظلمات ظلمة البحر وظلمة الأمواج وظلمة السحاب وكذلك الكافر له ثلاث ظلمات ظلمة الاعتقاد وظلمة القول وظلمة العمل وقيل شبه بالبحر اللجى قلبه وبالموج ما يتغشى قلبه من الجهل والشك والحيرة وبالسحاب الختم والطبع على قلبه . قال أبي بن كعب : الكافر يتقلب فى خمس من الظلم كلامه ظلمة وعمله ظلمة ومدخله ظلمة ومخرجه ظلمة ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة فى النار (ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور) قال ابن عباس من لم يجعل الله له دينا وإيمانا فلا دين له وقيل من لم يهده الله فلا هادى له قيل نزلت هذه الآية فى عتبة بن ربيعة بن أمية كان يلتمس الدين فى الجاهلية ولبس المسوح فلما جاء الإسلام كفر وعاند ، والأصح أن الآية عامة فى حق جميع الكفار . قوله عز وجل (ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات) أي باسطات أجنحتهن فى الهواء قيل خص الطير بالذكر من جملة الحيوان لأنها تكون بين السماء والأرض فتكون خارجة عن حكم من فى السموات والأرض (كل قد علم صلاته وتسبيحه) قيل الصلاة لبنى آدم والتسبيح لسائر الخلق وقيل إن ضرب أجنحة الطير

الصلاة لبني آدم والتسبيح لسائر الخلق وقيل إن ضرب الأجنحة صلاة الطير وصوته تسبيحه قوله كل قد علم ، أي كل مصل ومسبح علم الله صلاته وتسبيحه وقيل معناه كل مصل ومسبح منهم قد علم صلاة نفسه وتسبيحه (والله عليم بما يفعلون ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير ألم تر أن الله يزجي) يعني يسوق بأمره (سحابا) إلى حيث يريد (ثم يؤلف بينه) يعني يجمع بين قطع السحاب المتفرقة بعضها إلى بعض (ثم يجعله ركاما) متراكما بعضه فوق بعض (فترى الودق) يعني المطر (يخرج من خلاله) وسطه وهو جمع الخلل كالجبال جمع الجبل (وينزل من السماء من جبال فيها من برد) يعني ينزل البرد ومن صلة وقيل معناه وينزل من السماء من جبال أي مقدار جبال في الكثرة من البرد ومن في قوله من جبال صلة أي وينزل من السماء جبالا من برد وقيل معناه وينزل من

جبال في السماء تلك الجبال من برد. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أخبر الله تعالى عز وجل أن في السماء جبالا من برد ومفعول الإنزال محذوف تقديره وينزل من السماء من جبال فيها برد فاستغنى عن ذكر المفعول للدلالة عليه قال أهل النحو ذكر الله تعالى من ثلاث مرات في هذه الآية فقوله من السماء لابتداء الغاية لأن ابتداء الإنزال من السماء وقوله تعالى من جبال للتبعيض لأن ما ينزله الله تعالى بعض تلك الجبال التي في السماء وقوله تعالى من برد للتجنيس لأن تلك الجبال من جنس البرد (فيصيب به) يعني بالبرد (من يشاء) فيهلك زروعه وأمواله (ويصرفه عمن يشاء) فلا يضره (يكاد سنا برقه) يعني ضوء برق السحاب (يذهب بالأبصار) من شدة ضوئه وبريقه وقرأ أبو جعفر يذهب بضم الياء وكسر الهاء (يقلب الله الليل والنهار) يصرفهما في اختلافهما وتعاقبهما يأتي بالليل ويذهب بالنهار ويأتي بالنهار ويذهب بالليل أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا الحميدي أنا سفيان أنا الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى «يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار» قوله تعالى (إن في ذلك) يعني في ذلك الذي ذكرت من هذه الأشياء (لعبرة لأولي الأبصار) يعني دلالة لأهل العقول والبصائر على قدرة الله تعالى وتوحيده قوله تعالى (والله خلق كل دابة) قرأ حمزة والكسائي خالق كل بالإضافة وقرأ الآخرون خلق كل على الفعل (من ماء) يعني من نطفة وأراد به كل حيوان يشاهد في الدنيا ولا يدخل فيه الملائكة ولا الجن لأنا لا نشاهدهم

صلاته وتسبيحه وقيل معناه إن كل مصل ومسبح علم الله صلاته وتسبيحه وقيل معناه كل مصل ومسبح منهم قد علم صلاة نفسه وتسبيحه (والله عليم بما يفعلون ولله ملك السموات والأرض) أي إن جميع الموجودات ملكه وفي تصرفه وعنه نشأت ومنه بدأت فهو واجد الوجود وقيل معناه أن خزائن المطر والرزق بيده ولا يملكها أحد سواه (وإلى الله المصير) أي وإلى الله مرجع العباد بعد الموت. قوله تعالى (ألم تر أن الله يزجي) أي يسوق (سحابا) بأمره إلى حيث يشاء من أرضه وبلاده (ثم يؤلف بينه) أي يجمع بين قطع السحاب المتفرقة بعضها إلى بعض (ثم يجعله ركاما) أي متراكما بعضه فوق بعض (فترى الودق) أي المطر (يخرج من خلاله) أي من وسطه وهو مخارج القطر (وينزل من السماء من جبال فيها من برد) قيل معناه وينزل من جبال من السماء وتلك الجبال من برد. قال ابن عباس أخبر الله أن في السماء جبالا من برد وقيل معناه وينزل من السماء مقدار جبال في الكثرة من برد. فإن قلت ما الفرق بين من الأولى والثانية والثالثة. قلت من الأولى لابتداء الغاية لأن ابتداء الإنزال من السماء والثانية للتبعيض لأن ما ينزله الله بعض تلك الجبال التي في السماء والثالثة للتجنيس لأن تلك الجبال من جنس البرد (فيصيب به) أي البرد (من يشاء) فيهلكه وأمواله (ويصرفه عمن يشاء) أي فلا يضره (يكاد سنا برقه) أي ضوء برق السحاب (يذهب بالأبصار) أي من شدة ضوئه وبريقه (يقلب الله الليل والنهار) أي يصرفهما في اختلافهما وتعاقبهما فيأتي بالليل ويذهب بالنهار ويأتي بالنهار ويذهب بالليل (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى «يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار». معنى هذا الحديث أن العرب كانوا يقولون عند النوازل والشدائد أصابنا الدهر ويذمونه في أشعارهم فقيل لهم لا تسبوا الدهر فإن فاعل ذلك هو الله عز وجل والدهر مصرف تقع فيه التأثيرات كما تقع بكم». وقوله تعالى (إن في ذلك) أي الذي ذكر من هذه الأشياء (لعبرة لأولي الأبصار) أي دلالة لأهل العقول والبصائر على قدرة الله وتوحيده. قوله عز وجل (والله خلق كل دابة من ماء) أي

وقيل أصل جميع الخلق من الماء وذلك أن الله تعالى خلق ماء ثم جعل بعضه ريحا فخلق منها الملائكة وبعضه نارا فخلق منها الجن وبعضها طينا فخلق منها آدم (فمنهم من يمشى على بطنه) كالحيات والحيتان والديدان (ومنهم من يمشى على رجلين) مثل بنى آدم والطير (ومنهم من يمشى على أربع) كالبهائم والسباع ولم يذكر من يمشى على أكثر من أربع مثل حشرات الأرض لأنها فى الصورة كالتى تمشى على الأربع وإنما قال من يمشى ومن إنما تستعمل فيمن يعقل دون من لايعقل من الحيات والبهائم لأنه ذكر كل دابة فدخل فيه الناس وغيرهم وإذا جمع اللفظ من يعقل ومن لايعقل تجعل الغلبة لمن يعقل (يخلق الله مايشاء إن الله على كل شىء قدير لقد أنزلنا إليك (آيات مبينات والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا) يعنى المنافقين يقولونه (ثم يتولى) يعرض عن طاعة الله ورسوله (فريق منهم من بعد ذلك) أى من بعد قولهم آمنا ويدعو إلى غير حكم الله قال الله تعالى (وما أولئك بالمؤمنين) نزلت هذه الآية فى بشر المنافق كانت بينه وبين رجل من اليهود خصومة فى أرض فقال اليهودى نتحاكم إلى محمد وقال المنافق نتحاكم إلى كعب بن الأشرف فان محمدا يحيف علينا فأنزل الله هذه الآية (وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم) الرسول بحكم الله (إذا فريق منهم معرضون) يعنى عن الحكم وقيل عن الإجابة (وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين) مطيعين منقادين لحكمه يعنى إذا كان الحق لهم على غيرهم أسرعوا إلى حكمه لثقتهم بأنه كما يحكم عليهم بالحق يحكم لهم أيضا بالحق (أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا) يعنى شكوا هذا استفهام ذم وتوبيخ يعنى هم كذلك (أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله) (بل

من نطفة وأراد به كل حيوان يشاهد فى الدنيا ولايدخل فيه الملائكة والجن لأنا لانشاهدهم وقيل إن أصل جميع الخلق من الماء وذلك أن الله خلق ماء فجعل بعضه ريحا ونورا فخلق منه الملائكة وجعل بعضه نارا فخلق منه الجن وجعل بعضه طينا فخلق منه آدم (فمنهم من يمشى على بطنه) أى كالحيات والحيتان والديدان ونحو ذلك (ومنهم من يمشى على رجلين) يعنى مثل بنى آدم والطير (ومنهم من يمشى على أربع) يعنى كالبهائم والسباع. فان قلت كيف قال خلق كل دابة من ماء مع أن كثيرا من الحيوانات يتولد من غير نطفة. قلت ذلك المخلوق من غير نطفة لابد أن يتكون من شىء وذلك الشىء أصله من الماء فكان من الماء. فان قلت فمنهم من يمشى ضمير العقلاء فلم يستعمل فى غير العقلاء. قلت ذكر الله تعالى مالا يعقل مع من يعقل فغلب اللفظ اللائق بمن يعقل لأن جعل الشريف أصلا والخسيس تبعا أولى. فان قلت لم قدم ما يمشى على بطنه على غيره من المخلوقات. قلت قدم الأعجب والأعرف فى القدرة وهو الماشى بغير آلة المشى وهى الأرجل والقوائم ثم ذكر مايمشى على رجلين ثم مايمشى على أربع. فان قلت لم اقتصر على ذكر الأربع وفى الحيوانات مايمشى على أكثر من أربع كالعناكب والعقارب والرتيلا وماله أربع وأربعون رجلا ونحو ذلك. قلت هذا القسم كالنادر فكان ملحقا بالأغلب وقيل إن هذه الحيوانات اعتمادها على أربع فى المشى والباقى تبع لها (يخلق الله مايشاء) أى مما لايعقل ولا يعلم (إن الله على كل شىء قدير) أى هو القادر على الكل العالم بالكل المطلع على الكل يخلق مايشاء كما يشاء لايمنعه مانع ولادافع (لقد أنزلنا آيات مبينات) يعنى القرآن هو المبين للهدى والأحكام والحلال والحرام (والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) يعنى إلى دين الإسلام الذى هو دين الله وطريقه إلى رضاه وجنته. قوله تعالى (ويقولون) يعنى المنافقين (آمنا بالله وبالرسول وأطعنا) أى يقولونه بألسنتهم من غير اعتقاد (ثم يتولى فريق منهم) أى يعرض عن طاعة الله ورسوله (من بعد ذلك) أى من بعد قولهم آمنا ويدعو إلى غير حكم الله قال الله تعالى (وما أولئك بالمؤمنين) نزلت هذه الآية فى بشر المنافق كان بينه وبين يهودى خصومة فى أرض فقال اليهودى نتحاكم إلى محمد صلى الله عليه وسلم وقال المنافق بل نتحاكم إلى كعب بن الأشرف فان محمدا يحيف فأنزل الله هذه الآية (وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم) أى الرسول يحكم بحكم الله بينهم (إذا فريق منهم معرضون) يعنى عن الحكم وقيل عن الإجابة (وإن لم يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين) أى مطيعين منقادين لحكمه أى إذا كان الحكم لهم على غيرهم أسرعوا إلى حكمه لثقتهم أنه كما يحكم عليهم بالحق يحكم لهم أيضا (أفى قلوبهم مرض) أى كفر ونفاق (أم ارتابوا) أى شكوا وهذا استفهام ذم وتوبيخ والمعنى هم كذلك (أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله) أى بظلم

يعنى بظلم (بل أولئك هم الظالمون) لأنفسهم باعراضهم عن الحق (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله) إلى كتاب الله ورسوله (ليحكم بينهم) هذا ليس على طريق الخبر لكنه تعليم أدب الشرع على معنى أن المؤمنين كذا ينبغى أن يكونوا ونصب القول على الخبر واسمه فى قوله تعالى (أن يقولوا سمعنا وأطعنا) يعنى سمعنا الدعاء وأطعنا بالإجابة (وأولئك هم المفلحون ومن يطع الله ورسوله ويخش الله) قال ابن عباس رضى الله عنهما فيما ساءه وسره «يخشى الله على ما عمل من الذنوب (ويتقه) فيما بعده (فأولئك هم الفائزون) الناجون قرأ أبو عمرو وأبو بكر يتقه ساكنة الهاء ويختلسها أبو جعفر ويعقوب وقالون كما فى نظائرها ويشبعها الباقون كسرا وقرأ حفص يتقه بسكون القاف واختلاس الهاء وهذه اللغة إذا سقطت الياء للجزم يسكنون ما قبلها يقولون لم أشتر طعاما بسكون الراء قوله تعالى (٨٥) (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) جهد اليمين أن يحلف بالله ولا حلف فوق الحلف بالله (لئن أمرتهم ليخرجن) وذلك أن المنافقين كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أينما كنت نكن معك لئن خرجت خرجنا وإن أقمت أقمنا وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا فقال تعالى (قل) لهم (لا تقسموا) لا تحلفوا وقد تم الكلام ثم قال (طاعة معروفة). يعنى هذه طاعة بالقول وباللسان دون الاعتقاد وهى معروفة . يعنى أمر عرف منكم أنكم تكذبون وتقولون مالا تفعلون هذا معنى قول مجاهد رضى الله . عنه وقيل معناه طاعة معروفة بنية خالصة أفضل وأمثل من يمين باللسان لا يوافقها الفعل وقال مقاتل بن سليمان لكن منكم طاعة معروفة (إن الله خبير بما تعملون قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان تولوا) يعنى تولوا عن طاعة الله ورسوله (فانما عليه ما حمل) يعنى على الرسول ما كلف وأمر به من تبليغ الرسالة (وعليكم ماحملتم) من الإجابة والطاعة (وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين) أى التبليغ البين . قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض)قال أبو العالية فى هذه الآية: مكث النبى صلى الله عليه وسلم بمكة بعد الوحى عشر سنين مع أصحابه وأمروا بالصبر على أذى الكفار وكانوا يصبحون ويمسون خائفين ثم أمروا بالهجرة إلى المدينة وأمروا بالقتال وهم على خوفهم لا يفارق أحد منهم سلاحه فقال رجل منهم أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح فأنزل الله هذه الآية «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم» أدخل

(بل أولئك هم الظالمون) أى لأنفسهم باعراضهم عن الحق . قوله عز وجل (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله) أى إلى كتاب الله (ورسوله ليحكم بينهم) هذا تعليم أدب الشرع على معنى أن المؤمنين كذا ينبغى أن يكونوا وهو (أن يقولوا سمعنا) أى الدعاء (وأطعنا) أى بالإجابة (وأولئك) أى من هذه صفته (هم المفلحون ومن يطع الله ورسوله) قال ابن عباس فيما ساءه وسره (ويخش الله) أى على ما عمل من الذنوب (ويتقه) أى فيما بعد (فأولئك هم الفائزون) يعنى الناجون . قوله تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) قيل جهد اليمين أن يحلف بالله ولا يزيد على ذلك شيئا (لئن أمرتهم ليخرجن) وذلك أن المنافقين كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أينما كنت نكن معك لئن خرجت خرجنا ولئن أقمت أقمنا ولئن أمرتنا بالجهاد جاهدنا وقيل لما نزل بيان كراهتهم لحكم الله ورسوله قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم والله لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا وأموالنا ونسائنا لخرجنا فكيف لا نرضى بحكمك فقال الله تعالى (قل) لهم (لا تقسموا) يعنى لا تحلفوا وتم الكلام ثم ابتدأ فقال (طاعة معروفة) يعنى هذه طاعة القول باللسان دون الاعتقاد بالقلب وهى معروفة يعنى أمر عرف منكم أنكم تكذبون وتقولون مالا تفعلون وقيل معناه طاعة معروفة بنية خالصة أفضل وأمثل من يمين باللسان لا يوافقها الفعل (إن الله خبير بما تعملون) يعنى من طاعتكم بالقول ومخالفتكم بالفعل (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) يعنى بقلوبكم وصدق نياتكم (فان تولوا) يعنى أعرضوا عن طاعة الله ورسوله (فانما عليه) أى على الرسول (ما حمل) أى ما كلف وأمر به من تبليغ الرسالة (وعليكم ما حملتم) أى ما كلفتم من الإجابة والطاعة (وإن تطيعوه تهتدوا) أى تصيبوا الحق والرشد فى طاعته (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) أى التبليغ الواضح البين . قوله عز وجل (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض) قيل مكث النبى صلى الله عليه وسلم بمكة بعد الوحى عشر سنين مع أصحابه وأمروا بالصبر على أذى الكفار فكانوا يصبحون ويمسون خائفين ثم أمروا بالهجرة إلى المدينة وأمروا بالقتال وهم على خوفهم لا يفارق أحد منهم سلاحه فقال رجل منهم أما يأتى علينا يوم نأمل فيه ونضع السلاح فأنزل الله هذه الآية ومعنى ليستخلفنهم والله ليورثنهم أرض الكفار من العرب والعجم فجعلهم ملوكها

اللام بجواب اليمين المضمرة يعنى والله ليستخلفنهم أى ليورثنهم أرض الكفار من العرب والعجم فيجعلهم ملوكها وساستها وسكانها (كما استخلف الذين من قبلهم) قرأ أبو بكر عن عاصم «كما استخلف» بضم التاء وكسر اللام على مالم يسم فاعله وقرأ الآخرون بفتح التاء واللام لقوله تعالى «وعد الله». قال قتادة كما استخلف داود وسليمان وغيرهما من الأنبياء وقيل كما استخلف الذين من قبلهم أى بنى إسرائيل حيث أهلك الجبابرة بمصر والشام وأورثهم أرضهم وديارهم (وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم) أى اختار قال ابن عباس يوسع لهم فى البلاد حتى يملكوها ويظهر دينهم على سائر الأديان

(وليبدلنهم) قرأ ابن كثير وأبو بكر ويعقوب بالتخفيف من الإبدال وقرأ الآخرون بالتشديد من التبديل وهما لغتان وقال بعضهم التبديل تغير حال إلى حال والإبدال رفع الشيء وجعل غيره مكانه (من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى) آمنين (لا يشركون بى شيئا) فأنجز الله وعده وأظهر دينه ونصر أولياءه وأبدلهم بعد الخوف أمنا وبسطا فى الأرض. أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن الحكم أنا النضر أنا إسرائيل أنا سعيد الطاهرى أنا محمد ابن خليفة عن عدى بن حاتم قال «بينا أنا عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل فشكى إليه الفاقة ثم أتاه الآخر فشكى إليه قطع السبيل فقال ياعدى هل رأيت الحيرة قلت لم أرها وقد أنبئت عنها قال فان طالت بك حياة فلترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله قلت فيما بينى وبين نفسى فأين دعار طيء الذين قد سعروا البلاد ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى، قلت كسرى بن هرمز قال كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب وفضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدا يقبله منه وليلقين الله أحدكم يوم القيامة وليس بينه وبينه ترجمان يترجم فليقولن له ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك؟ فيقول بلى فيقول ألم أعطك مالا وأفضل عليك؟ فيقول بلى

التفصيل

وساستها وسكانها (كما استخلف الذين من قبلهم) أى كما استخلف داود وسليمان وغيرهما من الأنبياء وكما استخلف بنى إسرائيل وأهلك الجبابرة بمصر والشام وأورثهم أرضهم وديارهم (وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى) أى اختاره (لهم) قال ابن عباس يوسع لهم فى البلاد حتى يملكوها ويظهر دينهم على سائر الأديان (وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى) آمنين (لا يشركون بى شيئا) فأنجز الله وعده وأظهر دينه ونصر أولياءه وأبدلهم بعد الخوف أمنا وبسطا فى الأرض (خ) عن عدى بن حاتم قال «بينا أنا عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل فقال ياعدى هل رأيت الحيرة قلت لم أرها ولقد أنبئت عنها قال فان طالت بك حياة فلترين الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله قلت فيما بينى وبين نفسى فأين دعار طيء الذين قد سعروا البلاد ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى قلت كسرى بن هرمز قال كسرى بن هرمز ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه وليلقين الله أحدكم يوم القيامة وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له فليقولن له ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك فيقول بلى يا رب فيقول ألم أعطك مالا وأفضل عليك فيقول بلى فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم وينظر عن شماله فلا يرى إلا جهنم» قال عدى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة» قال عدى فرأيت الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى ابن هرمز ولئن طالت بكم حياة لترون ماقال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم يخرج الرجل ملء كفه ذهبا الخ. وفى الآية دليل على صحة خلافة أبى بكر الصديق والخلفاء الراشدين بعده لأن فى أيامهم كانت الفتوحات العظيمة وفتحت كنوز كسرى وغيره من الملوك وحصل الأمن والتمكين وظهور الدين عن سفينة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا» ثم قال أمسك خلافة أبى بكر سنتين وخلافة عمر عشر سنين وخلافة عثمان اثنتى عشرة سنة وعلى ستا قال على قلت لحماد القائل لسعيد أمسك سفينة قال نعم» أخرجه أبو داود والترمذى بنحو هذا اللفظ. قلت كذا ورد هذا الحديث بهذا التفصيل وفيه إجمال وتفصيله أن خلافة أبى بكر كانت سنتين وثلاثة أشهر وخلافة عمر كانت عشر سنين وستة أشهر وخلافة عثمان اثنتى عشرة سنة كما ذكر فى الحديث وخلافة على أربع سنين وتسعة أشهر ولهذا جاء فى بعض روايات الحديث وعلى كذا ولم يبين تعيين مدته فعلى هذا

فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم قال عدى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة » قال عدى فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله وكنت ممن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ولئن طالت بكم حياة لترون ماقال النبي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم يخرج ملء كفه . وفى الآية دلالة على خلافة الصديق وإمامة الخلفاء الراشدين. أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أبو محمد عبد الرحمن ابن أبي شريح أنا أبو القاسم البغوى أنا على بن الجعد أخبرنى حماد هو ابن سلمة بن دينار عن سعيد جمهان عن سفينة قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول «الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا» ثم قال أمسك خلافة أبى بكر سنتين وخلافة عمر عشرا وعثمان اثنى عشر وعلى ستة قال على قلت حماد سفينة القائل لسعيد أمسك قال نعم قوله تعالى

(٨٧)

(ومن كفر بعد ذلك) أراد به كفران النعمة ولم يرد الكفر بالله (فأولئك هم الفاسقون) العاصون لله قال أهل التفسير أول من كفر بهذه النعمة وجحد حقها الذين قتلوا عثمان رضى الله عنه فلما قتلوه غير الله مابهم وأدخل عليهم الخوف حتى صاروا يقتتلون بعد أن كانوا إخوانا . أخبرنا أبو المظفر محمد بن أحمد التميمى أنا أبو محمد عبد الرحمن بن عثمان ابن القاسم المعروف بابن نصر أنا أبو الحسن خيثمة ابن سليمان بن حيدرة المعروف بالطرابلسى أنا إسحاق بن إبراهيم بن عبا عن عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن حميد بن هلال قال قال عبد الله بن سلام فى عثمان إن الملائكة لم تزل محيطة بمدينتكم هذه منذ قدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اليوم فوالله لئن قتلتموه ليذهبون ثم لا يعودون أبدا فوالله لا يقتله رجل منكم إلا لقى الله أجذم لا يد له وإن سيف الله لم يزل مغمودا عنكم والله لئن قتلتموه ليسلنه الله ثم لا يغمده عنكم إما قال أبدا وإما قال إلى يوم القيامة فما قتل نبى قط إلا قتل به سبعون ألفا ولا خليفة إلا قتل به خمسة وثلاثون ألفا. قوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون) أى افعلوها على رجاء الرحمة (لاتحسبن الذين كفروا) قرأ عامر وحمزة لا يحسبن بالياء أى لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم (معجزين فى الأرض) وقرأ الآخرون بالتاء يقول لاتحسبن يامحمد الذين كفروا معجزين فائتين عنا (ومأواهم النار ولبئس المصير) قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) الآية قال ابن عباس رضى الله عنهما وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم غلاما من الأنصار يقال له مدلج ابن عمرو إلى

التفصيل تكون مدة خلافة الأئمة الأربعة تسعة وعشرين سنة وستة أشهر وكملت ثلاثين سنة بخلافة الحسن كانت ستة أشهر ثم نزل عنها والله أعلم » وقوله تعالى (ومن كفر بعد ذلك) أراد به كفران النعمة ولم يرد الكفران بالله (فأولئك هم الفاسقون) أى العاصون قال أهل التفسير أول من كفر بهذه النعمة وجحد حقها الذين قتلوا عثمان فلما قتلوه غير الله مابهم وأدخل عليهم الخوف حتى صاروا يقتتلون بعد أن كانوا إخوانا . عن ابن أخى عبد الله بن سلام قال « لما أريد قتل عثمان جاء عبد الله بن سلام فقال عثمان ماجاء بك قال جئت فى نصرك قال اخرج إلى الناس فاطردهم عنى فانك خارجا خير لى منك داخلا فخرج عبد الله إلى الناس فقال أيها الناس إن لله سيفا مغمودا وإن الملائكة قد جاورتكم فى بلدكم هذا الذى نزل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فالله الله فى هذا الرجل أن تقتلوه فوالله إن قتلتموه لتطردن جيرانكم الملائكة وليسلن الله سيفه المغمود عنكم فلا يغمد إلى يوم القيامة قالوا اقتلوا اليهودى واقتلوا عثمان » أخرجه الترمذى زاد فى رواية غير الترمذى « فما قتل نبى قط إلا قتل به سبعون ألفا ولا خليفة إلا قتل به خمسة وثلاثون ألفا » . قوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون) أى افعلوا هذه الأشياء على رجاء الرحمة (لاتحسبن الذين كفروا معجزين) أى فائتين عنا (فى الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير) قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) قال ابن عباس وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم غلاما من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب وقت الظهيرة ليدعوه فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته عند ذلك فأنزل الله هذه الآية وقيل نزلت فى أسماء بنت مرثد كان لها غلام كبير فدخل عليها فى وقت كرهته فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن خدمنا وغلماتنا يدخلون علينا فى حال نكرهها فأنزل الله تعالى (ياأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) واللام لام الأمر وفيه قولان أحدهما أنه على الندب والاستحباب والثانى أنه على الوجوب وهو الأولى الذين ملكت أيمانكم يعنى العبيد والإماء

عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقت الظهيرة ليدعوه فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته ذلك فأنزل الله هذه الآية وقال مقاتل نزلت فى أسماء بنت مرثد كان لها غلام كبير فدخل عليها فى وقت كرهته فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا فى حال نكرهها فأنزل الله تعالى «ياأيها الذين آمنوا ليستأذنكم» اللام لام الأمر الذين ملكت أيمانكم يعنى العبيد والإماء (والذين لم يبلغوا الحلم منكم) من الأحرار ليس المراد منهم الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء بل الذين عرفوا أمر النساء ولكن لم يبلغوا (ثلاث مرات) أى ليستأذنوا فى ثلاث أوقات (من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة) يريد المقيل (ومن بعد صلاة العشاء) وإنما خص هذه الأوقات لأنها ساعات الخلوة ووضع الثياب فربما يبدو من الإنسان مالا يحب أن يراه أحد ءأمر العبيد والصبيان بالاستئذان فى هذه الأوقات وأما غيرهم فليستأذنوا فى جميع الأوقات (ثلاث عورات لكم) قرأ حمزة والكسائى ثلاث بنصب الثاء بدلا من قوله ثلاث مرات وقرأ الآخرون بالرفع أى هذه الأوقات ثلاث عورات لكم سميت هذه الأوقات عورات لأن الإنسان يضع فيها ثيابه فتبد وعورته (ليس عليكم) جناح (ولا عليهم) على العبيد والخدم والصبيان (جناح) فى الدخول عليكم من غير استئذان (بعدهن) أى بعد هذه الأوقات الثلاثة (طوا فون عليكم) أى العبيد والخدم يطوفون عليكم فيترددون ويدخلون ويخرجون فى أشغالهم بغير إذن بعضكم على بعض أى يطوف (بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) واختلف العلماء فى حكم هذه الآية فقال قوم منسوخ قال ابن عباس رضى الله عنه لم يكن للقوم ستور ولا حجاب فكان الخدم والولائد يدخلون فربما يرون منهم مالا يحبون ، فأمروا بالاستئذان وقد بسط الله الرزق واتخذ الناس الستور فرأى أن ذلك أغنى عن الاستئذان وذهب قوم إلى أنها غير منسوخة روى سفيان عن موسى بن عائشة قال سألت الشعبي عن هذه الآية ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم : أمنسوخة هى؟ قال لا والله . قلت

(٨٨) الآية

(والذين لم يبلغوا الحلم منكم) يعنى الأحرار وليس المراد منهم الذين لم يظهروا على عورات النساء بل المراد الذين عرفوا أمر النساء ولكنهم لم يبلغوا الحلم وهو سن التمييز والعقل وغيرهما واتفق العلماء على أن الاحتلام بلوغ واختلفوا فيما إذا بلغ خمس عشرة سنة ولم يحتلم فقال أبو حنيفة لايكون بالغا حتى يبلغ ثمان عشرة سنة ويستكملها والجارية سبع عشرة سنة وقال الشافعى وأبو يوسف ومحمد وأحمد فى الغلام والجارية بخمس عشرة سنة يصير مكلفا وتجرى عليه الأحكام وإن لم يحتلم (ثلاث مرات) أى ليستأذنوا فى ثلاثة أوقات (من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة) أى وقت المقيل (ومن بعد صلاة العشاء) وإنما خص هذه الثلاثة الأوقات لأنها ساعات الخلوات ووضع الثياب فربما يبدو من الإنسان مالايجوز أن يراه أحد من العبيد والصبيان فأمرهم بالاستئذان فى هذه الأوقات وغير العبيد والصبيان يستأذن فى جميع الأوقات (ثلاث عورات لكم) سميت هذه الأوقات عورات لأن الإنسان يضع فيها ثيابه فتبدو عورته (ليس عليكم ولا عليهم) يعنى العبيد والخدم والصبيان (جناح) أى حرج فى الدخول عليكم بغير استئذان (بعدهن) أى بعد هذه الأوقات الثلاثة (طوافون عليكم) أى العبيد والخدم يترددون ويدخلون ويخرجون فى أشغالكم بغير إذن (بعضكم على بعض) أى يطوف بعضكم على بعض (كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) اختلف العلماء فى حكم هذه الآية فقيل إنها منسوخة حكى ذلك عن سعيد بن المسيب روى عكرمة أن نفرا من أهل العراق قالوا يا ابن العباس كيف ترى فى هذه الآية التى أمرنا بها ولا يعمل بها أحد قول الله عز وجل «ياأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم» الآية فقال ابن عباس إن الله حليم رحيم بالمؤمنين يحب الستر وكان الناس ليس لبيوتهم ستور ولا حجاب فربما دخل الخدم أو الولد أو يتيم الرجل والرجل على أهله فأمرهم الله تعالى بالاستئذان فى تلك العورات فجاءهم الله بالستور والخير ، فلم أر أحدا يعمل بذلك بعد أخرجه أبو داود وفى رواية عنه نحوه وزاد فرأى أن ذلك أغنى عن الاستئذان فى تلك العورات وذهب قوم إلى أنها غير منسوخة روى سفيان عن موسى بن أبى عائشة قال «سألت الشعبى عن هذه الآية ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم أمنسوخة هى قال لا والله قلت إن الناس لا يعملون بها قال الله تعالى المستعان وقال سعيد بن جبير فى هذه الآية أن ناسا يقولون نسخت والله مانسخت ولكنها مما تهاون به الناس قيل ثلاث آيات ترك الناس العمل بهن هذه الآية وقوله «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» والناس يقولون أعظمكم بيتا «وإذا حضر القسمة أولوا القربى»

إن الناس لايعملون بها قال : الله المستعان وقال سعيد بن جبير فى هذه الآية إن ناسا يقولون نسخت والله مانسخت ولكنها مما تهاون به الناس قوله تعالى (وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم) أى الاحتلام يريد الأحرار الذين بلغوا (فليستأذنوا) أى يستأذنون فى جميع الأوقات فى الدخول عليكم (كما استأذن الذين من قبلهم) من الأحرار

والكبار وقيل يعنى الذين كانوا مع إبراهيم وموسى وعيسى (كذلك يبين الله لكم آياته) دلالاته وقيل أحكامه (والله عليم) بأمور خلقه (حكيم) بمادبر لهم . قال سعيد بن المسيب يستأذن الرجل على أمه فانما أنزلت هذه الآية فى ذلك ، وسئل حذيفة أيستأذن الرجل على والدته ؟ قال نعم إن لم يفعل رأى منها مايكره قوله تعالى (والقواعد من النساء) يعنى اللاتى قعدن عن الولد والحيض من الكبر لا يلدن ولا يحضن واحدتها قاعد بلا هاء وقيل قعدن عن الأزواج وهذا معنى قوله (اللاتى لايرجون نكاحا) أى لايردن الرجال لكبرهن . قال ابن قتيبة سميت المرأة قاعدا إذا كبرت لأنها تكثر القعود. وقال ربيعة الرأى هن العجز اللاتى إذا رآهن الرجال استقذروهن فأما من كانت فيها بقية من جمال وهى محل الشهوة فلاتدخل فى هذه الآية (فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن) عند الرجال يعنى يضعن بعض ثيابهن وهى الجلباب والرداء الذى فوق الثياب والقناع الذى فوق الخمار فأما الخمار فلا يجوز وضعه ، وفى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه وأبى بن كعب أن يضعن من ثيابهن (غير متبرجات بزينة) أى من غير أن يردن بوضع الجلباب والرداء إظهار زينتهن والتبرج هو أن تظهر المرأة من محاسنها ماينبغى لها أن تستره (وأن يستعففن) فلا يلقين الجلباب والرداء (خير لهن والله سميع عليم) قوله تعالى (ليس على الأعمى حرج

الآية . وقوله عز وجل (وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم) أى الاحتلام يريد الأحرار الذين بلغوا (فليستأذنوا) أى يستأذنوا فى جميع الأوقات فى الدخول عليكم (كما استأذن الذين من قبلهم) أى الأحرار الكبار (كذلك يبين الله لكم آياته) أى دلالاته وقيل أحكامه (والله عليم) أى بأمور خلقه (حكيم) بما دبر وشرع قال سعيد بن المسيب يستأذن الرجل على أمه فانما أنزلت هذه الآية فى ذلك ، وسئل حذيفة أيستأذن الرجل على والدته قال نعم إن لم تفعل رأيت منها ماتكره قوله (والقواعد من النساء) يعنى اللاتى قعدن عن الحيض والولد من الكبر فلا يلدن ولا يحضن (اللاتى لايرجون نكاحا) أي لايردن الأزواج لكبرهن وقيل هن العجائز اللواتى إذا رآهن الرجال استقذروهن فأما من كانت فيها بقية جمال وهى محل الشهوة فلا تدخل فى حكم هذه الآية (فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن) أى عند الرجال والمعنى بعض ثيابهن وهو الجلباب والرداء الذى فوق الثياب والقناع الذى فوق الخمار فأما الخمار فلايجوز وضعه (غير متبرجات بزينة) أى من غير أن يردن بوضع الجلباب والرداء إظهار زينتهن . والتبرج هو أن تظهر المرأة من محاسنها مايجب عليها أن تستره (وأن يستعففن) أى فلا يلقين الجلباب ولا الرداء (خير لهن والله سميع عليم) قوله عز وجل (ليس على الأعمى حرج) اختلف العلماء فى هذه الآية فقال ابن عباس لما أنزل الله «يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل» تحرج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعمى والعرج وقالوا الطعام أفضل الأموال وقد نهانا الله عز وجل عن أكل الأموال بالباطل والأعمى لايبصر موضع الطعام الطيب والأعرج لايتمكن من الجلوس ولايستطيع المزاحمة على الطعام والمريض يضعف عن التناول فلا يستوفى من الطعام حقه فأنزل الله هذه الآية فعلى هذا التأويل يكون على بمعنى فى أى ليس فى الأعمى والمعنى ليس عليكم فى مؤاكلة الأعمى والمريض والأعرج حرج وقيل كان العميان والعرجان والمرضى يتنزهون عن مؤاكلة الأصحاء لأن الناس يقذرونهم ويكرهون مؤاكلتهم وكان الأعمى يقول ربما آكل أكثر من ذلك ويقول الأعرج والأعمى ربما أجلس مكان اثنين فنزلت هذه الآية ، وقيل نزلت ترخيصا لهؤلاء فى الأكل من بيوت من سماهم الله فى باقى الآية وذلك أن هؤلاء كانوا يدخلون على الرجل فى طلب الطعام فاذا لم يكن عنده شىء ذهب بهم إلى بيت أبيه أو بيت أمه أو بعض من سمى الله تعالى فكان أهل الزمانة يتحرجون من ذلك ويقولون ذهب بنا إلى غير بيته فأنزل الله هذه الآية وقيل كان المسلمون إذا غزوا دفعوا مفاتيح بيوتهم إلى الزمنى ويقولون لهم قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما فى بيوتنا فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون لاندخلها وأصحابها غيب فأنزل الله هذه الآية رخصة لهم وقيل نزلت رخصة لهؤلاء فى التخلف عن الجهاد فعلى هذا تم الكلام عند قوله

ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) الآية اختلف العلماء فى هذه الآية فقال ابن عباس رضى الله عنهما لما أنزل الله عز وجل قوله « يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » تحرج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعمى وقالوا الطعام أفضل الأموال وقد نهانا الله عن أكل المال بالباطل والأعمى لايبصر موضع الطعام الطيب والأعرج لايتمكن من الجلوس ولا يستطيع المزاحمة على الطعام والمريض يضعف عن التناول فلا يستوفى الطعام ، فأنزل الله هذه الآية وعلى هذا التأويل يكون على بمعنى فى أى ليس فى الأعمى يعنى ليس عليكم فى مؤاكلة الأعمى والأعرج والمريض وقال سعيد بن جبير والضحاك وغيرهما كان العرجان والعميان والمرضى يتنزهون عن مؤاكلة الأصحاء لأن الناس يتقذرون منهم ويكرهون مؤاكلتهم ويقول الأعمى ربما آكل أكثر ويقول الأعرج ربما أخذ مكان الإثنين فنزلت هذه الآية ، وقال مجاهد نزلت الآية ترخصا لهؤلاء فى الأكل من بيوت من سمى الله فى هذه الآية وذلك أن هؤلاء كانوا يدخلون على الرجل لطلب الطعام فاذا لم يكن عنده مايطعمهم ذهب بهم إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم أو بعض من سمى الله فى هذه الآية فكان أهل الزمانة يتحرجون من ذلك الطعام (٩٠ ويقولون اذهب بنا إلى بيت غيره فأنزل الله هذه الآية ، وقال سعيد ابن المسيب كان المسلمون إذا غزوا خلفوا زمناهم ويدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم ويقولون قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما فى بيوتنا فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون لاندخلها وهم غيب فأنزل الله هذه الآية رخصة لهم . قال الحسن نزلت هذه الآية رخصة لهؤلاء فى التخلف عن الجهاد وقال تم الكلام عند قوله « ولا على المريض حرج » وقوله تعالى ولا على أنفسكم كلام منقطع عما قبله وقيل لما نزل قوله « لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » قالوا لايحل لأحدنا أن يأكل عند أحد فأنزل الله عز وجل (ولا على أنفسكم من أن تأكلوا من بيوتكم) أى لاحرج عليكم أن تأكلوا من بيوتكم قيل أراد من أموال عيالكم وأزواجكم وبيت المرأة كبيت الزوج وقال ابن قتيبة أراد من بيوت أولادكم نسب الأولاد إلى الآباء كما جاء فى الحديث « أنت ومالك لأبيك » (أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ماملكتم مفاتحه) قال ابن عباس رضى الله عنهما عنى بذلك وكيل الرجل وقيمه فى ضيعته وماشيته لابأس عليه أن يأكل من ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته ولايحمل ولا يدخر وقال الضحاك يعنى فى بيوت عبيدكم ومماليككم وذلك أن السيد يملك منزل عبده ، والمفاتيح الخزائن لقوله تعالى « وعنده مفاتح الغيب » ويجوز أن يكون الذى يفتح به . قال عكرمة إذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن فلابأس أن يطعم الشئ اليسير وقال السدى الرجل يولى طعامه غيره يقوم عليه فلا بأس أن يأكل منه وقال قوم أوما ملكتم مفاتحه ماخزنتموه عندكم قال مجاهد وقتادة من بيوت أنفسكم مما أحرزتم وملكتم (أو صديقكم) الصديق الذي صدقك فى المودة قال ابن عباس نزلت فى الحارث بن عمرو رضى الله عنه خرج غازيا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلف مالك بن زيد على أهله فلما رجع وجده مجهودا فسأله عن حاله فقال تحرجت أن

(ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) وقوله تعالى (ولا على أنفسكم) كلام مستأنف قيل لما نزلت « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » قالوا لايحل لأحد منا أن يأكل من أحد فأنزل الله تعالى « ولا على أنفسكم » (أن تأكلوا من بيوتكم) أى لاحرج عليكم أن تأكلوا من بيوتكم قيل أراد من أموال عيالكم وبيوت أزواجكم لأن بيت المرأة كبيت الزوج وقيل بيوت أولادكم ونسب بيوت الأولاد إلى الآباء لما جاء فى الحديث « أنت ومالك لأبيك » (أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم وأما ماملكتم مفاتحه) قال ابن عباس عنى بذلك وكيل الرجل وقيمه فى ضيعته وماشيته لابأس عليه أن يأكل من ثمرة ضيعته ويشرب من لبن ماشيته ولايحمل ولا يدخر ، وقيل يعنى بيوت عبيدكم ومماليككم وذلك أن السيد يملك منزل عبده والمفاتح الخزائن ويجوز أن يكون المفتاح الذى يفتح به وإذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن فلا بأس أن يأكل الشىء اليسير وقيل ماملكتم مفاتحه أي ماخزنتموه عندكم وما ملكتموه (أو صديقكم) الصديق هو الذى صدقك فى المودة : قال ابن عباس نزلت في الحرث بن عمرو خرج غازيا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلف مالك بن زيد على أهله فلما رجع وجده مجهودا فسأله عن حاله فقال تحرجت أن آكل من طعامك بغير إذنك فأنزل الله تعالى هذه الآية والمعنى أنه ليس عليكم جناح أن تأكلوا من منازل هؤلاء إذ ادخلتموها وإن لم يحضروا

اكل من طعامك بغير إذنك فأنزل الله هذه الآية وكان الحسن وقتادة يريان دخول الرجل بيت صديقه والتحرج بطعامه من غير استئذان منه فى الأكل بهذه الآية والمعنى (ليس عليكم جناح أن تأكلوا) من منازل هؤلاء إذا دخلتموها وإن لم يحضروا من غير أن تتزودوا وتحملوا قوله ليس عليكم جناح أن تأكلوا (جميعا أو أشتاتا) نزلت فى بنى ليث بن بكر بن عمرو وهم حى من بنى كنانة كان الرجل منهم لا يأكل وحده حتى يجد ضيفا يأكل معه فربما قعد الرجل والطعام بين يديه من الصباح إلى الرواح وربما كانت معه الإبل الحفل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه فاذا أمسى ولم يجد أحدا أكل هذا قول قتادة والضحاك وابن جريج وقال عطاء الخراسانى عن ابن عباس رضى الله عنهما كان الغنى يدخل على الفقير من ذوى قرابته وصداقته فيدعوه إلى طعامه فيقول والله لا إنى لأجنح أى أتحرج أن (٩١) آكل معك وأنا غنى وأنت فقير، فنزلت هذه الآية وقال عكرمة وأبو صالح نزلت فى قوم من الأنصار كانوا لا يأكلون إذا نزل بهم ضيف إلا مع ضيفهم فرخص لهم أن يأكلوا كيف شاءوا جميعا أو أشتاتا متفرقين (فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم) أى يسلم بعضكم على بعض هذا فى دخول الرجل بيت نفسه يسلم على أهله ومن فى بيته وهو قول جابر وطاوس والزهرى وقتادة والضحاك وعمرو بن دينار وقال قتادة إذا دخلت بيتك فسلم على أهلك فهم أحق من سلمت عليه وإذا دخلت بيتا لا أحد فيه فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين حدثنا أن الملائكة ترد عليه وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال إن لم يكن فى البيت أحد فليقل السلام علينا من ربنا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين السلام على أهل البيت ورحمة الله وروى عمرو بن دينار عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى «فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم» قال إذا دخلت المسجد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين (تحية من عند الله) نصب على المصدر أى تحيون تحية (مباركة طيبة) قال ابن عباس رضى الله عنهما حسنة جميلة وقيل ذكر البركة والطيبة هاهنا لما فيه من الثواب والأجر (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه) أى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (على أمر جامع) يجمعهم من حرب حضرت أو صلاة أو جمعة أو عيد أو جماعة أو تشاور فى أمر نزل (لم يذهبوا) لم يتفرقوا عنه لم ينصرفوا عما اجتمعوا له من الأمر (حتى يستأذنوه)

من غير أن تتزودوا وتحملوا (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا) نزلت فى بنى ليث بن عمرو وهم حى من كنانة كان الرجل منهم لا يأكل وحده حتى يجد ضيفا يأكل معه فربما قعد الرجل والطعام بين يديه من الصباح إلى الرواح وربما كانت معه الإبل الحفل فلا يشرب من ألبانها حتى يأتى من يشاربه فاذا أمسى ولم يجد أحدا أكل وقال ابن عباس كان الغنى يدخل على الفقير من ذوى قرابته وصداقته فيدعوه إلى طعامه فيقول والله إنى لأجنح أى أتحرج أن آكل معك وأنا غنى وأنت فقير فنزلت هذه الآية وقيل نزلت فى قوم من الأنصار كانوا لا يأكلون إذا نزل بهم ضيف إلا مع ضيفهم فرخص لهم أن يأكلوا كيف شاءوا جميعا أى مجتمعين أو أشتاتا أى متفرقين (فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم) أى ليسلم بعضكم على بعض هذا فى دخول الرجل بيت نفسه يسلم على أهله ومن فى بيته قال قتادة إذا دخلت بيتك فسلم على أهلك فهم أحق من سلمت عليه وإذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين السلام على أهل البيت ورحمة الله وبركاته حدثنا أن الملائكة ترد عليه وقال ابن عباس إذا لم يكن فى البيت أحد فليقل السلام علينا من ربنا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين السلام على أهل البيت ورحمة الله وبركاته وعن ابن عباس فى قوله تعالى «فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم» قال إذا دخلت المسجد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين (تحية من عند الله مباركة طيبة) قال ابن عباس حسنة جميلة وقيل ذكر البركة والطيب هاهنا لما فيه من الثواب والأجر (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون) أى عن الله أمره ونهيه وآدابه. قوله عز وجل (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه) أى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (على أمر جامع) أى يجمعهم من حرب أو صلاة حضرت أو جمعة أو عيد أو جماعة أو تشاور فى أمر نزل (لم يذهبوا) أى لم يتفرقوا عنه ولم ينصرفوا عما اجتمعوا له (حتى يستأذنوه) قال المفسرون «وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صعد المنبر يوم الجمعة وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عذر لم يخرج حتى يقوم بحيال رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيث يراه فيعرف أنه إنما قام ليستأذن فيأذن

قال المفسرون كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صعد المنبريوم الجمعة وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عذر لم يخرج حتى يقوم بحيال رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يراه فيعرف أنه إنما قام يستأذن فيأذن لمن شاء منهم قال مجاهد وأذن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده قال أهل العلم وكذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لايخالفونه ولا يرجعون عنه إلا باذن وإذا استأذن فللإمام إن شاء أذن له وإن شاء لم يأذن وهذا إذا لم يكن له سبب يمنعه من المقام فان حدث سبب يمنعه من المقام بأن يكون فى المسجد فتحيض منهم امرأة أو يجنب رجل أو يعرض له مرض فلايحتاج إلى الاستئذان (إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم) أى أمرهم (فأذن لمن شئت منهم) فى الانصراف معناه إن شئت فأذن وإن شئت فلا تأذن (واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) قال ابن عباس رضى الله عنهما يقول احذروا دعاء الرسول عليكم إذا أسخطتموه فان دعاءه موجب لنزول البلاء بكم ليس كدعاء غيره وقال مجاهد وقتادة لا تدعوه باسمه كما يدعو بعضكم بعضا يامحمد ياعبد الله ولكن فخموه وشرفوه فقولوا يانبى الله يارسول الله فى لين وتواضع (قد يعلم الله الذين يتسللون) أى يخرجون (منكم لواذا) أى يستتر بعضهم بعضا ويروغ فى خيفة فيذهب واللواذ مصدر لاوذ يلاوذ ملاوذة ولواذا قيل كان هذا فى حفر الخندق فكان المنافقون ينصرفون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مختفين قال ابن عباس رضى الله عنهما ولا لواذا أى يلوذ بعضهم ببعض وذلك أن المنافقين كان يثقل عليهم المقام فى المسجد يوم الجمعة واستماع خطبة النبى ﷺ فكانوا يلوذون ببعض أصحابه فيخرجون من المسجد فى استتار ومعنى قوله قد يعلم الله التهديد بالمجازاة (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) أى أمره وعن صلة وقيل معناه يعرضون عن أمره وينصرفون عنه بغير إذنه (أن تصيبهم فتنة) أى لئلا تصيبهم فتنة قال مجاهد بلاء فى الدنيا (أو يصيبهم عذاب أليم) وجيع فى الآخرة وقيل عذاب أليم عاجل فى الدنيا ثم عظم نفسه فقال (ألا إن لله مافى السموات والأرض) ملكا وعبيدا (قد يعلم ماأنتم عليه) من الإيمان والنفاق أى يعلم وقد صلة (ويوم يرجعون إليه) يعنى يوم البعث (فينبئهم بما عملوا) من الخير والشر (والله بكل شىء عليم) أخبرنا أبوسعيد الشريحى أنا أبو إسحاق الثعلبى، أخبرنى الحسين بن محمد بن فنجويه ثنا عبد الله بن محمد بن شيبة، ثنا محمد بن إبراهيم

(٩٢)

لمن شاء منهم ▪ قال مجاهد وإذن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده قال أهل العلم وكذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لايخالفونه ولا يرجعون عنه إلا باذن وإذا استأذن الإمام إن شاء أذن له وإن شاء لم يأذن وهذا إذا لم يكن حدث سبب يمنعه من المقام فان حدث سبب يمنعه من المقام بأن يكون فى المسجد فتحيض امرأة منهم أو يجنب رجل أو يعرض له مرض فلا يحتاج إلى الاستئذان (إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم) أى أمرهم (فأذن لمن شئت منهم) أى فى الانصراف والمعنى إن شئت فأذن وإن شئت فلا تأذن (واستغفر لهم الله) أى إن رأيت لهم عذرا فى الخروج عن الجماعة (إن الله غفور رحيم) قوله عز وجل (لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) قال ابن عباس رضى الله عنهما يقول احذروا دعاء الرسول إذا أسخطتموه فان دعاءه موجب ليس كدعاء غيره وقيل معناه لاتدعوه باسمه كما يدعو بعضكم بعضا يامحمد ياعبد الله ولكن فخموه وعظموه وشرفوه وقولوا يانبى الله يارسول الله فى لين وتواضع (قد يعلم الله الذين يتسللون) أى يخرجون (منكم لواذا) أى يستتر بعضهم ببعض ويروغ فى خفية فيذهب قيل كانوا فى حفر الخندق فكان المنافقون ينصرفون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مختفين وقال ابن عباس لواذا أى يلوذ بعضهم ببعض وذلك أن المنافقين كان يثقل عليهم المقام فى المسجد يوم الجمعة واستماع خطبة النبى ﷺ فكانوا يلوذون ببعض أصحابه فيخرجون من المسجد فى استتار وقوله قد يعلم فيه التهديد بالمجازاة (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) أى يعرضون عن أمره وينصرفون عنه بغير إذنه (أن تصيبهم فتنة) أى لئلا تصيبهم فتنة أى بلاء فى الدنيا (أو يصيبهم عذاب أليم) أى وجيع فى الآخرة ثم عظم الله نفسه فقال تعالى (ألا إن لله مافى السموات والأرض) أى ملكا وعبيدا (قد يعلم ماأنتم عليه) أى من الإيمان والنفاق (ويوم يرجعون إليه) يعنى يوم القيامة (فينبئهم بما عملوا) أى من الخير والشر (والله بكل شىء عليم) عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ▪ لاتنزلوا النساء الغرف

الكرابيسي ثنا سليمان بن توبة أبو داود الأنصارى أنا محمد بن إبراهيم الشامى ثنا شعيب بن إسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنزلوا النساء الغرف ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن المغزل وسورة النور .

(سورة الفرقان مكية وهى سبع وسبعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(تبارك) تفاعل من البركة عن ابن عباس معناه جاء بكل بركة دليله قول الحسن مجيء البركة من قبله وقال الضحاك تعظم (الذى نزل الفرقان) أي القرآن (على عبده) محمدا صلى الله عليه وسلم (٩٣) (ليكون للعالمين نذيرا) أى للجن والإنس قيل النذير هو القرآن وقيل محمد صلى الله عليه وسلم (الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شئ) مما يطلق عليه صفة المخلوق (فقدره تقديرا) فسواه وهيأه لما يصلح له لا خلل فيه ولا تفاوت وقيل قدر لكل شيء تقديرا من الأجل والرزق فجرت المقادير على ما خلق قوله عز وجل (واتخذوا) يعنى عبدة الأوثان (من دونه آلهة) يعنى الأصنام (لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا) أى دفع ضر ولا جلب نفع (ولا يملكون موتا ولا حياة) أى إماتة وإحياء (ولا نشورا) أى بعثا بعد الموت (وقال الذين كفروا) يعنى المشركين يعنى النضر بن الحارث وأصحابه (إن هذا) ما هذا القرآن (إلا إفك) كذب (افتراه) اختلقه محمد صلى الله عليه وسلم (وأعانه عليه قوم آخرون) قال مجاهد يعنى اليهود وقال الحسن هو عبيد بن الخضر الحبشى الكاهن وقيل جبر ويسار وعداس بن عبيد كانوا بمكة من أهل الكتاب فزعم المشركون أن محمدا صلى الله عليه وسلم يأخذ منهم قال الله تعالى (فقد جاءوا) يعنى قائلى هذه المقالة (ظلما وزورا) أى بظلم وزور فلما حذفت الباء انتصب يعنى جاءوا شركا وكذبا بنسبتهم كلام الله تعالى إلى الإفك والافتراء (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها) يعنى النضر بن الحارث كان يقول إن هذا القرآن ليس من الله وإنما هو مما سطره الأولون مثل حديث رستم واسفنديار اكتتبها انتسخها محمد من جبر ويسار وعداس ومعنى اكتتب يعنى

ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة النور» أخرجه أبو عبدالله بن السبع فى صحيحه والله سبحانه وتعالى أعلم .

(تفسير سورة الفرقان مكية وهى سبع وسبعون آية وثمانمائة واثنتان وتسعون كلمة وثلاثة آلاف وسبعمائة وثلاثون حرفا)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (تبارك) تفاعل من البركة قيل معناه جاء بكل بركة وخير وقيل معناه تعاظم (الذي نزل الفرقان) أى القرآن سماه فرقانا لأنه فرق بين الحق والباطل والحلال والحرام وقيل لأنه نزل مفرقا فى أوقات كثيرة ولهذا قال نزل بالتشديد لتكثير التفريق (على عبده) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (ليكون للعالمين) أي للانس والجن (نذيرا) قيل هو القرآن وقيل النذير هو محمد صلى الله عليه وسلم (الذى له ملك السموات والأرض) أى هو المتصرف فيهما كيف يشاء (ولم يتخذ ولدا) أى هو الفرد فى وحدانيته وفيه رد على النصارى (ولم يكن له شريك فى الملك) يعنى هو المنفرد بالإلهية وفيه رد على الثنوية وعباد الأصنام (وخلق كل شىء) مما تطلق عليه صفة المخلوق (فقدره تقديرا) أى سواه وهيأه لما يصلح له لا خلل فيه ولا تفاوت وقيل قدر كل شىء تقديرا من الأجل والرزق فجرت المقادير على ما خلق . قوله تعالى (واتخذوا) يعنى عبدة الأوثان (من دونه آلهة) يعنى الأصنام (لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا) يعنى دفع ضر ولا جر نفع (ولا يملكون موتا) أى إماتة (ولا حياة) أى إحياء (ولا نشورا) أي بعثا بعد الموت (وقال الذين كفروا) يعنى النضر بن الحرث وأصحابه (إن هذا) أى ما هذا القرآن (إلا إفك) أى كذب (افتراه) أى اختلقه محمد صلى الله عليه وسلم (وأعانه عليه قوم آخرون) قيل هم اليهود وقيل عبيد بن الخضر الحبشى الكاهن وقيل جبر ويسار وعداس بن عبيد كانوا بمكة من أهل الكتاب فزعم المشركون أن محمدا ﷺ يأخذ منهم قال الله تعالى (فقد جاءوا) يعنى قائلى هذه المقالة (ظلما وزورا) أى بظلم وزور وهو تسميتهم كلام الله تعالى بالافك والافتراء (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها) يعنى النضر بن الحرث كان يقول إن هذا القرآن ليس من الله وإنما هو مما سطره الأولون

طلب أن يكتب له لأنه كان لايكتب (فهى تملى عليه) يعنى تقرأ عليه ليحفظها لاليكتبها (بكرة وأصيلا) غدوة وعشيا قال الله عز وجل ردا عليهم (قل أنزله) يعنى القرآن (الذى يعلم السر) يعنى الغيب (فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما وقالوا مال هذا الرسول) يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم (يأكل الطعام) كما نأكل نحن (ويمشى فى الأسواق) يلتمس المعاش كما نمشى فلا يجوز أن يمتاز عنا بالنبوة وكانوا يقولون له لست أنت بملك ولا بملك لأنك تأكل والملك لايأكل ولست بملك لأن الملك لايتسوق (٩٤) وأنت تتسوق وتتبذل وما قالوه فاسد لأن أكله الطعام لكونه آدميا ومشيه فى الأسواق لتواضعه وكان ذلك صفة له وشئ من ذلك لاينافى النبوة (لولا أنزل إليه ملك) فيصدقه (فيكون معه نذيرا) داعيا (أو يلقى إليه كنز) أى ينزل عليه كنز من السماء ينفقه فلا يحتاج إلى التردد والتصرف فى طلب المعاش (أو تكون له جنة) بستان (يأكل منها) قرأ حمزة والكسائى نأكل بالنون أى نأكل نحن منها (وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) مخدوعا وقيل مصروفا عن الحق (أنظر) يا محمد (كيف ضربوا لك الأمثال) يعنى الأشباه فقالوا مسحور محتاج وغيره (فضلوا) عن الحق (فلا يستطيعون سبيلا) إلى الهدى ومخرجا عن الضلالة (تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك) الذى قالوا وأفضل من الكنز والبستان الذى ذكروا وروى عكرمة عن ابن عباس قال يعنى خيرا من المشى فى الأسواق والتماس المعاش ثم بين ذلك الخير فقال (جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا) بيوتا مشيدة والعرب تسمى كل بيت مشيد قصرا وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم برواية أبى بكر ويجعل برفع اللام وقرأ الآخرون بجزمها على محل الجزاء فى قوله إن شاء جعل لك أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبى توبة الكشميهنى أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا أبو الحسن محمد ابن يعقوب الكسائى أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن يحيى بن أيوب حدثنى

يأكل

مثل حديث رستم واسفنديار ومعنى اكتتبها انتسخها محمد صلى الله عليه وسلم من جبر ويسار وعداس وطلب أن تكتب له لأنه كان لايكتب (فهى تملى عليه) أى تقرأ عليه ليحفظها لأنه لايكتب (بكرة وأصيلا) يعنى غدوة وعشية قال الله تعالى ردا عليهم (قل) يامحمد (أنزله) يعنى القرآن (الذى يعلم السر) أى الغيب (فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما) أى لولا ذلك لعاجلهم بعذابه (وقالوا مال هذا الرسول) يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم (يأكل الطعام) أى كما نأكل نحن (ويمشى فى الأسواق) أى يلتمس المعاش كما نمشى نحن وإذا كان كذلك فمن أين له الفضل علينا ولايجوز أن يمتاز عنا بالنبوة وكانوا يقولون له لست بملك لأنك بشر مثلنا والملك لايأكل ولا بملك لأن الملك لايتسوق وأنت تتسوق وتتبذل وما قالوه فاسد لأن أكله الطعام لكونه آدميا ولم يدع أنه ملك ومشيه فى الأسواق لتواضعه وكان ذلك صفته فى التوراة ولم يكن سخابا فى الأسواق وليس شيء من ذلك ينافى النبوة ولأنه لم يدع أنه ملك من الملوك (لولا أنزل إليه ملك) أي يصدقه ويشهد له (فيكون معه نذيرا) أى داعيا (أو يلقى إليه كنز) أى ينزل عليه كنز من السماء ينفقه فلا يحتاج إلى التصرف فى طلب المعاش (أو تكون له جنة) يعنى بستان (يأكل منها) أى هو فلا أقل من ذلك إن لم يكن له كنز وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) يعنى مخدوعا وقيل مصروفا عن الحق (أنظر) يامحمد (كيف ضربوا لك الأمثال) أى الأشباه التى لافائدة لها فقالوا مسحور محتاج (فضلوا) أى عن الحق (فلا يستطيعون سبيلا) إلى الهدى ومخرجا عن الضلالة. قوله تعالى (تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك) أى من الذى قالوا وأفضل من البستان الذى ذكروا وقال ابن عباس يعنى خيرا من المشى فى الأسواق والتماس المعاش ثم بين ذلك الخير فقال (جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا) أى بيوتا مشيدة عن أبى أمامة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا قلت لا يارب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما أو قال ثلاثا أو نحو هذا فاذا جعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت حمدتك وشكرتك» عن عائشة قالت «قال رسول الله صلي الله عليه وسلم لو شئت لسارت معى جبال مكة ذهبا جاءنى ملك إن حجزته لتساوى الكعبة فقال يامحمد إن ربك يقرئك السلام ويقول إن شئت نبيا عبدا وإن شئت نبيا ملكا فنظرت إلى جبريل فأشار إلى أن ضع نفسك فقلت نبيا عبدا قالت فكان رسول الله صلى الله علية وسلم بعد ذلك لايأكل متكئا يقول أنا عبد آكل كما

عبد الله بن زحر عن علي بن زيد عن القاسم بن أبي عبد الرحمن عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال عرض على ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا فقلت لايارب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما أو قال ثلاثا أو نحو هذا فاذا جعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت حمدتك وشكرتك حدثنا أبو طاهر المطهر بن علي بن عبيد الله القارسي أنا أبو ذر محمد بن إبراهيم الصالحاني أنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان المعروف بأبي الشيخ أنا أبو يعلى ثنا محمد بن بكار ثنا أبو معشر عن سعيد يعني المقبري عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياعائشة لو شئت لسارت معي جبال الذهب جاءني ملك إن حجزته لتساوي الكعبة فقال إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول إن شئت نبيا عبدا وإن شئت نبيا ملكا فنظرت إلى جبريل فأشار إلى أن ضع نفسك وفي رواية ابن عباس فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جبريل كالمستشير له فأشار جبريل بيده أن تواضع فقلت نبيا عبدا قال فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك لا يأكل متكئا يقول آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد قوله عز وجل (٩٥) (بل كذبوا بالساعة) بالقيامة (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) نارا مستعرة (إذا رأتهم من مكان بعيد) قال الكلبي والسدي من مسيرة عام وقيل من مسيرة مائة سنة وقيل خمسمائة سنة وثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من كذب على متعمدا فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدا قالوا وهل لها من عينين قال نعم أم تسمعوا قول الله تعالى إذا رأتهم من مكان بعيد وقيل إذا رأتهم زبانيتها (سمعوا لها تغيظا) غليانا كالغضبان إذا على صدره من الغضب (وزفيرا) صوتا فان قيل كيف يسمع التغيظ قيل معناه رأوا وعلموا أن لها تغيظا وسمعوا لها زفيرا كما قال الشاعر :

ورأيت زوجك في الوغى متقلدا سيفا ورمحا

أي وحاملا رمحا وقيل سمعوا لها تغيظا أي صوت التغيظ من التلهب والتوقد قال عبيد بن عمير تزفر جهنم يوم القيامة زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خر لوجهه (وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا) قال ابن عباس يضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح (مقرنين) مصفدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال وقيل مقرنين مع الشياطين في السلاسل (دعوا هنا لك ثبورا) قال ابن عباس ويلا وقال الضحاك هلاكا وفي الحديث أن أول من يكسى حلة من النار إبليس ، فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من خلفه وهو يقول ياثبوراه وهم ينادون ياثبورهم حتى يقفوا على النار فينادون ياثبوراه وينادى ياثبورهم فيقال لهم (لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا) قيل أي هلاكا كم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة فادعوا

يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد» ذكر هذين الحديثين البغوي بسنده . قوله تعالى (بل كذبوا بالساعة) أي القيامة (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) أي نارا مسعرة (إذا رأتهم من مكان بعيد) قيل من مسيرة عام وقيل من مسيرة مائة عام . فان قلت كيف تتصور الرؤية من النار وهو قوله إذا رأتهم . قلت يجوز أن يخلق الله لها حياة وعقلا ورؤية وقيل معناه رأتهم زبانيتها (سمعوا لها تغيظا) أي غليانا كالغضبان إذا غلى صدره من الغضب (وزفيرا) أي صوتا فان قلت كيف يسمع التغليظ . قلت معناه رأوا وعلموا لها تغيظا وسمعوا لها زفيرا كما قال الشاعر .

ورأيت زوجك في الوغى متقلدا سيفا ورمحا

أي وحاملا رمحا وقيل سمعوا لها صوت التغيظ من التلهب والتوقد وقال عبيد بن عمير تزفر جهنم يوم القيامة زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خر لوجهه (وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا) قال ابن عباس تضيق عليه كما يضيق الزج في الرمح (مقرنين) أي مصفدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال وقيل مقرنين مع الشياطين في السلاسل (دعوا هنالك ثبورا) قال ابن عباس ويلا وقيل هلاكا وفي الحديث «إن أول من يكسى حلة من النار إبليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من خلفه وهو يقول ياثبوراه وهم ينادون ياثبورهم حتى يقفوا على النار فينادي ياثبوراه وهم ينادون ياثبورهم فيقال لهم (لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا)» هكذا ذكره البغوي بغير سند وقيل معناه هلاككم أكثر

ادعية كثيرة قوله عز وجل (قل أذلك) يعنى الذى ذكرته من صفة النار وأهلها (خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء) ثوابا (ومصيرا) مرجعا (لهم فيها مايشاءون خالدين كان على ربك وعدا مسئولا) مطلوبا وذلك أن المؤمنين سألوا ربهم فى الدنيا حين قالوا ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك يقول كان أعطى الله المؤمنين جنة الخلد وعدا وعدهم على طاعتهم إياه فى الدنيا ومسألتهم إياه ذلك قال محمد بن كعب القرظى الطلب من الملائكة للمؤمنين وذلك قولهم ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم (ويوم يحشرهم) قرأ ابن كثير وأبو جعفر ويعقوب وحفص يحشرهم بالياء وقرأ الباقون بالنون (وما يعبدون من دون الله) قال مجاهد من الملائكة والجن والإنس وعيسى وعزير وقال عكرمة والضحاك والكلبى يعنى الأصنام ثم يخاطبهم (فيقول) قرأ ابن عامر بالنون والآخرون بالياء (٩٦) (أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل) أخطأوا الطريق (قالوا سبحانك) نزهوا الله من أن يكون معه إله (ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء) يعنى ما كان ينبغى لنا أن نوالى أعداءك بل أنت ولينا من دونهم وقيل ما كان لنا أن نأمرهم بعبادتنا ونحن نعبدك وقرأ أبو جعفر أن نتخذ بضم النون وفتح الخاء فتكون من الثانى صلة (ولكن متعتهم وآباءهم) فى الدنيا بطول العمر والصحة والنعمة (حتى نسوا الذكر) تركوا الموعظة والإيمان بالقرآن وقيل تركوا ذكرك وغفلوا عنه (وكانوا قوما بورا) يعنى هلكى غلب عليهم الشقاء والخذلان رجل يقال رجل بائر وقوم بور وأصله من البوار وهو الكساد والفساد ومنه بوار السلعة وهو كسادها وقيل هو اسم مصدر كالزور يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث (فقد كذبوكم) هذا خطاب مع المشركين أى كذبكم المعبودون (بما تقولون) إنهم آلهة (فما تستطيعون) قرأ حفص بالتاء يعنى العابدين وقرأ الآخرون بالياء يعنى الآلهة (صرفا) يعنى صرف العذاب عن أنفسهم (ولا نصرا) يعنى ولا نصر أنفسهم وقيل ولا نصركم أيها العابدون من عذاب الله بدفع العذاب عنكم وقيل الصرف الحيلة ومنه قول العرب إنه ليصرف أى يحتال (ومن يظلم) يشرك (منكم نذقه عذابا كبيرا) قوله عز وجل (وما أرسلنا قبلك من المرسلين) يامحمد (إلا إنهم ليأكلون الطعام) روى الضحاك عن ابن عباس قال لما عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق أنزل الله عز وجل هذه الآية يعنى ما أنا إلا رسول وما كنت بدعا من الرسل وهم كانوا بشرا يأكلون الطعام ويمشون

من أن تدعوا مرة واحدة فادعوا أدعية كثيرة . قوله عز وجل (قل أذلك خير) أى الذى ذكرت من صفة النار وأهلها (أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا) أى ثوابا ومرجعا لهم قال تعالى (لهم فيها مايشاءون) أى أن جميع المرادات لاتحصل إلا فى الجنة لا فى غيرها . فان قلت قد يشتهى الإنسان شيئا وهو لا يحصل فى الجنة كأن يشتهى الولد ونحوه وليس هو فى الجنة . قلت إن الله يزيل ذلك الخاطر عن أهل الجنة بل كل واحد من أهل الجنة مشتغل بما هو فيه من اللذات الشاغلة عن الالتفات إلى غيره (خالدين) أى فى نعيم الجنة ومن تمام النعيم أن يكون دائما إذ لو انقطع لكان مشوبا بضرب من الغم وأنشد فى المعنى :

أشد الغم عندى فى سرور ... تيقن عنه صاحبه انتقالا

(كان على ربك وعدا مسئولا) أى مطلوبا وذلك أن المؤمنين سألوا ربهم فى الدنيا حين قالوا « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة » وقالوا « ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك » يقول كان أعطاء الله المؤمنين جنة وعدا وعدهم على طاعتهم إياه فى الدنيا ومسألتهم إياه ذلك الوعد وقيل الطلبة من الملائكة للمؤمنين وذلك قولهم « ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم » . قوله تعالى (ويوم نحشرهم وما يعبدون من دون الله) يعنى من الملائكة والإنس والجن مثل عيسى والعزير وقيل يعنى الأصنام ثم يخاطبهم (فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل) أى أخطأوا الطريق (قالوا) يعنى المعبودين (سبحانك) نزهوا الله سبحانه وتعالى من أن يكون معه آلهة (ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء) يعنى ما كان ينبغى لنا أن نوالى أعداءك بل أنت ولينا من دونهم وقيل معناه ما كان لنا أن نأمرهم بعبادتنا ونحن نعبدك ونحن عبيدك (ولكن متعتهم وآباءهم) أى بطول العمر والصحة والنعمة فى الدنيا (حتى نسوا الذكر) معناه تركوا المواعظ والإيمان بالقرآن وقيل تركوا ذكرك وغفلوا عنه (وكانوا قوما بورا) معناه هلكى أى غلب عليهم الشقاء والخذلان (فقد كذبوكم) هذا خطاب مع المشركين أى كذبكم المعبودون (بما تقولون) يعنى أنهم آلهة (فما يستطيعون) أى الآلهة (صرفا) أى صرف العذاب عن أنفسهم (ولا نصرا) يعنى ولا نصر أنفسهم وقيل لا ينصرونكم أيها العابدون بدفع العذاب عنكم (ومن يظلم منكم) يعنى يشرك (نذقه عذابا كبيرا) قوله عز وجل (وما أرسلنا قبلك) أى يا محمد (من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام

ويمشون فى الأسواق) قال ابن عباس لما عير المشركون رسول الله ﷺ وقالوا «مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق» أنزل الله تعالى هذه الآية والمعنى أن هذه عادة مستمرة من الله تعالى على رسله فلا وجه لهذا الطعن «وما أنا إلا رسول» «وما كنت بدعا من الرسل» وهم كانوا بشرا مثلى يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة) أى بلية قال ابن عباس أى جعلنا بعضكم بلاء بعض لتصبروا على ماتسمعون منهم وترون من خلافهم وتتبعوا أنتم الهدى قيل نزلت فى ابتلاء الشريف بالوضيع وذلك أن الشريف إذا أراد أن يسلم رأى الوضيع قد أسلم قبله فأنف وقال أسلم بعده فيكون له السابقة والفضل على فيقيم على كفره ويمتنع من الإسلام فذلك افتتان بعضهم ببعض وقيل نزلت فى أبى جهل والوليد بن عقبة والعاص بن وائل السهمى والنضر بن الحرث وذلك أنهم رأوا أبا ذر وابن مسعود وعمار بن ياسر وبلالا وصهيبا وعامر ابن فهيرة وذويهم قد أسلموا قبلهم فقالوا نسلم فنكون مثل هؤلاء وقيل نزلت فى ابتلاء فقراء المسلمين بالمستهزئين من قريش كانوا يقولون انظروا إلى هؤلاء الذين تبعوا محمدا صلى الله عليه وسلم من موالينا وأراذلنا فقال الله تعالى لهؤلاء المؤمنين (أتصبرون) أى على هذه الحالة من الفقر والشدة والأذى وقيل إن الغنى فتنة الفقير يقول مالى لم أكن مثله والصحيح فتنة المريض والشريف فتنة الوضيع (وكان ربك بصيرا) أى بمن صبر وبمن جزع (ق) عن أبى هريرة يبلغ به النبى صلى الله عليه وسلم قال «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه بالمال والجسم فلينظر إلى من هو دونه فى المال والجسم» لفظ البخارى ولمسلم «انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم». قوله تعالى (وقال الذين لا يرجون لقاءنا) أي يخافون البعث والرجاء بمعنى الخوف لغة تهامة (لولا أنزل علينا الملائكة) فتخبرنا أن محمدا صادق (أو نرى ربنا) فيخبرنا بذلك (لقد استكبروا) أى تعظموا (فى أنفسهم) بهذه المقالة (وعتوا عتوا كبيرا) أى طغوا وقيل عتوا فى القول وهو أشد الكفر والفحش وعتوهم طلبهم رؤية الله حتى يؤمنوا به. قوله تعالى (يوم يرون الملائكة) أى عند الموت وقيل يوم القيامة (لا بشرى يومئذ للمجرمين) وذلك أن الملائكة يبشرون المؤمنين يوم القيامة ويقولون للكفار

(ويمشون فى الأسواق) وقيل معناه وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا قيل لهم مثل هذا إنهم يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق كما قال فى موضع آخر «مايقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك» (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة) أى بلية فالغنى فتنة للفقير يقول الفقير مالى لم أكن مثله والصحيح فتنة للمريض والشريف فتنة للوضيع وقال ابن عباس أي جعلت بعضكم بلاء لبعض لتصبروا على ماتسمعون منهم وترون من خلافهم وتتبعوا الهدى وقيل نزلت فى ابتلاء الشريف بالوضيع وذلك أن الشريف إذا أراد أن يسلم فرأى الوضيع قد أسلم قبله أنف وقال أسلم بعده فيكون له على السابقة والفضل فيقيم على كفره ويمتنع من الإسلام فذلك افتتان بعضهم ببعض وهذا قول الكلبي وقال مقاتل نزلت فى أبى جهل والوليد (٩٧) بن عقبة والعاص بن وائل والنضر بن الحارث وذلك أنهم لما رأوا أبا ذر وابن مسعود وعمارا وبلالا وصهيبا وعامر بن فهيرة وذويهم قالوا نسلم فنكون مثل هؤلاء، وقال مقاتل نزلت فى ابتلاء فقراء المؤمنين بالمستهزئين من قريش كانوا يقولون انظروا إلى هؤلاء الذين اتبعوا محمدا من موالينا وأراذلنا فقال الله تعالى لهؤلاء المؤمنين (أتصبرون) يعنى على هذه الحالة من الفقر والشدة والأذى (وكان ربك بصيرا) بمن صبر وبمن جزع أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحى أنا أبو بكر أحمد ابن الحسن أنا أبو العباس الأصم ثنا زكريا بن يحيى المروزى ثنا سفيان بن عيينة عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة يبلغ به النبى صلى الله عليه وسلم قال «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه فى المال والجسم فلينظر إلى من دونه فى المال والجسم» (وقال الذين لا يرجون لقاءنا) أى لا يخافون البعث قال الفراء الرجاء بمعنى الخوف لغة تهامة ومنه قوله تعالى «مالكم لا ترجون لله وقارا» أى لا تخافون لله عظمة (لولا أنزل علينا الملائكة) فتخبرنا أن محمدا صادق (أو نرى ربنا) فيخبرنا بذلك (لقد استكبروا) أى تعظموا (فى أنفسهم) بهذه المقالة (وعتوا عتوا كبيرا) قال مجاهد عتوا طغوا فى القول والعتو أشد الكفر وأفحش الظلم وعتوهم طلبهم رؤية الله حتى يؤمنوا به (يوم يرون الملائكة) عند الموت وقيل فى القيامة (لا بشرى يومئذ للمجرمين) للكافرين وذلك أن الملائكة يبشرون المؤمنين يوم القيامة ويقولون للكفار لا بشرى لكم هكذا قال عطية وقال بعضهم معناه أنه لا بشرى يوم القيامة للمجرمين أى لا بشارة لهم بالجنة

لما يبشر المؤمنون (ويقولون حجرا محجورا) قال عطاء عن ابن عباس تقول الملائكة حراما محرما أن يدخل الجنة إلا من قال لا إله إلا الله وقال مقاتل إذا خرج الكفار من قبورهم قالت لهم الملائكة حراما محرما عليكم أن يكون لكم البشرى وقال بعضهم هذا قول الكفار للملائكة قال ابن جريج كانت العرب إذا نزلت بهم شدة رأوا مايكرهون قالوا حجرا محجورا فهم يقولونه إذا عاينوا الملائكة قال مجاهد يعنى عوذا معاذا يستعيذون به من الملائكة (وقدمنا) وعمدنا (إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) أى باطلا لاثواب له لأنهم لم يعملوه لله عز وجل واختلفوا فى الهباء . قال على هو مايرى فى الكوة إذا وقع ضوء الشمس فيها كالغبار ولا يمس بالأيدى ولا يرى فى الظل وهو قول الحسن وعكرمة ومجاهد والمنثور المفرق وقال ابن عباس وقتادة وسعيد (٩٨) بن جبير هو ماتسفيه الرياح وتذريه من التراب وحطام الشجر وقال مقاتل هو مايسطع من حوافر الدواب عند السير وقيل الهباء المنثور مايرى فى الكوة والهباء المنبث هو ماتطيره الرياح من سنابك الخيل قوله عز وجل (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا) أى من هؤلاء المشركين المتكبرين (وأحسن مقيلا) موضع قائلة يعنى أهل الجنة لايمر بهم يوم القيامة إلا قدر النهار من أوله إلى وقت القائلة حتى يسكنوا مساكنهم فى الجنة قال ابن مسعود لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار وقرأ ثم إن مقيلهم لا إلى الجحيم هكذا كان يقرأ وقال ابن عباس فى هذه الآية الحساب ذلك اليوم فى أوله وقال القوم حين قالوا فى منازلهم فى الجنة قال الأزهرى القيلولة والمقيل الاستراحة نصف النهار وإن لم يكن مع ذلك نوم لأن الله تعالى قال «وأحسن مقيلا» والجنة لانوم فيها ويروى أن يوم القيامة يقصر على المؤمنين حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس قوله عز وجل (ويوم تشقق السماء بالغمام) أى عن الغمام الباء وعن يتعاقبان كما يقال رميت عن القوس وبالقوس وتشقق بمعنى تتشقق أدغموا إحدى التاءين فى الأخرى وقرأ أبو عمرو وأهل الكوفة بتخفيف الشين ههنا وفى سورة ق بحذف إحدى التاءين وقرأ الآخرون بالتشديد أى تنشق بالغمام ، وهو غمام أبيض رقيق مثل الضبابة ولم يكن إلا لبنى إسرائيل فى تيههم (ونزل الملائكة تنزيلا) قرأ ابن كثير وننزل بنونين خفيف ورفع اللام الملائكة نصب قال ابن عباس تشقق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن فى الأرض من الجن والإنس ثم تشقق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر ممن فى السماء الدنيا ومن الجن والإنس ثم كذلك حتى تشقق السماء السابعة وأهل كل

لا بشرى لكم وقيل لابشارة لهم بالجنة كما بشر المؤمن (ويقولون حجرا محجورا) قال ابن عباس تقول الملائكة حراما محرما أن يدخل الجنة إلا من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله وقيل إذا خرج الكفار من قبورهم تقول لهم الملائكة حراما محرما عليكم أن تكون لكم البشرى وقيل هذا قول الكفار للملائكة وذلك أن العرب كانت إذا نزلت بهم شدة ورأوا مايكرهون قالوا حجرا محجورا فهم يقولون ذلك إذا عاينوا الملائكة . قوله عز وجل (وقدمنا إلى ماعملوا من عمل) يعنى من أعمال البر التى عملوها فى حال الكفر (فجعلناه هباء منثورا) أى باطلا لاثواب له لأنهم لم يعملوه لله عز وجل ومنه الحديث الصحيح كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد والهباء هو ما يرى فى الكوة كالغبار إذا وقعت الشمس فيها فلا يمس بالأيدى ولا يرى فى الظل والمنثور المفرق قال ابن عباس هو ماتسفيه الرياح وتذريه من التراب كحطام الشجر وقيل هو مايسطع من حوافر الدواب عند السير من الغبار . قوله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ) أى يوم القيامة (خير مستقرا) أى من هؤلاء المشركين المستكبرين (وأحسن مقيلا) أى موضع القائلة وذلك أن أهل الجنة لايمر بهم يوم القيامة إلا قدر من أول النهار إلى وقت القائلة حتى يسكنوا مساكنهم فى الجنة قال ابن مسعود لاينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار والقيلولة الاستراحة نصف النهار وإن لم يكن مع ذلك نوم لأن الله تعالى قال وأحسن مقيلا والجنة لانوم فيها قال ابن عباس الحساب فى ذلك اليوم فى أوله ويروى أن يوم القيامة يقصر على المؤمنين حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس . قوله تعالى (ويوم تشقق السماء بالغمام) أى عن الغمام وهو غمام أبيض مثل الضبابة ولم يكن إلا لبنى إسرائيل فى تيههم (ونزل الملائكة تنزيلا) قال ابن عباس تشقق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن فى الأرض من الإنس والجن ثم تشقق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر ممن فى السماء الدنيا ومن الجن والإنس ثم كذلك حتى تشقق السماء السابعة وأهل كل سماء يزيدون على أهل السماء التى تليها ثم تنزل الكروبيون

سماء يزيدون على أهل السماء التى قبلها ثم ينزل الكروبيون ثم حملة العرش (الملك يومئذ الحق للرحمن) أى الملك الذى هو الملك الحق حقا ملك الرحمن يوم القيامة . قال ابن عباس يريد أن يوم القيامة لاملك يقضى غيره (وكان يوما على الكافرين عسيرا) شديدا فهذا الخطاب يدل على أنه لايكون على المؤمن عسيرا وجاء فى الحديث أنه يهون يوم القيامة على المؤمنين حتى يكون عليهم أخف من صلاة مكتوبة صلوها فى الدنيا (ويوم يعض الظالم على يديه) أراد بالظالم عقبة بن أبى معيط وذلك أن عقبة كان لايقدم من سفر إلا صنع طعاما فدعا إليه أشراف قومه وكان يكثر مجالسة النبى صلى الله عليه وسلم فقدم ذات يوم من سفر فصنع طعاما فدعا الناس ودعا رسول الله (٩٩) صلى الله عليه وسلم فلما قرب الطعام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله فقال عقبة أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم من طعامه وكان عقبة صديقا لأبى بن خلف فلما أخبر أبى بن خلف قال له ياعقبة صبأت قال لا والله ماصبأت ولكن دخل على رجل فأبى أن يأكل طعامى إلا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتى ولم يطعم فشهدت له فطعم فقال ما أنا بالذى أرضى عنك أبدا إلا أن تأتيه فتبزق فى وجهه ففعل ذلك عقبة فقال عليه السلام لا ألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف فقتل عقبة يوم بدر صبرا وأما أبى بن خلف فقتله النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد بيده وقال الضحاك لما بزق عقبة فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد بزاقه فى وجهه فاحترق خداه وكان أثر ذلك فيه حتى الموت وقال الشعبى كان عقبة بن أبى معيط خليل أمية بن خلف فأسلم عقبة فقال أمية وجهى من وجهك حرام إن بايعت محمدا فكفر وارتد فأنزل الله عز وجل «ويوم يعض الظالم» يعنى عقبة بن أبى معيط بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف على يديه ندما وأسفا على مافرط فى جنب الله وأوبق نفسه بالمعصية والكفر بالله بطاعة خليله الذى صده عن سبيل ربه . قال عطاء يأكل يديه حتى تبلغ مرفقيه ثم تنبتان ثم يأكل هكذا كلما نبتت يده أكلها تحسرا على مافعل (يقول ياليتنى اتخذت) فى الدنيا (مع الرسول سبيلا) ليتنى اتبعت محمدا صلى الله عليه وسلم واتخذت معه سبيلا إلى الهدى قرأ أبو عمرو ياليتنى اتخذت

ثم حملة العرش (الملك يومئذ الحق للرحمن) أى الملك الذى هو الملك حقا ملك الرحمن يوم القيامة قال ابن عباس يريد أن يوم القيامة لاملك يقضى غيره (وكان يوما على الكافرين عسيرا) أى شديدا وفيه دليل على أنه لايكون على المؤمنين عسيرا وجاء فى الحديث «أنه يهون يوم القيامة على المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة صلاها فى الدنيا» .

قوله تعالى (ويوم يعض الظالم على يديه) أراد بالظالم عقبة بن أبى معيط وذلك أنه كان لايقدم من سفر إلا صنع طعاما ودعا إليه أشراف قومه وكان يكثر مجالسة النبى صلى الله عليه وسلم فقدم ذات يوم من سفر فصنع طعاما ودعا الناس إليه ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قرب الطعام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماأنا بآكل طعامك حتى تشهد أن لاإله إلا الله وأنى رسول الله فقال عقبه أشهد أن لاإله إلاالله وأن محمدا رسول الله فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم من طعامه وكان عقبة صديقا لأبى بن خلف فلما أخبر أبى بن خلف قال له ياعقبة صبأت قال لاوالله ماصبأت ولكن دخل على رجل فأبى أن يأكل طعامى إلا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتى ولم يطعم فشهدت له فطعم فقال ماأنا بالذى أرضى عنك أبدا إلا أن تأتيه فتبزق فى وجهه ففعل ذلك عقبة فقال عليه الصلاة والسلام لا أراك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف فقتل عقبة يوم بدر صبرا وأما أبى بن خلف فقتله النبى صلى الله عليه وسلم بيده يوم أحد وقيل لما بزق عقبة فى وجه النبى صلى الله عليه وسلم عاد بزاقه فى وجهه فاحترق خداه فكان أثر ذلك فى وجهه حتى قتل وقيل كان عقبة بن أبى معيط خليل أمية بن خلف فأسلم عقبة فقال له أمية وجهى من وجهك حرام إن تابعت محمدا فكفر وارتد فأنزل الله فيه ويوم يعض الظالم يعنى عقبة بن أبى معيط بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف على يديه أى ندما وأسفا على مافرط فى جنب الله وأوبق نفسه بالمعصية والكفر لطاعة خليله الذى صده عن سبيل ربه قال عطاء يأكل يديه حتى يبلغ مرفقيه ثم ينبتان ثم يأكلهما هكذا كلما نبتت يده أكلها على مافعل تحسرا وندامة (يقول ياليتنى اتخذت) أى فى الدنيا (مع الرسول سبيلا) أى ليتنى اتبعت محمدا صلى الله عليه وسلم واتخذت معه طريقا

بفتح الياء والآخرون باسكانها (ياويلتا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا) يعني أبي بن خلف (لقد أضلني عن الذكر) عن الإيمان والقرآن (بعد إذ جاءني) يعني الذكر مع الرسول (وكان الشيطان) وهو كل متمرد عات من الإنس والجن وكل من صد عن سبيل الله فهو شيطان (للانسان خذولا) أي تاركا يتركه ويتبرأ منه عند نزول البلاء والعذاب وحكم هذه الآية عام في حق كل متحابين اجتمعا على معصية الله أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد ابن إسماعيل ثنا محمد بن العلاء أنا أبو أسامة عن يزيد عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وأما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما تجد منه ريحا خبيثة» (١٠٠) أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبدالله بن محمود أنا إبراهيم بن عبدالله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن حياة بن شريح أخبرني سالم بن غيلان أن الوليد ابن قيس التجيبي أخبره أنه سمع أباسعيد الخدري قال سالم أو عن أبي الهيثم عن أبي سعيد أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول «لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي» أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أبو بكر محمد ابن أحمد بن اسكاب النيسابوري أنا أبو العباس الأصم ، ثنا حميد بن عياش الرملي أنا مؤمل بن إسماعيل ، ثنا زهير بن محمد الخراساني ثنا موسى ابن وردان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» (وقال الرسول) يعني ويقول الرسول في ذلك اليوم (يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا) يعني متروكا فأعرضوا عنه ولم يؤمنوا به ولم يعملوا بما فيه وقيل جعلوه بمنزلة الهجر وهو الهذيان والقول السيء فزعموا أنه شعر وسحر وهو قول النخعي ومجاهد وقيل قال الرسول يعني محمدا صلى الله عليه وسلم يشكو قومه إلى الله يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا فعزاه الله تعالى فقال (وكذلك جعلنا) يعني كما جعلنا لك أعداء من مشركي قومك كذلك جعلنا (لكل نبي عدوا من المجرمين) يعني المشركين قال مقاتل يقول لايكبرن عليك فان الأنبياء قبلك قد لقوا هذا من قومهم فاصبر لأمري كما صبروا فاني ناصرك وهاديك (وكفى بربك هاديا ونصيرا وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) كما أنزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود قال الله سبحانه وتعالى (كذلك) فعلنا (لنثبت به فؤادك) يعني أنزلناه متفرقا

إلى الهداية (ياويلتا) دعا على نفسه بالويل (ليتني لم أتخذ فلانا خليلا) قيل يعني أبي بن خلف (لقد أضلني عن الذكر) أي عن الإيمان والقرآن (بعد إذ جاءني) يعني الذكر مع الرسول صلى الله عليه وسلم (وكان الشيطان) وهو كل متمردعات صد عن سبيل الله من الجن والإنس (للإنسان خذولا) أي كثير الخذلان يتركه ويتبرأ منه عند نزول البلاء والعذاب به وحكم الآية عام في كل خليلين ومتحابين اجتمعا على معصية الله (ق) عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبا ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» أخرجه أبو داود والترمذي ولهما عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاتصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي» . قوله عز وجل (وقال الرسول) يعني ويقول الرسول في ذلك اليوم (يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا) أي متروكا وأعرضوا عنه ولم يؤمنوا به ولم يعملوا بما فيه وقيل جعلوه بمنزلة الهجر وهو السيء من القول فزعموا أنه سحر وشعر والمعنى أن محمدا صلى الله عليه وسلم يشكو قومه إلى الله عز وجل يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا فعزاه الله تعالى فقال (وكذلك جعلنا) أي وكما جعلت لك أعداء من مشركي مكة وهم قومك كذلك جعلنا (لكل نبي عدوا من المجرمين) أي المشركين والمعنى لايكبرن عليك ذلك فان الأنبياء قبلك قد لقوا هذا من قومهم فصبروا فاصبر أنت كما صبروا فاني ناصرك وهاديك وهو قوله تعالى (وكفى بربك هاديا ونصيرا) قوله تعالى (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) أي كما أنزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود صلوات الله عليهم أجمعين قال الله تعالى (كذلك) فعلنا ذلك (لنثبت به فؤادك) أي أنزلناه متفرقا لتقوى به قلبك فتعيه وتحفظه فان الكتب المتقدمة نزلت على أنبياء يكتبون ويقرءون وأنزلنا

ليقوى به قلبك فتعيه وتحفظه فان الكتب أنزلت على أنبياء يكتبون ويقرءون وأنزل الله القرآن على نبي أمي لايكتب ولا يقرأ ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ ومنه ماهو جواب إن سأل عن أمور ففرقناه ليكون أوعى لرسول الله ﷺ وأيسر على العامل به (ورتلناه ترتيلا) قال ابن عباس بيناه بيانا والترتيل التبيين في ترتل وتثبت وقال السدي فصلناه تفصيلا وقال مجاهد بعضه في إثر بعض وقال النخعي والحسن فرقناه تفريقا آية بعد آية (ولا يأتونك) يامحمد يعني هؤلاء المشركين (بمثل) يضربونه في إبطال أمرك (إلا جئناك بالحق) يعني بما ترد به ما جاءوا به من المثل وتبطله فسمى مايوردون من الشبه مثلا وسمى مايدفع به الشبه حقا (وأحسن تفسيرا) يعني بيانا وتفصيلا والتفسير تفعيل من الفسر وهو كشف ماقد غطي ثم ذكر مالهؤلاء المشركين فقال (الذين) أي هم الذين (يحشرون على وجوههم) فيساقون ويجرون (إلى جهنم أولئك شر مكانا) يعني مكانة ومنزلة ويقال منزلا ومصيرا (وأضل سبيلا) أخطأ طريقا (ولقد آتينا موسى (١٠١) الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا) معينا وظهيرا (فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا) يعني القبط (فدمرناهم) فيه إضمار أي فكذبوهما فدمرناهم (تدميرا) أهلكناهم إهلاكا (وقوم نوح لما كذبوا الرسل) أي الرسول ومن كذب رسولا واحدا فقد كذب جميع الرسل فلذلك ذكر بلفظ الجمع (أغرقناهم وجعلناهم للناس آية) يعني لمن بعدهم عبرة (وأعتدنا للظالمين) في الآخرة (عذابا أليما) سوى ماحل بهم من عاجل العذاب (وعادا وثمود) يعني وأهلكنا عادا وثمود (وأصحاب الرس) اختلفوا فيهم قال وهب بن منبه كانوا أهل بئر قعودا عليها وأصحاب مواشي يعبدون الأصنام فوجه الله إليهم شعيبا يدعوهم إلى الإسلام فتمادوا في طغيانهم وفي أذى شعيب عليه السلام فبينما هم حوالي البئر في منازلهم انهارت بهم البئر فخسف الله بهم وبديارهم ورباعهم فهلكوا جميعا والرس البئر وكل ركية لم تطو بالحجارة والآجر فهو رس وقال قتادة والكلبي الرس بئر بأرض اليمامة قتلوا نبيهم فأهلكهم الله عز وجل وقال بعضهم هم بقية ثمود وقوم صالح وهم أصحاب البئر التي ذكر الله تعالى في قوله «وبئر معطلة وقصر مشيد» وقال سعيد بن جبير كان لهم نبي يقال له حنظلة بن صفوان فقتلوه فأهلكهم الله تعالى وقال كعب ومقاتل والسدي الرس بئر بأنطاكية فقتلوا فيها حبيبا النجار وهم الذين ذكرهم الله في سورة يس وقيل هم أصحاب الأخدود والرس هو الأخدود الذي حفروه وقال عكرمة هم قوم رسوا نبيهم في بئر وقيل الرس المعدن وجمعه رساس (وقرونا بين ذلك كثيرا) يعني

القرآن على نبي أمي لايكتب ولايقرأ ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ ومنه ماهو جواب لمن سأل عن أمور تحدث في أوقات مختلفة ففرقناه ليكون أوعى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأيسر على العامل به (ورتلناه ترتيلا) قال ابن عباس وبيناه بيانا والترتيل التبيين في ترسل وتثبت وقيل فرقناه تفريقا آية بعد آية (ولا يأتونك) يعني يامحمد هؤلاء المشركون (بمثل) يعني يضربونه لك في إبطال أمرك (إلا جئناك بالحق) أي بما ترد به ما جاءوا به من ما يوردون المثل وتبطله فسمى مايوردون من الشبه مثلا وسمى مايدفع به الشبه حقا (وأحسن تفسيرا) يعني أحسن بيانا وتفصيلا ثم ذكر مالهؤلاء المشركين فقال تعالى (الذين) يعني هم الذين (يحشرون) أي يساقون ويجرون (على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا) يعني منزلا ومصيرا (وأضل سبيلا) أي أخطأ طريقا . قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا) أي معينا وظهيرا (فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا) يعني القبط (فدمرناهم) فيه إضمار أي فكذبوهما فدمرناهم (تدميرا) يعني أهلكناهم إهلاكا (وقوم نوح لما كذبوا الرسل) يعني رسولهم ومن كذب رسولا واحدا فقد كذب جميع الرسل فلذلك ذكره بلفظ الجمع (أغرقناهم وجعلناهم للناس آية) أي عبرة لمن بعدهم (وأعتدنا للظالمين) في الآخرة (عذابا أليما) يعني سوى ماحل بهم من عاجل العذاب في الدنيا (وعادا وثمود) أي أهلكنا عادا وثمود (وأصحاب الرس) قال وهب بن منبه كان أهل بئر الرس نزولا عليها وكانوا أصحاب مواش يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم شعيبا يدعوهم إلى الإسلام فتمادوا في طغيانهم وأذوا شعيبا فبيناهم حول البئر في منازلهم انهارت البئر وخسف بهم وبديارهم ورباعهم وقيل الرس بئر بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فأهلكهم الله وقال سعيد بن جبير كان لهم نبي يقال له حنظلة بن صفوان فقتلوه فأهلكهم الله وقيل الرس بانطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار هم الذين ذكرهم الله في سورة «يس» وقيل هم أصحاب الأخدود والرس الأخدود (وقرونا بين ذلك كثيرا) أي

واهلكنا قرونا كثيرا بين عاد وأصحاب الرس (وكلا ضربنا له الأمثال) يعنى الأشباه فى إقامة الحجة عليهم فلم نهلكهم إلا بعد الإنذار (وكلا تبرنا تتبيرا) يعنى أهلكنا إهلاكا وقال الأخفش كسرنا تكسيرا قال الزجاج كل شئ كسرته وفتتته فقد تبرته (ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء) يعنى الحجارة وهى قريات قوم لوط وكانت خمس قرى فأهلك الله أربعا منها وبقيت واحدة وهى أصغرها وكان أهلها لايعملون العمل الخبيث (أفلم يكونوا يرونها) إذامروابهم فى أسفارهم فيعتبروا ويتفكروا لأن مدائن قوم لوط كانت على طريقهم عند ممرهم إلى الشام (بل كانوا لايرجون) لايخافون (نشورا) بعثا قوله عز وجل (وإذا رأوك إن يتخذونك) يعنى ما يتخذونك (إلا هزوا) يعنى مهزوءا به نزلت فى أبى جهل كان إذا مر بأصحابه على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مستهزئا (أهذا الذى بعث الله رسولا إن كاد ليضلنا) يعنى قد قارب أن يضلنا (عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها) يعنى لو لم نصبر عليها لصرفنا عنها (وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا) من أخطأ طريقا (أرأيت من اتخذ إلهه هواه) وذلك أن الرجل من المشركين كان يعبد الحجر فاذا رأى حجرا أحسن منه طرح الأول وأخذ الآخرة نعبده وقال ابن عباس أرأيت من ترك عبادة الله وخالقه ثم هوى حجرا فعبده ما حاله عندى (أفأنت تكون عليه وكيلا) يعنى حافظا يقول أفأنت عليه كفيل تحفظه من اتباع هواه وعبادة من يهوى من دون الله (أم) أى لست كذلك قال الكلبى نسختها آية القتال (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون) ما تقول سماع طالب الإفهام (أو يعقلون) ما يعاينون من الحجج والإعلام (إن هم) ما هم (إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) لأن البهائم تهتدى لمراعيها ومشاربها وتنقاد لأربابها الذين يتعهدونها وهؤلاء الكفار لايعرفون طريق الحق ولايطيعون ربهم الذى خلقهم ورزقهم ولأن الأنعام تسجد وتسبح لله وهؤلاء الكفار لا يفعلون قوله عز وجل (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل) معناه ألم تر إلى مد ربك الظل وهو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس جعله ممدودا لأنه ظل لاشمس معه كما قال فى ظل الجنة «وظل ممدود» لم يكن معه شمس (ولو شاء لجعله ساكنا) أى دائما ثابتا لايزول ولاتذهبه الشمس قال أبو عبيدة الظل ما نسخته الشمس وهو بالغداة والفيء

(١٠٣)

وأهلكنا قرونا كثيرا بين عاد وثمود وأصحاب الرس (وكلا ضربنا له الأمثال) أى الأشباه فى إقامة الحجة عليهم فلم نهلكهم إلا بعد الإنذار (وكلا تبرنا تتبيرا) أى أهلكناهم إهلاكا قوله تعالى (ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء) يعنى الحجارة وهى قريات قوم لوط وهى خمس قرى أهلك الله منها أربعا ونجت واحدة وهى أصغرها وكان أهلها لايعملون العمل الخبيث (أفلم يكونوا يرونها) يعنى إذا مروا بها فى أسفارهم فيعتبروا ويتعظوا لأن مدائن قوم لوط كانت على طريقهم فى ممرهم إلى الشأم (بل كانوا لايرجون نشورا) يعنى لايخافون بعثا. قوله تعالى (وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا) نزلت فى أبى جهل كان إذا مر مع أصحابه قال مستهزئا (أهذا الذى بعث الله رسولا إن كاد ليضلنا) يعنى قد قارب أن يضلنا (عن) عبادة (آلهتنا لولا أن صبرنا عليها) يعنى على عبادتها والمعنى لو لم نصبر عليها لصرفنا عنها (وسوف يعلمون حين يرون العذاب) أى فى الآخرة عيانا (من أضل سبيلا) أى أخطأ طريقا (أرأيت من اتخذ إلهه هواه) وذلك أن الرجل من المشركين كان يعبد حجرا فاذا رأى حجرا أحسن منه رماه وأخذ الأحسن منه وعبده وقال ابن عباس أرأيت من ترك عبادة الله خالقه ثم هوى حجرا فعبده ما حاله عندى وقيل الهوى إله يعبد (أفأنت تكون عليه وكيلا) أى حافظا تحفظه من اتباع الهوى وعبادة مايهواه من دون الله والمعنى لست كذلك وقال الكلبى نسختها آية القتال (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون) أى ما تقول سماع طالب الإفهام (أو يعقلون) يعنى ما يعاينون من الحجج والأعلام وهذه المذمة أعظم من التى تقدمت لأنهم لشدة عنادهم لا يسمعون القول وإذا سمعوه لا يتفكرون فيه فكأنهم لاسمع لهم ولا عقل البتة فعند ذلك شبههم بالأنعام فقال تعالى (إن هم) أى ماهم (إلا كالأنعام) أى فى عدم انتفاعهم بالكلام وعدم إقدامهم على التدبر والتفكر ثم قال تعالى (بل هم أضل سبيلا) لأن البهائم تهتدى لمراعيها ومشاربها وتنقاد لأربابها الذين يتعاهدونها وهؤلاء الكفار لايعرفون طريق الحق ولا يطيعون ربهم الذى خلقهم ورزقهم لأن الأنعام تسجد وتسبح والكفار لايفعلون ذلك. قوله تعالى (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل) هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس جعله ممدودا لأنه ظل لاشمس معه (ولو شاء لجعله ساكنا) يعنى دائما ثابتا لايزول ولاتذهبه الشمس

مالسخ الشمس وهو بعد الزوال سمى فيئا لأنه فاء من جانب المشرق إلى جانب المغرب (ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) يعنى على الظل ومعنى دلالتها عليه أنه لو لم تكن الشمس لما عرفت الظل ولولا النور لما عرفت الظلمة والأشياء تعرف بأضدادها (ثم قبضناه) يعنى الظل (إلينا قبضا يسيرا) بالشمس التى تأتى عليه والقبض جمع المنبسط من الشىء، معناه أن الظل يعم جميع الأرض قبل طلوع الشمس فاذا طلعت الشمس قبض الله الظل (١٠٣) جزأ فجزءا قبضا يسيرا أى خفيا (وهو الذى جعل لكم الليل لباسا) أى سترا تستترون به يريد أن ظلمته تغشى كل شىء كاللباس الذى يشتمل على لابسه (والنوم سباتا) راحة لأبدانكم وقطعا لعملكم وأصل السبت القطع والنائم مسبوت لأنه انقطع عمله وحركته (وجعل النهار نشورا) أى يقظة وزمانا تنتشرون فيه لابتغاء الرزق وتنتشرون لأشغالكم (وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته) يعنى المطر (وأنزلنا من السماء ماء طهورا) والطهور هو الطاهر فى نفسه المطهر لغيره فهو اسم لما يتطهر به كالسحور اسم لما يتسحر به والفطور اسم لما يفطر به والدليل عليه ما روينا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى البحر «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» وأراد به المطهر فالماء مطهر لأنه يطهر الإنسان من الحدث والنجاسة كما قال فى آية أخرى وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به فثبت به أن التطهير يختص بالماء وذهب أصحاب الرأى إلى أن الطهور هو الطاهر حتى جوزوا إزالة النجاسة بالمائعات الطاهرة مثل الخل وماء الورد والمرق ونحوها ولو جاز إزالة النجاسة بها جاز إزالة الحدث بها وذهب بعضهم إلى أن الطهور ما يتكرر منه التطهير كالصبور اسم لمن يتكرر منه الصبر والشكور اسم لمن يتكرر منه الشكر وهو قول مالك حتى جوز الوضوء بالماء

(ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) معنى دلالتها عليه أنه لو لم تكن الشمس لما عرف الظل ولولا النور لما عرفت الظلمة والأشياء تعرف بضدها (ثم قبضناه) يعنى الظل (إلينا قبضا يسيرا) يعنى بالشمس التى تأتى عليه والمعنى أن الظل يعم جميع الأرض قبل طلوع الشمس فاذ طلعت الشمس قبض الله الظل جزأ فجزأ قبضا خفيفا (وهو الذى جعل لكم الليل لباسا) يعنى سترا تستترون به والمعنى أن الظلمة الليل تغشى كل شىء كاللباس الذى يشتمل على لابسه (والنوم سباتا) يعنى راحة لأبدانكم وقطعا لأعمالكم (وجعل النهار نشورا) يعنى يقظة وزمانا تنتشرون فيه لابتغاء رزقكم وطلب الاشتغال (وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته) يعنى المطر (وأنزلنا من السماء ماء طهورا) الطهور هو الطاهر فى نفسه المطهر لغيره فهو اسم لما يتطهر به بدليل ما روى عن النبى ﷺ قال فى البحر «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وأراد به المطهر والماء المطر لأنه يطهر الإنسان من الحدث والنجاسة فثبت أن التطهير مختص بالماء وذهب أصحاب الرأى إلى أن الطهور وهو الطاهر حتى جوزوا إزالة النجاسة بالمائعات الطاهرة مثل الخل والريق ونحوها ولو جاز إزالة النجاسة بها لجاز إزالة الحدث بها وذهب بعضهم إلى أن الطهور ما تكرر منه التطهير وهو قول مالك حتى جوز الوضوء بالماء إذا توضىء به مرة وإن وقع فى الماء شىء غير طعمه أو لونه أو ريحه هل تزول طهوريته نظر إن كان الواقع شيئا لا يمكن صون الماء عنه كالطين والتراب وأوراق الأشجار فتجوز الطهارة به كما لو تغير بطول المكث فى قراره وكذلك لو وقع فيه ما لا يختلط كالدهن يصب فيه فيتروح الماء برائحته تجوز الطهارة به لأن تغيره للمجاورة لا للمخالطة وإن كان شيئا يمكن صون الماء عنه ومخالطته كالخل والزعفران ونحوهما تزول طهوريته فلا يجوز الوضوء به وإن لم يتغير أحد أوصافه نظر إن كان الواقع شيئا طاهرا لا يزيل طهوريته يجوز الوضوء به سواء كان الماء قليلا أو كثيرا وإن كان الواقع شيئا نجسا نظر فيه فان كان الماء أقل من قلتين نجس الماء وإن كان قدر قلتين فأكثر فهو طاهر يجوز الوضوء به والقلتان خمسمائة رطل بالبغدادى يدل عليه ما روى عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم «أنه سئل عن الماء يكون فى الفلاة ترده السباع والذئاب فقال: إذا كان الماء قلتين لم يحمل الخبث» أخرجه أبو داود والترمذى وهذا قول الشافعى وأحمد وإسحاق وجماعة من أهل الحديث أن الماء إذا بلغ هذا الحد لا ينجس بوقوع النجاسة فيه ما لم يتغير أحد أوصافه وذهب جماعة إلى أن الماء القليل لا ينجس بوقوع النجاسة فيه ما لم يتغير طعمه أو لونه أو ريحه وهذا قول الحسن وعطاء والنخعى والزهرى واحتجوا بما روى عن أبى سعيد الخدرى قال «قيل يا رسول الله إنه يستقى لك من بئر بضاعة ويلقى فيها لحوم الكلاب وخرق الحيض وعذر النساء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الماء طهور لا ينجسه شىء» وفى رواية قال «قلت يا رسول الله أيتوضأ من بئر بضاعة وهى بئر تطرح فيها خرق الحيض ولحوم الكلاب والنتن فقال رسول الله ﷺ الماء طهور

الذى توضأ منه مرة وإن وقع فى الماء شئ غير طعمه أو لونه أو ريحه هل تزول طهوريته أم لا ننظر . إن كان الواقع شيئا لا يمكن صون الماء عنه كالطين والتراب وأوراق الأشجار لا تزول فيجوز الطهارة به كما لو تغير لطول المكث فى قراره وكذلك لو وقع فيه ما لا يخالطه كالدهن يصب فيه فيتروح الماء برائحته يجوز الطهارة به لأن تغيره للمجاورة لا للمخالطة وإن كان شيئا يمكن صون الماء منه ويخالطه كالخل والزعفران ونحوهما تزول طهوريته ولا يجوز الوضوء به وإن لم يتغير أحد أوصافه ينظر إن كان الواقع فيه شيئا طاهرا لا تزول طهوريته فتجوز الطهارة به سواء كان الماء قليلا أو كثيرا وإن كان الواقع فيه شيئا نجسا ينظر فان كان الماء قليلا أقل من القلتين ينجس الماء وإن كان قدر قلتين فأكثر فهو طاهر يجوز الوضوء به والقلتان خمس قرب ووزنه خمسمائة رطل والدليل عليه ما أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيرى أنا حاجب بن أحمد الطوسى ثنا عبد الرحيم بن المنيب أنا جرير عن محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن الماء يكون فى الفلاة من الأرض وما ينوبه من الدواب والسباع فقال إذا كان الماء قلتين لم يحمل الخبث وهذا قول الشافعى وأحمد وإسحاق وجماعة من أهل الحديث إن الماء إذا بلغ هذا (١٠٤) الحد فلا ينجس بوقوع النجاسة فيه ما لم يتغير أحد أوصافه الثلاثة وذهب جماعة إلى أن الماء القليل لا ينجس بوقوع النجاسة فيه ما لم يتغير طعمه أو لونه أو ريحه وهو قول الحسن وعطاء والنخعى والزهرى واحتجوا بما أخبرنا أبو القاسم بن عبد الله بن محمد الحنفى أنا أبو الحارث طاهر بن محمد الطاهرى ثنا أبو محمد الحسن بن محمد ابن حكيم ثنا أبو الموجه ابن محمد بن عمرو بن الموجه ثنا صدقة بن الفضل أنا أبو أسامة عن الوليد بن كثير عن محمد بن كعب القرظى عن عبد الله بن عبد الرحمن ثنا رافع بن خديج عن أبى سعيد الخدرى قال قيل يا رسول الله أنتوضأ من بئر بضاعة وهى بئر يلقى فيه الحيض ولحوم الكلاب والنتن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الماء طهور» لا ينجسه شئ قوله عز وجل (لنحيى به) أى بالمطر (بلدة ميتا) ولم يقل ميتة لأنه رجع به إلى الموضع والمكان (ونسقيه مما خلقنا أنعاما) نسقى من ذلك الماء أنعاما (و أناسى كثيرا) أي بشرا كثيرا والأناسى جمع إنسى وقيل جمع إنسان وأصله أناسين مثل بستان وبساتين فجعل الياء عوضا عن النون (ولقد صرفناه بينهم) يعنى المطر مرة ببلد ومرة ببلد آخر قال ابن عباس ما من عام بأمطر من عام ولكن الله يصرفه فى الأرض وقرأ هذه الآية وهذا كما روي مرفوعا «ما من ساعة من ليل ولا نهار إلا والسماء تمطر فيها يصرفه الله حيث يشاء» وذكر ابن إسحاق وابن جريج ومقاتل وبلغوا به ابن مسعود يرفعه قال ليس من سنة بأمطر من أخرى ولكن الله قسم هذه الأرزاق فجعلها فى السماء الدنيا فى هذا القطر ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم وإذا عمل قوم بالمعاصى حول الله ذلك إلى غيرهم فاذا عصوا جميعا صرف الله ذلك إلى الفيافى والبحار وقيل المراد من تصريف المطر تصريفه وإبلا وطلا ورذاذا ونحوها وقيل التصريف راجع إلى الريح (ليذكروا) أى ليتذكروا ويتفكروا فى قدرة الله تعالى (فأبى أكثر الناس إلا كفورا) جحودا وكفرانهم هو أنهم إذا مطروا قالوا مطرنا بنوء كذا وكذا أخبرنا

لا ينجسه شىء . وقوله تعالى (لنحيي به) أى بالمطر (بلدة ميتا) قيل أراد به موضع البلدة (ونسقيه مما خلقنا) أى نسقى من ذلك الماء (أنعاما وأناسى كثيرا) أى بشرا كثيرا والأناسى جمع إنسى وقيل جمع إنسان . قوله عز وجل (ولقد صرفناه بينهم) يعنى المطر مرة ببلدة ومرة ببلدة أخرى وقال ابن عباس ما عام بأمطر من عام ولكن الله يصرفه فى الأرض وقرأ هذه الآية وهذا كما روى مرفوعا «ما من ساعة من ليل ولا نهار إلا والسماء تمطر فيها يصرفه الله حيث يشاء» وروى عن ابن مسعود رفعه قال ليس من سنة بأمطر من سنة أخرى ولكن الله عز وجل قسم هذه الأرزاق فجعلها فى هذه السماء الدنيا فى هذا القطر ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم وإذا عمل قوم بالمعاصى حول الله ذلك إلى غيرهم وإذا عصوا جميعا صرف الله ذلك المطر إلى الفيافى والبحار وقيل المراد من تصريف المطر تصريفه وابلا وطشا ورذاذا ونحوها وقيل التصريف راجع إلى الريح (ليذكروا) أى ليتذكروا ويتفكروا فى قدرة الله تعالى (فأبى أكثر الناس إلا كفورا) أى جحودا فى كفرهم هو أنهم إذا مطروا قالوا أمطرنا بنوء كذا (ق) عن زيد بن خالد الجهنى أنه قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية فى أثر سماء من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم قالوا

ابو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك بن أنس عن صالح بن كيسان عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن زيد بن خالد الجهني أنه قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال «هل تدرون ماذا قال ربكم قالوا الله ورسوله أعلم قال : قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب» قوله عز وجل (ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا) رسولا ينذرهم ولكن بعثناك إلى القرى كلها وحملناك ثقل نذارة جميعها لتستوجب بصبرك عليه ما أعددنا لك من الكرامة والدرجة الرفيعة (فلا تطع الكافرين) فيما يدعونك إليه من موافقتهم ومداهنتهم (وجاهدهم به) أي بالقرآن (جهادا كبيرا) شديدا (وهو الذي مرج البحرين) أي خلطهما وأفاض أحدهما في الآخر وقيل أرسلهما في مجاريهما وخلاهما كما يرسل الخيل في المرج وأصل المرج الخلط والإرسال يقال مرجت الدابة وأمرجتها إذا أرسلتها في المرعى وخليتها تذهب حيث تشاء (هذا عذب فرات) شديد العذوبة والفرات أعذب المياه (وهذا ملح أجاج) شديد الملوحة وقيل أجاج أي مر (وجعل بينهما برزخا) أي حاجزا بقدرته لئلا يختلط العذب بالملح ولا الملح بالعذب (وحجرا محجورا) أي سترا ممنوعا فلا يبغيان فلا يفسد الملح العذب (وهو الذي خلق من الماء) من النطفة (بشرا فجعله نسبا وصهرا) أي جعله ذا نسب وذا صهر قيل النسب ما لا يحل لنكاحه والصهر ما يحل نكاحه فالنسب ما يوجب الحرمة والصهر ما لا يوجبها وقيل وهو الصحيح النسب من القرابة والصهر الخلطة التي تشبه القرابة وهو السبب المحرم للنكاح وقد ذكرنا أن الله تعالى حرم بالنسب سبعا وبالسبب سبعا في قوله «حرمت عليكم أمهاتكم» (وكان ربك قديرا ويعبدون من دون الله) يعني هؤلاء المشركين (ما لا ينفعهم) إن عبدوه (ولا يضرهم) إن تركوه (وكان الكافر على ربه ظهيرا) أي معينا للشيطان على ربه بالمعاصي وقال الزجاج أي يعاون الشيطان على معصية الله لأن عبادتهم الأصنام معاونة للشيطان وقيل معناه وكان الكافر على ربه ظهيرا أي هينا ذليلا كما يقال الرجل جعلني بظهير أي جعلني هينا ويقال ظهر به إذا جعله خلف ظهره فلم يلتفت إليه (وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا) أي منذرا (قل ما أسألكم عليه) أي على تبليغ الوحي (من أجر) فتقولوا إنما يطلب محمد أموالنا بما يدعونا إليه فلا

قالوا الله ورسوله أعلم قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب» قوله تعالى (ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا) أي رسولا ينذرهم ولكن بعثناك إلى القرى كلها وحملناك ثقل النذارة لتستوجب بصبرك ما أعددنا لك من الكرامة والدرجة الرفيعة (فلا تطع الكافرين) فيما يدعونك إليه من موافقتهم ومداهنتهم (وجاهدهم به) أي بالقرآن (جهادا كبيرا) أي شديدا. قوله تعالى (وهو الذي مرج البحرين) أي خلطهما وأفاض أحدهما على الآخر وقيل أرسلهما في مجاريهما (هذا عذب فرات) أي شديد العذوبة يميل إلى الحلاوة (وهذا ملح أجاج) أي شديد الملوحة وقيل مر (وجعل بينهما برزخا) أي حاجزا بقدرته فلا يختلط العذب بالملح ولا الملح بالعذب (وحجرا محجورا) أي سترا ممنوعا فلا يبغي أحدهما على الآخر ولا يفسد الملح العذب. قوله تعالى (وهو الذي خلق من الماء) أي من النطفة (بشرا فجعله نسبا وصهرا) أي جعله ذا نسب وصهر وقيل النسب ما لا يحل نكاحه والصهر ما يحل نكاحه والنسب ما يوجب الحرمة والصهر ما لا يوجبها وقيل النسب من القرابة والصهر الخلطة التي تشبه القرابة وهو النسب المحرم للنكاح وقد حرم الله بالنسب سبعا وبالسبب سبعا ويجمعها قوله «حرمت عليكم أمهاتكم» الآية وقد تقدم تفسير ذلك وبيانه في تفسير سورة النساء (وكان ربك قديرا) على ما أراد حيث خلق من النطفة الواحدة نوعين من البشر الذكر والأنثى (ويعبدون من دون الله) يعني هؤلاء المشركين (ما لا ينفعهم) أي إن عبدوه (ولا يضرهم) أي إن تركوه (وكان الكافر على ربه ظهيرا) أي معينا أعان الشيطان على ربه بالمعاصي لأن عبادتهم الأصنام معاونة للشيطان وقيل معنى ظهيرا هينا ذليلا من قولك ظهرت بفلان إذا جعلته وراء ظهرك ولم تلتفت إليه وقيل أراد بالكافر أبا جهل والأصح أنه عام في كل كافر. وقوله تعالى (وما أرسلناك إلا مبشرا) أي بالثواب على الإيمان والطاعة (ونذيرا) منذرا بالعقاب على الكفر والمعصية (قل) يا محمد (ما أسألكم عليه) أي على تبليغ الوحي (من أجر) فتقولون إنما يطلب محمد أموالنا بما يدعوننا إليه فلا نتبعه

تبعه (إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا) هذا من الاستثناء المنقطع مجازه لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا بالانفاق من ماله فى سبيله فعل ذلك والمعنى لا أسألكم لنفسى أجرا ولكن لا أمنع من انفاق المال فى طلب مرضاة الله واتخاذ السبيل إلى جنته (وتوكل على الحى الذى لايموت وسبح بحمده) أى صل له شكرا على نعمه وقيل قل سبحان الله والحمد لله (وكفى به بذنوب عباده خبيرا) عالما بصغيرها وكبيرها فيجازيهم بها (الذى خلق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسئل به خبيرا) أى بالرحمن قال الكلبى يقول فاسئل الخبير بذلك يعنى بما ذكرنا من خلق السموات والأرض (١٠٦) والاستواء على العرش وقيل الخطاب للرسول والمراد منه غيره لأنه كان مصدقا به والمعنى أيها الإنسان لا ترجع فى طلب العلم بهذا إلى غيرى وقيل الباء بمعنى عن أى فاسأل عنه خبيرا وهو الله عز وجل وقيل جبريل عليه السلام (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن) ما نعرف الرحمن إلا رحمان اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب كانوا يسمونه رحمان اليمامة (أنسجد لما تأمرنا) قرأ حمزة والكسائى يأمرنا بالياء أى لما يأمرنا محمد بالسجود له وقرأ الآخرون بالتاء أى لما تأمرنا أنت يا محمد (وزادهم) يعنى زادهم قول القائل لهم اسجدوا للرحمن (نفورا) عن الدين والإيمان قوله عز وجل (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا) قال الحسن ومجاهد وقتادة النجوم هى النجوم العالية الكبار سميت بروجا لظهورها وقال عطية العوفى بروجا أى قصورا فيها الحرس كما قال ولو كنتم فى بروج مشيدة وقال عطاء عن ابن عباس هى البروج الاثنا عشر التى هى منازل الكواكب السبعة السيارة وهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت ، فالحمل والعقرب بيتا المريخ والثور والميزان بيتا الزهرة والجوزاء والسنبلة بيتا عطارد والسرطان بيت القمر والأسد بيت الشمس والقوس والحوت بيتا المشترى والجدى والدلو بيتا زحل وهذه البروج مقسومة على الطبائع الأربع فيكون نصيب كل واحد منها ثلاثة بروج تسمى المثلثات فالحمل والأسد والقوس مثلثه نارية والثور والسنبلة والجدى مثلثه أرضية والجوزاء والميزان والدلو مثلثه هوائية والسرطان والعقرب

(إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا) معناه لكن من شاء أن يتخذ بانفاق ماله سبيلا إلى ربه فعلى هذا يكون المعنى لاأسألكم لنفسى أجرا ولكن أمنع من إنفاق المال إلا فى طلب مرضاة الله واتخاذ السبيل إلى جنته . قوله عز وجل (وتوكل على الحى الذى لايموت) معناه أنه سبحانه وتعالى لما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن لايطلب منهم أجرا البتة أمره أن يتوكل عليه فى جميع أموره وإنما قال على الحى الذى لايموت لأن من توكل على حى يموت انقطع توكله عليه بموته وأما الله سبحانه وتعالى فانه حى لايموت فلا ينقطع توكل من توكل عليه ولا يضيع البتة (وسبح بحمده) أى صل له شكرا على نعمه وقيل معناه قل سبحان الله والحمد لله (وكفى به بذنوب عباده خبيرا) يعنى أنه تعالى عالم بجميع ذنوب عباده فيجازيهم بها . وقيل معناه أنه لايحتاج معه إلى غيره لأنه خبير عالم قادر على مكافأتهم وفيه وعيد شديد كأنه قال إذا قدمتم على مخالفة أمره كفاكم علمه فى مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة . قوله عز وجل (الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسئل به خبيرا) أى فاسأل الخبير بذلك يعنى بما ذكر من خلق السموات والأرض والاستواء على العرش . وقيل معناه أيها الإنسان لاترجع فى طلب العلم بهذا إلى غيرى وقيل معناه فاسأل عنه خبيرا وهو الله تعالى وقيل هو جبريل عليه السلام (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن) أى مانعرف الرحمن إلارحمان اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب كانوا يسمونه رحمان اليمامة (أنسجد لما تأمرنا) أنت يامحمد (وزادهم) يعنى قول القائل اسجدوا للرحمن (نفورا) يعنى عن الإيمان والسجود .

(فصل)

وهذه السجدة من عزائم السجدات فيسن للقارىء والمستمع أن يسجدا عند سماعها وقراءتها . قوله تعالى (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا) قيل البروج هى النجوم الكبار سميت بروجا لظهورها وقيل البروج قصور فيها الحرس . وقال ابن عباس هى البروج الاثناعشر التى هى منازل الكواكب السبعة السيارة وهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت سميت بالبروج التى هى القصور

والحوت مثلثه مائية (وجعل فيها سراجا) يعنى الشمس كما قال وجعل الشمس سراجا وقرأ حمزة والكسائى سرجا بالجمع يعنى النجوم (وقمرا منيرا) والقمر قد دخل في السرج على قراءة من قرأ بالجمع غير أنه خصه بالذكر لنوع فضيلة كما قال فيهما فاكهة ونخل ورمان خص النخل والرمان بالذكر مع دخولهما فى الفاكهة (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة) اختلفوا فيها قال ابن عباس والحسن وقتادة يعنى خلفا وعوضا يقوم أحدهما مقام صاحبه فمن فاته عمله فى أحدهما قضاه فى الآخر . قال شقيق جاء رجل إلى عمر بن الخطاب قال فاتتنى الصلاة الليلة فقال أدرك ما فاتك من ليلتك فى نهارك فان الله عزوجل جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر وقال مجاهد يعنى جعل كل واحد منهما مخالفا لصاحبه فجعل هذا أسود وهذا أبيض وقال ابن زيد وغيره يعنى يخلف أحدهما صاحبه إذا ذهب أحدهما جاء الآخر فهما يتعاقبان فى الضياء والظلام والزيادة والنقصان (لمن أراد أن يذكر) قرأ حمزة بتخفيف الذال والكاف وضمها (١٠٧) من الذكر وقرأ الآخرون بتشديدهما أى يتذكر ويتعظ (أو أراد شكورا) قال مجاهد أى شكر نعمة ربه عليه فيهما قوله عز وجل (وعباد الرحمن) يعنى أفاضل العباد وقيل هذه الإضافة للتخصيص والتفضيل وإلا فالخلق كلهم عباد الله (الذين يمشون على الأرض هونا) يعنى بالسكينة والوقار متواضعين غير أشرين ولا مرحين ولا متكبرين وقال الحسن علماء وحكماء وقال محمد بن الحنفية أصحاب وقار وعفة لا يسفهون وإن سفه عليهم حلموا والهون فى اللغة الرفق واللين (وإذا خاطبهم الجاهلون) يعنى السفهاء بما يكرهون (قالوا سلاما) قال مجاهد سدادا من القول وقال مقاتل بن حيان قولا يسلمون فيه من الإثم وقال الحسن إن جهل عليهم جاهل حلموا ولم يجهلوا وليس المراد منه السلام المعروف وروى عن الحسن معناه سلموا عليهم دليله قوله عز وجل « وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم » قال الكلبي وأبو العالية هذا قبل أن يؤمروا بالقتال ثم نسختها آية القتال وروى عن الحسن البصرى أنه كان إذا قرأ هذه الآية قال هذا وصف نهارهم ثم قرأ « والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما » قال هذا وصف ليلهم قوله تعالى (والذين يبيتون لربهم) يقال لمن أدرك الليل بات نام أو لم ينم يقال بات فلان قلقا والمعنى يبيتون لربهم بالليل في الصلاة (سجدا) على وجوههم (وقياما) على أقدامهم . قال ابن عباس من صلى بعد العشاء الآخرة ركعتين أو أكثر فقد بات لله ساجدا وقائما أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الريانى ثنا حميد بن زنجويه ثنا أبو نعيم عن سفيان عن عثمان بن حكيم عن عبد الرحمن بن أبى عمرة عن عثمان بن عفان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف

العالية لأنها للكواكب كالمنازل لسكانها (وجعل فيها سراجا) يعنى الشمس (وقمرا منيرا وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة) قال ابن عباس معناه خلفا وعوضا يقوم أحدهما مقام صاحبه فمن فاته عمله فى أحدهما قضاه فى الآخر . قال شقيق جاء رجل إلى عمر بن الخطاب قال فاتتنى الصلاة الليلة قال أدرك ما فاتك من ليلتك فى نهارك فان الله تعالى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر . وقيل جعل كل واحد منهما مخالفا لصاحبه فجعل هذا أسود وهذا أبيض وقيل يخلف أحدهما صاحبه إذا ذهب هذا جاء هذا فهما يتعقبان فى الضياء والظلمة والزيادة والنقصان (لمن أراد أن يذكر) أى يتذكر ويتعظ (أو أراد شكورا) يعنى شكر نعمة ربه عليه فيهما . قوله عز وجل (وعباد الرحمن) قيل هذه الإضافة للتخصيص والتفضيل وإلا فالخلق كلهم عباد الله (الذين يمشون على الأرض هونا) يعنى بالسكينة والوقار متواضعين غير أشرين ولا مرحين ولا متكبرين بل علماء حكماء أصحاب وقار وعفة (وإذا خاطبهم الجاهلون) يعنى السفهاء بما يكرهونه (قالوا سلاما) يعنى سدادا من القول يسلمون فيه لا يسفهون وإن سفه عليهم حلموا ولم يجهلوا وليس المراد منه السلام المعروف. وقيل هذا قبل أن يؤمروا بالقتال ثم نسختها آية القتال وروى عن الحسن البصرى أنه كان إذا قرأ هذه الآية قال هذا وصف نهارهم ثم إذا قرأ (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) قال هذا وصف ليلهم والمعنى يبيتون لربهم فى الليل بالصلاة سجدا على وجوههم وقياما على أقدامهم . قال ابن عباس من صلى بعد العشاء الأخيرة ركعتين أو أكثر فقد بات لله ساجدا وقائما (م) عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « من صلى العشاء فى جماعة كان كقيام نصف الليل ومن صلى الفجر فى جماعة كان

الليل ومن صلى الصبح فى جماعة فكأنما صلى الليل كله» قوله عز وجل (والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما) يعنى ملحا دائما لازما غير مفارق من عذب به من الكفار ومنه سمى الغريم لطلبه حقه وإلحاحه على صاحبه وملازمته إياه قال محمد بن كعب القرظى سأل الله الكفار ثمن نعمه فلم يؤدوا فأغرمهم فيه فبقوا فى النار قال الحسن كل غريم يفارق غريمه إلا جهنم والغرام الشر اللازم وقيل غراما هلاكا (إنها) يعنى جهنم (ساءت مستقرا ومقاما) يعنى بئس موضع قرار وإقامة (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) قرأ ابن كثير وأهل البصرة يقتروا بفتح الياء وكسر التاء وقرأ أهل المدينة وابن عامر بضم الياء وكسر التاء وقرأ الآخرون بفتح الياء وضم التاء وكلها لغات صحيحة يقال أقتر وقتر بالتشديد وقتر يقتر واختلفوا فى معنى الإسراف والإقتار فقال بعضهم الإسراف النفقة فى معصية الله وإن قلت و لإقتار منع حق الله تعالى وهو قول ابن عباس ومجاهد (١٠٨) وقتادة وابن جريج ، وقال الحسن فى هذه الآية لم ينفقوا فى معاصى الله ولم يمسكوا عن فرائض الله وقال قوم الإسراف مجاوزة الحد فى الإنفاق حتى يدخل فى حد التبذير والإقتار التقصير عما لابد منه وهذا معنى قول إبراهيم لا يجيعهم ولا يعريهم ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف (وكان بين ذلك قواما)قصدا وسطا بين الإسراف والاقتار حسنة بين السيئتين وقال يزيد بن أبى حبيب فى هذه الآية أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ولا يلبسون ثوبا للجمال ولكن كانوا يريدون من الطعام مايسد عنهم الجوع ويقويهم على عبادة ربهم ومن الثياب مايستر عوراتهم ويكنهم من الحر والقر قال عمر بن الخطاب كفى سرفا أن لايشتهى الرجل شيئا إلا اشتراه فأكله قوله عز وجل (والذين لايدعون مع الله إلها آخر) الآية أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا إبراهيم بن موسى أنا هشام بن يوسف أنا ابن جريج أخبرهم قال: قال يعلى وهو يعلى بن مسلم أنا سعيد بن جبير أخبره عن ابن عباس أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا بأن لما عملنا كفارة فنزل والذين لايدعون مع الله إلها آخر (ولايقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون) ونزل « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله » أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبدالله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا قتيبة بن سعيد ثنا جرير عن الأعمش عن أبى وائل عن عمرو بن شرحبيل قال قال عبد الله بن مسعود رضى

كقيام ليلة » . قوله عز وجل (والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما) أى ملحا دائما لازما غير مفارق من عذب من الكفار . قال محمد بن كعب القرظى سأل الله الكفار ثمن نعمته فلم يؤدوه فأغرمهم فبقوا فى النار وقال كل غريم مفارق غريمه إلا جهنم وقيل الغرام الشر اللازم والهلاك الدائم (إنها) يعنى جهنم (ساءت) بئست (مستقرا ومقاما) أى موضع قرار وإقامة (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) قيل الاسراف النفقة فى معصية الله وإن قلت والاقتار منع حقوق الله تعالى وهو قول ابن عباس . وقيل الاسراف مجاوزة الحد فى الإنفاق حتى يدخل فى حد التبذير و لإقتار التقصير عما لابد منه وهو أن لا يجيع عياله ولا يعريهم ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف (وكان بين ذلك قواما) أى قصدا وسطا بين الإسراف والاقتار وحسنة بين السيئتين قيل هذه الآية فى صفة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا لايأكلون الطعام للتنعم واللذة ولايلبسون ثوبا للجمال ولكن كانوا يريدون من الطعام مايسد عنهم الجوع ويقويهم على عبادة ربهم ومن الثياب مايسترون به العورة ويقيهم من الحر والبرد. قال عمر بن الخطاب كفى سرفا أن لايشتهى شيئا إلا اشتراه فأكله (والذين لايدعون مع الله إلها آخر)(ق) عن ابن عباس « أن أناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا إن الذى تقول وتدعونا إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل والذين لايدعون مع الله إلها آخر» (ولايقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون) ونزل « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله » (ق) عن عبدالله بن مسعود قال قال رجل « يارسول الله أى الذنب أكبر عند الله قال أن تدعو لله ندا وهو خلقك قال ثم أى قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قال ثم أى قال أن تزانى حليلة جارك فأنزل الله تعالى تصديقه والذين لايدعون مع الله إلها آخر

الله عنه، قال قال رجل يارسول الله أى الذنب أكبر عند الله قال « أن تدعو لله ندا وهو خلقك قال ثم أى قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قال ثم أى قال أن تزانى حليلة جارك فأنزل الله تصديقها : «والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولايقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما » قوله عز وجل (ومن يفعل ذلك) أى شيئا من هذه الأفعال (يلق أثاما) يوم القيامة قال ابن عباس رضى الله عنهما إنما يريد جزاء الإثم. وقال أبو عبيدة الأثام العقوبة ، وقال مجاهد الأثام واد فى جهنم يروى ذلك عن عبد الله بن عمرو بن العاص ويروى فى الحديث «الغى والأثام بئران يسيل فيهما صديد أهل النار» (يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا) قرأ ابن عامر وأبو بكر يضاعف ويخلد برفع الفاء والدال على الابتداء وشدد ابن عامر يضعف وقرأ الآخرون بجزم الفاء والدال على جواب الشرط (إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا) قال قتادة إلا من تاب من ذنبه وآمن بربه وعمل عملا صالحا فيما بينه وبين ربه أخبرنا (١٠٩) أبو سعيد الشريحى أنا أبو إسحاق الثعلبى أخبرنى أبو الحسن ابن محمد بن عبد الله ثنا موسى بن محمد ثنا موسى ابن هرون الحمال ثنا إبراهيم بن محمد الشافعى ثنا عبد الله بن رجاء عن عبيد الله بن عمر عن على بن يزيد عن يوسف محمد بن مهران عن ابن عباس قال «قرأناها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم سنتين : والذين لا يدعون مع الله إلها آخر » الآية ثم نزلت إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فما رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فرح بشئ قط كفرحه بها وفرحه بأنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما) فذهب جماعة إلى أن هذا التبديل فى الدنيا . قال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والسدى والضحاك يبدلهم الله بقبائح أعمالهم فى الشرك محاسن الأعمال فى الإسلام فيبدلهم بالشرك إيمانهم وبقتل المؤمنين قتل المشركين وبالزنا عفة وإحصانا وقال قوم يبدل الله سيئاتهم التى عملوها فى الإسلام حسنات يوم القيامة وهو قول سعيد بن المسيب ومكحول يدل عليه ما أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الجورجانى أنا أبو القاسم على بن أبى أحمد الخزاعى أنا الهيثم بن كليب أنا أبو عيسى الترمذى ثنا أبو عمار الحسين بن خريث ثنا وكيع ثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبى ذر قال قال النبى ﷺ « إنى لأعلم آخر رجل يخرج من النار يؤتى به يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ويخبأ عنه كبارها فيقال عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وهو مقر لاينكر وهو مشفق من كبارها فيقال أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة فيقول رب أن لى ذنوبا ما أراها هاهنا قال أبو ذر لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه » وقال بعضهم إن الله عز وجل يمحو بالندم جميع السيئات ، ثم يثبت مكان كل سيئة

آخر ولايقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون » (ومن يفعل ذلك يلق أثاما) أى ومن يفعل شيئا من ذلك يلق أثاما قال ابن عباس إنما يريد جزاء الإثم وقيل عقوبة وقيل الأثام واد فى جهنم ويروى فى الحديث « أن الغى والأثام بئران فى جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار » (يضاعف له العذاب يوم القيامة) وسبب تضعيف العذاب أن المشرك إذا ارتكب المعاصى مع الشرك يضاعف له العذاب على شركه ومعصيته (ويخلد فيه مهانا) أى ذليلا . قوله تعالى (إلا من تاب) أى عن ذنبه (وآمن) يعنى بربه (وعمل عملا صالحا) أى فيما بينه وبين ربه روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قرأناها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم سنين والذين لايدعون مع الله إلها آخر الآية ثم نزلت إلا من تاب فما رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فرح بشىء قط مثل مافرح بها وفرحه بأنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » . وقوله تعالى (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما) قال ابن عباس يبدلهم الله بقبائح أعمالهم فى الشرك محاسن الأعمال فى الإسلام فيبدلهم بالشرك إيمانا وبقتل المؤمنين قتل المشركين وبالزنا عفة وإحصانا وقيل يبدل الله سيئاتهم التى عملوها فى الإسلام حسنات يوم القيامة (م) عن أبى ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنى لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة وآخر أهل النار خروجا منها رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال أعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها فتعرض عليه صغارها فيقال له عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فيقول نعم لايستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له إن لك مكان كل سيئة حسنة فيقول يارب قد عملت أشياء لا أراها ههنا قال فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه وقيل إن الله تعالى يمحو بالندم جميع السيئات ثم يثبت مكان كل سيئة حسنة

حسنة قوله عز وجل (ومن تاب وعمل صالحا) قال بعض أهل العلم هذا فى التوبة عن غير ماسبق ذكره فى الآية الأولى من القتل والزنا يعنى من تاب من الشرك وعمل صالحا أى أدى الفرائض ممن لم يقتل ولم يزن (فانه يتوب إلى الله) أى يعود إليه بعد الموت (متابا) حسنا يفضل به على غيره ممن قتل وزنا فالتوبة الأولى وهو قوله ومن تاب رجوع عن الشرك والثانى رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة وقال بعضهم هذه الآية أيضا فى التوبة عن جميع السيئات ومعناه ومن أراد التوبة وعزم عليها فليتب لوجه الله وقوله يتوب إلى الله خبر بمعنى الأمر أى ليتب إلى الله وقيل معناه فليعلم أن توبته ومصيره إلى الله (والذين لا يشهدون الزور) قال الضحاك وأكثر المفسرين يعنى الشرك وقال على بن طلحة يعنى شهادة الزور وكان عمر ابن الخطاب يجلد شاهد الزور أربعين جلدة ويسخم وجهه ويطوف به فى السوق وقال ابن جريج يعنى الكذب وقال مجاهد يعنى أعياد المشركين، وقيل النوح قال قتادة لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم وقال محمد بن الحنفية لا يشهدون اللغو والغناء قال ابن مسعود الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء الزرع. وأصل الزور تحسين الشئ ووصفه بخلاف صفته فهو تمويه الباطل بما يوهم أنه حق (وإذا مروا باللغو مروا كراما) قال مقاتل إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا وهى رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد نظيره قوله «وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه» قال السدى وهى منسوخة بآية القتال قال الحسن والكلبى اللغو المعاصى كلها يعنى إذا مروا بمجلس اللهو والباطل مروا كراما مسرعين معرضين يقال تكرم فلان عما يشينه إذا تنزه وأكرم نفسه عنه (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا) لم يقعوا ولم يسقطوا (عليها صما وعميانا) كأنهم صم عمى بل يسمعون ما يذكرون به فيفهمونه ويرون الحق فيه فيتبعونه. قال القتيبى لم يتغافلوا عنها كأنهم صم لم يسمعوها وعمى لم يروها (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا) قرأ بغير ألف أبو عمرو وحمزة والكسائى وأبو بكر وقرأ الباقون بالألف على الجمع (قرة أعين)

(ومن تاب وعمل صالحا) قيل هذا فى التوبة من غير ماسبق ذكره فى الآية الأولى من القتل والزنا ومعناه ومن تاب من الشرك وعمل صالحا يعنى أدى الفرائض ممن لم يقتل ولم يزن (فانه يتوب إلى الله) أى يعود إليه بعد الموت (متابا) أى حسنا يفضل على غيره ممن قتل وزنى فالآية الأولى وهى قوله ومن تاب رجوع عن الشرك والثانية رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة. وقيل هذه الآية أيضا فى التوبة عن جميع السيئات ومعناه ومن أراد التوبة وعزم عليها فليتب إلى الله فقوله يتوب إلى الله خبر بمعنى الأمر أى تب إلى الله وقيل معناه فليعلم أن توبته ومصيره إلى الله تعالى. قوله تعالى (والذين لا يشهدون الزور) يعنى الشرك وقيل هى شهادة الزور (ق) عن أبى بكر قال قال رسول الله ﷺ «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قلنا بلى يا رسول الله قال الإشراك بالله وعقوق الوالدين وكان متكئا فجلس فقال ألا وقول الزور وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت» وكان عمر بن الخطاب يجلد شاهد الزور أربعين جلدة ويسخم وجهه ويطوف به فى الأسواق وقيل لا يشهدون الزور يعنى أعياد المشركين وقيل الكذب وقيل النوح وقيل لا يساعد أهل الباطل على باطلهم وقيل الزور اللهو واللعب والغناء. قال ابن مسعود الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء الزرع. وأصل الزور حقيقة تحسين الشىء ووصفه بخلاف صفته فهو تمويه الباطل بما يوهم أنه حق (وإذا مروا باللغو) هو كل ما يجب أن يلغى ويترك (مروا كراما) يعنى إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا فعلى هذا التفسير تكون الآية منسوخة بآية القتال. وقيل اللغو المعاصى كلها، والمعنى إذا مروا بمجالس اللهو والباطل مروا كراما أى مسرعين معرضين وهو أن ينزه المرء نفسه ويكرمها عن هذه المجالس السيئة (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) قيل معناه أنه ليس فيه نفى الخرور إنما هو إثبات له ونفى الصمم والعمى والمعنى إذا ذكروا بها أكبوا على استماعها بآذان واعية وأقبلوا على المذكر بها بعيون مبصرة راعية. وقيل معناه لم يخروا أى لم يسقطوا ولم يقعوا عليها صما وعميانا كأنهم بآذانهم صمم وبأعينهم عمى بل يسمعون ما يذكرون به فيفهمونه ويرون الحق فيه فيتبعونه. قوله عز وجل (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين) يعنى أبرارا أتقياء صالحين فيقرون أعيننا بذلك قيل ليس شىء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله عز وجل فيطمع أن يحلوا معه فى الجنة فيتم سروره وتقر عينه بذلك وقيل إن العرب تذكر قرة العين عند السرور والفرح وسخنة العين عند الغم والحزن ويقال دمع العين عند السرور والفرح بارد وعند الحزن حار وقيل معنى قرة العين

يعنى أولادا أبرارا أتقياء يقولون اجعلهم صالحين فتقر أعيننا بذلك قال القرظى ليس شىء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله عز وجل وقاله الحسن ووحد القرة لأنها مصدر وأصلها من القر لأن العرب تتأذى من الحر وتستروح إلى البرد وتذكر قرة العين عند السرور وسخنة العين عند الحزن ويقال دمع العين عند السرور بارد وعند الحزن حار ، وقال الأزهرى معنى قرة الأعين أن يصادف قلبه من يرضاه فتقر عينه به عن النظر إلى غيره (واجعلنا للمتقين إماما) يعنى أئمة يقتدون فى الخير بنا ولم يقل أئمة كقوله تعالى «انا رسول رب العالمين» وقيل أراد أئمة كقوله «فانهم عدو لى» يعنى أعداء ويقال أميرنا هؤلاء أى أمراؤنا وقيل لأنه مصدر كالصيام والقيام يقال أم إماما كما يقال قام قياما وصام صياما قال الحسن نقتدى بالمتقين ويقتدى بنا المتقون . وقال ابن عباس اجعلنا أئمة هداة كما قال «وجعلناهم أئمة يهتدون بأمرنا» ولا تجعلنا أئمة ضلالة ، كما قال «وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار» وقيل هذا من المقلوب يعنى واجعل المتقين لنا إماما واجعلنا مؤتمين مقتدين بهم وهو قول مجاهد (أولئك يجزون) يعنى ينالون (الغرفة) يعنى الدرجة الرفيعة فى الجنة . والغرفة (١١١) كل بناء مرتفع عال وقال عطاء يريد غرف الدر والزبرجد فى الجنة (بما صبروا) على أمر الله تعالى وطاعته وقيل على أذى المشركين وقيل عن الشهوات (ويلقون فيها) قرأ حمزة والكسائى وأبو بكر بفتح الياء وتخفيف القاف كما قال «فسوف يلقون غيا» وقرأ الآخرون بضم الياء وتشديد القاف كما قال «ولقاهم نضرة وسرورا» وقوله (تحية) أى ملكا وقيل بقاء دائما (وسلاما) أى يسلم بعضهم على بعض وقال الكلبى يحيى بعضهم بعضا بالسلام ويرسل الرب إليهم بالسلام وقيل سلاما أى سلامة من الآفات (خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما) أى موضع قرار وإقامة (قل مايعبأ بكم ربى) قال مجاهد وابن زيد أى مايصنع وما يفعل بكم قال أبو عبيدة يقال ماعبأت به شيئا أى لم أعده فوجوده وعدمه سواء مجازه أى وزن وأى مقدار لكم عنده (لولا دعاؤكم) إياه وقيل لولا إيمانكم وقيل لولا عبادتكم وقيل لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام فاذا آمنتم ظهر لكم قدر . وقال قوم معناها قل مايعبأ بخلقكم ربى لولا عبادتكم وطاعتكم إياه يعنى أنه خلقكم لعبادته كما قال «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» . وهذا قول ابن عباس ومجاهد وقال قوم قل مايعبأ مايبالى بمغفرتكم ربى لولا دعاؤكم معه آلهة أو مايفعل بعذابكم لولا شرككم كما قال الله تعالى «مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم» وقيل مايعبأ بعذابكم لولا دعاؤكم إياه فى الشدائد كما قال «فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله» وقال «فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون» وقيل «قل مايعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم» يقول ماخلقتكم ولى إليكم حاجة إلا أن تسألونى فأعطيكم وتستغفرونى فأغفر لكم (فقد كذبتم) أيها الكافرون يخاطب أهل مكة يعنى أن الله دعاكم بالرسول إلى توحيده وعبادته

أن يصادف قلبه من يرضاه فتقر عينه به عن النظر إلى غيره (واجعلنا للمتقين إماما) يعنى يقتدون فى الخير بنا . وقيل معناه نقتدى بالمتقين وتقتدى بنا المتقون وقال ابن عباس اجعلنا أئمة هدى وقيل معناه أنهم سألوا الله أن يبلغهم فى الطاعات المبلغ الذى يشار إليهم فيه ويقتدى بهم قال بعضهم فيه دليل على أن الرياسة فى الدين مطلوبة مرغوب فيها وقيل هذا من المقلوب معناه واجعل المتقين لنا إماما واجعلنا مقتدين مؤتمين بهم (أولئك يجزون) أى يثابون (الغرفة) الدرجة العالية الرفيعة فى الجنة وقيل يريد غرف الدر والزبرجد واللؤلؤ والياقوت فى الجنة (بما صبروا) يعنى على طاعة الله تعالى وأوامره وعلى أذى المشركين وقيل بما صبروا عن الشهوات (ويلقون فيها تحية) أى ملكا وقيل بقاء دائما (وسلاما) أى يسلم بعضهم على بعض أو يرسل الرب عز وجل إليهم بالسلام وقيل سلاما أى سلامة من الآفات . قوله تعالى (خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما) أى موضع قرار وإقامة . قوله تعالى (قل مايعبأ بكم ربى) أى مايصنع وما يفعل بكم فوجودكم وعدمكم سواء وقيل معناه أى وزن ومقدار لكم عنده (لولا دعاؤكم) إياه قيل معناه لولا عبادتكم إياه وقيل لولا إيمانكم وقيل لولا دعاؤه إياكم إلى الإيمان فاذا آمنتم ظهر لكم عنده قدر . وقيل معناه مايعبأ بخلقكم ربى لولا عبادتكم وطاعتكم والمعنى أنه خلقكم لطاعته وعبادته وهذا قول ابن عباس وقيل معنى مايعبأ أى مايبالى بمغفرتكم ربى لولا دعاؤكم معه آلهة . وقيل معناه ماخلقتكم ولى إليكم حاجة إلا أن تسألونى فأعطيكم وتستغفرونى فأغفر لكم (فقد كذبتم) أيها الكافرون يخاطب أهل مكة يعنى أن الله دعاكم إلى توحيده وعبادته على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم فكذبتم الرسول ولم تجيبوه إلى الإيمان

فقد كذبتم الرسول ولم تجيبوه (فسوف يكون لزاما) هذا تهديد لهم أي يكون تكذيبكم لزاما قال ابن عباس موتا وقال أبو عبيدة هلاكا وقال ابن زيد قتالا والمعنى يكون التكذيب لازما لمن كذب فلا يعطى التوبة حتى يجازي بعمله وقال ابن جرير عذابا دائما وهلاكا مقيما يلحق بعضكم ببعض واختلفوا فيه فقال قوم هو يوم بدر قتل منهم سبعون وأسر سبعون وهو قول عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ومجاهد ومقاتل يعني أنهم قتلوا يوم بدر واتصل بهم عذاب الآخرة لازما لهم. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمر بن حفص بن غياث، أنا أبي، أنا الأعمش عن مسروق قال: قال عبدالله «خمس قد مضين الدخان والقمر والروم والبطشة واللزام» وقيل اللزام هو عذاب الآخرة.

(سورة الشعراء)

مكية إلا أربع آيات من آخر (١١٣) السورة من قوله «والشعراء يتبعهم الغاوون» وهي مائتان وسبع وعشرون آية، وروينا عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «أعطيت طه والطواسين من ألواح موسى عليه الصلاة والسلام»

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طسم) قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر طسم وطس وحم ويس بكسر الطاء والياء والحاء وقرأ أهل المدينة بين الفتح والكسر وقرأ الآخرون بالفتح على التفخيم وأظهر النون من السين عند الميم في طسم أبو جعفر وحمزة وأخفاها الآخرون وروى عن عكرمة عن ابن عباس قال طسم عجزت العلماء عن علم تفسيرها وروى علي بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس أنه قسم وهو من أسماء الله تعالى وقال قتادة اسم من أسماء القرآن وقال مجاهد اسم للسورة قال محمد بن كعب القرظي أقسم الله بطوله وسنائه وملكه (تلك) أي هذه (آيات الكتاب المبين لعلك باخع) قاتل (نفسك ألا يكونوا مؤمنين) أي إن لم يؤمنوا وذلك حين كذبه أهل مكة فشق عليه ذلك وكان يحرص على إيمانهم فأنزل الله هذه الآية (إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) قال قتادة لو شاء الله لأنزل عليهم آية يذلون بها فلا يلوى أحد منهم عنقه إلى معصية الله وقال ابن جريج معناه لو شاء الله لأراهم أمرا من أمره لا يعمل أحد منهم بعده معصية وقوله عز وجل خاضعين ولم يقل خاضعة وهي صفة الأعناق ففيه أقاويل أحدها أراد أصحاب الأعناق فحذف الأصحاب وأقام الأعناق مقامهم لأن الأعناق إذا خضعت فأربابها خاضعون جعل الفعل أولا للأعناق ثم جعل خاضعين للرجال وقال الأخفش رد الخضوع على المضمر

(فسوف يكون لزاما) هذا تهديد لهم أي يكون تكذيبهم لزاما قال ابن عباس موتا وقيل هلاكا وقيل قتالا والمعنى يكون التكذيب لازما لمن كذب فلا يعطى التوبة حتى يجازى بعمله. وقيل معناه عذابا دائما وهلاكا لازما لمن كذب مفنيا يلحق بعضكم بعضا وقيل هو يوم بدر قتل منهم سبعون وأسر سبعون وهو قول عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب يعني أنهم قتلوا يوم بدر واتصل بهم عذاب الآخرة لازما لهم (ق) عن عبد الله بن مسعود قال «خمس قد مضين الدخان واللزام والروم والبطشة والقمر وفي رواية الدخان والقمر والروم واللزام والبطشة» والله سبحانه وتعالى أعلم.

(تفسير سورة الشعراء)

وهي مكية إلا أربع آيات من آخر السورة من قوله تعالى «والشعراء يتبعهم الغاوون» وهي مائتان وسبع وعشرون آية وألف ومائتان وتسع وسبعون كلمة وخمسة آلاف وخمسمائة وأربعون حرفا روى عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال «أعطيت طه والطواسين من ألواح موسى عليه الصلاة والسلام».

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (طسم) قال ابن عباس طسم عجزت العلماء عن علم تفسيرها وفي رواية أخرى عنه أنه قسم وهو من أسماء الله تعالى وقيل اسم من أسماء القرآن وقيل اسم السورة وقيل أقسم بطوله وسنائه وملكه (تلك آيات) أي هذه الآيات آيات (الكتاب المبين) قيل لما كان القرآن فيه دلائل التوحيد والإعجاز الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ودلائل الأحكام أجمع ثبت بذلك أن آيات القرآن كافية مبينة لجميع الأحكام (لعلك باخع نفسك) أي قاتل نفسك (ألا يكونوا مؤمنين) أي إن لم يؤمنوا وذلك حين كذبه أهل مكة فشق عليه ذلك وكان يحرص على إيمانهم فأنزل الله عز وجل هذه الآية (إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) أي لو شاء الله لأنزل عليهم آية يذلون منها فلا يلوى أحد منهم عنقه إلى معصية الله سبحانه وتعالى. وقيل معناه لو شاء الله لأراهم أمرا من أمره لا يعمل أحد منهم بعده معصية.

الذى أضاف الأعناق إليه وقال قوم ذكر الصفة لمجاورتها المذكر وهو قوله هم على عادة العرب فى تذكير المؤنث إذا أضافوه إلى مذكر وتأنيث المذكر إذا أضافوه إلى مؤنث ، وقيل أراد فظلوا خاضعين فعبروا بالعنق عن جميع البدن كقوله «ذلك بما قدمت يداك» «وألزمناه طائره فى عنقه» وقال مجاهد أراد بالأعناق الرؤساء والكبراء أي فظلت كبراؤهم خاضعين وقيل أراد بالأعناق الجماعات يقال جاء القوم عنقا عنقا أى جماعات وطوائف وقيل إنما قال خاضعين على وفاق رءوس الآى ليكون على نسق واحد (وما يأتيهم من ذكر) وعظ وتذكير (من الرحمن محدث) أى محدث إنزاله فهو محدث فى التنزيل . قال الكلبي كلما نزل شئ من القرآن بعد شئ فهو أحدث من الأول (إلا كانوا عنه معرضين) أى عن الإيمان به (فقد كذبوا فسيأتيهم) أى فسوف يأتيهم (أنباء) أخبار وعواقب (١١٣) (ما كانوا به يستهزئون أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج) صنف وضرب (كريم) حسن من النبات مما يأكل الناس والأنعام يقال نخلة كريمة إذا طاب حملها وناقة كريمة إذا كثر لبنها . قال الشعبي الناس من نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم ومن دخل النار فهو لئيم (إن فى ذلك) الذي ذكرت (لآية) دلالة على وجودي وتوحيدي وكمال قدرتي (وما كان أكثرهم مؤمنين) مصدقين أي سبق علمي فيهم أن أكثرهم لايؤمنون. وقال سيبويه كان هاهنا صلة مجازه وما أكثرهم مؤمنين (وإن ربك لهو العزيز) العزيز بالنقمة من أعدائه (الرحيم) ذو الرحمة بأوليائه قوله عز وجل (وإذ نادى ربك موسى) واذكر يامحمد إذ نادى ربك موسى حين رأى الشجرة والنار (أن ائت القوم الظالمين) يعني الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية وظلموا بنى إسرائيل باستعبادهم وسومهم سوء العذاب (قوم فرعون ألا يتقون) ألا يصرفون عن أنفسهم عقوبة الله بطاعته (قال) يعني موسى (رب إني أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى) بتكذيبهم إياى (ولا ينطلق لسانى) قال هذا للعقدة التى كانت على لسانه قرأ يعقوب ويضيق ولا ينطلق بنصب القافين على معنى وأن يضيق وقرأ العامة برفعهما ردا على قوله إني أخاف (فأرسل إلى هارون) ليوازرنى ويظاهرنى على تبليغ الرسالة (ولهم على ذنب) أى دعوى ذنب وهو قتله القبطي (فأخاف أن يقتلون) أى يقتلوني به (قال) الله تعالى (كلا) أى لن يقتلوك (فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون) سامعون ما يقولون ذكر معكم بلفظ

فان قلت كيف صح مجيء خاضعين خبرا عن الأعناق . قلت أصل الكلام فظلوا لها خاضعين فأقحمت الأعناق لبيان الخضوع وترك الكلام على أصله أو لما وصفت بالخضوع الذى هو للعقلاء قيل خاضعين. وقيل أعناق الناس رؤساؤهم ومقدموهم أى فظلت كبراؤهم لها خاضعين وقيل أراد بالأعناق الجماعات يقال جاء عنق من الناس أى جماعة قوله تعالى (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن) أى وعظ وتذكير (محدث) أي محدث إنزاله فهو محدث التنزيل وكلما نزل شيء من القرآن بعد شيء فهو أحدث من الأول (إلا كانوا عنه معرضين) أى عن الإيمان به (فقد كذبوا فسيأتيهم) أى فسوف يأتيهم (أنباء) أى أخبار وعواقب (ما كانوا به يستهزئون أو لم يروا إلى الأرض) يعنى المشركين (كم أنبتنا فيها) أى بعد أن لم يكن فيها نبات (من كل زوج كريم) أى جنس ونوع وصنف حسن من النبات مما يأكل الناس والأنعام وقال الشعبى الناس من نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم ومن دخل النار فهو لئيم (إن فى ذلك) أى الذى ذكر (لآية) تدل على أنه واحد أى دلالة على كمال قدرتنا وتوحيدنا كما قيل :

وفى كل شيء له آية تدل على أنه واحد

(وما كان أكثرهم مؤمنين) أى سبق علمى فيهم أن أكثرهم لا يؤمنون ولا يصدقون (وإن ربك لهو العزيز) أى المنتقم من أعدائه (الرحيم) ذو الرحمة لأوليائه : قوله تعالى (وإذ نادي) أى واذكر يامحمد إذ نادى (ربك موسى) أى حين رأى الشجرة والنار (أن ائت القوم الظالمين) يعنى الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى وظلموا بنى إسرائيل باستعبادهم وسومهم سوء العذاب (قوم فرعون) يعنى القبط (ألا يتقون) أى يصرفون عن أنفسهم عقوبة الله بطاعته والإيمان به (قال) يعنى موسى (رب) أى يارب (إنى أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى) أي بتكذيبهم إياى (ولا ينطلق لسانى) أى للعقدة التى كانت على لسانه (فأرسل إلى هارون) ليوازرنى ويعيننى على تبليغ الرسالة (ولهم على ذنب) أى دعوى ذنب وهو قتله القبطى (فأخاف أن يقتلون) أى به (قال) الله تعالى (كلا) أى لن يقتلوك (فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون) أى سامعون ماتقولون وما يقال لكم . فان قلت كيف ذكرهم بلفظ الجمع فى قوله معكم وهما

الجمع وهما اثنان أجراهما مجرى الجماعة وقيل أراد معكما ومع بنى إسرائيل نسمع مايجيبكم فرعون (فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين) ولم يقل رسولا رب العالمين لأنه أراد الرسالة أى أنا ذو رسالة رب العالمين كما قال كثير :

لقد كذب الواشون مابحت عندهم   بسر ولا أرسلتهم برسول

أى بالرسالة وقال أبو عبيدة يجوز أن يكون الرسول بمعنى الاثنين والجمع تقول العرب هذا رسولى ووكيلى وهذان وهؤلاء رسولى ووكيلى كما قال الله تعالى «وهم لكم عدو» وقيل معناه كل واحد منا رسول رب العالمين (أن أرسل) أى بأن أرسل (معنا بنى إسرائيل) أى إلى فلسطين ولا تستعبدهم وكان فرعون استعبدهم أربعمائة سنة وكانوا فى ذلك الوقت ستمائة ألف وثلاثين ألفا فانطلق موسى إلى مصر وهارون بها فأخبره بذلك وفى القصة أن موسى رجع إلى مصر وعليه جبة صوف وفى يده عصا والمكتل معلق فى رأس العصا وفيه زاده فدخل دار نفسه وأخبر هارون بأن الله أرسلنى إلى فرعون وأرسلنى إليك حتى ندعو فرعون إلى الله فخرجت أمهما وصاحت وقالت إن فرعون يطلبك ليقتلك فلو ذهبتما إليه قتلكما فلم يمتنعا لقولها وذهبا إلى باب فرعون ليلا ودق الباب ففزع البوابون وقال من بالباب وروى أنه اطلع البواب عليهما فقال من أنتما فقال موسى أنا رسول رب العالمين فذهب البواب إلى فرعون وقال إن مجنونا بالباب يزعم أنه رسول رب العالمين   بعدها

فترك حتى أصبح ثم دعاهما وروى أنهما انطلقا جميعا إلى فرعون فلم يؤذن لهما سنة فى الدخول عليه فدخل البواب وقال لفرعون هاهنا إنسان يزعم أنه رسول رب العالمين فقال فرعون ائذن له لعلنا نضحك منه، فدخلا عليه وأديا رسالة الله عز وجل فعرف فرعون موسى لأنه نشأ فى بيته ف(قال ألم نربك فينا وليدا) صبيا (ولبثت فينا من عمرك سنين) وهو ثلاثون سنة (وفعلت فعلتك التى فعلت) يعنى قتل القبطى (وأنت من الكافرين) قال الحسن والسدى يعنى وأنت من الكافرين بالهك الذى تدعيه ومعناه على ديننا هذا الذى نعيبه وقال أكثر المفسرين معنى قوله وأنت من الكافرين يعنى من الجاحدين لنعمتى وحق تربيتى يقول ربيناك فينا فكافأتنا أن قتلت منا نفسا وكفرت نعمتنا وهذا رواية العوفى عن ابن عباس ، وقال إن

(١١٤)

اثنان . قلت أجراهما مجرى الجماعة وهو جائز فى لغة العرب (فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين) فان قلت هلا ثنى الرسول كما فى قوله فأتياه فقولا إنا رسولا ربك . قلت الرسول قد يكون بمعنى المرسل وبمعنى الرسالة فجعله ثم بمعنى المرسل فلم يكن بد من تثنيته وجعله هنا بمعنى الرسالة فجازت التسوية فيه إذا وصف به الواحد والتثنية والجمع والمعنى أنا ذو رسالة كما قال كثير .

لقد كذب الواشون مافهت عندهم   بشىء ولا أرسلتهم برسول

أى برسالة وقيل إنهما لاتفاقهما فى الرسالة والشريعة والإخوة فصارا كأنهما رسول واحد وقيل كل واحد منا رسول رب العالمين (أن أرسل معنا بنى إسرائيل) أى خلهم وأطلقهم معنا إلى أرض فلسطين ولا تستعبدهم وكان فرعون قد استعبدهم أربعمائة سنة وكانوا فى ذلك الوقت ستمائة ألف وثلاثين ألفا فانطلق موسى برسالة ربه إلى مصر وهارون بها فأخبره بذلك وفى القصة أن موسى رجع إلى مصر وعليه جبة صوف وفى يده عصاه والمكتل معلق فى رأس العصا وفيه زاده فدخل دار نفسه وأخبر هارون أن الله قد أرسلنى إلى فرعون وأرسل إليك ندعو فرعون إلى الله تعالى فخرجت أمهما فصاحت وقالت إن فرعون يطلبك ليقتلك فاذا ذهبت إليه قتلك فلم يمتنع لقولها وذهبا إلى باب فرعون وذلك بالليل فدقا الباب ففزع البوابون وقالوا من الباب فقال أنا موسى رسول رب العالمين فذهب البوابون إلى فرعون وقالوا إن مجنونا بالباب يزعم أنه رسول رب العالمين فترك حتى أصبح ثم دعاهما وقيل إنهما انطلقا جميعا إلى فرعون فلم يؤذن لهما سنة فى الدخول ثم دخل البواب فقال لفرعون هاهنا إنسان يزعم أنه رسول رب العالمين فقال فرعون ائذن له لعلنا نضحك منه فدخلا على فرعون وأديا رسالة الله تعالى فعرف فرعون موسى لأنه نشأ فى بيته ف(قال) له (ألم نربك فينا وليدا) يعنى صبيا (ولبثت فينا من عمرك سنين) أي ثلاثين سنة (وفعلت فعلتك التى فعلت) يعنى قتلت القبطى (وأنت من الكافرين) قال أكثر المفسرين من الجاحدين لنعمتى وحق تربيتى يقول ربيناك فينا فكافأتنا أن قتلت منا نفسا وكفرت نعمتنا وهى رواية عن ابن عباس قال إن فرعون لم يكن يعلم الكفر بالربوبية ولأن الكفر غير جائز على الأنبياء لاقبل النبوة ولا

فرعون لم يكن يعلم ما الكفر بالربوبية (قال) موسى (فعلتها إذا) أى فعلت مافعلت حينئذ (وأنا من الضالين) أى من الجاهلين لم يأتنى من الله شيء وقيل من الجاهلين بأن ذلك يؤدى إلى قتله وقيل من الضالين عن طريق الصواب من غير تعمد وقيل من المخطئين (ففررت منكم لما خفتكم) إلى مدين (فوهب لى ربى حكما) يعنى النبوة وقال مقاتل يعنى العلم والفهم (وجعلنى من المرسلين وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل) اختلفوا فى تأويلها فحملها بعضهم على الإقرار وبعضهم على الإنكار فمن قال هو إقرار قال عدها موسى نعمة منه عليه حيث رباه ولم يقتله كما قتل سائر غلمان بنى إسرائيل ولم يستعبده كما استعبد بنى إسرائيل مجازه بلى وتلك نعمة لك على أن عبدت بنى إسرائيل وتركتنى فلم تستعبدنى ومن قال هو إنكار قال قوله وتلك نعمة هو على طريق الاستفهام أى أو تلك نعمة حذف ألف الاستفهام كقوله فهم الخالدون

(١١٥)

قال الشاعر :

تروح من الحى أم تبتكر
وماذا يضرك لو تنتظر

أى تروح من الحى ، قال عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة

لم أنس يوم الرحيل وقفتها
وطرفها فى دموعها غرق
وقولها والركاب واقفة
تتركنى هكذا وتنطلق

أى أتتركنى يقول تمن على أن ربيتنى وتنسى جنايتك على بنى إسرائيل بالاستعباد والمعاملات القبيحة أو يريد كيف تمن على

بعدها وقيل معناه وأنت من الكافرين بفرعون وإلهيته (قال) يعنى موسى (فعلتها إذا وأنا من الضالين) أى من الجاهلين بأن ذلك يؤدى إلى قتله لأن فعل الوكزة على وجه التأديب لا على وجه القتل وقيل من الضالين عن طريق الصواب وقيل من المخطئين (ففررت منكم) أى إلى مدين (لما خفتكم فوهب لى ربى حكما) يعنى النبوة وقيل العلم والفهم (وجعلنى من المرسلين وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل) أى اتخذتهم عبيدا قيل عدها موسى نعمة منه عليه حيث رباه ولم يقتله كما قتل ولدان بنى إسرائيل ولم يستعبده كما استعبد بنى إسرائيل فيكون معنى الآية وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل وتركتنى فلم تستعبدنى وقيل هو على طريق الإنكار ومعنى الآية أو تلك نعمة على طريق الاستفهام فحذفت الألف كما قال عمر ابن عبدالله بن ربيعة :

لم أنس يوم الرحيل وقفتها ... وطرفها من دموعها غرق
وقولها والركاب واقفة ... تتركنى هكذا وتنطلق

أى أتتركنى ، والمعنى أتمن على أن ربيتنى وتنسى جنايتك على بنى إسرائيل بالاستعباد والمعاملات القبيحة أو يريد كيف تمن على بالتربية وقد استعبدت قومى ومن أهين قومه فقد ذل فتعبد بنى إسرائيل قد أحبط حسناتك إلى ولو لم تستعبدهم ولم تقتل أولادهم لم أرفع إليك حتى تربينى وتكلفنى ولكان لى من أهلى من يربينى ولم يلقونى فى اليم (قال فرعون وما رب العالمين) يقول أى شيء رب العالمين الذى تزعم أنك رسوله أى يستوصفه إلهه الذى أرسله إليه وهو سؤال عن جلس الشيء والله تعالى منزه عن الجنسية والماهية فلهذا عدل موسى عن جوابه وأجابه بذكر أفعاله وآثار قدرته التى تعجز الخلائق عن الإتيان بمثلها (قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) أنه خالقهما فاعرفوا أنه لا يمكن تعريفه إلا بما ذكرته لكم فإن أيقنتم بذلك لزمكم أن تقطعوا أنه لا جواب لكم عن هذا السؤال إلا ماذكرته من الجواب وقال أهل المعانى أى كما توقنون هذه الأشياء التى تعاينونها فأيقنوا أن إله الخلق هو الله تعالى الذى خلقها وأوجدها فلما قال ذلك موسى تحير فرعون فى جواب

بالتربية وقد استعبدت قومى ومن أهين قومه ذل فتعبيدك بنى إسرائيل قد أحبط إحسانك إلى . وقيل معناه تمن على بالتربية ؛ وقوله أن عبدت بنى إسرائيل أى باستعبادك بنى إسرائيل وقتلك أولادهم دفعت إليك حتى ربيتنى وكفلتنى ،ولو لم تستعبدهم وتقتلهم كان لى من أهلى من يربينى ولم يلقونى فى اليم فأى نعمة لك على قوله عبدت أى اتخذتهم عبيدا يقال عبدت فلانا وأعبدته وتعبدته واستعبدته أى اتخذته عبدا (قال فرعون وما رب العالمين) يقول أى شيء رب العالمين الذى تزعم أنك رسوله إلى ، يستوصفه إلهه الذى أرسله إليه مما هو سؤال عن جلس الشيء والله منزه عن الجنسية فأجابه موسى عليه السلام بذكر أفعاله التى يعجز الخلق عن الإتيان بمثلها (قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) أنه خالقهما . قال أهل المعانى أى كما توقنون هذه الأشياء التى تعاينونها فأيقنوا أن إله الخلق هو الله عز وجل فلما قال موسى ذلك تحير

فرعون فى جواب موسى (قال لمن حوله) من أشراف قومه قال ابن عباس كانوا خمسمائة رجل عليهم الأسورة قال لهم فرعون استبعادا لقول موسى (ألا تستمعون) وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن آلهتهم ملوكهم فزادهم موسى فى البيان ف‍(قال ربكم ورب آبائكم الأولين قال) (١١٦) يعنى فرعون (إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) يتكلم بكلام لانعقله ولا نعرف صحته وكان عندهم أن من لايعتقد مايعتقدون ليس بعاقل فزادموسى فى البيان ف‍(قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) ف‍(قال) فرعون حين لزمته الحجة وانقطع عن الجواب تكبرا عن الحق (لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين) من المحبوسين قال الكلبى كان سجنه أشد من القتل لأنه كان يأخذ الرجل فيطرحه فى مكان وحده فردا لا يسمع ولا يبصر فيه شيئا من عمقه يهوى فى الأرض ف‍(قال) له موسى حين توعده بالسجن (أولو جئتك) أى وإن جئتك (بشىء مبين) بآية مبينة ومعنى الآية أتفعل ذلك وإن أتيتك بحجة بينة وإنما قال ذلك موسى لأن من أخلاق الناس السكون إلى الإنصاف والإجابة إلى الحق بعد البيان ف‍(قال) له فرعون (فأت به) فانا لن نسجنك حينئذ (إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين فقال وهل غيرها (ونزع) موسى (يده فاذا هى بيضاء للناظرين) ف‍(قال) فرعون (للملأ حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم فجمع السحرة لميقات يوم معلوم) وهو يوم الزينة وروى عن ابن عباس قال وافق ذلك اليوم يوم السبت فى أول يوم من السنة وهو يوم النيروز (وقيل للناس هل أنتم مجتمعون) لتنظروا إلى مايفعل الفريقان ولمن تكون الغلبة

موسى (قال لمن حوله) أى من أشراف قومه قال ابن عباس كانوا خمسمائة رجل عليهم الأسورة (ألا تستمعون) وإنما قال فرعون ذلك على سبيل التعجب من جواب موسى يعنى أنى إنما أطلب منه الماهية وخصوصية الحقيقة وهو يجيبنى بأفعاله وآثاره وقيل إنهم كانوا يعتقدون إن آلهتهم ملوكهم ثم زادهم موسى فى البيان (قال ربكم ورب آبائكم الأولين) يعنى أن موسى ذكر ماهو أقرب إليهم فقال ربكم يعنى أنه خالقكم وخالق آبائكم الأولين (قال) يعنى فرعون (إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) يعنى المقصود من السؤال طلب الماهية وهو يجيب بالآثار الخارجة وهذا لايفيد البتة فهذا الذى يدعى الرسالة مجنون لايفهم السؤال فضلا عن أن يجيب عنه ويتكلم بكلام لانقبله ولانعرف صحته وكان عندهم أن من لايعتقد مايعتقدون ليس بعاقل فزاد فى البيان (قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) فعدل إلى طريق ثالث أوضح من الثانى ومعنى إن كنتم تعقلون قد عرفتم أنه لاجواب عن سؤالك إلا ماذكرت (قال) فرعون حين لزمته الحجة وانقطع عنه الجواب تكبرا عن الحق (لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين) قيل كان سجن فرعون أشد من القتل لأنه كان يأخذ الرجل فيطرحه فى مكان يهوى فيه إلى الأرض وحده فردا لايسمع ولايبصر فيه (قال) له موسى حين توعده بالسجن (أولو جئتك بشىء مبين) أى بآية بينة والمعنى أتفعل ذلك ولو جئتك بحجة بينة وإنما قال ذلك موسى لأن من أخلاق الناس السكون إلى الإنصاف والإجابة إلى الحق بالبيان (قال) يعنى فرعون (فأت به) أى إنا لن نسجنك حينئذ (إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين) قيل إنها لماصارت حية ارتفعت فى السماء قدرميل ثم انحطت مقبلة إلى فرعون فقال بالذى أرسلك ألا أخذتها فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت فقال وهل غيرها قال نعم وأراه يده ثم أدخلها فى جيبه ثم أخرجها فاذا هى بيضاء من غير برص لها شعاع كشعاع الشمس وهو قوله (ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين) فعند ذلك (قال) فرعون (للملأ حوله إن هذا) يعنى موسى (لساحر عليم) وكان زمان السحر فلهذا روج فرعون هذا القول على قومه ثم قال (يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره) قال هذا القول على سبيل التنفير لئلا يقبلوا قول موسى (فماذا تأمرون) يعنى مارأيكم فيه وما الذى أعمله فعند ذلك (قالوا أرجه وأخاه) أى أخره وأخاه (وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم) قيل إن فرعون أراد قتل موسى فقالوا لاتفعل فانك إن قتلته دخلت الناس شبهة فى أمره ولكن أخره وأجمع له سحرة ليقاوموه ولا تثبت له عليك حجة . قوله تعالى (فجمع السحرة لميقات يوم معلوم) يعنى يوم الزينة قال ابن عباس وافق ذلك يوم السبت فى أول يوم من السنة وهو يوم النيروز (وقيل للناس هل أنتم مجتمعون) أي لتنظروا ما يفعل الفريقان ولمن تكون

(لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين) لموسى وقيل إنما قالوا ذلك على طريق الاستهزاء وأرادوا بالسحرة موسى وهارون وقومهما (فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ؟ قال نعم وإنكم لمن المقربين قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون فألقى موسى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون فألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون قال آمنتم له (١١٧) قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين قالوا لاضير) لاضرر (إنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا) لأن كنا (أول المؤمنين)من أهل زماننا (وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون) يتبعكم فرعون وقومه ليحولوا بينكم وبين الخروج من مصر وروى عن ابن جريج قال أوحى الله تعالى إلى موسى أن أجمع بنى إسرائيل كل أهل أربعة أبيات فى بيت ثم اذبحوا أولاد الضأن فاضربوا بدمائها على أبوابكم فانى سآمر الملائكة فلا يدخلوا بيتا على بابه دم وسآمرها فتقتل أبكار آل فرعون من أنفسهم وأموالهم ثم اخبزوا خبزا فطيرا فانه أسرع لكم ثم أسر بعبادى حتى تنتهى إلى البحر فيأتيك أمرى ففعل ذلك فلما أصبحوا قال فرعون هذا عمل موسى وقومه قتلوا أبكارنا من أنفسنا وأخذوا أموالنا فأرسل فى أثره ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسور مع كل ملك ألف وخرج فرعون فى الكرسى العظيم (فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين) يحشرون الناس يعنى الشرط ليجمعوا السحرة وقيل حتى يجمعوا له الجيش وذكر بعضهم أنه كان له ألف مدينة واثنا عشر ألف قرية وقال لهم (إن هؤلاء لشرذمة) عصابة (قليلون) والشرذمة القطعة من الناس غير الكثير وجمعها شراذم قال أهل التفسير كانت الشرذمة الذين قللهم فرعون ستمائة ألف وعن ابن مسعود

الغلبة (لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين) لموسى قيل أراد بالسحرة موسى وهارون وقالوا ذلك على طريقة الاستهزاء (فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين) طلبوا من فرعون الجزاء وهو بذل المال والجاه فبذل لهم ذلك كله وأكده بقوله (قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون) أي بعظمة فرعون (إنا لنحن الغالبون فألقى موسى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون) أى مايقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم قيل إن عصى موسى صارت حية وابتلعت كل مارموه من حبالهم وعصيهم ثم أخذها موسى فاذا هى كما كانت أول مرة (فألقى السحرة ساجدين) قيل إنهم لما رأوا ماجاوز حد السحر علموا أنه ليس بسحر ثم لم يتمالكوا أن خروا ساجدين ثم إنهم (قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون) وإنما قالوا رب موسى وهارون لأن فرعون كان يدعى الربوبية فأرادوا عزله (قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون) فيه وعيد مطلق وتهديد شديد ثم بين ذلك الوعيد فقال (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين قالوا لاضير إنا إلى ربنا منقلبون) أي لاضرر علينا فيما ينالنا فى الدنيا لأنا ننقلب ونصير إلى ربنا فى الآخرة مؤمنين مؤملين غفرانه وهو قولهم (إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا) أى الكفر والسحر (أن) أى لأن(كنا أول المؤمنين) أى من أهل زماننا وقيل أول المؤمنين أي من الجماعة الذين حضروا ذلك الجمع . قوله تعالى (وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون) أى يتبعكم فرعون وقومه ليحولوا بينكم وبين الخروج قيل أوحى الله إلى موسى أن اجمع بنى إسرائيل كل أهل أربعة أبيات فى بيت ثم اذبحوا أولاد الضأن فاضربوا بدمائها على أبوابكم فانى سآمر الملائكة فتقتل أبكار آل فرعون من أنفسهم وآمرهم أن لايدخلوا بيتا على بابه دم ثم اخبزوا خبزا فطيرا فانه أسرع لكم ثم اسر بعبادي حتى تنتهى إلى البحر فيأتيك أمرى ففعل ذلك موسى ثم إن قوم موسى قالوا لقوم فرعون أن لنا فى هذه الليلة عيدا فاستعاروا منهم حليهم ثم خرجوا بتلك الأموال فى الليل إلى جهة البحر فلما سمع فرعون ذلك قال هذا عمل موسى وقومه قتلوا أبكارنا من أنفسنا وأخذوا أموالنا (فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين) يعنى الشرط يحشرون الجيش قيل كانت المدائن ألف مدينة واثنى عشر ألف قرية فأرسل فرعون فى أثر موسى وقومه ألف ألف وخمسمائة ألف وخرج فرعون فى الكرسى العظيم فى مائتى ألف ملك مسورين مع كل ملك ألف فلذلك قال (إن هؤلاء لشرذمة قليلون) قال أهل التفسير كانت الشرذمة الذين قللهم فرعون ستمائة ألف مقاتل لم يعدودون العشرين وفوق الستين سنة وقال ابن مسعود كانت ستمائة ألف وسبعين ألفا ولا يحصى عدد أصحاب فرعون

قال كانوا ستمائة وسبعين ألفا ولا يحصى عدد أصحاب فرعون (وإنهم لنا لغائظون) يقال غاظه وأغاظه وغيظه إذا أغضبه والغيظ والغضب واحد يقول أغضبونا بمخالفتهم ديننا وقتلهم أبكارنا وذهابهم بأموالنا التي استعاروها وخروجهم من أرضنا بغير إذن منا (وإنا لجميع حاذرون) قرأ أهل الحجاز والبصرة حذرون وفرهين بغير ألف وقرأ الآخرون حاذرون وفارهين بالألف فيهما وهما لغتان وقال أهل التفسير حاذرون أي مؤدون ومقوون أي ذوو أداة وقوة مستعدون شاكون في السلاح ومعنى حذرون أي خائفون شرهم وقال الزجاج الحاذر المستعد والحذر المستيقظ وقال الفراء الحاذر الذي يحذرك الآن والحذر المخوف وكذلك (١١٨) لا تلقاه إلا حذرا والحذر اجتناب الشيء خوفا منه (فأخرجناهم من جنات) وفي القصة أن البساتين كانت ممتدة على حافتي النيل (وعيون) أنهار جارية (وكنوز) يعني الأموال الظاهرة من الذهب والفضة . قال مجاهد سماها كنوزا لأنه لم يعط حق الله منها وما لم يعط حق الله منه فهو كنز وإن كان ظاهرا قيل كان لفرعون ثمانمائة ألف غلام كل غلام على فرس عتيق في عنق كل فرس طوق من ذهب (ومقام كريم) أي مجلس حسن قال المفسرون أراد مجالس الأمراء والرؤساء التي كانت تحفها الأتباع وقال مجاهد وسعيد بن جبير هي المنابر وذكر بعضهم أنه كان إذا قعد على سريره وضع بين يديه ثلاثمائة كرسي من ذهب يجلس عليها الأشراف عليهم الأقبية من الديباج مخوصة بالذهب (كذلك) كما وصفنا (وأورثناها) بهلاكهم (بني إسرائيل) وذلك أن الله تعالى رد بني إسرائيل إلى مصر بعد ما أغرق فرعون وقومه موسى فأعطاهم جميع ما كان لفرعون وقومه من الأموال والمساكن (فأتبعوهم مشرقين) يعني لحقوهم في وقت إشراق الشمس وهو إضاءتها أي أدرك قوم فرعون موسى وأصحابه وقت شروق الشمس (فلما تراءى الجمعان) يعني تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه وكسر حمزة الراء من تراءى وفتحها الآخرون (قال أصحاب موسى إنا لمدركون) يعني سيدركنا قوم فرعون ولا طاقة لنا بهم (قال) موسى ثقة بوعد الله إياه (كلا) لن يدركونا (إن معي ربي سيهدين) يدلني على طريق النجاة (فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق) يعني فضربه فانفلق فانشق (فكان كل فرق) قطعة من الماء (كالطود العظيم) كالجبل

(وإنهم لنا لغائظون) الغيظ الغضب يعني أنهم أغضبونا بمخالفتهم فينا وقتلهم أبكارنا وذهابهم بأموالنا التي استعاروها وخروجهم من أرضنا بغير إذن منا (وإنا لجميع حاذرون) أي خائفون من شرهم وقرىء حذرون أي ذوو قوة وأداة شاكون السلاح وقيل الحاذر الذي يحذرك الآن بالتحقيق من المتلبس بحمل السلاح والحذر الذي لا تلقاه إلا خائفا (فأخرجناهم من جنات وعيون) قيل كانت البساتين ممتدة في حافتي النيل فيها عيون وأنهار جارية (وكنوز) يعني الأموال الظاهرة من الذهب والفضة وسماها كنوزا لأنه لم يؤد حق الله منها وكل مال لم يعط ولم يؤد حق الله منه فهو كنز وإن كان ظاهرا قيل كان لفرعون ثمانمائة ألف غلام كل غلام على فرس عتيق في عنق كل فرس طوق من ذهب قال الله تعالى (ومقام كريم) أي مجلس حسن قيل أراد مجالس الأمراء والرؤساء التي كانت لهم وقيل إنه كان إذا قعد على سريره وضع بين يديه ثلثمائة كرسي من ذهب يجلس عليها الأشراف من قومه والأمراء وعليهم أقبية الديباج مخوصة بالذهب والمعنى أنا أخرجناهم من بساتينهم التي فيها العيون وأموالهم ومجالسهم الحسنة (كذلك) أي كما وصفنا (وأورثناها بني إسرائيل) وذلك أن الله عز وجل رد بني إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه فأعطاهم جميع ما كان لفرعون وقومه من الأموال والأماكن الحسنة (فأتبعوهم مشرقين) أي لحق فرعون وقومه موسى وأصحابه وقت شروق الشمس وهو إضاءتها (فلما تراءى الجمعان) يعني تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه (قال أصحاب موسى إنا لمدركون) أي سيدركنا فرعون وقومه ولا طاقة لنا بهم (قال) أي موسى لثقته بوعد الله تعالى إياه (كلا) أي لن يدركونا (إن معي ربي سيهدين) يعني يدلني على طريق النجاة (فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق) أي فضربه فانشق (فكان كل فرق) أي قطعة من الماء (كالطود) أي الجبل (العظيم) قيل لما انتهى موسى ومن معه إلى البحر هاجت الرياح فصار البحر يرمي بموج كالجبال قال يوشع يا كليم الله أين أمرت فقد غشينا فرعون من خلفنا والبحر أمامنا قال موسى هاهنا فخاض يوشع الماء لا يواري حافر دابته وقال الذي يكتم إيمانه يا كليم الله أين أمرت قال هاهنا فكبح فرسه فصكه بلجامه حتى طار الزبد من شدقه ثم أقحمه البحر فارتسب في الماء وذهب القوم يصنعون مثل ذلك فلم يقدروا فجعل

الضخم قال ابن جريج وغيره لما انتهى موسى إلى البحر هاجت الريح والبحر يرمى بموج مثل الجبال فقال يوشع ياكليم الله أين أمرت فقد غشينا فرعون والبحر أمامنا قال موسى هاهنا فخاض يوشع الماء وجاز البحر مايوارى حافر دابته الماء وقال الذى يكتم إيمانه ياكليم الله أين أمرت قال هاهنا فكبح فرسه بلجامه حتى طار الزبد من شدقيه ثم أقحمه البحر فارتسب فى الماء وذهب القوم يصنعون مثل ذلك فلم يقدروا فجعل موسى لايدرى كيف يصنع فأوحى الله إليه أن أضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فاذا الرجل واقف على فرسه لم يبتل سرجه ولا لبده (وأزلفنا) يعنى وقربنا (ثم الآخرين) يعنى قوم فرعون يقول قدمناهم إلى البحر وقربناهم إلى الهلاك وقال أبو عبيدة وأزلفنا جمعنا ومنه ليلة المزدلفة أى ليلة الجمع وفى القصة أن جبريل كان بين بنى إسرائيل وبين قوم فرعون وكان يسوق بنى إسرائيل ويقولون مارأينا أحسن سياقة من هذا الرجل وكان يزع قوم فرعون وكانوا يقولون مارأينا أحسن زعة من هذا (وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين) فرعون وقومه وقال سعيد بن جبير كان البحر ساكنا قبل ذلك فلما ضربه موسى بالعصا اضطرب فجعل يمد ويجزر (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) أى من أهل مصر قيل لم يكن آمن من أهل مصر إلا آسية امرأة فرعون وحزقيل المؤمن ومريم بنت ماموبا التى دلت على عظام يوسف عليه السلام (وإن ربك لهو العزيز الرحيم) العزيز فى الانتقام من أعدائه الرحيم بالمؤمنين حين أنجاهم قوله (واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون) أى شىء تعبدون (قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين) يعنى نقيم على عبادتها ، قال بعض أهل العلم إنما قال فنظل لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل يقال ظل يفعل كذا إذا فعل بالنهار (قال هل يسمعونكم) أى هل يسمعون دعاءكم (إذ تدعون) قال ابن عباس يسمعون لكم (أو ينفعونكم) قيل بالرزق (أو يضرون) إن تركتم عبادتها (قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) معناه أنها لاتسمع قولا ولاتجلب نفعا ولاتدفع ضرا لكن اقتدينا بآبائنا فيه إبطال التقليد فى الدين (قال أفرأيتم ماكنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون) الأولون (فانهم عدو لى) يعنى أعدائى، ووحده على معنى أن كل معبود لكم عدو لى فان قيل كيف

(١١٩)

موسى لايدرى كيف يصنع فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فاذا الرجل واقف على فرسه لم يبتل سرجه ولا لبده (وأزلفنا ثم الآخرين) يعنى قربنا فرعون وجنوده إلى البحر وقدمناهم إلى الهلاك وقيل إن جبريل كان بين بنى إسرائيل وبين قوم فرعون يقول لبنى إسرائيل ليلحق آخركم أولكم ويقول للقبط رويدا ليلحق آخركم أولكم فكان بنو إسرائيل يقولون مارأينا أحسن سياقة من هذا الرجل وكان قوم فرعون يقولون مارأينا أحسن دعة من هذا الرجل (وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين) يعنى أنه تعالى جعل البحر يبسا حتى خرج موسى وقومه منه وأغرق فرعون وقومه وذلك أنهم لما تكاملوا فى البحر انطبق عليهم فأغرقهم (إن فى ذلك لآية) يعنى ماحدث فى البحر من انفلاقه آية من الآيات العظام الدالة على قدرته ومعجزة لموسى عليه السلام (وما كان أكثرهم مؤمنين) يعنى أهل مصر قيل لم يؤمن منهم إلا آسية امرأة فرعون وحزقيل مؤمن آل فرعون ومريم ابنة ماموبا التى دلت على قبر يوسف حين أخرجه موسى من البحر (وإن ربك لهو العزيز الرحيم) قوله تعالى (واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون) يعنى أى شىء تعبدون وإنما قال إبراهيم ذلك مع علمه بأنهم عبدة الأصنام ليريهم أن مايعبدونه ليس من استحقاق العبادة فى شىء (قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين) يعنى نقيم على عبادتها وإنما قالوا نظل لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل (قال هل يسمعونكم) يعنى يسمعون دعاءكم (إذ تدعون أو ينفعونكم) يعنى بالرزق (أو يضرون) يعنى إن تركتم عبادتهم وإذا كان كذلك فكيف يستحقون العبادة فلما لزمتهم الحجة القاطعة (قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) المعنى أنها لاتسمع قولا ولاتجلب نفعا ولاتدفع ضرا ولكن اقتدينا بآبائنا فى ذلك وفى الآية دليل على إبطال التقليد فى الدين وذمه ومدح الأخذ بالاستدلال (قال أفرأيتم ماكنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون) أى الأولون (فانهم عدو لى) أى أعداء لى وإنما وحده على إرادة الجنس . فان قلت كيف وصف الأصنام بالعداوة وهى جمادات لاتعقل . قلت معناه فانهم عدو لى يوم القيامة لو عبدتهم فى الدنيا وقيل إن الكفار لما عبدوها ونزلوها منزلة الأحياء العقلاء أطلق إبراهيم لفظ العداوة عليها وقيل هو من المقلوب أراد فانى عدو لهم لأن من عاديته

وصف الأصنام بالعداوة وهى جمادات قيل معناه فانهم عدو لى لو عبدتهم يوم القيامة كما قال تعالى «سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليه ضدا» وقال الفراء هو من المقلوب أراد فانى عدو لهم لأن من عاديته فقد عاداك وقيل فانهم عدو لى على معنى أنى لاأتوهم ولاأطلب من جهتهم نفعا كما لايتولى العدو ولا يطلب من جهته النفع قوله (إلا رب العالمين) اختلفوا فى هذا الاستثناء قيل هو استثناء منقطع كأنه قال فانهم عدو لى لكن رب العالمين وليى وقيل إنهم كانوا يعبدون الأصنام مع الله فقال إبراهيم كل من تعبدون أعدائى إلا رب العالمين وقيل إنهم غير معبود لى إلا رب العالمين فانى أعبده وقال الحسين بن الفضل معناه إلا من عبد رب العالمين ثم وصف معبوده فقال (الذي خلقنى فهو يهدين) أى يرشدنى إلى طريق النجاة (والذى هو يطعمنى ويسقين) أى يرزقنى ويغذونى بالطعام والشراب فهو رازقى ومن عنده رزقى (وإذا مرضت) أضاف المرض إلى نفسه وإن كان المرض والشفاء كله (١٢٠) من الله استعمالا لحسن الأدب كما قال الخضر فأردت أن أعيبها وقال «فأراد ربك أن يبلغا أشدهما» (فهو يشفين) أى يبرئنى من المرض (والذى يميتنى ثم يحيين) أدخل ثم هاهنا للتراخى أى يميتنى فى الدنيا ويحيينى فى الآخرة (والذى أطمع) أرجو (أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) أى خطاياى يوم الحساب قال مجاهد هو قوله «إنى سقيم» وقوله «بل فعله كبيرهم هذا» وقوله لسارة هذه أختى وزاد الحسن وقوله للكوكب «هذا ربى» أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر ابن محمد الفارسى أنا محمد ابن عيسى الجلودى أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا أبو بكر بن أبى شيبة ثنا حفص بن غياث عن داود عن الشعبى عن مسروق عن عائشة قالت «قلت: يارسول الله ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ويطعم المساكين فهل ذاك نافعه قال لاينفعه إنه لم يقل يوما رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين» وهذا كله احتجاج من إبراهيم على قومه وإخبار أنه لاتصلح الإلهية إلا لمن يفعل هذه الأفعال (رب هب لى حكما) قال ابن عباس معرفة حدود الله وأحكامه وقال مقاتل الفهم والعلم وقال الكلبى النبوة (وألحقنى بالصالحين) بمن قبلى من النبيين فى المنزلة والدرجة (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) أى ثناء حسنا وذكرا جميلا وقبولا عاما فى الأمم التى تجىء بعدى فأعطاه الله ذلك فجعل كل أهل الأديان يتولونه ويثنون عليه قال القتيبى وضع اللسان موضع القول على الاستعارة لأن القول يكون به (واجعلنى من ورثة جنة النعيم) أى ممن تعطيه جنة النعيم (واغفر لأبي إنه كان من الضالين) وقال هذا قبل أن يتبين له أنه عدو الله كما سبق ذكره فى سورة التوبة (ولا تخزنى) لاتفضحنى (يوم يبعثون يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) أى خالص من الشرك والشك فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد هذا قول أكثر المفسرين قال

فقد عاداك (إلا رب العالمين) أى ولكن رب العالمين فانه ربى ووليي وقيل إنهم كانوا يعبدون الأصنام مع الله تعالى فقال إبراهيم كل ماتعبدون أعداء لى إلا رب العالمين ثم وصف معبوده الذي يستحق العبادة فقال (الذى خلقنى فهو يهدين) إلى طريق النجاة (والذى هو يطعمنى ويسقين) أى يرزقنى ويغذينى بالطعام والشراب (وإذا مرضت) أصابنى مرض أضاف المرض إلى نفسه استعمالا للأدب وإن كان المرض والشفاء من الله (فهو يشفين) أى يبرئنى ويعافينى من المرض (والذى يميتنى ثم يحيين) أي يميتنى فى الدنيا ثم يحيينى فى الآخرة (والذى أطمع) أى أرجو (أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) أى يوم الجزاء والحساب قيل خطيئته كذباته الثلاث وتقدم الكلام عليها (م) عن عائشة رضي الله عنها قالت قلت يارسول الله ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين أكان ذلك نافعا؟ له قال «لاينفعه إنه لم يقل يوما رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين» وهذا كله احتجاج من إبراهيم على قومه أنه لايصلح للالهية إلا من يفعل هذه الأفعال (رب هب لى حكما) قال ابن عباس معرفة حدود الله وأحكامه وقيل العلم والفهم (وألحقنى بالصالحين) أى بمن سلف قبلى من الأنبياء فى المنزلة والدرجة العالية (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) أى ثناء حسنا وذكرا جميلا وقبولا عاما فى الأمم التى تجىء بعدى فأعطاه الله ذلك وجعل كل الأديان يتولونه ويثنون عليه (واجعلنى من ورثة جنة النعيم) أى ممن تعطيه جنة النعيم لأنها السعادة الكبرى (واغفر لأبى إنه كان من الضالين) قيل دعا لأبيه على رجاء أن يسلم فيغفر له فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه (ولا تخزنى) أى ولا تفضحنى (يوم يبعثون) وهو يوم القيامة (يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) أى خالص من الشرك والشك فأما الذنوب فلا يسلم منها أحد قال سعيد بن المسيب القلب السليم هو الصحيح وهو قلب المؤمن لأن قلب الكافر والمنافق مريض وقيل القلب السليم هو الخالى

من

سعيد بن المسيب : القلب السليم هو الصحيح وهو قلب المؤمن لأن قلب الكافر والمنافق مريض . قال الله تعالى « فى قلوبهم مرض » قال أبو عثمان النيسابورى : هو القلب الخالى من البدعة المطمئن على السنة (وأزلفت) قربت (الجنة للمتقين وبرزت) أظهرت (الجحيم للغاوين) للكافرين (وقيل لهم) يوم القيامة (أينما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم) يمنعونكم من العذاب (أو ينتصرون) لأنفسهم (فكبكبوا فيها) قال ابن عباس : جمعوا وقال مجاهد دهوروا وقال مقاتل قذفوا . وقال الزجاج طرح بعضهم على بعض وقال القتيبى ألقوا على رءوسهم (هم والغاوون) يعنى الشياطين قاله قتادة ومقاتل وقال الكلبى كفرة الجن (وجنود إبليس أجمعون) وهم أتباعه ومن أطاعه من الجن والإنس ، ويقال ذريته (قالوا) أى قال الغاوون للشياطين والمعبودين (وهم فيها يختصمون) مع المعبودين ويجادل بعضهم بعضا (تالله إن كنا لنى ضلال مبين إذ نسويكم) نعدلكم (برب العالمين) فنعبدكم (وما أضلنا) أى ما دعانا إلى الضلال (إلا المجرمون) قال مقاتل يعنى الشياطين وقال الكلبى إلا أولونا الذين اقتدينا بهم وقال أبو العالية وعكرمة يعنى إبليس وابن آدم الأول وهو قابيل لأنه أول من سن القتل وأنواع المعاصى (فما لنا من شافعين) أى من يشفع لنا من الملائكة والنبيين والمؤمنين (ولا صديق حميم) أى قريب يشفع لنا يقوله الكفار حين تشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون والصديق هو الصادق فى المودة بشرط الدين . أخبرنا أبو سعيد الشريحى أنا أبو إسحاق الثعلبى أخبرنى الحسين بن محمد بن فنجويه ثنا محمد بن الحسين اليقطينى أنا أحمد بن عبد الله ابن يزيد العقيلى ثنا صفوان بن صالح ثنا الوليد بن مسلم ثنا من سمع أبا الزبير يقول أشهد لسمعت جابر بن عبد الله يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الرجل ليقول فى الجنة مافعل صديقى فلان وصديقه فى الجحيم فيقول الله تعالى : أخرجوا له صديقه إلى الجنة فيقول من بقى فما لنا من شافعين ولا صديق حميم » قال الحسن استكثروا من الأصدقاء المؤمنين فان لهم شفاعة يوم القيامة (فلو أن لنا كرة) أى رجعة إلى الدنيا (فنكون من المؤمنين إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم) العزيز الذى لايغالب فالله عزيز وهو فى وصف عزته رحيم قوله عز وجل (كذبت قوم نوح المرسلين) قيل للحسن البصرى ياأباسعيد أرأيت قوله « كذبت قوم نوح المرسلين » و « كذبت عاد المرسلين » و « كذبت ثمود المرسلين » وإنما أرسل إليهم رسول واحد ؟ قال إن الآخر جاء بما جاء به الأول فاذا كذبوا واحدا فقد كذبوا الرسل

من البدعة المطمئن إلى السنة (وأزلفت الجنة) أى قربت (للمتقين وبرزت الجحيم) أي أظهرت (للغاوين) أى للكافرين (وقيل لهم) يعنى يوم القيامة (أينما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم) أى يمنعونكم من عذاب الله (أو ينتصرون) لأنفسهم (فكبكبوا) قال ابن عباس جمعوا وقيل قذفوا وطرحوا بعضهم على بعض وقيل ألقوا على رءوسهم (فيها) أى فى جهنم (هم والغاوون) يعنى الآلهة والعابدين وقيل الجن والكافرين (وجنود إبليس أجمعون) يعنى أتباعه ومن أطاعه من الإنس والجن وقيل ذريته (قالوا وهم فيها يختصمون) يعنى العابدين والمعبودين (تالله إن كنا لنى ضلال مبين إذ نسويكم) أى نعدلكم (برب العالمين) فنعبدكم (وما أضلنا) يعنى دعانا إلى الضلال (إلا المجرمون) يعنى من دعاهم إلى عبادة الأصنام من الجن والإنس وقيل الأولون الذين اقتدينا بهم وقيل يعنى إبليس وابن آدم الأول وهو قابيل وهو أول من سن القتل وأنواع المعاصى (فما لنا من شافعين) يعنى من يشفع لنا يعنى كما أن للمؤمنين شافعين من الملائكة والأنبياء (ولا صديق حميم) أى قريب يشفع لنا يقول ذلك الكفار حين يشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون والصديق هو الصادق فى المودة مع موافقة الدين عن جابر ابن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الرجل يقول فى الجنة مافعل بصديقى فلان وصديقه فى الجحيم فيقول الله عز وجل أخرجوا له صديقه إلى الجنة فيقول من بقى فما لنا من شافعين ولا صديق حميم » رواه البغوى باسناد الثعلبى وقال الحسن استكثروا من الأصدقاء المؤمنين فان لهم شفاعة يوم القيامة (فلو أن لنا كرة) أى رجعة إلى الدنيا (فنكون من المؤمنين) أى أنهم تمنوا الرجعة حين لا رجعة لهم (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) أي مع هذه الدلائل والآيات (وإن ربك لهو العزيز الرحيم) أى المنتقم الذي لايغالب وهو فى وصف عزته رحيم . قوله عز وجل (كذبت قوم نوح المرسلين) أى كذبت جماعة قوم نوح قيل القوم مؤنثة وتصغيرها قويمة . فان قلت كيف قال المرسلين وإنما هو رسول واحد وكذلك باقى القصص . قلت لأن دين الرسل واحد وإن الآخر منهم جاء بما جاء به

أجمعين (إذ قال لهم أخوهم) فى النسب لافى الدين (نوح ألا تتقون إنى لكم رسول أمين) على الوحى (فاتقوا الله) بطاعته وعبادته (وأطيعون) فيما آمركم به من الإيمان والتوحيد (وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى) ثوابى (إلا على رب العالمين فاتقوا الله) بطاعته وعبادته (وأطيعون قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) قرأ يعقوب وأتباعك الأرذلون السفلة وعن ابن عباس، قال الصاغة، وقال عكرمة الحاكة والأساكفة (قال) نوح (وما علمى بما كانوا يعملون) أى ما أعلم أعمالهم وصنائعهم وليس على من دناءة مكاسبهم وأحوالهم شىء إنما كلفت أن أدعوهم إلى الله ولى منهم ظاهر أمرهم (إن حسابهم) ماحسابهم (إلا على ربى لو تشعرون) (١٢٢) لو تعلمون ذلك ماعبتموهم بصنائعهم قال الزجاج الصناعات لاتضر فى الديانات وقيل معناه أنى لم أعلم أن الله يهديهم ويضلكم ويوفقهم ويخذلكم (وما أنا بطارد المؤمنين إن أنا إلا نذير مبين قالوا لئن لم تنته يانوح) عماتقول (لتكونن من المرجومين) قال مقاتل والكلبى من المقتولين بالحجارة وقال الضحاك من المشتومين (قال رب إن قومى كذبون فافتح) فاحكم (بينى وبينهم فتحا) حكما (ونجنى ومن معى من المؤمنين فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون) الموقر المملوء من الناس والطير والحيوان كلها (ثم أغرقنا بعد الباقين) أى أغرقنا بعد إنجاء نوح وأهله من بقى من قومه (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم) قوله عز وجل (كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم) يعنى فى النسب لافى الدين (هود ألا تتقون إنى لكم رسول أمين) على الرسالة قال الكلبى أمين فيكم قبل الرسالة فكيف تتهمونى اليوم (فاتقوا الله وأطيعون وما أسئلكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أتبنون بكل ريع) قال الوالبى عن ابن عباس بكل شرف وقال الضحاك ومقاتل والكلبى بكل طريق وهو رواية العوفى عن ابن عباس وعن مجاهد قال هو الفج بين الجبلين وعنه أيضا أنه المنظرة (آية) علامة (تعبثون) بمن مر بالطريق والمعنى أنهم كانوا يبنون المواضع المرتفعة ليشرفوا على المارة والسابلة فيسخروا منهم ويعبثوا بهم وعن سعيد بن جبير ومجاهد هذا فى بروج الحمام أنكر

هود

الأول فمن كذب واحدا من الأنبياء فقد كذب جميعهم (إذ قال لهم أخوهم نوح) أى أخوهم فى النسب لافى الدين (ألا تتقون) أى ألا تخافون فتتركوا الكفر والمعاصى (إنى لكم رسول أمين) أى على الوحى وكان معروفا عندهم بالأمانة (فاتقوا الله) أى بطاعته وعبادته (وأطيعون) أى فيما أمرتكم به من الإيمان والتوحيد (وما أسئلكم عليه من أجر) أى من جعل وجزاء (إن أجرى) أى ثوابى (إلا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون) قيل كرره ليؤكده عليهم ويقرره فى نفوسهم وقيل ليس فيه تكرار ومعنى الأول ألا تتقون الله فى مخالفتى وأنا رسول الله ومعنى الثانى ألا تتقون الله فى مخالفتى وإنى لست آخذ منكم أجرا (قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) أى السفلة قال ابن عباس يعنى القافة وقيل هم الحاكة والأساكفة (قال) يعنى نوحا (وما علمى بما كانوا يعملون) أى وما أعلم أعمالهم وصنائعهم وليس على من دناءة مكاسبهم وأحوالهم شىء إنما كلفت أن أدعوهم إلى الله تعالى ومالى إلا ظواهر أمرهم وقال الزجاج الصناعات لاتضر فى الديانات وقيل معناه إنى لم أعلم أن الله يهديهم ويضلكم ويوفقهم ويخذلكم (إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون) أى لو تعلمون ذلك ماعيرتموهم بصنائعهم (وما أنا بطارد المؤمنين) أى عنى وقد آمنوا (إن أنا إلا نذير مبين) معناه أخوف من كذبنى فمن آمن فهو القريب منى ومن لم يؤمن فهو البعيد عنى (قالوا لئن لم تنته يانوح) أى عما تقول (لتكونن من المرجومين) أى من المقتولين بالحجارة وهو أسوأ القتل وقيل من المشتومين (قال رب إن قومى كذبون فافتح) أى احكم (بينى وبينهم فتحا) أى حكما (ونجنى ومن معى من المؤمنين فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون) أى الموقر المملوء من الناس والطير والحيوان (ثم أغرقنا بعد الباقين) أى بعد إنجاء نوح ومن معه (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم) قوله تعالى (كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون إنى لكم رسول أمين) أى أمين على الرسالة فكيف تتهمونى اليوم (فاتقوا الله وأطيعون وما أسئلكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أتبنون بكل ريع) قال ابن عباس أى بكل شرف وفى رواية عنه بكل طريق وقيل هو الفج بين الجبلين وقيل المكان المرتفع (آية) أى علامة وهى العلم (تعبثون) يعنى بمن مر بالطريق والمعنى أنهم كانوا يبنون بالمواضع المرتفعة ليشرفوا على المارة والسابلة فيسخروا منهم ويعبثوا بهم وقيل إنهم بنوا بروج الحمام فأنكر عليهم

عليهم هود اتخاذها بدليل قوله تعبثون أى تلعبون وهم كانوا يلعبون بالحمام وقال أبو عبيدة الريع المكان المرتفع (وتتخذون مصانع) قال ابن عباس أبنية وقال مجاهد قصورا مشيدة وعن الكلبي أنها الحصون وقال قتادة مآخذ الماء يعني الحياض واحدتها مصنعة (لعلكم تخلدون) أى كأنكم تبقون فيها خالدين والمعنى أنهم كانوا يستوثقون المصانع كأنهم لا يموتون (وإذا بطشتم) أخذتم وسطوتم (بطشتم جبارين) قتلا بالسيف وضربا بالسوط والجبار الذى يقتل ويضرب على الغضب (فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون) أى أعطاكم من الخير ماتعلمون ثم ذكر ماأعطاهم فقال (أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون) يعنى بساتين وأنهار (إنى أخاف عليكم) قال ابن عباس إن عصيتمونى (عذاب يوم عظيم قالوا سواء علينا) يعنى مستو عندنا (أوعظت أم لم تكن من الواعظين) الوعظ كلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد. قال الكلبي نهيتنا أم لم تكن من الناهين لنا (إن هذا) ماهذا (إلا خلق الأولين) قرأ ابن كثير (١٢٣) وأبو جعفر وأبو عمرو والكسائى ويعقوب خلق بفتح الخاء وسكون اللام أى اختلاق الأولين وكذبهم دليل هذه القراءة قوله تعالى «وتخلقون إفكا» وقرأ الآخرون خلق بضم الخاء واللام أى عادة الأولين من قبلنا وأمرهم أنهم يعيشون ما عاشوا ثم يموتون ولا بعث ولا حساب (ومانحن بمعذبين فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم) قوله عز وجل (كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أتتركون فيما هاهنا) يعنى فى الدنيا (آمنين) من العذاب (فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها) ثمرها يريد ما يطلع منها من الثمر (هضيم) قال ابن عباس لطيف ومنه هضيم الكشح إذا كان لطيفا وروى عطية عنه يانع نضيج وقال عكرمة هو اللين وقال الحسن هو الرخو وقال مجاهد متهشم متفتت إذا مس وذلك أنه مادام رطبا فهو هضيم فاذا يبس فهو هشيم وقال الضحاك ومقاتل قد ركب بعضه بعضا حتى هضم بعضه بعضا أى كسره وقال أهل اللغة هو المنضم بعضه إلى بعض فى وعائه قبل أن يظهر وقال الأزهرى الهضيم هو الداخل بعضه فى بعض من النضج والنعومة وقيل هضيم أى هاضم يهضم الطعام وكل هذا للطافته (وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين) وقرئ فرهين قيل معناهما واحد وقيل فارهين أى حاذقين بنحتها من قولهم فره الرجل فراهة فهو فاره ومن قرأ فرهين قال بن عباس آشرين بطرين وقال عكرمة ناعمين وقال مجاهد شرهين قال قتادة معجبين بصنيعكم قال السدى متجبرين وقال أبو عبيدة مرحين وقال الأخفش فرحين

هود باتخاذها ومعنى تعبثون تلعبون بالحمام (وتتخذون مصانع) قال ابن عباس أبنية وقيل قصورا مشيدة وحصونا مانعة وقيل مآخذ الماء يعنى الحياض (لعلكم تخلدون) أى كأنكم تبقون فيها خالدين لا تموتون (وإذا بطشتم) أي وإذا أخذتم وسطوتم (بطشتم جبارين) أي قتلا بالسيف وضربا بالسوط والجبار الذي يضرب ويقتل على الغضب وهو مذموم فى وصف البشر (فاتقوا الله وأطيعون) فيه زيادة زجر عن حب الدنيا والشرف والتفاخر (واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون) أي أعطاكم من الخير ماتعلمون ثم ذكر ماأعطاهم فقال (أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون) فيه التنبيه على نعمة الله تعالى عليهم (إنى أخاف عليكم) قال ابن عباس إن عصيتمونى (عذاب يوم عظيم) فكان جوابهم أن (قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) أى أنهم أظهروا قلة أكتراثهم بكلامه واستخفافهم بما أورده من المواعظ والوعظ كلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد (إن هذا إلا خلق الأولين) قرىء بفتح الخاء أى اختلاق الأولين وكذبهم وقرئ خلق بضم الخاء واللام أى عادة الأولين من قبلنا أنهم يعيشون ماعاشوا ثم يموتون ولا بعث ولا حساب وقولهم (وما نحن بمعذبين) أى أنهم أظهروا بذلك تقوية نفوسهم فيما تمسكوا به من إنكارهم المعاد (فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم) قوله تعالى (كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين أتتركون فيما هاهنا آمنين) أى فى الدنيا من العذاب (فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها) أى ثمرها الذى يطلع منها (هضيم) قال ابن عباس لطيف وعنه يانع نضيج وقيل هو اللين الرخو وقيل متهشم يتفتت إذا مس وقيل الهضيم هو الذى دخل بعضه فى بعض من النضج أو النعومة وقيل هو المدرك (وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين) وقرئ فرهين قيل الفاره الحاذق بنحتها والفره قال ابن عباس الأشر والبطر وقيل معناه

والعرب تعاقب بين الهاء والحاء مثل مدحته ومدهته قال الضحاك كيسين (فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين) قال ابن عباس المشركين وقال مقاتل هم التسعة الذين عقروا الناقة وهم (الذين يفسدون فى الأرض) بالمعاصى (ولا يصلحون) لايطيعون الله فيما أمرهم به (قالوا إنما أنت من المسحرين) قال مجاهد وقتادة من المسحورين المخدوعين أى ممن يسحر مرة بعد مرة وقال الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أى من المخلوقين المعللين بالطعام والشراب يقال سحره أى علله بالطعام والشراب يريد أنك تأكل الطعام والشراب ولست بملك بل (ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية) على صحة ماتقول (إن كنت من الصادقين) أنك رسول الله إلينا (قال هذه ناقة لها شرب) حظ ونصيب من الماء (ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء) بعقر (فيأخذكم عذاب (١٢٤) يوم عظيم فعقروها فأصبحوا نادمين) على عقرها حين رأوا العذاب (فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم) قوله تعالى (كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أتأتون الذكران) قال مقاتل يعنى جماع الرجال (من العالمين) يعنى من بنى آدم (وتذرون ماخلق لكم ربكم من أزواجكم) قال مجاهد تركتم أقبال النساء إلى أدبار الرجال (بل أنتم قوم عادون) معتدون مجاوزون الحلال إلى الحرام (قالوا لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين) من قريتنا (قال إنى لعملكم من القالين) المبغضين ثم دعا فقال (رب نجنى وأهلى مما يعملون) من فاتقوا العمل الخبيث قال الله تعالى (فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزا فى الغابرين) وهى امرأة لوط بقيت فى العذاب والهلاك (ثم دمرنا الآخرين) أى أهلكناهم (وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين) قال وهب بن منبه الكبريت والنار (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم) قوله عز وجل (كذب أصحاب الأيكة المرسلين) وهم قوم شعيب عليه السلام قرأ العراقيون الأيكة هاهنا وفى صۤ بالهمزة وسكون اللام وكسر التاء وقرأ الآخرون ليكة بفتح اللام والتاء غير مهموز جعلوها اسم البلدة وهو لا ينصرف ولم يختلفوا فى سورة الحجر وقۤ أنهما مهموزان مكسوران والأيكة الغيضة من الشجر الملتف (إذ قال لهم شعيب) ولم يقل أخوهم لأنه لم يكن من أصحاب الأيكة فى النسب فلما ذكر مدين قال أخاهم شعيبا لأنه كان منهم وكان الله تعالى بعثه إلى قومه أهل مدين وإلى أصحاب الأيكة (ألا تتقون إنى لكم رسول أمين

متجبرين فرحين معجبين بصنعكم (فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين) قال ابن عباس أى المشركين وقيل يعنى التسعة الذين عقروا الناقة (الذين يفسدون فى الأرض) أى بالمعاصى (ولا يصلحون) أى لايطيعون الله فيما أمرهم (قالوا إنما أنت من المسحرين) أى من المسحورين المخدوعين وقال ابن عباس من المخلوقين المعللين بالطعام والشراب (ما أنت إلا بشر مثلنا) والمعنى أنت بشر مثلنا ولست بملك (فأت بآية) يعنى على صحة ماتقول (إن كنت من الصادقين) يعنى أنك رسول إلينا (قال هذه ناقة لها شرب) أى حظ من الماء (ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء) أى بعقر (فيأخذكم عذاب يوم عظيم فعقروها فأصبحوا نادمين) أى على عقرها لما رأوا العذاب (فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم) قوله عز وجل (كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين) يعنى نكاح الرجال من بنى آدم (وتذرون ماخلق لكم ربكم من أزواجكم) يعنى أتتركون العضو المباح من النساء وتميلون إلى أدبار الرجال (بل أنتم قوم عادون) أى معتدون مجاوزون الحلال إلى الحرام (قالوا لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين) أى من قريتنا (قال إنى لعملكم من القالين) أى من التاركين المبغضين (رب نجنى وأهلى مما يعملون) أى من العمل الخبيث قال الله تعالى (فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزا) أى امرأته (فى الغابرين) أى بقيت فى المهلكين (ثم دمرنا الآخرين) أى أهلكناهم (وأمطرنا عليهم مطرا) يعنى الكبريت والنار فساء مطر المنذرين إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم) قوله عز وجل (كذب أصحاب الأيكة المرسلين) أى الغيضة الملتفة من الشجر وقيل هو اسم البلد (إذ قال لهم شعيب) لم يقل لهم أخوهم لأنه لم يكن منهم وإنما كان من مدين وأرسل إليهم (ألا تتقون إنى لكم رسول أمين

فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) وإنما كانت دعوة هؤلاء الأنبياء كلهم فيما حكى الله عنهم على صيغة واحدة لاتفاقهم على الأمر بالتقوى والطاعة والإخلاص فى العبادة والامتناع من أخذ الأجر على الدعوة وتبليغ الرسالة (أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين) الناقصين لحقوق الناس بالكيل والوزن (وزنوا بالقسطاس المستقيم ولاتبخسوا الناس أشياءهم ولاتعثوا فى الأرض مفسدين واتقوا الذى خلقكم والجبلة) الخليقة (الأولين) يعنى الأمم المتقدمين والجبلة الخلق يقال جبل أي خلق (قالوا إنما أنت من المسحرين (١٢٥) وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين قال ربى أعلم بما تعملون) أى من نقصان الكيل والوزن وهو مجازيكم بأعمالكم وليس العذاب إلى وما على إلا الدعوة (فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة) وذلك أنه أخذهم حر شديد فكانوا يدخلون الأسراب فاذا دخلوها وجدوها أشد حرا فخرجوا فأظلتهم سحابة وهى الظلة فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا ذكرناه فى سورة هود (إنه كان عذاب يوم عظيم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم) قوله عز وجل (وإنه) يعنى القرآن (لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين) قرأ أهل الحجاز وأبوعمرو وحفص نزل خفيف الروح الأمين برفع الحاء والنون أى نزل جبريل بالقرآن وقرأ الآخرون بتشديد الزاى وفتح الحاء والنون: أى نزل الله به جبريل لقوله عز وجل وإنه لتنزيل رب العالمين (على قلبك) يامحمد حتى وعيته (لتكون من المنذرين) المخوفين (بلسان عربي مبين) قال ابن عباس بلسان قريش ليفهموا مافيه (وإنه) أى ذكر إنزال القرآن قاله أكثر المفسرين وقال مقاتل ذكر محمد صلى الله عليه وسلم ونعته (لفى زبر) كتب (الأولين أو لم يكن لهم آية) قرأ ابن عامر ، تكن بالتاء آية بالرفع جعل الآية اسما وخبره أن يعلمه وقرأ الآخرون بالياء آية نصب جعلوا الآية خبر يكن معناه أو لم يكن لهؤلاء المتكبرين علم بنى إسرائيل آية أى علامة ودلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأن العلماء الذين كانوا من بنى إسرائيل

فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) إنما كانت دعوة هؤلاء الأنبياء فيما حكى الله عنهم على صيغة واحدة لاتفاقهم على تقوى الله وطاعته والإخلاص فى العبادة والامتناع من أخذ الأجر على تبليغ الرسالة (أوفوا الكيل ولاتكونوا من المخسرين) أى الناقصين لحقوق الناس فى الكيل والوزن (وزنوا بالقسطاس) أى بالميزان العدل (المستقيم ولاتبخسوا الناس أشياءهم ولاتعثوا فى الأرض مفسدين واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين) يعنى الخليقة والأمم المتقدمة (قالوا إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين فأسقط علينا كسفا) يعنى قطعا (من السماء إن كنت من الصادقين قال ربى أعلم بما تعملون) يعنى من نقصان الكيل والوزن وهو مجازيكم بأعمالكم وليس العذاب إلى وما على إلا الدعوة والتبليغ (فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) وذلك أنهم أصابهم حر شديد فكانوا يدخلون الأسراب فيجدونها أحر من ذلك فيخرجون فأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا جميعا (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم) وقد تقدم الكلام على هذه القصص فى سورة الأعراف وهود فأغنى عن الإعادة هنا والله أعلم بمراده قوله عز وجل (وإنه) يعنى القرآن (لتنزيل رب العالمين) يعنى أن فيه من أخبار الأمم الماضية مايدل على أنه من رب العالمين (نزل به الروح الأمين) يعنى جبريل عليه السلام سماه روحا لأنه خلق من الروح وسماه أمينا لأنه مؤتمن على وحيه لأنبيائه (على قلبك) يعنى على قلبك حتى تعيه وتفهمه ولاتنساه وإنما خص القلب لأنه هو المخاطب فى الحقيقة وأنه موضع التمييز والعقل والاختيار وسائر الأعضاء مسخرة له ويدل عليه قوله ﷺ « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » أخرجاه فى الصحيحين ومن المعقول أن موضع الفرح والسرور والغم والحزن هو القلب ، فاذا فرح القلب أو حزن يتغير حال سائر الأعضاء فكأن القلب كالرئيس لها ومنه أن موضع العقل هو القلب على الصحيح من القولين فاذا ثبت ذلك كان القلب هو الأمير المطلق وهو المكلف لأن التكليف مشروط بالعقل والفهم . قوله تعالى (لتكون من المنذرين) أى المخوفين (بلسان عربى مبين) قال ابن عباس بلسان قريش ليفهموا مافيه (وإنه) يعنى القرآن وقيل ذكر محمد صلى الله عليه وسلم وصفته ونعته (لفى زبر الأولين) أي كتب الأولين (أو لم يكن لهم آية) يعنى أو لم يكن لهؤلاء المتكبرين علامة ودلالة على صدق

كانوا يخبرون بوجود ذكره فى كتبهم وهم عبد الله بن سلام وأصحابه قال ابن عباس بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة فسألوهم عن محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا إن هذا لزمانه وإنا نجد فى التوراة نعته وصفته فكان ذلك آية على صدقه ، قوله تعالى (أن يعلمه) يعنى يعلم محمد صلى الله عليه وسلم (علماء بنى إسرائيل) قال عطية كانوا خمسة عبدالله بن سلام وابن يامين وثعلبة وأسد وأسيد (ولو نزلناه) يعنى القرآن (على بعض الأعجمين) جمع الأعجمى وهو الذى لايفصح ولا يحسن العربية وإن كان عربيا فى النسب والعجمى منسوب إلى العجم وإن كان فصيحا ومعنى الآية ولو نزلناه على رجل ليس بعربى اللسان (فقرأه عليهم) بغير لغة العرب(ماكانوا به مؤمنين) وقالوا مانفقه قولك نظيره قوله عز وجل« ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته » (١٢٦) وقيل معناه ولو نزلناه على رجل ليس من العرب لما آمنوا به أنفة من اتباعه(كذلك سلكناه) قال ابن عباس والحسن ومجاهد أدخلنا الشرك والتكذيب (فى قلوب المجرمين لا يؤمنون به) أى بالقرآن (حتى يروا العذاب الأليم) يعنى عند الموت (فيأتيهم) يعنى العذاب (بغتة) فجأة (وهم لايشعرون) به فى الدنيا (فيقولوا هل نحن منظرون) أى لنؤمن ونصدق يتمنون الرجعة والنظرة قال مقاتل لما أوعدهم النبى صلى الله عليه وسلم بالعذاب قالوا إلى متى توعدنا بالعذاب ومتى هذا العذاب قال الله تعالى(أفبعذابنا يستعجلون أفرأيت إن متعناهم سنين) كثيرة فى الدنيا يعنى كفار مكة ولم نهلكهم (ثم جاءهم ماكانوا يوعدون) يعنى بالعذاب (ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) به فى تلك السنين (وأنذر
والمعنى أنهم وإن طال تمتعهم بنعيم الدنيا فاذا أتاهم العذاب لم يغن عنهم طول التمتع شيئا ويكون كأنهم لم يكونوا فى نعيم قط (وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون) رسل ينذرونهم (ذكرى) محلها نصب أى ينذرونهم تذكرة وقيل رفع أى تلك ذكرى (وما كنا ظالمين) فى تعذيبهم حيث قدمنا الحجة عليهم وأعذرنا إليهم (وما تنزلت به الشياطين) وذلك أن المشركين كانوا يقولون إن الشياطين يلقون القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فقال جل ذكره «وما تنزلت به» أى بالقرآن «الشياطين» (وما ينبغى لهم) أن ينزلوا بالقرآن (وما يستطيعون) ذلك (إنهم عن السمع) أى عن استراق السمع من السماء (لمعزولون) أى محجوبون بالشهب مرجومون(فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين) قال ابن عباس رضى الله عنهما يحذر به غيره يقول أنت

محمد صلى الله عليه وسلم (أن يعلمه) يعنى يعلم محمدا صلى الله عليه وسلم (علماء بنى إسرائيل) قال ابن عباس بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة يسألونهم عن محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا إن هذا لزمانه وإنا نجد فى التوراة نعته وصفته فكان ذلك آية على صدقه صلى الله عليه وسلم قيل كانوا خمسة عبد الله بن سلام وابن يامين وثعلبة واسد وأسيد . قوله تعالى (ولو نزلناه) يعنى القرآن (على بعض الأعجمين) جمع أعجمى وهو الذي لايفصح ولايحسن العربية وإن كان عربيا فى النسب ومعنى الآية وأنزلنا القرآن على رجل ليس بعربى اللسان (فقرأه عليهم) يعنى القرآن (ما كانوا به مؤمنين) أى لقالوا لانفقه قولك وقيل معناه لما آمنوا به أنفة من اتباع من ليس من العرب (كذلك سلكناه) قال ابن عباس يعنى أدخلنا الشرك والتكذيب (فى قلوب المجرمين لايؤمنون به) أى القرآن (حتى يروا العذاب الأليم فيأتيهم بغتة وهم لايشعرون فيقولوا هل نحن منظرون) أى لنؤمن ونصدق وتمنوا الرجعة ولارجعة لهم (أفبعذابنا يستعجلون) قيل لما وعدهم النبى صلى الله عليه وسلم بالعذاب قالوا إلى متى توعدنا بالعذاب ومتى هذا العذاب فأنزل الله أفبعذابنا يستعجلون (أفرأيت إن متعناهم سنين) أى كفار مكة فى الدنيا ولم نهلكهم (ثم جاءهم ما كانوا يوعدون) يعنى العذاب (ماأغنى عنهم ما كانوا يمتعون) أى فى تلك السنين الكثيرة والمعنى أنهم وإن طال تمتعهم بنعيم الدنيا فاذا أتاهم العذاب لم يغن عنهم طول التمتع شيئا ويكونوا كأنهم لم يكونوا فى نعيم قط (وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون) أي رسل ينذرونهم (ذكري) أى تذكرة (وما كنا ظالمين) أى فى تعذيبهم حيث قدمنا الحجة عليهم (وما تنزلت به الشياطين) يعنى أن المشركين كانوا يقولون إن الشياطين يلقون القرآن على قلب محمد صلى الله عليه وسلم فرد الله عليهم ذلك (وما ينبغى لهم) أن ينزلوا بالقرآن (وما يستطيعون) أى ذلك ثم إنه تعالى ذكر سبب ذلك فقال (إنهم عن السمع لمعزولون) أى محجوبون بالرمى بالشهب فلا يصلون إلى استراق السمع (فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره لأنه معصوم من ذلك قال ابن عباس يحذر به غيره يقول أنت أكرم الخلق على ولو اتخذت إلها غيرى لعذبتك . قوله تعالى

أكرم الخلق على ولو اتخذت إلها غيرى لعذبتك (وأنذر عشيرتك الأقربين) روى محمد بن إسحاق عن عبد الغفار بن القاسم عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب عن عبد الله بن عباس عن على بن أبى طالب قال لما نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم «وأنذر عشيرتك الأقربين» دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ياعلى إن الله يأمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين فضقت بذلك ذرعا وعرفت أنى متى أباديهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره فصمت عليها حتى جاءنى جبريل فقال لى يامحمد إلا تفعل ماتؤمر يعذبك ربك فاصنع لنا صاعا من طعام واجعل عليه رجل شاة واملأ لنا عسا من لبن ثم اجمع لى بنى عبد المطلب حتى أبلغهم ماأمرت به ففعلت ماأمرنى به ثم دعوتهم له وهم يومئذ أربعون رجلا يزيدون رجلا أو ينقصونه فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس رضى الله عنهما وأبولهب فلما اجتمعوا إليه دعانى بالطعام الذى صنعته فجئت به فلما وضعته تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم جذبة من اللحم فشقها بأسنانه ثم ألقاها فى نواحى الصحفة ثم قال خذوا باسم الله فأكل القوم حتى مالهم بشىء حاجة وأيم الله أن كان الرجل الواحد منهم ليأكل مثل ماقدمت لجميعهم ثم قال اسق القوم فجئتهم بذلك العس فشربوا حتى رووا جميعا وايم الله إن كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم بدره أبو لهب فقال سحركم صاحبكم فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الغد ياعلى إن هذا الرجل قد سبقنى إلى ما سمعت من القوم فتفرق القوم قبل أن أكلمهم فعدلنا من الطعام مثل ماصنعت ثم اجمعهم ففعلت ثم جمعت فدعانى بالطعام فقربته ففعل كما فعل بالأمس فأكلوا وشربوا «ثم تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «يابنى عبد المطلب إنى قد جئتكم بخيرى الدنيا والآخرة وقد أمرنى الله تعالى أن أدعوكم إليه فأيكم يوازرنى على أمرى هذا ويكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم فأحجم القوم عنها جميعا فقلت وأنا أحدثهم سنا يانبى الله أكون وزيرك عليه قال فأخذ برقبتى وقال إن هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم فاسمعوا له وأطيعوا فقام القوم يضحكون ويقولون لأبى طالب قد أمرك أن تسمع لعلى وتطيع أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد ابن عبدالله النعيمى أنا محمد ابن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا يوسف بن موسى حدثنا أبو أسامة حدثنا الأعمش حدثنا عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لما نزلت «وأنذر عشيرتك الأقربين» ورهطك منهم المخلصين خرج رسول الله ﷺ

(وأنذر عشيرتك الأقربين) روى محمد ابن إسحاق بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال «لما نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ياعلى إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين فضقت بذلك ذرعا وعرفت أنى متى أباديهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره فصمت عليها حتى جاءنى جبريل فقال يامحمد أن لاتفعل ماتؤمر يعذبك ربك فاصنع لنا طعاما واجعل لنا عليه رجل شاة واملأ لنا عسا من لبن ثم اجمع لى بنى عبد المطلب حتى أبلغهم ماأمرت به ففعلت ماأمرنى به ثم دعوتهم له وكانوا يومئذ نحو أربعين رجلا يزيدون رجلا أوينقصونه فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبولهب فلما اجتمعوا دعانى بالطعام الذى صنعت فجئت به فتناول رسول الله ﷺ جذبة من اللحم فشقها بأسنانه ثم ألقاها فى نواحى الصحفة ثم قال خذوا باسم الله فأكل القوم حتى مالهم بشىء من حاجة وأيم الله أن كان الرجل الواحد ليأكل مثل ماقدمت لجميعهم ثم قال اسق القوم فجئتهم بذلك العس فشربوا حتى رووا جميعا وأيم الله أن كان الرجل الواحد ليشرب مثله فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم بدره أبو لهب فقال سحركم صاحبكم فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الغد يا على فان هذا الرجل قد سبقنى إلى ماسمعت من القول فتفرق القوم قبل أن أكلمهم فاعدد لنا من الطعام مثل ماصنعت ثم أجمعهم ففعلت ثم جمعتهم ثم دعانى بالطعام فقربته ففعل كما فعل بالأمس فأكلوا وشربوا ثم تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يابنى عبد المطلب إنى قد جئتكم بخيرى الدنيا والآخرة وقد أمرنى الله عز وجل أن أدعوكم إليه فأيكم يوازرنى على أمرى هذا ويكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم فأحجم القوم عنها جميعا وأنا أحدثهم سنا فقلت أنا يارسول الله أكون وزيرك عليه فأخذ برقبتى ثم قال هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم فاسمعوا له وأطيعوا فقام القوم يضحكون ويقولون لأبى طالب قد أمرك أن تسمع لعلى وتطيعه» (ق) عن ابن عباس رضى الله عنهما لما نزلت وأنذر عشيرتك الأقربين صعد النبى صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادى يابنى فهر يابنى عدى لبطون من قريش حتى اجتمعوا فجعل الذى لم يستطع أن يخرج يرسل رسولا لينظر ماهو فجاء أبولهب وقريش

حتى صعد الصفا فهتف ياصباحاه فقالوا من هذا فاجتمعوا إليه فقال أرأيتكم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي قالوا ماجربنا عليك كذبا قال فاني نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال أبولهب تبا لك ماجمعتنا إلا لهذا ثم قام فنزلت «تبت يدا أبي لهب» وقد تب هكذا قرأ الأعمش يومئذ أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عمر بن حفص بن غياث ثنا أبي ثنا الأعمش حدثني عمرو بن مرة عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال لما نزلت «وأنذر عشيرتك الأقربين» صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي يابني فهر يابني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ماهو فجاء أبولهب وقريش وقال أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي قالوا نعم ماجربنا عليك كذبا قال فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبولهب تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا فنزلت «تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب» أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري أخبرني سعيد (١٢٨) بن المسيب وأبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله تعالى وأنذر عشيرتك الأقربين فقال «يا معشر قريش أو كلمة نحوها اشتروا أنفسكم لاأغنى عنكم من الله شيئا يابني عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئا يا عباس بن عبدالمطلب لاأغنى عنك من الله شيئا ياصفية عمة رسول الله لاأغنى عنك من الله شيئا ويافاطمة بنت محمد سليني ماشئت من مالي لاأغنى عنك من الله شيئا» أخبرنا أبو سعيد عبد الله ابن أحمد الطاهري أنا جدي أبوسهل بن عبد الصمد بن عبد الرحمن البزاز أنا ابو بكر محمد بن زكريا العذافري أنا أبو إسحاق بن إبراهيم الديري ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن قتادة عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن عياض بن جمان المجاشعي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله عز وجل أمرني أن أعلمكم ماجهلتم مما علمني يومي هذا وأنه قال إن كل مال نحلته عبادي فهو لهم حلال وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ماأحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطانا وأن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وإن الله تعالى أمرني أن أخوف قريشا فقلت يارب إنهم إذا يثلغوا رأسي حتى يدعوه خبزة فقال إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك وقد أنزلت عليك كتابا لايغسله الماء تقرؤه في المنام واليقظة فاغزهم نغزك وأنفق ننفق عليك وابعث جيشا نمددك بخمسة أمثالهم وقاتل بمن أطاعك من عصاك ثم قال أهل الجنة ثلاثة إمام مقسط ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم ورجل غني متعفف متصدق وأهل النار خمسة الضعيف الذي لازبر له الذين هم فيكم تبع لايبتغون بذلك أهلا ولا مالا ورجل إن أصبح أصبح يخادعك عن أهلك ومالك ورجل لا يخفى له طمع وإن دق إلا ذهب به والشنظير

فقال أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي قالوا ماجربنا عليك كذبا قال فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبولهب تبالك سائر اليوم ألهذا جمعتنا فنزلت «تبت يدا أبي لهب وتب ماأغنى عنه ماله وما كسب» وفي رواية قد تب وفي رواية للبخاري لما نزلت «وأنذر عشيرتك الأقربين» ورهطك منهم المخلصين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا فهتف ياصباحاه فقالوا من هذا واجتمعوا إليه وذكر نحوه (ق) عن أبي هريرة قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله تعالى «وأنذر عشيرتك الأقربين» وقال يامعشر قريش أو كلمة نحوها اشتروا أنفسكم لاأغني عنكم من الله شيئا يابني عبدالمطلب لاأغني عنكم من الله شيئا ياعباس بن عبدالمطلب لا أغني عنك من الله شيئا وياصفية عمة رسول الله لاأغني عنك من الله شيئا ويافاطمة بنت رسول الله سليني ماشئت من مالي لاأغني عنك من الله شيئا» (م) عن قبيصة بن مخارق وزهير بن عمرو قالا لما نزلت «وأنذر عشيرتك الأقربين» انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رضمة جبل فعلا أعلاها حجرا ثم نادى «يابني عبد مناف إني نذير لكم إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يريد أهله فخشي أن يسبقوه فجعل يهتف ياصباحاه» ومعنى الآية أن الإنسان إذا بدأ بنفسه أولا وبالأقرب فالأقرب من أهله ثانيا لم يكن لأحد عليه طعن البتة وكان قوله أنفع وكلامه أنجع

(واخفض

الفاحش وذكر البخل والكذب قوله عز وجل (واخفض جناحك) يعنى ألن جانبك (لمن اتبعك من المؤمنين فان عصوك فقل إنى برىء مما تعملون) من الكفر وعبادة غير الله (وتوكل) قرأ أهل المدينة والشام فتوكل بالفاء وكذلك هو فى مصاحفهم وقرأ الباقون بالواو وتوكل (على العزيز الرحيم) ليكفيك كيد الأعداء (الذى يراك حين تقوم) إلى صلاتك عن أكثر المفسرين وقال مجاهد الذى يراك أينما كنت وقيل حين تقوم لدعائهم (وتقلبك فى الساجدين) يعنى يرى تقلبك فى صلاتك فى حال قيامك وركوعك وسجودك وقعودك قال عكرمة وعطية (١٢٩) عن ابن عباس فى الساجدين أى فى المصلين وقال مقاتل والكلبى أى مع المصلين فى الجماعة يقول يراك حين تقوم وحدك للصلاة ويراك إذا صليت مع المصلين فى الجماعة وقال مجاهد يرى تقلب بصرك فى المصلين فانه كان يبصر من خلفه كما يبصر من أمامه أخبرنا أبو الحسن السرخسى أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «هل ترون قبلتى ها هنا فوالله ما يخفى على خشوعكم ولا ركوعكم إنى لأراكم من وراء ظهرى» وقال الحسن وتقلبك فى الساجدين أى تصرفك وذهابك ومجيئك فى أصحابك المؤمنين وقال سعيد بن جبير يعنى وتصرفك فى أحوالك كما كانت الأنبياء من قبلك والساجدون هم الأنبياء وقال عطاء عن ابن عباس أراد تقلبك فى أصلاب الأنبياء من نبى إلى نبى حتى خرجك فى هذه الآية (إنه هو السميع العليم هل أنبئكم) هل أخبركم (على من تنزل الشياطين) هذا جواب قولهم تتنزل عليه الشياطين ثم بين فقال (تنزل) أى تتنزل (على كل أفاك) كذاب (أثيم) فاجر قال قتادة هم الكهنة يسترق الجن السمع ثم يلقون إلى أوليائهم من الإنس وهو قوله عز وجل (يلقون السمع) أى يستمعون من الملائكة مسترقين فيلقون إلى الكهنة (وأكثرهم كاذبون) لأنهم يخلطون به كذبا كثيرا قوله عز وجل (والشعراء يتبعهم الغاوون) قال أهل التفسير أراد شعراء

(واخفض) أى ألن (جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) فان قلت ما معنى التبعيض فى قوله «من المؤمنين» وقلت معناه لمن اتبعك من المؤمنين المصدقين بقلوبهم وألسنتهم دون المؤمنين بألسنتهم وهم المنافقون (فان عصوك) يعنى فيما تأمرهم به (فقل إنى برىء مما تعملون) يعنى من الكفر والمخالفة (وتوكل على العزيز الرحيم) التوكل عبارة عن تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره وهو الله تعالى العزيز الذى يقهر أعداءك بعزته الرحيم الذى ينصرك عليهم برحمته (الذى يراك حين تقوم) إلى صلاتك وقيل يراك أينما كنت وقيل يراك حين تقوم لدعائك (وتقلبك فى الساجدين) قال ابن عباس ويرى تقلبك فى صلاتك فى حال قيامك وركوعك وسجودك وقعودك وقيل مع المصلين فى الجماعة يقول يراك إذا صليت وحدك ومع الجماعة وقيل معناه يرى تقلب بصرك فى المصلين فانه كان صلى الله عليه وسلم يبصر من خلفه كما يبصر من قدامه عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «هل ترون قبلتى ها هنا فوالله ما يخفى على خشوعكم ولا ركوعكم إنى لأراكم من وراء ظهرى» وقيل معناه يرى تصرفك وذهابك ومجيئك فى أصحابك المؤمنين وقيل تصرفك فى أحوالك كما كانت الأنبياء من قبلك وقال ابن عباس أراد وتقلبك فى أصلاب الأنبياء من نبى إلى نبى حتى أخرجك فى هذه الأمة (إنه هو السميع) يعنى لقولك ودعائك (العليم) يعنى بنيتك وعملك قل يا محمد (هل أنبئكم) يعنى أخبركم (على من تنزل الشياطين) هذا جواب لقولهم ينزل عليه شيطان ثم بين على من تنزل الشياطين فقال تعالى (تنزل على كل أفاك) يعنى كذاب (أثيم) يعنى فاجر وهم الكهنة وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع ثم يلقون ذلك إلى أوليائهم من الإنس وهو قوله تعالى (يلقون السمع) يعنى ما يسمعون من الملائكة فيلقونه إلى الكهنة (وأكثرهم كاذبون) لأنهم يخلطون به كذبا كثيرا (والشعراء يتبعهم الغاوون) قال أهل التفسير أراد شعراء الكفار الذين كانوا يهجون النبى صلى الله عليه وسلم منهم عبد الله بن الزبعرى السهمى وهبيرة بن أبى وهب المخزومى ومسافع بن عبد مناف وأبو عمرو بن عبد الله الجمحى وأمية بن أبى الصلت الثقفى تكلموا بالكذب والباطل وقالوا نحن نقول مثل ما يقول محمد وقالوا الشعر واجتمع إليهم غواة قومهم يسمعون أشعارهم حين يهجون محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه وكانوا يروون عنهم قولهم فذلك قوله يتبعهم الغاوون فهم الرواة الذين يروون هجاء المسلمين وقيل الغاوون هم الشياطين وقيل هم السفهاء الضالون وفى رواية أن الرجلين أحدهما من الأنصار تهاجيا على

الكفار الذين كانوا يهجون رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر مقاتل أسماءهم فقال منهم عبد الله بن الزبعرى السهمى وهبيرة بن أبى وهب المخزومى ومسافع بن عبدمناف وأبو عزة عمرو بن عبدالله الجمحى وأمية بن أبى الصلت الثقفى تكلموا بالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالباطل وقالوا نحن نقول مثل ما يقول محمد وقالوا الشعر واجتمع إليهم غواة من قومهم يستمعون أشعارهم حين يهجون النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ويروون عنهم ، وذلك قوله والشعراء يتبعهم الغاوون هم الرواة الذين يروون هجاء النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين وقال قتادة ومجاهد الغاوون هم الشياطين وقال الضحاك تهاجى رجلان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين ومع كل واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء فنزلت هذه الآية وهى رواية عطية عن ابن عباس (ألم تر أنهم فى كل واد) من أودية الكلام (يهيمون) حائرون وعن طريق الحق جائرون والهائم الذاهب على وجهه لامقصد له . قال ابن عباس رضى الله عنهما فى هذه الآية فى كل لغو يخوضون وقال مجاهد فى كل فن يفتنون وقال قتادة يمدحون بالباطل ويستمعون ويهجون بالباطل فالوادى مثل (١٣٠) لفنون الكلام كما يقال أنا فى واد وأنت فى واد وقيل فى كل واد يهيمون أى على كل حرف من حروف الهجاء يصوغون القوافى (وأنهم يقولون مالا يفعلون) أى يكذبون فى شعرهم يقولون فعلنا وفعلنا وهم كذبة أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أبو محمد عبدالرحمن ابن أبى شريح أنا أبو القاسم البغوى ثنا على بن الجعد أنا شعبة عن الأعمش عن ذكوان عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير من أن يمتلىء شعرا » ثم استثنى شعراء المسلمين الذين كانوا يجيبون شعراء الجاهلية ويهجون الكفار وينافحون عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه منهم حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك فقال (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أنا أبو الحسين على بن عبد الله بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفار ثنا أحمد بن منصور الرمادى ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن الزهرى عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال للنبى صلى الله عليه وسلم إن الله قد أنزل فى الشعر ما أنزل فقال النبى صلى الله عليه وسلم « إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذى نفسى بيده لكأنما ترمونهم به نضح النبل » أخبرنا عبد الله بن عبدالصمد الجورجانى أنا أبو القاسم على بن أحمد الخزاعى أنا الهيثم بن كليب أنا أبو عيسى الترمذى ثنا إسحاق بن منصور أنا عبد الرزاق أنا جعفر بن سليمان ثنا ثابت عن أنس « أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل مكة فى عمرة القضاء وابن رواحة يمشى بين يديه ويقول :

خلوا بنى الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله

ضربا يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع كل واحد غواة من قومه وهم السفهاء فنزلت هذه الآية (ألم تر أنهم فى كل واد) من أودية الكلام (يهيمون) يعنى حائرين وعن طريق الحق حائدين والهائم الذاهب على وجهه لامقصد له وقال ابن عباس فى كل لغو يخوضون وقيل يمدحون بالباطل ويهجون بالباطل وقيل أنهم يمدحون الشىء ثم يذمونه لا يطلبون الحق والصدق ، فالوادى مثل لفنون الكلام والغوص فى المعانى والقوافى (وأنهم يقولون مالا يفعلون) أى أنهم يكذبون فى شعرهم وقيل إنهم يمدحون الجود والكرم ويحثون عليه وهم لا يفعلونه ويذمون البخل ويصرون عليه ويهجون الناس بأدنى شىء صدر منهم (ق) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير له من أن يمتلىء شعرا » ثم استثنى شعراء المسلمين الذين كانوا يجتنبون شعر الكفار ويهجون وينافحون عن محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه منهم حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك فقال تعالى (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) روى أن كعب بن مالك قال للنبى صلى الله عليه وسلم إن الله أنزل فى الشعر ما أنزل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذى نفسى بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل » عن أنس بن مالك رضى الله عنه « أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل مكة فى عمرة القضاء وابن رواحة يمشى بين يديه وهو يقول :

خلوا بنى الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله

ضربا يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

فقال له عمر يا ابن رواحة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى حرم الله تقول الشعر فقال النبى صلى الله عليه وسلم خل عنه ياعمر فلهى أسرع فيهم من نضح النبل » أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد ابن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا حجاج بن منهال ثنا شعبة أخبرنى عدى أنه سمع البراء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان « أهجهم أو هاجهم وجبريل معك » أخبرنا عبدالله بن عبد الصمد الجورجانى أنا أبو القاسم الخزاعى أنا الهيثم بن كليب ثنا أبو عيسى ثنا إسماعيل بن موسى الفزارى وعلى بن حجر المعنى واحد قالا ثنا عبد الرحمن بن أبى الزناد عن هشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع لحسان بن ثابت منبرا فى المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ينافح عن رسول الله صلى الله

عليه وسلم ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله يؤيد حسان بروح القدس ماينافح أو يفاخر عن رسول الله » أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد ثنا محمد بن عيسى الجلودى ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم ابن الحجاج ثنا عبد الملك ابن شعيب بن الليث حدثنى أبى عن جدى ثنا خالد بن زيد حدثنى سعيد بن أبى هلال عن عمارة بن غزية عن محمد ابن إبراهيم عن أبى سلمة ابن عبد الرحمن عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اهجوا قريشا فانه أشد عليهم من رشق النبل فأرسل إلى ابن رواحة فقال اهجهم فهجاهم فلم يرض فأرسل إلى كعب بن مالك ثم أرسل إلى حسان بن ثابت فلما دخل عليه قال حسان قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه ثم أدلع لسانه فجعل يحركه فقال والذى بعثك بالحق لأفرينهم بلسانى فرى الأديم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتعجل فان أبا بكر أعلم قريش بأنسابها وإن لى فيهم نسبا حتى يلخص لك نسبى فأتاه حسان ثم رجع فقال يارسول الله قد لخص لى نسبك والذى بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين قالت عائشة فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسان إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله وقالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هجاهم حسان فشفى واشتفى، قال حسان :

هجوت محمدا فأجبت عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء

هجوت محمدا برا حنيفا ... رسول الله شيمته الوفاء

فقال عمر يا ابن رواحة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى حرم الله تقول الشعر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خل عنه ياعمر فلهى أسرع فيهم من نضح النبل» أخرجه الترمذى والنسائى وقال الترمذى وقد روى فى غير هذا الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل مكة فى عمرة القضاء وكعب بن مالك بين يديه وهذا أصح عند بعض أهل الحديث لأن عبدالله بن رواحة قتل يوم مؤتة وكانت عمرة القضاء بعد ذلك قلت الصحيح هو الأول لأن عمرة القضاء كانت سنة سبع ويوم مؤتة سنة ثمان والله أعلم (ق) عن البراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «يوم قريظة لحسان اهج المشركين فان جبريل معك» (خ) عن عائشة قالت «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع لحسان منبرا فى المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله ﷺ وينافح ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله يؤيد حسان بروح القدس مانافح أو فاخر عن رسول الله » (م) عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أهجو قريشا فانه أشد عليها من رشق النبل فأرسل إلى ابن رواحة فقال أهجهم فهجاهم فلم يرض فأرسل إلى كعب بن مالك ثم أرسل إلى حسان بن ثابت فلما دخل عليه حسان قال قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه ثم أدلع لسانه فجعل يحركه فقال والذى بعثك بالحق لأفرينهم بلسانى فرى الأديم فقال النبى صلى الله عليه وسلم لاتعجل فان أبا بكر أعلم قريش بأنسابها وإن لى فيهم نسبا حتى يلخص لك نسبى فأتاه حسان ثم رجع فقال يارسول الله قد لخص لى نسبك والذى بعثك بالحق نبيا لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين قالت عائشة فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسان إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله قالت وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هجاهم حسان فشفى واشتفى » فقال حسان :

هجوت محمدا فأجبت عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء

هجوت محمدا برا تقيا ... رسول الله شيمته الوفاء

فان أبي ووالدتي وعرضي لعرض محمد منكم وقاء فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء وجبريل رسول الله فينا وروح القدس ليس له كفاء أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد (١٣٢) بن إسماعيل . ثنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهرى أخبرنى أبو بكر بن عبد الرحمن أن مروان ابن الحكم أخبره أن عبد الرحمن بن الأسود ابن عبد يغوث أخبره أن أبي بن كعب أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن من الشعر لحكمة » قالت عائشة رضى الله تعالى عنها الشعر كلام فنه حسن ومنه قبيح فخذ الحسن ودع القبيح . وقال الشعبى كان أبو بكر رضى الله تعالى عنه يقول الشعر وكان عمر رضى الله تعالى عنه يقول الشعر وكان على رضى الله تعالى عنه أشعر الثلاثة وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه كان ينشد الشعر فى المسجد ويستنشده فروى أنه دعا عمر بن أبي ربيعة المخزومى فاستنشده القصيدة التى قالها فقال :

أمن آل نعمى أنت غاد فبكر غداة غد أم رائح فهجر

فأنشده ابن أبي ربيعة القصيدة إلى آخرها وهى قريبة من تسعين بيتا ثم إن ابن عباس أعاد القصيدة جميعها وكان حفظها بمرة واحدة (وذكروا الله كثيرا) أى لم يشغلهم الشعر عن ذكر الله (وانتصروا من بعد ماظلموا) قال مقاتل انتصروا من المشركين لأنهم بدءوا بالهجاء ثم أوعد شعراء المشركين فقال (وسيعلم الذين ظلموا) أشركوا وهجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم (أى منقلب ينقلبون) أى مرجع يرجعون بعد الموت قال ابن عباس رضى الله عنهما إلى جهنم والسعير والله أعلم (تفسير

فان أبي ووالدتي وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

ثكلت بنيتى إن لم تروها تثير النقع من طرفى كداء

يبارين الأعنة مصعدات على أكتافها الأسل الظماء

تظل جيادها متمطرات تلطمهن بالخمر النساء

فان أعرضتم عنا اعتمرنا وكان الفتح وانكشف الغطاء

وإلا فاصبروا لضراب يوم يعز الله فيه من يشاء

وقال الله قد أرسلت عبدا يقول الحق ليس به خفاء

وقال الله قد سيرت جندا هم الأنصار عرضتها اللقاء

لنا فى كل يوم من معد سباب أو قتال أو هجاء

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

وجبريل رسول الله فينا وروح القدس ليس له كفاء

(فصل فى مدح الشعر)

(خ) عن أبي بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن من الشعر لحكمة » عن ابن عباس رضى الله عنهما قال جاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فجعل يتكلم بكلام فقال « إن من البيان سحرا وإن من الشعر حكما » أخرجه أبو داود (م) عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال « ردفت وراء النبى صلى الله عليه وسلم يوما فقال هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شىء قلت نعم قال هيه فأنشدته بيتا فقال هيه ثم أنشدته بيتا قال هيه حتى أنشدته مائة بيت زاد فى رواية لقد كاد يسلم فى شعره » عن جابر بن سمرة قال « جالست النبى صلى الله عليه وسلم أكثر من مائة مرة فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت وربما تبسم معهم » أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح وقالت عائشة الشعر كلام فنه حسن ومنه قبيح فخذ منه الحسن ودع منه القبيح وقال الشعبى كان أبو بكر يقول الشعر وكان عمر يقول الشعر وكان على أشعر منهما وروي عن ابن عباس أنه كان ينشد الشعر ويستنشده فى المسجد فيروى أنه دعا عمر بن ربيعة المخزومى فاستنشده القصيدة التى قالها فقال :

أمن آل نعمى أنت غاد فبكر غداة غد أم رائح فهجر

فأنشده القصيدة إلى آخرها وهى قريب من تسعين بيتا ثم إن ابن عباس أعاد القصيدة جميعها وكان حفظها بمرة واحدة . قوله تعالى (وذكروا الله كثيرا) أى لم يشغلهم الشعر عن ذكر الله (وانتصروا من بعد ماظلموا) أى انتصروا من المشركين لأنهم بدءوا بالهجاء ثم أوعد شعراء المشركين فقال تعالى (وسيعلم الذين ظلموا) أى أشركوا وهجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الطاهر المطهر من الهجاء (أى منقلب ينقلبون) أى أى مرجع يرجعون إليه بعد الموت قال ابن عباس إلى جهنم وبئس المصير والله أعلم بمراده وأسرار كتابه .

(سورة النمل ، مكية وهى ثلاث وتسعون آية) (بسم الله الرحمن الرحيم) (طس) قال ابن عباس هو اسم من أسماء الله تعالى وقد سبق الكلام فى حروف الهجاء (تلك آيات القرآن) أى هذه آيات القرآن (وكتاب مبين) يعنى وآيات كتاب مبين (هدى وبشرى للمؤمنين) يعنى هو هدى من الضلالة وبشرى للمؤمنين المصدقين به بالجنة (الذين يقيمون الصلاة) أى يؤدون الصلاة بأركانها وشروطها (ويؤتون الزكاة) يعطون ماوجب عليهم من زكاة أموالهم لأربابها (وهم بالآخرة هم يوقنون إن الذين لايؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم) القبيحة حتى رأوها حسنة (فهم يعمهون) أى يترددون فيها متحيرين (أولئك الذين لهم سوء العذاب) شدة العذاب فى الدنيا بالقتل والأسر ببدر (وهم فى الآخرة هم الأخسرون) لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم وصاروا إلى النار (وإنك لتلقى القرآن) أى تؤتى القرآن (من لدن حكيم عليم) أى وحيا من عند الله الحكيم العليم قوله عز وجل (إذ قال موسى لأهله) أى واذكر يامحمد إذ قال موسى لأهله فى مسيره من مدين إلى مصر (إنى آنست نارا) أى أبصرت نارا (سآتيكم منها بخبر) أى امكثوا مكانكم سآتيكم بخبر عن الطريق أو النار وكان قد ترك الطريق (أو آتيكم بشهاب قبس) قرأ أهل الكوفة بشهاب بالتنوين جعلوا القبس نعتا للشهاب وقرأ الآخرون بلا تنوين على الإضافة وهو إضافة الشئ إلى نفسه لأن الشهاب والقبس متقاربان فى المعنى ، وهو العود الذى فى أحد طرفيه نار وليس فى الطرف الآخر نار وقال بعضهم الشهاب هو شىء ذو نور مثل العمود والعرب تسمى كل أبيض ذى نور شهابا والقبس القطعة من النار (لعلكم تصطلون) تستدفئون من البرد وكان ذلك فى شدة الشتاء (فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها) أى بورك على من فى النار أو فى من فى النار والعرب تقول باركه الله

(تفسير سورة النمل مكية وهى ثلاث وتسعون آية وألف وثلاثمائة وسبع عشرة كلمة وأربعة آلاف وسبعمائة وتسعة وتسعون حرفا)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (طس تلك آيات القرآن) أى هذه آيات القرآن (وكتاب مبين) أى وآيات كتاب مبين (هدى وبشرى للمؤمنين) أى هو هدى من الضلالة وبشرى لهم بالجنة (الذين يقيمون الصلاة) أى الخمس بشرائطها (ويؤتون الزكاة) أى إذا وجبت عليهم طيبة بها أنفسهم (وهم بالآخرة هم يوقنون) يعنى أن هؤلاء الذين يعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة (إن الذين لايؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم) أى القبيحة حتى رأوها حسنة وقيل إن التزيين هو أن يخلق الله العلم فى القلب بما فيه المنافع واللذات ولا يخلق العلم بما فيه المضار والآفات (فهم يعمهون) أى يترددون فيها متحيرين (أولئك الذين لهم سوء العذاب) أى أشده وهو القتل والأسر (وهم فى الآخرة هم الأخسرون) أى أنهم خسروا أنفسهم وأهليهم وساروا إلى النار. قوله تعالى (وإنك لتلقى القرآن) أي تؤتاه وتلقنه وحيا (من لدن حكيم عليم) أى حكيم عليم بما أنزل إليك . فان قلت ماالفرق بين الحكمة والعلم . قلت الحكمة هى العلم بالأمور العلمية فقط والعلم أعم منه لأن العلم قد يكون علما وقد يكون نظرا والعلوم النظرية أشرف (إذ قال) أى واذكر يامحمد إذ قال (موسى لأهله) أى فى مسيره بأهله من مدين إلى مصر (إنى آنست) أى أبصرت (نارا سآتيكم منها بخبر) أي امكثوا مكانكم سآتيكم بخبر عن الطريق وقد كان ضل عن الطريق (أو آتيكم بشهاب قبس) الشهاب شعلة النار والقبس النار المقبوسة منها وقيل القبس هو العود الذى فى أحد طرفيه نار (لعلكم تصطلون) يعنى تستدفئون من البرد وكان فى شدة الشتاء (فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار) يعنى بورك على من فى النار وقيل البركة راجعة إلى موسى والملائكة والمعنى من فى طلب النار وهو موسى (ومن حولها) وهم الملائكة الذين حول النار وهذه تحية من الله عز وجل لموسى بالبركة وقيل المراد من النار النور وذكر بلفظ النار لأن موسى حسبه نارا ومن فى النار هم الملائكة وذلك أن النور الذى رآه موسى كان فيه ملائكة لهم زجل بالتسبيح والتقديس ومن حولها موسى لأنه كان بالقرب منها وقيل البركة راجعة إلى النار ، وقال ابن عباس معناه بوركت النار والمعنى بورك من فى النار ومن حولها وهم الملائكة وموسى وروى عن ابن عباس فى قوله بورك من فى النار يعنى قدس من فى النار وهو الله تعالى عنى به نفسه على معنى أنه نادي موسى وأسمعه من جهتها كما روى أنه مكتوب فى التوراة جاء الله من سيناء وأشرف من ساعين واستعلى من جبال فاران ومعنى مجيئه

وبارك فيه وبارك عليه بمعنى واحد وقال قوم البركة راجعة إلى موسى والملائكة معناه بورك من فى طلب النار وهو موسى عليه السلام ومن حولها وهم الملائكة الذين حول النار ومعناه بورك فيك ياموسى وفى الملائكة الذين حول النار وهذا تحية من عند الله عز وجل لموسى بالبركة كما حيا إبراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ومذهب أكثر المفسرين أن المراد بالنار النور وذكر بلفظ النار لأن موسى حسبه نارا ومن فى النار هم الملائكة وذلك أن النور الذى رآه موسى كان فيه ملائكة لهم زجل بالتقديس والتسبيح ومن حولها هو موسى لأنه كان بالقرب منها ولم يكن فيها وقيل من فى النار ومن حولها جميعا الملائكة وقيل من فى النار موسى ومن حولها الملائكة وموسى وإن لم يكن فى النار كان قريبا منها كما يقال بلغ فلان المنزل إذا قرب منه وإن لم يبلغه بعد وذهب بعضهم إلى أن البركة راجعة إلى النار وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال معناه بوركت النار وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال سمعت أبيا يقرأ أن بوركت النار ومن حولها ومن قد يأتى بمعنى ما كقوله تعالى «فمنهم من يمشى على بطنه» وما قد يكون صلة فى الكلام كقوله «جند ماهنالك» ومعناه بورك فى النار وفيمن حولها وهم الملائكة وموسى عليه السلام وسمى النار مباركة كما سمى البقعة مباركة فقال فى البقعة المباركة وروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن فى قوله بورك من فى النار يعنى قدس من فى النار وهو الله عنى به نفسه على معنى أنه نادى موسى منها وأسمعه كلامه من جهتها كما روى أنه مكتوب فى التوراة جاء الله من سيناء وأشرف من ساعين واستعلى من جبال فاران فجيئه من سيناء بعثه موسى منها ومن ساعين بعثه المسيح منها ، ومن جبال فاران بعثه المصطفى منها وفاران مكة قيل كان ذلك نوره عز وجل قال سعيد بن جبير كانت النار بعينها ، والنار إحدى حجب الله تعالى كما جاء فى الحديث «حجابه النار لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ماانتهى إليه بصره من خلقه» ثم نزه الله نفسه وهو المنزه من كل سوء وعيب فقال جل ذكره (وسبحان الله رب العالمين) ثم تعرف إلى موسى بصفاته فقال (ياموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم) والهاء فى قوله إنه عماد وليس بكناية وقيل هى كناية عن الأمر والشأن أى الأمر والشأن أى المعبود أنا ثم أرى موسى آية على قدرته فقال (وألق عصاك فلما رآها تهتز) تتحرك (كأنها جان) وهى الحية الصغيرة التى يكثر اضطرابها (ولى مدبرا) وهرب من الخوف (ولم يعقب) ولم يرجع يقال عقب فلان إذا رجع وكل راجع معقب ، وقال قتادة ولم يلتفت فقال الله عز وجل (ياموسى لاتخف إنى لايخاف لدى المرسلون) يريد إذا آمنتهم لايخافون أما الخوف الذى هو شرط الإيمان فلا يفارقهم قال النبى صلى الله عليه وسلم «أنا أخشاكم لله» وقوله (إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإنى غفور رحيم) واختلف فى هذا الاستثناء قيل هذا إشارة إلى أن موسى حين قتل القبطى خاف من ذلك ثم تاب فقال «رب إنى

حالة

من سيناء بعثه موسى منه ومن ساعين بعثة المسيح ومن جبال فاران بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وفاران اسم مكة وقيل كانت النار بعينها وهى إحدى حجب الله عز وجل كما صح فى الحديث «حجابه النار لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ماانتهى إليه بصره من خلقه» ثم نزه الله سبحانه وتعالى نفسه وهو المنزه من كل سوء وعيب فقال تعالى (وسبحان الله رب العالمين) ثم تعرف الى موسى بصفاته فقال الله ياموسى (إنه أنا الله العزيز الحكيم) قيل معناه أن موسى قال من المنادى قال إنه أنا الله وهذا تمهيد لما أراد الله أن يظهره على يده من المعجزات والمعنى أنا القوى القادر على مايبعد من الأوهام كقلب العصا حية وهو قوله (وألق عصاك) تقديره فألقاها فصارت حية (فلما رآها تهتز) أى تتحرك (كأنها جان) وهى الحية الصغيرة التى يكثر اضطرابها (ولى مدبرا) يعنى هرب من الخوف (ولم يعقب) يعنى لم يرجع ولم يلتفت قال الله تعالى (ياموسى لاتخف إنى لايخاف لدى المرسلون) يريد إذا أمنتهم لايخافون أما الخوف الذى هو شرط الإيمان فلا يفارقهم قال النبى صلى الله عليه وسلم «أنا أخشاكم لله» (إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإنى غفور رحيم) قيل هو مايصدر من الأنبياء من ترك الأفضل والصغيرة وقيل يحتمل أن يكون المراد منه التعريض بما وجد من موسى من قتل القبطى وهو من التعريضات اللطيفة وسماه ظلما لقول موسى «إنى ظلمت نفسى» ثم إنه خاف من ذلك فتاب قال «رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له» قال ابن جريج قال الله تعالى لموسى إنما أخفتك لقتلك النفس ومعنى الآية لا يخيف الله الأنبياء إلا بذنب يصيبه أحدهم فإن أصابه أخافه حتى يتوب فعلى هذا التأويل يكون صحيحا وتناهى الخبر عن الرسل عند قوله إلا من ظلم ثم ابتدأ الخبر عن

ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له» قال ابن جريج قال الله تعالى لموسى إنما أخفتك لقتلك النفس وقال معنى الآية لايخيف الله الأنبياء إلا بذنب يصيبه أحدهم فان أصابه أخافه حتى يتوب فعلى هذا التأويل يكون الاستثناء صحيحا وتناهى الخبر عن الرسل عند قوله «إلا من ظلم» ثم ابتدأ الخبر عن حال من ظلم من الناس كافة ، وفى الآية متروك استغنى عن ذكره بدلالة الكلام عليه تقديره فمن ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم قال بعض العلماء ليس هذا باستثناء من المرسلين لأنه لايجوز عليهم الظلم بل هو استثناء من المتروك فى الكلام معناه لايخاف لدى المرسلون إنما الخوف على غيرهم من الظالمين إلا من ظلم ثم تاب وهذا من الاستثناء المنقطع معناه لكن من ظلم من سائر الناس فانه يخاف فان تاب

وبدل حسنا بعد سوء فان الله غفور رحيم يعنى يغفر الله له ويزيل الخوف عنه وقال بعض النحويين إلا هاهنا بمعنى ولا يعنى لايخاف لدى المرسلون ولا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء يقول لايخاف لدى المرسلون ولا المذنبون التائبون كقوله تعالى ولئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم » يعنى ولا الذين ظلموا ثم أراه الله آية أخرى فقال (وأدخل يدك فى جيبك) والجيب حيث جيب من القميص أى قطع قال أهل التفسير كانت عليه مدرعة من صوف لا كم لها ولا أزرار فأدخل يده فى جيبه وأخرجها

حالة من ظلم من الناس كافة وفى الآية متروك استغنى عن ذكره لدلالة الكلام عليه تقديره فمن ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم وقيل ليس هذا الاستثناء من المرسلين لأنه لايجوز عليهم الظلم بل هو استثناء من المتروك ومعناه لايخاف لدى المرسلون إنما الخوف عليهم من الظالمين وهذا الاستثناء المنقطع معناه لكن من ظلم من سائر الناس فانه يخاف فان تاب وبدل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم أى أغفر له وأزيل خوفه وقيل إلا هنا بمعنى ولا معناه ولا يخاف لدى المرسلون ولا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء يعنى تاب من ظلمه فانى غفور رحيم ثم إن الله تعالى أراه آية أخرى فقال تعالى (وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء) قيل كانت عليه مدرعة صوف لا كم لها ولا أزرار فأدخل يده فى جيبها وأخرجها فاذا هى تبرق مثل شعاع الشمس أو البرق (من غير سوء) يعنى من غير برص (فى تسع آيات) يعنى آية مع تسع آيات أنت مرسل بهن فعلى هذا تكون الآيات إحدى عشرة العصا واليد البيضاء والفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس والجدب فى بواديهم والنقصان فى مزارعهم وقيل فى بمعنى من أى من تسع آيات فتكون اليد البيضاء من التسع (إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين) يعنى خارجين عن الطاعة (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة) يعنى بينة واضحة يبصرونها (قالوا هذا) يعنى الذى نراه (سحر مبين) يعنى ظاهر (وجحدوا بها) يعنى أنكروا الآيات ولم يقروا أنها من عند الله (واستيقنتها أنفسهم) يعنى علموا أنها من عند الله والمعنى أنهم جحدوا بها بألسنتهم واستيقنوها بقلوبهم وضمائرهم (ظلما وعلوا) أى شركا وتكبرا عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) يعنى الغرق . قوله تعالى (ولقد آتينا داود وسليمان علما) يعنى علم القضاء والسياسة وعلم داود تسبيح الطير والجبال وعلم سليمان منطق الطير والدواب (وقالا الحمد لله الذى فضلنا) يعنى بالنبوة والكتاب والملك وتسخير الجن والإنس (على كثير من عباده المؤمنين) أراد بالكثير الذين فضلا عليهم من لم يؤت علما أو لم يؤت مثل علمهما وفيه أنهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير وقيل إنهما لم يفضلا أنفسهما على الكل وذلك يدل على حسن التواضع . قوله تعالى (وورث سليمان داود) يعنى نبوته وعلمه وملكه دون سائر أولاده وكان لداود تسعة عشر ابنا وأعطى سليمان ما أعطى

فاذا هى تبرق مثل البرق فذلك قوله (تخرج بيضاء من غير سوء) من غير برص (فى تسع آيات) يقول هذه آية مع تسع آيات أنت مرسل بهن (إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين فلما جاءتهم آياتنا مبصرة) بينة واضحة يبصر بها (قالوا هذا سحر مبين) ظاهر (وجحدوا بها) أى أنكروا الآيات ولم يقروا أنها من عند الله (واستيقنتها أنفسهم) يعنى علموا أنها من عند الله قوله (ظلما وعلوا) يعنى شركا وتكبرا عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) قوله عز وجل (ولقد آتينا داود وسليمان علما) يعنى علم القضاء ومنطق الطير والدواب وتسخير الشياطين وتسبيح الجبال (وقالا الحمد لله الذى فضلنا) بالنبوة والكتاب وتسخير الشياطين والجن والإنس (على كثير من عباده المؤمنين وورث سليمان داود) نبوته وعلمه وملكه دون سائر أولاده وكان لداود تسعة عشر ابنا وأعطى سليمان ما أعطى داود من الملك

وزيد له تسخير الريح وتسخير الشياطين . وقال مقاتل كان سليمان أعظم ملكا من داود وأقضى منه وكان داود أشد تعبدا من سليمان وكان سليمان شاكرا لنعم الله تعالى (وقال ياأيها الناس علمنا منطق الطير) سمى صوت الطير منطقا لحصول الفهم منه كما يفهم من كلام الناس روى عن كعب قال صاح ورشان عند سليمان عليه السلام فقال أتدرون مايقول قالوا لا قال إنه يقول لدوا للموت وابنوا للخراب وصاحت فاختة فقال أتدرون ماتقول قالوا لاقال إنها تقول ليت ذا الخلق لم يخلقوا وصاح طاوس فقال أتدرون مايقول قالوا لا قال فانه يقول كما تدين تدان وصاح هدهد فقال أتدرون مايقول هذا قالوا لا قال فانه يقول من لايرحم لايرحم وصاح صرد فقال أتدرون مايقول قالوا لاقال فانه يقول استغفروا الله يامذنبين قال وصاحت طيطوى فقال

أتدرون ماتقول قالوا لاقال فانها تقول كل حي ميت وكل جديد بال وصاح خطاف فقال أتدرون مايقول قالوا لاقال فانه يقول قدموا خيرا تجدوه وهدرت حمامة فقال أتدرون ما تقول قالوا لاقال فانها تقول سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه وصاح قمري فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال فانه يقول سبحان ربي الأعلى قال والغراب يدعو على العشار والحدأة تقول كل شيء هالك إلا الله والقطاة تقول من سكت سلم والببغاء تقول ويل لمن الدنيا همه والضفدع يقول سبحان ربي القدوس والبازي يقول سبحان ربي وبحمده والضفدعة تقول سبحان المذكور بكل لسان وعن مكحول قال صاح دراج عند سليمان فقال ماتدرون مايقول قالوا لا قال فانه يقول الرحمن على العرش استوى وعن فرقد السنجي قال مر سليمان على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لأصحابه أتدرون مايقول هذا البلبل فقالوا الله ونبيه أعلم قال يقول أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء وروى أن جماعة من اليهود ، قالوا لابن عباس إنا سائلوك عن سبعة أشياء فان أخبرتنا آمنا وصدقنا قال سلوا تفقها ولاتسألوا تعنتا قالوا أخبرنا مايقول القنبر في صفيره والديك في صعيقه والضفدع في نقيقه والحمار في نهيقه والفرس في صهيله وماذا يقول الزرزور والدراج قال نعم أما القنبر فيقول اللهم العن مبغضي محمد وآل محمد وأما الديك فيقول اذكروا الله ياغافلون وأما الضفدع فيقول سبحان المعبود في لجج البحار وأما الحمار فيقول اللهم العن العشار وأما الفرس فيقول إذا التقى الصفان سبوح قدوس رب الملائكة والروح وأما

داود وزيد له تسخير الريح والجن والشياطين قال مقاتل كان سليمان أعظم ملكا من داود وأقضى منه وكان داود أشد تعبدا من سليمان وكان سليمان شاكرا لنعم الله تعالى (وقال) يعني سليمان (ياأيها الناس علمنا منطق الطير) سمى صوت الطير منطقا لحصول الفهم منه وروى عن كعب الأحبار قال صاح ورشان عند سليمان فقال أتدرون مايقول هذا قالوا لاقال إنه يقول لدوا للموت وابنوا للخراب وصاحت فاختة فقال أتدرون ماتقول قالوا لاقال إنها تقول ليت الخلق لم يخلقوا وصاح طاوس فقال أتدرون ما يقول قالوا لاقال إنه يقول كما تدين تدان وصاح هدهد فقال أتدرون ما يقول هذا قالوا لاقال إنه يقول من لايرحم لا يرحم وصاح صرد فقال أتدرون مايقول هذا قالوا لاقال إنه يقول استغفروا ربكم يا مذنبين وصاحت طيطوى فقال أتدرون ماتقول قالوا لاقال فانها تقول كل حي ميت وكل جديد بال وصاح خطاف فقال أتدرون مايقول قالوا لاقال إنه يقول قدموا خيرا تجدوه وهدرت حمامة قال أتدرون ما تقول قالوا لاقال إنها تقول سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه وصاح قمري قال أتدرون مايقول قالوا لاقال إنه يقول سبحان ربي الدائم قال والغراب يدعو على العشار والحدأة تقول كل شيء هالك إلا وجهه والقطاة تقول من سكت سلم والببغاء تقول ويل لمن كانت الدنيا همه والضفدع يقول سبحان ربي القدوس والبازي يقول سبحان ربي وبحمده والضفدعة تقول سبحان المذكور بكل لسان . وعن مكحول قال صاح دراج عند سليمان فقال أتدرون مايقول قالوا لاقال إنه يقول الرحمن على العرش استوى وقال فرقد مر سليمان على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لأصحابه أتدرون مايقول هذا البلبل قالوا الله ونبيه أعلم قال إنه يقول أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء وروى أن جماعة من اليهود قالوا لابن عباس إنا سائلوك عن سبعة أشياء إن أخبرتنا آمنا وصدقنا قال سلوا تفقها لاتعنتا قالوا أخبرنا ماتقول القنبرة في صفيرها والديك في صعيقه والضفدع في نقيقه والحمار في نهيقه والفرس في صهيله وماذا يقول الزرزور والدراج قال نعم أما القنبر فانه يقول اللهم العن مبغض محمد وآل محمد والديك يقول اذكروا الله ياغافلين وأما الضفدع فانه يقول سبحان الله المعبود في البحار

وأما الزرزور فيقول اللهم إنى أسألك قوت يوم بيوم يارزاق ، وأما الدراج فيقول الرحمن على العرش استوى قال فأسلم اليهود وحسن إسلامهم وروى عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده عن الحسين عن على قال « إذا صاح النسر قال ياابن آدم عش ماشئت آخره الموت وإذا صاح العقاب قال فى البعد من الناس أنس وإذا صاح القنبر قال إلهى العن مبغضى آل محمد وإذا صاح الخطاف قرأ الحمد لله رب العالمين ويمد الضالين كما يمد القارئ » قوله تعالى (وأوتينا من كل شئ) يؤتى الأنبياء والملوك قال ابن عباس من أمر الدنيا والآخرة ،وقال مقاتل (١٣٧) يعنى النبوة والملك وتسخير الجن والشياطين والرياح (إن هذا لهو الفضل المبين) الزيادة الظاهرة على ماأعطى غيرنا . وروى أن سليمان عليه السلام أعطى ملك مشارق الأرض ومغاربها فملك سبعمائة سنة وستة أشهر ، ملك جميع أهل الدنيا من الجن والإنس والدواب والطير والسباع وأعطى على ذلك منطق كل شئ وفى زمانه صنعت الصنائع العجيبة. قوله عز وجل (وحشر لسليمان)وجمع لسليمان(جنوده من الجن والإنس والطير) فى مسيره (فهو يوزعون) فهم يكفون قال قتادة كان على كل صنف من جنوده وزعة ترد أولها إلى آخرها لئلا يتقدموا فى المسير والوازع الحابس وهو النقيب وقال مقاتل يوزعون يساقون وقال السدى يوقفون وقيل يجمعون وأصل الوزع

الكف والمنع قال محمد بن كعب القرظى كان معسكر سليمان مائة فرسخ خمسة وعشرون منها للإنس وخمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للوحش وخمسة وعشرون للطير وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلثمائة منكوحة وسبعمائة سرية يأمر الريح العاصف فترفعه ويأمر الرخاء فتسير به فأوحى الله إليه وهو يسير بين السماء والأرض إنى قد زدت فى ملكك أنه لا يتكلم أحد من الخلائق بشىء إلا جاءت به الريح فأخبرتك . قوله عز وجل (حتى إذا أتوا على واد النمل) روى عن وهب بن منبه عن كعب قال كان سليمان إذا ركب حمل أهله وخدمه

وأما الحمار فانه يقول اللهم العن العشار وأما الفرس فانه يقول إذا التقى الجمعان سبوح قدوس رب الملائكة والروح وأما الزرزور فانه يقول اللهم إنى أسألك قوت يوم بيوم يارزاق وأما الدراج فانه يقول الرحمن على العرش استوى فأسلم هؤلاء اليهود وحسن إسلامهم وروى عن جعفر الصادق عن أبيه عن جده الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم قال إذا صاح النسر قال ياابن آدم عشت ماشئت آخره الموت وإذا صاح العقاب قال البعد من الناس أنس وإذا صاح القنبر قال إلهى العن مبغضى محمد وآل محمد وإذا صاح الخطاف قال الحمد لله رب العالمين ويمد العالمين كما يمد القارئ . وقوله تعالى (وأوتينا من كل شيء) أى مما أوتى الأنبياء والملوك قال ابن عباس من أمر الدنيا والآخرة وقيل النبوة والملك وتسخير الرياح والجن والشياطين (إن هذا لهو الفضل المبين) يعنى الزيادة الظاهرة على ماأعطى غيرنا وروى أن سليمان أعطى مشارق الأرض ومغاربها فملك ذلك أربعين سنة فملك جميع الدنيا من الجن والإنس والشياطين والطير والدواب والسباع وأعطى مع هذا منطق الطير ومنطق كل شيء وفى زمنه صنعت الصنائع العجيبة (وحشر) أى جمع (لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير) من الأماكن المختلفة فى مسير له (فهم يوزعون) أى يحبسون حتى يرد أولهم على آخرهم قيل كان على جنوده وزعة من النقباء ترد أولها على آخرها لئلا يتقدموا فى المسير قال محمد بن كعب القرظى كان معسكر سليمان مائة فرسخ خمسة وعشرون منها للانس وخمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للوحش وخمسة وعشرون للطير والفرسخ اثناعشر ألف خطوة فالبريد ثمانية وأربعون ألف خطوة لأنه أربع فراسخ فجملة ذلك خمسة وعشرون بريدا وقيل نسجت الجن له بساطا من ذهب وحرير فرسخا فى فرسخ وكان يوضع كرسيه فى وسطه فيقعد وحوله كراسى الذهب والفضة فيقعد الأنبياء على كراسى الذهب والعلماء على كراسى الفضة والناس حوله والجن والشياطين حول الناس والوحوش حولهم وتظله الطير بأجنحتها حتى لاتقع عليه شمس وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلثمائة منكوحة يعنى حرة وسبعمائة سرية فيأمر الريح العاصف فترفعه ثم يأمر الرخاء فتسير به وأوحى الله إليه وهو يسير بين السماء والأرض أنى قد زدت فى ملكك أنه لايتكلم أحد من الخلائق بشىء إلا جاءت الريح وأخبرتك به . قوله عز وجل (حتى إذا أتوا على وادى النمل) أى أشرفوا على وادى النمل روى عن كعب الأحبار قال كان سليمان إذا ركب حمل أهله وخدمه وحشمه وقد اتخذ مطابخ ومخابز فيها تنانير الحديد والقدور العظام تسع كل قدر عشرة من الإبل فيطبخ الطباخون

وحشمه وقد اتخذ مطابخ ومخابز يحمل فيها تنانير الحديد وقدور عظام يسع كل قدر عشر جزائر وقد اتخذ ميادين للدواب أمامه فيطبخ الطباخون ويخبز الخبازون وتجرى الدواب بين يديه بين السماء والأرض والريح تهوى بهم فسار من اصطخر إلى اليمن فسلك مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سليمان هذه دار هجرة نبي فى آخر الزمان طوبى لمن آمن به وطوبى لمن اتبعه ورأى حول البيت أصناما تعبد من دون الله . فلما جاوز سليمان البيت بكى البيت فأوحى الله إلى البيت مايبكيك فقال يارب أبكانى أن هذا نبي من أنبيائك وقوم من أوليائك مروا على فلم يهبطوا ولم يصلوا عندى والأصنام تعبد حولى من دونك فأوحى الله إليه أن لاتبك فانى سوف أملؤك وجوها سجدا وأنزل فيك قرآنا جديدا وأبعث منك نبيا فى آخر الزمان أحب أنبيائى إلى وأجعل فيك عمارا (١٣٨) من خلقى يعبدوننى وأفرض على عبادى فريضة يزفون إليك زفيف النسور إلى وكرها ويحنون إليك حنين الناقة إلى ولدها والحمامة إلى بيضتها وأطهرك من الأوثان وعبدة الشياطين ثم مضى سليمان حتى مر بوادى السدير واد من الطائف فأتى على وادي النمل هكذا قال كعب إنه واد بالطائف وقال قتادة ومقاتل هو أرض بالشام وقيل واد كان يسكنه الجن وأولئك النمل مراكبهم . وقال نوف الحميرى كان نمل ذلك الوادى أمثال الذباب وقيل كالبخاتى والمشهور أنه النمل الصغير وقال الشعبى كانت تلك النملة ذات جناحين وقيل كانت نملة عرجاء فنادت (قالت نملة ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم) لم تقل ادخلن لأنه لما جعل لهم قولا كالآدميين خوطبوا بخطاب الآدميين (لا يحطمنكم) لا يكسرنكم (سليمان وجنوده) والحطم الكسر (وهم لايشعرون) فسمع سليمان قولها وكان لا يتكلم خلق إلا حملت الريح ذلك فألقته فى مسامع سليمان قال مقاتل سمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال قال الضحاك كان اسم تلك النملة طاخية قال مقاتل كان اسمها جرمى . فان قيل كيف يتصور الحطم من سليمان وجنوده وكانت الريح تحمل سليمان وجنوده على بساط بين السماء والأرض قيل كانت جنوده ركبانا وفيهم مشاة على الأرض تطوى لهم ، وقيل يحتمل أن يكون هذا قبل تسخير الله الريح لسليمان . قال أهل التفسير علم النمل أن سليمان نبي ليس فيه جبرية ولا ظلم ، ومعنى الآية أنكم لو لم تدخلوا مساكنكم وطئوكم ولم يشعروا بكم ويروى أن سليمان لما بلغ وادى النمل حبس جنوده حتى دخل النمل بيوتهم . قوله عز وجل (فتبسم ضاحكا من قولها)

ويخبز الخبازون وهو بين السماء والارض واتخذ ميادين للدواب فتجرى بين يديه والريح تهوى به فصار من اصطخر يريد اليمن فسلك على مدينة الرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سليمان هذه دار هجرة نبي يكون فى آخر الزمان طوبى لمن آمن به وطوبى لمن اتبعه ولما وصل بمكة رأى حول البيت أصناما تعبد فجاوزه سليمان فلما جاوزه بكى البيت فأوحى الله إليه ما يبكيك قال يارب أبكانى هذا نبي من أنبيائك ومعه قوم من أوليائك مروا على ولم يهبطوا ولم يصلوا عندى والأصنام تعبد حولى من دونك فأوحى الله إليه لاتبك فانى سوف أملؤك وجوها سجدا وأنزل فيك قرآنا جديدا وأبعث منك نبيا فى آخر الزمان أحب أنبيائى إلى وأجعل فيك عمارا من خلقى يعبدوننى وأفرض عليهم فريضة يزفون إليك زفيف النسر إلى وكرها ويحنون إليك حنين الناقة إلى ولدها والحمامة إلى بيضها وأطهرك من الأوثان والأصنام والشيطان ثم مضى سليمان حتى مر بوادى السدير وادمن الطائف فأتى على وادى النمل كذا قال كعب الأحبار وقيل إنه بالشأم وقيل هو واد يسكنه الجن وذلك النمل مراكبهم وقيل إن ذلك النمل أمثال الذباب وقيل كالبخاتى والمشهور أنه النمل الصغير (قالت نملة) قيل كانت عرجاء وكانت ذات جناحين وقيل اسمها طاخية وقيل جرمى (ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم) ولم يقل أدخلن لأنه جعل لهم عقولا كالآدميين فخوطبوا خطاب الآدميين وهذا ليس بمستبعد أن يخلق الله فيها عقلا ونطقا فانه قادر على ذلك (لايحطمنكم) أى لايكسرنكم (سليمان وجنوده وهم لايشعرون) قال أهل التفسير علمت النملة أن سليمان نبي ليس فيه جبروتية ولا ظلم ومعنى الآية أنكم لو لم تدخلوا وطؤكم ولم يشعروا بكم فسمع سليمان قولها من ثلاثة أميال وكان لايتكلم أحد بشيء إلاحملته الريح حتى تلقيه إلى مسامع سليمان فلما بلغ وادى النمل حبس جنوده حتى دخلوا بيوتهم . فان قلت كيف يتصور الحطم من سليمان وجنوده وهو فوق البساط على متن الريح قلت كأنهم أرادوا النزول عند منقطع الوادى فلذلك قالت نملة لايحطمنكم سليمان وجنوده لأنهم مادامت الريح تحملهم لايخاف حطمهم (فتبسم ضاحكا من قولها) قيل أكثر ضحك الأنبياء تبسم وقيل معنى ضاحكا متبسما وقيل كان أوله التبسم وآخره الضحك (ق) عن عائشة

رضى

قال الزجاج أكثر ضحك الأنبياء التبسم ، وقوله ضاحكا أى متبسما قيل كان أوله التبسم وآخره الضحك. أخبرنا عبدالواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يحيى بن سليمان حدثنى ابن وهب أنا عمرو وهو ابن الحارث أنا أبو النضر حدثه عن سليمان بن يسار عن عائشة قالت : « ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعا قط ضاحكا حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسم » أخبرنا عبدالله بن عبد الصمد الجورجانى أنا أبوالقاسم الخزاعى أنا الهيثم بن كليب ثنا أبو عيسى ثنا قتيبة بن سعيد ثنا ابن لهيعة عن عبد الله بن المغيرة عن عبد الله بن الحارث بن جزء قال « ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم » . قال مقاتل كان ضحك سليمان من قول النملة تعجبا لأن الإنسان إذا رأى مالاعهد له به تعجب وضحك ثم حمد سليمان ربه على (١٣٩) ماأنعم عليه (وقال رب أوزعنى) ألهمنى (أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) أى أدخلنى فى جملتهم وأثبت اسمى مع أسمائهم واحشرنى فى زمرتهم قال ابن عباس يريد مع إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ومن بعدهم من النبيين ، وقيل أدخلنى الجنة برحمتك مع عبادك الصالحين . قوله عز وجل (وتفقد الطير) أى طلبها وبحث عنها والتفقد طلب مافقد ومعنى الآية طلب مافقد من الطير (فقال مالى لا أرى الهدهد) أى ما للهدهد لاأراه تقول العرب مالى أراك كئيبا أى مالك والهدهد طائر معروف وكان سبب تفقد الهدهد وسؤاله عنه قيل إخلاله بالنوبة وذلك أن سليمان كان إذا نزل منزلا يظله وجنده جناح الطير من الشمس فأصابته الشمس من موضع الهدهد فنظر فرآه خاليا . وروى عن ابن عباس أن الهدهد كان دليل سليمان على الماء وكان يعرف موضع الماء ويرى الماء تحت الأرض كما يرى فى الزجاجة ويعرف قربه وبعده فينقر الأرض ثم تجىء الشياطين فيسلخونه ويستخرجون الماء قال سعيد بن جبير لما ذكر ابن عباس هذا قال له نافع بن الأزرق ياوصاف انظر ماتقول إن الصبى منا يضع الفخ ويحثو عليه التراب فيجىء الهدهد ولا يبصر الفخ حتى يقع فى عنقه فقال له ابن عباس ويحك إن القدر إذا جاء حال دون البصر. وفى رواية إذا نزل القضاء والقدر ذهب اللب وعمى البصر فنزل سليمان منزلا فاحتاج إلى الماء فطلبوا فلم يجدوا فتفقد الهدهد ليدل على الماء فقال مالى لا أرى الهدهد على تقدير أنه مع جنوده وهو لايراه ثم أدركه الشك فى غيبته فقال (أم كان من الغائبين) يعنى أكان من الغائبين والميم صلة . وقيل أم بمعنى بل

رضى الله عنها قالت « ما رأيت النبى صلى الله عليه وسلم مستجمعا قط ضاحكا حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسم » عن عبد الله بن الحارث بن جزء قال « ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم » أخرجه الترمذى . فان قلت ما كان سبب ضحك سليمان . قلت شيئان : أحدهما مادل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم وذلك قولها وهم لايشعرون يعنى أنهم لو شعروا مايفعلون . الثانى سروره بما آتاه الله مما لم يأت أحدا من إدراك سمعه ماقالته النملة وقيل إن الإنسان إذا رأى أو سمع ما لاعهد له به تعجب وضحك ثم إن سليمان حمد ربه على ماأنعم به عليه (وقال رب أوزعنى) أى ألهمنى (أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) أى أدخلنى فى جملتهم وأثبت اسمى مع أسمائهم واحشرنى فى زمرتهم قال ابن عباس يريد مع إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ومن بعدهم من النبيين وقيل أدخلنى الجنة مع عبادك الصالحين . قوله عز وجل (وتفقد الطير) أى طلبها وبحث عنها والمعنى أنه طلب مافقد من الطير (فقال مالى لا أرى الهدهد) وكان سبب تفقده الهدهد وسؤاله عنه إخلاله بالنوبة وذلك أن سليمان كان إذا نزل منزلا تظله وجنده الطير من الشمس فأصابته الشمس من موضع الهدهد فنظر فرآه خاليا . وروى عن ابن عباس أنه كان دليله على الماء وكان يعرف موضع الماء ويرى الماء تحت الأرض كما يرى فى الزجاجة ويعرف قربه من بعده فينقر الأرض فتجىء الشياطين فيحفرونه ويستخرجون الماء منه قال سعيد بن جبير لما ذكر ابن عباس هذا قال نافع بن الأزرق ياوصاف انظر ماتقول إن الصبى منا يضع الفخ ويحثو عليه التراب فيجىء بالهدهد وهو لايبصر الفخ حتى يقع فى عنقه فقال له ابن عباس ويحك إذا جاء القدر حال دون البصر وفى رواية إذا نزل القضاء والقدر ذهب اللب وعمى البصر فنزل سليمان منزلا واحتاج إلى الماء فطلبوه فلم يجدوه فتفقد الهدهد ليدله على الماء فقال مالى لاأرى الهدهد على تقدير أنه مع جنوده وهو لايراه ثم إنه أدركه الشك فقال (أم كان من الغائبين) أى أكان وقيل بل

ثم أوعده على غيبته فقال (لأعذبنه عذابا شديدا) واختلفوا فى العذاب الذى أوعده به فأظهر الأقاويل أن ينتف ريشه وذنبه ويلقيه فى الشمس ممعطا لا يمتنع من النمل ولا من هوام الأرض وقال مقاتل بن حيان لأطلينه بالقطران ولأشمسنه . وقيل لأودعنه القفص وقيل لأفرقن بينه وبين إلفه وقيل لأحبسنه مع ضده (أو لأذبحنه) لأقطعن حلقه (أو ليأتينى بسلطان مبين) بحجة بينة فى غيبته وعذر ظاهر قرأ ابن كثير ليأتينني بنونين الأولى مشددة وقرأ الآخرون بنون واحدة مشددة . وكان سبب غيبته على ما ذكره العلماء أن سليمان لما فرغ من بناء بيت المقدس عزم على الخروج إلى أرض الحرم فتجهز للمسير واستصحب من الجن والإنس والشياطين والطيور والوحوش ما بلغ معسكره مائة فرسخ فحملتهم الريح فلما وافى الحرم أقام به ماشاء الله أن يقيم وكان (١٤٠) ينحر كل يوم بمقامه بمكة خمسة آلاف ناقة ويذبح خمسة آلاف ثور وعشرين ألف كبش وقال لمن حضره من أشراف قومه إن هذا مكان يخرج منه نبى عربى صفته كذا وكذا يعطى النصر على جميع من ناوأه وتبلغ هيبته مسيرة شهر القريب والبعيد عنده فى الحق سواء لا تأخذه فى الله لومة لائم قالوا فبأى دين يدين يانبى الله؟ قال يدين بدين الحنيفية البيضاء فطوبى لمن أدركه وآمن به فقالوا كم بيننا وبين خروجه يانبى الله ؟ قال مقدار ألف عام فليبلغ الشاهد منكم الغائب فانه سيد الأنبياء وخاتم الرسل قال فأقام بمكة حتى قضى نسكه ثم خرج من مكة صباحا وسار نحو اليمن فوافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضا حسناء تزهو خضرتها فأحب النزول بها ليصلى ويتغدى فلما نزل قال الهدهد إن سليمان قد اشتغل بالنزول فارتفع نحو السماء لينظر إلى طول الدنيا وعرضها ففعل ذلك فنظر يمينا وشمالا فرأى بستانا لبلقيس فمال إلى الخضرة فوقع فيه فاذا هو بهدهد فهبط عليه وكان اسم هدهد سليمان يعفور واسم هدهد اليمن يعفير فقال يعفير اليمن ليعفور سليمان من أين أقبلت وأين تريد ؟ قال أقبلت من الشام مع صاحبى سليمان بن داود فقال ومن سليمان قال ملك الجن والإنس والشياطين والطير والوحش والرياح فمن أين أنت ؟ قال أنا من هذه البلاد قال ومن ملكها ؟ قال امرأة يقال لها بلقيس وإن لصاحبكم ملكا عظيما ولكن ليس ملك بلقيس دونه فانها ملكة اليمن كلها وتحت يدها اثنا عشر ألف قائد تحت يد كل قائد مائة ألف مقاتل فهل أنت منطلق معى حتى تنظر إلى ملكها قال أخاف أن يفتقدنى

كان من أهل الغائبين ثم أوعده على غيبته فقال (لأعذبنه عذابا شديدا) قيل هو أن ينتف ريشه وذنبه ويلقيه فى الشمس ممعطا لا يمتنع من النمل ولا من غيره وقيل لأودعنه القفص ولأحبسنه مع ضده وقيل لافرق بينه وبين إلفه (أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين) أى بحجة بينة على غيبته وكان سبب غيبة الهدهد على ما ذكره العلماء أن سليمان لما فرغ من بناء بيت المقدس عزم على الخروج إلى أرض الحرم فتجهز للمسير واستصحب جنوده من الجن والإنس والطير والوحش فحملتهم الريح فلما وافى الحرم أقام ماشاء الله أن يقيم وكان فى كل يوم ينحر طول مقامه خمسة آلاف ناقة ويذبح خمسة آلاف ثور وعشرين ألف شاة وقال لمن يحضر من أشراف قومه إن هذا المكان يخرج منه نبى عربى صفته كذا وكذا يعطى النصرة على جميع من ناوأه وتبلغ هيبته مسيرة شهر ، القريب والبعيد عنده فى الحق سواء لا تأخذه فى الله لومة لائم قالوا فبأى دين يتدين يانبى الله قال بدين الحنيفية فطوبى لمن أدركه وآمن به قالوا كم بيننا وبين خروجه يانبى الله قال مقدار ألف سنة فليبلغ الشاهد الغائب فانه سيد الأنبياء وخاتم الرسل قال فأقام بمكة حتى قضى نسكه ثم خرج من مكة صباحا وسار نحو اليمن فوافى صنعاء زوالا أى وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضه حسناء تزهو خضرتها فأحب النزول بها ليصلى ويتغدى فلما نزل قال الهدهد اشتغل سليمان بالنزول فارتفع نحو السماء لينظر إلى الدنيا وعرضها فبينما هو ينظر يمينا وشمالا رأى بستانا لبلقيس فنزل إليه فاذا هو بهدهد آخر وكان اسم هدهد سليمان يعفور واسم هدهد اليمن يعفير فقال يعفير ليعفور من أين أقبلت وأين تريد قال أقبلت من الشام مع صاحبى سليمان بن داود قال ومن سليمان بن داود قال ملك الإنس والجن والشياطين والطير والوحش والرياح فمن أين أنت يايعفير قال أنا من هذه البلاد قال ومن ملكها قال امرأة يقال لها بلقيس وإن لصاحبك ملكا عظيما ولكن ليس ملك بلقيس دونه فانها تملك اليمن وتحت يدها أربعمائة ملك كل ملك على كورة مع كل ملك أربعة آلاف مقاتل ولها ثلثمائة وزير يدبرون ملكها ولها اثنا عشر ألف قائد مع كل

قائد

سليمان في وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء قال الهدهد اليمانى إن صاحبك يسره أن تأتيه بخبر هذه الملكة فانطلق معه ونظر إلى بلقيس وملكها وما رجع إلى سليمان إلا فى وقت العصر قال فلما نزل سليمان ودخل عليه وقت الصلاة وكان نزل على غير ماء فسأل الإنس والجن والشياطين عن الماء فلم يعلموا فتفقد الطير ففقد الهدهد فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عن الهدهد فقال أصلح الله الملك ما أدرى أين هو وما أرسلته إلى مكان فغضب عند ذلك سليمان وقال «لأعذبنه عذابا شديدا» الآية ثم دعا العقاب سيد الطير فقال على بالهدهد الساعة فرفع العقاب نفسه دون السماء حتى التزق بالهواء فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدى أحدكم ثم التفت يمينا وشمالا فاذا هو بالهدهد مقبلا من (١٤١) نحو اليمن فانقض العقاب نحوه يريده فلما رأى الهدهد ذلك علم أن العقاب يقصده بسوء فناشده فقال بحق الله الذى قواك وأقدرك على إلا رحمتنى ولم تتعرض لى بسوء قال فولى عنه العقاب وقال له ويلك ثكلتك أمك إن نبى الله قد حلف أن يعذبك أو يذبحك ثم طارا متوجهين نحو سليمان فلما انتهيا إلى العسكر تلقاه النسر والطير فقالوا له ويلك أين غبت فى يومك هذا ولقد توعدك نبى الله وأخبراه بما قال فقال الهدهد أو ما استثنى رسول الله قالوا بلى قال أو ليأتينى بسلطان مبين قال فنجوت إذا ثم طار العقاب والهدهد حتى آتيا سليمان وكان قاعدا على كرسيه فقال العقاب قد أتيتك به يانبي الله فلما قرب الهدهد منه رفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض تواضعا لسليمان فلما دنا منه أخذ برأسه فمده إليه وقال له أين كنت لأعذبنك عذابا شديدا فقال الهدهد يانبي الله اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى فلما سمع سليمان ذلك ارتعد وعفا عنه ثم سأله فقال ما الذى أبطأ بك عنى؟ فقال الهدهد ما أخبر الله عنه فى قوله (فمكث) قرأ عاصم ويعقوب فمكث بفتح الكاف وقرأ الآخرون بضمها وهما لغتان (غير بعيد) أي غير طويل (فقال أحطت بما لم تحط به) والإحاطة العلم بالشىء من جميع جهاته يقول علمت مالم تعلم وبلغت مالم تبلغه أنت ولا جنودك (وجئتك من سبأ) قرأ أبو عمرو والبزى عن ابن كثير من سبأ ولسبأ فى سورة سبأ مفتوحة الهمزة وقرأ القواس عن ابن كثير ساكنة بلاهمز وقرأ الآخرون بالجر فمن لم يجره جعله اسم البلد ومن جره جعله اسم رجل فقدجاء

قائد اثنا عشر ألف مقاتل فهل أنت منطلق معى حتى تنظر إلى ملكها قال أخاف أن يفقدنى سليمان فى وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء قال الهدهد اليمانى إن صاحبك يسره أن تأتيه بخبر هذه الملكة قال فانطلق معه ونظر إلى بلقيس وملكها وأما سليمان فانه نزل على غير ماء فسأل عن الماء الإنس والجن فلم يعلموا فتفقد الهدهد فلم يره فدعا بعريف الطير وهو النسر فسأله عن الهدهد فقال أصلح الله الملك ما أدرى أين هو وما أرسلته إلى مكان فغضب سليمان وقال لأعذبنه الآية ثم دعا العقاب وهو أشد الطير فقال له على بالهدهد هذه الساعة فرفع العقاب فى الهواء حتى رأى الدنيا كالقصعة بين يدى أحدكم ثم التفت يمينا وشمالا فرأى الهدهد مقبلا من نحو اليمن فانقض العقاب يريده فعلم الهدهد أن العقاب يقصده بسوء فقال له بحق الله الذى قواك وأقدرك علي إلا مارحمتنى ولم تتعرض لى بسوء فتركه العقاب وقال ويحك ثكلتك أمك إن نبى الله قد حلف أن يعذبك أو أن يذبحك ثم طارا متوجهين نحو سليمان فلما انتهيا إلى العسكر تلقاه النسر والطير فقالوا ويلك أين غبت فى يومك هذا فلقد توعدك نبى الله وأخبروه بما قال سليمان فقال الهدهد أو ما استثنى نبى الله قالوا بلى ولكنه قال أو ليأتينى بسلطان مبين قال نجوت إذا فانطلق به العقاب حتى أتيا سليمان وكان قاعدا على كرسيه فقال العقاب قد أتيتك به يانبي الله فلما قرب منه الهدهد رفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض تواضعا لسليمان فلما دنا منه أخذ برأسه فمده إليه وقال له أين كنت لأعذبنك عذابا شديدا فقال يانبي الله اذكر وقوفك بين يدى الله فلما سمع سليمان ذلك ارتعد وعفا عنه ثم قال ما الذى أبطأك عنى فقال الهدهد ما أخبر الله عنه بقوله تعالى (فمكث غير بعيد) معناه أى غير طويل (فقال أحطت بما لم تحط به) أى علمت مالم تعلم وبلغت مالم تبلغ أنت ولا جنودك ألهم الله الهدهد هذا الكلام فكافح سليمان تنبيها على أن أدنى خلق الله قد أحاط علما بما لم يحط به ليكون لطفا له فى ترك الاعجاب . والإحاطة بالشىء علما أن يعلمه من جميع جهاته حتى لايخفى عليه منه معلوم (وجئتك من سبأ) قيل هو اسم للبلد وهى مأرب والأصح أنه اسم رجل وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وقد جاء فى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم

فى الحديث « أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن سبأ فقال كان رجلا له عشرة من البنين تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة (بنبأ) بخبر (يقين) فقال سليمان وما ذاك قال (إنى وجدت امرأة تملكهم) وكان اسمها بلقيس بنت شراحيل من نسل يعرب بن قحطان وكان أبوها ملكا عظيم الشأن قد ولد له أربعون ملكا هو آخرهم وكان يملك أرض اليمن كلها وكان يقول لملوك الأطراف ليس أحد منكم كفؤا لى وأبى أن يتزوج فيهم فزوجوه امرأة من الجن يقال لها ريحانة بنت السكن فولدت له بلقيس ولم يكن له ولد غيرها وجاء فى الحديث أن إحدى أبوى بلقيس كان جنيا ، فلما مات أبو بلقيس طمعت فى الملك فطلبت من قومها أن يبايعوها فأطاعها (١٤٢) قوم وعصاها قوم آخرون فملكوا عليهم رجلا وافترقوا فرقتين كل فرقة استولت على طرف من أرض اليمن ، ثم إن الرجل الذى ملكوه أساء السيرة فى أهل مملكته حتى كان يمد يده إلى حرم رعيته ويفجر بهن فأراد قومه خلعه فلم يقدروا عليه فلما رأت ذلك بلقيس أدركتها الغيرة فأرسلت إليه تعرض نفسها عليه فأجابها الملك وقال مامنعنى أن أبتدئك بالخطبة إلا اليأس منك فقالت لا أرغب عنك لأنك كفؤ كريم فاجمع رجال قومى واخطبنى إليهم فجمعهم وخطبها إليهم فقالوا لا نراها تفعل هذا فقال لهم إنها ابتدأتنى فأنا أحب أن تسمعوا قولها فجاءوها فذكروا لها فقالت نعم أحببت الولد فزوجوها منه فلما زفت إليه خرجت فى أناس كثير من حشمها فلما جاءته سقته الخمر حتى سكر ثم حزت رأسه وانصرفت من الليل إلى منزلها فلما أصبح الناس رأوا الملك قتيلا ورأسه منصوب على باب دارها فلما رأوا وعلموا أن تلك المناكحة كانت مكرا وخديعة منها اجتمعوا إليها وقالوا أنت بهذا الملك أحق من غيرك فملكوها. أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عثمان بن الهيثم أنا عوف عن الحسن عن أبى بكرة رضى الله عنه قال لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل فارس ملكوا عليهم بنت كسرى قال « لن

سئل عن سبأ فقال رجل له عشرة من البنين تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة (بنبأ) أى بخبر (يقين) فقال سليمان وما ذاك فقال (إنى) أى الهدهد (وجدت امرأة تملكهم) هى بلقيس بنت شراحيل من نسل يعرب بن قحطان وكان أبوها ملكا عظيم الشأن قد ولد له أربعون ملكا هو آخرهم وكان يملك أرض اليمن كلها وكان يقول لملوك الأطراف ليس أحد منكم كفؤا لى وأبى أن يتزوج منهم فخطب إلى الجن فزوجوه منهم امرأة يقال لها ريحانة بنت السكن. قيل فى سبب وصوله إلى الجن حتى خطب منهم أنه كان كثير الصيد فربما اصطاد الجن وهم على صورة الظباء فيخلى عنهم فظهر له ملك الجن وشكره على ذلك واتخذه صديقا فخطب ابنته فزوجه إياها وقيل إنه خرج متصيدا فرأى حيتين يقتتلان بيضاء وسوداء وقد ظهرت السوداء على البيضاء فقتل السوداء وحمل البيضاء وصب عليها الماء فأفاقت وأطلقها فلما رجع إلى داره وجلس وحده منفردا فاذا معه شاب جميل فخاف منه قال لا تخف أنا الحية البيضاء التى أحييتنى والأسود الذى قتلته هو عبد لنا تمرد علينا وقتل عدة منا وعرض عليه المال فقال المال لاحاجة لى به ولكن إن كان لك بنت فزوجنيها فزوجه ابنته فولدت له بلقيس وجاء فى الحديث « إن أحد أبوى بلقيس كان جنيا » فلما مات أبو بلقيس طمعت فى الملك وطلبت قومها أن يبايعوها فأطاعها قوم وأبى آخرون وملكوا عليهم رجلا آخر يقال إنه ابن أخى الملك وكان خبيثا سيء السيرة فى أهل مملكته حتى كان يمد يده إلى حريم رعيته ويفجر بهن فأراد قومه خلعه فلم يقدروا عليه فلما رأت بلقيس ذلك أدركتها الغيرة فأرسلت إليه فعرضت نفسها عليه فأجابها الملك وقال ما منعنى أن أبتدئك بالخطبة إلا اليأس منك فقالت لا أرغب عنك لأنك كفؤ كريم فاجمع رجال أهلى واخطبنى منهم فجمعهم وخطبها فقالوا لا نراها تفعل فقال بلى إنها قد رغبت فى فذكروا ذلك لها فقالت نعم فزوجوها منه فلما زفت إليه خرجت فى ملأ كثير من خدمها وحشمها فلما دخلت به سقته الخمر حتى سكر ثم قتلته وحزت رأسه وانصرفت إلى منزلها من الليل فلما أصبحت أرسلت إلى وزرائه وأحضرتهم وقرعتهم وقالت أما كان فيكم من يأنف لكريمته أو كرائم عشيرته ثم أرتهم إياه قتيلا وقالت اختاروا رجلا تملكونه عليكم فقالوا لانرضى غيرك فملكوها وعلموا أن ذلك النكاح كان مكرا وخديعة منها (خ) عن أبى بكرة قال لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل فارس

قد

يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » قوله تعالى (وأوتيت من كل شئ) يحتاج إليه الملوك من الآلة والعدة (ولها عرش عظيم) سرير ضخم كان مضروبا من الذهب مكللا بالدر والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر وقوائمه من الياقوت والزمرد عليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق قال ابن عباس كان عرش بلقيس ثلاثين ذراعا فى ثلاثين وطوله فى السماء ثلاثون ذراعا . وقال مقاتل كان طوله ثمانين ذراعا وطوله فى الهواء ثمانين ذراعا وقيل كان طوله ثمانين ذراعا وعرضه أربعين ذراعا وارتفاعه ثلاثين ذراعا (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ألا يسجدوا) قرأ أبو جعفر والكسائى ألا يسجدوا بالتخفيف (١٤٣) وإذا وقفوا يقولون ألا يا ثم يبتدءون اسجدوا على معنى ألا يا هؤلاء اسجدوا جعلوه أمرا من عند الله مستأنفا وحذفوا هؤلاء اكتفاء بدلالة يا عليها ، وذكر بعضهم سماعا من العرب ألا يا ارحمونا يريدون ألا ياقوم قال الأخطل :

ألا يا اسلمى ياهند هند بنى بكر
وإن كان حيانا عدا آخر الدهر

يريد ألا ياهند اسلمى وعلى هذا يكون قوله إلا كلاما معترضا من غير القصة إما من الهدهد وإما من سليمان ، قال أبو عبيدة هذا أمر من الله مستأنف : يعنى ألا أيها الناس اسجدوا ، وقرأ الآخرون ألا يسجدوا بالتشديد بمعنى وزين لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا (الله الذى يخرج الخبء) أى الخفى المخبأ (فى السموات والأرض) أى ماخبأت قال أكثر المفسرين خبء السماء المطر وخبء الأرض النبات وفى قراءة عبدالله يخرج الخبأ من السموات والأرض ومن وفى يتعاقبان تقول العرب لأستخرجن العلم فيكم يريد منكم وقيل معنى الخبء الغيب يريد يعلم غيب السموات والأرض (ويعلم ما تخفون وما تعلنون) قرأ الكسائى وحفص عن عاصم بالتاء فيهما لأن أول الآية خطاب على قراءة الكسائى بتخفيف ألا وقرأ الآخرون بالياء (الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) أى هو المستحق للعبادة والسجود لا غيره وعرش ملكة سبأ وإن كان عظيما فهو صغير حقير فى جنب عرشه عز وجل ، تم هاهنا كلام الهدهد فلما فرغ الهدهد من كلامه (قال) سليمان للهدهد (سننظر أصدقت) فيما أخبرت (أم كنت من الكاذبين) فدلهم الهدهد على الماء فاحتفروا الركايا . وروى الناس والدواب ثم كتب سليمان كتابا : من عبدالله سليمان بن داود

قد ملكوا عليهم بنت كسرى قال « لن يفلح قوم ملكوا عليهم امرأة » . قوله تعالى (وأوتيت من كل شئ) يعنى ما تحتاج إليه الملوك من المال والعدة (ولها عرش عظيم) أى سرير ضخم عال . فإن قلت كيف استعظم الهدهد عرشها على ما رأى من عظمة ملك سليمان . قلت يحتمل أنه استعظم ذلك بالنسبة إليها ويحتمل أنه لم يكن لسليمان مع عظم ملكه مثله وكان عرش بلقيس من الذهب مكللا بالدر والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر وقوائمه من الياقوت والزمرد وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق قال ابن عباس : كان عرش بلقيس ثلاثين ذراعا فى ثلاثين ذراعا وطوله فى السماء ثلاثون ذراعا . وقيل كان طوله ثمانين فى ثمانين وعلوه ثمانون وقيل كان طوله ثمانين وعرضه أربعين وارتفاعه ثلاثون ذراعا . قوله عز وجل إخبارا عن الهدهد (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) وذلك أنهم كانوا يعبدون الشمس وهم مجوس (وزين لهم الشيطان أعمالهم) المزين هو الله لأنه الفعال لما يريد وإنما ذكر الشيطان لأنه سبب الاغواء (فصدهم عن السبيل) أى عن طريق الحق الذى هو دين الإسلام (فهم لا يهتدون) أى إلى الصواب (ألا يسجدوا) قرئ بالتخفيف ومعناه ألا يا أيها الناس اسجدوا وهو أمر من الله مستأنف وقرئ بالتشديد ومعناه وزين لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا (لله الذى يخرج الخبء) يعنى الخفى المخبأ (فى السموات والأرض) قيل خبء السموات المطر وخبء الأرض النبات (ويعلم ما تخفون وما تعلنون) والمقصود من هذا الكلام الرد على من يعبد الشمس وغيرها من دون الله لأنه لا يستحق العبادة إلا من هو قادر على من فى السموات والأرض عالم بجميع المعلومات (الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) أى هو المستحق للعبادة والسجود لا غيره .

(فصل)

وهذه السجدة من عزائم السجود يستحب للقارئ والمستمع أن يسجد عند قراءتها . فإن قلت قد وصف عرش بلقيس بالعظم وعرش الله بالعظم فما الفرق بينهما . قلت وصف عرش بلقيس بالعظم بالنسبة إليها وإلى أمثالها من ملوك الدنيا وأما عرش الله تعالى فهو بالنسبة إلى جميع المخلوقات من السموات والأرض فحصل الفرق بينهما فلما فرغ الهدهد من كلامه (قال) سليمان (سننظر أصدقت) أى فيما أخبرت (أم كنت من الكاذبين) ثم إن الهدهد

إلى بلقيس ملكة سبأ بسم الله الرحمن الرحيم : السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فلا تعلوا على وأتونى مسلمين قال ابن جريج لم يزد سليمان على ما نص الله فى كتابه وقال قتادة وكذلك كل الأنبياء كانت تكتب جملا لا يطيلون ولا يكثرون فلما كتب الكتاب طبعه بالمسك وختمه بخاتمه فقال للهدهد (اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ساكنة الهاء ويختلسها أبو جعفر ويعقوب وقالون كسرا والآخرون بالاشباع كسرا (ثم تول عنهم) تنح عنهم فكن قريبا منهم (فانظر ماذا يرجعون) يردون من الجواب وقال ابن زيد فى الآية تقديم وتأخير مجازها اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم أى انصرف إلى فأخذ الهدهد الكتاب فأتى به إلى بلقيس وكانت بأرض يقال لها مأرب من صنعاء على ثلاثة أيام فوفاها فى قصرها وقد غلقت (١٤٤) الأبواب وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب وأخذت المفاتيح فوضعتها تحت رأسها فأتاها الهدهد وهى نائمة مستلقية على قفاها فألقى الكتاب على نحرها هذا قول قتادة وقال مقاتل حمل الهدهد الكتاب بمنقاره حتى وقف على رأس المرأة وحولها القادة والجنود فرفرف ساعة والناس ينظرون إليه حتى رفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب فى حجرها وقال ابن منبه وابن زيد كانت لها كوة مستقبلة الشمس تقع الشمس فيها حين تطلع فاذا نظرت إليها سجدت لها فجاء الهدهد الكوة فسدها بجناحه فارتفعت الشمس ولم تعلم فلما استبطأت الشمس قامت تنظر فرمى بالصحيفة إليها فأخذت بلقيس الكتاب وكانت قارئة فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت لأن ملك سليمان كان فى خاتمه وعرفت أن الذى أرسل الكتاب إليها أعظم ملكا منها فقرأت الكتاب وتأخر الهدهد غير بعيد فجاءت حتى قعدت على سرير ملكها وجمعت الملأ من قومها وهم اثنا عشر ألف قائد مع كل قائد مائة ألف مقاتل ، وعن ابن عباس قال كان مع بلقيس مائة ألف قيل كان مع كل مائة ألف ، والقيل الملك دون الملك الأعظم وقال قتادة ومقاتل كان أهل مشورتها ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا كل رجل منهم على عشرة آلاف ، قال فجاءوا وأخذوا مجالسهم (قالت) لهم بلقيس (يا أيها الملأ) وهم أشراف الناس وكبراؤهم (إنى ألقى إلى كتاب كريم) قال عطاء والضحاك سمته كريما لأنه كان مختوما وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « كرامة الكتاب ختمه » وقال قتادة ومقاتل كتاب كريم أى حسن وهو اختيار الزجاج وقال

دلهم على الماء فاحتفروا الركايا وروى الناس والدواب ، ثم إن سليمان كتب كتابا : من عبدالله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ « بسم الله الرحمن الرحيم السلام على من اتبع الهدى أما بعد أن لا تعلوا على وأتونى مسلمين قيل لم يزد على ما نص الله فى كتابه وكذلك الأنبياء كانوا يكتبون جملا لا يطيلون ولا يكثرون فلما كتب سليمان الكتاب طبعه بالمسك وختمه بخاتمه وقال للهدهد (اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم) إنما قال إليهم بلفظ الجمع لأنه جعله جوابا لقول الهدهد وجدتها وقومها يسجدون للشمس فقال فألقه إلى الذين هذا دينهم (ثم تول عنهم) أى تنح عنهم فقف قريبا منهم (فانظر ماذا يرجعون) أى يردون من الجواب وقيل تقدير الآية فألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم أى انصرف إلى فأخذ الهدهد الكتاب وأتى به إلى بلقيس وكانت بأرض مأرب من اليمن على ثلاث مراحل من صنعاء فوجدها نائمة مستلقية على قفاها وقد غلقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها وكذلك كانت تفعل إذا رقدت فأتى الهدهد وألقى الكتاب على نحرها وقيل حمل الهدهد الكتاب بمنقاره حتى وقف على المرأة وحولها القادة والوزراء والجنود فرفرف ساعة والناس ينظرون فرفعت بلقيس رأسها فألقى الكتاب فى حجرها وقال وهب بن منبه كانت لها كوة مستقبلة الشمس تقع فيها حين تطلع فاذا نظرت إليها سجدت لها فجاء الهدهد وسد الكوة بجناحيه فارتفعت الشمس ولم تعلم فلما استبطأت الشمس قامت تنظر فرمى بالصحيفة إليها فأخذت بلقيس الكتاب وكانت قارئة فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت لأن ملك سليمان كان فى خاتمه وعرفت أن الذى أرسل الكتاب أعظم ملكا منها فقرأت الكتاب وتأخر الهدهد غير بعيد وجاءت هى حتى قعدت على سرير ملكها وجمعت الملأ من قومها وهم الأشراف وقال ابن عباس كان مع بلقيس مائة قيل مع كل قيل مائة ألف والقيل ملك دون الملك الأعظم وقيل كان أهل مشورتها ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا كل رجل منهم على عشرة آلاف فلما جاءوا وأخذوا مجالسهم (قالت) لهم بلقيس (يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم) قيل سمته كريما لأنه كان مختوما روى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « كرامة الكتاب ختمه »

وقال حسن مافيه وروى عن ابن عباس كريم أى شريف لشرف صاحبه . وقيل سمته كريما لأنه كان مصدرا ببسم الله الرحمن الرحيم . ثم بينت الكتاب فقالت (إنه من سليمان) وبينت المكتوب فقالت (وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألاتعلوا على) قال ابن عباس أى لاتتكبروا على وقيل لاتتعظموا ولاتترفعوا على وقيل معناه لاتمتنعوا على من الإجابة فان ترك الإجابة من العلو والتكبر (وأتونى مسلمين) مؤمنين طائعين قيل هو من الإسلام وقيل هو من الاستسلام (قالت ياأيها الملأ أفتونى في أمرى) أشيروا على فيما عرض لى وأجيبونى فيما أشاوركم فيه (ماكنت قاطعة) قاضية وفاصلة (أمرا حتى تشهدون) أى تحضرون (قالوا) مجيبين لها (نحن أولوا قوة) فى القتال (وأولوا بأس شديد) عند الحرب. قال مقاتل أرادوا بالقوة كثرة العدد وبالبأس الشديد الشجاعة وهذا تعريض منهم بالقتال إن أمرتهم بذلك ثم قالوا (والأمر إليك) أيتها الملكة فى القتال وتركه (فانظرى) من الرأى (ماذا تأمرين) تجدينا لأمرك مطيعين (قالت) بلقيس مجيبة لهم عن التعريض للقتال (إن الملوك إذا دخلوا قرية) عنوة (أفسدوها) خربوها (وجعلوا أعزة أهلها أذلة) أى أهانوا أشرافها وكبراءها كى يستقيم لهم الأمر تحذرهم مسير سليمان إليهم ودخوله بلادهم وتناهى الخبر عنها هاهنا فصدق الله قولها فقال (وكذلك يفعلون) أى كما قالت هى يفعلون ثم قالت (وإنى مرسلة إليهم بهدية) والهدية هى العطية على طريق الملاطفة وذلك أن بلقيس كانت امرأة لبيبة قد سيست وساست فقالت للملأ من قومها إنى مرسلة إليهم أى إلى سليمان وقومه بهدية أصانعه بها عن ملكى ، وأختبره بها أملك هوأم نبى ؟ فان يكن ملكا قبل الهدية وانصرف وإن كان نبيا لم يقبل الهدية ولم يرضه منا إلا أن نتبعه على دينه فذلك قوله تعالى (فناظرة بم يرجع المرسلون) فأهدت إليه وصفاء ووصائف . قال ابن عباس ألبستهم لباسا واحدا كى لايعرف الذكر من الأنثى وقال مجاهد ألبس الغلمان لباس الجوارى وألبس الجوارى لبسة الغلمان . واختلفوا فى عددهم فقال

وقال ابن عباس كريم أى شريف لشرف صاحبه ثم بينت ممن الكتاب فقالت (إنه من سليمان) قرأت المكتوب فيه فقالت (وإنه بسم الله الرحمن الرحيم) فان قلت لم قدم إنه من سليمان على بسم الله . قلت ليس هو كذلك بل ابتدأ سليمان ببسم الله الرحمن الرحيم وإنما ذكرت بلقيس أن هذا الكتاب من سليمان ثم ذكرت مافى الكتاب فقالت وإنه بسم الله الرحمن الرحيم (ألا تعلوا على) قال ابن عباس لاتتكبروا على والمعنى لاتمتنعوا من الإجابة فان ترك الإجابة من العلو والتكبر (وأتونى مسلمين) أى طائعين مؤمنين وقيل من الاستسلام وهو الانقياد (قالت ياأيها الملأ أفتونى فى أمرى) أى أشيروا على فيما عرض لى(ماكنت قاطعة أمرا) أى قاضية وفاصلة (حتى تشهدون) أى تحضرون (قالوا) يعنى الملأ مجيبين لها (نحن أولوا قوة) أى فى الجسم على القتال (وأولوا بأس شديد) أى عند الحرب وقيل أرادوا بالقوة كثرة العدد والبأس والشجاعة وهذا تعريض منهم بالقتال أى إن أمرتهم بذلك ثم قالوا (والأمر إليك) أيتها الملكة أى فى القتال وتركه (فانظرى ماذا تأمرين) أى تجدين مطيعين لأمرك (قالت) بلقيس مجيبة لهم عن التعريض للقتال وما يئول إليه أمره (إن الملوك إذا دخلوا قرية) أى عنوة (أفسدوها) أى خربوها (وجعلوا أعزة أهلها أذلة) أى أهانوا أشرافها وكبراءها كى يستقيم لهم الأمر تحذرهم بذلك مسير سليمان إليهم ودخوله بلادهم ثم تناهى الخبر عنها هنا وصدق الله قولها فقال تعالى (وكذلك يفعلون) أى كما قالت هى يفعلون وقيل هو من قولها وهو للتأكيد لما قالت ثم قالت (وإنى مرسلة إليهم بهدية) يعنى إلى سليمان وقومه أصانعه بها على ملكى وأختبره بها أملك هو أم نبى فان كان ملكا قبل الهدية ورجع وإن كان نبيا لم يقبل الهدية ولم يرضه منا إلا أن نتبعه فى دينه وهو قولها (فناظرة بم يرجع المرسلون) وذلك أن بلقيس كانت امرأة لبيبة عاقلة قد ساست الأمور وجربتها فأهدت وصفاء ووصائف قال ابن عباس مائة وصيف ومائة وصيفة قال وهب وغيره عمدت بلقيس إلى خمسمائة غلام وخمسمائة جارية فألبست الجوارى لبس الغلمان الأقبية والمناطق وألبست الغلمان لبس الجوارى وجعلت فى أيديهم أساور الذهب وفى أعناقهم أطواق الذهب وفى آذانهم أقرطة وشنوفا مرصعات بأنواع الجواهر وحملت الجوارى على خمسمائة رمكة والغلمان على خمسمائة برذون على كل فرس سرج من الذهب مرصع بالجواهر وأغشية الديباج وبعثت إليه لبنات من الذهب ولبنات من الفضة وتاجا مكللا بالدر والياقوت وأرسلت بالمسك والعنبر والعود اليلنجوج

ابن عباس مائة وصيف ومائة وصيفة وقال مجاهد ومقاتل مائتا غلام ومائتا جارية وقال قتادة وسعيد بن جبير ارسلت إليه بلبنة من ذهب فى حرير وديباج وقال ثابت البنانى أهدت إليه صفائح الذهب فى أوعية الديباج وقيل كانت أربع لبنات من ذهب وقال وهب وغيره عمدت بلقيس إلى خمسمائة غلام وخمسمائة جارية فألبست الغلمان لباس الجوارى وجعلت فى سواعدهم أساور من ذهب وفى أعناقهم أطواقا من ذهب وفى آذانهم أقراطا وشنوفا مرصعات بأنواع الجواهر وألبست الجوارى لباس الغلمان الأقبية والمناطق وحملت الجوارى على خمسمائة رمكة والغلمان على خمسمائة برذون على كل فرس لجام من ذهب مرصع بالجواهر وغواشيها من الديباج الملون وبعثت إليه خمسمائة لبنة من ذهب وخمسمائة لبنة من فضة وتاجا مكللا بالدر والياقوت المرتفع وأرسلت إليه المسك والعنبر والعود اليلنجوج وعمدت إلى حقة فجعلت فيها درة ثمينة غير مثقوبة وخرزة جزعية مثقوبة معوجة الثقب ودعت رجلا من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو وضمت إليه رجالا من قومهما أصحاب رأى وعقل وكتبت معه كتابا بنسخة الهدية وقالت فيه: إن كنت نبيا فميزلى بين الوصائف والوصفاء وأخبرنى بما فى الحقة قبل أن تفتحها واثقب الدر ثقبا مستويا وأدخل خيطا فى الخرزة المثقوبة من غير علاج إنس ولا جن وأمرت بلقيس الغلمان فقالت إذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء وأمرت الجوارى أن يكلمنه بكلام فيه غلظة تشبه كلام الرجال ثم قالت للرسول انظر إلى الرجل إذا دخلت عليه فان نظر إليك نظر غضب فاعلم أنه ملك ولا يهولنك منظره فأنا أعز منه وإن رأيت الرجل بشاشا لطيفا فاعلم أنه نبى مرسل فتفهم قوله ورد الجواب، فانطلق الرسول بالهدايا وأقبل الهدهد مسرعا إلى سليمان فأخبره الخبر كله فأمر سليمان الجن أن يضربوا لبنات الذهب ولبنات الفضة ففعلوا ثم أمرهم أن يبسطوا من موضعه الذى هو فيه إلى تسعة فراسخ ميدانا واحدا بلبنات الذهب والفضة وأن يجعلوا حول الميدان حائطا شرفها من الذهب والفضة ثم قال أى الدواب أحسن مما رأيتم فى البر والبحر ؟ قالوا يانبى الله إنا رأينا

وعمدت إلى حق جعلت فيه درة بقيمة ثمينة غير مثقوبة وخرزة جزع معوجة الثقب ودعت رجلا من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو وضمت إليه رجالا من قومها أصحاب عقل ورأى وكتبت مع المنذر كتابا تذكر فيه الهدية وقالت إن كنت نبيا ميز بين الوصفاء والوصائف وأخبرنا بما فى الحق قبل أن تفتحه واثقب الدرة ثقبا مستويا وأدخل فى الخرزة خيطا من غير علاج إنس ولا جن وأمرت بلقيس الغلمان فقالت إذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء وأمرت الجوارى أن يكلمنه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال ثم قالت للرسول انظر إلى الرجل إذا دخلت فان نظر إليك نظرا فيه غضب فاعلم أنه ملك فلا يهولنك أمره ومنظره فانا أعز منه وإن رأيت الرجل بشاشا لطيفا فافهم أنه نبى فتفهم قوله ورد الجواب فانطلق الرسول بالهدايا وأقبل الهدهد مسرعا إلى سليمان فأخبره الخبر فأمر سليمان الجن أن يضربوا لبنا من الذهب والفضة ففعلوا وأمرهم بعمل ميدان مقدار تسعة فراسخ وأن يفرشوا لبن الذهب والفضة وأن يخلوا مقدار تلك اللبنات التى معهم وأن يعملوا حائطا شرفه من الذهب والفضة ففعلوا ثم قال أى دواب البر والبحر أحسن فقالوا يانبى الله ما رأينا أحسن من دابة من دواب البحر يقال لها كذا وكذا مختلفة ألوانها لها أجنحة وأعراف ونواص قال على بها الساعة فأتوا بها قال شدوها بين يمين الميدان وشماله ثم قال للجن على بأولادكم فاجتمع منهم خلق كثير فأقامهم عن يمين الميدان وشماله ثم قعد سليمان فى مجلسه على سريره ووضع له أربعة آلاف كرسى على يمين الميدان وعلى شماله وأمر الإنس والجن والشياطين والوحوش والطير والسباع فاصطفوا فراسخ عن يمينه وشماله فلما دنا القوم إلى الميدان ونظروا إلى ملك سليمان رأوا أول الأمر الدواب التى لا يرى مثلها تروث فى لبنات الذهب والفضة فلما رأوا ذلك تقاصرت أنفسهم وخبئوا مامعهم من الهدايا وقيل إن سليمان فرش الميدان بلبنات الذهب والفضة وترك على طريقهم موضعا على قدر ما معهم من اللبن فى ذلك الموضع فلما رأى الرسل موضع اللبنات خاليا خافوا أن يتهموا بذلك فوضعوا مامعهم من اللبن فى ذلك الموضع ولما رأوا الشياطين هالهم مارأوا وفزعوا فقالت لهم الشياطين جوزوا لابأس عليكم فكانوا يمرون على كراديس الإنس والجن والوحش والطير حتى وقفوا بين يدى سليمان فأقبل عليهم بوجه طلق وتلقاهم تلقيا حسنا وسألهم عن حالهم فأخبره رئيس القوم بما جاءوا فيه وأعطوه كتاب الملكة فنظر فيه وقال أين الحق فأتى به فحركه فجاءه جبريل

دواب في بحر كذا وكذا منقطة مختلفة ألوانها لها أجنحة وأعراف ونواص فقال على بها الساعة فأتوا بها فقال شدوها عن يمين الميدان وعن يساره على لبنات الذهب والفضة وألقوا لها علوفتها فيها ثم قال للجن على بأولادكم فاجتمع خلق كثير فأقامهم على يمين الميدان ويساره ثم قعد سليمان في مجلسه على سريره ووضع له أربعة آلاف كرسي عن يمينه ومثلها عن يساره وأمر الشياطين أن يصطفوا صفوفا فراسخ وأمر الإنس فاصطفوا فراسخ وأمر الوحوش والسباع والهوام والطير فاصطفوا فراسخ عن يمينه وعن يساره ، فلما دنا القوم من الميدان ونظروا إلى ملك سليمان ورأوا الدواب التي لم تر أعينهم مثلها تروث على لبن الذهب والفضة تقاصرت أنفسهم ورموا بما معهم من الهدايا وفي بعض الروايات أن سليمان لما أمر بفرش الميدان بلبنات الذهب والفضة أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعا على قدر موضع اللبنات التي معهم فلما رأى الرسل موضع اللبنات خاليا وكانت الأرض مفروشة خافوا أن يتهموا بذلك فطرحوا مامعهم في ذلك المكان فلما رأوا الشياطين نظروا إلى منظر عجيب ففزعوا فقالت لهم الشياطين جوزوا فلا بأس عليكم فكانوا يمرون على كردوس كردوس من الجن والإنس والطير والهوام والسباع والوحوش حتى وقفوا بين يدي سليمان فنظر إليهم سليمان نظرا حسنا بوجه طلق وقال ماوراءكم فأخبره رئيس القوم بما جاءوا له وأعطاه كتاب الملكة (١٤٧) فنظر فيه ثم قال أين الحقة فأتى بها فحركها وجاء جبريل فأخبره بما في الحقة فقال إن فيها درة ثمينة غير مثقوبة وجزعة مثقوبة معوجة الثقب فقال الرسول صدقت فاثقب الدرة وأدخل الخيط في الخرزة فقال سليمان من لى بثقبها فسأل سليمان الأنس ثم الجن فلم يكن عندهم علم ذلك ثم سأل الشياطين فقالوا نرسل إلى الأرضة فجاءت الأرضة فأخذت شعرة في فيها فدخلت فيها حتى خرجت من الجانب الآخر فقال لها سليمان ماحاجتك فقالت تصير رزقي في الشجر فقال لك ذلك وروى أنها جاءت دودة تكون في الصفصاف فقالت أنا أدخل الخيط في الثقب على أن يكون رزقي في الصفصاف فجعل لها ذلك فأخذت الخيط بفيها ودخلت الثقب وخرجت من الجانب الآخر ثم قال من لهذه الخرزة فيسلكها في الخيط فقالت دودة بيضاء أنا لها يارسول الله فأخذت الدودة الخيط في فيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر فقال لها سليمان ماحاجتك فقالت تجعل رزقي في الفواكه قال لك ذلك ثم ميز بين الجواري والغلمان بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم فجعلت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها ثم تجعله على اليد الأخرى ثم تضرب به الوجه والغلام كما يأخذه من الآنية يضرب به وجهه وكانت الجارية تصب الماء على بطن ساعدها والغلام على ظهر الساعد وكانت الجارية تصب الماء صبا وكان الغلام يحدر الماء على يديه حدرا فميز بينهم بذلك ثم رد سليمان الهدية كما قال الله تعالى (فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال) قرأ حمزة ويعقوب أتمدونى بنون واحدة مشددة وإثبات الياء وقرأ الآخرون بنونين خفيفين ويثبت الياء أهل الحجاز والبصرة والآخرون يحذفونها (فما آتاني الله) أعطاني الله من النبوة والدين والحكمة والملك (خير) أفضل (مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون) لأنكم أهل مفاخرة في الدنيا ومكاثرة بها تفرحون بإهداء بعضكم إلى بعض . فأما أنا فلا أفرح بها وليست الدنيا من حاجتي لأن الله تعالى قد

فأخبره بما فيه فقال لهم أن فيه درة ثمينة غير مثقوبة وخرزة معوجة الثقب قال الرسول صدقت فاثقب الدرة وأدخل الخيط في الجزعة فقال سليمان من لى بثقبها وسأل الإنس والجن فلم يكن عندهم علم ثم سأل الشياطين فقالوا نرسل إلى الأرضة فلما جاءت الأرضة أخذت شعرة في فيها ودخلت فيها حتى خرجت من الجانب الآخر فقال لها سليمان ماحاجتك قالت تصير رزقي في الشجر فقال لك ذلك ثم قال من لى بهذه الخرزة فقالت دودة بيضاء أنا لها يانبي الله فأخذت الدودة الخيط في فيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر فقال لها سليمان ماحاجتك فقالت يكون رزقي في الفواكه قال لك ذلك ثم ميز بين الغلمان والجواري بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم فجعلت الجارية تأخذ الماء بيدها وتضرب بها الأخرى وتغسل وجهها والغلام يأخذ الماء بيديه ويغسل به وجهه وكانت الجارية تصب الماء على باطن ساعدها والغلام على ظاهره فميز بين الغلمان والجواري ثم رد سليمان الهدية كما أخبر الله تعالى فقال تعالى (فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله) أي ما أعطاني من الدين والنبوة والحكمة والملك (خير) أي أفضل (مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون) معناه أنتم أهل مفاخرة ومكاثرة بالدنيا تفرحون بإهداء بعضكم إلى بعض وأما أنا فلا أفرح بالدنيا وليست الدنيا من حاجتي لأن الله قد أعطاني منها مالم يعط أحدا ومع ذلك أكرمني بالدين والنبوة ، ثم قال للمنذر بن عمرو أمير

مكنى فيها وآعطانى منها مالم يعط أحدا ومع ذلك أكرمنى بالدين والنبوة ثم قال للمنذر بن عمرو أمير الوفد (ارجع إليهم) بالهدية (فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم) لاطاقة لهم (بها ولنخرجنهم منها) أى من أرضهم وبلادهم وهى سبأ (أذلة وهم صاغرون) ذليلون إن لم يأتونى مسلمين قال وهب وغيره من أهل الكتب فلما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان قالت قد عرفت والله ما هذا بملك وما لنا به طاقة فبعثت إلى سليمان إنى قادمة عليك بملوك قومى حتى أنظر ما أمرك وما تدعو إليه من دينك ثم أمرت بعرشها فجعل فى آخر سبعة أبيات بعضها فى بعض فى آخر قصر من سبعة قصور لها ثم أغلقت دونه الأبواب ووكلت به حراسا يحفظونه ثم قالت لمن خلفت على سلطانها احتفظ بما قبلك وسرير ملكى لا يخلص إليه أحد ولا يقربه حتى آتيك ثم أمرت مناديا ينادى فى أهل (١٤٨) مملكتها يؤذنهم بالرحيل وشخصت إلى سليمان فى اثنى عشر ألف قيل من ملوك اليمن تحت يدى كل قيل ألوف كثيرة . قال ابن عباس وكان سليمان رجلا مهيبا لا يبتدأ بشئ حتى يكون هو الذى يسأل عنه فخرج يوما فجلس على سرير ملكه فرأى رهجا قريبا منه فقال ماهذا قالوا بلقيس وقد نزلت منا بهذا المكان وكان على مسيرة فرسخ من سليمان . قال ابن عباس وكان بين الكوفة والحيرة مسيرة قدر فرسخ فأقبل سليمان حينئذ على جنوده ف(قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين) أي مؤمنين وقال ابن عباس طائعين . واختلفوا فى السبب الذى لأجله أمر سليمان باحضار عرشها فقال أكثرهم لأن سليمان علم أنها إن أسلمت يحرم عليه مالها فأراد أن يأخذ سريرها قبل أن يحرم عليه أخذه باسلامها وقيل ليريها قدرة الله وعظم سلطانه فى معجزة يأتى بها فى عرشها وقال قتادة لأنه أعجبته صفته لما وصفه الهدهد فأحب أن يراه قال ابن زيد أراد أن يأمر بتنكره وتغييره ليختبر بذلك عقلها (قال عفريت من الجن) وهو المارد القوى قال وهب اسمه كوذى وقيل ذكوان قال ابن عباس العفريت الداهية وقال الضحاك هو الخبيث ، وقال الربيع الغليظ قال الفراء القوى الشديد وقيل هو صخرة الجنى وكان بمنزلة جبل يضع قدمه عند منتهى طرفه (أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) أى من مجلسك الذى تقضى فيه قال ابن عباس وكان له كل غداة مجلس يقضى فيه إلى متسع النهار (وإنى عليه) أى على حمله (لقوي أمين) على ما فيه من الجواهر فقال سليمان أريد أسرع من هذا ف(قال الذي عنده علم من الكتاب)

الوفد (ارجع إليهم) أى بالهدية (فلنأتينهم بجنود لا قبل) أى لا طاقة (لهم بها ولنخرجنهم منها) أى من أرض سبأ (أذلة وهم صاغرون) أى إن لم يأتونى مسلمين قال وهب وغيره من أهل الكتاب : لما رجعت رسل بلقيس إليها أى من عند سليمان وبلغوها ما قال سليمان قالت والله لقد عرفت ما هذا بملك وما لنا به من طاقة . فبعثت إلى سليمان إنى قادمة عليك بملوك قومى حتى أنظر ما أمرك وما الذى تدعو إليه من دينك ثم أمرت بعرشها فجعلته فى آخر سبعة أبيات بعضها داخل بعض ثم أغلقت عليه سبعة أبواب ووكلت به حراسا يحفظونه ثم قالت لمن خلفت على ملكها احتفظ بما قبلك وسرير ملكى لا يخلص إليه أحد . ثم أمرت مناديا ينادى فى أهل مملكتها تؤذنهم بالرحيل وشخصت إلى سليمان فى اثنى عشر ألف قيل من ملوك اليمن كل قيل تحت يده ألوف كثيرة قال ابن عباس وكان سليمان رجلا مهيبا لا يبتدأ بشىء حتى يكون هو الذى يسأل عنه فخرج يوما فجلس على سريره فرأى رهجا قريبا منه قال ما هذا ؟ قالوا بلقيس قد نزلت منا بهذا المكان وكان على مسيرة فرسخ من سليمان فأقبل سليمان على جنوده (قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين) قال ابن عباس يعنى طائعين وقيل مؤمنين . قيل غرض سليمان فى إحضار عرشها ليريها قدرة الله تعالى وإظهار معجزة دالة على نبوته وقيل أراد أن ينكره ويغيره قبل مجيئها ليختبر بذلك عقلها وقيل إن سليمان علم أنها إن أسلمت يحرم عليه مالها فأراد أن يأخذ سريرها قبل أن يحرم عليه أخذه لانه أعجبه وصفه لما وصفه له الهدهد وقيل أراد أن يعرف قدر ملكها لأن السرير على قدر المملكة (قال عفريت من الجن) وهو المارد القوى وقال ابن عباس العفريت الداهية قال وهب اسمه كوذى وقيل ذكوان وقيل هو صخر المارد وكان مثل الجبل يضع قدمه عند منتهى طرفه (أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) أى مجلس قضائك قال ابن عباس وكان له فى الغداة مجلس يقضى فيه إلى متسع النهار وقيل نصفه (وإنى عليه) أى على حمله (لقوى أمين) أى على ما فيه من الجواهر وغيرها قال سليمان أريد أسرع من ذلك (قال الذى عنده علم من الكتاب) قيل هو جبريل وقيل هو ملك أيد الله به سليمان وقيل هو آصف بن برخيا وكان

واختلفوا فيه فقال بعضهم هو جبريل وقيل هو ملك من الملائكة أيد الله به نبيه سليمان وقال أكثر المفسرين هو آصف ابن برخيا وكان صديقا يعلم اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى وروي جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال إن آصف قال لسليمان حين صلى مد عينيك حتى ينتهى طرفك فمد سليمان عينيه فنظر نحو اليمن فدعا آصف فبعث الله الملائكة فحملوا السرير من تحت الأرض يخدون به خدا حتى انخرقت الأرض بالسرير بين يدى سليمان وقال الكلبى خر آصف ساجدا ودعا باسم الله الأعظم فغار عرشها تحت الأرض حتى نبع عند كرسى سليمان وقيل كانت المسافة مقدار شهرين واختلفوا فى الدعاء الذى دعا آصف ▪ فقال مجاهد ومقاتل ياذا الجلال والإكرام وقال الكلبي ياحي ياقيوم وروى ذلك عن عائشة وروى عن (١٤٩) الزهرى قال دعاء الذى عنده علم من الكتاب يا إلهنا وإله كل شىء إلها واحدا لا إله إلا أنت ائتنى بعرشها وقال محمد بن المنكدر إنما هو سليمان قال له عالم من بنى إسرائيل آتاه الله علما وفهما (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك قال سليمان هات قال أنت النبى ابن النبى وليس أحد أوجه عند الله منك فإن دعوت الله وطلبت إليه كان عندك فقال صدقت ففعل ذلك فجىء بالعرش فى الوقت وقوله تعالى «قبل أن يرتد إليك طرفك» قال سعيد بن جبير يعنى من قبل أن يرجع إليك أقصى من ترى وهو أن يصل إليك من كان منك على مد بصرك قال قتادة قبل أن يأتيك الشخص من مد البصر وقال مجاهد يعنى إدامة النظر حتى يرتد الطرف خاسئا قال وهب تمد عينيك فلا ينتهى طرفك إلى مداه حتى أمثله بين يديك (فلما رآه) يعنى رأى سليمان العرش (مستقرا عنده) محمولا إليه من مأرب إلى الشام فى قدر ارتداد الطرف (قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر) نعمه (أم أكفر) فلا أشكرها (ومن شكر فإنما يشكر لنفسه) أى يعود نفع شكره إليه وهو أن يستوجب به تمام النعمة ودوامها لأن الشكر قيد النعمة الموجودة وصيد النعمة المفقودة (ومن كفر فإن ربى غنى) عن شكره (كريم) بالإفضال على من يكفر نعمه قوله تعالى (قال نكروا لها عرشها) يقول غيروا سريرها إلى حال تنكره إذا رأته قال قتادة ومقاتل هو أن يزاد فيه وينقص منه . وروى أنه جعل أسفله أعلاه وأعلاه أسفله وجعل مكان الجوهر الأحمر أخضر ومكان الأخضر أحمر (ننظر أتهتدى) إلى عرشها فتعرفه (أم تكون من) الجاهلين (الذين لا يهتدون) إليه وإنما حمل سليمان على ذلك كما ذكره وهب ومحمد بن كعب وغيرهما أن

وكان صديقا يعلم اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى وقيل هو سليمان نفسه لأنه أعلم بنى إسرائيل بالكتاب وكان الله قد آتاه علما وفهما فعلى هذا يكون المخاطب العفريت الذى كلمه فأراد سليمان إظهار معجزة فتحداهم أولا ثم بين للعفريت أنه يأتى له من سرعة الإتيان بالعرش مالا يتأتى للعفريت قيل كان الدعاء الذى دعا به : ياذا الجلال والإكرام وقيل ياحى ياقيوم . وروى ذلك عن عائشة وروى عن الزهرى قال دعاء الذى عنده علم من الكتاب : يا إلهنا وإله كل شىء إلها واحدا لا إله إلا أنت ائتنى بعرشها وقال ابن عباس إن آصف قال لسليمان حين صلى مد عينيك حتى ينتهى طرفك فمد سليمان عينيه ونظر نحو اليمن ودعا آصف فبعث الله الملائكة فحملوا السرير يجرون به تحت الأرض حتى نبع من بين يدى سليمان وقيل خر سليمان ساجدا ودعا باسم الله الأعظم فغاب العرش تحت الأرض حتى ظهر عند كرسى سليمان فقال ماقال (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) قال سليمان هات قال أنت النبى ابن النبى وليس أحد عند الله أوجه منك فإن دعوت الله كان عندك قال صدقت ففعل ذلك فجىء بالعرش فى الوقت (فلما رآه) يعنى رأى سليمان العرش (مستقرا عنده) أى محولا إليه من مأرب إلى الشام فى قدر ارتداد الطرف (قال هذا من فضل ربى ليبلونى) يعنى لتمكن من حصول المراد (أأشكر) أى نعمته على (أم أكفر) فلا أشكرها (ومن شكر فإنما يشكر لنفسه) أى يعود نفع شكره إليه وهو أن يستوجب به تمام النعمة ودوامها لأن الشكر قيد النعمة الموجودة وصيد النعمة المفقودة (ومن كفر فإن ربى غنى) أى عن شكره لا يضره ذلك الكفران (كريم) يعنى بالإفضال عليه لا يقطع نعمه عنه بسبب إعراضه عن الشكر وكفران النعمة (قال نكروا لها عرشها) يعنى غيروا سريرها إلى حال تنكره إذا رأته قيل هو أن يزاد فيه أو ينتقص منه وقيل إنما يجعل أسفله أعلاه ويجعل مكان الجوهر الأحمر أخضر ومكان الأخضر أحمر (ننظر أتهتدى) إلى معرفة عرشها (أم تكون من الذين لا يهتدون) إلى معرفته وإنما حمل سليمان على ذلك ماقال وهب ومحمد بن كعب وغيرهما أن الشياطين خافت

الشياطين خافت ان يتزوجها سليمان فتفشى إليه أسرار الجن وذلك أن أمها كانت جنية وإذا ولدت له ولدا لاينفكون من تسخير سليمان وذريته ومن بعده فأساءوا الثناء عليها ليزهدوه فيها وقالوا إن فى عقلها شيئا وإن رجلها كحافر الحمار وإنها شعراء الساقين فأراد سليمان أن يختبر عقلها بتنكير عرشها وينظر إلى قدميها ببناء الصرح (فلما جاءت قيل) لها (أهكذا عرشك قالت كأنه هو) قال مقاتل عرفته ولكنها شبهت عليهم كما شبهوا عليها وقال عكرمة كانت حكيمة لم تقل نعم خوفا من أن تكذب ولم تقل لاخوفا من التكذيب قالت كأنه هو فعرف سليمان كمال عقلها حيث لم تقر ولم تنكر وقيل اشتبه عليها أمر العرش لأنه تركته فى بيت خلف سبعة أبواب مغلقة والمفاتيح معها قيل لها فانه عرشك فما أغنى عنك إغلاق الأبواب فقالت (وأوتينا العلم) (١٥٠) بصحة نبوة سليمان بالآيات المتقدمة من أمر الهدهد والرسل (من قبلها) من قبل الآية فى العرش (وكنا مسلمين) منقادين طائعين لأمر سليمان وقيل قوله وأوتينا العلم من قبلها قاله سليمان يقول وأوتينا العلم بالله وبقدرته على مايشاء من قبل هذه المرأة وكنا مسلمين هذا قول مجاهد وقيل معناه وأوتينا العلم باسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها وكنا مسلمين طائعين لله قوله عز وجل (وصدها ما كانت تعبد من دون الله) أى منعها ما كانت تعبد من دون الله وهو الشمس أن تعبد الله أى صدها عبادة الشمس عن التوحيد وعبادة الله فعلى هذا التأويل يكون ما فى محل الرفع وقيل معناه صدها عن عبادة الله نقصان عقلها كما قالت الجن إن فى عقلها شيئا بل ما كانت تعبد من دون الله وقيل معناه دواب وصدها سليمان ما كانت تعبد من دون الله أى منعها من ذلك وحال بينها وبينه فيكون محل ما نصبا (إنها كانت من قوم كافرين) هذا استئناف أخبر الله تعالى أنها كانت من قوم يعبدون الشمس فنشأت بينهم ولم تعرف إلا عبادة الشمس. قوله (قيل لها أدخلى الصرح) الآية وذلك أن سليمان أراد أن ينظر إلى قدميها وساقيها من غير أن يسألها كشفهما لما قالت الشياطين إن رجليها كحافر الحمار وهى شعراء الساقين أمر الشياطين فبنوا له صرحا أي قصرا من زجاج. وقيل بيتا من زجاج كأنه الماء بياضا وقيل الصرح صحن الدار وأجرى تحته الماء وألقى فيه كل شئ من دواب البحر السمك والضفادع وغيرهما ثم وضع سريره فى صدره وجلس عليه وعكفت عليه الطير والجن والإنس وقيل اتخذ صحنا من قوارير وجعل تحتها تماثيل من الحيتان والضفادع فكان الواحد إذا رآه ظنه ماء وقيل إنما بنى الصرح ليختبر عقلها وفهمها كما فعلت هى بالوصائف

أن يتزوجها سليمان فتفشى إليه أسرار الجن لأن أمها كانت جنية وإذا ولدت ولدا لاينفكون من تسخير سليمان وذريته من بعده فأساءوا الثناء عليها ليزهدوه فيها وقالوا إن فى عقلها شيئا وإن رجلها كحافر الحمار وإنها شعراء الساقين فأراد سليمان أن يختبر عقلها بتنكير عرشها وينظر إلى قدميها ببناء الصرح (فلما جاءت قيل) لها (أهكذا عرشك قالت كأنه هو) قيل إنها عرفته ولكن شبهت عليهم كما شبهوا عليها وقيل إنها كانت حكيمة لم تقل نعم خوفا من الكذب ولا قالت لا خوفا من التكذيب أيضا فقالت كأنه هو فعرف سليمان كمال عقلها بحيث لم تقر ولم تنكر وقيل اشتبه عليها أمر العرش لأنها تركته فى بيت عليه سبعة أبواب مغلقة والمفاتيح معها قيل لها فانه عرشك فما أغنى عنك إغلاق الأبواب ثم قالت (وأوتينا العلم من قبلها) يعنى من قبل الآية فى العرش (وكنا مسلمين) يعنى منقادين مطاعين خاضعين لأمر سليمان وقيل قوله تعالى وأوتينا العلم أى بالله وبصحة نبوة سليمان بالآيات المتقدمة من أمر الهدهد والرسل من قبلها أى من قبل الآية فى العرش وكنا مسلمين أو معناه وأوتينا العلم بالله وبقدرته على مايشاء من قبل هذه المرأة وكنا مسلمين ويكون الغرض من هذا شكر نعمة الله عليه أن خصه بمزيد العلم والتقدم فى الإسلام وقيل معناه وأوتينا العلم باسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها طائعة وكنا مسلمين لله. قوله تعالى (وصدها ما كانت تعبد من دون الله) يعنى منعتها عبادة الشمس عن التوحيد وعبادة الله وقيل معناه صدها سليمان عما كانت تعبد من دون الله وحال بينها وبينه (إنها كانت من قوم كافرين) أخبر الله أنها كانت من قوم يعبدون الشمس فنشأت بينهم ولم تعرف إلا عبادة الشمس (قيل لها ادخلى الصرح) وذلك أن سليمان لما اختبر عقلها بتنكير العرش وأراد أن ينظر إلى قدميها وساقيها من غير أن يسألها كشفهما لما أخبرته الجن أن رجليها كحافر حمار وهى شعراء الساقين أمر الشياطين فعملوا لها قصرا من الزجاج الأبيض كالماء وقيل الصرح صحن الدار وأجرى تحته الماء وألقى فيه السمك والضفادع وغيرهما من

والوصيفات فلما جلس على السرير دعا بلقيس فلما جاءت قيل لها ادخلي الصرح (فلما رأته حسبته لجة) وهى معظم الماء (وكشفت عن ساقيها) لتخوضه إلى سليمان فنظر سليمان فاذا هى أحسن الناس قدما وساقا إلا أنها كانت شعراء الساقين فلما رأى سليمان ذلك صرف بصره عنها وناداها (قال إنه صرح ممرد) مملس مستو (من قوارير) وليس بماء. ثم إن سليمان دعاها إلى الإسلام وكانت قد رأت حال العرش والصرح فأجابت و (قالت رب إنى ظلمت نفسى) بالكفر وقال مقاتل لما رأت السرير والصرح علمت أن ملك سليمان من الله فقالت رب إنى ظلمت نفسى بعبادة غيرك (وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) أى أخلصت له التوحيد وقيل إنها لما بلغت الصرح فظنته لجة قالت فى نفسها إن سليمان يريد أن يغرقنى وكان القتل على أهون من هذا فقولها ظلمت نفسى تعنى بذلك الظن . واختلفوا فى أمرها بعد إسلامها فقال عون بن عبدالله سأل رجل عبد الله بن عتبة هل تزوجها سليمان فقال انتهى أمرها إلى قولها (١٥١) أسلمت مع سليمان لله رب العالمين يعنى لا علم لنا وراء ذلك. وقال بعضهم تزوجها ولما أراد أن يتزوجها كره ما رأى من كثرة شعر ساقيها فسأل الإنس ما يذهب هذا قالوا الموسى فقالت المرأة لم تمسنى حديدة قط فكره سليمان الموسى وقال إنها تقطع ساقيها قال الحسن فسأل الجن فقالوا لا ندرى ثم سأل الشياطين فقالوا إنا نحتال لك حتى تكون كالفضة البيضاء فاتخذوا النورة والحمام فكانت النورة والحمامات من يومئذ فلما تزوجها سليمان أحبها حبا شديدا وأقرها على ملكها وأمر الجن فابتنوا لها بأرض اليمن ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها ارتفاعا وحسنا وهى سالحين وبينون وغمدان ثم كان سليمان يزورها فى كل شهر مرة بعد أن ردها إلى ملكها ويقيم عندها ثلاثة أيام يبتكر من الشام إلى اليمن ومن اليمن إلى الشام وولدت له فيما ذكر وروى عن وهب قال زعموا أن بلقيس لما أسلمت قال لها سليمان اختارى رجلا من قومك أزوجكه قالت ومثلى يانبى الله ينكح الرجال وقد كان لى فى قومى من الملك والسلطان ما كان قال نعم إنه لا يكون فى الإسلام إلا ذلك ولا ينبغى لك أن تحرمى ما أحل الله لك فقالت زوجنى إن كان لابد من ذلك ذا تبع ملك همدان فزوجها إياه ثم ردها إلى اليمن وسلط زوجها ذا تبع على اليمن ودعا زوبعة أمير الجن باليمن فقال اعمل لذى تبع ما استعملك فيه فلم يزل بها ملكا يعمل له فيها ما أراد حتى مات سليمان فلما أن حال الحول وتبينت الجن موت سليمان أقبل رجل منهم فسلك تهامة حتى إذا كان فى جوف اليمن صرخ بأعلى صوته يامعشر الجن إن الملك سليمان قد مات فارفعوا أيديكم فرفعوا أيديهم وتفرقوا وانقضى ملك ذى تبع وملك بلقيس مع ملك سليمان . وقيل

دواب البحر ثم وضع سريره فى صدر المجلس وجلس عليه وقيل إنما عمل الصرح ليختبر به فهمها كما فعلت فى الوصفاء والوصائف . فلما جلس على السرير دعا بلقيس ولما جاءت قيل لها ادخلى الصرح (فلما رأته حسبته لجة) أى ماء عظيما (وكشفت عن ساقيها) لتخوض الماء إلى سليمان فاذا هى أحسن النساء ساقا وقدما إلا أنها كانت شعراء الساقين فلما نظر سليمان ذلك صرف بصره عنها (قال إنه صرح ممرد) أى مملس (من قوارير) زجاج وليس بماء فحينئذ سترت ساقيها وعجبت من ذلك وعلمت أن ملك سليمان من الله تعالى واستدلت بذلك على التوحيد والنبوة (قالت رب إنى ظلمت نفسى) بعبادة غيرك (وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) أى أخلصت له التوحيد والعبادة وقيل إنها لما بلغت الصرح وظنته لجة قالت فى نفسها إن سليمان يريد أن يغرقنى وكان القتل أهون من هذا فلما تبين لها خلاف ذلك قالت رب إنى ظلمت نفسى بذلك الظن . واختلفوا فى أمر بلقيس بعد إسلامها فقيل انتهى أمرها إلى قولها أسلمت لله رب العالمين ولا علم لأحد وراء ذلك لأنه لم يذكر فى الكتاب ولا فى خبر صحيح وقال بعضهم تزوجها سليمان وكره ما رأى من كثرة شعر ساقيها فسأل الإنس عما يذهب ذلك فقالوا الموسى فقالت المرأة إنى لم يمسنى حديد قط فكره سليمان الموسى وقال إنها تقطع ساقيها فسأل الجن فقالوا لا ندرى فسأل الشياطين فقالوا نحتال لك حتى تكون كالفضة البيضاء فاتخذوا النورة والحمام فكانت النورة والحمامات من يومئذ . فلما تزوجها سليمان أحبها حبا شديدا وأقرها على ملكها وأمر الجن فابتنوا لها بأرض اليمن ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها ارتفاعا وحسنا وهى سلحين وبينون وغمدان ثم كان سليمان يزورها فى كل شهر مرة ويقيم عندها ثلاثة أيام يبكر من الشام إلى اليمن ومن اليمن إلى الشام وولدت له ولدا ذكرا . وقال وهب زعموا أن بلقيس لما أسلمت قال لها سليمان اختارى رجلا من قومك حتى أزوجك إياه فقالت ومثلى يانبى الله ينكح الرجال وقد كان لى من قومى الملك والسلطان قال نعم إنه لا يكون فى الإسلام إلا ذلك ولا ينبغى لك أن تحرمى ما أحل الله قالت فان كان ولابد فزوجنى ذا تبع

إن الملك وصل إلى سليمان وهو ابن ثلاث عشرة سنة ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة قوله عز وجل (ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن) أى بأن (اعبدوا الله) وحده (فاذا هم فريقان) مؤمن وكافر (يختصمون) فى الدين . قال مقاتل واختصامهم ماذكر فى سورة الأعراف «قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم» إلى قوله «ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين» («قال) لهم صالح (ياقوم لم تستعجلون بالسيئة) بالبلاء والعقوبة (قبل الحسنة) العافية والرحمة (لولا) هلا (تستغفرون الله) بالتوبة من كفركم (لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا) أى تشاءمنا وأصله تطيرنا (بك وبمن معك) قيل إنما قالوا ذلك لتفرق كلمتهم، وقيل لأنه أمسك عنهم المطر فى ذلك الوقت وقحطوا فقالوا أصابنا هذا الضر والشدة من شؤمك وشؤم أصحابك (١٥٢) (قال طائركم عند الله) أى مايصيبكم من الخير والشر عند الله بأمره وهو مكتوب عليكم سمى طائرا لسرعة نزوله بالإنسان فانه لاشىء أسرع من قضاء محتوم قال ابن عباس الشؤم أتاكم من عند الله لكفركم وقيل طائركم أى عملكم عند الله سمى طائرا لسرعة صعوده إلى السماء (بل أنتم قوم تفتنون) قال ابن عباس تختبرن بالخير والشر نظيره قوله تعالى «ونبلوكم بالشر والخير فتنة» وقال محمد بن كعب القرظى تعذبون قوله تعالى (وكان فى المدينة) يعنى مدينة ثمود وهى الحجر (تسعة رهط) من أبناء أشرافهم (يفسدون فى الأرض ولايصلحون) وهم الذين اتفقوا على عقر الناقة وهم غواة قوم صالح ورأسهم قدار بن سالف وهو الذى تولى عقرها كانوا يعملون بالمعاصى (قالوا تقاسموا بالله) تحالفوا أى يقول بعضهم لبعض احلفوا بالله أيها القوم وموضع تقاسموا جزم على الأمر وقال قوم محله نصب على الفعل الماضى يعنى أنهم تحالفوا وتواثقوا تقديره فقالوا متقاسمين بالله (لنبيتنه) أى لنقتلنه بياتا أى ليلا (وأهله) أى قومه الذين أسلموا معه وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى لتبيتنه ولتقولن بالتاء فيهما وضم لام الفعل على الخطاب وقرأ الآخرون بالنون فيهما وفتح لام الفعل (ثم لنقولن لوليه) أى لولى دمه (ماشهدنا) ماحضرنا (مهلك أهله) أى إهلاكهم ولاندرى من قتله ومن فتح الميم فمعناه هلاك أهله (وإنا لصادقون) فى قولنا ماشهدنا ذلك (ومكروا مكرا) غدروا غدرا حين قصدوا تبييت صالح والفتك به (ومكرنا مكرا) جزيناهم على مكرهم بتعجيل عقوبتهم (وهم لايشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا) قرأ أهل الكوفة أنا بفتح الألف ردا على العاقبة أي أنا دمرناهم وقرأ الآخرون إنا بالكسر على الاستئناف (دمرناهم) أى أهلكناهم

ملك همدان فزوجها إياه وذهب بها إلى اليمن وملك زوجها ذا تبع على اليمن ودعا زوبعة ملك الجن وقال له اعمل لذى تبع ما استعملك فيه فلم يزل يعمل له ما أراد إلى أن مات سليمان وحال الحول وعلم الجن موت سليمان فأقبل رجل منهم حتى بلغ جوف اليمن وقال بأعلى صوته يامعشر الجن إن الملك سليمان قد مات فارفعوا أيديكم فرفعوا أيديهم وتفرقوا وانقضى ملك سليمان وملك ذى تبع وملك بلقيس وبقى الملك لله الواحد القهار قيل إن سليمان ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة . قوله عز وجل (ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله) أى وحدوه لاتشركوا به شيئا (فاذاهم فريقان) أى مؤمن وكافر (يختصمون) أى فى الدين كل فريق يقول الحق معنا (قال) يعنى صالحا للفريق المكذب (ياقوم لم تستعجلون بالسيئة) أى بالبلاء والعقوبة (قبل الحسنة) أي العافية والرحمة (لولا) أى هلا (تستغفرون الله) أى بالتوبة إليه من الكفر (لعلكم ترحمون) أى لاتعذبون فى الدنيا (قالوا اطيرنا) أى تشاءمنا (بك وبمن معك) قيل إنما قالوا ذلك لتفرق كلمتهم وقيل لإمساك القطر عنهم قالوا إنما أصابنا هذا الضر والشدة من شؤمك وشؤم أصحابك (قال طائركم عند الله) أى مايصيبكم من الخير والشر بأمر الله مكتوب عليكم، سمى طائرا لأنه لا شىء أسرع من نزول القضاء المحتوم وقال ابن عباس الشؤم الذى أتاكم من عند الله بكفركم وقيل طائركم أى عملكم عند الله سمى طائرا لسرعة صعوده إلى السماء (بل أنتم قوم تفتنون) قال ابن عباس تختبرون بالخير والشر وقيل معناه تعذبون . قوله تعالى (وكان فى المدينة) يعنى مدينة ثمود وهى الحجر (تسعة رهط) يعنى من أبناء أشرافهم (يفسدون فى الأرض) أى بالمعاصى (ولايصلحون) أى لايطيعون وهم غواة قوم صالح الذين اتفقوا على عقر الناقة ورأسهم قدار بن سالف (قالوا تقاسموا بالله) يعنى يقول بعضهم لبعض احلفوا بالله أيها القوم (لنبيتنه) أى لنقتلنه ليلا (وأهله) يعنى قومه الذين آمنوا معه (ثم لنقولن لوليه) أى لولى دمه (ماشهدنا) يعنى ماحضرنا (مهلك أهله) أى ماندرى من قتله ولا هلاك أهله (وإنا لصادقون) يعنى فى قولنا ماشهدنا ذلك (ومكروا مكرا) أى غدروا غدرا حين قصدوا تبييت صالح وأهله (ومكرنا مكرا) يعنى جازيناهم على مكرهم بتعجيل العذاب (وهم لايشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم) يعنى أهلكناهم

التسعة واختلفوا فى كيفية هلاكهم . قال ابن عباس رضى الله عنهما أرسل الله الملائكة تلك الليلة إلى دار صالح يحرسونه فأتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم فرمتهم الملائكة بالحجارة من حيث يرون الحجارة ولا يرون الملائكة فقتلهم . قال مقاتل نزلوا فى سفح جبل ينظر بعضهم بعضا ليأتوا دار صالح فجثم عليهم الجبل فأهلكهم (وقومهم أجمعين) أهلكهم الله بالصيحة (فتلك بيوتهم خاوية) نصب على الحال أى خالية (بما ظلموا) أى بظلمهم وكفرهم (إن فى ذلك لآية) لعبرة (لقوم يعلمون) قدرتنا (وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) ، يقال كان الناجون منهم أربعة آلاف . قوله تعالى (ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة) وهى الفعلة القبيحة (وأنتم تبصرون) أى تعلمون أنها فاحشة (١٥٣) وقيل معناه يرى بعضكم بعضا وكانوا لا يستترون عتوا منهم (أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون) من أدبار الرجال (فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها) قضينا عليها وجعلناها بتقديرنا (من الغابرين) أى الباقين فى العذاب (وأمطرنا عليهم مطرا) وهو الحجارة (فساء) فبئس (مطر المنذرين) قوله تعالى (قل الحمد لله) هذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن يحمد الله على هلاك كفار الأمم الخالية وقيل على جميع نعمه (وسلام على عباده الذين اصطفى) قال مقاتل

أى التسعة قال ابن عباس : أرسل الله الملائكة تلك الليلة إلى دار صالح يحرسونه فأتت التسعة دار صالح شاهرين سلاحهم وسيوفهم فرمتهم الملائكة بالحجارة وهم يرون الحجارة ولا يرون الملائكة فقتلتهم وأهلك الله جميع القوم بالصيحة (وقومهم أجمعين ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) أى بظلمهم وكفرهم (إن فى ذلك لآية) أى لعبرة (لقوم يعلمون) أى قدرتنا (وأنجينا الذين آمنوا ، وكانوا يتقون) يقال إن الناجين كانوا أربعة آلاف . قوله تعالى (ولوطا إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة) أى الفعلة القبيحة (وأنتم تبصرون) أى تعلمون أنها فاحشة وهو من بصر القلب وقيل معناه يبصر بعضكم بعضا وكانوا لا يستترون عتوا منهم (أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون) فان قلت إذا فسر تبصرون بالعلم وقد قال بعده « قوم تجهلون » فيكون العلم جهلا . قلت معناه تفعلون فعل الجاهلين وتعلمون أنه فاحشة . وقيل تجهلون العاقبة وقيل أراد بالجهل السفاهة التى كانوا عليها (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون) يعنى من أدبار الرجال (فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين) أى قضينا عليها بأن جعلناها من الباقين فى العذاب (وأمطرنا عليهم مطرا) أى الحجارة (فساء) أى فبئس (مطر المنذرين) قوله عز وجل (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) هذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن يحمد الله على هلاك كفار الأمم الخالية وقيل يحمده على جميع نعمه وسلام على عباده الذين اصطفى يعنى الأنبياء والمرسلين وقال ابن عباس : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وقيل هم كل المؤمنين من السابقين واللاحقين (آلله خير أما يشركون) فيه تبكيت للمشركين وإلزام الحجة عليهم بعد هلاك الكفار : والمعنى آلله خير لمن عبده أم الأصنام لمن عبدها فان الله خير لمن عبده وآمن به لإغنائه عنه من الهلاك والأصنام لم تغن شيئا عن عابديها عند نزول العذاب ولهذا السبب ذكر أنواعا تدل على وحدانيته وكمال قدرته . فالنوع الأول قوله تعالى (أمن خلق السموات والأرض) ذكر أعظم الأشياء المشاهدة الدالة على عظيم قدرته . والمعنى الأصنام خير أم الذى خلق السموات والأرض ثم ذكر نعمه فقال (وأنزل لكم من السماء ماء) يعنى المطر (فأنبتنا به حدائق) أى بساتين جمع حديقة وهو البستان المحيط عليه فان لم يكن عليه حائط فليس

 هم الأنبياء والمرسلون دليله قوله عز وجل : وسلام على المرسلين « وقال ابن عباس فى رواية أبى مالك هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وقال الكلبى هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل هم كل المؤمنين من السابقين واللاحقين (آلله خير أما يشركون ؟) قرأ أهل البصرة وعاصم يشركون بالياء وقرأ الآخرون بالتاء ، يخاطب أهل مكة وفيه إلزام الحجة على المشركين بعد هلاك الكفار يقول : آلله خير لمن عبده أم الأصنام خير لمن عبدها ؟ والمعنى أن الله نجى من عبده من الهلاك والأصنام لم تغن شيئا عن عابديها عند نزول العذاب بهم (أمن خلق السموات والأرض) معناه آلهتكم خير أم الذى خلق السموات والأرض (وأنزل لكم من السماء ماء) يعنى المطر (فأنبتنا به حدائق) بساتين جمع

حديقة . قال الفراء الحديقة البستان المحاط عليه فان لم يكن عليه حائط فليس بحديقة (ذات بهجة) أى منظر حسن والبهجة الحسن يبتهج به من يراه (ما كان لكم أن تنبتوا شجرها) أى ماينبغى لكم لأنكم لاتقدرون عليها (أإله مع الله) استفهام على طريق الإنكار أى هل معه معبود سواه يعينه على صنعه بل ليس معه إله (بل هم قوم) يعنى كفار مكة(يعدلون) يشركون (أم من جعل الأرض قرارا) لاتميد (١٥٤) بأهلها (وجعل خلالها) وسطها (أنهارا) تطرد بالمياه (وجعل لها رواسى) جبالا ثوابت (وجعل بين البحرين) العذب والمالح (حاجزا) مانعا لئلا يختلط أحدهما بالآخر (أإله مع الله بل أكثرهم لايعلمون) توحيد ربهم وسلطانه(أمن يجيب المضطر) المكروب المجهود(إذادعاه ويكشف السوء) الضر (ويجعلكم خلفاء الأرض) سكانها يهلك قرنا وينشىء آخر وقيل يجعل أولادكم خلفاءكم وقيل جعل خلفاء الجن فى الأرض (أإله مع الله قليلا ماتذكرون) قرأ أبو عمرو بالياء والآخرون بالتاء (أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر) إذا سافرتم (ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته) أى قدام المطر (أإله مع الله تعالى الله عما يشركون أمن يبدأ الخلق ثم يعيده) بعد الموت (ومن يرزقكم من السماء والأرض) أى من السماء المطر ومن الأرض النبات (أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم) حجتكم على قولكم إن مع الله إلها آخر (إن كنتم صادقين قل لايعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله) نزلت فى المشركين حيث سألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن وقت قيام الساعة (وما يشعرون أيان) متى (يبعثون بل ادارك علمهم) قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو أدرك على وزن افعل أى بلغ ولحق كما يقال أدركه علمى إذالحقه وبلغه يريد ماجهلوا فى الدنيا وسقط علمه عنهم أعلموه فى الآخرة وقال مجاهد يدرك علمهم (فى الآخرة) ويعلمونها إذا عاينوها ، حين لاينفعهم علمهم . قال مقاتل بل علموا فى الآخرة حين وسقط

بحديقة (ذات بهجة) أى ذات منظر حسن والبهجة الحسن يبتهج به من يراه (ما كان لكم أن تنبتوا شجرها) يعنى ماينبغى لكم ، لأنكم لاتقدرون على ذلك لأن الإنسان قد يقول أنا المنبت للشجرة بأن أغرسها وأسقيها الماء فأزال الله هذه الشبهة بقوله «ما كان لكم أن تنبتوا شجرها» لأن إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والطعوم والروائح المختلفة والزروع تسقى بماء واحد لايقدر عليه إلا الله تعالى ، ولا يتأتى لأحد وإن تأتى ذلك لغيره محال(أإله مع الله) يعنى هل معه معبود أعانه على صنعه(بل) يعنى ليس معه إلٰه ولاشريك (هم قوم) يعنى كفار مكة(يعدلون) يشركون وقيل يعدلون عن هذا الحق الظاهر إلى الباطل . النوع الثانى قوله عز وجل (أمن جعل الأرض قرارا) أى دحاها وسواها للاستقرار عليها وقيل لاتميد بأهلها (وجعل خلالها أنهارا) أى وسطها بأنهار تطرد بالمياه (وجعل لها رواسى) أى جبالا ثوابت (وجعل بين البحرين) يعنى العذب والملح (حاجزا) أى مانعا لايختلط أحدهما بالآخر (أإله مع الله بل أكثرهم لايعلمون) أى توحيد ربهم وقدرته وسلطانه . النوع الثالث قوله تعالى (أمن يجيب المضطر) أى المكروب المجهود وقيل المضرور بالحاجة المحوجة من مرض أو نازلة من نوازل الدهر يعنى إذا نزلت بأحد بادر إلى الالتجاء والتضرع إلى الله تعالى وقيل هو المذنب إذا استغفر (إذا دعاه) يعنى فيكشف ضره (ويكشف السوء) أى الضر لأنه لايقدر على تغيير حال من فقر إلى غنى ومن مرض إلى صحة ومن ضيق إلى سعة إلا القادر الذى لايعجز والقاهر الذى لا يغلب ولا ينازع (ويجعلكم خلفاء الأرض) أى سكانها وذلك أنه ورثهم سكانها والتصرف فيها قرنا بعد قرن وقيل يجعل أولادكم خلفاء لكم وقيل جعلكم خلفاء الجن فى الأرض (أإله مع الله قليلا ماتذكرون) أى تتعظون . النوع الرابع قوله عز وجل (أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر) أى يهديكم بالنجوم والعلامات إذا جن عليكم الليل مسافرين فى البر والبحر (ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته) أى قدام المطر (أإله مع الله تعالى عما يشركون) النوع الخامس قوله تعالى (أمن يبدأ الخلق) أى نطفا فى الأرحام (ثم يعيده) بعد الموت (ومن يرزقكم من السماء والأرض) أى من السماء بالمطر ومن الأرض بالنبات (أإله مع الله قل هاتوا برهانكم) أى حجتكم على قولكم إن مع الله إلها آخر (إن كنتم صادقين) قوله تعالى (قل لايعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله) نزلت فى المشركين حين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت الساعة : والمعنى أن الله هو الذى يعلم الغيب وحده ويعلم متى تقوم الساعة (وما يشعرون أيان يبعثون) يعنى أن من فى السموات وهم الملائكة ومن فى الأرض وهم بنو آدم لايعلمون متى يبعثون والله تعالى تفرد بعلم ذلك (بل ادراك علمهم)أى بلغ ولحق علمهم (فى الآخرة) هو ماجهلوه فى الدنيا

عاينوها ماشكوا وعموا عنه فى الدنيا وهو قوله (بل هم فى شك منها) يعني هم اليوم فى شك من الساعة : وقرأ الآخرون بل « ادارك » موصولا مشددا مع الألف بعد الدال المشدد يعنى تدارك وتتابع علمهم فى الآخرة وتلاحق ، وقيل معناه اجتمع علمهم حين عاينوها فى الآخرة أنها كائنة وهم فى شك منها فى وقتهم فيكون بمعنى الأول . وقيل هو على طريق الاستفهام معناه هل تدارك وتتابع علمهم بذلك فى الآخرة يعني لم يتتابع وضل وغاب علمهم به فلم يبلغوه ولم يدركوه لأن فى الاستفهام ضربا من الجحد يدل عليه قراءة ابن عباس « بلى » باثبات الياء ادارك بفتح الألف على الاستفهام يعنى لم يدرك وفى حرف أبى « أم تدارك علمهم » والعرب تضع بل موضع أم وأم موضع بل . وجملة القول فيه إن الله أخبر أنهم إذا بعثوا يوم القيامة يستوى علمهم فى الآخرة وما وعدوا فيها من الثواب والعقاب وإن كانت علومهم مختلفة فى الدنيا وذكر على بن عيسى أن معني بل هاهنا : لو ومعناه لو أدركوا فى الدنيا ماأدركوا فى الآخرة لم يشكوا بل هم فى شك منها بل هم اليوم فى الدنيافى شك من الساعة (بل هم منها عمون) جمع عم وهو الأعمى القلب . قال الكلبي يقول هم جهلة بها (وقال الذين كفروا) يعنى مشركى مكة (أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون) من قبورنا أحياء. قرأ أهل المدينة إذا غير مستفهم أئنا بالاستفهام وقرأ ابن عامر والكسائى « أئذا » بهمزتين « أئنا » بنونين وقرأ الآخرون باستفهامهما (لقد وعدنا هذا) أى هذا البعث (نحن وآباؤنا من قبل) أى من قبل محمد وليس ذلك بشىء (إن هذا) ماهذا (إلا أساطير الأولين) أحاديثهم وأكاذيبهم التى كتبوها (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ، ولا تحزن عليهم) على تكذيبهم إياك وإعراضهم عنك (ولا تكن فى ضيق مما يمكرون) نزلت فى المستهزئين الذين اقتسموا عقاب مكة (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل عسى أن يكون ردف) أى دنا وقرب (لكم) وقيل تبعكم . والمعنى ردفكم أدخل فيه اللام كما أدخل فى قوله « لربهم يرهبون » . قال الفراء اللام صلة زائدة كما تقول نقدته مائة ونقدت له (بعض الذى تستعجلون) من العذاب فحل بهم ذلك يوم بدر (وإن ربك لذو فضل على الناس) قال مقاتل على أهل مكة حيث لم يعجل عليهم العذاب (ولكن أكثرهم لايشكرون) ذلك (وإن ربك ليعلم ماتكن) تخفى (صدورهم وما يعلنون ومامن غائبة) أى جملة غائبة من مكتوم سر وخفى أمر وشىء غائب (فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين) أى فى اللوح المحفوظ (إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل) أى يبين لهم (أكثر الذى هم فيه يختلفون) من أمر الدين . قال الكلبي : إن أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم فصاروا أحزابا يطعن بعضهم على بعض فنزل القرآن ببيان مااختلفوا فيه (وإنه) يعنى القرآن (لهدى ورحمة للمؤمنين إن ربك يقضى) يفصل (بينهم) أى بين المختلفين فى الدين يوم القيامة

وسقط عنهم علمه. وقيل بل علموا فى الآخرة حين عاينوها ماشكوا فيه وعلموا عنه فى الدنيا وهو قوله تعالى (بل هم فى شك منها) أى هم اليوم فى شك من الساعة (بل هم منها عمون) جمع عم وهو أعمى القلب وقيل معنى الآية أن الله أخبر عنهم أنهم إذا بعثوا يوم القيامة يستوى علمهم فى الآخرة وما وعدوا فيها من الثواب والعقاب وإن كانت علومهم مختلفة فى الدنيا . قوله تعالى (وقال الذين كفروا) أى مشركو مكة (أإذا كنا تراباوآباؤنا أإنا لمخرجون) أى من قبورنا أحياء (لقد وعدنا هذا) أى هذا البعث (نحن وآباؤنا من قبل) أى من قبل محمد صلى الله عليه وسلم وليس ذلك بشىء (إن هذا) أى ماهذا (إلا أساطير الأولين) أى أحاديثهم وأكاذيبهم التى كتبوها (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ولا تحزن عليهم) أى بتكذيبهم إياك وإعراضهم عنك (ولا تكن فى ضيق مما يمكرون) نزلت فى المستهزئين الذين اقتسموا عقاب مكة (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل عسى أن يكون ردف) أى دنا وقرب (لكم) وقيل معناه ردفكم (بعض الذين تستعجلون) أى من العذاب فحل بهم ذلك يوم بدر . قوله عز وجل (وإن ربك لذو فضل على الناس) يعنى على أهل مكة حيث لم يعجل لهم بالعذاب (ولكن أكثرهم لايشكرون) أى ذلك (وإن ربك ليعلم ماتكن صدورهم) أى تخفى (ومايعلنون) أى من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم (وما من غائبة) أى من جملة غائبة من مكتوم سر وخفى أمر وشىء غائب (فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين) يعنى فى اللوح المحفوظ (إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل) أى يبين لهم (أكثر الذين هم فيه يختلفون) أى من أمر الدين وذلك أن أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم فصاروا أحزابا يطعن بعضهم على بعض فنزل القرآن ببيان مااختلفوا فيه (وإنه) يعنى القرآن (لهدى ورحمة للمؤمنين إن ربك يقضى بينهم)

(بحكمه) الحق (وهو العزيز) المنيع فلا يرد له أمر (العليم) بأحوالهم فلا يخفى عليه شيء (فتوكل على الله، إنك على الحق المبين) البين (إنك لاتسمع الموتى) يعنى الكفار (١٥٦) (ولا تسمع الصم الدعاء) قرأ ابن كثير لايسمع بالياء وفتحها وفتح الميم الصم رفع وكذلك فى سورة الروم وقرأ الباقون بالتاء وضمها وكسر الميم الصم نصب (إذا ولوا مدبرين) معرضين. فان قيل مامعنى قوله «ولوا مدبرين» وإذا كانوا صما لا يسمعون سواء ولوا أو لم يولوا قيل ذكره على سبيل التأكيد والمبالغة، وقيل الأصم إذا كان حاضرا فقد يسمع برفع الصوت ويفهم بالإشارة فاذا ولى لم يسمع ولم يفهم؟ قال قتادة: الأصم إذا ولى مدبرا، ثم ناديته لم يسمع كذلك الكافر لايسمع مايدعى إليه من الإيمان ومعنى الآية أنهم لفرط إعراضهم عما يدعون إليه كالميت الذى لاسبيل إلى إسماعه والأصم الذى لايسمع (وما أنت بهادى العمى) قرأ الأعمش وحمزة تهدى بالتاء وفتحها على الفعل العمى بنصب الياء هاهنا وفى الروم وقرأ الآخرون بهادى بالياء على الاسم العمى بكسر الياء (عن ضلالتهم) أى ما أنت بمرشد من أعماه الله عن الهدى وأعمى قلبه عن الإيمان (إن تسمع) ماتسمع (إلا من يؤمن بآياتنا) إلا من يصدق بالقرآن أنه من الله (فهم مسلمون) مخلصون. قوله تعالى (وإذا وقع القول عليهم) وجب العذاب عليهم. وقال قتادة: إذا غضب الله عليهم (أخرجنا لهم دابة من الأرض

أى يفصل بينهم ويحكم بين المختلفين فى الدين يوم القيامة (بحكمه) أى الحق (وهو العزيز) الممتنع الذى لايرد له أمر (العليم) أى بأحوالهم فلا يخفى عليه شىء منها (فتوكل على الله) أى فثق به (إنك على الحق المبين) أى البين (إنك لاتسمع الموتى) يعنى موتى القلوب وهم الكفار (ولا تسمع الصم الدعاء، إذا ولوا مدبرين) أى معرضين. فان قلت مامعنى مدبرين والأصم لايسمع صوتا سواء أقبل أو أدبر؟. قلت هو تأكيد ومبالغة وقيل إن الأصم إذا كان حاضرا قد يسمع برفع الصوت أو يفهم بالإشارة فاذا ولى لم يسمع ولم يفهم. ومعنى الآية إنه لفرط إعراضهم عما يدعون إليه كالميت الذى لاسبيل إلى سماعه، وكالأصم الذى لايسمع ولا يفهم (وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم) معناه ماأنت بمرشد من أعماه الله عن الهدى وأعمى قلبه عن الإيمان (إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا) إلا من يصدق بالقرآن أنه من الله (فهم مسلمون) أى مخلصون. قوله تعالى (وإذا وقع القول عليهم) يعنى إذا وجب عليهم العذاب وقيل إذا غضب الله عليهم وقيل إذا وجبت الحجة عليهم وذلك أنهم لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر وقيل إذا لم يرج صلاحهم وذلك فى آخر الزمان قبل قيام الساعة (أخرجنا لهم دابة من الأرض). (م) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «بادروا بالأعمال قبل ست: طلوع الشمس من مغربها والدخان والدجال والدابة وخويصة أحدكم وأمر العامة» (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريبا» عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تخرج الدابة ومعها خاتم سليمان وعصا موسى فتجلو وجه المؤمن وتخطم أنف الكافر بالخاتم حتى إن أهل الحق ليجتمعون فيقول هذا يامؤمن ويقول هذا يا كافر» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن، وروى البغوى باسناده عن الثعلبى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «يكون للدابة ثلاث خروجات من الدهر فتخرج خروجا بأقصى اليمن فيفشو ذكرها بالبادية لايدخل ذكرها القرية يعنى مكة ثم تمكث زمنا طويلا ثم تخرج خرجة أخرى قريبا من مكة فيفشو ذكرها بالبادية ويدخل ذكرها القرية يعنى مكة ثم بينا الناس يوما فى أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها على الله يعنى المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهى فى ناحية المسجد تدنو وتدنو كذا قال عمر وما بين الركب الأسود إلى باب بنى مخزوم عن يمين الخارج فى وسط من ذلك فارفض الناس عنها وتثبت لها عصابة عرفوا أنهم لم يعجزوا الله فخرجت عليهم تنفض رأسها من التراب فمرت بهم فجلت وجوههم حتى تركتها كأنها الكواكب الدرية ثم ولت فى الأرض لايدركها طالب ولايعجزها هارب حتى إن الرجل ليقوم فيعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول يافلان الآن تصلى فيقبل عليها بوجهه فتسمه فى وجهه فيتجاور الناس فى ديارهم ويصطحبون فى أسفارهم ويشتركون فى الأموال يعرف الكافر من المؤمن فيقال للمؤمن يامؤمن وللكافر يا كافر» وباسناد الثعلبى عن حذيفة بن اليمان ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة قلت يارسول الله من أين تخرج قال «من أعظم المساجد حرمة على الله فبينما عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذ تضطرب الأرض وينشق الصفا مما يلى المسعى

تكلمهم) واختلفوا فى كلامها فقال السدى : تكلمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام . وقال بعضهم كلامها أن تقول لواحد هذا مؤمن ، وتقول لآخر هذا كافر . وقيل كلامها ماقال الله تعالي (إن الناس كانوا بآياتنا لايوقنون) قال مقاتل تكلمهم بالعربية فتقول إن الناس كانوا بآياتنا لايوقنون . تخبر الناس أن أهل مكة لم يؤمنوا بالقرآن والبعث قرأ أهل الكوفة « أن الناس » بفتح الألف أى بأن الناس وقرأ الباقون بالكسر على الاستئناف أى أن الناس كانوا بآياتنا لايوقنون قبل خروجها قال ابن عمر وذلك حين لايؤمر بمعروف ولا ينهى عن منكر وقرأ سعيد بن جبير وعاصم الجحدرى وأبو رجاء العطاردى تكلمهم بفتح التاء وتخفيف اللام من الكلم وهو الجرح . وقال أبو الجوزاء سألت ابن عباس رضى الله عنهما عن هذه الآية تكلمهم أو تكلم قال كل ذلك تفعل تكلم المؤمن وتكلم الكافر . أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخرقى ، أنا أبو الحسن الطيسفونى أنا عبد الله بن عمر الجوهرى ، أنا احمد بن على الكشميهنى أنا على بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر أنا العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « بادروا بالأعمال ستا : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان والدجال ودابة الأرض وخاصة أحدكم وأمر العامة » أخبرنا إسماعيل بن عبدالله أنا عبدالغافر بن (١٥٧) محمد الفارسى أنا محمد بن عيسى الجلودى أنا إبراهيم ابن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجاج أنا أبو بكر بن أبى شيبة أنا محمد بن بشر عن أبى حيان عن أبى زرعة عن عبدالله بن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيتهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريبا » وأخبرنا أبو سعيد الشريحى أنا أبو إسحاق الثعلبى أنا أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن فنجويه أنا أبو بكر بن خرجة أنا محمد بن عبدالله بن سليمان الحضرمى أنا هشيم بن حماد أنا عمرو بن محمد العبقرى عن طلحة عن عمرو عن عبد الله بن عمير الليثى عن أبى شريحة الأنصارى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يكون للدابة ثلاث خرجات من الدهر : فتخرج خروجا بأقصى اليمن فيفشوا ذكرها فى البادية ولا يدخل ذكرها القرية يعنى مكة ثم تمكث زمانا طويلا ثم تخرج خرجة أخرى قريبا من مكة فيفشو ذكرها فى البادية ؛ ويدخل ذكرها القرية يعنى مكة فبينا الناس يوما فى أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها على الله عز وجل يعنى المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهى فى ناحية المسجد تدنو وتدنو » كذا قال ابن عمرو ما بين الركن الأسود إلى باب بنى مخزوم عن يمين الخارج فى وسط من ذلك فارفض الناس عنها وثبتت لها عصابة عرفوا أنهم لن يعجزوا الله فخرجت عليهم تنفض رأسها من التراب فرت بهم فجلت عن وجوههم حتى تركتها كأنها الكواكب الدرية ثم ولت فى الأرض لايدركها طالب ولا يفوتها هارب حتى إن الرجل ليقوم فيتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول يافلان الآن تصلى فيقبل عليها بوجهه فتسمه فى وجهه ؛ فيتجاور الناس فى ديارهم ويصطحبون فى أسفارهم ويشتركون فى الأموال يعرف الكافر من المؤمن فيقال للمؤمن يامؤمن ويقال للكافر يا كافر أخبرنا أبو سعيد الشريحى أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرنى الحسن بن محمد أنا أبو بكر بن مالك العطيفى

المسعى وتخرج الدابة من الصفا أول مايخرج منها رأسها ملمعة ذات وبر وريش لن يدركها الطالب ولن يفوتها هارب تسم الناس مؤمنا وكافرا ؛ فأما المؤمن فتترك وجهه كأنه كوكب درى وتكتب بين عينيه مؤمن ؛ وأما الكافر فتنكت بين عينيه نكتة سوداء وتكتب بين عينيه كافر » وروى عن ابن عباس أنه قرع الصفا بعصاه وهو محرم وقال إن الدابة لتسمع قرع عصاى هذه وعن ابن عمر قال تخرج الدابة ليلة جمع والناس يسيرون إلى منى وعن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « بئس الشعب شعب أجياد مرتين أو ثلاثا قيل ولم ذاك يارسول الله ؟ قال تخرج منه الدابة تصرخ ثلاث صرخات يسمعها من بين الخافقين » وروى عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فقال رأسها رأس ثور وعينها عين خنزير وأذنها إذن فيل وقرنها قرن إبل وصدرها صدر أسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة هر وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصلين اثناعشر ذراعا . وعن عبدالله بن عمرو قال تخرج الدابة من شعب أجياد فتمس رأسها السحاب ورجلاها فى الأرض وروى عن على قال ليست بدابة لها ذنب ولكن لها لحية وقال وهب وجهها وجه رجل وسائر خلقها كخلق الطير فتخبر من رآها أن أهل مكة كانوا بمحمد والقرآن لايوقنون (تكلمهم) أى بكلام فصيح قيل تقول هذا مؤمن وهذا كافر . وقيل تقول ماأخبر الله تعالى (إن الناس كانوا بآياتنا لايوقنون) تخبر الناس عن أهل مكة أنهم لم يؤمنوا بالقرآن والبعث . وقرىء تكلمهم بتخفيف اللام من الكلم وهو الجرح وقال ابن الجوزى سئل

أنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ثنا أبي ثنا بهز ثنا حماد هو ابن أبي سلمة أنا علي بن زيد عن أوس بن خالد عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « تخرج الدابة ومعها عصا موسى وخاتم سليمان فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتحطم أنف الكافر بالخاتم حتى إن أهل الخوان ليجتمعون فيقول هذا يامؤمن ويقول هذا ياكافر » . وروى عن علي قال ليست بدابة لها ذنب ولكن لها لحية كأنه يشير إلى أنه رجل والأكثرون على أنها دابة وروى ابن جريج عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فقال رأسها رأس الثور وعينها عين الخنزير وأذنها أذن فيل وقرنها قرن أيل وصدرها صدر أسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة هر وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعا معها عصا موسى وخاتم سليمان فلا يبقى مؤمن إلا نكتته في مسجده بعصا موسى نكتة بيضاء يضيء بها وجهه ولا يبقى كافر إلا نكتت وجهه بخاتم سليمان فيسود بها وجهه حتى إن الناس يتبايعون في الأسواق بكم يامؤمن بكم يا كافر ؛ ثم تقول لهم الدابة يافلان أنت من أهل الجنة ويافلان أنت من أهل النار فذلك قوله عز وجل «وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض » الآية أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني عقيل بن محمد الجرجاني الفقيه أنا أبو الفرج المعافى ابن زكريا البغدادي أنا أبو جعفر محمد بن جرير الطبري أنا أبو كريب أنا الأشجعي عن فضيل بن مرزوق عن عطية عن ابن عمر قال « تخرج الدابة من صدع في الصفا كجري الفرس ثلاثة أيام وما خرج ثلثها » وبه عن محمد بن جرير الطبري قال حدثني عصام بن داود بن الجراح (١٥٨) ثنا أبي ثنا سفيان بن سعيد أنا منصور بن المعتمر عن ربعي بن حراش عن حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه قال « ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة قلت يارسول الله من أين تخرج ؟ قال من أعظم المساجد حرمة على الله بينما عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذ تضطرب الأرض تحتهم وتنشق الصفا مما يلي المشعر وتخرج الدابة من الصفا أول ما يبدو منها رأسها ملمعة ذات وبر وريش لن يدركها طالب ولن يفوتها هارب تسمي الناس مؤمنا وكافرا أما المؤمن فتترك وجهه كأنه كوكب دري وتكتب بين عينيه مؤمن وأما الكافر فتكتب بين عينيه نكتة سوداء وتكتب بين عينيه كافرا » وروى عن ابن عباس أنه قرع الصفا بعصاه وهو محرم وقال : إن الدابة لتسمع قرع عصاي هذه . وعن عبد الله بن عمر قال تخرج الدابة من شعب فيمس رأسها السحاب ورجلاها في الأرض ماخرجتا فتمر بالإنسان يصلي فتقول ما الصلاة من حاجتك فتخطمه وعن ابن عمر قال تخرج الدابة ليلة جمع والناس يسيرون إلى منى . وعن سهيل بن صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « بئس الشعب شعب أجياد مرتين أو ثلاثا قيل ولم ذلك يارسول الله قال تخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات يسمعها من بين الخافقين » وقال وهب وجهها وجه رجل وسائر خلقها كخلق الطير فتخبر من رآها أن أهل مكة كانوا بمحمد والقرآن لايوقنون قوله تعالى (ويوم نحشر من كل أمة فوجا) أي من كل قرن جماعة (ممن يكذبون بآياتنا) وليس من هاهنا للتبعيض لأن جميع المكذبين يحشرون (فهم يوزعون) يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ثم يساقون إلى النار (حتى إذا جاءوا) يوم القيامة (قال) الله لهم (أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما) ولم تعرفوها حق معرفتها (أم ماذا كنتم تعملون) حين لم تفكروا فيها . ومعنى الآية أكذبتم بآياتي غير عالمين بها ولم تفكروا في صحتها بل كذبتم بها جاهلين (ووقع القول) وجب العذاب (عليهم بما ظلموا) بما أشركوا (فهم لاينطقون) قال قتادة : كيف ينطقون ولا حجة لهم نظيره قوله تعالى « هذا يوم لاينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون » وقيل لاينطقون لأن أفواههم مختومة . قوله عز وجل (ألم يروا أنا جعلنا)

ابن عباس عن هذه الآية تكلمهم وتكلمهم فقال كل ذلك تفعل تكلم المؤمن وتكلم الكافر . قوله تعالى (ويوم نحشر من كل أمة فوجا) أي نحشر من كل قرن جماعة (ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون) أي يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعون ثم يساقوا إلى النار (حتى إذا جاءوا) يعني يوم القيامة (قال) الله تعالى لهم (أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما) أي ولم تعرفوها حق معرفتها (أم ماذا كنتم تعملون) أي حين لم تتفكروا فيها وقيل معنى الآية أكذبتم بآياتي غير عالمين بها ولم تتفكروا في صحتها بل كنتم بها جاهلين (ووقع القول) أي وجب العذاب (عليهم بما ظلموا) أي بما أشركوا (فهم لاينطقون) أي بحجة وقيل إن أفواههم مختومة (ألم يروا أنا جعلنا) أي

أنا

خلقنا (الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا) مضيئا يبصر فيه (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) يصدقون فيعتبرون . قوله تعالى (ويوم ينفخ فى الصور) والصور: قرن ينفخ فيه إسرافيل . وقال الحسن الصور هى القرن وأول بعضهم كلامه أن الأرواح تجمع فى القرن ثم ينفخ فيه فتذهب الأرواح إلى الأجساد فتحيا بالأجساد . قوله (ففزع من فى السموات ومن فى الأرض) أى فصعق كما قال فى آية أخرى « فصعق من فى السموات ومن فى الأرض» أى ماتوا والمعني أنه يلقى عليهم الفزع إلى أن يموتوا ؛ وقيل ينفخ إسرافيل فى الصور ثلاث نفخات نفخة الفزع ونفخة الصعق ونفخة القيام لرب العالمين . قوله (إلا من شاء الله) اختلفوا فى هذا الاستثناء روى عن أبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل جبريل عن قوله « إلا من شاء الله » قال هم الشهداء المقلدون أسيافهم حول العرش. وروى سعيد بن جبير وعطاء عن ابن عباس (١٥٩) هم الشهداء لأنهم أحياء عند ربهم لا يصل الفزع إليهم وفى بعض الآثار الشهداء ثنية الله أى الذين استثناهم الله تعالى وقال الكلبي ومقاتل يعنى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت فلا يبقى بعد النفخة إلا هؤلاء الأربعة ثم يقبض الله روح ميكائيل ثم روح ملك الموت ثم روح جبريل فيكون آخرهم موتا جبريل. ويروى أن الله تعالى يقول لملك الموت « خذ نفس إسرافيل ثم يقول من بقى ياملك الموت فيقول سبحانك ربى تباركت وتعاليت ياذا الجلال والإكرام بقى جبريل وميكائيل وملك الموت فيقول خذ نفس ميكائيل فيأخذ نفسه فيقع كالطود العظيم فيقول من بقى فيقول سبحانك ربى تباركت وتعاليت بقى جبريل وملك الموت ؛ فيقول مت ياملك الموت فيموت فيقول ياجبريل من بقى فيقول : تباركت وتعاليت ياذا الجلال والإكرام وجهك الباقى الدائم وجبريل الميت الفانى ؛ قال فيقول يا جبريل لابد من موتك فيقع ساجدا يخفق بجناحيه » فيروى أن فضل خلقه على خلق ميكائيل كالطود العظيم على ظرب من الظراب ويروى أنه يبقى مع هؤلاء الأربعة حملة العرش فيقبض روح جبريل وميكائيل ثم أرواح حملة العرش ثم روح إسرافيل ثم روح ملك الموت . أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقى أنا أبو الحسن على بن عبد الله الطيسفونى أنا عبد الله بن على الجوهرى أنا أحمد بن على الكشميهنى ، أنا على بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر أنا محمد بن عمرو ثنا علقمة عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ينفخ فى الصور فيصعق من فى السموات ومن فى

أنا خلقنا (الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا) أى مضيئا يبصر فيه . وفى الآية دليل على البعث بعد الموت لأن القادر على تقلب الضياء ظلمة والظلمة ضياء قادر على الإعادة بعد الموت (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) أى يصدقون فيعتبرون . قوله تعالى (ويوم ينفخ فى الصور) هو قرن ينفخ فيه إسرافيل قال الحسن : الصور هو القرن ومعنى كلامه إن الأرواح تجتمع فى القرن ثم ينفخ فيه فتذهب فى الأجساد فتحيا بها الأجساد (ففزع) أى فصعق (من فى السموات ومن فى الأرض) أى ماتوا . والمعنى أنه يلقى عليهم الفزع إلى أن يموتوا . وقيل ينفخ إسرافيل فى الصور ثلاث نفخات نفخة الفزع ونفخة الصعق ونفخة القيام لرب العالمين (إلا من شاء الله) روى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله تعالى « إلا من شاء الله » قال هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول العرش وقال ابن عباس : هم الشهداء لأنهم أحياء عند ربهم لايصل إليهم الفزع . وقيل يعنى جبريل وميكائيل ثم إسرافيل وعزائيل فلا يبقى بعد النفخة إلا هؤلاء الأربعة ويروى أن الله تعالى يقول لملك الموت خذ نفس إسرافيل فيأخذ نفسه ثم يقول من بقى ياملك الموت فيقول : سبحانك ربى تباركت وتعاليت ياذا الجلال والإكرام وجهك الباقى الدائم بقى جبريل وميكائيل وملك الموت فيقول : خذ نفس ميكائيل . فيأخذ نفس ميكائيل فيقع كالطود العظيم فيقول من بقى من خلقى فيقول : سبحانك ربى تباركت وتعاليت بقى جبريل وملك الموت فيقول مت ياملك الموت فيموت فيقول ياجبريل من بقى فيقول تباركت وتعاليت ياذا الجلال والإكرام بقى وجهك الدائم الباقى وجبريل الميت الفانى فيقول الله : ياجبريل لابد من موتك فيقع ساجدا يخفق بجناحيه . فيروى أن فضل خلقه على ميكائيل كفضل الطود العظيم على ظرب من الظراب . ويروى أنه يبقى مع هؤلاء الأربعة حملة العرش فيقبض روح جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم أرواح حملة العرش ثم روح ملك الموت فاذا لم يبق أحد إلا الله تبارك وتعالى طوى السماء كطى السجل للكتاب ثم يقول الله « أنا الجبار لمن الملك اليوم فلا يجيبه أحد فيقول الله تعالى : لله الواحد القهار » (ق) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ينفخ فى الصور فيصعق من فى السموات ومن فى الأض إلا من شاء الله ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من رفع رأسه فاذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أكان ممن استثنى الله

الأرض إلا من شاء الله ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من يرفع رأسه فاذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أكان من استثنى الله عز وجل أم رفع رأسه قبلى ،ومن قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب» وقال الضحاك هم رضوان والحور ومالك والزبانية وقيل عقارب النار وحياتها . قوله عز وجل (وكل) أى كل الذين أحيوا بعد الموت (أتوه) قرأ الأعمش وحمزة وحفص أتوه مقصورا بفتح التاء على الفعل أى جاءوه وقرأ الآخرون بالمد وضم التاء كقوله تعالى «وكلهم آتيه يوم القيامة فردا» (داخرين) صاغرين قال الله تعالي (وترى الجبال تحسبها جامدة) قائمة واقفة (وهى تمر مر السحاب) أى تسير سير السحاب حتى تقع على الأرض فتستوى بها وذلك إن كل شيء عظيم وكل جمع كثير يقصر عنه البصر لكثرته وبعد مابين أطرافه فهو فى حسبان (١٦٠) الناظر واقف وهو سائر كذلك سير الجبال لا يرى يوم القيامة لعظمها كما أن سير السحاب لا يرى لعظمه وهو سائر (صنع الله) نصب على المصدر (الذى أتقن كل شئ) يعنى أحكم (إنه خبير بما تفعلون) قرأ ابن كثير وأهل البصرة بالياء والباقون بالتاء (من جاء بالحسنة) بكلمة الإخلاص وهى شهادة أن لا إله إلا الله : قال أبو معشر كان إبراهيم يحلف ولا يستثنى إن الحسنة لا إله إلا الله . وقال قتادة بالإخلاص وقيل هى كل الطاعة (فله خير منها) قال ابن عباس فمنها يصل الخير إليه يعنى له من تلك الحسنة خير يوم القيامة وهو الثواب والأمن من العذاب إما أن يكون له شيء خير من الإيمان فلا لأنه ليس شئ خيرا من قوله لاإله إلا الله وقيل فله خير منها يعنى رضوان الله قال تعالى أى «ورضوان من الله أكبر» وقال محمد بن كعب وعبدالرحمن بن زيد فله خير منها يعنى الأضعاف أعطاه الله تعالى بالواحدة عشرا فصاعدا وهذا حسن لأن للأضعاف خصائص منها أن العبد يسأل عن عمله ولا يسأل عن الأضعاف ومنها أن للشيطان سبيلا إلى عمله وليس له سبيل إلى الأضعاف ولا مطمع للخصوم فى الأضعاف ولأن الحسنة على استحقاق العبد والتضعيف كما يليق بكرم الرب تبارك وتعالى (وهم من فزع يومئذ آمنون) قرأ أهل الكوفة من فزع بالتنوين يومئذ بفتح الميم . وقرأ الآخرون بالإضافة لأنه أعم فانه يقتضى الأمن من جميع فزع ذلك اليوم وبالتنوين كأنه فزع دون فزع ويفتح أهل المدينة الميم من يومئذ (ومن جاء بالسيئة) يعنى الشرك (فكبت وجوههم فى النار) يعنى ألقوا على وجوههم يقال كببت الرجل إذا ألقيته على وجهه فانكب وأكب وتقول لهم خزنة جهنم (هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) فى الدنيا من الشرك . قوله تعالي

عز وجل أم رفع رأسه قبلى ،ومن قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب» وقيل الذين استثنى الله هم رضوان والحور ومالك والزبانية . وقوله تعالى (وكل) أى وكل الذين أحيوا بعد الموت (أتوه) أى جاءوه (داخرين) أى صاغرين . قوله تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة) أى قائمة واقفة (وهى تمر مر السحاب) أى تسير سير السحاب حتى تقع على الأرض فتستوى بها وذلك أن كل شيء عظيم وكل جسم كبير وكل جمع كثير يقصر عنه البصر لكثرته وعظمه وبعد مابين أطرافه فهو فى حساب الناظر واقف وهو سائر كذلك سير الجبال يوم القيامة لايرى لعظمها كما أن سير السحاب لايرى لعظمه (صنع الله الذى أتقن كل شيء) يعنى أنه تعالى لما قدم هذه الأشياء كلها التى لايقدر عليها غيره جعل ذلك الصنع من الأشياء التى أتقنها وأحكمها وأتى بها على وجه الحكمة والصواب (إنه خبير بما تفعلون) . قوله تعالى (من جاء بالحسنة) أى بكلمة الإخلاص وهى شهادة أن لاإله إلا الله وقيل الإخلاص فى العمل وقيل الحسنة كل طاعة عملها لله عز وجل (فله خير منها) قال ابن عباس فمنها يصل إلى الخير بمعنى أن له من تلك الحسنة خير يوم القيامة وهو الثواب والأمن من العذاب أما من يكون له شيء خير من الإيمان فلا ، لأنه لاشيء خير من لاإله إلا الله وقيل هو جزاء الأعمال والطاعات الثواب والجنة وجزاء الإيمان والإخلاص رضوان الله والنظر إليه لقوله «ورضوان من الله» وقيل معنى خير منها الأضعاف أعطاه الله بالواحدة عشر أضعافها ، لأن الحسنة استحقاق العبد والتضعيف تفضيل الرب تبارك وتعالى (وهم من فزع يومئذ آمنون) فان قلت كيف نفى الفزع هنا وقد قال قبله ففزع من فى السموات ومن الأرض : قلت إن الفزع الأول هو مالا يخلوا عنه أحد عند الاحساس بشدة تقع وهول يفجأ من رعب وهيبة وإن كان المحسن يأمن وصول ذلك الضرر إليه فأما الفزع الثانى فهو الخوف من العذاب فهم آمنون منه . وأما مايلحق الإنسان من الرعب عند مشاهدة الأهوال فلا ينفك منه أحد (ومن جاء بالسيئة) يعنى بالشرك (فكبت وجوههم فى النار) عبر بالوجه عن جميع البدن كأنه قال كبوا وطرحوا جميعهم فى النار (هل تجزون إلا ما كنتم تعملون)

(إنما أمرت) يقول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم قل إنما أمرت (أن أعبد رب هذه البلدة) يعنى مكة (الذى حرمها) يعنى جعلها الله حرما آمنا لايسفك فيها دم ولا يظلم فيها أحد ولا يصاد صيدها ولا يختلى خلاها (وله كل شئ) خلقا وملكا (وأمرت أن أكون من المسلمين) لله (وأن أتلو القرآن) يعنى وأمرت أن أتلو القرآن (فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه) أى نفع اهتدائه يرجع إليه (ومن ضل) عن الإيمان وأخطأ عن طريق الهدى (فقل إنما أنا (١٦١) من المنذرين) من المخوفين

أى تقول لهم خزنة جهنم « هل تجزون إلا ما كنتم تعملون » فى الدنيا من الشرك . وقوله تعالى (إنما أمرت) يعنى يقول الله تعالى لرسوله قل إنما أمرت (أن أعبد رب هذه البلدة) يعنى أمرت أن أخص بعبادتى وتوحيدى الله الذى هو رب هذه البلدة يعنى مكة وإنما خصها من بين سائر البلاد بالذكر لأنها مضافة إليه وأحب البلاد وأكرمها عليه وأشار إليها إشارة تعظيم لأنها موطن نبيه ومهبط وحيه (الذى حرمها) أى جعلها الله حرما آمنا لايسفك فيها دم ولا يظلم فيها أحد ولا يصاد صيدها ولا يختلى خلاها ولا يدخلها إلا محرم وإنما ذكر أنه هو الذى حرمها لأن العرب كانوا معترفين بفضيلة مكة وأن تحريمها من الله لامن الأصنام (وله كل شىء) أى خلقا وملكا (وأمرت أن أكون من المسلمين) لله المطيعين له (وأن أتلو القرآن) أى أمرت أن أتلو القرآن ولقد قام صلى الله عليه وسلم بكل ما أمر به أتم قيام على ما أمر به (فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه) أى نفع اهتدائه يرجع إليه (ومن ضل) أى عن الإيمان وأخطأ طريق الهدى (فقل إنما أنا من المنذرين) أى من المخوفين وما على إلا البلاغ نسختها آية القتال (وقل الحمد لله) أى على جميع نعمه وقيل على ما وفقنى من القيام بأداء الرسالة والإنذار (سيريكم آياته) الباهرة ودلائله القاهرة قيل هو يوم بدر وهو ماأراهم من القتل والسبي وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم وقيل آياته فى السموات والأرض وفى أنفسكم (فتعرفونها) أى فتعرفون الآيات والدلالات (وما ربك بغافل عما تعملون) فيه وعيد بالجزاء على أعمالهم والله سبحانه وتعالى أعلم :

(تفسير سورة القصص)

وهى مكية إلا قوله تعالى « الذين آتيناهم الكتاب » إلى قوله « لانبتغى الجاهلين » وفيها آية نزلت بين مكة والمدينة وهى قوله « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » وهى ثمان وثمانون آية وأربعمائة وإحدى وأربعون كلمة وخمسة آلاف وثمانمائة حرف :

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (طسم تلك) إشارة إلى آيات السورة (آيات الكتاب المبين) قيل هو اللوح المحفوظ وقيل هو الكتاب الذى أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم ووصفه بأنه مبين لأنه بين فيه الحلال والحرام والحدود والأحكام (نتلو عليك من نبأ) أى خبر (موسى وفرعون بالحق) أى بالصدق (لقوم يؤمنون) أى يصدقون بالقرآن (إن فرعون علا) أى تجبر وتكبر (فى الأرض) أى أرض مصر (وجعل أهلها شيعا) أى فرقا فى أنواع الخدمة والتسخير (يستضعف طائفة منهم) يعنى بنى إسرائيل (يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم) سمى هذا استضعافا لأنهم عجزوا

فليس على إلا البلاغ نسختها آية القتال (وقل الحمد لله) على نعمه (سيريكم آياته) يعنى يوم بدر من القتل والسبى وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم نظيره قوله عز وجل « سأريكم آياتى فلا تستعجلون » وقال مجاهد سيريكم آياته فى السماء والأرض وفى أنفسكم كما قال « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » (فتعرفونها) يعنى تعرفون الآيات والدلالات (وما ربك بغافل عما تعملون) وعيد لهم بالجزاء على أعمالهم

(سورة القصص)

مكية إلا قوله عز وجل «الذين آتيناهم الكتاب» إلي قوله « لا نبتغى الجاهلين» وفيها آية نزلت بين مكة والمدينة وهى قوله عز وجل «إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلي معاد » وهى ثمان وثمانون آية . (بسم الله الرحمن الرحيم)

(طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق) بالصدق (لقوم يؤمنون) يصدقون بالقرآن (إن فرعون علا) استكبر وتجبر وتعظم (فى الأرض) أرض مصر (وجعل أهلها شيعا) فرقا وأصنافا فى الخدمة والتسخير (يستضعف طائفة منهم) أراد بالطائفة بنى إسرائيل ثم فسر الاستضعاف فقال (يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم) سمى هذا

استضعافا ، لأنهم عجزوا وضعفوا عن دفعه عن أنفسهم (إنه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض) يعنى بنى إسرائيل (ونجعلهم أئمة) قادة فى الخير يقتدى بهم وقال قتادة ولاة وملوكا دليله قوله عز وجل «وجعلكم ملوكا» وقال مجاهد دعاة إلى الخير (ونجعلهم الوارثين) يعنى أملاك فرعون وقومه يخلفونهم فى مساكنهم (ونمكن لهم فى الأرض) نوطن لهم فى أرض مصر والشام ونجعلها لهم مكانا يستقرون فيه (ونرى فرعون) قرأ الأعمش وحمزة والكسائى يرى بالياء وفتحها فرعون (وهامان وجنودهما) مرفوعات على أن الفعل لهم وقرأ الآخرون بالنون وضمها ، وكسر الراء ونصب الياء ونصب مابعده بوقوع الفعل عليه (منهم ما كانوا يحذرون) والحذر هو التوقى من الضرر وذلك أنهم أخبروا أن هلاكهم على يد رجل من بنى إسرائيل فكانوا على وجل منه فأراهم الله ما كانوا يحذرون (وأوحينا إلى أم موسى) وهو وحى إلهام لا وحى نبوة . قال قتادة قذفنا فى قلبها وأم موسى يوحانذ بنت لاوى بن يعقوب (أن أرضعيه) واختلفوا فى مدة الرضاع قيل ثمانية أشهر وقيل أربعة أشهر وقيل ثلاثة أشهر كانت ترضعه فى حجرها وهو لايبكي ولا يتحرك (فاذا خفت عليه) يعنى من الذبح (فألقيه فى اليم) (١٦٢) واليم البحر وأراد هاهنا النيل (ولا تخافى) قيل لاتخافى عليه من الغرق وقيل من الضيعة (ولا تحزنى) على فراقه (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) روى عطاء عن الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال إن بنى إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس وعملوا بالمعاصى ولم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر فسلط الله عليهم القبط فاستضعفوهم إلى أن أنجاهم الله على يد نبيه . وقال ابن عباس رضى الله عنهما إن أم موسى لما تقاربت ولادتها وكانت قابلة من القوابل التى وكلهن فرعون بحبالى بنى إسرائيل مصافية لأم موسى فلما ضربها الطلق أرسلت إليها فقالت قد نزل بى ما نزل فلينفعنى حبك إياى اليوم قالت فعالجت قبالتها فلما أن وقع موسى بالأرض هالها نور بين عينى موسى فارتعش كل مفصل منها ودخل حب موسى قلبها ثم قالت لها ياهذه ماجئت إليك حين دعوتينى إلا ومرادى قتل مولودك ولكن وجدت لابنك هذا حبا ماوجدت حب شئ مثل حبه فاحفظى ابنك فإنى أراه هو عدونا فلما خرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العيون فجاءوا إلى بابها ليدخلوا على أم موسى فقالت أخته ياأماه هذا الحرس بالباب فلفت موسى فى خرقة فوضعته فى التنور وهو مسجور وطاش عقلها فلم تعقل ماتصنع قال فدخلوا فاذا التنور مسجور ورأوا أم موسى لم يتغير لها لون ولم يظهر لها لبن فقالوا لها ماأدخل عليك القابلة قالت هى مصافية لى فدخلت على زائرة فخرجوا من عندها فرجع إليها عقلها فقالت لأخت موسى فأين الصبى قالت لاأدرى فسمعت بكاء الصبى من التنور فانطلقت إليه ، وقد جعل الله سبحانه وتعالى النار عليه بردا وسلاما فاحتملته . قال ثم إن أم موسى لما رأت إلحاح فرعون فى طلب الولدان خافت على ابنها فقذف الله فى قلبها أن تتخذ له تابوتا فتجعله فيه ثم تقذف التابوت فى اليم وهو النيل فانطلقت إلى رجل نجار من قوم فرعون

وضعفوا عن دفعه عن أنفسهم (إنه كان من المفسدين) أى بالقتل والتجبر فى الأرض (ونريد أن نمن) أى ننعم (على الذين استضعفوا فى الأرض) يعنى بنى إسرائيل (ونجعلهم أئمة) أى قادة فى الخير يقتدي بهم. وقيل ولاة ملوكا (ونجعلهم الوارثين) يعني أملاك فرعون وقومه بأن نجعلهم فى مساكنهم (ونمكن لهم فى الأرض) أى نوطن لهم أرض مصر والشام ونجعلها لهم سكنا (ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) أى يخافون وذلك أنهم أخبروا أن هلاكهم على يد رجل من بنى إسرائيل وكانوا على حذر منه فأراهم الله ما كانوا يحذرون . قوله تعالى (وأوحينا إلى أم موسى) هو وحى إلهام وذلك بأن قذف فى قلبها واسمها يوحانذ من نسل لاوى بن يعقوب (أن أرضعيه) قيل أرضعته ثمانية أشهر وقيل أربعة وقيل ثلاثة وكانت ترضعه وهو لايبكي ولا يتحرك فى حجرها (فاذا خفت عليه) أى الذبح (فألقيه فى اليم) أى فى البحر وأراد به نيل مصر (ولا تخافى) أى عليه من الغرق وقيل الضيعة (ولا تحزنى) أى على فراقه (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) قال ابن عباس إن بنى إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس وعملوا بالمعاصى ولم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر فسلط الله عليهم القبط فاستضعفوهم إلى أن أنجاهم الله على يد نبيه موسى عليه الصلاة والسلام :

(ذكر القصة فى ذلك)

قال ابن عباس إن أم موسى لما تقاربت ولادتها كانت قابلة من القوابل التى وكلهن فرعون بحبالى بنى إسرائيل مصافية لأم موسى فلما ضربها الطلق أرسلت إليها وقالت لها قد نزل بى ما نزل فلينفعنى حبك إياى اليوم فعالجت قبالها فلما وقع موسى بالأرض هالها نور عينى موسى

فارتعش

فاشترت منه تابوتا صغيرا فقال لها النجار ماتصنعين بهذا التابوت قالت ابن لي أخبئه فى التابوت وكرهت الكذب قال
ولم تقل أخشى عليه كيد فرعون فلما اشترت التابوت وحملته وانطلقت به انطلق النجار إلي الذباحين ليخبرهم بأمر أم
موسى فلما هم بالكلام أمسك الله لسانه فلم يطق الكلام وجعل يشير بيده فلم يدر الأمناء مايقول فلما أعياهم أمره قال
كبيرهم اضربوه فضربوه وأخرجوه فلما انتهى النجار إلي موضعه رد الله عليه لسانه فتكلم فانطلق أيضا يريد الأمناء فأتاهم
ليخبرهم فأخذ الله لسانه وبصره فلم يطق الكلام ولم يبصر شيئا فضربوه وأخرجوه فوقع فى واد يهوى فيه حيران فجعل لله
عليه إن رد لسانه وبصره أن لايدل عليه وأن يكون معه يحفظه حيث ما كان فعرف الله منه الصدق فرد عليه لسانه وبصره
فخر لله ساجدا فقال يارب دلني على هذا العبد الصالح فدله الله عليه فخرج من الوادى فآمن به وصدقه وعلم أن ذلك من الله
عز وجل وقال وهب بن منبه لما حملت أم موسى بموسى كتمت أمرها جميع الناس فلم يطلع على حبلها أحد من خلق الله
وذلك شيء ستره الله لما أراد أن يمن به على بنى إسرائيل فلما كانت السنة التى يولد فيها بعث فرعون القوابل وتقدم إليهن
يفتشن النساء تفتيشا لم يفتشن قبل ذلك مثله وحملت أم موسى فلم ينتأ بطنها ولم يتغير لونها ولم يظهر لبنها ، فكانت القوابل
لاتتعرض لها فلما كانت الليلة التى ولد فيها ولدته ولا رقيب عليها ولا قابلة (١٦٣) ولم يطلع عليها أحد إلا أخته
مريم فأوحى الله إليها أن أرضعيه فاذا خفت عليه الآية فكتمته أمه ثلاثة أشهر ترضعه فى حجرها لايبكي ولا يتحرك ، فلما خافت عليه عملت تابوتا له مطبقا ثم ألقته فى البحر ليلا قال ابن عباس وغيره وكان لفرعون يومئذ بنت لم يكن له ولد غيرها وكانت من أكرم الناس عليه وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها إلي فرعون وكان بها برص شديد وكان فرعون قدجمع لها أطباء مصر
والسحرة فنظروا فى أمرها فقالوا أيها الملك لاتبرأ إلا من قبل البحر يوجد فيه شبه الإنسان فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها
فتبرأ من ذلك وذلك فى يوم كذا وساعة كذا حين تشرق الشمس فلما كان يوم الاثنين غدا فرعون إلي مجلس كان على شفير
النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم وأقبلت ابنة فرعون فى جواريها حتى جلست على شاطئ النيل مع جواريها ، تلاعبهن
وتنضح الماء على وجوههن إذ أقبل النيل بالتابوت تضربه الأمواج فقال فرعون إن هذا لشئ فى البحر قد تعلق بالشجرة
ائتونى به فابتدروه بالسفن من كل جانب حتى وضعوه بين يديه فعالجوا فتح الباب فلم يقدروا عليه وعالجوا كسره فلم يقدروا
عليه فدنت منه آسية فرأت فى جوف التابوت نورا لم يره غيرها فعالجته ففتحت الباب فإذا هي بصبي صغير فى مهده
وإذا نور بين عينيه وقد جعل الله رزقه فى إبهامه يمصه لبنا فألقى الله لموسى المحبة فى قلب آسية وأحبه فرعون وعطف عليه
وأقبلت بنت فرعون فلما أخرجوا الصبي من التابوت عمدت بنت فرعون إلي ما كان يسيل من ريقه فلطخت به برصها
فبرأت فقبلته وضمته إلي صدرها فقال الغواة من قوم فرعون أيها الملك إنا نظن أن ذلك المولود الذى تحذر منه من بنى إسرائيل
هو هذا رمى به فى البحر خوفا منك فاقتله فهم فرعون بقتله فقالت آسية قرة عين لي ولك لاتقتله عسى أن ينفعنا أو نتخذه
ولدا وكانت لاتلد فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها وقال فرعون أما أنا فلا حاجة لي فيه قال رسول الله صلى الله

فارتعش كل مفصل فيها ودخل حب موسى قلبها ثم قالت لها ياهذه ماجئت إليك حين دعوتنى
إلا مرادى قتل ولدك ولكن وجدت لولدك حبا ماوجدت حب شيء مثل حبه فاحفظى ابنك
فانى أراه عدونا فلما خرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العيون فجاءوا إلى بابها ليدخلوا
إلى أم موسى فقالت أخته ياأماه هذا الحرس بالباب فلفته بخرقة وألقته فى التنور وهو مسجور
وطاش عقلها فلم تعقل ماتصنع قال فدخلوا فاذا التنور مسجور ورأوا أم موسى ولم يتغير لها
لون ولم يظهر لها لبن فقالوا ماأدخل القابلة قالت هى مصافية لى فدخلت على زائرة فخرجوا
من عندها فرجع إليها عقلها فقالت لأخته فأين الصبي فقالت لاأدرى فسمعت بكاء الصبى
فى التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله النار عليه بردا وسلاما فاحتملته قال ثم إن أم موسى لما
رأت إلحاح فرعون فى طلب الولدان خافت على ابنها فقذف الله فى قلبها أن تتخذ تابوتا له ثم
تقذف التابوت فى النيل فانطلقت إلى رجل نجار من قوم فرعون فاشترت منه تابوتا صغيرا
فقال النجار ماتصنعين بهذا التابوت فقالت ابن لى أخبئه فى التابوت وكرهت الكذب قال
ولم تقل أخشى عليه كيد فرعون فلما اشترت التابوت وحملته وانطلقت به انطلق النجار إلى
الذباحين ليخبرهم بأمر أم موسى فلما هم بالكلام أمسك الله لسانه فلم يطق الكلام وجعل
يشير بيديه فلم تدر الأمناء مايقول فلما أعياهم أمره قال كبيرهم اضربوه فضربوه وأخرجوه
فلما انتهى النجار إلى موضعه رد الله عليه لسانه فتكلم فانطلق أيضا يريد الأمناء فأتاهم ليخبرهم

عليه وسلم « لو قال فرعون يومئذ هو قرة عين لي كما هو لك لهداه الله كما هداها » فقيل لآسية سميه فقالت قد سميته موسى لأنا وجدناه فى الماء والشجر فمو هو الماء وسى هو الشجر فذلك قوله عز وجل (فالتقطه آل فرعون) والالتقاط هو وجود الشيء من غير طلب (ليكون لهم عدوا وحزنا) وهذه اللام تسمى لام العاقبة ولام الصيرورة لأنهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدوا وحزنا ولكن صار عاقبة أمرهم إلى ذلك قرأ حمزة والكسائى حزنا بضم الحاء وسكون الزاى وقرأ الآخرون بفتح الحاء والزاى وهما لغتان (إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) عاصين آثمين قوله تعالى (وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك) قال وهب لما وضع التابوت بين يدى فرعون فتحوه فوجدوا فيه موسى فلما نظر إليه قال عبرانى من الأعداء فغاظه ذلك وقال كيف أخطأ هذا الغلام الذبح وكان فرعون قد استنكح امرأة من بنى إسرائيل يقال لها آسية بنت مزاحم وكانت من خيار النساء ومن بنات الأنبياء وكانت أما للمساكين ترحمهم وتتصدق عليهم وتعطيهم فقالت لفرعون وهى قاعدة إلى جنبه هذا الوليد أكبر من ابن سنة وإنما أمرت أن تذبح الولدان لهذه السنة فدعه يكون قرة عين لي ولك (لاتقتلوه) عسى

فأخذ لسانه وبصره فلم يطق الكلام ولم يبصر شيئا فضربوه وأخرجوه وبقى حيران فجعل لله عليه إن رد عليه لسانه وبصره أن لايدل عليه وأن يكون معه فيحفظه حيثما كان فعرف الله صدقه فرد عليه لسانه وبصره فخر لله ساجدا فقال يارب دلنى على هذا العبد الصالح فدله عليه فآمن به وصدقه وقال وهب لما حملت أم موسى بموسى كتمت أمرها عن جميع الناس فلم يطلع على حملها أحد من خلق الله تعالى وذلك شيء ستره الله تعالى لما أراد أن يمن به على بنى إسرائيل فلما كانت السنة التى ولد فيها بعث فرعون القوابل وتقدم الأمين ففتش النساء تفتيشا لم يفتش قبل ذلك مثله وحملت بموسى ولم يتغير لونها ولم ينب بطنها فكانت القوابل لاتتعرض لها فلما كانت الليلة التى ولد فيها ولدته ولا رقيب عليها ولا قابلة ولم يطلع عليها أحد إلا أخته مريم وأوحى الله إليها « أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم » فكتمته ثلاثة أشهر فلماخافت عليه عملت تابوتا مطبقا ثم ألقته فى اليم وهو البحر ليلا قال ابن عباس وغيره كان لفرعون يومئذ بنت ولم يكن له ولد غيرها وكانت من أكرم الناس عليه وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها إليه وكان بها برص شديد وكان فرعون قد جمع لها الأطباء والسحرة فنظروا فى أمرها فقالوا أيها الملك لاتبرأ إلا من قبل البحر يوجد فيه شبه الإنسان فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ من ذلك وذلك فى يوم كذا فى ساعة كذا حين تشرق الشمس فلما كان ذلك اليوم غدا فرعون إلى مجلس كان له على شفير النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم وأقبلت بنت فرعون فى جواريها حتى جلست على شاطيء البحر مع جواريها تلاعبهن وتنضح الماء على وجوههن إذ أقبل النيل بالتابوت تضربه الأمواج فقال فرعون إن هذا الشيء فى البحر قد تعلق بالشجر ائتونى به فابتدروه بالسفن من كل ناحية حتى وضعوه بين يديه فعالجوا فتح الباب فلم يقدروا عليه وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه فدنت آسية فرأت فى جوف التابوت نورا لم يره غيرها فعالجته ففتحت الباب فاذا هى بصبى صغير فى التابوت وإذا نور بين عينيه وقد جعل الله رزقه فى إبهامه يمص منه لبنا فألقى الله محبته فى قلب آسية وأحبه فرعون وعطف عليه وأقبلت بنت فرعون فلما أخرجوا الصبى من التابوت عمدت إلى مايسيل من أشداقه من ريقه فلطخت به برصها فبرأت ثم قبلته وضمته إلى صدرها فقالت الغواة من قوم فرعون أيها الملك إنا نظن أن ذلك المولود الذى تحذر منه من بنى إسرائيل هو هذا رمى به فى البحر فزعا منك فهم فرعون بقتله فقالت آسية قرة عين لى ولك لاتقتلوه عسى أن ينفعنا أى فنصيب منه خيرا أو نتخذه ولدا وكانت لاتلد فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها وقال فرعون أما أنا فلا حاجة لى فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو قال يومئذ قرة عين لى كما هو لك لهداه الله كما هداها الله » فقيل لآسية سميه فقالت سميته موسى لأنا وجدناه فى الماء والشجر لأن مو هو الماء وسى هو الشجر فذلك قوله تعالى (فالتقطه آل فرعون) الالتقاط هو وجود الشيء من غير طلب (ليكون لهم عدوا وحزنا) أي عاقبة أمرهم إلى ذلك لأنهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدوا وحزنا (إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) أى آثمين وقيل هو من الخطأ ومعناه أنهم لم يشعروا أنه الذى يذهب بملكهم (وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لاتقتلوه

وروى أنها قالت له إنه آتانا من أرض أخرى ليس من بنى إسرائيل (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لايشعرون) أن هلاكهم على يديه فاستحياه فرعون وألقى الله عليه محبته وقال لامرأته عسى أن ينفعك فأما أنا فلا أريد نفعه . قال وهب قال ابن عباس رضى الله عنهما لو أن عدو الله قال فى موسى كما قالت آسية عسى أن ينفعنا لنفعه الله ولكنه أبى للشقاء الذى كتبه الله عليه وقوله تعالى (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا) أى خاليا من كل شئ إلا من ذكر موسى وهمه هذا قول أكثر المفسرين وقال الحسن فارغا أى ناسيا للوحى الذى أوحى الله إليها حين أمرها أن تلقيه فى البحر ولا تخافى ولا تحزنى والعهد الذى عهد أن يرده إليها ويجعله من المرسلين فجاءها الشيطان فقال كرهت أن يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجره وثوابه وتوليت أنت قتله فألقيته فى البحر وأغرقته فلما آتاها الخبر بان فرعون أصابه (١٦٥) فى النيل قالت إنه وقع فى يد عدوه الذى فررت منه فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله إليها وقال أبو عبيدة فارغا أى فارغا من الحزن لعلمها بصدق وعد الله تعالى وأنكر القتيبى هذا وقال كيف يكون هذا والله تعالى يقول « إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها » والأول أصح قوله عز وجل (إن كادت لتبدى به) قيل الهاء فى به راجعة إلى موسى أى كادت لتبدى به أنه ابنها من شدة وجدها وقال عكرمة عن ابن عباس كادت تقول وإبناه وقال مقاتل لما رأت التابوت يرفعه موج ويضعه آخر خشيت عليه الغرق فكادت تصيح من شفقتها وقال الكلبى كادت تظهر أنه ابنها وذلك حين سمعت الناس يقولون لموسي بعد ماشب موسى ابن فرعون فشق عليها وكادت تقول بل هو ابنى وقال بعضهم الهاء عائدة إلى الوحى أى كادت تبدى بالوحى الذى أوحى الله إليها أن يرده إليها (لولا أن ربطنا على قلبها) بالعصمة والصبر والتثبيت (لتكون من المؤمنين) المصدقين لوعد الله حين قال لها « إنا رادوه إليك» (وقالت لأخته) أى لمريم أخت موسى (قصيه) اتبعى أثره حتى تعلمى خبره (فبصرت به عن جنب) أى عن بعد وفى القصة أنها كانت تمشى جانبا وتنظر اختلاسا ترى أنها لاتنظره (وهم يشعرون) أنها أخته وأنها ترقبه قال ابن عباس إن امرأة فرعون كان همها من الدنيا أن تجد له مرضعة وكلما أتوا بمرضعة لم يأخذ ثديها فذلك قوله عز وجل (وحرمنا عليه المراضع) والمراد من التحريم المنع والمراضع جمع المرضع (من قبل) أى من قبل مجيء أم موسى فلما رأت أخت موسى التى

عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون) قال وهب لما نظر إليه فرعون قال عبرانى من الأعداء فغاظه ذلك وقال كيف أخطأ هذا الغلام الذبح وكانت آسية امرأة فرعون من خيار النساء ومن بنات الأنبياء وكانت أما للمساكين ترحمهم وتتصدق عليهم فقالت لفرعون وهى قاعدة إلى جنبه هذا الوليد أكبر من ابن سنة وأنت أمرت أن تذبح ولدان هذه السنة فدعه يكون عندى وقيل إنها قالت إنه أتانا من أرض أخرى وليس هو من بنى إسرائيل فاستحياه فرعون وألقى الله محبته عليه قال ابن عباس لو أن عدو الله قال فى موسى كما قالت آسية عسى أن ينفعنا لنفعه الله ولكنه أبى للشقاء الذى كتبه الله عليه قوله تعالى (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا) أى خاليا من كل شيء إلا من ذكر موسى وهمه وقيل معناه ناسيا للوحى الذى أوحى الله عزوجل إليها حين أمرها أن تلقيه فى اليم ولا تخاف ولا تحزن والعهد الذى عهد إليها أن يرده إليها ويجعله من المرسلين فجاءها الشيطان وقال كرهت أن يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجره وثوابه وتوليت أنت قتله وألقيته فى البحر وأغرقته ولما أتاها الخبر بأن فرعون أصابه فى النيل قالت إنه قد وقع فى يد عدوه الذى فررت منه فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله إليها (إن كادت لتبدى به) أى لتصرح بأنه ابنها من شدة وجلها قال ابن عباس كادت تقول وا إبناه وقيل لما رأت التابوت ترفعه موجة وتحطه أخرى خشيت عليه الغرق فكادت تصيح من شدة شفقتها عليه وقيل كادت تظهر أنه ابنها حين سمعت الناس يقولون موسى ابن فرعون فشق عليها ذلك وكادت تقول هو ابنى وقيل كادت تبدى بالوحى الذى أوحى الله اليها أن يرده عليها (لولا أن ربطنا على قلبها) أى بالعصمة والصبر والتثبت (لتكون من المؤمنين) أى من المصدقين بوعد الله إياها (وقالت لأخته) أى لمريم أخت موسى (قصيه) أى اتبعى أثره حتى تعطى خبره (فبصرت به عن جنب) أى عن بعد قيل كانت تمشى جانبا وتنظره اختلاسا ترى أنها لاتنظره (وهم لايشعرون) أنها أخته وأنها ترقبه (وحرمنا عليه المراضع) المراد به المنع قيل مكث موسى ثمان ليال لايقبل ثديا قال ابن عباس إن امرأة فرعون كان همها من الدنيا أن تجد من ترضعه كلما أتوا بمرضعة لم يأخذ ثديها وهم فى طلب من يرضعه لهم (من قبل) أى قبل مجيء أم موسى وذلك لما رأته أخت موسى التى أرسلتها أمه فى طلب

ارسلتها أمه فى طلبه ذلك قالت لهم هل أدلكم وفى القصة أن موسى مكث ثمان ليال لايقبل ثديا ويصيح وهم فى طلب مرضعة له (فقالت) يعنى أخت موسى (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه) أى يضمنونه (لكم) ويرضعونه وهى امرأة قد قتل ولدها فأحب شىء إليها أن تجد صغيرا ترضعه (وهم له ناصحون) والنصح ضد الغش ، وهو تصفية العمل من شوائب الفساد قالوا نعم فأتينا بها قال ابن جريج والسدى لما قالت أخت موسى وهم له ناصحون أخذوها وقالوا إنك قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله فقالت ماأعرفه وقلت هم للملك ناصحون وقيل إنها قالت إنما قلت هذا رغبة فى سرور الملك واتصالنا به وقيل إنها لما قالت هل أدلكم على أهل بيت قالوا لها من قالت أمى قالوا ولأمك ابن قالت نعم هارون وكان هارون ولد فى سنة لايقتل فيها الولدان قالوا (١٦٦) صدقت فأتينا بها فانطلقت إلي أمها وأخبرتها بحال ابنها وجاءت بها إليهم فلما وجد الصبى ريح أمه قبل ثديها وجعل يمصه حتى امتلأ جنباه ريا قال السدى كانوا يعطونها كل يوم دينارا فذلك قوله تعالي (فرددناه إلي أمه كى تقر عينها) برد موسى إليها (ولاتحزن) أى لئلا تحزن (ولتعلم أن وعد الله حق) برده إليها (ولكن أكثرهم لايعلمون) أن الله وعدها رده إليها (ولمابلغ أشده) قال الكلبي الأشد مابين ثمانى عشرة سنة إلي ثلاثين سنة وقال مجاهد وغيره ثلاث وثلاثون سنة (واستوى) أى بلغ أربعين سنة وروى سعيد ابن جبير عن ابن عباس وقيل استوى انتهى شبابه (آتيناه حكما وعلما) أى الفقه والعقل والعلم فى الدين فعلم موسى وحكم قبل أن يبعث نبيا (وكذلك نجزى المحسنين) قوله تعالي (ودخل المدينة) يعنى دخل موسي المدينة . قال السدى هى مدينة منف من أرض مصر وقال مقاتل كانت قرية يقال لها حابين على رأس فرسخين من مصر وقيل مدينة عين الشمس (على حين غفلة من أهلها) وهو وقت القائلة واشتغال الناس بالقيلولة ، وقال محمد بن كعب القرظى دخلها فيما بين المغرب والعشاء واختلفوا فى السبب الذى من أجله دخل المدينة فى هذا الوقت ، قال السدى وذلك أن موسى كان يسمى ابن فرعون فكان يركب مراكب فرعون ويلبس مثل ملابسه فركب فرعون يوما وليس عنده موسي فلما جاء موسي قيل له إن فرعون قد ركب فركب فى أثره فأدركه المقيل بأرض منف فدخلها نصف النهار وليس فى طرفها أحد فذلك قوله عز وجل « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها » قال محمد بن إسحاق كان لموسى شيعة من بني إسرائيل يستمعون

ذلك (فقالت) يعنى أخت موسى (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم) أى يضمنونه ويرضعونه وهى امرأة قتل ولدها فأحب ماتدعى اليه أن تجد صغيرا ترضعه (وهم له ناصحون) أى لايمنعونه ماينفعه من تربيته وغذائه والنصح إخلاص العمل من شوائب الفساد قيل لما قالت وهم له ناصحون قالوا إنك قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله قالت ماأعرفه ولكن قلت وهم للملك ناصحون وقيل إنها قالت إنما قلت ذلك رغبة فى سرور الملك واتصالنا به وقيل قالوا من هم قالت أمى قالوا ولأمك ولد قالت نعم هارون وكان هارون ولد فى السنة التى لايقتل فيها قالوا صدقت فأتينا بها فانطلقت إليها وأخبرتها بحال ابنها وجاءت بها إليهم فلما وجد الصبى ريح أمه قبل ثديها وجعل يمصه حتى امتلأ جنباه ريا قيل كانوا يعطونها كل يوم دينارا فذلك قوله تعالى (فرددناه إلى أمه كى تقر عينها) أى برد موسى اليها (ولا تحزن) أى لئلا تحزن (ولتعلم أن وعد الله حق) أى برده اليها (ولكن أكثرهم لايعلمون) أن الله وعدها أن يرده اليها (ولما بلغ أشده) قيل الأشد مابين ثمانية عشر إلى ثلاثين سنة وقيل الأشد ثلاث وثلاثون سنة (واستوى) أى بلغ أربعين سنة قاله ابن عباس وقيل انتهى شبابه وتكامل (آتيناه حكما وعلما) أى عقلا وفهما فى الدين فعلم وحكم موسى قبل أن يبعث نبيا (وكذلك نجزى المحسنين) قوله تعالى (ودخل المدينة) يعنى موسى والمدينة قيل هى منف من أعمال مصر وقيل هى قرية يقال لها حابين على رأس فرسخين من مصر وقيل هى مدينة عين شمس (على حين غفلة من أهلها) قيل هى نصف النهار واشتغال الناس بالقيلولة وقيل دخلها مابين المغرب والعشاء وقيل سبب دخول المدينة فى ذلك الوقت أن موسى كان يسمى ابن فرعون وكان يركب فى مراكب فرعون ويلبس لباسه فركب فرعون يوما وكان موسى غائبا فلما جاء قيل له إن فرعون قد ركب فركب موسى فى أثره فأدركه المقيل بأرض منف فدخلها وليس فى أطرافها أحد وقيل كان لموسى شيعة من بنى إسرائيل يسمعون منه ويقتدون به فلما عرف ماهو عليه من الحق رأى فراق فرعون وقومه فخالفهم فى دينه حتى أنكروا ذلك منه وخافوه وخافهم فكان لايدخل قرية إلا خائفا مستخفيا على حين غفلة من أهلها وقيل لما ضرب موسى فرعون بالعصا فى صغره فأراد فرعون

قتله

منه ويقتدون به فلما عرف ماهو عليه من الحق رأى فراق فرعون وقومه فخالفهم فى دينهم حتى ذكر ذلك منه وخافوه وخافهم فكان لايدخل قرية إلا خائفا مستخفيا فدخلها يوما على حين غفلة من أهلها وقال ابن زيد لما علا موسي فرعون بالعصا فى صغره فأراد فرعون قتله قالت امرأته هو صغير فترك قتله وأمر بإخراجه من مدينته فلم يدخل عليهم إلا بعد أن كبر وبلغ أشده « فدخل المدينة على حين غفلة من أهلها يعني عن ذكر موسي أى من بعد نسيانهم خبره وأمره لبعد عهدهم وروى عن على فى قوله حين غفلة قال كان يوم عيد لهم قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم (فوجد فيها رجلين يقتتلان) يختصمان ويتنازعان (هذا من شيعته) من بني إسرائيل (وهذا من عدوه) من القبط قيل الذى كان من شيعته السامرى والذى من عدوه (١٦٧) من القبط قيل طباخ فرعون اسمه فاتون وقيل هذا من شيعته وهذا من عدوه أى هذا مؤمن وهذا كافر وكان القبطى يسخر الإسرائيلى ليحمل الحطب إلي المطبخ قال سعيد بن جبير عن ابن عباس لما بلغ موسي أشده لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلي أحد من بني إسرائيل بظلم حتي امتنعوا كل الامتناع وكان بنو إسرائيل قد عزوا بمكان موسي لأنهم كانوا يعلمون أنه منهم فوجد موسي رجلين يقتتلان أحدهما من بني إسرائيل والآخر من آل فرعون (فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فاستغاثه الإسرائيلى على الفرعونى والاستغاثة طلب الغوث فغضب موسي واشتد غضبه لأنه تناوله وهو يعلم منزلة موسي من بني إسرائيل

قتله قالت امرأته هو صغير فتركه وأمر بإخراجه من مدينته فأخرج منها فلم يدخل عليهم حتى كبر وبلغ أشده فدخل على حين غفلة من أهلها يعنى عن ذكر موسى ونسيانهم خبره لبعد عهدهم به وعن على أنه كان يوم عيد لهم قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم (فوجد فيها رجلين يقتتلان) أى يتخاصمان ويتنازعان (هذا من شيعته) أى من بنى إسرائيل (وهذا من عدوه) يعنى من القبط وقيل هذا مؤمن وهذا كافر وقيل الذى كان من الشيعة هو السامرى والذى من عدوه هو طباخ فرعون واسمه فاتون وكان القبطى يريد أن يأخذ الاسرائيلى يحمله الحطب وقال ابن عباس لما بلغ موسى أشده لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بنى إسرائيل بظلم حتى امتنعوا كل الامتناع وكان بنو إسرائيل قد عزوا بمكان موسى لأنهم كانوا يعلمون أنه منهم فوجد موسى رجلين يقتتلان أحدهما من بنى إسرائيل والآخر من القبط (فاستغاثه الذى من شيعته) يعنى الاسرائيلى (على الذى من عدوه) يعنى الفرعونى والاستغاثة طلب الغوث والمعنى أنه سأله أن يخلصه منه وأن ينصره عليه فغضب موسى واشتد غضبه لأنه أخذه وهو يعلم منزلة موسى من بنى إسرائيل وحفظه لهم ولايعلم الناس إلا أنه من قبل الرضاعة فقال موسى للفرعونى خل سبيله فقال إنما أخذته ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك فنازعه فقال الفرعونى لقد هممت أن أحمله عليك وكان موسى قد أوتى بسطة فى الخلق وشدة فى القوة (فوكزه موسى) يعنى ضربه بجميع كفه وقيل الوكز الضرب فى الصدر وقيل الوكز الدفع بأطراف الأصابع (فقضى عليه) يعنى قتله وفرغ من أمره فندم موسي عليه ولم يكن قصد القتل فدفنه فى الرمل (قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين) يعنى بين الضلالة وقيل فى قوله هذا إشارة إلى عمل المقتول لا إلي عمل نفسه ، والمعني أن عمل هذا المقتول من عمل الشيطان والمراد منه بيان كونه مخالفا لله سبحانه وتعالى مستحقا للقتل وقيل هذا إشارة الى المقتول يعنى أنه من جند الشيطان وحزبه (قال رب إنى ظلمت نفسى) يعنى بقتل القبطى من غير أمر وقيل هو على سبيل الاتضاع لله تعالى والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه وإن لم يكن هناك ذنب. وقوله (فاغفر لى) يعنى ترك هذا المندوب وقيل يحتمل أن يكون المراد «رب إنى ظلمت نفسى» حيث فعلت هذا فان فرعون إذا عرف ذلك قتلنى به فقال فاغفرلى أى فاستره على ولا توصل خبره الى فرعون (فغفرله) أى فستره عن الوصول إلي فرعون (إنه هو الغفور الرحيم قال رب بما) أى بالمغفرة

وحفظه لهم ولا يعلم الناس إلا أنه من قبل الرضاعة من أم موسي فقال للفرعونى خل سبيله فقال إنما أخذته ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك فنازعه ؛ فقال الفرعونى لقد هممت أن أحمله عليك وكان موسي قد أوتى بسطة فى الخلق وشدة فى القوة والبطش (فوكزه موسى) وقرأ ابن مسعود فلكزه موسى ومعناهما واحد وهو الضرب بجميع الكف وقيل الوكز الضرب فى الصدر واللكز فى الظهر . وقال الفراء معناهما واحد وهو الدفع قال أبو عبيدة الوكز الدفع بأطراف الأصابع وفى بعض التفاسير عقد موسى ثلاثا وثمانين وضربه فى صدره (فقضى عليه) أى فقتله وفرغ من أمره وكل شيء « فرغت منه فقد قضيته وقضيت عليه فندم موسي عليه ولم يكن قصده القتل فدفنه فى الرمل (قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين) أى بين الضلالة (قال رب إنى ظلمت نفسي) بقتل القبطى من غير أمر (فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم « قال رب بما

أنعمت علىّ) بالمغفرة (فلن أكون ظهيرا) عونا (للمجرمين) قال ابن عباس للكافرين وهذا يدل على أن الإسرائيلى الذى أعانه موسي كان كافرا وهو قول مقاتل قال قتادة لن أعين بعدها على خطيئة قال ابن عباس لم يستثن فابتلى به فى اليوم الثانى (فأصبح فى المدينة) أى فى المدينة التى قتل فيها القبطى (خائفا) من قتله القبطى (يترقب) ينتظر سوءا والترقب انتظار المكروه قال الكلبي ينتظر متي يؤخذ به (فاذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه) يستغيثه ويصيح به من بعد . قال ابن عباس أتى فرعون فقيل له إن بنى إسرائيل قتلوا منا رجلا فخذ لنا بحقنا فقال ابغوا لى قاتله ومن يشهد عليه فلايستقيم أن يقضى بغير بينة فبينما هم يطوفون لايجدون (١٦٨) بينة إذ مر موسي من الغد فرأى ذلك الإسرائيلى يقاتل فرعونيا فاستغاثه على الفرعونى فصادف موسي وقد ندم على ما كان منه بالأمس من قتل القبطى (قال له موسي) للاسرائيلى (إنك لغوى مبين) ظاهر الغواية قاتلت بالأمس رجلا فقتلته بسببك وتقاتل اليوم آخر وتستغيثنى عليه وقيل إنما قال موسي للفرعونى إنك لغوى مبين بظلمك والأول أصوب ، وعليه الأكثرون أنه قال ذلك للاسرائيلى (فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما) وذلك أن موسي أدركته الرقة بالإسرائيلى فمد يده ليبطش بالفرعونى فظن الإسرائيلى أنه يريد أن يبطش به لما رأى من غضبه وسمع قوله إنك لغوى مبين (قال ياموسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد) ماتريد (إلا أن تكون جبارا فى الأرض) بالقتل ظلما (وماتريد أن تكون إلا من المصلحين) فلما سمع القبطى ماقال الإسرائيلى علم أن موسي هو الذى قتل ذلك الفرعونى ، فانطلق إلى فرعون وأخبره بذلك وأمر فرعون بقتل موسي ، قال ابن عباس فلما أرسل فرعون الذباحين لقتل موسي أخذوا الطريق الأعظم (وجاء رجل) من شيعة موسي (من أقصي المدينة) أى من آخرها قال أكثر أهل التأويل اسمه حزقيل مؤمن من آل فرعون وقيل اسمه شمعون وقيل سمعان (يسعى) أى يسرع فى مشيه فأخذ طريقا قريبا حتي سبق إلى موسي فأخبره وأنذره حتي أخذ طريقا آخر (قال ياموسي إن الملأ يأتمرون بك) يعنى أشراف قوم فرعون يتشاورون فيك (ليقتلوك) قال الزجاج يأمر بعضهم بعضا بقتلك (فاخرج) من المدينة (إنى لك من الناصحين) فى الأمر لك بالخروج (فخرج منها) موسى (خائفا يترقب) أى

والستر الذى (أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين) معناه فانا لا أكون معاونا لأحد من المجرمين قال ابن عباس الكافرين وفيه دليل على أن الاسرائيلى الذى أعانه موسى كان كافرا قال ابن عباس لم يستثن فابتلى فى اليوم الثانى أى لم يقل فلم أكن إن شاء الله ظهيرا للمجرمين (فأصبح فى المدينة) أى التى قتل فيها القبطى (خائفا يترقب) أى ينتظر سوءا والترقب انتظار المكروه وقيل ينتظر متى يؤخذ بة (فاذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه) أى يستغيث به من بعد قال ابن عباس أتى فرعون فقيل له إن بنى إسرائيل قتلوا منا رجلا فخذلنا بحقنا فقال اطلبوا قاتله ومن يشهد علية فبينماهم يطوفون لايجدون بينة إذ مر موسى من الغد فرأى ذلك الاسرائيلى يقاتل فرعونيا فاستغاثه على الفرعونى وكان موسى قد ندم على ما كان منة بالأمس من قتل القبطى (قال لة موسى) للاسرائيلى (إنك لغوى مبين) أى ظاهر الغواية قاتلت رجلا بالأمس فقتلتة بسببك وتقاتل اليوم آخر وتستغيثنى علية (فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما) وذلك أن موسى أخذتة الغيرة والرقة للاسرائيلى فمد يده ليبطش بالقبطى فظن الاسرائيلى أنة يريد أن يبطش بة لما رأى من غضب موسى وسمع قولة إنك لغوى مبين (قال ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس) معناه أنه لم يكن علم أحد من قوم فرعون أن موسى هو الذى قتل القبطى حتى أفشى علية الاسرائيلى ذلك فسمعة القبطى فأتى فرعون فأخبره بذلك (إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض) أى بالقتل ظلما وقيل الجبار هو الذى يقتل ويضرب ولا ينظر فى العواقب وقيل هو الذى يتعاظم ولا يتواضع لأمر الله تعالي (وما تريد أن تكون من المصلحين) ولما فشا أن موسى قتل القبطى أمر فرعون بقتلة فخرجوا فى طلبه وسمع بذلك رجل من شيعة موسى يقال إنة مؤمن آل فرعون واسمه حزقيل وقيل شمعون وقيل سمعان وهو قولة تعالي (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى) أى يسرع فى مشية وأخذ طريقا قريبا حتى سبق إلي موسى وأخبره وأنذره بما سمع (قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك) يعنى يتشاورون فيك (ليقتلوك) وقيل يأمر بعضهم بعضا بقتلك (فاخرج) يعنى من المدينة (إنى لك من الناصحين) يعنى فى الأمر بالخروج (فخرج منها) يعنى موسى (خائفا) على نفسة من آل فرعون (يترقب) يعنى ينتظر الطلب هل يلحقه فيأخذه ثم لجأ إلى الله تعالى لعلمة أنه لاملجأ

ينتظر الطلب (قال رب نجني من القوم الظالمين) الكافرين وفى القصة أن فرعون بعث فى طلبه حين أخبر بهر به . فقال اركبوا بنيات الطريق فانه لايعرف كيف الطريق (ولما توجه تلقاء مدين) أى قصد نحوها ماضيا إليها يقال داره تلقاء دار فلان إذا كانت محاذيتها وأصله من اللقاء قال الزجاج يعني سلك الطريق التي يلتى مدين فيها ومدين هو مدين بن إبراهيم سميت البلدة باسمه وكان موسى قد خرج خائفا بلا ظهر ولا حذاء ولا زاد وكانت مدين على مسيرة ثمانية أيام من مصر (قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) أى قصد الطريق إلى مدين قال ذلك لأنه لم يكن يعرف الطريق إليها قيل فلما دعا جاءه ملك بيده عنزة فانطلق به إلى مدين . قال المفسرون خرج موسى من مصر ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر والبقل حتى إنه يرى خضرته فى بطنه وما وصل إلى مدين حتى وقع خف قدميه . قال ابن (١٦٩) عباس وهو أول ابتلاء من الله عز وجل لموسى عليه الصلاة والسلام (ولما ورد ماء مدين) وهو بئر كانوا يسقون منها مواشيهم (وجد عليه أمة) جماعة (من الناس يسقون) مواشيهم (ووجد من دونهم) يعنى سوى الجماعة وقيل بعيدا عن الجماعة (امرأتين تذودان) يعنى تحبسان وتمنعان أغنامهما عن الماء حتى يفرغ الناس وتخلو لهما البئر قال الحسن تكفان الغنم عن أن تختلط بأغنام الناس وقال قتادة تكفان الناس عن أغنامهما وقيل تمنعان أغنامهما عن أن تشذ وتذهب والقول الأول أصوبهما لما بعده وهو قوله (قال) يعنى موسى للمرأتين (ما خطبكما) ما شأنكما لا تسقيان مواشيكما مع الناس

(قالتا لانسقى) أغنامنا (حتى يصدر الرعاء) قرأ أبوجعفر وأبوعمرو وابن عامر يصدر بفتح الياء وضم الدال على اللزوم أى حتى يرجع الرعاء عن الماء وقرأ الآخرون بضم الياء وكسر الدال أى حتى يصرفوا هم مواشيهم عن الماء والرعاء جمع راع مثل تاجر وتجار ومعنى الآية لانسقى مواشينا حتى يصدر الرعاء لأنا امرأتان لانطيق أن نستسقى ولا نستطيع أن نزاحم الرجال فاذا صدروا سقينا مواشينا ما أفضلت مواشيهم فى الحوض (وأبونا شيخ كبير) لايقدر أن يسقى مواشيه فلذلك احتجنا نحن إلى سقى الغنم . واختلفوا فى اسم أبيهما فقال مجاهد والضحاك والسدى والحسن هو شعيب النبي عليه السلام وقال وهب بن منبه وسعيد بن جبير هو يبرون ابن أخى شعيب وكان شعيب قد مات قبل ذلك بعد ما كف بصره فدفن بين المقام وزمزم وقيل رجل ممن آمن بشعيب قالوا فلما سمع موسى قولهما رحمهما فاقتلع صخرة من رأس بئر أخرى كانت

إلا إليه (قال رب نجنى من القوم الظالمين) يعنى الكافرين . قوله تعالي (ولما توجة تلقاء مدين) يعنى قصد نحوها ماضيا إليها قيل إنه وقع فى نفسة أن بينهم وبينه قرابة لأن أهل مدين من ولد إبراهيم وموسى من ولد إبراهيم ومدين هو مدين بن إبراهيم سميت البلد باسمه وبين مدين ومصر مسيرة ثمانية أيام . قيل خرج موسى خائفا بلا ظهر ولا زاد ولا أحد ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر ونبات الأرض حتى رأى خضرته فى بطنة وما وصل إلي مدين حتى وقع خف قدميه قال ابن عباس وهو أول ابتلاء من الله لموسى (قال) يعنى موسى (عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) يعنى قصد الطريق إلى مدين وذلك أنة لم يكن يعرف الطريق إليها قيل لما دعا موسى جاءه ملك بيده عنزة فانطلق بة إلي مدين . قولة عز وجل (ولما ورد ماء مدين) هو بئر كانوا يسقون منها مواشيهم (وجد علية) يعنى على الماء (أمة) يعنى جماعة (من الناس يسقون) يعنى مواشيهم (ووجد من دونهم) يعنى سوى الجماعة وقيل بعيدا من الجماعة (امرأتين تذودان) أى تحبسان وتمنعان أغنامهما عن الماء حتى يفرغ الناس وتخلو لهما البئر وقيل تكفان الغنم عن أن تخلط بأغنام الناس وقيل تمنعان أغنامهما عن أن تند وتذهب والقول الأول أولي لما بعده وهو قوله (قال) يعنى موسى للمرأتين (ما خطبكما) أى ما شأنكما لاتسقيان مواشيكما مع الناس (قالتا لانسقى) يعنى أغنامنا (حتى يصدر الرعاء) أى حتى يرجع الرعاء من الماء والمعنى أنا امرأتان لانستطيع أن نزاحم الرجال فاذا صدروا سقينا نحن مواشينا من فضل مابقى منهم فى الحوض (وأبونا شيخ كبير) أى لايقدر أن يسقى مواشيه فلذلك احتجنا نحن إلى سقى الغنم ، قيل أبوهما هو شعيب عليه الصلاة والسلام وقيل هو يبرون ابن أخى شعيب وكان شعيب قد مات بعد ما كف بصره وقيل هو رجل ممن آمن بشعيب فلما سمع موسى كلامهما رق لهما ورحمهما فاقتلع صخرة من على رأس بئر أخرى كانت بقربهما لايطيق رفعها إلا جماعة من الناس وقيل زاحم القوم ونحاهم كلهم عن البئر وسقى لهما الغنم وقيل لما فرغ الرعاء من السقى غطوا رأس البئر بحجر لا يرفعه إلا عشرة نفر فجاء موسى فرفع الحجر وحده ونزع دلوا واحدا ودعا فية بالبركة وسقى الغنم فرويت فذلك قولة تعالي

بغربهما لا يطيق رفعها إلا جماعة من الناس وقال ابن إسحاق إن موسى زاحم القوم ونحاهم عن رأس البئر فسقى غنم المرأتين وروى أن القوم لما رجعوا بأغنامهم غطوا رأس البئر بحجر لا يرفعه إلا عشرة نفر فجاء موسى ورفع الحجر وحده وسقى غنم المرأتين ويقال إنه نزع ذنوبا واحدا ودعا فيه بالبركة فروى منه جميع الغنم فذلك قوله (فسقى لهما ثم تولى إلى الظل) ظل شجرة فجلس فى ظلها من شدة الحر وهو جائع (فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير) من طعام (فقير) قال أهل اللغة اللام بمعنى إلى ؛ يقال هو فقير له وفقير إليه يقول إنى لما أنزلت إلى من خير أى طعام فقير محتاج كان يطلب الطعام لجوعه قال ابن عباس سأل الله تعالى فلقة خبز يقيم بها صلبه قال محمد الباقر لقد قالها وإنه لمحتاج إلى شق تمرة وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس لقد قال موسى «رب إنى لما أنزلت (١٧٠) إلى من خير فقير» وهو أكرم خلقه عليه ولقد افتقر إلى شق تمرة . وقال مجاهد ماسأله إلا الخبز قالوا فلما رجعتا إلى أبيهما سريعا قبل الناس وأغنامهما حفل بطان قال لهما ما أعجلكما قالتا وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا أغنامنا فقال لإحداهما اذهبى فادعيه لى قال الله تعالى (فجاءته إحداهما تمشى على استحياء) قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليست بسلفع من النساء خراجة ولاجة ولكن جاءت مستترة قد وضعت كم درعها على وجهها استحياء (قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا) قال أبو حازم سلمة بن دينار لما سمع ذلك موسى أراد أن لايذهب ولكن كان جائعا فلم يجد بدا من الذهاب فمشت المرأة ومشى موسى خلفها فكانت الريح تضرب ثوبها فتصف ردفها فكره موسى أن يرى لاتصف ذلك منها فقال لها امشى خلفى ودلينى على الطريق إن أخطأت ففعلت ذلك فلما دخل على شعيب إذا هو بالعشاء مهيئا فقال اجلس ياشاب فتعش فقال موسى أعوذ بالله فقال شعيب ولم ذاك ألست بجائع قال بلى ولكن أخاف أن يكون هذا عوضا لما سقيت لهما وإنا أهل بيت لانطلب على عمل من أعمال الآخرة عوضا من الدنيا فقال له شعيب لاوالله ياشاب ولكنها عادتى وعادة آبائى نقرى الضيف ونطعم الطعام فجلس موسى وأكل (فلما جاءه وقص عليه القصص) يعنى أمره أجمع من قتله القبطى وقصد فرعون قتله (قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين) يعنى فرعون وقومه وإنما قال هذا لأنه لم يكن لفرعون سلطان على أهل مدين (قالت إحداهما ياأبت استأجره) اتخذه أجيرا ليرعى أغنامنا (إن خير من استأجرت القوى الأمين) يعنى خير من

(فسقى لهما ثم تولى إلى الظل) يعنى عدل إلى رأس الشجرة فجلس فى ظلها من شدة الحر وهو جائع (فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير) معناه أنه طلب الطعام لجوعة واحتياجة إلية قال ابن عباس إن موسى سأل الله فلقة خبز يقيم بها صلبة وعن ابن عباس قال لقد قال موسى «رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير» وهو أكرم خلقه علية ولقد افتقر إلى شق تمرة وقيل ماسأل إلا الخبز فلما رجعتا إلى أبيهما سريعا قبل الناس وأغنامهما حفل بطان قال لهما ما أعجلكما ؟ قالتا وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا أغنامنا فقال لإحداهما اذهبى فادعيه إلى قال الله تعالى (فجاءته إحداهما تمشى على استحياء) قيل هى الكبرى واسمها صفوراء وقيل صفراء وقيل بل هى الصغرى واسمها ليا وقيل صفيراء وقال عمر بن الخطاب ليست بسلفع من النساء خراجة ولاجة ولكن جاءت مستترة قد وضعت كم درعها على وجهها استحياء وقيل استحيت منه لأنها دعته لتكافئه وقيل لأنها رسول أبيها (قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا) قيل لما سمع موسى ذلك كره أن يذهب معها ولكن كان جائعا فلم يجد بدا من الذهاب فمشت المرأة ومشى موسى خلفها فكانت الريح تضرب ثوبها فتصف ردفها فكره موسى أن يرى ذلك منها فقال لها امشى خلفى ودلينى على الطريق إذا أخطأت ففعلت ذلك فلما دخل موسى على شعيب إذا هو بالعشاء مهيئا فقال اجلس يافتى فتعش فقال موسى أعوذ بالله فقال شعيب ولم ذاك ألست بجائع ؟ قال بلى ولكنى أخاف أن يكون هذا عوضا لما سقيت لهما وإنا أهل بيت لانطلب على عمل من أعمال الآخرة عوضا من الدنيا فقال له شعيب لاوالله يافتى ولكنها عادتى وعادة آبائى نقرى الضيف ونطعم الطعام فجلس وأكل فذلك قولة عز وجل (فلماجاءه) أى موسى (وقص علية القصص) أى أخبره بأمره أجمع من خبر ولادته وقتلة القبطى وقصد فرعون قتله (قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين) يعنى من فرعون وقومه وإنما قال ذلك لأنه لم يكن لفرعون سلطان على مدين (قالت إحداهما ياأبت استأجره) أى اتخذه أجيرا ليرعى أغنامنا (إن خير من استأجرت القوى الأمين) يعنى إن خير من استعملت من قوى على العمل وأدى الأمانة فقال لها أبوها ما أعلمك بقوته وأمانته ؟ قالت أما قوته فانه رفع الحجر من على رأس البئر ولا يرفعة إلا عشرة وقيل أربعون رجلا وأما أمانته فانة قال لى امشى خلفى حتى

استعملت من قوى على العمل وآداء الأمانة فقال لها أبوها وما علمك بقوته وأمانته قالت أما قوته فانه رفع حجرا من رأس البئر لايرفعه إلا عشرة وقيل إلا أربعون رجلا وأما أمانته فانه قال لى امشى خلفى حتى لاتصف الريح بدنك (قال) شعيب عند ذلك (إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين) واسمهما صفوراء وليا فى قول شعيب الجبائى وقال ابن إسحاق صفورة وشرقا وقال غيرهما الكبرى صفراء والصغرى صفيراء وقيل زوجه الكبرى وذهب أكثرهم إلى أنه زوجه الصغرى منهما واسمها صفورة وهى التى ذهبت لطلب موسى (على أن تأجرنى ثمانى حجج) يعنى أن تكون أجيرا لى ثمان سنين قال الفراء يعنى اجعل ثوابى من تزويجها أن ترعى غنمى ثمانى حجج تقول العرب آجرك الله بأجرك أى أثابك والحجج السنون واحدتها حجة (فان أتممت عشرا فمن عندك) أى إن أتممت عشر سنين فذلك تفضل منك وتبرع (١٧١) وليس بواجب عليك (وما أريد أن أشق عليك) أن ألزمك تمام العشر إلا أن تتبرع (ستجدنى إن شاء الله من الصالحين) قال عمر يعنى فى حسن الصحبة والوفاء بما قلت (قال) موسى (ذلك بينى وبينك) يعنى هذا الشرط بينى وبينك فما شرطت علىّ فلك وما شرطت من تزويج إحداهما فلى والأمر بيننا ، تم الكلام ثم قال (أيما الأجلين قضيت) يعنى أى الأجلين وما صلة قضيت ، يعنى أتممت وفرغت من الثمان أو العشر (فلا عدوان علىّ) لاظلم على بأن أطالب بأكثر منهما (والله على مانقول وكيل) قال ابن عباس ومقاتل شهيد فيما بينى وبينك وقيل حفيظ : أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد ابن عبد الرحيم أنا سعيد بن سليمان أنا مروان بن شجاع ، عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير قال سألنى يهودى من أهل الحيرة أى الأجلين قضى موسى قلت لاأدرى حتى أقدم على حبر العرب فأسأله فقدمت على ابن عباس فسألته فقال قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال فعل وروى عن أبى ذر مرفوعا «إذا سئلت أى الأجلين قضى موسى فقل خيرهما وأبرهما وإذا سئلت بأى المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما وهى التى جاءت فقالت يا أبت استأجره فتزوج صغراهما وقضى أوفاهما» وقال وهب أنكحه الكبرى روى عن شداد بن أوس مرفوعا بكى شعيب النبى صلى الله عليه وسلم حتى عمى فرد الله عليه بصره ثم بكى حتى عمى فرد الله عليه بصره ثم بكى حتى عمى فرد الله عليه بصره فقال الله له ماهذا البكاء أشوقا إلى

لاتصف الريح بدنك (قال) شعيب عند ذلك (إنى أريد أن أنكحك) أى أزوجك (إحدى ابنتى هاتين) قيل زوجه الكبرى وقال الأكثرون إنه زوجه الصغرى منهما واسمها صفوراء وهى التى ذهبت فى طلب موسى (على أن تأجرنى ثمانى حجج) أى تكون لى أجيرا ثمان سنين (فان أتممت عشرا فمن عندك) أى فان أتممت العشر سنين فذلك تفضل منك وتبرع ليس بواجب عليك (وما أريد أن أشق عليك) أى ألزمك تمام العشر إلا أن تتبرع (ستجدنى إن شاء الله من الصالحين) أى فى حسن الصحبة والوفاء بما قلت وقيل يريد بالصلاح حسن المعاملة ولين الجانب وإنما قال إن شاء الله للاتكال على توفيقه ومعونته (قال) يعنى موسى (ذلك بينى وبينك) يعنى ماشرطت على فلك وما شرطت من تزوج إحداهما فلى والأمر بيننا على ذلك (أيما الأجلين قضيت) أى أى الأجلين أتممت وفرغت منه الثمانية أو العشرة (فلا عدوان على) أى لاظلم على بأن أطالب بأكثر منه (والله على مانقول وكيل) قال ابن عباس شهيد بينى وبينك (خ) عن سعيد بن جبير قال سألنى يهودى من أهل الحيرة أى الأجلين قضى موسى قلت لاأدرى حتى أقدم على خير العرب فاسأله فقدمت فسألت ابن عباس فقال قضى أكثرهما وأطيبهما لأن رسول الله إذا قال فعل وروى عن أبى ذر مرفوعا «إذا سئلت أى الأجلين قضى موسى فقل خيرهما وأبرهما وإذا سئلت أى المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما وهى التى جاءت فقالت ياأبت استأجره فتزوج صغراهما وقضى أوفاهما» وقال وهب أنكحه الكبرى وروى شداد بن أوس مرفوعا بكي شعيب النبى صلى الله عليه وسلم حتى عمى فرد الله عليه بصره ثم بكي حتى عمى فرد الله عليه بصره ثم بكى حتى عمى فرد الله عليه بصره فقال الله له ماهذا البكاء أشوقا إلى الجنة أم خوفا من النار فقال لايارب ولكن شوقا إلي لقائك فأوحى الله إلية إن يكن ذلك فهنيئا لك لقائى ياشعيب لذلك أخدمتك كليمى موسى ولما تعاقدا هذا العقد بينهما أمر شعيب ابنته أن تعطى موسى عصاه يدفع بها السباع عن غنمة قيل كانت من آس الجنة حملها آدم معه فتوارثها الأنبياء وكان لايأخذها غير نبى إلا أكلتة فصارت من آدم إلى نوح ثم إلي إبراهيم حتى وصلت إلي شعيب فأعطاها موسى ثم إن موسى لما قضى الأجل سلم شعيب إليه ابنته فقال لها موسى اطلبى من أبيك

الجنة أم خوفا من النار فقال لا يارب ولـكن شوقا إلى لقائك فأوحى الله اليه إن يكن ذلك فهنيئا لك لقائى ياشعيب لذلك أخدمتك موسى كليمى ولما تعاقدا هذا العقد بينهما أمر شعيب ابنته أن تعطى موسى عصا يدفع بها السباع عن غنمه .واختلفوا فى تلك العصا قال عكرمة خرج بها آدم من الجنة فأخذها جبريل بعد موت آدم فكانت معه حتى لقى بها موسى ليلا فدفعها إليه وقال آخرون كانت من آس الجنة حملها آدم من الجنة فتوارثها الأنبياء وكان لايأخذها غير نبى إلا أكلته فصارت من آدم إلى نوح ثم إلى إبراهيم حتى وصلت إلى شعيب وكانت عصا الأنبياء عنده فأعطاها موسى وقال السدى كانت تلك العصا استودعها إياه ملك فى صورة رجل فأمر ابنته أن تأتيه بعصا فدخلت فأخذت العصا فأتته بها فلما رآها شعيب قال لها ردى هذه العصا وأتيه بغيرها فألقتها وأرادت أن تأخذ غيرها فلا تقع فى يدها إلا هى حتى فعلت ذلك ثلاث مرات فأعطتها موسى فأخرجها موسى معه ثم إن الشيخ ندم وقال كانت وديعة فذهب فى أثره وطلب أن يرد العصا فأبى موسى أن يعطيه وقال هى عصاى فرضيا أن يجعلا بينهما أول رجل يلقاهما فلقيهما ملك فى صورة آدمى فحكم أن يطرح العصا فمن حملها فهى له فطرح موسى العصا فعالجها الشيخ ليأخذها فلم يطقها فأخذها موسى (١٧٢) بيده فرفعها فتركها له الشيخ ثم إن موسى لما أتم الأجل وسلم شعيب ابنته إليه قال موسى للمرأة اطلبى من أبيك أن يجعل لنا بعض الغنم فطلبت من أبيها فقال شعيب لـكما كل ماولدت هذا العام على غير شيتها وقيل أراد شعيب أن يجازى موسى على حسن رعيته إكراما له وصلة لابنته فقال له إنى قد وهبت لك من الجدايا التى تضعها أغنامى هذه السنة كل أبلق وبلقاء فأوحى الله إلى موسى فى المنام أن اضرب بعصاك الماء الذى فى مستسقى الأغنام فضرب موسى بعصاه الماء ثم سقى الأغنام منه فما أخطأت واحدة منها إلا وضعت حملها مابين أبلق وبلقاء فعلم فقال له إن ذلك رزق ساقه الله عز وجل إلى موسى وامرأته فوفى له شرطه وسلم الأغنام إليه. قوله عز وجل (فلما قضى موسى الأجل) يعنى أتمه وفرغ منه (وسار بأهله) قال مجاهد لما قضى الأجل مكث بعد ذلك عند صهره عشرا آخر فأقام عنده عشرين سنة ثم استأذنه فى العود إلى مصر فأذن له فخرج بأهله إلى جانب مصر (آنس) يعنى أبصر (من جانب الطور نارا) وكان فى البرية فى ليلة مظلمة شاتية شديدة البرد وأخذ امرأته الطلق (قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر) يعنى عن الطريق لأنه كان قد أخطأ الطريق (أو جذوة من النار) يعنى قطعة وشعلة من النار وفيها ثلاث لغات قرأ عاصم جذوة بفتح الجيم وقرأ حمزة بضمها وقرأ الآخرون بكسرها قال قتادة ومقاتل هى العود الذى قد احترق بعضه وجمعها جذى (لعلكم تصطلون) تستدفئون (فلما أتاها نودى من شاطئ الواد الأيمن) يعنى من جانب الوادى الذى عن يمين موسى (فى البقعة المباركة) لموسى جعلها الله مباركة لأن الله كلم موسى هناك وبعثه نبيا وقال عطاء يريد المقدسة (من الشجرة) من ناحية الشجرة قال ابن مسعود كانت سمرة خضراء تبرق ، وقال قتادة ومقاتل والكلبى كانت عوسجة قال وهب من العليق وقال ابن عباس رضى الله عنهما إنها العناب (أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين

أن يجعل لنا بعض الغنم فطلبت من أبيها ذلك فقال لـكما كل ماولدت هذا العام على غير شيتها وقيل إن شعيبا أراد أن يجازى موسى على حسن رعيه إكراما وصلة لابنته فقال له إنى قد وهبت لك من ولد أغنامى كل أبلق وبلقاء فى هذه السنة فأوحى الله تعالى إلى موسى فى النوم أن اضرب بعصاك الماء ثم اسق الأغنام منه ففعل ذلك فما أخطأت واحدة إلا وضعت حملها مابين أبلق وبلقاء فعلم شعيب أن هذا رزق ساقه الله إلى موسى وامرأته فوفى له بشرطه وأعطاه الأغنام . قوله عز وجل (فلما قضى موسى الأجل) أى أتمه وفرغ منه (وسار بأهله) قيل مكث موسى بعد الأجل عند شعيب عشر سنين أخرى ثم استأذنه فى العود إلى مصر فأذن له فسار بأهله أى بزوجته قاصدا إلى مصر (آنس) أى أبصر (من جانب الطور نارا) وذلك أنه كان فى البرية فى ليلة مظلمة شديدة البرد وأخذ امرأته الطلق (قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر) أى عن الطريق لأنه كان قد أخطأ الطريق(أو جذوة من النار) أى قطعة وشعلة من النار وقيل الجذوة العود الذى اشتعل بعضه (لعلكم تصطلون) أى تستدفئون (فلما أتاها نودى من شاطىء الواد الأيمن) يعنى من جانب الوادى الذى عن يمين موسى (فى البقعة المباركة) جعلها الله مباركة لأن الله تعالى كلم موسى هناك وبعثه نبيا وقيل يريد البقعة المقدسة (من الشجرة) يعنى من ناحية الشجرة قال ابن مسعود كانت سمرة خضراء تبرق وقيل كانت عوسجة وقيل كانت من العليق وعن ابن عباس إنها العناب (أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين) قيل إن موسى لما رأى النار فى الشجرة الخضراء علم أنه لايقدر على الجمع بين النار وخضرة الشجرة

وان الق عصاك فلما رآها تهتز) تتحرك (كأنها جان) وهي الحية الصغيرة من سرعة حركتها (ولى مدبرا)هاربا منها (ولم يعقب)لم يرجع فنودى (ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين اسلك) أدخل (يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) برص فخرجت ولها شعاع كضوء الشمس (واضمم إليك جناحك من الرهب) قرأ أهل الكوفة والشام بضم الراء وسكون الهاء ويفتح حفص الراء وقرأ الآخرون بفتحهما وكلها لغات بمعنى الخوف ومعنى الآية إذا هالك أمر يدك وما ترى من شعاعها فأ دخلها فى جيبك تعد إلى حالتها الأولى والجناح اليد كلها وقيل هو العضد وقال عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهم أمره الله بضم يده إلى صدره فيذهب عنه ما ناله من الخوف عند معاينة الحية وقال ما من خائف بعد موسى **(١٧٣)** إلا إذا وضع يده على صدره زال خوفه وقال مجاهد كل من فزع فضم جناحه إليه ذهب عنه الفزع وقيل المراد من ضم الجناح السكون يعنى سكن روعك واخفض عليك جأشك لأن من شأن الخائف أن يضطرب قلبه ويرتعد بدنه ومثله قوله «واخفض لهما جناح الذل من الرحمة» يريد الرفق وقوله « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » أى ارفق بهم وألن جانبك لهم وقال الفراء أراد بالجناح العصا معناه وقيل إضمم إليك عصاك وقيل الرهب الكم بلغة حمير قال الأصمعى سمعت بعض الأعراب يقول أعطنى ما فى رهبك أى فى كمك معناه اضمم إليك يدك وأخرجها من الكم لأنه تناول العصا ويده فى كمه (فذانك) يعنى العصا واليد البيضاء (برهانان) آيتان (من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين قال رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون وأخى هارون هو أفصح منى لسانا) وإنما قال ذلك للعقدة التى كانت فى لسانه من وضع الجمرة فى فيه(فأرسله معى ردءا)عونا يقال ردأته أى أعنته قرأ نافع ردا بفتح الدال من غير همز طلبا للخفة وقرأ الباقون بسكون الدال مهموزا(يصدقنى) قرأ ابن عمرو وعامر وحمزة برفع القاف على الحال أى ردءا مصدقا وقرأ الآخرون بالجزم على جواب الدعاء والتصديق لهارون فى قول الجميع قال مقاتل لكى يصدقنى فرعون (إنى أخاف أن يكذبون) يعنى فرعون وقومه (قال سنشد عضدك بأخيك) أى نقويك بأخيك وكان هارون يومئذ بمصر (ونجعل لكما سلطانا) حجة وبرهانا (فلا يصلون إليكما بآياتنا) أي لايصلون إليكما بقتل ولا سوء لمكان آياتنا وقيل فيه تقديم وتأخير تقديره ونجعل

الشجرة إلا الله تعالي فعلم بذلك أن المتكلم هو الله تعالي وقيل إن الله تعالي خلق فى نفس موسى علما ضروريا بأن المتكلم هو الله تعالي وأن ذلك الكلام كلام الله تعالي وقيل إنه قيل لموسى كيف عرفت أنه نداء الله قال إنى سمعته بجميع أجزائى فلما وجد حس السمع من جميع الأجزاء علم بذلك أنه لايقدر عليه أحد إلا الله تعالي (وأن ألق عصاك) يعنى فألقاها (فلما رآها تهتز) يعنى تتحرك (كأنها جان) هى الحية الصغيرة والمعنى أنها فى سرعة حركتها كالحية السريعة الحركة (ولى مدبرا) يعنى هاربا منها (ولم يعقب) يعنى ولم يرجع قال وهب إنها لم تدع شجرة ولا صخرة إلا بلعتها حتى إن موسى سمع صرير أسنانها وقعقعة الشجر والصخر فى جوفها فحينئذ ولى مدبرا ولم يعقب فنودى عند ذلك (يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين) قوله عز وجل (اسلك يدك) يعنى أدخل يدك (فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) يعنى برص والمعنى أنه أدخل يده فخرجت ولها شعاع كضوء الشمس(واضمم إليك جناحك من الرهب) يعنى من الخوف والمعنى إذا هالك أمر يدك وما تراه من شعاعها فأدخلها فى جيبك تعد إلي حالتها الأولى وقال ابن عباس أمر الله موسى أن يضم يده إلى صدره فيذهب عنه ما ناله من الخوف عند معاينة الحية وما من خائف بعد موسى إلا إذا وضع يده على صدره زال خوفه وقيل المراد من ضم الجناح السكون أى سكن روعك واخفض عليك جناحك لأن من شأن الخائف أن يضطرب قلبه ويرتعد بدنه وقيل الرهب الكم بلغة حمير ومعناه أضمم إليك يدك وأخرجها من كمك لأنه تناول العصا ويده فى كمه (فذانك) يعنى العصا واليد البيضاء (برهانان) يعنى آيتان (من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين) يعنى خارجين عن الحق (قال رب إنى قتلت منهم نفسا) يعنى القبطى (فأخاف أن يقتلون) يعنى به (وأخى هارون هو أفصح منى لسانا) يعنى بيانا وإنما قال ذلك للعقدة التى كانت فى لسانه من وضع الجمرة فى فيه (فأرسله معى ردءا) يعنى عونا (يصدقنى) يعنى فرعون وقيل تصديق هارون هو أن يلخص الدلائل ويجيب عن الشبهات ويجادل الكفار فهذا هو التصديق المفيد (إنى أخاف أن يكذبون) يعنى فرعون وقومه (قال سنشد عضدك بأخيك) يعنى سنقويك به وكان هارون بمصر (ونجعل لكما سلطانا) يعنى حجة

لـكما سلطانا بآياتنا بما نعطيكما من المعجزات (فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون) أى لـكما ولأتباعكما الغلبة على فرعون وقومه (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات) واضحات (قالوا ماهذا إلا سحر مفترى) مختلق (وما سمعنا بهذا) بالذى تدعونا إليه (فى آبائنا الأولين وقال موسى) قرأ المـكي بغير واو وكذلك هو فى مصاحفهم (ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده) بالمحق من المبطل (ومن تـكون له عاقبة الدار) يعنى العقبى المحمودة فى الدار الآخرة (إنه لايفلح الظالمون) يعنى الـكافرون (وقال فرعون ياأيها الملأ ماعلمت لـكم من إله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين) يعنى فاطبـخ لى الآجر وقيل إنه أول من اتخذ الآجر وبنى به (فاجعل لى صرحا) قصرا (١٧٤) عاليا وقيل منارة . قال أهل السير لما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح جمع هامان الفعلة حتى اجتمع العمال خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء ومن يطبخ الآجر والجص وينجر الخشب ويضرب المسامير فرفعوه وشيدوه حتى ارتفع ارتفاعا لم يبلغه بنيان أحد من الخلق أراد الله عز وجل أن يفتنهم فيه فلما فرغوا منه ارتقى فرعون فوقه وأمر بنشابة فرمى بها نحو السماء فردت إليه وهى ملطخة دما فقال قد قتلت إله موسى وكان فرعون يصعد على البراذين فبعث الله جبريل جنح غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع فوقعت قطعة منها على عسكر فرعون فقتلت منهم ألف ألف رجل ووقعت قطعة فى البحر وقطعة فى المغرب ولم يبق أحد ممن عمل فيه بشيء إلاهلك فذلك قوله تعالى « فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لي صرحا » (لعلى أطلع إلى إله موسى) أنظر إليه وأقف على حاله (وإنى لأظنه) يعنى موسى (من الـكاذبين) فى زعمه أن للأرض وللخلق إلها غيرى وأنه رسوله (واستـكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون) قرأ نافع وحمزة والـكسائى ويعقوب يرجعون بفتح الياء وكسر الجيم والباقون بضم الياء وفتح الجيم (فأخذناه وجنوده فنبذناهم) فألقيناهم (فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين وجعلناهم أئمة) قادة ورؤساء (يدعون إلي النار ويوم القيامة لاينصرون) لايمنعون من العذاب (وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة) خزيا وعذابا (ويوم القيامة هم من المقبوحين) من المبعدين الملعونين وقال أبو عبيدة

وبرهانا (فلا يصلون إليـكما) أى بقتل ولا سوء (بآياتنا) قيل معناه نعطيـكما من المعجزات فلا يصلون إليـكما (أنتما ومن اتبعـكما الغالبون) يعنى لـكما ولأتباعكما الغلبة على فرعون وقومه (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات) يعنى واضحات (قالوا ماهذا إلاسحر مفترى) يعنى مختلق (وما سمعنا بهذا) يعنى بالذى تدعونا إلية (فى آبائنا الأولين وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده) يعنى أنه يعلم المحق من المبطل (ومن تـكون لة عاقبة الدار) يعنى العقبى المحمودة فى الدار الآخرة (إنه لايفلح الظالمون) يعنى الـكافرون (وقال فرعون ياأيها الملأ ماعلمت لـكم من إله غيرى) فيه إنـكار لما جاء بة موسى من توحيد الله وعبادتة (فأوقد لى ياهامان على الطين) يعنى اطبخ لى الآجر قيل إنه أول من اتخذ آجرا وبنى به (فاجعل لى صرحا) أي قصرا عاليا وقيل منارة . قال أهل السير لما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح جمع هامان العمال والفعلة حتى اجتمع عنده خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء وطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير وأمر بالبناء فبنوه ورفعوه وشيدوه حتى ارتفع ارتفاعا لم يبلغه بنيان أحد من الخلق وأراد الله أن يفتنهم فيه فلما فرغوا منة ارتقى فرعون فوقه وأمر بنشابة فرمى بها نحو السماء فردت إليه وهى ملطخة دما فقال قد قتلت إله موسى وكان فرعون يصعده را كبا على البراذين فبعث الله جبريل عند غروب الشمس فضربة بجناحه فقطعه ثلاث قطع فوقعت قطعة منه على عسكره فقتلت منهم ألف ألف رجل ووقعت قطعة منه فى البحر وقطعة فى المغرب فلم يبق أحد عمل شيئا فيه إلا هلك فذلك قوله (لعلى أطلع إلى إله موسى) يعنى أنظر إلية وأقف على حاله (وإنى لأظنه) يعنى موسى (من الـكاذبين) يعنى فى زعمة أن للأرض والخلق إلها غيرى وأنة أرسله (واستـكبر هو وجنوده فى الأرض) يعنى تعظموا عن الإيمان ولم ينقادوا للحق بالباطل والظلم (بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لايرجعون) يعنى للحساب والجزاء (فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم) يعنى فألقيناهم فى البحر وهو القلزم (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) يعنى حين صاروا إلى الهلاك (وجعلناهم أئمة) يعنى قادة ورؤساء (يدعون إلى النار) أى الـكفر والمعاصى التى يستحقون بها النار لأن من أطاعهم ضل ودخل النار (ويوم القيامة لاينصرون) يعنى لايمنعون من العذاب (وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة) يعنى خزيا وبعدا وعذابا (ويوم القيامة هم من المقبوحين) يعنى المبعدين وقيل المهلـكين وقال ابن عباس من المشوهين بسواد الوجوه وزرقة العيون

من المهلكين وعن ابن عباس رضى الله عنهما من المشوهين بسواد الوجوه وزرقة العيون يقال قبحه الله وقبحه إذا جعله قبيحا ويقال قبحه قبحا وقبوحا إذا أبعده من كل خير . قوله تعالي (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولي) يعنى قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم كانوا قبل موسى (بصائر للناس) يعنى ليبصروا بذلك الكتاب ويهتدوا به (وهدى) من الضلال لمن عمل به (ورحمة) لمن آمن به (لعلهم يتذكرون) بما فيه من المواعظ والبصائر (وما كنت) يا محمد (بجانب الغربى) يعنى بجانب الجبل الغربى قاله قتادة والسدى وقال الكلبى بجانب الوادى الغربى قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد حيث ناجى موسى ربه (إذ قضينا إلي موسى الأمر) يعنى عهدنا إليه وأحكمنا الأمر معه بالرسالة إلي فرعون وقومه (وما كنت من الشاهدين) الحاضرين ذلك المقام فتذكره من ذات نفسك (ولكنا أنشأنا قرونا) خلقنا أمما من بعد موسى عليه السلام (فتطاول عليهم العمر) أى طالت عليهم المهلة فنسوا عهد الله وميثاقه وتركوا أمره وذلك أن الله تعالي قد عهد إلي موسى وقومه عهودا فى محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان به فلما طال عليهم العمر وخلفت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود وتركوا الوفاء بها (وما كنت ثاويا) مقيما (فى أهل مدين) كمقام موسى وشعيب فيهم (تتلو عليهم آياتنا) تذكرهم بالوعد والوعيد قال مقاتل يقول لم تشهد أهل مدين فتقرأ عن أهل مكة خبرهم (ولكنا كنا مرسلين) أى أرسلناك رسولا وأنزلنا عليك كتابا فيه هذه الأخبار فتتلوها عليهم ولولا ذلك لما علمتها ولم تخبرهم بها (وما كنت بجانب الطور) بناحية الجبل الذى كلم الله عليه موسى (إذ نادينا) قيل إذ نادينا موسى خذ الكتاب بقوة .وقال وهب قال موسى يارب أرنى محمدا قال إنك لن تصل إلي ذلك وإن شئت ناديت أمته وأسمعتك أصواتهم قال بلى يارب قال الله تعالى يا أمة محمد فأجابوه من أصلاب آبائهم ، وقال أبو زرعة بن عمرو بن جرير نادى يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعونى وأعطيتكم قبل أن تسألونى وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ورفعه بعضهم قال الله يا أمة محمد فأجابوه من أصلاب الآباء وأرحام الأمهات لبيك اللهم لبيك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك قال الله تعالي يا أمة محمد إن رحمتى سبقت غضبى وعفوى سبق عقابى قد أعطيتكم من قبل أن تسألونى وقد أجبتكم من قبل أن تدعونى وقد غفرت لكم من قبل أن تستغفرونى من جاءنى يوم القيامة بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبدي ورسولي دخل الجنة وإن

العيون . وقوله عز وجل (ولقد آتينا موسى الكتاب) يعنى التوراة (من بعد ما أهلكنا القرون الأولى) يعنى قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ممن كانوا قبل موسى (بصائر للناس) يعنى ليبصروا ذلك فيهتدوا به (وهدى) يعنى من الضلالة لمن عمل به (ورحمة) يعنى لمن آمن به (لعلهم يتذكرون) يعنى بما فيه من المواعظ (وما كنت) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى وما كنت يا محمد (بجانب الغربى) يعنى بجانب الجبل الغربى قال ابن عباس يريد حيث ناجى موسى ربه (إذ قضينا إلي موسى الأمر) يعنى عهدنا إليه وأحكمنا الأمر معه بالرسالة إلى فرعون (وما كنت من الشاهدين) يعنى الحاضرين ذلك المقام الذى أوحينا إلى موسى فيه فتذكره من ذات نفسك (ولكنا أنشأنا قرونا) يعنى خلقنا بعد موسى أمما (فتطاول عليهم العمر) يعنى طالت عليهم المدة فنسوا عهد الله وتركوا أمره وذلك أن الله عهد إلى موسى وقومه عهودا فى محمد والإيمان به فلما طال عليهم العمر وخلفت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود وتركوا الوفاء بها (وما كنت ثاويا) أى مقيما (فى أهل مدين) أى كمقام موسى وشعيب فيهم (تتلوا عليهم آياتنا) يعنى تذكرهم بالوعد والوعيد وقيل معناه لم تشهد أهل مدين فتقرأ على أهل مكة خبرهم (ولكنا كنا مرسلين) أى أرسلناك رسولا وأنزلنا إليك كتابا فيه هذه الأخبار لتتلوها عليهم ولولا ذلك لما علمتها أنت ولم تخبرهم بها (وما كنت بجانب الطور) أى بناحية الجبل الذى كلم الله موسى عليه (إذ نادينا) أى موسى خذ الكتاب بقوة وقال وهب قال موسى يارب أرنى محمدا وأمته قال إنك لن تصل إلى ذلك ولكن إن شئت ناديت أمته وأسمعتك صوتهم قال بلى يارب قال الله تعالي يا أمة محمد فأجابوه من أصلاب آبائهم وقال ابن عباس قال الله تعالى يا أمة محمد فأجابوه من أصلاب الآباء والأرحام أى أرحام الأمهات لبيك اللهم لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك قال الله تعالى يا أمة محمد إن رحمتى سبقت غضبى وعفوى سبق عقابى قد أعطيتكم قبل أن تسألونى وقد أجبتكم قبل أن تدعونى وقد غفرت لكم قبل أن تستغفرونى ومن جاءنى يوم القيامة بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبدى ورسولى دخل الجنة وإن

كانت ذنوبه أكثر من زبد البحر . قوله تعالي (ولـكن رحمة من ربك) أي ولـكن رحمناك رحمة بإرسالك وبالوحي إليك واطلاعك على الأخبار الغائبة عنك (لتنذر قوما ماأتاهم من نذير من قبلك) يعني أهل مكة (لعلهم يتذكرون ولولا أن تصيبهم مصيبة) عقوبة ونقمة (بما قدمت أيديهم) من الـكفر والمعصية (فيقولوا ربنا لولا) هلا (أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونـكون من المؤمنين) وجواب

لولا محذوف، أي لعاجلناهم بالعقوبة يعني لولا أنهم يحتجون بترك الارسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة بكفرهم وقيل معناه لما بعثناك إليهم رسولا ولـكن بعثناك إليهم لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل (فلما جاءهم الحق من عندنا) يعني محمدا صلى الله عليه وسلم (قالوا) يعني كفار مكة (لولا)هلا (أوتي) محمد (مثل ماأوتي موسى) من الآيات كاليد البيضاء والعصا وقيل مثل ماأوتي موسى كتابا جملة واحدة قال الله تعالي (أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل) أي فقد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد (قالوا سحْران تظاهرا) قرأ أهل الـكوفة ساحران أي التوراة والقرآن تظاهرا يعني كل سحر يقوي الآخر نسب التظاهر إلي السحرين على الاتساع قال الـكلبي كانت مقالتهم تلك حين بعثوا في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي رءوس اليهود بالمدينة فسألوهم عن محمد فأخبروهم أن نعته في كتابهم التوراة فرجعوا فأخبروهم بقول اليهود فقالوا القرآن سحران تظاهرا وقرأ الآخرون ساحران يعنون محمدا وموسى عليهما السلام لأن معنى التظاهر بالناس وأفعالهم أشبه منه بالـكتب (وقالوا إنا بكل كافرون قل) لهم يامحمد (فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدي منهما) يعني من التوراة والقرآن (أتبعه إن كنتم صادقين فان لم يستجيبوا لك) أي لم يأتوا بما طلبت (فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدي من الله إن الله لايهدي القوم الظالمين ولقد وصلنا لهم القول) قال ابن عباس رضى الله عنهما بينا قال الفراء أنزلنا آيات القرآن يتبع بعضها

كانت ذنوبه أكثر من زبد البحر (ولـكن رحمة من ربك) أى رحمناك رحمة بإرسالك والوحى إليك واطلاعك على الأخبار الغائبة عنك (لتنذر قوما ماأتاهم من نذير من قبلك) يعنى أهل مكة (لعلهم يتذكرون) اعلم أن الله تعالى لما بين قصة موسى عليه الصلاة والسلام لرسوله صلى الله عليه وسلم فجمع بين هذه الأحوال الثلاثة العظيمة التى اتفقت لموسى ؛ فالمراد بقوله «إذ قضينا إلى موسى الأمر» هو إنزال التوراة عليه حتى تـكامل دينه واستقر شرعه والمراد بقوله «وما كنت ثاويا فى أهل مدين» أول أمر موسى والمراد بقوله إذ نادينا ليله المناجاة فهذه أعظم أحوال موسى ولما بينها لرسوله ولم يكن فى هذه الأحوال حاضرا بين الله أنه بعثه وعرفه هذه الأحوال الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم ومعجزته كأنه قال فى إخبارك عن هذه الأشياء من غير حضور ولا مشاهدة دلالة ظاهرة على نبوتك . قوله تعالى (ولولا أن تصيبهم مصيبة) أى عقوبة ونقمة (بما قدمت أيديهم) يعنى من الـكفر والمعاصى (فيقولوا ربنا لولا) أى هلا (أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونـكون من المؤمنين) ومعنى الآية لولا أنهم يحتجون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة على كفرهم وقيل معناه لما بعثناك إليهم رسولا ولـكنا بعثناك إليهم لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل(فلما جاءهم الحق من عندنا) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (قالوا) يعنى كفار مكة(لولا) أى هلا (أوتى) محمد (مثل ماأوتى موسى) يعنى من الآيات كالعصا واليد البيضاء وقيل أوتى كتابا جملة واحدة كما أوتى موسى التوراة قال الله تعالى (أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل) قيل إن اليهود أرسلوا إلى قريش أن يسألوا محمدا صلى الله علية وسلم مثل ما أوتى موسى فقال الله تعالى أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل يعنى اليهود الذين استخرجوا هذا السؤال (قالوا سحران تظاهرا) يعنى التوراة والقرآن يقوى كل واحد منهما الآخر وقيل ساحران يعنى محمدا وموسى وقيل إن مشركى مكة بعثوا إلى رءوس اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد صلى الله عليه وسلم فأخبروهم أن نعته فى كتابهم التوراة فرجعوا فأخبروهم بقول اليهود فقالوا ساحران تظاهرا (وقالوا إنا بكل كافرون) يعنى بالتوراة والقرآن وقيل بمحمد وموسى (قل) يامحمد (فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما) يعنى من التوراة والقرآن (أتبعه) يعنى الـكتاب الذي تأتون به من عند الله وهذا تنبية على عجزهم عن الإتيان بمثله (إن كنتم صادقين فان لم يستجيبوا لك) أى فان لم يأتوا بما طلبت (فاعلم أنما يتبعون أهواءهم) يعنى أن ماركبوه من الـكفر لاحجة لهم فيه وإنما آثروا أتباعهم ماهم عليه من الهوى (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لايهدى القوم الظالمين) قوله عز وجل (ولقد وصلنا لهم القول) قال ابن عباس بينا وقيل أنزلنا آيات

بعضا . قال قتادة وصل لهم القول فى هذا القرآن يعنى كيف صنع بمن مضى قال مقاتل بينا لكفار مكة بما فى القرآن من أخبار الأمم الخالية كيف عذبوا بتكذيبهم وقال ابن زيد وصلنا لهم خبر الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة فى الدنيا (لعلهم يتذكرون الذين آتيناهم الكتاب من قبله) من قبل محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وقيل من قبل القرآن (هم به يؤمنون) نزلت فى مؤمنى أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه ، وقال مقاتل بل هم أهل الإنجيل الذين قدموا من الحبشة وآمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم وقال سعيد بن جبير هم أربعون رجلا قدموا مع جعفر من الحبشة على النبى صلى الله عليه وسلم فلما رأوا ما بالمسلمين من الخصاصة قالوا يانبى الله إن لنا أموالا فان أذنت لنا انصرفنا وجئنا بأموالنا فواسينا المسلمين بها فأذن لهم فانصرفوا فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين فنزل فيهم «الذين آتيناهم الكتاب» (١٧٧) إلى قوله تعالى «ومما رزقناهم ينفقون» وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال نزلت فى ثمانين من أهل الكتاب أربعون من نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الشام ؛ ثم وصفهم الله فقال (وإذا يتلى عليهم) يعنى القرآن (قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا) وذلك أن ذكر النبى صلى الله عليه وسلم كان مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل (إنا كنا من قبله مسلمين) أى من قبل القرآن مسلمين مخلصين لله بالتوحيد مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم أنه نبى حق (أولئك يؤتون أجرهم مرتين) لإيمانهم بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر (بما صبروا) على دينهم قال مجاهد نزلت فى قوم من أهل الكتاب أسلموا فأوذوا . أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسى أنا أبو على زاهر بن أحمد أنا أبو عبد الله محمد بن جعفر الجوينى أنا أحمد بن سعيد الدارمى أنا عثمان أنا شعبة عن صالح عن الشعبى عن أبى بردة عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل كانت له جارية فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها ورجل من أهل الكتاب آمن بكتابه وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وعبد أحسن عبادة الله ونصح لسيده » قوله عز وجل (ويدرءون بالحسنة السيئة) قال ابن عباس رضى الله عنهما يدفعون بشهادة أن لا إله إلا الله الشرك قال مقاتل يدفعون ماسمعوا من الأذى والشتم من المشركين بالصفح والعفو والمغفرة (ومما رزقناهم ينفقون) فى الطاعة (وإذا سمعوا اللغو) القبيح من القول (أعرضوا عنه) وذلك أن المشركين كانوا يسبون مؤمنى أهل الكتاب ويقولون

القرآن يتبع بعضها بعضا ، وقيل بينا لكفار مكة بما فى القرآن من أخبار الأمم الخالية كيف عذبوا بتكذيبهم ، وقيل وصلنا لهم خبر الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة فى الدنيا (لعلهم يتذكرون) أى يتعظون (الذين آتيناهم الكتاب من قبله) أى من قبل محمد صلى الله عليه وسلم وقيل من قبل القرآن (هم به يؤمنون) نزلت فى مؤمنى أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه وقيل بل هم أهل الإنجيل الذين قدموا من الحبشة وآمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم وهم أربعون رجلا قدموا مع جعفر بن أبى طالب فلما رأوا ما بالمسلمين من الحاجة والخصاصة قالوا يارسول الله إن لنا أموالا فان أذنت لنا انصرفنا فجئنا بأموالنا فواسينا بها المسلمين فأذن لهم فانصرفوا فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين فنزلت هذه الآيات إلى قوله «ومما رزقناهم ينفقون» وقال ابن عباس نزلت فى ثمانين من أهل الكتاب أربعون من نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الشام ثم وصفهم الله تعالى فقال (وإذا يتلى عليهم) يعنى القرآن (قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا) وذلك أن ذكر النبى صلى الله عليه وسلم كان مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل (إنا كنا من قبله مسلمين) أى من قبل القرآن مخلصين لله التوحيد ومؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم أنه نبى حق (أولئك يؤتون أجرهم مرتين) يعنى بإيمانهم بالكتاب الأول والكتاب الآخر (بما صبروا) أى على دينهم وعلى أذى المشركين (ق) عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لهم أجران رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ورجل كانت عنده أمة يطؤها فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها ثم تزوجها فله أجران » (ويدرءون بالحسنة السيئة) قال ابن عباس يدفعون بشهادة أن لا إله إلا الله وقيل يدفعون ماسمعوا من أذى المشركين وشتمهم بالصفح والعفو (ومما رزقناهم ينفقون) أى فى الطاعة (وإذا سمعوا اللغو) أى القول القبيح (أعرضوا عنه) وذلك أن المشركين كانوا يسبون مؤمنى أهل

تبا لكم تركتم دينكم فيعرضون عنهم ولا يردون عليهم (وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) لنا ديننا ولكم دينكم (سلام عليكم) ليس المراد منه سلام التحية ولكنه سلام المتاركة ، معناه سلمتم منا لانعارضكم بالشتم والقبح من القول (لانبتغي الجاهلين). أي دين الجاهلين يعني لانحب دينكم الذي أنتم عليه، وقيل لانريد أن نكون من أهل الجهل والسفه ، وهذا قبل أن يؤمر المسلمون بالقتال . قوله تعالي (إنك لاتهدي من أحببت) أي أحببت هدايته وقيل أحببته لقرابته (ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) قال مجاهد ومقاتل بمن قدر له الهدى ، نزلت فى أبى طالب قال له النبي صلى الله عليه وسلم «قل لاإله إلا الله أشهد لك بها يوم (١٧٨) القيامة قال لولا أن تعيرنى قريش يقولون إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك » فأنزل الله تعالي هذه الآية (وقالوا إن نتبع الهدي معك نتخطف من أرضنا) أرض مكة نزلت فى الحارث بن عثمان ابن نوفل بن عبد مناف وذلك أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم إنا لنعلم أن الذي تقول حق ولكنا إن اتبعناك على دينك خفنا أن تخرجنا العرب من أرضنا مكة وهو معنى قوله «نتخطف من أرضنا» والاختطاف الانتزاع بسرعة قال الله تعالي (أو لم نمكن لهم حرما آمنا) وذلك أن العرب فى الجاهلية كانت تغير بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضا وأهل مكة آمنون حيث كانوا لحرمة الحرم ومن المعروف أنه كان يأمن فيه الظباء من الذئاب والحمام من الحدأة (يجبى) قرأ أهل المدينة ويعقوب تجبى بالتاء لأجل الثمرات والآخرون بالياء للحائل بين الاسم المؤنث والفعل أي يجلب ويجمع (إليه) يقال جبيت الماء فى الحوض أى جمعته قال مقاتل يحمل إلي الحرم (ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لايعلمون) إن مايقوله حق . قوله عز وجل (وكم أهلكنا من قرية) أي من أهل قرية (بطرت معيشتها) أي فى معيشتها أى أشرت وطغت . قال عطاء عاشوا فى البطر فأكلوا رزق الله وعبدوا الأصنام (فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا) قال ابن عباس رضى الله عنهما لم يسكنها إلا المسافرون ومارو الطريق يوما أو ساعة معناه لم تسكن من بعدهم إلا سكونا قليلا وقيل معناه لم يعمر منها إلا أقلها وأكثرها خراب

مكة ويقولون تبا لكم تركتم دينكم فيعرضون عنهم ولا يردون عليهم (وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) أى لنا ديننا ولكم دينكم (سلام عليكم) ليس المراد منه سلام التحية ولكن سلام المتاركة والمعنى سلمتم منا لانعارضكم بالشتم (لانبتغى الجاهلين) يعنى لانحب دينكم الذى أنتم عليه وقيل لانريد أن نكون من أهل الجهل والسفه وهذا قبل أن يؤمر المسلمون بالقتال ثم نسخ ذلك بالقتال . قوله تعالى (إنك لاتهدى من أحببت) أى هدايته وقيل أحببته لقرابته (ولكن الله يهدى من يشاء) وذلك أن الله تعالى يقذف فى القلب نور الهداية فينشرح الصدر للإيمان (وهو أعلم بالمهتدين) أى بمن قدر له الهدى (م) عن أبى هريرة قال « إنك لاتهدى من أحببت ، نزلت فى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث راود عمه أبا طالب على الإسلام وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأبى طالب عند الموت : «ياعم قل لاإله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة قال لولا أن تعيرنى قريش يقولون إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك » ثم أنشد :

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتنى سمحا بذاك مبينا

ولكن على ملة الأشياخ عبد المطلب وعبد مناف ثم مات فأنزل الله هذه الآية (وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) يعنى مكة نزلت فى الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف وذلك أنه قال للنبى صلى الله عليه وسلم إنا لنعلم أن الذى تقول حق ولكن إن اتبعناك على دينك خفنا أن تخرجنا العرب من أرض مكة قال الله تعالي (أولم نمكن لهم حرما آمنا) وذلك أن العرب كانت فى الجاهلية يغير بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضا وأهل مكة آمنون حيث كانوا لحرمة الحرم ومن المعروف أنه كان تأمن فيه الظباء من الذئاب والحمام من الحدأة (يجبى إليه) يعنى يجلب ويجمع إليه ويحمل إلي الحرم من الشأم ومصر والعراق واليمن (ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لايعلمون) يعنى أن أكثر أهل مكة لايعلمون ذلك . قوله عز وجل (وكم أهلكنا من قرية) يعنى من أهل قرية (بطرت معيشتها) أى أشرت وطغت وقيل عاشوا فى البطر فأكلوا رزق الله وعبدوا الأصنام (فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا) قال ابن عباس لم يسكنها إلا المسافرون سكونا قليلا وقيل لم يعمروا منها إلا أقلها وأكثرها

(وكنا نحن الوارثين) كقوله « إنا نحن نرث الأرض ومن عليها » (وما كان ربك مهلك القرى) أي القرى الكافر أهلها (حتى يبعث فى أمها رسولا) يعنى فى أكبرها وأعظمها رسولا ينذرهم وخص الأعظم ببعثة الرسول فيها لأن الرسول يبعث إلي الأشراف والأشراف يسكنون المدائن والمواضع التى هى أم ماحولها (يتلو عليهم آياتنا) قال مقاتل يخبرهم الرسول أن العذاب نازل بهم إن لم يؤمنوا (وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون) مشركون يريد أهلكهم بظلمهم (وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها) تتمتعون بها أيام حياتكم ثم هى إلي فناء وانقضاء (وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون) أن الباقى خير من الفانى « قرأ عامة القراء تعقلون بالتاء وأبو عمرو بالخيار بين التاء والياء (أفمن وعدناه وعدا حسنا) أي الجنة (فهو لاقيه) مصيبه ومدركه وصائر إليه (كمن متعناه متاع الحياة الدنيا) ويزول عن قريب (ثم هو يوم القيامة من المحضرين) النار « قال قتادة يعنى المؤمن والكافر « قال مجاهد نزلت فى النبي صلى الله عليه وسلم وأبى جهل ، وقال محمد بن كعب نزلت فى حمزة وعلى وأبي جهل ، وقال السدي نزلت فى عمار والوليد ابن المغيرة (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون) فى الدنيا أنهم شركائى (قال الذين حق عليهم القول) وجب عليهم العذاب وهم رءوس الضلالة (ربنا هؤلاء الذين أغوينا) أي دعوناهم إلي الغي وهم الأتباع (أغويناهم كما غوينا) أضللناهم كما ضللنا (تبرأنا إليك) منهم (ما كانوا إيانا يعبدون) برىء بعضهم من بعض وصاروا أعداء كما قال تعالي « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو » (وقيل) للكفار (ادعوا شركاءكم) أي الأصنام لتخلصكم من العذاب (فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) لم يجيبوهم (ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) وجواب لو محذوف على تقدير لو أنهم كانوا يهتدون فى الدنيا ماراوا العذاب (ويوم يناديهم) أي يسأل الله الكفار (فيقول ماذا أجبتم المرسلين) فعميت خفيت واشتبهت (عليهم الأنباء) أي الأخبار والأعذار وقال مجاهد الحجج (يومئذ) فلا يكون لهم عذر ولا حجة (فهم لايتساءلون) لايجيبون ، وقال قتادة لايحتجون « وقيل

خراب (وكنا نحن الوارثين) يعنى لم يخلفهم فيها أحد بعد هلاكهم وصار أمرها إلى الله تعالى لأنه الباقى بعد فناء الخلق (وما كان ربك مهلك القرى) يعنى الكافرة أهلها (حتى يبعث فى أمها رسولا) أى فى أكبرها وأعظمها رسولا ينذرهم وخص الأم ببعثة الرسول لأنه يبعث إلى الأشراف وهم سكان المدن وقيل حتى يبعث فى أم القرى وهى مكة رسولا يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم لأنه خاتم الأنبياء (يتلو عليهم آياتنا) أى أنه يؤدى إليهم ويبلغهم وقيل يخبرهم أن العذاب نازل بهم إن لم يؤمنوا (وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون) أى مشركون . قوله عز وجل (وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها) أى تتمتعون بها أيام حياتكم ثم هى إلى فناء وانقضاء (وما عند الله خير وأبقى) لأن منافع الآخرة خالصة عن الشوائب وهى دائمة غير منقطعة ومنافع الدنيا كالذرة بالقياس إلي البحر العظيم (أفلا تعقلون) أى أن الباقى خير من الفانى وقيل من لم يرجح الآخرة على الدنيا فليس بعاقل ولهذا قال الشافعى من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله لأن أعقل الناس من أعطى القليل وأخذ الكثير وماهم إلا المشتغلون بطاعة الله تعالى (أفمن وعدناه وعدا حسنا) يعنى الجنة (فهو لاقيه) أى مصيبه وصائر إليه (كمن متعناه متاع الحياة الدنيا) أى وتزول عنه عن قريب (ثم هو يوم القيامة من المحضرين) أى فى النار ، قيل هذا فى المؤمن والكافر وقيل نزلت فى النبى صلى الله عليه وسلم وأبى جهل وقيل فى على وحمزة وأبى جهل وقيل فى عمار بن ياسر والوليد بن المغيرة . قوله عز وجل (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون) أى فى الدنيا أنهم شركائى (قال الذين حق عليهم القول) أى وجب عليهم العذاب وهم رءوس الضلالة (ربنا هؤلاء الذين أغوينا) أى دعوناهم إلى الغى وهم الأتباع (أغويناهم كما غوينا) أى أضللناهم كما ضللنا (تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون) معناه تبرأ بعضهم من بعض وصاروا أعداء (وقيل) يعنى للكفار (ادعوا شركاءكم) أى الأصنام لتخلصكم من العذاب (فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) أى لم يجيبوهم (ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) معناه لو أنهم كانوا يهتدون فى الدنيا ماراوا العذاب فى الآخرة (ويوم يناديهم) أى يسأل الكفار (فيقول ماذا أجبتم المرسلين) أى ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين (فعميت عليهم) أى خفيت واشتبهت عليهم (الأنباء) يعنى الأخبار والأعذار والحجج (يومئذ) فلم يكن لهم عذر ولا حجة (فهم لايتساءلون) أي لايجيبون ولا

يسكتون لايسأل بعضهم بعضا (فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين) من السعداء الناجين . قوله تعالي (وربك يخلق مايشاء ويختار) نزلت هذه الآية جوابا للمشركين حين قالوا «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» ، يعنى الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفى أخبر الله تعالى أنه لايبعث الرسل باختيارهم . قوله عز وجل (ما كان لهم الخيرة) قيل ما للاثبات معناه ويختار الله ما كان لهم الخيرة أي يختار ماهو الأصلح والخير وقيل هو للنفى أي ليس إليهم الاختيار أوليس لهم أن يختاروا على الله كما قال تعالي (١٨٠) «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة» والخيرة اسم من الاختيار يقام مقام المصدر وهى اسم للمختار أيضا كما يقال محمد خيرة الله من خلقه ثم نزه نفسه فقال (سبحان الله وتعالي عما يشركون وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) يظهرون (وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولي والآخرة) يحمده أولياؤه فى الدنيا ويحمدونه فى الآخرة فى الجنة (وله الحكم) فصل القضاء بين الخلق قال ابن عباس رضى الله عنهما حكم لأهل طاعته بالمغفرة ولأهل معصيته بالشقاء (وإليه ترجعون) . قوله (قل أرأيتم) أخبرونى يا أهل مكة (إن جعل الله عليكم الليل سرمدا) دائما (إلي يوم القيامة) لانهار معه (من إله غير الله يأتيكم بضياء) بنهار تطلبون فيه المعيشة (أفلا تسمعون) سماع فهم وقبول (قل أرأيتم) أخبرونى يا أهل مكة (إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلي يوم القيامة) لا ليل فيه (من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون) ما أنتم عليه من الخطأ (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه) أي فى الليل (ولتبتغوا من فضله) بالنهار (ولعلكم تشكرون) نعم الله عز وجل (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون) كرر ذكر النداء للمشركين لزيادة التقريع والتوبيخ (ونزعنا) أخرجنا (من كل أمة شهيدا) يعنى رسولهم الذي أرسل إليهم كما قال «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد» (فقلنا هاتوا برهانكم) حجتكم بأن معى شريكا (فعلموا أن الحق) التوحيد (لله وضل عنهم ما كانوا يفترون) فى الدنيا.

يحتجون وقيل يسكتون فلا يسأل بعضهم بعضا (فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين) أى من السعداء الناجين وعسى من الله واجب . قوله تعالى (وربك يخلق مايشاء ويختار) نزلت هذه الآية جوابا للمشركين حين قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» يعنى الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفى أخبر الله تعالي أنه لايبعث الرسل باختيارهم لأنه المالك المطلق وله أن يخص مايشاء بما يشاء لااعتراض عليه البتة (ما كان لهم الخيرة) أى ليس لهم الاختيار، أوليس لهم أن يختاروا على الله وقيل معناه ويختار الله ما كان هو الأصلح والخير لهم فيه . ثم نزه الله تعالي نفسه فقال (سبحان الله وتعالى عما يشركون وربك يعلم ماتكن) أى تخفى (صدورهم وما يعلنون) أي يظهرون (وهو الله لاإله إلا هو له الحمد فى الأولي والآخرة) أى يحمده أولياؤه فى الدنيا ويحمدونه فى الآخرة فى الجنة (وله الحكم) أى فصل القضاء بين الخلق وقال ابن عباس يحكم لأهل طاعته بالمغفرة ولأهل المعصية بالشقاوة (وإليه ترجعون) قوله عز وجل (قل) أى قل يامحمد لأهل مكة (أرأيتم) يعنى أخبرونى (إن جعل الله عليكم الليل سرمدا) أى دائما (إلى يوم القيامة) لانهار فيه (من إله غير الله يأتيكم بضياء) أى بنهار تطلبون فيه المعيشة (أفلا تسمعون) أى سماع فهم وقبول (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة) أي لاليل فيه (من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون) أي ماأنتم عليه من الخطأ قيل إن من نعمة الله تعالى على الخلق أن جعل الليل والنهار يتعاقبان لأن المرء فى حال الدنيا وفى حال التكليف مدفوع إلى التعب ليحصل مايحتاج إليه ولايتم له ذلك لولا ضوء النهار ولأجله يحصل الاجتماع فتمكن المعاملات ومعلوم أن ذلك لايتم إلا بالراحة والسكون بالليل فلا بد منهما فأما فى الجنة فلا تعب ولا نصب فلا حاجة بهم إلي الليل ولذلك يدوم لهم الضياء أبدا فبين الله تعالي أنه القادر على ذلك ليس غيره فقال (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار) أى يتعاقبان بالظلمة والضياء (لتسكنوا فيه) أى فى الليل (ولتبتغوا من فضله) أي بالنهار (ولعلكم تشكرون) أى نعم الله فيهما (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون) كرر ذلك النداء للمشركين لزيادة التقريع والتوبيخ (ونزعنا) يعنى أخرجنا وقيل ميزنا (من كل أمة شهيدا) يعنى رسولهم يشهد عليهم بأنه بلغهم رسالة ربهم ونصح لهم (فقلنا) يعنى للأمم المكذبة لرسلهم (هاتوا برهانكم) أى حجتكم بأن معى شريكا (فعلموا أن الحق لله) أى التوحيد لله (وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى يختلقون فى الدنيا

قوله عز وجل (إن قارون كان من قوم موسى) كان ابن عمه لأنه قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب عليه السلام وموسى بن عمران بن قاهث . وقال ابن إسحاق كان قارون عم موسى كان أخا عمران وهما ابنا يصهر ولم يكن فى بنى إسرائيل أقرأ للتوراة من قارون ولكنه نافق كما نافق السامري (فبغى عليهم) قيل كان عاملا لفرعون على بنى إسرائيل فكان يبغى عليهم ويظلمهم ، وقال قتادة بغى عليهم بكثرة المال وقال الضحاك بغى عليهم بالشرك ، وقال شهر بن حوشب زاد فى طول ثيابه شبرا وروينا عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة» وقيل بغى عليهم بالكبر والعلو (وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه) هى جمع مفتح وهو الذي يفتح به (١٨١) الباب هذا قول قتادة ومجاهد وجماعة وقيل مفاتح خزائنه كما قال « وعنده مفاتح الغيب» أي خزائنه (لتنوء بالعصبة أولى القوة) لتثقلهم أي وتميل بهم إذا حملوها لثقلها . قال أبو عبيدة هذا من المقلوب تقديره ما إن العصبة لتنوء بها يقال ناء فلان بكذا إذا نهض به مثقلا . واختلفوا فى عدد العصبة قال مجاهد ما بين العشرة إلي خمسة عشر وقال الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهم ما بين الثلاثة إلي العشرة وقال قتادة ما بين العشرة إلي الأربعين وقيل أربعون رجلا وقيل سبعون . وروي عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كان يحمل مفاتحه أربعون رجلا أقوي ما يكون من الرجال . وقال جرير عن منصور عن خيثمة قال وجدت فى الإنجيل أن مفاتيح خزائن قارون وقر ستين بغلا ما يزيد منها مفتاح على أصبع لكل مفتاح كنز ويقال كان قارون أينما ذهب يحمل معه مفاتيح كنوزه وكانت من حديد فلما ثقلت عليه جعلها من خشب فثقلت فجعلها من جلود البقر على طول الأصابع وكانت تحمل معه إذا ركب على أربعين بغلا (إذ قال له قومه) قال لقارون قومه من بنى إسرائيل (لاتفرح) لاتبطر ولا تأشر ولا تمرح (إن الله لايحب الفرحين) الأشرين البطرين الذين لايشكرون الله على ما أعطاهم (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة) اطلب فيما أعطاك الله من الأموال والنعمة الجنة وهو أن تقوم بشكر الله فيما أنعم عليك وتنفقه فى رضا الله (ولا تنس نصيبك من الدنيا) قال مجاهد وابن زيد لاتترك أن تعمل فى الدنيا للآخرة حتى تنجو من العذاب لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا أن يعمل للآخرة وقال السدي بالصدقة وصلة الرحم وقال

فى الدنيا من الكذب على الله . قوله عز وجل (إن قارون كان من قوم موسى) قيل كان ابن عم موسى لأنه قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب وموسى بن عمران بن قاهث وقيل كان عم موسى ولم يكن فى بنى إسرائيل أقرأ منه للتوراة ولكنه نافق كما نافق السامرى (فبغى عليهم) قيل كان عاملا لفرعون على بنى إسرائيل فظلمهم وبغى عليهم وقيل بغى عليهم بكثرة ماله وقيل زاد فى طول ثيابه شبرا (ق) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لاينظر الله يوم القيامة إلى من جر ثيابه خيلاء» أخرجاه فى الصحيحين وقيل بغى عليهم بالكبر والعلو (وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه) جمع مفتح وهو الذى يفتح به الباب وقيل مفاتحه يعنى خزائنه (لتنوء بالعصبة أولى القوة) معناه لتثقلهم وتميل بهم إذا حملوها لتثقلها قيل العصبة ما بين العشرة إلي الخمسة عشر وقال ابن عباس ما بين الثلاثة إلى العشرة وقيل إلى الأربعين وقيل إلي السبعين قال ابن عباس كان يحمل مفاتيحه أربعون رجلا أقوى مايكون من الرجال وقيل كان قارون أينما ذهب تحمل معه مفاتيح كنوزه وكانت من حديد فلما كثرت وثقلت عليه جعلها من خشب فثقلت فجعلها من جلود البقر كل مفتاح على قدر الأصبع وكانت تحمل معه إذا ركب على أربعين بغلا (إذ قال له قومه لاتفرح) يعنى لاتبطر ولا تأشر ولا تمرح (إن الله لايحب الفرحين) يعنى الأشرين البطرين الذين لايشكرون الله على ما أعطاهم قيل إنه لايفرح بالدنيا إلا من رضى بها واطمأن إليها فأما من يعلم أنه سيفارق الدنيا عن قريب لم يفرح ولقد أحسن من قال :

أشد الغم عندي فى سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

(وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة) يعنى اطلب فيما أعطاك الله من الأموال الجنة وهو أن تقوم بشكر الله فيما أنعم عليك وتنفقه فى رضا الله (ولا تنس نصيبك من الدنيا) أى لاتترك أن تعمل فى الدنيا للآخرة حتى تنجو من العذاب لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا أن يعمل فيها للآخرة بالصدقة وصلة الرحم وقيل لاتنس صحتك وقوتك وشبابك وغناك أن تطلب بها الآخرة . عن عمرو بن ميمون الأزدي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه «اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل

على لاتنس صحتك وشبابك وغناك أن تطلب بها الآخرة . أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن شاذان أنا أبو يزيد حاتم بن محبوب الشامى أنا الحسن المروزي أنا عبدالله بن المبارك أنا جعفر بن برقان ، عن زياد بن الجراح عن عمرو ابن ميمون الأزدي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه « اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك» الحديث صحيح مرسل قال الحسن أمر أن يقدم الفضل ويمسك مايغنيه قال منصور بن زاذان فى قوله «ولا تنس نصيبك من الدنيا» قال قوتك وقوت أهلك (وأحسن كما أحسن الله إليك) أي أحسن بطاعة الله كما أحسن الله إليك بنعمته ، وقيل أحسن إلي الناس كما أحسن الله إليك (ولا تبغ) لاتطلب (الفساد فى الأرض) وكل من عصى الله فقد طلب الفساد فى الأرض (إن الله لايحب المفسدين) قال (يعنى قارون) إنما

(١٨٢)

أوتيته على علم عندي) أي على فضل وخير علمه الله عندي فرآنى أهلا لذلك ففضلنى بهذا المال عليكم كما فضلنى بغيره قيل هو علم الكيمياء قال سعيد ابن المسيب كان موسى يعلم الكيمياء فعلم يوشع ابن نون ثلث ذلك العلم وعلم كالب بن يوقنا ثلثه وعلم قارون ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلي علمه وكان ذلك سبب أمواله ، وقيل على علم عندي بالتصرف فى التجارات والزراعات وأنواع المكاسب . قوله تعالي (أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون) الكافرة (من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا) للأموال (ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون) قال قتادة يدخلون النار بغير حساب ولا سؤال ، وقال مجاهد يعنى لايسأل الملائكة عنهم لأنهم يعرفونهم بسيماهم ، قال الحسن لايسئلون سؤال استعلام وإنما يسئلون سؤال تقريع وتوبيخ (فخرج على قومه فى زينته) قال إبراهيم النخعي خرج هو وقومه فى ثياب حمر وصفر قال ابن زيد فى سبعين ألفا عليهم المعصفرات قال مجاهد على براذين بيض عليها سرج الأرجوان قال مقاتل خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب عليه الأرجوان ومعه أربعة آلاف فارس عليهم وعلى دوابهم الأرجوان ومعه ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلى والثياب الحمر وهن على البغال الشهب(قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ماأوتى قارون إنه لذو حظ عظيم)من المال (وقال الذين أوتوا العلم) قال ابن عباس رضى الله عنهما يعنى الأحبار من بنى إسرائيل وقال مقاتل أوتوا العلم بما وعد الله فى الآخرة قالوا للذين تمنوا مثل مثل ماأوتى قارون فى الدنيا (ويلكم ثواب الله خير) يعنى ماعند الله من الثواب والجزاء خير (لمن آمن) وصدق بتوحيد الله (وعمل صالحا) مما أوتى قارون فى الدنيا

شغلك وحياتك قبل موتك» هذا حديث مرسل وعمرو بن ميمون لم يلق النبى صلى الله عليه وسلم (وأحسن كما أحسن الله إليك) أي أحسن بطاعة الله كما أحسن إليك بنعمته وقيل أحسن إلي الناس (ولا تبغ) أى ولا تطلب (الفساد فى الأرض) وكل من عصى الله فقد طلب الفساد فى الأرض (إن الله لايحب المفسدين قال) يعنى قارون (إنما أوتيته على علم عندي) أى على فضل وخير علمه الله عندى فرآنى أهلا لذلك ففضلنى بهذا المال عليكم كما فضلنى بغيره وقيل هو علم الكيميائى وكان موسى يعلمه فعلم يوشع بن نون ثلث ذلك العلم وعلم كالب بن يوقنا ثلثه وعلم قارون ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه فكان يصنع من الرصاص فضة ومن النحاس ذهبا وكان ذلك سبب كثرة أمواله وقيل كان علمه حسن التصرف فى التجارات والزراعات وأنواع المكاسب قال الله عز وجل (أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا) أي للأموال (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) قيل معناه أن الله تعالى إذا أراد عقاب المجرمين فلا حاجة به إلى سؤالهم لأنه عالم بحالهم وقيل لايسئلون سؤال استعلام وإنما يسئلون سؤال توبيخ وتقريع وقيل لاتسأل الملائكة عنهم لأنهم يعرفونهم بسيماهم . قوله عز وجل (فخرج على قومه فى زينته) قيل خرج هو وقومه وهم سبعون ألفا عليهم الثياب الحمر والصفر والمعصفرات وقيل خرج على براذين بيض عليها سرج الأرجوان وقيل خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب وعليه الأرجوان ومعه أربعة آلاف فارس وعليهم وعلى دوابهم الأرجوان ومعه ثلثمائة جارية بيضاء عليهم الحلى والثياب الحمر وهن على البغال الشهب (قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم) أي من المال(وقال الذين أوتوا العلم) أي بما وعد الله فى الآخرة وقال ابن عباس يعنى الأحبار من بنى إسرائيل للذين تمنوا مثل ما أوتى قارون(ويلكم ثواب الله) أي ماعند الله من الثواب والخير (خير لمن آمن) أي صدق بتوحيد الله (وعمل صالحا) أي ذلك خير مما أوتى قارون فى الدنيا

(ولا يلقاها إلا الصابرون) قال مقاتل لا يؤتاها يعني الأعمال الصالحة ، وقال الكلبي لا يعطاها في الآخرة وقيل لا يؤتى هذه الكلمة وهي قوله ويلكم ثواب الله خير إلا الصابرون على طاعة الله وعن زينة الدنيا . قوله عز وجل (فخسفنا به وبداره الأرض) قال أهل العلم بالأخبار كان قارون أعلم بني إسرائيل بعد موسى وهرون عليهما السلام وأقرأهم للتوراة وأجملهم وأغناهم وكان حسن الصوت فبغى وطغى وكان أول طغيانه وعصيانه أن الله أوحى إلي موسى أن يأمر قومه أن يعلقوا في أرديتهم خيوطا أربعة في كل طرف خيطا أخضر كلون السماء يذكرونني به إذا نظروا إلي السماء ويعلمون أني منزل منها كلامي فقال موسى يارب أفلا تأمرهم أن يجعلوا أرديتهم كلها خضرا فان بني إسرائيل تحقر هذه الخيوط فقال له ربه ياموسى إن الصغير من أمري ليس بصغير فاذا هم لم يطيعوني في الأمر الصغير لم يطيعوني في الأمر الكبير فدعاهم موسى عليه السلام وقال إن الله يأمركم أن تعلقوا في أرديتكم خيوطا خضرا كلون السماء لكي تذكروا ربكم إذا رأيتموها ففعلت بنو إسرائيل (١٨٣) ماأمرهم به موسى واستكبر قارون فلم يطعه وقال إنما يفعل هذه الأرباب بعبيدهم لكي يتميزوا عن غيرهم فكان هذا بدء عصيانه وبغيه فلما قطع موسى ببني إسرائيل البحر جعلت الحبورة لهارون وهي رياسة المذبح فكان بنو إسرائيل يأتون بهديهم إلي هارون فيضعه على المذبح فتنزل نار من السماء فتأكله فوجد قارون من ذلك من نفسه وأتى موسى فقال ياموسى لك الرسالة ولهارون الحبورة ولست في شيء من ذلك وأنا أقرأ التوراة لا صبر لي على هذا فقال له موسى ماأنا جعلتها في هارون بل الله جعلها له فقال قارون والله لا أصدقك حتى تريني بيانه فجمع موسى رءوس بني إسرائيل فقال هاتوا عصيكم فحزمها وألقاها في قبته التي كان يعبد الله فيها فجعلوا يحرسون عصيهم حتى أصبحوا فأصبحت عصا هارون قد اهتز لها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال موسى ياقارون تري هذا فقال قارون والله ماهذا بأعجب مما تصنع من السحر واعتزل قارون موسى بأتباعه وجعل موسى يداريه للقرابة التي بينهما وهو يؤذيه في كل وقت ولا يزيد إلا عتوا وتجبرا ومعاداة لموسى حتى بنى دارا وجعل بابها من الذهب وضرب على جدرانها صفائح الذهب وكان الملأ من بني إسرائيل يغدون إليه ويروحون فيطعمهم الطعام ويحدثونه ويضاحكونه قال ابن عباس رضي الله عنهما فلما نزلت الزكاة على موسى أتاه قارون فصالحه عن كل ألف دينار على دينار وعن كل ألف درهم على درهم وعن كل ألف شاة على شاة وعن كل ألف شيء على شيء ثم رجع إلي بيته فحسبه فوجده كثيرا فلم تسمح بذلك نفسه فجمع بني إسرائيل فقال لهم يابني إسرائيل إن موسى قد أمركم بكل شيء فأطعتموه وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا أنت كبيرنا فرنا بما شئت فقال آمركم أن تجيئوا بفلانة

(ولا يلقاها إلا الصابرون) أي لا يؤتى الأعمال الصالحة إلا الصابرون وقيل لا يؤتى هذه الكلمة وهي قوله «ويلكم ثواب الله خير إلا الصابرون» أي على طاعة الله وعن زينة الدنيا . قوله تعالي (فخسفنا به وبداره الأرض) :

(ذكر قصة قارون)

قال أهل العلم بالأخبار والسير كان قارون أعلم بني إسرائيل بعد موسى وهارون وأقرأهم للتوراة وأجملهم وأغناهم وكان حسن الصوت فبغى وطغى وكان أول طغيانه وعصيانه أن الله تعالي أوحى إلى موسى أن يأمر قومه أن يعلقوا في أرديتهم خيوطا أربعة في كل طرف خيطا أخضر كلون السماء يذكرونني به إذا نظروا إلى السماء ويعلمون أني منزل منها كلامي فقال موسى يارب أفلا تأمرهم أن يجعلوا أرديتهم كلها خضرا فان بني إسرائيل تستصغر هذه الخيوط فقال له ربه ياموسى إن الصغير من أمري ليس بصغير فاذا لم يطيعوني في الأمر الصغير لم يطيعوني في الأمر الكبير فدعاهم موسى فقال إن الله يأمركم أن تعلقوا في أرديتكم خيوطا خضرا كلون السماء لكي تذكروا ربكم إذا رأيتموها ففعل بنو إسرائيل ماأمرهم به موسى واستكبر قارون فلم يطعه وقال إنما يفعل هذا الأرباب بعبيدهم لكي يتميزوا عن غيرهم فكان هذا بدء عصيانه وبغيه فلما قطع موسى ببني إسرائيل البحر جعلت الحبورة لهارون وهي رئاسة المذبح فكان بنو إسرائيل يأتون بقربانهم إلى هارون فيضعها على المذبح فتنزل نار من السماء فتأكله فوجد قارون من ذلك في نفسه فأتى إلى موسى فقال له ياموسى لك الرسالة ولهارون الحبورة ولست في شيء من ذلك وأنا أقرأ التوراة لا صبر لي على هذا فقال أما أنا ماجعلتها لهارون بل الله جعلها له فقال له قارون والله لا أصدقك حتى تريني بيانه فجمع موسى رؤساء بني إسرائيل فقال هاتوا عصيكم فحزمها وألقاها في قبته التي يتعبد فيها وجعلوا يحرسون عصيهم حتى أصبحوا فأصبحت عصا هارون قد اهتز لها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال موسى ياقارون تري

البغي فتجعل لها جعلا حتى تقذف موسى بنفسها فاذا فعلت ذلك خرج بنو إسرائيل عليه ورفضوه فدعاها فجعل لها قارون ألف
درهم وقيل ألف دينار وقيل طستا من ذهب وقيل لها إنى أمولك وأخلطك بنسائى على أن تقذفى موسى بنفسك غدا إذا حضر
بنو إسرائيل فلما كان من الغد جمع قارون بنى إسرائيل ثم أتى موسى فقال إن بنى إسرائيل ينتظرون خروجك فتأمرهم وتنهاهم
فخرج إليهم موسى وهم فى براح من الأرض فقام فقال يابنى إسرائيل من سرق قطعنا يده ومن افترى جلدناه ثمانين ومن زنى
وليست له امرأة جلدناه مائة ومن زنا وله امرأة رجمناه حتى يموت فقال له قارون وإن كنت أنت ؟ قال

وإن كنت أنا قال فان بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة فقال ادعوها فان قالت فهو كما قالت فلما جاءت قال لها موسى يافلانة أنا فعلت بك مايقول هؤلاء وعظم عليها القسم وسألها بالذي فلق البحر لبنى إسرائيل وأنزل التوراة إلا صدقت فتداركها الله تعالي بالتوفيق وقالت فى نفسها أحدث اليوم توبة أفضل من أن أوذي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لا كذبوا ولكن جعل لي قارون جعلا على أن أقذفك بنفسى فخر موسى ساجدا يبكى ويقول اللهم إن كنت رسولك فاغضب لي فأوحى الله تعالي إنى أمرت الأرض أن تطيعك فمرها بما شئت فقال موسى يابنى إسرائيل إن الله بعثنى إلي قارون كما بعثنى إلي فرعون فمن كان معه فليثبت
مكانه ومن كان معى فليعتزل فاعتزلوا ولم يبق مع قارون إلا رجلان ثم قال موسى ياأرض خذيهم فأخذت الأرض بأقدامهم
وفى رواية كان على سريره وفرشه فأخذته حتى غيبت سريره ثم قال ياأرض خذيهم فأخذتهم إلي الركب ثم قال ياأرض خذيهم
فأخذتهم إلي الأوساط ، ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلي الأعناق وقارون وأصحابه فى كل ذلك يتضرعون إلي موسى
ويناشده قارون الله والرحم حتى روى أنه ناشده سبعين مرة وموسى عليه السلام فى كل ذلك لا يلتفت إليه لشدة غضبه ثم
قال ياأرض خذيهم فانطبقت، عليهم الأرض فأوحى الله إلي موسى ما أغلظ قلبك استغاث بك سبعين مرة فلم تغثه أما وعزتي

هذا فقال له قارون والله ما هذا باعجب مما تصنع من السحر واعتزل قارون موسى بأتباعه
وجعل موسى يداريه للقرابة التى بينهما وهو يؤذيه كل وقت ولا يزيد إلا عتوا وتجبرا ومعاداة
لموسى حتى بنى دارا وجعل لها بابا من الذهب وضرب على جدرانها صفائح الذهب وكان الملأ
من بنى إسرائيل يغدون إليه ويروحون فيطعمهم الطعام ويحدثونه ويضاحكونه قال ابن عباس
فلما نزلت الزكاة على موسى أتاه قارون فصالحه على كل ألف دينار عنها دينار وعلى كل ألف
درهم عنها درهم وكل ألف شاة عنها شاة وكذلك سائر الأشياء ثم رجع إلى بيته فحسبه فوجده
شيئا كثيرا فلم تسمح نفسه بذلك فجمع بنى إسرائيل وقال لهم إن موسى قد أمركم بكل شىء
فأطعتموه وهو يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا أنت كبيرنا فمرنا بما شئت قال آمركم أن تجيئوا فلانة
البغى وتجعلوا عليكم لها جعلا على أن تقذف موسى بنفسها فاذا فعلت ذلك خرج عليه بنو إسرائيل
فرفضوه فدعوها فجعل لها قارون ألف دينار وألف درهم وقيل طستا من ذهب وقيل قال لها
قارون أنزلك وأخلطك بنسائى على أن تقذفى موسى بنفسك غدا إذا حضر بنو إسرائيل فلما
كان من الغد جمع قارون بنى إسرائيل ثم أتى موسى فقال إن بنى إسرائيل ينتظرون خروجك
لتأمرهم وتنهاهم فخرج إليهم موسى وهم فى مرج من الأرض فقام فيهم فقال: يابنى إسرائيل
من سرق قطعنا يده ومن افتري جلدناه ثمانين ومن زنى وليست له امرأة جلدناه مائة جلدة
ومن زنى وله امرأة رجمناه إلى أن يموت فقال قارون وإن كنت أنت قال وإن كنت أنا قال فان
بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة البغى قال ادعوها فلما جاءت قال لها موسى بالذى
فلق البحر لبنى إسرائيل وأنزل التوراة إلا أصدقت فتداركها الله بالتوفيق فقالت فى نفسها
أحدث توبة أفضل من أن أوذى رسول الله فقالت لاوالله ولكن قارون جعل لى جعلا على
أن أقذفك بنفسى فخر موسى ساجدا يبكى ويقول اللهم إن كنت رسولك فاغضب لى فأوحى
الله إليه إنى أمرت الأرض أن تطيعك فمرها بما شئت فقال موسى يابنى إسرائيل إن الله بعثنى
إلى قارون كما بعثنى إلى فرعون فمن كان معه فليثبت مكانه ومن كان معى فليعتزل فاعتزلوا فلم
يبق مع قارون إلا رجلان ثم قال موسى ياأرض خذيهم فأخذتهم بأقدامهم وقيل كان على
سريره وفرشه فأخذته الأرض حتى غيبت سريره ثم قال ياأرض خذيهم فأخذتهم إلى الركب
ثم قال ياأرض خذيهم فأخذتهم إلى الأوساط ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق
وأصحابه فى ذلك يتضرعون إلى موسى ويناشده قارون الله والرحم حتى قيل إنه ناشده أربعين
مرة

وجلالي لو استغاث بي مرة لأغثته . وفي بعض الآثار لأجعل الأرض بعدك طوعا لأحد قال قتادة خسف به فهو يتجلجل في الأرض كل يوم قامة رجل لايبلغ قعرها إلي يوم القيامة قال وأصبحت بنو إسرائيل يتناجون فيما بينهم أن موسى إنما دعا على قارون ليستبد بداره وكنوزه وأمواله « فدعا الله موسى حتى خسف بداره وكنوزه وأمواله الأرض فذلك قوله عز وجل «فخسفنا به وبداره الأرض» (فما كان لهمن فئة) من جماعة (ينصرونهمن دون الله) يمنعونه من الله (وما كانوا من المنتصرين) الممتنعين مما نزل به من الخسف(وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس) صار أولئك الذين تمنوا مارزقه الله من المال والزينة يتندمون على ذلك التمني والعرب تعبر عن الصيرورة بأضحى وأمسى وأصبح تقول أصبح فلان عالما وأضحى معدما وأمسى حزينا (يقولون ويكأن الله) اختلفوا في معنى هذه اللفظة قال مجاهد ألم تعلم وقال قتادة ألم تر قال الفراء هي كلمة تقرير كقول الرجل أما ترى إلي صنع الله وإحسانه وذكر أنه أخبره من سمع إعرابية تقول لزوجها أين ابنك؟ فقال ويكأنه وراء البيت يعني أما ترينه وراء البيت وعن الحسن أنه كلمة ابتداء تقديره إن الله يبسط الرزق وقيل هو تنبيه بمنزلة إلا . وقال قطرب ويك بمعنى ويلك حذفت اللام منه كما قال عنترة :

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها
قول الفوارس ويك عنتر أقدم

أي ويلك وأن منصوب بإضمار أعلم أن الله. وقال الخليل وي مفصولة من كان ومعناها التعجب كما يقول وي لم فعلت ذلك وذلك أن القوم تندموا فقالوا وي متندمين على ماسلف منهم وكان معناه أظن ذلك وأقدره كما تقول كان الفرج قد أتاك أي أظن ذلك وأقدره (يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) أي يوسع ويضيق(لولا أن من الله علينا لخسف بنا) قرأ حفص ويعقوب بفتح الخاء والسين وقرأ العامة بضم الخاء وكسر السين (ويكأنه لايفلح الكافرون) قوله تعالي (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا في الأرض) قال الكلبي ومقاتل استكبارا عن الإيمان وقال عطاء علوا واستطالة على الناس وتهاونا بهم وقال الحسن لم يطلبوا الشرف والعز عند ذي سلطانها وعن علي رضي الله عنه أنها نزلت في أهل التواضع من الولاة وأهل القدرة (ولا فسادا) قال الكلبي هو الدعاء إلي عبادة غير الله وقال عكرمة أخذ أموال الناس بغير حق : قال ابن جريج ومقاتل العمل بالمعاصي (والعاقبة للمتقين) أي العاقبة المحمودة لمن اتقى عقاب الله بأداء أمره واجتناب معاصيه قال قتادة الجنة للمتقين (من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزي الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) قوله تعالي (إن الذي فرض

(١٨٥)

مرة وقيل سبعين مرة وموسى في ذلك لايلتفت إليه لشدة غضبه ثم قال ياأرض خذيهم فأطبقت عليهم الأرض فأوحى الله إلى موسى ماأغلظ قلبك يستغيث بك قارون سبعين مرة فلم تغثه أما وعزتي وجلالي لو استغاث بي مرة لأغثته وفي بعض الآثار لاأجعل الأرض بعدك طوعا لأحد قال قتادة خسف به الأرض فهو يتجلجل في الأرض كل يوم قامة رجل لايبلغ قرارها إلى يوم القيامة وأصبح بنو إسرائيل يقولون فيما بينهم إنما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه وأمواله فدعا الله موسى حتى خسف بداره وكنوزه وأمواله الأرض فذلك قوله تعالى (فما كان له من فئة) يعني جماعة (ينصرونه من دون الله) يعني يمنعونه من الله (وما كان من المنتصرين) من الممتنعين مما نزل به من الخسف (وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس) يعني صار أولئك الذين تمنوا مارزقه الله من الأموال والزينة يندمون على ذلك التمني (يقولون ويكأن الله) ألم تعلم وقيل ألم تر وقيل هي كلمة تقرير معناها أما تري صنع الله وإحسانه وقيل ويك بمعنى ويلك اعلم أن الله وروي أن وي مفصولة من كأن والمعنى أن القوم ندموا فقالوا متندمين على ماسلف منهم وي وكأن معناها أظن وأقدر أن الله (يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) قال ابن عباس أي يوسع لمن يشاء ويضيق على من يشاء (لولا أن من الله علينا) أي بالإيمان (لخسف بنا ويكأنه لايفلح الكافرون) قوله عز وجل (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا في الأرض) أي استكبارا عن الإيمان وقيل علوا واستطالة على الناس وتهاونا بهم وقيل يطلبون الشرف والعز عند ذي سلطان وعن علي أنها نزلت في أهل التواضع من الولاة وأهل المقدرة (ولا فسادا) قيل الذين يدعون إلى غير عبادة الله تعالى وقيل أخذ أموال الناس بغير حق وقيل العمل بالمعاصي (والعاقبة للمتقين) أي العاقبة المحمودة لمن اتقى عقاب الله بأداء أوامره واجتناب نواهيه وقيل عاقبة المتقين الجنة (من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزي الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) تقدم تفسيره : قوله تعالى (إن الذي فرض

عليك القرآن) أي أنزل عليك القرآن على قول أكثر المفسرين وقال عطاء أوجب عليك العمل بالقرآن (لرادك إلي معاد) إلي مكة وهو رواية العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما وهو قول مجاهد قال القتيبي معاد الرجل بلده لأنه ينصرف ثم يعود إلي بلده وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج من الغار مهاجرا إلي المدينة سار فى غير الطريق مخافة الطلب فلما آمن ورجع إلي الطريق نزل الجحفة بين مكة والمدينة وعرف الطريق إلي مكة اشتاق إليها فأتاه جبريل وقال أتشتاق إلي بلدك ومولدك قال نعم قال فان الله تعالي يقول إن الذى (١٨٦) فرض عليك القرآن لرادك إلي معاد وهذه الآية نزلت بالجحفة ليست بمكية ولا مدنية وروى سعيد ابن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما لرادك إليمعاد إلي الموت وقال الزهرى وعكرمة إلي القيامة وقيل إلي الجنة (قل ربى أعلم من جاء بالهدي) أي يعلم من جاء بالهدي وهذا جواب لكفار مكة لما قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم إنك لنى ضلال فقال الله عز وجل قل لهم ربى أعلم من جاء بالهدي أي يعلم من جاء بالهدي يعنى نفسه (ومن هو فى ضلال مبين) يعنى المشركين ومعناه أعلم بالفريقين قوله تعالي (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب) أي يوحى إليك القرآن (إلا رحمة من ربك) قال الفراء هذا من الاستثناء المنقطع معناه لكن ربك رحمك فأعطاك القرآن (فلا تكونن ظهيرا للكافرين) أي معينا لهم على دينهم وقال مقاتل وذلك حين دعى إلي دين آبائه فذكر الله نعمه ونهاه عن مظاهرتهم على ماهم عليه (ولا يصدنك عن آيات الله) يعنى القرآن (بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك) إلى معرفته وتوحيده (ولا تكونن من المشركين) قال ابن عباس رضى الله عنهما الخطاب فى الظاهر للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به أهل دينه أي لاتظاهروا الكفار ولا توافقوهم (ولا تدع مع الله إلها آخر لاإله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه) أي إلا هو وقيل إلا ملكه ، قال أبو العالية إلا ماأريد به وجهه (له الحكم) أي فصل القضاء (وإليه ترجعون) تردون فى الآخرة فيجزيكم بأعمالكم ؛

(تفسير

عليك القرآن) أي أنزل عليك القرآن وقيل معناه أوجب عليك العمل بالقرآن(لرادك إلى معاد) قال ابن عباس إلى مكة أخرجه البخاري عنه قال القتيبي معاد الرجل بلده لأنه ينصرف فيعود إلى بلده وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج من الغار مهاجرا إلى المدينة سار على غير الطريق مخافة الطلب فلما أمن رجع فى الطريق ونزل الجحفة بين مكة والمدينة وعرف الطريق إلى مكة فاشتاق إليها فأتاه جبريل عليه السلام وقال له أتشتاق إلى بلدك قال نعم قال فان الله تعالى يقول إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد وهذه الآية نزلت بالجحفة ليست بمكية ولا مدنية وقال ابن عباس أيضا لرادك إلى الموت وقيل إلى القيامة وقيل إلى الجنة (قل ربى أعلم من جاء بالهدي) هذا جواب لكفار مكة لما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم إنك لنى ضلال مبين فقال الله تعالى قل لهم «ربى أعلم من جاء بالهدي» يعنى نفسه (ومن هو فى ضلال مبين) يعنى المشركين ومعناه هو أعلم بالفريقين . قوله عز وجل (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب) أي يوحى إليك القرآن (إلا رحمة من ربك) فأعطاك القرآن (فلا تكونن ظهيرا) أي معينا (للكافرين) على دينهم وذلك حين دعوه إلى دين آبائه فذكره نعمه عليه ونهاه عن مظاهرتهم على ماهم عليه (ولا يصدنك عن آيات الله) يعنى القرآن (بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك) إلى معرفته وتوحيده (ولا تكونن من المشركين) قال ابن عباس الخطاب فى الظاهر للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به أهل دينه أي ولا تظاهر الكفار ولا توافقهم (ولا تدع مع الله إلها آخر) معناه أنه واجب على الكل إلا أنه خاطبه به مخصوصا لأجل التعظيم : فان قلت النبي صلى الله عليه وسلم كان معصوما من أن يدعو مع الله إلها آخر فما فائدة هذا النهى : قلت الخطاب معه والمراد به غيره وقيل معناه لا تتخذ غيره وكيلا على أمورك كلها ولا تعتمد على غيره (لا إله إلا هو كل شيء هالك) أي فان (إلا وجهه) أي إلا هو والوجه يعبر به عن الذات وقيل معناه إلا ماأريد به وجهه لأن عمل كل شيء أريد به غير الله فهو هالك (له الحكم) أى فصل القضاء بين الخلق (وإليه ترجعون) أي تردون فى الآخرة فيجزيكم بأعمالكم والله أعلم بمراده :

(سورة العنكبوت ، مكية ، وهى تسع وستون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم أحسب الناس) أظن الناس (أن يتركوا) بغير اختبار ولا ابتلاء (أن يقولوا) أي بأن يقولوا (آمنا وهم لايفتنون) لايبتلون فى أموالهم وأنفسهم كلا لنختبرنهم ليبين المخلص من المنافق والصادق من الكاذب واختلفوا فى سبب نزول هذه الآية . قال الشعبى نزلت فى أناس كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام فكتب إليهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لايقبل فيكم الإقرار بالإسلام حتى تهاجروا فخرجوا عامدين إلى المدينة فتبعهم المشركون فقاتلوهم فمنهم من قتل ومنهم من نجا فأنزل الله هاتين الآيتين قال ابن عباس رضى الله عنهما وأراد بالناس الذين آمنوا بمكة سلمة (١٨٧) بن هشام وعياش بن ربيعة والوليد بن الوليد وعمار بن ياسر وغيرهم وقال ابن جريج نزلت فى عمار بن ياسر كان يعذب فى الله عز وجل وقال مقاتل نزلت فى مهجع بن عبد الله مولى عمر كان أول قتيل من المسلمين يوم بدر فقال النبي صلى الله عليه وسلم «سيد الشهداء مهجع بن عبد الله وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة» فجزع أبواه وامرأته فأنزل الله فيهم هذه الآية وقيل «وهم لا يفتنون» بالأوامر والنواهى وذلك أن الله تعالى أمرهم فى الابتداء بمجرد الإيمان ثم فرض عليهم الصلاة والزكاة وسائر الشرائع فشق على بعضهم فأنزل الله هذه الآية ثم عزاهم فقال (ولقد فتنا الذين من قبلهم) يعنى الأنبياء والمؤمنين فمنهم من نشر بالمنشار ، ومنهم من قتل وابتلى بنو إسرائيل بفرعون فكان يسومهم سوء العذاب (فليعلمن الله الذين صدقوا) فى قولهم آمنا (وليعلمن الكاذبين) والله أعلم بهم قبل الاختبار ومعنى الآية وليظهرن الله الصادقين من الكاذبين حتى يوجد معلومه . وقال مقاتل فليرين الله وقيل ليميز الله كقوله «ليميز الله الخبيث من الطيب» (أم حسب الذين يعملون السيئات) يعنى الشرك (أن يسبقونا) يعجزونا ويفوتونا فلا نقدر على الانتقام منهم (ساء مايحكمون) أي بئس ماحكموا حين ظنوا ذلك (من كان يرجو لقاء الله) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ومقاتل من كان يخشى البعث والحساب والرجاء بمعنى الخوف وقال سعيد بن جبير رضى الله عنه من كان يطمع فى ثواب الله (فان أجل الله لآت) يعنى ماوعد الله من الثواب والعقاب وقال مقاتل يعنى يوم القيامة لكائن

(تفسير سورة العنكبوت وهى مكية)

وآياتها تسع وستون آية وكلماتها تسعمائة وثمانون كلمة وحروفها أربعة آلاف ومائة وخمسة وستون حرفا .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (الم أحسب الناس) أى أظن الناس (أن يتركوا) أى بغير اختبار وابتلاء (أن) أى بأن (يقولوا آمنا وهم لايفتنون) أى لايبتلون فى أموالهم وأنفسهم كلا لنختبرنهم لنبين المخلص من المنافق والصادق من الكاذب قيل نزلت هذه الآية فى أناس كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام فكتب اليهم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أنه لايقبل منكم الاقرار بالإسلام حتى تهاجروا فخرجوا عامدين إلى المدينة فأتبعهم المشركون فقاتلهم الكفار فمنهم من قتل ومنهم من نجا فأنزل الله هاتين الآيتين وقال ابن عباس أراد بالناس الذين آمنوا بمكة سلمة بن هشام وعياش ابن أبى ربيعة والوليد بن الوليد وعمار بن ياسر وغيرهم . وقيل فى عمار كان يعذب فى الله تعالى وقيل فى مهجع بن عبد الله مولى عمر وكان أول من قتل من المسلمين يوم بدر فقال النبى صلى الله عليه وسلم «سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة» فجزع أبواه وامرأته فأنزل الله هذه الآية ثم عزاهم فقال تعالى (ولقد فتنا الذين من قبلهم) يعنى الأنبياء فمنهم من نشر بالمنشار ومنهم من قتل وابتلى بنو إسرائيل بفرعون فكان يسومهم سوء العذاب (فليعلمن الله الذين صدقوا) أى فى قولهم (وليعلمن الكاذبين) والله تعالى عالم بهم قبل الاختبار ومعنى الآية فليظهرن الله الصادقين من الكاذبين حتى يوجد معلومه وقيل إن آثار أفعال الحق صفة يظهر فيها كل مايقع وما هو واقع . قوله تعالى (أم حسب الذين يعملون السيئات) يعنى الشرك (أن يسبقونا) أي يعجزونا فلا نقدر على الانتقام منهم (ساء مايحكمون من كان يرجو لقاء الله) قال ابن عباس من كان يخشى البعث والحساب وقيل من كان يطمع فى ثواب الله (فان أجل الله لآت) يعنى ماوعد الله من الثواب والعقاب وقيل يوم القيامة لكائن

ومعنى الآية أن من يخشى الله أو يأمله فليستعد له وليعمل لذلك اليوم كما قال « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا » الآية (وهو السميع العليم ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه) له ثوابه والجهاد: هو الصبر على الشدة ويكون ذلك فى الحرب وقد يكون على مخالفة النفس (إن الله لغنى عن العالمين) عن أعمالهم وعباداتهم (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم) لنبطلنها حتى تصير بمنزلة مالم يعمل فالتكفير إذهاب السيئة بالحسنة (ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون) أي بأحسن أعمالهم وهو الطاعة (١٨٨) وقيل نعطيهم أكثر مما عملوا وأحسن كما قال من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها قوله عز وجل (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً) أى براً بهما وعطفا عليهما معناه ووصينا الإنسان أن يفعل بوالديه مايحسن : نزلت هذه الآية والتى فى سورة لقمان والأحزاب فى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه وهو سعد بن مالك أبو إسحاق الزهري وأمه حمنة بنت أبى سفيان بن أمية بن عبد شمس لما أسلم وكان من السابقين الأولين وكان بارا بأمه قالت له أمه ما هذا الدين الذي أحدثت والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت فتعير بذلك أبد الدهر يقال ياقاتل أمه، ثم إنها مكثت يوما وليلة لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل فأصبحت قد جهدت ثم مكثت يوما آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب ، فجاء سعد إليها وقال ياأماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ماتركت دينى فكلى وإن شئت فلا تأكلى فلما أيست منه أكلت وشربت فأنزل الله تعالى هذه الآية وأمره بالبر بوالديه والإحسان إليهما وأن لا تطعهما فى الشرك فذلك قوله عز وجل (وإن جاهداك لتشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما) جاء فى الحديث «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق» ، ثم أوعد بالمصير إليه فقال (إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) أخبركم بصالح أعمالكم وسيئها فأجازيكم عليها (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين) فى زمرة الصالحين وهم الأنبياء والأولياء وقيل فى مدخل الصالحين وهو الجنة قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذي فى الله) أصابه بلاء من الناس افتتن (جعل فتنة الناس كعذاب الله) أي جعل أذي الناس وعذابهم

والمعنى أن من يخشى الله ويؤمله فليستعد له وليعمل لذلك اليوم (وهو السميع العليم) أى يعلم مايعمل العباد من الطاعة والمعصية فيثيبهم أو يعاقبهم أو يعفو. قوله تعالى (ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه) أى له ثوابه وهذا بحكم الوعد لا بحكم الاستحقاق فان الكريم إذا وعد وفى والجهاد هو الصبر على الأعداء والشدة وقد يكون فى الحرب وقد يكون على مخالفة النفس (إن الله لغنى عن العالمين) أى عن أعمالهم وعبادتهم وفيه بشارة وتخويف أما البشارة فلأنه إذا كان غنيا عن الأشياء فلو أعطى جميع ماخلقه لعبد من عبيده لاشىء عليه لاستغنائه عنه وهذا يوجب الرجاء التام وأما التخويف فلأن الله إذا كان غنيا عن العالمين فلو أهلكهم بعذابه فلا شىء عليه لاستغنائه عنهم (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم) أى لنبطلنها حتى تصير بمنزلة مالم يعمل والتكفير إذهاب السيئة بالحسنة (ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون) أى بأحسن أعمالهم وهو الطاعة وقيل يعطيهم أكثر مما عملوا : قوله عز وجل (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا) معناه برأ بهما وعطفا عليهما والمعنى ووصينا الإنسان بوالديه أن يفعل بهما مايحسن نزلت هذه الآية والتى فى سورة لقمان والأحقاف فى سعد بن أبى وقاص وقال ابن اسحاق سعد ابن مالك الزهري وأمه حمنة بنت أبى سفيان بن أمية بن عبد شمس لما أسلم وكان من السابقين الأولين وكان بارا بأبيه قالت له أمه ماهذا الذى أحدثت والله ما آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت فتعير بذلك أبد الدهر ويقال ياقاتل أمه ثم إنها مكثت يوما وليلة لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل فأصبحت وقد جهدت ثم مكثت كذلك يوما آخر وليلة فجاءها فقال ياأماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ماتركت دينى فكلى إن شئت وإن شئت فلا تأكلى فلما أيست منه أكلت وشربت فأنزل الله هذه الآية وأمره بالبر بوالدية والإحسان اليهما وأن لا يطيعهما فى الشرك فذلك قوله تعالى (وإن جاهداك لتشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما) وفى الحديث «لاطاعة لمخلوق فى معصية الله» ثم أوعد بالمصير اليه فقال تعالى (الى مرجعكم فأنبئكم) أى فأخبركم (بما كنتم تعملون) أى بصالح أعمالكم وسيئاتها أى فأجازيكم عليها (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين) أى فى زمرة الصالحين وهم الأنبياء والأولياء وقيل فى مدخل الصالحين وهو الجنة . قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذي) يعنى أصابه بلاء من الناس افتتن (فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله) أى جعل أذى الناس

كعذاب الله فى الآخرة أي جزع من عذاب الناس ولم يصبر عليه فأطاع الناس كما يطيع الله من يخاف عذابه « هذا قول السدي وابن زيد قالا هو المنافق إذا أوذي فى الله رجع عن الدين وكفر (ولئن جاء نصر من ربك) أي فتح ودولة للمؤمنين (ليقولن) يعنى هؤلاء المنافقين للمؤمنين (إنا كنا معكم) على عدوكم وكنا مسلمين ، وإنما أكرهنا حتى قلنا ماقلنا فكذبهم الله وقال (أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين) من الإيمان والنفاق (وليعلمن الله الذين آمنوا) صدقوا فثبتوا على الإسلام عند البلاء (وليعلمن المنافقين) بترك الإسلام عند نزول البلاء واختلفوا فى نزول هذه الآية قال مجاهد نزلت فى أناس كانوا يؤمنون بألسنتهم فإذا أصابهم بلاء من الناس أو مصيبة فى أنفسهم افتتنوا وقال عكرمة (١٨٩) عن ابن عباس رضى الله عنه نزلت فى الذين أخرجهم المشركون معهم فى بدر وهم الذين نزلت فيهم « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم » وقال قتادة نزلت فى القوم الذين ردهم المشركون إلى مكة قال الشعبى هذه الآيات العشر من أول السورة إلى هاهنا مدنية ، وباقى السورة مكية (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا) قال مجاهد هذا من قول كفار مكة لمن آمن منهم وقال الكلبي ومقاتل قاله أبو سفيان لمن آمن من قريش اتبعوا سبيلنا ديننا وملة آبائنا ونحن الكفلاء بكل تبعة من الله تصيبكم فذلك قوله (ولنحمل خطاياكم) أوزاركم قال الفراء لفظه أمر ومعناه خبر مجازه إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم كقوله « فليلقه اليم بالساحل » وقيل هو جزم على الأمر كأنهم أمروا أنفسهم بذلك فأكذبهم الله عز وجل فقال (وماهم بحاملين من خطاياهم من شىء إنهم لكاذبون) أي فيما قالوا من حمل خطاياهم (وليحملن أثقالهم) أوزار أعمالهم التى عملوها بأنفسهم (وأثقالا مع أثقالهم) أي أوزار من أضلوا وصدوا عن سبيل الله مع أوزارهم نظيره قوله عز وجل « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم » (وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون) سؤال توبيخ وتقريع قوله تعالى (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما

وعذابهم كعذاب الله فى الآخرة والمعنى أنه جزع من أذى الناس ولم يصبر عليه فأطاع الناس كما يطيع الله من يخاف عذابه وهو المنافق إذا أوذى فى الله رجع عن الدين وكفر (ولئن جاء نصر من ربك) أى فتح ودولة للمؤمنين (ليقولن) أى هؤلاء المنافقون للمؤمنين (إنا كنا معكم) أي على عدوكم وكنا مسلمين وإنما أكرهنا حتى قلنا ماقلنا فأكذبهم الله تعالى فقال (أوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين) أى من الإيمان والنفاق (وليعلمن الله الذين آمنوا) أى صدقوا فثبتوا على الإيمان والإسلام عند البلاء (وليعلمن المنافقين) أى بترك الإسلام عند البلاء قيل نزلت هذه الآية فى أناس كانوا يؤمنون بألسنتهم فإذا أصابهم بلاء من الناس أو مصيبة فى أنفسهم أفتتنوا وقال ابن عباس نزلت فى الذين أخرجهم المشركون معهم الى بدر وهم الذين نزلت فيهم «الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم» وقيل هذه الآيات العشر من أول السورة الى هاهنا مدنية وباقى السورة مكى (وقال الذين كفروا) يعنى من أهل مكة قيل قاله أبو سفيان (للذين آمنوا) أي من قريش (اتبعوا سبيلنا) يعنى ديننا وملة آبائنا ونحن الكفلاء بكل تبعة من الله تصيبكم فذلك قوله (ولنحمل خطاياكم) أى أوزاركم والمعنى إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم فأكذبهم الله عز وجل بقوله (وما هم بحاملين من خطايا هم من شىء إنهم لكاذبون) فى قولهم نحمل خطاياكم (وليحملن أثقالهم) أى أوزار أعمالهم التى عملوها بأنفسهم (وأثقالا مع أثقالهم) أى أوزار من أضلوا وصدوا عن سبيل الله مع أوزار أنفسهم. فان قلت قد قال أولا وماهم بحاملين من خطاياهم من شىء وقال هاهنا وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم فكيف الجمع بينهما . قلت معناه إنهم لايرفعون عنهم خطيئة بل كل واحد يحمل خطيئة نفسه ورؤساء الضلال يحملون أوزارهم ويحملون أوزارا بسبب إضلال غيرهم فهو كقوله صلى الله عليه وسلم «من سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة » من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء» رواه مسلم (وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون) أى سؤال توبيخ وتقريع لأنه تعالى عالم بأعمالهم وافترائهم قوله تعالى (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث) أى فأقام (فيهم) يدعوهم الى عبادة الله وتوحيده (ألف سنة الا خمسين عاما) فان قلت مافائدة هذا الاستثناء وهلا قال تسعمائة وخمسين سنة قلت فيه فائدتان إحداهما أن الاستثناء يدل على التحقيق

فأخذهم الطوفان) فغرقوا (وهم ظالمون) قال ابن عباس مشركون (فأنجيناه وأصحاب السفينة) يعنى من الغرق (وجعلناها) يعني السفينة (آية) أي عبرة (للعالمين) فإنها كانت باقية على الجودي مدة مديدة وقيل جعلنا عقوبتهم للغرق عبرة وقال ابن عباس رضى الله (١٩٠) عنهما بعث نوح لأربعين سنة وبقي فى قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاما وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا وكان عمره ألفا وخمسين سنة • قوله تعالى (وإبراهيم) أي وأرسلنا إبراهيم (إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه) أطيعوه وخافوه (ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون إنما تعبدون من دون الله أوثانا) أصناما (وتخلقون إفكا) تقولون كذبا قال مقاتل تصنعون أصناما بأيديكم فتسمونها آلهة (إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا) لا يقدرون أن يرزقوكم (فابتغوا) فاطلبوا (عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم) مثل عاد وثمود وغيرهم فأهلكوا (وما على الرسول إلا البلاغ المبين أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق) كيف يخلقهم ابتداء نطفة ثم علقة ثم مضغة (ثم يعيده) فى الآخرة عند البعث (إن ذلك على الله يسير قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) فانظروا إلى ديارهم وآثارهم كيف بدأ خلقهم (ثم الله ينشئ النشأة ولا الآخرة) أي ثم الله الذي خلقها ينشئها نشأة ثانية بعد الموت فكما لم يتعذر عليه إحداثها مبدئا لا يتعذر عليه إنشاؤها معيدا قرأ ابن كثير وأبو عمرو النشاءة بفتح الشين ممدودة حيث وقعت وقرأ الآخرون بسكون الشين مقصورة نظيرها الرأفة والرآفة (إن الله على كل شيء قدير يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون) تردون (وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء)

وتركه قد يظن به التقريب فهو كقول القائل عاش فلان مائة سنة فقد يتوهم السائل أنه يقول مائة سنة تقريبا لا تحقيقا فان قال مائة سنة الا شهرا أو إلا سنة زال ذلك التوهم وفهم منه التحقيق الفائدة الثانية هى لبيان أن نوحا صبر على أذى قومه صبرا كثيرا وأعلى مراتب العدد ألف سنة وكان المراد التكثير فلذلك أتى بعقد الألف لأنه أعظم وأفخم هذه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم حيث أعلم أن الأنبياء قد ابتلوا قبله وأن نوحا لبث فى قومه ألف سنة الا خمسين عاما يدعوهم فصبر فى الدعاء ولم يؤمن من قومه الا قليل فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة من آمن بك قال ابن عباس بعث نوح لأربعين سنة وبقي فى قومه يدعوهم ألف سنة الا خمسين عاما وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس فكان عمره ألفا وخمسين عاما وقيل فى عمره غير ذلك قوله تعالى (فأخذهم الطوفان) أى فأغرقهم (وهم ظالمون) قال ابن عباس مشركون (فأنجيناه وأصحاب السفينة) يعنى من الغرق (وجعلناها) يعنى السفينة (آية) أى عبرة (للعالمين) قيل إنها بقيت على الجودى مدة مديدة وقيل جعلنا عقوبتهم بالغرق عبرة . قوله تعالى (وإبراهيم) أى وأرسلنا إبراهيم (إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه) أى أطيعوا الله وخافوه (ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) أى ماهو خير لكم مما هو شر لكم ولكنكم لاتعلمون (إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا) أى تقولون كذبا وقيل تصنعون أصناما بأيديكم وتسمونها آلهة (أن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا) أى لا يقدرون أن يرزقوكم (فابتغوا) أى فاطلبوا (عند الله الرزق) فانه القادر على ذلك (واعبدوه) أى وحدوه (واشكروا له) لأنه المنعم عليكم بالرزق (إليه ترجعون) أي فى الآخرة (وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم) أي مثل قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم فأهلكهم الله (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) قوله تعالى (أو لم يروا) قيل هذه الآيات إلى قوله فما كان جواب قومه يحتمل أن تكون من تمام قول إبراهيم لقومه وقيل إنها وقعت معترضة فى قصة إبراهيم وهى فى تذكير أهل مكة وتحذيرهم ومعنى أولم يروا أو لم يعلموا (كيف يبدئ الله الخلق) أي يخلقهم نطفة ثم علقة ثم مضغة (ثم يعيده) أي فى الآخرة عند البعث (إن ذلك على الله يسير) أي الخلق الأول والخلق الثانى (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) أي انظروا إلى ديارهم وآثارهم كيف بدأ خلقهم (ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) أي ثم إن الله الذي خلقهم ينشئهم نشأة ثانية بعد الموت والمعنى فكما لم يتعذر عليه إحداثهم مبدئا كذلك لا يتعذر عليه إنشاؤهم معيدا بعد الموت ثانيا (إن الله على كل شيء قدير) أي من البداءة والإعادة (يعذب من يشاء) عدلا منه (ويرحم من يشاء) تفضلا (وإليه تقلبون) أي تردون (وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء) قيل معناه

فإن قيل ماوجه قوله ولا فى السماء والخطاب مع الآدميين وهم ليسوا فى السماء ، قال الفراء معناه ولا من فى السماء بمعجز كقول حسان بن ثابت :

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

أراد من يمدحه ومن ينصره فأضمر من يريد لايعجزه أهل الأرض فى الأرض ولا أهل السماء فى السماء وقال قطرب معناه وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء لو كنتم فيها كقول القائل مايفوتنى فلان هاهنا ولا بالبصرة أي ولا بالبصرة لو كان بها (ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير) أي من ولى يمنعكم منى ، ولا نصير ينصركم من عذابى (والذين كفروا بآيات الله ولقائه) بالقرآن وبالبعث (أولئك يئسوا من رحمتى) جنتى (١٩١) (وأولئك لهم عذاب أليم) فهذه الآيات فى تذكير أهل مكة وتحذيرهم وهى معترضة فى قصة إبراهيم ثم عاد إلى قصة إبراهيم فقال جل ذكره (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار) وجعلها عليه بردا وسلاما (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) يصدقون (وقال) يعنى إبراهيم لقومه (إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم) قرأ ابن كثير والكسائى وأبو عمرو ويعقوب مودة رفعا بلا تنوين بينكم خفضا بالإضافة على معنى إن الذين اتخذتم من دون الله أوثانا هى مودة بينكم (فى الحياة الدنيا) ثم هى تنقطع ولا تنفع فى الآخرة وقرأ حمزة وحفص مودة نصبا بغير تنوين على الإضافة بوقوع الاتخاذ عليها ، وقرأ الآخرون مودة منصوبة منونة بينكم بالنصب معناه إنكم إنما اتخذتم هذه الأوثان مودة بينكم فى الحياة الدنيا تتوادون على عبادتها وتتواصلون عليها فى الدنيا (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا) تتبرأ الأوثان من عابديها وتتبرأ القادة من الأتباع وتلعن الأتباع القادة (ومأواكم) جميعا العابدون والمعبودون (النار ومالكم من ناصرين فآمن له لوط) يعنى صدقه وهو أول من صدق إبراهيم وكان ابن أخيه (وقال) يعنى إبراهيم (إنى مهاجر إلى ربى) فهاجر من كوثى وهو من سواد الكوفة إلى حران ثم إلى الشام ومعه لوط وامرأته سارة وهو أول من هاجر قال مقاتل هاجر إبراهيم عليه السلام وهو ابن خمس وسبعين سنة (إنه هو العزيز الحكيم ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب) يقال إن الله لم يبعث نبيا بعد إبراهيم إلا من نسله (وآتيناه أجره فى الدنيا) وهو الثناء الحسن فكل أهل الأديان يتولونه وقال السدي هو الولد الصالح وقيل هو أنه أري

ولا من فى السماء بمعجزين والمعنى أنه لايعجزه أهل الأرض فى الأرض ولا أهل السماء فى السماء وقيل معنى قوله ولا فى السماء لو كنتم فيها (وما لكم من دون الله من ولى) أي يمنعكم منى (ولا نصير) أي ينصركم من عذابى (والذين كفروا بآيات الله) يعنى بالقرآن (ولقائه) أي البعث (أولئك يئسوا من رحمتى) يعنى الجنة (وأولئك لهم عذاب أليم) فهذا آخر الآيات فى تذكير أهل مكة ثم عاد إلى قصة إبراهيم عليه السلام فقال تعالى (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه قال ذلك بعضهم لبعض وقيل قال الرؤساء للأتباع اقتلوه أو حرقوه (فأنجاه الله من النار) أي بأن جعلها عليه بردا وسلاما قيل إن ذلك اليوم لم ينتفع أحد بنار (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) يصدقون (وقال) يعنى إبراهيم لقومه إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا) أي ثم تنقطع ولا تنفع فى الآخرة وقيل معناه إنكم تتوادون على عبادتها وتتواصلون عليها فى الدنيا (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا) تتبرأ الأوثان من عابديها وتتبرأ القادة من الأتباع ويلعن الأتباع القادة (ومأواكم النار) يعنى العابدين والمعبودين جميعا (وما لكم من ناصرين) أي مانعين من عذابه (فآمن له لوط) أي صدقه برسالته لما رأي معجزاته وهو أول من صدق إبراهيم وأما فى أصل التوحيد فانه كان مؤمنا لأن الأنبياء لايتصور فيهم الكفر (وقال) يعنى إبراهيم (إنى مهاجر إلي ربى) إلى حيث أمرنى ربى فهاجر من كوثى وهى من سواد الكوفة إلى حران ثم هاجر إلى الشام ومعه لوط وامرأته سارة وهو أول من هاجر إلى الله تعالي وترك بلده وسار إلى حيث أمره الله بالمهاجرة إليه قيل هاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة (إنه هو العزيز) أي الذي لايغلب والذي يمنعنى من أعدائى (الحكيم) الذي لايأمرنى إلا بما يصلحنى : قوله تعالى (ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب) يقال إن الله تعالى لم يبعث نبيا بعد إبراهيم إلا من نسله (وآتيناه أجره فى الدنيا) هو الثناء الحسن فكل أهل الأديان يتولونه ويحبونه ويحبون الصلاة عليه والذرية الطيبة والنبوة

مكانه فى الجنة (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) أي فى زمرة الصالحين قال ابن عباس مثل آدم ونوح. قوله تعالى (ولوطا إذ قال لقومه أئنكم) قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى وأبو بكر أئنكم بالاستفهام وقرأ الباقون بلا استفهام واتفقوا على استفهام الثانية (لتأتون الفاحشة) وهى إتيان الرجال (ماسبقكم بها من أحد من العالمين ، أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل) وذلك أنهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن يمر بهم من المسافرين فترك الناس الممر بهم وقيل تقطعون سبيل النسل بإيثار الرجال على النساء (وتأتون فى ناديكم المنكر) النادي والندي والمنتدي مجلس القوم ومتحدثهم أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبى أنا أبو العباس بن سهل بن محمد المروزي أنا جدي لأمي أبو الحسن المحمودي أنا محمد بن إسحاق بن خزيمة أن بشر ابن معاذ حدثهم أنا يزيد بن

زريع أنا حاتم بن أبي صغيرة عن سماك بن حرب عن أبي صالح مولى أم هانئ بنت أبي طالب عن أم هانئ قالت « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله وتأتون فى ناديكم المنكر قلت ما المنكر الذي كانوا يأتونه قال كانوا يحذفون أهل الطرق ويسخرون بهم » وروي أنهم كانوا يجلسون فى مجالسهم ، وعند كل رجل منهم قصعة فيه حصى فإذا مر بهم عابر سبيل حذفوه فأيهم أصابه كان أولى به وقيل إنه كان يأخذ مامعه وينكحه ويغرمه ثلاثة دراهم ولهم قاض بذلك وقال القاسم بن محمد كانوا يتضارطون فى مجالسهم وقال مجاهد كان يجامع بعضهم بعضا فى مجالسهم وعن عبدالله ابن سلام قال كان يبزق بعضهم على بعض وعن مكحول قال كان من أخلاق قوم لوط مضغ العلك وتطريف الأصابع بالحناء وحل الإزار والصفير والحذف واللوطية (فما كان جواب قومه) لما أنكر عليهم لوط ما يأتونه من القبائح (إلا أن قالوا) له استهزاء (ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) إن العذاب نازل بنا فعند ذلك (قال) لوط (رب انصرني على القوم المفسدين) بتحقيق قولى فى العذاب (ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشري) من الله بإسحاق ويعقوب (قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية) يعنى قوم لوط والقرية سدوم (إن أهلها كانوا ظالمين قال) إبراهيم للرسل (إن فيها لوطا قالوا) قالت الملائكة (نحن أعلم بمن فيها لننجينه) قرأ حمزة والكسائى ويعقوب لننجيه بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد (وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) أي الباقين فى العذاب (ولما أن جاءت رسلنا لوطا) ظن أنهم من الإنس (سىء بهم) حزن بهم (وضاق بهم) بمجيئهم (ذرعا وقالوا لاتخف) من قومك علينا (ولا تحزن) بإهلاكنا إياهم (إنا منجوك وأهلك

من نسله هذا له فى الدنيا (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) أى فى زمرة الصالحين قال ابن عباس مثل آدم ونوح . قوله عز وجل (ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة) أي الفعلة القبيحة (ماسبقكم بها من أحد من العالمين) أى لم يفعلها أحد قبلكم ثم فسر الفاحشة فقال (أئنكم لتأتون الرجال) يعنى أنكم تقضون الشهوة من الرجال (وتقطعون السبيل) وذلك أنهم كانوا يأتون الفاحشة بمن مر بهم من المسافرين فترك الناس الممر بهم لأجل ذلك وقيل معناه تقطعون سبيل النسل بإيثار الرجال على النساء (وتأتون فى ناديكم المنكر) أى مجالسكم والنادى مجلس القوم ومتحدثهم عن أم هانىء بنت أبى طالب عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله وتأتون فى دنيا كم المنكر قال « كانوا يحذفون أهل الأرض ويسخرون منهم » أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب الحذف هو رمى الحصى بين الأصابع قيل إنهم كانوا يجلسون فى مجالسهم وعند كل رجل منهم قصعة فيها حصى فإذا مر بهم عابر سبيل حذفوه فأيهم أصابه قال أنا أولى به وقيل إنه كان يأخذ مامعه وينكحه ويغرمه ثلاثة دراهم وقيل إنهم كانوا يجامعون بعضهم بعضا فى مجالسهم وقيل إنهم كانوا يتضارطون فى مجالسهم وعن عبد الله بن سلام كان يبزق بعضهم على بعض وقيل كان أخلاق قوم لوط مضغ العلك وتطريف الأصابع بالحناء وحل الإزار والصفير والحذف والرمى بالجلاهق واللوطية (فما كان جواب قومه) أى لما أنكر عليهم لوط ما يأتونه من القبائح (إلا أن قالوا) أى استهزاء (ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) أى إن العذاب نازل بنا فعند ذلك (قال رب انصرنى على القوم المفسدين) أى بتحقيق قولى إن العذاب نازل بهم . قوله عز وجل (ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) أى من الله بإسحاق ويعقوب (قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية) أى قوم لوط والقرية سدوم (إن أهلها كانوا ظالمين قال) يعنى إبراهيم إشفاقا على لوط وليعلم حاله (إن فيها لوطا قالوا) أى قالت الملائكة (نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) أى من الباقين فى العذاب (ولما أن جاءت رسلنا لوطا سىء بهم) أى ظنهم من الإنس فخاف عليهم ومعناه أنه جاءه ماساءه (وضاق بهم ذرعا) أى عجز عن تدبير أمرهم فحزن لذلك (وقالوا لاتخف) أى من قومك (ولا تحزن) علينا (إنا منجوك وأهلك) أى إنا مهلكوهم ومنجوك وأهلك إلا

إلا امرأتك كانت من الغابرين) قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب منجوك بالتخفيف وقرأ الآخرون بالتشديد (إنا منزلون) قرأ ابن عامر بالتشديد وقرأ الآخرون بالتخفيف (على أهل هذه القرية رجزا) عذابا (من السماء) قال مقاتل الخسف والحصب (بما كانوا يفسقون ولقد تركنا منها) من قريات لوط (آية بينة) عبرة ظاهرة (لقوم يعقلون) يتدبرون الآيات تدبر ذوي العقول. قال ابن عباس: الآية البينة هي آثار منازلهم الخربة؛ وقال قتادة هي الحجارة التي أهلكوا بها أبقاها الله حتى أدركها أوائل هذه الأمة، وقال مجاهد هي ظهور الماء الأسود على وجه الأرض (وإلى مدين أخاهم شعيبا) أي وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبا (فقال ياقوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر) أي واخشوا اليوم الآخر (ولا تعثوا في الأرض مفسدين فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين وعادا وثمود) أي وأهلكنا عادا وثمود (وقد تبين لكم) ياأهل مكة (من مساكنهم) منازلهم بالحجر واليمن (وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل) عن سبيل الحق (وكانوا مستبصرين) قال مقاتل والكلبي وقتادة كانوا معجبين في دينهم وضلالتهم يحسبون أنهم على هدي وهم على الباطل والمعنى أنهم كانوا عند أنفسهم مستبصرين قال الفراء كانوا عقلاء ذوي بصائر (وقارون وفرعون وهامان) أي وأهلكنا هؤلاء (ولقد جاءهم موسى بالبينات) بالدلالات (فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين) أي فائتين من عذابنا (فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) وهم قوم لوط والحاصب الريح التي تحمل العصا وهي الحصا الصغار (ومنهم من أخذته الصيحة) يعني ثمود (ومنهم من خسفنا به الأرض) يعني قارون وأصحابه (ومنهم من أغرقنا) يعني قوم نوح وفرعون وقومه (وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) أي الأصنام يرجون نصرها ونفعها (كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) لنفسها تأوي إليه، وإن بيتها في غاية الضعف والوهن لايدفع عنها حرا ولا بردا

(١٩٣)

(إلا امرأتك كانت من الغابرين إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا) أي عذابا (من السماء) قيل هو الخسف والحصب بالحجارة (بما كانوا يفسقون ولقد تركنا منها) أي من قريات لوط (آية بينة) أي عبرة ظاهرة (لقوم يعقلون) يعني أفلا يتدبرون الآيات تدبر ذوى العقول قال ابن عباس الآية البينة آثار منازلهم الخربة وقيل هي الحجارة التي أهلكوا بها أبقاها الله حتى أدركها أوائل هذه الأمة وقيل هي ظهور الماء الأسود على وجه الأرض. قوله تعالى (وإلى مدين) أي وأرسلنا إلى مدين؛ ومدين اسم رجل وقيل اسم المدينة؛ فعلى القول الأول يكون المعنى وأرسلنا إلي ذرية مدين وأولاده؛ وعلى القول الثاني وأرسلنا إلى أهل مدين (أخاهم شعيبا فقال ياقوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر) أي افعلوا فعل من يرجوا اليوم الآخر وقيل معناه اخشوا اليوم الآخر وخافوه (ولا تعثوا في الأرض مفسدين فكذبوه فأخذتهم الرجفة) أي الزلزلة وذلك أن جبريل صاح فرجفت الأرض رجفة (فأصبحوا في دارهم جاثمين) أي باركين على الركب ميتين (وعادا وثمود) أي وأهلكنا عادا وثمود (وقد تبين لكم) ياأهل مكة (من مساكنهم) أي منازلهم بالحجر واليمن (وزين لهم الشيطان أعمالهم) أي عبادتهم لغير الله (فصدهم عن السبيل) أي عن سبيل الحق (وكانوا مستبصرين) أي عقلاء ذوى بصائر وقيل كانوا معجبين في دينهم وضلالتهم يحسبون أنهم على هدى وهم على باطل وضلالة والمعنى أنهم كانوا عند أنفسهم مستبصرين (وقارون وفرعون وهامان) أي أهلكنا هؤلاء (ولقد جاءهم موسى بالبينات) أي بالدلالات الواضحات (فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين) أي فائتين من عذابنا (فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) وهم قوم لوط رموا بالحصباء وهي الحصى الصغار (ومنهم من أخذته الصيحة) يعني ثمود (ومنهم من خسفنا به الأرض) يعني قارون وأصحابه (ومنهم من أغرقنا) يعني قوم نوح وفرعون وقومه (وما كان الله ليظلمهم) أي بالهلاك (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أي بالإشراك. قوله تعالى (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) يعني الأصنام يرجون نصرها ونفعها (كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) لنفسها تأوى إليه وإن بيتها في غاية الضعف والوهن لايدفع عنها حرا ولا بردا فكذلك الأوثان لا تملك لعابدها نفعا ولا ضرا وقيل معنى هذا المثل أن المشرك الذي يعبد الأصنام بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله مثل العنكبوت تتخذ بيتا من نسجها بالإضافة إلى رجل بنى بيتا بآجر وجص

فكذلك الأوثان لاتملك لعابديها نفعا ولا ضرا (وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون . إن الله يعلم مايدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم) قرأ أهل البصرة وعاصم يدعون بالياء لذكر الأمم قبلها وقرأ الآخرون بالتاء (وتلك الأمثال) الأشباه ؛ والمثل كلام سائر يتضمن تشبيه الآخر بالأول ، يريد أمثال القرآن التى شبه بها أحوال كفار هذه الأمة بأحوال كفار الأمم المتقدمة (نضربها) (١٩٤) نبينها (للناس) قال عطاء ومقاتل لكفار مكة (وما يعقلها إلا العالمون) أي مايعقل الأمثال إلا العلماء الذين يعقلون عن الله . أخبرنا أبو سعيد الشريحى أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرنى ابن فنجويه أنا ابن بردة أنا الحارث بن أبى أسامة أنا داود بن المحبر أنا عباد بن كثير عن ابن جريج عن عطاء وأبى الزبير عن جابر « أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية : وتلك الأمثال نضربها للناس ومايعقلها إلا العالمون ؛ قال العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه » . قوله عز وجل (خلق الله السموات والأرض بالحق) أي للحق وإظهار الحق (إن فى ذلك) فى خلقها (لآية) لدلالة (للمؤمنين) على قدرته وتوحيده (اتل ماأوحى إليك من الكتاب) يعنى القرآن (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) الفحشاء ماقبح من الأعمال والمنكر مالا يعرف فى الشرع . قال ابن مسعود وابن عباس فى الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصى الله فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله إلا بعدا ؛ وقال الحسن وقتادة من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه وروي عن أنس قال « كان فتى من الأنصار يصلى الصلوات الخمس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لايدع شيئا من الفواحش إلا ركبه فوصف لرسول الله صلى الله عليه وسلم حاله فقال إن قراءته »

أونحته من صخر فكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتا بيتا بيت العنكبوت فكذلك أضعف الأديان إذا استقريتها دينا دينا عبادة الأوثان لأنها لاتضر ولا تنفع (وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت) أشار إلى ضعفه فإن الريح إذا هبت عليه أو لمسه لامس فلا يبقى له عين ولا أثر فقد صح إن أوهن البيوت لبيت العنكبوت وقد تبين أن دينهم أوهن الأديان (لو كانوا يعلمون) أى إن هذا مثلهم وإن أمر دينهم بلغ هذه الغاية من الوهن (إن الله يعلم مايدعون من دونه من شيء) هذا توكيد للمثل وزيادة عليه يعنى إن الذى يدعون من دونه ليس بشيء (وهو العزيز الحكيم) معناه كيف يجوز للعاقل أن يترك عبادة الله العزيز الحكيم القادر على كل شيء ويشتغل بعبادة من ليس بشيء أصلا (وتلك الأمثال) أى الأشباه يعنى أمثال القرآن التى شبه بها أحوال الكفار من هذه الأمة بأحوال كفار الأمم السابقة (نضربها) أى نبينها (للناس) أى لكفار مكة (وما يعقلها إلا العالمون) يعنى مايعقل الأمثال إلا العلماء الذين يعقلون عن الله عزوجل . روى البغوى بإسناد الثعلبي عن جابر بن عبد الله « أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية ؛ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون قال العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه » (خلق الله السموات والأرض بالحق) أى للحق وإظهار الحق (إن فى ذلك لآية) أى دلالة (للمؤمنين) على قدرته وتوحيده : وقوله تعالي (اتل ماأوحى إليك من الكتاب) يعنى القرآن (وأقم الصلاة) فان قلت لم أمر بهذين الشيئين تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة فقط . قلت لأن العبادة المختصة بالعبد ثلاثة : قلبية وهى الاعتقاد الحق ولسانية وهى الذكر الحسن وبدنية وهى العمل الصالح لكن الاعتقاد لايتكرر فإن اعتقد شيئا لا يمكنه أن يعتقده مرة أخرى بل ذلك يدوم مستمرا فبقى الذكر والعبادة البدنية وهما ممكنا التكرار فلذلك أمر بهما (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء) أى ماقبح من الأعمال (والمنكر) أى مالا يعرف فى الشرع . قال ابن مسعود وابن عباس فى الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصى الله فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم تزده صلاته من الله إلا بعدا . وقال الحسن وقتادة من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه وقيل من داوم على الصلاة جره ذلك إلي ترك المعاصى والسيئات كما روى عن أنس قال « كان فتى من الأنصار يصلى الصلوات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لم يدع من الفواحش شيئا إلا ركبه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن صلاته ستنهاه يوما فلم يلبث أن تاب وحسنت حاله » وقيل معنى الآية أنه مادام فى صلاته فانها تنهاه عن الفحشاء والمنكر ومنه قوله « إن فى الصلاة لشغلا » وقيل أراد بالصلاة القرآن وفيه ضعف لتقدم ذكر القرآن وعلى هذا يكون معناه أن القرآن ينهاه عن الفحشاء والمنكر كما روى عن جابر قال قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم « إن رجلا يقرأ القرآن الليل كله فاذا أصبح سرق قال ستنهاه

صلاته تنهاه يوما فلم يلبث أن تاب وحسن حاله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم أقل لكم إن صلاته تنهاه يوما ».
وقال ابن عون معنى الآية إن الصلاة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر مادام فيها ؛ وقيل أراد بالصلاة القرآن كما قال تعالى «ولا تجهر بصلاتك» أي بقراءتك ؛ وقيل أراد أن يقرأ القرآن فى الصلاة فالقرآن ينهاه عن الفحشاء والمنكر. أخبرنا عبدالواحد المليحى أنا عبد الرحمن بن أبى شريح أنا أبو القاسم البغوي أنا على بن الجعد أنا قيس بن الربيع عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم « إن رجلا يقرأ القرآن الليل كله فإذا أصبح سرق قال ستنهاه قراءته » وفى رواية «قيل يارسول الله إن فلانا يصلى بالنهار ويسرق بالليل فقال إن صلاته لتردعه» . قوله عز وجل (ولذكر الله أكبر) أي ذكر الله أفضل الطاعات . أخبرنا أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري أنا أبو الحسن على بن محمد بن بشران ببغداد أنا أبو على الحسين بن صفوان البردعى أنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا أنا هارون بن معروف أنا أبو على الضرير أنا أنس بن عياض ثنا عبد الله بن سعيد بن أبى هند عن زياد بن أبى زياد مولى عبد الله بن عباس عن أبى بحرية عن أبى الدرداء رضى الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا بلى قال ذكر الله» أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أبو منصور محمد بن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الريانى أنا حميد بن زنجويه أنا أبو الأسود أنا أبو لهيعة عن دراج عن أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات قيل يارسول الله والغازي فى سبيل الله قال لو ضرب بسيفه فى الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دما لكان الذاكر لله أفضل منه درجة » ورويناه « أن أعرابيا قال يارسول الله أي الأعمال أفضل قال أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله » أخبرنا إسماعيل ابن عبد القاهر الجرجانى أنا عبدالغافر بن محمد الفارسى أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم ابن الحجاج القشيري أنا أمية بن بسطام العبسى أنا يزيد بن زريع أنا روح بن القاسم عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير فى طريق مكة فمر على جبل يقال له جمدان فقال سيروا هذا جمدان سبق المفردون قالوا وما المفردون يا رسول الله قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات » أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الداودي أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن الصلت أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمى أنا خلاد بن أسلم ثنا النضر أنا شعبة عن أبى إسحاق قال سمعت الأغر قال أشهد على أبى هريرة وأبى سعيد أنهما شهدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم

قراءته» وفى رواية « أنه قيل يارسول الله إن فلانا يصلى بالنهار ويسرق بالليل فقال إن صلاته لتردعه» وعلى كل حال فان المراعى للصلاة لابد وأن يكون أبعد عن الفحشاء والمنكر ممن لا يراعيها (ولذكر الله أكبر) أى أنه أفضل الطاعات . عن أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إعطاء الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا أعداءكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قالوا بلى يارسول الله قال ذكر الله » أخرجه الترمذى وله عن أبى سعيد الخدرى قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أى العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال الذاكرون الله كثيرا قالوا يارسول الله والغازى فى سبيل الله ؟ فقال لو ضرب بسيفه الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب فى سبيل الله دما لكان الذاكرون الله كثيرا أفضل منه درجة » (م) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سبق المفردون قالوا وما المفردون يارسول الله قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات » يروى المفردون بتشديد الراء وتخفيفها والتشديد أتم يقال فرد الرجل بتشديد الراء إذا تفقه واعتزل الناس وحده مراعيا للأمر والنهى وقيل هم المتخلفون عن الناس بذكر الله لا يخلطون به غيره (خ) عن أبى هريرة وأبى سعيد أنهما شهدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يقعد قوم يذكرون الله إلا احفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده » وروى « أن أعرابيا قال يارسول الله أى الأعمال أفضل قال أن تفارق الدنيا ولسانك رطب بذكر الله » وقال ابن عباس معنى ولذكر الله أكبر ذكر الله إياكم أفضل من ذكركم إياه ويروى ذلك مرفوعا عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال ابن عطاء

ولايقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده» : وقال قوم معنى قوله ولذكر الله أكبر أي ذكر الله إياكم أفضل من ذكركم إياه ويروي ذلك عن ابن عباس وهو قول مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ويروي ذلك مرفوعا عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال عطاء فى قوله إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر قال ولذكر الله أكبر من أن تبقى معه معصية (والله يعلم ماتصنعون) قال عطاء يريد لايخفى عليه شيء : قوله تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب) لاتخاصموهم (إلا بالتى هى أحسن) أي بالقرآن والدعاء إلى الله بآياته والتنبيه على حججه ، وأراد من قبل الجزية منهم (إلا الذين ظلموا منهم) أي أبوا أن يعطوا الجزية ونصبوا الحرب فجادلوهم بالسيف حتى يسلموا أويعطوا الجزية ومجاز الآية إلا الذين ظلموكم لأن جميعهم ظالم بالكفر وقال سعيد بن جبير هم أهل الحرب ومن لا عهد له قال قتادة ومقاتل صارت منسوخة بقوله « قاتلوا الذين لايؤمنون بالله » (وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم) يريد إذا أخبركم واحد منهم ممن قبل الجزية بشيء مما فى كتبهم فلا تجادلوهم عليه ولا تصدقوهم ولاتكذبوهم (١٩٦) «وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم» (وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون)

أخبرنا عبدالواحد المليحى أنا محمد بن عبدالله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد ابن يسار أنا عثمان بن عمر أنا على بن المبارك عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم» أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري أنا عبدالصمد بن عبدالرحمن البزار أنا محمد بن زكريا العذافري أنا إسحاق وقيل ابن إبراهيم الديرى أنا عبدالرزاق أنا معمر عن الزهرى أنا ابن أبى نملة الأنصارى أن أباه أبا نملة الأنصارى أخبره « أنه بينا هو جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء رجل من اليهود ومر بجنازة فقال يامحمد هل تتكلم هذه الجنازة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله أعلم » فقال اليهودى إنها تتكلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماحدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله فان كان باطلا لم تصدقوه وإن كان حقا لم تكذبوه» قوله تعالى (وكذلك) يعنى كما أنزلنا إليهم الكتاب (أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) يعنى مؤمنى أهل الكتاب عبد الله ابن سلام وأصحابه (ومن هؤلاء) يعنى أهل مكة (من يؤمن به) وهم مؤمنو أهل مكة (وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون) وذلك أن اليهود وأهل مكة عرفوا أن محمدا نبي والقرآن حق فجحدوا وقال قتادة الجحود إنما يكون بعد المعرفة (وما كنت تتلو) يامحمد (من قبله من كتاب) يعنى من قبل ما أنزلنا إليك الكتاب (ولا تخطه بيمينك) يعنى ولا تكتبه ، يعنى لم تكن تقرأ ولا تكتب قبل الوحى (إذا لارتاب المبطلون) يعنى لو كنت تقرأ أو تكتب قبل الوحى لشك المبطلون المشركون من أهل مكة وقالوا

ولذكر الله أكبر أى لن تبقى معه معصية (والله يعلم ماتصنعون) يعنى لايخفى عليه شيء من أمركم قوله عز وجل (ولا تجادلوا أهل الكتاب) أى ولاتخاصموهم (إلا بالتى هى أحسن) أى القرآن والدعاء إلي الله بآياته والتنبيه على حججه وأراد بهم من قبل الجزية منهم (إلا الذين ظلموا منهم) يعنى أبوا أن يعطوا الجزية ونصبوا الحرب فافجئوهم بالسيف حتى يسلموا أويعطوا الجزية ومعنى الآية إلا الذين ظلموكم لأن جميعهم ظالم بالكفر وقيل هم أهل الحرب ومن لا عهد له وقيل الآية منسوخة بآية السيف (وقولوا) أى للذين قبلوا الجزية إذا حدثوكم بشيء مما فى كتبكم (آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون) (خ) عن أبى هريرة قال كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال النبي صلى الله عليه وسلم «لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وماأنزل إلينا » الآية . قوله عزوجل (وكذلك) أى كما أنزلنا إليهم الكتاب (أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) يعنى مؤمنى أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه (ومن هؤلاء) يعنى أهل مكة (من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون) وذلك أن اليهود عرفوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نبي والقرآن حق فجحدوا والجحود إنما يكون بعد المعرفة (وما كنت تتلو) يامحمد (من قبله من كتاب) معناه من كتب أى من قبل ماأنزلنا إليك الكتاب (ولا تخطه بيمينك) يعنى ولا تكتبه والمعنى لم تكن تقرأ ولم تكتب قبل الوحى (إذا لارتاب المبطلون) معناه لو كنت تكتب أو تقرأ قبل الوحى إليك لارتاب المشركون من أهل مكة وقالوا إنه يقرؤه من كتب الأولين أوينسخه منها

إنه يقرؤه من كتب الأولين وينسخه منها قاله قتادة وقال مقاتل المبطلون هم اليهود ومعناه إذا لشكوا فيك واتهموك وقالوا إن الذى نجد نعته فى التوراة أمى لايقرأ ولا يكتب وليس هذا على ذلك النعت (بل هو آيات بينات) قال الحسن يعنى القرآن آيات بينات (فى صدور الذين أوتوا العلم) يعنى المؤمنين الذين حملوا القرآن وقال ابن عباس رضى الله عنهما وقتادة بل هو يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ذوآيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب لأنهم يجدونه بنعته وصفته فى كتبهم (وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه) كما أنزل

على الأنبياء من قبل قرأ ابن كثير وحمزة والكسائى وأبو بكر آية علي التوحيد وقرأ الآخرون آيات من ربه. قوله عز وجل (قل إنما الآيات عند الله) وهو القادر على إرسالها إذا شاء أرسلها (وإنما أنا نذير مبين) أنذر أهل المعصية بالنار وليس إنزال الآيات بيدى (أو لم يكفهم) هذا جواب لقولهم لولا أنزل عليه آية من ربه قال أولم يكفهم (أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) يعنى أولم يكفهم من الآيات القرآن يتلى عليهم (إن فى ذلك) فى إنزال القرآن (لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) أى تذكيرا وعظة لمن آمن وعمل به (قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا) أنى رسوله وهذا القرآن كتابه (يعلم مافى السموات والأرض والذين آمنوا بالباطل) قال ابن عباس بغير الله وقال قتادة بعبادة الشيطان (وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ويستعجلونك بالعذاب) نزلت فى النضر بن الحارث حين قال فأمطر علينا حجارة من السماء (ولولا أجل مسمى) قال ابن عباس ماوعدتك أنى لا أعذب قومك ولا أستأصلهم وأؤخر عذابهم ؛ يعنى لأنهم إذا ماتوا صاروا إلى العذاب وقيل يوم بدر (لجاءهم العذاب وليأتينهم) يعنى العذاب ؛ وقيل الأجل (بغتة وهم لايشعرون) بإتيانه (يستعجلونك بالعذاب) أعاده تأكيدا (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) جامعة لهم لايبقى أحد منهم إلا دخلها (يوم يغشاهم) يصيبهم (العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم) يعنى إذا غشيهم العذاب أحاطت بهم جهنم كما قال «لهم من جهنم مهاد ومن

وقيل المبطلون هم اليهود ومعناه أنهم إذا لشكوا فيه واتهموك وقالوا إن الذى نجد نعته فى التوراة لايقرأ ولا يكتب وليس هذا على ذلك النعت (بل هو آيات بينات) يعنى القرآن (فى صدور الذين أوتوا العلم) يعنى المؤمنين الذين حملوا القرآن وقال ابن عباس يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ذو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب لأنهم يجدون نعته وصفته فى كتبهم (وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون) يعنى اليهود (وقالوا) يعنى كفار مكة (لولا أنزل عليه آية من ربه) أى كما أنزل على الأنبياء من قبل وقيل أراد بالآيات معجزات الأنبياء مثل ناقة صالح ومائدة عيسى ونحو ذلك (قل إنما الآيات عند الله) أي هو القادر على إنزالها إن شاء أنزلها (وإنما أنا نذير مبين) أي إنما كلفت الإنذار وليس إنزال الآيات بيدى (أو لم يكفهم أنا أنزلنا) هذا جواب لقولهم لولا أنزل عليه آية من ربه قال أو لم يكفهم أنا أنزلنا (عليك الكتاب يتلى عليهم) معناه أن القرآن معجزة أتم من معجزة من تقدم من الأنبياء لأن معجزة القرآن تدوم على ممر الدهور والزمان ثابتة لاتضمحل كما تزول كل آية بعد كونها (إن فى ذلك) يعنى القرآن (لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) أى تذكيرا وعظة لمن آمن به وعمل صالحا (قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا) قال ابن عباس معناه يشهد لى أنى رسوله والقرآن كتابه ويشهد عليكم بالتكذيب ، وشهادة الله إثبات المعجزة له بإنزال الكتاب عليه (يعلم مافى السموات والأرض) أى هو المطلع على أمرى وأمركم ويعلم حقى وباطلكم لاتخفى عليه خافية (والذين آمنوا بالباطل) قال ابن عباس بغير الله وقيل بعبادة الشيطان وقيل بما سوى الله لأن ماسوى الله باطل (وكفروا بالله) . فان قلت من آمن بالباطل فقد كفر بالله فهل لهذا العطف فائدة غير التأكيد. قلت نعم فائدته أنه ذكر الثانى لبيان قبح الأول فهو كقول القائل أتقول الباطل وتترك الحق لبيان أن الباطل قبيح (أولئك هم الخاسرون) أي المغبونون فى صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان . قوله عز وجل (ويستعجلونك بالعذاب) نزلت فى النضر بن الحارث حيث قال «فأمطر علينا حجارة من السماء» (ولولا أجل مسمى) قال ابن عباس ماوعدتك أنى لاأعذب قومك ولا أستأصلهم وأؤخر عذابهم إلى يوم القيامة وقيل مدة أعمارهم لأنهم إذا ماتوا **صاروا** إلى العذاب وقيل يوم بدر (لجاءهم العذاب وليأتينهم) يعنى العذاب ، وقيل الأجل (بغتة وهم لايشعرون) بإتيانه (يستعجلونك بالعذاب) أعاده تأكيدا (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) أى جامعة لهم لايبقى منهم أحد إلا دخلها (يوم يغشاهم العذاب) أى يصيبهم (من فوقهم ومن تحت أرجلهم

فوقهم غواش»(ويقول ذوقوا) قرأ نافع وأهل الكوفة ويقول بالياء أى ويقول لهم الموكل بعذابهم ذوقوا وقرأ الآخرون بالنون لأنه لما كان بأمره نسب إليه (ما كنتم تعملون) أى جزاء ما كنتم تعملون (ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون) قال مقاتل والكلبي نزلت فى ضعفاء مسلمى مكة يقول إن كنتم فى ضيق بمكة من إظهار الإيمان فاخرجوا منها إلى أرض المدينة إن أرضى يعنى المدينة واسعة آمنة . قال مجاهد إن أرضى واسعة فهاجروا وجاهدوا فيها وقال سعيد بن جبير إذا عمل فى الأرض بالمعاصى فاخرجوا منها فان أرضى واسعة وقال عطاء إذا أمرتم بالمعاصى فاهربوا فإن أرضى واسعة وكذلك يجب على كل من كان فى بلد يعمل فيها بالمعاصى ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى حيث يتهيأ له العبادة وقيل نزلت فى قوم تخلفوا عن الهجرة بمكة وقالوا نخشى إن هاجرنا من الجوع وضيق المعيشة فأنزل الله هذه الآية ولم يعذرهم بترك الخروج وقال مطرف بن عبد الله أرضى واسعة أى رزقى لكم واسع (١٩٨) فاخرجوا (كل نفس ذائقة الموت) خوفهم بالموت لتهون عليهم الهجرة : أى كل واحد ميت أينما كان فلا تقيموا بدار الشرك خوفا من الموت (ثم إلينا ترجعون) فنجزيكم بأعمالكم وقرأ أبو بكر يرجعون بالياء (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم) قرأ حمزة والكسائى بالثاء ساكنة من غير همز فقال ثوى الرجل إذا أقام وأثويته إذا أنزلته منزلا يقيم فيه وقرأ الآخرون بالباء وفتحها وتشديد الواو وهمزة بعدها أى لننزلهم (من الجنة غرفا) علالى (تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين الذين صبروا) على الشدائد ولم يتركوا دينهم لشدة لحقتهم (وعلى ربهم يتوكلون) يعتمدون (وكأين من دابة لاتحمل رزقها) وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للمؤمنين الذين كانوا بمكة وقد آذاهم المشركون «هاجروا إلى المدينة فقالوا كيف نخرج إلى المدينة وليس لنا بها دار ولا مال فمن يطعمنا بها ويسقينا فأنزل الله وكأين من دابة ذات حاجة إلى غذاء لاتحمل رزقها أى لاترفع رزقها معها ولا تدخر شيئا لغد مثل البهائم والطير (الله يرزقها وإياكم) حيث كنتم (وهو السميع العليم) السميع لأقوالكم لا نجد ماننفق بالمدينة، العليم بما فى قلوبكم . وقال سفيان عن على بن الأقمر وكأين من دابة لاتحمل رزقها قال لاتدخر شيئا لغد قال سفيان ليس شىء من خلق الله يخبأ إلا الإنسان والفأرة والنملة. أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحى أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى أخبرنى أبو عبد الله الحسين بن محمد الثقفى أنا عبد الله بن عبد الرحمن الدقاق أنا محمد بن عبد العزيز أنا إسماعيل بن زرارة الرقى أنا أبو العطوف الجراح بن منهال عن الزهرى عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عمر ، قال «دخلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حائطا من حوائط الأنصار فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقط الرطب بيده

ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون) أى جزاء ما كنتم تعملون : **قوله تعالى** (ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون) قيل نزلت فى ضعفاء مسلمى أهل مكة يقول الله تعالى إن كنتم فى ضيق بمكة من إظهار الإيمان فاخرجوا منها إلى أرض المدينة فإنها واسعة آمنة ، وقيل نزلت فى قوم تخلفوا عن الهجرة وقالوا نخشى إن هاجرنا من الجوع وضيق المعيشة فأنزل الله تعالى هذه الآية ولم يعذرهم بترك الخروج وقيل المعنى فهاجروا فيها أي فجاهدوا فيها . وقال سعيد بن جبير إذا عملوا فى الأرض بالمعاصى فاهربوا منها فإن أرضى واسعة وقيل إذا أمرتم بالمعاصى فاهربوا فإن أرضى واسعة وكذلك يجب على كل من كان فى بلد يعمل فيه بالمعاصى ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى بلد تتهيأ له فيها العبادة وقيل معنى إن أرضى واسعة يعنى رزقى لكم واسع فاخرجوا (كل نفس ذائقة الموت) يعنى كل أحد ميت خوفهم بالموت لتهون الهجرة عليهم فلا يقيموا بدار الشرك خوفا من الموت (ثم إلينا ترجعون) فنجزيكم بأعمالكم قوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا) أى علالى جمع غرفة وهى العلية (تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين) أي لله بطاعته (الذين صبروا) على الشدائد ولم يتركوا دينهم لشدة لحقتهم وقيل صبروا على الهجرة ومفارقة الأوطان وعلى أذى المشركين وعلى المحن والمصائب وعلى الطاعات وعن المعاصى (وعلى ربهم يتوكلون) أي يعتمدون على الله فى جميع أمورهم . قوله عز وجل (وكأين من دابة لاتحمل رزقها) وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للمؤمنين الذين كانوا بمكة وقد آذاهم المشركون « هاجروا إلى المدينة فقالوا كيف نخرج إلى المدينة وليس لنا بها دار ولا مال فمن يطعمنا بها ويسقينا فأنزل الله : وكأين من دابة لاتحمل رزقها أى لا ترفع رزقها معها لضعفها ولا تدخر شيئا لغد مثل البهائم والطير (الله يرزقها وإياكم) حيث كنتم (وهو السميع) أى لأقوالكم (العليم) بما فى قلوبكم عن عمر بن الخطاب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول« لو أنكم تتوكلون على الله

ويأكل فقال كل يا ابن عمر قلت لا أشتهيه يارسول الله قال لكني أشتهيه وهذه صبح رابعة منذ لم أطعم طعاما ولم أجده فقلت إنا لله الله المستعان قال يا ابن عمر لو سألت ربي لأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر أضعافا مضاعفة ولكن أجوع يوما وأشبع يوما فكيف بك يا ابن عمر إذا عمرت وبقيت في حثالة من الناس يخبئون رزق سنة ويضعف اليقين فنزلت هذه الآية : وكأين من دابة لاتحمل رزقها . أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو محمد الحسين بن أحمد المخلدي أنا أبو العباس السراج أنا قتيبة بن سعيد أنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم «كان لايدخر شيئا لغد» وروينا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو **(١٩٩)** خماصا وتروح بطانا » :

أخبرنا أبو منصور محمد ابن عبد الملك المظفري أنا أبو سعيد أحمد بن محمد ابن الفضل الفقيه أنا أبو نصر بن حمدونة المطوعي أنا أبو الموجه محمد بن عمرو أنا عبدان عن أبي حمزة عن إسماعيل هو ابن أبي خالد عن رجلين أحدهما زبيد اليامي عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «أيها الناس ليس من شيء يقربكم إلى الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد أمرتكم به وليس شيء يقربكم إلى النار ويباعدكم من الجنة إلا وقد نهيتكم عنه وإن الروح الأمين قد نفث في روعي أنه ليس من نفس تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله فإنه لايدرك ماعند الله إلا بطاعته » وقال هشيم عن إسماعيل عن زبيد عمن أخبره عن ابن مسعود. قوله تعالى (ولئن سألتهم) يعني كفار مكة (من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله) على أن الفاعل لهذه الأشياء هو الله (بل أكثرهم لايعقلون) وقيل قل الحمد لله على إقرارهم ولزوم الحجة عليهم بل أكثرهم لايعقلون ؛ ينكرون التوحيد مع إقرارهم أنه الخالق لهذه الأشياء قوله تعالى (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب) اللهو هو الاستمتاع بلذات الدنيا واللعب العبث سميت بهما لأنها

حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » أخرجه الترمذي وقال حديث حسن ومعناه أنها تذهب أول النهار جياعا ضامرة البطون وتروح آخر النهار إلى أوكارها شباعا ممتلئة البطون ولا تدخر شيئا قال سفيان بن عيينة ليس شيء من خلق الله يخبأ إلا الإنسان والفأرة والنملة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «أيها الناس ليس من شيء يقاربكم من الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد أمرتكم به وليس شيء يقربكم من النار ويباعدكم من الجنة إلا وقد نهيتكم عنه ألا وإن الروح الأمين نفث في روعي» الروع : بضم الراء وبالعين المهملة هو القلب والعقل وبفتح الراء هو الخوف قال الله تعالى «فلما ذهب عن إبراهيم الروع» أي الخوف «أنه ليس من نفس تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله عز وجل فانه لا يدرك ماعند الله إلا بطاعته » قوله عز وجل (ولئن سألتهم) يعني كفار مكة (من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر) ذكر أمرين أحدهما إشارة إلي اتحاد الذات والثاني إشارة إلى اتحاد الصفات وهي الحركة في الشمس والقمر (ليقولن الله فأنى يؤفكون) قيل معناه أنهم يعتقدون هذا فكيف يصرفون عن عبادة الله مع إقرارهم أنه خلق السموات والأرض (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده) لما ذكر الخلق ذكر الرزق لأن كمال الخلق ببقائه وبقاء الخلق بالرزق والله تعالى هو المتفضل بالرزق على الخلق فله الفضل والإحسان والطول والامتنان (ويقدر له) أي يضيق عليه إذا شاء (إن الله بكل شيء عليم) أي يعلم مقادير الحاجات ومقادير الأرزاق (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله) ذكر سبب الرزق وموجد السبب موجد المسبب فالرزق من الله تعالي (قل الحمد لله) أي على أن الفاعل لهذه الأشياء هو الله تعالى وقيل قل الحمد لله على إقرارهم ولزوم الحجة عليهم بأنه خالق لهم (بل أكثرهم لايعقلون) أي أنهم ينكرون التوحيد مع إقرارهم بأنه خالق هذه الأشياء . قوله تعالى (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب) اللهو هو الاستمتاع بلذة الدنيا وقيل هو الاشتغال بما لايعنيه ومالا يهمه واللعب هو العبث وفي هذا تصغير للدنيا وازدراء بها ومعنى الآية أن سرعة زوال الدنيا عن

فانية (وإن الدار الآخرة لهى الحيوان) أى الحياة الدائمة الباقية والحيوان بمعنى الحياة أى فيها الحياة الدائمة (لو كانوا يعلمون) فناء الدنيا وبقاء الآخرة. قوله تعالى (فإذا ركبوا فى الفلك) وخافوا الغرق (دعوا الله مخلصين له الدين) وتركوا الأصنام (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) هذا إخبار عن عنادهم وأنهم عند الشدائد يقرون أن القادر على كشفها هو الله عز وجل وحده فإذا زالت عادوا إلى كفرهم قال عكرمة كان أهل الجاهلية إذا ركبوا البحر حملوا معهم الأصنام فإذا اشتدت بهم الريح ألقوها فى البحر وقالوا يارب يارب (ليكفروا بما آتيناهم) هذا لام الأمر ومعناه التهديد والوعيد كقوله «اعملوا ماشئتم» أى ليجحدوا نعمة الله فى إنجائه إياهم (وليتمتعوا) (٢٠٠) قرأ حمزة والكسائى ساكنة اللام وقرأ الباقون بكسرها نسقا على قوله ليكفروا (فسوف يعلمون) وقيل من كسر اللام جعلها لام كى وكذلك فى ليكفروا والمعنى لافائدة لهم فى الإشراك إلا الكفر والتمتع بما يتمتعون به فى العاجلة من غير نصيب فى الآخرة (أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم) يعنى العرب يسبى بعضهم بعضا وأهل مكة آمنون (أفبالباطل) بالأصنام والشيطان (يؤمنون وبنعمة الله) بمحمد والإسلام (يكفرون) ومن أظلم ممن افترى علي الله كذبا) فزعم أن لله شريكا وأنه أمر بالفواحش (أو كذب بالحق) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (لما جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين) استفهام بمعنى التقرير معناه أما لهذا الكافر المكذب مأوى فى جهنم (والذين جاهدوا فينا) الذين جاهدوا المشركين لنصرة ديننا (لنهدينهم سبلنا) لنثبتنهم على ماقاتلوا عليه وقيل لنزيدنهم هدى كما قال «ويزيد الله الذين اهتدوا هدى» وقيل لنوفقنهم لإصابة الطريق المستقيمة هى التى توصل بها إلى رضا الله عز وجل. قال سفيان بن عيينة إذا اختلف الناس فانظروا ماعليه أهل الثغور والثغور موضع المخافة فى بروج البلدان فإن الله قال «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» وقيل المجاهدة هى الصبر على الطاعات قال الحسن: أفضل الجهاد مخالفة الهوى وقال الفضيل بن عياض والذين جاهدوا فى طلب العلم لنهدينهم سبل العمل به وقال سهل بن عبد الله والذين جاهدوا فى إقامة السنة لنهدينهم سبل الجنة وروى عن ابن عباس: والذين جاهدوا فى طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا (وإن الله لمع المحسنين) بالنصر والمعونة فى دنياهم وبالثواب والمغفرة فى عقباهم.

(تفسير

أهلها وتقلبهم فيها وموتهم عنها كما يلعب الصبيان ساعة ثم ينصرفون (وإن الدار الآخرة لهى الحيوان) أى الحياة الدائمة الخالدة التى لاموت فيها (لو كانوا يعلمون) فناء الدنيا وبقاء الآخرة لما آثروا الفانى على الباقى. قوله عز وجل (فاذا ركبوا فى الفلك) معناه هم على ماوصفوا به من الشرك والعناد فاذا ركبوا فى الفلك وخافوا الغرق (دعوا الله مخلصين له الدين) أى تركوا الأصنام ولجأوا إلى الله تعالى بالدعاء (فلما نجاهم إلى البر إذاهم يشركون) أى عادوا إلى ما كانوا عليه من الشرك والعناد وقيل كان أهل الجاهلية إذا ركبوا البحر حملوا الأصنام فاذا اشتد الريح ألقوها فى البحر وقالوا يارب يارب (ليكفروا بما آتيناهم) أى ليجحدوا نعمة الله فى إجابته إياهم ومعناه التهديد والوعيد (وليتمتعوا) معناه لافائدة لهم فى الإشراك إلا التمتع بما يستمتعون به فى العاجلة ولا نصيب لهم فى الآخرة (فسوف يعلمون) يعنى عاقبة أمرهم ففيه تهديد ووعيد. قوله عز وجل (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم) يعنى العرب يسبى بعضهم بعضا وأهل مكة آمنون (أفبالباطل) يعنى الشيطان والأصنام (يؤمنون وبنعمة الله يكفرون) أى بمحمد صلى الله عليه وسلم والإسلام يكفرون (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) أى فزعم أن له شريكا فانه منزه عن الشركاء (أو كذب بالحق) أى بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (لما جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين) معناه أما لهذا الكافر المكذب مأوى فى جهنم: قوله عز وجل (والذين جاهدوا فينا) معناه جاهدوا المشركين لنصر ديننا (لنهدينهم سبلنا) لنثبتنهم ماقاتلوا عليه وقيل لنزيدنهم هدى وقيل لنوفينهم لإصابة الطرق المستقيمة وهى التى توصل إلى رضا الله تعالى قال سفيان بن عيينة إذا اختلف الناس فانظروا ماعليه أهل الثغور فان الله تعالى يقول «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» وقيل المجاهدة الصبر على الطاعات ومخالفة الهوى وقال الفضيل بن عياض والذين جاهدوا فى طلب العلم لنهدينهم سبل العلم والعمل به وقال سهل بن عبد الله والذين جاهدوا فينا بإقامة السنة لنهدينهم سبل الجنة وقال ابن عباس والذين جاهدوا فى طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا (وإن الله لمع المحسنين) أى بالنصرة والمعونة فى دنياهم والمغفرة فى عقباهم فى الآخرة وثوابهم الجنة والله أعلم.

(سورة الروم مكية وهى ستون آية وقيل تسع وخمسون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم غلبت الروم فى أدنى الأرض) سبب نزول هذه الآية على ما ذكره المفسرون أنه كان بين فارس والروم قتال وكان المشركون يودون أن تغلب فارس الروم لأن أهل فارس كانوا مجوسا أميين والمسلمون يودون غلبة الروم على فارس لكونهم أهل كتاب فبعث كسرى جيشا إلى الروم واستعمل عليها رجلا يقال له شهرمان وبعث قيصر جيشا عليهم رجل يدعى بحنين فالتقيا بأذرعات وبصرى وهى أدنى الشام إلى أرض العرب والعجم فغلبت فارس الروم فبلغ ذلك المسلمون بمكة فشق عليهم وفرح به كفار مكة وقالوا للمسلمين إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الروم وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم (٢٠١) فأنزل الله تعالى هذه الآيات فخرج أبو بكر الصديق إلى الكفار فقال فرحتم بظهور إخوانكم فلا تفرحوا فوالله لتظهرن على فارس على ما أخبرنا بذلك نبينا فقام إليه أبى ابن خلف الجمحى فقال كذبت فقال أنت أكذب ياعدو الله فقال اجعل بيننا أجلا أناحبك عليه والمناحبة المراهنة على عشر قلائص منى وعشر قلائص منك فإن ظهرت الروم على فارس غرمت وإن ظهرت فارس غرمت ففعلوا وجعلوا الأجل ثلاث سنين فجاء أبو بكر إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك وذلك قبل تحريم القمار فقال النبى صلى الله عليه وسلم ماهكذا ذكرت ؛ إنما البضع ما بين الثلاثة إلى التسع فزايده فى الخطر وماده فى الأجل فخرج أبو بكر ولقى أبيا فقال لعلك ندمت قال لا فقال لا فتعال أزايدك فى الخطر وأمادك فى الأجل فاجعلها مائة قلوص ومائة قلوص إلى تسع سنين وقيل إلى سبع سنين قال قد فعلت فلما خشى أبى ابن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة أتاه فلزمه وقال إنى أخاف أن تخرج من مكة ؛ فأقم لى كفيلا فكفل له ابنه عبد الله بن أبى بكر فلما أراد أبى بن خلف أن يخرج إلى أحد أتاه عبدالله بن أبى بكر فلزمه فقال لا والله لا أدعك حتى تعطينى كفيلا فأعطاه كفيلا ثم خرج إلى أحد ثم رجع أبى بن خلف فمات بمكة من جراحته التى جرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بارزه وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية وذلك عند رأس سبع سنين من مناحبتهم وقيل كان يوم بدر قال الشعبى لم تمض تلك المدة التى عقدوا المناحبة بين أهل مكة وفيها صاحب قمارهم أبى بن خلف والمسلمون وصاحب قمارهم أبو بكر وذلك قبل تحريم القمار حتى غلبت الروم فارس وربطوا خيولهم بالمدائن وبنوا الرومية فقمر أبو بكر أبيا وأخذ مال الخطر من ورثته فجاء به

(تفسير سورة الروم)

مكية وهى ستون آية وثمانمائة وتسع عشرة كلمة وثلاثة آلاف وخمسمائة وأربعة وثلاثون حرفا .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (الم غلبت الروم فى أدنى الأرض) سبب نزول هذه الآية على ماذكره المفسرون أنه كان بين فارس والروم قتال وكان المشركون يودون أن تغلب فارس الروم لأن فارسا كانوا مجوسا أميين والمسلمون يودون غلبة الروم على فارس لكونهم أهل كتاب فبعث كسرى جيشا إلى الروم واستعمل عليهم رجلا يقال له شهرمان وبعث قيصر رجالا وجيشا وأمر عليهم رجلا يدعى بحنين فالتقيا بأذرعات وبصرى وهى أدنى الشام إلى أرض العرب والعجم فغلبت فارس الروم فبلغ ذلك المسلمين بمكة فشق عليهم وفرح به كفار مكة وقالوا للمسلمين إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون وفارس أميون وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم فانكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم فأنزل الله هذه الآيات فخرج أبو بكر الصديق إلى كفار مكة فقال فرحتم بظهور إخوانكم فلا تفرحوا فوالله ليظهرن الروم على فارس . أخبرنا بذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقام إليه أبى بن خلف الجمحى فقال كذبت فقال أنت أكذب ياعدو الله فقال اجعل بيننا أجلا أناحبك عليه والمناحبة بالحاء المهملة القمار والمراهنة أى أراهنك على عشر قلائص منى وعشر قلائص منك فإذا ظهرت فارس على الروم غرمت وإذا ظهرت الروم على فارس غرمت ففعلوا وجعلوا الأجل ثلاث سنين فجاء أبو بكر إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره بذلك قبل تحريم القمار فقال النبى صلى الله عليه وسلم ماهكذا ذكرت إنما البضع ما بين الثلاثة إلى التسع فزايده فى الخطر

يحمله إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم تصدق به: وكان سبب غلبة الروم فارسا على ماقال عكرمة وغيره أن شهرمان بعد ما غلبت الروم لم يزل يطؤهم ويخرب مدائنهم حتى بلغ الخليج فبينا أخوه فرحان جالس ذات يوم يشرب فقال لأصحابه لقد رأيت كأني جالس على سرير كسرى فبلغت كلمته كسرى فكتب إلى شهرمان إذا أتاك كتابي فابعث إلى برأس فرحان فكتب إليه أيها الملك إنك لن تجد مثل فرحان إن له نكاية وصولة في العدو فلا تفعل البتة فكتب إليه إن في رجال فارس خلفا منه فعجل على (٢٠٢) برأسه فراجعه فغضب كسرى ولم يجبه وبعث بريدا إلى أهل فارس إني قد نزعت عنكم شهرمان واستعملت عليكم فرحان الملك ثم رفع إلى البريد صحيفة صغيرة أمره فيها بقتل شهرمان وقال إذا ولي فرحان الملك وانقاد له أخوه فأعطه فلما قرأ شهرمان الكتاب قال سمعا وطاعة ونزل عن سريره وجلس فرحان ورفع إليه الصحيفة فقال ائتوني بشهرمان فقدمه ليضرب عنقه فقال لاتعجل علي حتى أكتب وصيتي قال نعم فدعا بالسفط فأعطاه ثلاث صحائف وقال كل هذا راجعت فيك كسرى وأنت تريد أن تقتلني بكتاب واحد فرد الملك إلى أخيه، وكتب شهرمان إلى قيصر ملك الروم إن لي إليك حاجة لا تحملها البرد ولاتبلغها الصحف فالقني ولا تلقني إلا في خمسين روميا فإني ألقاك في خمسين فارسيا فأقبل قيصر في خمسمائة ألف رومي وجعل يضع العيون بين يديه في الطرق وخاف أن يكون قد مكر به حتى أتاه عيونه أنه ليس معه إلا خمسون رجلا ثم بسط لهما فالتقيا في قبة ديباج ضربت لهما ومع كل واحد منهما سكين فدعوا بترجمان بينهما فقال شهرمان إن الذين خربوا مدائنك أنا وأخي بكيدنا وشجاعتنا وإن كسرى حسدنا وأراد أن أقتل أخي فأبيت ثم أمر أخي أن يقتلني فقد خلعناه جميعا فنحن نقاتله معك قال قد أصبتما ثم أشار أحدهما إلى صاحبه أن السر بين اثنين فإذا جاوز اثنين فشا فقتلا الترجمان معا بسكينيهما فأديلت الروم على فارس عند ذلك فاتبعوهم يقتلونهم ومات كسرى وجاء الخبز إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم

ومادده في الأجل فخرج أبو بكر فلقي أبيا فقال لعلك ندمت فقال لا فتعال أزايدك في الخطر وأمادك في الأجل فاجعلها مائة قلوص ومائة قلوص إلى تسع سنين فقال قد فعلت فلما خشي أبي بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة أتاه ولزمه وقال إني أخاف أن تخرج من مكة فأقم لي ضامنا كفيلا فكفله ابنه عبد الله بن أبي بكر فلما أراد أبي بن خلف أن يخرج إلى أحد أتاه عبد الله ابن أبي بكر فلزمه وقال والله لا أدعك حتى تعطيني كفيلا فأعطاه كفيلا ثم خرج إلى أحد قال ثم رجع أبي بن خلف إلى مكة ومات بها من جراحته التي جرحه النبي صلى الله عليه وسلم حين بارزه وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية وذلك على رأس سبع سنين من مناحبتهم وقيل كان يوم بدر وربطت الروم خيولهم بالمدائن وبنوا بالعراق مدينة وسموها رومية فقمر أبو بكر أبيا وأخذ مال الخطر من ورثته وجاء به للنبي صلى الله عليه وسلم وذلك قبل أن يحرم القمار فقال النبي صلى الله عليه وسلم تصدق به. وكان سبب غلبة الروم فارسا على ماقال عكرمة وغيره أن شهرمان لما غلب الروم لم يزل يطؤهم ويخرب مدائنهم حتى بلغ الخليج فبينا أخوه فرحان جالس ذات يوم يشرب قال لأصحابه لقد رأيت كأني جالس على سرير كسرى فبلغت كلمته كسرى فكتب إلى شهرمان إذا أتاك كتابي فابعث إلى برأس أخيك فرحان فكتب إليه أيها الملك إنك لم تجد مثل فرحان إن له لنكاية وصولة في العدو فلا تفعل فكتب إليه إن في رجال فارس خلفا عنه فعجل إلى برأسه فراجعه فغضب كسرى ولم يجبه وبعث بريدا إلى أهل فارس إني قد عزلت عنكم شهرمان واستعملت عليكم فرحان ثم بعث مع البريد صحيفة صغيرة وأمره فيها بقتل شهرمان وقال إذا ولي فرحان الملك وانقاد له أخوه فأعطه الصحيفة فلما وصل البريد إلى شهرمان عرض عليه كتاب كسرى فلما قرأه قال سمعا وطاعة ونزل عن سرير الملك وأجلس عليه أخاه فرحان فدفع البريد الصحيفة إلى فرحان فلما قرأها استدعى بأخيه شهرمان وقدمه ليضرب عنقه فقال له لاتعجل حتى أكتب وصيتي قال نعم فدعا بسفط ففتحه وأعطاه ثلاث صحائف منه وقال كل هذا راجعت فيك كسرى وأنت تريد قتلي بكتاب واحد فرد فرحان الملك إلى أخيه شهرمان فكتب إلى قيصر ملك الروم « أما بعد إن لي إليك حاجة لاتحملها البرد ولا تبلغها الصحف فالقني في خمسين روميا حتى ألقاك في خمسين فارسيا فأقبل قيصر في خمسمائة ألف رومي وجعل يضع العيون بين يديه في الطرق مخافة أن يريد أن يمكر به حتى أتاه عيونه فأخبروا أنه ليس معه إلا خمسون فارسيا فلما التقيا ضربت لهما

الحديبية ففرح ومن معه فذلك قوله عز وجل «الم غلبت الروم فى أدنى الأرض» أى أقرب أرض الشام إلى أرض فارس، قال عكرمة هى أذرعات وكسكر، وقال مجاهد أرض الجزيرة وقال مقاتل الأردن وفلسطين (وهم من بعد غلبهم) أى الروم من بعد غلبة فارس إياهم والغلب والغلبة لغتان (سيغلبون) فارس (فى بضع سنين) والبضع مابين الثلاث إلى السبع وقيل مابين الثلاث إلى التسع وقيل مادون العشرة وقرأ عبد الله بن عمر وأبوسعيد الخدرى والحسن وعيسى بن عمر غلبت بفتح الغين واللام سيغلبون بضم الياء وبفتح اللام وقالوا نزلت حين أخبر النبى صلى الله عليه وسلم عن غلبة الروم فارس ومعنى الآية الم غلبت الروم فارس فى أدنى الأرض إليكم وهم من بعد غلبهم سيغلبهم المسلمون فى بضع سنين، (٢٠٣) وعند انقضاء هذه المدة أخذ المسلمون فى جهاد الروم؛ والأول أصح وهو قول أكثر المفسرين (لله الأمر من قبل ومن بعد) من بعد دولة الروم على فارس، ومن بعدها فأى الفريقين كان لهم الغلبة فهو بأمر الله وقضائه وقدره (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) الروم على فارس قال السدى فرح النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بظهورهم على المشركين يوم بدر وظهور أهل الكتاب على أهل الشرك (ينصر من يشاء وهو العزيز) الغالب (الرحيم) بالمؤمنين (وعد الله) نصب على المصدر أى وعد الله وعدا بظهور الروم على فارس (لايخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لايعلمون. يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا) يعنى أمر معاشهم كيف يكتسبون ويتجرون ومتى يغرسون ويزرعون ويحصدون وكيف يبنون ويعيشون وقال الحسن إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه ولا يخطئ وهو لايحسن أن يصلى (وهم عن الآخرة هم غافلون) ساهون عنها جاهلون لايتفكرون فيها ولايعملون لها (أو لم يتفكروا فى أنفسهم ماخلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) أى للحق وقيل لإقامة الحق (وأجل مسمى) أى لوقت معلوم إذا انتهت إليه فنيت وهو يوم القيامة (وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) أو لم يسافروا فى الأرض فينظروا إلى مصارع الأمم قبلهم فيعتبروا (كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض) حرثوها

لهما قبة فيها ديباج فدخلاها ومع كل واحد سكين ودعوا بترجمان يترجم بينهما فقال شهرمان إن الذى خرب بلادك أنا وأخى بكيدنا وشجاعتنا وإن كسرى حسدنا وأراد أن يقتل أخى فأبيت عليه ثم أمر أخى بقتلى فأبى عليه وقد خلعناه جميعا ونحن نقاتله معك فقال قد أصبتما وأشار أحدهما إلى صاحبه أن السر بين اثنين فإذا جاوزهما فشا فقتلا الترجمان معا بسكينيهما فأديلت الروم على فارس عند ذلك وغلبوهم وقتلوهم ومات كسرى وجاء الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ففرح ومن كان معه من المسلمين بذلك فذلك قوله عز وجل «الم غلبت الروم فى أدنى الأرض» يعنى أقرب أرض الشام إلى فارس وقيل هى أذرعات وقيل الأردن وقيل الجزيرة (وهم من بعد غلبهم) أى فارس لهم (سيغلبون) أى الروم لفارس (فى بضع سنين) البضع مابين الثلاثة إلى السبع وقيل إلى التسع وقيل مادون العشرة (لله الأمر من قبل ومن بعد) أى من قبل دولة الروم على فارس ومن بعدها فمن غلب فهو بأمر الله تعالى وقضائه وقدره (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) أى الروم على فارس وقيل فرح النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بظهورهم على المشركين يوم بدر وفرحوا بظهور أهل الكتاب على أهل الشرك (ينصر من يشاء) أى بيده النصر ينصر من يشاء (وهو العزيز) الغالب (الرحيم) أى بالمؤمنين قوله تعالى (وعد الله) أى وعد الله وعدا بظهور الروم على فارس (لايخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لايعلمون) أى أن الله لايخلف وعده؛ ثم قال تعالى (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا) يعنى أمر معاشهم كيف يكسبون ويتجرون ومتى يغرسون ويزرعون ويحصدون وقال الحسن إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه لايخطىء وهو لايحسن يصلى وقيل لايعلمون الدنيا بحقيقتها إنما يعلمون ظاهرها وهو ملاذها وملاعبها ولا يعلمون باطنها وهو مضارها ومتاعبها وقيل يعلمون وجودها الظاهر ولا يعلمون فناءها (وهم عن الآخرة هم غافلون) أى ساهون عنها لايتفكرون فيها ولا يعلمون بها. قوله عز وجل (أو لم يتفكروا فى أنفسهم ماخلق الله السموات والأرض ومابينهما إلا بالحق) يعنى لاقامة الحق (وأجل مسمى) أي لوقت معلوم إذا انتهيت إليه فنيت وهو يوم القيامة (وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون أو لم يسيروا فى الأرض) أى يسافروا فيها (فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) أى ينظروا إلى مصارع الأمم قبلهم فيعتبروا (كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض) أى حرثوها

وقلبوها للزراعة (وعمروها أكثر مما عمروها) أى أكثر مما عمرها أهل مكة قيل قال ذلك لأنه لم يكن لأهل مكة حرث (وجاءتهم رسلهم بالبينات) فلم يؤمنوا فأهلكهم الله (فما كان الله ليظلمهم) بنقص حقوقهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) ببخس حقوقهم (ثم كان عاقبة الذين أساءوا) أى أساءوا العمل (السوأى) يعنى الخلة التى تسوءهم وهى النار وقيل السوء اسم لجهنم كما أن الحسنى اسم للجنة (أن كذبوا) أى لأن كذبوا وقيل تفسير السوء مابعده وهو قوله أن كذبوا ، يعنى ثم كان عاقبة المسيئين التكذيب حملتهم تلك السيئات على أن كذبوا (بآيات الله وكانوا بها يستهزءون) قرأ أهل الحجاز والبصرة عاقبة بالرفع أى ثم كان آخر أمرهم السوء وقرأ الآخرون بالنصب على خبر كان وتقديره ثم كان السوء عاقبة الذين أساءوا . قوله تعالى (الله يبدأ الخلق ثم يعيده) أى يخلقهم ابتداء ثم يعيدهم بعد الموت أحياء ولم يقل يعيدهم رده إلى الخلق (ثم إليه يرجعون) فيجزيهم بأعمالهم ؛ قرأ أبو عمرو وأبو بكر يرجعون بالياء والآخرون بالتاء (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون) قال قتادة والكلبى ييأس المشركون من كل خير وقال الفراء ينقطع كلامهم وحجتهم وقال مجاهد يفتضحون (ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين) جاحدين متبرئين يتبرءون منها وتتبرأ منهم (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) أى يتميز أهل الجنة من أهل النار وقال مقاتل يتفرقون بعد الحساب إلى الجنة والنار فلا يجتمعون أبدا (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة) وهى البستان الذى فى غاية النضارة (يحبرون) قال ابن عباس يكرمون وقال مجاهد وقتادة ينعمون وقال أبو عبيدة يسرون والحبرة السرور وقيل الحبرة فى اللغة كل نغمة حسنة والتحبير التحسين وقال الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير يحبرون هو السماع فى الجنة وقال الأوزاعى إذا أخذ فى السماع لم يبق فى الجنة شجرة إلا وردت وقال ليس أحد من خلق الله أحسن صوتا من إسرافيل فإذا أخذ فى السماع قطع على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم (وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة) أى البعث يوم القيامة (فأولئك فى العذاب محضرون) قوله تعالى (فسبحان الله) أى سبحوا الله ومعناه صلوا لله (حين تمسون) أى تدخلون فى المساء وهو صلاة المغرب والعشاء (وحين تصبحون) أى تدخلون فى الصباح وهو صلاة الصبح (وله الحمد فى السموات والأرض)

(٢٠٤)

وقلبوها للزراعة (وعمروها) يعنى الأمم الخالية (أكثر مما عمروها) يعنى أهل مكة (وجاءتهم رسلهم بالبينات) أى فلم يؤمنوا فأهلكهم الله (فما كان الله ليظلمهم) أى بنقص حقوقهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى ببخس حقوقهم (ثم كان عاقبة الذين أساءوا) أى أساءوا العمل فاستحقوا (السوأى) يعنى الخلة التى تسوءهم وهى النار وقيل السوء اسم لجهنم ، ومعنى الآية أن عاقبة الذين عملوا السوء النار (أن كذبوا) أى لأنهم كذبوا وقيل معنى الآية ثم كان عاقبة المسيئين أن حملتهم تلك السيئات على أن كذبوا (بآيات الله وكانوا بها يستهزءون) قوله تعالى (الله يبدأ الخلق ثم يعيده) أى خلقهم ابتداء ثم يعيدهم بعد الموت أحياء (ثم إليه يرجعون) أى فيجزيهم بأعمالهم (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون) قيل معناه أنهم ييأسون من كل خير وقيل ينقطع كلامهم وحججهم وقيل يفتضحون (ولم يكن لهم من شركائهم) يعنى أصنامهم التى عبدوها (شفعاء) أى يشفعون لهم (وكانوا بشركائهم كافرين) أى جاحدين متبرئين يتبرءون منها وتتبرأ منهم (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) أى يتميز أهل الجنة من أهل النار وقيل يتفرقون بعد الحساب أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار فلا يجتمعون أبدا فهو قوله تعالى (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة) أى فى جنة وقيل الروضة البستان الذى هو فى غاية النضارة (يحبرون) قال ابن عباس يكرمون وقيل يتنعمون ويسرون والحبرة السرور وقيل فى معنى يحبرون هو السماع فى الجنة قال الأوزاعى ليس أحد من خلق الله أحسن صوتا من إسرافيل فإذا أخذ فى السماع قطع على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم وقال إذا أخذ فى السماع فلا يبقى فى الجنة شجرة إلا وردته ، وسأل أبا هريرة رجل هل لأهل الجنة من سماع فقال نعم شجرة أصلها من ذهب وأغصانها من فضة وثمارها اللؤلؤ والزبرجد والياقوت يبعث الله ريحا فيجاوب بعضها بعضا فما يسمع أحد أحسن منه (وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة) أى البعث يوم القيامة (فأولئك فى العذاب محضرون). قوله تعالى (فسبحان الله) أى فسبحوا الله ومعناه صلوا لله (حين تمسون) أى تدخلون فى المساء وهى صلاة المغرب والعشاء (وحين تصبحون) أى تدخلون فى الصباح وهى صلاة الصبح (وله الحمد فى السموات

والأرض) قال ابن عباس يحمده أهل السموات والأرض ويصلون له (وعشيا) أى صلوا لله عشيا يعنى صلاة العصر (وحين تظهرون) تدخلون فى الظهيرة وهو الظهر قال نافع بن الأزرق لابن عباس هل تجد صلاة الخمس فى القرآن قال نعم ، وقرأ هاتين الآيتين وقال جمعت الآية صلاة الخمس ومواقيتها. أخبرنا أبو الحسن السرخسى أنا زاهر بن أحمد انا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن سمى مولى أبى بكر بن عبد الرحمن عن أبى صالح السمان عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من قال سبحان الله وبحمده فى أول النهار وآخره مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر» أخبرنا الإمام أبو على الحسين بن محمد القاضى أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادى

أنا أبو بكر محمد بن عمر بن حفص التاجر ثنا السرى ابن خزيمة البيزودى ثنا المعلى ابن أسعد أنا عبد العزيز بن المختار عن سهيل عن سمى عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قال حين يصبح وحين يمسى سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد» أخبرنا عبد الواحد ابن أحمد المليحى أنا أحمد ابن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد ابن إسماعيل أنا قتيبة بن سعيد أنا محمد بن فضيل أنا عمارة بن القعقاع عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم» أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الريانى أنا حميد بن زنجويه أنا على بن المدينى أنا ابن عيينة عن محمد بن عبد الرحمن مولى آل طلحة قال سمعت كريبا أبا رشدين يحدث عن ابن عباس عن جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار «أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج ذات غداة من عندها وكان اسمها برة فحوله رسول الله صلى الله عليه وسلم وسماها جويرية وكره أن يقال خرج من عند برة فخرج وهى فى مسجدها ورجع بعد ما تعالى النهار فقال مازلت فى مجلسك هذا منذ خرجت بعد قالت نعم فقال لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته». قوله تعالى

والأرض) قال ابن عباس يحمده أهل السموات والأرض ويصلون له (وعشيا) أى وصلوا لله عشيا يعنى صلاة العصر (وحين تظهرون) أى تدخلون فى الظهيرة وهى صلاة الظهر . قال نافع ابن الأزرق لابن عباس هل تجد الصلوات الخمس فى القرآن ؟ قال نعم وقرأ هاتين الآيتين وقال جمعتا الصلوات الخمس ومواقيتها . واعلم أنه إنما خص هذه الأوقات بالتسبيح لأن أفضل الأعمال أدومها والإنسان لا يقدر أن يصرف جميع أوقاته إلى التسبيح لأنه محتاج إلى ما يعيشه من مأكول ومشروب وغير ذلك فخفف الله عنه العبادة فى غالب الأوقات وأمره بها فى أول النهار ووسطه وآخره وفى أول الليل وآخره فإذا صلى العبد ركعتى الفجر فكأنما سبح قدر ساعتين وكذلك باقى الركعات وهى سبع عشرة ركعة مع ركعتى الفجر فإذا صلى الإنسان الصلوات الخمس فى أوقاتها فكأنما سبح الله سبع عشرة ساعة من الليل والنهار بقى عليه سبع ساعات فى جميع الليل والنهار وهى مقدار النوم والنائم مرفوع عنه القلم فيكون قد صرف جميع أوقاته فى التسبيح والعبادة .

(فصل فى فضل التسبيح)

عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من قال سبحان الله وبحمده فى كل يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر» وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «من قال حين يصبح وحين يمسى سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه » أخرجهما الترمذى وقال فيهما حسن صحيح (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » وهذا الحديث أخرجه فى صحيح البخارى (م) عن جويرية بنت الحارث زوج النبى صلى الله عليه وسلم رضى الله عنها «أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج ذات غداة من عندها وهى فى مسجدها فرجع بعد ما تعالى النهار فقال ما زلت فى مجلسك هذا مذ خرجت بعد ؟ قالت نعم فقال لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرار لو وزنت بكلماتك لوزنتهن سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته» (م) عن سعد بن أبى وقاص قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه

(يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون) قرأ حمزة والكسائي تخرجون بفتح التاء وضم الراء وقرأ الباقون بضم التاء وفتح الراء (ومن آياته أن خلقكم من تراب) أى خلق أصلكم يعني آدم من تراب (ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) تنبسطون (٢٠٦) فى الأرض (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا) قيل من جنسكم من بنى آدم وقيل خلق حواء من ضلع آدم (لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) جعل بين الزوجين المودة والرحمة فهما يتوادان ويتراحمان وما شئ أحب إلي أحدهما من الآخر من غير رحم بينهما (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) فى عظمة الله وقدرته (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم) يعنى اختلاف اللغات من العربية والعجمية وغيرهما (وألوانكم) أبيض وأسود وأحمر وأنتم ولد رجل واحد وامرأة واحدة (إن فى ذلك لآيات للعالمين) قرأ حفص للعالمين بكسر اللام (ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله) أى منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار أى تصرفكم فى طلب المعيشة (إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) سماع تدبر واعتبار (ومن آياته يريكم البرق خوفا) للمسافر من الصواعق (وطمعا) للمقيم فى المطر

وله

(وينزل من السماء ماء فيحيي به) يعنى بالمطر (الأرض بعد موتها) أى بعد يبسها وجدوبتها (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) قال ابن مسعود قامتا على غير عمد بأمره وقيل يدوم قيامهما بأمره (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض) قال ابن عباس من القبور (إذا أنتم تخرجون) منها وأكثر العلماء على أن معنى الآية ثم إذا دعاكم دعوة إذا

وسلم فقال «أيعجز أحدكم أن يكتسب كل يوم ألف حسنة فسأله سائل من جلسائه قال كيف يكتسب ألف حسنة قال يسبح الله مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة ويحط عنه ألف خطيئة» وفى رواية غير مسلم «يحط عنه أربعين ألفا» قوله تعالى (يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) أى يخرج النطفة من الحيوان ويخرج الحيوان من النطفة وقيل يخرج الدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة وقيل يخرج المؤمن من الكافر ويخرج الكافر من المؤمن (ويحيي الأرض بعد موتها) أى بالمطر وإخراج النبات منها (وكذلك تخرجون) أى مثل إخراج النبات من الأرض تخرجون من القبور للبعث والحساب (ومن آياته أن خلقكم من تراب) أى خلق أصلكم وهو آدم من تراب (ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) أى تنبسطون فى الأرض (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا) أى جنسكم من بنى آدم وقيل خلق حواء من ضلع آدم (لتسكنوا إليها) أى لتميلوا للأزواج وتألفوهن (وجعل بينكم مودة ورحمة) أى جعل بين الزوجين المودة والرحمة فهما يتوادان ويتراحمان من غير سابقة معرفة ولا قرابة ولا سبب يوجب التعاطف وما شىء أحب إلي أحدهما من الآخر من غير تراحم بينهما إلا الزوجان (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) أى فى عظمة الله وقدرته (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم) أى اختلاف اللغات العربية والعجمية وغيرهما وقيل أراد أجناس النطق وأشكاله خالف بينهما حتى لاتكاد تسمع منطقين متفقين حتى لو تكلم جماعة من وراء حائط يعرف كل منهم بنطقه ونغمته لايشبه صوت أحد صوت الآخر (وألوانكم) أى أسود وأبيض وأشقر وأسمر وغير ذلك من اختلاف الألوان وأنتم بنو رجل واحد ومن أصل واحد وهو آدم عليه السلام والحكمة فى اختلاف الأشكال والأصوات للتعارف أى ليعرف كل واحد بشكله وحليته وصوته وصورته فلو اتفقت الأصوات والصور وتشاكلت وكانت ضربا واحدا لوقع التجاهل والالتباس ولتعطلت مصالح كثيرة وليعرف صاحب الحق من غيره والعدو من الصديق والقريب من البعيد فسبحان من خلق الخلق على ما أراد وكيف أراد وفى ذلك دليل على سعة القدرة وكمال العظمة (إن فى ذلك لآيات للعالمين) أى لعموم العلم فيهم (ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله) أى منامكم الليل للراحة وابتغاؤكم من فضله وهو طلب أسباب المعيشة بالنهار (إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) أى سماع تدبر واعتبار (ومن آياته يريكم البرق خوفا) أى للمسافر ليستعد للمطر (وطمعا) أى للمقيم ليستعد المحتاج إليه من أجل الزرع وتسوية طرق المصانع (وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) أي قدرة الله وأنه القادر عليه (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) قال ابن عباس وابن مسعود قامتا على غير عمد وقيل يدوم قيامهما بأمره (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض) قال ابن عباس من القبور (إذا أنتم تخرجون) أى منها وقيل معنى الآية ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون من الأرض

أنتم تخرجون من الأرض (وله من فى السموات والأرض كل له قانتون) مطيعون قال الكلبي هذا خاص لمن كان منهم مطيعا عن ابن عباس كل له مطيعون فى الحياة والبقاء والموت والبعث وإن عصوا فى العبادة (وهو الذى يبدؤ الخلق ثم يعيده) يخلقهم أولا ثم يعيدهم بعد الموت للبعث (وهو أهون عليه) قال الربيع بن خيثم وقتادة والكلبي أى هو هين عليه وما شئ عليه بعزيز وهو رواية العوفي عن ابن عباس وقد يجيء أفعل بمعنى الفاعل كقول الفرزدق :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول

أى عزيزة طويلة وقال مجاهد وعكرمة وهو أهون عليه أى أيسر ؛ ووجهه أنه على طريق ضرب المثل أى هو أهون عليه على مايقع فى عقولكم فإن الذى يقع فى عقول الناس أن الإعادة تكون (٢٠٧) أهون من الإنشاء أى الابتداء وقيل هو أهون عليه عندكم وقيل وهو أهون عليه أى على الخلق يقومون بصيحة واحدة فيكون أهون عليهم من أن يكونوا نطفا ثم علقا ثم مضغا إلي أن يصيروا رجالا ونساء وهذا معنى رواية ابن حيان عن الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس (وله المثل الأعلى) أى الصفة العليا (فى السموات والأرض) قال ابن عباس هى أنه ليس كمثله شئ وقال قتادة هى أنه لا إله إلا هو (وهو العزيز) فى ملكه (الحكيم) فى خلقه (ضرب لكم مثلا من أنفسكم) أى بين لكم شبها بحالكم وذلك المثل من أنفسكم ثم بين المثل فقال (هل لكم من ماملكت أيمانكم) أى عبيدكم وإمائكم (من شركاء فيما رزقناكم) من المال (فأنتم) وهم (فيه سواء) أى شرع أى هل يشاركم عبيدكم فى أموالكم التى أعطيناكم (تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) أى تخافون أن يشاركوكم فى أموالكم ويقاسموكم كما يخاف الحر شريكه الحر فى المال يكون بينهما أن ينفرد فيه بأمر دونه وكما يخاف الرجل شريكه فى الميراث وهو يحب أن ينفرد به : قال ابن عباس تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضا فإذا لم تخافوا هذا من مماليككم ولم ترضوا ذلك لأنفسكم فكيف رضيتم أن تكون آلهتكم التى تعبدونها شركائى وهم عبيدى ومعنى قوله أنفسكم أى أمثالكم من الأحرار كقوله « ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا » أى بأمثالهم(كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) ينظرون إلى هذه الدلائل بعقولهم(بل اتبع الذين ظلموا) أشركوا بالله (أهواءهم) فى الشرك (بغير علم) جهلا بما يجب عليهم (فمن يهدى من أضل الله) أى أضله الله(ومالهم من ناصرين) مانعين يمنعونهم من عذاب الله عز وجل . قوله تعالى (فأقم وجهك للدين) أى أخلص دينك لله قاله سعيد

(وله من فى السموات والأرض كل له قانتون) مطيعون قال ابن عباس كل له مطيعون فى الحياة والبقاء والموت والبعث وإن عصوا فى العبادة (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده) أى يخلقهم أولا ثم يعيدهم بعد الموت للبعث (وهو أهون عليه) أى هو هين عليه وما من شيء عليه بعزيز وقيل معناه وهو أيسر عليه فإن الذى يقع فى عقول الناس أن الإعادة تكون أهون من الانشاء وقيل هو أهون على الخلق وذلك لأنهم يقومون بصيحة واحدة فيكون أهون عليهم من أن يكونوا نطفا ثم علقا ثم مضغا إلي أن يصيروا رجالا ونساء وهو رواية عن ابن عباس (وله المثل الأعلى) أي الصفة العليا قال ابن عباس ليس كمثله شيء وقيل هو الذي لاإله إلا هو (فى السموات والأرض وهو العزيز) أى فى ملكه (الحكيم) أي فى خلقه . قوله عز وجل (ضرب لكم مثلا) أي بين لكم شبها بحالكم ذلك المثل (من أنفسكم) ثم بين المثل فقال تعالي (هل لكم من ماملكت أيمانكم) أى عبيدكم وإمائكم (من شركاء فيما رزقناكم) أي من المال (فأنتم فيه سواء) يعنى هل يشاركم عبيدكم فى أموالكم التى أعطيناكم (تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) أى تخافون أن يشاركوكم فى أموالكم ويقاسموكم كما يخاف الحر من شريكه الحر فى المال يكون بينهما أن ينفرد فيه بأمره دون شريكه ويخاف الرجل شريكه فى الميراث وهو يحب أن ينفرد به وقال ابن عباس تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضا فإذا لم تخافوا هذا من مماليككم ولا ترضوه لأنفسكم فكيف ترضون أن تكون آلهتكم التى تعبدونها شركائى وهم عبيدى (كذلك نفصل الآيات) أى الدلالات والبراهين والأمثال (لقوم يعقلون) أى ينظرون فى هذه الدلائل والأمثال بعقولهم (بل اتبع الذين ظلموا) يعنى أشركوا بالله (أهواءهم) أى فى الشرك (بغيرعلم) جهلا بما يجب عليهم (فمن يهدى من أضل الله) أى عن طريق الهدى (وما لهم من ناصرين) أى مانعين يمنعونهم عن عذاب الله . قوله تعالى (فأقم وجهك للدين) يعنى أخلص دينك لله وقيل سدد عملك والوجه مايتوجه إلى الله

جبير وإقامة الوجه إقامة الدين وقال غيره سدد عملك والوجه مايتوجه إليه الإنسان ، ودينه وعمله مما يتوجه إليه لتسديده (حنيفا) مائلا إليه مستقيما عليه (فطرة الله) دين الله وهو نصب على الإغراء أى الزم فطرة الله (التى فطر الناس عليها) أى خلق الناس عليها وهذا قول ابن عباس وجماعة من المفسرين أن المراد بالفطرة الدين وهو الإسلام وذهب قوم إلى أن الآية خاصة فى المؤمنين وهم الذين فطرهم الله على الإسلام. أخبرنا أبو على حسان بن سعيد المنيعى، أنا أبو طاهر محمد بن محمش الزيادى أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان أنا أحمد بن يوسف السلمى أنا عبد الرزاق أنا معمر عن همام بن منبه قال ثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله (٢٠٨) صلى الله عليه وسلم « من يولد يولد عل الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها قالوا يارسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير قال الله أعلم بما كانوا عاملين» ورواه الزهرى عن سعيد ابن المسيب عن أبى هريرة من غير ذكر من يموت وهو صغير وزاد ثم يقول أبو هريرة اقرءوا إن شئتم « فطرة الله التى فطر الناس عليها » قوله «من يولد يولد على الفطرة» يعنى على العهد الذى أخذ الله عليهم بقوله « ألست بربكم قالوا بلى» وكل مولود فى العالم على ذلك الإقرار وهو الحنيفية التى وقعت الخلقة عليها وإن عبد غيره كما قال تعالى «ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » وقالوا « مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ولكن لاعبرة بالإيمان الفطرى فى أحكام الدنيا وإنما يعتبر الإيمان الشرعى المأمور به المكتسب بالإرادة والفعل ألا ترى أنه يقول «فأبواه يهودانه» فهو مع وجود الإيمان الفطرى فيه محكوم له بحكم أبويه الكافرين وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى إنى خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم» ويحكى هذا عن الأوزاعى وحماد بن سلمة وحكى عن عبد الله بن المبارك أنه قال معنى الحديث أن كل مولود يولد على فطرته أى على خلقته التى جبل عليها فى علم الله تعالى من السعادة والشقاوة فكل منهم صائر فى العاقبة إلى مافطر عليها وعامل فى الدنيا بالعمل المشاكل لها فمن أمارات الشقاوة للطفل أن يولد بين يهوديين أو نصرانيين فيحملانه لشقائه على اعتقاد دينهما وقيل معناه أن كل مولود يولد فى مبدأ الخلقة على الفطرة أى على الجبلة

تعالى به الإنسان ودينه وعمله مما يتوجه إليه ليسدده قوله تعالي (حنيفا) أى مائلا إليه مستقيما عليه (فطرة الله) أى دين الله والمعنى الزموا فطرة (الله التى فطر الناس عليها) قال ابن عباس خلق الناس عليها والمراد بالفطرة الدين وهو الإسلام (ق) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مامن مولود إلا يولد على الفطرة ثم قال اقرءوا فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم» زاد البخارى « فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » ثم يقول أبو هريرة اقرءوا فطرة الله الآية ولهما فى رواية «قالوا يارسول الله أفرأيت من يموت صغيرا قال الله أعلم بما كانوا عاملين» قوله «مامن مولود يولد إلا على الفطرة» يعنى على العهد الذي أخذ الله عليهم بقوله «ألست بربكم قالوا بلى» فكل مولود فى العالم على ذلك الإقرار وهى الحنيفية التى وضعت الخلقة عليها وإن عبد غير الله قال الله تعالي «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله» ولكن لا اعتبار بالإيمان الفطرى فى أحكام الدنيا وإنما يعتبر الإيمان الشرعى المأمور به المكتسب بالإرادة والفعل ألا ترى إلى قوله « فأبواه يهودانه أو ينصرانه» فهو مع وجود الإيمان الفطرى فإنه محكوم له بحكم أبويه الكافرين وهذا معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر « يقول الله عز وجل إنى خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم » وحكي عن عبدالله بن المبارك أنه قال معنى الحديث أن كل مولود يولد على فطرته أى خلقته التى خلقه الله عليها فى علم الله تعالي من السعادة والشقاوة فكل منهم صائر فى العاقبة إلي مافطر عليه وعامل فى الدنيا بالعمل المشاكل لها فمن أمارات الشقاوة للطفل أن يولد بين يهوديين أو نصرانيين فيحملانه على اعتقاد دينهما وقيل معناه أن كل مولود فى مبدأ الخلقة على الفطرة أى على الجبلة السليمة والطبع المتهيء لقبول الدين فلو ترك عليها لاستمر على لزومها لأن هذا الدين موجود حسنه فى العقول السليمة وإنما يعدل عنه من عدل إلى غيره لأنه من آفات التقليد ونحوه فمن سلم من تلك الآفات لم يعتقد غيره ثم تمثل لأولاد اليهود والنصارى واتباعهم لآبائهم والميل إلى أديانهم فيزلون بذلك عن الفطرة السليمة والحجة المستقيمة بقوله «كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء» أي كما تلد البهيمة بهيمة مستوية لم يذهب من بدنها شيء وقوله «هل تحسون فيها من

السليمة والطبع المتهيئ لقبول الدين فلو تُرك عليها لاستمر على لزومها لأن هذا الدين موجود حسنه فى العقول وإنما يعدل عنه من يعدل إلى غيره لآفة من آفات النشوء والتقليد فلو سلم من تلك الآفات لم يعتقد غيره ثم يتمثل بأولاد اليهود والنصارى وأتباعهم لآبائهم والميل إلى أديانهم فيزلون بذلك عن الفطرة السليمة والحجة المستقيمة . ذكر أبو سليمان الخطابى هذه المعانى فى كتابه . قوله (لاتبديل لخلق الله) فمن حمل الفطرة على الدين قال معناه لاتبديل لدين الله وهو خبر بمعنى النهى أى لاتبدلوا دين الله قال مجاهد وإبراهيم معنى الآية الزموا فطرة الله أى دين الله واتبعوه ولا تبدلوا التوحيد بالشرك (ذلك الدين القيم) المستقيم (ولكن أكثر الناس لايعلمون) وقيل لاتبديل لخلق الله أى ماجبل عليه الإنسان من السعادة والشقاوة لايبدل فلا يصير السعيد شقيا ولا الشقى سعيدا وقال عكرمة ومجاهد معناه (٢٠٩) تحريم إخصاء البهائم (منيبين إليه) أى فأقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه لأن المخاطبة للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل معه فيها الأمة كما قال «يا أيها النبى إذا طلقتم النساء» منيبين إليه أى راجعين إليه بالتوبة مقبلين إليه بالطاعة (واتقوه وأقيموا الصلاة ولاتكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا) أى صاروا فرقا مختلفة وهم اليهود والنصارى وقيل هم أهل البدع من هذه الأمة (كل حزب بما لديهم فرحون) أى راضون بما عندهم . قوله تعالى (وإذا مس الناس ضر) قحط وشدة (دعوا ربهم منيبين إليه) مقبلين إليه بالدعاء (ثم إذا أذاقهم منه رحمة) خصبا ونعمة (إذا فريق منهم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم) ثم خاطب هؤلاء الذين فعلوا هذا خطاب تهديد فقال (فتمتعوا فسوف تعلمون) حالكم فى الآخرة (أم أنزلنا عليهم سلطانا) قال ابن عباس حجة وعذرا وقال قتادة كتابا (فهو يتكلم) ينطق (بما كانوا به يشركون) أى ينطق بشركهم ويأمرهم به (وإذا أذقنا الناس رحمة) أى الخصب وكثرة المطر (فرحوا بها) يعنى فرح البطر (وإن تصبهم سيئة) أى الجدب وقلة المطر ويقال الخوف والبلاء (بما قدمت أيديهم) من السيئات (إذا هم يقنطون) ييأسون من رحمة الله وهذا خلاف وصف المؤمن فإنه يشكر الله عند النعمة ويرجو ربه عند الشدة (أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) قوله تعالى (فآت ذا القربى حقه) من البر والصلة (والمسكين) وحقه أن يتصدق عليه (وابن السبيل) يعنى المسافر ، وقيل هو الضيف (ذلك خير للذين يريدون وجه الله) يطلبون ثواب الله بما يعملون (وأولئك هم المفلحون) . قوله عز وجل (وما آتيتم من ربا) قرأ ابن كثير أتيتم مقصورا

من جدعاء يعنى هل تشعرون أو تعلمون فيها من جدعاء وهى المقطوعة الأذن والأنف . قوله عز وجل (لاتبديل لخلق الله) أى لاتبدلوا دين الله وقيل معنى الآية الزموا فطرة الله ولا تبدلوا التوحيد بالشرك وقيل معنى لاتبديل لخلق الله هو ماجبل عليه الإنسان من السعادة والشقاوة فلا يصير السعيد شقيا ولا الشقى سعيدا وقيل الآية فى تحريم إخصاء البهائم (ذلك الدين القيم) أى المستقيم (ولكن أكثر الناس لايعلمون) قوله عز وجل (منيبين إليه) أى فأقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه لأن خطاب النبى صلى الله عليه وسلم يدخل فيه الأمة والمعنى راجعين إلى الله تعالى بالتوبة مقبلين إليه بالطاعة (واتقوه) أى ومع ذلك خافوه (وأقيموا الصلاة) أى داوموا على أدائها فى أوقاتها (ولاتكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا) أى صاروا فرقا مختلفة وهم اليهود والنصارى وقيل هم أهل البدع من هذه الأمة (كل حزب بما لديهم فرحون) أى راضون بما عندهم . قوله تعالى (وإذا مس الناس ضر) أى قحط وشدة (دعوا ربهم منيبين إليه) أى مقبلين إليه بالدعاء (ثم إذا أذاقهم منه رحمة) أى خصبا ونعمة (إذا فريق منهم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم) أى ليجحدوا نعمة الله عليهم (فتمتعوا) فيه تهديد ووعيد خاطب به الكفار (فسوف تعلمون) أى حالكم هذه فى الآخرة (أم أنزلنا عليهم سلطانا) قال ابن عباس حجة وعذرا وقيل كتابا (فهو يتكلم) أى ينطق (بما كانوا به يشركون) أى بشركهم ويأمرهم به (وإذا أذقنا الناس رحمة) أى الخصب وكثرة المطر (فرحوا بها) أى فرحوا وبطروا (وإن تصبهم سيئة) أى جدب وقلة مطر وقيل خوف وبلاء (بما قدمت أيديهم) من السيئات (إذاهم يقنطون) أى ييأسون من رحمة الله وهذا خلاف وصف المؤمن فإنه يشكر ربه عند النعمة ويرجوه عند الشدة (أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) تقدم تفسيره . قوله عز وجل (فآت ذا القربى حقه) أى من البر والصلة (والمسكين) أى حقه وهو التصدق عليه (وابن السبيل) أى المسافر وقيل هو الضيف (ذلك خير للذين يريدون وجه الله) أى يطلبون ثواب الله بما كانوا يعملون (وأولئك هم المفلحون) قوله عز وجل (وما آتيتم) أى أعطيتم (من ربا

وقرأ الآخرون بالمد أى أعطيتم ومن قصر فمعناه ماجئتم من ربا ومجيئهم ذلك على وجه الإعطاء كما يقول أتيت خطئا وأتيت صوابا فهو يئول فى المعنى إلى قول من مد (ليربوا فى أموال الناس) قرأ أهل المدينة ويعقوب لتربوا بالتاء وضمها وسكون الواو على الخطاب أى لتربوا أنتم وتصيروا ذوى زيادة من أموال الناس وقرأ الآخرون بالياء وفتحها ونصب الواو وجعلوا الفعل للربا لقوله (فلا يربوا عند الله) فى أموال الناس أى فى اختطاف أموال الناس واجتذابها. واختلفوا فى معنى الآية فقال سعيد بن جبير ومجاهد وطاوس وقتادة والضحاك وأكثر المفسرين هو الرجل يعطى غيره العطية ليثيبه أكثر منها فهذا جائز حلال ولكن لاثواب عليها فى القيامة وهو معنى قوله عز وجل « فلا يربوا عند الله » وكان هذا حراما على النبى صلى الله عليه وسلم خاصة لقوله تعالى «ولا تمنن تستكثر» أى لاتعط وتطلب أكثر مما أعطيت وقال النخعى هو الرجل يعطى صديقه أو قريبه ليكثر ماله (٢١٠) ولا يريد به وجه الله وقال الشعبى هو الرجل يلتزق بالرجل فيخدمه ويسافر معه فيجعل له ربح ماله التماس عونه لوجه الله فلا يربوا عند الله لأنه لم يرد به وجه الله تعالى (وما آتيتم من زكاة) أعطيتم من صدقة (تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) فيضاعف لهم الثواب فيعطون بالحسنة عشر أمثالها فالمضعف ذو الأضعاف من الحسنات تقول العرب القوم مهزولون ومسمونون إذا هزلت أو سمنت إبلهم (الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ سبحانه وتعالى عما يشركون) قوله عز وجل (ظهر الفساد فى البر والبحر) يعنى قحط المطر أو قلة النبات وأراد بالبر البوادى والمفاوز وبالبحر المدائن والقرى التى هى على المياه الجارية. قال عكرمة العرب تسمى المصر بحرا يقال أجدب البر وانقطعت مادة البحر (بما كسبت أيدى الناس) أى بشؤم ذنوبهم وقال عطية وغيره البر ظهر الأرض الأمصار وغيرها والبحر هو البحر المعروف وقلة المطر كما تؤثر فى البر تؤثر فى البحر فتخلو أجواف الأصداف لأن الصدف إذا جاء المطر يرتفع إلى وجه البحر ويفتح فاه فما يقع فى فيه من المطر صار لؤلؤا وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد الفساد فى البر قتل أحد ابني آدم أخاه وفى البحر غصب الملك الجائر السفينة ؛ قال الضحاك كانت الأرض خضرة مونقة لايأتى ابن آدم شجرة إلا وجد عليها ثمرة وكان ماء البحر عذبا وكان لايقصد الأسد البقر والغنم فلما قتل قابيل هابيل اقشعرت الأرض وشاكت الأشجار وصار ماء البحر ملحا زعافا وقصد الحيوان بعضها بعضا قال قتادة هذا قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم امتلأت الأرض ظلما وضلالة فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم رجع راجعون من الناس بما كسبت

ليربوا فى أموال الناس) أى فى اجتلاب أموال الناس واجتذابها قيل فى معنى الآية هو الرجل يعطى غيره العطية ليثيبه أكثر منها فهو جائز حلال ولكن لايثاب عليها فى القيامة وهذا قوله (فلا يربوا عند الله) وكان هذا حراما على النبى خاصة لقوله تعالى « ولا تمنن تستكثر » أى لاتعط وتطلب أكثر مما أعطيت وقيل هو الرجل يعطى صديقه أو قريبه ليكثر ماله لايريد به وجه الله وقيل هو الرجل يلتزق بالرجل فيخدمه ويسافر معه فيجعل ربح ماله لالتماس عونه لالوجه الله تعالى فلا يربو عند الله لأنه لم يرد بعمله وجه الله (وما آتيتم من زكاة) أى أعطيتم من صدقة (تريدون وجه الله) أى بتلك الصدقة (فأولئك هم المضعفون) أى يضاعف لهم الثواب فيعطون بالحسنة عشر أمثالها فالمضعف ذو الأضعاف من الحسنات. قوله تعالى (الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ سبحانه وتعالى عما يشركون) تقدم تفسيره : قوله تعالى (ظهر الفساد فى البر والبحر) أى بسبب الشرك والمعاصى ظهر قحط المطر وقلة النبات فى البرارى والبوادى والمفاوز والقفار والبحر قيل المدائن والقرى التى هى على المياه الجارية والعرب تسمى المصر بحرا تقول أجدب البر وانقطعت مادة البحر وقيل البر ظهر الأرض الأمصار وغيرها والبحر هو المعروف وقلة المطر كما تؤثر فى البر تؤثر فى البحر بخلو أجواف الأصداف من اللؤلؤ وذلك لأن الصدف إذا جاء المطر ترتفع على وجه الماء وتفتح أفواهها فما وقع فيه من المطر صار لؤلؤا (بما كسبت أيدى الناس) أى بسبب شؤم ذنوبهم وقال ابن عباس الفساد فى البر قتل أحد ابنى آدم أخاه وفى البحر غصب الملك الجائر السفينة قيل كانت الأرض خضرة مونقة لايأتى ابن آدم شجرة إلا وجد عليها ثمرة وكان البحر عذبا وكان لايقصد البقر الغنم فلما قتل قابيل هابيل اقشعرت الأرض وشاكت الأشجار وصار ماء البحر ملحا زعافا وقصد الحيوان بعضها بعضا وقيل إن الأرض امتلأت ظلما وضلالة قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم فلما بعث رجع راجعون من بالناس وقيل أراد

أيدى الناس من المعاصى يعنى كفار مكة (ليذيقهم بعض الذى عملوا) أى عقوبة بعض الذى عملوا من الذنوب (لعلهم يرجعون) عن الكفر وأعمالهم الخبيثة (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) لتروا منازلهم ومساكنهم خاوية (كان أكثرهم مشركين) فأهلكوا بكفرهم (فأقم وجهك للدين القيم) المستقيم وهو دين الإسلام (من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله) يعنى يوم القيامة لايقدر أحد على رده من الله (يومئذ يصدعون) أى يتفرقون فريق فى الجنة وفريق فى السعير (من كفر فعليه كفره) أى وبال كفره (ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون) يوطئون المضاجع ويسوونها فى القبور (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله) قال ابن عباس ليثيبهم الله أكثر من ثواب أعمالهم (إنه لايحب الكافرين). قوله عز وجل (ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات) تبشر بالمطر (٢١١) (وليذيقكم من رحمته) نعمة المطر وهى الخصب (ولتجرى الفلك فى البحر) بهذه الرياح (بأمره ولتبتغوا من فضله) لتطلبوا من رزقه بالتجارة فى البحر (ولعلكم تشكرون) رب هذه النعم. قوله تعالى (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات) بالدلالات الواضحات على صدقهم (فانتقمنا من الذين أجرموا) عذبنا الذين كذبوهم (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) إنجاؤهم من العذاب؛ فى هذا تبشير للنبى صلى الله عليه وسلم بالظفر فى العاقبة والنصر على الأعداء قال الحسن أنجاهم مع الرسول من عذاب الأمم. أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحى أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الريانى أنا أحمد بن زنجويه أنا أبو شيخ الحرانى أنا أبو موسى بن أعين عن ليث بن أبى سليم عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبى الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «مامن مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة ثم تلا هذه الآية: وكان حقا علينا نصر المؤمنين» (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا) أى ينشره (فيبسطه فى السماء كيف يشاء) مسيرة يوم أو يومين أو أكثر على ما يشاء (ويجعله كسفا) قطعا متفرقة (فترى الودق) المطر (يخرج من خلاله) وسطه (فإذا أصاب به) أى بالودق (من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون) يفرحون بالمطر (وإن كانوا) وقد كانوا (من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين) أى آيسين وقيل وإن كانوا أى وما كانوا إلا مبلسين وأعاد قوله من قبله تأكيدا وقيل الأولى ترجع

بالناس كفار مكة (ليذيقهم بعض الذى عملوا) يعنى عقوبة الذى عملوا من الذنوب (لعلهم يرجعون) يعنى عن الكفر وأعمالهم الخبيثة (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) أى لتروا منازلهم ومساكنهم خاوية (كان أكثرهم مشركين) يعنى فأهلكوا بكفرهم قوله عز وجل (فأقم وجهك للدين القيم) يعنى لدين الإسلام (من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله) يعنى يوم القيامة لايقدر أحد على رده من الخلق (يومئذ يصدعون) يعنى يتفرقون ثم ذكر الفريقين فقال تعالى (من كفر فعليه كفره) يعنى وبال كفره (ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون) أى يوطئون المضاجع ويسوونها فى القبور (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله) قال ابن عباس ليثيبهم الله ثوابا أكثر من أعمالهم (إنه لايحب الكافرين) فيه تهديد ووعيد لهم. قوله تعالى (ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات) أى تبشر بالمطر (وليذيقكم من رحمته) أى بالمطر وهو الخصب (ولتجرى الفلك) أى بهذه الرياح (بأمره ولتبتغوا من فضله) معناه لتطلبوا رزقه بالتجارة فى البحر (ولعلكم تشكرون) أى هذه النعم. قوله تعالى (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات) أى بالدلالات الواضحات على صدقهم (فانتقمنا من الذين أجرموا) يعنى أنا عذبنا الذين كذبوهم (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) أى مع إنجائهم من العذاب ففيه تبشير للنبى صلى الله عليه وسلم بالظفر فى العاقبة والنصر على الأعداء عن أبى الدرداء قال سمعت النبى ﷺ يقول «مامن مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة» ثم تلا هذه الآية: وكان حقا علينا نصر المؤمنين» أخرجه الترمذى ولفظه «من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة» وقال حديث حسن. قوله عز وجل (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا) يعنى تنشره (فيبسطه فى السماء كيف يشاء) يعنى مسيرة يوم أو يومين أو أكثر على مايشاء (ويجعله كسفا) أى قطعا متفرقة (فترى الودق) أى المطر (يخرج من خلاله) أى من وسطه (فإذا أصاب به) يعنى بالودق (من يشاء من عباده إذاهم يستبشرون) يعنى يفرحون بالمطر (وإن كانوا) أى وقد كانوا (من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين) يعنى آيسين

يعنى أنزاله المطر والثانية إلى إنشاء السحاب . وفى حرف عبد الله بن مسعود وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم لمبلسين غير مكرر (فانظر إلى آثار رحمة الله) هكذا قرأ أهل الحجاز والبصرة وأبو بكر وقرأ الآخرون إلى آثار رحمة الله على الجمع أراد برحمة الله المطر أى انظر إلى حسن تأثيره فى الأرض قال مقاتل أثر رحمة الله أى نعمته وهو النبت (كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى) يعنى إن ذلك الذى يحيي الأرض لمحيي الموتى (وهو على كل شئ قدير ولئن أرسلنا ريحا) باردة مضرة فأفسدت الزرع (فرأوه مصفرا) أى رأوا النبت والزرع مصفرا بعد الخضرة (لظلوا) لصاروا (من بعده) أى من بعد اصفرار الزرع (يكفرون) يجحدون ماسلف من النعمة يعنى أنهم يفرحون عند الخصب ولو أرسلت عذابا على زرعهم جحدوا سالف نعمتى (فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون الله الذى خلقكم من ضعف) (٢١٢)

قرئ بضم الضاد وفتحها فالضم لغة قريش والفتح لغة تميم ومعنى من ضعف أى من نطفة يريد من ذى ضعف أى من ماء ذى ضعف كما قال تعالى «ألم نخلقكم من ماء مهين» (ثم جعل من بعد ضعف قوة) أي من بعد ضعف الطفولية شبابا وهو وقت القوة (ثم جعل من بعد قوة ضعفا) هرما (وشيبة يخلق مايشاء) من الضعف والقوة والشباب والشيبة (وهو العليم) بتدبير خلقه (القدير) على ما يشاء (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون) يحلف المشركون (مالبثوا) فى الدنيا (غير ساعة) إلا ساعة استقلوا أجل الدنيا لما عاينوا الآخرة ، وقال مقاتل والكلبي مالبثوا فى قبورهم غير ساعة كما قال «كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار» (كذلك كانوا يؤفكون) يصرفون عن الحق فى الدنيا قال الكلبي ومقاتل كذبوا فى قولهم غير ساعة كما كذبوا فى الدنيا أن لا بعث والمعنى أن الله أراد أن يفضحهم فحلفوا على شئ يتبين لأهل الجمع أنهم كاذبون فيه وكان ذلك بقضاء الله وبقدره بدليل قوله يؤفكون أى يصرفون عن الحق ثم ذكر إنكار المؤمنين عليهم كذبهم فقال (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله) أى فيما كتب الله لكم فى سابق علمه من اللبث فى القبور وقيل فى كتاب الله أى فى حكم الله ؛ وقال قتادة ومقاتل فيه تقديم وتأخير تقديره وقال الذين أوتوا العلم فى كتاب الله والإيمان لقد لبثتم إلى يوم البعث يعنى الذين يعلمون كتاب الله وقرءوا قوله تعالى « ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون» أى قالوا للمنكرين لقد لبثتم (إلى يوم البعث فهذا يوم البعث) الذى كنتم تنكرونه فى الدنيا (ولكنكم كنتم لاتعلمون)

(فانظر إلى آثار رحمة الله) يعنى المطر والمعنى انظر إلى حسن تأثيره فى الأرض وهو قوله تعالى (كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى) يعنى إن الذى أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى (وهو على كل شىء قدير ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا) أى الزرع بعد الخضرة (لظلوا من بعده) أى من بعد اصفرار الزرع (يكفرون) أى يجحدون ماسلف من النعمة والمعنى أنهم يفرحون عند الخصب ولو أرسلت عذابا على زرعهم لجحدوا سالف نعمتى (فإنك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم أن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) تقدم تفسيره . قوله تعالى (الله الذى خلقكم من ضعف) أى بدأكم وأنشأكم على ضعف وقيل من ماء ذى ضعف وقيل هو إشارة إلى أحوال الإنسان كان جنينا ثم طفلا مولودا ومفطوما فهذه أحوال غاية الضعف (ثم جعل من بعد ضعف قوة) يعنى من بعد ضعف الصغر شبابا وهو وقت القوة (ثم جعل من بعد قوة ضعفا) يعنى هرما (وشيبة) وهو تمام النقصان (يخلق مايشاء) أى من الضعف والقوة والشباب والشيبة وليس ذلك من أفعال الطبيعة بل بمشيئة الله وقدرته (وهو العليم) بتدبير خلقه (القدير) على مايشاء . قوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون) أى يحلف المشركون (مالبثوا) أى فى الدنيا (غير ساعة) معناه أنهم استقلوا أجل الدنيا لما عاينوا الآخرة وقيل معناه مالبثوا فى قبورهم غير ساعة (كذلك كانوا يؤفكون) يعنى يصرفون عن الحق فى الدنيا وذلك أنهم كذبوا فى قولهم مالبثوا غير ساعة كما كذبوا فى الدنيا أن لايبعثوا والمعنى أن الله أراد أن يفضحهم فحلفوا على شىء تبين لأهل الجمع أنهم كاذبون فيه وكان ذلك بقضاء الله وقدره ثم ذكر إنكار المؤمن عليهم كذبهم فقال تعالى (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلي يوم البعث) أى فيما كتب الله لكم فى سابق علمه من اللبث فى القبور وقيل معنى الآية وقال الذين أوتوا العلم فى كتاب الله والإيمان يعنى الذين يقيمون كتاب الله قالوا للمنكرين قد لبثتم إلي يوم البعث أى فى قبوركم (فهذا يوم البعث) أى الذى كنتم تنكرونه فى الدنيا (ولكنكم كنتم لاتعلمون) أى وقوعه فى الدنيا فلا ينفعكم العلم به الآن

وقوعه فى الدنيا فلا ينفعكم العلم به الآن بدليل قوله تعالى (فيومئذ لاينفع الذين ظلموا معذرتهم) يعنى عذرهم (ولا هم يستعتبون) لايطلب منهم العتبى والرجوع إلى الدنيا قرأ أهل الكوفة لاينفع بالياء هاهنا وفى حم المؤمن وقرأ الباقون بالتاء فيهما (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون) ماأنتم إلا على باطل (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لايعلمون) توحيد الله (فاصبر إن وعد الله حق) فى نصرتك وإظهارك على عدوك (ولا يستخفنك) لا يستجهلنك معناه لايحملنك الذين لايوقنون علي الجهل واتباعهم فى الغى وقيل لايستخفن رأيك وحلمك (الذين لايوقنون) بالبعث والحساب :

(سورة لقمان مكية وهى أربع وثلاثون آية) (٢١٣)

أحادثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن فأنزل الله هذه الآية وقال مجاهد يعنى شراء القيان والمغنين ووجه الكلام على هذا التأويل من يشترى ذات أو ذا لهو الحديث . أخبرنا أبو سعيد الشريحى أنا أبو إسحاق الثعلبى أنا أبوطاهر محمد بن الفضل بن محمد بن إسحاق المزنى ثنا جدى محمد بن إسحاق بن خزيمة أنا على بن حجر أنا مشمعل بن ملحان الطائى عن مطرح بن يزيد عن عبد الله بن زحر عن على بن يزيد عن القاسم عن أبى عبد الرحمن عن أبى أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لايحل تعليم المغنيات ولا بيعهن وأثمانهن حرام وفى مثل هذا أنزلت هذه الآية ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ومامن رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتي يكون هو الذى

بدليل قوله تعالى (فيومئذ لاينفع الذين ظلموا معذرتهم ولاهم يستعتبون) أى لاتطلب منهم العتبى والرجوع فى الآخرة وقيل لاتطلب منهم التوبة التى تزيل الجريمة لأنها لاتقبل منهم . قوله تعالى (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) فيه إشارة إلى إزالة الأعذار والإتيان بما فوق الكفاية من الإنذار (ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون) يعنى ماأنتم إلا على باطل وذلك على سبيل العناد . فإن قلت مامعنى توحيد الخطاب فى قوله ولئن جئتهم والجمع فى قوله إن أنتم إلا مبطلون. قلت فيه لطيفة وهى أن الله تعالى قال ولئن جئتهم بكل آية جاءت بها الرسل ويمكن أن يقال معناه أنكم كلكم أيها الرسل مبطلون (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لايعلمون) أى توحيد الله (فاصبر إن وعد الله حق) أى فى نصرك وإظهارك على عدوك (ولا يستخفنك) يعنى لايحملنك على الجهل وقيل لايستخفن رأيك (الذين لايوقنون) يعنى بالبعث والحساب ؛ والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده :

(تفسير سورة لقمان مكية)

(وهى أربع وثلاثون آية وخمسمائة وثمان وأربعون كلمة وألفان ومائة وعشرة أحرف)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (الم تلك آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين) يعنى الذين يعملون الحسنات ، ثم ذكرهم فقال (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) قوله تعالى (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) الآية قيل نزلت فى النضر بن الحارث بن كلدة وكان يتجر فيأتى الحيرة ويشترى أخبار العجم ويحدث بها قريشا ويقول إن محمدا يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة فيستمعون حديثه ويتركون استماع القرآن فأنزل الله هذه الآية وقيل هو شراء القينات والمغنين ، ومعنى الآية ومن الناس من يشترى ذات لهو أوذا لهو الحديث ؛ وروى البغوى بإسناد الثعلبى عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لايحل تعليم المغنيات ولا بيعهن وأثمانهن حرام » وفى مثل ذلك نزلت هذه

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم تلك آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة) قرأ حمزة ورحمة بالرفع على الابتداء أى هو هدى ورحمة ، وقرأ الآخرون بالنصب على الحال (للمحسنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ومن الناس من يشترى لهو الحديث) الآية قال الكلبى ومقاتل نزلت فى النضر بن الحارث ابن كلدة كان يتجر فيأتى الحيرة ويشترى أخبار العجم فيحدث بها قريشا ويقول إن محمدا يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا

يسكت» أخبرنا عبد الرحمن بن أحمد القفال أنا أبومنصور أحمد بن الفضل البروجردى أنا أبو أحمد بكر بن محمد بن حمدان الصيرفى أنا محمد بن غالب بن تمام أنا خالد بن مرثد أنا حماد بن زيد عن هشام هو ابن حسان عن محمد هو ابن سيرين عن أبى هريرة « أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن ثمن الكلب وكسب الزمارة» . قال مكحول من اشترى جارية ضرابة ليمسكها لغنائها وضربها مقيما عليه (٢١٤) حتى يموت لم أصل عليه إن الله يقول «ومن الناس من يشترى لهو الحديث» الآية ؛ وعن عبدالله بن مسعودوابن عباس والحسن وعكرمة وسعيدبن جبير قالوا لهو الحديث هو الغناء والآية نزلت فيه ومعنى قوله يشترى لهو الحديث أى يستبدل ويختار الغناء والمزامير والمعازف على القرآن قال أبوالصهباء البكرى سألت ابن مسعود عن هذه الآية فقال هو الغناء والله الذى لا إله إلا هو رددها ثلاث مرات ، وقال إبراهيم النخعى الغناء ينبت النفاق فى القلب وكان أصحابنا يأخذون بأفواه السكك يخرقون الدفوف وقيل الغناء رقية الزنا وقال ابن جريج هو الطبل وعن الضحاك قال هو الشرك وقال قتادة هو كل لهو ولعب (ليضل عن سبيل الله بغير علم) يعنى يفعله عن جهل قال قتادة بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق : قوله تعالى (ويتخذها هزوا) قرأ حمزة والكسائى وحفص ويعقوب ويتخذها بنصب الذال عطفا على قوله ليضل وقرأ الآخرون بالرفع نسقا على قوله يشترى (أولئك لهم عذاب مهين وإذا تتلى عليه آياتنا ولي مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم) حسن أى

الآية « ومن الناس يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله » ومامن رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله له شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذى يسكت أخرجه الترمذى وهذا لفظه عن أبى أسامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لاتبيعوا القينات المغنيات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير فى تجارة فيهن وثمنهن حرام » وفى مثل هذا نزلت «ومن الناس من يشترى لهو الحديث» الآية وعن أبى هريرة « أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن ثمن الكلب وكسب المزمار» وقال مكحول من اشترى جارية ضرابة ليمسكها لغنائها وضربها مقيما عليه حتى يموت لم أصل عليه إن الله تعالى يقول « ومن الناس من يشترى لهو الحديث الآية» وعن ابن مسعود وابن عباس والحسن وعكرمة وسعيد بن جبير قالوا لهو الحديث هو الغناء والآية نزلت فيه ومعنى يشترى يستبدل ويختار الغناء والمزامير والمعازف على القرآن. وقال أبو الصهباء : سألت ابن مسعود عن هذه الآية فقال هو الغناء والله الذى لا إله إلا هو رددها ثلاث مرات وقال إبراهيم النخعى الغناء ينبت النفاق وقيل هو كل لهو ولعب وقيل هو الشرك (ليضل عن سبيل الله) يعنى عن دين الإسلام وسماع القرآن (بغير علم) يعنى يفعله عن جهل وحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق (ويتخذها هزوا) أى يتخذ آيات الله مزحا (أولئك) يعنى الذين هذه صفتهم (لهم عذاب مهين وإذا تتلى عليه آياتنا ولي مستكبرا) أي لا يعبأ بها ولا يرفع لها رأسا (كأن لم يسمعها) أى يشبه حاله فى ذلك حال من لم يسمعها وهو سامع (كأن فى أذنيه وقرا) أى ثقلا ولا وقر فيهما (فبشره بعذاب أليم إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين فيها وعد الله حقا) يعنى وعدهم الله ذلك وعدا حقا وهو لا يخلف الميعاد (وهو العزيز الحكيم) قوله تعالي (خلق السموات بغير عمد) قيل إن السماء خلقت مبسوطة كصحفة مستوية وهو قول المفسرين وهى فى الفضاء والفضاء لانهاية له وكون السماء فى بعضه دون بعض ليس ذلك إلا بقدرة قادر مختار وإليه الإشارة بقوله بغير عمد (ترونها) أي ليس لها شيء يمنعها الزوال من موضعها وهى ثابتة لا تزول وليس ذلك إلا بقدرة الله تعالى . وفى قوله ترونها وجهان : أحدهما أنه راجع إلى السموات أى ليست هى بعمد وأنتم ترونها كذلك بغير عمد . الوجه الثانى أنه راجع إلي العمد ومعناه بغير عمد مرئية (وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم) أى لئلا تتحرك بكم (وبث فيها) أى فى الأرض (من كل دابة) أى يسكنون فيها (وأنزلنا من السماء ماء) يعنى المطر وهو من إنعام الله على عباده وفضله (فأنبتنا فيهامن كل زوج كريم)

(هذا) يعنى الذى ذكرت مما تعاينون (خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه) من آلهتكم التى تعبدونها (بل الظالمون فى ضلال مبين) قوله تعالى(ولقد آتينا لقمان الحكمة) يعنى العقل والعلم والعمل به والإصابة فى الأمور . وقال محمد بن إسحاق هو لقمان بن ناعور بن ناحور بن تارخ وهوآزر وقال وهب إنه كان ابن أخت أيوب وقال مقاتل ذكر أنه كان ابن خالة أيوب قال الواقدى كان قاضيا فى بنى إسرائيل واتفق العلماء على أنه كان حكيما ولم

يكن نبيا إلا عكرمة فإنه قال كان لقمان نبيا وتفرد بهذا القول وقال بعضهم خير لقمان بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة وروى أنه كان نائما نصف النهار فنودى يالقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة فى الأرض لتحكم بين الناس بالحق فأجاب الصوت فقال إن خيرنى ربى قبلت العافية ولم أقبل البلاء وإن عزم علي فسمعا وطاعة فإنى أعلم إن فعل ذلك بى أعاننى وعصمنى فقالت الملائكة بصوت لا يراهم لم يالقمان قال لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها يغشاها الظلم من كل مكان إن يعن فبالحرى أن ينجو وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة ومن يكن فى الدنيا ذليلا خير من أن يكون شريفا ومن تخير الدنيا على الآخرة تفته الدنيا ولا يصيب الآخرة فعجبت الملائكة من حسن منطقه فنام نومة أعطى الحكمة فانتبه وهو يتكلم بها ثم نودى داود بعده فقبلها ولم يشترط ما اشترطه لقمان فهوى فى الخطيئة غير مرة كل ذلك يعفو عنه . وكان لقمان يؤازره بحكمته. وعن خالد الربعى قال كان لقمان عبدا حبشيا نجارا وقال سعيد بن المسيب كان خياطا وقيل كان راعى غنم ، فروى أنه لقيه رجل وهو يتكلم بالحكمة فقال ألست فلانا الراعى فبم بلغت مابلغت ؟ قال بصدق الحديث وأداء الأمانة وترك مالا يعنينى ؛ وقال مجاهد كان عبدا أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين . قوله عز وجل (أن أشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فان الله غنى حميد وإذ قال لقمان لابنه) واسمه أنعم ويقال مشكم (وهو يعظه يابنى لاتشرك

أى من كل صنف حسن (هذا) يعنى الذى ذكرت مما تعاينون (خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه) أى آلهتكم التى تعبدونها (بل الظالمون فى ضلال مبين) قوله عز وجل (ولقد آتينا لقمان الحكمة) قيل هو لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارخ وهو آزر وقيل كان ابن أخت أيوب وقيل كان ابن خالته وقيل إنه عاش ألف سنة حتى أدرك داود وقيل إنه كان قاضيا فى بنى إسرائيل . واتفق العلماء على أنه كان حكيما ولم يكن نبيا إلا عكرمة فانه قال كان نبيا وقيل خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة . وروى أنه كان نائما نصف الليل فنودى يالقمان هل لك أن نجعلك خليفة فى الأرض فتحكم بين الناس فأجاب الصوت فقال إن خيرنى ربى قبلت العافية ولم أقبل البلاء وإن عزم على فسمعا وطاعة وإنى أعلم أن الله إن فعل بى ذلك أعاننى وعصمنى فقالت الملائكة بصوت لا يراهم لم يالقمان ؟ قال إن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها يغشاها الظلم من كل مكان إن عدل فبالحرى أن ينجو وإن أخطأ الطريق أخطأ طريق الجنة ومن يكن فى الدنيا ذليلا خير من أن يكون شريفا ومن يختر الدنيا على الآخرة تفته الدنيا ولم يصب الآخرة فعجبت الملائكة من حسن منطقه فنام نومة فأعطى الحكمة فانتبه وهو يتكلم بها ثم نودى داود بعده فقبلها ولم يشترط مااشترط لقمان فهوى فى الخطيئة غير مرة كل ذلك يعفو الله عنه وكان لقمان يوازر داود بحكمته وقيل كان لقمان عبدا حبشيا نجارا وقيل كان خياطا وقيل كان راعى غنم فروى أنه لقيه رجل وهو يتكلم بالحكمة فقال ألست فلانا الراعى قال بلى قال فبم بلغت مابلغت قال بصدق الحديث وأداء الأمانة وترك مالا يعنينى وقيل كان عبدا أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين وقيل خير السودان بلال بن رباح ومهجع مولى عمر ولقمان والنجاشى رابعهم أوتى الحكمة والعقل والفهم وقيل العلم والعمل به ولا يسمى الرجل حكيما حتى يجمعها وقيل الحكمة المعرفة والإصابة فى الأمور وقيل الحكمة شىء يجعله الله فى القلب ينوره كما ينور البصر فيدرك المبصر . وقوله (أن اشكر لله) وذلك لأن المراد من العلم العمل به والشكر عليه (ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه) أى عليه يعود نفع ذلك وكذلك كفرانه (ومن كفر) عليه يعود وبال كفره (فإن الله غنى) أى غير محتاج إلى شكر الشاكرين (حميد) أى هو حقيق بأن يحمد وإن لم يحمده أحد . قوله تعالى (وإذ قال لقمان لابنه) قيل اسمه أنعم وقيل أشكم (وهو يعظه)وذلك لأن أعلى مراتب الإنسان أن يكون كاملا فى نفسه مكملا لغيره فقوله « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله » إشارة إلى الكمال وقوله وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه إشارة إلى التكميل لغيره وبدأ بالأقرب إليه وهو ابنه وبدأ فى وعظه بالأهم وهو المنع من الشرك وهو قوله (يابنى لاتشرك

بالله إن الشرك لظلم عظيم) قرأ ابن كثير يابنى لاتشرك بالله بإسكان الياء وفتحها حفص والباقون بالكسر يابنى إنها بفتح الياء حفص والباقون بالكسر يابنى أقم الصلاة بفتح الياء البزى عن ابن كثير وحفص وبإسكانها القواس والباقون بكسرها (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن) قال ابن عباس شدة بعد شدة وقال الضحاك ضعفا على ضعف قال مجاهد مشقة على مشقة ؛ وقال الزجاج المرأة إذا حملت توالى عليها الضعف والمشقة ويقال الحمل ضعف والطلق ضعف والوضع ضعف (وفصاله) أى فطامه (فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير) المرجع قال سفيان بن عيينة فى هذه الآية من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله ومن دعا للوالدين فى أدبار الصلوات الخمس فقد شكر الوالدين (وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا) أى بالمعروف وهو البر والصلة والعشرة الجميلة (واتبع سبيل من أناب إلى) أى دين من أقبل إلى طاعتى وهو النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه قال عطاء عن ابن عباس يريد أبابكر وذلك أنه حين أسلم أتاه عثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف فقالوا له قد صدقت هذا الرجل وآمنت به قال نعم هو صادق فآمنوا به ثم حملهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم حتى أسلموا فهؤلاء لهم سابقة الإسلام أسلموا بإرشاد أبى بكر قال الله تعالى «واتبع سبيل من أناب إلى» يعنى أبا بكر (ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) وقيل نزلت هاتان الآيتان فى سعد بن أبى وقاص وأمه وقد مضت القصة وقيل الآية عامة فى حق كافة الناس (يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل) الكناية فى قوله إنها راجعة إلى الخطيئة وذلك أن ابن لقمان قال لأبيه ياأبت إن عملت الخطيئة حيث لا يرانى أحد كيف يعلمها الله فقال يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل (فتكن فى صخرة) قال قتادة تكن فى جبل وقال ابن عباس فى صخرة تحت الأرضين السبع وهى التى يكتب فيها أعمال الفجار وخضرة السماء منها قال السدى خلق الله الأرض على حوت وهو النون الذى ذكر الله عز وجل فى القرآن «ن والقلم» والحوت فى الماء والماء على ظهر صفاة والصفاة على ظهر ملك والملك على صخرة وهى الصخرة التى ذكرها لقمان ليست

بالله إن الشرك لظلم عظيم) لأن التسوية بين من يستحق العبادة وبين من لايستحقها ظلم عظيم لأنه وضع العبادة فى غير موضعها . قوله عز وجل (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن) قال ابن عباس شدة بعد شدة وقيل إن المرأة إذا حملت توالى عليها الضعف والتعب والمشقة وذلك لأن الحمل ضعف والطلق ضعف والوضع ضعف والرضاعة ضعف (وفصاله فى عامين) أى فطامه فى سنتين (أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير) لما جعل الله بفضله للوالدين صورة التربية الظاهرة وهو الموجد والمربى فى الحقيقة جعل الشكر بينهما فقال اشكرلى ولوالديك ثم فرق فقال إلى المصير يعنى أن نعمتهما مختصة بالدنيا ونعمتى عليك فى الدنيا والآخرة وقيل لما أمر بشكره وشكر الوالدين قال الجزاء على وقت المصير إلى قال سفيان بن عيينة فى هذه الآية من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله ومن دعا للوالدين فى أدبار الصلوات الخمس فقد شكر الوالدين (وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما) قال النخعي يعنى أن طاعتهما واجبة فان أفضى ذلك إلى الاشراك بى فلا تطعهما فى ذلك لأنه لاطاعة للمخلوق فى معصية الخالق (وصاحبهما فى الدنيا معروفا) أى بالمعروف وهو البر والصلة والعشرة الجميلة (واتبع سبيل من أناب إلى) أى اتبع دين من أقبل إلى طاعتى وهو النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقيل من أناب إلى يعنى أبا بكر الصديق قال ابن عباس وذلك أنه حين أسلم أتاه عثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف وقالوا له قد صدقت هذا الرجل وآمنت به قال نعم إنه صادق فآمنوا به ثم حملهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم حتى أسلموا فهؤلاء لهم سابقة الإسلام أسلموا بإرشاد أبى بكر (ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل) وذلك أن ابن لقمان قال لأبيه ياأبت إن عملت الخطيئة حيث لايرانى أحد كيف يعلمها الله ؟ قال يابنى إنها أى الخطيئة إن تك مثقال حبة من خردل أى فى الصغر (فتكن) أى مع صغرها (فى صخرة) قال ابن عباس صخرة تحت الأرضين السبع وهى التى يكتب فيها أعمال الفجار وخضرة السماء منها وقيل خلق الله الأرض على حوت وهو النون والحوت فى الماء والماء على ظهر صفاة والصفاة على ظهر ملك وقيل على ظهر ثور وهو على صخرة وهى التى ذكر لقمان ليست فى الأرض ولا

فى السماء

فى السماء ولا فى الأرض والصخرة على الريح (أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف) باستخراجها (خبير) عالم بمكانها قال الحسن معنى الآية هى الإحاطة بالأشياء صغيرها وكبيرها . وفى بعض الكتب أن هذه الكلمة آخر كلمة تكلم بها لقمان فانشقت مرارته من هيبتها فمات رحمه الله (يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك) يعنى من الأذى (إن ذلك من عزم الأمور) يريد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر على الأذى فيهما من الأمور الواجبة التى أمر الله بها . أو من الأمور التى يعزم عليها لوجوبها (ولا تصعر خدك للناس) قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب ولا تصعر بتشديد العين من غير الف وقرأ الآخرون تصاعر بالألف يقال صعر وجهه وصاعر إذا مال وأعرض تكبرا ورجل أصعر أى مائل العنق قال ابن عباس يقول (٢١٧) لاتتكبر فتحقر الناس وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك وقال مجاهد هو الرجل يكون بينك وبينه إحنة فتلقاه فيعرض عنك بوجهه وقال عكرمة هو الذى إذا سلم عليه لوى عنقه تكبرا وقال الربيع بن أنس وقتادة ولاتحقرن الفقراء ليكن الفقر والغنى عندك سواء (ولا تمش فى الأرض مرحا) خيلاء تكبرا (إن الله لا يحب كل مختال) فى مشية (فخور) على الناس (واقصد فى مشيك) أى ليكن مشيك قصدا لاتخيلا ولاإسراعا وقال عطاء إمش بالوقار والسكينة كقوله «يمشون على الأرض هونا» (واغضض من صوتك) انقص من صوتك وقال مقاتل اخفض من صوتك (إن أنكر الأصوات) أقبح الأصوات (لصوت الحمير) أوله زفير وآخره شهيق وهما صوتا أهل النار وقال موسى بن أعين سمعت سفيان الثورى يقول فى قوله إن أنكر الأصوات لصوت الحمير قال صياح كل شىء تسبيح لله إلا الحمار وقال جعفر الصادق فى قوله إن أنكر الأصوات لصوت الحمير قال هى العطسة القبيحة المنكرة. قال وهب تكلم لقمان بإثنى عشر ألف باب من الحكمة أدخلها الناس فى كلامهم وقضاياهم ومن حكمه قال خالد الربيعى كان لقمان عبدا حبشيا فدفع مولاه اليه شاة وقال لذبحها وائتنى بأطيب مضغتين منها فأتاه باللسان والقلب ، ثم دفع اليه شاة أخرى وقال اذبحها وائتنى بأخبث مضغتين منها فأتاه باللسان والقلب فسأله مولاه فقال ليس شىء أطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا قوله تعالى (ألم تروا أن الله سخر لكم مافى السموات ومافى الأرض وأسبغ عليكم) أتم وأكمل (نعمه) قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وحفص نعمه بفتح العين وضم الهاء على الجمع وقرأ الآخرون منونة على الواحد ؛ ومعناها الجمع أيضا

فى السماء فلذلك قال (أو فى السموات أو فى الأرض) والصخرة على متن الريح والريح على القدرة (يأت بها الله) معناه الله عالم بها قادر على استخراجها وهو قوله (إن الله لطيف) أى باستخراجها (خبير) أى بمكانها ومعنى الآية الإحاطة بالأشياء صغيرها وكبيرها قيل إن هذه الكلمة آخر كلمة قالها لقمان فانشقت مرارته من هيبتها وعظمتها فمات (يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك) من الأذى (إن ذلك من عزم الأمور) يعنى إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر على الأذى من الأمور الواجبة التى أمر الله بها (ولا تصعر) وقرىء تصاعر (خدك للناس) قال ابن عباس لاتتكبر فتحقر الناس وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك وقيل هو الرجل يكون بينك وبينه محبة فيلقاك فتعرض عنه وقيل هو الذى إذا سلم عليه لوى عنقه تكبرا وقيل معناه لاتحتقر الفقراء فليكن الفقير والغنى عندك سواء (ولا تمش فى الأرض مرحا) أى خيلاء (إن الله لايحب كل مختال) فى مشيه (فخور) أى على الناس (واقصد فى مشيك) أى ليكن فى مشيتك قصد بين الإسراع والتأنى أما الإسراع فهو من الخيلاء وأما التأنى فهو أن يرى فى نفسه الضعف تزهدا وكلا الطرفين مذموم بل ليكن مشيك بين السكينة والوقار (واغضض) أى اخفض وقيل وانقص (من صوتك إن أنكر) أى أقبح (الأصوات لصوت الحمير) لأن أوله زفير وآخره شهيق وهما صوت أهل النار وعن الثورى فى هذه الآية قال صياح كل شىء تسبيح إلا الحمار وقيل معنى الآية هو العطسة القبيحة المنكرة قال وهب تكلم لقمان باثنى عشر ألف باب من الحكمة أدخلها الناس فى كلامهم وقضاياهم ومن حكمته قيل أنه كان عبدا حبشيا فدفع إليه مولاه شاة وقال له اذبحها وائتنى بأطيب مضغتين منها فأتاه باللسان والقلب ثم دفع إليه أخرى وقال له اذبحها وائتنى بأخبث مضغتين منها فأتاه باللسان والقلب فسأله مولاه فقال ليس شىء أطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا وقال لقمان ليس مال كصحة ولا نعم كطيب نفس وقيل للقمان أى الناس شر قال الذى لايبالي أن يراه الناس مسيئا . قوله عز وجل (ألم تروا أن الله سخر لكم مافى السموات وما فى الأرض وأسبغ) أى أتم وأكمل (عليكم نعمه

كقوله «وإن تعدوا نعمة اللهلاتحصوها » (ظاهرةوباطنة) قال عكرمة عن ابن عباس النعمة الظاهرة الإسلام والقرآنوالباطنة ماستر عليك من الذنوب ولم يعجل عليك بالنقمة وقال الضحاك الظاهرة حسن الصورة وتسوية الأعضاء والباطنةالمعرفة وقال مقاتل الظاهرة تسوية الخلق والرزق والإسلام والباطنة الإيمان وقال الربيع الظاهرة الجوارح والباطنة القلب ؛ وقيل الظاهرة الإقرار باللسان والباطنة الاعتقادبالقلب وقيل الظاهرة تمام الرزق والباطنة حسن الخلق ؛ وقال عطاء الظاهرة تخفيف الشرائع والباطنة الشفاعة وقال مجاهد الظاهرة ظهور الإسلام والنصر على الأعداء والباطنة الإمداد بالملائكة ، وقيل الظاهرةالإ مداد بالملائكة والباطنة القاء الرعب فى قلوب (٢١٨) الكفار وقال سهل بن عبد الله الظاهرة اتباع الرسول والباطنة محبته (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم) نزلت فى النضر بن الحارث ؛ وأبى بن خلف وأمية بن خلف وأشباههم كانوا يجادلون النبى صلى الله عليه وسلم فى اللهوفى صفاته بغير علم (ولا هدى ولا كتاب منير وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا)قال الله عز وجل (أو لو كان الشيطان يدعوهمإلى عذاب السعير) وجواب لو محذوف ومجازه يدعوهم فيتبعونه يعنى يتبعون الشيطان وإن كانالشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير . قوله تعالى (ومن يسلم وجهه إلى الله) يعنى لله أى يخلص دينه لله ويفوض أمره إلىالله(وهو محسن) فى عمله (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى اعتصم بالعهد الأوثق الذى لايخاف انقطاعه (وإلى الله عاقبة الأمور هذه ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور نمتعهم قليلا) أى نمهلهم ليتمتعوا بنعيم الدنيا قليلا إلى انقضاء آجالهم(ثم نضطرهم) ثم نلجئهم ونردهم فى الآخرة (إلى عذاب غليظ)وهو عذاب النار (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون لله ما فى السموات والأرض إن الله هو الغنى الحميد) قوله سبحانه وتعالى(ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام) الآية قال المفسرون «نزلت بمكة قوله سبحانه وتعالى «ويسئلونك عن الروح» إلى قوله «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أتاه أحبار اليهود فقالوا يامحمد بلغنا عنك أنك تقول وما أوتيتم من العلم إلا قليلا أفعنيتنا أم قومك ؟ فقال عليه الصلاة والسلام

ظاهرة وباطنة) قال ابن عباس النعمة الظاهرة الإسلام والقرآن والباطنة ماستر عليكم من الذنوب ولم يعجل عليكم بالنقمة ؛ وقيل الظاهرة تسوية الأعضاء وحسن الصورة والباطنة الاعتقاد بالقلب وقيل الظاهرة الرزق والباطنة حسن الخلق وقيل الظاهرة تخفيف الشرائع والباطنة الشفاعة وقيل الظاهرة ظهور الإسلام والنصر على الأعداء والباطنة الأمداد بالملائكة وقيل الظاهرة اتباع الرسول والباطنة محبته (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم) نزلت فى النضر بن الحارث وأبى بن خلف وأمية بن خلف وأشباههم كانوا يجادلون النبى صلى الله عليه وسلم فى الله وفى صفاته بغير علم (ولا هدى ولا كتاب منير وإذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا) قال الله تعالى (أو لو كان الشيطان يدعوهم)معناه أفيتبعونهم وإن كان الشيطان يدعوهم (إلى عذاب السعير) قوله عزوجل (ومن يسلم وجهه إلي الله) أى يخلص لله دينه ويفوض إليه أمره (وهو محسن) أى فى عمله (فقد استمسك بالعروة الوثقى)أى اعتصم بالعهد الأوثق الذى لايخلف عهده ولايخاف انقطاعه ويرتقى بسببه إلى أعلى المراتب والغايات (وإلى الله عاقبة الأمور) أى مصير جميع الأشياء إليه (ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور) أى لايخفى عليه سرهم وعلانيتهم . قوله تعالى(نمتعهم قليلا) أى نمهلهم ليتمتعوا بنعيم الدنيا إلي انقضاء آجالهم (ثم نضطرهم) أى نلجئهم ونردهم (إلي عذاب غليظ) إلي النار فى الآخرة (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون لله مافى السموات والأرض إن الله هو الغنى الحميد) تقدم تفسيره . قوله تعالى (ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام) قال المفسرون لما نزلت بمكة «ويسئلونك عن الروح» الآية وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أتاه أحبار اليهود وقالوا يامحمد بلغنا أنك تقول «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» أتعنينا أم قومك فقال عليه الصلاة والسلام كلا قد عنيت قالوا ألست تتلو فيما جاءك أنا أوتينا التوراة فيها علم كل شيء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هى فى علم الله قليل وقد أتاكم الله بما إن عملتم به انتفعتم به قالوا كيف تزعم هذا وأنت تقول «ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا» فكيف يجتمع علم قليل مع خير كثير فأنزل الله هذه الآية فعلى هذا تكون

كلا قد عنيت قالوا ألست تتلو فيما جاءك إنا أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هي في علم الله قليل وقد أتاكم الله ما إن عملتم به انتفعتم قالوا يامحمد كيف تزعم هذا وأنت تقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا فكيف يجتمع هذا علم قليل وخير كثير فأنزل هذه الآية» قال قتادة إن المشركين قالوا إن القرآن وما يأتي به محمد يوشك أن ينفد فينقطع فنزلت «ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام» أي بريت أقلاما (والبحر يمده) قرأ أبو عمرو ويعقوب والبحر بالنصب عطفا على ما والباقون بالرفع على الاستئناف يمده: أي يزيده وينصب فيه (من بعده) من خلفه (سبعة أبحر مانفدت كلمات الله) وفي الآية اختصار تقديره ولو أن مافي الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر يكتب بها كلام الله ما نفدت كلمات الله (إن الله عزيز حكيم) وهذه الآية على قول عطاء بن يسار مدنية وعلى قول غيره مكية وقالوا إنما أمر اليهود وفد قريش أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولوا له ذلك وهو بعد بمكة والله أعلم (ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) أي كخلق نفس واحدة وبعثها لايتعذر عليه شيء (إن الله سميع بصير ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير ذلك بأن الله هو الحق) أي ذلك الذي ذكرت لتعلموا أن الله هو الحق (وأن مايدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله) إن ذلك من نعمة الله عليكم (ليريكم من آياته) عجائبه (إن في ذلك لآيات لكل صبار) على أمر الله (شكور) لنعمه (وإذا غشيهم موج كالظلل) قال مقاتل كالجبال وقال الكلبي كالسحاب والظلل جمع الظلة شبه بها الموج في كثرتها وارتفاعها وجعل الموج وهو واحد كالظلل وهي جمع لأن الموج يأتي منه شيء بعد شيء (دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد) أي عدل موف في البر بما عاهد الله عليه في البحر من التوحيد له يعني ثبت على إيمانه. قيل نزلت في عكرمة بن أبي جهل هرب عام الفتح إلى البحر فجاءتهم ريح عاصف فقال عكرمة لئن أنجانا الله من هذا لأرجعن إلى محمد صلى الله عليه وسلم ولأضعن يدي في يده فسكنت الريح فرجع عكرمة إلى مكة فأسلم وحسن إسلامه وقال مجاهد فمنهم مقتصد في القول مضمر

(٢١٩)

هذه الآية مدنية وقيل إن اليهود أمروا وفد قريش أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولوا له ذلك وهو بمكة وقيل إن المشركين قالوا إن القرآن وما يأتي به محمد يوشك أن ينفد فينقطع فأنزل الله تعالى «ولو أن مافي الأرض من شجرة أقلام» أي بريت أقلاما وقيل بعدد كل شجرة قلم (والبحر يمده) أي يزيده وينصب إليه (من بعده سبعة أبحر) أي مدادا والخلائق يكتبون به كلام الله (مانفدت كلمات الله) لأنها لانهاية لها (إن الله عزيز حكيم) قوله تعالى (ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) أي إلا كخلق نفس واحدة وبعثها لايتعذر عليه شيء (إن الله سميع) أي لأقوالكم (بصير) بأعمالكم (ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير ذلك بأن الله هو الحق) يعني ذلك الذي هو قادر على هذه الأشياء التي ذكرت هو الحق المستحق للعبادة (وأن مايدعون من دونه الباطل) يعني لايستحق العبادة (وأن الله هو العلي) يعني في صفاته له الصفات العليا والأسماء الحسنى (الكبير) في ذاته لأنه أكبر من كل كبير. قوله تعالى (ألم تر أن الفلك) يعني السفن والمراكب (تجري في البحر بنعمة الله) يعني ذلك من نعمة الله عليكم (فيريكم من آياته) يعني من عجائب صنائعه (إن في ذلك لآيات لكل صبار) يعني على ماأمر الله (شكور) لإنعامه (وإذا غشيهم موج كالظلل) يعني كالجبال وقيل كالسحاب شبه بها الموج في كثرتها وارتفاعها (دعوا الله مخلصين له الدين) معناه أن الإنسان إذا وقع في شدة ابتهل إلى الله بالدعاء وترك كل من عداه ونسي جميع ما سواه فإذا نجا من تلك الشدة فمنهم من يبقى على تلك الحالة وهو المقتصد وهو قوله تعالى (فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد) يعني عدل موف في البر بما عاهد عليه الله في البحر من التوحيد والثبوت على الإيمان وقيل نزلت في عكرمة بن أبي جهل وذلك أنه هرب عام الفتح إلى البحر فجاءهم ريح عاصف فقال عكرمة لئن أنجانا الله من هذا لأرجعن إلى محمد صلى الله عليه وسلم ولأضعن يده في يدي فسكنت الريح ورجع عكرمة إلى مكة وأسلم وحسن إسلامه ومنهم من لم يوف بما

لكفر وقال الكلبي مقتصد فى القول أى من الكفار لأن بعضهم كان أشد قولا وأعلى فى الافتراء من بعض (وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور) والختر أسوأ الغدر (ياأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لايجزى) لايقضى ولا يغنى (والد عن ولده ولا مولود هو جاز) مغن (عن والده شيئا) قال ابن عباس كل امرئ تهمه نفسه (إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) (٢٢٠) يعنى الشيطان قال سعيد بن جبير هو أن يعمل المعصية ويتمنى المغفرة.

عاهد وهو المراد بقوله (وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار) يعنى غدار (كفور) يعنى جحود لأنعمنا عليه. قوله تعالى (ياأيها الناس اتقوا ربكم) يعنى خافوا ربكم (واخشوا) يعنى وخافوا (يوما لايجزى) يعنى لايقضى ولا يغنى (والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا) قيل معنى الآية إن الله ذكر شخصين فى غاية الشفقة والمحبة وهما الوالد والولد فنبه بالأعلى على الأدنى وبالأدنى على الأعلى فالوالد يجزى عن ولده لكمال شفقته عليه والولد يجزى عن والده لماله من حق التربية وغيرها فإذا كان يوم القيامة فكل إنسان يقول نفسى نفسى ولا يهتم بقريب ولا بعيد كما قال ابن عباس كل امرىء تهمه نفسه (إن وعد الله حق) قيل إنه تحقيق اليوم معناه اخشوا يوما هذا شأنه وهو كائن بوعد الله به ووعده حق وقيل الآية تحقيق بعدم الجزاء يعنى لايجزى والد عن ولده فى ذلك اليوم والقول الأول أحسن وأظهر (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) يعنى لأنها فانية (ولا يغرنكم بالله الغرور) يعنى الشيطان. قال سعيد بن جبير يعمل بالمعاصى ويتمنى المغفرة. قوله تعالى (إن الله عنده علم الساعة) الآية نزلت فى الحارث بن عمرو بن حارثة ابن حفصة من أهل البادية أتى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله عن الساعة ووقتها وقال إن أرضنا أجدبت فقل لى متى ينزل الغيث وتركت امرأتى حبلى فمتى تلد ولقد علمت أين ولدت فبأى أرض أموت فأنزل الله هذه الآية (ق) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «مفاتيح الغيب خمس إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير» ومعنى الآية إن الله عنده علم الساعة فلا يدرى أحد من الناس متى تقوم الساعة فى أى سنة أو أى شهر أو أى يوم ليلا أو نهارا (وينزل الغيث) فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ليلا أو نهارا إلا الله (ويعلم مافى الأرحام) أذكر أم أنثى أحمر أم أسود تام الخلقة أم ناقص (وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا) من خير أو شر (وما تدرى نفس بأى أرض تموت) يعنى ليس أحد من الناس يعلم أين مضجعه من الأرض فى بر أو بحر فى سهل أو جبل (إن الله عليم) يعنى بهذه الأشياء وبغيرها (خبير) أى ببواطن الأشياء كلها ليس علمه محيطا بالظاهر فقط بل علمه محيط بالظاهر والباطن قال ابن عباس هذه الخمسة لايعلمها ملك مقرب ولا نبى مصطفى فمن ادعى أنه يعلم شيئا من هذه فإنه كفر بالقرآن لأنه خالفه والله تعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

(تفسير سورة السجدة وهى مكية)

قال عطاء إلا ثلاث آيات من قوله أفمن كان مؤمنا وهى تسع وعشرون آية وقيل ثلاثون آية وثلثمائة وثمانون كلمة وألف وخمسمائة وثمانية عشر حرفا.

قوله (إن الله عنده علم الساعة) الآية نزلت في الحارث بن عمرو بن حارثة بن محارب بن حفصة من أهل البادية «أتى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله عن الساعة ووقتها وقال إن أرضنا أجدبت فمتى ينزل الغيث وتركت امرأتى حبلى فمتى تلد وقد علمت أين ولدت فبأى أرض أموت فأنزل الله هذه الآية (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأي أرض تموت) وقرأ أبى بن كعب بأية أرض والمشهور بأى أرض لأن الأرض ليس فيها من علامات التأنيث شىء وقيل أراد بالأرض المكان أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد ابن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد العزيز ابن عبد الله أنا إبراهيم بن سعد أنا ابن شهاب عن سالم ابن عبد الله عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «مفاتيح الغيب خمس إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأي أرض تموت» (إن الله عليم خبير)

(بسم

(سورة الم السجدة مكية وهى ثلاثون آية)

قال عطاء إلا ثلاث آيات من قوله أفمن كان مؤمنا إلى آخر ثلاث آيات

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين) قال مقاتل : لاشك فيه أنه تنزيل من رب العالمين (أم يقولون) بل يقولون (افتراه) وقيل الميم صلة أى أيقولون افتراه استفهام توبيخ وقيل أم بمعنى الواو أى ويقولون افتراه وقيل فيه إضمار مجازه فهل يؤمنون أم يقولون افتراه ثم قال (بل هو) يعنى القرآن (الحق من ربك لتنذر قوما ماأتاهم) يعني لم يأتهم (من نذير من قبلك) قال قتادة كانوا أمة أمية لم يأتهم نذير قبل محمد صلى الله عليه وسلم وقال ابن عباس ومقاتل ذاك فى الفترة التى كانت بين عيسى عليه السلام وبين محمد صلى الله عليه وسلم (لعلهم (٢٢١) يهتدون الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون يدبر الأمر) أى يحكم الأمر وينزل القضاء والقدر (من السماء إلى الأرض) وقيل ينزل الوحى مع جبريل من السماء إلى الأرض (ثم يعرج) يصعد (إليه) جبريل بالأمر (فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) أى فى يوم واحد من أيام الدنيا وقدره مسيرة ألف سنة خمسمائة نزوله وخمسمائة صعوده لأن مابين السماء والأرض خمسمائة عام يقول لو سار فيه أحد من بنى آدم لم يقطعه إلا فى ألف سنة والملائكة يقطعون فى يوم واحد هذا فى وصف عروج الملك من الأرض إلى السماء ؛ وأما قوله تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة أراد مدة المسافة من الأرض إلى السماء إلى سدرة المنتهى التى هى مقام جبريل يقول يسير جبريل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة فى يوم واحد من أيام الدنيا هذا كله معنى قول مجاهد والضحاك وقوله إليه أى إلى الله وقيل على هذا التأويل إلى مكان الملك الذى أمره الله عز وجل أن يعرج اليه وقال بعضهم ألف سنة وخمسون ألف سنة كلها فى القيامة يكون على بعضهم أطول وعلى بعضهم أقصر معناه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض مدة أيام الدنيا ثم يعرج أى يرجع الأمر والتدبير إليه بعد فناء الدنيا وانقطاع أمر الأمراء وحكم الحكام فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة وهو يوم

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (الم تنزيل الكتاب لاريب فيه) يعنى لاشك فيه أنه (من رب العالمين أم يقولون) يعنى بل يقولون يعنى المشركين (افتراه) يعنى اختلقه محمد صلى الله عليه وسلم من تلقاء نفسه (بل هو الحق) يعنى القرآن (من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك) يعنى العرب كانوا أمة أمية لم يأتهم نذير قبل محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وذلك فى الفترة التى كانت بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم . فإن قلت إذا لم يأتهم رسول لم تقم عليهم حجة. قلت أما قيام الحجة بالشرائع التى لايدرك علمها إلا من جهة الرسل فلا وأما قيام الحجة بمعرفة الله وتوحيده فنعم لأن معهم أدلة العقل الموصلة ، إلى ذلك فى كل زمان (لعلهم يهتدون) يعنى تنذرهم راجيا اهتداءهم (الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولاشفيع أفلا تتذكرون) تقدم تفسيره . قوله تعالى (يدبر الأمر) يعنى يحكم الأمر وينزل القضاء والقدر وقيل ينزل الوحى مع جبريل عليه السلام (من السماء إلى الأرض ثم يعرج) يعني يصعد (إليه) جبريل بالأمر (فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) يعنى مسافة ما بين السماء والأرض خمسمائة سنة فيكون مقدار نزوله إلى الأرض ثم صعوده إلى السماء فى مقدار ألف سنة لو ساره أحد من بنى آدم وجبريل ينزل ويصعد فى مقدار يوم من أيام الدنيا وأقل من ذلك وكذلك الملائكة كلهم أجمعون وقيل معنى الآية أنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض مدة أيام الدنيا ثم يعرج إليه أى يرجع الأمر والتدبير إليه بعد فناء الدنيا وانقطاع أمر الآمر وحكم الحاكم فى يوم كان مقداره ألف سنة وهو يوم القيامة . فإن قلت قد قال فى موضع آخر تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فكيف الجمع بينهما . قلت أراد بقوله خمسين ألف سنة مدة المسافة بين الأرض وسدرة المنتهى التى هى مقام جبريل عليه السلام يقول يسير جبريل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة فى يوم واحد من أيام الدنيا وقيل كلها فى القيامة فيكون على بعضهم مثل ألف سنة وعلى بعضهم خمسين ألف سنة وهذا فى حال الكفار وأما على المؤمنين فدون ذلك كما جاء فى الحديث « إنه يكون على المؤمن كقدر صلاة مكتوبة صلاها فى الدنيا » قال إبراهيم التيمى لايكون على المؤمنين إلا كما يكون مابين الظهر

القيامة وأما قوله خمسين ألف سنة فإنه أراد على الكافر يجعل الله ذلك اليوم عليه مقدار خمسين ألف سنة وعلى المؤمن دون ذلك حتي جاء فى الحديث أنه يكون على المؤمن كقدر صلاة مكتوبة صلاها فى الدنيا وقال إبراهيم التيمى لايكون على المؤمن إلا كما بين الظهر والعصر ويجوز أن يكون هذا إخبار عن شدته وهوله ومشقته وقال ابن أبى مليكة دخلت أنا وعبد الله بن فيروز مولى عثمان بن عفان على ابن عباس وسأله ابن فيروز عن هذه الآية وعن قوله خمسين ألف سنة فقال له ابن عباس أيام سماها الله لاأدرى ماهى وأكره أن أقول فى كتاب الله مالا أعلم (ذلك عالم الغيب والشهادة) يعنى ذلك الذى صنع ما ذكره من خلق السموات **(٢٢٢)** والأرض عالم ما غاب عن عيان الخلق وما حضر (العزيز الرحيم الذى أحسن كل شيء خلقه) قرأ نافع وأهل الكوفة خلقه بفتح اللام على الفعل وقرأ الآخرون بسكونها أى أحسن خلق كل شيء قال ابن عباس أتقنه وأحكمه قال قتادة حسنه وقال مقاتل علم كيف يخلق كل شيء من قولك فلان يحسن كذا إذا كان يعلمه ، وقيل خلق كل حيوان على صورته لم يخلق البعض على صورة البعض فكل حيوان كامل فى خلقه حسن وكل عضو من أعضائه مقدر بما يصلح به معاشه (وبدأ خلق الإنسان من طين) يعنى آدم (ثم جعل نسله) يعنى ذريته (من سلالة) نطفة سميت سلالة لأنها تسل من الإنسان (من ماء مهين) أى ضعيف وهو نطفة الرجل (ثم سواه) ثم سوى خلقه (ونفخ فيه من روحه) ثم عاد إلى ذريته فقال (وجعل لكم) بعد أن كنتم نطفا (السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون) يعنى لاتشكرون رب هذه النعم فتوحدونه (وقالوا) يعنى منكرى البعث (أئذا ضللنا) هلكنا (في الأرض) وصرنا ترابا وأصله من قولهم ضل الماء في اللبن إذا ذهب (أئنا لنى خلق جديد) استفهام إنكار قال الله عز وجل (بل هم بلقاء ربهم كافرون) أى بالبعث بعد الموت (قل يتوفاكم) يقبض أرواحكم (ملك الموت الذى وكل بكم) أى وكل بقبض أرواحكم وهو عزرائيل والتوفى استيفاء العدد المضروب للخلق فى الأزل معناه أنه يقبض أرواحهم حتى لايبقى أحد من العدد الذى كتب عليه الموت وروى أن ملك

جعلت

والعصر وقيل يحتمل أن يكون هذا إخبارا عن شدته وهوله ومشقته وقال ابن أبى مليكة دخلت أنا وعبد الله بن فيروز مولى عثمان على ابن عباس فسأله ابن فيروز عن هذه الآية وعن مقدار خمسين ألف سنة فقال ابن عباس رضي الله عنهما أيام سماها الله تعالى لاأدرى ماهى وأكره أن أقول فى كتاب الله مالا أعلم (ذلك عالم الغيب والشهادة) يعنى الذى صنع ماذكر من خلق السموات والأرض هو عالم الغيب والشهادة أى ماغاب عن خلقه لاتخفى عليه خافية والشهادة بمعنى ماحضر وظهر (العزيز) أى الممتنع المنتقم من أعدائه (الرحيم) بأوليائه وأهل طاعته. قوله تعالى (الذى أحسن كل شيء خلقه) قال ابن عباس أتقنه وأحكمه وقيل علم كيف يخلق كل شيء وقيل خلق كل حيوان على صورة لم يخلق البعض على صورة البعض فكل حيوان كامل فى صورته حسن فى شكله وكل عضو من أعضائه مقدر على مايصلح به معاشه وقيل معناه ألهم خلقه مايحتاجون إليه وعلمهم إياه وقيل معناه أحسن إلى كل خلقه (وبدأ خلق الإنسان من طين) يعنى آدم (ثم جعل نسله) يعنى ذريته (من سلالة) أى من نطفة تنسل من الإنسان (من ماء مهين) أى ضعيف (ثم سواه) أى سوى خلقه (ونفخ فيه من روحه) أضاف إليه الروح إضافة تشريف كبيت الله وناقة الله ثم ذكر ما يترتب على نفخ الروح فى الجسد فقال (وجعل لكم) أى خلق بعد أن كنتم نطفا مواتا (السمع والأبصار والأفئدة) قيل قدم السمع لأن الإنسان يسمع أولا كلاما فينظر إلي قائله ليعرفه ثم يتفكر بقلبه فى ذلك الكلام ليفهم معناه ووحد السمع لأن الإنسان يسمع الكلام من أى جهة كان (قليلا ماتشكرون) يعنى أنكم لاتشكرون رب هذه النعمة فتوحدوه إلا قليلا. قوله تعالي (وقالوا) يعنى منكرى البعث (أئذا ضللنا) هلكنا (فى الأرض) والمعنى صرنا ترابا (أئنا لنى خلق جديد) استفهام إنكارى قال الله تعالى (بل هم بلقاء ربهم كافرون) أى بالبعث بعد الموت (قل يتوفاكم) أى يقبض أرواحكم حتى لايبقى أحد ممن كتب عليه الموت (ملك الموت) وهو عزرائيل عليه السلام (الذى وكل بكم) أى أنه لايغفل عنكم وإذا جاء أجل أحدكم لايؤخر ساعة ولاشغل له إلاذلك روي أن ملك الموت جعلت له الدنيا مثل راحة اليد يأخذ منها صاحبها ماأحب من غير مشقة فهو يقبض أرواح الخلائق من مشارق الأرض ومغاربها وله أعوان من الملائكة ملائكة الرحمة وملائكة العذاب وقال ابن عباس إن خطوة ملك الموت مابين المشرق والمغرب وقال مجاهد

الموت جعلت له الدنيا مثل راحة اليد يأخذ منها صاحبها ماأحب من غير مشقة فهو يقبض أنفس الخلق في مشارق الأرض ومغاربها وله أعوان من ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فملائكة الرحمة للمؤمنين وملائكة العذاب للكافرين وقال ابن عباس إن خطوة ملك الموت مابين المشرق والمغرب وقال مجاهد جعلت له الأرض مثل طست يتناول منها حيث يشاء وفي بعض الأخبار أن ملك الموت على معراج بين السماء والأرض فينزع أعوانه روح الإنسان فإذا بلغ ثغرة نحره قبضه ملك الموت وروى خالد بن معدان عن معاذ بن جبل قال إن لملك الموت حربة تبلغ مابين المشرق والمغرب وهو يتصفح وجوه الناس فما من أهل بيت إلا وملك الموت يتصفحهم في كل يوم مرتين فإذا (٢٢٣) رأى إنسانا قد انقضى أجله ضرب رأسه بتلك الحربة وقال الآن تنزل بك سكرات الموت ؛ قوله (ثم إلى ربكم ترجعون) أى تصيرون إليه أحياء فيجزيكم بأعمالكم (ولو ترى إذ المجرمون) المشركون (ناكسوا رءوسهم) مطأطئو رءوسهم (عند ربهم) حياء منه وندما (ربنا) أى يقولون ربنا (أبصرنا) ما كنا به مكذبين (وسمعنا) منك تصديق ما أتتنا به رسلك ؛ وقيل أبصرنا معاصينا وسمعنا ما قيل فينا (فارجعنا) فارددنا إلى الدنيا (نعمل صالحا إنا موقنون) وجواب لو مضمر مجازه لرأيت العجب (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) رشدها وتوفيقها للايمان (ولكن حق) وجب (القول منى لأملأن جهنم من الجنة ، والناس أجمعين) وهو قوله لإبليس « لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » ثم يقال لأهل النار وقال مقاتل إذا دخلوا النار قالت لهم الخزنة (فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا) أى تركتم الإيمان به في الدنيا (إنا نسيناكم) تركناكم (وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) من الكفر والتكذيب . قوله عز وجل (إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها) وعظوا بها (خروا سجدا) سقطوا على وجوههم ساجدين (وسبحوا بحمد ربهم) قيل صلوا بأمر ربهم وقيل قالوا سبحان الله وبحمده (وهم لايستكبرون) عن الإيمان والسجود له (تتجافى) ترتفع وتنبو (جنوبهم عن المضاجع) جمع مضجع وهو الموضع الذى يضطجع عليه يعنى الفرس وهم المتهجدون بالليل الذين يقومون للصلاة . واختلفوا فى المراد بهذه الآية قال أنس نزلت فينا معشر الأنصار كنا نصلى المغرب فلا نرجع

جعلت له الأرض مثل الطست يتناول منها حيث يشاء وقيل إن ملك الموت على معراج بين السماء والأرض فتنزع أعوانه روح الإنسان فاذا بلغ ثغرة نحره قبضه ملك الموت . عن معاذ بن جبل قال إن الملك الموت حربة تبلغ مابين المشرق والمغرب وهو يتصفح وجوه الناس فما من أهل بيت إلا وملك الموت يتصفحهم فى كل يوم مرتين فإذا رأى إنسانا قد انقضى أجله ضرب رأسه بتلك الحربة وقال له الآن تنزل بك سكرات الموت . وقوله (ثم إلي ربكم ترجعون) أى تصيرون إلى ربكم أحياء فيجزيكم بأعمالكم. قوله عز وجل (ولو ترى إذ المجرمون) أى المشركون (ناكسوا رءوسهم عند ربهم) أى يطأطئونها حياء من ربهم وندما على مافعلوا عند ربهم يقولون (ربنا أبصرنا) أى ما كنا به مكذبين (وسمعنا) يعنى منك تصديق ماأتتنا به رسلك وقيل أبصرنا معاصينا وسمعنا ماقيل فينا (فارجعنا) أى فارددنا إلى الدنيا (نعمل صالحا إنا موقنون) أى فى الحال آمنا ولكن لاينفع ذلك الإيمان (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) أى رشدها وتوفيقها للإيمان (ولكن حق القول منى) أى وجب القول منى (لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) أى من كفار الجن والإنس (فذوقوا) يعنى فإذا دخلوا النار قالت لهم الخزنة ذوقوا (بما نسيتم لقاء يومكم) أى تركتم الإيمان فى الدنيا (هذا إنا نسيناكم) يعنى تركناكم بالكلية غير ملتفت إليكم كما يفعل بالناس قطعا لرجائكم (وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) أى من الكفر والتكذيب . قوله تعالي (إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها) أى وعظوا بها (خروا سجدا) يعنى سقطوا على وجوههم ساجدين (وسبحوا بحمد ربهم) يعنى صلوا بأمر ربهم وقيل قالوا سبحان الله وبحمده (وهم لايستكبرون) يعنى عن الإيمان به والسجود له (ق) عن ابن عمر قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ السورة التى فيها السجدة فيسجد ويسجدون حتى مايجد أحدنا مكانا لوضع جبهته فى غير وقت الصلاة » (م) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي ويقول ياويلتا أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلى النار » وهذه من عزائم سجود القرآن فتسن للقارئ وللمستمع . قوله تعالي (تتجافى جنوبهم) يعنى ترتفع وتنبو (عن المضاجع) جمع مضجع وهو الموضع الذى يضطجع عليه يعنى الفرش وهم المتهجدون بالليل الذى يقيمون

إلى رحالنا حتى نصلي العشاء مع النبي صلى الله عليه وسلم وعن أنس أيضا قال نزلت في أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء وهو قول أبي حازم ومحمد بن المنكدر وقالا هي صلاة الأوابين . وروى عن ابن عباس رضى الله عنه قال إن الملائكة لتحف بالذين يصلون بين المغرب والعشاء وهي صلاة الأوابين وقال عطاء هم الذين لاينامون حتى يصلوا العشاء الآخرة وعن أبي الدرداء ، وأبي ذر وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم هم الذين يصلون العشاء الآخرة والفجر في جماعة وروينا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «من صلى العشاء في جماعة كان كمن قام نصف ليلة ومن صلى الفجر في جماعة كان كقيام ليلة». أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن سمي مولى أبي بكر ابن عبد الرحمن عن أبي صالح السمان عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا ، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوا» وأشهر الأقاويل أن المراد منه صلاة الليل وهو قول الحسن ومجاهد ومالك والأوزاعي وجماعة . أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله ابن بشران أنا أبو علي إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن منصور الرمادي أنا عبد الرزاق أنا معمر عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن معاذ بن جبل قال «كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فأصبحت يوما قريبا منه وهو يسير فقلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار قال لقد سألت عن أمر عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ثم قال ألا أدلك على أبواب الخير الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة وصلاة الرجل في جوف الليل ثم تلا : تتجافى جنوبهم عن المضاجع حتى بلغ جزاء بما كانوا يعملون ، ثم قال ألا أدلك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه قلت بلى يارسول الله قال رأس الأمر الإسلام وعموده

الصلاة وقال أنس نزلت فينا معاشر الأنصار كنا نصلي المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أنس في قوله «تتجافى جنوبهم عن المضاجع» نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب صحيح وفي رواية أبي دواد عنه قال كانوا يتنفلون ما بين المغرب والعشاء أي يصلون وهو قول أبي حازم ومحمد بن المنكدر وقيل هي صلاة الأوابين وروى عن ابن عباس قال إن الملائكة لتحف بالذين يصلون بين المغرب والعشاء وهي صلاة الأوابين وقال عطاء هم الذين لاينامون حتى يصلوا العشاء الأخيرة والفجر في جماعة بدليل قوله صلى الله عليه وسلم «من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله» أخرجه مسلم من حديث عثمان بن عفان (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوا» وأشهر الأقاويل أن المراد منه صلاة الليل وهو قول الحسن ومجاهد ومالك الأوزاعي وجماعة :

(فصل : في فضل قيام الليل والحث عليه)

عن معاذ بن جبل قال «كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فأصبحت يوما قريبا منه وهو يسير فقلت يارسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار قال سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ثم قال ألا أدلك على أبواب الخير الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة وصلاة الرجل في جوف الليل ثم قرأ تتجافى جنوبهم عن المضاجع حتى بلغ جزاء بما كانوا يعملون ثم قال ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ قلت بلى يارسول الله قال رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد ثم قال ألا أخبرك بملاك ذلك كله قلت بلى يارسول الله قال فأخذ بلسانه وقال اكفف عليك هذا فقلت يارسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم فقال ثكلتك أمك يامعاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم وقال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم» أخرجه الترمذي عن أبي أمامة الباهلي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وقربة إلى ربكم وتكفير السيئات ومنهاة عن الآثام ومطردة الداء عن الجسد» أخرجه الترمذي عن ابن مسعود

قال

الصلاة وذروة سنامه الجهاد ثم قال ألا أخبرك بملاك ذلك كله قلت بلى يانبى الله قال فأخذ بلسانه فقال اكفف عليك هذا فقلت يانبى الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال ثكلتك أمك يامعاذ وهل يكب الناس فى النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم» حدثنا أبو الفضل زياد بن محمد بن زياد الحنفى أنا أبو محمد عبد الرحمن بن أحمد المخلدى أنا محمد بن أحمد بن عبد الجبار الريانى أنا حميد بن زنجويه أنا أبو عبد الله بن صالح حدثنى معاوية بن صالح حدثنى ربيعة ابن يزيد عن أبى إدريس الخولانى عن أبى أمامة الباهلى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وقربة لكم إلى ربكم وتكفير للسيئات ومنهاة عن الإثم» أخبرنا عبد الواحد المليحى أخبرنا أبو منصور محمد ابن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الريانى أنا حميد بن زنجويه أنا روح بن أسلم أنا حماد بن سلمة أنا عطاء بن السائب عن مرة الهمدانى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «عجب ربنا من رجلين رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين جنبيه وأهله إلى صلاته فيقول الله لملائكته انظروا إلى عبدى ثار عن فراشه ووطائه من بين جنبيه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندى وشفقا مما عندى ورجل غزا في سبيل الله فانهزم مع أصحابه فعلم ما عليه فى الانهزام وماله فى الرجوع فرجع فقاتل حتى أهريق دمه فيقول الله لملائكته انظروا إلى عبدى رجع رغبة فيما عندى وشفقا مما عندى حتى أهريق دمه » أخبرنا أبو عثمان الضبى أنا أبو محمد الجراح أنا أبو العباس المحبوبى أنا أبو عيسى الترمذى أنا قتيبة بن سعيد أنا أبو عوانة عن أبى بشر عن حميد بن عبد الرحمن الحميرى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل » أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أنا أبو الحسين بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن منصور الرمادى أنا عبد الرزاق أنا معمر عن يحيى بن أبى كثير عن ابن معانق عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام » أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أصبغ أخبرنى عبد الله ابن وهب أخبرني يونس عن ابن شهاب أن الهيثم بن أبى سنان أخبره أنه سمع أبا هريرة فى قصصه يذكر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول « إن أخاً لكم لايقول الرفث يعنى بذلك عبد الله بن رواحة قال :

وفينا رسول الله يتلو كتابه	إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا	به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه	إذا استثقلت بالكافرين المضاجع »

(٢٢٥)

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «عجب ربنا من رجلين رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين جنبيه وأهله إلى صلاته فيقول الله عز وجل لملائكته انظروا إلى عبدى ثار عن فراشة ووطائه من بين جنبيه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى ورجل غزا فى سبيل الله وانهزم مع أصحابه فعلم ما عليه فى الانهزام وماله فى الرجوح فرجع حتى أهريق دمه فيقول الله تعالى لملائكته انظروا إلى عبدى رجع رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى حتى أهريق دمه» أخرجه الترمذى بمعناه (م) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل» (ق) عن عائشة قالت « كان رسول الله ﷺ يقوم الليل حتى تورمت قدماه فقلت لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا» عن على قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن فى الجنة غرفا يرى باطنها من ظاهرها وظاهرها من باطنها أعدها الله لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام » أخرجه الترمذى (خ) عن الهيثم بن أبى سنان أنه سمع أبا هريرة رضى الله عنه فى قصة يذكر النبى صلى الله عليه وسلم يقول « إن أخا لكم لايقول الرفث يعنى بذلك ابن رواحة قال :

وفينا رسول الله يتلو كتابه	إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا	به موقنات ما إذا قال واقع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه	إذا استثقلت بالكافرين المضاجع »

وقوله عز وجل (يدعون ربهم خوفا وطمعا) قال ابن عباس : خوفا من النار وطمعا فى الجنة (ومما رزقناهم ينفقون) قيل أراد به الصدقة المفروضة ، وقيل عام فى الواجب والتطوع (فلا تعلم نفس ماأخفى لهم) قرأ حمزة ويعقوب أخفى لهم ساكنة الياء أى أنا أخفى لهم ومن حجته قراءة ابن مسعود نخفى بالنون وقرأ الآخرون بفتحها (من قرة أعين) مما تقر به أعينهم (جزاء بما كانوا يعملون) أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا إسحاق بن نصر أنا أبو أسامة عن الأعمش أنا أبو صالح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «يقول الله تبارك وتعالى أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخرا بله ما اطلعتم عليه ثم قرأ فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من (٢٢٦) قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » قال ابن عباس هذا مما لا تفسير له وعن بعضهم قال : أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم قوله عز وجل (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لايستوون) نزلت فى على بن أبى طالب والوليد ابن عقبة بن أبى معيط أخى عثمان لأمه وذلك أنه كان بينهما تنازع وكلام فى شىء فقال الوليد بن عقبة لعلى اسكت فإنك صبى وأنا والله أنشط منك لسانا وأحد منك سنانا وأشجع منك جنانا وأملأ منك حشواً فى الكتيبة فقال له على اسكت فإنك فاسق فأنزل الله تعالى «أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لايستوون » ولم يقل لايستويان لأنه لم يرد مؤمنا واحدا وفاسقا واحدا بل أراد جميع المؤمنين وجميع الفاسقين (أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى) التى يأوى إليه المؤمنون (نزلا بما كانوا يعملون وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر)أى سوى العذاب الأكبر(لعلهم يرجعون)قال أبى بن كعب والضحاك والحسن وإبراهيم العذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وهو رواية الوالبى عن ابن عباس . وقال عكرمة عنه الحدود ، وقال مقاتل الجوع سبع سنين بمكة حتى أكلوا الجيف والعظام والكلاب ، وقال ابن مسعود هو القتل بالسيف يوم بدر وهو قول قتادة والسدى دون العذاب الأكبر يعنى عذاب الآخرة لعلهم يرجعون إلى الإيمان يعنى من بقى منهم بعد بدر وبعد القحط قوله عز وجل (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين) يعنى المشركين

أخرجه البخارى وليس للهيثم بن سنان عن أبى هريرة فى الصحيحين غير هذا الحديث .

وقوله تعالى (يدعون ربهم خوفا وطمعا) قال ابن عباس خوفا من النار وطمعا فى الجنة (ومما رزقناهم ينفقون) قيل أراد به الصدقة المفروضة وقيل بل هو عام فى الواجب والتطوع. قوله عز وجل (فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين) أى مما تقر به أعينهم فلا يلتفتون إلى غيره قال ابن عباس هذا مما لاتفسير له وقيل أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم (جزاء بما كانوا يعملون) أى من الطاعات فى دار الدنيا (ق) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال« يقول الله تبارك وتعالى أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرءوا إن شئتم : فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة عين» . قوله تعالى(أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لايستوون) نزلت فى على بن أبى طالب والوليد بن عقبة بن أبى معيط كان بينهما تنازع وكلام فى شىء فقال الوليد لعلى اسكت فانك صبى وأنا شيخ وإنى أبسط منك لسانا وأحد منك سنانا وأشجع منك جنانا وأملأ منك حشوا فى الكتيبة فقال له على اسكت فانك فاسق فأنزل الله هذه الآية وقوله لايستوون أراد جنس المؤمنين وجنس الفاسقين ولم يرد مؤمنا واحدا ولا فاسقا واحدا (أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى) أى التى يأوى إليها المؤمنون (نزلا) هو مايهيأ للضيف عند نزوله (بما كانوا يعملون) يعنى من الطاعات فى دار الدنيا (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون) قوله تعالى (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر) أى سوى العذاب الأكبر قال ابن عباس العذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها ، وعنه أنه الحدود وقيل هو الجوع بمكة حتى أكلوا الجيف والعظام والكلاب سبع سنين وقال ابن مسعود هو القتل بالسيف يوم بدر والأكبر هو عذاب جهنم (لعلهم يرجعون) أى إلى الإيمان يعنى من بقى منهم بعد القحط وبعد بدر (ومن أظلم) أى لاأحد أظلم (ممن ذكر بآيات ربه) أى بدلائل وحدانيته وإنعامه عليه (ثم أعرض عنها) أى ترك الإيمان بها (إنا من المجرمين) يعنى المشركين

(منتقمون)

(منتقمون ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مرية من لقائه) يعنى فلا تكن فى شك من لقاء موسى ليلة المعراج ، قاله ابن عباس وغيره أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن بشار أنا غندر عن شعبة عن قتادة رحمهما الله قال وقال لى خليفة أنا يزيد بن زريع أنا سعيد عن قتادة عن أبى العالية قال أنا ابن عم نبيكم يعنى ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «رأيت ليلة أسرى بى موسى رجلا آدم طوالا جعدا كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى رجلا مربوعا مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس ورأيت مالكا خازن النار والدجال فى آيات أراهن الله إياه فلا تكن فى مرية من لقائه» أخبرنا أبو صالح أحمد بن عبد الملك المؤذن أنا عبد الله المحاملى أنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن إبراهيم البزار أنا محمد بن يونس أنا عمر بن حبيب القاضى أنا سليمان التيمى عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما أسرى بى إلى السماء رأيت موسى يصلى فى قبره » وروينا فى المعراج أنه رآه فى السماء السادسة ومراجعته فى أمر الصلاة قال السدى فلا تكن فى مرية من لقائه أى من تلقى موسى كتاب الله بالرضا والقبول (وجعلناه) يعنى الكتاب وهو التوراة وقال قتادة موسى (هدى لبنى إسرائيل وجعلنا منهم) يعنى من بنى إسرائيل (أئمة) قادة فى الخير يقتدى بهم يعنى الأنبياء الذين كانوا فيهم وقال قتادة أتباع الأنبياء (يهدون) يدعون (بأمرنا لما صبروا) قرأ حمزة والكسائى بكسر اللام وتخفيف الميم أى لصبرهم وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد الميم أى حين صبروا على دينهم وعلى البلاء من عدوهم بمصر (وكانوا بآياتنا يوقنون إن ربك هو يفصل) يقضى (بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون أو لم يهد) لم يتبين (لهم

(منتقمون) معناه أنهم لما لم يرجعوا بالعذاب الأدنى فانا منهم منتقمون بالعذاب الأكبر . قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) أى التوراة (فلا تكن فى مرية) أى فى شك (من لقائه) أى من لقاء موسى ليلة المعراج قاله ابن عباس (ق) عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «رأيت ليلة أسرى بى موسى رجلا آدم طوالا جعدا كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى رجلا مربوعا مربوع الخلق إلى الحمرة وإلى البياض سبط الشعر ورأيت مالكا خازن النار والدجال فى آيات أراهن الله إياه فلا تكن فى مرية من لقائه » (م) عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أتيت على موسى ليلة المعراج ليلة أسرى بى عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلى فى قبره» . فإن قلت قد صح فى حديث المعراج أنه رآه فى السماء السادسة عند مراجعته فى الصلوات فكيف الجمع بين هذين الحديثين . قلت يحتمل أن تكون رؤيته فى قبره عند الكثيب الأحمر كان قبل صعوده إلى السماء وذلك فى طريقه إلى بيت المقدس ثم لما صعد إلى السماء السادسة وجده هناك قد سبقه لما يريد الله عز وجل وهو على كل شىء قدير . فإن قلت كيف تصح منه الصلاة فى قبره وهو ميت وقد سقط عنه التكليف وهو فى دار الآخرة وليست دار عمل وكذلك رأى النبى صلى الله عليه وسلم جماعة من الأنبياء وهم يحجون فما الجواب عن هذا . قلت يجاب عنه بأجوبة أحدها أن الأنبياء كالشهداء بل هم أفضل منهم والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فلا يبعد أن يحجوا أو يصلوا كما صح فى الحديث وأن يتقربوا إلى الله بما استطاعوا وإن كانوا قد ماتوا لأنهم بمنزلة الأحياء فى هذه الدار التى هى دار العمل إلى أن تفنى ثم يرحلون إلى دار الجزاء التى هى الجنة الجواب الثانى أنه صلى الله عليه وسلم رأى حالهم الذى كانوا عليه فى حياتهم ومثلوا له كيف كانوا وكيف كان حجهم وصلاتهم الجواب الثالث أن التكليف وإن ارتفع عنهم فى الآخرة لكن الذكر والشكر والدعاء لا يرتفع قال الله تعالى «دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام» وقال صلى الله عليه وسلم «يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس» فالعبد يعبد ربه فى الجنة أكثر مما كان يعبده فى الدنيا وكيف لا يكون ذلك وقد صار حاله مثل حال الملائكة الذين قال الله فى حقهم «يسبحون الليل والنهار لا يفترون» غاية ما فى الباب أن العبادة ليست عليهم بتكليف بل هى على مقتضى الطبع والله أعلم وقيل فى قوله «فلا تكن فى مرية من لقائه» أى من تلقى موسى كتاب الله بالرضا والقبول (وجعلناه) أى الكتاب (هدى لبنى إسرائيل وجعلنا منهم) أى من بنى إسرائيل (أئمة) أى قادة للخير يقتدى بهم وهم الأنبياء الذين كانوا فى بنى إسرائيل وقيل هم أتباع الأنبياء (يهدون بأمرنا) يعنى يدعون الناس إلى طاعتنا (لما صبروا) يعنى على دينهم وعلى البلاء من عدوهم بمصر (وكانوا بآياتنا يوقنون) يعنى أنها من الله تعالى (إن ربك هو يفصل) أى يقضى ويحكم (بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) قيل هم الأنبياء وأممهم وقيل هم المؤمنون والمشركون قوله تعالى (أو لم يهد لهم)

كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون) آيات الله وعظاته فيتعظون بها (أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز) أى اليابسة الغليظة التى لانبات فيها قال ابن عباس هى أرض باليمن وقال مجاهد هى أرض أبين (فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم) من العشب والتبن (وأنفسهم) من الحبوب والأقوات (أفلا يبصرون ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين) قيل أراد بيوم الفتح يوم القيامة الذى فيه الحكم بين العباد قال قتادة قال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم للكفار إن لنا يوما نتنغم فيه ونستريح ويحكم بيننا وبينكم فقالوا استهزاء متى

هذا الفتح أى القضاء والحكم وقال الكلبى يعنى فتح مكة وقال السدى يوم بدر لأن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون لهم « إن الله ناصرنا ومظهرنا عليكم فيقولون متى هذا الفتح (قل يوم الفتح) يوم القيامة (لا ينفع الذين كفروا إيمانهم) ومن حمل الفتح على فتح مكة والقتل يوم بدر قال معناه لا ينفع الذين كفروا إيمانهم إذا جاءهم العذاب وقتلوا (ولا هم ينظرون) لا يمهلون ليتوبوا ويعتذروا (فأعرض عنهم) قال ابن عباس نسختها آية السيف (وانتظر إنهم منتظرون) قيل انتظر موعدى لك بالنصر إنهم منتظرون بك حوادث الزمان وقيل انتظر عذابنا فيهم فإنهم منتظرون ذلك أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو نعيم أنا سفيان عن سعد بن إبراهيم عن عبد الرحمن ابن هرمز عن أبى هريرة أنه قال « كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ فى الفجر يوم الجمعة الم تنزيل السجدة وهل أتى على الإنسان » أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أبو منصور السمعانى أنا أبو جعفر الريانى أنا حميد بن زنجويه أنا أبو نعيم أنا سفيان عن ليث عن أبى الزبير عن جابر قال « كان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ الم تنزيل وتبارك الذى بيده الملك ».

(سورة الأحزاب مدنية وهى ثلاث وسبعون آية) (بسم الله الرحمن الرحيم)

(يا أيها النبي اتق الله) نزلت فى أبى سفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جهل وأبى الأعور عمرو بن سفيان السلمى وذلك

أى نبين لهم (كم أهلكنا) يعنى كثرة من أهلكنا (من قبلهم من القرون) يعنى الأمم الخالية (يمشون فى مساكنهم) يعنى أهل مكة يسيرون فى بلادهم ومنازلهم إذا سافروا (إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون) يعنى آيات الله ومواعظه فيتعظون بها . قوله عز وجل (أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز) أى الأرض اليابسة الغليظة التى لانبات فيها قال ابن عباس هى أرض باليمن وقيل هى أبين (فنخرج به) أى بذلك الماء (زرعا تأكل منه أنعامهم) يعنى العشب والتبن (وأنفسهم) أى من الحبوب والأقوات (أفلا يبصرون) يعنى فيعتبروا . قوله تعالى (ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين) قيل أراد بيوم الفتح يوم القيامة الذى فيه الحكم والقضاء بين العباد وذلك أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا للكفار إن لنا يوما ننعم فيه ونستريح ويحكم فيه بيننا وبينكم فقال الكفار استهزاء متى هذا الفتح أى القضاء والحكم وقيل هو فتح مكة وقيل يوم بدر وذلك أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون للكفار إن الله ناصرنا ومظهرنا عليكم فيقولون متى هذا الفتح (قل يوم الفتح) يعنى يوم القيامة (لاينفع الذين كفروا إيمانهم) يعنى لايقبل منهم الإيمان ومن حمل يوم الفتح على فتح مكة أو القتل يوم بدر قال معناه لاينفع الذين كفروا إيمانهم إذا جاءهم العذاب وقتلوا (ولا هم ينظرون) يعنى يمهلون ليتوبوا ويعتذروا (فأعرض عنهم) قال ابن عباس نسختها آية السيف (وانتظر) يعنى موعدى لك بالنصر عليهم (إنهم منتظرون) أى بك حوادث الزمان وقيل معناه انتظر عذابنا إياهم فهم منتظرون ذلك (ق) عن أبي هريرة رضى الله عنه قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ فى الفجر يوم الجمعة الم تنزيل الكتاب وهل أتى على الإنسان » عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم « كان لاينام حتى يقرأ الم تنزيل الكتاب وتبارك الذي بيده الملك » أخرجه الترمذى وقال طاوس تفضلان عن كل سورة فى القرآن بسبعين حسنة أخرجه الترمذى والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه .

(تفسير سورة الأحزاب)

مدنية وهى ثلاث وسبعون آية وألف ومائتان وثمانون كلمة وخمسة آلاف وسبعمائة وتسعون حرفا .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (يا أيها النبى اتق الله

أنهم قدموا المدينة فنزلوا على عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين بعد قتال أحد وقد أعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم الأمان على أن يكلموه فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح وطعمة بن أبيرق فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم وعنده عمر بن الخطاب ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة وقل إن لها شفاعة لمن عبدها وندعك وربك

فشق على النبي صلى الله عليه وسلم قولهم فقال عمر يارسول الله ائذن لنا فى قتلهم فقال إنى قد أعطيتهم الأمان فقال عمر اخرجوا فى لعنة الله وغضبه فأمر النبي صلى الله عليه وسلم عمر أن يخرجهم من المدينة فأنزل الله تعالى « يا أيها النبي اتق الله » أي دم على التقوى كالرجل يقول لغيره وهو قائم قم هاهنا أي اثبت قائما وقيل الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد به الأمة . وقال الضحاك معناه اتق الله ولا تنقض العهد الذي بينك وبينهم (ولا تطع الكافرين) من أهل مكة يعني أبا سفيان وعكرمة وأبا الأعور (والمنافقين) من أهل المدينة عبد الله بن أبي وعبد الله بن سعد وطعيمة (إن الله كان عليما) بخلقه قبل أن يخلقهم (حكيما) فيما دبره لهم (واتبع مايوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا) قرأ أبو عمرو « يعملون كبيرا ويعملون بصيرا » بالياء فيهما وقرأ غيره بالتاء (وتوكل على الله) ثق بالله (وكفى بالله وكيلا) حافظا لك وقيل كفيلا برزقك ، قوله عز وجل (ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) نزلت فى أبي معمر جميل بن معمر الفهرى وكان رجلا لبيبا حافظا لما يسمع فقالت قريش ماحفظ أبو معمر هذه الأشياء إلا وله قلبان وكان يقول إن لى قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل

ولا تطع الكافرين والمنافقين) نزلت فى أبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبي الأعور عمرو بن سفيان السلمى وذلك أنهم قدموا المدينة فنزلوا على عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين بعد قتال أحد وقد أعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم الأمان على أن يكلموه فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح وطعمة بن أبيرق فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم وعنده عمر بن الخطاب ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة وقل إن لها شفاعة لمن عبدها وندعك وربك فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فقال عمر يارسول الله ائذن لى فى قتلهم فقال إني أعطيتهم الأمان فقال عمر اخرجوا فى لعنة الله وغضبه فأمر النبي صلى الله عليه وسلم عمر أن يخرجهم من المدينة فأنزل الله تعالى « يا أيها النبي اتق الله » أى دم على التقوى وقيل معناه اتق الله ولا تنقض العهد الذى بينك وبينهم وقيل الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته ولا تطع الكافرين يعنى من أهل مكة يعنى أبا سفيان وعكرمة وأبا الأعور والمنافقين يعنى من أهل المدينة عبد الله بن أبي وعبد الله بن سعد وطعمة (إن الله كان عليما) أى بخلقه قبل أن يخلقهم (حكيما) أى فيما دبره لهم (واتبع مايوحى إليك من ربك) يعنى من وفاء العهد وترك طاعة الكافرين والمنافقين (إن الله كان بما تعملون خبيرا وتوكل على الله) أى ثق بالله وكل أمرك إليه (وكفى بالله وكيلا) يعنى حافظا لك وقيل كفيلا برزقك . قوله تعالى (ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) نزلت فى أبي معمر جميل بن معمر الفهرى وكان رجلا لبيبا حافظا لما يسمع فقالت قريش ماحفظ أبو معمر هذه الأشياء إلا وله قلبان وكان يقول إن لى قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد فلما هزم الله المشركين يوم بدر انهزم أبو معمر فيهم فلقيه أبو سفيان وإحدى نعليه فى يده والأخرى فى رجله فقال له ياأبامعمر ماحال الناس فقال انهزموا فقال له فما بال إحدي نعليك فى يدك والأخري فى رجلك فقال أبو معمر ماشعرت إلا أنهما فى رجلى فعلموا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسى نعله فى يده وعن أبي ظبيان قال قلنا لابن عباس أرأيت قول الله ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ما عنى بذلك قال « قام نبي الله صلى الله عليه وسلم يوما يصلى فخطر خطرة فقال المنافقون الذين يصلون معه ألا تروا أن له قلبين قلبا معكم وقلبا معهم فأنزل الله ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » أخرجه الترمذى وقال حديث حسن قوله خطر خطرة يريد الوسوسة التى تحصل للإنسان فى صلاته وقيل فى معنى الآية أنه لما قال الله تعالى « يا أيها النبي اتق الله » فكان ذلك أمرا بالتقوى فكأنه قال ومن حقها أن لايكون فى قلبك تقوي غير الله فإن المرء ليس له قلبان حتى يتقى الله بأحدهما وبالآخر غيره وقيل إن هذا مثل ضربه الله تعالى للمظاهر من امرأته وللمتبنى ولد غيره فكما لايكون لرجل قلبان لأنه لايخلو إما أن يفعل بأحدهما مايفعل بالآخر من أفعال القلوب فالآخر فضلة غير محتاج إليه وإما أن يفعل بهذا مالا يفعل بذاك فذلك يؤدى إلى اتصاف الجملة بكونه مريدا كارها عالما جاهلا موقنا شاكا فى حالة

محمد فلما هزم الله المشركين يوم بدر انهزم أبو معمر فيهم فلقيه أبو سفيان وإحدى نعليه في يده والأخرى فى رجله فقال له ياأبا معمر ماحال الناس قال انهزموا قال فمالك إحدى نعليك فى يدك والأخرى فى رجلك ؟ فقال أبو معمر ماشعرت إلا أنهما فى رجلى فعلموا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسى نعله فى يده ؛ وقال الزهرى ومقاتل هذا مثل ضربه الله عز وجل للمظاهر من امرأته وللمتبنى ولد غيره يقول فكما لايكون لرجل قلبان كذلك لاتكون امرأة المظاهر أمه حتى تكون له أمان ولا يكون ولد واحد ابن رجلين (وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم) قرأ أهل الشام والكوفة اللائي هاهنا وفى سورة الطلاق بياء بعد الهمزة وقرأ قالون عن نافع ويعقوب بغير ياء بعد الهمزة وقرأ الآخرون بتليين الهمزة وكلها لغات معروفة تظاهرون وقرأ عاصم بالألف وضم التاء وكسر الهاء مخففا وقرأ حمزة والكسائي بفتح التاء والهاء مخففا . وقرأ ابن عامر بفتحها وتشديد الظاء وقرأ الآخرون بفتحها وتشديد الظاء والهاء من غير ألف بينهما وصورة الظهار أن يقول الرجل لامرأته أنت على كظهر أمى يقول (٢٣٠) الله تعالى ما جعل نساءكم اللائي تقولون لهن هذا فى التحريم كأمهاتكم ولكنه منكر وزور وفيه كفارة نذكرها إن شاء الله تعالى فى سورة المجادلة (وما جعل أدعياءكم) يعنى من تبنيتموه (أبناءكم) فيه نسخ التبنى وذلك أن الرجل فى الجاهلية كان يتبنى الرجل فيجعله كالابن المولود له يدعوه الناس إليه ويرث ميراثه وكان النبى صلى الله عليه وسلم أعتق زيد بن حارثة ابن شراحيل الكلبى وتبناه قبل الوحى وآخى بينه وبين حمزة بن عبد المطلب ، فلما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش وكانت تحت زيد بن حارثة قال المنافقون تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى الناس تدعوه عن ذلك فأنزل الله هذه الآية ونسخ التبنى (ذلكم قولكم بأفواهكم) لاحقيقة له يعنى قولهم زيد بن محمد صلى الله عليه وسلم وادعاء نسب لاحقيقة له (والله يقول الحق) يعنى قوله الحق (وهو يهدى السبيل) أى يرشدهم إلى سبيل الحق (ادعوهم لآبائهم) الذين ولدوهم (هو أقسط) أعدل (عند الله) أخبرنا عبدالواحد المليحى أنا أحمد بن عبدالله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا معلى بن أسد أنا عبد العزيز بن المختار أنا موسى بن عقبة حدثنى سالم عن عبد الله بن عمر أن زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ماكنا ندعو إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله (فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم) يعنى فهم إخوانكم (فى الدين ومواليكم) إن كانوا محررين وليسوا بنيكم ؛ أى سموهم بأسماء إخوانكم فى الدين وقيل مواليكم أى أولياؤكم فى الدين (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) قبل النهى فنسبتموه إلى غير أبيه (ولكن ماتعمدت قلوبكم) من دعائهم إلى غير آبائهم بعد النهى وقال قتادة فيما أخطأتم به أن تدعوه لغير أبيه وهو يظن أنه كذلك ومحل

واحدة وهما حالتان متنافيتان فكذلك لاتكون امرأة المظاهر أمه حتى يكون له أمان ولايكون ولد واحد ابن رجلين . قوله تعالى (وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم) وصورة الظهار أن يقول الرجل لامرأته أنت على كظهر أمى يقول الله وما جعل نساءكم التى تقولون لهن هذا فى التحريم كأمهاتكم ولكنه منكم منكر وزور وفيه كفارة وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله فى سورة المجادلة قوله تعالى (وما جعل أدعياءكم) يعنى الذين تتبنونهم (أبناءكم) وفيه نسخ التبنى وذلك أن الرجل كان فى الجاهلية يتبنى الرجل فيجعله كالابن المولود يدعوه إليه الناس ويرث ميراثه وكان النبى صلى الله عليه وسلم أعتق زيد بن حارثة ابن شراحيل الكلبى وتبناه قبل الوحى وآخى بينه وبين حمزة بن عبد المطلب فلما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش وكانت تحت زيد بن حارثة قال المنافقون تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى الناس عن ذلك فأنزل الله هذه الآية ونسخ بها التبنى (ذلكم قولكم بأفواهكم) أى لاحقيقة له يعنى قولهم زيد بن محمد وادعاء النسب لاحقيقة له (والله يقول الحق) يعنى قوله الحق (وهو يهدى السبيل) يعنى يرشد إلى سبيل الحق (ادعوهم لآبائهم) يعنى الذين ولدوهم فقولوا زيد بن حارثة (هو أقسط عند الله) يعنى أعدل عند الله (ق) عن ابن عمر قال « إن زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله الآية » (فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين) يعنى فهم إخوانكم (ومواليكم) أى كانوا محررين وليسوا ببنيكم أى فسموهم بأسماء إخوانكم فى الدين وقيل معنى مواليكم أولياؤكم فى الدين (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) أى قبل النهى فنسبتموه إلى غير أبيه (ولكن ماتعمدت قلوبكم) أي من دعائهم إلى غير آبائهم بعد النهى وقيل فيما أخطأتم به أن

ما في قوله تعالى ما تعمدت خفض ردا على ما التى فى قوله فيما أخطأتم به مجازه ولكن فيما تعمدت قلوبكم (وكان الله غفورا رحيما) أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد ابن عبد الله النعيمى أنا محمد ابن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن بشار أنا غندر أنا شعبة عن عاصم قال سمعت أبا عثمان قال سمعت سعدا وهو أول من رمى بسهم فى سبيل الله وأبا بكرة وكان قد تسور حصن الطائف فى أناس فجاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالا سمعنا النبى صلى الله عليه وسلم يقول «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام» قوله عز وجل (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) يعنى من بعضهم ببعض فى نفوذ حكمه فيهم ووجوب طاعته عليهم وقال ابن عباس وعطاء يعنى إذا دعاهم النبى صلى الله عليه وسلم ودعتهم أنفسهم إلى شىء كانت طاعة النبى صلى الله عليه وسلم أولى بهم من طاعتهم أنفسهم قال ابن زيد النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم فيما قضى فيهم (٢٣١) كما أنت أولى بعبدك فيما قضيت عليه وقيل هو أولى بهم فى الحمل على الجهاد وبذل النفس دونه وقيل كان النبى صلى الله عليه وسلم يخرج إلى الجهاد فيقول قوم نذهب فنستأذن من آبائنا وأمهاتنا فنزلت الآية أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله بن محمد أنا أبو عامر أنا فليح عن هلال بن على عن عبد الرحمن ابن أبى عمرو عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «ما من مؤمن إلا أنا أولى به فى الدنيا والآخرة اقرءوا إن شئتم النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم؛ فأيما مؤمن مات وترك مالا فليرثه عصبته من كانوا ومن ترك دينا أو ضياعا فليأتنى فأنا مولاه» قوله عز وجل (وأزواجه أمهاتهم) وفى حرف أبى وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم وهن أمهات المؤمنين فى تعظيم حقهن وتحريم نكاحهن على التأبيد لا فى النظر إليهن والخلوة بهن فإنه حرام فى حقهن كما فى حق الأجانب قال الله تعالى «وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب» ولا يقال لبناتهن هن أخوات المؤمنين ولا لإخوانهن وأخواتهن هم أخوال المؤمنين وخالاتهم قال الشافعى تزوج الزبير أسماء بنت أبى بكر وهى أخت أم المؤمنين ولم يقل هى خالة المؤمنين. واختلفوا فى أنهن هل كن أمهات النساء المؤمنات؛ قيل كن أمهات المؤمنين والمؤمنات جميعا وقيل كن أمهات المؤمنين دون النساء. وروى الشعبى عن مسروق أن امرأة قالت لعائشة رضى الله عنها يا أمه فقالت لست لك بأم إنما أنا أم رجالكم فبان بهذا أن معنى هذه الأمومة تحريم نكاحهن؛ قوله عز وجل (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض

تدعوه إلى غير أبيه وهو يظن أنه كذلك (وكان الله غفورا رحيما) (ق) عن سعد بن أبي وقاص وأبي بكرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام» قوله عز وجل (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) يعني من بعضهم ببعض فى نفوذ حكمه عليهم ووجوب طاعته وقال ابن عباس إذا دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم ودعتهم أنفسهم إلى شيء كانت طاعة النبي صلى الله عليه وسلم أولى بهم من طاعة أنفسهم وهذا صحيح لأن أنفسهم تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم ورسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلي ما فيه نجاتهم وقيل هو أولى بهم فى الحمل على الجهاد وبذل النفس دونه وقيل كان النبي صلى الله عليه وسلم يخرج إلى الجهاد فيقول قوم نذهب فنستأذن من آبائنا وأمهاتنا فنزلت الآية (ق) عن أبي هريرة قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة واقرءوا إن شئتم النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم فأيما مؤمن ترك مالا فلترثه عصبته من كانوا ومن ترك دينا أو ضياعا فليأتني فأنا مولاه» عصبة الميت من يرثه سوي من له فرض مقدر وقوله أو ضياعا أي عيالا وأصله مصدر ضاع يضيع ضياعا وإن كسرت الضاد كان جمع ضائع. قوله تعالى (وأزواجه أمهاتهم) يعني أمهات المؤمنين فى تعظيم الحرمة وتحريم نكاحهن على التأبيد لا فى النظر إليهن والخلوة بهن فإنه حرام فى حقهن كما فى حق الأجانب ولا يقال لبناتهن هن أخوات المؤمنين ولا لإخوانهن وأخواتهن هن أخوال المؤمنين وخالاتهم قال الشافعي تزوج الزبير أسماء بنت أبي بكر وهي أخت عائشة أم المؤمنين ولم يقل هي خالة المؤمنين وقيل إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كن أمهات المؤمنين والمؤمنات الرجال والنساء وقيل كن أمهات الرجال دون النساء بدليل ما روى عن مسروق أن امرأة قالت لعائشة يا أمه فقالت لست لك بأم إنما أنا أم رجالكم فبان بذلك أن معنى الأمومة إنما هو تحريم نكاحهن (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) يعني فى الميراث قيل كان المسلمون يتوارثون بالهجرة وقيل آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الناس فكان يؤاخي بين الرجلين فإذا مات أحدهما ورثه الآخر دون عصبته حتى نزلت وأولى الأرحام بعضهم أولى ببعض

في كتاب الله) يعني في الميراث قال قتادة كان المسلمون يتوارثون بالهجرة قال الكلبي آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الناس فكان يؤاخي بين رجلين فإذا مات أحدهما ورثه الآخر دون عصبته حتى نزلت هذه الآية « وأولى الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » في حكم الله (من المؤمنين) الذين آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم (والمهاجرين) يعني ذوي القرابات بعضهم أولى بميراث بعض من أن يرثوا بالإيمان والهجرة . نسخت هذه الآية الموارثة بالمؤاخاة والهجرة وصارت بالقرابة ، قوله (إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا) أراد بالمعروف الوصية للذين يتولونه من المعاقدين وذلك أن الله لما نسخ التوارث بالحلف والهجرة أباح أن يوصي الرجل لمن يتولاه بما أحب من ثلثه . وقال مجاهد أراد بالمعروف النصرة وحفظ الحرمة لحق الإيمان والهجرة . وقيل أراد بالآية إثبات الميراث بالإيمان والهجرة يعني وأولوا الأرحام من المؤمنين والمهاجرين (٢٣٢) بعضهم أولي ببعض أي لا توارث بين المسلم والكافر ولا بين المهاجر وغير المهاجر إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا يعني إلا أن توصوا لذوي قراباتكم بشيء وإن كانوا من غير أهل الإيمان والهجرة وهذا قول قتادة وعطاء وعكرمة (كان ذلك في الكتاب مسطورا) أي كان الذي ذكرت من أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في اللوح المحفوظ مسطورا مكتوبا وقال القرظي في التوراة قوله عز وجل (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) على الوفاء بما حملوا وأن يصدق بعضهم بعضا ويبشر بعضهم ببعض قال مقاتل أخذ ميثاقهم على أن يعبدوا الله ويدعوا إلى عبادة الله ويصدق بعضهم بعضا وينصحوا لقومهم (ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم) خص هؤلاء الخمسة بالذكر من بين النبيين لأنهم أصحاب الكتب والشرائع وأولوا العزم من الرسل وقدم النبي صلى الله عليه وسلم بالذكر لما أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسين بن محمد الحديثي أنا عبد الله بن أحمد بن يعقوب المقرئ « أنا محمد بن محمد بن سليمان الساعدي أنا هارون بن محمد بن بكار بن بلال أنا أبي أنا سعيد « يعني ابن بشير عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث» قال قتادة ، وذلك قول الله عز وجل «وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح» فبدأ به صلى الله عليه وسلم قبلهم (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) عهدا شديدا على الوفاء بما حملوا (ليسأل الصادقين عن صدقهم) يقول أخذنا ميثاقهم لكي يسأل الصادقين يعني النبيين عن تبليغهم الرسالة والحكمة في سؤالهم مع علمه أنهم صادقون تبكيت من أرسلوا إليهم وقيل ليسأل الصادقين عن عملهم لله عز وجل وقيل ليسأل

وقيل في معنى الآية لا توارث بين المسلم والكافر ولا بين المهاجر وغير المهاجر (في كتاب الله) أي في حكم الله (من المؤمنين) الذين آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم (والمهاجرين) يعني أن ذوي القرابات أولى بعضهم ببعض فنسخت هذه الآية الموارثة بالمؤاخاة والهجرة وصارت الموارثة بينهم بالقرابة (إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا) يعني الوصية للذين يتولونه من المعاقدين وذلك أن الله تعالى لما نسخ التوارث بالحلف والإخاء والهجرة أباح أن يوصي لمن يتولاه بما أحب من ثلث ماله وقيل أراد بالمعروف النصر وحفظ الحرمة بحق الإيمان والهجرة وقيل معناه إلا أن توصوا إلى قرابتكم بشيء وإن كانوا من غير أهل الإيمان والهجرة (كان ذلك) أي الذي ذكر من أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض (في الكتاب) أي في اللوح المحفوظ وقيل في التوراة (مسطورا) أي مكتوبا مثبتا . قوله تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) أي على الوفاء بما حملوا وأن يصدق بعضهم بعضا ويبشر بعضهم ببعض وقيل على أن يعبدوا الله ويدعوا الناس إلى عبادته وينصحوا لقومهم (ومنك) يعني يا محمد (ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم) خص هؤلاء الخمسة بالذكر من بين النبيين لأنهم أصحاب الكتب والشرائع وأولوا العزم من الرسل وقدم النبي صلى الله عليه وسلم في الذكر تشريفا له وتفضيلا ولما روى البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث قال قتادة وذلك قول الله وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح » فبدأ به صلى الله عليه وسلم (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) أي عهدا شديدا على الوفاء بما حملوا من تبليغ الرسالة (ليسأل الصادقين عن صدقهم) يعني أخذ ميثاقهم لكي يسأل الصادقين يعني النبيين عن تبليغهم الرسالة والحكمة في سؤالهم مع علمه سبحانه وتعالى أنهم صادقون تبكيت من أرسلوا إليهم وقيل ليسأل الصادقين عن صدقهم عن عملهم لله عز وجل

وقيل

الصادقين بأفواههم عن صدقهم فى قلوبهم (وأعد للكافرين عذابا أليما) . قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم) وذلك حين حوصر المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الخندق (إذ جاءتكم جنود) يعنى الأحزاب وهم قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير (فأرسلنا عليهم ريحا) وهى الصبا قال عكرمة قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب انطلقى ننصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت الشمال إن الحرة لاتسري بالليل وكانت الريح التى أرسلت عليهم الصبا . أخبرنا عبدالواحد المليحى أنا أحمد بن عبدالله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا آدم أنا شعبة عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « نصرت بالصبا (٢٣٣) وأهلكت عاد بالدبور » قوله تعالى (وجنودا لم تروها) وهم الملائكة ولم تقاتل الملائكة يومئذ فبعث الله عليهم تلك الليلة ريحا باردة فقلعت الأوتاد وقطعت أطناب الفساطيط وأطفأت النيران وأكفأت القدور وجالت الخيل بعضها فى بعض وكثر تكبير الملائكة فى جوانب عسكرهم حتى كان سيد كل حي يقول يابنى فلان هلم إلى فإذا اجتمعوا عنده قال النجاء النجاء أتيتم لما بعث الله عليهم من الرعب فانهزموا من غير قتال (وكان الله بما تعملون بصيرا) قال محمد بن إسحاق حدثنى يزيد بن رومان مولى آل الزبير عن عروة بن الزبير ومن لاأتهم عن عبيد الله بن كعب بن مالك وعن الزهرى وعاصم بن عمر ابن قتادة عن عبد الله ابن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وعن محمد بن كعب القرظى وعن غيرهم من علمائنا دخل حديث بعضهم فى بعض « أن نفرا من اليهود منهم سلام بن أبى الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق وهودة بن قيس وأبي عمار الوائلى فى نفر من بنى النضير ونفر من بنى وائل وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله فقالت لهم قريش يامعشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد فديننا خير أم دينه قالوا بل دينكم خير من دينه وأنتم أولي بالحق منه قال فهم الذين أنزل الله فيهم

وقيل ليسأل الصادقين بأفواههم عن صدقهم فى قلوبهم (وأعد للكافرين عذابا أليما) قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم) وذلك حين حوصر المسلمون مع النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة أيام الخندق (إذ جاءتكم جنود) يعنى الأحزاب وهم قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير (فأرسلنا عليهم ريحا) يعنى الصبا قال عكرمة قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب انطلقى ننصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت الشمال إن الحرة لاتسرى بالليل فكانت الريح التى أرسلت عليهم الصبا (ق) عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور » وقيل الصبا ريح فيها روح ماهبت على محزون إلا ذهب حزنه . قوله تعالى (وجنودا لم تروها) يعنى الملائكة ولم تقاتل ملائكة يومئذ فبعث الله عز وجل تلك الليلة ريحا باردة نقلعت الأوتاد وقطعت أطناب الفساطيط وأطفأت النيران وأكفأت القدور وماجت الخيل بعضها فى بعض وكثر تكبير الملائكة فى جوانب عسكرهم حتى كان سيد كل حى يقول يابنى فلان النجاء النجاء هلموا إلى فإذا اجتمعوا عنده قال النجاء النجاء فانهزموا من غير قتال لما بعث الله عليهم من الرعب (وكان الله بما تعملون بصيرا) .

(ذكر غزوة الخندق وهى الأحزاب)

قال البخارى قال موسى بن عقبة كانت فى شوال سنة أربع من الهجرة . وروى محمد بن إسحاق عن مشايخه قال دخل حديث بعضهم فى بعض إن نفرا من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق وهو ابن قيس وأبو عمار الوائلى في نفر من بنى النضير ونفر من بنى وائل وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله فقالت لهم قريش يامعشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد فديننا خير أم دينه قالوا دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه فهم الذين قال الله تعالى فيهم « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت » إلى قوله «وكفى بجهنم سعيرا » قال فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ماقالوا ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمعوا على

«ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الـكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت» إلى قوله «وكفى بجهنم سعيرا» فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ماقالوا ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمعوا لذلك ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى ذلك وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه وإن قريشا قد بايعوهم على ذلك فأجابوهم فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر فى بنى فزارة والحارث بن عوف بن أبى حارثة المرى فى بنى مرة ومسعر بن رخيلة بن نويرة بن طريف فيمن تابعه من قومه من أشجع فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبما اجتمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة وكان الذى أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٣٤) بالخندق سلمان الفارسى وكان أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ جر فقال يارسول الله إنا كنا بفارس إذا أحصرنا خندقنا علينا فعمل فية رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى أحكموه» أخبرنا أبو سعيد الشريحى أنا أبو إسحاق الثعلبى أنا عبد الله بن حامد الأصبهانى أنا محمد بن جعفر الطبرى ثنا حماد ابن الحشن ثنا محمد بن خالد بن عثمة ثنا كثير ابن عبد الله غن عمرو ابن عوف حدثنى أبى عن أبية قال « خط رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق عام الأحزاب ثم قطع لـكل عشرة أربعين ذراعا قال فاحتج المهاجرون والأنصار فى سلمان الفارسى وكان رجلا قويا فقال المهاجرون سلمان منا وقال الأنصار سلمان منا فقال النبى صلى الله عليه وسلم سلمان منا أهل البيت » قال عمرو بن عوف كنت أنا وسلمان وحذيفة والنعمان بن مقرن المازني وستة من الأنصار فى أربعين ذراعا فحفرنا حتى إذا كنا بجنب ذي باب أخرج الله من بطن الخندق صخرة مروة كسرت حديدنا وشقت علينا فقلنا ياسلمان ارق إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره خبر هذه الصخرة فإما أن نعدل عنها فإن المعدل قريب وإما أن يأمرنا فيه بأمره فإنا لانحب أن نجاوز خطه قال فرقى سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ضارب عليه قبة تركيـة فقال يارسول الله خرجت صخرة بيضاء مروة من بطن الخندق فـكسرت حديدنا وشقت علينا حتى مايجيبنا فيها قليل ولا كثير فرنا فيها بأمرك فإنا لانحب أن نتجاوز خطك فهبط رسول الله صلى الله عليه وسلم مع سلمان إلى الخندق والتسعة على شفة الخندق فأخذ

ذلك ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان وقيسا وغيلان فاجتمعوا على ذلك وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه وإن قريشا قد بايعوهم على ذلك فأجابوهم وخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب وخرجت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن بن حذيفة ابن بدر في بنى فزارة والحارث بن عوف بن أبي حارثة المرى في بنى مرة ومسعر بن رخيلة بن نويرة بن طريف فيمن تابعه من قومه من أشجع فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبما اجتمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة وكان الذى أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخندق سلمان الفارسى وكان أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ حر فقال يارسول الله إنا كنا بفارس إذا حوصرنا ضربنا خندقا علينا فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى أحكموه. وروي « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خط الخندق عام الأحزاب ثم قطع لـكل عشرة أربعين ذراعا فاختلف المهاجرون والأنصار فى سلمان الفارسى وكان رجلا قويا فقال المهاجرون سلمان منا وقال الأنصار سلمان منا فقال النبى صلى الله عليه وسلم سلمان منا أهل البيت » قال عمرو بن عوف كنت أنا وسلمان وحذيفة والنعمان بن مقرن المزني وستة من الأنصار فى أربعين ذراعا فحفرنا حتى إذا كنا تحت أخرج الله من بطن الخندق صخرة مروة حتى كسرت حديدنا وشقت علينا فقلنا ياسلمان ارق إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بخبر هذه الصخرة فإما أن يعدل عنها فإن المعدل قريب وإما أن يأمرنا فيها أمره فانا لانحب أن نجاوز خطه قال فرقى سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ضارب عليه قبة تركية فقال يارسول الله خرجت لنا صخرة بيضاء مروة من بطن الخندق فـكسرت حديدنا وشقت علينا حتى مايجيبنا منها شيء قليل ولا كثير فرنا فيها بأمرك فانا لانحب أن نجاوز خطك فهبط رسول الله صلى الله عليه وسلم مع سلمان إلى الخندق واستند على شق الخندق وأخذ عليه الصلاة والسلام المعول من سلمان وضربها به ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء مابين لابتيها يعنى المدينة حتى كأنه مصباح في جوف بيت مظلم فـكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح وكبر المسلمون معه ثم ضربها رسول الله صلى الله

رسول الله صلى الله عليه وسلم المعول من يد سلمان فضربها ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء مابين لابتيها يعنى المدينة حتى لكأن مصباحا فى جوف بيت مظلم فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرا فكبر المسلمون ثم ضربها رسول الله صلى الله عليه وسلم الثانية وبرق منها برق أضاء مابين لابتيها حتى لكأن مصباحا فى جوف بيت مظلم فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح وكبر المسلمون ثم ضربها رسول الله صلى الله عليه وسلم الثالثة فكسرها وبرق منها برق أضاء مابين لابتيها حتى لكأن مصباحا فى جوف بيت مظلم فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح وكبر المسلمون معه فأخذ بيد سلمان ورقى فقال سلمان بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد رأيت شيئا مارأيت مثله قط فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القوم فقال أرأيتم مايقول سلمان قالوا نعم يارسول الله ، قال ضربت ضربتى الأولى

فبرق الذى رأيتم أضاءت لى منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ثم ضربت ضربتى الثانية فبرق البرق الذى رأيتم أضاءت لى منها قصور الحيرة من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ثم ضربت ضربتى الثالثة فبرق الذى رأيتم أضاءت لى منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب وأخبرنى جبريل عليه السلام أن أمتى ظاهرة عليها فأبشروا فاستبشر المسلمون وقالوا الحمد لله موعد صدق وعدنا النصر بعد الحصر فقال المنافقون ألا تعجبون من محمد يعدكم ويمنيكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لاتستطيعون أن تبرزوا قال فنزل القرآن : وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا وأنزل الله فى هذه القصة قل اللهم مالك الملك الآية» أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله بن محمد أنا معاوية بن عمرو أنا أبو إسحاق عن حميد قال سمعت أنسا يقول «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون فى غداة باردة فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك عنهم فلما رأى مابهم من النصب والجوع قال : اللهم إن العيش عيش الآخرة » فاغفر للأنصار والمهاجرة فقالوا مجيبين له »

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد مابقينا أبدا »

عليه وسلم الثانية فبرق منها برق حتى أضاء مابين لابتيها حتى لكأن مصباحا فى جوف بيت مظلم فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح وكبر المسلمون معه ثم ضربها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكسرها وبرق منها برق أضاء مابين لابتيها حتى لكأن مصباحا فى جوف بيت مظلم فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح وكبر المسلمون معه وأخذ بيد سلمان ورقى فقال بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد رأيت شيئا مارأيت مثله قط فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القوم وقال أرأيتم مايقول سلمان قالوا نعم يارسول الله قال ضربت ضربتى الأولى فبرق البرق الذى رأيتم فأضاء لى منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ثم ضربت ضربتى الثانية فبرق الذى رأيتم أضاء لى منها قصور قيصر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ثم ضربت الثالثة فبرق الذى رأيتم أضاء لى منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها فأبشروا فاستبشر المسلمون وقالوا الحمد لله موعد صدق وعدنا النصر بعد الحصر فقال المنافقون ألا تعجبون يمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه ينظر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا قال فنزل القرآن : وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا. وأنزل الله : قل اللهم مالك الملك الآية»(ق) عن أنس قال «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون فى غداة باردة ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم فلما رأى مابهم من النصب والجوع قال اللهم إن العيش عيش الآخرة ، فاغفر للأنصار والمهاجرة ، فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ماحيينا أبدا »

عن البراء بن عازب قال « رأيت النبى صلى الله عليه وسلم ينقل معنا التراب وهو يقول :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

والمشركون قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

ويرفع بها صوته » وفى رواية قد وارى التراب بياض إبطيه » رجعنا إلى حديث ابن إسحاق قال « فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع

وأخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل آنا مسلم بن إبراهيم أنا شعبة عن أبي إسحاق عن البراء قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم ينقل التراب يوم الخندق حتى اغبز بطنه أو اغبز صدره وهو يقول: والله لولا الله ماهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا فأنزلن سكينة علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا إن الألى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

ورفع بها صوته أبينا أبينا» رجعنا إلى حديث ابن إسحاق قال فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من دومة من الجرف والغابة فى عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تابعهم من بنى كنانة وأهل تهامة وأقبلت غطفان ومن (٢٣٦) تابعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نعمى إلى جانب أحد وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع فى ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالنساء والذرارى فرفعوا فى الآطام وخرج عدو الله حيي بن أخطب من بنى النضير حتى أتى كعب ابن أسد القرظى صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم وكان قد وادع رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه وعاهده على ذلك فلما سمع كعب بحيي بن أخطب أغلق دونه حصنه فاستأذن عليه حيي فأبي أن يفتح له فناداه حيي يا كعب افتح لى فقال ويحك ياحيي إنك امرؤ مشئوم وإنى قد عاهدت محمدا فلست بناقض مابيني وبينه ولم أر منه إلا وفاء وصدقا قال ويحك افتح لى أكلمك قال ماأنابفاعل قال والله إن أغلقت دوني إلا على حشيشتك أن آكل معك منها فأحفظ الرجل ففتح له فقال ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وبحر طام جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من دومة وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نعمى إلى جانب أحد وقد عاهدوني وعاقدوني أن لايبرحوا حتى يستأصلوا محمدا ومن معه قال له كعب بن أسد جئتني والله بذل الدهر وبجام قد هراق ماؤه برعد وبرق وليس فيه شيء فدعني ومحمدا وما أنا عليه فإني لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء فلم يزل حيي بن أخطب بكعب يفتله فى الذروة والغارب حتى سمح له على أن أعطاه من الله عهدا وميثاقا ووفاء لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا إن أدخل معك في حصنك حتى

الأسيال من دومة من الجرف والغابة فى عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تابعهم من بنى كنانة وأهل تهامة وأقبلت غطفان ومن تابعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نعمى إلى جانب أحد وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه حتى جعلوا ظهورهم إلي سلع فى ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذرارى والنساء فرفعوا إلى الآطام وخرج عدو الله حيي بن أخطب من بنى النضير حتى أتي كعب بن أسد القرظى صاحب عقد بنى قريظة وكان قد واعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه وعاهده على ذلك فلما سمع صوت ابن أخطب أغلق دونه حصنه فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه حيي يا كعب افتح لنا فقال ويحك ياحيي إنك امرؤ مشئوم إني قد عاهدت محمدا فلست بناقض مابيني وبينه ولم أرمنه إلا وفاء وصدقا فقال ويحك افتح أكلمك قال ماأنا بفاعل قال والله إن أغلقت دوني إلا خوفا أن آكل معك فأحفظ الرجل ففتح له فقال ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وبحرطام جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من دومة وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نعمى إلي جانب أحد قد عاهدوني وعاقدوني أن لايبرحوا حتى يستأصلوا محمدا ومن معه فقال له كعب جئتني والله بذل الدهر وبجام قد يهرق ماؤه ويرعد ويبرق ليس فيه شيء دعني ومحمداً وماأناعليه فإني لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء فلم يزل حيي بن أخطب بكعب يفتله في الذروة والغارب حتى سمح له على أن أعطاه من الله عهدا وميثاقا لئن رجعت قريش ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك فى حصنك حتى يصيبني ماأصابك فنقض كعب بن أسد العهد وبريء مما كان عليه فيما بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انتهى الخبر إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى المسلمين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ أحد بنى عبد الأشهل وهو يومئذ سيد الأوس وسعد ابن عبادة أحد بنى ساعدة وهو يومئذ سيد بنى الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة أخو الحارث بن الخزرج وخوات بن جبير أخو بنى عمرو بن عوف فقال انطلقوا حتى تنظروا ما بلغنا عن هؤلاء القوم أحق أم لا فإن كان حقا فالحنوا لى لحنا أعرفه ولا تفتوا أعضاد الناس وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا للناس فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على

يصيبني ما أصابك فنقض كعب بن أسد عهده وتبرأ مما كان عليه فيما كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم "، فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر وإلى المسلمين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ أحد بني عبد الأشهل وهو يومئذ سيد الأوس وسعد بن عبادة أحد بني ساعدة وهو يومئذ سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة أخو الحارث بن الخزرج وخوات بن جبير أخو بني عمرو بن عوف فقال انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا فإن كان حقا فالحنوا لي لحنا أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به جهرا للناس فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم منهم ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا لا عقد بيننا وبين محمد ولا عهد فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه وكان رجلا فيه حدة فقال له سعد بن معاذ دع عنك مشاتمتهم فان

ما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلموا عليه وقالوا عضل والقارة لغدر عضل والقارة بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحاب الرجيع خبيب بن عدي وأصحابه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله أكبر أبشروا يامعشر المسلمين وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسري وقيصر وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا وحتى قال أوس بن قيظي أحد بني حارثة بن قيظي يارسول الله إن بيوتنا عورة من العدو وذلك على ملأ من رجال قومه فأذن لنا فلنرجع إلى ديارنا فإنها خارجة من المدينة فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام المشركون بضعا وعشرين ليلة قريبا من شهر ولم يكن بين القوم حرب إلا الرمي بالنبل والحصى فلما اشتد البلاء على الناس بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عيينة بن حصن وإلى الحارث بن عمرو وهما قائدا غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فجرى بينه وبينهم الصلح على ذلك حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن معاذ وسعد بن عبادة واستشارهما فيه فقالا يارسول الله أشيء أمرك الله به لابد لنا من العمل به أم أمر تحبه فتصنعه أم شيء تصنعه لنا ؟ قال بلى

على أخبث مابلغهم عنهم ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا لاعقد بيننا وبينه ولا عهد فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه وكان رجلا عنده حدة فقال له سعد بن معاذ دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربي من المشاتمة ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلموا وقالوا عضل والقارة لغدر عضل والقارة بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحاب الرجيع خبيب بن عدي وأصحابه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله أكبر أبشروا يامعشر المسلمين وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسري وقيصر وأحدنا لايقدر أن يذهب إلى الغائط ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا وقال أوس بن قيظي أحد بني حارثة يارسول الله إن بيوتنا لعورة من العدو وذلك على ملأ من رجال قومه فأذن لنا فلنرجع إلى ديارنا فإنها خارجة من المدينة فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام المشركون عليها بضعا وعشرين ليلة قريبا من شهر ولم يكن بين القوم حرب إلا الرمي بالنبل والحصى فلما اشتد البلاء على الناس بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عيينة بن حصن وإلى الحارث بن عوف وهما قائدا غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فجري بينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن معاذ وسعد بن عبادة فاستشارهما فيه فقالا يارسول الله أشيء أمرك الله به لابدلنا من العمل به أم أمر تحبه فتصنعه أم شيء تصنعه لنا قال بلى شيء أصنعه لكم والله ما أصنع ذلك إلا أني قد رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم فقال له سعد بن معاذ يارسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على شرك بالله وعبادة الأصنام لانعبد الله ولا نعرفه ولا يطمعون أن يأكلوا منا تمرة واحدة إلا قرى أو بيعا فحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزنا بك نعطيهم أموالنا مالنا بهذا من حاجة والله مانعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم فقال رسول الله صلى الله عليه

شيء أصنعه لكم والله ماأصنع ذلك إلا أني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فاردت ان أكسر عنكم شوكتهم فقال له سعد بن معاذ يارسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على شرك بالله وعبادة الأوثان لانعبد الله ولا نعرفه وهم لايطمعون أن يأخذوا منا تمرة واحدة إلا قري أو بيعا فحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزنا بك نعطيهم أموالنا مالنا بهذا من حاجة والله لانعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنت وذاك فتناول سعد الصحيفة فمحا مافيها من الكتابة ثم قال ليجهدوا علينا فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون وعدوهم محاصروهم ولم يكن بينهم قتال إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود أخو بني عامر بن لؤي وعكرمة ابن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب المخزوميان ونوفل بن عبد الله وضرار بن الخطاب ومرداس أخو بني محارب بن فهر قد تلبسوا للقتال وخرجوا على خيلهم ومروا على بني كنانة فقالوا تهيئوا للحرب يابني كنانة فستعلمون اليوم من الفرسان ثم أقبلوا نحو الخندق حتى وقفوا على الخندق فلما رأوه قالوا والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ثم تيمموا مكانا من الخندق ضيقا فضربوا (٢٣٨) خيولهم فاقتحمت منه فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع وخرج على بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم وكان عمرو بن عبد ود رقاتل يوم بد حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد أحدا فلما كان يوم الخندق خرج معلما ليري مكانه فلما وقف هو وخيله قال له على ياعمرو إنك كنت تعاهد الله أن لا يدعوك رجل من قريش إلي خلتين إلا أخذت منه إحداهما قال أجل فقال له على ابن أبي طالب فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام قال لاحاجة لي بذلك قال فإني أدعوك إلى النزال قال ولم يا ابن أخي فو الله ماأحب أن أقتلك قال على ولكني والله أحب أن أقتلك فحمي عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ثم أقبل على على فتناولا وتجاولا فقتله على فخرجت خيله منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة وقتل مع عمرو رجلان منبه بن عثمان بن عبيد بن السباق بن عبد الدار أصابه سهم فمات منه بمكة ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي وكان اقتحم الخندق فتورط فيه فرموه بالحجارة فقال يامعشر العرب قتلة أحسن من هذه فنزل إليه على فقتله فغلب المسلمون على جسده فسألوا رسول الله صلى الله علية وسلم أن يبيعهم جسده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاحاجة لنا في جسده وثمنه فشأنكم به فخلى بينهم وبينه قالت عائشة أم المؤمنين كنا يوم الخندق في حصن بني حارثة وكان من أحرز حصون المدينة وكانت أم سعد بن معاذ معنا في الحصن وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب فمر سعد بن معاذ وعليه درع مقلصة قد خرجت منها ذراعه كلها وفي يده حربة وهو يقول شعرا :

لبث قليلا ندرك الهيجا حمل لابأس بالموت إذا حان الأجل

وسلم أنت وذاك فتناول سعد الصحيفة فمحا مافيها من الكتابة ثم قال ليجهدوا علينا فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون وعدوهم محاصروهم ولم يكن بينهم قتال إلا أن فوارس من قريش عمرو بن عبد ود أخو بني عامر بن لؤي وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب المخزوميان ونوفل بن عبد الله بن ضرار بن الخطاب ومرداس أخو بني محارب بن فهر قد تلبسوا للقتال وخرجوا على خيلهم فمروا على بني كنانة فقالوا تهيئوا للحرب يابني كنانة فستعلمون اليوم من الفرسان ثم أقبلوا نحو الخندق حتى وقفوا عليه فلما رأوه قالوا والله هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها ثم تيمموا مكانا من الخندق ضيقا وضربوا خيولهم فاقتحمت منه فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع وخرج على بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليه الثغرة التي اقتحموا منها وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم وكان عمرو بن عبدود قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد أحدا فلما كان يوم الخندق خرج معلما ليري مكانه فلما وقف هو وخيله قال على ياعمرو إنك كنت تعاهد الله لايدعوك رجل من قريش إلى خلتين إلا أخذت منه إحداهما قال أجل قال له على فإني أدعوك إلي الله ورسوله وإلى الإسلام قال لاحاجة لي بذلك قال إني أدعوك إلى النزال قال ولم يا ابن أخي فو الله ماأحب أن أقتلك فقال على لكني والله أحب أن أقتلك فحمي عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ثم أقبل على على فتنا ولا وتجاولا فقتله على وخرجت خيله منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة وقتل مع عمرو رجلان منبه بن عثمان بن عبيد بن السباق بن عبد الدار أصابه سهم فمات بمكة

فقالت له أمة الحق يابنى فقد والله أجزت قالت عائشة فقلت لها ياأم سعد والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هى قالت وخفت عليه حيث أصاب السهم منه قالت فرمى سعد يومئذ بسهم وقطع منه الأكحل ، رماه خباب بن قيس ابن العرقة أحد بنى عامر بن لؤي فلما أصابة قال خذها وأنا ابن العرقة فقال سعد عرق الله وجهك فى النار ثم قال سعد اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقنى لها فإنه لاقوم أحب إلى من أن أجاهدهم من قوم هم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة * وكانوا حلفاءه ومواليه فى الجاهلية وقال محمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد قال كانت صفية بنت عبد المطلب فى فارع حصن حسان بن ثابت قالت وكان حسان معنا فيه مع النساء والصبيان قالت صفية فمر بنا رجل من اليهود فجعل يطيف بالحصن وقد حاربت بنو قريظة فقطعت مابيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون فى نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا إلينا عنهم إذ أتانا آت قالت فقلت ياحسان إن هذا اليهودى كما ترى يطيف بالحصن وإني والله (٢٣٩) لم آمنه بأن يدل على عوراتنا من وراءنا من يهود وقد شغل عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فانزل إليه فاقتله فقال يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا قالت فلما قال لى ذلك ولم أر عنده شيئا اعتجرت ثم أخذت عمودا ونزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن فقلت ياحسان انزل إليه فاسلبه فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل فقال

ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومى وكان اقتحم الخندق فتورط فيه فرموه بالحجارة فقال يامعشر العرب قتلة أحسن من هذه فنزل إليه على فقتله فغلب المسلمون على جسده فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعهم جسده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاحاجة لنا فى جسده وثمنه فشأنكم به فخلى بينهم وبينه قالت عائشة أم المؤمنين كنا يوم الخندق فى حصن بنى حارثة وكان من أحرز حصون المدينة وكانت أم سعد بن معاذ معنا فى الحصن وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب فمر سعد بن معاذ وعليه درع مقلصة قد خرجت منها ذراعه كلها وفى يده حربة وهو يقول :

* لابأس بالموت إذا حان الأجل *

فقالت له أمه الحق يابنى فقد والله أجزت قالت عائشة ياأم سعد والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هى وخفت عليه حيث أصاب السهم منه قالت فرمى سعد يومئذ بسهم فقطع منه الأكحل رماه خباب بن قيس بن العرقة أحد بنى عامر بن لؤى فلما أصابه قال خذها وأنا ابن العرقة قال سعد عرق الله وجهك فى النار ثم قال سعد اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا فابقنى لها فإنه لاقوم أحب لى أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة وكانوا حلفاءه ومواليه فى الجاهلية قال محمد بن إسحاق فيما بلغه أن صفية بنت عبد المطلب كانت فى فارع حصن حسان بن ثابت قالت وكان حسان معنا مع النساء والصبيان

مالى بسلبه من حاجة يابنت عبد المطلب قالوا وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيما وصف الله تعالى من الخوف والشدة لتظاهر عدوهم وإتيانهم من فوقهم ومن أسفل منهم ثم إن نعيم بن مسعود بن عامر من بنى غطفان أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله إني قد أسلمت وإن قومى لم يعلموا بإسلامى فمرنى بما شئت فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة فخرج نعيم بن مسعود حتى أتي بنى قريظة وكان لهم نديما فى الجاهلية فقال لهم يابنى قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة مابينى وبينكم ؟ قالوا صدقت لست عندنا بمتهم فقال لهم إن قريشا وغطفان جاءوا لحرب محمد وقد ظاهرتموهم عليه وإن قريشا وغطفان ليسوا كهيئتكم البلد بلدكم فيه أموالكم وأولادكم ونساؤكم لاتقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره وإن قريشا وغطفان أموالهم وأولادهم ونساؤهم بعيدة إن رأوا نهزة وغنيمة أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل والرجل ببلدكم لاطاقة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم حتى تكون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمدا حتى تناجزوه قالوا لقد أشرت برأى ونصح ثم خرج حتى أتى قريشا ، فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من

رجال قريش يامعشر قريش قد عرفتم ودي إياكم وفراقي محمدا وقد بلغني أمر رأيت أن حقا على أن أبلغكم نصحا لكم فاكتموا على قالوا نفعل قال تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ماصنعوا بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه أن قد ندمنا على مافعلنا فهل يرضيك عنا أن نأخذ من القبيلتين من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم فأرسل إليهم أن نعم فان بعثت إليكم يهود يلتمسون رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا ثم خرج حتى أتي غطفان فقال يامعشر غطفان أنتم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إلى ولا أراكم تتهموني قالوا صدقت قال فاكتموا على قالوا نفعل ثم قال لهم مثل ماقال لقريش وحذرهم ماحذرهم فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس وكان مما صنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل أبو سفيان ورءوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى تناجزوا محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه فقالوا لهم إن اليوم يوم السبت وهو يوم لانعمل فيه شيئا وقد كان أحدث بعضنا فيه حدثا فأصابه مالم يخف عليكم ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل (٢٤٠) معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تسيروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك من محمد فلما رجعت إليهم الرسل بذلك الذي قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان تعلمون والله إن الذي حدثكم نعيم ابن مسعود لحق فأرسلوا إلى بني قريظة إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا وإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل بهذا إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق مايريد القوم إلا أن يقاتلوا فإن وجدوا فرصة انتهزوها وإن كان غير ذلك استمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلادكم فأرسلوا إلى قريش وغطفان إنا والله لا نقاتل معكم حتى تأتونا رهنا . فأبوا عليهم وخذل الله بينهم وبعث الله عليهم الريح في ليال شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مااختلف من أمرهم دعا حذيفة بن اليمان فبعثه إليهم لينظر مافعل القوم ليلا فروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن أبي زياد عن محمد بن كعب القرظي. وروى غيره عن إبراهيم التيمي عن أبيه قالا قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان ياأبا عبد الله رأيتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبتموه قال نعم يابن أخي قال كيف كنتم تصنعون قال والله لقد كنا نجهد فقال الفتى والله لو أدركناه ماتركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا ولخدمناه وفعلنا وفعلنا . فقال حذيفة يابن أخي والله لقد رأيتني ليلة الأحزاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من يقوم فيذهب إلى هؤلاء القوم فيأتينا بخبرهم أدخله الله الجنة فما قام منا رجل ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هونا من الليل ثم التفت إلينا فقال مثله فسكت القوم وما قام منا رجل ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

قالت صفية فمر بنا رجل من اليهود فجعل يطوف بالحصن وقد حاربت بنو قريظة وقطعت مابيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون في نحر عدوهم لايستطيعون أن ينصرفوا إلينا عنهم إذا أتانا آت قالت فقلت ياحسان إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن وإني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من اليهود وقد شغل عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فانزل إليه فاقتله فقال يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب والله لقد عرفت ماأنا بصاحب هذا قالت فلما قال لي ذلك ولم أر عنده شيئا اعتجرت ثم أخذت عمودا ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن فقلت ياحسان انزل إليه فاسلبه فانه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل قال مالي بسلبه حاجة يابنت عبد المطلب قالوا وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيما وصف الله من الخوف والشدة لتظاهر عدوهم وإتيانهم من فوقهم ومن أسفل منهم ثم إن نعيم بن مسعود بن عامر بن غطفان أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فأمرني بما شئت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان نديما لهم في الجاهلية فقال لهم يابني قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة مابيني وبينكم قالوا صدقت لست عندنا بمتهم فقال لهم إن قريشا وغطفان جاءوا لحرب محمد وقد ظاهرتموهم عليه وإن قريشا وغطفان ليسوا كهيئتكم البلد بلدكم به أموالكم وأولادكم ونساؤكم لاتقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره وإن قريشا

هونًا من الليل ثم التفت إلينا فقال هل من رجل يقوم فينظر ما فعل القوم على أن يكون رفيقي في الجنة فما قام رجل من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ياحذيفة فلم يكن لي بد من المقام إليه حين دعاني فقلت لبيك يارسول الله وقمت حتى أتيته وإن جنبي ليضطربان فمسح رأسي ووجهي . ثم قال ائت هؤلاء القوم حتى تأتيني بخبرهم ولا تحدثن شيئا حتى ترجع إلي ثم قال اللهم احفظه (٢٤١) من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته فأخذت سهمي وشددت على سلاحي ثم انطلقت أمشي نحوهم كأنما أمشي في حمام فذهبت فدخلت في القوم وقد أرسل الله عليهم ريحا وجنودا وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناء وأبو سفيان قاعد يصطلي فأخذت سهما فوضعته في كبد قوس فأردت أن أرميه ولو رميته لأصبته فذكرت قول النبي صلى الله عليه وسلم لاتحدثن حدثا حتى ترجع إلي فرددت سهمي في كنانتي فلما رأى أبو سفيان ما تفعل الريح وجنود الله بهم لا تقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناء قام فقال يا معشر قريش ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه فلينظر من هو قال فأخذت بيد جليسي فقلت من أنت فقال سبحان الله أما تعرفني أنا فلان ابن فلان فإذا هو رجل من هوازن فقال أبو سفيان يامعشر قريش إنكم والله ماأصبحتم بدار مقام ولقد هلكنا وهلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا منهم الذي نكره ولقينا من هذه الريح ما ترون فارتحلوا فإني مرتحل ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم وسمعت غطفان بما فعلت قريش فاستمروا راجعين إلى بلادهم قال فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كأني أمشي

قريشا وغطفان أموالهم وأبناؤهم ونساؤهم بغيره إن رأوا نهزة وغنيمة أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين هذا الرجل والرجل ببلدكم لاطاقة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمدا حتى تناجزوه ، قالوا لقد أشرت برأي ونصح ثم خرج حتى أتى قريشا فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش قد عرفتم ودي إياكم وفراقي محمدا فقد بلغني أمر رأيت حقا علي أن أبلغكم نصحا لكم فاكتموا علي قالوا نفعل قال تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه أن قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك عنا أن نأخذ من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكم فنضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم فأرسل إليهم أن نعم فإن بعث إليكم يهود يلتمسون رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا ثم خرج حتى أتى غطفان فقال يامعشر غطفان أنتم أهلي وعشيرتي وأحب الناس إلي ولا أراكم تتهمونني قالوا صدقت قال فاكتموا علي قالوا نفعل فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم مثل حذرهم فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس وكان مما صنع الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أرسل أبو سفيان ورؤس غطفان إلى بني قريظة عكرمة ابن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه فأرسلوا إليهم أن اليوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثا فأصابهم مالم يخف عليكم ولسنا مع ذلك بالذي نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تسيروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك من محمد فلما رجعت إليهم الرسل بالذي قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان تعلمن والله إن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود لحق فأرسلوا إلى بني قريظة إنا والله لاندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل بهذا إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا فإن وجدوا فرصة انتهزوها وإن كان غير ذلك شمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم فأرسلوا إلى قريش وغطفان إنا والله لانقاتل معكم حتى تعطونا رهنا فأبوا عليهم وخذل الله عز وجل بينهم وبعث عليهم الريح في ليال شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مااختلف من أمرهم دعا حذيفة ابن اليمان فبعثه إليهم لينظر مافعل القوم ليلا وروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن زياد عن محمد ابن كعب القرظي وروي غيره عن إبراهيم التيمي عن أبيه قالا قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة

ابن اليمان ياأبا عبد الله رأيتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبتموه قال نعم يا ابن أخى قال كيف كنتم تصنعون قال والله لقد كنا نجهد قال الفتى والله لو أدركناه ماتركناه يمشى على الأرض ولحملناه على أعناقنا ولخدمناه وفعلنا معه وفعلنا فقال حذيفة يا ابن أخى والله لقد رأيتنى ليلة الأحزاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من يذهب إلي هؤلاء القوم فيأتينا بخبرهم أدخله الله الجنة فما قام منا رجل ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هونا من الليل ثم التفت إلينا فقال مثله فسكت القوم وما قام منا رجل ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هونا من الليل ثم التفت إلينا فقال هل من رجل يقوم فينظر لنا مافعل القوم على أن يكون رفيقى فى الجنة فما قام رجل من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد فلما لم يقم أحد دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ياحذيفة ولم يكن لى بد من القيام حين دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لبيك يا رسول الله وقمت حتى أتيته فأخذنى بيدي ومسح رأسى ووجهى ثم قال ائت هؤلاء القوم حتى تأتينى بخبرهم ولا تحدثن شيئا حتى ترجع إلى ثم قال اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته فأخذت سهمى وشددت على أسلابى ثم انطلقت أمشى نحوهم كأنما أمشى فى حمام فذهبت فدخلت فى القوم وقد أرسل الله عليهم ريحا وجنودا وجنود الله تفعل بهم ماتفعل لاتقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناء قال وأبو سفيان قاعد يصطلى فأخذت سهما فوضعته فى كبد قوسى فأردت أن أرميه ولو رميته لأصبته فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتحدثن حدثا حتى ترجع فرددت سهمى فى كنانتى فلما رأي أبو سفيان ماتفعل الريح وجنود الله بهم لاتقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناء قام فقال يامعشر قريش ليأخذ كل منكم بيد جليسه فلينظر من هو فأخذت بيد جليسى فقلت من أنت فقال سبحان الله أماتعرفنى أنا فلان ابن فلان رجل من هوازن فقال أبو سفيان يامعشر قريش إنكم والله ماأصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ولقينا من هذه الريح ماترون فارتحلوا فانى مرتحل ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم وسمعت غطفان بما فعل قريش فاستمروا راجعين إلى بلادهم قال فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنى أمشى فى حمام فأتيته وهو قائم يصلى فلما سلم أخبرته فضحك حتى بدت أنيابه فى سواد الليل فلما أخبرته وفرغت قررت وذهب عنى الدفاء فأدفأنى النبى صلى الله عليه وسلم فأنامنى عند رجليه وألقى على طرف ثوبه وألصق صدرى ببطن قدميه فلم أزل نائما حتى أصبحت فلما أصبحت قال قم يانومان فذلك قوله عز وجل (إذ جاءوكم من فوقكم) أى من فوق الوادي من قبل المشرق وهم أسد وغطفان وعليهم مالك بن عوف النصري وعيينة بن حصن الفزارى فى ألف من غطفان ومعهم طليحة بن خويلد الأسدى فى بنى أسد وحيي بن أخطب فى يهود قريظة (ومن أسفل منكم) يعنى من بطن الوادي من قبل المغرب وهم قريش وكنانة عليهم أبو سفيان بن حرب من قريش ومن تبعه وأبو الأعور عمرو ابن سفيان السلمى من قبل الخندق وكان الذي جر غزوة الخندق فيما قيل إجلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى النضير من ديارهم (وإذ زاغت الأبصار) أى مالت وشخصت من الرعب وقيل مالت عن كل شيء فلم تنظر إلى عدوها (وبلغت القلوب الحناجر) أى زالت عن أماكنها

لى حمام فأتيته وهو قائم يصلى (٢٤٢) فلما سلم أخبرته الخبر فضحك حتى بدت أنيابه فى سواد الليل قال فلما أخبرته وفرغت قررت وذهب عنى الدفاء فأدنانى النبى صلى الله عليه وسلم منه وأنامنى عند رجليه وألقى على طرف ثوبه وألزق صدري ببطن قدميه فلم أزل نائما حتى أصبحت فلما أصبحت قال قم يانومان قوله عز وجل (إذ جاءوكم من فوقكم) أي من فوق الوادى من قبل المشرق وهم أسد وغطفان وعليهم مالك ابن عوف النصري وعيينة بن حصن الفزاري فى ألف من غطفان ومعهم طليحة بن خويلد الأسدى فى بنى أسد وحيي بن أخطب فى يهود بنى قريظة (ومن أسفل منكم) يعنى من بطن الوادي من قبل المغرب وهم قريش وكنانة عليهم أبو سفيان ابن حرب فى قريش ومن تبعه وأبو الأعور عمرو ابن سفيان السلمى من قبل الخندق وكان السبب الذى جر غزوة الخندق فيما قيل إجلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى النضير من ديارهم (وإذ زاغت الأبصار) مالت وشخصت من الرعب وقيل مالت عن كل شيء فلم تنظر إلى عدوها (وبلغت القلوب الحناجر)

حتى

فزالت عن أماكنها حتى بلغت الحلوق من الفزع والحنجرة جوف الحلقوم وهذا على التمثيل عبر به عن شدة الخوف قال الفراء معناه أنهم جبنوا وسبيل الجبان إذا اشتد خوفه أن تنتفخ رئته فإذا انتفخت الرئة رفعت القلب إلى الحنجرة ولهذا يقال للجبان انتفخ سحره (وتظنون بالله الظنونا) أى اختلفت الظنون فظن المنافقون استئصال محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم وظن المؤمنون النصر والظفر لهم قرأ أهل المدينة والشام وأبو بكر الظنونا والرسولا والسبيلا بإثبات الألف وصلا ووقفا لأنها مثبتة فى المصاحف بالألف وقرأ أهل البصرة وحمزة بغير الألف فى الحالين على الأصل وقرأ الآخرون بالألف فى الوقف دون الوصل لموافقة رءوس الآي (هنالك ابتلى) أى عند ذلك اختبر (المؤمنون) بالحصر والقتال ليتبين المخلص من المنافق (وزلزلوا زلزالا شديدا) حركوا حركة شديدة (وإذ يقول المنافقون) معتب بن قشير وقيل عبد الله بن أبي وأصحابه (والذين فى قلوبهم مرض) شك وضعف اعتقاد (ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا) وهو قول أهل النفاق يعدنا محمد فتح قصور الشام وفارس وأحدنا لايستطيع أن يجاوز رحله هذا والله الغرور (وإذ قالت طائفة منهم) أى من المنافقين وهم أوس ابن قيظى وأصحابه (ياأهل يثرب) يعنى المدينة قال أبوعبيدة يثرب اسم أرض مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فى ناحية منها وفى بعض الأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن تسمى المدينة يثرب وقال هى طابة كأنه كره هذا اللفظ (لا مقام لكم) قرأ العامة بفتح الميم أى لامكان لكم تنزلون وتقيمون فيه وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى وحفص بضم الميم : أى لا إقامة لكم (فارجعوا) إلى منازلكم عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وقيل عن القتال إلى مساكنكم (ويستأذن فريق منهم النبي) وهم بنو حارثة وبنو سلمة (يقولون إن بيوتنا عورة) أى خالية ضائعة وهو مما يلى العدو ونخشى عليها السراق وقرأ أبو رجاء العطاردى عورة بكسر الواو أي قصيرة الجدران يسهل دخول السراق عليها فكذبهم الله فقال (وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا) أى مايريدون إلا الفرار (ولو دخلت عليهم) أى لو دخل عليهم المدينة هؤلاء الجيوش الذين يريدون قتالهم وهم الأحزاب (من أقطارها) جوانبها ونواحيها جمع قطر (ثم سئلوا الفتنة) أى الشرك (لآتوها) لأعطوها وقرأ أهل الحجاز لأتوها مقصورا أى لجاءوها وفعلوها ورجعوا عن الإسلام (وما تلبثوا بها) أى مااحتبسوا عن الفتنة (إلا يسيرا) ولأسرعوا الإجابة إلى الشرك طيبة به أنفسهم هذا قول أكثر المفسرين وقال الحسن والفراء وما أقاموا بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا

حتى بلغت الحلوق من الفزع والحنجرة جوف الحلقوم وهذا على التمثيل عبر به عن شدة الخوف وقيل معناه إنهم جبنوا وسبيل الجبان إذا اشتد خوفه أن تنتفخ رئته وإذا انتفخت رئته رفعت القلب إلى الحنجرة فلهذا يقال للجبان انتفخ سحره (وتظنون بالله الظنونا) أى اختلفت الظنون بالله فظن المنافقون استئصال محمد وأصحابه وظن المؤمنون النصر والظفر لهم (هنالك ابتلى المؤمنون) أى عند ذلك اختبر المؤمنون بالحصر والقتال ليتبين المخلصون من المنافقين (وزلزلوا زلزالا شديدا) أي حركوا حركة شديدة (وإذ يقول المنافقون) يعنى معتب بن قشير وقيل عبد الله بن أبى وأصحابه (والذين فى قلوبهم مرض) أى شك وضعف اعتقاد (ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا) هو قول أهل النفاق يعدنا محمد فتح قصور الشام وفارس وأحدنا لايستطيع أن يجاوز رحله هذا هو الغرور . قوله تعالى (وإذ قالت طائفة منهم) أى من المنافقين وهم أوس ابن قيظى وأصحابه (ياأهل يثرب) يعني ياأهل المدينة وقيل يثرب اسم الأرض ومدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فى ناحية منها سميت يثرب باسم رجل من العماليق كان قد نزلها فى قديم الزمان . وفى بعض الأخبار أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى أن تسمى المدينة يثرب وقال هى طيبة كأنه كره هذه اللفظة لما فيها من التثريب وهو التقريع والتوبيخ (لامقام لكم) أي لامكان لكم تنزلون وتقيمون فيه (فارجعوا) أي إلى منازلكم وقيل عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وقيل عن القتال (ويستأذن فريق منهم النبي) يعنى بنى حارثة وبنى سلمة(يقولون إن بيوتنا عورة) أى خالية ضائعة وهى مما يلى العدو ونخشي عليها السراق فكذبهم الله تعالى بقوله (وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا) أى أنهم لايخافون ذلك إنما يريدون الفرار من القتال (ولو دخلت عليهم من أقطارها يعنى لو دخل هؤلاء الجيوش الذين يريدون قتالهم وهم الأحزاب من نواحي المدينة وجوانبها (ثم سئلوا الفتنة) أى الشرك (لآتوها) أى لجاءوها وفعلوها ورجعوا عن الإسلام (وما تلبثوا بها) أى مااحتبسوا عن الفتنة (إلا يسيرا) أى لأسرعوا الإجابة إلى الشرك طيبة به نفوسهم وقيل معناه وما أقاموا بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلا حتى يهلكوا

قليلا حتى يهلكوا (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل) أى من قبل غزوة الخندق (لايولون الأدبار) من عدوهم أى لا ينهزمون قال يزيد بن رومان هم بنو حارثة هموا يوم أحد أن يفشلوا مع بنى سلمة ، فلما نزل فيهم مانزل عاهدوا الله أن لايعودوا لمثلها وقال قتادة هم ناس كانوا قد غابوا عن وقعة بدر ورأوا ماأعطى الله أهل بدر من الكرامة والفضيلة قالوا لئن أشهدنا الله قتالا لنقاتلن فساق الله إليهم ذلك وقال مقاتل والكلبى هم سبعون رجلا بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وقالوا اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال النبى صلى الله عليه وسلم أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأولادكم قالوا فإذا فعلنا ذلك فمالنا يارسول الله قال لكم النصر فى الدنيا والجنة فى الآخرة قالوا قد فعلنا ذلك فذلك عهدهم وهذا القول ليس بمرضى لأن الذين بايعوا محمدا صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة كانوا سبعين نفرا (٢٤٤) لم يكن فيهم شاك ولا من يقول مثل هذا القول وإنما الآية فى قوم عاهدوا الله أن يقاتلوا ولا يفروا فنقضوا العهد (وكان عهد الله مسئولا) أي مسئولا عنه (قل) لهم (لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل) الذى كتب عليكم لأن من حضر أجله مات أو قتل (وإذا لاتمتعون إلا قليلا) أي لاتمتعون بعد هذا الفرار إلا مدة آجالكم وهى قليل (قل من ذا الذى يعصمكم من الله)أي يمنعكم من عذابه (إن أراد بكم سوءا) هزيمة (أو أراد بكم رحمة) نصرة (ولا يجدون لهم من دون الله وليا)أي قريبا ينفعهم (ولا نصيرا) أى ناصرا يمنعهم (قد يعلم الله المعوقين منكم)أى المثبطين للناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (والقائلين لإخوانهم هلم إلينا) أى ارجعوا إلينا ودعوا محمدا فلا تشهدوا الحرب فإنا نخاف عليكم الهلاك قال قتادة هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يثبطون أنصار النبى صلى الله عليه وسلم ويقولون لإخوانهم ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس ولو كانوا لحما لالتهمهم أى ابتلعهم أبو سفيان وأصحابه دعوا الرجل فإنه هالك وقال مقاتل نزلت فى المنافقين وذلك أن اليهود أرسلت إلى المنافقين وقالوا ماالذى يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبى سفيان ومن معه فإنهم إن قدروا عليكم فى هذه المرة لم يستبقوا منكم أحدا وإنا نشفق عليكم أنتم إخواننا وجيراننا هلموا إلينا فأقبل عبد الله بن أبى وأصحابه على المؤمنين يعوقونهم ويخوفونهم بأبى سفيان ومن معه . وقالوا لئن قدروا عليكم لم يستبقوا منكم أحدا ما ترجون من محمد ماعنده خير ماهو إلا أن يقتلنا هاهنا انطلقوا بنا إلى إخواننا يعنى اليهود فلم تزدد المؤمنين بقول المنافقين إلا إيمانا واحتسابا قوله عز وجل (ولا يأتون البأس) الحرب (إلا قليلا) رياء وسمعة من غير احتساب ولو كان

قوله عز وجل (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل) أى من قبل غزوة الخندق (لايولون الأدبار) أي لاينهزمون قيل هم بنو حارثة هموا يوم أحد أن يفشلوا مع بنى سلمة فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله أن لايعودوا لمثلها وقيل هم أناس غابوا عن وقعة بدر فلما رأوا ماأعطى الله أهل بدر من الكرامة والفضيلة قالوا لئن أشهدنا الله قتالا لنقاتلن فساق الله إليهم ذلك (وكان عهد الله مسئولا) أى عنه فى الآخرة (قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل) أى الذى كتب عليكم لأن من حضر أجله مات أو قتل لابد من ذلك (وإذا لاتمتعون) أى بعد الفرار (إلا قليلا) أى مدة آجالكم وهى قليل (قل من ذا الذى يعصمكم) أى يمنعكم (من الله إن أراد بكم سوءاً) أى هزيمة (أو أراد بكم رحمة) أى نصرا (ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) أى ناصرا يمنعهم (قد يعلم الله المعوقين منكم) أى المثبطين الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (والقائلين لإخوانهم هلم إلينا) أى ارجعوا إلينا ودعوا محمدا صلى الله عليه وسلم فلا تشهدوا معه الحرب فإنا نخاف عليكم الهلاك قيل هم أناس من المنافقين كانوا يثبطون أنصار النبى صلى الله عليه وسلم ويقولون لهم مامحمد وأصحابه إلا أكلة رأس ولو كانوا لحما لالتهمهم أى ابتلعهم أبوسفيان وأصحابه دعوا الرجل فإنه هالك . وقيل نزلت فى المنافقين وذلك أن اليهود أرسلت إليهم ما الذى يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبى سفيان ومن معه فإنهم إن قدروا عليكم فى هذه المرة لم يستبقوا منكم أحدا وإنا نشفق عليكم فأنتم إخواننا وجيراننا هلموا إلينا فأقبل عبد الله بن أبى ابن سلول وأصحابه على المؤمنين يعوقونهم ويخوفونهم بأبى سفيان ومن معه وقالوا لئن قدر اليوم عليكم لم يستبق منكم أحدا أما ترجعون عن محمد ماعنده خير ماهو إلا أن يقتلنا هاهنا انطلقوا بنا إلى إخواننا يعنى اليهود فلم تزدد المؤمنين بقول المنافقين إلا إيمانا واحتسابا وقوله تعالى (ولا يأتون البأس) يعنى الحرب (إلا قليلا) أى رياء وسمعة من غير احتساب

ذلك القليل لله لكان كثيرا (أشحة عليكم) بخلاء بالنفقة فى سبيل الله وقال قتادة بخلاء عند الغنيمة وصفهم الله بالبخل والجبن فقال (فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم) فى الرءوس من الخوف والجبن (كالذى يغشى عليه من الموت) أي كدوران عين الذى يغشى عليه من الموت وذلك أن من قرب من الموت وغشيه أسبابه يذهب عقله ويشخص بصره فلا يطرف (فإذا ذهب الخوف سلقوكم) آذوكم ورموكم فى حال الأمن (بألسنة حداد) ذربة جمع حديد يقال للخطيب الفصيح الذرب اللسان مسلق ومصلق وسلاق وصلاق قال ابن عباس سلقوكم أى عضهوكم وتناولوكم بالنقص والغيبة . وقال قتادة بسطوا ألسنتهم فيكم وقت قسمة الغنيمة يقولون أعطونا فإنا قد شهدنا معكم القتال فلستم أحق بالغنيمة منا فهم عند الغنيمة أشح قوم وعند البأس أجبن قوم (أشحة على الخير) أى عند الغنيمة يشاحون المؤمنين (أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم) قال مقاتل أبطل الله جهادهم (وكان ذلك على الله يسيرا يحسبون) يعنى هؤلاء المنافقين (الأحزاب) يعنى قريشا وغطفان واليهود (لم يذهبوا) لم ينصرفوا عن قتالهم جبنا وفرقا وقد انصرفوا (وإن يأت الأحزاب) أى يرجعوا إليهم للقتال بعد الذهاب (يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب)أى يتمنوا لو كانوا فى بادية مع الأعراب من الخوف والجبن .يقال بدا يبدو بداوة إذا خرج إلى البادية (يسألون عن أنبائكم)أخباركم وما آل إليه أمركم وقرأ يعقوب يساءلون مشددة ممدودة أى يتساءلون (ولو كانوا) يعنى هؤلاء المنافقين (فيكم ماقاتلوا إلا قليلا) تعذيرا أى يقاتلون قليلا يقيمون به عذرهم فيقولون قد قاتلنا قال الكلبي إلا قليلا أى رميا بالحجارة وقال مقاتل إلا رياء وسمعة من غير احتساب قوله عز وجل (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) قرأ عاصم أسوة حيث كانت بضم الهمزة والباقون بكسرها وهما لغتان أى قدوة صالحة وهى فعلة من الائتساء كالقدوة من الاقتداء اسم وضع موضع المصدر أى به اقتداء حسن أن تنصروا دين الله وتوازروا الرسول ولا تتخلفوا عنه وتصبروا على مايصيبكم كما فعل هو إذ كسرت رباعيته وجرح وجهه وقتل عمه وأوذى بضروب من الأذي فواساكم مع ذلك بنفسه فافعلوا أنتم كذلك أيضا واستنوا بسنته (لمن كان يرجو الله) بدل من قوله لكم وهو تخصيص بعد تعميم للمؤمنين . يعنى أن الأسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم لمن كان يرجو الله قال ابن عباس يرجو ثواب الله وقال مقاتل يخشى الله (واليوم الآخر) أي يخشى يوم البعث الذى فيه جزاء الأعمال (وذكر الله كثيرا) فى جميع المواطن على السراء والضراء ثم وصف حال المؤمنين عند

احتساب ولو كان ذلك القليل لله لكان كثيرا (أشحة عليكم) أى بخلاء بالنفقة فى سبيل الله والنصرة وصفهم الله بالبخل والجبن (فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم) أى فى رءوسهم من الخوف والجبن (كالذى يغشى عليه من الموت) أى كدوران عين الذى قرب من الموت وغشيه أسبابه فإنه يذهب عقله ويشخص بصره فلا يطرف (فإذا ذهب الخوف) أى زال (سلقوكم) أى آذوكم ورموكم فى حالة الأمن (بألسنة حداد) أى ذربة تفعل كفعل الحديد قال ابن عباس معناه عضهوكم وتناولوكم بالنقص والغيبة وقيل بسطوا ألسنتهم فيكم وقت قسمة الغنيمة يقولون أعطونا فإنا شهدنا معكم القتال فلستم بأحق بالغنيمة منا فهم عند الغنيمة أشح قوم وعند الحرب أجبن قوم (أشحة على الخير) أى يشاحون المؤمنين عند الغنيمة فعلى هذا المعنى يكون المراد بالخير المال (أولئك لم يؤمنوا) أى لم يؤمنوا حقيقة الإيمان وإن أظهروا الإيمان لفظا (فأحبط الله أعمالهم) أى التى كانوا يأتون بها مع المسلمين قيل هى الجهاد وغيره (وكان ذلك على الله يسيرا) أى إحباط أعمالهم مع أن كل شيء على الله يسير . قوله تعالى (يحسبون) يعنى هؤلاء المنافقين (الأحزاب) يعنى قريشا وغطفان واليهود (لم يذهبوا) أي لم ينصرفوا عن قتالهم جبنا وفرقا وقد انصرفوا عنهم (وإن يأت الأحزاب) أى يرجعوا إليهم للقتال بعد الذهاب (يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب) أي يتمنون لو أنهم كانوا فى بادية مع الأعراب من الجبن والخوف (يسألون عن أنبائكم) أى عن أخباركم وما آل إليه أمركم (ولو كانوا فيكم) يعنى هؤلاء المنافقين (ما قاتلوا إلا قليلا) يعنى يقاتلون قليلا يقيمون به عذرهم فيقولون قد قاتلنا معكم وقيل هو الرمى بالحجارة وقيل رياء من غير احتساب . قوله عز وجل (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) أى قدوة صالحة أى اقتدوا به اقتداء حسنا وهو أن تنصروا دين الله وتوازروا رسوله ولا تتخلفوا عنه وتصبروا على مايصيبكم كما فعل هو إذ قد كسرت رباعيته وجرح وجهه وقتل عمه وأوذى بضروب الأذى فصبر وواساكم مع ذلك بنفسه فافعلوا أنتم كذلك أيضا واستنوا بسنته (لمن كان يرجو الله) يعنى أن الأسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم لمن كان يرجو الله قال ابن عباس يرجو ثواب الله (واليوم الآخر) يعنى ويخشى يوم البعث الذي فيه الجزاء (وذكر الله كثيرا

ناء الأحزاب فقال(ولما رأي المؤمنون الأحزاب قالوا) تسليما لأمر الله وتصديقا لوعده (هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله) وعد الله إياهم ماذكر فى سورة البقرة «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم» إلى قوله «ألا إن نصر الله قريب» فالآية تتضمن أن المؤمنين يلحقهم مثل ذلك البلاء فلما رأوا الأحزاب وما أصابهم من الشدة «قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله»(وما زادهم إلا إيمانا وتسليما) أى تصديقا لله وتسليما لأمر الله قوله عز وجل (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) أى قاموا بما عاهدوا الله عليه ووفوا به (فمنهم من قضى نحبه) أى فرغ من نذره ووفى بعهده فصبر على الجهاد حتى استشهد والنحب النذر والنحب الموت أيضا قال مقاتل قضى نحبه يعنى أجله فقتل على الوفاء ، يعنى حمزة وأصحابه وقيل قضى نحبه أى بذل جهده فى الوفاء بالعهد من قول العرب نحب فلان فى سيره يومه وليله أجمع إذا مد فلم ينزل (ومنهم من ينتظر) الشهادة وقال محمد بن إسحاق . فمنهم من قضى نحبه من استشهد يوم بدر وأحد ومنهم من ينتظر يعنى من بقى بعد هؤلاء من المؤمنين ينتظرون أحد الأمرين إما الشهادة أو النصرة (وما بدلوا) عهدهم (تبديلا) أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبدالله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن سعيد الخزاعى أنا عبد الأعلى عن حميد قال سألت أنسا ح وحدثنى عمرو بن زرارة أنا زياد حدثنى حميد الطويل عن أنس قال « غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر فقال يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين لئن أشهدنى الله قتال المشركين ليرين الله ماأصنع فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعنى أصحابه وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعنى المشركين ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال ياسعد بن معاذ الجنة ورب النضر إنى أجد ريحها من دون أحد» قال سعد فما استطعت يارسول الله ماصنع قال أنس فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة بالرمح أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه قال أنس كنا نظن أو نرى أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه : من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه» إلى آخر الآية أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيرى أنا حاجب بن أحمد الطوسى أنا محمد بن حماد أنا معاوية عن الأعمش عن سفيان عن شقيق عن خباب بن الأرت قال « هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبيل الله نبتغى وجه الله فوجب أجرنا على الله فمنا من مضى لم يأكل من أجره شيئا منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد فلم يوجد له شىء يكفن فيه إلا نمرة . فكنا إذا وضعناها على رأسه خرجت رجلاه وإذا وضعناها على رجليه خرج رأسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعوها مما يلى رأسه واجعلوا على رجليه شيئا من الأذخر؛ قال ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها» أخبرنا أبو المظفر محمد بن أحمد التميمى أنا أبو محمد عبد الرحمن بن عثمان المعروف بابن أبى نصر أنا خيثمة بن سليمان بن حيدرة الأطرابلسى أنا محمد بن سليمان الجوهرى بأنطاكية أنا مسلم بن إبراهيم أنا الصلت بن دينار عن أبى نصرة عن جابر بن عبد الله قال « نظر النبى صلى الله عليه وسلم إلى طلحة بن عبد الله فقال : من أحب أن ينظر إلى رجل يمشى على وجه الأرض وقد قضى نحبه فلينظر إلى هذا » أخبرنا

أى فى جميع المواطن على السراء والضراء ثم وصف حال المؤمنين عند لقاء الأحزاب فقال تعالى (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله) أى قالوا ذلك تسليما لأمر الله وتصديقا بوعده (وصدق الله ورسوله) أى فيما وعدا وهو فى مقابلة قول المنافقين «ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا» وقولهم «وصدق الله ورسوله» ليس إشارة إلى ماوقع فإنهم كانوا يعرفون صدق الله ورسوله قبل الوقوع وإنما هو إشارة إلى البشارة فى جميع ماوعد فيقع الكل مثل فتح مكة وفتح الروم وفارس وقيل إنهم وعدوا أن تلحقهم شدة وبلاء فلما رأوا الأحزاب وما أصابهم من الشدة قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله (وما زادهم إلا إيمانا) أى تصديقا لله (وتسليما) أى لأمره . قوله تعالى (من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه) أي قاموا بما جاهدوا الله عليه ووفوا به (فمنهم من قضي نحبه) أى فرغ من نذره ووفى بعهده وصبر على الجهاد حتي استشهد وقيل قضي نحبه يعني أجله فقتل على الوفاء يعني حمزة وأصحابه وقيل قضي نحبه أى بذل جهده فى الوفاء بالعهد وقيل قضي نحبه استشهد يوم بدر وأحد (ومنهم من ينتظر) يعني من بقى بعد هؤلاء من المؤمنين ينتظرون أحد الأمرين إما الشهادة أو النصر على الأعداء (وما بدلوا) يعني عهدهم (تبديلا) (ق) عن أنس قال غاب عمى

عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله بن أبي شيبة أنا وكيع بن إسماعيل عن قيس قال «رأيت يد طلحة شلاء» وقى بها النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد قوله عز وجل (ليجزي الله الصادقين بصدقهم) أي جزاء صدقهم وصدقهم هو الوفاء بالعهد (ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم) فيهديهم إلى الإيمان (إن الله كان غفورا رحيما ورد الله الذين كفروا) من قريش وغطفان (بغيظهم) لم يشف صدورهم بنيل ما أرادوا (لم ينالوا خيرا) ظفرا (وكفى الله المؤمنين القتال) بالملائكة والريح (وكان الله قويا عزيزا) قويا في ملكه عزيزا في انتقامه (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب) أي عاونوا الأحزاب من قريش وغطفان على **(٢٤٧)** رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين وهم بنو قريظة (من صياصيهم) حصونهم ومعاقلهم واحدها صيصية ومنه قيل للقرن ولشوكة الديك والحاكة صيصية وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أصبح من الليلة التي انصرف الأحزاب فيها راجعين إلى بلادهم وانصرف النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون عن الخندق إلى المدينة ووضعوا السلاح فلما كان الظهر أتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم معتجرا بعمامة من استبرق على بغلة عليها رحالة وعليها قطيفة من ديباج ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند زينب بنت جحش وهي تغسل رأسه وقد غسلت شقه فقال قد وضعت السلاح يارسول الله قال نعم فقال جبريل عفا الله عنك ماوضعت الملائكة السلاح منذ أربعين ليلة وما رجعت الآن إلا من طلب القوم وروى أنه كان الغبار على وجه جبريل عليه السلام وفرسه فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يمسح الغبار عن وجهه وعن وجه فرسه فقال إن الله يأمرك بالسير إلى بني قريظة وأنا عامد إلى بني قريظة فانهد إليهم فإني قد قطعت أوتارهم وفتحت أبوابهم وتركتهم في زلزال وبلبال فأمر النبي صلى الله عليه وسلم مناديا فأذن أن من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه برايته إليهم وابتدرها الناس فصار علي رضي الله عنه حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع حتى لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطريق فقال يارسول الله لاعليك أن لا تدنوا من هؤلاء

عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال يارسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون قال اللهم إني اعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني أصحابه وابرأ إليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال ياسعد بن معاذ الجنة ورب النضر إني أجد ريحا من دون أحد فقال سعد فما استطعت يارسول الله ما صنع قال أنس فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه قال أنس كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه إلى آخر الآية» (ق) عن خباب بن الأرت قال «هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نلتمس وجه الله فوقع أجرنا على الله فمنا من مات ولم يأكل من أجره شيئا منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد وترك نمرة وكنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه وإذا غطينا رجليه بدت رأسه فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نغطي رأسه ونجعل على رجليه من الأذخر ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها» النمرة كساء ملون من صوف وقوله ومنا من أينعت أي أدركت ونضجت له ثمرته وهذه استعارة لما فتح الله لهم من الدنيا وقوله يهدبها أي يجتنيها ويقطعها عن أبي موسى بن طلحة قال «دخلت على معاوية فقال ألا أبشرك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: طلحة ممن قضى نحبه» أخرجه الترمذي وقال هذا حديث غريب (خ) عن قيس بن أبي حازم قال «رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد». قوله عز وجل (ليجزى الله الصادقين بصدقهم) أي جزاء صدقهم وصدقهم هو الوفاء بالعهد (ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم) أي فيهديهم إلى الإيمان ويشرح له صدورهم (إن الله كان غفورا رحيما ورد الله الذين كفروا) يعني من قريش وغطفان (بغيظهم) أي لم يشف صدورهم بنيل ما أرادوا (لم ينالوا خيرا) أي ظفرا (وكفى الله المؤمنين القتال) أي بالملائكة والريح (وكان الله قويا) أي في ملكه (عزيزا) أي في انتقامه. قوله تعالى (وأنزل الذين ظاهرهم من أهل الكتاب) أي عاونوا الأحزاب من قريش وغطفان على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين وهم بنو قريظة (من صياصيهم) أي من حصونهم ومعاقلهم واحدها

لأخابث قال لم أظنك سمعت لى منهم أذى قال نعم يارسول الله قال لو قدرونى لم يقولوا من ذلك شيئا فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم قال ياإخوان القردة والخنازير هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته قالوا ياأبا القاسم ماكنت جهولا ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه بالصور من قبل أن يصل إلى بنى قريظة فقال هل مر بكم أحد فقالوا نعم يارسول الله مر بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء عليها رحالة عليها قطيفة ديباج فقال عليه السلام ذاك جبريل بعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب فى قلوبهم فلما أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بني قريظة نزل على بئر من آبارها فى ناحية من أموالهم فتلاحق به الناس فأتاه رجال من بعد صلاة العشاء الآخرة ولم يصلوا العصر. لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لايصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة فصلوا العصر بها بعد العشاء الآخرة فما عابهم الله بذلك ولاعنفهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين ليلة حتي جهدهم الحصار وقذف الله فى قلوبهم الرعب . وكان حيي بن أخطب دخل على بنى قريظة فى حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده فلما أيقنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير منصرف عنهم حتي يناجزهم قال كعب بن أسد يامعشر يهود إنه قد نزل بكم من الأمر ماترون وإنى عارض عليكم خلالا ثلاثا فخذوا أيها شئتم قالوا وما هن قال نتابع هذا الرجل ونصدقه فوالله إنه لقد تبين لكم أنه مرسل وأنه الذى تجدونه فى كتابكم فتأمنوا على دياركم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم قالوا لانفارق حكم التوراة أبدا ولا نستبدل به غيره . قال كعب فإذا أبيتم هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد رجالا مصلتين بالسيوف ولم نترك وراءنا ثقلا يهمنا حتي يحكم الله بيننا وبين محمد فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا شيئا نخشي عليه وأن نظهر فلعمرى لنتخذن النساء والأبناء فقالوا نقتل هؤلاء المساكين فما خير فى العيش بعدهم قال فإن أبيتم هذه فان الليلة ليلة السبت وإنه عسى أن

يكون محمد وأصحابه قد آمنوا فيها فانزلوا لعلنا أن نصيب من محمد وأصحابه غرة قالوا أنفسد سبتنا ونحدث فيه مالم يكن أحدث فيه من كان قبلنا إلا من قد عملت فأصابهم من المسخ مالم يخف عليك فقال مابات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما قال ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بنى عمرو بن عوف وكانوا حلفاء الأوس نستشيره فى أمرنا فأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فلما رأوه قام إليه الرجال وهش إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه فرق لهم فقالوا ياأبا لبابة أترى لنا أن ننزل على حكم محمد قال نعم قالوا ماذا يفعل بنا إذا نزلنا فأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح قال أبو لبابة فوالله مازالت قدماى حتى عرفت أنى قد خنت الله ورسوله ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ارتبط فى المسجد إلى عمود من عمده وقال لاأبرح من مكانى حتى يتوب الله على مما صنعت وعاهد الله أن لايطأ أرض بنى قريظة أبدا ولا يراني الله فى بلد خنت الله ورسوله فيه أبدا فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره وأبطأ عليه . قال أما لو قد جاءنى لاستغفرت له فأما إذا فعل مافعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه ثم إن الله تعالى أنزل توبة أبي لبابة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى بيت أم سلمة قالت أم سلمة فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك قلت مم تضحك يا رسول الله أضحك الله سنك قال تيب على أبى لبابة فقلت ألا أبشره بذلك يارسول الله فقال بلى إن شئت فقامت على باب حجرتها وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب فقالت ياأبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك قال فثار الناس عليه ليطلقوه فقال لا والله حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يطلقنى بيده فلما مر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خارجا إلي الصبح أطلقه قال ثم إن ثعلبة ابن سعيد وأسيد بن سعيد وأسيد بن عبيد وهم نفر من بنى هذيل ليسوا من بنى قريظة ولا النضير نسبهم فوق ذلك هم بنو عم القوم أسلموا تلك الليلة التى نزلت فيها بنو قريظة على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج فى تلك الليلة عمرو ابن سعدى القرظى فمر بحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه محمد بن مسلمة الأنصارى تلك الليلة فلما رآه قال من هذا قال عمرو بن سعدي وكان عمرو قد أبى أن يدخل مع بنى قريظة فى غدرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لا أغدر بمحمد أبدا فقال محمد بن مسلمة حين عرفه اللهم لا تحرمنى من عثرات الكرام ثم خلى

سبيله فخرج على وجهه حتى بات فى مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة تلك الليلة ثم ذهب فلا يدرى أين ذهب من أرض الله فذكر لرسول الله ﷺ شأنه فقال ذاك رجل قد نجاه الله بوفائه وبعض الناس يزعم أنه كان قد أوثق برمة فيمن أوثق من بنى قريظة حين نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فأصبحت رمته ملقاة لايدرى أين ذهب فقال فيه رسول الله ﷺ تلك المقالة والله أعلم فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله فتواثبت الأوس فقالوا يارسول الله إنهم موالينا دون الخزرج وقد فعلت فى موالى الخزرج بالأمس ماقد علمت وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بني قريظة حاصر بنى قينقاع وكانوا حلفاء الخزرج فنزلوا على حكمه فسألهم إياه عبد الله بن أبى بن سلول فوهبهم إياه فلما كلمه الأوس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا ترضون يامعشر الأوس أن يحكم فيكم رجل منكم قالوا بلى قال فذاك إلى سعد بن معاذ . وكان سعد بن معاذ قد جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خيمة امرأة من المسلمين يقال لها رفيدة فى مسجده وكانت تداوى الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق اجعلوه فى خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب ؛ فلما حكمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى قريظة أتاه قومه فاحتملوه على حمار قد وطأوا له بوسادة من أدم . وكان رجلا جسيما ثم أقبلوا معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يقولون ياأبا عمرو أحسن فى مواليك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم فلما أكثروا عليه قال قد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بنى عبد الأشهل فنعى لهم رجال بنى قريظة من قبل أن يصل إليهم سعد بن معاذ عن كلمته التى سمع منه فلما انتهى سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قوموا إلى سيدكم فأنزلوه فقاموا إليه فقالوا ياأبا عمرو إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاك مواليك لتحكم فيهم فقال سعد عليكم بذلك عهد الله وميثاقه إن الحكم فيها ماحكمت قالوا نعم قال وعلى من هاهنا فى الناحية التى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معرض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالا له فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم قال سعد فإنى أحكم فيهم أن تقتل

. . . .

 الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء فقال رسول الله لسعد لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة ثم استنزلوا فحبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دار بنت الحارث امرأة من بنى النجار ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سوق المدينة التى هى سوقها اليوم فخندق بها خندقا . ثم بعث إليهم فضربت أعناقهم فى تلك الخنادق يخرج بهم إليه أرسالا أرسالا وفيهم عدو الله حيي بن أخطب وكعب بن أسد رئيسا القوم وهم ستمائة أو سبعمائة والمكثر لهم يقول كانوا بين ثمانمائة إلى تسعمائة وقد قالوا لكعب بن أسد وهم يذهبون بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسالا ياكعب ماترى مايصنع بنا فقال كعب أفى كل موطن لاتعقلون أما ترون الداعى لاينزع وإن من يذهب به منكم لايرجع هو والله القتل فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم النبى صلى الله عليه وسلم وأتى بحيي بن أخطب عدو الله عليه حلة تفاحية قد شققها عليه من كل ناحية كموضع الأنملة أنملة أنملة لئلا يسلبها مجموعة يداه إلى عنقه بحبل فلما نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أما والله مالمت نفسى فى عداوتك ولكنه من يخذل الله يخذل ثم أقبل على الناس فقال أيها الناس إنه لابأس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة كتبت على بنى إسرائيل ثم جلس فضربت عنقه وروى عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها قالت لم يقتل من نساء بنى قريظة إلا امرأة واحدة قالت والله إنها عندى تتحدث معى وتضحك ظهرا وبطنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يقتل رجالهم بالسيوف إذ هتف هاتف باسمها أين فلانة قالت أنا والله هى قالت قلت ويلك مالك قالت أقتل قلت ولم قالت حدث أحدثته قالت فانطلق بها فضربت عنقها وكانت عائشة تقول ماأنسى عجبا منها طيب نفس وكثرة ضحك وقد عرفت أنها تقتل قال الواقدى وكان اسم تلك المرأة بنانة امرأة الحكم القرظى وكانت قتلت خلاد بن سويد رمت عليه رحى فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بها فضربت عنقها بخلاد بن سويد قال وكان على والزبير يضربان أعناق بنى قريظة ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس هنالك وروى محمد بن إسحاق عن الزهرى أن الزبير بن باطا القرظى وكان يكنى أبا عبد الرحمن كان قد من على ثابت بن قيس بن شماس فى الجاهلية يوم بعاث أخذه فجز ناصيته ثم خلى

سبيله فجاءه يوم قريظة وهو شيخ كبير فقال ياأبا عبد الرحمن هل تعرفنى قال وهل يجهل مثلى مثلك قال : إني أردت أن أجزيك بيدك عندى قال إن الكريم يجزى الكريم قال ثم أتي ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله قد كانت للزبير عندى يد وله على منة وقد أحببت أن أجزيه بها فهب لى دمه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو لك فأتاه فقال له إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وهب لى دمك قال شيخ كبير لاأهل له ولا ولد فمايصنع بالحياة فأتى ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله أهله وماله قال هم لك فأتاه فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطانى امرأتك وولدك فهم لك قال أهل بيت بالحجاز لامال لهم فما بقاؤهم على ذلك فأتي ثابت رسول الله صل الله عليه وسلم فقال ماله يارسول الله قال هو لك قال فأتاه فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أعطاني مالك فهو لك فقال أى ثابت مافعل الله بمن كان وجهه مرآة مضيئة تتراءى فيها عذاري الحى كعب بن أسد قال قتل قال فما فعل سيد الحاضر والبادى حيي بن أخطب قال قتل قال فما فعل مقدمتنا إذا شددنا وحامينا إذ كررنا عزال بن شموال قال قتل قال فما فعل المجلسان يعني بنى كعب بن قريظة وبنى عمرو بن قريظة قال ذهبوا قتلوا قال فإني أسألك بيدى عندك ياثابت إلا ماألحقتنى بالقوم فوالله مافى العيش بعد هؤلاء من خير فما أنا بصابر حتي ألقى الأحبة فقدمه ثابت فضرب عنقه فلما بلغ أبا بكر الصديق قوله ألقى الأحبة قال يلقاهم والله فى نار جهنم خالدا فيها مخلدا أبدا قالوا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر بقتل من أنبت منهم ثم قسم أموال بنى قريظة ونساءهم وأموالهم على المسلمين وأعزل فى ذلك اليوم سهمان الخيل وسهمان الرجال وأخرج منهما الخمس فكان للفارس ثلاثة أسهم للفرس سهمان وللفارس سهم وللراجل ممن ليس له فرس سهم ؛ وكانت الخيل ستة وثلاثين فرسا وكان أول فىء وقع فيه السهمان ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن زيد الأنصارى أخا بنى عبدالأشهل بسبايا من سبايا بنى قريظة (٢٥٠) إلي نجد فابتاع له بهم خيلا وسلاحا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خنانة إحدى نساء بنى عمرو بن قريظة فكانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى توفى عنها وهى فى ملكه وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب فقالت يارسول الله بل تتركنى فى ملكك فهو أخف على وعليك فتركها وقد كانت حين سباها كرهت الإسلام وأبت إلا اليهودية فعزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجد فى نفسه بذلك من أمرها فبينا هو مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه فقال إن هذا لثعلبة ابن شعبة يبشرني بإسلام ريحانة فجاءه فقال يارسول الله قد أسلمت ريحانة فبشره بذلك فلما انقضى شأن بنى قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ وذلك أنه دعا بعد أن حكم فى بنى قريظة ماحكم فقال اللهم إنك قد علمت أنه لم يكن قوم أحب إلي أن أجاهدهم من قوم كذبوا رسولك اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش على رسولك شيئا فأبقني لها وإن كنت قد قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضنى إليك فانفجر كلمه فرجعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خيمته التى ضربت عليه فى المسجد قالت عائشة فحضره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر فوالذى نفسى بيده إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر وإني لفى حجرتي قالت وكانوا كما قال الله تعالي «رحماء بينهم» وكان فتح بنى قريظة فى آخر ذى القعدة سنة خمس من الهجرة . أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله بن محمد أنا يحي بن آدم أنا إسرائيل سمعت أبا إسحاق يقول سمعت سليمان ابن صرد يقول «سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول حين أجلى الأحزاب عنه الآن نغزوهم ولا يغزونا نحن نسير إليهم» أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبدالله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد ابن إسماعيل أنا قتيبة أنا الليث عن سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول لاإله إلا الله وحده أعز جنده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده فلاشىء بعده» قال الله تعالى فى قصة بنى قريظة : «وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم» (وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون) وهم الرجال ، يقال كانوا ستمائة (وتأسرون فريقا) وهم النساء والذرارى يقال كانوا سبعمائة وخمسين ويقال سبعمائة (وأورثكم أرضهم وديارهم

صيصية (وقذف فى قلوبهم الرعب) أى الخوف (فريقا تقتلون) يعنى الرجال يقال كانوا ستمائة (وتأسرون فريقا) يعنى النساء والذراري يقال كانوا سبعمائة قيل وخمسين (وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم

وأموالهم وأرضا لم تطئوها) يعني بعد قيل هى خيبر ويقال إنها مكة وقيل فارس والروم وقيل هى كل أرض تفتح على المسلمين إلى يوم القيامة (وكان الله على كل شىء قديرا) .

(ذكر غزوة بنى قريظة)

قيل كانت فى آخر ذى القعدة سنة خمس وعلى قول البخارى المتقدم فى غزوة الخندق عن موسي بن عقبة أنها كانت فى سنة أربع . قال العلماء بالسير إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أصبح من الليلة التي انصرف الأحزاب راجعين إلي بلادهم انصرف صلى الله عليه وسلم والمؤمنون عن الخندق إلى المدينة ووضعوا السلاح فلما كان الظهر أتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم متعمما بعمامة من إستبرق على بغلة بيضاء عليها رحالة وعليها قطيفة من ديباج ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند زينب بنت جحش وهى تغسل رأسه وقدغسلت شقه فقال جبريل يارسول الله قد وضعت السلاح قال نعم قال جبريل عفا الله عنك ما وضعت الملائكةالسلاح منذ أربعين ليلة وما رجعت الآن إلا من طلب القوم . وروى أنه كان الغبار على وجه جبريل وفرسه فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يمسح الغبار عن وجهه ووجه فرسه فقال إن الله تعالى يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة وأنا عامد إلى بنى قريظة فانهز إليهم فإنى قد قطعت أوتارهم وفتحت أبوابهم وتركتهم فى زلزال وبلبال فأمر النبى صلى الله عليه وسلم مناديا فأذن أن من كان سامعا مطيعا فلايصلين العصر إلا فى بنى قريظة وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب برايته إليهم وابتدرها الناس وسار على حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع حتى لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطريق فقال يارسول الله لاعليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث قال أظنك سمعت لى منهم أذى قال نعم يارسول الله قال لو قد رأونى لم يقولوا من ذلك شيئا فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم قال ياإخوان القردة قد أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته قالوا ياأبا القاسم ما كنت جهولا ؛ ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه بالصورين قبل أن يصل إلى بنى قريظة فقال هل مر بكم أحد فقالوا يارسول الله مر بنا دحية ابن خليفة على بغلة بيضاء عليها رحالة وعليها قطيفة ديباج فقال صلى الله عليه وسلم ذاك جبريل عليه السلام بعث إلي بنى قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب فى قلوبهم فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى قريظة نزل على بئر من آبارها فى ناحية أموالهم وتلاحق به الناس فأتاه رجال بعد صلاة العشاء الأخيرة ولم يصلوا العصر لقول النبى صلى الله عليه وسلم «لايصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة» فصلوا العصر بها بعد العشاء الأخيرة فما عابهم الله بذلك ولا عنفهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العلماء حاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف الله فى قلوبهم الرعب وكان حيى بن أخطب دخل على بنى قريظة حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان ووفى لكعب بن أسد بما كان عاهده فلما أيقنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال كعب بن أسد يامعشر يهود إنكم قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإنى عارض عليكم خلالا ثلاثا فخذوا أيها شئتم قالوا وماهن ؟ قال نتابع هذا الرجل ونصدقه فو الله لقد تبين لكم أنه نبى مرسل وأنه الذى تجدونه فى كتابكم فتؤمنون على دياركم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم فقالوا

(وأموالهم وأرضا لم تطئوها) بعد قال ابن زيد ومقاتل يعنى خيبر قال قتادة كنا نحدث أنها مكة وقال الحسن فارس والروم وقال عكرمة كل أرض تفتح إلى يوم القيامة (وكان الله على كل شىء قديرا)

لانفارق حكم التوراة أبدا ولا نستبدل به غيره قال فإذا أبيتم هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين بالسيوف ولا نترك وراءنا ثقلا يهمنا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا شيئا نخشى عليه وإن نظهر فلعمرى لنتخذن النساء والأبناء قالوا نقتل هؤلاء المساكين فما فى العيش بعدهم خير قال فإن أبيتم هذه الليلة ليلة السبت وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فانزلوا فلعلنا أن نصيب من محمد وأصحابه غرة قالوا نفسد سبتنا ونحدث فيه مالم يكن أحدث فيه من قبلنا إلا ماقد علمت فأصابهم من المسخ مالم يخف عليك قال مابات رجل منكم منذ ولدته أمه حازما ليلة من الدهر ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ابعث لنا أبا لبابة بن عبد المنذر أخابنى عمرو بن عوف وكانوا حلفاء الأوس نستشيره فى أمرنا فأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فلمارأوه قام إليه الرجال والنساء والصبيان يبكون فى وجهه فرق لهم فقالوا ياأبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد قال نعم وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح قال أبو لبابة فوالله مازالت قدماى حتى عرفت أنى قد خنت الله ورسوله ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت النبى صلى الله عليه وسلم حتى ربط فى المسجد إلى عمود من عمده وقال والله لاأبرح مكانى حتى يتوب الله على مما صنعت وعاهد الله لايطأ أرض بنى قريظة أبدا ولا يرانى الله فى بلد قد خنت الله ورسوله فيه أبدا فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره وأبطأ عليه قال أما لو قد جاءنى لاستغفرت له فأما إذ فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه ثم إن الله أنزل توبة أبى لبابة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى بيت أم سلمة قالت أم سلمة فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك فقلت مم ضحكت يارسول الله أضحك الله سنك قال تيب على أبى لبابة فقلت ألا أبشره بذلك يارسول الله قال بلى إن شئت قال فقامت على باب حجرتها وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب فقالت ياأبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك قال فثار الناس إليه ليطلقوه فقال لا والله حتى يكون رسول الله هو الذى يطلقنى بيده فلما مر عليه خارجا إلى الصبح أطلقه قال ثم إن ثعلبة بن سعيد وأسيد بن سعيد وأسيد بن عبيد وهم نفر من بنى هذيل ليسوا من قريظة ولا النضير نسبهم من فوق ذلك هم بنو عم القوم أسلموا تلك الليلة التى نزلت فيها بنو قريظة على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج فى تلك الليلة عمرو بن السعدى القرظى فمر بحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليهم محمد بن مسلمة الأنصارى تلك الليلة فلما رآه قال من هذا قال عمرو بن السعدى وكان عمرو قد أبى أن يدخل مع بنى قريظة فى غدرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لاأغدر بمحمد صلى الله عليه وسلم أبدا فقال محمد بن مسلمة اللهم لاتحرمنى من عثرات الكرام فخلى سبيله فخرج على وجهه حتى بات فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة تلك الليلة ثم ذهب فلا يدرى أين ذهب من أرض الله فذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم شأنه فقال ذاك رجل نجاه الله بوفائه ؛ وبعض الناس يزعم أنه كان أوثق برمة فيمن أوثق من بنى قريظة حين نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصبحت رمته ملقاة ولا يدري أين ذهب فقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المقالة فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتواثب الأوس وقالوا يارسول الله إنهم موالينا دون الخزرج وقد فعلت فى موالى الخزرج بالأمس ماقد علمت وقد كان رسول الله صلى الله

عليه وسلم قبل بنى قريظة حاصر بنى قينقاع وكانوا حلفاء الخزرج فنزلوا على حكمه فسأله
إياهم عبد الله بن أبي بن سلول فوهبهم له فلما كلمه الأوس قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم ألا ترضون يامعشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم قالوا بلى قال فذلك إلي سعد بن
معاذ وكان سعد جعله رسول الله عليه وسلم فى مسجده فى خيمة امرأة من المسلمين يقال لها
رفيدة وكانت تداوى الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق اجعلوه فى خيمة
رفيدة حتى أعوده من قريب فلما حكمه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بنى قريظة أتاه قومه
فحملوه على حمار قد وطئوا له وسادة من أدم وكان رجلا جسيما ثم أقبلوا معه إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم وهم يقولون ياأبا عمرو أحسن في مواليك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم
إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم فلما أكثروا عليه قال قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم فرجع
بعض من كان معه من قومه إلى دار بنى الأشهل فنعى لهم رجال بنى قريظة قبل أن يصل إليهم
سعد بن معاذ عن كلمته التى سمع منه فلما انتهى سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
قوموا إلى سيدكم فأنزلوه فقاموا إليه وقالوا ياأبا عمرو إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاك
مواليك فتحكم فيهم فقال سعد عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم ماحكمت قالوا
نعم قال وعلى من هاهنا في الناحية التى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معرض عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالا له فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم قال سعد فانى
أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم لسعد لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة ثم استنزلوا فحبسهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم في دار بنت الحارث من نساء بنى النجار ثم خرج رسول الله صلى الله عليه
وسلم إلى سوق المدينة التى هى سوقها اليوم فخندق بها خنادق ثم بعث إليهم فضربت أعناقهم
في تلك الخنادق يخرج بهم أرسالا وفيهم عدو الله ورسوله حيي بن أخطب وكعب بن أسد
رأس القوم وهم ستمائة أو سبعمائة والمكثر لهم يقول كانوا بين الثمانمائة إلى التسعمائة وقد
قالوا لكعب بن أسد وهم يذهب بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسالا يا كعب ماترى
مايصنع بنا قال أفي كل موطن لاتعقلون ألا ترون الداعى لاينزع وأن من يذهب به منكم لا يرجع
هو والله القتل فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم النبي صلى الله عليه وسلم وأتى بحيى بن
أخطب عدو الله وعليه حلة تفاحية قد شققها عليه من كل ناحية كموضع الأنملة أنملة أنملة لئلا
يسلبها مجموعة يداه إلى عنقه بحبل فلما نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال والله ما لمت
نفسى في عداوتك ولكنه من يخذل الله يخذل ثم أقبل على الناس فقال أيها الناس إنه لابأس
بأمر الله كتاب وقدر وملحمة كتبت على بنى إسرائيل ثم جلس فضرب عنقه وروى عن عائشة
قالت لم يقتل من نساء بنى قريظة إلا امرأة واحدة قالت والله إنها لعندى تتحدث معى وتضحك ظهرا
وبطنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقتل رجالهم بالسيف إذ هتف هاتف باسمها أين فلانة
قالت أنا والله قلت ويلك مالك قالت أقتل قلت ولم قالت حدثا أحدثته قالت فانطلق بها فضرب
عنقها وكانت عائشة تقول ماأنسى عجبا منها طيب نفس وكثرة ضحك وقد عرفت أنها تقتل
قال الواقدى وكان اسم المرأة بنانة امرأة الحكم القرظى وكانت قتلت خلاد بن سويد قال وكان

علي والزبير يضربان أعناق بني قريظة ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس هناك . وروى محمد بن إسحاق عن الزهرى أن الزبير بن باطا القرظى ويكنى أباعبد الرحمن كان قد من على ثابت ابن قيس بن شماس في الجلية يوم بعاث أخذه فجز ناصيته ثم خلى سبيله فجاءه يوم قريظة وهو شيخ كبير فقال ياأبا عبدالرحمن هل تعرفنى قال وهل يجهل مثلى مثلك قال إنى أريد أن أجزيك بيدك عندى قال إن الكريم يجزى الكريم قال ثم أتى ثابت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله قد كان للزبير عندى يد وله على منة وقد أحببت أن أجزيه بها فهب لى دمه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هولك فأتاه فقال له إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وهب لى دمك قال شيخ كبير لاأهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة فأتى ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله أهله وأولاده فقال هم لك فأتاه فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطانى امرأتك وولدك فهم لك فقال أهل بيت بالحجاز لامال لهم فما بقاؤهم على ذلك فأتى ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ماله يارسول الله قال هو لك فأتاه فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أعطانى مالك فهو لك فقال أى ثابت مافعل الذى كان وجهه مرآة صينية يتراءى فيه عذارى الحى كعب بن أسد قال قتل قال فما فعل مقدمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا كررنا عزال بن شموال قال قتل قال فما فعل المجلسان يعنى بنى كعب بن قريظة وبنى عمرو بن قريظة قال قتلوا قال فإنى أسألك بيدى عندك ياثابت إلا ما ألحقتنى بالقوم فو الله ما في العيش بعد هؤلاء من خير فما أنا بصابر حتى ألقى الأحبة فقدمه ثابت فضربت عنقه فلما بلغ أبا بكر الصديق قوله حتى يلقى الأحبة قال يلقاهم والله في نار جهنم خالدا مخلدا أبدا قال وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر بقتل من أنبت منهم ثم قسم أموال بنى قريظة ونساءهم على المسلمين وأغنم فى ذلك اليوم سهمين للخيل وسهما للرجال فكان للفارس ثلاثة أسهم سهمان للفرس ولفارسه سهم وللراجل ممن ليس له فرس سهم وكانت الخيل ستة وثلاثين فرسا وكان أول يوم وقع فيه السهمان ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن زيد الأنصارى أخا بنى الأشهل بسبايا من سبايا بنى قريظة إلى نجد فابتاع له بهم خيلا وسلاحا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خنانة إحدى نساء بنى عمرو بن قريظة فكانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى توفي عنها وهى في ملكه وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب فقالت يارسول الله بل تتركنى فى ملكك فهو أخف على وعليك فتركها وقد كانت حين سباها كرهت الإسلام وأبت إلا اليهودية فعزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجد في نفسه بذلك من أمرها فبينا هو بين أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه فقال إن هذا لثعلبة بن شعبة يبشرنى بإسلام ريحانة فجاءه فقال يارسول الله قد أسلمت ريحانة فسره ذلك فلما قضى شأن بنى قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ وذلك أنه دعا بعد أن حكم في بنى قريظة ماحكم فقال اللهم إنك علمت أنه لم يكن قوم أحب إلى أن أجاهدهم من قوم كذبوا رسولك اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش على رسولك شيئا فأبقنى له وإن كنت قد قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضنى إليك فانفجر كلمه فرجعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خيمته التى ضربت عليه في المسجد قالت عائشة فحضره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر فو الذى نفس محمد بيده

إنى

قوله عز وجل (يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن) متعة الطلاق (وأسرحكن سراحا جميلا وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما) سبب نزول هذه الآية أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم سألنه شيئا من عرض الدنيا وطلبن منه زيادة فى النفقة وآذينه بغيرة بعضهن على بعض فهجرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآلى أن لا يقربهن شهرا ولم يخرج إلى أصحابه فقالوا ما شأنه وكانوا يقولون طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه فقال عمر لأعلمن لكم شأنه قال فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله أطلقتهن قال لا قلت يارسول الله : إني دخلت المسجد والمسلمون يقولون طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه أفأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهن قال نعم إن شئت قال فقمت على باب (٢٥٥) المسجد وناديت بأعلى صوتى لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه فنزلت هذه الآية « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » قال فكنت أنا استنبطت ذاك الأمر وأنزل الله آية التخيير وكان تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ تسع نسوة خمس من قريش عائشة بنت أبي بكر الصديق وحفصة بنت عمر وأم حبيبة بنت أبي سفيان وأم سلمة بنت أبي أمية وسودة بنت زمعة ، وغير القرشيات زينب بنت جحش الأسدية وميمونة بنت الحارث الهلالية وصفية بنت حيي بن أخطب الخيبرية ؛ وجورية بنت الحارث المصطلقيه رضوان الله عليهن فلما نزلت آية التخيير بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة وكانت أحبهن إليه فخيرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة فرؤى الفرح فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعنها على ذلك قال قتادة فلما اخترن الله ورسوله شكرهن الله على ذلك فقال «لايحل لك النساء من بعد» أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر أنا عبدالغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودى أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجاج أنا زهير بن حرب أنا روح بن عبادة أنا زكريا بن إسحاق أنا أبو الزبير عن جابر بن عبد الله قال : « دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد الناس جلوسا ببابه ولم يؤذن لأحد منهم قال فأذن لأبي بكر فدخل ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له فوجد

إنى لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر وإني لفي حجرتي قالت وكانوا كما قال الله تعالى فيهم «رحماء بينهم» (خ) عن سلمان بن صرد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حين أجلى الأحزاب «الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير إليهم» (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول «لا إله إلا الله وحده لا شريك له أعز جنده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده فلا شيء بعده» . قوله تعالى (يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن) أى متعة الطلاق (وأسرحكن سراحا جميلا) أى من غير ضرر (وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما) سبب نزول هذه الآية أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم سألنه من عرض الدنيا شيئا وطلبن منه زيادة في النفقة وآذينه بغيرة بعضهن على بعض فهجرن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآلى أن لا يقربهن شهرا ولم يخرج إلى أصحابه فقالوا ما شأنه وكانوا يقولون طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه فقال عمر لأعلمن لكم شأنه قال فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله أطلقتهن قال لا قلت يارسول الله إنى دخلت المسجد والمسلمون يقولون طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه أفأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهن قال نعم إن شئت فقمت على باب المسجد وناديت بأعلى صوتي لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ونزلت هذه الآية «ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » فكنت أنا استنبطت هذا الأمر وأنزل الله آية التخيير وكان تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ تسع نسوة خمسة من قريش وهن عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر وأم حبيبة بنت أبي سفيان وأم سلمة بنت أبى أمية وسودة بنت زمعة وأربع غير قرشيات وهن زينب بنت جحش الأسدية وميمونة بنت الحارث الهلالية وصفية بنت حيي بن أخطب الخيبرية وجويرية بنت الحارث المصطلقية فلما نزلت آية التخيير بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة وكانت أحبهن إليه فخيرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة فرؤى الفرح فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعتها على ذلك فلما اخترن الله ورسوله شكرهن الله على ذلك وقصره عليهن

النبي صلى الله عليه وسلم جالسا حوله نساؤه واجما ساكتا فقال لأقولن شيئا أضحك به النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال هن حولى كما ترى يسألنني النفقة فقام أبو بكر إلي عائشة يجأ عنقها وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها كلاهما يقول لاتسألى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا أبدا ليس عنده ثم اعتزلهن شهرا أو تسعا وعشرين ثم نزلت هذه الآية : (٢٥٦) «ياأيها النبي قل لأزواجك حتى بلغ « للمحسنات منكن أجرا عظيما . قال فبدأ بعائشة فقال ياعائشة إنى أريد أن أعرض عليك أمرا أحب أن لا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك قالت وماهو يارسول الله فتلا عليها الآية قالت أفيك يا رسول الله أستشير أبوى بل أختار الله ورسوله وأختار الدار الآخرة وأسألك أن لاتخبر امرأة من نسائك بالذى قلت قال لاتسألنى امرأة منهن إلا أخبرتها إن الله لم يبعثنى معنتا ولا متعنتاولكن بعثنى معلما مبشرا » أخبرنا أحمد ابن عبدالله الصالحى أنا أبوالحسين بن بشران أنا إسماعيل ابن [illegible] الصفار أخبرنا أحمد بن منصور الرمادي أنا عبد الرزاق أنامعمر عن الزهرى «أن النبي صلى الله عليه وسلم أقسم أن لا يدخل على أزواجه شهرا قال الزهرى فأخبرني عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت فلما مضت تسع وعشرون أعدهن دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت حين بدأ بى يارسول الله إنك أقسمت ألا تدخل علينا شهرا وأنك دخلت فى تسع وعشرين أعدهن فقال إن الشهر تسع وعشرون واختلف العلماء فى هذا الخيار أنه هل كان ذلك تفويض الطلاق إليهن حتى يقع بنفس الاختيار أم لا فذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم إلى أنه لم يكن تفويض الطلاق وإنما خيرهن على أنهن إذا اخترن الدنيا فارقهن لقوله تعالى «فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا » بدليل أنه لم يكن جوابهن على الفور فانه قال

فقال تعالى «لايحل لك النساء من بعد» (م) عن جابر بن عبد الله قال «دخل أبوبكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم فأذن لأبى بكر فدخل ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا وحوله نساؤه واجما ساكتا فقال لأقولن شيئا أضحك به النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله لقد رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها فضحك النبي صلى الله عليه وسلم فقال هن حولى كما ترى يسألنني النفقة فقام أبو بكر إلى عائشة فوجأ عنقها وقام عمر إلى حفصة فوجأ عنقها كلاهما يقول تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ماليس عنده قلن والله لانسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا أبدا ليس عنده ثم اعتزلهن شهرا أو تسعا وعشرين حتى نزلت هذه الآية : ياأيها النبي قل لأزواجك إن كنتن ؛ حتى بلغ : للمحسنات منكن أجرا عظيما» قال فبدأ بعائشة فقال ياعائشة إنى أريد أن أعرض عليك أمرا أحب أن لاتعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك قالت وما هو يارسول فتلا عليها الآية قالت أفيك يارسول الله استشير أبوي بل اختار الله ورسوله والدار الآخرة وأسألك أن لاتخبر امرأة من نسائك بالذى قلت قال لاتسألنى امرأة منهن إلا أخبرتها إن الله لم يبعثنى معنتا ولا متعنتا ولكن بعثنى معلما مبشرا» قوله واجما أى مهتما والواجم الذى أسكته الهم وعلته الكآبة وقيل الوجوم الحزن. قوله فوجأت عنقها أى دققته وقوله لم يبعثنى معنتا العنت المشقة والصعوبة (م) عن الزهرى « أن النبي صلى الله عليه وسلم أقسم أن لايدخل على أزواجه شهرا قال الزهرى فأخبرنى عروة عن عائشة قالت لما مضت تسع وعشرون ليلة أعدهن دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بدأ بى فقلت يارسول الله أقسمت أن لا تدخل علينا شهرا وإنك دخلت من تسع وعشرين أعدهن قال إن الشهر تسع وعشرون »

(فصل فى حكم الآية)

اختلف العلماء فى هذا الخيار هل كان ذلك تفويض الطلاق إليهن حتى يقع بنفس الاختيار أم لا فذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم إلى أنه لم يكن تفويض الطلاق وإنما خيرهن على أنهن إذ اخترن الدنيا فارقهن لقوله تعالى «فتعالين أمتعكن وأسرحكن» بدليل أنه لم يكن جوابهن على الفور وأنه قال لعائشة «لاتعجلى حتى تستشيرى أبويك» وفى تفويض الطلاق يكون الجواب على الفور وذهب قوم إلى أنه كان تفويض الطلاق ولو اخترن أنفسهن كان طلاقا . التفريع على حكم الآية اختلف أهل العلم فى حكم التخيير فقال عمر وابن مسعود وابن عباس إذا خير الرجل امرأته فاختارت زوجها لايقع شىء وإن اختارت نفسها يقع طلقة واحدة وهو قول عمر

لعائشة لاتعجلى حتى تستشيرى أبويك ، وفى تفويض الطلاق يكون الجواب على الفور . وذهب قوم إلى أنه كان تفويض الطلاق لو اخترن أنفسهن كان طلاقا واختلاف أهل العلم فى حكم التخيير فقال عمر وابن مسعود وابن عباس إذا خير الرجل امرأته فاختارت زوجها لايقع شىء وإن اختارت نفسها يقع طلقة واحدة ؛ وهو قول عمر بن عبد العزيز وابن أبى ليلى وسفيان والشافعى وأصحاب الرأى إلا أن عند أصحاب الرأى تقع طلقة بائنة إذا اختارت نفسها وعند الآخرين رجعية وقال زيد بن ثابت إذا اختارت الزوج تقع طلقة واحدة وإذا اختارت نفسها فثلاث وهو قول الحسن وبه قال مالك وروى عن على أيضا إذا اختارت زوجها تقع طلقة واحدة وإن اختارت نفسها فطلقة بائنة وأكثر العلماء على أنها إذا اختارت زوجها لايقع شىء أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن إسماعيل أنا عمر بن حفص أنا أبي أنا الأعمش أنا مسلم عن مسروق عن عائشة قالت «خيرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٥٧) فاخترنا الله ورسوله فلم يعد ذلك علينا شيئا » قوله عز وجل (يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة) بمعصية ظاهرة قيل هى كقوله عز وجل « لئن أشركت ليحبطن عملك » لأن منهن من أتت بفاحشة وقال ابن عباس المراد بالفاحشة النشوز وسوء الخلق (يضاعف لها العذاب ضعفين) قرأ ابن كثير وابن عامر نضعف بالنون وكسر العين وتشديدها العذاب نصب وقرأ الآخرون بالياء وفتح العين العذاب رفع ويشددها أبو جعفر وأهل البصرة وشدد أبو عمرو هذه وحدها لقوله ضعفين وقرأ الآخرون يضاعف بالألف وفتح العين العذاب رفع وهما لغتان ؛ مثل بعد وباعد قال أبو عمرو وأبو عبيدة ضعفت الشىء إذا جعلته مثليه وضاعفته جعلته أمثاله (وكان ذلك على الله يسيرا) قال مقاتل كان عذابها على الله هينا وتضعيف عقوبتهن على المعصية لشرفهن كتضعيف عقوبة الحرة على الأمة وتضعيف ثوابهن لرفع منزلتهن وفيه إشارة إلى أنهن أشرف نساء العالمين (ومن يقنت) يطع (منكن لله ورسوله) قرأ يعقوب من تأت منكن وتقنت بالتاء فيهما وقرأ العامة بالياء لأن من أداة تقوم مقام الاسم يعبر به عن الواحد والجمع والمذكر والمؤنث (وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين) أى مثل أجر غيرها قال مقاتل مكان كل حسنة عشرين حسنة وقرأ حمزة والكسائى يعمل يؤتها بالياء فيهما نسقا على قوله من يأت ويقنت وقرأ الآخرون تعمل بالتاء (وأعتدنا لها رزقا كريما) حسنا يعنى الجنة (يانساء النبى لستن كأحد من النساء) قال ابن عباس يريد ليس قدركن عندى مثل قدر غيركن من النساء الصالحات أنتن أكرم على وثوابكن أعظم لدى ولم يقل كواحدة لأن الأحد عام يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث قال الله تعالى «لانفرق بين أحد من رسله» وقال «فما منكم من أحد عنه حاجزين» (إن اتقيتن) الله أطعتنه (فلا تخضعن بالقول) لاتلن بالقول للرجال ولا ترققن

عمر بن عبد العزيز وابن أبى ليلى وسفيان والشافعى وأصحاب الرأى إلا أن عند أصحاب الرأى يقع طلقة بائنة إذا اختارت نفسها وعند الآخرين رجعية وقال زيد بن ثابت إذا اختارت الزوج يقع طلقة واحدة وإذا اختارت نفسها فثلاث وهو قول الحسن وبه قال مالك وروى عن علي أنها إذا اختارت زوجها يقع طلقة واحدة وإذا اختارت نفسها فطلقة بائنة وأكثر العلماء على أنها إذا اختارت زوجها لا يقع شىء (ق) عن مسروق قال مأبالى خيرت امرأتى واحدة أو مائة أو ألفا بعد أن تختارنى ولقد سألت عائشة رضى الله عنها فقالت خيرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فما كان طلاقا وفى رواية فاخترناه فلم يعد ذلك شيئا . قوله تعالى (يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة) أى بمعصية ظاهرة قيل هو كقوله « لئن أشركت ليحبطن عملك» أى لأن منهن من أتت بفاحشة فإن الله تعالى صان أزواج الأنبياء عن الفاحشة وقال ابن عباس المراد بالفاحشة النشوز وسوء الخلق (يضاعف لها العذاب ضعفين) أى مثلين وسبب تضعيف العقوبة لهن لشرفهن كتضعيف عقوبة الحرة على الأمة وذلك لأن نسبة النبى صلى الله عليه وسلم إلى غيره من الرجال كنسبة السادات إلى العبيد لكونه أولى بالمؤمنين من أنفسهم فكذلك أزواجه بالنسبة إلي غيرهن كنسبة الحرة إلي الأمة (وكان ذلك على الله يسيرا) أى عذابها (ومن يقنت منكن لله ورسوله) أى تطع الله ورسوله (وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين) أى مثلى أجر غيرها قيل الحسنة بعشرين حسنة وتضعيف ثوابهن لرفع منزلتهن وفيه إشارة إلي أنهن أشرف نساء العالمين(وأعتدنا لها رزقا كريما) أى الجنة . قوله تعالي (يانساء النبى لستن كأحد من النساء) قال ابن عباس يريد ليس قدركن عندى مثل قدر غيركن من النساء الصالحات أنتن أكرم على وثوابكن أعظم لدى (إن اتقيتن) أى الله فأطعتنه فإن الأكرم عند الله هو الأتقى (فلا تخضعن بالقول) أى لا تلن بالقول للرجال ولا ترققن الكلام

الكلام (فيطمع الذى فى قلبه مرض) أى فجور وشهوة وقيل نفاق والمعنى لاتقلن قولا يجد منافق أو فاجر به سبيلا إلى الطمع فيكن والمرأة مندوبة إلي الغلظة فى المقالة إذا خاطبت الأجانب لقطع الأطماع (وقلن قولا معروفا) ما يوجبه الدين والإسلام بتصريح وبيان من غير خضوع (وقرن فى بيوتكن) قرأ أهل المدينة وعاصم وقرن بفتح القاف؛ وقرأ الآخرون بكسرها فمن فتح القاف فمعناه أقررن أى الزمن بيوتكن من قولهم قررت بالمكان أقر قرارا ويقال قررت أقر وقررت أقر، وهما لغتان فحذفت الراء الأولى التى هى عين الفعل لثقل التضعيف ونقلت حركتها إلى القاف كقولهم فى ظللت ظلت قال الله تعالى «فظلتم تفكهون - وظلت عليه عاكفا» ومن كسر القاف فقد قيل هو من قررت أقر معناه أقررن بكسر الراء فحذفت الأولي ونقلت حركتها إلي القاف كما ذكرنا وقيل هو الأصح أنه أمر من الوقار كقولهم من الوعد عدن ومن الوصل صلن أى كن أهل وقار وسكون من قولهم وقر فلان يقر وقورا إذا سكن واطمأن (ولا تبرجن) قال مجاهد وقتادة التبرج هو التكسر والتغنج وقال ابن أبى نجيح هو التبختر وقيل هو إظهار الزينة وإبراز المحاسن للرجال (تبرج الجاهلية الأولى) اختلفوا فى الجاهلية الأولى قال الشعبى هى ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وقال أبو العالية هى فى زمن داود وسليمان عليهما السلام كانت المرأة تلبس قميصا من الدر غير مخيط من الجانبين فيرى خلفها فيه. وقال الكلبى كان ذلك فى زمن نمرود الجبار كانت المرأة تتخذ الدرع من اللؤلؤ فتلبسه وتمشى وسط الطريق ليس عليها شىء غيره وتعرض نفسها على الرجال. وروى عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال الجاهلية الأولى بين نوح وإدريس وكانت ألف سنة وأن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل وكان رجال الجبل صباحا وفى النساء دمامة وكان نساء السهل صباحا وفى الرجال دمامة وأن إبليس أتى رجلا من أهل السهل وأجر نفسه منه فكان يخدمه واتخذ شيئا مثل الذى يزمر به الرعاء فجاء بصوت لم يسمع الناس بمثله فبلغ ذلك من حولهم فأتوهم يستمعون إليه فاتخذوا عيدا يجتمعون إليه فيه فى السنة فتتبرج النساء للرجال ويتزين الرجال لهن وأن رجلا من أهل الجبل هجم عليهم فى عيدهم ذلك فرأى النساء وصباحتهن فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك فتحولوا إليهم فنزلوا معهم فظهرت الفاحشة فيهم فذلك قوله تعالى «ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى» وقال قتادة هى ما قبل الإسلام وقيل الجاهلية الأولى ماذكرنا والجاهلية الأخرى قوم يفعلون مثل فعلهم فى آخر الزمان وقيل قد تذكر الأولى وإن لم يكن لها أخرى كقوله تعالى «وأنه أهلك عادا الأولى» ولم يكن لها أخرى. قوله تعالى (وأقمن الصلاة وآتين الزكاة أى

(٢٥٨)

(فيطمع الذى فى قلبه مرض) أى فجور وشهوة وقيل نفاق والمعنى لاتقلن قولا يجد المنافق والفاجر به سبيلا إلى الطمع فيكن والمرأة مندوبة إلي الغلظة فى المقال إذا خاطبت الأجانب لقطع الأطماع فيهن (وقلن قولا معروفا) أى يوجبه الدين والإسلام عند الحاجة إليه ببيان من غير خضوع وقيل القول المعروف ذكر الله تعالي. قوله عز وجل (وقرن فى بيوتكن) أى الزمن بيوتكن وقيل هو أمر من الوقار أى كن أهل وقار وسكون (ولا تبرجن تبرج) قيل هو التكسر والتغنج والتبختر وقيل هو إظهار الزينة وإبراز المحاسن للرجال (الجاهلية الأولي) قيل الجاهلية الأولي هو ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وقيل هو زمن داود وسليمان عليهما السلام كانت المرأة تلبس قميصا من الدر غير مخيط الجانبين فيرى خلفها منه وقيل كان فى زمن نمرود الجبار كانت المرأة تتخذ الدرع من اللؤلؤ فتلبسه وتمشى به وسط الطريق ليس عليها شىء غيره وتعرض نفسها على الرجال وقال ابن عباس الجاهلية الأولى ما بين نوح وإدريس وكانت ألف سنة وقيل أن بطنين من ولد آدم عليه الصلاة والسلام كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل وكانت رجال الجبال صباحا وفى النساء دمامة وكان نساء السهل صباحا وفى الرجال دمامة وإن إبليس أتى رجلا من أهل السهل وأجره نفسه وكان يخدمه واتخذ شيئا مثل الذى يزمر به الرعاة فجاء بصوت لم يسمع الناس مثله فبلغ ذلك من حولهم فأتوهم يستمعون إليه واتخذوا عيدا يجتمعون إليه فى السنة فتتبرج النساء للرجال وتتزين الرجال لهن وإن رجلا من أهل الجبل هجم عليهم فى عيدهم ذلك فرأى النساء وصباحتهن فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك فتحولوا إليهم فنزلوا معهم وظهرت الفاحشة فيهن فذلك قوله تعالى «ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى» وقيل الجاهلية الأولى ما قبل الإسلام والجاهلية الأخرى قوم يفعلون مثل فعلهم فى آخر الزمان وقيل قد تذكر الأولي وإن لم تكن لها أخرى (وأقمن الصلاة) أى الواجبة (وآتين الزكاة)

واطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) أراد بالرجس الإثم الذى نهى الله النساء عنه قاله مقاتل. وقال ابن عباس يعنى عمل الشيطان وما ليس لله فيه رضا وقال قتادة يعنى السوء وقال مجاهد الرجس الشك وأراد بأهل البيت نساء النبى ﷺ لأنهن فى بيته وهو رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس وتلا قوله «واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله» وهو قول عكرمة ومقاتل وذهب أبو سعيد الخدرى وجماعة من التابعين منهم مجاهد وقتادة وغيرهما إلى أنهم على وفاطمة والحسن والحسين

(٢٥٩) ثنا أبو الفضل زياد بن محمد الحنفى أنا أبو محمد عبد الرحمن بن محمد الأنصارى أنا أبو محمد يحيى بن محمد ابن صاعدى أنا أبو همام الوليد بن شجاع أنا يحيى ابن زكريا بن زائدة أنا أبى عن مصعب بن شيبة عن صفية بنت شيبة الحجبية عن عائشة أم المؤمنين قالت «خرج رسول الله صلى الله عايه وسلم ذات غداة وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجلس فأتت فاطمة فأدخلها فيه ثم جاء على فأدخله فيه ثم جاء حسن فأدخله فيه ثم جاء حسين فأدخله فيه ثم قال إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا» أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد الحميدى أنا أبو عبد الله الحافظ أنا أبو العباس محمد بن يعقوب الحسن ابن مكرم أنا عثمان بن عمر أنا عبد الرحمن بن عبد الله ابن دينار عن شريك ابن أبى نمر عن عطاء بن يسار عن أم سلمة قالت «فى بيتى نزلت إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت قالت فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فاطمة وعلى والحسن والحسين فقال هؤلاء أهل بيتى قالت فقلت يارسول الله أما أنا من أهل البيت ؟ قال بلى إن شاء الله» قال زيد بن أرقم أهل بيته من حرم الصدقة عليه بعده آل على وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس. قوله تعالى (واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله) أى القرآن (والحكمة) قال قتادة يعنى السنة وقال مقاتل أحكام القرآن ومواعظه (إن الله كان لطيفا خبيرا) أى لطيفا بأوليائه خبيرا بجميع خلقه. قوله عز وجل (إن المسلمين والمسلمات) الآية وذلك «أن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم قلن يارسول الله إن الله ذكر الرجال فى القرآن

أى المفروضة (وأطعن الله ورسوله) أى فيما أمر وفيما نهى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس) أى الإثم الذى نهى الله النساء عنه، وقال ابن عباس يعنى عمل الشيطان وما ليس لله فيه رضا وقيل الرجس الشك وقيل السوء (أهل البيت ويطهركم تطهيرا) هم نساء النبى صلى الله عليه وسلم لأنهن فى بيته وهو رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس وتلا قوله تعالى «واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة» وهو قول عكرمة ومقاتل وذهب أبو سعيد الخدرى وجماعة من التابعين منهم مجاهد وقتادة وغيرهم إلى أنهم على وفاطمة والحسن والحسين رضى الله عنهم يدل عليه ماروى عن عائشة أم المؤمنين قالت «خرج النبى صلى الله عليه وسلم ذات غداة وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجلس فأتت فاطمة فأدخلها فيه ثم جاء على فأدخله فيه ثم جاء الحسن فأدخله فيه ثم جاء الحسين فأدخله فيه ثم قال إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا» أخرجه مسلم المرط الكساء والمرحل بالحاء المنقوش عليه صور الرحال وبالجيم المنقوش عليه صور الرجال، عن أم سلمة قالت «إن هذه الآية نزلت فى بيتها إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا قالت وأنا جالسة عند الباب فقلت يارسول الله ألست من أهل البيت فقال إنك إلى خير أنت من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم قالت وفى البيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى وفاطمة وحسن وحسين فجللهم بكساء وقال اللهم هؤلاء أهل بيتى فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا» أخرجه الترمذى وقال حديث صحيح غريب عن أنس بن مالك «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول الصلاة يا أهل البيت إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب وقال زيد بن أرقم أهل البيت من حرم الصدقة بعده آل على وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس. قوله تعالى (واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله) يعنى القرآن (والحكمة) قيل هى السنة وقيل هى أحكام القرآن ومواعظه (إن الله كان لطيفا) يعنى بأوليائه وأهل طاعته (خبيرا) أى بجميع خلقه. قوله عز وجل (إن المسلمين والمسلمات) الآية وذلك «أن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم قلن يارسول الله ذكر الله الرجال فى القرآن ولم يذكر النساء بخير فما فينا خير نذكر به إنا نخاف أن لا تقبل منا طاعة فأنزل الله هذه الآية» عن أم عمارة الأنصارية قالت «أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت مالى أرى كل شىء إلى الرجال وما أرى النساء يذكرن بشىء فنزلت إن المسلمين والمسلمات» أخرجه الترمذى وقال حديث غريب وقيل إن أم سلمة بنت أبى أمية وأنيسة بنت

ولم يذكر النساء بخير فما فينا خير نذكر به إنا نخاف أن لايقبل الله منا طاعة فأنزل الله هذه الآية قال مقاتل قالت أم سلمة بنت أبى أمية وأنيسة بنت كعب الأنصارية للنبي صلى الله عليه وسلم مابال ربنا يذكر الرجال ولا يذكر النساء في شيء من كتابه نخشى أن لايكون فيهن خير فنزلت هذه الآية وروى أن أسماء بنت عميس رجعت من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب فدخلت على نساء النبي صلى الله عليه وسلم فقالت هل نزل فينا شيء من القرآن قلن لا فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله إن النساء لفي خيبة وخسار قال ومم ذلك قالت لأنهن لايذكرن بخير كما يذكر الرجال فأنزل الله هذه الآية إن المسلمين والمسلمات (والمؤمنين والمؤمنات والقانتين) المطيعين (والقانتات والصادقين) في إيمانهم وفيما ساءهم وسرهم (والصادقات والصابرين) على ما أمر الله به (والصابرات والخاشعين) المتواضعين (والخاشعات) وقيل أراد به الخشوع في الصلاة ومن الخشوع أن لايلتفت (والمتصدقين) مما رزقهم الله (والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم) عما لايحل (والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات) قال مجاهد لايكون العبد من الذاكرين الله كثيرا حتى يذكر الله قائما وقاعدا ومضطجعا وروينا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « قد سبق المفردون قالوا وما المفردون يارسول الله ؟ قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات » قال عطاء بن أبي رباح من فوض أمره إلي الله عز وجل فهو داخل في قوله إن المسلمين والمسلمات ومن أقر بأن الله ربه ومحمدا رسوله ولم يخالف قلبه لسانه فهو داخل في قوله : والمؤمنين والمؤمنات ومن أطاع الله في الفرض والرسول في السنة فهو داخل في قوله والقانتين والقانتات ومن صان نفسه عن الكذب فهو داخل في قوله والصادقين والصادقات ومن صبر على الطاعة وعن المعصية وعلى الرزية فهو داخل في قوله والصابرين والصابرات ومن صلى فلم يعرف من عن يمينه وعن يساره فهو داخل في قوله والخاشعين والخاشعات ومن تصدق في كل أسبوع بدرهم فهو داخل في قوله :

كعب الأنصارية قالتا للنبي صلى الله عليه وسلم مابال ربنا يذكر الرجال ولايذكر النساء في شيء في كتابه ونخشى أن لايكون فيهن خير فنزلت هذه الآية وروى « أن أسماء بنت عميس رجعت من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب فدخلت على نساء النبي صلى الله عليه وسلم فقالت هل نزل فينا شيء من القرآن قلن لافأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله إن النساء لفي خيبة وخسار قال ومم ذلك قالت لأنهن لم يذكرن بخير كما ذكر الرجال فأنزل الله إن المسلمين والمسلمات فذكر لهن عشر مراتب مع الرجال فمدحهن بها معهم الأولى الإسلام وهو الانقياد لأمر الله تعالى وهو قوله إن المسلمين والمسلمات الثانية الإيمان بما يراد به أمر الله تعالي وهو تصحيح الاعتقاد وموافقة الظاهر للباطن وهو قوله (والمؤمنين والمؤمنات) الثالثة الطاعة وهو قوله (والقانتين والقانتات) الرابعة الصدق في الأقوال والأفعال وهو قوله (والصادقين والصادقات) الخامسة الصبر على ماأمر الله وفيما ساء وسر وهو قوله (والصابرين والصابرات) السادسة الخشوع في الصلاة وهو أن لايلتفت وقيل هو التواضع وهو قوله (والخاشعين والخاشعات) السابعة الصدقه مما رزق الله وهو قوله (والمتصدقين والمتصدقات) الثامنة المحافظة على الصوم وهو قوله (والصائمين والصائمات) التاسعة العفة وهو قوله (والحافظين فروجهم) يعني عما لايحل (والحافظات) العاشرة كثرة الذكر وهو قوله (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات) وقيل لايكون العبد منهم حتى يذكر الله قائما وقاعدا ومضطجعا وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «سبق المفردون قالوا يارسول الله وما المفردون قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات» وقال عطاء بن أبي رباح من فوض أمره إلي الله فهو داخل في قوله إن المسلمين والمسامات ومن أقر بأن الله ربه ومحمدا رسوله ولم يخالف قلبه لسانه فهو داخل في قوله والمؤمنين والمؤمنات ومن أطاع الله في الفرض والرسول في السنة فهو داخل في قوله والقانتين والقانتات ومن صان قوله عن الكذب فهو داخل في قوله والصادقين والصادقات ومن صبر على الطاعة وعن المعصية وعلى الرزية فهو داخل في قوله والصابرين والصابرات ومن صلى فلم يعرف من عن يمينه وعن شماله فهو داخل في قوله والخاشعين والخاشعات ومن تصدق في كل أسبوع بدرهم فهو داخل في قوله والمتصدقين والمتصدقات ومن صام في كل شهر أيام البيض وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر فهو داخل في قوله والصائمين والصائمات ومن حفظ فرجه عما لايحل فهو داخل في قوله والحافظين فروجهم والحافظات ومن صلى الصلوات الخمس بحقوقها فهو

داخل

والمتصدقين والمتصدقات ومن صام في كل شهر أيام البيض الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر فهو داخل في قوله : والصائمين والصائمات ومن حفظ فرجه عما لا يحل فهو داخل في قوله والحافظين فروجهم والحافظات ومن صلى الصلوات الخمس بحقوقها فهو داخل في قوله والذاكرين الله كثيرا والذاكرات (أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) قوله تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة « إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) الآية نزلت في زينب بنت جحش الأسدية وأخيها عبد الله بن جحش وأمهما أمية بنت عبد المطلب عمة النبي صلى الله عليه وسلم «خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب لمولاه زيد بن حارثة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اشترى زيدا في الجاهلية بعكاظ فأعتقه وتبناه فلما خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب رضيت وظنت أنه يخطبها لنفسه فلما (٢٦١) علمت أنه يخطبها لزيد أبت وقالت أنا ابنة عمتك يارسول الله فلا أرضاه لنفسي وكانت بيضاء جميلة فيها حدة وكذلك كره أخوها ذلك فأنزل الله عز وجل « وما كان لمؤمن» يعني عبد الله بن جحش «ولا مؤمنة» يعني أخته زينب « إذا قضى الله ورسوله أمرا » أي إذا أراد الله ورسوله أمرا وهو نكاح زينب لزيد « أن يكون لهم الخيرة من أمرهم» قرأ أهل الكوفة أن يكون بالياء للحائل بين التأنيث والفعل وقرأ الآخرون بالتاء لتأنيث الخيرة من أمرهم والخيرة الاختيار والمعنى أن يريد غير ما أراد الله أو يمتنع مما أمر الله ورسوله به (ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) أي أخطأ خطأ ظاهرا فلما سمعا ذلك رضيا بذلك وسلما وجعلت أمرها بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك أخوها فأنكحها رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدا فدخل بها وساق رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها عشرة دنانير وستين درهما وخمارا ودرعا وإزارا وملحفة وخمسين مدا من طعام وثلاثين صاعا من تمر . قوله تعالى (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك) الآية نزلت في زينب وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما زوج زينب من زيد مكثت عنده حينا ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى زيدا ذات يوم لحاجة فأبصر زينب قائمة في درع وخمار وكانت بيضاء جميلة ذات خلق من أتم نساء قريش فوقعت في نفسه وأعجبه حسنها فقال سبحان الله مقلب القلوب وانصرف فلما جاء زيد ذكرت ذلك له ففطن زيد فألقى في نفس زيد كراهيتها في الوقت فأتى رسول الله صلى الله

داخل في قوله والذاكرين الله كثيرا والذاكرات (أعد الله لهم مغفرة) أي بمحو ذنوبهم (وأجرا عظيما) يعني الجنة . قوله تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) نزلت هذه الآية في زينب بنت جحش الأسدية وأخيها عبد الله بن جحش وأمهما أمية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب زينب لمولاه زيد بن حارثة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اشترى زيدا في الجاهلية بعكاظ وأعتقه وتبناه فلما خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب رضيت وظنت أنه يخطبها لنفسه فلما علمت أنه يخطبها لزيد بن حارثة أبت وقالت أنا ابنة عمتك يارسول الله فلا أرضاه لنفسي وكانت بيضاء جميلة وفيها حدة وكذلك كره أخوها ذلك فأنزل الله تعالى «وما كان لمؤمن» يعني عبد الله بن جحش «ولا مؤمنة» يعني أخته زينب «إذا قضى الله ورسوله أمرا» يعني نكاح زيد لزينب «أن تكون لهم الخيرة من أمرهم» أي الاختيار على ما قضى والمعنى أن يريد غير ما أراد الله أو يمتنع مما أمر الله ورسوله به (ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) أي أخطأ خطأ ظاهرا فلما سمعت بذلك زينب وأخوها رضيا وسلما وجعلت أمرها بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنكحها زيدا ودخل بها وساق رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها عشرة دنانير وستين درهما وخمارا ودرعا وملحفة وخمسين مدا من طعام وثلاثين صاعا من تمر . قوله عز وجل (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك) الآية نزلت في زينب وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما زوجها من زيد مكثت عنده حينا ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى زيدا ذات يوم لحاجة فأبصر زينب في درع وخمار وكانت بيضاء جميلة ذات خلق من أتم نساء قريش وقعت في نفسه وأعجبه حسنها فقال سبحان الله مقلب القلوب وانصرف فلما جاء زيد ذكرت له ذلك ففطن زيد وألقى في نفسه كراهيتها في الوقت وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إني أريد أن أفارق صاحبتي فقال له مالك أرابك منها شيء قال لا والله يارسول الله ما رأيت منها إلا خيرا ولكنها تتعظم علي بشرفها وتؤذيني بلسانها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم «أمسك عليك زوجك واتق الله في أمرها» ثم إن زيدا طلقها فذلك قوله عز وجل « وإذ تقول للذي أنعم الله عليه» أي بالإسلام «وأنعمت عليه»

عليه وسلم فقال إنى أريد أن أفارق صاحبتى قال مالك أرابك منها شيء قال لا والله يارسول الله مارأيت منها إلا خيرا ولكنها تتعظم على لشرفها وتؤذينى بلسانها فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أمسك عليك زوجك» (واتق الله) فى أمرها ثم طلقها زيد فذلك قوله عز وجل «وإذ تقول للذى أنعم الله عليه» بالإسلام «وأنعمت عليه» بالتربية والإعتاق وهو زيد بن حارثة «أمسك عليك زوجك» يعنى زينب بنت جحش واتق الله فيها ولا تفارقها (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه) أى تسر فى نفسك ما الله مظهره أى كان فى قلبه لو فارقها لتزوجها ، وقال ابن عباس حبها ، وقال قتادة ود أنه طلقها (وتخشى الناس) قال ابن عباس والحسن تستحييهم وقيل تخشى لائمة الناس أن يقولوا أمر رجلا بطلاق امرأته ثم نكحها (والله أحق أن تخشاه) قال ابن عمر وابن مسعود وعائشة ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية هى أشد عليه من هذه الآية وروى عن مسروق قال : قالت عائشة لو كتم النبى صلى الله عليه وسلم شيئا مما أوحى إليه لكتم هذه الآية « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه » وروى سفيان بن عيينة عن على بن زيد بن جدعان قال : سألنى على بن الحسين زين العابدين مايقول الحسن فى قوله «وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه» قلت يقول لما جاء زيد إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يانبى الله إنى أريد أن أطلق زينب فأعجبه ذلك فقال «أمسك عليك زوجك واتق الله » فقال على ابن الحسين ليس كذلك بل كان الله تعالى قد أعلمه أنها ستكون من أزواجه وأن زيدا سيطلقها فلما جاء زيد وقال إنى أريد أن أطلقها قال له أمسك عليك زوجك وقد فعاتبه الله وقال لم قلت أمسك عليك زوجك وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك وهذا هو الأولى والأليق بحال الأنبياء وهو مطابق للتلاوة لأن الله علم أنه يبدى ويظهر ما أخفاه ولم يظهر غير تزويجها منه فقال زوجناكها فلو كان الذى أضمره رسول الله ﷺ محبتها أو إرادة طلاقها لأظهر ذلك لأنه لا يجوز أن يخبر أنه يظهره ثم يكتمه فلا يظهره فدل على أنه إنما عوتب على إخفاء ما أعلمه الله أنها ستكون زوجة له وإنما أخفاه استحياء أن يقول لزيد إن التى تحتك وفى نكاحك ستكون زوجتى وهذا قول حسن مرضى وإن كان القول الآخر وهو أنه أخفى محبتها ونكاحها لو طلقها لا يقدح فى حال الأنبياء لأن العبد غير ملوم على مايقع فى قلبه فى مثل هذه الأشياء مالم يقصد فيه المأثم لأن الود وميل النفس من طبع البشر وقوله « أمسك عليك زوجك واتق الله» أمر بالمعروف وهو حسن لا إثم فيه . قوله تعالى «والله أحق أن تخشاه» لم يرد به أنه لم يكن يخشى الله فيما سبق فإنه

أى بالإعتاق وهو زيد بن حارثة مولاه « أمسك عليك زوجك» يعنى زينب بنت جحش (واتق الله) أى فيها ولا تفارقها (وتخفى فى نفسك) أى تسر وتضمر فى نفسك (ما الله مبديه) أى مظهره قيل كان فى قلبه لو فارقها تزوجها قال ابن عباس حبها وقيل ود أنه طلقها (وتخشى الناس) قال ابن عباس تستحييهم وقيل تخاف لائمتهم أن يقولوا أمر رجلا بطلاق امرأته ثم نكحها (والله أحق أن تخشاه) قال عمر وابن مسعود وعائشة مانزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية هى أشد من هذه الآية وعن عائشة قالت لو كتم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من الوحى لكتم هذه الآية : «وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب .

(فصل)

فإن قلت ماذكروه فى تفسير هذه الآية وسبب نزولها من وقوع محبتها فى قلب النبى صلى الله عليه وسلم عند مارآها وإرادته طلاق زيد لها فيه أعظم الحرج وما لا يليق بمنصبه صلى الله عليه وسلم من مد عينيه لما نهى عنه من زهرة الحياة الدنيا . قلت هذا إقدام عظيم من قائله وقلة معرفة بحق النبى صلى الله عليه وسلم وبفضله وكيف يقال رآها فأعجبته وهى بنت عمته ولم يزل يراها منذ ولدت ولا كان النساء يحتجبن منه ﷺ وهو زوجها لزيد فلا يشك فى تنزيه النبى ﷺ عن أن يأمر زيدا بإمساكها وهو يحب تطليقه إياها كما ذكر عن جماعة من المفسرين . وأصح ما فى هذا الباب ماروى عن سفيان بن عيينة عن على بن زيد بن جدعان قال سألنى زين العابدين بن على بن الحسين قال ما يقول الحسن فى قوله تعالى « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه» قلت يقول لما جاء زيد إلى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله إنى أريد أن أطلق زينب أعجبه ذلك وقال أمسك عليك زوجك واتق الله فقال على بن الحسين ليس كذلك فإن الله عز وجل قد أعلمه أنها ستكون من أزواجه وأن زيدا سيطلقها فلما جاء زيد قال إنى أريد أن أطلقها قال له أمسك عليك زوجك فعاتبه الله تعالى وقال لم قلت أمسك عليك زوجك

عليه السلام قد قال «أنا أخشاكم لله وأتقاكم له» ولكنه لما ذكر الخشية من الناس ذكر أن الله تعالى أحق بالخشية في عموم الأحوال وفي جميع الأشياء. قوله عز وجل (فلما قضى زيد منها وطرا) أي حاجة من نكاحها (زوجناكها) وذكر قضاء الوطر ليعلم أن زوجة المتبنى تحل بعد الدخول بها قال أنس كانت زينب تفتخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فتقول زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات وقال الشعبي كانت زينب تقول للنبي صلى الله عليه وسلم إني لأدل عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدلي بهن جدي وجدك واحد وإني أنكحنيك الله في السماء وأن السفير لجبريل عليه السلام. أخبرنا إسماعيل ابن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجاج حدثني محمد بن حاتم بن ميمون أنا بهز أنا سليمان ابن المغيرة عن ثابت عن أنس قال «لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد فاذكرها علي قال فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمر عجينها قال فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها فوليتها ظهري ونكصت على عقبي فقلت يا زينب أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم إليك يذكرك قالت ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربي فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن قال ولقد رأيتنا وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أطعمنا الخبز واللحم عليهن حتى امتد النهار فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعته فجعل يتتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويقلن يا رسول الله كيف وجدت أهلك قال فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبرني قال فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب» أخبرنا عبد الواحد المليحي

وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك وهذا هو الأولى والأليق بحال الأنبياء وهو مطابق للتلاوة لأن الله تعالى أعلم أنه يبدي ويظهر ما أخفاه ولم يظهر غير تزويجها منه فقال تعالى «زوجناكها» فلو كان الذي أضمره رسول الله صلى الله عليه وسلم محبتها أو إرادة طلاقها لكان يظهر ذلك لأنه لا يجوز أن يخبر أنه يظهره ثم يكتمه ولا يظهره فدل على أنه إنما عوتب على إخفاء ما أعلمه الله أنها ستكون زوجته وإنما أخفى ذلك استحياء أن يخبر زيدا أن التي تحتك وفي نكاحك ستكون زوجتي وهذا قول حسن مرضي وكم من شيء يتحفظ منه الإنسان ويستحي من اطلاع الناس عليه وهو في نفسه مباح متسع وحلال مطلق لا مقال فيه ولا عيب عند الله وربما كان الدخول في ذلك المباح سلما إلى حصول واجبات يعظم أثرها في الدين وهو إنما جعل الله طلاق زيد لها وتزويج النبي صلى الله عليه وسلم إياها لإزالة حرمة التبني وإبطال سنته كما قال الله تعالى «ما كان محمد أبا أحد من رجالكم» وقال «لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم» فإن قلت فما الفائدة في أمر النبي صلى الله عليه وسلم زيدا بإمساكها. قلت هو أن الله تعالى أعلم نبيه أنها زوجته فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم عن طلاقها وأخفى في نفسه ما أعلمه الله به فلما طلقها زيد خشي قول الناس يتزوج امرأة ابنه فأمره الله تعالى بزواجها ليباح مثل ذلك لأمته وقيل كان في أمره بإمساكها قمعا للشهوة وردا للنفس عن هواها وهذا إذا جوزنا القول المتقدم الذي ذكره المفسرون وهو أنه أخفى محبتها أو نكاحها لو طلقها زيد ومثل ذلك لا يقدح في حال الأنبياء مع أن العبد غير ملوم على ما يقع في قلبه من مثل هذه الأشياء وأنه رآها فجأة فاستحسنها ومثل هذه لا نكرة فيه لما طبع عليه البشر من استحسان الحسن ونظرة الفجأة معفو عنها ما لم يقصد مأثما لأن الود وميل النفس من طبع البشر والله أعلم وقوله «أمسك عليك زوجك واتق الله» أمر بالمعروف وهو حسن لا إثم فيه وقوله «والله أحق أن تخشاه» لم يرد به أنه لم يكن يخشى الله فيما سبق فإنه عليه الصلاة والسلام قد قال أنا أخشاكم لله وأتقاكم له ولكنه لما ذكر الخشية من الناس ذكر أن الله أحق بالخشية في عموم الأحوال في جميع الأشياء. قوله عز وجل (فلما قضى زيد منها وطرا) أي حاجته منها ولم يبق له فيها أرب وتقاصرت همته عنها وطابت عنها نفسه وطلقها وانقضت عدتها وذكر قضاء الوطر ليعلم أن زوجة المتبنى تحل بعد الدخول بها (زوجناكها) قال أنس كانت زينب تفتخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم تقول زوجكن آباؤكن وزوجني الله من فوق سبع سموات وقال الشعبي «كانت زينب تقول للنبي صلى الله عليه وسلم إني لأدل عليك بثلاث ما من امرأة من نسائك تدل بهن جدي وجدك واحد وإني أنكحنيك الله في السماء وإن السفير جبريل عليه السلام» (م) عن أنس قال لما انقضت عدة زينب قال رسول

أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا سليمان بن حرب أنا حماد عن ثابت عن أنس قال «ما أولم النبي ﷺ على شيء من نسائه ما أولم على زينب أولم بشاة» أخبرنا محمد بن عبد الله الصالحي ؛ أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي أنا أبو العباس الأصم أنا محمد بن هشام بن ملاس النمري أنا مروان الفزاري أنا حميد عن أنس قال «أولم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ابتنى بزينب بنت جحش فأشبع المسلمين خبزا ولحما» قوله تعالى (لكيلا يكون على المؤمنين حرج) إثم (في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا) والأدعياء جمع الدعي وهو المتبنى يقول زوجناك زينب وهي امرأة زيد الذي تبنيته ليعلم أن زوجة المتبنى حلال للمتبنى وإن كان قد دخل بها المتبنى بخلاف امرأة بن الصلب فإنها لاتحل للأب (وكان أمر الله مفعولا) أي كان قضاء الله ماضيا وحكمه نافذا وقد قضى في زينب أن يتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم . قوله تعالى (ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له) أي فيما أحل الله له (سنة الله) أي كسنة الله نصب بنزع الخافض وقيل نصب على الإغراء أي الزموا سنة الله (في الذين خلوا من قبل) أي في الأنبياء الماضين أن لا يؤاخذهم بما أحل لهم ، قال الكلبي ومقاتل أراد داود حين جمع بينه وبين المرأة التي هويها فكذلك جمع بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين زينب وقيل أشار بالسنة إلى النكاح فإنه من سنة الأنبياء عليهم السلام وقيل إلى كثرة الأزواج مثل داود وسليمان عليهما السلام (وكان أمر الله قدرا مقدورا) قضاء مقضيا كائنا ماضيا (الذين يبلغون رسالات الله) يعني سنة الله في الأنبياء الذين يبلغون رسالات الله (ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله) أي لا يخشون قالة الناس ولائمتهم فيما أحل الله لهم وفرض عليهم (وكفى بالله حسيبا) حافظا لأعمال خلقه ومحاسبهم ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوج زينب قال الناس إن محمدا تزوج امرأة ابنه فأنزل الله عز وجل (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) يعني زيد بن حارثة أي ليس أبا أحد من رجالكم

(٣٦٤)

الله صلى الله عليه وسلم لزيد اذهب فاذكرها علي قال فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمر عجينها قال فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها فوليتها ظهري ونكصت علي عقبي فقلت يا زينب أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك قالت ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربي فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن قال فلقد رأيتنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أطعمنا الخبز واللحم حتى امتد النهار فخرج الناس وبقي أناس يتحدثون في البيت بعد الطعام فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعته فجعل يتتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويقلن يا رسول الله كيف وجدت أهلك قال فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أم غيري قال فانطلق حتى دخل البيت وذهبت لأدخل معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب (ق) عن أنس قال ما أولم النبي صلى الله عليه وسلم على شيء من نسائه ما أولم على زينب أولم بشاة وفي رواية أكثر وأفضل ما أولم على زينب قال ثابت بم أو لم قال أطعمهم خبزا ولحما حتى تركوه . قوله عز وجل (لكيلا يكون على المؤمنين حرج) أي إثم (في أزواج أدعيائهم) جمع الدعي وهو المتبنى (إذا قضوا منهن وطرا) يقول زوجناك زينب وهي امرأة زيد الذي كنت تبنيته ليعلم أن زوجة المتبنى حلال للمتبنى وإن كان قد دخل بها المتبنى بخلاف امرأة ابن الصلب فإنها لا تحل للأب (وكان أمر الله مفعولا) أي قضاء الله ماضيا وحكمه نافذا وقد قضى في زينب أن يتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم . قوله تعالى (ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له) أي فيما أحل الله له من النكاح وغيره (سنة الله في الذين خلوا من قبل) معناه سن الله سنة في الأنبياء وهو أن لا حرج عليهم في الإقدام على ما أباح لهم ووسع عليهم في باب النكاح وغيره فإنه كان لهم الحرائر والسراري فقد كان لداود عليه السلام مائة امرأة ولسليمان ثلثمائة امرأة وسبعمائة سرية فكذلك سن لمحمد صلى الله عليه وسلم في التوسعة عليه كما سن لهم ووسع عليهم (وكان أمر الله قدرا مقدورا) يعني قضاء مقضيا أن لا حرج على أحد فيما أحل له ثم أثنى الله تعالى على الأنبياء بقوله (الذين يبلغون رسالات الله) يعني فرائض الله وسننه وأوامره ونواهيه إلى من أرسلوا إليهم (ويخشونه) يعني يخافونه (ولا يخشون أحدا إلا الله) يعني لا يخافون قالت الناس ولائمتهم فيما أحل لهم وفرض عليهم (وكفى بالله حسيبا) أي حافظا لأعمال خلقه ومحاسبهم . قوله عز وجل (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوج زينب قال الناس إن

الذين لم يلدهم فيحرم عليه نكاح زوجته بعد فراقه إياها فإن قيل أليس إنه كان له أبناء، القاسم. والطيب. والطاهر. وإبراهيم كذلك الحسن والحسين فإن النبي ﷺ قال في الحسن «إن ابني هذا سيد» قيل هؤلاء كانوا صغاراً لم يكونوا رجالاً والصحيح ماقلنا إنه أراد أبا أحد من رجالكم الذين لم يلدهم (ولكن رسول الله وخاتم النبيين) ختم الله به النبوة وقرأ ابن عامر وعاصم خاتم بفتح التاء على الاسم أي آخرهم وقرأ الآخرون بكسر التاء على الفاعل لأنه ختم به النبيين فهو خاتمهم: قال ابن عباس يريد لو لم أختم به النبيين لجعلت له ابنا يكون بعده نبيا وروى عن عطاء عن ابن عباس أن الله تعالى لما حكم أن لانبي بعده لم يعطه ولدا ذكرا يصير رجلا (وكان الله بكل شيء عليما) أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني أنا أبو محمد محمد بن علي بن محمد الخشابي أنا عبد الله ابن محمد بن مسلم أبو بكر الجوريدي أنا يونس بن عبد الأعلى أنا ابن وهب أخبرني يونس عن يزيد عن ابن شهاب عن أبي سلمة قال كان أبو هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مثلي ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بنيانه ترك منه موضع لبنة فطاف به النظار يتعجبون من حسن بنيانه إلا موضع تلك اللبنة لايعيبون سواها فكنت أنا سددت موضع اللبنة ختم بي البنيان وختم بي الرسل» أخبرنا عبد الله

(٢٦٥)

بن عبد الصمد الجورجانى أنا عدى بن أحمد الخزاعى أنا الهيثم بن كليب الشاشي أنا أبو عيسى الترمذي أنا سعيد بن عبد الرحمن المخزومي وغير واحد قالوا أنا سفيان عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن لي أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب» والعاقب الذي ليس بعده نبي. قوله تعالي (ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) قال ابن عباس لم يفرض الله تعالى فريضة على عباده إلا جعل لها حدا معلوما وعذر أهلها في حال العذر غير الذكر فإنه لم يجعل له حدا ينتهي إليه ولم يعذر أحدا في تركه إلا مغلوبا على عقله لذلك أمرهم به في كل الأحوال

إن محمدا تزوج امرأة ابنه فأنزل الله «ما كان محمد أبا أحد من رجالكم» يعني زيد بن حارثة والمعنى أنه لم يكن أبا رجل منكم على الحقيقة حتى يثبت بينه وبينه مايثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح. فإن قلت قد كان له أبناء القاسم والطيب والطاهر وإبراهيم وقال للحسن إن ابني هذا سيد: قلت قد أخرجوا من حكم النفي بقوله من رجالكم وهؤلاء لم يبلغوا مبلغ الرجال وقيل أراد بالرجال الذين لم يلدهم (ولكن رسول الله) أي إن كل رسول هو أبو أمته فيما يرجع إلى وجوب التوقير والتعظيم له ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه (وخاتم النبيين) ختم الله به النبوة فلا نبوة بعده أي ولا معه قال ابن عباس يريد لو لم أختم به النبيين لجعلت له ابنا ويكون بعده نبيا وعنه قال إن الله لما حكم أن لانبي بعده لم يعطه ولدا ذكرا يصير رجلا (وكان الله بكل شيء عليما) أي دخل في علمه أنه لانبي بعده. فإن قلت قد صح أن عيسى عليه السلام ينزل في آخر الزمان بعده وهو نبي قلت إن عيسى عليه السلام ممن نبيء قبله وحين ينزل في آخر الزمان ينزل عاملا بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ومصليا إلى قبلته كأنه بعض أمته (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون ويتعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» وعن جابر نحوه وفيه جئت فختمت الأنبياء (ق) عن جبير بن مطعم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله الكفر بي وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي» وقد سماه الله رءوفا رحيما» (م) عن أبي موسى قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يسمي لنا نفسه أسماء فقال «أنا محمد وأنا أحمد وأنا المقفي وأنا الماحي ونبي التوبة ونبي الرحمة» المقفي هو المولى الذاهب يعني آخر الأنبياء المتبع لهم فإذا قفى فلا نبي بعده. قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) قال ابن عباس لم يفرض الله عز وجل على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر فإنه لم يجعل له حدا ينتهي إليه ولم يعذر أحدا في تركه إلا مغلوبا على عقله وأمرهم به في الأحوال كلها فقال تعالى «فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم» وقال تعالى «اذكروا الله ذكرا كثيرا» يعني بالليل والنهار في البر والبحر وفي الصحة والسقم وفي السر والعلانية وقيل

فقال «فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم» وقال «اذكروا الله ذكرا كثيرا» أى بالليل والنهار فى البر والبحر وفى الصحة والسقم وفى السر والعلانية. وقال مجاهد الذكر الكثير أن لاتنساه أبدا (وسبحوه) أى صلوا له (بكرة) يعنى صلاة الصبح (وأصيلا) يعنى صلاة العصر وقال الكلبي وأصيلا صلاة الظهر والعصر والعشاءين وقال مجاهد يعنى قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم فعبر بالتسبيح عن أخواته وقيل المراد من قوله ذكرا كثيرا هذه الكلمات يقولها الطاهر والجنب والمحدث (٣٦٦) (هو الذى يصلى عليكم وملائكته) فالصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار للمؤمنين قال السدى قالت بنو إسرائيل لموسى أيصلى ربنا فكبر هذا الكلام على موسى فأوحى الله إليه أن قل لهم إنى أصلى وإن صلاتى رحمتى وقد وسعت رحمتى كل شئ وقيل الصلاة من الله على العبد هى إشاعة الذكر الجميل له فى عباده وقيل الثناء عليه. قال أنس لما نزلت «إن الله وملائكته يصلون على النبى» قال أبو بكر ما خصك الله يا رسول الله بشرف إلا وقد أشركنا فيه فأنزل الله فيه هذه الآية قوله (ليخرجكم من الظلمات إلى النور) أى من ظلمة الكفر إلي نور الإيمان يعنى أنه برحمته وهدايته ودعاء الملائكة لكم أخرجكم من ظلمة الكفر إلى النور (وكان بالمؤمنين رحيما تحيتهم) أى تحية المؤمنين (يوم يلقونه) أى يرون الله (سلام) أى يسلم الله عليهم ويسلمهم من جميع الآفات وروى عن البراء بن عازب قال «تحيتهم يوم يلقونه» يعنى يلقون ملك الموت لايقبض اصبر روح مؤمن إلا يسلم عليه. وعن ابن مسعود قال إذا جاء ملك الموت ليقبض روح المؤمن قال إن ربك يقرئك السلام وقيل تسلم عليهم الملائكة وتبشرهم حين يخرجون من قبورهم (وأعد لهم أجرا كريما) يعنى الجنة. قوله عز وجل (ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) أي شاهدا للرسل بالتبليغ ومبشرا لمن آمن بالجنة ونذيرا لمن كذب بآياتنا بالنار (وداعيا إلى الله) إلى توحيده وطاعته (بإذنه) بأمره (وسراجا منيرا) سماه سراجا لأنه يهتدى به كالسراج يستضاء به فى الظلمة (وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ولا تطع الكافرين والمنافقين) ذكرنا تفسيره فى أول السورة (ودع أذاهم) قال ابن عباس وقتادة اصبر

الذكر الكثير أن لاينساه أبدا (وسبحوه) معناه إذا ذكرتموه ينبغى لكم أن يكون ذكركم إياه على وجه التعظيم والتنزيه عن كل سوء (بكرة وأصيلا) فيه إشارة إلى المداومة لأن ذكر الطرفين يفهم منه الوسط أيضا وقيل معناه صلوا له بكرة صلاة الصبح وأصيلا يعنى صلاة العصر وقيل صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء وقيل معنى سبحوه قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله زاد في نسخة العلى العظيم فعبر بالتسبيح عن أخواته والمراد بقوله كثيرا هذه الكلمات يقولها الطاهر والجنب والحائض والمحدث (هو الذى يصلى عليكم وملائكته) الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار للمؤمنين وقيل الصلاة من الله علي العبد هى إشاعة الذكر الجميل له فى عباده والثناء عليه قال أنس لما نزلت «إن الله وملائكته يصلون على النبى» قال أبو بكر ماخصك الله يارسول الله بشرف إلا وقد أشركنا فيه فأنزل الله هذه الآية (ليخرجكم من الظلمات إلى النور) يعنى أنه برحمته وهدايته ودعاء الملائكة لكم أخرجكم من ظلمة الكفر إلي نور الإيمان (وكان بالمؤمنين رحيما) فيه بشارة لجميع المؤمنين وإشارة إلي أن قوله يصلى عليكم غير مختص بالسامعين وقت الوحى بل هو عام لجميع المسلمين (تحيتهم) يعنى تحية المؤمنين (يوم يلقونه) أى يرون الله يوم القيامة (سلام) أى يسلم الرب تعالي عليهم ويسلمهم من جميع الآفات وروى. عن البراء بن عازب قال «تحيتهم يوم يلقونه سلام» يعنى يلقون ملك الموت لايقبض روح مؤمن إلا يسلم عليه. عن ابن مسعود قال إذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن قال ربك يقرئك السلام وقيل تسلم عليهم الملائكة حين يخرجون من قبورهم تبشرهم (وأعد لهم أجرا كريما) يعنى الجنة. قوله عز وجل (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا) أى للرسل بالتبليغ وقيل شاهدا على الخلق كلهم يوم القيامة (ومبشرا) أى لمن آمن بالجنة (ونذيرا) أى لمن كذب بالنار (وداعيا إلى الله) أى إلى توحيده وطاعته (بإذنه) أى بأمره (وسراجا منيرا) سماه سراجا منيرا لأنه جلا به ظلمات الشرك واهتدى به الضالون كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير وقيل معناه أمد الله بنور نبوته نور البصائر كما يمد بنور السراج نور الأبصار ووصفه بالإنارة لأن من السراج ما لا يضىء. فإن قلت لم سماه سراجا ولم يسمه شمسا والشمس أشد إضاءة من السرج وأنور. قلت نور الشمس لايمكن أن يؤخذ منه شيء بخلاف نور السراج فإنه يؤخذ منه أنوار كثيرة (وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا) أى ماتفضل به عليهم زيادة على الثواب وقيل الفضل هو الثواب وقيل هو تفضيل هذه الأمة على سائر الأمم (ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم) قال ابن عباس

على آذاهم وقال الزجاج لاتجازهم عليه وهذا منسوخ بآية القتال (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) حافظا . قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن) فيه دليل على أن الطلاق قبل النكاح غير واقع لأن الله تعالى رتب الطلاق على النكاح حتى لو قال لامرأة أجنبية إذا نكحتك فأنت طالق وقال كل امرأة أنكحها فهي طالق فنكح لايقع الطلاق وهو قول على وابن عباس وجابر ومعاذ وعائشة ، وبه قال سعيد بن المسيب وعروة وشريح وسعيد بن جبير والقاسم وطاوس والحسن وعكرمة وعطاء وسليمان بن يسار ومجاهد والشعبي وأكثر أهل العلم رضى الله عنهم وبه قال الشافعي وروى عن ابن مسعود أنه يقع الطلاق وهوقول إبراهيم النخعي وأصحاب الرأى وقال (٢٦٧) ربيعة ومالك والأوزاعي إن عين امرأة يقع وإن عمم فلا يقع وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال كذبوا على ابن مسعود وإن كان قالها فزلة من عالم في الرجل يقول إن تزوجت فلانة فهي طالق يقول الله تعالى «إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن» ولم يقل إذا طلقتموهن ثم نكحتموهن : أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا الحسين بن محمد الدينوري أنا عمر بن أحمد بن القاسم النهاوندي أنا أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري بمكة أنا الربيع ابن سليمان أنا أيوب بن سويد أنا ابن أبي ذئب عن عطاء عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاطلاق قبل النكاح» قوله عز وجل (من قبل أن تمسوهن) تجامعوهن (فمالكم عليهن من عدة تعتدونها) تحصونها بالأقراء والأشهر (فمتعوهن) أى أعطوهن مايستمتعن به . قال ابن عباس هذا إذا لم يكن سمى لها صداقا فلها المتعة ، فان كان قد فرض لها صداقا فلها نصف الصداق ولامتعة لها . وقال قتادة هذه الآية منسوخة بقوله فنصف مافرضتم وقيل هذا أمر ندب فالمتعة مستحبة لها مع نصف المهر وذهب بعضهم إلي أنها تستحق المتعة بكل حال لظاهر الآية (وسرحوهن سراحا جميلا) خلوا سبيلهن بالمعروف من. غير ضرار قوله تعالى (يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن) أى مهورهن (وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك) رد عليك من الكفار بأن تسبي فتملك مثل صفية وجويرية وقد كانت مارية مما ملكت يمينه فولدت له (وبنات عمك وبنات عماتك) يعني نساء قريش (وبنات خالك وبنات خالاتك) يعني نساء بني

اصبر على أذاهم وقيل لاتجازهم عليه وهذا منسوخ بآية القتال (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) أى حافظا . قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) أى تجامعوهن ، ففي الآية دليل على أن الطلاق قبل النكاح غير واقع لأن الله تعالى رتب الطلاق على النكاح حتى لو قال لامرأة أجنبية إذا نكحتك فأنت طالق أو قال كل امرأة أنكحها فهي طالق فنكح لايقع الطلاق وهذا قول على وابن عباس وجابر ومعاذ وعائشة وبه قال سعيد بن المسيب وعروة وشريح وسعيد بن جبير والقاسم وطاوس والحسن وعكرمة وعطاء وسليمان بن يسار ومجاهد والشعبي وقتادة وأكثر أهل العلم وبه قال الشافعي وروى عن ابن مسعود أنه يقع الطلاق وهوقول إبراهيم النخعي وأصحاب الرأى وقال ربيعة ومالك والأوزاعي إن عين امرأة وقع وإن عمم فلا يقع وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال كذبوا على ابن مسعود وإن كان قالها فزلة من عالم في الرجل يقول إن تزوجت فلانة فهي طالق والله يقول «إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن» ولم يقل إذا طلقتموهن ثم نكحتموهن روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لاطلاق فيما لاتملك ولاعتق فيما لاتملك ولا بيع فيما لاتملك» أخرجه أبو داود والترمذي بمعناه (خ) عن ابن عباس قال جعل الله الطلاق بعد النكاح أخرجه البخاري في ترجمة باب بغير إسناد وعن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاطلاق قبل النكاح» (فمالكم عليهن من عدة تعتدونها) أى تحصونها بالأقراء والأشهر أجمع العلماء أنه إذا كان الطلاق قبل المسيس والخلوة فلا عدة وذهب أحمد إلى أن الخلوة توجب العدة والصداق (فمتعوهن) أى أعطوهن مايستمتعن به قال ابن عباس هذا إذا لم يكن سمى لها صداقا فلها المتعة وإن كان قد فرض لها صداقا فلها نصف الصداق ولا متعة لها وقال قتادة هذه الآية منسوخة بقوله «فنصف مافرضتم» وقيل هذا أمر ندب فالمتعة مستحبة لها مع نصف المهر وقيل إنها تستحق المتعة بكل حال لظاهر الآية (وسرحوهن سراحا جميلا) أى خلوا سبيلهن بالمعروف من غير إضرار بهن . قوله عز وجل (ياأيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن) أى مهورهن (وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك) أى من السبي فتملكها مثل صفية وجويرية وقد كانت مارية مما ملكت يمينه فولدت له إبراهيم (وبنات عمك وبنات عماتك) يعني نساء قريش (وبنات خالك وبنات خالاتك) يعني نساء بني زهرة

هرة (اللاتي هاجرن معك) إلى المدينة فمن لم تهاجر منهن معه لم يجز له نكاحها . وروى أبو صالح عن أم هانئ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة خطبني فأنزل الله هذه الآية فلم أحل له لأني لم أكن من المهاجرات وكنت من الطلقاء ثم نسخ شرط الهجرة في التحليل (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين) أي أحللنا لك امرأة مؤمنة وهبت نفسها لك بغير صداق فأما غير المؤمنة فلا تحل له إذا وهبت نفسها منه. واختلفوا في أنه هل كان يحل للنبي صلى الله عليه وسلم نكاح اليهودية والنصرانية بالمهر فذهب جماعة إلى أنه كان لا يحل له ذلك لقوله «وامرأة مؤمنة» وأول بعضهم الهجرة في قوله «اللاتي هاجرن معك» على الإسلام أي أسلمن معك فيدل ذلك على أنه لا يحل له نكاح غير المسلمة وكان النكاح (٣٦٨) ينعقد في حقه بمعنى الهبة من غير ولي ولا شهود ولا مهر وكان ذلك من خصائصه صلى الله عليه وسلم في النكاح لقوله تعالى «خالصة لك من دون المؤمنين» كالزيادة على الأربع ووجوب تخيير النساء كان من خصائصه لا مشاركة لأحد معه فيه واختلف أهل العلم في انعقاد النكاح بلفظ الهبة في حق الأمة فذهب أكثرهم إلى أنه لا ينعقد إلا بلفظ الإنكاح أو التزويج وهو قول سعيد بن المسيب والزهري ومجاهد وعطاء وبه قال ربيعة ومالك والشافعي وذهب قوم إلى أنه ينعقد بلفظ الهبة والتمليك وهو قول إبراهيم النخعي وأهل الكوفة ومن قال لا ينعقد إلا بلفظ الإنكاح أو التزويج اختلفوا في نكاح النبي صلى الله عليه وسلم فذهب قوم إلى أنه كان ينعقد في حقه بلفظ الهبة لقوله تعالى «خالصة لك من دون المؤمنين» وذهب آخرون إلى أنه لا ينعقد إلا بلفظ الإنكاح أو التزويج كما في حق الأمة لقوله عز وجل «إن أراد النبي أن يستنكحها» وكان اختصاصه صلى الله عليه وسلم في ترك المهر لا في لفظ النكاح . واختلفوا في التي وهبت نفسها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهل كانت عنده امرأة منهن ؟ فقال عبد الله بن عباس ومجاهد لم يكن عند النبي صلى الله عليه وسلم امرأة وهبت نفسها منه ولم يكن عنده امرأة إلا بعقد نكاح أو ملك يمين وقوله «إن وهبت نفسها» على طريق الشرط والجزاء وقال آخرون بل كانت عنده موهوبة واختلفوا فيها فقال الشعبي هي زينب بنت خزيمة الهلالية يقال لها أم المساكين وقال قتادة هي ميمونة بنت الحارث وقال علي بن الحسين والضحاك ومقاتل هي أم شريك بنت جابر من بني أسد وقال عروة

(اللاتي هاجرن معك) إلى المدينة فمن لم تهاجر منهن لم يجز له نكاحها عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت خطبني رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت إليه فعذرني ثم أنزل الله «إنا أحللنا لك أزواجك» الآية قالت فلم أكن أحل له لأني لم أهاجر كنت من الطلقاء أخرجه الترمذي وقال حديث حسن ثم نسخ شرط الهجرة في التحليل (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين) أي أحللنا لك امرأة مؤمنة وهبت نفسها لك بغير صداق فأما غير المؤمنة فلا تحل له إذا وهبت نفسها منه وهل تحل الكتابية بالمهر فذهب جماعة إلى أنها لا تحل له لقوله «وامرأة مؤمنة» فدل ذلك على أنه لا يحل له نكاح غير المسلمة وكان من خصائصه صلى الله عليه وسلم أن النكاح ينعقد في حقه بمعنى الهبة من غير ولي ولا شهود ولا مهر لقوله «خالصة لك من دون المؤمنين» والزيادة على أربع ووجوب تخيير النساء واختلفوا في انعقاد النكاح بلفظ الهبة في حق الأمة فذهب أكثرهم إلى أنه لا ينعقد إلا بلفظ الإنكاح أو التزويج وهو قول سعيد بن المسيب والزهري ومجاهد وعطاء وبه قال ربيعة ومالك والشافعي وقال إبراهيم النخعي وأهل الكوفة ينعقد بلفظ التمليك والهبة ومن قال بالقول الأول اختلفوا في نكاح النبي صلى الله عليه وسلم فذهب قوم إلى أنه كان ينعقد في حقه صلى الله عليه وسلم بلفظ الهبة لقوله تعالى «خالصة لك من دون المؤمنين» وذهب آخرون إلى أنه لا ينعقد إلا بلفظ الإنكاح أو التزويج كما في حق سائر الأمة لقوله تعالى «إن أراد النبي أن يستنكحها» وكان اختصاصه في ترك المهر لا في لفظ النكاح واختلفوا في التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم وهل كانت عنده امرأة منهن فقال ابن عباس ومجاهد لم يكن عند النبي صلى الله عليه وسلم امرأة وهبت نفسها منه ولم يكن عنده امرأة إلا بعقد نكاح أو بملك يمين وقوله «إن وهبت نفسها» على سبيل الفرض والتقدير وقال آخرون بل كانت عنده موهوبة واختلفوا فيها فقال الشعبي هي زينب بنت خزيمة الأنصارية الهلالية أم المساكين وقال قتادة هي ميمونة بنت الحارث وقال علي بن الحسين والضحاك ومقاتل هي أم شريك بنت جابر من بني أسد وقال عروة بن الزبير هي خولة بنت

حكيم

ابن الزبير هي خولة بنت حكيم من بني سليم. قوله تعالى (قد علمنا مافرضنا عليهم) أى أوجبنا على المؤمنين (فى ازواجهم) من الأحكام أن لايتزوجوا أكثر من أربع ولا يتزوجوا إلا بولى وشهود ومهر (وما ملكت أيمانهم) أى ماأوجبنا من الأحكام فى ملك اليمين (لكيلا يكون عليك حرج) وهذا يرجع إلى أول الآية أى أحللنا لك أزواجك وما ملكت يمينك والموهوبة لك لكي لايكون عليك حرج وضيق (وكان الله غفورا رحيما ترجى) أى تؤخر (من تشاء منهن وتؤوي) أى تضم (إليك من تشاء) اختلف المفسرون فى معنى الآية فأشهر الأقاويل أنه فى القسم بينهن وذلك أن التسوية بينهن فى القسم كانت واجبة عليه فلما نزلت هذه الآية سقط عنه وصار الاختيار إليه فيهن قال أبو رزين وابن زيد نزلت هذه الآية حين غار بعض أمهات المؤمنين على النبي صلى الله عليه وسلم وطلب بعضهن زيادة النفقة فهجرهن النبي صلى الله عليه وسلم شهرا حتى نزلت آية التخيير فأمره الله عز وجل أن يخيرهن بين الدنيا والآخرة وأن يخلي سبيل من اختارت الدنيا ويمسك من اختارت الله ورسوله والدار الآخرة على أنهن أمهات المؤمنين ولا ينكحن أبدا وعلى أنه يؤوى إليه من يشاء منهن ويرجى من يشاء فيرضين به قسم لهن أو لم يقسم أو قسم لبعضهن دون بعض أو فضل بعضهن فى النفقة والقسمة فيكون الأمر فى ذلك إليه يفعل كيف يشاء وكان ذلك من خصائصه فرضين بذلك واخترنه على هذا الشرط واختلفوا فى أنه هل أخرج أحدا منهن عن القسم فقال بعضهم لم يخرج أحدا بل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ماجعله الله له من ذلك يسوي بينهن فى القسم إلا سودة فإنها رضيت بترك حقها من القسم وجعلت يومها لعائشة وقيل أخرج بعضهن روى جرير عن منصور عن أبي رزين قال لما نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلقهن فقلن يانبى الله اجعل لنا من مالك ونفسك ماشئت ودعنا على حالنا فنزلت هذه الآية فأرجى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهن وآوى إليه بعضهن وكان ممن آوى إليه عائشة وحفصة وزينب وأم سلمة فكان يقسم بينهن سواء وأرجى منهن خمسا أم حبيبة وميمونة وسودة وصفية وجويرية فكان يقسم لهن ماشاء وقال مجاهد ترجي من تشاء منهن يعني تعزل من تشاء منهن بغير طلاق وترد إليك من تشاء بعد العزل بلا تجديد عقد وقال ابن عباس تطلق من تشاء منهن وتمسك من تشاء وقال الحسن تترك نكاح من شئت وتنكح من شئت من نساء أمتك قال وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب امرأة لم يكن لغيره خطبتها حتى يتركها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل تقبل من تشاء من المؤمنات اللاتى يهبن أنفسهن لك فتؤويها إليك وتترك من تشاء فلا

(٣٦٩)

حكيم من بني سليم. وقوله تعالى (قد علمنا مافرضنا عليهم) أى أوجبنا على المؤمنين (فى أزواجهم) أى من الأحكام وهو أن لايتزوجوا أكثر من أربع ولا يتزوجوا إلا بولى وشهود ومهر (وما ملكت أيمانهم) أى ماأوجبنا من الأحكام فى ملك اليمين (لكيلا يكون عليك حرج) وهذا يرجع إلى أول الآية معناه أحللنا لك أزواجك وما ملكت يمينك والموهوبة لكى لا يكون عليك ضيق (وكان الله غفورا) أى للواقع فى الحرج (رحيما) أى بالتوسعة على عباده. قوله تعالى (ترجى) يعني تؤخر (من تشاء منهن وتؤوى إليك) أى تضم إليك (من تشاء) قيل هذا للقسم بينهن وذلك أن التسوية بينهن فى القسم كانت واجبة عليه صلى الله عليه وسلم فلما نزلت هذه الآية سقط عنه الوجوب وصار الاختيار إليه فيهن وقيل نزلت هذه الآية حين غار بعض أمهات المؤمنين على النبي صلى الله عليه وسلم وطلب بعضهن زيادة النفقة فهجرهن شهرا حتى نزلت آية التخيير فأمره الله تعالى أن يخيرهن فمن اختارت الدنيا فارقها ويمسك من اختارت الله ورسوله على أنهن أمهات المؤمنين لاينكحن أبدا وعلى أنه يؤوى إليه من يشاء منهن ويرجى من يشاء فيرضين به قسم لهن أو لم يقسم أو قسم لبعضهن دون بعض أو فضل بعضهن فى النفقة والكسوة فيكون الأمر فى ذلك إليه يفعل كيف يشاء وكان ذلك من خصائصه فرضين بذلك واخترنه على هذا الشرط. واختلفوا فى أنه هل أخرج أحدا منهن عن القسم فقال بعضهم لم يخرج أحدا بل كان صلى الله عليه وسلم مع ماجعل الله له من ذلك يسوي بينهن فى القسم إلا سودة فانها رضيت بترك حقها من القسم وجعلت يومها لعائشة وقيل أخرج بعضهن روي عن أبي رزين قال لما نزل التخيير أشفقن أن يطلقهن فقلن يانبى الله اجعل لنا من مالك ونفسك ماشئت ودعنا على حالنا فأرجى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهن وآوى إليه بعضهن فكان ممن آوى إليه عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب وكان يقسم بينهن سواء وأرجى منهن خمسا أم حبيبة وميمونة وسودة وجويرة وصفية فكان يقسم لهن ما يشاء وقال ابن عباس تطلق من تشاء

تقبلها . أخبرنا عبدالواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل انا محمد بن سلام أنا ابن فضيل أنا هشام عن أبيه قال كانت خولة بنت حكيم من اللائى وهبن أنفسهن للنبى صلى الله عليه وسلم فقالت عائشة أما تستحى المرأة أن تهب نفسها للرجل فلما نزلت «ترجى من تشاء منهن» قلت يارسول الله ماأرى ربك إلا يسارع فى هواك . قوله تعالى (ومن ابتغيت ممن عزلت) أى طلبت وأردت أن تؤوى إليك امرأة ممن عزلتهن عن القسم (فلاجناح عليك) لا إثم عليك فأباح الله له ترك القسم لهن حتى إنه ليؤخر من يشاء منهن فى نوبتها ويطأ من يشاء منهن فى غير نوبتها ويرد إلى فراشه من عزلها تفضيلا له على سائر الرجال (ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن) أى التخيير الذى خيرتك فى صحبتهن أقرب إلى رضاهن وأطيب لأنفسهن وأقل لحزنهن إذا علمن أن ذلك من الله عز وجل (ويرضين بما آتيتهن) أعطيتهن (كلهن) من تقرير وإرجاء وعزل وإيواء (والله يعلم مافى قلوبكم) من أمر النساء والميل إلى بعضهن (وكان الله عليما حليما) قوله تعالى (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج) قرأ أبو عمرو ويعقوب لا تحل بالتاء وقرأ الآخرون بالياء «من بعد» يعنى من بعد هؤلاء التسع اللاتى خيرتهن فاخترنك وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لما خيرهن فاخترن الله ورسوله شكر الله لهن وحرم عليه النساء سواهن ونهاه عن تطليقهن وعن الاستبدال بهن هذا قول ابن عباس وقتادة واختلفوا فى أنه هل أبيح له النساء من بعد قالت عائشة مامات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل له النساء سواهن وقال أنس مات على التحريم وقال عكرمة والضحاك معنى الآية لا يحل لك النساء إلا اللاتى أحللنا لك وهو قوله «إنا أحللنا لك أزواجك» الآية ثم قال لا يحل لك النساء من بعد إلا التى أحللنا لك بالصفة التي تقدم ذكرها وقيل لأبى بن كعب لو مات نساء النبى صلى الله عليه وسلم أكان يحل له أن يتزوج قال وما يمنعه من ذلك قيل قوله عز وجل «لا يحل لك النساء من بعد» قال إنما أحل الله له ضربا من النساء فقال « ياأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك » ثم قال «لا يحل لك النساء من بعد» : قال أبو صالح أمر أن لا يتزوج أعرابية ولا عربية ويتزوج من نساء قومه من بنات العم والعمة والخالة إن شاء ثلثمائة وقال مجاهد معناه لا يحل لك اليهوديات ولا النصرانيات بعد المسلمات « ولا أن تبدل بهن » يقول ولا أن تبدل بالمسلمات غيرهن من اليهود والنصارى يقول لا تكون

منهن وتمسك من تشاء وقال الحسن تترك نكاح من شئت وتنكح من شئت من النساء قال وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا خطب امرأة لم يكن لغيره خطبتها حتى يتركها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل تقبل من تشاء من المؤمنات اللاتى يهبن أنفسهن فتؤويها إليك وتترك من تشاء فلا تقبلها (ق) عن عروة قال « كانت خولة بنت حكيم من اللاتى وهبن أنفسهن للنبى صلى الله عليه وسلم فقالت عائشة أما تستحى المرأة أن تهب نفسها للرجل فلما نزلت ترجى من تشاء منهن قلت يارسول الله ماأرى ربك إلا يسارع فى هواك» (ومن ابتغيت ممن عزلت) أى طلبت أن تؤوى إليك امرأة ممن عزلتهن عن القسمة (فلا جناح عليك) أى لا إثم عليك فأباح الله له ترك القسم لهن حتى إنه ليؤخر من يشاء منهن فى نوبتها ويطأ من يشاء منهن فى غير نوبتها ويرد إلي فراشه من عزل منهن تفضيلا له على سائر الرجال (ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن) أى ذلك التخيير الذي خيرتك فى صحبتهن أقرب إلي رضاهن وأطيب لأنفسهن وأقل لحزنهن إذا علمن أن ذلك من الله تعالي (ويرضين بما آتيتهن) أى أعطيتهن (كلهن) من تقريب وإرجاء وعزل وإيواء (والله يعلم مافى قلوبكم) أى من أمر النساء والميل إلي بعضهن (وكان الله عليما) أى بما فى ضمائركم (حليما) أى عنكم . قوله تعالي (لا يحل لك النساء من بعد) أي من بعد هؤلاء التسع اللاتى اخترنك وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لما خيرهن فاخترن الله ورسوله شكر الله لهن ذلك وحرم عليه النساء سواهن ونهاه عن تطليقهن وعن الاستبدال بهن قاله ابن عباس واختلفوا هل أبيح له النساء بعد ذلك فروى عن عائشة أنها قالت « مامات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل له النساء» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح « وللنسائى عنها «حتى أحل له أن يتزوج من النساء ماشاء » وقال أنس «مات رسول الله صلى الله عليه وسلم على التحريم» وقيل لأبى بن كعب لو مات نساء النبى صلى الله عليه وسلم أكان يحل له أن يتزوج قال وما يمنعه من ذلك قيل له قوله تعالي «لا يحل لك النساء من بعد» قال إنما أحل له ضربا من النساء فقال تعالي «ياأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك » الآية ثم قال «لا تحل لك النساء من بعد» وقيل معنى الآية لا تحل لك اليهوديات ولا النصرانيات بعد المسلمات (ولا أن تبدل بهن من أزواج)

أم المؤمنين يهودية ولا نصرانية إلا ماملكت يمينك أحل له ماملكت يمينه من الكتابيات أن يتسرى بهن وروى عن الضحاك يعني ولا أن تبدل بهن ولا أن تبدل بأزواجك اللاتي هن في حبالك أزواجا غيرهن بأن تطلقهن فتنكح غيرهن فحرم عليه طلاق النساء اللواتي كن عنده إذ جعلهن أمهات المؤمنين وحرمهن على غيره حين اخترنه فأما نكاح غيرهن فلم يمنع عنه وقال ابن زيد في قوله «ولا أن تبدل بهن من أزواج» كانت العرب في الجاهلية يتبادلون بأزواجهم يقول الرجل للرجل بادلني بامرأتك وأبادلك بامرأتي تنزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي فأنزل الله ولا أن تبدل بهن من أزواج يعني لا تبادل بأزواجك غيرك بأن تعطيه زوجك وتأخذ زوجته إلا ماملكت يمينك لا بأس أن تبدل بجاريتك ماشئت فأما الحرائر فلا وروى عن عطاء ابن يسار عن أبي هريرة قال «دخل عيينة بن حصن على النبي صلى الله عليه وسلم بغير إذن وعنده عائشة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم «ياعيينة فأين الاستئذان قال يارسول الله ما استأذنت على رجل من مضر منذ أدركت ثم قال من هذه الحميراء إلى جنبك فقال هذه عائشة أم المؤمنين فقال عيينة أفلا أنزل لك **(٢٧١)** عن أحسن الخلق وتنزل لي عن هذه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله قد حرم ذلك فلما خرج قالت عائشة من هذا يارسول الله فقال هذا أحمق مطاع وإنه على ما ترين لسيد قومه» قوله تعالى (ولو أعجبك حسنهن) يعني ليس لك أن تطلق أحدا من نسائك وتنكح بدلها أخرى ولو أعجبك جمالها. قال ابن عباس يعني أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبي طالب فلما استشهد جعفر أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخطبها فنهى عن ذلك (إلا ماملكت يمينك) قال ابن عباس رضي الله عنهما ملك بعد هؤلاء مارية (وكان الله على كل شئ رقيبا) حافظا. وفي الآية دليل على جواز النظر إلى من يريد نكاحها من النساء روى عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا خطب أحدكم المرأة فان استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل» أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني أنا محمد بن محمد بن علي بن شريك الشافعي أنا عبد الله بن محمد بن مسلم الجوربذي قال أنا أحمد بن حرب أنا أبو معاوية عن عاصم هو ابن سليمان عن بكر بن عبد الله عن المغيرة ابن شعبة «قال خطبت امرأة فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم هل نظرت إليها قلت لا قال فانظر إليها فانه أحرى أن يؤدم بينكما» أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا عبدالله بن حامد أنا حامد بن محمد أنا بشر بن موسى أنا الحميدي أنا سعيد أنا يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة «أن رجلا أراد أن يتزوج امرأة من الأنصار فقال له النبي صلى الله عليه وسلم انظر إليها فان في أعين نساء الأنصار شيئا» قال الحميدي يعني الصغر قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم) الآية قال أكثر المفسرين نزلت هذه الآية في شأن وليمة زينب بنت جحش حين بنى بها

أي بالمسلمات غيرهن من الكتابيات لأنه لا تكون أم المؤمنين يهودية ولا نصرانية إلا ماملكت يمينك أي من الكتابيات فتسرى بهن وقيل في قوله «ولا أن تبدل بهن من أزواج» كانت العرب في الجاهلية يتبادلون بأزواجهم يقول الرجل للرجل انزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي فأنزل الله تعالى «ولا أن تبدل بهن من أزواج» أي تبادل بأزواجك غيرك بأن تعطيه زوجتك وتأخذ زوجته فحرم ذلك «إلا ماملكت يمينك» أي لا بأس أن تبادل بجاريتك ماشئت فأما الحرائر فلا (ولو أعجبك حسنهن) يعني ليس لك أن تطلق أحدا من نسائك وتنكح بدلها أخرى ولو أعجبك جمالها قال ابن عباس يعني أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبي طالب لما استشهد جعفر أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخطبها فنهي عن ذلك (إلا ماملكت يمينك) قال ابن عباس ملك بعد هؤلاء مارية (وكان الله على كل شئ رقيبا) أي حافظا وفي الآية دليل على جواز النظر إلى من يريد نكاحها من النساء ويدل عليه ماروى عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا خطب أحدكم المرأة فان استطاع أن ينظر إلى مايدعوه إلى نكاحها فليفعل» أخرجه أبو داود (م) عن أبي هريرة «أن رجلا أراد أن يتزوج امرأة من الأنصار فقال له النبي صلى الله عليه وسلم انظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئا» قال الحميدي يعني هو الصغر عن المغيرة بن شعبة قال «خطبت امرأة فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم هل نظرت إليها قلت لا قال فانظر إليها فانه أحرى أن يؤدم بينكما» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن. قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم) الآية قال أكثر المفسرين نزلت هذه الآية في شأن وليمة زينب بنت جحش حين بنى بها

رسول الله صلى الله عليه وسلم . أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا يحيى بن بكير أنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب أخبرني أنس بن مالك أنه كان ابن عشر سنين مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قال وكانت أم هانئ تواظبني على خدمة النبي صلى الله عليه وسلم فخدمته عشر سنين وتوفى النبي صلى الله عليه وسلم وأنا ابن عشرين سنة فكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أنزل فكان أول ما أنزل فى مبتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش أصبح النبي صلى الله عليه وسلم بها عروسا فدعا القوم فاصابوا من الطعام ثم خرجوا وبقى رهط منهم عند النبي صلى الله عليه وسلم فأطالوا المكث فقام النبي صلى الله عليه وسلم فخرج وخرجت معه لكى يخرجوا فمشى النبي صلى الله عليه وسلم ومشيت حتى جاء حجرة عائشة ثم ظن أنهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه حتى إذا دخل على زينب فإذاهم جلوس لم يقوموا فرجع النبي صلى الله عليه وسلم ورجعت معه حتى إذا بلغ عتبة حجرة عائشة وظن أنهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه فإذا هم قد خرجوا فضرب النبي صلى الله عليه وسلم بيني وبينه الستر وأنزل الحجاب وقال أبوعثمان واسمه الجعد عن أنس قال فدخل رسول الله ﷺ البيت وأرخى الستر وإني لفى الحجرة وهو يقول «ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم» إلى قوله «والله لايستحيي من الحق» وروى عن ابن عباس أنها نزلت فى ناس من المسلمين كانوا يتحينون طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدخلون عليه قبل الطعام إلى أن يدرك ثم يأكلون ولا يخرجون وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأذى بهم فنزلت «يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم» يقول إلا أن تدعوا (إلى طعام) فيؤذن لكم فتأكلونه (غير ناظرين إناه) غير منتظرين إدراكه

رسول الله صلى الله عليه وسلم (ق) عن أنس بن مالك «أنه كان ابن عشر سنين مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة قال فكانت أم هانئ تواظبني على خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فخدمته عشر سنين وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابن عشرين سنة وكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أنزل.وكان أول ما نزل فى مبتنى رسول الله صلي الله عليه وسلم بزينب بنت جحش حين أصبح النبي صلى الله عليه وسلم بها عروسا فدعا القوم فأصابوا من الطعام ثم خرجوا وبقى رهط عند النبي صلى الله عليه وسلم فأطالوا المكث فقام النبي صلى الله عليه وسلم فخرج وخرجت معه لكي يخرجوا فمشى النبي صلى الله عليه وسلم ومشيت معه حتى جاء عتبة حجرة عائشة ثم ظن أنهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه حتى إذا دخل على زينب فإذاهم جلوس لم يقوموا فرجع النبي صلى الله عليه وسلم ورجعت حتى إذا بلغ عتبة حجرة عائشة وظن أنهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه فاذاهم قد خرجوا فضرب النبي صلى الله عليه وسلم بيني وبينه بالستر وأنزل الحجاب زاد فى رواية قال دخل يعنى النبي صلى الله عليه وسلم البيت وأرخى الستر وإني لفي الحجرة وهو يقول «ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم» إلى قوله «والله لايستحيي من الحق» (ق) عن عائشة «أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع وهو صعيد أفيح وكان عمر رضى الله عنه يقول للنبي صلى الله عليه وسلم احجب نساءك فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ليلة من الليالى عشاء وكانت امرأة طويلة فناداها عمر ألا قد عرفناك ياسودة حرصا على أن ينزل الحجاب فأنزل الله الحجاب» المناصع المواضع الخالية لقضاء الحاجة من البول أو الغائط والصعيد وجه الأرض والأفيح الواسع (ق) عن أنس وابن عمر أن عمر قال «وافقت ربى فى ثلاث قلت يارسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزل «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى» وقلت يارسول الله يدخل على نسائك البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب واجتمع نساء النبي صلى الله عليه وسلم فى الغيرة» فقلت عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن» فنزلت كذلك. وقال ابن عباس إنها نزلت فى ناس من المسلمين كانوا يتحينون طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدخلون عليه قبل الطعام قبل أن يدرك ثم يأكلون ولا يخرجون وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأذى بهم فنزلت الآية» يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم» يعنى إلا أن تدعوا (إلى طعام) فيؤذن لكم فتأكلون (غير ناظرين إناه) يعنى منتظرين نضجه ووقت

ووقت نضجه يقال أنى الحميم إذا انتهى حره وأنى أن يفعل ذلك إذا حان إنى بكسر الهمزة مقصورة فإذا فتحتها مددت فقلت الإناء وفيه لغتان أنى يأنى وآن يئين مثل حان يحين (ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم) أكلتم الطعام (فانتشروا) تفرقوا واخرجوا من منزله (ولا مستأنسين لحديث) ولا طالبين الأنس للحديث وكانوا يجلسون بعد الطعام يتحدثون طويلا فنهوا عن ذلك (إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحيي منكم والله لايستحيي من الحق) أى لايترك تأديبكم وبيان الحق حياء (وإذا سألتموهن متاعا فاسئلوهن من وراء حجاب) أى من وراء ستر فبعد آية الحجاب لم يكن لأحد أن ينظر إلى امرأة رسول الله صلى الله عليه وسلم متنقبة كانت أو غير متنقبة (ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) من الريب وقد صح فى سبب نزول آية الحجاب ما أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا يحيى بن بكير أنا الليث حدثنى عقيل عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة «أن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع وهو صعيد أفيح وكان عمر يقول للنبى صلى الله عليه وسلم احجب نساءك (٢٧٣) فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ليلة من الليالي عشاء وكانت امرأة طويلة فناداها عمر ألا قد عرفناك ياسودة حرصا على أن ينزل الحجاب فأنزل الحجاب» أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحى أنا أبو بكر محمد بن الحسن الحيرى أنا حاجب بن أحمد الطوسى أنا عبدالرحيم بن منيب أنا يزيد بن هارون أنا حميد عن أنس قال قال عمر «وافقنى ربى فى ثلاث قلت يارسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى» وقلت يارسول الله إنه يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب قال وبلغنى بعض ما آذى به رسول الله صلى الله عليه وسلم نساؤه قال فدخلت عليهن فجعلت أستقريهن واحدة واحدة قلت والله لتنتهن أو ليبدلنه الله أزواجا خيرا منكن حتى أتيت على زينب فقالت ياعمر ما كان فى رسول الله صلى الله عليه وسلم مايعظ نساءه حتى تعظهن أنت قال فخرجت فأنزل الله عز وجل عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن» إلى آخر الآية. قوله عز وجل (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) ليس لكم أذاه فى شىء من الأشياء (ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا) نزلت فى رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال لئن قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنكحن عائشة قال مقاتل بن سليمان هو طلحة بن عبيد الله فأخبره الله عزوجل أن ذلك محرم وقال (إن ذلكم كان عندالله عظيما) أى ذنبا عظيما وروى معمر عن الزهرى أن العالية بنت ظبيان التى طلقها النبى صلى الله عليه وسلم تزوجت رجلا وولدت له وذلك قبل تحريم أزواج النبى صلى الله عليه وسلم على الناس (إن تبدوا شيئا أو تخفوه فان الله كان بكل شىء عليما)

إدراكه (ولكن إذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم) أى أكلتم الطعام (فانتشروا) أي فاخرجوا من منزله وتفرقوا (ولا مستأنسين لحديث) أي لاتطيلوا الجلوس ليستأنس بعضكم بحديث بعض وكانوا يجلسون بعد الطعام يتحدثون فنهوا عن ذلك (إن ذلكم كان يؤذي النبى فيستحيي منكم) أى فيستحيي من إخراجكم (والله لايستحيي من الحق) أى لايترك تأديبكم وبيان الحق حياء ولما كان الحياء مما يمنع الحيي من بعض الأفعال قال لايستحيي من الحق بمعنى لايمتنع منه ولا يتركه ترك الحيي منكم وهذا أدب أدب الله به الثقلاء، وقيل بحسبك من الثقلاء أن الله لم يحتملهم (وإذا سألتموهن متاعا) أى وإذا سألتم نساء النبي صلى الله عليه وسلم حاجة (فاسئلوهن من وراء حجاب) أى من وراء ستر فبعد آية الحجاب لم يكن لأحد أن ينظر إلى امرأة من نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم متنقبة كانت أو غير متنقبة (ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) أى من الريب (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) أي ليس لكم أذاه فى شىء من الأشياء (ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا) نزلت فى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إذا قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأنكحن عائشة قيل هو طلحة بن عبيد الله فأخبر الله أن ذلك محرم وقال (إن ذلكم كان عند الله عظيما) أى ذنبا عظيما وهذا من إعلام تعظيم الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وإيجاب حرمته حيا وميتا وإعلامه بذلك مما طيب نفسه وسر قلبه واستفرغ شكره فإن من الناس من تفرط غيرته على حرمه حتى يتمنى لها الموت قبله لئلا تنكح بعده (إن تبدو شيئا) أى من أمر نكاحهن على ألسنتكم (أو تخفوه) أى فى صدوركم (فان الله كان بكل شىء عليما) أى يعلم سركم وعلانيتكم. نزلت فيمن أضمر نكاح عائشة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل قال رجل من الصحابة مابالنا نمنع من الدخول على بنات أعمامنا فنزلت هذه الآية ولما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله ونحن أيضا

نزلت فيمن أضمر نكاح عائشة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل: قال رجل من الصحابة ما بالنا نمنع من الدخول على بنات أعمامنا فنزلت هذه الآية. ولما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله ونحن أيضا يارسول الله نكلمهن من وراء الحجاب فأنزل الله عز وجل (لاجناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن) أى لا إثم عليهن فى ترك الاحتجاب من هؤلاء (ولا نسائهن) قيل أراد به النساء المسلمات حتى لا يجوز للكتابيات الدخول عليهن. وقيل هو عام فى المسلمات والكتابيات وإنما قال ولا نسائهن لأنهن من أجناسهن (ولا ماملكت أيمانهن) واختلفوا فى أن عبد المرأة هل يكون محرما لها أم لا فقال قوم يكون محرما لها لقوله عز وجل «ولا ماملكت أيمانهن» وقال قوم هو كالأجانب والمراد من الآية الإماء دون العبيد (واتقين الله) (٢٧٤) أن يراكن غير هؤلاء (إن الله كان على كل شئ) من أعمال العباد (شهيدا) قوله تعالى (إن الله وملائكته يصلون على النبى) قال ابن عباس أراد أن الله يرحم النبي والملائكة يدعون له وعن ابن عباس أيضا يصلون يبركون وقيل الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار (ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه) أي ادعوا له بالرحمة (وسلموا تسليما) أى حيوه بتحية الإسلام وقال أبو العالية صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة وصلاة الملائكة الدعاء أخبرنا أبوسعيد أحمد ابن محمد بن العباس الحميدى أنا عبد الله ابن محمد بن عبد الله الحافظ أنا أبوبكر أحمد ابن سليمان الفقيه ببغداد أنا أبو بكر أحمد بن زهير بن حرب أنا موسى بن إسماعيل أنا أبوسلمة أنا عبد الواحد بن زياد أنا أبوفروة حدثنى عبدالله قال ابن عيسى بن عبد الرحمن بن أبى ليلى سمع عبد الرحمن بن أبى ليلى يقول لقينى كعب بن عجرة فقال ألا أهدى لك هدية سمعتها من النبي صلى الله عليه وسلم فقلت بلى فاهدها لي فقال سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا يارسول الله كيف الصلاة عليكم أهل البيت فان الله قد علمنا كيف نسلم عليك قال قولوا «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد» أخبرنا أبوالحسن السرخسى أنا زاهر بن أحمد أنا أبوإسحاق الهاشمي أنا أبومصعب عن مالك عن عبد الله ابن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن عمرو بن سليم الزرقى أنه قال أخبرنى أبو حميد الساعدى قال، قالوا يارسول الله كيف نصلى عليك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قولوا، اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت

يارسول الله نكلمهن من وراء حجاب فأنزل الله عز وجل (لاجناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن) أى لا إثم عليهن فى ترك الحجاب عن هؤلاء الأصناف من الأقارب (ولا نسائهن) قيل أراد به النساء المسلمات حتى لا يجوز للكتابيات الدخول على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل هو عام في المسلمات والكتابيات وإنما قال ولا نسائهن لأنهن من أجناسهن (ولا ماملكت أيمانهن) اختلفوا فى أن عبد المرأة هل يكون محرما لها أم لا فقال قوم بل يكون محرما لقوله تعالى ولا ماملكت أيمانهن وقال قوم العبد كالأجانب والمراد من الآية الإماء دون العبيد (واتقين الله) أى أن يراكن أحد غير هؤلاء (إن الله كان على كل شىء) أى من أعمال العباد (شهيدا) قوله عزوجل (إن الله وملائكته يصلون على النبى) قال ابن عباس أراد أن الله يرحم النبي والملائكة يدعون له وعنه أيضا يصلون يتبركون وقيل الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار فصلاة الله ثناؤه عليه عند ملائكته وصلاة الملائكة الدعاء (ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه) أى ادعوا له بالرحمة (وسلموا تسليما) أى حيوه بتحية الإسلام:

(فصل فى صفة الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وفضلها)

اتفق العلماء على وجوب الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ثم اختلفوا فقيل تجب فى العمر مرة وهو الأكثر وقيل تجب في كل صلاة في التشهد الأخير وهو مذهب الشافعى وإحدى الروايتين عن أحمد وقيل تجب كلما ذكر واختاره الطحاوى من الحنفية والحليمى من الشافعية والواجب اللهم صل على محمد وما زاد سنة (ق) عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال لقينى كعب ابن عجرة فقال ألا أهدى لك هدية إن النبى صلى الله عليه وسلم خرج علينا فقلنا يارسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلى عليك قال قولوا «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد» (ق) عن أبى حميد الساعدى

على ابراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل ابراهيم إنك حميد مجيد أخبرنا أبو عمرو محمد بن عبد الرحمن النسوى أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيرى أنا محمد بن يعقوب أنا العباس بن محمد الدورقى أنا خالد بن مخلد القطوانى أنا موسى بن يعقوب الزمعى عن عبد الله بن كيسان أخبرنى عبد الله بن شداد عن ابن مسعود قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم على صلاة أخبرنا أبو عبدالله محمدبن الفضل الخرقى أنا أبوالحسن على بن عبد الله الطيسفونى أنا عبد الله بن عمر الجوهرى أنا أحمد بن على (٢٧٥) الكشميهنى أنا على بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر أنا العلاءبن عبدالرحمن عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من صلى على واحدة صلى الله عليه عشرا» أخبرنا أبو بكربن عبدالله بن أبى توبه أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا أبو الحسن محمدبن يعقوب الكسائى أنا عبدالله بن محمود أنا إبراهيم بن عبدالله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن سليمان مولى الحسن بن على عن عبدالله بن أبى طلحة عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنه جاء ذات يوم والبشر فى وجهه فقال إنه جاءنى جبريل فقال «إن ربك يقول أما يرضيك يا محمد أن لايصلى عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشرا ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشرا» أخبرنا عبدالواحد المليحى أنا أبو محمد عبدالرحمن ابن أبى شريح القاضى أنا أبو القاسم البغوى أنا على بن الجعد أنا شعبة عن عاصم هو ابن عبيد قال سمعت عبد الله بن ربيعه عن أبيه أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول «من صلى على صلاة صلت عليه الملائكة ماصلى على فليقلل العبد من ذلك أو ليكثر» حدثنا أبو القاسم يحيى بن على الكشميهنى أنا جناح بن يزيد المحاربى بالكوفة أنا أبو جعفر محمد بن على بن دحيم الشيبانى أنا أحمد بن حازم أنا عبيد الله بن موسى وأبو نعيم عن سفيان عن عبد الله بن السائب عن زاذان عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغوني من أمتى السلام» قوله تعالى (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا) قال ابن عباس هم اليهود والنصارى والمشركون فأما اليهود فقالوا

قال قالوا يارسول الله كيف نصلى عليك قال «قولوا اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد» (م) عن أبى مسعود البدرى قال أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن فى مجلس سعد ابن عبادة فقال له بشير بن سعد أمرنا الله أن نصلى عليك يارسول الله فكيف نصلى عليك فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تمنينا أنه لم يسأله ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قولوا «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد والسلام كما قد علمتم» (م) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من صلى على واحدة صلى الله عليه بها عشرا» عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرا وحطت عنه عشر خطيئات ورفعت له عشر درجات» أخرجه الترمذى وله عن أبى طلحة «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبشر فى وجهه فقلت إنا لنرى البشر فى وجهك قال: أتانى الملك فقال يامحمد إن ربك يقول أما يرضيك أنه لايصلى عليك أحد إلا صليت عليه عشرا ولا يسلم عليك أحد إلا سلمت عليه عشرا» وله عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغونى عن أمتى السلام» عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم على صلاة» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب وله عن على بن أبى طالب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «البخيل الذى ذكرت عنده فلم يصل على» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب صحيح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل اللهم صلى على محمد النبى الأمى وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد» أخرجه أبو داود . قوله عز وجل (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا) قال ابن عباس هم اليهود والنصارى والمشركون فأما اليهود فقالوا عزير ابن الله ويد الله مغلولة وقالوا إن الله فقير ونحن أغنياء وأما النصارى فقالوا المسيح ابن الله وثالث ثلاثة وأما المشركون فقالوا الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه (خ)

عزير ابن الله ويد الله مغلولة وقالوا إن الله فقير . وأما النصارى فقالوا المسيح ابن الله وثالث ثلاثة . وأما المشركون فقالوا الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه وروينا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله سبحانه وتعالى شتمني عبدي يقول اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد الذى لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوا أحد » وروينا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله تعالى يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدى الأمر أقلب الليل والنهار » وقيل معنى يؤذون الله . أى يلحدون فى أسمائه وصفاته وقال عكرمة هم أصحاب التصاوير أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن العلاء أنا ابن فضيل عن عمارة عن أبي زرعة سمع أبا هريرة قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول « قال الله تعالي ومن أظلم ممن (٢٧٦) ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو شعيرة » وقال بعضهم يؤذون الله أى يؤذون أولياء الله كقوله تعالى «واسأل القرية» أى أهل القرية وروينا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قال الله تعالى «من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب» وقال « من أهان لي وليا فقد بارزنى بالمحاربة » ومعنى الأذى هو مخالفة أمر الله تعالي وارتكاب معاصيه ذكره على مايتعارفه الناس بينهم والله عز وجل منزه عن أن يلحقه أذى من أحد وإيذاء الرسول قال ابن عباس هو أنه شج فى وجهه وكسرت رباعيته وقيل شاعر ساحر معلم مجنون (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا) من غير أن عملوا ماأوجب أذاهم وقال مجاهد يقعون فيهم ويرمونهم بغير جرم (فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا) وقال مقاتل نزلت فى على ابن أبى طالب كانوا يؤذونه ويشتمونه وقيل نزلت فى شأن عائشة وقال الضحاك والكلبي نزلت فى الزناة الذين كانوا يمشون فى طرق المدينة يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن فيغمزون المرأة فان سكتت أتبعوها وإن زجرتهم انتهوا عنها ولم يكونوا يطلبون إلا الإماء ولكن كانوا لايعرفون الحرة من الأمة لأن زى الكل كان واحدا يخرجن فى درع وخمار الحرة والأمة كذلك فشكون ذلك إلى أزواجهن فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات » الآية ثم نهى الحرائر أن يتشبهن بالإماء فقال جل ذكره (ياأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) جمع الجلباب وهو الملاءة التى تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار قال ابن عباس وأبوعبيدة

عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق بأهون على من إعادته وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » (ق) عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال قال الله عز وجل « يؤذينى ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدى أقلب الليل والنهار » معنى هذا الحديث أنه كان من عادة العرب فى الجاهلية أن يذموا الدهر ويسبوه عند النوازل لاعتقادهم أن الذي يصيبهم من أفعال الدهر فقال الله تعالي أنا الدهر أى أنا الذى أحل بهم النوازل وأنا فاعل لذلك الذي تنسبونه إلى الدهر فى زعمكم وقيل معنى يؤذون الله يلحدون فى أسمائه وصفاته وقيل هم أصحاب التصاوير (ق) عن أبى هريرة قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول « قال الله عز وجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى فليخلقوا ذرة وليخلقوا حبة أو شعيرة » وقيل يؤذون الله أى يؤذون أولياء الله كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « قال الله تعالى من آذي لى وليا فقد آذنته بالحرب » وقال تعالي من أهان لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة ومعنى الأذي هو مخالفة أمر الله تعالي وارتكاب معاصيه ذكر ذلك على مايتعارفه الناس بينهم لأن الله تعالى منزه عن أن يلحقه أذي من أحد وأما إيذاء الرسول فقال ابن عباس هو أنه شج وجهه وكسرت رباعيته وقيل ساحر شاعر معلم مجنون (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا) أي من غير أن عملوا ماأوجب أذاهم وقيل يقعون فيهم ويرمونهم بغير جرم (فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا) قيل إنها نزلت فى على بن أبى طالب كانوا يؤذونه ويشتمونه وقيل نزلت فى شأن عائشة وقيل نزلت فى الزناة الذين يمشون فى طرق المدينة يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن فيتبعون المرأة فإن سكتت تبعوها وإن زجرتهم انتهوا عنها ولم يكونوا يطلبون إلا الإماء ولكن كانوا لايعرفون الحرة من الأمة لأن زي الكل كان واحدا تخرج الحرة والأمة فى درع وخمار فشكوا ذلك إلي أزواجهن فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات » الآية ثم نهى الحرائر أن يتشبهن بالإماء فقال تعالي (ياأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين) أي يرخين ويغطين (عليهن من جلابيبهن) جمع جلباب وهو الملاءة التى

تشتمل

امر نساء المؤمنين أن يغطين رءوسهن ووجوههن بالجلاليب إلا عينا واحدة ليعلم أنهن حرائر (ذلك أدنى أن يعرفن) أنهن حرائر (فلا يؤذين) فلا يتعرض لهن (وكان الله غفورا رحيما) قال أنس مرت بعمر بن الخطاب جارية متقنعة فعلاها بالدرة وقال يالكاع أتتشبهين بالحرائر ألق القناع . قوله عز وجل (لئن لم ينته المنافقون) عن نفاقهم (والذين فى قلوبهم مرض) فجور يعنى الزنا (والمرجفون فى المدينة) بالكذب وذلك أن ناسا منهم كانوا إذا خرجت سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوقعون فى الناس الرعب وإذا التحم القتال ولوا وانهزموا ويقولون قد أتاكم العدو (٢٧٧) ونحوها وقال الكلبي كانوا يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا ويفشون الأخبار (لنغرينك بهم) لنحرشنك بهم ولنسلطنك عليهم (ثم لا يجاورونك فيها) لا يساكنونك فى المدينة (إلا قليلا) حتى يخرجوا منها وقيل لنسلطنك عليهم حتى تقتلهم وتخلى منهم المدينة (ملعونين) مطرودين نصب على الحال (أينما ثقفوا) وجدوا وأدركوا (أخذوا وقتلوا تقتيلا) أى الحكم فيهم هذا على جهة الأمر به (سنة الله) أى كسنة الله (فى الذين خلوا من قبل) من المنافقين والذين فعلوا مثل هؤلاء (ولن تجد لسنة الله تبديلا) قوله تعالى (يسئلك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك) أى أى شئ يعلمك أمر الساعة ومتى يكون قيامها أى أنت لا تعرفه (لعل الساعة تكون قريبا إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا يوم تقلب وجوههم فى النار) ظهر البطن حين يسحبون عليها (يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) فى الدنيا (وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا) قرأ ابن عامر ويعقوب ساداتنا بكسر التاء وألف قبلها على جمع الجمع وقرأ الآخرون بفتح التاء بلا ألف قبلها (وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب) أى ضعفى عذاب غيرهم قوله تعالي (والعنهم لعنا كبيرا) قرأ عاصم كبيرا بالباء . قال الكلبي أى عذابا كبيرا وقرأ الآخرون بالثاء كقوله تعالى « أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » وهذا يشهد للكثرة أى مرة بعد مرة . قوله عز وجل

تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار وقيل هو الملحفة وكل مايستتر به من كساء وغيره قال ابن عباس أمر نساء المؤمنين أن يغطين رءوسهن ووجوههن بالجلابيب إلا عينا واحدة ليعلم أنهن حرائر وهو قوله تعالى (ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) أي لا يتعرض لهن (وكان الله غفورا رحيما) أى لما سلف منهن قال أنس مرت بعمر بن الخطاب جارية متنقبة فعلاها بالدرة وقال يالكاع اتتشبهين بالحرائر ألق القناع لكاع كلمة تقال لمن يستحقر بهمثل العبد والأمة والخامل والقليل العقل مثل قولك ياخسيس : قوله تعالي (لئن لم ينته المنافقون) أي عن نفاقهم (والذين فى قلوبهم مرض) أى فجورهم الزناة (والمرجفون فى المدينة) أي بالكذب وذلك أن ناسا منهم كانوا إذا خرجت سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوقعون فى الناس أنهم قد قتلوا وهزموا ويقولون قد أتاكم العدو ونحو هذا من الأراجيف وقيل كانوا يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا وتفشو الأخبار (لنغرينك بهم) يعنى لنحرشنك بهم ولنسلطنك عليهم (ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا) أي لا يساكنونك في المدينة إلا قليلا أى حتى يخرجوا منها وقيل لنسلطنك عليهم حتى تقتلهم وتخلى منهم المدينة (ملعونين) أى مطرودين (أينما ثقفوا) أى وجدوا وأدركوا (أخذوا وقتلوا تقتيلا) أي الحكم فيهم هذا على الأمر به (سنة الله) أى كسنة الله (فى الذين خلوا من قبل) أي فى المنافقين والذين فعلوا مثل مافعل هؤلاء أن يقتلوا حيثما ثقفوا (ولن تجد لسنة الله تبديلا) قوله عز وجل (يسئلك الناس عن الساعة) قيل إن المشركين كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت قيام الساعة استعجالا على سبيل الهزء وكان اليهود يسألونه عن الساعة امتحانا لأن الله تعالى عمى عليهم علم وقتها في التوراة فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم بقوله (قل إنما علمها عند الله) يعنى إن الله تعالي قد استأثر به ولم يطلع عليه نبيا ولا ملكا (وما يدريك) أى أى شىء يعلمك أمر الساعة ومتى يكون قيامها (لعل الساعة تكون قريبا) أى إنها قريبة الوقوع وفيه تهديد للمستعجلين وإسكات للممتحنين (إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا يوم تقلب وجوههم فى النار) أى تتقلب ظهر البطن حين يسحبون عليها (يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) أي في الدنيا (وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا) يعنى رءوس الكفر الذين لقنوهم الكفر وزينوه لهم (فأضلونا السبيلا) يعنى عن سبيل الهدى (ربنا آتهم) يعنون السادة والكبراء (ضعفين من العذاب) يعنى ضعفى عذاب غيرهم (والعنهم لعنا كبيرا) يعنى لعنا متتابعا :

(يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا) فطهره الله مما قالوا (وكان عند الله وجيها) أى كريما ذا جاه يقال وجه الرجل يوجه وجاهة فهو وجيه إذا كان ذا جاه وقدر . قال ابن عباس كان حظيا عند الله لا يسأل الله شيئا إلا أعطاه وقال الحسن كان مستجاب الدعوة وقيل كان محببا مقبولا . واختلفوا فيما أوذى به موسى فأخبرنا

عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا إسحاق بن إبراهيم أنا روح بن عبادة أنا عوف عن الحسن ومحمد وخلاس عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن موسى كان رجلا حييا ستيرا لا يرى من جلده شئ استحياء فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل فقالوا ما تستر موسى هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص أو أدرة وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا فخلا يوما وحده ليغتسل فوضع ثوبه على الحجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول ثوبى حجر ثوبى حجر حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله وبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه فوالله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا» فذلك قوله عز وجل « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها » وقال قوم أذاهم إياه أنه لما مات هارون فى التيه ادعوا على موسى أنه قتله فأمر الله الملائكة حتى مروا به على بنى إسرائيل فعرفوا أنه لم يقتله فبرأه الله مما قالوا وقال أبو العالية هو أن قارون استأجر مومسة لتقذف موسى بنفسها على رأس الملأ

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين أذوا موسى فبرأه الله مما قالوا) يعنى فطهره الله مما قالوه فيه (وكان عند الله وجيها) يعنى كريما ذا جاه وقدر قال ابن عباس كان حظيا عند الله لا يسأل الله شيئا إلا أعطاه وقيل كان مستجاب الدعوة وقيل كان محببا مقبولا واختلفوا فيما أوذى به موسى فروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كان بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلي سوءة بعض وكان موسى عليه السلام يغتسل وحده فقالوا والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر قال فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه قال جمع موسى بأثره يقول ثوبى حجر ثوبى حجر حتى نظرت بنو إسرائيل إلي سوءة موسى فقالوا والله ما بموسى من بأس فقام الحجر حتى نظر إليه قال فأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضربا » قال أبو هريرة «والله إن بالحجر ندبا ستة أو سبعة من ضرب موسى الحجر» أخرجه البخارى ومسلم وللبخارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن موسى كان رجلا حييا ستيرا لا يرى شيء من جسده استحياء منه فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل فقالوا ما يستتر هذا الستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدرة وإما آفة وأن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى فخلا يوما وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلي ثيابه ليأخذها وأن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى العصا وطلب الحجر وجعل يقول ثوبى حجر ثوبى حجر حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل ورأوه عريانا أحسن ما خلق الله وبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه ولبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه فوالله إن بالحجر لندبا من أثر الضرب ثلاثا أو أربعا أو خمسا» فذلك قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها » الأدرة عظم الخصية لنفخة فيها وقوله فجمح أى أسرع وقوله ثوبى حجر أى دع ثوبى يا حجر قوله وطفق أى جعل يضرب الحجر وقوله ندبا هو بفتح النون والدال وهو الأصح وأصله أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد فشبه به الضرب بالحجر والمحدثون يقولون ندبا بسكون الدال وقيل فى معنى الآية أن أذاهم إياه أنه لما مات هارون فى التيه ادعوا على موسى أنه قتله فأمر الله تعالي الملائكة حتى مروا به على بنى إسرائيل فعرفوا أنه لم يقتله فبرأه الله مما قالوا وقيل إن قارون استأجر بغيا لتقذف موسى بنفسها على رأس الملأ فعصمها الله وبرأ موسى من ذلك وأهلك قارون (ق) عن عبد الله بن مسعود قال « لما كان يوم حنين آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ناسا فى القسمة فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وأعطى عيينة بن حصن مثل ذلك وأعطى ناسا من أشراف العرب وآثرهم فى القسمة فقال رجل والله إن هذه القسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله فقلت والله لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فأتيته فأخبرته بما قال فتغير وجهه حتى كان كالصرف ثم قال فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ثم قال يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر » الصرف بكسر الصاد صبغ

فعصمها الله وبرأ موسى من ذلك وأهلك قارون أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو الوليد أنا شعبة عن الأعمش قال سمعت أبا وائل قال سمعت عبد الله قال «قسم النبي صلى الله عليه وسلم قسما فقال رجل إن هـذه لقسمة ما أريد بها وجه الله فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فغضب حتى رأيت الغضب فى وجهه ثم قال «رحم الله موسى لقد أوذى أكثر من هذا فصبر» قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا) قال ابن عباس صوابا وقال قتادة عدلا وقال الحسن صدقا وقيل مستقيما وقال عكرمة هو قول لا إله إلا الله (يصلح لكم أعمالكم) قال ابن عباس يتقبل حسناتكم وقال مقاتل يزك أعمالكم (ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) أي ظفر بالخير كله قوله تعالى (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال) الآية أراد بالأمانة الطاعة والفرائض التى فرضها الله على عباده عرضها على السموات والأرض والجبال (٢٧٩) على أنهم إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم وهذا قول ابن عباس وقال ابن مسعود الأمانة أداء الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت وصدق الحديث وقضاء الدين والعدل فى المكيال والميزان وأشد من هذا كله الودائع وقال مجاهد الأمانة الفرائض وحدود الدين . وقال أبو العالية ما أمروا به ونهوا عنه وقال زيد بن أسلم هو الصوم والغسل من الجنابة وما يخفى من الشرائع وقال عبد الله بن عمرو ابن العاص أول ما خلق الله من الإنسان فرجه وقال هذه أمانة استودعكها فالفرج أمانة والأذن أمانة والعين أمانة واليد أمانة والرجل أمانة ولا إيمان لمن لا أمانة له وقال بعضهم هى أمانات الناس والوفاء بالعهود فحق على كل مؤمن أن لا يغش مؤمنا ولا معاهدا فى شيء قليل ولا كثير وهى رواية الضحاك عن ابن عباس فعرض الله هذه الأمانة على أعيان السموات والأرض والجبال هذا قول ابن عباس وجماعة من التابعين وأكثر السلف فقال لهن أتحملن هذه الأمانة بما فيها قلن وما فيها قال إن أحسنتن جوزيتن وإن عصيتن عوقبتن فقلن لا يارب نحن مسخرات لأمرك لا نريد ثوابا ولا عقابا وقلنا ذلك خوفا وخشية وتعظيما لدين الله أن لا يقمن بها لا معصية ولا مخالفة وكان العرض عليهن تخييرا لا إلزاما ولو ألزمهن لم يمتنعن من حملها والجمادات كلها خاضعة لله عز وجل مطيعة ساجدة له كما قال جل ذكره فى السموات والأرض «ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين» وقال للحجارة «وإن منها لما يهبط من خشية الله» . وقال تعالى «ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب» الآية وقال بعض أهل العلم ركب الله عز وجل فيهن العقل والفهم حين عرض

صبغ أحمر يصبغ به الأديم . قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا) قال ابن عباس صوابا وقيل عدلا وقيل صدقا وقيل قول هو لا إله إلا الله (يصلح لكم أعمالكم) قال ابن عباس يتقبل حسناتكم (ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) أى ظفر بالخير العظيم . قوله عز وجل (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال) الآية قال ابن عباس أراد بالأمانة الطاعة والفرائض التى فرضها الله على عباده عرضها على السموات والأرض والجبال على أنهم إذا أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم وقال ابن مسعود الأمانة أداء الصلوات وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت وصدق الحديث وقضاء الدين والعدل فى المكيال والميزان وأشد من هذا كله الودائع وقيل جميع ما أمروا به ونهوا عنه وقيل هى الصوم وغسل الجنابة وما يخفى من الشرائع وقال عبد الله بن عمرو بن العاص أول ما خلق الله من الإنسان الفرج وقال هذه الأمانة استودعكها فالفرج أمانة والأذن أمانة والعين أمانة واليد أمانة والرجل أمانة ولا إيمان لمن لا أمانة له وفى رواية عن ابن عباس هى أمانات الناس والوفاء بالعهود فحق على كل مؤمن أن لا يغش مؤمنا ولا معاهدا فى شيء لا فى قليل ولا كثير فعرض الله تعالى هذه الأمانة على أعيان السموات والأرض والجبال وهذا قول جماعة من التابعين وأكثر السلف فقال لهن أتحملن هذه الأمانة بما فيها قلن وما فيها قال إن أحسنتن جوزيتن وإن عصيتن عوقبتن قلن يارب نحن مسخرات لأمرك لا نريد ثوابا ولا عقابا وقلن ذلك خوفا وخشية وتعظيما لدين الله تعالى أن لا يقوموا بها لا معصية ولا مخالفة لأمره وكان العرض عليهن تخييرا لا إلزاما ولو ألزمهن لم يمتنعن من حملها والجمادات كلها خاضعة لله عز وجل مطيعة لأمره ساجدة له قال بعض أهل العلم ركب الله تعالى فيهن العقل والفهم حين عرض عليهن الأمانة حتى عقلن الخطاب وأجبن بما أجبن وقيل المراد من العرض على السموات والأرض هو العرض على أهلها من الملائكة دون أعيانها والقول الأول أصح وهو قول العلماء

الأمانة عليهن حتى عقلن الخطاب وأجبن بما أجبن وقال بعضهم المراد من العرض على السموات والأرض هو العرض على أهل السموات والأرض عرضها على من فيها من الملائكة وقيل على أهلها كلها دون أعيانها كقوله تعالى «واسأل القرية» أى أهل القرية والأول أصح وهو قول العلماء (فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) أى خفن من الأمانة أن لا يؤدينها فيلحقهن العقاب (وحملها الإنسان) يعنى آدم عليه السلام فقال الله لآدم «إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم تطقها فهل أنت آخذها بما فيها قال يارب وما فيها قال إن أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت فتحملها آدم وقال بين أذنى وعاتقى قال الله تعالى أما إذا تحملت فسأعينك أجعل لبصرك حجابا فإذا خشيت أن تنظر إلى مالا يحل لك فارخ عليه حجابه وأجعل للسانك لحيين وغلاقا فإذا خشيت

فاغلق واجعل لفرجك لباسا فلا تكشفه على ماحرمت عليك قال مجاهد فما كان بين أن تحملها وبين أن خرج من الجنة إلا مقدار مابين الظهر والعصر وحكي النقاش بإسناده عن ابن مسعود أنه قال مثلت الأمانة كصخرة ملقاة ودعيت السموات والأرض والجبال إليها فلم يقربوا منها وقالوا لانطيق حملها وجاء آدم من غير أن دعى وحرك الصخرة وقال لو أمرت بحملها لحملتها فقيل له احملها فحملها إلى ركبتيه ثم وضعها وقال والله لو أردت أن أزداد لزدت فقيل له احملها فحملها إلي حقوه ثم وضعها وقال والله لو أردت أن أزداد لزدت قيل له احمل فحملها حتى وضعها على عاتقه فأراد أن يضعها فقال الله مكانك فإنها فى عنقك وعنق ذريتك إلى يوم القيامة (إنه كان ظلوما جهولا) قال ابن عباس الأمانة ظلوما لنفسه جهولا لأمر الله وما احتمل من الأمانة . وقال الكلبي ظلوما حين عصى ربه جهولا لايدرى ما العقاب فى ترك الأمانة وقال مقاتل ظلوما لنفسه جهولا بعاقبة ماتحمل وذكر الزجاج وغيره من أهل المعانى فى قوله وحملها الإنسان قولا فقالوا إن الله ائتمن آدم وأولاده على شيء وائتمن السموات والأرض والجبال على شيء فالأمانة فى حق بنى آدم ماذكرنا فى الطاعة والقيام بالفرائض والأمانة فى حق السموات والأرض والجبال هى الخضوع والطاعة لما خلقن له وقيل قوله فأبين أن يحملنها أى أدين الأمانة يقال فلان لم يحتمل الأمانة أى لم يخن فيها وحملها الإنسان أى خان فيها يقال فلان حمل الأمانة أي أثم فيها بالخيانة . قال الله تعالى «وليحملن أثقالهم أنه كان ظلوما جهولا» حكى عن الحسن على هذا التأويل أنه قال وحملها

(فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) أى خفن من الأمانة أن لايؤدينها فيلحقهن العقاب (وحملها الإنسان) يعنى آدم قال الله عز وجل لآدم إنى عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم تطقها فهل أنت آخذها بما فيها قال يارب وما فيها قال إن أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت فتحملها آدم فقال بين أذنى وعاتقى قال الله أما إذا تحملت فسأعينك وأجعل لبصرك حجابا فإذا خشيت أن لاتنظر إلي مالا يحل فارخ عليه حجابه وأجعل للسانك لحيين وغلاقا فإذا خشيت فأغلقه وأجعل لفرجك لباسا فلا تكشفه على ماحرمت عليك قال مجاهد فما كان بين أن تحملها وبين أن أخرج من الجنة إلا مقدار مابين الظهر والعصر وقيل إن ما كلف الإنسان حمله بلغ من عظمه وثقل محمله أنه عرض على أعظم ماخلق الله تعالى من الإجرام وأقواه وأشده أن يحتمله ويستقل به فأبى حمله وأشفق منه وحمله الإنسان على ضعفه وضعف قوته (إنه كان ظلوما جهولا) قال ابن عباس إنه كان ظلوما لنفسه جهولا بأمر ربه وما تحمل من الأمانة وقيل ظلوما حين عصى ربه جهولا أي لايدرى ما العقاب في ترك الأمانة وقيل ظلوما جهولا حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها وضمنها ولم يف بضمانها وقيل فى تفسير الآية أقوال أخر وهو أن الله تعالى ائتمن السموات والأرض والجبال على كل شيء وائتمن آدم وأولاده على شيء فالأمانة في حق الأجرام العظام هى الخضوع والطاعة لما خلقهن له وقوله فأبين أن يحملنها أى أدين الأمانة ولم يخن فيها وأما الأمانة في حق بنى آدم فهى ماذكر من الطاعة والقيام بالفرائض وقوله وحملها الإنسان أى خان فيها وعلى هذا القول حكى عن الحسن أنه قال الإنسان هو الكافر والمنافق حملا الأمانة وخانا فيها والقول الأول هو قول السلف وهو الأولي ؛

(فصل)

فى الأمانة (ق) عن حذيفة بن اليمان قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا انتظر الآخر حدثنا إن الأمانة نزلت في جدر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال « ينام الرجل النومة فتقبض

الإنسان يعني الكافر والمنافق حملا الأمانة أي خانا وقول السلف ماذكرنا. قوله عز وجل (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) قال مقاتل ليعذبهم بما خانوا الأمانة ونقضوا الميثاق (ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما) يهديهم ويرحمهم بما أدوا من الأمانة. وقال ابن قتيبة أي عرضنا الأمانة ليظهر نفاق المنافق وشرك المشرك فيعذبهما الله ويظهر إيمان المؤمن فيتوب الله عليه أي يعود عليه بالرحمة والمغفرة إن حصل منه تقصير فى بعض الطاعات.

(سورة سبأ مكية وهى أربع وخمسون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الحمد لله الذى له مافى السموات ومافى الأرض) ملكا وخلقا (وله الحمد فى الآخرة) كما هو له فى الدنيا لأن النعم فى الدارين كلها منه وقيل الحمد لله فى الآخرة هو حمد أهل الجنة كما قال الله تعالى «وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن، والحمد لله الذى صدقنا وعده» (وهو الحكيم الخبير يعلم مايلج فى الأرض) أى يدخل فيها من الماء والأموات (وما يخرج منها) من النبات والأموات إذا حشروا (وما ينزل

الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ثم ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المجل كجمرد حرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرا وليس فيه شىء ثم أخذ حصاة فدحرجها على رجله فيصبح الناس يتبايعون لايكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال إن فى بنى فلان رجلا أمينا حتى يقال للرجل ماأجلده ماأظرفه ماأعقله وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ولقد أتى على زمان وما أبالي أيكم بايعت لئن كان مسلما ليردنه على دينه ولئن كان نصرانيا أو يهوديا ليردنه على ساعيه وأما اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلانا وفلانا» قوله نزلت الأمانة فى جذر قلوب الرجال جذر الشىء أصله والوكت الأثر اليسير كالنقطة فى الشىء من غير لونه والمجل غلظ الجلد من أثر العمل وقيل إنما هو النفطات فى الجلد وقد فسره الحديث والمنتبر المنتفخ وليس فيه شىء (خ) عن أبى هريرة قال «بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مجلس يحدث القوم فجاء أعرابى فقال متى الساعة فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث فقال بعض القوم سمع ماقال فكره ماقال وقال بعضهم لم يسمع حتى إذا قضى حديثه قال أين السائل عن الساعة قال هاأنا يارسول الله قال إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة قال كيف إضاعتها يارسول الله قال إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» وعنه قال قال النبى صلى الله عليه وسلم «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك» أخرجه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن غريب قوله تعالى (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) أى بما خانوا الأمانة ونقضوا العهد (ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) أى يهديهم ويرحمهم بما أدوا من الأمانة وقيل عرضنا الأمانة ليظهر نفاق المنافق وشرك المشرك فيعذبهما الله ويظهر إيمان المؤمن فيتوب عليه أى يعود عليه بالرحمة والمغفرة إن حصل منه تقصير فى بعض الطاعات (وكان الله غفورا رحيما) والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

(تفسير سورة سبأ مكية)

(وهى أربع وخمسون آية وثمانمائة وثلاثة وثلاثون كلمة وألف وخمسمائة واثنا عشر حرفا)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (الحمد لله الذى له مافى السموات وما فى الأرض) معناه أن كل نعمة من الله فهو الحقيق بأن يحمد ويثنى عليه من أجلها، ولما قال الحمد لله وصف ملكه فقال الذى له مافى السموات وما فى الأرض أى ملكا وخلقا (وله الحمد فى الآخرة) أى كما هو له فى الدنيا لأن النعم فى الدارين كلها منه فكما أنه المحمود على نعم الدنيا فهو المحمود على نعم الآخرة وقيل الحمد فى الآخرة هو حمد أهل الجنة كما ورد «يلهمون التسبيح والحمد كما يلهمون النفس» (وهو الحكيم) أى الذى أحكم أمور الدارين (الخبير) أى بكل ما كان وما يكون (يعلم مايلج فى الأرض) أى من المطر والكنوز والأموات (وما يخرج منها) أى من النبات والشجر والعيون والمعادن والأموات إذا بعثوا (وما ينزل من السماء) أى من المطر والثلج والبرد وأنواع البركات والملائكة (وما يعرج فيها) أى فى السماء من الملائكة وأعمال العباد (وهو الرحيم الغفور) أى للمفرطين فى أداء ماوجب عليهم من شكر نعمه. قوله تعالى (وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة) معناه أنهم أنكروا البعث وقيل استبطئوا ماوعدوه من قيام الساعة على سبيل اللهو والسخرية (قل بلى وربى لتأتينكم) يعنى الساعة (عالم الغيب) أى لايفوت علمه شيء من الخفيات وإذا

من السماء) من الأمطار (وما يعرج) يصعد (فيها) من الملائكة وأعمال العباد (وهو الرحيم الغفور وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم) الساعة (عالم الغيب) قرأ أهل المدينة والشام

عالم بالرفع على الاستئناف وقرأ الآخرون بالجر على نعت الرب أى وربى عالم الغيب وقرأ حمزة والكسائى علام على وزن فعال وجر الميم (لايعزب) لايغيب (عنه مثقال ذرة) وزن ذرة (فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك) أى من الذرة (ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك) يعنى الذين آمنوا وعملوا الصالحات (لهم مغفرة ورزق كريم) حسن يعنى فى الجنة (والذين سعوا فى آياتنا) فى ابطال أدلتنا (معاجزين) يحسبون أنهم يفوتوننا (أولئك لهم عذاب من رجز أليم) قرأ ابن كثير وحفص ويعقوب «اليم» بالرفع هاهنا و فى الجاثية على نعت العذاب، وقرأ الآخرون بالخفض على نعت الرجز وقال قتادة الرجز سوء العذاب (ويرى الذين) أى ويرى الذين (أوتوا العلم) يعنى مؤمنى أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه وقال قتادة هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم (الذى أنزل إليك من ربك) يعنى القرآن (هو الحق) يعنى أنه من عند الله (ويهدى) يعنى القرآن (إلى صراط العزيز الحميد) وهو الإسلام (وقال الذين كفروا) منكرين للبعث متعجبين منه (هل ندلكم على رجل ينبئكم) أى يخبركم يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم (إذا مزقتم كل ممزق) قطعتم كل تقطيع وفرقتم كل تفريق وصرتم ترابا (إنكم لفى خلق جديد) أى يقول لكم إنكم لفى خلق جديد (افترى) ألف استفهام دخلت على ألف الوصل ولذلك نصبت (على الله كذبا أم به جنة) يقولون : أزعم كذبا أم به جنون ؟ قال الله تعالى ردا عليهم (بل الذين لايؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد) من الحق فى الدنيا . قوله تعالى (أفلم يروا إلى مابين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض) فيعلموا أنهم حيث كانوا فإن أرضى وسمائى محيطة بهم لا يخرجون من أقطارها وأنا القادر عليهم (إن نشأ نخسف بهم الأرض) قرأ الكسائى نخسفبهم بإدغام الفاء فى الباء (أو نسقط عليهم كسفا من السماء) قرأ حمزة والكسائى إن يشأ يخسف أو يسقط بالياء فيهن لذكر الله من قبل ، وقرأ الآخرون بالنون فيهن (إن فى ذلك) أى فيما ترون من السماء والأرض (لآية) تدل على قدرتنا على البعث (لكل عبد منيب) تائب راجع إلى الله بقلبه. قوله تعالى (ولقد آتينا داود منا فضلا) يعنى النبوة والكتاب وقيل الملك وقيل جميع ماأوتى من

(ياجبال

كان كذلك اندرج في علمه وقت قيام الساعة وأنها آتية (لايعزب عنه) أى لايغيب عنه (مثقال ذرة) يعنى وزن ذرة (فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك) أى من الذرة (ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) يعنى فى اللوح المحفوظ (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة) أى لذنوبهم (ورزق كريم) يعنى الجنة (والذين سعوا في آياتنا) يعنى فى ابطال أدلتنا معجزين يعنى يحسبون أنهم يفوتوننا (أولئك لهم عذاب من رجز أليم) قيل الرجز سوء العذاب (ويرى الذين أوتوا العلم) يعنى مؤمنى أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه وقيل هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (الذى أنزل إليك من ربك) يعنى القرآن (هو الحق) يعنى أنه من عند الله (ويهدى) أى القرآن (إلى صراط العزيز الحميد) أى إلي دين الإسلام (وقال الذين كفروا) أى المنكرين للبعث المتعجبين منه (هل ندلكم) أى قال بعضهم لبعض هل ندلكم (على رجل ينبئكم) يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم معناه يحدثكم بأعجوبة من الأعاجيب وهى أنكم (إذا مزقتم كل ممزق) أى قطعتم كل تقطيع وفرقتم كل تفريق وصرتم ترابا (إنكم لفى خلق جديد) أى يقول إنكم تبعثون وتنشئون خلقا جديدا بعد أن تكونوا رفاتا وترابا (أفترى على الله كذبا) أى أهو مفتر على الله كذبا فيماينسب إليه من ذلك؟ (أم به جنة) أى جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه قال الله تعالى ردا عليهم ليس بمحمد صلى الله عليه وسلم من الافتراء والجنون شيء وهو مبرأ منهما (بل الذين لايؤمنون بالآخرة) يعنى منكرى البعث (في العذاب والضلال البعيد) أى عن الحق فى الدنيا (أفلم يروا إلي مابين أيديهم وماخلفهم من السماء والأرض) أى فيعلموا أنهم حيث كانوا فى أرضى وتحت سمائى فإن أرضى وسمائى محيطة بهم لايخرجون من أقطارها وأناقادر عليهم (إن نشأ نخسف بهم الأرض) أى كما خسفنا بقارون (أو نسقط عليهم كسفا من السماء) أى كما فعلنا بأصحاب الأيكة (إن فى ذلك) أى فيما ترون من السماء والأرض (لآية) أى تدل على قدرتنا على البعث بعد الموت (لكل عبد منيب) أى تائب راجع إلى الله تعالى بقلبه : قوله عز وجل (ولقد آتينا داود منا فضلا) يعنى النبوة والكتاب : وقيل الملك وقيل هو جميع ماأوتى من حسن الصوت وغير ذلك مما خص به

حسن الصوت وتليين الحديد وغير ذلك مما خص به (ياجبال) أى وقلنا ياجبال (أوبى) أى سبحى (معه) إذا سبح وقال القتيبى اصله من التأويب فى السير وهو أن يسير النهار كله فينزل ليلا كأنه قال أوبى النهار كله بالتسبيح معه وقال وهب نوحى معه (والطير) عطف على موضع الجبال لأن كل منادى فى موضع النصب وقيل معناه وسخرنا وأمرنا الطير أن تسبح معه وقرأ يعقوب والطير بالرفع رداً على الجبال أى أوبى أنت والطير وكان داود إذا نادى بالنياحة أجابته الجبال بصداها وعكفت الطير عليه من فوقه فصدى الجبال الذى يسمعه الناس اليوم من ذلك وقيل كان داود إذا تخلل الجبال فسبح الله جعلت الجبال تجاوبه بالتسبيح نحو مايسبح ؛ وقيل كان داود عليه السلام ، إذا لحقه فتور أسمعه الله تسبيح الجبال تنشيطا له (وألنا له الحديد) حتى كان الحديد فى يده كالشمع والعجين يعمل فيه مايشاء من غير نار ولا ضرب مطرقة ، وكان (٢٨٣) سبب ذلك على ماروى فى الأخبار

(ياجبال أوبى معه) أى وقلنا ياجبال سبحى معه إذا سبح وقيل رجعى معه إذا رجع ونوحى معه إذا ناح (والطير) أى وأمرنا الطير أن تسبح معه فكان داود إذا نادى بالتسبيح أو بالنياحة أجابته الجبال بصداها وعكفت الطير عليه من فوقه وقيل كان داود إذا لحقه ملل أو فتور أسمعه الله تعالى تسبيح الجبال فينشط له (وألنا له الحديد) يعنى كان الحديد فى يده كالشمع أو كالعجين يعمل منه مايشاء من غير نار ولا ضرب مطرقة قيل سبب ذلك أن داود عليه السلام لما ملك بنى إسرائيل كان من عادته أن يخرج إلى الناس متنكرا فاذا رأى إنسانا لايعرفه تقدم إليه وسأله عن داود فيقول له ماتقول فى داود وإليكم هذا أى رجل هو فيثنون عليه ويقولون خيرا فقيض الله له ملكا فى صورة آدمى فلما رآه داود تقدم إليه على عادته فسأله فقال الملك نعم الرجل هو لولا خصلة فيه فراع داود عليه الصلاة والسلام ذلك وقال ماهى ياعبد الله قال إنه يأكل ويطعم عياله من بيت المال قال فتنبه لذلك وسأل الله تعالى أن يسبب له سببا يستغنى به عن بيت المال فيتقوت منه ويطعم عياله فألان الله له الحديد وعلمه صنعة الدروع وأنه أول من اتخذها وكانت قبل ذلك صفائح وقيل إنه كان يبيع كل درع بأربعة آلاف فيأكل منها ويطعم عياله ويتصدق منها على الفقراء والمساكين وقد صح فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «قال كان داود عليه السلام لايأكل إلا من عمل يده» (أن اعمل سابغات) أى دروعا كوامل واسعات طوالا تسحب فى الأرض قيل كان يعمل كل يوم درعا (وقدر فى السرد) أى ضيق فى نسج الدرع وقيل قدر المسامير فى حلق الدرع ولا تجعل المسامير دقاقا فتفلت ولا تثبت ولا غلاظا فتكسر الحلق وقيل قدر فى السرد أى اجعله على القصد وقدر الحاجة (واعملوا صالحا) يريد داود وآله (إنى بما تعملون بصير) قوله تعالى (ولسليمان الريح) أى وسخرنا لسليمان الريح (غدوها شهر ورواحها شهر) معناه أن مسير غدو تلك الريح المسخرة له مسيرة شهر ومسير رواحها مسيرة شهر فكانت تسير به فى يوم واحد مسيرة شهرين قيل كان يغدو من دمشق فيقيل باصطخر وبينهما مسيرة شهر ثم يروح من اصطخر فيبيت بكابل وبينهما مسيرة

أن داود عليه السلام لما ملك بنى إسرائيل كان من عادته أن يخرج للناس متنكرا فإذا رأى رجلا لايعرفه يقدم إليه ويسأله عن داود ويقول له ما تقول فى داود وإليكم هذا أى رجل هو فيثنون عليه ويقولون خيرا فقيض الله له ملكا فى صورة آدمى . فلما رآه داود تقدم إليه على عادته فسأله فقال الملك نعم الرجل هو لولا خصلة فيه فراع داود ذلك ، وقال ماهى ياعبد الله قال إنه يأكل ويطعم عياله من بيت المال قال فتنبه لذلك وسأل الله أن يسبب له سببا يستغنى به عن بيت المال فيتقوت منه ويطعم عياله فالان الله تعالى له الحديد وعلمه صنعة الدروع وأنه أول من اتخذها ويقال إنه كان يبيع كل درع بأربعة آلاف درهم فيأكل ويطعم منها عياله ويتصدق منها على الفقراء والمساكين ويقال إنه كان يعمل كل يوم درعا يبيعها بستة آلاف درهم فينفق ألفين منها على نفسه وعياله ويتصدق بأربعة آلاف على فقراء بنى إسرائيل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كان داود عليه السلام لايأكل إلا من عمل يده» (أن اعمل سابغات) دروعا كوامل واسعات ، طوالا تسحب فى الأرض (وقدر فى السرد) والسرد نسج الدروع يقال لصانعه السراد والزراد يقول قدر المسامير فى حلق الدرع ، أى لاتجعل المسامير دقاقا فتفلت ولا غلاظا فتكسر الحلق ويقال السرد المسمار فى الحلقة يقال درع مسرودة أى مسمورة الحلق وقدر فى السرد اجعله على القصد وقدر الحاجة (واعملوا صالحا) يريد داود وآله (إنى بما تعملون بصير ولسليمان الريح) أى وسخرنا لسليمان الريح وقرأ أبو بكر عن عاصم الريح بالرفع أى سخر له الريح (غدوها شهر ورواحها شهر) أى سير غدو تلك الريح المسخرة له مسيرة شهر وسير

رواحها مسيرة شهر وكانت تسير به فى يوم واحد مسيرة شهرين قال الحسن كان يغدو من دمشق فيقيل باصطخر، وبينهما مسيرة شهر ثم روح من اصطخر فيبيت لكابل وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع وقيل إنه كان يتغذى بالرى ويتعشى بسمرقند (وأسلنا له عين القطر) أى أذبنا له عين النحاس والقطر النحاس قال أهل التفسير أجريت له عين النحاس ثلاثة أيام بلياليهن كجرى الماء وكان بأرض اليمن وإنما ينتفع الناس اليوم بما أخرج الله لسليمان (ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه) بأمر ربه قال ابن عباس سخر الله الجن لسليمان وأمرهم بطاعته فيما يأمرهم به (ومن يزغ) أى يعدل (منهم) من الجن (عن أمرنا) الذى أمرناه به من طاعة سليمان (نذقه من عذاب السعير) فى الآخرة وقال بعضهم فى الدنيا وذلك أن الله عز وجل وكل بهم ملكا بيده سوط من نار فمن زاغ منهم عن أمر سليمان ضربه ضربة أحرقته (يعملون **(٢٨٤)** له مايشاء من محاريب) أى مساجد والأبنية المرتفعة وكان مما عملوا فى بيت المقدس ابتداءه داود ورفعه قدر قامة رجل فأوحى الله إليه إنى لم أقض ذلك على يدك ولكن ابن لك أملكه بعدك اسمه سليمان أقضى تمامه على يده فلما توفاه الله استخلف سليمان فأحب إتمام بناء بيت المقدس فجمع الجن والشياطين وقسم عليهم الأعمال فخص كل طائفة منهم بعمل يستصلحه لهم فأرسل الجن والشياطين فى تحصيل الرخام والمها الأبيض من معادنه وأمر ببناء المدينة بالرخام والصفاح وجعلها اثنى عشر ربضا وأنزل كل ربض منها سبطا من الأسباط وكانوا اثنى عشر سبطا، فلما فرغ من بناء المدينة ابتدأ فى بناء المسجد فوجه الشياطين فرقا فرقا يستخرجون الذهب والفضة والياقوت من معادنها والدر الصافى من البحر وفرقا يقلعون الجواهر والحجارة من أماكنها وفرقا يأتونه بالمسك والعنبر وسائر الطيب من أماكنها فأتى من ذلك بشىء لا يحصيه إلا الله عز وجل ثم أحضر الصناعين وأمرهم بنحت تلك الحجارة المرتفعة وتصييرها ألواحا وإصلاح تلك الجواهر وثقب اليواقيت واللآلىء فبنى المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر وعمده بأساطين المها الصافى وسقفه بألواح الجواهر الثمينة وفصص سقوفه وحيطانه باللآلىء واليواقيت وسائر الجواهر وبسط أرضه بألواح الفيروزج فلم يكن يومئذ فى الأرض بيت أبهى ولا أنور من ذلك المسجد وكان يضىء فى الظلمة كالقمر ليلة البدر فلما فرغ منه جمع إليه أحبار بنى إسرائيل فأعلمهم أنه بناه لله عز وجل وأن كل شىء فيه خالص لله واتخذ ذلك اليوم الذى فرغ منه عيدا وروى

شهر للراكب المسرع وقيل إنه كان يتغذي بالري ويتعشى بسمرقندى (وأسلنا له عين القطر) أى أذبنا اه غين النحاس قال أهل التفسير أجريت له عين النحاس ثلاثة أيام بلياليهن كجري الماء وكان بأرض اليمن وقيل أذاب الله لسليمان النحاس كما ألان لداود الحديد (ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه) أى بأمر ربه قال ابن غباس سخر الله الجن لسليمان عليه الصلاة والسلام وأمرهم بطاعته فيا يأمرهم به (ومن يزغ) أى يعدل (منهم) من الجن (عن أمرنا) أى الذى أمرناه به من طاعة سليمان (نذقه من عذاب السعير) قيل هذا فى الآخرة وقيل فى الدنيا وذلك أن الله تعالي وكل بهم ملكا بيده سوط من نار فمن زاغ منهم عن طاعة سليمان ضربه بذلك السوط ضربة أحرقته (يعملون له مايشاء من محاريب) أى مساجد وقيل هى الأبنية المرتفعة والقصور والمجالس الشريفة المصونة عن الابتذال وكان مما عملوا له بيت المقدس وذلك أن داود عليه الصلاة والسلام ابتدأه ورفعه قامة رجل فأوحى الله إليه لم أقض ذلك على يدك ولكن ابن لك أملكه بعدك اسمه سليمان أقضى إتمامه على يديه فلما توفى داود عليه السلام واستخلف سليمان عليه الصلاة والسلام أحب إتمام بيت المقدس فجمع الجن والشياطين وقسم عليهم الأعمال وخص كل طائفة بعمل فأرسل الجن والشياطين فى تحصيل الرخام والبلور من معادنهما وأمر ببناء المدينة بالرخام والصفائح وجعلها اثنى عشر ربضا وأنزل على كل ربض منها سبطا من الأسباط فلما فرغ من بناء المدينة ابتدأ فى بناء المسجد فوجه الشياطين فرقا فمنهم من يستخرج الذهب والفضة من معادنهما ومنهم من يستخرج الجواهر واليواقيت والدر الصافى من أماكنها ومنهم من يأتيه بالمسك والعنبر والطيب من أماكنها فأتى من ذلك بشىء كثير لا يحصيه إلا الله تعالي ثم أحضر الصناع وأمرهم بنحت تلك الأحجار وتصييرها ألواحا وإصلاح تلك الجواهر وثقب اليواقيت واللآلىء فبنى المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر وعمده بأساطين البلور الصافى وسقفه بأنواع الجواهر الثمينة وفصص سقوفه وحيطانه باللآلىء واليواقيت وسائر الجواهر وبسط أرضه بألواح الفيروزج فلم يكن على وجه تلك الأرض يومئذ بيت أبهى ولا أنور من ذلك المسجد فكان يضىء فى الظلمة كالقمر ليلة البدر فلما فرغ منه جمع إليه أحبار بنى إسرائيل وأعلمهم أنه بناه لله تعالى

عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لما فرغ سليمان من بناء بيت المقدس سأل ربه ثلاثا فأعطاه اثنين وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة سأل حكما يصادف حكمه فأعطاه إياه وسأله ملكا لاينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه وسأله أن لايأتي هذا البيت أحد يصلى فيه ركعتين إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه وأنا أرجو أن يكون قد أعطاه ذلك قالوا فلم يزل بيت المقدس على مابناه سليمان حتى غزاه بختنصر فخرب المدينة وهدمها ونقض المسجد وأخذ ما كان فى سقوفه وحيطانه من الذهب والفضة والدر والياقوت وسائر الجواهر فحمله إلى دار مملكته من أرض العراق وبنى الشياطين لسليمان باليمن حصونا كثيرة عجيبة من الصخر قوله (وتماثيل) أى كانوا يعملون له تماثيل أى صورا من نحاس وصفر وشبه وزجاج ورخام وقيل: كانوا يصورون السباع والطيور وقيل كانوا يتخذون صور الملائكة والأنبياء والصالحين فى المسجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة ولعلها كانت مباحة فى شريعتهم كما أن عيسى كان يتخذ صورا من الطين فينفخ فيها فتكون طيرا بإذن الله (وجفان) أى قصاع واحدتها جفنة (كالجواب) كالحياض التى يجبى فيها الماء أى يجمع واحدتها جابية يقال كان يقعد على الجفنة الواحدة ألف رجل يأكلون منها (وقدور راسيات) ثابتات لها قوائم لا تحركن عن أماكنها لعظمهن ولا ينزلن ولا يقلعن؛ وكان يصعد بالسلالم جمع السلم وكانت باليمن (اعملوا آل داود شكرا) أى وقلنا اعملوا آل داود شكرا مجازه اعملوا يا آل داود بطاعة الله شكرا له على نعمة (وقليل من عبادى الشكور) أى العامل بطاعتى شكرا لنعمتى قيل المراد من آل داود هو داود نفسه وقيل داود وسليمان وأهل بيته وقال جعفر بن سليمان سمعت ثابتا يقول كان داود نبى الله عليه السلام قد جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم يكن تأتى ساعة من ساعات الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى (فلما قضينا عليه الموت) أي على سليمان قال أهل العلم كان سليمان عليه السلام يتجرد فى بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر يدخل فيه طعامه وشرابه فأدخل فى المرة التى مات فيها وكان بدء ذلك أنه كان لا يصبح يوما إلا نبتت فى محراب بيت المقدس شجرة فيسألها ما اسمك فتقول اسمى كذا فيقول لأى شىء أنت فتقول لكذا وكذا فيأمر بها فتقطع، فان كانت نبتت لغرس

(٢٨٥) تعالى وأن كل شيء فيه خالص له واتخذ ذلك اليوم عيدا روى عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أن سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس سأل الله عز وجل حكما يوافق حكمه فأوتيه وسأل الله تعالى ملكا لاينبغي لأحد من بعده فأوتيه وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد أن لايأتيه أحد لاينهزه إلا الصلاة فيه إلا أخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه» أخرجه النسائى ولغير النسائى سأل ربه ثلاثا فأعطاه اثنتين وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة وذكر نحوه قوله لاينهزه أى لاينهضه إلا الصلاة قالوا فلم يزل بيت المقدس على مابناه سليمان عليه الصلاة والسلام حتى غزاه بختنصر فخرب المدينة وهدم المسجد وأخذ مافيه من الذهب والفضة وسائر أنواع الجواهر وحمله إلى دار ملكه بالعراق وبنى الشياطين لسليمان باليمن قصورا وحصونا عجيبة من الصخر. وقوله عز وجل (وتماثيل) أى أى ويعملون له تماثيل أى صورا من نحاس ورخام وزجاج قيل كانوا يصورون السباع والطيور وغيرها وقيل كانوا يصورون صور الملائكة والأنبياء والصالحين فى المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة قيل يحتمل أن اتخاذ الصور كان مباحا فى شريعتهم وهذا مما يجوز أن يختلف فيه الشرائع لأنه ليس من الأمور القبيحة فى العقل كالقتل والظلم والكذب ونحوها مما يقبح فى كل الشرائع قيل عملوا له أسدين تحت كرسيه ونسرين فوقه فإذا أراد أن يصعد بسط له الأسدان ذراعيهما وإذا جلس أظله النسران بأجنحتهما وقيل عملوا له الطواويس والعقبان والنسور على درجات سريره وفوق كرسيه لكى يهابه من أراد الدنو منه (وجفان) أى قصاع (كالجواب) أى كالحياض التى يجبى فيها الماء أى يجتمع قيل كان يقعد على الجفنة الواحدة ألف رجل يأكلون منها (وقدور راسيات) أى ثابتات على أثافيها لاتحرك ولا تنزل عن أماكنها لعظمهن وكان يصعد إليها بالسلالم وكانت باليمن (اعملوا آل داود شكرا) أي وقلنا يا آل داود اعملوا بطاعة الله تعالى شكرا على نعمه قيل المراد من آل داود نفسه وقيل داود وسليمان وأهل بيته قال ثابت البنانى كان داود نبي الله عليه الصلاة والسلام قد جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تاتى ساعة من ليل أو نهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى (وقليل من عبادى الشكور) أى قليل العامل بطاعتى شكرا لنعمتى. قوله تعالى (فلما قضينا عليه الموت) **أى على**

غرسها وإن كانت لدواء كتب حتى نبتت الخروبة فقال لها ماأنت قالت الخروبة قال لأى شىء نبت قالت لخراب مسجدك فقال سليمان ما كان الله ليخربه وأنا حى أنت التى على وجهك هلا كى وخراب بيت المقدس فنزعها وغرسها فى حائط له ثم قال اللهم عم على الجن موتى حتى يعلم الإنس أن الجن لايعلمون الغيب وكانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء ويعلمون مافى غدثم دخل المحراب فقام يصلى متكئا على عصاه فمات قائما وكان للمحراب كوى بين يديه وخلفه ، وكانت الجن يعملون تلك الأعمال الشاقة التى كانوا يعملون فى حياته وينظرون إليه يحسبون أنه حى ولا ينكرون احتباسه عن الخروج إلى الناس لطول صلاته قبل ذلك فمكثوا يدأبون له بعد موته حولا كاملا حتى أكلت الأرضة عصا سليمان فخر ميتا فعلموا بموته قال ابن عباس فشكرت الجن الأرضة فهم يأتونها بالماء والطين فى جوف الخشب فذلك قوله (٢٨٦)

سليمان قال العلماء كان سليمان يتجرد للعبادة فى بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر فيدخل فيه ومعه طعامه وشرابه فدخله المرة التى مات فيهاوكان سبب ذلك أنه كان لايصبح يوما إلا وقدنبتت فى محرابه ببيت المقدس شجرة فيسألها مااسمك فتقول كذا وكذافيقول لأى شىء خلقت فتقول لكذا وكذا فيأمر بها فتقطع فإن كانت لغرس أمر بها فغرست وإن كانت لدواء كتب ذلك حتى نبتت الخروبة فقال لها ماأنت قالت أناالخروبة قال ولأى شىء نبت قال لخراب مسجدك قال سليمان ما كان الله ليخربه وأنا حى أنت التى على وجهك هلا كى وخراب بيت المقدس ثم نزعها وغرسها فى حائط له ثم قال اللهم عم على الجن موتى حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب وكانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب شيئا ويعلمون مافى غد ثم دخل المحراب وقام يصلى على عادته متكئا على عصاه فمات قائما وكان للمحراب كوى من بين يديه ومن خلفه فكان الجن يعملون تلك الأعمال الشاقة التى كانوا يعملون فى حياة سليمان وينظرون إليه ويحسبون أنه حى ولا ينكرون احتباسه عن الخروج إلى الناس لطول صلاته وانقطاعه قبل ذلك فمكثوا يدأبون بعد موته حولا كاملا حتى أكلت الأرضة عصا سليمان فخر ميتا فعلموا بموته قال ابن عباس فشكرت الجن الأرضة فهم يأتونها بالماء والطين فى جوف الخشب فذلك قوله تعالى (مادلهم على موته إلا دابة الأرض) يعنى الأرضة (تأكل منسأته) قال البخاري يعنى عصاه (فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين) معناه علمت الجن وأيقنت أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى التعب والشقاء مسخرين لسليمان وهو ميت ويظنونه حيا أراد الله تعالى بذلك أن يعلم الجن أنهم لا يعلمون الغيب لأنهم كانوا يظنون ذلك لجهلهم وقيل فى معنى الآية أنه ظهر أمر الجن وانكشف للانس أنهم لايعلمون الغيب لأنهم كانوا قد شبهوا على الإنس ذلك ذكر أهل التاريخ أن سليمان ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وبقى فى الملك مدة أربعين سنة وشرع فى بناء بيت المقدس لأربع سنين مضين من ملكه وتوفى وهو ابن ثلاث وخمسين . قوله عز وجل (لقد كان لسبأ

(مادلهم على موته إلا دابة الأرض) وهى الأرضة التى (تأكل منسأته) يعنى عصاه قرأ أهل المدينة وأبو عمرو منسأته بغير همز وقرأ الباقون بالهمز وهما لغتان ويسكن ابن عامر الهمز وأصلها من نسأت الغنم أى زجرتها وسقتها ومنه نسأ الله فى أجله أى أخره (فلما خر) أى سقط على الأرض (تبينت الجن) أى علمت الجن وأيقنت (أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين) أى فى التعب والشقاء مسخرين لسليمان وهو ميت يظنونه حيا أراد الله بذلك أن يعلم الجن أنهم لايعلمون الغيب ، لأنهم كانوا يظنون أنهم يعلمون الغيب لغلبة الجهل عليهم وذكر الأزهرى أن معناه تبينت الجن أى ظهرت وانكشفت الجن للإنس أى فى ظهر أمرهم أنهم لايعلمون الغيب لأنهم كانوا قد شبهوا على الإنس ذلك وفى قراءة ابن مسعود وابن عباس تبينت الإنس أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين أى علمت الإنس وأيقنت ذلك وقرأ يعقوب تبينت بضم التاء وكسر الياء أى أعلمت الإنس الجن ذكر بلفظ مالم يسم فاعله وتبين لازم ومتعد وذكر أهل التاريخ أن سليمان كان عمره ثلاثا وخمسين سنة ؛ ومدة ملكه أربعون سنة وملك يوم ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وابتدأ فى بناء بيت المقدس لأربع سنين مضين من ملكه :
قوله عز وجل (لقد كان لسبأ) روى أبو سبرة النخعى عن فروة بن مسيك القطيعى قال قال رجل يارسول الله «أخبرنى عن سبأ كان رجلا أو امرأة أو أرضا قال كان رجلا من العرب وله عشرة من الولد تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة ، فأما الذين

ليمنوا فكندة والأشعريون والأزد ومذحج وأنمار وحمير فقال رجل وما أنمار فقال الذين منهم خثعم وبجيلة وأما الذين تشاءموا فعاملة وجذام ولخم وغسان وسبأ هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان، (فى مسكنهم) قرأ حمزة وحفص مسكنهم بفتح الكاف على الواحد وقرأ الكسائى بكسر الكاف وقرأ الآخرون مساكنهم على الجمع وكانت مساكنهم بمأرب من اليمن (آية) دلالة على وحدانيتنا وقدرتنا ثم فسر الآية فقال (جنتان) أى هى جنتان بستانان (عن يمين وشمال) أى عن يمين الوادى وشماله وقيل عن يمين من أتاهما وشماله وكان لهما واد ؛ قد أحاطت الجنتان بذلك الوادى (كلوا) أى وقيل لهم كلوا (من رزق ربكم) يعنى من ثمار الجنتين قال السدى ومقاتل كانت المرأة تحمل مكتلها على رأسها وتمر بالجنتين فيمتلىء مكتلها من أنواع الفواكه من غير أن تمس شيئا بيدها (واشكروا له) أى على مارزقكم من النعمة والمعنى أعملوا بطاعته (بلدة طيبة) أى أرض سبأ بلدة طيبة ليست بسبخة قال ابن زيد لم يكن يرى فى بلدتهم بعوضة ولا ذباب ولا (٢٨٧) برغوث ولا عقرب ولا حية وكان الرجل يمر ببلدهم وفى ثيابه القمل فيموت القمل كله من طيب الهواء فذلك قوله تعالى بلدة طيبة أى طيبة الهواء (ورب غفور) قال مقاتل وربكم إن شكرتموه فيما رزقكم رب غفور للذنوب (فأعرضوا) قال وهب أرسل الله إلى سبأ ثلاثة عشر نبيا فدعوهم إلى الله وذكروهم نعمه عليهم وأنذروهم عقابه فكذبوهم وقالوا مانعرف لله عز وجل علينا نعمة فقولوا لربكم فليحبس هذه النعم عنا إن استطاع فذلك قوله تعالى فأعرضوا (فأرسلنا عليهم سيل العرم) والعرم جمع عرمة وهو السكر الذى يحبس به الماء وقال ابن الأعرابى العرم السيل الذى لا يطاق وقيل كان ماء أحمر أرسله الله عليهم من حيث شاء وقيل العرم الوادى وأصله من العرامة وهى الشدة والقوة وقال ابن عباس ووهب وغيرهما كان ذلك السد بنته بلقيس وذلك أنهم كانوا يقتتلون على ماء واديهم فأمرت بواديهم فسد بالعرم وهو المسناة بلغة حمير فسدت بين الجبلين بالصخر والقار وجعلت له أبوابا ثلاثة بعضها فوق بعض ، وبنت من دونه بركة ضخمة وجعلت فيها اثنى عشر مخرجا على عدة أنهارهم يفتحونها إذا احتاجوا إلى الماء وإذا استغنوا سدوها فإذا جاء المطر اجتمع إليه ماء أودية اليمن فاحتبس السيل من وراء السد فأمرت بالباب الأعلى ففتح فجرى ماؤه فى البركة فكانوا يسقون من الباب الأعلى ثم من الثانى ثم من الثالث الأسفل فلا ينفد الماء حتى يثوب الماء من السنة المقبلة فكانت تقسمه بينهم على ذلك فبقوا على ذلك بعدها مدة فلما طغوا وكفروا سلط الله عليهم جرذا يسمى الخلد ، فنقب السد من أسفله فغرق الماء جناتهم وخرب أرضهم قال وهب وكان مما يزعمون ويجدون فى علمهم وكهانتهم أنه يخرب سدهم فارة فلم يتركوا فرجة

فى مسكنهم آية) عن فروة بن مسيك المرادى قال، لما أنزل فى سبأ ماانزل قال رجل يارسول الله : وما سبأ أرض أو امرأة قال ليس بأرض ولا امرأة ولكنه رجل ولد عشرة من العرب فتيامن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة فأما الذين تشاءموا فلخم وجذام وغسان وعاملة وأما الذين تيامنوا فالأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار فقال رجل يا رسول الله وما أنمار ؟ قال الذين منهم خثعم وبجيلة ، أخرجه الترمذى مع زيادة وقال حديث حسن غريب وسبأ هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان فى مسكنهم أى بما رب من أرض اليمن آية أى دلالة على وحدانيتنا وقدرتنا ثم فسر الآية فقال تعالى (جنتان) أي بستانان (عن يمين وشمال) يعنى عن يمين الوادى وشماله وقيل عن يمين من أتاهما وشماله وقيل كان لهم واد قد أحاطت به الجنتان (كلوا) أى قيل لهم كلوا (من رزق ربكم) أى من ثمار الجنتين قيل كانت المرأة تحمل مكتلها على رأسها وتمر بالجنتين فيمتلىء المكتل من أنواع الفواكه من غير أن تمس بيدها شيئا (واشكروا له) أى على مارزقكم من النعمة واعملوا بطاعته (بلدة طيبة) أى أرض مأرب وهى سبأ بلدة طيبة فسيحة ليست بسبخة وقيل لم يكن يرى فى بلدتهم بعوضة ولا ذباب ولا برغوث ولا حية ولا عقرب وكان الرجل يمر ببلدتهم وفى ثيابه القمل فيموت القمل من طيب الهواء (ورب غفور) قال وهب أى وربكم إن شكرتم على مارزقكم رب غفور لمن شكره . قوله عز وجل (فأعرضوا) قال وهب أرسل الله إليهم ثلاثة عشر نبيا فدعوهم إلى الله تعالى وذكروهم نعمه عليهم وأنذروهم عقابه فكذبوهم وقالوا مانعرف لله علينا نعمة فقولوا لربكم فليحبس هذه النعمة عنا إن استطاع فذلك اعراضهم (فأرسلنا عليهم سيل العرم) العرم الذى لايطاق قيل كان ماء أحمر أرسله الله تعالى عليهم من حيث شاء وقيل العرم السكر الذى يحبس الماء وقيل العرم الوادي قال ابن عباس ووهب وغيرهما كان لهم سد بنته بلقيس وذلك أنهم كانوا يقتتلون على ماء واديهم فأمرت بواديهم فسد بالصخر والقار بين الجبلين وجعلت لهم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض وبنت دونه بركة ضخمة وجعلت فيها اثنى عشر مخرجا

بين حجرين إلا ربطوا عندها هرة فلما جاء زمانه وما أراد الله عز وجل بهم من التغريق أقبلت فيما يذكرون فارة حمراء كبيرة إلي هرة من تلك الهرر فساورتها حتى استأخرت منها الهرة فدخلت فى الفرجة التى كانت عندها فتغلغلت فى السد فثقبت وحفرت حتى أوهنته للسيل وهم لايدرون بذلك فلما جاء السيل وجد خللا ، فدخل فيه حتى قطع السد وفاض على أموالهم فغرقها ودفن بيوتهم الرمل فتفرقوا وتمزقوا حتى صاروا مثلا عند العرب يقولون صار بنو فلان أيدى سبأ وأيادى سبأ ، أى تفرقوا وتبددوا فذلك قوله تعالي فأرسلنا عليهم سيل العرم (وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط) قرأ العامة بالتنوين وقرأ أهل البصرة أكل خمط بالإضافة (٢٨٨) والأكل الثمر والخمط الأراك وثمره يقال له البرير هذا قول أكثر المفسرين وقال المبرد والزجاج كل نبت قد أخذ طعما من المرارة حتى لا يمكن أكله هو خمط وقال ابن الأعرابى الخمط ثمر شجر يقال له فسوة الضبع على صورة الخشخاش يتفرك ولا ينتفع به فمن جعل الخمط اسما للمأكول فالتنوين فى أكل حسن ومن جعله أصلا وجعل الأكل ثمرة فالإضافة فيه ظاهرة والتنوين سائغ تقول العرب فى بستان فلان أعناب كرم يترجم عن الأعناب بالكرم لأنها منه (وأثل وشئ من سدر قليل) فالأثل هو الطرفاء وقيل هو شجر يشبه الطرفاء إلا أنه أعظم منه والسدر شجر النبق ينتفع بورقه لغسل اليد ويغرس فى البساتين ولم يكن هذا من ذلك بل كان سدرا بريا لاينتفع به ولا يصلح ورقه لشئ قال قتادة كان شجر القوم من خير الشجر فصيره الله من شر الشجر بأعمالهم (ذلك جزيناهم بما كفروا) أى ذلك الذى فعلنا بهم جزيناهم بكفرهم (وهل نجازى إلا الكفور) قرأ حمزة والكسائى وحفص ويعقوب وهل نجازى بالنون وكسر الزاى الكفور نصب لقوله ذلك جزيناهم وقرأ الآخرون بالياء وفتح الزاى الكفور رفع أى وهل يجازى مثل هذا الجزاء إلا الكفور وقال مجاهد يجازى أى يعاقب ويقال فى العقوبة يجازى وفى المثوبة يجزى قال مقاتل هل يكافأ بعمله السئ إلا الكفور لله فى نعمه قال الفراء المؤمن يجزى ولا يجازى أى يجزى الثواب بعمله ولا يكافأ بسيئاته (وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها) بالماء والشجر وهى قرى الشام (قرى ظاهرة) متواصلة تظهر الثانية من الأولى لقربها منها ؛ وكان متجرهم من اليمن إلى الشام فكانوا يبيتون بقرية

علي عدة أنهارهم يفتحونها إذا احتاجوا إلى الماء وإذا استغنوا عنه سدوها فإذا جاءهم المطر اجتمع إليهم ماء أودية اليمن فاحتبس السيل من وراء السد فأمرت بالباب الأعلى ففتح فجرى ماؤه إلي البركة فكانوا يسقون من الباب الأعلى ثم من الثانى ثم من الثالث الأسفل فلا ينفد الماء حتى يثوب الماء من السنة المقبلة فكانت تقسمه بينهم على ذلك فبقوا بعدها مدة فلما طغوا وكفروا سلط الله عليهم جرذا يسمى الخلد فنقب السد من أسفله فغرق الماء جنانهم وأخرب أرضهم وقال وهب رأوا فيما يزعمون ويجدون فى علمهم أن الذي يخرب سدهم فارة فلم يتركوا فرجة بين حجرين إلا ربطوا عندها هرة فلما جاء زمان ماأراد الله تعالى بهم من التغريق أقبلت فيما يذكرون فارة حمراء كبيرة إلى هرة من تلك الهرار فساورتها حتى استأخرت عنها الهرة فدخلت فى الفرجة التى كانت عندها فتغلغلت فى السد وحفرت حتى أوهنت المسيل وهم لايعلمون بذلك فلما جاء السيل وجد خللا فدخل منه حتى اقتلع السد وفاض الماء حتى علا أموالهم فغرقها ودفن بيوتهم الرمل فغرقوا ومزقوا كل ممزق حتى صاروا مثلا عند العرب يقولون ذهبوا أيدى سبا وتفرقوا أيادى سبا فذلك قوله تعالي فأرسلنا عليهم سيل العرم (وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط) قيل هو شجر الأراك وثمره البرير وقيل كل نبت أخذ طعما من المرارة حتى لايمكن أكله فهو خمط وقيل هو ثمر شجر يقال له فسوة الضبع على صور الخشخاش يتفرك ولا ينتفع به (وأثل) قيل هو الطرفاء وقيل شجر يشبه الطرفاء إلا أنه أعظم منه (وشىء من سدر قليل) هو شجر معروف ينتفع بورقه فى الغسل وثمره النبق ولم يكن السدر الذى بدلوه مما ينتفع به بل كان سدرا بريا لايصلح لشىء قيل كان شجر القوم من خير الشجر فصيره الله من شر الشجر بأعمالهم وهو قوله تعالى (ذلك جزيناهم بما كفروا) أى ذلك الذى فعلنا بهم جزاء كفرهم (وهل نجازى إلا الكفور) أى هل يكافأ بعمله إلا الكفور لله فى نعمه قيل المؤمن يجزى ولا يجزى يجازي بحسناته ولا يكافأ بسيئاته (وجعلنا بينهم وبين القري التى باركنا فيها) أى بالماء والشجر وهى قرى الشام (قري ظاهرة) أى متواصلة تظهر الثانية من الأولى لقربها منها قيل كان متجرهم من اليمن إلى الشام فكانوا يبيتون بقرية ويقيلون بأخري وكانوا لايحتاجون إلى حمل زاد من سبا إلى الشام وقيل كانت قراهم أربعة آلاف وسبعمائة قرية متصلة من سبأ

إلى

ويقيلون بأخرى وكانوا لايحتاجون إلي حمل زاد من سبأ إلى الشام وقيل كانت قراهم أربعة آلاف وسبعمائة قرية متصلة من سبأ إلى الشام (وقدرنا فيها السير) أى قدرنا سيرهم بين هذه القرى وكان مسيرهم فى الغدو الرواح على قدر نصف يوم فإذا ساروا نصف يوم وصلوا إلى قرية ذات مياه وأشجار وقال قتادة كانت المرأة تخرج ومعها مغزلها ؛ وعلى رأسها مكتلها فتمتهن بمغزلها فلا تأتى بيتها حتى يمتلىء مكتلها من الثمار وكان مابين اليمن والشام كذلك (سيروا فيها) أى وقلنا لهم سيروا فيها وقيل هو أمر بمعنى الخبر أى مكناهم من السير فكانوا يسيرون فيها (ليالى وأياما) أى بالليالى والأيام أي وقت شئتم (آمنين) لاتخافون عدوا ولا جوعا ولا عطشا فبطروا وطغوا ولم يصبروا على العافية ، وقالوا لو كانت جناتنا أبعد مما هى كان أجدر أن نشتهيه (فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا) فاجعل بيننا وبين الشام فلوات ومفاوز لنركب فيها الرواحل ونتزود الأزواد فعجل الله لهم الإجابة وقال مجاهد بطروا النعمة وسئموا الراحة قرأ ابن كثير وأبو عمرو بعد بالتشديد من التبعيد وقرأ الآخرون باعد بالألف وكل على وجه الدعاء والسؤال وقرأ يعقوب ربنا برفع الباء باعد بفتح (٢٨٩) العين والدال على الخبر كأنهم استبعدوا أسفارهم القريبة بطروا وأشروا (وظلموا أنفسهم) بالبطر والطغيان قوله تعالي (فجعلناهم أحاديث) عبرة لمن بعدهم يتحدثون بأمرهم وشأنهم (ومزقناهم كل ممزق) فرقناهم فى كل وجه من البلاد كل التفريق قال الشعبى لما غرقت قراهم تفرقوا فى البلاد أما غسان فلحقوا بالشام ومر الأزد إلى عمان وخزاعة إلي تهامة ومر آل خزيمة إلي العراق والأوس والخزرج إلى يثرب وكان الذى قدم منهم المدينة عمرو بن عامر وهو جد الأوس

(٣٧ — خازن بالبغوى — خامس) والخزرج (إن فى ذلك لآيات) لعبرا ودلالات (لكل صبار) عن معاصى الله (شكور) لأنعمه قال مقاتل يعنى المؤمن من هذه الأمة صبور على البلاء شاكر للنعماء قال مطرف هو المؤمن إذا أعطى شكر وإذا ابتلى صبر قوله تعالى (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه) قرأ أهل الكوفة صدق بالتشديد أى ظن فيهم ظنا حيث قال : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين» ولاتجد أكثرهم شاكرين فصدق ظنه وحققه بفعله ذلك بهم واتباعهم إياه وقرأ الآخرون بالتخفيف أى صدق عليهم فى ظنه بهم أى على أهل سبأ وقال مجاهد على الناس كلهم إلا من أطاع الله (فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين) قال السدى عن ابن عباس يعنى المؤمنين كلهم لأن المؤمنين لم يتبعوه في أصل الدين وقد قال الله تعالي «إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » يعنى المؤمنين وقيل هو خاص بالمؤمنين الذين يطيعون الله ولا يعصونه قال ابن قتيبة إن إبليس لما سأل النظرة فأنظره الله « قال لأغوينهم أجمعين» ولأضلنهم لم يكن مستيقنا وقت هذه المقالة أن ماقاله فيهم يتم وإنما قاله ظنا فيهم ، فلما اتبعوه وأطاعوه صدق عليهم ماظنه فيهم قال الحسن إنه لم يسل عليهم سيفا ولاضربهم بسوط وإنما وعدهم ومناهم فاغتروا قال

إلى الشام (وقدرنا فيها السير) أى قدرنا سيرهم بين هذه القرى فكان سيرهم فى الغدو والرواح على قدر نصف يوم فإذا ساروا نصف يوم وصلوا إلى قرية ذات مياه وأشجار فكان مابين اليمن والشام كذلك (سيروا) أي وقلنا لهم سيروا (فيها ليالي وأياما) أى فى أي وقت شئتم (آمنين) أى لاتخافون عدوا ولا جوعا ولا عطشا فبطروا النعمة وسئموا الراحة وطغوا ولم يصبروا على العافية فقالوا لو كانت جناتنا أبعد مما هى كان أجدر أن نشتهيها وطلبوا الكد والتعب فى الأسفار (فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا) وقرئ باعد بين أسفارنا أي اجعل بيننا وبين الشام مفاوز وفلوات لنركب فيها الرواحل ونتزود الأزواد فلما تمنوا ذلك عجل الله لهم الإجابة (وظلموا أنفسهم) أى بالبطر والطغيان (فجعلناهم أحاديث) أى عبرة لمن بعدهم يتحدثون بأمرهم وشأنهم (ومزقناهم كل ممزق) أي فرقناهم فى كل وجه من البلاد كل التفريق قيل لما غرقت قراهم تفرقوا فى البلاد فأما غسان فلحقوا بالشام ومر الأزد إلى عمان وخزاعة إلي تهامة ومر الأوس والخزرج إلي يثرب ، وكان الذي قدم منهم المدينة عمرو بن عامر وهو جد الأوس والخزرج ولحق آل خزيمة بالعراق (إن فى ذلك لآيات) أي لعبراً ودلالات (لكل صبار) أى عن المعاصى (شكور) أى لله على نعمه قيل المؤمن صابر على البلاء شاكر للنعماء وقيل المؤمن إذا أعطى شكر وإذا ابتلى صبر . قوله عز وجل (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه) قيل على أهل سبأ وقيل على الناس كلهم (فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين) قال ابن عباس رضى الله عنهما يعنى المؤمنين كلهم لأنهم لم يتبعوه فى أصل الدين وقيل هو خاص بالمؤمنين الذين يطيعون الله ولا يعصونه قال ابن قتيبة إن إبليس لما سأل النظرة فأنظره الله قال لأغوينهم ولأضلنهم ولم يكن مستيقنا وقت هذه المقالة

الله تعالى (وما كان له عليهم من سلطان) أى ما كان تسليطنا إياه عليهم (إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك) أى إلا لنعلم أى لنرى ونميز المؤمن من الكافر وأراد علم الوقوع والظهور وقد كان معلوما عنده بالغيب (وربك على كل شىء حفيظ) رقيب (قل) يامحمد لكفار مكة (ادعوا الذين زعمتم) أنهم آلهة (من دون الله) وفي الآية حذف أى ادعوهم ليكشفوا الضر الذى نزل بكم في سنى الجوع ثم وصفها فقال (لايملكون مثقال ذرة في السموات ولا فى الأرض) من خير وشر ونفع وضر (ومالهم) أى للآلهة (فيهما) في السموات والأرض (من شرك) من شركة (وماله) أى ومالله (منهم من ظهير) عون (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن (٢٩٠) أذن له) الله فى الشفاعة قاله تكذيبا لهم حيث قالوا هؤلاء شفعاؤنا عندالله ويجوز أن يكون المعنى إلا لمن أذن الله له أن يشفع له وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى أذن بضم الهمزة (حتى إذا فزع عن قلوبهم) قرأ ابن عامر ويعقوب بفتح الفاء والزاى وقرأ الآخرون بضم الفاء وكسر الزاى أى كشف الفزع وأخرج عن قلوبهم فالتفزيع إزالة الفزع كالتمريض والتفريد واختلفوا فى الموصوفين بهذه الصفة فقال قوم هم الملائكة ثم اختلفوا فى ذلك السبب فقال بعضهم إنما يفزع عن قلوبهم من غشية تصيبهم عند سماع كلام الله عز وجل . وروينا عن أبى هريرة أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان» فإذا فزع عن قلوبهم (قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير) أخبرنا أبو سعيد الشريحى أنا أبو إسحاق الثعلبى قال أنبأنى محمد بن الفضل بن محمد . أنا أبو بكر محمد ابن إسحاق بن خزيمة أنا زكريا بن يحيى بن أبان المصرى أنا نعيم بن حماد أنا أبو الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن يزيد ابن جابر عن ابن أبى زكريا عن رجاء بن حيوة عن النواس بن سمعان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا أراد الله أن يوحى بالأمر تكلم بالوحى أخذت السموات منه رجفة أو قال رعدة شديدة خوفا من الله تعالى فاذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدا فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد ثم يمر جبريل على الملائكة كلما

أن ماقاله فيهم يتم وإنما قاله ظنا فلما اتبعوه وأطاعوه صدق عليهم ماظنه فيهم وقال الحسن إنه لم يسل عليهم سيفا ولاضربهم بسوط إنما وعدهم ومناهم فاغتروا (وما كان له عليهم من سلطان) يعنى ما كان تسليطنا إياه عليهم (إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك) يعنى لنرى ونميز المؤمن من الكافر وأراد علم الوقوع والظهور إذ كان معلوما عنده لأنه عالم الغيب (وربك على كل شىء حفيظ) يعنى رقيب وقيل حفيظ بمعنى حافظ . قوله تعالى (قل) يعنى قل يامحمد لكفار مكة (ادعوا الذين زعمتم) يعنى أنهم آلهة (من دون الله) والمعنى ادعوهم ليكشفوا عنكم الضر الذى نزل بكم فى سنى الجوع ثم وصف عجز الآلهة فقال تعالى (لايملكون مثقال ذرة فى السموات ولافى الأرض) يعنى من خيروشر ونفع وضر (وما لهم) يعنى للآلهة (فيهما) يعنى فى السموات والأرض (من شرك) يعنى من شركة (وما له) يعنى لله (منهم) يعنى من الآلهة (من ظهير) عون (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) يعنى أذن الله له فى الشفاعة قاله تكذيبا للكفار حيث قالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله وقيل يجوز أن يكون المعنى إلا لمن أذن الله فى أن يشفع له (حتى إذا فزع عن قلوبهم) معناه كشف الفزع وأخرج عن قلوبهم قيل هم الملائكة وسبب ذلك من غشية تصيبهم عند سماع كلام الله تعالى (خ) عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها» فإذا فزع عن قلوبهم (قالوا ماذا قال ربكم قالوا) الذي قال (الحق وهو العلى الكبير) وللترمذى «إذا قضى الله فى السماء أمرا ضربت الملائكة بأجنحتها خضعا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير» قال الترمذى حديث حسن صحيح قوله خضعا جمع خاضع وهو المنقاد المطمئن والصفوان الحجر الأملس عن ابن مسعود رضى الله عنه قال «إذا تكلم الله بالوحى سمع أهل السموات صلصلة كجر السلسلة على الصفاة فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل فإذا جاء فزع عن قلوبهم فيقولون ياجبريل ماذا قال ربك فيقول الحق فيقولون الحق» أخرجه أبو داود . الصلصلة صوت الأجراس الصلبة بعضها على بعض وقيل إنما يفزعون حذرا من قيام الساعة قيل كانت الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام خمسمائة سنة أو ستمائة لم تسمع الملائكة فيها صوت وحى فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم كلم جبريل بالرسالة إلى محمد صلى الله عليه وسلم فلما سمعت الملائكة ظنوا أنها

من على سماء سأله ملائكتها ماذا قال ربنا ياجبريل فيقول جبريل قال الحق وهو العلى الكبير قال فيقولون كلهم مثل ماقال جبريل فينتهى جبريل بالوحى حيث أمره الله» وقال بعضهم إنما يفزعون حذرا من قيام الساعة قال مقاتل والكلبى والسدى كانت الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام خمسمائة وخمسين سنة وقيل ستمائة سنة لم تسمع الملائكة فيها وحيا فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم كلم جبريل عليه السلام بالرسالة إلى محمد صلى الله عليه وسلم فلما سمعت الملائكة ظنوا أنها الساعة لأن محمدا صلى الله عليه وسلم عند أهل السموات بعثته من أشراط الساعة فصعقوا مما سمعوا خوفا من قيام الساعة فلما انحدر جبريل جعل يمر بأهل كل سماء فيكشف عنهم فيرفعون رؤوسهم ويقول (٢٩١) بعضهم لبعض ماذا قال ربكم قالوا قال الحق يعنى الوحى وهو العلى الكبير وقال جماعة الموصوفون بذلك المشركون . قال الحسن وابن زيد حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين عند نزول الموت بهم إقامة للحجة عليهم قالت لهم الملائكة ماذا قال ربكم فى الدنيا قالوا الحق فأقروا به حين لا ينفعهم الإقرار . قوله تعالى (قل من يرزقكم من السموات والأرض) فالرزق من السموات المطر ومن الأرض النبات (قل الله) أى إن لم يقولوا رازقنا الله فقل أنت إن رازقكم هو الله (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) ليس هذا على طريق الشك ولكن على جهة الإنصاف فى الحجاج كما يقول القائل للآخر أحدنا كاذب وهو يعلم أنه صادق وصاحبه كاذب والمعنى مانحن وأنتم على أمر واحد بل أحد الفريقين مهتد والآخر ضال . فالنبى صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه على الهدى ومن خالفه فى ضلال فكذبهم من غير أن صرح بالتكذيب وقال بعضهم أو بمعنى الواو والألف فيه صلة كأنه قال وإنا وإياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين يعنى نحن على الهدى وأنتم فى الضلال (قل لاتسئلون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون قل يجمع بيننا ربنا) يعنى يوم القيامة (ثم يفتح) يقضى (بيننا بالحق وهو الفتاح العليم قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء) أى أعلمونى الذين ألحقتموهم به أى بالله شركاء فى العبادة معه هل يخلقون وهل يرزقون (كلا) لايخلقون ولا يرزقون (بل هو الله العزيز) الغالب على أمره (الحكيم) فى تدبيره لخلقه فأنى يكون له شريك فى ملكه قوله عز وجل (وما أرسلناك إلا كافة للناس)

أنها الساعة لأن محمدا صلى الله عليه وسلم عند أهل السموات من أشراط الساعة فصعقوا مما سمعوا خوفا من قيام الساعة فلما انحدر جبريل جعل يمر بأهل كل سماء فيكشف عنهم فيرفعون رؤوسهم ويقول بعضهم لبعض ماذا قال ربكم قالوا قال الحق يعنى الوحى وهو العلى الكبير وقيل الموصوفون بذلك هم المشركون وقيل إذا كشف الفزع عن قلوبهم عند نزول الموت قالت الملائكة لهم ماذا قال ربكم فى الدنيا لإقامة الحجة عليهم قالوا الحق فأقروا به حين لم ينفعهم الإقرار وهو العلى الكبير أى ذو العلو والكبرياء . قوله عز وجل (قل من يرزقكم من السموات والأرض) يعنى المطر والنبات (قل الله) يعنى إن لم يقولوا إن رزاقنا هو الله فقل أنت إن رازقكم هو الله (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) معناه مانحن وأنتم على أمر واحد بل أحد الفريقين مهتد والآخر ضال وهذا ليس على طريق الشك بل جهة الالزام والانصاف فى الحجاج كما يقول القائل أحدنا كاذب وهو يعلم أنه صادق وصاحبه كاذب فالنبى صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه على الهدى ومن خالفه فى ضلال فكذبهم من غير أن يصرح بالتكذيب ومنه بيت حسان:

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء

وقيل أو بمعنى الواو، ومعنى الآية إنا لعلى هدى وإنكم لفى ضلال مبين (قل لاتسئلون عما أجرمنا) أى لاتؤاخذون به (ولا نسئل عما تعملون) أى من الكفر والتكذيب وقيل أراد بالإجرام الصغائر والزلات التى لايخلو منها مؤمن وبالعمل الكفر والمعاصى العظام (قل يجمع بيننا ربنا) أى يوم القيامة (ثم يفتح) يعنى يقضى ويحكم (بيننا بالحق) يعنى بالعدل (وهو الفتاح) يعنى القاضى (العليم) يعنى بما يقضى (قل أرونى) أعلمونى (الذين ألحقتم به) يعنى بالله (شركاء) يعنى الأصنام التى أشركوها معه فى العبادة هل يخلقون أو يرزقون وأراد بذلك أن يريهم الخطأ العظيم فى إلحاق الشركاء بالله (كلا) كلمة ردع لهم عن مذهبهم والمعنى ارتدعوا فإنهم لايخلقون ولا يرزقون (بل هو الله العزيز) أى الغالب على أمره (الحكيم) أى فى تدبير خلقه فأنى يكون له شريك فى ملكه . قوله عز وجل (وما أرسلناك إلا كافة للناس) يعنى للناس كلهم عامة

يعني للناس أحمرهم وأسودهم (بشيرا ونذيرا) أي مبشرا ومنذرا (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وروينا عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «كان النبي يبعث إلي قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» وقيل كافة أي كافا يكفهم عما هم عليه من الكفر والهاء للمبالغة (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) يعني القيامة (قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون) أي (٢٩٢) لاتتقدمون عليه يعني يوم القيامة وقال الضحاك يوم الموت لاتتأخرون عنه ولا تتقدمون بأن يزاد في أجلكم أو ينقص منه (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه) يعني التوراة والإنجيل (ولو ترى) يامحمد (إذ الظالمون موقوفون) محبوسون (عند ربهم يرجع بعضهم إلي بعض القول) يرد بعضهم إلي بعض القول في الجدال (يقول الذين استضعفوا) استحقروا وهم الأتباع (للذين استكبروا) وهم القادة والأشراف (لولا أنتم لكنا مؤمنين) أي أنتم منعتمونا عن الإيمان بالله ورسوله (قال الذين استكبروا) أجابهم المتبوعون في الكفر (للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين) بترك الإيمان (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار) أي مكركم بنا في الليل والنهار والعرب تضيف الفعل إلى الليل والنهار على توسع الكلام كما قال الشاعر:

* ونمت وما ليل المطي بنائم *

وقيل مكر الليل والنهار هو طول السلامة وطول الأمل فيهما كقوله تعالي «فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم» (إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا) وأظهروا (الندامة) وقيل أخفوا وهو من الأضداد (لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا) في النار الأتباع والمتبوعين جميعا (هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) من الكفر والمعاصي في الدنيا (وما أرسلنا في قرية

أحمرهم وأسودهم عربهم وعجمهم وقيل الرسالة عامة لهم لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد (ق) عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة». في الحديث بيان الفضائل التي خص الله بها نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم دون سائر الأنبياء وأن هذه الخمسة لم تكن لأحد ممن كان قبله من الأنبياء وفيه اختصاصه بالرسالة العامة لكافة الخلق الإنس والجن وكان النبي قبله يبعث إلى قومه أو إلي أهل بلده فعمت رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم جميع الخلق وهذه درجة خص بها دون سائر الأنبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام وقيل في معنى كافة أي كافا تكفهم عما هم عليه من الكفر فتكون الهاء للمبالغة (بشيرا) أي لمن آمن بالجنة (ونذيرا) أي لمن كفر بالنار (ولكن أكثر الناس لايعلمون ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) يعني يوم القيامة (قل لكم ميعاد يوم لاتستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون) معناه لاتتقدمون على يوم القيامة وقيل عن يوم الموت ولا تتأخرون عنه بأن يزاد في آجالهم أو ينقص منها (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه) يعني التوراة والإنجيل (ولو ترى) أي يامحمد (إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول) معناه ولو ترى في الآخرة موقفهم وهم يتجاذبون أطراف المحاورة ويتراجعونها بينهم لرأيت العجب (يقول الذين استضعفوا) وهم الأتباع (للذين استكبروا) وهم القادة والأشراف (لولا أنتم لكنا مؤمنين) يعني أنتم منعتمونا عن الإيمان بالله ورسوله (قال الذين استكبروا) أي أجاب المتبوعون في الكفر (للذين استضعفوا أنحن صددناكم) أي منعناكم (عن الهدى) أي عن الإيمان (بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين) أي بترك الإيمان (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار) أي مكركم بنا في الليل والنهار وقيل مكر الليل والنهار هو طول السلامة في الدنيا وطول الأمل فيها (إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا) أي هو قول القادة للأتباع إن ديننا الحق وإن محمدا كذاب ساحر وهذا تنبيه للكفار أن تصير طاعة بعضهم لبعض في الدنيا سبب عداوتهم في الآخرة (وأسروا الندامة) أي أظهروها وقيل أخفوها وهو من الأضداد (لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا) أي في النار الأتباع والمتبوعين جميعا (هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) أي من الكفر والمعاصي في الدنيا. قوله عز وجل (وما أرسلنا

فى قرية من نذير إلا قال مترفوها) رؤساؤها وأغنياؤها (إنا بما أرسلتم به كافرون وقالوا) يعنى قال المترفون للفقراء الذين آمنوا (نحن أكثر أموالا وأولادا) ولو لم يكن الله راضيا بما نحن عليه من الدين والعمل لم يخولنا الأموال والأولاد (وما نحن بمعذبين) أى إن الله أحسن إلينا فى الدنيا بالمال والولد فلا يعذبنا (قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) يعنى أن الله يبسط الرزق ويقدر ابتلاء وامتحانا لايدل البسط على رضا الله عنه ولا التضييق على سخطه (ولكن أكثر الناس لايعلمون) أنها كذلك (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى) أى قربى قال الأخفش قربى اسم مصدر ؛ كأنه قال بالتى تقربكم عندنا تقريبا (إلا من آمن) يعنى لكن من آمن (وعمل صالحا) قال ابن عباس يريد إيمانه وعمله يقربه منى (فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا) أي يضعف الله لهم حسناتهم فيجزي بالحسنة الواحدة عشرا **(٢٩٣)** إلي سبعمائة قرأ يعقوب جزاء منصوبا منونا الضعف رفع تقديره لهم الضعف جزاء وقرأ العامة بالإضافة (وهم فى الغرفات آمنون) قرأ حمزة فى الغرفة على واحدة وقرأ الآخرون بالجمع لقوله لنبوأنهم من الجنة غرفا (والذين يسعون) يعملون (فى آياتنا) فى إبطال حجتنا (معاجزين) معاندين يحسبون أنهم يعجزوننا ويفوتوننا (أولئك فى العذاب محضرون قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه) يعنى يعطى خلفه قال سعيد بن جبير ما كان فى غير إسراف ولا تقتير فهو يخلفه وقال الكلبى ما تصدقتم من صدقة وأنفقتم فى الخير من نفقة فهو يخلفه على المنفق إما أن يعجله فى الدنيا وإما أن يدخره له فى الآخرة (وهو خير الرازقين) خير من يعطى ويرزق . ورويناعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «قال الله تعالى أنفق ياابن آدم أنفق عليك» أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل ثنا إسماعيل ثنا أبى عن سليمان هو ابن بلال عن معاوية بن أبى مزرد عن أبى الحبحاب عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «مامن يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا» أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الريانى أنا حميد بن زنجويه أنا ابن أبى أويس أنا عبد العزيز بن محمد عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «مانقصت صدقة من مال

فى قرية من نذير إلا قال مترفوها) أى رؤساؤها وأغنياؤها (إنا بما أرسلتم به كافرون وقالوا) يعنى المترفين والأغنياء للفقراء الذين آمنوا (نحن أكثر أموالا وأولادا) يعني لو لم يكن الله راضيا بما نحن عليه من الدين والعمل الصالح لم يخولنا أموالا ولا أولادا (وما نحن بمعذبين) أى إن الله قد أحسن إلينا فى الدنيا بالمال والولد فلا يعذبنا فى الآخرة (قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) يعنى أنه تعالى يبسط الرزق ابتلاء وامتحانا ولا يدل البسط على رضا الله تعالى ولا التضييق على سخطه (ولكن أكثر الناس لايعلمون) أى إنها كذلك (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى) أى بالتى تقربكم عندنا تقريبا (إلا) أى لكن (من آمن وعمل صالحا) قال ابن عباس يريد إيمانه وعلمه يقربه منى (فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا) أى يضعف الله لهم حسناتهم فيجزى بالحسنة الواحدة عشر إلى سبعمائة (وهم فى الغرفات آمنون والذين يسعون فى آياتنا) أى يعملون فى إبطال حججنا (معاجزين) أى معاندين يحسبون أنهم يعجزوننا ويفوتوننا (أولئك فى العذاب محضرون) . قوله عز وجل (قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه) أى يعطى خلفه إذا كان فى غير إسراف ولا تقتير فهو يخلفه ويعوضه لامعوض سواه إما عاجلا بالمال أو بالقناعة التى هى كنز لاينفد وإما بالثواب فى الآخرة الذى كل خلف دونه وقيل ما تصدقتم من صدقة وأنفقتم من خير فهو يخلفه على المنفق قال مجاهد من كان عنده من هذا المال مايقيمه فليقتصد فإن الرزق مقسوم ولعل ماقسم له قليل وهو ينفق نفقة الموسع عليه فينفق جميع مافى يده ثم يبقى طول عمره فى فقره ولا يتأولن وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه فإن هذا فى الآخرة ومعنى الآية ما كان من خلف فهو منه (ق) عن ابن هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «قال الله تبارك وتعالى : أنفق ينفق عليك» ولمسلم «يا ابن آدم أنفق أنفق عليك» (ق) عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مامن يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان يقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا (م) عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» (وهو خير الرازقين) أى خير من يعطى ويرزق لأن

وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أبو منصور السمعانى أنا أبو جعفر الريانى أنا حميد بن زنجويه أنا أبو الربيع أنا عبد الحميد ابن الحسن الهلالى أنا محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة وما وقى الرجل به عرضه كتب له به صدقة» قلت ما يعنى ماوقى الرجل به عرضه قال ما أعطى الشاعر وذا اللسان للتقى وما أنفق المؤمن من نفقة فعلى الله خلفها ضامنا إلا ما كان من نفقة فى بنيان أو فى معصية الله عز وجل قوله قلت ما يعنى يقول عبدا لحميد لمحمد بن المنكدر قال مجاهد إذا كان فى يد أحدكم شئ فليقتصد ولا يتأول هذه الآية وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه فان الرزق مقسوم لعل رزقه قليل وهو ينفق نفقة الموسع عليه ومعنى الآية وما كان من خلف فهو منه قوله تعالى (ويوم نحشرهم) قرأ يعقوب وحفص (٢٩٤) يحشرهم ويقول بالياء فيهما وقرأ الآخرون بالنون (جميعا) يعنى هؤلاء الكفار (ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) فى الدنيا قال قتادة هذا استفهام تقرير كقوله تعالى لعيسى «أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله» فتتبرأ منهم الملائكة (قالوا سبحانك) تنزيها لك (أنت ولينا من دونهم) أى نحن نتولاك ولا نتولاهم (بل كانوا يعبدون الجن) يعنى الشياطين فان قيل هم كانوا يعبدون الملائكة فكيف وجه قوله يعبدون الجن . قيل أراد الشياطين زينوا لهم عبادة الملائكة فهم كانوا يطيعون الشياطين فى عبادة الملائكة فقوله يعبدن أي يطيعون الجن (أكثرهم بهم مؤمنون) يعنى مصدقون للشياطين ثم يقول الله (فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا) بالشفاعة (ولا ضرا) بالعذاب يريد أنهم عاجزون لا نفع عندهم ولا ضر (ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ماهذا) يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم (إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ماهذا إلا إفك مفترى) يعنون القرآن (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) أى بين (وما آتيناهم) يعنى هؤلاء المشركين (من كتب يدرسونها) يقرءونها (وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير) أى لم يأت العرب قبلك نبي ولا نزل عليهم كتاب (وكذب الذين من قبلهم) من الأمم رسلنا وهم عاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وغيرهم (وما بلغوا) يعنى هؤلاء المشركين (معشار) أي عشر (ما آتيناهم) أى أعطينا الأمم الخالية من القوة والنعمة وطول العمر (فكذبوا رسلى فكيف كان نكير) أى إنكارى وتغييرى عليهم يحذر كفار هذه الأمة عذاب الأمم الماضية (قل إنما أعظكم) آمركم وأوصيكم (بواحدة) أى بخصلة واحدة ثم بين تلك الخصلة

كل ما رزق غيره من سلطان يرزق جنده أو سيد يرزق مملوكه أو رجل يرزق عياله فهو من رزق الله أجراه الله على أيدى هؤلاء وهو الرزاق الحقيقى الذى لا رازق سواه . قوله تعالى (ويوم نحشرهم جميعا) يعنى هؤلاء الكفار (ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) أى فى الدنيا وهذا استفهام تقريع وتقرير للكفار فتتبرأ الملائكة منهم من ذلك وهو قوله تعالى (قالوا سبحانك) أى تنزيها لك (أنت ولينا من دونهم) أى نحن نتولاك ولا نتولاهم فبينوا بإثبات موالاة الله ومعاداة الكفار براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم (بل كانوا يعبدون الجن) يعنى الشياطين . فان قلت قد عبدوا الملائكة فكيف وجه قوله بل كانوا يعبدون الجن . قلت أراد أن الشياطين زينوا لهم عبادة الملائكة فأطاعوهم فى ذلك فكانت طاعتهم للشياطين عبادة لهم وقيل صوروا لهم صورا وقالوا لهم هذه صور الملائكة فاعبدوها فعبدوها وقيل كانوا يدخلون فى أجواف الأصنام فيعبدون بعبادتها (أكثرهم بهم مؤمنون) يعنى مصدقون للشياطين قال الله تعالى (فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا) أى شفاعة (ولا ضرا) أى بالعذاب يريد أنهم عاجزون ولا نفع عندهم ولا ضر (ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ماهذا إلا رجل) يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم (يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ماهذا إلا إفك مفترى) يعنون القرآن (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين وما آتيناهم) يعنى هؤلاء المشركين (من كتب يدرسونها) أى يقرءونها (وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير) أى لم يأت العرب قبلك نبى ولا أنزل إليهم كتاب (وكذب الذين من قبلهم) أى من الأمم السالفة رسلنا (وما بلغوا) يعنى هؤلاء المشركين (معشار) أى عشر (ما آتيناهم) أي أعطينا الأمم الخالية من القوة والنعمة وطول الأعمار (فكذبوا رسلى فكيف كان نكير) أي إنكاري عليهم يحذر بذلك كفار هذه الأمة عذاب الأمم الماضية . قوله عز وجل (قل إنما أعظكم) أى آمركم وأوصيكم (بواحدة) أى بخصلة واحدة ثم بين تلك

فقال (أن تقوموا لله) أى لأجل الله (مثنى) أى اثنين اثنين (وفرادى) أى واحدا واحدا (ثم تتفكروا) جميعا أى تجتمعون فتنظرون وتتحاورون وتتفردون فتتفكرون فى حال محمد صلى الله عليه وسلم فتعلموا (مابصاحبكم من جنة) أى جنون وليس المراد من القيام القيام الذى هو ضد الجلوس وإنما هو قيام بالأمر الذى هو فى طلب الحق كقوله «وأن تقوموا لليتامى بالقسط» (إن هو) ماهو (إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد) قال مقاتل تم الكلام عند قوله ثم تتفكروا أى فى خلق السموات والأرض فتعلموا أن خالقها واحد لاشريك له ثم ابتدأ فقال مابصاحبكم (٢٩٥) من جنة (قل ماسألتكم) على تبليغ الرسالة (من أجر) جعل (فهو لكم) يقول قل لاأسألكم على تبليغ الرسالة أجرا فتتهمونى ومعنى قوله فهو لكم أى لم أسألكم شيئا كقول القائل مالى من هذا فقد وهبته لك يريد ليس لي فيه شيء (إن أجرى) ما ثوابي (إلا على الله وهو على كل شيء شهيد قل إن ربى يقذف بالحق) والقذف الرمى بالسهم والحصى والكلام ومعناه يأتى بالحق وبالوحى ينزله من السماء فيقذفه إلى الأنبياء (علام الغيوب) رفع بخبر إن أى وهو علام الغيوب (قل جاء الحق) يعنى القرآن والإسلام (وما يبدئ الباطل وما يعيد) أى ذهب الباطل وزهق فلم يبق منه بقية يبدئ شيئا أو يعيد كما قال تعالى «بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه» وقال قتادة الباطل هو إبليس أى ما يخلق أحدا ابتداء ولا يبعثه وهو قول مقاتل والكلبى وقيل الباطل الأصنام (قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى) وذلك أن كفار مكة كانوا يقولون له إنك قد ضللت حين تركت دين آبائك فقال الله تعالى «قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى» أى إثم ضلالتى على نفسى (وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربي) من القرآن والحكمة (إنه سميع قريب ولو ترى إذ فزعوا) قال قتادة عند البعث حين يخرجون من قبورهم (فلا فوت) أى فلا يفوتوننى كما قال «ولات حين مناص» وقيل إذ فزعوا فلا فوت ولا نجاة (وأخذوا من مكان قريب) قال الكلبى من تحت أقدامهم وقيل أخذوا من بطن الأرض إلى ظهرها وحيثما كانوا فهم من الله قريب

الحصلة فقال تعالى (أن تقوموا لله) أى لأجل الله (مثنى) أي اثنين اثنين (وفرادي) أي واحدا واحدا (ثم تتفكروا) أي تجتمعوا جميعا فتنظروا وتتحاوروا وتتفكروا فى حال محمد صلى الله عليه وسلم فتعلموا أن (مابصاحبكم من جنة) ومعنى الآية إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم وهى أن تقوموا لله وليس المراد به القيام على القدمين ولكن هو الانتصاب فى الأمر والنهوض فيه بالهمة فتقوموا لوجه الله خالصا ثم تتفكروا فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وماجاء به أما الاثنان فيتفكران ويعرض كل منهما محصول فكره على صاحبه لينظرا فيه نظر متصادقين متناصفين لا يميل بهما اتباع الهوى وأما الفرد فيفكر فى نفسه أيضا بعدل ونصفة هل رأينا فى هذا الرجل جنونا قط أو جربنا عليه كذبا قط وقد علمتم أن محمدا صلى الله عليه وسلم مابه من جنة بل قد علمتم أنه من أرجح قريش عقلا وأوزنهم حلما وأحدهم ذهنا وأرصنهم رأيا وأصدقهم قولا وأزكاهم نفسا وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال ويمدحونه به وإذا علمتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بآية وإذا جاء بها تبين أنه نبى نذير مبين صادق فيما جاء به وقيل تم الكلام عند قوله ثم تتفكروا أى فى السموات والأرض فتعلموا أنه خالقها واحد لاشريك له ثم ابتدأ فقال مابصاحبكم من جنة (إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد قل ماسألتكم) أى على تبليغ الرسالة (من أجر) أى جعل (فهو لكم) أى لم أسألكم شيئا (إن أجرى) أى ثوابى (إلا على الله وهو على كل شيء شهيد قل إن ربى يقذف بالحق) أى يأتى بالوحى من السماء فيقذفه إلى الأنبياء (علام الغيوب) أى خفيات الأمور (قل جاء الحق) أى القرآن والإسلام (وما يبدئ الباطل وما يعيد) أى ذهب الباطل وزهق فلم تبق منه بقية تبدئ شيئا أو تعيده وقيل الباطل هو إبليس والمعنى لا يخلق إبليس أحدا ابتداء ولا يبعثه إذا مات وقيل الباطل الأصنام (قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى) وذلك أن كفار مكة كانوا يقولون له إنك قد ضللت حين تركت دين آبائك فقال الله تعالى قل إن ضللت فيما تزعمون أنتم فإنما أضل على نفسى أى إثم ضلالتى على نفسى (وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى) أى من القرآن والحكمة (إنه سميع قريب) قوله عز وجل (ولو ترى) أى يا محمد (إذ فزعوا) أي عند البعث أى حين يخرجون من قبورهم وقيل عند الموت (فلا فوت) أى لا يفوتوننا ولا نجاة لهم (وأخذوا من مكان قريب) قيل من تحت أقدامهم وقيل أخذوا من بطن الأرض إلى ظهرها وحيثما كانوا فانهم من الله قريب لا يفوتونه ولا يعجزونه وقيل من مكان قريب يعنى عذاب الدنيا وهو القتل

لايفوتونه وقيل من كان قريب يعنى عذاب الدنيا وقال الضحاك يوم بدر وقال ابن أبزى خسف بالبيداء وفى الآية حذف تقديره ولو ترى إذ فزعوا لرأيت أمرا تعتبر به (وقالوا آمنا به) حين عاينوا العذاب قيل عند اليأس وقيل عند البعث (وأنى) من أين (لهم التناوش) قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى وأبو بكر التناؤش بالمد والهمزة وقرأ الآخرون بواو صافية من غير مد ولا همز ومعناه التناول أى كيف لهم تناول مابعد عنهم وهو الإيمان والتوبة وقد كان قريبا فى الدنيا فضيعوه . ومن همز قيل معناه هذا أيضا وقيل التناؤش بالهمزة من النيش وهو حركة فى إبطاء يقال جاء نيشا أى مبطئا متأخرا والمعنى من أين لهم الحركة فيما لاحيلة لهم فيه وعن ابن عباس قال يسألون الرد إلى الدنيا فيقال وأنى لهم الرد إلى الدنيا (من مكان بعيد) أى من الآخرة إلى الدنيا (وقد كفروا به من قبل) أى بالقرآن وقيل بمحمد صلى الله عليه وسلم من قبل أن يعاينوا العذاب وأهوال القيامة (ويقذفون بالغيب من مكان بعيد) قال مجاهد يرمون محمدا بالظن لاباليقين وهو قولهم ساحر وشاعر وكاهن ومعنى الغيب هو الظن لأنه غاب علمه عنهم والمكان البعيد بعدهم عن علم مايقولون والمعنى يرمون محمدا بما لايعلمون من حيث لايعلمون . وقال قتادة يرجمون بالظن يقولون لابعث ولا جنة ولا نار (وحيل بينهم وبين مايشتهون) أى الإيمان والتوبة والرجوع إلى الدنيا وقيل نعيم الدنيا وزهرتها (كما فعل بأشياعهم) يعنى بنظرائهم ومن كان على مثل حالهم من الكفار (من قبل) أى لم يقبل منهم الإيمان والتوبة فى وقت البأس (إنهم كانوا فى شك) من البعث ونزول العذاب بهم (مريب) موقع لهم الريبة والتهمة .

(سورة الملائكة مكية وهى خمس وأربعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الحمد لله فاطر السموات والأرض) خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق (جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة) ذوى أجنحة (مثنى وثلاث ورباع) قال قتادة ومقاتل بعضهم له جناحان وبعضهم له ثلاثة أجنحة وبعضهم له أربعة أجنحة ويزيد فيها مايشاء وهو قوله (يزيد فى الخلق ما يشاء) وقال ابن مسعود فى قوله عز وجل «لقد رأى من آيات ربه الكبرى» قال رأى جبريل فى صورته له ستمائة جناح . وقال ابن شهاب فى قوله «يزيد فى الخلق مايشاء» قال حسن الصوت . وعن قتادة قال هو

يوم بدر وقيل هو خسف بالبيداء ومعنى الآية ولو ترى إذ فزعوا لرأيت أمرا تعتبر به (وقالوا آمنا به) أى حين عاينوا العذاب قيل هو عند اليأس وقيل هو عند البعث (وأنى لهم التناوش) أى التناول والمعنى كيف لهم تناول مابعد عنهم وهو الإيمان والتوبة وقد كان قريبا منهم فى الدنيا فضيعوه وقال ابن عباس يسألون الرد إلى الدنيا فيقال وأنى لهم الرد إلى الدنيا (من مكان بعيد) أى من الآخرة إلى الدنيا (وقد كفروا به من قبل) أى بالقرآن وقيل بمحمد صلى الله عليه وسلم من قبل أن يعاينوا العذاب وأهوال القيامة (ويقذفون بالغيب من مكان بعيد) قيل هو الظن لأن علمه غاب عنهم والمكان البعيد بعدهم عن علم مايقولون . والمعنى يرمون محمدا صلى الله عليه وسلم بما لايعلمون من حيث لايعلمون وهو قولهم إنه شاعر ساحر كاهن لاعلم لهم بذلك وقيل يرجمون بالظن يقولون لابعث ولا جنة ولا نار (وحيل بينهم وبين مايشتهون) أى الإيمان والتوبة والرجوع إلى الدنيا ونعيمها وزهرتها (كما فعل بأشياعهم) أى بنظرائهم ومن كان على مثل حالهم من الكفار (من قبل) أى لم تقبل منهم التوبة فى وقت اليأس (إنهم كانوا فى شك) أى من البعث ونزول العذاب بهم (مريب) أى موقع الريبة والتهمة ، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه .

(تفسير سورة فاطر وتسمى سورة الملائكة مكية)

(وهى خمس وأربعون آية وتسعمائة وسبعون كلمة وثلاثة آلاف ومائة وثلاثون حرفا)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (الحمد لله فاطر السموات والأرض) أى خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق (جاعل الملائكة رسلا) أى إلى الأنبياء (أولى أجنحة) أى ذوى أجنحة (مثنى وثلاث ورباع) أى بعضهم له جناحان وبعضهم له ثلاثة أجنحة وبعضهم له أربعة (يزيد فى الخلق مايشاء) أى يزيد فى خلق الأجنحة مايشاء قال عبدالله بن مسعود فى قوله «لقد رأى من آيات ربه الكبرى» قال رأى جبريل فى صورته له ستمائة جناح وقيل فى قوله «يزيد فى الخلق مايشاء

الملاحة فى العينين وقيل هو العقل والتمييز (إن الله على كل شىء قدير مايفتح الله للناس من رحمة) قيل من مطر ورزق (فلا ممسك لها) لايستطيع أحد حبسها (وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز) فيما أمسك (الحكيم) فيما أرسل من مطر ورزق أخبرنا الإمام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الداودى أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن الصلت أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالصمد الهاشمى أنا عبيد الله بن أسباط أنا أبى أنا عبد الملك بن عمير عن وراد عن المغيرة بن شعبة «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى دبر كل صلاة مكتوبة لاإله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير اللهم لامانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا **(٢٩٧)** الجد منك الجد» (ياأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله) قرأ حمزة والكسائى غير بجر الراء وقرأ الآخرون برفعها على معنى هل خالق غير الله لأن من زيادة وهذا استفهام على طريق التقرير كأنه قال .لاخالق غير الله (يرزقكم من السماء والأرض) أى من السماء المطر ومن الأرض النبات (لا إله إلا هو فأنى تؤفكون وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك) يعزى نبيه صلى الله عليه وسلم (وإلى الله ترجع الأمور ياأيها الناس إن وعد الله حق) يعنى وعد القيامة (فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) وهو الشيطان (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا) أى عادوه بطاعة الله ولا تطيعوه (إنما يدعو حزبه) أى أشياعه وأولياءه (ليكونوا من أصحاب السعير) أى ليكونوا فى السعير ثم بين حال موافقيه ومخالفية فقال (الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير) قوله تعالى (أفمن زين له سوء عملة) قال ابن عباس نزلت فى أبى جهل ومشركى مكة وقال سعيد بن جبير نزلت فى أصحاب الأهواء والبدع وقال قتادة منهم الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم فأما أهل الكبائر فليسوا منهم لأنهم لا يستحلون الكبائر أفمن زين شبه وموه عليه وحسن له سوء عمله أى قبيح عمله (فرآه حسنا) زين له الشيطان ذلك بالوسواس وفى الآية حذف مجازه أفمن زين له سوء عمله فرأى الباطل حقا كمن هداه الله فرأى

مايشاء هو حسن الصوت وقيل حسن الخلق وتمامه وقيل هو الملاحة فى العينين وقيل هو العقل والتمييز (إن الله على كل شئ قدير) أى مما يريد أن يخلقه . قوله تعالى (مايفتح الله للناس من رحمة) قيل المطر وقيل من خير ورزق (فلا ممسك لها) أى لايستطيع أحد حبسها (وما يمسك فلا مرسل له من بعده) أى لا يقدر أحد على فتح ما أمسك (وهو العزيز) يعنى فيما أمسك (الحكيم) أى فيما أرسل (م) عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «كان يقول فى دبر كل صلاة لاإله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على شئ قدير اللهم لامانع لما أعطيت ولامعطى لما منعت ولاينفع ذا الجد منك الجد» والجد الغنى والبخت أى لا ينفع المبخوت والغنى حظه وغناه لأنهما منك إنما ينفعه الإخلاص والعمل بطاعتك . قوله عز وجل (ياأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم) قيل الخطاب لأهل مكة ونعمة الله عليهم إسكانهم الحرم ومنع الغارات عنهم (هل من خالق غير الله) أى لاخالق إلا الله وهو استفهام تقرير وتوبيخ (يرزقكم من السماء) أى المطر (والأرض) أى النبات (لاإله إلا هو فأني تؤفكون) أى من أين يقع لكم الإفك والتكذيب بتوحيد الله وإنكار البعث وأنتم مقرون بأن الله خالقكم ورازقكم (وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك) يعزى نبيه صلى الله عليه وسلم (وإلى الله ترجع الأمور) أى فيجزى المكذب من الكفار بتكذيبه . قوله تعالى (ياأيها الناس إن وعد الله حق) أى وعد القيامة (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) أى لاتخدعنكم بلذاتها وما فيها عن عمل الآخرة وطلب ماعند الله (ولا يغرنكم بالله الغرور) أى لايقل لكم اعملوا ماشئتم فان الله يغفر كل ذنب وخطيئة ثم بين الغرور من هو فقال تعالي (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا) أى عادوه بطاعة الله ولا تطيعوه فيما يأمركم به من الكفر والمعاصى (إنما يدعوا حزبه) أى أشياعه وأولياءه (ليكونوا من أصحاب السعير) ثم بين حال موافقيه ومخالفيه فقال تعالى (الذين كفروا لهم عذاب شديد. والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير) قوله عز وجل (أفمن زين له سوء عمله) قال ابن عباس نزلت فى أبى جهل ومشركى مكة وقيل نزلت فى أصحاب الأهواء والبدع ومنهم الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم وليس أصحاب الكبائر من الذنوب منهم لأنهم لايستحلونها ويعتقدون تحريمها مع ارتكابهم إياها ومعنى زين له شبه له وموه عليه قبيح عمله (فرآه حسنا) وفى الآية حذف مجازه أفمن زين له سوء عمله فرأى الباطل

الحق حقا والباطل باطلا (فان الله يضـل من يشاء ويهدى من يشاء) وقيل جوابه تحت قوله (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) فيكون معناه أفمن زين له سوء عمله فأضله الله ذهبت نفسك عليه حسرة أى تتحسر عليه فلا تذهب نفسك عليهم حسرات وقال الحسن بن الفضل فيه تقديم وتأخير مجازه أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فلا تذهب نفسك عليهم حسرات فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء والحسرة شدة الحزن على مافات من الأمر ومعنى الآية لاتهتم بكفرهم وهلا كهم إن لم يؤمنوا وقرأ أبو جعفر فلا تذهب بضم التاء وكسر الهاء نفسك نصب (إن الله عليم بمايصنعون والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت **(٢٩٨)** فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور) من القبور قوله عز وجل (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا) قال الفراء معنى الآية من كان يريد أن يعلم لمن العزة فلله العزة جميعا وقال قتادة من كان يريد العزة فليتعزز بطاعة الله معناه الدعاء إلى طاعة من له العزة أى فليطلب العزة من عندالله بطاعته كما يقال من كان يريد المال فالمال لفلان. أى فليطلبه من عنده وذلك أن الكفار عبدوا الأصنام وطلبوا بها التعزز كما قال الله واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا وقال الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا (إليه) أى إلى الله (يصعد الكلم الطيب) وهو قوله لاإله إلا الله وقيل هو قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولاإله إلا الله والله أكبر أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أبو منصور السمعانى أنا أبو جعفر الرياني أنا حميد بن زنجويه أنا الحجاج بن نصر أنا المسعودى عن عبد الله بن المخارق عن أبيه عن ابن مسعود قال إذا حدثتكم حديثا أنبأتكم بمصداقه من كتاب الله عز وجل «مامن عبد مسلم يقول خمس كلمات سبحان الله والحمد لله ولاإله إلا الله والله أكبر وتبارك الله إلا أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ثم صعد بهن فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يجئ بها وجه رب العالمين» ومصداق ذلك من كتاب الله عز وجل قوله إليه يصعد الكلم الطيب ذكره ابن مسعود وقيل الكلم الطيب ذكر الله وعن قتادة إليه يصعد الكلم الطيب أى يقبل الله الكلم الطيب قوله (والعمل الصالح يرفعه) أى يرفع العمل الصالح الكلم الطيب فالهاء فى قوله يرفعه راجعة إلى

حقا كمن هداه الله فرأى الحق حقا والباطل باطلا (فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء) وقيل مجاز الآية أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء والحسرة شدة الحزن على مافات والمعنى لاتغتم بكفرهم وهلا كهم إن لم يؤمنوا (إن الله عليم بما يصنعون) فيه وعيد بالعقاب على سوء صنيعهم (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا) أى تزعجه من مكانه وقيل تجمعه وتجئ به (فسقناه) أى فنسوقه (إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور) أى مثل إحياء الموات نشور الأموات روى ابن الجوزى فى تفسيره عن أبى رزين العقيلى قال قلت يارسول الله كيف يحيى الله الموتى وما آية ذلك فى خلقه فقال «هل مررت بواد أهلك محلا ثم مررت به يهتز خضرا قلت نعم قال كذلك يحيى الله الموتى وتلك آيته فى خلقه» قوله تعالى (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا) قيل معناه من كان يريد أن يعلم لمن العزة فلله العزة جميعا وقيل معناه من كان يريد العزة فليتعزز بطاعة الله وهو دعاء إلى طاعة من له العزة أى فليطلب العزة من عند الله بطاعته وذلك أن الكفار عبدوا الأصنام وطلبوا بها التعزز فبين الله أن لاعزة إلا لله ولرسوله ولأوليائه المؤمنين (إليه) يعنى إلى الله (يصعد الكلم الطيب) قيل هو قول لاإله إلا الله وقيل هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر روى البغوى باسناده عن ابن مسعود قال «إذا حدثتكم حديثا أنبأتكم بمصداقه من كتاب الله عز وجل مامن عبد مسلم يقول خمس كلمات سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وتبارك الله إلا أخذهن ملك تحت جناحه ثم يصعد بهن فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يجئ بها وجه رب العالمين ومصداقه من كتاب الله قوله إليه يصعد الكلم الطيب» هذا حديث موقوف على ابن مسعود وفى إسناده الحجاج بن نصير ضعيف وقيل الكلم الطيب ذكر الله تعالى وقيل معنى إليه يصعد أى يقبل الله الكلم الطيب (والعمل الصالح يرفعه) قال ابن عباس أى يرفع العمل الصالح الكلم الطيب وقيل الكلم الطيب ذكر الله والعمل الصالح أداء الفرائض فمن ذكر الله ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله وليس الإيمان بالتمنى وليس بالتحلى ولكن ماوقر فى القلوب وصدقته الأعمال فمن قال حسنا وعمل غير صالح رد الله عليه قوله ومن قال حسنا وعمل صالحا يرفعه العمل ذلك بأن الله

الكلم الطيب وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وعكرمة وأكثر المفسرين وقال الحسن وقتادة الكلم الطيب ذكر الله والعمل الصالح أداء فرائضه فمن ذكر الله ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله . وليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى ولكن ماوقر فى القلوب وصدقته الأعمال فمن قال حسنا وعمل غير صالح رد الله عليه قوله ومن قال حسنا وعمل صالحا رفعه العمل ذلك بأن الله يقول إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وجاء فى الحديث «لايقبل الله قولا إلا بعمل ولا قولا ولا عملا إلا بنية» وقال قوم الهاء فى قوله يرفعه راجعة إلى العمل الصالح أى الكلم الطيب يرفع العمل الصالح فلا يقبل عمل إلا أن يكون صادرا عن التوحيد وهذا معنى قول الكلبى ومقاتل وقيل الرفع من صفة الله عز وجل معناه العمل الصالح يرفعه الله عز وجل وقال سفيان بن عيينة العمل الصالح هو الخالص يعنى أن الإخلاص سبب قبول الخيرات من الأقوال والأفعال دليله قوله عز وجل «فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا» فجعل نقيض الصالح الشرك والرياء (والذين يمكرون السيئات) قال الكلبى أى الذين يعملون السيئات وقال مقاتل يعنى الشرك وقال أبو العالية يعنى الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم فى دار الندوة كما قال الله تعالى «وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك» وقال مجاهد وشهر بن حوشب هم أصحاب الرياء (لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور) يبطل ويهلك فى الآخرة قوله عز وجل (والله خلقكم من تراب) أى آدم (ثم من نطفة) يعنى نسله (ثم جعلكم أزواجا) ذكرانا وإناثا (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر) لايطول عمره (ولا ينقص من عمره) يعنى من عمر آخر كما يقال لفلان عندى درهم ونصفه أى نصف درهم آخر (إلا فى كتاب) وقيل قوله ولا ينقص من عمره ينصرف إلى الأول قال سعيد بن جبير مكتوب فى أم الكتاب عمر فلان كذا وكذا سنة ثم يكتب أسفل من ذلك ذهب يوم ذهب يومان ذهب ثلاثة أيام حتى ينقطع عمره وقال كعب الأحبار حين حضر عمر رضى الله عنه الوفاة والله لو دعا عمر ربه أن يؤخر أجله لأخر فقيل له إن الله عز وجل يقول فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون فقال هذا إذا حضر الأجل فأما قبل ذلك فيجوز أن يزاد وينقص . وقرأ هذه الآية (إن ذلك على الله يسير) إن كتابة الأجل والأعمار على الله هين قوله تعالى (ومايستوى البحران) يعنى العذب والمالح ثم ذكرهما فقال (هذا عذب فرات) طيب (سائغ شرابه) أي جائز فى الحلق هنىء (وهذا ملح أجاج) شديد الملوحة ، وقال الضحاك هو المر (ومن كل تأكلون لحما طريا) يعنى الحيتان من العذب والمالح جميعا (وتستخرجون حلية) أى من المالح دون العذب (تلبسونها)

الله يقول إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وجاء فى الحديث لايقبل الله قولا إلا بعمل ولا قولا ولا عملا إلا بنية وقيل الهاء فى يرفعه راجعة إلى العمل الصالح أى الكلم الطيب يرفع العمل الصالح فلا يقبل عملا إلا أن يكون صادرا عن توحيد وقيل معناه العمل الصالح يرفعه الله وقيل العمل الصالح هو الخالص وذلك أن الإخلاص سبب قبول الخيرات من الأقوال والأفعال (والذين يمكرون السيئات) أى يعملون السيئات أى الشرك وقيل يعنى الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم فى دار الندوة وقيل هم أصحاب الرياء (لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور) أى يبطل ويهلك فى الآخرة . قوله عز وجل (والله خلقكم من تراب) يعنى آدم (ثم من نطفة) يعنى ذريته (ثم جعلكم أزواجا) يعنى أصنافا ذكرانا وإناثا وقيل زوج بعضكم بعضا (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ومايعمر من معمر) يعنى لايطول عمر أحد (ولاينقص من عمره) يعنى عمر آخر وقيل ينصرف إلى الأول قال سعيد بن جبير مكتوب فى أم الكتاب عمر فلان كذا وكذا سنة ثم يكتب أسفل من ذلك ذهب يوم ذهب يومان ذهب ثلاثة أيام حتى ينقطع عمره وقيل معناه لايطول عمر إنسان ولا يقصر إلا فى كتاب قال كعب الأحبار حين حضرت عمر الوفاة والله لو دعا عمر ربه أن يؤخر أجله لأخر فقيل له إن الله تعالى يقول «فاذاجاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون» قال هذا إذا حضر الأجل فأما قبل ذلك فيجوز أن يزاد ذلك وقرأ هذه الآية (إلا فى كتاب) يعنى اللوح المحفوظ (إن ذلك على الله يسير) أى كتابة الآجال والأعمال على الله هين . قوله تعالي (وما يستوى البحران) يعنى العذب والمالح ثم وصفهما فقال (هذا عذب فرات) أى طيب يكسر العطش (سائغ شرابه) أى سهل فى الحلق هنىء مرىء (وهذا ملح أجاج) أى شديد الملوحة يحرق الحلق بملوحته وقيل هو المر (ومن كل) يعنى من البحرين (تأكلون لحما طريا) يعنى السمك (وتستخرجون) يعنى من الملح دون العذب (حلية تلبسونها) يعنى اللؤلؤ والمرجان وقيل نسب اللؤلؤ إليهما لأنه

يعنى اللؤلؤ وقيل نسب اللؤلؤ إليهما لأنه يكون فى البحر الأجاج عيون عذبة تمتزج بالملح فيكون اللؤلؤ من ذلك (وترى الفلك فيه مواخر) جوارى مقبلة ومدبرة بريح واحدة (لتبتغوا من فضله) بالتجارة (ولعلكم تشكرون) الله على نعمه (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه) يعنى الأصنام (ما يملكون من قطمير) وهو لفافة النواة وهى القشرة الرقيقة التى تكون على النواة (إن تدعوهم) يعنى إن تدعوا الأصنام (لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم) ما أجابوكم (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) يتبرءون منكم ومن عبادتكم إياها يقولون ما كنتم إيانا تعبدون (ولا ينبئك مثل خبير) يعنى نفسه أى لا ينبئك أحد مثلى خبير عالم بالأشياء (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله) إلى فضل الله والفقير المحتاج (والله هو الغنى الحميد) الغنى عن خلقه المحمود فى إحسانه إليهم (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز) شديد (ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة) أى نفس مثقلة بذنوبها غيرها (إلى حملها) أي حمل ما عليها من الذنوب (لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى) أى ولو كان المدعو ذا قرابة له ابنه أو أباه أو أمه أو أخاه قال ابن عباس يلقى الأب والأم ابنه فيقول يابنى احمل عنى بعض ذنوبى فيقول لا أستطيع حسبى ما على (إنما تنذر الذين يخشون) يخافون (ربهم بالغيب) العلماء ولم يروه وقال الأخفش تأويله أى إنذارك إنما ينفع الذين يخشون ربهم بالغيب (وأقاموا الصلاة ومن تزكى) أصلح وعمل خيرا (فإنما يتزكى لنفسه) لها ثوابه (وإلى الله المصير وما يستوي الأعمى والبصير) يعنى الجاهل والعالم وقيل الأعمى عن الهدي والبصير بالهدي أي المؤمن والمشرك (ولا الظلمات ولا النور) يعنى الكفر والايمان (ولا الظل ولا الحرور) يعنى الجنة والنار قال ابن عباس الحرور الريح الحارة بالليل والسموم بالنهار وقيل الحرور يكون بالنهار مع الشمس (وما يستوي الأحياء ولا الأموات)

يكون فى البحر المالح عيون عذبة فتمتزج بالملح فيكون اللؤلؤ منهما (وترى الفلك فيه مواخر) يعنى جوارى مقبلة ومدبرة بريح واحدة (لتبتغوا من فضله) يعنى بالتجارة (ولعلكم تشكرون) يعنى تشكرون الله على نعمه (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه) يعنى الأصنام (ما يملكون من قطمير) هو لفافة النواة وهى القشرة الرقيقة التى تكون على النواة (إن تدعوهم) يعنى الأصنام (لا يسمعوا دعاءكم) يعنى أنهم جماد (ولو سمعوا) أى على سبيل الفرض والتمثيل (ما استجابوا لكم) أى ما أجابوكم وقيل ما نفعوكم (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) أى يتبرؤون منكم ومن عبادتكم إياها (ولا ينبئك مثل خبير) يعنى نفسه أى لا ينبئك أحد مثلى لأنى عالم بالأشياء قوله تعالى (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله) يعنى إلى فضله وإحسانه والفقير المحتاج إلى من سواه والخلق كلهم محتاجون إلى الله فهم الفقراء (والله هو الغنى) عن خلقه لا يحتاج إليهم (الحميد) يعنى المحمود فى إحسانه إليهم المستحق بانعامه عليهم أن يحمدوه (إن يشأ يذهبكم) لاتخاذكم أندادا وكفركم بآياته (ويأت بخلق جديد) يعنى يخلق بعدكم من يعبده ولا يشرك به شيئا (وما ذلك على الله بعزيز) أى بممتنع (ولا تزر وازرة وزر أخرى) يعنى أن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الذى اقترفته لا تؤاخذ بذنب غيرها فان قلت كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم. قلت هذه الآية فى الضالين وتلك فى المضلين أنهم يحملون أثقال من أضلوه من الناس مع أثقال أنفسهم وذلك كله من كسبهم (وإن تدع مثقلة إلى حملها) معناه وإن تدع نفس مثقلة بذنوبها إلى حمل ذنوب غيرها (لا يحمل منه شئ ولو كان ذا قربى) يعنى ولو كان المدعو ذا قرابة كالأب والأم والابن والأخ قال ابن عباس يعلق الأب والأم بالابن فيقول يابنى احمل عنى بعض ذنوبي فيقول لا أستطيع حسبى ما على (إنما تنذر الذين يخشون ربهم) يعنى يخافون ربهم (بالغيب) يعنى لم يروه والمعنى وإنما ينفع إنذارك الذين يخشون ربهم بالغيب (وأقاموا الصلاة ومن تزكى) يعنى أصلح وعمل خيرا (فإنما يتزكى لنفسه) يعنى لها ثوابه (وإلى الله المصير وما يستوى الأعمى والبصير) يعنى الجاهل والعالم وقيل الأعمى عن الهدى وهو المشرك والبصير بالهدى وهو المؤمن (ولا الظلمات ولا النور) يعنى الكفر والإيمان (ولا الظل ولا الحرور) يعنى الجنة والنار وقال ابن عباس الحرور الريح الحارة بالليل والسموم بالنهار (وما يستوى الأحياء ولا الأموات) يعنى المؤمنين والكفار وقيل

يعنى المؤمنين والكفار وقيل العلماء والجهال (إن الله يسمع من يشاء) حتى يتعظ ويجيب (وما انت بمسمع من فى القبور) يعنى الكفار شبههم بالأموات فى القبور حين لم يجيبوا (إن أنت إلا نذير) ما أنت إلا منذر تخوفهم بالنار (إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة) مامن أمة فيما مضى (إلا خلا) سلف (فيها نذير) نبى منذر (وإن يكذبوك فقدكذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر) بالكتب (وبالكتاب المنير) الواضح كرر ذكر الكتاب بعد ذكر الزبر على طريق التأكيد (ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان (٣٠١) نكير) أي انكاري (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد) طرق وخطط واحدتها جدة مثل مدة ومدد (بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود) يعنى سود غرابيب على التقديم والتأخير يقال أسود غربيب أي شديد السواد تشبيها بلون الغراب أي طرائق سود (ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه) ذكر الكناية لأجل من وقيل رد الكناية إلى ما فى الإضمار مجازه ومن الناس والدواب والأنعام ما هو مختلف ألوانه (كذلك) يعنى كما اختلف ألوان الثمار والجبال وتم الكلام هاهنا ثم ابتدأ فقال (إنما يخشى الله من عباده العلماء) قال ابن عباس يريد إنما يخافنى من خلقى من علم جبروتى وعزتى وسلطانى أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن اسمعيل أنا عمر بن حفص أنا أبى الأعمش أنا مسلم عن مسروق قال: قالت عائشة رضى الله عنها «صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فرخص فيه فتنزه عنه قوم فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فخطب فحمد الله ثم قال: مابال أقوام يتنزهون عن الشئ أصنعه فو الله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية» وقال النبى صلى الله عليه وسلم «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا» وقال مسروق كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلا وقال رجل للشعبي أفتنى أيها العالم فقال الشعبى إنما العالم من خشى الله عز وجل

العلماء والجهال (إن الله يسمع من يشاء) يعنى حتى يتعظ ويجيب (وما أنت بمسمع من فى القبور) يعنى الكفار شبههم بالأموات فى القبور لأنهم لايجيبون إذا دعوا (إن أنت إلا نذير) أى ما أنت إلا منذر تخوفهم بالنار (إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) يعنى بشيرا بالثواب لمن آمن ونذيرا بالعقاب لمن كفر (وإن من أمة) أى من جماعة كثيرة فيما مضى (إلا خلا) أى سلف (فيها نذير) أى نبى منذر . فان قلت كم من أمة فى الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يخل فيها نذير . قلت إذا كانت آثار النذارة باقية لم تخل من نذير إلا أن تندرس وحين اندرست آثار رسالة عيسى عليه السلام بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم وآثار نذارته باقية إلى يوم القيامة لأنه لانبى بعده (وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات) أى بالمعجزات الدالة على نبوتهم (وبالزبر) أى الصحف (وبالكتاب المنير) أى الواضح قيل أراد بالكتاب التوراة والإنجيل والزبور وقيل ذكر الكتاب بعد الزبر تأكيدا (ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء) يعنى المطر (فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها) يعنى أجناسها من الرمان والتفاح والتين والعنب والرطب ونحوها وقيل يعنى ألوانها فى الحمرة والصفرة والخضرة وغير ذلك مما لايحصر ولا يعد (ومن الجبال جدد بيض وحمر) يعنى الخطط والطرق فى الجبال (مختلف ألوانها) يعنى منها ماهو أبيض ومنها ماهو أحمر ومنها ماهو أصفر (وغرابيب سود) يعنى شديدة السواد كما يقال أسود غربيب تشبيها بلون الغراب (ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه) يعنى خلق مختلف ألوانه (كذلك) يعنى كاختلاف الثمرات والجبال وتم الكلام هاهنا ثم ابتدأ فقال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) قال ابن عباس يريد إنما يخافنى من خلقى من علم جبروتى وعزتى وسلطانى وقيل عظموه وقدروا قدره وخشوه حق خشيته ومن ازداد به علما ازداد به خشية (ق) عن عائشة قالت صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فرخص فيه فتنزه عنه قوم فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فخطب فحمد الله ثم قال «مابال أقوام يتنزهون عن الشئ أصنعه فو الله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية» قولها فرخص فيه أى لم يشدد فيه قولها فتنزه عنه أقوام أى تباعد عنه وكرهه قوم (ق) عن أنس قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط فقال «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا» فغطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوههم لهم خنين الخنين بالخاء المعجمة هو البكاء مع غنة وانتشاق الصوت من الأنف وقال مسروق كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلا وقال

(إن الله عزيز غفور) اي عزيز فى ملكه غفور لذنوب عباده قوله تعالى (إن الذين يتلون كتاب الله) يعنى قرأوا القرآن (وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور) لن تفسد ولن تهلك والمراد من التجارة ماوعد الله من الثواب قال الفراء قوله يرجون جواب لقوله ان الذين يتلون كتاب الله (ليوفيهم أجورهم) جزاء أعمالهم بالثواب (ويزيدهم من فضله) قال ابن عباس يعنى سوي الثواب مما لم ترعين ولم تسمع أذن (إنه غفور شكور) قال ابن عباس يغفر العظيم من ذنوبهم ويشكر اليسير من أعمالهم (والذي أوحينا إليك من الكتاب) يعنى القرآن (هو الحق مصدقا لما بين يديه) من الكتب (إن الله بعباده لخبير بصير ثم أورثنا الكتاب) يعنى الكتاب الذي أنزلنا إليك الذي ذكر فى الآية الأولى وهو القرآن جعلناه ينتهى إلى (الذين اصطفينا من عبادنا) ويجوز أن يكون ثم بمعنى الواو أي وأورثنا كقوله ثم كان من الذين آمنوا أى وكان من الذين آمنوا ومعنى أورثنا أعطينا لأن الميراث عطاء قاله مجاهد وقيل أورثنا أى أخرنا ومنه الميراث لأنه أخر عن الميت ومعناه أخرنا القرآن عن الأمم السالفة وأعطيناكموه وأهلنا له الذين اصطفينا من عبادنا قال ابن عباس **(٣٠٢)** يريد أمة محمد صلى الله عليه وسلم ثم قسمهم ورتبهم فقال (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) روي عن أسامة بن زيد فى قوله عز وجل : فمنهم ظالم لنفسه الآية قال قال النبي صلى الله وسلم كلهم من هذه الأمة أخبرنا أبو سعيد الشريحى أنا أبو اسحق الثعلبي أخبرنى الحسين بن محمد ابن فنجويه أنا محمد بن على بن الحسين بن القاضى أنا بكر بن محمد المروزى أنا أبو قلابة عمرو بن الحصين عن الفضل بن عميرة عن ميمون الكردى عن أبي عثمان النهدى قال سمعت عمر بن الخطاب قرأ على المنبر « ثم أورثنا الكتاب الذين أصطفينا من عبادنا » الآية فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له » قال أبو قلابة فحدثت به يحيى بن معين فجعل يتعجب منه واختلف المفسرون فى معنى الظالم والمقتصد والسابق أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أخبرنا أبو سعيد محمد ابن عيسى الصيرفى أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفا وحدثنا أحمد بن محمد بن عيسى البرقى حدثنا محمد ابن كثير أخبرنا سفيان عن الأعمش عن رجل عن أبى ثابت أن رجلا دخل المسجد فقال اللهم ارحم غربتى وآنس وحشتى وسق إلى جليسا صالحا فقال أبو الدرداء لئن كنت صادقا لأنا أسعد بك منك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حين قرأ هذه الآية ثم أورثنا الكتاب الذين أصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فقال أما السابق بالخيرات فيدخل الجنة بغير حساب وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا وأما الظالم لنفسه فيحبس فى المقام حتى يدخله الهم ثم يدخل الجنة ثم قرأ هذه الآية « وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا الغفور شكور » وقال عقبة ابن صهبان سألت عائشة عن قول الله عز وجل « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » الآية فقالت يابنى كلهم فى الجنة

رجل للشعبي أفتنى أيها العالم فقال الشعبي إنما العالم من خشى الله عز وجل وقال مقاتل أشد الناس خشية لله أعلمهم به وقال الربيع بن أنس من لم يخش الله فليس بعالم (إن الله عزيز) أى فى ملكه (غفور) يعنى لذنوب عباده وهو تعليل لوجوب الخشية لأنه المثيب المعاقب وإذا كان كذلك فهو أحق أن يخشى ويتقى . قوله عز وجل (إن الذين يتلون كتاب الله) أى يداومون على قراءته ويعلمون مافيه ويعملون به (وأقاموا الصلاة) أى ويقيمون الصلاة فى أوقاتها (وأنفقوا مما رزقناهم) يعنى فى سبيل الله (سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور) يعنى لن تفسد ولن تهلك والمراد من التجارة ما وعد الله من الثواب (ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) قال ابن عباس ثوى الثواب يعنى مما لم ترعين ولم تسمع أذن (إنه غفور شكور) قال ابن عباس يغفر العظيم من ذنوبهم ويشكر اليسير من أعمالهم (والذى أوحينا إليك من الكتاب) يعنى القرآن (هو الحق مصدقا لما بين يديه) يعنى من الكتب (إن الله بعباده لخبير بصير) قوله تعالي (ثم أورثنا الكتاب) يعنى أوحينا إليك الكتاب وهو القرآن ثم أورثناه يعنى حكمنا بتوريثه وقيل أورثناه بمعنى نورثه (الذين اصطفينا من عبادنا) قال ابن عباس يريد أمة محمد صلى الله عليه وسلم لأن الله اصطفاهم على سائر الأمم واختصهم بكرامته بأن جعلهم أتباع سيد الرسل وخصهم بحمل أفضل الكتب ثم قسمهم ورتبهم فقال تعالى (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) روى عن أسامة بن زيد قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم من هذه الأمة » ذكره البغوى بغير سند وعن أبى سعيد الخدرى أن النبي صلى الله عليه

أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به وأما الظالم لنفسه فمثلى ومثلكم فجعلت نفسها معنا» وقال مجاهد والحسن وقتادة فمنهم ظالم لنفسه هم أصحاب المشأمة ومنهم مقتصد هم أصحاب الميمنة ومنهم سابق بالخيرات هم السابقون المقربون من الناس كلهم وعن ابن عباس قال السابق المؤمن المخلص والمقتصد المرائى والظالم الكافر نعمة الله غير الجاهد لها لأنه حكم للثلاثة بدخول الجنة فقال «جنات عدن يدخلونها» وقال بعضهم بذكر ذلك عن الحسن قال السابق من رجحت حسناته على سيئاته والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته والظالم من رجحت سيئاته على حسناته (٣٠٣) وقيل الظالم من كان ظاهره خيرا من باطنه والمقتصد الذى يستوى ظاهره وباطنه والسابق الذي باطنه خير من ظاهره وقيل الظالم من وحد الله بلسانه ولم يوافق فعله قوله والمقتصد من وحد الله بلسانه وأطاعه بجوارحه والسابق من وحد الله بلسانه وأطاعه بجوارحه وأخلص له عمله وقيل الظالم التالى للقرآن والمقتصد القارئ له العالم به والسابق القارئ له العالم به العامل بما فيه وقيل الظالم أصحاب الكبائر والمقتصد أصحاب الصغائر والسابق الذى لم يرتكب كبيرة ولا صغيرة وقال سهل بن عبد الله السابق العالم والمقتصد المتعلم والظالم الجاهل قال جعفر الصادق إنه بدأ بالظالمين إخبارا بأنه لا يتقرب إليه إلا بكرمه وأن الظلم لايؤثر فى الاصطفاء ثم ثنى بالمقتصدين لأنهم بين الخوف والرجاء ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكره وكلهم فى الجنة وقال أبو بكر الوراق رتبهم هذا الترتيب على مقامات الناس لأن أحوال العبد ثلاثة معصية وغفلة ثم توبة ثم قربة فان عصى دخل فى حيز الظالمين وإذا تاب دخل فى جملة المقتصدين وإذا صحت التوبة وكثرت العبادة والمجاهدة دخل فى عداد السابقين وقال بعضهم المراد بالظالم الكافر ذكره الكلبى وقيل المراد منه المنافق فعلى هذا لا يدخل الظالم فى قوله «جنات عدن يدخلونها» وحمل هذا القائل الاصطفاء على الاصطفاء فى الخلقة وإرسال الرسول إليهم وإنزال الكتب والأول هو المشهور أن المراد من جميعهم المؤمنون وعليه عامة

وسلم قال فى هذه الآية «ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله قال هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم فى الجنة» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب وعن عمر بن الخطاب أنه قرأ هذه الآية على المنبر ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له» قال أبو قلابة أحد رواته فحدثت به يحيى بن معين فجعل يتعجب منه أخرجه البغوى بسنده وروى بسنده عن ثابت «أن رجلا دخل المسجد فقال اللهم ارحم غربتى وآنس وحشتى وسق إلى جليسا صالحا فقال أبو الدرداء لئن كنت صادقا لأنا أسعد بك منك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق الخيرات قال أما السابق بالخيرات فيدخل الجنة بغير حساب وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا وأما الظالم لنفسه فيحبس فى المقام حتى يدخله الهم ثم يدخل الجنة ثم قرأ هذه الآية «الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور» وقال عقبة بن صهبان سألت عائشة عن قول الله عز وجل «ثم أورثنا الكتاب الذين أصطفينا من عبادنا» الآية فقالت يابنى كلهم فى الجنة أما السابق فمن مضى على عهد رسول الله صل الله عليه وسلم وشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة وأما المقتصد فمن تبع أثره من أصحابه حتى لحق به وأما الظالم لنفسه فمثلى ومثلكم فجعلت نفسها معنا» وقال ابن عباس السابق المؤمن المخلص والمقتصد المرائى والظالم الكافر نعمة الله غير الجاحد لها لأنه حكم للثلاثة بدخول الجنة فقال «جنات عدن يدخلونها» وقيل الظالم هم أصحاب المشأمة والمقتصد أصحاب الميمنة والسابق هم السابقون المقربون من الناس كلهم وقيل السابق من رجحت حسناته على سيئاته والمقتصد من استوت سيئاته وحسناته والظالم من رجحت سيئاته على حسناته وقيل الظالم من كان ظاهره خيرا من باطنه والمقتصد الذى استوى ظاهره وباطنه والسابق الذى باطنه خير من ظاهره وقيل الظالم التالي للقرآن ولم يعمل به والمقتصد التالى له العالم به والسابق القارئ له العالم به العامل بما فيه وقيل الظالم أصحاب الكبائر والمقتصد أصحاب الصغائر والسابق الذى لم يرتكب صغيرة ولا كبيرة وقيل الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم. فان قلت لم قدم الظالم ثم المقتصد ثم السابق : قلت قال جعفر الصادق بدأ بالظالمين إخبارا بأنه لا يتقرب

أهل العلم قوله «ومنهم سابق بالخيرات» أى سابق إلى الجنة وإلى رحمة الله بالخيرات أى بالأعمال الصالحات (باذن الله) أى بأمر الله وإرادته (ذلك هو) الفضل الكبير) يعنى إيراثهم الكتاب ثم أخبر بثوابهم فقال (جنات عدن يدخلونها) يعنى الأصناف الثلاثة قرأ أبو عمرو يدخلونها بضم الياء وفتح الخاء وقرأ الآخرون بفتح الياء وضم الخاء (يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير وقالوا) أى ويقولون إذا دخلوا الجنة (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) والحزن واحد كالبخل والبخل قال ابن عباس حزن النار وقال قتادة حزن الموت وقال مقاتل حزنوا لأنهم كانوا لايدرون مايصنع الله بهم وقال عكرمة حزن الذنوب والسيئات وخوف رد الطاعات وقال القاسم حزن زوال النعم وتقليب القلب وخوف العاقبة وقيل حزن أهوال يوم (٣٠٤) القيامة وقال الكلبى ماكان يحزنهم فى الدنيا من أمر يوم القيامة وقال سعيد ابن جبير هم الخبز فى الدنيا وقيل هم المعيشة وقال الزجاج أذهب الله عن أهل الجنة كل الأحزان ماكان منها لمعاش أو لمعاد أخبرنا أبو الحسن على بن محمد بن الضحاك الخطيب حدثنا أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد الأسفراينى أخبرنا أبو بكر أحمد بن إبراهيم الاسماعيلى أنا أبو العباس أحمد بن محمد التراى ثنا يحيى بن عبد الحميد ثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا فى منشرهم وكأنى بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون «الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن» قوله تعالى (إن ربنا لغفور من شكور الذى أحلنا) أنزلنا (دار المقامة) أى الاقامة (من فضله لايمسنا فيها نصب) أى لايصيبنا فيها عناء ولا مشقة (ولا يمسنا فيها لغوب) إعياء من التعب قوله تعالى (والذين كفروا لهم نار جهنم لايقضى عليهم فيموتوا) أى لايهلكون فيستريحوا كقوله عز وجل « فوكزه موسى فقضى عليه » أى قتله وقيل لايقضى عليهم الموت فيموتوا كقوله « ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك » أى ليقض علينا الموت فنستريح (ولا يخفف عنهم من عذابها) من عذاب النار (كذلك نجزى كل كفور) كافر قرأ أبو عمرو يجزى بالياء وضمها وفتح الزاي كل رفع على غير تسمية الفاعل وقرأ الآخرون بالنون وفتحها وكسر الزاى كل نصب (وهم يصطرخون) يستغيثون ويصيحون (فيها) وهو افتعال من الصراخ وهو الصياح يقولون (ربنا أخرجنا) من النار (نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل) فى الدنيا من الشرك والسيئات فيقول الله لهم توبيخا

إليه إلا بكرمه وأن الظلم لايؤثر فى الاصطفاء ثم ثنى بالمقتصدين لأنهم بين الخوف والرجاء ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكره وكلهم فى الجنة وقيل رتبهم هذا الترتيب على مقامات الناس لأن أحوال العباد ثلاثة معصية وغفلة ثم توبة ثم قربة فإذا عصى الرجل دخل فى حيز الظالمين فاذا تاب دخل فى جملة المقتصدين فاذا صحت توبته وكثرت عبادته ومجاهدته دخل فى عداد السابقين وقيل قدم الظالم لكثرة الظلم وغلبته ثم المقتصد قليل بالاضافة إلى الظالمين والسابق أقل من القليل فلهذا أخرهم ومعنى سابق بالخيرات أى بالأعمال الصالحة إلى الجنة أو إلى رحمة الله (باذن الله) أى بأمر الله وإرادته (ذلك هو الفضل الكبير) يعنى إيراثهم الكتاب واصطفاءهم ثم أخبر بثوابهم فقال تعالى (جنات عدن يدخلونها) يعنى الأصناف الثلاثة (يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير) تقدم تفسيره (وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) قال ابن عباس حزن النار وقيل حزن الموت وقيل حزن الذنوب والسيئات وخوف رد الطاعات وأنهم لايدرون ما يصنع بهم وقيل حزن زوال النعم وتقليب القلوب وخوف العاقبة وقيل حزن أهوال يوم القيامة وهموم الحصر والمعيشة فى الدنيا وقيل ذهب عن أهل الجنة كل حزن كان لمعاش أو معاد. روى البغوى بسنده عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا فى نشورهم وكأنى بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم يقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن» (إن ربنا لغفور شكور) يعنى غفر العظيم من الذنوب وشكر القليل من الأعمال (الذى أحلنا) يعنى أنزلنا (دار المقامة) أى الاقامة (من فضله) أى لا بأعمالنا (لايمسنا فيها نصب) أى لايصيبنا فيها عناء ولا مشقة (ولا يمسنا فيها لغوب) أى إعياء من التعب. قوله تعالى (والذين كفروا لهم نار جهنم لايقضى عليهم فيموتوا) أى فيستريحوا مما هم فيه (ولا يخفف عنهم من عذابها) أى من عذاب النار (كذلك نجزى كل كفور وهم يصطرخون) أى يستغيثون ويصيحون (فيها) يقولون (ربنا أخرجنا) أى من النار (نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل) أى فى الدنيا

(أولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر) قيل هو البلوغ وقال عطاء وقتادة والكلبي ثمان عشرة سنة وقال الحسن أربعون سنة وقال ابن عباس ستون سنة يروى ذلك عن علي وهو العمر الذى أعذر الله تعالى إلى ابن آدم. أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد ابن يوسف أنا محمد بن إسمعيل أنا عبد السلام بن مطهر حدثنا عمر بن علي عن معز بن محمد الغفارى عن سعيد بن أبي سعيد المقبرى عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «أعذر الله تعالى إلى امرئ أخر أجله حتى بلغه ستين سنة» أخبرنا أبو سعيد الشريحي أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرنا الحسين بن محمد بن فنجويه حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان حدثنا إبراهيم بن سهلويه حدثنا الحسن بن عرفة أنا المحاربي عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أعمار أمتي مابين الستين إلى السبعين» وأقلهم من يجوز ذلك. قوله (وجاءكم النذير) (٣٠٥) يعني محمدا صلى الله عليه وسلم هذا قول أكثر المفسرين وقيل القرآن وقال عكرمة وسفيان بن عيينة ووكيع هو الشيب معناه أو لم نعمركم حتى شبتم ويقال الشيب نذير الموت وفى الأثر «مامن شعرة تبيض إلا قالت لأختها استعدى فقد قرب الموت». قوله (فذوقوا فما للظالمين من نصير إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض) أى يخلف بعضكم بعضا وقيل جعلكم أمة خلفت من قبلها ورأت فيمن قبلها ماينبغى أن تعتبر به (فمن كفر فعليه كفره) أى عليه وبال كفره (ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا) غضبا (ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله) أى جعلتموهم شركائي بزعمكم يعنى الأصنام (أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات أم آتيناهم كتابا) قال مقاتل هل أعطينا كفار مكة كتابا (فهم على بينة منه) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص بينة على التوحيد وقرأ الآخرون بينات على الجمع يعني دلائل واضحة منه فى ذلك الكتاب من ضروب البيان (بل إن يعد) أى مايعد (الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا) والغرور مايغر الانسان مما لا أصل له قال مقاتل يعنى مايعد الشيطان كفار بنى آدم من شفاعة الآلهة لهم فى الآخرة غرور وباطل. قوله تعالى (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) أى كيلا تزولا (ولئن زالتا إن أمسكهما

من الشرك والسيئات فيقول الله تعالى توبيخا لهم (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) قيل هو البلوغ وقيل ثمان عشرة سنة وقيل أربعون سنة وقال ابن عباس ستون سنة ويروى ذلك عن علي وهو العمر الذى أعذر الله تعالى لابن آدم (خ) عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «أعذر الله إلى كل امرئ آخر أجله حتى بلغ ستين سنة» وعنه باسناد الثعلبي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أعمار أمتى مابين الستين إلى السبعين» (وجاءكم النذير) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم بالقرآن قاله ابن عباس وقيل هو الشيب والمعني أولم نعمركم حتى شبتم ويقال الشيب نذير الموت وفى الأثر «مامن شعرة تبيض إلا قالت لأختها استعدى فقد قرب الموت» (فذوقوا) أى يقال لهم ذوقوا العذاب (فما للظالمين من نصير) أى مالهم من مانع يمنعهم من عذابه (إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور) يعنى إنه إذا علم ذلك وهو أخفى مايكون فقد علم غيب كل شئ فى العالم. قوله تعالي (هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض) أى يخلف بعضكم بعضا وقيل جعلكم أمة خلفت من قبلها من الأمم ورأت ما ينبغى أن يعتبر به وقيل جعلكم خلفاء فى أرضه وملككم منافعها ومقاليد التصرف فيها لتشكروه بالتوحيد والطاعة (فمن كفر) أي جحد هذه النعمة وغمطها (فعليه كفره) أى وبال كفره (ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا) يعنى غضبا وقيل المقت أشد البغض (ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا) يعنى فى الآخرة (قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله) يعنى الأصنام جعلتموها شركاء بزعمكم (أرونى ماذا خلقوا من الأرض) يعنى أى جزء استبدوا بخلقه من الأرض (أم لهم شرك فى السموات) أى خلق فى السموات والأرض (أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه) أى على حجة وبرهان من ذلك (بل إن يعد الظالمون بعضهم) يعنى الرؤساء (بعضا إلا غرورا) يعنى قولهم هؤلاء الأصنام شفعاؤنا عند الله. قوله عز وجل (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) يعنى لكى لا تزولا فيمنعهما من الزوال والوقوع وكانتا جديرتين بأن تزولا وتهدهد العظم كلمة الشرك (ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) يعنى ليس يمسكهما

من آحد من بعده) أي مايمسكهما أحد من بعده أى أحد سواه(إنه كان حليما غفورا) فان قيل فما معنى ذكر الحلم هاهنا قيل لأن السموات والأرض همت بما همت به من عقوبة الكفار فأمسكهما الله تعالى عن الزوال لحلمه وغفرانه أن يعاجلهم بالعقوبة(وأقسموا بالله جهد أيمانهم) يعني كفار مكة لما بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم وأقسموا بالله وقالوا لوأتانا رسول الله لنكونن أهدى دينا منهم وذلك قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم فلما بعث محمد كذبوه فأنزل الله عز وجل «وأقسموا بالله جهد أيمانهم» (لئن جاءهم نذير) رسول(ليكونن أهدى من إحدى الأمم) يعنى من اليهود

والنصارى(فلما جاءهم نذير) محمد صلى الله عليه وسلم(مازادهم إلانفورا) أى مازادهم مجيئه إلا تباعدا عن الهدى (استكبارا فى الأرض)نصب استكبارا على البدل من النفور (ومكر السيء) يعنى العمل القبيح أضيف المكر إلي صفته قال الكلبي هو اجتماعهم على الشرك وقتل النبي صلى الله عليه وسلم ، وقرأ حمزة مكر السيْ ساكنة الهمزة تخفيفا وهى قراءة الأعمش (ولايحيق المكرالسيء) أى لا يحل ولا يحيط المكر السيء (إلا بأهله) فقتلوا يوم بدر وقال ابن عباس عاقبة الشرك لا تحل إلا بمن أشرك والمعنى إن وبال مكرهم راجع إليهم (فهل ينظرون) ينتظرون (إلا سنة الأولين) إلا أن ينزل بهم العذاب كما نزل بمن مضى من الكفار (فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه) يعنى ليفوت عنه (من شيء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا) من الجرائم (ماترك على ظهرها) يعنى على ظهر الأرض كناية عن غير مذكور (من دابة) كما كان فى زمان نوح أهلك الله ماعلى ظهر الأرض إلا من كان فى سفينة نوح (ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فاذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا) قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد أهل طاعته وأهل معصيته .

فهرست

أحد سواه (إنه كان حليما غفورا) يعنى غير معاجل بالعقوبة حيث أمسكهما وكانتا قد همتا بعقوبة الكفار لولا حلمه وغفرانه (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) يعنى كفارمكة وذلك لما بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم وأقسموا بالله لو جاءنا نذير لنكونن أهدى دينا منهم وذلك قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم فلما بعث محمد كذبوه فأنزل الله هذه الآية «وأقسموا بالله جهد أيمانهم» (لئن جاءهم نذير) يعنى رسول (ليكونن أهدى من إحدى الأمم) يعنى اليهود والنصارى (فلماجاءهم نذير) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (مازادهم) مجيئه (إلا نفورا) يعنى تباعدا عن الهدى (استكبارا فى الأرض) يعنى عتوا وتكبرا عن الإيمان به (ومكر السيء) يعنى عمل القبيح وهو اجتماعهم على الشرك وقيل هو مكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) يعنى لايحل ولا يحيط إلا بأهله فقتلوا يوم بدر قال ابن عباس عاقبة الشرك لاتحل إلا بمن أشرك (فهل ينظرون) أى ينتظرون (إلا سنة الأولين) يعنى أن ينزل العذاب بهم كما نزل بمن مضى من الكفار (فلن تجد لسنة الله تبديلا) أى تغيرا (ولن تجد لسنة الله تحويلا) أى تحويل العذاب عنهم إلى غيرهم (أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) معناه أنهم يعتبرون بمن مضى وبآثارهم وعلامات هلاكهم (وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه) أى ليفوت عنه (من شيء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا) أى من الجرائم (ماترك على ظهرها) أى ظهر الأرض (من دابة) أى من نسمة تدب عليها يريد بنى آدم وغيرهم كما أهلك من كان فى زمن نوح بالطوفان إلا من كان فى السفينة (ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) يعنى يوم القيامة (فإذاجاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يريد أهل طاعته وأهل معصيته وقيل بصيرا بمن يستحق العقوبة وبمن يستحق الكرامة
والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده
وأسرار كتابه

تم الجزء الخامس من تفسير الخازن
ويليه الجزء السادس ، وأوله سورة يس عليه الصلاة والسلام

فهرست الجزء الخامس

من تفسير القرآن العظيم للامام على بن محمد المعروف بالخازن

صحيفة

صحيفة

فهرست الجزء الخامس

من كتاب معالم التنزيل لمحيي السنة أبى الحسن الفراء البغوى
(الذى بهامش الخازن)

صحيفة

(تمت)

